UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190488

UNIVERSAL
LIBRARY

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فريد رفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الأول

(حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ — ١٩٢٧ م

فهرس

المجلد الأول من عصر المأمون

صفحة

كلمة العماد الأصفهانى .. .. (ط)

إهداء الكتاب ... ... (ك)

المقدمة ... ... (م)

الكتاب الأول — عصر بنى أمية

الفصل الأول — تحوُّل المدنيه الاسلامية :

توطئة ١

نظام الحكم فى عهد الصحابة ٤

حكومة عثمان ونظر الجماعات العربية اليها ٥

الفصل الثانى — الجهاد بين الخلافه والملك :

توطئة ١٠

كلمتنا عن علىّ رضى الله عنه ١١

حوّل الرأى العام ١٣

معاوية ١٥

سياسة معاوية ١٥

مميزات معاوية ١٦

معاوية والسياسة الميكافيلية ١٨

الفصل الثالث — سياسة معاوية وخلفائه :

توطئة ٢٠

اصطناع الأحزاب بالمال ٢٢

العمال ٢٥

الوجهة الدينية ٢٨

التعصب المذهبى ٣٥

صفحة

الفصل الرابع — ولاية العهد :

نظام ولاية العهد وما حدث ... ٣٨

خطر نظام ولاية العهد وأثر النظامات ... ٣٩

نظام ولاية العهد وعلاقته بالعصبية العربية ... ٤٣

الفصل الخامس — الحياة العلمية والأدبية للعصر الأموى :

توطئة ... ٤٥

آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية فى العصر الأموى ... ٤٦

حركة النقل ... ٤٧

الخطابة وميزاتها ... ٤٩

الكتابة ... ٥١

حالة الشعر فى العصر الأموى وتحوله ... ٥٣

العزل ... ٥٦

الشعر السياسى ... ٥٩

الكتاب الثانى — عصر بنى العباس

الفصل الأول — الوجهة السياسية :

توطئة ... ٦٩

دور الانتقال ... ٦٩

الشيعة العلوية ... ٧١

الفصل الثانى — العصبية والموالى فى الدولة العباسية :

توطئة ... ٧٤

العصبية ... ٧٥

الموالى ... ٧٩

الفصل الثالث — الدولة العباسية :

توطئة ... ٨٢

تأليف الجمعيات السرية ... ٨٢

الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراسانى ... ٨٤

الفصل الرابع — أبو العباس السفاح ... ٨٨

صفحة

الفصل الخامس — أبو جعفر المنصور ٩٢

الفصل السادس — المهدى ١٠١

الفصل السابع — الهادى ١٠٧

الفصل الثامن — هارون الرشيد : ١١٤

(١) السياسة الداخلية ١٢٢

(٢) السياسة الخارجية . . ١٢٨

(٣) التكلم عن الدولة ١٣٠

(٤) الدولة البرمكية والنكبة البرمكية . ١٣٥

الفصل التاسع — الحياة العلمية فى العصر العباسى :

توطئة ١٦٠

حركة النقل . . . ١٦١

العلوم القرآنية واللغوية والفقهية ١٦٤

الفصل العاشر — الحالة الأدبية فى صدر عصر بنى العباس .

توطئة ١٦٦

الخطابة والخطباء ١٦٧

الكتابة ١٧٢

مجالس الخلفاء والمناظرة ١٧٤

الشعر ١٨٢

الكتاب الثالث — عصر المأمون

الفصل الأول — محمد الأمين :

توطئة ١٨٩

مولده ١٩١

نشأته وأخلاقه ١٩٢

الفصل الثانى — المأمون :

توطئة ٢١٠

مولده ٢١٠

نشأته وأخلاقه ٢١١

صفحة

الفصل الثالث — النزاع بين الأمين والمأمون :

توطئة ٢١٩
بيعة الأمين وحلافته ٢٢٠
مدأ الراع وكيف تحول ٢٢٢
الوعود السياسية ٢٢٨
ظهور الرأى العام واستمرار الوعود السياسية ٢٣٦
إعلان الحرب ٢٤٥
انتصار الجيوش المأمونية ومقولات الشعراء ٢٤٨
عود على بدء ، جهود الأمين فى سبيل الفوز ٢٥٢
مظاهر الثورة وخطاؤها ٢٥٤
قتل الامين ٢٥٥

الفصل الرابع — الخليفة المأمون :

توطئة ٢٥٧
السياسة الداخلية ٢٥٨
ملخص الحالة العامة فى المدة الخراسانية ٢٥٨
المدة العدادية ٢٦٩
ثورة نصر بن شبث ٢٧٣
الرط ٢٧٧
ثورة مصر ٢٧٨
مالك الخزرى ٢٨١
مذاهب ونحل ٢٨٦
اعتراضات ٢٨٧
السياسة الخارجية ٢٨٨
غزوة المأمون للروم ٢٩٠
كلمة ختامية ٢٩٢

الفصل الخامس — الوزارة والأعمال الحكومية فى عصر المأمون ، تاريخ الوزارات المأمونية :

توطئة ٢٩٦
وزارتا الفضل بن سهل وأخيه الحسن ٢٩٦
وزارة أحمد بن أبى خالد ٣٠٤

صفحة

وزارة أحمد بن يوسف ٣٠٨
وزارة يحيى بن أكثم ٣٠٨
وزارات أخرى ٣٠٨
الجند والقواد فى عصر المأمون ٣٠٩
ديوان القضاء والمظالم والحسبة ٣٠٩

الفصل السادس — حلاصة الحياة السياسية والاجتماعية :

توطئة ٣١١
نكبة الوزراء ٣١١
الاستصفاء ٣١٢
ثروة الخلفاء ورجال الدولة وبذخهم ٣١٧
الخراج فى عهد المأمون ٣٢٠
الخراج فى عهد المعتصم ٣٢٣
السعايات والجاسوسية ٣٢٧
الدعاية (البروپاجندا) ٣٢٨
صعوبة مهمة المؤرخ ٣٣٠

الفصل السابع — شخصية المأمون :

توطئة ٣٣١
كرمه وسخاؤه ٣٣١
كيف تملك المأمون قلوب رعاياه ٣٣٧
قدره لرجال دولته ٣٤٠
قدره للشجاعة الادبية ٣٤٢
عدله وإنصافه ٣٤٥
عفوه ٣٤٩
احتماله ٣٥٢
نصره بالأدب ٣٥٣
علم المأمون ٣٥٩
احترامه للدين ٣٦٢
سياسته ٣٦٤
مذهبه الدينى ٣٦٧
كلمة ختامية عن المأمون ٣٧٢

صفحة

الفصل الثامن — الحياة العلمية فى عصر المأمون :

توطئـــة ٣٧٥
حركة الترجمة والنقل ٣٧٩
كتب العصر ٣٨١
آثار النهضة المأمونية ٣٩٤
القـول بخلق القرآن ٣٩٥

الفصل التاسع — الحياة الأدبية فى عصر المأمون

توطئـــة ٣٩٩
المحادثة أو لغة التخاطب ٤٠٢
الخـــطابة ٤٠٣
الكتابة ٤٠٥
مجالس المناظرة وأنهاء الأدب ٤٠٦
الشـــعر ٤٠٦

الفصل العاشر — نماذج لبعض الشخصيات البارزة فى العصر المأمونى :

توطئـــة ٤١٧
جبرائيل بن بختيشوع ٤١٧
الجاحـــظ ٤٢٠
أبان بن عبد الحميد اللاحقى ٤٢٩
أحمد بن يوسف الكاتب ٤٣٤
يحيى بن أكثم ٤٤٠
إسحاق بن ابراهيم ٤٥٢

« إنّى رأيتُ أنه لا يكتب إنسان كتابا فى يومه إلّا قال »
« فى غَدِه : لو غُيِّر هـذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان »
« يُسْتحسن ؛ ولو قُدِّم هـذا لكان أفضل ، ولو تُرك هذا لكان »
« أَجْمَـل . وهـذا من أعظم العِبَر، وهو دليـل على اسـتيلاء »
« النقص على جملة البشر » .

العمَاد الأصفهانى

الى حضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا

مـــولاى

لله على نعـمةُ التوفيـق الى الاتصال بك، والانقطاع لخدمتـك، والاستظلال بظلّك، فأنا أحد هؤلاء الكثيرين الذين تعهّدهم فضلُك، وثقّفهم نصحُك، وهـذّبهم أدبُك . أولئك الذين أنت لهم أبٌ برٌّ، ومثقِف حكيم، وأستاذ رشيد .

وكنتُ قد أخذتُ نفسى بأن أقِفَ على خدمتك ما أملك من وقتٍ وجَهْـد، ولكن الإنسان طُلَعَةٌ بطَبْعه، فاذا اتصل بك فلا حدّ لرغبته فى البحث، وحرصِـه على الجِدّ، وطُمُوحه الى الكمال . وكذلك أراد اللهُ أن أقتطعَ من هـذا الوقت الذى وهبتُه لك خالصًا ما أمكنَنِي من وَضْع هذا الكتاب .

فهـل تأذن لى يا مولاى أن أرفع اليك "عصر المأمون" على أنه أثر يُهْدَى الى مُنْشئه، وحقٌّ يُردُّ الى أهله، واعترافٌ بالجميل من رجلٍ مَهْمَا يَفْعلْ ومهما يَقُلْ فلن يوفِّيَكَ بعضَ ما يَدِينُ به ضميرُه لك من حبٍّ وإجلال .

مـدّ اللهُ فى حياة مولاى، وجعل مستقبلَها كماضيها حافلًا بالجِدّ والتوفيق فى خدمة أمته وعصره ومليكه ؛

أحمد فريد رفاعى

أول يونيه سنة ١٩٢٧

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

١ — الحمد لله، والصلاة والسلام على رسل الله . و بعد فإنّى أتقدم بهذا الأثر الضئيل من "عصر المأمون" الى أمتى، والى الناطقين بالضاد من أبناء لغتى . وآمُلُ بفضل إرشاد العلماء والنقّاد أن يوفّقنى الله الى إكمال النقص ، و إصلاح الخطأ ، وتلافى التقصير فى الطّبعات القادمة . معترفًا، فى صدق و إخلاص ، بأن طَبْعتى هذه لا تَعْدو أن تكون "مُحاولةً" لكتابة التاريخ العربى على النُّظُم العلميه الحديثة . وأنت تعلم أن تاريخنا العربى لا يزال ، بلا مبالغه ولا إغراق، تُعْوِزُه شتّى المصادر كما يُعْوِزُه التبطيمُ والترتيب والتحقيق والاستقراء . و إنى أسأله تعالى أن يجعلنى ممّن يُذْعِنُ لكلمة الحق . فيرْعَى حُرْمتها ، ويهتدى بهَدْيها ، غيرَ مفتونٍ بمدح المادح ، ولا مُتْئِسٍ بقدح القادح . كما أسأله أن يُرْشِدَنى الى المُصِيّ موفّقًا مسدَّدا فيما أحدثُ به نفسى من البحث عن عصور "معاوية" و "المنصور" و "الرشيد" و "عبد الرحمن الأندلسى" . وآمُلُ بمَعُونته تعالى ، وبإرشاد العلماء والأدباء ، ومَعُونة المستشرقين والباحثين ، وبما يَهَبُ لى الله من صبر وجلد، ومُوَاظبةٍ ومُثَابره ، ومُتَابعةٍ للدرس والاستقراء، و بما أوفّق اليه من مصادر ونصوص، ومراجعَ ومظانّ، أن أكون — عند الانتهاء من كتابة ما ارتهنتُ به، لو كان فى العمر بقيـة — قد وفّقتُ الى تنظيم دراسه تلك البحوث تنظيما جزئيا ، يسبق ووسائلى ومَقْدورى ، ويتمشّى — الى حدّ ما — والطريقة التحليلية الحديثه فى كتابة التاريخ، وأن يكون عملى حين ذاك مما يسمح لى أن أقول، فى ثقه و إيمان، إنى قد قمت

حقًا "بمحاولة" ذات أثر نافع تمكّن غيرى من اتخاذها أساسًا لكتابة تاريخ المدنيّات العربية الواسعة المدى ، البليغة الأثر فى الثقافات الإنسانية عامه ، كتابةً تاريخية صحيحه .

٢ — وقد وقع "عصر المأمون" فى مجلدات ثلاثة ، خصصت أولها بالتاريخ وما الى التاريخ ، وثانيها وثالثها بالأدب وما الى الأدب . واعتمدت فى تلخيصى للشعراء فيهما على أمهات المظان الأدبية لا سيما كتاب الأغانى ، وأعترف — فى صدق و إخلاص — أنّ مهمتى فى المجلدين الأخيرين لم تخرج عن مهمه المتحيِّر لما فى تلك العصور الزاهية من عُرر ودُرر ، المنقّب عما فيها من طُرَف ومِلَح ، الملخص لحياه أدبائها وشعرائها ، المحتفظ بسمات المعاصرين وشيوخ المؤلفين عنها . وقسمت المجلد الأول الى كتب ثلاثة . عالجتُ فيها البحثَ عن عصور بنى أمية وبنى العباس والمأمون . وقد توخّيت الإيجاز فى قَدْلكتى التاريخية عن عَصْرَىْ الأمويين والعباسيين لأنهما بمَثابة تُكَأَةٍ وأساس لموضوعنا ، كما لاحظتُ الاستمساكَ بالخَيْدة التامة وعدم التطوح مع أولئك المؤرّخين والرُّوَاة الذين تأثّروا بأهوائهم السياسية ومعتقداتهم المذهبية والذين نكَبَتْ بهم عن محَجّة الصواب معالاتُهم فى الانتصار لفكرتهم الحِزْبيّة . وقسمتُ المجلدين الثانى والثالث الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة ، نشرت فيها ما وَسِعَه المقامُ من المنثور والمنظوم والنصوص الطويلة والمقالات المستفيضة . وعُنيت عنايةً خاصه الى جانب ذلك بذكر جملة صالحة من آثار كتاب خاص وشاعر خاص على أنهما نموذجان لتمثيل عصرهما . واتخذتُ من عبدالحميد الكاتب وعمر بن أبى ربيعة نموذجًا أُمَويًا ، ومن أبى الربيع محمد بن اللَّيْث وبَشّار بن بُرْد مثالا عباسيًا ، ومن عمرو ابن مَسْعَدة وأبى نُوَاس نمودجًا لتصوير الحياه الكتابية والشعرية فى عصر الأمين والمأمون ، الى غير ذلك من النماذج والآثار مما يستدعيه المقام ، فجاء المجلدان الثانى والثالث بذلك مكملين للمجلد الأول .

وأعتقد اعتقادًا راسخًا أنّه لن يعترض علىّ معترض لعابئ بالعصر العباسى من وجهتيه التاريخية والأدبية ، فلم يَعُدُ "عصر المأمون" عن كونه شطرا يُحْفَلُ به من العصر العباسى ، كما أعتقد أنه مما لا مندوحة لنا عنه لتفهم العصر العباسى أن نصوّر لك العصر الذى قبله

بما يسعه المقام . وهذا ما عالجناه لك فى كتابنا بصورة متواضعة نأمل أن تكون فيها الغُنية والكفاية لما نروم تصويره .

ولقد عدلت عما كنتُ دهبتُ اليه من بيان المصادر والمراجع فى نهاية كل صفحة، رغبة فى ألّا أشغلَ نظر القارئ بما لا يُجْدى عليه، وحرصا على توحيد مجهوده فى استيعاب الموضوع وتفهُّم شتّى مَناحيه . مُلْحِقًا فى الوقت نفسه نهايةَ المجلد الثالث بيانَ مصادر الكتاب لمن أراد توسّعا فتُراجع تَمَّةَ .

٣ — وأحمد الله أن أبرز كتابى هذا فى عصر النهضه الاستقلالية المصرية التى اردانت برعاية مولانا المليك " فـــؤاد الأوّل " حفظه الله . كما ازدانت بناصعة حدم أقطابها وزعمائها ، دوى الصُّحُف البَيْضاء، والآثار الخالدات الباقيات، وعلى رأسهم أصحاب الدولة الأحلّاء، فقيدنا المرحوم المبرور "سعد زغلول باشا" والقُطْبان الخطيران "عدلى يكن باشا" و"عبد الخالق ثروت باشا". فهؤلاء الثلاثة، قد وهب الله لهم أَصَالةَ الرأى، ونَالَةَ القَصْد، وثروةَ الذهن، وعِنَى العقل، وحباهم سدادا فى سياسة، وتواضعا مع رِيَاسة، وحكمةً فى كياسة، ونبوغًا مع ثَقافه، وحزمًا فى حَصَافة . وأمتعهـم بثُقُوب النظر، ورَجَاحة الفكر، وأفاض على أشخاصهم لِينًا ودَمَاثة، وسماحة ووَدَاعة، حتى أجمع القومُ على حبهم إجماعَهم على الاعتراف بوافر فضلهم ، والإشاده بعَطِر ذكرهم، وتسابقوا الى الاستفادة من سديد مواقفهم ، وحكيم صمعهم ، ونَزِيه أعمالهم ، استفادتَهم من أَفَاوِيق عِرْفانهم ، وفَيْض بيانهم، ومُقْنِع برهانهم. وهؤلاء الثلاثة قد نجحوا فى تكوين الأمة من الوجهه السياسية، نجاحَهم فى تكوينها من الوجهه القومية. فاللهمّ رحمةً واسعه لزعيمنا الراحل الكريم، وعوِّضنا اللهمّ من خسارتنا الفادحة فى فقـده ، أحوَج ما كنا الى عظيم جُهُوده، وهَب اللهم حياة طويلة لقُطْبَيْنا مَحَطِّ الآمال ومَعْقِد الرجاء .

وأحمده تعالى على أن دخلت البلاد عهدًا جديدًا من حياتها العلمية، بزَعَامة وزير معارفها الهمام ، مُرْهَف العَزَمات ، مسدَّد الوَثَبات، صاحب المعالى "على الشمسى باشا" ومدير

جامعتنا المصرية العالم الجليل الأستاذ "أحمد لطفى السيد بك" وغيرهما من رِجَالات العلم والأدب فى هـذا الجيل .

٤ — وإنى أنتهزهذه الفرصه لأشيد بما للمرحوم الأستاذ محمد الحصرى بك مِنْ فضلٍ عظيم . ومعترفا بمـا لصديقى الدكتور طه حسين الأستاذ بالجامعة المصرية من مَعُونة قيّمه فى غير موضع من الكتاب ، كما أتنهزها لأشكر لسادتى العلمـاء والأدباء ، ورجال الصحافة والمجلّات حسنَ استقبالهم لكتابى . كما أحمـد لحضرات النقّاد الأجلاء جميلَ تشـجيعهم وحكيمَ أخذهم الأمور بهَوَادة ورِفْق . معترفًا بصادق رغبتهم فى الأخذ بناصر العلم والعلماء قادرا أعظم قَـدر روحَهم العالية فيما دبّجوه فأجادوه ، وكتبوه فارتفعوا بعـلم النقد عندنا عمـا وُصِم به أخيرا من التَّطَاحُن والرَّمَاء ، والجلَاد والشَّحناء ، والعمل على الهـدم لا على البناء ، كما أشكر لسادتى الأستاذين الجليلين محمد عبدالوهاب النجار وعبدالخالق عمر والكاتبين الأديبين محمد الهياوى ومحمـد صادق عـنبر ، حُسْن صنيعهم فى تهذيب "عصر المأمون" معترفا بعظيم جهد ثانيهما اللغوى أحسن الله جزاءهم .

وإنى أخص بالشكر رجال دار الكتب المصرية وعلى رأسهم حضرات الأساتذة محمد أسعد برادة بك مدير الدار ذى الخلق الوديع والهمة الشَّمَّاء . وأحمد زكى العدوى افندى رئيس القسم الأدبى بالدار وصاحب الهوامش الحسان . وعبد الرحيم محمود افـندى ومحمد عبد الجواد الأصمعى افـندى المصححين به وصاحبى الأثر الطيب الجليل . ورجال هذا القسم كافة فلهم الفضل الكثير، بهمة رئيسهم الفاضل، فى ضبط الكتاب وتصحيح مسوّداته . كما أشكر حضرة الفاضل محمد نديم افندى ملاحظ الطباعة بالدار المشهور بالدقة والإتقان . ويلوح لى أن الله تعالى أحسن جزاء المأمون على حَدَبِه وكبير عنايته بدُورِ الحكمة (دور الكتب) العديدة فى عصره ، بأن وفّق دار الحكمة فى مصر ، فى هذا العصر ، الى رعاية عصره ، بهمة وإخلاص ، وتدقيق وتحقيق ما

أحمد فريد رفاعى

١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٧

الكتاب الأول

عصر بنى أمية

الفصل الأول

تحول المدنية الاسلامية

توطئة — نظام الحكم على عهد الصحابة — حكومة عثمان ونظر الجماعات العربية اليها .

(١) توطئة :

حمل الفتحُ الإسلامىّ الذى فتحه الخلفاء الراشدون فى سبيل الدعوه الدينيّة من العناصر المادّية والاجتماعية والسياسية ما كانت له نتائجُه وآثارُه ، فبعد أن كانت الأموالُ فى أيام النبىّ صلى الله عليه وسلم نحو أربعين ألفا بين إبلٍ وخيلٍ ، وبعد أن كان عمرُ بنُ الخطاب دَهِشًا مُرتابًا حينما أبلغه أبو هريرةَ عند قدومه من البَحْرين أنه أتَى بخمسمائة ألفِ درهم فاستكثرها عمرُ وقال : أتدرى ماتقول ؟ قال : نعم ، مائةُ ألفٍ خمسَ مراتٍ . فصَعِد عمرُ المنبرَ وقال : «أيها الناسُ ، قد جاءنا مالٌ كثيرٌ ، فإن شئتُم كِلْنَا لكم كيلا ، وإن شئتم عَدَدْنا لكم عدّا» — بعد أن كان دَهِشًا من هذه الثروةِ أصبحنا نرى ، بعد عهده بقليل ، حسامةَ الهباتِ مما لا تُعَدّ هذه الأموالُ فى جانبه شيئا مذكورا .

ونحن لا نَعْرِض الآن للقول فيما وصَلَتْ اليه الثروةُ الإسلاميّةُ فى أيام المأمون ، ولا نَعْرِض لفنونِ المدنيّات العديدة التى سادتْ فى عهده ، لأننا رَسَمنا لأنفسنا خُطّةَ مَنْ لا يريد

استباقَ الحوادث وآثارَها، ولا التاريخَ ونتائجَه. وإنا سحتَرِئُ الآن بكلامنا عن عصرٍ قريبٍ من عصر النبيّ صلى الله عليه وسلم، القريبِ العهدِ بتأثر الأذهان بالمُثُل العُلْيا : من أبي بكر الذي مات ولم يحدوا عنده من مال الدولة إلا دينارا واحدا سقط من عِرَارةٍ، والذي أوصى حينما دنا أجلُه بأن تُبَاع أرضٌ كانت له ويُدْفَعَ ثمنُها بدلا مما أخذه من مال المسلمين، ومن عمرَ بنِ الخطاب الذي حرّمَ على المسلمين اقتناءَ الضِّياع والزراعةَ، لأن أرزاقَهم وأرزاقَ عيالهم وما يملكون من عبيد وموالٍ، كلّ ذلك يدفعُه لهم من بيت المـال، فما سهم الى اقتناء المـال من حاجةٍ، وليس للمـال فى نفوسهم من إغراءٍ ولا الى صمائرهم من إفسادٍ.

هذه حالُ المسلمين الماديةُ والمعنويةُ فى عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم وصاحبَيْه، نَطِّر بينها وبين ماحدَّ بعد ذلك من كثرةٍ فى المال وإسرافٍ فى التَّرف مما كان له أعمقُ الأثرِ فى تغيّر أحوال المسلمين الاجتماعيةِ والمعيشيّةِ والخُلُقية. يحدّثنا ابنُ خلدون عن عامل أُمَويّ، ليس بملكٍ ولا خليفةٍ، يحدّثنا عن خالدٍ القَسْريّ أميرِ العراق فى أيام هشامٍ فيقول : إنّ علّته بلغَتْ ثلاثةَ عشرَ ألفَ ألفِ درهم. ويثبت لنا ابنُ الأثير دليلا ليس بأقلّ مما ذهب اليه ابن خلدون قيمةً وخطرًا، إذ يقول ما نصه : « إن طارقا حليفةَ خالد على الكوفة لما حتَنَ ولَدَه أهدَى اليه خالدٌ ألفَ وصيفٍ ووصيفةٍ سوى الأموال والثياب ». وذكر اليعقوبيّ : أن خالدا فرّق أموالا عظاما مبلَغُها ستة وثلاثون ألف ألف درهم.

أجلْ! لقـد تحوّلت الاعتباراتُ الاجتماعيةُ وِفَاقا للتعيرات المـادّية، فبعد أيام الورع وغلبةِ سلطان الدين والعدل فى أعطيات المسلمين، بعد أيام عمر وصحابة عمرَ التى نعلم الشيء الكثير من وجهة نظر عُمُد الدّين الاسلاميّ فيها الى المـال — وهو عُنصرٌ حيويّ شـديدُ الأثر فى تحوّل النُّظم المعيشيّة والاجتماعية والسياسية أيضا — والى ضَرر احْتِزَانه، فقد قال قائلٌ لعمرَ بن الخطاب : «ياأميرَ المؤمنين، لو تركت فى بيوت الأموال شيئا يكون عُدّةً لحادثٍ اذا حَدَث» ! فزجره عمرُ وقال له : «تلك كلمةٌ ألقاها الشيطانُ على فيكَ وقانِى اللهُ شرَّها ! وهى فتنةٌ لمن بعدى. إنّى لا أُعدُّ للحادث الذى يحدُثُ سوَى طاعةِ الله ورسـوله، وهى

عُدَّتُنا التى بلَغْنا بها ما بلَغْنا» — بعد هذه النظَراتِ التقشّفية البريئة، نظراتِ الورع والزهد، سَرْعانَ ما حملت الفتوحُ معها ومع تلك الثروات الطائلة التى أتت بها ما عيَّر عاصرَ عِدّةً، فاختُرِنَ المالُ، وكانت الفتنةُ كما تنبأتْ نظراتُ عمرَ الصائبةُ الى المال واحترانه، وذهبتْ فى آثارها الى ما هو أعمقُ وأخطرُ، دهمت الى الكِيَانِ الخلقىّ للعرب، فبدّلَتْ من سيرة قادَتهم وسيرة شَعْبهم : كانت سيرةُ قادتهم عدلاً و إنصافا، وسيرهُ شَعبهم أنفةً وانتصافا، فتبدّل الحالُ غير الحال، حتى أُتيحَ لمصعَب بن الزبير مثلا ، وهو من بيت بُنَاوئ بنى أمية ويافسهم فى الملكَ، أن يَبذُلَ ألفَ ألفِ درهم فى زواجه من سُكَيْنةَ بنت الحسين، ومثلَها فى زواج عائشةَ بنتِ طلحةَ، فى حين كان حدُ المسلمين يتصورون مسبّةً وحوعا. حتى كتب عبدُ الله ابن مُصْعب الى عبْد الله بنِ الزبير لماسة ما يعانيه الجدُ وتَرَف شقيقه زعيم الجند :

بَلِّغ أميرَ المؤمنين رسالةً * من ناصح لك لا يريدُ خِداعا
نُصْحُ الفتاه بألف ألفِ كاملٍ * وتبيتُ ساداتُ الجنود جياعا
لو لأبى(١) حفصٍ أقول مقالتى * وأبث ما سأبثُّكم لأرتاعا

صدق الشاعرُ فى قوله، إنّ تلك الحالَ ليرتاع منها عمرُ حقًّا، وليَفْرَقُ من ذكرها أبو بكر، ويلتاعُ من سماعها علىّ . ولكن الحال تعيَّرتْ الى مدًى بعيد، حتى أصبح المالُ عَرَضا تشرئبُّ لحيازته الأعناقُ، وتترع نحوَ تملكه النفوسُ، الى أن رأينا فيما بعدُ أن المحاجَ بنَ يوسفَ لما حاصر الكعبةَ، وفيها ابنُ الزبير، وتردّد جندُه فى صربها بالمنجَنيق جاء بكرسىّ وجلس عليه وقال : «يا أهلَ الشام، قاتِلوا على أعطياتِ عبدِ الملك» ؛ ففعلوا .

ذلك هو أثرُ المالِ فى الأخلاق والأحوال والنفوس طبقا للتغيرات الاجتماعية .

---

(١) هذه الأبيات من عروض الكامل وتفاعيله :

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

مرتين

وفى قوله : "لو لأبى" زحاف يقال له . الخرل، وهو سكون التاء وسقوط الألف من متفاعلن كما هو ظاهر فى "لو لأبى" فبقى متفعلن وهذا البناء غير مقبول فيصرف الى ساء مقبول وهو مستعلن ؛ والخرل فى الكامل قبيح .

ولنحاول فيما سنعقده من الفصول الآتية بيانَ حال الدولة العربيـة أيامَ عثمانَ، وكيف وصـل الأمرُ الى معاويةَ، وكيف خرج الملكُ من بنى أميّـةَ حتى وصـل إلى بنى العباس . ولنحاول بعد هـذه التقدمةِ دراسةَ الحياةِ الأدبيّةِ الى جانب دراستنا السياسيّة الاجتماعية ؛ فإنّ ذلك ينفعنا كثيرا فيما نرومه من التكلّم بسـطةٍ فى القول وتصويرٍ صحيح لعصر المأمون الذهبىّ ولا سيما الحياه الأدبية والعلميه فيـه ، ملاحظينَ فى ذلك كلّه جانب القصـدِ والإيجازِ، مَازِنين سِراعا على حُلّ الحوادث الكبار فى ذاتها، والتى لا تَعِيبا كثيرا فى موضوعنا، مثلَ عصر معاوية، ممـا نرجو أن نُوفَّقَ فى المستقبل القريب فنكتبَ عنـه وعما فيه من أسرارٍ ونُوَراتٍ .

(ب) نظام الحكم فى عهد الصحابة :

الناس من حيث مُيولهم ومعتقداتهم، دينيةً كانت أو سياسـيةً ، لا يكادون يَعْـدُونَ طبقةً من ثلاثٍ : محافظين، ومُعتدلين، ومُتطرفين . ولسـنا آحدبَ بسبيلٍ من التوصيح لأحكامِ هـذه الجماعاتِ أو الأحزابِ فى حياه عثمانَ ، ولا نَظَرِ كل فئةٍ منهم الى سـياسة حكومته، وإنما يكفينا أن نقولَ : إنّ هذه الفئاتِ التى تكوّن دائما قوّةَ الرأى العامِّ الذى كان له فى حكومات الصحابة صوتٌ يُؤْبَهُ له وإرادةٌ تُحترَم ، مع مراعاة طبيعة النفسـيّة العربية البدوية الشديدة الإباء والأنفة — هذه الفئاتُ لم يكن شأنُها ولا كهولُها، رُهّادُها ولا النفعيّونَ فيها، براضينَ عن حكومة عثمانَ .

كان نظامُ الحكم فى عهد الصحابة من حيثُ توزيعُ السّلطاتِ نظاما دُيُوقْراطيا — اذا صحّ لنا هذا التعبيرُ، وهو صحيحٌ لا محالةَ — ذلك لأنهم بإيمانهم وتقواهم وكامل إسلامهم، جعلوا اللهَ تعالى مصـدرَ السلطاتِ الدينيـة والدنيوية، فكلّ شىءٍ لله : المـالُ مال الله، والجندُ جندُ الله . ومن هذه الناحيةِ توافرتِ الشُّورَى وتوافرتِ الكرامةُ الدينيةُ . وربمـا كان المحافظون من رجال الدينِ يتبرمون من هذه الناحية أيضا بمنهج حكومةِ عثمانَ ، التى لا نشك أن حزبَها أيام عثمان لم يكن بدى خَطر، اللهم فى ماضيه من حيثُ الزعامة والسيادة

وما إلى ذلك فى العصر الجاهلىّ . ولكنه فاز أحيرا، ولَعِبَت الجماعةُ العثمانيةُ ومنهم الأُمَوِيُّونَ دَورَهُمُ المعروفَ ذا الأثر الكبير فى العقليه العربية والمدنية الإسلامية .

(ج) حكومة عثمان ونظر الجماعات العربية إليها :

وبعد، فماذا نَقَمَ الشبابُ والشيوخُ من حكومةِ عثمانَ ؟

أما نحن فلا يُطلَبُ منا أن نُبْدِى رأيا فى عثمانَ ، فهو صحابىّ جليل، وله أثره الخالدُ فى جمع القرآن وعير القرآن، وله دينُه السَّمْحُ الذى لا تشوبه شائبةٌ . وما كان الدينُ لِيُحَتِّم على الناس جميعا أن يكونَ نظرُهم الى الحياه الدنيا نظرَ التقشُّف والزهد . ولا يُطلَبُ منا أن نُثْبِتَ ضَعفَ الحكومة العثمانية، وإنما يُطلَبُ منّا أن نسرُدَ الحوادثَ بإيجاز، ولنا فى تسلسل هذه الحوادث ودراستها وتقييد آثارها ما قد يسمحُ لنا بالتعرُّض له حين معالجتنا الكلامَ عن عصرنا فيما بعدُ .

نعودُ فنتساءلُ : ماذا نَقَمَ الشبابُ والشيوخ من حكومة عثمانَ ؟

يقول اليعقوبىّ : « إن عثمان آثَرَ القرباء ، وحَمَى الحمى ، وبنى الدارَ، واتخذ الضِّياعَ والأموالَ بمال الله والمسلمين ، ونَفَى أبا ذرّ صاحبَ رسول الله وعبدَ الرحمن بن حنبل ، وآوى الحَكَمَ بن أبى العاص وعبدَ الله بن سعد بن أبى سرح طَرِيدَىْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وأهدَرَ دَمَ الهُرمُزان ولم يَقتُلْ عُبَيد الله بنَ عمرَ به . وولى الوليدَ بنَ عُقْبةَ الكوفةَ، فأحدث فى الصلاه ما أحدثَ ولم يمنعه ذلكَ من إعاذته إياه » .

ويذكر اليعقوبىّ فى مكان آخر ما كان من إغضاب عثمانَ لعائشةَ أمّ المؤمنين، ومكانةُ عائشة مكانتُها، وأنه نقص ما كان يعطيها عمرُ بنُ الخطاب، وأنها تربّصتْ بعثمانَ حتى رأته يخطبُ الناس فدلّتْ قميصَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ونادَتْ : «يا معشرَ المسلمين، هذا جلبابُ رسولِ الله لم يَبْلَ وقد أبلى عثمانُ سنّته» . وليس أدلّ على شدّة حفيظتها عليه من امتناعها أن تقومَ بالصلح بينه وبين الخارجينَ عليه حين اشتدّ عليه الأمرُ وصار اليها

مروانُ فقال لها : يا أمّ المؤمنين ، لو نُمْتِ فأصلحتِ بين هذا الرجلِ وبين الناسِ ! قالت : قد فرغْتُ من جهازى وأنا أريد الحج ، قال : فيدفعُ اليكِ بكلّ درهم أعقتِه درهمين ، قالت : «لعلك ترَى أنى فى شك من صاحبك ! أمَا والله لوددْتُ أنه مُقطَّعٌ فى عِرَارةٍ من عرائرى ، وأنى أُطيق حمله فأطرحُه فى البحر » .

قلنا : إن نظام الحكم فى عهد الصحابة من حيثُ توزيع السُّلطاتِ كان نظاما تُيوقراطيا فى إرجاعه كلَّ شىءٍ الى الله تعالى ، وأن المـالَ مالُ الله ، والجندَ جندُ الله ، وأن الحكم لله لا للنـاس . ويقول لنا التاريخ : إنه كان بين عثمان وحازن بيت المـال فى عهده مُشَادَّةٌ ومماورةٌ ، وأن حُلّ القَّادِ اتحدوا من هذه المشادَّةِ مَطعنًا فى سياسته المـالية ، وثُلْمَةً يتهجَّمُونَ منها عليه . وكانت هذه المشادَّةُ بينه وبين حازن بيت المـال فى أمر عُطائه ، حتى قال له عثمانُ : « إنمـا أنت حازنٌ لنا إذا أعطيناك نحفظ ، وإذا سكتْنا عنك فاسكُتْ » . فقال : « كَذَبْتَ والله ! ما أنا لك بحازنٍ ولا لأهل بيتك إنمـا أنا حازنُ المسلمين » . وجاء بالمفتاح يومَ الجمعة وعثمانُ يخطب فقال : « أيها الناس ، زعم عثمانُ أنى حازنٌ له ولأهل بيته ، وإنما كنتُ حارسا للمسلمين ، وهذه مفاتيحُ بيت مالكم » ورمى بهـا . فأخذها عثمانُ ودفعها الى زيد بن ثابت .

وليس من شكٍّ فى أن شبابَ العرب عامةً وقريش خاصّةً لهم آمالُهم ولهم مطامعُهم وهم فى مُقتبَل عمرهم حين يكون الطموحُ الى اعتلاء المراتب الرفيعة مُصطَدِماً بالوارع الدينىّ ، وأنهم تأملوا أن ينال عبـدُ الله بنُ خالد بن أسيد خمسين ألف درهم ، ومروانُ بن الحكم خمسةَ عشر ألفا مع أن عثمان استردّها منهما لما عُوتب ونُوقش ، وتأمّلوا أن يذهب آلُ عثمان بمناصب الدولة وهم يرون فى أنفسهم من الكفايات والمواهب ، ومن الحسب والنسب ما لا يقلّ عما لهؤلاء .

* * *

وما لنا نذهب بعيدا فى الاستدلال على نظريتنا هذه والنفسُ الإنسانيةُ هى هى الطَّمُوحُ الى زينة العاجلة وزُخرفها . وقد جاء فى الأغانى فى معرض كلامه عن أبى قَطِيفة الشاعر :

"أن ابن الزبير مضى الى صفيّة بنت أبي عبيد زوجة عبد الله بن عمر، فذكر لها أنّ خروجه كان غضبا لله تعالى ورسوله عليه السلام والمهاجرين والأنصار من أثرة معاوية وآبه وأهله بالفيء وسألها مسألتـه أن يُبايعَه . فلمـا قدّمت لزوجها عَشاءه ذكرتْ له أمرَ آبنِ الزبير واجتهـادَه وأثنتْ عليـه وقالت : ما يدعو إلّا الى طاعة الله جلّ وعزّ، وأكثرت القولَ في ذلك، فقال لهـا : أما رأيتِ بَغَلاتِ معاوية اللواتي كان يحجّ عليهنّ الشُّهْبَ! فإنّ ابن الزبير ما يريد غيرهنّ" .

هذا رأي كبير من رجال العصر في خروج ابن الزبير يكشف لك ما كان يخالج نفوسَ الشباب من طُموحٍ الى السلطان ولذّاته . مع أنّ ابنَ الزبير كان خارجا على أهل بيت يرى كُلُّ الناس في ذلكَ العصرِ أنهم اغتصبوا الملكَ من أهله اغتصابا . ويظهر أنّ معاوية نفسَه كان قد اقتنع بأنه لم يكن على الحق حتى كاد يتعجّبُ مما جرّه على الحربَ والعداءَ حين ذكّره عليّ بكلام للرسول صلى الله عليه وسلم، لولا مقالةُ ولده له : «كلا! ولكنك رأيتَ سيوفَ بني هاشم حِدادا تحملها شدادٌ»، فثارت ثائرتُه وقال : «ويلك! ومثلي يُعَيَّرُ لِجُبْن! هلم إليّ الرمحَ!» وأخذ الرمحَ وحمل على أصحاب عليّ .

فمعقولٌ أن يغصبَ هؤلاء الشبابُ وأمثالُهم من حكومة عثمانَ وهم يرون العمائمَ والثروات تكتسحُ بلادَهم ، وللمـال حكمُهُ وسلطانُه . ومعقول أيضا أن يغضبَ منها أمثالُ عمرو بن العاص الذي قال له عثمان، يوم ندبه ليُعْذِرَه عند الناس فما كان منه إلا أن أصرمَ جَذْوة الحقد عليه : «يابْنَ الباغة، والله ما رددتَ أن حرّصتَ الناس عليّ .. يابْنَ الباغة، قَبّل دِرعُكَ مذ عزلتُك عن مصرَ» .

هذا من ناحية الغضبيينَ وفيهم المتطرّفون . وهناك المعتدلون، وهؤلاء قد نأوا بجانبهم عن الفتنـة واعتزلوا الناسَ من شرّها وآثارها، وهم لهـا كارهون ومنها ناقمون . وهنـاك المحافظون الأتقياءُ حقا أمثالُ أبي ذرّ و رافع بن خَديج وغيرهما من صحـابة الرسول الذين نعلم من تقواهم وزهدهم ومن حبّهم للآخرة وإعلاء كلمة الدين الشيءَ الكثيرَ، والذين

يقول فيهم الجـاحظ فى رسالته عن بنى أميـه[1] : « إنهم كانوا على التوحيـد الصحيح والإخلاص المحض» . ولنوضح قليلا هذا النوع من المتقشفين حقا والمخلصين فى عقيدتهم الدينية صدقا، ولنضرب مثلا بأبى ذرّ الغفارىّ ولنسطر ما يحكيه لنا ابنُ الأثير فى هذا السبيل، فهو معتـدل مُسْتَقْر للحقيقة أكثرَ من سواه . يقول ابنُ الأثير : إن أبا ذر كان يذهب الى أنّ المسـلم لا سعى له أن يكونَ فى مِلكه أكثرُ من قوت يومه وليلتـه أو شىء ينفعه فى سبيل الله أو عِدّهُ لكريم، وكان يأخذ بظاهر القرآن: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فى سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَـذابٍ أَلِيمٍ﴾ فكان يقوم بالشام ويقول : "يا معشَر الأغنيـاء، واسوا الفقراء، بشر الذين يكنزون الذهبَ والفضةَ ولا ينفقونها فى سبيل الله بكىّ من نار تُكوَى بها جباهُهم وجنوبُهم وظهورُهم" فما زال حتى وَلِـعَ الفقراءُ بمثل ذلك وأوجعوه على الأغنياء، وشكا الأغنياءُ ما يَلقَوْنه منهـم ، فأرسل معاويةُ اليه بألف دينـارٍ فى صُحن الليل فأنفقها، فلمـا صلّى معاويةُ الصبحَ دعا رسولَه الذى أرسله اليـه ، فقال : اذهب الى أبى ذر فقل له . أيقِدْ جسدى من عذاب معاويةَ فإنه أرسلَنى الى غيرك وإنى أحطاتُ بك، فتعل ذلك . فقال أبو ذر : يأُخَىّ، قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينارٌ ولكن أَخِّرنا ثلاثةَ أيام حتى نجمَعها . فلمـا رأى معاويةُ أنّ فعله يُصَدِّقُ قولَه كتبَ الى عثمانَ . إن أبا ذر قد ضيَّقَ علىّ، وقد كان كذا وكذا : للذى يقوله الفقراء . فكتب اليه عثمان : "إن الفتنة قد أحرجت خَطْمَها[2] وعينيها ولم يبق إلا أن تَثِبَ، فلا تكأ القُرْحَ وجَهِّزْ أبا ذرّ الىّ وابعَثْ معه دليلا وكَفْكِفِ الناسَ ونفسَك ما آستعطتَ" . وبعث اليه معاويةُ بأبى ذرّ، فلما قَدِم المدينةَ ورأى المجالسَ فى أصل جبل سَلْع قال : بَشِّرأهلَ المدينة بغارة شـعواءَ وحربٍ مِدكارٍ . ودخل على عثمان ، فقال له : ما لأهل الشام يشكون ذَرِبَ[3] لسانك، فأخبره، فقال : يا أبا ذرّ، علىّ أن أقصىَ ما علىّ وأن أدعو الرعيَّـةَ إلى الاجتهاد

---

(١) راجع رسالة الجاحظ فى بنى أمية فى باب المنثور من ملحق الكتاب الثالث فى المجلد الثانى .

(٢) الخطم : الأنف . (٣) ذرب اللسان : حدّته .

والاقتصاد، وما علىّ أن أحبرَهم على الزهد؛ ثم انتهت المُحاجَّةُ الى أن خرج أبو ذر من المدينة ونزل الرَّبذة[1].

فهذا النوعُ من التقشُّف المتبرّم بحكومة عثمان، وذلك النوعُ من الشباب الطامح بعينيه الى ما أصاب سواه منها، وتلك الجماعةُ المعتزلةُ التاركة الحبلَ على الغارب — كلّ هذه العوامل تحملنا نقع بجاح الفتنة صدّ حكومه عثمان وانهائها بتلك المأساة المروّعة التى كان فيها ما كان مما يحكيه لنا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: من قتل عثمان رضى الله عنه، وما انتُهك منه، ومن حيطهم إياه بالسلاح، ومنعهم بطنه بالجراب، وفرْى أوداجه بالمشاقص[2]، وشدح هامته بالعَمَد، مع صرب نسائه بحضرته وإحجام الرجال على حرمته، مع اتقاء نائلة بيتِ الفَراصِة[3] عنه بيدها حتى أطَنُّوا[4] أصبعين من أصابعها.

كانت تلك المأساة المروّعة التى تُفتّتُ القلوبَ الجلامدَ، وتتفجّر لها العيونُ الجوامدُ؛ فلنقف عند ذكراها وَالِهِين آسفين.

---

(١) الربذة من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق وبها قبر أبى ذر الغفارى.

(٢) المشاقص. جمع مشقص وهو نصل عريض وقيل سهم. (٣) الفرصة بضم الفاء لا غير. وليس فى العرب ما يسمى بالفراصة بالألف واللام غيره كما أن أما على القالى ذكر أن كل ما فى العرب فراصة بضم الفاء إلا فراصة هذا أما نائله امرأة عثمان رضى الله عنه. (٤) أطنوا قطعوا.

الفصل الثانى

الجهـاد بين الخـلافة والملك

توطئة — كلمتنا عن على رضى الله عنه — تحوّل الرأى العام — معاوية — سياسة معاوية — عبقريات معاوية — معاوية والسياسة المكيافلية .

(أ) توطئـــة :

نحن الآن مُقبلون على فترة جهادٍ عنيف بين الخـلافة والملك ، فترة لا يصح أن نعتبرَ الجهادَ فيهـا جهادا بين علىّ ومعاوية ، أو بين علىّ وغير معاوية من مُنافسيه فى الخلافة أو من الخارجين عليه . وإنما يحلُق بنا أن نعتبرها بمثابة جهاد عنيفٍ بين وجْهات النظر العرَبيّـة فى الحياة ، فإن موتَ عثمان رضى الله عنه لم يُمت الفتنةَ بل أذكاها وزادها ضِرَاما واشتعالا .

وإنه لمن الميسور للناقد أن يلتمسَ العـلةَ فى أن الأحزاب العربيةَ حين ذاكَ لم تُجْمِع على سيدنا علىّ ، ذلك بأن الجماعة الراغبة فى الوظائف والأموال لم تجد فيه طَلِبَتَها وسُؤلَها ، ولم تَعثُر فيه على أُنشودتها ورَحْلِها ، بل على النقيض قد لقيت منه حاكما صُلْبًا لا تَلينُ قناتُه ، سار فيهم سَـيرةَ الحق لا يأخذه فى الله لومةُ لائم ، وكانت حركاتُه وسكناتُه رضى الله عنه جميعها لله وفى الله لا يَعبأ بها حقَّ أحد ، وكان لا يأخذ ولا يعطى إلا بالحق والعدل ، حتى إن أخاه عَقيلًا ، وهو ابنُ أبيـه وأمه ، طلب من بيت المـال شيئا لم يكن له بحقٍّ ؛ فمنعه رضى الله عنه وقال . يا أخى ، ليس لك فى هذا المـال غيرُ ما أعطيتُك ، ولكن اصبر حتى يجىء مالى واعطيك منه ما تريد فلم يُرْضِ عقيلًا هـذا الجواب وفارقه وقصد معاويةَ بالشام . وكان لا يعطى ولديه الحسنَ والحسينَ أكثرَ من حقهما . فانظر الى رجل حمله ورَعُه على هذا الصنيع بولديه وبأخيه من أبويه ! فلما سار فيهم هذه السّيرةَ ثَقُلَ على بعض الناس فعلُه وكرهوا مكانَه .

هـذه خُطَّةُ هؤلاء معه . أما خُطَّةُ الشيوخ فمنهم مَنْ آثر العُزلةَ وترك حبلَ الأمة على غاربها، تتطاحنُ أحزابُها بين طُلَّاب الخلافة، ومنهم الخوارج الذين عصوا على عليّ كما غصبوا على معـاوية، وندَبوا من بينهم عبـدَ الرحمن بن مُلْجِم ليقتلَ عليا، والبركَ بنَ عامر ليُخَلِّصَهُم من معاويةَ، وعبدَ الله بن مالك الصيداوى ليُرِيحَهُم من حليف معاويةَ عمرِو بن العاص . هؤلاء الخوارجُ كانت كلمتهم : « الحكم لله لا للناس » فقاموا من عليّ حضوعَه للتحكيم، وما خضع إلا مُكرها مُعَنَّتًا .

(ب) كلمتنا عن عليّ رضى الله عنه :

كان عليّ إماما دينيا، كان مَوئِلا للشريعة ومثالا للورع والاستمساكِ بأحكام الكتاب، كان مَصـدرًا خَصِبا من مصادر الفقه والتشريع، وكان فى حكومته وحروبه على السواء مُؤثِرًا رضا الله ومُعْصِيًا شهوات النـاس وقادِعًا أطماعَها ، وكان عواما كاملا لأسمى صفات الخُلُقِ الإسلامىّ من حيثُ الحده والشجاعة لا الحدق والسياسه ، كان مُصْلِحًا دينيا على أتمّ ما يكون عليـه مصلح دينىّ، يتفانى فى هدا الإصـلاح ويؤثر الآخره على الأولى فيعمل لإرضاء الله لا إرضاء النـاس ، وكان كما وصـفه عَدِىُّ بنُ حاتم لمعاويةَ : « يقول عدلا ويحكم فصـلا، تتفجّر الحكمةُ من جوانبه والعلم من نواحيـه، يستوحش من الدنيا وزَهرتها، ويأنس بالليـل ووحشته، وكان والله غزيرَ الدمعـة، طويلَ الفكرة، يحاسب نفسـه اذا خلا، ويُقَلِّبُ كفيه على ما مضى، يُعجِبه من اللباس القصـيرُ، ومن المعاش الخشن، وكان فينا كأحدنا . كان يعظم أهل الدين ويتحبَّبُ الى المساكين، لا يحاف القَوِىُّ ظلمَه ولا ييأس الضعيفُ مِنْ عدله، فأُقسِمُ لقد رأيتُه ليلةً وقد مَثَلَ فى محرابه وأرخى الليلُ سربالَه وغارت نجومُه، ودموعُه تتحادَرُ على لحيته وهو يتململُ تململَ السليم ويبكى بكاءَ الحزين، فكأنى الان أسمعُـه وهو يقول : يا دنيا أإلىّ تعرّضتِ أم إلىّ أقبلت ! غُرِّى غيرى لا حانَ حينُك، قد طلقتُكِ ثلاثا لا رجعةَ فيها » .

هذا هو عليّ حقا ، عليّ الذى بالغ فى التدقيق فى محاسبة عُمَّاله حتى أعصبَ أكثرَهم وحتى خسِر بصرَتهم، وفى جملتهم مَصقلةُ بن هبيره الشيبانى وابن عمه عبـد الله بن عباس

بعـد أن كان أكبرَ نصيرٍ له ، والذى أعصبَ الزبير وطلحةَ وكان فى مقدوره أن يصمَّهما اليه ، والذى لم يكتسب الى جانبه عمرَو بن العاص ، ولم يقبل نصيحةَ ابن العباس ولا المغيرةِ ابن شعبه فى إقرار معاوية وابن عامر وعُمّال عثمان على أعمالهم حتى تأتيَـه بيعتُهم ويسكن الناس ثم يعزل منهم من يشاء ، وقال «لا أُداهِن فى دينى ولا أُعطى الدنيَّة فى أمرى» ، فقيل له : انزع مَنْ شئت وابترك معاويةَ ، فإن فى معاوية جُرْأةً وهو فى أهل الشام يُسْتَمَعُ منـه وله محـلٌّ فى إشاته مـا كان من عمرَ بن الخطاب إذ قد ولاه الشامَ ، فأبى وقال : لا والله لا أستعمِل معاويةَ يومين . فلم تكن الحِيَلُ والخِدَعُ من مذهبه ، ولم يكن عنده غيرُ مُرّ الحق ، والذى يقول لأصحابه بعد أن أنحوا فى أعدائه : «لا تتبعوا مُوَلِّيًا ، ولا تُجهِزُوا على جريح ، ولا تنهبُوا مالا» فجعلوا يمرُّون بالدهب والفضة فى مُعَسْكَرِهم فلا يَعرِض له أحد ، إلا ما كان من السلاح الذى قاتلوا به والدوابِّ التى حاربوا عليها . فقال بعضُ أصحابه : يا أميرَ المؤمنين ، كيف حلّ لنا قتالُهم ولم يحلّ لنا سلبُهم وأموالُهم ! فقال علىّ رضى الله عنه : «ليس على الموحدين سبىٌ ولا يُعَمُّ من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعليه ، وقد عُوا مالا تعرِفُون والرِمُوا ما تُؤمَرُونَ» .

أجل ! هـذا هو علىّ حقا ، الذى أبتْ رأفتُه وأبى دينُه أن يمنعَ أهل الشام من المـاء كما منعوه أثناء مُنازلتهم حتى كاد يهلكُ جسـدُه عطشا ، والذى منع شيعتَه وأنصارَه من شم معاوية ، صارنًا صفحًا عن آثار استعلال ذلك فى الدعوة السياسيه لتأبيد حلافيه والحطّ من ملك مُنافسـه ، وإنه لمـا بلغـه أن حُجْر بن عدى وعمرو بن الحَمِق يُظْهِران شتمَ معاويةَ ولعنَ أهل الشام أرسل اليهما : أنْ كُفّا عما بلغنى عنكما ، فأبياه فقالا : «يا أمير المؤمنين ، ألسنا على الحق وهم على البـاطل ! قال : كرهتُ لكم أن تكونوا شتّامينَ لعّانين ، ولكن قولوا . اللهم احقِنْ دماءنا ودماءهم ، وأصْلِحْ ذاتَ بيننا وبينهم ، واهدهم من ضـلالتهم حتى يعرفَ الحقَّ مَنْ جهله ويرعَوِى عن الغىِّ مَنْ لَهِجَ به» .

هذا هو علىّ حقا ، الشديد فى محاسة نفسه وعمّاله . أما محاسة نفسه فظاهرةٌ خُلقيَّةٌ وصحةٌ الوصوح كلّه . وأما محاسبته عُمّـالَه فإن تاريخَه مُفعَمٌ بمئات الأدلة والشواهد ممـا

أفاد منه مُعاويةُ أيّما فائدة . وكان من آثار هذه المحاسبة هرب مَصقَلَةَ بن هبيرةَ الشيبانيّ من عليّ وانضمامه الى معاوية ، وكذلك يزيد بن حجية التيمي الذي كان قد استعمله عليّ على الريّ فكسر من خراجها ثلاثين ألفا، فكتب اليه عليّ يستدعيه لحصر، فسأله عن المال قال . أينَ ما عللتهَ من المال؟ قال . ما أخذتُ شيئا ، فحققه بالدِّرّة حَقَقات وحبسه . ووكل به سعدًا مولاه، فهربَ منه يزيدُ الى الشام، فسوّغه معاويةُ المالَ، فكان يمال من عليّ، و بقي بالشام الى أن اجتمع الأمر لمعاوية، فسار معه الى العراق فولّاه العراق .

فهذه الشواهدُ وأمثالُها فيها أقطعُ الدلالات على شدّة محاسبته لعماله و إعصائه آلَ بيته تدينا وورعا، وعملا للآخرة، لا لبناء ملك في الدار الأولى .

فلنحفظْ هذه الصوره جيّدا، ولنذكر أنها لم يُتَح لها الفورُ والنجاحُ في ذلك الجهاد السياسيّ، وأن الكِفّةَ الراجحةَ في سياستنا الدنيوية كانتْ لمناوئه الذي نحذُر نا أن نَدرُسَه بايجازٍ واقتضاب .

(ج) تحوّل الرأى العام :

صوّر الشاعرُ العبقريّ "شكسبير" في روايته "يوليوس قيصر" تأثّرَ الرأى العام بدعائه التي يستعلّون بها سذاجةَ موقفه، و يملكون بها عقولَ قومهم التي بها يفكرون، و بسحرون بها عيونَهم التي بها يُبصرون، فلا يَصدُرون إلا عن إرادتهم، ولا يُفكّرون إلا بعقولهم . وقد أبدع أيّما إبداع في موقفي "بروتس" قاتل قيصر ومنفذ الرومان، و"أنطونيوس" مؤبّنه ورثائيه ، وأظهر الى أيّ مدًى انخدعَتْ بهما الجمهورُ، والى أيّ مدًى تناقض في حبّه و بغضه و إكباره وتألّبه .

شكر الرومان "بروتس" قاتل قيصر لأجل الرومان وفي سبيل الرومان، فأسلس له قيادهم وطلبوا منه أن يتبوأ العرش مكانَه، وحُمِلَ على الأعناق بعد أن تبوأ منهم حنّات القلوب، ثم استمعوا الى "أنطونيوس" يرثي قيصرَ، وما استمعوا له لأن "بروتس" طلب منهم أن

ينصتُوا لأن قيصرا الطاغيةَ غيرُ قيصرِ الراحلِ، فأنصتُوا وتكلم «أنطونيوس» فحرك من شؤونهم وأساهم أنفسَهم، واستعلَّ فى موقفه ما ثياب قيصر من دماء وثقوب، وما بجسمه من طعنات وجروح، حتى اضطرمت الفتنةُ، وكان نصيبُ «بروتس» ما تعلم بعد حمله على الأعناق !

هكذا فعل معاويةُ فى جهاده وجلاده علنًا ، فقد صدع بما أشار به عليه عَمْرو ابن العاص إذ طلب اليه إظهارَ قميص الدم الذى قُتِلَ فيه عثمانُ وأصابع زوجته وأن يُعلَّقَ ذلك على المنبر ثم يجمعَ الناسَ ويبكى عليه عازيا قتلَ عثمان الى علىّ مطالبا بدمه مستميلا بذلك أهل الشأم وغيرهم من عامة المسلمين . أحرج معاويةُ القميصَ والأصابع وعلَّقه على المنبر وبكى واستبكى الناسَ ودكَّرهم بمُصَاب عثمانَ، فانتدبَ أهلُ الشأم من كل حانب وأيدهم الأشرافُ ودوو العهود كشُرَحْبِيلَ بن السِّمط وسواه ، وبذلوا له الطلبَ بدم عثمان والقتال معه على كل من آوى قَتَلَتَه . ثم حَلَقَ لعلىّ مُعْضِلةً سياسه لا يهون على السياسىّ حلُّها؛ ذلك بأن بعثَ برسالة الى جماعه علىّ ، وهذه الرسالة تحتوى على أُسُس المبادئ العثمانية وتقول : « أما بعد، فإنكم دعوتم الى الطاعة والجماعة، أما الجماعه التى دعوتم اليها فحسنا؛ وأما الطاعة لصاحبكم فلا نراها، إن صاحبكم قتل خليفتَنا ومزق جماعتَنا وآوى ثأرَنا[1] وقتلَتَنا؛ وصاحبُكم يزعم أنه لم يقتله، فنحن لا نردّ ذلك عليه، أرأيتم قَتَلَةَ صاحبنا، ألستم تعلمون أنهم أصحابُ صاحبِكم ، فليَدْفَعهم الينا فلنقتُلْهم به ، ثم نحن نجيبكم الى الطاعة والجماعة » . وكيف يستطيع علىّ أن يدفعَ الى معاوية قتلةَ عثمان ! ومادا يكون موقفُه أمامَ ذلك الحزب القوىّ الباقم على الخليفه المقتول ! فلذلك كان من المعقول أن يقف ردّه أمامَ هذه المشكلة السياسيه عند قوله : « أما ما سألتَ من دفعى اليك قَتَلَتَه فإنى لا أرى ذلك ، لعلمى بأنك إنما تطلب ذلك دريعة الى ما تأمُله ومرقاةً الى ما ترجوه، وما الطلب بدمه تريد» .

(١) ثأره : قاتل حميمه .

(د) معاوية :

لسا نتعرض للحكم على دين معاويةَ ومبلغ تمشّيه فى تصرّفاته السياسية و إقامته لحدود الله مع أحكام الشرع، فقد تكلم فى ذلك فيه الشافعىّ والحسن البصرىّ، و إنما نريد أن نُمَثِّل معاويةَ مؤسِّسَ الملكيه فى الإسلام، وواضعَ أُسُس السياسة الدنيوية، والذى قال فيه عمرُ بن الخطاب لجلسائه : "تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاويةُ ! " .

(ه) سياسة معاوية :

كان معاويةُ ذا مواهبَ سياسيهٍ كبيرهٍ، وكان داهيةً، دَهيا، بعيدَ مدَى العقل، مالكا قِيادَ أهوائه، كان ذا مكر وذا رأى وحزم فى أمر دنياه، اذا رأى الفُرصَةَ لم يُبْقِ ولم يتوقَّفْ، واذا خاف الأمرَ توارى عنه، واذا حُوصِمَ فى مقال ناصل عنه وقطعَ الكلامَ على مُناظِره" . كان يعمل جُهدَه ليشترى ضمائرَ القبائل العربية، وكان كثيرَ البذل فى العطاء . وقد ذكر الطبرىّ حادثة نستطيع أن نستنبطَ منها نظرَ معاويةَ الى المال والى مبلغ استعماله إياه ليملك به ضمائرَ أهل المكانة والنفوذ من مُعاصريه : ذكر أن أبا مُنَازِل قال له حينما أعطاه معاوية سبعين ألفا بينما أعطَى جماعةً من الزعماء ممن فى مرتبته مائةَ ألف : فصحتنى فى بنى تميم ، أمَا حَسَبى فصحيح ! أوَ لَسْتُ ذا سِنّ ! أو لستُ مطاعا فى عشيرتى ! فقال معاوية : بلى، قال : فما بالك خَسَسْتَ بى دونَ القوم! فقال: إنى اشتريتُ من القوم دينَهم ووَكَلتُك الى دينك ورأيك فى عثمانَ بن عفان — وكان عثمانيا — فقال: وأنا فاشترِ منّى دينى، فأمر له بتمام جائزة القوم .

كان سياسيا بطبيعته، مِعْطَاءً وَهُوبًا بسجيته، وقد صدق فى صفته أبو الجَهْم الشاعرُ إذ قال :

نميل على جوانبه كأنا * نميلُ ولا نميل على أبينا
نُقَلِّبُه لنخبُرَ حالَتَيْه * فنخبُرُ منهما كرَمًا وليِنا

وإنا نستطيع أن نفهم فهما صحيحا : أكانت ثورةُ معاويةَ لقتل عثمانَ ثورةً مصدَرُها إخلاصُهُ العميقُ فى العثمانية، وأنه كان يريد بها أن يُجْرِىَ حكْمَ الشَّرع فى قَتَلة عثمان، أم ثورةً مصدَرُها طُمُوحُه الى الملكِ ليعتصّه لنفسه ؟ — نستطيع أن نفهم ذلك من حديث جرى بينه وبين عائشه بنت عثمان، فانّ التاريخَ يحدّثنا أن معاويةَ لما قدِم المدينة دخل دار عثمان، فقالت عائشة بنت عثمان : وا أسَتاه ! ونكَتْ، فقال معاويةُ : « يابنة أخى، إن الناس أعطَوْنا وأعطيناهُم أمانا، وأظهرنا لهم حِلما تحته غَصَصٌ، وأظهروا لنا طاعةً تحتها حِقْدٌ، ومع كلّ إنسانٍ سيفُه وهو يرى مكانَ أنصاره، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا، ولا ندرى أعليها تكون أم لنا. ولأن تكونى بنتَ عمّ أمير المؤمنين خيرٌ من أن تكونى امرأةً من عُرْض المسلمين» .

وقد لا نجد تصويرا أدقَّ لسياسة معاويةَ وطريقة حكمه من قوله : "لا أضع سيفى حيث يكفينى سَوطى، ولا أضعُ سوطى حيث يكفينى لسانى، ولو أنّ بينى وبين الناس شعرةً ما انقطعتْ. قيل: وكيف ذاك" قال : كنت اذا مدّوها خلّيتها وادا خلّوها مددتها".

فهذا القول يُبيّن حلمَه وطولَ باعه فى السياسه، وهدوءَ أعصابه اذا حاهتْه المشكلاتُ، أو نزلَتْ بساحته الكوارثُ والمعضلاتُ، ويُظْهِرُ سعةَ عطنه وحرمه . ولقد قال له يزيد يوم بويع له على عهده بفعل الناسُ بمدحوبه ويقرظونه · « يا أميرَ المؤمنين، والله ما ندرى أنخدعُ الناس أم يخدعونا ! » فقال معاويةُ « كلّ مَنْ أردتَ خديعتَه فتخادعَ لك حتى تبلغَ منه حاجتَكَ فقد خدعته» .

ثم انظر الى مختلِف تصرّفات معاويةَ فى حياته السياسية وغيرها، فإنك لَتقتنعُ بصدق حكم الشعبىِّ الذى قال فيه : « كان معاوية كالحمل الطبّ اذا سُكِت عنه تقدّم، واذا رُدَّ تأخّر" .

(و) مميزات معاوية :

ولقد امتاز معاويةُ الى جانب إلمامه التامّ بميول كلّ من له به علاقةٌ من الناس، وصادق تقديره مع ثقوب بصيرته بما فيهم من نواح للضعف يستطيع التسرّبَ اليهم منها —

امتاز الى جانب هذا كلِّه بصفات ثلاث لها مكانتها السامية فى تكوين الدُّهاة من ساسة الوقت الحاضر، تلك الصفات الثلاثُ هى : أوّلا إيقاعُ أعدائه فى مشكلات لا تقوم لهم من بعدها قائمةٌ، بأفانين طريفة طالما عَمَدَ اليها الكثيرُ من ساسة اليوم، مثال ذلك طريقته فى إيقاع بطارقة الروم الذين يكيدون للإسلام، وذلك بمهاداتهم ومكاتبتهم بطريقة مكشوفة، لإغراء الملك بهم .

الصفة الثانية من مميزات معاوية الخلقيّة هى حلمُه ، وهناك مِئاتُ الأمثال أُترِعَتْ بها كتبُنا الأدبيةُ والتاريخيةُ ، مُشيدةً بحلمه مُطنبةً فى فصائل سَعَة صدره . على أنّا نحترئ هنا بمثل عادىّ، ذلك أنه لما ألحق زيادا بأبيه دخل عليه بنو أمية وفيهم عبدُ الرحمن بن الحكم أخو مروان بن الحكم الأموى ، فقال له : يامعاوية لو لم تحد إلا الرنجَ لاستكثرتَ بهم علينا قِلّةً وذلّةً، فأقبل على أخيه مروان وقال : أخرج عنا هذا الخليعَ، فقال مروان : والله إنه لخليعٌ ما يطاق، فقال معاوية . والله لولا حلمى وتجاوزى لعلمتَ أنه يطاقُ ! ألم يبلغنى شعره فىّ وفى زياد ! ثم قال لمروان : أسْمِعنيه، فقال :

ألا أبلِغْ معاويةَ بنَ صخر * لقد صاقَتْ بما تأتى اليدانِ
أتغضَبُ أن يقالَ أبوك عَفٌّ * وترضى أن يقالَ أبوكَ زانِى

الصفة الثالثة هى نعومته السياسية، وهى غير الحلم، وقد تُعتَبرُ الى حدٍّ ما من نوع المغالطات السياسية، مثال ذلك ما كان بينه وبين الحسن بن علىّ فى شأن نزوله عن الخلافة له ، إذ كتب اليه معاويةُ كتابا فيما جاء فيه : «أما بعد، فأنت أولى بهذا الأمر وأحقّ به لقرابتك، ولو علمتُ أنكَ أضبطُ له وأحوطُ على حريمه هذه الأمة وأكيدُ لبايعتُكَ، فسل ما شئتَ » . وبعث اليه بصحيفة بيضاء مختومة فى أسفلها : أن اكتب فيها ما شئتَ . فكتب الحسنُ أموالا وضِياعًا وأمانَهُ لشيعة علىّ .

أضف الى هذه الصفاتِ ما كُتِبَ لمعاوية من توفيقٍ وسَدادٍ فى اختيار أكبرِ دُهاة الولاة كعمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة : ممن عملوا معه على توطيد

الملك له ، والذين ارتسموا ، الى حدّ عير قليل ، خطوات زعيمهم السياسيّ فى شراء الضمائر وسَعَة العَطَن ورُجوح حَصَاة العقل . وهـذا زياد المعروف بشـدّة الوطأة بلعه عن رجل يُكنَى أبا الخير من أهل البأس والنّحدة أنه يرى رأىَ الخوارج ، فدعاه فولّاه جُـنْـدَيْسَابور[1] وما يليها ورزقه أر بعـةَ آلاف درهم كلّ شهر ، وجعل عِمَـالته فى كلّ سـنة مائة ألف . فكان أبو الخير يقول : «مارأيت شيئا حيرا من لروم الطاعة ، والتقلّب بين أظهرِ الجماعة» . كذلك فعل المغـيرةُ بن شعبة حين حَصَـه حُجْرُ بنُ عِدىّ وهو على المبر فى حطبة الجمعـة ، فإنه نزل مُسرعًا ودحل قصرَ الإمارة و بعث الى حجـرٍ بحمسة آلاف درهم ترضّاه بها . فقيل للغيره : لم فعلتَ هذا وفيه عليكَ وَهْنٌ وعَصَاصةٌ ؟ فقال : «قد قتلتُه بها» ! !

الى جانب هـذه العناصر المكوّنة لتلك الشحصيّة البارزة التى اعتمدَتْ فى تأسيس ملكها على ما اعتمدت عليه مِنْ ترضّى الأحراب بالمـال وعاقةِ الناس بالطعام ، واستعلال العصبيات العربية ، والتساهل فى إقامة الحدود الدينية اذا دعت الى ذلك طبيعةُ الأحوال السياسية ، فإنّ معاويةَ يصف بنفسه سببَ نجاحه على عليّ بقـوله : « أُعِنْتُ على عليّ بن أبى طالب بأر بع خصال : كان رجلا طُهَرَةً عُلَـنَةً لا يكتم سرًّا ، وكنتُ كَتُومًا لسرّى ؛ وكان لا يسعى حتى يُفاجِئَه الأمرُ مفاجأةً ، وكنتُ أُبادِرُ الى ذلك ؛ وكان فى أخبث جنـدٍ وأشدّهم خلافا ، وكنتُ أحبَّ الى قريش منه ، فبلتُ ما شئتُ ، فلّله مِن جامعٍ الىّ ومُفرّق عنـه ! » .

(ز) معـاوية والسياسة المكيافلية :

و بعد ، فإن السياسة الحديثة قد أباحت لرجالاتها فى سبيل تحقيق غاياتهم أن يتهجوا من الوسائل ما يكفُلُ لهم نُجْحَهُم السياسىّ . ويجب علينا أن نُثبت أن جُلَّهم ، ولو أنهم يتطاهرون بمبورهم من مدرسه « ما كيافلى » التى تُضَحّى بكل شىء تسويغا للوصول الى الغاية السياسية ، يأخذون فى الواقع بتعاليمها و يعملون على بَرْنَامَجِهَا . هذه السياسة الإيجابية فى نجاحها العملىّ ، السلبية فى إرصائهـا المناحى الخلقيّة ، هى التى أخرجَتْ لنـا

(١) مدينة بخوزستان ساها سابور بن أردشير فسست اليه وأسكنها سبى الروم وطائفة من جنده . أنظر معجم ياقوت .

«ماترنيخ» و «كافور» و «دزرائيلى» و «بسمرك» و «بت» ، وهى التى كان من أبطالها «حلادستون» ذو المواقف العربيه فى الإقناع واكتساب ثقة الجمهور ولو تحلّل من الشواهد واختلق من السابقات ما ليس له من وجود !

كذلك كان معاوية ، فى حُلّ تصرفاته ، يحفِلُ كثيرا بتحقيق غاياته فى تشييد الملك ، فهو يُدبِّر أمورَ الناس لهذه الوجهة ، وهو ينتهج من الوسائل السياسية ما يكفُلُ نجاحَه فى هذه الوجهة . وإنه لخليق بنا ونحن ألّا نعدوَ بعيدا عن هذه الوجهة حين نَظَرِنا الى معاويةَ فى كتابه الى مروان بن الحكم بشأن حدّه شاعرَه الكبير ابن سيحان ، وحين حكم لابن الزبير بنفى داره المحترقه ، وحين أرضى عَقِيلًا ، واحتملَ من الأحنف بن قيس ما احتملَ ، وحين تخلّص من الأشتر النخعىّ ومن عبد الرحمن بن خالد ، وحين فصل فى منازعة عمرو ابن عثمان بن عفان وأسامة بن زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حكاية الأرض التى قيل إن الرسول صلى الله عليه وسلم أقطعها أحدَهما ، وحين كان يبذُل المالَ طبقا لمناهجه السياسية . وإنا نُبيح لأنفسنا حين ننظر الى قول زين العابدين : « إن عليا كان يقاتله معاويةُ بذهنه » أن نقول : « إن معاويةَ كان يقاتل عليا بذهنه وذهنه » .

وإنا لنظنّ أنا قد صوّرنا معاويةَ بما هو أهلُه ، وأوضحنا ما كانت عليه تلك الشخصيّةُ العدّة فى مسايره الناس واحتمال الأذى منهم ، والتى يقول صاحبُها : " ما من شىء عدنى ألدّ من غيظ أتجرّعه " . «وإنى لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين مُلكنا» .

والآن نستطيع ، بعد أن كشفنا القناع عن أخلاق معاوية ومميزاته ، أن نفهم قيمةَ قول علىّ رضى الله عنه فى كتابه الى زياد بن أبيه حينما كان من ولاته يحذره من معاوية وهو ما نختتم به كلمتنا فيه : " إنى وليّتُك ما وليّتك وأنا أراك له أهلا . وقد كانت من أبى سفيان فلتةٌ من أمانى الباطل وكدب النفس ، لا تُوجبُ لك ميراثا ولا تحِلّ له نسبا . وإن معاويةَ يأتى الإنسانَ من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فاحذَر ثم احذَرْ . والسلام " .

الفصل الثالث

سياســـة معـاوية وخلفـائه

توطئة — اصطناع الأحرار بالمـال — العمال — الوجهة الدينية — التعسف المذهبى .

(١) توطئـــة :

إنّ معاويةَ الذى مَرَنَ على السـياسة بشأته وحَذَقَها بسجيّته وأتقنها لمختلف أدوارها التى تقلّب فيها، فطُبِـعَ عليها وطُبِعَتْ عليه، وأصبح منها وأصبحت منه، لم يكن فى مقدوره إلا أن يكون سياسيا فذًّا موفّقا ، بل مصدر سياسات عبقرية طالمـا نَشدها عصرُه وزمانُه حتىّ بُعِثَ بهـا وبُعِثَتْ له ، وخُلِقَ منها وخُلِقَتْ منه ؛ وكانت فى نفسها وجوهرها حليقةً للإجلال والإكبار ، كما كان صاحبُها قمينًا بالنجاح جديرا بالتوفيق ؛ لأنه لم يكن فى وسعه ، بطبيعته واسـتعداده ومواهبه واستمامه لأداة الحكم والسلطان ، إلا أن يُوفّق مظفّرًا فى مختلف خُطَطِه التى ارتسمها سديدةً ناجحةً ، لأنها قطعةٌ من نفسه ؛ وكلُّ ما كان من نفس معاوية فهو بمثـابة أصول السياسـة فى تشييد الملك بمنجاةٍ من الأعاصـير التى تقتلع كلّ مُلْكٍ قائم على غير طبيعة السنن الملكية الصرورية لها ولضمان حياتها ودوام قوّة بيوتاتها .

إنّ معاويةَ ومن ضُرِبَ على قالَبه وعِراره علموا الخفيّات من أهواء النفوس ، فتم لهم تملّكُها وقيادتُـها ، وانتهجوا بها من المسـالك ما أشـبع نَهَمَتَهم ونهمتها ، وحقّق بُغيتَهُـم وبغيتَها ، ووحّدوا بين تيار مصلحتهم السياسية ومُختلف رغباتهـا ومُصطَدم مَنازِعها ، وقَطِنُوا بثقوب بصائرهم الى استحدام كلّ ما فيه القوّةُ والحياةُ لمُلكِهم من شتّى العناصر : فى أنفسهم وولاتهم وسائر شَعْبِهِمْ .

أما فى نفوسهم فبأحذها ، مكرهةً أو طائعةً ، بالترام ما فيـه النُّجحُ والتوفيقُ مع قصدٍ واعتدال ، فتحتار من الولاة والرعمـاء والقوّاد والبطانة مَنْ فيهـم الغُنيةُ والكفايةُ وحسنُ

البلاء، يبحث عنهم أنّى وُجِدُوا، مهما كانت عصبياتُهم وخفّـةُ ظِلّهم أو كثافةُ نفوسِهم، ويُجَعّلون فى مراكزهم بمعـزِلٍ عن التغيـير والتبـديل ما داموا من أوتاد الدولة وأركان الملكِ .

وأما فى ولاتهم فببعدهم عن جور الرعية وإنصافهم الناسَ جميعا، فلا يصيبهم من وراء لونهم السياسىّ أو مذهبهم الدينىّ عَسَفٌ ولا ظلمٌ .

ولقـد سأل الوليد عاملَه الحجاجَ المعروفَ بعَسـفه وجَبروته أن يكتب اليه بسـيرته، فكتب ما نثبته هنا، وكنا نودّ أن يكون نِبراسًا حقّا للحجاج وغير الحجاج، قال :

" إنى أيقظتُ رأيى وأنمت هواى، فأدنيتُ السيدَ المطاع فى قومه، وولّيتُ الحربَ الحازمَ فى أمره، وقلدتُ الخراجَ الموفّرَ لأمانته، وقسّمت لكل خصم من نفسى قَسما يعطيه حظا من نظرى ولطيف عنايتى، وصرفتُ السيفَ الى اللّطِفِ المسىء، والثوابَ الى المحسن البرىء، فخاف المريبُ صولةَ العقاب، وتمسّكَ المحسنُ بحظه من الثواب " .

وأما فى سائر شَعْبِهم فبأن يستمتعوا بكل ما يُرضى العدلَ والحقَّ مع طُمَأنينتهم على مالِهم وأنفسهم، وأن تكون أبوابُ الولاة لشَكَاتهم مفتوحةً، وآدابُهم لمطالبهم مُصْغِية، وعيونُهم لخيرهم ناظرةً . وكم تُفيد تلك الصفاتُ مع حرم فى الولاة !

وهذا زياد بن أبيه كان مع شدّته لا يبحث عن طالب حاجةٍ وإن أتاه طارقًا بليل . وهو الذى كانت عقوبته القتلَ للدلج، وأحد المقبل بالمدبر والمقيم بالطاعن . وقد وُفِّق زيادٌ الى آستتباب الأمن فى ربوعه حتى قال المـدائنىّ . « قَدِمَ قادم على معاويةَ بن أبى سفيان فقال له معاوية : هل من مُغَرِّبَةِ خَبَرٍ ؟ قال : نعم، نزلت بماء من مياه الأعراب فبينا أنا عليه أورد أعرابىّ إبلَه، فلمـا شربَتْ ضرب على جُوبهـا وقال : عليك زيادًا، فقلتُ له : ما أردتَ بهـذا ؟ قال : هى سُدًى ما قام لى فيها راع منذ ولى زياد . فسرّ ذلك معاويةَ وكتب به الى زياد » .

قلنا : إن معاوية ومن صُرِبَ على قالبه وغراره فَطِنُوا بثقوب بصائرهم الى استعمال كلّ ما فيه القوّة والحياة للكهم من شتّى العناصر فى أنفسهم وولاتهم وسائر شَعْبهم ، والآن نريد أن نَدرُس بإيجاز الأُسُسَ التى باتباعها تمّ النجاحُ فى تشييد البيت الأُمَوِىّ ، والتى باضطرابها والتنكّب عن سنتها وطبيعتها كان ضَيَاعُه وفناؤه .

(ب) اصطناع الأحزاب بالمـال :

قال ابن قتيبة فى كتابه الشعر والشعراء : «إن أحمدَ بن يوسفَ الكاتبَ قال لأبى يعقوب الخُرَيمى : مَدَائحُكَ لمحمد بن منصور بن زياد — يعنى كاتب البرامكة — أشعرُ من مراثيك فيـه وأجودُ ، فقال : كنا يومئذ نعمـل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمـل على الوفاء وبينهما بونٌ بعيدٌ » .

واستطرد ابن قتيبـه فقال : « وهذه عندى قصـةُ الكُمَيْت فى مدحه بنى أميـة وآل أبى طالب وإنه كان يتشيّع ويحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى ، وشعرُه فى بنى أمية أجودُ منه فى الطالبيين ، ولا أرَى عِلّةَ ذلك إلا قوّةَ أسباب الطمع وإيثارَ النفس لعاجل الدنيـا على آجل الآخرة » .

صدقَ ابنُ قتيبة فيما ذهب اليه ، فإن أثر المـال فى النفس الإنسانية غيرُ قليل ، وإن أثره فى اصطناع الأحزاب السياسية لمما لا يحتاج الى تدليل ، وقد جُبِلَتِ النفوسُ على حُبّ مَنْ أحسنَ اليها وبغض مَنْ أساء اليها .

ولقد كان معاوية كيّسًا فذًّا فى استعمال المـال واكتساب رضا الجمهور ، وكذلك كان كل من ائتم بهديه وسـنته ، فى البذل والعطاء ، وفى التوسـعة على من آزرهم ، وعَمِلَ على نصرتهم ، ومدّ ظلهم وتثبيتِ عرشهم ، فقد زاد معاوية فى العطاء لمن شهد مواقعَه ، كما فرضَ الأعطيةَ للشعراء ، عامًّا طرقَه عما فى ذلك من إغضاب المحافظين من رجال الدين ، إذ كان همه أن يملك الأذواق المدّاحة ويسـترضيَها بهباته ونواله ، لتَنْشُرَ فى الآفاق ذكرَه وترفع الى السّماكين فضلَه ، حتى قصدَه الشعراءُ وامتدحوه ، وناصروه وظاهروه ، وحتى علم الخاصُّ

والعامُّ أنه إن مدحه أثراه، وان آسترفده أغناه ، و إن ناصره راشَــه وأعلى مكانَه، فأصحى نُجعةَ الرُّوادِ ومَقْصِدَهم، وموئلَ القُصَّاد ومَنْهَلَهم . وكانت الزوجة تستحث عَزَمَات روجها أن يهرَعَ اليه لِيُصِيبَ من نوافله ، وليعُودَ اليها بوائله ، كما كانت رُغَّبُ بعلَها أن يبيعَ إبلَه وأن يفترضَ فى العطاء بشعره .

وقد حكى لنــا أبو الفرج الأصفهانىّ شيئا من ذلك فى أخبار جبيهاء[1] الأشجعىّ فى خبر طويل انتهى بأن قال جبيهاء الأشجعىّ قصيدته التى فيها :

قالت أنيسَةُ دَعْ بلادَكَ وآلتمِسْ * دارا بِطَيِّبَــةَ رَبَّةِ الاطـامِ
تُكْتَبُ عِيالُكَ فى العطاء وتُفتَرَضْ * وكذاك يَفعــلُ حازمُ الأقــوامِ

وهالك مسألة مهمة من ســياستهم فى اصطناع الأحرار، و إلجام الأفواه بالمـال ، وفرض العطاء للشــعراء الذى ظل معمولا به إلا فى أيام عمر بن عبــد العزيز، ذلك أنهم كانوا يتملكون رقابَ المسلمين بإقراض من شاءوا من مال الصدقة ويكتبون صَكًّا عليهم. ونحن نعلم أن الدَّينَ همٌّ بالليل ومذلَّةٌ بالنهار .

ويذكر لنا الأغانى فى باب أخبــار جعفر بن الزبير ما فرضــه له سليمان بن عبد الملك إذ أمر له بألف دينار فى ديــه ، وألف دينار معونةً على عياله ، وبرقيق من البيض والسودان، وبكثيرٍ من طعام الجارى، وأن يُدانَ من الصدقة بألفى دينار .

على أنه قد يُعتَرَضُ علينا بأن الحادثة التى قدّمناها حادثةٌ فرديةٌ لا يصح أن تُتخذَ قاعدةً عامة أو أن يُستنبطَ منها وقوعُ مَثيلاتها وذيوع نظيراتها .

بيدَ أن الأغانى يُجهِزُ على هذا الاعتراض، إذ يُثبتُ ما نصه : « كان السلطان بالمدينة اذا جاء مال الصدقة أدان من أراد من قريش منه، وكتب صَكًّا عليه يستعدهم به ويحتلمون اليه ويداورونه، فاذا غَصِب على أحد منهم آستحرج ذلك منه، حتى كان هارونُ الرشيدُ ،

(١) قال شارح القاموس فى مادة « حسة » : جبيهاء الأشجعىّ كحميراء : شاعر معروف كما فى الصحاح . وقال ابن دريد : هو جبهاء الأشجعى بالتكبير .

فكلمه عبدُ الله بن مُصْعَب فى صكوك بقيت من دلك على غير واحد من قريش فأمر بها فأحرقت » .

فمثلُ هدا التصرّف فى آسترضاءِ الناس واستعبادِهم وفى إقراصِهم المالَ ليكونوا أولياء وتعجيرِهم وإرهاقِهم ان حنحوا لمناوأة ولاه الأمور أو منافستهم، له آثارُه من حير وشرّ فى المصلحة الحربية ليت بى أمية، طبقا لما بيديه الزعماء من حُنْكةٍ وحزم، وإصابةٍ لمواقع الصـــواب .

وبعد، فإن هدا السلاحَ الماضىَ فى يد الأقوياء لهو أشدّ مَضَاءً فى القضاء على الضعفاء ادا أساءوا استعماله، لأنه قد يُذَلّل لشراء مثل «الدّلفاء» وغيرها من القيان، ولأنه قد يبدله الشبانُ من الخلفاء فى صروف الخلاعة والاستهتار، فيكون معولَ هَدْم ودمار، كما حصل لمحمد الأمين وأمثال محمد الأمين مما سورده عليك .

وإنا لنرى فى أحريات هدا البيت ذى الأثر الكبير فى تحوّل المدنية العربية أن بعض الخلفاء نقصَ الناسَ العطاءَ فعابوا صيقا بعد سَعة، وشظفًا بعد رفاهية . وشرّ السياسات أن تُصيبَ صاحبَ عيش رغيد بإصاقةٍ وحرمان، وأن تُنزلَ به عَضاضةَ التقتير والعسر .

ولسنظر ما يقوله اليعقوبىّ عن خليفة من هدا الطراز : طراز الإضاقة فى أرزاق الناس وعوانِ اصمحلال الدولة ادا آدن نجمُها بالأفول، وآل أمرُها الى الإفلاس .

يقول اليعقوبىّ عن يزيد بن الوليد بن عبد الملك : إنه سُمّى يزيدَ الناقصَ لأنه نقصَ الناسَ من أعطياتهم واصطربَتْ عليه الدُّلدانُ، وكان ممن خرج عليه العباسُ بن الوليد بحمْص وشايعه أهلُ حمص، وبشرُ بن الوليد بقِنّسْرينَ، وعمرُ بن الوليد بالأُردنّ، ويزيدُ بن سليمان بفلسطين، وساعد العباس أبو محمد بن عبدالله بن يزيد بن معاوية وسليمان بن هشام .

يريد اليعقوبىّ أن يقول من عيرشك : إن هؤلاء الامراء انتهزوا غضب الجند لنقصان الأعطية فثاروا .

ليس هـذا فحسب ، بل إنّ سياسة بعض الخلفاء دفعتهم الى حِرمان مُدُنٍ بحذافيرها من عطائها ، كما حصل لأهل مكة والمدينة إذ حُرِمُوا سنةً كاملة ، فى حين نرى معاوية قد زاد عطاء أهل البيت مثل الحسن والحسين وعبد الله بن عباس الى ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم فى السنة فضاعفها مائتى مرة عن حساب ديوان عمر بن الخطاب .

أفلا يحدُر بنا بعد ما أسلفناه أن نقتنعَ بأن المـالَ كان سببا قويا لسـاء بيت معاوية ، وأن المـال نفسَه كان ، الى حدّ عيرِ قليل ، سببا له حظُّه وقيمته فى انهيار هذا البناء ! .

(ج) العـــمال :

قال زياد : ما علمنى أمرُ المؤمنين معاويةُ قط إلا فى أمر واحد : طلبتُ اليه رجلا من عمّاله كسر علىّ الخراجَ فلحأ اليه ، فكتبت اليه : "إن هذا فسادُ عملى وعملك" . فكتب إلىّ : "إنه لا ينبغى أن نسوسَ الناسَ سياسةً واحدة : لا نَلين حيما فيمرح الناسُ فى المعصيةِ ، ولا نشتدّ فنحمِل الناسَ على المهالك ، ولكن تكون أنتَ للشدّة والقَظاظة والغلظَة ، وأكون أنا للرأفة والرحمة" .

وكتب عبد الملك بن مروان الى الحجاج حين استأدبه فى أحد تلك الصَّبَابةِ من المـال التى تُترَكُ لأصحاب الأراضى يتعلّلون بها ولتكونَ لهم ردءا وطهيراً اذا نزلت بساحتهم النوائبُ والجوائحُ ، قال : "لا تَكُنْ على درهمك المأحودِ أحرصَ منك على درهمك المتروكِ ، وأبقِ لهم لُومًا يعقدون بها شحومًا" .

بمثل هـذه السياسة بين العمال والخلفاء ، وبمثل اختيار معاوية وعبد الملك ، لعمال ذوى كفاية ودهاء ، وحذق وحسن بلاء ، كزياد ومن على شاكلته ، أُتيحَ لمعاويةَ وحلفاء معـاوية تَبوّؤ عرش المملكة العربيـة قوىّ الأركان لا تهتصره العواصفُ والأعاصيرُ ، ثابتا لا تُزعزِعه ثَوْراتُ الخوارج ولا حروبُ المنافسين .

كانت الدولةُ أيامَ معاوية ، أيام بنائها وتشـييدها ، أيام تلك المصاعب الكأداء التى اعتورت سبيلَهم ، وتلك الشدائد التى تُشيبُ وتُفزع ، وتقضُّ المضاجعَ ، وتجتثُّ من النفوس

آمالها، ومن العزمات مَضَاءها: ومن القلوب يأسَها — كانت الدولة يومئذ عنيةً بالكفايات، خِصْبَةً بمَهرة العمّال وحذّاق الوُلاة . ولعلها سنة طبعية أن يكون دَور بناء العروش والممالك خِصباً برجاله الكفاه، كما يكون دور انحلالها قاحلا عقيما فى كل شىء؛ وإن كانت الأمم، وهى تنقطع أنفاسُها، قد لا تحلو ممن لا يألو جهدا فى سبيل إقالتها من عثرتها، وإنهاضها من سَقْطتها .

ألم يكن الى جانب معاوية فى عصر البناء أصحابُ الكفايات البادرة من العمال والولاة أمثال عمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة الدين يقول فيهم بعضُ النقّاد : «ما رأيت أثقلَ حِلما ولا أطول أناة من معاوية، ولا رأيتُ أغلبَ للرجال ولا أبدَّ لهم حين يحتمعون من عمرو بن العاص ، ولا أشبهَ سرًّا بعلانية من زياد ، ولو كان المغيرة فى مدينة لها ثمانيةُ أبواب لا يُحْرَجُ من باب منها إلا بالمكر لخرج من أبوابها كلِّها» .

على أنه يجدُر بنا أن نصوّر حالةَ الولاة الكُفاةِ أيامَ القوّة، وما آل اليه أمرُهم بعد ذلك حتى أصبحوا يتقربون الى الخلفاء بالهدايا والألطاف والرُّشَا مع عَسْفِ الرعية والكيدِ لها. ولنترك للبعقوبى التكلمَ عن الحالة الأولى، ولأبى الأثير بيانَ الثانية، ثم نُردِفُ ذلك ببعض الحقائق التاريخية لكى يُتَاحَ لنا بعدئذ أن نطمئنَّ الى تقدير هـذا العصر — عصرِ العمال — وأنه لا يقلّ عن المال قوّة وأثرا، سواء أكان ذلك فى البناء أم فى الهدم، أما البناء فبحسن اختيار العمال وكفاياتهم، وأما الهدم فبعسف الولاة وخُرْقِهم، وسوء اختيارهم وقلة بصاعتهم فى تدبير الممالك وسياسة الناس .

قال اليعقوبى فى معرض كلامه عن زياد بن أبيه بعد أن وصف ماله من دهاء وحيلة وصولة : «كان زياد يقول : مِلاكُ السلطان أربعُ خلال : العفافُ عن المال، والقُرب من المحسن، والشدّةُ على المسيء، وصدقُ اللسان . وكان زياد أوّلَ من بسط الأرزاقَ على عمّاله ألفَ درهم ألفَ درهم ولنفسه خمسة وعشرين ألف درهم . وكان يقول : ينبغى للوالى أن يكون أعلم بأهل عمله منهم بأنفسهم » . وبعد أن ضرب اليعقوبى الأمثالَ

على معرفة زياد بدخائل رعيته قال مصوّراً رأى زياد فيما يتطلّبه بعض الشؤون العامة من الصفات فيمن يتولّاه : كان زياد يقول «أربعةُ أعمال لا يليها إلا المسُّ الدى قد عضّ على ناجذه : الثغرُ، والصائفة، والشُّرَط، والقضاء . ويبغى أن يكون صاحبُ الشُّرَط شديدَ الصولة قليلَ الغفلة، وينبغى أن يكون صاحبُ الحرس مُسِنًّا عفيفا مأمونا لا يُطْعَنُ عليه . وينبغى أن يكون فى الكاتب خمسُ خلال : بُعدُ غورٍ، وحسنُ مداراة، وإحكامٌ للعمل، وألّا يؤخرَ عملَ اليوم لغدٍ، والنصيحةُ لصاحبه . ويبغى للحاجب أن يكون عاقلا فَطِنا قد حدم الملوكَ قبل أن يتولى حجابتَهم» .

ثم آنظر ما آل اليه الأمرُ أيام الوليد بن يزيد الدى رغب فى اكتساب قلوب الناس بعد نفورها، وإرضائها بعد تبرّمها، وإيناسها بعد وحشتها، بأن يزيد فى أعطياتهم ويضاعف أرزاقهم . بيد أن مَعِينَ المال قد نضَبَ أوكاد، والخزانةَ قد استنزفتها الملاذُّ وحروبُ الخوارج وإخماد الفتن، فعمد الى بيع الولايات . وإن آبنَ الأثير ليخبرنا، فى حوادث سنة خمس وعشرين ومائة، أن الوليد قد ولّى نصرَ بنَ سَيَّارٍ خُراسانَ كلَّها وأفرده بها، ثم وفَدَ يوسفُ بنُ عمرَ على الوليد فاشترى منه نصرا وعُمّالَه، فردّ اليه الوليدُ ولايةَ خراسان، وكتب يوسفُ الى نصر يأمره بالقدوم ويحملُ معه ما قدر عليه من الهدايا والأموال وأن يُقدم معه عمّاله أجمعين . ثم قال : وكتب الوليد الى نصر يأمره أن يتّخذَ له بِرانِطَ وطنابيرَ وأباريقَ ذهبٍ وفضةٍ، وأن يجمع له كلّ صُنّاعِ خُراسانَ، وكلَّ بازٍ وبِرَذَونٍ فارهٍ، ثم يسير بكل ذلك بنفسه فى وجوه أهل خراسان .

ثم انظر ما يقوله الأغانى من عاملٍ لعبد الملك بن مروان على خراسانَ، وهو أمية ابن عبد الملك الذى كتب اليه يقول : «إنّ خَرَاجَ خراسان لا يفى بمطبخى»، وما أثبته القاصى آبن حلّكان فى تاريخه عن أبى خالد يزيد بن أبى المثنى عمرَ بن هبيرة والى مروان ابن محمد على العراق : من أن رِزقَه كان سبعمائة ألف درهم .

هذا الى ما نزل بأهل الذمة وغيرهم من العَسْفِ وزيادةِ الصرائب، وما كان من تحْليهِ أصحاب الأراضى لها بغير حرث ولا زرع، وما كان من مبالغة العمال فى إهداء الخلفاء،

ونزوعهم الى جمع الثروة واحتراف المـال، فإنك بعد كلّ هذا تطمئنّ معى الى الاقتناع بأن العمال الكفاةَ مصدرُ قوّه فى بناء الممالك وعُنصُرٌ يُحفَلُ به فى مادّة حياتها، وأنهم عنوان مهابتها وصولتهـا، وأن الولاةَ الظلمةَ الضعافَ مصـدرُ ويلٍ وثبـورٍ، وأداة هـدم وتخريب وانتثارٍ وفناءٍ .

وإنا نسوق هاكلمةً لبعض بنى أميـة حين سُئل عن سبب زوال ملكهم لا تحلو من عظة واعتبار، قال : « قِلّةُ التيقظ، وشُغلنا بلذاتنا عن التفرغ لمهمّاتنا، ووثِقْنا بكُفَاتنا فآثروا مرافقهم علينا، وظَلَم عُمّالُنا رعيتَنا ففسدتْ نيّاتُهم لنا، وحُمِلَ على أهل خراجنا فقلّ دَخْلُنا، وبطلَ عطاءُ جندنا فرالت طاعتُهم لنا، واستدعاهم أعداؤنا فأعاونهم علينا، وقَصَدَنا بُعاتُنَا فعجزنا عن دفعهم لقـلة أنصارنا، وكان أوّلُ زوال ملكنا اسـتتارَ الأخبار عنا، فزال ملكُنا عنا بنا» .

(د) الوجهـــة الدينيـــة :

إنّ سُنةَ معاوية فى بناء دولته لم تكن، مع ما نعلمه من ترخصه فى إقامة الحـدود فى بعض الأحوال لضرورات سياسية، سنّةَ استهانةٍ بالدين ولا إمعانٍ فى ازدرائه أو الخروج عن حُلّ مظاهر الاحتشام الدينىّ، الخليقةِ بمن يسوس أمورَالدين والدنيا، هذه سُنةُ معاوية وطريقتُـه فى سياسة الملك . أما حلفاؤه فقد تنكّبَ جُلُّهم سـنّته الحكيمةِ، وأطلقوا لشهواتهـم العِنانَ فيما ينبغى أن يكون حلفاءُ المسلمين وأئمتُهم بنجوةٍ منه . وقد كان لذلك آثاره فى الدولة من حيثُ تأثر أخلاقها القوميـة، وما أصابهـا من انحلالٍ وضعفٍ، ومن تفكّكٍ وفتور . وسنعالج تصويرَ هذه العواملِ بإيجازٍ واقتضابٍ فى كلمتنا هذه، فلا نُفرِدُ لكل منها ماما، وإن كنا نعلم أنه يترتب على توضيحنا لهذه الأصول فائدةٌ جُلّى، بيد أن اتساع نواحى الموضـوع وتشعُّبَ فروعه ومختلَف أبوابه — كلّ ذلك يُلزمنا إلزاما اتباعَ ما رسمناه لأنفسنا من القصد والاعتدال .

لسنا بحاجة، على ما نظنّ، الى تصوير أخلاق من فيهم الكفايةُ من خلفاء معاوية من ناحيـة الدين والخُلُقِ العام، لأن فيما عالجناه من تحليل أخلاق معاوية الغُنية والكفايةُ .

ونريد الآن أن ندرُسَ تلكَ الناحيةَ العكسيةَ ، ناحيةَ أولئك الخلفاء الذين لم يبالوا التقاليد الدينية فازدروا طقوسها، مع ما كان فيهم من ضعف وما بهم من خُرْق .

إنّ أماما يزيدَ بنَ معاوية، ويزيدَ بنَ عبد الملك، والوليد بنَ يزيد . أما ٱبنُ معاوية فقد أصاب اليعقوبيّ سِدْرة الصواب حين وصفه بأنه حِلفُ نسوةٍ وصاحبُ مَلَاهٍ . ويكفى أن نَدرُسَ حياتَه — مع أن الدولةَ كانت فى إبّانِ قُوّتها ومَيعة شَبابها — لِنقتنِعَ بأنها كانت بمثابة مَعَاوِلِ هدمٍ وتخريبٍ، وإن فى إماما بما كان من مسلِم بن عقبة الذى انتهكَ المدينة لمقنِعًا بما نقول . لقد كان جندُ يزيد بعد واقعة الحرّة وغيرها يطلبون الى الرجل القرشيّ أن يبايع ليزيدَ، لا من ناحيةِ ٱقتناعه الدينيّ طبعا، ولا بدافع الترعيب والمال، ولا بسياسة الرقة واللطف التى قد يُنَالُ بها أكثر مما يُنَالُ بالشدةِ والعنف، بل من ناحية السيفِ والإرهاب، يجب أن يبايعَ وأنفُه راغِمٌ، ويجب أن يبايع مع ما يرى من انتهاكهم المدينة . كانت جندُ يزيد تقول للقرشيّ : بايع على أنك عبدٌ قنّ ليزيدَ، فإن أبى ضُرِبَ عنقُه، فكانت مقتلةٌ ذريعةٌ . ثم انظر ما كان من حصارهم مكةَ التى إذا قال قائلُها : «يا أهل الشام، هذا حرمُ الله الذى كان مأمنًا فى الجاهلية يأمن فيه الطيرُ والصيدُ فاتقوا الله يا هَلَ الشام» ، صاح الشاميّون «الطاعةَ الطاعةَ» .

لنترك يزيدَ حابا ، محيلين القارئَ الى ما فى الأغانى وغيره من كتب الأدب والتاريخ ولنردّد الطرفَ فى حياة يزيد بن عبد الملك، فنجد أبا الفرج الأصفهانيّ يذكر لنا، فى غير موضع من حياة سَلّامةَ القَسّ، وحَبَابة وغيرهما، شيئا لا يُستهان به عن إسرافه فى تهتكه، فينقل لنا عن المدائنيّ قوله : قَدِمَ يزيدُ بن عبدالملك المدينةَ فى خلافة سليمانَ، فتزوج سُعدةَ بنتَ عبد الله بن عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار، ورُبيحةَ بنتَ محمد بن على بن عبيد الله ابن جعفر على مثل ذلك، واشترى الغالبةَ بألف دينار . وفى رواية محمد بن سلّام أنه اشتراها بأربعة آلاف دينار . ويقول فى موضع آخر : إن رُسُلَ يزيدَ بنِ عبد الملك قدِمَت المدينةَ فاشتروا سَلّامةَ المغنّيةَ من آل رُمّانة بعشرين ألف دينار .

ولعلك تميل الى مقابلة هذه الروايات مع تعـدّد رواتهـا بتحفظ المؤرخ العلمىّ الذى لا يُقنِعُه إلا الوسائلُ التحليليةُ المؤيّدةُ لصدقِ الرواية . على أنك تستطيع ذلك باطلاعك على ما يقوله اليعقوبىّ مثلا عن طريقه جباية المـال، وعلى ما كتبه يزيدُ بن عبد الملك الى عمر ابن هبيرة، وهو عامله على العراق، يأمره: أن يمسح السواد فمسحه سنة ١٠٥ ولم يُمسَح السوادُ منذ مسحهُ عثمانُ بن حنيف فى زمن عمرَ بن الخطاب حتى مسحه عمرُ بن هبيرة فوضَع على النخل والشجر وأصرّ بأهل الخراج ووضع على التائثة[1] وأعاد السُّخَرَ والهدايا وما كان يؤخذ فى النيروز والمِهْرجان . ليس هذا فحسبُ بل انظر الى تعلله فى فرض الغرامات المـالية على كبار رجال الدولة لا لجُـرْم إلا أن نفوسهم حدّثتهـم أن يتزوجوا بعض آل البيت، فإن عبد الله بن الصحاك بن قيس الفهرى عاملَه على المدينة كان قد خطب لنفسه فاطمةَ بنتَ الحسين بطريقة خافة، فعزله يزيد عن المدينة وولاها عبد الواحد بن عبـدَ الله النصرى، وكتب اليه أن يأخذه بأربعينَ ألفِ دينار ويعذّبَه، ففعل ذلك. ويقول المؤرخ الذى نقلنا عنه : إن عبدَ الله بنَ الصحاك قد رئى وفى عنقه خِرقةُ صوفٍ يسأل الناسَ .

ولم يكتفِ يزيدُ بن عبـد الملك بهذا ، بل عزلَ عمّالَ عمرَ بن عبـد العزيز جميعا . ونحن نعلم مَنْ هو عمر وما عدلُه وما رقّاته عمّالَه . ويكفينا أن نذكر ما كان منه مع يزيد ابن المهلب عامله على خراسانَ، فقد قال له عمر : «إنى وجدت لك كتابا الى سليمان تذكر فيه أنه اجتمع قِبَلك ألفُ ألفٍ، فأين هى ؟» فأنكرها ثم قال : دعنى أجمعها، قال : أين؟ قال: أسعى الى الناس، قال: تأخذها منهم مرّةً أخرى ! » . ثم ولّى خُراسانَ الجرّاحَ بنَ الحكمىّ. وإنه لمن الممتنع حقا تلكَ المناقشَةُ الورِعةُ الحادثةُ التى دارت بين عمرَ ويزيدَ، وبين عمر ومحمد بن يزيد، وتلك الصرامةُ التى لا تَعرِفُ فى سبيل المحـافظة على مال المسلمين ليّاً ولا هَوادةً، وقد أثبتها ابنُ الأثير فى كامله ولا حاجة بنا هنا الى الاستطراد بذكرها .

(١) التائثة . الجماعة المقيمون فى البلاد الذين لا يعرفون مع العراة . أنظر اللسان مادة «تأ» .

* * *

فى أمثال ما قدّمناه نستطيعُ أن نقتنعَ بأن روايات صاحب الأغانى عن إسرافه قريبةٌ من الواقع ، إن لم تكن صحيحةً لا مبالغةَ فيها ولا غبارَ عليها . ثم لِنَظُر الآنَ الى أىّ مدًى كان هـذا الصنفُ من الخلعاء تحت تأثير عشيقاتهم من القِيَانِ والمغنيّـات ، وما كان لهنّ من سلطانٍ فى أمور الدولة وتوليـةِ العمال وعزلهم ، فإن ذلك يعيدنا فى تفهّمنا دَوْرَ الانتقال الذى نحن فيه تفهُّمًا هو فى نظرنا أشـدُّ اعتبارا من الاعتماد على رأى المؤرّخين وسَرْدِهم للحوادث بغير عنايةٍ ولا استقراء للنفسية العربيـة وخاصة فى أبهاء الخليفة . وحبذا العناية بها ، سواء أكانت فى بيت الخليفة أم فى بيت العامل أم عند الرعية ، فإن لدراستها ومراقبةِ تحوّلها نفعا وكبيرَ جَدْوَى .

يقول لنا أبو الفرج الأصفهانىّ عن المدائنىّ أن حَبَابَةَ ، وهى عالِيةُ القَيْنةُ ، «غلت على يزيد وتبنّى بها عمرُ بن هبيرة ، فعلت منزلتُـه حتى كان يدخل على يزيد فى أىّ وقت شاء . وحسدَ ناسٌ من بنى أمية مسلمةَ بن عبد الملك على ولايته وقدحوا فيه عندَ يزيد ، وقالوا : إن مسلمةَ إن اقتطعَ الخراجَ لم يحسن يا أمير المؤمنين أن يعيشه ، وأن يستكشف عن شىء لِسِنّه وخِفّته ، وقد علمتَ أن أميرَ المؤمنين لم يُدْخِلْ أحدا من أهل بيته فى الخراج ، فوقَرَ ذلك فى قلب يزيد وعزم على عزله . وعمـل ابن هبيرة فى ولاية العراق من قبـل حَبَابَةَ فعملت له فى ذلك . وكان بين ابن هبـيرة والقعقاع بن خالد عداوةٌ ، وكانا يتنازعان ويتحاسدان ، فقيـل للقعقاع : لقد نزل ابنُ هبيره من أمير المؤمنين منزلةً ، إنه لصاحب العراق غدا ، فقال : ومن يُطيقُ ابنَ هبيرة ؟ حَبَابةُ بالليل وهداياه بالنهار ! مع إنه وإن كان بلع فانه رجل من بنى سكين . فلم تزل حبابة تعمل له فى العراق حتى وليها » .

مثل هذا الخبر له قيمته التاريخية فى تعرّف حالِ الدولة العربية فى ذلك الحين . ولو جاز لنـا أن نحلّل لنظرنا طويلا فى قول القعقاع بن خالد : «ومن يُطيق ابنَ هبيرة ، حبابةُ بالليل وهداياه بالنهار مع أنه وإن كان بلع فانه رجل من بنى سُكين» فانه لا يعيـدنا

فى تفهم وقوع الخليفة تحت سـلطان عشيقته ، ولا فى قبوله للرُّشَا حسب بل يفيدنا فهم تحوّل العصبيات العربية الأحيرة ومىلع نظر العربىّ الى سواه .

أما استحفاف الوليد بن يزيد بالدين ، وخمرياته التى فاقت خمريات يزيد بن معاوية ، والتى نرى أن لها أثرا كبيرا فى أبى نواس وحسين بن الضحاك ، وبركة الخمر التى احتواها قصره ، فان أمهات كتب الأدب العربىّ ومطانّ التاريخ مُفعَمَةٌ من ذلك بما لا نتعرّض له فى هذه العُجَالة بأكثرَ من إحالة القارئ على ما قاله الوليد فى القرآن ، وما أحصاه بعضُهم له من عدد الأقداح التى شربها فى ليلةٍ من ليـالى شرابه ، إذ أثبت صاحبُ الأغانى أنها سبعون قدحا وان كنا نفترض فى مثل هذه الأحوال جموح الرواة الى المبالغة والإغراق . ثم لننظر معنا فيما يقوله ابن الأثير عنه حين ولّاه هشام الحج ، فانه يخبرنا : أنه لمـا أراد هشام أن يقطع عنه ندماءه وولّاه الحجّ سنة ستّ عشرة ومائة ، حمل معه كلابا فى صناديقَ وعمل قبّـةً على قدر الكعبة ليصعّها على الكعبة ، وحمل معه الخمرَ وأراد أن تُنصبَ القُبّـةُ على الكعبة وتشربَ فيها الخمرُ . وقد أيد المؤرّخون هذه الحادثةَ . ويقول اليعقوبىّ : إن الوليد بعث مهندسا ليقوم بذلك .

ثم أنظر الى بيعـه خالدا القَسْرىَّ الى يوسف بن عمرَ بحمسـين ألف ألف ، وما رواه المؤرّخون من إرساله الى خالد قائلا له : «انّ يوسفَ يشـتريك بحمسين ألف ألف ، فان كنت تضمنها وإلا دفعتك اليـه » فأجابه خالد بأحسن جواب إذ قال له : ما عهـدت العـربَ تُباعُ ، والله لو سألتنى أن أصمن عودا ما ضمنته » ومع ذلك فقد دفعه الى يوسف فعذبه وقتله !

ثم لننظر الى نظر الرأى العام اليه والى تصرّفاته . وأمامنا من ذلك شعرُ حمزة بن بيض فيه إذ يقول :

[illegible]

وتماديتَ واعتديتَ وأسرفـ * ـتَ وأغويت وانبعثت فسوقا
أبدا هات ثم هات وهات * ثم هات حتى تحـرَّ صَعيقا
أنت سكرانُ ما تُفيقُ فما تر * تُقُ فتقا وقد مُنقتَ فُتوقا

وإنا نثبت هنا أيضا ما دار بين الوليد بن يزيد حين حوصر فى قصره ويزيد بن عبسة السكسكى، فقد قال له الوليد : «يا أخا السكاسك، ألم أزد فى أعطياتكم ! ألم أرفع المؤنَ عنكم ! ألم أعط فقراءكم ! ألم أحدم زماكم !» قال . «إنا ما ننقم عليك فى أنفسنا، وإنما ننقم عليك فى انتهاك ما حرّم الله، وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستحفافك بأمر الله ! » .

ولننظر معى أيضا الى عبد الملك بن مروان، وهو من الخلفاء الثلاثة المعدودين أقطابا لهذه الدوله ، والى ما كان من جبروته وضعف الوازع الدينىّ عنده، حتى استباح لنفسه أن يقول وهو على المنبر : «مَنْ قال لى بعد مَقامى هذا اتّقِ الله ضربتُ عنقَه» .

وبعد، فإنه ليخيَّلُ الينا أن فيما قدّمناه بعضَ المقنع، بما كان من استهانة الخلفاء بالدين ومن إمعانهم فى التهتك والخروج عليه . ونريد الآن أن ندرُسَ تأثرَ الخُلُقِ العربىّ بما كان للخلفاء من تنكُّب عن سَنَنِ الدين وإمعانٍ فى التهتك والاستهتار . والناسُ على دين ملوكهم، والملوكُ على سنة رعيتهم؛ أو كما يقول عبد الملك بن مروان : «تطلبون منا أن نسيرَ فيكم بسيرة الشيخين أبى بكر وعمر ولا تسيرون أنتم بسيرة النـاس أيامَ أبى بكر وعمر !» . على أنا نُرغِمُ أنفسنا إرغاما على أن نكتفىَ فى هذا الفصل ، الذى كادت تتشعَّبُ علينا فروعُه ونواحيه، وكدنا نَضِلُّ فى مهامِهه ونواديه، بمَثَليِ قد لا يخلوان من النفع . وعُمْدَتُنا فى ذلك الأغانى، وعيونُ الأخبار لابن قتيبةَ، وإن كان المثل الأخير هو الى الأدب والعظة ، أقرب منه الى التاريخ والتحليل العلمىّ . بيد أنا آثرنا إيرادَه لأنه حسنٌ فى نفسه، ومصيبٌ محَجَّةَ الصواب فى جملتـــه .

يقول أبو الفرج : إنه لمّا قدم عثمانُ بن حيّان المرّى والى يزيد بن عبـد الملك

أن تُصلِحُ فطهّرها من العِداء والربا الخ . ونفهم من جملة الرواية أنه لم يفز فى مهمّته بطائل ولم يُوفّق الى ما كان يرجوه للناس من صلاح وتقويم .

أما ما يرويه لنا آبنُ قتيبة فى عيون أخباره فها هو ذا بنصه وعبارته ، وهو حتام هـذا الفصل بعد أن كدنا نطيل .

قال : «سَمَرَ المنصور ذات ليـلة فذكر حلفاء بنى أمية وسِيَرهم ، وأنهـم لم يزالوا على استقامة حتى أفضى أمرُهم الى أبنائهم المترَفين ، فكانت همَمُهم من عِظَم شأن الملك وجلالة قدره قصـدَ الشهوات وإيثارَ اللذات والدخولَ فى معاصى الله ومَساخطه ، جهلا منهم باستدراج الله وأمنا لمكره ، فسلبهم الله العزَّ ونقلَ عنهم النعمةَ . فقال له صالح بن علىّ : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن مروان لمـا دخل أرضَ النوبة هاربا فيمن معه سأل ملكُ النُّوبة عنهم فأُخْبِرَ ، فركب الى عبـد الله فكلمه بكلام عجيب فى هـذا النحو لا أحفظه ، وأزعجـه عن بلده ، فإن رأى أميرَ المؤمنين أن يدعوَ به من الحبس بحضرتنا فى هذه الليـلة ويسألَه عن ذلك ! فأمر المنصور بإحضاره ، وسأله عن القصة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قدمت أرضَ النوبة ثلاث سَلِمَ لى فافترشتُ بهـا وأقمتُ ثلاثا ، فأتانى ملكُ النوبة ، وقد حبر أمرَنا ، فدخل علىّ رجل أقنى طُوالٌ حَسَن الوجه ، فقعد على الأرض ولم يَقرب الثيابَ ، فقلتُ له : ما يمنعك أن تقعدَ على ثيابنا ؟ قال : لأنى مَلِكٌ ، وحقٌّ على كلّ ملكٍ أن يتواضعَ لعظمة الله إذ رفعه ! ثم قال لى : لم تشربون الخمر وهى محرَّمةٌ عليكم ؟ قلتُ : احترأ على ذلك عبيدُنا وأتباعُنا لأن الملك زال عنّا ؛ قال : فلم تطؤون الروع بدوابكم والعسادُ محرَّمٌ عليكم فى كتابكم ؟ قلتُ : يفـعل ذلك عبيدُنا وأتباعنا بجهلهم ؛ قال : فلم تلبسون الديباجَ والحـريرَ ، وتستعملون الذهبَ والفضةَ ، ذلك محرم عليكم ؟ قلت : ذهبَ الملك منّا وقلّ أنصارُنا ، فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا فى ديننا ، فلبسُوا ذلك على الكُرْه منّا ، قال : فأطرقَ مليًّا وجعل يُقلّبُ يديه ويبكتُ فى الأرض ويقول : عبيدُنا وأتباعنا ! دخلوا فى ديننا ! وزال الملك عنـا ! يردّده مرارا ، ثم قال : ليس ذلك كما ذكرتَ ، بل أنتم قوم استحللتم ما حرّم الله

عليكم وركبتم ما عنه نهاكم، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكم الله العزَّ وألبسكم الذلَّ بذنوبكم، ولله فيكم نقمةٌ لم تبلغ غايتها، وأحاف أن يحلَّ بكم العـذابُ وأنتم ببلدى فيصيبنى معكم وإنما الضيافة ثلاثة أيام، فتزودوا ما احتجتم اليه وارتحلوا عن بلدى، ففعلت ذلك» .

(هـ) التعسّف المذهبىّ :

نريد أن ننظر الآن نظرةً تحليلية فى أمر التعسّف المذهبىّ . ونحن نعلم ما أصاب جماعة علىّ أيامَ معاوية وهو هو فى حكمه وحلمه ومرونته، نعلم ما أصاب حُجْرَ بنَ عدىّ الكِندىّ وجماعتَه، كما نعـلم ما أصابها أيامَ يزيد من قتل هانئ بن عُروة ومسلم بن عَقيل والحسين ابن على وزيد بن على الذى صُلِبَ على شاطئ الفـرات وذُرِّى رَمَادُه فى المـاء . ولنظر نظرة خاصة الى حياة بُسْر بن أبى أرطاةَ وقتلِه الأطفالَ والرجالَ والنساءَ، ولنترك معاوية هما يصوّر لنا مبلغَ تأثر نفوس بنى هاشم من خُطَّه التعسّف المذهبىّ هـذه، فإن أبا الفرج الأصفهانىّ يقول فى كتابه : لمـا كانت الجماعة واستقرّ الأمر لمعاوية، دخل عليه عُبيدُالله ابنُ العباس وعنده بُسْرُ بن أبى أرطاةَ، فقال له عُبيد الله : أأنت قاتلُ الصبيين أيها الشيخُ » قال بُسرٌ : نعم أنا قاتلهما، فقال عبيـد الله : أما والله لودِدْتُ أن الأرض كانت أنتتنى عندك! فقال بسر : فقد أنبتك الآن عندى، فقال عبيد الله : ألا سيف؟ فقال له بسرٌ : هاك سيفى؛ فلما أهوى عبيد الله الى السيف ليتناولَه أحده معاويةُ ثم قال لبسر «أخزاك الله شيخا! قد كبرتَ وذهب عقلُكَ! وذلك رجل من بنى هاشم قد وترْتَه وقتلتَ أبيه، تدفع اليه سيفك! إنك لغافلٌ عن قلوب بنى هاشم! ولو تمكّنَ منه لبدأ بى قبلكَ» . قال عُبيدُالله : «أجَلْ! وكنتُ أُثنّى به» .

ثم انظر كيف انتقم من بسر رجلٌ من اليمن اتصـل به حتى وثقَ به، ثم احتال لقتل ابنيه فخرج بهما الى وادى أوطاس(١) فقتلهما وهرب .

---

(١) أوطاس : واد فى ديار هوازن فيه كانت واقعة حنين ويومئذ قال النبى صلى الله عليه وسلم «حمى الوطيس» وهو أوّل من قال ذلك . انظر معجم ياقوت فى أوطاس .

على أنه يجدر بنا أن نصوّرَ الى أيّ مدًى بلغت نتائجُ خطط الأُمَويين السياسيةِ ، من حيث نَشْهم العصاءَ فى النفوس لعليّ وشيعته ، وصرف الناس عن ذكرهم ، وما كان من لعنهم على المنابر من تأثير حليق بعنايتنا . ومراجعها فى هـذه الناحيةِ عدّةُ مصادرَ ، بيد أنّا نجتزئ اجتراء ، ونُحيل القـارئ الى ما رواه ابن عائشة عن شـعور رجل من الشام نحوَ حفيد عليّ وقد نقل ذلك المبرّدُ فى الكامل .

ولنظـر كذلك الى مدًى الأحراب الدينية وأصـدادها التى كانت نتيجةً لارمةً لآثار التعسف المذهبيّ والتحزّب الدينيّ ، وقد ذكر البيرونى فى «الآثار الباقية» طرفا من ذلك . ونجتزئ هنا بشىء مما جاء فى «المواهب الفتحية» لأستاذنا المرحوم الشيخ حمزه فتح الله .

قال : ما أحسنَ قولَ أبى الحسين الجزار خصوصا فى بيتيه الثالث والخامس :

ويعود عاشـوراء يذكرنى ٭ رزء الحسين فليت لم يَعُـدِ
أم ليت عينا فيه قد كُحِلَتْ ٭ بإثمدٍ لم تَحلُ من رمدِ
ويدا به لشماتة خُضِبَتْ ٭ مقطوعة من زندها بيدى
يوم سبيلى حين أذكره ٭ ألا يدورَ الصبرُ فى خَلَدى
أنا وقد قُتِـلَ الحسينُ به ٭ فأبو الحسين أحقّ بالكمد

ولبعض الهاشميين معتدرا من الكحل يوم عاشوراء :

لم أكتحل فى صاح يوم ٭ أُهريقَ فيه دمُ الحسينِ
إلا لحـزنى وذاك أنى ٭ سوّدتُ حتى بياضَ عينى

الى غير ذلك مما أثبته المؤلف لعمارة اليمنى والإمام ابن الجوزىّ مما لا سبيل الى الاستطراد فيه ههنا .

ولننظر الى حادثة رواها المسعودىّ فى «مروج الذهب» قال : «لما طلب عبدُ الله ابن علىّ مروانَ ونزل بالشام ، وجه الى أبى العباس أشياخا من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة ، فحلفوا لأبى العباس السفاح ما علموا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابةً ولا أهلَ بيت يرثونه غيرَ بنى أمية حتى وليتم الخلافةَ ! فقال فى ذلك إبراهيم بن المهاجر :

أيها الناسُ اسمعوا اخبركُمُ * عجبا زاد على كلّ العجَب
عجبا من عبد شمس إنهم * فتحوا للناس أبوابَ الكذب
ورثوا أحمدَ فيما زعموا * دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله ما نعلمه * يُحرِزُ الميراثَ إلا مَنْ قَرُب

ولنُلِمَّ الآن إلمامةً تَحْلى بما كان للتعسّف المذهبيّ من الأثر فى نفوس الخوارج، نُجمِلها الى الكامل للمبرّد مَن أراد توسعا وتبصّرا، ونكتفى هنا بنقل مَثَلٍ من الطبرى يُظهِرُ لنا مقدارَ استماتتهم فى سبيل نُصْرةِ مذهبهم مَهما نالهم من تقتيلٍ . وأمامنا حوادث سنة خمسين التى يقول فيها الطبرى : إن عُبيدَ الله بن زياد اشتدّ فيها على الخوارج فقتل منهم صبرًا جماعةً كثيرة وفى الحرب جماعةً أخرى . ويقول عنهم فى موضع آخر : خرج مرداسٌ أبو بلال، وهو من بنى ربيعة بن حنظلة، فى أربعين رجلا الى الأهواز فبعث اليهم ابنُ زياد جيشا عليهم ابنُ حصن التميمىّ فقتلوا فى أصحابه وهزموه، فقال رجل من بنى تيم الله بن ثعلبة :

أألفا مؤمن منكم زعمتم * ويقتلهم بآسَكَ (١) أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم * ولكنّ الخوارجَ مؤمنونا
هى الفئة القليلة قد علمتم * على الفئة الكثيرة يُنْصَرونا

(١) آسك : بلد من نواحى الأهواز قرب أرّجان بين أرّجان ورامهرمز، بينها وبين أرّجان يومان وهى بلدة ذات نخيل ومياه . أنظر ياقوت فى آسك وكامل المبرد (ص ٥٨٧ طبعة أوربا) .

الفصل الرابع

ولايـــة العهـــــد

نظام ولاية العهد وابن خلدون — خطر نظام ولاية العهد الثانى وأثر البطانات — نظام ولاية العهد وعلاقته بالعصبية العربية .

(أ) نظام ولاية العهد وابن خلدون :

قال ابن خلدون فى مقدمته : "إن معاوية عَهِد الى يزيد خوفا من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر الى سواهم . فلو قد عَهِدَ الى غيره اختلفوا عليه" ثم زاد هذا توضيحا فى مكان آخر من مقدمته فقال : "إن الذى دعا معاوية لإيثار ابنه يزيدَ بالعهد دون سواه ، إنما هو مراعاةُ المصلحةِ فى اجتماع الناس واتفاقِ أهوائهم ، باتفاقِ أهل الحلّ والعقد عليه حينئذ من بنى أمية ، اذ بنو أمية يومئذ لا يرضَونَ سواهم ، وهم عصابةُ قريش وأهلُ الملة أجمع وأهلُ العلب منهم ، فآثره بذلك دونَ غيره ممن يُظَنُّ أنه أولى بها ، وعدل عن الفاصل الى المفضول ، حرصًا على الاتفاق واجتماع الأهواء" .

لسنا هنا فى موقف الراغب فى تحليل أقوال مؤرّخنا الكبير ، وهل أصاب محجَّةَ الصواب فى تعليله ما دفع معاوية الى عَقد البيعة ليزيدَ ، ولكنا صدَّرنا هذا الباب بكلمة ابن خلدون لنصوّر سرّ قبول العرب ، لأوّل عهدهم ، نظام ولاية العهد عامة والوِرَاثىّ خاصة . وما قبولهم إياه إلا لأن شوكةَ يزيدَ يومئذ مستمدّة من عصابة بنى أميةَ كلها ، وجمهور أهل الحلّ والعقد من قريش ، وبذلك تستتبع عصبيةَ مصرَ أجمع ، وعصبيتهم أعظم من كلّ شوكة إذ لا تطاق مقاومتُهم ، ومن هنا أقصى العرب عن يزيدَ وأقاموا على الدعاء بهدايته والراحة منه . ولعل هذا يكشف عن سبب فشل الحسين بن على وابن الزبير فى مطالبتهما بالخلافة ، كما بين ذلك ابنُ خلدون مما لا حاجة بنا للتعرّض له الآن .

على أن التاريخ يقنعنا أن نظام ولاية العهـد لم تقبله العقلية العربية بسهولة مع اعتقادنا صحة ما ذهب اليه ابن خلدون من سـبب استصرت به فكرة ولاية العهد وهو اعتمادها على العصبية. وربما جاز لنا أن نعزو سقوطها من بعض النواحى الى هذه العصبية أيضا مما لا نَعرِض له هنا الآن .

أجل ، يجبرنا التاريخ بتلك الأدوار العِدّة، التى مرّت بهـا مسألةُ البيعة ليزيدَ ، وأن السياسة نهضت بنصيب غير قليل فى سـبيل تذليل الصعوبات التى قامت بادئَ ذى بدء دون أن تَجْعَلَ البيعةَ ليزيدَ سهلةً ميسورة، تُؤتِى ثمرَها بغير عناء كبير .

يجبرنا التاريخُ بما فعله المغيرةُ بن شعبة وغيرُ المغيرة بن شعبة، و إيفادِهم الوفودَ الى معاوية. ويخبرنا بمبلغ ما أنفقَ معاويةُ من المـال وما أبداه من احتيالٍ وحزم، وما بذله اسه يزيد من شدّة وعَسْف، وكل هذه العوامل تستدعى دراسةَ دقيقة لا نَعرِضُ لها لأنها لا تَعْنِينا فى هذه المقدّمةِ كثيرا .

نريد أن نقول شيئًا واحدًا ميسورًا فهمُه، ذلك أن نظام ولاية العهد — الذى ربما كان ضرورياً لا مندوحةَ عنه فى أول عهد الدولة، لما بيّنه لنا ابن خلدون — كان فى نفسه سببا يُعتدُّ به من أسباب سقوط الدولة الأُمَوية، أو على أقلّ تقدير كان لنظام ولاية العهد أحيانًا أثرُه الكبير فى ضعف سلطان بنى أميه وذهابِ رِيحهم .

(ب) خطر نظام ولاية العهد وأثر البطانات :

لِنَظُرْ نظرةً عَجْلَى فى تاريخ هذا النظامِ لنقعَ بما وصلتْ اليه بُحُوثُنا، فنرى مثلا أن مروانَ بن الحكم جعل ولايةَ العهد من بعده لابنه عبد الملك بن مروان ثم من بعده لابنه عبد العزيز بن مروان ومهما يكن الباعثُ لمروان على أن يجعلَ ولايةَ العـهد لولدين من أولاده، فإن جُلَّ حلفاء بنى أمية من بعده اتخذوا صنيعَه سُنةً متبعةً. سنرى فى كلامنا عن العصر العباسىّ الى أىّ مدًى كان خطرُ هذا النظامِ على حياة الدولة، أو على الأقل، مبلغ ما فيه من ضعفٍ لها، وإيذانٍ باضمحلالها، واضطراب لحبلها .

لم يكن هذا الطام شرًا مستطيرا وعاملا كبيرا من عوامل الضعف ؛ إلا لما يستلزمه من نَكْث العهد، ثم من انشقاق البيت المالك على نفسه، وترك المجال واسعا لوشايات تسعى بها بطانات السوء ممن نرجو أن نصور مَثَلَهم ومَثَلَ صنيعهم السيء ومَثَلَ خطرهم على الدولة حين نَعرِضُ للكلام عن عصر المأمون وما شجر بين الأخوين من خلاف أو ماأذكته البطانةُ بينهما من خلاف — هـذه البطانة تَرقُب دائما انشقاق البيت المالك أو ما هو مركَّبٌ فى الطبيعـة البشرية وولاة العهد من ترقبٍ لتسَلّم مقاليـد الأمور وتعجُّلٍ للذّة الحكم والسلطان — فتستعله لتقصى مآربها وتستمتع باطماعها . وسَرْعَانَ ماتجد الفرصةَ سانحةً لها ومواتيـةً لأطماعها، اذا صار الأمرُ الى ولىّ العهد الأوّل الذى حاول ماهو طبعىّ مِنْ حَلْع من أُشرِكَ معه فى ولاية العهد، إما كراهيةً له، أو إيثارًا لغيره عليه، ممن هم أمسُّ منه رَحما وأقربُ مودّةً .

نعم قد يجد ولى العهد كثيرين من الناصحين الذين يستنكرون الخلع، بَيْدَ أنه لا يعدَمُ أيضا كثيرين ممن هواهم مع غير هذا الذى يراد خلعُه يُزَيّنون له مايحاول، حتى اذا صار الأمرُ الى من أريد خَلعُه كانا كلا من الفريقين بما يستحق . وكانا أحيانا يُفتَكُ بكثير من ذوى البلاء الحسَن فى تشييد الملك . وهـذا الفتك على مافيه من خسارة قوم من ذوى الرأى والتجارب ، قد كان يَبْذُرُ فى قلوب أنصارهم وعشائرهم بذورَ الحقد وحبّ الانتقام . وبذلك صار بنو أمية يفقِدُون العشائر عشيرة بعد عشيرة، وأخذ ظلُّ سـلطانهم على النفوس ينحسر شيئا فشيئا ، حتى اذا قام لهم مُنافِسٌ عظيمٌ لم يجدوا لديهم من القوّة والكفايات والأنصار ما يستطيعون به التغلُّبَ عليه .

قد تطلبُ الىّ توضيحَ ما قدمتُه لك من المقدّمات من حوادث التاريخ ، لأنك تعتبر الوشائجَ والصّلات التى بين مانحن بصدده وبين عصرنا المأمونىّ قويةً من حيث ماوقع فيه الرشـيد وغيره من خطأ فى نظام ولاية العهد . وقد تطلب منى أن أمرّ مسرعا بجسام الحوادث التى لها آثارها ونتائجها، وأن أكون مجملا لا مفصلا ومُوجزًا لا مُسهبا .

على أنى سأترك الأدلة التى أفعم به الطـبرىّ وآبن الأثير كلَّ سة من سنيهما تُحَدِّث وحدها بصدق ما ذهبتُ اليه . وأسمح لنفسى بأن أتساءل ملياً : ماذا فعل عبد الملك لما وصل الحُكْم الى يده؟ لقـد حاول ما هو طبعىّ من عزل أخيه عبد العزيز وتحويل عهده الى الوليـد . ولولا وفاةُ عبد العزيز لوقعت الأزمةُ وشجرَ الخلافُ وعمَد كلّ الى سـلاحه وحربه .

ثم ماذا فعل عبد الملك؟ لقد ولى الوليد وسليمان . فحاول الوليد ما هو طبعىّ من عزل سليمان وتولية آبنه لولا أن عاجله القضاء .

ثم ما ذا فعل سليمانُ ؟ لقد ولّى عهدَه عمرَ بن عبد العزيز ثم يزيدَ بن عبد الملك .

ثم ماذا فعل عمرُ بن عبـد العزيز ، وماذا فعـل يزيدُ، وماذا فعل هشام؟ إن التاريخ وحتامَ عهد كل ليؤيدان، بقوّه ووصوح، ليس بعدهما من مزيد، صحةَ ما ذهبنا اليه ممـا يُبيح لنا أن نختصرَ الحوادث والأدلة اختصارا .

على أنه قد يُطلَبُ ما إثباتُ تلك الحال المؤلمة التى تَنتُجُ عن المبايعة لأثنين بولاية العهد ، وملء حسارة الدولة من رجالهـا المعدودين وأقطابها البادرين فى هـذا السبيل، سبيل اصطدام صاحبَىّ ولاية العهد . وسَنُجْمِلُ ذلك إجمالا يستدعيه مقامُنا .

إنه من الميسور أن يقرأ القارئ أن ولاية العهد كُتِبَتْ لهشام ثم للوليد من بعده مثلا . وربمـا فاته أن لكلٍّ حزبًا يناصره ، وبطانةً تنشُر دعـوتَه . وربمـا تطرّفت فى منهجها السياسىّ، تطرّفا يؤكد العداوةَ فى القلوب، ويستثير السخائمَ فى النفوس . ولمـاذا نذهب بعيدا وأماما ما وقع بين هشـام والوليد، فإنّ هشاما مات قبل أن يُكَلَّلَ بالنجاح مَسعَاه، فَسَرْعَانَ ما نَمَّتْ أقوالُ الوليد عن شديد مَقته لهشام، فقال مثلا :

هلك الأحوَلُ المشـو ... م وقـد أُرسـلَ المطرْ
ولَعَمْرى من بعد ذا ... ك فقد أورَقَ الشجَرْ
فاشكر الله إنـه ... زائد كلَّ مَنْ شَكَر

ولم يكتف الوليد بالقول دون الفعل، بل أندفع فيما يجبرنا المؤرخون مع تيار بطانتـه ومُشايعيه، وشمّر عن ساعد الانتقام، ممن ناصر عمّه هشاما مثل محمد وابراهيم ابنى هشام بن اسماعيل حيث عذبهما يوسف بن محمد الثقفيّ والى المدينة ويوسف بن عمر حاكم العراق حتى ماتا . ولم يكتف الوليد بن يزيد بذلك بل قبض على سليمان بن هشام فصربه مائة سوط ومَثّل به اذ حلق رأسه ولحيته، كما حبسَ يزيدَ بنَ هشام والكثيرين من البيت المـالك . لم يكتف الوليد بن يزيد بذلك بل أحرجَ خالدا القسريّ، وهو من زعماء اليمن ورؤسائها، بأن يبايع لأبيه الحكم وعثمانَ بولاية العهد من بعده، فلما أبى عليه ذلك بعث به الى والى العراق يوسفَ بن عمر الثقفيّ فنزع ثيـابه وعذّبه عذابا مبرّحا، وهو يحتمل ذلك كلّه بصمت وإباء، ثم حمله الى الكوفة الى من أنزلوا به كلَّ لون من ألوان العذاب حتى مات. وما مات إلا بثمن باهظ دفعـه الوليد . ذلك أنه كتب على نفسـه عداوةَ قضاعةَ واليمن، وجلّ جند الشام من قضاعة واليمن ، وهم هم الذين مثّلوا دَورَهم الخطيرَ أخيرا مع الوليد، إذ بايعوا يزيدَ وثاروا معه ، فكانت خاتمةُ الوليد ما قد علمناه من احتمائه بقصره وتقحّمهم عليه دارَه، وفعلهم به ما أصاب عثمانَ من مأساة اذ خرّوا رأسه وهو يتلو القرآن ثم نصبوه على رمح وطيفَ به فى دمشقَ .

على أنّا نفترض المبـالغة فيما ينسبه الرواة الى هـذا الخليفة المغلوب على أمره ، ولكنّا نؤمن مع ذلك إيماناً صادقاً بالنتائج السيئة لنظام ولاية العهد الثانى أو الثلاثى .

وإنا نظنّ أنّ فيما قدّمناه لك غنيّةً وكفايةً . وإن أردت مـا مزيدا فانظر ما نال به سليمانُ قادةَ الدولة أمثال محمد بن القاسم بن محمد الثقفيّ وقتيبة بن مسلم الباهليّ وموسى بن نصير، وما كان يعدّ للحجاج وغيره : ممن قلّ أن يجتمع أمثالهم فى عصر واحد . وإنا نحيل القارئ الى ابن الأثير ليقدر معنا الأُسُسَ التى بنيا عليها رأينا فيهم، وليقفَ بنفسه على كُبْرَيَات فتوحهـم وجسام أعمالهم التى كانت عُزّةَ فى حبين عصرهم ، بل فى جبين تاريخ الدولة الأُمَوية .

وبعد، أفليس من العدل أن يستنبط القارئُ معنا ما يصيبُ الدولةَ من المنازعات والشقاق، ومن الضعف والإفلاس السياسيّ، من جرّاءِ ذلك النظامِ الممقوت، نظامِ ولاية العهد على هذا النحو غير قانون ولا سنة، وأن يَعُدَّه معنا سببا لايستهان به، من أسباب سقوط البيت الأمويّ !

(ج) العصبية العربية :

الذى يهمُّنا الآن هو أن نوجّه النظرَ الى تأثير نظام ولاية العهد فى صورته التى صوّرناها لك من حيث مسَاسه بالعصبية العربية التى كانت، كما تعلم، عيفةً مختدِمةً بين المضرية واليمنية . وأنتَ تعلم أن الخلفاء من بنى أمية كانوا يُصهرون الى قبائل مضر كما كانوا يصهرون الى قبائل اليمن، فكانت هذه القبائل تجد فى تأييد الأمير الذى يتصل بها نسبُه . وهذه الفكرة نفسُها تُعيننا على أن نفهمَ، بنوعٍ خاصٍ، موقف العرب أيام يزيد بن معاوية، كما أنها تُعيننا على أن نفهمَ ما ثار حول هشام والوليد بن يزيد من الخصومات التى قدّمنا لك طرفا منها. ولم يكد ينتهى الأمر الى مروان بن محمد حتى كانت الخصومة بين المضرية واليمنية قد آلت الى أقصاها بحيث عجز هداة الفريقان من العرب عن أن يكونا وحدةً قويةً تثبتُ للطوارئ، فلم يظهر أمر الموالى حتى كان العرب مُفترقين متحادلين، لا يستطيعون عن أنفسهم دفاعا . وسنتكلم على العصبية وآثارها بشىء من القول أكثر مما تكلمنا هنا فى موضعها الطبيعىّ من الكتاب الثانى .

ولما كانت الدولةُ العباسيةُ قد قامت بالموالى وباسمهم، ومحاولتهم الانتقامَ لأنفسهم وكرامتهم من بنى أمية الذين ساموهم سوء العذاب وساسوهم شرَّ سياسةٍ فإنا نُرجئ كلامَنا عن هذا العنصرِ القوىّ من أسباب اعتلاء الدولة الأموية سلطانَ الحكم وأسبابِ سقوطها الى موضعه الطبيعىّ من تعليم كتابنا ؛ وحين ذاك، يَحِقّ لنا أن نبين تحوّلَ العصبية العربية الى تلك النواحى الشائكة الوعرة التى قضت على الدولة الأموية وأقامت دولةَ بنى العباس والتى أدالت منها هى أيضا . وحين ذاك أيضا يحق لنا أن ندرُسَ نظرَ

العربيّ الى غير العربى فى العصر الأُمَوىّ وفى غير العصر الأموىّ مما كانت له نتائجه الخطيرة فى حياة العرب وفى تحوّل مدنيات العرب .

فَلْنتريَّثْ اذًا ، وحير لنـا وللتاريخ أن يكون موضعُ هـذا الباب فى كلامنـا على الدولة العباسية . وحير لنا أيضا أن ننتقلَ الآن الى تصوير الحياة الأدبية : من نثرٍ وشعرٍ وخَطَابَة ، والى تصـوير الحياة العلميـة بصروبها لذلك العصر الأموىّ ، الذى كان بحقٍ نواةً طيبـةً للعصر العباسىّ ، مُتوخّينَ فى ذلك الإيجازَ والإجمالَ . ولعلنا نُوَفَّقُ الى حسن الإصابة فيما نريد .

الفصل الخامس

الحياة العلمية والأدبية للعصر الأموى

توطئه — آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية فى العصر الأموى — حركة النقل — الخطابة ومميزاتها — الكتابة — حالة الشعر فى العصر الأموى وتحوّله — الغزل — الشعر السياسى .

(أ) توطئـــة :

لسنا نريد أن نُسهِبَ فى بيان الحياه العلمية والأدبيـة فى العصر الأُمَوىّ ، لأن ذلك يكاد يخرج بنا عن مقصدنا الأساسىّ ، من اقتصار مقدّمتنا هذه على توضيح موجز، من غير إسراف ولا تطويل ، للعصر السابق لعصرنا المأمونىّ الذى كان نتيجةً لازمةً لما تقدّمه واكتنفه من عوامل متعدّدة ، توضيحا معتدلا يجعلنا نطمئنّ ، بعد تمهيدنا للآداب العباسية ، الى تَبيّن الفروق والمميزات والآثار التى خلفها لتاريخ المدنية الإسلامية ، بل لتاريخ المدنيـة الإنسانية ذلك العصر الذهبىّ وهو عصرُنا المأمونىّ الخالد .

لقد تغيرتْ حالةُ اللغة وآدابها فى العصر الأموى عما كانت عليه فى الدور الجاهلىّ تغيرًا عظيمًا ؛ إذ رقّتِ الأساليب وقلّ الحُوشِىُّ والمتنافِرُ ، واتسعت الأغراضُ وكثرت باتساع مطالبِ الحياةِ الجديدة ووَفْرتها . وهـذا يمشى بوجه عام مع تغيير حياةِ العرب الاجتماعية والدينية والسياسـية ، وبعبارة أخرى : تغيرت حياةُ الآداب والعلوم فى ذلك العصر طبقا لما أفادته العربُ فى فتوحهم ومغازيهم فى غنـائمَ وأموالٍ ، ووقوفهم على آثار المدنيـات لأمم ذات حظ من العلم غيرِ قليلٍ . ولقد كان لكتاب الله ، المعجز بآياته وسحر بلاغته ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أثره فى فَتْقِ أذهانهم وصَقْلِ عباراتهـم وتوحيد لَهَجَاتهم ، بل كان الكنز الذى يلجئون الى مافيه من أدب جم وعظةٍ بالغةٍ وأساليبَ رائعة ، ويستمدّون منه ما ينفعهم فى معاشهم وحياتهم الدنيا والآخرة .

وإنه ليجدُر بنـا أن نتساءل عن مَدى ما أصاب الآدابَ العربيـة من تغيير فى العصر الأموى، وهو تغير خطير يستدعى درسُه عنايةً ودقيقَ ملاحظه، وتعرّفًا عيرَ قليل لِمَـا كانت عليه الآدابُ فى العصر الجاهلىّ .

* * *

إنّ تحوّل الآداب العربية فى ذلك العصر أصاب التراثَ الجاهلىّ القديم، من لغةٍ وخَطَابة وشعر وأمثال، وما كان للقوم من علم بشؤون الحياه والوجود، كما أنه أحدث علوما وآدابا اقتضاها الإسلام . وقد كان لكتاب الله وسنه رسوله، وما للأئمه من تأويل فى فهمهما، كان لذلك كله أثره فى خَلْقِ علوم شرعية لم يكن للعرب منها حظٌّ من قبلُ، فنشأ فى هـذا العصر علم التفسير وروايةُ الحديث وعلوم اللغة كالنحو وما الى النحو . على أن هذه العلومَ الإسلاميةَ المحدثةَ، التى كانت وليـدةَ العصر الأموى خاصة وعصر صدر الإسـلام عامة، لم تكن مولودَ هـذا العصر الوحيد الذى أصبحت فيه البصرةُ دارًا للعـلم والعرفان والمدنية ومسرحا للهو والافتنان، والشأم مقرّ الملك والسـلطان، بل كان الى جانبها مولود آخر كان من شأنه وضع التاريخ والجغرافيا وغيرهما . واتخاذ دواوين الحاسم، ونقل الدواوين من لغة الى أخرى . وقد كان هذا المولودُ الآخر نتيجةَ الفتوح الإسلامية وخاصة تلك الأقطار التى كانت متأثرة بآداب الفرس والرومان واليونان، وعبارة أدقّ : تلك العلوم التى أفادتها العرب أو الدولة الإسلامية من أعناق الفرس وأهل الشأم ومصر وغيرهم من أسرى الروم للإسلام . وقد تستدعى هذه النقطة توضيحا، ونظن أنا اذا ما فسرناها بعضَ التفسير نتعجل بموضوعنا الذى سَنُقْبِلُ عليه أخيرا، وخاصة اذا علمنا أنّ عصرَ المأمون وما فيه من فلسفة وعلم ومن أدبٍ وفنٍّ كان متأثرا بحركة النقل والترجمة، وأن تأثره هـذا كان الى مدًى كبيرٍ يطبعه بطابع المدنية اليونانية والفارسيه؛ ولكن هذا لا يمنعنا أن نُلِمَّ به إلمـاما .

(ب) آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية فى العصر الأموى

كانت آدابُ الفرس قبيلَ الاسـلام آدابا يونانيـة فى جملتها لأن التاريخ يُحدِّثنا أن آدابَهم الفنيةَ القديمةَ التى كانت مجموعةً طيبةً لنتاج العقل الفارسىّ والهندىّ والأشورىّ —

هـده الآداب قد نقلها الاسكندرُ الأكبر الى بلاده، ثم تقلبت حياةُ الفرس بين ضعف وقوة وجهـل وعلم ، الى أن تسـلَّم كسرى صو لجانَ ملكه ولَعِبَ دورَه العظيمَ فى تاريخ بلاده . ولعـلّ الأحوال العالمية عهـدئذ ساعدته على مهمته فى النهوض بالعقلية الفارسية وفى تجديد عهْها . ويقول لنا «چبون» : إنّ «يوستنيان» قيصر الروم حين أضطهد الفلسفة الأفلاطونيـة الجـديدة أو الوثنيـة ، أقفل الهياكل والمدارس وطارد العلماء المفكرين ، فأضطر جماعة من هؤلاء الفلاسفة، الى الرحيل الى بلاد الفرس حيث وجدوا من كسرى أنوشروان من قدرهم قدرهم . ويقول لنا الأستاذ «برون» فى كتابه القيم عن تاريخ أدب الفرس حين تعرّض لرأى المستشرق (نولدكه Noldeké) فى هـدا الصدد : «إن شغف كسرى بالبحوث الدينيـة والمناظرات الفلسفية وماكان يجـد فى ذلك من لذاذة وإمتاع ليعيد الينا ذكرى المأمون والأمبراطور الأكبر مما نمسك عنه الآن » .

على أنا مع إمساكنا عن التبسط فى القول لا يسعنا إلا أن نذكر فى هذا المقام أن أنوشروان كان قد أسّسَ مدرسـةً للطب والفلسفة فى جُنْدَيْسَابُور كانت لها شهرة مدرسة الإسكندرية . وإنه ليحدر بنا هنا أن ننظر هل استفاد العرب حقا من علوم الفرس عند ظهور الإسلام ؟ وهل استفادوا من عزوهم مصرَ وفيهـا مدرسةُ الإسكندرية ؟ ومن إحصاعهم الشام المتأثرة بآثار العقلية الرومانية؟ وهل وجدت حركة نقل فى العصر الأمَوى؟ لأن فى توضيحنا ذلك بعضَ النفع لنـا فى دراسة التحوّل العلمىّ والأدبىّ فى تاريخ التمدين الإسلامى الذى وصل الى درجة حليقة بالإجلال والإكبار فى عصر المأمون، العصر الذى نصح فيـه مختلف الفنون والآداب . فَلْنُحَاوِلْ توضيحَ شىء من ذلك مُتَوَخِّينَ حدَّ القصد والإيجـاز .

(ج) حركة النقل فى العصر الأموى :

يخبرنا آبنُ أبى أصيبعة فى البـاب الذى أفرده لأطباء العرب فى إبّانِ الإسـلام : أن «الحارثَ بن كَلَدَةَ» تعلم الطبّ بناحية فارس وتمرّن هناك وعرَفَ الداء والدواء . ويخبرنا

أيضا أن عبد الملك بن أبجر الكنانى، الذى أسلم على يد عمر بن عبد العزيز حينما كان اميرا على مصر، كان طبيبا عالما ماهرا، وأنه كان فى أول أمره فى الاسكندرية لأنه كان المتولى التدريس بها من بعد العلماء الاسكندريين؛ وزاد بأن عمر بن عبد العزيز، لما أفضت الخلافة إليه، نقل التدريس الى أنطاكية وحران وتفرق فى البلاد. ثم ذكر أبن أثال طبيب معاوية، وتكلم عن علمه بالأدوية المفردة والمركبة، وذكر أما الحكم «وتماذوق» طبيب الحجاج. وحسبنا هذا دلالة على ما أفاد العرب أو ما يمكن أن يفيدوا من علم الطب.

فلننتقل من هذا الى التكلم عن حركة النقل والترجمة. ويكفينا الآن أن ننظر فيما رواه صاحب الفهرست عن ذلك إذ يقول.

«كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمّى حكيم آل مروان، وكان فاضلا فى نفسه، وله همة ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصّح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى الى العربى، وهذا أول نقل كان فى الإسلام من لغة الى لغة، ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية الى العربية فى أيام الحجاج والذى نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم، وكان أبو صالح من سَبْيِ سِجِسْتَانَ، وكان يكتب لزاد إنفروخ بن بيرى كاتب الحجاج يخط بين يديه بالفارسية والعربية لخف على قلب الحجاج؛ فقال صالح لزاد إنفروخ: إنك أنت سببى الى الأمير، وأراه قد استخفنى ولا آمن أن يُقَدِّمَنى عليك وأن تسقط منزلتك، فقال: لا تظنّ ذلك هو الى أحوج منى اليه لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيرى؛ فقال: والله لو شئتُ أن أحولَ الحساب الى العربية لحولته، قال: فحوّل منه أسطرا حتى أرى، ففعل؛ فقال له: تمارَضْ، فتمارض، فبعث الحجاج اليه تيادروس طبيبه فلم يربه علة؛ وبلغ زاذانفروخ ذلك فأمره أن يظهرَ. واتفق أن قُتِلَ زاذانفروخ فى فتنة ابن الأشعث وهو خارج من موضع كان فيه الى منزله، فاستكتب الحجاج صالحا مكانه، فأعلمه الذى كان جرى بينه وبين صاحبه فى نقل الديوان، فعزم الحجاجُ على ذلك وقلّده صالحا، فقال له مردانشاه

ابن زادانفروخ : كيف تصنع بدهويه وششويه ؟ قال : أكتب عشرا ونصف عشر ؛ قال : فكيف تصنع بويد؟ قال : أكتب وأيضا قال : والويد : النيف والزيادة تزاد ، فقال له : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعتَ أصل الفارسية . وبذلت له العرس مائةَ ألفِ درهم على أن يُطْهِرَ العجز عن نقل الديوان، فأبى إلّا نقله فنقله . فكان عبد الحميد بن يحيى يقول : لله درُّ صالح ! ما أعظم منّته على الكتّاب . وكان الحجاج أحلّه أحلا فى نقل الديوان » .

فأما الديوان بالشأم فكان بالرومية، والذى كان يكتب عليه سرجون بن منصور لمعاوية ابن أبى سفيان، ثم منصور بن سرجون . ونقل الديوان فى زمن هشام بن عبد الملك نقله أبو ثابت سليمان بن سعد مولى محسين وكان على كتابة الرسائل أيام عبد الملك . وقد قيل : إن الديوان نُقِلَ فى أيام عبد الملك، فإنه أمر سرجون بعض الأمر فتراخى فيه فأحفظَ ذلك عبدَ الملك فاستشارَ سليمانَ، فقال له : أنقل الديون وأرتحل منه .

ثم نجده يتكلم فى مكان آخر عن أصطفن القديم وأنه نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتبَ الصنعةِ وغيرها . فنحن نجد من هذا وغيرِه أن اللغةَ العربية أحدثت تحوى أشواطا فى حلبة العلوم فى هذا العصر .

* * *

ونريد أن نشرحَ شرحا بسيطا حال الخَطَابة والكتابة فى العصر الأموى مُتَوَخّينَ الاختصار على قدر الطاقة فنقول :

(د) الخَطَابةُ ومميزاتها :

لم تزدهر الخَطَابةُ فى عصر من عصور الآداب العربية، كما ازدهرَتْ فى هذا العصر، لاعتماد الناس عليها فى السياسة والدين . وقد جعلها الدينُ الاسلامىّ فرضًا من الفروض فى الدعوة اليه، وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد كانت الوسيلة فى قمع الفتن وردّ البدع ، وكانت لسانَ القائد فى جنده يستنهض بها عزماتهم، والوالى فى رعيته يستفزّ بها

حيثُهم، والزعيم فى شَـعْبه يجمع بها شـتاتَهم، اذ لم يكن غيرُها من وسائل التبليغ ميسورا، لذيوع الأمية وفقدان وسائل النشر.

وقد وَحدَتْ بعد مقتل عثمان رضى الله عنه، بسبب اختلاف المسلمين، وتَعدّدِ الفِرَق واختلاف الأحزاب، مجالًا واسعا للرقّ والسـبق، لاعتماد كل حزب عليها فى نشر نحلته، وتأييد دعوته.

يمـيز الخَطَابَةَ فى هـذا العصر ما يمـير الآدابَ عامة فيـه: من فخامة الألفاظ ومتانة التركيب، والتباعد عن حُوشيّ الكلام. و يميزها أيضا أنها اقتبسَتْ من القرآن كثيرا، ونهجت نهجه فى الارشاد والاقناع، وأنها تُبدَأُ بحمد الله والصلاة على رسوله، حتى قبـل خطبـةِ زيادٍ المشهورة التى خطبها فى العراق. "الخطبة البتراء" إذ لم يحمد الله ولم يصل على نبيه فيها. وقد كان هذا العصرُ أحفلَ العصور بالخطباء، فقد كان حلُّ الخلفاء والقوّاد وولاةِ الأمصار وزعماءِ الأحزاب المختلفهِ خطباءَ مَصاقِعَ. وفيما يحفظه تاريخ الآداب من آثار الخلفاء، ولاسيما الإمام علىّ، ومن خطب الحجاج بن يوسف، و زياد بن أبيه، وطارق ابن زياد، مصداقُ ما نقول.

ولنقلْ هنا خطبة الحجاج فى أهل العراق بعد دير الجماجم فهى خيرُ مثالٍ لصحيح الخطابة فى العصر الأموىّ. قال:

« يأهلَ العراق، إنّ الشيطانَ قـد استطكم فخالط اللحمَ والدمَ، والعصبَ والمسـامعَ والأطرافَ والشغافَ، ثم مضى الى الأضاح والأصماح، ثم ارتمع معشَّشَ، ثم باض وفرّخ، فشاكم نِفاقا وشقاقا، وقد اتخذتموه دليلا تتبعونه، وقائدا تطيعونه، ومؤمّرا تستشيرونه؛ فكيف تنفعكم تجربةٌ أو تعظكم وقعـةٌ أو يحجزكم إسـلامٌ أو يردّكم إيمانٌ! ألستم أصحابى بالأهواز حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر، وظننتم أن الله يخذلُ دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرفى وأنتم تتسللون لِواذا وتنهزمون سراعا. و يومُ الزاويةِ وما يومُ الزاويةِ! بها كان فشلُكم وتنازعُكم، و براءة الله منكم ونكوص وليه عنكم، إذ وليتم كالإبل الشوارد الى أوطانها،

النوازع الى أعطانها، لا يسأل المرءُ منكم عن أخيه ولا يَلْوِى الشيخُ على بنيه، حتى عَضَّكم السلاحُ وقصَمَتكم الرماحُ . يومُ دير الجماجم، وما دير الجماجم ! بها كانت المعاركُ والملاحمُ بضربٍ يزيل الهام عن مقيله، ويذهل الخليل عن خليله[1] .

«يأهل العراق أهلَ الكفرات والغدرات، والثورة بعد الثورات، إن أعنتكم الى ثغوركم عللتم وختم، وإن أمِنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم لا تذكرون خشيةً ولا تشكرون نعمةً، هل استخفكم ناكثٌ، واستغواكم عاوٍ، واستنصركم طالم، واستعضدكم خالع، إلا وثقتموه وآويتموه ونصرتموه ورصيتموه! . هل شغَبَ شاغبٌ أو نعب ناعبٌ أو نعق ناعقٌ أو زمر زافر إلا كنتم أشياعَه وأنصارَه! ألم تنهكم المواعظُ! ألم تزجُركم الوقائعُ ! » .

ثم نظر إلى أهل الشام فقال :

«يأهل الشام إنما أنا لكم كالظليم الذادّ عن فراخه، ينفى عنها المدرَ ويُبعِدُ عنها المحرَ، ويُكِنُّها من المطر . يأهل الشام أنتم الجُنَّةُ والرداء، وأنتم العُدَّةُ والغطاء » .

وقد يكون من المفيد حقًّا أن ترجع الى "صبح الأعشى" وغيره من المظان الأدبيـة، لتقف بنفسك على خطب القوم الممتعة أسلوباً، الفخمة لفظًا، العبية معنى، فى ذلك العصر الزاهر .

(هـ) الكتابة :

الكتابة — سواء أكانت فى تدوين العلوم والفنون وضبط الشؤون العامة أم فى إنشاء الرسائل ومعالجة الكلام المنثور — لا ترقى بل لا تكون إلا فى الأمم التى أخذت بقسط من التحضر، فكانت لها حكومةٌ منظَّمةٌ، ودواوين معدّدةٌ، وصناعة متنوعةٌ، وزراعةٌ ناميةٌ، وتجارة رائجة، لذلك لم يكن لأحد من الشعوب العربيـة فى الجاهلية حظ من الكتابة إلا بمقدار ماله من حظ من الحضارة .

(١) هاتان الفقرتان مقتبستان من قصيدة لسيدنا عبد الله بن رواحة التى أنشدها بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم عند دخوله مكة فى عمرة القضاء، وأصل البيت :

ضربا يزيل الهام عن مقيـله * ويذهل الخليـل عن خليله

اهـ من سيرة ابن هشام .

وقد كانت الكتابة معروفةً عند التباعة حنو نا ، والمناذرة والغساسنة فى الشمال ، حين كان لأولئك وهؤلاء من الحضارة نصيبٌ . أما البدو من سكان أواسط الجزيرة فلم يعرفوا الكتابة إلا حين عرفوا الخطَّ فى أواخر العصر الجاهلىّ . وقد كان حظُّ الكتابة فيهم حظَّها فى أمة بادية قليلة الشؤون ، لذلك لم يبلها فى الرقىّ ما نال أخويها الشعر والخَطَابة . فلما جاء الإسلامُ وصار للعرب حكومةٌ مُنظَّمةٌ وفتح الله عليهم أقطارَ الأرض ، اشتدت حاجتهم الى الكتابة ، فأخذت سبيلَها الى الرقىّ والكمال ، حين صارت حاجةً من حاجات الدولة .

بَيْدَ أن الكتابةَ لم تبلغ كمالَها الممكنَ ، فى التنسيق وإبلاغ الحاجة ، وفى اتساع ما تناولته من شؤون الدولة والناس ، إلا بعد أن نُقِلَت الدواوينُ التى كانت بالفارسية فى فارس ، والرومية فى الشام ، والقبطية فى مصر ، الى العربية فى عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، وإلا بعد أن ظهر فى العربية كتابٌ صَقَلَهم الاطلاعُ على آداب الفرس وغير الفرس من الأمم التى كانت لها قدمٌ راسخةٌ فى الحضارة : كابن المقفع وعبد الحميد الكاتب .

على أنا لسنا نرمى بذلك الى أن لا بلاغةَ فى ذلك العَصر غير اطلاع على بلاغة الأمم الأخرى ، لأن فى بلاغة القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وخطب الخلفاء وتراث الجاهلية ، الكنزَ الذى لا يَنضُبُ ، والمَعِينَ الذى ينهَلُ منه أفاويقه كُتَّابُ العصر غيرَ مُنازَع ولا مُدافَع . وإنما نعثُرُ فى مظانّ الأدب العربىّ على أمثلة ناهجة لما نقول . فهذا كلام أمّ الخير والزرقاء وعكرشة بنت الأطرش ، فإنه لما يُتخذ خيرَ مثال للنثر فى العصر الأموىّ .(١)

وسنُثبِت لك فى باب المنثور من الكتاب الأوّل فى المجلد الثانى رسالتين ممتعتين نعتبرهما بحق من خير المنثور العربىّ ، إحداهما تلك الرسالة المنسوبة لأبى بكر الصديق والتى قيل إنه كتبها لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فهى تمثل عصرها بلاغة وفخامة . والثانية رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب قيل إنه كتبها عن مروان بن محمد لعبد الله ابن مروان حينما أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى ، فهى فريدة فى نوعها رشاقة أسلوب وسموّ معنًى .

(١) أطراف المنثور من ملحق الكتاب الأوّل فى المجلد الثانى .

(و) حالة الشعر فى العصر الأموى وتحوّله :

لكى نَلْمَس بأيدينا صحةَ قول أولئك الذين يذهبون الى أن العصر الأمويّ، كان عصرَ تجديد فى الآداب العربيـة، وأنه كان عصرَ تجـديد قوى طاهر فى اللفظ والمعنى، يلزمنا أن نفهمَ فهما أوّليا سداجةَ الشعر الجاهليّ وصادِقَ تعبيره عن الحياة الجاهلية .

نعلم أن العصر الجاهليّ للعرب كان فى مجموعه، ككل العصور الأوّلية للعقل البشرىّ، ساذَجًا فِطْريا فى علومه ونُظُمِه وعاداته ولكنه لم يكن كذلك فى آدابه، فإن عرب الجاهلية بدءوا فى شعرهم وآدابهـم، فى ذلك الطور الأوّل، بمـا كان عليـه غيرهم من الأمم السامية وكثير من الأمم الأُخرى فى أطوارها الأولى وعصورها الجـاهلية، مع ملازمتهـم للفطرة، وهوَرهم من التكلف، وبعدهم عن الصنعة الكلامية .

إن العربَ فى جاهليتهم نظموا الشعر فى كل حاجاتهـم وأبدعوا فيـه بسليقتهم . ومع أنهم كانوا فى دَوْرِ فوضاهم فقد نضجت لهم أفانينُ كانت آيةً فى بلاغة اللسان العربىّ . وكان الأدب الجاهلى فِطْريا مُمَثِّلًا خُلُقَ العصر مثيلًا استقلالَ الفكرة البـدوية، وكان فى ضروبه كافّةً من وصف ومدح ورثاء وهجاء ناطقًا بما يجيش فى نفس قائله حقا، كما كان فى بلاغة تركيبه وبعده عن الأوضاع المدرسية من تكلف للبيان والبديع آيةً فى بلاغة الفطرة وشاهدا فى مجموعه على مبلغ أثر بلاغة الفطرة المرسَلة عن شعور صاحبها فى النفوس والأفهام .

على أنه يجدر بنا أن نقول : إنّ المعلقات وغيرَها من آثار العقل العربىّ الجاهلىّ، قد لا تتأثر بها نفوسُ العصر الحاضر، لتغير اللغاتِ والأفكار والمعتقدات، ولتشعّب المدنيات والأدبيات، ولأن آذاننا وأذواقنا قد تحكم بنوّ ألفاظها وخشونتها، فكما أن الأدب الانكليزىّ قد لا يستعمل اليوم ألفاظا كان يستعملها شيوخُ العقل الانكليزى « كما كون» و «شكسبير» و «ملتون» من حيرةِ نتاج عصر اليزابث الذهبىّ وقبلهما «شوسر» وشعراء المغانى، ويعتبرها البعض ناسةً حافةً، وأنها بمثابة ألفاظ مدرسة تاريخية، كما هى الحال فى نظر أدب العصر

الانكليزى أو الفرسى أو الألمـانى فى تراجمهم عن الكتاب المقدّس، والى شعرائهم وأدبائهم المتقدّمين، كذلك هو الحال فى أحكامنا عن نتاج العصر العربىّ الجاهلىّ .

* * *

إنّ المدنيّةَ ما ونَتْ ساعة ولا يوما، ولكن عاطفة الانسان تكادُ تكون هى بنفسها فى كل العصور : يحزك لواعجَه الجمالُ، ويَفطِر قلبَه رَيبُ الزمان، ويُبثّ شكاتَه الى أترابه وإخوانه، ويحاول أن يتنوّأ حبّاتِ الأفئدة بسحر بيانه، فهو يفخر ويشـدو، وهو يمدح ويهجو، وهو يحطُب ويبطم ويصرِبُ الأمثـالَ . وهو صادق فى ترجمة مشاعره، وتبيان مقاصده ما كان فى دَوْرِ سذاجته بعيـدا عن صروب المدنيات التى كثيرا ما تُلازِمُها تقاليد حاصـة وتصحبها آدابٌ تُعورِف عليهـا تُقلّل صراحته وتَفُلّ من حدّة شَاته، وتجعـل له سلطانا على ميوله وأهوائه . واللسان عُلَـبَةٌ مصفاحٌ إن تركت له عِنانه، كُتَمَةٌ مُضَلِّلٌ إن جعلت العقلَ والتقليدَ ميزانه .

مِنْ هنا نستطيع أن نُفسّرَ سذاجةَ العربىّ الجاهلىّ وجنوحَه الى صوت الطبيعة، على العكس من حال زميله الاسـلامىّ الذى قد صقلته بلاغةُ القرآن وتعاليمُه، وشذّبته سـنةُ الرسول وصحابته، وأفسح المجالَ لخياله ما وقف عليـه أثناء الفتوح العربيـة من تراث المدنيات الفارسية فى العراق وفارس، والرومانيـة فى الشام ومصر، وناهيك بآثار الفرس والرومان الى ما خلّفَ له آباؤه العربُ من حكمة وبيان .

* * *

كان شـعراءُ الجاهليـة يُسَدِّدون قولَهم نحو كبدِ الحقيقة فلا يُخطئونها، ويقولون الشعرَ عن شعورٍ حىّ، ولا يتخطّوْن الى ما وراء مَشهودهم ومعقولهم، جـاء شعرُهم مثالا صادقا لبداوتهم وحضارتهم، حتى لو اندثرَتْ جميعُ أحبارهم وآثارهم ولم يبق إلا شىء من شـعرهم لتيسّرَ للباحث أن يستخرج منه وصفًا كاملًا لجميع أحوالهم، كما استخرجَ الباحثون كثيرًا من عوامص جاهلية اليونان من شعر «هوميرس» .

واليك مثالا قول المهلهل بعد وقعة السُّلَّانِ اذ حصرها مع أخيه كليب وفر ابن عنق الحية من وجههما :

لوكان ناهٍ لابن حيَّةَ زاجرًا ... لنهاه دا عن وقعة السُّلَّانِ
يومٌ لها كانت رياسةُ أهله ... دون القبائل من بنى عدنان
عضِبَتْ مَعَدٌّ غثُّها وسَمِينُها ... فيه مَمالأةً على عسَّان
فأزالهم عنَّا كُلَيبُ بطعنةٍ ... فى عُمْرِ بابلَ من بنى قحطان
ولقد مضى عنها ابنُ حيَّةَ مدبرًا ... تحت العَجَاجة والحتوفُ دوانى
لما رآنا بالكلَاب كأننا ... أُسْدٌ مَلَاوِثةٌ على خفَّان
ترك التى سحبتْ عليه ذيولَها ... تحت العجاج بذلةٍ وهوان
ونحا بمهجته وأسلم قومَه ... متسربلين رواعفَ المرّان
يمشون فى حَلَقِ الحديد كأنهم ... جُربُ الجمال طُلِينَ بالقَطران
نعم الفوارسُ لافوارسُ مَذْحِجٍ ... يوم الهياج ولا بنو هَمْدان
هزموا العُداةَ بكل أسمرَ مارنٍ ... ومهنَّدٍ مثل الغدير يمانى

و بعد، فإنا بعد ما قدّمنا من موجز كلامنا عن تصوير حالة الشعر فى الجاهلية توطئة لبحثنا عن حالته فى العصر الأموىّ، لا نرى مندوحةً من الإشارة هنا الى أنا سنعنى عناية، خاصة، بشعرَىِ الغَزَل والشعر السياسىّ، لأنهما بحالتيهما الأُموية يكادان يكونان وليدَى العصر ونِتَاجَه .

وليس معنى ذلك أنا ننكر تلك المعانىَ الجديدةَ التى دخلت على الوصف والمدح والرثاء والهجاء، ولكنا نلاحظ أن الفرق لا يعدو ملترماتِ المدنية، مع رقة اكتسبتها العصورُ الاسلامية، القريبةُ العهد من نزول القرآن واشتغالِ الناس بتلاوته وإقبالهم على دراسته، حتى انطبعوا على بلاغته وبيانه .

على أنه من المفيد أن نُشيرَ الى شىءٍ جديد أصاب فنّ المديح فى العصر الأموىّ، لأنه خاص بهذا العصر دون سواه .

قال ابنُ قتيبةَ فى كتابه القيم «الشعر والشعراء» : أتى بعض الرُّجّازِ نصرَ بن سيار والى خراسانَ لبنى أمية، فمدحه بقصيدة تشبيبُها مائةُ بيتٍ ومديحُها عشرةُ أبيات، فقال نصرٌ : « والله ما بقيت كلمـةٌ عدبةٌ ولا معنى لطيفٌ إلا شَغَلْتَه عن مديحى بتشبيبك، فان أردت مديحى فاقتصد فى النسيب، فأتاه فأنشد :

هل تعرف الدارَ لأم العمـــر ، دع دا وحرّ مِـــدحةً فى نصر

فقال نصر . لا ذاك ولا هذا، ولكن بين الأمرين .

(ز) الغـــــزل :

كان غَزَلُ الجاهلية من عمو الخاطر وفيض البديهة، ناطقًا بصفاء قريحتهم، وكامل حريتهم، وموقِد أدهانهم وثائر طباعهم، وكان بريئا من الصنعة والكُلْفة .

ومع أنى ممن يذهبون الى أنّ الشاعر الجاهـلىّ، كان يعالج الفنون الشـعريةَ كافّة غير مقصور على النسيب بالذات، بيـد أنى ممن يقول إن المعانىَ العربليةَ وألفاظَها تكاد تكون مُعَادةً فيما بعد العصر الجاهلىّ، بتوسع تقتضيه المدنيّةُ، وطَلاوةٍ اكتسبتها الألفاظُ من ملاعبه القرآن، وعذوبةٍ أنتجتها ثروةُ الأذهان من أفاويق العِرفان .

ولقد صدق زهيرٌ إذ يقول :

ما أراها تقـول إلا مُعَارًا * أو مُعادا من لفظنا مكرورا

أجل، لقد كان الغَزَلُ الأمويّ عبيا بما هو أكثر من ذكر الأطلال والديار، إذ أنّا نجد فيه لواعجَ الحبّ ولهجانه، وشكايات الصبّ وأناته، وزفرات العاشق وعبراته .

ألسنا نلمسُ التوجعَ والأسى فى قول ابن الدمينة الخثعمىّ :

ألا ياصبا نجدٍ متى هِجتِ من نجدٍ * لقد زادنى مَسراك وجدًا على وجدِ

وفى قول الصمّة بن عبد الله بن طفيل :

حَنَنْتَ الى رَيّا ونفسُك باعدَتْ * مَزارَك من رَيّا وشَعْبَاكُما معًا

نريد أن ندرُسَ حالة الغزل فى العصر الأمويّ الذى هو عصر الترف والغنى والثروة، عصرُ القصور والملاذ، عصرُ الاندماج فى غير العرب واتحاد السرارى والسايا، تكادمات ووصيفات وزوجات .

لقد كثر الترفُ كثرةً حمل معها الاندفاع مع الغزلِ وما يحرّه العزل، وحلق أنواعا صريحةً من المناحى الشعرية فى الحب والتشبيب بالنساء، رغبةً فى الحب من حيث هو، وفى التشبيب من حيث هو : بمعنى أنا كنا فى العصر الجاهلىّ قلّما نجد شاعرا وقَفَ حياته الشعريةَ على معالجة فنّ الغزل فحسبُ، لا يتكلف غيرَه ولا يُعنَى بسواه، فإذ بنا فى العصر الأمويّ نجد من الشعراء من يتخذ من الغزل صناعة وفنّا .

وظاهرة أخرى نلاحظها فى الغزل الأمويّ تظهر بجَلاء مقدار اختلافه عما كان عليه فى العصر الجاهلىّ، تلك أنواعه المتبايناتُ التى يصح لنا أن نقسّمَها الى أربعة أنواب : غزل إباحىّ، ويصح لنا أن نتخذَ من عمر بن أبى ربيعة زعيما لهذا النوع الذى يجمع الى وصف المرأة والتشبيب بها، معانىَ العبَث بها والاستمتاع باللذة المادّية مما ينفِرُ منه الأدب الجاهلىّ ومما حَظَره عليه الكثيرون من حلفاء الإسلام وأئمته .

ولقد صدق ابنُ جريج إذ يقول : "مادخل على العواتق فى حدورهنّ شىء أضرّ عليهنّ من شعر ابن أبى ربيعة" . ونحيل القارئ الى حديث الزبير بن بكار عن عَمّه مُصْعَب فى صفة هذا الشاعر الكبير، على أن كتاب الأغانى وغيرَه من أمهات كتب الأدب العربىّ مُترعةٌ بشعره وتشبيبه مما لا يدع مجالا للشك فى أنه كان تَبْعَ نساء وجلّاس غانيات، وصَّاءا لأحاديثهنّ، واقفا على دخائلهنّ، مطلعا على هوى نفوسهنّ . ولا حاجة بنا الى التطويل هنا فيما هو مشهور مُتعارَف، خصوصا أنك ستجد طرفا من شعره، فى باب المنظوم من الكتاب الأوّل فى المجلد الثانى، فراجعه ثمة .

على أنه مع ذلك يذوب رِقّةً وحنانا فى بعض مُقَطّعاته، ولا سيما مع الثريا بنت علىّ، فإنه يلوح لنا أنه لم يفتَحْ قَلبَه لأحد سواها .

كتب آبن أبى ربيعة الى الثريا وهى باليمن يقول :

كتبتُ إليك من بلدى * كتاب مُوَلَّه كَمِدِ

ولقد كانت مكةُ والمدينة مَسْرحًا لهذا النوع فى العصر الأموىّ . وسبب ذلك ميسور فهمه ، معقول تعليله ، ذلك أن الخلفاء تعمّد جلّهم الإغداقَ على أهل الحجاز وأبناء المهاجرين والأنصار بالأموال والهدايا فوقَ ما ورّثهم آباؤهم ، ليحولوا بينهم وبين ما يطمحُ اليه أمثالَهم من منافسة فى الملك ، أو مشاكسةٍ للسلطان ، وليشغلوهم عن أمور الدولة بإرخاء العِنانِ لهم فى لذاتهم وماعمهم .

وهناك العزل العُذْرىُّ البرىء ، غَزَلَ الحب الصادق ، والعواطف المتأججة ، والنفس المتألمة المعناة ، تلك النفسُ التى تجـد لذّتها فى الكَلَف بمن تحبّ والتعلّق به والشـعورِ بالسعادة فى الفناء بحبه ، حبًّا يملك عليه لبّه ويعذّب رُوحَه ويفنى جسمه كمزل جميل . وليس أدلَّ على صدق حبه مما أثبته صاحب الأغانى فى الجزء السابع ، اذ حاول أبوه أن يصرفه عن حبه وحاجّه فى ذلك أجمـل مُحَاجّة ، فكان من جميلِ ما كان مما نجـده مفصلا فى موضـعه (١) .

وغزل صاعىّ بين هذا وذاك ، همه الإجادة فى الشعر من حيث هو شعر ، لا فى الحبّ من حيث هو حب ، ولنا فى كُثير عزةَ زعيم لهذا النوع الثالثِ (٢) .

وغزل قَصَصِىّ ، حلقه الرواة لأنهم رأوا ميـلَ الناس الى العزل والى حيـاة القصف وما يتبع حيـاةَ القصف ، فنظموا قصائدَ نحلوها لشعراء لانستطيع أن نحتملَ تَبعـةَ القول بوجودهم فى الحياة أو القول بأنهـم أشخاص خياليُّون حلقهم الرواةُ أو زادوا من عندهم مقطعات نسبوها لهم وأضافوها الى شعرهم . وزعيما هذا النوع . قيسُ (٣) بن الملوّح وليلاه ، وقيس بن ذَرِيح (٤) ولُبناه .

---

(١) و (٢) و (٣) و (٤) أطرباب المطوم من ملحق الكتاب الأول فى المجلد الثانى .

(ح) الشـــعر السياسى .

بدايةُ عصر بنى أميــة معركةٌ سياسيَّةٌ ، لَعِبَ فيهـا معاوية وأنصاره دورا مُمتِعًا طريفا فى سبيل آستلاب الخلافة من علىّ ، وتأسيس ملك بنى أميــة ، على قواعدَ وسننٍ تحالف قليلا أو كثيرا ما كانت عليه الحالُ فى عصر الخلفاء الراشدين .

* * *

الإنسانُ فى سبيل تحقيق أطماعه السياسية ، هو بعينه فى عصر معاويةَ ، وفى عصر يوليوس قيصر ، وفى عصر نابرت ، وفريدريك الأكبر أوّل عاهل لألمـانيا ، هو بعيـه إنسانُ اليوم ، هو بعيه كرئيس الولايات المتحدة وغيرها ، يستعمل المـالُ فى شراء الضمير الإنسانىّ ، ويعمل جهـدَه على إذاعة دعوته ، وتبيان فضائله ، وتصويب خُطَّته ، بآتحاد الحملات الصَّحَفية والخَطَابية وغيرها من وسائل الدعوة التى وصلت اليها المدنيّةُ الحديثةُ ، والتى كانت فى عصر معاوية وحلفاء معـاوية وفى عصر المأمون وحلفاء المأمون ، تَستخدِمُ ألسنةَ الشعراء ، وهى أسرع انتشارًا ، وأعمق أثرًا ، وأكثر روايةً ، وأطول عمرا ، مما يكتب اليوم ، فلا يَروِيه من الناس إلا قليلٌ .

إنك لتعـلم ما لآستخدام الشعر من أثر فى كثير من الحركات السياسية ، وآستحثاث العزمات وإنهاض الهِمَم فى الانقلابات الاجتماعية ، وما «للرسلير» من أثر فى نفوس الجند الفرنسـيين ، اذا حَمِى وطيس الحرب واشـتدّ اوَارُها . وأنت جِدُّ عالم بمـا كان لقصائد « اللورد بيرن » ، الواحدة تِلْوَ الأخرى ، فى سبيل استقلال اليونان الحديثـة ، وفى سبيل اجتداب عطف أوروبا وساستها وجماهيرها وملوكها ونوابها وصحفها ، ليأخذوا بناصر أمةٍ مَهيضةٍ غُلِبَتْ على أمرها .

أنت جدُّ عالم بأن قصائد « بيرن » هذه فَعَلَتْ فى المعركة السياسية ما لم تفعله جيوشُ مصرَ وأساطيلُها بذخيرة الترك وآنتصارها ، فكان الحكم «لبيرن» وكان الانتصارُ لشعره .

كذلك كان الحالُ فى عصر بى أميـة، وكذلك كان أثر الشعر إن لم يكن أبلغَ وأوسعَ نطاقاً . ألم يُوعزْ معاويةُ ، فى رواية يزيد آبنـه ، الى مِسْكينٍ الدارمىّ أن يقولَ أبيـاتا فى معنى المبايعة ليريدَ و يُشدّها إياه فى مجلسه وهو حافل بالوجوه والأشراف ! .

وتقول رواية الأغانى : إن معاويةَ لمـا أراد البيعـة ليزيد ، تهيّب ذلك وخاف ألا يمالئه عليـه الناسُ لحسن التقيّة فيهـم وكثرةٍ من يُرشّحُ للخلافة، وبلغه فى ذلك دَرْوُ[1] كلام ، كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبـد الله بن عامر، فأمر يزيد مسكينا ، وكان يؤثره و يصله ويقوم بحاجاته عند أبيه، أن يقولَ أبيـاتا و يبشدّها معاويةَ فى مجلسه اذا كان حافلا وحضره وجوهُ بنى أميـة ، فلما اتفق ذلك دخل مسكين اليـه وهو جالس وآبنه يزيد عن يمينه وبنو أمية حواليه وأشرافُ الناس فى مجلسه ، فمثَلَ بين يديه وأنشأ يقـــول :

إن أُدْعَ مسكينا فإنى آبنُ معشرٍ * من الناس أحمى عنهمُ وأذودُ
اليـك أميرَ المؤمنين رحَلْتُهـا * بثير القطا ليلا وهن هجودُ
وهاجرة طلّت كأن ظبـاءها * اذا ما آتقتهـا بالقـرون سجود
ألا ليتَ شعرى مايقول آبنُ عامرٍ * ومروانُ أم ماذا يقول سعيدُ
بنى حلفـاء الله مهـلا فإنمـا * يُبوّئها الرحمنُ حيث يريد
اذا المنبرُ العـربىّ حلاه ربه * فإنّ أمير المؤمنـين يزيدُ
على الطائر الميمون والجَدُّ صاعدٌ * لكل أناس طائرٌ وجـدودُ
ملا رِلتَ أعلى الناس كعبا ولا تزل * وفـودٌ تُسامِيهـا اليك وفُـودُ
ولا زال بيتُ الملك فوقك عاليا * تُشَـيِّدُ أطنـابٌ له وعُمُـودُ
قُدورُ آبنِ حربٍ كالجوابى وتحتها * أثاف كأمثـال الرثال رُكودُ

(١) ذرو كلام : طرف منه .

فقال له معاوية: «ننظر فيما قلتَ يامسكينُ ونستخير الله» . قال: ولم يتكلم أحد من بنى أمية فى ذلك إلا بالإقرار والموافقة، وذلك الذى أراده يزيد، ليعلم ماعندهم، ثم وصله يزيدُ ووصله معاوية فأجزلا صلته اهـ .

وأظنك لا تطلب منا حين مطالعتك لهذه القصيدةِ تحلِيلها لإقامة الدليل على صدق ما ذهبنا اليه، فيما أسلفناه لك من القول بأن شعرَ العصر الأموىّ عربىّ جاهلىّ فى منحاه وأسلوبه، وأنه يتميز بروح جديدة، ويختلف بأغراض ومقاصدَ تكاد تكون جديدةً بالنسبة للعصر الجاهلىّ . وذلك لوضوح التحليل وخوفِ الإطالة فيما لا يعنينا كثيرا .

على أنه لِزامٌ فى عقبا أن نصورَ، الى مدًى أوسعَ، استخدامَ الشعر الأموىّ فى الأغراض السياسية، لأن لهذا النوع الطريفِ نتائجَه وآثارَه فى هذا العصر والعصور التى تلته، ولأن لهذه الميزة ميزةِ اصطباغ الشعر بالغرض السياسىّ واندفاع صاحبه فى سبيل نُصرةِ دعوته مُعَدّدا ما قد يعتور طريقَه من صِعاب، مُدللا ما يعترضه من عِقاب، منتهكا حرمةَ التقاليد والأشخاص، بل خارجا الى حيز لا يرضى عنه فقهاء الدين كثيرا، وربما لا يرضى عنه الشرعُ حقا، نزعم أن لهذه الميزة آثارَها ونتائجَها . ولسنا بسبيل تفصيل ذلك الآن، ولكنا بموقف المقيّدِ للحوادث فحسبُ، المثبت لمبدأ وقوعها، ولها مع الزمن وتكرر وقوعها ونشاط مَيدانها ما سيتاحُ لنا تفصيلُه فيما بعد، من اتساع نطاق السياسة الشعرية خاصةً، ودولة الأدب عامة، وتهديدها حرمة العادة والخلق والدين .

* * *

مَثَلٌ آخر ذكره صاحب كتاب الأخبار الطوال وهو بمثابة معركةٍ مدهبيةٍ سياسيةٍ بين نصير معاوية ونصير علىّ، بين كعب بن جُعَيل والنجاشىّ . وهاك قصيدة كل منهما، قال كعبُ بن جُعيل :

أرى الشأم تكره مُلك العرا * ق وأهلُ العراق لهم تاركونا
وكلّ لصاحبه مُبغِضٌ * يرى كلّ ما كان من ذاك دِينا

وقالـــوا عـــلىّ إمامٌ لنـا * فقلنا رضِينا ابنَ هنـد رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لنـا * فقلنـا لهم لا نرى أن ندينَـا
وكلّ يُسَـــرُّ بمـا عنده * يرى عَشَّ ما فى يديه سَمِينَـا
وما فى عـــلىّ بمستعتَبٍ * سوى صمـه المحدثينـا
وليس براضٍ ولا ساخـــطٍ * ولا فى النهـاءِ ولا الآمريـا
ولا هو سـاءَ ولا هو سَـــرّْ * ولا بدّ من سعـدا أن يكونا

فلما قرأه علىّ رضى الله عنه قال للجاشىّ أحب، فقال :

دعىّ مُعَـاوِىَ ما لى يكـونا * فقـد حقّقَ الله ما تحـدرونا
أتاكم عـــلىّ بأهـــل العـرا * ق وأهلِ الحجـاز فمـا تصنعونا
يرون الطِّعَـانَ حِلَال العَحَا * ح وضربَ القوانِسِ (١) فى النَّقْعِ دِينا
هم هزموا الجمع جمـــعَ الزبير * وطلحـــة والمعشرَ الناكثينا
فان يكره القوم مُلكَ العـراق * فقـدْمًا رضينـا الذى تكرهونَا
فقولوا لكعبٍ أحى وائلٍ * ومن جعلَ الغثَّ يوما سمينَـا
حملـــتم عليًّا وأشـــياعه * نظيرَ ابن هـــدٍ ألا تستحُوناَ

وهاك مثلا آخر ذكره صاحب الأغانى فى ترجمة النعمان بن بشير قال : تشبب عبد الرحمن ابن حسان برملة بنت معاوية فقال :

رَمْل هَـــل تذكرين يومَ عزال * إذ قطعنـا مســـيرَنا بالتمـــنّى
إذ تقـولين عمرَكَ اللهَ هل شى * ء وإن جلَّ سوف يُسليكَ عنّى
أم هل أطمعت يابنَ حسان فى ذا * ك كما قـد أراك أطمعتَ منّى

قال : فبلغ ذلك يزيدَ بن معاوية فغضب، ودخل على معاوية فقال : يا أمير المؤمنين، ألا ترى الى هذا الطج من أهل يثرب يتهكم بأعراضنا ويُشبّب بنسائنا ! فقال : ومن هو؟

(١) القوانس : جمع قونس وهو أعلى الرأس، وأعلى بيضة الحديد أو مقدمها .

قال : عبد الرحمن بن حسان فأنشده ما قال؛ فقال، يايزيد ليست العقوبةُ من أحد أقبحَ منها بدوى المقدرة، ولكن امهل حتى يقدمَ وفدُ الأنصار ثم دكّرنى به، فلما قدموا ذكّره به؛ فلما دخلوا قال: ياعبد الرحمن، ألم يبلغنى أنك تُشَبِّبُ برملةَ بنت أمير المؤمنين! قال: بلى ولو علمتُ أن أحدا أشرفُ بشعرى منها لذكرته؛ قال: أبى أنتَ عن أختها هند! . قال: وإن لها لأختا يقال لها هند؟ قال : نعم! وإنما أراد معاويةَ أن يشببَ بهما جميعا فيكذب نفسه، فلم يرض ذلك يزيد بن معاوية وما كان منه معه، فأرسل الى كعب بن جُعَيل فقال له : أهجُ الأنصارَ، فقال: أفرقُ من أمير المؤمنين، ولكن أدلك على الشاعر الكافر الماهر الأخطل، قال فدعاه فقال له، أهج الأنصارَ، فقال. أفرقُ من أمير المؤمنين؛ قال: لاتخف شيئا أنا لك بذلك، فهجاهم فقال :

واذا نسبتَ آلَ القُريعَةِ حِلتَه * كالجحش بين حمارةٍ وحمارِ
لعنَ الالهُ من المهور عصابةً * بالجزْع بين صُلَيصلٍ وصُدَارِ
قوم اذا هدر العصيرُ رأيتَهم * حمرا عيونهمو من المصطار
خلو المكارمَ لستمو من أهلها * وخذوا مساحيكم بنى النجار
إن الفوارس يعرفون ظهورَكم * أولاد كلّ مقنّع أكّارِ
ذهبت قريشٌ بالمكارم كلها * واللؤمُ تحتَ عمائم الأنصار

فبلغ ذلك النعمانَ بنَ بشير، فدخل على معاوية فحسرَ عمامتَه عن رأسه وقال: ياأمير المؤمنين، أترى لؤما؟ قال : لا بل أرى كرما وخيرا، فماذا؟ قال: زعم الأخطلُ أن اللؤمَ تحتَ عمائم الأنصار! قال : أو فعل ذلك؟ قال : نعم، قال: لكَ لسانُه، وكتب فيه أن يؤتى به، فلما أُتىَ به سأل الرسولَ أن يُدخِلَه الى يزيدَ أولا، فأدخله عليه، فقال : هذا الذى كنتُ أخاف؛ قال : لاتخف شيئا، ودخل على معاوية فقال : علامَ أرسل الى هذا الذى يمدحا ويرمى من وراء حجرتنا؟ قال : هجا الأنصار؛ قال : ومن زعم ذلك؟ قال : النعمانُ بنُ بشير؛ قال : لا تقبل قوله وهو المدّعى لنفسه، ولكن تدعوه بالبينة وإن أثبتَ شيئا أخذت له ؛ فدعاه بالبينة فلم يأت بها فخلّاه ؛ فقال الأخطلُ :

وإني وإن أستعبرت أمُّ مالك * لراضٍ من السلطان أن يتهدّدا
ولولا يزيدُ آن الملوك وسعيُه * تحاللتُ جِرّادًا من الشر أنكدا

أما ردّ النعمان على الأخطل فها كه كما نقله أبو الفرج الأصبهانى عن خالد بن كلثوم :

مُعَاوِيَ إلّا تعطنا الحقّ تعترف * لِحَى الأزد مشدودا عليها العمائمُ

حتى قوله :

اليهم يصير الأمر بعد شتاته * فمن لك بالأمر الذى هو لازم
بهم شرع الله الهدى فاهتدى بهم * ومنهـــم له هادٍ إمامٌ وحَاتِمُ

وإنّا نُحيل القارئ الى الكتاب الأوّل من المجلد الثانى ليقف على قصيدة النعمان هـذه، وليقف كذلك على قصيدته الرائيـة الأخرى التى أنشـدها معاويةَ لمـا ضَربَ مروانُ بن الحكم، عبدَ الرحمن بنَ حسان الحـدَّ ولم يضرب أحاه حين تهاجيا وتقاذفا . وتحرير الخبر فيها : أنه لمـا كثر الهجاء بين عبد الرحمن بن حسان وعبـد الرحمن بن الحكم ابن أبى العاصى وتفاحشا، كتبَ معاويةُ الى سعيد بن العاصى، وهو عاملُه على المدينـة، أن يجلد كلَّ واحد منهـما مائةَ سوط . وكان ابنُ حسان صـديقًا لسعيد وما مدح أحدًا غيرَه قط، فكره أن يضرب أو يضرب ابن عمه فأمسك عنهما، ثم ولّى مروانُ، فلما قَدِم أخذ ابنَ حسان فضربه مائةَ سوط ولم يضرب أخاه، فكتبَ ابنُ حسان الى النعمان ابن بشير وهو بالشام، وكان كبيراً أثيراً مكيناً عند معاوية، قال :

ليتَ شعرى أعائب أنت بالشـ * ـام خليـلى أم راقدٌ نعمانُ
أيّة ما يكن فقـــد يرجع الغـ * ـائب يوما ويوقَظ الوســـنانُ
إنّ عمرا وعامرا أوينـا * وحراماً قِـدْما على العهد كانوا
أفهُمْ ما نعوك أم قـــلة الكَـ * ـاب أم أنت عاتبٌ غضبانُ
أم جفاء أم أعوزتك القراطيـ * ـس أم أمْرِى به عليك هوانُ
يوم أُنبئْتَ أن ساقَ رُضَّتْ * وأنتكم بذلك الركبانُ

ثم قالوا إن آبن عمّـك فى بلـ ـوى أمورٍ أتى بها الحـدَثانُ
فنسيتَ الأرحام والودّ والصحـ ـبة فيما أتت به الأزمانُ
إنما الرمح فاعلمنّ قناةٌ * أو كعصب العيدان لولا السِّنانُ

وهى قصيدة طويلة . فدخل المغيرة بن شبير على معاوية فقال : ياأمير المؤمنين، إنك أمرت سعيدا بأن يضربَ ابنَ حسان وابنَ الحكم مائةَ سوط فلم يفعل، ثم وَلّيتَ مروانَ فضربَ ابنَ حسانٍ ولم يضرب أخاه ! قال : فتريد ماذا ؟ قال : أريد أن تكتبَ اليه بمثل ماكتبتَ الى سعيد، فكتب اليه معاويةُ يعزمُ عليه أن يضربَ أخاه مائةً، فضربه خمسين وبعث الى آبن حَسّان بحُلّة وسأله أن يعفوَ عن خمسين، ففعل وقال لأهل المدينة : إنما ضربنى حدَّ الخمر وضربه حدَّ العبد خمسين، فشاعت الكلمةُ حتى بلغت ابنَ الحكم، فجاء الى أخيه فأخبره وقال : «لا حاجةَ لى فيما عفا عنه ابنُ حسّان» ؛ فبعث اليه مروان : «لا حاجة لنا فيما تركت، فهلم فاقتصّ من صاحبك» . فخصر فضربه مروانُ خمسين أخرى اهـ .

* * *

ويجدر بنا الآن، بعد أن أوضحنا ميرةَ استعمال الشعر فى الأغراض السياسية فى الدولة الأموية، أن نسمح لأنفسنا بتقييد ملاحظة قد لا تخلو من نفع فيما سنعالجه، وهى أن تلك الأغراض السياسية سمحت للشعراء بما لم تسمح به لسواهم من إعفائهم من إقامة الحدود . وقد سبق لنا أن أشرنا الى كتاب معاويةَ الى مروانَ بن الحكم فى صدد حدّه للشاعر المناصر لسياسة بنى أمية وهو عبد الرحمن بن أرطاة المعروف بأبى سيحان وكان حَدَّه لشُربه الخمرَ . وآبنُ سيحانَ هذا هوالذى قال فى صفته أبو الفرج الأصفهانى : «كان عبدُالرحمن شاعرًا مُقِلًّا إسلاميا، ليس من الفحول المشهورين، ولكنه كان يقول فى الشراب والغَزَل ومدح أحلافه من بنى أمية، وهو أحد المعاقرين للشراب والمحدودين فيه، وكان مع بنى أمية كواحد منهم، إلا أن آختصاصه بآل أبى سفيان وآل عثمان خاصة كان أكثرَ، وخُصُوصَه بالوليد ابن عثمان ومؤانسته إياه أزيدُ من خصوصه بسائرهم، لأنهما كانا يتناوبان على الشراب» .

ونريد الآن أن نفسرَ هذه الحادثةَ تفسيرا معتدلا لنحرج منها بما عساه يمدّنا وينفعنا فيما سَنُقْدِمُ عليه من مناقشة العصور التى تلت هذا العصر، تلك العصور التى تغدّت، من غير شك، بأفاويق العصر الأموى الذى تقدّمها، فنبتت فيها بذورُه حتى كادت تعمو فى حديقته الأُنُف الحُسّانة دوحاتٌ خطرة على الاعتبارات الخُلقية التى تُوُوصِعَ عليها .

وإنك اذا رجعت الى كتاب معاوية، ورجعت الى كتاب الأغانى نفسه، ومولفه أُمَوِى كما تعلم، وجدته قد أقام الحجة فى غير موضع على أن هذا الشاعر عاقر الخمر . وهاك ما يؤيد ذلك ويعززه :

قال : « كان الوليد بن عثمان، دا عَلَّةٍ فى المحار، يحرج اليها فى زمان الثمر نفر من قومه، يحسن له ويعاونه، فكان اذا حصر خروجهم دفع اليهم نفقات لأهليهم الى رحعتهم؛ فخرج بهم مرةً كما كان يخرج وفيهم ابنُ سيحانَ، فأتى ابنَ سيحانَ كتابٌ من أهله يسألونه القدومَ لحاجةٍ لا بدّ منها، فاستأذنه فأذن له، فقال له ابنُ سيحان : زوّدونى من شرابكم هذا، فزوّدوه إداوة ملأها له من شرابهم، فكان يشربها فى طريقه حتى قدم على أهله، فألقاها فى جانب بيته فارغة، فمكث زمانا لا يذكرها حتى كنسوا البيت فرآها ملقاةً فى الكُنَاسة فقال :

لا تَبْعَدَنَّ إداوةً مطروحةً * كانت حديثاً للشراب العاتِقِ
إن تُصبحى لا شىء فيك فربما * أُتْرِعْتِ من كأس تَلَذُّ لذائقِ
فأبى الوليدَ وأمّ نفسى كلّما * بدت النجوم وذرّقرنُ الشارقِ
كم عنده من نائلٍ وسماحةٍ * وشمائلٍ ميمونةٍ وخلائقِ
وكرامةٍ للمعتفين ادا اعتفَوْا * فى ماله حقّا وقولٍ صادقِ
أثوى فأكرمَ فى الثواء وقُصِّرَتْ * حاجاتُنا من عند أروعَ باسِقِ
لما أتيناه أتينا ما جد الـ * ـأخلاق سَبّاقاً لِقَرْمٍ سابِقِ
قال الوليدُ يدى لكم رهن بما * حاولتمو من صامتٍ أو ناطقِ
فإلى الوليد اليوم حَنَّتْ ناقتى * تهوِى بمغبرّ المتون سَمالِقِ
حنّت الى برق فقلت لها قرى * بعض الحنين فإنّ شجوك شائقى

فهذا اعتراف صريح بمعاقرته للخمر . ثم لُتِّثْتْ ها قصيدتَه التى مدح بها معاويةَ :

إنى آمرؤ أُنمَى الى أفضل الورى * عديدًا اذا ارفضَّتْ عصا المتحلِّف
الى نصد من عبد شمس كأنهم * هصاب أَحًّا أركانُها لم تُقصَّف
ميامين يرضون الكفاية إن كموا * ويكمون ما وُلُّوا بغير تكلُّف
عَطَارِفةٌ ساسوا البلادَ فأحسنوا * سياستَها حتى أقرَّتْ لمردِف
فمن يك منهم موسرا يُعْشَ فضله * ومن يك منهمْ معسرا يتعفَّف
وإن تبسط العمى لهم بسطوا بها * أكفًّا سباطا نفعها غيرُ مُقرِف
وإن تُزْوَ عنهم لا يصحُّوا وتُلْفِهم * قليلى التشكى عندها والتكلُّف
اذا انصرفوا للحق يوما تصرَّفوا * اذا الجاهل الحيرانُ لم يتصرَّف
سَمَوْا فعَلَوْا فوق البرية كلِّها * ببيان عالٍ من مُبِيف ومُشْرِف

وكان من حظها أن كتب معاوية أن يعطى أربعمائةِ شاة وثلاثينَ لقحةً ، مما يوطى السيالة غير ما أعطاه سواه .

ومهما يكن الواقعُ الذى حدا أبى الحكم الى حَدّه فإن السياسةَ الحزبيةَ ومدائحَ أبى سيحانَ فى معاوية ، واستعمال الأحير الشعراء فى مناصرة بيته — كلّ ذلك دفع بمعاوية الى كتابة ما كتب لأبى الحكم أولا ، ثم للوليد بن عتبة ثانية ، حتى اصطره لرفده بخمسمائة دينار مما وصفه صاحب الأغانى ؛ فكانت الغلبة للشعر لا للشرع ، وللغاية السياسية لا الدينية ، فلتقيد هذه الملاحظة فقط ، بلا توسّع ولا إسهاب .

* * *

وبعد ، فللحص ما تقدّم عن شعراء السياسة ، وهم العنصر الهام الذى لعب دورًا بارزا فى الأدب العربىّ فى العصر الأموىّ ، والذى كان له أثره ونتائجه فى العصر العباسىّ ، فى كلمة ختامية فى هذا الموضوع نبين فيها جماعة الشعراء السياسيين وألوانهم السياسية .

كان جلُّ شعراء هذا الدور أمويين ، فانا نجد الى جانب شعراء الدور الأول من أنصار بنى أمية شعراء آخرين أحدوا بناصرهم ودافعوا عن كيانهم مثـل أبى العباس الأعمى هجـاء ابن الزبير، وأبى قطيفة طريد ابن الزبير، وأبى صخر الهـذلى المتعصّب لآل مروان وهجاء ابن الزبير، وعدىّ بن الرقاع، والوليد بن أمية بن عائذ الهـذلى ، وجبيهاء الأشجعى والحكم بن عبدل الأسدى ، والسلولى، وموسى شهوات، وغيرهم .

والشعراء العلويون، وفى طليعتهم النعمان بن بشير الأنصارىّ ، والكُمَيت بن يزيد، وأيمن ابن خريم . على أن الأخيرين اضطرا الى امتداح بنى أمية ومسايرتهم، فانا نجد الكميت قد مدح هشاما، كما نجد أيمن مدح عبد الملك . ثم نجد شعراء دون ذلك مثل أنصار آل المهلّب ابن أبى صُـفْرة كزياد الأعجم وثابت قُطْنة وحمـزة بن بيض وكعب الأشـقرى وغيرهم . وأخيرا نجد حرب آل الزبير ومن شعرائه عبد الله بن الزبير الأسدىّ .

وصفوة القول أن المعركة السياسية بين بنى أمية ومنافسيهم فى الملك أو الجاه وما يتبعهما : من إغداق الأموال والعطايا على أنصار كل فريق، جعلت هوى الشـعراء مع من أحسن اليهم، واللّهُ تَفتحُ اللّها .

* * *

من كل هذا يتبين ما اتسع أمام الآداب العربيـة من مَيدانٍ فسيح فى صروب شتى من ألوان الحياة لم تكن تعرفها من قبل .

وقد آن لنـا أن ننتقل الى الكتاب الثانى من موضوعنا، ونرجو أن نُوفَّقَ الى إيضاح ما أوجزناه، وبسط ما أجملناه، مبتهلين الى الله ألا نضِلَّ فى شُعَبه ومهامهه ، وبُهمه ومفاوزه، بمنه وكرمه .

الكتاب الثانى

عصـــــر بنى العبـــــاس

الفصل الأول

الوجهـــة السياســـية

توطئـــة — دور الانتقـال — الشـــيعة العلوية .

(ا) توطئـــة :

رأينا كيف كانت الحياةُ السياسيةُ والعلميةُ والأدبيةُ فى العصر الأُموىّ ، وكيف طهرَتْ مواطنُ الضعف وعوامل الانحطاط ، وكيف وقع بنو أمية بين الساخِطين من العرب والثائرين من الموالى ، وكيف انحرفَ خلفاءَ معاويةَ عن خُطته السياسية ، وكيف عُرِفَ فريقٌ منهم بالدين وشُغِلَ آخرون بالعبَث والمجُون . ونريد الآن أن نُلمّ إلمامةً قصيرةً بدَوْر الانتقال الى العصر العباسىّ ، قبل التكلم عن العصر نفسه ، لنرى كيف كان اتجاهُ الأفكارِ فى ذلك الحين .

(ب) دور الانتقـال :

إن الذى ينظر فى كتب التاريخ الإسلامىّ عامةً ، ثم يراجع ما كتبه المستشرقون خاصةً عن الدولة الفارسيةِ فى دور انحطاطها وضَياع استقلالها وفناء أهلها فى الإسـلام ، مع رسوخهم فى المدنية وسبقهم الى العلوم الاجتماعية وسياسة الشعوب ، ليَذكُرَ حياةَ اليونان وعلماء اليونان ، حين دالت دولتُهم وخضعوا للرومان وهم دونهم فى العلوم والفنون .

ولسنا هنا بصدد الإفاضة فى بيان المناحى التى تعلّب فيها الموالى على العرب فإن لذلك مكانه الطبعى فى هذا الكتاب . وقُصارانا الآن أن نحيلَ القارئَ الى الجزء الأوّل من كتاب الأستاذ «ادوارد برون» الذى وضعه عن التاريخ الأدبىّ للفرس ، وهو من مجلدات «مكتبة تاريخ الآداب» فإنّ فيه الكفايةَ لمن يريد تفصيلَ .

أدعَى الموالى صاغرين لعلة العرب عامةً والأُمَويين خاصةً ، وداقوا ماداقوا من الذِّلّة والمسكنة ، وعانوا ماعانوا من صروب الهوان ، فكان من المعقول أن يترقبوا الفُرَصَ لينقضّوا على سادتهم العرب ، وأن ينتظروا أوّلَ بارقةٍ تلوح فى أُفق السياسه ليباصِرُوا الناقمينَ على المملكة الأُمَوية : فقد كانت دولةُ بنى أمية مكروهةً عندالناس ، ملعونةً مدمومةً ثقيلةَ الوطأة ، مُستهتَرةً بالمعاصى والقبائح ، فكان الناسُ من أهل الأمصارِ ينتظرون زوال هذه الدولةَ صباحَ مَساءَ .

✦

أضِفْ الى ماتقدّم أن الشيعةَ كانت ، الى جانب قوّة الحجة فى أنها أحق بالخلافَة ، إذ كان أنصارُها يدعون الى بَيعةِ صهر النبىّ أو أبناء بنت النبىّ ، تَصُمّ الى رجالاتها شخصياتٍ بارزةً فى الدين والكفاية والصلاح ، فكان خيارُ الناس يُطيعونها تديّنًا ، وكان عيرُهم يُطيعها رعبةً أو رهبةً . وكان العَلَويّون لايفترُون عن بثّ دُعَاتهم فى العراق وفارسَ وخراسانَ وغيرها من البلاد النائيـة عن مركز الخلافَة التى انفصمَتْ عُروَتُهـا وكان من انحلالها ما وصفناه . وكان الفرسُ يستحدمون زملاءهم المنتشرين فى البقاع العربيه فى الدعوة الى مبايعة خصومِ الأُمَويين ومناصرتهم ، رغبةً فى التخلص من ظلم بنى أمية وعَسْفِهم ، وطمعا فى أن يكونَ لهم من تبدّل الحالِ حظٌّ من العزّة والسلطانِ .

ولْنذكُرْ مع هـذا ثورةَ الممالك الإسلامية عامةً على الأُمَويين ، تلكَ الثورةَ الهـادئةَ المخيفةَ ، التى كان من آثارها أن قُتِـلَ معظمُ وُلاتهم فى الأمصار وأن خرج فريقٌ على الخليفـة . ولنذكر كذلك انشقاقَ البيت الأموىّ نفسـه وتصدّعَ أركانه ، فإن لذلك أثرَه الفعالَ فى ثلّ عرش الأمويين . وقد كانت بدايةُ ذلك الانشقاقِ ، خروجَ يزيدَ بن الوليد على

عمـه الوليد بن يزيد وتشهيره إياه أسوأ تشهير ووصمه بأقبح الوصمات ، حتى تمثّـلَ بعضُ بنى أمية بقول الشاعر :

إنى أعيـذكمو بالله من فتنٍ * مثـل الجمال تَسَامَى ثم تنـدفع
إنّ البرية قـد ملّت سياستكم * فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تُلْحِمُنّ ذئابَ الناسِ أنفسكم . إن الذئاب إذا ما ألحمت رُتُعُ
لا تبقرُنّ بأيديكم بطـونكمو * فثمّ لا حسرةٌ تُغنى ولا جـزع

ولمـا تمّ ليزيدَ الأمرُ خرج عليه مروانُ بن محمد ، وكان أميرَ الجزيرة وأرمينية ، ومعه جيشٌ جرّارٌ يأتمر بأمره ، ومعـه الغمرُ بن يزيدَ للطالبه بدم أخيـه ، فغُلِبَ يزيدُ على أمره وانبسطت فى البيت المـالك يدُ الفُرقة والانشقاق .

(ج) الشـيعة العـــلوية :

لم تصـل الخلافةُ الى معاويةَ إلا بدَهائه وسَـعةِ حيلته وبُعْـد نظره وحُسنِ تصريفه للأمور ، وإلا فقد كان هناك حرب قويُّ الشكيمة عزيزُ المكانة ، يرى علىُّ بنَ أبى طالب أحقَّ بالخـلافة : ولولا دَهاءُ معـاويةَ ما نزل الحسنُ بن على ولا أحلى لخصمه الميـدانَ فى سـنة ٤١ هجرية ، وقد كان من نتيجة ذلك أن سَخِطَتِ الأحزابُ العلويةُ من تصرّفه ، فجمعوا الجموعَ وجنّدُوا الجـنودَ ، وثاروا على أمير الكوفة الأُموىّ وهو زيادُ بن أبيـه — وكان يدَ معاويةَ التى بهـا يصول — ولكنّ زيادا يعرف كيف تُخمدُ الفتنةُ ، وتُطفَأ الثورةُ ، فبادر الى استئصال الداء ، وقتـلَ منهم حلقا كثيرا ، أشهرُهم حُجْرُ بن عدىّ وأصحـابُ حجرِ ابن عدىّ . بَيْدَ أن إراقةَ الدماء تَهيجُ الحماسةَ وتؤجج نارَ العـداوة والبغضاء فى قلوب المغلوبين ، وكذلك ظلت الفتنة تُدِر بالشرّ المستطير .

رأى الدعاةُ العلويون أنه لا قِبَـلَ لهم بمعاويةَ ولا برجاله ، فتربصوا بهم ريبَ المنون وعللوا النفسَ بتقلّبات الحوادث وعَنَيّت الأيام ، راجين أن تعود الخلافة الى بيت النبىّ ،

ولكن شَدَّ ما فزعوا يوم أحد معاويةُ البيعةَ لأبيه يزيد المعروف بالميل الى اللهو والقَصْف والتلهّى بالصيد عن شؤون المسلمين . وفيه يقول عبد الله بن همّام السلولىّ :

حُشيا الغيظَ حتى لو شربنا * دماءَ بنى أميـــة ما رَوِينـا
لقـد صاعت رعيتُكم وأنتم * تَصيدون الأرانبَ عاطيا

وإنا لنعلم أنه لما مات معاوية سنة ٦٠ هـ . وتولى بعده ابنه يزيد ، أبى الحسينُ أن يبايعَ له بالخلافة ، بل رأى أكثرُ أهل التقى فى مبايعـة يزيد خَرْقًا لحرمة الدين . ثم قُتِـل الحسينُ فى كَربلاءَ سنة ٦١ هـ . فألّفتِ الشيعة «حرب التوّابين» بعد وفاة يزيدَ وبيعة مروان ابن الحكم سنة ٦٤ هـ ، وأخرجوا والى الكوفةِ الأُمويَّ عبيدَ الله بن زياد ، وولّوا عليهم رجلا منهم . ثم تألف حربُ « شُرط الله » بزعامة المختـار بن أبى عبيد الله الثقفىّ . وانقسمت الشيعةُ العلويةُ الى فِرَقٍ عِدّةٍ ، أهمها الفرقةُ الإماميّةُ ، وهى التى ترى أن أحقَّ الناسِ بالخلافة هم ولد علىّ من فاطمةَ بنت النبىّ ، والأئمة فى نظرهم اثنا عشر إماما ، وهم : علىٌّ ، والحسنُ ، والحسينُ ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلىّ الرضا ، ومحمد التقى ، وعلىّ النقى ، وحسن العسـكرى ، ومحمد المهـدى . ومنها الفرقة الكيسانيةُ ، وهى التى تقول بتحوّل الخلافة بعـد الحسن والحسين الى أخيهما محمد بن الحنفية . ومنها الفرقة الزيدية نسـبة الى زيد بن على بن الحسين . والفرقة الاسماعيلية نسبة الى إسماعيل ابن جعفر الصادق . وفرق أخرى أصغر من تلك شأناً وأقل أثراً .

* * *

على أنه كان يوجد بجانب أولئـك الولاةِ المخلصين لبنى أميّـة والمسرفين فى مطـاردة الحزب العلوىّ ، فريقٌ آخر ، على رأسه خالد القسرىُّ ، يعمل لمناصرة العلويين سرًّا لا علانيةً ، كما يعمل ، فى العادة ، فريقٌ من موظفى الحكومة لحزب الأقلية المضطهَد طمعًا فى المناصب ، أو نصرًا لعقيدة سياسية ، أو إيثارا للعدل والإنصاف .

على أن الدعوةَ العلويةَ كانت فاترةً صعيفةً ، اذا قُورنت بالدعوة العباسيةِ التى ستتكلم عليها فى الكلمة الآتية . ولعـلّ من أكبر أسـبابِ ضعفِ الدعوة العـلويةِ مبايعةَ زعمـاءِ العباسيين محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكيه ، فقد بايعه أبو العباس السفاح كما بايعه أبو جعفر المنصورِ وغَيرُهما من أئمة الحزب العباسىّ .(١)

وكذلك سارت الدعوةُ لآل محمـد شوطا بعيـدا ، وطاهرَتْها شخصيّاتٌ بارزةٌ، قويةُ الشوكة، وفيرةُ المـال والجاه : أمثال أبى سلمة الحلال الفارسىّ المعروف .

وسـترى كيف تحولت الدعوةُ العلوية الى وجهـة أخرى، وكيف استُغِلَّتْ لمصلحة العباسيين . .

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار فيما ذهبنا اليه ويرى : « أن العلويين كانوا يتهافتون على الخروج على الخلفاء فكثر القتل فيهم فقتلوا بخلاف أولاد على بن عبد الله ، فقد كثروا ولم يتناول القتل منهم أحدا الى ذلك العهد ، عهد القيام بالدعوة» .

الفصل الثانى

العصبية والموالى فى الدولة العباسية

توطئـــة — العصبية — الموالى .

(١) توطئـــة :

لقد مرّت بك إشارةٌ بسيطةٌ حين تكلمنا عن العصر الأُمَوىّ الى حَنَقِ الموالى الذين نالهم فى ذلك العصر من الاحتقار والرايةِ حظٌّ غيرُ قليل ، وبينا لك أنّ هـذه الناحيةَ من المعاملة ، التى لا تنطبق على المذهب الحديث « حرية . إخاء . مساواة » كانت عاملا قويا من عوامل الضّعف والانحطاط فى دولتهـم ، ووعدناك أن ندرُسَ حالَ العصبيةِ والموالى فى هذا الفصلِ من الكتاب ، تَمشّياً مع النظام الذى وضعناه له .

والآن نَعرِض عليك حالَ الشـعوب التى كانت خاضعةً لسلطان بنى أمية حتى تتبينَ أحوالها النفسية والأهواء التى كانت عالقةً عليها . فإنه لا يكفى فى انتقال الملك من شخص الى شخص أو من بيت الى بيت بثُّ الدعوة وتنظيمُها وحرمُ القائمين بها و إحلاصُ المشيرين وكفاية القواد ، بل لابد مع هـذه الأمور أن تصادِفَ الدعوةُ الجديدةُ نفوسًا مستعدّةً لها ، راغبةً فيها ، عاملةً على إنمائها ، لكى تُزهِرَ وتُؤتِىَ ثمـارَها .

والحق أن الدعوةَ العباسية قامت فى وقت كانت قد توزّعتْ فيه الحواصرَ الإسلاميةَ أهواءٌ مختلفةٌ ، وتقسّمَتِ القبائلَ العربيةَ عواملُ العصبية ، وأخذتِ الشعوبُ المغلوبةُ على أمرها والتى أصبحت خاضعةً للنفوذ العربى ، تَستفيقُ من الدهشة التى استولَت عليها من الفورة العربية التى أخضعتها لسلطان العرب المسلمين .

أما الحواضرُ الإسلاميةُ فكان قد غلب على كل حاضرةٍ هَوَى أُسرةٍ أو شخص معين ، ولم تكن لِتخضَعَ للسلطان العربى الأُمَوىّ لولا القوّةُ القاهرةُ ، ولهذا لم يكد يضطربُ أمرُ

بنى أمية فى الأطراف، و يظهرُ الخارجون من الدعاه على ولاتهم، حتى أحدث هذه الحواصرُ تنسَـلُّ عن طاعة بنى أمية واحدةً بعد أخرى . وتستطيع أن تَلتمِسَ هذه الظاهرةَ بَيِّنَـةً واضحـةً من تقاعد الولايات عن نُصْرة آخر خلفاء بنى أميه عنـد ما حَربه الأمرُ وتعقَّبه مُطـاردوه .

(ب) العصـــــبية :

العصبية هى مُناصرةُ من يَمُتُّ اليك بصلةٍ من صِلاتِ الحياه : كأن تجمعكما رحِمٌ قريبة أو بعيدةٌ، أو عقيدةٌ دينيةٌ، أو هوًى سياسىٌّ . فيظهر أنها من طبيعه الوجود، اذ لاتختص بها قبيلةٌ دون قبيلةٍ، ولا أمةٌ دون أمةٍ، ولا جنسٌ دون جنسٍ ، ولا عصرٌ دون عصرٍ . وكما توجد فى الأمم البادية، كذلك توجد فى الأمم الحاضرة . وما الدعواتُ القوميةُ والعراتُ الجنسية إلا نوعٌ من العصبية بمعنًى أوسعَ .

والعصبيةُ العربيةُ، التى نحن بسبيل القولِ فيها، والتى كانت من الأسباب التى اعتمدَ بها سلطان بنى أمية، قديمةٌ فى القبائل العربية : كانت فى الجاهلية قبلَ الإسلام، وكانت تضيقُ وتتسعُ بحسب الظروف والمناسبات، فمرةً نراها بين العدنانية والقحطانية، وهو أوسعُ معانيها من الوِجهة التاريخية العربية، نراها بين ربيعةَ ومضرَ وهى قبائلُ عدنانيـةٌ، ونراها بين بنى أميه و بنى هاشم، وقد يكون هـذا من أضيق ميادينها . وكانت هـذه العصبياتُ تشتدّ حينا وتفتُرُ آخر .

فلما جاء الإسلامُ ودخل الناسُ فيه أفواجا وتمّ له السلطانُ فى جزيرة العرب، ألّف بين القبائل وأزال ما فى صدورهم من أحقادٍ، وذلك ما يشير اليه قولُ الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . ألّف الإسـلامُ بين قلوب العرب ، وأزال كلَّ أثرٍ للعصبية القديمة فى نفوسهم ، ولكنه استبدلها عصبية واسـعةٍ شاملةٍ هى عصبيةُ الإسلام، وجعلَ المؤمنينَ جميعا إخوةً .

و بقى أمرُ العرب كذلك الى عهد الخلفاء الراشدين، وذلك راجع لا محالة الى عواملَ شديدةِ الأثرِ فى نفوسهم، كهيمَنَةِ الروح الدينيةِ عليهم، وكانشغالهم بالفتح وما استتبع الفتحَ من عمائم، وكحزم الخلفاءِ وحكمتِهم وشدّة الوُلاة وقسوتهم .

فلما كان العصرُ الأُمَوىّ واستقرّ الناسُ فى الحواضر الإسلاميـة وشُغِلُوا بعضَ الشيءِ عن الفتوح، راجعتهم الشنشنةُ القـديمةُ، فأحذ بعضُهم يفتخر على بعض بما كان لآبائهم من مجـدٍ فى الجاهلية وبلاءٍ فى الإسـلام، وما لقبائلهم من قوّةٍ وأيد . وقد أدرك بعضُ شعرائهم النتائجَ السيئةَ لذلك ، فقال الحارث بن عبـد الله بن الحشرج بن المغيرة بن الورد الجعـدىّ :

أبيتُ أرعى النجومَ مرتفقًا * اذا استقلّتْ تجـرى أوائلُها
من فتنةٍ أصبحت مجللةً * قد عمّ أهـلَ الصلاةِ شاملُها
من بحراسانَ والعـراق ومن * بالشأم كل شجـاه شاعلُهـا
فالناس منها فى لون مظلمـةٍ * دهمـاء ملتجّـة غيـاطِلُها
يُمسِى السفيهُ الذى يعنفها مال * جهل سـواء فيهـا وعاقلُها
والـناس فى كربةٍ يكاد لهـا * تنبـدُ أولادَها حواملُهـا
يعدون منهـا فى كل مبهمةٍ * عميـاء تمنى لهـم عوائلُها
لا يبطر الناسُ فى عواقبهـا * إلا التى لا يبين قائلُهـا
كرعوة البكر أو كصيحة حبـ * ـلى طرقَتْ حولَهـا قوابلُها
جـاء فيـا أزرى بوجهته * فيهـا خطوبٌ حمر زلازلُهـا

ولقـد زاد فى إذكاء العصبية بين القبائل العربيـة حُمْقُ بعض الولاة، وعدمُ أخذهم الأمور التى تقع بين أيديهم بالحزمِ والحكمةِ ، وأيضا استهانةُ بعضِ الخلفاءِ الأمويين ببعض الأمورِ وعرورُهم بما لهم من سلطان، فكانوا لا يبالون شعورَ الناسِ فى تعيين الولاةِ عليهم، مما كان له أبعد أثر فى صرف النفوس عنهم واستجابتها لكل داعٍ الى الخروج عليهم . وحسبك

أن تَرى هشامَ بن عبد الملك، مع حَزمه وبُعْد نظره، يُعيّن نصرَ بن سيّار والياً على خراسان، وهو يعلم أن عَصبيّته بها ضعيفةٌ، فإنه لما استشار فيمن يوليه خراسان بعد أسد بن عبد الله القسرى، كان مستشارُه يُسَمِّى له أشخاصًا بما لهم من محامدَ ومدامٍ، فلما جاء ذكر نصر بن سيار قال : إن اغتمرتَ له واحدةً فإنه عفيفٌ مجرّبٌ عاقلٌ؛ قال هشام : وما هى؟ فقال المشير : عشيرته بها ضعيفة، فقال هشامٌ : «أوَ تريدُ عشيرةً أقوى منّى ! أنا عشيرته !» .

على أن كلمةَ هشام قد تُخفِّف من آثارها السيئةِ متانةُ حكومته، ونفاذُ صولتـه، وقوّةُ شوكته، ولكنّ الخلفاءَ جميعا ليسوا كهشام حزمًا واقتدارًا، وليست أيامُهم كأيام هشام نجحا وانتصارا .

ومهما يكن من شيء فإنّ تولية نصر بن سيار على خراسان، كانت فى الواقع شؤمًا على بنى أميـــة .

وقد بلغت العصبيةُ بين مُضَرَ واليمن فى خراسان طوراً عنيفاً، حمـل التراوحَ بين الفريقين موضعَ اضطهادٍ وسُخريةٍ وازدراء .

ولقد قالت أُم كثير الصبيةُ لما هـدم اليمنيون دُورَ المضرية أثناء الحروب التى كانت بين نصر والكرمانىّ بسبب العصبية :

لا بارك اللهُ فى أنثى وعدَّبهـا * تزوّجت مُضَـــرياً آخرَ الدهرِ
أبلغ رحالَ تميم قولَ مُوجعـــةٍ * أحللتموهـا بدار الذلّ والفقـرِ
إن أنتمُ لم تكرّوا بعـد جولتكم * حتى تُعيدوا رجالَ الأزدِ والظهرِ
إنى استحيتُ لكم من بذل طاعتكم * هـــذا المزونى يَحْبِيكم على قهرِ

وقال شاعر آخر :

ألا يا نصرُ قـد بَرَح الخفـاءُ * وقـــد طال التمنّى والرجاءُ
وأصبحت المزونُ بأرض مَرْوٍ * تُقَصّى فى الحكومةِ ما تشاءُ
يجـــوز قضاؤها فى كلّ حُـكم * على مُضَرٍ وإن جار القضاءُ

وخِـيرُ فى مجالسها قعـودٌ ... تَرَقْـرَقُ فى رقابهـم الدماءُ
فإن مُصَرُّ نذا رضِيَتْ وذلّتْ ... فطـال لهـا المذلّةُ والشقاءُ
وإن هى أعتبَتْ فيهـا وإلا ... حُـلّ على عساكرها العفاءُ

ولقد استغلّ الدعاةُ العباسيون العصبيةَ ، التى فتّتْ فى عضدِ الأمويين ومزّقتهم أشتاتا وطرائقَ قِددًا، حيرَ استعلال، وهو ما كان له أبلغُ أثرٍ فى القضاء على سلطان بنى أميـة . ذلك أن نصر بن سيار، وهو عامل خراسانَ، قد تحامل على اليمن وربيـعة وقدّم المضريةَ فوثب به حديعُ بن علىّ الكرمانى الأزدى، وكان رئيسَ الأزد يومئـذ ورحُلَهم، وقال له : ندعُكَ وعملكَ ومالت معه اليمـانيةُ وربيعةُ فأخذه نصرٌ وحبسهُ، فأتت اليمنُ وربيعةُ حتى أخرجوه من محـبسه كيف ! ثم اجتمعوا . ورامَ نصرٌ أن يخـدعَه فيصـير اليـه ، فلم يفعل . وكاد فى نصر بعضُ الخُـرْقِ . فلمـا علم حديعٌ أن اليمنَ وربيعـةَ قد اجتمع رأيُهما معه على نصر وثبَ عليه، وكان له العـلوُّ على نصر، فـال أبو مسلم الى الكرمانىّ فقـال : ادعُ الى آل محمد، وحمل يُمـايل أصحابَه ويدعوهم الى ذلك، حتى أظهروا دعوةَ بنى هاشم بخراسانَ .

هـذا ما كان من أمر العصبيه بين العـرب واسـتغلالهـا فى إظهار الدعوة لبنى العبـاس .

على أنه يجدُر بك، ألّا يعزُبَ عن ذهنك، أن العصبيةَ وإن كانت قد حدَمتِ العباسيينَ أحلَّ الخـدم فكانت بمثولَ هَدْمٍ وعامِلَ فنـاء فى صَرح الأموية، كان صِرامُها وأجيجُها وحروبُها وفتنُها لم تُمهّدْ سراعا، ولم ترجع أمورُ العباد الى نِصَابها من الموادعةِ وحسنِ المصانعة بتيسير حال، بل أحذت دَورَها المحتومَ، وكانت حَسَكًا وقتادا، القَيسةَ بعد القَيسة، فى بعض الولايات والأمصار، لبنى العباس أنفسهم، كما ستقف عليـه فيما سنسرُدُه عليك ، من خلاصةِ أخبارهم، ومجمل تاريخهم .

(ج) المـــوالى :

لما أفضت الخلافةُ الى الأمويين، كان عددُ الموالى آخذًا فى الازدياد، بسبب ماحلبته الفتوحُ الإسلاميةُ من الأسرى، وماكان يُهديه الولاة الى الخلفاء من الرقيق، فإن الولاةَ كثيرًا ماكانوا يبعثون الى الخليفة بمئاتٍ أو ألوفٍ من الرقيق الأبيض أو الأسودِ هديةً أو بدلًا من الخراج أو نحوه .

ومن كان يَحَرَّر من هؤلاء عتق أو مكاتبةٍ أوتدبيرٍ يصير مولًى، وينسبُ الى أسرة مُعتقه أو قبيلته، مع ملاحظة عدمِ أهليته للبناء على قرشيةٍ أو عربية .

كَثُرَ عدَدُ الموالى جدًا ، فانصرف فريقٌ منهم الى الصناعة، وآخرُ الى الزراعة أو غيرها من شؤون الحياة، وانصرف فريقٌ آخر الى العلوم والفنون والآداب، فكان منهم جِلَّةُ الفقهاء ورواةُ الحديث، كما كان منهم الشعراءُ والكُتَّاب والمغنّون، وتولت طائفةٌ منهم المناصبَ السامية فى الدولة كالقضاء والحجابة وما الى ذلك .

على أنه مع ماكان لكثيرٍ من الموالى من قَدَمٍ راسخةٍ، ومنزلةٍ رفيعةٍ، فى العلم والأدب والصون، كان العرب ينظرون اليهم دائما نظرةَ احتقارٍ وازدراء .

وكان هذا الاحتقارُ والازدراءُ . يظهرُ فى معاملة العرب للموالى وأحاديثهم عنهم . ولما كان الموالى أهلَ علمٍ وأدبٍ، وينتمى كثيرٌ منهم الى دُوَرٍ كان لها من السلطان ومظاهرِ الحضارة حظٌّ عظيمٌ ، بل كان للفرس وحلّ الموالى منهم سيادةٌ ظاهرةٌ على العرب قبل الإسلام — لما كان كلّ هذا عَظُمَ على الموالى أن يحتملوا كلّ هذا الضيم من العرب فاندفعوا يذودون عن شرفهم وكرامتهم . ومن هنا نشأت الشُّعُوبيةُ . والشُّعُوبيةُ مذهبُ من يرى تفضيلَ العجم على العرب أو التسويةَ بين الفريقين . ثم أخذ الشعراء وغير الشعراء من الفريقين يتبارَوْن فى إكبار كلّ لفريقه والحطّ من الفريق الآخر .

وكان نصيبُ الموالى فى حالة تمدّحهم لقومهم من الخلفاء الأمويين مَدْعاةً الى زيادة مَقتهم لهم وزيادةِ السخيمة فى قلوبهم عليهم . وإنا نُثبِتُ لك هنا مثلا استشهد به الأستاذ

«برون» فى كتابه عن أدب الفرس نقلا عن الأغانى قال : «إن إسماعيل بن يسار دخل على هشام بن عبـد الملك فى حلافته، وهو بالرَّصَافةِ جالسٌ على بركةٍ له فى قصره، فاستنشده وهو يرى أنه يُنشِدُ مديحا له، فأنشدة قصيدته التى يمتحر فيها بالعجم :

يارَبَعَ رامـةَ بالعلياءِ من ريم * هـل ترجعَنّ اذا حييتُ تسليمى
ما مال حىّ غدت بُزْلُ المطىّ بهم * تَحْـدى لغربتهـم سـيرا بتقحيم
كأنى يوم سار وا شارتٌ سَلَبَتْ * فؤادَه قهوةٌ من خمـر دَارُوم

حتى انتهى الى قوله :

إنّى وحدِّكَ ما عُودِى بدى خَوَرٍ * عند الحِفَاظِ ولا -عوصى بمهدومِ
أصـلِى كريمٌ ومحدى لا يقاسُ به * ولى لسانٌ كحـدّ السيف مسمومِ
أحمى به محدَ أقوام دوى حسب * من كل قَرْمٍ بتـاج الملك معمومِ
جَحَـاجِحٍ سادة نُجْـح مَرازِبة * جُرْد عِتَـاق مسـامِيح مطاعـيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معا * والهُرمُزان لفخرٍ أو لتعظيمِ
أسد الكتائب يوم الروع إن زحموا * وهم أدلّوا ملوكَ الترك والرومِ
يَمشون فى حَلَقِ المـادى سابغـة * مشىَ الصراغمة الأسـد اللهاميم
هناك إن تسألى تُنبَّئى بأن لنـا * جرثومةً قهـرَتْ عزَّ الجـراثيم

قال : فغضب هشام وقال له : يا عاضّ بَظْرِ أمه، أعلىّ تفخر، وإياى تنشد قصيدةً تمدح بها نفسَكَ وأعلاج قومك! عُطُّوهُ فى المـاء، فغطُّوهُ فى البركة، حتى كادت نفسُه تخرجُ، ثم أمر بإخراجه وهو يشرّ، ونهاه من وقته، فَانْحرحَ من الرَّصَافة منفياً الى الحجاز. قال : وكان مبتلًى بالعصبية للعجم والفخر بهم، فكان لا يزال محرومًا مطرودًا .

ولما كان شأنُ الخلفاء الأمويين شأنَ سائر العرب فى التعصب على الموالى حتى كانوا يستعملونهم فى الحروب مشاةً ولا يُعطونهم شيئا من الغنائم والفيء، نفرت نفوسُهم منهم

وأصبح سلطانُهم مفيضًا اليهم، وصاروا عوناً لكل من خلع الطاعةَ ، أو طلب الخلافةَ من العلويين أو الخوارج .

ولقد كان العباسيون يُدرِكونَ هذا الشعورَ فى الموالى، فاستغلُّوه خيرَ استغلالٍ، إذ اتحدوا حِلَّة المبشرين بدعوتهم منهم ، واعتمدوا كلَّ الاعتماد عليهم . ورأى الموالى فى الدعوة الجديدة شفاءً لما فى صدورهم من حِقْدٍ على بنى أمية خاصةً وعلى العرب عامةً ، فأخلصوا للدعوة الجديدةِ، وبذلوا فى تحقيقها كلَّ ما يملكون من نفوسٍ وأموالٍ .

على أن لهذا الموضوع نواحىَ متشعبةً، يحول دون التحدّث فيها ما رسمناه لأنفسنا من التزام القصد والإيجاز.

الفصل الثالث

الدعـــوة العباســـية

توطئـــة — تأليف الجماعات السرية — الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراسانى .

(أ) توطئـــة :

كانت الدعوةُ العلويةُ تسير حثيثا الى حتفها مع الدعوة العباسية ، فقـد كان الفريقان مُصطَهَدَينِ مغلوبين على أمرهما ، وكان من المعقول والطبعىِّ أن تطمح بنى أمية لهؤلاء وهؤلاء يجمعُ ما تفترق من أهوائهم ويقلّل حِدّةَ ما بينهـم من عوامل التنافس والخلاف . وقد كان بنو هاشم أعداء للأُمويين قبـل الإسلام بسبب التراحم على السيادة فى قريش . ولشدّ ما كان طلبُ السـيادةِ والزعامةِ مَدْعاةً الى العداوة والشحناءِ وسـبباً الى التناحر والتقاتل بين بنى الإنسان !

حدّ العباسيون فى دعوتهم السياسـية وهم فى الحُمَيمَةِ من أعمال البلقاء بالشأم ، وزادوا حَمِيَّةً وحماسةً بترك أبى هاشم بن محمد بن الحنفية العلوىّ زعيمِ الحزب الكيسانى لمحمد بن على بن عبد الله بن عباس حين دسّ اليه سليمان بن عبد الملك مَنْ سَمّه ، إذ رأى فيـه من المهابة والوقارِ ما يؤهّله للخلافة ويقرّبه من قلوب الجماهيرِ . وقد كان فى ترك أبى هاشم هذا لصاحب الدعوةِ العباسيةِ توحيدٌ لحزبين قويين : هما الحزب العباسىّ[1] والشّيعةُ الكيسانيةُ . وهذا التوحيد أو التقريبُ بين الحزبين كانت ثمرتُه لحزب العباسيين .

(ب) تأليف الجماعات السرية :

عمـل العباسيون فى تأليف الجماعات السرّية للدعوة ، واختاروا من الدعاة اثنى عشر نقيبا وهم : سليمان بن كثير الخزاعى ، ومالك بن الهيثم ، وطلحة بن زريق ، وعمر بن أعين ،

(١) هذا رأينا ويرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : «أنه لم يكن لبنى العباس حزب قبل أبى هاشم» .

وعيسى بن أعين، وقحطبـة بن شبيب الطـائى ، ولاهز بن قريط التميمى ، وموسى بن كعب ، والقاسم بن مجاشع ، وأبو داود خالد بن ابراهيم الشيبانى ، وأبو على الهروى شـبل ابن طهمان الحنفى ، وعمران بن اسماعيل المعيطى .

واختار محمـد بن على سبعين رجلا يأتمرون بأمر هؤلاء الدعاة . وكتب اليهم كتابا يُوصيهم فيه بما يرجو أن يُوفّقوا الى العـمل به وهم يوجّهون الدعوةَ ويحـاورون الأحـــزابَ .

وهـذا الكتاب يدل على ما كان عليه هـذا الزعيمُ العباسى من علم بأحـوال النـاس فى عصره ، وبَصر بأخلاق الشـعوب التى كانت خاضـعةً للسلطان الاسلامى ، وبما كانت تحيش به النفوسُ فى كل صُقْع وحاضرة . وبمثل هذا الزعيم الداهيةِ ومن احتاهم للدعوة العباسية ، قد كُتِبَ الفوزُ لهـذه الدعوةِ آخرَ الأمر . ومما قاله هـذا الزعيمُ فى كتابه :

« أما الكوفةُ وسوادُها فشيعة علىّ وولده . وأما البصرةُ وسوادها فعثمانيـةٌ تدينُ بالكفّ تقول : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبدَ الله القاتلَ . وأما الجزيرةُ فحرورية مارقةٌ وأعرابٌ كأعلاج ومسلمون فى أخلاق النصارى . وأما أهلُ الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعةَ بنى مروان ، وعداوةً راسخـةً وجهلا متراكما . وأما مكةُ والمدينةُ فقـد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسانَ ، فإن هناك العددَ الكثيرَ والجَلَدَ الظاهرَ ، وهناك صدورٌ سليمةٌ ، وقلوبٌ فارغةٌ لم تنقسمها الأهواءُ ولم يتوزّعها الدَّغَلُ ، وهم جِدٌّ لم أبدانٌ وأجسام ومناكب وكواهل وهاماتٌ وبِلىّ وشوارب ، وأصوات هائلة ، ولغاتٌ فخمةٌ تخرج من أجواف منكرة ... وبعد ، فإنى أتفاءل الى المشرق ، والى مطلع سراج الدنيـا ومصباح الخلـــق » .

✦

(ج) الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراسانى :

كان الدعاةُ العباسيون يتنقلون فى مختلف الأمصار ، وكانوا فى ظاهر الأمرِ طلّاتَ رِزقٍ يزاولون التجارةَ ، وكانوا فى الواقع رحالَ سياسةٍ ودهاءٍ ينشُون الدعوةَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ ، ويدعون الناس الى مُناصرتهم بشتّى الأساليب .

وظلوا كذلك الى أن تُوفّى محمد بن علىّ ، وعهد بالأمر من بعده الى ابنه ابراهيم الإمام . فكاتب هذا مشايخَ خُراسانَ ودهاقينَها ، و بعث اليهم الدعاه ، وأرسل أبا مسلم لخراسانَ لبثّ الدعوةِ هناك ، فكانَ يدعو الى آل محمد ، يريد أهلَ البيت ، من غير أن يُعيّنَ العباسيين ولا العَلَويينَ .

وقد كان أبو مسلم من أبطال الحرب والسياسة ، شديدَ الإخلاص للعباسيين ، مُسرِفًا فى خدمتهم ، كثيرَ الدهاء ، واسعَ الحيلة ، خبيرا بما يقتضى عملُه من الحزم والقسوه ، فلا تعرِفُ الرحمةُ قلبَه ، ولا يتناول الأمورَ إلا بالحزم والبأس الشديد .

ونستطيع أن نتبينَ مَرْمى السياسة العباسية من الكتاب الذى بعث به إبراهيم الإمام الى أبى مسلم الخراسانىّ ، فيما يرى أن يعمله لتأييد الدولة الجديدة . قال : « إنك رجل منا أهل بيت ، احفظ وصيتى : اطرد هذا الحى فى اليمن فالزمهم وآسكن بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمرَ إلا بهم . وانّهِمْ ربيعةَ فى أمرهم . وأما مضرُ فإنهم العدوّ القريبُ الدارِ . واقتل من شككتَ فيه . وإن استطعت ألا تدعَ بخراسانَ من يتكلم بالعربية فافعل . وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله » .

وقد حرص أبو مسلم على تنفيذ هذه الوصية ، فكان يُسرعُ الى قتل كل من يتهمه ، ويقضى على كلّ من يرتاب فى أمره ، حتى بلغت ضحايا هذه الخُطّةِ فيما يقول المؤرخون العربُ ، ستمائة ألف نفس قُتِلَتْ صبرا .

ومهما افترضت المبالغة والغلو فى إيرادهم هذا العدد، فإن الواقع أن أبا مسلم قد أسرف أيمـا إسراف فى القتل وسفك الدماء تنفيذًا لوصية الإمام .

حلّ أبو مسلم خراسانَ سنة ١٢٨ هـ فساسها بحزمه ودهائه وقوته، وأقام بقرية من قُرى مرو يقال لها "سفيدنج"، وقد كَثُرَ أنصارُه وانثالَ الناسُ عليه من كل صَوْبٍ، فأعلن فيهم لبسَ السواد واتخذه شعارا للعباسيين ، ثم غيَّر شكلَ صلاة العيدين بأن بدأ بها قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة، وكانت سوآمية تبدأ بالإقامة كصلاة يوم الجمعة، وأمر بأن يُكبِّر ستّ تكبيرات تباعا، وكاتب نصرَ بن سيار الوالى الأموى . ولما ضاقت " سفيدنج " عليه ولم تتسع لأنصاره، رحل الى الماخوان[1]، وكانت عدّةُ رحاله، فيما يقول المؤرّخون، سبعة آلاف رجل . ثم آحتال فى التفرقة بين نصر ورحاله ، حتى أحدث بناءُ خصمه ينهارُ، ويتخلى عنه أنصارُه واحدا بعد واحد . وفى هـذا يقول نصر شعرا بعث به الى مروان الحمار الخليفة الأمـوى :

أرَى بينَ الرمادِ وميضَ نارٍ * ويوشكُ أن يكون لها ضِرَامُ
فإن لم تُطْفِها عقلاءُ قـوم * يكون وَقُودَهـا جُثَثٌ وهَامُ
فإن النار بالعُودَيْنِ تُذْكَى * وإنّ الحـرب أوّلُهـا كلامُ
فقلت من التعجب ليت شعرى * أأيقـاظٌ أُميَّـةُ أم نيَـامُ

فلما ورد هـذا الشعرُ على مروانَ لم يُحِبْ عليه بما يحب أن يُجيبَ به الملكُ الحازمُ الحريصُ على ملكه المبقِي على عرشـه : من مبـادرته بإرسال الكتائب والجيوش لكبح الثائرين على الملك أو إعداده المعدّات لإرسالها، وإنما كتب الى نصر كتابا يمثّل الصعفَ والاستسلامَ ، ويُنبئ بجنوحه الى سياسـة القول والكلام ، فى موضع يتطلب تقـلد الرمح والحسام، يقول فيه :

(١) الماخوان بضم الخاء المعجمة وآخره نون قرية كبيرة ذات مارة وجامع من قرى مرو ومنها خرج أبو مسلم صاحب الدعوة الى الصحراء .

« إن الحاصرَ يرى ما لا يرى الغائبُ، فاحسِمْ أنت هذا الداءَ الذى قد ظهر عندك » فقال نصر لأصحابه : « أما صاحبكم فقد أعلمكم أنه لا نصرَ عنده » .

* * *

يجب ألّا يفوتنا أن نشيرَ هنا الى ناحيةٍ مهمّةٍ فى خُلُقِ أبى مسلم تُمثّلُ ما يجب على القوّاد من الحزم والكتمان ، فقد جاء فى « كتاب المحاسن والمساوى » للبيهقى ما نصه : « قيل لأبى مسلم صاحب الدولة : بأىّ شىء أدركتَ هذا الأمرَ ؟ فقال : ارتديتُ بالكتمان، وأُتزرت بالحزم، وحالفتُ الصبرَ، وساعدتِ المقاديرُ، فأدركتُ طَىّ وحرتُ حدّ نُعيتى . وأنشد :

أدركتُ بالحزم والكتمان ما عجَزَتْ * عنه ملوكُ بنى مروان إذ حَشَدُوا
ما زلتُ أسْعَى عليهم فى ديارهمُ * والقومُ فى غفلةٍ بالشأم قد رَقَدُوا
حتى ضربتهمو بالسيف فانتبهوا * من نومة لم يقمها قبلهم أحدُ
ومَنْ رعى غنما فى أرضِ مَسْبَعَةٍ * ونام عنها تولّى رَعيَها الأسَدُ» اهـ

على أن مروان استيقظ أخيرًا من غفوته ، وابنه من غفلته، وأمر بأخذ إبراهيم بن محمد . فلما قُبِضَ عليه فى الحميمة بالبقاء أوصى بالأمر الى أخيه أبى العباس ، وأمر أهله وأنصارَه بالمسير الى الكوفه، وحَضَّهم على السمع والطاعة لأبى العباس .

وقد حُبِسَ إبراهيم فى سجن «حرّان» مع جماعة من خصوم مروان من بنى أميه، وظلّ فى سجنه حتى مات . وقد اختلف المؤرّخون فى كيفية موته، فمنهم من قال : إنه سُقِىَ سُمًّا، ومنهم من قال : هُدِمَ عليه بيتٌ فمات .

على أن المؤرّخين وإن اختلفت أقوالُهم فى كيفية موته قد أجمعوا على أنه قد مات غِيلةً وانتقامًا . وقد رثاه بعضُ الشعراء فقال :

قد كنتُ أحسَبُنى جَلْدًا فضعضعنى * قبرٌ بحرّانَ فيه عِصمةُ الدينِ
فيه الإمام وخير الناس كلهم * بين الصفائح والأحجار والطين

فيـــه الإمامُ الذى عمّتْ مصيبتُه * وعَمّتْ كلَّ دى مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمةً * لكن عفا الله عمن قال آمين

ثم انتقلَ الأنصارُ الى الكوفة، وقد ساعدهم أبوسلمةَ الخلّالُ المعروف "بوزير آل محمد"، ولكنه عدل عنهم أخيرا . وقيـل : إنه كاتب ثلاثةً من أعيان بنى علىّ : يَعرِضُ الخلافةَ على أحدهم وهم : جعفر الصادق بن محمد الباقر، وعبدالله المحض بن حسن، وعمر الأشرف ابن زين العابدين ، وكانت خاتمةُ حياته القتلَ .

ونريد بعد الذى قدّمناه أن نُلِمّ بحياة الخلفاء العباسيين الذين سبقوا المأمونَ، لنرى كيفَ كانت الحياةُ السياسيةُ فى عهدهم الذى كان بلا شـك نواةً صالحةً لعصر المأمون . وإنا لنرجو، اذا وُفّقنا الى بيان المناحى التى امتاز بهـا هؤلاء ، أن ينكشف الغطاءُ عن حقيقـة أمرهم ومكانتهم التاريخيـة ، كما نرجو أن نظفَر من وراء تفهم أقدارهم وحقيقة عصورهم بتفهم الأصول التى كوّنتِ العصرَ الذى من أجله وُضِعَ هذا الكتابُ .

الفصل الرابع

أبو العبـاس الســـفاح

كان أبو العباس السفاح أوّلَ من تولى الخلافةَ العباسيةَ ونقل الملكَ من بنى أميةَ الى بنى العباس . وقد أجمع المؤرّخون على أنه كان وافرَ الكرم ، ظاهرَ المروءة ، جليلَ الوقار ، كثيرَ الحياء ، حسنَ الأخلاق ، وَصُولًا لذوى الأرحام .

وكان الى جانب هذه الأخلاق السمحةِ الرضيةِ ، يجمع قلباً ذكيا وأنفاً حميا ، فى تعقب الأمويين وتبـديد شملهم ، فى كل بقعةٍ يخشى أن تُسمَعَ لهم فيها كلمةٌ ، أو يطاعَ لهم رأىٌ ، أو يؤثَرَ عنهم صنيعٌ . وكانت هذه الدولةُ الناشئةُ تحتاج الى مثل هـذه القسوة من مثـل أبى العباس السفاح .

ويجب أن نذكر ، دائما فى مثل هـذه الظروف ، أنّ جلَّ الملوكِ الذين بُعثوا لإنشاء دولٍ جديدة ، وممالك حديدة ، وأسرات ملكيةٍ جديدةٍ ، مثل أبى العباس السفاح وعيره ، هم مُكْرَهُون لا محـالة على اسـتعمال القسوة وأخذ الأمور بالحزم والشـدةِ ، دون إغفالهم الموادعة والملاينة فيما لا يهدّد عروش ملكهم وصروح سلطانهم .

قالوا : إنه كان فى بعض أيامه جالسا فى مجلس الخلافة وعنـده سـليمانُ بن هشام بن عبد الملك وقد أكرمه وتبسط معه حتى دخل عليه سَدِيفٌ الشاعر وأنشده :

لا يغرّنْك ما ترى من رجال * إنّ تحت الضـلوع داءً دويّا
فضع السيفَ وارفع السوطَ حتى * لا ترَى فوق ظهـرها أُمَوِيّا

فقال له سليمانُ : قتلتنى ياشيخُ ! ودخل السفاحُ وأُخِذَ سليمانُ فقُتِلَ .

وهذا الذى صنعه السفاح أصبح سنّةً عباسيةً فى تأبيد الملك . وكان قليلٌ من الإغراء كافياً فى مجق من تقع عليـه العينُ من خصوم الخلافةِ ، فقد دخل شبل بن عبد الله مولى

بنى هاشم على عبد الله بن علىّ، وعنده من بنى أمية نحو تسعين رجلا على الطعام، فأقبل عليه فقال :

أصبح الملكُ ثابتَ الآساس * بالبهاليلِ من بنى العباس
طلبوا وترَ هاشم فشفَوْها * بعد ميلٍ من الزمان وياس
لا تُقيلنّ عبدَ شمس عِثارًا * واقطعَنْ كلّ رقلة وعراس
خوفُهم أطهرَ التودّدَ منهم * وبهم منكُمُ لحزّ المواسى
ولقد ساءنى وساء قبيلى * قربُهم من تمارٍ وكاسى
أنزلوها بحيثُ أنزلها الله * بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرعَ الحسين وزيدٍ * وقتيلًا بجانب المهراس
والقتيلَ الذى بحرّانَ أمسى * رهنَ رمسٍ فى غُربةٍ وتناسى

فأمر بهم عبد الله فضُربوا بالعُمُد حتى قُتلوا، وبسط الطعامَ عليهم، فأكل الطعامَ عليها وهو يسمع أنينَ بعضهم حتى ماتوا جميعا .

ولم تقف هذه الوحشيّةُ عند حدّ التنكيل بالأحياء، بل تعدّتهم الى الأموات، فقد ذُكِرَ أن عبد الله بن على أمر بنبش قبور بنى أميه بدمشق، فنُبِشَ قبرُ معاويةَ بن أبى سفيان فوُجِدَتْ فيه عظام كأنها الرمادُ . ونُبِشَ قبرُ عبد الملك بن مروان فوُجِدَتْ فيه جمجمته . وكان لا يوجد فى القبر إلا العضوُ بعد العضو، غير هشام بن عبد الملك فقد وُجِدَ صحيحًا لم يَبْلَ منه إلا أرنبةُ أنفه، فضربه بالسياط وصلبه وأحرقه وذرّاه فى الريح . ثم تعقّب أولادَ الخلفاء من بنى أميه فلم يُفلِتْ منهم إلا من كان فى المهد صبيا . وأدرك بعضَ الهاربين الى الأندلس فقتلهم بنهر أبى فُطْرُس(١)، وكان فيمن قتل محمد بن عبد الملك بن مروان، والعمر

(١) نهر أبى فُطْرُس بضم الفاء وسكون الطاء وضم الراء وسين مهملة . موضع قرب الرملة من أرض فلسطين به كانت وقعة عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس مع بنى أمية فقتلهم فى سنة ١٣٢ هـ .

ابن يزيد بن عبد الملك ، وعبد الواحد بن سليمان ، وسعيد بن عبد الملك ؛ واستصفى بعد ذلك ما كانوا يملكون من نَشَبٍ ومال ، فلما فرغ منهم تمثّل بهذه الأبيات :

بنى أميـة قـد أفنيت جمعكم * فكيف لى منكم بالأوّل المـاضى
يُطَيِّبُ النفسَ أن النـار تجمعكم * عُوِّضتُمُو من لظاها شرَّ مُعْتاضِ
مُيتمو — لا أقال الله عثرتكم — * بليث عاب الى الأعداء نهّاض
إن كان عيظى لموت منكم فلقد * مُنِيتُ منكم بمـا ربى به راضى

قلنا : إن السفاح كان الى جانب هذه القسوة برّا بدوى رحمه ، وَصُولًا لهم . ولنذكر مثالا لذلك : تصرّفه مع آل الحسن بن علىّ الذين بايع بعضُ العباسيين رجلًا منهم هو محمد ابن عبد الله كما بينا من قبل ، فقد روى عبد العزيز بن عبد الله البصرى عن عثمان بن سعيد ابن سعد المدنىّ : أنه لمـا وَلِىَ الخلافة أبو العباس السفاح قدم عليه بنو الحسن بن على بن أبى طالب فأعطاهم الأموالَ وقطع لهم القطائعَ ، ثم قال لعبد الله بن الحسن : احتكم علىّ ، قال : «يا أميرَ المؤمنين بألف ألف درهم ، فإنى لم أرها قطّ» ، فاستقرضها أبو العباس من ابن مُقْرِن الصـيرفىّ وأمر له بها . قال عبـد العزيز : لم يكن يومئذ بيتُ مال . ثم إن أبا العباس أُتِىَ بحوهر مروان فجعل يقلّبه وعبد الله بن الحسن عنده فبكى عبـد الله ؛ فقال له : ما يُبكيك يا أبا محمد؟ قال : هـذا عند بنات مروان وما رأت بنات عمك مثله قط ! قال . فأهداه له ، ثم أمر ابن مقرن الصيرفىّ أن يصل اليه ويتاعَه منه فاشـتراه منه بثمانين ألف دينار .

على أن هذا الرفقَ واللينَ ، وهـذه السياسة والحكمة ، لم تُنْسِ أبا العباس السـفاحَ ما يجب عليـه من مراقبة الطالبيين ، والتسمّع لمـا قد يَجيشُ فى خواطرهم ، من الخروج عليه أو الكيد له . فإن صلةَ الرحم من مثل السفاح لا تكون ظَاهرةً خُلقيةً بقـدر ما تكون حيلةً سياسـيةً ، وكذلك رأياه يقول لبعض ثقـاته وقد خرج من عنده بنو الحسن : « قُمْ بإنزالهم ولا تألُ فى إلطافهم ، وأظهر الميلَ اليهم والتحاملَ علينا وعلى ناحيتنا ، وأنهـم

أحقُّ بالأمر منا كلما خلوت بهم، وأَحْصِ لى ما يقولون وما يكون منهم فى مسيرهم ومَقْدَمِهم » .

ومما ذكرناه يرى القارئ معنا أن السماحَ قد جمع حقًّا بين القسوه واللين، وأنه لم يكن فى عُنْفه بأخطرَ منه فى رقّته، وإنما كان يلين ليستلَّ سخيمةً مدفونةً أو ليستدرجَ بعض الحاقدين؛ ويقسو ليرى أعداءَه أن لا أمل لهم فى الكيد لذلك السيف المسلول .

ومهما يكن من شىء، فإن خلافة أبى العباس كانت أقصرَ من أن تسمحَ لخصاله وأخلاقه بالظهور والتأثير القوىّ فى سياسة الدولة وسيرة خلفائها .

ولو عُمِّر السفاح لكان من الممكن أن يرسم لخلفائه خُطَّةً تُجنّبهم بعضَ ما توَرطوا فيه من الاضطراب .

الفصل الخامس

أبو جعفـــر المنصـــور

كان المنصور ملكًا، سديدَ الرأى، مُحْكم التدبير، وكان قويَّ العزيمة، جريءَ القلب، يمضى الى غايته مُضِيَّ السهم الى الرميَّـه لا يَثنيه عنهـا شيءٌ . سـياسيٌّ حاذق لا يقبـل أن تتدخّل فى سياسته عاطفةٌ ولا حُمُقٌ ولا اعتبار آخر إلا فوزه السياسىّ ليس غير . وهو الى ذلك داهيه، وربمـا اصطره الدهاء الى شىء إن لم يكن الإثم لخلقىّ فهو شبيه فى كثير من الأحيان .

وهو من هـذه الناحيه أحدُ أولئك الساسـه الذين عَرَفهم التاريخُ من حين الى حين بالإقدام فى غير تردّد ولا ليٍ ولا تهيّب للوسائل ، والذين مَثَّلهم «مكيافلى» أحسنَ تمثيل .

فقد ذكر ابن الأثير أنه أحضر مرةً ابن أخيه عيسى بن موسى وأمره بالمسير الى المدينة لقتال محمد بن عبد الله ، فقال : شاورْ عمومَتكَ يا أمير المؤمنين ، قال المنصور : فأين قول ابن هرمة :

نزور امرأً لا يحمض القـوم سِرَّه * ولا ينتجى الأدنين فيما يحـاولُ
اذا ما أتى شيئا مضى كالذى أتى * وإن قال إنى فاعلٌ فهـو فاعلُ

ثم قال : امض أيها الرجل ! فوالله ما يراد غيرى وغيرك، وما هو إلا أن تشخَص أنت أو أشخص أنا ، فسار وسيّر معه الجنود . وقال المنصور لمـا سار عيسى : « لا أبالى أيهما قتل صاحبه [1] » .

وكان الى جانب ذلك ، كما قال الجـاحظ ، : مُقَدَّمًا فى علم الكلام ومُكْثِرًا من كتاب الآثار ، ولكلامه كتاب يدور فى أيدى العارفين والورّاقين معروف عندهم .

وفى وصف المنصور يقول يزيد بن هبيرة : «ما رأيت رجلا قط فى حرب ولا سمعت به فى سِلْم أمكرَ ولا أدعَ ولا أشدَّ تيقُّظا من المنصور، لقد حصرنى فى مدينتى تسعةَ أشهر ومعى فُرسَانُ العرب، بجهدنا كلَّ الجَهْدِ أن ننال من عسكره شيئا نكسِرُه به فما تهيأ ، ولقد حصرنى وما فى رأسى بيضاء، فخرجت اليه وما فى رأسى سوداء » .

وكان المنصور يعطى فى موضع العطاءِ ويمنع فى موضع المنع ، ولكن المنعَ كان أغلبَ عليه، حتى ضرب المثل بشحه وسمى « أبا الدوانيق » ، لشدّته فى محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق .

وقد يكون من المستطرف أن نذكر شيئا مما رواه الطبرى فى تمثيل هذه الناحية من أخلاق المنصور، فقد جاء فيه : أن واصحا مولاه قال : «إنى لواقف يوما على رأس أبى جعفر إذ دخل المهدىّ وعليه قباء أسودُ جديد، فسلم وجلس، ثم قام منصرفا وأتبعه أبو جعفر بصرَه، فلحه له وإعجابه به، فلما توسّط الرواقَ عثَر بسيفه فتخرّق سوادُه، فقام ومضى لوجهه غيرَ مُكترِثٍ لذلك ولا حافلٍ به ، فقال أبو جعفر : ردّوا أبا عبد الله فردوناه ، فقال . يا أبا عبد الله، أستقلالا للواهب ! أم بطرا بالنعمة ! أم قلة علم بالمصيبة ! كأنك جاهل بما لك وما عليك ! » .

فانظر اليه كيف لام ابنه وولىّ عهده، وقد كان عنده أثيرا، ولامه بمحضرٍ من حاشيته فى شىء ليس ذا بال عند أوساط الناس فضلا عن الخلفاء ! .

ومهما يُعتذرُ للمنصور بحرصه على الاقتصاد فى أموال دولة ناشئه ، وأحد ولىّ العهد بتجنب الإسراف والإهمال، فقد نرى أن هذه الحادثةَ وأمثالَها مما سنرويه لك ، تُظهِرُ ناحيةً صغيرةً من نفسية المنصور، فقد كانت أمامه جلائلُ الأعمال فى الدولة يستطيع أن يُظهِرَ فيها ميلَه الى الحرص والاقتصاد، دون أن يُسيفَّ الى هذه الصغائر .

* * *

على أننا لا نستطيع أن نمتنع عن ذكر معاوية مؤسس الدولة الأموية والمقارنة بينه وبين المنصور مؤسس الدولة العباسية حقا من هذه الناحية؛ فقد كان معاويةُ، كما رأيت،

أكرمَ الناس، وأشدّهم تسخيرا للأموال العامة والخاصة، فى الأغراض السياسية . وكان المنصورُ أشحَّ الناس بالأموال العامة والخاصة، يُؤثِر التصحيةَ بالدماء والكفايات فى سبيل أغراضه السياسيه على التضحية بالأموال .

ولعلّ من الإنصاف أن نلاحظَ الفرقَ بين العصرين، وبين الدعائم التى اعتمد عليها الرجلان فى إقامة ملكهما . فقد كان معاويةُ فى بيئةٍ عربيةٍ، لم تخلُص بعدُ من البداوة ولا من سماحة الدين، فكان الحلمُ والكرمُ أليقَ به وأنفعَ ، بينما كان المنصور فى بيئةٍ من العرس والموالى، تأثُرها بالحصاره شديدٌ، وحظها من الدين قليلٌ .

ولو بسط معاويةُ سلطانه بالسيف لفشل ، ولكنا نرى أن لو بسط المنصورُ سلطانه بالمال فى شيءٍ من الحزم لوُفّق ولحقن الدماءَ ولرسم لخلفائه خُطَّةً أقومَ الى الليس والعافية من هذه الخُطةِ العميقةِ التى ستراها فى سيره أكثرهم .

وحدّث الوضينُ بن عطاء قال : «استزارنى أبو جعفر، وكانت بينى و بينه خَلَالةٌ قبل الخلافة ، فصرت الى مدينـه السلام ، فخلونا يوما فقال لى : يا أبا عبـد الله ، ما مالُك؟ فقلت : الخيرُ الذى يعرفه أميرُ المؤمنين ، قال : وما عيالك ؟ قلت : ثلاث بنات والمرأة وخادم لهنّ؛ فقال لى : أربع فى بيتك؟ قلت : نعم . قال : فوالله لرُدّد ذلك علىّ حتى ظننت أنه سيموّلنى . قال : ثم رفع رأسه الىّ فقال : أنت أيسرُ العرب، أربعُ معازلَ يدرن فى بيتك! »

على أن شحّ المنصور لم يكن يخلو أحيانا من بعض الظرف والفكاهة؛ فقد ذكر إبراهيم ابن عبد الرحمن أن أبا جعفر كان نازلا على رجل يقـال له أزهرُ السمّانُ قبـل خلافته ، فلمـا ولى الخلافةَ زاره الرجل وطلب صلته ، فوصـله ثم عاوده فوصله ، وجاءه فى الثالثة فقال له المنصور : يا أزهرُ ما جاء بك ؟ قال : دعاء سمعتـه منك أحببتُ أن آخذه عـنك ؛ قال : لا ترده فإنه غير مستجاب، لأنى قد دعوتُ الله أن يُريحنى من خِلْقَتِكَ فلم يفعل ! وصرفه ولم يعطه شيئا .

ورب ما كان من العدل التاريخيّ أن نحتاط أمامَ هـذه الرواياتِ الكثيرةِ التى أسرف المؤرخون فى روايتها إثباتاً لحل المنصور وشحّه ، فقد يكون مصدرُها ما ألِفُوه من إسراف الخلفاء ، ولعل المنصور لم يبلغ أكثرَ من أنه كان شديدَ الميل الى الحرص والتدبير ، والتُّمرةِ من الملحفين ، وأحدَ أهل بيته بذلك كله .

ولم يفت المنصورَ أن يعلّلَ ذلك البخلَ ، فقد جاء فى عيون الأخبار أنه قال فى مجلسه لقوّاده . « صدق الأعرابيُّ حيث يقول : أَحِعْ كَلبكَ يَتبعْكَ » فقام أبو العباس الطوسيّ وقال : « يا أمير المؤمنين ، أخشى أن يلوّحَ له عيرُكَ رعيف فيتبعَه ويدَعكَ ! » . وقد كان أبرويزُ أحكمَ من المنصور ، إذ قال لابنه شيرويه وهو فى حبسه « لا تُوسِّعَنَّ على جندك فيستعصوا عليك ولا تُضَيِّقَنَّ عليهم فيصحُّوا معك ، أَعطِهم عطاءً قصدا ، وآمنهم معًا جميلا ، ووسِّعْ عليهم فى الرجاء ، ولا تُسْرِفْ عليهم فى العطاء » .

* * *

وليس أدلّ على الشخصية السياسية لهـذا الخليفةِ من سيرته مع ثلاثة ، هم فى حقيقة الأمر أكبرُ زعماء الدولة فى عصره . فهذه السيرة تُبين لك ، فى وضوح وجَلاء ، ما قدّمناه من أن المنصورَ كان «ميكافلى» السياسة ، لا يُحجِمُ عن الغـدر وقطع الرحم وكفرِ النعمة ، إذا رأى منفعتَه فى ذلك .

وهؤلاء الزعماء هم أوّلا : أبو مسلم الذى أخلص فى نُصْره المنصور والسَّهرَ على ملكه ، فلم يَأْلُ جهدًا فى تعقّب الخارجين على الملك ، لا يَعرِفُ فى ذلك بين أشياع المنصور وأهله من بنى العباس ، ولا خصومه الذين يكيدون له فى السرّ أو فى العلانية ، فقتل الشيبانيَّ والكرمانيَّ وأبا سلمة الخلّال ، وحارب عمّ المنصور عبدَ الله بن على واستولى على ما فى عسكره من العائم والأسلحة . وثانيا : عمه عبدالله بن علىّ ، وهو الذى فعل ما فعل فى نُصرة الدعوه العباسية وتَقتيلِ خصومها من بنى أمية ، فصـلا عن حروبه الموفّقة فى صَـدِّ جيوش مروان ، ومع ذلك فقد سلّط عليه المنصورُ أبا مسلم فحاربه وقهره ، ولـما لم يَصِلْ الى قتله ، كلّف ابنَ عمه عيسى

ابن موسى والى الكوفة أن يقتله، فلمّا لم يقتله تولّى المنصورُ قتلَه بنفسه، ليأمنَ ما قد يُحدثه من الثورة والاضطراب . وثالثا : ابن عمه وولىّ عهده عيسى بن موسى، وقد رأيتَ كيف أشخصه المنصورُ لقتال محمد بن عبد الله مُلِحًّا فى ذلك، حتى إذا أُشْخِصَ قال المنصور: «لا أبالى أيهما قتَلَ صاحبَه !» ثم ما زال المنصورُ يكِيدُ لهذا الأمير حتى خلعه من ولاية العهد، وبايع مكانَه لابنه المهدى، ثم مضى فى الكيد له . وقد يكون من المفيد أن ننقُلَ ما جاء فى المستطرَف عن خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد بمعرفه المنصور، وما قاله ابن الأثير عن قتل عمه عبد الله بن على، فإن فيما قالاه تصويرًا دقيقًا لسياسه المنصور، وتمثيلًا لحرصه على الملك الذى كان لا يبالى فى سبيل توطيده أن ينكُثَ بما عقدَ من عهد، أو ينقضَ ما أبرمَ من ميثاق .

جاء فى المستطرف : أن عيسَى بنَ موسى لما عدَر به المنصورُ ونقلَ ولايةَ العهد منه الى المهدىّ ابنه أنشد :

أيسَى بنو العباس دِقّى عنهمو * نسيفى ونارُ الحرب زاد سعيرُها
فتحتُ لهم شرقَ البلاد وغربَها * فدلّ مُعاديها وعَزّ نصيرُها
أُقَطِّع أرحاما علىّ عزيزةً * وأُبدِى مكيداتٍ لها وأُثيرُها
فلما وصعتُ الأمرَ فى مستقرِّه * ولاحتْ له شمسٌ تلألأ نورُها
دُفِعتُ عن الأمرِ الذى أستحقه * وأوسق أوساقا من الغدر عيرُها

وجاء فى ابن الأثير : أن المنصور أحضر عيسى بن موسى بعد أن خلع نفسَه وسلّم اليه عمّه عبدَ الله بن على وأمره بقتله وقال له : إن الخلافةَ صائرةٌ اليك بعد المهدىّ فاضرب عنقه، وإياك أن تَضْعُفَ فتنقضَ علىّ أمرى الذى دبّرتُه . ثم مضى الى مكة وكتب الى عيسى من الطريق يستعلم منه عما فعل فى الأمر الذى أمره، فكتب عيسى : «قد أنفذتُ ما أمرتَ به»، فلم يشك فى أنه قتله . وكان عيسى حين أخذ عبد الله من عند المنصور دعا كاتبه يونسَ بن فروة وأخبره الخبر، فقال : أراد أن يقتله ثم يقتلك، لأنه أمر بقتله

سرًّا ثم يدّعيه عليك علانيـةً ، فلا تقتلْه ولا تدفعْه اليه سرًّا أبدا وآكتم أمرَه، ففعل ذلك عيسى . فلما قدم المنصور وضعَ على أعمامه مَنْ يحرّكهم على الشـفاعة فى أخيهم عبـد الله فعملوا وشفعوا، فشفّعهم، وقال لعيسى : إنى كنتُ دفعتُ اليك عمّى وعمّك ليكونا فى منزلك وقد كلّمنى عمومتُك فيه، وقد صفحتُ عنه فأتنا به، قال : يا أمير المؤمنين، ألم تأمرْنى بقتله فقتلتُه، قال : ما أمرتُك ، قال : بل أمرْتَنى، قال . ما أمرتُك إلا بحبسه وقد كذبتَ . ثم قال المنصور لعمومته : إنّ هـذا قد أقرّ بقتل أخيكم، قالوا : فادفعه إلينا يقيـدُه به، فسلّمه اليهم وخرجوا به الى الرحبة واجتمع الناسُ وشُهِرَ الأمرُ وقام أحدُهم ليقتلَه ، فقال عيسى : أفاعلٌ أنت؟ قال : إى والله ! قال : رُدّونى الى أمير المؤمنين، فردّوه اليه، فقال له : إنمـا أردتُ بقتله أن تقتلَنى، هذا عمّك حىّ سوىّ، قال ، أتنا به فأتاه به، قال : يدخلُ حتى أرَى رأيى، ثم انصرفوا فأمر بجُعِلَ فى بيتٍ أساسه ملحٌ، وأُجرِىَ الماءُ فى أساسه فسقط عليه فماتَ » .

وهـذه الرواية يؤيدُها أكثرُ المؤرّخين من العرب . وقد جعل أبو مسلم مع سليمان بن كثير، وكان من أركان هـذه الدولة، ما يُضيفُ حَلقةً ، الى سلسـلة الاضطهادات التى ارتكبَتْ تأييدا لهذا الملك، فقد أحضره اليه وقال له : أتحفظُ قولَ الإمام لى : « مَنِ اتهمتُه فاقتلْه؟ » قال : نعم، قال : فانى قد اتهمتك، فخاف سليمان وقال : أُناشِدُكَ الله ! قال : لا تُناشِدْنى فأنت مطوعلى عشِّ الإمام، وأمر بضرب عنقه .

وقد سَمّ الناسُ هذه الحالةَ، وثارَ بعضُ أمراء بنى العباس أنفسهم احتجاجًا على ما أُريقَ من الدماء، فقد جاء فى الأغانى فى أخبار عبد الله بن عمر العقيلى الشاعر المخضرم : أن محمد ابن عبد الله لمـا سمع للعقيلى قصيدته التى مطلعها :

تقـول أمامـةُ لمـا رأت * نُشُوزى عن المضجَعِ الأنفسِ

والتى ختامها :

فـما أنسَ لا أنسَ قَتْـلاهمُ * ولا عاش بعدهمُ من نَسِى

بكى واستعبر، فقال له عمُّه الحسن بن الحسن بن على : أتبكى على بنى أميةَ، وأنتَ تريد بنى العباس ماتريد ! فقال . « والله ياعم لقد كنا نَقَمْنا على بنى أمية ما نَقَمْنا، فما بنو العباس إلا أقلّ حوفا لله منهم، و إنّ المحةَ على بنى العباس لأوجبُ منها عليهم، ولقد كانت للقوم أحلاقٌ ومكارمُ ليست لأبى جعفر » . وذكر الأصفهانىّ أيضا : أن محمدا وآله وهبوا للشاعر مالا لِمدْحته تلك . وهكذا تعيّرت نفوسُ آل البيت من إسراف العباسيين فى الفتك والقتل (١) .

* * *

ومادا كان حظُّ أبى مسلم وكيف كان جزاؤه على ذلك الإخلاص الدموىّ ؟

كان جزاؤه أن قُتِلَ بيد الخليفة نفسه عملا بسنته المعروفة : « أقتل من اتهمته » ، مع أنه كان لايقطع أمرا دونه .

وقد ذكر الحاحظُ : أنّ المنصورَ لما هم بقتل أبى مسلم ، سقط بين الاستبداد برأيه والمشاورةِ فيه، فأرِقَ فى ذلك ليلتَه ، فلما أصبح، دعا باسحاق بن مسلم العقيلىّ، فقال له : حدّثنى حديثَ الملك الذى أخبرتنى عنه بخراسان، قال : أخبرنى أبى عن الحصين بن المنذر: أن ملكا من ملوك فارس، يقالُ له سابورُ الأكبر، كان له وزير ناصح، قد اقتبس أدبا من آداب الملوك، وشاف ذلك نفهم فى الدّين، فوجّهه سابورُ داعيةً الى خراسانَ، وكانوا قوماً عجماً يُعظّمون الدينَ جهالةً بالدين، ويُجِلّونَ بالدين استكانة لقوّه الدنيا وذُلّا لجبابرتها، فجمعهم على دعوة من الهوى يكيد به مطالبَ الدنيا ، واعتزّ بقتل ملوكهم لهم وتخوّلهم إياهم، وكان يقال لكلّ ضعيف صَوْلةٌ، ولكل دليـل دولةٌ . فلمـا تلاحمتْ أعضاءُ الأمور التى لقح، استحالت حرباً عَوانًا، شالت أسافلُها بأعاليها، فانتقل العزّ الى أرذلهم، والساهةُ الى أنحلهم، فأُشْرِبوا له حبّا مع خصص من الدنيا افتتح بدعوه من الدين، فلما استوسقتْ له البلادُ، بلع سابورَ أمرُهم وما أحال عليه من طاعتهم ، ولم يأمنْ زوالَ القلوب وغَدراتِ الوزراء ، فاحتال فى قطع رجائه عن قلوبهم، وكان يقال :

وما قُطِعَ الرجاء بمثل يأس * تُبادهه القلوبُ على اعترار

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار فى هذا الرأى بقوله : (أحسب أن تعيير آل البيت على بنى العباس إنما كان سببه أنهم نقموا عليهم ما أتيح لهم من ملك مع اعتقادهم أنهم أحق بذلك منهم) .

فصمّم على قتله عند وروده عليه برؤساء أهل خراسان وفُرسانهم، فقتله فغتهم بحدث فلم يرعهم إلا ورأسُه بين أيديهم، فوقف بهم بين العربة، وبأي الرحمة، وتحطّف الأعداء، وتفرّق الجماعة، واليأس من صاحبهم، فرأوا أن يستتمّوا الدعوةَ بطاعةِ سابور، ويتعوّضوه من الفُرقةِ، فأذعنوا له بالملك والطاعة، وتبادروه بمواضع النصيحة، فملكهم حتى مات حَتْفَ أنفه. فأطرق المنصورُ ملياً ثم رفع رأسه وهو يقول:

لذى الحلم قبل اليوم ما تُقْرَعُ العصا ... وما عُلِّمَ الإنسانَ إلا ليعلما

وأمر إسحاقَ بالخروج، ودعا بأبي مسلم فلما نظر اليه داحلا قال:

قد اكتنفتْك حلّاتٌ ثلاث ... حلبن عليك محذورَ الحِمام

حلافك وامتاؤك ترتميني ... وقودك للجماهير العظام

ثم وثب اليه ووثب معه نحوٌ حشمه بالسيوف، فلما رآهم وثب فدره المنصور فضربَه ضربة طوّحه منها، ثم قال:

إشرب بكأس كنت تَسقي بها * أمرّ في الحلق من العلقم

زعمتَ أن الدينَ لا يُقتضَى * كذبت فأستَوفِ أنا مُحْرِم

ثم أمر بجرّ رأسه وبعث به الى أهل خراسان وهم بنابه، فحالوا حوله ساعة ثم ردّهم عن شَغَبهم انقطاعُهم عن بلادهم وإحاطةُ الأعداء بهم. فدلّوا وسلّموا له. فكان إسحاق اذا رأى المنصور قال:

وما ضربوا لكَ الأمثالَ إلا ... لتحذُوَ إن حَذوتَ على مِثَالِ

وكان المنصور اذا رآه قال:

وحلّفها سابورُ للناس يُقْتَدَى * بأمثالها في المعضلات العظائم

وما أجملَ تلك الجملةَ التي قالها محمد بن عبد الله العلوي حين أمّنه المنصور على نفسه فقد قال: أيّ أمان تعطيني: أمان أبي هبيرة، أم أمان عمك عبد الله، أم أمان أبي مسلم!

ولقد تنفّس المنصورُ حين قَتَلَ أبا مسلم، حتى قال له بعضُ أقربائه ساعةَ قتلِه : عُدَّ هذا اليومَ أوّلَ يوم من خلافتك !

* * *

على أنه من الحق أن نقرر أنّ عدوانَ المنصور و إسرافَه فى التنكيل بخصومه له قيمتُه فى الدلالة على عِرفانه بحق الملك وحِرصه على نجاة الدولة من أخطار البغى، والخروج على النظام، فهى سبيل هذه الغاية أسرفَ فى سفك الدماء وتقطيع الأرحام وقتلِ أمثال بنى الحسن والحسين، والدياح الأصفر، والنفس الزكية، وقتل عمه وقائده، وترك جِرانةَ رءوس فيما ترك ميراثا لابنه المهدى .

ولقد كان مع هذه القسوة ثاقبَ الرأى محكمَ التدبير، وهو الذى يقول لابنه المهدىّ : «يا أبا عبـد الله، ليس العاقلُ الذى يحتالُ للأمر الذى وقع فيه حتى يخرجَ منه، ولكنه الذى يحتالُ للأمر الذى عَثِيه حتى لا يقعَ فيه» .

وقد ذكر المؤرخون أنه كان اذا جنى على أحد جنايةً أو أحد من أحد مالا جعله فى بيت المـال مفردا وكتب عليه اسمَ صاحبه، فلما أدركته الوفاةُ قال لابنه المهدىّ : «يابنىّ إنى قد أفردت كلّ شىء أحدثتُه من النـاس على وجه الجناية والمصادرة، وكتبت عليـه أسماء أصحابه، فاذا وَلِيتَ أنت فأَعِدْه على أربابه، ليَدْعوَ لك الناسُ ويمحوكَ» . وفى عهد المنصور أُنشِئَتْ "بغدادُ" موئل العلم ودار السلام .

الفضل السادس

المهـــدىّ

عيناى واحدةٌ تُرَى مَسرورةً ... بأميرها حَذْلَى وأخرى تَذْرِفُ
تبكى وتضحك تارة ويسوءها ... ما أنكرت ويسرُّها ما تعرِفُ
فيسوءها موتُ الخليفه مُحرِمًا ... ويسرّها أن قام هدا يحلِفُ
ما إن رأيتُ كما رأيتُ ولا أرى ... شـــعرا أُسَرّحه وآخر أنتِفُ
هدا حباه الله فصلَ خلافةٍ ... ولذاك حناتُ النعيم تُزخرَفُ

بهده الأبيات الرقيقةِ كان أبو دُلَامه أوّلَ من تقدّم بتعزية المهدىّ بوفاة والده المنصور وتهنئته بارتقاء عرش الخلافه سنة ثمـان وحمسين ومائة للهجرة .

وقد كان المهدىّ ، فيما أجمع عليه الرواةُ، شَهمًا فَطِنًا كريمـا، شديدَ البأس فى تعقب الملحدين والزنادقة، لا تأخذُه فى إهلاكهم لومةُ لائم .

وكان كثيرا ما يجلس لرد المظالم . وقد عُرِفَ عنـه أنه كان إذا جلس للظالم قال : «أدخلوا علىّ القضاةَ، فلو لم يكن ردّى للظالم إلا للحيـاء منهـم لكفى» . وروى الطبرىّ فى حوادث سـنه تسع وستين ومائة أنّ مِسْوَرَ بن مُسَاور قال : «ظلمنى وكيل للمهدىّ وغصَبنى ضيعةً لى، فأتيتُ سلّاما صاحبَ المظالم فتظلمت منه ، وأعطيته رُقعةً مكتوبةً فأوصل الرقعـةَ الى المهدىّ وعنده عمُّه العباس بن محمد وابنُ عُلاثةَ وعافيـةُ القاضى، قال فقال لى المهدى : أدنُهْ فدنوتُ، فقال : ما تقول ؟ قلتُ : ظلمتنى، قال : فترضى بأحد هذين؟ قلتُ : نعم، قال : فادنُ منّى، فدنوتُ منه، حتى الترقتُ بالفراش، قال : تكلّم، قلت : أصلح الله القاضى، إنه ظلمنى فى ضيعتى هذا ؛ فقال القاضى : ماتقول يا أمير المؤمنين؟ قال : ضيعتى وفى يدى ؛ قال : قلتُ أصلح الله القاضى، سـله صارت الضيعةُ اليه قبـل

الخلافة أو بعدها، قال : فسأله ما تقول يا أميرَ المؤمنين؟ قال : صارت إلىّ بعد الخلافة، قال : فأطلقها له، قال : قد فعلتُ، فقال العباس بن محمد : والله يا أمير المؤمنين لَهذا المجلسُ أحبُّ إلىّ من عشرين ألف ألف درهم !

* * *

أما كرمه فسخية قديمة فيه، ونسبه بال عتَ المنصور عن مرّة . وقد ذكر الطبرى أن المؤمل بن أميل قال . قَدِمت على المهدىّ بالرّى وهو ولىّ عهد، فأمر لى بعشرين ألف درهم لأبيات امتدحتُه بها، فكتب بذلك صاحبُ البريد الى المنصور، وهو بمدينة السلام، يخبره أن المهدىّ أمر لشاعر بعشرين ألف درهم، فكتب اليه المنصور يَعْذُلُه ويقول له : إنما كان ينبغى لك أن تُعطى الشاعرَ بعد أن يُقيمَ ببابك ستةَ أو بعةَ آلاف درهم . قال المؤمل : فكتب الى كاتب المهدىّ أن يوجّه اليه الشاعرَ، فطُلِبَ فلم يُقْدَرْ عليه، فكتب اليه : إنه قد توجّه الى مدينة السلام، فوجّه المنصور قائدا من قوّاده، فأجلسه على جسر النهروان، وأمره أن يتصفحَ الناس رجلا رجلا ممن يمرّ به حتى يظفرَ بالمؤمّل، فلما رآه قال له : من أنت ؟ قال : أنا المؤمل بن أميل من رؤار الأمير المهدىّ؛ قال : إياك طلبت؛ قال المؤمل : فكاد قلبى ينصدع خوفا من أبى جعفر، فقبَضَ علىّ ثم أتى بى بابَ المقصورة وأسلمنى الى الربيع، فدخل اليه الربيعُ فقال : هذا الشاعرُ قد ظَفِرنا به؛ فقال : أدخلوه علىّ، فأُدْخِلْتُ عليه، فسلمتُ فردّ علىّ السلام، فقلت : ليس هاهنا إلا خيرٌ، قال : أنت المؤمل بن أميل ؟ فقلت : نعم، أصلح الله أمير المؤمنين؛ قال : هيه ! أتيت غلاما عرًّا فخدعتَه، فقلتُ : نعم، أصلح الله أمير المؤمنين، أتيتُ غلاما كريما فخدعتُه فانخدع، قال : فكأنّ ذلك أعجبه فقال : أنشدنى ما قلتَ فيه، فأنشدتُه :

هو المهدىّ إلا أنّ فيه * مَشَابِهَ صورةِ القمرِ المنيرِ
تشابَه ذا وذا فهما اذا ما * أمارا مشكلان على البصير
فهذا فى الظلام سراجُ ليلٍ * وهذا فى النهار سراج نورِ

ولكنْ فضّـلَ الرحمن هذا * على ذا بالمنـابرِ والسريرِ
و بالملكِ العـزيزِ هذا أميرٌ * وما ذا بالأميرِ ولا الوزيرِ
ونقص الشهرُ يحمد ذا وهذا * مُنيرٌ عـند نقصان الشهورِ
فيابنَ خليفةِ الله المصـفّى * به تعـلو مُفاخرةُ الفحورِ
لئن فتّ الملوك وقد توافَوْا * إليك من السهولة والوُعُورِ
لقد سبق الملوكَ أبوكَ حتى * نَقُوا من بين كابٍ أو حسيرِ
وحثّتَ وراءه تجرى حثيثا * ومالك حين تجرى من فتورِ
فقال الناسُ ما هـذا إلا * بمنزلة الخليفة من الجـدير
لئن سبق الكبيرُ فأهلُ سبقٍ * له فضلُ الكبيرِ على الصغيرِ
و إن بلغ الصغيرُ مَدَى كبيرٍ * لقد لُحِقَ الصغيرُ من الكبيرِ

فقال : والله لقد أحسنتَ ! ولكن هذا لا يساوى عشرين ألف درهم! ثم قال لى : أين المـال ؟ قلتُ : ها هو ذا، قال : يا ربيعُ أنزل معه فأعطه أربعة آلاف درهم، وحد الباقى، قال : فخرج الربيع فحط ثِقْلِى ووزن لى أربعـة آلاف درهم وأحد الباقى . فلمـا صارت الخلافةُ الى المهدىّ ولّى ابنَ ثوبان المظالم، فكان يجلس للناس بالرصافة . فاذا ملأ كساءه رقاعا رفعها الى المهدىّ ، فرفعت اليـه يوما رقعة أذكره قصتى، فلمـا دخل بها ابن ثوبان جعل المهدىّ ينظر فى الرقاع، حتى اذا نظر فى رقعتى ضحِكَ، فقال له ابنُ ثوبان: أصلح اللهُ الأميرَ ! ما رأيتكَ ضحكتَ من شىء من هذه الرقاع إلا من هذه الرقعة! قال : هذه رقعة أعرف سببَها، ردّوا اليه العشرين ألف درهم، فُردّتْ إلىّ وانصرفت .

ولنترك هذه السماحةَ فى إجازة الشعراء لنرى كيف كانت أريحية المهدىّ فى الإحسان الى الجماهير، فقد ذكر الطبرىّ فى حوادث سنة ستين ومائة أن المهدى قسم فى تلك السنة مالا عظيما فى أهل مكة وفى أهل المدينة كذلك، وأنه نظر فيما قسم فى تلك السفرة، فوجد ثلاثين ألف ألف درهم حملت معه، ووصلت من مصر ثلثمائة ألف دينار، ومن اليمن مائتا ألف دينار، فقسّم ذلك كله، وفرّق من الثياب مائةَ ألف ثوب وخمسينَ ألف ثوب .

+ +

وكان المهدىّ الى جانب جوده وسخائه حيِيًّا مجبولا و برًّا رحيما . دخل عليه رجل فقال : «يا أمير المؤمنين، إنّ المنصـورَ شتمنى وقذَف أمّى، فإما أمرْتنى أن أُحلّه، و إما عوّضتنى واستعفرتُ الله له، قال المهدىّ : ولِم شَتمَكَ ؟ قال : شتمتُ عَدوّه بحضرته فغضب، قال : ومَنْ عَدوُّه الذى غضب لشتمه ؟ قال : ابراهيمُ بن عبـد الله بن حسن، قال : إن ابراهيمَ أمسَّ به رَحِماً، وأوجَبُ عليه حقًّا، فإن كان شتمك كما زعمتَ فعن رَحِمه ذبَّ، وعن عِرْضه دفَع، وما أساء مَن انتصر لابن عمه، قال : إنه كان عدوًا له ؛ قال فلم ينتصِرْ للعداوة و إنما انتصَرَ للرحم، فأسكتَ الرجلَ ؛ فلما ذهب ليوَلّى قال : لعلك أردتَ أمرا فلم تحدله ذريعةً عندك أبلغَ من هذه الدعوى ! قال : نعم، قال : فتبسم المهدىّ وأمر له بخمسة آلاف درهـــم» .

ولْنُظِرْ الى مايرويه الربيعُ عنه، قال : رأيتُ المهدىّ نصلّى فى نَهْوِله فى ليلةٍ مُقمرةٍ فما أدرى أهو أحسنُ أم النهرُ أم القمرُ أم ثيابه ! قال . فقرأ هذه الآية : ﴿فهل عَسَيتُمْ إنْ تَوَلَّيتُمْ أن تُفسدُوا فى الأرض وتُقَطِّعُوا أرحَامَكم﴾ قال : فاتم صلاته والتفت الىّ فقال : يا ربيعُ ! قلتُ . لبيك يا أميرَ المؤمنين، قال : علىّ بموسى، وقام الى صلاته قال : فقلت من موسى ؟ أأبنُه موسى أم موسى بن جعفر وكان محموسا عندى، قال : فجعلت أفكّر قال فقلت : ما هو إلا موسى بن جعفر . قال : فأحضرته، قال : فقطع المهدىّ صلاته وقال : ياموسى، إنى قرأت هذه الآية : ﴿فهل عَسَيتُمْ إن تَوَلَّيتُمْ أن تُفسدُوا فى الأرض وتُقَطِّعُوا أرحَامَكم﴾ فخفتُ أن أكون قطعتُ رحمك، فوثِقْ لى أنكَ لا تخرجُ على، قال : فقال نعم، فوثّق له وحلّاه» .

ومثل هـذا ماحدّث به على بن صالح قال : عضب المهدىّ على بعض القوّاد، وكان عتب عليـه غيرَ مرّةٍ فقـال له : الى متى تُذنبُ الىّ وأعفو ! قال : الى أبدٍ تُسيءُ ويُقيلكَ اللهُ فتعفو عنّا، فكررها عليه مرات، فاستحيَى منه ورضى عنه .

ثم لننتقلْ الى حوادث سنة ثمان وخمسين ومائة فنرى النوفلىّ يحدّثنا عن البيعة للمهدىّ وما كان من أمر الربيع فيها فيقول : إن الربيعَ تناول يدَ الحسن بنِ زيد فقال : قم يا أبا محمد فبايِع ، فقام معه الحسنُ فانتهى به الربيعُ الى موسى فأجلسَه بين يديه ، فتناول الحسنُ يدَ موسى ثم التفت الى الناس فقال : يا أيها الناس ، إن أمير المؤمنين المنصورَ كان ضربنى واستصفى مالى ، فكلمه المهدىّ فرضِىَ عنّى وكلّمه فى ردّ مالى علىّ فأبى ذلك ، فأحلفه المهدىّ من ماله وأصعفَه مكانَ كلّ علْقِ علْقين ، فمن أولى بأن يبايعَ لأمير المؤمنين بصدرٍ منشرح ونفسٍ طيبةٍ وقلبٍ ناصح منى ، ثم بايع موسى للمهدى ثم مسح على يده .

* * *

وبعد ، فالمهدىّ من الخلفاء العباسيين فى الذؤابة . وقد صدق الأستاذ « ميور » اذ يقول : إن المهدىّ كان فى إدارته لشؤون رعيته كمن يعمَلُ بوجهٍ عامٍ على رفاهية الأمة وإسعادها ، وكان مُعيناً ومعدّلاً للعصر الذهبىّ الذى تلا أيامَه . وما أحد عليه من بعض الهَنَات لا يمنع المؤرّخ المنصفَ أن يرى فى عصره ترفيهاً للناس ، مما كانوا يعانون من الشدّة أيامَ المنصور .

كان المهدىّ مُوفّقاً فى اختيار وزرائه ، وإن كانت السِّعايةُ أحلّتْ سعصهم العذابَ وسوءَ المصير ، وكان دقيقا فى نظره للأمور . وقد بدأ خلافتَه بإطلاق مَنْ كان فى سجن المنصور ، إلا من كان قتَلَ تبِعَةُ من دم أو قتل ومن كان معروفا أنه يسعى فى الأرض بالفساد أو كان لأحد قتَلَه مَظْلِمَةٌ ، وإنما أطلق من كان جُرمُهم سياسيًّا .

وكان محبا للأدب ، مشجّعا على التأليف فيه ، حاذقا فى طلب الزيادة والبحث عنهم فى الآفاق ، محبا للغزواتِ والفتوح . وقد قيل : إنه كان لا يشربُ النبيذَ وإن كان سُمّارُه يشربونه فى مجلسه ، وكان محبا للسماع ، ويخبرنا الطبرىّ فى حوادث سنة تسع وستين ومائة ، أن المهدىّ مات مسموما وقد لَبِسَتْ عليه قيانُه المُسُوحَ ، فقال أبو العتاهية فى ذلك :

رُحْنَ فى الوَشْى وأصبحـ ـ ـن عليهنّ المســوحُ
كلّ نطّاح من الدهـ ـ ـر له يومٌ نَطُــوحُ

لَسْتَ بالباقى ولو عُمِّـ * ـرتَ ما عَمَّـرَ نـوحُ
فعـلى نفســك نُحْ إن * كنتَ لا بدَّ تَـنُـوحُ

* * *

والظاهرُ مما قدّمناه أن المهدىّ كان يخالف أباه المنصورَ مخالفةً شـديدةً من بعض النواحى، ويلائمه مُلَاءمةً ما من نواح أُخَرَ : كان كريما مُهيبًا للمال ، بينما كان أبوه بَخيلًا شحيحا، ولكنه وَرِثَ عن أبيه بعضَ القسوةِ والميلِ الى سفك الدماء (١) .

ولم تكن السياسـة لتُعيبه على ذلك، فقد تَمَّتْ له المنصور أركانَ الملك فالتمس الدماءَ فى تتبع الزنادقة والفتكِ بهـم، وأسرف فى ذلك ، حتى قتلَ بعضَ الأمراء فى قسوة تُمثّلها قصته مع ابن وزيره أبى عبيد الله .

وفى المهدىّ ناحيةٌ حديدة فى حلفاء العباسيين ، هى الميـلُ الى الاعتدال السـياسىّ فى معاملة الطالبيين، فقد كان على شىء من الرفق بهم والعطف عليهم، لا يمنعه من اتقائهم والإشـفاق منهم .

وهذه السياسة الرقيقةُ الحازمةُ تذكّرنا بعضَ التذكير بما سيكونُ من سياسة المأمون .

ومن أظهر خِصـال المهـدىّ الشخصيّة غيرتُه على النسـاء . تلك التى أغرته بشارٍ فضربه حتى مات، متعللا بزندقتـه، وإن كانت العلة الحقيقيه هى استهتار بشارٍ بالغزل (٢) .

وقد أورث المهدى غيرته هذه ابنَه الهادى كما سترى .

---

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار فى هذا الرأى بقوله : «قسوة المهدى فى سفك الدماء، لم تكن عامة وإنما كان ذلك فى الزنادقة خاصة» .

(٢) يرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار «أن قتل بشار لم يكن سببه الغيرة على النساء وإنما كان تدبير يعقوب بن داود الوزير ودسيسته . وبشار هو الذى يقول

بنى أمية هبوا طال نومكم * إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا * خليفة الله بين الناى والعود

وكانت حيلة يعقوب بن داود على الخليفة أن أحضره بأن بشارا وقع فى الخليفة وهجاه . فاستنشده المهدى هجاءه فامتنع فعزم عليه فأنشده :

خليـفة يرتى بغاته * يضرب بالدف وبالصولجان
أمدنا الله وعـشيره * ودنس موسى فى حر الحيران

الفصل السابع

الهادى

قال محمد بن على بن طَبَاطَبَا فى كتاب «الآداب السلطانية» : كان الهادى مُتيقِّظًا غيورا كريما شديدَ البطش جريءَ القلب، مجتمعَ الحسّ دا إقدام وعَزم وحزم .

ونحن نخشى أن يكون فى هذا الثناء إسرافٌ كثير ، فلم يطل عهد الهادى بالخلافة يُمكِّن الحكم له أو عليه ، وإنما مرّ بها مرورَ الطيف .

ومع ذلك فقد أكثر المؤرخون من التحدّث عنه بالخير . وليس يستوقفنا من سيرته كلّها إلا ثلاثةُ أمور :

الأول ما ذكره عنه عبد الله بن عبد الملك قال كنتُ أتولّى الشُّرطةَ للمهدىّ وكان المهدىّ يبعث الى ندماء الهادى ومُغنّيه ، ويأمرنى بحضرهم ، وكان الهادى يسألنى الرفقَ بهم والترفيهَ لهم ، ولا ألتفتُ الى دلك ، وأمضى لِمَا أمرنى به المهدىّ . قال : فلما وَلِى الهادى الخلافةَ أيقنتُ بالتلف ، فبعثَ إلىّ يوما ، فدخلتُ عليه متكفّنًا متحنّطًا ، واذا هو على كرسىّ ، والسيفُ والنِّطعُ بين يديه ، فسلّمتُ ، فقال . لا سلّم اللهُ على الآخر ! تذكُرُ يومَ بعثتُ اليك فى أمر الخزانىّ وما أمرَ أميرُ المؤمنين به من ضربه وحبسه فلم تُجبنى ؟ وفى فلان وفلان ، وجعل يُعدّد بدماءه ، فلم تلتفتْ الى قولى ولا أمرى ؟ قلت : نعم يا أميرالمؤمنين ، أفتأذنُ لى فى استيفاء الحجة ؟ قال : نعم ، قلت - ناشدتُك الله يا أميرَ المؤمنين ، أيسرّك أنك وليتنى ما ولّاني أنوك ، فأمرتنى بأمرٍ فبعث إلىّ بعضُ بنيك بأمرٍ يخالف به أمرك ، فاتبعتُ أمرَه وعصيتُ أمرك ؟ قال : لا ، قلت : فكذلك أنا لك وكذا كنتُ لأبيك ، فاستدنانى فقبّلتُ يديه ، فأمر بخِلَعٍ فصُبَّتْ علىّ ، وقال : قد وليتُك ما كنتَ تتولاه فامضِ راشدًا ، فخرجت من عنده فصرت الى منزلى ، مفكرا فى أمرى وأمره ، وقلت : حَدَثٌ يشرب ، والقومُ الذين عصيتُه فى أمرهم ندماؤه ووزراؤه وكتّابه ، فكأنى بهم حين يغلبُ

عليهم الشرابُ قد أرالوا رأيه فىّ وحملوه من أمرى على ما كنت أكره وأتخوّف . قال : فإنى لجالس وبين يدىّ نَبِيذٌ لى، فى وقتى ذلك ، وكانوا من يدىّ ، ورِقاقٌ أشطره بكماح وأسحقه وأصُمه للصبية ، وادا صحةٌ عظيمةٌ ، حتى توهمتُ أن الدنيا قد اقتلعت وتزلزلت ، بوقع الحوافر وكثرة الضَّوضَاء ، فقلت هاه ! كان والله ما طمتُ ووافانى من أمره ما تخوّفتُ ، فاذا البابُ قد فُتِحَ ، وادا الحدمُ قد دخلوا ، وادا أمير المؤمنين الهادى على حمارٍ فى وسطهم ، فلما رأيته ، وثبتُ عن مجلسى مُبادِرًا ، فقبّلتُ يدَه ورجلَه وحافرَ حمارِه ، فقال لى ياعبدَ الله ، إنى فكرتُ فى أمرك ، فقلتُ يسبق الى قلبك أنى ادا شربتُ وحولى أعداؤك ، أزالوا ما حَسُنَ من رأيى فيك ، فأقلقك وأوحشك ، فصرت الى منزلك لأؤنِسَكَ وأُعلِمَكَ أن السحيمةَ قد رالتْ عن قلبى لك ، فهاتِ فأطعمنى مما كنت تأكل فأفعلُ فيه ما كنتَ تفعلُ ، لتعلم أنى قد تحرمتُ بطعامك ، وأَنِسْتُ بمنزلكَ . فيزولَ حوفُك ووحشتُك ، فأدنيتُ اليه ذلك الرقاقَ والسُّكَّرجةَ التى فيها الكامَخُ فأكلَ منها ، ثم قال : هاتوا الرُّلّة التى أزللتها لعبد الله من مجلسى فأدخلت إلىّ أربعمائة غلة موقّرة دراهم ، وقال . هذه رلّتك فاستعِنْ بها على أمرك ، واحفظ لى هذه النعال عندك ، لعلى أحتاج اليها يوما لبعض أسفارى ، ثم قال . أطلقك اللهُ بخير ، وانصرف راجعا . ونحن وإن كنا نعترض فى هذه الرواية وأمثالها المبالغة نرى أنها تدلّ فى جملتها على بصر بالسياسة ، وفطنة فى العلم بالناس ، والانتفاع بكفاياتهم .

الأمر الثانى وقوفُه موقفَ حزم نعتقد أنه أنقذ القصر العباسى ، من شرّ عظيم ، أفسد على ملوك الفرس قصورَهم ، كما أفسد على العباسيين أنفسهم أمورَ الخلافة بعد عصر المأمون ، ذلك هو تدخُّلُ النساء فى أمور الدولة .

فقد ذكر الطبرىّ أن الخيزُرَانَ والدةَ الهادى ، كانت فى أول خلافته ، تَفْتَاتُ عليه فى أموره ، وتسلُكُ به مسلَكَ أبيه من قبله ، فى الاستبداد بالأمر والنهى ، فأرسل اليها : ألا تحرجى من خَفَر الكفاية الى بَذاذَة التبذّل ، فإنه ليس من قَدرِ النساء الاعتراضُ فى أمر الملك ، وعليك بصلاتك وتسبيحك وتنتّلك ، ولك بعد هذا طاعةُ مثلك فيما يجب لك .

قال : وكانت الخيزرانُ فى خلافة موسى كثيرا ما تكلّمه فى الحاجات، فكان يجيبها الى كلّ ما تسأله، حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته، وانثال الناسُ عليها وطمعوا فيها ، فكانت المواكبُ تغدو الى بابها ؛ قال . فكلّمته يوما فى أمر لم يجد الى إجابتها اليه سبيلا فاعتلّ بعلة؛ فقالت : لابدّ من إجابى، قال · لا أفعل، قالت : فإنى قد تضمنتُ هذه الحاجةَ لعبد الله بن مالك، قال فعصب موسى وقال . ويلٌ على آبِ الفاعلة ! قد علمتُ أنه صاحبُها، والله لا قضيتُها له ! قالت : إذًا والله لا أسألك حاجةً أبدا؛ قال: إذًا والله لا أُبالى، وحَمِى وغَصِبَ ، فقامت مُغْضَبَةً، فقال : مكانَك تستوعى كلامى، والله وإلا فأنا بَقِىّ من قرابى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لئن بلغنى أنه وَقَفَ ببابك أحدٌ من قوادى أو أحد من حاشيتى أو حدمى لأضربنّ عنقه ولأقبضنّ ماله، فمن شاء فليلزم ذلك ! ما هذه المواكبُ التى تغدو وتروحُ الى بابك فى كل يوم ! أما لكِ مغزلٌ يَشْغُلك، أومُصْحَفٌ يُذَكّرك، أو بيتٌ يصونُك! إياكِ ثم إياكِ ما فتحتِ بابك لِمِلّى أولذمّى! فانصرفت ما تعقِلُ ما تطأ، فلم تطِق عنده بحُلوةٍ ولا مُرّةٍ بعدها .

ولم يكتف الهادى بكلامه معها، بل جمع قوّادَه يوما وقال لهم : أيُّما خيرٌ أنا أم أنتم ؟ قالوا : بل أنت يا أمير المؤمنين ، قال فأيّما خير أمّى أم أمهاتكم ؟ قالوا : بل أمك يا أمير المؤمنين ، قال · فأيكم يحبّ أن يتحدّث الرجالُ بحبر أمه فيقولوا فعلتْ أمُّ فلان وصنعتْ أمُّ فلان وقالتْ أمُّ فلان ؟ قالوا ما أحدٌ مما يحبّ ذلك، قال · فما بالُ الرجالِ يأتون أمّى فيتحدّثون بحديثها ! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها ألبته ، فشقّ ذلك عليها ، فاعتزلَته وحلَفتْ لا تكلّمه، فما دخلت عليه حتى حصرتْه الوفاةُ . وقد قالوا : إن الهادى حاول سمّها فلم يُفلِح . على أن الخيزرانَ أفلحت فى القضاء عليه حين مرض ، فقد ذكروا أنها دسّت اليه من جواريها مَنْ قتلته بالجلوس على وجهه .

لننتقل الآن الى الأمر الثالث وهو محاولته الغدر بأخيه الرشيد .

ولنظر فى حوادث سنة سبعين ومائة، لنرى كيف أخلص آلُ برمك للرشيد، فقد هم الهادى بتحويل الخلافة عنه لابنه جعفر، ولكن يحيى بن خالد ثبت فى المحافظة على ولاية هارون، محتملا فى ذلك كلّ مكروه. وكان لبطانة الهادى أثرٌ سيىء فى تشجيعه على خلع الرشيد ومبايعة جعفر، وكان فيمن بايعه يزيدُ بن مَزيد وعبد الله بن مالك وعلى بن عيسى، ومن أشبههم من أصحاب الأغراض.

ولم تزد الحوادثُ يحيى بن خالد إلا حرصًا على حق الرشيد، فصار يعلّله ويُسَرّى عنه، ولولاه لخلع الرشيد نفسَه، بعد أن تنقصوه فى مجلس الجماعة، وقالوا لا نرضى به، وصَعُب أمرُهم حتى ظهر، وأمر الهادى ألّا يُسارَ قدّامَ الرشيد بحربة، فاجتمع الناسُ.

أما الأخبارُ عن كرمه فكثيرة. فمن ذلك ما رواه الطبرىّ فى حوادث سنة سبعين ومائة أنه أمر دانَ ليلة ثلاثين ألف دينار لعيسى بن دأبٍ أحدِ خُلّاسه وكان — كما وَصَفَهُ الطبرىُّ — لديذَ الفُكاهة، طيّبَ المسامَرة، كثيرَ النادرة. ويقول علىّ بن صالح: إنه كان يوما على رأس الهادى وهو غلامٌ، وقد كان حَفَا المطالمَ عامّةً ثلاثة أيام، فدخل عليه الخزاعى فقال له: يا أمير المؤمنين إنّ العامةَ لا تنقاد على ما أنتَ عليه، لم تنظر فى المظالم منذ ثلاثة أيام، فالتفت الىّ وقال. ياعلىّ ائذن للناس علىّ بالجَعْلَى لا بالقَرَى، فخرجتُ من عنده أطيرُ على وجهى، ثم وقفتُ فلم أدرِ ما قال لى، فقلت: أراجعُ أميرَ المؤمنين فيقول: أتمحننى ولا تعلم كلامى! ثم أدركنى دهى، فبعثتُ الى أعرابىّ كان قد وفد، وسألته عن الجَعْلَى والقَرَى فقال: الجَعْلى جفالةٌ، والقَرَى بقر خواصهم؛ فأمرتُ بالستور فرُفعَتْ، وبالأبواب ففُتِحَتْ، فدخل الناسُ على بَكْرة أبيهم، فلم يزل ينظرُ فى المظالم الى الليل، فلما تقوّضَ المجلسُ مَثَلْتُ بين يديه، فقال: كأنك تريد أن تذكرَ شيئًا يا علىّ؛ قلتُ: نعم يا أمير المؤمنين، كلّمتنى بكلام لم أسمعْه قبل يومى هذا، وخفتُ مراجعتَكَ فتقول أتحجُبنى وأنت لم تعلم كلامى! فبعثت الى أعرابىّ كان عندنا ففسّر لى الكلام، فكافئه عنّى يا أمير المؤمنين؛ قال: نعم، مائة ألف درهم تُحمل اليه. قال: فقلتُ يا أمير المؤمنين،

إنه أعرابىّ حِلْفٌ وفى عشرة آلاف درهم ما أغناه وكفاه ! فقال : ويلك يا علىّ أَجُودُ وتَبخلُ !

* * *

وكان الهادى شديدَ العيرة، طاهرَ الشهامة . وهاك حديثاً لا يحلو من الأدب والفُكاهة، حدّثَ به السِّدىُّ بن شاهك قال : كنت مع موسى بجُرجانَ، فأتاه نعىُ المهدىّ والخلافة، فركبَ البريدَ الى بغدادَ ومعه سعيدُ بن سَلْم ووجّهنى الى خُراسانَ ، فحدّثنى سعيدُ بن سَلْم قال · سرنا بين أبيات جُرجانَ وبساتينها قال فسمع صوتاً من بعض تلك البساتين من رجل يتغنّى، فقال لصاحب شُرْطته : علىّ بالرجل الساعةَ، قال : فقلتُ يا أمير المؤمنين ما أشبهَ قصّةَ هذا الخائنِ، بقصّة سليمان بن عبد الملك ! قال : وكيف ؟ قال : قلت له . كان سليمانُ بن عبد الملك فى مُتنزَّهٍ له ومعه حرمُه ، فسمع من بستان آخر صوتَ رجلٍ يتغنّى، فدعا صاحبَ شُرْطَتِه فقال : علىّ بصاحب الصوت فأُتِىَ به، فلما مَثَلَ بين يديه قال له : ما حملك على العناء وأنتَ الى جنبى ومعى حَرَمى، أما علمتَ أن الرِّمّاكَ(١) اذا سَمِعْنَ صوتَ الفحلِ حَنَّت اليه ! ياغلام جُبَّ ! فجُبَّ الرجلُ، فلما كان فى العام المقبل، رجع سليمانُ الى ذلك المتنزهِ فجلس مجلسه الذى جلس فيه ، فذكر الرجلَ وما صنعَ به ، فقال لصاحب شُرْطَتِه · علىّ بالرجل الذى كنا حَبناه، فأحضره، فلما مَثَلَ بين يديه قال له : إما سعتَ فوفيناكَ، وإما وهبتَ فكافأناك ، قال : فوالله ما دعاه بالخلافة ولكنه قال له : يا سليمان ! اللهَ اللهَ ! إنك قطعتَ نسلى فذهبتَ بماء وجهى ، وحرمتنى لَذّتى ، ثم تقول · إما وهبتَ فكافأناك وإما سعتَ فوفّيناك ! لا والله ! حتى أقِفَ بين يدى الله ! قال : فقال موسى : يا غلام رُدّ صاحبَ الشُّرَطةِ فردّه، فقال : لا تَعْرِضْ للرجل .

* * *

وأما حمّه للتحدة فيحدّثنا به عمرُ بنُ شبّة، إذ ذكر أن علىّ بن الحسين بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب، وكان يلقّبُ بالجزرىّ، تزوج رُقَيّةَ بنتَ عمرو العثمانيةَ، وكانت تحت

(١) الرِّماك . جمع رمكة هنحنين وهى الأنثى من البراذين .

المهدى، فبلغ ذلك موسى الهادى فى أوّل خلافته، فأرسل اليه فجهله وقال : أعياكَ النساءُ إلا امرأة أمير المؤمنين! فقال. ما حرّم اللهُ على خلقه إلا نساءَ حدّى صلى الله عليه وسلم، فأما غيرُهنّ فلا ولا كرامةَ؛ فشجه بمِحْصَرَةٍ كانت فى يده وأمر بصربه خمسمائةِ سوطٍ فضُرِبَ، وأرادَه أن يُطلّقها فلم يفعَلْ، فحُمِلَ من بين يديه فى بِطْع فَأُلْقِى ناحيـةً، وكان فى يده خاتم سرى، فرآه بعضُ الخدم وقد غُشِىَ عليه من الضرب، فأهوى الى الخاتم فقَبَضَ على يد الخادم فدقّها، فصاح وأتى موسى فأراه يدَه، فاستشاط وقال : يفعل هـذا بخادمى مع استخفافه بأمى وقوله لى! وبعثَ اليه : ما حملك على ما فعلتَ؟ قال · قل له وسَلْه ومُرْه أن يضع يده على رأسك وليصدُقك ، ففعل ذلك موسى فَصَدَقَه الخادم ، فقال : أحسن والله! أنا أشهد أنه ابنُ عمى لو لم يفعل لانتفيتَ منه وأمر بإطلاقه .

* * *

وقد كان الهادى مثلَ أبيه مُحِبًّا للآداب مُشَجِّعًا للشعراء، وكان على سنته فى بعض الزنادقة ومَقتهم، مُوَفِّقًا فى اختيار الوزراء، مُصَانًا كأبيه ببطانة سوء، همُّها الوقيعةُ والوشايةُ وإعراءُ الخليفة والبيتِ المالك باجتراح المآثم واقتراف المظالم .

قال الطبرىّ : إن عبـد الله بن محمد المقرى حَدَّثَ عن أبيه قال : دخل عيسى بن دأب على موسى بن عيسى عند منصَرَفه من فخّ(١)، فوجده خائفا يلتمس عذرا من قَتْل مَن قَتَل فقال له : أصلح الله الأمير، أُنشِدُك شعرا كتب به يزيدُ بن معاوية الى أهل المدينة يعتذر فيـه من قتل الحسين بن على رضى الله عنه؟ قال . أنشدنى، فأنشده :

يا أيها الراكب الغادى لِطِيَّتِه * على عُذَافِـرَةٍ(٢) فى سيرها قَحَـمُ

---

(١) فخ بفتح أوّله وتشديد ثانيه : وادى الزاهر، ويوم فخ كان أبو عبد الله الحسين بن على بن الحسن بن على ابن أبى طالب رضى الله عنـه خرج يدعو الى نفسه فى ذى القعدة سنة ١٦٩ هـ وبايعه جماعة من العلويين بالخلافة فى المدينة وخرج الى مكة فلما كان بفخ لقيه جيوش موسى العباس وعليهم العباس بن محمد بن عبد الله بن عباس وغيره فالتقوا يوم التروية سنة ١٦٩ هـ فقتلوا جماعة من عسكره وأهل بيته، ولم تكن مصيبة بعد كربلاء أشدّ وأفجع من فخ وفيه دفن عبد الله بن عمر وغيره من الصحابة الكرام اهـ ملخصا من ياقوت مادة « فخ » .

(٢) العذافرة . الناقة الشديدة الأمينة الوثيقة الظهيرة، أنظر لسان العرب مادة « عذفر » .

أبلغ قريشا على شَحْطِ المزار بها * بينى وبين حسين الله والرحِمُ
وموقف بفنـاء البيت أنشده * عهـدَ الاله وما تُرعَى له الذمُ
عهدٌ قومكم نحـرا بأمكـم * أم حَصَانٌ لعمـرى برّة كرمُ
هى التى لا يُدانى فضلَها أحدٌ * بنت النبىّ وخير الناس قد علمُوا
وفضلُها لـكم فضـلٌ وعيركُمُ * من قومكم لهمُ من فضلها قِسَمُ
إنى لأعلم أو ظنـا كعالمـه * والظنّ يَصْـدُق أحيانا فينتظِمُ
أن سوف يترككم ماتطلبون بها * قتـلى تهادا كم العِقْبانُ والرخَمُ
ياقوما لاتشبوا الحرب اذ خَمَدَتْ * ومَسّكوا بحبال السِّلم واعتصمُوا
لاتركبوا البغىَ إن البغى مَصرَعةٌ * وإن شَارِبَ كأسِ البغى يَتَّخِمُ
قد جرّبَ الحربَ من قد كان قبلكمُ * من القرون وقد بادت بها الأممُ
فأنصفوا قومكم لا تهلكوا بدحا * فربَّ ذِى بذخ زلّت به القدمُ

قال : فسُرّى عن موسى بن عيسى بَعْضُ ما كان فيه .

وإذا لم يكن بدّ من اختصار حياة الهادى فى كلمة جامعة فلنقل : إنه وَرِثَ عن أبيه المهدى كرَمه وغَيرته وحبَّه للأدب، ووَرِثَ عن جدّه المنصور حزمَه وشيئا من مَيلِه الى الغدر .

الفصل الثامن

هـارون الرشـــيد

يا حَيْرَانُ هَنَاكِ ثم هَنَاكِ * أمسَى يَسُوسُ العالَمِينَ آتَاكِ

بهذا يُعلِنُ مروانُ بن أبي حفصةَ الشاعرِ البابهُ تَبَوُّأَ الرشـيد عرشَ الخلافة ، بعـد أخيه الهـادى ، بعهدٍ من أبيه سـنه سبعين ومائة هجرية . وبهذا يهنّئ الشاعرُ الخيزرانَ بتَوَقُّلِ الرشيد لعرش كانت الخيزرانُ معدبةً مُعَنَّاةً بمن كان يعتليه قبل الرشيد . وقد يكون من المستصوَبِ أن نترك ليوسفَ بن القاسم بن صبيح كاتب الرشـيد ، يُعلنُ الينا ما أعْلَنَـهُ بنفسه الى العـالم العربيّ ، من خبر آعتلاء الرشيد للخلافة ، فإنه ، بأسلوبه الرشيقِ وبلاغته السّهلَهِ ومكانَته من الرشيد ، أحقُّ بذلك وأحدرُ ، ولا سيما وقد طُيِّرتْ قطعتُه للخافقَينِ ، مُبتَّةً بموت خليفةٍ وتنويج خليفةٍ .

قال يوسف بن القاسم بعد حمد الله عز وجل والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم : «إن الله بمنّه ولطفه ، منّ عليكم معاشرَ أهل بيت نبيه ، بيتِ الخلافة ومعدنِ الرسالة ، وآتاكم أهل الطاعة ، من أنصار الدولة وأعوان الدعوه ، من نعمه التى لا تُحصى بالعدد ، ولاتقصى مدى الأبد ، وأياديه التامة إذ جمع أُلفَتَكم ، وأعلى أمرَكم ، وشَدّ عَضُدَكم ، وأوهَنَ عَدُوَّكم ، وأطهرَ كلمةَ الحقّ ، وكنتم أولى بها وأهلَها ، فأعزّكم اللهُ وكان الله قوياً عزيزاً ، فكنتم أنصارَ دين الله المرتضى ، والذّابين نسيمه المنتضى ، عن أهـل بيت نبيه صلى الله عليـه وسلم . وبكم آستنقذهم من أيدى الظَّلَمَةِ أئمـةِ الجور ، والناقضين عهدَ الله ، والسافكين الدمَ الحـرامَ ، والآكلين الفيءَ ، والمستأثرين به . فاذكروا ما أعطاكم الله من هـذه النعـمة ، واحذروا أن تُغَـيّروا فيغيّرَكم . وإن الله جل وعز استأثر بخليفـته موسى الهـادى الإمام فقبضه اليه ، وولى بعـده رشيدًا مرضيًّا أميرَ المؤمنين بكم رؤوفا رحيما ، من مُحسِنِكم قبولا ،

وعلى مسيئكم بالعفو عَطُوفاً . وهو — أمتعه الله بالنعمة، وحفظَ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة ، وتولّاه مما تولى به أولياءَه وأهل طاعته — يَعِدكم من نفسه ، الرأفةَ بكم والرحمةَ لكم، وقَسْمَ أعطياتكم فيكم ، عند استحقاقكم ، ويبدل لكم من الجائزة مما أفاء الله على الخلفاء مما فى بيوت الأموال، ما يوسّعُ عليكم رزق كذا وكذا شهرا غير مُقاصٍّ لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم، وحاملًا ما فى ذلك للدفع عن حَريمكم، وما لعلّه أن يحدُثَ فى السواحى والأقطار من العصاه المارقين الى بيوت الأموال ، حتى تعودَ الأموالُ الى حِمايها وكثرتها والحال التى كانت عليها . فاحمَدوا الله وحمّدوا شكرا يوجب لكم المزيدَ من إحسانه اليكم بما حمّد لكم من رأى أمير المؤمنين وتفضّلَ به عليكم أيده الله بطاعته، وأرغبُوا الى الله له فى البقاء،ولكم به فى إدامه النعماء، لعلكم تُرحَمُون : وأعطوا صفقةَ إيمانكم وقوموا الى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط عليكم ، وأصلح بكم وعلى أيديكم ، وتولاكم ولايةَ عباده الصالحين» .

* * *

هذا الكتاب القيّم البليغ ، أشعرَ العالمَ العربىّ بابتداء خلافة هارونَ الذى نستطيع بحقٍ أن نقولَ إنه أصحُّ الخلفاء المسلمين اسمًا ، وأبعدُهم صوتاً ، وأشدُّهم فى الخيال تأثيرا، فأنتَ لا تستطيع أن تسمع اسم هارون الرشيد، حتى يُحْدِثَ فى نفسك صورا خياليةً، مختلفةَ النوع ، ولكنها متفقةٌ فى القوّه ، فهو يُنْشِئُ فى نفسك حيناً صوره الخليفةِ المترَف ، المسرفِ فى الترف ، الذى بلغ منه ما لم يبلغه أحدٌ قبله ولا بعده . ويشىء فى نفسك حيناً آخر صورةَ الخليفه القوىّ، الذى أذلّ أعداءَ الإسلام وبسطَ سلطانَ الخلافه على أطراف الأرض ،وأخذ ملوكَ الروم بدفع الجزية . ويشىء فيها مرّةً أخرى صورةَ الخليفةِ الجدِر، الذى ث الجواسيس، ليعرِفَ من أمر الناس ماظهرَ وما خفى، ثم لم يكتف بذلك بل استحال هو جاسوسا، يطوفُ فى الأسواق ، ويُوعِلُ فى البيوت ، ويَغشَى المجالسَ والأندية، حتى ألمّ بكل شىء ، وأحاط بكل خفيّة، ثم بطش بأعدائه والمؤتمرين به بطشًا لم يستطع التاريخ أن ينساه . ثم يُنْشِئُ فى نفسك صورةَ الخليفة العالم الأديب، الفقيه بألوان

العـلم والدين والأدب ، المشـجّع للفقهاءِ والعلماءِ والشـعراءِ والكُتّاب تشجيعاً أصبح فيه مثلاً لمن جاء بعده من الخلفاء والملوك فى الشرق والغرب . ويُنْشِئُ فى نفسك أيضا صورةَ الخليفة الورِع الزاهد، المتهالك نُسُكًا وطاعةً وتتلّا لله، كما ينشىء فيها صورةَ الخليفة الذى لا يكاد يخلو الى نفسـه ويَسْدِلَ السـتارَ بينه وبين رعيته حتى يأخذَ مع المجّان فى مجونهم، فيُخَيَّـلُ اليك أنه لا يدَعُ من سُبُل اللذة سبيلا إلا سلكها وجَنى ثمارها ، من عِنَاب ، الى شَراب، الى عَبَث، الى استمتاع بالنساء، من حرائرَ وإماء؛ وهو بعد هذا كلِه سياسىّ، ماهرٌ ، بعيدُ النظر فى تصريف الأمورَ، فيه حزمُ المنصور وعُنفُه وميلُه الى الغَدر والأثرة ، وكلّ ما يُشخِّصُ سياسـةَ « مكيافلى » ، وفيه حلمُ معاوية ودهاؤُه اللين المرنُ ، وسخاؤه بالمـال واصطناعَه الناسَ .

ومن غريب الأمر أن كلَّ هذه الصور المتناقضة التى تتباين أشدَّ التباين، قد اجتمعت حقا فى شخص هـذا الخليفة، لا كما يصـوّرها المؤرّخون والرواةُ والقُصّاصُ وأصحـابُ الأساطير، بل اجتمعت اجتماعا يختلف قوه وضعفا باختلاف الظروف والمؤثرات الكثيرة التى كوّنت مِزاجَه وشخصيّته، وقصّرَه، وبيئته السياسية العامة؛ فليس الرشيد فى حقيقـة الأمر ، شخصًا كغيره من الأشخاص يمثل نفسَـه وما وَرِث عن أُسرته ، ولكنه مِرآةٌ اجتمعت أمامها صورٌ مختلفةٌ من الناس والحكايات والظروف فانعكست فيها هـذه الصـور .

فالرشيدُ يمثل كلَّ هؤلاء الناس، وكلَّ هذه الأشياء، وكلَّ هـذه الظروف التى شهدتها بغدادُ قرب آخر القرن الثانى للهجره . ومن هنا كان من العسـير جدا أن نستخلِصَ منـه صورةً تاريخيةً صادقةً، بريئةً من الغلوّ والإسراف .

فأمّا المؤرّخون من العرب فقد تأثروا حين كتبوا عن الخلفاء وخاصة أصحاب الشخصيات البارزة منهم بكلّ ما عرَفْتَ أنهـم تأثروا به، من الإغْرَاقِ والمبالغـةِ والغلوّ فى المدح مُخلِصين فى أكثر الأحيان .

وأما المؤرخون من الفرنج فلم يسلم أشـدُّهم احتياطا من التأثر بهذه الطائفةِ الصخمةِ من الأساطير التى نثها فى نفوس الجماعات كتابُ " ألف ليلة وليلة " مد زمنٍ طويلٍ .

وقـد ظهر هـذا التأثر مَظهَرين مُختَلِفين ، مظهرَ المدح والإسراف فيه عـد قومٍ ، ومظهرَ الذم والإعراق فيه عـد قوم آخرين . وأولئـك وهؤلاء محدوعون عن أنفسهم واحتياطهم ، بكل هذه المبالغات التى أحاطت بإحسان الرشيد وإساءته .

ونحن مجتهدون — لا فى أن نعطيكَ هـذه الصورةَ الصادقةَ من الرشـيد التى لا يزال التاريخُ محتاجا اليها ، فليس ذلك عرضَنا فى هذا البحث ، وليس فى هذا الكتاب مُتَّسعٌ له ، بل فى أن نُعطيَك صورةً صادقةً من فهـم المؤرخين من العرب والفِرنجةِ لعصر الرشـيد ، غير مُهمِلين مع ذلك أن نُسَجِّلَ آراءً لنا هنا وهناكَ حين نشعُر بالحاجة الى ذلك ، لتوضيح مذهبنا فى فهم عصر المأمون الذى نضعُ فيه هذا الكتابَ .

✦ ✦ ✦

يجمع المؤرخون العربَ على ورع الرشيد وفضله وأدبه ، وبسطةِ يده بالخير والعطاء ، وانطوائه على الجود والسخاء ، فقد ذكروا : أنه كان يصـلى فى كل يوم مائةَ ركعة الى أن فارق الدنيا إلا أن تَعرِضَ له عِلَّةٌ ، وكان يتصدّق من صلب ماله فى كل يوم بألف درهم بعد زكاته . وكان اذا حجّ حجّ معه مائةٌ من الفقهاء وأبنائهـم ، واذا لم يحجّ أجج ثلاثمائة بالنفقة الساعـة والكسوه الباهرة . وكان يفتنى آثار المنصور ويطلبُ العمل بها إلا فى بذلِ المـال ، فانه لم يُرَ خليفةٌ قبله كان أعطى منه للمـال ثم المأمون من بعده . وكان لا يَضيعُ عنده إحسانُ محسنٍ ولا يؤخر ذلك فى أول ما يجب ثوابه . وكان يُحبُّ الشعراءَ والشعرَ ، ويميلُ الى أهل الأدب والفقه ، ويكره المِراءَ فى الدين ويقول هو شىء لا نتيجة له وبالحرَى ألا يكون فيـه ثواب . وكان يحبّ المديحَ ولا سيما من شاعر فصيح ، ويشتريه بالثمن الغالى .

ولقد كانت دولةُ الرشيد — كما يقول الفخرى — : دولةً من أحسن الدول وأكثرِها وقارًا ورونقًا وخيرًا وأوسعها رقعة مملكة ، جبى الرشيد معظمَ الدنيا . ولم يجتمع على باب

حليفةٍ من العلماء والشعراء والفقهاء والقرّاء والقصاة والكتّاب والندماء والمغنين من اجتمعوا على باب الرشـيد، وكان يَصِلُ كلَّ واحد منهم أجزلَ صلة ، و يرفَعُـه أعلى درجة . وكان فاضلا شاعرا راويةً للأخبـار والآثار والأشعار ، صحيحَ الدوق والتمييز ، مَهيباً عند الخاصة والعـامّة .

* * *

ولقد حاول الهادى أن يُرغِمَ الرشـيدَ على خَلع نفسـه من الخلافة بعده ، وأن يكتُبَ بولاية العهد لأخيه جعفر، وقد تمّ له شيء من ذلك . وإنا لنحدُث فى حوادث سنة سبعين ومائة مجريةِ الشيءَ الكثير من إخلاص آل برمك للرشـيد لا سيما شدّة محافظة يحيى البرمكيّ على حقوق الرشيد فى ولاية العهد، فعُدِّدَ وحُبِسَ وأُوذِىَ فى هذا السبيل إيذاءً شديدا .

ولقد أظهر الرشيدُ، وهو ولىّ عهد، من الجُرأة ومتانة الأخلاق والصراحة، ما هو حقيق بالإعجـاب . ولسنا نرى مندوحة من ذكر الروايه التى ذكرها محمد بن عمـر الرومىّ ، فهى تُعطِينا صورةً دقيقةً لمـا نحن بسبيله، فقد حَدَّثَ عن أبيه قال : جلس موسى الهادى بعد ما ملك فى أوّل خلافته خلوسا خاصا، ودعا إبراهيمَ بن جعفر بن أبى جعفر و إبراهيمَ بن سلم ابن قتيبة والحرّاني فجلسوا عن يساره، ومعهم خادمٌ له أسودُ يقال له أسلَمُ و يُكْنَى أبا سليمانَ، وكان يَثِقُ به و يُقَدمه، فبينا هو كذلك، إذ دخل صالح صاحبُ المصلّى فقال : هارونُ بن المهدى، فقال : ائذن له ، فدخل فسلّم عليه وقبّل يديه وجلس عن يمينه بعيدًا من ناحية؛ فأطرق موسى ينظر اليـه وأدمَنَ ذلك ثم التفت اليه فقـال : يا هارون كأنى بك تحـدّث نفسَك بمام الرؤيا، وتؤمل ما أنت منه بعيد ، ودون ذلك خرطُ القَتَـاد ، تؤمل الخلافةَ ! قال : فبرك هارون على ركبتيه وقال : يا موسى إنك إن تجبرتَ وُضِعْتَ ، و إن تواضعت رُفِعْتَ ، و إن ظَلَمتَ خُتِلْتَ، و إنى لأرجو أن أُفضِى الأمرُ الىّ، فأُنصِفُ مَنْ ظلمتَ، وأصلُ مَن قطعتَ، وأصير أولادَك أعلى من أولادى، وأزوّجهم بناتى، وأبلغ ما يحب من حق الإمام المهدىّ . قال : فقال له موسى : ذلك الظن بك يا أبا جعفر! أدنُ منى، فدنا

منـه فقبّل يديه ثم ذهب يعود الى مجلسه ، فقال له : لا والشيخ الجليل، والملك النبيل ، أعفى أناك المنصور،لا جلستَ إلّا معى! وأجلسه فى صدر المجلس معه. ثم قال : ياحرّاسىّ احمِل الى أخى ألف ألف دينار،وإذا افتتح الخزائنَ فاحمل اليه الصفَ منه وأعرِضْ عليه ما فى الخزائن من مالنا، وما أحد من أهل بيت اللعنة، فيأخذ جميعَ ما أراد، قال : ففعل ذلك . ولما قام قال لصالح : أدنِ دابّته الى البساط .

قال عمرو الرومى : وكان هارون يأنس بى فقمت اليه فقلت : ياسيدى ما الرؤيا التى قال لك أمير المؤمنين؟ قال : قال المهدى : أُريتُ فى منامى كأنى دَفَعْتُ الى موسى قصيباً والى هارون قضيبا، فأورَقَ من قضيب موسى أعلاه قليلًا ، فأما هارون فأورَقَ قضيبُه من أوّله الى آخره، فدعا المهدىّ الحكمَ بن موسى الصمرى، وكان يُكْنَى أبا سفيانَ، فقال له : عبِّرهذه الرؤيا ، فقـال : يملكان جميعا، فأما موسى فتَقِلُّ أيامَه ، وأما هارون فيبلغ مَدَى ما عاش حليفةً وتكونُ أيامُه أحسنَ أيامٍ، ودهرُه أحسنَ دهرٍ . قال ولم يلبَثْ إلا أياما يسيرةً ثم اعتلّ موسى، ومات وكانت عِلَّتُه ثلاثةَ أيام .

قال عمرو الرومىّ : أفضتِ الخلافةُ الى هارون فروح حَمْدُونةَ من حمفر بن موسى ، وفاطمةَ من إسماعيل بن موسى، ووفّق بكل ما قال، وكان دهرُه أحسنَ الدهورِ .

* * *

ولقد كان الرشـيدُ مشغوفا بالفنون والعلوم، وكان قصرُه الزاهى الزاهر مركزا لمختلف الثّقافات . وأما وَلَعُه بالشعر وضروبِ الآداب وإحاطتُه الشعراءَ بسخاء فالحديثُ فى ذلك طويل المناحى .

وكان الرشـيد، مع استمتاعه بمرافِقِ الحيـاة ومناعمها : تزوّج ستَّ زوجات وتسرى عشرين أمة ذكر أسماءهن الطبرىّ وأسماء أولاده منهنّ، وكان، مع تبرّج المدنية فى أيامه، ومع إحيائه أنديةَ اللغـة والآداب والمنادمة، ورِعًا متأثرا بالمواعظ والزهديّات . وسنذكر لك طرفا من مواقفه الدالة على خشيته لله، وأدبه، وورعه، وتواضعه .

أما خشيته لله وأدبه، فقد ذكر بعضُهم أنه كان من صحابة الرشيد بالرِّقة بعد أن شخَصَ من بغداد، فخرج معه يوما الى الصيد، فعرض له رجلٌ من النُّسَّاك فقال : يا هارون اتق الله، فقال لإبراهيم بن عثمان بن نهيك: خذ هذا الرجلَ اليك حتى أنصرف، فلما رجع دعا بغدائه، ثم أمر أن يُطعَمَ الرجلُ من خاصّ طعامه؛ فلما أكل وشرب دعا به فقال : يا هذا أبصِرني في المحاطـة والمساءلة قال : ذاك أقل مما يجب لك، قال : فأخبرني أنا شرٌّ وأخبث أم فرعون؟ قال : بل فرعون، قال . ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ وقال : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي﴾ . قال · صدقتَ، فأخبرني : من خير : أنت أم موسى بن عمران؟ قال: موسى كليمُ الله وصفيّه اصطفاه لنفسه وأتمه على وحيه وكلّمه من بين خلقه؛ قال: صدقتَ، أفما تعلم أنه لما بعثه وأخاه الى فرعون قال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾. — ذكر المفسرون أنه أمرهما أن يكنّياه — هذا وهو في عتوّه وجبروته، على ماقد علمتَ، وأنتَ جئتَني، وأنا بهذه الحالة التي تعلم أُؤدّي أكثرَ فرائض الله عليّ، ولا أعبُدُ أحدا سواه، أقف عند أكثر حدوده وأمره ونهيه، فوعظتَني بأغلظ الألفاظ وأشنعها، وأخشنِ الكلام وأفظعه، فلا بأدب الله تأدّبتَ، ولا بأخلاق الصالحين أخذتَ، فما كان يؤمنك، أن أسطو بك، فاذا أنتَ قد عرضت نفسَك لما كنتَ عنه عيًّا، قال الزاهد : أخطأتُ يا أمير المؤمنين وأنا أستغفرك؛ قال: قد غفر لك الله، وأمر له بعشرين ألف درهم؛ فأبى أن يأخذها وقال : لا حاجة لي في المال، أنا رجل سائح ؛ فقال هَرثمةُ وخرره : تردّ على أمير المؤمنين يا جاهلُ صِلَتَه! فقال الرشيد : أمسِكْ عنه، ثم قال له : لم نُعطِكَ هذا المالَ لحاجتك اليه، ولكن من عادتنا أنه لا يحاطبُ الخليفةَ أحدٌ ليس من أوليائه ولا أعدائه إلا وصَلَه ومنَحه، فاقبل من صِلتنا ماشئتَ وضَعْها حيثُ أحببتَ؛ فأخذ من المال ألفَيْ درهم ونزقها على المُحَاب ومَنْ حصر البابَ .

وأما ورعه فقد ذُكر، أن أبا مريم المدنيّ كان مع الرشيد وكان مِضْحاكًا له مُحَدّثًا فكها، فكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يَمَلّ محادثته، وكان ممن قد جمع الى ذلك المعرفةَ

بأخبار أهل الحجاز، وألقاب الأشراف ومكايد الخوّان، فبلغ من حاصته بالرشيد أن بوّأه منزلاً فى قصره، وخلطه بحرمه وبطانته ومواليه وعلمانه، فجاء ذاتَ ليلة وهو نائم وقد طلع الفجرُ وقام الرشيدُ الى الصلاة فألفاه نائما، فكشف اللحافَ عن ظهره ثم قال له: كيف أصبحتَ؟ قال : يا هذا ما أصبحتُ بعدُ، اذهَبْ الى عملك، قال : ويلك! قم الى الصلاة، قال : هذا وقتُ صلاة أبى الجارود، وأنا من أصحاب أبى يوسف القاضى، فمضى وتركه نائما وتأهّبَ الرشيد للصلاه، فجاء علامُه فقال أميرُ المؤمنين قد قام الى الصلاة، فقام فألقى عليه ثيابَه ومضى نحوه، فاذا الرشيدُ يقرأ فى صلاة الصبح، فانتهى اليه وهو يقرأ : ﴿ومَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فقال آبن أبى مريم . لا أدرى والله ! مما تمالكَ الرشيدُ أن ضحكَ فى صلاته، ثم آلتفتَ اليه وهو كالمُغْضَب فقال : يابن أبى مريم فى الصلاة أيضا ! قال : يا هذا وما صنعتُ ! قال : قطعتَ علىّ صلاتى، قال: والله ما فعلتُ، إنما سمعتُ منك كلاما عمنى حين قلتَ : ﴿ومَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فقلتُ: لاأدرى والله، فعاد فضحك وقال : إياكَ والقرآنَ والدينَ ولك ما شئتَ بعدهما .

وأما تواضعُه فنترك الكلمةَ فيه لأبى معاوية الضرير، وهو من علماء دولته، فإنه يقول : أكلتُ مع الرشيد يوماً، فصبَّ على يدىّ الماء رجلٌ فقال : يا أبا معاوية أتدرى مَنْ صَبَّ الماء على يديك ؟ فقلت : لا يا أمير المؤمنين، قال : أنا، فقلتُ : يا أمير المؤمنين أنتَ تفعل هذا إجلالاً للعلم، قال : نعم . فتصوّر الى أى حدٍّ بلغَ صنيعه ! .

* * *

نترك جانبا الآن التكلّم عن البرامكة ونكبةَ البرامكة الى فصلٍ مستقلٍّ . وربما كان من المصلحة الفنيّة للكتاب أن يُفردَ لكل بحث من بحوثه بابٌ خاصّ، نستوعبُ فيه ما يجدُر بنا استيعابُه من تلك النواحى الهامّة الشديدة الصلة بموضوعنا .

والآن نرى فى عنقنا أن نتحدّثَ اليك فى أمور أربعة قد تفيدك فى عهد الرشيد عامة وربما أفادت فى تفهم عصر المأمون خاصة وهى : (١) حقيقة السياسة الداخلية فى عصر الرشيد، (٢) السياسة الخارجية، (٣) التكلم عن بيعة الرشيد للأمين والمأمون والقاسم،

(٤) التكلم عن الدولة البرمكية والنكبة البرمكية . وسنتوخّى الإيجازَ المقنعَ من غير إخلال بما لا يليق بما الإخلالُ به، ولا سيما بات بيعات الرشيد ، فإنا لا نرى مندوحةً من إثبات نصوصها لمـا لها من الخطر من حيث إنها أثر تاريخيّ حقيقٌ بالدراسة والبحث .

١ — الســـياسة الداخليـــة

أنتَ جِدُّ عالمٍ بمـا كان من تطلّع الطالبيين للخلافة . وقد مرّ بك القولُ فى تحفّزاتهم وخروجهم وحروبهم للخليفة العباسى ، الجالس على العرش ، كلّما واتتهم الفُرَص وأمكنتهم الأحـــوال .

وأنتَ جِدُّ عالمٍ أن الخلفاء ما كانوا يركنونَ الى جانبهم يقاسًا وتباغضًا ، واصطداماً للمصلحة الخاصة وتعارُضًا . بَيْدَ أن الرشيد وهو الرءوم لسجيته ، المحمولُ على الخير بفطرته ، رأى فى أوّل عهده ، أن يَحِدَ عليهم ويَستلَّ سخيمةَ العداوة من قلوبهم ، فوقع المحرَّ ممن كان منهم ببغداد ، وسيّرهم الى المدينة ، ما عدا العباس بن الحسن بن عبد الله ، وكان أبوه مع ذلك فيمن أُشخِص الى المدينة .

لم يُشَجع الطالبيونَ الرشيدَ على الاستمرار على خُطّته تلك ، بل كان من بعضهم ما دفعه الى تغيير خُطّته السديدة ، إذ خرج عليه يحيى بن عبد الله أحد الناجين من وقعة « فخ » التى كانت فى أيام الهادى ، ونزح الى بلاد الديلم ، حيث قويت شوكتُه واشتدّ ساعدُه ، وهرعَ اليه الناس من الأمصار والكُور ، فاغتمّ الرشيدُ لذلك أيّما اغتمام وتركَ ، فيما يقول الرواةُ ، شربَ النبيذ ، ثم بَدَت الى قتاله الفصلَ بن يحيى بن خالد فى خمسين ألفا ، ومعه من القوّاد صناديدُهم ومن الجند شجعانُهم ، فسار سَمْتَ يحيى ، فكاتبه ورفق به واستمالته وبسط أمله ، وكاتب صاحبَ الديلم وجعل له ألفَ ألفِ درهم على أن يُسَهِّلَ له خروجَ يحيى وحُمِلَتْ اليه ، فأجاب يحيى الى الصلح والخروج ، على أن يكتبَ له الرشيدُ أماناً بخطه ، فنادر الفصـلُ برفع ذلك الى الرشيد ، فأثلج فؤادَه وعظُمَ موقعه لديه ، وكتب أماناً ليحيى بن عبد الله وأشهدَ عليه القضاةَ والفقهاءَ وجِلّةَ بنى هاشم ومشايخهم ، منهم عبد الصمد بن علىّ والعباس بن محمد ومحمد بن

ابراهيم ومن أشبههم، ووجَّهَ به مع حوائزَ وكراماتٍ وهدايا، ووجه الفضلُ بذلك اليه فقدَم يحيى بن عبد الله عليه .

وفى رواية أخرى أن يحيى بن عبد الله لما رأى الرشـيدَ قد كتب الى صاحب الديلم يطلبه منه ويتهدّده، وأنه قد اشتد فى مطاردته، واقتفاء أثره، طلبَ الأمان من الفضل، فأمّنه وحمله الى الرشيد .

ويحدّثنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبرىّ فى حوادث سنة ست وسبعين ومائة : أنه لما ورد الفضلُ بن يحيى البرمكى يحيى بن عبد الله العلوى بغدادَ، لقيه الرشيدُ بكل ما أحبّ، وأمر له بمالٍ كثيرٍ، وأجرى عليه أرزاقاً سنيةً، وأنزله منزلاً سرّيًا بعد أن أقام فى منزل يحيى بن خالد أياما، وكان يتولّى أمرَه بنفسه ولا يكِلُ ذلك الى غيره، وأمر الناسَ بإتيانه بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه، وبلغ الرشيدُ الغايةَ فى إكرام الفضلِ، وفى ذلك يقول مروانُ ابن أبى حفصة :

طَفِرْتَ فلا شَلَّتْ يدٌ رمكيةٌ * رَتَقْتَ بها الفتقَ الذى بين هاشم
على حينِ أعيا الراتقينَ التئامُه * فكفّوا وقالوا ليس بالمتلائم
فأصبحتَ قد فازَتْ يداك بحُطَّهِ * من المجد باقٍ ذكرُها فى المواسم
وما زال قِدْحُ الملكِ يخرُجُ فائزا * لكم كلّما ضُمَّتْ قِداحُ المُساهِم

ونوجه النظرَ هنا الى طاهرة فى شعر مروان وأنى قمامه الخطيب الذى أنشدَ فى هـذا المعنى أبياتا له يُستَدلُّ منها على اغتباط الشاعر، وجمهرة الناس طمعًا، بالوفاق بين العلويين والعباسيين والإشادة بذلك، ممحرةً للعاملين على رَتقِ الفتق والتئام الصَّـدع . ولكن واأسفاه ! فإن للوجهة النفعية خطرَها بين الملوك وبين السّعاة النميمة، ولما أثرها السيء فى إلصاق تُهَم بالأبرياء، ولما مَغَبَّتُها الصارة فى بدر بدور الكراهيـة والبغضاء، بين الملوك والزعمـاء .

وقد بينا لك أن الأمان الذى كتبه الرشـيد ليحيى بن عبد الله قد أشهد عليه الفقهاءَ والقضاةَ وزعماءَ الشّعب . وقد يكون من المفيد فى تصوير ناحية من نواحى العصر أن نذكر

لك هما نصيب هـذا الأمان وحطه من بعض الفقهاء ، فى الفُتيا ينقصـه وآخرين بالوفاء له . ولندع لأبى خطاب أحد المعاصرين الكلمةَ قال . إن جعفرَ بن خالد حدثه ليلةً وهو فى سَمَرِه قال : دعا الرشيدُ اليومَ يحيى بن عبد الله بن حسن ، وقد حصره أبو البَحْتَرِىّ القاضى ، ومحمـد بن الحسن الفقيـه صاحب أبى يوسف ، وأحضر الأمان الذى كان أعطاه يحيى ، فقال لمحمد بن الحسن : ما تقول فى هـذا الأمانِ أصحيح هو ؟ قال : هو صحيح ، فحاجّه فى ذلك الرشـيدُ ، فقال له محمـدُ بن الحسن : ما تصنع بالأمان لو كان محاربا ثم ولى كان آمنـا ! فاحتملها الرشـيدُ على محمد بن الحسن ، ثم سأل أبا البحترىّ أن ينظرَ فى الأمان ، فقال أبو البحترىّ : هذا الأمان مُنتقَصٌ من وجه كذا وكذا ! فقال الرشـيدُ . أنتَ قاضى القضاةِ وأنتَ أعلمُ بذلك ! ومزّقَ الأمانَ وتفل فيه أبو البحترىّ ! !

ولك أن تُعلّقَ ما شئت على تصرّف أبى البَحْتَرِىّ ، الفقيه الدينىّ ، الذى أصبح بفتياه تلك قاضىَ القضاه ، ولك أن تستنطقَ ما أحببت فى موقفه ومروءته حين مزّقَ الأمانَ ، ولم تزد قيمتـه فى نظره على "قصاصات الورق" حتى تفل فيه . ولك أن تقول ما أردتَ فى موقف زميله محمـد بن الحسن الفقيه صاحب أبى يوسف وعدم ترحصـه أو جموده . أمّا نحن فإنّا لا نعدُو خُطّتَنَا التى رسمناها لأنفسنا ، فى مثل هذه المواقف ، من التزام الحيدةِ التـامة وعدم الرح بأنفسنا فى المزالق الخطره ، والاكتفاء من ناحيتنا بتقييد الحوادث لا أكثر ولا أقل .

ولقد سعى النميمة بين الرشيد ويحيى بن عبد الله الساعُونَ ، وكلّما رق الرشيدُ له أثاروا فى نفسه السخيمةَ عليه ، فقد ذكروا أن يحيى بن عبد الله قال للرشيد : يا أمير المؤمنين ، إن لنا قرابةً ورحمًا ولسنا نتُرك ولا دَيْلَم ، يا أمير المؤمنين ، إنا وأنتم أهلُ بيتٍ واحدٍ ، فاذكرك الله قرابتَنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عَلَامَ تحبِسُنى وتُعذّبنى ! قال : فرَقَّ له هارون ، ولكنّ الربيعىّ — وكان حاكما للمدينة أيامَ الرشيد ، وهو يعد من الأحراب المعادية للعلويين واشتهر بشدّة البغض لهم ، وكان حاضرا مجلسَهما — أقبل على الرشيد فقال : «يا أمير المؤمنين لا يغرّك كلام هذا ، فإنه شاقّ عاصٍ ، وإنما هذا منه مكرٌ وخُبثٌ ، إنّ هذا أفسدَ علينا مدينتَنا ، وأظهر

فيها العصيانَ، قال : فأقبل يحيى عليه، فوالله ما استأذن أميرَ المؤمنين فى الكلام حتى قال: أفسد عليكم مدينتكم ! ومن أنتم عافاكم الله ! قال الزبيرى : هذا كلامه قدّامك ، فكيف إذا عاب عنك! يقول : ومن أنتم استخفافا بنا، قال : فأقبل عليه يحيى فقال : نعم ومن أنتم عافاكم الله! المدينةُ كانت مُهَاجَرَ عبد الله بن الزبير أم مُهَاجَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ومن أنت حتى تقول أفسد علينا مدينتنا! وإنما بآبائى وآباء هذا هاجر أبوك الى المدينة . ثم قال « يا أمير المؤمنين إنما الناس نحن وأنتم ، فان خرجنا عليكم قلنا : أكلتم وأحمتمونا ولبستم وأعريتمونا وركبتم وأرحلتمونا، فوجدنا بذلك مقالًا فيكم، ووجدتم بخروجنا عليكم مقالًا فينا ، فتكافأ فيه القولُ ، ويعودُ أمير المؤمنين على أهله بالفضل ، يا أمير المؤمنين فَلِمَ تحتزئ هذا وصُرَناؤه على أهل بيتك تسعى بهم عندك ! إنه والله ما يسعى بنا اليك نصيحةً منه لك، وإنما يأتينا فيسعى بك عندنا عن غير نصيحةٍ منه لنا، إنما يريد أن يباعد بيننا، ويَشتفى من بعضٍ ببعضٍ. والله يا أمير المؤمنين لقد جاء الىّ هذا حين قُتِلَ أخى محمدُ بن عبد الله فقال : لعن اللهُ قاتلَه ! وأنشدَنى فيه مرثيةً قالها نحوا من عشرين بيتا ، وقال : إن تحرّكتَ فى هذا الأمر فأنا أوّل مَنْ يبايعك، وما يمنعكَ أن تلحَقَ بالبصرة فأبايعك مع يدكَ ! فتغيَّر وجهُ الزبيرىّ واسودّ، فأقبل عليه هارون فقال . « أى شىء يقول هذا؟ » قال : كادت يا أمير المؤمنين ما كان مما قال حرف! قال . فأقبل الرشيدُ على يحيى بن عبد الله وقال : تَروى القصيدةَ التى رثاه بها؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين أصلحك الله! وأنشدها إياه، فقال الزبيرىّ : والله يا أمير المؤمنين الذى لا إله إلا هو — حتى أنى على آخر اليمين الغَمُوس — ما كان مما قال شىء، ولقد يقول علىّ ما لم أقل . قال: فأقبل الرشيدُ على يحيى بن عبد الله فقال : قد حلف فهل من بينةٍ سمعوا هذه المرثيةَ منه؟ قال ، لا يا أمير المؤمنين، ولكن أستحلفه بما أريد، قال فاستحلفه، قال : فأقبل على الزبيرىّ فقال : قل أنا برئ من حول الله وقوّته موكل الى حولى وقوّتى إن كنتُ قلتُه، فقال الزبيرىّ : يا أمير المؤمنين أىّ شىء هذا من الحلف ! أحلف له بالله الذى لا اله إلا هو ويستحلفنى

بشئ لا أدرى ما هو ! قال يحيى بن عبد الله : يا أمير المؤمنين إن كان صادقًا فما عليه أن يحلف بما أستحلفه به ! فقال له هارون : احلف له ويلك ! قال : فقال : أنا برىء من حول الله وقوته موكل الى حولى وقوتى . ويقول الطبرى : إنه اضطرب منها وأُرْعِدَ ، فقال : ياأمير المؤمنين ما أدرى أىّ شىء هذه اليمين التى يستحلفنى بها وقد حلفتُ له بالله العظيم أعظم الأشياء . قال : فقال هارون له : لتحلفنّ له أو لأصدقنّ عليك ولأعاقبنك ! فقال : أنا برىء من حول الله وقوته موكل الى حولى وقوتى إن كنتُ قلتُه ، قال : فخرج من عند هارون فضربه الله بالفالج فمات من ساعته .

وقد روى المؤرّخون العرب فى صدد موت ذلك الربرى روايات لا نرى بأسا بإيرادها ، فقد ذكر الفخرى أنه ما انقضى النهار حتى مات ، فحملوه الى القبر وحطّوه فيه وأرادوا أن يطمّوا القبر بالتراب فكانوا كلما جعلوا التراب فيه دهب التراب ولا يَنْطَمُّ القبرُ فعلموا أنها آية سماويةٌ ، فسقّفوا القبر وراحوا . والى ذلك أشار أبو فراس بن حمدان فى مميته اذ يقول :

ياجاهدًا فى مَسَاويهم يُكَتِّمُها * عدرُ الرشيد بيحيى كيف ينكتمُ
داق الربرىُّ عِتَّ الحِنْثِ وانكشفتْ * عَنِ ابنِ فاطمةَ الأقوالُ والتُّهَمُ

قالوا : ومع ظهور مثل هذه الآية العظيمة قُتِل يحيى فى الحبس شرَّ قتلةٍ . على أن هناك رأيا آخرَ فى موت يحيى بن عبد الله ، وهو أن الموكّل به فى الحبس منعه الأكلَ فمات .

ولسطُرْ ما برويه لنا مُعَاصِرٌ وهو عباس بن الحسن عما كان من الرشيد بعد ما أصاب الربرىّ مما أجمع رواةُ العرب على إصابته به إثْرَ كَذِبه فى قَسَمِه ، فقد قال . دخلنا على الرشيد ، فلما نظر إلينا قال يا عباس بن الحسن أما علمت بالخبر ؟ فقال أبى : بلى يا أمير المؤمنين ، فالحمدلله الذى صَرَعه بلسانه ، ووقاكَ اللهُ ياأمير المؤمنين قطعَ أرحامك ؛ فقال الرشيد : الرجل والله سليم على ما يحبّ ، ورفع الستر فدخل يحيى وأنا والله أتبين الارتياعَ فى الشيخ ؛ فلما نظر اليه الرشيد صاح به : ياأبا محمد ، أما علمتَ أن الله قد قتل عدوك الحبار ! قال : الحمد لله

الدى أبان لأمير المؤمنين كذب عدوّه علىّ ، وأعماه من قطع رحمه ، والله يا أمير المؤمنين لو كان هدا الأمر مما أطلبُه وأَصْلُحُ له وأُريده — فكيف ولستُ بطالبٍ له ولا مريده — ولم يكن الظفرُ به إلا بالاستعانة به ، ثم لم يبق فى الدنيا عيرى وعيرُك وعيرُه ، ما تقوّيت به عليك أبدا ، وهدا والله من إحدى آفاتك — وأشار الى الفضل بن الربيع — والله لو وهبتَ له عشرة آلاف درهم ثم طمع معى فى زياده ثمرة لناعكَ بها ؛ فقال : أما العباسىّ فلا تَقُل له إلا حيرا وأمر له فى هدا اليوم بمائة ألف دينار ، وكان حبسه بعضَ يوم . قال أبو يوسف : كان هارون حبسه ثلاثَ حبسات مع هده الحبسةِ وأوصل اليه أربعمائة ألف دينار .

* * *

وبعد ، فقد عُنِيتُ بإثبات الروايات فيما كان من سيرة هـدا الخليفه العباسىّ مع عَلَوىّ من رجَالَات عصره لتبيّن نفسيَّةَ المعاصرين والولاة ، وما انطوتْ عليه صدورُهم من حبّ لآل علىّ وتوقير لأشخاصهم ، وتعظيمهم بالكرامات والمعجزات . وادا اعتبرت أن هداكله قد حصل فى عهد خليفةٍ عظيم بسجاياه وفواضله ، محبوبٍ لمآثره ووافله ، قوىٍّ فى مملكته ، كثير الأنصار فى شيعته ، أيقنتَ أن للحزب العلوىّ أنصارًا يُعتَـدُّ بهم ، ومكانةً فى النفوس يُحْفَلُ بها . وهدا معقول جدّا ، وإنك لتستسيغه من نفسك وفهمك ادا ذكرتَ أن أنصار هده الدولة هم من الفرس . وأنت تعلم ما كان بين الفرس والعرب عامة وبين الموالى وبنى أمية خاصة من عداء وشجار ، ومقت وكراهية ، وأنت تعلم أن الدعوةَ فى بداية أمرها كانت للعلويين دون غيرهم ، وأن القائمين بها كانوا من الفرس ، فمن المعقول أن تُشرَبَ قلوبُهم حُبَّ هدهِ الدعوةِ وأفرادِ هذه الدعوة ، والتغنّى بمدهب هده الدعوه ، منذ الساعة الأولى ، ولا يزيد مرورُ الزمان كلّ دعوةٍ أو مدهبٍ حربىٍّ إلا قوةً وانتشارًا وكثرةَ أنصارٍ ورسوخَ عقيدةٍ . فلنلاحظ ذلك حيدا ، فإنه قد يفيدنا فى تعليل بعض أفعال البرامكة .

ولنرجع الى التحدّث معك باختصارٍ عن بقية الحوادث الداخلية فى عصر الرشيد ، ولْنَقَسِّم القول الى ناحيتين : أولاهما ثوارت ناتجة عن العصبية ، وثانيتهما فتوقٌ وثوارتٌ فى شتّى ولاياته .

أما الحوادث العصبية بين النزارية واليمنية وغيرهما ، فإن آنَ جرير الطبرىّ يحدّثنا أن قد وقع هياج فى الشام سنة ست وسبعين ومائة بين النزارية واليمنية ، ورأسُ النزارية يومئذ أبُو الهيدام ، فولى الرشـيدُ موسَى بن يحيَى بن خالد ، وضم اليـه القوّادَ والأجنادَ ومشايخَ الكتّاب ، فذهب اليهم وأصلح بينهم حتى سكنت الفتنة .

وأما الثوراتُ الأُخَر فإنا نجد فى أخبار سـنة ثمان وسبعين ومائة ، وسنة ثمانين ومائة ، وسنة سبع وثمـانين ومائة ، ما يدلّ على حصول فِتَنٍ وحروب من جَرّاء العصبية أيضا .

ولقد حصلَتْ حروبٌ فى خُراسانَ والطالقانِ وحُوران والجزيرة واليمن ومصر وأرمينية وحمص لرافع بن ليث ، وكان النصرُ فى أكثرها حليفَ جيوش الرشيد وولاته .

على أن حُلَّ هذه الثورات ناجمٌ فى الواقع عن اتساع رقعة المملكة ، وسُرعة تبديل الولاه ، وسـوء تصرّف بعض هؤلاء الولاة ، ولا سيما فى جباية الأموال ، ومحاولة إرضاء الخليفـة من جهة ، ومطامعهم الخاصة من جهة أخرى .

وإنا لنحترى بما قدّمناه لك عن السياسة الداخلية أيام الرشيد ونتقدّم الآن الى الكلام عن السياسة الخارجية .

٢ السياسة الخارجية :

أما ملخصُ السياسة الخارجية أيام الرشيد فيمكن تقسيمُه الى نقطتين : الأولى علاقته بالروم ، والثانية علاقته بالأندلس .

فأما علاقته بالروم فقد أشارت دائرةُ المعارف الإسلاميةُ ، فى مبحثها عن الرشيد ، الى أن حروبا بلغت نهاية الشدّة قد وقعت بين الرشـيد والبزنطيين . وقالت : إنّ ولاة الرشيد عملوا منذ بداية عهده على تقوية الحصون التى على الحدود ، وأنهم كانوا يقومون بغزوات فى البقاع المعادية من غير أن يربحوا غنائم مستديمة ، وأن الرشيد غزاهم بنفسه سنة ١٨١ هـ (٧٩٧ — ٧٩٨م) ، بيد أنه عجّل بعودته ؛ ثم شبتْ حربٌ فى السنة التالية كالعادة ، وإذ كانت الأمبراطورة إيرين كانت تعانى متاعبَ داخلية فقد عجلت بالصلح على أن تدفع الجزية .

على أن هذا الصلح لم يدم إلا ريثما تبوأ الأمبراطور نيقفور أريكته سنة ١٨٦ هـ (٨٠٢م) فقد بعث الى الخليفة بكتاب مُهين طلب فيه أن يُعيدَ اليه الجزيةَ التى أُدِّيتْ من قبل ، فلم يَحْفِل الخليفةُ بشروط الصلح فعادت الحروبُ .

وفى سنه ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) استولى هارون على "هِرَقْلَةَ" واضطر الأمبراطور الى أن يدفعَ جزيةً جديدةً ، عن نفسه وعن أسرته ، فوق الجزية العامه . وفى السنة التالية هزمَ البزنطيون يزيدَ بن مقلد ، وكانت أغلاطُ هرثمةَ معهم مماثلةً لأغلاط « ابن مقلد » .

ويقول بعض المؤرخين الغربيين : إن هارون كان على علاقة حسنة بشَرْلمان ، وقد ذكر أن كليهما كان يبعث سفيرا عند الآخر . على أنه لم يرد ذكر لذلك فى المراجع العربية ، وإنه ليُشَكُّ كثيرا فى صحة هذه الرواية . وأما علاقته بالأُمَويين فى الأندلس ، فلم يكن مرجوّا أن تكون علاقة صفاء ومودّه ، فقد كان العباسيون يعدّونهم خارجين على سلطانهم ، ولا يَرَوْن فى دولتهم نظيرا يستحقّ أن يعيش وإياهم فى سلام وهدوء .

وقد ظهرت أيام الرشـيد دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى ، وذلك أن إدريس بن عبد الله كان ممن هرب من وقعة « فخّ » وهو أخو يحيى بن عبد الله ، فسار الى مصر وتخلص منها الى بلاد المغرب الأقصى ، حيث التفّ حوله برابرةُ أوربّةَ ، فأنشأ هناك أوّلَ خلافةٍ للعلويين وهى دولة الأدارسه .

وظهرت كذلك أيام الرشـيد دولةُ الأغالبة فى إفريقية ، فإنه ولّاها إبراهيمَ بنَ الأغلب التميمىّ ، ليجعـل من مملكته حاجزا منيعا بين الخلافة العباسية والأدارسـة الذين بالمغرب الأقصى ، وكذلك بينه وبين الأندلسيين ، وكانت توليته سنة أربع وثمانين ومائة ، فعظُمَ أمرُه ، وصار كذلك مستقلّ ، إلا أنه كان يخطب للرشيد .

٣ ــ التكلم عن البيعـــة

والآن نتحدث اليك عن أكبر أعلاط الرشـيد، وأبعدها أثرا فى حياته وفى الدولة العباسية، بل فى حياة المسلمين السياسية بوجه عام، وهى بيعته بولاية العهد الثلاثية لأبنائه الأمين والمأمون والقاسم .

وقـد قدمنا لك فى الكتاب الأول رأينا فى هـذا النوع من احتياط الخلفاء لأنفسهم ولأبنائهم، وما كان له من الأثر السيئ فى حياة القصور خاصة وفى السياسة عامة، ولا سيما البيعة بولاية العهـد لأكثر من واحد، فقـد كان ذلك يشئ بطانات مختلفـة، ويكون أحزابا لا تلتف حول مبدإ أو فكرة وإنما تلتف حول الأشخاص والمطامع التى تنتظر منهم .

وهذه البطانات والأحزاب، تتنافس فى القصر، فتفسد على الخليفة والأمراء حياتهم الخاصة، وتقطع ما بينهم من صلات كان يجب أن ترعى حرمتها . كما أنها تنافس خارج القصر، فتفسد على الدولة سياستها العامة فتصرفها عن مرافقها الداخلية، كما تصرفها عن الاحتياط لحماية الثغور والاحتفاظ بمهماتها الخارجية .

ومع أن هذا النوع من البيعة بولاية العهد الثنائية أو الثلاثية سُنَّةٌ أُمَوِيَّةٌ، آتت ثمرها الخبيث، وجرَّت على الأمويين أنواعَ الوبال مزَّقتهم وأضاعَتْ ملكهم، كما قدمنا، وكان المعقول أن يستفيد العباسيون من هذا الدرس، ويُعرضوا عن سُنَّةٍ مكروهة فى نفسها، وقد سَنَّها أعداؤهم السياسيون ــ مع هذا كله تورط الرشيدُ فيما تورط فيه عبدُ الملك، وخلفاء عبد الملك، وتعرَّضَتِ الدولةُ العباسيةُ لِمَا تعرضت له الدولةُ الاموية، بل كان خطرُ هذه السُّنَّةِ على العرب أيام بنى العباس أشدَّ منه أيامَ بنى أميه . ذلك أن سقوطَ الدولة الأموية قد نقلَ السلطانَ من أُسْرَةٍ الى أُسْرَةٍ واحتُفِظَ به لقريش . فأما أثر هذه السنة أيام بنى العباس فهو نقلُ السـلطان الفعلىّ من العرب الى الفرس ثم الى التُّرك، وجعـلُ الخلافة نوعا من العبث والسخرية فى أيدى المتغلبين من القواد والخدم والرقيق .

ومهما نلتمس الأســـبابَ لتورط الرشيد فى هـــذه السَّنةِ التى كان يحب أن يتجنبها فلن نستطيعَ أن نُهمِلَ سببين أساســيين . أحدهمـا تأثر القصر العباسىّ بسنَنِ الملك الفارسىّ القديم وسياسته . والآخر تأثر الخلفاء بما كان للنساء، حرائرهن وإمائهن، من سلطان ونفوذ . فلولا هـــذان السببان لمـا تورط الرشـيدُ فى هذه السنَّة التى تورط فيها أبوه المهدىّ، وذاق هو غيرَ قليلٍ من مُرها .

ستقول : ولكن الرشـيد احتاط، فأخذ على أبنـائه العهودَ والمواثيقَ أن ينفى بعضُهم لبعض، ويبَرّ بعضُهم ببعض . ولكن ما قيمةُ هذا الاحتياط أمام سَطوةِ الملك وسلطانه، ومطامع الإنسان التى لا حدّ لها؟ وما قيمةُ هذه العهودِ والمواثيقِ وقد أثبت التاريخُ فى كلّ مراحله أنها لا تُعتبر عهودا ومواثيقَ إلا عند الضعفاء من الأمم والأفراد، أما الأقوياء ودوى السلطان والبطش فهى عندهم ليست بعهودٍ ولا مواثيق، إنما هى «قُصَاصَاتُ ورَقٍ» لا أكثر ولا أقلّ، وقد يُفْضِى بأحدهم « قصاصات ورق » أولئك الذين وَكَّدوها وشهدوا على صحتها، وبصامروا فى الدّنيا والوفاء لأصحابها !

وقد كان الخلفاء قبل الرشـيد يحتاطون لكل بيعـة فيها أحدٌ للعهود والمواثيق . ومع ذلك لم ينفع هذا الاحتياطُ أيامَ بنى أميه ولا أيامَ بنى العباس .

وإليك الآن أحاديثَ المؤرخين من العرب وغير العرب فى هذا الموضوع :

لمـا لاحظ الفضلُ بن يحيى سنـة خمس وسبعين ومائة أنّ جماعةً من بنى العباس قد مدّوا أعناقهم الى الخلافة بعد الرشـيد لأنه لم يكن له ولىُّ عهـد، أجمعَ على البيعة لمحمد، ولمـا صار الفضل بن يحيى الى خراسان فرّق فى أهلها أموالا وأعطى الجندَ أعطيات متتابعات، ثم أظهر البيعةَ لمحمد بن الرشيد، فبايع الناسُ له وسماه الأمينَ . وفى ذلك يقول النمرىّ :

أمسى بمرو على التوفيق قـد صَفَقَتْ * على يد الفضل أيدى العُجْم والعَرب
ببيعـــةٍ لوليّ العهـــد أحكَمَها * بالنصح منه وبالإشفاق والحـــدَب
قد وَكّد الفضلُ عَقْدًا لا انتقاضَ له * لمصطفّى من بنى العباس مُنتخَب

ولما تناهى الخبر الى الرشيد بذلك و بايع له أهلُ المشرق بايع، وكتب الى الآفاق مُوبع له فى جميع الأمصار . فقال أبانُ اللاحقىّ فى ذلك :

عَزَمْتَ أميرَ المؤمنين على الرشد * برأى هـدًى فالحمد لله دى الحمد

ويقول لنا اليعقوبىّ فى هـذا الصدد : إن هارون بايع لابنـه محمد بالعهد من بعـده سنة ١٧٥ هـ ومحمد ابن خمس سنين، وأعطى الناس على ذلك عطايا جمّة، وأخرج محمد الى القواد، فوقف على وسادةٍ فحمدَ الله وصلّى على نبيـه، وقام عبدُ الصمد بن على ، فقال : أيها الناسُ لا يعرنكم صِـغَرُ السنّ ، فإنها الشجرةُ المباركة أصلُهـا ثابت وفرعُها فى السماء . وجعل الرجل من بنى هاشم يقول فى ذلك حتى انقضى المجلس، ونُثِرَتْ عليهم الدراهمُ والدنانيرُ وفارُ المسك و بيضُ العنبر .

ويقول لنا الطبرىّ فى حوادث سنة اثنتين وثمانين ومائة : أن فيها كان انصرافُ الرشيد من مكة، ومسيرهُ الى الرقّة، و بيعته بها لأسه عبد الله المأمون بعد ابنه محمد الأمين، وأحد البيعةَ له على الجند بذلك بالرقة، وضمّه إياه الى جعفر بن يحيى وأنه قد بويع له بمدينة السلام حين قدمها ، وولاه أبوه خراسانَ وما يتصـل بها الى همـدان ، وسماه المأمونَ . وقد قال فى ذلك سَلْمُ بنُ عمرو الخاسرُ :

بايع هارونُ إمامُ الهـدى * لِدِى الحجا والخُلُق الفاضل
المخلِف المتلِف أمـوالَه * والضامن الأثقال للحـامل
والعـالِم الناقد فى علمـه * والحاكم الفاصـل والعادل
والرائق الفائق حِلفِ الهدى * والقـائل الصادق والفاعل
لخير عباس اذا حصّـلوا * والمُفصِلِ المجدى على العائل
أبرّهم بـرّا وأولاهـم * بالعُرف عند الحَدث النازل
لمشبِهِ المنصور فى مُلكه * اذا تدجّتْ ظلمةُ الباطـل
قم بالمأمون نورُ الهـدى * وانكشف الجهلُ عن الجاهل

وفى سنة تسع وثمانين ومائة بايع الرشيد لابنه القاسم بعد المأمون ، وجعل أمر القاسم فى خلعه و إقراره الى عبد الله إن أفضت الخلافةُ اليه .

وأراد الرشيدُ أن يُوثِّقَ الأمر بين بنيه فى ولاية العهد، حتى يَسُدَّ دونهم بابَ الفتنة، فرأى أن خير وسيلة لذلك هى ما يحدّثنا عنها أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى حوادث سنة ست وثمانين ومائة إذ يقول : حج هارون ومحمـد وعبد الله معه وقوّاده وو زراؤه وقصاتُه فى سنه ١٨٦هـ، وحلف بالرقّه إبراهيمَ بن عثمان بن نهيك العكى على الحرم والخزائن والأموال والعسكر، وأشخص القاسمَ ابنه الى مَنْبِج، فأنزله إياها بمن ضَمَّ اليه من القوّاد والجند، فلما قضى مناسكَه، كتب لعبد الله المأمون ابنـه كتابين جهدَ الفقهاءُ والقضاةُ آراءهم فيهما : أحدهما على محمد بما اشترط عليه من الوفاء بمـا فيه من تسلم ما وَلِىَ عبـدُ الله من الأعمال وصِيرَ اليه من الضِّياع والغلّاتِ والجواهر والأموال . والآخر نسخة البيعه التى أخذها على الخاصه والعامه والشروط لعبد الله على محمد وعليهم، وجعل الكتابين فى البيت الحرام، و بعد أخذه البيعةَ على محمد وإشهادِه عليه بها اللهَ وملائكته ومن كان فى الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقوّاده و وزرائه وكتابه وغيرهم ، وكانت الشهادةُ بالبيعة والكتاب فى البيت الحرام، وتقـدّم الى الحجبة فى حفظهما ومنع مَنْ أراد إخراجَهما والذهابَ بهما ، فذكر عبد الله بن محمد ومحمـد بن يزيد النميمىّ وإبراهيم الحمّى . أن الرشيد حصر وأحصر وجوهَ بنى هاشم والقـوّاد والفقهاء وأُدْخِلُوا البيتَ الحرامَ وأمَر بقراءة الكتاب على عبد الله ومحمد وأشهدَ عليهـما جماعةَ مَنْ حَضَر، ثم رأى أن يُعلَّقَ الكتابُ فى الكعبة . فلما رُفع ليُعلَّقَ وَقع فقيل : إن هذا الأمر سريعٌ انتقاضُه قليل تمامه . وقد أثبتنا الكتابين، لعظيم خطرهما التاريخىّ، فى باب المنثور فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى .

و بعـد، فإن لعصر الرشيد مكانتَه وقدْره، فقد ازدهرت فيه الحضارةُ الإسلاميةُ أيما ازدهار، وظهرت فيه آثارُ تحوّل المدنية فى العصور التى سبقته، كما أثّر هو فى العصور التى تلته . ولقد صدق صاحب «النجوم الزاهرة» فيما رواه عن أبى على صالح بن محمد الحافظ،

قال : «اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره : وزراؤه البرامكةُ، وقاضيه أبو يوسفَ، وشاعرُه مروانُ بن أبي حفصه، ونديمُه العباسُ بن محمد عم أبيه، وحاجبُه الفضلُ بن الربيع أنبهُ الناس وأعظمُهم، ومُغَنّيه إبراهيم الموصلىّ، وزوجتُه زبيدةُ بنتُ عمّه جعفر» .

وإنا لنجتزئ ببحثنا فى حياة الرشيد وعصره، بكلمة تبين وجهةَ نظر مؤرخ كبير المكانةِ فى الشرقيات وهو الأستاذ «ميور»، ونتقدّم بملاحظة واحده وهى شدّته على هارونَ الرشيد. وقد يكون الذى دفعه الى ذلك تأثُّرُه بمرجعه العظيم الذى وصفه الأستاذ «ويل» . وقد اعترف «ميور» نفسُه بأنّ «ويل» كان بالغًا فى قسوته على هارون مبلغا عظيما على نقيض ما عُهد فيه من الحَيدة والهدوء فى أحكامه، فقد اعتبره من الظلم فى الدِّروة، ولم يكن الرشيد من الرداءه بمكان من سبقه ومن أتى بعده . ويظهر أن الفاجعةَ البرمكيةَ هى التى أعطته هذه الأسبقيةَ التى لا يُغبَطُ عليها فى حكاية الشرق وتاريخه .

وسنرى مع محاولة الأستاذ «ميور» الردَّ على الأستاذ «ويل» فى حاشية كتابه، أن كتابته عن الرشيد، مع حظها العظيم من المتانة والإنصاف، لا تزال عليها غِلالةٌ من صرامة «ويل» وقوادع نقده .

نترجم لك رأى « ميور » ، لأنه يكاد يكونُ صورةً صحيحه للرأى العلمىّ الأخير فى الرشيد، فهو لا يعدو الرأىَ الذى أبداه الأستاذ لك . ف . «زتوستين» فى العدد الثانى والعشرين من دائره المعارف الإسلامية . ونحن جدُّ عالمينَ بخطر المراجع العديدة التى استند عليها «زتوستين» فى رأيه فى الرشيد . فلننقل لك الآن كلمة «ميور» فهى مثلُ الأخرى إن لم تكن أوسعَ وأبلغَ .

قال الأستاذ «ميور» فى كتابه عن الخلافة : "إن مكانةَ هارون الرشيد وابنِه المأمون فى التاريخ لهى أسمى مكانةٍ بلغها الخلفاء العباسيون، وإن هارون لَقمينٌ بأن يكون فى الذِّروة مع الخيرةِ من أفاضل ملوك أُسرة بنى أمية، لولا شائبةُ القساوه المطوية على الخلال التى وصمَتْ سيرته جمعاء .

لقد كان الرشـيدُ فى قصوره محوطًا بصروف الرفاهيـه والرَّغد، وكان مَلِكًا فى مكارمه وجُوده، ومع ذلك قد ترك فى أقـائه خزائنَ عامرةً بلغت تسعمائه مليون ، جُمعَت بوسائل العَسف وعدم التدقيق . واذا استثنينا ما ذكرناه فإن إدارته كانت عادلةً موفّقةً .

ولمـا كان الرشيد قد اعتاد منذ مَيْعَه شبابه الحياةَ الحربيَّـةَ فإنه كثيرًا ما شاطر جندَه مَيدان القتال . وقد كان من حَرَّاء انتصاراته العديده، لا سيما على اليونان (الروم) ، أن طُبِعَ عصرُه بطابعَ المجدِ والصِّيتِ .

ولم يُظْهِرْ خليفةٌ، من قبل أو بعد، ما أظهره الرشيد من الهمه والنشاط فى مختلف حركاته، سواء أكانت فى سبيل الحج أم الإدارة أم الحرب .

على أن أصـل شهرةِ هذا الخليفه ، ومصدرَ صِيته ، راجعٌ الى أن حكمَه محَّلَ بدحول عصر الآداب ، فقد كان قصرُه المثابةَ التى يُهْرَع اليها الحكماءُ والعلماءُ من أنحاء العالم، وكانت سُوقُ البلاغه والشـعر والتاريخ والفقهِ والطب والموسيقى والغنون نافقةً، إذ يقابلها الخليفهُ مقابلةَ من فى سحبته السلُ والكرم ، كل ذلك ممـا تأتى أُكُلَه وثمرَه الناضجَ فى العصور الآتيـــة .

لقد كان الرشيد يُجير العلمـاءَ فى كل من حائزاتٍ ملكيةً نبيلةً ، على أن الشـعراء كانوا موضعَ كرمه الخاص . وهاك مثلًا ما أجار به مروانَ بن أبى حفصة حين مدحه بمدحته فيه، فوفده الرشـيدُ بكيس فيه خمسـة آلاف دينار وكساه حلعتَـه تشريفًا له ، وأمر له بعشرة من رقيق الروم، وحمله على بُرْذونٍ من خاصّ مراكبه . اهـ

٤ — الدولة البرمكية والنكبة البرمكية

صدق الفخرى إذ يقول : إن دولةَ البرامكة كانت غُرَّةً فى جبهةِ الدهر ، وتاجًا على مَفْرق العصر، ضُربَتْ بمكارمها الأمثالُ، وشُدَّتْ اليها الرحالُ، ونيطَتْ بها الآمالُ، وذلَّتْ

لها الدنيـا أفلاذَ أكبادها، ومحتْها أوفرَ إسعادها، فكان يحيى وبنـوه كالنجوم زاهرةً، والبحور زاخرةً، والسيول دافعةً، والغيوث ماطرةً؛ أسواقُ الاداب عندهم نافقةٌ، ومراتبُ ذوى الحرمات عـندهم عاليةٌ، والدنيا فى أيامهم عامرةٌ، وأُبَّهةُ المملكة ظاهرةٌ، وهم ملجأُ اللَّهيف ومعتصَمُ الطريد، ولهم يقول أبو نواس :

سلامٌ على الدنيا اذا ما فقدتُمُ * بنى برمكٍ من رامحين وعاد

ويؤخذ من المباحث التاريخيـة الحديثة للمستشرقين : أن البرامكةَ هم أسرةٌ فارسيّةٌ أنتجت أوّلَ الوزراء الفرس للخلافة . وليست لفظةُ برمك اسم لشخص ، وإنمـا تدل على رتبة وراثيّةٍ خاصة برئيس الكهّان بمعبد «نوبهار» ببلخ . وكانت البرامكةُ تملك الأراضىَ التابعة للمعبد، ويبلغ طولها ثمانيةَ فراسخ وعرضها أربعةً، فكانت مساحتُها أربعينَ وسبعمائة ميل مربع . ولم تزل هذه الممتلكاتُ أو بعضها فى حَوْزة البرامكة فى الأيام التالية . ويقول ياقوت : إنّ قرية « روان » — الكبيرة الغنيـة — وهى شرق بلخ كانت فى حَوْزَةِ يحيى ابن خالد .

ومعنى الاسم بالسنسكريتية : الدير الجـديد . وكان هذا الدير عبارة عن دير بوذىّ . وقد وُصِفَ كذلك بوساطة حاج صينىّ اسمه «هوان شانج» فى القرن السابع للمسيح فى كتاب اسمه «ذكريات على البقاع الشرقية» وقد ترجمه الى الفرنسية « ستنت جوليان » . على أن هذا المعبد كان معروفا لبعض الجغرافيين من العرب أمثال ابن الفقيه (أنظر طبعة جوج ص ٣٢٢) إذ قرر أن النوبهار كانتْ مخصصةً لعبادة الأوثان لا النـار . واذا تركنا جانبًا بعض المبالغات فى وصف ابن الفقيه، فإنا نجد وصفَه مطابقًا للبوذية .

فللاحظ هـذه العبادةَ لأقطابٍ من زعمـاء الفرس لعبوا دورا هاما فى التـاريخ العباسىّ . وللاحظها جيدا، فربما أفادتنا فى إماطة اللّثام قليلا عن عبادات لفئات عديدة اعتُبِرتْ زنادقةً أو مانيةً أو ملحدين . ومهما كانت هذه الفئاتُ موضعَ اضطهادٍ من خلفاء العصر، فإنه من المبالغـة الكذابية التى لاتُرضى العلمَ ولا التاريخَ فى شىء، ألا يُحفل بها

أو لا يشار اليها إشارةً طفيفـةً، اذا لم يكن لديها من المواد ما نسمح لنا بأن نُفْرِدَ لدراستها باباً، كما حفل بها الخلفاء فأفردوا لها إدارةً أسمَوا رئيسها «صاحب الزادقه» .

ولعل أول ذكرٍ لبرمكيٍّ حفل به التاريخُ واعتبره مؤسّسا لتلك الأسره البرمكيه التى نعت فى تلك الأيام الزاهرة الزاهرة والتى امتدّت الى أن انقصت فى أيام الرشيد، ونُظِرَ اليه باعتباره حدّ البرامكة، هو خالد بن برمك الذى استوزره السفاح بعد أبى سلمه الخلال وأبى الجهم. كان خالد بن برمك من رجالات الدولة العباسيه، فاضلاً جليلا كريما حازما يقِظًا، استوزره السفاحُ وخفّ على قلبه، وكان يسمى وزيرًا . وقيل : إن كل من استُوزِرَ بعد أبى سلمه كان يَتَحَبَّبُ أن يسمى وزيرا، تطيرًا مما جرى على أبى سلمة، ولقول من قال :

إن الوزيرَ وزيرَ آل محمـدٍ ـ أودى فمن يَشْساكَ كان وزيرا

قالوا : فكان خالد بن برمك يعمل عملَ الوزراء ولا يسمى وزيرا . كان خالدٌ عظيمَ المنزلة عند الخلفاء . قيل : إن السفاح قال له يوما : ياخالد مارضيتَ حتى استخدمتنى، فجزع خالد وقال : كيف ياأمير المؤمنين وأنا عبدُك وخادمُك ! فضحك وقال : إن رَيْطَةَ ابنتى، نامت مع ابنتك فى مكانٍ واحدٍ، فأقوم بالليـل فأحدهما قد سرحَ الغطاءُ عنهما، فأردّه عليهما؛ فقبّل خالد يده وقال . مولىً يكتسب الأحرار عبدا وأمَتِه .

وكثر الوافدون على باب خالد بن برمك، ومدحه الشـعراء، وانجعَه النـاسُ . وكان الوافدون يسمون سُؤالًا، فقال خالد : إنى أستقبح هذا الاسمَ لمثل هؤلاء، وهم الأشرافُ والأكابرُ، فسماهم الزوارَ، وكان خالد أوّلَ من سماهم بذلك، فقـال له بعضُهم والله ما ندرى أىّ أياديك عندنا أجلّ، أصلتنا أم تسميتنا ! .

ولقد مدحه بشارُ بن بُرد فقال فيه :

لعَمْرِى لقد أجدَى علىّ ابنُ برمك * وما كل من كان الغنى عنده يُجدِى
حلبتُ بشـعرى راحتَيـه فدرّتا * سَمَـاحًا كما درّ السحابُ مع الرعد
اذا جئتَـــه للحمد أشرقَ وجهُه * اليـك وأعطاك الكرامةَ بالحمـــد

له نِعَـــمٌ فى القـــوم لا يستثيبها حراءُ وكيلَ التاجرِ المُدّ بالمدّ
مُعيـــدٌ ومِتـــلَافٌ سبيل ثرائهِ ادا ما عدا أو راح كالجَـــزْرِ والمدّ
أحالدُ إنّ الحمدَ يبقى لأهـــله حمالا ولا تبقَى الكنوزُ على الكدّ
فأطعِم وكلْ من عارة مســـتردّهِ ولا تُبقهـا إن العوارىَ للـــردّ

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم ، وكان قبل ذلك يعطيه فى كل وفادهِ خمسةَ آلاف درهم ، وأمر خالد أن يُكتبَ هذان البيتان ، الأحيران ، فى صدر مجلســه الذى كان يجلس فيه . وقال آنسُه يحيى : آخر ما أوصانى به أبى العملُ بهذين البيتين .

ولقد أشرنا فى كلمتنا عن الهادى الى مبلغ إخلاص يحيى بن خالد البرمكى للرشيد فى أيام الهادى حينما شرع فى خلع هارونَ من ولاية العهد ، وإن الأخبار التى رواها الطبرىّ فى سنة سبعين ومائة ناطقةٌ بولاءِ يحيى وصدقِ إخلاصه .

ويجـدُر بنا هنا أن نقتطفَ موقفين كمثلٍ لمواقف يحيى مع الهـادى ذَوْدًا عن الرشيد وحقوق الرشـيد ، فإنهما يعطياننا صورةً من إخلاص آل برمك للرشيد ومبلغ ما رُوِّعَ به يحيى فى سبيل الرشيد .

ذكر أبو حفص الكرمانى أن محمد بن يحيى البرمكى حدّثه قال : بعث الهادى الى يحيى ليلا فأيس من نفسه وودّع أهله وتحنّط وحدّد ثيابه ولم يشك فى أنه يقتله ؛ فلما أُدْخِلَ عليه قال : يا يحيى مالى ولك ! قال : أنا عبدك يا أمير المؤمنين ، فما يكون من العبد الى مولاه إلا طاعتُه ! قال : فَلِمَ تدخل بينى وبين أخى تفسده علىّ ؟ قال : يا أمير المؤمنين من أنا حتى أدخلَ بينكما ! إنما صيرنى المهدى معه ، وأمرنى بالقيام بأمره ، ففعلت بما أمرنى به ، ثم أمرتنى بذلك فانتهيتُ الى أمرك . قال . فما الذى صنع هارون ؟ قال : ما صنع شيئا ولا دلك فيه ولا عنده ، قال : فسكن غضبُه . وقد كان هارونُ طاب نفسًا بالخلع فقال له يحيى : لا تفعل ، فقال : أليس يُترَكُ لى الهنىءُ والمرئُ فهما يسعانى وأعيش مع ابنة عمى ،

وكان هارون يحِدُ بأم جعفر وجدًا شديدًا، فقال له يحيى . وأين هذا من الخلافة! ولعلك ألّا يُتركَ هذا فى يدك حتى يخرجَ أجمع، ومنعه من الإجابة .

وذكر الكرمانى أيضا عن خريمة بن عبد الله قال : أمر الهادى بحبس يحيى بن خالد، على ما أراده عليه من خلع الرشيد، فرفع اليه يحيى رقعة : إن عندى نصيحةً، فدعا به، فقال : يا أمير المؤمنين أَحْلِنى فأحلاه، فقال . يا أمير المؤمنين أرأيتَ إن كان الأمرُ — أسألُ اللهَ ألّا نَبْلُغَهُ وأن يقدّمنا قبله — أتظن أن الناس يُسلّمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحُلُمَ، ويرضَوْن به لصلاتهم وحجهم وغزوهم ! قال والله ما أظن ذلك، قال : يا أمير المؤمنين أفتأمن أن تسموَ اليها أهلُكَ وحِلّتُهم مثل هلان وفلان ويطمع فيها غيرُهم فتخرج من ولد أبيك ! فقال له : بقّنى يا يحيى . قال وكان يقول . ما كلمتُ أحدا من الخلفاء كان أعقلَ من موسى . قال وقال له لو أنّ هذا الأمر لم يُعقَدْ لأخيك أما كان ينبغى أن تعقدَه له ! فكيف بأن تحلّ عَقْدَه وقد عقده المهدىّ له ! ولكن أرى أن تُقرَّ هذا الأمرَ يا أمير المؤمنين على حاله، فاذا بلغ جعفر وبلغ الله به أتيتَه بالرشيد فخلع نفسَه وكان أوّلَ من يُبايعه ويعطيه صفقةَ يده، فقال : فقبل الهادى قولَه ورأيه، وأمر باطلاقه .

ولما ولى الرشيد الخلافةَ قلد يحيى بن خالد الوزارةَ، وقال له : قد قلدتك أمرَ الرعية وأحرجتُه من عنقى اليك، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب، واستعملْ مَنْ رأيتَ، واعزِل مَن رأيتَ، وامضِ الأمور على ما ترى . ودفع اليه خاتمه . فمن ذلك يقول ابراهيمُ الموصلىّ .

ألم تر أن الشمسَ كانت سقيمةً * فلما وَلِى هارونُ أشرق نورُها
يمين أمين الله هارون ذى الندى * فهارونُ واليها ويحيى وزيرُها

وليس فى مقدورنا أن نصوّر شخصيةَ يحيى بن خالد بن برمك بأحسنَ مِنْ إشارتنا رأسًا فى الأخلاقيات، فقد قيل له : أىّ الأشياء أقلّ؟ قال : قناعةُ ذى الهمة البعيدة بالعيش الدون، وصديقٌ كثيرُ الآفات قليلُ الإمتاع، وسكونُ النفس الى المدح . وقيل له :

ما الكرم" فقال . مَلِكٌ فى زىّ مسكين . وقيل له : ما الجود " فقال . عفوٌ بعد قدرة . وقال مرّة : ادا فتحتَ بيتكَ و بين أحد بابا من المعـروف فاحذَرْ أن تُغلقَه ولو بالكلمة الجميلة . وقال . «أحسنُ حملة الولاه إصابةُ السياسة، ورأسُ إصابة السياسة العملُ بطاعة الله، وفتحُ بابين للرعيـة، أحدهما رأفةٌ ورحمـة وبدل وتحنّن، والآخر غلظةٌ ومباعدةٌ و إمساك ومنع» .

و يروى لنا "ياقوت الرومى" فى "معجمه" عنه : أنه لما كان الفضل بن يحيى والياً على خراسان، كتب صاحبُ البريد الى الرشيد كتابا يذكر فيه : أن الفضل تشاغلَ بالصيد واللذات عن النظر فى أمور الرعية، فلما قرأه الرشيد رمى به ليحيى وقال له : يا أبت اقرأ هذا الكتاب واكتب الى الفضل كتاباً يردعه عن مثـل هذا ، فمدّ يحيى يده الى دواه الرشيد وكتب الى ابنه على ظهر الكتاب الذى ورد من صاحب البريد .

"حفظك اللهُ يابنىّ وأمتعَ بك . قد انتهى الى أمير المؤمنين ما أنتَ عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات، عن النظر فى أمور الرعية ما أنكره، فعاوِدْ ما هو أزينُ بك، فإنه من عاد الى ما يَزِينُه لم يعرِفْه أهلُ زمانه إلا به والسلام" وكتب تحته هذه الأبيات :

إنصَبْ نهارا فى طِلاب العلا ... وآصبر على فقـد لقاء الحبيب
حتى اذا الليـلُ بدا مُقْبِـلاً ... وغاب فيه عنك وجهُ الرقيب
فبادِرِ الليـلَ بما تشتهى ... فإنما الليـلُ نهارُ الأريب
كم من فتًى تحسبه ناسكًا ... يستقبل الليـلَ بأمرٍ عجيب
ألقى عليـه الليـلُ أستارَه ... فباتَ فى لهوٍ وعيشٍ خصيب
ولذةُ الأحمق مكشوفـةٌ ... يسعى بها كلّ عدوٍ مريب

هذا هو يحيى الذى يقول عنه المأمون : «لم يكن كيحيى بن خالد وكولده أحدٌ فى البلاغة والكفاية والجود والشجاعة» . وهـذا هو يحيى الذى كان يُجرى على سفيان الثورىّ رضى

الله عنه ألفَ درهم فى كل شهر ، فكان اذا صلّى سفيان يقول فى سجوده : « اللهُ إن يحيى كفانى أمرَ دنياى فاكفه أمر آخرته» .

هذا ، واذا علمت أن أمّ الفضل بن يحيى ، وهى زينب بنت موسى ، كانت ظئرا للرشيد فأرضعته بلبان الفضل وأرضعت الخيزُرَانُ ، والدة الرشيد ، الفضل بلبان الرشيد ، استطعتَ أن تقدُر الى أىّ مدًى كانت علاقة الرشيد بآل برمك ، وهو لم يَدرِجْ فى مهده ، ولم يفرق بين أمسه ويومه .

ونجد فى أخبار سنة ست وسبعين ومائة أن الرشـيد ولّى الفضلَ بن يحيى كُورَ الجبال وطبرستان ودُنْبَاوَنْد وقومس وأرمينية وأذربيجان ، وندبه لحرب يحيى بن عبـد الله الطالبى حين خروجه بالديلم ، فوُفّق الفضلُ لأخذ أمانٍ له من الرشيد وأصلح أيّما إصلاح ونجح النجاحَ كلّه فى غزواته وحروبه ، حتى قال فيه أبو ثمامة الخطيب :

للفضـــل يومُ الطَّالَقَانِ وقبـلُه ٭ يـــومٌ أناخَ بهِ على حاقان
ما مثـلُ يومَيْـهِ اللذينِ تَوالَيـا ٭ فى غَزْوَتين توالتـا يومانِ
سدَّ الثغورَ وردَّ ألفَةَ هاشِـمٍ ٭ بعد الشَّتاتِ فشَعبُها مُتَدانِ
عصَمَتْ حكومتُهُ جماعةَ هاشم ٭ من أن يُجَـرَّد بينها سيفانِ
تلك الحكومةُ لا التى عن لَبْسِها ٭ عَطَـمَ البا وتفرّقَ الحكمانِ

فأعطاه الفضلُ مائة ألف درهم وحلّف عليه .

ونجد فى أخبار السـنة نفسها أن الفتنة هاجت بالشأم بسبب العصبية التى بين النزارية واليمانية ، فولى الرشـيدُ موسَى بنَ يحيى بن خالد الشأم ، فهرع اليها موسى وأقام بها ، حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنةُ واستقام أمرُها ، فمدحه الشعراءُ . ومن قول بعضهم فيه :

قد هاجت الشأمُ هَيْجا ٭ يُشِيبُ رأسَ وَليـدِه
فَنُصِّبَ موسى عليهـا ٭ بخيـلِه وجنـودِه
فـدانتِ الشـأمُ لمّـا ٭ أتى نسيجُ وَحيـدِه

هـو الجـوادُ الذى نَـدٌّ كلّ جُودٍ بجـوده
أعداه جـــودُ أبيـه * يحيى وجـودُ جُـدوده
قـادَ مُوسَى بن يحيى بطـارفٍ وتليـده
ونال موسى دُرَى المجـ * ـدِ وهو حشـوُ مُهودِه
حصصتُـهُ بمـديحى * مَشْـورِه وقَصـيده
مِن الرامك عُودٌ * له فأكرم بعُـوده
حَوَوْا على الشـعر طُرًّا * حقيقـه ومَـديده

وقد مدحه بمثل ذلك اسحاقُ بن حسان الخريمىّ .

ويقول الطبرىّ فى أحداث سنة ثمان وسبعين ومائة : إن الرشيد فوّض أمورَه كلها الى يحيى ابن خالد بن برمك ، وقد ذكر فيها تخصيصَ الفضل بن يحيى الى خراسانَ والىًا عليها ، فأحسن السيرةَ بها ، وبنى بها المساجدَ والرباطاتِ ، وغزا ماوراء النهر ، فخرج اليه خاراخره ملك أشروسنة ، وكان ممتنعًا . وقد مدحه مروانُ بن أبى حفصه وغيره بقصائدَ عديده ، وقد ذكر محمد ابن العباس أنه سمع مروان يقول : إنه أصاب فى قَدْمَتِه تلك على الفضل سبعمائةِ ألف درهم .

وقد مدحه سَلْم الخاسرُ فقال .

وكيف يحاف مِن بؤسٍ بدار تكنفها البرامكةُ البحورُ
وقوم منهم الفضل بن يحيى كثيرٌ ما يوازنه نفيرُ
له يومان يومُ ندًى وبأسٍ كأنّ الدهرَ بينهما أسيرُ
اذا ما البرمكى عدا ابنَ عشر فهمَّتُه وزيرٌ أو أميرُ

ولنسطر الى مكانةِ الفضل وآل برمك من الرشيد ، فإن أبا جعفر محمد بن جرير الطبرى يحدّثنا أنه لما قدم الفضل بن يحيى من خراسانَ حرج الرشيدُ الى بستان أبى جعفر يستقبله ،

وتلقّاه بنو هاشم والناسُ من القوّاد والكتّاب والأشراف، فجعل يصل الرجل بألف الألف وخمسمائة الألف . ومدحه مروانُ بن أبي حفصة فقال .

حَمِدنا الذي أدّى ابنَ يحيى فأصْبَحَتْ ... بمَقْدَمِهِ تجري لنا الطَّيْرُ أسْعُدَا
وما هَمَعَتْ حتى رأتْـهُ عُيونُنـا ... وما زلنَ ، حتى آبَ ، بالدَّمع جُدَّدا
نفى عن خُراسانَ العـدُوَّ كما نفى ... ضُحَى الصبحِ جِلْبابَ الدجى فتعرّدا
لقـد راعَ من أمسى بمَـرْوَ مَسيرُهُ ... إلينا وقالوا شَـعْشُنا قد تـبدَّدا
على حينِ أَلْقَى قُفْـلَ كلّ ظلامهِ ... وأطلق بالعفو الأسـيرَ المقيَّـدا
وأفشى بلا منٍّ مع العـدل فيهم ... أيادىَ عُرْفٍ باقياتٍ وعُوَّدا
فأدهشَ رَوْعاتِ المخاوفِ عنهـمُ ... وأصْـدَرَ ناعى الأمنِ فيهـمْ وأوردَا
وأجْـدَى على الأيتـام فيهـم بعُرْفِهِ ... فكان من الآباء أحْنَى وأعْوَدَا
ادا الناسُ راموا غايةَ الفضل فى الندَى ... وفى البأس ألْفَوْهَا من النَّجْم أبعـدَا
سَما صاعِدًا بالفضـل بحيى وخالدٌ ... إلى كلّ أمرٍ كان أسنى وأمْجَـدَا
يَلينُ لِمَن أعطى الخليفـةَ طاعَةً ... ويُسقِي دَمَ العاصى الُسامَ المهنَّدا
وَشَدَّ القُوَى من بَيْعةِ المصطفى الدى ... على فضـله عَهْـدَ الخليفَـةِ قلّدا
سَمِيَّ النَّبيّ الفـاتح الحـاتم الدى ... به اللهُ أعطى كلَّ خَيْرٍ وسَـدَّدا
أبَحْت جِبـالَ الكابُليِّ ولم تَدَعْ ... بهنَّ لسيران الضَّلالة مُوقَـدا
فأطْلَقْتَها خَيْـلا وطئنَ حموعَهُ ... قتيـلًا وماسـورًا وقـلًا مُشَرَّدا
وعادَت على ابنِ الـبَرْمَكِ نعماك بعدما ... تَحـوَّلَ محدولًا يرى الموتَ مُفـرَدا

وفى أخبار سنة ثمـانين ومائة، هاجت العصبيةُ بالشام، وتفاقم أمرها، واعتم الرشيد بذلك ، فعقد لجعفر بن يحيى على الشام ، وقال له . إما أن تخرج أنتَ أو أخرج أنا ، فقال له جعفر : بل أقيكَ بنفسى . وتخصّص الهم جعفر فى حلّة القوّادِ والكُراع والسلاح ،

فأصلح بينهم، وقتل زواقيلهمَ والمتلصّصةَ منهم، فعادوا الى الأمن والطمأنينة، وأطفأ تلك الثائرة . وقد مدحه منصور النمريّ بقصيدة مطلعها :

لقد أُوقِدَتْ بالشأم نيرانُ فتنةٍ * فهذا أوانُ الشأم تُخمَدُ نارُها

اذا حاش موجُ البحر من آل برمكٍ * عليها خبَتْ شُهبانُها وشـــرارُها

ولما عاد جعفـر موفّقا من سفرته هـذه، وقد استخلف على الشأم مكانه عيسى بن العكي، دخل على الرشيد فزاده إكراما و إجلالا .

واما لنسقل لك هنا ما قاله جعفر للرشيد، حين مَثَـلَ بين يديه، لأنه يُعتبر أثرا قيماً من ناحيةِ تحليلِ نفسيّة الطرفين، ولرَوْعته و بلاغته فى أدب العصر، ولأنه فى الوقت نفسه بمثابة نصّ تاريخيّ للعصر الذى ندرُسه .

قال الطبرى : لمـا دخل جعفر على الرشيد قبّلَ يديه و رجليه، ثم مَثَلَ بين يديه فقال: الحمـد لله يا أمير المؤمنين الذى آنسَ وحشتى ، وأجاب دعوتى ، ورحِم تضرّعى، وأنسأ فى أجلى حتى أرانى وجهَ سـيدى ، وأكرمنى بقربه، وآمنَّ علىّ بتقبيل يده ، وردّنى الى خدمته ، فوالله إن كنتُ لأذكر عيبتى عنه ومحرجى، والمقاديرَ التى أزعجتنى، فأعلم أنها كانت نعماً لحقتنى، وخطايا أحاطت بى، ولو طال مُقامى عنكَ يا أمير المؤمنين ، جعلنى الله فداءك، لخفتُ أن يذهب عقلى، إشفاقاً على قربك، وأسفاً على فراقك، وأن يُعجّلَ بى عن إدنك الاشتياقُ الى رؤيتك . والحمـد لله الذى عصمنى فى حال الغيبة، وأمتعنى بالعافيـة، وعرّفنى الإجابةَ، ومسّكنى بالطاعة، وحال بينى و بين استعمال المعصيه، فلم أشخَصْ إلا عن رأيك ، ولم أقدُم إلا عن إذنك وأمرِك ، ولم يخترمنى أجلٌ دونك، والله يا أمير المؤمنين، فلا أعظمَ من اليمين بالله، لقد عايشتُ فلو تُعرَضُ لى الدنيا كلّها ، لآثرت عليها قربَكَ ولَما رأيتها عوضًا من المُقام معك . ثم قال له بعقب هـذا الكلام فى هذا المقام : إن الله يا أمير المؤمنين لم يزل يُبليك فى خلافتك، بقدر ما يعلم من نيتك، ويُريكَ فى رعيتك ، غايةَ

(١) الزواقيل : هم اللصوص، كما فى القاموس وشرحه فى مادة «زقل» .

أمنيتك، فيصلح لك جماعتَهم، ويجمع ألفتهم، ويلمّ شعثَهم، حفظًا لك فيهم، ورحمةً لهم، وإنمـا هدا للتمسك بطاعتك، والاعتصام بحبل مرضاتك . والله المحمودُ على دلك، وهو مستحِقه . وفارقتُ يا أمير المؤمنين أهـلَ كور الشام وهم مقادون لأمرك، نادمون على ما فرَط من معصيتهم لك، ممسّكون بحبلكَ، نازلون على حكمكَ، طالبون لعفوكَ، واثقون بحلمك، مؤمّلون فضلَكَ، آمنون بَادِرَتَك، حالُهم فى ائتلافهم كحالهم كانتْ فى اختلافهم، وحالهم فى أُلفتهم كحالهم كانت فى امتناعهم . وعفوُ أمير المؤمنين عنهم، وتغمُّده لهم سابقٌ لمعذرتهم، وصلةُ أمر المؤمنين لهم وعطفُه عليهم متقدّمٌ عنده لمسألتهم . وأيم الله يا أمير المؤمنين لئن كنت قد شخصت عنهم، وقد أخمـد اللهُ شرارَهم وأطفأ نارَهم ونهى مُرَّاقَهم وأصلح دهماءهم وأولانى الجميـلَ فيهم ورزقنى الانتصارَ منهـم، فما دلك كلّه إلا ببركتكَ ويمنكَ وَرِيحك، ودوام دولتك السـعيدةِ الميمونةِ الدائمةِ، وتحوّفهم منك ورحائهـم لك . والله يا أمير المؤمنين ما تقدّمتُ اليهم إلا بوصيتكَ، وما عاملتُهم إلا بأمرك، ولا سرتُ فيهـم إلا على حدّ ما مثّلتَه لى ورسمتَه، ووقفتنى عليه . ووالله ما انقادوا إلا لدعوتك وتوحُّد الله بالصنع لك، وتحوّفهم من سطوتك . وما كان الذى كان منّى، وإن كنتُ قد بذلتُ جهدى وبلغتُ مجهودى، قاضيًا ببعض حقك علىّ، بل ما ازدادت نعمتُك علىّ عظمًا إلا ازددتُ عن شكرك عجزًا وصعقًا . وما حلق الله أحدًا من رعيتك، أبعدَ من أن يُطمِعَ نفْسَه فى قضاء حقك منّى، وما ذلك إلا أن أكون نادلًا مُهجتى فى طاعتك، وكلّ ما يقرّب الى موافقتك؛ ولكنى أعرف من أياديكَ عـدى ما لا أعرف مثلها عنـد غيرى، فكيف بشكرى وقد أصبحتُ واحدَ أهل دهرى فيما صنعتَه فىّ وبى! أم كيف بشكرى وإنمـا أقوى على شكرك بإكرامك إياى! وكيف بشكرى ولو جعـل الله شكرى فى إحصاء ما أوليتَنى لم يأت على دلك عدّى! وكيف بشكرى وأنت كهفى دونَ كل كهف لى: أو كيف بشكرى وأنت لا ترضى لى ما أرضاه لى! وكيف بشكرى وأنت تجدّد من نعمك عنـدى ما يسغرقُ كل ما سلف عندك لى! أم كيف بشكرى وأنت تُنسينى ما تقدم من إحسانك بما تُجدّدُه لى:

أم كيف بشكرى وأنت تُقدّمى بَطولكِ على جميع أكفائى ! أم كيف بشكرى وأنت ولىّ ! أم كيف بشكرى وأنت المكرم لى ! وأنا أسأل الله، الذى رزقنى ذلك منك من غير استحقاقٍ له، إذ كان الشكر مُقَصِّرًا عن تأدية بعضه، بل دون شقص من عُشر عشيره، أن يتولى مكافأتك عنى، بما هو أوسع له وأقدر عليه، وأن يقضى عنّى حَقك وحليلَ منتك، فإن ذلك بيده وهو القادر عليه" .

وفى أخبار سنة ثمانين ومائة نفسها ولّى الرشيدُ جعفرَ بن يحيى الخَرَسَ . وهكذا تجد فى أخبار كلّ سنة شيئاً عن آل برمك، وتَمداحًا لآل برمك وأثراً جليلاً فى خدمة الدولة من آل برمك، ومكانةً سامية تبوأها آلُ برمك من الرشيد .

وإنا لا نرى ندحة من إيراد واقعة حال رواها الصحرىّ بين جعفر بن يحيى البرمكى وعبد الملك بن صالح الذى سعى به كاتبه قائمةُ وابنُه عبد الرحمن عند الرشيد بتهمة طلبه الخلافةَ لنفسه، حتى حبسه الرشيد عند الفضل بن الربيع، وهو منافسٌ لآل برمك، وكثيراً ما سعى الساعون بين صالح والرشيد . فإذا ما تعرّض البرمكيون بالخير لرجل من كبار رجالات الدولة، المتهمين بالتطلّع الى الخلافة، وإذا ما نجح البرمكيون فى إيصال الخير لهم، وفى إرضاء قلب الرشيد عليهم، كان فى ذلك أصدقُ دليلٍ على مكانتهم الرفيعة من الرشيد، فما بالك اذا ما وصلوا الى أن يبنى أحد أولاد صالح على إحدى بنات الرشيد، واذا ما اقتطعوا له الولاياتِ ورفَدوه بأجزل الأموال ! .

على أنا نترك الكلمة لابن طَباطَبا ليقصّ علينا ما يرويه فيما نحن فى صدده — قيل : إن جعفر بن يحيى البرمكى جلس يوما للشرب، وأحبّ الخلوة، فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم، وجلس معهم وقد هُيِّئ المجلسُ ولبسوا الثيابَ المصبّغة، وكانوا اذا جلسوا فى مجلس للشراب واللهو، لبسوا الثيابَ الحمرَ والصفرَ والخضرَ . ثم إن جعفر بن يحيى تقدّم الى الحاجب ألّا يأذنَ لأحدٍ من خلق الله تعالى سوى رجلٍ من الندماء كان قد تأخر عنهم اسمه عبد الملك بن صالح، ثم جلسوا يشربون، ودارت الكاساتُ، وخفقَتِ العيدان،

وكان رحل من أقارب الخليفة يقال له عبدُ الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن العباس، وكان شديدَ الوقارِ والديبِ والحِشْمةِ، وكان الرشيد قد التمس منه أن يبادمَه و يشربَ معه، وبذل له على ذلك أموالًا جليلةً فلم يفعل، فاتفق أن عبـد الملك بن صالح حضر الى باب جعفر بن يحيى ليحاطـه فى حوائجَ له، فظن الحاجبُ أنه هو عبـد الملك بن صالح الذى تقـدّم جعفر بن يحيى بالإذن له وألا يدخل غيره، فأذن الحاجبُ له، فدخل عبـد الملك ابن صالح العباسىّ على جعفر بن يحيى، فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء، وفطن أن القصيةَ قد اشتبهت على الحاجب، بطريق اشتباهِ الاسم، وَفَطَنَ عبـدُ الملك بن صالح أيضا للقصـه وظهر له المحلُ فى وجه جعفر بن يحيى، فابسط عبد الملك وقال: لا بأس عليكم، أحضروا لنا من هذه الثياب المصنّعة شيئا، فأُحْضِر له قميصٌ مصنوعٌ، فلبسه وجلس يباسط جعفر بن يحيى ويمازحه، وقال: اسقونا من شرابكم، فسقَوْه رطلا وقال ارفقوا بـا فليس لنا عادةٌ بهـذا، ثم باسطهم ومازحهم، وما زال حتى انبسط جعفر بن يحيى وزال انقباضُه وحياؤه، ففرح جعفر بذلك فرحًا شديدًا وقال له: ما حاجتك؟ قال: حئتُ، أصلحك اللهُ، فى ثلاث حوائج أريد أن تحاطب الخليفةَ فيها. أُولاها أن علىّ دينا مبلغه ألف ألف درهم أريد قضاءه، وثانيها أريد ولايةً لأبى يشرُف بهـا قدرُه، وثالثتها أريد أن يزوّج ولدى ابنه الخليفه فإنها بنت عمه وهو كفءٌ لها، فقال له جعفر بن يحيى: قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث. أما المـال فهى هـذه الساعة يُحمل الى منزلك، وأما الولايةُ فقد ولّيتُ أبـاكَ مصرَ، وأما الزواج فقد زوّجته فلانةَ ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق سلفه كذا وكذا، فانصرِفْ فى أمان الله. فراح عبدُ الملك الى منزله فرأى المـالَ قد سبقه. ولمـا كان من الغد، حضر جعفر عند الرشيد وعرّفه ما جرى وأنه قد ولّاه مصر، و زوّجه ابنته؛ فعجب الرشيد من ذلك، وأمضى العقـدَ والولايةَ، فـا خرج جعفر من دار الرشيد حتى كُتِبَ له التقليدُ بمصر، وأحضر القضاة والشهود وعقد العقد.

أرأيت كيف لم ينقص الرشيد ماأبرمه جعفر فى مسئلة خطيرة الخطر كله، لأنها تتعلق بكرامة الرشيد، وأسره الرشيد، وشؤون الرشيد الخاصة! !

أليس فى ذلك ما يقطع برفيع مكانة القوم وكبير قدرهم وسامى منزلتهم ، عـد الرشيد وفى الدولة التى هم مفزع رجالاتها وموئل زعمائها ؟ .

وأرجو ألّا يفوتَكَ فى المثل المتقدّم ، ما جاء فيه خاصا بالملابس فإنه قد يعطيك فكرة ما عن تخصص بعضها للسهرات والردهات والمنادمات مما لا يختلف عن نظام اليوم من « ردنجوت » و « سموكنج » و « فراك » الى غير ذلك مما يدل على مبلغ الثروه واستفحال أمر المدنية ، عند القوم فى تلك الأيام الخاليات ، فتأمل !

* * *

ربما تطلب الىّ مثالا على حودهم وتعلق الناس بهم ، فألفك ، أرشدك الله ، أن كتبَ الأدب مُترَعةٌ بالمئات من ذلك ، بلا مبالغة ولا علو ولا تهويل ولا إغراق .

وسترك الكلمة فى هذا الباب لمعاصرين : أحدهما إسحاق الموصلىّ ، والآخر الاتليدىّ فيما يرويه من حديث جرى بين المأمون والمنذر بن المغيرة . وإنا نكتفى بإيراد هذين المثلين للإفصاح عن جود البرامكة وبيان ما جُبِلَتْ عليه نفوسُهم من المروءة وبُعْد الهمة وحبّ الخير .

أما مسألة إسحاق الموصلىّ فتفصيلُ الخبر فيها أن الفضل بن الربيع دعا أحمد بن يحيى المكىّ وعَلُّويَهْ ومحارقا للاجتماع عنده ، وذلك أيام المأمون بعد رجوعه ورصاه عنه ، إلا أن حالة الفضل كانت ناقصةً متضعضعةً ، فلما اجتمعوا عنده كتب الى اسحاق الموصلىّ يسأله أن يصيرَ اليه ، ويُعلِمَه الحالَ فى اجتماعهم عنده ، فكتب اسحاق اليهم بحضوره ولكن جاءهم متأخرا ؛ وكان عَلُّويَهْ يعنى فأحطأ ، فقال له اسحاق : أحطأتَ ، فغضب عَلُّويَهْ وعاتبه بكلام طويل ، ومنه قوله له : إنه من صنيعة البرامكة ، فقال اسحاق : أما البرامكة وملازمتى لهم فأشهرُ من أن أجحدَه ، وإنى لحقيقٌ فيه بالمعذِره ، وأحْرى أن أشكرهم على صنيعهم وأن أديمَه وأشكرَه ، وذلك والله أقلُّ ما يستحقونه منّى . ثم أقبل على الفضل ، وقد عاطه مدحه لهم ، فقال : أتسمع منى شيئا أخبرك به مما فعلوه ، وليس هو بكبير فى صنائعهم عندى ولا عند

أبى قبلى ؟ فان وحدتَ لى عذرا و إلا فَلُمْ . كنت فى ابتداء أمرى نازلا مع أبى فى داره ، فكان لا يزال يجرى بين علمـانى وعلمانه وحوارىّ وحواريه الخصومه ، كما يجرى بين هذه الطبقات ، فيشكونهم اليه ، فأتبين الضجرَ والتنكر فى وجهه ، فاستأجرتُ دارا بقربه ، وانتقلتُ اليها أنا وعلمانى وحوارىّ ، وكانت دارًا واسعةً ، فلم أرض ما معى من الآلة لها ، ولا لمن يدخل الىّ من إخوانى أن يروا مثلَه عندى ، فعكرتُ فى ذلك وكيف أصنع ، وزاد فكرى حتى خطر بقلبى قبحُ الأحدُوثةِ من نزول مثلى فى دار بأجرة ، وإنى لا آمن فى وقت أن يستأذنَ علىّ ، وعندى مَنْ أحتَشِمُه ولا يعلم حالى ، فيقال صاحب دارك : أو يوجّه فى وقت فيطلب أجرة الدار وعندى من أحتشمه ، فضاق بذلك صدرى ضيقا شديدا ، حتى حاوز الحدّ ، فأمرتُ علامى بأن يُسْرِجَ لى حمارا كان عندى لأَمضِيَ الى الصحراء ، أتفرّجُ فيها مما دخل على قلبى ، فأسرجَه وركبتُ برداء ونعل ، فأفضى بى المسيرُ ، وأنا مفكر لا أمرّ الطريقَ التى أسلك فيها ، حتى هجم بى على باب يحيى بن خالد ، فتواثبَ علمانُه إلىّ وقالوا : أين هذا الطريقُ ، فقلت : الى الوزير ، فدخلوا فاستأذنوا لى ، وخرج الحاجب فأمرنى بالدخول ، وبقيتُ خَجِلًا قد وقعتُ فى أمرين فاضحين : إن دخلتُ اليه برداء ونعل وأعلمتُه أنى قصدته فى تلك الحال كان سُوءَ أدب ، وإن قلت له كنت مجتازا ، ولم أقصدك ، فجعلتُك طريقا ، كان قبيحا ، ثم عزمت فدخلت ، فلما رآنى تبسم وقال : ما هذا الزىّ يا أبا محمد ؟ احتبسنا لك بالبر والقصد والتفقد ثم علمنا أنك جعلتنا طريقا ، فقلت : لا والله ياسيدى ، ولكنى أَصْدُقُك ، قال : هات ، فأخبرته القصةَ من أولها الى آخرها ، فقال : هذا حقٌّ مُستوٍ أفهذا شغَل قلبكَ ؟ قلتُ : إى والله ، وزاد فقال : «لا تَشْغَلْ قلبك بهذا ، يا غلام ردّوا حماره ، وهاتوا له جِلعةً» ، فجاءونى بجلعة تامة من ثيابه فلبستها ، ودعا بالطعام فأكلتُ ، ووضع النبيذَ فشربت وشرب فعبيتُه ، ودعا فى وسط ذلك بدواة ورقعة وكتب أربع رقاع طننتُ بعضَها توقيعا لى بجائزة ، فاذا هو قد دعا بعض وكلائه فدفع اليه الرقاعَ وسازه بشىء فزاد طمعى فى الجائزة ، ومضى الرجل وجلسنا نشرب ، وأنا أنتظر شيئا فلا أراه الى العتمة ثم اتكأ يحيى

فنام، فقمت وأنا مكسرٌ حائب، فخرجتُ وقُدِّم لى حمارى، فلما تجاوزتُ الدارَ قال لى غلامى: الى أين نمضى ؟ فقلت : الى البيت ، قال : قـد والله بِيعتْ دارُك وأُشهِدَ على صاحبهـا وأُبتيع الدرُ كله ووُزِنَ ثمنُه، والمشترى حالسٌ على بابك ينتظرك ليعرفك، وأظنه اشترى دلك للسلطان، لأنى رأيتُ الأمر فى استعجاله واستحثاثه أمرًا سلطانيًّا؛ فوقعتُ من ذلك فيما لم يكن فى حسابى، وجئت وأنا لا أدرى ما أعمل، فلمـا نزلت على باب دارى ادا أنا بالوكيل الذى سازه يحيى قد قام الىّ ، فقـال لى : ادخل أيَّدَكَ الله دارَك حتى أدخلَ الى محاطبتـك فى أمر أحتاج اليك فيـه، فطابت نفسى بدلك، ودخلتُ ودخل الىّ فاقرأنى توقيع يحيى : يُطلَقُ لأبى محمد إسحاق بمائة ألف درهم يُبتاعُ له بها دارُه وجميعُ ما يحاوِرُها ويلاصقها ، والتوقيعُ الثانى الى ابنـه الفضل : قد أمرتُ لأبى محمد إسحاق بمـائة ألف درهم يُبتاعُ له بها دارُه ، فأطلِقْ اليـه مثلَها ليُنفقَها على إصـلاح الدار كما يريد وبنائها على ما يشتهى . والتوقيع الثـالث إلى جعفر : قد أمرت لأبى محمد إسحاق بمـائة ألف درهم يبتاع له بها منزلًا يسكنه، وأمر له أحوك بدفع مائة ألف درهم ينفقها على بنائها ومرمتها على ما يريد، فأطلق له أنت مائة ألف درهم يَبْتَاعُ بهـا فرشا لمنزله . والتوقيـع الرابع الى محمد : قد أمرت لأبى محمد إسحاق أنا وأحوالك بثلثمائة ألف درهم لمنزل يبتاعه ونفقةٍ ينفقها عليه وفرش يتدله، فمُرْ له أنت بمائة ألف يصرفها فى سائر نفقته . وقال الوكيل : قدحملتُ المـال واشتريتُ كلَّ شىء حاورك بسـبعين ألف درهم ، وهـده كتب الابتياعات باسمى والإقرار لك، وهدا المـال فورك لك فيـه فاقبضه؛ فقبضته وأصبحتُ أحسنَ حالا من أبى فى منزلى وفرشى وآلتى، ولا والله ماهدا بأكبر شىء فعلوه لى، أفالام على شكر هؤلاء! فبكى الفضلُ بن الربيع وكلُّ من حضره، وقالوا : لا والله لا تُلامُ على شكر هؤلاء !

أرأتَ الى أىّ مدًى بلغَتْ مكانةُ البرامكة من رجالات العصر وأدبائه ، حتى تملّكوا من القلوب أعنّتها، ومن النفوس أزمّتها ، وكيف استحودوا على السُّـوَيداء والمهج ، ولِمَ لهجت الألسنةُ بمدائحهم والإشادة بذكرهم ! .

أما حديث المأمون والمعترس المسذر الذى رواه لنا الاتليدى فهاكه بحذافيره : قال حادم المأمون : طلبنى أمير المؤمنين ليلةً وقد مضى من الليل ثلثه ، فقال لى : حد معك فلانا وفلانا ، سماهما لى . وأحدهما على بن محمد والآخر ديسار الخادم ، وأدهَبْ مسرعا لما أقول لك ، فإنه بلغنى أن شيحا يحضُرُ ليلا الى آثار دور البرامكة ويُنشِدُ شعرا ويدكُرهم ذكرًا كثيرًا ويبكيهم ويبكى عليهم ثم ينصرف ، فامض أنت وعلى ودينار ، حتى تردُوا تلك الخرابات ، فاستَتِروا خلف بعض الجُدُر ، فاذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد أبياتا ، فأتونى به ، قال . فأخذنا ومضينا حتى أتينا الخرابات ، فاذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساطٌ وكرسى حديد ، واذا شيخ قد أتى وله جمالٌ وعليه مهابةٌ ولطفٌ ، فجلس على الكرسى وجعل يبكى ويبتحب ويقول هذه الأبيات .

ولما رأتُ السيفَ حدّل جعفرا * ونادى منادٍ للخليفـــةِ فى يحيى
بكيتُ على الدنيا وزاد تأسُّفى عليهـــم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها . فلما وقع قبضنا عليه وقلنا له : أجِبْ أمير المؤمنين ، ففزع فزعًا شديدًا وقال : دعونى حتى أُوصِى بوصيتى ، فإنى لا أُوقِنُ بعدها بحياة ، ثم تقدّم الى بعض الدكاكين ، واستفتح وأخذ ورقةً وكتب فيها وصيّةً وسلمها الى غلامه . ثم سرنا ، فلما مَثَلَ بين يدى أمير المؤمنين قال : من أنت ؟ وما اسوجَبَتْ منك البرامكةُ ما نفعله فى خرائب دُورهم ؟ قال الشيخ : يا أمير المؤمنين إن للبرامكة أيادىَ حَضرةً عندى ، أفتأذن لى أن أحدّثَكَ بحالى معهم ؟ قال : قل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا المدبر بن المغيرة من أولاد الملوك ، وقد زالت عنى نعمتى ، كما تزول عن الرحال ، فلما ركبنى الدينُ واحتجت الى بيع ما على رأسى ورءوس أهلى ، و بقى الذى ولدت فيه ، أشاروا علىّ بالخروج الى البرامكة ، فخرجتُ من دمشق ومعى ثلاثون رحلا وسيفٌ من أهلى وولدى ، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب ، حتى دخلنا بغدادَ ونزلنا فى بعض المساجد ، فدعوتُ ببعض ثيابٍ كنت أعددتها لأستتر بها ، فلبستها وخرجت ، وتركتهم جياعًا لا شىء عندهم ، ودخلت شوارع

بغداد سائلا عن البرامكة، فاذا أنا بمسجد مزخرف، وفى جانبه شيخٌ بأحسن زىٍّ وزينةٍ، وعلى الباب حادمان، وفى الجامع جماعةٌ حلوسٌ، فطمعت فى القوم، ودحلت المسجد وجلست بين أيديهم، وأنا أقدّم رِجْلًا وأؤخر أخرى والعرق يَسيلُ منّى لأنها لم تكن صناعتى، واذا الخادم قد أقبل ودعا القومَ فقاموا وأنا معهم، فدحلوا دار يحيى بن خالد فدحلت معهم، واذا يحيى جالس على دكة له وسط دستانٍ، فسلمنا وهو يعدّنا مائة وواحدا وبين يديه عشرةٌ من ولده، واذا بمائة واثنى عشر خادما قد أقبلوا ومع كل خادم صِينيةٌ من فضة على كل صينية ألف دينار، فوضعوا بين يدى كلِ رجلٍ صينيتَه ، فرأيتُ القاضىَ والمشايخَ يضعون الدنانيرَ فى أكمامهم، ويجعلون الصوانىَ تحت آباطهم، ويقوم الأوّل فالأوّل ، حتى بقيت وحدى لا أَحْسُرُ على أخذ الصينية، فغمزنى الخادمُ بحسرت وأخذتها، وجعلت الذهبَ فى كمى والصينيةَ فى يدى، وقمتُ وحعلت أتلفّت ورائى مخافة أن أُمنَعَ من الذهاب ، فوصلت وأنا كذلك الى صحن الدار ويحيى يلاحظنى، فقال للخادم: ائتنى بهذا الرجل : فأتاه بى فقال : مالى أراكَ تتلفّتُ يمينا وشمالا؟ فقصصتُ عليه قصتى، فقال للخادم : ائتنى بولدى موسى ، فأتاه به، فقال: يا بنىّ هذا رجل غريب، نخده اليك، واحفظه بنفسك ونعمتك؛ فقبض موسى ولده على يدى، وأدخلنى الى دار من دوره، فأكرمنى غايةَ الإكرام، وأقمت عنده يومى وليلتى فى ألذّ عيشٍ وأتم سرورٍ، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال له : الوزير أمرنى بالعطف على هذا الفتى، وقد علمتَ اشتغالى فى بيت أمير المؤمنين، فاقبِضْه اليك وأكرمه؛ ففعل ذلك وأكرمنى غايةَ الإكرام، ثم لما كان من الغد تسلّمنى أخوه أحمد. ثم لم أزل فى أيدى القوم يتبادلوننى مدّة عشرة أيام، لا أعرف حبرَ عيالى وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الأحياء! ، فلما كان اليومُ الحادى عشر جاءنى حادم ومعه جماعةٌ من الخدم فقالوا: قم فاخرج الى عيالك بسلام، فقلت: واويلاه! سُلِبتِ الدنانيرُ والصينيةُ وأخرُجُ على هذه الحالة! إنا لله وانا اليه راجعون! فرفع الستر الأوّل ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع ، فلما رفع الخادمُ السترَ الأخيرَ قال لى : مهما كان لك من الحوائج فارفعها الىّ، فإنى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به، فلما رُفِع الستر

الأخيرُ، رأيتُ مجمرةً كالشمس حسنًا ونورًا ، واستقبلنى منها رائحةُ الند والعود ونفحاتُ المسك ، وادا بصبيانى وعيالى يتقلبون فى الحرير والديباج ، وحمل الىّ مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، ومنشور بصيعتين وتلك الصينيه التى كنت أحدتها بما فيها من الدنانير والبنادق، وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاثَ عشرةَ سنةً لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب، فلما جاءتهم البليةُ ، ونزل بهم يا أمير المؤمنين من الرشيد ما نزل، أبحفنى عمرُو بنُ مسعدة، وألزمنى فى هاتين الصيعتين من الخراج ما لا يفى دخلُهما به ، فلما تحامل علىّ الدهرُ كنتُ فى آخر الليل أقصِدُ خزاناتِ دورهم، فأندُبُهم وأذكر حسنَ صنيعهم الىّ وأبكى على إحسانهم، فقال المأمون : علىّ بعمرو بن مسعدةَ! فلما أُتِىَ به قال له : تعرف هدا الرجل ؟ قال : يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة، قال : كم ألزمتَه فى ضيعته ؟ قال : كدا وكذا ؛ فقال له : رُدّ اليه كلَّ ما أحدت منه فى مدته وأفرِغْهُما له ، ليكونا له ولعقبه من بعده ، قال : فعلا نحيب الرجل، فلما رأى المأمون كثرةَ بكائه ، قال له : يا هدا قد أحسنا اليك فما يبكيك ؟ قال : يا أمير المؤمنين وهدا أيضا من صنيع البرامكة ! لو لم آت خزاناتهم فأبكيهم وأندبُهم حتى أتصلَ خبرى الى أمير المؤمنين ففعل بى ما فعل ، من أين كنتُ أصل الى أمير المؤمنين ! قال ابراهيم ابن ميمون : فرأيت المأمون وقد دمعَتْ عيناه وظهر عليه حزنه، وقال : «لعمرى هذا من صنائع البرامكة فعليهم فأبكِ، وإياهم فاشكر، ولهم فَأَوفِ، ولإحسانهم فاذكر» .

مما يدل على تقدير المأمون للبرامكة ما رواه القاضى يحيى بن أكثم قال : سمعت المأمون يقول : لم يكن كيحيى بن خالد وولده أحدٌ فى الكفاية والبلاغةِ والجودِ والشجاعة ؛ قال القاضى : فقلتُ يا أمير المؤمنين أما الكفاية والبلاغة والسماحة فنعرفها فيهم ، ففيمن الشجاعة ؟ فقال : فى موسى بن يحيى، وقد رأيت أن أوليه ثغرَ السند .

* * *

مكانةٌ عاليــة بلا ريب مكانةُ آل برمك، وسلطانٌ لا حدّ له سلطانُهم، وغنى فاحش قبل الاسلام، وصولة وبعودُ قولٍ فى دولةِ الرشيد، فما الذى يا ترى غيّر قلبَ الرشيد عليهم حتى نكبهم ؟

لنذكر ما يقوله المعاصرون ونُعقّبْ عليه بكلمة هادئةٍ حكيمة لابن خلدون .

أما يَحيَشُوعُ الطبيب المأمونى، فانه يقول نقلا عن أبيه جبريل : إنه لقاعد فى مجلس الرشيد، إذ طلع يحيى بن خالد، وكان فيما مضى يدخل بلا إذن، فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم، ردّ عليه ردًّا ضعيفًا، فعلم يحيى أن أمرهم قد تَغيَّر . قال : ثم أقبل علىّ الرشيدُ فقال : ياجبريل يدخل عليك وأنت فى منزلك أحدٌ بلا إذنك! فقلت : لا ولا يَطْمَعُ فى ذلك، قال : فما بالنا يُدخَلُ علينا بلا إذن! فقام يحيى فقال : يا أمير المؤمنين قدّمنى الله قبلك، والله ما ابتدأتُ ذلك الساعةَ، وما هو إلا شىءٌ كان خصنى به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى، حتى إن كنت لأدخل وهو فى فراشه مجرّدًا حينا وحينا فى بعض إزاره، وما علمتُ أن أمير المؤمنين كره ما كان يحبّ، وإذ قد علمت فانى أكون عنده فى الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثــة إن أمرنى سيدى بذلك، قال : فاستحيا الرشــيدُ، وكان من أرقّ الخلفاء وجهًا، وعيناه فى الأرض مايرفع اليه طرفه، ثم قال : ما أردت ماتكره ولكن الناس يقولون، قال جبريل فظننت أنه لم يسمح له جوابٌ يرتضيه، فأجاب بهذا القولِ، ثم أمسك عنه وخرج يحيى .

أما أحمــدُ بن يوسف كاتبُ عصرنا المأمونىّ النابهُ، فانه يحدّثنا عن ثمامة بن أشرس بحديث سنسقله لك . وقبل إيراد هــذا الحديث نودّ أن نُذكّرك بأن محمدَ بنَ الليث الذى سيرد فيه هو محمد بن الليث الذى اختاره المهدىّ كاتبا للسرّ فى مجلس مشاورته لتدبير رأى فى حرب خُراسانَ، وأمره بحفظ مراجعة أعضاء المجالس وإثباتِ مقالتهم فى كتاب .

ور بمـا كان من المفيد أن نزيدَ القارئَ محمد بن الليث معرفةً ؛ لا لأنه من رجالات عصرنا ومن ذوى الأثر الادبى القيّم فيه ، ولا لأنه صاحبُ تلك الرساله الشائقه التى بُعِثَ بها من الرشيد الى ملك الروم التى أشتاها فى المجلد الثانى من هـذا الكتاب (١) ، بل لأنا نرى فى توضيح قدره توضيحًا لقدر البرامكة ، ولأنك حينما نرى الرشيدَ يقبض على محمد بن الليث بسبب البرامكة وكرامتهم ومنزلتهـم من نفسه ، لنصحه له بأن يضع حدّا لاستفحال شأن البرامكة ، وللرجل قدرُه ومنزلتُه ، تستطيعُ أن تتصوّرَ تصوّرًا صحيحا مكانةَ البرامكة من الرشـيد ومن الدولة ومن العصر الذى هم فيـه ، ولأنك حينما تعلم أن الرشـيدَ أطلق محمد بن الليث من حبسه واعتذر له قبيلَ نكبة البرامكة تستطيع أن تعلم ادًّا مقدارَ التحوّل الذى نال نفسيّة الرشيد .

سنرى فى مشاورة المهدىّ (٢) التى ذكرها ابن عبد ربه فى العقد والتى أشتاها لك فى المجلد الثانى أن محمدَ بنَ الليث يتكلّم فى المجلس — وكان الرشـيدُ بلا شك ولى العهد — كلاما يُرضِى الرشيد . اذًا فمحمد بن الليث كان الى جانب وظيفته كناموس لمجلس المشاورة ، صاحب رأيٍ فى مجلس الاستشارة نفسه يُعتدُّ به . فهو ذو شخصيةٍ عظيمة من ذوى شخصيات الدولة الذين لكلامهم خطرُه ولقولهم أثرُه .

قال : أوّل ما أنكر يحيى بن خالد من أمره أن محمـد بن الليث رفع رسالةً الى الرشيد يعظه فيها ، ويذكر أن يحيى بن خالد لا يُغنى عنك من الله شيئا ، وقد جعلتَه فيما بينك وبين الله ، فكيف أنتَ اذا وقفتَ بين يديه ، فسألك عما عمِلتَ فى عباده وبلاده ، فقلت : يارب إنى استكفيتُ يحيى أمورَ عبادك ، أفتراك تحتج بحجه يرضَى بها ! مع كلام فيه توبيخٌ وتقريعٌ ، فدعا الرشيدُ يحيى ، وقد تقدّم اليه خبرُ الرسالة ، فقال : تعرِفُ محمدَ بن الليث ؟ قال : نعم ، قال فأىّ الرجال هو ؟ قال : متهم على الإسلام ، — لاحظ كيف يتّهمون فى الدّين — فأمر به الرشيد فوضع فى المطبَق دهرا . فلما تنكر الرشـيدُ للبرامكة ، ذكره فأمر بإخراجه

(١) و (٢) أنظر باب المشورة فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى .

فأُحْضِرَ، فقال له بعد محاطبة طويلة: يا محمد، أتحبّنى؟ قال: لا والله ياأمير المؤمنين، قال: تقول هـذا!! قال: نعم وصعتَ فى رجلى الأكالَ وحُلْتَ بينى وبين العيـال، بلا ذنب أتيتُ ولا حَدَثٍ أحدثت، سـوى قول حاسد يكيد للإسـلام وأهله، ويحبُّ الإلحـادَ وأهلَه، فكيف أُحِبّكَ!! قال: صدقتَ، وأمر باطلاقه، ثم قال: ياأحمد أتحبنى؟ قال: لا والله يا أمـير المؤمنين ولكن قد ذهب ما فى قلبى، فأمر أن يُعطَى مائة ألف درهم فَأُحْضِرتْ، فقال: ياأحمد أتحبنى؟ قال: أما الآن فنعم! قد أسعمتَ علىّ وأحسنتَ إلىّ، قال: انتقمَ الله ممن طلمك وأحد لك بحقك ممن عثنى عليـك، قال ثمامةُ: فقال النـاسُ فى البرامكة فأكثروا، وكان ذلك أوّلَ ما ظهر من تغير حالهم.

فـاذا حدث بعد ذلك؟

حدث — كما يحبرنا أحدُ المعاصرين، وهو محمد بن الفضل بن سفيان مولى سليمان بن أبى جعفر — أن يحيى بن خالد دخل دارَ الرشيد فى الآونةِ التى نحن فى صددها، فقام الغلمانُ اليه احترامًا وإجلالًا، فما كان من الرشيد إلا أن قال لمسرورٍ الخادمِ: مُرِ الغلمانَ ألّا يقوموا ليحيى اذا دخل الدارَ! قال: فدخل فلم يقم له أحد فَأَرْبَدَّ لونُه، قال: وكان الغلمانُ والحجّابُ بعـدُ اذا رأوه أعرضوا عنه، قال: فكان ربما استسقى الشَّربةَ من المـاء أو غيره فلا يسقونه، وبالحرَى إن سَقَوْه أن يكون دلك بعد أن يدعوَ بها مرارا.

ولننظر فى سبب آخر يرويه لنا أحدُ المطلعين على أخبار ذلك العصر، وهو أبو محمـد اليزيدىّ، قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سببٍ يحيى بن عبدالله بن حسن فلا تُصدّقه، ودلك أن الرشيدَ دفع يحيى الى جعفر لحبسه، ثم دعا به ليلةً من الليالى، فسأله عن شىءٍ من أمره فأجابه، الى أن قال: اتق الله فى أمرى ولا تتعرّض أن يكون خصمُك غدًا محمدًا صلى الله عليه وسلم، فوالله ماأحدثتُ حدثًا، ولا آويتُ محدثا، فرقّ عليه وقال له: ادهب حيث شئتَ من بلاد الله، قال: وكيف أذهبُ ولا آمن أن أُوخَذ بعد قليلٍ فأُرَدَّ اليك أو الى غيرك! فوجّه معه من أدّاه الى مأمنه. وبلغ الخبرُ الفضلَ بن الربيع من عين

كانت له عليه من خاص خدمه، فبلّغ الأمرَ فوجده حقا وانكشف عنده، فدخل على الرشيد فأخبره فأراه أنه لا يعبأ بخبره، وقال : وما أنت وهذا! لا أُمَّ لك! فاعمل ذلك عن أمرى! فانكسر الفضلُ وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلا، وجعل يلقمه ويحادثه، الى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال : ما فعل يحيى بن عبـد الله؟ قال : بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكبال، قال : بحياتى؟ فأحجم جعفر، وكان من أدقّ الخلق دهنًا وأصحّهم فكرا، فهجس فى نفســه أنه قد علم شيء من أمره، فقال : لا وحياتك ياسيدى، ولكن أطلقته وعلمتُ أنه لا حياة به ولا مكروه عنده، قال : نِعْمَ ما فعلتَ، ما عَدَوْتَ ما كان فى نفسى؛ فلما خرج أتبعه بصرَه، حتى كاد يتوارى عن وجهه ثم قال : قتلنى اللهُ بسيف الهدى على عَمَلِ الضلالة إن لم أقتلك! فكان من أمره ما كان .

سبب رابع رواه أحمد بن زهير، وندكره لك هنا على علاته، استكمالا للموضوع من كل نواحيه . يقول الطبرىّ : إنه يطن أن المصدرَ للرواية هو زاهر بن حرب، قال : « إن سببَ هلاك جعفر والبرامكة أن الرشـيدَ كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباســة بنت المهدى، وكان يحضرهما اذا جلس للشرب، وذلك بعـد أن أعلم جعفرا قلّةَ صبره عـه وعنها، وقال لجعفر تزوّجها ليحلّ لك النظرُ اليها اذا أحضرتُها مجلسى، وتقدّم اليه ألا يمسّها ولا يكون مــه شيء ممـا يكون للرجل الى زوجته، فزوّجها مــه على ذلك، فكان يُحضِرُهما مجلسَه اذا جلس للشرب، ثم يقوم عن مجلسه ويخليهما، فَيَشْمَلانِ من الشراب، وهما شابان فيقوم اليها جعفر فيجامعها، فحملتْ منه وولدت علاما، فخافت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك، فوجهتْ بالمولود مع خواصّ له من مماليكها الى مكةَ، فلم يزل الأمر مستورا عن هارون، حتى وقع بين عبّاسـةَ وبعض جواريهـا شرّ، فأنهتْ أمرَها وأمرَ الصبىّ الى الرشـيد وأخبرته بمكانه ومع من هو من جواريها وما معه من الحلى الذى كانت زينته به أمه؛ فلما حجّ هارونُ هذه الحجةَ — سنة سبع وثمانين ومائة — أرسل الى الموضع الذى كانت الجاريةُ أخبرته أن الصبىّ به، مَنْ يأتيه بالصبىّ، وبمن معه من خواصه، فلما أُحْضِرُوا

سأل اللواتى معهنّ الصبيُّ، فأخبرنه بمثل القصة التى أخبرته بها الرافعةُ على عبّاسةَ، فأراد، فيما زعم، قتلَ الصبيّ ثم تحوّب عن ذلك، وكان جعفر يتخذ للرشيد طعاما كلما حج بعُسفان فيقُـرِيه اذا انصرف شاخصا من مكة الى العراق، فلمـا كان فى هذا العام اتخـذ الطعامَ جعفرٌ كما كان يتخـذه هنالك، ثم استزاره فاعتلّ عليـه الرشيدُ ولم يحضُرْ طعامَه؛ ولم يزل جعفر معه حتى نزل منزلَه من الأنبار، فكان من أمره وأمر أبيه ما كان» .

أمّا نحن فلا نريد القطعَ بأنّ نكبة البرامكة كانت أثرًا لسببٍ بعينه من هـذه الأسبابِ، ورُبّما كانت نتيجةً لطائفةٍ من الأسبابِ مجتمعةٍ، منها ما نعرفه، ومنها ما لم نعرفه بعـد، ونحب ألّا يفوتنا هنا أن نفترضَ فرضًا نعترف بأنه فرضٌ لا أكثر ولا أقل، ونعترف بأنّه فى حاجةٍ الى التحقيق العلميّ، ولكنّا نعرف أيضـا أنّ عرضه على علاته لا يخلو من النفع، وهو أنّ البرامكة كانوا فيما يظهر متأثرين بالناحية السياسية لمذهب المعـتزلة[1]، وهى الاعتدال بين أهواءِ الأحزابِ السياسيه المتطرفةِ وتلطيفُ الخصومةِ بين جناحى الحزب الهاشميّ فلم يرضَ الرشيدُ عن هذا النحو من السياسة، ومالأه على ذلك المفتونون من أنصار الجناح العباسيّ. وسنرى بعـد قليلٍ أن المأمون كان يرى رأى البرامكة، فى هـذا النحو من السياسة المعتدلة، الموفّقة بين وجهات النظر المختلفه.

* * *

أما كيفيـه القبض على البرامكة، واحتياطُ الرشيد وحذره قبـل قتلهم، ومصادرته لأموالهم، وما قالته الشـعراء فى رثائهم، فحديثٌ طويل يتطلّبُ رسالةً خاصة، وفقنا الله لدراسـه موضوع البرامكة ونكبتهم وأثرهم فى الدولة العباسيه فى موضوعنا (عصر الرشـيد) فى القريب العاجل إن شاء الله.

---

(١) نخالفنا أستاذنا الشيخ عبـد الوهاب النجار فى هـذا بقوله. "ليس الاعتزال مذهبا سـياسيا ولم تَرُج سوق الاعتزال فى زمن الرشيد ولم يكن شيئا يعتدّ به على عهده".

على أننا نرى من المستصوب قبل أن نتم هذه العذلكة الموجزة أن نختمها بكلمة لابن خلدون، لا تخلو من تحليل صحيح، ومذهب في الموازنة رجيح، وباب في التاريخ جميل المنهج، معقول التعليل.

قال ابن خلدون: إنما نكث البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموالَ الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه، فعلبوه على أمره وشَرِكُوه في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرّف في أمور ملكه، فعظمت آثارهم وبَعُد صِيتُهم وعمّروا مراتبَ الدولة وخُطَطَها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واختاروها عمن سواهم: من وزارةٍ وكتابةٍ وقيادةٍ وحجابة وسيفٍ وقلم. يقال. إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيفٍ وصاحب قلم، زاحموا فيها أهلَ الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح، لمكان أنسهم بحيى من كفالة هارون ولىّ عهد وخليفة، حتى شبّ في حِجْرِه، ودرَج من عُشّه، وعلمه على أمره، وكان يدعوه يا أبت، فتوحه الإيثارُ من السلطان اليهم، وعظمت الدالّةُ منهم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوهُ، وخضعت لهم الرقابُ، وقُصِرَتْ عليهم الآمالُ، وتحطت اليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتُحَفُ الأمراء، وتسرّبت الى خزائنهم، في سبيل التلف والاستمالة أموالُ الجباية، وأفاضوا في رجال الشيعة وعطاء القرابة العطاء وطوّقوهم المنَ، وكسوا من بيوتات الأشراف المعدِمَ، وفكوا العانِيَ، ومُدِحُوا بما لم يُمدح به خليفتُهم، وأسْنَوْا لعُفَاتِهم الجوائزَ والصِّلات، واستولوا على القرى والضِّياع من الصواحي والأمصار في سائر الممالك، حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصّة، وأغضّوا أهلَ الولاية، فكُشِفت لهم وجوهُ المماسة والحسد، ودَبّت الى مهادهم الوثيرة من الدولة عقارب السّعاية، حتى لقد كان سوء قطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم، لم تَعطِفْهم، لما وقر في نفوسهم من الحسد، عواطفُ الرَّحِم، ولا وَزَعتهم أواصرُ القرابة، وقارن ذلك عند مخدومهم بواشئ الغيره والاستنكاف من المحر والأنفة وكامنَ الحقود التي بعثتها منهم صغائر الدالة، وانتهى بهم الإصرارُ على شأنهم الى كبائر المخالفة.

الفصل التاسع

الحيـاة العلميـــة فى العصر العبـاسىّ

توطئـــة — حركة النقـــل — العـــلوم القرآنيـــة واللغـــوية والفقهيـــة .

(١) توطئـــة :

هـذه فذلكة مجملة بمثـابة توطئة لمـا سنعرض له بمـا يقتضيه المقام من شرح وإيضاح فى العصر المأمونى . فمهمتنا الآن أن نلمّ ببيان العناصر المهمة فى الحياة العلمية العباســـية .

نعلم من تاريخ اليونان القديم أن أثر اليونان فى الثقافة الانسانية عظيمٌ عميقٌ ، لأنه الى جانب إمداد العالم بمنتجات فلاسفتهم وعلمائهم وكتابهم ومفكريهم قد أمدّوه أيضا بالنُّخَب والمُلَح ممـا وقفَ عليـه اليونان من زُبده علوم الأشوريين والبابليين والميذيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان . فاذا ما قلنا : إن العرب وقفوا على الفلسفة اليونانية ، ومُنتجَات العقول اليونانية ، فكأننا نقول صمما إنهم وقفوا على آثار العقليات الإنسانية العامة ، وآثار الثقافة القديمة والحضارات السالفة .

ونعلم أن الدولة العباسية كانت فارسيةً الى حدّ ما ، أو على الأقل كانت مُتسمةً بالطابع الفارسىّ متأثرةً به . ونعلم من تاريخ سقوط الدولة الرومانية للأستاذ «چبون» أن «جستنيان» اصطفى مدارس أثينا ، لأنه كان خَصمًا للفلسفة الوثنية ، وكانت الفلسفة الأفلاطونية حينذاك قد آتت ثمرتَها ونضجَتْ ، ثم هرع أصحابها الى الفرس ، واتصل بأنوشروان سبعةٌ من علماء اليونان فأكرم وِفَادتهم ، وأفسح لهم مجالَ التأليف والنقل فيما هم أهله وأصحاب القِدْح المعَلَّى فيه . ويقول ابن النديم فى الفهرست : إن الفرس نقلت فى القديم شيئًا من كتب المنطق والطب الى اللغة الفارسية ، فنقل ذلك الى اللسان العربىّ عبد الله بن المقفّع . فمن المعقول اذًا أن يكون

العربُ حين اتصلت ثقافتُهم بالثقافة الفارسية وتأثروا بها، تأثروا فى الوقت نفسه بالثقافة اليونانية أيضا . ولم تكن الثقافه الفارسية مما يُستهان بأمره أو يُغمَطُ قَدرُه، لأنك اذا استقصيتَ تاريخ ملوكهم الكبار، مثل سابور بن أردشير، تجد أنه فى خلال عهده بعث الى بلاد اليونان، وجاء بكتبَ الفلسفة، وأمر بنقلها الى الفارسية، واحتزنها فى مدينته وأحد الناس فى نسخها وتدارسها وهكذا . فالثقافة العربيةُ أفادت أيّما إفاده من منتجات الفرس وآثارهم وتراجمهم .

(ب) حركة النقل :

لنتدرّج الآن الى شيء من التوضيح، فنقل لك ما يقوله ابنُ صاعد الأندلسيّ فى هذا الباب، لأنه مختصَرٌ مما تعرض له أمثال الأساتذة « نللينو » و « ابن أبى أصيبعة » «والقفطى» «وابن النديم» وغيرهم ممن سيكونون عدّتنا وموئلنا حين نعرض لهذه البحوث فى العصر المأمونى .

يقول ابن صاعد : « إن أوّل علم اعتُنِي به من علوم الفلسفه علمُ المنطق والنجوم . فأما المنطق فأوّل من اشتهر به فى هذه الدولة عبدُ الله بن المقفع الخطيب الفارسىّ، فإنه ترجم كتبَ أرسطاطاليس المنطقيه الثلاثة التى فى صوره المنطق، وهى كتاب «قاطاغوريا س» وكتاب «بارى أرميناس» وكتاب «أنولوطيقا» وذكر أنه لم يترجم منه الى وقته إلا الكتاب الأوّل، وترجم ذلك المدخل الى كتاب المنطق المعروف « بايساغوجى » « لفرفوريوس الصورى » ، وعبّر عما ترجم من ذلك عبارةً سهلةً قريبةَ المأخذ، وترجم مع ذلك الكتاب الهندى المعروف بكليلةَ ودمنةَ، وهو أوّل مَنْ ترجمَ من اللغة الفارسية الى اللغة العربية.....

وأما علم النجوم فأوّل من عُنِيَ به فى هذه الدولة محمدُ بن ابراهيم الفزارى، وذلك أن الحسين بن حميد المعروف بابن الآدمىّ ذكر فى تاريخه الكبير المعروف بنظام العقد . «أنه قدم على الخليفة المنصور سنة ست وخمسين ومائة رجل من الهند عالم بالحساب المعروف

بالسند هندى فى حركات النجوم مع تعاديل معلومة على كردجات محسوبة لنصف نصف درجة مع صروب من أعمال الفلك ومع كسوفين ومطالع البروج وغير ذلك، فى كتاب يحتوى على ثمانى عشر بابا، وذكر أنه اختصره من كردجات منسوبة الى ملك من ملوك الهند يسمى قنعر، وكانت محسوبة لدقيقة، فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب الى اللغة العربية، وأن يؤلف منه كتاب تتحده العرب أصلا فى حركات الكواكب ؛ فتولى ذلك محمد بن ابراهيم الفزارى، وعمل منه كتابا بسميه المنجمون "بالسند هند الكبير" وتفسيرُ السند هند باللغه الهندية : الدهر الداهر . »

وقد يكون من المستصوب أن نفهم حقيقةً وجهة نظر العرب حين داك الى علم الفلك، فهم كاليونانيين فى رمى "بطليموس" كان غرضُهم فى الهيئة تبيّن الحركات السماوية مع كل اختلافاتها المرئية، بأشكال هندسيه، يمكنهم من حساب أوضاع الكواكب لأىّ وقت فُرِضَ ، فإن كانت تلك الأشكالُ تصلُحُ لحساب الظواهر رضُوا بها وما اهتموا بالبحث فى حقيقه حركات الأجرام السماوية، وذلك لظنهم أن البحثَ عن حقيقة الحركات وعللها يكون على المشتغلين بالحكمة والطبيعة والحكمة الالهية .

ونحن نجد، بقطع النظر عن أحكام النجوم التى صارت غير مقبولة فى أياما، أن الهيئة عند العرب كما يقول الأستاذ «نللينو»، قد اشتملت على علم الهيئة الكونىّ والعملىّ، وقسم صغير من النظرىّ يخصّ الكسوفاتِ واستتارات الكواكب السيارة، مع علم التاريخ الرياضىّ وعلم أطوال البلدان وعروضها على طريقة كتاب الجغرافية لبطليموس، فقد خرج من علم الهيئة عند العرب علم المكانيكا الفلكية وعلم طبيعة الأجرام السماوية وأكثر علم الهيئة النظرى، إذ إنه يبحث عن حقيقه حركات الكواكب .

فلا مِرْيةَ اذًا فى أن العرب، الى جانب وقوفهم على الفلسفة الفارسية والحكمة اليونانية، قد وقفوا أيضا على آخر الآراء العلمية الخاصة بعلم الفلك فى ذلك الحين ، وأنهم وقفوا على آراء بطليموس فيما وقفوا عليه من الآراء . و بطليموس — كما قال البتانى — قد تقصى

علم الفلك من وجوهه، ودلّ على العلل والأسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسىّ والعددىّ الذى لا تُدفعُ صحتُه ولا يُشَكُّ فى حقيقته، فأمر بالمحنه والاعتبار بعده، وذكر أنه قد يجوز أن يُستدْرَكَ عليه فى أرصاده على طول الزمان، كما استدرك هو على أبرخس وغيره من نظرائه، لجلالة الصناعة، ولأنها سماويةٌ جسيمةٌ لا تُدرَكُ إلا بالتقريب .

ولا يفوتنا أن نشير هنا الى ترجمة كتاب زيج بطليموس المقول بأن أيوبَ وسمعان فسراه لمحمد بن خالد البرمكى . ونرجو حين تعرّضنا لهذه الموضوعات فى العصر المأمونىّ أن نُلم بها إلماما أدق وأوسع .

على أنه يجدر بنا فى هـذه العجلة أن نشير الى الكتبِ البهلوية الثلاثةِ التى استطاع الأستاذ « بلليو » أن يكتشف أثر نقلها فيما قبـل انتهاء القرن الثانى للهجره . فواحد منها فى علم الهيئة الحقيقىّ وهو زيج الشاه أو زيج الشهريار، والآخران فى صناعة أحكام النجوم وهما المزيذيج فى المواليد المنسوب الى بُزُرْجمِهْر، وكتاب صور الوجوه لتنكلوس ؛ وكذلك يجدر بنا أن نشير الى أن كتاب المجَسْطى نقل فى أيام الرشيد .

وإنا نلخص لك هنا ما لا حظه المرحوم جورجى بك زيدان فى أمر النقـل من أن العرب، مع كثرة ما نقلوه عن اليونان، لم يتعرّضوا لشىء من كتبهم التاريخية أو الأدبيـه أو الشعر، مع أنهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود، فقد نقلوا جملةً صالحة من تاريخ الفرس وأخبارِ ملوكهم ونرجموا الشاهنامةَ، ولكنهم لم ينقلوا تاريخَ هيرودوتس ولا حُغرافيةَ استرابون ولا إلياذةَ هوميروس ولا أوديسّته . وسبب ذلك أن أكثر ما بعث المسلمين على النقل رغبتُهم فى الفلسفة والطبّ والنجوم والمنطق (١) .

(١) ويرى أستاذنا الشيخ عبدالوهاب النجار: «أنه يمكن ارجاع ذلك الى سبب يراه أهمّ. وهو أن الراحلين من اليونان أيام الاضطهاد الى حران لم يكونوا أدباء ولا مؤرخين وإنما كانوا فلاسفة وأطباء . فأسسوا فى تلك البلاد مدرستهم وأخذ أهل البلاد عنهم ما يعرفون . فالأدب والتاريخ والجغرافيا لم يهاجروا الى البلاد التى أخذ عنها العرب وإنما هاجر الطب والفلسفة والهندسة والرياضة» .

ولا يُستخَفُّ بما اقتضاه ذلك النقل، عن أشهر أمم الأرض فى ذلك العصر، من التأثير فى الآداب الاجتماعيه والآراء العامة ولا سيما ما نقل عن الفارسية، لأن معظمه فى الأدب والتاريخ، فدخل الآدابَ العربيـةَ كثيرٌ من آداب الفرس الساسانيـة وأفكارهم، اقتبسها العربُ من الكتب التى نُقلَتْ عنهم، ولم يبق منهـا إلا ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنـه، وبُثَّ متفرقةً فى بعض الكتب . وقد درس فى هذا الموضوع المُتَشَرِّقُ «ايواسترانشتيف» الروسى ووضع فيه كتابا طبع فى بطرسبرج سنة ١٩٠٩ م .

على أنا نلاحظ أن تأثير هذا النقل عن الفرس لا يزال قائما الى الآن فى بعض الكتب العربية التى وُضِعَت فى عصور قريبـه من عصر المأمون . نذكر منها، على طريق التمثيل، كتاب «عيون الأخبار» لأبى قتيبه، و «التاج» المنسوب للجاحظ . فعلى هذه المنقولات وأمثالها بنى المسلمون ما ألفوه فى هذه العلوم أثناء تمدينهم غير ما اختبروه وأضافوا اليها من عند أنفسهم .

وإن المطلعَ على ما جاء بالفهرست لأبى النديم خاصا بتلك المنقولات يعلم، مع شديد الأسف، أن جلّها قد ضاع، على أنه كان للقليل الباقى منها أثرُهُ الفعّال فى نهضة أوروبا، وأهم ما بقى من ذلك التراثِ القيّم هو كتابُ المَجَسْطِى لبطليموس، ترجمه الحجاج بن يوسف وكتاب السياسة فى تدبير الرياسة، ترجمه يوحنا بن البطريق، وبعض آثار لقسطا بن لوقا البعلبكى وغيرها .

(ج) العلوم القرآنية واللغوية والفقهية :

كان المؤرّخون القدماء يقولون فى العلوم القرآنيه إنه قد تفرّع عن القرآن نحو ثلثمائة علم . ونحن نحيلك على أمثال "مفتاح السعادة" لأحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده المطبوع بمطبعه دائره المعارف النظامية بحيدر آباد، ومقدمة ابن خلدون و" مفاتيح العلوم" وغيرها . وأما النحاة وطبقاتهم واللغـه وما دخلها من الألفاظ المستحدثة فى العصر العباسى، فأمامك أمثال "شفاء العليل فيما فى كلام العرب من الدخيل" لشهاب الدين

الخفاجى "ودرة الغواص" للحريرى ، وكتاب "المعرب من الكلام الأعجمى" لأبى منصور الجواليقى المتوفى فى منتصف القرن السادس وطبع فى ليبسك سنة ١٨٩٧ م وكتاب «طبقات النحاة» المعروف "بنزهة الألباء فى طبقات الأدباء" لأبى البركات عبد الرحمن بن محمد الأنبارى ، وغيرها مما لا يقع تحت حصر .

وحسبنا أن نقول لك : إنه لم يكن فى الجاهلية ولا فى صدر الإسلام ذلك التراث العظيم من الألفاظ الطبية وأسماء الأدوية والجراحة وأسماء الأمراض والاصطلاحات الفلسفية وغير ذلك مما وُضع فى العصر العباسى خاصة أمثال قولهم صيدلية ، وتدريج ، ونبض ، وهضم ، ومبردات ، وقابض ، ومسهل ، ومشج ، وذات الرئة ، وسج ، والهيولى ، والقاموس ، والقانون ، الى مئات الألفاظ من أمثال ذلك النوع الذى تجده فى مظانه ، ولا نرى حاجة بنا الى الاستطراد فيه .

ويجدُر بنا هنا أن نشيرَ الى أثر من أجلّ الآثار الاقتصادية للدولة الإسلامية فى بداية العصر العباسى . ويمكن النظر اليه كما ينظر الاسكتلنديون الى كتاب "جون سكلر" عن تاريخهم الاقتصادى . وهذا الأثر القيم الخالد الذى نظم جباية الدولة أجملَ تنظيم وأدقه ، هو كتاب الخراج للفقيه الأكبر أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصارى صاحب الإمام أبى حنيفة النعمان .

الفصل العاشر

الحالة الأدبية فى صدر عصر بنى العباس

توطئة — الخطابة والخطباء — الكتابة — مجالس الخلفاء والمناظرة — الشعر .

(١) توطئـــة :

أسلفنا لك القولَ فى الحالة الأدبية فى عصر بنى أمية التى كانت فى الواقع، الى جانب ما بيناه لك من اختلافها عن العصر الجاهلىّ، قريبةً فى جملتها من عضاضة البدوِ وخشونة المدر، فلم تتسع لها الاغراضُ ولم تفسرح لها الجوانبُ إلا بقدر ما تنطبق عليه جزيرةُ العرب وباديةُ الشأم من الأفكار والأخيلة، وما تُوحِى به غياضُ دمشقَ ونَبراتُ معبدٍ، من صفاء الفكرِ ووضوحه، وجلاءِ المعنى وٱقترابِه، لا يبالى القومُ الإمعانَ فى الآراء البعيدة والأفكار الدقيقة، وإنما كان همُّهم، كما يقول الرواة : أن تُجوِّدَ ألفاظُهم، وتجلّ تراكيبهُم. وفى الحقيقة أنهم قد اقتعدوا فى ذلك من البلاغة ذِرْوَتَها، وبلغوا من الجزالة غايتها، فكان الرجل منهم يصع لسانه حيث أراد ومتى شاء . وحسبك أن تنظر الى ما جاء به زيادُ وعبد الملك والحجاج، وما أرسله جرير والأخطل والفرزدق، لتعرفَ أين كان القومُ من اللاغة، وكيف تملكوا أعِنَّتَها فى أيديهم . فلما جاءت دولةُ العاسيين وقامت أركانُها على سواعدِ العجم، ودَلَفَ اليها السُّريانُ واليهودُ والفرس، وصمّتهم الدولةُ الى أحضانها، وأفرجت لهم بين دراعيها، وأنزلتهم فى كثير من أمور الدولة وشؤونها، وأجرت عليهم من الأرزاق والخيرات، وتقدّموا لها بتراث آبائهم وعُصَارة قرائح علمائهم، وحوّلوا ميراثهم الى ميراثها، أفادَتْ لُغَةُ العرب، وٱمتزجت المدنيةُ الساميةُ بالآريّة، وٱتسعت دائرة المعارف، وتشعّبت أغراضُ اللغة، وشمّر كلُّ ذى فضلٍ فى تدوين العلوم وٱستنباط أحكامها ووضع الفنون واصطلاحاتها وترتيب الدواوين ومراسيمها، وترجموا كتب الحكمة والمنطق، وازدهرت الآدابُ ازدهارَ

الفَتَاء والقوة، فانتظمت رخاءَ الدنيا وسعادةَ الإنسان ، وآزّيت بالحجج الحكمية والبراهين العقلية . وتولّى كِبْرَ ذلك بشارٌ وآبنُ المقفع وأبو نواس وأصرابهم، وأدخلوا اليها الجديدَ عن طريق المجاز والقياس والاشتقاق، ولم يحجزوا من استعمال الألفاظ الأعجميه فى أسماء الألوان والانية والفرش، وتأنّقوا فى صنوع العمارات و إحكامها، حتى مال بعضُهم الى السجع والازدواج . ومن أمثلة ذلك ما كتبه أبو شراعة الى سعيد بن مسلم إذ يقول : "أَسْتَسْنِيُ اللهَ أحلكَ، وأسعيدُه من الآفات لك ، وأستعينُه على شكر ما وهب من النعمة فيك إنه لذلك ولىّ ، وبه ملىّ . أتانى علامُك المليحُ قدّه ، السعيد ملكك حدُّه، بكتاب قرأته ، غيرَ مستكرَه اللفظ ولا مُزْوَرٍّ عن القصد، ينطق بحكمتك ويُبين عن فضلك " .

وجملة القول أن اللغه قد تحدّد إهابُها، وانفرجت شِعَابُها ، ووسّعت أساليبُها ، بما دخل عليها من نعيم الدولة وتَرَف الحضارة، وما آحتوته من العلوم والفنون، حتى كانت سيدةَ لغات العالَم جميعا .

(ب) الخطابة والخطباء :

كانت الداعيةُ الى الخطابة فى العصر العباسىّ قَوِيَّةً متوافرةً بليغةً . كانت قويّةً لأن طبيعةَ الانقلابات السياسية الخطيره، والدعوات المدهيه الحاده، والثورات الاجتماعيه العنيفة، من شأنها خَلْقُ مجالاتِ التكلم وتقوية الملكات الخطابيه وتميتها وزياده ثروتها والعمل على صقلها وبلاغتها . وكانت متوافره لتعدّد موضوعاتها وتشعب مناحيها ولاكتساب الدُّعاةِ والمعينين عليها لآنتهاز أمثال تلك المواقف . وكانت بليغةً لقرب العصر العباسىّ من عصر البلاغة الإسلامية الأُموية من ناحية الحرارة والتشيّع الى بنى العباس، وقوّه المحاجّة فى إنكار ما آنتهكه الأمويون من حُرُمات الدين، ولتعدّد أسباب التفاصل بين آل العباس والعلويين .

وإن نظرةً تحليليةً الى خطبة المنصور التى خطبها حينما أخذ عبدَ الله بن الحسن وإخوتَه والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته، تُعزز قولنا وتؤيد حكمنا . قال : « يأهلَ خُراسانَ

أنتم شيعتُنا وأنصارُنا وأهلُ دولتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خيرٌ منا، وإن اهـلَ بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب بركاهم، والله الذي لا إله إلا هو، والخلافةَ فلم تَعْرِض لهم فيهـا بقليلٍ ولا بكثيرٍ، فقام فيهـا عليّ بن أبي طالب فتلطّخَ وحكم عليـه الحكّمان، فافترقت عنـه الأمةُ، واختلفت عليه الكلمة، ثم وثبت عليـه شيعتُه وأنصارُه وأصحـابُه و بطانتُه وثمانُه فقتلوه. ثم قام من بعده الحسن بن علي فوالله ما كان فيها برجل! قد عُرِضَتْ عليـه الأموالُ فقبلها فدسّ اليه معـاوية : إني أحعلك ولي عهـدي من بعدي، فخدعه فانسلخ له مما كان فيه وسلمه اليه، فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلقها عدا، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه. ثم قام من بعده الحسينُ بن علي فخدعه أهلُ العراق وأهلُ الكوفة أهلُ الشقاق والنفاق والإعراق في الفتن أهلُ هذه المدرة السوداء — وأشار الى الكوفة — فوالله ما هي بحربٍ فأحاربها ولا سِلْمٍ فأسالمها، فرق اللهُ بيني و بينها، فخذلوه وأسلموه، حتى قُتِلَ. ثم قام من بعده زيد بن علي فخدعه أهل الكوفة وعزّوه فلما أخرجوه، وأظهروه أسلموه، وكان قد أتى محمدَ بن علي فناشده في الخروج وسأله ألا يقبـل أقاويلَ أهل الكوفة وقال له : إنا نجد في بعض علمنا أن بعضَ أهل بيتنا يُصْلَبُ بالكوفة وأنا أحاف أن تكون ذلكَ المصلوبَ، وناشده عمّي داود بن علي وحذّره عدرَ أهل الكوفة، فلم يقبل وتم على خروجه فقُتِـلَ وصُلِبَ بالكُنَاسَة[1]. ثم وثب عليـنا بنو أميـة فأماتوا شرفنا وأذلوا عزنا، والله ما كانت لهم عندنا تِرَةٌ يطلبونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم علينا، فنفونا من البلاد فصرنا مرّةً بالطائف ومرّةً بالشام ومرة بالشّراة حتى آتعتكم الله لنا شيعة وأنصارا، فأحيا شرفنا وعزّنا بكم أهل خراسان ودمع بحقكم أهلَ الباطل وأظهر حقنا وأصار الينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم، فقر الحق مقره وأظهر مناره واعزّ أنصاره وقطع دابرَ القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. فلما استقرّت الأمورَ فينا على قرارها

(١) الكناسة بالضم : محلة بالكوفة.

من فصل الله فيها وحكمه العادل لنا وشوا علينا طلما وحسدا منهم لنا وبغيا لنا فصّانا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم .

حهلًا على وحُبًا عن عدوهمُ . لئست الخلّتان الجهلُ والجبنُ

فإنى والله يأهل خراسان ما أتيتُ من هذا الأمر ما أتيتُ بجهالة . بلغنى عنهم بعض السقم والتعرّم، وقد دسست لهم رجالا فقلت : قم يافلان، قم يافلان فقد منعك من المال كذا ، وحذوتُ لهم مثالا يعملون عليه، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسّوا اليهم تلكَ الأموالَ، فوالله ما بقى منهم شيخٌ ولا شابٌّ ولا صغيرٌ ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللتُ بها دماءَهم وأموالهم وحلّتْ لى عند ذلك بقصصهم بيعتى وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علىّ فلا يرون أنى أتيتُ ذلك على غير يقين . ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ .

ولقد يُلاحظ على الخطابة العباسية اتسامُها بطابع النعرة الدينية لماهاتهم بصلتهم من النبىّ، كما يلاحظ عليها اللغةُ « الأتوقراطيةُ » التى لا تختلف فى شىء عن لغة ماناوات رُومةَ فى العصور الوسطى ولغة الملوك الذين يديرون سظربة « حقوق الملك المقدسة » وأنهم ورثة الله فى أرضه وممثلوه بين خلقه .

خطبة للمنصور الخليفة العباسىّ

خطب فى مكة فقال :

أيها الناس، إنما أنا سلطانُ الله فى أرضه أسُوسُكم بتوفيقه وتسديده وتأييده، وحارسُه على ماله أعملُ فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه بإذنه، فقد جعلنى الله عليه قُفْلا إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم، وإن شاء أن يُقفلنى عليها أقفلنى ، فارغبوا الى الله وسلوه فى هذا اليوم الشريف الذى وهب لكم من فضله ما أعلمكم به فى كتابه إذ يقول : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عليكم نِعْمَتِي ورَضِيتُ لكمُ الإسْلَامَ دِينًا ﴾ أن يوفقنى للرشاد والصواب ، وأن يُلهِمَنى الرأفةَ بكم والإحسانَ اليكم . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم »

خطبة للخليفة المهدى

الحمد لله الذى ارتضى الحمدَ لنفسـه ، ورضِىَ به من خلقه ، أحمَدُه على آلائه وأُمَجِّدُه لنعمائه ، وأستعينه وأُومن به وأتوكل عليـه توكلَ راضٍ بقضائه وصابر لبـلائه . أوصيكم عبـادَ الله بتقوى الله فإن الاقتصارَ عليها سلامةٌ ، والترك لهـا ندامة . وأحثكم على إجلال عظمته وتوقير كبريائه وقدرته ، والانتهاء الى ما يقرّب من رحمتـه ، وينجى من سخطه ، ويُنال به ما لديه من كريم الثواب ، وجزيل المآب . فاجتنبوا ما خوفكم الله من شـديد العقاب وأليم العذاب ووعيدِ الحساب ، يوم تُوقفونَ بين يدى الجبار ، وتُعرَضُونَ فيـه على النار . يوم لا تكلّم نفسٌ إلا بإذنه ، فمنهم شقىّ وسـعيد . يوم يفرّ المرء من أخيـه وأمّه وبنيه لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه . يوم لا تجزى نفسٌ عن نفس شيئا ولا يُقبَلُ منهـا عدلٌ ولا تنفعها شـفاعةٌ ولا هم ينصرون . يوم لا يجزى والدٌ عن ولده ولا مولودٌ هو جار عن والده شيئا ، إن وعدَ الله حقّ فلا تغرنكم الحياةُ الدنيا ولا يغرنكم بالله الغَرور . فإن الدنيا دارُ غُرور وبلاءٍ وشرورٍ وانحلالٍ وزوالٍ وتقلبٍ وانتقالٍ . قـد أفنتْ من كان قبلكم وهى عائدةٌ عليكم وعلى مَنْ بعدكم . من ركن اليها صَرَعته ، ومن وثق بها خانته ، ومن أمّلها خَيّبتـه ، ومن رجاها خذلته . عِزّها ذُلّ ، وغناها فقـرٌ . والسعيدُ مَنْ تركها والشَّقِىُّ مَنْ آثرها . والمغبونُ فيها من باع حظّه من دارِ آخرته بها . فالله الله عبادَ الله ! والتوبةُ مقبولةٌ والرحمةُ مبسوطةٌ : وبادروا بالأعمال الزكية فى هـذه الأيام الخالية قبل أن يؤخذَ بالكَظَم وتَندَموا فلا تنالون الندمَ يومَ حسرةٍ وتأسُّفٍ ، وكآبةٍ وتلهُّفٍ . يومٌ ليس كالأيام وموقف صعب المقـام .

خطبة لهـارون الرشيد

الحمد لله الذى نحمده على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصرُه على أعدائه ونؤمن به حقًّا ونتوكل عليه مُفوّضينَ اليه . أُوصيكم عبادَ الله بتقوى الله ، فانـ فى التقوى تكفيرَ السيئاتِ وتضعيفَ الحسناتِ ، وفوزًا بالجنة ونجاةً من النار ، وأُحذّركم يوماً تشخص فيـه

الأبصار وتُبلَى فيه الأسرار . يوم البعث و يوم التغابُن و يوم التلاقى و يوم التنادى . يوم لا يُستعتب من سيئة ولا يُزداد فى حسنة . يوم الآزفه اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .. فاتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم تُوفّى كلُّ نفس ما كسبت . حَصِّنوا إيمانكم بالأمانة وديتكم بالورع وصلاتكم بالزكاة . و إياكم والأمانى فقد غرّتْ وأردتْ وأوبقتْ كثيرا حتى أكدتهم مناياهم ، فتناوشوا التوبةَ من مكان بعيد وحيلَ بينهم و بين ما يشتهون . فرغِّب ربكم عن الأمثال والوعد وقدَّم اليكم الوعيد . وقد رأيتم وقائعه بالقرون الخوالى حيلا فحيلا ، وعهدتم الآباء والأبناء والأحِبّة والعشائر باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ومن بين أظهركم لاتدفعون عنهم ولاتحولون دونهم ، فرالتْ عنهم الدنيا وانقطعتْ بهم الأسبابُ ، فأسلمتهم الى أعمالهم عند الموقف والحساب ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

و إن نظرةً تَخلَى الى النُّحَبِ الصغيره التى احتراها لك عن المنصور والمهدى والرشيد تعطيك فكرةً صحيحةً بأنا لم نَعْدُ لُبَابَ الصواب فيادهبنا اليه من "أبوقراطيتها" و "نابوليتها" فى طبيعه محاها ، وطلاوتها و بلاغتها فى مساها .

* * *

على أن الخطابة العباسية لم تستمر على القوه التى كانت عليها فى صدر تلك الدولة حينما استقرّت و رسخت ، اذ فترتْ عند دلك الدواعى وهدأت الدوافع ، وأحدثتْ حالتُها فى الاضمحلال لاشتداد احتلاط العرب بالأعجام ولأن الشخصيّاتِ الباررةَ فى الدولة كانت فى الغالب من الفرس وغيرهم من الموالى الذين لم تتحرد ألسنتهم بالخطابة لما يصيبها أحيانا من لكنة العىّ وحَصَر العجمة و إن سمتْ معلوماتُهم وارتقت فى البلاغة أساليبُهم .

وربما كان من المعقول أن نقول : إن الخطابةَ فى العصر العباسىّ كانت بوجه عام أقلّ منها فى العصر الأمويّ من ناحية البلاغة والأسلوب ، مع وجود بعض خطباء مَصَاقع

لا يقلّون عن إخوانهم الأمويين بلاغة واقتدارا، بيد انها كانت متعدّدةَ الأنواب، لتشعب ما بيناه لك من الوجوه والمناحى .

(ج) الكتابة :

حرت الكتابةُ فى العهد الأوّل من عصر العباسيين على ما كانت عليه عند بنى أميـة : من جَوْدة اللفظ، ومتانة الأسلوب، وجلاء المعنى، ووضوح القصدِ وبساطته ، فلم يكن القومُ يُمعنُوا فى التصوّر والتفكير، أو ينظروا الى السماء فيستوحُوها ، أو الى الطبيعـة فيستنطقُوها، أو تَستَشِفُّوا ماوراء العالَم ، فإن الأفكار كانت لا تزال سهلةً يرمون فيهـا عن حاضر البديهة وعفوِ الخاطرِ، فلم تشاركوا الحكماءَ فى تفكيرهم، ولا المناطقـةَ فى صحتهم ، اذا استثنينا نفرا قليلا أمثال آبى المقفع، وإنما كانوا يدورون حول ما ترك آباؤهم من بيتٍ بديع، أومثل سائر، أو حكمةٍ رائعة، أو فكرةٍ سامية، أو معنى يصل الى القلب بلا استئذان، وأوعَلُوا فى ذلك حتى صاروا فصحاءَ الناس وأمراءَ البيان . فكان الأديبُ منهم يُرسل الرسالة أمام مَقْصَدِه فتعمل فى النفوس ما لا تعمله الأسنةُ والرماحُ . وناهيكَ بما كانت تفعله تلك الرسائل فى نفوس القوم ! .

فلما حَفَلَتْ بعدادُ ، وأقبلت الدنيا وآتسع السلطانُ وآمتدّت أطرافُه ، وضَمّتِ الدولةُ الى أحضانها أبنـاءَ الفرس والسّريانِ، وكانوا يحملون تُراثَ آبائهم وطُرَفَ علمائهم، وأوسع الخلائفُ رحابَهم لكل ذى فضل من رجال الدولة، وعرفوا للعلم مَقَامَه فرفعوه، وللأدب صولَته فأكرموه، وقرّبوا العلماءَ والأدباءَ، وعقدوا مجالسَ للمناظرة والمنادمة — كما سيبين لك — وأكبَّ الناسُ على العلم والتأليف والترجمه ، وتكشّفَ كل ذلك عن علوم وفنون لا عهـد للعربية بها، فنقلوا اليها الطبَّ والسياسةَ والحكمةَ والفلكَ والمنطقَ والتنجيمَ، وألف المسلمون فى الفقه والنحو والحديث والتفسير — كان لكلّ ذلك أثره فى أخيلة الكُتّابِ وأَسَـلَاتِ الأقلام وَوَحْيِ القرائح، فتعددتِ الأغراضُ، وتنوعت الأساليبُ، ومال الكتّابُ الى السهولة فى العبارة، والتأنق فى اللفظ ، والجودةِ فى الرصف ، وأطالوا فى المقدّمات، وتنوعوا البدء

والختامَ والألقابَ والدعاء، ومالوا الى الغلو والمبالغة، وهاك مثلاً ما كتب ابنُ سيابة الى يحيى بن خالد من رسالة يقول فيها . «للأَصْيَدِ الجواد ، الوارى الزناد، الماجد الأمجاد ، الوزير الفاضل، الأشمّ الباذل، اللباب الحُلاَحِل، من المستكبرِ المستحيرِ ، البائس الصرير، فإنى أحمدُ اللهَ ذا العزة القدير، اليك والى الصغير والكبير، بالرحمة العامة، والبركة التامة ، أما بعد، فاعلم وأسلم واعلم، إن كنت تعلم، أن من يَرحَم يُرحَم، ومن يَحرِم يُحرَم، ومن يُحسِن يغنَم، ومن يَصنع المعروفَ لا يعدَم، قد سبق الى بعضُك على، واطّراحُك لى ، وعطلتُكَ عنّى بما لا أقوم له ولا أقعد، ولا أنبه ولا أرقد، فلستُ بحىّ صحيح، ولا بميت مُستريح، فررتُ بعد الله منك اليكَ، وتحمّلتُ بك عليك » .

أما الإطنابُ فى الكتابة فكان صفةً غالبةً فى كل ما سُمل بيعةً، أو عهدًا، أو احتجاجًا أو انتصارا، أو تقريرا لمذهب أو استهواء، أو دفعا لشبهة أو طلبا لعمة، أو ما يقوم نصالا أو ما يدعو نزالا . وستجد طرفا من رسائل القوم فى ذلك العصر الزاهر فى باب المنثور بالكتاب الثانى من المجلد الثانى .

وقد بالغوا فى تمداح ممدوحهم وذم مذمومهم . وحسبك من ذلك أن ترى ما دار بين المنصور العباسىّ والنفس الزكية، فقد جاء مما كتبه الأوّلُ قولُه : «أما بعد، فقد أتانى كتابك وبلغنى كلامك ، فاذا حُلّ لحرك بالنساء اتّصلَ به الجُفَاه والعوعاء ، ولم يجعل الله النساءَ كالعمومة، ولا الآباءَ كالعَصَبة والأولياء ، وقد جعل العمَّ أبا وبدأ به على الوالد الأدنى، فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام : ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائى إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ﴾ . ولقد عَلِمْتَ أن الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم وعمومته أربعةٌ ، فأجابه اثنان أحدهما أبى ، وكَفَرَ به اثنان أحدهما أبوك . فأما ما ذكرتَ من النساء وقراباتهن فلو أُعطِينَ على قرب الأنساب وحقّ الأحساب لكان الخيرُ كلُّه لآمنةَ بنتِ وهب، ولكن اللهَ يختار لدينه من يشاء من خلقه . » .

غير أن ذلك لم يكن ليمنع أن الميلَ الى الإيجـاز له فى نفوس القوم مَقَامُه، وفى قلوب البلغاء عِزُّه وسلطانُه ، لا سيما ما كان من قبيل التوقيع من أميرٍ أو وزيرٍ أو ذى جاهٍ وسلطانٍ ، فقد رُفِعَ الى المنصور شَكَاةٌ من أهل الكوفة لأعوجاجٍ فى عاملهم، فوقَّعَ عليها « كيما تكونوا يُوَلَّ عليكم» . وكتب جعفر الى عامل شُكِىَ له منه : «قد كثر شاكُوك وقلّ شاكروك ، فإما اعتدلتَ وإما اعتزلت » .

وقد أجمع الرواة أنَّ الحالَ قد بقيت على ذلك من المتانه وحسنِ الإشاره ولطف المدخل ومراعاة المعنى وحسن الابتداع ، حتى حلف من بعـدهم حلفٌ ضعفت فيهم ملكةُ اللغة وأعوزهم البيانُ، فمالوا الى الألفاظ وصناعتها، والأسجاع (وَزْخَرَفَتِها)؛ وبقيت الكتابةُ تنتقل فى أكفهم وتدور حول نفسها حتى مال رأسُها مع رأس العباسيين فى القرن السابع الهجرى .

(د) مجـالس الخلفـاء والمناظرة :

للخلفاء العباسيين بحكم طبيعة دعوتهم السياسيه واستفحال أمر المدنية فى أيامهم مجالسُ حافلةٌ بالأدباء والشعراء والمغنين والمادمين قد أُنزِعتْ بذكرها كتبُ الآداب واستوعبَ الشيءَ الكثيرَ منها أبو الفرج الأصفهانىّ فى أغانيه .

وكانوا يُحِلُّونَ العلماءَ، كما بينا لك فى موقف الرشيد مع أبى معاوية الضرير ، ويعتنون بالشعر وللهوه ، ويَحرِصُون على تعليم أولادهم بوساطة نُخبةٍ من رجالات عصرهم؛ فالمنصورُ ضمّ الشرَقىّ بن القطامى الى ابنه المهدى وأوصاه أن يعلّمه أخبارَ العرب ومكارمَ الأخلاق وقراءةَ الأشعار . والرشيدُ عَهِدَ بتعليم ابنه الأمين الى الأحمر النحوىّ ثم الكسائىّ ، وعَهِد بتأديب المأمون الى اليزيدى وسيبويه وغيرهما . وللرشيد وصيَّةٌ يقال إنه أوصى بها الأحمرَ حينما عَهِدَ اليه بتأديب الأمين ، ونحن نثبتها هنا لتقفّ منها على نوع التربيـة التى كان يتطلبها خلفاءُ ذلك العصر لأبنائهم، ولأنها تدل فى الوقت نفسه على مبلغ التحوّل الذى وصلت اليه المدنيةُ العربيةُ فى العصر العباسىّ وكيف استفادت من نُظُم اليونان والفرس وغيرهم ممن وقف العـربُ على آرائهم ومؤلفاتهم .

أما الوصية فهى : « يا أحمرُ، إن أميرَ المؤمنين قد دفع إليك مهجةَ نفسه وثمرةَ قلبه، فصيَّر يدكَ عليه مبسوطةً، وطاعته لكَ واجبةً، فكن له بحيثُ وضعك أميرُ المؤمنين . أقرِئْهُ القرآنَ وعرِّفه الأخبارَ، وروِّه الأشعارَ، وعلِّمه السُّنَنَ، وبَصِّرْه بمواقع الكلام وبَدئه، وامنعْه من الضحك إلا فى أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم اذا دخلوا عليه، وبرَفع مجالس القوّاد اذا حضروا مجلسَه . ولا تمرّن بك ساعةٌ إلا وأنت مغتنم فائدةً تفيده إياها من غير أن تحزُنه فتُميتَ ذهنَه، ولا تُمعِنْ فى مسامحته فيستَحلى الفراغَ ويألفه، وقوِّمه ما استطعتَ بالقرب والملاينة فإن أباها فعليكَ بالشدّة والغِلْظَة » .

* * *

وكانوا يعنون بالمسائل اللغوية واللفظية عناية عظيمة كما كانوا يعنون أيّما عناية بحفظ الأشعارِ وروايتها، ويعتبرون عدمَ حفظها مصيبةً وكارثةً، فقد روَى الهيثم بن عدىّ عن ابن عياش قال: لما مات جعفرُ المنصور بن الأكبر مشى المنصورُ فى جنازته من المدينه الى مقابرِ قريش ومشى الناسُ أجمعون معه حتى دفنه ثم انصرف الى قصره، ثم أقبل على الربيع فقال : يا ربيعُ انظر مَن فى أهلى يُنشدنى :

* أَمِنَ المنون وريبها تتوجَّعُ *

حتى أتسلّى بها عن مصيبتى، قال الربيعُ : فخرجتُ الى بنى هاشم وهم بأجمعهم حضور، فسألتهم عنها فلم يكن فيهم أحد يحفظها، فرجعت فأخبرته فقال : والله لمصيبتى بأهل بيتى ألّا يكونَ فيهم أحدٌ يحفظ هذا لقلة رغبتهم فى الأدب، أعظمُ وأشدُّ علىّ من مصيبتى بابنى. ثم قال : أُنظر هل فى القوّاد والعوامّ من الجند من يعرفها، فإنى أُحِبّ أن أسمَعها من إنسانٍ يُنشِدُها، فخرجتُ فاعترضتُ الناسَ فلم أجد أحدا يُنشِدُها إلا شيخا كبيرا مؤدّبا قد انصرف من موضع تأديبه، فسألته هل تحفظ شيئا من الشعر؟ فقال . نعم شعرُ أبى دؤيب فقلت: أنشِدْنى ، فابتدأ هذه القصيدةَ العينيةَ ، فقلت له : أنت معلمى، ثم أوصلته الى المنصور فاستنشده إياها، ثم أجازه بمائة درهم .

* * *

أما التحوّل العظيم الذى حصل فى أبهاء "صالونات" الخلفاء الخاصة بالمنادمة، فالحديثُ عنه يطول . وحسبُك فى ذلك ما يدلى به إسحاق بن إبراهيم أحد المعاصرين العباسيين، فإنه يحدّثك بما سَقَعُ الغُلَّةَ إذ قد سُئل عن أحوال الأُمَويين فى الشراب واللهو فتكلم بإيجاز عن حالتهم، وسُئِل عن العباسيين فوصَفَ وأحادَ وصوّرَ وأفاد قال :

« أما مُعاوِيَةُ ومَرْوَانُ وعبدُ الملك والوليدُ وسليمانُ وهشامٌ ومروانُ بن محمد فكان بينهم وبين الندماء ستار، وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب للغِنَى والتَذَهُ حتى يقلِبَ ويمشى ويحرّك كتفيْه ويرقُص ويتجرّد حيث لا يراه إلا خواصّ حواريه، إلّا أنّه كان اذا ارتفع من خلف الستار صوتٌ أو نعيرُ طَرَبٍ أو رقصٌ أو حركةٌ بزفير تُجاوِزُ المقدارَ قال صاحب الستار : حَسْبُك ياجاريةُ كُفّى ! انتهى ! أقْصِرى ! يوهم الندماء أن الفاعل لذلك بعض الحوارى . فأما الناقون من حلفاء بنى أمية، فلم يكونوا يتحاشَوْن أن يرقصوا ويجرّدوا ويحضُروا عُراة بحضرة الخلعاء والمغنّين، ومع ذلك لم يكن أحد منهم فى مثل حال يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد فى المجون والرفث بحضرة الندماء والتجرّد ما يالِيان ما صنعا .

قلت : فعمر بن عبد العزيز ؟ قال : ما طنّ فى سمعه حرف غناء مذ أفضتِ الخلافة اليه الى أن فارق الدنيا، فأما قبلها، وهو أمير المدينة، فكان يسمع الغِناء ولا يظهر منه إلا الأمر الجميل . وكان ربما صفق بيديه، وربما تمزع على فراشه وضرب برجليه وطرِب، فأما أن يخرج عن مقدار السرور الى السخف فلا .

قلت : فخلفاؤنا (حلفاء بنى العباس) .

قال : كان أبو العباس فى أوّل أيامه يظهر للندماء ثم احتجب عنهم بعد سنة، أشار بذلك عليه أسيد بن عبد الله الخزاعى . وكان يطرب ويبتهج ويصيح من وراء الستار :

« أحسنت والله ! أعِدْ هـذا الصوتَ » فيُعاد له مرارًا، فيقول فى كلها : « أحسنتَ ». وكانت فيـه فضيلةٌ لا تحدها فى أحدٍ ، كان لا يحضره نديمٌ ولا مُغنٍّ ولا مُلْهٍ فينصرف إلّا بصِلَةٍ أو كُسْوَةٍ قَلَّتْ أو كَثُرَتْ، وكان لا يُؤَخِّرُ إحسانَ مُحسنٍ لغدٍ، ويقول : « العجب ممن يُفْرِحُ إنسانا فيتعجَّلُ السرورَ ويجعل ثواب من سَرَّه تسويفا وعِدَةً » فكان فى كل يوم وليلة يقعد فيه لشغله لا ينصرف أحدٌ ممن حضره إلّا مسرورا ، ولم يكن هذا العربىّ ولا محمىّ قبله . غير أنه يُحكى عن بَهرامَ حُور ما يُقارِب هذا .

" فأما أبو جعفر المنصور فلم يكن يطهر لنديم قطُّ ، ولا رآه أحد يشرب غيرَ المـاء . وكان بينـه وبين الستار عشرون ذراعا ، وبين الستار والندماء مثلها . فاذا غنَّاه المُغَنِّى فأطربه حرَّكتِ الستار بعضُ الحواري، فاطَّلَعَ اليـه الخادمُ صاحبُ الستار فيقول : قل له « أحسنتَ بارك الله فيك » وربما أراد أن يُصَفِّقَ بيديه فيقوم عن مجلسه ويدخل بعض حُجَر نسائه فيكون ذاك هناك . وكان لا يُثيب أحدًا من ندمائه وغيرهم درهما فيكون له رَسْمًا فى ديوان . ولم يُقْطِعْ أحدًا ممن كان يصاف الى مُلهِيَةٍ أو صَحِكٍ أو هزْلٍ مَوضعَ قدمٍ من الأرض، وكان يحفظ كلَّ ما أعطى واحدا منهم عَشْرَ سنين ويحسبه ويذكره له .

" وكان المهدىُّ فى أول أمره يحتجب عن الندماء متشبِّها بالمنصور نحوًا من سـنة ثم ظهر لهم، فأشار عليه أبو عَوْنٍ بأن يحتجبَ عنهم فقال : « إليك عنِّى يا جاهل ! إنما اللذةُ فى مشاهده السرور وفى الدنوِّ ممن سرّنى ، فأما من وراء وراء فما خيرُها ولذَّتُها ! ولو لم يكن فى الظهور للندماء والإخوان إلا أنى أُعطيهم من السرور بمشاهدتى مِثلَ الذى يُعطونى من فوائدهم لجعلتُ لهم فى ذلك حظا مُوَفَّرًا » . وكان كثيرَ العطايا يواترها ، قلَّ مَنْ حضره إلا أغناه، وكان لَيِّنَ العريكة، سَهْلَ الشريعة، لذيذَ المنادمة، قصيرَ المساومة، لا يَمَلُّ نديما ولا يتركه إلا عن صرورة، قطيع الخلق، صبورا على الجلوس، ضاحك السِّن قليل الأذى والبَذاء .

« وكان الهادى شَكِسَ الأخلاق، صَعْبَ المرام، قليـلَ الإغضاء، سَيِّء الظنّ ، قلّ مَن توقّاه وعرف أخلاقه إلا أعاده، وما كان شيءٌ أعص اليـه من ابتدائه بسؤال، وكان يأمر للغنى بالمـال الخطير الجزيل فيقول « لا يُعطينى بعدها شيئا » فيعطيه بعد أيام مثلَ تلك العطيّه .

«ويقال : إنه قال يوما وعنده ابن جامع وابراهيم الموصلىّ ومُعاذ بن الطبيب — وكان أوّل يوم دخل عليه مُعاذ وكان حاذقا بالأغانى عارفا بها — : مَن أطربنى اليومَ منكم فله حُكْمُهُ فغناه ابن جامع غناء لم يجوّده . وكان ابراهيمُ قد فهم غرضَه فغناه

سُلَيمَى أجمعَتْ بينَا ، فأيْنَ تقولُهـا أيْنَـا

فطرب حتّى قام عن مجلسه ورفع صوته وقال « أعِذْ بالله وبحياتى ! » فأعاد فقال : «أنت صاحبى فاحتَكِمْ» . فقال إبراهيمُ : يا أمير المؤمنين، حائطُ عند الملك بن مروان وعينُه الحرّارةُ بالمدينة، قال : فدارت عيناه فى رأسه حتى صارتا كأنهما جمرتان . ثم قال : «يابن اللخناء! أردت أن نَسْمَعَ العامةُ أنك أطربتَنى ، وأنى حكّمتُكَ فأقطعتُك ، أما والله لولا بادرةُ جهلك الى علتْ على صحيح عقلك وفكرك ، لصرتُ الذى فيه عيناكَ ! » ثم سكت هُنَيْهَةً . قال إبراهيم : فرأيتُ مَلَكَ الموت قائما بين يديه ينتظر أمره . ثم دعا إبراهيم الحرّانى، فقال . «خُذ بيدِ هذا الجاهلِ فأدخِلْه بيتَ المـال فليأخُذْ منه ما شاء ! » . فأخذ الحرّانىُّ بيدى حتى دخل بى بيتَ المـال ، فقال كم تأخذ؟ فقلت مائةَ بدرةٍ ، فقال : دعنى أؤامره ، قلت : فآخذُ تسعين ، قال . حتى أؤامرَه ، قلت : فثمانين ، قال : لا ، فأبى إلا أن يؤامره ، فعرفتُ غرضَه ، فقلت له : آخذ سبعين لى ولك ثلاثون ، قال : شأنَكَ ، قال : فانصرفتُ بسبعين ألفا وانصرف مَلَكُ الموت عن الدار .

قال : وكان الرشيدُ فى أخلاق أبى جعفر المنصور يمثلها كلَّها إلا فى العطايا والصِّلات والحلَع . فانه كان يفضُو فعـلَ أبى العباس والمهدىّ ، ومَنْ خبَّرك أنه رآه قط وهو يشرب

إلا الماء فكذّبه، وكان لا يحصُر شربَه إلا حاشُ جواريه ، وربما طرِبَ للعناء فتحرك حركةً بين الحركتين فى القِلّة والكثرة .

«وهو من بين خلفاء بنى العباس مَن جَعَلَ للمغنين مراتبَ وطبقاتٍ، على نحو ما وصفهم أردشير بن بابك وأبو شِرْوان، فكان إبراهيم الموصلىّ ، وإسماعيل أبو القاسم بن جامع ، وزلزل مصور الضارب فى الطبقة الأولى ، وكان زلزل يضرب ويُغَنِّى هٰذانِ عليه . والطبقة الثانية سُلَيْم بن سلاّم " أبو عبيد الله الكوفى "، وعمرو العزال ومَن أشبههما . والطبقة الثالثة أصحاب المعازف والصنج والطنابير . وعلى قدر ذلك كانت تجرى جوائزهم وصِلاتُهم . وكان اذا وَصَلَ واحدا من الطبقة الأولى بالمال الكثير الخطير جعل لصاحبيه اللّذين معه فى الطبقة نصيبا منه ، وجعل للطبقتين اللتين تليانه منه أيضا نصيبا . واذا وُصِل أحد من الطبقتين الأخريين بصلة لم يقبل واحدٌ من الطبقة العليا منه درهما ، ولا يجترئ أن يَعرِضَ ذلك عليه .

« قال فسأل الرشيدُ يوما برصوما الرامَر، فقال له : يا إسحاق! ما تقول فى ابن جامع" فتوك رأسَه وقال . نَحْرُ قُطْرَبُّلَ[1] يعقِل الرَّحْل ويُذهِب العَقْل . قال : فما تقول فى إبراهيم الموصلى" قال دستانٌ فيه حوح وكُمْثرى وتُفّاح وشَوْكٌ وخَروبٌ . قال : فما تقول فى سُلَيم بن سلاّم ؟ فقال ما أحسَنَ حَصابه . قال : فما تقول فى عمرو العزّال ؟ قال : ما أحسنَ بَيانَه . قال : وكان منصور زلزل من أحسن وأحذق مَن رَأَ الله بالحَسّ . فكان اذا حَسَّ العودَ فلو سمعه الأخرسُ ومَن تحالم فى دهره كلّه لم يملكْ أن يطرَبَ .

« قال ابراهيم . فغنيتُ يوما على ضربه، فخطّأنى، فقلتُ لصاحب السّتار : هو والله أخطأ . قال: فرفَعَ الستار ثم قال : يقول لك أمير المؤمنين أنت والله أخطأتَ! فحَنى رَلزِلٌ وقال : يا ابراهيم تُخطئنى! . فوالله ما فتح أحد من المغنين فاه بعير لقط إلا عرفتُ عرضَه .

(١) قطربل بالضم ثم السكون ثم فتح الراء وباء موحدة مشددة مضمومة ولام . اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب اليها الخمر وما زالت مشتهرا للطالبين وحانة نصارين وقد أكثر الشعراء من ذكرها . أنظر ياقوت فى قطربل .

فكيف أُخَطَّأُ وهـذه حالى! فأذاها صاحبُ الستار . فقال الرشيد : قل له صدقتَ، أنت كما وصفتَ نفسَك وكذب ابراهيمُ وأخطأ . قال ابراهيم : فغمّنى ذلك، فقلت لصاحب الستار : أبلغ أمير المؤمنين سيدى ومولاى ، أنّ بفارس رجلا يقال له سُنَيْدٌ ، لم يخلق الله أصربَ منه بعود ولا أحسنَ مَحَسًّا، وإن بعث اليـه أميرُ المؤمنين فحمله عرفَ فضلَه وتعيّتُ على صربه، فإن زَلْزَلا (١) يكايدنى مكايدةَ القُصَّاص والقرّادين . قال : فوجه الرشـيد الى الفارسىّ فحُمِلَ على البريد فأقلق دلك زَلْزَلًا وعمّه . فلما قدم الفارسىّ ، أحضرنا وأحدنا مجالسا وجاءوا بالعيـدان قد سُوِّيَتْ ، وكذلك كانـ يفعل فى مجلس الخـلافة ليس يُدْفَعُ الى أحد عودُه فيحتاجُ الى أن يحرّكه لأنهـا قد سُـوِّيَـتْ وعُلِّقَتْ مَثالُثُها مثاكِلَةً للزِّيَرَةِ على الدقّة والعلط . قال . فلمـا وُضِعَ عودُ الفارسىّ فى يديه، نظر اليـه منصور زلزل، فأسفر وجهُه وأشرق لونُه، فصرب وغنّى عليه ابراهيم . ثم قال صاحبُ الستار لزلزل : يا منصور اضربْ ! قال . فلما حسَّ العودَ ما نمالك الفارسىّ أن وثب من مجلسه بعد إدنٍ حتّى قبل رأسَ زَلْزَلٍ وأطرافَه، وقال : مِثْلُكَ، جُعِلتُ فداك! لا يُمتَهَنُ و يُستعمَلُ، مثلك يُعبَـدُ . فعجب الرشيد من قوله وعرف فضيلة زلزل على الفارسىّ . فأمر له بصلة وردّه الى بلده .

«وكان منصور زلزل من أسخى الناس وأكرمهم، نزل بين ظَهْرَانَىْ قومٍ وفد كان يحلّ لهم أحد الزكاة فما مات حتى وجبت عليهم الزكاه .

« وكان اسحاق رَصُومًا ، فى الطبقه الثانيـه . قال : فطرب الرشـيد يوما لِزَمْره ، فقال له صاحب الستار : يا إسحاق أُزْمُرْ على عباء ابن جامع . قال : لا أفعـلُ . قال : يقول لك أمير المؤمنين ولا تفعل! قال : إن كنت أزمُرُ على الطبقه العليا رُفِعتُ اليهـا ، فأما أن أكون فى الطبقه الثانيـه وأزمُرَ على الأولى فلا أفعـلُ ! فقال الرشـيدُ لصاحب الستار . ارفعه الى الطبقة الأولى ، فاذا قمتُ فادفع البساطَ الذى فى مجلسهم اليه . فرُفِـعَ اسحاقُ الى الطبقة العاليـة وأحد البساطَ وكان يساوى ألفىْ دينار . فلمـا حمله الى منزله استبشرتْ به أُمُّه وأحواته وكانت أمه نَبَطِيَّه لكاء فخرج برصوما عن منزله لبعض حاجاته،

(١) كذا ضبطه صاحب القاموس « كعدد » وضبطه ابن خلكان « كهدهد » .

وجاء نساء جيرانه يُهنِّئْنَ أمه بما خُصَّ به دون أصحابه ويدعون لها ، فأحدث سكبا وجعلت تَقْطَعُ لكل من دخل عليها قطعةً من البساط حتى أنت على أكثره . فجاء رسولا فاذا البساطُ قد تُقُسِّمَ بالسكاكين . فقال : ويلكِ ما صنعتِ . قالتْ : لم أدرِ، ظننتُ أنه كذا يقسم . فحُدِّثَ الرشيد بذلك فضحك ووهبَ له آخرَ .

«وزعم سعيد بن وهب أن ابراهيم الموصلىّ غنَّى أمير المؤمنين هارون صوتا فكاد يطير طربا فاستعاد عامّةَ ليله ، وقال : ما رأتْ صوتا يجمع السخاءَ والطربَ وجودةَ الصنعة والخفةَ غيرَ هذا الصوتِ ، فأقبل ابراهيم فقال : يا أمير المؤمنين، لو وَهبَ لك إنسانٌ مائه ألف درهم أو لو وجدتَ مائة ألف درهم مطروحه، كنتَ أسَرَّ بها أو بهذا الصوت؟ قال : والله لأنا أسرّ بهذا الصوت منى بألف ألف وألف ألف . قال : فلو فقدتَ من بيت مالك مائة ألف كان أشدّ عليك أو لو فقدتَ هذا الصوت وفاتك هذا السرورُ؟ قال : بل ألف ألف وألف ألف أهون علىّ . قال : فلم لا هَبَ مائة ألف أو مائتى ألف لمن أتاك بشيء فقد ألفى ألف أهون عليك منه! فأمر له بمائتى ألف درهم .

* * *

امتاز العصرُ العباسىّ بتقدّم مجالس المناظرة ورَوْنقها وتنظيمها وقيدِ المناقشاتِ فيها . وقد يكون من المفيد إعطاؤك صورةً صحيحةً للمناظرة وعِظَمِها ، واهتمامهم بترويق عبارتها، وطلاوةِ أساليبها، وبلاغة تراكيبها، وملاحظة قوّة الحجه فيها، بأن ننقل اليك مشاورةَ المهدى لأهل بيته . وهى إن صحت تعتبر أثرا أدبيا له قيمتُه وخطرُه . وأثرا سياسيا لمناقشات القوم السياسية ولتصمها خُطَطًا ونصائحَ لا يزيد عليها إلا تلك النصائح التى تضمنها كتاب طاهر بن الحسين القائد المأمونى لأبنه عبد الله، وستراه فى موضعه من باب المشور بالكتاب الثالث فى المجلد الثالث من هذا الكتاب . أما المشاورة فستجدها فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى .

(هـ) الشـــعر :

لا يُقدِّسُ العرب من علوم الحياة ومنونها شيئا أكثرَ من تقديسهم الشعرَ الذى استودعوه أفكارهم وأخبارهم، وحفظوا به مفخرهم ومناسبهم وساقوا به الجيوشَ والمحافلَ، فدكَّتْ عروشًا وأبادت ممالكَ، وصمدوه من أحلاقهم وعاداتهم وشؤون حياتهم ماجعله مكانَ فخرهم ومفزَعَ أمرهم، فكنتَ تجد العربىَّ يسمع البيت من الشعر فيترنح ترنح النشوان، ويثور حتى كأنه حمل نار وكثيرًا ماسجدوا أمامه، لمكانه من نفوسهم. وقد روى الأصمعىّ وغيره من ذلك شيئا كثيرا.

وقد بقيت للشعر هذه المكانةُ فى كلّ عصوره العربيه، ولم يَزُلْ منه ان دولة العباسيين قامت على سواعد الفرس، وحلُّوا منهـا مكانَ الصدور والحكام، فإن الخلفـاءَ والسادةَ وجمهرةَ الأمراءِ والأدباءِ، كانوا يجعلون فوقَ أكتافهـم رءوسًا عربيةً حفظوا فيهـا تُراثَ آبائهم ومفاخرَ أجدادهم، وأقبلوا على الشعر وإنشادِه، وكانوا هم أنفسُهم يَقْرِصون الشعرَ. واليك ما جاء فى عيون الأخبار عن المنصور قال: "كان عمرو بن عُبَيد اذا رأى المنصورَ يطوف حول الكعبة فى قرطين يقول: إن يُرد الله بأمه محمد خيرًا يولّ أمرَها هذ الشابَّ من بنى هاشم. وكان له صديقًا. فلما دخل عليه بعد الخلافه وكلمه وأراد الانصراف قال: يا أبا عثمان، سل حاجتك، قال: حاجتى ألا تبعث الىّ حتى آتيـك، وألا تعطينى حتى أسألك. ثم نهض فقال المنصور:

* كلهم ماشٍ رُوَيد * كلهم حاتلُ صيد *
* غيرَ عمرو بن عُبَيد *

فلمـا مات عمرو رثاه المنصور فقال

صـلى الاله عليكَ من مُتَوسِّد * قبرا مررت به على حرّان
قـبر تضمَّن مؤمنـا متحنّفا * صـدقَ الالهَ ودان بالقـرآن
واذا الرجالُ تنازعوا فى سُـنّة * فصـلَ الحديثَ بحكمةٍ وبيان
فلو آن هذا الدهر أبقى صالحا * أبقى لنـا حيًّا أبا عثمان

* * *

ولقد أحصروا لأسماعهم المؤدسّ يقفونهم على الشعر وٱستظهاره، وحلسوا للشعراء مجالس أثابوا فيها وأعطَوْا، ووهبوا من المِنَح ماوهبوا . روى الفضل بن الربيع : «أن مروان بن أبى حفصه دخل على المهدىّ بعد وفاة معن بن زائدة الشيبانى فى جماعةٍ من الشعراء فيهم سَلْمٌ الخاسر وغيرُه، فأنشد مديحًا فيه، فقال له : ومن أنت؟ قال : شاعرُك ياأمير المؤمنين وعبدُك مروانُ بن أبى حفصة، فقال له المهدىّ : ألست القائل

أقفر باليمامة بعد مَعْنٍ * مُقامًا لا نريدُ به زوالا
وقلنا أين رحلُ بعد معنٍ * وقد ذهب النوالُ فلا نوالا

قد ذهب النوال فما رغبت، فلم حثت تطلب نوالنا! لاشىء لك عندنا، فحُرُّوا رجله فحزوا رجله حتى أُخرِجَ . فلما كان من العام المقبل تلطف حتى دخل مع الشعراء فمثل بين يديه وأنشد .

طرقَتْك زائرةٌ فحىّ خيالَها * بيضاءُ تخلط بالجمال دلالَها
قادَتْ فؤادَك فاستقادَ ومثلُها * قادَ القلوبَ الى الصّبا فأمالَها

قال : فأنصت له الناسُ حتى بلغ قولَه .

هل تطمِسُون من السماء نجومَها * بأكفكم أو تستُرون هلالَها
أو تجحدون مَقالةً عن ربكم * جبريلُ بلّغها النبىَّ فقالَها
شهدَتْ من الأنفال آخرُ آيةٍ * تُراثهم فأردتمو إبطالَها

قال : فرأيت المهدىّ قد زحف من صدر مُصَلّاه حتى صار على البساط إعجابا بما سمع، ثم قال : كم هى ؟ قال : مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم .

هذه القصة وأمثالُها وقعتْ لكثير من الأمراء والوزراء الذين عرفوا للشعر منزلته، فاستعانوا به على أغراضهم السياسية، كما كان الأُمَوِيُّون يستعينون به فيها. وحسبُكَ أن نقول لك : إنهم استعملوه فى المفاخرة وفى إثارة العصبية واستحقاق الخلافة، وفى الهجاء

والتحريض ، فقد دخل سديفٌ على عبد الله بن على العباسىّ وعنده جماعةٌ من بنى أميـةَ فأنشده قولَه :

لا يَغُرَّنْكَ ما ترى من أُناسٍ * إن تحتَ الضـلوع داءً دَوِيًّا
فَضَعِ السيفَ وارفعِ السوطَ حتى * لا ترى فوق ظـهرها أُمَوِيًّا

فأمر عبدُ الله فدهبت أرواحهم هباء .

وكثيرا ما كانوا يستشفعون بالشعر والشعراء ويحتالون به على قضاء حاجاتهم، ويُقدِّمونه أمامَهم لمخاطبة الملوك والأمراء عند الغضب، فقد رووا أن الرشيدَ عند رجوعه من حرب الروم أتاه كتاب، وهو فى الطريق، من ملك الروم "نِقْفُور" يفيد نقضَ الصلح الذى عقد معه، فهاب القومُ إخبارَ الرشـيد وامتنعوا عن مكاشـفته، وقدّموا لمكالمته من الشـعراء المحاحَ بن يوسف التيمى واسماعيلَ بن القاسم أبا العتاهيـه وغيرهما ، فأنشـده المحاحُ بن يوسف :

نقض الذى أعطيتَـه نقفورُ * وعليـــه دائرةُ البـوارِ تدورُ
أبشر أميرَ المؤمنين فإنه * غُـنْمٌ أتاك به الاله كبيرُ
فلقد تباشرتِ الرعيَّـةُ أن أتى * بالقص عنه وافدٌ و بشـير
ورَحتْ يمينك أن تُعَجّل غزوةً * تشفى النفوسَ مكانُها مذكورُ
أعطاك جزْيتَـه وطاطأ خدّه * حذر الصوارم والردَى محذورُ
فأجرتَه من وقعها وكأنهـا * بأكفنا شُعْلُ الصرام تطيرُ
وصَرَفْتَ بالطول العساكرَ قافلا * عنـه وحاربك آمِنٌ مَسـرورُ
نقفور إنك حين تغدرُ أن نأى * عنـك الإمام لجاهـلٌ مغرورُ
أظننتَ حين غدرتَ أنك مُفْلِتٌ * هَيْلَتَكَ أُمّكَ ما ظننتَ غُرورُ
ألقاك حَيْنُكَ فى زواخر بحره * فطمَتْ عليك من الإمام بحورُ
إن الإمامَ على اقتسارك قادرٌ * قربت ديارُك أم نأت بك دورُ

ليس الإمامُ وإن عملا عافلا * عما تسوسُ بحرمــه ويُديرُ
ملك تحــرد للجهــاد نفســه * فعــدوّه أبدا به مقهــورُ
يامن يريد رضا الاله بســعيه * واللهُ لا يخفى عليــه صميرُ
لا تصحَ بيعٍ من يَغُشُّ إمامَه * والنصحُ من نصحائه مشكورُ
نُصحُ الإمامِ على الأنام فريضةٌ * ولأهلهــا كفارةٌ وطهــورُ

مكّر الرشيد راجعا فى أشد محنه وأعلطِ كلفة حتى أباح بفنائه، فلم يبرح حتى رضى وبلغ ما أراد . فقال أبو العتاهيه :

ألا نادَتْ هِرَقْلةُ بالخــراب * من الملكِ الموفّقِ بالصــواب
عدا هارونُ يُرْعِدُ بالمنــايا * ويُبرِقُ بالمدكّرة القصاب
ورايات يحــل النصر فيهــا * تنزكأنهــا قِطَعُ السحابِ
أميرَ المؤمنين ظفِرتَ فاسلم * وأبشــر بالغنيمة والإياب

وكان الشعراءُ يلعبون دورًا هامًا فى الحياة الحزبية . وحسبك أن تعلم أن للخلفاء شعراء اختصوا بهم كأبى دلامة، وحمّاد عجرد، وبشار بن بُرْد، ومروان بن أبى حفصة، وسَلْم الخاسر، وأبى نُواس، ومنصور النمرى، وغيرهم . وللبرامكة شعراء أمثال أبان بن عبد الحميد، وابن منادر والرقاشى وغيرهم ، ولسائر الأمراء شــعراء . وهناك شعراء لم يكتسبوا بالشعر كصالح بن عبد القدوس ، وشعراء للشيعة كالسيد الحميرى وسلمان قتــة ودِعبل ، وشعراء لم يحصروا كربيعــة الرقى وكلثوم بن عمرو العتابى وغيرهم . وإنا نحيلك هنا الى ما أثبتناه لك من منظوم العصر العباسى، فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى .

وجماعُ المقالِ أن الشعرَ العباسى قد تضمّن فنونا عديدة، ولكنه لا يحتج به فى اللغــة كالأموى مثــلا ، لأن الّنقدَةَ فى الشعرِ والأدبِ جعلوا حدهم شارًا ولم يتعــدّوه بسبب تفشى اللحن وآستفحال آختلاط الأعجام بالعرب .

على أن الشـعراء العباسيين قـد تفسوا فى أنواعه أيمّا تفنن من قول فى المهاجاة إلى قول فى الأخلاق، إلى مُلَح الى تَصَرُّع، الى وصف، الى هَجْوِ الخلفاء برضاهم الى مدحهم . وعلى الجملة فقـد استعملوه فى كل عرض من أعراض الحياة من مُفاخرة ونحريات وزهريات ورثاء، كما أن منهم من ذكر الوقائعَ العربيةَ فى شعره ؛ فأثرى الشعراءُ وأترفوا . وحسبُكَ أن تعلم أن سَلْماً الخاسرَ حلّف ثروة مقدارها ٥٠,٠٠٠ دينار، ١,٥٠٠,٠٠٠درهم عير الصياع . ومثله مروان بن أبى حفصة وعيرهما . وسكن الشعراء الاطام والقصور ، وآقتنوا الأُنُف الحَسَّانَةَ من الحدائق وشاهقات الدور ، واستخدموا الجوارىَ والغلمان ، وأمعنوا فى شهواتهم ولذاتهم وتنعّموا بحطام الدنيـا ومرافقها، فسَهُلَتْ ألفاظُهم ، ورقّت طباعهم، وقلّ آقتصابُهم، وحاولوا الخروجَ على الطريقة القديمة، وأرادوا أن يستبدلوا الخمرَ وساقِيَها من الدار و بابها . وتقدّم فى ذلك النواسىّ يحمل علمهم فقال .

صِـفَةُ الطَّلولِ بَلاغةُ القُـدْم * فاجعل صفاتِكَ لأبسِـةِ الكرمِ

وقد بالغ فى ذلك حتى سخط الخليفةُ وأخذ عليه ألا يذكرَ الخمرَ فى شعره، فقال :

أَعِرْ شِعْرَكَ الأطلال والمنزلَ القفرَا * فقد طالما أزرى به نعتُك الخمـــرا
دعانى الى نعت الطـــلول مُسَلَّط * تصـيقُ ذِراعى أن أردّ له أمرَا
فسمعًا أمـــيرَ المؤمنين وطاعةً * وإن كنتَ قد حشَّمتَنِى مركبا وعْرَا

ونهج كثيرٌ من الشعراء نهجَ أبى نواس، وركبوا مركبه، وإن كان للطريقة القديمة محبوها حتى الان .

* * *

هذا الترف الذى شمل القومَ، يضاف اليه اختلاطُهم بالأعاجم، وما كان لهم فى ذلك الوقت من حرية فى التصوّر والتفكير، جعلهم يفتحون فى اللغة العربية فتحا جديدا يتناولون فيه أفكار الفرس واليونان، فيُدْخِلونها فى أشعارهم وآثارِهم، وتمتدّ أيديهم الى كثيرٍ من اللفظ الأعجمىّ يصوّرون ما جاد به النعيمُ وما استلزمته الحضارةُ . فيقول أبو نواس فى ذلك :

وذات خـــد مُوَرْدٍ * قُوهيّـــة المتجـــرّدْ
تأمّـــلُ العين منهـا * محاسنًا ليس تنفَـــد
فبعضُها قـــد تناهى * وبعضها يتـــولّد
والحسنُ فى كل عضو * منهـا مُعَـادٌ مُرَدّد

ولم يقفوا عند هذا، بل وصفوا مناظرَ الطبيعة ورغدَ العيش ونعيمَه، وصحبةَ الإخوان وغناءَ القيان، ومصايدَ الوحش والطير، ومجالسَ الأنس والسرور، وتشدعوا كثيراً من المعانى الجديدة، كقول بشار :

يا قَوم أُذْنِى لبعض الحىّ عاشقةً * والأذنُ تَعشقُ قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا تَرَى تَهذى فقلت لهم * الأذنُ كالعين تُوفِى القلبَ ما كانا

وقال أبو تمّام .

وادا أراد الله نشرَ فضيلةٍ * طُوِيَت أتاحَ لها لسانَ حَسود
لولا اشتعالُ النار فيما جاورتْ * ما كان يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُود

بقيت هنالك أمور جديرة بالاهتمام، كان يصح أن نقف عندها قليلا، فقد بالغوا فى الوصف، وفتحوا باب القصص، وتغزلوا بالغلمان، ولكن المقام يضيق عن ذلك .

الكتاب الثالث

عصر المأمون

الفصل الأول

محمد الأمين

توطئة — مولده — نشأته وأخلاقه .

(١) توطئة :

فى التاريخ الأموىّ مأساةٌ مُرَوِّعةٌ ، وهى أن حفدَ الوليد بن يزيد بن عبد الملك قتلوا خليفتهم ، وحزوا رأسَه ، ودهبوا به الى يزيدَ ، فنصبه على رمح وطِيفَ به فى دمشقَ !

كانت تلك المأساةُ المرَوِّعةُ نتيجةَ دعوةٍ سياسيةٍ حادّةٍ ، على الخليفة الوليد الذى تُشبهُ حالتُه السياسيةُ من حلّ وحوهها حالةَ الأمس ؛ فقد كان من محايا نظام ولاية العهد الثنائى ، ذلك بأن والده يزيد بن عبد الملك أراد أن يجعلَه حايمةً بعده ، فاضطر الى توليه أخيه هشام ، ثم ابنه الصغير الوليدِ بعد هشام . فحاول هشام أن يولّى ابنَه مسلمةَ بدل الوليد ، كما حاول يزيدُ من قبل تولية ابنه الوليدِ ، فلم يُفلِحْ هذا ولا ذاك . وكانت النتيجةُ المعقولةُ لخطتهما السياسية : من محاولة كليهما خلعَ ولىّ العهد والبيعةِ لولده ، أن انضم الى كلّ بعضُ القوّاد والزعماء والأنصار ، تأييدا له فيما يريد . وكان هؤلاء القوّادُ والزعماء والأنصار يصبحون موضع المقت والاضطهاد من ولىّ العهد المضطهد متى ولِى الخلافة وصار الأمر

إليه . فاذا ما اصْطُهِدَ الخليفةُ نفسُه وحَبِطت خُطَّتُه كان نصيبُ سيرته من الرواة نصيبَ الوليد بن يزيد، وهو نصيب محمد الأمين .

نريد أن نقول، إرصاءً للعلم والتاريخ والمنطق، أن الرواة اذا قالوا مثلا : إن الوليـد كان كافرا أو كان مجموعةَ قبائحَ ، أو أنه سلّم يوسف الثقفيّ كلا من محمـد وابراهيم ابنى اسمـاعيل المخزوميّ موثقين فى عباءتين ، وأن يوسـف أقامهما للنـاس وحلدهما وعذبهما وأماتهما، أو قالوا : إنه حبس يزيد بن هشام، وفرق بين زَوْج بن الوليـد وبين امرأته، أو ذكروا أنه عذَّبَ خالد بن عبد الله القَسْرىّ سيدَ اليمن وأنه سلمه للثقفىّ فنزع ثيـابه وعذبه مُرَّ العـذاب حتى أماته ، أو وصفوا مُنَاهَسَـه يزيدَ بالنسـك والورع — فإن من واجب المؤرخ المنصف، المتحرى للحقائق التاريخية، والراغب فى الصفة العلمية، والمتمشى فى أناة وروٍ وحكمه مع الافتراضات التحليلية، والخاضع لأحكام المنطق والحيده والتعقل ، أن يبطر بتحفّظ وتحرز كبير، الى مثـل تلك الروايات التى يوصَفُ بها الخليفةُ المصطَهَدُ والمعلوبُ على أمره ، وكل من آشـلّ عرشه وصاع ملكه ، وحُتِمَتْ بالقتـل أو الحرمان حياتُه .

على أنه يجدر بنا أن نتساءل، قبـل أن نقتحم موضوعنا فى هـدوءٍ وسكون : ما هو الروح الذى يعلب على الرواة المعاصرين، والشـعراء المعاصرين، والكتّاب المعـاصرين، والمُحَدِّثِينَ المعاصرين ؟ وما النهج الذى تسلكه الصحافه المعاصره ؟ أليس هو الى حدّ غير قليلٍ، مُناصَرَةَ الحزبِ القوىّ أو الزعيم القـوىّ مناصرةً حارّة قوية حادّة، وقد لا تخلو من مبالغةٍ فى تمدّحها بمحاسنه ، وإعراقٍ فى روايتها على خصمه بنقائصه .

فمهمّة المؤرخ اذاً — حين يَعْرِض لحياة خليفـة مصطهَدٍ انتهت حياته بجزّ رأسـه : مثل حياة الوليـد بن يزيد الأموىّ ، ومحمد الأمين العباسىّ، وحين يعرض لتحليل حيـاة خليفـة منتصر : مثل حياة يزيد حصم الوليد فى العصر الأموىّ، وحياة عـبد الله المأمون حصم محمد الأمين فى العصر العباسىّ — ليست ميسورةً معبّدة بل هى جدّ شائكة .

وقد يكون من الحصافة والنَّصَفة العلمية أن يُعرَض ما يرويه الرواةُ المعاصرون من مَدْح للغالب وانتقاص للمغلوب، على بساط البحث التحليلي . ولسنا نرمي بذلك الى أن نُرفِّع مقولاتهم ونُنتقص بلا حقٍ وجاهةُ رواياتهم ، وإنما نوصي بالحيطة والاحتراس لا أكثر ولا أقل .

* * *

(ب) مولـــــده .

بعد هذه التوطئة الوجيزة التي لم نرَ بُدّاً منها عن إثباتها في هذا الموضع، بدأنا كلمتنا عن محمد الأمين ، من الناحية التحليلية لأخلاقه . أما ناحيةُ النزاع الذي شجر بينه وبين أخيه المأمون، فلها موضعُها التاريخيُّ من كتابنا .

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد، ولد سنة سبعين ومائة هجرية، وهي السنة التي استُخلِف فيها والدُه الرشيدُ . وكان مولده بعد مولد أخيه عبد الله المأمون بستة أشهر . وولِد المأمون في الليلة التي استُخلِف فيها والدُه .

وأم الأمين أم جعفر زبيده بنت جعفر بن المنصور، فهو هاشميّ الأب والأم . وقيل إن ذلك لم يتفق لخليفة عباسيّ غيره .

واذ كان أخوالُه هاشميين ولهم في الدولة بعودٌ قويٌّ وكلمةٌ مسموعةٌ، فقد سَعَوْا، فيما تحدّثنا التاريخ ، حين مَدّ جماعةٌ من بني العباس أعناقَهم الى الخلافة ، الى أن يكون الأمرُ الى ابن أختهم، وقد نجحوا .

سعى خالُ الأمين عيسىٰ بنُ جعفر بن المنصور الى الفضل بن يحيىٰ الذي بعثه الرشيد على رأس جيشٍ الى خراسان، لمحاربة بعض الخارجين على الخلافة، وتسكينِ الاضطراب في تلك النواحي، وقد كان التوفيقُ حليفَه في ذلك الوجه، فقال عيسى للفضل . «أَنشُدُكَ اللهَ لمّا عملتَ في البيعة لابن أخي، فانه ولدك وخلافتُه لك»، ووعده الفضلُ أن يفعل .

فلما كان الفضل بخراسان ، يُدل بما واتاه فيها من ظهور على الخارجين، وهو بعدُ من آل برمك وزراء الرشـيد، وأصحاب السلطان العظيم فى الدولة، بايع لمحمد الأمين هو ومن معـه من القواد والجند ، بعـد أن فرق أموالًا عظيمةً، وأعطى أعطياتٍ كثيرةً . وتغنّى بذلك شعراء العصر، أمثال أبان بن عبد الحميد اللاحقى، والنمرىّ وسَـلْم الخاسر وغيرهم . ولنيان وجهةِ نظرِهم فى البيعه نقتطف لك شيئا ممـا قاله سلم والنمرىّ .

قال سَـلْمٌ :

قـد وفّق اللهُ الخليفةَ إذ بنى * بيتَ الخليفة للهجانِ الأزهرِ
فهو الخليفةُ عن أبيـه وجدّه * شهدا عليـه بمطَرٍ وبحـرَ
قد بايع الثقلان فى مهدِ الهدىٰ * لمحمـد بن زبيده آسه حمير

وقال النمرىّ .

أمسَتْ بمروٍ على التوفيق قد صَفَقَتْ * على يد الفصلِ أيدى العُجْمِ والعربِ
ببيعـةٍ لولىّ العهـد أحكمها * بالنصح منه وبالإشـفاقِ والحـدبِ
قد وَكّد الفصلُ عقدًا لا انتقاضَ له * لمصـطفًى من بنى العبـاس منتخَبِ

فلما تناهى أمر البيعه الى الرشـيد، ووجد نفسَه أمام «الأمر الواقع»، إذ قد بايع لمحمد أهلُ المشرق، بايع له بولاية العهد، وكتب الى الآفاق فبويع له فى جميع الأمصار .

ومن هـذا نعلم ما يصح أن يعتبر سرًّا فى أن الأمين كان ولىّ عهد الرشـيد، دون أن يكون أكبر ولده سنا .

(ج) نشأته وأخلاقه :

تقرأ ما سـطره أمثال "كارليـل" عن "كرومول" و "فردريك الأكبر" وما كتبه "ترڤليان" عن "ماكولى" و "نُزول" عن "جونسـون" و "اللورد مورلى" عن

"جلادستون"، وغيرهم من الكتاب الذين يعرضون لكتابة تاريخ حياة الملوك أو الساسة أو العقريين، فتلاحظ، فى حل كتبهم، وفى الدقيق المستوفى منها على الأخص، أنهم يحملون أيما احتفال، نقيد ملاحظاتهم عن تاريخ بطلهم فى طفولته، وكيف كانت ثقافته فى ميعة شبابه وطراوة إهابه، وما هى الأوابد والغرائب أيام كان حدثاً صغيرا. وقد لاتدهشك متانة "ماكولى" وقوة سكه وارتفاعه الى ذروة اللاعة فى أساليبه، ولا يهولك كثرة ما حفظ ووعى ما اطلع، اذا علمت مثلاً أنه وهو لم يعد السادسة أو السابعة كانت محفوظاته فى طفولته، تبشر بعقريته فى رحوليته. وكذلك يقال عن "شارلس دكنز" وسيع الاطلاع فى صباه على جل ما سطر وكتب، حتى صار فى مقتبل حياته وقد ملك ناصية اللاعة، وتسنم الذروة فى تعرف النفسيات وتحليل روح الطبقات كافة: من بائسين معوزين الى أشراف مترفين. وكذلك يقال عن "سپنسر" الفيلسوف العظيم والمربى البابه الذى كان يحفل فى مبدأ نشأته، وهو لم يعد العاشرة مثلا، بالدوبيات وغريب الهوام التى كانت على شاطىء النهر، فعكف على دراستها، فتولدت فى نفسه صفات الحلد والأناة والمواظبة، حتى أصبحنا نراه، وهو فى شيخوخته، يحرح للناس المعجز المطرب فى علم النفس، وعلم الحياة، وعلم الأخلاق، وعلم التربية، وهكذا مما لا حدّ له ولا حصر. كذلك يقال عن "جوسون" فى صباه، وكيف كان يعالج المرض والمرض يغالبه، وكيف كانت أحاديثه فى مطامعه، وكيف كان سحر بيانه وتدفقه فى مجالسه، وكيف كان أبيًّا عيوفا، مترفعا أنوفا، مرفص فى شمم وإباء حذاءً جديدا اشتراه له من لاحظ تحرق حذائه وقصريده عن جديد. الى آخر ما يقيده كتّاب العصر عن نشأة أبطالهم، مما نمسك القلم عن الاسترسال فى إثبات شبيهه ومثيله، مما يفيد فى تعرف أحوالهم، ويساعد على تفهم حقيقة أمورهم. لأن القارئ اذا زامل الزعيم فى طفولته وصباه، ووقف على عبثه وجدّه، وحلده أو تبرمه، وتعلمه أو تعرّمه، ونشاطه أو خموله، ورزانته أو تبذّله، ووقف كذلك

على نقائصه وفضائله ، وهو حَدَثٌ بعدُ ، يستطيع أن يفهَـمَ فهما صحيحا ، حكمة تصرفاته فى مقتبل حياته ، كما يفهم الصديقُ صديقَه والخِدنُ خِدنَه .

ولنتساءل الآن . هل سَجَّل لنا التاريخ شيئا قيِّما عن نشأة الأمين وطفولته ؟

أظن أنى لا أعدو الحقَّ كثيرا اذا قلت لا ، إذ قلّما يعرض المؤرّخون القـدماءُ لشىء من طفولة العظماءِ ورجال التاريخ .

على أنّا قد وقفنا من طفولة الأمين على شـذرات ليست بذات عنَاء كبير ، نثبتها لك وندرسها معك ، وربمـا ساعدتنا بعض المساعده على تفهم حداثه الأمين ، واستخلاص بعض الحقائق عنه .

يحدّثنا البيهقىّ فى «المحاسن والمساوى» بمـا سلخصه لك خاصا بنشأة الأمين التعلّمية ، لتقف على البِيئَةِ التى كان فيهـا الأمينُ ، ولأن روايتـه ، خصوصا ما جاء عن حُلم زبيدة وفزعها منه ، ممـا رواه المسعودىّ فى " مروجه " أيضا ، قـد تجعلنا نعلل بحقّ أثر الوسط والوراثة فى خَلْق ما كان بالأمين من استعداد لحب الاستحارة ، مما كانت له نتائجهُ السيئةُ ، ولأنه يفهمنا بوجه عام لِمَ كان الأمين فصيحا ، أديبا ، بليغا ، ولِمَ كان عابثا مستهترا ، ولِمَ كان وادعا متهيبا من الدماء ، ولأنه يفسر نشأته فى ترف الخلافة ونعيمها ، ومَرح الحداثة ونهزها ، والاستمتاع بمـال زبيدة والإدلال بهاشميتها !

* * *

أنتَ جِدُّ عَالِم أن الرشـيد جعل الأمينَ فى حِجر الفضل بن يحيى ، والمأمونَ فى حِجْرِ جعفر بن يحيى . وأنت جدّ عالم أن الفضل بن يحيى قال لهشيم بن بشر الواسطى : «ليكن أكثرُما تأحد به ولىّ العهد الأمين تعظيمَ الدماء ، فإنى أُحِبّ أن يُشْرِبَ اللهُ قلبَه الهيبةَ لها ، والعفافَ عن سـفكها » . وأنت حدّ عالم بوصـية الرشـيد للأحمر النحوىّ بأخذ الأمين بالشدّة ، إن لم تنفع الملاينة فى تقويمه . وقد آن لنا أن نترك للأحمر فرصةَ التكلم ، فيروىَ لك ما كان من أمره مع تلميذه الأمين .

يقول الأحمر : «كنت كثيرا ما أشدّد على الأمين فى التأديب، وأمنعه الساعات التى يتفرّغ فيها للهو واللعب، فشكا ذلك الى حالصة — ولعلها كانت كبيرة وصيفات أو أميات القصر الزبيدىّ — فأنتى برسالةٍ من أمّ جعفر تعزم علىّ بالكف عنه، وأنْ أجعلَ له وقتا أُمِّهُ فيه لتوديع بدنه، فقلت : الأمير قد عَظُمَ قدرُه وبَعُدَ صوتُه، وموقعُه من أمير المؤمنين ومكانه من ولاية العهد، لا يحتملان التقصير، ولا يقبل منه الخطلُ، ولا يرضى منه بالزلل فى المنطق، والجهل بالشرائع، والعمى عن الأمور التى فيها قِوامُ السلطان وإحكامُ السياسة، قالت : صدقتَ، غير أنها والدةٌ لا تملك نفسَها ولا تقدر على كفِّ إشفاقها، ومع حذَرِها أمرٌ إن شئت حدّثتُكَ به، فقلتُ : وما ذاك ؟ قالت : حدّثتنى السيدةُ أنها رأت فى الليلة التى حملَتْ فيها به كأن ثلاثَ نسوةٍ دخلنَ عليها، فقعدتْ منهن ثنتان، واحدةٌ عن يمينها، وواحدةٌ عن يسارها، فأمرّتْ إحدى الثلاث يدَها على بطنها، ثم قالت : مَلَكٌ رِبَحْلٌ، عظيم البدن، ثقيل الحمل، سريع الأمر ! وقالت الثانية : ملك قصير العمر، سليم الصدر، منهتك الستر ! وقالت الثالثة : ملك قَصاف، عظيمُ الإتلافِ، يسير الخلافِ، قليلُ الإنصافِ ! فانتهتُ وأنا فزعةٌ فلم أُحِسَّ لهنّ أثرا، حتى كانت الليلة التى وضعته فيها، أتيتنى فى الخَلْق الذى رأيتهنّ فيه، فقَعَدْنَ عند رأسه، وأطْلَعْنَ جميعاً فى وجهه، ثم قالت واحدة منهنّ : شجرةٌ نصرة، وريحانةٌ حيية، وروضةٌ زاهرة، وعينٌ غدقة، قليلٌ لُبْثُها، عَجِلٌ ذهابُها ! وقالت الثانية . سفيهٌ عارم، طالبٌ للغارم، جسورٌ على المخاصم ! وقالت الثالثة : احفروا قبره، وشقوا لحده، وقتروا أكفانه، وأعدّوا جهازَه، فإن موته حير له من حياته ! قالت : فمقيتُ متحيرةً، وبَعَثْتُ الى المنجمين والمعبرين ومن يزجر الطيرَ، فكل يبشرنى بطول عمره، ويعدنى بقاءَه وسعادته، وقلبى يأبى إلا الحذرَ عليه، والتهمةَ لما رأيتُ فى منامى . وبكتْ خالصةُ وقالت : يا أحمرُ وهل يدفعُ الإشفاقُ والحذرُ والاحتراقُ واقعَ القدرِ، أو يقدر أحدٌ على أن يدفعَ عن أحبائه الأحلَ ! . قلتُ : صَدَقْتِ، إن القضاء لا يدفعه شىء» .

ويحدثنا التاريخ أن الرشيدَ اتخذ فيمن اتخذ لتربية الأمين وتعليمه ، قطربًا النحويَّ . وكان حمادُ عجرد يتعشق الأمين، ويطمع أن يتخذه الرشـيد عليه مؤدبا . فلم يتهيأ له ذلك لتهتكه وقبيح ذكره فى النـاس ، وقد كان رام ذلك فلم يُجَبْ اليه . فلمـا سمع أن قطربا قد استوى أمره وأجيب الى ذلك لستره وعفافه ، أخذ حمـادًا المقيمُ المقعِدُ ، حسدا على ما ناله قطرب من ذلك ونلعه من المنزلة الرفيعة والدرجه السنية ، فأخذ رقعـةً وكتب فيها أبياتًا ، ودفعها الى بعض الخـدم ، الذين يقومون على رأس الرشـيد ، وجعل له على ذلك جُعْلًا ، وسأله أن يُودِع الرقعـةَ دواةَ أمير المؤمنين، ففعل . فـما كان بأسرعَ من أن دعا الرشيدُ بالدواه، فاذا فيها رقعةٌ فيها هذه الأبيات :

قل للإمام جزاك الله مغفـرةً * لا يُجْمَعَ الدهرَ بين السَّحْلِ والذيبِ
السَّحْل عِرٌّ وهَـمُّ الديبِ عقلتُـه * والديبُ يعـلم ما بالسَّحْلِ من طيبِ

فلمـا قرأ الرشيدُ الرقعـةَ قال : أُنظروا ألا يكون هذا المعلم لوطيا ! أُنهوه من الدار ؛ فأخرجوه عن تأديب الأمين . قيل : ثم جعل الرشيد على الأمين حراسًا، واتخذ عليه حمادا وكان عليه رقباء سعيين أو ثمـانين !

ربما كان من الحق أن نقول : إن هـذه النشأة كانت لها آثارها السيئة، خصوصا أنا نلاحظ ، أنّ الأمين تنقصُه الدُّرْبةُ السياسية . وأنت تعلم أنّ الدربة السياسية هى ناحية يُؤْبَهُ لها كثيرا، فى تنمية روح الحكم، وتقوية المواهب الإدارية، وتطعيم ملكات السلطان فى ولىّ العهـد، خصوصا ذلك العصر الذى لم تكن فيـه وسائل الثقافة الملكية متوافرة توافرها اليوم : من سياحةٍ لولىّ العهدِ الى الممـالك المتمدينةِ، ووقوفٍ على مبلغ الحضارة العالمية ، كما هى حال ولىّ عهـد انجلترا ونظرائه مثلا ؛ مع أن الحاجة الى الثقافة السياسيةِ فى ذلك العصر كانت أشدَّ منهـا اليوم، لأن الملكَ حين ذاك كان صاحبَ سلطانٍ فعـلىٍ مطلقٍ، غيرَ مقيد بقانونٍ أو دستورٍ إلا ما يرجع الى دينه وورعه .

نريد أن نقول إنه اذا كان نَدْبُ الهادى للرشيد، حين ولاه قياده الجند لحرب الروم، قد أوحد الرشيد فى مركز القيادة العامة، وفيها من الشيوخ المحنكين والقادة المدربين والزعماء المنظمين، مجموعةً صالحة للثقافة السياسية، وفرص تسح، فى الفيئة بعد الفيئة، للرانة السياسيه ولتحريج حليفه مُدَرَّب فى فنون الملك، واذا كان المأمون قد نُدِبَ للحكم فى خراسان وغير خراسان، حتى تكّمت به ظروف الأحوال عن مفاسد مال الخلافة ونعمة ابن زبيدة ودلال الهاشميين — نريد أن نقول إنه اذا كان ذلك كذلك، وكانت هذه هى نتائجُ الدُرْبة السياسية، فمن الميسور أن نفهم معنّه افتقادها، كما أنه من الميسور أن نستنبط أن عنصرًا هاما من عناصر تكوين رجال السياسه والحكم كان ينقص الأمين الذى لم تستطع عاشيته من الخدم و بطانته من الموالى وأحواله من الهاشميين وأساتيذه من المربين، أن يحولوا بينه و بين ما تشتهيه نفسه وتهوى طفولته .

وهل تظن أنهم يستطيعون أن يكرهوه على أن يأخذ نفسه بحزم فى أموره، وسداد فى تصرفه، وقمع لميوله، وتقويم لأعوجاجه، و بما يجعله رجلا كاملا ! أظن لا . وأظن أنك محقٌّ فى نفيك هذا عمن كان فى طرفه و بيئته .

على أنه من العدل والحق، أن نقرر أن الأمين لم يكن بليد الذهن أو ثقيل الظل، بل كان نقيض ذلك على حظٍّ من توقّد الذهن وفصاحة اللسان، وخفة الروح والطل . وحسبك أن ترى شيئًا مما كان يصَحُ به فى مجالس اللهو والمنادمة : من سرعة البديهة، وطرافة النكتة، وحلاوه التندر، ورقة الدعابة، وعذوبة الفكاهة، لتؤمن بما نقول .

وكل ما أجمع عليه المؤرّخون الفرنجةُ «كيبور» وتُمّات دائرة المعارف الاسلامية، واتفقت عليه كلمةُ المؤرّخين العرب جميعا، أنه كان مستهترًا، مُسْرِفًا، مع خَوَرٍ خُلُقٍ، وعدم تبصر فى العواقب، ولا تروٍّ فى مهمات الأمور، مما يرجع فى الواقع الى عدم العناية بثقافته السياسية، كما أسلفنا .

وإنّا محقون اذا ما قررنا أنّه لو وحدَ الأمينُ يدًا حكيمةً تقسو عليه أحيانًا فتفل من شاةِ نفسه العاشةِ المرِحةِ ، وتقوّم اعوجاج حلقه الرحو ، وتقوى سحاياه المسحلة ، وتبعث به الى الحروب ، ليُصْهرَ بلظىٰ أُوارِهَا ، ويَصقلَ من حلادها وسحالها ، ويعيد نفسه من حبرةِ كُماتها ، ودُربة شيوخها ، وحِدَع مدبريها ، وحُطَطِ مُشيريها ، وتوليه حكم صُقع من الأصقاع ، للرانة فيه على معضلات الحكم ومشكلاته ، والاحتكاك بقادته وقُصاته ، إذًا لكان للمأمون منه خصم لا يستهان به ولا تلين قناته لغامز .

على أنّا وإن قلنا إن الأمينَ كان مستهترا ، لا نستطيع مع ذلك أن نستسيغ الخبرَ الذى رواه الطبرى وغيره والذى صرّبه الصحرى مثلا على إهمال الأمين وغفلته وجهله ، إلا بشيء من التحفظ كثيرٍ . وهاك خلاصه الخبر لكى تقدُر معنا ما لهذه الملاحظة من وجاهةٍ وقيمةٍ :

لما اشتدّ الخلافُ بين الأمين والمأمون ، حتى انتهى الى غايته ، أرسل الأمين لمحاربة أخيه جيشا ، لم يُرَ فى عِدادَ قبل ذلك أكثفُ منه ، قِوامُه أربعون ألفا وقيل خمسون ، وزوده بالسلاح الكثيرِ والأموالِ الوافرةِ ، وعلى رأسه شيخ من شيوخ الدولةِ ، حليلُ القدرِ ، مهيبُ الجانبِ ، هو على بن عيسىٰ بن ماهان . وقد خرج معه الأمين الى طاهر المدينة مشيعًا مودّعًا . وكان فى حكم اليقينِ أن الظفرَ سيكون حليفَه ، لكثرة عدده ، ووفرة سلاحه وذخيرته . فلما التقى بجيش طاهر بن الحسين قائد المأمون — وعسكره فى حدود أربعة آلاف — ثم كانت الغلبة لطاهر ، وورد الخبرُ بمعي علىّ بن عيسىٰ الى الأمينِ وهو يصيد ، قال للذى أخبره بذلك : دعنى فإن كوثرًا قد اصطاد سمكتين وأنا الى الآن ما اصطدتُ شيئًا ! وكان كوثرُ هذا خادمًا من الخصْيانِ ، قيل إن الأمين كان يحبه كثيرا .

نقول — ولعلك توافقنا فيما نذهب اليه — إنّا لا نستطيع أن نقبلَ هذا الخبرَ وأمثالَه ، إلا بشيء من التحفظ كثيرٍ . فإن خليفةً يسمع مثل هذا السأ العظيم ويعلم أن وراءه الفصل فى مصير سلطانه ثم لا يأبه له ، لا يكفى أن يوصفَ بالإهمال والجهل ، بل هو جديرٌ بما فوق ذلك ، بالسفه والبلاهة . والسفيه الأبله أولىٰ بالحجر عليه منه بأن يكون ذا سلطانٍ مطلقٍ فى دولةٍ بعيدة الأطراف والنواحى . ومحالٌ على الرشيد الذى عُرِف بالحزم ، وجَوْدَةِ الحَدْس ، والتأنى فى الأمور ، أن يُسيدَ هذا السلطانَ العظيمَ من بعده لسفيهٍ أبلهَ .

لهذا نَميلُ الى الافتراض كثيرا ، بل الى الترجيح ، بأن هذا الخبرَ ، والكثيرَ من أمثاله ، ليس إلا أثراً من آثار الدعوة المأمونية التى كان لها من الأثرِ فى ثلّ عرش الأمين ، وتثبيت سلطان المأمون ، ما لا يقلّ عن أثر عساكر المأمون وحزم قوّاده وحكمة مشيريه .

ويقول "ميور" : إن أهل بغداد قد ندموا ، وأُسقِطَ فى أيدى حسودها ، لفتورهم فى الدفاع عن الأمين وعَدم استبسالهم فى الذود عنه . ويعزو مؤرخُه الأستاذ "ويل" أسباب ندمهم هذا الى سخاء الأمين وإسرافه فيما كان يُغدِقُ عليهم من الأموال والخيرات .

أما أنه كان سخيًّا بل مسرفا فى السخاء فما لا ريب فيه . ومهما افتُرِضَتِ المبالغةُ فيما سنرويه لك نقلا عن المظان الأدبية والمصادر التاريخية ، فإن الصورةَ التى ستقع من نفسك ، مهما جعلتها متواضعةً مقتصدةً — وهذا ما نوصيك به دائما — كافيةٌ للاقتناع بأنه كان سخيا ، بل مسرفا فى السخاء .

يقول الأصفهانىّ فى أغانيه : غنّى ابراهيمُ بن المهدىّ ليلةً محمّدًا الأمين صوتا فى شعر أبى نواس :

يا كثيرَ الوجِ فى الدِّمَنِ * لا عليها بل على السكنِ
سُنّةُ العشاق واحدةٌ * فإذا أحببت فاستكنِ

ظَنّ بى مَنْ قد كَلِفْتُ به ... فهـــو يحمونى على الظَّنَنِ
رشأ لـــولا ملاحتـــه ... حاتِ الدنيا من القتن

فأمر له بثلاثمائة ألف دينار، فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين، قد أحرجتنى الى هـذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم، فقال الأمين : هل هى إلا خراج بعض الكُوَر ! . هكذا ذكر إسحاق .

أما محمدُ بن الحارث فقد روى لنا هذه الحكايةَ عن إبراهيمَ فقال : لما أردتُ الانصرافَ قال : أوقِرُوا رَورَقَ عمّى دنانيرَ ! فانصرفتُ بمالٍ جزيل .

ثم تعالَ ، أرشَدَكَ اللهُ ، لنظرَ معًا فيما يرويه أحدُ المعاصرين ، وهو سعيد بن حميد فإنه يقول .

لما ملك محمد وحّه الى جميع البلدان فى طلب الملهِينَ وصمّهم اليه ، وأجرى عليهم الأرزاقَ ، ونافس فى ابتياع فُرْهِ الدواب وأحدّ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك ، واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقوّاده واستحفّ بهم ، وقسّمَ ما فى بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر ، فى حصيانه وجلسائه ومحدثيه ، وحُمِلَ اليه ما كان فى الرقّه من الجوهر والجرائن والسلاح ، وأمر بناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه ، فقصر الخلد والجزيرانية ، والستان موسىٰ ، وقصر عبدونه ، وقصر المعلى ، ورقة كلوادى ، وباب الأنبار ، وتارى والهوب ، وأمر بعمل خمس حرّاقات فى دجلة ، على حِلْقة الأسد ، والفيل ، والعقاب ، والحية ، والفرس ، وأنفق فى عملها مالًا عظيمًا . فقال أبو نواس يمدحه :

سَخّـــرَ اللهُ للأمين مطايا * لم تُسَـــخّرْ لصاحب المحرابِ
فاذا ما ركابه سِرنَ سرّا * سار فى الماء راكبا ليثَ غابِ
أسدًا باســـطا دراعيه يهوى * أهْرَتَ الشِّدقِ كالح الأنيابِ
لا يعانيه بالمحام ولا السـو * ط ولا عمز رحله فى الركابِ
عجبَ الناسُ إذ رأوك على صو * رة ليثٍ تمرّ مرّ السحاب

سَحّوا إذ رأوك سِرت عَليـه * كيف لو أبصروك فوق العقابِ
ذات رَوْرٍ ومِسر وحاجيـ*ـن تشق العُبابَ بعد العبابِ
تسق الطير فى السماء اذا ما آسـ*ـتعجلوها بحيثـةٍ ودهابِ
بارك اللهُ للأمـير وأبقا * ه وأبقى له رداء الشّـبابِ
ملك تقصر المـدائحُ عنـه * هاشميٌّ موفّقٌ للصـواب

على أنه يصح التساؤل : من أين للخليفة ما يكفيه من الأموال الطائلة، والثروات الوفيرة لسد مطامعه ولإحاطته الى شتى مآربه ؟ .

وإنا نظن أنه يكفيك أن تنظر أيضا ، فيما تنظر اليه من مختلف مصادر المـال : من خراج ربما كان طائلا ، وجبايا هائلة مروّعة ، وموازين عيّنة ، وضرائب مبالغ فى فرضها ، الى باب الاستصفاء وحده وما يجم عنه وعن تكة الوزراء والكبراء . وحبذا لو وُفّق لدراسته بعض الباحثين فى التاريخ الاسلامىّ فهو هام وهو خطير .

ثم انظر ما ذكره الحسين بن الضحاك ، وهو شاعر الأمين كما تعلم ، قال : ابتنى الأميرُ سفينةً عظيمةً أنفق عليها ثلاثةَ آلاف ألف درهم ، واتخذ أخرى على خِلْقَةِ شيء يكون فى البحر يقال له «الدلفين» . فقال فى ذلك أبو نواس :

قد ركب الدلفين بدرُ الدجى * مقتحمًا فى الماء قـد لَجّجَا
فأشرقت دِجلةُ فى حسـنه * وأشرق السُّكانُ واستبهجَا
لم تر عينى مثـلَه مركَبًا * أحسن إن سار وإن أحجَا
اذا استـحثته مجاديفُـه * أسرق فـوقَ الماء أو هملجَا
خصّ به اللهُ الأمينَ الذى * أضحى بتـاج الملك قـد تُوّجَا

ثم لتتدبر معى ما يرويه لنا أحد الأمناء بقصر الرشيد ، وهو حسين خادم الرشـيد ، فإنه يقول : إن الخلافة لما صارتْ الى محمـدٍ هُيِّئَ له منزلٌ من مـنازله على الشط بفرش أجودَ ما يكون من فرش الخلافة وأسواه ، فقال : ياسـيدى ، لم يكن لأبيك فرش يباهى

به الملوك والوفود الذيـــ يردون عليه أحسنَ من هدا، فأحببتُ أن أفرشَه لك؛ قال : فأحببتَ أن يُفـرَشَ لى فى أوّل حلاقتى المـردراج ! ! وقال . مَزّقوه ! قال : فرأيتُ والله الخدمَ الفراشين قد صيروه ممرقا وفزقوه .

وهاك مئات من الشواهد التى يرويها المعاصرون، أمثال محارق المعنى ، وأبى عبادة البحترى عن مشيخته، والعباس بن الفضل بن الربيع، وكوثر وعيرهم ، عن سَرَف الأمين وبدحه ولهوه وعبثه، يصح أن ترجع اليها فى مظانها، وكلها تؤيد صدقَ اللباب والجوهر .

فمن ذلك ما يرويه لنا حميد بن سعيد، من أن محمدا الأمين لمـا ملك، وكاتبه عبد الله المأمون، وأعطاه بيعته، طلب الخصيانَ وآتباعهم، وعالى بهم، وصيرهم لخلوته، فى ليـله ونهاره، وقوام طعامـه وشرابه، وأمره ونهيه، وفرض لهم فرضا، سماهم الجرادية، وفرضًا من الحبشان، سماهم العرابية، وفرض النساء الحرائر والإماء، حتى رمى بهـم، وحتى قال فى ذلك بعضُ شعراء العصر، وقد ذكر أسماء بعضهم وحالَ الأمين معهم .

ألا يا مُزمنَ المشـوى بطوس * عَريبًـا ما يفادَى بالنفوس
لقـــد أبقيتَ للخصيانِ نَعلًا * تَحَمَّـلَ منهمُ شـــؤمَ البَسوس
فأما بوفلٌ فالشأن فيـــه * وفى بدرٍ فيـا لك من خَليس
وما العُصـــميُّ نَشّـارٌ لديه * اذا ذكروا لدى سهم خسيس
وما حَسَنُ الصغيرُ أخسّ حالًا * لديه عنـــد محترق الكؤوس
لهم من عُمْرِهِ شَـطْرٌ وشَـطْرٌ * يعاقرُ فيه شربَ الخَنْدَريس
وما للغانيـاتِ لديه حـــظٌّ . سوى التقطيب بالوجه العبوس
اذا كان الرئيسُ كذا سقيمًا * فكيف صـلاحُنا بعد الرئيس
فلو علمَ المقيمُ بدار طـوس * لَعَزَّ على المقيم بدار طـوس

✦

وفى الحق أن قصف الأمين، وآنهماكه فى لهوه، وعلوه فى عبثه، وآستهتاره فى مرحه، وآشتغالَه بوجه خاص بخدمه، قد جرّ عليه وبالًا كثيرًا، وشرًّا مستطيرًا، ونفّر منه قلوبَ العقلاء من مشايعيه ومناصريه، والأقوياء من مؤيديه وذويه .

من أمثال ذلك ما ذكروه عن العباس بن عبد الله بن جعفر، وهو من رجالات بنى هاشم، جلداً وعقلًا، وصنيعاً، وكان يتخذ الخدمَ، كطبيعة حياة المترفين فى ذلك العصر، قالوا : كان له خادمٌ من آثر خدمه عنده، يقال له منصور، فوجد الخادمُ عليه فهرب الى محمد، وأتاه وهو بقصر أم جعفر المعروف بالقرار، فقبله محمد أحسن قبول، وحظى عنده حُظوةً عجيبة . فركب الخادم يوما، فى جماعة خدم كانوا لمحمد يقال لهم السيافة، فمرّ بباب العباس بن عبدالله، يريد بذلك أن يُرِى خدمَ العباس هيئته وحاله التى هو عليها، وبلغ ذلك الخبر العباس فخرج اليه، وقامت معركة وكادوا يحرقون دار العباس، وقبض الأمين على العباس، وهمّ أن يقتله، لولا وَساطةُ أم جعفر من ناحيه، وآشتغالهُ بخروج الحسين بن علىّ بن ماهان عليه وآنصرامه الى المأمون من ناحية أخرى .

ولموضوع خدم الخليفة وعاشيته، ذوى السلطان، من المقربين والزعماء، والقادة والوزراء، بل الخدم والأمناء، أسوأُ أثرٍ فى تاريخ المدنيه الإسلامية .

✦

وهناك ظاهرة خُلُقيّة فى أخلاق الأمين، وهى حبُّه للاستخارة وآحتفالهُ بالبحث عن أمرٍ طالعه، وركونُه، حتى فى آخر لحظة من حياته وهى لحظة التقرير فى مصيره أيُسَلّم نفسَه الى ظاهر أم الى هرثمة، الى مام رآه . وربما كانت هذه الحلة فيه، من أثر البيئة، كما أسلفنا، أو من روح العصر نفسه، وإن كان آنُ ماهان قائده يحتقرها . وسنرى أن المأمون كان على عكس الأمين لا يحفِلُ فى مهامّ أموره بالاستخارة ووحى الأحلام، بل كان يجعل جلّ اعتماده على مشورة رجالاته وذوى النصيحة من أنصاره .

على أنه ليس معنى ذلك أن الأمينَ لم يكن يستشير ، ولكنه كان فى كل شؤونه يغلبه هواه على وجه الصواب من أمره . وكان لرياء حاشيته وتأثير بطانته فيـه النتيجة السيئة ، فكان لا يعمل بما يدلى به اليه من نصح . وحسبك دليلا على ظهور هذه الحلة فيه ماروَاه عمرو بن حفص مولى محمد ، إذ يقول . «دخلت على محمد فى جوف الليل ، وكنت من خاصته ، أصـل اليه حيث لا يصـل أحدٌ ، من مواليه وحشمه ، فوجدته والشمع بين يديه ، وهو يفكر ، فسلمت عليه ، فلم يردّ علىّ ، فعلمت أنه فى تدبير بعض أموره ، فلم أزَلْ واقفا على رأسه ، حتى مضى أكثرُ الليل ، ثم رفع رأسه الىّ فقال : أحضرنى عبـد الله بن حازم ، فمضيت الى عبد الله فأحضرته ، فلم يزل فى مناظرته ، حتى انقضى الليلُ . فسمعت عبد الله وهو يقول . « أنشُدُكَ اللهَ يا أمير المؤمنين ! أن تكون أول الخلفاء نكث عهده ، ونقض ميثاقه ، واستخف بيمينه ، وردّ رأى الخليفة قبله . » فقال : « اسكت لله أبوك ! فعبدُ الله كان أفضلَ منك رأيا وأكمَلَ نظرا ، حيث يقول : لا يجتمع لخلاف فى همه » . ثم جمع وجوه القوّاد ، فكان يعرض عليهم واحدًا واحدًا ما اعتزمه بيأبونه ، وربما ساعده قوم ، حتى بلغ الى حريمه بن حازم ، فشاوره فى ذلك ، فقال : « يا أمير المؤمنين لم ينصحك مَنْ كَذَبك ، ولم يغشك من صَدَقك ، لا تُحَرِّئ القوّاد على الخلع فيخلعوك ، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك ، فإن الغادر مخذول ، والناكث مفلول ! » .

ولكن الأمين — كما قلنا — كان هواه يعمّى عليه وجه الصواب من أمره ، وكان واقعا تحت سلطان الفضل بن الربيع وعلى بن عيسى بن ماهان وغيرهما من بطانته ، وهم الذين كان رياؤهم سما زعافًا ، ونفاقهم وباء فتاكًا ، ولين كلامهم حسكا وقتادًا ، والذين لم يخلصوا لمليكهم أو بلادهم ، فيما يدلون به من الآراء ، وما يقدّمونه من النصائح ، وإنما يخلصون لعاجل مصلحتهم ، فزينوا له نكثَ العهد ، وسهّلوا له أمره ، حتى أقدم عليه ، وكان ما كانَ من النزاع على ما سنصفه لك فى بابه .

على أنّا لا نعنى بما ذكرناه لك الآن ، أن الأمين كان بليد الذهن ، وإنما عنى أنه كان ضعيف الإرادة ، عديم الدُّرْبة . ونكرر لك هنا ما أسلفنا قوله لك : من اعتقادنا بتوقد ذهنه ، وفصاحة لسانه ، ونمرر أيضا ، إحقاقاً للحق وإنصافاً للتاريخ ، أنه كان بليغا ، متعهدًا ، الى حدّ غير قليل ، قوّادَه بالنصح والرأى ، فقد ذكر أحدُ معاصريه ، وهو عمرو ابن سعيد ، أن محمدا الأمين لما حار باب خراسان ترجَّل وأقبل يوصى علىّ بن عيسى بن ماهان : «امنع جندك من العبث بالرعية ، والغارة على أهل القرى ، وقطع الشجر ، وانتهاك النساء ، وولِّ الرىَّ يحيى بن على ، وآضمم اليه جندًا كثيفًا ، ومُرْه ليدفع الى جنده أرزاقهم مما يجىء من خراجها . وولِّ كلَّ كورة ترحل عنها رجلًا من أصحابك . ومن جرح اليك من جند أهل خراسان ووجوهها فأظهر إكرامه ، وأحسن جائزته ، ولا تعاقب أحًا بأخيه ، وضَعْ عن أهل خراسان ربع الخراج ، ولا تؤمن أحدًا رماك بسهم ، أو طعن فى أصحابك برمح» .

ولم تكن هذه الوصيةُ هى الوصيةَ الوحيدةَ للأمين فنقول : فلتةٌ من عابث ، فإن هناك ثانيةً وثالثةً وهلمَّ جرّا . وها هو ذا أحمد بن مزيد أحد قوّاده يخبرنا أنه لما أراد الشخوصَ فى مهمته ، دخل على محمد الأمين فقال : أوصنى أكرم الله أمير المؤمنين ! ؛ فقال : «أوصيك بخصال عدّه : إياك والبغىَ ، فإنه عِقَال الدهر ، ولا تُقدم رِجْلًا إلا باستحارة ، ولا تشهر سيفًا إلا بعد إعذار ، ومهما قدرت عليه بالليل ، فلا تتعدّه الى الخرق والشر ، وأحسن مصاحبةَ مَنْ معك من الجند ، وطالعنى بأخبارك فى كل يوم ، ولا تخاطر بنفسك طلب الزلفة عندى ، ولا تستَقْها فيما تخاف رجوعه علىّ ...» الى آخر نصيحته .

ومن العدل أن نقرر أيضا أنه كان الى آخر لحظةٍ من حياته محاولًا الاستبسارَ ، باذلًا مقدورَه فى الحرب ، ولكن عبثه ولهوه كانا يقعدان به .

وكان طيبَ القلبِ ، يعفو حتى عن الخارجين عليه ، والمسيئين اليه . وإن موقفه مع حسين بن على بن ماهان لمعروف مشهور . وكذلك موقفه مع أسد بن يزيد أحد قادته ، حينما طلب اليه أن يدفع له ولدى عبد الله المأمون ليكونا أسيرين فى يده ، فإن أعطاه المأمون

الطاعةَ فيها، وإلا عمل فيهما بحكمه وأنفذ فيهما امرَه! فقال له الأمين : « أنت أعرابيّ مجنون، أدعوك الى ولاء أعنة العرب والعجم، وأطعمك خراج كور الجبال الى خراسان، وأرفع منزلتك عن بطرائك، من أساء القوّاد والملوك، وتدعونى الى قتل ولدىّ، وسفك دماء أهل بيتى! إن هذا لخرقٌ والتخليط ! ! »

هذا الموقف النبيل، دليلٌ على سلامةِ طَويّته، وطُهْرِ سَجيَّته . ولكنَّ حظَّه الخالك، وبخته الأفل، ورياء مشيريه، وضعف إرادته، وحور عزيمته، ولهوه وعبثه، ونصيب المغلوب من الدعوه عليه، والحملة الموجهه اليه، قد صرت بحِرَانها على سيرته، فادا بها شوهاء مُرْدِيةٌ، واذا بها مقبحةٌ مُسفره، حتى قيل فيه ما قيل مما يجدر بنا ألا نحلى كتابا من إثبات بعضـــه .

جاء فى الجزء السادس من كتاب بغداد لأحمد بن أبى طاهر طيفور : « قال المأمون لطاهر بن الحسين : يا أبا الطيب! صف لى أخلاقَ المخلوع، قال : كان يا أمير المؤمنين واسعَ الطرب، ضيقَ الأدب، يبيع نفسَه ما تَعافُه همم ذوى الأقدار! قال : فكيف كانت حروبه ؟ قال : كان يجمع الكتائبَ ويفُضُّها بسوء التدبير، قال : فكيف كنتم له ؟ قال : كنا أُسْدا تبيت وفى أشداقها أعناقُ الناكثين، وتصبح وفى صدورها قلوب المارقين، قال : أما إنه أوّل من يؤخذ بدمه يوم القيامة ثلاثة، لست أنا ولا أنت راسهم ولا حامسهم، وهم الفَضْل بن الرَّبيع، وبَكْر بن المُعْتمِر، والسِّنْدىّ بن شَاهَك ! هم والله ثأر أخى وعندهم دمه ...! » .

وقال المسعودى فى التنبيه والإشراف : « إن الأمين كان باسطًا يدَه بالعطاء، قبيحَ السيرةِ، صعيفَ الرأيِ، سفاكًا للدماء، يركبُ هواه، ويُهمِل أمرَه، ويتكل فى جليلات الخطوب على غيره، ويثق بمن لا ينصحه، واستوزر الفضل بن الربيع، الى أن استتر الفضلُ لما تَبَيَّنَ من اختلال أمر محمد، ووهى أمره، فقام بوزارته من حمير من كتابه كإسماعيل بن صبيح، وعلب عليه عدّة من الأولياء منهم علىّ بن عيسى، والسندىّ

ابن شاهك، وسليمان بن أبي جعفر المنصور» . وقال غيره: «إنه كان كثيرَ اللهوِ واللعب، منقطعًا الى ذلك مشتغلًا به، عن تدبيرِ مملكته .

ويقول ابنُ الأثير . «لم يحد للأمين شيئًا من سيرته، نستحسنُه فنذكرُه» . وهذا حقٌّ في جملته عن الأمين كمدبِّر مملكةٍ وخليفة ؛ فإن فتًى عِرّا، لم يُثقَّف الثقافة السياسية اللازمة، ثم يصبح ذا سلطانٍ مُطْلَقٍ، في ملكٍ كبيرٍ يشمع ذوى المطامع النهمة، ثم تحوطه حاشيةٌ من الدهاةِ، ذوى المطامع الواسعه، والأعراض الكبيرة : كالفضل بن الربيع، الذى أفسد ما بينه وبين أخيه، وبكر بن المعتمر الذى زَيَّنَ له حَلْعَه، ثم هو فوق ذلك، يصرف الى حدٍّ كبيرٍ، عن معالجه تدبيرِ الملكِ، الى اللهوِ، والى اللهوِ بكل ألوانه وضروبه، فقد ذكر الطبرىّ في حوادث سنة ثلاث وتسعين ومائة عن عليّ بن إسحاق أحد معاصريه : أنه لما أفضت الخلافة الى محمد ، وهدأ الناسُ ببغداد، أصبح صبيحة السبت، بعد بيعته يوم، فأمر بناء ميدانٍ حول قصر أبي جعفر في المدينة للصوالجة واللعب، فقال في ذلك شاعرٌ من أهل بغداد :

بَنَى أميرُ اللهِ مَيدانا * وصَيَّر الساحةَ بُستانا

وكانت العِزلانُ فيه نَاَى * يُهدَى اليه فيه عِزلانا

نقول إن مثل هذا الفتى الذى يولى وجهَه منذ الساعة الأولى الى مثل هذه الشؤون التى كان يجدر به ومن كان في مكانه ألا تكون صاحبةَ النصيبِ الأوّلِ من عنايته واهتمامه، حليق ألا يجدَ المؤرّخُ له عملًا صالحًا في شأنٍ من شؤونِ الدولة، وقمينٌ، على ذلك أن يكون موضعَ استغلال كبير للدعوة المأمونية .

وقال عير ابن الأثير : «كان الأمين فصيحًا بليغًا كريمًا» . وكيف لا يكون تلميذُ الأحمرِ والكسائىّ وقطربٍ وحمادٍ وغيرهم من فحول اللغة وجهابذة البيان وأساتذة الأدب من منثور ومنظوم فصيحا بليغا ! .

على أنه من الحق والعدل، أن نقرر أيضا ، أن هذه الصفاتِ، تكاد تكون من سجايا كل ناجم من هذه الأسرة الباسقة الفيحاء . ومن أجل هذا، دهمنا الى ما ذهبنا اليه، من

أن الأمين لم يكن كما صوّروه لنا من البلَه والسُخف، ومن الخمول والبلادة . ومحالٌ أن يكون كذلك، وتصرّفاته فى بعض شؤون الدولة على ما وصفنا . ومحالٌ أن يكون بليـدًا بفطرته واستعداده، أو جاهلا عبيًّا، لأنه فى الدروة من الهاشمية . وأنت تعلم مقدارَ اهتمام الخلفاء العباسيين، والأمراء الهـاشميين، بالثقافة الأدبيـة، كما بدا لك ذلك فى كلمتنا عن الحياة الأدبية والعلمية فى العصر العباسىّ . وإنما طروفُ حياة الأمين، والبيئةُ التى أحاطت به، وما الى ذلك ممـا فصلناه لك، جعلت صورةَ الأمين كما أراناها التاريخ، ثم هى فى الوقت نفسه حنحت به الى الاستهتارِ والى العبثِ والمجانة .

وقد يكون أحسنَ ما نختتم به كلمتنا عن تحليل الأمين وسيرته، وأصـدقَ وصفٍ له، ما ذكره الفضل بن الربيع، وزيره ووزير أبيه من قبله، والذى سنعرض لشىء من دقيق تصرّفاته، وحكيم تدبيراته، عنـد ما نعرض لتفصـيل النزاع بين الأمين والمأمون، فهـذا الوصف ربمـا كان أقلَّ تحاملا من غيره على الأمين، وربما كان خيرًا من سواه فى تصوير الأمين وتحليل أخلاقه ونفسيته .

ذكر الطبرىّ: «أن أسد بن يزيد بن مزيد حدثه أن الفضل بن الربيع بعث اليه بعد مقتل عبد الرحمن بن جبلة الأنبارىّ، قال: فأتيته، فلما دخلتُ عليه، وجدته قاعدًا فى صحن داره، وفى يده رقعةٌ قد قرأها، وآحمرّت عيناه، واشتدّ غضبُه، وهو يقول بيام يوم الطِّرِمّاح، لا يفكر فى زوالِ نعمةٍ، ولا يتروّى فى إمضاء رأيٍ ولا مكيدةٍ، قد ألهاه كأسُه، وشغله قدحُه، فهو يجرى فى لهوه، والأيام تسرع فى هلاكه، قد شمّر عبدُ الله له عن ساقه، وفوّق له أَصْيبَ أسهمه، يرميه على بعـد الدار بالحتف البافد والموت القاصد، قد عنّى له المنايا على متون الخيل، وناط له البلاءَ فى أسنة الرماح وشِفار السيوف، ثم استرجع وتمثل بشعر البَعيث :

وَمُجْـدِلَةٍ حَدْلِ العِنانِ خريدَةٍ * لهـا شَعَرٌ جَعْدٌ وَوَجْهٌ مُقَسَّمُ
وثغـرٌ بَقٌ اللونِ عذبٌ مَذَاقُه * تُضِيءُ له الظلماءُ ساعةَ يَبْسِمُ

وثديانِ كالحُقَّيْنِ والبطنُ ضامرٌ ـ خميصٌ وحُمْرٌ نارُهُ تتضرّمُ
لَهَوْتُ بها ليلَ التمامِ ابنَ خالدٍ على مَرْوِ الرُّودِ عيطًا تحرّمُ
أظلُّ أُناعيها ونحتَ ابي حالدٍ أميةَ نَهْدُ المَرْكَلَيْنِ عَثَمْثَمُ
طواها طِرادُ الخيلِ في كلِّ غارةٍ * لها عارضٌ فيه الأسنةُ تُرزَمُ
يُقارعُ أترابَ ابي حاقانَ لَيْلَهُ * الى أن يُرى الإصباحُ لا يَتَلعثمُ
فيُصبِحُ من طُولِ الطِّرادِ وجسمُهُ * نحيلٌ وأُضحِي في النعيم أُصَمَّمُ
فشتّانَ ما بيني وبينَ ابي حالدٍ * أميّةَ في الرِّزقِ الذي اللهُ قاسِمُ

م التفت إليّ فقال : « يا أبا الحارث، إنا وإياك لنجرى الى غايةٍ، إن قصرنا عنها دُمنا، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا، وإنما نحن شعب من أصل، إن قوى قوينا، وإن ضعف ضعفنا؛ إن هذا قد أُلقِيَ بيده، إلقاء الأمة الوَكْعاء، يشاور النساء ويعترم على الرؤيا، وقد أمكن بمسامعه ما معه من أهل اللهو والخسارة، فهم يَعِدونه الطفرَ، ويُمنّونه عُقَبَ الأيام، والهلاكُ أسرع اليه من السيل الى قِيعَان الرمل . وقد خشيت والله أن نهلك بهلاكه ونعطَبَ بعطبه ! » .

الفصل الثانى

المـأمون

توطئـــة — مـــولده — نشـــأته وأخلاقه .

(أ) توطئـــــة :

لننتقل الآن الى حداثة المأمون ، ولنتـبع فى دراستنا له نفس الطريقـه التى ترسّمناها حين دراستنا لحداثة الأمين، فنتكلم عن مولده، كما نتكلم عن نشأته وأخلاقه، محاولين أن نجمع شتات المعلومات التاريخيـه فى هذا الصـدد، وأن ننظر فيها نظرة تفهمٍ واستيعاب وإمعانٍ ومقارنةٍ وموازنةٍ بمـا يقتضيه المقام من إجمالٍ وإيجاز .

(ب) مولـــــده :

ولد عبد الله المأمون، لأربع عشره ليلة خلت من شهر ربيع الأول، سنة سبعين ومائة هجرية، وهى التى استحلف فيها الرشيدُ، فلما بُشِّرَ بمولده سرّ به سروراً عظيماً، وسماه المأمون تيمّنا بذلك . وأمه أم ولد بادغشيه تسمى «مَرَاجل» و يقال : إنها تمتُّ الى أسرةٍ عريقةٍ فى المجد من الأسر الفارسية .

نشأ المأمون فى حجرِ الخلافه وتهيأ له من وسائل التربيةِ والتثقيف ما لم يتهيأ إلا لأخيه الأمين . وكانت ظاهرةً عليه مخايلُ النجابةِ والذكاءِ و بعدِ الهمةِ والتعـالى بنفسه عن سفسافِ الأمورِ .

ومع كبر سنّ المأمون، وظهورِ هـذه الخلال فيه، وثقةِ الرشيدِ به، ومحبته له لم يُتَحْ له ما أُتيحَ للأمين، من البيعة بولاية العهد؛ إذ كان لأم الأمين من المكانةِ لدى الرشيد، وهى زوجه، ما لم يكن لأم المأمون . وقد سبق أن بينا لك، فى كلامنا على الأمين، ما قام به أخوالُه من المسعى الموفّقِ، فى أن يكون أمرُ الدولة من بعد الرشيد، لأبن أختهم،

وما قام به الفضل بن يحيى فى خراسان : من البيعة للأمين بولاية العهد، حتى أصبح الرشيدُ أمامَ الأمر الواقع، فأعلن بولاية العهد للأمين راضياً أو مُكْرَهًا .

(ج) نشأته وأخلاقه :

وكّل الرشيدُ بكفالة المأمون، والنظر فى شؤونه، ومراقب أحواله، جعفرَ بن يحيى وزيره، كما جعل الأمينَ، فى كفالة الفضل أخى جعفر . ونحن نحس، عند ذكر كفالة الفضل للأمين، إحساسًا قد لا يعدو الواقعَ كثيرا، أن بين هذه الكفالة، وبين إعلان الفضل، بولاية العهد للأمين فى خراسان، صلةً .

فلما نما المأمونُ وترعرع، أحد المؤرخون يذكرون لنا من مظاهر نجابته وحزمه، وتقديره لنفسه وللناس، ومعرفته بمن كانت أهواؤهم معه أو عليه، ووقوفه على ما يجرى حولَه من شؤون وأحوال، مما سنقصّه عليك، ما ينبئ بما سيكون لهذا الغلام من شأن عظيم .

ولعل أظهرَ ما يدل على نجابة المأمون فى صباه ما يقصّه علينا التاريخُ عن أبى محمد اليزيدى مؤدّبه الذى يقول « كنت أؤدّب المأمونَ، وهو فى كفالة سعيد الجوهرىّ، فجئت دارَ الخلافة، وسعيدٌ قادمٌ اليها، فوجهنى الى المأمون بعضَ خدمه يعلمه بمكانى، فأبطأ علىّ، ثم وجهتُ آخرَ فأبطأ، فقلت لسعيد : إن هذا الفتى ربما تشاغل بالبطالة وتأخر، فقال : أجل ! ومع هذا فانه اذا فارقك تَعرّم(١) على خدمه، ولقوا منه أذًى شديدًا، فقوّمه بالأدب . فلما خرج تناولته ببعض التأديب، فانه ليدلُكُ عينيه من البكاء، إذ قيل : جعفر بن يحيى الوزير قد أقبل، فأخذ منديلًا فمسح عينيه وجمع ثيابه، وقام الى فراشه فقعد عليه متربعًا، ثم قال : ليدْخلْ . فقمت عن المجلس، وخِفْتُ أن يشكونى اليه، فألقى منه ما أكره . قال : فأقبل عليه بوجهه وحدّثه حتى أضحكه، وضحك اليه . فلما هَمّ بالحركة، دعا المأمونُ بدابة جعفر ودعا غلمانَه فسَعَوْا بين يديه، ثم سأل عنى فجئت، فقال : حُذْ علىّ بقية حِزْبى ! فقلت : أيها الأمير، أطال الله بقاءك ! لقد خِفْتُ أن تشكونى الى جعفر

(١) أصابهم شراسة وأذى .

ابن يحيى، ولو فعلت لتنكّر لى، فقال تُرانى يا أبا محمد كنت أطلع الرشيد على هذه ! فكيف بجعفر بن يحيى حتى أطلعه على أنى أحتاج الى أدب ' حد فى أمرك، عافاك الله ! فقد خطر ببالك ما لا تراه أبدا، ولو عدتَ الى تأدبى مائة مرة !

وكذلك مما يدل على ذكاء المأمون، ونفوذ بصيرته، وأصالته وحصافته، مدّ نعومه أظفاره، وميْعَةِ صباه، ما يحكى من أن أم جعفر عاتبت الرشيد، فى تفريطه للمأمون، دون الأمين ولدها، فدعا خادماً وقال له : وَجِّهْ الى الأمين والمأمون خادماً، يقول لكل واحد منهما على الحلوة ما تفعل اذا أفضت الخلافةُ اليك " فأما الأمين فقال للخادم : أُقطِعُكَ وأُعطيكَ، وأما المأمون فانه قام الى الخادم بدواة كانت بين يديه وقال . أتسألنى عما أفعلُ لك يوم تموت أمير المؤمنين وخليفةُ رب العالمين ' إنى لأرجو أن تكون جميعا فداءً له ! فقال الرشيدُ لأم جعفر . كيف تَرَيْنَ" فسكتت عن الجواب .

وأعدلُ الشواهد على تقدير هذا العلاء لنفسه، كأمير وآبى خليفة، وشعوره بما له من منزلة اجتماعية خاصة، وبما يسعى أن يكون له، فى نفوس الناس من إجلال واحترام، وما يجب لمثله، فى آداب التحية وحسن الخطاب، ما حَفَّه به الحسنَ اللؤلؤى، وهو الذى اتخذه الرشيد مؤدّبا للأمون، بعد أبى محمد البربدى، حين كان يطارحُهُ شيئاً من الفقه، وأحدث المأمونَ سِنُّ من اليوم، فقال له اللؤلؤى": بمَ أنها الأمير" فقال المأمون: سوق" ورب الكعبة حدوا بنا ! فجاء الغلمان فأقاموه . فلما بلغ الرشيدَ ماصنع قال متمثلا :

وهل يُنْبِتُ الخَطِّىَّ إلا وشِيجُهُ ، وتُغْرَسُ إلا فى منابتها النخلُ

ويحدّثنا التاريخ أيضا عن المأمون صبيا، أن الرقاشى" مجاه حين مدح الأمين بقوله :

لم تلده أمــهُ تعـــرف فى السوق التجارا
لا ولا حـــدّ ولا حا * ك ولا فى الحزى حارا

يعرّض بالمأمون، لأن الرشيد كان قد حدّه فى حارية أو فى خمر .

ومهما يكن من شىء، فى صبا المأمون، فقد كانت ظاهرةً فيه، مخايل النجابة والذكاء والحزم، وحسن التدبير وجَوْدة الحَدْس، والطموح الى الكمال ..

وقد يحمد الذين يدهمون ، الى أن فى تلقيح الأحساس بحسيًا للوع ، محمةً طاهرةً فى المأمون لمدهمهم ، إذ لا تُعوِزُهم الوسيلةُ فى أن يرجعوا نجاته الى أنه من أمٍّ فارسيةٍ وأب عربىّ ، أو بعباره أخرى . الى أنه قد جمع بين الدم الآرىّ والدم (١) السامىّ .

هذه المحاولُ حبته الى الرشيد ، وجعلته يقدره قدْره ، يجعله ولىَّ عهد الخلافة بعد أخيه الأمين ، وجمعت حولَه طائفةً من ذوى الهمم الشماء الذين توسموا فيه محققا لأطماعهم الواسعه .

ومن أظهر هؤلاء الذين التفوا حوله ، لتحقيق مطامعهم ، الفضلُ بن سهل الذى اتحد يحيى بن خالد البرمكى وسيلةً الى الرشيد ، فى أن يكون فى خدمه المأمون . وحسبك أن تعلم من أمر الفضل هذا ، أنه القائل حين سئل عن السعاده : إنها أمر حائر وكلمه ناقده ! . وأنه الذى قال لمؤدب المأمون يومًا فى أيام الرشيد : إن المأمون لجميلُ الرأى فيك ، وإنى لا أستبعد أن تحصل لك من جهته ألف ألف درهم ، فاعناط من ذلك وقال له : ألك علىّ حقدٌ ! ألى اليك إساءةُ ! فقال المؤدب . لاوالله ماقلت هذا إلا محبةً لك ! فقال : أتقول لى . إنك تحصل منه ألف ألف درهم ! والله ماصحبته لأكتسب مالا قلّ أو جلّ ، ولكن صحبته ليمضىَ حكمُ حاتمى هذا فى الشرق والعرب ! قال . فوالله ما طالت المدّه حتى بلغ ما أمل .

حسبك أن تذكر لك هذا ، من أمر الفضل بن سهل ، لتعلم ما لهذا الرجل من همم وثابه ، وعزم مرهفه مضّاءه ، ومطالع واسعه . وحسبك أن تذكر لك ما وصفه به أحد معاصريه وهو إبراهيم بن العباس لتقدر الرجل وتقدر كفايته . قال

بمضى الأمور على بدهتـــه * ونزيه فكرتُه عواقبها
فيطل يُصْدِرُها ويوردُها فعْمٌ حاضرُها وعائبها

(١) كتب أستاذنا الشيخ عبدالوهاب النجار عن هذا ما نصه « كذلك كان الرشيد ، كان يجمع بين الدم الآرى والدم السامى . فهل التحسين يجمع فى الطفله الأولى فقط و يفسد فى الثانية ؟ ومع هذا فان جورتاف لوبون يخالف هذا الرأى على اطلاقه و يقول إن أمة كل أفرادها مولدون لاساس و يعلل ذلك بتضارب السجايا والخصال والعقائد التى يرثها من أبويه واصطراعها فى نفسه » .

واذا ألمّتْ صـعبةٌ عَظُمَتْ * فيهـا الرَّزِيَّة كان صاحبَهـا
المستقلُّ بهـا وقـد رَسَبَتْ ولَوَتْ عـلى الأيام جانبهـا
وَعَدَلْتَهَـا بالحق فاعتـدلتْ * وَوَسِـعْتَ راعَهـا وراهبَها
واذا الحُرُوبُ بَدَتْ بَعَثْتَ لها * رأيًا تَفُـلّ به كَتَائبَهـا
رَأيًا اذا نَبَتِ السيوفُ مضى . عزمٌ بها فَشَـفَى مصاربَهـا
واذا الخطوب تأَلَّبَتْ وَرَسَتْ * هـدّت فواصِـلُه نوائبَهـا
وادا جَرَتْ بصـميره يَدُهُ أَبْدَتْ به الدنيـا مناقبَهـا

يقول الفحرى قالوا لمـا رأى رأى الفضل بن سهل نجـابة المأمون فى صباه، ونظر فى طالعه ، وكان خبيرا بعـلم النجوم ، فدلته النجوم على أنه سيصير خليفه ، لزم ناحيتـه وخدمه ودبَّر أموره، حتى أفضت الخلافةُ اليه فاستوزره .

وسواء أكان مرجع اتصاله بالمأمون، الى خبرته بالنجوم، أم الى جَوْدَةِ حَدْسه، فقد اتصـل بالمأمون وهو صبيّ، وكان الحاملُ له على أن يكون فى خدمته تحقيقَ آمال كبار، رأى بكياسته وحدقه فى نجابة المأمون خبرَ كفيل بتحقيقها .

ولقد كان اسـتعداد المأمون الفطرى مدد نشأته أن يكون رجلَ جماعه، وقائدَ أمة ، إذ قد حَبَته الطبيعةُ فيما حبته من شتى المواهب موهبة الخطابة والتبرز فيها . فقـد أخبرنا محمـد بن العباس اليزيدى قال حدّثنى عمى عبد الله وأخى أحمد قالا : لمـا بلغ المأمونُ وصار فى حدّ الرجال ، أمرنا الرشـيدُ أن نعمل له خطبةً يقوم بهـا يومَ الجمعه ، ففعلنا له خطبتَه المشهورةَ ، وكان جهيرَ الصوت ، حسنَ اللهجه . فلمـا خطب بها رَقَّتْ له قلوبُ النـاس، وأبكى مَن سمعه، فقال أبو محمد اليزيدى يمدح المأمون :

لِتَهْنِ أميرَ المؤمنينَ كرامةٌ . عَلَيْـهِ بهـا شُـكْرُ الإلهِ وُحُوبُ
بأنَّ وَلِىَّ العهـدِ مأمونَ هاشِم * بَدَا فَضْـلُه إذ قام وهوَ خطيبُ
ولمَّـا رماهُ الناسُ من كل جانبٍ * بأبصـارِهم والعُودُ منـه صَليبُ

رَمَاهُمْ بِقَوْلٍ أصمتُوا عَجَمًا له * وفى دُونِهِ للسَّامعينَ عجيبُ
ولمَّا وَعَتْ آذانُهُم ما أتى بِهِ * أنابَتْ ورقّت عِندَ ذاك قُلُوب
فأبكى عيونَ الناسِ أبلغُ واعظٍ * أعَزُّ بِطَاحِيُّ النِّجارِ نَجيبُ
مَهِيبٌ عليه للوقارِ سكينةٌ * حرىءُ جَنَانٍ لا أكَعُّ هَيُوب
ولا واجِفٌ هوى المابر قلبُه * اذا ما اعترى قلبَ النَّجيبِ وَجِيبُ
اذا ماعلا المأمونُ أعوادَ مِنْبَرٍ * فليسَ له فى العالَمِين ضَريبُ
تصدّع عنه الناسُ وهو حديثُهُم * تحدَّثَ عنهُ بازِحٌ وقريبُ
شبيهُ أميرِ المؤمنينَ حَرَامَةً * اذا وَرَدَتْ يومًا عليه خُطُوبُ
اذا طاب أصلٌ فى عروقٍ مِشَاجِهِ * فأعصَانُهُ مِنْ طيبِهِ ستطيبُ
فقل لأميرِ المؤمنينَ الذى به * يُقَدَّمُ عندُ اللهِ فهو أديبُ
كأن لم تَعِب عن بلدةٍ كان واليا * عليها ولا التدبيرُ منك يغيبُ
تَتَبَّعَ ما يُرضيكَ فى كل أمرِهِ * فسيرتُهُ شخصٌ اليك حبيبُ
وَرِثتُم بنى العباس إرثَ محمدٍ * فليس لحىٍّ فى التُّراثِ نصيبُ

فلما وصلت هذه الأبيات الى الرشيد أمر لأبى محمد بخمسين ألف درهم ، ولابنه محمد ابن أبى محمد بمثلها .

* * *

« وبعد » فليس مِنْ شكٍّ فى نحابة المأمون وتبرزه . ولعل هذه النحابة الخارقة ، كانت من الأسباب التى حملت الرشيدَ ، على أن يستوثق له الأمرَ فى ولاية العهد من أخيه ، ولأخيه منه ، بجمعهما فى بيت الله الحرام ، حين حج عام ست وثمانين ومائة ، ومعه كبارُ رجال الدوله ، وحلّ الطاهريين من الأسرة المالكة ، واستكتب كليهما عهدًا بما له وعليه قِبَلَ الآخر ، وأشهد عليهما جماعةً من ذوى المكانة والنهود ، ثم عَلَّقَ العهدين فى الكعبة ، ليكونا فى مكان الاحترام الدينى . وقد أثبتنا لك العهدين فى باب المنثور من الكتّاب الثالث فى مجلدنا الثالث .

نقول : لعل هذه السابقة الخارقة كانت من الأسباب التي حملت الرشيدَ على أن يفعل ما فعل، من استيثاقٍ الأمرِ بين الأخوين، خوفًا على المأمون ومنه. ولسنا ننكر أن من جملة تلك الأسباب ما يصح افتراضُه : من أنّ الرشـيدَ كان يُقدّر فوق حربَي المأمون والأمين، وبعبارةٍ أخرى، حربَي الفرس والعرب، أو العلويةِ والهاشميةِ، أو الشيعيةِ والسنيةِ .

ونحن لا نستطيع أن نرجع مظاهرَ العطف المختلفة، وفي مناسباتٍ كثيرةٍ من الرشـيد على المأمون، الى الأبوّة وحدها، فان للرشيد أولادًا غير المأمون، وغير الأمين، لم ينالوا شيئا من هذه الحظوة العظيمة لديه . لذلك نرى — وقد ترى معنا رأينا — أن هذه الحُظْوَة، التي نالها المأمون من الرشيد، في مناسباتٍ كثيرةٍ، دون إخوته، ترجع الى ما امتاز به المأمونُ، من نجابةٍ خارقةٍ، وميلٍ الى حدّ الأمور، وترفُّع عن سفسافها، وسموٍّ عن دنايَاها، واضطلاعٍ بما يكلف القيام به من أعباء ومهامّ .

ولعل أظهر مظاهر العطف من الرشيد على المأمون، ما فعله الرشيد حين وافته ميتة "بطوس"، من وصيته بجميع ما كان معه، من جندٍ وسلاحٍ ومالٍ للأمون، دون أن يكون لخليفته من بعده، ليشدّ بذلك من أزر المأمون، ويقوّي من جانبه . وأنت حدٌّ عالم بما قدّمناه لك من الكلام في العصر الأموي"، عن أثر المال فتقدّر معنا ما كان يرومه الرشيد، ولستَ في حاجةٍ لأن أقول لك، إن أثر المـال وسلطانه في نفوذ الكلمة، وقوة الشوكة، دونه كل أثر وكل سلطان !

ولعلنا لا نعـدو الواقعَ كثيرا، حين نذهب الى القول بأنّ الرشـيدَ كان يحذر الخلافَ بين الأخوين، ويخاف كلَيهما على الآخر : يخاف الأمينَ على المأمون، لأن الأمين سيُصبح الخليفةَ الذي بيده قوة الدولة من جندٍ ومال، وتصحبه مزاياها من عظم الهيبةِ ونفوذِ الكلمةِ، وسيكون مطمحَ آمال الآملين وموضعَ رجاء الراجين .

ومن شأن كل هذا أن يجعل الناس جميعا، أو الأكثرية الساحقة منهم يلتفّون حوله، رغبةً أو رهبةً . وجدير بمن كان هذا شأنَه أن يُخشَى ويُتّقى .

ويحاف المأمونَ على الأمين، لأن ما امتاز به المأمونُ، من نجابة خارقة، وحدٍّ وحنكة، وعرفان بشؤون الحياة واصطلاع، واعتداد بنفسه، يجعل منه خطراً شديداً على الأمين جديرا بأن يخشى ويتقى أيضا . ويظهر أنّ كل هذا وقر فى نفس الرشيد الذى كان معروفاً الحزم وحَوْدَة الحَدْس ، وقوة البصر بالعواقب، فأراد أن يتقيه، ورأى أن خير وسيلة لاتقائه، أن يستكتبهما العهدين، كما قدمنا، فيقطع بذلك أسبابَ الخلاف بين الأخوين، ويحول دون دسّ الدسّاسين ، وسعاية الساعين، ويفهم أنصار الفريقين ما للبيعة بين الأميرين من حرمة وتوقير .

غير أن تصرّفات الأيام ، وآثار البطانة ، ونتائج السعاية ، ومَغَبّات الرياء والنفاق، كانت فوق ما كان يقدّر الرشيدُ، فوقع الخلاف بين الأخوين أعنفَ ما يكون . ولم يكن ما اتخذه الرشيد من وقاية وحيطة ليصدّ تيارَه الجارفَ .

وكان المأمون الشاب حسن التوفيق فى اختيار حاشيته ومشيريه ، فجمع حوله طائفةً من ذوى الدهاء والحنكة، وهؤلاء وإن كانوا من ذوى المطامع والأغراض، قد أخلصوا له النصح، وثقّفوه التثقيف الذى يكفل له النجاحَ، فان تحقيقَ أطماعهم الواسعة، موقوفٌ على نجاحه . فإخلاصُهم له إخلاصٌ فى الواقع لأنفسهم أيضا . ولما كان أمّ المأمون فارسية فربما جاز لنا أن نقول : لعل لكونها فارسية أثرا فى أن يخلص له هؤلاء المشيرون إذ كانوا كلهم من الفرس وإذ كانت له بهم هذه القرابة .

وهذا يفسر لنا عاطفةً من عواطف المأمون، وهى ميله الى خراسان، وتعصّبه بعضَ التعصب للخراسانيين، إذ يحدثنا التاريخ أن رجلا من الشام اعترض طريقه مرارا وقال « يا أمير المؤمنين ، انظر لعرب الشأم كما نظرت لعجم خراسان ، فقال له . أكثرت علىّ والله ما أنزلت قيسا عن ظهور خيولها إلّا وأنا أرى أنه لم يبق فى نفسى مالى درهمٌ واحد ، يعنى فتنة أبى العمرىّ ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحنى قط ، وأما قُضَاعة فسادتها تنتظر السفياني حتى تكون من أشياعه ، وأما ربيعةُ فساخطةٌ على ربها

مد بعث اللهُ نبيه من مصر، ولم يجرح اثنان إلا خرج أحدهما شاريا[1] . اعرف ! فعل الله بك ! »

وإنه ليجوز لنا أن نرجع هذا الميلَ، لا الى ما ذكره المأمون وحده، بل الى التربية وأثر البيئة الفارسـية فى نفسه ، والى مقابلة حسن الصنيع بمثله ، فأم المأمون فارسية ، والذين كفلوه وقاموا بتثقيفه فارسيّون، والذين أحاطوا به وبصروه فارسيّون . ومن هنا نستطيع أن نفهمَ الرأىَ الذى يقول به بعض المؤرخين الفرنجه : إن انتصارَ المأمون على الأمين كان أيضا انتصارًا للفرس على العرب، كما كان انتصارًا للفرس على العرب انتصارُ العباسيين على الأمويين . ومن هنا نستطيع أن نعلل أيضا، ما ذهب اليه بعض الباحثين، من أن المأمون كان شيعيًّا وهو عباسىّ، لأن البيئه الفارسـيه التى نشأ فيها كانت إلى حد غير قليل مهـدَ التشيع للعلويين ، ويجوز أن تكون قد صبغت المأمون بشئ من ألوانهـا ، وقد كان لذلك آثاره، لا فى السياسه ونظام الملك فحسب، بل فى الآراء والمذاهب مما سنذكره حين نعرض للكلام على الخليفة المأمون .

ولعلنا نكون بما قدّمناه لك عن نشأة المأمون وصباه، قد رسمنا لك صورةً واضحةً لهذا الأمير الذى سيكافح كفاحا شديدًا فى سـبيل الملك، والذى كان له أكبر أثر فى الحضـاره الإسلاميـــة .

أما شتّى مواهب المأمون وآراؤه ، وما اشتهر به من الحلم والعفو والكرم والبصر بالسياسه ، وحَوْدَه الحدس، وكفاية الطاقة، وشـغفه بالعلم والأدب والجدال ، وما كان لهذا الشغف من ثوره علمية وفكرية وكلامية فى عصره، فسنرجىء الكلامَ فيها الى موضعها من كتابنـا، وهو الكلام على الخليفة المأمون، بعد أن استقرّ له الأمر فى بغـداد، وحين نضجت فيه هذه الخلال وآتت كل ما لها من ثمرات .

(١) فى ابن الأثير (سائسا) وهو غلط ، والصحيح ما أثبتناه عن أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار . والشراة هم الخوارج .

الفصل الثالث

النزاع بين الأمين والمأمون

توطئة — بيعة الأمين وخلافته — مبدأ النزاع وكيف تحوّل — الوعود السياسية — دور الرأى العام واستمرار الوعود السياسية — اعلان الحرب — انتصار الجيوش المأمونية ومقولات الشعراء — عود على بدء . تعهدات الأمين فى سبيل الفوز — الثورة وحطامها — قتل الأمين .

(١) توطئة :

عرفت مما ذكرناه لك فى محل كلامنا عن الرشيد والأمين، أن الرشيد أعلن ولاية العهد للأمين فى سنه ١٧٥ هجرية، وسنّ الأمين فيما قيل وقتئذ خمس سنين، ثم أشرك معه المأمون فى ولاية العهد سنه ١٨٣ هجرية، ثم استوثق لكليهما من أخيه سنة ١٨٦ هجرية وهو عام حج الرشيد : بأن استكتب كلا منهما عهدًا بما عليه وله قِبَلَ الآخر، وعلّق العهدين بالكعبة كما قدّمنا .

ويؤخذ من نصوص العهدين، وما نورد بعد ذلك من الرسائل بين الأمين والمأمون، مما سنورد لك بعضه لما تضمنته من «الديبلوماطيقيه العباسيه» : وهى بُنِىَ فى حزم، وتبئيس فى تأميل طويل الأجل، — ويؤخذ منها أن خراسان ونواحيها الى الرىّ كانت تحت إمرة المأمون، يتصرّف فى جميع شؤونها، من سياسيه وحربيه واقتصادية وقضائيه تصرّفًا تامًا، لا ترتبط بحاصره الخلافه إلا رابطه الدعاء للخليفه . وقد صارت اليه إمره هذه النواحى فى عهد الرشيد، وهى من الأمور التى أخذ الأمين بالوفاء بها، فيما أخذ به من عهودٍ ومواثيق .

وكان الرشيد قد أشرك فى سنة ١٨٨ هجرية ولده القاسم مع أخويه فى ولاية العهد، وحمل من نصيبه العمل على الشام وقِنّسْرِينَ والعواصم والثغور .

وكانت الأمور جارية مجراها الطبيعى آخر أيام الرشيد، ثم شطرًا كبيرًا من السنة الأولى من خلافة الأمين، إلا ما كان من أشياء، طوى عليها المأمون كَسحًا، دُربةً منه وسياسةً، وحصافة وكياسة، وتريثًا وتعقلًا، وحرامةً وتمهلا .

ولم تنقص السنة الأولى من خلافة الأمين حتى كانت الدسائسُ قد فعلت فعلَها، وحتى كانت المناسمُ العنيفةُ بين البطانتين قد بلغت غايتها، وأحد كلٌّ من الأخوين يحذر أخاه ويتقيه، وامتلأت الصدور حقائظَ وإحَنًا، ولم يسق إلا أن تُلمَس فتنفجر . وسنفصل لك كل ذلك تفصيلا .

* * *

(ب) بيعة الأمين وخلافته :

لما خرج رافع بن الليث بن نصر بن سيار بخراسان، وكَثُفَ أنصارُه، وقويت شوكتُه، وعظم خطرُه، رأى الرشيدُ أن يخرج اليه بنفسه لمحاربته وتسكين حَلَل الأمر الذى اضطرب فى تلك النواحى . فأضافه من مشاق السفر، وتعبير الطقس، وشدة التفكير، ما أعلّ صحتَه . وبدا له من طروف الأحوال ما حمله على تحديد البيعة للأمون، الذى كان بمرو، وأوصى بأن يصير ما معه، من قوادٍ وجندٍ وسلاح ومالٍ الى حاسه، وأخذ المواثيقَ على من معه بأن يُوفُوا بهذه الوصية .

ثم أخذت تشتدّ به العلة، حتى وافته منيته بطوس سنه ١٩٣ هجرية . وبويع للأمين بالخلافة، فى عسكر الرشيد، ووصله نعىُ الرشيد فى بغداد يوم الأربعاء لأربع عشره ليلة، خلت من جمادى الآخره، وقيل ليلة النصف من هذا الشهر، فكتم الخبرَ بقية يومه وليلته، ثم أظهره يوم الجمعة .

(١) هو حميد بن نصر بن سيار آخر والى أمية خراسان اذ دالت بعد ذلك دولتهم . وسبب خروج رافع هذا أنه طمع فى زواج امرأة يحيى بن الأشعث بن يحيى الطائى لشرفها وجمالها وكانت معاصة لزوجها، فحملها على أن تعلى الكمر لتطلق ثم تزوج منها . فلما أمره الرشيد الذى كلف بحامله أن يفرق بينهما وأن يعاقب رافعا ويجلده الحد ويقيده ويطوف به فى مدينة سمرقند مقيدا على حمار حتى يكون عظة لغيره . فدرأ عنه العامل الحد وطاف به ثم سجنه فهرب من الحبس فطارده عمال الرشيد . وما زال أمره يشتد حتى اضطر الرشيد الى الذهاب اليه بنفسه .

ويحدّثنا التاريخ أن الأمينَ لمّا بلغه اشتداد المرض على الرشيد، وتوقع وفاته، بعث بكر بن المعتمر رسولا الى مقر الخليفة، ليوافيه بالأخبار كلَّ يوم. وكتب معه كتاباً، وحملها فى قوائم صناديقَ مقورة، ألبسها جلد البقر، ليخفى أمرَها، وكلّفه ألا يُظهرَ أحداً على شىء من أمره، وما توجه فيه ولو قُتِلَ، حتى اذا بعد أمرُ الله فى الرشيد، دفع الى كل من له كتابٌ كتابَه. فلما وصل رسولُ الأمين، راب الرشيدَ قدومُه، فسأله عما جاء به؛ فلما لم يجد فى جوابه ما يُزيلُ ريبَه، أمر بحبسه وحبسه. ولعلك تصيب لباب الصواب، أولا تعدوه كثيرا، اذا اقتصرت أن هذا الريبَ الذى حاصره من رسول الأمين، كان من العوامل التى حملته على تحديد البيعة للمأمون، وأن يوصى له بما معه من جيدٍ وسلاحٍ ومالٍ.

لبث رسولُ الأمين فى الحبس أشهرًا، إذ ماريح الكتب التى يحملها الى من أرسلت اليهم شوّال سنه ١٩٢ هـ. ووفاةُ الرشيد كانت فى جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ. ثم بدا للرشيد أن يحمل بكرًا على الإقرار، فكلّف الفضلَ بن الربيع ذلك، وأن يهدّده بالموت اذا لم يقر. وقد حالت وفاةُ الرشيد فى ذلك اليوم، دون تمام هذا الإقرار. ثم لما وثق الرسولُ من وفاه الرشيد دفع الى كل كتابه.

وقد أثبتنا لك من هذه الكتب كتابه الى أخيه المأمون وكتابه الى أخيه صالح فى موضعهما من المجلد الثالث من هذا الكتاب، لما لهما من خطرٍ فى موضوع النزاع، فانهما يدلان على أن الأمين لم يكن ليبكث ما عقد من عهودٍ ومواثيقَ، وإنما بطانة السوء هى التى زينت له أن يفعل ما فعل، فراجعهما ثمة. وتأمل طويلا فيما لبطانات السوء من وخيم العواقب بين الأشقاء، والرعماء، والأمراء، وما نخزه على البلاد من انتثار العقد وتشتيت الشمل، وتشعّث الألفة، وفرقة الجماعه، وسريان الفتن وذيوع الفوضى، وانتشار الاضطرابات، واندلاع نيران الثورات، ومن ترجيح كفة الأشرار على الأبرار، الى غير ذلك من شتى النتائج السيئة، والعواقب المهلكة، التى سنحدّثك عنها، وستراها واضحة جلية فى كلمتنا الآتيه.

(ج) مبدأ النزاع، وكيف تقلب، ونتيجته :

قد تطلب الىّ ، وفقك الله، أن تقف على ما كان لتلك الكتب، من أثرٍ فى نفوس من أُرسِلَتْ اليهم ، و إنى شافٍ غُلك، مجيبك الى سُؤْلك ، محيلك الى الطبرى فى هـذا الصدد إذ يقول :

"لما قرأ الدن وردت عليهم كتب محمد بطوس، من الفؤاد والجسد وأولاد هارون، تشاوروا فى اللحاق بمحمـد، فقال الفضـل بن الربيع : لا أدع مُلكًا حاضرا لآخر لا يُدْرى ما يكون من أمره، وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك ، محمـه منهم للحوق بأهلهم ومعارفهم ببغداد، وتركوا العهودَ التى كانت أُخذَتْ عليهم للمأمون" .

أما المأمون — بعـد أن انتهى اليه بمرو خبرُ بكث القوم للعهود التى أُخِذَتْ عليهم ، ووارِهم الى بغدادَ بمـا كان الرشيد أوصى بأن يكون له ، من حشـدٍ ومالٍ وسلاح — فقد اجتمعت كلمة الرواه على حسن تيقظه وسرعة مبادرته لشئ أموره، وأنه شدّ لها حيازيمَه، وحسر لها عن ساقه . ويحدّثنا التاريخ أنه قد جمع من معه من قوّاد أبيه، وأخبرهم الخبر وشاورهم فى الأمر، فأشاروا عليـه أن يلحق القومَ فى أعلى فارس ، ويحولَ بينهـم وبين ما أرادوا .

ولكن المأمون عمل بمشوره الفضل بن سهل ، الذى كان يثق به وبكفايته ، ويؤمن بكياسته وحسن سياسته ، ويقتنع بثقوب بصره وصدق نظره ، فقد قال له الفضل : إن فعلت ما أشاروا به عليـك جعلتَ هؤلاء هديةً الى محمد ، ولكن الرأى أن تكتب اليهـم كتابا، وتوجه اليهم فتذكرهم البيعة، ونسألهم الوفاء ، وتحذرهم الحنث وما يلزمهم فى ذلك فى الدنيا والدين، و إن كتابك ورسلك تقوم مقامك، فستبرئُ ما عند القوم . وتوجه سهل ابن صاعد — وكان على قهرمته — فانه يأملك، ويرجو أن ينال أمله ، فلن يألوكَ نصحا، وتوجه معه نوفلا الخادم مولى موسى أمير المؤمنين ، وكان عاقلًا . فلم ير المأمون، وهو

الحاذق الفطن، ندحة دون صدوره عن رأى ابن سهل، فكتب كتاباً ووجه من أشار بهما الفضل الى القوم فلحقاهم سيسابور، فقال الفضل بن الربيع لما وصله كتاب المأمون معتذرا متعللا : " إنما أنا واحد منهم " ! وقد مال بعضهم من المأمون وأغلظ لرسوليه، ثم رجع الرسولان بالخبر .

وكان ممكنًا، بعد أن طوى المأمونُ كشحًا على ما وقع من القوم من نكث للعهود واغتصاب لما أوصى به الرشيد له . من جند ومال وسلاح، وبعد أن أحد يُهْدِى الى أخيه خيرَ ما وصلت اليه يمناه من تحف خراسان وبهائمها، أن تسير الأمورُ فى مجراها الطبيعىّ، وأن يستقر الأمرُ بين الأخوين على ما أراد الرشيد، لولا أن بطانة الأمين أَوْغَرَتْ صدرَه على أخيه، ولولا أن بطانة المأمون حفزته الى مقابلة العدوان بمثله، وأفعمت قلبه ثقة بالغلبة والظفر وإيمانا بالفوز والنجح .

وإن كلمة الفضل بن الربيع "لا أدع ملكا حاضرا لآخر لا يُدرى ما يكون من أمره!" فيها العنيةُ والكفايةُ فى تفهيمنا الأساسَ الذى بُنِيَتْ عليه تصرّفاتُه بين الأخوين، فهو بنظر لمصلحة من بيده الملك اليوم، لا يحفِلُ بيعةٍ ولا عهدٍ، ولا يكترث لوحدة قوميه ولا يحفل بإحلال الوفاق بين العباد، ولا يعمل على مصافاةٍ ولا وِدادٍ، وإنما همه الملكُ الحاضر، والإمعانُ فى إرضاء المَلِكِ الحاضر .

كذلك كانت حال الفضل بن سهل فى موقفه مع عبد الله المأمون ! ومهما كانت صورةُ المأمونِ التى صوّرها لنا التاريخ بأنه المغلوب على أمره، فى النزاع الذى نشب بين الأخوين، وأن الأمين هو الباعث الغادر . ومهما كانت القلوبُ الإنسانية تحنو على المظلوم وتعطف على المغلوب — مهما كان كل ذلك، مما يجعلنا نستسيغ تصرّفات الفضل ابن سهل مع المأمون، بل مما يدفعنا الى الاقتناع بها وعزو الحصافة، والأصالة، والكياسة، الى صاحبها، وأن ليس هناك من هو أنهدُ منه فى مثل مواقفه ولا أجرى، ولا أحكم من تدبيراته ولا أوفى، ولا أرهف غرارًا من عزماته ولا أمضى، ولا أقدر منه

فى خُطَطِه ولا أعنى، بَيْدَ أنا مع ذلك، اذا جرّدنا النفس الانسانيةَ من بعض صفاتها، ونظرنا "بروود" — على حدّ التعبير الانجليزى — وبجيَدِه ونصفِه منه وله، فانا نقرر، من غير أن نعدوَ الحقَّ والواقعَ، أن الفضل بن سهل لعب مع المأمون، ذلك الدورَ الخطيرَ بدائه الذى لعبه الفضل بن الربيع مع الأمين، وأن كلًّا قد توكأ على أميره لغاياته، واستغلّه فى سبيل نُجح سياسته، ودفع به الى حيث يريد!.

أنظر اليه، وقد عادت وفود المأمون من مقابلة الفضل بن الربيع ومن لحق به من حند وسلاح، تره يصارح المأمونَ عنهم بقوله: أعداء قد استرحب منهم، ولكن افهم عنى ما أقول لك. إن هذه الدولةَ لم تكن قط أعزَّ منها أمامَ أبى جعفرٍ، فخرج عليه "المقنع" وهو يدّعى الربوبيةَ، وقال بعضهم طلب بدم أبى مسلم، فمصعصعَ العسكر، بحروحه بخراسانَ، فكفى الله المؤنةَ، ثم خرج بعده بوسفُ البرم، وهو عند بعض المسلمين كافر، فكفى الله المؤنةَ، ثم خرج أستاذ سيس، يدعو الى الكفر، فسار المهدىُّ من الرىّ الى نيسابورَ فكفى الله المؤنة. ولكن ما أصنع أكبر عليك، أحبرنى كيف رأيت الناس حين ورد عليهم خبر رافع؟ قال المأمون: "رأيتهم اضطربوا اضطرابا شديدا" فقال له الفضل: وكيف وأنت نازل فى أخوالك وبيعتُك فى أعناقهم، كيف يكون اضطرابُ أهل بغداد؟ اصبر وأنا أضمن الخلافةَ! قال المأمون: "قد فعلت وجعلت الأمر اليك فقم به".

على أنه اذا صدق الرواةُ فيما يروُونه لنا: من أن الفضل بن سهل قال للمأمون فى حديثه معه: "لأصدقنك أن عبدالله بن مالك، ويحيى بن معاذ، ومن سمينا من أمراء الرؤساء، إن قاموا لك بالأمر كان أنفعَ منى لك، برياستهم المشهورة، ولما عندهم من القوّة على الحرب، فمن قام بالأمر كنتُ حادمًا له، حتى تصير الىّ محبتك، وترى رأيك فىّ". وصدقوا فى أن الفضل بن سهل لقى هؤلاء الزعماء فى منازلهم، وذكرلهم البيعةَ التى فى أعناقهم، وما يجب عليهم من الوفاء، وأن الحيبة كانت نصيبَ دعوته لهم وتذكيرِه إياهم، وأنها مع ذلك لم تَصدِفْه عن قصدِه الذى نهدَ اليه، ولم تَحُلْ بينه وبين مصيِّه قُدُمًا فى سبيل غايته، التى

تأدى لها بأداته، وتدرّع لها بدرائعه، وأحد لها عُدّته، وأرهفَ لها عزمَته. وأنه قال للمأمون "لقد قرأتَ القرآن، وسمعتَ الأحاديث، وتفقهتَ فى الدين، فالرأى أن تبعث الى مصر فتحضرها من الفقهاء، فتدعوهم الى الحق والعمل به، وإحياء السنة، وتقعد على اللدود، وترد المظالم". وصدقوا حقًّا فى أن المأمون والفضل فعلا ذلك، وأنهما بعثا الى الفقهاء، وأكرما القوّاد والملوكَ وأبناء الملوك. وصدقوا فى أن الفضل كان يقول للتميمىّ: "يُقيمُك مَقامَ موسى بن كعب، وللربعىّ مقام أبى داود خالد بن إبراهيم، وللهاشمىّ مقام قحطبة ومالك ابن الهيثم. وصدقوا فى أنهما كانا يدعوان كلّ قبيلة، الى نقباء ورؤساء الدولة، كأسمائهم الرؤوس. وصدقوا فى أن المأمون والفضل قد خطا عن خراسان ربعَ الخراج حتى حس موقع ذلك من الخراسانيين وسُرّوا به وقالوا. «ابن أختنا وابن عم نبينا صلى الله عليه وسلم» وصدقوا فى أن المأمون تواترت كتبه الى أخيه محمد الأمين، بالتعظيم والهدايا اليه من طرف خراسان، من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح، حتى أوائل سنة أربع وتسعين ومائة التى عزلَ فيها الأمينُ أخاه القاسمَ عما كان أبوه ولاه من عمل قِنّسْرينَ والشام والعواصم والثغور، وولى مكانه خزيمةَ بن خازم، والتى أمر فيها بالدعاء لأبيه موسى على المنابر بالإمرة، وحتى مكر كل واحد منهما بصاحبه وطهر بينهما الفساد — اذا صدق الرواة فى كل ذلك، فانا نرى من الصَّفَة العلميه والتاريخية، أن نقررَ حينئذ أن الفضل بن سهل كان دَهِيًّا حقا، ومعنا فى الدبلوماتيقية، وكان موقفه لايقل عن موقف «وارن هاستنج» و «كليف» فى الهند، وعبرهما من جهابذه السياسه، وأقطاب الدهاء. وربما كانت مكانته أسمى منهما وأرفعَ وأحلق بمقارنتها بمن يشار اليه بالبنان من ساسة هذا الزمان!

ولنسطر معًا، وهبنا الله وإيّاك الجلد والأناة، ووفقنا الى ما نرومه من تمحيص وتحقيق، وتفهم وتدقيق، فى حوادث سنه أربع وتسعين ومائة لنكون مُلمّين بحول النزاع الذى شجر بين الأخوين، ولؤمس الإيمانَ كله أن البطانة قد لعبت دورا شنيعا، فى إشعال جَذوة الحقد والسخيمة بينهما، وعملت على إصرام أُوارها، وسَعتْ جُهدَها فى توسيع مسامه

الحلف بين الأخوين حتى كان ما كان، نجد أن الفضل بن الربيع، فيما يرويه لنا المؤرخون، سعى بعـد مَقْدَمِه العراقَ على محمد، منصرفا عن طُوسَ، وناكثًا للعهود التى كان الرشـيد أخذها عليـه لأبيه عبد الله، وعلم أن الخلافه إن أفضت الى المأمون يومًا وهو حىّ لم يُبْقِ عليه، وكان يترقب فى طهره به عَطَبَه — سعى جُهْدَه فى إغراء محمد به، وأعمل قريحته فى حثه على خلعه، وَزَيَّنَ له، بما فى مقدوره، أن يصرف ولاية العهد من بعده الى أبيه موسى. ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزمه، بل كان عزمُه، فيما ذكر الرواه عنه، الوفاءَ لأخويه عبد الله والقاسم بما كان أخذ عليـه لهما والدُه من العهود والشروط. فلم يزل به الفضـل ابن الربيع يُصعِّر فى عينيه شأنَ المأمون، ويُزَيِّن له خلعَه، حتى قال له: "ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعبد الله والقاسم أخويك، فان البيعه لك كانت متقدمه قبلهما، وإنما أدخلا فيها بعدك، واحدا بعد واحد!" . قال ذلك لابن الربيع، وضم الى رأيه معه على بن عيسى ابن ماهان والسندى وغيرهما ممن نحصرنه.

ومن المعقول أن نفترض أن الفضل مضى فى الإيقاع على هـذه النغمة، ثَنْيًا بعد ثنى ومرة إثر أخرى، وقدح فى ذلك قريحته، واستحدم شتى وسائل أمثاله وبطرائقه، حتى أزال محمدا عن رأيه. وقد ذكر المؤرخون. أن أول ما بدأ به محمد عن رأى الفضل بن الربيع فيما دَبَّر من ذلك، أن كتب الى جميع العمال فى الأمصار كلها، بالدعاء لأبيه موسى بالإمرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم بن الرشيد.

والآن، بعد أن وقفتَ على تصرّف محمد وجماعة محمد مع المأمون وجماعه المأمون، لك أن تستنبط ما يفعله الفريقُ الآخر، إحاطةً على تصرّف الفريق الأول. ولك أن تنتظر من المأمون أن يدبر أمره تدبيرَ من يرى أن أخاه يدبر عليه خلعه. ولك أن تنتظرَ مثلَ ذلك من جماعة المأمون وأنصاره.

وهكذا تدنفنا حوادثُ السنةِ نفسها، إذ ينبئنا الطبرىّ أن فيها قطع المأمون البريد عن محمد، وفيها أسقط اسمه من الطرز، وفيهـا لحق رافع بن الليث بالمأمون، وهو من سلالة

نصر بن سيار ، لما انتهى اليه من الخبر عن المأمون ، وحسن سيرته فى أهل عمله ، وإحسانه اليهم ، فيما يرويه المؤرخون ، أو سعى المأمونُ ورجالاتُ المأمون ، كهرثمة وطاهر ، فى إصلاح ما بينه وبين المأمون ، وطلبِ الأمان له ليكون عُدّةً وطهيرا للحرب المأمونى ، كما نستسيغه نحن ونستحلصه ؛ وفيها ولّى المأمون هرثمةَ رياسةَ الحرس ، ولهرثمة مكانتُه وشهرتُه ، وله سيرتُه ونحدتُه ، ولرافع بيتُه وأنصارُه ، وكتائبُه وفرسانه ، كما أن لطاهر ابن الحسين حرمه وشجاعته وفروسته ومرانه ، ولأبى سهل بلا ريب حِدقُه فى تصرّفاته التى بمثلها تُرَدّ الأهواء الشاردةُ ، وتُستصرَف الأبصارُ الطامحه . وعلى رأسهم ، أو الى جانبهم إن شئت المأمون ، وقد تسربل بالثوب الذى يُصحَ اليه بلبسه ، فأصحى محمودَ السّيم مرضىَّ الخلال ، وهو باستعداده ونزعته ذلك الرجل السياسىّ ، المعتدل المراح ، الهادئ الأعصاب ، السديد التصرّف ، السمح الأخلاق ، اللين العريكة ، الكريم المهزة ، مع أناةٍ وحلمٍ وعزم وحزم ، ونفاذ ومضاء .

ومن المعقول أيضا أن يبكر الأمينُ ذلك من ناحيته أيضا . والمعقول أن يبدأ بالتدبير على المأمون ليصدَ عنه قلوبَ رجاله ، وأن تتسلسل الحلقات ، وتستطرد الإجراءات ، المحتومه الوقوع ، فى مثل هذه الحالات [1] .

ورب ما كان على حق ، اذا قلنا : إن النزاع أصحى بين الفضلين ابن سهل وابن الربيع . وأنفلت عيبا أعظم العنف فقد كان بين كفايتين لا يعرفان الونيةَ والتصحيعَ [1] . ولهما من الحصافة وثقوب البصيرة ، ومن سَعَة الحيلة وقَدْح الحَتْل ، ومن وَفره الحُنكَة وعَماء الاحتنار ، ومن مَضاء العزيمة وثروة الذهن . لهما من ذلك كله ، وما الى ذلك من شتى الصفات السياسية ، ما لا قَلَّ لأحدهما به من صاحبه ، فلكل من صاحبه نَوَاءٌ وبديد ، ومُنازل عَبِيدٌ ، وكَمىّ صِيدِيدٌ !

أنظر الى الأمين ، قد كتب الى العباس بن عبد الله بن مالك ، وهو عامل المأمون على الرى ، وأمره بأن يبعث اليه بغرائب عروس الرىّ ، فبعث اليه المسكين بما أمره ، به عيرَ

(١) الصحيح : التقصير .

عالم أن للمأمون ورحاله عيونا وأرصادا، ولهم، قبل ذلك، يَقَظَتُهم الى لا تى ولا تغفُل . فـادا كان من للمأمون ؟

بلغ المأمون ما كان من عامله السادَح المسكين، فعزله ، ووجه مكانه الحسن بن علىّ المأمونى، وأردفه بالرُّسْعِىّ، على البريد . وهكذا حاولت الديبلوماتية "الربيعيـة" أن تصرف قلمَ عاملٍ كبيرٍ عن أمر المأمون ، والفصله المأموسـة ، نكاية بالديبلوماتيقيه "السهلية" التى أكتسبت رافعًا وصمت الى حربها بتَ آبن سيار . وناهيك ببيت آبن سيار !

ولنتطرّق الآن الى التكلم عن الحرب الكلامية التى نشبت بين الأحوين ، والتى كانت، بلا ريب، مقدّمه لوقوع الحرب العامه . و بعباره أدق لنتكلم عن الوفود السياسية محـاولين، على قدر آستطاعتنا، وآستنادا الى ما بين أيدينـا من مصادر ووثائق ، وصف الكفايات السياسيه فى دلك العصر العىّ حقا برجالاته ودهاته .

* * *

(د) الوفـود السـياسـية :

لنتساءل أوّلًا ماذا حدث فى السنة التى نحن فى صددها وهى سنه أربع وتسعين ومائة، فانها مليئة، والحق يقال، بممتحات هاتين العقليتين ، العاتيتين حقًّـا، الجبارتين بلا مبالغه ولا إغراق، وعنى بهما عقليتى الفضل بن الربيع، والفضل بن سهل .

حدث أن وجّه الأمينُ وفدًا سياسيًا الى المأمون ، قِوَامُه العبـاسُ بنُ موسى، وصالح صاحب المصلى، ومحمد بن عيسى بن نهيك، وطلبوا اليه تقديم موسىٰ بن الأمين الذى سماه "الخارج بالحق" على نفسه . وقد يكون من الطريف الممتِـع حقا، أن نوضّح ما كان من أمر هذا الوفد، وهل وُفِّقَ الحزبُ المأمونى فيما حاول من الأخذ بقلوب رجاله، أو بعضهم على الأقل ، فان فى توضيحنا لذلك ما يمدّنا بصورة لا بأس فى جملتها، من صور الديبلوماتيقية فى دلك العصر، وإن فى تفهمنا هذه الصورة ووقوفنا عليها، نفعًا عظيمًا يعيننا، بلا ريب، على تفهم العصر وروح سياسته .

يحدّثنا التاريخ أنّ العباس بن موسى أحد رجال الوفد الأميني قال للمأمون "وماعليك أيها الأمير من ذلك — أي من تقديم موسى عليه — فهذا جدّي عيسى بن موسى قد خلع، فما ضرّه ذلك!" ويحدّثنا أيضا بأن الفضل بن سهل كان موجودًا، كما هو المنتظر، في ذلك المؤتمر السياسيّ. وأنه لما سمع كلمة العباس هذه صاح به: "أسكت لجدّك كان في أيديهم أسيرًا وهذا بين أحوالك وشيعته!".

أتعرفُ ما ذا كانَ من أمرِ الوفدِ".

إنه قد انصرف، ولكن لا الى الأمين، بل الى مارَدَ حصصها لهم المأمونُ، حيث أفرد لكل واحدٍ من أعضاء الوفدِ منزلًا، وأكرمهم مثل ذلك النوع من الإكرام السياسيّ الذي تتلقى به الحكومات الخاصرة الوفود السياسية. فتأمل!.

ثم لنسطر معًا — معتصمين بالأناةِ والصبرِ قليلا — في تصرّف الفريق الآخر في السنة عينها، فنرى أن الوفدَ قد عاد الى الأمينِ، وأخبره بامتناع المأمونِ، فألحّ عليه الفضل بن الربيع وعليّ بن ماهان، في البيعة لأنبه موسى "الناطق بالحق" وخلع المأمون، فأجاب الأمين الى ذلك، وأخصّ ابنه عليّ بن موسى الذي ولّاه العراقَ. وتسارع بعضُ ولاة الأمين في انتهاز الفرصة، للتقرّب منه والتحبب اليه، بالمبادرة بأحد البيعة له قبلهم. وقد كان أوّل من فعل ذلك بشر بن السعيد الأرديّ، وصاحب مكة وصاحب المدينة.

لم يكتف الفضل بهذا، ولا بالكثير من أمثاله، مما ينتظر من مثله في مثل تلك الظروف، من نهيه عن ذكر عبد الله المأمون والقاسم بن الرشيد، وحظر الدعاء لهما على شيء من المنابر، بل دسّ من ذكر المأمونَ بسوء، وحطّ من قدره، ولصَقَ به أقبحَ النقائص والمثالب، ووصمه بأشنع الوصمات والمعايب.

ولم يكتف الفضل بهذا، بل وجه الى مكةَ كتّابًا مع محمد بن عبد الله، أحد سدنةِ البيت الحرام، فأتاه بالكتّاب اللذين كان الرشيد كتبهما لعبد الله المأمون على محمد الأمين،

وكان حظُّهما من الأمن، لما صارا اليه، حظَّ غيرهما من العهود فى ذلك العصر، "والمعاهدات" و" قصاصات الورق " فى عصرنا الحاضر فمزقهما وأبطلهما، وأحاز سارقَهما !

ثم تعـال معى لسطر معا، نظرةَ إعام وترو، فى مشاوره المأمون لشيعته، حينما حز به الأمر، وصاق به السبيلُ، فهى، لَعمرُك، آيه فى الحكمه والمهاره السياسية .

يقول الطبرى . "كان محمد، فيما ذكر، كتب الى المأمون، قبل مكاشفة المأمون إياه بالخلاف عليه، يسأله أن يحاى له عن كور من كور خراسان سماها، وأن يوجه العمال اليها من قِبل محمد، وأن يحتمل توجيه رجل من قِبَله، يوليه البريد عليه ليكتب اليه بخبره . فلما ورد الى المأمون الكتابُ بذلك، كبُر ذلك عليه وآشتدّ، فبعث الى الفضـل بن سهل والى أخيه الحسن، فشاورهما فى ذلك، فقال الفضلُ : "الأمر خطير، ولك من شيعتك وأهل بيتك بطانة ولهم تأنيسٌ بالمشاوره، وفى قطع الأمل دونهم وحشةٌ وطهورُ قلةِ ثقةٍ، فرأى الأمير فى ذلك". وقال الحسن : كان يقال "شاور فى طلب الرأى من تثق بنصيحته، وتألَّف العدوَّ فيما لا آكتتام له بمشاورته" . فأحضر المأمون الخاصة من الرؤساء والأعلام، وقرأ عليهم الكتابَ، فقالوا جميعا له . "أيها الأمير! تشاور فى مخطر، فاجعل لبديهتنا حظًّا من الروية"، فقال المأمون . ذلك هو الحزم، وأجَّلهم ثلاثا . فلما آجتمعوا بعد ذلك قال أحدهم : " أيها الأمير قد حملت على كرهين، ولست أرى حظا مدافعة مكروه أولهما مخافة مكروه آخرهما " . وقال آخر . "كان يقال، أيها الأمير أسعدك الله، اذا كان الأمر مخطرًا فإعطاؤك من نازعك طرفا من بغيته أمثلُ من أن تصيرَ بالمنع الى مكاشفته" . وقال آخر : " إنه كان يقال : اذا كان علم الأمور مُعَيًّا عنك، فخذ ما أمكنك، من هدية يومك فانك لا تأمن أن يكون فسادُ يومك راجعًا بفساد غدك" . وقال آخر، "لئن خفتَ للبذل عاقبةً، إن أشدّ منها لما يبعث ألا تأمن الفرقةَ" . وقال آخر: "لا أرى مفارقة منزلة سلامة، فلعلّ أعطى معها العافيةَ" . فقال الحسن : فقد وجب حقكم باجتهادكم، وإن كنت من الرأى على مخالفتكم . قال المأمون . فناظرهم، قال : لذلك ما كان الآجتماعُ . وأقبـل الحسن

عليهم فقال . هل تعلمون أن محمدا تجاوز الى طلب شيء ليس له بحق؟ قالوا . نعم، ويحتمل ذلك لما تخاف من صرر معه . قال : تثقون بكفه بعد إعطائه إياها فلا يتجاوز الطلب الى غيرها؟ قالوا لا، ولعل سلامة تقع من دون ما تخاف ونتوقع . قال . فان تجاوز بعدها بالمسألة أفما تروبه قد توهن بما بذل منها فى نفسه؟ قالوا : ندفع ما يعرض له فى عاقبته بمدافعة ما تحزون فى عاجله . قال : فهذا خلاف ما سمعناه من قول الحكماء قبلنا، قالوا : أستصلح عاقبه أمرك باحتمال ما عرض من كره يومك، ولا تلتمس هدية يومك بإحطار أدخلته على نفسك فى غدك . قال المأمون للفضل : ما تقول فيما أحتلموا فيه؟ قال : "أيها الأمير! أسعدك الله : هل يؤمن محمدٌ أن تكون طالبك بفصل قوتك، ليستظهرَ بها عليك عدا على مخالفتك! وهل يصير الحارمُ الى فضلة من عاجل الدعة، بخطر بتعرّض له فى عاقبته! بل إنما أشار الحكماء بحمل ثقل فيما يرجون به صلاحَ عواقب أمورهم" . فقال المأمون : "بل بايثار العاجلة صار من صار الى فساد العاقبة، فى أمر دنيا وآخرة" . قال القوم قد قلنا بملغ الرأى، والله يؤيد الأمير بالتوفيق . فقال . اكتب بما فصل اليه وكتب" .

ويستطرد الطبرى بعد ذلك فى القول بأن المأمون أملى على الفضل هذا الكتاب ليبعث به الى أخيه وهو . "قد بلغنى كتابُ أمير المؤمنين، بسأل التخلى عن مواضع سماها، مما أثبته الرشيد فى العقد، وجعل أمره الى، وما أمر رآه أميرالمؤمنين أحد يجاوز أكثره، غير أن الذى حمل الى الطرف الذى آثابه لاطبنّ فى النظر لعامته، ولا جاهلٌ بما أسند الى من أمره، ولو لم يكن ذلك مثبتا بالعهود والمواثيق المأخوذة، ثم كنت على الحال التى أنا عليها : من إشراف عدوّ مخوف الشوكة، وعامة لا تتألف عن هضمها، وأجناد لا يستتبع طاعتها إلا بالأموال، وطرف من الإقصال، لكان فى نظر أميرالمؤمنين لعامته، وما يجب من لمّ أطرافه، ما يوجب عليه أن يقسم له كثيرا من عنايته . وأن يستصلحه ببذل كثير من ماله، فكيف بمسألة ما أوجبه الحق، ووكدته مأخوذه العهد . وإنى لأعلم أن أمير المؤمنين

لو علم من الحال ما علمتُ لم يطلع ما كتب بمسألتـه إلىّ . ثم أنا على ثقةٍ من القبـول بعد البيان إن شاء الله » .

ألا يحدر بنا — وقد أطلعنا على تلك المشاوره السياسيه ، التى يحور لك أن تقول عنها ، بالنسبه لوقتها وحيلها ، وموضوعات وقتها وحيلها ، إنها لا تقلّ فى دقتها ، وحدقهـا ، وقوّه مناحيها ، عما يجرى حول المـائدة الحمراء ، من ساسة اليوم — أن نقول : إن المأمون قد خُصَّ بساسة عُتاه ومشيرين دهاه ! .

ثم أنظر الى مسالمه المأمون فى حذره ، أو مسالمه حربه فى الحَيطَةِ والحذر ، فقد أثنت المؤرخون أنهم قد وجهوا حُرّاسًا من قِبَلهم على الحدود ، حتى لا يتركوا للأمين أو لرجاله فرصه الاتصال برعية المأمون . و بالغوا أيما مبالغة فى تدبيرهم ، حتى جاء ، كما يقول الرواة ، « تدبيرًا مؤيدًا ، وعقـدًا مستحصدًا متأكدًا ، فصمموا بذلك ألا تحمل رعيتهم على منوال حلافٍ أو مفارقةٍ » .

وهنا لا نرى مندوحةً ، من إثبات ذلك المجهود العظيم ، الذى بذله الفضلُ بن الربيع أو الأمين ، كيفما شئت التعبير ، فى استمالة القلوب النافرة من الجماعة المأمونيه ؛ فقد كان ، والحق يقال ، طلقَ اليدين ، ندىَّ الكفين ، كثيرةً حدواه ، وافرةً حُذْياه ، عظيمةً عطاياه ، ولم يألُ جهدا فى إرسال دعاته وأنصاره ، لبثّ الدعوه الأمينية فى العـامه وإظهارهم على رجحانها وحقها وعدلها ، وإظهار المحة المفارقه ، والدعاء لأهل القوة الى المخالفة . وكان هؤلاء الدعاةُ سُدُلون المـالَ ، ويضمنون للأنصار معظم الولايات والقطائع . وصـفوةُ القول أن تصرُّف الأمين وجماعته ، من هذه الناحية ، كان قريبَ الشبه بتصرّف المأمون وجماعتـــه .

ولكن هؤلاء الدعاه وجدوا جميع ذلك ممنوعا محسوماً ، حتى صاروا الى باب المأمون .

وهنا يجب أن نقول . إن الحرب الكلاميه قد بدأت تَشْتَدّ بين الأخوين ، والحرب الكلاميه ، أيدك الله ، هى مَيْزه هامة من ميزات العصر العباسىّ . وقد صدق « كشاجم » فى قوله مشيرا الى عداوة أصحاب الأقلام فى تلك الدولة ومهادنة أصحاب السيوف :

هنيئا لأصحاب السيوف نَطَالةٌ * تقصّى بها أوقاتهم فى التنعم
فكم فيهمُ من وادع العيش لم يهج * لحربٍ ولم يَنْهَد لقرن مصمم
يروح ويغدو عاقداً فى نجاده * حُساما سليم الحد لم يتثلم
ولكن ذوو الأقلام فى كل ساعة * سيوفهمُ ليست تحفّ من الدم

وإن المطلع على تاريخ العصر، المستقصىَ لدقائقه وجلائله، الواقفَ على أسراره وخفياته وآدابه ومشاورائه، ليوافق أولئك الذين يذهبون فى القول بأن قِوامَ السياسة فى هذه الدولة كان على التحيل والمخادعة، أكثرَ مما كان على القوة والشدة.

لننتقل الآن الى ذكر الكتاب الذى بعث به الأمينُ الى أخيه، مع رسله الذين بعثهم للدعوه، وإثارة رجالات المأمون، قبل كل اعتبار، فها كه. «أما بعد، فإن أمير المؤمنين الرشيد، وإن كان أوردَك بالطرف، وضم ما ضَمَّ اليك من كور الجبل، تأبيدًا لأمرك، وتحصينا لطرفك، فان ذلك لا يوجب لك فصلةَ المال عن كفايتك، وقد كان هذا الطرف وحراحه، كافيًا لحدثه ثم يجاور بعد الكفاية الى ما يفضل من ردّه. وقد ضمّ لك الى الطرف كورًا من أمهات كور الأموال، لا حاجه لك فيها، فالحقُّ فيها أن تكون مردودةً فى أهلها ومواضع حقها. فكتبت اليك أسألك ردّ تلك الكور، الى ما كانت عليه من حالها، لتكون فصولُ ردّها مصروفةً الى مواضعها، وأن تأذن لقائم بالخبر، يكون بحضرتك يؤدّى اليك علم ما يعنى به، من حر طرفك، فكتبت تلط دون ذلك، بما إن تم أمرك عليه، صيّرنا الحقَّ الى مطالبتك، فانش عن همك أنش عن مطالبتك، إن شاء الله.»

وَردَ الكتابُ على المأمون، وقرأه المأمون وجماعته، فَسُرِّعَانَ ما ردّ المأمون وجهه عليه بهذا الكتاب. «أما بعد، فقد نعى كتاب أمير المؤمنين، ولم يكتب فيما جهل فأكشف له عن وجهه، ولم يسأل ما لا يوجبه حق فيلزمنى المحه بترك إجابته، وإنما يجاور المناطران منزلة الصدق ما ضاقت الصفةُ عن أهلها، فمتى تجاوزها متجاوز، وهى موجوده الوسع، لم يكن تجاوزُها إلا عن نقصها، واحتمال ما فى تركها، فلا تعنى بأن أنى على مخالفتك،

وأنا مُدْعِى بطاعتك ، ولا على قطيعتك وأنا على إيثار ما تحبّ من صلتك، وأرض بما حكم به الحقّ فى أمرك، أكن بالمكان الذى أنزلنى به الحق فيما بنى و بينك . والسلام" .

ثم انظر الى نعومه المأمون السياسيه — ونثق أنها ستروقك كثيرا، وأنك ستشهد بعلو كعب صاحبها فى الفنون السياسيه — فان التاريخ يحدّثنا أنه أحضر رسلَ أخيه ، وقال لهم : «إن أمير المؤمنين، كتبت اليه، فى أمر كتب الىّ جوابه، فابلغوه الكتاب، وأعلموه أنى لا أزال على طاعته، حتى يضطرنى ترك الحق الواجب الى مخالفته» . فأراد أعضاء الوفد الأمين أن يدهموا فى أفاس القول ، وأرادوا المحاجّةَ والمدافعةَ ، وأرادوا المفاوضةَ والمناقشةَ، ولكنّ المأمون ، السياسىّ المتيقظَ حسارَ العقل ، قطع عليهم سبيل القول وسبيل التفكير اذ حاجهم بقوله « قِفُوا أنفسَكم حيث وقفنا بالقول لكم ! وأحسنوا تأديةَ ما سمعتم، فقد أفهمونا من كتابنا ما لا عسى أن تقولوه لنا » .

انصرف أعضاء الوفد، ولم يستطيعوا أن يثبتوا لأنفسهم حجةً قِبَلَ المأمون، ولم يُوَفَّقُوا الى حمل خبر يؤدونه الى صاحبهم، ورأوا من المأمون وجماعه المأمون، كما يقول الطبرىّ، « حدًّا غير مشوب بهزل، فى منع مالهم من حقهم الواقع برغمهم» .

وصل الخبر الى الأمين فأرعى وأربد . وآستمرت الحربُ الكلاميةُ على حدّتها بين الأخوين، بشأن المال الذى تركه الرشيدُ، و بشأن غير المال، مما يصح الاطلاعُ عليه، وعلى ماوراءه سهل بن هارون وأصرابه وصفًا لذلك فى مطانّه .

على أنه يجدرُ بنا هنا أن نشير الى ما كان من نصيحه قدّمها للأمين، أحدُ رجالات عصره، المشهود لهم بالحزم ونصوح الرأى، وهو يحيى بن سليم، حينما عزم على خلع أخيه، اعلاقتها بما نحن فى سبيل القول فيه من ناحية، ولأنها تساعدنا فوق ذلك على تفهم "الدبلوماتيقية العباسيه" فى ذلك العصر من ناحية أخرى، وأخيرا لأنها تبين لنا فرق ما بين الأمين والمأمون فى تقدير المشورة والأخذ بالنصيحه .

قال يحيى بن سليم للأمين حين مشاورته له فى خلع المأمون : «يا أمير المؤمنين، كيف بذلك لك ! مع ما قد وكد الرشيد من بيعته ، ووثق بها من عهده ، والأحد للأيمان والشرائط فى الكتاب الذى كتبه » فقال له محمد : « إنّ رأى الرشيد كان فلته، شهها عليه جعفر بن يحيى بسحره، وآستمالة بُرقَاه وعُقَده، فعرس لما عرسا مكروها، لا ينفعنا ما نحن فيه معه إلا بقطعه، ولا تستقيم لنا الأمور إلا باجتنائه والراحة منه» ، فقال : «أما اذا كان رأى أمير المؤمنين خلعه، فلا تجاهره مجاهرة، فستنكرها الناس، و ستشنعها العامة، ولكن تستدعى الجند بعد الجند، والقائد بعد القائد، وتؤنسه بالألطاف والهدايا، وتفرق فى ثقاته ومن معه، وترغّبهم بالأموال، وتستميلهم بالأطماع ، فاذا وهنتْ قوّته وآستمرت رجاله، أمرتَه بالقدوم عليك، فان قدم صار الى الذى تريد منه ، و إن أبى كنت قد تناولته، وقد كَلَّ حدُّه، وهِيض جناحُه، وضعف ركنه، وآنقطع عِرْقه» . فقال محمد: « ما أقطع أمرا كصريمة ! أنت مهدار خطيب، ولست بذى رأيٍ، فزل عن هذا الرأى الى الشيخ الموفق والوزير الناصح، قم فالحق بمدادك وأقلامك ! »

ونرى من المستصوب ، بعد هذا الآستطراد، أن نشير هنا الى ما رواه الطبرىّ من أن الفضل بن سهل، كان قد دسّ قوما آختارهم ممن يثق بهم من القوّاد والوجوه بغداد، ليكاتبوه بأخبار الأمين وجماعته ، يوما فيوما . وكان التجسس لذلك العهد فى منظم منقدّما ، فكان للأمين ، وهو ولىّ عهد ، على والده الرشيد عيون، وكان لأخيه بين ذلك عيون ، وكان للخليفة على ولاته وعماله وأولاده عيون، ولولاته وعماله عليه عيون ، وكان للوزراء والكبراء والزعماء وغيرهم مثل ذلك من العيون والأرصاد بعضهم على بعض ، وكانت روح العصر تساعد على ذيوع الجاسوسية وآستفحال أمرها . فمن المعقول اذا شاور الأمين أو الفضل بن الربيع أحدا ، وقال مما فيه مصلحة القضية المأمونية، أن يصل خبر ذلك من فوره الى المأمون ، فيقف بذلك المأمون وجماعته ،

على حليـه الخبر وحقيقـة الحال عند خصومهم السـياسيين . ونكاد نرجح من ناحيتنا أن لتقدم فن الجاسوسيه عند المأمون أثره العظيم فى علته وظهوره على أخيه .

ولننتقل الآن الى أحداث سنه خمس وتسعين ومائة . ولنسطر فى حوادثها الجسام نظره تخلى فيها بعض مما نحن فى صدده من بحوثنا هذه . فنجد أن الخصومه السياسيه بين الأخوين حملت الأمين على أن يأمر بإسقاط ما كان ضُرب لأخيه عند الله المأمون من الدنانير والدراهم بخراسان فى السنة التى قبلها ، وذلك لأن المأمون كان أمر ألا يُثبت فيها اسم محمد . وقال بعض المؤرخين . إن تلك الدنانير والدراهم كانت لا تدور فى بعض الأحايين وكانت تدعى بالرناعية .

وقد سبق لنا القول إن الأمين أمر بالامتناع عن الدعاء لأخويه : المأمون والقاسم ، وإنه أمر بالدعاء لنفسه ولطفله الصغير من بعده ، وإنه صَدَر فى ذلك كله عن رأى الفَضْل ابن الرَّبيع وجماعة الفضل بن الربيع ، مما كان من نتائجه نشوب الحرب الكلاميه بين الأخوين ، وإبدارها بوقوع شرٍّ مستطيرٍ بين الأميرين .

* * *

(هـ) نفور الرأى العام واستنكار الوفود السياسية :

ونريد الآن أن نَقِفَكَ على مبلغ نفور الرأى العام من فعل الأمين وجماعته ، مما رواه لنا المؤرخون ، وسنلخصه لك كطريقتنا ، التى أخذنا بها أنفسنا ، والتى لم نَحِدْ عنها ، إلا اذا دعت الضروره والمصلحة الى تصوير امر هام يحتاج الى الشرح والإيضاح . ونعتمد فى تلخيصنا هذا على مصادر عدّه ، منها الطبرىّ وابن الأثير واليعقوبىّ وغيرهم من الفريجة الذين كتبوا فى التاريخ الاسلامىّ فى العصر الذى نحن بسبيل القول فيه .

روى المؤرخون أن محمدا الأمين عقد فى السنه التى نسرد عليك مجمل أخبارها لعلىّ بن عيسى بن ماهان على كُوَر الجبل كلها : نَهاوَنْد ، وهَمَذان ، وقُم ، وأصْفَهان ، حربها وخراجها ، وضمّ اليه جماعة من القوّاد وأمر له ، فيما ذكر بمائتى ألف دينار ، ولولده

بخمسين ألف دينار، وأعطى الجند مالا عظيما، وأمر له بألفى سيف من السيوف المحلاة وستة آلاف ثوب للخِلَع . وقيل : إن محمدا الأمين أحضر بعد ذلك رجال بيته ومُشيريه، وتكلم فيهم بما كان بين الأحويين، وكان من المنتظر، لو أن للأمين طَهِيراً من الرأى العام، أن يجد من يمتدح فعلته، أو يحتط فى نشر الدعوة له وبيان أنه على حق فيما يريد أن يفعل، ولكنا نجد أنه انتهى الى آخر كلامه فلم يتكلم بعده إلا ثلاثة من جماعته الطاهريين، ممن عرفنا مصالحهم فى الزُّلْفَى اليه والتقرب منه، وهم سَعِيد بن الفَضْل الخَطِيب، ومحمد بن عيسى ابن نهيك، والفضل بن الربيع .

على أنا يجب أن نقول إن الفضل بن الربيع كان ماكرا أعظم ماكر، ولكن مكره كان مفضوحا فى هذا الموقف . فقد قال فى مَعْرِض كلامه : « إن الأمير موسى ابن أمير المؤمنين قد أمر لكم يا معاشر أهل خُرَاسان من صُلْب ماله بثلاثة آلاف درهم تقسم بينكم ! » .

نقول إن مكره كان مفضوحا . لأنا نعلم أن موسى كان طفلا غِرًّا، لا يفهم هذه الأمور ولا يعقلها، ولكن الفضل أراد أن يُقِرَّ عينَ الأمين، ولا يمكن أن يكون حاذا فى رعيته فى إثاره الخراسانيين بهذه الطريقة المكشوفة، ولكنها البطانة، بأنى عليها رياؤها ونفاقها وتزلفها إلا أن تصوّر لولىّ نعمتها أمير المؤمنين أنه الحكمة والعدل، وأنه الساعة والعقربة، وأن سلالته قد جمع أحداثُها مَرَابةَ الشيوخ وكفايتهم، وأصالة المحترس ودرايتهم، ودكاء الدوابع ومواهبهم . وهكذا تستمر البطانة على نعمتها هذه، لاصقه بمن عداه وعدا حَامَّتِه وحاضَّته، ما شاء هوى الخليفة، حتى تقع فى رُوعه أن حاشيته لا تنطق إلا حقا ولا تقول إلا صدقا ! .

ولنسأل الآن : ماذا كان من المأمون إزاء تصرّفات أخيه ؟ .

إنه لم يتهاون آلبتة فى أموره : صغيرها وكبيرها، وكان يقابل كل تصرّف من أخيه بمثيله ونظيره، مع وضع كل شىء موضعه، واستقصاء المصلحة والصواب فى تصرّفه .

وقد تراسل الأخوان بعد ذلك بكتب عدّه . وإنا نثبت هنا نص كتاب المأمون ردًا على كتاب بعث به اليه الأمين مع وفد سياسيّ فى شأن البَيْعة لأبنه موسى، قال : « أما بعدُ فقد آنتهى إلىّ كتاب أمير المؤمنين مكرًا لإنائى مبرلة تَهَضّمى بها وأرَادنى على خلاف ما يعلم من الحق فيها . ولعمرى ان أورد أمر المؤمنين موارد الصغة ، فلم يطالب إلا بها ولم يوجب نكرة تركها، لآنبسطتْ بالحمه مطالعُ مقالته، ولكنتُ محجوجًا بمفارقة مايوجب من طاعته . فأمّا وأنا مُدْعَىٌ بها، وهو على ترك أعمالها، فأولى به أن يدير الحقَّ فى أمره ، ثم يأخذ به ويعطى من نفسه . فان صرتُ الى الحق فرعت عن قلبه، وإن أبْيتُ الحق قام بمقدرته . وأما ما وعَد من ردّ طاعته وأوعد من الوطأه بمخالفته، فهل أحدٌ فارق الحق فى فعله ، فأبقى للتبيّن موضع ثقةٍ بقوله ! والسلام » .

ولقد كان من تصرفات المأمون إزاء تصرفات أخيه وحاشيته ، أن كتب الى علىّ بن عيسى، قائد الجيوش الأمينية، لما بلغه ماعزم عليه .

" أما بعدُ ، فإنك فى طل دعوةٍ لم يزل أنف وسَلَفُك بمكان ذبّ عن حَرِيمها ، وعلى العناية لحفظها، ورعايةٍ لحقّها، توخون ذلك لأنفسكم ، وتعتصمون بحبل جماعتكم ، وتعطون بالطاعة من أنفسكم ، وتكونون يدًا على أهل مخالفتكم ، وحِزبًا وإخوانا لأهل موافقتكم ، تؤثرونهم على الآباء والأبناء ، وتنصرفون فيما تصرّفوا فيه من منزلةٍ شديدةٍ ورخاء ، لا ترون شيئا أبلغ فى صلاحكم من الأمرِ الجامع لألْفتكم ، ولا أجْرى لَوَاركم مما دعا نشَتات كلمتكم، ترون من رغب عن ذلك حائرًا عن القصد، ومن أمّة على منهاج الحق . ثم كنتم على منهاج الحق، ثم كنتم على أولئك سيوفًا من سيوف نقم الله . فكم من أولئك قد صاروا وديعةَ مَسْعيه وجَزَرًا حامده ، قد سَفَت الرياحُ فى وجهه ، وتَذَاعتِ السباعُ الى مَصْرَعه، غير ممهّدٍ ولا موسّدٍ، قد صار الى أمة . وغير عاحل حظّه . ممّن كانت الأئمة تنزلكم لذلك بحيث أنزلتم أنفسكم من الثقة بكم فى أمورها ، والتقدمة فى آثارها . وأنت مستشعرُ دون كثيرٍ من ثِقاتها وخاصّتها ، حتى بلغ الله بك فى نفسك

أن كنت قريعَ أهلِ دعوتك. والعالمَ القائم بمعظم أمرِ أمتك، إن قلتَ ادنُوا دَنَوْا ، وإن أشرتَ أقبلُوا أقبلوا ، وإن أمسكتَ وقفوا وقزوا ، وئاماً لك وآستنصاحا ، وزداد نعمةً مع الزيادةِ فى نفسك ، ويزدادون نعمةً مع الزيادة لك بطاعتك ، حتى حللتَ المحلّ الذى قُرْتَ به من يومك ، وآنقرض فيما دونه أكثرُ مدّتك ، لا يُنتظر بعدها إلا ما يكون حتامَ عملك : من حيرٍ فرضَى به ما تقدّم من صالح فِعْلك ، أو حلافٍ فيصِلَ له مقدّمُ سعيك. وقد ترى يا أبا يحيى حالًا عليها حلوتَ أهـل نعمتك ، والولاةَ القائمة بحق إمامتـك ، من طعنٍ فى عُقْـدة كنتَ القائم بشدّها ، وعهودٍ بوليتَ معاقد أحدها ، بُدْأ فيها بالأحصّين ، حتى أفضى الأمر الى العامة من المسلمين ، بالأيمـان المُحَرَّجه والمواثيقِ المؤكّدة ، وما طلع مما يدعو الى نشر كلمةٍ ، وتفريقِ أمةٍ ، وشتّ جماعةٍ ، وتتعرّض به لتبديلِ نعمةٍ ، وزوالِ ما وطّأت الأسـلافُ من الأئمة . ومتى زالت نعمةٌ من ولاة أمركم ، وصل زوالهـا اليكم فى خواصّ أنفسكم . وان يغيّر الله ما نقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم . ولبس الساعى فى نشرها تساعٍ فيها على نفسـه ، دون السعى على حَمَلَتِها القائمين بحرمتها ، قـد عرضوهم أن يكونوا جَرَرًا لأعدائهم ، وطُعْمة هوىً ، تتطفر محالمُهم فى دمائهم . ومكانُك المكان الذى إن قلت رُجع الى قولك ، وإن أشرتَ لم تتّهـم فى نصيحتك . ولك مع إيثار الحق الحظوةُ عنـد أهل الحق ، ولا سـواء من حَطِى بعاجلٍ مع فراق الحق فأوبى بنفسه فى عاقبته ، ومن أعان الحق فأدرك به صلاحَ العاقبة مع وُفورِ الحظّ فى عاجله . وليس لك ما تُستدعَى ، ولا عليه ما تُستعطفُ ، ولكنه حقٌّ من حقّ أحسانك يجب ثوابُه على ربك ثم على من قمت بالحق فيه من أهل إمامتك . فإن أحركك قولٌ أو فعل ، فصِرْ الى الدار التى تأمن فيها على نفسك ، وتحكم فيها برأيك ، وتجاوز الى من يحسن تقبُّلا لصالح فعلك ، ويكون مرجعك الى عمدك وأموالك ، ولك بدلك الله . وكفى بالله وكيلا . وإن تعذر ذلك فقيه على نفسك فإمساكا بيـدك وقولا بحق ، ما لم تخَفْ وقوعه بكرهك ، فلعـل مقتدياً بك ، ومعتبطا بهيـك . ثم أعلمنى رأيك ، أعرفه إن شاء الله » .

على أن ما يرمى اليه الرّواه من تحقير شأن الأمين، لا يَحُول بينـك و بين تبيّن حقيقة الأمين ورجاله ، لأنك سـتلاحظ بلا ريب ، فى ثـنايا سطورهم ، وفَلَتـات الحوادث التى يروونها لك، ما قد يُتيح لك أن تؤمن أن عـبد الأمين بعض رجالات أفذاذ ، فان الطبرىّ يحدّثـنا فى حوادث سـنه خمس وتسـعين ومائة : أن ابن الربيع أشار على الأمين، بأن يكتب لأخيه كتابًا، تستطيب به نفسُـه ، وتسكن وحشتُه، فان ذلك أبلغ فى التدبير، وأحسن فى القَالة ، من مكاثرة بالجنود، ومعاجَلته بالكيد ، و إنه لذلك أحصر له إسماعيلَ بن صُبَيح، للكتابة الى عبد الله، قال : "يا أمير المؤمنين، إن مسألتك الصفحَ عمـا فى يديه، توليـدٌ للطمّ، وتقويةٌ للتّهمه، ومَدْعاة للحذر، ولكن اكتبْ اليه فاعلمْـه حاجتَك اليـه ، وما نحنّ من قربه والاستعانة برأيه ، وسَلْه القدومَ اليـك فإن ذلك أبلغ وأحرى أن يبلغ فيما يوجب طاعتَه وإجابته»[1] .

فقال الفضل : القول ما قال يا أمير المؤمنين .

قال : فليكتب بما رأى . قال : فكتب اليه « من عبد الأمين محمد أمير المؤمنين، الى عبد الله بن هارونَ أمير المؤمنين .

أما بعـدُ، فإن أمير المؤمنين، رأى فى أمرِك والموضـع الذى أنت فيـه من ثَغْرك ، وما يؤمل فى قربك من المعاونة والمُكَافـأة على ما حمّله الله وقلّده من أمورِ عباده وبلاده، وفكّر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجب لك من الولاية، وأمر به من إفرادك على ما يصير اليك منهـا ، فرحا أمير المؤمنين ألا يدخل عليـه وَكَفٌ فى ديـنه ولا نكثٌ فى يمينه ، إذا كان إشخاصه إياك فيما يعود على المسلمين نفعه، ويصل الى عامتهم صلاحُه وفضلـه .

---

(١) يرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار. «أن هذه المكيدة التى دبرها الفضل بن الربيع خانت مفضوحة مهتوكة الأسـتار . وكان أحذر بكثير من أن يرسل ذلك الخطاب أول الأمر بعـد أن يرد على المأمون ما أوصى به الرشيد من مال وكراع وسلاح — فأما بعد نكث الجنود والوزير والأمراء . و بعد طلب الكور . وبعـد طلب تقديم القائم على المأمون وبعد تلك الوعود السياسـية وتمزيق العهود التى كانت فى نظرهم مقدسة ومؤكدة فأخذها وتعليقها فى جوف الكعبة ، فإن الأمر أتى بعد أوانه ولا ينتظر منه سوى الخيبة والفشل»

وعلم أمير المؤمنين أن مكانك بالقرب منه أسدُّ للثغور، وأصلحُ للجنود، وآكدُ للفَيْء، وأردُّ على العامة، من مُقَامك ببلاد خُرَاسان منقطعًا عن أهـل بيتك، متعيبا عن أمير المؤمنين، وما يجبّ الاستمتاعَ به من رأيك وتدبيرك. وقد رأى أميرُ المؤمنين أن يولِّى موسى ابن أمير المؤمنين، فيما يقلّده من خلافتك، ما يحدث اليه من أمرك ونهيك، فأقدَمْ على أمير المؤمنين على بركة الله وعَوْنه، بأبسط أملٍ، وأفسح رجاءٍ، وأحمدِ عاقبةٍ، وأنفذِ بصيرةٍ، فإنك أولى من استعان به أميرُ المؤمنين على أموره، واحتمل عنه النَّصَب فيما فيه صلاح أهل بيته ودمته. والسلام".

ولنظر الى ما يرويه لنا أبُو جَرِيرٍ الطبرىّ عن أعضاء هذا الوفد، فإنه يقول:

لما وصلوا الى عند الله أدلى لهم، فدفعوا اليه كتاب محمد، وما كان بعث به معهم، من الأموال والألطاف، ثم تكلم العباس بن موسى بن عيسى فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الأمير! إن أخاك قد تحمّل من الخلافة ثِقْلا عظيما، ومن النظر فى أمور الناس عبئا جليلا، وقد صدقت بيتُه فى الخير فأعوزه الوزراءُ والأعوان والكُفَاة على العدل، وقليلٌ ما يأنس بأهل بيته؛ وأنت أخوه وشقيقه، وقد فَزِع اليك فى أموره، وأمّلك للوزارة والمُكَافحة، ولسنا نستبطئك فى بِرّه اهتمامًا لنصرك له، ولا تحُضّك على طاعته تخوُّفا لخلافك عليه، وفى قدومك عليه أنسٌ عظيم وصلاح لدولته وسلطانه، فأجبْ أيها الأمير دعوةَ أخيك، وآثِرْ طاعته، وأعِنْه على ما استعانك عليه فى أمره، فإن فى ذلك قضاءَ الحق، وصلة الرحم، وصلاحَ الدوله، وعزّ الخلافة. عزم الله للأمير على الرُّشْد فى أموره، وجعل له الخيرَةَ والصّلاحَ فى عواقب رأيه.

وتكلم عيسى بن جعفر بن أبى جعفر فقال: إن الإكثارَ على الأمير، الله! الله! فى القول خُرْق، والاقتصارَ فى تعريفه ما يجب من حق أمير المؤمنين تقصيرٌ، وقد عاب الأمير، أكرمه الله، عن أمير المؤمنين، ولم يستَغْنِ عن قُربه من شهد عيبه من أهل بيته، ولا يجد عنده غنًى، ولا يجد منه حلفا ولا عوضا. والأمير أولى مَنْ برّ أخاه

وأطاع إمامَه، فليعمل الأميرُ فيما كتب به اليه أمير المؤمنين بما هو أرضى وأقرب ، من موافقة أمير المؤمنين ومحبته ، فإن القدوم عليه فصلٌ وحط عظيم ، والإبطاءَ عنه وكَفٌّ فى الدين، وضرر ومكروه على المسلمين .

وتكلم محمد بن عيسى بن نهيك فقال : أيها الأمير إنّا لا نزيدك بالإكثار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحق أمير المؤمنين، ولا نُشْحَذُ نفسك بالأساطير والخُطَب فيما يلزمك من النظر والعناية بأمور المسلمين . وقد أعوز أميرَ المؤمنين الكُفَاةُ والنصحاء بحضرته، وتناولك فرعًا اليك فى المعونة والتَّقْوية له على أمره . فان تُحبّ أميرَ المؤمنين فيما دعاك اليه فنعمة عظيمةٌ يتَـلافى بهـا رعيتَك وأهلَ بيتك، وإن تقعد يُعْنِ الله أميرَ المؤمنين عنك، ولن يضعَه ذلك ممـا هو عليه من البِرِّ بك، والاعتمادِ على طاعتك ونصيحتك .

وتكلم صالح صاحب المُصَلَّى، فقال : أيها الأمير، إن الخلافة ثقيلةٌ، والأعوانَ قليل، ومن يَكيد هذه الدولةَ ويسطوى على عشها والمعاندةِ لأوليائها مِنْ أهـل الخلاف والمعصية كثيرٌ . وأنت أخو أمير المؤمنين وشقيقُه، وصلاح الأمور وفسادها راجعٌ عليك وعليـه، إذ أنت ولىّ عهده والمشاركُ فى سلطانه وولايته، وقد تناولك أميرُ المؤمنين بكتابه، ووثق بمعاونتك على ما استعانك عليه من أموره، وفى إجابتك إياه الى القدوم عليه صلاحٌ عظيم فى الخلافة، وأنسٌ وسكونٌ لأهل الملة والدمه، وفّق الله الأمير فى أموره، وقضى له بالذى هو أحب اليه وأنفع له .

ثم انظر، رعاك الله، الى مبلغ دهاء الفَضْل، ودقةِ سياسته، وحُسْنِ أمره، وما يرويه نفسه عن صَنيعه مع أحد أعضاء الوفد، فى إحدى الدَّفَعات التى أُرْسل فيها الى المأمون، لأنا نلاحظ وفود الأمين قد أُرْسلت الى أخيـه المأمون أكثرَ من مرّة — قال : «أعجبنى ما رأيتُ من ذكاء العباس بن موسى، فخلوت به فقلت : يذهب عليـك بعقلك وسِنِّك، أن تأخذ بحظّك من الإمام ! — أى المأمون، اذ سُمّى بذلك بسـبب خَلْع الأمين له — فقال له العباس : قد سمّيتُموه بالإمام! فأجابه الفضل : «قد يكون إمامُ المسجد والقبيلة !

فان وفَيْتم لم يصركم، وإن غدرتُم فهو ذاك » . ثم وصل الى أن قال للعباس : « لك عدى ولايةُ الموسم، ولا ولايةَ أشرفُ منها، ولك من مواصع الأعمال بمصر ما شئتَ .. » .

وصل الفصلُ الى ذلك القولِ وما بَرِح به حتى أخذ عليه البيعةَ للمأمون بالخلافه . وتحوّل الأمرُ الى أن أصبح لحزب المأمون من العباس العينُ التى تلمّعهم الأحبارَ، والمتفانى فى المأمونية يمدّهم بالأفكار ويشير عليهم بالآراء، وحتى أضحى منه الشخصُ الذى يقول لعلى بن يحيى السَّرَخْسِيّ : إن دا الرياستين أكبر مما وصفتَ، وإنه قد صاغ المأمونَ الامامَ، وإنه لذلك يمسح يدَه على رأس على بن يحيى لتناوله البركةُ والخير . فتأملْ ! .

وإنه جميلٌ حقا أن نرى المأمون يتريّث فى أمره تريُّث العاقل الحكيم، لما جاءه الوفد الأمينىّ، ويتصرّف تصرّف الكَيِّس الحاذق، إذ قال لهم، فيما أثبت الرواه، بعد أن حاجُّوه وناقشوه فى أمر الأمين : قد عرّفتمونى من حقّ أمير المؤمنين، أكرمه الله، مالا أُنكره، ودعوتمونى من الموالاة والمعُونة الى ما أُوثره ولا أدفعه، وأما لطاعة أمير المؤمنين مقدم، وعلى المسارعةِ الى ما سَرّه ووافقه حريصٌ، وفى الرويّة تثبّاتُ الرأى، وفى إعمال الرأى نصح الاعتزام . والأمر الذى دعانى اليه أمير المؤمنين أمرٌ لا أتأخر عنه تثبُّطا ومدافعة، ولا أتقدّم عليه اعتسافًا وعَجَلة، وأما فى ثغر من ثغور المسلمين كَلِب عدوُّه شديد شوكتُه، وان أهملتُ أمرَه لم آمَنْ دخولَ الضرر والمكروه على الجمود والرعية، وان أقمت عليه لم آمنْ فوتَ ما أُحِبّ من معونةِ أمير المؤمنين ومؤازرته وإيثارِ طاعته . فاصبروا حتى أنظر فى أمرى ونصح الرأى فيما أعْتزم عليه من مَسيرى ان شاء الله . ثم أمر بإنزالهم وإكرامهم والإحسان اليهم .

تريُّث المأمون مع الوفد تريُّث العاقل الحكيم، وإن كان فى الواقع قد هاله الأمر وخَشِى سوءَ مَغَبّته . ويذكر لنا أحدُ المعاصرين، وهو سُفيانُ بن محمد، أن المأمون لما قرأ الكتابَ سُقِطَ فى يده، وتَعاظَمه ما ورد عليه منه، ولم يَدرِ ما يرتئ عليه، فدعا الفضلَ بن سهل فأقرأه الكتابَ، وقال : ماعندك فى هذا الأمر؟ قال : أرى أن تمسك بموضعك، ولا

تجعلَ علينا سَبيلا وأنت مجد من ذلك بُدّا . قال : وكيف يمكنني التمسّك بموصى ومخالفةُ محمد وعظَمُ القواد والجنود معه ، وأكثرُ الأموالِ والخزائنِ قد صارت اليه ، مع ما قد فرق في أهل بغداد من صِلاته وفوائده ، وانما الناس مائلون مع الدراهم منقادون لها ، لا يبطرون ادا وجدوها حفظَ بَيْعـة ولا يرعبون في وفاء عهد ولا أمانة ! . فقال له الفضل : اذا وقعت التهمةُ حقَّ الاحتراس ، وأنا لِغَـدْرِ محمدٍ متخوّف ، ومن شَرَهِهِ الى ما في يديك مُشْفِق ، ولَأَنْ تكون في جُنْدك وعِزّك مقيماً بين ظَهْراني أهلِ ولايتـك أَحْرى ، فان دهَمك مـه أمرٌ حرّدتَ له وباجرتَه وكايدتَه ، فإنما أعطاك الله الظفرَ عليـه بوفائك وبيـك ، أو كانت الأخرى فمتْ محافظًا مكرما ، غير مُلْقٍ بيـديك ولا ممكنٍ عدوَّك من الاحتكام في نفسـك ودمك . قال . إن هذا الأمر لو كان أتاني ، وأنا في قوةٍ من أمري وصلاحٍ من الأمور ، كان خَطْبه يسـيرا والاحتيالُ في دفعه ممكنًا ، ولكنه أتاني بعد إفساد خُرَاسان ، واضطراب عامرِها وعامرها ، ومفارقة جيوبه الطاعة ، والتواء حَاقان صاحبِ التُّبت ، وتهيؤ ملِك « كابُل » للغارة على ما يليـه من بلاد خراسان ، وامتناع ملك أترابنده بالصَّريبـة التي كان يؤدّيها ، وما لي بواحدة من هذه الأمور يدٌ . وأنا أعلم أن محمدا لم يطلب قُدُومي إلا لشرٍّ يريده ، وما أرَى إلا تحلية ما أنا فيـه والتحاقَ بخاقانَ ملِك الترك والاستجارة به وببلاده ، فلَأَحْرَى أن آمنَ على نفسي وأمتنعَ ممن أراد قهري والغـدرَ بي . فقال له الفضـل : أيها الأمير ، إن عاقبة الغدرِ شديدةٌ ، وتبعة الظلمِ والبغي غيرُ مأمونٍ شرُّها ، وربَّ مستذَلٍّ قد عاد عزيزًا ، ومقهورٍ قد عاد قاهرًا مستطيلا ، وليس النصرُ بالقلةِ والكثرةِ ، وحرج الموت أسلم من حرج الذلِّ والصيم ، وما أرى أن تفارق ما أنت فيه ، وتصيرَ الى طاعةِ محمدٍ ، متجرّدا من قوادك وجنـدك كالرأس المختزَل عن بدنه ، يجري عليـك حكمه ، فتدخل في جملة أهل مملكته ، من غير أن تُبْلِي عذرا في جهادٍ ولا قتـالٍ ، ولكن اكتبْ الى جيوبه وخاقان ، فولِّهما بلادَهما ، وعِدْهما التقويةَ لهما في محاربة الملوك ، وابعث الى ملك كابل بعضَ هدايا خراسان وطُرفها وسَلْه الموادعةَ تجدْه على ذلك مريصا ، وسلِّم لملك اترابنده صريبته في هذه السنة ، وصيِّرها صلةً منك وصلتَه بها ، ثم اجمع اليك أطرافك ، واضمُمْ اليك مَنْ شَذَّ من جندك ، ثم

اضرب الخيلَ بالخيـل والرجالَ بالرجالِ ، فان ظفرت ، وإلا كنت على ما تريد من الخلاف بخلقان قادرا . فعرف عبـد الله صدقَ ما قال ، فقال : اعملْ فى هـذا الأمر وغيره من أمورى بمـا ترى ! فتـدبَّرْ ، وفقك الله ، هـذا التفكيرَ الدقيق ، وهذه السياسـة المحكمة الأطراف من كليهما .

ثم انظر الى تصرّف المأمون الحكيم ، بعد ما قدّماه لك ، فانه أنفذ الكتب الى رجاله وأنصاره ، وعمل على لَمِّ شَعَثِه ورَأْبِ صَدْعه ، واستقدم طاهرَ بن الحسين ، عامله على الرَّىّ ، ليعهد اليه فى قيادة جنده ، ثم مكث يدبّر الرأى فيما يجيب به أخاه ، واستقر رأيُه على مناجزة أخيه ومنازلته ، بعد أن أعلمه انَّ سهل بن النصر له وأن الجموع تبيّ بذلك . وانظر ما يرويه لنا المؤرّخون من أنه كتب الى الأمين : « أما بعـد ، فقد وصل الىّ كتاب أمير المؤمنين ، وإنمـا أنا عامل من عماله وعونٌ من أعوانه ، أمرنى الرشيد ، صلوات الله عليه ، بلزوم هذا الثَّغْر ، ومكايدةِ من كايد أهلَه من عدوّ أمير المؤمنين . ولعمرى إن مُقَامى به أردُّ على أمير المؤمنين ، وأعظم غَنَاء عن المسلمين من الشخوص الى أمير المؤمنين ، وإن كنتُ معتبطًا بقربه ، مسرورا بمشاهدة نعمه الله عبـده . فان رأى أن يُقِرّنى على عملى ويُعْفِينى من الشخوص اليـه فعل ان شاء الله والسلام » . ثم دعا العباسَ بن موسى ، وعيسى بن جعفر ، ومحمدا ، وصالحا ، فدفع اليهم الكتاب ، وأحسن اليهم فى جوائزهم ، وحمل الى محمد ما تهيأ له من ألطاف خراسان ، وسألهم أن يحسنوا أمرَه عنده وأن يقوموا بعذره لديه .

* * *

(و) إعلان الحـــرب :

ولننتقل الآن الى الكلام عن الحرب العملية التى تلتْ هـذه الحربَ الكلاميـة ، كما هو المنتظر : إن التاريخ يحدّثنا أن الأمين ورجالَ الأمين ، بدءوا فى تعبئة الجنود ، كما بدأ المأمون ورجال المأمون فى حشد الكتائب . وإنا لنرتاب كثيرا ، فى صحة ما ذكره الرواة : من أن طاهر بن الحسين القائدَ العام للجيوش المأمونية كان فى جيش عدّته ثمانمائة وثلاثة آلاف ،

بينما كان علىّ بن عيسى بن مَاهَان القائد العام للجيوش الأمينيـة فى زُهَاء أربعين ألفا ! ونرجّح كثيرا أن الرواة قد نقصوا عددَ الجنود المأمونية، ليُظْهروا للناس مبلغَ كفاية طاهر، وأنه استطاع بجندٍ قليـلٍ عددُهم أن يُـنَـازل جيوشا جرّاره ويغلبَها على أمرها ، لأنهـم كثيرا ما يَجْنحون الى الإغراق والمبالغة فى مثل هـذه المواقف: من مظاهرتهم للأقوياء، وانتقاصهم للضعفاء كما أسلفنا .

نشك فى صحة ذلك كـثيرا . ونشك كذلك فيما يروونه : من أن الجيوش المأمونية قد عثرتْ فى عسكر ابن ماهان على سبعمائة كيس ، فى كل كيس ألف درهم، وأنها عثرت كذلك على صناديق عدّة فيها خمر سَوَادىّ وقَنَابِىّ عِدّة !

قد يكون أمر الأموال صحيحا ، ولكنّا نميل الى الافتراض بأن أمر الصناديق العدّة، إن لم يكن مكذوبا فى جملته، بقصد الزَّرَابة بالجماعة الأمينية، فهو مُغَالًى فيه كثيرا .

ويذهب ابن الأثير فى بيـان عرور على بن عيسى بن ماهان الى أنه، لمـا قَرُب من الرىّ ، ظنّ أن طاهر بن الحسين قائد القوات المأمونيـة لا يَثْبُت له ، وإن عليـا قال : « ما طاهرٌ إلا شَوْكة من أغصانى وشرارةٌ من نارى، وما مثـل طاهر يؤمّر على جيش، وما بينه وبين الأمين إلا أن تقع عينُه على سَوَادكم، فان السِّخَال لا تَقْوَى على نِطَاح الكِبَاش، والثعالبَ لا تَقْوَى على لقاء الأُسْد، وأن علىّ بن عيسى بن ماهان قال لابنه، لمـا أشار عليه بأن يبعث طَلَائع ويرتاد موضعًا لعسـكره : ليس طاهر يُسْتعدّ له بالمَكَايد والتحفّظ، إن حال طاهر يؤدّى الى أمرين : إما أن يتحصّن بالرىّ، فيَثِبَ به أهلُها، ويكْفُونا مؤونتَه، أو يحلّيها ويُدْبر ! . فقال له ابنه : إن الشرارةَ ربما صارت صِرَاما ! " فأجابه : "إن طاهرًا ليس قِرْنًا فى هذا الموضع، وإنما تحترس الرجالُ من أقْرانها ! " .

ونحن نقول : إن من الجائز أن يكون شىء من هـذا قد وقع . ومن الجائز أن يكون علىّ بن ماهان زَهْو وعرور، وقصرُ نظرٍ وسوء تدبير . وقد يكون ذلك حين المقارنة والموازنة

(١) أى إلا أن يؤخذ أسيرا عند الأمين .

أقلّ شأنا من مُنَازِله وخصمِه طاهر بن الحسين . ولكنا مع ذلك نُحِسّ إحساسًا لا يعدو الواقع كثيرا أن هـذا الحديث المَعْزُو اليه من قبيل الروايات المَحْوُلَة، والقِصَص المخترعه، التى كثيرا ما تُخترع وتُحَمَّل فى مثل تلك الظروف .

على أنا مع ذلك نقرر أن الجيوش المأمونية كانت على أتم تعبية، وأكمل كِفَاية، وأدقّ نظام، وأحس حالٍ، وأن حديعة طاهر وقوّاد طاهر : من حَمْل صورة البَيْعَة على أسنّة رِمَاحهم[1] تُعيد الى الأذهان ما كان بين حند معاوية وحند علىّ من حمل حند معاوية المصاحف على الرماح .

لننتقل الآن الى مسألة أخرى لها علاقة بعلىّ بن عيسى بن ماهان من ناحية ، كما أن لها علاقات بما يقع فيه القُصَّاص والمؤرّخون والرواة من تناقص من ناحية أخرى . تلك المسألة هى ما يُعْزى الى رُبَيدة من نصيحتها لابن ماهان باحترام المأمون وإجلاله ، وأنها قالت له : « يا على ! إن أمير المؤمنين وإن كان ولدى، اليه تناهتْ شفقتى، وعليه تكامل حذرى، فإنى على عبد الله متعطّفة مُشْفقة، لما يحدثُ عليه من مكروهٍ وأذًى، وانما ابنى ملكٌ نافس أخاه فى سلطانه، وغاره على ما فى يده، والكريم يأكل لحمه و يمعه غيرُه ، فاعرفْ لعبد الله حقّ والده و إجوته، ولا تَجْبهه بالكلام، فانك لستَ نظيرَه، ولا تقتسرْه اقتسارَ العبيد، ولا تُرْهقه بقيدٍ ولا غُلّ، ولا تمنع منه جارية ولا خادما، ولا تعنّف عليه فى السير، ولا تُساوه فى المَسير، ولا تركب قبلَه ، ولا تستقلّ على دابتك حتى تأخذ بركابه، وان شتمك فاحتملْ منه، وإن سَفِهَ عليك فلا تُرَادَّه » .

---

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار فى هذا بقوله : «لم يكن كل الجند المأمونى حاملا صورة البيعة ولا كثير منهم ولكن الأمر فى ذلك أن أحمد بن هشام علق البيعة للأمون على رمحه وكان على بن عيسى هو الذى أخذها للأمون على أهل خراسان أيام كان واليا بها ليقيم بذلك الحجة على على بن عيسى فلما منه أحمد بن هشام بعد أن طلب الأمان وأمنه على بن عيسى وقال له أحمد . ألا تتقى الله عز وجل ؟ أليس هذه نسخة البيعة التى أخذتها أنت خاصة اتق الله فقد طعنت بابن عمك ، فلم يأبه له على بن عيسى بل قال : من أتانى به فله ألف درهم فشتمه أصحاب أحمد .. الخ من ابن الأثير» .

معقول أن يكون ذلك من زُبَيدة لابن زوجها الرشيد . ولكنّ التاريخ يحدثنا عن قيد من الفضة قيل إنها أعدّته ليقيَّد به المأمون ، كما يحدّثنا أن المأمون نفسه اعترف بمسألة هذا القيد . بيْد أن نصّ الصيحه ، وما اشتملت عليه من الأوامر ، وما جُبِلتْ عليه نفسية السيدة زبيدة ، مما يرجح عدم صحة القول بإعدادها قيدَ فضة أو ذهب ، ليقيد به المأمون .

* * *

(ز) انتصار الجيوش المأمونية ومقولات الشعراء :

وقد كتب الله للجيوش المأمونيةِ الفَلَجَ والصبر على الجيوش الأمينية . ونترك هنا الكلمة لطاهر بن الحسين قائد المأمون ، فانه ينبئ حليفته عن ذلك الانتصار بقوله . «أطال الله بقاءَك ، وكَبَتَ أعداءك ، وحمل من يَسْؤك فداءك ، كتبتُ اليك ورأس عليّ ابن عيسى بين يديّ ، وخاتمُه في أصبعي ، والحمد لله رب العالمين» .

وذكر بعض أهل خراسان أن المأمون لما أتاه كتابُ طاهر بخبر عليّ بن عيسى بن ماهان ، وما نالته جيوشه من فوزٍ وانتصار ، وما أوقع الله بجُنْد حصمه من فَشَلٍ وانكسار ، قعد للناس ، فكانوا يدخلون عليه فيهنئونه ويدعون له بدوام العز والنصر ، وأن المأمون ، في ذلك اليوم ، أعلى حلعَ محمد ، كما أعلى خلافتَه في جميع كُوَر خراسان وما يليها ، وسُرَّ بذلك أهل خراسان ، وحطتِ الخطباء ، وأنشدت الشعراء . وفي ذلك يقول الشاعر :

أصحت الأمّةُ في عِطْفةٍ * من أمرِ دُنْياها ومن دينها
اذ حفظتْ عهدَ إمام الهدى * خير بني حَوّاءَ مأمونها
على شَفَا كانتْ ، فلما وفَتْ * تخلّصتْ من سوء تحيينها
قامت بحق الله اذ دُبِّرتْ * في وُلْده كُتْبُ دواوينها
ألَا تراها كيفَ بعدَ الرَّدى * وفّقها اللهُ لتزيينها

وهي أبيات كثيرة .

وذكر علىّ بن صالح الحرْبى أن علىّ بن عيسى لما قُتل ، أرْجَف الناسُ ببغداد إرجافاً شديدا ، وندم محمد على ما كان من نَكْثه وعَدْره ، ومشى القوّاد بعضهم الى بعض ، وذلك يوم الخميس للنصف من شوّال سنة ١٩٥ ، فقالوا : ان عليا قد قتل ، ولسنا نشك أن محمدا يحتاج الى الرجال واصطناع أصحاب الصنائع ، وإنما يحتاج الرجالَ أنفسُها ، ويرفعها بأسُها وإقدامها ، فليأمر كل رجل منكم جندَه بالشَّغَب وطلب الأرزاق والجوائز ، فلعلنا أن نصيبَ منه فى هذه الحالة ما يصلِحُنا ويصلِح جندنا .

حبرنى ، لَعَمْرُك ! أليستْ هذه بوادرَ الفوضى وعلاماتِ الانتقاض ! أو ليست هذه هى هى بعينها مبادئَ الثوره وأمارات زوال الملك وسقوط العروش ، وأقول نحن أصحابها ! أجل ! إنها لكذلك ، وإن فى انقسام كلمة الزعماء ، وإثارتهم النفوس بالاضطراب والقلاقل ، وَإصرارهم بيرانَ الفتن ، وتحريكهم الجندَ وما الى الجند للشَّغَب والهياج ، تقطيعا لأوصال البلاد ، وتدميرا بالهدم والفناء .

ولننظر ماذا كان من حماقات رجال الأمين ؟

ان التاريخ ليحدثنا أن رأيهم قد اجتمع على الشعب والاصطياد فى الماء العكر ، وأنهم أصبحوا فتواعوا الى باب الجسر وكبروا ، فطلبوا الأرزاق والجوائز ، وبلغ الخبر عبد الله بن حازم ، فركب اليهم فى أصحابه وفى جماعة غيره من قوّاد الأعراب ، فتراموْا بالنشّاب والحجارة واقتتلوا قتالا شديدا ، وسمع محمد التكبير والصحيح ، فأرسل بعض مواليه أن يأتيه بالخبر ، فرجع اليه فأعلمه أن الجند قد اجتمعوا وشَغَبوا لطلب أرزاقهم ؛ قال : فهل يطلبون شيئا غير الأرزاق ؟ قال لا ، قال : ما أهون ما طلبوا ! ارجع الى عبد الله ابن حازم فمُرْه فلينصرف عنهم ، ثم أمر لهم بأرزاق أربعة أشهر ، ورفع من كان دون الثمانين الى الثمانين ، وأمر للقوّاد والخواصّ بالصِّلات والجوائز !

ولنتساءل الآن ، إزاء إجابة الأمين لسؤل القادة والجند ، ومبادرته الى رَفدهم ، وإسراعه بمنحهم الأعطيات والهبات ، والجوائز والصلات ، أكان فى تصرفه حكيما ، وفى عمله مسدّدا موفقا ؟ .

لا نظنّ ذلك . وكان الحزمُ به أولى، ليُقْدَع الفتنـة ، وليَضَعَ حدّا صارما لشهوات دوى الغايات والمستفعين الذين يكثر وحودهم وتتوافر جماعتهم فى إمّانها وفتراتها .

* * *

وقد كان احتيار الأمين لعـلىّ بن عيسى بن ماهان ، خَطَلًا سياسيا، لأن سابقـة ابن ماهان فى خراسان أيام الرشيد كانت سابقة سوء، فهو ممقوت أشـدّ المَقْت عنـدهم . ونقرر بهذه المناسبة أنه يحيل الينا، الى حدّ غير قليل ، احتلاق تلك القصة التى تعـزى الى الفضل بن سهل : من أنه كتب الى الدسيس الذى كان ممن يشاورهم الفضل بن الربيع فى أمره : أنه ان أبى جماعه الأمين إلا عزمةً فى الخلاف ، فالطف لأن تجعـل أمرهم لعلى بن عيسى . وقال الطبرىّ : وإنمـا حصّ ذو الرياستين علياً بذلك، لسوء أثره فى أهل خراسان، واجتماع رأيهم على كرهه، وأن العـامه قائلة بحربه . فشاور الفضـلُ الدسيس الذى كان مشاوره، فقال : على بن عيسى ! وإنه إن فعل فلم يَرِمْهم بمثله فى بعد صومة ، وسخاوة نفســه ، وكان فى بلاد خراسان فى طول ولايته وكثرة صنائعه، ثم هو شيخ الدعوة وبقية أهل المشايعة . فأجمعوا على توجيهه .

نميل الى القول بأن نسبة اختيار ابن ماهان الى تدبير ابن سهل ، وإسناد كل فضـل اليه، من باب الدعوة لابن سهل . ونحن ممن يقرّ بذكائه وسعة حيلته، كما أسلفنا . ولكنا نقرر أيضا أن صلة ابن ماهان بالأمين، وبدولة الأمين، وبابن الربيع، كانت مما يحتّم على الأمين لا محالة تقليدُه أمر جيوشـه وتفضيلُه على غيره من القادة، لا أن دسيسَ جمـاعة المأمون هو الذى أشار بـدبه واختياره . فلنحترس كثيرا من مبالغـة المؤرّخين والرواة ، ولنحمل من عقولنا ومنطقنا مَحَكًّا وحَكَما .

ولْنُلْفِت النظر هنا الى تناقض وقع فيـه الرواة من الحزب المأمونى، فبينا نراهم يقررون أن جيش المأمون عثر على صناديق عدّة من الخمر، فيما غنمه من على بن عيسى بن هامان ، إذ بالدسيس يصفه بقوله : «ليس مثله فى بعد صومة وسخاوة نفسه ! » .

ومهما قيل بأن وصفه كذلك من باب الختل والخديعة ، وبأنه كان فى حقيقة الأمر سِكِّيرًا مُعَرْبِدًا، فإما نرى أثر التأليف القصصىّ فى الروايتين طاهرًا جليًّا .

وسبق لنا أن قد فَنَّدنا، حينما كنا بسبيل القول فى الأمين، ما رواه محمد بن يحيى بن عبد الملك النيسابورى من أن الأمين قال لما نَعَى الناعى اليه قاتلَه . « ويلك دعنى فان كوثرا قد اصطاد سمكتين، وأنا ما اصطدت شيئا بعد! » . وترك الناعىَ وحبرَه، وأقبل على الصيد وكوثرِه، فلصمّ هذه الى تلك .

ويجدر بنا الآن أن نطلعك على بعض مقولات الشعراء فى موقف الأخوين، مع ملاحظة ما لاحظناه من مبالغتهم فى تمداحهم للقوىّ، وعلوهم فى زرايتهم على الضعيف . قال أحد الشعراء البغداديين :

أضاع الخلافة عيش الوزير * وفسق الإمام وجهل المشير
ففضلٌ وزيرٌ وبكرٌ مُشيرٌ * يُريدان ما فيه حتف الأمير
وما ذاك إلا طريقُ غُرورٍ * وشرُّ المسالك طرقُ الغرور
لواطُ الخليفة أعجوبةٌ * وأعجبُ منه حَلاقُ الوزير
فهذا يدوسُ وهذا يداسُ * كذاك لعمرى اختلاف الأمور
فلو يستعيبان هذا بذاك * لكانا بعُرْصة أمرٍ سَتير
ولكن ذا لجّ فى كوثرٍ * ولم يَشْفِ هذا دِعاسُ الحمير
فشُعِّث فعلاهما منهما * وصارا حِلافًا كجَوْبِ العير
وأعجبُ من ذا وذا أننا * نبايع للطفل فينا الصغير
ومن ليس يُحسن عسل آستِه * ولم يحل مَتْنُه من مخرِطير
وما ذاك إلا بفضلٍ وبكرٍ * يريدان نقصَ الكتاب المسير
وهذان لولا انقلابُ الزمان * أفى العِير هذان أم فى النَّفير

ولكنها فتن كالجبال * ترفّع فيها الوضيع الحقير
فصبرًا ففي الصبر خيرٌ جميلٌ * وإن كان قد ضاق صبرُ الصّبور
فيارب فاقبضهما عاجلًا * اليك وأوردْ عداتَ السعير
ونكّلْ بفصلٍ وأشياعه * وصَلِّبهُمُ حول هدى الجسور

✦

(ح) عود على بدء، مجهودات الأمين فى سبيل الفوز :

ولقد سبق أن قلنا لك : إنه مع ما يرمى اليه الرواه من تحقير شأن الأمين ورجالات الأمين، يمكننا مع ذلك تبيّن حقيقة أمره، مما يلاحظ فى ثنايا السطور وفلتات الحوادث، وقلنا : إن تلك الفلتات قد تتيح لنا أن نؤمن بأن عهد الأمين بعض رجالاتٍ أفدادٍ . ونريد الآن أن نثبت لك ذلك . وهذا الطبرى يحدثنا، فى حوادث سنة ست وتسعين ومائة، أنه لما قوِى طاهر واستعلى أمرُه، وهزَم من هزم من قوّاد محمد وجيوشه، دخل عبدُ الملك بن صالح على محمد — وكان عبد الملك محبوسا فى حبس الرشيد، فلما تُوُفِّى الرشيد وأفضى الأمرُ الى محمد، أمر بخلية سبيله، وذلك فى ذى القعدة سنة ١٩٣، فكان عبد الملك يشكر ذلك لمحمد، ويوجب به على نفسه طاعته ونصيحته — فقال : " يا أمير المؤمنين ! إنى أرى الناس قد طَمِعوا فيك، وأهل العسكرين قد اعتمدوا دلك، وقد بذلت سماحتك، فان أتممت على أمرك أفسدتَهم وأبطرتَهم، وإن كففت أمرك عن العطاء والبذل أسخطتهم وأغضبتهم، وليستْ تُملك الجنودُ بالإمساك ولا تبقى بيوت الأموال على الإنفاق والسَّرَف، ومع هذا فان جندك قد رعتهم الهزائم، ونَهكتهم وأضعفتهم الحرب والوقائع، وامتلأت قلوبهم هيبةً لعدوهم، ونُكولًا عن لقائهم ومناهضتهم، فإنْ سَيَّرتَهم الى طاهر، غلب بقليلِ مَنْ معه كثيرهم، وهزم بقوّة نيّته ضعف نصائحهم ونيّاتهم . وأهل الشام قومٌ قد ضَرِستهم الحروب، وأدّبتهم الشدائد، وجلُّهم منقاد الى مسارع الى طاعتى، فانْ وجهنى أميرُ المؤمنين، اتخذتُ له منهم جندا،

تعظم بكايتهم فى عدوه و يؤيد الله بهم أولياءه وأهل طاعته . فقال محمد : فإنى مُوَلِّيك أمرَهم ، ومُقوّيك بما سألت من مالٍ وعُدّةٍ ، فعجِّلِ الشخوصَ الى ما هنالك ، فاعملْ عملا يظهر أثره ، وتُحمد بركته ، برأيك ونظرك فيه ، ان شاء الله . فولّاه الشامَ والجزيرةَ واستحثّه بالخروج استحثاثا شديدا ، ووجه معه كَنَفًا من الجند والأبناء .

حاول الأمين بعد ذلك أن ينتصر على أخيه بكل ما فى مقدوره ، و بعث له الجند تلو الجند . و إنا مع اعترافنا بكفاية قادته ، أمثال عبد الرحمن بن جبلة الذى ندب أهل البأس والنجده والعَنَاء ، نقرر أن طريقة الإرجاف وبثّ الدعاة التى اتبعها القادة المأمونيون كانت خَطِرةً جدًا .

انظر الى من يقول لأهل حِمْص : " يا أهلَ حمص ! الهَرَبُ أهون من العَطَب ، والموتُ أهون من الذلّ ! إنكم نَعُدتم عن بلادكم ، وخرجتم من أقاليمكم ، تَرجون الكثرةَ بعد القلة ، والعزّ بعد الذِّلة ، ألَا وفى الشرّ وقعتم ، والى حومة الموتِ أنخْتم . إن المنايا فى شوارب المسوَّدة وقَلانسهم ، النفيرَ النفيرَ ! قبل أن ينقطع السبيل ، وينزل الأمر الجليل ، ويفوت المطلَبُ ، ويعسُرَ المذهب ، ويبعد العمل ، ويقترب الأجل ! " ، وقام رجل من كلب فى عرز باقته ثم قال .

شؤبوبُ حربٍ حانَ من يَصلَاها ... قد شَرعت رماحُها قَناها

فأوردَ الله لَظَى لَظَاها ... إن عَمَرت كَلْبٌ بها لحَاها

ثم انظر لمن يقول : " يا معشر كلب ! إنها الراية السوداء ، والله ماوَلّت ولا عَدَلت ، ولا دَلّ نصيرُها ، ولا ضعف وليها ، وإنكم لتعرفون مواقعَ سيوفِ أهلِ خُراسان فى رقابكم ، وآثار أسنّتهم فى صُدوركم ، اعتزلوا الشرّ قبل أن يعظُمَ ، وتحطُّوه قبل أن يصطرم ، شأنَكم ! داركم داركم ! الموتُ الفِلَسْطينىّ خيرٌ من العيش الجَزَرىّ ! ألَا وإنى راجعٌ فمن أراد الانصرافَ فليصرف معى ! " ثم سار وسار معه عامة أهل الشأم .

أرأيت الى أىّ مدى كان أثر الدعاية المأمونية ؟ .

لقد كان المأمون مُوَفَّقًا بلا ريب، وكانت ظروف النصر والاقبال تُوَاتيه من هنا ومن هناك، وتُظاهره على النجاح من حَرَاء حكمته وكفاية رجالاته، كما كانت تُظاهره من جَرَّاء حَمَاقة خصومه وقلّة عَنَائهم .

ثم انطـر ما كان من أمر العصبيّة فى حوادث ستى خمس وتسعين ومائة وست وتسعين ومائة ، وما كان من اشتطاط حسـد الأمين فى طلب المـال ، وما كان من عدم قـدرته على إجابة طلبات القادة الكُمَاة ، أمثال أسد بن يزيد، وما كان من تقلُّب الحسين ابن علىّ معه وعليه ، وما كان من لَيَّان الأمين معه بعد أن حبسه؛ فان التاريخ يحدّثنا بأن كل ما فعله الأمين معه، هو أن لَامَه على حِلاقه ، وقال له : " ألم أُقدّم أباك على الناس! وأُولّه أعنّة الخيـل ! وأملأ يده من الأموال ! وأشرِّف أقداركم فى أهل خراسان ! وأرفع منازلكم على عيركم من القوّاد ! " . فقال له : بلى ! قال : " فما الذى استحققتُ به منك أن تخلع طاعتى وتتولّب الناسَ علىّ ، وتدُبّهم الى قتالى؟" قال : الثقة بعفو أمير المؤمنين، وحسن الظن بصفحه وتفضّله. قال: "فان أمير المؤمنين قد فعل ذلك بك، وولّاك الطلب بثأرك ومن قتـل من أهل بيتك ! " ثم دعا له بخلعة فخلعها عليـه ، وحمله على مراكب، وأمره بالمسير الى حُلوان ، وولّاه ما وراء بابه .

أنظر الى ذلك كله ، فانك تستطيع أن تقتنع معنا، بأن لسوء التـدبير حظًا غير قليـل فى خِذلان الأمين وضَيَاع ملكه .

* * *

(ط) مظـاهر الثـــورة وخطبـاؤها :

على أن هنـاك ظاهرة فى الجيش الأمينى والأطراف الأمينية ، مثل ظاهرة الثورة الفرنسية من بعض وجوهها، يجدر بنا أن نقيّـدها لك، ولو «على الهامش» كما يقولون . ذلك أن الرَّواقيـل، واللصوص، والثوّار، لعبوا دورهم الخطـير، كما أن الفوضى ضربتْ

بجرانها على كل البقاع الأميية ، ولم يكن ثمّة من طاعة ولا نظام، لا فى الجسد الأمينى ولا فى قاده الجند الأمينى !

وقد كان هناك خطاء، كما كان فى الثوره الفرنسية . وإن الطبرى ليحدّثنا أن محمد بن أبى خالد قام بباب الشام، فقال : أيها الناس! والله ما أدرى ما أىّ سبب يتأمّر الحسين بن علىّ علينا ! ويتولى هذا الأمر دوننا! ما هو بأكبرنا سِنًّا، ولا أكرمنا حَسَبًا، ولا أعظمنا منزلةً . وإن فينا من لا يرضى بالدنيّة ولا يُقاد بالمخادَعة! وإنى أوّلكم نقصا لعهده، وإظهارا للتغيير عليه والانكارَ لفعله ، فمن كان رأيه رأيى، فليعتزل معى. وقام أسد الحربىّ فقال : يامعشر الحربيّة ! هذا يومٌ له ما بعدَه ، إنكم قد نِمْتم وطال نومكم، وتأخّرتم فقدّم عليكم غيرُكم، وقد ذهب أقوامٌ بذكر خَلْع محمد وأَسْره، فاذهبوا بذكر فكّه وإطلاقه .

يحدّثنا التاريخ عن ذلك كله ، كما يحدّثنا بأن شيخا كبيرا ، من أهل الكهاية، قد أقبل على فرس، فصاح بالناس : اسكتوا ! فسكتوا ، فقال : أيها الناس ! هل تعتدُّون على محمد بقطع مسه لأرزاقكم ؟ قالوا . لا ! قال : فهل قصّر بأحدٍ منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا : ما علمنا ! قال : فهل عَزَل أحدًا من قُوّادكم ؟ قالوا : معاذ الله أن يكون فعل ذلك ! . قال : فما بالكم خَذَلتموه وأعنتم عدوّه على اصطهاده وأَسْره ! أَمَا والله ما قَتَل قومٌ حليفتَهم قطُّ إلا سَلّط الله عليهم السيفَ القاتلَ والحتفَ الجارفَ ! انهضوا الى حليفتكم وادفعوا عنه، وقاتِلوا من أراد خَلْعَه والفتكَ به ! — .

أما ما أصاب بغداد من سَلْب ونَهْب، وحريق وتخريب، وفتنة شعواء، وقتل ودماء، فإنا نترك الكلمةَ فى ذلك لشعراء العصر، مما أثبتناه لك فى باب المنظوم من الكتاب الثالث من المجلد الثالث، فلتراجع ثمّة .

(ى) قتل الأمين :

ولقد ضيّق طاهرٌ وهرثمة على الأمين الخناق، وفكّرا فيمن يتسلّم الأمين ليكون له قَصَبُ السَّبق . وإنه لمن المؤلم حقا أن ترى الأمين وهو يقتل أولاده . ومن المؤلم أن

الفصل الرابع

الخليفة المأمون

توطئة — السياسة الداخلية — ملخص الحالة العامة فى المدة الخراسانية — المدة العداسية ثورة نصر ابن شبث، الزط، ثورة مصر، مالك الخزرى، مذاهب ونحل، امتراضات — السياسة الخارجية : غزوة المأمون للروم — كلمة ختامية .

(أ) توطئة :

من تحصيل الحاصل أن نقول ما يقوله الفخرى وغيره : من أن المأمون كان من أفاضل الخلفاء وعلمائهم ، وحُلمائهم وحُكمائهم ، أو أنه كان دَيِّنا ، عارفا بالعلم ، فيه دهاء وسياسة أو أنه كان فَطِناً ذكيا ، أو أنه كان كاملا عالما حوادا ، عظيم العفو ، ميمون النَّقيبة ، حَسَن التدبير ، جليل الصنائع ، لا تخدَعه الأمانى ، ولا تحور عليه الخدائع ، علمُه مما بَعُد عنه كعلمه بما حضر ، أو أنه كان متصفا بالعدل والحلم .

من تحصيل الحاصل أن نقول ذلك لأنه معلوم متعارف من ناحيه ، ولأن خطتنا فى كتابتنا ، ومنهجنا فى بحوثنا ، أن نترك للحوادث الكلمة الفاصلة فى تحليل صفاته ، اتّباعا للطريقة التحليلية التى اتبعناها فيما كتبناه عن سواه .

وقد أسلفنا لك القول فى بيان حياة المأمون قبل الخلافة ، وفصّلنا لك ما كان من أمر النزاع بين الأخوين ، ووصلنا بك الى مأساة تلك الحرب الشعواء والفتنة العمياء ، ألا وهى قتل محمد الأمين فى ٢٥ محرم سنة ثمان وتسعين ومائة والآن نتقدم الى القول بأن المأمون بُويع له بالخلافة العامة فى ذلك التاريخ ، واستمر كذلك الى أن تُوُفِّى عازياً فى ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ . فتكون خلافته ، قد أنافت على عشرين سنة . أقام منها فى خراسان حتى منتصف صفر سنة ٢٠٤ ، حين انتقل الى بغداد ، مقر الخلافة العباسية .

فيمكننا اذًا أن نقسم كلامنا عن حكم المأمون الى مدتين: المدة الخراسانية، والمدة البغدادية. وفي بيان هاتين المدتين، بيانٌ للحالة السياسية الداخلية في عصره، وهو ما سنعالج الكلام فيه الآن:

* * *

(ب) السـياسـة الداخليـة:

١ — ملخص الحالة العامة في المدة الخراسانية

اطلعنا في دور النزاع بين الأخوين على شيءٍ غير قليل من تصرّفات الفضل بن سهل وتدبيراته، ووقفنا على أثره العظيم في الدولة؛ كما اطلعنا على ما كان من نجاح طاهر بن الحسين وهَرْثَمة بن أَعْيَن، في حروبهما للجيوش الأمينية.

ونتساءل الآن، بعد أن تمّ الأمر للمأمون وحربه، وخلا الجوّ الى حدّ كبيرٍ للفضل ابن سهل، أمن المعقول أن تستطيع هذه الشخصية النادرة، الفارسيّة المَنْبِتِ والنَّزْعةِ، ذات البيتِ الكبيرِ، والجُاه والأصدقاء، والعُقاد والأنصار، أن تحتمل أن يكون الى جانبها شخصيّاتٌ نادرة من العرب كهرثمة بن أعين، وأبطالٌ من ذوي الفضل العظيم والدور الأوّل في النجاح كطاهر بن الحسين؟.

نحن نعلم ما كان من أبي مسلم الخراسانيّ مع أمثاله من القادة والكُماة، كما نعلم ما كان نصيبه من الخليفة المنصور. نعلم ذلك، كما نعلم الكثير من أمثال ذلك. وإنه ليلوح لنا، من غير أن نعدو الصواب كثيرا، أنه في مقدورنا أن نجيب عن تساؤلنا هذا. إن المعقول، في طبيعة هذه الشخصيات الفذة، في تلك الأزمان المطلقة الحكم، أنها تعمل على إزالة كل الشخصيات النادرة من طريقها، ليكون ذلك لأطماعها ممهّدا، ولخُطَطِها معبّدا.

يلوح لنا أنا لا نعدو الصواب اذا قلنا ذلك. اذ أن هذا هو ما فعله الفضل بن سهل مع الظاهريين وأصحاب الكلمة في الدولة؛ فإن التاريخ ينبئنا أنه رأى مستقبله ومستقبل حربه، يكون مهدّدا، اذا بقي طاهر وهرثمة في العراق، فاستصدر أمرين

ملكيين : أولها تولية شقيقه الحسن بن سهل جميع ما فتح بجهود طاهر ، وقيادته الحكيمة ، وإخلاصه للقضية المأمونية . يبدأ بأنه نَصَّبه على كُوَرِ الجبال وفارس ، وعلى الأهواز والبَصْرة ، وعلى الكوفة والحجاز واليمن ، كما يبدأ بأنه ولّى طاهرا الموصلَ والجزيرةَ والشام والمغربَ . ولكي يتمّ الأمر بابعاده ، كتب اليه أن يسلّم الحسن بن سهل جميع ما بيده من الأعمال ، وأن يبادر الى الشخوص الى الرقّة لمحاربة نصر بن شَبَث . وثانيهما الى هَرْثمة آمرا أعين يكلّفه به أن يشخص الى خراسان .

ولنتساءل الآن : هل كان من المصلحة السياسيّة ، هـذه الصدمة العنيفـة لزعيمين قويين ، أحسا البلاء في الدولة ، ولها مكانتهما ، ولها حزبهما ؟ وهل كان من المصلحة السياسـية إحلالُ العراق ، وهو مصدرُ الشقاق والنفاق والعصيان والعـدوان ، من هرثمة وطاهر ؟ وهل كان من المصلحة السياسية ، أن يترك المأمون مسألة ، كمسألة تعيين الحسن ابن سهل وإقصاء هرثمة وطاهر ، تمرّ هكذا ، فيستغلّها الدعاة على ملكه من بني هاشم ممن لم يكن لهم حظٌّ في دولته ، ومن غير بني هاشم ممن يودّون زوال الملك الهاشميّ ، فيقول — فيما يقولون عنه — إنه غُلِب على أمره ، أو أنّ الفرس ملكوا زِمامه ، أو أنّ الفضـل بن سهل أزله قصرا فحجبه عن رجالات دولته ، وأن السلطان ومقاليد السلطان ، قد نُزِعت منـــه ؟ .

نعود نتساءل : أكان ذلك كله من مصلحته السياسية ؟ .

لم يكن ذلك من المصلحة السياسية طبعا ، لا سيما أنه لم تسكن الفتن والثورات بعدُ في الأقطار المأمونية . ولكنّا نميل الى اعتقاد أن المأمون كان مرغما على الوقوع في هذه الغلطة السياسية ، وهو ذلك السياسيّ المحنّك والداهيـة القدير ، كما رأيت وكما سترى في موضعه ، لأن لظروف الأحوال نصيبَها في ذلك التصرّف منه ومن غيره ممن يكون في مكانه ، ولأنه ربما تحاشى بتصرّفه ذلك خَطَرًا أجسمَ ، وأوسع نِطاقا ، وأبعدَ مدًى ، وهو خطر إعصاب الفضل بن سهل وجماعة الفضل بن سهل .

ومهما يكن من شيء، فان هذه التصرّفات التى كانت من الفضل بن سهل، وإقرارَ المأمون لها، وبقاءَ المأمون، بعد أن تمّ له الأمرُ، فى مَرْو دون بغداد عاصمة الخلافة العباسية، كانت لها نتائجها السيئة فى شيعة المأمون وأنصاره من جهة، وفى أعدائه والراغبين عن سلطانه من جهـة أخرى . ذلك بأن أنصار المأمون وقوّاده، ونخص بالذكر منهم طاهر ابن الحسين وهرثمة بن أعين، قد كَسَر قلوبَهم وقلّل من عزائمهم، أن يكون جزاؤهم على فوزهم وحسن بلائهم وإخلاصهم، تلك التصرفات السيئة التى كانت نصيبَهم من المأمون ومن حاشية المأمون .

هذا كان أثرها فى شيعته وخاصة أنصاره. وأما غير هؤلاء، فقد جعلت هذه التصرفاتُ ألسنتهم تنطلق باتّهام المأمون بأنه يميل الى الخراسانيين، وأنه أصبح آلةً فى أيديهم يحرّكونه كما يشاءون وقد حدّث من جرّاء هذه الإشاعات وفتور همة أنصار المأمون الذين لم يحازوا الجزاء الأوفى، أن اضطربت الأمورُ، وكثُر الفتنُ، ووَجَد أعداءُ المأمون الفرصةَ سانحةً لتحقيق أطماعهم. ومن تلك الفتن ما يحدّثنا التاريخ عنه: من خروج محمد بن إبراهيم العلوىّ المعروف بابن طباطبا بالكوفه، وقد قام بتـدبير أمره رجلٌ من رجالات هَرْثمة بن أعين وكبار أنصاره، وقد خرج لأنه حبس عنه ما كان يُعْطاه من رزقٍ: هذا الرجل هو أبو السرايا السرىّ بن منصـور ، وكان هو الخارج على المأمون فى الواقع لا ابن طباطبا وقـد بلغ من أمره أن ضَرب الدراهم وجَنّد الجنود ، حتى اضطُرّ الحسنُ بن سهل أن يسترضى هرثمة، ويَستعينَه، ليكفيَه شرَّ هذا الخارج القوىّ .

ويظهر أنّ موت الرعماء، كان طِلَّسْمًا من الطلاسم، أو سرًّا من الأسرار، أو صـناعةً من الصـناعات الخفيـة وإنا نجد أن محمد بن ابراهيم هـذا، الذى سَمَتْ منزلتُه بين أتباعه، وعظُمت طاعتهُـم له، قد مات، بعـد أن كَتَب النصرُ للقائم بتدبير أموره على سليمان بن جعفر وَالِى الكوفة من قِبَل المأمون، ثم نرى هذا المنتصر يولّى مكانه غلاما أمرد حَدَثًا، هو محمد بن محمد بن زيد العلوىّ .

وتعالَ معي لننظر في حوادث سنة تسع وتسعين ومائة ، فهيا ما يكشف القناع عن أمورٍ جسام ، تُفيدنا في تفهُّم الروح الحزبية بين العلويين والعباسيين وتُفيدنا أيضا في إماطة اللِّثام عن سبب هامٍّ من الأسباب التي يرجع اليها تبرُّم بعض الوُلاة الكُفَاة بدولة الفضل بن سهل وانفراده هو وحماعته بمراتب الدولة ووظائفها .

تعالَ ننظر في حوادث تلك السنة ، فنجد فيها أن هرثمة جدّ في طلب أبي السرايا صديقه بالأمس ومُبارزه اليوم ، حتى وصل الى قصر ابن هُبَيرة ، فكانت بينهما وَقْعةٌ شديدة ، قُتِل فيها من أصحاب أبي السَّرايا خلقٌ كثير ، أليس في هذا ما يقنعك بأن إيماضةَ رِضًا وابتسامةَ تشجيع ، لرجل من رجالات الدولة ، كافيةٌ لأن يَنْهض فيحارب زميله ويقاتل جِدّه . ثم تجد في تلك السنة فيها أن محمد بن محمد وثب ، ومعه الحزب الطالبيّ ، على دُور بني العبّاس ودُور مَوَالِيهم وأتباعهم بالكوفة ، فانتهبُوها وحرّقوها ، وأخرجوهم من الكوفة ، واستحرجوا الودائع التي كانت لهم عند الناس فأخذوها ، وعمِلوا في ذلك عملًا قبيحا . وتجد كذلك فيها أن مسرورًا الكبير الخادمَ الرشيديّ ، قد حجّ تلك السنة في مائتي فارس من أصحابه ، وأنه عنّ لحرب من يريد دخول مكة وأخذها من الطالبيين ، وأنه قال لعامل مكة داود بن عيسى : أقِمْ لي شخصَك أو شخص بعض وَلَدك وأنا أكفيكَ قتالَهم ! فقال له داود : لا أستحِلّ القتالَ في الحَرَم ، والله لئن دخلوا من هذا الفَجّ ، لأخرُجَنّ من الفج الآخر . فقال له مسرور : تُسلِّم ملكَك وسلطانَك الى عدوّك ومن لا تأخذُه فيك لومةُ لائم في دِينك ولا حُرمك ولا مالك ! قال له . أيّ ملك لي ! والله لقد أقمتُ معهم حتى شِخْتُ ، فما وَلِّيني ولاية ، حتى كَبِرتْ سنّي ، وفَنِي عمري ، فولِّني من المحاز ما فيه القوت ، إنما هذا الملك لك ولأشباهك ! فقاتل إن شئت أو دَعْ !

هذه حالة نفسية لبعض الولاة العرب ، قد يكون من النفع أن تُلاحظ تترمها وتستخطها من سياسة العصر ، أو من الهيمنة الفارسيّة على شتّى أُمور الدولة عامة والجسيمات منها خاصة في ذلك العصر . وربما كانت هذه الحالة النفسية تمثّل لك حالاتٍ كثيرةً من نفسيّات العرب لذلك العهد .

ثم لسطر في حوادث سـنة مائتين، فنجد أن زيد بن موسى الطالبيّ المعروف " بزيد النار "كان بالبَصْرة، وإنما سُمِّي " زيدَ النار " لكثرة ما حرّقه من دُور العباسيين وأتباعهم في البصرة. وكان اذا أُتِيَ برجل من المسوِّدة العباسيّة، كانت عقوبته عنده أن يُحرق بالنار. ونجد فيها أن ابراهيم بن موسى الطالبيّ قد جرح باليمن . ونجـد أيضا أن الكعبة وخزائنها وأحجـارها الكريمـة ، لم تسـلَم من أبي السرايا وأتـباعها العـلويين ، وكم حبس من العباسيين وكم آذى ! حتى نَدَبَ محمدَ بن مَسْـلَمة الكوفيّ لتولّي عداب العاسيين، فأشرف في دلك ، حتى سُمِّيت دارُه " بدار العداب " . ونجد أيضا أن خارجيّا آخر، وهو حسن ابن حسين ، أراد اقتفاءَ ما رَسَمـه أبو السّرايا ، فدهب الى عَلَوي وداعٍ محبٍّ معـروفٍ في مكة والمدينـة، وهو محمد بن جعفر، ونَصَبه خليفةً اسما ، وجعل السلطانَ بيده فعلا . ونجد فيها قبائح وفضائح لحسن بن حسين هذا، مع زوجةٍ قرشيّةٍ من بني فِهْر، وزوجُها من بني مَخْروم، ولهـا حمالٌ بارعٌ، فاغتصبها من زوجها . ونجد فيها مثل ذلك الصنيع المعيب من عليّ بن محمـد الخليفـةِ المنصوب ، مع ابن القاضي إسحاق بن محمد ، وكان جميلا بارعا في الجمـال ! .

نجـد ذلك كله، ونجـد الكثيرَ من أمثاله ، ممـا أدى الى إثارة الرأي العام في مكة، فاجتمعوا ، حتى ردَّ الصبيَّ لأبيه مُكرها مرغمـا ! ونجـد فيها أمثلة عدّة لاستلاب أموال النـاس، كما نجـد فيهـا رحلا عباسـيا موتورا من العلويين ، وهو محمد بن الحكيم ، ممن كان الطالبيّون قد انتهـبوا داره وعذّبوه عذابا شـديدا، غَرَّ على محمـد بن جعفر الطالبيّ الخليفة المنصوب، وقد طُرِد شَرَّ طـردة ، وكان في مقدوره أن يقتـله فلم يفعل . فلقيّد هـذه الحادثة، فانهـا تنفعنا في تفهُّـم السر الذي كان كثيراً مايجـدو بالمأمون الى احترام العلويين ، وتقـدير مكانتهـم والعمـلِ على إرضائهـم لأن لهم حرمة في نفوس حربٍ غير قليلٍ من الشعب. ونجد في السنه ذاتها أن الحج قد تولاه أكثر من شخص، لتعدّدِ السلطاتِ. فندب المأمونُ أبا اسحاق بن هارون الرشيد . ووجّه ابراهيم بن موسى الطالبيّ ، الذي خرج

مايمن ، رجلا من ولد عَقيل بن أبي طالب ، كما وجه غيره من يمثله ، مما يدل على الفرقة والانقسام ، وعلى الفوضى والاضطراب . فلتتعرّف ذلك جيدا .

ويجدر بنا هنا أن نبيّن نتائج الحالة الحزبية بين الفريقين ، فقد بَلَغ أبا اسحاق بن الرشيد أن الجماعة الطالبية التي أتت من اليمن للحج ، قد مرت بها قافلةٌ من الحاجّ والتجّار ، وفيها كسوة الكعبة وطيبها ، فاستلتْ أموالَهم وطِيبَهم ، فمَدَّ لهم محمدَ بنَ عيسى بن يزيد الجلوديّ الذي أحدق بهم فأسر أكثرهم ، وهرب من هرب منهم ، وأخذ منهم الطيبَ وأموالَ التجّار والحاجّ ، فوجه به الى مكة . ودعا بمن أُسر من أصحاب العَقيليّ العَلَويّ ، فأَمَر بهم فقُطّع كلُّ رجل منهم عشرةَ أسواط ، ثم قال لهم : " اعزُبُوا يا كلابَ النار ! فوالله ما قتلكم وعرّ ، ولا في أسركم جمال " . وحلّى سبيلهم . ولاحظ تسميته لهم "بكلاب النار" !

وإنا نلخص لك الحوادث التي وقعت بعد أن قَمَع هرثمةُ ثورةَ أبي السَّرايا ، التي انتهت بقتله عام ٢٠٠هـ . وإنجاد فتنته ، معتمدين في ذلك على الطبريّ والأستاذ «ميور» خاصة :

لما قَمَع هرثمة ثورةَ أبي السرايا ، عاد الى نهروان ، دون أن يعرّج على والي بغداد ، وهناك وافاه أمرُ الخليفة بتوليه حكم سوريا و بلاد العرب ، وكان قد اعتزم الذهابَ بعد ذلك الى « مرو » مباشرة ، ليكشفَ للخليفة عن حقيقةِ الموقف وحَرَجه ، الذي يخفيه عنه وزيره الفضل ، بسبب بقاء الخليفه في « مرو » وأن الغرب سينتقص عليه سريعا ، ويخرج من يده اذا هو لم يبادر الى العوده الى بغداد . فلما أحسّ الفضلُ عزم هرثمةَ على القدوم قَطِن الى ما يَنْويه ، فدسّ له عند المأمون ، حتى أوغَرَ صدرَه عليه ، وكادت السنة تنتهي قبل أن يذهب هرثمة الى «مرو» . فلما ذهب حشى أن يكتم الفضل خبر قدومه عن المأمون ، فدقّ الطبولَ عند دخوله المدينة . فلما علم الخليفةُ الموغَر الصدرِ بقدومه أمر باحصاره ، فلما مَثَل بين يديه بالغ في تقريعه وتأنيبه على توانيه في تسكين ثورة أبي السرايا ، وفي مخالفة ما أصدره اليه من أمره بالذهاب الى ما ولّاه من أعمال

وما كاد هـذا القائد يهمّ بالكلام ويشرح لمولاه الحالة، حتى هجم عليـه الحَرَسُ الذين أسرّ اليهم الفضـلُ أن يُعْلِطوا فى تعـذيبه، فانهالوا عليـه صراً ولَكْماً، على وجهـه وجسمه، ثم سحبوه بسرعة الى السـجن حيث مات به بعـد زمن قصـير، متأثرا بجروحه . ولقـد اعتقد عامة الناس أن الذى أماته هو الفضل .

وهكذا انطوت صحيفـةُ هـذا الباسل العظيم الذى ذبّ عن مُلكِ المأمون، وكافحَ فى توطيد دعائم الدولة، من أفريقية الى خُرَاسان، والذى يرجع اليه الفضلُ الأكبر فى انتصار المأمون على أخيـه المخلوع . ومات هـذا القائد العظيم ضحيةً للسـعابة وبكاه الجميـل، كما مات أمثالُه من قبل من صنديد هـذه الدولةِ من حرّاء السعابة والمنافسـة، ومن حرّاء أعمال البِطانة ودسائس الحاشية .

ولنتساءل ما ذا كانت نتيجة قتل هرثمة ؟

تحدّثنا التاريخ أن هرثمة كان محبوبا فى الغرب، وأن موته أحدث فتّاً وقلاقل فى بغداد، وثارت الجنودُ فى وجه الحسن بن سهل، إذ عدُّوه آلةً فى يد أخيـه الفضـل الذى كانوا يعتونه بالمجوسىّ . وبعد قتال دام ثلاثة أيام طردوا الحسن من المدينة، فلجأ الى «المدائن» ثم ارتدّ الى « وَاسِط » . واستمرّت الفِتَنُ والقلاقلُ بعـد ذلك قائمةً ببغداد شهورا عدّه، تنشطت فى خلالها عصاباتُ اللصوص وشرادمة الصعاليك، وشمّرتْ عن ساعدها فى أعمال النهب والسلب، حتى طمى سيلُ عاراتهم على تلك المدينـةِ المنكودةِ، التى أصبحت تحت رحمتهـم . ويحدّثنا التاريخ أنهم قد أسرفوا فى ذلك إسرافا عظيما، مما فزِع له أعيانُ المدينة ووجهاؤها، فأجمعوا أمرهم على صدّ هؤلاء السِّفْلةِ الأشرار ودفع عائلتهم عن المدينة وأهلها. ولما تمّ لهم ما أرادوا، اختاروا من بينهم رجلين من ذوى الفضل والمكانة فيهم، ووَلّوهما تدبير الحكم، ريثما تستقرّ الحالُ ويعودُ الأمنُ الى نِصَابه . ثم عَرَضوا عرش الخلافة على المنصور بن المهدى والبيعةَ له، فتأبّى عليهم، ولكنه عاد وقبِل أن يتولّى الحكم باسم الخليفة المأمون . ولم تُوشِك هذه السنةُ أن تنتهى حتى كان قوّاد الجند فى بغداد قد سموا القتالَ،

فاتفقوا مع الحسن بن سهل الوالي فعاد الى بغداد بعد أن أصدر عفوًا عاما ، ووعد بأنه يدفع للجند رواتبهم عن ستة أشهر، و بأن يدفع كذلك لدوى المعاشات أرزاقهم حسبما هو مُدرجٌ بقوائمهم .

* * *

ولنتساءل الآن ما دا حدث بعد ذلك ؟ .

حدث أنه ما كاد الأمر يتهيى على هذه الشروط ، حتى عادت الفتنةُ والاضطراب أشدّ مما كانا عليه . ذلك بأن المأمون، لغرض سياسى ، أو لنزعة شيعيه، أو لتقدير كفاية خاصة، استدعى واحدًا من سلاله سيدنا علىّ، وهو «على الرضا» رضى الله عنه، وهو ثامن أئمة الشيعة أو حزب العلويين، الى «مرو» ،وآختاره وليًّا لعهد الخلافة،مع أنه يكبره باثنتين وعشرين سنة.ور بما كان المأمون فى رأيه هذا صادرا عن رأى وزيره الفضل الذى زَيَّن له أن هذه أنجحُ وسيلةٍ لتسكين ثوره العلويّين فى الغرب . ور بما كانت تتحُ هذه الوسيلةُ فى التوفيق بين البيتين العلوىّ والعباسىّ، قبل استفحال الخُلْف بينهما . أمّا وقد استطار الشرُّ بينهم، وقلّب بعضهم لبعض ظهرَ المِجَنّ، ولَبِسوا جِلْدَ النمِر ، وتحفّزوا للقتال، وتداعَوْا للجلاد، فإن أمر الوفاق بينهم صار حُلما، وعاد الإقدام عليه سخفا وحماقةً مُهْلِكة ! .

وما دا ترتّب على إسناد ولاية العهد لفرد من العلويّين ؟ .

إن التاريخ يحدّثنا أنه ترتّب على إسناد ولاية العهد لعلىّ الرضا أن أمر الخليفةُ وُلاتَه فى جميع أنحاء الدولة بأحد البيعة لولىّ عهده . ولكى يجعل المأمون الدولةَ تصطبغ بصبغة العلويين، حلع الشّعارَ الأسودَ ،شعارَ العباسيين، وآرتدى الشعارَ الأخضَر، شعارَ الشّيعة، وأمرَ عُمّالَه بالاقتداء به . وفى أواخر هذه السنة تَلَقّى الحسنُ بن سهل من أخيه الفضل أمرًا بإعلان ذلك وتنفيذه، فكان لذلك الأمرِ أسوأُ أثرٍ فى أهل بغداد، إذ وقع عليهم كالصاعقة، لأن أهلها كانوا يخافون الشيعة و يمقُتونهم، وكذلك شَعَر العباسيون بأن الصدمة موجّهةٌ للقضاء على خلافتهم ، فشَقُّوا عصا الطاعة، وهَمُّوا بخلع المأمون واختيار خليفة

ســواه ، ولم يعارض زعماءُ البيت الملكىّ من العباسيين فى ذلك . فلم تأت آخر جمعة من هــذه السنة حتى دعى لإبراهيم بن المهــدى على المنابر خليفة بدلًا من المأمون ؛ وسرعانَ ما ذُويع له بالخلافة . وكان ابراهيم بارعا فى الموسيقى والغِنــاء والشعر، ولكن كانت تنقصه المؤهِّلات التى يســتطيع بها أن يصطلع باعباء الملك التى أُلقيت على عاتقه ، والتى ناء بحملها مدّه سنتين .

ثم ماذا كان بعد ذلك ؟

نَشِب القتالُ بين جنود المأمون وجنود ابراهيم المغتصب للخلافة ؛ فاصــطر الحسن بن سهل نائب المأمون أن يرتد الى وَاسِــط مرّة أخرى ، وخُيِّل اليه أنه اذا جارى أهلَ الكوفة فى مُيُولهم الشيعية، يستطيع أن يصمَّها اليه ، وبدأ ذلك بأن ولّى عليها أحدَ إخوة علىّ الرضا ولم يدر أن التوفيق بين عائلتى علىّ والعباس فى مدينــة كهذه متقلبــة الأهواء، ضربٌ من المستحيل . فان أهلَها كانوا على اســتعداد، فى أوّل أمرهم ، للقاء الحسن كقائدٍ من صميم العلويين ، ولكنهم انتقصوا عليــه باعتباره الوالىَ الفارسىَّ من قبَــل المأمون ، وعلى ذلك قامت الثوراتُ فى هذه المدينةِ أيضا كما قامت فى غيرها .

ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟ .

إن التاريخ يحدّثنا أنه بينما كان الغربُ عارقًا فى لجج هــذه الفوضى ، حدث فى مَرْو تغييرٌ جديد ذو شأن : ذلك أن المأمون قد تنبــه فى آخر الأمر ، لحرج الموقف ، وخطورة الحالة ، ومن العريب أن أوّل من نبّه الخليفةَ الى هــذا الخطر المُحْــدِق به ، وبعرش آبائه وأجداده ، هو علىّ الرِّضا نفسه ، فتبين المأمون أنّ ولايتــه للعهد كانت شؤما على الدولة ، إذ سارت الأمور فيها من سيىء الى أسوأ ، زُهَاءَ عام منذ توليه .

ويحدّثنا التاريخ أن عليًّا الرضا حلا بالخليفة ، وكاشفه أن الفضل وزيره يُكَاتِمُه حقيقةَ الحــال ، ويخفى عنه أمور الدولة ، وأن أهل العراق يقولون عنه (أى الخليفة) : إنه مجنون أو مسحور ، وأن الخلافة توشك أن تُفْلِت من يده بين إبراهيم والعلويين ، وأن الحسين

أخا الفضل يعمل فى القصاء على الغرب ، بينما طاهر ذلك القائد الباسل الذى يستطيع أن يقود سفينة الدولة الى شاطئ النجاه مبوذ فى سوريا .

وقد أكّد هذه الحقائق للمأمون جماعة من قوّاد الدولة وزعمائها، بعد أن أقنعهم المأمون من غضب وزره، ونصحوا اليه بأن خير علاج لسلامة الدولة أن يعجل بالعودة الى بغداد، وقالوا له : إن هذه كانت نصيحة هَرْثَمَةَ ، التى جاء من أجلها مندُ سنتين ليُسِرَّها اليه لو أنه أمهله واستمع له ! .

فأيقن المأمون أخيرا أن استسلامه للفضل وانقياده له ، كانا سببا لكل ما حدث من القتن والثورات، فأمر باستقال بيت الخلافة الى بغداد، وما كادوا يَخْلُون سَرَخْس وهم فى طريقهم الى بغداد، حتى وجدوا الفضل قتيلا فى حَمّامه، وكان الفضل، قبل ذلك قد اصطهد جماعةَ القوّاد والزعماء الذين كشفوا أمره عند الخليفة ، فوعد الخليفةُ بمكافأةٍ لمن يأتيه بالقتلة ، ولما قبض عليهم دافعوا عن أنفسهم بأنهم إنما قتلوه بأمر مولاهم الخليفة، ولكن لم يُغْنِهم دفاعُهم شيئا ، وصُربت أعناقهم، وبعث الخليفة برءوسهم الى الحَسَن بن سَهْل مشفوعةً بكتاب تعزيةٍ منه ، ووعده فيه بأنه سيستوزره خلفًا من أخيه، وبلغ من عطف الخليفة عليه ، أو من سياسته وحكيم تدبيره، أن عقد زواجَه من ابنته بُورَان، التى كانت اذ ذاك فيما قيل طِفْلة فى الحول العاشر من عمرها، ولم يدخل بها إلا بعد ثمان سنين بعد ذلك. وفى الوقت نفسه زوّج إحدَى بناته لعلىّ الرِّضَا الذى كان فى ذلك الوقت قد بلغ الرابعة والخمسين من عمره، كما زوّج بنتا له أخرى من ابن علىّ الرضا، وكذلك ولّى أحدَ إخوة علىّ الرضا إمرةَ الحج . وهذه المصاهرة تمتْ مظاهر حسن العلاقات وتوثيق العُرَا بينه وبين الحزب العلوىّ . وكانت هذه المصاهرة فى ذاتها تصرفا سياسيا آية فى الحكمة والسداد .

لم يمض بعد ذلك غير قليل حتى حدث حادث آخر لم يكن متوقعا : ذلك انه فى أثناء سفر الخليفة الى بغداد نزل بطُوس فى فصل الخريف، وهناك مات على الرضا فجأةً، وقيل : إن

موته كان بسبب إفراطه فى أكلة عنب، ودفنه المأمون بجوار قبر أبيه الرشـيد، فاهتزّت الدولة لموته الفجائىّ الذى جاء عقب مقتل الفضل، وإنه لمن المعقول فى مثل هذه الأحوال أن تنتشر الاشاعات، وتكثر الأراجيف فى سبب موته . كما أنه من المعقول أيضا فى مثل هـذه الأحوال أن يصعب الوقوف على الحقيقة لتضارب الإشاعات وتناقض الأراجيف واختلاف وجهات النظر، وقد قيل فيما قيل : إن المأمون دسّ له السمّ فى العنب، بَيْدَ أن الرعاية التى أظهرها المأمون لعلىّ الرضا، خصوصا بعد توثيق عرا العلاقات بعد المصاهرة، قد تدفع هذه الشبهة عن الخليفة .

إنا لا نمنعك من أن تعترض من جهة أخرى : أن الفضل وعليا كانا عقبة كَأْداءَ فى سبيل المأمون، لا يزيلها من سبيله إلا موتُهما، ويجوز لك أن تذهب فى التدليل على أن المأمون كان يعدّ عليا عقبة فى سبيل إرضاء أهالى بغداد، إلى أنه فى الوقت الذى كتب فيه كتاب تعزية الى الحسن بن سهل يَنْعَى فيه موتَ علىّ أرسل كتابا آخر الى أهل بغداد يقول لهم فيه : إن عليا الذى أظهروا سخطهم وتبرُّمهم من إسناد ولاية العهد له قد قَضَى، فلا شىء اذًا يمنعهم الآن من العودة الى طاعته وموالاته .

على أنا لا نحاريك فى هذا الافتراض، لما بيّناه لك من ناحية، ولأن نفسية المأمون وخلقه، مما ستقف عليه قريبا، لما يجعل هذا الافتراض واهنا ضعيفا .

أما فيما يختص بكتاب المأمون الى البغداديين بشأن موت علىّ الرضا فنقول لك : إنه وإن لم يُحْدِث أثرَه المطلوب تماما فى نفوس البغداديين، لأنهم احاطوا عنه بكتاب جافٍّ فاترٍ، إلا أنه قد حطا به خُطْوةً ما فى سبيل استمالة أهـل بغداد، وفى هذا الوقت أخذ أنصار ابراهيم القلائل يَنْفضُّون من حوله، لضعفه وسوء تدبيره فى إدارة الحكم، وتخلّى عنه جنودُه، ولم يتقدّموا لمدافعة جنود المأمون، وسقطت المدائن التى كان فيها مقرّ خلافتـه، فى أيدى جنود المأمون، وساءت أحواله، واضطرب نظام ملكه فى فصل الشتاء. ولما دنا قوّاد المأمون وجنوده للعاصمة لمهاجمتها، خرج اليهم قوّاد المدينة وزعماؤها، يُظْهِرون ولاءَهم وطاعتهم للمأمون .

وما كادت تنتصف السنة حتى استولى قوّاد المأمون على المدينة ، وحتى اختفى ابراهيم كما اختفى غيره، ممن كانوا قد خرجوا على المأمون، وذلك بعد أن عانتْ ماعانت من ضروب الفوضى واختلال الأمن وسقم الحال مدّة سنتين تقريبا، وبقى مختفيا فيما يقال ثمانى سنين ثم قُبِض عليه متنكرا فى زِىّ امرأة، ثم عفا عنه المأمون وسنذكر ذلك فى موضعه .

٢ — ملخص الحالة العامة فى المدة البغدادية — دخول المأمون بغداد

فى صفر سنة ٢٠٤ هـ (أغسطس سنة ٨١٩ م)

لما خمَدت ثورة بغداد ، وفر ابراهيم بن المهدى مختفيا، واستقرّ الطام وعاد أهلوها الى الطاعة والولاء لخليفتهم، تقدّم اليها المأمون مُتَيِّدا فى سيره، إذ كان يقف فى أثناء سفره بالمدائن التى يمرّ بها كى يعيد اليها الأمن ويُقِرّ فيها النظام ، فأقام فى جُرْجان شهرا كما أقام فى النَّهْرَوان ثمانية أيام، فخرج لاستقباله أهل بغداد، يتقدّمهم أهل بيته وقوّاده ووجوه المدينة احتفاء بقدومه اليهم .

وكان المأمون قد كتب فى أثناء سفره ، الى طاهر وهو فى الرقّة أن يوافيه فى النَّهْروان فوافاه بها، ثم تقدّم بعد ذلك ودخل بغدادَ فى صفر سنة ٢٠٤ هـ (أغسطس سنة ٨١٩م) .

وكان لا يزال الشِّعارُ الأخضر، شعارُ العلويين الذى اتخذه المأمون وهو فى مَرْو، شعارَ الدولة، فما زال به كبارُ قوّاده وأهل بيته حتى طرحه ، واستبدل به الشعارَ الأسود : شعار العباسيين . ويحدّثنا يحيى بن الحسن : أن المأمون لبس الخُضْرة بعد دخوله بغداد تسعة وعشرين يوما ثم مُزِّقت، ثم خلع الخِلَع السنيّة على من حضر من القوّاد والأشراف ورجالات الدولة، وعفا عن الفَضْل بن الرَّبيع وزيرِ الأمين، الذى كان اختفى بعد مقتله، ثم ظهر مساعدًا لابراهيمَ بن المهدىّ فى ثورته، وكذلك عفا عن عيسى وزيرِ ابراهيم، مع انهما كانا رأسيِ الفتنِ والقلاقلِ التى أثيرت على حكم المأمون، فكان موقفُ المأمون معهما غايةً فى التسامح والكرم .

ولم يكن قد استقر الأمر والنظام فى جميع أنحاء الدولة، بدخول المأمون بغداد، فقد كان لا يزال نَصْر بن شَبَث حارحا فى سوريا، وكانت لاتزال مصر مسرحًا للفتن والقلاقل، وبَابَكُ الخُرَّمى يعظُم خطرُه فى شمال فارس، والزُّطُّ لا يزالون يَعيثون فى الأرض فسادًا على الخليـج الفارسىّ. وسنقصّ عليـك فى موضـعه ما وصلت اليه هـذه الثورات وكيف أُخمِـدت.

ثم ولّى المأمونُ طاهرًا حاكما على بغداد، وأقام ابنَه عبدَ الله واليا على الرَّقّة حلفا من أبيه. غير أن المأمون لم يلبث أن تنكّر لطاهر وأظهر له الجَفْوة. ثم نرى بعـد قليلٍ أن طاهرا ولّى حاكما على خُرَاسان.

وقد كنّا نكون فى حيرة من أمر هـذا التنكر الفجائى من الخليفـة على رجله العظيم من غير سببٍ ظاهرٍ، ثم يتهيأ ذلك بأن يكون حاكما على خراسان، لولا أن آبن طيفور يروى لنا أسـبابَ كل هـذا فى قصةٍ مُمْتعةٍ نلخصها: أن طاهرا دخل على المأمون ذات يوم فى حاجة، وكان المأمون فيما قيـل فى مجلس شراب، فأمر له برِطْلين من النبيـذ ثم بكى المأمون وتَفَرْغَرتْ عيناه، فقال له طاهر: يا أمير المؤمنين لم تبكى لا أبكى الله عينيك! فوالله لقد دانت لك البلاد، وأذعن لك العباد، وصرتَ الى الصحة فى كل أمرك، فقال: أبكى لأمرٍ ذِكْرُه ذلّ، وستره حزن، ولن يخلو أحد من تَجَنٍّ: فتكلمْ بحاجةٍ إن كانت لك. فما زال طاهرٌ بعـد ذلك يتعـد الوسائل الى معرفة السبب حتى وفّق بالمـال الى إغراء ساقى المأمون أن يتعرّف كُنْهَ ذلك السبب. فلمـا تعـدّى المأمون ذاتَ يوم قال لساقيه: يا حسين، اسقنى، قال. لا والله لا أسقيك أو تقولَ لم بكيتَ حين دخل عليك طاهر! قال: يا حسين، وكيف عُنيت بهذا حتى سألتنى عنه؟ قال: لغمٍّ بذلك، قال: هو أمرٌ إن خرج من رأسـك قتلتُك، قال: ياسيدى، ومتى أخرجتُ لك سرّا! قال: إنى ذكرت محمدا أخى، وما ناله من الذِّلّة فخشيتُ العَبْرة، فاسترخْتُ الى الإفاضة. ولن يفوت طاهرًا منّى ما يكره. قال: فأخبر حسينٌ طاهرًا بذلك، فركب طاهر الى أحمد

ابن أبي خالد — وهو وزير المأمون — فقال له : إن الثناء منّي ليس برخيص، وإن المعروف عندي ليس بضائع، فغيّبني عن عينه . فقال له : سأفعل فبكّر عليّ غدا. قال وركب ابن أبي خالد الى المأمون، فلما دخل عليه قال له : ما نمتُ الليلة، فقال له : ولِمَ ويحك! قال : لأنك ولّيت غسّانَ خراسان، وهو ومن معه أكلة رأسٍ[1]، فأخاف أن يحرج عليك خارجةٌ من الترك فيصطلمه ؛ قال : لقد فكرتُ فيما فكرتَ فيه، قال . فمن ترى ؟ قال : طاهر بن الحسين؛ قال : ويلك يا أحمد ! أهو والله خالع ! قال : أنا الضامن له ؛ قال له : فأنفذه، قال : فدعا بطاهر من ساعته .

ويظهر أن المأمون، فيما ذكر الرواة، لم يكن مطمئنا، مع ضمان وزيره لطاهر، الى تعيينه حاكما على خراسان ، فان بعض الرواة يقول : ان المأمون أسرّ الى خصيّ له أمينٍ بمرافقة طاهر، حتى اذا رأى منه خروجا دسّ له السمّ .

ثم لم يلبث طاهر بعد أن تولّى شؤون خراسان، وأدارها بحزم وسَدادِ رأي، حتى ظهر منه ما كان يخشاه المأمون، من خروج وعصيانٍ، فقد أسقط اسمَ المأمون من خطبة الجمعة، وذكر دعاء مبهما لنصرة الدين ، فأنفذ عسُ المأمون عاملَ البريد فورا بكتابٍ الى المأمون، يخبره فيه بما وقع من طاهر، ثم نرى المأمون يتوقع مجئ كتاب آخر ويتنظره بمارع الصبر في اليوم التالي لورود الكتاب الأول ، وقد جاءه هذا الكتاب فعلا يبعّي طاهرا الذي وجد ميتا في فراشه .

ونحن نرى بعد أن ذكرنا ما ذكرنا أنه لم يبق شيء من الغموض في هذه الناحية من عصر المأمون، وأن تصرّفات المأمون مع طاهرٍ، ثم خروج طاهر عليه ثم موت طاهر بعد ذلك، كلها حوادث واضحة الأسباب معقولة النتائج . ولا نستطيع أن نماشي الأستاذ « ميور » الذي يرى أن على هذه الحوادثِ جميعها غِشَاء من الغموض كثيفا .

---

(١) يريد أنهم قليل عددهم يشبههم رأس واحد .

ثم رأى المأمون بعد موت طاهر أن يولّى مكانه ابنه طلحة، وأن يستبقى ابنَه عبد الله واليـا على الجانب الغـربىّ من الخلافة، ليقمَع ما فيـه من ثورات، ويسكن مابه من اضطراب . ثم أرسل وزيرَه مع طلحة ليقوّى دعائم سـلطانه فى ولايته، فشخص الوزير الى ما وراء النهر، وقام بحملةٍ موفقـةٍ على بعض العصاة، ثم قفل راجعا الى بغـداد مزوّدا — فيما يقول الرواة — بهديةٍ نفيسةٍ له من طلحة مقدارها ثلاثة آلاف ألف درهم ولكاتبه بأخرى مقدارها خمسمائة ألف درهم .

أما طاهر الذى توفى فى فراشه، وربما كان الذى يعلم سرّ وفاته قبل سواه هو المأمون وبطانته، فقد قدّمنا لك شيئا فى كلمتنا عن النزاع بين الأخوين عن عظيم خطره، وحسن بلائه وخبرته بالحـروب، ولا يقـلّ خطره فى تدبير الحكم وشـؤون السياسـة عن خطره فى الحرب، وكان مع ذلك مشـغوفا بالعـلم والأدب، مشجعا لأربابهما، حاثّاً على تعلمهـما . وليس أدلّ على تبريزه فى العـلم والأدب، وخبرته بشؤون السياسـة، ونصره بتصرف الأيام، من عهده الذى كتبه الى ابنه عبد الله . ولسنا نرى ما نقدّم به اليك هذا العهد، خيرا من وصف المأمون له حين بلغه، وتقديره له، واحتفائه به، واستنساخه، ثم ارساله الى عماله فى الولايات . قال ابن طَيْفور : لمـا عهِد طاهر بن الحسـين الى عبد الله ابنه هذا العهد، تبارعه الناس، وكتبوه وتدارسوه، وشاع أمره، حتى بلغ المأمون فدعا به، وقرِئ عليـه وقال : ما بقِّى أبو الطيب شيئا من أمر الدين والدنيا والتـدبير والرأى والسياسةِ وإصـلاح الملك والرعيه وحفظ البيعه وطاعةِ الخلفاء وتقويم الخلافة إلا أحكمه وأوصى به وتقدّم فيه، وأمر أن يُكتب بذلك الى جميع العمال فى نواحى الأعمال .

وكانت كتابة هذا العهدِ من طاهر لابنه عبـد الله حين اختار المأمون عبد الله لولاية مصر ولمحاربة نصر بن شَبَث لِمـا رآه فيه من حزم وفطنةٍ وكفايةٍ وحسن بلاء . وكان عهد أبيـه اليه قانونا يطبّقه على نفسـه أحزم تطبيق، وكان لا يُورد شـيئا فى شأن من شؤونه أو يُصْدِره إلا على منهجه وفى حدود إرشاداته .

ولما كان هذا العهد من الوثائق التاريخية التي لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية آثرنا ذكره، وقد أشبعناه في باب المشورة في الكتاب الثالث في المجلد الثالث فراجعه .

٣ — ثورة نصر بن شبث

أما نصر بن شَبَث، الذي وجّه عبد الله بن طاهر لمحاربته بعد أن وجّه اليه أبوه، فقد كان ممن خرجوا حين اضطرب نظام الدولة، وكثرت الأراجيف، ونشط أعداء المأمون خاصة والعباسيين عامة لقاء المأمون في مرو بعيدا عن عاصمة الملك ومحاصرة الخلافة .

وكان من الممكن أن يكون مصير ثورة نصر مصيرَ غيرها من الثورات، التي خَمَدَت بسرعة، لولا أن طاهرا لم يَجِد في محاربته . وقد ذُكر أنه قال للحسن بن سهل حينما ندبه للخروج الى محاربة نصر بن شبث : حاربتُ خليفة، وسُقْت الخلافة الى خليفة، وأُؤمر بمثل هذا ! وإنما كان يسعى أن توجه لهذا قائدا من قوّاده ! وذكر بعض المؤرخين أن طاهرا قد تكالمنهزم أمام نصر بعد معارك حامية بين جنديهما ولكنه حرص بعد ذلك على ما بقي في يده من البلاد أن يغير نصر عليها .

ويظهر أن ما يقوله بعض المؤرخين من أن فتور طاهر في محاربة نصر بن شبث، يرجع الى الصدمة التي صدمه بها آل سهل . حين حرموه من ثمار فتوحه في العراق، له حظ كبير من الحق، فاما لا تستبيح عجز طاهر عن مناهضة نصر، واحصاعه، مع ما هو معروف عنه من الدهاء، والنصر بالحرب، وحسنِ سياسته للجيوش، ووضع أدقّ الخُطَط لحملاتها، ومع أن وراءه الدولةَ تُمِدّه بما يحتاج اليه من جند وسلاح ومال .

ومهما يكن من شيء فقد كَتُفَ أنصار نصر وعظُم خطره، حتى ذهب اليه بعض من شيعة الطالبيين فقالوا له : قد وَثَبَت بنو العباس وقتلت رجالهم، فلو بايعت لخليفة لكان ذلك أقوى لأمرك ! فقال : من أيّ الناس؟ فقالوا : تبايع لبعض آل عليّ بن أبي طالب،

فقـال : أُبايع بعض أولاد السَّوْداوات فيقول إنه حلقنى ورزقنى ! قالوا : فتبايع لبعض بنى أميـه ، قال أولئك قوم قد أَدْبر أمرُهم ، والمُدْبِر لا يُقْبِل أبدا ، ولو سـلّم علىّ رجل مدبر لأعدائى إدباره ، وإنمـا هواى فى بنى العباس ، وإنمـا حاربهم محاماة عن العرب ، لأنهم يقدّمون علىهم العجم . فتأمل قوله هذا طويلا ، فهو يُميط لنا اللثام عن حقائق يجب أن نقف عليها .

يروى لنـا التاريخ أن عبـد الله بن طاهر ، الذى نَهـد لمحاربة نصر بن شَبَث كتب الى المأمون يعلمه أنه حصَره ، وضيَّق عليـه ، وقتل رؤساء من معه ، وأنه قد عاد بالأمان وطلَـب ، فأمره أن يكتب له كتاب أمان ، فكتب اليـه أمانا نسخته «أما بعد ، فان الإعذار بالحق نحـهُ الله المقرون بهـا النصر ، والاجتياح بالعدل دعوه الله الموصـول بها العز . ولا زال المُعْـذِر بالحق ، المجتّ بالعدل ، فى استفتاح أبواب الأبـد ، واستدعاء أسـباب التمكين ، حتى يفتَـح الله وهو خير الفاتحين ، ويمكّن وهو خير الممكّنين . ولست نعـدو أن تكون فيما لمحت به ، أحدَ ثلاثة : طالبَ دين ، أو ملتمِسَ دنيا ، أو متوزرا بطلب العَلَـه طالما ، فان كنت للدين تسعى بمـا تصنع فأوضح ذلك لأمير المؤمنين يعتمْ قولَه إن كان حقا ، فلعمرى ما همتُه الكبرى ولا غايته القصوى إلا الميل مع الحق حيث مال ، والزوال مع العدل حيث زال . وان كنتَ للدنيا تقصد ، فأعلمْ أمير المؤمنين عاينك فيها ، والأمرَ الذى تستحقها به ، فان استحققتها وأمكنه ذلك فعله لك ، فلعمرى ما يستحيد مع حَلْى ما تستحقه وإن عظم . وإن كنت متوزرا فسيكفى الله أميرَ المؤمنين مؤنتك ، ويحملُ ذلك كما يحمل كفايتَه مؤنَ قومٍ سلكوا مثـل طريقك ، كانوا أقوى يدا ، وأكثف جندا ، وأكثر حمما وعددا ونصرا منك ، فيما أصارهم اليه من مَصَارع الخاسرين ، وأنزل بهـم من جوائح الطالمين . وأمير المؤمنين يحتم كتابَه بشهاده أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، صـلى الله عليه وسلم ، وضمانه لك فى دينه وذمتـه الصفح عن سوالف جرائمك ، ومتقدمات جرائرك ، وإنزالك ما تستأهل من منازل العـز والرفعه ، إن أنتَ وراجعت إن شاء الله ، والسلام» .

وقد ذهب عبد الله بن طاهر الى وجهه فى محاربة نصر، ولبث فى مناهضته، حتى اضطره الى التسليم نحو خمس سنين ، وفى أثناء هذه المدة سعى المأمون الى إخماد الثورة من طريق الصلح، فبدت جعفر بن محمد العامرى، ليؤدّى رسالةً منه الى نصر، يطلب منه فيها ترك الحرب والخُضُوعَ الى السلم .

وقد كاد يتمّ الصلح بين الفريقين، وتُحقن الدماء، ويذهب عن الناس فى تلك النواحى ما أصابهم من فزع وهَلَع، لولا حُزُوانةٌ(١) فى رأس نصر قابلها أخرى، فيما يقول الرواة ، فى رأس المأمون، حالتا دون هذه الغاية السامية : ذلك بأن نصرا قبل ما اقترحه المأمون، لكنه شرط ألا يطأ بساطه . فلما بلغ المأمونَ هذا الشرط قال : لا أجيبه والله الى هذا أبدا ولو أفضيتُ الى بيع قميصى حتى يطأ بساطى ! ثم كتب اليه المأمون بعد ذلك كتابا هذه نسخته :

أما بعد، فانك يا نصر بن شبث قد عرفتَ الطاعة وعزها ورد طلّها وطيبَ مرتعها، وما فى خلافها من الندم والخَسار. وان طالت مدة الله لك ، فإنه إنما يُملى لمن يلتمس مظاهرةَ المحنه عليه، لتقع عِبَرُه بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم، وقد رأيت إدكارك وبصيرك، لمّا رجوتُ أن يكون لِمَا أكتب به اليك موقعٌ منك، فان الصدق صدق والباطل باطل، وإنما القول بمَحَارحه وبأهله الذى يُعْنَوْن به ، ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك فى مالك ودينك ونفسك ، ولا أحرصُ على استنقاذك والانتياش(٢) لك، مِنْ حِطائك منى، فأى أوْلٍ أو آخرٍ أو وسطٍ أو إمْرَه إقدامُك يا نصر على أمير المؤمنين، بأحد أموالِه، وتتولّى دونه ما ولّاه الله، ونريد أن نبيتَ آمنا أو مطمئنا أو وادعا أو ساكنا أو هادئا ، فوعالِم السرّ والجهر، انى لم تكن للطاعه مُرَاجعا، وبها حابيا، لتَسْتَوْبِلنّ وَخَم العاقبه ، ثم لأنْدَأَنّ لك قبل كلّ عمل، فإن قرون الشيطان اذا لم تقطع ،

(١) الحزوانة : الكبر .

(٢) استنقاذك من الهلكة .

كانت فى الأرض فتنة وفسادا كبيرا، ولأطأت بمن معى من أنصار الدولة كواهلَ رِعَاعِ أصحابك، ومن تأشّب[1] اليك من أدانى البلدان وأقاصيها، وطغامها[2] وأوْباشها، ومَنْ انصوى الى حَوْرتك من حُرّاب[3] الناس، ومَنْ لفظه بلدهُ ونفثه عشيريه لسوء موضعه فيهم، وقد أعْذر من أنْذر، والسلام.

ثم أحد عبد الله يَجِدّ فى محاربته وحصره حتى ضيق عليه، واضطره الى طلب الأمان، وقد احتمى بمصر، وهو داهب الى بغداد حاصعا لخليفه، احتفاء عظيما، بَيْدَ أنّ جماعة ممن كانوا ناقمين على المأمون، لم يُرُقهم أن ينتهى الخلاف بينه وبين ثائر قوىّ، فأرادوا أن يكدّروا صفاء السرور فدبروا مؤامره، وهى أن يقطعوا جسر الروارق، عند افتراب بصر بموكبه الحافل، فيقبض عليهم، ولأمر ما كان المأمون، على غير عادته، قاسيا فى عقابهم. فقد جاء رعيلهم اس عائشه، فيما قال الرواه، وهو من بنى العباس، ووضعه على باب داره، فى أشعه الشمس المحرقه ثلاثة أيام، ثم أمر بصربه بالسّياط ثم أمر بصرب عنقه مع كثير ممن كانوا معه.

نقول لأمرٍ ما كان المأمون قاسيا فى عقابهم، لأن الرجل الذى نصل به عفوه وحلمه الى أن يعفو عن ابراهيم بن المهدى والفضل بن الربيع وغيرهما، من أصحاب الكبائر وممن كادوا له حقا، وسعوا فى ضياع ملكه، واستلاب عرشه، لا بد أن يكون الدافع له الى القسوه فى عقاب هؤلاء الأشخاص حاجةً فى نفسه عُيّب عليها. ونحن نعترف بأن المصادر التى بين أيدينا لم تفسر لنا تفسيرا مقنعا، السرَّ فى هذا الاشْتِطاط وهذه المبالغه فى العقوبه من المأمون الوديع الحليم.

على أن هذه الحادثه تحتاج الى تحقيق دقيق ولم تُتِحْ لنا المصادر الحاضره القيامَ بتعرّف وجه الحق فيها. ولا نستبعد البته أن يكون المأمون منها براءً. وليت أعضاء المجمع العلمى العربىّ وغيرهم من رجال العلم والتاريخ والأدب يعنون بتمحيص مثل هذه النقط المهمه فى تاريخ أزهى عصورنا الاسلاميه.

(١) أى احتلط بك وانضم اليك. (٢) الطعام. أوغاد الناس. (٣) جمع حارب وهو اللص، وحقه الأصيمى بسارق الابل.

٤ -- الـــزط

أما الزُّط، فهم المعروفون بالنَّوَرِه[1]، وقد قال ابن خلدون عنهم : إنهـم قوم من أخلاط الناس علوا على طريق البصره، وعاثوا فيها، وأفسدوا البلاد .

أما نحن فلا نستطيع من ناحيتنا أن نسلك هؤلاء القوم فى سلك أصحاب الثورات، أو الخارجين على الخليفه، لحلافٍ دينيه، أو مذهبٍ سياسىّ، وانما هم طائفه من هنود آسيا كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسى، قد وُجِدوا به حين اضطراب الأمن فى أطراف الدولة، وضعف سلطان الحكومه، وانصراف القائمين بتـدبير الشؤون العامة، الى أمر الفتنـه القائمة بين الأمين والمأمون، التى انتهزها الزط وأمثال الزط فرصه للسلب والنهب والعَيْث فى الأرض فسادا، فتجمعوا واسـتولوا على طريق البصره، فهـم لُصوصُ البحر وقطّاع الطرق أشبه منهم بالثائرين وأصحاب المبادئ ! .

ويظهر أنهم، كما يقول الأستاذ المرحوم محمد الخضرى بك، كانوا اذا أحرجهم الجند، تفـرقوا فى تلك الفَيافى، فاسـا رى المأمون يكلّف غير مرة أكثر من قائد أمرَ القضاء عليهم، ثم نراهم لا يزالون يعيثون فى الأرض فسادا، حتى السنة الأولى من عهد المعتصم، الذى كلف أحد قوّاده : تُخَيَّفَ سَ عنْسَه القضاءَ عليهم، فاهتم تُخيف بحربهم، وضيق عليهـم طريق البر والبحر، وحصرهم من كل وجه، ثم حاربهم وأسر منهـم نحو خمسمائة رجل، وقتـل منهم نحو ثلاثمـائة، وقطع رءوس الأسرى وبعث بالرءوس جميـعا الى المعتصم، وجدّ فى حربهم حتى اضطرهم الى التسليم، فاذا عِدَّتهم تسعه وعشرون ألف شخص بين رجل وامرأه وصبىّ، وكان من هذا العدد اثنا عشر ألف مقاتل، ثم حملهم فى السفن

---

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : «إن النورقيلة من القبائل الآسيوية كالقاجار الذين نسميهم التتر والتاتار أو التتر، وهم يعرفون بالشلحت فى المغرب وألمانيا، وفى بلاد الانكليز اسمهم جبسون، ويسميهم الترك باسم (قبط) وفريق منهم يسمى سنجاره وهم سكان تراقيا، وفى مصر يسمون تارة عجرا وتارة حلبا» .

الى بغداد، ثم رُوا على المعتصم بأبواقهم وهيئتهم الحربية، ثم بُقلوا آخر الأمر الى قرية تسمَّى عين زربة[1].

وقد ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٤١ هـ فى عهد المتوكل أن الروم أغارت على عين زربة هذه، فأحدثت من كان فيها أسيرا من الرطبة مع نسائهم ودرارىهم ودوابهم.

٥ — ثورة مصـــر

أما مصر، فقد كانت مسرحا للقلاقل والفتن، وكان رأس الفتنة وزعيمها عبيد الله ابن السَّرِىّ بن الحكم الذى عظم خطره باشتعال عبد الله بن طاهر بحاربة نصر بن شبث وإخضاعه، ومما زاد فى اضطراب النظام فى مصر قدومُ جماعةٍ من أَفَّاقِى الأندلس الى الاسكندرية، يحدّثنا عنهم الطبرى بقوله «حدّثنى غير واحدٍ من أهل مصر أن مراكب أقبلت من بحر الروم، من قِبَل الأندلس، فيها جماعة كثيرة، أيام شُغل الناس قتلهم بفتنة الجَرَوِىّ وابن السَّرِىّ، حتى أَرْسَوْا مراكبَهم بالاسكندرية، ورئيسهم يومئذ يُدْعى أبا حَفْص، فلم يزالوا بها مقيمين، حتى قدم عبد الله مصر».

ويحدّثنا عن الفتنة التى كانت بمصر بقوله: «قال لى يونس بن عبد الأعلى: قدم علينا من قِبَل المشرق فتًى حَدَثٌ — يعنى عبدَ الله بن طاهر — والدنيا عندنا مفتونة، قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالبٌ، والناس منهم فى بلاء، فأَصْلح الدنيا، وأَمَّن البريء، وأخاف السقيم، واستوثقتْ له الرعيةُ بالطاعة».

أما ما كان من أمر عبد الله بن طاهر فى مصر، فان التاريخ يحدّثنا أنه لما انتهى أمر نصر بن شَبَث، كما قدّمنا، كتب المأمون الى عبد الله يأمره بالتوجُّه الى مصر لإخماد ما فيها من فتنة، فذهب اليها، وحاذ الثائرين القتالَ، حتى اضطرهم جميعا الى طلب الأمان، فأجابهم اليه.

---

(١) ضبطها ياقوت بفتح الزاى وسكون الراء وباء موحدة وألف مقصورة وقال إنها بلد بالثغر من نواحى المصيصة بناها الرشيد سنة ١٨٠ هـ ونقل اليها نقلة من أهل خراسان وغيرهم وأقطعهم إياها.

وأما الأندلسيون الذين حضروا جماعة كثيرة منهم الى الإسكندرية، فقد طلبوا الأمان، على أن يرتحلوا عنها الى بعض أطراف الروم، فرحلوا الى جزيرة إقريطش (كريت) فاستوطنوها وأقاموا بها .

وأما ما كان من ابن السريّ، فانه طلب الأمانَ الى عبد الله وذلك بعد قتال عنيف، وانهزامه شرَّ هزيمة .

ولما أُخمِدَت الفتنة في مصر، وبلغ المأمونَ الخبرُ، كتب الى عبد الله بهنئه، وجعل في أسفل كتابه أبياتا من الشعر، إن ثبت صدورها من المأمون حقا، ولم يكن من وضع القصّاص والرواة، فانها تعتبر آية في كرم أخلاق المأمون . وقد ذكرناها في علاقه المأمون مع عمّاله .

وقد كتب اليه أحمدُ بن يوسف وزير المأمون يهنئه بهذا الفوز كاتبا بليغ اللفظ، رشيق الأسلوب، هذه نسخته : بلغني، أعزّ الله الأمير، ما فتح الله عليك، وخروجُ ابن السَّريّ اليك . فالحمد لله الناصر لدينه، المعزّ لدوله خليفته على عباده، المُذِلّ لمن عَدَلَ[1] عنه وعن حقه، ورَغِبَ عن طاعته، ونسأل الله أن يُظاهِرَ له النعم، ويَفتح له بلدانَ الشرك، والحمد لله على ما وَلِيَك من ظَعَنْتَ لوحشتك . فإما ومَنْ قبلَنا نتذاكر سيرتَك في حربك وسِلْمِك، ونُكثِر التعجُّب لما وُفِّقتَ له من الشدّة والأَليان في مواضعهما، ولا نعلم سائس جُند ورعيّةٍ عَدَلَ بينهم عَدْلَك، ولا عفا بعد القُدرة عمن آسَفَه[2] وأَصْغَمه عفوَك، ولقلّما رأينا ابنَ شَرَف لم يُلقِ بيده مُتَّكِلًا على ما قدّمتْ له أُبوّته، ومَنْ أُوتِيَ حظًّا وكفايةً وسلطاناً وولايةً، لم يُخلِدْ الى ما عفا له حتى يُحِلّ بمُساماة ما أمامه، ثم لا نعلم سائسا استحق التَّجْح لحسن السيره، وكفِّ مَعَرّة الأتباع استحقاقك، وما نستحير أحد ممن قَلَما أن نقدّم عليك أحدًا هَوِيَ عبد الخالقه والبارئة المُفصله، فَلْهَنِئْكَ منّه الله ومريدُه، وليَسُؤْكَ

(١) عدل عن الشيء : مال عنه وعدل .

(٢) آسفه : أغضبه .

اللهُ هذه النعمة التى حواها لك ، بالمحافظه على مابه تمَّتْ لك ، من التمسّك بحبل إمامك ، ومولاك ومولى جميع المسلمين ، ومَلَّاك وإيّانا العيشَ ببقائه ، وأنت تعلم أنك لم تزل عندنا وعنـد من قِدَمًا مكرّمًا مقـدّما معظّما ، وقد زادك الله فى أعين الخاصـة والعامه جلالة ونَجالة ، فأصبحوا يَرْجُونك لأنفسهم ويُعِدُّونك لأحداثهم ونوائبهم ، وأرجو أن يوفقك الله لمَحابّه ، كما وفى لك صُنْعَه وتوفيقـه ، فقـد أحسنْتَ جِوَار النعمة ، فلم تُطْغِـك ولم تردَدْ إلا بذلًا وتواضعا ، فالحمد لله على ما أنالك وأنالك وأودع فيك ، والسلام .

وقد خرج المأمون الى مصر فى ١٦ المحة سـنه ٢١٦ هجرية ، أثر شخوصه الى دمشق للمره الثانيـه . وكان خروجه الى مصر ، فيما يقول الرواة ، لإخماد ما قام فيها من فِتَنٍ واضطراباتٍ ، وذلك أن أهالى الوجه البحرى خرجوا ومعهم أقباطُ الـبلاد على عيسى بن منصور عامِلِ مصر ، لسوء سِيرته فيهم ، ولقُبح صَنِيعه معهم .

ويحـدّثنا التاريخ أن عيسى هـذا قد بَذَل ما فى مقـدوره لإخماد الفتنة والقضاء على الثوره ، فلم يخالفه الظفَر ، وأخرجه الثوار أقبح مُخْرَج من البلاد ، فقَدِم القائدُ التركىُّ المعروف بالأفشين وعمِل على قَمْع الفتنه وإخمـاد الثوره ، وقتل مَقْتلةً ذريعةً من الأهليين ، فسكنت الفتنةُ الى حين .

ثم عادت الفتنـه ثانيـه وابتدع لهيبها ، واستدعت خطورتُها قدومَ المأمون الى مصر ، فجاء اليها ، ونظر فى شَكاوِ الأهلين ، وعمِـل على إنصافهم ، وسَخِط على عيسى بن منصور ، ونَسَب اليه والى سيّء أعماله كلَّ ما حَدَث فى طول البلاد وعَرْضها من فتن وثورات .

ويظهر أن الثـورة المصرية لم تُخْمَـدْ تمـاما ، وأنها بطلّت من المأمون ، الى حاسب ما أظهره من رغبـةٍ فى إحقاق الحق وإجراء العدل ، شيئا من الحزم واستعمال القوه ، فجاذ الثائرين القتالَ ، حتى أذعنوا أخيرا : ويقول المؤرخون : إنه لبث فى مصر أربعين يوما أو يزيد ، إذ قَدمها فى الخامس من محرم سنة ٢١٧ هـ وبقى بها الى الثامن عشر من صفر .

ويظهر أنه قضى هذه المدّة، الى جانب اشتغاله بحرب أهلها، بالتنقّل بين العاصمة وبعض الأعمال مثل (سنْجَار وحُلوان وعبرهما) .

ومن أعمـاله فى مصر تعمير «مياس النيـل» وبعض إصلاحات أخرى بالجزيره تجاه الفسطاط . وعاد المأمون أحيرا الى دِمشق بعـد أن شهد المصريين وحربَهم وعدمَ احتمالهم ظلمَ الحكام والوُلاه .

٦ — بابك الخـــرمى

يحيرنا المؤرّخون أن بابك الخرمىّ، قد ظهر من كوره فى شمال بلاد فارس تُسمى «البد»، وقد كان خروجه للدعوة الى مذهبه الإباحىّ سنه ٢٠١ هـ، وكان المأمون لا يزال فى «مرو» قبـل أن ينتقل الى عاصمة ملكه بغداد . وقد امتدت فتنة بابك عنيفةً، طِوَالَ عهد المأمون، وصدرًا من عهد المعتصم .

وقال أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعانىّ المروزىّ، فى كتاب الانساب" الخرّمى"[1] هـذه النسبه الى طائفـة من الباطنية، يقال لهم : الخرمدينيـه، قوم يديرون بما يريدون ويشتهون ، وإنما لقبوا بذلك لاباحتهـم المحرّمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم وفعـل مايتلددون به، فلمـا شابهوا فى هـذه الاباحة المَزْدَكِيَةَ من المجوس ، الذين خرجوا فى أيام قُبَاد وأباحوا النسـاء كلهنّ وأباحوا سائر المحـرمات ، الى أن قتلهـم أنو شِروان بن قباذ، قيل لهم بهذه المشابهه خرمدينية كما قيل للمزدكية " .

وقبل أن نخوض فى تفصـيل حوادث هـذا الرجل ، وما بذله المأمون ، ثم المعتصم فى قتاله ، ثم ما كان من مصيره بعد ذلك على يد الأفشين قائد المعتصم التركى سنه ٢٢١ هـ — قبـل كل هـذا، يجب أن نورد لك ما ذكره ابن النديم فى فهرسته عن مذهب الخرّميه البابكية وما يتعلق به، لتكون على بصيرة من مذهب الرجل، وما كان يدعو اليـه من نِحْلة وبِدْعة .

(١) جاء فى القاموس وشرحه « خرمة » كسكرة قرية بفارس منها بابك الخرّمىّ الطاغية الذى كاد أن يستولى على الممالك زمن المعتصم . ثم قال . وتخرّم الرجل دان بدين الخرّمية أصحاب التناسخ والحلول والاباحة .

قال محمد بن إسحاق : « الخرميه صنفان . الخرميه الأولون ، ويُسمون المُحَمِّرَه ، وهم منتشرون بنواحى الجبـال فيما بين أذربيجان وأرمينيه ، وبلاد الديلم ، وهَمَـذان ، ودِينَوَر ، وفيما بين أصفهان وبلاد الأهواز . وهؤلاء أهل مجوس فى الأصل ثم حدث مذهبهم . وهم ممن يعرف باللقطه ، وصاحبهم مردك القديم ، أمرهم بتناول اللذات ، والانعكاف على بلوغ الشهوات ، والأكل والشرب ، والمواساه والاختلاط ، وترك الاستبداد بعضهم على بعض ، ولهم مشاركةٌ فى الحُرَم والأهل لايمتنع الواحد منهم من حرمه الآخر ولا نعمه . ومع هـذه الحال دروس أفعال الخير وترك القتـل وإدخال الآلام على النفوس . ولهم مـذهب فى الضِّيافات ليس هو لأحدٍ من الأمم . اذا أضافوا الانسان لم يمنعوه من شىء يلتمسه كائنا ما كان . وعلى هذا المذهب مردك الأحمر الذى ظهر فى أيام قباذ بن فيروز وقتله أنوشِرْوان وقتل أصحابه . وحمزه مشهور معروف . وقد استقصى البلخىّ أخبار الخرميـة ، ومذاهبهم ، وأفعالهم ، فى شرحهم ولداتهم وعبادتهم ، فى كتاب "عيون المسائل والجوابات" ولا حاجة بنا الى ذكر ما قد سبقنا اليه غيرنا » .

«فأما الخرمية البابكيه ، فان صاحبهم بابك الخُرَّمى . وكان يقول لمن استـغواه : إنه إلٰه . وأحدث فى مذاهب الخرميـة القتل والغصب والحروب والمثلة . ولم يكن الخرمية يعرفون ذلك .

ثم ذكر صاحب الفهرست بعد ذلك نشأته وما وقع له فى بدء أمره حتى صار إمام هذه النحله التى تنسب اليه نقلا عن واقد بن عمرو التميمى الذى عمل أخبار بابك ، فقال . وكان أبوه رجلا من أهل المدائن دهقانا ، نزع الى ثغر أذربيجان ، فسكن قرية يدعى «بلال آباد» من رُستاق (ميمذ) ، وكان يحمل دهنه فى وعاء على ظهره ويطوف فى قرى الرستاق ، فهوى امرأه عوراء ، وهى أم بابك ، وكان يفجُر بها برهةً من دهره ، فبينما هى وهو مُنفردان عن القرية ، متوحِّدان فى غَيْضةٍ ، ومعهم شراب يعتكفان عليه ، إذ خرج من القرية نسوة يستقين المـاء من عين فى الغيضة ، فسمعن صوتاً سَبَطِيا يُترنّم به فقصـدن اليه ، فهجس عليهما ، فهرب

عبد الله وأحدث شعر أم مالك، وحنّ بها الى القريه وفصحها فيها . قال واقد ثم إن ذلك الدهّان رَغب الى أبيها، فزوّجه منها فأولدها "بابكا" . ثم خرج فى بعض سَفَراته الى جبل سيلان واعترضه من استفهاه و جرحه فقتله، فمات بعد مُدَيْدَة . وأقبلت أم بابك تُرضع للناس بأجرة، الى أن صار لبابك عشر سنين، فيقال . أنها خرجت فى يوم من الأيام تلتمس بابكا، وكان يرعى بقرًا لقوم، فوجدته تحت شجرة قائلًا وهو عُرْيان، و إنها رأت تحت كل شعرة من صدره ورأسه دما، فانتبه من نومه . فاستوى قائما وحال مارأت من الدم فلم تحده قالت : فعلمت أنه سيكون لابنى نبأ جليل .

«قال واقد وكان أيضا بابك مع الاشل بن المبيّض الأردى برستاق سراه، يعمل فى سياسة دوابّه، وتعلّم ضرب الطُّنْبور من علمانه، ثم صار الى تبريز من عمل أذربيجان، فاشتغل مع محمد بن الرواد الأزدى نحو سنتين، ثم رجع الى أمه، وله ثمان عشرة سنة، فأقام عندها . قال واقد بن عمرو . وكان بجبل البذ وما يليه من جباله رجلان من العلوج، متحزمين ولهما حِدَّةٌ وثروة، وكان متشاجرين فى التملك على من بجبال البذ من الحزمية ليتوحد أحدهما بالرياسة، يقال لأحدهما « جاويدان بن سهرك »، والآخر علمت عليه الكنيه يعرف « بأبى عمران » وكانت تقوم بينهما الحرب فى الصيف، وتحول بينهما الثلوج فى الشتاء لانسداد العقاب . فإن جاويدان، وهو أستاذ بابك، خرج من مدينته بألف شاه، يريد بها مدينه ربجان من مدائن ثغور قزوين، فدخلها و باع غنمه وانصرف الى جبل البذ، فأدركه الثلج والليل برستاق محمد، فعاج الى قرية "بلال آباد"، فسأل جرّها إنزاله، فحمى به، بالاستحقاف منه بجاويدان، فأنزله على أم بابك وما تستتبع من ضَنْك وعُدْم، فقامت الى نار فأججتها، ولم تقدر على غيرها، وقام بابك الى غلمانه ودوابّه فخدمهم وأسقى لهم الماء، و بعث به جاويدان، فابتاع له طعاما وشرابا وعَلَفا وأتاه به، وخاطبه وناطقه، فوجده، على رداءة حاله وتعقُّد لسانه بالأعجميه، فهما، ورآه حينئذ شهما، فقال لأمه : أيتها المرأة! أنا رحل من جبل البذ، ولى به حالٌ ويَسَار، وأنا محتاج

الى أبـــك هذا، فادفعه الىّ لأمضى به معى، فأوكّله بضـياعى وأموالى، وأبعث بأجرته اليك فى كل شهر خمســين درهما، فقالت له : انك لشبيه بالخير، وان آثار السـعة عليك ظاهرة، وقـد سكن قلبى اليك، فأنبهضه معـك اذا نهضت . ثم إن أبا عمران نهض من جبـله الى حاويدان فحاربه فهُزم، فقتل حاويدان أبا عمران، ورجع الى حله وبه طعنةٌ أخافتـه، فأقام فى منزله ثلاثة أيام ثم مات . وكان امرأة حاويدان تتعشق بابكا، وكان يفجُر بها، فلما مات حاويدان، قالت له : إبك حَلْدٌ شهم ! وقد مات ! ولم أرفع بذلك صوتى الى أحد من أصحابه، فتهيأ لعدو، فانى جامعتُهم اليك، ومُعلمتهم أن حاويدان قال . انى أريد أن أموت فى هـذه الليـلة، وإن روحى تخرُج من بدنى وتدخل فى بدن بابك وتشترك مع روحه، وانه سيبلغ بنفسه وبكم أمرا لم يبلُغْه أحد ولا يبلغه بعده أحد، وانه يملك الأرض، ويقتُل الحمـارة، ويرد المزدكية، ويَعِزّ به دليلُكم، ويرتفع به وضـيعكم؛ فطمع بابك فيما قالت له، واستبشر به وتهيأ له . فلمـا أصـبحت، تجمّع اليهـا جيش حاويدان، فقالوا كيف لم يدعُ سا ويُوصِ السا! قالت : ما منعه من ذلك إلا أنكم كنتم متفرّقين فى منازلكم من القرى، وأنه إن بعث وجمعكم انتشر جمره، فلم يأمن عليـكم سِرَّةَ العرب، فعَهِد الىّ بما أنا أؤدّيه اليكم ان قبِلتموه وعملتم به؛ فقالوا لها : قولى ما عَهِد اليك، فانه لم تكن منا مخالفة لأمره أيام حياته، وليس منا مخالفةٌ له بعد موته، قالت : قال لى : إنى أموت فى ليلتى هذه، وان روحى تخرُج من جسدى وتدخل بدن هذا الغلام خادمى، وقد رأيت أن أملّكه على أصحابى، فاذا متُّ فاعلميهم ذلك، وإنه لا دينَ لمن خالفنى فيه واختار لنفسه خلاف اختيارى، قالوا : قد قَبِلنَا عهدَه اليك فى هذا الغلام! فدعت ببقرة فأمرت بقتلها وسلخها وبَسْط جلدها، وصيّرت على الجلد طستاً مملوءاً خمرا وكسّرت فيـه خُبزا، فصـبّرته حوالى الطست، ثم دعت برحل رحل فقالت : طَلِّ الجلد برحلك، وحذ كسرةً واغمسها فى الخمر وكُلْها، وقل : آمنتُ بك يا رَوحَ بابك كما آمنتُ بروح جاويدان، ثم خذ بيد بابك فكفِّرْ عليها وقبِّلها، ففعلوا ذلك الى وقت مانهيأ لها فيه طعام، ثم أحضرتهم

الطعام والشراب ، وأقعدته على فراشها وقعدت معه ظاهرةً لهم ، فلما شربوا ثلاثًا ثلاثًا ، أخذتْ طاقةَ ريحان ، فدفعها الى بابك ، فتناولها من يدها ، وذلك تزويجهم ، فنهضوا وكَفّروا لها رضًا بالترويج ، والمسلمون عريبهم ومواليهم .

* * *

وبعد ، فانا نستطيع أن نقول ، مستندين الى ما ذكره ابن النديم وغيره ، عن نشأة بابك ومدهبه وتعاليمه : إن الباعث الذى دفعه الى الخروج ، غير البواعث التى دفعت نصر ابن شَبَث فى الشام ، وابراهيم بن المهدى فى بغداد ، ومحمد بن ابراهيم المعروف بابن طباطبا فى الكوفة ، وغيرهم . ممن كانوا مقادين بفكره سياسية أو عامل حسىّ ، وانما كان خارجا على النُّظُم السياسيه والاجتماعية والاقتصادية فى ذلك العصر ، وكذلك كانت وجهة نظر بغداد فى قتاله ومطاردته .

أجل ! لم تكن العناية فى نظر بغداد من قتاله ، إحصاءَه لسلطان الخلافه ، حتى اذا أُتيح لها إحصاءه رصيت عنه وكفّت القتالَ دونه . وانما كانت العناية التى ترمى إليها القضاء على مدهبه وتعاليمه الصارّة بنُظُم الحياة والاجتماع .

وربما جاز لنا أن نقول . إن موقفه من الخلافة الاسلامية فى ذلك العصر أشبه شىءٍ بموقف اللاشفة من الأمم المتحضره فى عصرنا الحاضر .

وهاك ما فعله الخليفه المأمون مع بابك والبابكيين ، بعد ما عاثوا فى الأرض فسادا وأحافوا السبل وأثاروا الاضطراب : بعث المأمونُ لمحاربتهم ، بعد أن انتقل الى بغداد ، يحيىٰ بن معاذ ، فكانت بينهما وقعه ، لم يُتَح الفوزُ فيها لأحدهما على الآخر . ثم اختار المأمون قائدا آخر هو عيسىٰ بن محمد ، فولّاه أرمينيةَ وأذربيجان ومحاربةَ بابك ، فنُكب وعُزل . ثم وجّه اليه صَدَقه بن على المعروف بزريق ، وندَب للقيام بأمره أحمد بن الجنيد الاسكافى ، فأسره بابك . ثم بعث اليه محمد بن حُمَيد الطوسىّ ، فقتله بابك سنه ٢١٤ هـ بهشتادسر وقص عسكره ، وقتل جمعا كثيرا ممن كان معه .

وهكذا كان أمر بابك . كلما وُجِّهت اليه حملةٌ هَزَمها ! لمكانه الحصين، وقوته الكبيرة، وشدّه تأثيره فى قلوب أتباعه وأنصاره . وأخيرا انصرف عنه المأمون لانشغاله بمناوأة الروم، حتى اذا شَعَر بدنو منيّته كتب فى وصيته الى المعتصم بشأن بابك يقول : «واخزمية فأعزِهم دَا حرامهِ وصَرَامه وجَلَدِه ، واكنُفه بالأموال والسلاح والجنود ، من الفرسان والرجالة ، فان طالت مدّتهم، فتحرّد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك، واعْمَل فى ذلك مقدّمَ النية فيه، راجيا ثواب الله عليه » .

وقد عظم خطر بابك، وكثر الداخلون فى مذهبه، فى أوّل عهد المعتصم (سنة ٢١٨ هـ). وما زال به المعتصم يجرّد اليه الحملات تلو الحملات ، حتى انتهى أمره فى سنه ٢٢١ هـ بأسره وقتله « بسرّمن رأى » ، هو ورهطا من أتباعه ، على يد قائد المعتصم التركىّ العظيم حيدر بن كاوس الأشروستى المعروف بالأفشين .

* * *

٧ — مـــذاهب ونحـــل

ويحسن بنا أن نشير هنا الى أن هذا العصر من العصور الاسلاميه، قد كثر فيه الاختلاط بين أمم الشرق والعرب ، فظهرت فى العالم الاسلامى مقالات دينيه وفلسفية كثيره عربيه ، أشار اليها مؤرّخو الآراء والمذاهب ، نجد طرفا منها فى فهرست ابن النديم، وطرفا فى كتب « الملل والنحل » ، وطرفا فى كتاب الأستاذ «رون» الذى وضعه عن « تاريخ الفرس الأدبى » ففيه شىء عن الماسيّة[1] وغيرها . وقد وقف أبو العلاء المعرّى عند هذه الآراء والمذاهب فى « رسالة الغفران » وقفه ممتعة .

(١) الماسية واتباعها يقال لهم الماسوية هى النحلة التى ترى ماسى من وجود إلهين إله الخير وإله الشر ، وكان وجوده قبل الاسلام بمدة طويلة ، وقد اعتنق زندقا وقال وسلح وحشى حلده وعلق على أحد أبواب بيسابور ويعرف بباب ماسى ، ولكن حتمه لم تكن تعدم أنصارا بعد موته ، فكانت تظهر وتنعم أياما فى فترات مختلفة :

ولم لطلام الليل عندك من يد * تحقق أنّ الماسوية يكذب

وقالك ردى الأعداء تسرى إليهم * ورارك فيه دو الدلال المحجب

على أنا لا نحب أن نَعْرِض لهذه المقالات بشرح أو تفصيل، لأنا نُحِس إحساسا صادقا، وربما كنا فيه على حق، أن الكثير من هذه الآراء والمذاهب لا يزال غامضا، لقلة النصوص وعدم عَنَاء المصادر وكفايتها. ونظنّ أن الاحتياط فى مثل هذا الموقف أسلم وأبقى. وكل ما نأمله هنا ونرجوه حقا، أن يتجرد لمثل هذا البحث الممتع النافع، بعض الذين يُعْنَون بتاريخ الآراء والمذاهب الفلسفية والدينية فى الاسلام.

* * *

٨ — افتراضات

أما وقد انتهينا من كلمتنا الموجزة عن السياسة الداخلية فى عصر المأمون، فقد حق علينا أن نتساءل: لماذا مكث المأمون شطرًا طويلا من سنى حكمه فى خراسان دون بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية؟

أما أن نزعم لك أنا سنجيبك إجابة دقيقة مقنعة، فهذا ما لا نقبله لك ولا لأنفسنا. لأن المصادر التى بين أيدينا لم تكشف لنا القناع عن وجه الصواب فى ذلك.

إذن فسنقدم لك آراءً لنا فى هذا الصدد، نجدر بنا أن نعتبرها بمثابة افتراضات لا أكثر ولا أقل.

نفترض أن الفضل بن سهل وجماعة الفضل بن سهل، وحَوْلَهم حولَهم وسلطانُهم سلطانهم، آثروا بقاء المأمون فى "مرو" عاصمة خراسان حيث تجبى أموال الدولة اليه، ليكون نصيبُ البقاع الفارسية والشيعة الفارسية من هذه الأموال أوفر.

ونفترض أن المأمون وجماعته كانوا يحسون إحساسا، ربما كان صادقًا، أن كبار رجالات الدولة من العرب القاطنين بغداد، لم يكن هواهم مع دولته الفارسية الطابع والميول، وأنهم كانوا لذلك يحشون الروحَ الى بغداد قبل لَمّ شعثهم وتقوية سلطانهم.

ونفترض أنهم آثروا القرب من الولايات التى تمدّهم بجندها ورجالها، كما آثروا أن يكونوا فى أوساطهم الفارسية التى من مصلحتها نصره المأمون وتوطيد دعائم ملكه، والعمل على خذلان مناوئيه.

هذه افتراضات رأينا أن نقيدها لك لتتأمل فيها . وربما كان بعضها سائغا معقولا ؛ على أن تكون حذرا كل الحـذر ، فلا تتورط فى اعتبار كل فرض سائغ معقول ، لازمَ الوقوع فى التاريخ . فكثيرا ما يقع فى التاريخ غير المعقول من الحوادث !

(ج) السياســـة الخارجيـــة :

نعتقد أن الوقت لم يَأْنِ بعـدُ ، لدرس السياسـة الخارجية فى أيام المأمون وغيره من خلفاء المسلمين، دراسة علمية محققة . ذلك لأن كل ما نعرف من أمر هذه السياسة إنما هو الروايات العربية التى تناقلها المؤرخون، متأثرين بأشياء كثيرة . فقد كان الكثيرون من هؤلاء الرواة يجهلون لغات الأمم الأجنبية التى كانت العلاقات متصلة بينها و بين المسلمين، كما كانوا متأثرين بالحرص على رفع شأن الدولة الاسلامية، والتنويه بمجدها وسلطانها، فاضطرهم هذا كله الى الغلو حينا، والى التقصير حينا آخر .

ولم يظفر البحث بعدُ بنصوص تاريخية واضحة معاصرة، كتبت فى غير اللغة العربية . ومع أن الباحثين فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية (الروم) حاذقون فى التنقيب على النصوص والآثار التى تجلو تاريخ هـذه الدولة فى القرون الوسطى فهم لم يصلوا بعدُ ، الى شىء ذى غَنَاء فيما يَمَسّ علاقتها بالدول الاسلاميه . فأما الأمم الشرقيـة الأُخَر التى كانت على اتصال بالمسلمين ، فلم تترك لنا شيئا ، أو لم نظفَرْ من آثارها التاريخيـة بشىء ذى قيمة . وادًّا فنحن مضطرون الى أن نعتمد اعتمادا مؤقتا، مِلؤه الاحتياط والتحفظ ، على ما كتبه العـرب .

ونحن نعلم أن السياسة الخارجية فى عصر المأمون كانت تنقسم الى قسمين متمايزين : الأول سياسته مع دول إسلامية مستقلة عن الخلافة . والثانى سياسته مع دول أجنبية غير إسلاميه .

وليس هناك شكٌّ فى أن سياسة المأمون، مع الدول الاسلامية المستقلة، كانت واضحةً بيِّنة الأسلوب ؛ فقد اعتقد الخلافة العباسية دائما أن المسلمين جميعا يجب أن يُذْعِنوا لسلطانها، وإذًا فلم تعترف، فى وقتٍ من الأوقات، باستقلال الأمويين فى الأندلس، ولا الأدارسة فى المغرب الأقصى، وانما اعتبرتهم بُغاةً، وحزنت مع ذلك عن إخضاعهم لسلطانها، فعلا أو اسما. فاضطرت الى أن تتقيهم من ناحيةٍ، وتؤلِّب عليهم من ناحيةٍ أخرى .

على ذلك نستطيع أن نفهم تشجيعها دولة بنى الأغلب فى إفريقية وعطفها عليها، فقد كانت هذه الدولة تتمتع بشىءٍ من الاستقلال غير قليل ، وتطفر بحماية الخلافة، لأنها كانت بمثابة الحرس الأمامىّ الذى يردّ عن الخلافة غاراتِ هؤلاء البُغاة، ويحول بينهم وبين التوسع على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

نستطيع أن نفهم هذا ، وأن نفهم أيضا ما نلمحه لمحا فى القصص من اتصال علاقات ودّية بين بغداد وملوك الفرنج الذين كانوا يناوئون بنى أميه فى الأندلس .

أما القسم الثانى من السياسة الخارجيه، فينقسم أيضا الى قسمين : أحدهما سياسة الخلافة مع أهل الشرق الذين لم يخضعوا لسلطان المسلمين، كالترك والديلم . وهذه السياسة واضحة أيضا ، على قلة النصوص، فقد كانت سياسة توسع وبسطٍ للسلطان، ولكن فى احتياطٍ وتحفظٍ ومصانعة . وكانت بغداد تعتبر كل هذه الناحيه من الشرق منطقة نفوذٍ، تسلك فى استغلالها وابقائها غير الخاصة ، طريقا كلها حكمة وفطنة . فمتى نراها تهاجم فتفتح وتأسر، نراها مرة أخرى مودعة مخالفه مستخدمة . وهى تستفيد فى الحالين . ولكنك تعلم حق العلم ما أنتجته هذه السياسة ، آخر الأمر ، حين ضعف الخلفاء، من تسلط أهل هذه المنطقة على أمور الدولة، وعبثهم بعظمة الخلافة .

والقسم الثانى هو سياسة الخلافة مع قياصرة « قسطنطينية » . وهذا القسم هو الذى نستطيع أن نقول ، فى غير تردّدٍ، انه احتاج حقا الى جهود الخلفاء وكفاياتهم . فقد كانت

العلاقة بين «قسطنطينيه» و«دمشق» أيام الأمويين و بينها و بين «بغداد» أيام العباسيين، شديدة الاضطراب والتعقّد، لانكاد تستقر على حال، وانما هي حربٌ حيناً وسلمٌ حينا آخر .

ومهما نكن من شيء، فقد كانت القاعده الأساسيه لهذه السياسـة ، أن الحرب هي الحال الطبيعية بين الدولتين، فأما السلم فحال عارضه، ولذلك كانت تسمى دائمـا هدنةً . وربما كان من المعقول أن نقول: إن أصحاب «قسطنطينيه» و « بغداد » كانوا يضطرون اليها اضطرارا .

غزو المأمون للروم

قدّمنا لك فى الكلام عن مالك الحزمىّ أن المأمون أرسل الله آخر حملةٍ ، بقيادة محمد ابن حميد الطوسىّ سـنه ٢١٢ هـ، وأن هـذه الحملة باءت بالهزيمه والفشل، كما باء غيرها، ممـا سبقها من حملات ، وأن المأمون انصرف عن مالك مؤقتا، لأشتغاله بغزو الروم الذين يعلل بعضهم سبب تحفّز المأمون الى غزوهم ، بعد أن طال السلم المسلح بينه و بينهم زهاء ست عشرة سنة، بما تأكده المأمون من مشايعتهم لمالك و إمدادهم إياه بالمعونة .

ويقول الأسـتاذ « ميور » ، فى بيان سبب هذه المهادنة الطويلة بين الخلافة والروم ، وعدم انتهاز المسلمين فرصـه الثوره ، التى نشبت فى بلاد الروم بين « توماس » و«ميخائيل» لغزو آسيا الصغرى : " إنه لا شك أن ريبّت العرب عن اقتحام بلاد الروم، فى ذلك الوقت ، يرجع الى أن بِطْـريق أنطاكية بـلاد سوريا ، كان قد تزوج توماس امبراطورا، ولو نجح فى تأميره وسلطانه، لكفى العربَ مؤونةَ القتال ، ولكان توماس هـذا تابعا للخليفة المأمون " .

على أن المأمون قد تخصّص سـنة ٢١٥ هـ الى بلاد الروم ليغزوها سالكا اليهـا طريق المَوْصِـل ، ثم مَنْبِج ، ثم دابق ، ثم أنطاكية، ثم المصيصـة، ومنها خرج الى طَرَسوس، وهى الثغر الاسـلامىّ ، ومن طرسوس دخل بلاد الروم ، فى منتصف جمـادى الأولى (يوليو سـنة ٨٣٠ م) ، ففتح وغنم كثيرا من الحصون، ثم شخص الى الشام . وورد عليه

فى دمشـق الخبر ،أن ملك الروم قتل قومًا من أهل طرسوس والمصيصة، فأعاد الكره الى بلاد الروم، وكان الظفر والتوفيق حليفه فى هذه الكرّة أيضا .

وفى المدّة التى قضاها المأمون بين مصر ودمشق، بدأت المناوشات بين عمّـاله وملك الروم ، ثم اشتدّت حتى آصطُلِر الى أن يشخَص الى بلاد الروم للمرّه الثالثـه، وهى المرّه التى تُوُفّى فيهـا .

وفيما هو سائر إليها ، معترما تحقيق خطهِ رسمها لنفسه ، إذ يقول : أُوجّه الى العرب، فآتى بهـم من البوادى ، ثم أُنزلهم كل مدينـةٍ أفتَتِحها ، حتى أصرب الى القسطنطينية، إذ جاءه رسول ملك الروم يحمل اليـه كتاب مولاه، يطلب فيه الصلح والمهادنة . وهـذه نسخته، فيما يقول الرواة العرب : "أما بعد، فإن اجتماع المختلفين على خطّهما، أولى بهما فى الرأى ممـا عاد بالضرر عليهما . ولستَ حَرِيًّا أن تدعَ لِحَظّ يصل الى غيرك حظًّا تحوزه الى نفسك ، وفى علمك كاف عن إخبارك .وقد كتبتُ كتبتُ اليك، داعيًا الى المسالمة، راغبًا فى فصـيلة المهادنة ، لتصع أوزار الحرب عنا ، ويكون كلّ واحدٍ لكل واحد وليا وحربًا، مع اتّصال المَرَافق، والفسْح فى المتاجر، وفكّ المستأسر، وأمن الطرقِ والبَيْضةِ. فان أبيتَ، فلا أدِبّ لك فى الخَمَر(١)، ولا أُزخرف لك فى القول، فإنى لخائصٌ اليك عمارَها، آخذٌ عليـك أَسْدادَها ، شاذٌّ حيلَها ورحالَها . وان أفعلْ فمعد أن قدّمتُ المعذرةَ ، وأقمتُ بينى وبينك عَلَم المحجة . والسلام" .

أما ردّ المأمون عليه فيقول المؤرّخون العرب إنّ نسخته كانت : "أما بعد، فقد بلغنى كتابك فيما سألتَ من الهدنة، ودعوتَ اليه من الموادعه، وخَلَطتَ فيه من اللين والشدّة، مما استعطفتَ به من شرح المتاجر، واتصالِ المرافق، وفكّ الأسارى، ورفع القتل والقتال. فلولا ما رجعتُ اليـه من إعمـال التؤدة والأخذِ بالحظ فى تقليب الفكرة ، وألّا أعتقد

(١) الخمر ، (بالتحريك) ما وارى الشخص من شجر وغيره . يقال : دب له فى الخمر اذا تحيى له ليختله .

الرأىَ فى مستقبلة إلا فى استصلاح ما أوْرَى فى مُعْتَصَه ، لجعلتُ جواب كتابك خيلًا تحمل رجالًا من أهل الباس والجلده والبصيره ، يسارعونكم عن ثُكلكم ، ويبتدرون الى الله بدمائكم ، ويستقلّون فى ذات الله ما بالهم من ألم شَوْكتكم ، ثم أُوصل اليهم من الأمداد ، وأُبلغ لهم كافيًا من العُدّه والعَتاد ، هم أظمأ الى موارد المنايا منكم الى السلامه من محوف معرّتهم عليكم ، موعدُهم إحدى الحُسْنَيَيْن : عاجل عَلَه ، أو كريم مُنْقَلَب . غير أنى رأيت أن أتقدم اليك بالموعظة التى تُثبِت الله بها عليك المحجه من الدعاء لك ولمن معك الى الوحدانيـة ، والشريعة الحنيفيّة ، فان أبيت ، فهـذْه بوحب دِقّه ، وتشب بَطره . وان تركت ذلك ، فهى بقيى المعاسـة لعوتنا ما يغنى عن الإبلاغ فى القول والإعراق فى الصفه ، والسـلام على من اتبع الهدى » .

* * *

(د) كلمة ختامية عن وفاة المأمون و رجالاته ومعاصريه ووصيته :

لقد عاجلت المنيةُ المأمون ، دون تحقيق خطبه ، بموضع يقال له « البَـدَندون » بين « لؤلؤة » و « طَرَسُوس » . وكانت وفاته لثلاث عشره ليلة بقيت من رجب سنة ٢١٨ هـ وسنه ثمان وأربعون سنه وأربعة أشهر .

أما عن كبار رجالات المأمون وولاته ، فيقول اليعقوبى . وكان الغالب عليه فى خلافته ذو الرياستين ثم جماعة : منهم الحسن بن سهل ، وأحمـد بن أبى خالد ، وأحمـد بن يوسف . وكان على شُرْطته العباس بن المسيَّب بن رهير ، ثم عزله وولّى طاهرَ بن الحسين ، ثم عبدَ الله بن طاهر الذى استخلف اسحاق بن ابراهيم ببغداد ، فوجه اسحـاق أخيه خليفة له على شرطتـه . وكان على حَرَسـه شَبيب بن حُميد بن قَحْطَبـه ، ثم عزله وولّاه قُومَس ، واستعمل مكانه هَرْثمة بن أَعْيَن ، ثم عبـد الواحد بن سلامة الطحلاوى ، قرابة هرثمة ، ثم علىّ بن هشام ، ثم قتله وولّى مُخَيف بن عَنْبسة . وكانت حِجَابتُه الى أحمد ابن هشام ، وعلىّ بن صالح صاحب المصلّى . قال : وخلّف من الولد الذكور ستة عشر

ذكرا، وهم محمد، واسماعيل، وعلي، والحسن، وابراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، واحمد، والعباس، والفضل، والحسين، ويعقوب، وجعفر، ومحمد الأكبر، وهو ابن معللة وتوفي في حياته، ومحمد الأصغر، وعبيد الله، أمهما أم عيسى بنت موسى الهادي.

أما صاحب «نهاية الأرب»، فقد ذكر في الجزء العشرين من كتابه: أن حُجّابه هم عبد الحميد بن شَبَث، ثم محمد وعلي ابنا صالح مولى المنصور، ثم اسماعيل بن محمد بن صالح. وذكر أن قُصّاته هم. محمد بن عمر الواقدي، ثم محمد بن عبد الرحمن المخزومي، ثم بشر ابن الوليد. وكان نقش خاتمه، فيما ذكره المسعودي في التنبيه والإشراف: «الله معه عبد الله به يؤمن».

* * *

وقد يكون من المفيد لنا، من وجهة نظر التاريخ المصري، أن نقف على ولاة مصر وقضاتها في عهد المأمون، وذلك ييسره لنا كتابان مُمْتِعان وافيان في هذا الموضوع، وهما كتاب «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي الأتابكي وكتاب «الولاة والقضاة» الذين ولوا أمر مصر وقضاءها للكِنْدي. ونحن ذاكرون لك هؤلاء الولاة والقضاة على وجه الاختصار.

أما الولاة فهم: مالك بن دلهم، وحاتم بن هرثمة، وحاتم بن الأشعث، وعبّاد بن محمد، والمطلب بن عبد الله، والعباس بن موسى. والسري بن الحكم، وسليمان بن غالب، ومحمد ابن السري، وعبيد الله بن السري، وعبد الله بن طاهر، وعيسى بن يزيد، وعمر بن الوليد، وعبدويه بن جبلة.

ولقد حدثنا المؤرخون في أيامه عما سمي في مصر بالبدع المأمونية الأربع: فالبدعة الأولى منها هي لبس الخُضْرة وتقريبُ العلوية وإبعادُ بني العباس. والثانية القول بخلق القرآن. والثالثة ما كتبه المأمون الى نائبه بغداد أن يأمر الجند بالتكبير اذا صلّوا الجمعة وبعد

الصلوات الخمس . ثم أباح المأمون فى هذه السنة وهى سنة ٢١٥ هـ «المُتْعة» فقال الناس: هـذه بدعه رابعـه ، وبعد ولاية ابن حنبل هـذا ، ولاية عيسى بن منصور ، ونصر بن عبد الله، وشهرته كيدر، والمظفر بن كيدر .

أما قضاة مصر فى عهـده فهم : عبد الرحمن العمرىّ ، وهاشم بن أبى بكر البكرىّ ، وابراهيم بن السكاء ، وطبيعة بن عيسى الحصرمىّ ، والفضـل بن عانم ، وابراهيم بن اسحاق العارىّ ، وعطاف بن عزوان ، وحمله عبد الله بن طاهر على المظالم ، وبعدئذ ولى القضاء من قبله عيسى بن المنكدر ، وأخيرا هارون بن عبد الله .

أما معاصروه، فقد كان يعاصره فى الأندلس الحَكَم بن هشام، ثالث أمراء بنى أمية، ثم ابنه عبد الرحمن . وفى عهدهما سمعنا رأى الأندلس ، فى القول بخلق القرآن ، فقد قال أبو خلف المعافرىّ :

لَا والذى رَفَـع السما * ءَ بلا عمـاد للبطـرْ
ما قال خلقٌ فى القُرَا * نِ بخلقه الا كَفَر
لكن كلام منزلٌ * من عند خلّاق البشر

وكان يعاصر المأمون فى بلاد المغرب الأقصى: ادريس بن ادريس بن عبدالله، ثم ابنه محمد بن ادريس . ويعاصره فى إفريقيا من بنى الأغلب عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب، ثم ابنه زيادة الله بن ابراهيم، فاتح صِقِلّية . ويعاصره فى فرنسا « شارلمان » صديق أبيه ثم «لويز الأول» الملقب باللين . ويعاصره فى القسطنطينية « ليون الأرمنى » و « ميخائيل» الملقب بالتمتام، ثم ابنه « بوفيل» .

أما صفته فهى، كما ذكرها صاحب «نهاية الأرب» ، « كان المأمون ربعة، أبيض، طويل اللحية، رقيقها قد وخطه الشيب . وقيل : كان أسمر، تعلوه صفرة، أجْنى، أعْين، صيق الجبهة، بجدّه خال أسود» وكذلك وصفه الطبرىّ وغيره .

ولما حضرته الوفاة أوصى لأخيه المعتصم من بعده . وعلل بعضهم أن الوصية كانت للمعتصم دون ابنه العباس بأن الثانى كان متغيبا عنه ساعة وفاته .

ولقد أثبتنا لك فى باب المنثور من الكتاب الثالث فى مجلدنا الثالث وصيته التى أوصى بها حين مماته ، لقيمتها التاريخية ، ولأنها توضح بعض آرائه ، وتفصح عن السر فى بعض تصرفاته ، فراجعها ثمة .

الفصل الخامس

الوزارة والأعمال الحكومية فى عصر المأمون

تاريخ الوزارات المأمونية

توطئة عن تاريخ الوزارات المأمونية — وزارتا الفضل بن سهل وأخيه الحسن — وزارة أحمد بن أبى خالد — وزارة أحمد بن يوسف — وزارة يحيى بن أكثم — وزارات أخرى — الجند والقواد فى عصر المأمون — القضاة وديوان المظالم .

(١) توطئـــة :

لســـا نريد أن نتكلم عن تاريخ الوزاره ، ومكانها فى العصر العباسى ، فقـد تعرض لدرسها كثيرون ، نذكر منهم على سبيل التمثيل الأستاذ « برون » فى كتابه تاريخ الفرس الأدبى ، والمؤرخ آدم طَبَاطَبَا فى الآداب السلطانيه ، وانما قُصَارَى ما نرمى اليه ، كتابة مذكرة موجزة عن حياة الوزراء من وزراء المأمون ، حتى نقف بذلك على صورة كاملة قدر المستطاع ، عن العصر الذى تصدروا للكتابة عنه ، ومكانة رجالاته البارزين فيه ، فنقول :

١ و ٢ — وزارتا الفضل بن سهل وأخيه الحسن

يحدثنا التاريخ أن أوّل وزراء المأمون الفضلُ بن سَهْل ، وهو من رجال جعفر البرمكى ، فلا غرو اذا نزع فى سياسة الملك منزعَ البرامكة ، ولا غرو اذا اتهمَ بهم وتلا تِلْوهم فى تدبير أمور السلطان ، ولا غرو اذا كانت دولة بنى سهل غرّة فى جبين الدهر ، ودرّة على مَفْرِق العصر ، لأنها كانت ، كما يقول الفَخْرى ، مختصرَ الدولة البرمكية .

أما طريقة اتصاله بالمأمون ، فان المظان التاريخية والأدبية تحدثنا أن جعفرا البرمكىّ لما عزم على استخدامه للمأمون ، وصفه يحيى بن خالد بحصرة الرشيد ، فقال له الرشيد : أوصِلْه الىّ ، فلما وصل اليه أدركته حيره فسكت ، فنظر الرشيد الى يحيى نظرَ مُنْكِرٍ

لاختياره ، فقال ابن سهل : يا أمير المؤمنين ، إن من أعدل الشواهد على مَرَاهة المملوك أن يملك قلبَه هيبةُ سيده ، فقال الرشيد . لئن كنت سكتَّ لتصوع هذا الكلام ، فلقد أحسنت ، وإن كان بديهةً إنه لأحسن وأحسن . ثم لم يسأله بعد ذلك عن شيء إلّا أحاله بما يصدِّق وصفَ يحيى له .

ويروى لنا أبو عثمان عمرو بن بَحْر الجاحظ ، وهو كما تعلم ، شيخ من مَشْيَخة الأدب والبيان فى عصرنا المأمونىّ ، فى كتابه «الحيوان» . أن جعفرا الصبىّ ، وصف الفضل بن سهل بقوله . أيها الأمير ، أسكتنى عن وصفك تَسَاوِى أفعالك فى السؤدُدِ ، وحيَّرنى فيها كثرةُ عددها ، فليس الى ذكر جميعها سبيل ، وإن أردتُ وصفَ واحده ، اعترضتْ أختُها إذ لم تكن الأولى أحقَّ بالذكر ، ولستُ أصفها إلا باطهار العجز عن وصفها .

ويقول أبى طاطا . إن الفضل كان سخيا كريما ، يجارى البرامكة فى جوده ، شديد العقوبة ، سهل الاعطاف ، حليما نبيلا ، عالما بآداب الملوك ، بصيرا ، جيد الحَدْس ، محصّلا للأموال ، وكان يقال له الوزير الأمير .

وكان الفضل بن سهل يتشيّع كمذهب عالب الفرس ، وكانت له إصابة حسنة ، بعلم النجوم كما أسلفنا لك القول فى كلمتنا عن المأمون فى صباه ، ومما يؤيد ذلك ما رواه أبو الحسين علىّ بن أحمد السلامى فى تاريخ ولاة خراسان : أن المأمون لما عزم على إرسال طاهر بن الحسين الى محاربة أخيه محمد الأمين ، نظر الفضل بن سهل فى مسألته ، فوجد الدليل فى وسط السماء ، وكان ذا يمينين ، فأخبر المأمون بأن طاهرا يظفر بالأمين ويلقّب بذى اليمينين ، فتعجب المأمون من إصابة الفضل ولقّب طاهرا بذلك .

وكان الفضل بن سهل شبيها بأساتذته البرامكة فى رَفْد الشعراء ، وتشجيع الشعر ، وكان متجَر القُصّاد مهم قبل وزارته ، فان كتب الأدب تحدثنا أن مسلم بن الوليد ، قال فيه حين ذاك ، وكان من ندمائه وسمّاره :

وقائـلٍ ليستْ له همـةٌ * كلا ولكن ليس لى مالُ
وهمّه المُقْـتِر أُمْنيَّـةٌ * عَوْدٌ على الدهر وأثقالُ
لا حِدَّةٌ يَنهَض عزمى بها - والـناس سُؤّال وبُخّالُ
فاصبر على الدهر الى دولة - يرفع فيها حالَك الحـالُ

ويقول لنا المحرى : إن الفضـل لمـا علتْ حالُه وتولّى الوزاره ، قصـده مسلم بن الوليد ، فلما رآه سُرّ به ، وقال له . هذه الدوله التى يرفع فيها حالك الحال ، وأمر له بثلاثين ألف درهم ، وولّاه برند خُرْحان ، فاستفاد مِنْ ثَمّ مالًا طائلا .

ويحدثنـا آبن خلّكان . أن الفضل بن سهل ، قال يوما لثُمَـامةَ بن الأَشْرَس المتكلم المعروف ما أدرى ما أصنع بطلّاب الحاجات ، فقـد كثُروا علىّ وأضجروني ! فقال له : رُدّ عن موصـلك ، وعلىّ ألّا يَلْقاكَ أحدٌ مهـم ! فقال صـدقتَ ! وانتصب لقضاء أشغالهم ، وكان قد مرض بحراسان وأَشْفَى على التّلَف ، فلما أصاب العافية ، جلس للناس فدخلوا عليـه وهنئوه بالسلامة وتصرّفوا فى الكلام ، فلمـا فرغوا من كلامهم أقبـل على الناس وقال : إن فى العِلَل لنِعَما لا ينبغى للعقلاء أن يجهلوها : تمحيص الذنوب ، والتعرّض لثـواب الصـبر ، والإيقاظ من الغفلة ، والإدكار بالنعمة فى حال الصحة ، واسـتدعاء التوبة ، والحصّ على الصدقة .

وقد مدحه جماعه من أعيان الشعراء ، وفيه يقول ابراهيم بن عباس الصُّولِىّ .

للفَضْـل بن سهل يدٌ تقاصرَ عنها المَثَـلْ
مـائلُهـا للعـلـى ، وسَـطْوتُها للأجلْ
وباطنُهـا للنّـدَى ، وظـاهرُها للقُبَـلْ

ويقول آبن خلكان : إن ابن الرومىّ أخذ من قول الصُّولِى هـذا مِدحتَـه التى صاغها فى الوزير القاسم بن عُبَيد الله التى فيها :

أصحتُ بين خَصَاصه وتحمُّل ، والحـر بينهـما يموت هزيلا
فامـدُدْ الىّ يدًا تعوّد بطنُهـا * بدل النـوال وظهرُها التقبيـلا

وفيه يقول آخر :

لعَمْرُك ما الأشراف فى كل بلدةٍ وان عَظُموا للفضلِ إلا صنائعُ
ترى عطاءَ الناس للفضل خُشَّعًا اذا ما بدا والفضـلُ لله خاشـع
تواضـع لمـا راده اللهُ رفعـةً * وكلُّ جليلٍ عنـده متواضـعُ

وحكى الجهشيارى : أن الفضل بن سهل أصيب بناس له يقال له العباس فجزع عليه أشد الجزع ، فدخل عليه ابراهيم بن موسى بن جعفر العلوىّ وأنشده .

حيرٌ من العباسِ أحرُك مدَه والله حبرٌ منـكَ للعبّـاسِ

وقال فيه مسلم بن الوليد من قصيدة له :

لو نطق النـاسُ أو أثنَوْا بعلمهمْ * ونبّأتْ عن معالى دهرِك الكتبُ
لم يبلغـوا منـكَ أدنى ما يمتّ به * اذا تفاخرتِ الأمـلاكُ وانتسـبُوا

فأمر له عن كل بيت من هذه القصيدة بألف درهم .

وانه ليلوح لنا من قراءتنا الطويلة لكتب الأدب والتـاريخ أن جماعة الشعراء الذين كانوا يمتدحون البرامكةَ — وما أكثرهم — هم أنفسهم الذين امتدحوا آلَ سهل ، واتخذوا منهم برامكة آخرين . كما يلوح لنا أن لمقولاتهم وقصائدهم فى امتـداحهم واظهار قوتهم واستفحالِ سلطانهم ، بعض الأثر فى نكبتهم ، لأنه غير معقول ألبتةَ أن يمر على المأمون قول مثل قول القائل :

أقمتَ خلافةً وأزلتَ أخرى * خليـلٌ ما أقمتَ وما أزلتَا

من غير أن يترك فى نفسه بعض ما كانت تتركه على البرامكة ، أمثال تلك الأقوال فى نفس الرشـيد ، ومهما قيل عن حلم المأمون وعفوه واعتدال مزاجه وسعه صـدره فان النفس الانسانيه هى هى .

وقد مرّ بك فيما أجملناه لك من الحوادث التي وقعت في حكم المأمون، أنه جعل في سنة ٢٠١ هـ عليّ بن موسى العلوي ولّي عهد المسلمين والخليفة من بعده، وسمّاه الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه أمر جنده بطرح السواد ولبس الخُضره وبيّنا ما كان لذلك من ثورات وفتن لم تهدأ إلا بعد أن عاد الى مقرّ ملكه، وأعلم آله وأنصارَه بوفاه الرضا، وعاد الى لبس السواد وهو شعار العباسيين .

ونريد الآن أن نشير هنا الى ما كان من الفضل بن سهل فيما نحن في صدده، ونعتمد على ما رواه الطبري، قال . إن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد العلويّ أخبر المأمون بما فيه الناس من الفتنه والقتال منذ قُتل أخوه، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار، وإن أهل بيته والناس قد نَقَمُوا عليه أشياء، وإنهم يقولون : إنه مسحور مخبول، وإنهم لما رأوا ذلك بايعوا لعمّه ابراهيم بن المهدي بالخلافه، فقال المأمون انهم لم يبايعوا له بالخلافه، وانما صيّروه أميرا عليهم يأمرهم، على ما أخبر به الفضل، فأعلمه أن الفضل قد كدّه وعشّه، وأن الحرب قائمه بين ابراهيم والحسن ابن سهل، وأن الناس يَنْقِمون عليك مكانه ومكانَ أخيه، ومكاني ومكانَ بَيْعتك لي من بعدك، فقال ومن يعلم هذا من أهل عسكري " فقال له : يحيى بن مُعَاذ، وعبد العزيز ابن عِمْران، وعدّة من وجوه أهل العسكر، فقال له : أدخلهم عليّ حتى أسائلهم عما ذكرت، فأدخلهم عليه، وهم يحيى بن معاذ، وعبد العزيز بن عمران، وموسى، وعلي بن أبي سعيد، وهو ابن أخت الفضل، وحَلَف المصريّ، فسألهم عما أخبره، فأبوا أن يخبروه حتى تجعل لهم الأمانَ من الفضل بن سهل، ألّا يَعْرِض لهم، فضمن ذلك لهم، وكتب لكل رجل منهم كتابا بخطّه ودفعه اليهم، فأخبروه بما فيه الناس من الفتن، وبما نَمَّوه عليه الفضلُ، من أمر هَرْثَمة، وأن هرثمة انما جاء ليصحبه وليبيّن له ما يعمل عليه، وانه ان لم يتدارك أمرَه خرجت الخلافةُ منه ومن أهل بيته، وان الفضل دسّ الى هرثمة مَنْ قتله، وأنه

أراد نصحه ، وأن طاهر بن الحسين قد أبلى فى طاعته ما أبلى ، وافتتح ما افتتح ، وقاد اليه الخلافة مَزْمومةً حتى اذا وطّأ الأمر أُحرج من ذلك كلّه ، وصيّر فى راوبة من الأرض بالرَّقّة ، قد حُظِرت عليه الأموال حتى ضعُف أمرُه ، وشَعَب عليه جنده ، وأنه لو كان على خلافتك ببغداد لبسط الملكَ ولم يُجبرأ عليه بمثل ما اجتُرئ به على الحسن بن سهل ، وان الدنيا قد بقتقتْ من أقطارها ، وان طاهر بن الحسين قد سُوسى فى هذه السنين ، ومد قُتل محمد فى الرقة ، لا يستعان به فى شىء من هذه الحروب ، وقد استعان بمن هو دونه أضعافا ، وسألوا المأمونَ الخروجَ الى بغداد ، فان بنى هاشم والموالى والقوّاد والجند لو رأوا عزّتك سكنوا الى ذلك ، وبجمّعوا بالطاعة لك . فلما تحقق ذلك عند المأمون ، أمر بالرحيل الى بغداد . فلما أمر بذلك علم الفضلُ بن سهل بعض ذلك من أمرهم ، فعنّتهم حتى صرب بعضهم بالسِّياط وحبس بعضا وتقّف لحَى بعض ، فعاوده علىّ بن موسى فى أمرهم ، وأعلمه ما كان من صمابه لهم ، فأعلمه أنه يُدَارِى ماهو فيه ، ثم ارتحل من مَرْو ، فلما أتى سَرَخْس ، شدّ قوم على الفضل بن سهل وهو فى الحَمَّام فضربوه بالسيوف حتى مات ، وذلك يوم الجمعه لليلتين خلتَا من شعبان سنه ٢٠٢ فأُخِدوا ، وكان الذين قتلوا الفضل من حَشَم المأمون ، وهم أربعة نفر عالبُ المَسْعُودى الأسود ، وقُسْطُنطِين الرومى ، وفَرَجُ الدَّيْلَمِى ، وموفّق الصِّقِلّى ، وقتلوه وله ستون سنه وهرَبوا ، فبعث المأمون فى طلبهم وجعل لمن جاء بهم عشرةَ آلاف دينار ، فجاء بهم العباس بن الهَيْثم بن بُرْ جَمْهر الدَّسورىّ ، فقالوا للمأمون . أنت أمرتَنا بقتله ، فأمر بهم فصُربتْ أعناقهم ، وقد قيل إن الذين قتلوا الفضل ، لما أُخِدوا سألهم المأمون ، فمنهم من قال : إن على بن أبى سعيد بن أخت الفضل دسَّهم ، ومنهم من أنكر ذلك . وأمر بهم فقُتلوا ، ثم بعث الى عبد العزيز بن عمران وعلى وموسى وحَلَف ، فسألهم فانكروا أن يكونوا علموا بشىء من ذلك ، فلم يقبل ذلك منهم ، وأمر بهم فقُتِلوا ، وبعث برءوسهم الى الحسن بن سهل فى وَاسِط ، وأعلمه ما دخل عليه من المصيبه بقتل الفضل ، وأنه قد صيّره مكانه . وتزوج المأمون من ابنته بُوران ، وأظهر الحسن فى حملة

رواجها من الكرم الحارق ، والجود الحاتمى ، ما دعا المأمون الى أن نسبه فيه الى السَّرَف، ولقد قَدِمَ على الحسن بن سهل شاعر يلتمس صِلته وعارفته ، فاشتعل عنه مُدَيدةً فكتب اليه :

المـال والعقل مما يُستعان به على المُقَام بأبواب السلاطين
وأنت تعلم أنّى منهما عَطِلُ اذا تأملتَـنى بادى الدَّهَاقِينِ
أمَا تدلُّك أثوابى على عدَمِى ٭ والوحهُ أبى رئيسٌ فى المحابين
والله يعلم ما للمُلْكِ من رحل ٭ سواكَ يصلح للدنيـا وللدين

فقيل : إن الحسن أمر له ، بعشره آلاف درهم ، ووقّع فى رقعته :

أعجلتَـنا فأتاك عاجل بِرّنا قُلًّا ولو أنظرتَـنا لم يُقْلِلِ
جد القليل وكُنْ كأنك لم تَسَلْ ٭ ونكون نحن كأنـا لم نُسْأَل

ويظهر لنا ممـا قرأناه عن الحسن بن سهل فى أمالى أبى علىّ القـالى وغيره من مظان الكتب الأدبية ، أن له نصرا بالأدب عظيما ، ومكانة فى الكتابة ساميه ، وحظا بأفانين القول ومَناحيه وفيرا .

فقد رُوى عنه أنه كتب الى محمد بن سَمَاعةَ القاضى « أما بعد ، فانى احتجتُ لبعض أمورى الى رجلٍ جامع لخصال الخـير ، دنى عفةٍ ونَزَاهة طُعْمَةٍ[1] ، قد هذّبتْـه الأخلاق ، وأحكمتـه التجارب ، ليس بطَبِين فى رأيه ، ولا بمطعون فى حسبه ، إن أوْقِس على الأسرار قام بهـا ، وان قُلِّد مُهِمّا من الأمور أحرأ فيه ، له سنٌّ مع أدب ولسان ، تُقْعِـده الرزانة ، ويسكّنه الحلم ، قد فُرِّغ من دكاء وفطنه ، وعضّ على قارحه من الكمال ، تكفيه اللحظة ، وترشده السَّكتة ، قـد أبصر خدمةَ الملوك وأحكمها ، وقام فى أمورهم فحُمِد فيها ، له أَنَاة الوزراء ، وصَوْلة الأمراء ، وتواضع العلمـاء ، وفهم الفقهاء ، وحواب الحكماء ، لا يبيع نَصِيبَ يومه بجِرْمان غده ، يكاد يسترق قلوبَ الرجال بحلاوة لسانه وحسنِ بيانه ، دلائلُ الفضل عليه

(١) الطعمة بضم الطاء وكسرها وجه الكسب الطيب أو الخبيث .

لائحه ، وأمارات العلم له شاهده ، مصطلمًا بما استُنْهِض ، مستقلًّا بما حُمِّل ، وقد آثرتُك بطلبه ، وحَبَوْتُك بارتياده ، ثقةً بفصل اختيارك ، ومعرفةً بحسن تأتِّيك» .

و يقول ابن طاطبا : إن الحسن بن سهل كان أعظم الناس منزلةً عند المأمون ، وكان المأمون شديد المحبة لمعاوضته ، فكان اذا حضر عنده طاوله فى الحديث ، وكلما أراد الانصراف منعه ، فانقطع زمان الحسن بذلك وثقُلتْ عليه الملازمه ، فصار يتزانى عن الحضور بمجلس المأمون ، ويستحلف أحد ندمائه ، كأحمد بن أبى خالد وأحمد بن يوسف وغيرهما ، ثم عَرَضتْ له سَوْداءُ كان أصلُها جَرعَه على أحيه ، فكانت سببَ انقطاعه فى داره واحتجابه عن الناس ، وقد هجاه حين ذلك بعض الشعراء فقال :

تولَّتْ دولةُ الحسن بن سهل * ولم أُلْفِ لهَا فى من نَدَاها

فلا تحزعْ على ما فات منها * وأبكى الله عينىْ مَنْ بكاها

وقد قرأنا فى كتاب الأغانى ما يستدل منه على أن الحسن بن سهل هو صاحب الوَسَاطة فى العفو عن ابراهيم بن المهدى ، وذلك يختلف مع ما رواه البعض من أن بوران ابنته هى التى طلبت العفو عنه ، وما رواه البعض الآخر من أن طاهر بن الحسين هو صاحب الوساطه . وتفصيل الرواية . أن الحسن بن سهل دخل على المأمون ، وهو يشرب فقال له بحياتى وبحقّى عليك يا أما محمد إلّا شربتَ معى قدحًا ، وصبَّ له من بنيده قدحا ، فأخذه بيده وقال : من تحب أن يعفِّكَ ؟ فأومأ الى ابراهيم بن المهدى ، فقال له المأمون : عفّه ياعم ، فعاه . نسمع للحَلْي وَسْواسًا اذا انصرفتْ * يُعرِّض به ، لما كان لحِقَه من السَّوْداء أو الاختلاط ، فعصبَ المأمون حتى طنّ ابراهيم أنه سيُوقِع به ، ثم قال له : أبيتَ إلّا كُفْرا ، يا أكفر خلق الله لنِعَمه ، والله ما حقن دمَك غيرُه ، ولقد أردتُ قتلك ، فقال لى . ان عفوتَ عنه فعلتَ فعلا لم يسبقك اليه أحد ، فعفوتُ والله عنك لقوله ، فحقُّه أن تُعرِّض به ! ولا تَدَعْ كيدَك ولا دَعَلَك ! أوَ أبِقْتَ من إيمانه اليك بالعماء ! فوثَب ابراهيمُ قائما وقال . يا أمير المؤمنين ، لم أذهب حيث ظننتَ ولستُ عائد ، فأعرض عنه .

* * *

٣ — وزارة أحمـــد بن أبى خالد

يظهـر أن المأمون كان قد صُـدِم صدمةً عنيفة، من وزاره الفضـل بن سهل ومن أخيه، لاستبدادهما بحُلِّ الأمور من دونه، ويظهر أنه فكّر جِدّيا فى ألّا يستوزر بعد الفضل أحدا، ويقال إنه لمـا دعا إليه أحمد بن أبى خالد — وكان أبوه كاتب سرّ ابن عبيد الله، كاتبِ المهـدى ووزيره — قال له إنى كنت عزمت ألّا أستوزر أحدا، ثم عرض عليـه الوزاره، فتصل أحمد منها، وقال يا أمير المؤمنين: أعفنى من التسمّى بالوزارة، وطالِبْنى بالواجب فيها، واجعلْ بينى وبين العامة معرله يرجون لها صـديق، ويخافون لها عدوّى، فما بعد الغايات إلا الآفات.

وتدل هـذه المناقشه، وإن كانت قصيره، على أن أحمد بن أبى خالد قد وجد العبره فى تاريخ الفضـل بن سهل، وأمثاله، فرأى أن يكون مقتصدا فى مكانته وسلطانه، وقد اعجب المأمون بكلامه واستوزره.

وسترى فى كلمتنا المحمله التى عقدناها عن تقدير المأمون للشجاعة الأدبيـه، طَرَفا من تصرّفات أحمـد بن أبى خالد، وحسن مخلصه، فى حادثه عمرو بن مَسْعده، وكيف كان شجاعا وصادقا، وكيف كان مخلصا للمأمون، عاملا على إصلاح ما بينه وبين رجالات دولتـــه.

ويقول صاحب الآداب السلطانية والدول الاسلاميه. إن المأمون لمـا ولّى طاهرَ ابن الحسين خراسان، استشار فيه أحمد بن أبى خالد، فصوّب أحمد الرأى فى ولاية طاهر، فقال المأمون لأحمـد: إنى أخاف أن يغدُر ويخلَع ويفارق الطاعة، فقال أحمد: الدَّرَك فى ذلك علىّ — ويجب أن نشير هنا الى ما جاء بكتاب عيون الأخبار عن دقة المأمون فى مثل هـذا الموقف، فان المعـلّى بن أيوب أحد المعاصرين يحدّثنا عن ذلك بقوله: سمعت المأمون يقول: من مدح لنا رجلا، فقد تضمّن عيبَه — فولاه المأمون، فلما كان

بعد مده، أنكر عليه المأمون أمورا، وكتب اليه كتابا يتهدده فيه؛ فكتب طاهر جوابا، أغلظ فيه للمأمون، ثم قطع اسمه من الخطبة ثلاث جمع، فبلغ ذلك المأمون، فقال لأحمد ابن أبى خالد : أنت الذى أشرتَ بتولية طاهر، وصمت ما يصدر منه، وقد ترى ما صدر منه من قطع الخطبة ومفارقة الطاعة، فوالله لئن لم نتلطف لهذا الأمر وتصلحه كما أفسدته وإلا صربتُ عنقك؛ فقال أحمد . يا أمير المؤمنين، طِبْ نفسًا، فبعد أيام يأتيك البريد بهلاكه . ثم إن أحمد بن أبى خالد أهدى لطاهر هدايا، فيها كَوَامِيخُ[1] مسمومة[2]، — وكان طاهر يحب الكَامَخ — فأكل منها فمات من ساعته .

فان صحت هذه الرواية دلت على أن المأمون ورجاله لم يكونوا قد صرفوا أنفسهم يومئذ عن التذرع الى الخلاص من بعض رجال الدولة بالقضاء على حياتهم .

قال الفخرى : إن احمد بن أبى خالد لما تولى طاهر خراسان، حسّن هذا الحساب، فوهب له خادما وناوله سمّا، وقال له : متى قطع خطبة المأمون فاجعل له هذا السم فى بعض ما يحب من المآكل، فلما قطع طاهر خطبه المأمون جعل الخادم له السم فى كامخ، فأكل منه فمات فى ساعته، ووصل الخبر على البريد بموته الى المأمون بعد أيام، فكان ذلك مما عظم به أمر أحمد بن أبى خالد . فتأمل طريقة التخلص من الزعماء فى ذلك الحين، ولاحظ كيف كانت عندهم حاتمة الحياة لمن يتبرمون لهم من كبار القواد والوزراء . ولتعلل بعد ذلك لم أقفرت البلاد من قادتها وكُبَاتها، ولِمَ أَمْحَت الكلمة الناهدة فيها بعد للغِلْمة الأتراك وغيرهم من الغرباء ! .

وكان أحمد بن أبى خالد، الى جانب كفايته، وبصره بالأمور مصابا بالشَّرَه . وقد قال أحد المعاصرين — لما ناقش المأمون أحمد بن أبى خالد هذا — : ما أظن أن الله خلق

(١) هو إدام يؤتدم به وقيل هو حبر يحل . معرب كامه بالفارسية وحصه بعضهم بالمخللات التى تستعمل لتشهى الطعام .

(٢) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار « يلوح لى أن هذه الحكاية مصنوعة فكيف يختر أحمد بن أبى خالد على هذا الأمر وهو يعلم مكانة عبد الله بن طاهر ومكيدته وأهبته وحسن تأتيه للأمور . فهل يأمن أن يعتريه عبد الله مما يوقعه ويحمل هلاكه . وبعد هذه الرواية تناقض الرواية الأخرى . وهى أن صاحب البريد كتب الى المأمون بما كان من طاهر من ترك الدعاء له وكتب إليه فى اليوم الثانى بموته » .

فى الدنيا نفسا أنبـل ولا أكرم من نفس المأمون ، فلما سئل لمـاذا ؟ قال : لأنه عرف نفس الرجل — يعنى أحمد بن أبى خالد — وشَرَهَه فكان اداوجّهه الى رجل برسالة أو فى حاجة ، قال : ائتِه بالغَـدَاة واجلَسْ ببـابَك واطمئنّ عنـده ، فان انصرفتَ وقد همتُ فاكتبْ الىّ بجواب ما جئتَ به فى رُقْعه وادفعْها الى فتح يوصلها الىّ .

ومما يسب اليـه أنه ولّى رجلا كُورةً عظيمة القـدر بحَوَان فَالُوذج أهداه اليـه . وقيـل . إن جماعه من أهل كوره الأَهْوار شكَوْا عاملا كان عليهم ، فعُزِل وصار الى مدينة السّلام ، فتكلموا فيـه ، فأُنهِى خبرُهم الى المأمون ، فأحضَرهم وخَصْمَهم ، وأمر أحمد بن أبى خالد بالنظر فى أمورهم ، فقال رجل من خصوم العامل : يا أمير المؤمنين ، جعلنى الله فداءك ، تقدّمْ الى أحمدَ ألّا يقبلَ من هذا الفاجر هديةً حتى يقطع أمرَنا ، فوالله لئن أكل من طعامه رغيفا ومن فَالُوذَجه جَامًا ، ليُدْخِصَنّ اللهُ خُبْزَتَنا على يديه ، وليُبطِلَنّ حقّنا على يديه . فكان من خَبَاء ما قاله متكلم الجماعة أن المأمون طلب اليهـم أن يحضُروا اليه يوم الأربعاء ، ليبطر فى شكاتهم بنفسه ، وكان من خبَاء مثل هذه الشكاوى وما قيل فى أمر أبى خالد من أنه « يقتـل المظلوم ويُعين الظالم بأكله » أن أَجْرَى المأمون عليـه فى كل يوم ألف درهم لمـائدته ، لئلا يَشْرَهَ الى طعام أحد من بِطَانته أو من طعام الناس .

ومن طريف حوادثه مع المأمون — وهى تؤيد لنا صحه ما يُرْمَى به من هـذه الناحية وتدل على اقتناع المأمون بإصابته بها — ما رووه لنـا ابن طيفور فى تاريخه ، قال : «حدّثنى بعض أصحابنا قال قال المأمون يوما لأحمد بن أبى خالد : أُغِدُّ علىّ باكراً لأخذ القصص التى عندك ، فانهـا قد كثرتْ لنقطعَ أمورَ أصحابهـا ، فقد طال انتظارهم إياها . فبكّر ، وقعد له المأمون ، فجعل يَعْرِضها عليـه ويوقّع عليها ، الى أن مرّ بقصـة رجل من البَرَيديين يقال له فلان البريدىّ فصحّف ، وكان جائعا فقال : الفَرِيدىّ ، فضـحك المأمون ، وقال : يا علام ! تَريدةً صحمةً لأبى العباس ، فانه أصبح جائعا ! فخجل أحمد ، وقال : ما أنا بجائع يا أمير المؤمنين ، ولكن صاحب هذه القصة أحمق ، وضع نِسْبَتَه ثلاث

نقط ؛ قال . دَعْ هذا عنك فالجوع أصرّ لك حتى ذكرت الثريد ، فجاءوه بصَحْفة عظيمة ، كثيرة العُراق[1] والودك ، فاحتشم أحمد ، فقال المأمون : تحياتى عليك ! لَمَّا عَدَلْت نحوَها ، فوضع القصص ومال الى الثريد ، فأكل حتى انتهى والمأمون ينظر اليه ، فلما فرغ دعا بطَسْت فغسل يده ورجع الى القصص ، فمرّت به قصة فلان الحِمْصِىّ ، فقال : فلان الخَبِيصى ! فضحك المأمون ، وقال : يا علام ! حَامًا صحيحا فيه خَبِيصٌ[2] ، فان عَدَاء أبى العباس كان مستورا ، فخجل أحمد ، وقال : يا أمير المؤمنين ، صاحب هذه القصة أحمق ! فتحَ الميمَ فصارت كأنها سِنّان ! قال : دع عنك هذا ، فلولا حمقه وحمق صاحبه لمتّ جوعا ؛ فجاءوه بحام خبيص ، فحمل ، فقال له المأمون : تحياتى عليك إلّا مِلْت اليها ! فانحرف فانثنى عليه ، وغسل يدَه ، ثم عاد الى القصص ، فما أسقط حرفا حتى أتى على آخرها .

«و بعد» فانا نستنبط — من هذه الروايه ومما جرى من الحديث بينه و بين المأمون فى شأن أكلة ابن أبى خالد عبد ديبار بن عبدالله التى كلفت المأمون ألف ألف[3] — شَرَهَ هذا الوزير الجليل . ونحدر سا أن نفيد هنا ملاحظه أخرى ، وهى طول احتمال المأمون ، وكبر حلمه ، وقوة اصطباره ، على مطالعه شكاوى الجمهور ومظالمهم ، غير مكترث لألم الجوع ولا حانح الى الرغد والراحة ، فى سبيل نظرها و إنصاف أصحابها .

على أن هذه الهَنَة فى هذا الوزير وإن كانت عائبة للرجل ناقصه من كرامته ، فكفايته مقطوع بها ، وليس أدلّ على عظيم قدره ، وسمو مكانته ، من حضور المأمون جنازته ، وصلاته بنفسه عليه ، وقوله عنه ، بعد أن دُلِّى فى حُفْرته وترحّم عليه ، أنت والله كما قال القائل :

أخو الجِدّ إن جدّ الرحالُ وشمّروا * ودو باطلٍ ان كان فى القوم باطلُ

---

(١) العراق . جمع عرق وهو القطعة من اللحم وهو أحد الجموع النادرة (وقد سبق هذه الجموع ان السكيت فى لسان العرب مادة عرق فراجعها) والودك : الدسم .

(٢) نوع من الحلوى .

(٣) أنظر هذه الحكاية فى تاريخ بغداد لابن طيفور ص ٢٢٢ — ٢٢٤

✦
✦ ✦

٤ — وزاره أحمـــد بن يوسف

وقد استوزر المأمون بعد ابن أبي خالد أحمد بن يوسف الكاتب . ولما كنا سنعقد له بحثا خاصا في قسم الآداب والعلوم، فسنحد ثمة طرفا عن حياته وأثره .

✦
✦ ✦

٥ — وزاره يحيى بن أكثم التميمي

استوزر المأمون بعد أحمد يحيى بن أكثم . وهو من أصحاب ثُمامة بن أشرس المتكلم المعروف، ولاّه المأمون وظيفتي الوزاره وقاضي القضاة .

ولم أحد اختلافا قويا، هو اختلاف النقيضين، كاختلاف القدماء في يحيى بن أكثم . ولما كان له مظهر بارز في الدولة المأمونية من الوجهه العلميـه والأدبية — لأنه كان، كما يقول أحمد بن حنبل رضي الله عنه، متفننا فيها: فكان اذا نظر الى رجل يحفظ الفقه سأله عن الحديث، واذا رآه يحفظ الحديث سأله في النحو، واذا رآه يعلم النحو سأله عن الكلام، ليقطعه ويُخجله — آثرنا أن نلمّ بحياته وأقوال الناس فيه من قادح ومادح، ونبين قدره على وجه الإجمال لا التفصيل . وسنورد كلاما فيه أيضا في قسم العلوم والآداب من هذا الكتاب .

✦
✦ ✦

٦ ، ٧ ، ٨ — وزارات أخرى

وقد ذُكر أن المأمون استوزر، بعد من قدّماه لك، أبا عَبّاد ثابتَ بن يحيى بن يَسار، وأبا عبـد الله بن زِيَاد، وقد أتممنا في سيرتيهما بمن سبقهما، كما أنه ذُكر أنه استوزر عمرو بن مَسْـعدة وهو صِنو أحمـد بن يوسف نباهةً وكِفايةً وكتابة . وإنا لا نرى مَدْعاة لاثبات ما هو من لون واحد، فهي دلك إضاعة للوقت وتكرار للقول .

(ب) الجند والقواد فى عصر المأمون :

لا نريد هنا أن نتكلم عن ديوان الجند وتاريخه ، ولا عن مرتبات الجند وتحولهم ، منذ العهود الأولى ، فان ذلك يطول كثيرا . على أنا نحيلك مع ذلك الى ما جاء بالجزء الأول من تاريخ التمدين الاسلامى فى هذا الباب . وقصارى ما نريد قوله الآن أن راتب الجندى الراجل ، وهو مثل « النفر » فى النظام العسكرى الحديث، هو ٢٤٠ درهما فى السنة ، فضلا عن حصته فى الغنائم عند الغزوات . ويظهر أن حصة الجنود من الغنائم كانت قد حُبست عنهم، حتى ردّها عليهم الأمين سنة ١٩٨ هجرية، فأصاب الرجل ستة دنانير .

ولما قام النزاع بين الأمين والمأمون جعل المأمون راتب الجندى ثمانين درهما فى الشهر، على أن هذا الراتب عاد الى ما كان عليه بعد انتهاء الفتنة .

أما القواد العظام فى هذا العصر، فانا نكتفى بما وقفتَ عليه أثناء النزاع بين الأخوين، لأن من التكرار فى القول أن نعيد هنا ما قلناه هناك .

(ج) ديوان القضاء والمظالم والحسبة :

ستقف من بحوثنا التى أفردناها لتحليل أحلاق المأمون على شىء من سلطان القضاة فى ذلك العهد . ونحيلك هنا الى المحاضرة القيمة التى ألقيت فى المجمع العلمى بدمشق عن تاريخ القضاء فى الاسلام، كما نحيلك الى الفصل المُسْهَب الذى أفرده فى هذا الموضوع صاحب التمدين الاسلامى .

ويكفينا هنا أن نقول : إن نظام الحكم أو الفصل فى الدعاوى، فى ذلك العهد، كان متشعبا بقدر ما كان محكما، إذ قد كان يوجد الى جانب ديوان القضاء : ديوان المظالم وديوان نظر الحسبة، وهذه الدواوين كلها كانت تنظر فيما يرفع اليها من دعاوى .

ويطول بنا الحديث، فى هذا المقام لو أردنا استيعاب بيان كل نوع من هذه الدواوين وما يختص بالنظر فيه .

على أنه يحور لك، أن تفترض الى حدّ ما ، أن ديوان المظالم كان يشبه فى بعض نظامه وسلطته المحاكم العليا كمحاكم الاستئناف والنقض والابرام، كما يشبه الى حدٍّ غير قليل المجالس التأديبية .

واما يحيلك هنا الى الفصول الممتعة التى أفردها أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى فى كتابه القيم " الأحكام السلطانية " فقد عالج فيها الكلام عن القضاة وما يختصون به من الدعاوى، وعن ولاة المظالم وما يختصون به أيضا، وكذلك عن ولاة الحسبه وحدود سلطانهم، وقد نقل عنه صاحب نهاية الأرب فى نهاية الجزء السادس جملة صالحة منه فراجعها .

أما راتب القضاة فمقول . إن راتب القاضى بلغ فى أيام المأمون ٤٠٠٠ درهم فى الشهر، أى حوالى ٢٧٠ دينارا . وهذا الراتب فى ذاته يدل على ما وصلت اليه الثروة فى ذلك العصر. وقد كنا نودّ أن نختص الولاة ورواتبهم بكلمة لولا أن المصادر فى ذلك تنقصنا . وفيما بيناه عن القضاة مقياسٌ لمن كان فى مكانتهم ولمن كان أرفع منهم أو أقلّ مرتبة . فعليك أن تفكر وتقارن .

الفصل السادس

خلاصة الحياة السياسية والاجتماعية

توطئة — نكبة الوزراء — الاستصفاء — ثروة الخلفاء ورجال الدولة ومدخهم — الخراج فى عهد المأمون — الخراج فى عهد المعتصم — السعايات والجاسوسية — الدعاوة (الرياحدا) — صعوبة مهمة المؤرخ .

(أ) توطئة :

أما أثر المال فى النفوس ، وأثر الأحزاب السياسية ، وكيف تعبث وجهات النظر فى كثير من الأمور الدينية ، فانك قد وقفت على شىء من ذلك فيما سردناه لك .

على أنا نظن أنه قد آن لنا أن ندون بعض ملاحظاتنا فى هذا العصر ، وآن لنا أن نتكلم عن نصيب الوزراء والقواد والزعماء فى هذه الدولة ، التى كان للوزراء والقواد والزعماء الأثر الكبير فى تدعيم بنيانها ، وتقوية أركانها ، وتشييد سلطانها .

(ب) نكبة الوزراء :

نريد أن نلاحظ أن حياة الوزراء وحياة القواد والزعماء كانت تنتهى ، فى الغالب ، بنكبتهم فى حياتهم ، أو استصفاء أموالهم .

ومع أنا نحيلك الى بعض المصادر القيمة فى هذا الموضوع ، مثل كتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، لأبى الحسن الهلالى بن المحسن بن ابراهيم الصابى الكاتب ، والى ما كتب من الفصول فى غيره ، نريد أن نلاحظ أن كُلَّهم قد نكبه خليفتُه ، مثل نكبة المنصور لأبى مسلم ، وعبد الله بن على ، وأبى سلمة الخلال ، وأبى الجهم ، ونكبته لأبى أيوب الموريانى ، ونكبة الربيع بن يونس الذى سمّه الهادى ، ونكبة المهدى ليعقوب ابن داود ، ونكبة الرشيد للبرامكة ، والمأمون لمن رأيت .

يلاحظ ذلك . ويلاحظ أن عدد الخلفاء و وزرائهم فى ذلك العهد قد لاكته الألسنة وتكلمت فيه الشعراء ، فقد قال بعضهم حينما قتل المتوكل وزيره محمد بن عبد الملك الزيات :

يكاد القلبُ من جزع يطيرُ * اذا ما قيل قد قُتِل الوزيرُ
أمير المؤمنين قتلتَ شخصا * عليه رَحَاكُمُ كانت تدور
فمهلًا يا بنى العباس مهلا * لقد كُوِيتْ بعدركم الصدورُ

كما يلاحظ أيضا سفسل شخصيات عظيمة من قبول الوزاره فى ذلك العهد ، لما عهدوه من وَخم عواقبها ، وسوء مَغَبَّة الاضطلاع بها . فقد ذكر ابن طيفور أن ثُمَامه ابن أَشْرَس المتكلّم المعروف، قال : لما قُتِل الفضلُ بن سهل بعث الىّ المأمون وكنت لا أنصرفُ من عنده إلّا الوَقْعةَ الى منزلى، ثم يأتينى رسوله فى جَوْف الليل فآتيه، وكان قد أهَّلَنى لمكان الفضل بن سهل من الوزارة، فلما رأيته قد ألحّ علىّ فى ذلك تعاللتُ عليه ، فقال لى : إنما أردتك لكذا وكذا، فقلت : يا أمير المؤمنين، إنّى لا أقوم بذلك، وأَحِبّ أن أصُنّ بموضعى من أمير المؤمنين وحالى أن تزولَ عنده ، فانى لم أر أحدا تعرّض للخدمه والوزارة، إلا لم يكن لتَسْلَمَ حالهُ ولا تدومَ منزلته . ورشّح له أحمدَ بن أبى خالد الأحول . ثم انطر الى اعتلاله عليه مره أخرى حينما رشّح له يحيى بن أكثم . فانك توقن معنا بفور رجال الدولة من الوزارة، وهربهم من شَرَكها وسوء عُقْباها .

(ج) الاستصفاء :

هم ينفرون من الوزاره ، لأن خاتمة حياتهم كانت التقتيل كما رأيت . ويفرون منها، لأن مصير أموالهم وأموال دوبهم كان، فى الغالب، الى الاستصفاء والاغتصاب .

ولقد عمّ الاستصفاء سائرَ رجال الحكومة حتى الرعية ، وأصبحت، بتوالى الأيام ، المصدرَ الأوّل لتحصيل المال .

فالعامل يستصفى مما للرعيه ، والوزير يستصفى مما للعمال ، والخليفه يستصفى مما للوزراء ، ومما للناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى لقد أنشئوا للاستصفاء ديوانا خاصا مثل سائر دواوين الحكومة ، فكان المال يُتداول بالاستصفاء كما يتداول بالمتاجرة .

أما أنواع الاستصفاء ومقاديره فى ذلك العصر ، فنترك الكلمه فى هذا للوزير ابن الفرات قريب العهد بالمأمون ، قال : « تأمّلتُ ما صار الى السلطان من مالى ، فوجدته ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وحسَبتُ ما أخذه من الحسين بن عبدالله الجوهرىّ بن الجَصّاص فكان مثل ذلك . فكأنه لم يخسر شيئا ، لأنهم كانوا يقصدون بالاستصفاء ويدفعون بالاستصفاء . وادا استصفى أحدهم من مال لم يكن فى وسعه أداؤه كله معجّلا ، أجّلوه بالباقى وساعدوه على تحصيله أو جمعه بردّ جاهه وتعييرزيّه ، وإنزاله فى دار كبيره فيها الفرش والآلة الحسنه ، ليستطيع التدخّل فى جمع الأموال من الناس .

وتعدّدت أسباب الاستصفاء وجهاته ، حتى أصبح كل صاحب مال أو منْصب عرضةً له . وهاك بيانا لما قبضه ابنُ الفرات من الاستصفاء ، على أيام الراضى بالله ، نشرها لك لتكون أنموذجا لأنواع الاستصفاءات ومقاديرها .

دينار	
٧٣٠٠	من أحمد بن محمد بن ابراهيم البَسْطَامِى ، عن النصف مما بقى عليه من استصفائه فى سنه ٣٠٠ هـ .
١١٠٠٠	من على بن الحسين الباديىّ الكاتب ، عما تولاه من الموصل .
٣٠٠٠٠	« محمد بن عبدالله الشافعىّ ، عما تصرف فيه لعلىّ بن عيسى .
٨٠٠٠٠	« محمد بن على بن مُقْلة ، عما تصرف فيه .
١٠٠٠٠٠	« محمد بن الحسن المعروف بأبى طاهر .
١٣٠٠٠	« الحسن بن أبى عيسى الناقد ، عما ذكر أنه وديعه لعلىّ بن عيسى .
٤٠٠٠	ومنه أيضا صلحا عن نفسه .
٢٠٠٠٠	من ابراهيم بن أحمد المادرائى .
٢٦٥٣٠٠	

دينار	
٢٦٥٣٠٠	ما قبـــله
٣٦٣٣٠	من عبد الواحد بن عبيد الله بن عيسى، عن بقيه استصفاء والده .
١٠٠٠٠	« أحمد بن يحيى بن حانى الكاتب عن مصلحهٍ وجبتْ .
٦٠٠٠	« ابراهيم بن أحمد بن أدريس الجَهْبذ، عن صلحه .
٤٠٠٠	« محمد بن عبد السلام بن سهل ، عما عنده من الوديعة لمحمد بن على وابراهيم بن أحمد المـادرانى .
٤٠٠٠٠	« عبد الوهاب بن أحمد بن ما شاء الله، عن صلحه .
١٠٠٠٠	« محمد بن عبد الله بن الحارث، عن صلحه .
٢٥٠٠٠٠	« محمد بن أحمد بن حَمّاد، عما تصرف فيه بالموصل وغيرها .
١٥٠٠٠	« ابراهيم بن أحمد المـادرانى، عن الباقى عليه من جملة خمسين ألفًا .
٣٠٠٠	« أبى عمر محمد بن أحمـد الصباح الحرجرائى، عن ضمانة الـساق على أبى العباس أحمد بن محمد بن على المعروف بقرقر .
٧٠٠٠٠٠	« على بن محمد بن الحوارى وقتل .
٧٠٠٠	« هارون بن أحمد الهمدانى .
٢٠٥٠	« عبد الله بن زيد بن ابراهيم .
١٥٠٠٠	« عبد الله بن زيد، صلحا عن نفسه .
٦٠٠٠٠	« على بن مأمون بن عبـد الله الاسكافى كاتب ابن الحوارى وقُتل .
٧٠٠٠٠٠	« يحيى بن عبد الله بن إسحاق، عما تصرّف فيه مع حامد .
١٣٠٠٠٠٠	« حامد بن العباس، وقُتل .
١٥٠٠٠٠	« محمد بن محمد بن حمدون الواسطى .
٣٢١٠٠٠	« أبى الحسن على بن عيسى .
١٠٠٠٠٠	« ابراهيم بن يوحنا جهبذ حامد بن العباس .
١٢٠٠٠٠٠	« أبى محمد الحسن بن أحمد المـادرانى .
٥,٢٩٤,٦٨٠	

دينار

٥٢٩٤٦٨٠ ما قبله

١٠٠٠٠٠٠ ومنه أيضا .

١٠٠١٠٠٠ من أبي بكر محمد بن علي المادرائي .

١٠٠٠٠ ومنه ايضا .

٧,٣٠٥,٦٨٠

درهم

٥٠٠٠٠ من أبي الفضل محمد بن أحمد بن بسطام .

٢٠٠٠٠٠ « علي بن الحسن الباذبيني ، صلحا عما تصرف فيه بالموصل وقتل .

١٠٠٠٠٠ « أبي عمر محمد بن أحمد بن الصباح الجرجرائي ، عن ضمان الباقي من استصفاء أبي ياسر إسحاق بن أحمد .

١٠٠٠٠٠ « عبيد الله بن أحمد اليعقوبي .

١٠٠٠٠٠ « الحسن بن ابراهيم الخرائطي ، صلحا عما اقتطعه من مال الرئيس .

١٠٠٠٠٠ « الحسن بن علي بن بصير أخي بصير بن عليّ .

٢٥٠٠ « علي بن محمد بن أحمد بن السُّمان ، عن ورثة قرقر .

١٠٠٠٠ « أبي بكر أحمد بن القاسم الأزرق الجرجاني ، عن صياع علي بن عيسى .

١٣٠٠٠٠ « الحسين سعد بن القُطْرَبُّلي .

١٥٠٠٠٠٠ « محمد بن أحمد .

٣٠٠٠٠٠٠ « أبي الحسن محمد بن أحمد بن بسطام .

٥٠٠٠٠ « أحمد بن محمد بن حامد بن العباس .

١٣٠٠٠٠ « سليمان بن الحسن بن مخلد .

ومن المعقول أن يستنبط من ذلك أن الوزير أو العامل ، لابد أن يجنح الى الرشوه ، يعوّض المال الذي سيستصفى منه ، والثروة التي ستغتصب منه . ومن المعقول أيضا أن نعلّل لِمَ تعددت الثورات في بعض الولايات ، ولِمَ كثرت الشكايات من بعض الولاة في ذلك العهد . وإنه وإن لم يهتم المؤرخون القدماء بإثبات شكايات العامة

وأسباب ثوراتهم، فقـد عثرنا بين السـطور على العبارة الآتيـة فى الجزء الثـانى من اليَعْقوبىّ، نثبتها لك بنصها . « أحد الرشـيد العمال والتُّـاء(١) والدَّهاقين(٢) وأصحاب الضِّياع والمتاعيين للعَـلّات والمُقَلِّين(٣)، وكان عليهم أموال مجتمعة، فولّى مطالبتهم عبد الله بن الهَيْثم ابن سام، فطالبهم بصوف من العداب، وكان ذلك سنة ١٨٤ واعتل الرشيد فى تلك السنة علة شديدة وشفى منها، فدخل اليـه الفصيل ، فرأى الناسَ يعدّون فى الخراج ، فقال : ارفعوا عنهم، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . "من عذّب النفس فى الدنيا عذبه الله يوم القيامة" فأمر بأن يرفع عن الناس، فارتفع العداب من تلك السنة(٤) » .

ويجوز لنا أن نستدل من هذه العباره ومما ذكره الطبرى وسواه : من تحميص بعض الخلفـاء لخراج بعض البلدان عقب ثورة من الرعيـة أو زياره ملكية، على أن العمال كانوا يجنحون الى الشـدّه والعسف وجمع المـال بشتى الوسائل، وكل ذلك من جرّاء النظـام المتبع معهم كما أسـلفنا . فتأمل كيف يكون عسف الولاه للرعيـة بسبب عسف الملوك للولاة والعمال .

يَعْسِفون(٥) ويظلمون، والرعية وحدها هى التى تحتمل وتصبر . بَيْـد أن التاريخ يحدّثنا دائمـا ، فى كافة الدول وكافة الأجيـال ، أن نهاية هـذا الاحتمال وذلك الصبر هى يقظة الأمم وانتباهها ، ونهضة الشعوب ونصوحها ، ورفضها فى إباء وشمم وفى عقيده وإيمان ، وفى شجاعة وحرية، وفى تصميم وقوة إراده، احتمالَ أمثال هـذه الأدران والمآثم ، وتلك الإساءات والمظالم، ممن تسلموا مقاليد الرعية : من الحكام ودوى السلطان .

---

(١) التاء (وراد سكان) جمع تاوٍ، والتاوٍ الدهقان . أنظر القاموس . (٢) الدهاقين جمع دهقان وهو التاجر أو رئيس الاقليم وهو فارسى معرب . (٣) هم ملتزمو حماية الخراج للولاة . (٤) يرى الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار أن عمل الرشيد هـذا لم يكن من قبيل الاستصفاء وإنمـا هو من قبيل الإعانات فى استيفاء الحقوق . (٥) يلاحظ الأستاذ النجار أيضا أن كل ما ذكر فى هذا الباب لا يتناول رمى المأمون وإنما كان ذلك بعده . والرشـيد لم يجحف عليه إلا استصفاء البرامكة حين نكبهم وأن المأمون رفعت اليه رقعة فيها أن فلانا مات وترك لورثته كذا وكذا وكان المـال يبلغ الملايين من الدراهم فكتب فى الرقعة : هذا قليل لمن تقلب فى دولتنا وطالت خدمته لنا فبارك الله لورثته فيما ترك لهم .

(د) ثروة الخلفاء ورجال الدولة وبذخهم :

نريد أن نقيد ملاحظة أخرى، وهى نتيجة لازمة من نتائج الاستصفاء والاعتصاب . تلك الملاحظة هى استفحال ثروه الخلفاء طبعا ، واستفحال ثروة كبار رجالاهم والمقربين من أفراد البيت الملكىّ من بطانة وحاشية، واستفحال بذحهم، واستفحال أعطياتهم . ونحن وإن كنا لم نجد مصدرا مطلما فى هذا الموضوع ، وخاصةً فى العصر المأمونى، فقد عثرنا فى كتاب لطائف المعارف للثعالبى، أن « المكتفى » وهو قريب الصلة بعصر المأمون ، قد خلف مائة مليون دينار ! وهذا تفصيلها :

دينار

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ من العين والورق والأوانى المعمولة .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ « الفرش .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ « الكُراع والسلاح والغلمان .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ الضياع والعقار والأملاك .

٢٠,٠٠٠,٠٠٠ الجوهر والطيب وما يجرى معهما .

ومن المعقول أن نخذ من حالة هذا الخليفة العباسىّ مقياسا لغيره، وإن كنا نعلم أن غيره مثل الرشيد والمأمون كانا أبسط منه سلطانا وأكثر أعوانا، فهما إن لم يكونا أرفع منه شأنا، ليسا بأقل منه بالثروة مكانا !

أما ثروة كبار رجالهم ، فإنا نذكر لك هنا على سبيل المثال نصّا هاما ، يصح أن نخذه أساسا لتقدير ثروه أسرة الفضل بن سهل ، أو أسرة طاهر بن الحسين ، أو غيرهما من أساطين الدولة وأقطاب المملكة . وهو النص الذى رواه سَهْل بن هارون أحد المعاصرين خاصا بثروه البرامكة . وكلامه حجة لا محالة، لأنه الى جانب كونه من المعاصرين الواقفين على مَا جَرَيَاتِ الأمور و بواطنها فى ذلك العهد ، فقد كان يشغل وظيفةَ خازن دار الحكمة فى أيام المأمون. قال. « .. وأمر الرشيدُ بضمّ أموالهم، فوجد من العشرين ألف ألف

التى كانت مبلغ حِمَايتِهِـم ، اثنىْ عشرَ ألف ألف مكتوبٌ على بِدَرها صكوك مختـومة تفسيرها رقما ، حواليها ، فما كان منها حِمَاءٌ على عَرِيـة أو اسـتطراف مُلْحة تصـدّق به يحيى ، وأثبت ذلك فى ديوانها ، على تواريخ أيامها ، فكان ديوانَ إنفاق واكتساب فائدة ، وقبض من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وستمائة ألف وسـته وسبعين ألفـا ، الى سائر صياعهم وعلاتهم ودُورهم ورِبَاشهم والدقيق والجليل من مواعينهم ، فانه لا نصف أقلّه ، ولا يَعرف أيسره ، إلا مَنْ أَحْصى الأعمال ، وعرف منتهى الآحال » .

ويجـوز لنا كذلك أن نستخلص ممـا صرف على رواح نُورَانَ بالمأمون ، مبلغَ ثروه الحسـن بن سهل . كما يجوز لنـا أن نبين مقـدار ثروه عبـد الله بن طاهر من روايه صاحب النجوم الزاهره الخاصة بإحدى مواقفه فى الكرم ، ومؤداها : أنه افتدى الأَسْرى من الترك بنحو ألفى ألف درهم . ثم انظر ما رواه المسـعودى فى مُرُوجه خاصّا بمـا فعله ابراهيم بن المهـدى ، فى زيارته للرشيد له ، اذ اصطنع له طَاهِيـه حملةَ أطعمه فخمه ، وكان من جملتهـا حامُ سمك مقطّع ، فاستصغر الرشيد قِطَعَه ، واستفسر منه عن حقيقتها ، فأجابه ابراهيم بن المهدى : يا أمير المؤمنين ، هذه ألسنةُ السمك . وقدّرت نفقة ما فى ذلك الجام بألف درهم !

ثم انظر بَذَخَهم فى لباسهم . وقد سبق لنا أن أشرنا الى ما كانوا يلبسونه فى المنادمه ، من مختلف الثياب وغاليها . ونريد أن نبين هنا ما وقفنا عليه من مخلّفات بعض المعاصرين من الخلفاء والقوّاد ، ليكون مثالا تقريبيا لحالة مَنْ لم نصل الى علمنا خبرُه . فقد ذُكر أن ما خلفه المُكْتفِى من الألبسة هو :

عـــدد

٤٠٠٠٠٠ من الثياب المقصوره سوى الخامات .

٦٣٠٠٠ « الأثواب الخراسانية المَرْوِيّة .

٨٠٠٠ « الملاءات .

عدد	
١٣٠٠٠	العمائم المروية .
١٨٠٠	الحُلَل الموشّاة اليمانية وغيرها مسوحة بالذهب .
١٨٠٠٠٠	البطائن التى من كِرْمان فى أنابيب القصب .
١٨٠٠٠	الأبسطة الأرمنية .

وذكروا أن دا اليمين توفى وفى حزانته ألف وثلثمائة سراويل ديبقى لم يستعملها . وقيل إنهم وجدوا فى كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سراويل ديبقى .

وقد اطلعنا فى الجزء العشرين من « كتاب نهاية الأرب » على أن ملك التُّبَّت قدم على المأمون، ومعه صَنَمٌ من ذهب على سرير من ذهب مرصّع بالجوهر، فأسلم الملك، وأخذ المأمون الصنم وأرسله الى الكعبة . وطالعنا فيه أيضا أن ملك الهند أهدى اليه هدية نفيسة، وكتب اليه معدّدا أموالَه وثروته، مما يدل على بذخ العصر وثروة الملوك فيه .

وقد استفحل أمر البذخ فى ذلك العصر، حتى أصبحنا نرى أبا العَتَاهِيَة مثلا، وهو المعروف ببخله، يهدى الى الرشيد، فى سبيل طلبه لعُتْبه، ثلاثَ مَرَاوِحَ، وكان العباسيون قد تفنّنوا فيها وفى المَذَابّ التى اخترعتْ فى أيامهم، وكتَب على كل مروحة بيتا، قال فى مجموعها :

ولقد تنسّمْتُ الرياحَ لحاجتى * فاذا لها من راحتيه شَمِيمُ
أعلقتُ نفسى من رجائك ماله * عَنَقٌ يحثُّ اليك فى ورَسِيمُ
ولربّما استيأستُ ثم أقول لا، * إن الذى ضمن الرّياح كَرِيمُ

ولعلك اذا تذكرت أمر سُفُن الأمين وبذخه وإسرافه مصافا اليه ماذكرنا هنا وغيره، تؤمن بما نقول من بذخ العصر واستفحال ثروته . على أنا قد عثرنا على مصدرين، ننشرهما مع الحيطة والحذر، لبيان ثروة العصر . يتضمن الاول بيانَ الجِبَاية فى أيام المأمون، ويتضمن الثانى حالتها فى أيام أخيه المعتصم . مفترضين فى كلتا الحالتين حوازَ المبالغة

فى التقدير ، ذلك لأن ديدن المؤرخين القدماء ، أن يجنحوا فى العالب الى المبالغة والغلو . وإنا مع افتراضنا المبالغة فى التقدير فى المصـدرين، نرى مع ذلك أن أىّ تقـدير متواضع للخراج، فى ذلك العصر ، لابد أن يكون عظيما ودالًا على الثروة والغنى والبذخ .

(هـ) الخراج فى عهد المأمون :

يمتاز عهد المأمون بوجود أثر تاريخىّ يدل على مقدار الجباية الخراجيـة فى جميع الأقاليم التى كانت تحت حكم الدولة العباسـيه ، وهو الثبت الذى نقله العلامه ابن خلدون فى تاريخه، وقد أحببنا، لمـا فى ذلك الثبت من الفائده، أن ننقله عنه . وها هو ذا :

الإقلـيم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض	
	درهـم		
السـواد	٢٧٨٠٠٠٠٠	٢٠٠ / ٢٤٠	حلة نحرانيـه / رطلا من طيب الختم
كسكر	١١٦٠٠٠٠٠		
كورد حلة	٢٠٨٠٠٠٠٠		
حلوان	٤٨٠٠٠٠٠		
الأهـواز	٢٥٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠	رطل سكر
فارس	٢٧٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠ / ٢٠٠٠٠	قاروره ماء ورد / رطل زيت أسود
كرمان	٤٢٠٠٠٠٠	٥٠٠ / ٢٠٠٠٠	ثوب متاع يمـانى / رطل نمـر
مكران	٤٠٠٠٠٠		
السند وما يليه	١١٥٠٠٠٠٠	١٥٠	رطل عود هندى
سجستان	٤٠٠٠٠٠٠	٣٠٠ / ٢٠	ثوب معين / رطل من الفانيد

(تابع) الخـــراج فى عهـــد المـأمون

الإقلـــيم	الحماية من الدراهم والدنانير درهـــم	الجايه من العروض	
		٢٠٠٠	نقرة فضة
		٤٠٠٠	بردون
خراسان	٢٨٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠	رأس رقيق
		٢٠٠٠٠	ثوب متاع
		٣٠٠٠٠	رطل إهليلج
جرجان	١٢٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠	شقه إبريسم
قومس...	١٥٠٠٠٠٠	١٠٠٠	بدره فضة
		٦٠٠	قطعة فرش طبرى
طبرستان والريان ودماوند	٦٣٠٠٠٠٠	٢٠٠	كساء و٥٠٠ ثوب
		٣٠٠	منديل و ٣٠٠ جام
الرىّ	١٢٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	رطل عسل
		١٠٠٠	رطل رب الرمانين
همـــدان	١١٣٠٠٠٠٠	١٢٠٠٠	رطل عسل
ماها البصره والكوفة . ..	١٠٧٠٠٠٠٠		
ماسذان والريان	٤٠٠٠٠٠٠		
شهرزور	٦٧٠٠٠٠٠		
الموصل وما يليهـا .	٢٤٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	رطل عسل
أدر بيجان	٤٠٠٠٠٠٠		
		١٠٠٠	رأس رقيق
		١٢٠٠٠	زق عسل
الجزيره وما يليها من أعمال الفرات	٣٤٠٠٠٠٠٠	١٠	بزاه
		٢٠	كساء

(تابع) الخـــراج فى عهـــد المـــأمون

الإقلـــيم	الحماية من الدراهم والدنانير	الحماية من العروض	
	درهـــم		
		٢٠	قسط محمور
		٥٣٠	رطل رقم
		١٠٠٠٠	رطل من المسـايح السرماهى
أرمينية .	١٣٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠	رطل صوف
		٢٠٠	عســل
		٣٠	مهـــرا
برقـــة	١٠٠٠٠٠٠		
إفريقيـــه	١٣٠٠٠٠٠٠	١٢٠	نســاط
المجموع	٣١٨٦٠٠٠٠٠		درهم
	من الدنانير		
قنسرين	٤٠٠٠٠٠	١٠٠٠	حمل زيت
دمشـــق	٤٢٠٠٠٠		
الأردن	٩٧٠٠٠		
فلسطين	٣١٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠	رطل زيت
مصر	٢٩٢٠٠٠٠		
اليمن	٣٧٠٠٠٠		سوى المتاع (الذى لم يذكر)
الحجـــاز	٣٠٠٠٠٠		
	٤٨١٧٠٠٠		ديـــار ربيعة تساوى ٧٢٢٥٥٠٠٠ درهم باعتبار الدينـــار ١٥ درهما وهو تقديره فى ذلك العصر
فيكون المجموع بالدراهم	٧٢٢٥٥٠٠٠		
يضاف اليـــه جباية الأقاليم المذكورة أعلاه	٣١٨٦٠٠٠٠٠		
الجمـــلة	٣٩٠٨٥٥٠٠٠		درهم

(و) الخراج فى عهد المعتصم :

أما جباية الدوله فى أيام المعتصم فهاك هى نقلا عن قدامه بن جعفر ، كانت جباية السواد معظمها من الحنطة والشعير ، وقد ذكر قدامة مقدار كل منهما مفصلا باعتبار طساسيج السواد ، أى نواحيه فى الشرق والغرب .

اسم الناحيه	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
طساسيج السواد فى الجانب الغربى :			
الأنبار ونهر عيسى	١١٨٠٠	٦٤٠٠	٤٠٠٠٠٠
طسوج مسكن . .	٣٠٠٠	١٠٠٠	١٥٠٠٠٠
« قطربل	٢٠٠٠	١٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
« بادوريا	٣٥٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠
بهرسير	١٧٠٠	١٧٠٠	١٥٠٠٠٠
الرومقان	٣٣٠٠	٣٣٠٠	٢٥٠٠٠٠
كوثى	٣٠٠٠	٢٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
نهر درقيط	٢٠٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
نهر حوبر	١٥٠٠	٦٠٠٠	١٥٠٠٠٠
باروسما ونهر الملك.	٣٥٠٠	٤٠٠٠	١٢٢٠٠٠
الزوابى الثلاثة	١٤٠٠	٧٢٠٠	٢٥٠٠٠٠
بابل وخطرنية	٣٠٠٠	٥٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
الفلوجة العليا	٥٠٠	٥٠٠	٧٠٠٠٠
الفلوجة السفلى	٢٠٠٠	٣٠٠٠	٢٨٠٠٠٠

(تابع) الخـــراج فى عهـــد المعتصم

اسم الناحيـــه	مقدار الحنطه بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
(تابع) طساسيج السواد فى الجانب الغربى			
طسوح النهرين .. .	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
« عين التمر .	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
« الحمه والنداه	١٥٠٠	١٦٠٠	١٥٠٠٠٠
ســورا و برسيا ...	١٥٠٠	٤٥٠٠	٢٥٠٠٠٠
البرس الأعلى والأســفل	٥٠٠	٥٥٠٠	١٥٠٠٠٠
فرات بادقلى .	٢٠٠٠	٢٥٠٠	٦٢٠٠٠
طسوج السيلحين..	١٠٠٠	١٥٠٠	١٤٠٠٠٠
رودستان وهرمزجرد . .	٥٠٠	٥٠٠	٢٠٠٠٠
تســتر	٢٢٠٠	٢٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
ايارىقطين	١٢٠٠	٢٠٠٠	٢٠٤٨٠٠
كســكر	٣٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	٢٧٠٠٠٠
طساسيج السواد فى الجانب الشرقى .			
طسوح برر جسابور .	٢٥٠٠	٢٢٠٠	٣٠٠٠٠٠
« الراذانين	٤٨٠٠	٤٨٠٠	١٢٠٠٠٠
« نهر بوق	٢٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠
كلواذى ونهـــربين	١٦٠٠	١٥٠٠	٣٣٠٠٠٠
حازر والمدينه العتيقه ..	١٠٠٠	١٥٠٠	٢٤٠٠٠٠
روســتقباذ	١٠٠٠	١٤٠٠	٢٤٦٠٠٠
سلسل ومهرود	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٥٠٠٠٠
جلولا وجلتا.. . . .	١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠

(تابع) الخـــراج فى عهـــد المعتصم

اسم الناحيـــة	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدرهم
(تابع) طساسيج السواد فى الجانب الشرقى :			
الذبين . .	١٩٠٠	١٣٠٠	٤٠٠٠٠
الدسكرة	١٨٠٠	١٤٠٠	٦٠٠٠٠
السنبجين . . .	٦٠٠	٥٠٠	٣٥٠٠٠
طسوج نرار الرود .	٣٠٠٠	٥١٠٠	١٢٠٠٠٠
النهروان الأعلى	١٧٠٠	١٨٠٠	٣٥٠٠٠٠
النهروان الأوسط	١٠٠٠	٥٠٠	١٠٠٠٠٠
بدرايا ونكسايا	٤٧٠٠	٥٠٠٠	٣٣٠٠٠٠
كور دجلة	٩٠٠	٤٠٠٠	٤٣٠٠٠٠
نهر الصـــلة . .	١٠٠٠	٣١٢١	٥٩٠٠٠
النهروان الأسفل .. .	١٧٠٠	١٣٠٠	٥٣٠٠٠
مجموع خراج السواد	١١٥٦٠٠	١٢٣٩٢١	٨٨٢١٨٠٠

فمجموع حـباية السواد باعتبار نواحيـه ١١٥٦٠٠ كر حنطه و ١٢٣٩٢١ كر شعير و ٨٨٢١٨٠٠ درهم . على أن هـذا المجموع يختلف عما قاله قدامه المذكور بعد أن أورد خراج كل ناحيـة بالتفصيل كما تقـدم، فقـد قال فى ايراد المجموع « ذلك ارتفاع السواد سـوى صدقات البصره من الحنطه ١٧٧٢٠٠ كر ومن الشعير ٩٩٧٢١ كرا ومن الورق ٨٠٩٥٨٠٠ درهم» وقد قال المرحوم جرجى زيدان ولعـلّ سبب هذا الفرق خطأ فى قـراءه بعض الأعداد، على أن الفـرق على كثرته لا يعتـدّ به فيما نحن فيه . بقى علينـا أن نحوّل الحنطه والشعير الى دراهم ، وقد فعل جعفر ذلك فحوّلهما باعتبار ثمن الكُرّين المقرونين من الحنطة والشعير ٦٠ دينـارا والدينار على صرف ١٥ درهما بدينـار فبلغ ذلك

١٠٠٣٦١٨٥٠ درهما وقال : إن صدقات البصره ترتفع فى السنة ٦٠٠٠٠٠٠ درهم ، فاذا جمعت ذلك كله ، بلغ ١١٤٤٥٧٦٥٠ درهما على هذه الصوره .

٨٠٩٥٨٠٠	الدراهم المجموعه ورقا
١٠٠٣٦١٨٥٠	قيمة الحنطة والشعير بالدرهم
٦٠٠٠٠٠٠	صدقات البصره
١١٤٤٥٧٦٥٠	درهما

هـذا هو ارتفاع السواد ، فلنقدم الى إيراد حسابات سائر الأقاليم بالمشرق والمغرب وهى مع السواد

أقاليم المشرق	درهم	أقاليم المشرق	درهم
السـواد ..	١١٤٤٥٧٦٥٠	ما قبله	٢٤٢٢٥٧٦٥٠
الأهواز .	٢٣٠٠٠٠٠٠	الرى ودماوند . .	٢٠٠٨٠٠٠٠
فارس	٢٤٠٠٠٠٠٠	قزوين وزنجان وأبهر	١٨٢٨٠٠٠
كرمان	٦٠٠٠٠٠٠	قومس . .	١١٥٠٠٠٠
مكران	١٠٠٠٠٠٠	حرجان	٤٠٠٠٠٠٠
أصبهان	١٠٥٠٠٠٠٠	طبرستان .	٤٢٨٠٧٠٠
سجستان . . .	١٠٠٠٠٠٠	تكريت والطيرهان .	٩٠٠٠٠٠
خراسان .	٣٧٠٠٠٠٠٠	شهرزور والصامغان . .	٢٧٥٠٠٠٠
حلوان	٩٠٠٠٠٠	الموصل وما يليها .	٦٣٠٠٠٠٠
ماه الكوفه .. .	٥٠٠٠٠٠٠	قردى وبديدى ..	٣٢٠٠٠٠٠
ماه البصرة .	٤٨٠٠٠٠٠	ديار ربيعـة .. .	٩٦٣٥٠٠٠
همـدان . .	١٧٠٠٠٠٠	أرزن وميافارقين	٤٢٠٠٠٠٠
ماسبذان . .	١٢٠٠٠٠٠	طرون	١٠٠٠٠٠
مهرجان قذق	١١٠٠٠٠٠	آمد	٢٠٠٠٠٠٠
الايغارين	٣١٠٠٠٠٠	ديار مصر	٦٠٠٠٠٠٠
قم وقاشان	٣٠٠٠٠٠٠	أعمال طريق الفرات	٢٩٠٠٠٠٠
أذربيجان . .	٤٥٠٠٠٠٠	المجمـوع	٣١١٥٨١٣٥٠
نقل بعـده	٢٤٢٢٥٧٦٥٠		

(تابع) ارتفاع السواد وإيراد جايات سائر الأقاليم

أقاليم المعرب	دنانير	أقاليم المغرب	دنانير
قنسرين والعواصم ..	٣٦٠٠٠٠	ما قبله ...	٣٥٩٢٠٠٠
جند حمص .	٢١٨٠٠٠	الحرمين	١٠٠٠٠٠
« دمشق ..	١١٠٠٠٠	اليمن	٦٠٠٠٠٠
« الأردن	١٠٩٠٠٠	اليمامه والبحرين	٥١٠٠٠٠
« فلسطين..	٢٩٥٠٠٠	عمان	٣٠٠٠٠٠
مصر والاسكندرية .	٢٥٠٠٠٠٠	المجموع	٥١٠٢٠٠٠
نقل بعده	٣٥٩٢٠٠٠		

واذا ما حولنا هذه الدنانير الى دراهم ، باعتبار الدينار ١٥ درهما فانها تساوى ٧٦٧١٠٠٠٠ درهم وبإضافتها الى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيره ، يكون مجموع ذلك كله ٣٨٨٢٩١٣٥٠ درهما وهو ارتفاع الخراج على تقدير قدامة .

* * *

(ز) السعايات والجاسوسية :

وهناك ملاحظه أخرى جديره بالقيد ، وهى انتشار السعايات والدسائس فى ذلك العصر انتشارا مروعا . ولعل سبب ذلك جموح العباسيين الى استعمال الجواسيس والرقباء بكثره هائله . فانظر مثلا ما جاء فى الجزء العشرين من كتاب « نهاية الأرب » عن المأمون إذ يقول إنه كان يحب سماع أخبار الناس حتى جعل برسم الأخبار سعداد ألف مجوز وسبعمائة عجوز . وتأمل جاسوسيه العصر التى لا بعد البتة أن تكون لها يومئذ إدارات خاصة !

وبعد ، فمهما يكن من افتراضك للمبالغه والغلو فيما يرويه لنا صاحب نهاية الأرب ، فان اطلاعك على كتاب ابن طيفور الذى كان معاصرا لكثير من رواته ، والذى كان

قرب العهد بالمأمون وعصره ، تقنعك بكثرة العيون وكثرة الأرصاد، كثرة قد تهولك حقا وتدهشك صدقا ! ! .

وقد سبق أن قلنا إن رجل الساسة العباسيين كانوا يوصون بحفظ الأسرار، ويحبون الرجل الكتمة القفلة . وكان لحفظ الأسرار عندهم مكانة عظيمة . ولعلك اذا نظرت الى قول المأمون « تحتمل الملوك كل شيء إلا ثلاثة : إفشاء السر، والقدح فى الملك، والتعرض للحرم» علمت حينئذ مكانة حفظ السر عندهم، وأنها فى المنزلة الأولى من اعتبارهم، واستطعت أن تعلل لم كانت خططهم غير واضحة ولا جلية، وربما كانت مُعَمَّاة مبهمة .

* * *

(ح) الدعاوة "البروپاجندا" :

وهناك مسألة أخرى نحدثك بها ، وهى جديرة بالملاحظة قَمِينة بالبحث، تلك هى عنايتهم بأمر الدعاوة وتقويتهم حملاتهم فيما يريدون الدفاع عنه . فقد كان إتقانهم لأمرها وعلمهم بأفانينها ووقوفهم على نُظُمها ، بالغا مبلغا عظيما ، إذ كان فى مُكْنتهم وطوع بنانهم، أن يصوّروا الحق باطلا والباطل حقا . وإن فيما رواه الطبرى وغير الطبرى عن سير حياة المأمون ، واستحدامه للرقاع تعلّق على ظهر من يُقتل أو يُعاقب من رجالات دولته، العبرةَ والكفاية فيما نحن بسبيل القول فيه .

وإنّا نسوق اليك مثلين لتأييد ما ذهبنا اليه

فقد ذكر الطبرى أن المأمون لما قتل علىّ بن هشام أمر أن تكتب رقعة وتعلّق على رأسه ليقرأها الناس، فكُتب — وقد ذكرنا هذا الكتاب فيما سبق لمناسبة أخرى — : « أما بعد ، فان أمير المؤمنين كان دعا علىّ بن هشام فيمن دعا من أهل خراسان ، أيام المخلوع ، الى معاونته والقيام بحقه ، وكان فيمن أجاب وأسرع الإجابة ، وعاون فأحسن المعاونة ، فرَعَى أمير المؤمنين ذلك له ، واصطنعه ، وهو يظن به تقوى الله

وطاعته، والانتهاء الى أمر أمير المؤمنين فى عمل إن أسند اليه فى حسن السيرة وعفاف الطُّعْمة. وبدأه أمير المؤمنين بالإفضال عليه، فولّاه الأعمال السنية، ووصله بالصلات الجزيلة الى أمر أمير المؤمنين بالنظر فى قدرها، فوجدها أكثر من خمسين ألف ألف درهم. فمدّيده الى الخيانة والتضييع لما استرعاه من الأمانة، فأعاده عنه وأقصاه، ثم استقال أميرَ المؤمنين عَزْلَه، فأقاله إياها، وولاه الجبل وأَذْرَبِيجان وكور أَرْمِينِيَة، ومحاربةَ أعداء الله الخونة، على ألّا يعودَ لما كان منه، فعاود أكثر ما كان بتقديمه الديار والدرهم على العمل لله ودينه، وأساء السيرة، وعَسَف الرعية، وسفك الدماء المحرّمة، فوجه أمير المؤمنين مُحَيف بن عنبسة ماشرا لأمره، وداعيا الى تلافى ما كان منه، فوثب بمحيف يريد قتله، فقوّى الله محيفا بيقينه الصادقة فى طاعة أمير المؤمنين حتى دفعه عن نفسه. ولو تم ما أراد بمحيف لكان فى ذلك ما لا يُستدرك ولا يُستهال، ولكنّ الله اذا أراد أمرا كان مفعولا. فلما أمضى أمير المؤمنين حكم الله فى علىّ بن هشام، رأى ألّا يؤاخذَ من خلفه بذنبه، فأمر أن يجرى لولده ولعياله ولمن اتصل بهم ومن كان يجرى عليهم، مثلَ الذى كان جاريا لهم فى حياته. ولولا أن علىّ بن هشام أراد المُطْمَى بمحيف لكان فى عداد من كان فى عسكره ممن خالف وخان، كعيسى بن منصور وبطرائه والسلام».

فأنت ترى من هذا الى أية درجة من العناية والاهتمام وصلت الدعاوة «البروباجنده» المأمونيـــه!

ولا عجب فقد أفاد المأمون أيما إفاده. وقد كان المسلمون، بسبب نشاط العباسيين فى الدعوه لأنفسهم، أطوعَ لهم مما كانوا لبنى أميه، واعتقدوا أن خلافتهم تبقى أمد الدهر حتى يأتى السيد المسيح. وعُرِسَ فى أذهان الناس، تتوالى الأزمان، أن الخليفة العباسىّ اذا قُتِل اختلّ نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القَطْر وجفّ النبات! كل ذلك من أثر عناية العباسيين بالدعاوة لأنفسهم، واهتمامهم أيما اهتمام بتبرير تصرّفاتهم وتزكية أعمالهم.

ثم انظر ماذا حصـل لابراهيم بن المهدى، ترأن الدعوه المأمونيـه أتتْ إلا أن تقعد فى دار المأمون ليسطر اليه سو هاشم والقواد والجند ، وصَيَّر الدعاةُ المِقْنَعَة التى كان متقلِّدا بها فى عنقه، والملحفةَ التى كان ملتحفًا بها فى صدره، ليراه الناس و يعلموا كيف أحد .

وانظر أخيرا — رعاك الله و وفقك — الى ما يحدّثنا به أحمـد بن أبى دُوَاد عن كلمة المأمون فى هذا الصدد، قال « قال لى المأمون : لا يستطيع الناسُ أن يُصفوا الملوكَ من ورائهم، ولا يستطيعون أن يسطروا بالعدل بين الملوك وحُماتهم وكُفاتهم، وبين صنائعهم و بطانتهم ، وذلك أنهم يرون ظاهرَ حرمه وخدمهِ واجتهادِه ونصيحه . ويرون إيقاع الملوك بهـم ظاهرا، حتى لا يزال الرجل يقول ما أوقع به إلا رعـةً فى ماله أو رهـةً فى بعض مالا يحود النفوس به . ولعل الحسد والملالة وشهوه الاستبدال اشتركت فى ذلك . وهناك حيايات فى صاب الملك أو فى بعض الحُرَم ، فلا يستطيع الملك أن يكشف للعـامة موضعَ العورة فى الملك، ولا أن يحتج لتلك العقوبة بمـا يستحق ذلك الذنب، ولا يستطيع الملك ترك عقابه، لمـا فى ذلك من الفساد على علمـه بأن عذره غير مبسوط للعامة، ولا معروف عند أكثر الخاصة» .

* * *

(ط) صعوبة مهمة المـــؤرّخ :

والحق أنها مهمه صعبةٌ أن تستكشف حقيقةَ الظالم من المظلوم، والغالبَ من المغلوب، والهادى والضالّ، فى هذه الدولة التى لعبت فيها الأقلام والألسنة دورا عظيما. ولولا ماحبانا الله من الاطّلاع على شتى المصادر، وقضينا فى ذلك تمهيـدا طويلا ودرسًا ممِلًّا متعبا، فطالعنا أقوال الأحزاب المتضاربة، ووازنّا بين كلمه هذا ودفاع ذاك، لمـا كنا بالغين بعض ما بلغناه من إماطة اللثام عن بعض الحقائق التاريخيه . وفى هـذا القدر الكفاية عن حياة المأمون الخليفة، وآن لنا أن نتكلم عن نواحيه الخلقيه .

الفصل التابع

شخصية المأمون

توطئة — كرمه وسخاؤه — كيف ملك المأمون قلوب رعاياه — مقدره لرجال دولته — قدره للشجاعة الأدبية — عدله وانصافه — عفوه — نصره بالأدب — علم المأمون — احترامه للدين — سياسته — مذهبه الديني — كلمة ختامية .

(ا) توطئة :

نريد هنا أن نحلل أخلاق المأمون ، ونريد أن نستقصي كل ما قيل عنه وأن ندرس شتى نواحيه الخُلُقيّة بما نستحقه من العناية والتعليق والتوضيح . ونعتمد فيما سنكتبه على الحوادث وما رواه المعاصرون عنه . ونرجو أن نوفق فيما سنعانيه .

(ب) كرمه وسخاؤه :

يقول صاحب الجهشياري : انه لم يفرق ملك ولا سلطان في يوم واحد مثل ما فرقه المأمون يوم وَلّى ولده العباس على الجزيرة ، اذ أمر لكلٍّ من المعتصم والعباس بخمسمائة ألف دينار ، وأمر بمثل ذلك لعبد الله بن طاهر .

وقد يكون من نافلة القول أن نذكر أن المأمون كان من أكثر خلفاء العباسيين جودا وأبسطهم يدا ، وأسخاهم نفسا ، بعد أن نرى كتبَ التاريخ والأدب مفعمةً بما كان له من حوادث غريبة في السخاء والجود .

والذي يستتبع ما ذكره المؤرخون من حوادث جوده وفيض إنعامه ، يرى أن كرم المأمون وسخاءه يرجع الى عناصر مختلفة في نفسه ، فمنها ما يرجع الى ما في فطرته من أريحيّة واهتزاز للمعروف ، ومنها ما نرجع اليه كسياسيّ يريد أن يَظفَر ويتملك القلوب ، ويُوَطِّد أركان سلطانه بالمال .

ونحن اذا نظرنا الى الدوحه الهاشميه التى نزع عنها المأمون، وأنه نشأ فى حجر الخلافه فى النعم والترف، ومن هـذا شأنه قلّ حرصه على المـال، واذا نظرنا أيضا الى أنه حاض معمعةً سياسيةً وحربيه كان المـال من أفعل آلاتها وأنعدها أثرا — وقد بيّنا لك فى العصر الأُمويّ ما كان للمال من أثر قويّ فى إقامه سلطان بنى أميه وتوطيده — لم نرعلوا كبيرا فيما أُثرعت به كتبُ الأدب والتاريخ من حوادث جود المأمون وكرمه . ولنسطر فيما رووه لنا من طيفور فى هذا السبيل، فانه قال . إن المأمون لمـا فتح « حصن قُرّه » وعَمّ ما فيـه اشترى السَّبْىَ بنسه وخمسين ألف دينار، ثم حَلَّ سبيلهم وأعطاهم ديبارا دينارا .

وهاك مثالًا مما نصح أن نكون من آثار أريحيّه المأمون وإرادته توطيد سلطانه

تحدثنا ابن الأثير والطبرى ، أن العبسىَّ صاحب اسحـاق بن ابراهيم قال كنتُ مع المأمون بدمشق، وكان قد قلّ المـال عنده حتى أضاق وشكا ذلك الى أبى اسحاق المعتصم، فقال له يا أمير المؤمنين ، كأنك بالمـال وقد وافاك بعد جُمْعه ، وكان قد حَمَل اليـه ثلاثين ألف ألف درهم[1] من خراج مايتولّاه له . قال: فلما ورد عليه ذلك المـال، قال المأمون ليحيى بن أَكْثَم : أُخرج بنا نسطر الى هذا المـال ، قال . فخرجا حتى أصحرا ووقفا بسطرابه ، وكان قد هُيِّئ بأحسن هيئـه وحُلِّيَت أناعرُهُ وأُلبست الاحلاس الموشّاه والحلال المصمته وقُلِّدت العِهَر ، وجُعلت البَدَن بالحرير الصينىّ الأحمر والأحمر والأصفر، وأُلبدت رءوسها ، قال . فنظر المأمون الى شىء حسن ، واستكثر ذلك فعظُم فى عينـه ، واستشرفه الناس ينظرون اليه و يتحدثون منه ، فقال المأمون ليحيى . يا أبا محمد، ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين نراهم الساعه خائبين الى منازلهم ، ونصرف نحن هذه الأموال وقد ملكناها دونهـم ، إنّا إذًا للئام! ثم دعا محمد بن يزداد، فقال له . وَقِّع لآل فلان بألف ألف، ولآل فلان بمثلها، ولآل فلان بمثلها، قال: فوالله إن زال كذلك حتى فرّق أربعه وعشرين ألف ألف درهم ، ورحله فى الركاب، ثم قال. ادفع الباقى الى المعلّى يعطى جندنا . قال العبسى : فجئت

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبدالوهاب النجار « أحسب أن ألفا زائدة فى تعبيراتهم المنقولة لأن حساب ذلك يؤول الى مليارين من الدنانير ، وغلة بنى العباس فى عشر سنوات لا تفى بذلك ، فكيف بمصر وحدها » .

حتى قمتُ نُصْب عيـنه، فلم أردّ طرفى عنها لا يلحظنى إلا رآنى تلك الحال ، فقال يا أبا محمد : وَقِّع لهذا بخمسين ألف درهم من سته آلاف الألف . قال : فلم يأت علىّ ليلتان حتى أحدث المـال » .

ومما يدل على كرم نفس المأمون وحُسْنِ تنسّطه ، ما رواه القاسم بن محمد الطيفورى ، قال: "شكا اليزيدىّ الى المأمون حَلّة أصابـه ودَيْنا لحقه، فقال ما عهدنا فى هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغتَ به ماتريد، فقال . يا أمير المؤمنين، إن الأمر قد ضاق علىّ، و إن غُرَمائى قد أرهقونى، قال « فرُمْ لنفسك أمرا سلْ به نعما ، فقال لك مادمون فيهم مَن إن حركتَه سلْ منه ما أحبّ ، فأطلق لى الخيلةَ فيهم . قال فما ما بدا لك، قال . فادا حضروا وحضرت فمُـرْ فلانا الخادم أن يُوَصّل اليك رقعتى ، فادا قرأتَها فأرسـل الىّ «دخولُك فى هذا الوقت متعذر، ولكن اختر لنفسك من أحببت» . قال: فلما علم أبو محمد بجلوس المأمون واجتماع ندمائه اليـه وثيقَن أنهـم قد تَمِلوا من سرهـم، أتى الباب فدفع الى ذلك الخادم رقعةً قد كتبها ، فأوصلها الى المأمون، فقرأها فادا فيها .

يا حيرَ إخوانى وأصحـابى * هـذا الطُّفَيْلِىّ لدى البابِ
حُرٌّ أتى القوم فى لدّه يَضْبو اليها كلّ أوّابِ
فصيّرونى واحدًا منكمُ أو أخرِجوا لى بعضَ أترابى

قال: فقرأها المأمون على من حضره، فقالوا: ما نرى أن يدخل هذا الطفيلىّ على مثل هذه الحالة ، فأرسل اليه المأمون . « دخولك فى هذا الوقت متعـذر ، فاختر لنفسك من أحببت تنادمه » . فقال : ما أرى لنفسى اختيارًا غير عبدالله بن طاهر، فقال له المأمون: قد وقع اختياره عليك فسرّ اله ، قال : يا أمير المؤمنين، فما أكون شريك الطفيلىّ . قال . ما يمكن ردّ أبى محمد عن أمرين، فاد أحببت أن تخرُج و إلا فاقتد بنفسك . فقال . يا أمير المؤمنين، له علىّ عشرة آلاف درهم ! قال : لا أحسَبُ ذلك تقنعـه مـنك ومن مجالستك، قال . فـلم يزل يزيده، عشرة عشره، والمأمون يقول له . لا أرضى له بذلك،

حتى بلغ مائة ألف . قال : فقال له المأمون : فعجّلها له ، قال . فكتب له بها الى وكيله ، ووجّه معـه رسولًا . فأرسل اليه المأمون « قَمْصُ هذه فى هذه الحال أصلحُ لك من مبادمته على مثل حاله ، وأبقع عاقبه » .

ويتجلّى سخاء المأمون ، مع الوفاء وطيب النفس ، فى موقفه مع علام سَعِيد الجوهرىّ الذى كان قد لزّ بالمـأمون فى الكُتّاب ، فكان اذا احتاج المأمون الى محْو لَوْحه بادر اليـه فأحد اللوح من يده فمحاه وعلا على عِلْمـان المأمون ومسـحَه وجاء به فوضـعه على المديل فى مجره . فلما سار المأمون الى حراسان وكان من أخيه محمد الأمين ما كان ، حرج اليـه علام سعيد هـذا فوقف بالباب حتى جاء أبو محمد اليزيدىّ ، فلما راه عرفه ، فدخل فأخبر المأمون ، فقال له مستبشرا بقدومه لك البشرى ! ثم أذن له فدخل عليه ، فضحك اليه حين رآه ، ثم قال . أتذكر وأنت تبادر الى محو لوحى ! قال : نعم يا سيّدى . فوصله بخمسمائة ألف درهم .

وانظر فيما يحدّثنا به الطبرىّ عن محمـد بن أيوب ، قال . إنه كان بالبصره رجل من بنى تميم وكان شاعرا طريفا ، حبيثا ماكرا ، وكنت أنا وَالِىَ البصرة آنس به وأستحليه ، فاردت أن أخدعه وأستنزله ، فقلت له : أنت شاعر ، وأنت طريف ، والمأمون أجود من السحاب الحافل والريح العاصف ، فما يمنعك منه ؟ قال : ما عدى مايُقلّنى ، قلت : فأنا أعطيك بجيبًا فارها وبقـةً ساعة وتخرج اليه وقـد امتدحته ، فانك إن حَظيت بلقائه ، صِرْتَ الى أُمْنيتك ، قال والله أيها الأمير ، ما إخالك أسعدتَ ، فأعدّ لى ما ذكرت ، قال : فدعوت له بجبيب فاره ، فقلت : شأنك به فامْتَطه . قال : هذه إحدى الحُسْنَيَيْن ، فما بال الأخرى ؟ فدعوت له بثلثمائة درهم ، وقلت : هذه نفقتك ، قال : أحسَنْت أيها الأمير قصّرتَ فى النفقة ، قلت : لا ، هى كافيه إن قصرتَ عن السَّرَف ، قال : ومتى رأيتَ فى أكابر سَعْد سرفا حتى تراه فى أصاغرها ! فأحد النجيب والنفقة ، ثم عمل أرجوزةً ليست بالطويلة ، فأنشدنيها وحذف منها ذكرى والثناء علىّ ، وكان ماردا ، فقلت له : ما صنعت شيئا ، قال :

وكيف؟ قلت: تأتى الخليفة ولاتُثنى على أميرك! قال. أيها الأمير أردتَ أن تخدعنى فوحدتنى حذاعا! أما والله ما لكرامتى حملتَنى على نجيبك ولا حُدْتَ لى بمالك الدى ما رامه أحد قط إلا جعل الله حذه الأسفل، ولكن لأذكرك فى شعرى وأمدحك عند الخليفة، افهم هدا، قلت قد صدقتَ. فقال أمّا اد أبدتَ ما فى ضميرك، فقد ذكرتك وأثنيت عليك، قلتُ: فأنشدنى ماقلتَ، فأنشدنه، فقلت أحسنتَ، ثم ودّعنى وخرج، فأتى الشأم واذا المأمون «سَلَمُوس». قال. فأحبرنى، قال «بينا أنا فى عراة قُرّة، قد ركبتُ نجيبى دالك، ولبست مُقَطَّعاتى وأنا أروم العسكر، فادا أنا بكهلٍ على بغل فاره، ما يَقَرّ قراره ولا تدرك خُطاه، قال. فتلقانى بكالحةٍ ومواجهه وأنا أردّد نسيد أرجوزى، فقال. سلام عليكم! بكلام جَهْوَرِىّ ولسانٍ بسيط، فقلت وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته! قال: قف إلىّ شئتَ، فوقفت، فتصوّعتْ منه رائحة العنبر والمسك الأذْفَر، فقال: ما أولك؟ قلت. رَجُلٌ من مُضَر، قال. ونحن من مصر، ثم قال. ثم مادا؟ قلت. رجل من بنى تميم، قال وما بعد تميم؟ قلت. من بنى سَعْد، قال هيه! فما أقدَمَك هدا البلد؟ قال. قصدت هدا الملك الدى ما سمعت بمثله أندى رائحةً، ولا أوسع راحةً، ولا أطول باعا، ولا أمدّ هاعا، قال: فما الدى قصدتَه به؟ قلت. شعر طيّب يلذّ على الأفواه وتقتفيه الرواة ويحلو فى آداد المستمعين، قال. فأسْمِعْنيه، فعصبتُ وقلت: يارجيك! أحبرتك أنى قصدت الخليفه بشعر قلته ومديح حبّرته، تقول أنشدنيه! قال: فتغافل والله عنها وتَطَامَنَ لها وألغى عن جوابها، قال: وما الدى تأمُل منه؟ قلت: ان كان على ما ذُكر لى عنه، فألف دينار قال. فأنا أُعطيك ألف دينار إن رأيتُ الشعر جيّدا والكلامَ عدبا، وأصغ عنك العناء وطولَ التردد، ومتى تصل الى الخليفة و بينك و بينه عشرة آلاف رائح وبابل! قلت: على الله عليك أن تفعل، قال: نعم، لك الله علىّ أن أفعل، قلتُ: ومعك الساعة مال؟ قال هدا على، وهو خير من ألف دينار، أنزل لك عن ظهره، قال: فعصبت أيصا وعارضنى رَجُل سَعْد وحفه أحلامها، فقلت: ما يساوى

هــدا العمل هدا العجيب، قال · فدع عنك الغل، ولك الله علىّ أن أعطيك الساعة ألف دينار، قال . فأنشدنه :

مأمونُ يادا المِنَ الشَّريفَــهْ * وصاحبَ المَرْتَبَــهِ المُنيفَهْ
وقائدَ الكَتيبــهِ الكَثيفَــهْ * هَلْ لك فى أُرْحُوزَةٍ طَريفَهْ
أَظْرَفَ من فقه أبى حَنيفَهْ * لا والدى أستَ له حَليفَــهْ
ماطُلِبَتْ فى أرضا ضَعيفَهْ أمــيرنا مُؤْنتــه خفيفَــهْ
وما ٱحتَوَى شيئا سِوَى الوَطيفَهْ * فالدثُ والبعجهُ فى سَــعيفَهْ
* واللصُّ والتاجُ فى قَطيفَهْ *

قال : فوالله ماعدا أن أنشدتُه، فادا زُهاء عشرة آلاف فارس قد سدّوا الأفق، يقولون: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! قال : فأحدى أُفْكَلُ(١)، ونظر الىّ بتلك الحالة فقال : لابأس عليك أى أخى، قلت . يا أمير المؤمنين، جعلنى الله فداءك، أتعرف لغات العرب؟ قال إى لَعَمْرُ الله ! قلت : فى جعل الكاف منه مكان القاف؟ قال : هذه حِمْيَر، قلت · لعنها الله ولعن من استعمل هــذه اللغه بعد اليوم ! فضحك المأمون وعلم ما أردتُ ، وٱلتفتَ الى خادم الى جانبــه فقال : أَعْطِه ما معك، فأخرج الىّ كيسا فيــه ثلاثة آلاف دينار ، فقال . هاك، ثم قال . السلام عليك ومضى، فكان آخر العهد به .

أما عن كرم نفسه فان ابن طيفور يحدّثنا أن مُحارقا قال . كنا عند المأمون أنا والمغنون بدمشق وعَريبُ معنا، فقال : عَنّ يامحارق، فقلت . أنا محموم، فقال : ياعريب حُسَّيه، فرفعت يدها الى عصدى ، فقال لها المأمون . قد اشتهيته، تحبين أن أزوجك؟ قالت . نعم ! فقال مَن تريدين؟ قالت : هذا، وأَوْمأَتْ الى محمــد بن حامد ، فقال : اشهدوا أنى قد زوّجتها منه . ثم انظر ما ستطرد به مخارق من أمر المعتصم لمــا وَلِىَ ، كتب الى اسحاق ابن ابراهيم : أن مُرْ محمــد بن حامد أن يُطَلِّق عَريبــا ، فأمره فتأبّى ، فكتب اليه : أن

(١) أفكل : رعدة وقشعريرة .

أضربه، فصربه بالمقارع حتى طلقها . فى هـذه الرواية ما يساعد على الوصول الى تنظير فى هذه الناحية بين المأمون وأخيه المعتصم .

أما كرم بطانتـه واقتفاؤهم أثره، وترسّمهم خطواته . فان الحـديث فى ذلك يطول ، وقصارانا أن نحيل الى ما فعل طلحة بن طاهر وعبد الله بن طاهر وغيرهما، فاطلب ذلك فى مظانه .

« و بعـد » فانه لمن الجميل الممتع حقا أن يكون الملك كريما بسجيته . جَوَادا بفرعته ، وقد يكون أجمل وأمتع ، وأبلغ وأوقع ، أن يكون من وراء مواصله و إنعاماته تشجيع الكفايات على الظهور ، واستحثاث أصحاب الهمم والعزمات ، والمواهب والعبقريات ، على التبريز والإحسان، والإجادة والإتقان، خدمة لبنى الإنسان، ورفعة للأوطان .

* * *

(ج) كيف تملك المأمون قلوب بطانتـه :

نريد أن نترك الكلمة فى تصوير هذه الناحية، لما يرويه لنا ولاةُ المأمون أنفسُهم، فقد قال رجل من إخوة المأمون للمأمون : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن طاهر يميل الى ولد أبى طالب ، وكذا كان أبوه فعله . فدفع المأمون ذلك وأنكره، ثم عاد بمثل هـذا القول ، فدسّ اليه رجلا ثم قال له : امض فى هيئة القُرّاء والسّاك الى مصر، فادعُ جماعةً من كبرائها الى القاسم بن ابراهيم بن طباطبا، واذكر مناقبه وعلمَه وفضائله، ثم صِرْ بعد ذلك الى بعض بطانة عبد الله بن طاهر، ثم ائته فادعُه ورغّبه فى استجابته له، وابحَثْ عن دفين نيّته بحثًا شافيا، وأْتنى بما تسمع منه . قال: ففعل الرجل ما قال له وأمره به، حتى اذا دعا جماعةً من الرؤساء والأعلام، قعد يومًا ساب عبـد الله بن طاهر، وقد ركب الى عُيد الله بن السّرىّ بعد صلحه وأمانه ، فلما انصرف قام اليه الرجل فأخرج من كمّه رُقعةً فدفعها اليه ، فأخذها بيـده ، فما هو إلا أن دخل فخرج الحاجبُ اليه، فأدخله عليـه . وهو قاعد على بساطه ما بينه و بين الأرض عيره، وقد مدّ رجليه وحُفّاه فيهما، فقال له : قد فهمتُ ما فى رُقعتك

من جملة كلامك، فهات ما عندك؛ قال: ولى أمانُك وذمةُ الله معك؟ قال: لك ذلك. قال: فأظهر له ما أراد ودعاه الى القاسم فأحبره بفصائله وعلمه وزهده، فقال له عبدالله: أتُنصفنى؟ قال نعم، قال: هل يحب شكر الله على العباد؟ قال نعم، قال: فهل يحب شكر بعضهم لبعض عند الإحسان والمنّة والتفضُّل؟ قال نعم، قال: فتحيء الىّ وأنا فى هذه الحال التى ترى: لى حاتم فى المشرق جائز وفى المغرب كذلك، وفيما بينهما أمرى مطاع وقولى مقبول، ثم ما التفتُّ يمينى ولا شمالى ووراثى وقدامى، إلا رأيت نعمةً لرحل أنعمها علىّ ومنّةً حتم بها رقبتى ويداً لائحةً بيضاء ابتدأنى بها بفضلاً وكرما، فتدعونى الى الكفر بهذه النعمه وهذا الاحسان! وتقول اعدر بمن كان أوّلاً لهذا وآخرا! واسعَ فى إزالة حَبْط عُنقه وسَفْك دمه! يراك لو دعونى الى الجنه عياناً من حيث أعلم أكان الله يحبّ أن أعدُر به وأكفُرَ إحسانه ومنته، وأنكث بيعته! فسكت الرحل، فقال له عبد الله أمّا إنه قد بلغنى أمرُك، وتالله ما أحاف عليك إلا نفسَك، فارحَلْ عن هذا البلد، فإن السلطان الأعظم إن بلغه أمرك، وما آمنُ ذلك عليك، كنتَ الجانىَ على نفسك ونفس غيرك. فلما أيس الرحل مما عنده جاء الى المأمون فأخبره الخبر، فاستشر وقال: ذلك عَرْس بدى، وإلْفُ أدبى، وتربُ تلقيحى، ولم يُظْهر من ذلك لأحدٍ شيئا ولا علم به عبدُ الله إلا بعد موت المأمون.

وانظر الى تلك النصيحة التى تقدّم بها عبدُ الله بن طاهر لمنصور بن طلحة، ينهاه عن الكلام فى الإمامة اذ يقول: "إنما نبت شعرُنا على رءوسنا بنى العباس". ثم انظر الى ما كتبه المأمون الى عبد الله المذكور:

أخى أنت ومولاىَ * ومَنْ أشكرُ نُعماهُ
فما أحببتَ من أمرٍ * فإنّى الدهرَ أهواه
وما تكرَه من شىءٍ * فانى لستُ أرضاه
لك اللهُ على ذاك * لك اللهُ لك اللهُ

وانظر الى ما رواه الطبرى عما قاله عبد الله بن طاهر وهو محاصر بمصر عُبَيدَ الله ابن السرى إذ قال :

بَكَرَتْ تُسْئِلُ دمعا * أن رأتْ وَشْكَ بَرَاحِى
وتبدَّلتُ صَفِيلًا * يمّمَا بوشَاحِى
وتمادَيتُ بسيرٍ . لغ . دو ورواح
زعمتْ جهلًا بأنى * بَعِبٌ عيرُ مُراح
أقصِرى عنّى فإنى * سالكٌ قصدَ فلاحى
أنا للمأمون عبدٌ * مه فى ظلّ جَناحِ
إن يُعافِ الله يومًا . فقريبٌ مُستراحى
أو يكن هُلك فقُولى * بعويلٍ وصِياح
حَلّ فى مصرَ قبيلٌ * ودَعِى عنك التَّلاحى

ألا نجوز لنا أن نستخلص مما قدّمناه لك أن المأمون كان محمود السجايا عند بطانته ! ولسنا نعنى بذلك أن الأمين لم يكن محبوباً ، وأن موته آلم أهل بغداد وجندها ، ولا ننكر أن بعضا من جند طاهر بن الحسين انضمّ الى الأمين طمعاً فى ماله وحبا فى سخائه مما بيّناه لك فى موضعه ، ولكنا الآن بموقف الدرس يحللون أخلاق المأمون ، وفى عنقنا ألا نترك ناحيه من نواحيه من غير أن نَفيها حقَّها من البحث ، ونعطيها نصيبها من الاستقراء .

« وبعد » فانه مما لا مندوحة للبيك عنه أن نكون وادعا محببا الى بطانته وحاشيته ، باحسانه اليهم ، وتعهده إياهم بعطفه ورعايته ، وأن يحدب عليهم ويرعاهم بعناية تشملهم ألطافها وتقلد أعناقهم منها ، وتكون أشمل للرعيه وأرعى للأفراد لحقّهم من شخصه الجليل ، إذ هو ملك للرعية جميعها ، على اختلاف ألوانها وتبايُن مراتبها ، وهو عظيم البِيعة أمام الله والتاريخ عمن تملّك عليهم وتولّى أمر دنياهم وآخرتهم .

(د) تقـــديره لرجال الدولة :

كان المأمون أكثر توفيقا من أخيه الأمين ، فى كفاية بطانتـه ، وقُدرة قادَته ، وحزم مشـيريه ، ونَصر وُلاته . وكان ، مع طرفه بالمحسنين من حاشيته ، كثير التأمل لمـا يجرى فى ملكه من مظاهر الضعف والقوة ، حريصا على تدبر ما يمر به من مختلف الشـؤون ، فى تعرف الشخصيات القوية التى يرجو أن يستند اليها الملك ويتأيد بها النظام .

ولقـد حدّثنا الطبرىّ فى تاريخه عن إسحاق بن إبراهيم أن المعتصم قال له : يا إسحاق فى قلبى أمرٌ أنا مفكر فيه منذ مدّةٍ طويلة ، وإنمـا تسطتك فى هذا الوقت لأُفشيَه اليك ، فقلت : قل يا سيدى يا أمير المؤمنين ، فانما أنا عبدك وابن عبدك ؛ قال : نظرت الى أخى المأمون وقد اصطنع أربعـة أنجموا ، واصطنعت أنا أربعه لم يُفلِـح أحدٌ منهم ، قلت : ومن الذين اصطنعهم أخوك ؟ قال : طاهر بن الحسين ، فقد رأيتَ وسمعتَ ، وعبـدُ الله ابن طاهر ، فهو الرجل الذى لم يُرَ مثـلُه ، وأنت ، فأنت والله الذى لا يعتاض السلطانُ منك أبدًا ، وأخوك محمد بن إبراهيم ، وأين مثلُ محمد ! وأنا فاصطنعتُ الأهيشين ، فقد رأيتَ الى ما صار أمرُه ، وإشباس ففَشِـل رأيُه ، وإيتاخ فلا شىء ، ووصيفا فلا مُغْنِى فيـه . فقلت : يا أمير المؤمنين ، جعلنى الله فداك ، أُجيب عن أمان من غضبك ؟ قال : قل ؛ قلت : يا أمير المؤمنين ، أعزك الله ، نظر أخوك الى الأصول فاسـتعملها فأنجب وروعُها ، واستعمل أميرُ المؤمنين روعا لم تُنجَب ، إذ لا أصول لهـا . فقال : يا إسحاق ، لمقاسـاةُ ما مرّ بى فى طول هذه المدّة أسهلُ علىّ من هذا الجواب .

ولقد كان المأمون ، الى جانب هـذه الخبرة بمـا يحتاج اليه من صفوة الرجال ، بصيرا بمـا فى مملكته من ألوان المكر وصنوف الرياء . فقد حدّثنا ابن طيفور عن إبراهيم بن المهدى ، قال : قال المأمون يوما ، وفى مجلسـه جماعه ، هاتوا من عسكرنا مَنْ يطلب ما عندنا بالرياء ؛ قال : فقال كل واحد بما عنده : إما أن يقول فى عدوّ بمـا يقدَح فيه ، أو يقول

بما يعلم أنه بسرّ خليفته، فلما قالوا ذلك، قال : ما أرى عند أحدٍ منكم ما يبلغ إرادتى، ثم أنشأ يحدّث عن أهل عسكره أهل الرياء، حتى والله لو كان قد أقام فى رَحْلِ كل واحد منهم حولا محرما ما زاد على معرفته . قال . فكان مما حفظت عنه فى ثَلْبِ أصحابه أن قال، حين ذكر أهل الرياء وما يعاملون به الناس . تسبيح حُمَيد الطوسىّ، وصلاة خَطْفه، وصيام النوشجانىّ، ووضوء المِرِّيسىّ، وبناء مالك بن شاهى المساحد، وبكاء إبراهيم بن ريهة على المنبر، وجمع الحسن بن قرنُس اليتامى . وقصص منجا، وصدقه علىّ بن الحميد، وحملان إسحاق بن إبراهيم فى السبيل . وصلاه أبى رجاء الصحى، وجمع علىّ بن هشام القصاص، قال : حتى عددنا جماعه كثيرة، فقال لى رجل من عظماء العسكر، حين خرجنا من الدار، بالله هل رأيتَ أو سمعتَ بملك قطّ أعلم برعيته ولا أشدّ تنقيرا من هذا" قلت : اللهم لا! فحدّث بهذا الحديث رجلا من أصحاب الأخبار والعلم، فقال : وما نصنع بهذا، قد شهدتُ رسالته الى إسحاق بن إبراهيم فى الفقهاء، يخبر بمعايبهم رجلا رجلا، حتى لهو بها أعلمُ منهم بما فى مازلهم . وإن فى ذيوع هذه الأخبار عن المأمون دليلا على عابته بنشر دعوه الملك الموطد الذى يئيس المحاتلون من التنكر له والخروج عليه، فان ظهور الملوك بالنَّفاذ الى سرائر الرعية، يزيدهم قوّة الى قوّته، وسلطاناً الى سلطان .

وإنا اذا نظرنا الى من استوزره وأعلى مكانه واستخلصه لنفسه من رجالات دولته وقوّاد ملكه، لم نتردّد فى الحكم للمأمون، وأنه كان الموفَّق المسدّد فى اختيار أهل الكفايات والنبوغ .

وقد كان، الى جانب هذا، تقدُّر الكفاية فى خصومه . ونظرةٌ فيما رواه ابن طيفور عن الحسن بن عبد الخالق خاصًّا برأى المأمون فى الفضل بن الربيع، وهو الذى تعلم مقدار إساءته اليه، تدلك على هذا؛ فقد قال المأمون فى معرض الحديث عن الفضل : «كان يدبِّر الخطأ فيقع صوابا، ويبعَث بالجيش الضعيف فيقع به النصر، وأدبِّر أنا فيقع بغير ذلك . فلما وقفت على البصيرة من أمرى، وفكرت فى نفسي، وعملت بالأحزم

فى ذلك، مات الى الحرم فوردتُ العراقَ . و إن الفضلَ بن الربيع بقيّة الموالى . فلا تخبره بذلك عنى، فانى أكره أن يبلُغه عنى ما يسرّه» .

ويؤيد صحة هذه الروايةِ ما ذكره بِشْر السّلمانى من المعاصرين اذ يقول: «سمعت أحمد ابن أبى خالد يقول : كان المأمون اذا أمرَنا بأمر فظهر من أحدنا فيه تقصيرٌ، يقول : « أترون أنى لا أعرف رجلًا ببابى ، لو قلدتُه أمورى كلَّها لقام بها ! » فقال بشر : فقلت لأحمد بن أبى خالد : يا أبا العباس، مَنْ يعنى؟ قال . الفضلَ بن الربيع .

ويظهر أن خطه المأمون فى تقدير الكفايات أنّى وُجدتْ، قد اتّبعها قادةُ المأمون نفسه . فان ابن طيفور يحدثنا أنه لما وُلّى طاهر بن الحسين على شرطه المأمون سنه أربع ومائتين، وكان عليها من قبلُ العباس بن المسيَّب بن رهير، كتب طاهر الى الفضل ابن الربيع : « إنّ فى رأيك البركةَ، وفى مشورتك الصوابَ، فان رأيتَ أن تختار لى رجلين للحرب » فكتب اليه ابن الربيع : «قد وجدتهما لك، وهما خيار السَّدْى بن يحيى وعيّاش ابن القاسم » . فولّاهما طاهر الحربين .

«وبعد» فانا نظن أن فى هذا القدر الكفاية لاثبات ما كان من تقدير المأمون ورجاله، لأهل الكفاية والاقتدار، وحرصهم على استعمال أصحاب المواهب، والاستعانةِ بهم وبكفاياتهم، فى خدمة الدولة .

* * *

(هـ) قـــدره للشجاعة الأدبيـــة :

كان المأمون يرصيه أن يكون الرجل بقيّ السريرة، رابطَ الجَأْش، يُقْدِم على كلمة الحق غيرَ هيّابٍ . وقد حدّثنا ابن أبى طاهر طيفور عمن روى عنه قال : « حدّثنى أحمد بن أبى خالد الأحول بحراسان، فيما كان يخبرنى به عن كرم المأمون وفضله واحتماله وحسنِ معاشرته، أنه سمع المأمونَ يوما، وعنده علىّ بن هشام وأخواه أحمد والحسين، ذَكَرَ عمرَو بن مسعدة فاستبطأه، وقال : أيحسَبُ عمرو أنى لا أعرف أخبارَه

وما يُحْمَى اليــه وما يعامل به الناس ! بلى والله ! ثم نَعَسْه ألّا تسقط علىّ منه شيء! ونهض وانصرفنا فقصــدت عمرا من ساعتى، فخبرته بمــا جرى، وأنسيتُ أن أستحثّه من حكايته عنّى . فراح عمرو الى المأمون، فظن المأمون أنه لم يحضُر إلا لأمرٍ مهمّ، لموقعه من الرسائل والمظالم والوزارة ، فأذن له . فخبّرنى عمرو أنه لمــا دخل عليــه وضع ســيفه بين يديه، وقال يا أمير المؤمنين، أنا عائذ بالله من سخطه، ثم عائذٌ بك من سخطك يا أمير المؤمنين، أنا أقلُّ من أن يشكونى أمير المؤمنــين الى أحد أو يُسِرّ علىّ صِعْبا ببعثــه بعضُ الكلام على إظهاره ما يظهر منه! فقال لى وما ذاك؟ فخبّرته بما نَلْعَى ولم أسمّ له مُخبِرى، فقال لى: لم يكن الأمر كما نَلْعَك، وإنمــا كان حمله من تفصيلٍ كنتُ عَلَى أن أُحرِكَ به، وإنمــا أخرَجَ منى ما أخرج معنًى تَحَارَيْنَاهُ. وليس لك عندى إلا ما تحبّ، فليُفْرِح رُوعُك وليَحْسُنْ ظنُّك، فأعدت الكلام، فمــا زال يسكّن منى ويطيّب من نفسى، حتى تحلّل بعضُ ما كان فى قلبى، ثم بدأ فصمّنى الى نفسه، وقبّلت يدَه، فأهوى ليعانقنى فشكرته، وتبيّنت فى وجهه الحياء والخجل مما تأدّى الىّ. قال أحمد. فلما غدوت على المأمون، قال لى: يا أحمد أمَا لمجلسى حرمةٌ؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، وهل الحُرَم إلا لمــا فصل عن مجلسك! قال: ما أراكم تَرْصَوْن بهذه المعاملة فيما بينكم! قلت. وأيّةُ معامله يا أمير المؤمنين؟ هذا كلام لا أعرفه، قال: بلى، أمَا سمعتَ ما كنا فيه أمس من ذكر عمرو! فهب بعضُ من حضر من بنى هاشم فخبّره به، فراح الىّ عمرٌو مُظهرًا منه ما وجب عليه أن يُظهره، فدفعتُ منه ما أمكن دفعُه، وجعلت أعتذر اليه منه بعذرٍ قد تبين فىّ الخجل منه ! وكيف يكون اعتذار انسان من كلام قد تكلّم به إلّا كذلك يتبين فى عينيــه وشفتيه ووجهه . ولقد أعطيتُه ما كان يقنَع منى بأقلّ منه، وما حدانى عليــه إلا ما دَخَلنى من الحَسَاســه، وإنمــا كان نَطَق به اللسانُ عن غير روية ولا احتمال مكروه به، فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا أحبرتُ عمرا به لا أحدٌ من ولد هاشم، فقال: أنت! قلت أنا ! فقال : ما حَمَلك على ما فعلتَ؟ فقلت : الشكرُ لك والنصحُ والمحبة لأن تَتِمَّ نعمتُك على أوليائك وخَدَمك، أنا أعلم أن أمير المؤمنين يُحب أن يصلُح له الأعداء

والبعـداء، فكيف الأولياء والأقرباء، ولا سيما مثل عمرو فى دنوه من الخدمة وموقعه من العمـل ومكانه من رأى أمير المؤمنـين ، أطال الله بقاءه! سمعت أمير المؤمنين أنكر مـه شـيئا ، فخبّرته به ليُصلحه ويقوّم من نفسـه أَوَدَها اسـيده ومولاه، ويتلافى ما فَرَط منه ولا يُفسده مثله ولا يبطل العناء فيه، وإنمـا كان يكون ما فعلت عيبًا، لو أشعتُ سرًّا فيه قدحٌ فى السلطان، أو نقصٌ بدبيرٍ قد استتبّ، فأمّا مثلُ هذا فما حسبته يسلُغ أن يكون ذنبا علىّ». فنظر الىّ مليًّا ثم قال: كيف قلب؟ فأعدتُ عليه، ثم قال . أعِدْ، فأعدت الثالثة ، فقال. أحسنتَ والله يا أحمد! لَمَا حبّبَنى به أحبُّ الىّ من ألف ألف وألف ألف وألف ألف . وعقد خِنْصَره وبِنْصَره والوُسطى، ثم قال : أما ألف ألف فلميك عنّى سوءَ الظن وأطلق وسطاه ، وأما ألف ألف فلصدقك إياى عن نفسك، وأطلق السبصر، وأما ألف ألف فلحسن حوابك، وأطلق الخنصر، وأمر لى بمال .

وهذه الشجاعة من أتبـاع المأمون تدلنا على ما كان فيـه من الاستعداد لقـدر كرائم الخـلال . فلو أنه كان معروفا بالاستبداد لمـا أمكن هذه النفوس أن تنلع ما كانت تطمح اليه من السل والكرامه . وفى استماعه لاحتجاج حليسـه حرصٌ على استبقائه واستكناهِ ما فى نفسـه ، فضلا عما يتوقّعه من عواقب هـذا التشجيع المقصود ، من التعافِ حول شخصـه، وتفانٍ فى الوفاء له ، وإمعانٍ فى خدمته وخدمه بلاده ، خدمةَ الحرّ للحرّ بباعث وجدانىّ، لاخدمة العبد للسيد بعامل الإرهاب والإكراه . ولن تكون الخدمة الخالصة للبلاد بالارهاب والاكراه، ولن تكون خدمة الملوك على وجهها الصحيح بدافع العسف والإعنات، وانمـا يكون ذلك جميعه بحس الصنيع وجميل الأثر، والإحسان بالقول والفعل، وصفاء النفوس من عوامل البغضاء والغل والعدوان .

ثم انظر فيما يرويه لنا أبو الشماخ، قال : «قال لى المأمون وعنده الزيّدىّ والثقفىّ مولى الخَيْزُران، واسماعيل بن نَوْبَخْت، وتذاكروا الشعراء، فقالوا : النابغة، وقالوا : الأعشى، وخاضوا فيهم ، فقال : لا أشْعَرَهم إلا واحدًا كان خليعا : الحسنَ بن هانئ؛ فقالوا :

صدق أميرُ المؤمنين ، قال : الصدق على المناظره أحسن من الصدق على الهيبه ، فقالوا : فبم قدّمته؟ قال بقوله .

يا شـقيقَ النفس من حَكَمٍ * بِتَّ عن ليـلى ولم أنمِ

ثم لم يسقه الى هذا البيت أحد

ثم دبّتْ فى عروقهـمُ * كَدبيب البرءِ فى السَّقَمِ

وفى عباره «الصـدق على المناظره أحسنُ من الصـدق على الهيبة» دلالة على رغبـه فى إحياء العرائز الأدبيـه التى تُميتها المصانعة ، ويَقْبُرها الرياء . ولا يفوتنا أن نشـير الى أن تقـدمه اس هانئ ، لتحويده فى وصف الراح ، له دلالـه وله معزاه ، فهو يدلّ ، الى حد غير قليـل ، الى جانب ما علمناه عن المأمون ، أصيدَ الهمة ، مستحصدَ العزم ، على أنه كان فى أوقات أنسـه ومرحه الرحل المرح الطروب ، الذى يتذوّق المعانى الفرحة ، ومالها من مجاملات وأفانين .

« و بعـد » فإن ربـبه الشعوب على قدر كرامتها الخاصـه ورفعةِ شأنها بين الأمم ، لتتطلّب بعهـدًا خاصا ممن يتولّى أمرها فى هـذا السبيل ، فيعمل على أن يُحِسّ الافـرادُ والحكامُ ، ممن هم فى عمقه وتحت هيمنته ، مالهم من مكانةٍ ومنزلة ، وما لآرائهم وتصرّفاتهم من احترام وقدر ، أحدا لهم بالشجاعه فى المجاهره بمعتقداتهم ، وتنميةً للروح الذى تفيـده هذه الألفاظ : « حرية . إحاء . مساواه » فى نفوسهم . و إن فى آتتاحهم هذا السبيلَ لأحلّ حدمةٍ لمـالكهم وشعوبهم وعروشهم .

* * *

(و) عـــدله وإنصـافه :

كان المأمون عدلا منصفا الى حدّ بعيد . وقد عَرَف فيه الناس هذه الخَلّة ، فكانوا يطمَعون فى أنصاره والمقربين اليه ، ويجهرون بالشكوى من كل مَنْ يسوءهم طمعُه أو يفُدُ اليهم عُدْوانُه .

حدّث بعض المعاصرين قال : « شهدت المأمون وقد ركب الشَّمَّاسيّة وخلفَ طهره أحمد بن هشام ، فصاح به رجلٌ من أهل فارس : اللهَ اللهَ يا أمير المؤمنين ! فان أحمد بن هشام ظلمنى واعتـدى علىّ ! فقال : كن بالباب حتى أرجع ، ثم مضى ، فلما جاز الموضع عُدْوة التفت الى أحمد ، فقـال : ما أقبحَ بنا و بك أن نقفك وصاحبَك هذا رءوس هذه الجماعة ، و يقعد فى مجلس خَصْمك ، و يُسْمَع منه كما تُسمع منك ، ثم تكون محقًّا ، ثم تكون مبطلا ، فكيف إن كنتَ فى صفته لك ، فوجِّهْ اليك من يحوّله من بابنا الى رحلك ، وأنْصِفْه من نفسك وأعطِه ما أنفق فى طريقه اليها ، ولا تحمل لنـا ذريعةً الى ما تكره من لائمتك ، فوالله لو طلبتَ العبَّاسَ ابنى كنتُ أقلَّ كثيرًا عليك من أن تظلم صـعيفا لا يحدى فى كل وقت ، ولاتحمِلُوا له وحهى ، وسيما من تحشّم السفر البعيد وكابد حرّ الهواجر وطول المسافة» . قال المحدّث المعاصر : فوجه اليـه أحمد بجاء به وكتب الى عامله برد عليه ما أخذ منـه ، و يشتمه و يعنّفه ، ووصل الرجلَ بأربعة آلاف درهم ، وأمره بالخروج من بلده .

وهناك الكثير من هذا المثل ، كموقفه مع موسى بن الحسن ، و إنصافه بأن أخذ حقه من محمد بن أبى العباس الطُّوسى ، وموقفه مع النصرانى الذى من أهل كَشكَر[1] .

ثم انظر موقفه المشرّف له وللقضاء فى أيامه ، فقد قالوا : إن رجلا دخل على المأمون ، وفى يده رقعةٌ فيها مطلبةٌ من أمير المؤمنين ، فقال : أمطلمةٌ منى ؟ فقال الرجل : أفأخاطبُ يا أمير المؤمنين سواك ! قال : وماهى طلامتك ؟ قال : إن سعيدا وكيلك اشترى منى جواهر بثلاثين ألف دينار ، قال : فاذا اشترى سعيدٌ منك الجوهر تشكو الطلامة منى ! قال نعم ، اذ كانت الوكالة قد صحّت له منك ! قال . لعل سعيدًا قد اشترى منك الجوهر وحمّل اليك المـال أو اشتراه لنفسه ، وعليه فلا يَلْزمنى لك حقّ ولا أعرف لك طلامة ؛ فقال له (بعد كلام طويل) : إن فى وصيه عمر بن الخطاب لقُضاتكم " البيّنةُ على من ادّعى ، واليمينُ على من أنكر" قال المأمون : إنك قد عَدِمتَ البينة ؛ فما يجبُ لك إلا حَلْفةٌ ، ولئن حلفتَها لأنا

(١) أنظر هذه الحكاية فى الجزء السادس من تاريخ بغداد ص ١٠١

صادق اذ كنتَ لا أعرف لك حقًّا يَلْزَمنى . قال : فاذًا أدعوك الى القاصى الدنى بصبتَه لرعيتك، قال: نعم! ياعلام، علىّ بيحيى بن أكثم، فاذا هو قد مَثَل بين يديه، فقال له المأمون. اقصِ بينا! قال: فى حكم وقضية! قال نعم، قال إنك لم تحمل دلك مجلس قضاء، قال: قد فعلت، قال . فانى أبدأ بالعامة أوّلا ليصلُح المجلسُ للقضاء، قال . افعلْ، ففتح الباب وقعد فى ناحيةٍ من الباب وأذن للعامة، ثم دُعِى بالرجل المتظلّم، فقال له يحيى ما تقول ؟ قال: أقول أن تدعو بخَصْمى أمير المؤمنين المأمون، فنادى المنادى، فاذا المأمون قد خَرَج، ومعه غلامٌ يحمل مصلًّى حتى وقف على يحيى وهو جالس، فقال له : اجلسْ، فطرح المصلّى ليقعد عليها، فقال له يحيى يا أمير المؤمنين، لا تأحد على خَصْمك شَرَف المجلس، فطُرِحَ له مصلًّى آخر، ثم نَظَر فى دعوى الرجل، وطالبَ المأمونَ باليمين فحلف، ووثب يحيى بعد فراغ المأمون من يمينه فقام على رجليه، فقال له المأمون . ما أقامك ؟ فقال : إنى كنت فى حق الله جل وعز حتى أحدثته منك ، ولست الآن من حتى أن أتصدّر عليك ، ثم أمر المأمون أن يحضر ما ادّعى الرجل من المال، فقال له . جعلت الك، والله ما كنتُ أحلف على جَفْرة ثم أسمح لك فأُفسد دينى ودنياى، والله يعلم ما دعوتُ اليك هذا المال إلا حوفًا من هذه الرعيّة، لعلها ترى أنى تناولتُك من وجه القدرة، وإنها لتعلم الآن أنى ما كنت أسمح لك باليمين وبالمال .

ويحق لنا أن نستنبط من هذا الموقف قيمة القضاء فى تلك الأيام ، واحترام الخلفاء أو من نمت الى الخلفاء لشعائره وأحكامه . ولا نستبعد البتة صحة تلك الرواية ،لأن تصرفات المأمون العباسى تجعلنا نقرّها ونؤمن بصدقها من جهة، ولأنا قرأنا شبيهاتها من جهة أخرى، فقد قيل . إن ابراهيم بن المهدى تنازع وآبن بختيشوع الطبيب، بين يدى أحمد بن أبى دُوَاد فى مجلس الحكم فى عَقَار ساحية السواد، فأرى عليه ابراهيمُ وأغلظ، فأحفظ ذلك آبنَ أبى دواد ، فقال : يا ابراهيم اذا نازعتَ فى مجلس الحكم بحضرتنا امرأً فلا أعلمنّ أنك رفعتَ عليه صوتا ولا أشرت بيد ، وليكن قصدك أتمّا وريحُك ساكنة ، وكلامك

معتدلا ، ووَفِّ مجالس الخليفـة حقوقها : من التعظيم والتوقير ، والاستكانة والتوجّه الى الواجب ، فان ذلك أشكلُ بك وأشمل لمذهبك فى محتدك وعظيم خطره ، ولا تعجَلَنّ فربَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثًا ، والله يعصمك من خطل القول والعمل ، وأن يتم نعمته عليـك كما أتمها على أبويك من قبل إن ربك حكيم عليم ، فقال ابراهيم : أصلحك الله تعالى ، أمرتَ بسَدَاد وحَصَصْت على رشاد ، واستُ عائدا لمـا يَثْلِم مُروءتى عندك وسُسقطنى من عينيك ويُحرجنى من مقدار الواجب الى الاعتدار ، فهأنذا معتذر اليك من هـذه البادرة اعتذارَ مقرٍّ بذنبـه معترفٍ بجُرْمه ، ولا يزال العصب يستهوّنى بمواده فيردّنى مثلُك بحلمه وتلك عاده الله عندك وعندنا مثلك ، وقد جعلتُ حقّ من هذا العَقَار لابى بحتيشوع عليت ذلك يكون وافداً بأرِش الجناية عليه ، ولم يتلَفْ مالٌ أفاد موعظه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل !

فترى مما قدّمناه لك مبلغ سلطان القضاء وحرمته عند البيت المـالك .

وقد يكون أجمل من هـذا كله — فيما لو صح — ذلك الموقف الروائىّ الذى تقدّمت الى المأمون فيه امرأة تشكو ظلم آبه العباس فقد شكت اليه بأبيات رقيقة فلم يسَعْه إلا أن يعدّها الإنصافَ بأبيات رقيقة على الوزن والقافيه ، وكانت تلك الأبيات فى خفتها وجودة الخاطر بها فى ساعتها بردا وسلاما على قلب تلك المرأة المظلومة .

قال الشَّيْبانى : جلس المأمون يوما للظالم ، فكان آخرُ من تقدّم اليه ، وقد همّ بالقيام ، امرأةٌ عليها هيئة السـفر ، وعليها ثياب رَثّة ، فوقفتْ بين يديه ، فقالت : السـلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فنظر المأمون الى يحيى بن أَكْثم ، فقال لها يحيى : وعليك السلام يا أَمَةَ الله ، تكلّمى فى حاجتك ، فقالت :

يا حبرَ متصفٍ يُهْدَى له الرُّشَـدُ * ويا إماماً به قـد أَشْرق البـلدُ
تشكو اليك عَمِيدَ القـوم أرْمَلَةٌ * عدا عليهـا فلم يُتْرِكْ لهـا سَـبَدُ
وأبْتَزّ مـنّى ضِيَاعى بعـدَ مَنْعَتها * ظلمًـا وفُوق منّى الأهـلُ والولدُ

فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه اليها وهو يقول :

فى دونِ ما قلتِ زال الصبرُ والجَلَدُ * عنّى وأُفْرِحَ منّى القلبُ والكبدُ
هـذا أذانُ صـلاةِ العصر فانصرفى * وأَحْضِرى الخصمَ فى اليوم الذى أَعِدُ
والمجلسُ السبتُ إنْ يُقْصَ الخلوسُ لنا * نُنْصِـفْكِ مـه والا المجلسُ الأحدُ

فلما كان اليومُ الأحدَ جلس، فكان أوّلُ من تقدّم اليه تلك المرأةَ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمـة الله وبركاته، فقال : وعليكِ السلام، أين الخصم ؟ فقالت الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين، وأومأتْ الى العباس ابنه، فقال لأحمد بن أبى طالب : خُذْ بيـده فأجلِسْه معها مجلسَ الخصوم، بجعل كلامُها يَعْلُو كلامَ العباس، فقال لها أحمد ابن أبى طالب : يا أمةَ الله، إنكِ بين يدى أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأميرَ، فاخْفِضى من صوتك، فقال المأمون : دَعْها يا أحمـد، فان الحق أنطقها وأخرسه ! ثم قضى لها بردّ ضيعتها اليها، وظلم العباسَ بظلمه لها، وأمر بالكتاب لها الى العامل ببلدها، أن يوفّر لها ضيعتَها ويحسن معاونتَها وأمر لها بنفقة .

و بعد فان المؤرّخ المنصف، لجدير به أن يقف أمام هذه المُثُل العليا وقفةَ احترام واجلال، وعطفٍ واعتبار، وأن يرغب رغبه صادقه فى إذاعته هذه المُثُل ونَشْرها، والعمل على تداولها وذكرها، لأنها قدوة صالحة لحَمَلَة التيجان، فى إنصاف زميلهم الانسان . وإن قُدْس العدالة لواجبٌ احترامُه، وأحقُّ الناس باحترامه هم الوُلَاه وحَمَلَة التيجان، وإن فى شعور الرعيـة وعامة الناس بأنهم وحُكّامَهم سَوَاسِيَةٌ، لمدعاةٌ للرضا والاعتباط، والإمعان فى خدمة الأوطان، والذّبّ بأرواحهم وقلوبهم عن الملوك وأصحاب السلطان .

* * *

(ز) عفـــــوه :

كان المأمون مَضْرب المثل فى العفو، حتى لقد كان يَخْشى أن لا يُؤْجَر عليه، اذ صار فِطْرةً فيه، وأظرفُ أنواع عفوه تعاضيه عما كان يحدُث فى قصره .

قالت شُكْر مولاةُ أم جعفر بنت جعفر بن المنصور، سمعت المأمون أمير المؤمنين : وكانت عنده أم جعفر، فدعا بمقَارِيضَ(١)، فقال الغلام : قد دُهِتَ بالمقَارِيض الى الشَّمَّاسية، ثم قال ياغلام : بُلَّ لنا الخَيْشَ(٢) فَوْقُ، فقال الغلام : لا، قال : بُلَّ، فقالت أم جعفر : سبحانَ الله يا أميرَ المؤمنين! ، ما هذا! وأنكرتْ أن يكون سأل عن شيئين فلم يُعْملا، فقال المأمون : من قدرت على عقوبته، لسوء فعله، وقبيح جُرْمه، فقدرتُك عليه كافيتُك نصراً لك منه، ولا معنى لعقوبة بعد قدرة، الحلمُ عن الذنب أطلع من الأحد به .

وهو هنا يعلّل العفو تعليلا مقبولا حديرا بأن يكون درسا فى الأخلاق .

ثم انظر مبلغ عفوه وحلمه وسماحة نفسه، فيما يرويه أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور فى كتابه، قال : «كان للمأمون خادم يتولَّى وضوءه، فكان يسرق طَسَاسَه، فبلغ ذلك المأمونَ مراراً، ثم قال له يوما وهو يوضئه . وَيْحَك! لِمَ تسرق هذه الطَّسَاسَ، لو كنتَ اذا سرقتَها أتيتَنى بها اشتريتُها منك، قال : فاشترِ هذا الذى بين يديك، قال : بكم؟ قال بدينارين، قال المأمون : أعطوه دينارين، قال : هذا الآن فى الأَمَان .

ومهما يكنْ من هذه الرواية من مَسْحَة المبالغة، أو أنها أُقْصُوصةٌ أكثر منها حقيقةً، فان طبيعة المأمون وسجيته، وجُنُوحه الى العفو، وأحدَه بالحلم، لمّا يؤيّد أُسَاسها وعُضَارتَها، ويقرر جوهرَها وخلاصتَها، ومما يصدق فيه قول مَنْ قال له .

أميرَ المؤمنين عفوتَ حتى * كأن الناسَ ليس لهم ذنوبُ

أما حديث حلمه مع عمه ابراهيمَ بن المهدى فمتعارف مشهور، ومُدَّاع مذكور، فقد أبى ابراهيمُ أن يبايعه، ثم ذهب الى الرَّىّ، وادّعى فيها الخلافةَ لنفسه، وأقام مالكَها سنه وأحد عشر شهرا واثنى عشر يوما، والمأمون يتوقع منه الانقياد الى الطاعة، والانتظام

(١) جمع مقراض وهو ما يقطع به الثوب أو غيره وهو المعروف بالمقص .

(٢) العادة كانت جارية فى العراق أن يوضع الحشيش فوق سطح المنزل وبلل وقت الحر ليكون تأثير الشمس واقعا عليه دون السقف وهكذا كانت تفعل ملوك فارس . فلعل كان رمى المأمون عمل بطانة للسقف استعمى بها عن الخيش وبله وهى ما تسميه (بعدادلى) وفى بعض البلاد يسمى المأمونى .

فى سلك الجماعة ، حتى يئس من عَوْده ، فركب بخَيْـلِه ورَجْله ، وذهب الى الرىّ وحاصر المدينة وافتتحها ، فهرب ابراهيم وتنكّر ثم أُخذ بعد لَأْي ، وقدم الى المأمون فى زىّ امرأة . فلما مَثل بين يديه ، سلّم عليه بالخلافة ، فقال المأمون : لاسلّم الله عليك ، ولاحيّاك ولا رعاك ! فقال ابراهيم : مهلًا يا أمير المؤمنين ! ان ولىَّ الثأر محكّم فى القِصَاص ، ولكن العفو أقربُ للتقوى ، ومن تناوله الاغترارُ بما مُدّ له من أسباب الشقاء ، أمكن عَادِيَةَ الدهر من نفسه ، وقد جعلك الله فوق كلّ ذى ذنب ، كما جعل كلّ ذى ذنب دونَك ، فان أحدت فحقّك ، وإن عفوتَ ففضلك ، ثم أنشد .

دَنْى اليـكَ عظـيمُ * وأنت أعظمُ مـنه
خُـذْ بحقّك أَوْلَا * فاصفحْ بفضلك عنه
إن لم أكنْ فى معالِى * من الكِرَام فكُنْـهُ

فقال المأمون : شاورتُ أنا اسحاق والعباسَ فى قتلك ، فأشارا به ، فقال : فما قلت لهما يا أمير المؤمنين؟ قال المأمون . قلت لهما : ببدؤه باحسان ، ونَسْتأْمره فيـه ، فإن عيَّر فالله يغيِّر ما به . قال : أما أن يكونا قد نصحا فى عظيم مما جرت عليه السياسة فقد فعلا ، ولَعلّما يلزمهما ، وهو الرأى السـديد ، ولكنك أبيتَ أن نستحلب الصبر إلّا من حيثُ عوّدك الله ، ثم استعبر باكيًا ، فقال له المأمون : ما يُبْكيك؟ قال : حَدَلًا اذ كان دمى الى من هذه صفته فى الإنعام . ثم قال : إنه وإن كان قـد بلغ جرمى استحلالَ دمى ، فحلم أمير المؤمنين وفضله بلّغانى عفوَه ، ولى بعدهما شـفاعة الاقرار بالذنب ، وحق الأبوّة بعـد الأب ، فقال المأمون : يا ابراهيم ، لقد حُبِّب الىّ العفو حتى خِفْت ألّا أُؤْجَر عليـه . أمَا لو علم الناس ما لنا فى العفو من اللذه ، لتقرّبوا الينا بالجنايات ! لا تَثْرِيبَ[1] عليك ، يغفر الله لك . ولو لم يكن فى حق نسـبك ، ما يبلّغ الصفحَ عن جرمك ، لبلّغك ما أملتَ حسنُ تفضـلك ولطفُ توصّلك . ثم أمر بردّ ضِيَاعه وأمواله ، فقال ابراهيم :

(١) التثريب اللوم والتعيير بالذنب .

رددتَ ما لى ولم تبخـــل علىّ به * وقبل ردِّك ما لى قد حقَنْتَ دَمِى
وقام علمُك بى فاحتجّ عـــدك لى * مقامَ شاهـــدِ عَدْلٍ غيرِ متّهَـــم
فلو بذلتُ دمى أبْغِى رضـاك به * والمـالَ حتى أسُلَّ النعلَ من قدمى
ما كان ذاك سوى عَارِيّة سلفت * لو لم تَهَبْها لكنتَ اليـــوم لم تُلَم

« و بعـد » فشدّ ما يحتاج الولاةُ والقاده والزعماء، الى خَلّة العفو والاحسان، فى حزم وحسن مواناةٍ، ليَسْتلُّوا من القلوب عداوتَها، وليستأصلوا من النفوس سَخِيمتَها، وليضمنوا من الرعية والأتباع الاخلاص المحض والود الصحيح .

* * *

(ح) احـــتماله :

ومن الدلائل على صلاحيه المأمون لما أعدّته له الأيام اتصافه بالاحتمال الذى لا يقوم الملك إلا به ، ولا تسير الأمور بدونه ، وهو خُلُق يراه العصى سماحه ، ونراه من المأمون سياسه ، هى من الصميم فى آداب الملوك ، و إنه ليحتمل ، حتى لتحسبه من الغافلين ، ولكن الرجل كان يعرف أن للملك مضاعف ومتاعب ، أقلها مداراه الناس ، والنزول لهم عن بعض ما يشتهون .

روى بعضهم عن قُثَم بن جعفر أنه قال : قال المأمون فى يوم الخميس ، وقد حضر الناس الدار لعلى بن صالح ادْعُ اسماعيل قال: فخرج ابن صالح ،فأدخل اسماعيلَ بن جعفر، وأراد المأمون اسماعيل بن موسى، فلما نَصُر به من بعيد ، وكان أشدّ الناس له بغضا ، رفع يديه ماذهما الى السماء،ثم قال: اللهم أَيْدِلْنِى من ابن صالح مطيعا فانه لصداقته لهذا آثر هواه على هواى ، قال : فلما دنا اسماعيلُ بن جعفر، سلم فردّ عليه ثم دنا فقبّل يده ، فقال : هات حوائجك ، قال . صيعتى بالمُعَيْنَة ، غُصِبْتُها وقُهِرتُ عليها ، قال: نأمر بردّها عليك ، ثم قال: حاجتك ، قال . يأذن لى أمير المؤمنين فى الحج ،قال: قد أَذِنّا لك ،ثم قال: حاجتك ،قال: وَقْفُ أبى أُخْرِج من يدى وصار الى قُثَم والقاسم ابنى جعفر،قال: فنريد ماذا؟ قال : يردّ الىّ ،قال:

أمّا ما كان يُمكِننا من أمرك فقد حُدْنا لك به، وأمّا وقفُ أبيك فذاك الى ورثته ومواليه، فان رَضُوا لك واليا عليهم وقيّما لهم رددناه اليك، وإلا أقررناه فى يد من هو فى يده، ثم خرج، فقال المأمون لعلى بن صالح : مالى ولك عافاك الله، متى رأيتَنى بَسَطْتُ لاسماعيل بن جعفر وعُنيت به وهو صاحبى بالأمس بالبصره ! قال : دهب عن فكرى يا أمير المؤمنين، قال : صدقت، لعَمْرِى ذهب عن فكرك ما كان يجب عليك حفظه، وحفظ فكرُك ما كان يجب عليك ألاّ يخطُر به، فأما اذْ أخطأتَ فلا تُعْلم إسماعيل ما دار بنى و بينك فى أمره . فظنّ علىٌّ أنه عنى بقوله هـذا اسماعيل بن موسى ، فأخبر اسماعيلَ بن جعفر القصة حرفا حرفا ، فأذاعها ، وبلغ الخبرُ المأمونَ فقال : الحمد لله الذى وهب لى هذه الأخلاق، التى أصبحتُ أحتمل بهـا علىّ بن صالح وابن عمْران وابن الطُّوسىّ وحُمَـد بن عبـد الحميد ومنصور ابن النُّعمان ورعامش .

« و بعد » فالاحتمال حلة محبّبة الى النفوس ، تدعو الى الوفاق والوئام ، وهى بالملوك أولى وأجدر لمكانهم من الرعامه والقيادة ، ولمنزلتهم من الرياسة والسلطان . ولأنهم أحق الناس بكل سجية تحبّبهم الى الناس، وتكون قدوة يَرْتَسِمُها مَنْ عداهم ممن يتصرفون فى شؤون العباد ومستقبل البلاد .

✦✦

(ط) بصـــره بالأدب :

سترى فيما نعرض له ، فى القسم الأدبى، من آثار المأمون وكتابته، مبلغ تبريزه فى الفنون الأدبية، وتملكه أعنّة البلاغة ، وحسن تصريفه لكل أفانين الثقافة العربية، الى جانب حسن تصريفه، لشتى أمور ملكه .

والآن — وسبيلنا تحليل شخصية المأمون، نرى من الواجب لتوفية البحث حقه من مختلف وجوهه، أن نشير الى كلفه بالأدب، مفترضين على كل حال ، ما قد يكون بمثله ، من تشيع المغالين من الولاء له ، وماقد يضاف اليه من الآثار .

ولكن ذلك كله، لن يؤثر فى اللب والجوهر، وهو أن المأمون كان أديبا، عالما بأفانين القول ومذاهبه، وليس ذلك ببعيد، على من تتلمذ على شيوخ الأدب العربى، كسيبويه واليزيدى ويحيى بن المبارك بن المُغيرة، الذى أحد العربية عن أمثال أبى عمرو ابن العَلاء وابن أبى اسحاق الحَضْرَمى، وأحد اللغة والعروض عن الخليل بن أحمد، والذى ألف كتابا فى النحو لبعض أولاد المأمون .

فقد أفاد المأمون من هؤلاء وأمثالهم من رجال الأدب والكفاية أيّما إفادة .

قال عِمارة بن عَقيل : أنشدتُ المأمونَ قصيدةً مائة بيت، فأتتدئ بصدر البيت، فيُبادرُنى الى قافيته كما قفَّيته، فقلت . والله يا أمير المؤمنين، ما سمعها منّى أحد قط! فقال هكذا ينبغى أن يكون، ثم قال لى أمَا بلغك أن عمر بن أبى ربيعه أنشَد عبدَ الله بن عباس قصيدته التى يقول فيها * تَنُشّطَ عدًا دارُ جبراسا * فقال ابن عباس * وللدَّارُ بعد غدٍ أبعدُ * حتى أنشده القصيده يقفّيها ابن عباس ثم قال أما آنَ لك . ورووا أن المأمون قال :

عتبتُ مُرْتادا فصرتَ سطره ... وأغفلنى حتى أسأتُ بك الظنّا
فاجَبْتَ مَنْ أهوى وكنتُ مناعدا ... مماليت شعرى عن دنوك ما أعْنى
أرى أثرًا منه بعيْنك بيّنًا * لقد أحدثتْ عيناك من عينه حسنا

ومهما قيل إن المأمون أحد هذا المعنى من العبّاس بن الأحْنف الذى يقول .

إن تَشْقَ عينى بهما فقد سَعِدَتْ ... عينُ رسولى وفرتُ بالخبر
وكلّما جاءنى الرسولُ لها * رَدَدْتُ عهدا فى عينه نظرى
جد مقلتى يا رسولُ عارية ... فانظرْ بها واحتكمْ على بصرى

فان شعر المأمون يدل فى جملته، على تدوقه الحسىِ، بالشعر الحسىِ، والخيال الحسىِ . ثم لتنظر معى فى الحديث الذى دار بين عبد الله بن أبى السَّمْط وعِمارة بن عَقيل، فان أولها يقول لعمارة : أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر" فقال عمارة : ومن يكون أعلم منه" فوالله إنا لننشده أوّلَ البيت فيسبقُنا الى آخره، قال عبد الله : إنى أنشدته بيتا أجدتُ فيه فلم يتحرك له، فقال عمارة : وما هو؟ قال :

أصحى إمامُ الهدى المأمونُ مشتغلا * بالدين والناسُ بالدنيا مَشَاغيلُ

فقال عماره : والله ما صنعتَ شيئا ! هل ردتَ على أن حملتَه محمورا فى محرابها ، فاذًا مَن الذى يقوم بأمر الدنيا اذا تشاغل عنها ، وهو المُطَوّق بها ؟ ألا قلتَ كما قال حدّى جرير فى عبد العزيز بن الوليد :

فلا هو فى الدنيا مضيعٌ نصيبَه ولا عَرَضُ الدنيا عن الدين شاغلُهْ

فقال عبد الله : الآن علمتُ أنى قد أخطأت .

ولقد كان المأمون واقفا أتم وقوف وأكمله على شعر العصر ، ومقولات الشعراء ، مع حسن بصر ، وأتمّ حدق ، وأدقّ تفهم ، يدلك على ذلك ، ما ذكره أبو نزار الصَّرير الشاعر قال : قال لى علىّ بن حَسَلة قلت لحُمَيد بن عبد الحميد . يا أبا عاتم ، قد امتدحتُ أمير المؤمنين بمَدْيح لا يُحْسِن مثلَه أحد من أهل الأرض ، فاذكُرْنى له ، فقال : أنْشدنيه ، فأنشدتُه ، فقال : أشهد أنك صادق ، فأحد المديح فأدخله على المأمون ، فقال : يا أبا عاتم ، الجواب فى هذا واضح ، إن شاء عفونا عنه ، وجعلنا ذلك ثوابا لمديحه ، وإن شاء جمعنا بين شعره فيك وفى أبى دُلَف القاسم بن عيسى ، فان كان الذى قال فيك وفيه أجودَ من الذى مدحنا به ، ضربنا ظهره وأطلقنا حبسَه ، وإن كان الذى قال فينا أجود أعطيتُه بكل بيت من مديحه ألف درهم ، وإن شاء أقَلْناه ، فقلت : ياسيدى ، ومن أبو دلف ومن أنا حتى يمدحنا بأجود من مديحك ! فقال : ليس هذا الكلام من الجواب عن المسألة فى شىء ، فاعرضْ ذلك على الرجل . قال على بن جبلة : فقال لى حُمَيد : ما ترى ؟ قلت : الإقالة أحبّ الىّ ، فأحر المأمون ، فقال : هو أعلم ، قال حُمَيد ، فقلت لعلىّ بن جَبَلة ، الى أى شىء ذهب فى مدحك أبا دلف وفى مدحك لى ؟ قال : الى قولى فى أبى دلف :

إنما الدنيا أبو دُلَف * بين مُغْداه ومُحْتَضَرِهْ

فإذا ولّى أبو دلف * ولّت الدنيا على أثَرِهْ

والى قولى فيك :

لولا حُمَيـد لم يكن * حَسَبٌ يعد ولا نسبْ
يا واحد العـرب الذى * عزّتْ بعزته العـربْ

ثم انظر سعة عطفه، وكثير تسامحه، وما جبلت عليه نفسه من العفو والحلم، فيما رواه أحد قَرَابة دِعْبل الشاعر، حيث قال : إن دعبلا هجا المأمون بقوله :

أيَسُومنى المأمونُ خطـةَ عاجز * أَوَما رأى بالأمس رأسَ محمد
يُوفِى على هَامِ الحلائف مثلَ ما * تُوفِى الجبالُ على رءوس القَرَدَدِ (١)
ويَحِـلّ فى أكناف كل ممنّـع * حتى يدلّل شـاهقا لم يُصْـعَد
إن التِّراتِ مسهّد طُلّابهـا * فاكفُفْ لُعابَك عن لعاب الأسود

فلم يتقدم المأمون بإيذاء دعبل، وكل مافعل أن قال: هو يهجو أبا عَبّاد، ولا يهجونى. يريد حِدّةَ أبى عَبّاد .

وكان بصيرا بأحسار العرب ، واقفا على تاريخ محاويدهم وعطاريفهم، فقد ذكر عمّاره ابن عَقِيل قال : « قال لى المأمون يوما، وأنا أشرب عنـده، ما أحبثك يا أعرابى، قال قلت : وماذاك يا أمير المؤمنين، وهَمَمْتَنِي نفسى، قال كيف قلت :

قالتْ مُقَـتّاةُ لمـا أن رأتْ أرقِى * والهمّ يعتـادُه من طيفـه لَمَمُ
نَهّبْتَ مالَك فى الأدنَيْن آصِرةً * وفى الأباعد حتى حَفّـك العـدمُ
فاطلبْ اليهم ثرى ماكنت من حسن * تُسْدِى اليهم فقـد باتت لهم صِرَمُ (٢)
فقلتُ عَذْلَكِ قد أكثرتِ لائمتى * ولم يَمُتْ حاتمٌ هزلًا ولا هَرِمُ

فقال لى المأمون: أيى رميتَ بنفسك الى هَرِم بن سِنَان سيد العرب، وحاتم الطائي . فعلا كذا وفعلا كذا وأقبل يَتْنَالُ (٣) علىّ بفضلهما، قال : فقلت ياأمير المؤمنين: أناحير منهما، أنا مسلم وكانا كافرين وأنا رجل من العرب .

(١) القردد : ما ارتفع وغلظ من الأرض . (٢) الصرم : جمع صرمة وهى القطعة من الإبل نحو الثلاثين .
(٣) يعدّد محاسنهما ويذكرها .

ثم انظر بلاغته ومتانة عبارته، فى مشافهاته ومبادهاته . فقـد روى ابراهيم بن عيسى قال : لمـا أراد المأمون الشخوصَ الى دمشق هيّأتُ له كلاما، مكثت فيه يومين و بعض آخَر، فلما مثلتُ بين يديه، قلت : أطال الله بقاء أمير المؤمنين فى أدوم العزّ وأسبغ الكرامة، وجعلنى من كل سوءٍ فداه، إنّ مَنْ أمسى وأصبح يتعرّف من نعمة الله — له الحمد كثيرا — عليه برأى أمير المؤمنين أيده الله فيه ، وحسنِ تأنيسه له ، حقيقٌ بأن يستديم هذه النعمة، و يلتمس الزيادة فيها، شكرا لله ،وشكرا أمير المؤمنين — مدّ الله فى عمره — عليها . وقد أُحبّ أن يعلم أمير المؤمنين أيده الله، أنى لا أرغب بنفسى عن خدمته ، أيده الله بشىء من الخَفْضِ والدَّعة، إذ كان هو أيده الله، يتجشّم خشونةَ السفر، ونَصَبَ الظَّعْن، وأولى الناس بمواساته فى ذلك، وبذل نفسه فيـه أنا، لِمَـا عرّفنى الله من رأيه ، وجعل عنـدى من طاعته ، ومعرفةِ ما أوجب الله من حقـه ، فان رأى أمير المؤمنين أكرمه الله ، أن يكرمنى بلزوم خدمته ، والكَيْنونة معـه فعل . فقال لى المأمون مبتـدئا من غير رويّة : لم يعـزم أمير المؤمنين فى ذلك على شىء ، و إن استصحب أحدا من أهل بيتـك، بدأ بك وكنت المقـدّم عنده فى ذلك، ولا سيما إذ أنزلت نفسك بحيث أنزلك أمير المؤمنين من نفسـه، و إن ترك ذلك فمن غير قِلًى لمكانك، ولكن بالحاجة اليك . قال ابراهيم : فكان والله ابتداؤه أكثر من ترويتى .

قال أبو العتاهية : وجه الىّ المأمون يوما، فصرتُ اليه، فالفيته مُطرِقا مفكرا، فأحجمت عن الدنو مـنه فى تلك الحالِ ، فرفع رأسه، فنظر الىّ ، وأشار بيده أن ادْنُ، فدنوت . ثم أطرق مليا، ورفع رأسه، فقال : يا أبا اسحاق، شأن النفس الملل، وحب الاستطراف، تأنس بالوحدة كما تأنس بالألفـة . قلت : أجلْ يا أمير المؤمنين . ولى فى هذا بيت قال: ما هو؟ قلت .

لا يُصْلِـح النفسَ إذ كانت مدبره ـ إلا التنقّلُ من حالٍ الى حال

ثم انظر الى بلاغة المأمون، التى كانت سليقة فيه،و إذ رلت بساحته الهموم والفوادح، فقد ذكر المؤرخون أنه أصيب بابنة له ، كان يَجِدُ عليها وَجْدا شـديدا . فجلس وأمر أن

يؤذن لمن بالباب، فدخل عليه العباس بن الحسن العلوىّ، فقال له : يا أمير المؤمنين إنا لم نأتك معزّين، ولكن أتيناك مقدمين . ثم قال يا أمير المؤمنين، إن لسانى يطلق بمدحك عاشا . وأحبّ أن يتزيّد عندك حاضرا . أفتأذن فأقول ، قال المأمون : قل فانك تقول فتحسن، وتشهد فترشد، وتعيب فتؤنّب، فقال العباس له ،وصدق فيما يقول، : ياأميرالمؤمنين ما أقول بعد هذا! لقد بلغتَ من مدحى مالا أبلغه من مدحك .

وانظر الى حلاوته فى بلاغته، ومراعته فى طُلاوته، ومتانته فى عارته، حين نصح لابسه العباس فقال له : بقى يا حىّ لمن أَسْبغ الله عليه نِعَمه، وشَرّكه فى ملكه وسلطانه، وبسط له فى القدرة، أن يبالغ فى الخير، بما يبقى ذكره، ويحب أجره، ويرجى ثوابه . وأن يجعل همته فى عدل ينشره ، أو جور يدفنه ، وسنّة صالحة يحييها أو بدعة يميتها . أو مكرمة يعتمدها، أو صدعة يسدها، أو يد يودعها ويوليها، أو أثر محمود يتبعه .

ويقول لنا ابطاحظ فى البيان والتبيين . كان سهل بن هارون شديد الإطناب فى وصف المأمون بالبلاغه والجهاره ، وبالحلاوه والفخامة ، وجوده اللفظه والطلاوة . ويقول ثُمامه بن أَشْرَس النمرىّ ما رأيت رجلا أبلغ من جعفر بن يحيى والمأمون . وإن فيما ذكره أبو الحورى والعاملىّ وغيرهما فى طرب المأمون للطُّرَف واللغة، لمما يثبت بصره بالأدب وحذقه للغة ، وتمكنه فى النحو . وإنا نختتم كلمتنا هذه بما قاله المأمون لولده وعنده عمرو بن مَسْعده ويحيى بن أَكْثم فانها فى السِّماك بلاغة ودقه معنى وحلاوه أسلوب وسمو سجايا وحسن تدبير ونصوح دُرْبة،ولا يقولها إلا من كان الى جانب ما وصفناه حمال أعباء،نهاضا بعبلاء(١)،قصيا مَرْمَى همته، رفيعا مَنَاطُ عزيمته، وهى مع كل ذلك من عَفْو الخاطر، ونتاج البديهة .

قال : « اعتبروا فى علو الهمة بمن ترون من وزرائى وخاصتى ، إنهم والله ما بلغوا مراتبهم عندى إلا بأنفسهم . إنه مَنْ تتبع منكم صِغارَ الأمور، سمه التصغير والتحقير وكان

(١) يقال . هو نهاض بالأعباء أى صاحب همة يقوم بالأمور العظام .

قليلُ ما يَفْتقد من كبارها أكثرَ من كثير ما يستدرك من الصِّغار ، فترفعوا عن دناءة الهمة ، وتفرّعوا لجلائل الأمور والتـدبير ، واستَكْفُوا الثّقات ، وكونوا مثـلَ كِرَام السِّباع التى لا تشتغل بصغار الطير والوحش بل بجليلها وكِبارها . واعلموا أن أقدامكم ان لم تتقدم بكم ، فإن قائدكم لا يقدمكم ولا يعدى الولىُّ عنكم شيئا ما لم تعطوه حقَّه . وأنشده

نحن الذين اذا تَخَطَّط عُصْـبةٌ ... من مَعْشرٍ كنّا لهـا أنْكالَا
ونَرَى القُـرُومَ مخالةً لقُرومـا ... قبـــل اللّقاء تُقَطِّـر الأنْوَالَا
نَرِدُ المنـيـةَ لا نحاف وروْدَها ... نحب العَحَاجه والعيونُ تَلَالَا
نعطى الجزيلَ فلا نُمُنُّ عطاءنا ... قبـــل السؤال ونحمل الأثقالَا
وادا البلاد على الأنام تزلزلتْ ... كنا لزلزلة البلاد جبالَا

«وبعـد» فشدّ ما يروق الرعيه تبرّزُ ولاتها فى البلاغه والبيان ، وشدّ ما يُثْلج الأفئدة ويُقِرّ العيون تملكهم لأعنّة القول ، واطلاعهم على الغُـرَر والمُلَح وتسْحيهم لدوى الاحسان .

وجميـل جدا أن تنشر الكمايات ، وأن تخذ الولاه من كلمة المأمون : «إن وزرائى والله ما بلغوا مراتبهم عـندى إلا بأنفسهم» سـمه يرشّمُوها ، وقاعده يتعونهـا ، وحكمة يديعوها لترتفع النفوس وتسمو الرغاب وليال الاحسانَ أهلُ الاحسان .

(ى) علم المـــأمون :

كان المأمون وافر العلم ، غزير الاطلاع وليس ذلك بعزيز على خليفة ملأ عصرَه بأنواع المعارف الانسانية ، ونفح فيه من روحه القوى ، حتى استطاع الباحث أن يَسِمَه بسِمَتِه ، وأن يرجع فضلَ الحضارة العباسية اليه .

ولكن المأمون فى علمه وثقافته لم يقف عـند حدّ الثقافه الذاتية ، وإنما وجّه حرصه الى أن يثير فى نفوس أصحـابه كوامن الرغبـة الى التعمق فى الدرس ، والشوق الى إدراك حقائق الأشياء ، وكانت له فى ذلك طريقة معروفة ، هى توجيه السَّمَر والحديث الى فنون

العلم، وصروب العرفان، فكان حديث الليل وحديث المـائدة يفتح لجلسائه أبوابا من القول ما كانت تحطر لهم ببال .

قال جعفر بن محمـد الأَنْمَاطِيّ . إن المأمون لمـا دخل بغداد، وقرّ بها قرارُه، وأمر أن يدخل عليـه من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم جماعةٌ، يختارهم لمجالسته ومحادثته، وكان يقعد فى صـدر نهاره على نُمُرُقٍ فى الشتاء وعلى حصيرٍ فى الصيف، ليس معها شىء من سائر الفرش، ويقعد للظالم فى كل جمعـة مرتين، لا يمتنع منه أحد، قال : واختـير له من الفقهاء لمجالسته، مائة رجل، فما زال يختارهم، طبقة بعـد طبقةٍ، حتى حصّل منهـم عشرة، كان أحمد بن أبى دُوَادٍ أحدهم، وبِشْرُ المَرِيسىّ . قال جعفر بن محمد الانماطى : وكنتُ أحدهم، قال فتغدّينا يوما عنده، فطست أنه وضع على المـائدة أكثر من ثلثمائة لون، فكلما وضع لون، نظر المأمون اليه، فقال هذا يصلح لكذا، وهـذا نافع لكذا، فمن كان منكم صاحب بلغم ورطوبة، فليجتنب هـذا، ومن كان صاحب صَفْراء فليأكل من هذا، ومن غلبت عليـه السَّوْداء فليأكل من هذا، ومن أحبّ الزياده فى لحمه فليأكل من هذا، ومن كان قصده قلة العِدَاء فليقتصر على هـذا، قال : فوالله إن زالت تلك حالَه فى كل لون يقدّم، حتى رُفِعتِ الموائد . قال فقال له يحيى بن أكثم : يا أمير المؤمنين، ان خصاصا فى الطب كنتَ حالينوس فى معرفته ! أو فى النجوم كنت هِرْمِس فى حسابه ! أو الفقـه كنتَ على بن أبى طالب صلوات الله عليـه فى علمه ! أو ذكرنا السـخاء فأنت فوق حاتم فى جوده ! أو ذكرنا صـدق الحديث كنت أنا ذَرّ فى صـدق لهجته ! أو الكرم كنت كعب بن مامة فى إيثاره على نفسه ! قال : فسرّ بذلك الكلام، وقال : يا أبا محمد، إن الانسان إنما فُضّل على غيره من الهوام بعقله وعقله وتمييزه، ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم، ولا دمٌ أطيب من دم . وانك اذا قلت : إن يحيى بن أكثم، قد بالغ فى تحليـل المأمون، وغلا فى صفته، فأنا معك فى ذلك، ولكنى ألاحظ أن هـذا الغلو لا يخلو من أَثَارَةٍ من حق وصدق .

ولتنظر معى نظرة مُستَقْصٍ لاطلاع المأمون ، وتدقّق المعانى اليه ، ومواتاة الأفكار له حيما ارتد رحل من أهل خراسان ، وأمر المأمون بحمله الى مدينه السلام ، فلما أُدخل عليه أقبل بوجهه اليه ، ثم قال له : « أحرّنى . ما الذى أوحشك مما كنت به آنسا من دينا ، فوالله لأن أستحييك بحق أحب الىّ من أن أقتلك بحق ، وقد صرت مسلما بعد أن كنت كافرا ثم عدت كافرا بعد أن صرت مسلما . فإن وَجَدت عندنا دواء دائك ، تعالجتَ به اذ كان المريض يحتاج الى مُشَاوره الأطباء . فان أخطأك الشفاء وبنا عن دائك الدواء ، كنت قد أعذرتَ ولم يرجع على نفسك ملامة ، فان قتلناك بحكم الشريعة ترجع أنت فى نفسك الى الاستبصار والثقه ، وتعلم أنك لم تُقَصِّر فى احتهاد ، ولم تَدَع الأحد بالحزم » . فقال المرتد . « أوحشنى ما رأيتُ من كثرة الاختلاف فى دينكم » فقال المأمون « إنّ لنا اختلافين : أحدهما كالاختلاف فى الأذان وتكبير الجنائز ، والاختلاف فى التشهد وصلاة الأعياد ، وتكبير التشريق ووجوه القراءات ، واختلاف وجوه الفُتْيا ، وما أشبه ذلك ، وليس هذا باختلاف إنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المِحْنه ، فمن أذَّنَ مَثْنَى وأقام فُرادَى لم يُؤْثَم ومن أذّن مثنى وأقام مثنى ، لايتعايرون ولا يتعايبون ، أنت ترى ذلك عيانا ، وتشهد عليه بيانا ، والاختلاف الآخر كنحو الاختلاف فى تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، مع إجماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر ، فان كان الذى أوحشك هذا حتى أنكرت كتابنا ، فقد يدعى أن يكون اللفظ بجميع ما فى التواره والإنجيل متفقا على تأويله ، كالاتفاق على تنزيله ، ولا يكون بين الملتين من اليهود والنصارى اختلاف فى شىء من التأويلات ، وينبغى لك ألّا ترجع إلّا الى لغة لا اختلاف فى ألفاظها ، ولو شاء الله أن ينزّل كُتُبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا تحتاج الى تفسير لفعل ، ولكنا لم نر شيئا من الدين والدنيا دُفع الينا على الكفاية ، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البَلْوَى والمِحْنه ، وذهبت المسابقة

والمنافسة ولم يكن تفاصل ، وليس على هدا نَحَى الله حل وعز الدنيا» فقال المرتد : «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأنّ المسيح عبد الله ورسوله ، وأنّ محمدا صلى الله عليه وسلم صادق ، وأنك أمير المؤمنين حقا ! » قال : فانحرف المأمون نحو القبلة فخرّ ساجدا ، ثم أقبل على أصحابه فقال : «وقّروا عليه عِرْصه ، ولا تمرّوه فى يومه ، ريثما يعتق إسلامه ، كيلا يقول عدوّه إنه سلم رعبة ، ولا تسوا نصيبكم من ره ونصرته وتأنسه والفائده عليه» .

وهـدا المنحى الذى نحاه المأمون ، فى إمضاء ذلك المرتدّ يدلنا على ناحيتين من نواحى تفكيره :

الأولى : نصره بأسرار الشريعة ، وعلمه بدقائق الدين ، وبدقيقه فى فهم أنواع الخلاف بين المسلمين ، ويكاد هذا التقسيم يَقْصى على كل شُبْهه ، عند من يَرِيبُهم هـذا النزاع الذى طال بين الفِرَق الاسلاميـه ، وتشعّبت به مذاهب الفقهاء .

الثانية . تعمُّقه فى درس النفسيّات ، واستقصاء خلجات القلب ، وهمسات الضمير ، وذلك ظـاهر فى مراجعته لحيـاه الرجل الروحيّـة ، وتأمله لمـا أَلِفَتْه نفسه وسكن اليه وجدانه قبل إسـلامه ، فقد بنى على هـذه السابقة طريقه التآلف والتسامح التى قضى بها على مامُنِىَ به الرجل من الكفر بعد الإيمـان .

« و بعـد » فان المأمون فى علمه وعرفانه أهلٌ للاحتداء والاقتداء من أقرانه ، قَمِينٌ بالتمثّل به والاقتفاء من أحدانه ، ليكون زمانهم غُرّة فى جَبين الدهر كزمانه ، وليكون نصيبهم نصيبه فى مهماته ورفعة شانه ، ورسوخ عَرْشه وقوّه بنيانه .

(ك) احترامـــه للدين :

كان المأمون شديد الاحترام للتقاليد الدينية ، يرى فيها صيانةً لنفسه ، واستبقاء لقلوب رعيته ، ولكنه كان يَشْتَطّ فى ذلك ، فيعاقب على هَفْوة مَرّ عليها عشرات السنين ، وسنقصّ عليك حادثة ، هى دلالة على هذا الإسراف ، وهى أيضا عُنوان على ذوقه فى نقد

الشعر ، وإنما نرجح أن للظرف الذى وقعت فيه هـذه الحادثة تعليلا لِمَا أحرُج فيها ، فلولا مجلس الغناء ولعبه بالنفس ، لما عُزِل قاضٍ لهفوه لفظية ، طال على عهدها الزمان ، واليك الحديث .

ذكر أحد المعاصرين وهو أبو حَشيشة محمد بن علىّ بن أمية بن عمرو قال . كما قدّام أمير المؤمنين المأمون بدمشق ، فغنى علُّويَه :

رَثِئْتُ من الإسلام إن كان ذا الذى ... أتاكِ به الواشـون عنّى كما قالوا
ولكنّهم لما رَأَوْكِ سريعـةً ... إلىّ تَوَاصَـوْا بالنميمة وٱحتالوا

فقال : ياعلُّويَه ، لمن هذا الشعر ؟ فقال : للقاضى ، قال : أىّ قاضٍ ويحك ؟ قال : قاضى دمشق . فقـال . يا أبا اسحاق ، اعزله ، قال قد عَزَلْتُـه ، قال فيُحضَر الساعة ، قال : فأحضر شـيخ محصورٌ قصـيرٌ ، فقال له المـأمون مَن تكون ؟ قال : فلان بن فلان الفلانى ، قال : تقول الشعر ؟ قال : قد كنتُ أقوله ، فقال . يا علُّويَه ، أنْشِدْه الشعر فأنشده ، فقال . هذا الشعر لك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ونساؤه طوالق وكل ما يَمْلك فى سبيل الله ، إن كان قال الشعر منذ ثلاثين سنه إلا فى زُهْد ، أو معاتبه صديق ، فقال : يا أبا اسحاق ، اعزِلْه ، فما كنت أُولِّى رقابَ المسلمين من يبدأ فى هَزْله بالبراءه من الإسلام ثم قال . يا علُّويَه ، لا تقل برئت من الاسلام ، ولكن قل .

حُرِمتُ مُناى ملكِ إن كان ذا الذى ... أتاكِ به الواشـون عنّى كما قالوا

وهذا الموقف من المأمون شبيهٌ كل السبه بموقفـه مع يحيى بن أكثم وزيره وقاضيه ، حيث قال له المأمون : «لا أترك قاضيا شُرب النبيذ !» .

ثم لننظر ما يُروَى عن سَعيد بن رِيَاد أحد المعاصرين ، فانه يدلّك على تقديس المأمون لآثار النبىّ واحترامه لها ، وتمسّكه بها ، مع وَرَع وخشوع ، فقد قيل . إنه لما دخل المأمون دمشق قال له : «أرِنى الكتابَ الذى كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم» ، فأراه سعيد إياها ، فقال له : «إنى لأشتهى أن أدرِىَ أىّ شىء هذا العشاء على هذا الخاتم» فقال له أبو اسحاق :

حُلّ العُقْـده حتى ترى ما هو فقال المأمون : ما أشـكُّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم عقد هـذا العَقْد، وما كنت لأحلّ عقدًا عَقَده رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال للواثق : حده فضَعْه على عينيك، لعل الله أن يَشْفيك، وجعل المأمون يضعه على عينيه ويبكى .

على أنا نرى من الوفاء للقد العلميّ أن نحيل القارئ هـا الى كلمتنا عن سياسـة المأمون، والى مذهبـه الدينيّ فى الاعتزال، كما نحيله الى مبحثنا فى الحياه العلمية والأدبية فى عصره، ونطنّ أنه سيلاحظ معنا أن هذه السذاجةَ الطيّبة، وذلك الإيمان الجميل فى تقدير المأمون للآثار النبوية لاتتفق فى حقيقه جوهرها مع ما أجمع عليـه المؤرخون فى سياسته، ولا مع اعتزاله[1] أو توعّله فيما ترك الفلاسفة الأوّلون ، ولا مع ما أحد به المأمون بعض معاصريه من ألوان النقد فى شؤون دينهم ودُنْياهم .

والمأمون عند صحة هذه الروايه بين اثنتين : إما أن يكون قويّ العاطفه الدينية، رقيق الحس، يحصع لوُجدانه وإيمانه، وإما أن يكون فى مثل هذه الأحوالِ رحلَ سياسةٍ ودهاءٍ، يحسب ألفَ حساب لعواطف الجماهير ويحترم مُيُول الجماعات الدينية .

« و بعـد » فالدِّين للديّان حلّ حلاله ، وأنعِمْ بالوُلَاة الذين يحـترمون ما للجماعات من آراء ومعتقدات وديانات .

* * *

(ل) سـياسـته :

ولقـد كان المأمون سياسيا فذّا ، وليس أدلّ على « دِيبلوماطِيقيته » ، من خُطّته التى لا نجد لهـا فى عصره ما هو أحكم منها ولا أسـدّ، مع رُكونه الى مُشاورة شِيعته وأنصاره اذا حَزَبَهُ أمر . ولا أدلّ على كياسـته وكبير مهارته من تصرّفاته مع سفراء أخيـه الأمين مما وقفتك على طرف منه، فى فصل النزاع بين الأخوين .

---

(١) يقول الأستاذ الشيخ عـبد الوهاب النجار : « الاعتزال مذهب من مذاهب التوحيد أراد القائمون به تنزيه الله عن الأشباه فعمدوا أن يكون لله صفات لئـلا يتعدّد القدماء، ثم انتقلوا الى الأفعال فعمدوا أن يكون لله أثر فى فعل الشر فقالوا إن الله منزه عن الشر و إن الانسان يخلق أفعال نفسه الاختيارية بقدرة أودعها الله فيه الخ ما قالوا . وليس فى هذا ما ينافى إجلال المأمون لآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وكان سياسيا فذًّا ، فى تزوجه من بُوران بنت الحسن بن سهل ليكتسب الحزب الفارسىّ ، وفى تزويجه علىّ بن موسى الرضا ابنته أم حبيب ، ومحمد بن على بن موسى ابنتَه أم الفضل ليكتسب الحزب العلوىّ ، راما بذلك كلّه الى ضمان تأييد الأحزاب له ، عارفا لنفسيّات الجمهور وأمزجة الجماعات .

وكان سياسيا فذّا ، مصيبا لُبَّ الصواب فى قوله لأحمد بن أبى دواد عن أهل بغداد : «الناس على طبقات ثلاث فى هذه المدينة ، ظالم ، ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ، فأما الظالمُ فليس يَوقع إلّا عفوًا و إمساكا ، وأما المظلومُ فليس يتوقع أن يُنصَف إلا بِنَا ، ومَن كان لا ظالما ولا مظلوما فبيتُه يَسعه » .

وكان سياسيا فذًّا ، فى مداراته عمّاله ، وليس أدلّ على ذلك من تصرّفه مع ابراهيم بن السِّندىّ صاحب الأخبار ، وقد رَفَع اليه خبرا عن حادثة بمصر ، فكذّبه عبد الله بن طاهر ، فعنّف المأمونُ السندىّ لمّا التعنيف ، أمام ابن طاهر ثم بعث اليه ، وقال له . « إنى آمر وأُدارى عمّالى وعمالهم ، مداراةَ الخائف ، والله ما أحد الى حملهم على المحجّة البيضاء سبيلا ، فاعمَلْ فى على حسب ما نراى أعمل ، ولِى لهم تسلمْ لك أيامُك ، ويَفِضّ دينُك » .

وكان سياسيا فذّا ، حينما رَفع اليه صاحب خبره « إنا أصبنا يا أمير المؤمنين رِقاعا ، فيها كلامُ السفهاء والسِّفْلة ، وفيها تهديدٌ ووعيد ، و بعضها عندنا محفوظ ، الى أن يأمر أمير المؤمنين فيها بأمره ، فكتب المأمون بخطه : «هذا أمر إن أكبرناه كثر عمله ، واتسع عليا خَرقُه ، فمُرْ أصحاب أخبارك ، متى وجدوا من هذه الرِّقاع رُقعة أن يُمزِّقوها ، قبل أن ينظروا فيها ، فانهم اذا فعلوا ذلك لم يُرَ لها أثر ولا عين» ففعلوا ذلك فكان الأمر كما قال .

وتعالَ بسطرْ نظره تحليليه قصيره ، فيما رَوَيه لنا زيد بن على بن الحسين ، قال : «لمّا كان فى العيد ، بعد قدوم المأمون سنه أربع ومائتين والمأمون يتغدّى ، وعلى مائدته طاهر بن الحُسين وسعيد بن سَلْم وحُميد بن عبد الحميد وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يقرّطه ، ويذكر مناقبه ، ويصف سيرته ومجلسه ، اذ أنهملت عينا المأمون بالدموع ، فرفع يده عن الطعام ، فأمسك القوم حين رأوْه بتلك الحال ، حتى اذا كَفّ ، قال لهم : كلوا ، قالوا : يا أمير

المؤمنين، وهل نُسيغ طعاما أو شرابا وسيّدنا بهذه الحال. قال : أما والله ما ذلك من حَدَث ولا لمكروه هَمَمتُ به بأحد، ولكنه حبس من أحباس الشكر لله لعظمته ، وذكر نعمته التي أتمّها علىّ، كما أتمّها على أبَوَيّ من قبلي، أما تَرَوْن ذلك الذي في صحن الدار ، يعني الفضلَ بن الربيع — قال وكانت الستور قد رفعت ، ووُضعت الموائد للناس على مراتبهم ، وكان بمجلس الفضل مع أصحاب الحرس - وكان في أيام الرشيد وحالُه حالُه يراني بوجه أعْرِف فيه العصاء والشّآن ، وكان له عندي كالذي لي عنده، ولكنّي كنت أداريه حوفا من سِعايته وحَذَرًا من أكاذيبه، فكنت اذا سلّمت عليه، مرّ عليّ أطَلُّ لذلك فرحا، وبه مبتهجا، وكان صَعْوه الى المخلوع، فحمله على أن أعراه بي، ودعاه الى قتلي، وحرّك الآخر ما يحرّك القَرابة والرحم الماسّة، فقال : أمّا القتل فلا أقتله، ولكني أحمله بحيث اذا قال لم يُطَع، واذا دعا لم يُجَب، فكان أحسن حالاتي عنده، أنْ وجّه مع عليّ بن عيسى قيدَ فضة، بعد ماتنازعا في الفضّة والحديد ليُقَيّدني به، ودهب عنه قول الله جلّ وعزّ : ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ﴾ فذاك موضعه من الدار بأخسّ مجالسها، وأدنى مراتبها، وهذا الخطيب على رأسي ، وكان بالأمس يقف على هذا المنبر، الذي بإزائي مرّة، وعلى المِنْبر الغربيّ أخرى ، فيزعم أنّي المَأمون ولستُ بالمأمون، ثم هو الساعة يقرّظني تقريظَه المسيحَ ومحمدا عليهما السلام، فقال طاهر بن الحسين: ياسيّدنا، هذا عبدنا فيهما وقد أباحك الله إراقة دمائهما، فحصّنتَهما بالعفو والحلم ! قال : فعلتُ ذلك لموضع العفو من الله . ثم قال المأمون : مُدّوا أيديكم الى طعامكم، فما كَل وأكّلوا .

ألا يسوغ لنا أن نستنبط مما قدّمناه لك أن المأمون كان سياسيا ذَهِنا، حاذقا في تصرفه مع الفضل ؟ ألم يكن للفضل مكانة عند الرشيد، ونفوذ بَعيد المَدَى في الدولة ؟ ألا يجوز أن سِعايته بالمأمون وأكاذيبَه عليه، إن لم يُداره، تحدّ آذانا مُصْغية . وأنها قد تحزّ عليه من الشرور ماليس في حاجة اليه ؟

ألم يكن حيرَ سبيل لاتّقاء شائنته أن يداريه، عملا بقول أبي الدّرداء «إنا لنَبَشُّ في وجوه قوم وقلوبُنا تلعنهم» ؟

فهل ترى سياسة أحكم ، و بصرا بالأمور أتمّ ، من تصرف المأمون ومداراته ، ثم انظر ما كان من مداراته للفضل بن سهل ، كما صرح بذلك لولىّ عهده علىّ بن موسى الرِّضا ، ومداراته لطاهر بن الحُسين قاتِل أخيه ، وما كان من تصرفاته مع الوفود الأمبية ، تؤمن معنا أن المأمون كان سياسيا ، ولعل لاطّلاعه على ماتُرجم من المؤلفات اليونانية والفارسيه ، مع استعداده الخاص وبروعه الى البحوث الكلامية عامةً ، وحبه للمشاوره واكتنافه بالرءوس المفكرة الناصحه ، لعل لهذا وأمثاله الفضلَ فى تكوين المأمون على مارأيتَ ، وتحريجه على ماشاهدتَ .

« و بعد » فإن للحياه تقاليدها ، و إن لسياسه الشعوب أسرارها ، كما أن للصراحة محامدها ، وللمداراه صرورتها ، وأنعم بمن نصع الأمور فى مواضعها ، و يزن المواقف بميزانها ، و يَطبّ لكل حاجه دواءها وعِلاجها .

* * *

(م) مذهب المأمون الدينى :

أمّا مذهب المأمون الديني أو السياسىّ إن شئت ، وهل كان يميل للفُرْس حقا و يُؤْثرهم على غيرهم من العرب فى خدمة الدولة ، وهل كان شِيعيّا عَلَويًّا ، أو معتدلا فى التشيّع ، أو معتزليّا ، فهذا باتٌ يستقيص القول فى شتّى نواحيه ، وردحم معانيه ، لاختلاف وجهات النظر فيه . ولعلك تبيّنت مما كتبناه عن المأمون السياسى ، بعضَ مايُساعدك على تفهّم مذهبه الدينىّ .

ولما كنا قد أرجأنا الكلام فى موضوع المِحْنة والقول بخلق القرآن الى قسم العلوم والآداب ، فنحن نَلْفِت النظر هنا الى ذلك .

بَيْدَ أنّا نرى من واجبنا أن نشير هنا ، الى أن المأمون كان مُحوطا بشيوخ الأعتزال والكلام ، أمثال ثُمَامه بن أَشْرَس ويحيى بن المبارك وغيرهما . ويجوز لنا أن نفترض أن المأمون قد أخذ مذهب الأعتزال من يحيى بن المبارك مؤدِّبه ، فان ياقوتًا الرومىّ قد ذكر

عنه ، فى الجزء السابع من معجمه ، : أنه كان يُتَّهم بالميل الى الاعتزال ، فلا يستبعد اذًا ، وصلتُه بالمأمون صلةُ الأستاذ بتلميذه ، أن يكون المأمون قد تأثّر بميله خصوصا ، أنه اتّصل به منذ صباه فى أيام الرشيد . وكذلك كان نَحُوطا لشيوخ آخرين ، لهم آثارهم ومكانتهم فى الدولة ، مثل يحيى بن أكثم وعبد يحيى بن أكثم .

وكان على ذلك ، متأثرًا بما نُرجِم من أخلاقيّات فلاسفة اليونان وعلومهم ، وآداب الفرس وعلومهم . كما كان ، الى حدّ غير قليل ، تحت سلطان الفرس وورائهم أمثال الفضل بن سهل . وكان يحسب للعلويين حسابهم ، وللعباسيين حسابهم . فلا غرو اذًا أن يكون لكل هذه العوامل أثر غير قليل فى تكييف مِزاجه الدينى . وقد يَفْتُر بعض هذه العوامل حينا وقد يشتدّ حينًا آخر ، طبقًا للأحوال .

هذا هو رأينا فى مذهبه الدينى أو السياسىّ على وجه عام . على أن هذا لا يمنعنا ، وقد اتخذنا لأنفسنا خطّةَ الحَيْدة فى تدوين التاريخ ، من أن نُثْبت آراء القدماء فيه ، وأن نذكر طَرَفًا مما جاء منها فى هذا الصدد .

قال ابن الأثير فى كامله : «قال أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمار : كان المأمون شديد الميل الى العلويّين ، والإحسانِ اليهم ، وخبرُه مشهور معهم ، وكان يفعل ذلك طبعًا لا تكلُّفا ، فمن ذلك أنه تُوُفِّى فى أيامه يحيى بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين العَلَوىّ ، فحضر الصلاةَ عليه بنفسه ، ورأى الناسُ عليه من الحزن والكآبة ما تعجبوا منه ، ثم إن ولدًا لزيد بنت سليمان بن علىّ بن عبد الله بن عباس ، وهى ابنة عمّ المنصور تُوفّى بعده ، فأرسل له المأمون كفنًا ، وسيّر أخاه صالحًا ليصلّى عليه ويعزّى أمّه ، فلما كانت عند العباسيين بمنزلة عظيمة ، فأتى اليها وعزّاها عنه واعتذر عن تخلّفه عن الصلاة عليه ، فظهر غضبها وقالت لابن ابنها : تقدّم فصلّ على أبيك ، وتمثلت :

سَبَكَاه ونحسَبُه لُجَيْنًا * فأبْدَى الكيرُ عن خَبَثِ الحديدِ

ثم قالت لصالح : قل له يابنَ مَراجِل، أما لو كان يحيى بن الحسين بن زيد لوضعتَ ذيلك على فيك، وعَدَوْتَ حلفَ جازته .

ثم تَعالَ معى نتدبّر ما يَرْويه لنا التعلبيّ أحد المعاصرين ، قال : سمعت يحيى بن أكثم (١) يقول : أمرنى المأمونُ عند دخوله بغداد، أن أجمع له وجوهَ الفقهاء وأهلَ العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائلَ، وأفاض فى فنون الحديث والعلم، فلما انقضى ذلك المجلس ، الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين، قال المأمون : يا أبا محمد، كَرِه هذا المجلسَ الذى جعلناه للنظر طوائفُ من الناس ، بتعديل أهوائهم وتزكية آرائهم ، فطائفةٌ عابوا علينا ما نقول فى تفضيل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وظنّوا أنه لايجوز تفضيلُ علىّ الا بانتقاص غيره من السلف ! والله ما أستجيز أن أنتقص الحجّامَ فكيف السلفَ الطيّب ! وإن الرجل ليأتينى بالقُطَيعة من العُود أو بالحشيه أو بالشىء الذى لعلّ قيمته لا تكون إلا درهمًا أو نحوه ، فيقول : إن هذا كان للنبىّ صلى الله عليه وسلم قد وضع يَده عليه أو شرب فيه أو مسّه ، وما هو عندى بثقة ولا دليلَ على صدق الرجل ، إلا أنّى بفرط البيّة والمحنة أقبل ذلك فأشتريه بألف دينار وأقلّ وأكثر، ثم أصعه على وجهى وعينى، وأتبرّك بالنظر اليه وبمسّه، فأستشفى به عند المرض يُصيبنى أو يُصيب من أهتمّ به ، فأصوبه كصيانى نفسى ، وإنما هو عُود لم يفعل شيئا ، ولا فضيلَةَ له يستوجب المحبّةَ، إلا ما ذُكِرَ من مسّ رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، فكيف لا أرْعَى حقّ أصحابه وحُرْمة من قد صحبه، وبذل ماله ودمه دونه، وصبر معه أيامَ الشدّة وأوقاتَ العُسْرة ، وعادَى العشائرَ والعمائرَ والأقاربَ ، وفارق الأهل والأولاد، وآغترب عن داره ليُعِزَّ الله دينَه ويُظْهِرَ دعوتَه، يا سبحان الله ! والله لو لم يكن هذا فى الدِّين معروفا، لكان فى الأخلاق جميلا ! وإن من المشركين لمن يَرْعَى فى دينه من الحرمة ما هو أقلّ من هذا . معاذ الله ممّا نطق به الجاهلون . ثم لم تَرْضَ هذه الطائفةُ بالعيب لمن حالفها، حتى نَسَبتْه الى البِدْعة فى تفضيله رجلًا على أخيه ونظيره ومن

(١) هذه القطعة منقولة كما هى عن تاريخ بغداد ج ٦ ص ٧٥ وما بعدها .

يقاربه فى الفضل، وقد قال الله حلّ من قائل : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ثم وسّع لنا فى حهل الفاصل من المفضول، فما فَرَض علينا ذلك ولا نَدَبَنا اليه، إذ شَهِدنا لجماعتهم بالنبوّة، فمن دون النبيين من ذلك بعد إذ شهد لهم بالعدالة والتفضيل آمرؤ لو جهله جاهل رجونا ألّا يكون احترح إثمًا . وهم لم يقولوا بِدْعة فيمن قال بقول واحد من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وشك الآخرُ واحتجّ فى كسره وإبطاله من الأحكام فى الفُروح والدِّماء والأموال التى البطرُ فيها أوحشُ من النظر فى التفصيل . فيغلط فى مثل هذا أحد يَعرف شيئا ، أوله رَوية أو حُسن نظر ، أو يدفعه من له عقل ، أو معاند يريد الإلطاط(١) ، أو مُتّبع لهواه ، داعٍ عن رياسة اعتقدها . وطائفةٌ قد اتّخذ كلّ رجل منهم مجلسًا ، اعتقد به رياسةً ، لعله يدعو فئةً الى صرب من البدعة ، ثم لعلّ كلّ رجل منهم يُعادى مَن حالفه فى الأمر الذى قد عقد به رياسةَ بِدْعة ، ويُشيط(٢) بدمه ، وهو قد خالفه من أمر الدين فيما هو أعظم من ذلك ، إلا أن ذلك أمرٌ لا رياسةَ له فيه ، فسالمه عليه وأمسك عنه ، عند ذكر مخالفته إياه فيه ، فاذا خولف فى نِحْلته ، ولعلّها ممّا وسّع الله فى جهله بها ، أو فيما اختلف السلَف فى مثله ، فلم يُعاد بعضُهم بعضا ، ولم يَرَوْا فى ذلك إثما ، ولعله يُكَفِّر مخالفه ، أو يُبْدعه أو يَرميه بالأمور التى حرّمها الله عليه من المشركين دون المسلمين ، بغيًا عليهم ، وهم المتزقّون الفِرَقَ ، والراسخون فيها ، لينهبُوا أموالَ الناس ويستحلُّوها بالغلبة ، وقد حال العدلُ بينهم وبين ما يُريدون ، يَزْأَرون على العتمةِ زئيرَ الأُسْد على فرائسها . وإنى لأرجو أن يكون مجلسُنا هذا — بتوفيق الله وتأييده ، ومعونته على إتمامه — سببا لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين ، إمّا شاكٌّ فيتبيّن ويتثبّت فينقاد طَوْعًا ، وإما مُعاند فيردّ بالعدل كَرْهًا » .

ولقد هممنا فى سبيل عَلَوِيّته هذه أن يَلعن معاويةَ ، وأن يكتب بذلك كتابا ، يُقرأ يوم الدار ، وحَفْل الناس ، فنهاه عن ذلك يحيى بن أكثم ، وقد يكون من الممتع الطريف حقا أن نذكر لك ما قاله يحيى وعيرُه ، لتتبيّن نفسية الزعماء فيما نحن بسبيله .

(١) الإلطاط : الاشتداد فى الأمر والخصومة .
(٢) يشيط بدمه : يهدره .

قال يحيى بن أكثم : يا أمير المؤمنين ، إن العامة لا تحتمل هـذا ، ولا سيّما أهـل خُرَاسَان ، ولا تأمن أن تكون لهم نَقْرة وإن كانت لم تَدْرِ ما عاقبتها ، والرأىُ أن تَدَعَ الناسَ على ما هم عليه ، ولا تُظْهِرَ لهم أنك تميل الى فِرْقة من الفِرَق ، فإن ذلك أصلح فى السياسة ، وأحرى فى التدبير . فركَنَ المأمونُ الى رأيه ، ثم دحل عليه ثُمَامةُ أحدُ المعاصرين ؛ فقال له المأمون : يا ثُمامة ، قد علمتَ ما كنا دبّرناه فى معاوية ، وقد عارَضَنا رأىٌ هو أصلح فى تدبير المملكة ، وأبقى ذكرًا فى العـامّة ، ثم أخبره أن ابن أكثم حوّفه إياها ، وأخبره بصورها عن هـذا الرأى ، فقال ثمـامه . يا أمير المؤمنين ، والعامة فى هـذا الموضع الذى وصفها به يحيى ! والله لو وجّهت إنسانا على عاتقه سواد ، ومعه عصا لساق اليك بعصاه عشرة آلاف منها ! والله يا أمير المؤمنين ، ما رضى الله حلّ شاؤه أنْ سوّاها بالأنْعام ، حتى جعلها أضـلّ منها سبيلا ، فقال تبارك وتعـالى . ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ . إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَـامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ والله يا أمير المؤمنين ، لقد مررتُ مُذ أيام فى شارع الخُلْد ، وأنا أريد الدار ، فادا إنسان قد بسَط كساءَه ، وألقى عليـه أدوية ، وهو قائم ينادى عليها : هـذا الدواءُ لبياض العين والعَشَا والغِشَاوَة والظُّلمة وضعف البصر ، وإنّ إحدى عينيه لمطموسه ، وفى الأخرى مُؤْسًى له ، والناس قد اشالوا عليه وأَجْفَلوا اليه يستوصفونه ، فنزلتُ عن دابّتى ناحيـة ودحلتُ فى غُمار تلك الجماعة فقلت : يا هذا ، أرى عينَك أحوج هـذه الأعين الى العلاج وأنت تصف هـذا الدواء وتخبر أنه شفاء لوجع العين ، فلِمَ لا تستعمله ؟ فقال : أنا فى هـذا الموضع منذ عشر سنين ما مر بى شيخ أجهـل منك ، فقلت له : وكيف ؟ قال : يا جاهل ، أيى اشتكتْ عينى ؟ قلت : لا أدرى . قال : بمصر ، فأقبلت علىّ تلك الجماعة فقالوا : صدق الرجل ، أنت جاهل ، وهُمّوا بى ، فقلت : لا والله ، ما علمت أنّ عينه اشتكت بمصر ، فما تخلّصت منهم إلا بهذه الحجة .

نريد بعـد ما قدّمناه لك أن نقول لك : إن مذهب المأمون الدينى كان متمشيا تمـاما مع مذهبـه السياسىّ ، وإنه اذا كان يريد من وراء خطته السياسية من التزوج من هذا

الحزب وذاك، ومن إرضاء هذا الطرف وذاك، أن يظفر بتكوين وحدة سياسية من شتى الأحزاب ولو أدّى ذلك أن يكون من العلويين حليفه، ثم من العباسيين حليفة ما دامت غيته متحققة من استتباب الأمن، وامتزاج الأحزاب، وتوحيد القوى، فكذلك كان يريد أن يتخذ من مذهبه الديني مذهبا وَسَطًا. ويحيل إلينا من النتائج التي وقفنا عليها من دراسة هذا العصر أن المأمون لم يظفر بغايته لا من الوجهة السياسية كما علمت من انتهاء حياة الرِّضا من آل محمد، ولا من الوجهة الدينية.

وبعد، فقد قلنا لك: إن الدين للديان جل جلاله، وأكبرنا وأكبرت معنا أولئك الولاة الذين يحترمون ما للجماعات من آراء ومعتقدات وديانات، ويظهر أن المأمون لم يكن فيما رامه في هذا السبيل موفقا توفيقه فيما عداه، وأن له زَلّة كان يجدُر ألّا يقع مثلها في مثلها، وسترى ذلك موضّحا في الفصل الذي عقدناه عن «محنة القرآن».

*
* *

(ن) كلمة ختامية عن المـــأمون:

وإنا بعد أن حللنا شخصية المأمون مما يحب من التفصيل والتوضيح، نرى من المستصوب أن نضم إلى آراء المؤرخين الغرب وروايات المعاصرين للمأمون التي لا تخلو من مبالغة في تمدحهم بعض فضائله، رأي مؤرخ مستشرق عكف على دراسة عصر المأمون وهو السير وليم موير، فربما أفادنا كثيرا من ناحية استيعاب وجهات النظر عند الفرنجة من المؤرخين، ذلك لأن الحقيقة العلمية لا تخدم بمثل ما يخدمها تَبَايُن الآراء واختلاف المصادر وتناقض الروايات. وليس من مهمّتنا أن نعرض للرد على «السير موير» وإنما نحن بسبيل إثبات وجهات النظر المختلفة كما قلنا.

قال الأستاذ موير في كتاب الخلافة في مختتم بحثه عن المأمون ما نترجمة لك بنصه: «مما لا يراع فيه أن المأمون كان على وجه العموم متّصفا بالعدل والحلم، وإنما يؤخذ بأنه كان متقلبا في آرائه وشعوره، سواء أكان ذلك في المسائل السياسية أم الدينية.

ويرجع السبب فى ذلك الى نزعته الفارسية التى وَرِثَها عن أمه ، والبيئة التى رُبِّى فيها من جهة ، والى غَرِيزه حبه للاستسلام بتأثير مَن حوله كما كان حاله مع الفضل من جهة أخرى . على أنا مع اعترافنا بعدله ، لا نستطيع أن ننزِّهه عن الجنوح فى بعض الأحايين الى الجور واستعمال القسوة من غير مسوِّغ ، فإنه قد تصرَّف فى بعض الحوادث تصرُّف الجابرة والقُسَاة من أسلافه الذين أَتَوْا من المنكرات ما سوَّدوا به صحائف تاريخهم . وسأذكر على سبيل المثال حادثة استعمل فيها المأمون وحشيّة غريبة ، ذلك أن أبا دُلَف — وكان بطلا من أشراف العرب وزعيما لإمارة همذان ، إذ كان من أُسرة كريمة نالت شهرة عظيمة وصيتا واسعا بين عشائرها ودوى البيوتات فيها — كان من الذين انضمّوا الى نصرة الأمين وشايعوه ، فلما قُتل واستقل المأمون بالخلافة ، أبى أبو دلف أن يدخل فى طاعته ، وآثر العودة الى مَسْقِط رأسه فى فارس ، فمدحه شاعر أعمى بقصيدة رائعة ، وغالى فى مدحه وإطرائه ، ووصفه بأنه أشرف العرب والمقدَّم عليهم ، فاغتاظ المأمون من الشاعر غيظا شديدا ، إذ ظن أن الشاعر يقصد إهانته ، فأمر بتعدسه وقتله شرّ قتلة ، ولكن لم يمض على ذلك غير قليل من الزمن حتى دخل أبو دلف فى طاعة المأمون فاحتفل به وقرَّبه اليه ، فان كان تجاوزه عن أبى دلف وسعة حلمه عليه مما يعظم شأن المأمون ويدل على رحابة صدره ، فهذا التجاوز لا يغيِّر حكمنا عليه بالقسوة الوحشية فى قتل ذلك الشاعر الأعمى ، ولو أغضينا عن الشبهات التى حامت حول مقتل الفضل وموت علىّ الرضا عدرًا وغِيلَة ، فاننا لا نستطيع أن نغضى عن معاملته الجائرة لابن عائشة ، وما لقيه هَرْثَمة وطاهر مع ثمانيهما فى نصرته وتوطيد حكمه ، واضطهاده لكثير من أجلّاء المفكرين ، وأصحاب الآراء المخالفة لرأيه فى بعض مسائل الدين ، فى مجلس المناظرة ، مما يدل على قسوته ، إلا أنا اذا راعينا طول مدّه حكمه وموقفه النبيل فى عفوه عن الخارجين عليه فى بغداد ، نرى كِفّة عدله وحلمه أرجح من كِفّة جوره وقسوته ؛

وقصـارى القول أن عصر خلافته كان بوجه الإجمـال من أزهى عصور التاريخ الاسلامىّ » اهـ .

* *

وبعـد ، فلقـد حللنا شخصية المـأمون الفـذة البارزة بمـا استحقته من الاستقصاء والاستيعاب ، والدرس والتحليل ، وأعقبنا كل كلمـة عن سجاياه ما تعتـبره موضع العظة والاعتبار من دِراسة هذا العصرِ المُتْرَع بالمُثُـل العليا . ونأمل أن نكون قد وُفّقنـا فيما رُمناه من إصابة شاكلة الحقّ ولُبَاب الصواب .

الفصل الثامن

الحياة العلمية فى عصر المأمون

توطئة — حركة النقل — الترجمة — كتب العصر — آثار النهضة المأمونية — القول بخلق القرآن .

(أ) توطئة :

قيل : إن سهل بن هارون كان يتولى الهيمنة على إدارة دار الكتب الخاصة بالدولة المأمونية فى بغداد، وكانت تعرف ببيت الحكمة، كما كان يتولى تنظيم خزانة المأمون . وقيل : إن بيت الحكمة هذا أُسِّسَ فى العالم أيام الرشيد، حيث قد جمع له فيه البرامكةُ من الكتب ما وُفِّقوا اليه، هندية كانت أو فارسية أو يونانية .

وقيل : إن يحيى بن أبى منصور الموصلى المنجّم المعروف وأحد أصحاب الأرصاد فى العصر المأمونى ، ومحمد بن موسى الخُوَارَزْمِى صاحب الأزياج وصورة الأرض، كانا من خزنة دار الحكمة المأمونية، كما كان جدّ أحمد الطيّبى المعروف بالصَّوْبَرِىّ الحلى والفضل ابن نَوْبَخْت وأولاد شاكر وغيرهم من رِجَالات بيت الحكمة فى العصر المأمونى ، أو ممن كان يتردّد على هذه الدار للعمل فيها بصفة رسمية أو للمطالعة أو النسخ أو الترجمة أو التأليف .

وقيل : إن الراوية النسّابة المعروف علّان الشُّعُوبِىّ الفارسىّ الأصل، كان ممن ينسخ فى بيت الحكمة ، أو فى أحد بيوت الحكمة هذه، إذ يلوح لنا أنها كانت على الأرجح أكثر من بيت، للرشيد والبرامكة والمأمون .

وقيل : إن المأمون بعث الى حاكم صِقِلِّيَة المسيحى أن يبادر بأن يرسل اليه مكتبة صِقِلِّيَة الشهيرة الغنية بكتبها الفلسفية والعلمية الكثيرة، وإن الحاكم تردّد فى إرسالها، وكان بين الضنّ بها والحِرْص عليها والخوف من القوة المأمونية والهيبة المأمونية، ومن أجل ذلك جمع كبار رجالات الدولة وأدلى اليهم بطلب المأمون، فأشار عليه المطران الأكبر بقوله :

« أرسلها اليه، فوالله ما دخلتْ هـذه العلوم فى أمة إلا أفسدتها » فأذعن الحاكم لمشورته وعمل بها .

ويقول الأستاذ كرد علىّ : إن المأمون هو الذى جمع بعض حكماء عصره على صنعة الصورة التى نسبت اليه، ودُعيت الصورةَ المأمونيـة، صوّروا فيها العالَم بأفلاكه ونجومه وبَرّه وبحره وعامره وعامره ومساكن الأمم والمدن الى غير ذلك ، وهى أحسن مما تقدّمها من جغرافيـة بطلميوس ، وجغرافيـة ماريبوس ، وقد وضع له علماء رسم الأرض ـ وقال الزهرى : إنهم كانوا سبعين رجلا من فلاسفة العراق ـ كما فى الجغرافية أعان عمال الدولة على التعرّف الى البلاد والأمم، التى أطلتها الراية العباسية، هدا الى عنايته بالفلك، وفلكيُّه الفـزارىّ أوّل من استعمل الأسطرلاب من العرب ، وعُنِى بالطبيعـة والرياضيات فوق عنايتـه بالطب ومعـرفةِ العقاقير والسات والحيوان ، الى ما شاكل تلك العلوم ممـا كان له الأثر المحسوس فى إدخال المدنية على دولة العرب، وفَتَح به المأمون باب العقل على مِصْراعيه فى كل مطلب وشأن .

قيـل هذا ، وقيل أكثر من هـذا ، مما يدلنا دلالة صحيحة أو دلالة تقريبية على كثرة الكتب فى العهد المأمونى، ومما يشير الى عدم قلتها فى أيام مَن سبقه من الخلفاء العباسيين.

والان يحق لنا أن نتساءل ، هل أفاد المأمون من هذه الكتب ؟ وماذا أفادنا المأمون خاصة؟ وما هى الحركة العملية المأمونية، ومَن هم رجالها وما هى مؤلفاتها ؟ »

يحقّ لنا أن نتساءل عن ذلك، وعن مثل ذلك، ويحق لنا أن نَعْرِض لهذه البحوث، وأن نُوَضّح بعض ما كنا أجملناه فى كلمتنا عن الحياة العلمية فى العصر العباسىّ .

أما أن المأمون أفاد من كتب عصره ، سواء أكانت مترجمة عن اليونانية أو الفارسية، أو غيرهما، أم كانت مؤلفة موضوعة ، فهذا ما لا شك فيه مما قد تبينته فيما وصحاه لك عند تعرّضنا لتحليل شخصيه المأمون، وحين تكلمنا عنه تلميذا، وولى عهد، وخليفة، وأديبا، وعالمـا ، وسياسيا، وباحثا دينيا .

وأما أن المأمون أفاد عصره بمؤلفاته الخاصة ، فهذا مالا ريب فيه أيضا ، وهاك ابن النديم يحدثنا فى فهرسته أن للمأمون من الكتب كتاب جواب ملك الروم فيما سأل عنه من أمور الاسلام والتوحيد . ورسالته فى إعلان النبوة .

وأما عن الحركة العلمية المأمونية ورجالاتها ومؤلفاتهم فهذا ما نحن مقبلون على بحثه . يحدثنا ابن أبى أصيبعة فى طبقاته عن أوكد الأسباب عند المأمون لاستخراج الكتب فيقول : قال يحيى بن عدى : قال المأمون : رأيت فيما يرى النائم . كأن رجلا على كرسى جالسا فى المجلس الذى أجلس فيه فتعاظمته وتهيبته وسألت عنه ، فقيل لى هو أرسطوطاليس . فقلت : أسأله عن شىء ، فسألته . فقلت : ما الحسن ؟ فقال : ما استحسنته العقول ، فقلت : ثم ماذا ؟ قال : ما استحسنته الشريعة ، قلت : ثم ماذا ؟ قال : ما استحسنه الجمهور . قلت : ثم ماذا ؟ قال . ثم لا ثم . فكان هذا المنام من أوكد الأسباب فى إخراج الكتب . فان المأمون ، كان بينه وبين ملك الروم مراسلات . وقد استظهر عليه المأمون . فكتب الى ملك الروم يسأله الإذن فى إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة فى بلد الروم . فأجاب الى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة ، منهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا . فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل ، وقد قيل . إن يوحنا بن ماسويه ممن نفد الى بلد الروم . وأحضر المأمون أيضا حُنَين بن إسحاق وكان فتى السن وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين الى العربى وإصلاح ما ينقله غيره فامتثل أمره .

ومما يحكى عنه أن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربى مثلا بمثل . وقال أبو سليمان المنطقى : إن بنى شاكر ، وهم محمد ، وأحمد ، والحسن ، كانوا يرزقون جماعة من النقلة . منهم حُنَين بن إسحاق ، وحُبَيش بن الحسن ، وثابت ابن قُرَّة وغيرهم ، فى الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة .

ويقول القاضى صاعد بن أحمد الأندلسى : إن العرب فى صدر الإسلام لم تُعْن بشىء من العلوم، إلا بِلُغَتِها ومعرفةِ أحكام شريعتها، حاشا صناعة الطب . فانها كانت موجودة عند أفراد منهم غيرَ مسكرة عند جماهيرهم، لحاجة الناس طُرّا اليها . فهذه كانت حال العرب فى الدولة الأموية . فلما أدالَ (١) الله تعالى للهاشميّة، وصَرَفَ المُلْك اليهم ثابتِ الهممُ من عطلتها ، وهبّت الفِطَن من مَوتتها ، فكان أوّل من عُنِى منهم بالعلوم الخليفة الثانى أبو جعفر المنصور، وكان مع براعته فى الفقه، كَلِفا بالفلسفة وعلم النجوم . ثم لمّا أفضت الخلافة فيهم الى الخليفة السابع عند الله المأمون بن هارون الرّشيد، تمم ما بدأ به جدّه المنصور ، فأقبل على طلب العلم فى مواضعه، وداخَل ملوكَ الروم وسألهم صلتَه بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس وأبقراط وجالينوس وأوقليدس وبطلميوس وغيرهم من الفلاسفة، فاستحاد لها مَهَرَة التراجمة وكلّفهم إحكام ترجمتها . فتُرجمت له على غاية ما أمكن، ثم حصّ الناسَ على قراءتها ورغّبهم فى تعليمها . وكان يحلو بالحكماء ويأنَسُ بمناظرتهم، ويلتذّ بمداكراتهم، علما منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ، ونُخْبته من عباده، وأنهم صرفوا عنايتهم الى نَيْل فضائل النفس الناطقة ورهدوا فيما يَرغب فيه الحَسِيس والترك ومن نزع منْزَعهم من التنافس فى دِقّة الصناعة العَمَلِيّة، والتناهى بأخلاق النفس والتفاخر بالقوى . إذ علموا أن البهائم تشْرَكُهم فيها وتَفْضُلُهُم فى كثير منها . فلهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدجى، وسادة البَشَر وأوحشت الدنيا لفقدهم .

فهذا الحلم الذى قيل إنه دعم بالمأمون الى الاستهامة بأرسطو ومؤلفات أرسطو، أو عبارة علمية أدقّ، هذا الميل الى الفلسفة والمنطق عند المأمون، كان من آثاره حركة نقل وتأليف عميقة قوية . ويخيّل الينا أن المأمون لاتساع دائرة معارفه العامة، ورعبته فى القياس العقلى، وتأثره بمذهب الاعتزال كما سترى فى كلمتنا التى عقدناها لك فى القول بخلق القرآن،

(١) نقل الدولة اليهم .

كان لذلك كله وأمثاله أكبر رجل عمل فى انتشار حركة الترجمة والتأليف . وخاصة فى مؤلفات أرسطو، وكان من نتائج إقبال العرب وعيرهم على تلك المؤلفات وأمثالها أن تولد عندهم علم الكلام والفلسفة الأفلاطونية الحديدة .

(ب) حركة الترجمة والنقل :

يقول الأستاذ «سنتلانه» فى مفتتح محاضراته فى تاريخ المذاهب الفلسفيّة بالجامعة المصرية : إن تاريخ الترجمة فى عهد آل عباس على ثلاثة أدوار : فالدور الأول من خلافة أبى جَعْفر المنصور الى وفاه هارون الرشيد ، أى من سنة ١٣٦ الى سنة ١٩٣ وهى الطبقة الأولى من المترجمين ، منهم يحيى بن البِطْريق مترجم المجسطى فى أيام المنصور . وجورجيس بن حرئيل الطبيب عاش سنة ١٤٨ . وعبد الله بن المقفّع الذى مات نحو سنة ١٤٣ وترجم بعض الكتب المنطقيه لأرسطوطاليس . ويوحنا بن ماسَويه ، وكان فى أيام الرشيد ، وقد أدرك أيام المتوكّل، واعتنى فى الأغلب بالكتب الطبّية . وسَلْم الأبْرَش، وكان فى أيام البرامكة . وباسيل المطران .

والدور الثانى، من وَلَاية المأمون سنة ١٩٨ الى سنة ٣٠٠، وهى الطبقة الثانية من المترجمين، منهم يُوحَنّا بن البِطْريق . والحَجّاج بن مَطَر الذى عاش سنة ٢١٤ . وقسطا ابن لوقا البَعْلَبَكّى وعاش سنة ٢٢٠ . وعبد المسيح بن ناعِمة الحِمْصىّ وعاش سنة ٢٢٠ . وحُنَين بن اسحاق وتوفى سنة ٢٦٠ وقيل سنة ٢٦٢ . وابنه اسحاق بن حُنَين ، وتوفى سنة ٢٩٨ . وثابت بن قُرَّة الصابى المتوفى سنة ٢٨٨. وحُبَيش بن الحسن، ويدعى حَبَش الأعْسم ابن أخت حُنَين ، وتوفى سنة ٣٠٠ ، وممّا ترجَم فى هذا العصر أغلب كتب أبقراط وجالينوس وأرسطوطاليس وشىء من كتب أفلاطون ومن التفاسير على الكتب المذكورة .

والدور الثالث من سنة ثلاثمائة للهجرة ، وهى تاريخ وفاة حبيش، الى منتصف القرن الرابع ، ومن مُتَرْجمى هذه الطبقة، متّى بن يُونُس، وتاريخ وفاته مجهول إلا أنه

ذُكر عنه أنه كان سعداد سن سنة ٣٢٠ وسـنة ٣٣٠ . ومنهم سِنان بن ثابت بن قُرّة ، المتوفى سنة ٣٦٠ . ويحيي بن عدىّ وتوفى سنة ٣٦٤ . وأبو علىّ بن زرعة، من سنة ٣٣١ الى سنة ٣٩٨ . وهلال بن هلال الحِمْصىّ . وعيسى بن سهربخت ، وكان أكثر اشـتغالهم بالكتب المنطقيـة والطبيعيه لأرسـطو، وبالمفسرين كالاسكندر الأفروديسى ويحى النحوى وغيرهما اه .

وبعـد، فقد سبق لنا أن بيّنا لك طَرَفا عن الحياه العلمية فى العصر الأموىّ وفى صدر العصر العباسىّ، وآن لنا الآن أن نذكر لك بعض أسماء أقطاب الحركة العلمية سواء أكانت فى علم الفلك أم الطب أم الفلسفة، ترجمة وتأليفا فى العصر المأمونىّ، معتمدين فى ذلك على الفِهْرِست لابن النَّديم، وطبقات الأطباء لابن أبى أُصَيْبعة، وكتاب أخبار الحكماء للقِفْطِىّ. وهاك جملة منهم وهم . أحمد بن محمد بن كثير الفرغانىّ أحد منجّمى المأمون، وبَخْتيشُوع حورحيس، وحبرائيل بن بختيشوع، وحبرائيل الكحال المأمونى، والحارث المنجّم صاحب الحسن بن سهل ، والحسن بن سهل بن نَوْبَخْت ، وزكريا الطَّيْفُورىّ، وسهل بن سابور ابن سهل المعروف بالكَوْسَج الذى كان يجتمع مع يوحنّا بن ماسويه وحورحيس بن بختيشوع وعيسى بن الحكم وزكريا الطيفورى، ثم سِنْد بن علىّ المنجم المأمونى، وسلمويه بن سان صاحب المعتصم، وصالح بن نهلة الهندىّ صاحب الرشيد، والعباس بن سعيد الجوهرى المنجّم صاحب المأمون، وعبد الله بن سهل بن نَوْبَخْت المنجم المأمونى ، وأبو حفص عمر ابن الفَرُّخان الطبرىّ أحد رؤساء التراجمه والمتحققين بعلم النجوم، وموسى بن شاكر وبنوه محمد وأحمد والحسن من منجمى المأمون، وكان بنـوه الثلاثة فيما ذكره القفطىّ من أبصر الناس بالهندسة وعلم الحيل، وموسى بن إسرائيل صاحب أبى اسحاق بن ابراهيم بن المهدىّ، وما شاء الله المنجم اليهودىّ، وميخائيل بن ماسويه، ويحيي بن أبى منصور المنجم المأمونى، ويعقوب بن اسحاق وتلاميذه : حسنويه ونفطويه وسلمويه ورحمويه وأحمد بن الطيب، ثم يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون ، ويوحنا بن ماسويه النصرانىّ السريانىّ،

وأبو قريش المعروف عيسى الصيدلانى وغيرهم كآل ثابت وماسرجويه ، وآل الكزنى ، وابن دهن الهندى مدير بيمارستان البرامكة ، وكان فيما يذكره ابن النديم ينقل من الهندية الى العربية ، ومكه طبيب الرشيد الهندى ، وكان ينقل من الهندية (السنسكريتية) وعشرات غيرهم ممن لا يقع تحت حصر .

ولو أردنا أن نكتب عن واحد واحد من رجال هذه الحركة العلمية العنيفة لخرجنا عن وضع كتاب فى العصر المأمونى ، الى وضع موسوعة أو معجم ، واذا لم نكتب عنهم فقد رُمِينا بالتقصير المعيب ولم نصوّر العصر بما ينبغى أن يصوّر به ، لذلك آثرنا أن نكتب كلمة عن جبرائيل بن بختيشوع ، وقدرُه فى العصر قدره ومنزلتُه منزلته ، لتكون مثالا وتوضيحا لسواه من رجالات العلم فى ذلك العصر الغنى حقا ، والغنى برجالاته صدقا ، وسنقف على هذه الكلمة فى موضعها من الفصل العاشر من هذا الكتاب .

(ج) كتب العصر :

وإنا ننقل لك هنا طَرَفا من أسماء الكتب التى تُرْجِمت فى ذلك العصر من اليونانيه ، والفارسية ، والهندية ، والقبطية ، والعبرانيه ، واللاتينيه ، والسبطية ، معتمدين فى ذلك على البحث الطريف الذى كتبه صاحب التمدن الاسلامى ، ولخص فيه ما كتبه ابن النديم ، وصاحب الطبقات ، وتراجم الحكماء ، منوهين بجهده أمانة للعلم واعترافا بالفضل .

أوّلا ـ الكتب المنقولة عن اليونانية

(١) كتب الفلسفة والأدب

كتب أفلاطون :

(١) كتاب السياسة . ... نقله حُنَين بن إسحاق

(٢) « المناسبات ... . .. « يحيى بن عدى

(٣) « النواميس ... ... « حنين ويحيى

(٤) « طيماوس .. . .. « ابن البطريق وأصلحه حنين

(٥) كتاب أفلاطن الى أقرطن... نقله يحيى بن عدى

(٦) « التوحيـد . ... . « « « « «

(٧) « الحس واللدة ... ... « « « « «

(٨) « أصـول الهندسة .. « قسطا بن لوقا

كتب أرسطوطاليس :

(١) قاطيغورياس (المقـولات) .. نقله حنين بن إسحاق

(٢) كتاب العبـارة . . « « الى السريانية واسحاق الى العربية

(٣) تحليـل القياس .. . . « ثيادورس وأصلحه حنين

(٤) كتاب البرهان . .. « اسحاق الى السريانى ومتى الى العربى

(٥) « الجـدل ... . « « « « ويحيى « «

(٦) « المغالطات أو الحكمة المموهة « ابن ناعمة وأبو بشر الى السريانى ويحيى الى العربى

(٧) « الخطابة .. .. « إسحاق وابراهيم بن عبد الله

(٨) « الشـعر ... .. . « أبو بشر من السريانى الى العربى

(٩) « السماع الطبيعى .. .. .. « أبو روح الصابى وحنين ويحيى وقسطا وابن ناعمة

(١٠) « السماء والعالم ... . . « ابن البطريق وأصلحه حنين

(١١) « الكون والفساد ... . « حنين الى السريانى واسحاق والدمشقى الى العربى

(١٢) « الآثار العـلوية ... ... « أبو بشر ويحيى

(١٣) « النفس ... ... « حنين الى السريانى واسحاق الى العربى

(١٤) « الحس والمحسوس ... ... « أبو بشر متى بن يونس

(١٥) « الحيوان ... ... « ابن البطريق

(١٦) « الحروف أو الإلهيات ... « اسحاق ويحيى وحنين ومتى

(١٧) « الأخلاق ... ... « اسحـاق

(١٨) كتاب المرآة . .. . نقله الحجاج بن مطر

(١٩) « أثولوجيا ..... « « «

ولكتب أرسطو شروح وتعاليق لبعض تلامذته، أو من جاء بعده، كثاوفرسطس، وديدوخس برقلس، والاسكندر الافروديسى، وفرفوريوس، وأمونيوس، وتامسطيوس ونيقولاوس، وفلوطرخس، ويحيى النحوى وغيرهم . ولبعض هؤلاء مؤلفات خاصة، وكلها فى الفلسفة وفروعها، وقد نقل كثير منها الى العربية ولم نعلم ناقلها، فأغفينا عن ذكرها وقد ذكرها صاحب الفهرست .

وذكروا لجالينوس فى جملة كتبه الطبية الآتى بيانها نحو كتب فى الفلسفة والأدب، وهى كتاب ما يعتقده رأيا، ترجمه ثابت، وكتاب تعريف المرء عيوب نفسه، نقله توما وأصلحه حنين، وكتاب الأخلاق نقله حبيش، وكتاب انتفاع الأخيار بأعدائهم، نقله حبيش، والمحرك الأول لا يتحرك، نقله حبيش وعيسى، وغير ذلك .

(٢) كتب الطب وفروعه

كتب أنقراط :

(١) كتاب عهد أبقراط ... .. نقله حُنَين الى السريانية وحبيش وعيسى الى العربية

(٢) « الفصول ... ... « حنين لمحمد بن موسى

(٣) « الكسر... .. .. « « « « «

(٤) « تقدمة المعرفة . .. « « وعيسى بن يحيى

(٥) « الأمراض الحادة .. .... « عيسى بن يحيى

(٦) « أبيديميا ... ... « « « « «

(٧) « الأخلاط .. .... « « « « لأحمد بن موسى

(٨) « قاطيطيون. . ... « حنين لمحمد بن موسى

(٩) « الماء والهواء ... . « « وحبيش

(١٠) « طبيعة الانسان... ... ... « « وعيسى

كتب حاليوس :

وأشهر كتب حاليوس الكتب الستة عشر وهى : كتاب الفرق، الصناعة، كتاب النبض، شفاء الأمراض، المقالات الخمس، الاسطقصات، كتاب المزاج، القوى الطبيعية، العلل والأمراض، تعرّف علل الأعضاء الباطنة، كتاب النص الكبير، كتاب الحمايات، البُحْران، أيام البحران، تدبير الأصحّاء، حيلة البرء، وقد نقلها كلها حنين بن إسحاق الى العربية إلا كتاب العلل الباطنة، وكتاب النص الكبير، وكتاب تدبير الأصحّاء، وكتاب حيلة البرء فقد نقلها حبيش، أما ما بقى من كتب جاليوس الطبية، فإليك أسماءها مع أسماء ناقليها :

(١) التشريح الكبير	حبَيش الأعسم	(١٧) الحث على تعليم الطب	حُبَيش الأعسم
(٢) احتلاف التشريح	« «	(١٨) قوى النفس ومزاج البدن	« «
(٣) تشريح الحيوان الحىّ	« «	(١٩) حركات الصدر	نقله أصطفان وأصلحه حبين
(٤) « « الميت	« «	(٢٠) علل النفس	أصطفان وأصلحه حبين
(٥) علم أبقراط بالتشريح	« «	(٢١) حركة العضل	« « «
(٦) الحاجة الى النبض	« «	(٢٢) الحاجة الى النفس	« « «
(٧) علوم أرسطو	« «	(٢٣) الامتلاء	« « «
(٨) تشريح الرحم	« «	(٢٤) المرّة والسوداء	« « «
(٩) آراء أبقراط وأفلاطون	« «	(٢٥) علل الصوت	حُبَين
(١٠) العادات	« «	(٢٦) الحركات المجهولة	«
(١١) خصب البدن	« «	(٢٧) أفضل الهيئات	«
(١٢) المنىّ	« «	(٢٨) سوء المزاج المختلف	«
(١٣) منافع الأعضاء	« «	(٢٩) الأدوية المفردة	«
(١٤) تركيب الأدوية	« «	(٣٠) المولود لسبعة أشهر	«
(١٥) الرياضة بالكرة الصغيرة	« «	(٣١) رداءة التنفس	«
(١٦) « « الكبيرة	« «		

(٣٢) الدول	حنين	(٤١) أفلاطون فى طيماوس	حنين واسحاق
(٣٣) قوى الأعذبة	«	(٤٢) تقدمة المعرفة	عيسى
(٣٤) التدبير الملطف	«	(٤٣) الفصد	عيسى وأصطفان
(٣٥) مداواة الأمراض	«	(٤٤) صفات لصبى يصرح	ابن الصلت
(٣٦) أبقراط فى الأمراض الحاده	«	(٤٥) الأورام	« «
(٣٧) الى تراسو بولوس	«	(٤٦) الكيموس	ثابت وحبش
(٣٨) الطبيب والفيلسوف	«	(٤٧) الأدوية والأدواء	عيسى
(٣٩) كتب أبقراط الصحيه	«	(٤٨) الترياق	ابن البطريق
(٤٠) محنه الطبيب	«		

وهناك كتب فى الطب وتوابعه ذكرها صاحب الفهرست ولم يذكر ناقليها . وأما مؤلفوها فمنها بضعه وعشرون كتابا لروفس من أهل أفسس كان قبل جالينوس ، ولعلها لم تنقل كلها . ومما ذكر ناقلوه بضعه كتب لأورياسيوس ، وهى كتاب الأدوية المستعملة ، نقله أصطفان بن باسيل . وكتاب السبعين مقالة نقله حنين وعيسى بن يحيى الى السريانية ، وكتاب الى اسه أسطاث نقله حبش ، وكتاب الى أبيه أوفانيس نقله حنين . ولديسقوريدس العين زرنى ، ويقال له السائح فى البلاد لسياحته فى طلب العقاقير والحشائش ، كتاب فى الحشائش سيأتى تاريخ نقله . ولاسكندروس كتاب البرسام نقله ابن البطريق . وغير هذه مما لم يعرف ناقلوها .

٣ — كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم

ويشتمل النظر فى ذلك على علم النجوم والهندسه والحساب والموسيقى والميكانيكيات ، وهاك خلاصه الكلام فيها .

(١) كتب أقليدس ، منها أصول الهندسه ، نقله الحجاج بن مطر بقلين الهارونى والمأمونى . ونقله اسحاق بن حنين ، وأصلحه ثابت بن قره ، ونقله أبو عثمان الدمشقى ، ولا يزال هذا الكتاب باقيا الى الآن . ومن كتب أقليدس التى لم يعرف مترجموها كتاب

الظاهرات، وكتاب اختلاف المناظر، وكتاب الموسيقى، وكتاب القسمة، وكتاب القانون، وكتاب الثقل والخفه .

(٢) كتب أرخميدس، وهى عشرة ولم يعرف ناقلوها .

(٣) ابلونيوس ، صاحب كتاب المخروطات ، وكتاب قطع السطوح ، وقطع الخطوط، والنسبة المحدوده، والدوائر المماسه، ولم يعرف ناقلوها .

(٤) منالاوس ، له كتاب الأشكال الكروية ، وكتاب أصول الهندسه، نقله الى العربى ثابت بن قرة .

(٥) بطليموس القلودى، صاحب كتاب المجسطى الشهير، وقد تقدّم خبر نقله وتفسيره على يد يحيى البرمكى . ولبطليموس أيضا كتاب الأربعه ، نقله ابراهيم بن الصلت وأصلحه خير ، وكتاب جغرافيا المعمور وصفته الأرض ، نقله ثابت الى العربى نقلا جيدا، ولبطليموس ١٥ كتابا أخرى الجغرافيا وغيرها، لم يعرف ناقلوها .

(٦) أبرخس ، له كتاب صناعة الجبر ويعرف بالحدود ، وكتاب قسمه الأعداد لم يعرف ناقلهما .

(٧) ديوفنطس، له كتاب صناعة الجبر، لم يعرف ناقله .

وهناك كتب عديده فى الرياضيات والهيئه والأزياج ونحوها ذكرها ابن النديم ولم يذكر ناقلها ، منها : كتاب العمل بالأسطرلاب المسطح لأبيون البطريق ، وكتاب جرم الشمس والقمر لأرسطرخس ، وكتاب العمل بذات الحلق، وكتاب حداول زيج بطليموس المعروف بالقانون المسير، وكتاب العمل بالاسطرلاب، وكلها لثاون الاسكندرى .

أضف الى ذلك كتب الرياضه التى تقدّم ذكرها أثناء ذكر كتب الفلسفة رغبةً فى إيرادها لأصحابها مع سائر مؤلفاتهم . وقد نُقل للمسلمين من كتب الموسيقى عن اليونانيه كتاب الموسيقى الكبير لبقوماخس الجهراسيى، وكتاب الموسيقى المنسوب لأقليدس، وقد تقدّم ذكره،

ومقالات فى الموسيقى لفيثاغورس وغيره، وكتاب الريموس، وكتاب الايقاع لأرسطكاس، وكتاب الآلات المصوتة المسماه بالأرغن البوقى، والأرغن الزمرى، لمورطس .

ونقل لهم من كتب الميكانيكيات غير ما جاء فى كتب أرخميدس ، كتاب الحيل الروحانيـة ، وكتاب رفع الأثقال لأبرد، وكتاب استخراج الميـاه لبادروعوعيا ، وكتاب الآلات المصوتة على ستين ميلا لمورطس .

ثانيـا ـ الكتب المنقولة عن الفارسية

أكثر الكتب المنقولة عن الفارسية فى النهضة العباسيه من قبيل الآداب والأخبار والسير والأشعار و بعضها فى النجوم ممـا نقله آل نوبخت وعلى بن زياد التميمى وغيرهم . أما ما بقى من كتبهم المنقولة الى العربيه فهى مع أسماء ناقليها .

(١) كتاب رستم وأسفنديار .. .. حبلة بن سالم
(٢) « بهرام شوس . . . .. « «
(٣) « حدايانامه فى السير . . عبد الله بن المقفع
(٤) « آيين نامـه ... ... « «
(٥) « كليلة ودمنه .. « «
(٦) « مزدك .. . . « «
(٧) « التاج فى سـيره أنوشروان « «
(٨) « الأدب الكبير .. . . « «
(٩) « الأدب الصغير ... .. . « «
(١٠) « اليتيمة . . .. « «
(١١) « هزار أفسانه. .... لم يذكر ناقلـه
(١٢) « شهريزاد مع أبرويز... .... . « «

(١٣) كتاب الكارنامج أوشروان . لم يذكر ناقـــله
(١٤) « دارا والصنم الذهب . « « «
(١٥) « بهرام ورسى « « «
(١٦) « هزاردستان « « «
(١٧) « الدب والثعلب . . . . « « «
(١٨) سـير ملوك الفرس ، وهى غير كتاب ، ترجم أحدها محمـد بن جهم البرمكى ، وآخر ترجمه رادويه بن شاهويه الأصفهانى ، وآخر محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهانى .

ومما يجب ذكره من مترجمات الفرس — وان كان من مؤلفاتهم بعـد نشوء التمدن الاسلامى — كتاب « شاهنامه » التى نظمها الفردوسى للسلطان محمود الغزنوى سنه ٣٨٤ هـ فى نحو ٦٠,٠٠٠ بيت على نسق إلياده هومبروس، وقد تضمنت تاريخ الفرس القـديم، نقلها الى العربيه الفتح بن على البندارى الأصفهانى نثرا للملك المعظم عيسى الأيوبى ، أتم ترجمتها سنه ٦٩٧ هـ . ولا ريب أن العرب نقلوا من اللغه الفارسـيه كتبا أخرى تاريخيه وأدبية وخصوصا مما يتعلق بالمذاهب القديمه ونحوها .

* * *

ثالثا — الكتب المنقولة عن اللغة الهندية

نقل العرب عن اللغـة الهندية (السنسكريتيه) كثيرا من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والأسمـار والتواريخ . والكتب الطبيـه المنقولة عنها كثيره وان لم يصل الينا من أخبارها إلا القليل، لأن تعداد كتب فى إبّان الزهو العباسى ، كمـه العلمـاء والأطباء والتجار والسيّاح من كل الملل . وكان للبرامكة عناية باستقدام أطباء الهند اليها . وقد بعث يحيى بن خالد فاستقدم بضعة صالحة منهم : "كنكه" و "نازيكر" و "قليرفل" و "سندباز" وغيرهم .

ويظهر مما كتبه المسلمون بعد العصر العباسى فى الأدب أو الطب أو الصيدله أو السِّيَر أنهم اعتمدوا فى جملة مصادرهم على كتب هندية الأصل ، فانك اذا راجعت مثلا قانون ابن سينا

أو الملكى للرازى أو غيرهما من كتب الطب الكبرى ، رأينهم يذكرون بعض الأمراض ويشيرون الى أن الهنود يسمونها مثلا كذا وكذا أو يعالجونها بكذا وكذا . واذا قرأت العقد الفريد لابن عبد ربه أو سراج الملوك للطرطوشى أو غيرهما من كتب الأدب المهمة ، رأيت مؤلفيها اذا ذكروا بعض الآداب أو الأخلاق أو نحوها قالوا : « وفى كتاب الهند كذا وكذا » .

كتب الطب وفروعها

على أننا نعلم مما كتبه صاحب طبقات الأطباء أنه اشتهر حوالى العصر العباسى جماعة من علماء الهند فى الطب والنجوم والفلسفة وغيرها ، منهم كنكه الهندى ، وهو من متقدميهم وأكابرهم ، وخصوصا فى علم النجوم فضلا عن الطب ، وله مؤلفات كثيرة منها : كتاب النمودار فى الأعمار ، وكتاب أسرار المواليد ، وكتاب القرانات الكبير والصغير ، وكتاب فى الطب يجرى مجرى الكناش ، وكتاب فى التوهم ، وكتاب فى إحداث العالم والدور فى القرآن ، ومنهم أيضا صنجهل وناكهر ، وغيرهما .

وقد نقل كثير من مؤلفاتهم فى النجوم والطب الى اللغة العربية ، إما رأسا أو بوساطة اللغة الفارسية ، بأن ينقل الكتاب من الهندى الى الفارسى ، ثم ينقل من الفارسى الى العربى ، منها كتاب سيرك الهندى ، وقد نقله من الفارسى الى العربى عبد الله بن على . وكتاب آخر فى علامات الأدواء ومعرفة علاجها ، أمر يحيى بن خالد البرمكى بنقله . وكتاب فيما اختلف فيه الروم والهند فى الحار والبارد ، وقُوَى الأدوية . وكتب أخرى فى فروع الطب .

ومن مشهور بهم منكه الهندى المتقدم ذكره بين المترجمين . وقد أتى بغداد بإشارة يحيى ابن خالد لمعالجة الرشيد فشفاه فأجرى عليه الرشيد رزقا واسعا . وكان منكه يعرف الفارسية أيضا ، فكان ينقل من الهندى الى الفارسى ، وله حديث طويل ذكره صاحب طبقات الأطباء . ومنهم صالح بن بهلة الهندى ، جاء العراق فى أيام الرشيد أيضا ، ونال شهرة واسعة

وخالط أطباءها يومئذ واحتلطوا به ، فان لم يكونوا نقلوا شيئا من كتبه فلا بد أن يكونوا قد اقتبسوا شيئا من آراء الهند فيه .

ومن مشهوريهم أيضا شاناق ، وله كتاب فى السموم خمس مقالات ، نقله من اللسان الهندى الى الفارسى ممكه الهندى ، وأوعز يحيى بن خالد الى رجل يعرف بأبى حاتم اللحمى نقله الى العربى ، ثم نُقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهرى مولاه . وبلجودر الحكيم كتاب فى المواليد نقل الى العربى أيضا .

ومن الكتب الطبيه التى نقلت من الهندية الى لسان العرب فى العصر العباسى غير ما تقدّم ذكره .

(١) كتاب سسرد فى الطب نقله ممكه .
(٢) « أسماء عقاقير الهند نقله ممكه لاسحق بن سليمان .
(٣) « استاكر الجامع « ابن دهن .
(٤) « صفوة البحح « « «
(٥) « مختصر الهند فى العقاقير لم يذكر ناقله .
(٦) « علاجات الحمالى للهند « « «
(٧) كتاب روسا الهندية فى علاجات النساء لم يذكر ناقله
(٨) « السكر للهند « «
(٩) « التوهم فى الأمراض والعلل « «
(١٠) « رأى الهند فى أجناس الحيّات وسمومها « «

كتب النجوم والرياضيات

أما الرياضيات والكواكب فللهند شأن كبير فيه ، وقد ذكرنا خبر السندهند فيما تقدّم ، وكان لنقل هذا الزيج تأثير فى علم النجوم عند العرب ، وقد قلّدوه وألّفوا على مذهبه . فممن ألّف على هذا المذهب محمد بن ابراهيم الفزارى ، وحبش بن عبد الله البغدادى ،

ومحمد بن موسى الخوارزمى وغيرهم . والفزارى أول من عمل إسطرلابا فى الاسلام . وما من فلكى من فلكيى المسلمين أراد التوسع فى علم النجوم إلا طالع كتبهم ، إما فى اللغة الهندية أو فى ترجمتها الى العربيه . وأكثر المسلمين عناية فى ذلك واطلاعا على آداب الهند وعلومهم ، أبو ريحان البيرونى المتوفى سنه ٤٤٠ هـ فانه طاف بلاد الهند واطلع على علومهم وآدابهم ، ثم ألف كتابه « الآثار الباقيه عن القرون الخالية » ، وله من المؤلفات ما يعد بالعشرات ، ومنها كثير فى علوم الهند إما ترجمةً أو تصحيحا أو نقدا .

ومما ذكره من كتبه التى ألفها فى هذا الصدد قوله : وعملتُ فى السند هند كتابا سميته جوامع الموجود لجواهر الهنود فى حساب التنجيم جاء ماتم منه ٥٥٠ ورقه . وهذّبت زيج الاركند وجعلته بألفاظى اذ كانت الترجمة الموجودة منه غير مفهومة وألفاظ الهند فيها متروكة لجاهلها . وعملت كتابا فى المدارين المتحدين والمتساويين ، وسميته بجمال الكسوفين عند الهند ، وهو معنى مشتهر فيما بينهم لا يجلو منه زيج من أزياجهم وليس بمعلوم عند أصحابنا . وعملت تذكرةً فى الحساب والعدد بأرقام السند والهند فى ٣٠ ورقة وكيفيه رسوم الهند فى تعلم الحساب ، وتذكرةً فى أن رأى العرب فى مراتب العدد أصوب من رأى الهند فيها . وفى راسكتات الهند وترجمة ما فى ارهم سدهاند من طرق الحساب . ومقالة فى تحصيل الآن من الزمان عند الهند . ومقالة فى الجوابات على المسائل الواردة من منجمى الهند . ومقالة فى حكاية طريقة الهند فى استخراج العمر . وترجمة كتاب باره ، وهى مقالة للهند فى الأمراض التى تجرى مجرى العقوبة وغير ذلك .

فيؤخذ من هذا أن الهنود أهل علم ورأى فى النجوم وعلومها وأن المسلمين نقلوا عنهم شيئا كثيرا .

كتب الأدب

وأما ما نُقل الى العربية منها : كتب الهند فى الأدب والتاريخ والمنطق والأسمار والخرافات :

(١) كتاب كليلة ودمنة ، وقد نُقل عن طريق الفارسية كما تقدّم ، وسنعد نقله الى العربية

نظموه شعرا كما نظمه الفرس من قبلهم . ومما نظمه فى العربيه أبان بن عبد الحميد ابن لاحق بن عفير الرقاشى وعلى بن داود . (٢) كتاب سندباد الكبير (٣) كتاب سندباد الصغير (٤) كتاب السند (٥) كتاب يوداسف (٦) يوداسف مفرد (٧) كتاب أدب الهند والصين (٨) كتاب هابل فى الحكمه (٩) كتاب الهند فى قصه هبوط آدم (١٠) كتاب طرق (١١) كتاب دبك الهندى فى الرحل والمرأه (١٢) كتاب حدود منطق الهند (١٣) كتاب ساديرم (١٤) كتاب ملك الهند القتال والسباح (١٥) كتاب بيدبا فى الحكمة .

ومما نقله العرب عن الهنود كتاب فى الموسيقى اسمه فى الهنديه «سيافر» ومعناه ثمار الحكمه، وفيه أصول الألحان وجوامع تأليف النغم .

* * *

رابعا ـ الكتب المنقولة عن النبطية

قد رأيت فيما تقدم كتبا كثيره فلسفية وطبية نُقلت من اليونانى الى العربى بوساطة اللغه السريانيه أحب النبطيه أو هى عنها فلا نتعرض لذكرها ، وإنما نريد هنا الكتب التى كانت مكتوبة فى اللغه الكلدانيه أو النبطيه، ونُقلت الى العربيه رأسا، ولولا نقلها لضاعت . وأهم تلك الكتب : (١) كتاب الفلاحه النبطيه ، فانه فريد فى بابه، وقد نقله الى العربيه أحمد بن علىّ بن المختار النبطى، المعروف بابن وَحْشية سنة ٢٩١ هـ وطال معتمدَ أهل الزراعه الى أمد غير بعيد ، وقد نُقِل الى اللغات الافرنجية ، ولولا نقله الى العربيه لضاع وخسره العالم كما يؤخذ من مطالعة مقدمته، فقد قال ابن وحشيه، وهو يملى الكتاب على علىّ بن محمد بن الرياث سنه ٣١٨ هـ «إعلم يا بنى أنى وجدت هذا الكتاب فى كتب الكلدانيين (الكلدان أو النبط) بترجم معناه فى العربيه كتاب فلاحه الأرض و إصلاح الزرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها، وكان هؤلاء الكلدانيون أشدّ عَبَرةً عليها، لئلا يظهر هذا الكتاب . فكانوا يحفونه بجهدهم ، وكان الله عز وجل قد رزقنى المعرفة بلغتهم ولسانهم، فوصلت الى ما أردت من الكتب بهذا الوجه . وكان هذا الكتاب عند رجل

متميز ، فأخص عنى علمه ، فلما اطلعت عليه لمته فى إخفاء الكتاب عنى ، وقلت له : إنك إن أخفيت هذا العلم دثر وعصى ولا يبقى لأسلافك ذكر ، وما يصنع الانسان بكتب لا يقرؤها ولا يدع من يقرؤها ، فهى عنده بمنزلة الحجارة والمدر ، فصدقنى فى ذلك وأخرج الىّ الكتب ، فجعلت أنقل كتابا بعد كتاب ، فكان أول كتاب نقلته كتاب دواناى البابلى فى معرفه أسرار الفلك والأحكام على حوادث النجوم ، وهو كتاب عظيم المحل ، وبقلت كتاب الفلاحة هذا تمامه» الخ .. (٢) كتاب طرد الشياطين ، ويعرف بالأسرار (٣) كتاب السحر الكبير (٤) كتاب السحر الصغير (٥) كتاب دوار على مذهب السط (٦) كتاب مذاهب الكلدانيين فى الأصنام (٧) كتاب الإشارة فى السحر (٨) كتاب أسرار الكواكب (٩) كتاب الفلاحه الصغير (١٠) كتاب فى الطلسمات (١١) كتاب الحياة والموت فى علاج الأمراض (١٢) كتاب الأصنام (١٣) كتاب القرابين (١٤) كتاب الطبيعة (١٥) كتاب الأسماء ، وأكثرها من نقل آس وحشيه ، غير ما لا بد من نقله من كتب الدين وأخبار الكلدان القدماء .

* * *

خامسا — الكتب المنقولة عن العبرانية واللاتينية والقبطية

لا ريب أن كثيرا من تعاليم اليهود وآدابهم المدونة فى التلمود وغيره من كتبهم قد نُقل الى العربيه ، وإن كنا لا نرى شيئا منها مدونا على أنه منزجم ، لأنهم كانوا يبقلونها شفاها للصحابة وغيرهم على ما تقدم ، وربما دونوا منها شيئا وضاع . وأما ما وصل الينا خبره من المنقول عن العبرانيه ، فترجمه أسفار التوراة ، نقلها سعيد الفيومى المتوفى سنة ٣٣٠ هـ ، وهو أقدم من نقل التوراة الى العربية ، مما وصل الينا خبره ، وله أيضا شروح وتفاسير عليها .

ولا بعد أن تكون قد نقل الى العربيه بعض الكتب عن اللاتينية ، لأنها كانت تحوى كثيرا من العلوم الفلسفيه والتاريخيه والشرعية وغيرها ، وربما فات نَقَلَة الأخبار ذكر ما نقل عنها ، وقد رأينا فى جملة المترجمين يحيى بن البطريق لا يعرف غير اللغة اللاتينية ، وأنه ترجم عدة كتب ، فالظاهر أنه ترجمها عن اللاتينية .

وأما القبطيه فاذا لم يقل العرب عنها رأسا . فلا شك فى أنهـم نقلوا كثيرا من علوم المصريين بوساطة اللغة اليونانية، وخصوصا صناعة الكيمياء القديمة وغيرها ممـا برع فيه المصريون، وأما الكيمياء فقد نقلت عن القبطى واليونانى معا بأمر خالد بن يزيد .

(د) آثار النهضة المأمونية :

هـذه هى بعض كتب العصر وكانت لهـا آثارها ونتائجها فى العقلية العربيـة أوّلا، وفى المدنيـة العربية ثانيـا ، حتى أصبحنا نرى المأمون يُضرب به المثـل فى عِظَم الحركة العلميـة، وحتى نرى «بولدكا» ومحررى دائرة المعارف البريطانيـه وغيرهم، يمثلون المأمون بأنوشروان وغيره من خَدَمَة الإنسانية ورُسُل الثقافة العامّة .

والحق أن المأمون وعصر المأمون كانا متقـدمين عن زمنهما ، إذ كانت حالة المأمون وحالة المملكة المأمونيه فى ذلك الحين، أرقى بمراحل من حالة ملوك أوروبا وممالك أوروبا.

ويقول الدكتور «طوطح» فى رسالته الانجليزية عن حالة التعليم عند العرب : «إنه بينما كان شارلمـان يتعلم القراءة مكبًّا على مطالعه رسائله مع أترابه فى مدرسـة القصر كان المأمون يعالج الفلسفه ومناقشة أقضيتها هناك فى بغداد» . ويقول فى مكان آخر من رسالته القيّمة : « إن المأمون أوفد عَميـد بيت الحكمه الى بلاد اليونان لنقـل حكمة اليونان وعلوم اليونان الى اللغه العربية» . وهناك أقوال كثيرة عن آثار النهضه المأمونية، وهى لاتخرج عمـا قدّمناه لك من رأى السير وليام ميور عن ازدهار العلوم والمعارف فى عصر المأمون . فكتفى بما قدّمناه عن التبسط فى القول فى هذه الناحيه الهامة حقا .

على أن لهذه النهضه المأموميـه آثارها ونتائجها أيضا فى زيادة الثروة اللفظيه فى اللغة العربية، وقد بيّنا لك طرفا منه فى كلمتنا عن حالتها فى الصدر العباسى ، فلا حاجة اذًا بنا الى تكراره هنا، وقصارى ما نقوله أنّا نحيلك الى بعض المصادر القيّمة فيما نحن فى صدده من بيان تأثر اللغة بهذه النهضة التى تشمه فى كل وجوهها حركة التجديد «رينسانس» فى أوروبا، وهى: كتاب خطى منسوب للجاحظ عن الألفاظ الفارسية فى اللغة العربية، وبحوث العلامة

أستاذنا الكرملى البغدادى فى السنة الأولى من المشرق عن الكلم اليونانيه فى اللغه العربيه، كما أحيلك الى بحوث «مجلة المجمع العلمى» فى شأن تفسير الألفاظ العاسية الواردة فى كتاب « نشوار المحاضرة » .

أما فى التاريخ والجغرافيا، فلم تبدأ العناية الحديثة بهما إلا منذ أيام اليعقوبى، وابن خرداذبه[1] فى نهاية القرن الثانى .

وأما العلوم القرآنية وما تفرّع عنها، فقد سبق أن أشرنا اليها فى بابها من العصر العباسى. ويظهر أن عناية المأمون بها لم تكن مثل عنايته بالفلسفه اليونانيه، وما اليها، اللهم اذا كانت موجهة الى الناحية الاعتزالية الكلاميه .

وقد آن لنا الآن أن نتكلم عن القول بخلق القرآن لاتصاله وكبير أثره فى الحياه العلميه والعقلية فى عصر المأمون .

(هـ) القول بخلق القرآن :

يقول ابن الأثير فى تاريخه عن هشام بن عبد الملك : إن الجَعْد بن درْهَم قد أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام، فأخذه وأرسله الى خالد القسرى، وهو أمير العراق، وأمره بقتله، فحبسه خالد ولم يقتله، فلما خلع هشاما وكتب الى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله، فأخرجه خالد من الحبس فى وَثاقه، فلما صلّى العيدَ يوم الأضحى، قال فى آخر خطبته: انصرفوا وضحّوا يقبل الله منكم، فإنى أريد أن أضحّى اليوم بالجعد بن درهم، فانه يقول ما كلم الله موسى، ولا اتخذ ابراهيمَ خليلا، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا، ثم نزل وذبحه .

ويقول ابن الأثير فى حياه مروان بن محمد : إن سبب تسميته بالجعدى، ذهابه مذهب الجعد بن درهم فى القول بخلق القرآن، والقدر، وغير ذلك .

ومن هذا نعلم أن القول بخلق القرآن، بدعه نبتت فى العصر الأموى، ثم لم نجد الحق الذى تموّنه وتُرعرع، حتى كان عصر المأمون فوجدت من شخصيته العالمه ومن هذه العظيم ونفوذ علمائه، خيرَ متعهد لنمائها، حريص على نُصْرتها، شديدِ اليد بالبطش على مخالفيها .

(١) أنظر القاموس وشرحه فى مادة «روم» فانه ضبطه بالياء المثناة بعد الدال المهملة وبعد الياء هاء .

ولعـلك تتساءل لم وجَدَ القولُ بخلق القرآن من المأمون الصـدرَ الرحب والعاملَ على نصرته، ؟ وهل كان مُوَفّقا فيما أحده على عاتقه أو قد اشـتدّ به العلوّ فى تأييد وجهة نظره حتى خرج به عن القصد ؟؟ .

ونحن قبل أن نُجيبك عن هذه الأسئلة، وقبل أن نَعْرِض للموضوع من وجهاته المختلفة، نريد أن ننقل لك كلمه للأستاذ «ميور» فى هذا الصدد، وهى وإن لم تكن تتفق مع وِجهة نظرنا فى هذا البحث، تبين لنا وجهة نظر مُتَشَرِّقٍ بحّاثةٍ كبير فيما نحن بصدده .

يقول الأستاذ «ميور» فى الفصل الذى عقده عن المأمون فى كتابه الممتع "الخلافة" :
«وفى الحق أن المأمون كان متعصّبا لفارس مسقط رأس أمه وزوجه، شـديدَ الميل الى العلويّين، ونشأ عن ذلك فى السنوات الأخيرة من حكمه، مَزِيجٌ من حرية الأفكار والتعصّب. وكان المأمون فى بعض هذه المسائل واسع الحرّية حقا لدرجه مدهشة . وقد ألغى من بضع سنوات مضت، الامرَ الذى كان أسلافه قد أصدروه، يحرّمون فيه ذكر معاوية أو أحد الأمويين بخير، وأباح للمسيحيين حرّيه المناقشه فى أىّ الدِّينين أفضل: الإسلام أم المسيحية. غير أن ميوله الفارسيه التى كان يجنح اليها دائما، دفعته أخيرا أن يناقش بحماسه فى نظريات المعتزلة الذين أباحوا حرّية التفكير . ثم أحاط المأمون نفسه بالفقهاء وعلماء الدين من كل فئة، وأباح لهم المناقشـه فى حصرته فى نظريّات كان البحث ممنوعا فيها، كعلاقة الانسان بخالقه، وطبيعه الألوهية وغير ذلك . وأخيرا أعلن تحوّله الى عقائد تخالف تعاليم الدين الصحيحة، فمن ذلك أنه كان يعتقد بمذهب الذين يقولون بالاختيار لا بالجبر، وأن القرآن وإن كان وَحْيا إلا أنه مخلوق، بدلا من العقيدة التى كانت لا تُنَازَع وهى أن القرآن أزلىّ[1]

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار « ما كان عند المسلمين عقيدة بهذا الوصف ولكن القول بخلق القرآن جاء بكرا لم يكن لرسول الله ولا لأصحابه ولا للتابعين قول يناوئه أو يوافقه فلما أغرم المأمون بهذه المقالة وعرضها على العلماء لجأوا الى كتاب الله يبحثون فيه حكم المقالة التى لا عهد لهم بها فلم يجدوا . فطروا الى السنة فلم يجدوا . والقوم فى ذلك العهد يردّون كل شىء الى الكتاب والسنة . فلما لم يجدوا فيهما حكما توقفوا فى هذا القول احتياطا لدينهم أن يقولوا على الله ما لا يعلمون . فلم يرض المأمون هذا التوقف واعتقدوا أنهم يريدون بهذا الى اعتقاد أن مع الله قديما سواه وأنه يوحد موجود ولا أثر لله فى إيجاده ولم فى إعاشهم وتناولهم بالحبس والإيذاء» .

غير مخلوق . وأعلن المأمون أيضا أن عليّا أشرف الخلق بعد النبىّ ، وعلى هذه النظريّة بُنيت نظريّة الإمامة المقدّسة أو الزعامه الدينية التى كانت تنتقل من عصو الى آخرمن بيت علىّ . وبدأ فى تلقين الناس أنه يوجد مصادر أخرى غير القرآن والحديث يمكن الاسترشاد بها فى مسائل الدين ، وفسّر القرآن تفسيرا من غير تقييد بلفظه ، وبذلك ذُلّلت صعوبات كثيرة كانت تعترض حرّية التفكير أو تقف عَثْرة فى تقدّم العمران ، كإباحة شرب الخمر (كذا !) وزواج المتعة[1] . وعلى ممرّ السنين تحوّلت فكرة المأمون فى خلق القرآن من مجرّد رأى الى إعلانه المشئوم الذى حَمَل فيه رعاياه بالاضطهاد والعقوبات على اتخاذه عقيدةً لهم . وقد أرسل الى والى بغداد ، وهو فى حملته الأخيره على الروم ، أمرا بأن يجمع كبار العلماء والفقهاء ويمتحنهم فى هذه المسألة الخطيره ويرسل اليه إجابتهم ، وقد تأثر كثير من العلماء فى مجلس المناظرة الذى كان أشبه بمحكمة التفتيش ، حتى أظهروا القول بخلق القرآن ، إلا أن البعض بقى ثابتا على عقيدته بأن القرآن غير مخلوق ، كأحمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلىّ ، الذى حملوه مكبلا بالحديد الى معسكر الخليفه . ولقد ذكر التاريخ أن اثنين من هؤلاء المخالفين هُدِّدا بالقتل ، وأُرسِل عشرون منهم تحت حِفاره حُرّاس ليتمطروا فى "طَرَسُوس" عوده الخليفة من حروبه ، ولكن جاءتهم الأنباء فى أثناء سيرهم فى الطريق بموت المأمون . ولقد سوّدت أمثال هذه الفظائع سُمْعه المأمون فى سنوات كثيره » اهـ .

ذلك هو رأى المنشرق « ميور » . ولنرجع الآن الى معالجه الإجابة عمّا تساءلتَ عنه ، فنقول : إنك حِدُّ عالم بأن المأمون كان تلميذا ليحيى بن المبارك اليزيدىّ المتهم بالاعتزال . حِدُّ عالم بصلته بثُمامه بن أشرس ، زعيم المذهب الثمامى فى الاعتزال ، وإعجابه به ، حتى عرض

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « قد رجع المأمون عن هذه المقالة بعد أن أقام أحمد بن دواد الحجة عليه فى ذلك بما ملخصه . أن زوجة المتعة ليست الزوجة التى يحب نفقتها وترث ويثبت نسب الولد منها بما هو شأن الزوجة الشرعية فهى ليست زوجة وليست ملك يمين والله تعالى يقول (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) فهى مما وراء ذلك ويكون زواج المتعة زنا — وعامة أهل الاسلام على هذا سوى الشيعة الرافضة » .

عليه الوزارة مرّتين، كما أسلفنا لك القول فى باب الوزارة . حِدُّ عالم بأن المأمون كان يعقد مجالس للكلام فى مختلف البُحُوث، وكان من نتائج هذه المجالس أن قرّب اليه كل متكلم حاذق، أو مُفكّر بصير بمداخل القـول ومخارجه ، مثال أبى الهُذَيل العـلّاف، وابراهـيم ابن سيّار وغيرهم . وأنت حِدُّ عالم بأن ثُمَامة والعلّاف وابراهيم كانوا من مشيخة الاعتزال. أنت جدُّ عالم بهذا كله، فلا عجب أن حَبَّب هؤلاء القـوم الى المأمون مذهبهـم، ولا غرو أن كانت مهمتهم ميسوره معبّدة، لأنهـم وجدوا من المأمون ذلك التلميذ المتأثر بمذهب أستاذه آس المبارك .

كل هذه العوامل كانت فى الواقع ناحيه واحده، ولها أثرها القوىّ فى تنمية النزعة، الاعتزاليه فى نفس المأمون . بيد أن هنالك ناحيه قوية أخرى لها أثرها القوىّ أيضا، تلك الناحية هى حركة النقل والترجمة، تلك الحركة التى حببت الى المأمون الفلسفه وما الى الفلسفة، ووجّهت عنايته الى المنطق وما الى المنطق، وبعثت فى نفسه حبَّ أرسطاطاليس ، حتى أصبح موضع تفكيره فى يقظته ونومه . وصفوه القول أن الناحية الثانية لم تكن لتقـلّ عن الأولى أثرا، فقد هيأت منه ذلك التسامح الذى ينبع ما توحى به سلسلة أفكاره .

وسـنرى فى أحد نا القول بخلق القرآن الى أىّ مَـدًى دفعت به حرّية التفكير حتى وصلت به الى ما ينافض حرّية التفكير، لأنه ليس من حرّية التفكير فى شىء تلك الطريقة الشاذّه فى إلزام العلماء وحلّة الفقهاء الأخذ بمذهبه . وليس من حرّية التفكير فى شىء تلك النتائج السيئة التى انتهت اليها مأساه القول بخلق القرآن، فى أيام المعتصم وأيام غير المعتصم .

وقد أشرنا لك فى باب المنثور فى الكتاب الثالث من مجلدنا الثالث مثلا مما كتبه المأمون الى وُلاته فى الأخذ بمذهبـه فى القول بخلق القـرآن، وهو كتابه الى اسحاق بن ابراهـيم؛ كما أثبتنا لك ما رواه لنا الطبرى مما حصل وقتئذ . فراجعهما ثَمَّةَ .

الفصل الرابع

الحياة الأدبية فى عصر المأمون

توطئة : المحادثة أو لغة التخاطب، الخطابة، الكتابة، مجالس المناظرة وأنواع الأدب، الشعر .

(١) توطئـــة :

لكتاب الخلافة «للسير وليام ميور»، مكانة رفيعة فى التاريخ العربى، ولا سيما عصرا المأمون، ناحيتيه العلمية والأدبيـة . ذلك لأن الرجل، الى جانب دراسته الدقيقة لمؤلفات العرب وكتابات العرب وبُحُوث المؤرخين العرب، لم يترك مصـدرا من مصـادر المتشرقين أمثال : «نولدكه» و «كريمر» و «هرزفلد» و «أمرر» و «برسياد» و «ميارد» و «چوچ» وغيرهم من عشرات المؤرخين إلا وقد استوعبه واستقصى البحث فيـه . كذلك لم يترك مصـدرا من مصادر التاريخ الفارسى، وهو كما نعلم، شديد الصلة بعصرا المأمون، من غير أن يدرسه حق دراسته و يفهمه حق فهمه، فطالع فيما طالعه فى ذلك الباب، آثار «ماكولم» و «فرارر» و «برون» و «سيكس» و «حوجيدس» وغـيرهم .

من أجل هـذا ومن أجد ذلك المؤرخ البحاثة بالدقة فى كل ما تصـدَّر له، جاءت حُلَّة بحوثه أفضل من سواه وأرفع مكانة من غيره . ونحن نستبيح لأنفسنا أن ننقل اليك ما ذكره فى هـذا الباب . قال : «كان حكم المأمون مجيدا عادلا، وكان عصره مزدهرا بأنواع العلوم والفنون والفلسفة، وكان أديبا مُولَعا بالشعر متمكنا منه . ولقد حدث مرّة أن شاعرا كان ينشد بين يديه قصيدة من مائة بيت، فكان الشاعر كلما أنشد شطر بيت بادره المأمون بشطره الآخر حتى دهش الشاعر وحار فى سرعة بديهته . وكان مجلسه حافلا بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة، إذ كان يقربهم اليـه و يجزل لهم العطاء، وكما كان عصره عامرا بالعلمـاء والأدباء والنحاة فإنه كان كذلك حافلا بجماعة المحدثين والمؤرخين والفقهاء

كالبخارى ، والواقدى ، الذى نحن مَدِيـنون له بأوثق السِّيَر عن حياة النبى ، والشافعى واس حنبل . وكان المأمون يُجِلّ علماء اليهود والنصارى ، ويَحتفى بهم فى مجلسه ، لا لعلمهم فحسب ، بل لثقافتهم فى لغه العرب وحِدقهم فى معرفه لغه اليونان وآدابها . ولقـد أخرجوا من أديره سوريا وآسـيا الصـغرى وسواحل الشأم وفلسـطين ، كتبا خطيه فى الفلسـفة والتـاريخ وعلم الهنـدسة لعلماء اليونان وفلاسفتهم ، ثم ترجموها الى العربيـة بدقة وعناية عظيمة . وبهذه الوسيلة انتقلت علوم العرب الى العالم الإسلامى . ولم تقتصر جهود هؤلاء الجهابذة على نقل هذه الكتب القديمه الى اللغه العربيه ، بل توسعوا وأضافوا اليها ما اكتسبوه من مباحثهم واطلاعهم . وأقاموا مرصدا فى «سهل تَدْمُر» مُجَهَّزًا بجميع الآلات التى تمكنهم من البحث فى دراسة علمى الفلك والهندسه والتوسّع فيهما . وقد صنفوا كتبا فى الرحلات والتاريخ ، ولا سيما كتب الطب ، وعُنُوا عنايه كبيره ببعض علوم تافهـه ، إلا أنهـا كانت أكثر ذيوعا وانتشارا ، كالتنجيم والكيمياء . وكان لمجهود هؤلاء العلماء الأثر الأكبر فى نهضه أوروبا التى كانت غارقه فى بحار الجهالة فى العصور الوسطى ، حيث أيقظهم من غفلتهم وأدارت لهم سبل علومهم التى كانوا أغفلوها ، وهى علوم اليونان وفلسفتها» اهـ .

ويقول الأستاذ المحامى "كرد على" فى بحث طريف له . إن عصر المأمون قد ازدان بكثير من حَمَلة الشريعـه والأدب ، منهم : يحيى بن أكثم ، وأبو محمد البريدى ، والحسن ابن زياد ، وأبو داود الطيالسى ، وأبو عُبَيد القاسم بن سـلام ، وابن الأعرابى ، والنضر ابن شُمَيل ، وأبو عمرو الشيبانى ، ومحمد بن عمر الواقدى ، وأبو عبيده ، والفرّاء ، والأخفش ، والأصمعى ، والضغانى ، والصبى ، والشـافعى ، وابن سعد ، وأبو داود ، وابن أبى دواد ، وابن حرب ، وابن حنبل ، والجاحظ ، والقوارير ى ، وقُتَيبة ، وسـعدويه الواسطى ، وابن الجَعْد ، وابن عُلَيّة الأكبر ، وأبو نصر التمّـار ، وأبو مَعْمَر القَطِيعى ، وأبو العَوّام البزّاز ، وابن شُجاع ، وبِشْر المِرِّيسى ، وبِشْر بن الوليـد ، وسَجّاده ، ومحمـد بن نوح ، وأبو هارون

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار : « لم يكن للشافعى إتصال بالمأمون » .

ابن البكاء، والهـذيل محمد بن الهـذيل، وأبو زكريا المُرى ومحمد بن مبشر، الى مئات غيرهم، كانوا فخرَ الدولة وعوانَ نبوغ الأمة . أما الشعراء والكتّاب فكانوا طبقة عاليـة، كثيرة العدد كالحصى، جيّـدة المَنْحَى والأسلوب، غلب الرِّقة والجزالة على أهـل هاتين الصاعتين . تأثّروا كلهم بالحضارة الجديدة، حتى غدا الشعر المدنى البديع طاهرَ الاختلاف عن الشـعر الجاهلىّ، بعيدا عن وصف الأطلال والدِّمَن والركاب، وطلب الثأر، والمفاخرات الفارغة . هـذا، وكان الجمهور يُشارك الأدباءَ فى فهم الشـعر، وقَدَرَ الخطبَ والرسائل قَدْرها، فلم يكن الشعراء فى وادٍ والأمة فى آخر، بل كان الشاعر أو الكاتب، اذا قَرَض شعرا أو حبر خطابا، تناقله الأيدى فى الحال، وتعاوره الرواة فيفشو فى الأمصار. وهـذا ما كان يزيد فى طلاوة أدب الأديب وشـعر الشاعر وخطبة الخطيب، ويحثّه على تجويد مقاله . اهـ

وبعـد، فقد بيّنا فى كلمتنا عن الحياة الأدبيـة فى صـدر العصر العباسىّ ما أحدثتْ تتحوّل اليـه الآداب العربية عامة فى الألفاظ والأساليب والمعانى والأعراض، وبيّنا لك الأسبابَ التى كانت تبعَث على هـذا التحوُّل، من شدّة الامتزاج بين العناصر المختلفة التى خضعت لسلطان العرب بالغرب، وما استتبعه هذا الامتزاج من إضافة ثقافات ومدنيات جديدة، الى ما كان للعرب من ثقافة ومدنيـة، ومن اتساع السـلطان، وامتداد أطرافه، ومن تشجيع الخلفاء لأهل العلم وإكرامهم لرجال الأدب، ومن انصراف همم أولى الفضل الى التأليف والترجمة، ومن كثرة حاجات النـاس وتنوعها، حتى اضطرت اللغة أمام هذه العوامل وغيرها، مما سبق أن بيّناه لك، أن تنفرج جوانبها، لتسع هذه الأعراض، ولتقوم بحاجات الناس، طِبْقًا لمُقتضَيات العصر، وخضوعا لسنّة التحوّل .

بيّنا لك كلّ هـذا . وقد يكون من التعسُّف أن نَعْرِض لتحوّل الآداب فى أيام المأمون خاصّةً، فانه اذا افترضـنا أن الآداب تحوّلت تحوّلا خاصّا فى أيام المأمون، فقـد يكون من العسير تبيين هذا التحوّل وتحديد مداه، ذلك بأن تحوّل الآداب بطىءٌ، ولا يمكن

تبيبه إلا بعد ظهور آثاره طهورا لا سبيلَ الى الشـك فيه ، بخلاف الحوادث السياسية، فانك تسـتطيع أن تؤقّت الحوادثَ السياسية بالسنه بل بالشهر بل باليوم ، ولا تسـتطيع ذلك فى الآداب إلّا بعشرات السنين .

إذًا رأيُنا فى الآداب لعصر المأمون هو رأينا فى الآداب لصـدر العصر العباسىّ . وإنمـا الذى حدث أن السبيل التى سلكتها الآداب فى صـدر العصر العباسىّ قد بلغت غايتهـا فى أيام المأمون، فعصر المأمون اذًا هو الثمره الناضجة لتَغَيُّر الآداب فى العصر العباسىّ، أو بعباره أخرى . يعتبر عصرُ المأمون العصر الذى بلغت فيه الآداب العربيـة الذروة من الكمال المقدور لها .

وسـبيلنا الآن أن نورد لك من آثار عصر المأمون ما يقوم لديك دليـلا على هـذه النتيجة . وقد أوردنا من هذه الآثار فى المجلد الثالث ما فيه الكفاية .

(ب) المحادثة أو لغة التخاطب :

بدأت لغـة التخاطب تحدر مدارجهَ عن الفصحى مـذ الفتوح الإسلامية، بسبب اتصال العرب بغير العرب، ممّن دان لسلطانهم وانتظم فى مُلْكهم .

ولقد لاحظنا أثناء مطالعتنا فى الطبرىّ وفى غير الطبرى فى الفتره المأمونيه، أن بعض جُند خُراسَان كانوا لا يفهمون العربيه فيقولون مثلا (پُسَرَ زبيده) (ومكى) وغيرها من الألفاظ الفارسيه التى أثبتها المؤرّخون .

وقد يكون من المُمتع حقا أن يُخصص باحث ممن لهم اطلاع على لغـات البُلْدان التى فتحها العرب كلًّا لدراسة مبلغ تأثر اللغة العربية بلغات من خضع لسلطان العرب فى الأرجاء المختلفة . وغُصارى ما نقرّره هنا أن اللغة العربية تأثرت حقا من أثر الفتوح سواء أكانت فتوحَ سيف أم فتوحَ ثقافات وترجمات قد أضعفت من بلاغةِ اللسان ومَتانة اللفظ بقدر ما أغنت من ثروة ذهنية عظيمه .

وإنك اذا ذكرت ما كتبناه فى الفصل السادس وفى نظيره من كتابنا عن الصدر العباسىّ فى شأن ما زيد فى الألفاظ العربية، من ألفاظ العلوم المترجمة فى ذلك العصر، وذكرتَ أن الموالى الفرس وغيرهم، هم الذين قد عُهِد اليهم بالترجمة والنقل والتحرير، اذا ذكرتَ هذا، الى جانب ما قدّمناه لك، فانك تستوعب معنا ما نذهب اليه من القول بتأثر اللغة فى ذلك العصر.

وفى هذا القدر الكفاية، ولنتدرّج الى ذكر كلمة عن الخطابة.

(ج) الخطابة:

قلنا فيما سبق: إن عصر المأمون كان الثمرةَ الناضجة للآداب العربية فى العصر العباسىّ، فهل كان الأمر كذلك فى الخطابة أيضا؟

أنت تعلم أن قوة الشىء ترجع الى قوة عوامله وأسبابه. ونحن نرى، معتمدين على ما لدينا من آثار خطابيه لهذا العصر، أن أسباب الخطابةِ وعواملها، كانت ضعيفة ضعفا نسبيا، ومن ثَمَّ لم تُمَاشِ الخطابةُ سائرَ أنواع الآداب فى سبيلها الى الكمال المقدور لها. ولعل ذلك يرجع الى ضيق مجالها وصعف الحاجة اليها، فبعد أن كانا نراها فى العصر الأُمَوىّ، الوسيلةَ الى قَمْع الفِتَن وردّ البِدَع، ولسانَ الخليفه فى رعيته، والقائدِ فى جنده، والزعيمِ فى أتباعه، وبعد أن كنّا نرى حظها فى عصر الانتقال وصدر العصر العباسىّ لا يقل عن حظها فى العصر الأُمَوىّ، لحاجة الدِّعاية والزعماء اليها، أصبحنا نرى مجالها فى عصر المأمون يضيق، حتى كادت تُقْصر على التهنئة والتعزية والخُطَب الدينية كالجمعة والعيدين. وضيقُ مجالها يرجع الى استغناء الخلفاء العباسيين وعُمّالهم وقوادهم عنها بالمنشورات العامّة، حيث يتبسطون فيها ويضمنونها مايريدون من أغراض، ثم تُتلى على مَن يُراد أن تُتلى عليهم. ولعل ذلك لاصطباغ الخلافة العباسية بالصبغة الفارسية، ولاحتجاب الخلفاء عن مخالطة الجماهير، ولأن جُلّ عُمّال بنى العباس فى ذلك العصر كانوا من الموالى وهؤلاء وإن أُوتوا

حظًّا عظيما من بلاغة القـول وحسن البيان ، فقـد كانت لا تزال بألسـنتهم لُوثةٌ من العُجْمة، تحول بينهم وبين ما تقتضيه الخطابة من اندفاع الألفاظ وتدفقها .

لعل لكل هـذا أو بعضه أثرا قا فى تضييق مجال الخطابة والاستغناء عنهـا بالرسائل والمنشورات العامة. ومهما يكن من شىء، فقد أُلقيت فى عصر المأمون خُطَبٌ قليلة القَدْر والقيمة، ننشر لك منها على سـبيل المثال خطبتين . إحداهما للمأمون فى عيد الفطر، والأخرى تهنئة بمَقْدم المأمون الى بغداد .

خطبـــة المأمون :

أَلَا وإن يومكم هذا يومُ عيدٍ وسنه وآنتهال ورغبة، يومٌ حتم به الله صيام شهر رمضان، وافتتح به حَجّ بيتـه الحرام، بجعله أوّل أيام شهور الحج، وجعـله مُعَقِّبًا لمفـروض صيامكم ومُتَنَفِّلَ قيامكم، فاطلبوا الى الله حوائجكم واسـتغفروه لتفريطكم، فانه يقال : لا كثير مع ندَم واستغفار، ولا قليل مع تمـادٍ و إصرار . اتقوا اللهَ عبادَ الله، و بادروا الأمرَ الذى لم يحضُر الشك فيـه أحدا منكم، وهو الموت المكتوب عليكم، فانه لا يستقال بعـده عثرةٌ، ولا تُحطَر قبلَه توبةٌ . واعلموا أنه لا شيءَ بعده الا فوقه، ولا يُعين على جَرَعه وعَلَزِه وكُرَبه، وعلى القـبر وظلمته ، ووحشته وضيقه ، وهول مطلعه ومسألة مَلَكَيْه، إلا العملُ الصالح الذى أمر الله به ، فمن زَلّت عنـد الموت قدمُه، فقد طهرتْ بدامتُـه وفاتته استقالتُـه، ودعا من الرَّجعة مالا يُجابُ اليه، وبذَل من الفِدْية مالا يُقبل منه، فاللهَ اللهَ عبادَ الله، كونوا قوما سألوا الرَّجعـةَ فأُعْطُوها إذْ مُبعها الذين طلبوها، فانه ليس يتمنى المتقـدّمون قبلكم، إلا هـذا الأجل المبسوطَ لكم . فاحذروا ماحذّركم اللهُ منه ، واتقوا اليومَ الذى يجمعُكم الله فيـه لوضع موازينكم ، ونشرِ صحفكم الحافظةِ لأعمالكم . فلينظر عبـدٌ ما يَضَـع فى ميزانه مما يثقُل به، ومما يُملى فى صحيفته الحافظة لما عليه . ولستُ أنهاكم عن الدنيا بأكثر مما نهتكم به الدنيا عن نفسها ، فان كلّ ما بهـا يُحذّر منها ويُنْهَى عنها، وكلُّ ما فيها يدعو الى غيرها. وأعظمُ ما رأته أعينكم من بوائقها وزوالهـا ذمّ الله لها والنهى عنها، فانّه يقول تبارك

وتعالى : ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وقال ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ . فانتفعوا بمعرفتكم بها وبإخبار الله عنها . واعلموا أن قوما من عباد الله، أدركتهم عصمةُ الله، فحَذِروا مصارِعَها ، وجانبوا حدائِعَها وآثروا طاعة الله فيها وأدركوا الجنة بما يتركون منها .

خطبة التهنئة :

قال ابن أبى طاهر : دخل المأمون بغداد فتلقاه وجوهها، فقال له رجل منهم : يا أميرالمؤمنين، بارك الله لك فى مَقْدَمك، وزاد فى نعمتك، وشكرك عن رعيتك، تقدّمت مَنْ قَبْلَك، وأتعبتَ مَن بعدَك ، وأيأستَ أن يُعايَنَ مثلُك، أما فيما مضى فلا نعرفه ، وأما فيما يبقى فلا نرجوه، فمحى جميعا ندعو لك ونُثْنِي عليك . خَصَبَ لنا جنابُك، وعذب ثوابُك ، وحسُنت نظرتُك ، وكرُمت مقدرتُك ، جبرتَ الفقير، وفككتَ الأسير، والخيرُ فضائك ، والشرُّ بساحة أعدائك ، والبصر مَنُوطٌ بلوائك ، والخذلانُ مع أَلْوِيَة حُسّادك، والبِرُّ فعلك، قد طَحْطَح عدوَّك غضبُك، وهَزم معايِبَهم مشهدُك، وسار فى الناس عدلُك، وشَسعَ بالمصر ذكرُك، وسَكّن قَوارِع الأعداء ظَفَرُك، الذهب عَطاؤُك، والدواةُ رمزك ، والأوراق لحظك وأطرافك .

* * *

(د) الكتابة :

قلنا فى كلمتنا عن الكتابة فى صدر العصر العباسى : إن أسبابا كثيرة وقوية — ذكرناها هناك — دفعت الكتابة فتعدّدت أغراضها، وتنوّعت أساليبها، ومال الكُتّاب الى السهولة فى العبارة، والتأنق فى اللفظ، والجودة فى الرصف، وأطالوا فى المقدّمات، وتوّعوا المبدأ والختام ، والألقاب والدعاء، ومالوا الى الغلو والمبالغة . ثم قلنا بعد كلام : أما الإطناب فى الكتابة فكان صفة غالبة فى كلّ ما شَمِل بَيْعةً، أو عهدا، أو احتجاجا ، أو انتصارا، أو تقريرا لمذهب، أواستهواء أودفعا لشبهة، أوطلبا لنعمة ... الخ . وقد أثبتنا لك جُملةً صالحة

من آثار العصر المأمونى ممـا يقوم حجة على ما ذهبنا اليـه . ونحيلك الى رسالة أبى الربيع محمـد بن الليث، الى قُسطنطين ملك الروم، والى رساله يحيى بن زياد الحارثى فى تقريظ أمير المؤمنين الرشيد، وقد أثبتناهما لك — نقلا عن النسخة الخطية من كتاب المنظوم والمنثور لابن طيفور — فى باب المنثور فى الكتاب الثانى من المجلد الثانى. كما أثبتنا لك فى الكتاب الثالث من المجلد الثالث رسالةً قيّمة للمأمون تسمّى رسالة الحميس، كان بعث بها الى أهل خُرَاسان كمنشور من الخليفة. ورسالةً مُمْتِعة لسهل بن هارون حازن بيت الحكمة فى عهده، فراجع ذلك ثمّة .

ولو قد ذهبنا نورد لك من آثار عصر المأمون الكتابية لعَدَوْنا القصـد وأملنا، فحسبنا ما أحلناك الى مراجعته الآن، وهو فيه الكفاية لاثبات ما ذهبنا اليه . وقد أوردنا هـذه الرسائل من غير أن نَعْرِض لهـا بتحليل أو بيان . فهى فى وضوحها ودلالتها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة الى شىء .

* * *

(هـ) مجالس المناظرة و"أبهاء" الأدب والغناء والمنادمة :

أما مجالس المناظرة ومكانتها السامية فى العصر المأمونى، فقد وقفت على طرف عظيم منه فى الفصول التى عقدناها لك عن المأمون وعلمه، وأدبه، ودينه، وسياسته . فمن باقلة القول وتكراره أن ننقلها لك هنا . وقصارانا أن نقول : إن المناقشات الحادّة بين سِيبويه والكِسائىّ فى شأن مسألة نحوية، وبين الشعراء والأدباء فى تفضيل شاعر على شاعر، وبين السُّنِّيين والمعتزلة فى القول بخلق القرآن، وأبّهاء الأدب عند الأمين والمأمون وأنصارهما، وأمراء العـرب كابى دُلَف وعبد الله بن طاهر وغيرهما، لتدلّ أوضح الدلالة على ما كان للمناظرة فى هذا العصر من مكانة، حتى أصبحت من أهم مميزاته وكُبْرَيَات آثاره .

وأما المنادمة والغِنَاء، فقـد سبق أن نقلنا لك ما رواه صاحب «التاج» عن حالة المنادمة فى الصـدر العباسىّ . وقد آن لنا أن نُتمّ لك القول فى حالتها فى العصر المأمونىّ،

ونُحيلك فى الوقت نفسه الى كتاب حَلْبة الكُمَيت، والأغانى، ونهاية الأَرَب، وغيرها من كتب الأدب، فهى مُتْرَعة بأخبار الغناء والمادمة، غنيةٌ بأحبار المادمين والمغنين.

سئل إسحاق بن ابراهيم الموصلى عن رأيه فى حال المادمة فى تلك الأيام، فقال عن الأمين: ما كان أعجب أمرَه كلّه، فأما تبذُّله فما كان يُبالى أين قَعَد ومع من قَعَد، وكان لو كان بينه وبين ندمائه مائةُ حِجابٍ حَرَقها كلّها وألقاها عن وجهه، حتى يقعدَ حيث قعدوا، وكان من أعْطى الخَلْقِ لذهبٍ وفِضّة، وأسهَمهم للأموال اذا طَرِب أو لَهَا. وقد رأيته وقد أمر لبعض أهل بيته فى ليلة بوِقْر زَوْرَق ذهبًا فانصرف به، وأمر لى ذاتَ ليلة بار بعين ألف دينار فحُمِلت أمامى. ولقد عنّاه إبراهيم بن المَهْدىّ غناءً لم أرتضه، فقام عن مجلسه فأكبّ عليه فقبّل رأسه، فقام إبراهيم فقبّل ما وَطِئت رجلاه من بساطه فأمر له بمائتى ألف دينار. ولقد رأيته يوما وعلى رأسه بعضُ غِلْمانه فطر اليه، فقال ويلك! ثيابك هذه تحتاج الى أن تُغسل، انطلق فخذ ثلاثين بَدْرة فاغسل بها ثيابَك.

ولقد حدثنى عَلُّويه الأعسر، وهو أبو الحسن على بن عبد الله بن سيف عنه قال: لمّا أُحيط به وبلغت حجارةُ المَنْجَنيق بساطَه، كنا عنده، فغنّته جارية له بغناء تركت فيه شيئا لم تُجِدْ حكايته، فصاح: يارانية، تُغَنّينى الخطأ! خذوها فحُمِلت، وكان آخر العهد بها.

وسئل عن حال المادمة عند المأمون، فقال: أقام بعد قدومه عشرين شهرا، لم يَسْمع حَرْفا من الغناء، ثم سَمِعه من وراء حِجاب متشبّها بالرشيد، فكان كذلك سَبْعَ حِجَج، ثم ظهر للندماء والمغنّين. قال: وكان حين أحبّ السماع ظاهرًا بعينه، أكبرَ ذاك أهلُ بيته وبنو أبيه.

ويقال إنه سأل عن إسحاق بن ابراهيم الموصلى، فغمره بعضُ مَن حضر وقالوا: ما يغادر تيهًا وبَأْوًا، فأمسك عن ذكره. قال فجاءه زُرْزُر يوما، فقال له: يا إسحاق نحن اليوم عند أمير المؤمنين، فقال إسحاق: فغنّه بهذا الشعر:

يا سَرْحَةَ الماءِ قد سُدَّت مواردُه * أَمَا إليكِ طريقٌ غير مسدودِ
لحائم حامَ حتى لا حَرَاكَ به * مُحَلِّإٍ عن سبيل الماء مطرودِ

فلما عنّاه به زُرْزُر أطربه و بهجه، وحرّك له جوارحه؛ وقال: ويلك! من هذا؟ قال: عبدك المحموّ المُطَّرَح. ياسيدى إسحاق! قال يحصر الساعة! فجاءه رسوله، و إسحاق مستعدّ، قد علم أنه إن سمع الغناء من مُجيد مؤدٍّ أنه سيبعث اليه، فجاءه الرسول، فحدّثت أنه لما دخل عليه، ودنا منه، مدّ يده اليه، ثم قال: ادْنُ مِنّى فأكبّ عليه، واحتصنه المأمونُ وأدناه، وأقبل عليه بوجهه مُصْغِيا اليه، مسرورا به.

وحسبنا هذا القدر. وإن أردت زيادة و إفاضة فانا نُحيلك الى بعض أخبارها فى الجزء السادس من كتاب بغداد مع ما ذكرناه لك من المراجع.

* * *

(و) الشـــــعر:

أشرنا فى كلمتنا عن حالة الشعر ومونه فى صدر العصر العباسىّ، الى ما أخذ يحول هو اليه أيضا، تبعا لمقتضيات العصر وطروف الزمان، ومسايرةً لحياه الاجتماعية والاقتصادية، ولِمَا حدّ على أحوال النـاس ومعايشهم من الغنى والتَّرَف، وما يستلزمه الغنى والترف من الاستمتاع بألوان اللهـو واللذات، والافتنان فى بناء القصور والسمن و إنشاء الحدائق والمتنزهات. ولقد كاد فى مرحوّنا أن نفرد لك فصلا خاصا نضمّنه ما كان من الخلفاء فى إقامة مبان وقصور وحدائق ودُور، لم يكن للعرب بها ولا بنظيراتها سابقةُ عهد، وإنما ألجأتهم اليها المدنية والبَذْخ، وما أصابوه فيها من رَفَاهة عيش، وسعَة يَد، ووَفْرة غنى. بيد أن ذلك يطول، ويخرج بنا عما رسمناه لأنفسنا من القَصْد والإيجاز، مع الإلمام بكافّة النواحى لهذا العصر.

على أنه من الميسور لك أن تتصوّر مبلغَ ماوصل اليه الخلفاءُ العباسيون وأمراءُ البيت المالك ورجالاتُ الدولة من الثروة والبَذْخ، بما أوْمأنا اليه فى كلمتنا عن خراج الدولة، وما كان فيها من استصفاءٍ وأعطيات عظيمة .

وقد كانت أيضا الحياة السياسية والفكرية حادّةً عميقةً، فقد اشتدت المُلاحاةُ بين شيعة العَلويّين والعباسيين، وبلغ النزاع غايتَه بين أصحاب المذاهب وزعماءِ الآراء. ولا تنس أن تضيف الى ما تقدّم ماكان لترجمة العلوم اليونانية وغير اليونانية من أثر بعيد فى أفكار الناس وأخيلتهم وأساليبهم، والدقة فى تعبيراتهم، والتنظيم فيما لهم من آثار .

وقد كانت الآثار الشعرية لهذا العصر، الى حدّ ما، مرآةً صادقة لأحواله وما كان يجرى فيه من شؤون .

أسرف الناس فى شرب الخمر فافتنّ الشعراء فى وصف الخمر ووصف كؤوسها . وتخيّر الناس السُّقاة من الغِلْمان ومن فى زِيّ الغلمان، فوصف الشعراء السقاةَ وتغزلوا فى الغلمان . وولِع الناس بالصيد، فوصف الشعراء الصيد وما يجرى فى مجال الصيد . وافتنّ الناس كما قلنا فى بناء القصور وعمير القصور، ففتحوا المجال واسعا لخيال الشعراء فى شتّى الأبواب. واشتدت المنافسة السياسية بين شِيعة العلويين والعباسيين، فأحد شعراء كلّ فريق يَنْضَحون عن رأيهم ويؤيّدون مذهبهم . وألّف العلماء فى الفقه والأخلاق والكلام، فأخذ الشعراء يعالجون نَظْمَ الفقه والأخلاق والكلام. وهكذا تعدّدت أغراض الشعر وتنوّعت ألوانُه .

وتحضّر الناس فى بغداد وغير بغداد من الحواضر الإسلامية ، فرقّتْ طباعُهم، ولانت أخلاقُهم، ونبت عن الحُوشيّة أذواقُهم، فرقّ شعرُ أهل الحواضر، وسَلِست ألفاظه، وعُدت من الحُوشيّة . وتُرجمتْ العلوم اليونانية وغيرُ اليونانية، من فلسفة ومنطق وأخلاق ، فكان لهذه العلوم أثرها فى تنظيم أفكار الشعراء ودِقّة خيالاتهم .

ولو ذهبنا نُورد لك شواهدَ على كل هذا وغيره، لأطلنا وأملنا . وإنما نُحيلك على آثار شعراء هذا العصر ، كأبى نُوَاس فى الخمر وكؤوسها ، وأوقات شرابها وسُقاتها، والغَزَل

بالغلمان، والصيد، والطرد، ووصف مَظاهر الحَضَارة العباسية. وكدِعْبِل الخُزَاعِيّ والسيد الحِمْيَرِيّ فى النزاع السياسى بين العَلَوِيين والعباسيين . وكأبى العَتَاهِيَـة فى الأخلاق، وأبانَ ابن عبد الحميد فى نظم العلوم كالفقه وغير الفقه . وهذه الإحالة لا تمنعنا أن نورد لك أمثالا من آثار هذا العصر الشعرية .

وهنا تعرض لنا ملاحظةٌ نرى إيرادها حتما علينا ، وهـذه الملاحظة هى أن الشـعر فى عصر المأمون كان مرآةً صادقةً للحياة وما يجرى فيها من شؤون الى حدّ ما .

نقول «الى حدّما» . ويدفعنا الى هذا القول مُعْتَقَدُنا القوىّ الذى تكوّن لنا من دراستنا لرُوح هذا العصر . ذلك بأنّا نرى كثيرا من شعراء الحاضرة المُجيدين فى هذا العصر وفى العصر الذى قبله ، يَحْلُون نتائج أفكارهم وما تجود به قرائحُهم ، شـعراءَ الجاهليـة وأعراب البادية . ونرى أيضا أن كِبار الرُّواه وأهلَ الأدب، يُشَدُّون الشعر الجيد لمُحْدَث، فيعجبون به على أنه قديم أو لأعرابىّ، حتى اذا تبين لهم أنه لمُحْدَث أنكروه وازْوَرُّوا عنه .

هـذا يدلّنا على أن جماعةً قويةً يُعتدّ بها فى هذا العصر، كانت تَميل الى إيثار الشـعر القـديم وشعر أعراب البادية على الشعر الجديد ورجال الشـعر الجديد . واذا كان هـذا حقا كان من الطبيعى أن يعيش الشعراء من الناحية الشعرية فى غير عصرهم، وأن يكونوا بأخيلتهـم فى غير حاضرتهم، لكى يَتَمَلّقوا الرُّوح العالية ويَظْفَرُوا برضا العلماء . وقد يكون لهؤلاء العلماء والرُّواة حظٌّ كبير فى صرف أذهان الناس الى الشعر القديم .

وليس معنى ذلك أن شعر المحدَثين لم تكن له مكانة رفيعة عند القوم، بل على النقيض كانت له منزلة رفيعة فى النفوس .

لذلك نحن نميـل الى القول بأن خير من يمثل هذا العصر أولئك المجدّدون الذين لم يتقيدوا ببكاء الأطلال، والحنين الى الرسوم، كأبى نواس وأضراب أبى نواس .

على أنه يجدر بنا أن نورد لك مثلين مما كانوا يتذوقونه فى هذا العصر من شعر المحدثين، وما قاله أبو دُلَف ناعيا منهج التقعُّر، بعد إيرادنا لك ما وعدناك بإيراده من شعر لهذا العصر فى شتى الأنحاء .

وقد نشرنا لك فى باب المنظوم من الكتاب الثالث من المجلّد الثالث أمثلة من شعر هذا العصر كما نشرنا لك تلك القصيدة التى أنشدها محمد بن عبد الملك للمأمون يحرّضه فيها على قتل ابراهيم بن المهدى حين طفر به ، فقال المأمون : لا ! والله أشُقّ به بل أعفو عنه . وانظر الى مطلع القصيده ، تر الفلسفة اليونانية حائمة فيه :

ألم تر أن الشيءَ للشيء علّةٌ * يكون له كالنار تُقْدح بالزَّنْد

وكان للمأمون جارية تسمّى عَرِيب ، كانت تعشَق جعفر بن حامد ، وكان يتعشّقها ، فلما وجدت من المأمون غفلةً ، وصعت على فراشها مثال رجام ، يحسب من رآه من بعيد أنها نائمة . وكان جعفر بن حامد قد نزل الى جانب قصر المأمون . فصعِدَتْ الى السطح ونزلت فى زِبْبِيل ، فلما قضى نَهْمَتَه منها قعدت فى الزنبيل فصعدت ورجعت الى مكانها . وطلبها المأمون قبل أن ترجع الى فراشها فلم يجدها ، فعلم الى أين صارت . فقال أبو موسى حاكيا لهذه القصة :

قاتل الله عَرِيبًا * فعلتْ فعلا عجيبًا
ركبتْ والليلُ داجٍ * مركبا صعبا مَهِيبًا
فارتقتْ متّصلًا بالسـ * ـجر أو مسه قريبًا
صبرتْ حتى اذا ما * أقْصَد النومُ الرقيبًا
مثّلتْ بين حشايا * ها لكى لا يستريبا
خَلَفًا منها اذا ثُو * دِىَ لم يُلْفَ مُجِيبًا
ومصتْ يحملها الخو * ف قصيًّا وكثيبا
مُحَّةً لو حُرّكت خفـ * ـتَ عليها أن تَذُوبا
فتدلّتْ للحبّ * فتلقاها حبيبًا
جَذِلًا قد نال بالد * نيا من الدنيا رَغِيبًا
أيها الظبىُ الذى تسـ * ـحر عيناه القلوبا
والذى يأكل بعضا * بعضُه حسنًا وطيبًا

كنت تهنّا لذئاب * فلقد أطمعتَ ديبا
وكذا الشاةُ اذا لم * يك راعيها لبيبا
لا يبالى وَبأَ المَرْ * عَى اذا كان خصيبا
ولقد أصبح عبدُ * الله كَشْخَانًا(١) حريبا
قد لَعَمْرِى لَطَمَ الخدَّ * وقد شقَّ الجيوبا
وحرتْ مسه دموعٌ * بَلَّتِ الذقنَ الخضيبا

ومما يعتبر من الهجاء السياسى قصيده محمشويه الشاعر فى يحيى بن أكثم قاضى المأمون بالبصرة، إذ فيه أيضا هجوٌ لآل العباس وحلافتهم . قال :

أطقنى الدهرُ بعد إخراسِ * بحادثاتٍ أطَلْنَ وَسْوَاسِى
يا بؤسَ للدهرِ لا يزال كما * يرفع ناسًا يحُطُّ من ناسِ
لا أفلحتْ أمةٌ وحقّ لها * طول لعنٍ وطول إتعاسِ
ترْضى بيحيى يكون سائسَها * وليس يحيى لها بسَوّاسِ
قاضٍ يرى الحدَّ فى الرِّياء ولا * يرى على من يلُوط مِنْ بَاسِ
يحكم للأمرد الظريف على * مثلِ جُوَيْرٍ ومثلِ عُدَّاس(٢)
فالحمد لله قد ذهب الـ * ـجود وقلَّ الوفاءُ فى الناس
أميرُنا جائرٌ وقاضينا * يلوط والرأسُ شرُّ ما راسِ
لو قصد الرأسُ واستقام لقد * قام على القصد كل مُرْتَاسِ
ما أحسب الجورَ ينقضى وعلى الـ * ـناس أميرٌ من آلِ عبَّاسِ

وقد أثبتنا لك فى باب المنظوم من الكتاب الثالث فى مجلدنا الثالث مثلا آخر من الهجاء قاله بعض الشعراء فى يحيى بن أكثم، فراجعه ثمة .

---

(١) الكشخان بفتح الكاف وتكسر : الديوث .

(٢) كذا فى تاريخ بغداد وفى ابن خلكان ج ٢ ص ٣٢٦ : « مثل حرير ومثل عباس » .

وهناك نوع من الشعر يمثل لك ناحية من نواحى العصبية بين القبائل وهو الى حدّ ما يعتبر من الشعر السياسى . وهذا النوع مثل ما قاله مُسْلِم بن الوَلِيد فى هجاء قريش والافتخار بالأنصار، وردّ ابن قُتَيْبَة عليه . وإنا نحيلك على موضع ذلك من مجلدنا الثانى للاطلاع عليه، لضيق المقام عن إيراده هنا .

وفى هذه القصة الآتية طَرَافة من الفِرَاسة فى العصر، آثرنا إثباتها لذلك وهى :

قال أبو السَّمْراء : خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجّهين الى مصر، حتى اذا كنا بين الرَّمْلة ودِمَشْق، إذ نحن بأعرابى قد اعترض، فاذا شيخٌ فيه بقيةٌ، على بَعِيرٍ له أَوْرَقَ، فسلّم علينا فرددنا عليه السلام. قال أبو السمراء : وأنا وإسحاق بن إبراهيم الرَّافِقِى، وإسحاق بن أبى ربىّ، ونحن نُسَايِر الأمير، وكنا يومئذ أَفْرَهَ من الأمير دَوَابَّ، وأجود منه كُسًّا. قال: فجعل الأعرابى ينظر فى وجوهنا، قال : فقلت : ياشيخ، قد أمحتّ فى النظر! أعرفتَ شيئا أم أنكرته؟ قال : لا والله ما عرفتكم قبل يومى هذا، ولا أَنْكَرْتُكم لسوءٍ أراه فيكم، ولكنى رجل حسن الفِرَاسة فى الناس جيد المعرفة بهم؛ قال : فأشرت له الى إسحاق بن أبى ربىى، فقلت : ما تقول فى هذا؟ فقال :

أرى كاتبًا دَاهِى الكتابة بيِّنٌ ، عليه وتأديبُ العراق مبيرُ
له حركاتٌ قد يشاهدْنَ أنه * عَلِيمٌ بتقسيط الخراج بصيرُ

ونظر الى إسحاق بن إبراهيم الرافقى فقال :

ومظهرِ نسكٍ ما عليه صميرُه * يحبّ الهدايا بالرجال مَكُورُ
أحال به جُبْنًا وبخلا وشيمةً * تحيَّر عنه إنه لوزير

ثم نظر الىّ وأنشأ يقول :

وهذا نديم للأمير ومؤنِسٌ * يكون له بالقرب منه سرورُ
وأحسبه للشعر والعلم راويًا * فبعضٌ نديمٌ مرةً وسَمِيرُ

ثم نظر الى الأمير وأنشأ يقول :

وهذا الأمير المُرْتَجَى سَيْبُ كفّه * فما إن له فيمن رأيتُ نظيرُ
عليه رداء من جمال وهيبـة * ووجهٌ بإدراك النجاح بشـير
لقد عُصِمَ الاسـلامُ مـه بذائد * به عاش معـروف ومات نَكيرُ
ألا إنّمـا عبـدُ الاله بن طاهر * لنـا والدٌ بَرٌّ بنـا وأمـيرُ

قال : موقع ذلك من عبد الله أحسن موقع، وأمحمه ما قال الشيخ ، فأمر له بخمسمائة دينار وأمره أن يصحبه .

هذا ، وقد حدّث بعضهم قال : احتجّ أصحابُ المأمون عنده يوما ، فأفاضوا فى ذكر الشعر والشعراء، فقال بعضهم : أين أنت يا أمير المؤمنين من مُسْلم بن الوليد حيث يقول ، قال : ماذا قال؟ قال : حيث يقول ورَثَى رجلا :

أرادوا لِيُخْفوا قبرَه عن عدوّه * فطِيبُ ترابِ القبر دلّ على القبر

وهجا رجلا بقبح الوجه والأخلاق فقال :

قَبُحَتْ مَناظرُه فحين حبرته * حسُنَتْ مناظرُه لقبح المخبرَ

ومدح رجلا بالشجاعة فقال :

يجود بالنفس إن ضنّ الجوادُ بها * والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وتغزّل فقال :

هوًى يَجِدّ وحبيبٌ يلعبُ * أنت لقًى[1] بينهما مُعذَّب

ومما كان يستحسنه المأمون من دِعْبِل الخزاعى هَجّاء المأمون المعروف قولُه :

ألم يأنِ للسّـفْر الذين تحمّلُوا * الى وطنٍ قبل الممات رجوعُ
فقلتُ ولم أملكْ سَوَابِقَ عَبْرةٍ * لَطَفْنَ بما ضمّتْ عليه ضلوعُ

---

(١) القى : الملق المطروح .

تبيَّنْ فكم دارٍ تفـرّقَ شملُها * وشمل شَتِيتٍ عاد وهو جميعُ
طِوالُ الليالى صَرْفُهن كما ترى * لكل أناس جَـدبةٌ ورَبيعُ

وقد حدّث ابن طيفور عن مشيخته أن مصورا النَّمَرِىّ، والحسن بن هانىء، وأبا العتاهية وأبا زعبة[1] احتمعوا فتذاكروا أبياتا على وزن واحد، ففُضِّلَ أبو العتاهية عليهم. فقال النمرىّ:

أعُمَـيرُ كيف بحـاجةٍ * طُلِبتْ الى صُمِّ الصـخورِ
لله درّ عُـدَاتكم * كيف انتسبْنَ الى الغرورِ
ولقـد تبيتُ أمامـلى * يَحْبِينَ رُمَّانَ النحور

وقال أبو العتاهية:

لَهْفِى على الرمس القصـيرِ * بين الخَوَرْنَق والسَّدِيرِ
إذ نحن فى عُرُفِ الجنا * نِ نَعُومُ فى بحر السرورِ

وقال الحسن بن هانىّ.

وعظتْـك واعظةُ القَتِـيرِ[2] * وعلتْـك أنّهـةُ الكبيرِ
ورددتَ ما كنتَ استعـ * ـتَ من الشباب الى المُعيرِ
ولقـد تحـل بعقوة[3] الـ * ـأبواب من نَقَرِ القُصُورِ
صُـورٌ اليـك مؤنثـا * تُ الدَّلّ فى زىّ الذكورِ
أرْهفنَ إرهافَ الأعنّـ * ـةِ والحمائل والسُّيورِ
أصداعُهن معـقرَبا * تٌ والشوارب من عَبِيرِ

قال المحدّث: ولا أحفظ ما قال أبو زعبة، ففصلوا أبا العتاهية، وأبو نُوَاس عدى أشـعرُهم.

---

(١) كذا فى تاريخ بغداد، وعلق عليه ناشره بأنه فى ديوانه «ابن رغبة».
(٢) القتير: الشيب.
(٣) العقوة: ساحة الدار.

وقد روى ابن طيفور أن عامل أبى دُلَف قد قصّر فى أمره ، فبعث اليـه مَنْ عزله وقيّـده وحبسه ؛ فكتب الى أبى دلف من السجن كتابا تتطّع فيـه وقمّر وطوّل ؛ فكتب اليه أبو دلف :

يا صاحبَ التطويل فى كُتْبِهِ * وصاحب التقصيرِ فى فعلِهِ
وراكبَ الغامِضِ من جهله * وتاركَ الواضح من عَقْلِه
لم يُخْطِ من ألزمه قيـدَه * بل صـيّر القيـدَ الى أهـله
قيّـده للحبس تقعـيرُه * فالقيـد لن يخرجَ من رِجْله
والله لا فارقـه قيـدُه * أو يَقْطعَ التقعيرَ من أصله

وفى الختام نرى لِزَامًا فى عقنا ، أن نحيلك على ما قاله الشـعراء وصفًا لثورة بغـداد وحريقها ، وعلى رثائهم للأمين ونمـاذج أخرى لمختلف مقولاتهم فى مختلف المناحى . وقد نشرنا لك من هذا جملة صالحة فى باب المنظوم من الكتاب الثالث من مجلدنا الثالث ، فانها تعطيك صورة صادقة لدرجة الشعر فى ذلك العصر ، فراجعه ثمة .

الفصل العاشر

نماذج لبعض الشخصيات البارزة فى العصر المأمونى

توطئة — جبرائيل بن بختيشوع — الجاحظ — أبان بن عبد الحميد اللاحقى — أحمد بن يوسف الكاتب — يحيى بن أكثم القاضى — اسحاق بن ابراهيم .

(ا) توطئـــة :

أعترفُ أنه من الصعوبة بمكان أن أختار لك أشخاص هذه النماذج . لأن الكثرة من رِجَالات العصر من الناهه والكفاية بمكان، وقـد كان يَحلُو لى حقا ويسرّنى أيّمـا سرور لو اتّسعتْ رسالتى للكتابة عن رِجَالات العصر من وزراء وعلمـاء وقصاة وشـعراء وكتّاب وأطباء ومغنين ونُدَماء، بَيْد أن ذلك يتطلب سعة لايحتملها هذا المقام .

على أنّا قد رأينا أن نكتب لك كلمات مجملة عن « جبرائيل بن بختيشوع » من أطباء العصر، وعن « الجاحظ » من ملوك الكتّاب ورؤساء الاعتزال ، وعن « أبَان اللاحقىّ » الشاعر وصاحب نظم كَلِيـلَة ودِمْنَة ، وعن « أحمـد بن يوسف » الوزير المأمونىّ ومدبّج رسالاته ، وعن « يحيى بن أكثم » قاضى قضاته وأخيرا عن « اسحاق بن ابراهيم » وهو مجموعة هؤلاء .

ويعترف لك بأن فى كتابنا شيئا من التقصير نحسّه ، وسببه حاجة هـذه الموضوعات الى الإفاضة فى الشرح والبيان وإلى التحليل والإسهاب ممـا لا قِبَل لرسالتنا به .

« وبعد » فلنبدأ بهذه النمـاذج فنقول :

(ب) جِبرائيل بن بُخْتِيشُوع الطبيب النّسطورى :

لَسْنا نريد أن نستطرد فى الحـديث عن بُخْتِيشُوع الطبيب الشهير وإنّمـا نريد أن نلمّ إلمَـامة به يتعرّف منهـا القارئ ما كان للرجل من أثر فى عصره فنقول : إن هـذه

الأُسْرة هى الأسرة الوحيده النّسطُوريّة ، التى استقام دور عزّها ثلاثة قرون ، كان لها خلالها حظّ وحاه ، وكانت لأفرادها حُظْوه ، فاستعملهم الخلفاء العباسيون ، فانتفعوا من الخلفاء ، ونفعوا الطب وغيرَ الطب من العلوم آثارهم ومُتَحات عقولهم .

أمّا هـذه التسميه فسريانيه ، وهى مركبه من لفظتين سريانيّتين ، بُخْت ومعناه العبد ، ويَشُوع ومعناه يسوع أى عبد يسوع ، وكانت هذه الأسرة من مدينه جُنْدَيْسَابُورَ ، وأوّل من عرفه التاريخ منهـا هو ديورجيس بن جبرائيـل بن بختيشوع وكان يزاول مهنة الطب فبَرَع فيها ، وَسُمَّ ذكره ، وأقيم رئيسا لمستشفى مدينته حتى إن أبا جعفر المنصور قد أرسل وفدا من قِبَـله الى جنديسابور يستدعيه إليه إذ كان قد انتابه مرض فعجزت عن شفائه نُطُس الأطبـاء فتأبى بُختيشوع بادئ الرأى حتى اعتقله العامل ، ولكن أعيان بلده من مَطَارِنَةٍ وقَسَاوِسَـه وغيرهؤلاء نصحوا له بأن يمتثل للأمر ، فانقاد لنصيحتهم وولّى وجهَه شَطْر دار السلام ، ثم كانت له حُظْوه عند المنصور . وما كنا لنستطرد فى الحديث عن هذه الأسره ، وإنّما سقنا هذه الكلمه لنأتى على شىء من أخبار أسرة جبرائيل ، لنُظْهر ما لهذا الرجل من المكانة فى عالَم الطب ، وأنه من سُـلَالَه كانت تتوارث أجلافُها عن أسـلافها هذه الصناعة .

نقول : إن جبرائيل هذا ، قد بزّ على مثال دَوِيه ، وظهرت فيه عوامل الوراثة ، فورث عن آبائه الصفات الأدبية ، وبَرَع فى صِناعه الطب ، وكان الى جانب هذا وديع الخلق ، لطيف المَحْضر ، كريم السّجايا ، عُرف فى حوّ الطب سنة ١٧٥ هـ — سنة ٧٩١ م . ذلك بأن جعفر بن خالد بن بَرْمك ، بعد أن أَلَمّ من مرضه باعتناء بختيشوع ، رغب اليـه أن يبقى معه طبيبا له ، فاعتذر وأناب عنه ابنه جبرائيل هذا ، فلقى منه كل رعاية . وكاشفه جعفر بداء خفىّ كان قد أصابه ، فعالجه جبرائيل فى ثلاثة أيام ، وشفى جعفر فرادت مكانة جبرائيل عنده ، وقرّبه منه فكان جليسَه ، وكان نديمَه ، وكان لا يفارقه ساعه واحدة . وحَدَث أن جارية من جوارى هارون الرشيد قد يبستْ ذراعُها ، فأبرأها جبرائيل بحيلة لطيفه بعد أن

أخفق الأطباء فى معالجتها، فحباه بخمسين ألف درهم، وقد عظم شأنه حتى قال الرشيد لأصحابه : كل من كانت له الىّ حاجه فليحاطب بها جبرائيل لأنى أقبل كل ما يسألنى فيه ويطلبه منى، وكان فى صحبة الرشيد أينما حلّ وحيثما ارتحل، فقد ذهب معه الى الرقّة وصار معه الى الحجاز .

ولما تولى الأمين الخلافه عرض جبرائيل على الخليفه أن يكون له خادما، فقبله ورحّب به، ولم يكن يأكل شيئا إلا ناداه، ولما بلغ ذلك المأمون اعتقل جبرائيل ولم يُطلق سَراحه حتى شَفَع فيه الحسَن بن سَهل . وفى سنه ٢١٠ هـ — ٨٢٦ م مرض المأمون مرضا أعجز أطباءَه وكان فى مقدمتهم ميخائيل صِهْر جبرائيل، فأخذ جبرائيل على نفسه شفاء المأمون، وكان مُوفّقا، فلم تمض أيام حتى شفى المأمون، فعمره بعمائه وانخذه أنيسا ونديما، ولم يَقف احترام المأمون لجبرائيل وإكرامه له عند هذا الحدّ بل قد عَدَاه الى غيره من عمال الدولة، فقد أصدر المأمون أمره الى الموظفين والعمال والقوّاد، بأن يوقّروا جبرائيل ويُجلوه، وكان الرجل يتدخّل فى شؤون طائفته كلها، حتى الشؤون الكنسيّه، وبتأثيره انتُخب البطريرك جيورجيس المعروف بآبن الصباغ فتولّى الرّياسة الدّينيه فى طائفته وهو فى سنّ الشيخوخه . ولمّا كانت سنه ٢١٣ هـ — ٨٢٨ م . مرض جبرائيل، واتفق أن الخليفه المأمون كان فى ذلك العهد قد سافر الى بلاد الروم، فأقعد المرض جبرائيل عن ملازمته، ولكنّه أناب عنه ابنه بختيشوع، ولم يرجع المأمون وبختيشوع من رحلتهما حتى كان جبرائيل قد توفى . فأقيم له مأتم حافل، قلّما كان لمثله فى ذلك العصر . ودفن فى مدفن القديس سرجيس بالمدينة، وترك مالا كثيرا، وملكا واسعا، فكانت له ضِياع بخُنْدَيْسَابُور والسوس والبَصره والسّواد . حصل عليها بما ناله من الخلفاء من التخصيصات الجزيلة، والهدايا الكثيرة فى المواسم والمعاشات . وله من الكتب رسالة فى المطعم والمشرب قدمها الى المأمون، وكتاب المدْخل الى صناعة المنطق ، ورسالة مختصره فى الطب وهى مختصر تأليف ديوكوريدس وجاليوس و بولس الايجينى، وله أيضا كتاب فى صناعة البَحُور وقد نسب اليه السمعانى فى مكتبته الشرقية معجما سُريانيا على أن هذا مشكوك فى روايته .

(ج) الجـاحـــظ :

«الكتاب وعاءٌ ملىء علماً، وظَرْف حُشِى طَرْفا، و بستان يُحْمل فى رُدْن، وروضة تقلّب فى حجْر، يبطق عن الموتى، ويترجم كلامَ الأحياء، ولا أعلم حارا أبرّ، ولا خَليطا أنصف، ولا رفيقا أطوع، ولا معلّما أخضع . ولا صاحبا أظهر كِفَاية، وأقل جناية ، ولا أقل إمْلالًا وإبْراما، ولا أقل حلاها و إجراما، ولا أقل غِيبَة ، ولا أبعد من عَضِيهَة[1] ، ولا أكثر أعجوبة وتصرفا . ولا أقل صَلَفا وتكلّفا، ولا أبعد من مِرَاء، ولا أتْرك لشَغْب، ولا أزهد فى جِدَال، ولا أكفّ عن قِتَال من كتاب . ولا أعلم قريبا أحسن مواتاة، ولا أعجل مكافأة، ولا أحضر مَعُونة، ولا أقل مؤونة ، ولا شجرة أطول عمرا، ولا أجمع أمرا ، ولا أطيب ثمرة، ولا أقرب مُجْتَنًى، ولا أسرع إدراكا فى كل أوان، ولا أوجد فى عير إبّان من كتاب . ولا أعلمُ نتاجا فى حداثة سنه، وقرب ميلاده، ورخص ثمنه، وإمكان جوده، يجمع من التدابير الحسنة ، والعلوم الغريبـه ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأخبار اللطيفة، ومن الحكم الرقيقة، ومن المذاهب القويمة، والتجارب الحكيمة، والاخبار عن القرون الماضية، والبلاد المتراحيه، والأمثال السائره، والأمم البائدة ما يجمع الكتاب» .

بهذا الأسلوب الحسن فى مَنْحاه ، الناصع البيان فى مَبْناه، الدانى القطوف، السـديد فى منهجه، العذب فى مورده : يخاطبنا شيخ الكتاب عير مدافع، والمتفنن فى الرسالات عير منازع ، أبو عثمان عمرو بن بحـر الجاحظ بعبارات تُسْتساغ فى عير مؤونة ولا كدّ ذهن ، وتُستوعب بلا إرهاق خاطر ولا إعنات روية . والجاحظ أيدك الله ليس وراء كتاباته — كما تعلم — مذهب لمستفيد، ولا مَرَاد لراغب نَقْرُها متناسبة متراصفة ، وألفاظها متنخّلة متحبّرة . وعباراتُها مُطّردة منسجمة ؛ وجملُها ممـا يُوطّأ له مِهَادُ الطبع، ويرتفع له حجاب السمع، وهى — وأنت جِدُّ عليم — من ذلك النوع الذى يدخل الآذان بلا استئذان، لمكانها

(١) الكذب والنميمة .

من الألباب، وهو من أجل ذلك يتطلب ما درسا تحليليا مطولا، وليس هذا فى مقدورنا لتعدّد الموضوعات التى عالجها، ولأنها تستلزم عناية ببحثها، والاشارة اليها، بقدر ما يتطلبه الجاحظ من عناية ودرس، فلنكتفِ بإلْمَاعةٍ موجزة عن حياه هذا البارعه الفذّ الذى تسنّم ذروةَ الكمال، وبلغ غاية النضج فى الأدب العربىّ وفنونه، وكان الى جانب هذا صاحب مذهب فى الاعتزال، هو المذهب الجاحظى، معتمدين فيها على ما كتبه ابن خلّكان وصاحب معجم الأدباء ومؤلفات الجاحظ نفسه .

نشأته :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ . ولم تكن أسرته رفيعة القدر ولا سامية المكانة، بل على النقيض كانت جدها وخَوَلا لمولاهم أبى القَلَمّس عمرو بن قلع الكِنَانىّ ثم الفُقَيمى النسّاب . وقد قيل: إن فرارا جدّ الجاحظ كان حمّالا، وإن الجاحظ نفسه كان يبيع الخبز والسمك بسَيْحان .

قال الجاحظ : أنا أسَنّ من أبى نُوَاس بسنة، وُلدتُ فى أوّل سنة ١٥٠ هـ وولد فى آخرها . وانكبّ الجاحظ على العلم منذ طفولته انكبابا عظيما، وشُغف بالمطالعة والقراءة، وعكف على الدرس والحفظ . وقد قال عنه أبو هَفّان أحد معاصريه : لم أرَ قطّ ولا سمعتُ من أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فانه لم يقع بيده كتاب قطّ إلا استوفى قراءته كائنا ما كان، حتى إنه كان يَكْترِى دكاكينَ الورّاقين ويبيت للنّظر فيها، ثم ثنّى أبو هفّان بالفَتْح بن خَاقَان، وذكر بعده اسماعيلَ بن إسحاق القاضى .

سمع الجاحظ من أبى عُبَيده، والأصمعىّ، وأبى زيد الأنصارىّ . وأخذ النحو عن صديقه أبى الحسن الأخفش . وأخذ الحديث عن يزيد بن هارون، والسَّرِىّ بن عَبْدويه، وأبى يوسف القاضى، والحجاج بن محمد بن حَماد بن سَلَمة . والكلامَ عن أبى إسحاق ابراهيم بن سَيّار النظّام المعتزلى النابه الذكر، وبه تأثّر، وعليه تخرّج فى مذهبه فى الكلام والاعتزال .

وإذ كانت ميوله الى الاطلاع واستيعاب ما يقع تحت يديه من المؤلفات على ما وصفنا، وكان قُصَارَى همه، فى مَعْداته ومَرَاحته ونُكُوره وآصاله، أن يحمط كتاباً أو يفهم باباً، وكان العصر الذى فيه دَرَج وبما علمتَ من عزارة المادة، وتعدد التآليف، وازدحام المعارف، ووَفْره مختلف الثقافات، فلا عَرْو اذا أحرنا الجاحظُ عن نفسه بقوله: «لقد نسيتُ كثيراً، لقد تعيبت ثلاثة أيام حتى أتيت أهلى فقلت لهم: بِمَ أُكْنَى؟ فقالوا: بأبى عثمان». ولا غَرْو اذا كان الجاحظ قد اتّصل بكثير من علماء وبوابع عصره، وشَهِيرى الكتّاب والمترجمين من فرس وسُرْيان، فتأثر بلا ريب دَكَاؤه بهذا الاحتلاط، وطالَعَ حِماعَ ما تُرجم فى أيام المنصور والرشيد والمأمون، فما كان يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كائناما كان، حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر — كما قلنا آنفا — فكان لذلك من بوابع العالم.

وعلب عليه أمران اثنان: الكلام على طريقة المعتزلة، والأدب ممزوجا بالفلسفة والفكاهة. ولقد قضى عامّةَ عمره بالبصرة موفور الكرامة، مَحْبُوًّا من حلائق الله، سيّما رؤساء الموالى وأعيان الهاشمية والعنايية بالعطايا والمنح، لما كان يصنّفه لهم من الرسائل التى كان يتعمد فى كتابتها التشيّع لمذهبهم ومعاضده مزاعمهم ونقض أقوال مخالفيهم. وكان له مهاره فى التلاعب بعقولهم وانتزاز أموالهم. واقتدارٌ على التعبير فى كل ما يعالجه وفى كل موقف. وكان يجح كثيرا الى بغداد فى أواخر عصر المأمون وعنه، فكان المأمون يُرفده. ثم انقطع الى الاتجاع الى محمد بن الريات طَوَالَ وزاراته الثلاث، ثم أقام بعد موت ابن الريات بالبصره حتى أُصيب بالفَالج، فبقى معلوحا حتى أسلم الروح.

ذكاؤه وخلقــه :

كان له حظ كبير وقسط وفير من الذكاء ورقة الشعور ودقة العاطفة. وله فى ذلك نوادر هى من حوارق الطبيعة. وكان غريب الأطوار، به شذوذ فى أحواله وأطواره. ذلك لأنه كان يجمع بين الجِدّ والفكاهة، حاضر النكتة، حاضر البديهة، سريع

الخاطر . وكانت به دُعَابة وتظرّف وتَمَاجُن . وكان لا يحتمل لما يأحد الناسُ به أنفسَهم وما يتواصفون عليه من العادات والرسوم وأنواع العصبية والمذهبية والجنسية . وكان كريم الأخلاق ، كريم اليـد ، سخيا سَمْحا ، ولطيف المَحْضَر ، حفيف الروح ، وكان على ما به من دَمَامه ، عايةً فى الظَّرف وحلاوه اللفظ ، وهو من أجل ذلك كان يجمع بين الضدين .

اعتقاده ومذهبـــه :

قلنا إنه تخرّج على أبى اسحـاق إبراهيم بن سيار النَّظَّام زعيم الفرقة التى تنسب اليه من المعتزلة ، وكان يلازم أستاذه هذا ويتوفّر على دروسه . فمن أجل ذلك كان الجاحظ معتزليا ، وزعيم الفـرقة الجاحظية فى الاعتزال . وقد استقع مواهبـه وما حباه الله من فصاحة الكلام وطلاقة اللسان وحسن البيان ، فى ترويج مذهبه والدِّعاوة له ، فكان لسانَ المعـتزلة الناطق ، وسلاحَهم القاطع . وبرع فى الكلام ، وخلطه بالفلسفة اليونانية . ويرميه كثيرون بالضلالة ، وأنه مَاجِنٌ مِهْذار ، متناقض نقّال ، يتلاعب بالـناس ، ويمقص اليوم ما بناه أمس . وقد دافع عنه أبو الحسن الخيّاط فى كتابه "الانتصار" على انتقادات ابن الرَّاوندى العنيفة المتوّة التى تناول فيها عقيده الجاحظ بالتجريح الشديد .

ومـما قاله أبو الحسن الخياط فيما يعتـد به هجمات ابن الراوندى : «وأما رميك للجاحظ ببغض الرسـول صلى الله عليـه وسلم ، فهو دليـل على أنك لا تعرف المحب من المبغض ، ولا الولى من العـدو ، لأنه لا يعرف المتكلمون أحدًا منهم نصر الرسالةَ وآحتج للنبوّة ، بلغ فى ذلك ما بلغـه الجاحظ ، ولا يُعرف كتابٌ فى الاحتجاج لعلم القـرآن وعجيب تأليفه ، وأنه محجة لمحمد صـلى الله عليه وسلم على نبوّته غير كتاب الجاحظ . وهذه كتبه فى إثبات الرسالة ، وكتبه فى تصحيح مجىء الأخبار مشهوره . وهل يُستدلّ على حب الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمـان به وتصديقه فيما جاء به بشىء أوكد ممـا يستدل به على حب الجاحظ الرسول وتصديقه إياه! » .

وقد تناول كبار المؤلفين من العرب : كابن قتيبة ، والأزهرى ، والمسعودى ، والبديع الهمدانى ، وأبى العباس أحمد بن يحيى ، وأبى العباس محمد بن يزيد المبرّد ، والفتح بن حاقان ، والرئيس أبى الفضل بن العميد وغيرهم شخصيةَ الجاحظ بما تستحقه من العناية والدرس ومن النقد والتقريظ ، مما لا نثبته لك هنا محافةَ الإطالة والملل ، فلتراجع فى مظانّها ومواضعها .

علمـــه :

يقول صاحب المعجم . «كان الجاحظ من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ بحيث شاع ذكره ، وعلا قدره ، واستغنى عن الوصف» . وقال غيره : إنه كان واسع العلم بفنون الكلام ، كثير التبحّر فيه ، شديد الضبط لحدوده ، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا . ولا غرو فإنّ مؤلفاته العديدة تشهد بأنه كان واسع الاطلاع حقا ، غزير المادة ، خِصْبَ الذهن ، كثير المحصول العقلىّ ، وقد أكثر التصنيف فى الأدب واللطائف والفكاهات ، وأتيح له أن يكون من أئمة الدين وكبار النُّظّار .

ويقول الفتح بن حاقان فى كتاب له الى الجاحظ : «إن أمير المؤمنين يَجِدُ بك ، ويَهَشّ عند ذكرك ، ولولا عَظَمتُك فى نفسه ، لعلمك ومعرفتك ، لحال بينك وبين بُعْدك عن مجلسه ، ولَعَصَك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفّر عليه . ولقد كان ألقى إلىّ مِنْ هذا عنوانَه ، فزدتُك فى نفسه زيادة كفّ بها عن تَحْشيمك ، فاعرِفْ لى هذه الحال واعتقِدْ هذه المِنّة على كتاب « الرد على النصارى » وافرُغْ منه وعجّل به إلىّ ، وكُنْ ممن حدا به على نفسه ، وتنال مُشَاهرتَك . قد استطلقته لما مضى ، واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة ، وهذا مما لم تحتكم به نفسُك . وقد قرأت رسالتك فى « بصيرة غلام » ، ولولا أنى أزيد فى تخيلتك لعزتْك ما يعترينى عند قراءتها ، والسلام » .

رسـائله :

للجاحظ كثير من قصار الرسائل وطوالها ، منها : أنه كتب الى عبد الله بن حاقان فى يوم عيد : « أخّرتنى العلةُ عن الوزير ، أعزه الله ، فحضرت بالدعاء فى كتابى ليوب عنى ،

ويَعمُر ما أخلفت العوائق منى، وأسأل اللهَ تعالى أن يجعل هذا العيدَ أعظمَ الأعياد السالفة بركةً على الوزير، ودون الأعياد المستقبلة فيما يُحِبّ ويُحَبّ له، ويسَّل ما ما يتوسل به الى مرضاته، ويضاعف الاحسان اليه على الاحسان منه، ويمتّعه بصحة النعمة ولباس العافية، ولا يُريه فى مَسَرّة نقصا، ولا يقطَع عنه مزيدًا، ويجعلنى من كل سوء فداءَه، فيصرف عيون الغِيَر عنه وعن حظّى منه» .

وكتب الى محمد بن عبد الملك الزيّات يستعطفه: «أعاذك الله من سوء العصب، وعصَمك من سَرَف الهوى، وصرف ما أعارك من القوّة الى حب الإنصاف، ورَجّح فى قلبك إيثارَ الأناة، فقد حقتُ، أيدك الله، أن أكون عندك من المسوبين الى نَزَق السفهاء، ومحانة الحكماء. وبعد، فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت:

وإن امرأً أمسى وأصبح سالمًا * من الناس إلا ما جَنَى لسعيدُ

وقال الآخر:

ومَنْ دعا الناسَ الى ذمه ذمُّوه بالحقّ و بالباطلِ

فان كنتُ احترأتُ عليك، أصلحك الله، فلم أحترئ إلا لأن دوامَ تفاضُلك عنى شبيهٌ بالإهمال الذى يُورث الإعمال، والعفو المتتابع يؤيس من المكافأة. ولذلك قال عُيَيْنة ابن حصْن بن حُذَيفة لعثمان رحمه الله: عمرُ كان حرًّا لى منك! أرهبنى فاتّقانى، وأعطانى فأغنانى. فان كنتَ لا تَهَبُ عمانى، أيّدك الله، لخدمة سَلَفتْ لى عندك، فهَبْه لأياديك عندى؛ فان النعمة تشفع فى النِّقمة. وإلا تفعل ذلك لذلك، فعُدْ الى حسن العادة، وإلا فافعَلْ ذلك لحسن الأُحدوثة، وإلا فأْتِ ما أنت أهلُه من العفو دون ما أنا أهلُه من العقوبة. فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمِّد، وتجافَى عن عقاب المُصِرّ، حتى إذا صرتَ الى من هفوتُه ذكرٌ، وذنبُه نسيان ومن لا يعرف الشكرَ إلا لك، والانعامَ إلا منك، هجمتَ عليه بالعقوبة. واعلم، أيدك الله، أن شَيْنَ عصبك علىّ، كزَيْن صفحك عنى، وأن موتَ ذكرى مع انقطاع سببى منك، لحياة ذكرى مع اتصال سببى بك. واعلم أن لك فِطْنةَ عليم، وغَفْلةَ كريم. والسلام».

وللجاحظ رسائل فى الاستعطاف وشكوى الزمان آية فى الـلاغة أثبتناها فى المجلد الثالث من هذا الكتاب .

وقد قال فيه بديع الزمان الهمدانىّ فى المقامه الجاحظية : «إن الجاحظ فى أحَد شِقّى البلاغة يَقْطِف ، والآخر يقف ، والبليغ من لم يُقَصِّر بطمُه عن شِره ، ولم يُزْرِ كلامُه بشعره ، فهل تَرْوُون للجاحظ شعرًا رائقا؟ قلنا لا . قال : فَهَلُمُّوا الى كلامه ، فهو بعيدُ الاشارات ، قريبُ العبارات ، قليـلُ الاستعارات ، مقادُ لعُرْيان الكلام يستعملُه ، نَفُورٌ من مُعْتاصه يُهْمِلُه ، فهل سمعتم له لفظةً مصنوعة أو كلمةً غير مسموعة ؟ » .

شـــعره :

قيـل : إن للجاحظ شـعرا ، ولكنا نظرنا فيما يسـبه له يموت بن المُزَرِّع وأبو العَيْناء وأبو الحَسَن البَرْمكى وغيرهم فوجدناه أقلّ طبقةً من بلاغته . مما يُنسب اليه قوله .

يَطيبُ العيش أن تَلْقَى حكيما * عداه العـلمُ والفهمُ المصيبُ
فيكشِفُ عنك حَيْرَةَ كل جهلٍ * وفصـلُ العـلم يعرفه اللبيبُ
سَقَامُ الحِـرْص ليس له شِفاءٌ * وداءُ الجهـل ليس له طبيبُ

مصـــنفاته :

صنف الجاحظ أكثر من مائى كتاب . قال المسعودى : وكُتُب الجاحظ مع انحرافه تحلو صَدَأً الأذهان ، وتكشِفَ واضحَ البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورَصَفها أحسن رَصْف ، وكساها من كلامه أحسنَ وأجزلَ لفظ . وكان اذا تخوّف مَلَلَ القارئ وسآمة السامع ، خرج من جِدّ الى هَزْل ، ومن كلمه بليغه الى نادرة طريفة . وله كتبٌ حِسان : منها «البيان والتبيين» وهو أشرفها ، لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم ، وغرر الأشعار ومستحسن الأحاديث والخطب ، ما لو اقتصر عليه مُقتصر لاكتفى ، « وكتاب الحيوان » و « كتاب الطفيليين » و « كتاب البخلاء » . وسائر كتبه فى نهاية الكمال مالم يقصـد منها الى تصعيب ولا الى دفع حق . ولا يُعْلَمُ ممن سَلَف وخَلَف أفصحُ منه .

وقال ابن العميد : كتب الجاحظ تعلّم العقلَ أوّلا والأدبَ ثانيا .

أخبـاره :

حدثنا أبو معاذ عبدالله الخُولى المتطبِّب قال : دخلنا يوما «بسُرَّمَنْ رَأى» ، على عمرو بن بَحْر الجاحظ نعوده وقد فُلِجَ ، فلمّا أحذنا مجالسنا ، أتى رسول المتوكل فيه ، فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بشِقّ مائل ، ولُعَابٍ سائل . ثم أقبل علينا فقال : ما تقولون فى رجل له شقّان ، أحدُهما لو عُرِزَ بالمَسالّ ما أحسّ ، والشقّ الآخَر يمرّ به الذباب فيُغَوِّث ، وأكثرُ ما أشكوه الثمانون . ثم أنشدَنا أبياتاً من قصيدة عَوْف بن محلّم الخُزَاعىّ . قال أبو مُعَاذ : وكان سبب هذه القصيدة أن عوفاً دخل على عبد الله بن طاهر ، فسلّم عليه عبدُ الله فلم يسمع ، فأُعْلِم بذلك ، فزعموا أنه ارتحل هذه القصيدة ارتحالا .

يابن الذى دَانَ له المشرقان * طُرًّا وقـد دان له المَغْربان
إنّ الثمانينَ وبُلِّغْتَهـا * قد أحوجتْ سمعى الى تَرْجُمَان
وبدّلتنى بالشَّطَاط انحنًـا * وكنتُ كالصَّعْدة تحت السِّنان
وبدّلتنى من زَمَاع الفتى * وهمّتى هَمّ الجبـان الهِدَان
وقارسْتُ منّى خُـطًّا لم تكن * مُقَارَباتٍ وثَنَتْ من عِنـان
وأنشأت بينى وبين الورى * عَـانةً من غير نسج العَنَـان
ولم تـدعْ فىَّ لمستمتِـعٍ * إلا لسانى ، وبحسبى لسان
أدعو بـه الله واثنى بـه * على الأمير المُصْعَبِىّ الهِجَان
فقرّمانى ، مأى أنعمـا ، * من وطنى قبل اصفرار البَنَان
وقبـل مَنعاىَ الى نسوةٍ * أوطانُهـا حرَّانُ والرَّقَّتَانِ

والجاحظ ، أيدك الله ، قد جمع الى مواقفه الكبار فى الجدل والتناظر ، ومتانة الأسلوب وتدفّقه ، وسمو المنحى وبلاغته ، وقوّة اللفظ وفخامته ، حموحًا عظيما الى الدُّعابة واللطائف والتنـدُّر والطرائف ، والمُلَح والنُّكَت ، والكت مع الأدب ، مع خفة ظل ، وظَرْف روح حبّبه الى النفوس ، ومع نباعة وعبقرية جعلتاه فوق الهَام والرءوس ، وعدو بة عبارة ، ومائية أسلوب ، كأنهما الراح فى الكؤوس !

ومن حملة أخباره أنه قال . ذُكرت للمتوكل لتأديب بعض وَلَده، فلما رآنى استبشع مَنْظرى، فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصَرَفنى، فخرجت من عنده، فلَقِيتُ محمد بن ابراهيم، وهو يريد الانصراف الى مدينة السلام، فعرض علىّ الخروجَ معه والانحدارَ فى حَرّاقته، وكنا نُسرّ مَنْ رَأى، فركبنا فى الحرّاقه، فلما انتهينا الى فم نهر القاطُول، ضرب ستارًا وأمَرنا بالغناء، فاندفعتْ عوّادةٌ فغنّتْ :

كلّ يومٍ قَطِيعةٌ وعِتابُ * يقضى دهرُنا ونحن عِصابُ
ليت شعرى أنا خُصِصْتُ بهذا * دون ذا الخلق أم كذا الأحبابُ

وسكتتْ، فأمر الطُّنْبورية فغنّتْ :

وَارَحْمَتَا للعاشقيـنَا * ما إن أرى لهمُ مُعِينَا
كم يُهجَرون ويُصْرَمو * نَ ويُقْطَعون فيَصْبِرونا

قال : فقالت لها العوّادة : فيصعبون مادا؟ قالت : هكذا يصعبون، وضربت بيدها الى الستار فهتكته، و برزتْ كأنها فِلْقة قمر، فألقت نفسها فى الماء، وعلى رأس محمد غلامٌ يصافيها فى الجمال و بيده مِذَبّة، فأتى الموضعَ وطرح بها وهى بين الماء وأنشد :

أنتِ التى عَرَّقْتِنى * بعد القَضا لو تعلمينا

وألقى نفسه فى أثَرِها، فأدار الملّاحُ الحرّاقةَ، فاذا بهما متعانقان، ثم عاصا فلم يُرَيَا، فاستعظم محمد ذلك وهاله أمرُهما، ثم قال : يا عمرو لَتُحَدّثنّى حديثًا يُسَلّينى عن فعل هذين وإلا ألحقتك بهما، قال : فحصرنى حديثُ يزيد بن عبد الملك وقد قعد للظالم يوما، وعُرِضت عليه القصصُ، فمرّت به قصةٌ فيها · « إن رأى أميرُ المؤمنين أن يُخْرِجَ إلىّ جاريتَه فلانة حتى تغنينى ثلاثة أصوات فعل» فاغتاظ يزيد من ذلك وأمر مَنْ يحرح اليه ويأتيه برأسه، ثم أتبع الرسولَ رسولًا آخر، يأمره أن يُدخل اليه الرجلَ فأدخله، فلما وقف بين يديه قال له : ما الذى حملك على ما صنعتَ ؟ قال : الثقة بحلمك والاتكال على عفوك؛ فأمره بالجلوس

حتى لم يبق أحدٌ من بى أمية إلاّ خرج، ثم أمر فأُخرِجت الجاريةُ ومعها عودها، فقال لها الفتى غنّى :

أفاطِمَ مَهْـلاً بعض هـذا التدلُّلِ * وإن كنت قد أزْمعتِ صرْمى فأَجْمِلى

فغنّته، فقال له يزيد : قل، فقال : غنّى :

تألّق البرقُ نجـدياً فقلتُ له * يأيها البرق إنى عنك مشغول

فغنّته، فقال له يزيد : قل، فقال : يا مولاى، تأمر لى برطل شراب ! فأمر له به، فما استتمّ شربَه حتى وثب وصعِد على أعلى قبّـه ليريد فرمى نفسه على دماغه فمات، فقال يزيد : (إنا لله وانا إليه راجعون) أترَاه الأحمق الجاهل ظنّ أنى أُحرح اليه جاريتى وأردّها الى مِلْكى ! يا غلمان، حدوها بيدها وآحملوها الى أهله إن كان له أهل وإلا فبيعوها وتصدقوا بثمنها، فانطلقوا بها الى أهله، فلما توسطت الدار نظرت الى حفيره فى وسط دار يزيد قد أُعدّت للمطر، فحدسْ نفسَها من أيديهم وأنشدت :

مَن مات عشقًا فليمُتْ هكذا * لا خير فى عشـــق بلا موت

فألقت نفسَها فى الحفيره على دماغها فماتت، فسُرِّىَ عن محمد وأجرل صلتى .

«وبعد» فان رسالتنا لاتسع التبسّط فى القول، ولاسيما شخصية بارزة كشخصية الجاحظ، التى تطلب كما قلنا رسالة مُسْهَبَة، لمكانة الرجل، فيما قدّمناه لك عنه الغُنْيةُ والكفاية. ونرى واجبا علينا قبل أن نحم كلمتنا أن نحيلك هنا، على رسالة حطية منسوبة اليه عثرنا عليها بدار الكتب المصريه، قيل إنه كتبها عن بى أميـه : وسبق أن أشرنا اليها فى كلمتنا عن العصرالأُموىّ . وهى وحدها تنطق بوجهة نظر الرجل ومذهبه فى الاعتزال، وتشهد بطول باعه فى التبسط والإسهاب، مع فخامة اللفظ وحلاوته، وفراهة الأسلوب وطلاوته، وسموّ البيان ومكانته. وقد أشتناها لك فى باب المنثور من الكتاب الثالث من المجلد الثالث. فراجعها ثمة.

(د) أبان بن عبد الحميد اللاحقى :

هو أبان بن عبد الحميـد بن لاحق بن عفر مولى بنى رَقَاش . كان بالبصرة، ثم رحل الى البرامكة ببغداد، فاتصـل بهـم ومدحهم ونال جوائزهم ؛ ثم قويت الصـلةُ بينهم

وبينـــه حتى اتخذوه لهم معلّمـا ونصيحا، يستشيرونه فى مهام أمورهم وتدبير شؤونهـم . وبلغ من حفاوتهم به وإكرامهم له ، أن حملوا اليه امتحان الشـعراء وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلات لكن هـذا المنصب . جعله عَرَضًا لمَحْو الشـعراء وذمّهم ، لأنه ليس فى مقدوره أن يرضيهم جميعا من جهـة ، ولأنهم كانوا يرونه دون أن يكون لهم حَكَمًا من جهة أخرى .

وكان أبو نُواس من أشـدّ هؤلاء الشـعراء نِقْمةً على أبَان ، فان أبا الفرج الأصبهانىّ يحدّثنا أن أبا نواس لم يرضَ المرتبةَ التى حمله فيها أبان، فقال يهجوه بهذه الأبيات :

حالستُ يومًا أبانا * لادَرّ دَرُّ أبانِ
ونحن حصـرُ رِواقِ الـ * ـأمير بالنَّهْـرَوان
حتى اذا ما صَـلاةُ الـ * ـأولَى دنتْ لأوان
فقـام مُنْـذرُ رِبِّى * بالـبِرِّ والإحسان
فكلمـا قال فلـا * الى انقضاء الأذان
فقال كيف شـهِدتُمْ * بدا سـير عيان
لا أَشْهَدُ الدهرَ حـتى * تُعايِنَ العيانِ
فقلت سبحانَ ربّى * فقـال سـبحانَ مَانى (١)

و بقيه القصيدة فى ديوان أبى نواس .

فقال أباد يجيبه : —

ان يكن هـذا الـسَّوَا * سِىّ بلا ذنبٍ هَمَانا
فلقـد ... ... حينًـا * وصَـفَحْناه زمانا
هانئُ الجَوْنِ أبوه * زاده الله هَـوَانا
سائـلِ العبّاسَ واسمع * فيه من أمّك شانا
عجَنـوا من حُلّبَارٍ * ليكيدوك عجَانا

(١) اسم لصاحب طائفة من الملحدين .

وحُلَّار هذه هى أم أبى نُوَاس، كان قد تزوجها العباس بعد أبيه . وربما كان لباعث هذه المُهَاتَرة بين أبى نُوَاس وأبان أثر كبير فيما كان بين أبى نُوَاس والبَرامكة من كراهيه وبغضاء ، فان أبا نُوَاس كان معروفا بسمو المكانة فى الشعر ، فلا يستطيع مثل أبان أن يُنزله عن منزلته التى هو جدير بها ، إلا اذا كان فى ذلك هَوًى للبرامكة ، وقد يكون نوَى منهم . لكن أبا نُوَاس لم يجد مَصْدَرًا للحكم غير أبان فهَجَاهُ ، ولم يكن هجْوه أبان ليَشْفى عليله وإنما يشفى عليله لو استطاع أن ينال بالهجو من براهم حليقين بهجوه ، وهم البرامكة ! ولكنه لا يستطيع أن يناله بالهجو ، وهم أصحاب الدولة والسلطان .

كان أبان شديد الإعجاب بنفسه ، مُدِلًّا بعلمه وأدبه . والقصيده التى قدّمها للبرامكة ، حين حاول أن يتصل بهم ، على زعم أن يكون له شفيع من ترعيهم فيه ، نُعْطيها صورة واضحة عنه . وهذه هى القصيده —

أنا مِنْ نُعْيَة الأمير وكَنْز * من كُنُوز الأمير ذو أَرْباح
كانَ حاسٌ حطيبُ أديبٌ * ناصحٌ زائدٌ على النُّصَّاح
شاعرٌ مُفْلِقٌ أَخَفّ من الرّيـ * ـح مما يكون تحت الحاح
لى فى النّحو فِطْنَة واتِّقَادٌ * أنا فيه قِلَادةٌ بوشَاح
ثم أَرْوَى من ابن سِيرِين للعِلْـ * ـم نقوى مسوّر الإفصاح
ثم أروى من ابن سيرين للشعـ * ـر وقول التَّسِيب والأَمداح
وطريفُ الحديث فى كل فنٍّ * ونَصِرٌ بُرَّهاتِ المِلَاح
كم وكم قد حَبَأْت عندى حديثًا * هو عند الملوك كالتُّفّاح
فبمثلى تَحْلُو الملوك وتَلْهُو * وتُباحى فى المُشْكِل الفَدَّاح
أَيْمَنُ الناس طائرًا يوم صيدٍ * لعدوّ دُعِيتُ أو لرَوَاح
أبصرُ الناسِ بالجواهر والخيـ * ـل وبالجُرَّدِ الحِسانِ الصِّحَاح
كلّ ذا قد جمعت والحمدُ للّـ * ـه على أنى طريفُ المِزَاح

لستُ بالناســك المشــمِّرِ ثوبيــ*ــهِ ولا الماجنِ الخليــعِ الوَقَاح
لو رمى بى الأمــيرُ أصــلحه اللــ*ــه رِماحًا لَمَلْتُ حــدَّ الرِّمَاح
ما أنا واهٍ ولا مســتكنٌ * لســوى أمر سيِّدى ذى السَّماح
لستُ بالصَّحْم يا أميرى ولا القَزْ * م ولا بالمُحَــدَّر الدَّحْــداح
لِحْيــةٌ جَعْــدُهُ ووجهٌ صَــبيحٌ * واتِّقادٌ كشُعْلة المصــباح
إن دعانى الأمــيرُ عَايَنَ منِّى * شَمَّــرِيًّا كاللَّيْــل الصــيَّاح

على أن أبَان ، مع إعجابه بنفسه ، وإدلاله بعلمه وأدبه ، لم يكن فى مقدوره أن يُسَايِر كِبَارَ معاصريه من الشــعراء ، كأبى نُوَاس وأضرابه ، فى قوة الشــعر واختــلاف فنونه ، وحسن لفظه ، ورقة معانيه .

ولعلّ ذلك يرجع الى أنه كان ينقصه حِصْب النَّفْس ، وقوّة الحسّ ، والخيــال المبدع للصّور الشِّعْرية ، أى قوّة الابتكار والاختراع ، فان هــذه القُوَى جميعا لا بدّ منهــا للشاعر ، لكى يُحِسَّ وسترع ويصوّر . وهذا يفضى بنا الى إحدى نتيجتين : إمّا أن نشك فيما وَصَف به نفسه : من جمال الظّرف ، وحِفَّة الروح ، واتّقادِ الذّهن ، نشك فى اتّصــافه حقا بهذه الصــفات ، التى تملأ النفس شعورا بمــا فى الحياه من صور للشِّــعر ، وإمّا أنه كان قصير الباع فى تصوير ما تُحِسُّه نفسه . وكلا الأمرين يبعد البَوْن بينه وبين أبى نُوَاس وأضْرَاب أبى نُوَاس . ولئن نَقَصته القوى التى تمدّه بالصور الشعرية ، فقــد وُفِّق إلى فنّ حديد نُحْسَب أنّه لم يُسبَقْ إليــه ، وهذا الفن لا يضطره الى كدّ القريحه وإعمال الفكر فى تَصيُّد المعانى الجميلة ، وإبرازها فى أثواب راهية حذّابة ، بل لا يحتاج معه الى أكثر من أن تكون لديه ملكة النَّظْم ووزنُ الكلام ، اذ المعــانى بَيْن يديه ، لا يتكلف فى ســبيلها سعيا ، أو كدّ قريحة . وهــذا الفن الجــديد هو النَّظْم التَّعليمىّ ، وهو أن يَعْمد الشاعر الى كتاب معروف منثور فيَنظِمَه ، أو إلى قواعد عامة فى الشَّريعه أو فى اللغــة أو فى فرع من فروعهما ، فينظِمَها أيضا ، ليَسْهُل حفظها ويَقْرُب تناولهــا . وهــذا ما فعله أبَان ،

وما حملنا تُؤْثِره بالكلام، فإن هذا النوع من النَّظم، يُمثِّل ناحيةً طَريفَة من نَواحي الأدب الجديدة في عصرنا المأمونيّ . فقد نكون مُقصِّرين كلّ التقصير، إذا أغفلنا ذكر مُبْدِعه ومُبْتَكِره . نقول « وهذا ما فعله أَبَان » فإن الصّوليّ وأبا الفرج الأصفهانيّ يحدّثاننا بأن أَبَاناً نَظَم للبرامكة كتابَ كَليلة ودِمْنَة ، ليُسْهِل عليهم حفظه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف دينار ، ولم يعطه جعفر شيئا ، وقال له : يكفيك أن أحفظه فأكونَ راوِيَتَك . وقد نقل الأصفهانيّ من هذا الكتاب بيتين هما :

هذا كتاب أدبٍ ومحنــهْ * وهو الذي يُدْعَى كليلَه دِمنهْ
فيه اختيالاتٌ وفيه رُشْدُ * وهو كتاب وضعته الهِنْدُ

وقد أفادت الأيّام هذا الكتاب، كما أفادت كثيرا غيره من الكتب العربيّة القيّمة ، حتى يَئِس الأدباء والمؤرّخون في العصر الحديث، من العثور على شيء منه . وقد يكون من حسن الحظ أن نعلن سرورنا بأنّا قد وُفِّقنا الى جزء كبير من هذا الكتاب ، في جزء أو أوراق من كتاب الأوراق المنسوب للصُّولي، اذ عثرنا عليه بدار الكتب المصرية منذ أمد طويل حينما كنا نبحث فيها عما وضعه العرب من الموسوعات والمَعْلَمات . وسنذكر في المجلد الثاني ما وجدناه فيه .

ويحدّثنا أبو الفرج بأنه عمل أيضا القصيدة التي ذكر فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا وشيئا من المنطق، وسمّاها ذات الحُلَل، ومن الناس من يَنسُبها الى أبي العَتَاهِيَة، والصحيح أنها لأَبَان . وسياق أبي الفرج هذا ، لايدع سبيلا الى الشّك في وجود هذه القصيدة ، ومع الأسف لم ينقل الينا منها شيئا .

ويحدّثنا الصُولي بسنده أنّ أَبَاناً، لما عمل كتاب كليلة ودِمْنَة شعرا، في قصيدته المُزْدَوجة أعطاه البرامكة على ذلك مالا عظيما ، فقيل له بعد ذلك : ألا تعمل شعرا في الزهد ؟ فعمل قصيدةً مزدوجة في الصيام والزكاة، وقد وجدت هذه القصيدة ،

وترجمتُها « قصيدة الصيام والزكاة نقل أبان من فم الرواة » ثم ذكر القصيدة . وقـد نشرنا ذلك كله فى موضعه من المجلد الثانى .

(هـ) أحمد بن يوسف الـكاتب :

هو أبو جعفر أحمد بن يوسـف بن القاسم بن صُبَيح الكاتب من أهل الكوفه ومن موالى بنى عِجْل . كان مذهبه الرسائل والإنشاء ، وزّره المأمون بعد أحمد بن أبى خالد ، فقد كان يتـولى ديوان الرسائل له ، وكان معـروفا بين أهل عصره بسـمو المكانة فى العـلم والأدب ، والكتابة والشعر . حَكَى عن المأمون ، وعبـد الحميد بن يحيى الكاتب ، وحكى عنه ابنه محمد بن أحمد بن يوسف ، وعلىّ بن سليمان الأخفش ، وغيرهما .

كتابته :

أما مكانته فى الكتابة فرسائله وتوقيعاته التى تحلّت بهـا صدور الأدب ، وزيّنت بها كتب التاريخ ، تجعله فى مقدّمة الكتّاب ومن أئمتهم ، وهى بمـا فيها من جَوْدة وإحكام ، وتخيّر للألفاظ ، وسلاسة فى المعانى ، تدل على أنه كان خصيب النفس ، سريع الخاطر ، وعلى أنه مالك أعنّة المعانى ونواصى الكلام . ولقـد شَهِد له بالسَّبْق فى الكتابة والرسائل كبار رجال عصره ومن جاء بعده .

قال الصولى : لمـا مات أحمد بن أبى خالد الأحول ، شاور المأمون الحسن بن سهل فيمن يكتب له ويقوم مقامه ، فأشار عليـه بأحمد بن يوسـف ، وبأبى عباد ثابت بن يحيى الرازىّ ، وقال : هما أعلم الناس بأخلاق أمير المؤمنين ، وخدمته ، وما يرضيه ، فقال له : اختر لى أحدهما ، فقال الحسن : إن صَبَر أحمد على الخدمة ، وجفا لدّته قليلا ، فهو أحبّهما الىّ ، لأنه أعرف فى الكتابة وأحسبهما بلاغة ، وأكثر علما ! فاستكتبه المأمون .

وروى الصولى بسـنده : أن الكتّاب اجتمعوا عنـد أحمد بن اسرائيـل ، فذكروا المـاضين من الكتّاب ، فأجمعوا أن أكتب من كان فى دولة بنى العباس : أحمد بن يوسف ،

وابراهيم بن العباس؛ وأن أشعر كتّاب دولتهم : ابراهيم بن العباس ، ومحمد بن عبد الملك الزيات؛ فابراهيم أجودهما شعرا، ومحمد أكثرهما شعرا ، ثم الحسن بن وهب، وأحمد ابن يوسف .

فأنت ترى — أعزك الله — أن هؤلاء الكتّاب لم يقدّموا أحدا من كتّاب دولة بنى العباس على أحمد بن يوسف فى الكتابة . وإن قدّموا عليه فى الشعر . والحقّ أن نبوغه فى الكتابة هو الذى كان سببا الى ظهوره ورفعته ، فقد روى العلماء أنه لما قُتل الأمين ، أمر طاهر بن الحسين الكتّاب أن يكتبوا الى المأمون فأطالوا، فقال طاهر : أريد أقصر من هذا ' فوُصف له أحمد بن يوسف فأحضره لذلك، فكتب :

«أما بعد، فإنّ المخلوع ، وإن كان قَسيم أمير المؤمنين فى النَّسَب والفُحْمَة ، فقد فرّق حُكم الكتاب بينه وبينه فى الولاية والحُرْمة، لمفارقته عصمة الدين، وخروجه عن إجماع المسلمين؛ قال الله عز وجل لنوح عليه السلام فى ابنه ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ ولا صلة لأحد فى معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت فى ذات الله ؛ وكتبت الى أمير المؤمنين، وقد قَتل الله المخلوعَ وأحصد لأمير المؤمنين أمره، وأنجز له وعده، فالأرض بأكنافها أوطأ مهاد لطاعته، وأتبع شىء لمشيئته، وقد وجهت الى أمير المؤمنين بالدنيا وهو رأس المخلوع ، وبالآخرة وهى البُرْدَة والقضيب ، والحمد لله الآحد لأمير المؤمنين بحقه، والكائد له من حان عهده ونكث عقده، حتى ردّ الألفة، وأقام به الشريعة . والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

قيل : فرضى طاهر ذلك وأنفذه ، ووصل أحمد بن يوسف وقدّمه .

وقيل : إن المأمون لما حُمِل رأس المخلوع اليه ،وهو بمرو، أمر بإنشاء كتاب عن طاهر ابن الحسين، ليُقرأ على الناس فكُتبت عدّة كتب لم يرضها المأمون ولا الفضل بن سهل، فكتب أحمد بن يوسف هذا الكتاب، فلما عُرضت النسخة على ذى الرياستين، رجع نظره فيها، ثم قال لأحمد بن يوسف : ما أنصفناك، ودعا بقهرمانه ،وأخذ القلم والقرطاس،

وأقبل يكتب بما يُفرَّع له من المنازل، ويعـد له فيها من الفُرُش، والآلات، والكسوة، والكُرَاع، وغير ذلك؛ ثم طرح الرقعة الى أحمد بن يوسف وقال له: اذا كان فى غد، فاقعد فى الديوان، وليقعد جميع الكتّاب بين يديك، واكتب الى الآفاق.

قيل: ومما كتبه للمأمون حين كثر الطلاب للصلات سأله: «داعى ندالك يا أمير المؤمنين، ومُنادِى جَدْواك، جمعا الوفود ببابك يرجون نائلك المعهود، فمنهم من يمتّ بحُرمة، ومنهم من يُدِلّ بخدمة، وقد أجحف بهم المُقام، وطالت عليهم الأيام، فإن رَأَى أمير المؤمنين أن يُنعشهم بسببه، ويحقّق حُسن ظنهم بطَوْله، فعل إن شاء الله تعالى». فوقّع المأمون: «الخير مُتّبع، وأبواب الملوك معانٍ لطالبى الحاجات، ومواطن لهم، ولذلك قال الشاعر:

يَسقُط الطيرُ حيث يلتقط الحبّ وتُغْشَى منـازلُ الكـرماء

فاكتب أسماءَ من ببابنا منهـم، وأحك مراتبهم، ليصل الى كل رجل قَدْرُ استحقاقه، ولا تكدّر معروفنا عندهم بطول الحجاب، وتأخير الثواب، فقد قال الشاعر:

فإنك لن ترى طـردًا لحـرّ * كإلصاقٍ به طَـرَفَ الهوان»

وقال ابراهيم بن العباس: سمعت أحمد بن يوسف يقول: أمرنى المأمون، أن أكتب الى السـواحى فى الاستكثار من القناديل فى المساجد، فبتّ لا أدرى كيف أفتتح الكلام، ولا كيف آخذ به، فأتى آت فى منامى، فقال: قل: فإنّ فى ذلك أُنسًا للسابلة، وإضاءة للمتهجّدة، ونفيًا لمكامن الرِّيَب، وتنزيها لبيوت الله عن وحشة الظُّلَم، فانتبهت وقد انفتح لى ما أريد، فابتدأت بهذا وأتممت عليه.

ومن رسائله أيضا: "لقد أحلّك الله فى الشرف أعلى ذروته، ولمّعك من الفضل أبعدَ غايتـه؛ فالآمالُ اليك مصروفة، والأعناق اليك معطوفة؛ عنـدك تنتهى الهِمَم السامية، وعليك تَقف الظنون الحسنة، وبك تُثنَى الخناصر، وتُستَفتح أغلاق المطالب؛ ولا يُستَريث النُّجْح من رحالك، ولا تعروه النوائب فى دارك" وإنا نحيلك على ما أثبتناه لك فى المجلد الثالث من آثاره الممتعة.

شـــعره :

كان أحمـد بن يوسف شاعرا مُعرقًا فى الشعر كما كان مُعرقًا فى الكتابة، إلّا أن حظّه من الشـعر كان دون حظّه من الكتابة، فإنّ نُقّاد عصره لم يقدّموا عليـه أحدا فى الكتابة من كتّاب بنى العباس ووزرائهم، وقد قدّموا عليه كثيرا فى الشعر. وقد ذكرنا فيما سبق من ترجمته إجمـاع فريق من الكتّاب على سبقه فى الكتابة دون الشعر. وقد روى الصولى لسنده أن قَعْنَب بن مُحْرز الباهلىّ قال: كنا نقول لم يلِ الوزارةَ أشعرُ من أحمد بن يوسف، حتى وَلِىَ محمد بن عبد الملك، فكان أشعرَ منه!

ولم يكن المـدح كثيرا فى شـعر أحمد بن يوسف، فإنه كان بحكم مركزه كوزير للمأمون ورئيس ديوان رسائله، غير محتاج الى أن يتكسّب بشعره، أو يمدح الناس، ولذلك لا نرى فى شـعره مدحا لغير المأمون وليّه وربّ نعمته. وكذلك كان هجاؤه قليـلا، فإنّ مروءته، وأدبه، ومركزه، واعتداده بنفسه، كل ذلك كان يرفعه عن أن يكون هجّاء مُقْذِعا، وإنمـا كان يُضطر أحيـانا الى ذمّ أعدائه ومناسبيه، فى غير إقذاع ولا فحش. فمن ذلك قوله فى سعيد بن سالم الباهلى وولده — وقد كانت بينهم وبينه عداوة — فذكرهم يوما فقال: "لولا أن الله عز وجل ختم رسالتـه محمد صلى الله عليه وسـلم، وكُتبَه بالقرآن، لبعث فيكم نبىّ نَقْمة، وأنزل عليكم قرآن غَدْر، وما عَسَيتُ أن أقول فى قوم، محاسنهم مساوئ السِّـفَل، ومساوئهم فضائح الأمم". وقال يهجوهم:

أبنى سَـعيدٍ إنكم من مَعْشر * لا تُحسدون كرامـةَ الأصيافِ
قـومٌ لبـاهلة بن أعْصُر إن هُمُـو * نَفَـروا حسبتهمو لعـد منـافِ
مَطَلُوا العداء الى العشاء وقرّبوا * زادًا لَعَمْـرُ أبيـك ليس بكافِ
بينـا أتاك أتاهـمُ كبراؤهم * يَلْحَوْن فى التبـذير والإسرافِ
وكأننى لمّـا حَطَطتُ اليهمـو * رَحْـلى حططت بأبرق العـزافِ

أخلاقه وســـيرته :

كان أحمـد بن يوسف فَطِنا ، بصيرا بأدوات الملك وآداب السلاطين ، ذكيّا سريع الخاطر دا مروءه وكرم، وكان مع ذلك يضرب فى المجون واللهو بسهم . ومما يدل على عظيم مروءته ما قاله عبدالله بن طاهر حين خرج من بغداد الى خراسان لابنه محمد، وما وقع بين محمد هـذا و بينه بعد ذلك . قال عبد الله لابنه . إن عاشرتَ أحدا بمدينة السلام فعليك بأحمد بن يوسف الكاتب فإن له مروءه . فلما خرج محمد حين انصرف من توديع أبيه على شيء حتى هجم على أحمد بن يوسف فى داره، فأطال عنده، فَفطِنَ له أحمد فقال : يا جارية عَدّيا، فأحضرت طبقا وأرعفة بقيّة وقدّمتْ ألوانا يسيرة وحلاوه وأعقب ذلك بأنواع من الأشربة فى زجاج فاخروآنية حسنة وقال : يتناول الأمير من أيها شاء . ثم قال : إن رأى الأمير أن يُشَرِّف عبده و يحيئه فى عَدٍ فأنعِمْ بذلك . فمص وهو متعجّب من وصف أبيه له ؛ وأراد فصيحته، فلم يترك قائدا جليلا ولا رَجُلا مذكورا من أصحابه إلّا عرّفهم أنه فى دعوة أحمد بن يوسف وأمرهم بالغدو معه، فلما أصبحوا قصدوا دار أحمد بن يوسف وقد أخذ أُهبتـه وأظهر مروءته ، فرأى محمد من الصفائد والفُرُش والستور والغلمان والوصائف ما أدهشه، ونُصِبَ ثلثمائة مائده وقد حُفَّت ثلثمائة وصيفه، ونقل الى كل مائدة ثلثمائة لون فى صحاف الذهب والفضة ومثارد الصين، فلما رُفعت الموائد قال ابن طاهر : هل أكل مَن بالباب؟ فمطروا، فادا جميع مَن بالباب قد نُصبت لهم الموائد فأكلوا، فقال : شتان بين يوميك يا أبا الحسن ! (كذا فى هذه الرواية كنّاه بأبى الحسن) فقال : أيها الأمير، ذاك قُوتى وهذه مروءتى .

أما اللهو والمجون فقـد كان حظّه منهما عير قليـل . وحسبنا أن نذكر ما قاله الحسن ابن سهل، حين شاوره المأمون فيمن يختاره، بعـد أحمد بن أبى خالد، فأشار عليه بأحمد ابن يوسف و بأبى عباد ثابت بن يحيى الرارى، فقال له . اختر لى أحدهما ؛ فقال الحسن : إنْ صَبَرَ أحمد وجفا لذّته قليلا فهو أحبّهما الىّ .

ولقد كان به ما كان ببعض معاصريه، من الكتاب والشعراء والادباء، من ميل الى الغلمان .. ! لذلك لم يكن عَزَله بريئا، ولم يعالجه على أنه فنٌّ من فنون الشعر، وإنما كان عَزَله يترجم ترجمة صادقة عن شعوره ونوازع نفسه؛ فإنك لا تستطيع أن تسمع ما كان بينه وبين موسى بن عبد الملك ثم تحكم له بأنه اصطنع الغزل فنّا من فنون الشعر؛ فقد كان موسى هدا فى ناحيته، وهو الذى قدّمه وحرّجه، وكان يرمى بما كان يُرْمَى به مما تمسك عن ذكره.

حدّث موسى نَفْسُه، فقال: وهب لى أحمد بن يوسف ألف ألف درهم فى مرّات. وقد لامه محمد بن الجهم على تقديمه موسى بن عبد الملك على صباه، فكتب اليه أحمد ابن يوسف شعرا يلتمس اليه فيه أن يكفّ عن عذله. وقد أمسكنا عن ذكره أيضا لما فيه من محون.

ومن عزله ما قاله فى محمد بن سعيد بن حماد الكاتب، وكان يميل اليه، وقيل عنه إنه كان صبيّا مليحا:

صَدَّ عنّى محمد بن سعيدِ * أحسنُ العالمين ثانىَ جيدِ
صَدَّ عنّى لغير جُرْم اليه * ليس إلا لحُسْنه فى الصدود

وكان محمد بن سعيد يكتب بين يديه، فنظر الى عارضه قد احتط فى خدّه، فأخذ رقعة وكتب فيها:

لحاكَ اللهُ من شَعْر وزادا * كما ألبستَ عارضه الحدادا
أَغَرْتَ على تورّد وَجْنتيه * فصيّرت احمرارهما سوادا

ورمى بها الى محمد بن سعيد، فكتب مجيبا: عَظّم الله أجرك فىّ ياسيدى وأحسن لك العوض منى ! !

وكان لطَرْفه وفطنته وبصره بالأمور موضعا لرضا المأمون وعطفه عليه. ويظهر أن علاقته بالمأمون وثقته به وملء يديه منه جعلته لا يتحرز فى كلامه كثيرا، فكان يسقط السقطة بعد السقطة حتى أتلف نفسه فى بعض سَقَطاته؛ فقد حُكى: أن المأمون كان اذا تبخّر

طُرح له العود والعبر، فاذا بجمّر أمر بإخراج المِجْمَرَة ووَضْعِها تحت الرحل من حلسائه إكراما له . وحضر أحمد بن يوسف وتبخّر المأمون على عادته، ثم أمر بوضع المجمرة تحت أحمد بن يوسف ، فقـال : هاتوا ذا المروءة ! فقال المأمون : ألا يقال هـذا ؟ ونحنُ نَصِل رحلا واحدا من حدسا بستة آلاف دينار ! إنمـا قصدنا إكرامك ، وأن أكون أنا وأنت قـد اقتسمنا بحورا واحدا، يُحصَر عَبْر! فأُحصر مسـه شيء في الغاية من الجودة، في كل قطعة ثلاثة مثاقيل، وأمر أن تُطرح القطعة في المجمره يتبخّر بها أحمد بن يوسف، ويُدْخِل رأسَه في رِيقه حتى يَفْقَدَ بحورها، وفُعِـل به ذلك بقطعة ثانية وثالثة، وهو يستعيث ويصيح ، وانصرف الى منزله وقد احترق دماغه، وآعل ومات سنة ٢١٣ وقيل سنة ٢١٤ هـ .

وكانت له جارية يقال لها نَسيم، لها من قلبه مكان خطير، فقالت ترثيه :

ولو أنّ مَيْتًا هَابَهُ الموتُ قبلَه * لما جاءه المقدارُ وهو هَيُوتُ
ولو أنّ حيًّا قبله هابه الرَدَى إذًا لم يكن للأرض فيه نصيبُ

وقالت أيضا ترثيه :

نَفْسِي فِداؤك لَوْ بالناس كُلِّهِم * مابي عليك تَمَنَّوْا أنهم ماتوا
وللوَرَى مَوْتَةٌ في الدهر واحدةٌ * وَلِي من الهمّ والأحزان مَوْتات

(و) يحيى بن أكثم القاضي :

هو أبو محمد يحيى بن أكثم بن محمد بن قَطَن ينتهي نسبه الى أكثم بن صَيْفي التميمي حكيم العرب المعروف .

عرف التـاريخ يحيى بن أكثم جَدَنًا في مجلس سـفيان بن عُيينة ، المعروف بعلمـه وورَعه ونفوذه ، اذ يقول ابن خلّكان في كتابه "وفيـات الأعيان" : ورأيت في بعض المجاميع أن سفيان خرج يوما الى من حاءه يسمع منه وهو صَحِر، فقال : أليس من الشقاء أن أكون جالستُ صَخْرة بن سعيد وجالس هو أبا سَعِيد الخدري، وجالست عمرو ابن ديـنار ، وجالس هو عبـد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وجالست الزُّهْري وجالس

هو أنس بن مالك، حتى عد جماعة، ثم أنا أحالسكم! فقال له حَدَثٌ فى المجلس : إنتصف يا أبا محمد ، قال : إن شاء الله تعالى، فقال : والله لَشَقاءُ أصحاب أصحاب رسول الله لك أشدّ من شقائك بنا! فأطرق سفيان وأنشد قول أبى نُوَاس :

حَلّ جَنْبيك لزام * وامصِ عنه بسلام
مُتْ بداء الصمت حيرٌ * لك من داء الكلام
إنما السالم من ألـ * ـجم فاهُ بلحام

فتفرق الناس وهم يحدّثون برجاحة الحدَث، وكان ذلك الحدث يحيى بن أكثم التميمىّ، فقال سفيان : هذا العلام يصلُح لصحبة هؤلاء، يعنى السلاطين . اهـ

هذا كل ما نعلمه عن حداثة يحيى بن أكثم . وهى حداثة تبشر بما سيكون لهذا الناشئ من مكانة وبفود حديرين بما وهبه الله من ذكاء وسرعة خاطر، وقوّة قلب وسلاطة لسان . تلك المخايل كانت واضحة فيه، وقد جعلته حديث حاضرى مجلس سفيان، وحملت سفيان على أن يقول عنه . هذا العلام يصلح لصحبة هؤلاء (مشيرا الى ولاة الأحكام) !

لقد صدقت الأيام حَدْس سفيان فيه ، فقد انخرط يحيى فى سِلْك القُضَاة صغيرا لمحاته، ثم درج فى مناصب القضاء حتى تبوّأ أسمى مناصب الدولة، تبوّأ منصب قاضى القضاة ، ومنصب الوزارة للأمون ، منظورا اليه فى كل ما تولّاه من المناصب بالتجلّة والإكبار من الخاصّة والعامّة .

ونحن ذاكرون لك حياته وما تولّاه من مناصب، ومكانته العلمية والأدبية، وما كان متّصفا به من الحزم وحسن السياسة ، وأقوالَ الناس فيه وفى أخلاقه ، ووجهةَ نظر كل فريق من الناس فيه ، معتمدين فى ذلك على ما بين أيدينا من مصادر تاريخية وأدبية ، منبّهين على مايمكن أن يقع بينها من خلاف كثير أو قليل .

أوّل عمل تولاه :

أما أوّل عمل تولاه فيحدّثنا عنه ابن طَيْفور بقوله : «قال حدّثنى أحمد بن صالح الأصبهانى، قال : هل تدرى ما كان سبب يحيى بن أكثم؟ قلت : لا وإنى أحبّ أن أعرفه .

قال : يحيى بن حاقان هو وَصَّـله بالحسن بن سهل وقرّبه من قلبـه وكثّره فى صدره، حتى ولّاه قضاء البصرة ثم استوزره المأمون ـــ فعلب عليه . وحدّثنى عبـد الله بن أبى مروان الفـارسىّ ، قال : كان ثُمَـامه سبب يحيى بن أكثم فى قضـاء البصره مرّتين وسبب تخلصـه من الخادم الذى أمر بتكشيفه بالبصره ، ويقال إنه قطع خُصْيَته فى تعذيبـه بالقصب اهـ .

ويقول ابن خلكان فى سبب اتصاله بالقضاء : أراد المأمون أن يُوَلِّى رجلا القضاء ، فوُصِف له يحيى بن أكثم فاستحضره، فلما حضر دخل عليه، وكان دَمِيم الخَلْق فاستحقره المـأمون لذلك ، فعـلم ذلك يحيى فقال . يا أمير المؤمنين سَلْنى إن كان القصد علمى لا خَلْقى ، فسأله المأمون المسألة المعروفة فى الميراث بالمسئلة المأمونية، وهى أختان وبنتان لم تُقسم التركة حتى ماتت إحدى البنتين وخلّفت من فى المسألة، فقال يحيى : يا أمير المؤمنين، الميّت الأوّل رجل أم امرأة ؟ فعرف المأمون أنه قد عرف المسألة فقلّده القضاء .

ثم يذكر ابن خلكان بعد ذلك نقلا عن تاريخ بغداد للخطيب . أنّ يحيى بن أكثم وُلِّى قضاء البصرة وسـنه عشرون سنة أو نحوها، فاستصغره أهـل البصره فقالوا : كم سنّ القاضى، فعلم أنه قد استصغر فقال . أنا أكبر من عَتّاب بن أُسَيد الذى وَجّه به النبىّ صلى الله عليه وسلم قاضيا على مكة يوم الفتح، وأنا أكبر من مُعَاذ بن جَبَل الذى وجه به النبىّ صلى الله عليه وسـلم قاضيا على اليمن، وأنا أكبر مـن كعب بن سَوْر الذى وَجّه به عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قاضيا على أهل البصره، فجعل جوابَه احتجاجا .

قد عَرَفتَ مما ذكرناه عن ابن طيفور المعاصر ليحيى وعن ابن خلكان أن بين روايتى المؤرخين فى سبب اتصال يحيى بالقضـاء خلافا، فابن طيفور يروى لنا أنه اتصـل أوّلا بالحسن بن سهل نائب الخليفة المأمون فى بغداد ثم ولّاه قضاء البصرة . وابن خلكان يروى لنا أنه اتصل بالمأمون وبعـد أن امتحنه وعرف فضله ولّاه القضاء . فهل يمكن التوفيق بين روايتيهما .

يخيّل الينا أنّ كلتا الروايتين صحيحة، خصوصًا اذا ذكرنا ماروواه ابن طيفور من أن ثمامة كان سبب يحيى بن أكثم فى قضاء البصره مرّتين، إذ يمكن أن تكون توليته قضاء البصرة فى المرّة الأولى كانت عن طريق اتصاله بالحسن بن سهل، وأن توليته فى المرّة الثانية كانت عن طريق اتصاله بالخليفة المأمون، وأن ما ذكره ابن خلكان فى تاريخه من استصغار أهل البصرة له ثم احتجاجه عليهم بما فعله النبىّ صلى الله عليه وسلم وبما فعله عمر رضى الله عنه كان فى المرّة الأولى .

وبهذا التحليل نستطيع أن نفهم ما يذكره المؤرّخون من أنه عُزل من قضاء البصرة لأمره بتعذيب حادم بالقصب بعد تكشيفه حتى قطعت حصيته، ثم ما يذكرونه من أنه عُزل لقوله أبياتا من الشعر تغزّلا فى امرأة مسعدة، وكانا على نهاية الجمال .

ومهما يكن من شىء، فنحن نرجح أنه تولّى قضاء البصرة مرتين : الأولى عن طريق الحسن بن سهل ثم عزل لأحد السببين المذكورين أو غيرهما مما لا نقطع به ، والثانية عن طريق المأمون .

بقى شىء آخر فيما يرويه ابن خلكان نريد أن نلفت النظر اليه، فقد يكون فيه شىء من التناقض أو السهو . ذلك بأنه يروى لنا أن يحيى حين وُلّى قضاء البصرة كانت سنه نحو عشرين سنة وأن أهل البصرة استصغروه فاحتج عليهم بما فعله النبىّ وعمر . وسواء أكانت توليته عن طريق الحسن بن سهل أم عن طريق المأمون فهى لا تعدو أوائل القرن الثالث الهجرى، ثم يذكر بعد ذلك أنه توفّى بالرَّبَذة سنة اثنتين وأربعين ومائتين وقبل غرة ثلاث وأربعين وعمره ثلاث وثمانون سنة . إذ مهما بالغنا فى سنه فمتمشيين مع رواية ابن خلكان نقلا عن تاريخ بغداد من أنه تولّى قضاء البصره وسنه نحو العشرين فلن تعدو به الستين إلا قليلا ، فكيف يمكن التوفيق بين هذا وبين ما يقوله ابن خلكان من أنه توفّى وعمره ثلاث وثمانون سنة! ولو فرضنا صحة ما يقوله ابن خلكان فى عمره حين الوفاة ، وفرضنا أيضا صحة ما نقله عن تاريخ بغداد من أنه تولّى قضاء البصرة وسنه نحو

العشرين لكانت توليتــه قضاء البصرة فى الصف الأول من عهــد الرشيد لا فى عهد المأمون ، وهو خلاف المجمع عليــه وخلاف ما ينقله هو أيضا من أن توليته البصرة كانت سنة اثنتين ومائتين .

ثم نرى يحيى بعــد أن عُزل من قضاء البصرة فى بغداد ثاويا فى دار شَادَها له صديقه الحميم ثُمَامة بن أَشْرَس بحضرته ؛ وكان ثمامة بن أشرس هذا عالمــا متكلّما سَليط اللسان قوىّ الحجة ذا آراء فى الاعتزال واليه تنسب الطائفة الثمــامية من المعتزلة ، وكان متصلا بالمأمون ، محبّبا اليه ، موثوقا به منه ، فكان خير وســيلة لاتصال صــديقه يحيى بالخليفة المأمون ، ثم عرف المأمون ما فى يحيى من علم وذكاء وحزم فأدناه اليه وقرّبه منه وخصّه برعايته وعطفه حتى غلب عليه دون الناس جميعا .

ويحدّثنا ابن طيفور أن يحيى بن أكثم قال للمأمون : أظهِر لكل قاصٍ ماتريد أن تولّيه إيّاه وأُمُرْه بكتمانه ، ثم انظر أيفعل أم لا ، وَضَعْ عليهم أصحاب أخبار ، فقال له المأمون : أولّيك قضاء القضاة ، وقال لغيره ما يريد أن يولّيه ، فشاع ذلك كله إلا خبر يحيى فإنه أتاه أن الناس ذكروا أنه يريد الخروج الى البصرة على قضائها ، فدعتهم وقال له : كيف شاع هذا وأمرت باكتراء السفن الى البصرة ؟ قال يحيى : يا أمير المؤمنين ، ليس يستقيم كتمان شىء إلا بإذاعة غيره وإلا وقع الناس عليه ؛ قال : صدقت وحمده .

من المجمع عليه أن يحيى بن أكثم كان قاضى القضاة للخليفة المأمون ، ولكن هل تَوَزّر له ؟ لم يذكره الفخرى فى وزراء المأمون ، لكن ابن طيفور ذكر فيما نقلناه عنــه أن المأمون استوزره . فهل يمكن أن يكون المراد من استيزار المأمون له ما ذكره طلحة بن محمد بن جعفر إذ يقول فى آخر وصفه لفضل يحيى بن أكثم وعلمه وأخلاقه : وكان المأمون ممن برع فى العلوم فعرف من حال ابن أكثم وما هو عليه من العــلم والعقل ما أخذ بمجامع قلبه حتى قلّده قضاء القضاة وتدبير أهل مملكته ، فكانت الوزراء لا تعمل فى تدبير الملك شيئا إلا بعد

مطالعة يحيى بن أكثم» . ليس ببعد أن يكون هذا هو المراد . على أنّا قد عددناه من وزراء المأمون فى كلمتنا المجملة عن وزرائه .

ومهما يكن من شىء، فقد كان يحيى بن أكثم قاضى القضاة وصاحب الكلمة العليا والأمر النافذ فى الدولة، وكانت مكانته من المأمون لا تدنو منها مكانة . ولكى تَقْدُر حظوته لدى المأمون وأدب المأمون معه نورد لك ما يروى عن يحيى بن أكثم نفسه . قال :

«بِتّ ليلة عند المأمون فانتبه فى بعض الليل فطنّ أنى نائم ، فعطش ولم يَدْعُ الغلام لئلا أنتبه، وقام متسللا حائما هادئا فى حُطاه حتى أتى البرّادة، فشرب ثم رجع وهو يُخفى صوته كأنه لصّ حتى اضطجع ، وأحده سُعَال فرأيته يجمع كمه فى فمه كى لا أسمع سُعَاله ، وطلع الفجر فأراد القيام وقد تناومت فصَبَر الى أن كادت تفوت الصلاة، فتحرّكت، فقال : الله أكبر، ياغلام نَبِّه أبا محمد . فقلت: يا أمير المؤمنين رأيت بعينى جميع ما كان الليلة من صنيعك وكذلك جعلنا الله لكم عبيدا وجعلكم لنا أربابا » .

وهاك حكاية أخرى تدلّ على أدب المأمون وحُظوة يحيى لديه، وهى مَرْوية عن ثُمامة ابن أشرس صديق يحيى وثقة المأمون . قال ثمامة: «كان يحيى بن أكثم يماشى المأمون يوما فى بستان موسى والشمس عن يسار يحيى والمأمون فى الظل ، وقد وضع يده على عاتق يحيى وهما يتحادثان حتى بلغ حيث أراد، ثم كرّ راجعا فى الطريق التى بدأ فيها، فقال ليحيى: كانت الشمس عليك لأنك كنتَ عن يسارى وقد مالت منك، فكن الآن حيث كنتُ وأتحوّل أنا الى حيث كنتَ ، فقال يحيى: والله يا أمير المؤمنين لو أمكننى أن أُقيك هَوْل المطلع بنفسى لفعلت؛ فقال المأمون : لا والله ما بُدٌّ من أن تأخذ الشمس منى مثل ما أخذت منك ، فتحوّل يحيى وأخذ من الظل مثل الذى أخذ منه المأمون » اهـ .

ولم يزل فى هذه الرعاية من المأمون والحظوة لديه، يفوّض اليه المأمون جليل الأعمال ويرسله فى مهامّ الأمور، حتى كانت سنة ٢١٦هـ إذ نرى المأمون بمصر يَسْخَط على يحيى بن أكثم الذى كان فى حاشيته ويرسله مغضوبا عليه الى العراق، ثم يبلُغ من حَنَقه عليه أن يكتب

فى وصيّته الى ولىّ عهده المعتصم محذّرا إياه من اصطناع الوزراء والركون اليهم ضاربا بيحيى ابن أكثم مَثَلًا فى سوء السِّيرة وقبيح الفعال . ونحن نلقى على مسامعك ما كتبه فى وصيّته متعلقا بيحيى : «ولا تتخذن بعدى وزيرا تُلقى اليه شيئا ، فقد علمتَ ما نكبنى به يحيى بن أكثم فى معاملة الناس وخبث سيرته ، حتى أبان الله ذلك منه فى صحة منى ، فصرتُ الى مفارقته قاليا له غير راض بما صنع فى أموال الله وصدقاته ، لا حراه الله عن الاسلام خيرا » .

ثم لم تزل تختلف الأحوال على يحيى بن أكثم بعد ذلك ، وتتقلّب به الأيام حتى أيام المتوكل على الله ، فلما عُزل القاضى محمد بن القاضى أحمد بن أبى دُوَاد فوّض ولاية القضاء الى القاضى يحيى وجلع عليه خمس جلع ، ثم غضب عليه المتوكل وعزله سنة أربعين ومائتين وأخذ أمواله وأُلزم منزله . ثم حجّ بعد ذلك وأحد معه أخته واعتزم أن يجاور ، ثم بلغه رضا المتوكل عنه ورجوعه له ، فعدا له فى المجاوره ورجع يريد العراق ، فلما كان بالرَّبَذَة فى طريقه الى العراق وافته المنية يوم الجمعه منتصف ذى الحجة سنه أربعين ومائتين ، وقيل عشرة ثلاث وأربعين ومائتين ودفن هناك . وقد قدّمنا لك ما ذكره ابن خلكان فى عُمْره حين الوفاة وشفعناه بما يمكن أن يكون فى كلامه من تناقض أو سهو أو تحريف .

كان يحيى بن أكثم فقيها عالما بالفقه ، بصيرا بالأحكام ، وقد عدّه الدارقطنىّ فى أصحاب الشافعىّ رضى الله عنه ، راويا للحديث ، أحدا بحظّ كبير من كل فنّ ، سمع الحديث عن عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وغيرهما ، ويَرْوِى عنه الترمذى وغيره من رجال السُّنّة وحُفّاظ الحديث . وكانت له منزلة سامية لدى رجال الدين وعلماء الجماعة . ومما رفع منزلته لدى الناس جميعا موقفه المشهور ، مع المأمون مما يدلّ على سعة علمه وقوّة حجته وعظيم جراءته . ذلك بأن المأمون رأى وهو فى طريقه الى الشأم جواز نكاح المتعة فوقف له يحيى موقفا أكسبه حَمْدَ أئمة الدين وثناءهم عليه . ونحن نرجى اليك هذا الحديث نقلا عن ابن خلكان . قال : «حدّث محمد بن منصور قال : كنا مع المأمون فى طريق الشأم فأمر فنودى بتحليل المتعة ، فقال يحيى بن أكثم لى ولأبى العيناء : بكّرا غدا اليه فإن رأيتما للقول

وجها فقولا و إلا فأمسكا الى أن أدخل ، قال : فدخلنا عليه وهو يستاك و
متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عهد أبي بكر رضي
أنهى عنهما ! ومن أنت يا حمل حتى تنهى عما فعله رسول الله صلى الله ابو بكر
رضي الله عنه ! فأومأ أبو العباء الى محمد بن منصور وقال رجل خطاب
ما يقوله بكلمة نحن ! فأمسكنا . فجاء يحيى بن أكثم فجلس وجلسنا . يحيى : مالي
أراك متعيرا ؟ فقال . هو عم يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام . وما حدث
فيه ؟ قال : الداء تحليل الربا ، قال : الربا ؟ ! قال . نعم ، المتعة ربا ، قال : ومن أين قلت
هذا ؟ قال : من كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال
الله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الى قوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ
أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾
يا أمير المؤمنين ، روحة المتعة ملك يمين ؟ قال : لا ، قال : فهي الروحة التي عند الله ترث
وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها ؟ قال : لا ، قال : فقد صار متحاورا هديين من العاديين ،
هذا الزهري يا أمير المؤمنين روى عن عبد الله والحسن أبي محمد بن الحنفية عن أبيهما
عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن
أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها ، فالتفت الينا المأمون فقال :
أمحفوظ هذا من حديث الزهري ؟ فقلنا : نعم يا أمير المؤمنين رواه جماعة منهم مالك
رضي الله عنه ، فقال : أستغفر الله ! بادوا بتحريم المتعة فبادوا بها . " اهـ

أما آراء يحيى الكلامية فإن المؤرخ يقف أمامها موقف حيرة وإحجام ، ويحتاج إذا أراد
أن يبدي رأيا فيها الى شيء غير قليل من الأناة والروية . ذلك بأن يحيى كان يقف موقفا
قريبا من الفتنة العنيفة التي كانت مصطرمة في وقته ، فهو قاضي قضاه المأمون ، ومنزلته منه
منزلة يُغْبَط عليها ، والمأمون زعيم القائلين بخلق القرآن ، وهي بدعة اعتزالية ، ثم هو في الوقت
نفسه مرجئي عنه من الجماعة وأهل السنة ، ثم نراه حينا يقف موقف المعارضة من صديقه

شرس المعتزلي وزعيم الطائفة الثمامية، معارضة تشتدّ فى بعض الأحيان
رة . وأنت تعلم مَنْ هو ثمامة وما علاقته بالمأمون وثقة المأمون به، ثم تعلم
ما كاسَ نفسه وكم له من يَدٍ عليه . أصف الى كل هذا ما يروه اس خلكان
من أنه كلام الله، فمن قال : إنه مخلوق يستتاب، فإن تاب وإلا
صرت عن المأمون زعيم القائلين بذلك .

فهل يمكن أن إبداء رأى فى عقيدة يحيى الكلاميـة؟ وهـل يمكن أن تكون كل
هذه الروايات متفقة مع ما يبدو عليها من شبه تناقُض ؟

نظن أنه باستعمال شيء من التحليـل يمكن إبداء الرأى، ويمكن التوفيق أيضا . ذلك
بأن يحيى بن أكثم كان كَيِّسا حازما ، خفيف الروح حُلْو اللسان ، فاستطاع بذلك أن
يدارى الناس جميعا، خاصّتهم وعامتهم، وأن يكتسب رضاهم جميعا . فاذا حُوورَ وحُودِلَ
فاشتدّ أحيانا فإنمـا يكون ذلك الى الحـدّ الذى لا يمسّ مكانتـه ونفوذه، فبقى فى حُظْوة
لدى المأمون وإخوان المأمون دونها كل حظوة ، وكان فى الوقت نفسـه بموضع الكرامة
والرضا من أهل السنّة والجماعة .

الى هنا لم نستطع أن نبدى شيئا فى رأيه . وكل ما يمكن أن يستنبط مما تقدّم أنه كان
حسن التقية، بارعا فى المداراة والمصانعة والرِّياء. وكانت هذه الخَلَّة من أظهر مُمَيِّزات العصر،
فالخليفة يدارى فيقابل قاتل أخيه بالترحاب، فاذا ما خرج القائد القاتل وسئل المأمون عن
عَزْمه استعبرها كانت إجابته : «قتلنى الله إن لم أقتل طاهرا»، ثم هو بعدُ يوصى صاحب
أخباره بالرِّياء، ويعتد لنا أهل الرياء فى عصره، وهاك مثلا قاصى قصاته كما ترى من سيرته .

ولكن هل من الممكن أن تستسيغ مشادّته العنيفة أحيانا فى محاورة صديقه ومصطنعه
ثُمامة بن أشرس ، مع ما فى هذه المشادّة من نُكْران للجميل ومن تعريض نفوذه للضياع ،
دون أن يكون على خُلْف معه فى الرأى، ودون أن يميل الى صحة ما يرويه المؤرخون من أنه
كان سليما من البدعة، ينتحل مذهب أهل السنة ؟

وقد جعل العلماء مقارنة بين أحمد بن أبى دُوَاد ويحيى بن أكثم فى أخلاقهما وآرائهما ونفوذهما لدى الملوك فيقال . إن كليهما علب على سلطانه فى عصره . ووصفهما بعض اللغاء وقد سئل عن أيّهما أنبل فقال : كان أحمد يَجِدّ مع جاريته وآبنته ، ويحيى يَهْزل مع خصمه وعدوّه .

سيرته :

أما سيرته فلم نر رحلا فى مركزه الدينى والاجتماعى حامت حوله الرِّيب والإشاعات مِثْلَ ما حامت حولَ هذا القاضى ، ومع هذه الريب والإشاعات فقد كان مرعىَّ الجانب ، موفورَ الكرامة . ويظهر أن حلّ الناس حتى أخصّ أصدقائه به ، كانوا يَجْحدون الى تصديق هذه الإشاعات ، إلا أئمة الدين فقد كانوا يُكْبرونه ويكرون أن يكون لهذه الاشاعات ظلّ من الحق ، فقد سئل أحمد بن حنبل عن هذه الإشاعات فأنكرها إنكارا .

ولعل الذى يفسر موقف رجال الدين منه هذا الموقف ، وإنكارهم ما ينسب اليه من إشاعات ، موقف يحيى من المأمون يوم (المتعه) وغير يوم المتعة ، مما جعله فى نظرهم بطلا من أبطال الدين ، وحَليقا بمثله أن يكون بمَنْوة من كل منكر .

أما يحيى نفسه فيحدّثنا ابن خلكان نقلا عن ابن الأنبارى أنه قال لرجل كان يأنس به ويمازحه : ما تسمع الناسَ يقولون فىّ ؟ . قال : ما أسمع إلا خيرا . قال : ما أسألك لتزكّينى . قال : أسمعهم يرمون القاضى . قال : فضحك وقال : اللهم غَفْرًا المشهور عنا غير هذا .

ويقال : إن المأمون لما تواترت هذه الإشاعات أراد أن يمتحنه فأحلى له مجلسا وآستدعاه ، وكان قد أسرَّ الى غلام حَرَرِىّ أن يكون فى خدمتهما وحده ، حتى اذا خرج المأمون عابث القاضى ، فلما آستقر بهم المقام وخرج المأمون ، أخذ الغلام يعابث القاضى ، فسمع المأمون — وكان يستمع حديثهما — القاضى يقول : " لولا أنتم لكنّا مؤمنين " فدخل عليهما منشدا قول أبى حكيمة راشد بن اسحاق الكاتب :

وكنّا نُرَجّى أن نرى العدل ظاهرًا * فأعقبنا بعد الرخاء قُنُوطُ
متى تَصْلُح الدنيا ويَصْلُح أهلُها * وقاضى قضاة المسلمين يَلُوطُ

وقد قلنا : إنّ أحصّ أصدقائه به كان يجنح الى تصديق هذه الإشاعات، فقد قيل : إن صديقه أبا عبـد الله الحسين بن عبد الله بن سـعيد اشتهى بعد أن مات يحيى أن يراه فى المنام ليعلم ما فعـل الله به! فأوحت اليه الأحلام أن الله غفر له بعد أن وبّخه على تخليطه، وأن يحيى حاجّ ربه بالحديث المشهور : "إنى لأستحى أن أعذّب ذا شيبة بالنار" فهل يستوحى الأحلام ليعلم ما فعل الله بصديقه مَن يعتقد براءته ! .

تآليفـــــه :

يحدّثنا المؤرّخون أن ليحيى بن أكثم ألّف كُتبًا فى الفقه، وأخرى فى الأصول، وله كتاب أوردَه على العراقيين أصحاب أبى حنيفه سمّاه : « كتاب التنبيه » . وهـذا يؤيد ما قاله الدارقطنىّ من أنه كان من أصحاب الشافعىّ .

* * *

(ز) إسحاق بن ابراهيم الموصلى :

قد يكون حظّ المغنين وأهـل الموسيقى المسلمين من عناية المؤرّخين فى العصور الإسـلاميه أكثرَ من حظّ غيرهم، وقـد عُنِى المؤرّخون بتسـجيل حوادثهم وألحانهم وإيقاعاتهم، وما كان يقع بينهم من خلاف منشؤُه المنافسةُ والحسد، أو التقرّب الى ذوى السلطان، وما كان يتفق لهم من مُعاكهات لطيفة، ونكات طَريفه . وهذه العناية ظاهرة من الكتب الكثيره التى أُرصدت لهذه الناحية من تاريخ الحَضارة الإسلامية، وقد عَبث الدهر بُجلّ هذه الكتب، ولم يبقَ منها إلا القليلُ، وعلى رأس هذا القليل البـاقى، وهو المحجّةُ فى هذا الموضوع « كتاب الأغانى لأبى الفَرَج الأصفهانىّ» .

وقبـل أن نعرض للكلام على إسحاق وتفصـيل حياته، نقرر أسا عاجزون كلّ العجز عن أن نحلُوَ الناحيـةَ الفنّية من شخصيته، فإن خلاءَ هذه الناحيه وكشفَها لا يتّسق إلا لرجل أُوتِىَ حظًّا كبيرا من الموسيقى، يستطيع به أن يقدّر مواهبَ أهل الفنّ وما وُفّقوا اليه من إجاده، ونرجو أن يُتاح لإسحاق مَن يتوافر له هذا الخط، فيجلُو لنا شخصيته الفنية، ومبلغ

المَدَى الذى قطعه فى سبيل الكمال الموسيقى، كما أُتيح "لبتهوفن" وعير "تهوفن" من أصحاب المواهب الكبيرة فى الموسيقى، مَن أبرز شخصياتهم الفنية للناس، وأبان ما لعقريتهم من آيات خالدات فى الفن .

ولن يستطيع أحد مهما أُوتِيَ من مواهب، وأتحد من أسباب أن يَحلُوَ شخصية إسحاق الفنيه، ما بَقِيتْ مصطلحات الموسيقى العربية مُغْلَقةً لم تفتح، وما بَقِيت تعاليمُها ألغازا لم تُحلّ .

واذ كان هذا هو موقفنا من الناحية الفنيه إزاء شخصية إسحاق، فلكن مؤرّخين ليس غيرُ . نُورد لك الحوادث كما رواها المؤرّخون، مع تحليل ما نُوفّق الى تحليله من أخلاقه وأعماله، فنقول :

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن مَيْمون بن بَهْمَن بن نسك . ووالده إبراهيم وهو ماهان، وسبب نسبته الى ميمون أنه كتب كتابا الى صديق له فعنونه : من إبراهيم بن ماهان فقال بعض إخوانه من فِتْيان الكوفة : أما تستحى من هذا الاسم؟ قال : هو اسم أبى قال : فغيِّره، قال : فكيف أغيِّره، فأخذ الفتى الكوفى الكتاب فمحا ماهان، وكتب ميمونا فصار من ذلك الحين إبراهيم بن ميمون .

وأصل أُسرة إسحاق من فارس، من بيت شريف فى العجم، كان هَرَب جَدُّه ماهان من حَوْر بعض عُمّال بنى أمية لخَرَاج طُولب بأدائه، فنزل الكوفة . وأمّ إبراهيم والد إسحاق من سبات الدَّهّاقين الذين هَرَبُوا كما هَرَب ماهان، وتزوجها ماهان بالكوفة، فوَلَدت له إبراهيم ثم مات وسنُّ ابراهيم سنتان أو ثلاث فكَفَل إبراهيمَ آلُ حريمة بن حازم، ومن هذا صار وَلَاؤُه الى تميم .

وقد سأل الرشيد ابراهيم عن السبب بينه و بين تميم فقال له : رَغَّبْنا يا أميرَ المؤمنين، فأحسنوا ترسيتنا، ونشأتُ فيهم وكان بيننا و بينهم رضاع فتولّونا بهذا السبب . وقال إسحاق يفتخر بأصله و بيته وكافل أبيه :

اذا كانت الأشرافُ أصلى ومَنْصِبى * وداف ـــع صيمى حازمٌ وٱبنُ حازمِ
عَطَسْتُ بأنفٍ شـامخ وتناولتْ . يَـــدَاىَ الثُّرَيّا قاعدًا عـــيرَ قائمِ

وسبب قولهم الموصـلىّ أنه لمـا اشـتدّ إبراهيم وأدرك صَحِب الفِتْيانَ وٱشتهى الغِنَاء وطلبه، فاشتدّ أحوالُه عليه فى ذلك، و بلعوا منه، فهَرَب الى المَوْصِل، وأقام بها سنةً، فلما رجع الى الكوفة قال له إخوانُه من الفِتْيان : مَرْحبا بالفتى الموصلىّ، فغلبتْ عليه .

ثم ما زال ابراهيم يأخذ بأسباب الغناء حتى حَذَقَه، وٱتصـل بأحد عُمّال المهدىّ، ثم بلغ المهدىَّ أمرُه، فطلبه اليه، و بقى بعد ذلك متصلا بالخلفاء ورجالات الدولة حتى تُوُفِّى فى عهد الرشيد سنة ١٨٨ هـ .

أما ابنـه إسحاق الذى عَقَدنا هـذا الفصل لتحليل شخصيته، وللكشف عن مواهبه وأخلاقه، فوُلِد سنة ١٥٠ هـ . ولم يظهر شأنُه، وتتمّ مغزاتُه إلا فى أيام الرشيد، ثم أخذ نَجْمُه يتألق فى سماء الخلافة العباسـية أيام الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق، ثم تُوُفِّى سنة ٢٣٥ هـ فى صـدر أيام المتوكّل . وكان يَحُلُّ من هؤلاء الخلفاء جميعا بموضع العطف والتُّحِلّة، وسـند كر شيئا من صلته بكلّ خليفة، وما كان يُغْدِقه عليـه كلُّ خليفـة من عطف ومال .

نشـــأته :

كان حظّ إسحاق من وسائل التهـذيب والتثقيف خيرا من حظّ والده إبراهيم، فإن والده نشأ يتيما فكَمَله عيرُ أبيـه حتى اذا شبّ وترعرع، وظهر ميـلُه الى نوع خاص من الفنون، لم يجد من القائمين بأمره ومَن لهم سلطانٌ عليـه مَن يقدِّر استعداده الفطرىّ، ونَزَعاتِه النفسية، حتى ٱضطر من إلحاح صعط أحواله عليه، ومطالبتهم إياه أن يترك الغِنَاء، وألّا يأخذ فى شىء من أسـباب الموسيقى أن يَهِيم على وجهه فى الأرض، فى سبيل تحقيق ما تَميل اليه نفسه، ويُهَيِّئُه له ٱستعدادُه .

أما إسحاق فقد نشأ فى بيت أبيه، وشبّ وترعرع بعينه[1]، وقد وجد من أبيه الذى فَهِم الحياةَ ولَدَعْته آلامُها، مَن يهتمّ بتثقيفه، ويحترم نَزَعاته الفِطْرية، وميوله النفسية. وإسحاق يُعدّ ابن رجل أثير عند الخلفاء، مُقَدّم لدى رجالات الدولة، وفى وَفْرة من الثَّراء، وحظّ عظيم من التَّرَف، مما يصله به الخلفاء وغَيْرُ الخلفاء، فاستطاع إسحاق بجاه أبيه وماله أن يختلف الى حِلَق العلماء، وكبار رجال الفنّ، وأن يَرتاد حيرَ البيئات والأوساط التى لا يقلّ أثرها فى تهذيب النفوس عن أثر التعليم، وقد كان من حظّ الموسيقى والآداب أن تتهيّأ الأسباب وتستوىَ الوسائلُ لرحلها الفَذّ وباعتها العظيم.

ويحدّثنا إسحاق عن شىء من تربيته وتثقيفه، فيقول: «أقمتُ دهرا أُغَلِّسُ كلّ يوم الى هشيم، فأسمع منه ثم أصير الى الكسائىّ أو الى الفرّاء فأقرأ عليه جزءا من القرآن، ثم آتى منصورَ زِلْزَل، فيصارينى طريقتين أو ثلاثا، ثم آتى عاتكةَ بنت شهدة، فآخذ منها صوتا أو صوتين، ثم آتى الأصْمَعِىّ وأنا عُبيدة، فأناشدهما وأحادثهما وأستفيد منهما، ثم أصير الى أبى، فأُعْلِمه بما صنعت وأحدث، وأتغدّى معه وأروح معه عشاء الى أمير المؤمنين».

فأنت ترى من حديث إسحاق عن فَتْرة من فترات نشأته وتثقيفه، أنه كان يختلف كلّ يوم الى رجال الحديث، ثم رجال القرآن والنحو، ثم أهل الفنّ الضاربين على الالات والمُلَحِّنين، ثم يذهب بعد ذلك الى أهل الأدب والرِّواية، فيناشدهم ويحادثهم، ويستفيد منهم، ثم يجتمع بأبيه بعد ذلك كلّه يخبره بما صنع وأخذ، حتى اذا جاء المَسَاء ذهبَ مع أبيه الى دار الخلافة، وهى — أيّدك الله — خيرُ مُنْتَدًى لرجال العلم والأدب والسياسة فى الدولة.

هذه التربية المنظّمة، والبيئات الراقيه، أخرجت من طفل ابراهيم الموصلىّ: ذلك الطفل الذكىّ النشيط، رجلا يصفه صاحبُ الأغانى بقوله: «موضعه من العلم، ومكانه

(١) أى تحت رعايته وعنايته.

من الأدب، ومحلّه من الرواية، وتقدُّمه فى الشعر، ومنزلتُه فى سائر المحاسن، أشهرُ من أن يُدَلَّ عليها بوصف، وسترى فى مَطَاوِى ما نورده عليك من أحاديثـه، ونوادره أنه ما عالج عِلْما من العلوم، أو فنا من الفنون، إلا بَرَع فيه وبَرَز» .

فأما الغناءُ، فحدِّث أبو الفَرَج صاحب الأغانى أنه كان أصعرَ علومه، وأدنى ما يُوسم به، وإن كان العالب عليه وعلى ما كان يُحسنه، فإنه كان له فى سائر أدواته، نظراء وأكفاء، ولم يكن له فى هذا بطير لَحِق مَن مَضَى فيه، وسَبَق مَن قد بَقِى، وسهّل طريق العناء وأنارها، فهو إمام أهل صناعته جميعا، وقدوتُهم ورأسُهم ومعلّمُهم، يَعرف ذلك منه الخاصّ والعام، ويَشهد له المُوافق والمُفارق، على أنه كان أكرهَ الناس للغناء، وأشدَّهم بُغْضا له، لئلا يُدَّعى عليه ويُسمّى به .

وهذه الجملة الأخيرة، وهى أنه كان من أكْرَهِ الناس للغناء الخ، تدلّنا بوضوح على نفسية إسحاق ومَطامحه من جهة، وعلى ما كان للمغنين وأهل الموسيقى عامة من قيمة ومنزلة من جهة أخرى، كما تدلّنا على أن المغنى وأهلَ الموسيقى، كانت منزلتُهم مهما نالوا من حظوة لدى الخلفاء وأرباب السلطان دون منزلة الرُّوَاة وأهـل الأدب، من الفقهاء ورجال الحديث، وتدلنا أيضا على أن إسحاق كان عالىَ النفس، بعيدَ الهِمّة، يَكْرَه أن يتصل بهنّ يقعُد به دون ما هو حليق به من منزلة ومكانة، ومادا يصنع إسحاق وقد أُوتِىَ مَوْهِبه لم يُؤْتَهَا أحدٌ غيرُه، وهى موهبةٌ تأبى إلا أن تُعلى نفسها، كما يُعلى الرهر نفسه بأَرَجه، والقُمْرِىّ بهَدِيله، وماذا يُجْدِى عليه كرهُه للغناء وبغضُه له، وقد يطالبه به مَن لا يَرى سبيلا الى مخالفته ؟

ولقد كان إسحاق فى كراهيته للغناء صادقَ الشعور، صادقَ الحسّ، فإنه لم يَحُلْ بين المـأمون وبين أن يُولّيَـه أسمى المـناصب إلا شهرته بالغناء، إذ يقول المـأمون : « لولا ما سبق لإسحاق على ألْسِنه الناس وشهرته عنـدهم بالغناء، لولّيتُه القضاءَ بحضرتى، فإنه أولى به وأعفّ وأصـدق وأكثر دِينا وأمانةً من هؤلاء القضـاة » . وقد يكون من حق إسحاق أن يَكْرَه الغناء، ويَألَمَ لاتصاله به، إذ يَرى المناصب السامية فى الدولة، يتبوّؤها قوم

هم دونه فيما وصلوا اليها به ، وهم وصلوا اليها بالعلم ، وقد كان هو عالما بالفقه والحديث وعلم الكلام ، وباللغة والشعر وأخبار الشعراء وأيام الناس ، وكان لا يدع فُرْصةً دون أن يُعلى سُحْطَه وما ناله من طلم ، فقد حدّثنا ابن حلكان أن محمد بن عطيّة العَطَوِى الشاعر قال : كنت فى مجلس القاضى يحيى بن أكثم ، فوافى اسحاقُ بن ابراهيم الموصلىّ ، وأحد يناظر أهل الكلام ، حتى انتصف منهم ثم تكلّم فى الفقه فأحسن ، وقاس واحتجّ ، وتكلّم فى الشعر واللغة فضاق مَن حضر ، ثم أقبل على القاضى يحيى فقال : أعزّ الله القاضى ، أفى شىء مما ناظرتُ فيه وحكيتُه نقصٌ أو مَطْعَنٌ ؟ قال : لا ، قال : فما بالى أقومُ بسائر هذه العلوم قيام أهلها ، وأنتسب الى فَنّ واحد ، قد اقتصر الناسُ عليه ، يعنى الغناء ، قال العَطَوِىّ : فالتفت الىّ القاضى يحيى ، وقال لى . الجواب فى هذا عليك ، وكان العَطَوِىّ من أهل الجَدَل ، فقال للقاضى يحيى : نعمْ — أعزّ الله القاضى — الجواب علىّ ، ثم أقبل على إسحاق فقال : يا أبا محمد ، أنت كالفرّاء والأخفش فى النحو ؟ فقال : لا ، فقال : أنت فى اللغة ومعرفة الشعر كالأصْمَعِىّ وأبى عُبيدة ؟ قال : لا ، قال : فأنت فى علم الكلام كأبى الهُذَيْل العَلّاف والنظّام الَلْجِئ ؟ قال : لا ، قال : فأنت فى الفقه كالقاضى ؟ — وأشار الى القاضى يحيى — فقال : لا ، قال : فأنت فى قول الشعر كأبى العَتَاهِية وأبى نُوَاس ؟ قال : لا ، قال : فمن هاهنا نُسبتَ الى ما نُسبتَ اليه ، لأنه لا نظيرَ لك فيه ، وأنت فى غيره دون رؤساء أهله ، فضحك وقام وانصرف ، فقال القاضى يحيى للعَطَوِىّ : لقد وَفَيْتَ الحُجّةَ حقّها ، وفيها طلم قليل لإسحاق ، وإنه ممن يَقِلّ فى الزمان نظيرُه . اهـ .

ومهما يكن من شىء فقد اشتهر إسحاق بالغناء دون غيره ، مما كان يُحسنه من سائر العلوم ، وقد كان إسحاق مع ذكائه وعلمه ، وعلوّ نفسه ، وبُعد همّته ، مَهيباً كريماً ، حمّ الأدب ، عفيفَ اللسان . أما عن كرمه فيَرْوِى لنا صاحبُ الأغانى ، أنه كان يُجْرِى على أبى عبد الله الأعرابىّ فى كل سنة ثلاثمائة دينار ، وأن ابن الأعرابىّ هذا وقف على

المدائنَ يوما، فقال له المدائنى : الى أين يا أبا عبد الله ؟ فقال : أمْضِى الى رجل هو كما قال الشاعر :

تَرْمِى بأشباحنا الى مَلِكٍ * نأحدُ من ماله ومن أدَبِه

قال : ومَن ذلك؟ قال : إسحاقُ بن إبراهيم ! .

وإنا نسوق اليك قصّةً أخرى وهى مع دلالتها على شَغَف إسحاق بالعلم، والحِرْص على استثباته، تدلّ أيضا على سخاء نفسه وكرمه .

قال اسحاق: جئت يوما الى أبى معاوية الضَّرير، ومعى مائةُ حديث، فوجدت حاجبه يومئذ رجلا صَيرِيرا، فقال لى : إن أبا معاوية قد وَلّانى حِجَابته ليشفعنى، فقلت له : معى مائةُ حديث، وقد جعلتُ لك مائةَ درهم ادا قرأتها، فاستأذنْ لى، فدخلتُ على أبى معاوية فلما عَرَفنى دعاه، فقال له : أخطأتَ، إنما جعلتُ لك ذلك على الصعفاء من أصحاب الحديث، فأمّا أبو محمد وأمثالُه فلا، ثم أقبل علىّ يُرغّبنى فى الإحسان اليه، ويذكر ضعفه، وعيابته به، فقلتُ له : احتَكِمْ فى أمره، فقال : مائة دينار، فأمرتُ الغلام بإحضارها، وقرأتُ عليه ما أردتُ وانصرفت . وهذه القصة تدلّ على أريحيته الى جانب دلالتها على علمه .

قال أحمد بن الهَيْثم : كنتُ يوما جالسا «بسُرّ مَنْ رَأَى» عند إخوان لى، وكان طريق إسحاق فى مضيه الى دار الخليفة، ورجوعه علينا، فجاءنى الغلام يوما، وعندى أصدقائى، فقال : إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ بالباب، فقلتُ : يدخلُ، أوَفى الأرض مَن يُستأذن عليه لإسحاق، فذهب الغلامُ يأذن له، وبادرتُ الى تلقيه، فدخل وجلس مُبسطًا آنسا، فعَرَضْنا عليه ماعندنا، فأجاب الى الشراب، فأحضرنا نبيذا مُشمسا، فشرب منه، ثم قال : أتحبون أن أغَنّيَكم؟ فقلنا : إى والله ! أطال الله بقاءك، إنا نُحبّ ذلك، قال : فلِمَ لا تسألوننى ؟ قلنا : هِبْناك، قال : فلا تفعلوا، ثم دعا بعُود، فأحضرناه فاندفع يُغنّى، فشربْنا وطَرِبْنا، فلما فَرَغ قال : أحسنتُ أم لا ؟ فقلنا : بَلى والله! جعلنا فداك، لقد أحسنتَ، قال : فما

منكم أن تقولوا لى أحسنتَ؟ قلنا : الهَيْبة والإجلال لك، قال : فلا تفعلوا هذا فيما تستأنفون، فإن المُغنّى يحبّ أن يقال له : أحسنت، ثمّ غنّى :

حليلىّ هُبّا نَصْطبح بسَوَادِ * ونَرْوِ قلوباً هامُهنّ صَوَادِى
وقُولا لساقيا زِيادٍ يُرِقّها * فقد هَدّ بعضَ القوم سَقْىُ زِيادِ

فقلتُ : يا أبا محمد، فمن هو زياد؟ قال : علامى الواقف على الباب، ادْعُه ياعلام، فدخل فإذا هو غلامٌ خِلاسِىّ[1]، قيمتُه عشرون دينارا أو نحوها، فقال : أتسألونى عنه، فأعرِّفَكُم إياه، وأُدخِلَه اليكم، ويخرج كما دخل ! وقد سمعتم شعرى فيه وعانى ! أشهدكم أنه حرٌّ لوجه الله تعالى، وقد زوّجتُه أختى فلانة، فأعيبوه على أمره، قال: فلم يخرج حتى أوصلْنَا اليه عشرين ألف درهم . ولعل فى هذه القصة المتقدّمة أيضا، مَقْنَعًا لك بما كان لإسحاق فى نفوس الناس من هَيْبة وكرامة .

منزلة إسحاق فى الغناء :

قدّمنا لك أننا نعترف بالعجز عن أن نجلُوَ الناحية الفنيّةَ من حياة إسحاق، وأن ذلك لا يتسق إلا لرجل أُوتِىَ من المواهب الفنية حظا عظيما، وقدّمنا لك أن إسحاق كان يُحسن كثيرا من العلوم إحسانا، قلّ أن يتّسق لغيره، وأنه كان مع إجادته الغناءَ وتبريزه فيه، وسَبْقه أقرانَه، يكْرَه أن ينتسب اليه أو يُسمّى به، لأنه كان عالىَ النفس، بعيدَ مرامى الهمة، ويَرَى أن انتسابه الى الغناء يقصر به عن بلوغ مرامى همته . والآن نقول : إنه كان مع هذا شديدَ الغَيْرة على الغناء، كثيرَ الدبّ عنه، وله العذر، فإن صاحب الفنّ أيا كان الفنّ، لا يجد الى الصبر سبيلا، اذا عَبِث بفنه العابثون أو تَهَجّم عليه المتهجّمون .

واذا كنا نعترف بالعجز عن أن نجلُوَ الناحية الفنية لإسحاق، فإن ذلك لا يمنعنا من أن ننقل اليك شيئا مما رواه المؤرّخون، لتعلم ما كان يُحيط به من إكبار وإعجاب من الخلفاء، ورجالات الدولة، وأصحاب الفنّ، لنبوغه فى فنه، وتبريزه فيه، ولتعلم — أيضا مما كان

(١) الخِلاسىّ : الولد بين أبوين أسود وأبيض .

يُبديه من مُلاحظات — مبلغَ ما كان له من دِقّة حِسّ ، وقوّه دَوْق ، وحِدّة شـعور ، وسلامة فِطْرة .

ويعدو بنا الكلام عن القَصْد، لو أطلقنا لأنفسنا العِنَان، فى إيراد كل ما نراه حسـنا وطريفا من أحاديث إسحاق ومجالسـه ، وما كان يتفق له من مفاكهات ونوادر ، لذلك نكتفى بإيراد بعض حوادثه ، ممـا يتصل بالخلفاء الذين عاشرهم ، وما كانوا يحيطونه به من عطف ورعاية .

وقدّمنا لك أن إسحاق ظهر فى عهد الرشيد ، وتُوُفّى فى صدر أيام المتوكل. فلنذكر لك شيئا من تاريخه ، ونوادره مع كلّ خليفة من خلفاء هذه الفترة من العصر العباسىّ .

أما الرشـيد فقد كان يُلَقّبه من إعجابه به ، بأبى صَفْوان، ولقبه «إسحاق أبو محمد» كما رأيت ، وقد نلع من إعجابه به أن استأثر به لنفسه ، ونهاه عن أن يُغنى أحدًا غيرَه ، ويحدّثا إسحاق عن هذا بقوله : نهانى الرشيد أن أُغنى أحدا غيره ، ثم استوهبنى جعفر بن يحيى ، وسأله أن يأذن له فى أن أُغنيه ففعل ، واتفقنا يوما عنـد جعفر وعنده أخوه الفضل ، والرشـيد يومئذ عقيب علّة قد عُوفِى منها ، وليس يشرَب ، فقال لى الفضل : اصرف الليلةَ ، حتى أَهَب لك مائةَ ألف درهم ، فقلت له : إن الرشيد نهانى أن أُغنّى إلا له ولأخيـك ، وليس يخفى عنه خبرى ، وأنا مُتّهَم بالميـل اليكم ، ولستُ أتعرّض له ولا أعرّضـك ، فلما نكبهم الرشيد ، وقال : إيهِ يا إسحاق تركتنى بالرِّقّة ، وحلستَ ببغدادَ تُغنّى الفضلَ بن يحيى ؛ فحلفت بحياته إننى ما جالستُه قطُّ إلا على الحديث والمذاكرة ، وإنه ما سمعنى قطُّ إلا عند أخيـه وحلّفته تربة المهدى أن يسأل عن هـذا فى دارهم من نسائهم ، فسأل عنه فحُـدِّث بمثل ما ذكرتُه وعرف خبر المـائة ألف الدرهم التى بذلها لى ورددتُها ، فلما دخلت عليه ضحك ، ثم قال : سألت عن أمرك فعرفته مثل ما عرّفتنى ، وقد أمرت لك بمـائة ألف درهم ، عوضا مما بذله لك الفضل .

ويقول الأصمعىّ : دخلت أنا واسحاق بن ابراهيم الموصلىّ يوما على الرشيد، فرأياه لقّس[1] النمس فأنشده إسحاق :

وآمرِهِ بالبخل قلت لها أقصرى * فذلك شىءٌ ما اليه سبيلُ
أرى الناسَ خُلّانَ الكرام ولا أرى * بخيلا له حتى الممات خليلُ
وإنّى رأيتُ البخلَ يُزْرِى بأهله * فأكرمتُ نفسى أن يُقالَ بخيلُ
ومن خير حالات الفتَى لو علمته * اذا نال خيرا أن يكون يُنيلُ
فعَالِى فعَالَ المُكْثِرِين تَحمُّلاً * ومالى كما قَدْ تَعلَمِينَ قليلُ
وكيف أخاف الفقرَ أو أُحرَم الغنى * ورأْىُ أميرِ المؤمنين جَميلُ

قال فقال الرشيد : لا تخفْ إن شاء الله، ثم قال : لله درُّ أبياتٍ تأتينا بها، ما أشدَّ أصولَها، وأحسنَ فصولها، وأقلّ فصولَها، وأمر له بخمسين ألف درهم، فقال له إسحاق : وَصْفُكَ والله يا أمير المؤمنين أحسنُ منه ، فعَلام آخذ الجائزة؟ فضحك الرشيد، وقال : أجعلوها مائة ألف درهم، قال الأصمعىّ : فعلمت يومئذ أن إسحاق أحذقُ بصيد الدراهم منّى ! .

وكان من أشدّ مساءى إسحاق فى العباءِ إبراهيمُ بن المهدى أخو الرشيد الذى كان يعتزّ عليه بجاهه، وبماله من حظّ فى النفس كبير، ومن أشدّ الملاحاة التى حدثت بينهما، ما كانت فى مجلس الرشيد . قال إسحاق : كنت عند الرشيد يوما، وعنده ندماؤه وخاصته، وبينهم ابراهيم بن المهدى، فقال الرشيد عنّ :

أعادل قد نُهيتُ فما انتهيتُ * وقد طال العتاب فما ارعويتُ
أعادل ما كَبِرتُ وفىّ مَلْهًى * ولو أدركت غايتَك انتشيتُ
شَربتُ مُدامَةً وسُقيتُ أُخرى * وراحَ المُنتَشُون وما انتَشَيتُ

(١) لقست نفسه على الشىء : حنثت وعثت .

فغنيته، فأقبل عليّ ابراهيم بن المهدى فقال لى : ما أصبتَ يا إسحاق ولا أحسنت، فقلت له : ليس هذا مما تعرفه ولا تُحسنه، وإن شئت غنّه، فإن لم أُجِدْك أنك مخطئ فيه منذ ابتدائك الى انتهائك، فدمى حلال! ثم أقبلتُ على الرشيد فقلتُ: يا أمير المؤمنين، هذه صناعتى، وصناعةُ أبى، وهى التى قرّبتْنا منك، وأوطأتْنا بساطَك، فاذا نازعنا أحد بلا علم، لم نجد بُدًّا من الإيضاح والذبّ، فقال: لا لومَ عليك، وقام الرشيد ليبول فأقبل إبراهيم بن المهدى عليّ وقال لى: ويلَك يا إسحاق، أتجترئ علىّ وتقول ماقلت يآبن الزانيه! فداخلنى ما لم أَملِكْ نفسى معـه ، فقلت له : أنت تشتمنى، ولا أقدر على إجابتك وأنت آبن الخليفة، وأخو الخليفة، ولو لا ذلك لقلت لك : يآبن الزانية، كما قلت لى يابن الزانية، أوَ ترانى لا أُحْسِن أن أقول لك يآبن الزانية، ولكنْ قولى لك ذلك ينصرف الى حالك، ولولا ذلك لذكرت صناعته ومذهبه، قال: وكان بَيْطارا، ثم سكتّ، وعلمتُ أن ابراهيم سيشكونى الى الرشيد، وسوف يسأل مَن حضر عمّا جَرى، فيخبرونه فتلافيتُ ذلك بأن قلت : أنت تظنّ أن الخلافة لك، فلا تزال تهددنى بذلك، وتعادينى كما تُعادى سائر أولياء وغِلْمانِ أخيك حسدًا له ولولده على الأمر، وأنت تصعفُ عنه وعنهم وتستخفّ بأوليائهم تَشَفِّيًا ، وأرجو ألّا يُخرجها الله تعالى عن الرشيد ولا عن ولده، وأن يقتُلك دونها، فان صارت اليك — والعياذ بالله تعالى — فحرامٌ علىّ العيش حينئذ! والموت أطيب من الحياة معك، فأصبح حينئذ مابدالك! فلما خرج الرشـيدُ وثب ابراهيمُ فجلس بين يديه فقال : يا أمير المؤمنين، شَتَمَنى ودكر أمى واستخفّ بى! فغضب الرشيد، وقال لى: ويلك ما تقول؟ قلتُ: لا أعلم، فَسَلْ مَن حضر، فأقبـل على مَسْرور وحُسين، فسألهما عن القصّة، فجعلا يُخبرانه ووجهه يتربّد الى أن انتهيا الى ذكر الخلافة، فسُرّى عنه ورجع لونه، وقال : لاذنبَ له، شتمته فعرّفك أنه لايقدر على جوابك، ارجع الى موضعك، وأمسك عن هذا! فلما انقضى المجلسُ وانصرف الناس، أمر بألّا أُبرَح، وخرج كلّ مَن حضر حتى لم يبقَ غيرى، فساء ظنّى وأوهمتنى نفسى، فأقبل علىّ

وقال : يا إسحاق أترانى لم أفهم قولك ومرادك ! وقد زيّنته ثلاثَ مرات ، أترانى لا أعرف وقائعك وإقدامك وأين ذهبت ! ويلك لا تَعُدْ ! حدِّثنى عنك : لوضربك ابراهيمُ أكنتُ أضربه وهو أخى ياجاهل ! أتراه لو أمر غلمانَه فقتلوك أكنتُ أقتلُه بك ! فقلت : والله يا أمير المؤمنين ، قتلتنى بهذا الكلام وإن بلغه ليقتلنّى ، ها أشكّ فى أن بلغه الآن ، فصاح بمسرور وقال : علىّ يا براهيم ، فأُحْصِر فقال لى : قم فانصرف فقلت لجماعة من الخدم — وكلهم كان لى محِبّاً ، والىّ مائلا ، ولى مطيعا — : أحبروني بما يجرى ، فأحبروني من غد ، أنه لما دخل عليه وبّخه وجهّله وقال له : أتستحفّ بحادمى وصنيعتى ، وابن خادمى وصنيعتى ، وصنيعة أبى فى مجلسى ! وتُقْدِم علىّ وتستحفّ بمجلسى وحصرتى ! هاه هاه ! وتُقْدِم على هذا وأمثاله ! وأنت مالك وما للغناء ! وما يدريك ما هو ؟ ومن أحَدَك به وطارحك إياه حتى تُتوهم أنك تبلغ فيه مبلغَ إسحاق الذى غُذِّى به وعُلِّمه ، وهو من صناعته ؟ ثم تطن أنك تُحَطّئه فيما لا تدريه ويدعوك الى إقامة الحجة عليه ، فلا تَثْبُت لذلك ، وتعتصم بشتمه ، هذا مما يدلّ على السقوط وضعف العقل ، وسوء الأدب ، من دخولك فيما لا يشبهك وعلبة لذتك على مروءتك وشرفك ، ثم إطهارك إياه ولم تُحكمه ، وإدعائك ما لا تعلمه حتى ينسبكَ الى إفراط الجهل ، ألا تعلم أن هذا سوءُ أدبٍ ، وقلّة معرفة ، وعدم مبالاة للحطأ والردّ القبيح والتكذيب ثم قال : والله العظيم ، وحق رسوله ، وإلّا فأنا برىء من المهدىّ إن أصابه أحدٌ بمكروه ، أو سقط عليه حجرٌ من السماء أو وقع من دابّته ، أو سقطت عليه سقيفةٌ ، أو مات بغتةً ، لأقتلنّك به ، والله والله وأنت أعلم . قم الآن فاخرُج ولا تعرض له . فخرج وقد كاد أن يموت ، فلما كان بعد ذلك ، دخلتُ عليه وإبراهيم عنده ، فجعل ينظر اليه مرّة ، والىّ مرّة ، ويضحك ، ثم قال له : إنى لأعلم شبتك لإسحاق وميلَك اليه ، والى الأخذ عنه ، وإن هذا لا يجيئك من جهته كما تُريد إلّا بعد أن يَرْضَى ، والرضا لا يكون بمكروه ، ولكن أحْسِنْ اليه وأكرمه ، وآعْرِف حقه وصِله ، فاذا فعلت ذلك ، وخالف ما تهواه ، عاقبتُه بيد

مستطيلة ولسان مطلق، ثم قال لى : قم الآن الى مولاك، وابن مولاك، فقبّـل رأسه، فقمت اليه، وقام الىّ واصطلحنا .

ولعل ما قدمناه لك يعطيك صورة واضحة ، عما كان لاسحاق من مكانة لدى الرشيد، وما كان للرشيد من حَدْبٍ عليه وبِرٍّ به .

أما مكانة إسحاق عنـد الأمين وبطانتـه، فانها لا تقلّ، أيدك الله، عن مكانته عند الرشيد وبطانة الرشيد، ولا ترى حيرا فى الدلالة على هـذه المكانة، من كلام إسحاق نفسه قال إسحاق : استدنانى الأمين يوما ، وهو مُسْتَلْقٍ على فراش، حتى صارت ركبتى على الفراش، ثم قال : يا إسحاق، أشكو اليك أصحابى، فعلتُ بفلان كذا ففعـل كذا، وفعلتُ بفلان كذا ففعل كذا، حتى عدّد جماعة من حواصـه، فقلت له . أسأ يا سيدى لتفصل علىّ وتُحس رأيك فىّ! ظننتَ أنى ممن يُشاوَر فى مثـل هذا الحديث، فجاوزت فى حدّى ومقدارى، وهذا رأى يَجِلّ ولا يبلغه قدرى، فقال : ولِمَ ؟ أنت عندى عالم عاقل ناصح . قلت : هذه المنزلة عند سيدى ! علّمتَنى ألّا أقول إلّا ما أعرف، ولا أطلبَ إلا ما أنال، فضحك وقال : بلغنى أنك عملت فى هـذه الأيام لحناً فى شـعر الراعى ، فلم أسمعه منك، فقلتُ : يا سـيدى ما سمعه أحد إلا حَوَارِىّ، ولا حضرتُ عندك مدُّ صعتُه . فقال : عَنّه فقلت : الهيبةُ والصَّحْو يَمنعانى من أن أؤديَه كما أريد، فلو آنس أميرُ المؤمنين عـدَه بشىء يُطـربه ويُقوّى طبعـه كان أجود . قال : صـدقت، ثم أمر بالغـداء فتغدّينا، وأمر بالستائر فأُسدلت، وعنّى مَنْ وراءها وشربنا أقداحا ، فقـال : يا إسحاق، ماجاء أوان الصوت؟ فقلت : بلى يا سيدى، وغنّيتُ فى شعر الراعى :

ألم تسألْ بعـارمة الدِّيَارَا * عن الحىّ المُفارق أين سارا
بلى ساءلتُهـا فأبتْ جواباً * وكيف تسائل الدِّمَنَ القفارَا

فاستحسـنه وطرب عليـه ، وقال : يا إسحاق ، لا تطلب بعـد النُّقْية ووجود المُنْيـة، وما أشربُ بقية يومى إلا على هذا الصوت، ووصلنى وخلَع علىّ من ثيابه .

ومما حدث بين الأمين وإسحاق أن الأمين اصطبح ذات يوم ، وأمر بالتوجيه الى إسحاق ، فوجّه اليه عِدّةُ رُسُل كلّهم لا يصادفه ، حتى جاء أحدهم به ، فجاء مُنْتشيًا ومحمد مُغْضَب ، فقال له : أين كنت " ويلك ! قال . أصبحتُ يا أمير المؤمنين نشيطا ، فكرّتُ الى بعض المتنزّهات ، فاستطبتُ المَوْضع فأقمت فيه ، وسقاني رياد فذكرتُ أبياتا للأحطل وهو يسقيني ، فدَارَك فيها لحنٌ حسن ، فصعتُه وقد حثثت به ، فتبسّم وقال : هاته ، فما تزال تأتي بما يُرضي عنك عبد السُّخط ، فغنّاه .

إذا ما رِيادُ عالَني ثم عالني * ثلاث زجاجات لهنّ هديرُ
حرجتُ أجرّ الذيلَ حتّى كأنّني * عليك أميرَ المؤمنين أميرُ

فقال : ل على أبيك قبّح الله فعلَك ! فما زال إحسانُك في غنائك يمحو إساءتك في فعلك ، وأمر له بألف دينار . وأصلُ قول الأحطل :

* اذا ما نديمي علّني *

وزياد هذا غلام لإسحاق . وقد ذكرنا فيما سبق أنه أعتقه وزوّجه من أخته بدافع من أريحيّته وأثر الشَّراب فيه .

أما عبد الله المأمون ، فيحدّثنا إسحاق عن ناحية من شخصيته ، وهي موقفه من الغناء وسماعه ، وقد ألمعنا اليها حين عرضنا للكلام عن المنادمة في عصره ، ثم نسوق اليك بعد هذا الحديث ما كان لإسحاق من مكانة لدى المأمون أيضا .

قال إسحاق . أقام المأمونُ بعد قدومه بغداد عشر سنين شهرا لم يسمع غرفا من الأغاني ، ثم كان أوّل من تغنّى بحضرته أبو عيسى بن الرَّشيد ، ثم واظب على السماع مُستتِرًا ، متشبها في أوّل أمره بالرشيد ، فأقام على ذلك أربع حِجج ، ثم ظهر للندماء والمغنين . وكان حين أحبّ السماعَ سأل عني ، فخرجتُ بحضرته ، وقال الطاعن عليّ : ما يقول أميرُ المؤمنين في رجل بنيته على الخلافة ، وما أبقى من التِّيه شيئا حتى استعمله ! فأمسك المأمونُ عن ذِكْري ، وجفاني مَن كان يَصِلني لسوء رأيه فيّ ، فأضرّ ذلك بي ، حتى جاءني عَلُّويَه يوما فقال لي :

أتأذنُ لى فى ذكرك عند المأمون؟ فإنّا قد دُعِينا اليوم، فقلتُ : لا ولكن عنّه بهذا الشعر، فإنه سيبعثه على أن يسألك لمَ هـذا الشعر، فاذا سألك فتح لك ما تُريد ، وكان الجواب أسهلَ عليك من الابتداء، فقال : هاتِ، فألقيتُ عليه لحنى فى شعرى :

يا سَرْحَةَ الماء قد سُدَّت مواردُه ... أما اليك طريقٌ غيرُ مسدود

لحائم حام حتّى لا حَرَاكَ به ... مُحَلَّأٍ عن طريق الماء مطرود

ومضى عَلُّويه، فلما استقر به المجلس غنّاه، فما عدا المأمونُ أن يسمَع الغناء حتى قال. ويحك يا عَلّويه! لمن هذا الشعر؟ قلتُ: ياسيدى اعمد من عبيدك حفوتَه وأطّرحتَه بغير جُرْم، فقال : إسحاقَ تَعْنى؟ فقلت : نعم، فقال . بحصر الساعة، فجاء فى رسوله، فحضرت فلما دخلت ، قال : أدنُ فدنوتُ ، ورفع يديه مادًّهما إلىّ، فأكببتُ عليه فاحتضنى بيديه ، وأطهر من بِرّى ما لو أطهره صديقٌ مؤاسٍ لصديقه لسرّه[1] .

ثم ما زالت تعظُم مكانته عـند المأمون ، حتى سأله يوما أن يكون دخوله مع أهـل العـلم والأدب والرُّواة لا مع المغنين ، فاذا أراد الغِنـاء غنّاه ، فأجابه الى ذلك . ثم سأله بعـد مدّه طويلة أن يأذن له بالدخول مع الفقهاء فأذن له ، فدخل يوما مع يحيى بن أكثم متماسكَيْن ، وعَلُّويه ومحـارق فى حُجرة لهما حالسين يتطران جلوسَ المأمون، فرأياهما وقد دخلا حتى جلسا بين يدى المأمون، فكاد علُّويه أن يُجَنّ ، وقال . ياقوم سمعتُم بأعجبَ من هذا! يدخُل قاضى القضاه ويدُه فى يد مُغنٍّ حتى يجلسـا بين يدَى الخليفه ! ثم مصت مدّة فسأل إسحاقُ المأمونَ فى لُبْس السواد يوم الجمعة والصلاه معه فى المقصوره ، فضحك المأمون وقال : ولا كلّ هذا يا إسحاق ! وقد اشتريتُ منك هذه المسألة بمائة ألف درهم، وأمر له بها . وهذا الخبرُ يؤيّد ما ذكرناه فى أوّل كلامنا على إسحاق من أنه كان يطمع الى أن يكون فى مرتبة غير مرتبة المغنين .

---

(١) أنظر كتاب بغـداد (ج ٦ ص ٣٢٨) وقد سبق أن ذكرنا هـذه القصة فى فصل المقدمة بصيغة أخرى نقلا عن كتاب التاج .

وانظر الى دِقّة إحساس إسحاق وقوّة دَوْقه فى تنبيه الخطأ فى وَتَرٍ واحد بين ثمانين وَتَرًا، وكان ذلك فى مجلس المأمون، قال اسحاق : دعانى المأمون يوما، وعنده ابراهيم بن المهدى، وفى مجلسه عشرون جارية، قد أجلس عَشْرا عن اليمين وعَشْرا عن يساره، فلما دخلت، سمعتُ من الناحية اليُسْرَى خطأً فأنكرتُه، فقال المأمون . أسمعتَ خطأً؟ فقلتُ : نعم يا أمير المؤمنين، فقال لإبراهيم بن المهدى : هل تسمعُ خطأً؟ قال لا، فأعاد علىّ السؤالَ فقلت : بلى يا أمير المؤمنين. فإنه لفى الجانب الأيسر، فأعاد إبراهيم سمعه الى الناحية اليُسْرَى، ثم قال : لا، والله يا أمير المؤمنين مافى هذه الناحيه خطأ! فقلتُ : ياأمير المؤمنين مُرِ الجوارىَ اللائى على اليمين بُمْسِكْنَ، فأمرهنّ فأمسكنَ، ثم قلتُ لإبراهيم : هل تسمع خطأ؟ فتسمّع ثم قال : ما ها هنا خطأ. فقلتُ : ياأمير المؤمنين، يُمسِكْن ويضرب الثامنةُ، فأمسكن وضربت الثامنةُ، فعرف إبراهيم الخطأ، فقال نعم ياأمير المؤمنين هاهنا خطأ، فقال المأمون عند ذلك لابراهيم ابن المهدى : لا تُمارِ إسحاقَ بعدها، فان رجلا عرف الخطأَ بين ثمانين وَتَرًا وعشرين حلفا لحدبٌ ألّا تُمارِيَه! قال : صدقتَ ياأمير المؤمنين؛ وكان فى الأوتار كلّها مَثْنَى فاسدُ التسوية، فطَرب المأمون وقال . لله درُّك يا أبا محمد! فكأنى يومئذ .

وحبر آخر يدل على حِذْق إسحاق نفسه فى مجلس آخر للمأمون، قال اسحاق : دخلت على المأمون يوما، وعَقِيد يُغنّيه مُرتجلا وعيُوه يضرب عليه، فقال : يا إسحاق كيف تسمع مُغَنِّينَا هذا؟ فقلت. هل سأل أميرُ المؤمنين غيرى عن هذا؟ فقال. نعم، سألت عمى ابراهيم فقرَّظه، واستحسنه، فقلت : يا أمير المؤمنين — أدام الله سرورك، وأطاب عيشك — إن الناس قد أكثروا فى أمرى، حتى نسبَتْنى فِرْقة الى التريُّد فى علمى، قال : فلا يمنعك ذلك من قول الحق اذا لزمك، فقلت لعَقِيد : أردد الصوت الذى غنّيته، فردّه وتخطّط فيه وضرب عليه ضاربُه، فقلتُ لابراهيم بن المهدىّ . كيف رأيْتَه؟ فقال : ما رأيتُ شيئا أُنكِرُه مما سمعته، فأقبلتُ على عَقِيد، وقلتُ له لما استوفاه : فى أىّ طريقه غنّيتَ؟ فقال : فى الرَّمَل، فقلت للضارب : فى أى طريقة ضربت؟ فقال : فى الهَزَج الثقيل، فقلت : ياأمير المؤمنين، ما عسى أن أقول

فى صوت يُعنّيه مُعنّيه رَمَلًا ، و يصربه صار به هَرَجًا ثقيلا ، وليس هو صحيحا فى إيقاعه الذى صُرِب عليه" قال وتفهّمه إبراهيم بن المهدىّ ، فقال : صَدَق يا أمير المؤمنين ، والأمر فيه بيّن ! فعجب المأمون من ذلك كيف خَفِىَ على كل مَن حضر .

أمّا مَنزلتُه عند الواثق ، فيقول ابن حَمْدون : سمعت الواثق يقول . ما غَنّانى إسحاق قطّ إلا ظننتُ أنه قد زِيدَ فى ملكى ، ولا سمعته قطُّ يُغنّى غِناء ابن سُرَيْج إلا ظننتُ ابن سُرَيْج قد نُشِر ، وإنى لَيَحْضُرنى غيره إذا لم يكن حاضرا فيتقدّمه عندى بطيب الصوت ، حتى إذا اجتمع عندى رأيت إسحاق يَعلو ورأيت من طبتُ أنه يتقدمه يقُص ، وإن إسحاق لنعمه من نعم الملوك التى لم تحظ أحد بمثلها ، ولو أن العُمر والشباب والنشاط مما يُشْتَرى لاشتريتهنّ له بشَطْر ملكى .

أما المتوكّل الذى تُوُفّى إسحاق فى أوّل عصره ، فيحدّثنا ابن حَمْدون أنه سأل عن إسحاق ، فعرف أنّه كُفّ وأنه بمنزله ببغداد ، فكتب فى إحضاره ، فلما دخل عليه رَفَعَه حتّى أجلسه قُدّام السَّرير ، وأعطاه مِخَدّه . وقال : بلغنى أن المعتصم دفع اليك فى أوّل يوم جلستَ بين يديه مِخَدّة ، وقال . إنه لايَستحِق ما عند حُرٌّ مثلُ إكرامه . ثم سأله : هل أكَلَ" فقال : نعم ، فأمر أن يُسْقَى ، فلما شَرِب أقداحا قال هاتوا لأبى محمد عُودا ، فجِىء به فاندفع يُغنى لشعره :

ما علّة الشّيخ عياه بأربعه ... تَعْرُو رِقَاقِ بدمع ثم تَنْسَكِبُ

قال ابن حَمْدون . فما بقى علام من العُلَماء الوُقُوف إلا وحدثه يرقُص طَرَبًا ، وهو لا يَعلم بما يفعل ، فأمر له بمائة ألف درهم . ثم انحدر المتوكل الى الرّقة ، وكان يستطيبها لكثرة تعريد الطّير فيها ، فغنّاه إسحاق :

أأن هتفت وَرْقاءُ فى رَوْنَق الضُّحى ... على فَنَن عصّ النّبات من الرَّنْدِ

بكيتَ كما يَبْكى الوليدُ فلم تكن * جليدا وأبديتَ الذى لم تكن تُبْدِى

فصحك المتوكّل ، ثم قال : يا إسحاق ، هذه أحتُ فعلّمك الواثق لمّا عنّيتَه بالصّالحية :

طَرِبْتُ الى أُصَيْبِيَةٍ صِعَارٍ * ودكّرنى الهوى قُرْبَ المَزَارِ

فكم أعطاك لما أذن لك فى الانصراف؟ قال . مائة ألف دينار؛ فأمر له بمائة ألف دينار وأذن له بالانصراف .

وإنا لو دهسا نذكر لك من أخبار إسحاق . وما كان له من نوادر فى مجالس الخلفاء وغير مجالس الخلفاء من رجالات الدولة لعددنا حد القصد، وإنما نجيل من يريد التزيد من أمر إسحاق على كتاب الأغانى. ونختم هذا الفصل من أخبار اسحاق بما قاله محمد بن عمران الجرجانى، حين ذكر عنده . قال . كان والله إسحاق غرة فى زمانه، وواحدا فى عصره، علما وفهما، وأدبا ووقارا، وحودة رأى، وصحة مودة، وكان والله يحرس الناطق اذا نطق، ويخبر السامع اذا تحدث، لا تمل جليسه فى مجلسه، ولا تمج الآذان حديثه، ولا تنبو النفس عن مطاولته، إن حدثك ألهاك، وإن ناطرك أفادك، وإن عاتبك أطربك، وما كانت خصلة من الأدب ولا جنس من العلم، يتكلم فيه إسحاق فيقدم أحد على مساجلته أو مباراته فيه !

قال إسحاق بن إبراهيم . رأسى فى حجرى حرا حالسا يسند وأنا أسمع، فلما قرع أحد كعبة من شعرى فألقاها فى، فابتلعتها، فأول ذلك بعض من ذكرته له أنه وزنى الشعر. قال زيد بن محمد المهلبى . وكذلك كان، لقد مات إسحاق وهو أشعر أهل زمانه .

وقال أبو الفرج الأصفهانى وكان إسحاق جيد الشعر، كان يقول وينسبه للعرب، من ذلك قوله :

لقط الحدور عليك حورا عينا * أنسين ما جمع الكناس قطينا
فاذا بسمن فمن كمثل عمامه * أو أقحوان الرمل نات معينا
وأصح ما رأت العيون محاجرا * ولحق أمرض ما رأت عيونا
فكأنما تلك الوجوه أهلة * أقرن بين العشر والعشرينا
وكأنهن اذا نهضن لحاجة * يهضن بالعقدات من يبرينا

وأشعاره فى هذا النّوع كثيرة. ولعلّ الذى كان يدفع أولئك الشّعراء الى أن يسبوا خير ما تجود به قرائحهـم الى العرب الجاهليّين أو أعراب الصحراء، رُوحُ ذلك العصر، وأنها كانت رُوحا تميـل الى القديم، ولا سيّما اذا رُسّ هذا القـديم بإطار من خيال الرّواة والقصّاصين ويظهر أن ما كانوا يَظْفَرون به رواةً للشّعر العربىّ أكثر مما كانوا يَظْفَرُون به شعراءَ مُجيدين، وإلا فهل تُتصوّر أن نَسَب المرء تتاحَ قريحته الى غيره، ما لم يكن ثَمَنُ ذلك عطيا ؟ .

ومن شعر إسحاق ما اعتذر به الى الواثق حين عَتَبَ عليه فى تأخّره عنه، وهو قوله :

أشْكُو الى الله بُعدى عن حَلبتِه ... وما أعالجُ من سُـقْم ومن كِبَرِ
لا أستطيع رَحيلا إن هَمَمْتُ به * اليه يومًا ولا أقْوَى على السَّـفرِ
أوْى اليـــه رَحِـــلا ثم يَمْنَعُنِى ... ما أحْدثَ الدّهرُ والأيّامُ فى بَصَرى

ومن شعره أيضا عند علوّ سنه .

سَلامٌ على سَنْر القِلاَص مع الرّكبِ * ووَصْلِ العـوَانِى والمُدامَه والشَّربِ
سَـلامَ امرئٍ لم يَبْقِ منـــه بقيَّه * سِوى بطَرِ العَيْنَيْنِ أو شهوةِ القَلْبِ

ومن جيّد شـعر اسحاق ما كان يستحسنه ابن الأعرابىّ ويعجب به أيّمـا إعجاب، وهو قوله .

هَـلْ الى أن سَآم عيشى سبيلُ * إنّ عهدى بالنّوم عهدٌ طويل
عاب عيّ مَن لا أُسَمّى فعيبى ... كلّ يوم وَحْدًا عليـــه تَسيلُ
إنّ ما قلّ مـــك يكثرُ عِندى ... وكَثيرٌ ممّن تُحبُّ القليـــلُ

وكان إسحاق اذا عيّ هـذه الأبياتَ تمثّل عيناه . ولمّـا سُـئِلَ عن بُكائه أجاب : تَعَشّقْتُ جارية فقلت لهـا هذه الأبيات، ثمّ مَلَكْتُها، فكنت مَشْغُوفا بهـا، حتّى كَبِرْتُ واعتلّ عينى، فإذا غنّيت هـذا الشـعر ذكرت أيّامى المتقـدّمه، وأنا أبكى على دهرى الذى كنتُ فيه .

وقال إسحاق. أنشدت الأصمعيّ الأبيات الثلاثة، فجعل يعجب بها ويردّدها. فقلت له. إنها بيتُ ليلتها؛ فقال. لا حَرَمَ أن أثَرَ التوليد فيها ظاهر. فقال إسحاق. ولا حرمَ أن أثَرَ الحسد فيك ظاهر! ولعل هذا هو سبب الحقوه التي كانت بين إسحاق والأصمعيّ. فإن اس منطور يَرْوِي لما في مختصره أن إسحاق كان تأحد عن الأصمعيّ. وذكر عنه الروايات، ثم فسد ما بينهما، فهجاه إسحاق وثلَبَهُ. وذكر عبد الرشيد أنه قليل الشكر، بخيل، ساقط النفس، لا تركو الصنيعة عنده. وذكر له أنا عُبَيْدَةَ مَعْمَر بن المُثنّى بالتهمة والصدق والسّماحة، واشتماله على جميع علوم العرب. وفعل مثلَ ذلك عند الفضل بن الرّبيع، ولم يزل بهما حتى وضع منزلة الأصمعيّ عندهما، ثم أنفذا الى أبي عُبَيْدة مالا جليلا واستقدماه. فكان إسحاق سبب ذلك.

وكان إسحاق قليل الهَجْو. فإذا هجا رأيت في هجْوِه عفّة اللسان، وجَمال التعريض. ونريد أن نذكر لك من هذا الباب قولَه في أحمد بن هشام. وكان اسحاق يألف أحمد هذا وأخاه علّا وسائر أهله إلفًا شديدًا، فوقعت بينهم نَبْوَةٌ ووحشة فهجاهم. وهذا مما قاله في أحمد:

وصَافِنةٍ تُغْشِي العُيونَ رقيقُه ... رهينة عام في الدِّنابِ وعامِ
أدرْنا بها الكأس الروِيّة مَوْهِنًا ... من الليل حتّى انْحَاتَ كلُّ ظَلامِ
فما درّ قَرْنُ الشمس حتّى كأنّنا ... من العِيّ نحكي أحمد بن هِشامِ

ويقال ان أحمد سأله ما دبى؟ فقال. لأنك قعدتَ على طريق القافية.. !

وكان إسحاق يَسْأَلُ الله ألّا يَبْتَلِيَه بالقُولَنج. لمّا رأى من صُعُوبته على أبيه، فرأى في منامه كأن قائلا يقول: قد أُجيبَتْ دعوتُك، ولستَ تموتُ بالقُولَنج، ولكنّك تموت بصدَه، ثم أصابه ذَرَبٌ في شهر رمضان سنة ٢٣٥ هـ فكان يتصدّق في كل يوم بمكنه صومه بمائة درهم، ثم ضَعُفَ عن الصوم فلم يطُقه ومات في الشهر.

ولمّا نُعِي الى المتوكل عَمَّهُ وحَزِنَ عليه، وقال. ذهب صدْرٌ عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته !

مؤلفـاته :

علمتَ ممـا أورداه لك فى الكلام على إسحـاق أنه كان يُحسن كل ما كان عالجه من العلوم إحسانا قلّ أن يستوى لغيره، ولكنه قَصَر تأليفَه على ما قَصَرتْه عليه وطيفتُه، وعمله، فألّف فى الأغانى، والإيقَاع والنَّغَم، وآداب الشّراب، والندماء، والمُنَادَمَات، وأخبار الشعراء، وأهـل الغِنّ من المغنّين والمُغنّيَات. فمِن مؤلّفاته: كتاب الأغانى الكبير، وكتاب اللحظ والإشارات، وكتاب الرّقص والرّقن، وكتاب النّغم والإيقاع، وكتاب النّدماء والمنادمات. وله مؤلفات غَمّ سمعه من أهل الغِنا رجالا ونساء، أمثال مَعْبَد، وابن مِسْجَح، وعَزّه المَيْلاء، وغيرهم. وله أيضا كتاب الهُدَلِيّين، وكتاب تفصيل الشعر، وكتاب أخبار ذى الرُّمة، وكتاب جواهر الكلام. وله كتاب مُنادمه الإخوان. وتسامُر الخِلّان، وكتاب القِيَان، وغير ذلك مما يطق بعلوّ كعبه فى شتى الفنون، و نشهد أنه دائره معارف عاقه.

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٦٤/١٩٢٧/٣١٥٠)

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فريد رفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثاني

(حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ — ١٩٢٧ م

فهرس

المجلد الثانى من عصر المأمون

ملحق الكتاب الأول — عصر بنى أمية

باب المنثور : صفحة

رسالة أبى بكر وعلى ١

كلام عائشة رضى الله عنها فى الانتصار لأبيها ١٢

كلمة أم الخير بنت الحريش . ١٤

كلمة الرقاء بنت عدى ١٧

كلمة عكاشة بنت الأطرش ١٨

رسالة لعبد الحميد الكاتب كتبها عن مروان بن محمد لبعض من ولاه ٢٠

رسالة ثانية لعبد الحميد الكاتب أوصى فيها الكتاب ٥٣

رسالة ثالثة لعبد الحميد الكاتب فى الشطرنج .. ٥٧

رسالة رابعة لعبد الحميد الكاتب وصف بها الصيد ٦٠

باب المنظوم :

أنواع العرل ورعيه كل نوع . ٦٣

العرل الإناسى — عمرو أبى ربيعة . . . ٦٤

العرل العدرى — جميل . ١٠٣

العرل الصاعى — كثير . ١٢٤

العرل القصصى — قيس بن الملوح (المجنون) ١٣٨

قيس بن ذريح ١٥٢

الشعر السياسى — العجاج بن رؤبة ١٦٤

ملحق الكتاب الثانى — عصر بنى العباس

باب المنثور .

مشورة المهدى لأهل بيته فى حرب حراسان ١٦٩

رسالة أبى الربيع محمد بن الليث التى كتبها للرشيد الى قسطنطين ملك الروم . . ١٨٨

صفحة

رسالة يحيى بن زياد فى تقريظ الرشيد ... ٢٣٧
كتب الرشيد ... ٢٤٤
كتاب عهد البيعة ٢٤٤
نسخة الشرط الذى كتب عبد الله بن أمير المؤمنين بخط يده فى الكعبة ... ٢٤٧
نسخة كتاب الرشيد الى العمال ... ٢٤٩

باب المطـــوم :

بشار بن برد ... ٢٥٢
حماد عجرد ... ٢٧٧
مروان بن أبى حفصة ... ٢٨٧
أبو دلامة ... ٣٠٠
أبان بن عبد الحميد اللاحقى ... ٣١٧
حماد حمدان بن أبان ... ٣٢٦
منصور النمرى ٣٣٣
السيد الحميرى ... ٣٣٩
مسلم بن عمرو الباهلى ... ٣٤٩
ربيعـــة الرقى ٣٥٤
الـــرقاشى ... ٣٥٩
أبو العتاهيـــة ٣٦١
مسلم بن الوليد ٣٧٤
العباس بن الأحنف ٣٩٣
ابن مناذر ... ٤٠٠
صالح بن عبد القدوس ... ٤٠٣
سعيد بن وهب ... ٤٠٧
الحسن بن وهب ٤١١
أشجـــع السلمى ... ٤١٩
على بن الجهـــم ... ٤٢٣
على بن جبلـــة ... ٤٣١

ملحق
الكتاب الأول

باب المنثور

ذكرنا فى مقدمة المجلد الأول من "عصر المأمون" أننا قسمنا المجلد الثانى الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة، وعُنينا عناية خاصّة الى جانب ذلك بذكر جملة صالحة من آثار كاتب خاص وشاعر خاص لتمثيل عصرهما . واتخذنا من عبد الحميد الكاتب وعمر بن أبى ربيعة أنموذجا أمويّا ، ومن أبى الربيع محمد بن الليث وبشّار بن بُرْد مثالا عباسيا ، ومن عمرو بن مَسْعدة وأبى نُوَاس نموذجا لتصوير الحياة الكتابية والشعرية فى عصر الأمين والمأمون، الى غير ذلك من النماذج والآثار مما يستدعيه المقام، وقد أوردناها من غير أن نعرض لها بتحليل أو بيان — اللهم إلّا تفسير بعض ألفاظها الغريبة وشرح كلماتها الغامضة — فهى فى وضوحها ودلالتها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة الى شىء. وها نحن أولاء نذكر ما وعدناك به .

١ — رسالتا أبى بكر وعلىّ

قال[1] أبو حَيّان على بن محمد التَّوحيدىّ البَغْدادىّ : سَمَرْنا ليلةً عند القاضى أبى حامد أحمد بن بِشْر المَرْوَرُوذىّ ببغداد، فتصرف فى الحديث كلّ متصرِّف، وكان غزير الرواية،

(١) انظر كتاب صبح الأعشى ص ٢٣٧ ح ١

لطيف الدِّراية، فجرى حديثُ السَّقيفة، فركب كلٌّ مركبا، وقال قولا، وعرّض بشيء، ونزَع الى منّ . فقال : هل فيكم من يحفظ رسالة لأبى بكر الصدّيق[1]، رضى الله عنه، الى على بن أبى طالب كرّم الله وجهه، وجواب علىّ عنها، ومبايعته إياه عَقِيب تلك المناظرة ؟ فقال الجماعة : لا والله ، فقال : هى والله من بنات الحقائق، ومخبّآت الصادق، ومذ حفظتُها ما رويتها إلا لأبى محمد المهلّبىّ فى وزارته ، فكتبها عنّى بيده . وقال : لا أعرف رسالة أعقل منها ولا أبْيَن، وإنها لتدلّ على علم وحلم، وفصاحة ونباهة، وبُعد غور، وشدّة عوص . فقال له العبّادانىّ : أيها القاضى، فلو أتممتَ المسّة عليا بروايتها ! أسْمِعْناها ، فحن أوعى لك من المهلّبىّ، وأوجبُ ذِمَاما عليك، فاندفع وقال :

حدّثنا الخُزاعىّ بمكة عن أبى مَيْسرة ، قال حدّثنا محمد بن أبى فُلَيح عن عيسى بن دَوْأب بن المتّاح ، قال سمعت مولاى أبا عُبَيدة يقول : لما استقامت الخلافة لأبى بكر رضى الله عنه بين المهاجرين والأنصار ، بعد فتنةٍ كاد الشيطان بها، فدفع الله شرّها ويسّر

---

(١) هو أبو بكر عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة صاحب رسول الله وأوّل خليفة له فى الإسلام وخطيب يوم السقيفة .

ويجتمع نسبه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرة بن كعب . ولد بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين وبضعة أشهر . ونشأ من أكرم قريش خلقا ، وأرجحهم حلما ، وأسماهم يدا ، وأشدّهم عضة . وكان أعلمهم بالأنساب وأيام العرب ومفاخرها . صحب رسول الله قبل البعثة . وكان أوّل من آمن به من الرجال وصدّقه فى كل ما جاء به ، ولذلك سمّى الصدّيق ، وأنفق أمواله فى تأييد دعوته ، وهاجر معه الى المدينة مؤثرا صحبته على كل أهله وولده ، وشهد معه أكثر الغزوات . وما زال ينفق ماله وقوّته فى مناصرة رسول الله حتى استقل صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . واختلفت العرب ، وارتدّت عن الإسلام ، ومنعت الزكاة إلا أهل المدينة ومكة وثقيف بالطائف ، فجرّد عليهم الجيوش حتى قهمهم ، وجمع العرب على الإسلام ، وساقهم قوّا إلى فتح ممالك كسرى وقيصر . وما مات إلا وجيوشه تهزم جيوش الفرس والروم وتستولى على مدائنهم وحصونهم . وكان رحمه الله فصيحا بليغا ، خطيبا مفوّها ، حاضر البديهة ، قوى الحجة ، شديد التأثير ، يشهد بذلك خطبته يوم السقيفة ، وذلك أنه لما مات رسول الله اختلفت الصحابة فيمن يبايعونه خليفة له عليهم ، فأبت الأنصار إلا أن يكون الخليفة منهم ، وأبى المهاجرون من قريش إلا أن يكون منهم . واشتدّ النزاع حتى كادت تقع الفتنة ، فخطبهم خطبة لم يلبث الجميع بعدها أن بايعوه خليفة . وكانت وفاته سنة ١٣ هـ ومدّة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال .

خيرها ، بلغ أبا بكر عن علىّ تلكُّؤٌ وشِمَاس[١]، وتهمٌ ونِفاس[٢]، فكره أن يتمادى الحالُ فتبدوَ العورة، وتشتعلَ الجمرة، وتفترقَ ذاتُ البَيْن[٣]، فدعانى بحضرته فى خَلْوة ، وكان عنـده عمر ابن الخَطّاب رضى الله عنه وحدَه، فقال : يا أبا عُبَيدة، ما أَيْمن ناصِيَتك، وأَبْيَن الخيرَ بين عينيك، وطالما أعزّ الله بك الإسلام وأصلح شأنه على يديك، ولقد كنتَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المَحُوط، والمحلّ المغبوط، ولقد قال فيك فى يوم مشهود : "لكل أُمة أمينٌ وأمينُ هذه الأمة أبو عُبَيدة"، ولم تزل للدين مُلْتَحا، وللؤمنين مُرْتَجى، ولأهلك ركنا، ولإخوانك رِدْءا . قـد أردتُك لأمرٍ خَطَره مَخُوف، وإصلاحُه من أعظم المعروف، ولئن لم يَنْدَمِلْ جرحُه بيَسارك ورِفْقك، ولم تَجُبَّ[٤] حيّتَه بُرْقيتك ، وقع اليأس، وأَعْضل الأمر، واحتيج بعد ذلك الى ما هو أمرّ منه وأَغْلق ، وأَعْسر منه وأَغْلق ، والله أسأل تمامَه بك ، ونظامَه على يديك . فتأتَّ[٥] له أبا عُبَيدة وتلطَّف فيه، وانصحْ لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ولهذه العِصَابة عيرَ آلِ جَهْدا ، ولا قَالِ حَمْدا ، والله كالئُك وناصرُك، وهاديك ومبصِّرُك ، ان شاء الله . امضِ الى علىّ واخْفِضْ له جناحَك، وأَغضُضْ عنده صوتَك، واعلم أنه سُلَالة أبى طالب، ومكانُه ممّن فقدْناه بالأمس — صلى الله عليه وسلم — مكانُه، وقل له : البَحْر مَغْرَقة، والبرّ مَفْرَقة ، والجوُّ أَكْلَف[٦] ، والليـل أَعْدَف[٧] ، والسماء حَلْواء[٨]، والأرض صَلْفاء[٩] ، والصعود متعذّر، والهبوط متعسّر، والحقّ عَطُوف رَءُوف ، والباطل عَسُوف ، والعُجْب قَدّاحةُ الشرّ، والضِّغْن رائدُ البَوَار، والتعريض شِجَار الفِتْنـة ، والقِحَة تَقُوبُ العداوة ، وهـذا الشيطانُ متّكئٌ على شِمـاله ، متحيِّلٌ بميسه، نافِخٌ حِضنَيْه[١٠] لأهله، ينتظر الشَّتَات والفُرْقة ، ويَدِبّ بين الأمة بالشَّحْناء والعداوة ، عاداً لله عز وجل

---

(١) الشماس : المعاداة والمعاندة . (٢) تهم الشيء . طلبه وتحسّسه . (٣) نافس فى الشيء مناقسة : رغب فيه على وجه المباراة والمفاخرة . (٤) تجب : تقطع . (٥) تأتى فلان للأمر : تهيأ له وأتاه من وجهه .

(٦) الجو أكلف : أسود تعلوه حمرة . (٧) الليل أعدف : مرخ سدولَه مظلم . (٨) السماء حلواء : مصحية . (٩) خالية لا شجر فيها . (١٠) أى مستعد لأن يعمل عمله من الشر .

أوّلا، ولآدمَ ثانيا، ولبيه — صلى الله عليه وسلم — وديبه ثالثا، يُوَسْوِس بالفُجُور، ويُدْلِي بالغرور، ويمنّي أهلَ الشرور . يُوحِي الى أوليائه زُخْرُفَ القول غُرُوراً بالباطل، دَأْباً له مُنْذُ كان على عهد أبينا آدمَ صلى الله عليه وسلم، وعادةً له مسذُ أهانه الله تعالى فى سالف الدهر، لا مَنْجَى منه إلا بعصِّ الناجد على الحق، وعَضِّ الطَّرْف عن الباطل، ووَطْء هَامَةِ عدوّ الله بالأشَدّ فالأشدّ، والآكَدِ فالآكد، وإسلام النفس لله عز وجل فى آبتغاء رضاه.

ولا بدّ الآن من قول يسمع إذا صرّ السكوت وخيفَ غِبُّه، ولقد أرشدك مَنْ أماء[1] ضالّتَك، وصافاك من أحْيا مودّته بعتابك، وأراد لك الخيرَ مَنْ آثر البقاءَ معك ؛ ما هذا الذى تُسَوِّل لك نفسُك، ويَدْوَى به قلبُك، ويلتوى عليه رأيُك، ويخاوِص[2] دونه طَرْفُك، ويَسْرِى فيه طَعْنُك، ويَبْرادُّ معه نَفَسُك، وتكثر عنده صُعَداؤُك، ولا يَفِيضُ به لسانُك. أعجمةٌ بعد إفصاح ! أتلبيسٌ بعد إيضاح ! أدينٌ غيرُ دين الله ! أخلقُ غيرُ خلق القرآن ! أهَدْىٌ غيرُ هَدْىِ النبى صلى الله عليه وسلم ! أمثلى "تَمْشِى[3] له الصَّرَاءَ وتَدِبُّ له الحَمْرَا!" أم مثلُك يَنْقِبض عليه الفضاء، ويُكْسَف فى عينه القمر! ما هذه القَعْقعة بالشِّنَان[4] ! وما هذه الوَعْوعة باللسان ! إيك والله جِدُّ عارف بآستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبّتنا، هجرةً الى الله عز وجل، ونصرةً لدينه فى زمان أنت فيه فى كِنِّ الصِّبَا، وحِضْرِ العَرَارة، وعُفُوان الشَّبِيبة، عافلٌ عما يُشِيب ويَريب، لا تَعِي ما يُرَاد ويُشَاد، ولا تحصِّل ما يُسَاق ويُقَاد، سِوَى ما أنتِ جارٍ عليه الى غايتك التى اليها عُدِل بك، وعندها حُطّ رَحْلُك، غيرَ مجهول القدر ولا مجحود الفضل ؛ ونحن فى أثناء ذلك نُعَانِى أحوالا تُزِيل الرَّوَاسِى ؛ ونُقَاسِى أهوالا تُشِيب النَّوَاصِى، حائصين عِمَارَها، راكبين تَيَّارَها، نتجرّع صابَها، ونَشْرَج[5] عِيابها، ونُحْكِم آسَاسَها، ونبرم

(١) أماء : أرضح . (٢) يخاوص : يعضّ من بصره . (٣) الصراء : الاستحياء . والحمر : ما وارك من شجر، وهو مثل يضرب لمن يخدع صاحبه . (٤) الشنان جمع شن وهو القربة الخلق الصغيرة . والقعقعة : الصوت، يريد أنه لا يخوف بمثل هذا . (٥) نشرج عيابها : نضمها ونضم بعضها الى بعض . والعياب : جمع عيبة ؛ وهى وعاء من أدم تجعل فيه الثياب .

أَمْرامَها[١]، والعيونُ تَحْدِجُ بالحسد، والأنوفُ تَعْطِس بالكِبْر، والصدور تَسْتَعِر بالغَيْظ، والأعناق تتطاول بالفخر، والشِّفَار تُشْحَذ بالمَكْر، والأرض تَميد بالخوف، لا تنتظر عند المساء صباحا، ولا عند الصباح مساء، ولا تدفع فى نَحْرِ أمر إلا بعد أن تَحْسُوَ الموتَ دونه، ولا تنلع مُرَادًا إلا بعد الإياس من الحياة عنده، فَادِينَ فى جميع ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالأبِ والأمّ، والحال والعم، والمال والنَّشَب، والسَّدِ[٢] واللُّدَد، والهِلَّة[٣] والبِلَّة، بطيب أَنْفُس، وقُرَّة أَعْيُن، ورَحْبِ أَعْطَان، وثَبَاتِ عزائم، وصحة عقول، وطَلَاقة أَوْجُه، ودَلَاقة أَلْسُن، هذا مع خَفِيَّات أسرار، ومَكْنونات أحبار، كنتَ عنها غافلا، ولولا سِنُّك لم تكن عن شىء منها نَاكِلا، كيف وفؤادُك مَشْهوم[٤]، وعُودُك مَعْجُوم! . والآن قد بلغ الله بك وأنهض الخيرَ لك، وحمل مرادَك بين يديك، وعن علم أقول ما تسمع، فارتقبْ زمانَك، وقلِّص أَرْدانَك، ودَعِ التقعُّس والتحسُّس لمن لا يَظْلَعُ لك اذا حطا، ولا يترجح عنك اذا عَطَا[٥]، فالأمر عَصّ، والنفوسُ فيها مَصّ، وإنك أَدِيمُ هذه الأمة فلا تَحْلَم لَحَاحًا[٦]، وسيفُها العَضْب، فلا تَنْبُ أَعْوِجَاجا، وماؤها العَذْب فلا تَحْلُ أُجَاجًا.

والله لقد سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر، فقال لى: «يا أبا بكر هو لمن يرعب عنه لا لمن يُجَاحِشُ[٧] عليه، ولمن يتضاءل عنه لا لمن يتنفَّخُ اليه[٨]، هو لمن يقال هو لك لا لمَنْ يقول هو لى».

ولقد شاورنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصِّهْر، فذكر فِتيانًا من قريش، فقلت: أين أنت من علىّ! فقال صلى الله عليه وسلم: إنى أكره لفاطمةَ مَيْعةَ شبابه، وحَداثة سنّه. فقلت له: متى كَفَفْتَه يدُك، ورَعَتْه عينُك، حَفَّت بهما البركة، وأُسْبغت عليهما النعمة، مع كلامٍ كثيرٍ حاطتُه به رغبةٌ فيك، وما كنت عرفت منك فى ذلك لا حَوْحاء[٩]

(١) جمع مرس ككتف وهو الحبل. (٢) السد الشعر. واللد: الصوف. (٣) يقال حاء ما فلان على يأتنا بهلة ولا بلة أى لم يأتنا بشىء، فالهلة من الفرح والاستهلال، والبلة من البلل والخير. (٤) مشهوم (بالشين المعجمة) دنىّ متوقد. (٥) عطا: مدّ اليك عنقه وأقبل نحوك (٦) حلم الجلد (من باب فرح): فسد وتثقب. (٧) أى يطلبه ويدافع عنه. (٨) يتطلع اليه ويتحرى به. (٩) أى ما كنت عرفت منك شيئا.

ولا لَوْحاء، فقلتُ ما قلتُ وأنا أرى مكانَ غيرك، وأجد رائحةَ سِواك؛ وكنتُ إذ ذاك خيراً لك منك الآن لى . ولئن كان عرّض بك رسـول الله صلى الله عليه وسـلم فى هذا الأمر، فلم يكن مُعرِضا عن غيرك: و إن كان قال فيك فما سكت عن سِواك؛ و إن تلجْلَج فى نفسك شىء فهَلُمّ، فالحكم مرصىّ، والصواب مسموع، والحقّ مُطَاع . ولقد نُقِل رسولُ الله صلى الله عليه وسـلم الى الله عز وجل، وهو عن هذه العِصابة راض، وعليها حَذِر، يسرُّه ما سرّها ويسوءه ما ساءها، ويكيده ما كادها، ويُرْصِيه ما أرصاها، ويُسْخِطه ما أسخطها. أَمَا تعلم أنه لم يَدَعْ أحدا من أصحـابه وأقاربه وسُجَرائه[1] إلا أبانه بفضيلة، وخصّه بمزية، وأفرده بحـالة ! أتظن أنه صلى الله عليه وسـلم ترك الأمة سُـدًى بَدَدا، عَبَاهِلَ[2] مَبَاهِل، طَلاَحَى مفتونةً بالباطل، مغبونةً عن الحـق، لا رائد ولا دائد، ولا ضابط ولا حائط، ولا ساقَ ولا واق، ولا هادىَ ولا حادى ! كلا ! والله ما آشـتاق الى ربه تعالى ولا سأله المَصِـير الى رضوانه وقُربه، إلا بعد أن ضرَب المَدَى، وأوضح الهدى، وأبان الصُّوَى[3]، وأمّن المسالك والمطارح، وسهّل المبارك والمَهَايع[4]، و إلا بعد أن شَدَحَ يافوخ[5] الشرك بإذن الله، وشَرَم وحهَ النفاق لوحه الله سـبحانه، وجَدَع أنفَ الفتنـة فى ذات الله، وتفَلَ فى عين الشيطان بعون الله، وصَدَع بملء فيه ويده بأمر الله عز وجل .

و بعـد، فهؤلاء[6] المهاجرون والأنصار عندك ومعك فى بقعة واحدة ودار جامعة، إن استقالونى لك وأشاروا عـدى بك، فأنا واضـع يدى فى يدك، وصائر الى رأيهم فيك . و إن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيـه المسلمون، وكن العونَ على مَصَالِحهم، والفاتحَ لمَغَالقهم، والمرشدَ لصالّتهم، والرادعَ لغَوَايتهم . فقد أمر الله تعالى بالتعاوُن على البرّ والتقوى، والتناصُر على الحق . ودَعْنا نقصِى هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغِلّ، ونلقَى الله تعالى بقلوب سليمةٍ من الضِّغْن .

(١) سجرائه أصدقائه . (٢) عباهل ساهل (بالباء الموحدة فى الكلمتين) : مهملة . (٣) الصوى : الأعلام . (٤) المهايع : الطرق . (٥) اليافوخ (يهمز ولا يهمز) حرء الرأس الذى يخرك فى الطفل . (٦) فى صبح الأعشى : «فهذه» .

وبعد، فالناس ثُمامةٌ فارفُقْ بهم وآحنُ عليهم ولِنْ لهم، ولا تُشْقِ نفسَك بما حاصة فيهم، واترك ناجمَ الحقد حصيدا، وطائرَ الشرّ واقعا، وبابَ الفتنة مُغْلَقا، فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تَبِيع، والله على ما نقول شهيد، وبما نحن عليه بصير .

قال أبو عُبَيدة : فلما تأهّبتُ للنهوض، قال عمر رضى الله عنه : كُنْ لدَى الباب هُنيهةً فلى معك دورٌ من القول ؛ فوقفتُ وما أدرى ما كان بعدى ، إلا أنه لحِقنى بوجه يَنْدَى تهلّلا، وقال لى : قل لعلىّ : الزقادُ مَحْلَبة، والهوى مَقْحَمة ، ومامنّا إلا له مقامٌ معلوم، وحق مشاعٌ أو مقسوم ، ونبأ ظاهر أو مكتوم ؛ وإن أكيَس الكَيْس من مَنَح الشاردَ تألُّفا ، وقاربَ البعيدَ تلطُّفا ، ووَرَن كلَّ شيء بميزانه ، ولم يخلِطْ حبرَة بعيانه ، ولم يجعل فِتْرَه مكان شِبْره ، دِيناً كان أو دُنيا ، ضلالًا كان أو هُدى . ولا حيرة فى علم مستعمَل فى جهل ، ولا حيرة فى معرفة مَشُوبة بنُكْر . ولسنا لخلدة رُفْع(١) العير بين العِحان والذنب . وكُلٌّ صَالٍ فبناره ، وكل سيلٍ فإلى قَراره . وما كان سكوت هذه العصابة الى هذه الغاية لعِيّ وشِيّ(٢) ، ولا كلامُها اليوم لفَرَقٍ أو رِفْق . وقد خدع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنفَ كل ذى كِبر ، وقَصَم ظهرَ كل جبّار ، وقطع لسانَ كل كَذُوب، فماذا بَعْدَ الحق إلا الضلال . ما هذه الخُزْرُوانة(٣) التى فى قَرَاش رأسك ! ما هذا الشَّحَا المعترض فى مَدَارج أنفاسك ! ما هذه القَذَاة التى تَغَشّت ناظرَك ! وما هذه الوحَرَةُ(٤) التى أكلت شَرَاسِيفَكَ ! وما هذا الذى لَبِستَ بسببه جلدَ النِّمر، وآشتملتَ عليه بالشَّحْناء والنُّكْر ! ولَسْنا فى كِسْروية كِسْرَى، ولا فى قيصرية قيصر ! تأمل لإخوان فارس وأبناء الأصفر ! قد جعلهم الله جَرَرًا لسيوفنا ، ودريئةً لِرماحنا ، ومرمًى لِطعاننا ، وتبعًا لسلطاننا ، بل نحن فى نور نبوّة ، وضياء رسالة ، وثمرةِ حكمة ، وأُثْرَة رحمة ، وعُنوان نِعمة ،

---

(١) الرفع : أصل العحد من ماطل . والعحان : الاست . يريد أن مراتبهم بين الأحياء والعشائر ليست حقيرة مهينة . (٢) الشيّ بالكسر إتباع للعيّ . (٣) الخزروانة . الكبر . (٤) الوحرة (بالتحريك) : والحقد العداوة والشراسيف : جمع شرسوف ، والشرسوف مقط الضلع .

وطلِّ عِصْمة، بين أمّة مهديّة بالحق والصدق، مأمونةٍ على الرَّتْق والفَتْق، لها من الله قلبٌ أبيّ، وساعدٌ قوىّ، ويدٌ باصره، وعينٌ باصرة . أتظن طما ياعلىّ أن أبا بكر وَثَب على هذا الأمر مُفْتاتاً على الأمة حادعًا لها أو متسلّطا عليها ! أتُراه حلّ عقودها وأحال عقولَها ! أتُراه حمل نهارها ليلا، ووَزْنَها بكلا، ويَقَظَتها رُقادا، وصلاحَها فسادا! لا والله! سَلَا عنها فوَلِهَتْ له، وتَطَامَن لها فَصِقَتْ به، ومال عنها فمالت إليه، وآشمأزّ دونها فآشمأزّت عليه، حَوْةً حَبَاه الله بها، وعاقبةً للّمه الله إليها، ونعمةً سَرّ بَله جمالَها، ويدٌ أوجب الله عليه شكرَها، وأمةً نظر الله به إليها . والله أعلم بخلقه، وأرأف بعباده، يختار ما كان لهم الخِيَرَةُ . وإنك بحيث لا يُجْهَل موضعُك من بيت السوء، ومَعْدِن الرسالة، ولا يُجْحَد حقُّك فيما آتاك الله، ولكن لك مَنْ يزاحمك بمَنْكِب أصحّ من منكِبك، وقُرْب أمسّ من قرابتك، وسنّ أعلى من سنّك، وشَيبةٍ أروعَ من شيبتك، وسيادةٍ لها أصلٌ فى الجاهلية وفرعٌ فى الإسلام، ومواقفَ ليس لك فيها حملٌ ولا ناقه، ولا تُذْكَر منها فى مقدّمة ولا سَاقَة، ولا تَضرب فيها بذراع ولا إصبع، ولا تحرُج منها ببازٍ ولا هُبَع[1] . ولم يزل أبو بكر حبَّة قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعِلَاقة نفسه، وعَيْبة سِرّه، ومَفْزَع رأيه ومشورته، وراحةَ كفّه، ومَرْمَق طَرْفه . وذلك كله بمَحْضَر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار، شهرتُه مغنيةٌ عن الدليل عليه . ولعمرى إنك أقربُ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابةً، ولكنه أقربُ منك قربةً، والقرابةُ لحم ودم، والقُربةُ نفس وروح . وهذا فرق عَرَفه المؤمنون، ولذلك صاروا إليه أجمعون. ومهما شَكَكْتَ فى ذلك، فلا تشكّ أن يدَ الله مع الجماعة، ورضوانَه لأهل الطاعة . فادخُل فيما هو خيرٌ لك اليوم وأنفعُ لك غدا، وألفِظْ من فيك ما يَعْلَق بلَهَاتك، وآنفُثْ سَخِيمةَ صدرك عن ثُقَاتك، فإن يكُ فى الأمد طولٌ، وفى الأجل فُسْحة، فستأكله مريئا أو عير مرىء، وستشربه هنيئا أو غير هنيء، حين لا رَادَّ لقولك إلا من كان آيسًا منك، ولا تامعَ لك إلا من كان طامعًا فيك، يَمُضّ[2] إهابَك، ويَعرُك[3] أديمَك،

(١) الباز الحمل القوى الذى دخل فى سنه التاسعة والهبع : الفصيل الذى يفتح فى الصيف فيكون ضعيفا .
(٢) يمص إهابك : يحرق جلدك . (٣) يعرك : يدلك .

ويُزْرِى على هَدْيك . هالك تقرَع السنّ من ندم، وتَجْرَع الماءَ ممزوجا بدم، وحينئذٍ تأسَى على ما مضى من عمرك ودارج قوتك ، فتودّ أن لو سُقِيتَ بالكأس التى أبتَها ، ورُددتَ إلى حالتك التى أستغويتَها . ولله تعالى فيما وفيك أمرٌ هو بالغهُ، وعيبٌ هو شاهدُه، وعاقبةٌ هو المرجوّ لسَرّائها وضَرّائها، وهو الولىّ الحميد، الغفور الودود .

قال أبو عُبَيدة : فتمشّيت مترمّلا أنُوء كأنّما أخْطُو على رأسى، فَرَقًا من الفُرْقة، وشَفَقًا على الأمّة، حتى وصلتُ الى علىّ[1] رضى الله عنه فى خَلَاء، فاتتْنُه تَنِّى كلّه، وبَرِئتُ إليه منه، ورَفقْت به . فلما سمعها ووعاها، وسَرَتْ فى مفاصلِه حُمَيّاها ، قال : "حَلّت مُعْلَوّطة[2]، ووَلّتْ مُخْرَوّطة[3]"، وأنشأ يقول :

إحدى لياليك فهيسى هِيسى[4] * لا تَنْعَمى الليلةَ بالتّعريس

نعمْ يا أبا عبيدة ، أكلُّ هدا فى أنفس القوم ، ويُحِسّون به ، ويَصْطَعِمون[5] علىّ ! قال أبو عبيدة : فقلت : لا جواب لك عندى، إنما أنا قاصٍ حقَّ الدِّين، وراتقٌ فتق المسلمين، وسادٌّ ثُلْمة الأمّة، يعلم الله ذلك من جُلْجُلان[6] قلبى، وقَرَارة نفسى .

---

(١) هو أمير المؤمنين أبو الحسن على بن أبى طالب . وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزوج ابنته . ورابع الخلفاء الراشدين . وإمام الحفاظ من المسلمين

ولد رحمه الله بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم بثلاثين وثلاثين سنة . وهو أول من آمن من الصبيان . وكان شجاعا لا يشق له غبار . أيدا حليدا . شهد الغزوات كلها مع النبى إلا غزوة تبوك . وأبلى فى نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم يبله أحد . ولما قتل عثمان بايعه الناس بالخيار وامتنع على بيعته معاوية وأهل الشام شيعة بنى أمية عصبة مبهم لقتل عثمان وقلة عنايته بالبحث عن القتلة على حسب اعتقادهم ، فحدث من جراء ذلك الفتنة العظمى بين المسلمين وافترقهم الى طائفتين فتحاربوا مدة من غير أن يستتب الأمر لعلى أو معاوية حتى قتل أحد الخوارج عليا غيلة بمسجد الكوفة . وكان كرم الله وجهه أفصح الناس بعد رسول الله . وأكثرهم علما وزهدا وشدة فى الحق : وهو إمام الخلفاء من العرب على الاطلاق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت وفاته سنة ٤٠ هـ ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر .

(٢) معلوطة : مقتحمة من غير روية . (٣) محروطة : مسرعة . (٤) هيسى : سيرى أىّ سير كان .

(٥) أى يبطون على الصعن وهو الحقد . (٦) جلجلان قلبى، أى حتته .

فقال علىّ رصى الله عنه : والله ما كان قُعُودى فى كِنّ هـذا البيتِ قصدًا للخلاف، ولا إنكارًا للعروف ، ولا زِرَايةً على مسلم، بل لمـا قد وقَدَنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من مِراقه، وأودعنى من الحزن لفقْده . ودلك أنى لم أشهد بعده مَشْهدًا إلا جدّد علىّ حزنا، وذكّرنى شجَنا . وإن الشوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره . وقد عكفتُ على عهد الله أنظر فيه، وأجمع ما تفرّق، رجاء ثواب مُعَدٍّ لمن أخلص لله عمله ،وأسلم لعلمه ومَشيئته، وأمـره ونهيه. على أنى ما علمت أن التطاهر علىّ واقع، ولا عن الحق الذى سيق إلىّ دافع . وإذ قد أُقيمَ الوادى بى ، وحُشِد النادى من أجلى ، فلا مرحبًا بما ساء أحدًا من المسلمين وسرّنى . وفى النفس كلامٌ لولا سابقُ عقـد وسالف عهد ، لشَفَيْتُ غيظى بمَخْصَرى وبصَرى، وحُضْتُ لجّتَه بأَخْمَصى ومَفْرِقى، ولكننى مُلْجَمٌ إلى أن ألقى الله ربى، وعـده أَحْتسب ما نال بى . وإنّى عادٍ إلى جماعتكم، فمبايعٌ صاحبَكم، صابرٌ على ما ساءنى وسرّكم، لِيَقْضِىَ الله أمرا كان مفعولا .

قال أبو عُبَيدة : فعدتُ إلى أبى بكر رصى الله عنه فقصَصْتُ عليه القولَ على عَرّه[1]، ولم أختزل شيئا من حُلْوه ومُرّه ، ونكَرت عُدوةً إلى المسجد، فلما كان صباحُ يومئذ وإذا علىّ مخترق الجماعةَ إلى أبى بكر رضى الله عنهما فبايعه، وقال خيرا، ووصف جميلا، وجلس زَميتا[2]، وآستأذن للقيام فمضى وتبعه عمر مُكْرِمًا له ، مستأثرا لمـا عنده .

فقال علىّ رصى الله عنـه : ما قعدتُ عن صاحبكم كارهًا، ولا أتيتُه فَرَقًا، ولا أقول ما أقول تَعِلّة . وإنّى لأعرف منتهى طَرْفى، ومَحَطّ قَدَمى، ومنْزَعَ قوسى، وموقِعَ سهمى، ولكن قد أَزَمتُ على فَأْسِى ثِقةً برأى فى الدنيا والآخرة[3] .

فقال له عمر رصى الله عنـه : كَفْكِفْ غَرْبَك، وآستوقِفْ سِرْبَك ، ودَع العِصِىّ بلِحائها، والدِّلاءَ على رِشائها . وإمّا من حَلْفِها وورائها، إن قَدَحْنا أَوْرَيْنا ، وإن مَتَحْنا أَرْوَيْنا ،

(١) على عرّه، أى كما هو وكما قص علىّ . (٢) زميتا : حليما وقورا . (٣) يقال : أزم الفرس على فأس الجام اذا عضها وقبض عليها . وفأس الجام : الحديدة المعترضة مسه فى الحنك . يريد أنه ألجم نفسه ثقة الخ .

وإن قَرَحْنا أدمَيْنا . ولقد سمعتُ أماثيلَك التى لَعَزْتَ بها عن صدرٍ أُكِل بالجَوَى ، ولو شئتُ لقلتُ على مقالتِك ما إن سمعتَـه بَدِمتَ على ما قلتَ . وزعمتَ أنك قعدتَ فى كِنِّ بيتِـك لمـا وَقَدك به رسول الله صلى الله عليـه وسلم من مقـدِه ، فهو وَقَدك ولم يَقِدْ غيرَك ! بل مصابُه أعظم وأعمّ من ذلك ، وإن من حق مُصابه ألاّ تَصْدع شَمْل الجماعة بفُرْقةٍ لا عصامَ لها ، ولا يؤمَن كيدُ الشيطان فى بقائها . هده العرب حولنا ، والله لو تَدَاعتْ علينا فى صبح نهـار لم نلتقِ فى مسائه . وزعمتَ أن الشوق إلى اللِّحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره ! فمن علامة الشوق إليه نصرةُ دينـه ، ومؤازرةُ أوليائه ومعاونتهـم . وزعمت أنك عَكَمتَ على عهد الله تجمع ما تمزق منه ، فمن العكوف على عهد الله النصيحةُ لعِبَاد الله ، والرأفةُ على خلق الله ، وبدل ما يَصْلُحون به ، ويَرْشُدون عليه . وزعمتَ أنك لم تعلم أن التظاهر واقعٌ عليك ، وأىُّ حقٍّ لُطْ(١) دونك ! . قد سمعتَ وعلمتَ ما قال الأنصار بالأمس سِرّا وجهرا ، وتقلّبتَ عليه بطنا وظهرا ، فهل ذكرتْ أوأشارتْ بك ، أو وجدْتَ رِضاهم عنك ؟ هل قال أحد منهم بلسانه إنك تصلُح لهذا الأمر ؟ أو أومأ سمعه أو هم فى نفسه ؟ أتظن أن الناس ضلُّوا من أجلك ، وعادوا كفّارا زهدًا فيك ، وناعوا الله تحاملًا عليك ؟ . لا والله ! لقد جاءنى عَقِيل ابن زِيَاد الخَرْرَجى فى نَفَرٍ من أصحـابه ومعهم شُرَحْبِيل بن يعقوب الخَزْرجى وقالوا : إن عليًّا يتنظر الإمامة ، ويزعُم أنه أولى بها من غيره ، ويُنكِر على من يَعْقد الخلافة ، فأنكرتُ عليهم ، ورددتُ القولَ فى نَحْرهم حيث قالوا : إنه يتنظر الوَحْىَ ويتوكّفُ(٢) مساءةَ الملك ؛ فقلت : ذاك أمر طواه الله بعـد نبيه محمد صـلى الله عليه وسـلم أكان الأمر معقودًا بأُنْشُوطة(٣) ، أو مشدودًا بأطراف لِيطَة(٤) ؟ كلّا ! والله لا عماءَ بعد الله إلا أفصحتُ ، ولا شَوْكاءَ إلا وقد تفتّحتْ . ومن أعجب شأنك قولك : «ولولا سالف عهد وسابق عقد ، لشفَيْتُ غيظى» وهل ترك الدينُ لأهله أن يَشْفُوا غيظَهم بيد أو بلسان ؟ تلك جاهليةٌ وقد استأصل الله شأفتَها وأقطع جُرثومتَها ، وهوّر ليلَها ، وغوّر سيلَها ، وأبدل منها الرَّوحَ والريحان ، والهُدَى والبرهان .

(١) لط : بعد . (٢) يتوكف : ينتظر . (٣) الأنشوطة : عقدة يسهل انحلالها ، اذا أخذ بأحد طرفيها انفتحت . (٤) الليطة قشرة القصبة التى تلبط بها أى تلزق .

وزعمت أنك مُلْحَم؛ ولعمرى إنّ من آتق الله، وآثر رِضاه، وطلب ما عنده، أمسك لسانَه وأطبق فاه، وحمل سعيَه لما وراه .

فقال على رضى الله عنه : مهلًا يا أما حَفْص، والله مابذلتُ ماذلتُ وأنا أريد بكثه، ولا أقررتُ ما أقررتُ وأنا أبتغى حِوَلًا عنه . وإنّ أخسر الناس صفقةً عند الله مَنْ آثر النِّفاق، وآحتضن الشِّقاق، وفى الله سلوةٌ عن كل حادث، وعليه التوكل فى جميع الحوادث. ارجع يا أما حفص الى مَجْلِسك ناقِعَ القلب، مبرودَ الغليل، فسيحَ اللِّثان[1]، فصيحَ اللسان، فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشدّ الأَزْر، ويحطّ الوِزْر، ويَصَع الإِصْر، ويجمع الألفه بمشيئة الله وحسن توفيقه .

قال أبو عبيدة رضى الله عنه : فانصرف علىّ وعمر رضى الله عنهما . وهذا أصعب ما مرّ علىّ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

٢ — ومن كلام عائشة[2] رضى الله عنها فى الانتصار لأبيها

يروى أنه بلغ عائشة رضى الله عنها أن أقواما يتناولون أبا بكر رضى الله عنه، فأرسلتْ الى أُرْبَدَة[3] من الناس، فلما حضروا، أسدلتْ أستارَها، وعَلَتْ وِسَادَها، ثم قالت : أبى، وما أبِيَهْ ! أبى والله لا تَعْطُوه[4] الأيدى، داك طودٌ مُنيف، وفرعٌ مَديد، هيهات، كدتِ الطنون! أَنْجح إذ أَكْدَيتم، وسَبَق إذ وَنَيْتم، سَبْق الجوادِ إذا استولى على الأمد . فتى

---

(١) اللثان : الصدر . (٢) هى عائشة بنت أبى بكر الصديق بن أبى قحافة، عقد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وهى بنت ست سنين، ودخل بها فى المدينة وهى بنت تسع، وكان مولدها سنة أربع من النبوة، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر، وكان صداقها أربعمائة درهم، وكانت أحب نسائه إليه، وكنيتها أم عبد الله، كنيت بابن أختها أسماء، ولها خطب ووقائع . وكانت من أكبر العاملات فى وقعة الجمل المشهورة فى الاسلام صحبة الزبير وطلحة . وكانت أفصح أهل زمانها وأبينهم منطقا وأحفظهم للحديث وأفقههم . توفيت سنة سبع وخمسين ودفنت ليلا بالبقيع وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه . راجع ترجمتها فى طبقات ابن سعد (ج ٨ ص ٣٩) .

(٣) الأرطة . الجماعة . (٤) لا تعطوه : لا تناله .

قريش ناشئا، وكهفها كَهْلا، يَفُكّ عانيَها، ويَريش مُملِقَها، ويَرأب شَعْبها، ويلمّ شَعْثَها، حتى حَلِيَتْه قلوبُها، ثم استشرى فى دين الله ما بَرِحتْ شكيمتُه فى ذات الله عز وجل حتى اتحد بنائه مسجدًا يُحيى فيـه ما أمات المُبْطلون . وكان رحمه الله عَزِيزَ الدمعة، وَقِيدَ الجوانح، شَجِيّ النَّشيج، فانقضّت اليه يسوانُ مكة وولْدانُها يسخَرون منه ويستهزئون به ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فأكبرتْ ذلك رجالاتٌ من قريش حسَبَ قسيمًا، وفوقت سهامَها، وامتثلوه غَرَضًا، فما فَلُّوا له صَفَاة، ولا قَصَعوا له قَنَاة، ومرّ على سِيسائه[1]، حتى ادا صَرَب الديرُ بحِرَابه، ورستْ أوتادُه، ودحل الناسُ فيه أفواجا، ومن كل مِرقة أرْسالا وأشتاتا، احتار الله لنبيّه ما عنده، فلما قَبَض الله نبيّه صلى الله عليه وسلم صرب الشيطانُ رواقَه، ومدّ طُنُبه، ونَصَب حبائلَه، وأحلب بخيْله ورَجْله، وأصطرب حبلُ الإسلام، ومَرَج عهـدُه وماج أهلُه، ونُعِيَ العوائل، وطست رحالٌ أن قد أكْتَبْتْ أطنابُهم نُهزَها، ولاتَ حينَ الذى يرحون، وأنّى والصِّـدّيق بين أظهرهم ! فقـام حاسرًا مشـمِّرا، بجمع حاشِيتيه ورفع قُطْرَيه، فردّ رَسَنَ الإسـلام على عَرْبه، ولمّ شعثه بطبّـه، وأتاش الدينَ فنعشـه، فلما أراح الحقُّ على أهـله، وقرّر الرءوسَ على كواهلها، وحَقَن الدماءَ فى أهْبِها، أنته منيّته، فسدّ ثُلْمته بنظيره فى الرحمة، وشقيقه فى السيره والمَعْدَلة، ذاك ابنُ الخطاب، لله درّ أمّ حَمَلتْ به ودرّتْ عليه ! لقد أوحدتْ به، ففسخ[2] الكَفَرَة ودِيَّهَا، وشرّد الشرك شَدَرَ مَدَرَ، ونَعَج الأرض وبَجَحها، فقاءت أُكُلها، ولَفظتْ خَبْأَها[3]، تَرْأمه ويَصْدِف عنها، وتَصـدّى له وياناها . ثم وزّع فيها فيئَها ووذعها كما صَحِبَها . فأرونى ماذا تَرْتَئُون، وأىّ يومىْ أبى تَنْقِمون : أيومَ إقامته اذ عَدْل فيكم، أم يومَ ظَعْنه إذ نظر لكم؟ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . ثم أقبلتْ على الناس بوجهها فقالت : أنشُدكم اللهَ هل أنكرتم مما قلتُ شيئا ؟ قالوا : أللهم لا .

---

(١) على سيسائه، أى على دأبه وعادته . (٢) فسخ : علب وقهر . (٣) حبأها : ما عاب عنها .

٣ — كلمة أم الخير بنت الحريش[1]

ومن كلام أمّ الخير بنت الحُرَيش البارقية يوم صِفّين فى الانتصار لعلىّ رضى الله عنه :

يُروى أن معاوية كتب الى واليه بالكوفة أن يحمل اليه أمّ الخير بنت الحُرَيْش البارقية برَحْلها، وأَعْلمه أنه مُجَازيه بقولها فيه بالخير خيرا وبالشر شرا . فلما ورد عليه كتابه ، ركب اليها فاقرأها الكتابَ، فقالت : أنا أنا فغيرُ زائعة عن طاعةٍ ولا معتلّة بكذب ! ولقد كنتُ أُحِبّ لقاءَ أمير المؤمنين لأمور تختلج فى صدرى . فلما شيّعها وأراد مفارقتَها قال لها : يا أمّ الخير، إن أمير المؤمنين كتب الىّ أنه يجازينى بقولك فىّ بالخير خيرا وبالشرّ شرا ؛ فما عندك؟ قالت : يا هذا لا يُطْمعنّك بِرُّك بى أن أُمرّك بباطل، ولا تؤيسْك معرفتى بك أن أقول فيك غيرَ الحق . فسارت خير مَسير حتى قَدِمت على معاوية، فأنزلها مع حريمه ثلاثا، ثم أدخلها عليه فى اليوم الرابع، وعنده جلساؤه، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، قال لها : وعليك السلام ياأم الخير، وبالرغم منك دعوتنى بهذا الأسم ؛ قالت : مَهْ ياأمير المؤمنين ! فإن بديهة السلطان مَدْحَضة لما يحب علمه ولكل أجلٍ كتاب، قال : صدقتِ، فكيف حالك ياحالة؟ وكيف كنتِ فى مسيرك ؟ قالت : لم أزل فى عافيةٍ وسلامةٍ حتى صرتُ اليك فأنا فى مجلس أنيق، عند ملك رفيق ؛ قال معاوية : بحسن نيتى طَفِرتُ بكم ؛ قالت : يا أمير المؤمنين أُعيذُك بالله من دَحْض المقال وما تُرْدِى عاقبتُه ، قال : ليس هذا أردنا ، أخبرينى كيف كان كلامك يوم قُتِل عَمّار بن يَاسِر؟ قالت : لم أكن والله زوّرته[2] قبلُ ولا رويته بعدُ ، وإنما كانت كلماتٌ نَفَثْنَ لسانى حين الصّدْمة، فان شئتَ أن أُحدث لك مقالا غير ذلك فعلتُ ؛ قال : لا أشاء ذلك . ثم التفت الى أصحابه فقال : أيُّكم يحفظ كلام أم الخير؟ فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظى سورة الحمد ؛ قال : هاتِه ؛ قال : نعم كأنى بها يا أمير المؤمنين فى ذلك اليوم عليها

(١) مقولة عن صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٨ (٢) زوّر الكلام فى نفسه : هيأه .

بُرْدٌ زَبيدىّ كثيف الحاشية، وهى على جمل أَرْمَكَ[1] وقد أحيط حولها، وبيدها سوط منتشر الصعر، وهى كالفحل يَهدِر فى شِقْشِقَته تقول :

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾! ان الله قد أوضح الحق، وأبان الدليـل، ونوّر السبيل، ورفع العَلَم، فلم يَدَعْكم فى عَمْياءَ مُبْهمة! ولا سوداءَ مُدْلَهِمّة، فالى أين تريدون رحمكم الله ! أفِرارًا عن أمـير المؤمنين، أم فِرارًا من الزَّحْف، أم رغبـةً عن الاسـلام، أم ارتدادًا عن الحق ! أَمَا سمعتم الله عزّ وجلّ يقول : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ .

ثم رفعت رأسها الى السماء وهى تقول :

قد عِيلَ الصبر، وضَعُف اليقين، وانتشر الرعب، وبيدك يا ربِّ أَزِمَّةُ القلوب، فاجمع الكلمة على التقوى، وألِّف القـلوبَ على الهـدى . هَلُمّوا رحمكم الله الى الإمام العـادل، والوصىّ الوفىّ ، والصِّدِّيق الأكبر! إليه إحَنُّ بَدْرِيّه، وأحقاد حاهليّه، وصغائن أُحُديّه؛ وثَب بها معاوية حين الغفلة لِيُدْرِك بها ثاراتِ بنى عبد شمس .

ثم قالت : قَاتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُم لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ . صبراً معشرَ المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصـيرةٍ من ربكم، وثباتٍ من دينكم، وكأنى بكم عدًا قد لَقِيتم أهـلَ الشأم كَحُمُرٍ مُستنفِرة، فَرّتْ من قَسْوَرة ، لا تدرى أين يُسْلَكُ بها من فِجاج الأرض، باعوا الآخرةَ بالدنيا ، واشـتَرَوُا الضلالةَ بالهدى ، وباعوا البصيرةَ بالعمى، وعمـا قليلٍ ليُصْبِحُنّ نادمين، حين تَحُلّ بهم الندامة، فيطلبون الإقالة! إنه والله مَنْ ضلّ عن الحق وقع فى الباطل، ومن لم يسكن الجنـة نزل فى النار . أيها الناس ، إن الأكياس استقصروا عمرَ الدنيا فرفضوها واستبطـئُوا مدّه الآخرة فسَعَوْا لها . والله أيها الناس لولا أن تبطُلَ الحقوق، وتُعَطَّل الحدود، ويظهرَ الظالمون، وتَقْوَى كلمةُ الشيطان، لما احترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه، فالى أين تريدون — رحمكم الله — عن ابن عم رسول الله صـلى الله عليه وسـلم

(١) حمل أرمك : لونه لون الرماد .

وزوج ابنته وأبى آبنيه؟ خُلق من طِينته، وتفرّع عن نَعْته، وخصّه بسِرّه، وجعله باب مدينته، وأعلَمَ بحبه المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين. فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته، ويمضى على سنن آستقامته، لا يعرّج لراحة اللذات. وهو مُفَلِّق الهام، ومكسِّر الأصنام، إذ صلّى والناس مُشْرِكون، وأطاع والناس مرتابون. فلم يزل كذلك حتى قَتَل مُبارِزى بَدْر، وأفنى أهلَ أُحُد، ومزق جَمْعَ هوازن، فيالها وقائع زرعت فى قلوب قوم نفاقا، ورِدّة وشِقاقا. وقد آجتهدتُ فى القول، وبالغتُ فى النصيحة، وبالله التوفيق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقال معاوية: والله يا أمّ الخير ما أردتِ بهذا إلا قتلى! والله لو قتلتُك ما حَرِجتُ فى دلك.

قالت: والله ما يسوءنى يابن هند أن يُجْرِىَ الله ذلك على يَدَىْ من يُسعدنى الله بشقائه؛ قال: هيهاتَ يا كثيرة الفضول، ما تقولين فى عثمان بن عفان؟ قالت: وما عَسَيْتُ أن أقول فيه، آستخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راضون؛ فقال: إيهًا يا أم الخير، هذا والله أصلك الذى تدين عليه، قالت: لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا، ما أردتُ عثمان نقصا، ولقد كان سبّاقا إلى الخيرات، وإنه لرفيع الدرجة. قال: فما تقولين فى طلحة بن عبيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقول فى طلحة، آغتيل من مأمنه، وأُتِىَ من حيث لم يَحْذَر، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنةَ. قال: فما تقولين فى الزبير؟ قالت: يا هذا لا تَدَعْنى كَرَجيع الصَّبِيغ يُعرَكُ فى المِرْكَن[1]؛ قال: حقًّا لتقولنّ ذلك وقد عزمتُ عليك؛ قالت: وما عَسَيتُ أن أقول فى الزبير آبنِ عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحَوَارِيِّه، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، ولقد كان سبّاقا إلى كل مَكْرُمة فى الإسلام. وإنى

(١) المركن: الإجانة وهى إناء تغسل فيه الثياب. ويعرك: يحك. والرجيع المردود. أى لا تجعلنى كالثوب المصبوغ يحك فى الإناء مرة بعد أخرى لإخراج صبغه منه: تشبه محاورة معاوية إياها وسؤاله لها مرة بعد مرة لاستخراج ما فى نفسها مما يفعل من الثياب المصبوغة لاستخراج صبغها منها.

أسألك بحقّ الله يا معاوية، فإن قريشا تحدّث أنك من أحلمها، أن تَسَعَنِي بفضل حلمك، وأن تُعْفِيني من هذه المسائل، وآمِص لما شئتَ من عيرها، قال: نعم وكرامةً، قد أعفيتُك، وردّها مكرّمة إلى بلدها.

* * *

٣ — كلمة الزرقاء[1] بنت عدىّ

ومن كلام الزرقاء بنت عدىّ بن قيس الهَمْدانية ما قالته يوم صِفّين أيضا:

يروى أنها ذُكِرتْ عند معاوية يوما، فقال لجلسائه: أيُكم يحفظ كلامها؟ قال بعضهم: نحن نحفظه يا أمير المؤمنين، قال: فأشيروا علىّ فى أمرها، فأشار بعضهم بقتلها، فقال: بئس الرأى! أيحسُنُ بمثلى أن يقتل امرأة! ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يُوفدها اليه مع ثِقة من ذوى مَحْرَمِها وعِدّه من فُرْسان قومها، وأن يمهّد لها وِطاءً ليّنا، ويسترها ستر حَصِيف[2]، ويُوسّع لها فى النفقة. فلما دخلتْ على معاوية، قال: مرحباً بك وأهلا! قَدِمتِ خيرَ مَقْدَم قَدِمه وافد، كيف حالكِ؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين، أدام الله لك النعمة! قال: كيف كنتِ فى مَسيرك؟ قالت: رِيدةَ بيتٍ أو طِلا ممهّدا، قال: بدلك أمرناهم. أتدرين فيم بعثتُ إليك؟ قالت: وأنّى لى بعلم مالم أعلم؟ وما يعلم الغيبَ إلا الله عز وجل؛ قال: ألستِ الراكبةَ الجمل الأحمر، والواقفةَ بين الصفّين بصِفّين تحُضّين الناس على القتال، وتُوقدين الحربَ؟ فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وسُرّ الذَّنَب، ولن يعود ما ذهب؛ والدهر ذو غِيَر، ومن تفكّر أبصر، والأمرُ يحدُث بعده الأمر؛ قال

---

(١) هى الزرقاء بنت عدىّ بن عالب بن قيس الهمدانية، كانت من أهل الكوفة، وكانت ذات شجاعة فائقة، وبلاغة نادرة، شهدت مع قومها واقعة صفين، ولها عدّة خطب تحرّض الناس فيها على القتال ضد معاوية. وبعد أن تم لمعاوية ما أراد كتب الى عامله بالكوفة باسدسائها، فأحضرت اليه، وبعد محاورة بينه وبينها سألها حاجتها، فقالت «يا أمير المؤمنين، آليت على نفسى ألا أسأل أميرا أعنت عليه أبدا» ثم انصرفت، وبعد ذلك أرسل لها معاوية جائزة.

(٢) حصيف: غليظ.

لها معاوية : أتحفظين كلامك يومئذ؟ قالت : لا والله، ولقد أنسيتُه؛ قال: لكنى أحفظه، لله أبوكِ حين تقولين :

أيها الناس، ارعَوُوا وارجِعُوا! إنكم أصحتم فى فتنة غَشَّتكم جلابيبَ الظلم ، وحارت بكم عن قصد المَحَجّة . فيالها فتنةً عمياء، صَمَّاء بَكْماء، لا تسمع لناعقها، ولا تَسْلَسُ لقائدها. إن المصباح لا يُضىء فى الشمس ، والكواكب لا تُنير مع القمر ، ولا يقطع الحديدَ إلا الحديد . أَلَا مَنْ استرشد أرشدناه، ومَنْ سألَنَا أخبرناه .

أيها الناس ، إن الحق كان يطلب ضالّته فأصابها! فصبرًا يامعاشر المهاجرين والأنصار على الغُصَص، فكأنْ قد اندمل شَعْبُ الشَّتات، والتأمت كلمةُ التقوى، ودَمَع الحقُّ باطلَه ! فلا يحهلن أحدٌ فيقول: كيف العدلُ وأنّى! ليقضِى الله أمرًا كان مفعولا . أَلَا وإن خِضاب النساء الحِنّاء ، وخِصاءَ الرجال الدماء ! ولهدا اليوم ما بعده، والصبر خيرٌ فى عواقب الأمور . إيهًا الى الحرب قُدُمًا غيرَ ناكصين ولا مُتَشاكِسين .

ثم قال لها : يازرقاء، لقد شَرِكْتِ عليًّا فى كل دم سَفَكه ؛ قالت: أحسن الله بشارتك، وأدام سلامتك، فمثلُك من بشّر بخير وسَرّ جليسه ؛ قال : ويُسُرّك ذلك؟ قالت : نعم سُرِرتُ بالخبر فأنّى لى بتصديق الفعل! فصحك معاوية وقال : لَوَفاؤكم له بعد موته أعجبُ عندى من حبكم له فى حياته ! أذكرى حاجتَك، قالت : يا أمير المؤمنين، آليتُ على نفسى ألّا أسأل أميرا أعتُّ عليه أبدا، ومثلك من أعطى من غير مسألة، وجاد من غير طلْبة؛ قال : صدقتِ، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائزوكُسًا .

٤ ــ عكرشة بنت الأطرش

ومن كلام عِكْرِشة بنت الأطرش ما قالته يوم صِفّين أيضا :

يُروى أنها دخلت على معاوية متوكّئة على عُكّازٍ لها، فسلّمت عليه بالخلافة ثم جلست؛ فقال لها معاوية : الآن صرتُ عندك أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم إذ لا على "حىّ" ! قال :

ألستِ المتقلّدة حمائل السيف بصفّين وأنت واقفة بين الصفّين تقولين : أيها الناس ، عليكم أنفسَكم لا يضرُّكم من ضلَّ اذا اهتديتم . إن الجمة لا يحزَن من قطَنها ، ولا يهرَم من سكنها ، ولا يموت من دحاها ، فابتاعوها بدارٍ لا يدوم نعيمُها ، ولا تنصرم همومُها . وكونوا قومًا مستبصرين فى دينهم ، مستظهرين على حقِّهم ، إن معاوية دلَف إليكم بحمر العرب ، لا يفقَهون الإيمان ، ولا يدرُون ما الحكمة . دعاهم الى الباطل فأجابوه ، واستدعاهم إلى الدنيا فلبّوه . فاتقوا اللهَ عبادَ الله فى دين الله ! وإياكم والتوا كُلَ فإن ذلك ينقص عُرَى الإسلام ، ويُطفئ نورَ الحق . هذه بَدْرٌ الصغرى ، والعقبة الأخرى . يا معشر المهاجرين والأنصار ، امضوا على بصيرتكم ، واصبروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غدًا وقد لَقِيتم أهلَ الشأم كالحُمُر الناهقة تقْصَع قصعَ البعير[1] .

ثم قال : فكأنى أراك على عصاك هذه قد انكفأ عليك العسكران يقولون هذه عِكرشة بنت الأطرش ، فإن كنتِ لَتَمُلّين أهل الشام لولا قَدَرُ الله ، وكان أمر الله قَدَرًا مقدورا ، فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، يقول الله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ الآية ، وإن اللبيب إذا كره أمرًا لا يحبّ إعادته ، قال : صدقتِ ، فاذكرى حاجتك ؛ قالت : كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فتُرَدّ على فقرائنا ، وقد فقدنا ذلك ، فما يُجبَر لنا كسير ، ولا يُنعَش لنا فقير ؛ فإن كان عن رأيك فمثلُك من أنتبه من الغفلة وراجع التوبة ، وإن كان عن غير رأيك فما مثلُك من أستعان بالخوَنة ، ولا أستعمل الظَّلَمة ؛ قال معاوية : يا هذه ، إنه ينوبُنا من أمور رعيتنا ثغورُ نتفقّد ، وبحور نتدفّق ؛ قالت : سبحان الله ! والله ما فرض الله لنا حقًّا لجعل فيه صررا لغيرنا وهو علّام الغيوب ؛ قال معاوية : هيهاتَ يا أهل العراق ، نبّهكم علىّ فلن تُطَاقوا . ثم أمر بردّ صدقاتهم فيهم وإنصافهم .

(١) يقال : قصع البعير بجرته يقصع قصعا . مصعها .

٦ — رسالة لعبد الحميد الكاتب[1]

كتب عبد الحميد[2] بن يحيى الكاتب عن مروان بنِ محمد لبعض من ولّاه[3] :

أما بعـدُ ، فإنّ أميرَ المؤمنين — عند ما اعتزَم عليه من توجيهك الى عدوّ الله الحِلْف الجافي الأعرابيّ، المتَسَكِّع فى حَيْرة الجَهالة، وظُلَم الفتنة، ومهاوى الهَلَكة ، ورَعَاعه الدين عاثُوا فى أرض الله فسادًا ، وانتهكوا حُرْمةَ الإسـلام استِحْفافا ، وبدّلوا نِعمة الله كفرا ، واستحلّوا دماءَ أهل سِـلْمه جهلا — أحبَّ أن يَعْهَـد اليك فى لطائف أمورك، وعَوامِّ شُؤونك ، ودخائِل أحوالك ، ومُصْطَرَف تنقُّلك عَهْـدا يحمِلُك فيه أدبُه، ويَشْرَع لك به

---

(١) هذه الرسالة منقولة عن صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٩٥ (٢) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامرىّ ولاء، الشامى دارا، شيخ الكتّاب الأوائل، وأوّل من أطال الرسائل .

كان عبد الحميد من أهل الشام من موالى بنى عامر، وتخرج فى اللاتينية والكتابة على عمه أبى العـلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتب دوله وأحد علماء العالم والفقلة من اليونانية . وكان عبـد الحميد فى أوّل أمره معلم صبيان ينتقل فى البلدان حتى فطن له مروان بن محمد أيام توليه أرمينية وانتدابه لتسكين فتنتها ، فكتب له مدّة ولايته ، حتى إذا ولّاه مابعة أهـل الشام له بالخلافة تحمد مروان الله شكرا وتحمد أصحابه إلا عبـد الحميد ، فقال له مروان لم لا تسجد؟ فقال ولم أسجد؟ ألى أن كنت معنا فطرت عنا! قال : إذا تطير معى ؛ قال : الآن طاب لى السجود وسجد ، فاتخذه مروان كاتب دوله ، فصدر عنه من الرسائل ما صار نموذجا يحاكيه من بعده من البلغاء .

ولما دهمت مروان جيوش خراسان أنصار الدعوة العباسية وتوالت عليـه الهزائم كان عبد الحميد يلازمه فى كل هذه الشدّة ؛ فقال له مروان قد احتجت أن تصير مع عدوّى وتظهر الغدر بى ، فإن إنحيازهم بأدبك ، وحاجتهم إلى كتابتك ، تحوجهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تسعى فى حياتى وإلا لم تعجز عن حفظ حرمى بعـد وفاتى ، فقال له إن الذى أشرت به علىّ أسهل الأمرين لك وأقحمهما بى ، وما عـدى إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك . وأنشد :

أسرّ وفاء ثم أظهر عـدرة * فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره

وبقى معه حتى قتل مروان سـنة ١٣٢ هـ فهرب حتى عبد صديقه أبا المدمع فحاباه الطلب وهو فى بيته ، فقال الذين دخلوا عليهما أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل منهما . أنا ، خوفا على صاحبه ، وخاف عبـد الحميد أن يسرعوا إلى أبى المدمع فقـال . ترفقوا بنا فإنـ كلا منا له علامات ، فوكلوا بنا بعضكم ويمضى بعض آخر ويذكر تلك العـلامات لمن وجههم فعلموا وأحد عبـد الحميد إلى السفاح فقتله سـنة ١٣٢ هـ . انظر ترجمته فى ابن خلكان (ج ١ ص ٤٣٦) . (٣) هو عبد الله بن مروان أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيبانى الحارجى .

عِظَتَه ، و إن كنتَ بحمد الله من دِينِ الله وخلافته بحيث أصطنعك اللهُ لولاية العهد مختصًّا لك بذلك دون لُحْمَتك و بَنِي أبيـك . ولولا ما أمرَ الله تعالى به دالًّا عليـه ، وتقدّمتْ فيه الحكماءُ آمرين به : من تقديم العِظَة ، والتذكير لأهل المعرفه ، و إن كانوا أُولى سابقهٍ فى الفصل وحِصِّيصاء فى العِلم ، لأعتمدَ أميرُ المؤمنين على أصطناع الله إيّاك وتفصيله لك بما رآك أهلَه فى محلّك من أمير المؤمنين ، وسَوْقك الى رعائب أخلاقه ، وآنتزاعك محمودَ شِيَمِه ، وآستيلائك على مَشَابه تدبيره . ولو كان المؤدّبون أحدوا العلمَ من عِند أنفسهم ، أو لُقّنوه إلهاماً من تِلقائهم ولم يُصبهم تعلّموا شيئا من غيرهم ، لَحَلّاهم علم العيب ، ووصعاهم بمرلةٍ قصَّرتهـا عنهم حالقُهم المستأثِر بعلم الغيب عنهم بوَحْدانيّته فى فردانيّته وسابق لاهُوتيّته ، آحتجاناً منهم لتَعقُّبٍ فى حكمه ، وتثبُّتٍ فى سـلطانه وتنفيذ إرادته ، على سابق مشيئته . ولكن العالمَ الموفّى للخير ، المخصوص بالفضل ، المحُوَّ بمزيّة العلم وصونه ، أدركه مُعاناً عليه بلطف بحثه ، و إذلال كَنَفه ، وصحّة فهمه ، وفَجْر سآمته .

وقد تقـدم أمرُ المؤمنين إليك ، آحدًا بالمحـه عليك ، مؤدِّيا حقّ الله الواجبَ عليـه فى إرشادك وقضاءِ حقّك ، وما ينطر به الوالد المَعْنِيُّ الشفيق لولَده . وأميرُ المؤمنين رجو أن يتزّهك الله عن كل قَبيح نَهَشُ له طمَع ، وأن يَعْصِمك من كلّ مكروهٍ حاقَ بأحدٍ ، وأن يحصِّنك من كلّ آفة آستولتْ على آمرئٍ فى دِين أو خُلُق ، وأن يسانَه فيك أحسنَ ما لم يَزل يعوِّده و يُريه من آثار نعمة الله عليك ، سامياً بك الى ذِروه الشرف ، متبَجِحةً بك بَسْـطةُ الكرم ، لائحةً بك فى أزهر معالى الأدب ، مُورِثةً لك أنفَسَ ذخائر العِزّ ، والله يستحلف عليـك أميرُ المؤمنين ويسألُ حِياطتَـك ، وأن يعصمك من زَيْغ الهوى ، ويُحصرك داعىَ التوفيق ، مُعاناً على الإرشاد فيه ، فإنه لا يُعين على الخير ولا يوفّق له إلا هو .

اعلم أن للحكمة مسالكَ تُفضى مضايقُ أوائلها بمن أمّها سالكا ، وركب أخطارها قاصدا ، الى سَعَة عاقبتها ، وأمْنِ سَرْحها ، وشرفِ عِزّها . وأنها لا تُعار بسُحُف الحقة ، ولا تُنشَأ بتفريط الغفلة ، ولا يُتعدّى فيها بامرئ حدُّه . وربما أطهرتْ بسـطةُ الغِنَى

مستورَ العيب . وقد تلقَّتـك أخلاقُ الحكمة من كل جهةٍ بفصلها، من غير تعب البحث فى طلبها، ولا مُتطاوَلٍ لمـاولة ذِرْوتها ، بل تأثلتَ منها أكرمَ نَبَعاتها، واستخلصتَ منهـا أعتقَ جواهرها ، ثم سموتَ الى لُبـاب مُصَاصِها[1] ، وأحرزتَ مُنْفَسَ ذخائرها ، فأقتَعِـد ما أحرزتَ، ونافِسْ فيما أصبتَ .

واعلم أن احتواءَك على ذلك وسَبْقَك إليه بإخلاص تقوى الله فى جميع أمورك مُؤْثِرًا لهـا، وإصمارِ طاعته منطوِيًا عليها، وإعظامِ ما أنعم الله به عليك شاكرًا له، مرتبطًا فيـه للمزيد بحسن الحياطة له والذَّبِّ عنـه من أن تَدْخُلك منه سآمةُ مَلَال ، أو غفلة ضَـياع ، أو سِنَة تهاون، أو حَهالة معرفة، فإن ذلك أحقّ ما يُدِيُّ به ونُطر فيه، معتمدا عليه بالقوة والآلة والعُدّة والأنهراد به من الأصحاب والحاشة . فتمسَّكْ به لاجئًا إليه، واعتمد عليـه مؤْثرا له، والتجئ إلى كَنَفه متحيِّزًا إليـه : فإنه أبلَغُ ما طُلب به رضا الله وأنجحُه مسألة، وأحزله ثوابا ، وأعوده نفعا ، وأعمّه صلاحا، أرشدك اللهُ لحظّك، وفهَّمك سَداده، وأحذ بقلبك إلى محموده . ثم اجعـل لله فى كل صباح يُسفِر عليك ببلوغه، ويُظهِر منك السلامة فى إشراقه ، من نفسك نصيبًا تجعله له شكرا على إبلاغه إيّاك يومَك ذلك بصحّة جوارح وعافية بَدَن، وسبُوغ نِعَم، وظهور كرامة، وأن تقرأ فيه من كتاب الله — تبارك وتعالى — جزءا تُردّد رأيَك فى آيه، وترتِّل[2] لفظك بقراءته ، وتُحصره عقلَك ناظرًا فى مُحكمه، وتتفهَّمه مفكرا فى مُتَشابهه : فإن فى القرآن شِفاءَ الصدور من أمراضها ، وجلاء وساوِس الشيطان وصَعَاصِعه[3]، وضياء مَعالم الشُّور، تبيانا لكل شىء وهـدى ورحمة لقوم يؤمنون . ثم تعهَّدْ نفسك بمجاهدة هواك ، فإنه مِغـلاق الحسنات، ومِفتاح السيئات، وخَصم العقل .

واعلم أن كل أهوائك لك عدوٌّ يحاول هَلَكتك، ويعـتَرِض غفلتك ، لأنهـا خُدَع إبليس، وخواتل مكره، ومصايدُ مكيدته ؛ فاحدرها مجانبا لها، وتوقَّها محترسا منها؛ واستعِد

(١) المصاص : خالص كل شىء .

(٢) كذا فى صبح الأعشى وفى مفتاح الأفكار (ص ٢٨٢) وغيره « وترتيل » .

(٣) الصعاصع : جمع صعصع وهو طائر أشهب يصيد الخنافس ، شبه وسوسة الشيطان به . وفى بعض المؤلفات «وسعاسفه» .

بالله عزّ وجلّ من شرها، وحاهدها إذا تناصرتْ عليك بعزم صادق لا وَنِيَة[1] فيه، وحزم نافذ لا مَثْنَوِيَّة[2] لرأيك بعد إصداره، وصدق غالب لا مطمعَ فى تكذيبه، ومضاءٍ صارمةٍ لا أناة معها، ونيّةٍ صحيحةٍ لا خَلْجةَ شكٍّ فيها : فإن دلك طِهْرِىّ صِدقٍ لك على رَدعها عنك، وقمعها دون ما تتطلّع إليه منك؛ فهى واقيةٌ لك سُخْطة ربّك، داعية إليك رضا العالمةِ عنك، ساترة عليك عيب من دونك؛ فازدنْ بها متحلّيًا، وأصب بأخلاقك مواضعَها الحميدة منها، وتوقَّ عليها الآفة التى تقتطعُك عن بلوغها، وتقصّر بك دون شأوها : فإن المؤونة إنما اشتدّت مستَصْعبة، وقَدَحت باهظةً أهلَ الطلب لأخلاق أهل الكرم المتحلين سموَّ القدْر، بجهالةِ مواضعِ ذميم الأخلاق ومحمودها، حتى فرّط أهلُ التقصير فى بعض أمورهم، فدخلَتْ عليهم الآفات من جهاتِ أمنُوها، فنُسبوا إلى التفريط، ورضُوا بذلّ المنزل، فأقاموا به جاهلين بموضع الفضل، عَمِهين عن دَرَج الشرف، ساقطين دون منزلة أهل الحجا . فحاول بلوغَ غاياتها مُحرِزا لها بسبْق الطلب إلى إصابة الموضع، محصِّنا أعمالك من العُجب : فإنه رأس الهوى، وأوّل الغواية، ومَقَاد الهَلَكة، حارسًا أخلاقك من الآفات المتّصلة بمساوى الألقاب وذميم تبابُزها، من حيث أتت الغفلة، وانتشر الضّياع، ودخَل الوَهْن . فتوقَّ غُلُوب الآفاتِ على عقلك، فإن شواهد الحق ستُظهر بأماراتها تصديقَ آرائك عند دوى الحجا حالَ الرأى وفَحْص النظر . فاحتلْ لنفسك محمودَ الذّكر وباقى لسانِ الصّدق بالحذر لما تقدّم إليك فيه أمير المؤمنين، متحرِّزا من دخول الآفات عليك من حيث أمنك وقلّة تيقظك تُحْكَمها . من ذلك أن تملك أمورَك بالقصد، وتداريَ جُندك بالإحسان، وتصونَ سِرّك بالكتمان، وتداوِىَ حقدك بالإنصاف، وتذلّلَ نفسك بالعدل، وتحصّنَ عيوبك بتقويم أوَدِك، وتمنَع عقلك من دخول الآفاتِ عليه بالعُجب المُرْدِى . وأناتَك فوقَّها المَلالَ وفوتَ العمل، ومضاءتَك فدرِّعها رويّةَ النظر وآكُنفها بأناة الحِلم . وخلوتَك فآحرُسها من الغفلة وآعتمادِ الراحة، وصَمْتَك

(١) لا وية : لا توانى . (٢) أى لا استثناء .

فانِف عنه عِيَّ اللفظ ، وخَفْ سوء القالَة ؛ وآستماعَك فأرْعِه حُسن التفهّم ، وقوِّه بإشهاد الفكر ؛ وعطاءَك فأمْهِد له بيوتاتِ الشرف وذوِى الحسب ، وتحرَّزْ فيه من السَّرَف وآستطالة البَذْح وآمتانِ الصنيعة ؛ وحياءَك فآمنَعه من الخَجل وبلادِه الحَصَر ، وحلمَك فَزَعْه عن التهاون وأحْصِره قوةَ الشكيمة ، وعقوبتَك فقصِّر بها عن الإفراط ، وتعمَّد بها أهلَ الآستحقاق ، وعفوَك فلا تُدْخِله تعطيلَ الحقوق ، وحدَّ به واجبَ المفترض ، وأقِم به أوَدَ الدِّين ، وآستئناسَك فآمنع منه النَّداء وسوء المُكافَئة[1] . وتعهُّدك أمورَك بحُدَّه أوقاتا ، وقدِّره ساعاتٍ لاتستفرغ قوَّتك ، ولا تستدعى سآمتَك ، وعَزَماتِك فآنِف عنها عجلةَ الرأى ، ولجاجةَ الإقدام ؛ وروحاتِك فآشكُمْها عن البَطَر ، وقيِّدها عن الزَّهْو ؛ وروْعاتِك فحُطْها من دَهَش الرأى وآستسلام الخضوع ، وحدَراتِك فآمنعها من الجبن ، وآعمِد بها الحزم ؛ ورجاءَك فقيِّده بخوف الفائت ، وآمنعه من أمْنِ الطَّلَب .

هذه جوامعُ خِلال ، دخَّالُ القصدِ منها واصلٌ إلى العقل بلطائف أُبَنه ، وتصاريف حويله[2] ، فأحْكِمها عارفًا بها ، وتقدَّم فى الحفظ لها ، معتزِما على الأخْذ بمراشِدها والآنتهاءِ منها إلى حيث بلغتْ بك عِطفةُ أمير المؤمنين وأدَبُه إن شاء الله .

ثم لتكن بِطانتُك وحلساؤك فى حلواتك ودخلاؤك فى سِرّك ، أهلَ الفقه والورع من خاصّة أهلِ بيتك ، وعامّة قوادِك ممن قد حنّكته السنُّ بتصاريف الأمور ، وحنّطته فصالُها بين مراسِ البُرَل منها ، وقلَّبته الأمورُ فى مونها ، وركِب أطوارها ، عارفًا بمحاسن الأمور ومواضع الرأى وعيبِ المشوره ، مأمونَ النصيحة ، مطويَّ الصميرِ على الطاعة . ثم أحْصِرهم من نفسك وقارًا يستدعِى لك منهم الهيبة ، وآستئناسا يَعطِف إليك منهم المودّة ، وإنصاتا يفُلّ إفاضتهم له عِندك بما تكره أن يُشْرعك من سحافه الرأى وضَياع الحزم . ولا يَغْلِبنّ عليك هواك فيصرِفك عن الرأى ويقتطِعك دون الفكر . وتعلّم أنك وإن خلوتَ بسرّ

(١) يقال : ناقت فلانا فى الكلام . آداه (٢) الحويل : الحذق والقدرة على التصرف .
(٣) المراس : واحدها مرس وهو طرف حجب البعير .

فألقيتَ دونه سُتورك، وأعلقتَ عليه أبوابك، فذلك لا محالةَ مكشوفٌ للعامة، ظاهرٌ عنك وإن استترت بربّما واعملّ وما أُرَى إذاعة دلك وأعلم، بما يرون من حالاتٍ من ينقطِع به فى تلك المواطن. فتقدّمْ فى إحكام دلك من نفسك، وأسدُد حلله عنك: فإنه ليس أحدٌ أسرعُ إليه سوء القالة ولعَطُ العامة بحيرٍ أو شرٍّ ممن كان فى مثل حالك ومكانك الذى أصبحتَ به من دِينِ الله والأملِ المرجُوّ المنتظرِ فيك. وإيّاك أن يَغمز فيك أحدٌ من حاقتك وبطانة حدَمتِك بضَعْفةٍ يحد بها مَساعا إلى النطق عندك بما لا يَعترلك عيبُه، ولا تحلو من لائمته، ولا تأمنُ سوء الأُحدُوثة فيه، ولا برخُص سوءُ القالة به إن نحمَ طاهرا أو عَلَنَ باديا، ولن يحترئوا على تلك عندك إلا أن يروْا منك إصغاء إليها وقبولا لها وترخيصا لهم فى الإفاضة بها. ثم إيّاك وأن يُفاض عندك بشىءٍ من الفُكاهات والحكايات والمِراح والمَصاحك التى يَستخِفّ بها أهلُ البَطالة، ويتسرّع نحوها دوُو الجهالة، ويجد فيها أهلُ الحسد مقالا لعيب يُذيعونه، وطعْنا فى حقّ يجحدونه، مع ما فى دلك من نقص الرأى، ودَرَن العِرض، وهدْم الشرف، وتأثيل العُلة، وقوّة طِباع السوءِ الكامنة فى بنى آدم كَكُمُون النار فى الحجر الصّلْد، فادا قُدِح لاح شررُه، وتلهّب ومِيضُه، ووقد تصرمه. وليست فى أحد أقوى سطوةً، وأظهرَ توقُّدا، وأعلى كُمونا، وأسرَع إليه بالعيب وتطرُّق الشَّيْن منها لمَن كان فى مِثل سِنّك: من أعفال[1] الرحال ودوى العُمُوان فى الحداثة الدين لم يقع عليهم سِمَات الأمور، ناطقا عليهم لائحُها، ظاهرا فيهم وسْمُها، ولم تمحّصهم شهامتُها، مظهِرةً للعامة فضلَهم، مُديعة حسنَ الذكر عنهم، ولم يبلُغ بهم الصِّيت فى الحُنكة مستمَعا يدفعون به عن أنفسهم بواطِقَ السُّن أهل النَّعى، وَموادَّ أنصار أهل الحسد.

ثم تعهّدْ من نفسك لطيفَ عيب لازم لكثيرٍ من أهل السلطان والقدرة: من إطار[2] الدرع ونحوة الشّرف والتيه وعيب الصّلَف؛ فإنها تُسرِع بهم الى فسادٍ وتهجين

---

(١) الأعفال جمع عفل وهو الذى لم يجرب الأمور. (٢) يقال: أطره درعه اذا حمله فوق ما يطيق. وفى صبح الأعشى (ح ١٠ ص ٢٠١) «أبطال الدرع». وقد توقف فيها مصححه.

عقولهم فى مواطنَ جمّة، وأنحاء مُصْطَرِفة، منها قِلّة آقتدارهم على ضبْط أنفسهم فى مواكبهم ومسايرتهـم العامّةَ : فمن مُقَلِّل شخصه بكثرة الالتفات عن يمينه وشماله، تَزدَهيه الخِفّة، ويُبطره إجلابُ الرجال حوله ، ومن مُقْبِل فى موكبه على مداعبة مُسَايِره بالمفاكهة له والتضاحُك إليه، والإيحاف فى السير مَرَحا ، وتحريك الجوارح متسرّعا يحال أن ذلك أسرعُ له وأحثُّ لمطيتـه . فلتُحَسِّن فى ذلك هيئتـك، ولتُجمِّل فيه دَعَتك ؛ وليَقِلّ على مُسايرِك إقبالُك إلا وأنت مطرِق البطر، غيرُ ملتفتٍ إلى محدِّث، ولا مقبل عليه بوجهك فى موكبك لمحادثته، ولا مُوجف فى السير مقْلِقٍ لجوارحك بالتحريك والآستنهاض، فإن حسنَ مسايرة الوالى وآتّداعه فى تلك الحالة دليلٌ على كثير من عُيوب أمره ومستَتَر أحواله .

وآعلم أن أقواما يتسرّعون إليك بالسِّعاية، ويأتُونك على وجه النّصيحة، ويستميلونك بإظهار الشفقة، ويستدعونك بالإعراء والشبهه، ويُوطِئونك غَشْوه الحيْرة : ليجعلوك لهم ذريعة إلى آستِئكال العامّة بموضعهـم منك فى القَبول منهـم والتصديق لهم على من قَرَفُوه بتهمة، أو أسرعوا بك فى أمره إلى الظّنّـه ؛ فلا يَصلنّ(١) إلى مشافهتـك ساعٍ بشُبهة، ولا معروفٌ بتهمة ، ولا منسوبٌ إلى بدعة فيعرِّضـك لإيتاع دِبك، ويحملك على رعيّتك بما لاحقيقةَ له عندك ، ويُلْحمك(٢) أعراضَ قوم لاعلم لك بدَخلهم(٣) ، إلا بمـا أقدم به عليهم ساعيا وأظهر لك منهم مُنْتَصحا . وليكن صاحبُ شُرْطتك المتولّى لإنهاء ذلك هو المنصوبَ لأولئك، والمستمِعَ لأقاويلهم، والفاحِصَ عن نصائحهم، ثم لِيُبْدِ ذلك إليك على ما يُرفع إليه منه لتأمره بأمرك فيه، وتَقِفه على رأيك من غير أن يَظهَر ذلك للعامّة: فإن كان صوابا مالتك حِيرَتُه، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل، أو فَرْطةً سـعى بها كاذب، فمالتِ الساعِيَ منها أو المطـلومَ عقوبةٌ ، أو بدَر من وَالِيك إليه عقوبةٌ ونَكَال، لم يَعْصِب(٤) ذلك الخطأُ بك ولم تُنْسَب إلى تفريط، وحلوتَ من موضع الذمّ فيـه مُحْضِرا إليه ذِهنك وصوابَ رأيك.

---

(١) أوقع دبه بالإثم أفسده . (٢) ألحمه عرض فلان : أمكنه منه يشتمه . (٣) دخل الرجل (بالفتح والكسر) بيته ومذهبه . (٤) لم يعصب أى لم يلحق .

وتقدّمْ الى من تُولّى ذلك الأمرَ وتعتمد عليه فيه ألا يُقْدِم على شيء ناظرًا فيه ، ولا يحاول أخْذَ أحد طارقًا له ، ولا يُعاقبَ أحدا مُنكّلا به ، ولا يُحلّى سبيلَ أحد صاحبًا عنه لإضمار(١) براءته وصحّة طريقته ، حتى يرفع إليك أمرَه ، ويُنْهِى إليك قصيّته على جهة الصّدق ، ومَنْحَى الحقّ ، وبيقين الخبر ؛ فإن رأيتَ عليه سبيلا لحَبْس أو مجازًا لعقوبة ، أمرتَه بتولّى ذلك من غير إدحاله عليك ، ولا مشافهةٍ لك مسه ؛ فكان المتولّىَ لذلك ولم يَجرِ على يديك مكروهُ رأْى ولا غلظةُ عقوبة . وإن وحدتَ إلى العفو عنه سبيلا ، أو كان مما قُرِف به خَلِيًّا ، كنتَ أنتَ المتولّىَ للإنعام عليه بتخلِيَة سبيله ، والصفح عنه بإطلاق أسْره ؛ فتولّيتَ أجرَ ذلك واستحققت دُخْره ، وأنطقتَ لسانَه بشكرك ، وطوّقتَ قومَه حمْدَك ، وأوجبتَ عليهم حقّك ، فقرَنْت بين خَصْلتين ، وأحرزْت خُطوتيْن : ثوابَ الله فى الآخرة ، ومحمودَ الذكر فى الدنيا .

ثم إيّاك أن يصلَ إليك أحدٌ من جندك وجلسائك وحاضّتك وبطانتك بمسألة يَكشفها لك ، أو حاجة يَبْدَهُك بطلبها ، حتى يرفعَها قبل ذلك إلى كاتبك الذى أهدفتَه لذلك ونصبتَه له ، فيعرِضَها عليك مُنْهِيا لها على جهة الصّدق عنها ، وتكونَ على معرفة من قدْرها : فإن أردتَ إسعافَه بها ونجاحَ ما سألَ منها ، أذنتَ له فى طلبها ، باسطًا له كَنَفك ، مُقبلا عليه بوجهك ، مع ظهور سرورك بما سألك ، وفُسْحة رأى وبَسْطة ذَرْع ، وطِيبِ نفس . وإن كَرِهتَ قضاء حاجته ، وأحببتَ ردّه عن طَلِبته ، وثَقُل عليك إجابتُه إليها وإسعافُه بها ، أمرتَ كاتبك فصفحه(٢) عنها ، ومنعه من مواجهتك بها ؛ فخفّت عليك فى ذلك المؤونةُ ، وحَسُن لك الذّكرُ ، ولم يُشْرَعك تجهُّم الردّ ، ويَنلْك سوءُ القالة فى المنع ، وحُمِل على كاتبك فى ذلك لائمةٌ أنت منها برِيء الساحة .

وكذلك فليكن رأيُك وأمرك فيمن طرأ عليك من الوفود وأتاك من الرُّسل ، فلا يَصِلَنّ إليك أحد منهم إلا بعد وصول علمه إليك ، وعِلم ما قَدِم له عليك ، وجِهةِ ما هو مكلّمك

(١) أى لوضوح براءته ، هى حديث علىّ . فاصحر لعدوك ، أى كن من أمره على أمر واضح .
(٢) صفحه عنها ، ردّه عنها .

به، وقَدْرِ ما هو سائلُك إيّاه إذا هو وصل إليـك، فأصدرتَ رأيك فى جوابه، وأحلْتَ فكرك فى أمره، وآخترْتَ معـترِما على إرادتك فى جوابه، وأمسكْت مصدور رَوِيّتـك فى مَرجوع مسألته قبـل دخوله عليك، وعلمه بوصول حاله إليك، فرفعتَ عنك مؤونةَ البديهة، وأرخيتَ عن نفسك خِناق الرَّوِيّة، وأقدمتَ على ردّ جوابه بعـد النظر وإحالة الفكر فيه . فإن دخل إليك أحدٌ منهم فكلّمك بخلاف ما أنهى إلى كاتبك وطوى عنه حاجتَه قبلك، دفعْته عنك دَفعا جميلا، ومنعتَه جوابك معنا وديعـا، ثم أمرتَ حاجِبَك بإطهار الجفوة له والغِلْظة عليـه، ومنْعه من الوصول إليك، فإن ضَغْطَك لذلك مما يُحكم لك تلك الأسباب، صارفًا عنك مؤونتَها، ومسهِّلا عليك مُستَصْعبَها .

احذرْ تضييعَ رأيك وإهمالَك أدبَك فى مسالك الرضا والغضب وآعتوارهمـا إياك، فلا يَزْدَهِيَنَّك إفراطُ محبّ تستحقّ روائعُه، ويستهويك مَطَرُه، ولا تَسْـدُرَنّ منك دلك خَطَأً ونَزَق خِفّـة لمكروه إن حلّ بك، أو حادثٍ إن طرأ عليك . وليكن لك من نفسك طِهْرِىّ مَلحأ تتحرز به من آفاتِ الردى، وتستعْصده فى مُهِمّ(١) نازلٍ، وتتعقّب به أمورك فى التـدبير . فإن آحتجتَ إلى مادّة من عقلك، وروِيّةٍ من فكرك، أو آنبساطٍ من مِنطقك، كان آنحيازُك إلى طِهْريّك مُزدادا ممـا أحببتَ الآمتياح منـه والآمتيار، وإن آستدبرتْ(٢) من أمورك بوادرُ جهـل أو مصىّ زلل أو معاندهُ حقٍّ أو خطلُ تدبيرٍ، كان ما آحتحتَ إليه من رأيك عدرا لك عند نفسك، وطِهْرِيًّا قويًّا على ردّ ما كرهت، وتحفيفًا لمؤونة الناغين عليك فى القالة وآنتشار الذكر، وحِصْنا من عُلُوب الآفاتِ عليك، وآستعلائها على أخلاقك .

وآمنعْ أهلَ بطانتك وخاصّةَ حديك من آستلحام أعراض النـاس عندك بالغيبة، والتقرّبِ اليك بالسّعاية، والإغراءِ من بعضٍ ببعض؛ أو النميمةِ اليك بشىء من أحوالهم

(١) فى صبح الأعشى : « وتستعصد فى موم النازل » . وفى رسائل البلغاء . «وتستعهده فى مهم نازل» . وآخترنا من العبارتين ما يناسب المقام (٢) كذا فى صبح الأعشى والمفتاح ورسائل البلغاء ، ولعله وإن استدرت ... الخ .

المستَتِرة عنك، أو التحميل لك على أحد منهم بوجْه النّصيحة ومذهب الشفقة : فإن ذلك أبلغُ لك سموًا الى مَنالة الشرف ، وأعونُ لك على محمود الذكر، وأطلقُ لعِنان الفضل فى جَرالة الرأى وشرف الهِمة وقوّة التدبر .

وآملك نفسَك عن الإنبساط فى الضحك والإنبهاق ، وعن القطوب بإظهار الغضب ونحْله . فإن ذلك ضَعْف عن مِلْك سَوْرَة الجهل ، وخروجٌ من آمتحال آسم الفضل . وليكن ضَحِكك تسنُّمًا أو كَشْرا فى أحايين دلك وأوقاته، وعند كلّ رائع مستَحِفّ مُطْرِب، وقطوبُك إطراقا فى مواضع دلك وأحواله ، بلا عَجَلَه الى السّطوة ، ولا إسراع الى الطّيَرة ، دون أن تكتُمها روِيّةَ الحلم ، وتملك عليها بادِره الجهل .

اذا كنتَ فى مجلِس مَلَكك، وحيث حضور العامّة مجلسَك ، فإياك والرمْىَ ببطرك الى خاصّ من قُوّادك ، أو دنى أثَره عندك من حشمك . وليكن بطرُك مقسومًا فى الجميع، وإراعتُك سمعَك دا الحديث بدَعةٍ هادئة، ووقارٍ حسن، وحضورِ فَهْم مجتمِع، وقلّة تصجّر بالمحدِّث. ثم لا برح وجهُك الى بعض حرسك وقوّادك متوجها بنظرٍ ركِين، وتفقّدٍ محص. وإن وجّه اليك أحد منهم بطره محدِّقا ، أو رماك ببصره مُلِحّا، فاحفض عنه إطراقا جميلا باتّئاد وسكون . وإيّاك والتسرّعَ فى الإطراق، والخفّةَ فى تصريف البطر ، والإلحاحَ على من قصد اليك فى محاطته إيّاك رامقًا بنظره .

واعلم ان تصفّحك وجوه حلساتك وتفقُّدك مجالِسَ قوّادك من قوّة التدبير، وشهامةِ القلب، ودكاء الفطنة، وآنباه النّفس . فتفقّد دلك عارفا بمن حضَرك وغاب عنك، عالما بمواضعهم من مجلِسك، ثم آعْدُ بهم عن دلك سائلا لهم عن أشغالهم التى منعَتْهم من حضور مجلسك، وعاقتهم بالتخلّف عنك .

إن كان أحدٌ من حشمك وأعوانك تثِقُ منه بغيب صمير ، وتعرِف منه لِينَ طاعة ، وتُشرِف منه على صحة رأى، وتآمنه على مشورتك، فإيّاك والإقبالَ عليه فى كلّ حادثٍ يَرِد عليك ، والتوجّهَ نحوه بنظرك عند طوارق ذلك ، وأن تُرِيَه أو أحدا من أهل مجلسك أن

لك حاجةً اليه مُوحشة ، أو أن ليس لك عنه غِنًى فى التدبير، أو أنّك لاتقضى دونَه رأيا ، إشراكًا منك له فى رويّتـك، وإدخالا منك له فى مشُورتك، واصطرارا منـك الى رأيه فى الأمر يَعْرُوك : فإن ذلك من دخائل العيوب التى ينتشر بها سوءُ القالة عن نظرائك، فانفها عن نفسـك حائفا لاعتلاقها ذِكرك، واحجُبها عن رويّتك قاطعا لأطماع أوليائك عن مثلها عندك ، أو غُلُوبهم عليها منك .

واعلم أن للشورة موضعَ الخَلْوة وانفرادَ النظر، ولكل أمرٍ غاية تُحيط بحدوده، وتجمعُ معالمَه . فاينها مُحْرِزا لها، ورُمْها طالبـا لنَيْلها؛ وإياك والقصورَ عن غايتها أو العجزَ عن دَرْكها، أو التفريط فى طلبها . إن شاء الله تعالى .

إيّاك والإعرامَ عن حديثٍ مّا أحدثك، أو أمرٍ مّا أزدهاك بكثرة السؤال، أو القَطْعَ لحديث مَن أرادك بحديثه حتى تنقُضَه عليه بالخوْض فى غيره أو المسألة عما ليس منه : فان ذلك عند العامّة منسوب الى سـوء الفهم وقِصَر الأدب عن تناوُل محاسِن الأمور والمعرفةِ بمساويها ، ولكن أنْصِت لمحدّثك وأرْعِه سمعَك حتى يعلم أن قد فهمتَ حديثه، وأحطتَ معرفةً بقوله ، فان أردتَ إجابتَه فعن معرفةٍ بحاجته وبعد علمٍ بطَلِبته ، وإلا كنتَ عند انقضاء كلامه كالمتعجّب من حديثه بالتبسّم والإعصاء، فأجْرَى عنك الجواب، وقطَع عنك لسُن العَتْب .

إيّاك وأن يظهر منك تبرّم بطول مجلسك ، أو تضجُّر ممّن حضرك، وعليك بالتثبُّت عند سَوْرة الغضب ، وحَمِيّـة الأَنَف، ومَلَال الصبر . فى الأمر نستعْجل به والعملِ تأمُر بإنفاذه، فان ذلك سُخْف شائن، وخِفّة مُرْدِيَة، وجهالة بادية . وعليك بثبوت المنطق ، ووقار المجلس ، وسكون الريح ، والرّفض لحَشْو الكلام ، والتّرْك لفضوله والإغرام لزيادات فى منطقك، والترديد للفظك : من نحو أسمع ، وأفهم عنّى، ويا هَنَاه، وألا ترَى ، وما يُلْهَج به من هـذه الفضول المقصّرة بأهل العقل، الشائـة لذوى النحـا فى المنطق، المنسوبة إليهم بالعِيّ، المُرْدِية لهم بالذّكر . وخِصالٌ من مَعايب الملوك، والسُّوقة عنها غنيّةٌ

نظرِ إلّا من عرفها من أهل الأدب ، وقلّما حاملٌ لها ، مضْطَلع بها ، صابرٌ على ثِقلها ، فذٌّ لنفسه بجوامعها ، فآنفها عن تمسك بالتحقّط منها ، وآملكْ عليها آعتيادَك إياها معتنيا بما ، منها كثرةُ التحكُّم ، والتبصُّق ، والتنحّع ، والتُّؤباء ، والتمطّي ، والجُشَاء ، وتحريك قَدَم ، وتقيصُ[1] الأصابع ، والعبثُ بالوجه والتحية أو الشاربِ أو المحْصَرة أو ذؤابة السيف ، والإيماضُ بالبطر ، أو الإشارةُ بالطَّرْف إلى بعض حَدَمك بأمر إن أردتَه ، أو السِّرار في مجلسك ، أو الآستعجال في طَعْمك أو شُرْبك . وليكن طَعْمك متئّدا ، وشُرْبك أنفاسا ، جَرْعك مصًّا . وإياك والتسرّعَ إلى الأيمان فيما صَغُر أو كَبُر من الأمور ، والشّتيمةَ بقول : آبن الهَنَاه ، أو الغميزة[2] لأحدٍ من حاشيتك بتسويغهم مُقَارَفة الفُسُوق بحيث محْصرُك ودارُك وفناؤك : فان ذلك كله مما يقبُحُ ذكرُه ، ويسوء موقعُ القول فيه ، وتحمّلُ عليك معايبُه ، ويبالك شيْنُه ، ويتشرعليك سوءُ البلوى به . فآعرِفْ ذلك متوقّيا له ، وآحذره مجانبا لسوء عاقبته .

آستكثِرْ من فوائد الخير : فانها تنشُر المحمده ، وتُقيل العثرة ؛ وآصبر على كَظْم الغيظ : فانه يورِث الراحة ، ويؤَسِّ الساحة ، وتعهّدِ العاقةَ بمعرفة دَخْلهم ، وتطّنِ أحوالهم ، وآستثارةِ دفائنهم ، حتى تكون منها على رأْي عَيْن ، ويقينِ خِبْرة ، فتُنعِش عديمَهم ، وتحبُر كسيرهم ؛ وتُقيم أوَدَهم ، وتعلّم جاهلهم ، وتستصلح فاسدَهم : فان ذلك من فعلك بهم يورثك العزّة ، ويقدّمك في الفصل ؛ ويُبقي لك لسان الصّدق في العاقبة ، ويُحرِز لك ثوابَ الآخره ، ويُردّ عليك عواطفهم المستنفِرة منك ، وقلوبَهم المتنحية عنك .

قِسْ بين منازل أهل الفصل في الدّين والحجا والرأى والعقل والتدبير والصِّيت في العاقة ، وبين منازل أهل النّقْص في طبقات الفصل وأحواله ، وانحمول عند مُبَاهاة النّسب ؛ وآنظُرْ بصحبة أيّهم تنال من مودّته الجميل ، وتستجْمع لك أقاويلَ العاقة على التفضيل ؛ وتبلُغ درجةَ الشرف في أحوالك المتصرّفة بك . فاعتمد عليهم مُدْحِلا لهم في أمرك ، وآثرهم بمجالستك لهم مستمعًا منهم ؛ وإياك وتضييعَهم مفرّطا ، وإهمالهم مضيّعا .

(١) يقال . أنقص أصابعه . صوّت بها وليس في كتب اللغة نقص بالتضعيف . (٢) الغميزة : المطعن .

هذه جوامع خصال قد لخّصها لك أميرُ المؤمنين مفسّرا، وجمع لك شواذّها مؤلّفا، وأهداها إليك مُرْشِـدا ؛ فقِفْ عند أوامِرِها ، وتَناهَ عن زواجِرها ، وتثبّتْ فى مجامعها ؛ وحُدْ بوثائق عُراها، تَسْلَمَ من معاطب الرّدى، وتَـنَـلْ أنفَس الحظوظ ورغِبَ الشّرف ؛ وأعلى دَرَج الذّكر، وتأثّلَ(١) سَـطْر العزّ . واللهَ يسأل لك أميرُ المؤمنين حُسْن الإرشاد، ونتائجَ المزيد، وبلوغَ الأمل ، وأن يجعل عاقبة ذلك لك الى عِـطْفة يُسوِّغُك إيّاها، وعافيةٍ يُجلّك أكنافَها، ونعمةٍ يُلهِمُك شكرها : فإنه الموفّق للخير ، والمعينُ على الإرشاد ، منه تَمـامُ الصالحات ، وهو مُؤْنِى الحسنات، عنده مفاتيحُ الخير ، وبيـده المُلك وهو على كلّ شيءٍ قـــدير .

فاذا أفضيتَ نحو عدُوّك ، وأعزمتَ على لقائهم، وأحدْتَ أهْبة قتالهم ، فاجعلْ دِعامَتك التى تلحأ اليها ، وثِقتَك التى تأمل النجاةَ بها، ورُكنَك الذى ترتجى منالَةَ الظّفر به وتكتَنِفُ(٢) به لمعالى الحذر، تقوى الله مستشعِرًا لها بمراقبتـه ، والاعتصام بطاعتـه متبعًا لأمره ، مجتنبًا لسُخْطه ، محتذِيًا سُنّته ، والتوقّى لمعاصيه فى تعطيل حدوده ، أو تَعدّى شرائعه ؛ متوكّلا عليه فيما صَمَدْتَ له ، واثقًا ببصره فيما توجّهت نحوه ، متبرئا من الحوْل والقوّة فيما نالك من ظَفَـر وتلقّاك من عِزّ ، راغبًا فيما أهابَ(٣) بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد ، ورمَى بك اليـه محمودَ الصبر فيه عند الله من قتال عدوّ المسلمين ، أكْلَبِهم(٤) عليه وأظهَرَه عداوة لهم ، وأفدحه ثِقْلا لعاقتهم ، وآحَدَه بريقهم ، وأعلاه عليهم نَعْيا، وأظهَرَه عليهم فِسقا وجورا ، وأشـدّه على فَيْئهم الذى أصاره اللهُ لهم وفَتَحه عليهم مؤونةً وكَلًّا(٥) . واللهُ المستعانُ عليهم ، والمستنصَر على جماعتهم ، عليه يتوكّل أمير المؤمنين ، وإياه يستصْرِح عليهم ، وإليه يفوّض أمرَه ، وكفى بالله وليّا وناصرا ومُعِينا ، وهو القوىّ العزيز .

ثم حُدْ من معك من تُبأَعك وجندك بكَفّ معَرّتهم ، وردّ مشتعِل جهلهم ، وإحكام ضَياع عملهـم ، وصمّ منتَشِر قواصِيهم ، ولَمّ شعَث أطرافهم ، وتقييـدهم عمّن مرّوا به من

(١) تأثل تثبت . (٢) اكتنف الكهف دخله . (٣) أهاب بك : دعاك .
(٤) من قولهم كلب الدهر على أهله اذا اشتد وألح . (٥) الكل : الثقل .

أهل ذِمَّتِك وملّتك بحُسن السيرة، وعفافِ الطُّعْمة، ودَعَةِ الوَقار، وهَدْى الدِّعَة، وحِمام المستجير، محكما ذلك منهم، متفقِّدا لهم تفقُّدك إيّاه من نفسك . ثم آصِمد لعدوك المتسمِّى بالإسلام، الخارج من جماعة أهله، المتحلِ ولايةَ الدِّين مستحلًّا لدماء أوليائه، طاعنًا عليهم، راغبا عن سُنّتهم، مفارِقا لشرائعهم، يَبْغِيهم الغوائلَ، ويَنْصِب لهم المكايد ؛ أَصْرَم حِقدًا عليهم، وأرصَد عداوةً لهم، وأَطْلَبَ لغِرّات فُرَصهم من التُّرك وأُم الشِّرك وطواغى المِلل ؛ يدعو الى المعصية والفُرقة، والمُروق من دين الله الى الفتنة، محترِها بهَواه للأديان المتحَلة والبِدع المتفرقة خَسَارا وتحسيرا، وضَلالا وتضليلا، بغير هدًى من الله ولا بيان . ساء ما كسبتْ له يداه وما اللهُ بظلّام للعبيد، وساءَ ما سوّلتْ له نفسُه الأمّارةُ بالسوء، واللهُ من ورائه بالمِرصاد : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ .

حَصِّنْ جندك، وآشِكْ نفسك بطاعة الله فى محاهَدِه أعدائه، وآرِحْ نصرَه، وتحجَّز موعوده، متقدّمًا فى طلب ثوابه على جهادهم، معتزمًا فى آبتغاء الوسيلة إليه على لقائهم : فإن طاعتك إيّاه فيهم، ومراقبتَك له ورجاءَك نَصْرَه مسهِّلٌ لك وُعورَه، وعاصِمُك من كل سُبّة، ومُحيك من كل هُوّة، وباعِثُك من كلّ صَرْعة، ومُقيلك من كل كَبْوة، ودارئٌ عنك كلّ شبهة، ومُذْهِب عنك لَطحه كلّ شك، ومُقَوّيك بكل أَيْد[1] ومكيدة، ومُعِزّك فى كل مُعْتَرَك قِتال، ومؤيّدك فى كل مَجْمع لقاء، وكالئُك عند كل فتية مُعْشِية[2]، وحائطك من كل شبهة مُرْدِية ؛ واللهُ وليُّك ووليّ أمير المؤمنين فيك، والمستحلَف على جندك ومن معك .

اعلم أن الظَّفَر ظَفَران : أحدُهما — وهو أعمّ منفعةً، وأبلغُ فى حسن الذكر قالةً، وأحوطُه سلامة، وأتمُّه عافيةً، وأحسنُه فى الأمور وأعلاه فى الفضل شرفًا، وأصحُّه فى الرَّوِيّة حَزْما، وأسلمُه عند العاقبة مَصْدرا — ما نيل بسلامة الجنود، وحُسن الحِيلة، ولُطف المكيدة ويُمن النَّقيبة، وآستِزال طاعة ذوى الصُّدوف بغير إخطار الجيوش فى وَقْدة جَمْرة الحرب،

(١) الأيد القوة . (٢) أى مدلهمة سوداء، من قولهم أعشى الليل اذا أظلم .

ومبارزة الفرسان فى معترَك الموت؛ وإن ساعدَتْك طُلوق الظَّفَر، وناك مزيدُ السعادة فى الشرف، فهى مُخاطرة التَّلَف مكروهُ المصائب، وعِضاضُ السيوف وألَمُ الجراح، وقِصَاص الحروب وسِجالها بمُغاورة(١) أبطالها. على أنك لا تدرى لأىٍّ يكون الظَّفر فى البديهة، ومَن المعلوبُ بالدولة، ولعلك أن تكون المطلوبَ بالتمحيص. فحاوِلْ إصابةَ أبلَغِهما فى سلامة جندك ورعيّتك، وأشهَرِهما صيتًا فى بُدُوّ تدبيرك ورأيك، وأجمَعِهما لألُفة وليِّك وعدُوّك، وأعونِهما على صلاح رعيّتك وأهل مِلّتك، وأقوَاهما شكيمةً فى حَرْمك، وأبعدِهما من وَصْم عزمك، وأعلَقِهما بزمام النحاه فى آخرتك، وأجزلِها ثوابا عند ربّك.

وآبدأ بالإعذار إلى عدوّك، والدّعاء لهم إلى مراجعة الطاعة وأمرِ الجماعة وعزّ الأُلفة، آخذًا بالحجّة عليهم، متقدّمًا بالإنذار لهم، باسطًا أمانَك لمَنْ لجأ إليك منهم، داعيًا لهم اليه بألْيَن لفظك وألطَف حِيَلك، متعطّفا برأفتك عليهم، مترفّقا بهم فى دُعائك، مشفِقا عليهم من عَلَة الغَوَاية لهم وإحاطة الهَلَكة بهم، منفذا رُسُلَك إليهم بعد الإنذار: تَعِدُهم إعطاءَ كلّ رغبة يَهُشّ إليها طمَعُهم فى موافقة الحقّ، وبَسْط كل أمان سألُوه لأنفُسهم ومَنْ معهم ومن تَبِعهم، موطِّنًا نفسَك فيما تبسُط لهم من ذلك على الوفاء بعهدك، والصبرِ على ما أعطيتَهم من وثائق عَقْدك؛ قابلًا توبةَ نازِعهم عن الضّلالة، ومُراجِعةَ مُسيئهم إلى الطاعة، مُرصِدا للُنحاز إلى فئة المسلمين وجماعتِهم إجابةً إلى مادعوتَه إليه وبصّرتَه إيّاه من حقّك وطاعتك، بفصل المنزِلة، وإكرام المَثْوَى، وتشريف الجاه. وليَظْهَرْ من أترُك عليه وإحسانك إليه ما يرغَب فى مثله الصادفُ عنك، المُصِرُّ على خِلافك ومعصيتك؛ ويدعو إلى اعتلاق حبْل النجاة وما هو أمْلَك به فى الاعتصام عاجلا، وأنجى له من العِقاب آجلا، وأحوطُه على دِينه ومهجته بَدْءًا وعاقبةً؛ فإن ذلك مما يَستَدْعى به من الله نصرَه عليهم، ويعتصِدُ به فى تقديمه الحجّة إليهم، مُعْذِرا أو مُنْذِرا، إن شاء الله.

---

(١) المعاورة: المقاتلة.

(٢) كذا فى صبح الأعشى ويظهر أن السياق يقتضى معمولا لهذا الفعل اما ضميرا أو اسما ظاهرا.

ثم أذْكِ عيونَك على عدوِّك متطلِّعا لعلم أحوالهم التى يتقلّبون فيها، ومنازلهم التى هم بها، ومطامعهم التى قد مَدُّوا أعناقَهم نحوها، وأىُّ الأمور أدعى لهم إلى الصّلح، وأقودُها لرضاهم إلى العافية، وأسهلُها لاستنزال طاعتهم، ومن أىِّ الوجوه مَأْتاهم : أمِنْ قِبَل الشدّة والمُنافرة والمكيدة والمُباعدة والإرهاب والإبعاد، أم التّرغيب والإطماع، متثبّتا فى أمرك، متحيِّرا فى رويّتك، مستمكِنا من رأيك، مستشيرا لدوى النصيحة الذين قد حنّكتهم السِّنُّ، وخبَطَتهم التجربة، ونجّذتهم الحروبُ، مُتَشَزِّنًا(١) فى حربك، آخذا بالحَزم فى سوء الظن، مُعِدّا للهَدر، محترسًا من الغِرّة، كأنّك فى مَسيرك كلّه ونزولك أحمع مُواقِفٌ لعدوّك رأْىَ عينٍ تنتظرُ حملاتهم، وتخوّف كَرّاتهم، مُعِدّا أقوى مكايدِك، وأرهبَ عتادِك، وأنكأَ حِدّك، وأحدَّ تشميرك؛ معظِّما أمرَ عدوّك لأعظَمَ مما بلغَك، حَذَرا يكاد يُفرِط : تُعِدّ له من الاحتراس عظيما، ومن المكيدة قويًّا؛ من غير أن يَفْشَأَك(٢) ذلك عن إحكام أمورك، وتدبير رأْيك، وإصدار رويّتك، والتأهُّب لما يَحْزُبك؛ مصغِّرا له بعد استشعار الحذر، واصْطِبار الحزم، وإعمال الرَّوِيّة، وإعداد الأُهْبة. فإن ألفيتَ عدوّك كليلَ الحدّ، وَقْمَ(٣) الحزم، بَضِيصَ(٤) الوَفْر، لم يضُرّك ما اعتدَدتَ له من قوة وأحذت له من حرم، ولم يزِدْك ذلك إلا جُرأةً عليه، وتسرّعا إلى لِقائه. وإن ألفيتَه متوقِّدَ الحرب، مُستكنِف الجمع، قَوِىّ التَّبَع، مُستَعلِىَ سَوْرة الجهل، معه من أعوانِ الفتنة وتَبَع إبليس من يُوقِد لهَبَ الفتنة مُسَعِّرا، ويتقدّم الى لِقاء أبطالها متسرِّعا، كنت لأخْذك بالحزم، وآستعدادِك بالقوة، عِرَمُهيِن الجد، ولا مفرِّط فى الرأى، ولا متلهِّف على إضاعة تدبير، ولا محتاج الى الإعداد وعجلة التأهّب مبادرةً تدهَشك، وحوفًا يُقلِقك. ومتى تفتّرّ بترقيق المرقِّقين، وتأخذ بالهُوَينا فى أمر عدوّك لتصغير المصغِّرين، يبتشر عليك رَأْيُك، ويكون فيه آنتقاضُ أمرك ووهْنُ تدبيرك، وإهمالٌ للحزم فى جدك،

---

(١) تشزن للأمر : استعدّ له.

(٢) يفشأك (بالفاء والشاء المثلثة) أى يكسرك ويؤخرك. (٣) كذا فى صبح الأعشى. ولعلها موقوم الحرم أى مقهورة أو لعلها محرفة عن كلمة أخرى بمعنى الضعف أو القلة. (٤) بصيص : قليل. والوفر : المال.

وتصيُّع له وهو مُمكِن الإصحار، رَحْب المَطْلَب، قوىّ العصمة، فسيحُ المضْطَرب؛ مع ما يدْخُل رعيّتك من الاغترار والغفلة عن إحكام أحراسهم، وضبْط مراكزهم، لما يرون فيه من استِدامتك الى العِزّة، وركُونك الى الأمن، وتهاوُنك بالتدبير؛ فيعود ذاك عليك فى انتشار الأطراف، وضَياع الأحكام، ودخول الوهن مما لايُستقال محذوره، ولا يُدفَع محْـذوره.

احفظْ من عيونك وحواسيسك ما تأتُونك به من أخبار عدوّك. وإيّاك ومعاقبةَ أحدٍ منهم على خَبَرٍ إن أتاك به اتّهمته فيه أو سُؤتَ به ظنًّا وأتاك غيرُه بخلافه، أو أن تكذِّبه فيه فتردَّه عليه، ولعلّه أن يكون قد محَّصك الصيحةَ وصدَقك الخبرَ وكذَبك الأوّلُ، أو نحرح حاسوسُك الأوّل متقدِّما قبل وصول هذا من عند عدوّك، وقد أبرموا لك أمرا، وحاولوا لك مكيده وأرادوا منك عِزّة وازْدَلفوا إليك فى الأُهْبة، ثم انتقص بهم رأيُهم واختلف عنه حماتُهم، فأرادوا رأيا، وأحدثوا مكيدة، وأظهروا قوّة، وصرفوا موعدا، وأمّوا مَسلَكا لمَدَدٍ أتاهم، أو قوّةٍ حدثَت لهم، أو بصيرةٍ فى ضَلالةِ شغلتهم، فالأحوالُ بهم متنقّلة فى الساعات، وطوارق الحادثات. ولكن ألْبَسْهم جميعا على الانتصاح، وارفَعْ لهم بالمطامع، وإنّك لن تستعبِدَهم بمثلها. وعِدْهُم جَزالة المَثاوب، فى غير ما استِدامة مسك إلى ترقيقهم أمْرَ عدوّك، والاعتزار إلى ما يأتُونك به دون أن تُعمل رويّتك فى الأخذ بالحزم، والاستكثار من العُـدّه. واجعلهم أوثَق من تَقْدِر عليه، وآمَنَ من تسكُن إلى ناحيته، ليكون ما يُبرِم عدوّك فى كل يوم وليلة عندك إن استطعتَ ذلك، فتقُصّ عليهم برأيك وتدبيرك ما أبرموا، وتأتيَهم من حيث أمِنُوا، وتأخذَ لهم أهبة ما عليه أقدموا، وتستعِدَّ لهم بمثل ما حَدِروا.

واعلم أن حواسيسَك وعيونك ربما صدَقُوك وربما غشُّوك، وربما كانوا لك وعليك: فصحُوا لك وغشّوا عدوّك، وغشّوك ونصحوا عدوّك؛ وكثيرا ما يصدُقُونك ويصدُقُونه. فلا تَبْدُرَنّ منك فَرْطة عقوبة إلى أحد منهم، ولا تعجَل بسوء الظن إلى من اتّهمته على

ذلك ؛ وآستنزِلْ بصائحهم بالمِياحة[1] والمَنالة ، وآسبُط من آمالهم فيك من غير أن يرى أحدٌ منهم أنك أحذتَ من قوله أخْذَ العامل به والمتَّبِع له ، أو عملتَ على رأيه عَمَلَ الصادر عنه ، أو رَددْتَه عليه ردَّ المكذِّب به ، المتهم له ، المستحِقِّ بما أتاك مه ، فتُفسِدَ بذلك نصيحتَه ، وتَستدْعِي غشَّه ، وتحترَّ عداوتَه . وآحذَرْ أن يُعْرَفوا فى عسكرك أو يُشار إليهم بالأصابع . وليكن منزِلُهم على كاتب رسائلك وأمين سِرِّك ، ويكون هو الموجَّه لهم ، والمُدخِل عليك من أردتَ مشافهتَه منهم .

وآعلمْ أن لعدوِّك فى عسكرك عُيونًا راصدة ، وحواسيسَ متجسِّسة[2] ، وأنه لن يقع[3] رأيُه عن مكيدتك مثل ما تُكايده به ، وسيحتال لك كآحتيالك له ، ويُعِدّ لك كاعدادك فيما تُزاوله منه ، ويُحاوِلُك كمحاولتك إيّاه فيما تقارِعه عنه ، فآحذرْ أن يُشْهِر رجلٌ من جواسيسك فى عسكرك فيبلُغَ ذلك عدوَّك ويعرِف موضعَه ، فيُعِدّ له المَراصد ، ويحتال له بالمَكايد . فإن ظَفِر به فأظهَر عقوبتَه ، كَسَر ذلك ثِقاتِ عيُونك ، وخذَلهم عن تطلُّب الأخبار من معادِنها ، وآستِقصائها من عيونها ، وآستِعْداد آجتنائها من يابيعها ، حتى يصيروا إلى أحدها مما عَرَض من غير الثِّقة ولا المُعايَنة ، لَقْطًا لها بالأخبار الكاذبة ، والأحاديث المُرْجِفة . وآحذرْ أن يعرِف بعضُ عيونك بعضا : فإنّك لا تأمَن تواطُؤَهم عليك ، ومُمالأتَهم عدوَّك ، وآجتماعَهم على غِشِّك ، وتطابُقَهم على كذبك ، وإصفاقَهم[4] على خِيانتك ، وأن يورِّط بعضُهم بعضا عند عدوِّك . فاحْكِم أمرَهم فإنهم رأسُ مكيدتك ، وقِوامُ تدبيرك ، وعليهم مَدار حَرْبك ، وهو أوّل ظفرك . فاعْمَل على حَسَب ذلك وحيث رحاؤك به ، تَنَلْ أملَك من عدوِّك ، وقوّتَك على قتاله ، وآحتيالَك لإصابة غِرَّاته وآنتهاز فُرَصه ، إن شاء الله .

فإذا أحكمتَ ذلك وتقدّمتَ فى إتقانه ، وآستظهرت بالله وعوْنه ، فولِّ شُرْطتَك وأمرَ عسكرِك أوثقَ قوّادك عندك ، وأظهرَهم نصيحةً لك ، وأنفذَهم بصيرةً فى طاعتك ، وأقواهم

(١) المياحة الإعطاء .

(٢) فى مفتاح الأفكار ورسائل اللغاء : « كامسة » . (٣) فى رسائل اللغاء : « وأن رأيه فى مكيدتك مثل ما تكايده به » . (٤) إصفاقهم : اجتماعهم .

شكيمةً فى أمرك، وأمضاهم صَرِيمة[1]، وأصدقهم عفافا، وأجرأهم غَنَاء، وأكفاهم أمانةً، وأعمّهم صيتا، وأرضاهم فى العامة دِيناً، وأحمدهم عند الجماعة خُلُقاً، وأعطفهم على كافّتهم رأفةً، وأحسنهم لهم نَظرا، وأشدّهم فى دِين الله وحقه صلابةً. ثم فوّض إليه مُقَوِّيا له، وأبسُط من أمَله مُظهِرا عنه الرضا، حامدًا منه الأبْتلاء. وليكن عالما بمراكز الجنود، بصيرا بتقدم المنازل، محرّبا، ذا رأى وحزم فى المكيدة؛ له نباهةٌ فى الذّكر، وصيتٌ فى الوِلاية، معروفَ البيت، مشهورَ الحسب. وتقدّم إليه فى ضبْط مُعسكره، وإذكاء أحراسه فى آناء ليله ونهاره؛ ثم حذِّره أن يكون منه إدنٌّ لجنوده فى الانتشار والاضطراب، والتقدّم لطلائعك، فتُصابَ لهم غِرّة يحترئ بها عدوُّك عليك، ويُسرِع إقداما إليك، ويَكْسِر من إياد[2] جدك ويوهن من قوتهم: فإن الصوت[3] فى إصابة عدوّك الرجلَ الواحد من جندك أو عبيدهم مُطمِعٌ لهم فيك، مُقَوٍّ لهم على تَحْد أتباعهم عليك وتصغيرهم أمرك، وتوهينهم تدبيرَك. وحذِّره دلك وتقدّم إليه فيه، ولا يكوننّ منه إفراطٌ فى التصييق عليهم، والحَصْر لهم، فيعُمّهم أزْلُه[4]، ويشملَهُم ضَنْكه، وتسوءَ عليهم حالُه، وتشتدّ به المؤونةُ عليهم، وتحبُث له ظنونهم. وليكن موضعُ إنزاله إيّاهم صاماً لجماعتهم، مستديراً بهم جامعًا لهم؛ ولا يكون مبسطا منتشرا متدّدا، فيَشُقّ دلك على أصحاب الأحراس، وتكون فيه النُّهزة للعدو، والبُعد من المادّة[5] إن طرَق طارقٌ فى جَنَاح الليل ونَغَاته. وأوْعِز إليه فى أحراسه، وتقدّمْ إليه فيهم كأشدّ التقدُّم وأبلَغ الإيعاز. ومُرْه فليُوَكِّل عليهم رجلا ركيبا مجرّبا حرِيء الإقدام، ذاكيَ الصرامة، حَلْد الجوارح، بصيرًا بمواضع أحراسه، غيرَ مُصانع ولا مشفّع للناس فى التحيّ إلى الرّفاهية والسّعة، وتقدُّم العسكر والتأخّر عنه، فإن ذلك مما يُضعِف الوالىَ ويُوهِنه لاستمامته إلى من وَلّاه ذلك وأمنه به على جيشه.

وآعلمْ أن مواضعَ الأحراس من معسكرك، ومكانَها من جندك، بحيث الغناءُ عنهم والردّ عليهم، والحفظُ لهم، والكِلَاءة لمن بَعنهم طارقا، أو أرادهم خاتلا؛ ومراصِدُها المُنسَلّ

(١) الصريمة: العزيمة. (٢) فى مفتاح الأفكار وغيره: «أفئدة». وإياد كل شىء: ما يقوى به من حاميه ومنه إيادا العسكر وهما ميمنته وميسرته. (٣) الصوت: كالصيت والصات: الذكر والشهرة.
(٤) الأزل: الضيق والشدّة. (٥) المادة: كل مدد تستعين به فى حرب أو غيره.

منها والآبِق من أَرقائهم وأعْبُدهم ؛ وحِفظُها من العيون والجواسيس من عدوهم . وآحذر أن تضرِبَ على يديه أو تشكُه عن الصّرامة بمؤامَرتِك فى كلّ أمر حادثٍ وطارئ إلا فى المهمّ النـازل والحَدَث العام : فإنك إذا فعلتَ ذلك به ، دعوته إلى نُصْحك ، وآستوليتَ على محصول ضميره فى طاعتِـك ؛ وأجهَدَ نفسه فى ترتيبك ، وأعمَـل رأيَه فى بلوغ موافقتـك وإعانتِك ؛ وكان ثِقتَك ورِدْأك وقوّتَك ودِعامتَك ، وتمزّغتَ أنت لمكايَدة عدوّك ، مُرِيحـا لنفسك من همّ ذلك والعناية به ، مُلْقِيا عنك مؤونةً باهظة وكُلْفة فادِحة .

وآعلم أن القضاء من الله بمكانٍ ليس به شيءٌ من الأحكام ، ولا يمثـل محلّه أحدٌ من الوُلاة : لمـا يجرى على يديه من مَغاليظ الأحكام ومجارى الحدود . فليكن من تُولّيه القضاء فى عسكرك [من ذوى](١) الخـير والقناعة والعفاف والنّزاهة والفهم والوقار والعِصمة والوَرع ، والبصر بوجوه القضايا ومواقعها ، قد حنّكته السِّنّ وأيّدته التجربة وأحكمته الأمور ، ممن لا يتصعّر للولاية ويستعدّ للنُّهْزة ، ويجترئ على المُحاباة فى الحكم ، والمُداهـنة فى القضاء ، عَدْلَ الأمانة ، عفيف الطُّعمة(٢) ، حَسَن الإنصـاف ، فَهِم القلب ، وَرِع الصمير ، متحشّع السَّمْت ، بادِى الوقار ، محتَسِبا للخير . ثم أجْرِ عليه ما يكفيه ويَسَعه ويُصلحه ، وفرِّغه لمـا حمّلته ، وأعِنْه على ما ولّيته : فإنك قد عرّضتَه لمَلَكة الدنيا ونَوال الآخرة ، أو شَرَف الدنيا وحُظوة الآجلة ، إن حسُنت نيّتُه ، وصدَقت رويّته ، وصحّت سريرتُه ، وسلّط حكمَ الله على رعيّته ، مُطلقا عِنانه ، منفّذا قضاءَ الله فى خلقه ، عاملًا بسنّته فى شرائعه ، آخذًا بحدوده وفرائضه .

وآعلم أنه من جندك بحيث ولايتُك(٣) ، الجاريةُ أحكامُه عليهم ، النافذةُ أقْضيتُه فيهم ؛ فاعْرِف من تولّيه ذلك وتُسنِده إليه . ثم تقدّم فى طلائعك فإنهـا أوّلُ مكيدتك ، ورأسُ حربك ، ودِعامة أمرِك ، فآنتخِب لها من كلّ قادةٍ وصحابةٍ رجالا ذوى نَجْدة وبأس ، وصرامة وخِبرة ، حُمَاةً كُفاة ، قد صَلُوا بالحرب وذاقوا سِجَالَها ، وشربوا مرارَ كؤوسها ، وتجرّعوا

(١) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٠) وغيره .
(٢) الطعمة بالضم والكسر وجه الكسب الطيب أو الخبيث .
(٣) فى مفتاح الأفكار وغيره : «بحيث ولايتك وفى الموضع الحارية» الخ .

عُصَص دِرَعِها ؛ وزبَنتهم بتَكْرار عواطفها ، وحملتهم على أصعب مراكبها ، وذلّلتهم بثقاف أَوَدِها . ثم ٱنتقَتهمْ على عينك ، وٱعْرِص كُراعَهم بنفسك ، وتوخَّ فى ٱنتقائك ظهورَ الجَلَد ، وشهامة الخُلُق ، وكمال الآلة . وإيّاك أن تَقْبل من دوابِّهم إلا الإناث من الخيل المَهْلُوبة (١) ، فإنهنّ أسرعُ طلبا ، وأنجى مهربا ، وأليس مَعْطَفا ، وأبعدُ فى الفُتُوق غاية ، وأصبرُ فى معترَك الأبطال إقداما . وحُذْهم من السّلاح بأبدان الدّروع ، ماذيّة (٢) الحديد ، شاكّة النَّسج ، متقاربة الحلَق ، متلاحمة المسامير وأَسْوُق الحديد ، مموّهة الركب ، مُحْكمة الطَّبْع خفيفة الصَّوْغ ؛ وسواعِدَ طبْعُها هِندىّ ، وصَوْغُها فارسىّ ؛ رقاقِ المعاطف ناكفّ واقية وعمل محكم . ويَلْتَقِ البَيْض مُدْهَبة ومحرّده ، فارسيّة الصَّوْغ ، حالصة الجوهر ، سابغة المَلْبس ، واقية الجُنَن ، مستديرة الطَّبْع ، مُبْهَمة السَّرْد ، وافية الوزن كتَريك (٤) العام فى الصّنعة وٱستدارة التَّقْبيب ، وٱستواء الصَّوْغ ، مُعْلَمه بأصناف الحرير وألوان الصِّبْغ ؛ فإنها أَهْيبُ لعدوهم ، وأَفتُّ لأعصاد مَنْ لقيهم ، والمُعْلَمُ مَخْشِىٌّ محذور ، له بديهةٌ رادِعة ، وهيبة هائلة ؛ معهم السّيوف الهندية ، وذُكور البيض اليمانية ؛ رِقاقُ الشَّفَرات ، مسنُونةُ الشَّحْذ ، مشَطَّبة (٥) الصرائب . معتدلةُ الجواهر ، صافية الصّفائح ؛ لم يَدْخُلها وَهْن الطبْع ، ولا عابها أُمْتُ (٦) الصوغ ، ولا شانها حِفّة الوزْن ، ولا فَدَح حامِلَها هُورُ الثّقل ، قد أشرعوا لُدْن القَنا ، طِوالَ الهوادى ، مُقَوَّمات الأَود ، زُرْق الأَسِنّة ، مستَوِية الثّعالب (٧) ، وميصُها متوقّد ، وسِنْخُها (٨) متلهّب ، مَعاقِص (٩) عُقَدها محوتة ، ووصُومُ أَوَدِها مقوّمة ، وأجناسُها مختلفة ، وكُعوبها جَعْدة ، وعُقَدُها حكمة ؛ شَطْبة الأسنان ، مُموّهة الأطراف ، مستَحِدّة الجَنَبات ، دِقاقُ الأطراف ، ليس فيها ٱلتواءُ أَوَد ، ولا أُمْتُ وَصْم ، ولا بها مَسْقَط عيب ، ولا عنها

(١) المهلوبة المنتوفة الذنب ، وهو شعر الذنب أو الشعر كله . (٢) أى حالصة وحيدته .
(٣) البلق : القناء المحشو . (٤) التريك : بيضة العمام حاصة ، ومنه قوله :
* وتلق بها بيض العمام تراتكا *
(٥) سيف شطب : ذو شطب وهى طرائقه التى فى متنه . (٦) الأمت : العوج والاختلاف .
(٧) الثعلب : طرف الرمح الداخل فى حمة السنان وسمح النصل : الحديدة التى تدخل فى رأس السهم . (٨) فى مفتاح الأفكار وغيره : «وشحذها متلهب» (٩) المعاقص : السهام المعوجة .

وقوع أُسية، مُسْتَحْفِي كمائنِ البَلْ وقِسيّ الشُّوحط[1] والبَيْع؛ أعرابيّة التعقيب، رُومية النُّصول، مسمُومة الصَّوْع، ولتكُن سِهامها على خمْس قَبَصات سِوَى النُّصُول، فإنها أبلغُ فى الغاية، وأنفَذُ فى الدروع، وأشَدّ فى الحديد، سامِطين حقائبَهم على مُتون خيولهم، مُسْتَخِفّين من الآلة والأمتِعة والزاد، [إلا ما لا غَنَاء بهم عنه][2].

وآحذر أن تَكِل مباشرة عَرْضهم وآنتخابهم إلى أحد من أعوانك وكُتّابك: فإنك إن وكَلْتَه إليهم أصغَتْ مواصِع الحرم، وفرطت حيث الرأى، ووقفتَ دون عزم الرويّة، ودخل عملَك ضَياعُ الوَهْن، وخلَص إليك عيبُ المحاماة، وماله فسادُ المُداهنة، وعلَب عليه من لا يصلُح أن يكون طليعة للسلمين ولا عُدّة ولا حِصنا يَدّرِئون به، ويكتنهون بوضعه. والطلائعُ حصون المسلمين وعيونُهم، وهم أوّل مكيدتك، وعُروةُ أمرك، وزِمامُ حربك. فليكن آعتناؤُك بهم، وآنتقاؤك إيّاهم بحيث هم من مُهِمّ عملك، ومكيدةِ حربك؛ ثم آنتخِبْ للولاية عليهم رجلا بعيدَ الصوت، مشهورَ الاسم، ظاهرَ الفضل، نبيه الذّكر؛ له فى العدو وَقَعات معروفات، وأيّامٌ طِوال وصَوْلاتٌ متقدِّمات، قد عُرِفت نكايتُه، وحُذِرت شوْكته، وهِيبَ صوتُه، وتُنُكِّب لقاؤه؛ أمينَ السّريرة، ناصحَ الجَيْب[3]، قد بلوتَ منه ما يُسَكِّنك إلى ناحيته: من لِين الطّاعة، وخالِص المودّة، ورَكانة الصّرامة، وغُلُوب الشّهامة، وآستجماع القوّة، وحَصافة التدبير. ثم تقدّمْ إليه فى حسن سِياستهم، وآستِنزال طاعتهم، وآجتلابِ مَوَدّاتهم وآستِعداد صمائرهم، وأجْرِ عليهم وعليه أرزاقا تَسَعُهم، وتُمِدّ من أطماعهم سوى أرزاقِهم فى العامّة، فإن ذلك من القوّة لك عليهم، والآستنامةِ إلى ما قِبَلَهم.

وآعلمْ أنهم فى أهمّ الأماكن لك، وأعظمِها غَناءً عنك وعمّن معك، وأَقْمَعها كَبْتا لعُادِّك، وأمْحاها غَيْظا لعدوّك: ومَنْ يكن فى الثّقة، والجَلَد، والبأس، والطاعة، والقوّة، والنصيحة والعُدّة، والنّجدة حيث وصف لك أميرُ المؤمنين وأمَرك به، يَضَعْ عنك مؤونةَ الهمّ، ويُرِيح

(١) الشوحط: شجر تتخذ منه القسىّ. (٢) الزيادة عن مشاح الأمكار (ص ٢٥١).
(٣) يقال: فلان ناصح الجيب يراد بذلك قلبه وصدره أى أمين.

من حِماقك روْع الخوف ، وتلتجئ إلى أمرٍ مبيع ، وظَهر قوىّ ، ورأيٍ حازم ، تأمن به فَجَآتِ عدوّك ، وعِرّات بغتَاتهم ، وطوارق أحداثهم ؛ ويصيرُ إليك علْم أحوالهم ، ومتقدّمات خيولهم ، فتَحْنهم رأىَ عَيْن ، وقوّمهم مما يُصْلِحهم من المَآلات والأطباع والأرْزاق ، وأجعلْهم مسك بالمنزل الذى هم به من مَحَارِز علاقتك ، وحَصانة كهوفتك ، وقوّة سَيّارة عسكرك . وإيّاك أن تُدخل فيهم أحدا بشفاعة ، أو تحملَه على هَوَادة ، أو تقدّمه لأُثْرة ؛ أو أن يكون مع أحدٍ منهم نَعْل نَقِل[1] ، أو فصلٌ من الطَّهْر ، أو ثَقَلٌ[2] فادح ، فتشْتدّ عليهم مؤُونة أنفسهم ، ويدخُلُهم كَلَالُ السآمة فيما يعالِجُون من أثقالهم ، ويشتعلُون به عن عَدُوّهم إن دَهمهم مسه رائع ، أو فَجَأهم مسه طليعةٌ . فتفقّد ذلك محكمًا له ، وتقدّم فيه آحدا بالحزم فى إمضائه ؛ أرشدك الله لإصابة الحظّ ، ووفّقك ليُمْن التدبير ، وقصد بك لأسْهل الرأى وأعوده نفْعا فى العاجل والآجل ، وأكتبه لعدوّك وأشحاه لهم ، وأردَعه لعادِيَتهم .

ولْ دَرّاجة عسكرك وإخراجَ أهلِه إلَى مَصَافّهم ومراكِزهم رجلًا من أهل بيوتات الشّرف ، محمودَ الخِبرة ، معروفًا بالنّجْدة ، دا سٍّ وتَجْربة ، لَيِّنَ الطاعه ، قديمَ النّصيحة ، مأمُونَ السّريرة ، له بصيرةٌ بالحق نافذه تقدّمه ، ونيّة صادقةٌ عن الإدهان[3] تحجُزه . وآضُمم إليه عِدّةَ نَفَر من ثِقات جندك وذَوِى أسنانهم يكونُون شُرْطةً معه ؛ ثم تقدّمْ إليه فى إخراج المَصَافّ ، وإقامة الأحراس وإدكاء العُيون ، وحِفْظ الأطراف ، وشدّه الحَذَر ؛ ومُرْه فليَصِع القُوّادَ بأنفسهم مع أصحابهم فى مَصافّهم ، كُلّ قائد بإزاء مكانه ، وحيثُ منزِلُه ، قد سُدّ ما بينه وبيْنَ صاحبه بالرِّماح شارعةً ، والتَّرَسَة[4] موصُونةً ، والرجال راصدةً ، ذاكية الأحراس ، وَحِلةَ الرَّوْع ، حائفة طوارقَ العدوّ وبَيَاتَه . ثم مُرْه فليُحْرِج كلَّ ليلة قائدًا فى أصحابه أو عدّةٍ منهم إن كانوا كثيرًا ، على غَلْوة أو اثنتين من عسكرك ، مبتدًا عنك مُحيطا بمنزلك ، ذاكيةً أحراسُه ، قَلِقةَ التردُّد ، مُفْرِطةَ الحَذَر ، مُعِدّة للرّوْع ، متأهّبةً للقتال ، آخذةً على أطراف المعسكر ونواحيه ، متفرّقين فى آختلافهم كُرْدُوسا كُرْدُوسا[5] ؛ يستقبل بعضُهم بعضا

(١) الثقل بحركة : العيبة والهنة . (٢) الثقل : متاع المسافر . (٣) الإدهان . المداهنة وهى أن يظهر الانسان خلاف ما يبطن . (٤) الترسة موصونة ، أى منسوجة حلقتين حلقتين . (٥) أى كتيبة كتيبة .

[فى الأختلاف][1] وَيُكْسَع تالٍ متقدّمًا فى التردد ؛ وآجعلْ ذلك بين قُوادِك وأهلِ عسكرك نُوَبا معروفة، وحِصَصا مفْروضة، لا تُعْرِ منها مُزْدَلِفا منك بمودّة، ولا تحامل فيه على أحدٍ بمَوْجِدة . إن شاء الله تعالى .

فوّضْ إلى أُمَراء أجنادك وقُوّاد خَيْلك أمورَ أصحابِهم ، والأخْذَ على قافيـة أيْديهم ، رياضةً منك لهم على السّمع والطاعة لأُمَرائهم ، والاتّباع لأمْرِهم ، والوُقُوف عند نَهْيهم ؛ وتقـدّمْ إلى أُمَراء الأجناد فى النوائب التى أَلْزَمتهم إيّاها ، والأعمال التى آستنجَدْتَهم لها ، والأسلحةِ والكُرَاع التى كتبْتَها عليهم ؛ وآحذَر آعتلالَ أحدٍ من قوّادك عليك بما يَحُول بينك وبينَ تأديب جندك ، وتقويمهم لطاعتك ، وقَمْعهم عن الإخلال بمَرَاكزهم لشىء مما وُكِلوا به من أعمالهم ، فإن ذلك مَفْسدة للجند ، مَفْتَأةٌ[2] للقوّاد عن الجِدّ والإيثار للناصحة ، والتقدّم فى الأحكام .

وآعلم أنّ فى آستخفافهم بقوّادهم وتضْييعهم أمْرَ رؤسائهم دُخولا للضّياع على أعمالك ، وآستِحْفافا بأمْرك الذى يَأْتمرون به ورأْيِك الذى تَرْتئى . وأوعِزْ إلى القُوّاد ألّا يُقْدِم أحدٌ منهـم على عقوبةِ أحدٍ من أصحـابه ، إلا عقوبةَ تأديبٍ فى تقويم مَيْل ، وتثقيف أَوَد ، فأما عقوبةٌ تبلُغ تَلَف المُهْجة ، وإقامةُ حدٍّ فى قطْع ، أو إفراطٌ فى ضَرْب ، أو أحدُ مال ، أو عقوبةٌ فى شَعَر ، فلا يَلِيَنّ ذلك من جسـدك أحدٌ عيرُك ، أو صاحبُ شُرْطتك بأمرك وعن رأيك وإذنك ، ومتى لم تُذَلِّل الجسـدَ لقوّادهم ، وتُصْرعهـم لأمرائهم ؛ تُوجبْ لهم عليـك المحّةَ بتصييع — إن كان منهـم — لأمْرك ، أو حَلَل — إن تهاوَنُوا به — من عَمَلك ، أو عجز — إن فرَط منهم — فى شىءٍ ممـا وكّلتهم به أو أسـندته إليهم ؛ ولا تجد إلى الإقدام عليهم باللّوم وعَضّ العقوبة عليهـم مجازًا تصـل به إلى تعنيفِهم ، بتعريطك فى تذليل أصحابِهم لهم ، وإفسادك إيّاهم عليك وعليهم . فآنظُر فى ذلك نظَرا مُحْكما ، وتقدّمْ

(١) الزيادة عن مصباح الأفكار (ص ٢٥٢) . (٢) أى يقعد بهم عن الجد الخ .

فيه برِفْقك تقدّما بليغا، وإيّاك أن يدخل حرمَك وهْنٌ، أو يشوبَ عَزْمَك إيثار، أو يخلط رأيَك ضَياع؛ والله يستودعُ أميرُ المؤمنين نفسَك ودينَك .

إذا كنت من عدوِّك على مسافة دانية وسنَنَ لقاءٍ محتضَر، وكان من عسكرك مُقترباً قد شامتْ طلائعُك مقدّمات صَلَالته وحُماةَ فتنته، فتأهب أُهبة المُباحِر، وخُذ أعتدادَ الحَذِر، وكَتِّبْ(١) خيولَك، وعَبِّ جندك . وإيّاك والمسيرَ إلا فى مقدّمة وَتْيمَة ومَيْسَرة وسَاقه ، قد شَهَروا الأسلحةَ، ونَشَروا السودَ والأعلام . وعرِّف جندَك مراكزهم سائرين تحت ألْويتهم قد أخذوا أُهبة القتال، وأستعدُّوا للّقاء؛ ملتجئين إلى مَواقفهم، عارفين بمواضعهم فى مَسيرهم ومُعسْكرهم . وليكن ترحُّلُهم وتنزُّلُهم على راياتهم وأعلامهم وفى مراكزهم، قد عَرِّف كلُّ قائد منهم أصحابَه مَواقفهم : من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطّليعة ، لازمين لها ، غيرَ مُخلِّين بما أستُنْجِدوا له ، ولا مُتهاونين فيما أُهيب بهم إليه ، حتى تكون عساكرُك فى مَنْهَل تصل إليه ، ومسافة تختارها، كأنها عسكرٌ واحد فى أجتماعها على العدوّ، وأحْدِها بالحزم، ومسيرِها على راياتها ، ونزولها فى مراكزها ، ومعرفتها بمواضعها : إن صلّت دابّةٌ من موضعها، عرف أهلُ العسكر من أىّ المراكز هى، ومَنْ صاحبُها، وفى أى المحلِّ حلولُه منها، فرُدّت إليه، هداية معروفة بسَمْت صاحب قيادتها، فانّ تقدُّمك فى ذلك وإحكامَك له طارحٌ عن جندك مؤونةَ الطلب، وعناية المعرفة، وأنتفاءَ الضالّة .

ثم أجعلْ على ساقتك أوثقَ أهل عسكرك فى نفسك صرامةً ونَفاذا ورِضًا فى العامّة، وإنصافًا من نفسه للرعية، وأخذًا بالحق فى المَعْدلة، مستشعرًا تقوى الله وطاعتَه ، آخذا بهَدْيك وأدبك، واقفًا عند أمرك ونهيك، معتزمًا على مناصحتك وتزيينك، نظيرًا لك فى الحال، وشبيها بك فى الشرف، وعديلا فى الموضع، ومقاربا فى النسب(٢) ، ثم أكتِفْ معه الجمع، وأيِّدْه بالقوّة، وقوِّه بالظّهْر، وأعنْه بالأموال، وأعمِدْه بالسلاح، ومُرْه بالتعطُّف على ذوى الضعف من جندك ومَنْ أزحفتْ به دابّتُه وأصابته نكبة : من مرضٍ أو رُجْلة(٣) أو آفة،

(١) كتب الجيش أو الخيل . جعلها كتائب .
(٢) فى مفتاح الأفكار وغيره : « فى الصيت » .
(٣) الرجلة بالضم : أن يشكو رجله وقد رحل كعرج أصابه فى رجله ما يكره .

من غير أن يأذن لأحد منهم فى التنحّى عن عسكره، أو التخلّف بعد ترحّله، إلا لمجهود سَقَماً، أو لمطروق بآفة حائحه . ثم تقدّم إليه محذّرا، ومُرْه زاجرا، وآنهُه مُغلظا فى الشدّة على من مرّ به مصرفاً عن معسكرك من جسدك بغير جَوَازك، شاداً لهم أَسْرًا، ومُوقِرَهم حديدا، ومُعاقِبَهم مُوجِعا، وموجّههم إليك متنهّكهم عقوبةً، وتجعلهم لغيرهم من جندك عِظة .

وآعلم أنه إن لم يكن بذلك الموضع من تسكن إليه واثقًا بنصيحته قد بلوتَ منه أمانةً تُسَكّنك إليه، وصرامةً تُؤمّنك مهانته، وهاذًا فى أمرك يُزْجى عنك خِناقَ الخوف فى إضاعته — لم يأمَنْ أميرُ المؤمنين تسلُّل الجند عنك لِواذًا(١)، ورَفْضَهم مراكزَهم، وإحلالَهم بمواضعهم، وتخلُّفَهم عن أعمالهم، آمين تعييرَ ذلك عليهم، والشدّةَ على من آجترمه منهم، فأوشك ذلك فى وَهْنك، وحَدَل من قوّتك، وقلّل من كثرتك .

آجعلْ حلف ساقتك رحلا من وجوه قوّادك، جليدًا، ماضيًا، عفيفًا، صارماً، شهمَ الرأى، شديدَ الحَـذَر، شكيمَ القوّة، غيرَ مُداهن فى عقوبة، ولا مَهِين فى قوّة، فى خمسين فارسا يحضُر إليك جدَك، ويُلحق بك من تخلّف عنك بعد الإبلاغ فى عقوبتهم، والنَّهْك لهم، والتنكيل بهم . وليكن بَعْقوبتك فى المنزل الذى ترحَل عنه(٢)، والمنهل الذى تتقوّض منه، مُفرِطًا فى القَصْ له، والتتبُّع لمن تخلّف عنك به، مشتدًّا فى أهل المنزل وساكِنِه بالتقدم، موعزًا اليهم فى إزعاج الجند عن مازلهم، وإخراجهم عن مَكامنهم؛ وإيعادِ العقوبة الموجِعة والنَّكال المُبْسِل فى الأشعار والأبشار، وآستيصفاءِ الأموالِ وهدم العَقار لمن آوى منهم أحدًا أو سَتَر موضِـعَه، أو أخفى محلّه . وحَذّره عقوبتَـك إيّاه فى الترخيص لأحد، والمحاباةِ لِذى قَرابة، والآختصاص بذلك لذى أثرة وهَوادة . ولتكن فرسانُه متخيَّرين فى القـوّة، معروفين بالنجدة، عليهم سوابِـغُ الدروع دونها شِعارُ الحشو وجُبَبُ الاستجبان؛ متقلّدين سيوفَهم، سامِطين(٣) كمائمَهم، مستعدين لهَيْج إن بَدَهَهم [أو كمين إن يظْهَرْ لهم(٤)] . وإياك

(١) لواذا : مراوغة أى مستحقين يستتر بعضهم ببعض . (٢) العقوبة ما حول الدار أو ساحته .
(٣) سامطين : معلقين . (٤) الزيادة عن مفتاح الأفكار وغيره .

أن تقبـل منهم فى دوابهم إلا فرسا قويا أو بِرَدَوْناً وَثِيجاً[1] : فإن ذلك من أقوى القوة لهم ، وأعون الظَّهْرِىّ على عدوهم ، إن شاء الله .

ليكن رحيلك إبّانًا واحدا ، ووقتًا معلوما : لتخفّ المؤونة بذلك على جندك ، ويعلموا أوان رحيلهم ، فيقدّموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم ، وأعْلافِ دوابِّهم ، وتسكُن قلوبُهم الى الوقت الذى وَقَفوا عليـه ، ويَطْمئِنّ ذوُو الرأى الى إبّان الرحيل . ومتى يكن رحيلك مختلِفًا ، تَعْظُم المؤونة عليـك وعلى جندك ولا يزال ذوو السَّفَه [والرَّقّ] يترحّلون بالإرحاف ويتزِلُون بالتوهُّم ، حتى لا ينتفع ذُو رأيٍ بنوم ولا طُمَأْنِينة .

إيّاك أن تُظْهِر آستِقلالًا ، أو تُنَادى برحيل من منزل تكون فيه ، حتى تأمرَ صاحب تَعْبِئتك بالوقوف بأصحابه على مُعسكرك آخِذًا بجَنَبَتَىْ فوهته ، بأسلحتهم عدّة لأمرٍ إن حصر أو مفاجأةٍ من طليعـة للعدوّ إن رأت منكم نُهْـزة ، أو لَحَتْ عندكم عِرّة . ثم مُرِ الناسَ بالرحيل وخيلُك واقفة ، وأُهْبتك مُعَدَّة ، وجُنّتُك واقيـة ، حتى اذا آستقللتم من معسكركم ، وتوجّهتم من منزلكم ، سِرْتم على تعبئتكم بسكون رِيح ، وهـدوّ حَمْلة ، وحُسن دَعَة . فاذا آنتهيتَ الى مَنْهل أردتَ نزولَه أو هَمَمت بالمعسكر به ، فإيّاك ونزولَه إلا بعـد العلم بأهله ، والمعرفة بمَرَافقه ؛ ومُرْ صاحب طليعتك أن يعرف لك أحوالَه ، ويستبيرَ لك علمَ دفينه ، ويستبطِنَ علم أموره ثم يُنبِيها اليك على ما صارت اليه : لتعلم كيف احتمالُه لعسكرك ، وكيف ماؤه وأعلافه وموضِعُ مُعسكرِك منه ، وهل لك — إن أردتَ مُقاماً به ، أو مطاولةَ عدوّك أو مكايدتَه فيه — قوّةٌ تحملك ومَدَدٌ يأتيه[2] ، فإنك إن لم تفعلْ ذلك ، لم تأمَنْ أن تهجُمَ على منزل يُعجزك ويزعجك عنه ضِيقُ مكانه ، وقِلّةُ مياهه ، وآنقطاعُ مَوَادّه ، إن أردتَ بعدوّك مَكيدةً ، أو آحتجتَ من أمورهم الى مطاولة ، فإن ارتحلتَ منـه كنتَ غَرَضًا لعدوّك ، ولم تجِـدْ الى المحاربة والإخطار سبيلا ؛ وإن أقمتَ به أقمتَ على مَشَـقّة وحَصْر وفى أَزْلٍ

(١) بردونا وثيجا : كثير اللحم .

(٢) كذا فى صبح الأعشى (ج ١٠ ص ٢٢٦) ولعل فيه تحريفا صوابه : قوة تصلك ومدد يأتيك .

وضيق ، فأعرِفْ ذلك وتقدّمْ فيه . فإن أردتَ نزولًا أمرتَ صاحبَ الخيل التى وَكَّلت بالناس فوقفت خيلُه متنحيةً من معسكرك ، عُدّةً لأمرٍ إن غالك ، ومَفْزَعًا لبديهة إن راعَتْك ، فقد أمِستَ بحمد الله وقوته لجأهَ عدوّك ، وعرفتَ موقعَها من حِرْزك ، حتى يأحد الناس منازلَهم ، وتُوضَعَ الأثقالُ مواضِعَها ، و يأتيَك خبر طلائعك ، وتُخرِج دبّابتك من معسكرك درّاجةً ودنّانا مُحيطين بعسكرك ، وعُدّه إن احتجتَ اليها . ولتكن دَبّابات جندك أهلَ جَلَدٍ وقوة ، قائدًا أو اثنين أو ثلاثةً بأصحابهم ، فى كل ليلةٍ و يومٍ نُوَبًا بينهم . فاذا غَرَبت الشمس ووَجَبَ[1] نورُها ، أخرَج اليهم صاحبُ تعبيتك أبدالَهم ، عَسَسًا بالليل فى أقربَ من مواضع دَبّابى النهار ، يتعاوَرُ ذلك قوادُك جميعا بلا محاباةٍ لأحدٍ فيه ولا إدهان .

إياك وأن يكونَ منزلك إلا فى خَندق وحِصْن تأس به بيَات عدوّك وتستنيمُ فيه الى الحزم من مكيدتك . اذا وُضِعت الأثقالُ وحطّت أبنيةُ أهل العسكر ، لم يُمْدَدْ طُنُبٌ ، ولم يُرفَع حِباء ، ولم يُنْصَب بناء حتى يقطَعَ لكل قائدٍ ذَرعًا معلومًا من الأرض بقدر أصحابه ، فيحفروه عليهم خندقا يُطيفونه بعد ذلك بحادِق الحَسَك[2] ، طارحين لها دون آشتجار الرماح ، ونَصْب التُّرْسَة ، لها بابانِ قد وَكّلتَ بحفظ كل باب منهما رجلًا من قوادك فى مائة رجلٍ من أصحابه ؛ فإذا فُرِغ من الخندق كان ذانِك الرجلانِ القائدانِ بمن معهما من أصحابهما أهلَ ذلك المركز ، وموضعَ تلك الخيل ، وكانوا هم البوّابين والأحراس لذينك الموضعين ، قد كَفَوْهما وضبطوهما وأعفُوا من أعمال العسكر ومكروهه غيرَهما .

وآعلم أنك إذا كنتَ فى خندق ، أمِستَ بإذن الله وقوته طوارقَ عدوّك وغَفَلاتهم ، فإن راموا تلك منك ، كنتَ قد أحكمتَ ذلك وأحدتَ بالحزم فيه ، وتقدّمتَ فى الإعدادِ له ، ورَتَقتَ مخوفَ الفتق منه ؛ وإن تكِ العافيةُ آستحققتَ حمدَ الله عليها ، وآرتبطتَ شكرَه بها ، ولم يَضُرُّك أخْذُك بالحزم : لأن كل كُلْفة ونَصَبٍ ومؤونةِ إنفاق ومشقّةِ عمل مع

---

(١) أى ذهب وغاب .

(٢) الحسك : أسلاك كالشوك تعمل من الحديد تلقى حول المعسكر لتنشب فى رجل من يدوسها من الخيل والناس الطارقين له ، وهى المعروفة الآن : « بالاسلاك الشائكة » .

السلامة غُنْمٌ وغير خَطَر بالعاقبـة، إن شاء الله . فإن آبتُليتَ ببيات عدوك أو طَرَقك رائعا فى ليلك، فليُلْفِك حذِرًا مشمِّرا عن ساقك، حاسرًا عن دِراعك، متشزِّنًا[1] لحربك؛ قد تقدّمتْ درّاجتُك إلى مواصِعها على ما وصفه لك أمير المؤمنين، ودَآبتك فى أوقاتها التى قَدَّر لك، وطلائعُك حيث أمرَك، وجندُك على ما عبَّأ لك، قد خَطَرتَ عليهم بنفسك؛ وتقدّمتَ إلى جندك، إن طرقهم طارق أو فاجأهم عدو، ألا يتكلم منهم أحد رافعا صوتَه بالتكبير مُغرقا فى الإجلاب، مُعلِيا بالإرهاب لأهل الناحيه التى يقع بها العدو طارقا، وليشرعوا رماحَهم ناشبين بها فى وجوههم، ويرشقوهم بالنبل مكتنِّين بتُرسهم، لازِمين لمراكزهم، غير مُزيلى قدم عن موضِعها، ولا متحاوِزين إلى غير مركزهم، وليكبِّروا ثلاثَ تكبيرات متواليات وسائرُ الجند هادون، لتعرف موضع عدوك من معسكرك، فتُمدّ أهلَ تلك الناحية بالرجال من أعوانك وشرطتك، ومن آنتخبتَ قبل ذلك عدّةً للشدائد بحضرتك، وتدُسّ إليهم الشّاب والرماح .

وإياك وأن يشهَروا سيفًا يتجالدون به، وتقدَّمْ إليهم ألا يكون قتالُهم فى تلك المواضع لمن طرقهم إلا بالرماح مُسنِدين لها إلى صدورهم، والنُّشّاب راشِقين به وجوهَهم، قد أَلْبَدوا بالأترسة، وآستجنُّوا بالبَيْض، وألقَوْا عليهم سوابِغَ الدروع وجِبابَ الحَشْو . فإن صدّ العدو عنهم حاملين على جهة أخرى، كبّر أهلُ تلك الناحية التى يقع فيها كفعل الناحية الأولى، وبقيّةُ العسكر سكوتٌ والناحيةُ التى صدّ عنها العدو لازمةٌ مراكزَهم متطلقةُ الهدو ساكنةُ الريح، ثم عَمِلتَ فى تقويتهم وإمدادهم بمثل صنيعك فى إخوانهم .

وإياك أن تُجِدّ مار رُواقك، وادا وقع العدو فى معسكرك فأجِّجها ساعِرًا لها وأوقِدْها حَطَبًا جَزْلا يعرف به أهلُ العسكر مكانَك وموضعَ رِواقك، فيسكن نافِرُ قلوبهم، ويَقْوَى واهِى قوّتهم، ويشتدّ مخذولُ ظهورهم، ولا يرجُمُون بك الظنونَ، ويجعلون لك آراء

---

(١) منشمرا منجهرا .

ببَعْثٍ واحد، كان مُعَدًّا لم تحتج إلى انتخابهم فى ساعتك تلك، فقَطِّع البعثَ عليهم عند ما يَرْهَقُك . وإن احتجت إلى اثنين أو ثلاثةٍ ، وجَّهتَ منهم إرادتَك أو ما ترى قوتك ، إن شاء الله .

وكِّلْ بحرائك ودواوِيـك رجلًا ناصحا أمينا، دا وَرَع حاجِر، ودِينٍ فاصِـل، وطاعة حالصه، وأمانةٍ صادقةٍ، واجعـل معه حيلًا يكون مَسيرها ومنزلها ومَرْحَلها مع حِرانتـك وحولها . وتقدّم إليه فى حِفظها، والتـوَقّى عليها، واتّهام كلّ من تُسْنِـد إليه شيئا منها على إضاعته والتهاوُن به، والشدّه على من دنا منها فى مَسِير، أو صَامَّهـا فى منزِل ، أو حالطها فى مَنْهَل . وليكن عاقة الجند والحيش — إلا من استحلصت للسير معها — متنحّيين عنها ، محابين لهـا فى المسير والمنزل، فانه ربما كانت الجَوْلة وحَدَثت الفَزْعة، فان لم يكن للحرائن ممن يُوَكَّلُ بها أهلُ حِفْظ لها وذَبٍّ عنها،وحياطه دونها، وقوّة على من أراد انتهابَها، أسرع الجندُ إليها وتداعَوْا نحوَها،حتى يكاد يترامى دلك بهم إلى انتهاب العسكر واصطراب العسه،فإن أهلَ الفتق وسوءِ السيرة كثير، وإنما همّتُهـم الشرّ، فإيّاك أن يكون لأحد فى حرائك ودواوِسك و بيوت أموالك مطمع، أو يجد سبيلا إلى اغتيالها ومَرْزَأتها .

واعلم أن أحسن مكيدتك أثرًا فى العامه، وأسعدها صيتًا فى حس القَالّة، مايلتَ الظفرَ فيه بحزم الرويّة، وحسن السِّيرة، ولطف الحيلة . فلتكن رَوِيَّتُـك فى ذلك وحِرصُك على إصابته بالحيل لا بالقتال وأحطارِ التالف؛ وآدسُسْ إلى عدوّك، وكاتبْ رؤساءَهم وقادَتَهم وعِدْهم المَنَالاتِ، ومنِّهم الولايات، وسوِّغْهم التُّرَاث، وضَعْ عنهم الإحَن، واقطع أعناقَهم بالمطامع، واستدعِهم بالمَثَاوب، واملأْ قلوبَهم بالترهيب إن أمكنتك منهم الدوائر، وأصارتهم إليك الرواجع ؛ وآدعُهم إلى الوثوب بصاحِبِهـم أو اعتزاله إن لم يكن لهم بالوثوب عليـه طاقة ، ولا عليك أن تطرَح إلى بعضهم كتبًا كأنها جوابُ كتبٍ لهم إليك ، وتكتُب على ألسنتهم كتبا إليك تدعهما إليهم وتحمِّل بها صاحِبَهم عليهم ، وتُنزلهم عنده بمنزلة التُّهمة ومحلّ

(١) الزيادة من رسائل البلغاء .

الظِّنّة ، فلعل مَكيدتَك فى ذلك أن يكون فيها آفتراقُ كلمتهم ، وتشتيتُ جماعتِهم ، وإحَنُ قلوبِهـم ، وسوءُ الظن بين واليهم بهـم ، فيوحشهم منه خوفُهم إيّاه على أنفسِهم إذا أيقنوا باتّهامه إياهم ، فان بَسَط يَده فقتلهم ، وأولع سـيفَه فى دمائهم ، وأسرع الوثوبَ بهـم ، أشعرَهم جميعا الخوف ، وشَملهم الرُّعب ، ودعاهم إليك الهَرَب ، فتهافتُوا نحوَك بالصيحة وأمُّوك بالطلب . وإن كان متأنّيا محتمِلا رجوتَ أن يستميل إليك بعضهم ، ويستدعى الطمع دوِى الشَرَه منهم ، وتنالَ بذلك ما تُحِب من أحبارهم ، إن شاء الله .

إذا تَدانى الصـفّان ، وتواقَفَ الخَمعان ، وآحتضَرت الحرب ، وعبّأتَ أصحابك لقتال عدوهم ، فأكثِرْ من قول : لاحول ولا قوة إلا بالله ، والتوكّلِ على الله عز وجل والتفويض إليه ، ومسألته توفيقَك وإرشادَك ، وأن يَعْزِم لك على الرُّشد المُنجِى ، والعِصمة الكالئة ، والحِياطة الشاملة . ومُرْ حسـدَك بالصّمت وقلّة التلفُّت عنـد المُصاوَلَة ، وكثرة التكبـير فى أنفسِهم والتسبيح بضمائرِهم ، ولا يُظهِروا تكبيرًا إلا فى الكَرّات والحَمَلات ، وعنـد كل زُلْفة يزدلِفونها ، فأما وهم وقوفٌ فان ذلك من الفشل والجبن ، وليذكروا الله فى أنفسِهـم ويسألوه نصرَهم وإعزازَهم ، وليُكثروا من قول : "لا حول ولا قوّة إلا بالله العلىّ العظيم ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم آنصُرنا على عدوّك وعدوّنا الباغى ، وآكفِنا شوكتَه المستحِدّه ، وأيّدْنا بملائكتِك الغالبين ، وآعصِمنا بعونك من الفشل والعجز إنك أرحم الراحمين" .

وليكن فى معسكرك المكبّرون فى الليل والنهار قبل المُواقعة ، وقومٌ موقوفون يَحُضُّونهم على القتال ويحرِّضونهـم على عدوّهم ، ويَصِفون لهم منازلَ الشهداء وثوابَهم ، ويذكّرونهـم الجنةَ ودرجاتِها ، ونعيمَ أهلِها وسكّانِها ، ويقولون : آذكروا الله يذكركم ، وآستنصروه ينصركم ، وآلتجِئوا إليه يمنَعْكم . وإن آستطعتَ أن تكون أنت المباشرَ لتعبية جندك ووضعِهم مواضِعَهم من رأيك ، ومعك رجالٌ من ثِقات فرسانك ذَوُو سنٍّ وتجرِبة ونَجْـدة على التعبية التى أمير المؤمنين واصفُها لك فى آخر كتابك فافعل ، إن شاء الله تعالى .

أيّدك الله بالنصر، وعلب لك على القـوّه ، وأعانكَ على الرُّشد، وعَصَمك من الزيغ، وأوجب لمن آستَشْهد معـك ثوابَ الشهداء ومنازِلَ الأصفياء، والسلام عليـك ورحمه الله وبركاته .

وكتب سنة تسع وعشرين ومائة .

٧ — رسالة ثانية لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد الرسالة التى أوصى فيها الكتّاب[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، حَفِظكم اللهُ يا هل صِناعة الكتابة ، وحاطَكم ووفّقكم وأرشدكم، فإن الله عز وحل جعل الناسَ بعد الأنبياء والمرسلين صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بَعْد الملوك المكرّمين أصنافا ، وإن كانوا فى الحقيقة سواءً؛ وصَرَّفهم فى صُنُوف الصناعات، وضُروب المحاولات ، الى أسـباب معاشهم ، وأبواب أرزاقهم ، بجعلكم معشرَ الكُتّاب فى أشْرَف الجهات ، أهـل الأدَب والمُرُوءات والعِـلْم والرِّزانة ، بكم تنتظِم للخلافة محاسنُها ، وتستقيم أمورها؛ وبنصائحكم يُصْلِـحُ اللهُ لخلق سلطانَهم ، وتَعْمُر بلدانُهم ، لا يَسْتَغْنى المَلك عنكم، ولا يُوحَد كاف إلّا منكم، فمَوْقعُكم من المُلوك مَوْقعُ أسْماعهم التى بها يَسْمَعون ، وأبْصارهم التى بها يُبْصرون، وألسنتهم التى بها يَنطِقون، وأيديهم التى بها يَبْطِشون، فأمْتَعكم اللهُ بما خَصَّكم من فَضْل صِناعتكم ، ولا نَزَعَ عنكم ما أصْفاه[2] من النِّعْمَة عليكم ، وليس أحدٌ من أهل الصناعات كلّها أحْوَجَ الى آجتماع حِلال الخير المحموده، وحصال الفضل المذكوره المعدوده منكم . أيّها الكتّاب اذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صِفَتكم ، فإن الكاتب يَحْتاج فى نفسه، ويَحتاج منـه صاحِبُه الذى يثق به فى مُهمّات أُموره، أن يكون حليما فى موضع الحِلْم، فهيبا فى موضع الحُكْم، مِقْداما فى موضع الإقْدام، مِحْجاما فى موضع الإحْجام، مُؤْثِرًا

(١) هذه الرسالة من مقدمة ابن خلدون (ص ٢٠٦ طبعة بلاق) . (٢) أصفاه . أتمه

للعفاف والعَدْل والإنصاف، كَتُوما للأسْرار، وفيًّا عند الشدائد، عالمـا بما يأتى من الموازل؛ يَضع الأُمور مَواضعها، والطَّوارق فى أمَاكنها، قد نَظَر فى كل فنّ من فُنون العلْم فأحكَمَه، وإن لم يُحكِمْه أحَد منه بمقدار ما يكْتفى به، يَعْرف بعزيزة عَقْله، وحُسْن أدَبه، وفَضْـل تَجْربته، ما يَرِد عليه قبلَ وُرُوده، وعاقبَةَ ما يَصْدُر عنه قبلَ صُدُوره؛ فيُعدّ لكل أمْر عُدّتَه وعَتـادَه، ويُهيِّئ لكل وجه هيئتَه وعادَته. فتَنافسُوا يا معشر الكتّاب فى صُوف الآداب، وتَفهّموا فى الدين، وابدؤُا بعـلْم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العَربية فإنها ثقافُ ألْسنتكم، ثم أجيدُوا الخطّ فإنه حِلْيَـة كُتُبكم، وارْوُوا الأشْعار وأعربوا غَريبَها ومَعانيها، وأيّامَ العَرب والعَجم وأحاديثها وسيَرَها، فإن ذلك مُعين لكم على ما تَسْمُو اليه هِمَمُكم، ولاتُضَيِّعوا النَّظَر فى الحساب، فإنه قوام كُتّاب الخَراج، وارْعَوُا بأنْفُسكم عن المَطامع سَنِيّها ودَنِيّها، وسَفْساف الأمور ومَحاقرها، فإنها مَذَلّة للرِّقاب، مَفْسَدة للكُتّاب، ونَزِّهوا صناعتكم عن الدَّناءة، وارْتَـفُوا بأنْفُسكم عن السِّعايَة والنَّميمة وما فيه أهل الجَهالات.

وإيّاكم والكِبْرَ والسُّخْف والعَظَمة، فإنها عَداوة مُجْتلَبة من غير إحْنَة، وتَحابُّوا فى الله عز وجل فى صناعتكم، وتَواضَعُوا عليها بالذى هو أليْق لأهل الفضل والعـدل والنُّبْل من سَلَفكم، وإن نَبَا[1] الزمانُ برجُل منكم، فاعْطفوا عليه وواسُوه حتى يرجع اليه حالُه، ويَثُوب اليه أمْرُه، وإن أقْعَدَ أحَدًا منكم الكِبَر عن مَكْسَبه ولقاء إخْوانه، فَزُورُوه وعَظِّموه وشاوِرُوه، واسْتَظْهروا بفَضْل تَجْربَته، وقَديم مَعْرفته، ولْيَكُن الرجُل منكم على مَن اصْطَنَعَه واسْتَظْهر به ليَوْم حاجَته اليه أحْوَطَ منه على ولَده وأخيه، فإن عَرَضَت فى الشُّغْل مُحْمَدَةٌ فلا يَصْرفها إلا الى صاحبه، وإن عَرَضَتْ مَذمّة فلْيَحْملْها هو من دونه؛ ولْيَحْذَر السَّقْطَة والزَّلّة والمَلَل عند تغيُّر الحال، فإن العَيب اليكم مَعشر الكتّاب أسْرَعُ منه الى الفرّاء، وهو لكم أفْسَد منه لها، فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صَحِبَه مَن يَبْذُل له من نَفْسه، ما يَجب له عليه من حَقِّه؛ فواجبٌ عليه أن يعتقد له من وفائه وشُكْره، واحتماله ونصيحته، وكتمان سرّه وتدبير أمره،

(١) نبا: تجافى وتباعد.

ما هو جراءٌ لحَقّه، و يصدّق ذلك فعلُه عند الحاجة اليه، والاضطرار الى ما لديه، فاستشعروا ذلك — وفقكم الله — من أنفسكم فى حالة الرّخاء، والشدّة والحرمان والمُواساة والإحسان والسّراء والضّراء؛ فنعْمَت الشيمة هذه لمن وُسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة، واذا وَلىَ الرجلُ منكم أو صُيِّر اليه من أمْرِ خَلْقِ الله وعيالِ أمْرٌ، فليُراقب الله عز وجل وليُؤْثِرْ طاعتَه؛ وليكُن على الضعيف رفيقا، وللظلوم مُنْصفا، فإنّ الخَلْقَ عيالُ الله، وأحبُّهم اليه أرفقُهم بعياله؛ ثم ليكُنْ بالعَدْل حاكما، وللأشراف مُكْرما، وللنّعَم مُوَقّرا، وللبلاد عامرا، وللرّعيّة مُتألّفا، وعن أداهم متحلفا، وليكن فى مجلسه متواضعا حليما، وفى سجلات خراجه وٱستقضاء حقوقه دقيقا، واذا صَحَّ أحدُكم رجلا فليَخْتَر خَلائقَه، فاذا عَرَف حَسَنَها وقبيحَها أعانه على ما يوافقه من الحَسَن، وٱحتال على صَرْفه عمّا يَهْواه من القبيح بألطف حيلة وأجمل وسيلة.

وقد علمتم أن سائس البَهيمة اذا كان بصيرا بسياستها التَمَس معرفةَ أخلاقها، فإن كانت رَمُوحا لم يَهْجها اذا ركبَها، و إن كانت شَموسا ٱتّقاها من بين يديها، و إن حاف منها شُرودا تَوَقّاها من ناحية رأسها، و إن كانت حَرُونا قَمَع برفْق هَواها فى طُرُقها، فإن ٱستمرّت عَطَفَها يسيرا، فيَسْلس له قيادُها، وفى هذا الوصف من السياسة دلائلُ لمَن ساسَ الناس وعامَلَهم وجَرّبهم وداخَلَهم.

والكاتب لفَضْل أدَبه وشريف صنعته ولطيف حيلته، ومعاملته لمن يحاوله من الناس ويباطره، ويَفْهم عنه أو يَحاف سَطْوتَه، أولَى بالرِّفْق لصاحبه ومُداراته وتقويم أوَده، من سائس البهيمة التى لا تُحير جوابا، ولا تَعْرف صوابا، ولا تَفْهم خطابا، إلّا بقدر ما يُصَبِّرُها اليه صاحبُها الراكب عليها؛ ألَا فارْفُقوا رحمكم اللهُ فى النظر، وأعْملوا ما أمكنكم فيه من الرَّوِيّة والفكر، تأمّنُوا بإذن الله ممّن صَحِبْتُموه النَّبْوةَ والٱستثقال والجَفْوة، و يصير منكم الى الموافقة، وتصيروا منه الى المُؤاخاة والشفقة، إن شاء اللهُ، ولا يُجاوِزَنّ الرجلُ منكم فى هيئة مجلسه، ومَلْبسه ومَرْكَبه، ومَطْعمه ومَشْربه وخَدَمه، وغير ذلك من فنون أمْره قَدْر حقّه، فإنكم مع ما فضّلكم اللهُ به من شَرَف صَنْعتكم، خَدَمةٌ لا تُحْمَلون فى خدمتكم على التقصير، وحَفَظةٌ

لاتُحْتَمَلُ منكم أفعالُ التَّضييع والتبذير، وآستعيموا على أفعالكم بالقَصْد فى كل ماذكَرْتُه لكم، وقَصَصْتُه عليكم، وآحذروا مَتالف السَّرَف، وسوءَ عاقبة التَّرَف، فإنهما يُعْقبان الفقر، ويُذِلاّن الرِّقابَ ويَفْضَحان أهلَهُما، ولا سيما الكُتّاب وأرباب الآداب. وللأمور أشباه وبعضُها دليـل على بعض، فاسْتَدِلّوا على مُؤْتَنَف أعمالكم، بما سبقت اليـه تَجْرِبَتُكم، ثم آسْلُكوا من مَسالك التدبير أوْضَحَها مَحَجّة، وأصدَقها حُجّة، وأحْمَدها عاقبه.

وآعلموا أن للتدبير آفةً مُتْلفة، وهو الوَصْف الشاغل لصاحبه، عن إنْفاذ علْمه ورَوِيّته، فليَقْصد الرجل منكم فى مجلسه، قَصْد الكافى فى مَطعمه، وليُوجِزْ فى آبتدائه وجوابه، وليَأْخُذ بجَـوامع حُجَجه، فإن ذلك مصلحة لفعْله، ومَدْفَعَة للشاغل من إمْكاره، وليُسْرِع الى الله فى صلة توفيقه، وإمْداده بتسديده، مَخافة وُقوعه فى الغَلَط المُضِرّ بدينه، وعَقْله وأدبه، فإنه إنْ ظَنّ منكم ظانٌّ أو قال قائل: إنّ الذى بَرَزَ من حميل صَنْعته وقوّة حركته، إنما هو نقْصل حيلته وحُسْن تدبيره، فقـد تعرّض بحُسْن ظنّه أو مَقالتـه الى أن يَكِلَه اللهُ عز وجل الى نفسـه، فيصير منهـا الى عيرِ كاف، وذلك على مَن تأمّله عيرُ حاف، ولا يَقُلْ أحدٌ منكم إنه أنْصَر بالأمور، وأحْمَل لأعْباء التدبير، من مُرافقه فى صناعته، ومُصاحبه فى خدمته، فإن أعْقل الرِّجال عـد دَوِى الألباب مَن رَمَى بالحُظ وراءَ ظهره، ورأى أنّ أصحـابَه أعْقَلُ منه وأحمـلُ فى طريقته، وعلى كل واحد من الفريقين أن يَعْرف فضْلَ نعَم الله جلّ ثـاؤه من غير آعتزاز برأيه، ولا تزْكية لنفسه، ولا يُكاثر على أخيـه أو نظيره، وصاحبه وعَشيره، وحمدُ الله واجبٌ على الجميع.

وذلك بالتواضع لعظمته، والتذلُّل لعزّته، والتَّحدّث بنعمته، وأنا أقول فى كتابى هذا ما سَبق به المَثَل: "مَن تَلْزَمه النصيحة يَلْزَمه العَمَل" وهو جوهر هـذا الكتاب وغُرّة كلامه، بعد الذى فيه من ذكْر الله عز وجل، فلذلك جعلْتُهُ آخرَه وتَمّمْتُه به. تولّانا الله وإيّاكم يامعشر الطَّلَبة والكَتَبة بما يتَوَلّى به مَن سَبَق علْمُه بإسْعاده وإرْشاده، فإن ذلك اليه وبيده. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٨ — رسالة ثالثة لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد رسالة فى الشطرنج[1] :

أما بعد ، فإن الله شَرَع دِينَه بإنهاج سُبُله ، وإيضاح مَعَالِمه بإظهار فرائضه ، وبعث رسلَه الى خلقه دلالةً لهم على ربوبيّته ، واحتجاجًا عليهم برسالاته ، ومقدّما اليهم بإنذاره ووعيده ، ليهلِكَ من هَلَك عن بيِّنة ، ويحيا من حَيّ عن بينة ؛ ثم ختم نبيه صلى الله عليه وسلم وحيَه ، وقفّى به رسله ، وابتعثه لإحياء دينه الدارس مرتصيًا له على حين اطمست[2] الأعلامُ مختفية ، وتشتّتت السبل متفرقة ، وعَفَتْ آثارُ الدين دارسة ، وسطَع نَهْجُ الفِتَن ، وعتلى قَتَامُ الظُّلْم ، واستَنْهد الشِّركُ ، وأسدف[3] الكفرُ ، وظَهَر أولياءُ الشيطان لطموس الأعلام ، ونطق زعيمُ الباطل بسكتة الحق ، واستُطرِق الحور واستُنْكِح الصُّدوف عن الحق ، واقْطَرّ[4] سَلْهَبُ الفتنة ، واستضرم لِقَاحُها ، وطَبّقت الأرضَ طامة كفرٍ وغَيَايةٍ[5] فساد ، فصدَعَ بالحق مأمورا ، وأبلغ الرسالةَ معصوما ، ونصح الإسلامَ وأهلَه ، دالًّا لهم على المَرَاشد ، وقائدًا لهم الى الهداية ، ومبيرًا لهم أعلامَ الحق صاحية ، مرشدًا لهم الى استفتاح باب الرحمة وإعلاق عُرْوة النَّجاة[6] ، مُوضحا لهم سُبُلَ الغَوَاية ، زاجرًا لهم عن طريق الضَّلالة ، محذّرا لهم المهلكة ، مُوعزا اليهم فى التقدِمة ، صارناً لهم الحدود على ما يتّقون من الأمور ويحشَوْن ، وما إليه يسارعون ويطلبون ، صارًا نفسَه على الأذى والتكذيب ، داعيًا لهم بالترغيب والترهيب ، حريصا عليهم ، متحنّا على كافّتهم ،

---

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المطوم والمنثور » لأبى طيفور المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (٥٨١ أدب) ومراجعة على نسخة أخرى منه محفوظة برقم (١٨٦٠ أدب) .

(٢) وردت هذه الجملة فى رسائل اللغاء هكذا « على حين اطمست له الأعلام » زيادة "له" وليس لها محل من السياق فلعلها من زيادات النساخ .

(٣) أسدف الكفر أظلم وعم النواحى والأرجاء كالليل . (٤) اقطر اشتد .

(٥) الغياية ، ما أظل الانسان من فوق كالسحابة والغبرة ونحوهما .

(٦) فى رسائل اللغاء وإعلان بالنون بدل القاف ، وهو تحريف .

عزيزا عليه عَنَتُهم ، رءوفاً بهم رحيما ، تقدمه شـفقته عليهم وعايته برشـدهم الى تحريد الطلب الى ربه فيما فيه بقاءُ النعمة عليهم ، وسلامةُ أديانهم ، وتحفيفُ آصار[1] الأوزار عنهم ، حتى قبضه الله اليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ناصحا متنصّحا ، أميناً مأمونا ، قد لَمَّ الرسالة ، وأدّى النصيحةَ ، وقام بالحق ، وعدّل عمودَ الدين ، حتى اعتدل ميلُه ، وأذلّ الشركَ وأهلَه ، وأنجز الله له وعدَه ، وأراه صدقَ أنبـائه[2] فى إكماله للسـلمين دينَه ، واستقامة سنّته فيهم ، وظهور شرائعه عليهم . قد أبان لهم مُوبقات الأعمال ، ومفظعات الذنوب ، ومهبطات الأوزار ، وطلم الشبهات ، وما يدعو اليه نقصان الأديان ، وتستهويهم به الغوايات ، وأوضح لهم أعلام الحق ، ومزالّ المراشد ، وطُرَقَ الهـدى ، وأبوابَ النجاة ، ومعاقل العصمة ، غيرَ مدّخرٍ لهم نصـحا ولا مبتغٍ فى إرشادهم عُنما . فكان ممـا قدّم اليهم فيه نهيَه ، وأعلمهم سوءَ عاقبته ، وحذّرهم إصْرَه ، وأوعز اليهم ناهيًا وواعظًا وزاجرًا ، الاعتكافُ على هذه التماثيل من الشِّطْرَنْج والمواصـلةُ عليها ، لمـا فى ذلك من عظيم الإثم ، ومُوبِق الوِزْر ، مع مَشْغلتها عن طلب المَعَاش ، وإصرارها بالعقول ، ومَنْعها من حضور الصلوات فى مَوَاقيتها مع جميع المسلمين .

وقد بلغ أميرَ المؤمنين أن ناسا ، ممن قبلَك من أهل الإسـلام ، قد ألمحهم الشيطان بهـا ، وجَمَعهم عليهـا ، وألّف بينهـم فيها ، فهم معتكفون عليهـا من لَدُنْ ضُحْيهم الى مُمْساهم ، مُلهيـةً لهم عن الصلوات ، شاغلةً لهم عما أُمِرُوا به من القيـام بسُـنَن دينهـم ، وافتُرِضَ عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مداعبتهم فيها ، وسوءِ لفظهم عليهـا . وإن ذلك من فعلهـم ظاهرٌ فى الأندية والمجالس ، غيرُ مُنكَرٍ ولا مَعيب ولا مُستفظَع عنـد أهل الفقه ، وذوى الورع والأديان والأسنان منهـم ؛ فأكبر أميرُ المؤمنين ذلك وأعظَمَه ، وكرِهه

(١) آصار : جمع إصر وهو الثقل . وفى رسائل البلغاء واختيار المطوم والمنثور لابن طيفور « أواصر » بدل آصار ، وهو تحريف . (٢) فى رسائل البلغاء واختيار المطوم والمنثور لابن طيفور « أسبابه » وهو تحريف .

وٱستكبره ، وعلم أن الشيطان عـدما يئس منه من بلوغ إرادته فى معاصى الله عز وجل ، عمر المسلمين وجَمْعهـم صُرَاحًا وجِهارا ، أقدم بهـم على شُبهة مُهْلكة ، وزيَّن لهم وَرْطَةً مُوبقة ، وعرّهم بمكيدة حِيـله ، إرادةً لٱستهوائهم بالخُدَع ، وٱحتيالهم[1] بالشُّبَه والمراصـد الخفيّة المشكلة . وكلُّ مقيمٌ على معصية الله ، صغُرت أو كبُرت ، مستحلًّا لها مُشيدا بها ، مظهرًا لٱرتكابه إيّاها ، غيرَ حَدِرٍ من عقاب الله عز وجل عليها ، ولا خائفٍ مكروهًا فيها ، ولا راعٍ من حلول سَطْوته عليهـا ، حتى تلحَقه المنيـة ، فتحتلحَه وهو مُصِرّ عليها ، غير تائب الى الله منهـا ، ولا مستغفر من ٱرتكابه إيّاها ، فكم من أقام على مُوبِقات الآثام وكبائر الذنوب ، حتى مدّته ومحّرم أيامه .

وقد أحبّ أميرُ المؤمنين أن يتقدّم اليهم ، فيما بلغه عنهم ، وأن يُدرهم ويُوعزَ إليهم ، ويُعلمهم ما فى أعناقهم عليها ، وما لهم فى قبول ذلك من الحظ ، وعليهم فى تركه من الوِزْر ، فآذِنْ[2] بذلك فيهم ، وأشِدْه[3] فى أسواقهم وجميع أنديتهم ، وأوعِز اليهم فيه . وتقدَّمْ الى عامل شُرْطتك فى إنهاك العقوبة لمن رُفع اليـه : من أهل الاعتكاف عليها والإظهار للّعب بها ، وإطالة حبسه فى ضيق وضَنْك ، وطَرْح اسمه من ديوان أمير المؤمنين . وٱقطعهم عما لَهِجُوا به من ذلك . وٱلتمِسْ تشـدّدك عليهم فيـه وإنهاكك بالعقوبة عليـه ، ثواب الله وجزاءه ، وٱتباعَ أمير المؤمنين ورأيه . ولا يحدّثنّ أحد عندك هوادةً فى التقصير فى حق الله عز وجل ، والتعـدّى لأحكامه ، فتُحِلّ بنفسـك ما يسوءك عاقبةُ مَعَبّتـه ، وتتعرّض به لغـير الله عز وجل وبكاله . وٱكتب الى أمير المؤمنـين ما يكون منك ، إن شاء الله والسـلام .

---

(١) اجتالهم : حوّلهم عن طريق قصدهم ويحتمل أن يكون : واحتالهم ، والاحتيال : الاصطياد .

(٢) آذنه الأمر وبه : أعلمه .

رسـالة رابعة لعبــد الحميد الكاتب

٩ — ومن رسائل عبد الحميد هذه الرسالة التى وصف بها الصيد[1] :

أطال الله بقاءَ أمير المؤمنين مؤيَّدا بالعز، محصوصا بالكرامة، ممتَّعا بالنعمة، إنه لم يُلْقَ[2] أحدٌ من المقتنصين، ولا مُسِح متطرِّفٌ من المتصيِّدين، إلا دون ما لَقَّانا[3] اللهُ به من اليمن والبركة، ومَنَحنا من الظفَر والسعادة فى مسيرنا من كثرة الصيد، وحُسن المقتنَص، وتمكين الجاسة[4]، وقُرب الغابة، وسهولة المورد، وعموم القُدورة[5]، إلا ما كان من محاولة الطلب، وشدة النَّصَب، لناور الصيد، وقائد الطريدة التى أمعناً فى الطلب لها، وأعجزَنا البُهرُ عن اللَّحاق بها، لتفاوت سبقها، ومقطع هربها، ومتفرق سُبُلها، ثم آل بنا ذلك الى حُسن الظفَر، وتناوبِ الأرب، ونهايةِ الطرب.

وإنى أخبر أمير المؤمنين أنّا خرجنا الى الصيد بأعدَى الجوارح، وأثقفِ الصوارى، أكرمها أحناسا، وأعظمها أحساما، وأحسنها ألوانا، وأحدّها أطرافا، وأطولها أعضاءً، قدثُقِّفَتْ بحُسن الأدب، وعُوِّدت شدّة الطلب، وسَبَرَت أعلامَ المواقف، وحبَرت المجاثم، مجبولةً على ما عُوِّدت، ومقصورةً على ما أُدِّبتْ. ومعنا من نفائس الخيل المخبورةِ الفَراهة[6]، من الشَّهْرِيّة[7] الموصوفةِ بالنجابة، والجرى والصلابة. فلم نزل نخفض سير، ونثقف طلب، وقد أمطرتنا السماء مطرا متداركا، فرَبَتْ منه الأرض، وزَهَر البقل، وسكن القتامُ من مُثار[8] السابك، ومتشعِّبات[9] الأعاصير، مُهلةَ أن سِرْنا عَلَوَاتٍ، ثم برزت الشمسُ طالعة، وانكشفت [من] السحاب مسفرة، فتلألأت الأشجار، وصحك النوّار، وانجلت الأبصار، فلم نر منظَرا أحسنَ حُسنا، ولا مرموقا أشبهَ شكلا، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار

---

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المعلوم والمنثور » لأبى طيفور .

(٢) فى الأصل : "يلف" . (٣) فى الأصل : "العانا" . (٤) كذا فى الأصل ولعلها محرفة عن الحالة . (٥) القدورة القدرة، وفى الأصل : "المقدورة" . (٦) الفراهة : النشاط فى السير . (٧) الشهرية : الرادين . (٨) فى الأصل : هكذا "مسا" .

(٩) فى الأصل "متسعات" .

زهرة الرياض . والخيلُ تمرحُ بنا نشاطا ، وتجتذبُنَا أعنّتُهَا آنبساطا ؛ ثم لم نلبث أن علتنا ضبابةٌ تقصُر[1] طرفَ الناظر ، وتُخفِي سُبُلَ[2] السلام ، تغشانا تارةً وتتكشف أخرى ، ونحن بأرضٍ دمثةِ التراب ، أشبةِ[3] الأطراف ، مُغدِقةِ العِجاج ، مملوءةٍ صيدا من الظباء والثعالب والأرانب ؛ فأذانا المسيرُ الى غابةٍ دونها مألفُ الصيد ، ومجتمعُ الوحش ، ونهاية الطلب ، قد حاوزناها ونحن على سبيل الطلب ممعنون ، وبكلِّ حرّة[4] جونةٍ[5] متفرقون ، فرجع بنا العودُ على البدء ، وقد آنحلت الضبابة ، وآمتدّ البصر ، وأمكن النظر ، فاذا نحن برُعْلَةٍ[6] من ظِباء ، وحِلْفَةِ آرامٍ يرتَعْن آنسات ، قد أحالتهنّ الضبابةُ عن شخصها ، وأذهلَهنّ أنيقُ الرياض عن آستماع حسّنا ، فلم نَعُجّ[7] إلا والضواري لائحةٌ لهنّ من بُعدِ الغاية ، ومنتهى نظر الشاخص ، ثم مَدّت الجوارحُ أجنحتَها ، وآجتذبت الضواري مَقاوِدَها ، فأمرت بإرسالها على الثقة بمُحصِرها ، وسُرعة الجوارح في طلبها ، فمرّت تحُفُّ حفيفَ الريح عند هُبوبها ، تُسِفّ الأرضَ سفّا ، كاشفةً عن آثارها ، طالبةً لخيارها ، حارشةً بأظفارها ، قد مزّقتْها تمزيقَ الريح الجراد ؛ فمن صائح بها وناعر ، وهاتفٍ بها وناعق ، يدعو الكلبَ باسمه ، ويفدّيه بأبيه وأمّه ؛ وراكضٍ تحت مُهرِه ، وحافقٍ يطلبه الرمح ، وطامحٍ يمعه ، وسانحٍ قد عارضه بارح ، قد حيّرتنا الكثرة ، وأهجتنا القُدرة ، حتى آمتلأت أيدينا من صوف الصيد ، والله المنعم الوهّاب .

ثم مِلنا يا أمير المؤمنين بهداية دليلٍ قد أحكَمَتْه التجارب ، وخَبَرَ أعلامَ المَذانب ، الى عديرٍ أفيح ، وروضةٍ خَضِرة ، مستأجمةٍ بتلاوين الشجر ، ملتفّةٍ بصُوفِ الحَمْر[8] ، مملوءةٍ من أنواع الطير ، لم يَذْعَرهنّ صائد ، ولا آقتنصهنّ قانص ، تخفُقُ لها بطبول ، وصُفر بمير الحتف ، فثار منها ما ملأ الأُفُقَ كثرتُها ، وراعت الجوارحَ خَفَقاتُ أجنحتها ، ثم آنبرت البُزاةُ

---

(١) في الأصل : "تقنصر" . (٢) في الأصل . "ويحي" .

(٣) الأشبة الملتفة الشجر . وفي الأصل «آسه» . (٤) الحرة . أرض ذات حجارة محرة سود ، وفي الأصل «حر» . (٥) الجونة : السوداء ، وفي الأصل هكذا : «حونه» . (٦) رعلة . جماعة متفرقة . (٧) في الأصل . «يعج» . (٨) الحمر : الشجر .

لها صائدة، والصقورُ كاسرة، والشواهينُ صارية، يرفص الطلب لها، ويحفِضْنَ الظفَرَ بها، حتى سئما من الدَّبح، وامتلأنا من الصيح، كأنّا كتيبةٌ ظَفِرت ببعيتها، وسَرِيَّةٌ بُصِرتْ على عَدوّها، وألحقتْ صـعيَها بقويّها، وعلّبتْ محسِنَها بمسيئها، لا نملك أنفسَـنا مَرَحا، ولا نستفيق من الجذَل بها فرحا، بقيّةَ يوما، والله المنعم الوهّاب .

ثمّ عدونا يا أمير المؤمنين الى أرض وُصِف لنـا صيدُها بالكثرة، ورياضُها بالنزهة، فزلّ واصفُها عن الطريقة، واعتمدَ سـا على غير الحقيقة؛ فأتيناها فلم نر صيدا ولا عُشبا، ولا نزهةً ولاحسا، فجعلنا نسلُك منها حُروبا ووُعورا، وحُدودا وقَفرا، حتى قصّرنا اليأسُ عن الطلب، وقطَعَ بنا عن الطمع النّصَب . فبينا نحن كذلك، إذ بدا لنـا حَأْبٌ قد أوفى بنا على حائلٍ دلّ على غابة من ورائها حَميرُ وحشٍ كثيرةٌ، فأمّمناها، فلمّا تطرّمنا مشيًا وتقريبا الى غاياته، توالى نهيقُه، وكثُر شهيقُه، فالتفتَ اليه، فرمقنَ بأعيهنّ مآ ما استكثرن شخصَه، واستهولن أمرَه، حتى ادا كنا بمرأى ومسمع انحدبن مُولّيات، وهربن مسيّئات، فأجهدنا الركضُ فى طلبهنّ، منع آثارَهنّ، وتستشفُّ ملاءً بين أحمارٍ ودكادكَ وخَناذيدَ، حتّى أشفَى بنـا الطلبُ لها على وادٍ هائلٍ سائل، بحَسَنَيْهِ غابةٌ أشِـنَّةٌ قد سقنَ اليها، واستحفَيْنَ فيها، فطَماها بالخيل نَظْمَ الحَرز، ثم أوعلتْ عِدْهُ فُرسانٍ فى نفصها ومعرفِه أحوالَهـا، والطبولُ حافقةٌ، والأصواتُ شاهقةٌ، فكان وكان؛ والحمد لله على كل حال .

---

(١) الصيح العرق .

(٢) فى الأصل : "قلب" . (٣) الحأب : العليط من حمر الوحش . (٤) فى الأصل : "مسيسا" . (٥) التقريب ضرب من العدو . (٦) الغاية . القطيع من حمر الوحش .

(٧) الأحمار جمع حمر وهو التراب المحرج من المحفور . (٨) الدكادك . جمع دكدك ودكداك وهو أرض فيها علط . (٩) الخناديد : جمع خندود وهو رأس الجبـل المشرف ، والذى يتفق والسياق "أخاديد" ، وهى جمع أخدود الحفرة المستطيلة فى الأرض .

باب المنظـــوم

الغـــزل

ذكرنا فى المجلد الأول حالةَ الغَزَل فى العصر الأموىّ، وكثرةَ مانجد فيه من لَوَاعج الحب ولفَحاته، وشكَايات الصب وأناته، وزَفَرات العاشق وعَبَراته . و بيّنا أنواعَه المتباينة التى قسمناها الى أربعة أقسام :

(ا) غزل إباحىّ : ويصح لنا أن نتخذ من عمر بن أبى ربيعة زعيما لهذا النوع الذى يجمع الى وصف المرأة والتشبيب بها، معانىَ العَسْ والاستمتاع باللذه المادية مما يعبر مسه الأدب الجاهلىّ، ومما حظَره عليه الكثيرون من خلفاء الاسلام وأئمّته . وقد كانت مكة والمدينة مَسْرحا لهذا النوع فى العصر الأموىّ . وقد شرحنا سبب ذلك فى المجلد الأول فراجعه ثمّة .

(ب) غزل عُذْرىّ : وهو غزل الحب الصادق، والعواطف المتأججة، والنفس المتألّمة المعنّاة، تلك النفس التى تجد لذتها فى الكَلَف بمن تحب والتعلق بها والشعور بالسعادة فى الفناء فى حبها، حتّا يملك عليه لبّه ويعذب روحه ويُضْنى جسمه، كغزل جَميل زعيم هذا النوع . وليس أدل على صدق حبه مما أثبتناه عن كتاب الأغانى اذ حاول أبوه أن يَصرفه عن حبه وحاجّه فى ذلك أجمل مُحَاجّة، فكان من جميل ما كان مما تجده مفصّلا فى هذا الباب .

(ج) غزل صناعىّ : بين هذا وذاك، همُّه الإجادة فى الشعر من حيث هو شعر، لا فى الحب من حيث هو حبّ، ولنا فى كثيرٍ عزة زعيم لهذا النوع الثالث .

(د) غزل قصصىّ : حلقه الرواة لأنهم رأوا ميل الناس الى الغزل والى حياة القَصْف وما ينبع حياة القصف، فنظموا قصائد نحلّوها لشعراء لا نستطيع أن نحتمل تبعة

القول بوجودهم فى الحياة، أو القول بأنهم أشخاص خياليون خلقهم الرواة، أو زادوا من عندهم مقطّعات نسبوها لهم وأضافوها الى شـعرهم . وزعيما هذا النوع : قَيْس بن الملوّح وليلاه، وقَيْس بن ذَرِيح ولُبْناه .

وإيفاء بما وعدناك به نذكر زعيم كل نوع من هذه الأنواع مع ذكر ترجمته والمختار من شعره .

---

(١) الغـــزل الاباحىّ

عمـــر بن أبى ربيعة[1]

« راقَ عمرُو بن أبى رَبيعة النـاسَ وفاق نُظَراءَه ورَغَبهم بسهولة الشعر وشدّه الأَسْر، وحُسْن الوَصْف، ودقّة المعنى، وصواب المَصْدر، والقَصْد للحاجة، وٱستطراق الرِّبْع، وإيطاق

---

(١) هو أبو الخطاب عمر بن عبـد الله بن أبى ربيعـة القرشى المخزومى، أشعر قريش وأرق أصحاب الغزل، وأوصف الشعراء لأحوال النساء .

ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب رضوان الله عليـه ، وكانت أمه نصرانيـة ، وكان أبوه تاجرا موسرا ، وعاملا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء الثلاثة من بعده ، فشب فى نعيم وترف ، وقال الشعر صـغيرا ، وسلك فيـه طريق الغزل ، ووصف أحوال النساء وتراورهنّ ومداعبـة بعضهن لبعض ، وما يعتدن قوله من الكلام ، ممـا يتوفر الشعراء المحول على الخوض فيه ، ولذلك لم يحفلوا شعره وعدّوه من هذيان خلعاء المدينة ، فـاذا قال يعالج الشـعر والشعر يقاد له ، حتى ملك ناصيته ، وقعد على زمامه ، وبرّ الشعراء، وقال رائيته المشهورة على طريقته المبتكرة وهى التى أولها

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر ✲ غداة غد أم رائح فمهجـر

والتى قال فيها حرير حين سمعها . ما زال هذا القرشىّ يهدى حتى قال الشعر .

ثم اسـتطار شرّه فى التشبيب بالنساء من يعرفها ومن لا يعرفها ، وتعرض للحصنات المتعففات من نساء قومه ومن غيرهن ، فوقف منـه فى بلاء عظيم وصبر يحمد الخروج الى الحج لأنه كان يتلقاهن بمكة ، و يترقب خروجهن للطواف والسعى و يصفهن وهن محرمات . وحلبت عليه رحالات قريش لمكانة نسبه منهم ولترقب توبته و إقلاعه ، فلما تمادى فى أمره وشب بنات السادات والخلفاء، عصب عليه عمر بن عبد العزيز ونفاه الى دهلك : (وهى جزيرة أمام مدينة مصوّع) ، ثم رأى ابن أبى ربيعة أن يكفر عن سيئاته بالتوبة والجهاد فحرّقت السـفينة التى كان فيهـا واحترق هو أيضا سـنة ٩٣ هـ وقد اقتبسنا تصدير بحثنا عنـه عن أبى الفرج الأصفهانى ونجد ترجمته مطوّلة فى الأغانى ج ١ ص ٦١ — ٢٤٨ (طبعة دار الكتب المصرية) والشعر والشعراء ص ٣٤٨ وابن خلكان (ج ١ ص ٣٧٨) والمبرد (ج ١ ص ٣٢٦) والعقد الفريد (ج ٣ ص ١٣٢) وله ديوان مطبوع فى ليبرج سنة ١٨٩٣ وفى مصر سنة ١٣١١ ومنه نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية .

القلب، وحسن العزاء، ومخاطبه النساء، وعفة المقال، وقلة الانتقال، وإثبات الحجة، وترجيح الشك فى موضع اليقين، وطلاوة الاعتذار، وفتح العزل، ونهج العلل. وعطف المساءة على العذال، وحسن التفجع، وتحل المازل، واحتصار الخبر، وصدق الصفاء، إن قدح أورى، وإن اعتذر أبرأ، وإن تشكى أشجى، وأقدم عن حبه، ولم يعتذر بعزه، وأسر الوم، وعم الطير، وأعد السير، وحير ماء الشباب، وسهل وقول، وقاس الهوى فأرى، وعصى وأحلى، وحالف بسمعه وطرفه، وأبرم نعت الرسل وحدر، وأعلى الحث وأسر، وبطن به وأظهر، وألح وأسف، وأبكح الوم، وجنى الحديث وصرب طهره لبطنه، وأدل ضعنه، وقنع بالرجاء من الوفاء، وأعلى قاتله، واستبكى عاذله، ونقص الوم، وأعلق رهن منى وأهدر قتلاه، وكان بعد هذا كله فصيحا.

ومن سهولة شعره وشده أسره[1] قوله:

فلما تواقفنا وسلمت أشرقت * وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا
تبالهن بالعرفان لما رأينني * وقلن امرؤ باع أكل وأوضعا[2]

ومن حسن وصفه قوله:

لها من الريح[3] عيناه ولفتته * ونحوة السابق المحتال إذ صهلا

ومن دقة معناه وصواب مصدره قوله:

عوجا[4] نحى الطلل المحولا[5] * والربع من أسماء والمنزلا
بسابيح البوباة[6] لم يعده * تقادم العهد بأن يؤهلا

---

(١) المراد من شدة الأسر هنا إحكام النسج ومتانة التركيب. (٢) أكل. أعيا وأوضع أسرع فى السير. (٣) الريح: الطبى. (٤) عوجا: قفا. (٥) المحول والمحيل: الذى أتت عليه أحوال كثيرة فغيرته. (٦) البوباة: الفلاة واسم لصحراء بأرض تهامة اذا خرجت من أعالى وادى النخلة اليمانية وهى بلاد بنى سعد بن بكر بن هوازن. (معجم البلدان لياقوت).

ومن قَصْيده للحاجة قولُه :

أيّها المُنكِحُ الثُّرَيّا سُهَيْلًا[1] * عَمْـرَكَ اللهَ كيفَ يلتقيانِ
هى شاميّةٌ اذا ما استقلّتْ * وسُهَيلٌ اذا آستقلَّ يَمَانِى

ومن آستِبْطاقه الربيعَ قولُه :

سـائلَا الرَّبع بالبُـلَّى[2] وقولا * هِجتَ شوقًا لى العداةَ طويلا
أين حىّ حلُّوكَ إذ أنت محفو * فٌ بهم آهلٌ أراكَ جميـلا
قال ساروا فأمْعَموا وآستقلُّوا[3] * وبرُغْمى ولو وجدتُ سبيلا
سَئِمُـوا وما سَئِمْنا جِـوَارًا * وأحَـبُّوا دَمَائَةً[4] وسُـهولا

قال إسحاق : أُنْشِدَ حريزٌ هذه الأبياتَ فقال : إن هذا الذى كنا نَدورُ عليه فأخطأناه .

ومن إبطاقه القلبَ قولُه :

قال لى فيهـا عَتِيقٌ مقـالا * جُـرتْ مما يقولُ الدموعُ
قال لى ودِّعْ سُلَيْمى ودَعْهـا * فأجاب القلبُ : لا أستطيعُ

ومن حسن عَزَائه قولُه :

أألحقُّ إنْ دارُ الرَّبابِ تبـاعدتْ * أو آنَتَتْ[5] حبلٌ أتَ قلبَـك طائرُ
أفِقْ قد أفاق العاشقون وفارقوا الـ * ـهوى وآستمرَّتْ بالرِّحال[6] المرائرُ
زِعِ النفسَ[7] واستبقِ الحيـاءَ فإنّما * تُباعِد أو تُدنى الرِّبابَ المَقَـادِرُ
أمِتْ حبَّها وآجعلْ قَديمَ وِصَالِها * وعِشْرَتِها كمثـلِ مَن لا تُعاشِرُ

(١) هى الثريا آمة عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر بن عبدشمس بن عبد مناف الأموية . تزوجها سهيل ابن عبدالرحمن بن عوف الزهرى رضى الله عنه وقتلها الى مصر فقال عمر هذا الشعر . (٢) البلّى — بضم وفتح و ياء مشدّدة — تل قصير أسفل حادة بينها و بين دات عرق (ياقوت) . (٣) استقلوا . واصلوا السير وحدّوا فى الارتحال . (٤) يقال : دمثت الأرض دمائة . سهلت ولانت . (٥) انت : انقطع . (٦) المراد أن الرحال قد أفاقوا واستحكمت عزائمهم وهو يريد أن يسلو سلوهم .
(٧) زع النفس ، أى أرجعها وكفها عن هواها .

وهَبْها كشيء لم يكن أو كازيح * به الدارُ أو من غَيَّبته المَقَابرُ
وكالناس عُلِّقتَ الرَّبابَ فلا تكنْ * أحاديثَ من يَبْدو ومن هو حاضرُ(١)

وهذه الأبيات يرويها بعض أهل الحجاز لكُثيِّر، ويرويها الكوفيون للكُمَيت بن معروف الأَسَدِيّ ، وذكر بعضها الزُّبَير بن بَكَّار عن آبن عُيَينة لكُثيِّر فى أخباره .

ومن حسن غَزَله فى مخاطبة النساء — قال مُصْعب الزُّبَيرى : وقد أجمع أهلُ بلدنا ممَّن له علمٌ بالشعر أن هذه الأبيات أغزلُ ما سَمِعوا — قولُه :

تقولُ عَـدَاهَ ٱلتَقيْنا الرَّبَابُ أياذا أَفَلْتَ أُفُـولَ السِّماكِ
وكفَّتْ سـواقَ من عَبْرِه * كما ٱرْفَضّ بطمٌ صعيفُ السِّلَاكِ
فقلتُ لها مَنْ يُطِعْ فى الصَّديـ ـق أعداءَه يَحتبِـه كذاكِ
أعرِّكِ أنّى عصَيتُ المَـلَا * مَ فيك وأنّ هوانا هواكِ
وأن لا أرى لَذّة فى الحياه * تَقَرُّ بها العينُ حتى أراكِ
فكان من الذنبِ لى عـدكم * مُكَارَمَتِي وٱتِّـباعِي رِضَاكِ
فليتَ الذى لَامَ فى حُبّكم * وفى أن تُرارِى بقَرْنٍ(٢) وَقَاكِ
همـومَ الحياة وأسقامَها . وإن كان حَتْفٌ جهيزٌ(٣) فداكِ

ومن عِفّة مقاله قولُه :

طال لَيْـلِى وٱعتادنِى اليومَ سُقْمُ . وأصـابتْ مَقَـاتِلَ القلبِ نُعْـمُ
حُرَّةُ الوجـهِ والشَّمائلِ والجَـوْ * هرِ تكليمُها لمن نال عُـنْمُ
وحـديث بمثـله تُنْزَل العُصـ ـمُ رَحِـيمٌ يَشُوب ذلكَ حِـلْمُ(٤)
هـكذا وَصْفُ ما بدا لِىَ منهـا * ليس لى بالذى تغيَّب عِـلْمُ
إن تَحُودِى أو تَخْـلِى فحَمْدٍ * لستِ يا نُعْـمُ فيهما مَنْ يُذَمُّ

(١) أى من يقيم فى السدو والحضر . (٢) المراد به قرن المازل ، وكثيرا ما يذكره فى شعره .
(٣) جهير . سريع . (٤) العصم : جمع أعصم وهو من الماء والوعول ما فى ذراعيه بياض ، وهى تعتصم عالما بقن الجبال .

ومن قلة انتقاله قولُه :

أيُّهـا القـائلُ عيرَ الصـواب * أمْسِكِ الصحَ وأقلِلْ عِتـابى
واحتبِلى واعلمنْ أن ستُعْصَى * ولخـيرٌ لك طـولُ اجتنابى
إن تَقُلْ نصحًا فعن طهرِ عِشٍّ * دائم العَمْـرِ[1] بعيـدِ الذَّهَابِ
ليس لى عِمٌّ بمـا قلتُ إنّى * عالمٌ أفقـه رَجْعَ الجـواب
إنمـا قُـرَّهُ عينـى هـواها * فـدَعِ اللـومَ وكفِّى لِمـابى
لا تلُمْنِى فى الرَّباب وأمستْ * عَدَلَتْ[2] للنفس بَرْدَ الشَّرابِ
هى واللهِ الذى هـو ربِّى * صادقًا أحلِفُ عيرَ الـكذَّابِ
أكرمُ الأحيـاء طُـرًّا عليـا * عـد قربٍ مهـمُ واجتنابِ
حاطتْنى ساعةً وهى تبـكى * ثم عَزَّتْ[3] حُلَّتِى فى الحطَـابِ
وكفى فى بِدْرَهًا لخصـومِ * لِسواها عـد حدِّ تَبَـابِى[4]

ومن إشاته المحكمة قولُه :

حليلىَّ بعضَ اللومِ لا تَرْحَلا به[5] * رفيقَـكما حتى تقُولا على عِلْمِ
حليلىَّ من يَجْنَف تأخر كالدى * كَلِفْتُ به يَدْمَل[6] فؤادًا على سُقْمِ
حليلىَّ ما كانت تُصاب مَقاتِلى * ولا عِرِّى حتى وقعتُ على لُؤْمِ
حليلىّ حتى لُفَّ حَبْلِى بحادِعٍ * مُوقٍّ إذا بُرْمَى صَبُورٍ إذا بَرْمِى
حليلىّ لو يُرْقَى خليلٌ من الهوى * رُقيتُ بما يُدْنِى النُّوارَ[8] من العُصْمِ
حليلىّ إن باعدْتُ لاتْ و إن أَلِى * تُبَاعِدْ فلم أَنْبُلْ[9] بحَرْبٍ ولا سَلْمِ

(١) العمر (بكسر العين) : الحقد والعل . والعمر (بفتح العين) : الماء الكثير ، وكلا المعنيين يحتمله البيت
(٢) عدلت ساوت . (٣) أى علقتى صديقتى فى الحطاب قال تعالى : (وعرى فى الحطاب)
(٤) يريد حسى عالما لكل حصم سواها الى حدّ هلاكى . (٥) يقال : رحل فلان فلانا عما يكر والمراد أنه يثقله ما سماعه اياه .
(٦) يدمل : يطوى . قال فى اللسان : ويقال : أدمل القوم أى أطوهم على ما فيهم . (٧) يكنى بهذا عن الوقوع فى شركها . (٨) النوار : الناعرة من الظباء
(٩) لم أسل لم أصب ، أو لم أحس الرمى .

ومن ترجيحه الشك فى موضع اليقين قولُه :

نطرتُ إليها بالمُحَصَّب من مِنًى * ولى نظرٌ لولا التحرُّج عارِمُ[1]
فملت . أشمسٌ أم مَصَابيحُ بِيعَةٍ * بدتْ لك خَلْفَ السَّجْفِ[2] أم أنت حالمُ
بعيدةُ مَهْوَى القُرْطِ إمّا لوفلِ * أبوها وإما عبدُ شَمْسٍ وهاشِمُ[3]
ومدّ عليها السَّحفَ يومَ لقيتُها * على عَجَلٍ تُنَّاعُها والحَوَادمُ
فلم أستطعْها غيرَ أن قد بدا لنا * عشيّةَ راحتْ وحهُها والمَعَاصِمُ
معاصمُ لم تَضْرِب على اللهم[4] بالضُّحَى * عَصَاها ووجهٌ لم تَلُحْه[5] السَّمائمُ
نُصَارٌ تَرَى فيه أسَارِيعَ[6] مائه * صَبِيحٌ تُغَادِيه الأكُفُّ النَّواعِمُ
إذا مادعتْ أترابَها فأكتنفْنَها * تمايَلْنَ أو مالتْ مهنّ المآكِمُ[7]
طلبْنَ الصِّبَا حتى إذا ما أصَبْنَه * رَعَيْنَ وهنّ المسلماتُ الطوالمُ

ومن طُلَاوه اعتداره قولُه :

عاوَدَ القلبَ بعضُ ما قد شجَاه * من حبيبٍ أمْسَى هوانا هَوَاهُ
يا لَقَوْمى فكيف أصبرُ عمّنْ * لا تَرَى النفسُ طِيبَ عَيشٍ سِوَاهُ
أرسلتْ إذ رأتْ بِعَادىَ ألّا * يَقْبَلَنْ بى محرِّشًا[8] إن أتاه
دونَ أن يسمع المقالَةَ منّا * وليُطِعْنِى فإنّ عندى رِضَاه
لا تُطِعْ بى فَدَتْك نفسى عدوّا * لحديثٍ على هواه افتراه
لا تُطِعْ بى من لو رآنى وإيّا * ك أسيرىْ صرورةٍ ما عَنَاه
ما صِرَارى نفسى بهَجْرِىَ من لي * س مُسِيئًا ولا بعيدا ثَرَاهُ[9]
وانحنابى بيتَ الحبيب وما الخُلْـ * ـدُ بأشْهى إلىّ من أن أراه

(١) عارم : حادّ . (٢) السجف : الستر (٣) كناية عن طول العنق ، وبه فسر فى المثل السائر (طبعة بولاق ص ٣٨٣) . (٤) اللهم جمع لهمة ، وهى الصغير من أولاد الضأن والمعز والبقر (٥) لم تلحه . لم تغيره . (٦) أسارع الماء طرائقه . والمراد أنه يتفرق منه ماء الشآبيب (٧) المآكم . جمع مأكمة وهى العجيرة . (٨) المحرّش المغرى ، من التحريش وهو الاغراء والافساد . (٩) الثرى . الحبيب .

ومن نَهْجه العِلَل قولُه :

وآيـــةُ ذلك أن تَسْمَعِي * إذا جئتُـــكم ناشدًا يَنْشُـــدُ
فُرُحْنا سِرَاعًا وراح الهـــوى * دليـــلًا إليها بنـا يَقْصِـــدُ
فلمـا دنـــوْنا لِحَـــرْسِ (١) الثَّنَا * ح والصوتِ، والحيُّ لم يَرْقُدوا
بعثنا لهـا باغيًـا ناشـــدا * وفى الحىّ نُغْية من يَنْشُدُ

ومن فَتْحه الغزلَ قولُه .

إذا أنتَ لم تعشَقْ ولم تدرِ ما الهوى * فكُنْ حجرًا من يابس الصَّخْر جَلْمَدَا

ومن عَطْفه المَسَاءة على العُذَّال قولُه :

لا تَلُمْنِي عَتِيقُ حَسْبِي الذى بى * إنّ بى يا عَتِيقُ ما قد كَفَـانِى
لا تَلُمْـــنِي وأنت زيَّنْتَهـا لى * أنت مثـــلُ الشيطانِ للإنسان

ومن حُسْن تفجُّعه قولُه :

هجـرتَ الحيَ اليومَ من غيرِ ما آحتَرَمْ * وقطَّعتَ من ذى وُدِّكَ الحبـــلَ فانصرمْ
أَطَعْتَ الوُشَاةَ الكاشحين ومن يُطِعْ * مقالةَ واشٍ يَقْـــرَعِ السِّنَّ مِن نَدَمْ
أتانى رســـولٌ كنتُ أحسَبُ أنه * شَـــفِيقٌ عليـا ناصحٌ كالذى زعم
فلمّـا تَنَاثَنَّا (٢) الحـــديثَ وصرَّحَتْ * سَرَائرُه عن بعض ما كان قـــد كَتَمْ
تبيَّن لى أن المُحَـــرِّش (٣) كاذبٌ * فعـــدى لكِ العُتْبَى على رَغْم من رَغَمْ
فـــلآنَ لُمْتُ النفسَ بعـــد الذى مَضَى * وبعـــدَ الذى آلتْ وآليْتُ مِن قَسَم
ظلمتَ ولم تُعْتِبْ وكان رســـولُها * إليـــك سريعًـا بالرضا لكَ إذ ظَـــلَمْ

(١) الحرس الصوت . (٢) ث الحديث . إهشاؤه . (٣) المحرش : المغرى ، يقال : حرّش بين القوم . أفسد بينهم .

ومن تخييله المنازل قولُه :

أَلم تسأل الأطلالَ والمترنَّما * ببَطْنِ حُلَيَّاتٍ(١) دَوَارِسَ لَقْعَا
إلى السَّرْحِ(٢) من وادى المغمَّسِ(٣) بُدِّلَتْ * معالمُها وَنْلًا وَنَكْباءَ(٤) زَعْزَعا(٥)
فيَخْفَى أو يُخْبِرنَ بالعلم بعدما * نَكَأْنَ(٦) فؤادًا كان قِدْمًا مفجَّعا

ومن آختصاره الخبرَ قولُه :

أمِن آلِ نُعْمٍ أنت عادٍ فمُبكِرُ * عَداةَ عدٍ أم رائحٌ فمهجِّرُ
بحاجةِ نفسٍ لم تَقُلْ فى جوابها * فتُبلِغَ عذرًا والمقالةُ تُعذِرُ
أشارت بمِدْراها(٧) وقالت لتِرْبِها * أهذا المُغيريُّ الذى كان يُذْكَرُ
لئن كان إياه لقد حال بعدَنا * عن العهد والإنسانُ قد يتغيَّرُ

قال الزُّبَير حدّثنى إسحاق المَوْصِلىّ قال : قلتُ لأعرابىّ : ما معنى قولِ آبن أبى ربيعة :

بحاجة نفسٍ لم تَقُلْ فى جوابِها(٨) * فتبلِغَ عذرًا والمقالةُ تُعذِرُ

فقال : قام كما جلَس .

ومن صِدْقه الصفاءَ قولُه :

كلُّ وصلٍ أمسى لديكَ لأُنثَى * غيرِها وصلُها إليها أداءُ
كلُّ أنثَى وإن دنتْ لوِصالٍ * أو نأتْ فَهْىَ للرِّباب الِداءُ

---

(١) حليات (بضم الحاء المهملة وفتح اللام وتشديد الياء) : اسم موضع ذكره الكرى وياقوت ولم يسمياه ، ولعله موضع قرب مكة بقرينة ذكره مع المغمس الوارد فى البيت بعده . (٢) السرح موضع .
(٣) المغمس (بتشديد الميم وفتحها كما فى ياقوت ، وضبطه الكرى فى معجمه بكسر الميم وتشديدها) . موضع قرب مكة فى طريق الطائف ، مات فيه أبو رغال وقبره يرجم لأنه كان دليل أبرهة صاحب الفيل . (٤) النكباء : الريح التى تنكب عن مهاب الرياح . (٥) يقال : ريح زعزع ، أى شديدة ، وكذلك زعزاع وزعزوع .
(٦) يقال : نكأ الجرح : قشره قبل أن يلتئم . (٧) المدرى والمدراة : حديدة يحك بها الرأس .
(٨) أى هى فى غاية من السرّ لا يجاب عنها إذا سئل عنها ، والإعذار : هى العذر .

وقولُه :

أحبُّ لحبِّـكِ مَن لم يكنْ ... صفيًّا لنفسى ولا صاحبَـا
وأبذُلُ مالى لمَرْضاتِكم ... وأُعْتِبُ(١) من حاءكم عاتبَـا
وأرعـى فى وُدّه من لم أكن ... إلى وُدّه قلبَكم راغبَـا
ولو سَلَكَ الناسُ فى حانبٍ ... من الأرض واعتزلتْ حانبَا
لتمّمْتُ طِتَّهَا(٢) إنّـى ... أرى قُربَها العَحَبَ العاجبَا

ومما قَدَحَ فيه فأوْرَى قولُه .

طالَ لَيْـلى وتعنّانى الطَّـرَبْ(٣) ... وآعترانى طولُ هَمٍّ ووَصَبْ(٤)
أرسلَتْ أسمـاءُ فى مَعْتَبَةٍ ... عَتَبَتْها وهى أحلى مَن عَتَبْ
أنْ أتَى منهـا رسولٌ مُوهِمًا(٥) ... وحَـدَ الحىَّ نيـاما فآنقلبْ
صربَ البـابَ فلم يَشعُرْ به ... أحدٌ يفتـح بابا إذ صَرَبْ
قال : أيقاظٌ، ولكن حاجةٌ ... عَرَضَتْ تُكتَمُ منّا فآحتجبْ
ولَعَمْرًا ردَّنى، فاحتهـدَتْ ... يمين حَلْفَةً عبـد الغضبْ
يشهَد الرحمنُ لا يجمعُنا ... سقفُ بيتٍ رحبا بعد رحبْ
قلتُ حِلًّا فاقبـلى مَعْـذرتى ... ما كذا يَجْرى مُحِبٌّ من أحبْ
إنّ كَيْمى لكِ رَهْنٌ بالرضـا ... فاقبلِى يا هند، قالت قد وَجَبْ

قالوا ومن شعره الذى آعتذرَ فيه فأرأَ قولُه :

فآلتقيا فرحّبَتْ حين سلّمَـ ... ـتْ وكفّتْ دمعًا من العين مارا(٦)
ثم قالت عند العِتَابِ رأيْتـا ... مسـك عمّا تحـلّدا وآزْورارا(٧)

(١) يقال . أعتبه إذا أعطاه الذى أرضاه . (٢) طيتها . ناحيتها وقصدها . (٣) تعانى . أوقعنى فى العناء . (٤) الطرب . حمة تعترى الانسان عند شدّة الفرح أو الحزن والهم . (٥) الموهن . نحو من نصف الليل . (٦) مار . جرى وسال . (٧) الازورار : الإعراض .

قلتُ كلّا لاه[1] آنسُ عمّك بل حفـ * ـا أمورًا كما بها أعمارا[2]
جعلا الصدودَ لمّا حشيا * قالةَ الباسِ للهوى أستارا
ليس كالعهد إذ عهدتِ[3] ولكن * أوقدَ الباسُ بالنميمة نارا
فلداكِ الإعراضُ عنك وما آ * ثرَ قلبي عليك أخرى اختيارا
ما أبالي إذا الهوى قربتكم * فدنوتم مَن حلّ أو مَن سارا
فالليالي إذا نأيت طوالٌ * وأراها إذا قربتِ قصارا

ومن تشكّيه الذي أشجى فيه قولُه .

لعمرُك ما حاورتُ عُمدانَ[4] طائفًا * وقصرَ شعوبٍ[5] أن أكونَ به صبّا[8]
ولكنّ حُمّى أضرعتني[6] ثلاثةً * محرّمةً[7] ثم استمرّت بها عبّا[9]
وحتى لو انّ الخلدَ يعرِضُ إن مشتْ * إلى الباب رحلي ما نقلتُ لها إربّا[10]
فإنك لو أبصرتِ يومَ سويقةٍ * مناخي وحبسي العيسَ دامية حدبّا[11]
ومضرَعَ إخوانٍ كأنّ أنينهم * أنينُ مكاكيّ[12] فارقتْ بلدًا خصبّا
إذًا لاقشعرّ الجلدُ منك صبابةً * ولاستفرغتْ عيناكِ من عبرةٍ سكبّا

ومن إقدامه على حتفه ولم يعتذر بعذرٍ قولُه :

صرمتُ وواصلتُ حتى عرفـ * ـتُ أين المصادرُ والموردُ
وجرّبتُ من داك حتى عرفـ * ـتُ ما أتوقّى وما أعمدُ

---

(١) لاه بمعنى لله . (٢) العمر (بضم العين وفتحها مع سكون الميم ، وبتحريك ، وبفتح فكسر) العز الخاهل الذي لم يجرّب الأمور . (٣) أي ليس الأمر كما تعهدين من قبل .
(٤) عمدان قصر باليمن ساه « يشرح بن يحصب » . (٥) قصر شعوب قصر عال مرتفع باليمن
(٦) أضرعتني . أصعفتني وأدنفتني . (٧) محرّمة كمعظمة . تامة ، يريد ثلاثة أحوال كاملة .
(٨) الغب من الحمى ما تأخذ يوما وتدع يوما . (٩) أي ما حركت له عصوا . (١٠) سويقة . موضع . (١١) حدبا جمع حدباء ، وأصل الحدب ما ارتفع من الأرض ، يريد أنه أعياها السير فهي دامية متقوسة الظهور هزالا . (١٢) المكاكيّ : جمع مكاء ، وهو طير يشبه القطاة إلا أن في حناجره بلقا ، وهو حسن الصوت في تغريده .

ومن أسيره اليومَ قولُه .

يا صاحبي وبات بومي أسـيرا * أرقُب النجمَ مَوْهِنا أن يغـورا

ومن عَمَّه الطيرَ قولُه :

فَرُحْنا وقلنا للغـلام أقِض حاجةً * لنا ثم أدرِكْنا ولا تتغـبَّرِ
سِراعًا نَغُمُّ(١) الطيرَ إن سَنَحَتْ لنا * وإن تَلْقَنا الرُّكْبانُ لا تَتَخَـبَّرِ(٢)

نتغبر من قولهم : غبرَ فلان ، أى لبث .

ومن إعْدَاذِه(٣) السيرَ قولُه :

قلتُ سِيرَا ولا تُقِيما سُصْرى(٤) * وحَفِـيرٍ(٥) فما أُحِب حَفِـيرَا
وإذا ما مررتُما بمَعَانٍ(٦) * فأقِـلَّا به الثَّـواءَ وسِـيرَا
إنما قصـرُنا إذا حَسَّر(٧) السيـ * ـرُ(٨) بعـيرًا أن تستحِدَّ بعيرَا

ومن تحييره ماءَ الشباب قولُه :

أبْرَزُوها مثلَ المَهَاةِ تَهَـادَى * بين خَمْسٍ كَوَاعِبٍ أتْرَابِ
ثم قالوا تحبُّها قلتُ بَهْـرًا * عددَ القَطْرِ والحَصَى والترابِ
وهى مكنونةٌ تحـيَّر منها * فى أديم الخَدِّينِ ماءُ الشبابِ

ومن تَقْويله وتَسْهيله قولُه :

قالتْ على رِقْبةٍ يوما لجارتِهـا * ما تأْمُرِينَ فإن القلبَ قد تُيِّلا(٩)
وهل لى اليومَ مِنْ أختٍ مُوَاتِيةٍ * مكنّ أشْكُو إليها بعضَ ما فَعلا

(١) لعله يريد . يحبرها بالسوق ، أو يهرها ويعلها ، من قولهم : غمّ القمر النجوم : بهرها وكاد يستر ضوءها .
(٢) التخبر : السؤال عن الخبر . (٣) أعد السير وأعد فيه : أسرع . (٤) نصرى : بلد بالشأم .
(٥) حفير : نهر بالأردنّ بلاد الشأم . (٦) معان : مدينة فى طرف بادية الشأم تلقاء الحجاز من نواحى البلقاء . (٧) قصرنا ، أى قصارانا وغايتنا . (٨) حسر السير بعيرا . أحهده وأعياه .
(٩) المتيول من أسقمه الهوى وعله الحب على أمره .

فراجعتها حصانٌ[1] عيرُ فاحشةٍ * رَجْعَ قولٍ ولُبٌّ لم يكن خَطِلا[2]
لا تذكُرى حبَّه حتى أُرَاجِعَه * إنى سأَكْفِيكه إنْ لم أمُتْ عَجَلا
فاتَّقِىْ[3] حياءَكِ فى سِترٍ وفى كَرَمٍ * فلستِ أوَّلَ أنثى عُلِّقتْ رجُلا

وأما ما قاس فيه الهوى فقولُه :

وقرَّبْنَ أسبابَ الهوى لتميمٍ * يَقِيسُ دِراعاً كلَّما قِسْنَ إصبعَا

ومن عِصيانه وإحلائه قولهُ :

وأَقْصُّ[4] المَطِىَّ يَتْبَعْنَ بالرَّكْـ * ـبِ سِرَاعًا نَوَاعِمَ الأَطْعَانِ
فَصَيدُ[5] الغريرِ من نقر الوحـ * ـش ونَهْوُ بلدّة الفِتْيَانِ
فى زمانٍ لو كنتِ فيه صَحِيحِى * غيرَ شَكٍّ عرفتِ لى عِصْيانِى
وتقلّتِ فى الفِراش ولا تَدْ * رِينَ إلا الظُّنونَ أين مكانى

ومن مخالفته بسمعه وطرفه قولُه :

سَمْعِى وطَرْفِى حَلِيفَاهَا على جسدى * فكيف أصبُرُ عن سَمْعِى وعن بَصَرِى
لـــو طاوعانى على ألّا أكلِّمَهـا * إذًا لقصَّيْتُ من أَوْطَارِها وَطَرِى

ومن إبرامه نعتَ الرسلِ قولُه :

فبعثتُ كاتمَةَ الحـديـ * ـثِ رَفِيقـةً بحَوَايِها
وحشـيَّةً إنســيَّةً * خَرَّاحةً من نابِها
فَرَقَتْ مسهَّلتِ المَعَـا * رِصُ من سبيل ثِقَابِها

ومن تحذيره قولُه :

لقـد أرسلتُ حارِيتى * وقلت لها خُذِى حَذَرَكْ
وقُولِى فى مُلَاطَفَـةٍ * لريبَ نَوًى عُمَـرَكْ

---

(١) حصان : عفيفة . (٢) الخطل : الفاسد المضطرب . (٣) اتقى حياءك : الزمه .
(٤) نص المطىّ : استحراح أقصى ما عندها من السير . (٥) الغرير الغافل .

فإن داويتِ ذا سَقَـمٍ * فأحرَى اللهُ من كَهَرَكْ
فهَـزَّتْ رأسَها عجبًا * وقالتْ مَنْ بدَا أمرَكْ
أهـذا يهجُـرُكَ السِّنْوا * نَ، قد حرَّمْتُ حَرَكْ
وقُلْنَ إذا قضَى وَطَـرًا * وأَدْرَكَ حاجةً فجَـرَكْ

ومن إعلانه الحبَّ وإسراره قولُه :

شكوتُ إليها الحبَّ أُعلِنُ بعضَه * وأخفيتُ مسه فى الفؤاد عَلِيلَا

ومما أنطق فيه وأظهر قولُه :

حُكْمكِ يا آلَ لَيْـلَى قاتِلِي * طهرَ الحبُّ بجسمى وبَطَنْ
ليس حبٌّ فوقَ ما أحببتُكمْ * غيرَ أنْ أقتُلَ نفسى أو أُحَنْ

ومما ألَحَّ فيه وأسَفَّ قولُه :

ليت حَظِّى كطَرْفة العين منها * وكثيرٌ منهـا القليلُ المُهَنَّا
أو حديثٌ على خَلاءٍ يُسَـلِّى * ما يُحِسُّ الفؤادُ منها ومِنّا
كَبُرَتْ رَبِّ نعمةً منكَ يومًا * أنْ أراها قبل المماتِ ومَنّا

ومن إنكاحه اليومَ قولُه :

حتّى اذا ما الليلُ جَنّ طلامُه * وبطرتُ عَقْلَهَ كاشحٍ أن يَعْقِلَا
واستَنكح اليومُ الدين نَحافُهم * وسَقَى الكَرَى نَوَّابَهُمْ فاستُثقِلَا (١)
خرجتْ تَأَطَّرُ فى الثياب كأنها * أَيِّمٌ يَسِيبُ على كَثِيبٍ أَهْيَـلَا (٢)

ومن جَيِّده الحديثَ قولُه :

وجَوارٍ مُساعِفَاتٍ على اللهـ * ـو مُيسَّراتٍ باطِنِ الأَصْـغانِ
صُـيِّدٍ للرجال يَرْشُقْن بالطَّرْ * فِ حِسَانٍ كُـدَّلِ (٣) الغِزْلانِ

---

(١) يقال : أثقله اليوم فهو مستثقل بصيغة المفعول . (٢) تأطر أصله تتأطر حذفت إحدى تاءيه ومعناه تنثنى . والأيم : الأفعى . ويسيب : يمشى . والكثيب الأهيل . الرمل المنهال . (٣) الحدل : جمع حادل وهى الطبية تتخلف عن صواحباتها أو أولادها .

قد دَعَانِي وقد دَعَاهُنَّ لَهُ * هُ شُجُونٌ مُهِمَّةُ الأَشْجَانِ[1]
فَاجْتَنَيْنَا من الحديث ثِمَارًا * ما جَنَى مثلَها لعمرُك حَانِي

ومن صريح الحديث طهرَه لطمه قولُه :

فى حَلَاءٍ من الأَنِيسِ وأَمْنٍ * فَبَثَثْنَا عَلِيلَنَا وَاشْتَفَيْنَا
وصرَبْنا الحديثَ طهرًا لبطن * وأتينا من أمرِنا ما اشتهَيْنا
فمكثنا بذاك عشرَ ليالٍ * فقضينا ديوسا واقتضَيْنا

ومن إذلاله صعبَ الحديث قولُه :

فلما أَفْضَنَا فى الهوى نستبينُه * وعاد لنا صعبُ الحديثِ ذَلُولَا
شكوتُ اليها الحبَّ أُظْهِرُ بعضَه * وأخفيتُ مسه فى الفؤاد غليلا

ومن قَنَاعِيه بالرجاء من الوفاء قولُه :

فعِدِى نائلًا وإن لم تُنِيلِى * إنه ينفع المحبَّ الرجاءُ

قال الزبير : هذا أحسن من قول كثيِّر :

ولست براضٍ من خليلٍ سائلٍ * قليلٍ ولا أرضَى له بقليل

ومن إعلائه قائلَه قولُه .

فبعثتُ جاريتى وقلتُ لها ادهَبِى * فَاشْكِى إليها ما علمتِ وسلِّمِى
قُولِى يقولُ تَحَرُّجِى[2] فى عاشقٍ * كَلِفٍ بكم حتى الممات مُتَيَّمِ
ويقول إنك قد علمتِ بأنكمْ * أصبحتُمُ يا بِشْرُ[3] أوجهَ ذى دمِ
فُكِّى رَهِينَتَه وإن لم تَفْعَلِى * فَاعْلِى على قَتْلِ ابنِ عمِّك واسْلَمِى
فتضاحكتْ عَجَبًا وقالت حقُّه * ألّا يعلَّمَنا بما لم نَعْلَمِ

(١) أى مثيرة الأشجان .
(٢) أى كنى عن الحرج والاثم .
(٣) أى أحق إنسان أحد منه مدى .

علمي به والله يغفرُ ذنبَـــه * فيما بدا لى ذو هَـــوًى متقسِّم
طَرِفٌ[1] يبازعُه الى الأدنَى الهوى * ويَبُتُّ خُلَّةَ ذى الوِصَالِ الأقْدَمِ

ومن تنغيصه اليومَ قولُه :

فلما فَقَدْتُ الصوتَ منهم وأُطفئتْ * مَصَـابِيحُ شُبَّتْ بالعِشَـاء وأَنْوُرُ
وعاب قُمَـيْرٌ كنتُ أرجو عيوبَه * وروَّحَ رُعْيانٌ ويَوْمٌ سُمُرُّ[2]
وغَصَّتْ عنِّى اليومَ أقلتُ مِشْيَةَ الـ * ـحُبَاب وركْنِي حَشْيَةَ القوم أَزْوَرُ[3]

ومن إعلاقه رهنَ مِنًى وإهداره قتلاه قولُه :

وكم من قَتِيـلٍ ما يُبَاءُ[4] به دمٌ * ومن عَـلِيٍّ رَهْنًا إذا لَقِـيَ مِنَى[5]
ومن مالئٍ عينيه من شيءٍ غيره * اذا راح نحو الجَمْرة البِيضُ كالدُّمَى[6]

وكان بعد هذا كلِّه فصيحًا شاعرا مِقْوَلًا[7] .

ومن شعره المشهور قولُه :

أمِنْ آلِ نُعْمٍ أنتَ غادٍ فمُبْكِرُ * غداةَ غـدٍ أم رائحٌ فمهجِّـرُ
لحاجةِ نفسٍ لم تَقُـلْ فى جَوَابِها * فتُبْلِغَ عُـذرًا والمقالةُ تُعْـذِرُ
أشارتْ بِمِدْرَاها وقالت لأختِهـا * أهـذا المُغِيرِيُّ الذى كان يُذْكَرُ
فقالتْ نعمْ لا شكَّ غـيَّرَ لونَه * سُرَى الليـلِ يَطْوِى نَصَّه[8] والتهجُّرُ
رأتْ رجلًا أمّا إذا الشمسُ عارضتْ * فيَضْـحَى وأمّا بالعشِيِّ فيَخْصَرُ

---

(١) الطرف من لا يثبت على امرأة ولا صاحب . (٢) روّح من الرواح وهو وقت العشيّ . والرعيان : جمع راع كالرعاة والرعاء . ووقوم الرحل تويما مالعة فى نام . (٣) الحباب : الحية . وأزور كاحس . مائل من زور يزور إذا مال . (٤) يقال : أباء القاتل بالقتيل : قتله به ، والمراد ها : فكم من قتيل يطل دمه ولا يؤخذ له ثأر . (٥) يقال : علق الرهن فى يد المرتهن يعلق علقا . لم يقدر الراهن على افتكاكه فى الوقت المشروط . يريد وكم من قلوب أسيرة لا يقدر أصحابها على افتكاكها .
(٦) الدمى : جمع دمية وهى الصورة المنقشة من العاج ونحوه . (٧) المقول : الحسن القول الفصيح المبين .
(٨) نص السرى : إسراعه ، وأصله حث الدابة واستحراج أقصى ما عندها من السير .

أحا سفرٍ جوّابَ أرضٍ تقاذفتْ * به فلواتٌ فهْوَ أشعثُ أغبرُ
قليلاً على ظَهرِ المطيّةِ ظلُّه * سوى ما تقى عنه الرداءُ المُحبّرُ[1]
وأعجبها من عيشها طلُّ عُرفةٍ * ورَيّانُ مُلتفُّ الحدائقِ أخضرُ
ووَادٍ كفاها كلَّ شيءٍ يهُمُّها * فليستْ لشيءٍ آخرَ الليلِ تسهرُ
وليلة دى دَوْرانَ[2] جشّمتنى السُّرى[3] * وقد يحشمُ الهولَ المحبُّ المعرّرُ

ومن شعره قولُه فى فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية :

تشُطُّ[4] غدًا دارُ جيراننا * وللدّارُ بعدَ عدٍ أبعدُ
إذا سلكتْ عُمرَ[5] ذى كِنْدةٍ * مع الرَّكْبِ[6] قَصْدٌ لها الفرقدُ[7]
وحثُّ الحُداةُ بها عِيرَها * سِراعًا إذا ما ونَتْ تُطْرَدُ[8]
هالكَ إمّا تُعزّى الفؤاد * وإمّا على إثرِها تكْمَدُ
وليستْ بِدْعٍ إدا دارُها * بأتْ والعَزاءُ إدًّا أجْلَدُ
صَرَمْتُ وواصلتُ حتى علا * تُ أبى المصادرُ والمَوْردُ
وجَرّبْتُ من ذاك حتى عرفـ * ـتُ ما أتوقّى وما أحمَدُ
فلما دَنَوْنا لجَرْسِ[9] البُغا * جِ والضوءِ والحىُّ لم يَرْقُدُوا
نأيْنا عن الحىِّ حتى إذا * تَوَدّعَ[10] من نارِها الموقِدُ
وناموا عتْنا لها ناشدًا * وفى الحىِّ بُغيَةُ مَنْ يَنشُدُ

---

(١) المحبر : المزين المحسن . (٢) دو دوران — بفتح أوله وبعد الواو راء مهملة وآخره نون — : موضع بين قديد والجحفة (ياقوت) . (٣) أى كلفتنى السير ليلا .
(٤) تشط : تبعد . (٥) عمر ذى كندة : موضع وراء وجرة بينه وبين مكة مسيرة يومين .
(٦) كذا فى ديوانه ، وفى الأغانى « الصبح » . (٧) الفرقد : نجمان فى السماء من نجوم الدب الأصغر وهى فى الشمال ، ويقال لهما : الفرقد بالإفراد ، والفرقدان بالتثنية . ولعله يريد أنها تسير جهته ، لأن العراق التى تقصده فى الشمال الشرقى من مكة . (٨) الحداة : جمع حاد وأصله المعنى للابل لتنشط فى السير ، وقد يراد به الزاجر والسائق . والعير : الإبل ، ولا واحد له من لفظه . ونوت : صعفت وتباطأت . وتطرد . تساق .
(٩) الجرس : الصوت . (١٠) تودع . سكنت ناره وأطفأت .

أَنَّى[1] تَهَادَى على رِقْبَـةٍ[2] * من الخوف أحشاؤها تُرْعَدُ
تقـــول وتُظْهِر وَجْدًا[3] سـا * ووَجْدِى وإن أظهرتْ أَوْجَدُ
لِمَّا شَـــقَائِى تعلَّقْتُكم[4] * وقـــد كان لى عنكمُ مَقْعَدُ
وَكَفَّتْ سَـــوَابِقَ من عَبْرِهِ * على الخَـــدِّ حَالٍ[5] بها الإثمِدُ
فإنّ التى ســـيَّعَتْنَا الغَـــدَاةَ * مع الفجر قلبى بها مُقْصَـــدُ[6]

وشَبَّبَ عمرُ بن أبى ربيعةَ بزينبَ بنتِ موسى الجُمَحيّه فى قصيدته التى يقول فيها :

يا خَلِيـــلىَّ مِنْ مَلامِ دَعَانِى * وأَلِمَّا العَـــدَاةَ بالأَظْعانِ
لا تـــلوما فى آلِ زينبَ إنّ الـ * ـقلبَ رَهْنٌ بآلِ زينبَ عانِى
ما أَرَى ما تقيبُ أن أذكُرَ المـــو * قفَ منها بالخَيْـــفِ[7] إلّا شجَانِى
لم تَدَعْ للنســـاءِ عنـــدِىَ حظًّا * عـــبرَ ما قلتُ مازِحًا بلســـانِى
هى أهـــلُ الصَّفَاء والوُدِّ مـــنِّى * وإليها الهَـــوَى فلا تَعْـــذُلانِى
حين قالت لأختها ولأخرى * من قَطِينٍ[8] مُوَلَّدٍ : حَـــدِّثانِى
كيف لى اليومَ أن أَرَى عُمَرَ الْمُرْ * ســـلَ سِرًّا فى القول أن يَلْقَانِى
قالتا : نَبْتَـــغِى رسولًا إليـــه * ونُمِيتُ الحـــديثَ بالكِتمانِ
إنّ قلبى بعـــدَ الذى بِتُّ منها * كالمَعَمَّى[9] عن سائر النِّسْـــوانِ

---

(١) تتهادى تمشى فى تمايل وسكون . (٢) الرقبة الجفط والفرق . (٣) الوجد : الشعف والشوق الشديد . (٤) المراد . قد كان لى عنى عن حكم (٥) الإثمد . حجر للكحل وأحوده ما صهبان .
(٦) أقصده رماه بسهم فقتله . (٧) الخيف . ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر عن غلظ الجبل . قال ابن سيدة : وخيف مكة موضع فيها عند منى ، سمى بذلك لانحداره عن الغلظ وارتفاعه عن السهل .
(٨) القطين : الخدم والأتباع والحشم ، والمولد من العبيد والإماء : من ولد بين العرب ونشأ مع أولادهم .
(٩) كذا فى الأغانى . وفى ديوانه "كالمعنى" أى المأسور المحبوس عن غيرها .

وكان سببُ ذكره لها أنّ ٱبنَ أبى عتيق ذكرها عنده يوما فأطْراها ووصَف من عقلها وأدبها وجمالها ما شغَل قلبَ عُمرَ وأماله اليها ، فقال فيها الشعرَ وشبَّب بها ، فبلغ ذلك ٱبنَ أبى عَتيق، فلامه فيه وقال له : أتَطِقُ الشعرَ فى ٱبنةِ عمّى؟ فقال عمرُ :

لا تَلُمْنى عتيقُ حَسبى الذى بى * إنّ بى يا عتيقُ ما قد كَفَانِى
لا تَلُمْـــنِى وأنتَ زيّنتَهـا لى * أنتَ مثلُ الشيطانِ للإنســانِ
إنّ بى داخلًا من الحبّ قد أَدْ * لَى عِظَامِى مكونُهُ وبَرَانِى
لو يعيبـــكَ يا عتيقُ نَظَرْنا * لِيـلةَ السَّفْح قَرِّتِ العيابِ
إذ بدا الكَشْحُ والوِشاحُ من الدِّ * رْ وفَصْـــلٌ فيه من المَرْجانِ (١)
وقَلَى قلبىَ النســاءَ ســـواها * بعـــد ما كان مُغرمًا بالغـوانى
لم تَدَعْ للنســاء عندى نصيبًا * غـــيرَ ما قلتُ مازحًا لنســانى

وأنشد ٱبنُ أبى عَتيق قولَ عمرَ :

مَن (٢) لسَـقيم يكتُم الـناسَ ما به * لزينبَ نَجْوَى صـدره والوَسَاوِسُ
أقولُ لمن يَبْغِى الشِّـفاء متى تَجِئْ * بزينبَ تُدرِكْ بعضَ ما أنتَ لامسُ
فإنك إن لم تَشْفِ من سَقمِى بها * فإنّى من طِبِّ الأطبّاء آيسُ
ولستُ بناسٍ ليـلةَ الدار مجلسـا * لزينبَ حتى يَعْـلُوَ الرأسَ رَامِسُ (٣)
حَلاءٌ بَدَتْ قَمْراؤُه وتكشّفَتْ * دُجُنّتُه وعبَ من هو حارِسُ
وما نلتُ منهـا مَحْرَمًا غـيرَ أنـا * كلانا من الثوبِ المـوَرَّدِ (٤) لابِسُ
نَجِيَّيْنِ نَقْضِى اللهوَ فى غير مَأْثَم * وإن زَعِمَتْ مِ الكَاشِحِينَ المَعَاطِسُ

(١) الكشح . ما بين الحقبة — وهى رأس الورك الذى يشرف على الحاصرة — إلى الإبط . والوشاح : شبه قلادة ينسج من أديم عريض يرصع بالجواهر ، تشدّه المرأة بين عاتقها .

(٢) هذا البيت دخل عليه الجزم وهو حذف الهاء من مسؤل . (٣) الرامس : الدافن فى الرمس وهو القبر .

(٤) المورّد . الذى صبغ على لون الورد .

قال : فقال آبنُ أبي عَتيق : أمِنًا يسحَرُ آبن أبي رَبيعة ؟ فأيُّ مَحْرَم بَقِيَ ! ثم أتى عمرَ فقـال له : يا عمرُ، ألم تُخْبرني أنك ما أتيتَ حراماً قـطُّ ؟ قال : بَلَى، قال : فأخبرْني عن قولك :

* كَلَانا من الثَّوْبِ المورَّد لا بسُ *

ما معناه؟ قال : والله لأخبرنَّك : خرجتُ أريد المسجدَ وخرجتْ زينبُ تريده ، فالتقينـا فاتّعـدْنا لبعض الشِّعاب، فلما توسّطْنا الشِّعبَ أخذتْنا السماءُ، فكرِهتُ أن يُرى بثيابها بَلَلُ المطر ، فيقالَ لها : ألا آستترتِ بسقائف المسجد إن كنتِ فيه ! فأمرتُ غِلْمانى فستَرُونا بكساء خَزٍّ كان علىّ، فذلك حين أقول :

* كلانا من أثواب المَطَارِف لابسُ *

فقال له : آسُ أبي عتيق : يا عاهرُ ! هذا البيت يحتاج الى حاصِبة ! .

ومن جيد شعره قولُه فى زينب بنت موسى :

يا مَنْ لقلبٍ مُتَـيَّمٍ كَلِفٍ * يَهْدِى بجودٍ(١) مَريضـةِ النَّظَرِ
تمشى الهُوَيْنَا إذا مشتْ فُصُلًا(٢) * وهْىَ كِمْثلِ السُّلُوجِ(٣) فى الشَّجَرِ
ما زال طَـرْفِى يَحَارُ إذ بَرَزَتْ * حتى رأيتُ النقصانَ فى بَصَرِى
أبصـرتُها ليـلةً ونِسْوتَهـا * يَمْشِينَ بين المَقَامِ والحَجَـرِ
ما إن طَمِعْنَا بها ولا طَمِعَتْ * حتى آلتقينا ليـلًا على قَـدَرِ(٤)
بِيضًـا حِسَانًا خَرَائِدًا قُطُفًـا(٥) * يَمْشِينَ هَوْنًا كمِشْيَة البقـرِ
قَدْ فُزْنَ بالحسن والجَمال معًـا * وفُزْن رِسْلًا(٦) بالدَّلِّ والخَفَـرِ

(١) الجود . الفتاة الحسنة الخلق الشابة مالم تصر نصفا ، والنصف : المرأة بين الحدثة والمسنة .
(٢) الفصل نصفين . المختالة التى تفصل من دبلها . ويروى : «قطفا» والمراد به تقارب الخطو .
(٣) السلوج : الغصن اللين الأخضر . (٤) على قدر : على غير موعد . والوجه فيه أن التقاءهما كأنه مقدّر فى الأزل لا علم له به ولا سعى إليه كما قيل :

جاء الخـــلافة أو كانت له قـــدرا * كما أتى ربه موسى على قـــدر

(٥) جمع قطوف وهى البطيئة فى السير . (٦) الرسل بالكسر : الرفق والتؤدة . والخفر : شدّة الاستحياء .

يُنْصِتْنَ يومًا لها إذا نطقتْ * كَيْما يُشَرِّفَنها على البَشَرِ
قالت لِتُرْبٍ لها تُحَدِّثها * لَتُفْسِدَنَّ الطَّوَافَ فى عُمَرِ
قُومِى تَصَدَّىْ له ليعرفَها * ثم اعْمِزيه يا أخت فى خَفَرِ
قالت لها قد عمزتُه فأبى * ثم اسْبَطَرَّتْ(١) تسعى على أثَرِى
من يُسْقَ بعد المام ريقتَها * يُسْقَ بمِسْكٍ وبارِدٍ خَصِرِ(٢)

وقولُه فيها أيضا :

أَلِمْ بزيبَ إن البَيْنَ(٣) قد أفِدَا * قَلَّ الثَّواءُ لَئِنْ كان الرَّحِيلُ غَدَا
قد حلَفَتْ ليلةَ الصَّوْرَيْنِ(٤) جاهدةً * وما على المرء إلا الحِلْفُ مجتهِدَا
لأختها ولأخرى من مَناصِبِها(٥) * لقد وجدتُ به فوقَ الذى وجَدَا
لو جُمِّعَ الناسُ ثم اختير صَفْوُهُمُ * شخصًا من الناس لم أعدِلْ به أحدَا

ومن شعر عمر فى تشوّقه الى مكة بعد أن حرح منها الى اليمن قولُه :

هيهاتَ من أمة الوَهّابِ(٦) منزلُنا * ادا حللنا بسِيفِ البحر من عَدَنِ
وأحتلَّ أهلُكِ أجيادًا(٧) وليس لنا * إلا التذكُّر أو حظٌّ من الحَزَنِ
لو أنها أبصرتْ بالحَزْع عَبْرَتَه * من أن يُغَرِّدَ قُمْرِىٌّ على فَنَنِ
اذًا رأت غيرَ ما ظنّت بصاحبها * وأيقنتْ أن نَحْفًا ليس من وَطَنِ
ما أنْسَ لا أنْسَ يومَ الخَيْفِ(٨) موقفَها * وموقفى وكلانا ثمَّ دو شَجَنِ
وقولَها للثُّرَيا وهى باكيةٌ * والدمعُ منها على الخدّين ذو سُنَنِ

---

(١) اسبطرت : أسرعت . (٢) الخصر : البارد . (٣) أفد كفرح : عجل وأسرع .
(٤) الصوران : موضع بالمدينة بالقيع ، وقد ذكره ياقوت وأستشهد بالبيت . (٥) المنصب كمنبر ومقعد : الخادم ، والأنثى بالهاء ، جمعه مناصب .
(٦) سيف البحر : ساحله . (٧) أجياد : موضع بمكة ، سمى بذلك لأن تبعا لما قدم مكة ربط خيله فيه فسمى بذلك ، وهما موضعان : أجياد الكبير وأجياد الصغير . (٨) الخيف : موضع بمنى وبه سمى مسجد الخيف . (٩) دو سنن : دو طرائق .

لله قـــولى له فى غـــير مَعْتَبَـــةٍ * مادا أردتَ بطـول المُكْث فى اليمنِ
إن كنتَ حاولتَ دنيا أو طمِعْتَ بها * فـا أخـذتَ تَرْكَ الحجِّ من ثمنِ

وقال أيضـا :

حليـــلىّ ما بالُ المَطَـايا كأنّمـا * نَرَاها على الأدْبار بالقـوم تَنكِصُ[1]
وقـــد قُطِعَتْ أعـاقُهن صَبَابَةً * فأنفُسُنا ممـا يُلاقِينَ شُخَّصُ
وقد أتعبَ الحادى سُراهُنَّ وانْتَحَى * بهنّ فـا يألُو تحـــولٌ مُقَلْقِلُ[2]
يَزِدْنَ بنـا قـــرْبًا فيزدادُ شَـوْقُنا * إذا زاد طولُ العهد والبعدُ يَنْقُصُ

ومن شعره قولُه :

جَرَى ناصحٌ بالوُدّ بينـى و بينَهـا * فقَرّبنى يومَ الحِصَابِ[3] إلى قَتْـلِى
فطارت بحَذ من فؤادى وقارنتْ * قرينتُها حبـلَ الصِّفَاء إلى حبـلى
فلمّـا تواقفنا عرفتُ الذى بهـا * كمثل الذى بى حَذْوَكَ النعلَ بالنعلِ
فقُلْنَ لهـا هـــذا عِشَاءٌ وأهلُنـا * قريبٌ ألَمّا تَسْأَمى مَرْكَبَ البَغْلِ
فقالت فمـا شئتُنّ قلن لهـا انزلى * فَلَلأرضُ خيرٌ من وقوف على رَحْلِ
نُحُـــومٌ دَرارِىٌّ[4] تكنّفَ صـــورةً * من البدر وافتْ غيرَ هوجٍ[5] ولا عُجْلِ
فسلّمْتُ واستأنستُ حِيفَةَ أن يَرى * عدوٌّ مُقَامى أو يَرى كاشحٌ فِعْـلِى
فقالتْ وأرْحَتْ جانبَ السِّتْرِ إنمـا * معى فتكلّمْ غيرَ ذى رِقْبَـــةٍ أهْـلِى
فقلتُ لها ما بى لهم من ترَقُّبٍ * ولكنّ سِرّى ليس يحمِلُه مثـلى
فلمّـا اقتصرْنا دونهنّ حديثَنـا * وهنّ طَيِبَاتٌ بحاجة ذى الشّكلِ
عَرَفْنَ الذى تَهْوَى فقلْنَ أنذِرى لنا * نَطُفْ ساعةً فى بَرْدِ ليلٍ وفى سَهْلِ

---

(١) نكص : ترجع وتولى وتحجم . (٢) مقلقل : مشمر حاذ فى السير . (٣) الحصاب كالمحصب : موضع رمى الجمار . (٤) دراريّ معوضة من الصرف وقوت لضرورة الشعر . (٥) هوج : جمع هوجاء وهى المتعجلة فى السير كأن بها هوجا وحمقا .

فقالتْ فلا تَلْبَثْ قُلَنْ تَحَدَّثِي * أتيناكَ، وآنسَبْنَ آنسياتَ مَهَا الرَّمْلِ
فقمتَ وقد أفهمْنَ ذا اللُّبِّ أنما * أَتَيْنَ الذى يأتينَ من ذاك من أَجْلِ

وقد كان عمر حين أَسَنَّ حلَف ألّا يقولَ بيتَ شعر إلّا أعتق رقبةً، فانصرف عمرُ إلى منزله يحدِّث نفسَه، فجعلتْ جاريةٌ له تكلِّمه فلا يردّ عليها جوابا، فقالت له : إن لك لأمرا، وأراك تريد أن تقول شعرا، فقال :

تقولُ وليدي لما رأتني * طَرِشْتُ وكنتُ قد أقصرتُ حِينا
أراكَ اليومَ قد أحدثتَ شوقاً * وهاج لك الهوى داءً دَفِينا
وكنتَ زعمتَ أنك ذو عَزَاء * إذا ما شئتَ فارقتَ القَرِينا
برَبِّكَ هل أتاك لها رسولٌ * فشاقك أم لَقِيتَ لها حَدِينا[1]
فقلتُ شكا إليّ أُحَيُّ مِحٌّ * كبعضِ زمانِنا إذ تعلمينا
فقصَّ عليّ ما يَلْقَى بهند * فذكَّرَ بعضَ ما كنّا نَسِينا
ودو الشَّوْقِ القديم وإن تَعَزَّى * مُشُوقٌ حين يلقَى العاشقينا
وكم من خُلَّةٍ[2] أعرضتُ عنها * لغير قِلًى وكنتُ بها ضَنِينا
أردتُ بِعادَها فصَدَدْتُ عنها * ولو جُنَّ الفؤادُ بها جنونا

ثم دعا تسعةً من رقيقه فأعتقهم بكلّ بيتٍ واحدًا .

وله :

يقولون : إنى لستُ أصدُقُكِ الهوى * وإنّى لا أرعاكِ حين أعيبُ
فما بالُ طَرْفى عَفَّ عما تَسَاقطتْ * له أعينٌ من مَعْشَرٍ وقُلوبُ
عشيَّةَ لا يَسْتَمْسِكُ القومُ أن يَرَوْا * سَفَاهَ امرئٍ ممن يقال لبيبُ

(١) الحدين : الصديق الذى يحادنك فيكون معك فى كل أمر ظاهر وباطن، ومنه حدن الجارية محدثها، وكان العرب فى الجاهلية لا يمتنعون من حدن يحدث الجارية لجاء الاسلام بهدمه . وفى الدر يل العزيز : (اليوم أحل لكم الطيبات) الى قوله . (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان) الآية . (٢) الخلة : الخليلة .

ولا فتنةً من ناسكٍ أو مَصَتْ[1] له * عين الصَّبا كَسْلَى القيامِ لَعُوبُ
تَرَوَّحَ يَرْجُو أن تُحَطَّ ذنوبُهُ * فآبَ وقد زِيدتْ عليه ذنوبُ
وما النُّسْكُ أَسْلابي ولكنَّ للهوى * على العين مِنِّي والفؤادِ رقيبُ

وله :

ألم تسألِ المنزل المُقْفِرا * بياناً فيكتُمَ أو يُخْبِرَا
ذكرتَ به بعض ما قد شَجَاكَ * وحَقَّ لذى الشَّجْو أن يَذْكُرَا
مَبِيتَ الحبيبين قد ظاهرا[2] * كِسَاءً و ردبن أن يُمْطَرَا
ومَمْشَى الثلاثِ به مَوْهِنًا * خرجن إلى زائرٍ زُوَّرَا
إلى محلس من وراء القِنَا * بِ سَهْلِ الرُّبَى طيِّبٍ أَعْفَرَا[3]
عَفَلْنَ عن الليل حتى بدتْ * تباشيرُ من واضح أَسْفَرَا
فقُمْنَ يُعَفِّينَ آثارَنا * بأكسية الخَزِّ أن تُقْفَرَا[4]
مَهَاتانِ شيَّعتا جُؤْذُرًا[5] * أَسِيلًا مُقَلَّدُهُ أَحْوَرَا
وقُمْنَ وقُلْنَ لو أنَّ النها * رَ مُدَّ له الليلُ فاستأخَرَا
قَضَيْنا به بعضَ أُنْجانِنا * وكان الحديثُ به أَحْدَرَا

وله :

أفي رَسْمِ دارٍ دمعُك المُتَرَقْرِقُ[7] * سَفاهًا! وما استنطاقُ ما ليس ينْطِقُ!
بحيثُ الْتَقَى "جَمْعٌ"[8] وأقصى "مُحَسِّرٍ"[9] * مَعَالِمُه كادت على العَهدِ تُخْلِقُ
ذكرتُ به ما قد مضى من زمانِنا * وذكرُكَ رَسْمَ الدارِ مِمَّا يُشَوِّقُ

---

(١) أومصت له : سارقته النظر .
(٢) يقال : ظاهر بين الثوبين إذا لبس أحدهما على الآخر . (٣) أعفر : ذى رمل أحمر .
(٤) يقال : قفر الأثر قفرا : اقتفاه وتبعه . (٥) الجؤذر (بضم أوله وضم الدال وفتحها) : ولد البقرة . والربرب : القطيع من بقر الوحش وقيل من الظباء، ولا واحد له من لفظه . (٦) المقلد : موضع القلادة ويراد به الجيد . (٧) ترقرق الدمع : سال . (٨) جمع، هى المزدلفة . (٩) محسر : موضع بين منى والمزدلفة .

ليـالىَ من دهرٍ إذ الحىُّ جيرةٌ * وإذ هـو مأهولُ الخَيـلة مؤنقُ
مَقـامًا لنا عـند العِشاء ومجلسا * به لم يُكدِّره علينا مُعَوِّقُ[1]
وممْشَى فَتاةٍ بالكساء تَكُنُّنا * به تحت عَيْنٍ[2] برقُها يتألَّقُ
يَسُلُّ أعالى الثـوبِ قَطْرٌ وتحتَـه * شُعَاعٌ بدا يُعْشِى العيـونَ ويُشْرِقُ
فأحسنُ شىءٍ بَدْءُ أوّلِ ليلنا * وآخرُه حُزْنٌ إذا نتفـرّقُ

وروى أن ليلى كانتْ جالسةً فى المسجد الحرام، فرأتْ عمرَ بن أبى ربيعـة فوجّهتْ إليه مَوْلًى لها بفاءها به، فقالت له : يابْنَ أبى ربيعة، حتّى متى لا تزال سادرًا[3] فى حَرَم الله تُشبِّبُ بالنساء وتُشيد بذكرهنّ ! أما تخاف الله ! قال : دعينى من داكِ وآسمَعى ما قلتُ ، قالت : وما قلتَ؟ فأنشدها الأبياتَ المذكورة، فقالت له القول الذى تقدّم أنها أحادثْه به. قال : وقال لها : آسمَعى أيضا ما قلتُ فيكِ، ثم أنشدها قولَه :

أمِنَ الرسم وأطـلالِ الدِّمَنْ * عاد لى وَجْدِى وعاودتُ الحَـزَنْ
إن حبِّى آلَ ليـلَى قاتـلى * ظهـر الحبُّ بجسمى وبطَنْ
يا أبا الحارث قلـبى طائـرٌ * فأُتِمِرْ أمرَ رشـيدٍ مؤتمَنْ
التمِسْ للقلب وصـلًا عـندها * إنّ خيرَ الوَصْـل ما ليس يُمَنّ[4]
عَلِقَ القلبُ، وقـد كان صَحَا، * من بنى بَكْرٍ غزالًا قد شَدَنْ[5]
أحـورَ المُقْـلةِ كالبـدر، إذا * قُـلِّد الدُّرَّ فقلـبى مُمْتَحَنْ[6]
ليس حُبٌّ فـوقَ ما أحببتُكم * غيرَ أن أقتُـلَ نفسى أو أُجَنّ
خُلِقَتْ للقلب مـنّى فِتْنَـةً * هكذا يُخْلَقُ معـروضُ الفِتَنْ

(١) معوّق : عائق ومانع . (٢) العين : السحاب .
(٣) السادر : الذى لا يهتمّ ولا يبالى ما صنع .
(٤) كذا فى الديوان ، ومعناه ما ليس يقطع ، ومنه قوله تعالى : (وإنّ لك لأجرا غير ممنون) .
(٥) شدن : شب وترعرع . (٦) ممتحن : واقع فى محنة .

وفيها يقول :

إنّ ليـــلَ وقـد بلغتُ المَشيبا * لم تدعْ للنساء عـــدى نصيبا
هاجرٌ بيتَهـا لأنـــي عنهـا * قولَ ذى العيب إن أرادَ عيوبا

وله فى الوَوَار وقد شغلت قلبه :

عَلِق الـــوَوَارَ فـــؤادُهُ جَهْلا * وصَـــبًا فلم تترك له عقـــلا
وتعرّضت لى فى المَسير فما * أمسَى الفؤادُ يَرى لها مِثلا
ما نعجةٌ من وحش ذِى نَقَـرٍ (١) * تَعْدُو بسَقْط صَرِيمَـــةٍ (٢) طِفْلا
بألَذّ منهـا إذ تقـــول لنـا * وأردتُ كشفَ قِناعها مَهْلا
دَعْنـا فإنك لا مُكارمـةٌ * تحزِى ولَسْتَ مواصلٍ حَبْلا
وعليكَ مَنْ تَبَـلَ الفؤادَ وإن * أمسَى لقلبـك ذكرُه شُـــغْلا
فأجبتُها إنـ المحبّ مكلَّفٌ (٣) * فدَعِى العتـابَ وأحدثى بَذْلا

اجتمع نسوةٌ من أهل المدينـة من أهل الشرف فتداكَرْنَ عمَر بن أبى ربيعة وشعَره وطَرَفه وحسنَ حديثه فتشوّقن اليه وتمنّينه ، فقالت سُكَينةُ بنت الحُسَين عليهما السلام : أنا لكنّ به ، فأرسلتْ اليـه رسولا وواعدتْه الصَّورَيْن ، وسمّتْ له الليلةَ والوقتَ وواعدتْ صواحباتها ، فوافاهنّ عمرُ على راحلته ، فحدّثهنّ حتى أصاء الفجر وحان انصرافهنّ ، فقال لهنّ : والله إنى لمحتاج الى زيارة قبر رسـول الله صلى الله عليه وسـلم والصلاه فى مسجده ولكن لا أحلِط بزيارتكنّ شيئا ، ثم انصرف الى مكة وقال :

---

(١) دو نقر . موضع . (٢) سقط الصريمة . منتهاها . والصريمة . الرملة المنصرمة من الرمال ذات الشجر . (٣) مكلف : لهج بالحب ، يقال : كلف بالشئ كلفا ، أى لهج به فهو كلف ومكلف ، والأبيات من الكامل الأحذ ، وهو ما حذف من عروضه وضربه الوتد المجموع «علن» من «متفاعلن» . وقد جاء عروض هذا البيت تاما على خلاف بقية الأبيات ، وظاهر أن حذف الوتد فى اصطلاح علماء العروض علة ، والعلة إذا لحقت عروض أو ضرب لزم استعمالها فى سائر الأبيات ولو قال : * فأحبتها إنى بكم كلف * لجاءت القصيدة من هـذا العيب .

قالت سُكَيْنةُ والدموعُ ذَوَارِفٌ * منها على الخدّين والجِلْبَاب[1]
ليت المُغِيريَّ الذى لم أجزِه * فيما أطال تصيُّدى وطِلَابى
كانت تردُّ لنا المُنَى أيامنا * إذ لا نُلَامُ على هوًى وتَصَابِى
حُبِّرْتُ ما قالتْ فبتُّ كأنما * رُمِىَ الحَشَا بسوافد النُّشَّابِ[2]
أُسْكَيْن ما ماءُ الفراتِ وطيبُه * منِّى على ظمإٍ وفَقْد شَرَابِ
بألدّ منك وإن نأيتِ وقلّما * ترعى النساءُ أمانةَ الغُيَّاب

وقال فيها :

أُحِبُّ لحبّك من لم يكن * صَفِيًّا لنفسى ولا صاحبًا
وأبذُلُ نفسى لمَرْضاتكم * وأُعتِبُ[3] من حاءكم عَاتِبا
وأرغَب فى وُدِّ من لم أكن * الى وُدِّه قبلكم راغبا
ولو سلَك الناسُ فى جانبٍ * من الأرض واعتزلتْ جانبا
لَيَمَّمْتُ طِيبَتَها ، إننى * أرى قربَها العَجَب العاجبا
فما ظبيةٌ من ظباء الأَرا * كِ تَقْرُو[4] دَميثَ[5] الرُّبَى عاشبا
بأحسنَ منها عَذَاةَ الغَمِيم[6] * وقد أبدت الخدَّ والحاجبا
عداةَ تقولُ على رِقْبَةٍ * لخادمها[7] : يا أَحْيسِى الراكبا
فقالت لها : فيمَ هذا الكلامُ * وأبدتْ لها عابسًا قاطبا[8]
فقالت كريمٌ أتى زائرًا * يُمُرُّ بكم هكذا جانبا
شريفٌ أتى رِبعَنا زائرا * فأكرهُ رجعتَه خائبا

---

(١) الجلباب : القميص أو هو الخمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها . (٢) النشاب : السهم .
(٣) أعتب : أزال سبب العتب ، فالهمزة للسلب . والمعنى أعتذر . (٤) قراه يقروه : تتبعه .
(٥) دميث الربى : سهلها ولينها . (٦) الغميم كأمير : موضع بين مكة والمدينة . (٧) الخادم : واحد الخدم غلاما كان أو جارية . (٨) قاطبا من القطوب ، وهو تزوى ما بين العينين من العبوس .

وقال فى حاريته بَنُوم :

صرَمَتْ حَبْلَكَ النومُ وصَدَّتْ * عنكَ فى عير ريبة أسماءُ
والغَوانى اذا رأيْنَك كَهْلًا * كان فيهنّ عن هواكَ ٱلْتواءُ
حَبَّذَا أنتِ يا نَعُومُ وأسما * ءُ وعِيصٌ يكنُّا وخَلَاءُ
ولقد قلتُ ليلةَ الجزْل لمّا * أخضلتْ رَيطَتى علىّ السماءُ[1]
ليتَ شعْرى وهل يَرُدَّنَّ لَيْتٌ * هل لهذا عند الرِّبَاب جزاءُ
كلُّ وَصْل أَمْسَى لدىّ لأنثى * عيرِها وَصْلُها إليها أداءُ
كل خَلْق وإن دنا لوصَال * أو نأى فهو للرِّبَاب الفِدَاءُ
فعِدِى نائلا وإن لم تُنيلى * إنما يَنْفَعُ المحبَّ الرجاءُ

وكان يهوَى حميدةَ حاريةَ ٱبن ثُفَّاحَةَ، وفيها يقول :

حُمِّلَ القلبُ من حميدةَ ثِقْلًا * إن فى ذاك للفؤاد لشُغْلَا
إن فعلتُ الذى سألت فقُولى * حَمْدُ حيرًا وأَتْبعى القولَ فعْلَا
وصِلِينى وأُشْهِدُ اللهَ أنّى * لستُ أُصْفى سواك ماعشتُ وَصْلَا

وفيها يقول :

ياقلبُ هل لك عن حميدةَ زاجرُ * أم أنت مُدَّكرُ الحياء فصابرُ
فالقلبُ من ذكْرَى حميدةَ مُوجَعٌ * والدمعُ منحدرٌ وعَظْمى فاترُ
قدكنت أحسَب أننى قبل الدى * فعلتْ على ما عند حَمْدَةَ قادرُ
حتى بَدَا لى من حميدةَ خُلْقُ * بينٌ وكنتُ من الفراق أُحاذرُ

(١) الجزل . موضع قرب مكة . وأخضل . بل . والريطة : ملاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة .

وله فى هند :

أَرِبْتُ[1] الى هنـــد وتربين مرّةً * لهـا إد تواقفنا بقرع المُقطّع
لتعريس[2] يوم أو لتعريس ليـلةٍ * عليا بجمع الشّمل قبلَ التصدُّع
فقُلْنَ لهـا لولا ارتقابُ صحابة * لنـا حلفنا نحنا ولم نتـــورّع
فقالت فتاةٌ كنتُ أحسبُ أنها * مُغفّـــلةٌ فى مئزر لم تُدرّع[3]
لمنّ ـ وماشاورْنَها ـ ليس ماأرى * بحُسْنِ جراءٍ للحبيب المودّع
فقلن لها لا شَكَّ[4] قرنُك فافتحى * لنا بابَ[5] ما يخفى من الأمر نسمع

(١) يقـال : أرب بكذا : كلف به ، وأرب الى كذا . احتاج اليه . ولعل المراد دعانى الشوق اليّ .

(٢) التعريس قيل هو نزول القوم فى السمر آخر الليل يستريحون قليلا ثم يرحلون مع الصبح . وقيل : هو النزول أوّل الليل . وقيـل النزول فى أى وقت كان من ليل أو نهـار . والمراد هنا . لإقامة يوم أو لإقامة ليـلة .

(٣) لم تدرّع : لم تلبس الدرع ، يقال : درّعت الصبية اذا ألبست الدرع ، والدرع . حمة مشقوقة المقـدّم .

(٤) قال الأصمعى : يقال أشـبه الله وأشب الله قرنه بمعنى واحد (وهو الدعاء له بأن يشب ويكبر) ، والقرن زيادة فى الكلام اهـ . والقرن : الضفيرة . والمراد التعجب من حديثها كما يقال فى هـذا المقام : قاتلك الله .

(٥) البابة : الوجه والطريق ، قال تميم بن مقبل :

فى عامر ما تأمرون مشاعر * تحير بامات الكتاب هجائيا

أى تحير هجائى من وجوه الكتاب ، كما فسره صاحب اللسان . وللبابة معان أخرى لا بأس من إيرادها وهى : القبيل والنوع — كما قال الجاحظ فى « كتاب الحيوان » ج ٢ ص ٤٥ : « فليس الديك من بابة الكلب لأنه إن ساوره قتله قتلا ذريعا » وقال أيضا فى ج ٧ ص ٤٣ . « وقد أيقنا أنهما ليسا من بابته » . وقال فى كتاب البخلاء ص ٤٥ ، ١٤٣ : « أنت من دى البابة .. وأما سائر حديث هـذا الرجل فهو من هذه البابة » . ومثل ذلك فى مدح الطيب ج ١ ص ٥٥٩ طبع لبدن ، ج ١ ص ٣٩٨ طبع بولاق سنة ١٢٧٩ هـ قول القاضى محمد بن بشير الأندلسى :

إنمـا أورى بقدرى أنى * لست من بابة أهل البلد

واذا قال الناس « من بابتى » فمعناه من الوجه الذى أريده ويصلح لى .

والشرط — ومثله ما فى « تاج العروس » . هذا بابته أى شرطه .

والغاية — ويستعمل ذلك فى الحساب والحـدود . وفى « شفاء العليل » أنهم يقولون للعب خيال الظل بابة فيقولون : بامات خيال الظل ، وعلى ذلك قول آس إياس المؤرخ المصرى : فكانوا مثل بامات خيال الظل شىء يجىء وشىء يروح (بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١ ص ٣٤٧) .

ويجوز أن يسمى به كل فصل من فصول التمثيل المسماة الآن فصول الرواية . (انظر كتاب التاج للجاحظ ص ٣٨ و ٣٩) .

وله :

ليتَ هذًا أنجزتنا ما تعِـدْ * وشفَتْ أنفسَنا مما تجِـدْ (١)
وأستبدَّتْ مرّةً واحدةً * إنما العاجزُ من لا يستبِدْ
ولقد قالتْ لجاراتٍ لها * ذاتَ يومٍ وتعرَّتْ تسترِدْ (٢)
أكما ينعتُني تُبصِـرْنَني * عمرَكُنَّ اللهَ أم لا يقتصِـدْ (٣)
فتهافتْن وقـد قُلْنَ لها * حسَنٌ في كلِّ عينٍ من تودْ
حسدًا حمَّلْنَه من أجلِها * وقديمًا كان في الناسِ الحسدْ

وله :

يا مَنْ لقلبٍ دَنِفٍ مُغرَمِ * هامَ (٤) الى هنـد ولم يَظْلِـمِ
هامَ الى رِيمٍ هَصِيمِ الحَشَى (٥) * عَذْبِ الثَّنايا طيِّبِ المَبْسِمِ (٦)
لم أحسِبِ الشمسَ بليلٍ بَدَتْ * قَبْـلي لِدى لَحْمٍ ولا دى دمِ

(١) وجد به يجـد وجدا : أحبه حبا شديدا ، ووجد عليه يوجد وجدا حزن . (٢) تتزد . تغتسل بالماء البارد . (٣) كذا في الكامل للمبرد طبع ليبزج ص ٥٩٤ وهي رواية جيدة . والتهافت كالاهاف والمهافهة ضحك فيه فتور كضحك المستهزئ . وفي الأغاني والديوان : «فتضاحكن» . وقد رجحنا الرواية الأولى لأنها تؤدي تمام المعنى المراد . (٤) هام تتعدى بالباء وقد ضمنت هنا معنى صبا وهـدا تعدّت بالى .
(٥) كذا في الأغاني ، وفي ديوانه «رئم» بالهمز . والرئم : الظبي الأبيض الخالص البياض ، وقيل ولد الظبي ، يهمز ولا يهمز . (٦) كذا في الأغاني ، وبين هذا البيت والذي قبله في ديوانه

كالشمس بالأسعد إذ أشرقت * في يوم دجن بارد مقمِّ

يريد بالأسعد هنا سعود الحوم ، وهي عشرة : أربعة منها في برج الحمل والدلو يرئسها القمر وهي سعد الذابح وسعد بلع وسعد الأخبية وسعد السعود وهو كوكب منفرد بر . وأما الستة التي ليست من المنازل فسعد ناشرة وسعد الملك وسعد البهام وسعد الهمام وسعد الذابح وسعد مطر . وكل سعد من هذه الستة كوكبان بين كل كوكبين في رأي العين قدر ذراع وهي متناسقة . وأما سعد الأخبية فثلاثة أنجم كأنها أثافيّ ورابع تحت واحد منهنّ . أنظر المرتضى والمقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية للامام العيني المطبوع بهامش الخزانة ج ١ ص ٨ ٥ في الكلام على البيت

اذا دار ان مـلك يوما لقيته * أوّل أن ألقاك عدوا لأسعد

وقال في اللسان في مادة «سعد» بعد أن ذكر هـذه السعود . فأحس ما تكون الشمس والقمر والنحوم في أيامها لأنك لا ترى فيها عبرة ، وقد ذكرها الباخلي فقال :

قامت تراءى بين سجفي كلة * كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

وقد ضبط خطأ في اللسان بفتح العين . وقال :

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها * لم تزد أهـلا ولم تفحش على جار

قالت ألَا إنكَ ذو مَـلَّةٍ * يَصْرِفُكَ الأدنى عن الأقْدَمِ
قلتُ لها بل أنتِ معتلَّة * فى الوَصْل ياهندُ لكى تَصْرِمِى

بينـا عمرُ بن أبى ربيعة يَطُوف بالبيت إذ رأى عائشـةَ بنتَ طَلْحَةَ بنِ عبيد الله ، وكانت من أجمل أهلِ دهرها ، وهى تريد الرُّكْنَ تستلمُه ، فهُبِتَ لمـا رآها ورأته ، وعلمتْ أنها قد وقعَتْ فى نفسه ، فبعَثَتْ إليه بجارية لها وقالت : قولى له : اتَّقِ اللهَ ولا تَقُلْ هُجْرًا ، فإنّ هذا مَقَامٌ لا بدّ فيه ممـا رأتَ ، فقال للجارية : أقْرِئيها السلامَ وقولى لها : ابنُ عمّك لا يقول إلا حيرا ، وقال فيها :

لعائشةَ آسيةِ التَّيْمِىّ عندى * حِمًى فى القلبِ ، لا يُرْعَى حِمَاها
يُذَكِّرُنى ابنـةَ التَّيْمِىّ طبىٌّ * يَرُودُ بروْضـةٍ سَهْلٍ رُبَاها
فقلتُ له وكاد يُرَاعُ قلبى * فلم أرَ قطُّ كاليوم اشتِبَاها
سِوَى حَمْشِ(١) بساقكَ مستبينٍ * وأن شَوَاكَ(٢) لم يُشْبِهْ شَوَاها
وأنك عاطلٌ عارٍ وليست * عـارية ولا عُطُلٍ يَدَاها
وأنكَ عيرُ أفْرَعَ(٣) وهى تُدْلِى * على المَتْنَيْنِ أشْحَمَ(٤) قد كَسَاها
ولو قعَدَتْ ولم تَكْلَفْ نُوَدٍّ * سِوَى ما قد كَلِفتُ به كَفَاها
أَطَلٌ إذا أُكَلِّمُها كأنّى * أُكلِّمُ حيّةً غَلَتْ رُقَاها
تَبِيتُ إلىّ بعد النوم تَسْرِى * وقد أمسيتُ لا أخشَى سُرَاها

ولـــه :

إنّى وأوّلَ ما كَلِفْتُ بحبِّهـا * عَجَبٌ وهل فى الحبِّ من متعجِّبِ
نعتَ النساءُ فقلتُ لستُ بمُبْصِرٍ * شَـبَهًا لهـا أبدًا ولا بمُقَـرِّبِ

---

(١) الحمش : دقة الساقين . (٢) الشوى : الأطراف . (٣) الأفرع : طويل شعر الرأس .
(٤) الأشحم : الأسود ، يريد به الشعر .

فكَأَيِّنْ حِينًا ثم قُلْنَ توجَّهَتْ * للحَجِّ ، موعِدُها لِقَاءُ الأَخْشَبِ[1]
أقبلتُ أَنْظُر ما زعَمْنَ وقُلْنَ لى * والقلبُ بين مُصدِّق ومُكذِّب
فلقيتُها تَمْشِى بها بَغَلاتُها * تَرمِى الحَمارَ عشيَّةً فى مَوْكِب
عَرَّاءَ يُعْشِى الناظرين بياضُها * حَوْرَاءَ فى غُلَوَاءِ[2] عيشٍ مُعْجِب
إنّ التى مِنْ أرضِها وسمائها * جُلِبَتْ لحَيْبِك ليتَها لم تُجْلَبِ

وكان عمر بن أبى ربيعة يهوَى كَلْثَمَ بنتَ سَعْدٍ المَخْزُومِيَّةَ، فأرسلَ إليها رسولا فصربتْها وحلقَتْها وأحلفَتْها ألّا تُعاوِدَ، ثم أعادها ثانيةً ففعلتْ بها مثلَ ذلك، فتَحامَاها رسُلُهُ؛ فابتاع أَمَةً سَوْداءَ لطيفةً رقيقةً وأتى بها منزلَه فأحسن اليها وكَسَاها وآنسَها وعرَّفها حبَّه وقال لها: إن أَوْصلتِ لى رُقْعةً الى كَلْثَمَ فقرأتْها فأنتِ حرّةٌ ولكِ معيشتُك ما بَقِيتِ، فقالت: اكتُبْ لى مُكاتَبَةً[3] واكتبْ حاجتَك فى آخرها، ففعل ذلك، فأخذتْها ومضتْ بها الى باب كلثمَ فاستأذنتْ فخرجتْ إليها أَمَةٌ لها فسألتْها عن أمرها؛ فقالت: مكاتَبَةٌ لبعض أهل مَوْلاتِك جئتُ أَسْتعينُها فى مكاتَبَتِى، وحادثتْها وأشدتْها حتى ملأتْ قلبها، فدخلتْ الى كلثمَ وقالت: إن بالباب مكاتَبَةً لم أَرَ قطُّ أجملَ منها ولا أكملَ ولا آدبَ، فقالت: ائْذَنى لها، فدخلتْ، فقالتْ: من كاتبَك؟ قالت: عمرُ بن أبى ربيعةَ الفاسقُ! فاقرئى مكاتَبَتِى، فمدّتْ يدَها لتأخذها فقالت لها: لى عليكِ عهدُ الله أن تَقْرَئيها، فإن كان منكِ الىّ شىءٌ مما أُحبُّه وإلّا لم يَلْحَقْنِى منك مكروهٌ؛ فعاهدتْها وفَطِنَتْ وأعطتْها الكتابَ، فإذا أوّلُه:

من عاشقٍ صَبٍّ يُبَشِّرُ الهوى * قد شَفَّه الوجدُ الى كَلْثَمِ
رأتكِ عَيْنِى فدعانى الهوى * إليكِ للحَيْنِ ولم أَعْلَمِ

---

(١) الأخشب: مفرد الأخشبين وهما جبلان بمكة أحدهما أبوقبيس والآخر قعيقعان، ويقال: هما أبوقبيس والجبل الأحمر المشرف هنالك، وقد تعرد هذه التثنية فيقال لكل واحد منهما: الأخشب، قال ساعدة بن جؤية:

ومقامهن إذا حسسن بمأزم * ضيق ألف وصدهن الأخشب

(٢) فى غلواء عيش: فى أنضره وأرغده. (٣) المكاتبة: أن يكاتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه منجما (مقسطا) فإذا أداه صار حرا، وسميت كذلك لأنه يكتب على نفسه لمولاه نجما، ومولاه يكتب له عليه عتقه.

قَتَلْتُمُونا ، يا حبَّـذا أنتُمُ * فى غيرِ ما جُرْمٍ ولا مَأْثَمِ
واللهُ قد أَنْزَلَ فى وَحْيِـه * مُبَيِّنًا فى آيِهِ المُحْكَمِ
من يقتُلِ النفسَ كذا ظالمًا * ولم يُقِدْها نفسَـه يَظْلِمِ
وأنتِ تأْرِى فتَلَافَى دَمِى * ثم أجعلِيـه نعمةً تُنْعِمِى
وحَكِّمِى عَدْلًا يَكُنْ بيننَا * أو أنتِ فيما بيننَا فاحْكُمِى
وجالِسِينى مجلسًا واحدا * من غيرِ ما عارٍ ولا مَحْرَمِ
وحبِّرِى ما الذى عـدكم * باللهِ فى قتلِ امرئٍ مُسْـلِم

فلما قرأتِ الشعرَ قالت لها : إنه خِداعٌ مَلِقٌ وليس لما شَكَاه أصلٌ ، قالت : يامولاتى ، لها عليكِ من امتحانه؟ قالت : قد أذِنْتُ له وما زال حتى ظَفِرَ بِغُيَّتِه ! فقولى له : إذا كان المَسَاءُ فليَجْلِسْ فى موضع كذا وكذا حتى يأتيَه رسولى ، فانصرفتِ الجاريةُ فأخبرتْه فتأهَّبَ لها ، فلما جاءه رسولُها مضَى معه حتى دخل إليها وقد تهيَّأتْ أجملَ هيئة ، وزيَّنَتْ نفسَها ومجلسَها وجلَسَتْ له من وراء سِتْرٍ ، فسلَّم وجلَسَ ، فتركتْه حتى سكَن ثم قالت له : أخبِرْنى عنكَ يافاسق! ألستَ القائل :

هلَّا ارْعَوَيْتِ فتَرْحَمِى صَبًّا * صَـدْيانَ لم تَدَعِى له قَلْبَـا
جَشِـمَ الزيارةَ فى مودَّتكم * وأراد ألَّا تُرْهِـقِى ذَنْبَـا
ورَجَا مُصَالَحَةً فكان لكم * سَلْمًـا وكنتِ تَرَيْنَـه حَرْبَا
يا أيُّهـا المُصْـغِى مودَّتَه * مَنْ لا يَرَاكَ مُسامِيًا خِطْبَـا (١)
لا تَجْعَلَنْ أحدًا عليـك اذا * أحببتَـه وهَوِيتَـه رَبًّا
وصِلِ الحبيبَ إذا شُغِفْتَ به * واَطْـوِ الزيارةَ دونَه غِبًّـا
فَلَذَاكَ أحسنُ من مُواظَبَـةٍ * ليستْ تَزِيدُكَ عنـده قُرْبَا
لا بل يَمَلُّكَ عنـد دَعْوتِه * فيقـولُ هَاه (٢) وطَالَمَـا لَـبَّى

(١) الخطب : الخاطب . (٢) وهاه : كلمة وعيد ، وحرّك لضرورة الشعر وقد روى البيت فى ديوانه :

لا بل يملك ثم تدعو باسمه * فيقول هـاه وطالما لبى

ورأى عمرُ لُبَابَةَ بنتَ عبد الله بن العباس امرأةَ الوليد بن عُتْبَةَ بن أبي سفيان تَطُوف بالبيت فرأى احسنَ خَلْق الله ، فكاد عقلُه يذهبُ ، فسأل عنها فأخبر بنسبها ، فنسَب بها وقال فيها :

وَدِّعْ لُبَابَةَ قبلَ أن تترحّلا * وَاسْأَلْ فإنَّ قُلَالَهُ[1] أن تَسْأَلَا
الَسْتُ بعَمْرِك ساعةً وتأنّها * فلعلَّ ما بَجِلَتْ به أن يُبْدَلَا
قال ائْتَمِرْ[2] ما شئتَ غيرَ مُحالِف * فيما هَوِيتَ فإننا لن نَعْجَلَا
لَسْنا نُنَالِي حين نَقْضِي حاجةً * ما باتَ أو ظَلَّ المَطِيّ مُعَقَّلَا
حتى إذا ما الليلُ جَنَّ طَلَامُه * ورَقَبْتُ عملةَ كاشحٍ أن يَحْفَلَا
خرجتْ تأطّرُ[3] فى الثياب كأنّها * أَيِّمٌ[4] يَسِيبُ على كثيبٍ أَهْيَلَا
رحّبْتُ حينَ رأيتُها فتبسّمَتْ * لتحيّتي لمّا رأتني مُقْبِلَا
وجَلَا القَناعُ سَحَابةً مشهورةً * عَرَّاءَ تُعْشِي الطَّرْفَ أن يتأمّلَا
فَلبِثْتُ أَرْقِبُها بما لو عاقِلٌ[5] * يُرْقَى به ما اسْطَاعَ ألّا يَنْزِلَا

وحَجَّتْ رَمْلَةُ بنتُ عبد الله بنِ خَلَف الخُزَاعِيَّةُ فقال فيها :

أَصْبحَ القلبُ فى الحِبَال رَهِينَا * مُقْصَدًا يومَ فارَقَ الظَّاعِينَا
عَجِلتْ غُدَّةُ الفراقِ عليـنا * برَحيلٍ ولم نَخفْ أن تَبِينَا
لم يَرُعْنى إلّا الفتاةُ وإلّا * دمعُها فى الرداءِ سَحًّا سَفِينَا
ولقد قلتُ يومَ مكةَ سِرًّا * قبلَ وَشْكِ من بينِكم تَوْلِينَا
أنتِ أهوَى العبادِ قُربًا وودًّا * لو تُبِيلين عاشقًا محزونَا
قاده الطَّرفُ يومَ مَرَّ إلى الحيـ * ـنِ حِهارًا ولم يخفْ أن يَحِينَا

(١) القلال كعراب وسحاب : القليل . (٢) ائتمر ما شئت : افعل ما شئت فإنا لا نعصى لك أمرا .
(٣) تأطر . محذوفة إحدى تاءيه ، أى تتثنى . (٤) الأيم : الحية . (٥) يقال : عقل الوعل يعقل عقولا امتنع فى الجبل ، ومنه سمى الوعل عاقلا على حدّ التسمية بالصفة ، ومنه المثل : « إنما هو كالوعل الأروى قليلا ما يرى » . والأروى : جمع أروية وهى تيوس الجبل البرية

فادا نعجةٌ تـــراعى نِعـاجًا * ومَهَّا بُهَّجَ المـاطر عِيـَا
قلتُ مَنْ أنتُمُ فصَدَّت وقالتْ * أَمُبِـدٌ(١) ســؤالَكَ العَالِمِيَـا
قلتُ بالله ذى الجـــلالة لمـا أن تَلَبِّت الفؤادَ أن تَصْدُقيا
أىّ من تحمـــعُ المواسم قولى . وأبِنى لـا ولا تَكْتُمِيَا
نحن من ساكنى العِرَاق وكُنَّا * قبـــلَه قاطنين مكةَ حِينَا
قد صدَقْناكَ إذ سألتَ فمن أنـ * ـت عسى أن يَحُرَّ شأنٌ شُؤونا
ونَرَى أننـا عَرَفْنـاك بالنَّعْـ تِ بظَنٍّ وما قَتَلْنَا يَقِينَـا
بسَـوَادِ الثَّنِيَّتَيْنِ ونَعْتٍ * قـــد نَرَاه لناطـــرٍ مُسْتَبِينَا

وقال فى الثريا وقد صَرَمته .

مَنْ رَسُولى إلى الثريا فإنّى * صِقْتُ ذَرْعًا بهَجْرِها والكتَابِ
سلتْنى تَمَّاحَةُ(٢) المِسْكِ عقـلى * فسَلُوها ماذا أَحَلَّ اعتصابى
وهى مَكْنُونَةٌ تحيَّر منهـا * فى أديم الخَدَّيْنِ ماءُ الشبابِ
أَبْرَزُوها مثلَ المَهَاةِ نَهَـادى(٣) * بين خَمْسٍ كَوَاعِبٍ أتْرَابِ
ثم قالوا نُحبُّهـا قلتُ بَهْـــرًا * عددَ القَطْرِ والحَصَى والتُرابِ
أَزْهَقَتْ أمُّ نَوفلٍ إذ دَعَتْهـا * مُهْجَتى(٤)، ما لِقَاتِلى مِنْ مَتَابِ
حين قالتْ لها أجِيبى فقالتْ * مَنْ دعانى قالت أبو الخَطَّابِ
فاستجابتْ عنـد الدعاء كما لـ * ـبِّى رجالٌ يَرْجُون حسنَ الثواب

(١) قال فى اللسان مادة بدد بعد أن أورد هذا الشطر : «معناه أمقسم أنت سؤالك على الناس واحدا واحدا حتى تعمّهم» . من البداد وهو أن يبدّ المال القوم فيقسم بينهم ، وأبدهم المال والعطاء . فرقه فيهم ، والمراد لماذا تسألنا ! ألك حق السؤال على جميع الناس ! . أو معناه : «أأنت ملزم سؤالك الناس» من قولهم : مالك مبه بدّ» ، والمراد : أأنت ملزما الإجابة عن سؤالك ! إنّا لانجيبك . (٢) تماحة المسك ، يريد بذلك وصفها بطيب ريقها وبأنه كالمسك . (٣) تهادى ، يريد يهدى بعضها بعضا فى مشيتها (الكامل للمبرد طبع ليبزج ص ٣٧٩) . (٤) فى الكامل للمبرد طبع ليبزج ص ٣٧٩ . أرهقت : أطلت وأدهشت قال الله عز وجل : (فيدمغه فاذا هو زاهق) اه . يريد : أدهشت أم نوفل بعضى إذ دعت الثريا لوصالى فلم تجبها .

ومن شعره :

كتبتُ إليك من بلدى كئيب وَاكِفُ العيد (١) كتابَ مُـوَلَّهٍ كَمِـدِ
ن بالحَسَرات مفـرد يُؤَرِّقُه لهيبُ الشـو ق بين السَّحْرِ (٢) والكَبِدِ
فيُمْسِك قلبَـه بيـدٍ * ويَمْسَحُ عينَـه بيـدِ

لما تزوج سُهَيلُ بنُ عبد العزيز الثُّرَيا ونقلها الى الشام، بلَغ عمرَ بنَ أبى ربيعةَ الخبرُ، فأتى المنزلَ الذى كانت الثريا تنزلُه، فوجدها قد رحلتْ منه يومئذٍ، فخرج فى أثرِها فلحقَها على مَرْحلتين، وكانت قبل ذلك مُهاجِرَته لأمرٍ أنكرَتْه عليه، فلما أدركهم نزلَ عن فرسه ودفعه الى علامه ومشى مُتنكِّرا حتى مرَّ بالخَيْمة، فعرَفَتْه الثريا وأثْبتتْ (٣) حركتَه ومِشْيتَه، فقالت لخاصتها (٤) : كلِّميه، فسلَّمتْ عليه وسألته عن حاله وعاتبتْه على ما بلَغ الثريا عنه، فاعتذر وبكى، فبكتِ الثريا، فقالت ليس هذا وقتَ العِتاب مع وَشْك الرَّحيل، فحادثها الى وقت طلوع الفجر ثم ودّعها ونَجَا طويلًا، وقام فركب فرسَه ووقف ينظُر اليهم وهم يَرْحَلون (٥)، ثم أتْبَعهم بصرَه حتى غابوا، وأنشأ يقول :

يا صاحِيَّ قِفَا نَسْتَحِرِ الطَّلَلَا عن حالِ مَنْ حَلَّه بالأمسِ ما فعَلَا
فقال لى الرَّبْعُ لما أن وقَفْتُ به إنّ الخَلِيطَ أجَدَّ (٦) البَيْنَ فاحْتَمَلَا (٧)
وخادَعْتُكَ النَّوى حتى رأيتَهُمُ * فى الفَجْرِ يَحْتَثُّ حادِى عِيسِهم رَحِلَا (٨)

(١) يقال : وكفت العين : سالت دموعها . (٢) السحر الرئة .
(٣) أى عرفتها حق المعرفة . (٤) لخاصتها لمريتها . (٥) يرحلون يشدّون على إبلهم الرحال .
(٦) أجدّ البين . اعتزمه . (٧) احتمل . ارتحل . (٨) النوى : الفراق والبعد . ويحتث . يسوق . وزحلا : رافعا صوته فى حداء الإبل لتسرع فى السير، وأصل الرحل الحلبة ورفع الصوت وحص به التطريب، وأنشد سيبويه فى وصف حمار وحش :

له رحل كأنه صـوت حاد * اذا طلب الوسيقة أو زمير

وذكره فى باب ما يحتمل الشعر من استباحة الصرورة، وهى هنا حذف الواو المبينة لحركة الهاء فى قوله : كأنه . والوسيقة : أثناء التى يضمها ويجمعها، من وسقت الشىء : جمعته .

لما وَقَفْنا نُحَيِّيهم وقد صَرَخَتْ هَوَاتِفُ البَيْنِ وٱستولتْ بهم أُصُلا[1]
صَدَّتْ بِعادًا وقالتْ لاتى معها * بالله لُومِيهِ فى بعض الذى فعَلا
وحَدِّثِيه بما حُدِّثْتِ وٱستَمِعى * ما ذا يقول ولا تَعْبَىْ به جَدَلا[2]
حتى يَرَى أنّ ما قال الوُشَاةُ له * فينا لَدَيْه إليا كلُّه بُقَلا
وعَرِّفِيه به كالهَزْلِ وٱحْتَفِظى * فى بعض مَعْتَبِهِ أن تُعْصِى الرحُلا
فإنّ عَهْدِى به واللهُ يَحْفَظُه * وإن أَتَى الذنبَ ممن يَكْرَه العَدَلا
لو عندنا أغْتِيبَ أو نِيلَتْ مقيصتُه * ما آبَ مُغتابُه من عندِنا حَدِلا
قلتُ ٱسمعى فلقد أُبلغتِ فى لَطَفٍ[3] وليس يَخْفَى على ذى اللُّبِّ من هَزَلا
هذا أرادتْ به نُحْلًا لأعْدِرَها * وقد أرَى أنها لن تَعْدَم العِلَلا
ما سُمِّى القلبُ إلّا من تقلُّبه * ولا الفؤاد فؤادًا عبرَ أن عَقَلا[4]
أما الحديث الذى قالت أُتِيتَ به * فما عَبَأْتُ به إذ جاءنى جَوَلا
ما إن أَطَعْتُ بها بالغَيْبِ قد عَلِمتْ * مقالةَ الكاشح الواشى إذا نُحِلا
إنى لأَرْجِعُه فيها بسَخْطَتِه * وقد يَرَى أنه قد غرنى زللا

وهى قصيدة طويلة مذكورة فى شعره .

---

(١) فى ديوانه

لما وقفنا نحييهم وقد شحطت * نعامة البين فاستولت بهم أصلا

وشحطت نعامة البين : ارتحلوا وفرقهم البين ، وفى اللسان مادة نعم وشال يقال للقوم إذا ارتحلوا عن منزلهم أو تفرقوا : قد حمت نعامتهم وشالت نعامتهم ، . والأصل : جمع أصيل وهو العشىّ وقيل هو معرد ، أنشد ثعلب :

وتمدرت هضى لداك ولم أرل * بدلا نهارى كله حتى الأصل

فقوله : بدلا نهارى كله ، يدل على أن الأصل هاهنا واحد . (٢) لا تعبى به حدلا . لا تحفرى فى محادلته .

(٣) اللطف لغة فى اللطف . (٤) قال فى اللسان . والتعؤد . التوقد ، والعؤاد : القلب لتعؤده وتوقده . وقال فى القاموس وشرحه : والتعؤد . التحرق والوقد ، ومنه العؤاد للقلب ، لأنّ عقل الفؤاد للعلومات نتيجة اشتعاله وتوقده وتحركه وحولته فيها حتى يمحصها ، ويميز الصحيح من الفاسد والحق من الباطل .

وله :

هل تَعْرِف الدارَ والأطلالَ والدِّمَنا ... زِدْنَ الفـؤادَ على عِلّاتِه[1] حَزَنا
دارٌ لأسماءَ قد كانت تَحُـلُّ بهـا ... وأنتَ إذ ذاك قد كانت لكم وَطَنا
لم يُحْبِ القلبُ شيئا مِثْـلَ حُبِّكُم ... ولم تَرَ العينُ شيئا بعدكم حَسَنا
مَا إن أُبالي أدام اللهُ قُـرْبَكُمُ ... مَنْ كان شَطَّ من الأحياء أو طَعَنا
فإن نَأَيْتُمْ أصـاب القلبَ نَأْيُـكُمُ ... وإن دَنَتْ داركم كنتم لنـا سَكَنا
إن تَحْـلى لا يُسَـلِّ القلبَ تُحْلِكم ... وإن تَحُودِى فقـد عَيَّنْتِنِى زَمَنـا
أمسى الفـؤادُ بكم ياهِنْـد مُرْتهَنا ... وأنتِ كُنْتِ الهوى والهَمَّ والوَسَنا
إذ تَسْتَبِيكَ بمَصْـقولٍ عَوَارِضـه ... ومُقْلَتَىْ حُؤْذُرٍ لم يَعْـدُ أن شَـدَنا

وقال :

أَعَنْـدَةُ ما يَنْسَى مَوَدَّتَكِ القَلْبُ ... ولا هُـوَ يُسْـلِيهِ رَحَاءٌ ولا كَرْبُ
ولا قـولُ واشٍ كاشِحٍ دى عداوة ... ولا بُعْـدُ دارٍ إن نأيتِ ولا قُرْبُ
وما ذاكِ من نُعْمَى لَدَيْكِ أصابها ... ولكنَّ حُبًّـا ما يُقاربه حُبُّ
فإن نَقَـلِى ياعَبْدَ تَوْبَةَ تائبٍ ... يَتُبْ ثُمَّ لا يُوحَـدْ له أبدًا ذَنْبُ
أدِلُّ لكم ياعَبْـدَ فـيما هَـوِيتُمُ ... وإنى إذا ما رامنى غيرُكم صَعْبُ
وأعْدُل نفسى فى الهـوى فتَعُوقُنِى ... ويأْصِرُنى قلبٌ بكم كَلِفٌ صَبُّ
وفى الصبر عَمَّن لا يُؤاتيك راحةٌ ... ولكنَّه لا صَبْرَ عـدى ولا لُبُّ
وعَبْـدَةُ بيضاء المحاجِر طَفْـلَةٌ ... مُنَعَّمَةٌ تُصْـبِى الحليمَ وما تَصْبُو
قَطُوفٌ من الحُورِ الأوانس بالضحى ... مَتَى تَمْشِ قِيسَ الباعِ من بُهْرِها تَرْبُو
فَلَسْتُ بـاسٍ يَوْمَ قالت لأربعٍ ... نَوَاعِمَ غُرٍّ كُلُّهنَّ لهـا تِرْبُ
ألا لَيْتَ شِعْرِى فِيمَ كان صُدُودُه ... أُعُلِّقَ أخرى ! أم عَلَىَّ به عَتْبُ

(١) كذا فى ديوانه وفى الأغانى ج ١ ص ٢٧٩ « على ما عنده » .

وقال :

إنَّ طَيْفَ الخيَـالِ حِينَ أَلَمَّـا ... هاجَ لى ذُكْرَةً وأَحْدَثَ هَمَّـا
جَدِّدِى الوَصْلَ ياسُكَيْنُ وَجُودِى ... لِمُحِبٍّ رَحِيـلُهُ قـد أَحَمَّـا
ليسَ بين الحياةِ والموتِ إلّا ... أنْ يَرُدُّوا جِمَالَهُمْ فَتُرَمَّا
ولقـد قلتُ مُخْفِيًـا لغَرِيص ... هَلْ تَرَى ذلكَ الغَزَالَ الأَحَمَّا
هَلْ تَرَى فوقَهُ مِنَ الناسِ شَخْصًا ... أَحْسَنَ اليومَ صُورةً وَأَتَمَّـا
إن تَبِيـلِى أَعِشْ بخَيْرٍ وإنْ لَمْ ... تَبْـذُلِى الوُدَّ مُتُّ بالهَمِّ غَمَّـا

وله أيضـا :

أيا مَنْ كانَ لى نَصْرًا وسَمْـعًا ... وكيفَ الصَّبْرُ عن نَصْرِى وسَمْعِى
وعَمَّنْ حِينَ تَذْكُرُه فُؤَادِى ... يَفِيضُ كما يَفِيضُ العَـرْبُ دَمْعِى
يقـولُ العاذِلُونَ نَأَتْ فَـدَعْها * ودلكَ حِينَ تَهْـيامِى وَوَلْعِى
أَأَهْجُرُها فأَقْعُـد لا أَراها * وأَقْطَـعُها وما هَمَّتْ بقَـطْعِى
وأَصْرِمُ حَبْـلَها لِمَقَـالِ وَاشٍ * وأَخْعُـها وما هَمَّتْ بَخَعْعِى
وأُقْسِمُ لَوْ حَلَوْتُ بِهَجْرِ هِنْـدٍ * لَضَاقَ بِهَجْرِها فى اليَـوم ذَرْعِى

وهو القائل .

ما كُنْتُ أَشْعُرُ إلَّا مُذْ عَرَفْتُكُمُ ... أَنَّ المَصَاحِعَ تَمْشِى تُثْبِتُ الإِبَرَا
لَقَدْ شَقِيتُ وكان الحَيْنُ(١) لى سَبَبًا * أن عُلِّقَ القَلْبُ قَلْبًا يُشْبِهُ الحجرا
قَـدْ لُمْتُ قَلْبِى فَأَعْيَانِى بواحدةٍ * وقالَ لِى لا تَلُمْنِى وادْعُ القَدَرَا
إنْ أُكْرِهِ الطَّرْفَ يَحْسِرْدُونَ غَيْرَكُمُ * ولَسْتُ أُحْسِنُ إلّا نَحْوَكُمْ النَّظَرَا
قالوا صَدَقْتَ فلم أَكْذِبْ مَقَالَتَهُمْ ... وليسَ يَنْسَى الصِّبَا إنْ وَالِهٌ كَبِرَا

(١) الحين : المحنة .

وقال أيضا :

ألا لَيْتَ قَبْرِى يوم تُقْضَى مَنِيَّتِى ، بتلك التى مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْكِ والفمِ
ولَيْتَ طَهُورِى كان رِيقَكِ كُلَّه * وليت حُطُوطى من مُشَاشِكِ والدَّمِ
ألا لَيْتَ أمّ الفضل كانت قَرِينتى * هُنَا أو هُنَا فى جَنَّةٍ أو جَهَنَّمِ

بطر عمرُ بن أبى ربيعةَ فى الطَّوَاف الى امرأةٍ شريفةٍ فرأى أحسنَ خَلْق الله صورةً، فدهَب عقلُه عليها وكلَّمها فلم تُجبْه، فقال فيها :

اَلريحُ تَسحب أَذيالا وتَنشُرها يا ليتنى كنتُ ممَّن تَسحَب الريحُ
كَيْما تَجُرَّ (١) سا ذَيْلًا فتَطْرُحَها ، على التى دونَها مُغْرِه (٢) سوحُ (٣)
أَنَّى بقُرْبِكُمُ أم كيفَ لى بِكُمُ * هَيْهاتَ ذلكَ ما أَمْسَتْ لنا رُوحُ
فليت صِعْفَ الذى أَلْقَى يكونُ بها بل ليت صِعْفَ الذى أَلْقَى تَبَارِيحُ (٤)
إحْدَى بُنَيَّاتِ عَمِّى دون منزلها أرضٌ بقِيعَاتِها القَيْصُومُ (٥) والشِّيحُ

فلَعها شعرُه فجَزِعتْ منه، فقيل لها : ادكريه لزوجك، فإنه سيُنكِر عليه قولَه، فقالت: كلَّا والله لا أشكوه إلا إلى الله. ثم قالت : اللهم إن كان نوَّه باسْمِى ظالمًا فاحملْه طعامًا للريح، فضَرَب الدهرُ مِنْ ضَرْبِه؛ ثم إنه غدا يومًا على فرس فهبَّتْ ريحٌ فنزَل فاستتر بسَلَمَةٍ، فعصَفت الريحُ فحَدَثه غُصْنٌ منها، فدَمِىَ ووَرِمَ به ومات من ذلك .

---

(١) هذا أحد الوجهين فى الفعل الواقع بعد كيما الرفع على أن ما كافة لها عن العمل، والنصب على أن ما زائدة وكى عاملة فيما بعدها، وقد روى بالوجهين .

إذا أنت لم تنفع فضرّ فإنما ، يرجى الفتى كيما يضرّ وينفع

(٢) معرة، يريد بها العلاة المحدثة . (٣) سوح . جمع ساحة وهى الفضاء . (٤) تباريح الشوق : توهمه، قال السيد محمد مرتضى : قال شيخنا وهو من الجموع التى لا مفرد لها وقيل : مفرده تبريح واستعمله المحدثون وليس بشت . (٥) قال فى اللسان : القيصوم : ما طال من العشب، ثم قال : والقيصوم من نبات السهل قال أبو حنيفة . القيصوم من الذكور من الأمرار وهو طيب الرائحة من رياحين البر وورقه هدب وله نورة صفراء وهى تنبت على ساق وتطول .

(ب) الغـــزل العـــذرىّ

جميـــــل [1]

قال نُصَيْب مولى عبد العزيز بن مروان: قدِمتُ المدينة فسألتُ عن أعلم أهلها بالشعر، فقيل لى: الوَلِيد بن سَعِيد الأَشْجعى، فوجدته بشِعْب سَلْع مع عبد الرحمن بن حسّان وعبد الرحمن بن أَزْهَر، فإنا لجلوسٌ إذ طلع علينا رجل طويلُ بين المَنْكِبين يقود راحلةً

(١) هو جميل بن عبد الله بن معمر من عذرة، وكان شاعرا فصيحا مقدّما حاذقا للشعر والرواية. اشتهر بحبه لبثينة ابنة عمه، ولذلك عرف بجميل بثينة، وكانا يقيمان فى وادى القرى، وكان أول عهده بها وهى صغيرة. ومن أوائل نظمه فيها قوله:

وأوّل ما قاد المودّة بيننا * بوادى بَيْص يا بثين سمات

وقلت لها قولا فجاءت بمثله * لكل كلام يا بثين جواب

ولم يكن يراها حتى صارت شابة، فأخذ يعلم القصائد فيها حتى اشتهر أمره. واتفق مرة أن توبة بن الحمير صاحب ليلى من بنى عذرة مرّ بأبيها بثينة فجعلت تنظر إليه وجميل حاضر فثارت العبرة فى قلب جميل، فقال لتوبة: من أنت؟ قال. أنا توبة بن الحمير، قال هل لك فى الصراع قال: دلنى إليك، فأعطته بثينة ملاءة حمراء فأتزر بها، ثم صارعه فصرعه جميل. ثم قال هل لك فى السباق؟ قال. نعم. فسابقه فسبقه جميل. فقال له توبة: يا هذا، إنما تفعل ذلك ريح الحالسة، ولكن اهبط بنا الوادى، فهبط، فصرعه توبة وصله وسبقه.

وكان عند بثينة مثل ما عند جميل، ولما رأت ما صاله عنها زادت شغفا به، وأكثرهما لم يكونا يجتمعان إلا جلسة على موعد. ولم يكن جميل يخلو من الرقباء، لكنهم لم يستطيعوا رميه بريبة. وأحاره معها كثيرة لا يسعها هذا المقام. ولم يزل يجتمع بها سرا عن أهلها، فأطلوا بالشكوى منه إلى العامل، فعز إلى اليمن حتى عزل العامل. وانتجع أهل بثينة الشام، ورحل جميل اليهم، فترصدوه وشكوه إلى عشيرته، فمنعه أهله وهددوه، فانقطع عنها، وأجبرا لحأ إلى مصر، وعاملها عبد العزيز بن مروان، فأحسن وفادته، ومرض هناك ومات. وكان طويل القامة عريض بين المنكبين جميل الخلقة حسن البزة، توفى سنة ٨٢ هـ.

ولجميل ديوان شعر كبير كان مشهورا فى أيام ابن خلكان ولم يقف على خبره، ولكن منه أشعارا مجموعة فى كتاب منه نسخة خطية فى مكتبة برلين.

أطرف الكلام على جميل فى الأغانى ج ٧ ص ٧٧ و ج ١ ص ٨٠ وابن خلكان ج ١ ص ١١٥ وخزانة الأدب ج ١ ص ١٩١ والشعر والشعراء ص ٢٦٠

عليها بِزّةٌ حسنة، فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أزهر : يا أبا حَبْتَرَ، هذا جميل فادعُه لعله يُنْشِدنا، فصاح به عبد الرحمن : هَيَا جميلُ، فالتفتَ فقال : من هذا ؟ فقال : أبا عبد الرحمن بن أزهر، فقال : قد علمتُ أنه لا يجترئ عليّ إلا مثلك، فأتاه، فقال له : أنشدنا، فأنشدهم :

ونحن مَنَعْنا يوم أَوْلِ نساءَنا * ويوم أُقَيٍّ والأسنّة ترعُفُ(١)
يُحِبّ العوالي البيضُ طِلَّ لوائنا * اذا ما أتانا الصارخُ المتلهِّف
نسير أمام الناس والناسُ حلفَنا فإن نحن أومأنا الى الناس وَقَّفوا
فأيّ معدّ كان قَيْءُ رماحه كما قد أفأنا والمفاخر يُصنف
وكنا اذا ما معشرٌ نصبوا لنا * ومرّتْ حوارى طيرهم وتعيّفوا(٢)
وصعنا لهم صاعَ القِصاص رهيةً * بما سوف نُوفيها اذا الناسُ طَفّفوا(٣)
اذا استبق الأقوامُ مجدًا وحدتنا * لنا مَعْرَفا محمدٍ وللناس مَعْرَف

ثم قال له : أنشِدْنا هَزَجًا، قال : وما الهزج ؟ لعله القصير! قال : نعم، فأنشده :

رسمُ دارٍ وقفتُ فى طَلَلِه * كِدتُ أقضى الحياة من جَلَلِه(٤)
مُوحِشًا ما ترى به أحدًا * نسج الريحُ ترب معتدِلِه
وصريعًا بين الثُّمام تَرَقَّى * عازفاتُ المدبّ فى أسلِه
بين عَلْياء رائش فُلَيٍّ * فالعَمِيم الدى الى حَلِّه
واقفًا فى ديار أم حُسَيْنٍ * من ضُحَى يومِه الى أُصُلِه
يا خليلىّ إنّ أمّ حُسَيْنٍ * حين يدنُو الصحيحُ من عُلَلِه(٥)
روضةٌ داتُ حَسْوةٍ وخُزَامَى * حاد فيها الربيعُ من سَلَلِه(٦)
بينما نحن بالأراك معًا * اذ بدا راكبٌ على جَمَلِه

---

(١) ترعف : تقطر دما . (٢) تعيفوا : من العيافة، وهى زجر الطير والاعتبار بأسمائها ومساقطها وأصواتها، فيتسعد أو يتشاءم . . (٣) التطفيف : نقص الكيل . (٤) من أجله .
(٥) العلل : جمع علة، وهى ما يتوارى فيه أو شمار تحت الثوب . (٦) السلّ : المطر .

فتأطّرتُ[1] ثم قلتُ لها * أكرميه حُيِّيتِ فى نُزُله
فظلِلْنا بنعمةٍ واتّكأنا * وشربنا الحلالَ من قُلَله
قد أصونُ الحديثَ دون أجِ * لا أخافُ الأذاةَ من قِبَله
غيرَ بغضٍ له ولا ملقٍ . غير أنّى أشحتُ[2] من وَحَله
وخليلٍ صافيتُ مرتصياً * وخليلٍ فارقتُ من مَلَله

ثم اقتاد راحلته مولياً، فقال ابن الأزهر : هذا أشعر أهل الإسلام، فقال ابن حسان : نعم والله وأشعرُ أهل الجاهلية، والله ما لأحد منهم مثلُ هجائه ولا نسيبه، فقال عبد الرحمن ابن الأزهر : صدقت .

قال محمد بن سَلَّام : كان لكُثيِّر فى النسيب حظٌّ وافر، وجميلٌ مقدّم عليه وعلى أصحاب النسيب فى النسيب، وكان جميلٌ صادق الصَّبابة والعشق، ولم يكن كُثيِّر عاشق ولكنه كان يتقوّل، وكان الناس يستحسنون بيت كثيِّر فى النسيب، وهو :

أُريد لأنسى ذكرَها فكأنما * تمثَّلُ لى ليلى بكل سبيلِ

ورأيت من يفضّل عليه بيتَ جميل :

خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما * قتيلاً بكى من حبّ قاتله قبلى

قيل إن بثينة واعدتْ جميلا أن يلتقيا فى بعض المواضع، فأتى لوعدها، وجاء أعرابى يستصيف القوم، فأنزلوه وقَرَوْه، فقال لهم : قد رأيتُ فى بطن هذا الوادى ثلاثة نيران متفرّقين متواريين فى الشجر وأنا خائفٌ عليكم أن يسلبوا نعم إبلكم، فعرفوا أنه جميل وصاحباه، فحرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده، فلما أسفر له الصبح انصرف كئيبا سيئ الظن بها ورجع الى أهله؛ فجعل نساء الحىّ يقرّعْنه بذلك ويقلن له : انما حصلت منها على الباطل والكذب والغدر، وغيرُها أولى بوصلك منها، كما أن غيرك يحظَى بها، فقال فى ذلك :

---

(١) تأطرت : ملت . (٢) أشاح : حذر وحاف .

فأجبتُها بالقـــول بعـــد تســـتُّر * حيِّ بُثَينـــةَ عن وِصالكِ شاغلي
أبُثَين إنك قـــد مَلَكتِ فأسجحي[1] * وخُذي بحظّك من كريم واصـــل
فلربّ عارضـــةٍ عليـــا وصلَهـــا * بالجِـــدّ تحلِطه بقـــول الهـــازل
لو كان في صـــدري كقَدْرِ قُلامةٍ * فضـــلًا وصلتُكِ أو أتتكِ رسائلي
ويقلن إنك قد رضيتَ بباطلٍ * منها فهل لك في اجتناب الباطل
ليُزِلْنَ عنـــك هـــوای ثم يَصِلْنَنِي * وادا هَوِيتُ فمـــا هـــوای بزائل
صادت فؤادي يا بُثَين حبـــائلٌ * يوم الخُـــزون وأخطأتْكِ حبـــائلي
مَنَّيْتِنـــي فلَوَيتِ ما منّيتنـــي * وجعلتِ عاجلَ ما وعدتِ كآجل
وتثاقلتْ لمـــا رأت كَلَفي بهـــا * أَحْبِبْ الىّ بدالك من متثاقل
وأطعتِ فيّ عواذلًا مهجـــرتِي * وعَصَيْتُ فيكِ وقد جَهَدنَ عواذلي
حاولْنَنِي لأبُتَّ حبـــلَ وصالكم * منّي ولستُ وإن جهَـــدنَ بفاعل
فرددتُهنّ وقد سَعَيْنَ بهجركم * لمـــا سعين له بأَفْوقَ ناصـــلِ[2]
يَعْضَضْن من عيـــظٍ عليّ أناملًا * ووَددتُ لو يعضَضْنَ صُمَّ جَنادِلِ
ويقلن إنك يا بُثَين بحيـــلةٌ * نفسي فداؤكِ من ضـــنينٍ باخل

وقال جميل في وعد بثينه بالتلاق وتأخرها قصيدةً أولها :

يا صاحِ عن بعض الملامة أقْصِرِ * إن المُنَى لِلقـــاءُ أمِّ المِسْـــوَرِ

ومنها :

وكأنّ طارقَها على عَلَلِ الكَرَى * والنجمُ وَهْنًا قـــد دنا لتَغَـــوُّرِ
يَسْـــنافُ[3] ريحَ مُدَامـــةٍ معجونةٍ * بدكيّ مسـكٍ أو سَحيقِ العـــبرِ

(١) أسجحي . أحسني العفو . (٢) الأفوق . السهم الذي كسر فوقه ، وهو مشقّ رأس السهم حيث يقع الوتر . وناصل . لا نصل فيه . (٣) يستاف . يشم .

ومنها :

إنّى لأحفَظُ عيشَكم ويسُرّنى * اذ تذكرين بصالح أن تذكرى
ويكون يومٌ لا أرى لكِ مُرسَلًا * أو نلتقى فيه علىّ كأشهر
يا ليتنى ألقى المنيّةَ عنتةً * إن كان يومُ لقائكم لم يُقْدَرِ
أو أستطيع تجلُّدًا عن ذكركم * فيُفيق بعض صبابتى وتفكُّرى

وفيه يقول :

لو قد تُحَنّ كما أُجنّ من الهوى * لعذرتَ أو لطلمتَ إن لم تعذِر
والله ما للقلب من عِلم بها * غيرُ الطنون وغيرُ قول المخبِر
لا تحسبى أنّى هجرتُكِ طائعًا * حَدَثٌ لعمرُكِ رائعٌ أن تُهجَرِى
فلتبكيَنّ الباكياتُ وإن أنُحْ * يوما سرتك مُعلِنًا لم أُعذَرِ
يهواك ما عشتُ الفؤادُ فإن أمت * يتبعْ صَدَاى صداكِ بين الأقبُرِ
إنى اليكِ بما وعدتِ لناظرٌ * نَظَرَ الفقير الى الغَنىّ المُكثِرِ
يعد الديونَ وليس يُنجز موعدًا * هدا الغريمُ لنا وليس بمُعسِرِ
ما أنتِ والوعدَ الذى تَعِدِينَنى * إلا كبرقِ سحابةٍ لم تُمطِرِ
قلى نصحتُ له فردّ نصيحتى * فمتى هجرتيه أمه تكثرى

وقال فى إحلافها إيّاه هذا الموعد :

ألا ليت ريعانَ الشبابِ جديدُ * ودهرًا تولّى يا بُثَين يعودُ
فنَغْنَى كما كنا نكون وأنتُمُ * قريبٌ واد ما تذُلّين زهيدُ
وما أنسَ مِلْأشياءِ لا أنسَ قولَها * وقد قربت نِصْوِى أمصَرّيد[1]
ولا قولَها لولا العيونُ التى ترى * أتيتُكَ فاعذِرْنى فدتْكَ جدودُ
حليلَىّ ما أُخْفِى من الوجد ظاهرٌ * ودمعى بما قلتُ الغداةَ شهيد

(١) النصو : المهزول من الابل وغيرها .

أَلا قـد أرى والله أنْ ربّ عَبْرِهِ * اذا الدار شَطَّت بينـا سـتريد
اذا قلتُ ما بى يا ثيبـةُ قاتلى * من الحبّ قالت ثابتٌ ويزيد
وإن قلت رُدِّى بعضَ عقلى أعِشْ به * مع الناس قالت ذاك منك بعيد
فلا أنا مردودٌ بما حثتُ طالبًا * ولا حُبُّهـا فيما يَبيـدُ يبيـدُ
جرتك الجوازى يا بثين ملامةً * اذا ما حليلٌ بَانَ وهو حميد
وقلتُ لهـا بَيْنِى و بينـك فاعلمى * من الله ميثاقٌ له وعهـود
وقد كان حُبِّكم طريفًا وتالدًا * وما الحبُّ إلا طارفٌ وتليـد
وإن عَرُوضَ(١) الوَصْل بينى و بينها * وإن سَهّلته المنى لَصَعـود
فأمسيتُ عيشى بانتظارى نوالهَـا . وأبليتُ ذاك الدهرَ وهو جديد
فليت وُشاةَ الناس بيى و بينهـا * يدوفُ لهم سُمًّا طاطمُ(٢) سُـود
وليت لهم فى كل مُمْسًى وشـارقٍ * تصاعفُ أكبالٌ لهم وقيـود
ويحسب سوانٌ من الجهل أننى * اذا جئتُ إيّاهن كنتُ أُريد
فأقسِم طَرْفى بينهن فيستوِى * وفى الصدر بَوْنٌ بينهن بعيـد
ألا ليت شعرى هل أبيتَنّ ليـلةً * بوادى القُـرَى إنّى إذًا لسـعيد
وهل أهبطَنْ أرضًا تظَلُّ رياحُها * لهـا بالثنايا القـاويات(٣) وئيـد(٤)
وهل ألقَيَنْ سُعْدَى من الدهر مرةً * وما رَبَّ من حبل الصفاء جديد
وقد تلتقى الأهواءُ من بعـد يَأْسةٍ * وقد تُطلَبُ الحاجاتُ وهى بعيد
وهـل أزجُرَنْ حَرْفًا عَلاهَ شِمِلّةٌ(٥) * بحَرْقٍ تُبارِيهـا سَـوَاهمُ قُـود
على ظهر مرهوبٍ كأنّ نشوزَه * اذا جاز هُلّاكُ الطـريق رُقود

(١) العروض الطريق فى عرض الجبل فى مصبق . يريد الطريق الى وصلها . (٢) يدوف : يخلط . وطاطم . جمع طمطم وهو من فى لسانه عجمة ، وأراد بالطاطم هنا : الموالى . (٣) القاويات : الحاليات . (٤) الوئيد . الصوت العالى الشديد . (٥) الحرف الناقة الصامرة الصلبة . والعلاة . المشرفة الصلبة . والشملة : السريعة . والحرق : الأرض الواسعة . والساهمة . الناقة الصامرة .

سَبَتْنِي سَبْيَ جُؤْذَرٍ وَسْطَ رَبْرَبِ * وصدرٍ كفائور[1] اللَّجَيْنِ وجيد[2]
تَرِيفُ[3] كما زانتْ الى سِلفاتِها * مُباهِيةً طَيَّا الوِشاحِ مَيُود
اذا حثتُها يوماً من الدهر زائراً * تَعَرَّض مقوضُ اليدينِ صَدُود
يَصُدّ ويُغضِي عن هواى ويجتنى * ذُنوباً عليها إنه لَعَنُود
فأصْرِمُها حوفًا كانى مُجانِبٌ * ويعقِل عنا مرّةً فعود
فمن يُعْطَ فى الدنيا قريبًا كمثلها * فذلك فى عيش الحياة رشيد
يموتُ الهوى منّى اذا ما لَقِيتُها * ويَحْيَا اذا فارقتُها فيعود
يقولون جاهِدْ يا جميلُ بغَزْوةٍ * وأىّ جهادٍ غيرَهن أريد
لكل حديثٍ بينهن بشاشةٌ * وكُلُّ قتيلٍ بينهن شهيد
ومن كان فى حبِّ بُثَيْنةَ يمترى * فَبَرْقاءُ ذى ضالٍ علىّ شهيد
ألم تعلمى يا أمَّ ذى الوَدْعِ أننى * أُصَاحِبُ ذكراكم وأنتِ صَدُود

بعثت أَمَةٌ لبثينة الى أبيها وأخيها وقالت لها: إن جميلا عندها الليلة، فأتياها مشتملَيْن على سيفين، فرأياه جالسا منها مُحْرَوْنٍ[4] يحدِّثها ويشكو لها بَثَّه، ثم قال لها: يا بثينة، أرأيتِ وذى إياك وشَغَفى بك ألا تَجْزِيَنِيه؟ قالت: بماذا؟ قال: بما يكون من المتحابين، فقالت له: ياجميل، أهذا تبعى! والله لقد كنتَ عندى عبدًا مه، ولئن عاودت تعريضا بريبةٍ لا رأيتَ وجهى أبدا! فضحك وقال: والله ما قلتُ لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه، ولو علمتُ أنك تجيبينى لعلمتُ أنك تجيبين غيرى، ولو رأيتُ منك مساعدةً لصربتُك بسيفى هذا استمسك فى يدى، ولو أطاعتنى نفسى لهجرتُك هجرةَ الأبد، أو ما سمعتِ قولى:

وإنى لأرضَى من بُثَيْنةَ بالذى * لو ٱبصَرَه الواشى لقَرَّتْ بَلَابِلُهْ
بلا وبالا أستطيعَ وبالمُنَى * وبالأملِ المرجوّ قد حان آجلُهْ
وبالنَّظْرة العَجْلَى وبالحول يقتضى * أواخرُه لا نلتقى وأوائلُه

(١) الفائور: الجواد من رخام أو وصف أو ذهب. (٢) فى البيت إقواء، وهو اختلاف حركة الروى بالرفع والنصب. (٣) زاف: تمخر. (٤) أى ناحية.

فقال أبوها لأخيها : قم بنا، فما ينبغى لنا بعد اليوم أن نسمع هـذا الرجل من لقائها فانصرفا وتركاهما .

ومن قول جميل :

إنَّ المنازلَ هَيَّجَتْ أطرابى * وٱسْـتَعْجَمَتْ آياتُها بَجوابِى
قَفْرًا تَلُوحُ بذى الثُّمَيْنِ كأنَّها * أنْصاءُ رسمٍ أو سطورُ كتابِ
لما وقفتُ بها القَلُوصَ تنادرتْ * منى الدموعُ لفُرقة الأحباب
وذكرتُ عصرا يا بثينةُ شاقنى * وذكرتُ أيامى وشَرْخَ شبابى

لما ندر أهلُ بثينة دمَ جميل وأهدره لهم السلطان صاقت الدنيا بجميل ، فكان يصعَ بالليل على قَوْز(١) رمل يتنسّم الريحَ من نحو حىّ بثينة ويقول :

أيا ريح الشَّمالِ أما تَـرَيْنِى * أهـيمُ وأمى بادِى الحـولِ
هَبِى لى نَسْمةً من ريحِ نَجْدٍ * ومُنِّى بالهبُـوب الى جميـل
وقولى يا بثيـنةُ حَسْبُ نفسى * قليـلُك أو أقلُّ من القليل

ومن قوله :

يَقيك جميـلٌ كلَّ سوءٍ أما له * لديك حديثٌ أو اليك رسولُ
وقد قلتُ فى حُبِّى لكم وصَبابتى * محاسنَ شعرٍ دكَّهن يطولُ
فان لم يكن قولى رصاك فعلّمى * هبوبَ الصَّبا ياثنُ كيف أقول
فما غاب عن عينى خيالُك لحظةً * ولا زال عنهـا والخيالُ يزول

ومنـــه :

حليلىّ عُوجَا اليومَ حتى تُسَلِّمـا * على عَذْبة الأنيـابِ طيِّبـةِ النَّشرِ
أَلِمَّا بها ثم اشـفَعَا لى وسلِّمـا * عليها سَـقَاها الله من سائع القَطْرِ

---

(١) القور : المستدير من الرمل ، وقال الأزهرى : إنه الكثيب المشرف .

اذا ما دنتْ زِدتُ اشتياقًا وان نأتْ * حَرِجتُ لنأى الدار منها وللبعد
أبى القلب إلا حبَّ بثنة لم يرد * سواها وحبّ القلب بثنة لايحدى

وفيها يقول :

سلى الركبَ هل غَنّاكِ لَمْعُ مَرَاقِ * صُدورَ المطايا وهى مُوقَرَةٌ تَحْدِى (١)
وهل فاضتِ العينُ الشَّرُوقُ بمائها * مِنَ آحلكِ حتى آحصَّلَ من دمعها بُرْدِى
وإنى لأَستحرى لكِ الطيرَ حاهدًا * لتَحْرِى بمُنْ من لقائك أو سَعْد
وإنى لأستكى اذا الركبُ غَرَّدوا * بذكراك أن يحيا بك الركب إذ يَحْدِى
فهل تحزِيَنِّى أمُّ عمرٍو بودّها * فانّ الدى أحمى بها فوق ما أبدى
وكلّ محبٍّ لم يَرِدْ فوق عهده * وقد رددتُها فى الحبّ منى على العهد

ومن قوله فيها :

لها فى سواد القلب حبٌّ ومنعةٌ * هى الموتُ أو كادت على الموت تُشرِفُ
وما ذكرتْكِ النفسُ يا بَثْنُ مرة * من الدهر إلا كادت النفس تسلف
وإلا اعترتنى زَفْرةٌ واستكانةٌ * وحاد لها سَحْلٌ من العين يَذْرِف
وما استطرفتْ نفسى حديثًا لخُلَّةٍ * أُسَرُّ به إلا حديثُك أَطْرَفُ

وأول هذه القصيده :

أمِنْ منزلٍ قَفْرٍ تعفَّتْ رسومَه * شَمَالٌ تُعادِيه وبكاءُ حَرْجَفُ (٢)
فأصبح قفرًا بعد ما كان آهلًا * وجُمْلُ المُنَى تشتُو به وتُصَيِّف
ظَلِلتُ ومُسْتَنٌّ من الدمع هاملٌ * من العين لما غُمّتُ بالدار تذرف
أمُنْصِفتى جمل فتَعدِلَ بيننا * اذا حكمتْ والحاكم العدلُ يُنصف
تَعلقتُها والجسمُ منى مصحَّحٌ * فما زال يَنْمِى حبُّ جملٍ وأصعُفُ

---

(١) موقرة . محملة الوقر وهو الحمل . وحدى العير يحدى أسرع ورح قوائمه .
(٢) الحرجف : الريح الباردة الشديدة الهبوب .

الى اليوم حتى سُـلَّ حسمى وشَفَّنى * وأنكرتُ من نفسى الذى كنتُ أعرف
قَنَاةٌ من المُرّان ما هوى حَقْوها[1] * وما تحتـه منهـا نَقًا يتقصَّـف[2]
لهـا مُقلتا رِيم وجيـدُ جَـدَايةٍ[3] * وكَشْحٌ كطىّ السابريّـة أهيَف
ولستُ بباسٍ أهلَها حين أقبلوا * وجالُوا عليـا بالسيوف وطَوَّفوا
وقالوا جميـلٌ مات فى الحىّ عـهدها * وقد حَـرَّدوا أسيافهم ثم وَقَّفوا
وفى البيت ليثُ العابِ لولا مخافةٌ * على نفس حمـلٍ والإلهِ لأُرعِفوا
هَمَمْتُ وقـد كادت مرارًا تطلّعتْ * الى حربهم نفسى وفى الكفّ مُرْهَف
وما سرّنى عيرُ الدى كان منهمُ * ومنى وقـد حاءوا الىّ وأوجفوا
فكم مُرْتَجٍ أمرا أُتيح له الرَّدَى * ومن حائفٍ لم يتقِصْه التحوُّف

ومنهـا :

أأنْ هَتَفتْ ورقاءُ طِلْتَ سفاهةً * تُبَكّى على حمـلٍ لورقاء تهتِفُ
فلو كان لى بالصّرْم ياصاح طاقةٌ * صَرَمتُ ولكنى عن الصرم أصعفُ

قيل : إن مروان طلب الى حميـل أن ينزل فيرجز[4] به، وهو يريد أن يمدحه، فنزل جميل فقـال .

أنا جميلٌ فى السَّـامِ الأعْظم * القارع الناس الأعزّ الأكرم
أحمى ذِمَارى ووجدتُ أقرُمى[5] * كانوا على عاربِ طَوْدٍ حِصرِم[6]
* أعيـا على الناس فلم يُهَـدّم *

فقال : عَدِّ عن هذا، فقال جميل :

لهفا على البيت المَعَـدّى لهَفا * من بعـد ما كان قد استكفّا
ولو دعا اللهَ ومـدَّ الكفا * لزَحْزَفت منـه البـلادُ زحفا

---

(١) الحقو : الخصر . (٢) يتقصف يتميل و يتقطع بعضه عن بعض . (٣) الجداية : الغزالة . والسابرىّ ثوب من أجود الثياب منسوب الى سابور على غير قياس . (٤) يرجزه : ينشده أرجوزة . (٥) أقرم . جمع قرم (بالفتح) وهو السيد العظيم . (٦) حصرم : عظيم .

وطلب ذلك اليه الوليد فقال :

أنا جميلٌ فى السَّـــام من مَعَدْ * فى الذروة العلياء والركن الأشَدْ

والبيت من سعد بن زيد والعَدَدْ * ما يتنـى الأعداءُ مى ، ولقد

أُصْرِىَ بالشَّـتْم لسـانِى ومَرَدْ * أقودُ من شئتُ وصَعْبٌ لم أُقَدْ

فقال له الوليد : اِركَبْ لاحملك الله ! وما مدح جميل أحدا قط .

ومن قول جميل فى مُرَاجره جَوَاس بن قُطْبَة ، وكان ذلك بوادى القُرَى .

يا أمّ عبـد المَلِكِ آصرِمِينى * فَبَيِّـنِى صرمِىَ أو صِلِينى

أبكى وما يُدريك ما يُبكيى * أبكى حِذارَ أن تُفارقينى

وتجعـلى أعـدَ منّى دونى * إن بى عمِّـك أوعـدونى

أن يقطعوا رأسى ادا لَقُـونى * ويقتـلونى ثم لا يَـدُونى[1]

كلا وربِّ البيت لو لَقُـونى * شَـفْعًا ووَتْرًا لَتَـوَاكلونى[2]

قد عـلم الأعـداء أنّ دونى * صربًا كايزاع[3] المَخَـاص الجُون

ألا أسنّ القـومَ إد سـنُّونى * نَـلَى وما مَرّ على دهين

وسابحـاتٍ بلوَى المَحُـونِ * قـد جرّبونى ثم جرّبونى

حتى اذا شابوا وشـيّبونى * أخراهمُ الله ولا يَحـزُونى

أشـباه أعيـارٍ على مَعِيرِ * أحَسَسْنَ حِس أسـدِ حَرُورِ

فهنّ يَضْرِطنَ من اليقيرِ * أنا جميـل فتَعَـرَّفونى

وما تَقَنَّعتُ فتنكرونى * وما أُغَنِّيكم لتسألـونى

---

(١) يدوى : من الدية وهى ما يعطى لولىّ القتيل من المال بدل النفس . (٢) تواكلونى . تركونى .

(٣) أورعت الباقة سولها . رمت به دفعة دفعة . ومنه الطعنة تورع بالدم أى ترمى به كذلك .

أُمَى الى عادِيَّةٍ طَحُونِ * يَنشقُّ عنها السيلُ ذو الشؤون
عَمْـرٌ يُزِفُّ (١) رُحَّ السَّفين * ذو حَدَب (٢) اذا يُرَى حَجُون (٣)
* تحـمِّل أحقادُ الرجال دونى *

ومن قوله يمدح أخواله من جُذام :

حُدامُ سيوفُ الله فى كلّ مَوْطن * اذا أَزِمت (٤) يوم اللقـاء أَزامِ
هُمُ سعوا ما بين مِصْر فدى القُرَى * الى الشأم من حِلَّ به وحَرامِ
بضَرْبٍ يُزيل الهامَ عن سَكَناته * وطَعْنٍ كإيزاع المخاض تُؤَام
اذا قَصُرَتْ يوما أَكُفُّ قَبِيلةٍ * عن المجد نالتْـهُ أكفُّ جُذامِ

اجتمع جميل وعمر بن أبى ربيعة بالأبطح، فأنشده جميل قصيدته :

لقد فَرِحَ الواشُون أن صَرَمَتْ حَبْلِي * بُثَيْنَـةُ أو أَبْدَتْ لنا جانبَ الخُل
يقولون مَهْـلًا يا جَمِيـل وإننى * لَأُقْسِم ما بى عن بُثَيْنَـةَ من مَهْـلِ
أحلمًا فقَبْـلَ اليـوم كان أوانُهُ * أَمِ آخِرَى فقبل اليوم أُوعِدْتُ بالقتل
لقد أَنْكَحوا حَرْبى نُبَيْهًا طَعِينة * لطيفـة طىّ البطن ذات شَوًى جَزْل
وكم قد رأينا ساعيًا بميمةٍ * لآخر لم يَعْمِد بكفٍّ ولا رجـلِ
اذا ما تَرَاجَعْنا الذى كان بَيْنَنا * جَرَى الدمعُ من عَيْنَىْ بثينـة بالكُحْل
كِلانا بَكَى أو كاد يَبْكِى صَبَابَةً * الى إلْفِـهِ واسْتَعْجَلَتْ عَبْرَةٌ قَبْـلى
فلو تركتْ عَقْـلى معى ما طلبتُهـا * ولكن طِلَابِيها لِمَـا فاتَ من عقلى
فَيَاوَيْحَ نَفْسى حَسْب نفسى الذى بها * ويا ويح أهـلى ما أُصِيبَ به أهـلى
وقالتْ لأتراب لها لا زَعانف * قِصَار ولا كُسِّ الثنايا ولا ثُعْـلِ (٥)

(١) يزف يحملها تسرع . (٢) دو حدب دو موج . (٣) حجون : معوج .
٤) أزمت . اشتدّت . (٥) الكسس محركة : قصر الأسنان أو صغرها أو لصوقها منوخها .
ثعلت سنه ولثته فهى ثعلاء : تراكت أسنانها .

اذا حَمِيَتْ شمسُ النهار اتقيتُها * بأكسية الديباج والخزّ ذى الخَمْل
تداعَيْن فاستَعْجمن مَشْياً بدى العَصَى * دَبِيبَ القَطَا الكُدْرىّ فى الدَّمْثِ السهل
اذا ارتعنَ أو فُزِّعن قُمْن حَوَالَها * قيامَ سات الماء (١) فى جانب الصَّحْل (٢)
أجِدُّك لا ألْقَى ثُنَيْنةَ مرّةً * مِن الدهر إلا حائفاً أو على رِجْل
حليلىّ فيما عِشْتُما هل رأيتما * قتيلاً بكى من حبّ قاتله قَبْلى
أبِيتُ مع الهُلَّاك (٣) ضَيْفاً لأهلها * وأهلى قريب مُوسِعون دَوُو فضل
ألا أيها البيْتُ الذى حِيل دونه * بَلَى أنت من بيتى وأهلُكَ من أهلى
ثلاثةُ أبيا تٍ فبيْتٌ أحبّه * وبيتان ليسا من هَوَاى ولا شَكْلى

وقال فى هجره إياها بثينة :

ألم تَسْأل الرَّبْعَ القَوَاء فيطِقُ * وهل تُخْبِرنْك اليومَ بَيْداءُ سَمْلَقُ (٤)
وقفتُ بها حتى تحلّت عَمَايَتى * ومَلّ الوقوفَ الأرْحَبِىُّ (٥) المُوَثَّق
تَعَزّ وإن كانت عليك كريمةً * لعلّك من رِقّ لبَثْنةَ تُعْتَق
لَعَمْرُكم إن البِعادَ لَشائِق * وبعضُ بعادِ البيْن والداى أشوق
لعلّك محزونٌ ومُبْدٍ صبابةً * ومُظْهِرُ شكوى من أُناسٍ تفزقوا
وبيضٍ غَرِيراتٍ تُثَنِّى خصورَها * اذا قُمْن أعجازٌ ثِقالٌ وأسْوُق
عَزَائِرُ لم يلقَيْن بؤسَ معيشة * يُحَنّ بهنّ الناظِرُ المتوَثِّق
وغلغلتُ من وجد إليهنّ بعد ما * سَرَيْتُ وأحشائى من الخوف تَحْفُق
معى صارمٌ قد أحلَص القَيْنُ صَقْلَه * له حِين أُعْشِيه الصَّرِيبةَ رَوْنق
فلولا احتيالى صِفْن دَرْعًا بزائرٍ * به من صَبابات إليهن أَوْلَق (٦)

---

(١) سات الماء : ما يألف الماء من السمك والطير والضفادع (أطر المصاف والمصاف اليه) .
(٢) الصحل : الماء القليل على الأرض لا عمق له . (٣) الهلاك : الضعاليك . (٤) السملق : القاع الصفصف . (٥) الأرحى : الفحل الحميد نسبة الى أرحب وهى قبيلة من همدان تنسب اليها الجمائب الأرحبية . والموثق : المحبس المرين . (٦) أولق : جنون .

تَسُوكَ مُقَضَّبان الأراكِ مُفَلَّحا * يُشَعْشَعُ فيه الفارسيّ المُرَوَّق
أنيْنَةَ للوَصْلُ الذى كان بيننا * نصا مثل ما ينصو الخصاب فيَحْلُق
أنشــة ما تأَيَ إلا كأنّى * بجمــم الثريا ما نايتِ مُعَلَّقُ

قال الرشيدُ لإسحاق الموصلىّ : أنشدنى أحسنَ ما تُحِبّ فى عتاب مُحِبّ وهو طالم متعتّب ، فأنشده قولَ جميل :

ردِ المـاءَ ما حادَتْ بصَفْوِ دَنَائِهُ * ودَعْه اذا خِيصَتْ بطَرْقٍ(١) مَشَارِبُه
اعاتبُ مـن يَحْلُو لدىّ عتابُه * وأترُكُ من لا أشتهى وأُحابُه
ومن لدّةِ الدنيا وإن كنتَ طالمًا * عاقُك مظلومًا وأنتَ تعاتبُــه

ومن قوله فى زيارة له :

زُوْرَا بثيبــةَ فالحبيبُ مَزُورُ * إن الزيارة للحبّ يسـيرُ
إن التَّرَحّل أن تلبّس أمْرُنا * وأعتاقنا قــدَرٌ أحَمَّ مُكور
إنى عشيّةَ رُحْتُ وهى حزينةٌ * تشكو الىّ صــابةً لصَــبُور
وتقول بِتْ عندى فديتُك ليلةً * أشكو اليــك فإن ذاك يَسـير
عَرَّاءُ مِبْسامٌ كأن حديثها * دُرٌّ تَحَــدّر نَظْمُــه منثور
مَخْطُوطَةُ المَتَيْنِ(٢) مُصْمَرةُ الحَشَى * رَيَّا الرَّوادِف حَلْقُها مَمْكور
لا حُسْنُها حُسْنٌ ولا كَدَلالها * دَلٌّ ولا كوقارها توقــير
إن اللسانَ ذكرها لمُوَكَّلٌ * والقلبُ صادٍ والخواطِرُ صُــور
ولئن حَرِيْتِ الودَّ منّى مثــلَه * إنى بدلك يا بُثَيْنُ جَــدير

وعذله فيها ابن عمّه رَوْق، فقال :

لقــد لامَنى فيها أخٌ ذو قَرَابةٍ * حبيبٌ إليه فى مَلامته رُشْــدى
وقال أفِقْ حتى متى أنتَ هائمٌ * ببثنة فيها قد تُعيــد وقد تُبْــدى

(١) الطرق الماء الذى حوّضته الابل و تولت فيه و عمرت .
(٢) مخطوطة المتين ممدودتهما . والمكورة : المطوية الخلق .

فقلتُ له فيهـا قضى اللهُ ما ترى * عليّ وهـل فيما قضى اللهُ من رَدّ
فإن يَكُ رُشْـدًا حبّها أو غَوَايةً * فقد حنّكته، ما كان منّى على عَمْد
لقد جَلّ مِيثاقٌ من الله بيننا * وليس لمن لم يُوفِ لله من عَهْد
فلا وأبيها الخَيْرِ ما خنتُ عهدَها * ولا لِيَ عِلمٌ بالدى فعلتْ بعـدى
وما رادها الواشُـون إلا كرامةً * عليّ وما زالت مَوَدّتُها عنـدى
أفى الناس أمثالى أحَبّ لخَالِهم * لخالىَ أم أحْبَبْتُ من بينهم وحدى
وهل هكذا يَلْقى المحبّون مثل ما * لَقِيتُ بها أم لم يَجِد أحدٌ وحدى

وقال فيهـا :

خليلـىّ عُوجا اليومَ حتى تُسَـلِّما * على عَذْبة الأنياب طيّبـةِ النَّشْر
ألمّـا بها ثم اشْـفعا لى وسَلِّمـا * عليها سَـقَاها اللهُ من سائع القَطْر
وعُوجا بذكرى عنـد بثنة واَنظُرا * أترتاح يومًا أم تَهَشّ إلى ذكرى
فإن تك لم تقطع هُوَى الودّ بيننا * ولم تَنْس ما أسلفتُ فى سالف الدهر
فكيف يُرَى منها اشْتياقٌ ولوعـةٌ * بَيِيْ وعَرْبٌ من مدامعها يجرى (١)
وإن تَكُ قد حالَت عن العهد بعدَنا * وأصعتْ الى القول المؤنّث والمُزْرى
فسوف يُرَى منها صُدودٌ ولم تكن * ـ بنَفْسىَ ـ من أهل الخيانة والغدر
أعوذُ بك اللّهُمّ أن تَشْحَط النّوى * بثنة فى أدنى حيانى ولا حَشْرى
وجَاوِرْ اذا ما متُّ بينى وبينهـا * فيا حبّذا موْتى اذا حاوَرتْ قبرى
عِدِمْتُكَ من حبٍّ أمَا منك راحةٌ * وما بك عنّى من تَوانٍ ولا فَتْرِ
ألا أيها الحبُّ المبرِّحُ هل ترى * أحا كَلِفٍ يُفْرِى بجسّ كما أفْرِى
أجِدَّكَ لا يَبْلَى وقد بَلِيَ الهوى * ولا ينتهى حبّى بثينةَ للزَّحْر

(١) هكذا وردت «فكيف» ولعلها فسوف ليستقيم بها السياق .

ومن قوله فيها :

قِفِي تَسْلُ عنك النفسُ بالخُطّة التى * تُطِيلِين تحويفى بها ووعيـدى
فقد طالمـا من غير شكوى قبيحةٍ * رَضِيتا بحكم منك غير سَـديد

ومـــه :

شُبِّهْ سَـلِيبى بعضَ مالى فإنما * يُبَيَّنُ عند المـال كلُّ بخيلِ
فإنى وتَكْـرارَ الزيارة نحوكم * لَبَيْنَ نَدَىْ هَجْـرٍ شُبِّهَ طويلِ
فيالِيت شعرى هل تقولين بعدنا * اذا نحن أزمعنا عدًّا لرحيل
ألا ليْت أياما مَضَيْن رواجعٌ * وليت النَّوى قد ساعدت بجميل

ومـــه :

أتعْجَب أن طرِبْتُ لصوتِ حَادٍ * حدا بُزُلًا يَسِرْن بِبَطْنِ واد
فلا تعجبْ فإن الحبّ أمسى * لشدة فى السَّواد من الفؤاد

ومـــه :

خليلىّ عوُجَا بالمحلَّة من جُمْـل * وأترابِها بين الأُصَيفر والخبل
نقِفْ بمغـانٍ قد محا رسمَها البِلى * تُعاقِبُهـا الأيامُ بالريح والوَبْـل
فلو دَرَح النملُ الصِغارُ بجِـلدها * لأندب أعلى جلدها مَدْرَحُ النمل
وأحْسَنُ خَلْق الله حِيدًا ومُقْلةً * تُشَبَّه فى النِّسوان بالشادِن الطَّفْل(١)

ومن قوله :

أمِنْك سرى يا بَثْنَ طَيْفٌ تأوّما * هُدُوًّا فهاج القلبَ شَـوْقًا وأنْصَبا
عجِبتُ له أن زارَ فى النوم مَضْجَعِى * ولو زارنى مُسْتَيقِظًا كان أعجبا

لمـا قدِم جميـل من الشام بلع بثينةَ خبرُه ، فراسلته مع بعض نساء الحىّ تذْكُر شوقَها اليه ووجدَها به ، وطَلَبَها للخيـلة فى لقائه ، وواعَدَته لموضع يلتقيان فيه ، فسار إليها وحدّثها

(١) الطفل : الرخص الناعم من كل شىء .

طويلًا وأخبرها خبرَه بعـدها ، وقد كان أهلُها رَصَدوها ، فلما فَقَدوها تَبِعها أبوها وأخوها حتى هجما عليهما ، فوثَب جميلٌ فانْتَصى سيفَه وشدّ عليهما ، فاتّقياه بالحرب ، وناشدتَهُ بثينة الله إلّا انصرفَ ، وقالت له : إن أقمْتَ فصحتي ، ولعلّ الحيّ يَلْحقونك ، فأبى وقال : أنا مقيم وامضى أنتِ وليصنعوا ما أحبّوا ، فلم تزل تناشِـده حتى انصرف وقال في ذلك ، وقد هجرته وانقطع التلاقي بينهما مدّة :

هي الدرُّ حُسْنًا والنساءُ كواكبٌ ٭ وشَـتّان ما بين الكواكب والدر
لقد فُضّلتْ حسنًا على الناس مثلما ٭ على ألف شَهْر فُضِّلت ليلةُ القَدْر

وقال :

لقد خِفْتُ أن يغتالني الموتُ غَفْوَةً ٭ وفي النفس حَاجاتٌ اليك كما هِيَا
وإني لتُثْنيني الحفيظـةُ كلّما ٭ لقيتُك يوما أن أَبُثّك ما بيَا
ألم تعلمي ياعذْبَـةَ الرِّيق أنني ٭ أظَلّ اذا لم أُسْـقَ ريقَك صَادِيا

ورحل الى مصر فأدركته بها منيّتُه ، فزعموا أنه قال حين حضرته الوفاةُ :

صَـدَع النَّعيُّ وما كَنَى بجميـل ٭ وثَوَى بمصر ثَوَاءَ غيرِ قُفُولِ
ولقد أجُرّ الذيْلَ في وادي القُرى ٭ نَشْوانَ بين مَزَارع ونخـيل
قومي بثينـة فانْدُبي بعَـويل ٭ وابكي خليلَك دون كلّ خليل

ولما أُنْشِدت بثينةُ قولَ جميلٍ قالت :

وإن سُلُوّي عن جميلٍ لساعةٌ ٭ من الدّهر ما حانت ولا حان حِينُها
سَـواءٌ علينا يا جميـلُ بن مَعْمَرٍ ٭ اذا متَّ بأْسَاءُ الحيـاةِ ولِينُها

وقال :

رَحَلَ الخَلِيـطُ بِحـالَهم بسُواد ٭ وحَدَا على أَثَرِ البَخِيـلة حادي
ما إن شَعَرْتُ ولا سَمِعْتُ بِبَيْنِهم ٭ حتى سمعت به الغرابَ ينادي

لمـا رأيتُ البَـيْنَ قلتُ لصاحبي * صَدَعَتْ مُصَدِّعةُ القلوب فؤادى
مانوا وعُودِرَ فى الديار مُتَيَّمٌ * كَلِفٌ بذكرِكِ يابُثَيْنَةُ صادى

وقال أيضا :

خَلِيلَىَّ هـل فى نَظرة بعـد تَوْبةٍ * أُداوِى بهـا قلبى عَلَىَّ بحُـورُ
إلى رُجَّحِ الأكفال هِيفِ حُصورُها * عِذَابِ الثَّنايا رِيقُهُنَّ طَهُورُ
تَذَكَّرْتُ مَن أصحَتْ قُرَى اللُّدِّ (١) دونَه * وَهَضْبٌ لِتَيْمَا والهِضابُ وُعُورُ
فَطَلَّتْ لِعَيْنَيْكَ الْجُوَحَيْنِ عَبرةٌ * يُهَيِّجُها بَرْحُ الهَـوَى فَتَمُورُ
على أنى بالبَرْق من نَحْو أرضها * إذا قَصُرَتْ عنه العيون بَصِيرُ
وإنى إذا ما الريحُ يوما تَنَسَّمَتْ * شآميَـةً عادَ العِظامَ فُتُـورُ
ألا ياغُرابَ البَيْنِ لَوْنُكَ شاحبٌ * وأنتَ بَرُوعاتِ الفـراق جَدِيرُ
فإن كان حقًّا ما تقول فأصبحت * هُمومُك شَتَّى والجَـاحُ كَسِير
ودُرْتَ بأعداء حَبِيبك فيهـم * كما قـد تَرَانى بالحبيب أدُورُ
وكيف بأعداء كأنّ عيونهـم * إذا حانَ إتْيانى بُثَيْنة عُور
فإنى وإن أصحت بالحبِّ عالمـا * على ما تَعَيَّـنِى من قَـدَّى لَخَبِير

وله أيضا :

فلو أرسلتْ يوما ثِينةُ تَبْتَغِى * يمينى ولو عَزَّت علىّ يمينى
لأَعْطَيْتُها ما جاء سَعْى رسولُهـا * وقلت لهـا بعـد اليمين سَلِينِى
سَلِينِى مالى يابُثَيْنِ فإنمـا * يُبَيِّنُ عنـد المـال كُلُّ ضَبِين
فمـا لكِ لَمَّا خَبَّرَ الناسُ أننى * أسأتُ بظَهْرِ الغيب لم تَسَلِينى
فأبْلِ عُذْرا أو أجِىءَ بشاهـد * من الناس عَدْلٍ أنهم ظلمونى
ولستُ وإن عَزَّت علىَّ نقائل * لهـا بعد صرم يا بثين صِلِينى

(١) اللد بالضم والتشديد : قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين .

ونُبِّئْتُ قوما فيك قد نَدَرُوا دَمِي * فليتَ الرحال المُوعِدين لَقُونى
إذا ما رَأَونِي مُقْبِلًا عن حَبابةٍ * يقولون مَنْ هذا وقد عَرَفُونى

وله أيضا :

تَنَادى آلُ بَثْنَــةَ بالرَّواح * وقد تَرَكُوا فؤادَك عنْ صَاح
فيالَكَ مَنْظَرًا ومَسِيرَ رَكْبٍ * شَجانى حين أَمْعَنَ فى الفَيَاح
و يالَكِ حُلَّةً طَفِرتْ بعقلى * كما طَفِرَ المُقَامِرُ بالقِــداح
أريد صــلاحها وتريد قتلى * فَشَتَّى بين قَتْلِى والصلاح
لَعَمْرُ أبيكِ لا تَجِدِين عَهْدى * كَعَهْدِك فى المَوَدّة والسَّماح
ولو أرسلْتِ تستهدين نفسى * أتاكِ بها رَسُولُكِ فى سَرَاح

وله أيضا :

فإن يَكُ جُثْمانِى بأرض ســواكم * فإنّ فؤادى عــندكِ الدَّهْرَ أجمعُ
إذا قلت هذا حِينَ أسلو وأَحْتَرِى * على صرمها ظَلَّت لها النَّفْسُ تَشْمع
و إن رُمْتُ نفسى كيف آتى لصَرْمها * ورُمْتُ صدودا ظَلَّت العينُ تَدْمَعُ

وله أيضا :

ألم تعلمى ياعــذبة المـاء أننى * أَظَلُّ إذا لم أُسْقَ ماءكِ صاديا
وما زلتِ بى يَأْشُ حتى لَوَ انى * من الوحد أَسْتَبْكِى الحمامَ بَكَى ليا
ودِدْتُ على حُبِّ الحيــاةِ لوَانها * يُزَاد لها فى عمرها من حياتيا

وله أيضا :

وقلتُ لها اعتَلَلْتِ بغير ذنب * وشَرُّ الناس ذو العلل البخيل
فَهَاتِينى إلى حَكَمٍ من أهلى * وأهْلِكِ لا يَحِيف ولا يميــل
فقالت أبْتَغِى حَكَمًا من أهــلى * ولا يَدْرِى بنا الواشى المَحُول
فَوَلَّيْنــا الحُكومةَ ذا شُجُوف * أحا دُنْيا له طَرَفٌ كليل

فقلـا ما قَضَيْتَ به رَصِـيا * وأنت بمـا قَضَيْتَ به كفيل
قضـاؤك ماضـ فاحكم عليـا * بمـا تَهْوَى ورأيك لا يَمِيـل
فقلت له قُتِلْتُ بغـير جُرْم * وعِبءُ الظـلم مَرْتَعُه وَبِيـل
فَسَلْ هَذِى متى تقضى دُيونى * وهل يقصيك ذو العِلَل المطُول
فقـالت إن ذا كَلِبٌ وُطَلٌّ * وشَـرٌّ من خُصومَته طويل
أأقتُلُه ومالى من سـلاح * وما بى لو أُقَاتِـله حَوِيل (١)
ولم آحُـدْ له مالا فَيُلْفَى * له دَيْنٌ عَلَىَّ كما يقول
وعنـد أميرنا حُكْمٌ وعدل * ورَأْىٌ بعـد ذلكمُ أصـيل
فقـال أميرُنا هاتوا شهودا * فقلت شهيدُنا الملك الجليـل
فقـال يَمِيـنَها وبداك أقْصِى * وكلُّ قضائه حَسَنٌ جميـل
فَبَتَّتْ حَلْفَـةً ما لى لديهـا * بَقِير أدَّعيـه ولا قَتِيـل
فقلتُ لها وقد عُلِبَ التَّعَزِّى * أما يُقْصَى لـنا يا بَثْ سُـولُ
فقـالت ثم زَجَّتْ حاجبيهـا * أطَلْتَ ولستَ فى شىء تُطِيل
فلا يَحْدَنَّك الأعداءُ عـدى * فَتَنْكَنِى وإيَّاك النُّكُول

وله أيضـا :

حَلَفْتُ يمينًا يا بُثَيْنَـةُ صـادقا * فإن كنتُ فيها كاذبا فَعَمِيتُ
إذا كان جِلْدٌ غير جِلْدِك مَسَّنِى * وماشَرَبِى دُونَ الشِّعار شَرِيتُ (٢)
ولو أن راقى الموت يَرْقِى حَازِقى * بمَنْطِقِها فى النـاطقين حَيِيت

وقال أيضـا :

فقـد لانَ أيامُ الصِّبا ثُمَّ لم يَكُدْ * من الدهر شىءٌ بعـدهنَّ يَلِينُ
ظعائن ما فى قُرْبِهِنَّ لذى هَوًى * من الناس إلا شِقْوَةٌ وفُتُونُ

(١) الحويل . القوة والحذق والقدرة على التصرف . (٢) يقال : شرى جلده : حرج عليه الشرى ، وهو ثور صغار حمر حكاكة مكربة تحدث دفعة واحدة عالما وتشتد ليلا لحار حاز يثور فى البدن دفعة .

وواكَلْتُه والهَمُّ ثم تركتُه * وفى القلب مِن وَجْدٍ بهنّ رَهين
فَوَاحَسْرتا إن حِيلَ بينى و بينها * ويا حَيْفَ نفسى كيف فيك تَحِين
فَشَيِّب رَوْعاتُ الفِراق مَفارقى * وأَشْزِن نفسى فوقَ حيثُ تكون
شَهِدْت بأنّى لم تَغَيَّرْ مَوَدَّتى * وأنى بكم حَتَّى المماتِ ضَنِين
وأنّ فؤادِى لا يلين الى هَوًى * سِواكِ وإن قالوا بَلَى سَيَلِين
وإنى لأَسْتَغْشى وما بى نَعْسَةٌ * لَعَلّ لِقاءً فى المسام يكون
ولَمّا عَلَوْتُ اللَّابَتَينِ تَشَوَّقت * قلوب الى وادى القرى وعيون
كأنّ دموع العين يَوْمَ تَحَمَّلَتْ * بُثَيْنَةُ يَسْقِيها الرَّشاشَ مَعِين
ورُحْنَ وقد وَدَّعْنَ عندى لُبانةً * لِنَسْمَةَ سِرٌّ فى الفؤاد كَمِين
كَسِرِّ الثَّرَى لم يعلِم الناسُ أنّه * ثَوَى فى قرار الأرض وهْوَ دَفِين
فإنْ دام هذا الصرمُ منك فإنّنِى * لأَعْبَرُ هادى الجانبين رَهِين
لكيما يقول الناس مات ولم أَهُنْ * عليك ولم تَنْبَتّ منك قُرون

(ج) الغـــزل الصناعى

كثيّر (١)

قال أبو الفرج قال محمد بن عبد العزيز: ما قصّد القصيدَ ولا نَعَت الملوكَ مثل كُثَيِّر. وقال إبراهيم بن سعد: إنى لأروى لكثيّر ثلاثين قصيدة لو رُقِيَ بها محمومٌ لأفاق، وكان بعضُ أصحاب الحديث يأتونه، وهو خبيث النفس، فيسألونه عن شعر كثيّر فتطيبُ نفسُه ويحدّثهم. وقال عبد الله بن أبى عُيَيْنة: من لم يجمع من شعر كثيّر ثلاثين لاميّةً فلم يجمع شعره. وكان آبن أبى عبيدة يُملى شعره ثلاثين ديوانا. وسُئِل مُصْعَب: مَنْ أشعر الناس؟ فقال: كثيّر بن أبى جُمْعَة، وقال: هو أشعر من حرير والفرزدق والرّاعى وعامّتهم، يعنى الشعراء. ولم يُدرك أحدٌ فى مديح الملوك ما أدرَك كثيّر. وقال محمد بن سلّام: كان كثيّر شاعرَ أهل الحجاز، وهو شاعر محل ولكنّه مقوصٌ حظُّه بالعراق. وقال يونس النحوىّ: كثيّر أشعر

---

(١) هو كثير بن عبد الرحمن من خزاعة، ويعرف بكثير عزة، نسبة إلى عشيقته التى كان يشبب بها. وكان يدخل على عبد الملك وينشده، وكان راعيا شديد التعصب لآل أبى طالب، وكان عبد الملك يعرف ذلك فيه فلا ينكره، فاذا أراد أن يصدقه شيء حلفه عليّ. وكان له صديق آسمه حدق الأسدىّ، شديد التشيع مثله، ولع بمرأة حدق هذا أنه وقف مرة فى الموسم والناس مزدحمون وقال «أيها الناس، إنكم على غير حق، قد تركتم بيت ربكم والحق لهم وهم الأئمة» فوثب عليه الناس، فصرعوه ورموه حتى قتلوه، ودفن حدق بقنوما، فقال إبن ذاك كثير يرثيه.

أصادرة مجاج كعب ومالك * على كل محلى صارم الطرف محرق

بمرثيـــة فيها ثناء مجر * لأزهر من أولاد مرة معرق

والقصـيدة طويلة. أما معشوقته عزة فهى بنت حميد بن وقاص من صمرة، وكانت من أجمل النساء وآدبهن وأعقلهن. ويقال إنه لم يرها وجها إلا أنه آستهيم بها قبله لما ذكر له عنها. وعاشته بعض أهلها فقالوا. «قد شهرت نفسك وشهرت صاحبتنا فاكفف نفسك» فقال «إنى لا أذكرها بما تكرهون»

وآتفق خروجهم الى مصر فى عام الجلاء، فتبعهم على راحلته فرحروه فأبى إلا أن يلحقهم، فتربص له بعضهم فى بعض الطريق وقصوا عليه وحملوه فى جبعة حمار وربطوها عليه فزنه صديقه حدق فأطلقه وأخذه سلاده. وكان كثير دميما قليلا أحمر أقيشر عظيم الهامة قبيحا. وأكثر أشعاره فى عزة هذه. توفى سنة ١٠٥ هـ، وأخباره كثيرة تجدها فى الأغانى (ج ١١ ص ٤٦) و(ج ٨ ص ٢٧) و(ج ٧ ص ٧٨) والشعر والشعراء (ص ٣١٦) وابن خلكان (ج ١ ص ٤٣٣) والعقد الفريد (ج ١ ص ١١٥ و ٢٠٣) وخزانة الأدب (ج ٢ ص ٣٨١) وله ديوان شرحه أبو عبد الله الرشيدى منه نسخة خطية فى الاسكوريال.

أهل الإسلام، وكان ابن أبي حَفْصَة يعجبه مذهبُه في المديح جدا، ويقول: كان يستقصي المديحَ، وكان فيه مع جودة شعره حَطَل وعُجب. وقال المِسْوَر بن عبد الملك: ما ضَرّ مَنْ يروى شعر كثيّر وجَميل ألا تكون عنده معنيتان مطربتان.

وكان قصيرا، قال الوَقّاصي: رأيتُ كثيّرا يطوف بالبيت، فمن حدّثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذّبه. وكان إذا دخل على عبد العزيز بن مروانَ يقول: طَأْطِئ رأسَك لا يُصِبه السَقف. وقال كثيّر: في أي شيء أعطى هؤلاء الأحْوَص عشرةَ آلاف دينار؟ قالوا: في قوله فيهم:

وما كان مالي طارِفاً من تجارةٍ * وما كان ميراثا من المال مُتْلَدَا
ولكن عطايا من إمامٍ مبارَكٍ * مَلَا الأرضَ معروفا وجُودا وسُؤددا

فقال كثيّر: إنه لَصَرِعٌ قَبّحه الله! ألا قال كما قلت:

دع عنك سَلْمَى إذ فات مَطْلبُها * واذكر خَلِيلَيْك من بني الحَكَمِ
ما أعطياني ولا سألتُهما * أَلَا وإنّي لَحَاجِزي كَرَمي
إني متى لا يكن نوالُهما * عندي بما قد فعلتُ أحتَشِم
مُنْدِي الرِّضا عنهما ومصرِفُ * عن بعض ما لو فعلتُ لم أَلُمِ
لا أُنْزِرُ[1] السائلَ الخليلَ اذا * ما اعتلّ نَزْرَ الظُّؤُور لم تَرِم

وطلب من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أرْضًا له يقال لها: غُرَّب، وقدّم بين يدَيْ طلبه تلك الأبياتَ:

جَزَتْك الجَوازي عن صديقك نَصْرةً * وأدناك ربّي في الرفيق المقرَّب
فإنك لا يُعطَى عليك طُلامةٌ * عدوٌّ ولا تنأى عن المتقرِّبِ
وإنك ما تمنَعْ فإنك مانِعٌ * بحقّ وما أعطيتَ لم تتعقَّب

فقال له: أترْعَبُ عُرَّبا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: اكتبوها له، ففعلوا.

(١) يقول. لا ألح عليه بالمسألة، يقال: نزرته أنزره اذا ألححت عليه. والظؤور: العاطفة على أولاد غيرها. ولم ترم: لم ترأم.

ونُسِبَ كثيّر لكثرة نسيبه عَزّة الضَّمْريّة اليها، وعُرف بها فقيل : كثير عزة، وهى عزّة آبنة حميد بن وقّاص . وكان آبتداء عشقه إياها أنه مرّ بسوة من بنى ضَمْرة ومعه جَلَب غنم، فأرسل اليه عزّة وهى صغيرة، فقالت : يقلن لك المسوةُ : بِعْنا كَبْشًا من هذه الغنم وأنْسِئنا بثمنه الى أن ترجع، فأعطاها كبشا، وأعجبته، فلما رجع جاءته امرأة منهنّ بدراهمه، فقال : وأين الصَّبِيَّة التى أحدث منى الكبش ؟ قالت : وما تصنع بها وهذه دراهمُك ؟ قال : لا آخذ دراهمى إلا ممن دعتْ الكبش اليها، وخرج وهو يقول :

قَضَى كلُّ ذى دين فوفّى غَرِيمَه ، وعزّةُ ممطولٌ مُعَـنًّى غريمُهـا

فكان أوّل لقائه إياها . ثم قال فيها :

نظـرتُ اليهـا نظـرةً وهى عاتِقٌ * على حين أن شَبّت وبان نُهُودُها
وقد دَرَّعوها وهى دات مُؤَصَّـدٍ (١) * مُحُوبٍ ولمّـا يلبَس الدِّرْعَ رِيدُها
من الخَفِـرات البِيض ودّ جَلِيسُها ، اذا ما آنقصت أُحْدُوثةٌ لو تُعِيـدها
نَظـرتُ اليها نظـرة ما يسرُّنى * بها حُمْـر أنعام البـلاد وسُـودها
وكنتُ اذا ما جئتُ سُعدى بأرضها * أرى الأرضَ تُطْوَى لى ويدنو بعيدها

ثم أحبّته بعد ذلك عزّة أشدّ من حبّه إياها .

قال محمد بن صالح الأسْلَمىّ : دخلت عزّة على عبد الملك بن مروان وقد عَجَزَت ؛ فقال لها : أنتِ عزّة كثيّر؟ فقالت : أنا عزّة بنت حميد، قال : أنت التى يقول لك كثيّر:

لَعَـزة نارٌ ما تبوح (٢) كأنهـا * اذا مارَمَقناها من البعد كَوْكَبُ

فما الذى أعجبه منك ؟ قالت : كلا يا أمير المؤمنين، لقد كنتُ فى عهده أحسن من النار فى الليـلة القَرّة . ويُروى أنها قالت له : أعجبَه منى ما أعجب المسلمين منـك حين صيّروك خليفةً، وكانت له سِنٌّ سوداء يخفيها، فضحك حتى بدت، فقالت له : هذا الذى أردتُ أن أبديه؛ فقال لها : هل تَرْوِين قوله :

(١) مؤصد . آلس الأصدة (بالضم) وهى قميص صغير يلبس تحت الثوب . والمحوب : القميص ذو الجيب . والريد (يهمز ولا يهمز) : التزب . (٢) تبوح : تحمد .

وقد زَعَمَتْ أنى تغيّرت بعدها * ومن ذا الذى يا عزّ لا يتغيّر
تغيّر جسمى والخليقةُ كالتى * عهِدتِ ولم يُحدَثْ لسرك مُخْبَر

قالت : لا أروى هذا، ولكنى أروى قولَه :

كأنى أنادى صخرةً حين أعرضَتْ * من الصُّم لو تمشى بها العُصْمُ زَلّت
صَفُوحًا فما تلقاك إلا بحيلةً * فمن مَلّ منها ذلك الوصلَ مَلّت

فأمر بها، فأُدخلت على عَاتِكة بنت يزيد، فقالت لها : أرأيت قول كثيّر :

قضى كلّ دَيْنٍ وفّى عريمَه * وعَزّة ممطول مُعَنًّى غريمُها

ما هذا الذى ذكره؟ قالت : قُبْلَة وعدتُه إياها، قالت : أنجزيها وعلىّ إثمُها .

ومما قال فيها :

خليلىّ هذا رَسْمُ عزّة فاعقِلا * قَلُوصَيْكما ثم ابكيا حيث حلّت
وما كنتُ أدرى قبل عزّه ما البكا * ولا مُوجِعاتِ القلب حتى تَوَلّت
فقد حَلَفَتْ جَهْدًا بما نَحَرَتْ له * قريشٌ عداةَ المَأْزِمَيْنِ (١) وصلّت
أُناديك ما حَجّ الحَجِيجُ وكبّرت * بمَيْفَا (٢) عَزالٍ رُفْقَةٌ وأهلّت
وكانت لقَطْعِ الحبل بينى وبينها * كنَاذِرة نَذْرًا وفَتْ فاحلّت
فقلت لها يا عزّ كل مصيبة * اذا وُطّنت يوما لها النفسُ ذَلّت
ولم يَلْقَ إنسانٌ من الحبّ مَيْعةً * تَعُمُّ ولا غَمّاء إلا تجلّت
كأنى أُنادى صخرةً حين أعرضتْ * من الصُّمّ لو تمشى بها العُصْمُ زَلّت
صَفُوحا (٣) فما تلقاك إلا بحيلةً * فمن مَلّ منها ذلك الوصلَ مَلّت
أباحت حِمًى لم يَرْعَه الناسُ قبلها * وحَلّت تِلاعا لم تكن قَبْلُ حُلّت

---

(١) المأزمان : بين عرفة والمزدلفة .
(٢) فيما عزال . نمكة حيث يرحل الناس فيها الى الأبطح . وأناديك : أحالسك، مأخوذ من النديّ والنادى حيزها وهما المجلس .
(٣) الصفوح . المعرضة .

فليتَ قَلُوصى عند عزّة قُيِّدَت * بحبـل ضعيف عُزَّ منها فَضَلَّت
وغُودِر فى الحَىّ المقيمين رَحْلُها * وكان لها باعٌ سواى فَبَلَّت[1]
وكنت كذى رِجْلَيْن رجلٍ صحيحةٍ * ورجلٍ رَمى فيها الزمانُ فَشَلَّت
وكنتُ كذات الظَّلْع لما تحامَلَت * على ظَلْعها عند العِثار اسْتقلَّت
أريد الثَّواءَ عندها وأظنّها * اذا ما أَطَلْنا عندها المُكْثَ مَلَّت
فما أنْصَفَتْ، أمّا النساء فعَصَّتْ * الىّ وأمّا المال فصَانَّت
يُكَلِّفها العَيْرانُ شَتْمى وما بها * هَوَانى ولكن للبليك اسْتَذَلَّت
هَبِلْنا مريشًا عيرَ داء مُحَامِرٍ * لعزّه من أعراضنا ما اسْتَحَلَّت
فوالله ما قارَنْتُ إلّا تَناعَدَتْ * بُصُرْمٍ ولا أكثرتُ إلا أقَلَّت
فإن تكن العُتْبَى[2] فأهلًا ومرحبا * وحقّت لها العتبى لدينا وقَلَّت
وإن تكن الأُخْرَى فإنى وراءها * مَنادِحَ[3] لو سارت بها العيسُ كَلَّت
خليلىّ إن الحاجِبيّة طَلَّحَتْ[4] * قَلُوصَيْكما وناقتى قد أكَلَّت
فلا يَبْعَدَنْ وصْلٌ لعزّة أصبحت * بعاقبةٍ أسبابُه قد تَوَلَّت
أسِيئى بنا أو أحسِنى لا مَلُومة * لدينا ولا مَقْلِيّة إن تَقَلَّت
ولكن أبيلى وأذكرى من مودّة * لنا خُلَّةً كانت لديكم فَطُلَّت[5]
فإنى وإن صَدَّت لَمُثْنٍ وصادقٌ * عليها بما كانت إلينا أزَلَّت[6]
فما أنا بالداعى لعزّه بالجوى * ولا شامتٌ إن نَعْلُ عزّة زَلَّت
فلا يحسب الواشون أنّ صَبابتى * بعزّة كانت غَمْرَةً فتجلّت
فأصبحتُ قد أنْلَأْتُ[7] من دَنَفٍ بها * كما أُدنِفَتْ هَيْمَاءُ ثم اسْتَبَلَّت

---

(١) بلت : دهشت . (٢) العتبى . الإعتاب ، يقال : عاتبنى فلان فأعتبته اذا رجعت عما عاتبك عليه ، والعتبى الاسم والإعتاب المصدر (٣) المادح المجاوز . (٤) الطليح المعى الذى سقط من الأعياء . (٥) طلت : هدرت . (٦) أزلت : اصطعت . (٧) يقال : بل من مرضه وأبل واستبل اذا برأ والهيماء : التى أصابها داء الهيام ، وهو داء يصيب الإبل من ماء تشربه مستنقعا فتهيم فى الأرض لاترعى .

فـــوالله ثم الله ما حَـــلّ قبلهـا * ولا عـــدها من حُلّة حيث حَلّت
وما مَرّ من يوم علىّ كيومها * وإن عظُمَتْ أيامُ أخرى وجَلّت
وأضحت بأعلى شاهقٍ من فـؤاده * فلا القلبُ يَسْلاها ولا العين مَلّت
فياعَجَبـا للقلب كيف ٱعترافُه[1] * وللنفس لمـا وُطّنَتْ كيف ذَلّت
وإنى وتَهْيَـامى بعـــزّة بعد ما * تحلّيْت مما بيننا وتَحَـــلّت
لكالمُرْتجى ظِـــلَّ الغَمامة كلمـا * تَنَـــوّأ منهـا للقَيِـــل ٱضمحلّت
كأنى وإياهـا سَحَـابة مُمْحِـل * رَجَاهـا فلمـا حاوَزَتْه ٱستَهَلّت
فإن سأل الوَاشُـون فِيم هَجَرْتَهـا * فقُـــل نَفْسُ حُرٍّ سُلّيَتْ فَتَسَلّت

قال ٱبنُ سَلّام : كان كثيّر مدّعيا ولم يكن عاشقا ، وكان جميلٌ صادق الصبابة والعشق . وٱختبرته عزّة دات مرّة فوجدت علامة دلك ، وكانت منتقبة فأسفرت ، فألِس[2] ولم ينطق وبُهت ، فلما مصت أنشأ يقول :

ألا ليتنى قبل الدى قلت شيبَ لى * من السم خَضْخاض بماء الدّرارح[3]
فمت ولم تعـلم علىّ خيـانةً * وكم طـالب للربح ليس برابح
أبُوءُ بذنبى ، إننى قد ظلمتُهـا * وإنى بيـاق سرّهـا غير بائح

ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز :

وَلِيتَ فلم تَشْـــتُمْ عَلِيًّا ولم تُخِفْ * بَرِيًّا ولم تَتْبـع مقـالةَ مُحْـــرِم
وقلتَ فصدّقت الذى قلتَ بالدى * فعلتَ فأضحى راضيًا كلُّ مُسْـلِم
ألا إنمـا يَكْفِى الفتى بعد زَيْغـه * من الأَوَد البـاقى ثِقَافُ المقـوِّم
لقـد لبستْ لِبْسَ الهُلُوك ببابهـا * تَرَاءَى لك الدّنيا بكَفٍّ ومِعْصَم
وتُومِصُ أحيـانا بعيني مريضـةٍ * وتَبْسِم عن مثـل الجُمـان المُنَظَّم

(١) اعترافه : اصطباره ، يقال . برلت به مصيبة فوجد عزوها ، أى صبورا .
(٢) ألس . انكسر وذل . (٣) الدراح : دويبة حمراء منقطة سواد تطير ، وهى من السموم القاتلة ، والدرارح جمعه . والخضخاض . غط أسود لا حشورة فيه تهأ به الإبل الحرى .

فأعرَضتَ عنها مُشمَئِزًا كأنما * سَقَتْك مَدُوفًا[1] من سِمَام وعَلْقَم
وقد كنتَ من أحبالها فى مُمَنَّع * ومن بحرها فى مُزْبِد الجَوْد مُفْعَم
وما زِلتَ سبّاقًا إلى كل غايةٍ * صَعِدتَ بها أعلى البناء المقدَّم
فلما أتاك المُلْكُ عَفْوًا ولم يكن * لطالب دنيا بعده من تَكَلُّم
تركت الذى يَفْنَى وإن كان مُونِقًا * وآثَرتَ ما يَبْقى برأى مُصَمِّم
فأصررتَ بالفانى وشَمَّرْتَ للدى * أمامك فى يوم من الهول مظلم
ومالك أن كنتَ الخليفةَ مانعٌ * سوى الله من مال رغيب ولا دَم
سما لك همٌّ فى الفؤاد مؤرِّق * صعِدتَ به أعلى المعالى بِسُلَّم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها * مُنَادٍ ينادى من فصيح وأعجم
يقول أميرَ المؤمنين طلمتنى * بأخذ لدينار وأخذ لدرهم
ولا بسط كفٌّ لامرىء ظالم له * ولا السفكِ منه ظالمًا ملءَ مِحجم
فلو يستطيع المسلمون تقسّموا * لك الشَّطر من أعمارهم غيرَ نُدَّم
فعِشتَ به ما حَجّ لله راكبٌ * مُغِذٌّ[2] مُطِيفٌ بالمقام وزمزم
فأربِحْ بها من صفقةٍ لِمُبايع * وأعْظِمْ بها أعْطِ بها ثم أعْظِم

ومن نسيبه عزّه لما أُخرِجتْ إلى مصر :

لعَزّة من أيام ذى الغصن شاقنى * بِصاحى قرار الرَّوصتين رُسُومُ
هى الدار وَحْشًا غير أن قد يُحِلّها * ويَغْنَى بها شخص علىّ كريم
فما بِرسوم الدار لو كنت عالما * ولا بالتِّلاع المُقْوِيات[3] أَهِيم
سألت حَكِيمًا[4] أين شَطّت بها النّوى * فخبّرنى ما لا أُحِبّ حكيم
أحَدُّوا فأما آلُ عزّة غُدْوَةً * فبانوا وأما واسط فمقيمُ
لعمرى لئن كان الفؤادُ من الهوى * نَعَى سَقَمًا إنى إذا لسَقِيم

(١) مدوفا . مخلوطا ، داف الدواء والعجين يدوفه خلطه . (٢) معد مسرع .
(٣) أقوت الدار . خلت من ساكنها (٤) هو أبو السائب بن حكيم .

ومنها :

ولستُ بِرَاءٍ بحـــو مصر سحابةً * وإن بَعُـدَتْ إلا قعدتُ أَشِـيم
فقد يَقْعُدُ النَّكْس الدَّنِيُّ عن الهوى * عَزُوفًا و يصبو المرءُ وهو كريم
وقال حليـــلى ما لها إذ لقِيتَهـا * عداةَ السّـا فيها عليـك وُجُوم (١)
فقلتُ له إن الموده بيننـا * على غـــير فُحْشٍ والصفاءُ قـديم
وإنى وإن أعرضتُ عنها تجلّدا * على العهـد فيما بيننـا لمقـيم
وإن زمانا فرق الدهرُ بيننـا * وبينكُم فى صَرْفه لَمَشُـوم
أفى الحقّ هـذا أن قلبَـكِ سالم * صحيحٌ وقلبى فى هـواكِ سـقيم
وأن بجسـمى مـنك داءٌ مُخَامِرا * وجسـمك موفور عليـك سليم
لَعَـمْرُكِ ما أنصفتنى فى مودّتى * ولكنى ياعـزّ عـنك حليم
فإما تَرَيْنى اليـــوم أبدى خَلادةً * فإنى لعـمرى تحت داك كليم
ولستُ آسَةَ الصَّمْرىّ مـنك ساقم * دنوبَ العـــدى إنى إذًا لَظـلوم
وإنى لدو وجـدٍ اذا عاد وصلُها * وإنى عـــلى ربّى إذًا لـكريم

ومن نسيبه بها :

لعـزّة أطلالٌ أبت أن تكلّما * تهيج مغانيهـا الفـــؤادَ المُكَلَّما
وكنتُ اذا ما حثتُ أجْلَلْنَ مجلسى * وأظْهَـرنَ منى هيبـــةً لا تجهُّما
يُحاذِرْن منى عَـــيْرةً قـد عرفنها * قديمًـا فـا يَضْحَكْن إلا تبسُّما

ومـــه :

خليـلىَّ عوجَا منكما ساعـــةً معى * على الرّبْع نقص ساعـــةً وتودِّع
ولا تُعجلانى أنّ ألمّ بِدِمْنَـــة * لعـزّة لاحت لى ببيـــداء بَلْقَع
وقولا لقلبٍ قد سَلا راجِع الهوى * وللعين أذْرِى من دموعك أودَعى
فلا عيش إلا مثل عيشٍ مضى لنا * مَصيفًا أقمنا فيـــه من بعد مَرْبع

(١) وجم : سكت على غيظ .

ومـــه :

بليـــلى وحارات الليـــلى كأنهـا * تَعَاحُ الفـلا تُحْدَى بهن الأباعرُ
أَمُنْقَطِعٌ ياعزّ ما كان بيننا * وشاحَرنى ياعزّ فيـك الشـواجر
اذا قيـل هـدا بيتُ عزّة قادنى * اليـه الهوى وٱستعجلتنى البوادر
أَصُدّ وفى مثل الجنون لكى يَرى * رُواةُ الهَوَى أنى لبيْتـك هـاجِر
ألا ليت حظّى مـنك ياعزّ أننى * اذا بِعْتِ باع الصبرَ لى عنك تاجر

ومـــه :

وما زلتُ من ليلى لَدُنْ طَرّ شاربى * الى اليـوم أُحمى حبّهـا وأُداجرُ
وأحمـل فى ليـلى صـغائنَ مَعْشَر * وتُحْمَـل فى ليـلى علىّ الضغائن

ومـــه :

وإنى لأرعى قومَها من حلالها * وان أطهرواعِشّا نصَحْتُ لهم جَهْدى
ولو حاربوا قومى لكنتُ لقومها * صديقًا ولم أحمل على حربها حقدى

ومـــه :

هـلّا سألتَ مَعَالمَ الأطلال * بالجزع من حُرُض(١) وهنّ وَال
سَـقْيًا لعـزّة حُلّةً سَـقْيًا لهـا * اذ نحن بالهَضَبات من أَمْلال(٢)
إذ لا تكلّمنـا وكان كلامُها * نَغَلًا تؤمّـله من الأنفـال

ومـــه :

ألا حيّيا ليـلى أجَدَّ رَحِيـلى * وآذنَ أصحابى عَدًا بقُفُول(٣)
تبـدّت له ليـلى لتُذهب عقـله * وشَاقَتك أمُّ الصَّلْت بعد ذُهُول
أُريد لأنسى ذِكرَهـا فكأنمـا * تَمَثّـلُ لى ليـلى بكل سبيل
إذا ذُكِرَتْ ليـلى تَعَشّـتك عَبْرَةٌ * تُعَلّ بهـا العَيْنان بعد هُـطول

---

(١) حرض : واد من وادى قناة ، من المدينة على ميلين .
(٢) أراد ملل ، وهو منزل على طريق المدينة من مكة . (٣) قفول . رجوع .

وكم من حليل قال لى هل سألتها * فقلت له ليلى أصَنّ حليل
وأَنعَدَه نَيْلًا وأَوْشَكه قِلًى (١) * وإن سُئِلتْ عُرْفًا فشرٌّ مَسُول
حلفتُ بربّ الرّاقصات (٢) الى مِنًى * حِلالَ الملا يَمْدُدْن كلّ حَديل
تراها رِفاقًا بينهنّ تَفاوتٌ * ويَمْدُدْن (٣) بالإهلال كلّ أصيل
تَواهَقُ (٤) بالحُجّاج من بطن نَخْلة * ومن عَزْوَرٍ والحَبْتِ خَبْتِ طَميل (٥)
بكلّ حَرام خاشع مُتَوَجِّه * إلى الله يَدْعُوه بكلّ قَبيل
على كلّ مِدْعانِ (٦) الرّواح مُعيدِه * ونَخْشِيّة ألا تُعيد هَزيل
شوامِدَ (٧) قد أرْتَجْنَ دون أجِنّة * وهُوجٍ تَبارى فى الأزِمّة حُول
يمين امرئٍ مُستَغْلِظ من أَلِيّة (٨) * ليُكْذِبَ قيلا قد ألحّ بقيل
لقد كَذَب الواشون ما بُحتُ عندهم * بليلى ولا أرسلتُهم برسول
وإن حاءك الواشون عنى بكَذْبَة * فَرَوْها ولم يأتوا لها بمحويل (٩)
فلا تعجلى باليل أن تتفهّمى * سصبح أتى الواشون أم بِحُبُول (١٠)
وإن طِبْتِ نفسا بالعطاء فأجْزِلى * وخيرُ العطا باليل كلُّ جزيل
وإلا فإجمالٌ إلىّ فإنّنى * أُحِبّ من الأخلاق كلّ جميل
وإن تَنْدُلى لى منك يوما مودّة * فقِدْما تَحِدْت القَرْصَ عند بَذُول
وإن تبخلى باليل عنى فإنى * تُوَكّلُنى نفسى بكل بَخيل
ولستُ براضٍ من خليل بنائلٍ * قليل ولا راضٍ له بقليل

---

(١) أوشكه أسرعه . والقلى : البغض . (٢) الراقصات الابل ، والملا الفضاء ، والحديل رمام محدول أى مصفور . (٣) الأصيل : العشىّ (٤) تواهق . تتارين ، وبطن نخلة . مكان بين عامر ، وعزور . ثنية الجحفة . والحبت ، المطمئن من الأرض وطميل . موضع . (٥) القبيل : الطريق . (٦) المدعان : المذللة . ومعيدة : قد عاودت السفر . (٧) الشوامد . الشائلات الأذناب ، وأرتجن . أغلقن أرحامهن على أولادهن . والحول . جمع حائل وهى التى لا تلقح . (٨) الألية اليمين . (٩) فروها من الفرية ، يقال فرى يفرى . والحويل . المحاولة (١٠) الحبول : الدواهى .

وليس حليلي بالملول ولا الذى * اذا غِبْتُ عنه باغى بحليل
ولكن حليلي من يديم وصالَه * ويحفظ سرّى عند كل دَخيل (١)
ولم أرَ من ليلى بوالا أعُدُّه * ألا ربما طالبت غيرَ مُنيل
يلومك فى ليلى وعَقْلُك عندها * رجالٌ ولم تَذْهَب لهم بعقول
يقولون ودِّع عنك ليلى ولا تَهِمْ * بقاطعة الأقران ذات حَليل
فما نَقَعت نفسي بما أمروا به * ولا عُجْتُ من أقوالهم بمَيل (٢)
تذكّرت أترابا (٣) لعزّة كالمَها * حُبِينَ بِلِيطٍ ناعم وقبُول
وكنتُ اذا لاقيتُهنّ كأنى * مُخالِطُهُ عقلى سُلافُ شَمول
تأطّرْن (٤) حتى قلتُ لَسْنَ نَوَارِحا * رجاءَ الأمانى أن يَقِلْن مَقيل
فأبدَيْن لى من بَينهن تحمُّما * وأحلفن ظنّى إذ طمت وقيل
فَلأيًا (٥) بَلأيٍ ما قضَيْن لُبانةً * من الدار واستقلالى بَعْدَ طويل
فلما رأى واستيقن البينَ صاحبى * دعا دعوةً يا حَسْتَرَبْنَ سَلُول
فقلتُ وأسْرَرْتُ الندامة ليتنى * وكنتُ امرأً أغْشَى كل عَذُول
سلكتُ سبيلَ الرائحات عشيّةً * مَحارِم (٦) نِصْع أو سَلَكن سبيلى
فأسْعدت نفسا بالهوى قبل أن أرى * عَوادِىَ (٧) نَأْيٍ بيننا وشُغُول
نَدِمْتُ على ما فاتنى يوم بِنْتُمُ * فيا حَسْرتا ألا يَرَيْن عَويلى
كأن دموع العين واهيةُ الكُلَى (٨) * وعَتْ ماءَ غَرْب يوم ذاك سَحيل

---

(١) الدخيل : الذى ينتسب الى قوم وليس منهم . (٢) أى ما رويت . (٣) الأتراب : الأقران . والليط : اللون وهو الجلد أيضا . (٤) تأطرن تلتوى ، وأصل التأطر : التعطف . (٥) اللأى : البطء . واللأمة الجاجة .
(٦) المحارم : جمع محرم وهو مقطع أنف الحبل . ونصع : حبل أسود بين الصهباء وينبع . (٧) العوادى : الصوارف . (٨) الكلى : جمع كلية وهى الرقعة تكون فى أصل عروة المزاد . والعرب : الدلو العظيمة . وسحيل : مضطرب .

تكنّفها حُرُقٌ تَوَاكَلْن حَزْرَها * فأجْلَتْه والسّير عيرُ بَجيل (١)
أقيمي فإن الغَوْرَ ياعزّ بعدكم * الىَّ اذا ما بِنْتِ عير جَميل
كفى حَزَنا للعين أن رَدّ طرفَها * لعزّه عِيرٌ آذنَتْ برحيل
وقالوا تأتْ فاحْتَر من الصّبر والبُكا * فقلت الكا أشفى إذًا لغليل
تولّيت محزونا وقلت لصاحبي * أقاتلتي ليلى غير قَتيل
لعَزّةَ اذ تجْتَلّ بالخَيْف أهلُها * فأوْحَش منها الخيفُ بعد حُلول
وبُدِّل منها بعد طول إقامة * تَبَعُّثَ تَكْباء (٢) العَشِيّ جَفُول
لقد أكثر الواشون فيا وفيكمُ * ومال سا الواشون كل مَميل
وما زلتُ من ليلى لَدُنْ طَرّ شاربى * (٣) الى اليوم كالمُقْصَى بكل سبيل

ولـه :

إذا ما أرادَ العروَ لم تَثْنِ هَمَّه * حَصَان عليها نَظْمُ دُرٍّ يَزِينُها
نَهَتْهُ فلمّا لم تَرَ النّهْىَ عاقه * بَكَتْ فَبَكَى مما تَحاها قَطِينُها (٤)
ولم يَثْنِهِ يَوْمَ الصّابة بُثُّها * عَداةَ اسْتَهَلّتْ بالدموع شُؤونُها
ولكنْ مَضَى ذو مِرّةٍ مُتَثَبِّتٌ * لِسُنَّةِ حقٍّ واضحٍ مُسْتَبِينُها

وله فى مدح عبد الملك بن مروان .

أحاطتْ يداه بالخلافة بَعْدَ ما * أراد رجالٌ آخرون اغْتيالَها
فما أسْلَمُوها عَوْنَةً عن مودّةٍ * ولكنْ بِحَدّ المَشْرَفيّ استقالَها
وكنتَ إذا ما نَتْكَ يَوْمًا مُلِمّةٌ * نَلَتْ (٥) لها أما الوليد نِبالَها
سَمَوْتَ فأدركْتَ العَلاءَ وإنّما * يُلَقّى عَلَيّاتِ العُلَا مَنْ سَما لَها
وصَلْتَ فنالت كفُّكَ المَجْدَ كله * ولم تَلْقَ الأيْدِى السَّوامِى مَصالَها

---

(١) حرق جمع حرقاء وهى التى لا تحسن العمل . وأشاله أوسعه . والبجيل العابط . يريد أنهن أعطاهن الإشفى وأدقهن السير . (٢) التكباء الريح التى تهب بين مهبى ريحين . والجفول التى تذهب التراب
(٣) طرر الشارب نباته . (٤) القطين الخدم . (٥) نبلت أصدمت .

وله أيضـا :

أهاجَكَ بَرْقٌ آخرَ اللَّيْلِ وَاصِبُ ٭ تَصَمَّمُهُ فَرْشُ الجَبا فالمَسارِبُ
بَحُرٌّ وَيَسْتَأْبِي نَشاصًا(١) كَأَنَّه ٭ بَغِيقَةُ حادٍ حَلْجَلُ الصَّوْتِ جالِبُ
تَأَلَّقَ وَأَحْمَوْمَى وخَيَّمَ بالرُّبا ٭ أَحَمُّ الذُّرَى ذو هَيْدَبٍ مُتَراكِبُ
اذا حَرَّكَتْه الرِّيحُ أَرْزَمَ(٢) حانِفٌ ٭ بلا هَرَقٍ(٣) مِنْه وأَوْمَضَ حانِبُ
كما أَوْمَضَتْ بالعَيْنِ ثمّ تَبَسَّمَتْ ٭ حَرِيعٌ(٤) بدا منها حَبِيٌّ وحاجِب
يَمُجُّ النَّدى لا يذكُرُ السيرَ أهلَه ٭ ولا يرجع الماشي به وهو حادِب

وله أيضـا :

سَيَهْلِكُ فى الدنيـا شَـفِيقٌ عليكُمُ ٭ اذا عالَهُ مِن حادِثِ الدهرِ غائلُه
ويُخْفِي لكم حُبًّا شـديدا ورَهْبة ٭ وللـاس أشغال وحُبُّكِ شاغلُه
وحُبُّكِ يُنْسِينى مِنَ الشيءِ فى يَدِى ٭ ويُذْهِلُنى عن كل شيءٍ أزاولُه
كَرِيمٌ يُميت السِّرّ حتى كانه ٭ اذا اسْتَنْبَحْتُوه عن حَدِيثِكِ جاهلُه
يَوَدّ بأن يُمْسِى سَـقِيماً لعلَّها ٭ اذا سَمِعَتْ عنه بشَكْوَى تُراسِلُه
ويرتاح للمعروف فى طلب العـلا ٭ لِتُحْمَـد يوما عند لَيْلَى شمائلُه
فلو كُنْتُ فى كَبْلٍ(٥) وبُحْتُ بلَوْعتى ٭ اليه لأَنْتْ رحمـةً لى سَلاسِلُه

وله أيضـا :

أقول لمـاء العَيْنِ أَمْعِنْ لَعَلَّه ٭ بما لا يُرَى من غائب الوَجْدِ يَشْهَدُ
فلم أدر أن العين قبـل فراقها ٭ عَداةَ الشَّبا مِنْ لاعِجِ الوَجْدِ تَجْمُـد
ولم أر مثـل العين ضَنَّتْ بمائها ٭ عَلَىَّ ولا مثلى على الدمع يُحْسَـد

(١) النشاص : السحاب المرتفع بعضه فوق بعض . (٢) أرزم : صوّت . (٣) الهرق : شدة صوت الرعد . (٤) حريع : امرأة حسناء . (٥) كبل : قيد شديد .

وله أيضا :

تَسْمَعُ الرعدَ فى المُخيلة منها ... مِثْلَ هَزْمِ القُرومِ (١) فى الأشْوَالِ (٢)

وتَرَى البَرْقَ عارِضًا مُسْتَطيرا ... مَرَحَ المُلْقِ حُلْنَ فى الأحْلال

أو مَصابيحَ راهبٍ فى يَفاعٍ ... سَعَّرَ الزَّيْتَ ساطعاتِ الذُّبال

وله أيضا :

ياعَزَّ إنْ واشٍ وَشَى بِى عندكم ... فلا تُكْرِميه أن تقولى له أهلا

كما لو وشى واشٍ بعزَّة عندنا ... لَقُلْنَا تَرَحَّل لا قَرِيبًا ولا سَهْلا

---

(١) القروم : الفحول التى أعميت من الحمل عليها وتركت للفحلة .

(٢) الأشوال . الإبل التى مضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فارتفع ضرعها وجف لبنها .

(د) الغـــزل القصصى

١ — أخبـار قَيْس بن المـــلَوّح (المجنون)[١]

قال الأصفهانىّ عن محدِّثيـه عن آبن دأب قال : قلتُ لرجل من بى عامر : أتعرف المجونَ وتَرْوِى من شعره شيئا؟ قال : أوقد فرَغنا من شعر العقلاء حتى نَروِىَ أشعار المجانين! إنهم لكثيرٌ! فقلتُ : ليس هؤلاء أعنى ، إنمـا أعنى مجونَ بى عامر الشاعرَ الذى قتـله العشقُ ، فقال : هيهات! بنو عامر أغلظُ أكباداً من ذاك ، إنما يكون هذا فى هذه اليمَـانِيه الضِّعاف قلوبُها ، السخيفةِ عقولها ، الصَّعْلةِ[٢] رءوسها ، فأما نِزَارُ فلا .

وقال الرِّياشىُّ سمعت الأصمعىَّ يقول : رجلان ما عُرِفا فى الدنيـا قطُّ إلا بالاسم : مجنونُ بنى عامر ، وآبنُ القِرِّيَّة[٣] ، وإنمـا وصفهما الرُّواةُ .

وقال المدائنىّ : المجنونُ المشهورُ بالشعر عـبد الله بن صاحبُ لَيْلَى قيس بن مُعَاذ من بى عامر ، ثم من بى عُقَيل ، أحد بنى نُمَير بن عامر بن عُقَيل ، قال : ومنهـم رجل آخر يقال له : مَهدِىّ بن المُلَوّح من بى حَعْدَة بنِ كعب بنِ ربيعةَ بنِ عامر بن صَعْصَعَة .

وقال آبن الكلبىّ : حُدِّثتُ أن حديثَ المجنون وشـعرَه وضعه فتًى من بى أميَّةَ كان يهوَى آمَةَ عم له ، وكان يكره أن يظهرَ ما بينه وبينها ، فوضع حديثَ المجنون وقال الأشعارَ التى يَرويها الناسُ للمجنون ونَسَبها إليه .

---

(١) هو قيس بن الملوّح ، ويقال . آبن معاذ بن مراحم من بى عامر بن صعصعة ، ويعرف بمجنون ليلى ، نسبة الى ليلى التى كان يتشبّبها وهو مشهور ، ولكن بعض أهـل النقد من علماء الشعر يرون أن قصته موضوعة ، ووضعها رجل من بى أمية كان يحب آمـة عم له ويكره أن يظهر ما بينـه وبينها ، فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التى يطلبها الناس للمجنون ، وقد زاد الناس فيه بعدئذ . ويؤيد ذلك أن كثيرا ممـا ينسب اليه من الأشعار رويت لغيره ، فقصته اذا من قبيل الشعر التمثيلى (درام) الذى يراد به تمثيل بعض الفضائل . وهى تمثل العشق مع التعفف ، أو لعل لها أصلا قليلا وراد فيه الرواة كما فعلوا بقصة عنترة التى تمثل الشجاعة والعشق ، وعلى كل حال فان بين الأشعار المنسوبة الى المجنون طائفة تمثـل شعائر المحبين كما هى على طريقتها . وأخبار المجنون فى الأغانى (ج ١ ص ١٦٧) والشعر والشعراء (ص ٣٥٥) وخزانة الأدب (ج ٢ ص ١٧٠) . (٢) الصعلة : صغر الرأس . (٣) هو أيوب ابن زيد بن قيس والقرية أمه قتله الحجاج لاتهامه بالميل لابن الأشعث .

وعن حمّاد بن طالوت بن عَمّار : أنه سأل الأصمعيّ عنه، فقال : لم يكن مجنونا، بل كانت به لُوثةٌ أحدثها العشقُ فيه، كان يهوى امرأة من قومه يقال لها ليلى، واسمه قيسُ ابن مُعاذ .

وذكر عَمْرو بن أبي عَمْرو الشَّيْبانيّ عن أبيه أنّ اسمه قيسُ بن مُعَاذ .

وذكر شُعَيبُ بن السَّكَن عن يُونُس النَّحْويّ أن اسمه قيسُ بن الملوّح، قال أبو عمرو الشَّيْبانيّ : وحدّثني رجل من أهل اليمن أنه رآه ولقِيَه وسأله عن اسمه ونسبه ، فذكر أنه قيسُ بن الملوّح .

وذكر هشام بن محمد الكَلْبيّ أنه قيسُ بن الملوّح، وحدّث أن أباه مات قبل احتلاطه(١)، فعقرَ على قبره ناقتَه وقال في ذلك :

عقرتُ على قبر الملوّح ناقتي * بذي السَّرْح(٢) لما أن جفاه الأقاربُ
وقلتُ لها كُوني عَقيرًا(٣) فإنني * غدًا راحلٌ أمشي وبالأمس راكبُ
فلا يُبعِدَنْكَ اللهُ يابنَ مُراحِمٍ * فكلُّ نكأس الموت لا شكَّ شاربُ

وقال الأصمعيّ : سألتُ أعرابيًا من بني عامر بن صَعْصَعَه عن المجنون العامريّ فقال : عن أيّهم تسألُني ؟ فقد كان فينا جماعةٌ رُمُوا بالجنون، فعن أيّهم تسألُ ؟ فقلت : عن الذي كان يُشَبَّب بلَيْلَى، فقال : كلُّهم كان يُشبّب بلَيْلَى، قلتُ : فأنشِدْني لبعضهم، فأنشَدَني لمُزَاحِم بن الحارث المجنون :

ألا أيُّها القلبُ الذي جَنَّ هائمًا * بليْلى وليدًا لم تُقَطِّعْ تمائمُهْ
أفِقْ قد أفاق العاشقون وقد أنَى(٤) * لكَ اليومَ أن تَلقَى طبيبًا تُلائمُهْ
أجِدّكَ لا تُنسيكَ ليْلَى مُلِمّةٌ * تُلِمُّ ولا عهدٌ يَطُولُ تَقادُمُهْ

---

(١) يقال احتلط عقله اذا تغير وفسد . (٢) ذو السرح . واد بأرض نجد .
(٣) عقيرا، أي معقورة، وأصل العقر : قطع القوائم ثم أطلق بمعنى النحر . قال ابن الأثير : كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى أي ينحرونها و يقولون إن صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته فكافئه بمثل صنيعه بعد وفاته . وانما أطلق العقر على النحر لأنهم كانوا اذا أرادوا نحر البعير عقروه لئلا يشرد عند النحر اه من اللسان مادة عقر . (٤) أنى : حان وقرب .

قلت : فأنشِدْنى لغيره منهم، فأنشَدَنى لمُعَاذ بن كُليب المجنون :

ألا طَالَما لاعَبْتُ لَيْلَى وقادَنى إلى اللَّهو قلبٌ للحِسَان تَبُوعُ
وطال (١) امْتِرَاءُ الشَّوقِ عينَ كلَمَا * ذَرَفتُ دُمـوعا تَسْـتَجِدُّ دُموعُ
فقد طال إمساكى على الكَبِد التى * بها مِن هَوَى لَيْلَى العَدَاةَ صُدُوعُ

قلتُ : فأَنشِدْنى لغير هدين ممن ذكرتَ، فأنشَدَنى لمَهْدِىّ بن المُلَوَّح :

لو آنّ لك الدنيـا وما عُدِلَتْ به * سِوَاهَا وليـلى مائنٌ عنكَ بَيْنُهـا (٢)
لكنتَ إلى ليـلى فقيرا وإنمـا * يقـود إليهـا وُدَّ نفسك حَيْنُهـا

قلتُ له : فأنشِدْنى لمن بقى من هؤلاء، فقال : حَسبك ! فوالله إنّ فى واحد من هؤلاء لمن يُوزَنُ بعقلائكم اليومَ .

وقال الجاحظُ : ما ترك الناسُ شعرا مجهولَ القائل قِيل فى لَيْلَى إلا نسَبوه إلى المجنون، ولا شعرا هذه سبيلُه قيل فى لُبْنَى إلا نسَبوه إلى قَيْس بن ذَرِيح .

قال أبو الفرج : وأنا أذكر مما وقع إلىّ من أخباره جُمَلًا مستحسنةً، مُتَرَّئًا من العُهدة فيها ، فإن أكثر أشعاره المذكورة فى أخباره يسِيُبها بعضُ الرُّوَاة إلى غيره ويسِيُبها مَنْ حُكِيتْ عنه إليه، وإذا قدّمتُ هذه الشريطةَ برئتُ من عيبِ طاعنٍ ومُتَتَبِّعٍ للعيوب .

أخبرنى بخبره فى شَعَفه بليـلى جماعةٌ من الرُّواة ، ونسختُ ما لم أسمعه من الروايات وجمعتُ ذلك فى سِياقة خبره ما آتّسقَ ولم يختلِف ، فاذا آختلفَ نسَبتُ كلَّ رواية الى راويهـا .

فمن أخبرنى بخبره أحمد بن عبد العزيز الجوهرىّ وحبيبُ بن نصر المهَلَّبىّ ، قالا : حدّثنا عمرُ بن شَبّة عن رجاله وإبراهيمُ بن أيّوبَ عن آبن قُتَيبة ، ونسختُ أخبارَه من رواية خالد بن كُلْثُوم وأبى عمرو الشَّيبانىّ وآبن دَأْب وهشام بن محمد الكلبىّ وإسحاق بنِ الحَصَّاص وغيرهم من الرُّواة .

(١) الامتراء : الاستدرار . (٢) بينها هنا سناء وصلها لأنه من أسماء الأضداد ، يطلق على الوصل والفراق .

قال أبو عمرو الشّيبانيّ وأبو عُبَيدة : كان المجنون يهوَى ليلى بنتَ مَهْديّ بن سعد بن مهديّ بن ربيعة بن الحَرِيش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وتُكنَى أُمّ مالك ، وهما حينئذ صبيّان ، فعَلِق كلّ واحد منهما صاحبَه وهما يرعَيانِ مواشِيَ أهلِهما ، فلم يزالا كذلك حتى كَبِرا فحُجبت عنه ، قال : ويدل على ذلك قولُه :

تَعلّقتُ لَيْلَى وهى ذاتُ دُؤابةٍ (١) * ولم يَبْدُ للأتراب من ثَدْيِها حجمُ
صغيرَيْن نرعَى البَهْمَ يا ليتَ أننا * إلى اليوم لم نَكْبَرْ ولم تَكْبَرِ البَهْمُ

وقال ابن الكلبيّ : كان سببُ عشقِ المجنون لَيلى ، أنه أقبل ذاتَ يوم على ناقة له كريمة وعليه حُلّتان من حُلَل الملوك ، فمرّ بامرأة من قومه يقال لها : كريمةُ ، وعندها جماعةُ نسوةٍ يتحدّثنَ ، فيهنّ ليلى ، فأعجبهنّ جمالُه وكمالُه ، فدعَوْنه الى النزول والحديث ، فنزل وجعل يُحدّثهنّ وأمر عبدًا له كان معه فعقرَ لهنّ ناقته ، وظلّ يحدّثهن بقيةَ يومه ، فبينا هو كذلك ، إذ طلع عليهم فتًى عليه بُردَةٌ من بُرُدِ الأعراب يقال له : "مُنازِل" يسوق معْرًى له ، فلما رأينَه أقبلنَ عليه وتركن المجنونَ ، فعصب وحرج من عندهنّ وأنشأ يقول :

أأعقِرُ مِنْ جرًا (٢) كريمةَ ناقتِي * ووَصْلِيَ مَفروشٌ لِوَصْلِ مُنازِلِ
إذا حاء قَعقَعَ الحُليّ ولم أكُنْ * إذا جئتُ أرضَى صوتَ تلكَ الخلاخِلِ
متى ما انتضَلْنا (٣) بالسِّهام نصَلتُه * وإن رَمْ رَشْقًا (٤) عندها فهو ناصِلى

قال : فلما أصبح لبس حلّته وركب ناقة له أخرى ومضى متعرّضا لهنّ ، فألفى ليلى قاعدةً بفناء بيتها وقد عَلِق حبُّه بقلبها وهوِيَتْه ، وعندها جُوَيريّاتٌ يتحدّثن معها ، فوقفَ بهنّ وسلم ، فدعوْنه إلى النزول وقلن له : هل لك فى مُحادثةِ من لا يَشعَلُه عنك مُازِلٌ ولا عيرُه؟ فقال :

---

(١) الذؤابة : شعر الناصية .

(٢) أى من أجل ، يقال . فعلت ذلك من جرّاك أى من أجلك ومما أُنشِدَ على هذا .

أمن جرّا سَى أسد عصتم * ولو شئتم لكان لكم جوار

(٣) أى ترامينا بالسهام ، ونصلته : علته . (٤) الرشق : رمى أهل النضال ما معهم من السهام فى جهة واحدة .

إى لعَمْرِى، فنزل وفعل مثلَ ما فعله بالأمس، فأرادت أن تعلم، هل لها عنده مثلُ ما له عـدها، فجعلتْ تُعرِض عن حديثه ساعةً بعـد ساعةٍ وتُحدّث غيرَه، وقد كان عَلِق بقلبه مثلُ حبِّها إياه وشعَفَتْه واستملحها، فبينا هى تُحدِّثه، إذ أقبل فتىً من الحىّ فدعته وسارّته سرارا طويلا، ثم قالت له . انصرف، ونظرت إلى وجه المجنون قـد تغيّر وانْتَقع لونه وشَقّ عليه فعلُها، فأنشأت تقول :

كِلانا مُظهرٌ للـناس بغضًا * وكلُّ عـد صاحبه مَكِينُ
تُبلِّغنَـا العيونُ بمـا أردنا * وفى القلبين ثَمَّ هَوًى دَفِين

فلما سمع البيتين شَهَقَ شَهْقةً شـديدة وأُغمِىَ عليه، فمكث على ذلك ساعةً، ونضحوا المـاء على وجهه حتى أفاق وتمكّن حبُّ كل واحد منهما فى قلب صاحبـه حتى بلع مـه كلَّ مَبلع .

وعن أبى الهيثم العقيلىّ قال : لمـا شُهِر أمرُ المجنون وليلى وتناشد الناسُ شـعرَه فيها، حطّبها ونَدل لها حمسين ناقة حمراء، وحطبها وَرْدُ بن محمد العُقيلىّ وبذل لها عَشرًا من الإبل ورَاعِيَها، فقال أهلُها . نحن نخيِّروها بينكما، فمن اختارتْ تزوّجتْه، ودخلوا إليها فقالوا : والله لئن لم تختارى وَرْدًا لنُمثِّلنّ بك، فقال المجنون :

ألا يا لَيـلَ إن مُلِّكْتِ فيا * خِيارَكِ فانظُرِى لِمَنِ الخيـارُ
ولا تَستَبْدِلى مـنّى دَنِيًّـا * ولا بِرَمًّا(١) إذا حُثَّ القُتَـارُ(٢)
يُهَرْوِل فى الصـعير إذا رآه * وتُعجِـزُه مُلِمّـاتٌ كِبَارُ
فمثـلُ تأيُّم مـه بِكاحٌ * ومثـلُ تَمَوُّمٍ مـه آفتِقَـارُ

فاختارتْ وَرْدًا فتزوّجته على كُرْهٍ منها .

وقال :

أياوَيْحَ مَنْ أمسى تُخَلِّس(٣) عقـلُه * فأصـبح مدهوشًا به كلَّ مذهب
حليفًا من الخـلّانِ إلا مُعَـذَّرًا(٤) * يُضَاحِكُنى مَنْ كان يهـوَى تَجَنُّبِى

(١) الرمّ . النقيـل . (٢) القتار . ريح اللحم المشـوى . (٣) تخلس : سلب .
(٤) هو المقصر الذى لا عذر له ولكنه يتكلف العذر، ومنه قوله تعالى . (وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم) .

إذا ذُكرتْ ليلى عَقلتُ وراجعَتْ * روائعُ[1] عقلى من هَوًى مُتَشَعِّبِ
وقالوا صحيحٌ ما به طيفُ جِنَّةٍ * ولا الهمُّ إلا افتراء التكذّبِ
وشاهِدُ وجْدِى دمعُ عينى وحُبُّها * بَرَى اللهمَ[2] عن أحناءِ عظمى ومِسكِبى
نحبَّتْ ليلى أن يَلِجَّ بكَ الهوى * وهيهاتَ كان الحبُّ قبل التجنُّبِ
ألا إنّما عادَرْتِ يا أمَّ مالكٍ * صَدًى[3] أيما تَذْهبْ به الريحُ يَذْهبِ
فلم أرَ ليلَى بعد مَوْقِفِ ساعةٍ * بخَيْفِ مِنًى تَرمِى جِمارَ المحصَّبِ
ويُبدِى الحصَى منها إذا قدفتْ به * من البُرْدِ أطرافَ البَنانِ المُخضَّبِ
فأصبحتُ من لَيْلَى الغَداةَ كقابضٍ * على الصبح فى أعقابِ نجمٍ مُغرِّبِ

قال أبو الفرج : أنشدنى الأخْفَش عن أبى سعيد السُّكرىّ عن محمد بن حبيب للمجنون :

فواللهِ ثم اللهِ إنّى لدائبٌ * أُفكّر ما دبِّى إليها وأنحَبُ
ووالله ما أدرِى عَلامَ قتلتنى * وأىَّ أمورى فيك ياليلَ أركبُ
أأقطَعُ حبلَ الوصلِ فالموتُ دونه * أمَ آشربُ رَنْقا منكمُ ليس يُشرَبُ
أمَ آهرُبُ حتى لا أرَى لى مجاورا * أمَ آصنعُ ماذا أم أبوح فأُعتَبُ
فأيّهما ياليلَ ما ترتضيانِه * فإنّى لمظلومٌ وإنّى لمُعْتِبُ

وقال :

عَرَضتُ على قلبى العَزاءَ فقال لى * من الآنَ فاياسْ لا أعزّك من صَبْرِ
إذا بان مَنْ تهوَى وأصبح نائيًا * فلا شىءَ أجدَى من حُلُولكَ فى القبر

---

(١) الروائع . جمع رائعة ، أى مرتاعة . (٢) الأحناء : جمع حنو وهو كل شىء فيه اعوجاج كعظم الجاجح (العظم الذى يبنت عليه الحاجب) والمعى والضلع . (٣) الصدى الجسد من الآدمىّ بعد موته ، ويطلق على الرجل الخبيث الجسد ، كما أنه يطلق على الصوت الذى يسمعه المصوّت عقب صياحه راجعا اليه من نحو الجبل والماء المرتفع .

وداعٍ دعا إذ نحن بالخَيْف من منًى * فهيَّجَ أطرابَ(١) الفؤاد وما يدرى
دعا باسم ليـــلى غيرَها فكأنّما * أطارَ بليلى طائرًا كان فى صـدرى
دعا باسم ليـــلى صلَّى اللهُ سـعيَه * وليـــلَى بأرضٍ عـه نازحةٍ قفر

وقال :

أيا حَـلَّ نعمانَ بالله حَلِّيَا * سبيل الصَّبا يَخلُصْ إلىّ نسيمُها
أحدْ بردَها أو تَشْفِ منّى حرارةً * على كَبِدٍ لم يبقَ إلا صَميمُها(٢)
فانّ الصَّبا ريحٌ إذا ما تنسّمتْ * على نَفْسِ محزونٍ تجلَّتْ هُمُومُها

وقال :

أيا حَرَجَاتِ(٣) الحىّ حيث تحمّلوا * بدى سَـلِمٍ(٤) لا جادَكُنَّ رَبيعُ
وحَيَاتُكِ اللاتى بمُعرَج اللِّوَى * بَلِينَ بِلًى لم تَبلَهُنّ رُسُـوعُ
نَدِمتُ على ما كان منّى ندامةً * كما سَدَمُ المغبونُ حين يبيعُ(٦)
فَقَدتُكِ من نصبٍ شَعَاعٍ(٥) فإنّى * نهيتُكِ عن هـذا وأنتِ جميع
فقرّبتِ لى عيرَ القريب وأشرفتْ(٧) * إليـــكِ ثَـنايا(٨) ما لهنّ طُلُوعُ

وله :

يا صاحِبىّ ألمّا بى بمـــرلةٍ * قد مرّ حينٌ عليها أيّمَا حِيبِ
إنى أُرَى رَحَمَاتِ الحبّ تَقتُلُنى * وكان فى نَدْبِها ما كان يَكْفِينى
لا حيرَ فى الحبّ ليستْ فيه قَارِعةٌ(٩) * كأنّ صاحبَها فى نَزْعِ موتون

---

(١) الأطراب جمع طرب وهو حفة تعتى الشخص من شدة الفرح أو الحزن . (٢) صميمها : أصلها .
(٣) الحرجات جمع حرجة وهى العيصة ، وسميت بذلك لضيقها ، وقيل : الشجر الملتف ، وهى أيضا الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل اليها الآكلة وهى ما رعى من المال . (٤) دو سلم : موضع بالحجاز .
(٥) يقال : نصب شعاع اذا انتشر رأيها فلم تحمه لأمر حزم . (٦) الحميع : صدّ المتعرق .
(٧) أشرفت : طهرت وارتفعت . (٨) الثنايا : جمع ثنية وهى الطريقة فى الجبل ، وقيل : هى العقبة ، وقيل : هى الطريق العالى فيه ، يريد أن الوصول الى ليلى صعب لا يستطيعه . (٩) الموتون : المصروب على الوتين ، وهو عرق معلق بياط القلب .

إن قال عُدَّالُهُ مَهْـلًا فَلَانَ لهم ؛ قال الهوَى عيرُ هدا القولِ يَعْنِينى
ألْقَى من اليأس تاراتٍ فتقتُلُنى * ولِلـــرجاء بشاشاتٌ فتُحْيِينى

وله :

أُمُسْتَقْبِلِي نَفْحُ الصَّبَا ثم شَائِقِي بَرْدِ ثَنَـايا أُمِّ حَسَّانَ شائِقِ
كأنَّ على أنيابها الخمرَ شَمُّها(١) ، بماء الدى مس آخرِ الليلِ عَاتِقُ(٢)
وما شِمْتُـــه إلا معيـنِي تَفَرُّسًا * كما شِيم فى أعلى السّحابةِ بَارِقُ

وروى الأصمعىّ له قولَه :

أحدَثْ محاسَ كلَّ ما * صَدَّتْ محاسـهُ بحُسْنِهْ
كاد الغـــزالُ يكونُها * لولا الشَّوَى ونُشُوزُ قَرْنِهْ

قال : وهو القائل :

ولم أرَ ليلَى بعـــد موقفِ ساعةٍ * بجَنْبِ مِنًى رمى جِمارَ المحصَّبِ
ويُبْدِى الحصى منها إدا قَدَفَتْ به * من الـبُرْدِ أطرافَ البَنَانِ المخضَّبِ
فأصبحتُ مِن لَيْلَى الغـداةَ كناظرٍ * مع الصبح فى أعقابِ نجمٍ مُغَرِّبِ
ألا إنّمـا عادَرْتِ يا أمَّ مالكٍ * صَدًى أيما تَذْهَبْ به الريحُ يذهَبِ

وقال :

يقول أناسٌ عَلَّ مجنونَ عامرٍ * يرومُ سُـلُوًّا قلتُ أنَّى لِمَا بِيَا
وقد لامنِي فى حُبِّ ليـــلى أقاربى * أحى وابنُ عمّى وابنُ خالِي وخالِيَـا
يقولون ليلَى أهلُ بيتٍ عَدَاوِهِ * بعمسَى ليـلى مِن عَدُوٍّ وماليَـا
ولو كان فى ليلى شَدًّا من خصومةٍ * لَلَوَّيتُ أعـناقَ المَطِىّ المَـلاوِيَا(٣)

---

(١) شمها : مزجها .
(٢) العاتق : الكر التى لم تبن عن أهلها ، والظاهر أنها ليست مرادة هنا وأن كلمة «عاتق» محرّفة عن «ساتق» وهو الساتق فى العبوق أى العشىّ .
(٣) الملاوى : جمع ملوى وهو مصدر ميمىّ من لوى بمعنى حلف .

وقال :

ألا ما لِلَيـلَى لا تُرَى عند مَضْجَعِي * لَيـــلٍ ولا يَحْـــرِى بذلكَ طائرُ
لَـلَى إنّ نُجْمَ الطيرِ تَحـرِى إذا حَرَتْ * لَيـلَى ولكن ليس للطير زاجرُ
أ زالَتْ عن العهـد الذى كان بيننا * بِذِى الأَثْلِ أم قد غيَّرتْهـا المقادرُ
فوالله مافى القـــرب لى منكِ راحةٌ . ولا البعـــدُ يُسْلِينِى ولا أنا صابرُ
ووالله ما أدرِى بأيّةِ حِيـلَةٍ ، وأىِّ مَرَامٍ أو خِطـارٍ[1] أُحاطِـــرُ
وتالله إنّ الدهرَ فى ذاتِ بينِنا * علىّ لها فى كلِّ حالٍ لجـائرُ
فلو كنتِ إذ أرمعتِ هَجرِى تركتِنِى * جميعَ[2] القُوَى والعقـــلُ منِّى وافـرُ
ولكنّ أيامِى بِحَقْـلِ[3] عُـــيرَةٍ * وبالرَّضْمِ أيامٌ جبـاها التَّحَاوُرُ
وقد أصبح الوُدُّ الذى كان بيننـا * أمانِىَّ نفسٍ والمؤمَّـــلُ حائرُ
لَعَمْرِى لقـــد رَنَّقْتِ[4] يا أمَّ مالكٍ * حياتِى وسـاقَتْنِى إليكِ المقـادرُ

وقال :

يا لَلرِّجالِ لِهـمٍّ باتَ يَعْـــرُونِى * مُستطْرَفٍ وقـديمٍ كان يَعْتِينِى
على عَرِيمٍ مَلِىءٍ[5] عِرْدِى عُـــدُمٍ[6] * يأبَى فيمْطُلُنِى دَيْنِى ويَلْوِينِى[7]
لا يذكُرُ البعضَ مِن دَيْنِى فَيُنكِرُه * ولا يُحَدِّثُنِى أنْ سوف يَقْضِينِى
وما كَشُكْرِىَ شُـكْرٌ لو يُوافِقُنِى * ولا مُنًى كَمُنَاهُ إذ يُمَنِّينِى

---

(١) الخطار . مصدر من خاطر بمعنى راهن .

(٢) جميع . مجتمع . (٣) الحقل . المزرعة ويطلق على الموضع البكر الذى لم يزرع فيه قط . وعيرة : موضع بين الصرة ومكة . والرضم موضع على ستة أميال من رُمَّالة ، ورمالة : منزل معروف بطريق مكة من الكوفة . (٤) رنقت : كدرت ، والترنيق كما يطلق على التكدير يطلق على صدّه الذى هو التصفية .

(٥) ملىء بالهمز أى ثقة عنّى . قال صاحب اللسان : وقد أولع فيه الناس بترك الهمز وتشديد الياء .

(٦) عدم أى فقر ومثله العدم بضم العين وسكون الدال . قال صاحب اللسان : اذا ضممت أوّله حمعت فقلت : العدم واذا فتحت أوّله ثقلت فقلت : العدم . (٧) يلوينى : يمطلنى ، يقال . لواه دينه وبدينه . مطله .

أطعتُه وعَصَيتُ الناسَ كُلَّهُمُ ، فى أمره ثم يأبَى فهو يَعْصِينِي
حَيرى لمن يتنى حيرى ويأمُلُه * من دون شرّى وشَرِّى غيرُ مأمون
وما أُشارِكُ فى رأيٍ أحا صَعَفٍ (١) * ولا أقولُ أخى مَنْ لا يُوَاتِينِى (٢)

وله :

ألا أيُّها البيتُ الذى لا أَزُورُه * وإن حَلَّه شخصٌ إلىّ حبيبُ
هجرتُكَ إشفاقا وزرتُك حائما * وفيك علىّ الدهرَ مكَ رقيبُ
سأستعتِبُ الأيامَ فيكَ لعلّها * بيومِ سُرورٍ فى الزمان تؤوبُ

وبلغ المجبون أن أهل ليلى يريدون نقلها إلى الثّقفىّ فقال :

كأنّ القلبَ ليلةَ قيلَ يُغدَى * بليلَى العامريّةِ أو يُراحُ
قَطاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتَتْ ، تُحادِرُه وقد عَلِقَ الجَناحُ

فلما نُقلتْ ليلى إلى الثّقفىّ قال :

طرِبتَ وشاقتكَ الحُمُولُ (٣) الدّوافعُ * عَداه دعا بالبين أسْفَعُ (٤) بارعُ
شَحَا (٥) فَاهُ نعمًا (٦) بالفراق كأنه * حَرِيبٌ (٧) سَلِيبٌ بازِحُ الدار جازِعُ
فقلتُ ألا قد بيِّنَ (٨) الأمرُ فانصرف * فقد راعَنا بالبين قبلكَ رائعُ
سُقِيتَ سُمُوما من عراب فإنّى * تبيّنتُ ما خبّرتَ مد أنتَ واقعُ

---

(١) الصعف هكذا بالتحريك . لغة فى الصعف بالفتح والسكون . ويستعمل فى صعف الرأى والعقل ، وأشد عليه ابن الأعرابىّ هذا البيت ويستعمل فى صعف الجسم وأشد عليه :

ومن يلق حيرا يعمر الدهر عطمه * على صعف من حاله وفتور

(٢) يواتينى : يساعدنى .

(٣) الحمول فى الأصل : الهوادج واحدها حمل ثم اتسع فيها وصارت تستعمل فى الإبل التى عليها الهوادج . والدوافع : المندفعة فى السير . (٤) كذا فى أغلب النسخ وتربين الأسواق . وفى ب ، ص . «أسحم» والأسفع والأسحم معناهما واحد وهو الأسود . والبارع المسرع . والمراد بالأسفع البارع «بالعراب» .

(٥) شحاه يشحوه ويشحاه . فتحه . (٦) نعما . صياحا وتصويتا . (٧) الحريب من سلب حريته وهى ماله الذى يقوم به أمره . (٨) بين بمعنى تبين ، ومنه المثل «قد بين الصبح لذى عينين» .

ألم تَـــرَ أنّى لا أُحِبُّ ألومُـــه ** ولا بِـــدِيلٍ سَـــدهم أنا قانع
ألم تر دارَ الحىّ فى رونقِ الضحى * بحيثُ انحنتْ للهَضْبتين الأَجَارِعُ(١)
وقد يتناءى الإلْفُ من بعد أُلْفةٍ * ويصدَعُ ما بين الخليطين صادِعُ
وكم من هوًى(٢) أو جِيرةٍ قـد أَلِفتُهم . زمانا فـلم يمنعهمُ البينَ مانِـعُ
كأنّى عداةَ البينِ مَيِّتُ جوبةٍ(٣) * أحو طِمِلٍ سُـدّتْ عليـه المشارِعُ
تحلّس(٤) من أوشال(٥) ماءٍ صُبَابةً(٦) * فـلا الشُّربُ مبذولٌ ولا هو ناقِعُ
وبيضٍ تَطَلّى بالعَبِـيرِ كأنهـا * بِعاجُ المَلا(٧) جِيَبتْ(٨) عليها البراقِعُ
تحلّى من وادى الأراكِ فأومَضَت(٩) . لهنّ بأطراف العيون المدامِعُ
فما رِمْنَ(١٠) ربعَ الدار حتى تشابهتْ * هُمائمُها(١١) والحُورُ منها الخواضِعُ
وحى حملَ الحُورَ(١٢) من كلّ حاب(١٣) * وحاصت سُدُولَ(١٤) الرَّقْمِ منها الأكارِعُ(١٥)

(١) الهضبتان . مثنى هضبة وهى الرابية أو الجبل المنبسط على الأرض أو الجبل المخلوق من صخرة واحدة ، والأجارع : جمع أجرع ، والأجرع كالجرعاء الأرض ذات الحزونة تنشأ كل الرمل أو الرملة السهلة المستوية أو القطعة من الرمل لا تنبت شيئا (انظر اللسان فى مادتى هضب وجرع) . (٢) الهوى بمعنى المهوىّ وهو المحبوب ، ومنه قول الشاعر

هَوَاىَ مع الركب اليَمَانِين مُصْعِدٌ * جنيبٌ وجُثمانى بمكة مُوثَقُ

(٣) الجوبة : فضاء أملس سهل بين أرضين . (٤) تحلس الشىء : البسه وأخذه جلسة . (٥) الأوشال جمع وشل وهو الماء القليل . والصبابة : بقية الماء تبقى فى الاناء والسقاء . (٦) هو من نقع بمعنى روى . (٧) الملا . الصحراء . (٨) أى قطعت . (٩) هو واد قرب مكة . (١٠) معناه ما برحن . يقال ما رام المكان أى ما برحه . (١١) الهمائم . الابل البيضاء الكريمة واحدها همام . والحور جمع حوراء مفتح الحيم وهو الأسود المشرب بحمرة ، ويطلق على الأسود اليحمومى وعلى الأبيض فهو من أسماء الأضداد . (١٢) الخواضع الابل وإنما يقال لها خواضع لأنها تخوض أعناقها حين يحثّ بها السير ، قال جرير .

ولقد ذكرتك والمطىّ خواضع * وكأنهنّ قطًا فَـلاةٍ مَحْفَلِ

(١٣) الحور . جمع حوراء وهى البيضاء أو من فى عينها حور وهو شدة سواد المقلة فى شدة بياضها . (١٤) السدول جمع سدول وهو ما يحلل به الهودج من الثياب . (١٥) الأكارع : جمع أكرع والأكرع جمع كراع ، أو الأكارع كما يقول سيبويه جمع كراع على غير قياس . والكراع من الانسان : ما دون الركبة الى الكعب ، ومن الدابة قوائمها مطلقا .

فلما أستوتْ نحتَ الخدورِ وقد جرى * عَبيرٌ ومسكٌ بالعرابينِ رَادِعُ (١)
أَشَرْنَ بأن حُنُّوا الجمالَ فقد بدا * من الصيف يومٌ لاذعُ الحرِّ ماتِعُ (٢)
فلما لَحِقْنَا بالحُـــول تباشَرَتْ * بنا مُقْصِرَاتٌ (٣) عاد عنها المطامِعُ
يُعَرِّصُ بالدَّلِّ المَلِيحِ وإن يُرِدْ * حَنَاهُنَّ مشعوفٌ فهنَّ مَوَانِعُ
فقلتُ لأصحابي ودَمعِيَ مُسْبَلٌ * وقد صَدَعَ الشملَ المشتَّتَ صَادِعُ
أليلَى بأبواب الخُـــدورِ تعرَّضَتْ * لِعَنْيَ أم قردٌ من الشمس طالعُ

وروى أن أبا المجنون حجّ به ليدعوَ الله عزّ وجلّ فى الموقف أن يُعافيَه، فسار ومعه عمّه زيادُ بنُ كعب بن مُزَاحِم، فمرّ بحمامة تدعو (٤) على أيْكة فوقف يبكى، فقال له زياد: أىّ شىء هذا؟ ما يُبْكِيك أيضا؟ سر بنا بلحَقِ الرُّفقة، فقال:

أأن هَتَفَتْ يوما بوادٍ حمامةٌ * بكيتَ ولم يَعْذِرك بالجهل عاذِرُ
دعَتْ ساقَ (٥) حرٍّ بعد ماعَلَتِ الضُّحَى * فهاح لكَ الأحزانَ أن باحَ طائرُ
تُغنِّى الضُّحَى والصُّبحَ فى مُرْجَحِنَّةٍ (٦) * كَنَافِ الأعَالِى تحتها الماءُ (٧) حائرُ
كأن لم يكن بالغَمْر أو بطنِ أيْكةٍ (٨) (٩) * أو الخِزْعِ (١٠) من تول الأُشَاءِ (١١) حاضرُ

---

(١) المراد بالرادع هنا المردوع به الجسد أو الثوب وهو العبير والمسك . وأصل الردع اللطخ بالطيب والزعفران، يقال : قميص رادع ومردوع أى فيه أثر الطيب والزعفران، وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما « لم يبه عن شىء من الأدوية الا عن المزعفرة التى تردع الجلد» أى تلصق صبغها عليه . (٢) الماتع الطويل . (٣) مقصرات . جمع مقصرة أى داخلة فى القصر وهو العشىّ، يقال أتيته قصرا أى عشيا، وأقصرنا أى دخلنا فى قصر العشى، كما تقول أمسينا من المساء من أعصرتِ الحارية اذا دلفت عصر شبابها، أو من أعصرت أى دخلت فى العصر (انظر لسان العرب مادة قصر) .

(٤) تدعو . تصوّت وتنوح . (٥) ساق حرّ أصله صوت القمارى و يطلق على الذكر من القمارى تسمية له باسم صوته وهو المراد هنا (انظر اللسان مادتى سوق وحرّ) . (٦) المرجحنة المهتزة المتمايلة . (٧) حائر متردّد . (٨) الغيل : اسم لعدّة مواضع والظاهر أنّ المراد هنا واد لبنى حمدة وهم قوم المجنون . (٩) الأيكة الغيضة الملتفة الأشجار ولم يحدّ فى الكتب التى بأيدينا « أيكة » ولا « بطن أيكة » اسما لموضع خاص كما هو المناسب للسياق . (١) الخزع . منعطف الوادى ولعله هنا اسم لموضع خاص وقد يكون خزع بنى حمار وهو واد باليمامة . (١١) الأشاءة . موضع باليمامة فيه نخيل . ولعل كلمة « تول » محرّفة عن « تال » والتال : صغار النخل واحدته تالة .

يقول زِيادٌ إذ رأى الحيَّ هَجَّرُوا[١] * أرَى الحيَّ قد ساروا فهل أنتَ سائرُ
وإنّى وإن عَالَ[٢] التقـادُمُ حاجتى مُلِمٌّ على أوطان لَيْـلَى فَـاظِرُ

كان المجنونُ وليلَى وهما صَبيّانِ يَرعَيانِ عِيما لأهلهما عـند جبلٍ فى بلادهما يقـال له التو ماد[٣]، فلما ذهب عقـله وتوحّش، كان يجىء إلى ذلك الجبل فيقيمُ به، فإذا تذكر أيام كان يُطيف هو وليلى به جرع جرعا شديدا وٱستوحش فهام على وجهه حتى يأتى نواحى الشام، فإذا ثاب إليه عقله رأى بلدا لا يعرفه فيقول للناس الذين يلقاهم : بأبى أنتم، أيى التو ماد من أرض بى عامر ؟ فيقـال له : وأيى أنت من أرض بى عامر ! أنت بالشام عليك بحمص كذا فَأمِّه، فيمضى على وجهه نحو ذلك البحر حتى يقع بأرض اليمن، فيرى بلادا يُنكِرها وقوما لا يعرِفهم فيسألهم عن التو ماد وأرض بى عامر، فيقولون : وأيى أنت من أرض بى عامر ! عليك بحمص كذا وكذا ، فلا يزال كذلك حتى يقع على التو مادِ ، فإذا رآه قال فى ذلك :

وأحْهَشْتُ[٤] للتَّو مادِ حين رأيتُـه * وكَبَّرَ للرحمن حينَ رآنى
وأذرَيتُ دمعَ العين لمّا عرفتُه * ونادى بأعلى صـــوته فدعانى
فقلتُ له قد كان حولكَ حِيرةٌ * وعهدى بذاكَ الصّرم منذ زمانِ
فقال مَضَوْا وٱستودَعُونى بلادَهم . ومَنْ ذا الذى يبقَى على الحدَثانِ
وإنى لأبكى اليومَ من حَذَرِى غدًا * فِـراقَكَ والحيَّانِ مُجتَمِعَانِ
سِحَالًا[٥] وتَهْتَانًا ووَبْلًا ودِيمَـةً * وسَحًّا[٦] وتَسْحَامًا[٧] الى هَمَلَانِ

(١) هجروا . ساروا فى وقت الهاجرة . (٢) عال الشيء . دهب به . (٣) التو ماد (بالدال المهملة) وهو الموافق لما فى معجم ما ٱستعجم للبكرى إذ قال فى ضبطه . هو بفتح أوّله وبا، معجمة بواحدة ودال مهملة وأنشد عليه :

* وأحهشت التو ماد حين رأيته * البيت .

وضبطه ياقوت بالدال المعجمة فقال فى معجمه « تو ماد » بالفتح ثم السكون والباء موحدة وآخره ذال معجمة : حبل بنجد . (٤) أحهشت : تهيأت للبكاء . (٥) يقال . هتنت السماء تهتن هتنا وتهتانا أى صبت . (٦) يقال : سحمت السحابة مطرها تسحيما وتسحاما اذا صبته . (٧) الهملان . فيض العين بالدموع .

وكان المجنون يسير مع أصحابه فسمع صائحا يصيح : يا ليلى فى ليلة ظلماء أو توهم ذلك، فقال لبعض من معه : أما تسمع هذا الصوت ؟ فقال : ما سمعت شيئا، قال . بلى ، والله هاتف يهتف بليلى، ثم أنشأ يقول :

أقولُ لأدنَى صاحبَىَّ كُلَيمةٌ ، أُسِرَّتْ من الأقصى أجِبْ دا المادِيَا
إذا سِرْتُ فى الأرضِ الفضاءِ رأيتُنِى * أُصانِعُ رَحْلِى(١) أن يَميلَ حِيَالِيَا
يميناً إذا كانت يميناً وإن تكن * شِمالًا يُبارِعْنِى الهوَى عن شِمَالِيَا

خطب ليلَى صاحبةَ المجنون جماعةٌ من قومها فكرِهَتْهم ، فخطبها رجلٌ من ثقيف مُوسِرٌ فرضيتْه ، وكان جميلا فتزوّجها وخرج بها، فقال المجنونُ فى ذلك :

ألا إنّ ليلى كالمَلِيحةِ(٢) أصبحَتْ * تَقَطَّعُ إلا من ثقيفٍ حبالُها
فقد حبسوها تَحْبِسَ النُّدْبِ وابتغَى * بها الربحَ أقوامٌ تَساحَتْ(٣) مالُها
حبالَى هل من حيلةٍ تعلمانها * يُدَنِّى لنا تكليمَ ليلَى اختيالُها
فإن أنتما لم تَعْلَمَاها فلستُما * بآوِلِ باغٍ حاجةً لا ينالُها
كأنّ معَ الركب الذين اعتَدَوْا بها * عمامةَ صيفٍ زعزعَتْها شَمَالُها
نظرتُ تُمَصِّى سَيْلِ جَوْشَنَ(٤) إذ عَدَوْا * تَحُبُّ بأطرافِ المَخَارِمِ(٥) آلُها
بشافيةِ الأحزانِ هيَّجَ شوقَها * مُحَامَعَةُ الأُلّافِ ثم زِيالُها
إذا ألتفتْ من حَلْفِها وهى تَعْتَلِى ، بها العِيسُ حَلَّ عَبْرَةَ العينِ حَالُها

(١) الرحل ما يوضع على البعير للركوب ثم يعبر به عن البعير .
(٢) المليحة فى الأصل . الشاة أو الناقة يعطيها صاحبها رحلا يشرب لبنها ثم يردّها اذا انقطع اللبن، ثم كثر استعمالها فى كل موهوب . (٣) يقال أسحت ماله . استأصله وأفسده ، ومال مسحوت ومسحت أى مذهب . وأسحتت تجارته : خسرت وخرمت ، ولم يحسد فى كتب اللغة « تساحت » على ورد تفاعل من هذه المادة
(٤) لم يحد فى بلاد العرب ما يسمى جوشن الا جبلا فى عرض حلب . (٥) المخارم (بالراء المهملة) جمع مخرم وهو الطريق فى الجبل أو الرمل .

وأَحْبِسُ عنكِ النفسَ والنفسُ صَبَّةٌ * بذِكْرَاكِ وَالْمُثنَى إليـــكِ قـريبُ
محافةَ أن تسعى الوُشَاةُ بِطِلَّـــةٍ * وأَحْرُسُكم أن يســـتريبَ مُرِيبُ
فقد حملتْ نفسى ـ وأنتِ أحترمتِه * وكنتِ أعزَّ الناسِ ـ عنكِ تَطِيبُ
فلو شئتِ لم أَغضَبْ عليكِ ولم يزل * لكِ الدهرَ منِّى ما حييتُ نصيبُ
أَمَا والذى تَسْـــلُو السرائرَ كلَّهَـا * ويعـــلَمُ ما نُـــدِى به وتَغِيبُ
لقد كنتِ ممن تَصْطَفِى النفسُ خُلَّةً * لهـا دون خُلَّانِ الصَّـــفاء حُجُوبُ

---

٢ — قيس بن ذَرِيح[1]

من شعر قيس .

يقولون لُبْنَى فتنـــةٌ كنت قبلهـا * بحـــيرٍ فلا تـــدَمْ عليهـا وطَلِّقِ
فطاوعتُ أعدائى وعاصَيْتُ ناصحى * وأقـررتُ عينَ الشامت المتحلّق
وَدِدْتُ و بيتِ الله أنى عَصَـــيتُهم * وحُمِّلتُ فى رِضْوانهـا كلّ مُوبِق
وكُلِّفتُ خوضَ البحر والبحرُ راخرٌ * أبِيتُ على أشـــاح مَوح مغـــرَّق

---

(١) هو قيس بن ذريح الكنانى من ليث بن بكر كان منزل قومه بظاهر المدينـــة . من لمعص حاجته بحيائه بنى كعب بن خزاعة ورأى لبنى فتاة الحباب الكعبية ، وكانت فتاة جميلة ، فعلقها ، فعلمها من أبيه فمنعه إياها لمكانه من الثروة ، وكان يريد أن يزوجه من بنات عمومته حتى يحفظ تراثه فى أهله ، فطار لب قيس وتقسمت نفسه ودهب ، فاستشفع بأخيه من الرضاع ، الحسين بن على ، فوعده ما أحب وتزوجها ومكثا زمنا ولم يعقبا ، وشمل قيسا حب لبنى على مواساة أمه فاضطجعت على زوجه وسعت بها عند أبيه متحدة عدم الولد سلما ترق به الى شرها ، فطلب اليه أبوه أن يطلقها فأبى ، فما زال به بالوعد والوعيد حتى أجابه الى طلبته ، وكان فى ذلك القضاء الأخير على ما لقيس من حظ وعقل فى هذه الحياة ولم يتمتع بتزويجه بعيرها ، وطارت نفسه شعاعا وذهب على وجهه يتنسم أخبار لبنى و يمرغ خده فى آثارها ، و بقى طول حياته يساقط من نفسه على شعره غير عانىٍ شقاء بدنه و إهدار دمه حتى لفظ النفس الأخير . وأخبار قيس كثـــيرة فى الأغانى (ج ٨ ص ١١٢) والشعر والشعراء (ص ٣٩٩) وله ديوان مشروح ، ومنه نسخة فى مكتبة الاسكوريال وغيرها فى برلين .

كأنى أرى الناس المحبين بعدها * عُصارةَ ماءِ الحنظل المتفلّق
فتُنكر عينى بعدها كلَّ منظرٍ ، ويكره سمعى بعدها كلَّ منطِق

وخرج قيس فى فتيه من قومه واعتلّ على أبيه بالصيد ، فأتى بلادَ لُبْنى ، بجعل يتوقع أن يراها أو يرى من يُرسِل اليها ، فاشتغل الفتيانُ بالصيد ، فلما قضَوْا وطَرَهم منه رجعوا اليه وهو واقف ، فقالوا له : قد عَرَفْنا ما أردتَ بإخراجنا معك وأنك لم تُرِد الصيد وإنما أردتَ لقاء لبنى وقد تعذّر عليك ، فانصرف الآن ، فقال :

وما حائماتٌ حُمَّ يوماً وليلةً على الماء يَغشَيْنَ العِصِىَّ حَوَانى
عَوَافِىَ لا يصدُرنَ عنه لوحهِهِ * ولا هنّ من بَرْد الحِياض دَوَانى
يَرَيْنَ حَبَاب الماء والموتُ دونه فهن لأصوات السُّقاه رَوَانى
بأحهدَ منى حَرَّ شوقٍ ولوعةٍ * عليكِ ولكنّ العدوّ عدانى
حليلَىّ إنى ميّتٌ أو مكلَّمٌ . لُتَبْنَى سرًّى فأمْضيا وذَرَانى
أَلَلَّ حاجتى وحدى ويارُبّ حاجةٍ * قضيتُ على هولٍ وخوفٍ حَمان
فإنّى أحقُّ الناسِ ألّا تُحاوِرَا * وتَطْرِحا منى لو ينساء شفانى
ومن قادنى للموت حتى ادا صمتْ مشاربه السُّمّ الذُّعاف سقانى

فأقاموا معه حتى لفيها .

لما ألحّ ذَريح على ابنه قيس فى طلاق لبنى فأبى ذلك قيس ، طَرَح ذريح نفسه فى الرَّمْضاء وقال : لا والله لا أبرحُ هذا الموضعَ حتى أموتَ أو يُحَلِّيها ، فجاءه قومه من كل ناحية فعظّموا عليه الأمر ودكّروه الله وقالوا : أتفعل هذا بأبيك وأمك ! إن مات شيخك على هذه الحال كنت مُعينا عليه وشريكا فى قتله ، فعارق لبنى على رغم أنفه وقلّة صبره وبكاءٍ منه حتى بكى لهما من حضرهما ، وأنشأ يقول :

أقولُ لخِلّى فى غير حُرْمٍ * ألا بِنِى ، بنفسىَ أنتِ ، بِنِى
فوالله العظيم لَنَزْعُ نفسى * وقطعُ الرِّحل منى والبينِ

أحبُّ إلىّ يا لُبْنَى مِراقًا * فَبكّى للفراق وأسعدينى
ظلمتُكِ بالطّلاق بغير جُرْمٍ * فقد أذهبتِ آخرتى ودينى

قال : فلما سمعت ذلك لبنى بكت بكاء شديدا، وأنشأت تقول :

رحَلتُ اليه من بلدى وأهلى * بجازانى جـــزاءَ الخائنيا
فمَنْ رَانى فلا يغترَّ بعـدى * بحُلْوِ القـول أو يَبْلُو الدَّهيا

فلما أنقضت عِدّتها وأرادت الشخوصَ الى أهلها أُتِيتْ براحلة لتُحمَل عليها ، فلما رأى ذلك قيسٌ داحله أمرٌ عظيم وأشتدّ لهمه، وأنشأ يقول :

بانتْ لُبنى فأنت اليـوم متبولُ * وإنك اليومَ بعـد الحزم مخـبولُ
فأصبحتْ عنك لبنى اليومَ نازحةً * وذَلَّ لبنى ـ لها الخيراتُ ـ معسولُ
هـل تَرْجعنّ نَوَى لبنى بعاقبـةٍ * كما عهدتُ ليالى العشـقُ مقبول
وقـد أرانى بلبنى حقَّ مضيعٍ * والشملُ مجتمعٌ والحبلُ موصـول
فصرتُ من حبّ لبنى حين أذكرها * القلبُ مرتَهَنٌ والعـقلُ مدخول
أصبحت من حبّ لبنى بل تذكّرها * فى كُربةٍ فعؤادى اليومَ مشـغولُ
والجسم منّى منهوكٌ لفرقتهـا * يَبْريه طولُ سَـقَامٍ فهو منحولُ
كأنى يومَ وَلّتْ ما تكلّمنى * أحو هُيَامٍ مصابُ القلب مسلولُ
أســتودع اللهَ لبنى اذ تُفـارقنى * عن غير طوعٍ وأمرُ الشيخ مفعولُ

ثم ٱرتحلت لبنى، فجعل قيس يقبّـل موضع رحليها من الأرض وحول خِبائها ، فلما رأى ذلك قومه أقبلوا على أبيه بالعَذْل واللوم، فقال دَرِيم لما رأى حاله تلك : قد جنَيتُ عليك يابُنىّ، فقال له قيس : قد كنتُ أحبرك أنى مجنون بها فلم ترضَ إلا بقتلى ، فالله حسبُك وحسبُ أمّى . وأقبل قومه يعذُلونه فى تقبيل التراب، فأنشأ يقول :

فما حُبّى لطيبِ تراب أرضٍ * ولكن حبّ من وَطِئ التُّرابا
فهذا فعل شيخَيْنا جميعًا * أرادا لى الليّـــة والعَـــذابا

وله قصيدة طويلة فى تطليقه لبنى يقول فيها :

فؤادى وعاودنى رُدَاعى[1] * وكان رِاقُ لنى كالجَذَاعِ[2]
تكنّفنى الوُشاةُ فازعجونى * فيالَلّهِ للواشى المُطَاعِ
فأصبحتُ الغداةَ ألومُ نفسى * على شىء وليس بمستطاع
كمغبونٍ يَعَضُّ على يديه * تَبَيّنَ غَبْنَه بعد البياع
بدار مَضيعةٍ تركُكَ لُبْنى * كذاك الحَيْنُ يُهْدى للصاع
وقد عشنا نَلَذّ العيشَ حينًا * لو آنّ الدهرَ للإنسان واعى
ولكنّ الجميعَ الى افتراقٍ * وأسباب الحتوف لها دَوَاعى

واجتمع إليه نسوة فأطَلْنَ الحلوسَ عنده وحادثْنَه وهو ساهٍ عنهنّ، ثم نادى : يا لبنى، فقلن له : مالك ويحك ؟ فقال : حَدِرتْ رحلى « ويقال : إن دعاء الانسان باسم أحبِّ الناس اليه يُذهب حَدَرَ الرجل، فاديتها لذلك . وقال :

اذا حَدِرَتْ رجلى تذكّرتُ من لها * فاديتُ لُبنَى باسمها ودعَوْتُ
دعوت التى لو أنّ نفسى تُطيعنى * لفارقتُها من حبّها وقضيتُ
برَتْ نبلَها للصّيد لُنْىَ وريّشتْ * وريّشتُ أخرى مثلَها وبَرَيْتُ
فلمّا رمتنى أقْصَدتنى بسهمها * وأحطأتُها بالسهم حين رميْتُ
وفارقتُ لُبنى صَلّةً فكأننى * قَرَبْتُ الى العَيُّوق[3] ثم هَوَيْتُ
فياليتَ أنّى متُّ قبلَ فراقِها * وهل تَرجعنْ فوتَ القضيّة لَيْتُ
فصرتُ وشيخى كالذى عَثَرتْ به * عداةَ الوغى بين العُداة كُمَيْتُ
فقامتْ ولم تضرر هُزالًا سوية * وفارسُها تحت السّنابك ميْتُ
فان يك تَهْيامى لُبْنى غَوايةً * فقد يا ذَرِيحُ نَ الحباب غَوَيتُ

(١) الرداع . الكسء وهو رجوع المرض . (٢) الجذاع الموت (٣) هو نجم أحمر مضيء فى طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها .

فـلا أنت ما أقلتَ فىّ رأيتَـــه * ولا أنا لنى والحيـاه حـــوبتُ
فوطّنْ لهلكى منـــك نفسًا فإنى * كأنك بى قـد يا دريحُ قَصَمتُ

ومرض قيسٌ، فسأل أبوه فتَيَات الحىّ أن يَعُدْنه ويحدّثه أو يعلّق نفسَهن. ففعل ذلك، ودخل اليه طبيب ليداويه والفَتَيات معه، فلما اجتمعن عنده جعل يحادثه وأطْلَ السؤالَ عن سبب علته، فقال :

تَعَلّق رُوحى روحَها قبـــل خلقنا * ومن بعد ما كنا بِطاقاً وفى المهـدِ
فـــرادكما رِدنا فأصـــبح نامِيًـا * وليس ادا متنا بمُنْصرِمِ العهـــد
ولكنه باق على كل حادثٍ * وزائرنا فى ظلمة القبر واللحـــد

فقال له الطبيب : إن مما يسليك عنها أن تتذكر ما فيها من المساوى والمعايب، فان النفس تنبو حينئذ وتسلو ويخفّ ما بها.

فلما طال على قيس ما به أشار قومه على أبيه بأن يزوّجه امرأة حميلة فلعله يسلو بها عن لبنى، فدعاه الى ذلك فأباه وقال :

لقد خِفتُ ألّا تقنَعَ النفسُ بعدها * بشىء من الدنيـا وإن كان مقنعاً
وأزجرعها النفس اذ حيل دونَها * وتأبَى اليهـا النفسُ إلّا تطلُّعـا

ولما تزوّجت ابنى آخر أتى موضعَ خبائها فنزل عن راحلته وجعـل يتمعك[1] موضـعها ويمرّغ خدّه على ترابها ويبكى أحرّ بكاء ثم قال .

الى الله أشكو فقدَ لُبنى كما شكا * الى الله فقـــدَ الوالديْن يتـيمُ
يتيمٌ جفـاه الأقربون لجسمه * بحيـــلٌ وعهـــد الوالدين قديمُ
بكتْ دارُهم من بأيهم فتهلّلت * دموعى فأىّ الجـازعيْنِ ألومُ
أمستعبرٌ يبكى من الشوق والهوى * أَمَ آخرُ يبـكى شجـــوَه ويَهيـمُ
تهيّضنى من حبّ لُبـنَى علائقٌ * وأصـــافُ حبّ هَوْلُهُنّ عظيمُ

(١) يتمعك : يتمرغ فى التراب .

ومن ينعلّق حبَّ لُنى فـؤادَه * يمتْ أو يعشْ ما عاش وهو كلمُ
فإنّى وإن أَتْمعتُ عنك تحلُّدا * على العهـد فيما سلفا لمقيمُ
وإن زمانا شتّت الشملَ بيننا * وبينكُمُ فيـه العـدا لمشومُ
أفى الحقّ هـذا أنّ قلبَك فارغٌ * صحيحٌ وقلبى فى هـواكِ سقيمُ

وقال فى رحيل لُنَى عن وطنها وانتقالها الى روحها بالمدينة وهو مقيم فى حيّها :

باتت لُيَى فهاج القلبَ من بانا * وكان ما وعدتْ مَطلا ولَيّانا (١)
وأحلفتـك مُنّى قد كتَ تأمُلُها * فأصبح القلبُ بعـد اليس حيرانا
الله يدرى وما يدرى به أحـدٌ * ماذا أُحَمِّم من دكراكِ أحيانا
يا أكمل الناس من قَرْنٍ الى قدمٍ * وأحسنَ الناس دا ثوب وعُريانا
نعم الصحيح بعَيـد اليوم نخلسه * اليـك ممتلئا نوما و يقظانا
لا بارك اللهُ فيمن كان يحسَـكم * إلا على العهـد حتى كان ما كانا
حتى استفقت أخبرا بعد ما نُكحتْ * فتّ للشـوق أُدرى الدمعَ تهتانا
إن تصبرى الحلَ أو تُمسى مفارقةً * فالدهرُ يُحدث للإنسان ألوانا
وما أرى مثلَكم فى الناس من نَشرٍ * فقـد رأتُ به حيًّا ونسوانا

وشكا أبو لبى لمعاوية تعرّض قيس لابنته بعد طلاقها، فكتب معاوية الى الأمير يُهدِر دمه إن ألمّ بها، وأن يشتدّ فى ذلك. فكتب مروان فى ذلك الى صاحب الماء الذى ينزله أبو لبنى كتابا وكيدا. ووجّهتْ لبنى رسولا الى قيس تُعلمه ما جرى وتحذّره، و بلغ أباه الخبر، فعاتبه وتجهّمه، وقال له : انهى بك الأمر الى أن يهدِر السلطان دمك ؟ فقال :

فان يحجبوها أو يَحُلْ دون وصلها * مقالةُ واشٍ أو وعيـدُ أميـرِ
فلن تمنعوا عينىّ من دائم البكا * ولن يُذهبوا ما قد أجَنّ ضميرى
الى الله أشكو ما أُلاقِى من الهوى * ومن حُرَقٍ تعتادنى وزفيـرِ

(١) اليان : الليّ والمطل، قال أبو الهيثم لم يجئ من المصادر على فعلان إلا ليان .

ومن حُرقٍ للحبّ فى باطن الحشى * وليلٍ طويلِ الحزن غيرِ قصيرِ
سأبكى على نفسى بعينٍ غزيرةٍ * بكاءَ حزينٍ فى الوثاق أسيرِ
وكنا جميعًا قبل أن يَظهرَ الهوى * نامم حالَىْ عِبْطةٍ وسرورِ
فما بَرِح الواشون حتى بدتْ لهم * بطونُ الهوى مقلوبةً لظهورِ
لقد كنتِ حَسْبَ النفس لو دام وصلُنا * ولكنما الدنيا متاعُ غرورِ

وقال فى إهدار معاوية دمَه إن هو زارها :

إن تك لُبنى قد أتى دون قربها * حجابٌ مبيعٌ ما اليه سبيلُ
فإن نسيمَ الحوّ يجمع بيننا * ونُبصر قَرنَ الشمس حين تزولُ
وأرواحُنا بالليل فى الحىّ تلتقى * ونعلَم أيًّا بالنهار نقيلُ
وتجمعنا الأرضُ القرار وفوقنا * سماءٌ نرى فيها النجومَ تجولُ
الى أن يعودَ الدهرُ سِلمًا وتنقضى * ترات نعاها عندَنا ودُحولُ(١)

ولما انصرف الناس من الحج مرِض قيس مرضا شديدا فلم يأته رسولها عائدا، فقال:

ألُبنى لقد حلَّتْ عليك مصيبتى * عداةَ عيدٍ إذ حلَّ ما أتوقّعُ
تُمنّينى نَيْلًا وتَلوينى قِلًى * فمسىَ شوقًا كلَّ يومٍ تقطّعُ
وقلبُك قطُّ لا يلين لما يَرَى * فواكبدى قد طال هذا التصرّعُ
ألومُك فى شأنى وأنتِ مُليمةٌ * لعمرى وأجفَى للحب وأقطعُ
أخُبِّرتِ أنى فيك ميّتُ حسرتى * فما فاض من عينيك للوحد مدمعُ
ولكن لعمرى قد بكيتُك جاهدا * وإن كان دائى كلُّه منك أجمعُ
صبيحةَ جاء العائداتُ يعُدْنَنى * فظَلّتْ علىّ العائداتُ تَفجّعُ
فقائلةٌ جئنا اليه وقد قضى * وقائلةٌ لا بل تركناه ينزِعُ
فما عشِيتْ عينيك من ذاك عَبرةٌ * وعينى على ما بى بذكراكِ تدمَعُ
اذا أنتِ لم تبكى علىّ جنازةً * لديك فلا تبكى غدا حين أُرفَعُ

(١) دحول : جمع دحل وهو الثأر .

ومن شعره قوله :

أتبكى على لُبنى وأنت تركتَها * وكنت عليها بالملا[1] أنت أقدرُ
فإن تكن الدنيا لُبنى تقلّتْ * علىّ فللدنيا بطونٌ وأظهرُ
لقد كان منها للأمانةِ موضعٌ * وللكفّ مُرْتادٌ وللعين منظرُ
وللحائم العطشانِ رِى ريقها * وللرِّح المختالِ خمرٌ ومُسْكِرُ
كأنّى لها أُرجوحةٌ بين أحبُلٍ * اذا ذُكرَتْ منها على القلبِ تخطرُ

وقوله :

لقد عذَّبتنى ياحب لبنى * فقعْ إمّا بموتٍ أو حياهِ
فانّ الموتَ أروَحُ من حياة * تدوم على التباعُدِ والشتاتِ
وقال الأقربون تَعزَّ عنها * فقلتُ لهم اذا حانتْ وَفاتى

وقالت له لبنى : أنشدنى ما قلت فى علتك، فأنشدها قولَه :

أُعالج من نفسى بقايا حُشاشةٍ * على رَمَقٍ والعائداتُ تعودُ
فان ذُكرتْ لبنى هَشَشتُ لذكرها * كما هَشّ للثَّدْى الذَّرور وليدُ
أُجيب بلبى من دعانى تحلُّدًا * وفى زَفراتٌ بجلى وتعود
تُعيد الى رُوحى الحياةَ وإننى * بنفسىَ لو عاينتنى لأجود

وفيها يقول :

ألا ليت أياماً مَضَينَ تعود * فإن عُدْنَ يومًا إننى لسعيدُ
سقى دارَ لبنى حيث حَلّتْ وخيَّمت * من الأرض مُنْهَلٌّ الغمام رعيدُ
على كل حالٍ إن دنتْ أو تباعدتْ * فإن تدنُ منّا فالدنو مَزيدُ
فلا اليأسُ يُسلينى ولا القربُ نافعى * ولبنى مَنُوعٌ ما تكاد تجودُ
كأنّى من لبنى سليمٌ مسهَّدٌ * يظَلّ على أيدى الرجال يَميدُ
رمتنى لُبَينى فى الفؤاد بسهمها * وسهم لبينى للفؤاد صَيُودُ

(١) الملا : موضع .

ســلا كلُّ ذى شجوٍ علمت مكانه * وقلــبى للســنى ما حَييتُ وَدود
وقائــلةٍ قــد مات أو هو ميت * وللنفس منى أن تفيضَ رصــيدُ

وعاتبته على روحه، فحلف أنه لم ينظر اليها ملء عينيه، ثم قال :

ولقد أردتُ الصبرَ عنك فعاقنى * عَلَقٌ بقلبى من هواكِ قديمُ
يبقى على حَدَثِ الزمان وَرَيْبه * وعــلى حفــائك إنه لكريم
فصَرَمْتَه وصَحَحْتِ وهو بدائه * شتّان بين مصحَّح وسقيم
وأريتِه زَمَنًا فعــادَ بحلمه * إن المحبّ عن الحبيب حليم

فلم يزل معها يحدثها ويشكو اليها حتى أمسى، فانصرفت ووعدته الرجوع اليه من غد فلم ترجع، وشاع خبره، فلم ترسل اليه رسولا، فكتب هذين البيتين :

بنفسىَ مَنْ قلبى له الدهرَ ذاكرُ * ومَنْ هو غنًى مُعرِضُ القلبِ صابرُ
ومَنْ حبُّه يزداد عــدىَ جِدّةً * وحُبّى لديه محلِقُ العهــدِ دائرُ

وقال ابن أبى عتيق لقيس يوما : أنشدنى أحرّ ما قلتَ فى لبنى، فأنشده :

وإنّى لأهوى اليومَ فى عبرِحبِه * لعــلّ لقاءً فى المنام يكونُ
تحــدّثنى الأحلام أنّى أراكُمُ * فياليتَ أحلام المنام يقينُ
شهِدْتُ بأنى لم أحُلْ عن مودّة * وأنى بكم لو تعلمين ضنينُ
وأن فؤادى لا يلينُ الى هوًى * سواك وإن قالوا بَلَى سَيلينُ

وقال عبد الملك بن عبد العزيز : أنشدتُ أبا السائب المخزومىّ قول قيس :

أُحبُّك أصنافًا من الحبّ لم أجِدْ * لهــا مَثَلًا فى سائر الناس يوصفُ
فمنهن حبٌّ للحبيب ورحمــةٌ * بمعــروفى منــه بمــا يتكلّفُ
ومنهن ألاّ يعرِضَ الدهرَ ذكرُها * على القلب إلا كادت النفس تتلفُ
وحبٌّ بدا بالجسم واللون ظاهر * وحبٌّ لدى نفسى من الروح ألطفُ

وقصيدة[1] قيس العينية من جيد شعره وهى :

عَفَا سَرِفٌ من أهله فسُرَاوِعُ * بجَنْبَا أَرِيكٍ فالتِّلاعُ الدوافعُ[2]
فَغَيْقَةُ فالأخيافُ أخيافُ طَيِّبِيَةٍ * بها من لبنى مَحْرَفٌ ومَرَابِعُ[3]
لعلَّ لُبنى أن يُحِمَّ لقاؤها * ببعض البلادِ إن ما حُمَّ[4] واقعُ
بِجِزْعٍ[5] من الوادى حلاء أنيسُه * عَفَا وتخطَّته العيونُ الخوادعُ
ولما بَدَا منها الفِراقُ كما بَدَا * بظَهْرِ الصَّفَا الصَّلْدِ[6] الشقوقُ الشوائعُ
تمنَّيْتَ أن تَلْقَى لبيماكَ ، والمُنَى * تُعاصيك أحياناً وحيناً تُطاوع
وما من حبيبٍ وامقٍ لحَبيبه * ولا ذى هوًى إلا له الدهر فاجعُ
وطار عِرابُ البينِ وانشقَّت العصا[7] * ببينٍ كما شَقَّ الأديمَ الصوانعُ
ألا ياعِرابَ البينِ قد طِرتَ بالدى * أُحاذر من لبنى فهل أنت واقعُ
وإنك لو أبلغتَها قِيدَ اسلِمى * طوتْ حَرَّةً وارفضَّ[8] منها المدامعُ
أنبكى على لبنى وأنت تركتها * وكنتَ كآتٍ عَيِّه وهْو طائعُ
فلا تبكينْ فى إثر شىء ندامةً * اذا نزعتْه من يديك النوازعُ
فليس لأمرٍ حاول الله جَمْعَه * مُشِتٌّ[9] ولا ما فرَّق اللهُ جامعُ
كأنك لم تَغْنَهْ اذا لم تُلاقِها * وإن تلقَها فالقلبُ راضٍ وقانعُ

---

(١) وردت هذه القصيدة برمتها فى كتاب الأمالى لأبى على القالى (ج ٢ ص ٣١٤ — ٣١٨ طبعة دار الكتب المصرية) .

(٢) سرف وسراوع وأريك : مواضع . والتلاع واحدتها تلعة وهى مسيل ما ارتفع من الأرض الى بطن الوادى . والدوافع جمع دافعة وهى التى تدفع الماء .

(٣) أخياف طيبة : موضع . والمحرف . المنزل الذى يقام فيه فى الحريف . والمرابع : جمع مربع وهو الموضع الذى يقام فيه فى الربيع .

(٤) حم : قدر .

(٥) جزع الوادى : منعطفه . وعفا درس . والخوادع واحدها خادعة وهى التى لا تنام ، يقال : خدعت عينه تخدع اذا لم تنم ، وأتيناهم بعد ما خدعت العين .

(٦) الصفا : الصخر . والصلد : الصلب الذى اذا أصابه شىء صلد أى صوّت . والشوائع : جمع شائعة وهى الظاهرة .

(٧) أى تمزقت الجماعة .

(٨) ارفض : سال ولا يكون إلا سيالا مع تمزق .

(٩) مشت : مفرق .

فياقلبُ حرّني، اذا شَطّت(١) الوى * لُبْنى وصدّت عنك، ما أنت صانع
أتصـبر للبين المشتّ مع الهَوَى * أم أنت آمرؤ ناسى الحياء بفازعُ
فـا أنا إن بانت لُبنى بهاجع * اذا ما استقلّت بالنِّيام المَضَـاجعُ
وكيف ينام المرءُ مستشعرَ الجَوَى * صحيحَ الأسَى فيـه نِكَاسٌ رَوَادعُ(٢)
فـلا حير فى الدنيا اذا لم تُوَاتِـنا * لُبَيى ولم يجمعْ لنـا الشَّمْلَ جامعُ
أليست لبينى تحت سَقْفٍ يُكنّها * وإيايَ هدا إن نأت لىَ نافع
ويَبْسُـنا الليـل البهيمُ اذا دَجَا(٣) * ونُبصرُ ضوءَ الصبح والفجرُ ساطع
تَطَأُ تحت رجليها بساطًا(٤) وبعضُه * أطَاهُ بِرِجْـلى ليس يَطويه ماسع
وأفرَح إن تُمسى بحـيرٍ وإن يكن * بها الحَدَثُ العادى تَرُعْنى(٥) الروائع
كأنك بِدْعٌ لم ترالـناسُ قبلهـا * ولم يَطّلِعْـك الدهرُ فيمن يطالع
فقـد كنتُ أبكى والهوى مطمئنةٌ * بنـا وبكم من علم ما البينُ صانعُ
وأهجرُكم هجرَ البَغِيض وحبُّكم * على كبدى مه كُلومٌ صوادعُ
وأعجَل للإشـفاق حتى يَشُقّنى * مخـافةُ شحط الدار والشملُ جامعُ
وأعمِـد للأرض التى من ورائكم * ليَرجِعَنى يومًا عليـك الرواجعُ
فيا قلبُ صـبرًا وآعترافًا(٦) لمـا ترى * ويا حبّهـا قَمْ بالذى أنت واقـعُ
لعمرى لَمَنْ أمسىَ وأنتِ صحيعُـه * من الناس ما اختيرتْ عليه المضاجعُ
ألَا تلك لُبـنى قد تَرَاخَى مَزارُها * وللبين عمٌّ ما يزال يـازعُ
اذا لم يكن إلا الجَوَى فكَفَى به * جَوَى حُرَقٍ قـد صُمِّنَتْهَا الأضالع
أمانيـةٌ لبنى ولم تقطع المَـدَى * بوصـلٍ ولا صرمٍ فييأسَ طامعُ

(١) شطت بعدت . (٢) المستشعر : الذى لبس الشعار وهو الثوب الذى يلى الجسد . والجوى : الهوى الباطن . والأسى : الحزن . ونكاس : جمع نكس بالضم . وروادع . جمع رادعة وهى التى تردعه عن الحركة والتصرّف . (٣) دجا : ألبس بظلمته كل شىء . (٤) الساط . ما بسط من الفرش .
(٥) ترعى . تفزعى . (٦) اعترف : دل وانقاد .

يَطُـلُّ نهارَ الواهبين نهارُه * وتَهْـدِنُه[1] فى النائمين المصاحعُ
سواى فلَيْلِى من نهارى وإنما * تُقَسَّمُ بين الهالكين المَصَارِعُ
ولولا رجاءُ القلبِ أن تعطفَ الهَوَى * لما حَمَلَتْـه بينهن الأضالع
له وَجَنَاتٌ[2] إثْرَ لُثْـمى كأنها * شقائقُ بَرْقٍ فى السحاب لوامع
نهارى نهارُ الناس حتى اذا دجا * لِىَ الليلُ هَزَّتنى اليك المضاجع
أُقَضِّى نهارى بالحديث والمنى * ويجمعنى بالليل والهمُّ جامع
وقد نشأتْ فى القلب منك مودةٌ * كما نشأتْ فى الراحتين الأصابع
أبى الله أن يَلْقَ الرشادَ متيمٌ * أَلَا كلُّ أمرٍ حُمَّ لا بد واقع
هما برّحا بى مُعْوِلَين كلاهما * فؤادٌ وعينٌ[3] ماؤها الدهرَ دامع
اذا نحن أنفدنا البكاءَ عشيةً * هوعدُنا قَرْنٌ من الشمس طالع
وللحب آياتٌ تَبِينُ بالفتى * شُحوبٌ وتَعْرَى من يديه الأشاجع[4]
وما كلّ ما مَنّتك نفسُك حالِيًا * تلاقى ولا كلّ الهوى أنت تابع
تداعتْ له الأحزانُ من كل وِجهةٍ * فحنّ كما حنّ الظُّؤارُ[5] السواجع
وجانبَ قُربَ الناس يحلو بهمّه * وعاوده فيها هُيَامٌ مُراجِعُ
أراكَ اجتنبتَ الحىّ من غير بُغضةٍ * ولو شئتَ لم تحبح اليك الأصابع
كأنّ بلادَ الله ما لم تكن بها * وإن كان فيها الخلقُ قَفْرٌ بلاقع
ألا إنما أبكى لما هو واقعٌ * وهل جَزَعٌ من وشك بينك نافع
أحال علىّ الدهرُ من كل جانبٍ * ودامت ولم تُقْلِع علىّ الفواجع
فمن كان محزونا عدًا لفراقنا * فَلَأْىَ فليبكى لما هو واقع

---

(١) تهد . تسكنه . (٢) وحنات . حمقات . (٣) الماق من العين . الحاب الذى يلى الأنف . (٤) الأشاجع عروق ظاهر الكف . (٥) الظؤار : جمع ظئر وهى التى عطفت على ولد غيرها . والسواجع : جمع ساجعة وهى التى تمد حنينها على جهة واحدة .

الشـــعر الســـياسى

أوضحنا لك فى المجلد الأول ما لاستعمال الشعر من أثر فى كثير من الحركات السياسية واستحداث العزمات و إنهاض الهمم فى الانقلابات الاجتماعية، و بيّنا مَنْزِعَ استعمال الشعر فى الأغراض السياسية فى عصر الدولة الأموية، وذكرنا عدّة أمثلة تبيّن ما وصل إليه هذا النوع الطريف، ووعدناك بذكر قصيدة النعمان بن بشير فى هذا الباب . وها هى ذى :

النُّعْمانُ بن بَشِـــير[1]

قال أبو الفَرَج الأصْفهانىّ :

لما كثر الهجاءُ بين عبد الرحمن بن حَسّان وعبد الرحمن بن الحَكَم بن أبى العاصى وتفاحَشَا، كتب مُعَاوِيَةُ الى سَعيد بن العَاصى، وهو عاملُه على المدينة، أن يَجلِدَ كلَّ واحد منهما مائة سوط، وكان ابنُ حسّان صديقًا لسعيد وما مدَح أحدًا عيره قطّ، فكره أن يضربه أو يضرب ابن عمّه، فأمسك عنهما؛ ثم ولِىَ مروانُ، فلما قدم أحد ابنَىْ حسّان فضربه مائة سَوْط ولم يضرب أخاه، فكتب ابنُ حسان الى النّعمان بن بشير وهو بالشام، وكان كبيرًا أثيرًا[2] مكينًا عند معاوية، قال

---

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد الأنصارى، من الخزرج أهل يثرب، لكنه سار معاوية، فكان معه فى واقعة صفين، ولم يكن مع معاوية فى تلك الواقعة من الأنصار سواه . وقد احتنده معاوية ودهاه وكان يراعى حاسه، وكثيرا ما سمع توسطه للأنصار عنده. وعاش النعمان المذكور الى خلافة مروان بن الحكم، وكان يتولى حمص، فلما أفضت الخلافة الى مروان دعا الى ابن الزبير وحالف على مروان بعد قتل الضحاك، فلم يجبه أهل حمص الى ذلك، فهرب منهم فتبعوه وأدركوه وقتلوه . وكان على مسايرته بنى أمية شديد التعصب للأنصار، ولذلك عد ما على قصيدة الأحطل فى الطعن عليهم رد عليه والنعمان بن بشير من العربيقين فى الشعر حفظا عن سلف فان حده وأباه وعمه وأولاده وأحفاده كلهم شعراء . وهو أول مولود ولد فى الاسلام من الأنصار، وآخر من ولى الكوفة لمعاوية بن أبى سفيان . وله ديوان مطبوع فى الهند . توفى سنة ٦٥ هـ . وترى أخبار النعمان بن بشير فى الأغانى (ح ١٤ ص ١١٩) وأمالى القالى (ح ٣ ص ٨) والعقد الفريد (ح ٣ ص ١١٢ طبع مصر سنة ١٣٠٥ هـ) وفى سيرة ابن هشام وابن خلكان وابن الأثير وغيرها . (٢) أثيرا : مكرما .

ليت شِعْرى أعاتبٌ أنت بالشا ... م حَلِيلى أم راقدٌ نُعْمانُ
أيَّةٌ ما يكن فقد يَرجع الغا * ئبُ يوما ويُوقَط الوَسْنانُ
إن عَمْرًا وعامرًا أويَيا * وحَراماً قِدْمًا على العهد كانوا
أفَهُمْ ما يَعُوك أم قلّةُ الكُتّـ * ـاب أم أنتَ عاتب عصبان
أمْ جَفاءٌ أمْ أعوَزَتْك القَراطيـ * ـسُ أم امرىء به عليك هَوان
يوم أُنْبِئتَ أن ساقِيَ رُصَّتْ ... وأتتكم بذلك الرُّكبان
ثم قالوا إن ابن عمّك فى نَلْـ * ـوى أمورٍ أتى بها الحَدَثان
فنسيتَ الأرحامَ والوُدَّ والصُّحْـ * ـبَةَ فيما أتت به الأزمان
إنما الرمحُ فاعلمن قَناةٌ * أو كعصن العِيدان لولا السِّنان

قال أبو الفرج الأصبهانى :

دخل النعمانُ بن بَشير على مُعَاوية لما هما الأخطلُ الأنصارىّ ، فلما مَثَلَ بين يديه أنشأ يقول :

مُعَاوِىَ إلّا تُعْطِيا الحقَّ تَعْترِف ... لِحَى الأزْد مَشْدودًا عليها العَمائمُ
أيَشْتُمُا عبدُ الأراقم (١) صَلْةً * وماذا الذى تُجدى عليك الأراقم
فما لِىَ ثَأرٌ دُون قطع لِسانه * فدُونك من يُرضيه عنك الدراهم
وَراعِ رُوَيدًا لا تَسُمْنا دَنِيّةً * لعلَّك فى عِنّ الحوادث نادم
متى تَلْقَ ما عُصْبةً خَرْزَجيّةً * أو الأوْسَ يومًا تَحْتَرِمْك المحارم
وتلقاك خَيْلٌ كالقَطا مُسْتَطيرةٌ ... شَمَاطِيطُ (٢) أرْسَالٌ عليها الشَّكائم (٣)
يُسَوِّمُها العَمْران . عمرو بن عامرٍ * وعِمْرانُ حتى تُستباحَ المحارم
ويبدو من الخَوْد العَزيزَة حِجْلُها * وتَبْدُو من هَوْل السيوف المَقادم
فتَطْلُبَ شَعْب الصَّدْع بعد التئامه * فتُغْرِيَه فالآن والأمرُ سالم

(١) الأراقم : حىّ من بنى تغلب . (٢) شماطيط . متفرقة . (٣) الشكائم جمع شكيمة وهى الحديدة المعترضة فى فم الفرس .

وإلّا فَسُوبى لَأُمَّةٌ تُبَيِّعُهُ * تَوَارِيثُ آبائى وأبيضُ صارم
وأسمَرُ خَطِّىٌّ كأنّ كُعُوبَه * نَوى القَسْبِ فيها لَمْذَمِيٌّ خُتَارِم
فإن كنتَ لم تَشْهَد بِبَدرٍ وقيعةً * أذلَّتْ قُرَيْشًا والأُسُوفُ رَوَاغِم
فَسَائِلْ بِنا حَيَّىْ لُؤَىِّ بن غَالِبٍ * وأنتَ بما يَخْفَى من الأمر عالم
ألم تَنْدُر يومَ بَدْر سُيوفُنا * وَلَيْلُك عما ناب قومَك قاتم
صَرَعْنَاكُمُ حتى تفرّق جمعُكم * وطارت أكُفُّ منكُمُ وجماجم
وعادَتْ على البَيْت الحرام غَرَائِمٌ * وأنت على حوف عليك التَّمائم
وعَضَّت قريشٌ بالأنامل بَعْضَةً * ومِنْ قَبْلُ ماعضّتْ عليك الأداهم
فكانَ لها فى كلّ أمرٍ تَكِيده * مكانَ الشَّجَا والأمرُ فيه تَفاقُم
فما إن رَمَى رَامٍ فأوْهَى صَفَاتَنَا * ولا صامَنَا يومًا من الدهر صائم
وإنّى لأُعْصِى عن أمورٍ كثيرة * سَتَرْقَى بها يومًا إليك السَّلالم
أُضَايِع فيها عهدَ شَمْس وإنّنى * لِتلك التى فى النفس منى أُكاتم
فما أنتَ والأمرَ الذى لستَ أهله * ولكن وَلِىُّ الحق والأمرِ هاشم
إليهم يَصير الأمرُ بعد شَتَاتِه * فَمَنْ لك بالأمر الذى هو لازم
بهم شَرَع اللهُ الهدى فاهتدى بهم * ومنهم له هَادٍ إمامٌ وحاتم

فلما بلغت القصيدةُ معاويةَ أمر بدفع الأحطل اليه ليقطعَ لسانَه، فاستجار بيزيد ابن معاوية، فمنعه منه، وأرضى النعمانَ حتى كفّ عنه .

وقال عمرو بن أبى عمرو الشَّيْبانىّ عن أبيه : لما ضرب مَرْوانُ بن الحَكَم عبدَ الرحمن ابن حسّان الحَدَّ، ولم يضرب أخاه حين تَهَاجَيَا وتَقَاذَفَا، كتب عبدُ الرحمن الى النعمان ابن بشير يشكو اليه، فدخل الى معاوية، وأنشأ يقول :

يابنَ أبى سُفْيَانَ ما مِثْلُنا * جَارَ عليه مَلِكٌ أو أمير
أُذكرْ بنا مُقْدَمَ أفْوَاسِنا * بالجِزْع إذ أنتَ لنا فقير

واذكر غَداةَ الساعِدِيّ الذى * آثَرَكم بالأمر فيها بَشِير
فاحذَرْ عليهم مثلَ بدْرٍ وقد * مرّ بكم يومٌ بدر عَمِير
إنّ ابن حسّان له ثائر * فأعْطِه الحقّ تصِحّ الصُّدور
ومثل أيامٍ لنا شَتَّتَتْ * مُلْكا لكم أمْرُك فيها صغير
أما ترى الأزْدَ وأشْياعَها * تجول خُرْزًا كاطِمَاتٍ تَزِير
يصُول حوْلى منهمُ مَعْشَرٌ * إن صُلْتُ صالوا وهمُ لى نَصير
يأبى لنا الضَّيمَ فلا يُعْتَلى * عِزٌّ مَنيع وعديٌّ كثير
وعُنْصُرٌ فى عِزّ حُرْثُومةٍ * عادِيَّةٍ تنقلُ عنها الصّخور

مُلحق
الكتاب الثانى

باب المنثـــور

شرحنا لك فى المجلد الأول ما كانت عليه الكتابة فى عصر العباسيين من جَوْدة اللفظ، ومتانة الأسـلوب، وجَلاء المعنى، ووضوح القصـد و بساطته . ووعدناك بذكر طُرَف من رسائل القوم فى ذلك العصر الزاهى الزاهر، و إليك ما وعدناك به :

١ — مُشَاوَرَةُ المهدىّ لأهلِ بيته فى حرب خُراسان

قال ابنُ عبد ربّه فى العِقْد الفريد :

هذا ما تراجعَ فيه المهدىّ ووزراؤه وما دار بينهم من تدبير الرأى فى حرب خُرَاسان أيامَ تحامَلَتْ عليهم العمالُ وأعصفتْ، فحملتهم الدالّة وماتقدّم لهم من المكانة على أن نكثوا بَيْعَتَهم، ونقصوا مَوْثِقهم، وطردوا العمال، وألَبُوا بما عليهم من الخَرَاج؛ وحمل المهدىّ ما يُحِبّ من مصلحتهم ويكره من عَنَتهم على أن أقال عَثْرَتَهم، وأعتبر زلّتهم، وأحتمل دالّتهم، تَطَوُّلا بالفضل وٱتّساعا بالعفو، وأخذًا بالمُحَجّة ورِفقا بالسياسة، ولذلك لم يزل مُذْ حَمّله اللهُ أعباءَ الخلافة وقلّده أمورَ الرعيّة رفيقا بمَدار سلطانه، بصيرا بأهل زمانه، ناسطًا للعَدْلَة فى رَعِيّته، تسكن الى كَنَفه وتأنس بعفوه وتثق بحِلمه، فإذا وقعت الأَقْضِيةُ اللازمةُ والحقوقُ الواجبة، فليس عنده

هَوَادة ولا إعصاء ولا مُداهَنة ، أثَرَةً للحق وقياما بالعدل وأَخْذًا بالحزم، فدعا أهلَ خراسان الأغترارُ بحلمه والثقة بعفوه أن كَسروا[1] الخراج وطَرَدوا العمال وسألوا ما ليس لهم من الحق، ثم حلطوا آحتجاجا باعتدار، وخصومةً بإقرار، وتَنَصُّلا باعتلال، فلما آنتهى ذلك الى المهدىّ خرج الى مجلس حَلَائه وبعث الى نَفَرٍ من لُحْمَته وو زرائه، فأعلمهم الحـالَ وآستنصحهم للرعيّة، ثم أمر المَوالى بالآستداء، وقال للعباس بن محمد : أى عَمّ! تَعَقَّدْ قولَنا وكن حَكَمًا بيننا ، وأرسل الى وَلَدَيْه موسى وهارون ، فأحضرهما الأمْرَ وشارَكَهُما فى الرأى ، وأمر محمدَ بن اللَّيث[2] بحفظ مراجعتهم، وإثبات مقالتهم فى كتاب .

فقال سلّام[3] صاحبُ المظالم :

أيّها المهدىّ، إنّ فى كل أمر غاية، ولكل قوم صِناعة، آسْتَقْرَعَتْ رأيَهم، وآستغرقت أشغالَهم، وآستنفدت أعمارَهم، ودهموا بها ودهمت بهم، وعُرِفوا بها وعُرفت بهم، ولهذه الأمور التى حملتنا فيها غاية، وطلبت معونتَنا عليها أقوامٌ من أبناء الحرب وسَاسَةِ الأمور وقادةِ الجنود وفُرسانِ الهَزَاهِز[4] وإخوانِ التحارب، وأبطالِ الوقائع، الذين رَشَّحَتهم سِحَالها، وقَيّأتهم طلاحُها، وعصّتهم شدائدها، وقَرَمتهم نواجذُها، فلو تَحَمتَ ما قِبَلهم ، وكشفتَ ما عندهم ، لوجدتَ بطائر تؤيِّد أمْرَك، وتحارِبَ توافق نَظَرَك، وأحاديثَ تقوّى قلبَك، فأما نحن معاشرَ عُمّالك، وأصحاب دواوينك، فحَسَنٌ بنا وكثيرٌ ما أن نقوم بثقل ما حمّلتنا من عملك، وآستودَعْتنا من أمانتك، وشغلْتنا به من إمضاء عَدْلك ، وإنفاذ حُكْمك ، وإظهار حقّك .

فأجابه المهدىّ : إنّ فى كل قوم حكمة ، ولكل زمان سياسة ، وفى كل حال تدبيرا يبطل الآخرُ الأوّلَ، ونحن أعلم بزماننا وتدبير سلطاننا .

---

(١) كسروا الخراج أى كفوا عن أدائه (٢) هو ابن الليث بن نصر بن سيار . وكان أرسل المهدىّ أباه الليث لمحاربة المقنع فلم يتمكن منه . وكان آسمه محمد هذا من كتّاب المهدى ولم تعرف سنة وفاته .

(٣) هو سلام بن الأبرش، آستعمله المنصور ثم تولى العقوبات فى أيام المهدى . (٤) الهراهز : محرّك اللايا والحروب فى الناس .

قال : نعم أيها المهدىّ، أنت مُتّبَع الرأى، وَثيق العُقْدة، قَوِىّ المُنّة[1]، بليغ الفِطْنة، معصوم النيّة، مَحْضور الرويّة، مؤيَّد البديهة، موفّق العزيمة، مُعَانٌ بالظَّفَر، مَهْدِىّ الى الخير، إن هممتَ فَى عزمُك مواقعَ الظَّنّ، وإن اجتمعت صَدَع معلُك مُلْتَبِس الشك، فاعْزِم يَهْدِ اللهُ الى الصواب قلبَك، وقُلْ يُطْق اللهُ بالحق لسانك، فإنّ جنودك جمّة، وخرائك عامرة، ونفسك سخيّة، وأمرك نافذ .

فأجابه المهدىّ : إنّ المُشاورة والمناظرة نَاءَا رحمه، ومِفْتاحا بركة، لا يَهْلِك عليهما رأىٌ، ولا يَتَعيل[2] معهما حزم، فأشيروا برأيكم، وقولوا بما يحضُركم، فإنى من ورائكم، وتوفيقُ الله من وراء ذلك .

قال الربيع :

أيها المهدىّ، إنّ تصاريف وُجُوه الرأى كثيرة، وإنّ الإشارة ببعض مَعَاريض[3] القول يسيرة، ولكن خراسان أرضٌ بعيدة المسافة، مُتَراحِية الشُّقّة، مُتَفاوِتة السبيل؛ فإذا ارتأيْت من مُحْكَم التدبير، ومُبْرَم التقدير، ولُباب الصواب، رأْيًا قد أحكمه نَظرُك، وقلّبه تدبيرك، فليس وراءَه مَذْهبٌ طاعن، ولا دُونه مَعْلَقٌ لخصومة عائب، ثم أجَبْتَ البُرُدَ به، وأنطوتْ الرسلُ عليه، كان بالحَرَى ألّا يصل اليهم مُحْكَمُه إلا وقد حدث منهم مايقْصه؛ فما أيْسَر أن ترجع اليك الرسل، وترِدَ عليك الكتب بحقائق أخبارهم، وشوارد آثارهم، ومصادر أمورهم، فتُحْدث رأيا عيره وتَبْتَدِع تدبيرًا سواه؛ وقد أهرجت الخِلَق، وتحلّلت العُقَد، وأسترخى الحِقاب[4]، وأمتدّ الزمانُ، ثم لعلّما مَوْقع الآخرة كمَصْدر الأُولى؛ ولكن الرأى لك أيها المهدىّ — وفّقك الله — أن تَصْرِف إحالةَ النّظر، وتقليبَ الفِكَر، فيما جمَعْتنا له، واستشرْتَنا فيه من التدبير لحربهم، والحِيَل فى أمرهم، الى الطلب لرجلٍ دى دِين

(١) المنة · القوة · (٢) لا يتعيل لا يضعف (٣) معاريض الكلام ما عرّض به ولم يصرّح وهى التورية بالشىء عن الشىء · (٤) الحقاب · شىء تشده المرأة تعلق به معاليق الحلىّ تشدّه على وسطها ·

فاصل، وعقـل كامل، ووَرَع واسع، ليس موصوفًا بهوًى فى سِواك، ولا متَّهما فى أَثَرة عليك، ولا ظَنِينًا[1] على دُخْلَةٍ مكروهة، ولا منسوبا الى بدعه محذورة، فَيَقْدَح فى مُلْكك، ويُرْتِص[2] الأمورَ لغيرك، ثم تُسِد اليـه أمورَهم، وتفوض اليه حربهم، وأمْرَه فى عهدك ووصيتك إياه بلروم أمرك مالَزِمه الحرمُ، وحلافِ نَهْيك اذا حالَفه الرأىُ عند آستحالة الأمور، وآشتدادِ الأحوال التى سُقِصُ أمر الغائب عنها، ويَثْبُتُ رأىُ الشاهد لهـا، فإنه اذا فعل ذلك فوَائث أمرَهم من قريب، وسقط عنه مايأتى من بعيد، تمت الحيلةُ وقويت المكيدةُ، ونَفَذ العمل وأُحِدّ النظر، إن شاء الله.

قال الفضل بن العباس

أيها المهدىّ، إن وَلِىَّ الأمورِ وسائس الحروب ربما نَحّى حسودَه، وفرق أموالَه فى غير ماصيقٍ أمْرٍ حَرَبه، ولا صَعْطَةِ حال آصطرته، فيَقْعد عند الحاجه إليها، وبعد التفرقة لهـا عَديما منها فاقدا لها، لا يثق بقوّه، ولا يصول بعُدّه، ولا يفزع الى ثقه؛ فالرأىُ لك أيها المهدى — وفقـك الله — أن تُغْنِى حرائكَ من الإنفاق للاموال، وجنودَك من مكابده الأسعار، ومقارعة الأخطار، وتعرِير القتال، ولا تُسْرِع للقوم فى الإجابة الى ما يطلبون، والعطاءِ لمـا يسألون، فَيعسُد عليـك أدمُهم، وتُحرئ من رعيّتـك غيرَهم، ولكن آغْزُهم بالحيـلة، وقاتِلهم بالمكيدة، وصارِعهم باللِّبن، وخاتِلهم بالرِّفق، وأَبْرِق[3] لهم بالقول، وأَرْعِد نحوهم بالفعل؛ وآبعث العُوث[4]، وحُدّ الحمود، وكتّب الكتائب، وآعقد الألوية، وآنصب الرايات، وأظهِر أنك موجّه اليهم الجيوشَ مع أَحْنَق قوّادك عليهم، وأسوَئِهم أثرًا فيهـم، ثم آدْسُس الرُّسُل، وآبْثُث الكتب، وضَعْ بعضَهم على طَمَع من وعدك، وبعضًا على خوف

(١) طنينا : متهما . ودخلة مكروهة : أى نية سيئة . (٢) رتصه أى أثبته .

(٣) أبرق وأرعد بمعنى تهدد وتوعد . (٤) العوث : الجيوش .

من وعيدك، وأوقد بذلك وأشاهه نيرانَ التحاسد فيهم، وآغرس أشجار التنافس بينهم، حتى تُملأَ القلوبُ من الوحشة، وتنطوى الصدورُ على البِغْضة، ويدخل كلًّا من كلِّ الحذرُ والهيبةُ؛ فإنّ مرام الظَّفر بالغِيلة، والقتالَ بالحيلة، والمُناصبة بالكتب، والمكايَدة بالرُّسل، والمقارعةَ بالكلام اللطيف المُدْخَل فى القلوب، القوىّ المَوْقِع من النفوس، المعقودِ بالحُجَج، الموصولِ بالحيل، المبنىِّ على اللّين الذى يستميل القلوبَ، ويَسْتَرِق العقولَ والآراء، ويستميل الأهواءَ، ويستدعى المُواتاه، أنفـذُ من القتال بطُبَات السيوف وأسنَّه الرماح، كما أنّ الوالىَ الذى يَسْتَبِدل طاعةَ رعيّه بالحيل، ويفرِّق كلمة عدوّه بالمكايده، أحكمُ عملًا وألطفُ منظَرا وأحسن سياسـة من الذى لا يـنال ذلك إلا بالقتال، والإتلافِ للأموال والتغرير والخطَار[1].

ولْيَعْلم المهـدىُّ أنه إن وجّه لقتالهم رجلا لم يَسِرْ لقتالهم إلا بجنود كثيفة، تخرج عن حال شديدة، وتُقْـدِم على أسعار ضيّقه، وأموال متمزقة، وقواد عَشَشَه، إن ٱنْتَقَمتم ٱستنفدوا مالَه، وإن استصَحهم كانوا عليه لا له.

قال المهدىّ: هذا رأىٌ قد أسفر نورُه، وأبرق ضَوءُه، وتمثّل صوابُه للعيون، ووجدُ[2] حقّه فى القلوب، ولكن فوق كل ذى علم عليم، ثم نظر الى آسه عَلىّ فقال: ما تقول؟

قال على:

أيهـا المهدىّ، إنّ أهل حراسان لم يَخْلَعوا عن طاعتك، ولم يَنْصِبوا من دونك أحدًا يَقْدَح فى تغيـير مُلكك، ويُرنِّص الأمورَ لفساد دولتك، ولو فعلوا لكان الخَطْب أيسر، والشأن أصعر والحال أدَلّ، لأن الله مع حقّه الذى لا يَخْذُله، وعند موعده الذى لا يُخلفُه، ولكنهم قومٌ من رعيّتك، وطائفة من شِيعَتك الذين جعلك الله عليهم وليًّا، وجعل العدل بينك وبينهم حاكما، طلبوا حقًّا، وسألوا إنصافًا، فإن أجَبْتَ الى دعوتهم ونفَّستَ[2] عنهـم

(١) الخطار. الاشراف على هلكة.

(٢) نفست عنهم فرجت عنهم.

قبل أن يَتَلاحَم منهم حال، أو يحدُث من عدهم فَتْقٌ، أطعتَ أمر الربِّ، وأطفأت نائرة[(١)] الحـرب، ووفّرتَ حرائرَ المـال، وطرحت تغريرَ القتال، وحمَل النـاسُ تحمّل ذلك على طبيعة جُودك، وسجيّة حلمك، وإسْماح[(٢)] حليقتك، ومَعْدَلة نطرك، فأمستَ أن تُنْسَب الى ضَعْف، وأن يكون ذلك فيما بَقِي دُرْنَة، وإن مَعَتّهـم ما طلوا ولم تُجبهـم الى ما سألوا، اعتدلتْ لك وبهم الحال، وساويتهـم فى ميْدان الخِطَاب، فما أَرَبُ المهدىّ أن يعمد الى طائفة من رعيّتـه، مقرِّين بملكته، مُذْعِنين لطاعته، لا يُخْرِجون أنفسهم عن قدرته، ولا يُبرئونها من عُبُوديّته، فيُملّكهُم أنفسَهم ويخلع نفسَه عنهم، ويقِفَ على الحِيَل معهم، ثم يجازيهم السوءَ فى حدّ المنازعة ومِضمار المحاطرة، أيريد المهدىّ — وفّقه الله — الأموالَ؟ فلعمرى لا يبالها ولا يطمر بها إلا بإنفاق أكثرِ منها، ممـا يطلب منهم وأضعاف ما يدّعى قبلهم، ولو نالها لحُمِلت اليه، أو وُضعت بحرائطها[(٣)] بين يديه، ثم تجَافى لهم عنها وطال عليهم بها، لكان ممـا اليه يُنْسَب وبه يُعْرف من الجود الذى طبعه الله عليه، وجعل قُرّة عينـه ونَهْمة نفسه فيه؛ فإن قال المهدىّ: هذا رأى مستقيم سديد فى أهل الحرَاح الذين شكَوْا ظُلْم عمّالنا، وتحامُلَ وُلاتنـا، فأما الجمودُ الذين نقَضُوا مواثيق العهود، وأنطَقوا لسانَ الإرجاف[(٤)] وفتحوا باب المعصيه، وكسروا قيد الفتنة، فقد ينبغى لهم أن أجعلهم نَكَالا لغيرهم وعِظَةً لسواهم؛ فيعلمَ المهدىّ أنه لو أُتِىَ بهـم مغلولين فى الحديد، مقرّنين فى الأصْفاد؛ ثم اتّسع لِحَقْن دمائهم عَفْوُه، ولإقالة عثرتهم صَفْحُه، واستنقاهم لمـا هم فيه من حِرْبه، أو لمن بإزائهـم من عَدُوه، لمـا كان بِدْعا من رأيه، ولا مُسْتَنْكَرا من نظره، لقـد عَلِمت العربُ أنه أعظم الخلفاء والملوك عفوًا، وأشدُّها وَقْعا، وأصدقها صوْلة، وأنه لا يَتَعَاظَمه عفوٌ،

---

(١) نائرة الحرب . ما اشتعل واتقد منها .

(٢) الإسماح . مصدر أسمح الوالى . اذا أحسن العفو .

(٣) الحريطة : وعاء من أدم ونحوه .

(٤) الارجاف . مصدر أرجف القوم اذا خاضوا فى أخبار الفتن على أن يوقعوا فى الناس الاضطراب من غير أن يصح عندهم شىء .

ولا يَتَكاءَده[1] صفح، وإن عظم الذنب وحلّ الخطب، فالرأى للمهدىّ — وفقه الله تعالى — أن يَحُلّ عُقْدة الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله فى العفو عنهم، وأن يذكر أُولَى حالاتهم وضَيْعة عِيالاتهم، بِرًّا بهم وتوسُّعًا لهم؛ فإنهم إخوان دولته، وأركان دعوته، وأساس حقّه الدين عزّتهم يصول، وبحجّتهم يقول؛ وإنما مَثَلُهم فيما دخلوا فيه من مَسَاخطه، وتعرَّضوا له من معاصيه، وآنطوَوْا فيه عن إجابته، ومَثَلُه فى قلّة ما غَيّر ذلك من رأيه فيهم، أو نُقِل من حاله لهم، أو تغيّر من نعمته بهم، كَمَثَل رَجُلَيْن أَحَوَيْن متناصِرَيْن متآزِرَيْن، أصاب أحدَهما حَتْفٌ عارضٌ، ولَهْوٌ حادث، فمهض الى أخيه بالأذى، وتحامَل عليه بالمكروه، فلم يَزْدَد أخوه إلا رِقّة له ولُطْفًا به، وآحتيالا لمُداواه مرضه ومراجَعة حاله، عَطْفًا عليه وبرًّا به ومرحمةً له.

فقال المهدىّ: أما علىّ فقد كوى سَمْتَ اللّدَان، وقصّ القلوبَ فى أهل خراسان، ولكل نَبَأ مُسْتَقَرّ، ثم قال: ما ترى يا أبا محمد؟ يعنى موسى أبه.

فقال موسى:

أيها المهدىّ، لا تَسْكُن الى حَلاوة ما يَجرى من القول على ألسنتهم، وأنت ترى الدماءَ تسيل من حَلَل فعلهم، الحَالُ من القوم ينادى بمُضْمَرة شرّ، وخَفِيّة حقد، قد حملوا المعاذير عليها سِتْرًا، وآتخذوا العِلَلَ من دونها حِجَابا، رَجَاءَ أن يُدافعوا الأيامَ بالتأخير، والأمورَ بالتطويل، فيكسِروا حيل المهدىّ فيهم، ويُفْنُوا جودَه عنهم حتى يَتلاحَم أمرُهم، وتتلاحق مادّتُهم، وتستحصل حربهم، وتستمر الأمور بهم؛ والمهدىّ من قولهم فى حال عِزّه ولباس أمْنِه، قد فَتَرها وأنِس بها وسكَن اليها، ولولا ما آجتَمَعت به قلوبُهم، وبَردتْ عليه جلودُهم من المُناصَبة بالقتال، والإصرار للقِراع عن داعِيَة ضَلال، أو شيطان فساد، لرَهِبوا عواقبَ أخبار الوُلاة، وَعِثّ سكون الأمور، فليَشْدُد المهدىّ — وفقه الله —

(١) لايتكاءده: لايشق عليه.

أَزْرَه لهم ويكتّب كتائبه نحوهم ، وليضع الأمر على أشـدّ ما يحضره فيهم ، وليُوقِن أنه لا يعطيهم خُطّةً يريد بها صلاحَهم إلا كانت دُرْبَةً الى فسادهم ، وقوّةً على معصيتهم ، وداعيـة الى عودتهم ، وسبباً لفساد من بحضرته من الجنود ، ومن سابه من الوفود ، الذين إن أقرّهم وتلك العادة ، وأحراهُم على ذلك الأرب ، ولم يبرّح في فتقٍ حادثٍ وخلاف حاضر ، لا يصلُح عليه دِين ، ولا تستقيم به دنيا ؛ وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة ، واستمرار الدُّربة ، لم يصل الى ذلك إلّا بالعقوبة المفرطـة ، والمؤونة الشـديدة ، والرأى للمهـدىّ وفّقـه الله — ألّا يُقيـل عثرتهم ، ولا يقبـل مَعْذرتهم ، حتى تَطأَهم الجيوشُ ، وتأحدهم السيوف ، ويستحرَّ(١) بهم القتل ، ويُحْدِق بهم الموت ، ويُحيط بهم الـلاء ، ويُطْبِق عليهم الذلّ ، فإن فعل المهدىّ بهم ذلك ، كان مَقْطَعَة لكل عادة سُوء فيهم ، وهزيمةً لكل بادرة شرٍّ منهـم ، واحتيالُ المهدىّ مؤونة غَزْوَتهم هـذه يَصَعُ عنـه عرواتٍ كثيرة ، ونفقاتٍ عظيمـــة .

قال المهدىّ : قد قال القوم فأحكم يا أبا الفضل .

فقال العباس بن محمد :

أيها المهـدىّ :

أما المَوالى فأحدُوا بقُـروع الرأى ، وسلكوا جَنَبات الصواب ، وتَعَدَّوْا أمورا قصّر بنظرهم عنها أنه لم تأتِ تجاربُهم عليها .

وأما الفضـل فأشار بالأموال ألّا تُنفَـق ، والجنـود ألّا تفرّق ، وبألا يعطى القـوم ما طلبوا ، ولا يبذَل لهم ما سألوا ، ووجاء بأمرٍ بَيْن ذلك استصغارًا لأمرهم واستهانة بحربهم ؛ وإنمـا يَهيج جَسيمات الأمور صغارُها .

(١) يستحرّ . يشتدّ ويقوى .

وأما علىّ فأشار باللّين وإفراط الرّفق، واذا جرّد الوالى لمن عَمَّط[1] أمْرَه وسفه حقّه، اللّينَ بَحْتًا والخير مَحْضًا، لم يَخلطهما بشدّة تَعطف القلوبَ عن لِينه، ولا بِشَرٍّ يحبسهم إلى حيره، فقد ملّكهم الحِلْمَ لعُدُرهم[2] ووسّع لهم الفُرْجَة لِثَنْى أعناقهم، فإن أحابوا دعوته وقبلوا لِينه من غير حوفٍ أصطرهم ولا شدّة، فَرْوَةٌ[3] فى رءوسهم يستدعون بها اللاءَ الى أنفسهم، ويستصرخون بها رأى المهدىّ فيهم، وإن لم يقبلوا دعوته ويُسيرعوا لإجابته باللّين المَحْض والخير الصُّراح، فدلك ما عليه الظنّ بهم والرأى فيهم، وما قد يُشْبِه أن يكون من مثلهم، لأن الله تعالى خَلق الحنّة وجعل فيها من النعيم المقيم والمُلك الكبير مالا يخطُر على قلب بشر ولا تدركه الفِكَر ولا تعلمه نفسٌ، ثم دعا الناس إليها ورغّبهم فيها، فلولا أنه خلق نارا جعلها لهم رحمة يسوقهم بها الى الجنّة، لما أحابوا ولا قبلوا.

وأما موسى فأشار بأن يُعْصَبوا[4] شدّة لا لِينَ فيها، وأن يُرْمَوْا بشرّ لا خير معه، وإذا أصمَر الوالى لمن فارق طاعتَه، وخالَف جماعتَه، الخوفَ مُفْرِدًا، والشرّ مجرّدًا، ليس معهما طمع ولا لين يثنيهم، اشتدّت الأمور بهم، وانقطعت الحال منهم الى أحد أمرين: إما أن تدخُلهم الحَمِيّة من الشدّة، والأَنَفَةُ من الذّلة، والاستعاضُ من القَهْر، فيدعوهم ذلك الى التمادى فى الخلاف، والاستبسالِ فى القتال، والاستسلام للموت، وإما أن يقادُوا بالكُره، ويُذعِنوا بالقهر على بُغضه لازمة، وعداوة باقية، تُورِث الشّقاق وتُعقِب الشّقاق، فإذا أمكنتهم فرصة، أو ثابت لهم قدره، أو قويَتْ لهم حال، عاد أمرهم الى أصعب وأغلظ وأشدّ مما كان.

---

(١) عمط الأمر. اردراه. وسفه حقه امتهنه وحسه.

(٢) العذر جمع عذار.

(٣) الروة الوثوب الى الشرّ.

(٤) عصب الشىء: لواه وشدّه.

وقال فى قول الفصل :

أيها المهدىّ، أكفى دليل، وأوضح برهان، وأبيّنُ حجة بان؛ قد أجمع رأيُه وحَزْم نظرُه على الإرشاد بعثة الجيوش اليهم، وتوجيه النُّهوض نحوهم، مع إعطائهم ماسألوا من الحقّ، وإجابتهم الى ما سألوه من العدل .

قال المهدىّ . ذلك رأْيٌ .

قال هارون :

ما خُلِطتْ الشدّةُ أيها المهدىّ باللّين، وآستظم أمر الدنيا بالدين، فصارت الشدّة أمَرّ لِطامٍ[1] لما تكره، وعاد اللين أهدى قائد الى ما تُحِبّ، ولكن أرى غير ذلك .

قال المهدىّ :

لقد قلتَ قولا بديعًا، حالفتَ فيه أهل بيتك جميعا، والمرءُ مؤتَمَن بما قال، وطَنِينٌ[2] بما آدّعى حتى يأتى سبّبه عادلة، وحجّه ظاهره، فآخرج عما قلتَ .

قال هارون :

أيها المهدىّ، إن الحرب حُدْعه، والأعاجمَ قَوْمٌ مَكَره، وربما آعتدلت الحالُ بهم، وآتفقت الأهواء منهم، فكان باطن ما يُسِرّون على ظاهر ما يُعْلِنون، وربما آفترقت الحالان، وحالَف القلبَ اللسان، فآنطوى القلب على مَحْذُور بنِ بُبْطَن، وآستَسَرّ بمدخُولة لا تُعْلَن؛ والطبيبُ الرفيقُ بطِبّه، المصيبِ بأمره، العالم بمقدّم يده وموضع ميسمه[3]، لا يتعجّل بالدواء، حتى يقع على معرفه الداء، فالرأىُ للمهدىّ — وفّقه الله — أن يَفُتّ باطنَ أمرهم فَتّ المِسَمّ[4]، ويَمْحَص ظاهر حالهم مَحْصَ السِّقاء بمتابعه الكتب، ومظاهره الرسل، ومُوَالاه

(١) الطام ها . القطع والاستئصال .

(٢) طنين بما ادعى متهم بدعواه

(٣) الميسم . المكواة يوسم بها الحيوان .

(٤) فتّ الدابة . فتح فاها وكشف عن أسنانها ينظر ما سنّها . والمسنّ من الدواب ما دخل فى الثامنة .

العيون ، حتى تُهتَك حجبُ عيونهم ، وتُكْشَف أعْطِية أمورهم ، فإن انفرحَتِ الحال ، وأفضَتِ الأمور به الى تغيير حال أو داعِيةِ ضَلال ، اشتملت الأهواءُ عليه ، وانقاد الرحال اليه ، وامتدّت الأعناقُ نحوه بدين يعتمدونه ، وإثم يَستحلّونه ، عَصَبَهم بشدّة لا لِينَ فيها ، ورماهم بعقوبة لا عفو معها ، وإن انفرجت العيون ، وانهتكت الستور ، ورُفعت الحُجُب ، والحالُ فيهم مَرِيعة ، والأمورُ بهم معتدلة فى أرزاقٍ يطلبُونها ، وأعمال يُكرونها ، وطُلامات يَدَّعونها ، وحقوقٍ يَسْألونها ، بمانَةٍ[1] سابقتهم ، ودَالّة مُناصحتهم ، فالرأى للمهدىّ — وفّقه الله — أن يتّسع لهم بما طلبوا ، ويتجافى لهم عما كرهوا ، ويَشْعَب من أمرهم ما صدَعوا ، ويرتق من فَتْقهم ما قطعوا ، ويولّى عليهم من أحبّوا ، ويداوى بذلك مرض قلوبهم ، وفساد أمورهم ؛ فإما المهدىّ وأمّته ، وسَواد أهل مملكته ، بمنزلة الطّبيب الرفيق ، والوالد الشفيق ، والراعى المجرّب الذى يحتال لمراض عمده ، وصَوَالّ رعيّته ، حتى يُبرِئَ المريضَ من داء علّتها ويردّ الصحيحةَ الى أُنس جماعتها ، ثم إنّ حراسان بحاصّة الدين لهم دالّةٌ محمولةٌ ، ومانةٌ مقبولة ، ووسيلة معروفة ، وحقوقٌ واجبة ؛ لأنهم أيدى دولتـه ، وسيوف دعوته ، وأنصار حقّـه ، وأعوان عدله ؛ فليس من شأن المهدى الاصْطِعَانُ عليهم ، ولا المؤاخَذَةُ لهم ، ولا التوعير[2] بهم ، ولا المكافأةُ بإساءتهم ، لأن مبادرةَ حَسْم الأمور صعيفةً قبل أن تَقْوَى ، ومحاولةَ قَطْع الأصول ضئيلةً قبل أن تغلُظ ، أحزمُ فى الرأى ، وأصحُّ فى التدبير من التأخير لها والتهاون بها ، حتى يَلْتَئم قليلُها بكثيرها ، وتجتمع أطرافُها الى جُمْهُورها .

قال المهدىّ : ما زال هارونُ يقع وقع الحَيَا حتى خرج خروج القِدْح من الماء ، وانسَلّ انسلال السيف فيما ادّعى ، فَدَعُوا ما سبق موسى فيه أنّه هو الرأى ، وثنّى بعده هارونُ ، ولكن من لأَعِنّة الخيل وسياسة الحرب وقادةِ الناس إذ أمعن بهم اللّجاجُ ، وأفرطتْ بهم الدالّة ؟ .

---

(١) المانة . الحرمة والوسيلة

(٢) التوعير بهم . التشديد عليهم .

قال صـالح :

لسا نبلغُ أيها المهدىّ بدوام البحث وطول الفكر أدنى فراسةِ رأيك، و بعضَ لحظَات نظرك ؛ وليس يَنْقُصُ عـلك من بيوتات العرب ورجال العجم ذو دِين فاصـل ، ورأى كامل، وتدبير قوىّ، تقـلِّده حربَك، وتستَوْدِعه حدك، مما يحتمـل الأمانةَ العظيمة ، ويصْطَلِـع بالأعباء الثقيلة، وأنت بحمد الله ميمونُ النّقيبة[1]، مبارك العزيمة، مَحْبُور التجارب، محمود العواقب، معصوم العـزم، فليس يقع آختيارُك، ولا يقِف نظرُك على أحدٍ تولِّيـه أمرك، وتُسند اليه نفرك، إلّا أراك اللهُ ما تحبّ، وجمع لك منه ما تريد .

قال المهـدىّ إنى لأرجو ذلك لقديم عادةِ الله فيه، وحسنِ معونته عليـه، ولكن أُحِبّ الموافقة على الرأى، والآعتبار للمشاوره فى الأمر المهم .

قال محمد بن اللَّيْث :

أهلُ حراسان أيها المهدىّ، قوم ذَوُو عزّة ومَنَعة، وشياطين حَدَعَة، رُرُوع الحَمِيَّة فيهم بانتـه، وملابس الأَنَفَة عليهم ظاهره، فالروِيّة عنهم عارِبة[2]، والعَجَله فيهم حاضره، تسبق سـيولُهم مطرَهم، وسيوفُهم عَذَلَهم[3]، لأنهم بين سِـفْلة لا يعدو مَبْلَغُ عقولهم مَنْظَرَ عيونهم، و بين رؤساء لا يُلْحَمُون إلا بشدّة، ولا يعطَمُون إلا بالمرّ، وإن ولّى المهدىّ عليهم وصِيعا لم تَنْقَد له العطاءُ، وإن ولّى أمرَهم شريفاً تحامل على الضعفاء، وإن أحَرّ المهدىّ أمرَهم، ودافع حربَهم، حتى يُصيب لنفسـه من حَشَمه ومواليه ، أو بنى عمّه أو بنى أبيه، ناصحا يتّفق عليه أمرُهم، وثِقَةً تجتمع له أمْلاؤهم بلا أَنَفَة تلْزَمهم، ولا حميّة تَدْخُلهم، ولا مصيبة تفرّهم، تَنَفّست الأيامُ بهـم، وتراحَتْ الحالُ بأمرهم، فدخل بذلك من الفساد الكبير، والضّياع العظيم، ما لا يتلافاه صاحبُ هذه الصِّفة وإن جَدّ، ولا يستصلحه وإن جَهَد ،

---

(١) ميمون النقيبة : أى مبارك النفس يحمد فيما يحاول . ومحمود التجارب حميد بها .

(٢) العارب : العانب .

(٣) العذل اسم مصدر من العذل بمعنى اللوم ومنه المثل "سبق السيف العذل" يضرب لما قد فات .

إلا عهد دهر طويل وشر كبير، وليس المهدىّ — وفّقه الله — فاطّلاً عاداتهم، ولا قارعا صَفَاتهم، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما . ولا عِدْلَ فى ذلك بهما :

أحدُهما لسانٌ ناطق موصولٌ بسمعك، ويَدٌ ممثّلة لعينك، وصخرةٌ لا تُزَعْزَع، وبُهْمَة لا يُثْنَى، وبازِلٌ لا يُفْزِعه صوتُ الجُلْجُل، يَقِيّ العِرض، نزيه النفس، جليل الخَطَر، قد آتّضعت الدنيا عن قَدْره، وسما نحو الآخرة بهمّته، يجعل الغرضَ الأقصى لعينه نُصْبًا، والغرضَ الأدنى لقَدَمه مَوْطِئا؛ فليس يقبَل عملا، ولا يتعدّى أملا، وهو رأس مَوَاليك، وأنصح بنى أبيك؛ رجل قد عُدِّى بلطيف كرامتك، ونَتَ فى طل دولتك، ونَشَأ على قوائم أدبك، فإن قلّدته أمرهم، وحمّلته ثِقَلهم، وأَسْنَدت اليه ثغرَهم، كان قُفْلا فتحَه أمْرُك، وبابا أعلقه نَهْيُك؛ يجعل العدلَ عليه وعليهم أميرا، والإنصافَ بينه وبينهم حاكما، وادا حَكَّم النصَفَة وسلَك المَعْدَلة، فأعطاهم مالهم وأخذ منهم ما عليهم، عرَس فى الدى لك بين صدورهم، وأسكَنَ لك فى السويداء داخل قلوبهم، طاعةً راسخةَ العروق، باسقةَ الفروع، متماثلةً فى حواشى عوامّهم، ممكّنة من قلوب خواصّهم، فلا يبقى فيهم ريب إلا نفَوْه، ولا يلزمهم حقٌّ إلا أدّوْه؛ وهذا أحدهما .

والآخر عُودٌ من غَيْضَتك، وسَبْعَة من أَرومَتك، فَتِيُّ السّن كهل الحِلم راجحُ العقل محمودُ الصَّرامة مأمونُ الخلاف، يجرّد فيهم سيفَه، ويسُط عليهم خيره بقدر ما يستحقّون، وعلى حَسَب ما يستوجِبُون، وهو فلان أيها المهدىّ، فسلّطه — أعزّك الله — عليهم، ووجّهه بالجيوش اليهم، ولا تمعك صَرَاعة سنه (١)، وحداثة مولده، فإن الحلم والثقة مع الحداثة، خير من الشك والجهل مع الكهولة؛ وإنما أحداثُكم أهل البيْت فيما طبعكم الله عليه، وآختصّكم به من مكارم الأخلاق، ومحامد الفعال، ومحاسن الأمور، وصواب التدبير، وصرامة الأنفس؛ كفراخ عِتَاق الطير (٢) المُحْكِمة لأحد الصيد بلا تدريب، والعارفة

(١) صراعة سنه : شبابه وحداثة سنه .

(٢) عتاق الطير : كرام الطير .

لوحوه النّفع بلا تأديب؛ فالحلمُ والعلم والعزم والحزم والجود والتؤدة والرفق ثابت فى صدوركم، مزروعٌ فى قلوبكم، مستحكمٌ لكم، متكاملٌ عندكم، بطائعَ لازمة، وغرائز ثابتة .

قال معاوية بن عبد الله :

إنّما أهل بيتك أيها المهدىّ فى الحلم على ما ذكر . وأهلُ خراسان فى حال عزٍّ على ما وُصِف، ولكن إن ولّى المهـدىُّ عليهم رجلا ليس بقـديم الذكر فى الجنود، ولا بنبيه الصّوْت فى الحروب، ولا بطويل التّجربة للأمور، ولا بمعروف السياسـة للجيوش والهيبة فى الأعداء، دخل ذلك أمْران عظيمان وخَطَران مَهُولان، أحدهما . أن الأعداء يَغْتَمزونها منه ويَحْتَقِرونها فيه ، ويجترئون بها عليه فى النهوض به والمقارعة له ، والخلاف عليه، قبل الاختبار لأمره، والتكشّف لحاله والعـلم بطباعه . والأمرُ الآخر : أن الجنودَ التى يقود والجيوشَ التى يَسُوس اذا لم تَختبروا منـه الأسَ والجدةَ، ولم يعرفوه بالصّيت والهيبـة ، انكسرت شجاعتُهم، وماتت نجدتهم ، وتأخرت طاعتهم الى حين اختبارهم، ووقوع معرفتهم، وربمـا وقَع الثوار قبل الاختبار، وبباب المهدىّ — وفّقه الله — رجلٌ مَهيب نَبيه حَبيك صَيِّتٌ، له نسب رَاكٍ وصوتٌ عالٍ، قد قاد الجيوشَ وساس الحروبَ، وتألّف أهلَ خراسان، واجتمعوا عليـه بالمِقَة، ووثِقوا به كل الثقة ، فلو ولّاه المهـدىّ أمْرَهم، لكفاه الله شرَّهم .

قال المهدىّ : خانَتْ قَصْـد الرَّميّة، وأبَيْتَ إلا عَصَبيّة، إذ رأْىُ الحَدَث من أهل بيتنا، كرأى عشرة حُلَماء من غيرنا، ولكن أين تركتم ولىّ العهد .

قالـــوا :

لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جَدّه، ونسيجَ وَحْده؛ ومن الدّين وأهله، بحيث يقصُر القولُ عن أدنى فضله، ولكن وحدنا الله عزّ وجل حَجَب عن حلقه، وستَر من دون عِباده علْمَ ما تختلف به الأيام، ومعرفة ما تجرى عليه المقادير، من حوادث الأمور وريْب المَنون

المُخْتَرِمة خلَوالى القرون ومواضى الملوك، فكَرِهنا شُسُوعه[1] عن مَحَلّة المُلك ودار السلطان ومقر الإمامة والولاية وموضع المدائن والخزائن ، ومستقَرّ الجنود ومَعْدِن الجود، ومَجْمَع الأموال التى جعلها الله قُطْنًا لدار الملك ومَصْيَدة لقلوب الناس ومَثابة لإخوان الطمع وثُوّار الفتن ، ودواعى البِدَع ووساس الضّلال وأبناء الموت . وقُلْنا : إن وجّه المهدىُّ ولِىّ عهده حَدَث فى جيوشه وجنوده ما قد حدث بجنود الرُّسل من قبله ، لم يستطع المهدىّ أن يُعْقِبهم غيره إلا أن يَنْهَد اليهم بنفسه ؛ وهذا خَطر عظيم وهول شديد، إن تنفّست الأيام بمَقامه، واستدارت الحال بإمامه ، حتى يَقَعَ عِوَضٌ لا يُسْتَغنَى عنه ، أو يحدُثَ أمر لا بدّ منه ، صار ما بعده مما هو أعظم هَوْلا وأجَلّ خطرا له تَبَعًا وبه مُتّصلا .

قال المهدىّ :

الخَطْب أيسَرُ مما تدهون إليه ، وعلى غير ما تَصِفُون الأمر عليه ؛ نحن أهلَ البيت نَجْرِى من أسباب القضايا ومواقع الأمور ، على سابقٍ من العلم ومحتومٍ من الأمر، قد أنبأت به الكتب، ونبأت عليه الرُّسُل، وقد تَنَاهى ذلك بأجمعه الينا؛ وتكامل بجدامره عندنا ، فنحن نُدبِّر وعلى الله نتوكّل . إنّه لا بدّ لولىّ عهدى وولىّ عهد عَقِبى بعدى أن يقود الى خراسان البُعُوث، ويتوجّه نحوها بالجنود .

أما الأوّل فإنه يُقدِّم اليهم رسله ، ويُعمِل فيهم حِيَله ؛ ثم يحرج نَشِطًا اليهم حَنِقًا عليهم، يريد ألا يَدَعَ أحدا من إخوان الفتن ودواعى البِدَع ووساس الضّلال، إلا تَوَطّأه بحَرّ القتل، وألبسه قِناع القَهْر، وقلّده طوق الذلّ؛ ولا أحَدًا من الذين عمِلوا فى قصّ جَناح الفتنة، وإخماد نار البدعة، ونُصْرة وُلاةِ الحقّ، إلا أجرى عليهم دِيَم فضله ، وحداول نهله ؛ فإذا خرَج مُزْمِعًا به نجْمها عليه، لم يَسِرْ إلا قليلا حتى تأتيَه أن قد عَمِلتْ حِيَلُه، وكَدَحت[2] كُتُبه ونفَذَت مكايدُه؛ فهدأتْ نافِرةُ القلوب، ووقَعتْ[3] طائرةُ الأهواء، واجتمع

(١) شسوعه : ابتعاده .

(٢) سعت ودأبت حتى أثرت .

(٣) وقعت طائرة الأهواء : خمد عصيها وسكن روعها .

عليـه المختَلِفُون بالرصا ، فيميل نَظَرا لهم ، و بِرًّا بهم ، وتعطُّفـا عليهم ، الى عدوّ قد أخاف سبيلهَم ، وقطع طريقهـم ، ومنع حُجَّاجَهم بيتَ الله الحـرام ، وسَلَب تُجّارهم رِزقَ الله الحـــلال .

وأما الآخر فانه يوجّه اليهم ، ثم تُعتقَد له المحبّةُ عليهم ، بإعطاء ما يطلبون ، و بذل ما يَسألون ؛ فادا سمَحَت الفِرَق بقَرَاماتها له ، وجَمَع أهل النواحى بأعناقهم نحوه ؛ فأصفَتْ اليـه الأفئدةُ ، وٱجتمعت له الكلمة ، وقَدِمت عليـه الوفودُ قَصْدَ لأوْل ناحيـة تَحَت بطاعتها وألقت بأزِمّتها ، فالبَسَها سَاح نعمته ، وأزَلها طلّ كرامته ، وخَصَّها بعظيم حِبَائه ، ثم عَمّ الجماعة بالمَعْدَلة ، وتعطّف عليهم بالرحمة ، فلا تَبْقَ فيهم ناحيةٌ دابية ولا فِرْقة قاصية ، إلا دخلَتْ عليها بركته ، ووصلتْ اليها سعتُه ؛ فأغنى فقيرَها ، وجبَر كسيرها ، ورفع وضيعها ، و زاد رفيعها ماحلا ناحيتين ، ناحيـةً يغلب عليها الشقاء ، وتستميلهم الأهواء ، فتَستحِفّ بدعوته ، وتبطئ عن إجابته ، وتتثاقل عن حقّه ، فتكون آخرَ من سَعَث وأبطأ من يوجّه ، فيَضْطلى عليها مَوْجِده ويبتغى لهـا عِلّة ، لا يَلْبَث أن يَجِدَ شقّ يلزمهم وأمر يَجب عليهم ، فتَسْتَلحمهم الجيوش ، وتأكلهم السيوف ، ويَسْتَحِرّ بهم القتل ، ويحيط بهم الأسر ، ويُفْنيهم التتبُّع ، حتى يحرب البلاد ، ويُوتِم الأولاد ، وناحيةً لا يبسُط لهم أمانا ، ولا يقبل لهم عهدا ولا يجعـل لهم ذمة ، لأنهم أوّل من فتح باب الفُرقه ، وتدرّع جلباب الفتنـة ، ورفض فى شقّ العصا ، ولكنه يقتل أعلامهم ، ويأسر قوّادهم ؛ ويطلب هُرّابهم فى لجج البحار ، وقُلَل الجبال ، ونَجَل الأودية ، و بطون الأرض ، تَقْتيلا وتغليلا وتنكيلا ؛ حتى يدع الديارَ خرابا ، والنساء أيامى ، وهذا أمر لا يعرف له فى كُتُبنا وقتا ، ولا نصحح مـه غير ما قلنا تفســـيرا .

وأما موسى ولىّ عهـدى فهذا أوان توجُّهه الى خراسان ، وحلوله بجُرْجَان ؛ وما قضى الله له من الشخوص اليها ، والمُقام فيها ، خيرٌ للمسلمين مَغَبّة ، وله بإذن الله عاقبةٌ من المُقام ، بحيث يُعْمَر فى لُجَج بحورنا ، ومَدَافـع سيولنا ، ومجامع أمواجنا ، فيتصاغَرُ عظيم فضـله ،

ويَتَدأَّب[1] مشرق نوره، ويتقلّل كثير ما هو كائن منه، فمن يَصْحَبه من الوزراء ويُختار له من الناس .

قال محمد بن الليث :

أيها المهدىّ : إنّ ولىّ عهدك أصبح لأُمّتك وأهل ملّتك علَما ، قد تَثَنّت نحوه أعناقُها، ومَدّت سَمْتَه أبصارَها؛ وقد كان لقرب داره منك، ومحل جواره لك، عُطِّلَ الحال غُفْلَ الأمر واسعَ العُذْر ، فأما اذا انفرد بنفسه وحلا بنظره وصار الى تدبيره، فإن من شأن العامة أن تتفقّد[2] مَحَارح رأيه، وتَسْتَنْصِت لمواقع آثاره، وتسأل عن حوادث أحواله فى بِرّه ومرحمته وإقساطه ومَعْدَلته وتدبيره وسياسته وورائه وأصحابه ، ثم يكون ما سِيق اليهم أغلب الأشياء عليهم وأمْلَكَ[3] الأمور بهم وألزمها لقلوبهم ، وأشدّها استمالةً لرأيهم وعطفًا لأهوائهم، فلا يعدُ المهدىّ — وفّقه الله — ناظرا له فيما يقوّى عُمُدَ مملكته، ويُسدِّد أركان ولايته ، ويستجمعُ رِضَا أمته بأمرٍ هو أزْيَن لحاله وأظهرُ لجماله، وأفصل مَغَنّةً لأمره، وأحَلّ موْقِعًا فى قلوب رعيّته، وأحمَد حالا فى نفوس أهل مِلّته، ولا أدفع مع ذلك لاستجاع الأهواء له، وأبلَغ فى استعطاف القلوب عليه، من مرحمة تظهرُ من فعْله ، ومَعْدلة تنتشر عن أثَره ومحبّة للخير وأهله ، وأن يختار المهدى — وفّقه الله — من خِيار أهل كل بَلْدة، وفُقهاءِ أهل كل مِصْر، أقواما تَسْكُن اليهم العامّة اذا ذُكروا، وتأنس الرعيّةُ بهم اذا وُصِفوا، ثم تُسهِّل لهم عِمارة سُبُل الإحسان وفَتْح باب المعروف، كما قد كان فُتِح له وسُهِّل عليه .

قال المهدىّ : صدقت ونصحت، ثم بعث فى أبيه موسى فقال :

أىْ بُنَىّ، إنك قد أصبحت لِسَمْت[4] وجوه العامّة نُصْبًا، ولِمَثْنَى أعطاف[5] الرعيّة عاية، فحَسَنَتُك شاملة ، وإساءتك مائبة ، وأمرك ظاهر، فعليك بتقوى الله وطاعته، فاحتمل

(١) يتدأّب : يجتهد . (٢) تتفقد محارح رأيه : أى تفحص عن وجوه رأيه وتدبيره . (٣) أملك الأمور : أسطها . (٤) السمت : المذهب والقصد . (٥) الأعطاف : جمع عطف وهو الجانب .

سُخْطَ الناس فيهما، ولا تطلب رضاهم بخلافهما؛ فإن الله عزّ وجل كافيك مَن أسخطه عليك إيثارُك رضاه، وليس يكافيك من يُسخطه عليك إيثارُك رِضَا مَنْ سواه . ثم اعلم أن لله تعالى فى كل زمانٍ فَتْرةً من رُسُله، وبقايا من صَفْوةِ خَلْقه وخبايا لنُصْرة حقه، يجدّد حبل الإسلام بدعواهم، ويَشِيّد أركان الدين ببصرتهم، ويتخذ لأولياء دينه أنصارا، وعلى إقامة عدله أعوانا، يَسُدّون الخَلَلَ ويقيمون المَيْل، ويدفعون عن الأرض الفساد؛ وإن أهل خراسان أصحوا أيْدِى دولتنا، وسيوف دعوتنا الذين نستدفع المكاره بطاعتهم، ونَستصْرِف نزول العظائم بمُاصحتهم، ونُدافع رَيْب الزمان بعزائمهم، ونُزاحم ركن الدهر بسائرهم؛ فهم عِماد الأرض اذا أُرْجِفَت كُنُفُها[1]، وخوفُ الأعداء إذا رزنت صَفْحتها، وحصونُ الرعيّة اذا تضايقت الحال بها، قد مَضَتْ لهم وقائعُ صادقات، ومواطِنُ صالحات؛ أخْمَدتْ نيرانَ الفتن، وقسَمت دواعِى البِدع، وأذلّت رقاب الجبّارين ولم يبعكوا كذلك ما حَرَوْا مع ريح دولتنا، وأقاموا فى ظلّ دعوتنا، واعتصموا بحبل طاعتنا، التى أعزّ الله بها دلّتهم ورفع بها صَعَتَهم، وجعلهم بها أربابا فى أقطار الأرض، وملوكا على رقاب العالمين بعد لِبَاس الذلّ، وقِناع الخوف، وإطباق البلاء ومخالفة الأسى، وجَهْد الباس والضُّر؛ فظاهِرْ عليهم لباس كرامتك، وأنزلهم فى حدائق نعمتك، ثم اعْرِف لهم حقّ طاعتهم، ووسيلة دالّتهم، وماتّة سابقتهم، وحُرْمة مناصحتهم، بالإحسان اليهم، والتّوسعة عليهم، والإثابة لمُحْسنهم، والإقالة لمُسيئهم .

أى بُنىّ، ثم عليك العامّة فاسْتَدْعِ رضاها بالعدل عليها، واستجْلِب مودّتها بالإنصاف لها؛ وتحسَّن بذلك لربّك، وتوثّق به فى عين رعيّتك، واجعل عمّال العُدْر وولاة الحُجَج مقدّمة بين عملك، وصَفْوة منك لرعيّتك، وذلك أن تأمر قاصىَ كلّ بلد، وخيار أهل كل مِصْر، أن يختاروا لأنفسهم رجلا تولّيه أمرَهم، وتجعل العدل حاكما بينه وبينهم؛ فإن أحسن حُمدتَ، وإن أساء عُذِرتَ . هؤلاء عمال العُذْر وولاة الحُجَج، فلا يَسقُطَنّ عليك

(١) الكنف : جمع كنف وهو الجانب . وأرجفت : زلزلت .

ما فى ذلك اذا انتشر فى الآفاق ، وسبق الى الأسماع ، من انعقاد ألسنة المُرْجفين ، وكَبْت قلوب الحاسدين ، وإطفاء نيران الحروب . وسلامة عواقب الأمور ، ولا يَنفكّ فى ظِلّ كرامتك نازلا ، وبِعُرَا حبلك متعلّقا رَحْلان : أحدهما كريمة[1] من كرائم رِحَالات العرب ، وأعلام بيوتات الشرف ، له أدبٌ فاضل ، وحلم راجح ، ودين صحيح . والآخر له دين غير مغموز[2] ، وموضع غير مدحول ، بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأى وأنحاء العرب ووضع الكتب ، عالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب ، يصع آدابا نافعة وآثارا باقية ، من محاسنك وتحسين أمرك وتَحْلية ذكرك ، فتستشيره فى حربك ، وتُدْخله فى أمرك ، فرَجُلٌ أصبتَه كذلك فهو يأوى الى مَحَلّتى ، ويَرْعى فى خُضْره جِنابى ، ولا تَدَعْ أن تختار لك من فقهاء البُلدان ، وخيار الأمصار ، أقواما يكونون جيرانك وسُمّارك ، وأهلَ مُشاورَتك فيما تُورد ، وأصحابَ مآطرتك فيما تُصْدِر . فَسِر على بَرَكة الله ، أصحبك الله من عونه وتوفيقه دليلا يَهْدى الى الصواب قلبَك ، وهاديا يُنْطِق بالخير لسانك . وكتب فى شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد .

---

(١) الكريمة . صاحب الكرم . وكرائم الرجال أحاير رجال العرب وأحاسبهم . (٢) غير معمور غير مطعون . وغير مدحول . لا يداخله فساد .

٢ — رسالة أبي الرَّبيع محمد بن اللَّيْث التي كتبها للرشيد الى قُسْطَنْطين ملك الروم

من عبد الله هارونَ أميرِ المؤمنين الى قسطنطينَ عظيم الروم: سلامٌ على من آتبع الهدى، فإني أحمَد الله الذي لا شريك معه، ولا ولد له، ولا إلهَ غيرُه، الذي تعالى عن شبه المَحْدودين بعظمته، وآحتجب دون المخلوقين بعزّته، فليست الأبصار بمُدْرِكة له، ولا الأوهام بواقعة عليه، امتدادًا عن الأشياء أن يُشْبهها، وتعاليًا أن يشبهه شيءٌ منها، وهو الواحد القهّار، الذي آرتفع عن مَنالع صفات القائلين، ومذاهب لُغَات العالمين، وفكَر الملائكة المقرّبين، فليس كمِثْله شيءٌ، وله كلُّ شيء، وهو على كلِّ شيء قدير.

أما بعد، فإن الله جلّ ثناؤه وتباركت أسماؤه، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما أَنْزل من آيات الوحي اليه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾. فرأى أميرُ المؤمنين من أحسنِ قوله وأفضلِ فعله، أن يكون الى سبيل ربّه داعيا، ورسوله صلى الله عليه وسلم متأسِّيا، ولقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى ٱللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ موافقا. وكنتَ من كتب الله المنزّلة، وآياته المفسَّره، وحَلْقه الكثير بحيثُ رحا أميرُ المؤمنين آستماعَك لمَوْعظتِه، وآنتفاعُك بمُجادلتِه انتفاعُ بَشَرٍ كثيرٍ وحَلْق عظيم قد نُوّتَ بأَوْزارهم مع وِزْرِك، وآحتملتَ من آثامهم الى إثمك، فأَحَبَّ أن يدعُوك ومَنْ رحا أن ينتفع بدعوته معك، الى كلمةٍ سَوَاء بيننا وبينكم ألّا نعبُدَ إلّا اللهَ ولا نُشْرِكَ به شيئا ولا يتّخذ بعضُنا بعضًا أربابًا من دون الله؛ فإن تولّيتم عن ذلك رغبةً عنه، أو تركتُموه رَهَادَةً فيه، فآشهدوا بأنّا مسلمون. وآستمعوا ما أميرُ المؤمنين واصفٌ لكم، ومحتجّ به إن شاء الله عليكم، بقلوب شاهدة وآذانٍ واعية، ثم آتّبِعُوا أحسنَ ما تستمعون. ولا قوة إلا بالله.

فان الله عز وجل يقول فيما أنزل من كتابه واقتص على عباده : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾. إن الله تبارك اسمه وتعالى حده، وصف فيما أنزل من آياته، وشرح من بيناته، الأمم الماضية، والقرون الخالية، والملل المتفرقة، الدين يجعلون مع الله آلهة أخرى لا برهان لهم بها، ولا حجة لهم فيها، فقال : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

قالت العربُ الدين يعبدون الملائكةَ وأهلُ الكتاب الدين يقولون ثالثُ ثلاثةٍ بأيِّما آية يا محمدُ ترعم أن الله إله واحد ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك آيةً تشهد لها العقول، وتؤمن بها القلوب ، وتعرفها الألباب، فلا يستطيع لها ردّا ، ولا تُطيق لها تحمدا ، ذكر فيما اتصالَ خلقه واتساقَ صُنْعه، ليُوقِنَ الجاهلون من العرب، والضالُّون من أهل الكتاب، أن الله السماء والأرض ، وما بينهما من الهواء والخلق، واحدٌ لا شريكَ له ، خالقٌ لا شيء معه، فقال : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ . فتفكَّرْ فى تفسير هذه الآية من كلام الربّ عز وجل ،وما أوضح فيها من بيان الخَلْق،فإنه ما مِنْ مفكِّرٍ يبطر فيما ذكر اللهُ فيها مما بين السماء والأرض، إلّا رأى من اتصال بعض ذلك ببعض، مثلَ ما رأى فى تدبيره نفسه ، وعرَف من اتصال خَلْقه، فيما بينَ ذَوَائب شؤون رأسه الى أطراف أنامل قَدَمِه . وفى ذلك أوضحُ آية وأبينُ دلالة، على أن الذى خلَقه وصنَعه إلهٌ واحد لا إله معه، ولا من شيءٍ ابتدعه، ولا على مثالٍ صَنعه . قد ترون بعيونكم وتعلمون بعقولكم ، أن الله عز وجل خلق للأنام الأرضَ ، وجعلها موصولةً بالخَلْق، فليس يَدْحُوها إلا لهم، ولا يُديمها إلا معهم، وجعل ذلك الخلقَ متصلا

بالنَّبْت، لا يقوم إلا به، ولا يصلُح إلا عليـه . وجعل ذلك النبتَ الذى جعله متاعًا لكم ومَعَاشا لأنعامكم، متصلًا بالمـاء الذى ينزل من السماء بقَدَرٍ معلوم، لمعاشٍ مقسوم؛ فليس يجُم النبتُ إلا به ولا نَجيا إلا عـه . وجعل السحابَ الذى يسُطه كيف يشاء متصـلا بالريح المسخَّره فى جوّ السماء تُثيره من حيث لا تعلمون، وتَسُـوقه وأنتم تنظرون؛ كما قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ ووصلَ الرياح التى يصرِّفها فى جوّ السماء بمـا يؤثِّر فى خَلْق الهواء من الأرمنة التى لا تثبُت الهَوَاجرُ إلا بثباتها، ولا يزول عـه بَرْدٌ إلا بزوالها، ولولا ذلك لظلَّ راكدا بالحرّ المميت، أو ماثلا بالبرد القاتل[1] . ووصـل الأزمنةَ التى حملهـا متصرفة متلوّنة بمَسير الشمس والقمر الدائبَيْن لكم المختلفين بالليل والنهار عليكم. وجعل مَسيرَهما الذى لا تعرفون عددَ السيرَ إلا به . ولا مواقعَ الحساب إلا من قِبَـله ، متصلًا بدَوران الفَلَك الذى فيـه يَسْبَحان ، وبه يأفلان، ووصـل مسيرَ الفَلَك بالسماء للناظرين سواء . فهـذا خَلْقُ الله عز وجل ، ما فيه سايرٌ ولا تزايُلٌ ولا تفاوت ، كما قال سبحانه وتعـالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ . ولو كان لله شريكٌ أو معه ظَهير عليـه ، يُمْنك منه ما يُرْسِل، ويرسِل منه ما يمسـك ، أو يؤخِّر شيئا من ذلك عن وقت زمانه، أو يعجِّله قبل مَجيء إبَّانه، لتفاوت الخلقُ، ولتبايُن الصُّنع، ولفسدت السموات والأرض، ولذهب كل إله بمـا خَلَق، كما قال عز وجل — وكذَّب المبطلين — . ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ .

والعجبُ : كيف يَصِفُ مخلوقٌ ربّه، أو يجعل معه إلها غيره، وهو يرى فيما ذكر الله من هـذه الأشياء صنعةً ظاهرة، وحكمةً بالغة ، وتأليفا متفقا، وتدبيرا متصلا ، من السماء والأرض ، لا يقوم بعضـه إلا ببعض ، مُتَجَلِّيًا بين يديه ، ماثلًا نُصْبَ عينيه ، يناديه الى صانعه ، ويدلُّه على خالقه، ويشهد له على وَحْدانيته ، ويهديه الى رُبُوبيَّته ، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ

(١) فى الأصل : «ما يلا» .

عَمَّا يُشْرِكُونَ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ . حقًّا ما كرّر هؤلاء الجاهلون بربهم الضالّون عن أنفسهم ، فى حلق الله البطر ، ولا رجّعوا كما قال الله عز وجل الفِكر . ولو أعملوا فكرَهم وأجهدوا بطرَهم ، فيما تسمع آذانُهم وترى أبصارُهم ، من حوادث حالات الخَلْق ، وعجائب طبقات الصُّنع ، لوجدوا فى أقرب ما يرون بأعينهم : من التأليف لتركيب خلقهم ، والأثر فى التدبير نصْبهم ، ما يدلُّهم على توحيد ربهم ، ويقف بهم على انفراده بخَلْقهم . فانهم يرَوْن فى أنفسهم بأعينهم ويجدون بقلوبهم ، أنها مخلوقة صَنْعةً بعد صنعة ، ومحوَّلةً طبقةً عن طبقةٍ ، ومنقولةً حالًا إلى حال : سُلَالةً من طين ، ثم نُطفةً من ماء مَهين ، ثم عَلَقة ، ثم مُضغة ، ثم عِظَاما ، كساه الله عز وجل لَحْما ، ونفخ فيه رُوحًا ، فإذا هو خَلْقٌ آخر ، فتبارك الله أحسنُ الخالقين ، الذى خلَق فى قَرارٍ مَكين ، من ماءٍ قليل ضعيف دليل ، خَلْقا صوّره بتخطيط ، وقدّره بتركيب ، وألّفه بأحراءٍ متفقة ، وأعضاءٍ متصلة ، من قَدَمٍ الى ساق الى فخذ الى ما فوق ذلك : من مَفاصل ما يُعْلِى أو عجائب ما يُبْطِن ، ليعلم الجاهلون ويُوقِن الجاحدون ، أن الذى صنع ذلك وخلقه ودبّره وقدّره وهيّأ ظاهرَه وباطنَه إلَهٌ واحد لاشريك معه . فلا يَذْهبَنَّ ذكرُ هذا صفحًا عنكم ، ولا تسقُطْ حكمتُه جهلًا به عليكم ، وفكّروا فى آيات الرسل وبيّنات النُّذُر ، فإن فى ذلك فكرًا للمُبْصرين ، وبَصرا للمعتبرين ، وذِكْرَى للعابدين ، والحمد لله رب العالمين .

وأميرُ المؤمنين واصفٌ لكم ، ومقتصٌّ من ذلك إن شاء الله عليكم ، ما فيه شَهاداتٌ واضحات ، وعلامات بيّناتٌ ، ومستدَلٌّ بذكر آياتٍ سبقها صلى الله عليه وسلم فيما أنزل الله منها فى الوَحْى اليه ، فإنه ما أحدٌ يقرَع آيات النبوّة قلبَه ، ويخصّ بيّنات الهدى عقلَه ، إلا قادتْه حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لا يجد الى إنكار ما جاء به من الحق سبيلا . فأردتُ أن تكونوا على علم ومعرفة ويقين وثقةٍ من أمر محمد صلى الله عليه وسلم وحقّه ، وما أُنْزِل اليه من ربّه عز وجل . فأحْضِرْ كتابَ أمير المؤمنين فَهْمَك . وألْقِ الى ما هو واصفٌ إن شاء الله سمعَك . إن الله عز وجل اصطفى الإسلامَ لنفسه ، واختار له رُسُلا من خَلْقه ، وابتعثَ كلَّ رسول بلسان قومه ، ليبيّن لهم ما يتّبعون ، ويعلّمَهم ما يجهلون : من توحيد

الرب وشرائع الحق ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ . فلم تَزَلْ رسلُ الله قائمـةً بأمره ، متواليـةً على حقِّه ، فى مَوَاصِى الدُّهور ، وخَوَالِى القُرون ، وطبقاتِ الزَّمان . يصدِّق آخرُهم بنبوّة أولهم ، ويصـدِّق أولُهم قولَ آخرهم ، ومَفَاتِحُ دعوتهم واحدةٌ لا تختلف ، ومَجَامِعُ ملّتهم ملتئمةٌ لا تفترق ، حتى تناهت الولايةُ والوراثة التى بَنَى عيسى عليه السلام عليها وبشَّر بها ، الى النبىّ الأُمّىّ الذى انتخبه الله لوَحْيه ، واختاره بعلمه ؛ فلم يزل ينقلُه بالآباء الأَخْيَر ، والأمَّهات الطَّوَاهر ، أمّةً فأمّة ، وقَرْنا فقرنا ، حتى استخرجه الله فى خيرِ أوان ، وأفضل زمان ، من أثبتِ مَحَاتِد (١) أُرُومات (٢) العربيَّة أصلا ، وأعْلى دوائب (٣) نَبَعَاتِ العربِ فَرْعا ، وأَطْيبِ مَنَابِتِ أعْيـاصِ (٤) قُرَيش مَغْرِسا ، وأرفعِ ذُرَى محد بنى هاشم سَمْكا : محمد صلى الله عليه وسلم خيرها عبد الله وحلقه نَفْسا ، على حينَ أَوْحشتِ الأرضُ من أهل الإسلام والإيمان ، وآمتلأت الآفاقُ من عَدَدِ الأصنام والأوثان ، وآشتعلت البِدَعُ فى الدين ، وأَطْبقت الظُّلَم على الناس أجمعين ، وصار الحق رَسْما عَافيا ، حَلَقا بَالِيا ، ميتا وسط أموات ، ما إن يُحِسُّون للهدى صوتاً يسمعونه ، ولا للدين أثرا يتَّبعونه . فلم يزل صلى الله عليه وسلم قائمـا بأمر الله الذى أَنْزل إليه ، يدعوهم الى توحيد الرب عز وجل ، ويُحَذِّرهم عقوباتِ الشِّرك ، ويحادُّهم بنور البرهان ، وآيات القرآن ، وعلامات الإسـلام ، صابرا على الأذى ، محتملا للكروه ، قد ألهمه الله عز وجل أنه مظهرُ دينه ، ومُعِزُّ تمكينه ، وعاصمُه ومستحلِفُه فى الأرض ، فليس يَثْنيه رَيْب ، ولا يَلْويه هَيْب ، ولا يَعْنيه أذى ؛ حتى اذا قهرت البيِّناتُ ألبابَهم ، وبهرتِ الآياتُ أبصارَهم ، وحصَم نورُ الحقِّ مُحَجَّتَهم ، فلم تمتنع القلوبُ من المعرفة بدوس صِدْقه ، ولم تجد العقول سبيلا الى دفع حقِّه . وهم على ذلك مكذِّبون بأفواههم ، وجاحدون بأقوالهم ، كما قال الله عز وجل العَلِيمُ بما يُسِرُّون ، الخابر بما يُعْلِنُون : ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ بَغْيا وعداوة ، وحَسَدا و لجَاجة ، افترض

(١) محاتد : جمع محتد ، وهو الأصـل . (٢) أرومات : جمع أرومة ، وهى الأصـل .
(٣) نبعات . أصول كريمة . (٤) أعياص قريش : أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر ، وهم . العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص والعويص . (٥) فى الأصل . "فلا" .

الله عليه قتالهم ، وأمره أن يجرّد السيف لهم ، وهم فى عصابة يسيرة ، وعدّة قليلة ، مستضعفين مستذلّين ، يخافون أن يتخطّفهم العربُ ، وتتداعى[1] عليهم الأممُ ، وتستحملهم[2] الحروبُ ، فآواهم فى كنفه ، وأيدهم بنصره ، وأنذرهم بمقدمة من الرعب ، ومشغلة من الحق ، وجنودٍ من الملائكة ، حتى هزم كثيرا من المشركين بقلّتهم ، وغلب قوّة الجنود بضعفهم ، إنجازًا لوعده ، وتصديقا لقوله : ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ فأحْسِ النظر وقلّب الفكر فى حالات النبىّ صلى الله عليه وسلم من الوَحْى قائما لله ، لتجد لمذاهب فكرك وتصاريف نظرك ، مضطرَبا واسعا ، ومعتمَدا نافعا ، وشُعوبا جمّة ، كلّها حيرٌ يدعوك الى نفسه ، وبيانٌ يكشف لك عن محْضه . وأحيرُ أميرَ المؤمنين ما كنتَ قائلا لو لم تكن البعثة للنبىّ — صلى الله عليه وسلم — بلغتْك ، ولم تكن الأنباءُ بأموره تقرّرتْ قِبَلَك ؛ ثم قامت الحجةُ بالاجتماع عندك ، وقالت الجماعة المحتفلة لك : إنه نجمٌ بين ظَهْرانى مثل هذه الضّلالات المستأصلة ، والجماعات المستأسدة[3] ، التى دكر أمير المؤمنين : من قبائل العرب ، وجماهير الأمم ، وصَنَاديد الملوك ، ناجمٌ قد نصَب لها وغَرِى بها ، يجهّل أحلامَها ، ويكفّر أسلافَها ، ويفرّق ألّافَها ، ويلعن آباءها ، ويضلّل أديانَها ، وينادى بشِنَاب الحق بينَها ، ويحهر بكلمة الإخلاص الى من تراخَى عنها ، حتى حَمِيت العربُ ، وأنِفت الحمُ ، وعضبت الملوك ، وهو على حال ندائه بالحق ودعائه اليه ، وحيدا فريدا ، لا يَحْفِل بهم غَضَبا ، ولا يَرْهَب عَنَتًا ، يقول الله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أكنتَ تقول فيما تجرى الأقاويلُ به وتقع الآراءُ عليه ، إلّا أنه أحدُ رجلين : إما كاذبٌ يجهل ما يفعل ويَعْمَى عما يقول ، وقد دعا الحتفَ الى نفسه ، وأذِن اللهُ لقومه فى قتله ، فليست الأيام بمادّة ولا الحالُ بثابتة له إلّا رَيْثَما تَسْتَلِحمُه[4] أسبابُهم ، وينْهَض به حلماؤهم ، غضبًا لربِّهم ، وأنفةً لدينهم ، وحميّة لأصنامهم ، وحسدًا من عند أنفسهم . وإما صادقٌ

(١) أصله تتداعى فحذفت إحدى تاءيه ، ومعناه يجتمعون عليهم ويتألبون بالعداوة .

(٢) تستحملهم : تلق عليهم حملها وصأها . (٣) المستأسدة : القوية . (٤) تستلحمه : تعلق به وتتشب .

نصـيرٌ بموضع قدمه ومَرْمَى نَبْله ، قد تكفّل الله عز وجل بحِفْظه ، وصحبه بعزّه ، وجعله فى حِرْزه، وعصَمه من الخَلْق، فليست الوحشةُ بواصلةٍ مع صحبة الله اليه، ولا الهيبة بداخلة مع عصمة الله عليه ،ولا سيوفُ الأعداء بمأدونٍ لها فيه . ثم ان آيتكم (١) يا أهلَ الكتاب لو قيـل لكم : إن الرجل الذى يدّعى العِصْمة ويتحل المَنَعـة ، قد نجمت الأمُور به على ما قال، وسَـلِمتِ الحالُ له فيما آدّعى ، حتى نصَب لعمارات (٢) العـرب ، وحماعات الأمم ، يقاتل بمن طاوعه مَنْ حالفه ، وبمن تابعـه من عابده، جاذا مشمِّرا، محتسِبا واثقًا بموعود الله وبصره، لا تأخذُه لومةُ لائم فى ربه، ولا يوحد لَدَيْه عَمِيزةً (٣) فى دينه ، ولا يلفته حِذْلان حاذلٍ عن حقّه، حتى أعزّ الله دينَـه ، وأظهر تمكينَه ، وآنقادتْ الأهواء له ، وآجتمعت الفِرَقُ عليـه، ألم يكن ذلك يزيد حقه يقيناً عندكم، ودعوتَه ثبوتًا فيكم، حتى تقول الجماعة من حُلَمائكم وأهلُ الحُنكة من ذوى آرائكم : ما كان الرجل، اذ كان وحيـدًا فريدا قليلا ضعيفا دليـلا معروفا بالعقل منسـوبا الى الفضل، ليجترئ أن يقول : إن الله عز وجل أوْحى اليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يَعْصِمه من العرب جميعا ويمنَعه من الأمم طُرّا ، حتى يبلّغ رسالاتِ ربه، ويُظْهِرَه على الدين كلّه، ويَدْخُل الناسُ أفواجًا فى دينه، إلّا وهو على ثقة من أمره، ويقين من حاله .

فسبحان الله ! يا أهلَ الكتاب ما أبْيَن حقّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لمن طلبه ،وأسْهله لمن قصَد له . وآستعملُوا فى طلبه ألبابَكم، وآرفَعُوا (٤) ... أبصاركم، تنظُروا بعَوْن الله اليـه، وتَقفُوا ان شـاء الله عليـه ؛ فإن علاماتِ نبوّته وآياتِ رسالتِـه ، ظاهرةٌ لاتَخْفى على من طلبها، جمّـةٌ لايُحْصَى عددُها، منها خواصُّ تعرفها العـربُ ، وعوامُّ لا تدفعها الأمم؛ فأما الخواصّ المعروفة لدينا، المعلومةُ عنـدنا، التى أحذتْها الأبناءُ عن الآباء، وقبِلها الأتباعُ عن الأسْلاف ، فأمور قد كثرت البياتُ فيها ، وتداولت الشهادات عليها، وثبتت الحجج بها، وتراخت الأيام ببعضها، حتى رأياه عِيَانا ، وقبِلْنـاه إيقانا؛ فهى أظْهر فيما من الشمس،

(١) كذا فى الأصل . (٢) عمارات العرب . أحياؤها العظيمة . (٣) عميرة : مطمع .
(٤) بياض فى الأصل بمقدار كلمة .

وأبين لدينا من النهار، ولكن غيَّبت الأزمانُ عنكم أمرَها، ولم يبقل الآباءُ اليكم علمَها، وما لا يُدْرَك إلا بالسمع موضوعُ الحجة عن العقل، فليس أميرُ المؤمنين مُحَاجٌّ لكم، ولا قاصد اليكم من قِبلها. وأما الآياتُ العوامُ والدلالات الظاهرة فى آفاق الأَرَضين، القاطعةُ لُحَج المُبْطلين، التى لا تنكر عقولُ الأمم وجوبَ حقِّها، ولا تدفع ألبابُ الأعداء صحةَ أمرها، فسَيُولجُها أميرُ المؤمنين مسالك أسماعكم، ويُعيد بها حجةَ الله فى أعناقكم، من وجوهٍ جمّة وأبوابٍ كثيرة، إن شاء الله. منها أنه لم تزل الشياطينُ، فيما حلا من فَتَرات الرسل وتَدَرات النُّذُر، تصعَدُ الى سماء الدنيا، وتُنْصِت للملأ الأعلى فتسترق السمعَ وتحتفظ العلمَ، وتنزل به الى كلِّ أفّاكٍ أَثِيم، يَنْئُون أكاديمَهم على واضح صدقه، ويُفَقِّقون أباطيلَهم بحسب حقِّه، حلطًا للباطل فيه، وسوسةً للعباد عليه. فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزل آياتِ القرآن اليه، حُرِست السماءُ بالنجوم، ورُمِيت الشياطينُ بالشُّهُب، وانقطعت الأباطيلُ، وانصمحلّت الأكاذيب، وحلَص الوحىُ، فبطَلتِ الكُهّان، وصلّت السُّحّار، وكَذَبت الأحلام، وتحيَّرت الشياطين، فكانت آيةً بينةً، وعلامةً واضحة، وحجةً بالغة، تبهر قرائحَ العقول، وتحرق حُجُب العيوب، فلا يقوم مع ضيائها طُلْمة، ولا يثبُت عند مُحْكَمها شُبْهة، ولا يُقيم معها فى محمد صلى الله عليه وسلم شكٌّ، لا من أصحابه خاصةً ولا ممّن جاء بعده عامة. وإنما جعلها الله عز وجل آيةً باقيةً فى العالَمين، وحِراسةً ثابتة من الشياطين، لأن الله جل وعلا جعل نبيا صلى الله عليه وسلم آخرَ النبيين؛ فليس باعثًا بعده نبيًّا يكذِّب أقاويلَ الكَهَنة، ويقطَع أحابيرَ الجِنّة.

وستقول، فيما يذهب اليه الظنّ ويقع عليه الرأى، أنت ومن عقَلَ من أمتك وأهل ملتك: هذه آية حاسمةٌ وحجة قاطعة بينة قائمة، مستعلية لأمرها، مستغنيةٌ بنفسها، لا تحتاج الى ما قبلها، ولا يُتّكل على ما بعدها، إن أقرت العقول بما تقول، أو قامت البينة على ما تدّعى، بلى؛ ثم تقول: وأنّى لك بالبينة، ولسنا نُقِرّ بكتابك، ولا نؤمن برسولك،

(١) كذا فى الأصل.

ولا تقبَـل قولَك فيما قد سبقَا و إيّاك زمانُه، وحجبتِ الغُيُوبُ عنّا وعنك علمَه؛ فأرجعُ اليكم إن قلتم ذلك، فإن وُحْدانَ القصاة قبل طَلَب البينات .

وليس يجعَل أميرُ المؤمنين فيما يُنَازِعُك ويُحَاجُّك فيه حاكما غيرَ عقلك، ولاقاضيا سوى نفسـك، ولكنه يذكّرك اللهَ الذى اليـه مَعَادك وعليـه حِسَابك، لمّا حملتَ التفهُّم لمسألته من بالك، وركبتَ حدودَها فى جوابك، عادلا بالقِسْط، قاصيا بالحق، قائلا بالصدق ولو على نفسك، ناظرا بالأثَرة لديك؛ فلقد وفّق الله لك آية، وأهْدى اليك بينة، لا تستطيع دفعَها لحَجْبها عن عقلك، ولا حِجَابا لنُورها دون بَصَرك، فلا تدفَع الآية بقولك، واليـدَ لسانك، مجْدا بقَطْع وصولِ الحُجَج اليـك، ويد[1] تُغْلق أبوابَ الفهم عنك، فإن اللسان لك مُدَاوَلٌ حيث شئت، ومقادٌ تُصَرِّفُه فيما هَويت، ولكن انصِب نفسك للفهـم وأنت شهيـد، وأرِدِ الحقَّ وقـولَه فيما تريد. فاذا تصوّرتَ البيناتِ مجسَّده فى قلبـك، وتبيَّنْتَ الحُجَج ممثَّـلة لنَظَرك، قـد أضاء صـوابُها لك وقرَع حقُّها قلبَك، فاحمل القولَ بها شِعارًا للسانِ به متّصلا. وأفهَم المسئلة فهَّمَك اللهُ الحقَّ، وحنَّك الجدَ، ما تقول أنت ومَنْ قِبَلك فى رجلٍ كان يتيماً ضعيفًا أجيراً سَاهِيا لاهيا عائلا خاملا، لم يتل[2] كتابا، ولم يتعلم خطا، ولم يَكُ فى مَحَـلّة علم، ولا إرْثِ مُلْك، ولا مَعْدن أدب، ولا بيتِ نبوّة، وتراقَبِ الأيامُ به، وآتصلتِ الحالُ بأمره، حتى خَرج الى العرب عامـة والقبائل كافة، وحيـدا طَرِيدا شَرِيدا، محـدولا مجهولا، مجفُوًّا مرميًّا بالعقوق لآلهتهم، مقـذوفا بالكذب على أصنامهم، منسوبا الى الهَجْر لأديانهم، وهم مُجْمِعُون على دَعْوة العصبية، وحَمِيَّة الجاهلية، مُتعادُون مُتَاغُون، مختلفـةٌ أهواؤهم، متفرقة أمْلاؤهم، يتسافَكُون الدماء، ويتنـاوَحُون النساء، ويستحِلُّون الحَرَم، لا تمنعهم أُلْفَـة، ولا تَعْصِمُهم دَعْوة، [ولا] يَحْجِـزُهم بِرّ، فألّف قلوبَها، وجمع شَتِيتَها، حتى تناصرت القلوب، وتواصلت النفوس، وتَرافدت الأيدى؛ ثم آجتمعت الكلمـة، وآتفقت الافئـدة، حتى صار عايةً لمُلْقَى رِحَالهم، ونهـايةً لمُنْتَجع

(١) لعله . ولا تعلق . (٢) فى الأصل لا .

أسفارهم، وصاروا له حزبا متحقبين، وحندا مُطيعين، بلا دُنيا نَسطها لهم، ولا أموالٍ أفاضها بينهم، ولا سلطانٍ له عليهم، ولا مُلْكٍ سألف لآمائه فيهم، ولا نباهةٍ كانت له بين ظَهْرانَيْهم. أتقول إنه [ما] قال ذلك كلَّه إلا بوَحْيٍ عظيم، وتنزيلٍ كريم، وحكمة بالغة! فإن قلت ذلك فقد أقررت أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسولٌ، وتركت ما كنت تقولُ إنه لم يُدْرِكه ولم يبلغه إلا بعقل سَديد، ونظر بعيد، ورِفْق لطيف، ورأى وَثيق، استَوَى به عقولَ الرجال، واستمال عليه أفئدةَ العوام. فإن قلتم ذلك فأنا سائلكم بإلهكم الذى تعبدون، ودينكم الذى تنتحلون، لَمَّا صدَقْتُمْ أنفسَكم وتجنَّبتم الهوى عنكم: أتؤمن قلوبُكم، وتُقِرّ عقولُكم، ويحتمل نظركم، أن محمدا صلى الله عليه وسلم الذى وصفتمُوه بكمال العقل، وسان الفضل، ورِفْق التدبير، كان يقول لرِجالات العرب، وجماعاتِ الأمم، [و] دُهَاةِ قريش: إن من آيات نبوّتى، ودَلالات رسالتى، وعلاماتِ زمانى، أن الشياطين تُرْمَى بنجوم السماء، ولم تَكُ تُرْمَى بها فيما خَلَا، ثم يحمل ذلك كتاباً يُقْرأ، وقرآنا يُتْلى، وهو كاذب فيما تَلَا، ومُبْطِلٌ فيما ادّعى، إبطالا تدركه عيون الناظرين، وكدنا يظهر لجميع العالَمين! سبحان الله! أرأيتم أنْ لو كان فيما قال من الكاذبين، وعلى ما ادّعى من الآثمين، ثم حاول إسعادَ القلوب، وإنْغالَ الصدور، وإنفار النفوس، وتفريق الجموع، أكان يزيد على ذلك!

فيا أهلَ الكتاب لا يحملنّكم الإلْفُ لدينكم على اللعب بتوحيدكم! فلعَمْرُ الله لئن تداركتُم أنفسَكم وناصحتُم نظركم لَتَعْلَمُنَّ أن محمدا صلى الله عليه وسلم لو حاول الكذبَ أو رام الإفْكَ، لما كان يترُك جميعَ الأرض، وما يغيب عن بعض الخلق ويظهر لبعض، ويقصد للسماء المتصلة بالبصر، البارزة للنظر، التى لا تحجى على بشر، ولا تغيب عن أحد، فيدَّعى فيها كذبا ظاهرًا، وإفْكا بارزا مكشوفا، لا يبقى صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى، إلا عرف أنه إفك وزور، وكذب وغرور، ولا سيمَّا اذا كان يُلْقى ذلك الى أقوام أكثرهم أعراب، ليس بينهم وبين السماء حِجابٌ، إنما يُراعُون الكواكب ويتفقّدون الغيوم، فأبعدُ عهدِ آخرِهم بها تفقّده لها ونظره اليها، ساعةً أو ساعتين، أو ليلة أو ليلتين.

لعَمْرُ الله لو عقَرت العربُ من أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم على كذبٍ لكان أوّل من يُوَاثِبه به ويُجَادِله فيه أعداؤُه من قريش عامة، وحُسَّادُه من حِيرته خاصة، ونظراؤه من أهل بيته دِنْيَةً الذين كانوا يستعيرونه (١) لكلّ طريق، ويقعدون له على كل سبيل، ويتساءلون من أمره عن كل دى حادثٍ، ويتعلّقون بالحروف المُشْكِلة، والآيات المُشْتَبِهة، جَدَلًا وخصومة بها، وطعنًا وإلحادًا ومازعة فيها، حتى لقد وصفهم الله بفعلهم، وأخبر عن ذلك من أمرهم، فقال عز وجل: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ وما كان الله عز وجل ليقولَ ذلك ولا لأحد أن يقوله على الله فى أمرهم إلا عن حصومةٍ شديدة، ومازعة بليغة، ومحادلة معروفة. فأحسِ الظنّ لنفسك، ولا تَهْلِكَن شفقةً على مُلْكك؛ فَايمُ الله لئن قلتَ إن النجوم شىء كانت العرب تراه بعيونها وتعرفه بقلوبها، فما كان محمد صلى الله عليه وسلم، وهو عارف بها غير جاهل لها، ليقولَ فيها إلا حقًا، ويتحل فيها إلا صدقا، لقد ثبتت فروع كلامك فيها على أُسِّه، ووصلتَ آخرَ قولك له بأوّله، ثبوتا على ما ذكرتَ من عَقْده، ولزوما لما تَفرطتَ من نظره، ولكنك لا تحد مع الإقرار بذلك بُدًا من التصديق برسالته، ولا مذهبا عن الإيمان بنبوّته.

ولئن زعمتَ أنه أدعى أمر النجوم كذبا وانتحلها باطلا، عارفا كان بها أم جاهلا، لقد نسبتَه من الخطأ الذى لا يَعْمَى عن بصره الى ما يحطئ فيه بَشَرٌ، فأكذبت نفسَك، وتركت قولَك: إنه لم يكن التأليفُ لقلوب العرب والجمعُ لشَتِيت القبائل، إلا برأى سديد، وعقلٍ أَصِيل، ورفق بالغ، الى أحد أمرين لا تجد لكلامك وجها تذهب اليه غيرَهما، ولا تَجِدُ تصعُه عليه سواهما: إما أن تقول: إنه ألّف قلوبَ العرب، وفرق جُموعَ الأمم بتنزيل الوحى، فتؤمن أنه نبيّ؛ وإما أن تقول: فعل ذلك بجهل؛ وهذا قول لا يُقْبل. كيف يصفه أحد من الجاحدين به المكذّبين له بغباوه، أو يرمونه بجهالة، وهم يَحُوزون به حدود الأنبياء، ويرفعونه فوق أمور العلماء، ويتخطّوْن به مراتبَ الحكماء، ومنازل الناس

(١) كذا فى الأصل.

تكثيرًا لعلمه، وتسديدًا لعقله، وتثبيتًا لفضله، فيما لا يقدر الخلقُ عليه ولا تهتدى الألسنُ اليه؛ حتى لقد نَحَلُوه فعلَ الربِّ الذى لا يقدر عليـه الخلق فى وجوه كثـيرة وأنحاء جمة: من ذلك أنه اذا قالت النقايا من أمتنا: كان محمد صـلى الله عليه وسلم يُخبرنا بالغُيُوب قبـل ظهورها، ويَصِفُ الأمورَ قبل حُلُولها، ويتجاوز [ما يكون] فى زمانه من ذلك الى ما يكون فى زماننا غيبًا أطلعه الله عز وجل عليـه، أضافوا دلك علمًا اليه، فقالوا: كان أعلم الناس بمواقع النجوم، وأبصرَهم بمـازل البُرُوج، وأنظرَهم فى دقائق الحساب. كيف ولم يكن المحـاز دارَ نجوم ولا محلَّ حساب ولا معـدن أَدَب! بل كيف والمنجِّم يقيس ويخطئ، ويشك فيما يدّعى، وهو أخو صواب لا شك فيه، وفارس صدق لا قياس معه.

ومن ذلك أنه اذا قالت العلمـاء من المسلمين: كان نبينا صلى الله عليه وسـلم [عليما] بباطن أخبـار النبيين، وخَفِيّ قِصَص القرون الأوّلين، قالوا: كان أحيا النـاسِ قلبًا، وأوسعَهم سَربًا، وأسرَعهـم أخذا، يتتبّع ذلك ويحبـه، وقد رواه وعُلِّمه. سبحان الله! أولا يعلمون أن المتعلّم معروفُ المعلِّم، متفاوتُ الحالات، متنقّل الطبقات، وأنه ما أحدٌ يؤدَّب صغيراً أو يطلب العلم كبيرا، إلا وله درجاتٌ فى علمه، وتاراتٌ فى أخذه، ومبارلُ فى تعلُّمه، تارة تلميذ، وتارة مُقارِبٌ، وأخرى حاذق، وبكل ذلك موصوفٌ من أهله، معروفٌ عـند قومه، ظاهرٌ بخيرته، مستفيضٌ فى عشيرته، لا يجْهَل أمرُه، ولا يخفَى ذكرُه، ولا يُنسَى عـند مواضع الحاجة اليـه، وتارات الاحتجاج به عليه. ولو كان ذلك معروفًا فيهم، أو موجودا لديهـم، أو ظاهرا عنـدهم، لمـا أمره الله عز وجل أن يحتجّ عليهم ويقول فى ذلك لهم: لقد لَبِثتُ فيكم عُمُرًا من قبله، لا أتلو قرآنا، ولا أدّعى وحيا، أفلا تعقلون!

وأيم الله! لو كانوا يعقلون أو ينظرون، لعلموا أن معلِّمـه على غير الملة التى يعرفون، لأنه لهم من المخالفين، وعليهم من الطاعنين، يذكر فَضَائحَ قولهم، ومَعَايبَ أمرهم، ومَخَازِيَ أسـلافهم، وعوائر أديانهم؛ وإنه لو كان معلّمه نَصْرَانيًا لدعاه الى النصرانيـة، أو يهوديًا

لدعاه إلى اليهودية ، أو مجوسيًّا لدعاه الى المجوسية . ولو لم يكن له معلِّم لمَا وقع على الحقيقة هدايةً من تلقاء نفسه ومعرفةً بقوّة عقله . ولو كان معلمه الشيطانَ لمَا دعاه الى عبادة الرحمن ، ولا أمره بهجر الأوثان ، وكسر الأصنام ، وصلة الأرحام ، والإصلاح فى الأرض؛ كيف [و] كان الشيطان يصُدّ الناسَ عن سبيله ، ويُزَهّدهم فى دينه ، وينهاهم عن طاعته ، ويحرجهم من عبادته ، ويُدخلهم فى مَساخطه ، ويحملهم على مَعاصيه ! إنه اذًا لرحيمٌ بهم ، ناظرٌ لهم ، شفيقٌ عليهم ، كأنه هو المبعوثُ اليهم ، كلا ! ما كان ليُقدّمهم من حَبائله ، ويُخلّصهم من مَصايده ، ويُخرجهم من ولايته وطاعته وسلطانه وخُدَعه وفتنته وحربه ، الى غير ذلك من أمره . وما كان لينهى العرب أن يقتلوا أنفسهم ، ويتناوحوا حُرَمهم ، ويُؤْدُوا ذرِّيّتهم ، ولا ليقولَ لهم : لم تعبدون نَحيتَ الحجارة التى جعلها الله لكم عارا ، وتَدَرُون عبادةَ الربّ الذى خلقكم أطوارا ! هيهاتَ ! لقد ذهبتم بالشيطان الرجيم الى صراط العزيز الحكيم ، فقلتم قولا تُنكره العقول ، وتدفعه القلوب ، وتستوحش منه النفوس . ألَا تسمعون الى قول الله عز وجل : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ فما كان الشيطان ليرضى للعرب باللعنة والصَّمَم والعمى والصمم ، فاتّقِ الله ولا تكن من الجاحدين .

ومنها أنه اذا قالت الفقهاء والحكماء : أتانا محمد — صلى الله عليه وسلم — بكلام لم تسمع الآذان بمثله ، ولم تقع القلوبُ على لُغته ، له رَونقٌ كحَباب الماء ، ورِبرِبٌ يعلو ولا يُعلَى وعجائب لا تَبلَى ولا تفنَى ، وجِدّةٌ لا تتغيّر ، [قالوا] : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — أبلَغَهم قولا ، وأحسنهم وصفا . فيا سبحان الله ! ألا يعلمون أن لو كان القرآن كلاما للعباد لما أقرّت الأعداءُ من ... (١) .. بفضله ، ولا تعجزتْ القبائل طُرًّا عن مثله ، وهو بياديهم فى الكتاب ويتحدّاهم فى الوحى ، بصوت رفيع ، ونداء سميع ، فيقول : هاتُوا سورَةً مِنْ مِثْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وهم فرسان الكلام ، وإخوان البلاغة ، وأبناء الخُطب ، وأهلُ عداوة له وبغى

(١) بياض فى الأصل بمقدار كلمة .

عليه ، فتستحسر الأبصار ، وتثقُل الأسماع ، وتنعقد الألسُن ، وتَخْرَس الخطباء ، وتعجَز البلغاء ، وتَحار الشعراء ، وتستسلم الكُهّان . ثم لقد قايستِ البُصَراءُ بالكلام والعلماءُ بالمنطق ، بين ما بأيدينا من كلام النبي — صلى الله عليه وسلم — وما جاء به من كلام الوحى ، فاذا بينهما بون بعيد وتفاوت شديد ، ليس بشبه له ولا مدانٍ ولا قريب . وكذلك ينبغى لكلام الرب عز وجل أن يعلو كلام الخلق ، وألّا يشبه قولَ العباد فى تاليفه وأحاديثه ومعانيه وجميع ما فيه ، لأن الله عز وجل لا يشبهه شيء من ذلك أنه اذا قال المسلمون : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — تُرى ماضِيَ أسلافنا وصُلّح آبائنا من العجائب العظام ، والآيات الكبار ، ما هو حديثٌ عندنا ، بَيِّنٌ قِبَلَنا فلم يَعْفُ أثرُه ، ولم يَدْرُسْ حبرُه ، ولم يتقادَمْ عهدُه : من شجرةٍ ناداها فأقبلتْ ثم أمرها فرجعتْ ، ومن نحو بعيرٍ تَظَلَّم ، وذئبٍ تكلم ، وأشباهٍ لذلك كثيرة ، ونظائرَ له عجيبة ، قالوا : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — كاهنا حاذقًا ، وساحرا ماهرا ، يُشَبِّه بالخيال ، ويأخذ بالأبصار . كيف والجموعُ الكثيرةُ تصدُرُ عن الأطعمةِ اليسيرةِ والمياهِ القليلة ، شِباعًا رِوَاء ، أيكون ذلك والسحر سواءً ! والأحدُ بالعيون لا يجرى فى البطون ! ولو كانوا ينظرون لدينهم ويُنْصِفون من أنفسهم ، لعلموا أن أمر الساحر يدور على إفكٍ وغُرور ، وأن لمحمد — صلى الله عليه وسلم — آثارًا قائمة ، ومنافعَ دائمة . ثم لو كانت الكِهانةُ والسحرُ يبلُغان مثل هذا من الأمر ، لبطَلَتْ آياتُ الكُتُب ، وعلامات الرسل ، ولَعَلَتِ الشُّبْهة ، وسَقَطت الحجّة ، وكَدَتِ النبوّة ، ولَبَطل ما كان [يفعله][1] عيسى عليه السلام : من إبرائه الأكمَهَ والأبرصَ وإحيائه الموتى . فلا يكونن التقليدُ للرجال مبلغَ علمك ، ولا القبولُ لدعواهم بلا بيِّنة .

ومن ذلك [أنه] اذا قالت البُصَراء من أمتنا والعلماء بملتنا : كان النبيّ — صلى الله عليه وسلم — أُمِّيًّا لا يُحسن الكتابَ وحافظا لا يسمى القرآن ، وقلما يجتمع العقل السديد والحفظ السريع والنسيان البطىء ، قالوا : كان أخطّ الناس يدًا ، وأذكاهم حفظًا ، كان يكتب بالنهار ، ويدرُس بالليل .

(١) زيادة يقتضيها السياق .

ولعمر الله أن لو كانت الحال كما يقولون والأمر كما يصفون ، لما خَفِيت الصحف له ، ولا اكتُتِمت الدراسةُ عليه ، ولَمَا كان يُطيق سَتْرَها عن أهله ، ولا حجابَها دون قومه . وكيف تُؤمن القلوب وتُقِرّ العقول أنّ رجلا كبيرا حَمَل علما كثيرا وحِكَمًا جَمّاء : من آيات متشابهه ، وسُوَرٍ متوالية ، وهو صاحب أسفار مترامية[1] ، وأخو حربٍ دائمة ، لا يبطئ لفظه ، ولا يسقط حفظه ! لولا[2] أن الله عز وجل كَفَاه أن يُحَرِّكَ به لسانه ، وضَمِن له جَمْعَه وقُرْآنَه ، فقال عز وجل : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ فلم يكن يُسقط واواً ولا ألفا ، ولا يَنْسَى كلمةً ولا حرفا . ما أبينَ هذا وأفحَمَه ! وأعجبُ منه المكرُّله .

وأما قولهم فى الخطّ وإكثارُهم فى الكتاب ، فإن الله عز وجل جعله أُمِّيًّا ليُثبت حجّته ، ويصدِّق مقالته ، ولئلا يَشُكّ المبطلون فى أمره ، ويقولوا : تَعلّمه من غيره ؛ فإنه قد قال ذلك بطائفٌ من مُنَافِقـة العرب وطوائفُ من كَفَـرة العجم ، فمطقت [به] الأعداء من حيرته ، والحسدة من عشيرته ، الذين بلغوا [ما بلغوا][3] من مجادلة حقّه ، ومحاصمة ربه ، كفاه لمن قَرُب ، ووكلاءَ لمن بَعُد ، فيما لم تكن العرب واقعةً عليه ، ولا الأممُ مهتديةً اليه ، لأنهم[4] قد أحاطوا من علم خَبَره ، وحَفِىَ أثَرُه ، بما كان عن غيرهم محتجبا ، ومن سواهم مكتتما . وقالوا : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يتعلّم من بشر أو يختلف إلى أحد ، لما خفى عنا ولسقط علينا[5] . وحقا لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يختلف إلى أحد صغيرا ، أو يتعلّم من بشرٍ كبيرا ، لَعَرف ذلك أترابُه المختلفون معه ورفقاؤه والمقتدون ، ولما جهل ذلك من حوله من حيرته نصرة ، ولا منْ معـه من أهل بيته دِنيـة ، الدين عليهم يورِد ومن قِبَلهم يُصْدِر ، ولكان شائعًا عند حشَم معلّمه وجيرة موصـعه الذين كان يختلف اليهم ، ويتأدّب بين ظَهْرَانَيْهـم . ولو كانوا بذلك عالمين ، أو فيه من أمره شاكّين ، ثم لَعَهم وتقرّر قِبَلَهم أنه يقول : إنّ الله عز وحل أوحَى اليـه ، فيما أنزل من الكتاب عليـه : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ لخاصمه منهم من كَفَر ،

(١) فى الأصل : «متراحية» . (٢) فى الأصل : « ... ولا يسقط حفه ولولا أن ... الخ» .
(٣) زيادة يتطلبها الكلام . (٤) فى الأصل : « إلا أنهم ... » . (٥) فى الأصل "ولاسقط" .

ولكفر به منهم من آمن . ثم يدّعى ذلك قرآنا ، ويتحله وحيا ؟ أمَا كان يرهَبُ أن ينتشرَ فى الأقربين، ويخرَج الى الأبعدين، فتطلَ حجتُه، وتنتقضَ دعوتُه، وتسقُطَ نبوّته، ويَنْفِرَ أصحابُه الذين لم يَصْبِروا معه فى المجاهدِ أنفسَهم، ويبدُلوا عدد الشدائد مُهجهم، ويُنفقوا فيه على الحاحة أموالَهم ، مُنَاصِبين لأهل الشرق والعرب والعجم وكل الأمم ، وهم قليلون مُستضعَفون عائلون جائعون ، لا طلباً لدنيا ولا طَمَعاً فى مال، إلا لما تَعَقّبوا من قوله ، وعَرَفوا من صدقه . ولولا أنه أحبرهم ووعدهم أن يغلب كسرى وقيصرلهم، فصدّقوا بقوله ، وآمنوا بوعده ، حتى قَوِيت البصائر، وصَرُمتَ العزائم ، وقويت النيات، فنَشِطت النفوس، وتَجُمعت القلوب، وحملت الأبدان، لَمَا وَقَع لهم طمع فيه، ولا ذهب لهم وَهَلٌ(٢) اليه . فكم من ذلك على يقين لا يخالجه شكّ ، ومعرفةٍ لا يخالطها ريب، إن شاء الله .

ومن ذلك أنه اذا قال المسلمون : ما من فَعَالٍ محمود ، ولا مقالٍ معروف، ولا خلق كريم، ولا أدب فاضل، إلا وقد أدّب الله عز وجل به محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزله فى الكتاب اليه، فكان يأمر بالمكارم، ويحضّ على المحامد، ويعمل بالمحاسن التى ليس فيها مَدْخل لشبهةِ طاعنٍ، ولا مَعْلَقٌ لمحة قائل، ولا مغمزٌ لبصيرة عائب، ولا موضعٌ لخصومةِ بشر، فى وعد أو عهد، أو حَلٍّ أو عقد، أو مقال أوفعال، أو غير ذلك من الأمور — قالوا : أمور حَمَلَ عليها نفسَه ، ودعاه اليها عقلُه ، وصبّرَ عليها ، لِمَا أمّل ورجا فيها . سبحان الله! وما أمّل بها وأرتجى منها؟ إن قالوا : الدنيا ، فلقد أكذبهم إدبارُه عنها ، حيث أمكنته القدرةُ منها، وأعثرته الحال عليها . وإن قالوا : حبّ الأُثْرَة ، فقد جعل نفسَه للمسلمين أُسوةً : فى سِهَامهم وقِصاصهم، وحُدودهم وحقوقهم، وغير ذلك من أمورهم . وإن قالوا : المُلْك ، فلقد كان أشدّ الناس لربه تواضُعا، وأعظمَهم فى جَنْبه تصاغُرا، ما إن أكل متكأً قط إلا مرة، ثم قعد كهيئة الفَزِع لها النادمِ عليها ، فقال :

---

(١) صرهسه : حبسها (٢) وهل : فزع .

"اللهم إنى عبـدُك ورسولك" . وإن قالوا : النعيم، فمن كان أيئَسَ منه مَعَاشًا، وأخشَنَ رِياشا، وأغلظ مأكلا ! وكيف يدوق العيشَ أو يجـد لذيذ النعيم، من حَرّم السُّكَرَ والخمر، ونهى عن الديباج والقَزّ، وكان أكثرَ دهرِه صائمـا، وأطولَ ليلِه قائما ! وإن قالوا : طلب الصوت(١) ورغب فى الدين، فذلك ما لم يطلبـه أحدٌ فى حبّ الصوت وٱلتمـاس الحمد لمـا صـبر مغاصب قومه ، وملاوم أهـلـه ، وشتائم العرب وتوعد العجم ، وٱستهزاء قريش ؛ يرمونه بالعقوق، ويقذفونه بالجنون، ويبهتونه بالسحر، وليس يدرى ما يهجُم به الأمر(٢) .

أم يقولون طَلَبَ تأثيـلَ المُلْك لقومه، وأراد توطئـةَ الولاية لأقاربه فكيف يطلبُ لقومه ما قد زَهِد فيه لنفسه ! أم كيف يطلبُ لهم عزَّ المُلْك وقد أوطأهم الذلّ ثم القتل . لَعَمْرُ الله أن لو أرادَ المُلْكَ لأقاربه ، وأراد طلبَ السلطان لذوى رَحِمـه ، لَوَكّد لهم عَقْـدًا لا يُحَلّ، ولأبرم لهم أمرًا لا يُنْقَض، ولأثّل لهم فى عُقْوان أمره مُلْكًا لا يخرج من أيديهم، ولا يبرح أبدًا فيهم(٣)، امتثالًا لصنيعكم وٱحتذاءً على مِثالكم ، مع أقاويلَ جَمّة ونظائرَ كثيرة، لا يستقيم لهم معها أن يقولوا إن محمدا صلى الله عليه وسلم غَلَب العرب وقَهَر العجم، أو قال فى أمر السلطان والنجوم بكذب .

فان قلتم إن محمدا صلى الله عليه وسلم كان فى قوة عقله وبيان فضـلـه ، على ما قلنا وقلتم وصَـدَّقنا به نحن وأنتم ، ولكن هَفَتِ العلماء وزَلّت الحكماء وأخطأت القلوب، فقـد يعلم أميرُ المؤمنين — وأنتم بذلك من العالمين — أنّ خطأ قلوب العلماء نَكْطأ دائرة الرَّحا ، ليست العلماء بمخطئة إلا المَوّة والثنيّين ، كما لا تخطئ الرحا إلا الحَبّةَ والحبتين . ومثل الذى نسبتم الى النبى صـلى الله عليه وسلم من الخطأ عندكم والجهل فى أنفسكم ، كثيرٌ لا يُحصيه أحد، ولا يبلُغُه عدد . وأمير المؤمنين واصفٌ بعضَـه لكم، ومورِدٌ ما حَضَر كتابَه إن شاء الله لكم . وأيم الله على ذلك لو قالت العلماء من المسلمين هَبُوا محمدا صلى الله عليه وسلم كان

(١) الصوت : الذكر الحسن كالصيت .
(٢) كذا وردت هذه الجملة فى الأصل وهى مضطربة .
(٣) فى الأصل : "ولا يبوح ..." .

فى أمر النجوم من المخطئين، فكيف أخطأت العربُ وهفَت الأمم فى ترك محادلته ورفض منازعته، وكيف لم تقل العلماء من إفنائه والحكماء من حكمائهم، تو بيخاً منهم له، وتعييراً لمن آمن معه : هذا أمرٌ من أوضح الأكاذيب وأبطل الأباطيل؛ فلا يثبُتُ مع قولهم إيمانٌ، ولا يُقيم على شرحهم إنسان . فإن قلتَ : فلعل ذلك قد كان، ولكنه دَرَج على طول الأزمان، فكيف اذًا صدّقت العربُ بنبوّته، ولم تكفُر القبائلُ برسالته، وهم يسمعون كذباً لا ينفع معه صدقٌ كان قبلَه، وباطلًا لا يَعْصِم معه حقٌّ حَدَثَ بعده . وإن قلتَ : أدحلهم بالقهر وضَبطهم بالقتل وأكرههم بالسيف، فما مالُ القليل من المسلمين الذين قَهَرهم الكثير من المشركين، ما بالهم آمنوا وصدّقوا، وصَبَروا وصابَرُوا، وجَدُّوا وجاهدوا، كيف لم تتكسرْ عزائمهم، وتَهِنْ بصائرهم، ويَرْجِعُوا الى دِينهم، ويهرُبُوا عن توحيدهم! كلا! لو كان الأمر على ما تقول، لأرفضّ القومُ عن الرسول، ولكان صلى الله عليه وسلم أوّلَ مقتولٍ أو مخذول . فأحسِنِ النظرَ فيما تدهب الأهواء برأيك اليه من آيات النبي صلى الله عليه وسلم . وإن صَحّت الدعوى بكم، فقائل : قد مالت به الأهواء فى الباطل، فقال : إنه إلا يكن الأنبياء ذكرتِ النجومَ فى صُحُفها ببيت الحكماء منها ذكرًا فى كُتُبها، بجعلت المنقضّ من الكواكب بين الأعوام، دليلا على أمر يحدُثُ تلك الأيامَ، ولا ما هذا الاختلاق يلطّ به الجاهل للفساق . ما ان وضعت الحكماءُ ذلك فى الكتب، إلا ليالى ملئت السماء من الشهب . وبالله لو أدّعيتم غير ذلك فكان حقًّا، وكانت القالةُ منكم صدقا، لما كانتِ الدعوى بناقضةٍ لآية النجوم حجة، ولا مدحلة على أحدٍ فيها شُبْهة؛ لأن رميا يقع فَرْطَ السنين من الكواكب، لا يُبْطل رَجْماً قد ملأ السماء من كل جانب . ثم لو لم تكن النجوم آية دامغة، وحجة بالغة، ودلالة قاهرة، وعلامة باهرة، وأمارة طاهرة، وشهادة قاطعة، وبينة عادلة، وداعية قائمة، تُبْطل أطانين المشركين، وتَرْدَع أقاويلَ المناقفين، لما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليُعظم أمرَها، ولا ليكرّر فى آى القرآن ذكرها، رهبةً

(١) كذا فى الأصل . (٢) فى هذا الموضع اضطراب . (٣) فى الأصل "دافعة ..." .

لماهصة احياء العرب، ومعرفةً بمحادلة إخوان الكتب، الذين لو وَجدوا فيما كَتَبَ به اليك أميرُ المؤمنين من أمر النجوم وآحتجّ [به] عليك من ذكر الرجوم، موقعًا لظن أو مَعْلَمًا بطعن أو مغمزًا لقول، لناصبُوه اذا بالمجـادلة، وكَاشَفُوه بالمنـازعة، وحاهَرُوه بالقول الذى لا يستطيع له ردّا، ولا يطيق له جَحْدا، ولكنها آيةٌ ملأت الأقطارَ كثرةً، وحسَرت الأبصارَ قوة، قد وجّلت العقولَ، وولّهت القلوبَ، وملأت النفوسَ جَزَعا ووجعا، وفَرَعًا شَغلهم عن الأولاد، وأذهلهم عن البـلاد، حتى بلغ أميرَ المؤمنـين وتقرّر عنـد فقهاء المسلمين أن الله عزّ وجل، لمـا ملأ السماءَ حَرَسًا، وأحدث لها رَصَدًا، وخلق فيها شُهُبًا، ذكرت العقلاءُ من العـرب، وقعَات الله عز وجل فى الكتب، بقوم نُوح وعادٍ وثَمُودَ، وأشـباههم من مؤلّفى تلك الجنود، الذين كانوا أشـدَّ بَطْشا، وأكثرَ جَمْعًا، فانفَرجتْ أيديهم عن كرائم أموالهم، وأرسلت أنفسُهم مَتَانِنَ عُقَدِهم. وإن أهلَ الطائف لمـا فعلوا دلك بأموالهم، وأجمعوا فيه الخروجَ الى قفرائهم، قام فيهم رجلٌ منهم ذو سِنٍّ وعقل فقال:

يامَعشرَ العرب، لاتُهْلِكُوا أنفسكم قبل أن تَهْلِكُوا، ولا تَخْرُجوا من أموالكم قبل أن تُخْرَجوا، تفقّدوا مواقعَ نجوم السماء، وكواكبَ بدورِ الدُّجَى، فان كانت النجومُ التى حدث الرمىُ بهـا والنجومُ التى أحليتُم الأموالَ لهـا، هى لبُرُوج الشمس والقمر ومسالِ الحيوان والشجر، فهى جوائحُ الاستئصال، المُتلِفةُ الأنفسِ والأموال، وإن كانت النجوم التى حدث القذف بها، إنمـا هى نجومٌ خُلقت اليوم، فليست المعرفة بواقعـةٍ على مُبْتَدَاها، ولا الأبصارُ بلاحقةٍ منتهاها، فأمسكوا العُقَد[2] عليكم والأموال، فإنه أمر يحدُث فى إحدى هذه الليال.

فإن قلت: وكيف وقعت الأمورُ فى هذا الرجل كالعِيَان، وصارت المقالةُ منه كوَعْيِ الآذان، أنبأك أميرُ المؤمنين أن أوعيةَ الفقه من المسلمين، الذين حَمَلُوا الينا سُنَنَ الدين، هم

(١) كذا فى الأصل. (٢) العقد: جمع عقدة وهى الصيعة أو العقار الذى اقتناه صاحبه.

أدّوا دلك اليا، وأنقوه نخرًا .. عليا، ها إن يَنْفَكُّ منهم مفتخرٌ يقول . أبوا الذى حبس على العرب الأموالَ والعقد، ها إن يدفع القول فى ذلك منّا أحد . هيهات ما كانت العربُ لِتُقرَّ عند الفخار، إلا بطَوْلٍ هو أبْيَنُ فيها من ضوءِ النهار . فافهمْ ما كتب به أميرُ المؤمنين فى هدا اليك، ولا يكن التعللُ فيها بالشُّبُهاتِ أوثقَ ما لديك، فإنه قلّ حجّةٌ إلا وإلى جنْبها شبهةٌ تَخيّل للعقول، وتَعرّض للقلوب، وتَجلْجَلُ فى الصدور، فلا يثبت مع تحيُّلها، ولا يُقيم لتعرُّضها بَشَرٌ إلا من وزَنَ الحقَّ والباطلَ بميزان عادل، لا يميـل الى تفـريط، ولا يحَطُّ فى تقصـير . وقد جعـل الله عزّ وجلّ العقولَ موازينَ للأمور، فرِئُوا ما سمعتم من حجج كلام الرب عزّ وجلّ بما تَعْقُون به الشبهةَ عن الحق، ولا تُميلُوا اللسانَ، فتحسَرُوا الميزان. وسـيعلّل أميرُ المؤمنين إن شاء الله بمـا جاء عن ذكر ما كتب به اليكم من أمر النجوم والرُّجُوم والشُّهُب فى القرآن والرِّوَاية والكُتُب، فألْطِفُوا البطرَ فى صحة معانيه، ونحُّوا الهوى عن شبهه ما وقعتْ فيه[٢] : قال الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ وقال : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ . وإن شطب عن الحق شاطب، أو دهب الى الباطل ذاهب، لا يعرف مداهبَ كلام العرب، ولا وجوهَ معانى الكتب، ولا تفسـير آيِ القرآن، فقال : إنمـا جُعلت الكواكبُ والمصابيح حفظًا من الله عز وحل للسماء، ورُجُوما للشياطين من قبل أن يبعثَ الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالدين .

فإن فى آيات القرآن مافيـه بيانٌ ممـا يُبْطِل دعواه التى لا بينةَ عليها، ويكذّب مقالتَه التى لا شُهُود لهـا ؛ فقالت الجن — فجعَل الله تبارك وتعالى قولهَا وَحْيا — وبه منها صِدْقا : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ . ألا ترون أنها كانت الجن لمست السماء فلم تجـدها ملئت حرسا شـديدا وشهبا، وقعدت الشياطينُ منها مقاعدَ للسمع

(١) بياض بالأصل بمقدار كلمة . (٢) فى الأصل « عن شبهة انما الخ » .

فلم تجد شُهُبا ولا رَصَدا، أو لا(١) يسمعون الى مايحقّق ذلك ويسدِّده ويصدِّقه ويشهد له من قول الله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ مع قولِ الجنّ أيام حُرِست السماءُ ورُميت الشياطينُ : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾. فاذا أعملتَ فى ذلك فكرَكم، وقلَّبتَ فيه نظرَكم، فكنتم على برهانٍ يقين، ونورٍ مستبين، من استطاعةِ الجنِّ للاستماع، وقدرةِ الشياطين على الاستراق، وإمكان السماءِ للقعود فى تلك الحال الأولى، ففكّروا فى الحال الأخرى حيث حرست الآياتُ أن تعارض باطلاً بحق، ومُنعت الشياطينُ أن تَنْزِل بصدق، وامتنعت السماء أن يصعَد اليها شيطان؛ فقال الله عز وجل : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ . قالَتِ الجنُّ : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ إن فى قولهم الآن لأعظمَ نور وبيان . وأبْيَنُ من ذلك لكم وأصحُّ لمَنْ عقل إن شاء الله منكم، إخبارُ الله عز وجل حين جُعلت الكواكبُ حفظًا من كل شيطان مارد، أنهم ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ مع إخباره فى الحال الأولى أنهم يسمعون ويقعدون وينزلون ويستطيعون ويَتْلُون على مُلْكِ سليمانَ، فكن لهذا من الحافظين، وفيه من المفكّرين .

ومن آيات النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه لما نفَرت القبائلُ من أعلام الشرك بجموعها، وتَداعتِ القادةُ من صَناديد الكفر بأتباعها حَذَرًا على عِير لها أقبلت من الشام بصنوف رَغائبِ أموالٍ عِظام، فكانت العِيرُ والنَّفيرُ طائفتين : طائفةٌ ذاتُ عُدّة كثيرة وشَوْكة شديدة، وطائفةٌ ذات أموال رَغيبة ورجالٍ قليلة وفرصةٍ ممكنة، أخرج الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم ووعَده ومَنْ معه من المسلمين إحداهما، فكرِه المؤمنون جموع المشركين، وأراد الله عز وجل أن يقطعَ دابرَ الكافرين، ويشيِّد بذلك أركانَ الدين، فلما تراءتِ الفئتان، وتناوشت الفُرسان، وتلاقى الناس، وقبل ذلك ماقال الله عز وجل :

(١) كذا وردت هذه الجملة فى الأصل وهى غير واضحة .

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ قبَض النبيّ صلى الله عليه وسلم قبضةً [من تراب] حَثَاها فى وجوههم ، فلم ينساه دون مناخرهم وعيونهم ، فانصرفوا منهزمين بلا كثيرِ قتالٍ من المسلمين . يا أهل الكتاب ، فأيُّنا آيةٍ أعظم حجةً وأوضح بيّنه وأقهر غلبةً من هذه التى لو صدرت الأمور بلا تحقيق لها ، لانفضّت الجموع من المسلمين كفارا بها . أبشارة الله المسلمين بإمداد الملائكة المقربين ، وهزيمة نفير المشركين ، التى نحمت الأمور عليها ، وتناهت الحال بهم اليها . أم قبضةٌ من تراب يسيرٍ ، ما ملأ المناخرَ من عَدد كثير .

فلئن قلتم : إن هذه آيات بيّنات ، وعلامات واضحات ، ولكنا [لا] نقرّ لكم بها ولا نؤمن بقولكم فيها .

أفتؤمنون أن محمدا صلى الله عليه وسلم مع مانسبتموه من الفضل اليه ، كان يختلقها كذبا من تلقاء نفسه ، ثم يدّعيها وحيًا من عند ربه ، وهو لايدرى لعل الأمور [تقع] بخلاف مايقول ، فيظهر كذبُه ، ويَرْفَضّ تَبَعه . وإن تزعم (١) أن أصحابه كانوا كثيرًا أقوياء ، بسَاطًا جُلَداء ، فكان على معرفةٍ بقوتهم ويقينٍ من غَلَبتهم ؛ فقد قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ . ولم يكن الرسول ولا غيره ليُخبِر أصحابَه من أمورهم بما يجهلون من أنفسهم ، ثم يدّعى ذلك تنزيلًا من ربهم . هذا لا تقبله الآراء ، ولا تُقِرّ به الحكماء ، ولا يحدّه النظر .

أم تقولون : إنما أراد محمد صلى الله عليه وسلم بشارته لهم وإخباره ما أخبرهم من هزيمة الله عدوَّهم ، أن يشجّع جُبنَهم ويُقوّىَ (٢) ضعفهم ، فكيف اذا لم يبق لما كان يرى من كثره المشركين وقوتهم ، وضعف المسلمين وقلتهم ، بظهور الأنباء على خلاف قوله ، وأن يحال الخبر على غير ظنه ، فيقع ظهر يكذب نبوّته ، ويقطع حجته ، ويكون له ما بعده ! وكيف اذا لم ينسب الأمرَ الى نفسه ويُنحّى الخبرَ عن ربه ، ليكون الخطر أصغر والشأن أيسر ، إن جرت الأقدارُ بما يحذر ، أو وقعت الأمور على ما يكره . ولكنه أثنته فى كتاب

(١) فى الأصل « و يرعم أن أصحابه .. » والكلام عليه غير واضح . (٢) هكذا فى الأصل .

مسطور، ورَقٌ منشور . فِعلٌ لعمر الله يدلّ على النبوّة التى كان بهـا واثقا، ويهدى الى الوحى الذى كان اليه ساكنا .

وإن عَرَض لطَرَك، أو وقع فى حَلَدك، أن الله عز وجل عَوَّد محمدا صلى الله عليه وسلم الغَلَبَةَ وأجراه على المَنَعة، فكان يجرِى على عادةٍ قد عَرَفها، ويسلُك جادّةً قد خَبَرها؛ فلقد كانت الهزيمة فى أوّل وَقْعةٍ أوقعها الله، ثم لقد دالت الحربُ فيما بعدُ سِجَالًا فيما بينه وبينهم (١): تارةً عليـه لهم، وأخرى له عليهم . فاسمعُوا الله عز وجل فى نَظَرِكم، وقلّبوا فيما يقول أمير المؤمنين فكرَكم . فلعَمْرُ الله ما كان النبى صلى الله عليه وسلم ليقول للملوك المشركين : إن الله هَزَمكم بِرَمْيـةٍ من راب وهو يعلم أنه عبـده من الكاذبين . فأحضِر كتابى هـذا فهمَك، وأصبِرْ له وإن حَصَمك، فإن هذه آية عظيمة، وحجة بليغة، وبيِّنة عجيبة، فى عَلَة العرب.

وأعجب من هذه وألطف، وأكثر منها وأعظم، الآية فى علة العجم. وأستمِعْ: أمَرَ الله نبيـه — صلى الله عليه وسلم — أن يقول للؤمنين — وكانوا كما قال الله عز وجل قليـلا مستضعفين — : إن قبائل العرب ستتحزّب عليكم، وإن الله سيهزِمُهم لكم، وحيّا أنزله فى الكتاب، فقال : ﴿ جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ ﴾، فكان أصحاب رسـول الله صلى الله عليـه وسلم بعد مانزل هـذا القول عليه بدهور طويلة وسـنين كثيرة، محبوسين محصورين فى حومة الموت وعسكر الخـوف وخندق القهر وذل الحصر، سـوادُهم الأعم وحلُّهم الأعظم حُفَـاةٌ عُراة عالَةٌ، إخوان دير، وأصحاب وَبَر، لا قوّة بهـم، ولا مَنَعة لهم، ولا أسلحةَ عندهم، ولا عدّة معهم، قد أحدقت العربُ بعسكرهم وأحاطت القبائل بخَندقهم، وسالت الأحزابُ تصديقا لحتم الله عليهم، تريد أن تزلزل أقدامَهم وتُهريق دماءهم؛ فكان المؤمنون كما وصف الله عز وجل من سـوء الحال، وضيق المآل، وشدّة الكِظَاظ (٢)، فإن الله قد وصف لهم حالهم، وأذكرهم فعلهم؛ ولم يكن النبىّ صلى الله عليه وسلم ليصف لهم عن الله ما يجهـلون، ولا ليذكرهم من أمره ما لا يعرفون؛ حَذارًا أن تتكسر

(١) فى الأصل . " فيما بعد ... " . (٢) الكظاظ . التعب والشدّة .

عزائمهم وتتغيَّر بصائرهم ، فتنهزِمَ أفئدتُهم وتموتَ نجدتُهم ، وتختلفَ كلمتهم ؛ فقال الله عز وجل : ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ حتى قالت طائفة منهم لأهل المدينة : ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ وقالت طائفة أخرى : يا رسول الله ، إن بيوتنا عوره ، فأذن لنا . يقول الله تعالى : ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ . فبياهم على تلك الحال قد أجمعت العرب بتفريقهم فى الجمال ، وتقسيمهم بالقِداح ، وأخذهم بالأيدى ، إذ قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما ينبئهم به من علم الغُيُوبُ ، ويبشِّرهم به من أمر الفُتوح : " إن الله سيبصرُكم على جمع الروم ويغلبُ لكم جودَ فارس فيهزِمُ لكم جودَهم ويُورثكم قصورَهم ويستخلفُكم فى الأرض من بعدهم ويبدِّلكم من بعد خوفكم أمنًا " . وَعْدًا صَدَّقه الكتابُ ، وبشارةً نطق بها الوحى ، فقال : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ . فقال أقوامٌ وأناسٌ آرتابوا حين تضايقت الحال ، وتزلزلت الأقدام ، وطارت القلوب ، ودارت العيون ، وأشرف الموت : مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا أيعِدُنا هزيمةَ جموع الأحزاب ، وفَتْحَ قصورِ الشام ، وغلبةَ جنودِ كِسْرَى ، وقد سالت القبائلُ علينا من كل حاب ، وأحدقَ الموتُ بنا من كل مكان ، فبقينا فى مَسْغَبَةٍ من الجوع ، ومَجْهَدَةٍ من الخوف ، وضنْكٍ من الحال ، مقهورين مَقْمُوعين (١) . وقالت الخاصة من المؤمنين حين عاينوا الجموعَ من المشركين ، ودكروا ما حبّرهم الله من تحزبهم عليهم ومسيرهم اليهم : ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ . فبينا أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم فى مضايق تلك الحال ، وشدّة تلك الخصال (٢) ، وعموم تلك البلايا الباهظة ، والأمور العادحة ، التى قد أحدَّ بأنفاسهم عَمُّها ، وبلغ

(١) مقموعين مقهورين مذللين . (٢) الحصال . الخصال .

محمودَهم كربُها، رافعين الى الله عز وجل أيديَهم، يقلّبون فى السماء أعيُنَهم، إذ أرسل الله على تلك الجنودِ الكثيفة والجموع العظيمة والأحزاب المقتدرة، ريحًا من الأرض وجنودًا من السماء، فَقطعتِ الأبنيةَ، وطيّرت الأمتعةَ، وسَفَتِ الترابَ فى العيون، وقَذفتِ الرُّعْبَ فى القلوب، فولّوْا مُدْبِرين، وخرجوا منهزمين، لا يَلْوِى والدٌ على وَلَد، ولا مولودٌ على أحد . أمرٌ صَدَق الله فيه قولَه، وأنجز به وَعْدَه، وهَزَم الأحزابَ وحدَه، وذكّر المؤمنين نعمتَه فيهم، وعرّفهم منّته بهم، فقال : ﴿ أُذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ ما كان الله عز وجل ليقتصّ على المسلمين فى أنفسهم، إلا ما قد رأوه بأعينهم .

لولا أن هذا ما لا يُنكره عقلك ولا يدفَعُه نظرُك، لما حادثتُك بالكتاب، ولا نازعتُك بالتنزيل . وإنى لأتركُ من آيات النبىّ صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحى، ماهو أعظمُ من هذا وأبين وأجلُّ وأوضح . ولكن ليس لى أن أُحاجَّك من آيات القرآن، إلا بما عليه شاهدٌ من بُرهان، ومخبر من بيان . لا يستطيع عقلُك رَدًّا له ولا قلبُك جَحْدًا له . وكيف ينبسط لسانُك أو يجترئ قلبك أن يقول : إن محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابَه بالكذب وهم يعلمون، فاقتصّ عليهم من أمورهم ما لا يعرفون! لا! ما يسوغُ لك ولا يَحْمُل لك، ولا يُقْبَل منك أن محمدا صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه ؛ كيف ! أمَا كان يخافُ أن يكذّبه أصحابُه، وتتنقلَ أحوالُه، وتنتقِضَ أمورُه! لعمرُ الله لو وصفتَ بهذا مَنْ لا يُعْرَف بفضل ولا يُنْسَب الى عقل، لما كان سائغًا لك ولا جائزا منك، فكيف تصف به من يُرفَعُ عن الناس قدرُه، ويفضُلُ عليهم عقلُه! وتُقِرُّ أنك لم ترَ فى الدنيا أحدًا صَنَع [ما صنع] وبلغ ما بلغ ! فأيّنا آية فيما اقتص عليك أميرُ المؤمنين أعظم أو بينة أعجب : أمَا كان يُتْلَى على المؤمنين فى الكتاب من اجتماع قبائل الأحزاب بحشود عظيمة قبل اجتماعهم بسنين

كثيرة ، أم ما كان[1] يُنَادِى به القرآن من الهزيمة لهم ويطق به الوحى من الفتح عليهم ، أم قول النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " إن الله عز وجل يُؤَمِّنُ خوفكم ويُعِزّ نصركم على الأمم " وهو على تلك الحال ثم تحَتَ الأمور على ما قال ، أم عسكران مطابقان وجيشان متقابلان ، باتت الريح تحوس[2] أحدهما حتى انهزموا ، وبات الآخرون منها فى عافية وغفلة حتى أصبحوا ؟ فأحسنْ النظرَ فى أمرك ، والتَّثَبُّتَ فى دينك إن شاء الله .

واعلم أن من أعظم الآيات وأبين الدلالات ، على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وحقه ، وأن ليس يتقوّل شيئا من تلقاء نفسه ، أنه قال فى عُفْوان أمره : " إنّ الله عز وجل سَيُظْهِرُ دِينى على الدِّين كلِّه " وجاء مع ذلك بأثَرَةٍ عن ربّه ، فى كتاب محفوظ متنزيل محفوظ . فأىّ[3] أمْرٍ به لك أدلّ ، أو أيهما عندك أعجب ، إذ كنت نبوّته مصدَّقا ، ولرسالته محققا : الخبرُ الذى أخبره ، أم الفعلُ الذى صَدَّقه ؟ لئن نظرت بعقلك وقلت فى نفسك : كيف تَرَقَّتْ الى هذا نفسه وارتفعت نحوَه همّتُه ، أم كيف امتدّتْ اليه عِطفته وقَوِيتْ عليه رَوِيّته ؟ بل كيف دعته اليه نفسه ، وشحّعه عليه قلبه ، ودحل فيه طَمَعه ، وطاوعه فيه لسانُه ، وهو يذكر جنود كسرى ، وجموعَ الروم ، وملوكَ الترك ، وملوك الشرك ، وقُيُولَ اليمن ، وصناديدَ الأمم ؟ إن هذا لعَجَبٌ ، ولا سيما اذا لم يكن فى إرث مُلْكٍ قاهر ، ولا كَنَفِ عزٍّ غالب ، ولا معدنِ علمٍ سالف .

ولئن أعدتَ النظرَ وكررت ، فقلت : كيف وافق خبرُه أثرَه ، وكيف صَدَّق فعلُه قولَه ، حتى غَلَب الشرقَ والغربَ ! إن هذا لعجبٌ ! وأعجب من هذا أمرٌ يدلّك أمير المؤمنين عليه ، ويهديك إن شاء الله اليه : لو قلتَ لأهل مملكتك ومن قِبَلك من أمتك : هل لَكُم أو تقدر قِبَلَكم ، أنه كان فى الدهر الأوّل ، والعصر الخالى ، أحد مثل محمد — صلى الله عليه وسلم — بدأت الأمورُ به مثلَ حاله من الوَحْدة والضَّعْف والذِّلة والقلّة ، وصَدَرت الحالُ به كمعاله فى الغَلَبة والمَنَعة ، والقهر والظهور ، وعير دلك ؟ لقالوا لا .

(١) فى الأصل « أما كان » . (٢) تحوس أحدهما تعشاه وتبيه . وفى الأصل « تحوش ... » بالشين المعجمة وهو تحريف .
(٣) فى الأصل : « فأىّ أمر بذلك » .

ثم أنت لا تُؤمن بمَقالته، ولا تُقِر برسالته، إلفًا لدينك، وضَنًّا بملكك، وطَمَعًا فى قليلٍ من الدنيا قد سَعَاه الله اليك، ورغبةً فى صُبابةِ عيشٍ عيرٍ باقيةٍ فى يديك، فهـذا عَجَبٌ. وأعجبُ من هـذا أمرٌ يَقفُك أميرُ المؤمنين على بور حقـه، ويُوضح لك إن شاء الله بيـانَ أمره: أصبحت العربُ طُرًّا والأممُ جميعـا فى عهد صلى الله عليـه وسلم ثلاثةً لا رابعَ لهم ولامَخْرَجَ للحق من بينهم: رجلٌ مصدِّقٌ به من المؤمنين، ورجلٌ مكذِّبٌ به من الكافرين، ورجلٌ شاكٌّ فيه من المنافقين.

فأما الشاكُّ فلمّا قيل له: أخرجتَ نفسَك من الحق، وأبرأتَها من الصواب، وأقررتَ عليها بالخطأ، لقولك: لا بدّ أن يكون الحقُّ فى التصديق أو التكذيب، ولستَ على واحدٍ منهما، اعتزل عنها.

وأما المكذِّب فلمّا قيـل له: أنت مُنكِر والمنكر ليس بمدّع، ومن لم يَدَّع لم يَلْزَمْه بيِّنةٌ ولا يسأل عن حجة، اتبع صاحبه. وأيمُ الله على ذلك، لو سُئل هـذا المدّعى عن بيّنتـه وكَشْفِ مُحَجّته، فقيل له: من أين عَرَف قلبُك، وأيقنتْ نفسُك إيقانًا لا يحالطه شـكٌّ، ومعرفةً لا يشوبُها ريبٌ ولا يبازعها شُبْهة، أن محمدا صلى الله عليـه وسلم ليس برسول، لمَا دَرَى ما يقول؛ لأنه لا يستطيع أن يتقوّل على الرسل، ولا أن يَتكذَّب على الكتب، فيقول: قد أخبر اللهُ فيها أنه لا يبعَث نبيًّا، ولا يُنزِل وحيًا فى كتاب مسطور، بعد التوراة والإنجيـل والزبور. بل قد يجد أهلُ الكتاب فى أقاويل رسلهم وأخابير كُتُبهم، أن الله تبارك وتعالى يُنزل كتابًا حديدا أو كلامًا حديثا، بعـد خراب بيت المقدس فى آخر الزمان، ولم يُنزِل بعد ذلك كتابًا إلا القرآن.

وأما الرجل المصدّق بمحمد صلى الله عليـه وسلم فقيل له: أمّا أنت فقـد ادَّعيتَ، والمدّعى يُسأل عن الحجة ويُقْبل منـه البيّنةُ، فما بيّنتُك ومن يشهد لك؟ فقال: ألم تقولوا: إن الحقّ لا يخرُج من بيدا، ولا بد أن يكونَ مع نعصنا؟ قالوا بلى! قال: فأيّة بيّنـة أحقّ وأعدل، وأى شهودٍ أزكى وأفضـلُ من شهادتكم بسقوط صاحبَيْ وثبوت

الحق من بعدهما فى يَدَىّ" قالوا : إن الأمرَ لَكَمَا تقول، ولكنّ البيِّنةَ أشفَى للصدور، فأقام بيِّنةً من الكتاب، وشهودًا من الوحى، وآياتٍ سوى ذلك عِظامًا، وبيِّناتٍ عَوَامَّ، من كلامٍ لا يَقْدِر عليه الخَلْق ، وصِدْقٍ لا يكون إلا من قِبَل الرب ، شبيهاً بما أورده أميرُ المؤمنين عليكم، وكَتَبَ به فى صَدْر كتابه هذا اليكم ، مما قد تشهَدُ له قلوبُ الأمم ، ويُزَكِّيه مِعالُ العرب .

فلمّا أقام بيِّنَته ، وثبتتْ حجّتُه ، ووَجَب حقُّه ، وقُضِىَ به له ، قيل له : وكيف توسعت الأمور عليك ، وضاقت المقالة لك ، أن تقول : إن الله لا يبعث نبيا بعد محمد — صلى الله عليه وسلم — ولا وحيا بعد القرآن، فأبطلت الكتب المحدَثة، وأكذبت الوثيقة ، ولم تترك وحيا غير القرآن ، ولم يجز للنصارى أن تقول : لا نبىّ بعد عيسى عليه السلام ، ولا كتاب خلف الإنجيل ، وعن ذلك من أخبار الكتب ماقلنا كل متنبئ بعد نبيا كذاب ، فشاعت وحازت المحة ، ووضح العذر . وأما النصارى فيحدون فى أواخر كتبهم ، وأقاويل رسلهم، أن الله عز وجل، يبعث نبيا حديثا، وينزل كتابا حديدا ، فليس لهم أن يكذبوا نبيا — صلى الله عليه وسلم — ولا أن يردّوا كتابا .

فهؤلاء الثلاثة . أما الشاك فسقط، وأما المنكر فعطل ، وأما المصدّق فثبت ثوتا ليس فيه مدخل شبهة ، ولا موضع لجة ، ولا معلق لمازعة . وذلك أن المكر لوحوب حقه، والشاك فى ثبوت صدقه، لا يجد بدا من أن يُحْمى الصدق عن الخلق، ويحلى الدنيا من الحق ، وهذا قول المكذبين بربهم ، الشاكين فى بعثهم ، فأحسن النظر فى معانيه ينكشف لك عما فيه، إن شاء الله .

ومن أبين آياته وأدلّ علاماته — صلى الله عليه وسلم — ووسع له فيما صدر اليه : أنه لما أحبرت النصارى واليهودُ أنهم لم يَجدوا محمدا — صلى الله عليه وسلم — فى التوراة والانجيل موصوفًا مكتوبًا، تجمّعت العلماءُ منهم، وتدارست الكُتُبَ فيما بينهم، فلمّا نظروا

(١) فى هذه الجملة غموض لم نوفق الى كشف سببه وان كان المراد منها واضحا .

الى آسمـه وعايَنُوه بنَعْته ، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم . ويستفتحون بذكره على من سواهم ، [كفرت] طائفةٌ حَسَـدًا من عند أنفسها ، وبَحْدًا من بعد ما تَبَيّن لها ، وآمنتْ طائفةٌ ، تصديقًا بكتابها ، وخوفًا من ربّها .

فلعَمْرُ الله لو [لا] أن الذين آمنوا بحقه وصَدَّقُوا بأمره ، رأوا صفته عِيَانًا ، وقَبِلُوا نعتَه إيقانًا ، لما فارقوا أديانَهم ، ولا حادلوا إخوانَهم ، حتى وقفوهم على آسمه ونَسَبه ، وصفته وعلامتـه ، وهم علماءُ بى إسرائيل ، وحملةُ الإنجيـل : من أهل الكتاب الذين احتجّ الله عز وجل بهـم على العرب ، فقال عز وجل . ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ . ولعمرُ الله إنها لآيةٌ عظيمةٌ ، وحجّـةٌ بليغة ، ذكرها الله فى كتابه ، وجعلها على العرب من بيّناته ، فقال لهم : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْـلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِـمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ . يقولون : وَعَدنا أن يُرسل رسولا ، فقد أرسـله ، وحَقَّقَ قوله ، وصَدَّق وَعْدَه . وآحتجّ النبى صلى الله عليه وسـلم بذلك وذَكَره . ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم لِيُجادِلَ ويحتجّ فى أمرهم بكذب وباطل ، ولم يكن ليقول للنصـارى واليهود ، فيما ذكر الله من صدق الموعود : إنه فى التوراة والإنجيـل مكتوبٌ موجود ، إلا وهو من ذلك على حقّ يقين ، ونورٍ مُستبين . وكيف كان يستشهد من التوراه والإنجيل بكذب ، ويتقوّل عليهم الباطل ، مع حرصه على تصديق أهل الكتاب ليستدعَى به إيمَـان أحياء العرب . أَمَا كان يعلم أنه اذا قال لهم : إنه موجود فى مَثَانِى كتبهم ، وسُمِّىَ على أفواه رُسُلهم ، فلم يجدوا حبره يقينا ، ولا وصـفه مستبينا ، أنهم سيُدْبرون عنه إدبارا ، تزداد به العرب نفارا ، إلا أن يقولوا خطأ من علمه ، وهواء من حبره ، فكيف لم يحط إذًا فى كتبهم حرفا عيره ، ولم يخالف منها شيئا سواه ، سبحان الله ! لقـد أكثر المؤمنون العجب من ذهاب الأساقفة بكم ، فأنتم إن تبكر ما يقولون لكم ، ممـا ليس لدى لبب أن يأذن له أن يؤمن به ، ولا أن يميد اليه

سمعه، يقولون : إن أنبياء الله ورسله، المبعوثين بالرحمة الى حلقه، لطفت النبوّة منهم، ووقعت الأخبار المتلة عليهم، على صغائر الأمور، وغوامض الخطوب، فسار الناس عليها، وأشاروا لهم الى طلبها، فهى مكررة فى مثانى كتبهم، وبطون صحفهم، وأقاويل رسلهم، وتركوا من كلام الله النبأ العظيم، والأمر الكبير، والذكر الحكيم، الذى ملك آفاقَ الأرضين، وٱستفاض على جميع العالمين، لم يذكروه بحير يأتمرون به، ولا بشرٍّ ينتهون عنه؛ كلا! ما ترك الله على هذا خَلْقه، ولا بهذا وَصَفَ تبارك وتعالى نفسَه، إنه لأرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين.

ولئن رجعت الى قلبك، لتقولَنّ فى نفسك : لعمرُ الله لو كان هذا الأمرُ الذى طلع طلوعَ الشمس، وٱمتدّ ٱمتدادَ النهار فلَعَ مشارقَ الأرض ومغاربَها، وسُهُول الآفاق وحُزونَها، حقًّا وصدقًا وعدلًا، لَبَشّرت الكتبُ به، وتنبأت الرسل عليه، ودَعَتِ النُّذُر اليه، ترنيا له وترغيبا فيه، وأمرا به. ولو كان ضَلالةً وجهالة وعَمايةً، لتقدّموا فى التحذير منه، والترهيد فيه، والتثبيط عنه، فيدعو ذلك الى أن تنظروا[2] الى كتب الأنبياء وأقاويل الرسل. فايمُ الله لئن طلتَ لتجدَنّ، ولئن ٱجتهدتَ لَتُوَفَّقَنّ. وما الصواب بممنوع، ولا الخيرُ بمحطور. ولقد كانت العلماء بالكتب والبصراءُ بالتأويل تجده، ولكنها كانت تكتُمُه تحريف كلامِ الكتب عن مواضعه، وصَرف تأويل الحكم الى أشباهه، حَسَدًا من عند أنفسهم وبَغْيًا بعد ما تبيّن لهم. ثم لقد ٱقتديْتم بهم وجَرَيتم معهم وأخذتم عنهم، بلا حجة لكم، ولا قوة معكم إلا الٱقتداء بالآباء والٱتّباع للآثار. فٱتّقِ اللهَ فى نفسك، وٱتّهِمْ الرجالَ على دِينك، ولا تجعَلِ النظرَ الى غيرك من دوى الشك فى القلوب، والمسح فى[3]. والتُّهَم فى التعطيل، الذين لعلهم يَعْرِض لآرائهم ويقع فى أوهامهم أن يقولوا : فلعلّ ما يتلو عليكم أميرُ المؤمنين من آيات القرآن، ويقرع لكم من حجج الوحى شىءٌ زِيدَ

(١) هكذا فى الأصل. (٢) فى الأصل «أن يطروا ...» بياء الغيبة. (٣) كذا فى الأصل. وظاهر أن كلمة بعد «فى» سقطت من الناسخ سهوا.

فى المصاحف بعـد النبى صلى الله عليه وسلم . وهذا ما لا يحتمله عقل صحيح ولا نظر قوى، وذاك الشاك فى شهادات الرجال، متفقة من بلدان وأمصار مختلفة، وشعوب وقبائل متفرّقة، ليس يدعوهم الى ماشهدوا دِينٌ، ولا يجمعهم على ما اتّفقوا عليه دنيا، لا يستقيم له أن يؤمن(١) بما لم تدركه حواسه وتُحيط به حواسّه، لإسقاطه حجّةَ الإجماع وإبطاله شهادةَ العوام. واتّفاقُ المختلفين دلالةٌ واضحة . فهو سائلكم عن الحجّة فى الإنجيل والدليل على التوراه ، شكًّا فى الربّ وتكذيبًا بالرسل، فما كنتَ قائلَه له أو مُجيبَه به فى كتابكم، فأجِبْه بمثله فى كتابنا وإن كانت الأحوال بهما غير معتدلة ولا مؤتلفة ولا مرتفقة ولا واحده ، تعتدل حالاهما، ويتفق أمرهما، من كتابكم ما لم تنزل به الملائكة وحيا كالقرآن ، ولم يشافه المسيح به أصحابه باللسان، إنما كان فعلا أثبت من بعده، ولم يكن الفعال موصوفا بعده(٢) . وليس يكتب أمير المؤمنين بهذا اليكم شكًّا فيه ، ولا يورده عليكم مريبة به .

ولقد علم أميرُ المؤمنين أن كُتُبَ الله عز وجل محفوظه، وأن مُحَمّه محروسة، لا يُزاد فيها على تقادُم عهد، ولا يُنتقَص منها على تقارُب دَهْر، وأن دلك ثبت فى الإنجيل من بعد عيسى عليه السلام، وأنه قال لمن اجتمع اليه من الحواريين : "الوحى أكلّمكم، والأمثالَ أضربُ لكم". فأمثالُه المضروبة كلام، وكلامه الرائع وحى . ولكن ما نالُ الشكّ يُنفَى عن كتابكم ، بحجة الاجتماع عليه عندكم ، وهو على ما وَصَف أميرُ المؤمنين لكم، وسيان فى تنزيل كتابنا ، وقد أدرك شهادة دينه، إما ما قرنا من عهده ومعاينة وحيه(٢) واجتماع على حفظه، هذا حكم مختلف .

فقل للدير يشكون فيه ويرتابون به : أوقعوا أوهامكم على حالات الأوقات التى تعرفون ووعيها بطبقات الرجال الذين يتهمون(٣) .

فإن قالوا : أما طبقات الرجال التابعين ، وحالات زمان أمير المؤمنين ، فدلك ما لا يَسُوغ الأقاويلُ فيه ، ولا تدخُلُ الشبهة عليه، لانتشار القرآن واتساع الزمان،

(١) فى الأصل . «لا يستقيم له أن يؤمن له بما » . زيادة "له" . وهى قلقة فى موضعها فلعلها زيدت من الناسخ . (٢) فى هذا الموضع اضطراب فى الكلمات، والمراد واضح . (٣) كذا فى الأصل .

وكثرة الحَمَلة لآياته فيهم، والحَفَظة لسانه منهم ، ولكن الدين الذى نزل به القرآن ، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم . وكيف بوقوع تهمة أو دخول شبهة ، على أقوام [لبث] النبي صلى الله عليه وسلم عشرين حجّةً فهم يتلو كتابَ الله عز وجل فى كل عام عليهم، حتى حَمَلوه فى صدورهم، وحَفِظوه فى قلوبهم، وكُرِّر فى آذانهم مسموعا، وأُمِرّ على أبصارهم مكتوبا ، وحَرَى على ألسنتهم متلوًّا . وحَمَعه كثيرٌ منهم محفوظا، ثم تَوَارَثوه فيهم وتداولوه فيما بينهم، حتى أدّوه الينا، وأوعوا به عددا، من مواضع متفاوتة، وأصناف وأجناس متنابه، على كلمة واحدة ! .

فإن قالوا : اتّفقت الرجال على الزيادة فيه وأمكنت الحالُ من الحمل عليه، فليعلموا أن المؤمنين المخلصين ليسوا فى الزيادة متهمين، وأن المنافقين الملحدين ليسوا على دلك بقادرين . وكيف يقدِر القليل من المنافقين على مخالفه الجمع من المؤمنين، بعد ما حَفِظَتْه قلوبهم ، ووَعَتْه أسماعُهم، ثم تُكْتَتم القدرةُ لهم وتُسْتَتر الريادةُ منهم ! هدا ما لايقدِر عليه منافق، ولا يطيقه مُشرك ولا فاسق . وأيمُ الله أن لو قَدَرت اليهودُ على الزيادة فى الإنجيل، لأفسدوا كتابكم وغيّروا دينكم ، ولو جعل الله المنافقين على الزيادة فى كتابه قادرين ، لَبدّلوا دينَا وغيّروا حالَا . ولو كانوا لدلك مُقْرِنين وعلى دلك مقتدرين، لكان الدى كَتَب به أميرُ المؤمنين اليكم، وأورده من حجج الله عليكم، أولى ما تلقون، ورأس ما تقترفون. فلا تُلْقِيّن الى ما قاله [المصل] سمعَك، ولا تُصِتِ الدهرَ اليه دهنَك، فإنه أتّحد الشكّ فى كتابنا ذَرِيعةً الى الإحلال بكتابك، وسُلّمًا الى الشكّ فى دينك وعلّةً فى الطعن على ملّتك ، ولكن قل ياولىّ الشيطان : أنّى وَقَع لك إيمان بأنك من ولد فلان ؟ أتقول . شَهِدت الحِيرةُ، وأجتمعت العَشيرة، واتّفق المختلفون، فدهب الشك، وزال الريب، ووقع الإيقان، من غير العيان؟ صَدَقتَ . فما بالُ الشكّ فيما أجتمعَت العامّه على القول به، واتّفقت الجماعةُ فى الشهادة عليه من آيات الكتب وبيّنات الرسل ! وإن دهب بهدا عن أمره ، وباعده

(١) فى الأصل " فى دينه ... " . (٢) كذا بالأصل .

عن شبهه ، فتؤمن أنه من بطعـة خلق ، ومن رحيم خرج ، فإن جحدوا بى ألا يؤمن بمـا لا يرى ، فقل : أرأيتَ لو كنت سميعًا أعمى ، أكنتَ تُؤمن بشىء مما فى الدنيا : من سماء أو هواء ، أو بحر أو سبع ، أو أرض أو حبل ، أو شبه ذلك ممـا لم يدركه العيان ولم يقبله إلا عن الناس؟ فإن قال نعم ، فقل : فهل لك إلا بالاجتماع الكمر بالزُّ[1] ، وما لدائه دواء غير الصلب . فاتّقِ اللهَ إذ كنتَ إمامًا وقائدًا لأهـل ملكك ، لا تقدمهم الى النـار فتحمل أوزارهم مع وزرك .

وإن من أبين آيات الوحى ، وأدلّ علامات النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه لا يبتدع فى الدين أمرًا من تلقاء نفسـه ، ولا يتقدّم فى الأمور دون نَدَىْ ربّه . والله أطهَرَ فيما أنزل من الكتاب أمورًا كان يحسبها صـلى الله عليه وسلم مستورة ، فقال تأديبًا له ، وإحـازًا لمن آمن من بعـده[2] : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْـهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْـدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ . وقال . ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْـهُ تَلَهَّى كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ . وقال له حين صرف قبله عن بيت المقدس الى البلد الحرام حين سكنت القلوبُ اليها ، وأيست النفوس بها : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ . وكانت القبلة التى صرفه الله اليها وأمرَه بها عظيمةً على المنافقين واقعـةً بخلاف الكافرين ، كبيرةً[3] إلا على الذين هَـدى الله من المؤمنين ، فإنهـم قالوا : اذا اختلفت القبلتان وافترقت الجهتان ، كانت الطاعةُ فيهما واحده لا اختـلافَ فيها ولا افتراقَ عليهـا . وكيف تختلف الطاعة من رجلٍ بنى بأمر الله عز وجل ثم هَدَمَ بوحى الله .

(١) كذا فى الأصل (٢) فى الأصل . "لمن آمن من بعده إذ يقول " وظاهر أن كلمة " إذ يقول " غير مفيدة هنا . فلعلها زيدت سهوا من الناسخ . (٣) فى الأصل "كثيرة ... " .

فإن قلتَ : إن الله حَوّله عن أفضل القبلتين وأقوم الجهتين، فلا سواء فى الفضل البيّن والخير السرّ : قبلة سلّط الله عليها الكافرين ولم يمنَعْها من الظالمين، وقبلة منَعها بحنود من عنده، وعصَمَها بعيرما حَوْلٍ من حَلْقه ولاحرمٍ يَذْعِيها أحدٌ ممن فيها ؛ فأرسل طيراً أبابيل تَرْمِى الأعداءَ بحجارة من سِجِّيلٍ، فجعلهم كعَصْفٍ مأكول . فإن تقلْ : هذا خَبَرٌ نُكره، وقول لا نعرفه ؛ فبأىّ حديثٍ بعدَ هذا تؤمن ، وتَشْهد لله عز وحل أنه من قِبَلِه ، وأنتم تعلمون أنه أنزل الله عز وحل سورةَ الفيل على قوم أدركه منهم بشر كثير .

فإن قلت : إن محمدا صلى الله عليه وسلم خَبّرهم بما عاينوه وأدركوا حلاوه ، نقلْ : إنه أراد أن يفرِّقهم عنه ويوحشهم منه ، وأحب أن يرموه بالكذب، و يقدحوه بالحمق ، و يصموه بالجنون، و يطُّون[1] به الظنون. كلا! ما كان نبى ولاعبر نبى ليجاهد أقواما بخلاف ما رأت أبصارهم وشاهدت آباؤهم، فيخبرهم بخلاف ما شهدوا، وتكذيب ما عاينوا . فلا تكونن فى هذا من الممترين، ولا تأمر الفيل من المكذّبين .

فلعمرُ الله لو كان من أمر النبى صلى الله عليه وسلم ما تُلْحِد أنت وقومُك اليه لما قام معه رجلان ولا آختلف فيه سيفان . وإن فيما صنَع الله عز وحل بالفيل وأتباعه ، دلالةً على صلة الله وأنبيائه . فآتق الله! فقد شرح أميرُ المؤمنين علاماتِ النبى صلى الله عليه وسلم وكَشَفَ الأغطيةَ لك عن النُّور بآيات الوحى . فإن مالت الأهواءُ بك ، وعَلَت الأساقمةُ عليك ، وحصرك الرؤساءُ الذين يجعلون مع الله آلهةً أُخرى بلا حجّةٍ عندهم، ولا سلطانٍ أتاهم فقل : أبؤسى عما آحتمعت عليه النَّصْرانية ودهستْ اليه بهم المعانى من تشقيق الكلام وتصريف الكتب : أحروفٌ تتعمَّدونها، أم أمة تعرفونها ؟ فإن قالوا : إنهم بغير لغةٍ يتكلّمون ، فهم إذًا قوم يلعبون . وإن قالوا: إنهم يتكلّمون بلغة معروفة ومعانٍ معلومة، فقل : أخبرونى عن قولكم : أب وآن، أهما ما تعترف العقول من المنطق ويقع فى القلوب من المعنى أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، ليس ذلك بالذى

(١) كذا بالأصل .

تذهب أوهام العباد اليه، ولا بالذى تقع الحقائق فى الآباء والأبناء عليه، إنما هو كقول الله عز وجل فى التوراة لإسرائيل. "بكرى" لا يعنى ولادَه الرحم، وكقول المسيح عليه السلام للحواريين: "أنتم إخوتى" لا يعنى أُخوَّة النسب. فذلك قولٌ لا يحدون معه بدًّا من أن ينسبوا عيسى عليه السلام عبدًا. وإن قالوا: بل هو ماتجرى به ألسن العباد، ويقع فى قلوب الخلق من الولادة المعروفة والأنوثة المعلومة، فليخبروا متى كان الأب والدا، والابنُ مولودا: أقبل الولادة أم بعدها؟ فإن قالوا: قبلها، رجعوا عن القول الأول بتثنيث الأبوة. إلا أن ذلك ليس بالشىء الذى تذهب إليه الأوهام، ولا بالمعنى الذى يقع فى قلوب الأنام.

ولا بد اذا سقطت الولادةُ المعروفة وبَطَلت الأنوثة الموجودة، أن يقولوا: إن الأب والابن أسماء عُلِّقا على غير معنى، ونَسَبانِ أُصيفا الى غير حق، فيقرون أن عيسى عليه السلام خُلِقَ مثلَهم، وأنهم يتكلمون بغير لغته أحدٍ منهم.

وإن قالوا: إنما كان الأب مولودا والأب والدا بعد الولادة، فقد أقروا بأن الأب حَدَث مخلوق وعبد مربوب، لقولهم إنه لم يكن حتى وُلِد، ولم يُولد حتى خُلِق. وقل لمن يقول الزورَ العظيم، ويقذف بالإفك المبين: أليس الأبُ أبًا على حياله ولم يزل، والابن ابنا نُحِل، وروحُ القدُس كذلك؟ فإن قالوا. نعم، فقد أقروا بأنهم ثلاثةٌ متبايِنةٌ، وقعت عليهم ثلاثة أسماء متعاونة، وتركوا قولَهم. إنهم ثلاثةٌ أصلُهم واحد.

وإن قالوا: الأب والابن وروح القدس واحد، ولكنّ بعضه أبٌ وبعضَه ابن وبعضه روح القدس، فقد دخلوا فى التحديد الذى هو عيب عندهم، وقالوا فى التبعيض بما هو كفرٌ قبلَهم. وإن قالوا: ليس مُبَعَّضا، ولا مجزّأ، ولا محدودا، ولا ثلاثة متبايين، فإذًا هم قوم يلعبون: يقولون: الأبُ ابنٌ، والابن أب، والوالد مولود، والمولود والد، والكبير صغير، والصغير كبير، والقليل كثير، والكثير قليل. وهذا من أبين المحال وأخلف المقال. وليس من المنطق مالا يوجد فى لغة عرب ولا عجم، ولا لسان أمة من الأمم. وإنما

أرسل الله عز وجل كل نبيّ بلسان قومه ليبيّن لهم، فيُضِلّ الله الظالمين . ولولا ذلك لَمَا فَهِمت الأمم مذاهبَ أقاويل الرسل ولا معانىَ أحاديث الكتب . فلا تُطِع الذين يلعنون بأنفسهم ، ويتكلّمون بغير لغتهم، ويقولون . الثلاثةُ واحدٌ ، والواحد ثلاثة ؛ وهذا محالٌ فى مَجَارى المَقَال، ومعانى الفِعال .

لعمرُ الله لئن آتّهمتَ عقولَ الأساقفة على دِينك ، وآهتَمَمْتَ بالنظر فى توحيدك ، لَتعلَمَنّ أن الواحدَ لايكون ثلاثةً وأن الثلاثةَ لا تكون واحدا، إلا على وجه ماله ثانٍ يقول به، ولا مه مَخْرَجٌ تستريح اليه . فألقِ نحوَه سمعَك، وأَصِخْ اليه فهمَك ؛ فإن أميرالمؤمنين واصِفُه لك، وليس واقعًا إلا على المخلوقين، ولا لارمًا غيرَ المحدودين، ولا داخلًا على رب العالمين : وهو أن يكون الشيءُ أصلُه واحد وأجزاؤه كثيرة، من نحو الانسان ، وهو أصل يجمعه اسم ، وله أجزاء تلزمها أسماء؛ فليس الجزءُ بالأصل، ولا الأصلُ بالجزء، ولكن الجزء بعض الأصل . فإذا أردتَ الجزءَ، قلت يد الانسان وسَمع الانسان. ولولا أنه محدود مخلوق مجزأ مبعّض لما جاز هذا القول فيه ولا دخل هذا المثل عليه ؛ وكذلك الشمس : الأصلُ واحد، وهى شمس، والأجزاء كثيره وهو عينُ الشمس وضوءُ الشمس وشُعَاع الشمس ودقيقُها وغليظها وحرورها وأعلاها وأسفلها وأشباه ذلك .

فإن قلت : سَمّيتُ كلَّ جزء من الأجزاء على حِياله إنسانًا، وكلَّ جزء من الشمس دون أصله شمسا، ونسَبتَ فعلَ الأصل الى بعض أجزائه، وتركتَ أن تنسُب الأصلَ فاعلًا ببعض الأجزاء، كما تقول : بَسَط الانسانُ يدَه، ومَشَى برجله ، ونَظَر بعينه، ثم ضربتَ ذلك لله عزوجلّ مَثَلا وجعلتَ الله له قياسًا، فقلت : الأصلُ واحد، وهو الله عز وجل، والأجزاء كثيرة وهى أب وآبن وروح القدس، وكل جزء منها إلهٌ على حِياله وربٌّ دون غيره، لم تجِدْ بُدًّا أن تُلْحِقَ اليدَ والعينَ والنفسَ بالأب والآبن ورُوح القُدُس ، فتُكثِرَ آلهتَك، وتعدِّدَ ربّك، وتتركَ قولك : إن الله ليس محدودًا ولامجزأ ولا مبعّضا ؛ إلا أن يكون إنما تريد مذاهب الأسماء فتقول : المعنى واحد، وهو الله عز وجل، والأسماء أبٌ وآبنٌ ورُوح القدس .

فإن كنتَ تقول هذا وكنتَ إنما تعبد أسماء، فما تحد بدًّا من أن تعبدَ الأسماء كلها وتقول : إنها آلهةٌ على حِيالها ، حتى تقول ياسمِ آرحمنى ، و بثانٍ اعفر لى . فاتقوا الله ياأهل الكتاب ، فإن الله عز وجل ليس بأب ولا آبى ولا آسم ، ولكن له الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يُلحدون فى أسمائه سيُجْزَوْنَ ما كانوا يعملون .

فإن أشارت الأساقفةُ الى بعض الإنسان باليد والرجل وأشباه ذلك وقالوا ليس إنساناً ، فقل لا ، ولكنه للإنسان ، وقل هو إنسانٌ بكماله . وكذلك إن أشاروا الى بعض الشمس فقالوا : أليس هذا الشمس طالعا ، فقل لا ، ولكنه بعضها ، ولو كانت الأسماءُ التى تقع أبصاركم عليها وتشير أيديكم اليها من الشمس والسماء والهواء شمسا وهواءً وسماءً لكانت الشمس والهواء والسماء أكثر مما يبلُغه الإحصاء . ولو قصدتَ بالإحابة لمسالك هذه الأودية ، لبطَلَتِ الحجج الداحضة وآنقطعت الأقاويلُ المتناقضة . وسل مَنْ قِبَلَك من أساقِف أُمتك وشَمَامِسَة أهل ملّتك الذين يزعمون أن عيسى المسيح ، ويرعمونه أن يكون عبدًا : على أى شىء وقع اسمُ المسيح من عيسى : على الروح أم الجسد أم على كليهما؟ فإن قالوا : وقع على الروح نفسه ، لأن الروح إلهٌ دون غيره ، فقد أقروا بأن إلهَهم يأكل و يشرب ، و يمشى و يركب ، لأنهم يجدون ذلك من فعل عيسى مبيا قِبَلَهم ، موصوفًا عندهم . فإن قالوا : وقع آسم المسيح على الجسد بعينه ، فكان الجسد هو المسيح اذًا دون غيره ، والمسيحُ اذًا مخلوقٌ عندهم ، والإله إنسانٌ اذًا مثلهم ، فَلِمَ يعبُدون المخلوقَ و يدعون من خَلَقه و بَرَأه . و إن قالوا : وقع الآسم على الروح والجسد جميعا ، على يجدوا مَخْرَجا ولا بُدًّا ولا مَحِيصًا ، اذا أوقعوا الآسمَ عليهما ، من أن يُضيفوا الأعمالَ إليهما ، فيقولوا : إن الجسد المخلوقَ هو خَلَقَهم ، و إن الرُّوحَ الخالقة قد ماتت قَبْلَهم ، وذلك لما يجدون من ذكر موتِ عيسى عليه السلام فى الكُتُب عندهم وفى الإنجيل الذى قِبَلَهم . وسل مَنْ قِبَلَك عن الأب والآبن ، فقل أيهما أعظم وأيهما أصغر ، فإن قالوا : الأب أعظم والآبن أصغر ، فقد جعلوهما متباينين . و إن قالوا : هما واحدٌ وكلاهما عظيم ، وليس الأب بأعظم من الآبن ،

ولا الأبن بأصغر من الأب، فقد نُقص حينئذ جوابهم ، وأكذب المسيحُ عليه السلام كلامهم، حيث يقول : " لو كنتم تحبُّونى لَفَرِحتم حيثُ أذهب الى إلهى فإن إلهى أعظم منّى" فلم يَقُل أعظمٌ منى . إلا وهو مقرٌّ بأنه أصغرُ منه . وسلهم عن قول المسيح (١) : "أنا أذهب الى إلهى و إلهكم"، فقل : مَنْ هذا الإلهُ الذى ذهب عيسى اليه صلى الله عليه وسلم : إلهٌ فى السماء متباين منه مقطعٌ عنه؟ فهما اذا اثنان متبايان، أم إلهٌ كان به متّصلًا وكانا جميعًا واحدًا؟ فكيف اذًا يجوز له أن يقول اذًا أذهبُ اليه ! إلا أن يقولوا : إن بعضه ذهب الى بعض! وهذا مما لا يجور عندهم فى صفه الربّ عزّ وجل .

وسَلْ مَنْ قبلَك . أخرَج المسيحُ من بطن أمه مريم بكماله حتى كان البطن منه فارغا وكان هو منه بكماله خارجا؟ فإن قالوا : نعم، فقد أنكسر قولهم : إن الله بكل مكان . وإن قالوا : لم يخرُج المسيح ولم يحلُّ البطن، فقد كذبوا اذًا فى قولهم : إنه قد خَرَج، وأفتروا أنه قد وُلِدَ . فتعالى الله عما يَصفون، وتنزّه عما يُشركون . وسَلْهم لِمَ هبَط عيسى الى بطن مريم، وتجسّد باللحم والدم ؛ فإن قالوا . ليَمْحَقَ الخطايا من الأرض ويربُطَ الشيْطَان عن الخَلْق، فقل . كيف اذًا لم يربطه عن نفسه ! وكيف خلاه من اليهود (٢) نصلبه! ولِمَ سُلِّطَ على أهل دِينه يُتَّبعون فى كل شِعْبٍ ويُقْتَلون بكل واد!

وقل للذين يقولون : إن الخالقَ فى كل مكانٍ من السماء والأرض وعبر ذلك : أيهما أعظم : المحيطُ المشتَمِلُ، أم المُحَاط المشتَمَل عليه كما يقولون ؟ تعالى الله عما يشركون . فإن قالوا : إنما ألتحم بعضه دون بعض ، فقد حَدُّوا وعّضوا وتَقَصوا وأنتقصوا ، وإنما قالوا فلن يجدوا بدًّا من أن يقولوا . إن بعض المسيح الذى حملوه ربهم، وهو إله عندهم ، ميّت بعضه جيفة، وإن بعضه حىٌّ طيب، لأنهم زعموا أنه ألتحم بجسد حىٍّ فيه

---

(١) الوارد فى إنجيل يوحنا (فصل ١٤ آية ٢٨ ح ٣ ص ١٨٦ من الكتاب المقدس طبعة بيروت سنة ١٨٨٢م) «لو كنتم تحبونى لكنتم تفرحون بأنى ماض الى الأب لأن الأب هو أعظم منى» .

(٢) الوارد فى إنجيل يوحنا (فصل ٢٠ آية ١٧ ح ٣ ص ١٩٦ من الكتاب المقدس) «إنى صاعد الى أبى وأبيكم و إلهى و إلهكم» . (٣) كذا بالأصل »

رُوح، فلا بدَّ اذًا أن يدحل عليه ما يدحل على الأجسام الحية من الخوف والفزع والفرح والعطش وأشباه ذلك، وهو عندهم كفر عظيم وإثمٌ مبين. فاتَّقِ عقوبةَ الله ربك، ولا تمشِ مُجِكًّا على وجهك، ولكن آطلبْ وآلتمس وآبحث، فقد قال عيسى عليه السلام فى الإنجيل: "من سَأَل أُعْطِىَ ومن طَلَب وَجَد ومن استفتح فُتِحَ له"[1].

احمَعِ العلماءَ والبصراءَ [الدين] عندك، والأساقفة والرهبان الذين قِبَلَك، فقل: لأى شىء تَسَمِّيتم المسيح إلهًا وجعلتموه ربًّا؟ وبحد الله سمَّاه فى الكتاب ابنًا، وقد تجدونه قال: "إنى أذهبُ الى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم أيضا". وهـذا كلامٌ يحتمل وجهين أحدهما أولَى به، وقولٌ لايحتمل إلا وجهًا وهو الرُّبوبيّة. أم كيف تنظرون الى كلامه: "أذهب الى أبى وأبيكم". فتُفْرِدوها فى نفسه وقد قالها فيه وفى غيره!

فاتق الله وكن من القائمين بالحق، الموحِّدين للرب. إن أمير المؤمنين قد ضَرَب لك أمثالًا جمَّةً، وصَرَف اليك مسائلَ كثيرة، وبيَّن لك من آيات النبى صلى الله عليه وسلم وعلاماتِ الوحى قليلًا من كثير، واضحا من تفسير، لا تمتنع العقولُ من التصديق به، ولا القلوبُ من الإقرار به.

وسيذكر لك أميرُ المؤمنين من علامات النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراه والإنجيل، ما يُكْتَفَى به، إن شاء الله، وباليسير منه، لأن كتب الله عز وجل محفوظة، وحُجَجه محروسة، لا يزاد فيها ولا ينقص منها. وادا وجدتَ فيها كلمةً تدلّك على حق وتَهْدِيك الى رُشْد، فلستَ واجدًا أخرى تَصُدُّك عنه وتشكِّكُك فيه، ادا تُلِىَ ذلك بالحق ووُضِع على الصدق. ولكن صلّت اليهودُ والنصارى بتحريف تأويل الكلام، وتصريف تفسير الكُتُب. وأميرُ المؤمنين يسأل الله العِصْمَة والتوفيق.

(١) الوارد فى إنجيل متى (فصل ٥ آية ٤٢ ح ٣ من الكتاب المقدس) . «من سألك فأعطه . ومن أراد أن يقترض منك فلا تمنعه». والوارد فى إنجيل لوقا (فصل ١١ آية ١٠ ح ٣ من الكتاب المقدس) . «من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له»

من ذلك ما قد شَهِدَ به عيسى عليه السلام عندكم وبيّنه فى الإنجيل لكم ، إذ قال للحَوَارِيِّين[١] : "أنا أذهبُ وسيأتيكم البارقليط روح الحق الذى لا يتكلّم من قِبل نفسه إنما يقول كما يُقَال له ، وهو يشهد علىّ وأنتم تشهدون لأنكم معى من قبل الناس بالخطيئة ، وكل شىء أعدّ الله لكم يحدّثكم به" . وترجمة البارقليط : أحمد . هذا ما لا شكّ ولا مريةَ فيه ، وهو الذى يُخبر بما وَعَد الله المؤمنين وصالحى الحوَارِيِّين فى القرآن ؛ ولستم تجدون ذلك فى التوراة ولا فى الإنجيل .

ومن ذلك قول أشْعِيَا[٢] النبى عليه السلام : "قيل لى : اقم بطارا ما ترى بحبرى[٣]" قال : أرى راكبين بعيرين مقبلين أحدهما يقول لصاحبه : سقطت بابل وأصنامها[٤] المنحوتة" . ولسنا نعلم نبيا ركب بعد موسى صلى الله عليه وسلم بعيرا إلا محمدا صلى الله عليه وسلم كثيرا .

ومن ذلك قول داود عليه السلام[٥] : " اللهم ابعث جاعلَ السُّنَّة كى يعلم الناسُ أنهم بشر" يقول : كى يتبيّن الناس أن عيسى عليه السلام إنسان . ولسنا نعلم نبيا وضع سنّةً تُنْسَب اليه إلا محمدا صلى الله عليه وسلم . أما عيسى فإنه نَصَب سُنّةَ موسى عليه السلام .

ومن ذلك قول حَبَقُّوقَ[٦] المتنبىء فى زمان دانيال : " جاء الله من السماء[٧] والقدّيس من جبال فاران ، وامتلأت السماء من تحميد أحمد وتقديسه ، ومَسَح الأرضَ بيمينه ، ومَلَك رقابَ الأمم" . وقال أيضا[٨] : " تضىء لنوره الأرضُ ، وتُحْمَل خيلُه فى البحر" . قالى من

---

(١) راجع إنجيل يوحنا (فصل ١٤ آية ٢٦ وفصل ١٥ آية ٢٦ وفصل ١٦ آية ١٣ ح ٣ ص ١٨٨ من الكتاب المقدّس) .

(٢) راجع سفر أشعيا (فصل ٢١ آية ٩ ح ٢ ص ٣٤٨ من الكتاب المقدّس) . (٣) كذا بالأصل ، ولم يوفق الى تصحيحه . (٤) فى الأصل : «المجرة» وقد استأنسنا فى اثبات ما أثبتناه بالكتاب المقدس

(٥) راجع سفر المزامير (فصل ٩ آية ٢١ ح ٢ ص ٥٢ من الكتاب المقدّس) . (٦) راجع سفر حبقوق (فصل ٣ آية ١٥ ح ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدّس) . (٧) فى الأصل "من السماء" .

(٨) راجع سفر حبقوق (فصل ٣ آية ١٥ ح ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدّس) .

يخو هـذا القول، والى أيّ يُذْهَبُ بهذا المعنى؟ لئن ذُهِبَ به إلى غير الذى [تحمل][(١)] حيلُه فى البحر، وبدأ من حال فاران أمره، رعَلَب على الأرض ومسحها،[(٢)] ومَلَك رقابَ الأمم كلها، لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون.

ومن ذلك قول داود عليه السلام فى الزَّبُور[(٣)]: "صَدِّقُوا وسَبِّحوا الربَّ تسبيحًا حديثا سَبِّحوا الذى هلّله[(٤)] الصالحون. ليفرَحْ إسرائيلُ بخالقه ويتوب صِهْيُونُ من أجل أن الله اصطفى له أمته، وأعطاه النصر وسَدَّد الصالحين بالكرامه، تسبِّحونه على مَصَاحعهم، ويكبّرون الله بأصواتٍ عاليه، بأيديهم سيوفٌ ذاتُ شَفْرَتين، لينتقم الله من الأمم الذين لا يعبدونه، ثم يقيِّد ملوكهم بالقيود وأشرافهم بالأغلال". فأيّنما أُمّة يكبِّرون الله بأصواتٍ وأداء الصلوات الدائمة وعلى كل شَرَفٍ وعند كل حرب، وأيّنما أمةٍ كانت سيوفُها ذاتَ شَفْرتين إلا أُمة محمد صلى الله عليه وسلم!

ومن ذلك قول[(٥)] أشعيا: "سَبِّحوا الربَّ تسبيحًا حديثا، ويسبّحه من آفاق الأرض فرح[(٦)] يكون فى بنى فاران". وبنو فاران قريش أهل فاران الذى نزل فيه القرآن. وأيّنما أُمّةٍ تسبِّح من آفاق الأرض إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم. عندى أكدى[(٧)].

ومن ذلك قول[(٨)] أشعيا: "عندى الذى وحب به حبّى الذى بشرت به نفسى أُفيض عليه رُوحى، يُوصِى الأمّم بالوصايا، لا يصحَك ولا يُسْمَع صوتُه فى الأسواق، ويفتح العيون العُور، ويُسمِع الآذانَ الصُّمّ، ويُحْيى القلوبَ العُلْف، وما أعطيه لا أُعطى غيرَه، أحمد يحمَد اللهَ حمدًا حديثا، تهليلُه يأتى من أقصى الأرض، يجوز الماءَ نشده أمواجه، ويفرح وكورها، سكانها يَحمدون الله على كل شَرَف، ويكبِّرونه على كل رابية".

---

(١) زيادة يدل عليها ما قبلها. (٢) فى الأصل "ومسحها". (٣) راجع سفر المزامير (فصل ١٤٩ آية ١ — ٩ ج ٢ ص ١٥٧ من الكتاب المقدس). (٤) فى الأصل "هلكه الصالحون.." (٥) راجع سوءة أشعيا (فصل ٤٢ آية ١٠ ج ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس). (٦) كذا فى الأصل، ولعله محرف من «فوج». والفوج: الجماعة من الناس. (٧) كذا بالأصل، ولم ندر لها تين الكلمتين ولا لذكرهما معنى. (٨) راجع سوءة أشعيا (فصل ٤٢ آية ١ — ١٠ ج ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس). (٩) كذا بالأصل.

ومن ذلك قول داود[(١)] عليه السلام فى المزمور الخامس والأربعين[(٢)]. يقول الله عز وجل لمحمد فى الزبور : "انصبّت رحمتى على شفتيك من أجل ذلك باركتك الدهرَ[(٣)]، تقلّد السيف على الأمم، أيها الجبار على الأمم بالقتل والأسر والسباء هلاك وحمدك أحمد بعلب الرمنك كلمة الحق ودللت لك الأشياء سيفك بحسمه بيمينك وسالك مسمومة و تسقط عدد الأمم" . فأى نبى كان على الأمم جبارا ولهم بإذن الله قتالا إلا سيدنا صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك فى آخر التوراة[(٤)] . "جاء الله تبارك وتعالى من سيناء وأشرف من ساعير واستعلن من جبال فَارَان ، وجاء عن يمينه ربوات القِدِّيسِين" . وتفسير هذا أن الله عز وجل أنزل التوراه على موسى فى طُورِسيناء ، وأنزل الإنجيلَ على عيسى عليه السلام فى جبل ساعير وهو جبل بالشام ، وأنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فى جبال فَارَان وهى بلاد مكة . وأنتم تجدون ذلك فى كتبكم مكرّرا وتعرفونه جميعا بلغتكم .

ومن ذلك قول الله عز وجل لموسى عليه السلام[(٥)] «سأُقِيمُ لهم من إخوتهم مثلَكَ أجعَلُ كلامى على فمه ولا يتكلّم إلا بما آمرُه به» . فمَنْ إخوة بنى اسرائيل إلا بنو إسماعيل ! أَمَا تعلم أن لو كان الله عزّ وجل يعنى أحدًا منهم لقال لهم : أُقيم لكم نبيا منكم ! .

فإن قلتم إنما قال من إخوتكم ، وهو يريد من أنفسكم ، فهَبْ أميرَ المؤمنين قَبِلَ هذا الخُلْفَ منكم ووَسّعَ فى هذا المجال لكم ، فكيف تصنعون بقول الله عز وجل فى التوراه . "مثلُ موسى فى بنى إسرائيل لا يقوم" فهل تجدون من هذا مَخْرجًا ، ومن الإيمان أن المعنى وقع على محمد صلى الله عليه وسلم بدًّا .

---

(١) راجع سفر المزامير (فصل ٤٤ « وفى بعض النسخ ٤٥ » آية ٣ — ٨ ج ٢ ص ٧٩ من الكتاب المقدس) . (٢) فى الأصل « فى خمسة وأربعين مزمورا » . (٣) فى الأصل « من أجل ذلك باركل الدهر . واستعنا فى تصحيحها بالكتاب المقدس الذى وردت فيه الجملة هكذا : « وقد اسكبت النعمة على شفتيك فلذلك باركك الله الى الأبد » . أما الباقى فلم نوفق الى تصحيحه فأثبتناه كما وردت بالأصل .

(٤) راجع سفر تثنية الاشتراع (فصل ٣٣ آية ٢ ج ١ ص ٤٤٣ من الكتاب المقدس) .

(٥) راجع سفر تثنية الاشتراع (فصل ١٨ آية ١٥ ج ١ ص ٣١٨ من الكتاب المقدس) .

ألا تسمع قول الله عز وجل : " أجعَـلُ كلامى على فمه كى يُعْنَى به ، أُمِّىٌّ لا يقرأ لا يكتب" .

أوليس قد أمر عيسى عليه السـلام حَوَارِيِّيه أن يقولوا فى صَلَواتهم[1] : «ياأبانا الذى فى السماء تقدس آسمك» . كيف صار عيسى دونهم ابا ، وصار له دونهم أبا[2] ، وهم يقولون : أبانا ! أم كيف لم يُجْعَل سليمانُ بن داود إلهًا وقد قال الله عز وجل لداود : "يُولَد لك علامٌ سَمِّى لى وأُسَمِّى له"! ولِمَ لا يجعلون إسرائيلَ إلهًا وقد قال الله عز وجل له : "أنت بِكْرِى"! ولِمَ لا يُسَمُّون المؤمنين عامّةً والحواريّين خاصة [آلهة] ، وقد قال المسيح للحواريين : أنتم حوتى ، وقد قال فى الانجيل[3] : " أعطِ كلَّ من آمن بى سلطانًا يُدْعَى له" . وإن كان هؤلاء كلهم للمسيح إخوه أفلا تجعلوهم كلهم آلهة ! وكيف يقولون : إن عيسى ابن الله ، وهو يقول مواضع جمّة وأماكن كثيرة إنه ابن الانسان ! فكيف يكون ابنُ الانسان ابنَ الله ؟ ومتى كان ذلك ؟ ان قالوا : إن عيسى لم يزل ابنَ الانسان ، لقد جعلوا مع الله إنساناً قديما جعلوا لله إنسانا حديثا ، وجعلوا المسيحَ ابنَ الله لم يَزَلْ ، وابنَ الإنسان فيما حَدَث . وهذه أمورٌ متناقضة ، وحجج داحضة ، وأقاويل فاحشة .

وإن قالوا : إنما جعد المسيحَ لأنه رُفِعَ الى السماء ، فليجعلوا الملائكةَ فإنهم فى السماء قبله ، إدريسَ فقد رفعه الله وعبرَه . وإن كانوا يجعلون المسـيح لأنه لم يُخْلَقْ من ذكر ، فآدمُ حوّاء لم يُخْلَقا من ذكر ولا أنثى ، ولم يَقَعَـا من عِرْق الرحم وضِـيق البطن وحال الضِّـيقا [وقع] فيه المسيح .

وإن قالوا : إنما جعد عيسى لأنه أحيا الموتى ، فـقد أحيا حزقيل[4] أكثر ، وما كان من سَعَ تلميذ إلـياس أعجب ، لأنه أحيا الموتى بعد مئين من السـنين . وإن طلبتم ذلك سِيَرَ الملوك جد قصة اليسع أصبتموه ، إن شاء الله .

---

(١) راجع إنجيل متى (فصل ٦ آية ٩ ح ٣ ص ١٠ من الكتاب المقدس) . (٢) فى الأصل : «وصار له أبا » . (٣) لم نجد هذا فى الإنجيل . (٤) حزقيل حيّ بعثه الله تعالى الى بنى اسرائيل ، والذى أحيا الله القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فأحياهم الله تعالى بعد موتهم عقوبة . وهو ما يشير اليه قوله تعالى : (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) الآية .

وإن كانوا إنما يعبدون المسيحَ من أجل الأسقام التى أبرأ والعجائب التى أرَى ، فعجائبُ موسى أعجب وآياته أعظم . أين ما ذكرت لك من [عجائب] عيسى من عجائب موسى : من انقلاب العصا له ، وسلوك الجيش معه ! أم أين ذلك من حجرٍ يضربه فينفجر عيون الماء ، ويحمله معه حيث شاء ! بل أين تلك وهذه وغير هذه من الآيات من حبس يُوشَعَ الشمسَ[1] ثلاثَ ساعات ! وكلُّ ماصنع موسى وعيسى وغيرهما بإذن الله وأمره وقدره وقضائه . فاتّقِ الله وكن من القائلين بالحق ، الموحِّدين للرب ، ولا تقل على عيسى ما لم يَقُل ، فإنكم لاتحدونه قال لكم فى شىء من كتبكم : اعبدونى فإنى ربكم . تعالى الله عما يقول الظالمون ، ويذهب اليه الجاحدون .

وإن أمير المؤمنين قد أحبّ أن ينصح لك ، فى أَوْلَى دارَيْك بك وأهمِّ شأنَيْك لك ، فدعاك الى الإسلام وأمرك بالإيمان الذى به تدخل الجنة وتنجو من النار . فإن قبلتَ فحَظُّك أصبتَ ، ونفسَك أحرزت ، ولك ما للمسلمين ، وعليك ما عليهم . وإن رددتَ نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه الحظُّ فى آخرتك ، فإن أميرَ المؤمنين ينصَح لك فيما فيه الصلاحُ فى عاجلتك : من إعطاء الجزية التى يحقِن الله بها دماءَكم ويحرِز بها ساءَكم ، ويجعلها قِوَامًا لمَعَاشكم ، وصَلاحًا لبلادكم ، وتوفيرًا لأموالكم ، وأمْنًا لجاركم ، وسعةً لِسِرْبكم[2] ، وبركةً على مقرائكم ، وغِنًى لأهل الحاجة والفاقة والمَسْكَنة منكم .

وأن يذكر أمير المؤمنين فى الجزية لكم من حلول الأمن فيكم ، وعموم العافية إياكم ، واستقامة البركة عليكم ، وكَفِّ أيدى المسلمين عنكم ، وبَسْطها على الأعداء منكم ، شيئا إلا فى قليل ما كان من أشباه ذلك أيام تلك الهدية التى كان الله أجرى نعمتَها لكم على يده ، وفَتح بركتَها عليكم من قِبَله ، ما يدلُّكم على صدق أمير المؤمنين فيما يذكر ، ويشهَدُ له على حقّه فيما يقول ان شاء الله . فقد تعلمون أن الله قد أدخل على كل طَرَف من أطرافكم ،

---

(١) إشارة الى قصة يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام واستيقافه الشمس ، فقد روى أن يوشع قاتل الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراغه ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم فيه ، فدعا الله تعالى ، فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم .

(٢) السرب : الطريق .

وصِنْف من أصنافكم، تلك الفدية، أمورًا عظيمةَ البركة، واسـعةَ المنفعة، فى أمورٍ غير واحدة :

منها : أن قادةَ جنودكم وساسةَ حربكم، كانوا بعـد وقوع أمرها وٱستحكام عَقْدها، مِراعًا لمحاربة أعدائكم ومناصبه من ناوأكم، بين أن يستعجموهم فى بلادهم ويمرلوا عليهـم فى ديارهم، ولا يرهبون تَعَقُّبَ بَشَرٍ إن ساروا فى أرضهم، ولا يتخوّفون طِراداً إن ٱجتمعوا لقتالهم أن يقيموا فى حَفْص ودَعه، وأمْنٍ وَسـعَة، مع الأزواج والأولاد والعيال والأوطان والرباع والمَحَال، وهم اليوم يترقّبون الجيوشَ من كل شِعْب ويحوّفون الحتوفَ فى كل وقت، لا يهدأ لهم حاش، ولا يسكن لهم فَرَع، ولا ينامُ لهم ليل، ولا نأمن فيهم حال، قد قَطّعت الهمومُ دارَهم، وأصمرت المخاوفُ جُنُوبَهـم، وٱستأصلت الجنودُ أموالَهم .

ومنها : أن أهل الخِرَاثة وإحوان العمارة، فى بلادك وأطراف أرضك، كانوا سِراعًا الى عِمَارة أرضهم وإصلاح ما تحت أيديهم، فيما لا قِوامَ لهم ولا لمعاشهم إلا به، ولا بقاءَ لدينهم إلامعه؛ قد أمِنوا الجيوشَ ومَعَرّتَها، والجنودَ وبادرتها، وٱنتشروا للعماره، وٱستكروا فى الزراعة، فارقوا رءوسَ الجبال وإقـامَ العِياص، وراحوا فى أوساط أوطانهـم وطِـلال مَحَالّهم، يشقّقون الأنهار، ويعرسون الأشجار، ويُنَجّرون العيون، حتى نَمَت الأموال، وٱحضرّت الجبال، وأخصب الجنّات، وأصبحوا اليوم عن الزراعة ممسكين، وللخِراثة تاركين، وبغيرها مشتغلين فى إصلاح آلات الحَرب، وإحراز العيال فى الحصون، ورمّ القِلاع للجلاء، وتحريش الحصون للبلاء، قد ٱستقلوا عن منابت البر وكرائم الأرض، ومجارى المياه، الى أوشال الجبال، وأشجار العِياص، وبطون الأودية؛ فليس يبلُغون من عِمارة بلادهم، ولزوم أوطانهم، [و] من تناول ثمـارهم وقوام معاشهم مثلَ ما كانوا يبلُغون، ولا ينالون من خَفْض العيش وطيب الأمن ولذّة الدَّعَة، قريبًا مما كانوا ينالون .

---

(١) كذا فى الأصل . (٢) فى الأصل . «لا سكن لهم الخ» .

ومنها : أن إخوان التجارات، وأصحاب الأموال وأهل الظُّلَف والحاضر، كانوا يتناولون ما شارفهم من بلادنا[1] وما قاربهم من أسواقنا، فيسقّفون تجاراتهم ويُغلون بضائعهم، فتعظُم الأرباح وتضعف الأثمان . وكانت الباعة من تجار المسلمين وغيرهم من الذميين، يتناولونهم للبيع لهم ويتناولونهم للشراء منهم، فعمّت البركة وسَهُلت المنفعة، حتى نالت الرعاءَ فى حبالها وامالها[2] ، والنساءَ فى غزولهن وعمل أيديهن فضلا عن غيرهن .

ومنها : أنك ومَنْ قِبَلك من ذوى العبادة والزهادة والتألُّه والمسك والسيات ، كنتم على عافية من أيام الرضا بالحرب، وسلامةٍ من أوزار الحضّ على قتال الخوف، قد نَحَوْتم من معصية المسيح فى الدنيا التى بها كم عنها، والأمور التى أمركم بها، من نحو قوله[3] : "مَنْ لَطَم حدّك الأيمن فأمكِنْه من الأيسر، ومَنْ انتزع قميصَك فأعطه كساءَك ، ومن لَطَمك فاعفُ له ، ومن شتمك فأعرِضْ عنه" .

ومنها : أن من بأقاصى بلادك ونواحى حوزتك، قد داقوا تلك الأيامَ من لذة الخفض، ودعة الحال، وحلاوة الأمن، ورَفاهِيَة العيش، وسَعَةِ العافية من سِنَاء أزواجهم، وهَيْض أولادهم، وحطم معاشهم، وأسر رحالهم، وعيمة بقرهم وغنمهم، وإفساد شجرهم وثمارهم، وإحلاء عن مساكنهم وأوطانهم، ما لم يكن لهم رأىٌ يعرفه ، ولا طِبٌّ يبلَغه ، ولا طَمَعٌ يُقارِبه ، ولا أملٌ يدهب اليه . وما قد عرفت الخاصّةُ من بطارقتكم ، والعامةُ من أهل ملتكم به : من رأفتكم بهم ، ورحمتِكم لهم، وشَفَقتِكم عليهم، وأَثَرتِكم إياهم، وبركةِ ولايتكم ملكَهم ، ومنفعةِ سياستكم أمرَهم، ما قد ازدادوا لكم به محبةً، وفى بقائكم رغبةً، ولأمركم طاعة، وعلى ملككم شفقةً، وفيما ناكم نصيحةً؛ مع ما قد ازددتم بذلك من الهيبة فى صدور الأعداء ، والشرف فى قلوب النظراء ، والعظم فى عيون الأمم ، حتى أقروا لكم بقوة عزائم العقول ، وفصل سياسة الأمور ، وصحة تدبير الملك ، وصدق البية ، ولطف الحيلة التى

---

(١) فى الأصل . "من بلادهم ..." . (٢) كذا فى الأصل . (٣) راجع إنجيل متى (فصل ٥ آية ٣٩ ج ٣ ص ٩ من الكتاب المقدس) .

جعلوا نسبة عملكم بها ، ومحل رأيكم فيها ، على أنكم بطرتم لضعفائكم حتى قَوُوا ، ولفقرائكم حتى استغنَوا ، ولقرابكم حتى بدوا وحيو وهووا المسلمين[1] من أيام الحروب وأوزار القتال ، ومعصية المسيح عليه السلام ، ولأعدائكم الأبعدين وحيرتكم الأقربين ، حتى كنتم من فراغكم لهم ، وآشتغالكم من أمركم بها ما أوطأتموه لحر نحر القتل[1] ، وذل الأسر وعلة القهر ، والإذعان والاستسلام . وإما كفيتموهم بالصلح ، وآستوثقتم منهم بالرهن .

فاذا ذكرتَ ما كان من هـذا وأشباهه وأمثاله فى الفدية ، فاعلموا أن أمثاله وأصعافه مقيم معكم فى الجزية ، فلا يكونن لك رأىٌ غيرها ولا أمر سواها ، فلقد أكثر أمير المؤمنين العجب من أمركم ، وأطال تقليب الفكرة فى معصيكم ، فظن أن إحراجكم من جميع ما كنتم فيه الى خلافه مما أصبحتم عليه من آنتظار وقعات الحروب ، وصولات الجنود وأكل الحدود ، وتوقع الحلاء والسباء والقتل ، والأسر والحصر ، شيئا آحتدعكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم وكيدًا آستدركم به لما علم من قلوبكم .

ألا إن أعجبَ عذركم وأفظعه كان عند أمير المؤمنين إذ بلغه جرأتُكم على الله عز وجل فى نقض عهده ، وآستخفافُكم بحقه فى خَفْر ذمته ، وتهاونُكم بما كان منكم ، وأنتم تعلمون أن مواثيق العهود وبدور الأيمان الذى وضعه الله عز وجل حَرَمًا بين ظهرانَىْ خَلْقه ، وأماناً أفاضه فى عباده ، لتسكُنَ اليه نفوسُهم ، وتطمئنّ به قلوبهم ، وليتعاملوا به فيما بينهم ، ويقيموا به من دنياهم وديهم ، فما من ملك من الملوك ولا أمة من الأمم ، تبيح حِمَى الله عز وجل ، تهاونا به وجرأة عليه ، إلا أجرى الله عليهم دائرة من دول الأعداء ، وأنزل عليهم عذابا من السماء . وقد رحا أمير المؤمنين أن يُجرى الله نقمته منكم بأيدى المسلمين ، بعد إذ كان آعتقد عهدكم ، وأخذ ميثاقكم بالأيمان المغلّظة ، والعهود الموكّدة ، التى قد اعتقدها فى رقابكم ، وحملها على ظهوركم ، فأشهدتم الله بها على أنفسكم ، وتسامَعَ بها مَنْ حولكم ، وحكم بها بطارقتكم وأساقفتكم . فلا الله آتقيتم ، ولا من الناس آستحييتم ، نكثًا للعهد ، وبغضا للمسلمين ،

(١) كذا فى الأصل .

وحَتْرًا بالأمانة، وإباحةً للحمى . فتوقّعوا العقوبة، واستطروا العيب، فلقد وثق أمير المؤمنين أن من عذاب الله ما هو حالٌّ إن شاء الله بكم .

ومن أسباب ما يريد الله من الانتقام منكم ، ما قد أزمع أمير المؤمنين وعزم عليه ، وقذف الله فى قلبه : من الإرادة والنية والرغبة فى إبطاء الجيوش بلادَكم، واستناء المقاتلة أرضكم، والتفرُّغ لكم من كل شغل، والإيثار لجهادكم على كل عمل، حتى تؤمنوا بالله وأنتم طائعون أوكارهون ، وتؤدُّوا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون . فكونوا على عدة من الجزية، ويقين من الانتجاع الذى لاطاقة لكم إن شاء الله به ، ولا صبر لكم بدون الله عليه ، فان جنود أمير المؤمنين فارغة كثيرة ، وخزائنه عامرة وافره ، ونفسه سخية بالإنفاق، ويده مطلقة بالبذل ، والمسلمون بِشَاط اليكم، مقبلون عليكم، قد عوّدهم الله فى لقائكم عاده يرجون انتظار مثلها، وأبلاهم فى قتالكم بلاء من أمثالها، إن شاء الله .

وكتاب أمير المؤمنين نذيره بين يدى جنوده ، ومُقدّمه إن شاء الله من جيوشه، إلا أن تؤدُّوا الجزية عن التى دعاك أمير المؤمنين اليها ، وحداك ومن قِبَلك عليها، رحمةً للضعفاء الذين لا ترحمهم، وتوجّعا للساكين مما لا تَوَجّع منه لهم من الحلاء والسباء والقتل والأسر والقهر، وقساوة من قلوبكم ، وأثرة لأنفسكم ، واعتصاما بحواصكم ، وإجلاء لعوامكم الضعفاء الفقراء المساكين الذين لا تمنعونهم بقوة، ولا تدفعون عنهم بحيلة، ولا تراقبون فى الرحمة لهم والتعطُّف عليهم ، أدبَ المسيح إياكم، وقولَه فى الكتاب لكم (١) : " طوبى للذين يرحمون الناس ، فإن أولئك أصفياء الله وبنو آدم" .

وأيم الله لو يعلم مَنْ قِبَلك من المساكين والرعاعين والفقراء والضعفاء والعَمَلة بأيديهم، ما لهم عند أمير المؤمنين لتحدّروا عليه وأقبلوا اليه، من إيوائهم، وإرالهم الأرض الواسعة، وإمكانهم من مسايل المياه السائحة، والعدل عليهم بما لا تبالغه أنت ولا تقارب به، رفقا بهم ونظرا لهم وإحسانا اليهم ، مع تحليته إياهم وأديانَهم، لا يُكرههم على خِلافها ولا يحرمهم على

(١) راجع إنجيل متى (فصل ٥ آية ٧ ج ٣ ص ٧ من الكتاب المقدس) .

غيرها ، لآختاروا قرب أمير المؤمنين على قربك ، وجواره على جوارك ، ولأنقدوا[1] أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم ، مما يحل بهم فى كل عام ويلقون من كل غزاة . فاتق الله وأقبل ما عُرِض عليك من الجزية ، ولا يمنعنك ما فيه الحظ لك ولأهل مملكتك[2] . ونحن على رجاء أن الله لا يؤخر ذلك منكم ويدفعه عنكم ، إلا ليجعله على يد أهل بيت النبوة والرحمة ، ولاهل الوراثة فيهم للكتاب والحكمة ، الذين لا يدخل عليكم فى الإذعان [لهم] وأداء الجزية اليهم حميةٌ ولا نقيصة ولا عار ، والدين يَهُون لكم بما يعقدون ، ويتبعون فعلهم ما يقولون .

ثم أمير المؤمنين مخاصة لما جعل الله عليه رأيه وفيه نظره من البر والرحمة والإقساط والوفاء بالعقود والعهود والشروط ، نظرًا لديه وخوفا من ربه ، ولما قذف الله فى قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأثرة ، ولما جعلهم الله عليه من آجتماع الكلمة ، وآتفاق الأفئدة ، والصائح فى السر والعلانية ، وما عوّده الله ممن نصب له بمجادبة ورماه بمكايدة ، وعراه بحيلة : من النصر العزيز ، والفتح القريب ، والظفر المبين . فانذُل من الجزية ما شئت ، وسمِّ منها ماهَوِيت . وآعلم أن أمير المؤمنين ليس يحدوك عليها لحاجة به اليها ولا للمسلمين ، ولكن طاعة لربه وأثرة لحقه ، وليجعلها سببا لما يريد أن يجرى فيما بينه وبينكم . وإنه إنما كان قول المهدى — رحمه الله — الفدية منكم ، بطلبة أمير المؤمنين كانت اليه ، والحاجة كانت فيها عليه ، ولم يكن من رغبة فيها ، ولا حاجة اليها ، ولا آستعظام لها ، ولقد كان يعطى فى المجلس الواحد مرارا أمثالها ، ولكن ذلك كان رأى أمير المؤمنين يومئذ فيكم . فأما اليوم اد آستبان له عدُوكم ونقصكم ونكثكم وآستخفافكم بدينكم وجرأتكم على ربكم ، فليس بين أمير المؤمنين وبينكم إلا الاسلام أو الحرب المجليه ، ان شاء الله . ولا حول لأمير المؤمنين ولا قوة إلا بالله ، عليه يتوكل وبه يثق وإياه يستعين . والسلام على من آتبع الهدى .

---

(١) فى الأصل . " ولأبتدلوا ... " . (٢) كذا فى الأصل وهو غير واضح ولعل أصل الجملة " ولا يمنعك الشيطان مما فيه ... الخ " سقط هذا أو نحوه سهوا من الناسخ . (٣) كذا فى الأصل .

٣ — رسالة يحيى بن زياد فى تقريظ الرشيد

أما بعدُ، فإنى أسألُ اللهَ لأمير المؤمنين فى عامّةِ أموره، أحسنَ ما عوّده فى سالفها من السلامةِ التى حَرسه بها من المكاره، والعزِّ الذى قهر له به الأعداءَ، والنصرِ الذى مكّن له فى البلاد، والهدى الذى وهب له به المحبّةَ، والرِّفقِ الذى أدرّ له به الحَلْبَ، والاستصلاح الذى اتّسقتْ له به الرعيّةُ، حتى يكون بما أعطاه من ذلك، وما هو مُستقبلٌ به منه، أبعدَ خُلَفائه فى الخير ذِكرًا، وأبقاهم فى العدل أثرًا، وأطولَهم فى العمر مدّةً، وأحسنَهم فى المَعَاد مُنْقَلَبًا.

ثم يحمدُ الله الذى جعل نعمتَه على أمير المؤمنين شواهدَ منه على منزلته منه ومكانه عنده، لا يحتاج معها الى شهادات المُثْبِتين، ولا صفاتِ المقرِّظين، ثم جعل ذكرَ نعمته على أمير المؤمنين ومُناصحتَها والمجاهدةَ لمن كادها فريضةً أوجبَها على العباد، ومحنةً امتحنَهم بها، وفُرقانا مَيّزَ به بينهم، فمن أصبح من رعيّته أكثرُ شغلِه أن يستعملَ لسانَه فى صفته، وذِكرِ محاسنه وفضائله، ووجوبِ حقّه وطاعته، فقد أصبح آثرًا أولى الأمور وأحسنَها مَغَبّةً فى دنياه ودينه، ومن بدّل ذلك عن قدرةٍ عليه، ودفعَه بعد معرفة، فلم يَدَعه إلا عن جِدْلان حاقَ به، أو بِدْعةٍ استمالته، كانت حُجّةُ الله لأمير المؤمنين عليه هى الكافية لمؤونته. وقد كان علماءُ الناس وجُهّالهم يُسَوَّون فى عامّ المعرفه بفضل أمير المؤمنين، فأما الخاصّ فلأهل الفضل فيه فَضْلُهم، غير أنه مهما كان من ذلك فقد أصبحوا وهم فيه على مَنازل ثلاث: حاسدٌ حَجَب الحسدُ بصرَه عن مَواقع الصّواب أن يراه، والنعمةِ أن يشكرها. والحقّ أن يُؤدّيَه، وكانت معرفتُه عليه وَبالا، وحسدُه الى الصبر به قائدا. أو ذُو هَوًى قاده الهوى الى البدعة وأخرجتْه الضّلالةُ من الجماعة، فهو عُرْضةٌ لسُوء الأدب أو سَيْف النّكال، لم يُوحِش اللهُ أحدًا بفقده، ولم يُعزّز أحدا بمُوالاته. وموفّقٌ معصوم استفقده [لله]

(١) فى الأصل: «العير» (٢) فى الأصل موفق معصوم ثم استفقده مولاة الخ.

مُوَالاةِ أمير المؤمنين من عِلّ الحسد وبِدَع الآراء وجَبَله على صحّة الهوى، فهو إن نَظَر فبعينه ينظر، وإن قال فبلسانه يقول، لا يأمَنُ حتى يعلم أنّ أمير المؤمنين قد اسْتَوْطَأ مِهادَ الخَفْض، ولا يزال له طليعةُ رَأْيٍ تُوفِي على خُطَّه حَرْم وعامص فِطْنة، تَتَلَعْلَعُ الى لطيف مفعته و[تكون] سهم مكيدة لحوعروة(١)، قد علِم أنّ يومَ أمير المؤمنين يومُه، وأن عدَه غدُه، فهو وإن تعرّض لأدَاء الحقّ فى نصيحته بنظر لنفسه نظرَ من لا يأمُل السلامةَ إلا بسلامته، ولا البقاءَ إلا ببقائه. وقد رجوتُ بالقرابة التى جعلها اللهُ لى به، والواجبِ الذى عَرفتُه من حقه، والعظيم الذى حَمّلتُه من معروفه، ألّا يكونَ أحدٌ ينظر اليه بعين الإشفاق أقوم ما جعله الله أهلَه منّى، فإن أبلُغ الذى أردتُ مبتوفيق الله، وإن أُقَصِّر عَمّا مثل ما حاولتُ قَصَّر المجتهدُ.

فأوّلُ ما أنا ذاكِرُه من فصله: أنّ الله قدّم له الصُّنْعَ فى سابق علمه، بجعل مُخْتَدَه حيرَ المحامد عُنصرًا، ثم اختار له أبًا فأمّا لا يسقله من أبٍ الى أبٍ إلا نَقَل معه وإليه فضيلةَ العنصرُ الذى هو منه حتى صَيَّره بعدَ فصائلِ آبائه الى أفضل بَدَنة، فكان حيرَ حَلَفٍ من حير سَلَفٍ، وأفضلَ ولد من أفضل أُبُوّة، وَأرْضَى إمامٍ من أَزْكَى أُمّة، ثم اختار له مكارمَ الأخلاق، وألبسَه جمالَ الصُّورة، فلا نعلم نحن ولا آباؤنا حليمةً أعدَّ فى حِلْمه من ذُلٍّ، ولا فى هَيْبته من تَجَبُّر، ولا فى شِدَّته من عُنف، ولا فى لِينه من وَهْن، ولا فى أناته من عَفلة، ولا فى اقتصاده من بُخْل، ولا فى بَذْله من إضاعة، ولا أرقّ وجهًا عند لقاء، ولا أحسن بِشْرا عند تحيّة، ولا أعزرَ دمعًا عند مَوعظه، ولا ألينَ قِيادًا عند تذكير بالله مـــه.

ثم أفضتْ اليه الخلافةُ وفى المال ما فيه من القِلّة، وفى الناس ما فيهم من الإحراج(٢)، فما دَفَع عن مال يُعطيه عن قلّة، ولا قطع عادةَ تَوْسِعَةٍ على رعيّته؛ ثم استدرّ الخَلْقَ برِفقه، فكلّما دَرّ له منه شُحْب(٣) فوّقه(٤) طائفةً من جُنْده حتى سقاهم بعد التفويق رِيًّا، وبعد النَّهَل

(١) فى الأصل "عورة". (٢) الاحراج. الضيق وفى الأصل. "الاستحراح".
(٣) الشحب (بالضم): ما حرج من تحت يد الحالب عند كل عمرة وعصرة للضرع. (٤) فوقه الشيء: أعطاه إياه قليلا قليلا.

عَلَلا؛ ثم ساس رعيَّتــه بألين السـياسة فعفا عن مذنبها ولو شاء لعَاقبَ، وآمَنَ خائفَها ولو طاب لأدْرَك، ودفَع بالحسـنة السيئةَ ولو كَافَا لقـدَر، فمـا بَرِحَ صُنْعُ الله له يَقُصّ جُمُوعَ الضّلالة بلا قتال، و يُعِزّ له النَّصْرَ بلا مُكَاثَرة، حتى فَرَع بشُغْله من كان لا يَفْرَعُ من الوزراء، وبام بسهره من كان لا ينام من العامّة، وأطمأنّتْ بما آتاه[1] للأسعار دارُ من كان لا يَنـالُ الخَفْض من الجنود حتى آستَوْطَـُوا مَرْكبَ الأمْن فكلّهم صَبِيٌّ بمفارقته. أما ذُو الدّيّة فرَكَن الى النَّقْض. وأما من لا يبدله فعمل ما كان يُؤْحَد به من الاستكراه. وأما الحَشْر من الجند والرَّعَاع فغلت عليهم عادةُ الهُوَيْنا، حتى لو رأياه يجدّه الأمرُ لما تجد له الأمرُ عَنَاءً عنده ولا نشاطا ولا جدا إن وكَلَه الى قوّته، وقوّاه بماله[2].

فلما رأى ما رأى من تَخَاذُل العامّة، وتواكُلِ الجنود، ونُزُورِ الغِنى، وجُمُودِ الجَلْب، وآستكلابِ العمّال على الخيانة، وجُرْأة الرعيّة على منع الحق، ومال الفراغُ بكثير من الناس عن القَصْـد، فتحرّكت الأهواءُ، وآستَعَرتْ بِرانُ العصبيّة، وحاشَتْ صدورُ الجَنـده وأشياعِهم بالأمانى، وظنّوا أن لا شدّةَ معه، وأنّ عفوَه لا نكيرَ بعده، وأميرُ المؤمنين يرمُقهم بعينٍ بصيرة، وأُذُن مُصيخة، وقلْبٍ يَقْظان، وقد وَقَر الحِلْمُ أن يَحِفّ لأقوال بوادر السفهاء، فهو ينتظر بالمُدْبر أن يُقبل، و بالمـائد أن يَعْتَدل، و بالمغلوب على رأيه أن يتدبّر فيُبصِر، ثَمَّرَ فى إثرهم تشميرَ من قَدَّم الرَّوِيَّةَ قبـل العجَلَة، والعفوَ قبل العقوبة، والتثبّتَ قبـل الإقدام، فاتّخذ روابطَ أنتجها على الجَـلَد والنّشاط، ليست لهم سوابِقُ تدعوهم الى الإدلال، وتسمو بهم الى كثير لم ينالوه، إنمـا هَمُّهم أن يتفاضلوا فى الجدة، و يستوْجبوا بالعَناء، ثم فرّقهم على خَوَاصّ حَدَمه، فإذا أراد أن يساوِلَ بهم فرصةً ممكنةً، أو عَدُوًّا عاط[3]، أو راتقَ فَتْقٍ قبل الساعة، يعمس يديه الى أيّهم أراده، فيقْعُدُ لأمره ولم يَشْركه فيه مُثير، ولم يجرح به موقع، ولم يحصّ فيه عاثة، ولم يُطَّلَعْ منه على مكيدة، فلم نعلم أنا رأينا جُنْدا

(١) فى الأصل « عما آتاه » . (٢) فى الأصل « إن وكله إلى قوته ولا نشاطا ولا جدا وقواه بماله » . (٣) عاط . دخل .

أسرع نهضةً اذا مَرّوا ، وأحسن إجابةً اذا دُعُوا ، وأفضلَ غَنَاء اذا آستكْفُوا مِنْ جُنْده. ثم قَصَدَ بنفسه حتى مَثَل بين الواحى الى اهمّها له فَسَادًا فى البَيْضَة ، وآنتقاصًا من الأطراف ، فأتى ناحيةَ الشام فوَطِئَها وَطْأَة جمع الله بها لهم شَتَاتَ الفُرْقة ، وأَحْمَد بها بينهم نار الفتنة .

وأما الجَزيرةُ فإنه ألفاها وهى كالجُرْح النَّغِل ، فاستأصل الله به منها شَأْفَةَ الداء ، وأطفأ به عنها نَوادرَ السفهاء ، وحُرَّ أمير المؤمنين من مرله الذى هو به منزلا جمع من بَسْطَته فى الموضع ، ورَفَاهيته فى المعاش ، أنه حاملٌ للجنود ، جامعٌ للرَّافق ، فاشَر أمْرَه أمرًا أمرًا ، حتى اذا آستُدْبِرله منها مُبْرَمٌ ، آستُقْبِل بعده حُسَامٌ مُنتَقِصٌ ، واذا أشخَص من ثغوره ثغرًا لم يَرْضَ حتى يفتتحَ من حصون أعدائه حصنا ، واذا قضى الله عنه حِجَّةً ، وصل خَطْوَه منها غزًا ، ثم رأيا ما عزَم الله به عليه من تَرْك الصَّوائف[1] مُراقبًا للذى كان من غُمُوط أهل الشام لما كانوا فيه من النِّعمة ، فلم نَشْكُك فى أنه توفيقٌ من الله له وافَقَ سُخْطًا عليهم حتى آستباحوا الحُرَم ، وتَسافكوا الدماءَ ، ونقضُوا ما بينهم من مُبْرَم حَبْلِ الإسلام .

ومن ذلك أن أرْمِينِيةَ كانت فيما جمودٌ تُحرَحُ عليهم أطماعٌ تحمل اليها ، بعد آعترافهم بإخراجهم الأموال من كُوَر الشام ، فلما رأى ذلك فعلَ كذا وكذا ، فلم يتوكّل على الله فى أمْرٍ وكَلَه الى نفسه ، ولم يَكْتَفِ به فى حفظ طَرَف أو قاصِيَة ثَغْرٍ إلا كَفاه مؤونتَه ، وعَلِم أن ما دخل مُسَ أصعاف العافية من عَوارض العِلَل ، إنما هو تقدير من الله لا يَمْتنع بعذر ، ولا يُستطاع دفعُه بحيلة . يصيبُ فيه أقوامًا بالبلايا والتمحيص ، ويَقْسِم فيه لأقوامٍ الأجرَ والجهادَ والسعادةَ ، فرأى أن فى عاجل ما يَرْفع عن أهل أرْمِينِيَةَ من ضرر مؤونتهم وغَمْطِهم نعمًا للرعية ، و إحْمَالًا للفَيء ، ورِفْقًا بالعامّة مع آقتصاده فى الأنواب على أكتاف سجيّتها ، وفى سائر أرمينية على المُقَاتِلة من أهلها ، ولم يَزَل مد أراه اللهُ ذلك ، يَكفيه مؤونةَ ذاك الثغر ، ويَكُفُّ عنه نَوائقه ، حتى كأنه فى هُدُوء الأحداث عنه ، وسُكُون الأفئدة من

(١) الصوائف . جمع صائفة وهى الغزوة فى الصيف .

رَوْعاته مِصْرٌ من الأمصار، واسِطُ المحَلّة مَأْمُون النّاثِرة . فلما آغتنم خَاقَانُ ما آغتنم ، وآنتهز الفرصةَ مُبَادِرًا ، لِما قد أيقن من معالجة المؤمنين إيّاه ، فكأنّه حين بَلَغه ذلك من إعطامه إياه بسببه له ،وما أنْصَب فيه من بَدَنه ، وأسْهَر فيه من ليله ، وأنْضَب فيه من سهاره،لم يعلم الذى نكون من آشتباهه فى الأرْمِنة الماضية قَبْلَه ، وأنه بذلك لِحَدٍّ عالم، غير أن حَمِيّته للإسلام وشفقته عليه وآمتعاضه من أن يُتَنَاول شيءٌ من أطرافه ، قد زاد ذلك عنده قَدْرا فى العِظَم ، وتفاقُمًا فى الخَطْب ، حتى أكل العَثْ بأكثر العدد، وأكلِ العُدّة ، وآسْتَقل أهل الكُوَر والأمصار ، وبدَت له من أهل بيته مَنْ لم يَتْرك بعده نهايةً فى التّحَيُّر ؛ وكان قد صَرَف بالَه الى هذين التَّعْرِيْن من الخَزَر والروم، والى هذين العدوّيْن المحاربيْن له من المارِقَة المتعصِّبَة .

فلما بَلَغ اللهُ فى إحكام أمرهما ما بلَغ ، لم يَسْتَغْنِ عن إعادة النظر فى أمر غيرهما من نواحيه لِيَسْتَبْرِئَ به ،و إرادته فى أقوامٍ يُدَافع ظلومَهم به فى أُخرى ، وعلّم غيرَهُما أنّ ماشَمِلَ مَنْ بمديـة السلام من الأَمْن والفَراغ نتيجةٌ مكروهةٌ ، فشَخَص عنها لتحقيـق ذلك مُؤثِرًا لأبْعَض وَطَنيْه على أحبِّهما وأخْشَن عَيْشَيْه على أليَنهما ، فلما ظهرتْ له العَوْرَةُ أقدَمَ إقدامَ ذى الحُجّة ، فلم يرمثلها نارًا خَمَتْ ، وصحابةً أقشعت ، لم يَسْفك بها دمَ آمرئٍ مُسْلِم صَبْرًا ، ولم يَنْتَهك فيها حُرْمَةَ مَحْرَم إباحةً .

وذلك أنه بَسَط يَدَه بَسْطَ من يُريد الآستصلاحَ لا من يريد الآنتقامَ ، فلمْ يلبَث الطالعُ أن رَجَع عن طَلْعه ، والناطِقُ أن صَمَتَ عن بِدْعَته ، والماكِثُ أنْ رَجَع الى قَصْده ، وآزداد البريء على البراءة فرحا ، والسالم بالسلامة آغتباطًا ، ولم نَرَ مثلَه فيما أفضى اللهُ به اليه من خلافته ، وحَمّله من أمور عباده ، أما لَيْلُه بمُناجَاة ربّه فيها وآستعانته إيّاه عليها فساهر؛ وأما نَهَارُه فى حَلْب فَيْئِها وإحكام أمورها فتَعِبٌ ؛ وأما صَدَقاتُه على فقرائها وأهلِ الحاجة بجارِيَةٌ ، وأما مَجْلِسُه من فُقهائها وصُلحائها فغَاصٌّ ، وأما عِلْقَتُه على طالمها فعَتيدة ، وأما أفضالُه لمظلومها فمبسُوطةٌ ؛ ولئن كان الحقُّ ألزَمَ أقواماً آستَوْجَبوا فى أنفُسهم وأموالهم ،

إنّا لنعلم أنّ ما تَرَكَ أكثر، وأنه لولا ما خَفَّفَ من الوَطْأة على أقوام لحمّل الواحد منهم مثل الذى حمّـله للجميع ، ولكنّه رَضِى بالعفو، وسَمَا نَفْسًا عن الاستقصاء، فأوجَب أن يَبْسُط يدًا بعُلْظة ويتبعها أخرى بلِين؛ فكان من ذلك نظرُه فى هـذه القايا التى هى قُوَّةُ المسلمين ومالُ الله ، غير أن الله جَعَله قيِّمَه فيـه ، وفى أحْده وصَرْفه فى وُجُوهه ، فلما رأى ضَرَاوة(١) العمّال بها ومُصَانَعتهم دُونَها ، وأن قد صارت كالسُّنَّة اللازمة لا يدَعُها عصيفُهم تَوَرُّعًا ، ولا شريفُهم تَنَزُّهًا، أحبَّ مع توفيره للمسلمين فَيْئَهم، أن يُحْدِث لهم أدبًا يَقْطِمُ به عنهم أهلَ الضراوة، ويَعْرِف به دَوُو الاستحقاف بالأمانة ،والأمر للتعة؛ أن عليهم من تَقَدُّده وأدَبه(٢) عَيْنًا ترمُق، ويدًا تَقْبِض، ولو أنّه حين هم بأحد تلك القايا حَمَل على المُوسِر قَدْر يَسَاره، وأحَدَ المُعْسِرَ بطاعته، كان قد أنْصَف، كلّا! ولكنّه أحبّ أن يَستَبِقَ قوّةً، ولا يبلُغ من المُكْثِر جَهْدا، واقتصر بهـم على العُشْر من ذلك، كَرَمًا فى القُدْرة حين رأى موضِعَ الرِّفق ، وتَحَاشَى عن العلّة حين عَرَف مكانَ الغَدْر، فأىّ نِعمةٍ أعظم، وأىّ بَلاء أحسن من هـذه القايا! كانت فى أيديهم جُمَامًا، فلما أطّلَع طِلْعها، وأخذ ما أخذ، وترك ما ترك، محلّلًا مع ما جعل اللهُ فى ذلك من [كلمات](٣) المقصّر من العمال المؤذية التى لم تكن تَعْـدُو أفواهَهم ، فليس منهم أحدٌ إلا وكان مسه له واعظ ألا يَكسِر شيئًا من الخَرَاج تَضْيِيعًا ، أو يأخذه عُلُولًا(٤) أو يُنْفِقَه إسرافًا، أو يتركَه إرهابًا .

فلما تفرّغ من عِلاج الداء المخُوف وآستأصَلَه ، ومن الفَىء المتفرّق بجمْعَه ، ومن الأمور المُعَطّلة فأحْكَمها ، آستَخْلف على القيام بذلك من يحويه عقله عن حذر ، ولا إضاعة عن حفظ، ولا لِين عن تشدّد، ولا يستحل الأ كف عن نقض ما أبرَم، ولا مُزَاولة ما أحْكَم، ولا فَتْح ما أغلق، ولا إغلاق ما فَتَح ، فلان حَيْرة أبَوَيْه، ومُخّ بَيْضته، وجَوْهر أرومته، الفائت سبقًا ، البيّن عَدْوًا ، الراسخ عِرْقا ، المنفجر بحرًا ، المحمود أمْرًا ، القائل فَصْلا ،

(١) الضراوة : اللهج بالشىء والإعراء به . (٢) فى الأصل : «لهم» والسياق يقتضى ما أثبتناه .
(٣) وضعنا هذه الكلمة لأنها تتفق والسياق ، ومكانها فى الأصل بياض . (٤) العلول : الطعام أو الشراب الذى يدخل فى الجوف .

الحاكم عَدْلا، ثم انصرف بما أفاده الله من الأجر الى جَنَاحه الذى كان مدّه على من خَلَف من الأهل والأموال والرعايا والجنود، فلان سليلة صُلْبه، وثمرة قلْبه، المُحْتَنك مع فَتَاء سِنّه عَقْلا، والمأمون مع شِدّة شَكيمته حَمْلا، والمحصد مع لينه وتعطفه أمْرًا، الشبيه بأمير المؤمنين إن نَطَق نُطْقا، وإن نَظر لَحْظًا، وإن سُئِل جُودا، وإن اهتصر عُودا، وإن ساس رِفْقًا، وإن غَصب حِلْمًا، وإن وَصَف عِلْما، وإن كُلِّم فَهْما، وإن قدر عَفْوًا، وإن لَقِيَ بِشْرًا، وإن نازع فَلْجا، وإن قارَع ظَفَرا؛ فكان عبد ظنّه به، رِعايةً للحُرْمة، وحَزْمًا فى المكيدة، وحَلْبًا للفيْ، وحِياطةً للغائب، ومباشرةً للشاهد، هذا قليلٌ من كثير. مما جعلك اللهُ أهلَه، وإنما اقتصرتُ عليه لأنى رأيتُ المتكلّمين من الخطباء تركُوه، وأن ما سمعت من الكتب المقروءة لم تنظمه، فأحببتُ أن يعلَم أميرُ المؤمنين أن له فى كلّ أمْرٍ عمِل به فى رعيته حجةً واضحة، وعذرًا معروفا، إن قام به متكلّمٌ فى خَاصّة حَسُن مَوْقِعُه، وإن قُرِئَ به كتابٌ فى عامّة، قويَت به حجّتُه.

والحمدُ لله الذى جعله وذريّتَه أولياءَ هذه النِّعم، والمخصوصين بهذه الفضائل، ونسأله أن يُبْقِيَه وإيّاهم للدِّين الذى سدّ بهم عَوْرته، والحقِّ الذى أقرّ بهم جَادَّته، والعدلِ الذى أوضح بهم أعلامَه، حتى يكونوا وَرَثَةَ هذه الأمة وحلفاءَها فى عابر الدهر، وباقيات الأيام؛ مستقلّين بالعدل، موفّقين للسّداد، معصومين من الشُّبَهات، مُستوحِين مع فضائل الدنيا لأفضل كرامات المَعَاد. والسلام.(١)

(١) هذه الرسالة ورسالة أبى الربيع محمد بن الليث السابقة من كتاب اختيار المطوم والمنثور لابن طيفور.

كتب الرشـــيد

١ — كتابُ عَهْـدِ البَيْعَـةِ[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا كتابٌ لعبـد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه محمدُ بن هارون أمير المؤمنين فى صحّةٍ من عقـله ، وجَوَازٍ من أمْره ، طائعًا غير مُكْرَهٍ ، إن أميرَ المؤمنين ولّانى العهدَ من بعـده ، وصيَّر البَيْعـةَ لى فى رِقاب المسـلمين جميعا ، وولّى عبـدَ الله بن هارون أمير المؤمنين العهدَ والخلافةَ ، وجميعَ أمور المسلمين بعدى ، برضًا منّى وتسليم ، طائعًا غير مُكْرَه . وولّاه خُراسانَ وثُغورَها ، وكُوَرَها وحَرْبَها ، وجندَها وخَراجَها ، وطِرازَها وبَريدَها ، وبيوتَ أموالها وصَدَقاتها ، وعُشْرَها وعُشُورها ، وجميعَ أعمالها فى حياته وبعده ، وشَرَطْتُ لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، برضا منى وطِيب نفس ، أنّ لأخى عبد الله بن هارون علىّ الوفاءَ بما عقَدَ له هارونُ أميرُ المؤمنين : من العَهْد والوِلاية والخلافه ، وأمورِ المسلمين جميعا بعدى ، وتسليم ذلك له وما جُعِل له من ولاية خُراسان وأعمالها كلِّها ، وما أقطَعَه أميرُ المؤمنين من قَطِيعة ، أو جعَل له من عُقْـدَهٍ أو ضَيْعَةٍ من ضِيَاعه ، أو ابتاع من الضِّياع والعُقَد ، وما أعطاه فى حياته وصحّتـه من مال ، أو حُلِيٍّ أو جَوْهر ، أو مَتَـاع أو كُسْوة ، أو مَنٍ أو دَوابَّ ، أو قليلٍ أو كثير ، فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، مُوَفَّرًا عليه مسلَّما له . وقد عَرَفتُ ذلك كلّه شيئا شيئا ، فإن حَدَث بأمير المؤمنين حَدَثُ الموت ، وأفْضَت الخـلافة الى محمـد أبى أمير المؤمنين ، فعلى محمـد إنفاذُ ما أمَرَه به هارون أمير المؤمنين ، فى تَوْلِيه عبـد الله بن هارون أمير المؤمنين خُرَاسانَ وثغورَها ، ومن ضُمّ اليـه من أهـل بيت أمير المؤمنين بقَرْمَاسِين[2] ، وأن يَمْضِى عبدُ الله ابن أمير المؤمنين الى خراسان والرَّىّ ، والكُوَر

(١) هذا العهد ورد فى تاريخ اليعقوبى (ج ٢ ص ٥٠٢ طبعة ليدن) وفيه عبارات تخالف ما أثبتناه هنا عن الطبرى .

(٢) قرماسين : موضع بين الزبيدية ومكة .

التى سمّاها أميرُالمؤمنين حيث كان عبد الله آبن أميرالمؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وعيره، من سلطان أمير المؤمنين، وجميع مَن ضَمّ اليه أمير المؤمنين حيث أحبّ من لَدُن الرّىّ الى أقصى عمـل خُراسان، ليس لمحمـد ابن أمير المؤمنين أن يحوّل عـه قائدًا ولا مَقُودًا ولا رجلا واحدًا ممن ضُمّ اليـه من أصحـابه الذين ضمّهم اليـه أميرُ المؤمنين، ولا يحوّلَ عبدَ الله آبن أميرالمؤمنين عن ولايته التى ولّاه إياها هارون أمير المؤمنين : من ثغُور خُراسان وأعمالها كلّها، ما بين عمل الرّىّ مما يلى هَمَذَان الى أقصى خراسان، وثغورها وبلادها، وما هو منسوب اليها ولا شخْصه اليـه، ولا يفرق أحدًا من أصحابه وقوّاده عنه، ولا يُوَلّى عليه أحدًا، ولايبعث عليه ولا على أحد من عمّاله وَوُلاةِ أموره بُنْدَارًا(١) ولا محاسبًا ولا عاملا، ولا يُدْخل عليه فى صغيرٍ من أمره ولا كبير صررًا، ولا يَحُول بينه وبين العمل فى ذلك كلّه برأيه وتدبيره، ولا يَعْرِض لأحد ممن ضَمّ اليه أميرُ المؤمنين من أهل بيته وصَحَابته، وقُصّاته وعُمّاله، وكُتّابه وقوّاده، وحَدَمه ومَوَاليه وجنده، بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم فى أنفسهم، ولا قَرَاباتهم ولا مَوَالِيهم، ولا أحد يَتَنَسّل منهم، ولا فى دمائهم ولا فى أموالهم، ولا فى صِياعهم ودُورِهم، ورِباعهم وأمتعتهم، ورَقِيقهم ودوابّهم، شيئا من ذلك صغيراً ولا كبيرًا؛ ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه، وبترخيص له فى ذلك، وإدهان منه فيـه لأحد من وَلَد آدم، ولا يحكُم فى أمرهم، ولا أحدٌ من قُصّاته ومن عمّاله، وممّن كان بسبب منه، بغير حكم عبد الله آبن أمير المؤمنين ورأيه ورأى قُصّاته، وإن نَزَع اليه أحدٌ ممّن ضَمّ أميرُالمؤمنين الى عبد الله آبن أمير المؤمنين، من أهل بيت أمير المؤمنين وصَحَابته، وقُوّاده وعمّاله وكُتّابه وحَدَمه، ومواليه وجنده، ورفَضَ آسمَـه ومَكْتَبَه ومكانَه مع عبد الله آبن أمير المؤمنين، عاصيا له، أو مخالفا عليه، فعلى محمد آبن أمير المؤمنين رَدُّه الى عبد الله آبن أمير المؤمنين، بصَغَارٍ له وقَمَاءٍ(٢)، حتى يُنَفّذَ فيه رأيَه وأمْرَه، فإن أراد محمد آبن أمير المؤمنين خَلْعَ عبد الله آبن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بَعْده، أو عَزْلَ عبد الله آبن أمير المؤمنين

(١) البدار : الخاطط . (٢) القماء : الذل والخضوع .

عن ولاية خراسان ، وثغورها وأعمالها ، والدى مِن حَدّ عملها مما يَلى همذان ، والكُوَر التى سمّاها أميرُ المؤمنـين فى كتابه هـذا ، أو صَرْف أحدٍ من قوّاده الذين صيّرهم أميرُ المؤمنين اليه ، ممن قَدِم قَرْمَاسِين ، أو أن يَنْتَقِصه قليلا أو كثيرا ، مما جعله أمير المؤمنين له ، بوجه من الوجوه ، أو بحيلةٍ من الحِيَـل ، صَغُرَتْ أو كَبُرَتْ ، فَلعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافةُ بعد أمير المؤمنين ، وهو المُقَدَّم على محمد آبن أمير المؤمنين ، وهو وليُّ الأمر من بعد أمير المؤمنين ، والطّاعةُ من جميع قوّاد أمير المؤمنين هارون ، من أهل خراسان وأهل العَطَاء ، وجميع المسلمين فى جميع الأجناد والأمصار لعبد الله بن أمير المؤمنين والقيامُ معه ، والمُجَاهدةُ لمن خالفَه ، والنّصرُ له والذّبُّ عنه ، ما كانت الحيـاةُ فى أبدانهم ، وليس لأحدٍ منهم جميعا من كانوا أو حيث كانوا أن يخالفه ولا يَعْصيه ، ولا يخرج من طاعته ؛ ولا يطيع محمدَ آبن أمير المؤمنين فى خَلْع عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، وصَرْفِ العهد عنه من بعده إلى غيره ، أو تنقصه شيئا مما جعله له أميرُ المؤمنين هارون ، فى حيـاته وصحّته ؛ وآشـترط فى كتابه الذى كَتَبه عليه فى البيت الحرام ، وفى هـذا الكتاب ، وعبدُ الله آبن أمير المؤمنين المصدِّق فى قوله ، وأنتم فى حِلّ من البَيْعة التى فى أعناقكم لمحمد آبن أمير المؤمنين هارون ، إن نقَصَ شيئا مما جعله له أميرُ المؤمنين هارون ، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقادَ لعبد الله ابن أمير المؤمنين هارون ، ويُسْـلم له الخلافةَ ، وليس لمحمد آبن أمير المؤمنين هارون ، ولا لعبد الله آبن أمير المؤمنين ، أن يَخْلَعا القاسمَ آبن أمير المؤمنين هارون ، ولا يقدِّما عليه أحدًا من أولادهما وقَرَاباتهما ، ولا غيرهم من جميع البريّة ؛ فإذا أفضت الخلافةُ إلى عبد الله آبن أمير المؤمنين ، فالأمرُ إليه فى إمضـاء ما جعلَه أميرُ المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو صَرْف ذلك عنـه إلى مَنْ رَأَى من ولده وإخوته ، وتقديم من أراد أن يقـدِّم قَبْلَه ، وتَصْيير القاسم بن أمير المؤمنين بعـد من يقدّم قبـله ، يحكم فى ذلك بمـا أحبَّ ورَأَى ، فعليكم مَعْشَرَ المسلمين إنفاذُ ما كتَب به أميرُ المؤمنين فى كتابه هذا ، وشَرَط عليهم وأمر به ؛ وعليكم السمعُ والطاعةُ لأمير المؤمنـين فيما ألزمكم وأوجَبْ عليكم لعبد الله بن أمير المؤمنين ؛

وعهـدُ الله وذمّته وذمّة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمم المسلمين ، والعهود والمواثيق التى أخذ اللهُ على الملائكة المُقرّبين والنبيّين والمرسلين ، ووكّدها فى أعناق المؤمنين والمسلمين ، لَتَفُنَّ لعبد الله أمير المؤمنين بمـا سمّى ، ولمحمد وعبد الله والقاسم بَنِى أمير المؤمنين بما سمّى ، وكتَب فى كتابه هذا وآشترط عليكم ، وأقررتم به على أنفسكم ، فإن أنتم بدّلتم من ذلك شيئا ، أو غيّرتم أو نَكَثْتم ، أو خالفتم ما أمركم به أميرُ المؤمنين ، وآشـترط عليكم فى كتابه هذا ، فَبَرِئَتْ منكم ذمّة الله ، وذمّة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وذمم المؤمنين والمسلمين ، وكلُّ مالٍ هو اليوم لكل رجل منكم ، أو يَسْتَفيده إلى خمسين سنة فهو صَدَقَةٌ على المساكين ، وعلى كلّ رجل منكم المَشْىُ الى بيت الله الحرام الذى بمكّة خمسـين حجّة ، نَذْرا واجبا ، لا يقبـل الله منه إلّا الوفاءَ بذلك ، وكلُّ مملوك لأحد منكم ، أو يملكه فيما يُسْتَقْبَل الى خمسين سنة حُرّ ، وكلّ آمرأة له فهى طالق ثلاثا البتّة ، طلاق الحَرَج لا مَثْنَوِيّة فيها ، والله عليكم بذلك كفيلٌ وراعٍ ، وكفى بالله حسيبا .

٢ — نسخةُ الشّرط الذى كتَب عبدُ الله بن أمير المؤمنين بخطّ يده فى الكعبة

هـذا كتابٌ لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتَبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، فى صحّةٍ من عقله ، وجَوازٍ من أمره ، وصِدْق نيّة فيما كتب فى كتابه هـذا ، ومعرفةٍ بما فيه من الفصل والصلاح له ولأهل بيته وحماعة المسلمين .

إنّ أمير المؤمنين هارون ولّانى العهدَ والخلافه ، وجميعَ أمور المسلمين فى سـلطانه ، بعـد أخى محمد بن هارون ، وولّانى فى حياته ثُغورَ خُراسان وكُوَرها وجميعَ أعمالها ، وشَرَط على محمـد بن هارون الوفاءَ بمـا عَقَد لى من الخلافه ، وولايةِ أمور العباد والبلاد بعده ، وولايةِ خراسان وجميع أعمالها ، ولا يَعْرِض لى فى شىء مما أقْطَعنى أميرُ المؤمنين ، وآبتاع لى من الضِّياع والعُقَد والرِّباع ، وآبتعتُ منه من ذلك ، وما أعطانى أميرُ المؤمنين من الأموال ، والجوهر والكِساء ، والمتـاع والدوابّ ، والرقيق وغير ذلك ، ولا يَعْرِض لى ولا لأحدٍ من

عمّالى وكُتّابى بسبب محاسبة، ولا يتّبع لى فى ذلك، ولا لأحدٍ منهم أبدا؛ ولا يُدْخِل علىّ ولا عليهم، ولا على من كان معى، ومن استعستُ به من جميع الناس مكروهًا فى نفس ولا دَمٍ ولا شَعْرٍ ولا بَشَرٍ ولا مال، ولا صغيرٍ من الأمور ولا كبير، فأجابه الى ذلك وأقرّ به، وكتَب له كتابا أكّد فيه على نفســه، ورَصى به أميرُ المؤمنين هارون، وقَبِله وعَرَف صــدقَ نيّته فيه؛ فشَرَطْتُ لأمير المؤمنين، وجعلتُ له على نفسى أن أسمع لمحمد، وأُطيع ولا أعْصِــيه؛ وأنصحه ولا أغشّــه، وأُوفى ببيعته وولايته، ولا أعدر ولا أنكُث، وأُنفِّذ كُتُبَه وأمورَه، وأُحْسِن مُؤازرته وجِهادَ عدوّه فى ناحيتى، ما وفّى لى بمــا شَرَط لأمير المؤمنين فى أمرى، وسَمّى فى الكتاب الذى كتبه لأمير المؤمنين، ورضى به أمير المؤمنين، ولم يتّبعنى بشىء من ذلك، ولم يَنْقُص أمرًا من الأمور التى شرَطها أمير المؤمنين لى عليه، فإن احتاج محمد ابنُ أمير المؤمنين إلى جُنْدٍ، وكتب إلىّ يأمرنى بإنحاصه إليه، أو إلى ناحيةٍ من النّواحى، أو إلى عدوّ من أعدائه حالَفه، أو أراد نَقْص شىء من سلطانه أو ســلطانى الذى أَسْنَده أميرُ المؤمنين إليها، وولّانا إياه، فعلىّ أن أُنفِّذ أمرَه، ولا أحالفه ولا أُقصّر فى شىء كتب به إلىّ؛ وإن أراد محمد أن يولّى رجلا من ولده العهدَ والخلافة من بعدى، فذلك له ما وَفّى لى بما جعله أميرُ المؤمنين إلىّ، واشترطه لى عليه، وشرَط على نفسه فى أمرى، وعلىّ إنفاذُ ذلك والوفاءُ له به لا أنقُص من ذلك ولا أغيّره ولا أبدّله ولا أقدّم قدّامَ أحدًا من ولدى ولا قريبا ولا بعيدا من النــاس أجمعين، إلا أن يولّى أميرُ المؤمنين هارونُ أحدًا من ولده العهدَ من بعدى، فيُلْزِمنى ومحمّدًا الوفاءَ له، وجعلتُ لأمير المؤمنين ومحمــد علىّ الوفاءَ بمــا شرطتُ وسمّيت فى كتابى هــذا، ما وفّى لى محمــد بجميع ما اشترط لى أميرُ المؤمنين عليــه فى نفسى، وما أعطانى أميرُ المؤمنين من جميع الأشياء المُسَمّاة فى هذا الكتاب الذى كتَبه لى؛ وعلىّ عهــدُ الله وميثاقه، وذمّةُ أمير المؤمنــين وذمّتى، وذمم آبائى وذمم المؤمنين؛ وأشَــدُّ ما أحد اللهُ على النبيّين والمرسلين من خَلْقه أجمعين، من عهوده ومواثيقه، والأيمانُ المؤكّدة التى أمر اللهُ بالوفاء بهــا، ونَهى عن نقضها وتبــديلها؛ فإن أنا نَقَضْتُ شيئا ممــا شرطت

وسمّيت فى كتابى هذا، أو غيّرت أو بدّلت أو نكثتُ أو عدرت، فبرئتُ من الله عزّ وجلّ، ومن ولايته ودينه، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقيتُ الله يوم القيامة كافرا مشركا؛ وكلّ امرأة هى لى اليومَ، أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثا البتّة، طلاقَ الحَرَجَ؛ وكلّ مملوك هو لى اليوم، أو أملكه إلى ثلاثين سنة، أحرار لوجه الله؛ وعلىّ المشىُ إلى بيت الله الحرام الذى بمكّة ثلاثين حجّة، نَذْرا واجبا علىّ فى عُنُقى، حافيًا رَاجلا لا يقبَلُ الله منّى إلّا الوفاء بذلك، وكلّ مال لى أو أملكه إلى ثلاثين سنة هَدْىٌ بالغُ الكعبة، وكلّ ما جعَلتُ لأمير المؤمنين، وشَرطتُ فى كتابى هذا لازمٌ لى، لا أُضْمِر غيرَه، ولا أنوى غيرَه. وشَهِد سليمانُ بن أمير المؤمنين، وفلان وفلان. وكُتِبَ فى ذى الحجّة سنة ست وثمانين ومائة.

٣ — نسخة كتاب الرشيد الى العمّال

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فإنّ الله وَلِىُّ أمير المؤمنين وولىّ ماولّاه، والحافظ لما استرعاه، وأكرمَه به من خلافته وسلطانه، والصانع له فيما قدّم وأخّر من أموره، والمنعم عليه بالبصر والتأييد فى مشارق الأرض ومغاربها، والكَالئ والحافظ والكافى من جميع خَلْقه، وهو المحمود على جميع آلائه، المسئول تمامَ حُسْن ما أمضى من قضائه لأمير المؤمنين وعادته الجميلة عنده، والهامَ ما يَرْضى به ويُوجب له عليه أحسنَ المزيد من فضله، وقد كان من نعمة الله عزّ وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عَوام المسلمين ما تولّى اللهُ من محمد وعبد الله ابنَىْ أمير المؤمنين من تليعه بهما أحسنَ ما أمّلت الأمةُ ومدّت اليه أعناقَها، وقذف اللهُ لهما فى قلوب العامّة من المحبّة والمودّة والسكون اليهما والثقه بهما لعماد دينهم وقوام أمورهم وجَمْع ألْفتهم وصلاح دَهْمائهم ودَفْع المحذور والمكروه من الشّتات والفرقة عنهم حتى ألقوا اليهما أزِمّتهم، وأعطوهما بيعتهم، وصفقات أيمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلّظة عليهم؛ أراده اللهُ فلم يكن له مردٌّ، وأمْضاه فلم يقدِر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته، ولا صَرْفٍ له عن محبّته ومشيئته، وما سبق فى علمه منه؛ وأميرُ المؤمنين يرجو تمامَ النّعمة

عليه وعليهما فى ذلك، وعلى الأمة كافّة لاعاقبَ لأمر الله ولارَادَّ لقضائه ولا معقِّبَ لحكمه، ولم يزل أميرُ المؤمنين مذ اجتمعت الأُمَّةُ على عقد العهد لمحمد ابن أمير المؤمنين من بعد أمير المؤمنين، ولعبد الله ابن أمير المؤمنين من بعد محمد ابن أمير المؤمنين يُعْمِل فكرَه ورَأْيَه ونظره ورويَّته، فيما فيه الصلاحُ لهما ولجميع الرعيّة، والجمعُ للكلمة، والَّلم للشَّعَث، والدَّفْعُ للشّتات والفرقة، والحسمُ لكَيْد أعداء النّعم من أهل الكفر والنّفاق، والعِـلّ والشّقاق، والقطع لآمالهم من كلّ فرصة يرجون إدراكَها وانتهازَها منهما بانتقاص حقّهما، ويَسْتَحير اللهَ أميرُ المؤمنين فى ذلك ويسأله العزيمةَ له على مافيه الخيرَة لهما، ولجميع الأمه والقوّة فى أمر الله وحقّـه وائتلاف أهوائهما، وصـلاح ذات بينهما، وتحصينهما من كيد أعداء النّعم، وردّ حَسَدهم ومكرهم وَعَيْبهم وسعيهم بالفساد بينهما، فعزَم اللهُ لأمير المؤمنين على الشُّخُوص بهما الى بيت الله وأحد البيعـه منهما لأمير المؤمنـين بالسّمع والطّاعة والإنقـاد لأمره، واكتتاب الشّرْط على كلّ واحد منهما لأمير المؤمنين ولهما بأشدّ المواثيق والعهود، وأغْلَظ الأيمان والتوكيد، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما التمس به أمير المؤمنين اجتماع ألفتهما ومودّتهما وتواصُلهما ومُؤَازرتهما ومكَاتفتهما على حسن النظر لأنفسهما، ولرعيّـة أمير المؤمنين التى استرعاهما، والجماعة لدين الله عزّ وجل وكتابه وسُنَن نبيّه صلّى الله عليه وسـلم، والجهاد لعدوّ المسلمين مَن كانوا وحيث كانوا وقَطْع طَمَع كلّ عدوّ مُظْهِر للعداوه ومُسِرّ لهـا، وكلّ منافق ومارق، وأهلِ الأهواء الضّالة المضلّة من فُرْقة تَكيد بكَيْد توقعه بينهـما، ودَحْس يُدْحَس به لهما[1]، وما يلتمس أعداءُ الله وأعداء النّعم وأعداءُ ديـنه من الضّرب بين الأمّة والسـعى بالفساد فى الأرض، والدعاء الى البدع والضلالة، نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيّته، وأمّة نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم، ومناصَحَةً لله ولجميع المسلمين، ودَبّاً عن سلطان الله الذى قدّره وتوحّد فيه للذى حمّله إيّاه، والاجتهاد فى كلّ ما فيه قُرْبةٌ الى الله، وما يُنَال به رضوانُه والوسيلة عنده.

---

(١) الدحس: الفساد.

فلما قَدِم مكّةَ أظهر لمحمد وعبد الله رأيَه فى ذلك وما نَظَر فيه لهما، فقَبِلا كلَّ مادعاهما اليه من التوكيد على أنفسهما بقَوله، وكَتَبا لأمير المؤمنين فى نَطْس بيت الله الحرام بخطوط أيديهما بحَضْرة من شَهِد المَوْسِمَ من أهل بيت أمير المؤمنين وقواده، وصَحَابته وقُضَاته، وحَجَبة الكعبة وشهاداتهم عليهما، كتابَيْن آستودعهما أميرُ المؤمنين الحجَبةَ، وأمر بتعليقهما فى داخل الكعبة؛ فلما فرَغ أميرُ المؤمنين من ذلك كلّه فى داخل بيت الله الحرام وبطن الكعبة، أمر قُضَاتَه الذين شهِدوا عليهما وحضَروا كتابهما أن يُعْلِموا جميعَ مَن حضَر الموسم من الحاجّ والعُمّار ووفود الأمصار، ما شهدوا عليه من شَرْطهما وكتابهما وقراءة ذلك عليهم، ليُفَهّموه ويَعُوه ويعرفوه ويحفظوه ويؤدّوه الى إخوانهم وأهلِ بلدانهم وأمْصَارهم، ففعلوا ذلك، وقُرِئ عليهم الشرطان جميعا فى المسجد الحرام، فانصرفوا وقد آشتهر ذلك عندهم، وأثبتوا الشّهادة عليه، وعرَفوا نَظَرَ أمير المؤمنين وعنايتَه بصلاحهم، وحَقْنِ دمائهم ولَمّ شَعْثهم، وإطْفَاء جَمْره أعداء الله وأعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم، وأظهروا الدُّعاء لأمير المؤمنين والشكرَ لما كان منه فى ذلك، وقد نَسَخ لك أميرُ المؤمنين ذَيْنِكَ الشرطيْن اللذين كتبهما لأمير المؤمنين آباه محمد وعبد الله فى بطن الكعبة فى أسفل كتابه هذا؛ فآحمَد الله عزّ وجل على ما صنع لمحمد وعبد الله ولِيِّيْ عهد المسلمين حَمْدا كثيرا، وآشكره ببلائه عند أمير المؤمنين وعند وليّيْ عهد المسلمين وعندك وعند جماعة أمّة محمد صلى الله عليه وسلم كثيرا؛ وآقرأ كتاب أمير المؤمنين على مَن قِبَلك من المسلمين وأفهِمْهم إيّاه، وقُمْ به بينهم وأثبته فى الديوان قِبَلك، وقِبَل قوّاد أمير المؤمنين ورعيّته قِبَلك، وآكتُب الى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك، إن شاء الله. وحسبنا الله ونعم الوكيل، وبه الحَوْلُ والقوّة والطَوْلُ. كَتَبه اسماعيل بن صَبيح يوم السبت لسبع ليال بقين من المحرّم سنة ست وثمانين ومائة.

باب المنظـــوم

صوّرنا لك بالمجلد الأوّل حالة الشعر فى صدر الدولة العباسية وذكرنا لك جملة صالحة من شعراء ذلك العصر ووعدناك بذكر مختارات من شعرهم، وإليك ماوعدناك به .

١ — بَشَّـارُ بن بُرْد العُقَيْلىّ(١)

سأله المهدىُّ لمـا دخل عليه فقال له . فيمن تُعْتَدّ بالشّار؟ فقال : أمّا اللّسان والرِّىّ فَعَرَبِيّان، وأما الأصل فعَجَمِىّ، كما قلتُ فى شعرى يا أمير المؤمنين :

ونَشَأْتُ قـومًا بهـم جِنّـةٌ ... يقولون مَنْ دا وكنتُ العَلَمْ

ألا أيّهـا السـائلى جاهِـدًا ... ليعـرفنى أنا أنْفُ الكَرَم

(١) هو أبو معاذ بشار المرعث بن برد . أشعر مخضرمى الدولتين، ورأس الشـعراء المحدثين، ومهد طريق الاختراع، والبديع للتعسين، وأحد اللغاء المكثرين . وأصله من فرس طخارستان من سبى المهلب بن أبى صفرة، ووقع ملك أبويه لبنى عقيل بن كعب، فنشأ بشار فيهم وترعرع فى ديارهم، واختلف الى الأعراب الصاربين بالبصرة حتى حرج نابغة زمانه فى الفصاحة والشـعر . وكان أكمه محدود الوجه، قبيح المنظر، مفرط الطول، مضخم الجثة، متوقد الذكاء، صادق الحس، لطيف الدراية، شديد المحبوب والاستحفاف بالناس، كثير الاستهتار بالدين، قليل المبالاة للوقوع فيه، متهما بالزندقة شعوبيا، متعصبا على العرب، شديد التهرم بالناس، نهاشا لأعراضهم، لا يسلم من لسانه حليفة ولا سوقة، وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألا يعرف بشارا ولا بشار يعرفه، فانه إن لم يصبه فى عرضه أصابه فى ماله . وقال بشار الشعر ولم يبلغ عشر سنين، وما بلغ الحلم إلا وهو محشىّ معزّة لسانه .

وقد أجمع رواة الشعر وعقدته على أن بشارا هو رأس المحدثين وأسقفهم الى معاطاة البديع، وطرق أبواب المجون والخلاعة والغزل الرقيق الحضرى والهجاء المقذع .

وأنه أوّل من جمع فى شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين، وعمق فى المعانى الدقيقة، والأحيلة اللطيفة، حتى عدّ شعره رزخا بين الشعر القديم والحديث، ومحارا يعسر عليه الشعر من مرابع البداوة الى مقاصير الحضارة .

وقد طرق كل باب من أبواب الشعر التى عرفت قبله وأربى عليها، وغلب عليه الهجاء والتشبيب بالنساء والخروج به عن الحدّ المألوف عند أهل زمنه، حتى أنكره عليه العلماء والمتورعون لما رأوا من سوء أثره فى شباب البصرة .

وقـد جاء المهدى عن التشبيب، فكان اذا مالت له نفسه يذكر منه ما يشاء، ويقول : إن الخليفة منعه من كذا وكذا وأنه له مطيع .

وضمن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليفة، فلم يرد على أن حرمه الجائزة، وشحنه على ذلك وزيره يعقوب بن داود، وكان متورعا، فهجاهما، فكان ذلك الى زندقته سبب قتله . توفى سنة ١٦٧ هـ وقد نيف على التسعين . وتحد ترجمته فى الأغانى (ج ٣ ص ١٩ و ج ٦ ص ٧) وابن خلكان (ج ١ ص ٨٨) والشعر والشعراء (ص ٤٧٦) والفهرست (ص ١٥٩) .

نمتْ فى الكرام بنى عَامرٍ * فروعى وأصْلِى قريشُ العَجَم
فإنى لأُغنى مقـام الفـتى * وأُصْبى الفتاةَ فما تَعْتَصِم

وكان أبو دُلَامة حاضرًا ، فقال : كلّا ! لَوَجْهُـكَ أقبح من ذلك ، وجهى مع وجهـك ، فقال بشّار : كلّا ! والله ما رأيتُ رجلا أصدقَ على نفسـه وأكذبَ على جليسه منك ، والله إنى لطويلُ القامة ، عظيمُ الهامة ، تامُّ الألواح ، أُضحِكُ الخدّيْن ، ولربّ مُسْتَرْخى المزورين للعيْن فيه مُرَاد . ثم قال له المهـدىّ : من أىّ العجم أصـلك ؟ فقال : من أكثرها فى الفُرسان وأشدّها على الأقران ، أهل طَخَارِسْتان ؛ فقال بعضُ القوم : أولئـك الصُّغْد ، فقال : لا ! الصّعد نجّار ؛ فلم يَرُدُّ ذلك المهدىّ .

وكان بشار كثيرَ التلوّن فى وَلَائه ، شـديدَ التشيُّع والتعصّب للعجم ، مرّةً يقول يفتخر بولائه فى قَيْس :

أمِسْتُ مَصَـرَّةَ الفُحَشَاء إنى * أرى قَيْسا تُشَبّ[1] ولا تُضَـارُ
كأن الناس حين تغيبُ عنهم * نباتُ الأرض أخْطَأه القِطَار
وقد كانت بتَدْمُرَ خَيْلُ قيس * فكان لتَـدْمُرٍ فيها دَمَار
بحىٍّ من بَنِى عَيْـلان شُوسٍ * يسير الموتُ حيث يقال ساروا
وما نلقـاهم إلا صَـدَرنا * بِرِىٍّ منهـمُ وهم حِـرَار

ومرة يتبرأ من ولاء العرب فيقول :

أصبحتُ مولى ذى الجَلالِ وعبدُهم * مولَى العُرَيْب بفَخْرِ بفضلك فانْفَخِرِ
مولاك أكرمُ من تَمِيم كلّها * أهلِ الفعال ومن قُرَيْش المَشْـعَر
فارجع الى مولاك غـير مُدَافَع * سبحان مولاك الأجلِّ الأكبر

وقال يفتخر بولاء بنى عُقَيْل :

إنّى من بنى عقيل بن كَعْبٍ * موضِعُ السيف من طُلَى الأعناق

(١) تشب . ترداد وترتمع .

وَوُلد بشار أعمى، فما نظر إلى الدنيا قط، وكان يشبّه الأشياءَ بعضها ببعض فى شعره، فيأتى بما لا يقدِر البُصَراء أن يأتوا بمثله، فقيل له يوما وقد أنشَد قوله :

كأن مُثارَ النَّقْع فوق رءوسنا * وأسيافَنا ليلٌ تَهاوَى كواكبُه

ما قال أحد أحسنَ من هذا التشبيه، فمن أين لك هـذا ولم تَرَ الدنيا قطّ ولا شيئا فيها ؟ فقال : إن عدم النظر يقوّى ذكاء القلب ويقطع عنه الشغلَ بما ينظر اليه من الأشياء، فيتوفّر حسُّه وتذكو قريحتُه؛ ثم أنشدهم قوله :

عَمِيتُ حيا والذكاءُ من العمى * فجئتُ عجيبَ الظنّ للعلم مَوْئِلا
وعَاضَ ضِياءُ العين للعلم رافدا * بقلبٍ اذا ما ضَيّع الناسُ حَصّلا
وشعرٍ كنَوْر الروض لاءَمْتُ بينه * بقول اذا ما أحْزَن الشعرُ أسْهَلا

وكان من أشـد الناس تبرّمًا بالناس . وكان يقول : الحمـد لله الذى ذهب ببصرى. فقيل له : ولم يا أبا مُعَاذ؟ قال : لئلا أرى ما أُبْغِض .

قال الأصمعى : بشّارُ خاتمة الشعراء، والله لولا أن أيامه تأخرتْ لفضّلتُه على كثير منهم.

وقيل لأبى عُبَيْدة : أمَرْوَان أشعر أم بشّار ؟ فقال : حَكَم بشّارٌ لنفسه بالاسْتِظْهار، إنه قال ثلاثةَ عشرَ ألف بيْت جيّـد، ولا يكون عددُ الجيّـد من شعر شعراء الجاهليـة والإسلام هذا العدد، وما أحسبهم بَرَزُوا فى مثلها، ومروان أمدحُ للملوك .

وسئل الأصمعىُّ عن بشار ومروان أيهما أشْعَر؟ فقال : بشّار؛ فسُئل عن السبب لذلك؛ فقال : لأن مروان سلَك طريقًا كَثُر من يسلُكه، فلم يَلْحَق بمن تقدّمه وشرَكه فيه من كان فى عصره، وبشّار سلَك طريقا لم يُسْـلَك وأحسنَ فيه وتفرّد به، وهو أكثر تصرّفًا وفنون شعرٍ، وأغزرُ وأوسع بَدِيعًا، ومروان لم يتجاوز مَذْهبَ الأوائل .

وقيل لبشّارٍ : ليس لأحد من شعراء العرب شعرٌ إلا وقد قال فيه شيئا استنكرتْه العرب من ألفاظهم وشُكّ فيه، وإنه ليس فى شعرك ما يُشَكّ فيه؛ قال : ومن أين يأتينى الخطأ ؟ ووُلِدتُ هَا هُنا، ونشأتُ فى حُجُور ثمانين شيخا من فُصَحاء بنى عُقَيل ما فيهم أحد يعرف كلمةً

من الخطأ، وان دخلتُ الى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم، وأبْقَعْتُ فأبْدِيتُ(١) الى أن أدركتُ، فمن أين يأتينى الخطأ ؟ .

كان جَرير من المُندِر السَّدُوسِىّ يفاخر بشّارا، فقال فيه بشار :

أمثـــل بى مُضَر وائلٌ * فقَـدْتُك من فاخر ما أحَنْ
أو اليوم هـذا أبا منـذرٍ * لخيرًا رأيتَ وخيرا يُكَنْ
رأيتُـك والفحرَ فى مثلها * كعاجِبة عير ما تَطْحن

كان بشار يهوَى امرأةً من أهل البصرة، فراسَلها يسألهـا زيارتَه، ووعَدته بذلك ثم أخلَفته، وجعل ينتظرها ليلته حتى أصبح، فلما لم تأته أرسل اليها ليعاتبها فاعتذرت بمرض أصابها، فكتب اليها بهذه الأبيات :

يا ليـــلتى تردادُ ذُكْرا * من حُبّ من أحببتُ بِكْرا
حوراء ان نظرتْ اليـ * ـك سَـقَتْك بالعينين خَمْرا
وكأن رَجْعَ حـــديثها * قِطَعُ الرياض كُسِينَ زهْرَا
وكأن تحت لسـانها * هاروتَ ينفُث فيـه سِحْرا
وتحـالُ ما جُمِعَتْ عليـ * ـه ثيـابُها ذَهَبـا وعِطْرا
وكأنّهـــا بَـــرْدُ الشَّرا * ب صَفَا وصادَفَ مسك قِطْرا
جِنِّيَّـــةٌ إنْســـيَّةٌ * أو بين ذاك أحلّ أمْرا
وكمالك أنى لم أُحِطْ * بشَكاة من أحببتُ خُبْرا
إلا مقـــالةَ زائـــرٍ * نَثَرتْ لى الأحزانَ نَثْرا
متخشِّـــعا تحت الهـوى * عَشْرا وتحت الموت عَشْرا

وكان إسحاق الموصلىّ لا يعتدّ بشار ويقول : هو كثير التخليط فى نثره، وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضا، أليس هو القائل :

(١) أمديت أى أنزحت الى البادية .

إنما عَظْمُ سُلَيْمى حُبِّبَتْ * قَصَبُ السُّكَّرِ لا عَظْمُ الجَمَل
وإذا أدنيْتَ منها نَصْلَا * غلَبَ المِسْكُ على ريح البصل

لو قال : كلّ شيء حيّد ثم أُضيف إليه هذا لزَيَّفه . وكان يُقَدَّم عليه مروانَ ويقول : هو أشدُّ آستواءَ شعرمه ، وكلامُه ومدهُه أشبه بكلام العرب ومداهبها ، وكان لا يعدّ أبانُواس البَتَّةَ ولا يرى فيه حيرا .

قال الجاحظُ . كان بشّار خطيبا صاحب منثور ومزدوج وسَجْع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والآختراع ، المتفنّنين فى الشعر ، القائلين فى أكثر أجناسه وضُروبه . وقال الشعرَ فى حياة حرير وتعرّض له ، وحكى أنه قال : هجوتُ حريرًا فأعرض عنّى ، ولو هاجانى لكنتُ أشعر الناس ، وكان يَدين بالرَّجْعة ، ويكفّر جميعَ الأئمة ، ويصوّب رأىَ إبليس فى تقديم النار على الطين ، وذكر مثلَ ذلك فى شعره فقال :

الأرضُ مُظلمةٌ والنارُ مُشْرِقةٌ * والنارُ معبودةٌ مُذْ كانت النارُ

وقال بعضُ الرُّواة لأبى عمرو : مَنْ أبدع الناس بيتا؟ قال الذى يقول :

لم يَطُلْ لَيْلى ولكن لم أنَمْ * وهَوَى عَنّى الكرى طيفٌ ألَمّ
وإذا قلتُ لها جُودى لنا * خرجتْ بالصَّمْت عن لا ونَعَم
رَوِّحى يا عَبْدَ عنّى وآعلمى * أننى يا عبدُ من لحم ودَم
إن فى بُرْدَىّ جسما ناحلا * لو توكأت عليه لآنْهَدَم

وهذه الأبياتُ لبشار .

قال : فمن أمدح الناس؟ قال الذى يقول :

لَمَسْتُ بكفّى كفّه أبتغى العِنَى * ولم أدرِ أن الجُودَ من كفّه يُعْدِى
فلا أنا منه ما أفاد عَدُوُّه الغِنى * أفدتُ وأعدانى فأتلفتُ ما عندى

وهذه الأبيات لبشار .

ودخل بشّارٌ على إبراهيم بن عبد الله بن حسن، فأنشده قصيدةً يهجو فيها المنصورَ ويُشير عليه برأى يستعمله فى أمره، فلما قُتِل إبراهيم خاف بشار، فقلّب الكُنْية وأظهر أنه كان قالها فى أبى مُسْلم، وحذف منها أبياتا، وأوّلُها :

أبا جَعْفرٍ ما طولُ عيْشٍ بدائمٍ * ولا سالمٌ عمّا قليلٍ بسالمِ

قلّب هذا البيت فقال : أبا مسلم :

على الملك الجبّار يَقْتَحِم الردى * ويَصْرَعه فى المَأزِق المُتلاحِمِ
كأنك لم تسمعْ بقتل مُتَوَّج * عظيمٍ ولم تسمع بفَتْك الأعاجم
تَقَسّم كسرى رهطَه بسيوفهم * وأمسى أبو العباس أحلامَ نائم

يعنى الوليد بن يزيد

وقد كان لا يَخشى انقلابَ مكيدةٍ * عليه ولا جَرْىَ النُّحوس الأشائم
مُقيمًا على اللّذات حتى بدت له * وجُوهُ المنايا حاسِراتِ العَمائم
وقد تَرِدُ الأيامُ غُرًّا وربما * وَرَدْنَ كُلُوحًا باديات الشّكائم
ومَرْوانُ قد دارت على رأسه الرَّحا * وكان لِمَا أجْرَمْتَ نَزْرَ الجرائم
فأصبحتَ مجرى سَادِرا فى طريقهم * ولا تَتَّقى أشْباه تلك القَمائم
تحرَّدتَ للإسلام تعفو سبيلَه * وتُعْرِى مَطَاه (١) لِليوث الصّراعم
فما زِلتَ حتى استنصر الدِّينُ أهلَه * عليك فعادُوا بالسيوف الصّوارم
قَرُمْ وَزَرًا يُنْجِيك يا بنَ سَلَامه * فلستَ بِنَاجٍ من مَصِيمٍ وصائم

جعل موضع "يابن سلامة" "يابن وشيكة" وهى أمّ أبى مسلم

لَعَمْرُ اللهِ قوما رَأْسُوك عليهمُ * وما زلتَ مرءوسا حيثَ المَطَاعِم
أقول لِبَسّامٍ عليه جلالةٌ * عدا أرْيَحِيًّا عاشقا للمكارم
من الفاطِمِيّين الدُّعاة الى الهدى * جِهارا ومن يَهديك مثلُ ابنُ فَاطِم

(١) مطاه . ظهره .

هذا البيتُ حذفه بشّار من الأبيات :

سِراجُ لعيْنِ المُسْتَصِيء وتارَةً * يكون طلاما للعـدوّ المُزَاحم
اذا بلغ الرأيُ المشورةَ فٱسْتَعِن * برأى نَصِيـح أو نصيحةِ حازم
ولا تحملِ الشُّورى عليك عَضَاضةً (١) * فإن الحَـواشى (٢) قوّةٌ للقوادم
وما حيرُ كفٍّ أمسك العُلّ (٣) أختَها * وما حيرُ سـيفٍ لم يُؤَيَّد بقـائم
وحَلِّ الهُوَيْنا للصعيف ولا تكن * وُؤوما فإن الحـزم ليس بنائم
وحارِبْ اذا لم تُعْطَ إلا ظُـلامة * شَنًا (٤) الحربِ حيرٌ من قَبُول المظالم
وأدْنِ على القُرْبى المقرِّبَ نفسَه * ولا تُشْهِد الشّورى ٱمرأً غيرَ كاتم
فإنك لا تَسْتطرِدُ الهمَّ بالمُـنى * ولا تـلُعُ العَليـا بغير المـكارم
اذا كنتَ فَرْدا هزّك القومُ مُقْبلا * وإن كنتَ أدْنى لم تَفُزْ بالعـزائم
وما قَـرَع الأقـوامَ مثلُ مُشَيَّع (٥) * أريبٍ ولا جَلّى العَمَى مثـلُ عالم

قال أبو عبيده : مميَّةُ بشّار هذه أحبّ إلى من ميتيَّ جرير والفرزدق . وقال الأصمعى لبشار : يا أبا معاذ، إن الناس يُعْجَبون من أبياتك فى المشورة، فقال له : يا أبا سَعيد، إن المُشَاوِر بين صواب يغور بفكرته ، أو خطأ يُشَارك فى مكروهه ، فقال له : أتَ فى قولك هذا أشعر منك فى شـعرك .

نُوُقِّ ٱبنُ لبشّار فجزع عليه ، فقيل له : أجزعْتَ قَدْمتَه ، وفَرَطٌ ٱفترطَته ، ودُخْر أحرزته ؛ فقال : ولَدٌ دَمَثْتُه ، ونُكَلٌ تعمّلتُه ، وعيبٌ وُعِدْتُه فٱنتظرته ، والله لئن لم أجزع للنَّقْص لا أفرح للزيادة . وقال يرثيه :

---

(١) العضاضة : المقصة . (٢) الحواشى . الريشات الصغيرات التى فى جناح الطائر اذا مسها جسيت ، واحدتها حاشية صدّ القوادم . (٣) العلّ بالضم الحديدة التى تجمع بين يد الأسير وعنقه وتسمى الغُلّ . (٤) الشنا بالفتح جمع شاة وهى من كل شىء حده . (٥) المشيع . الشجاع .

أحارَتَنا لا تجزعى وأنيبى * أتانى من الموت المُطلَّ نَصيبى
بُنَىَّ على رغمى وتحطى رُزِئتُه * وبُدِّل أحجارا وجَالَ(١) قَليب
وكان كَرَيْحانِ العروس تحالُه * دوى بعد إشراقٍ يَسُرّ وطِيب
أُصِبْتُ به فى حين أوْرَق عصهُ * وألقى علىّ الهمّ كلّ قريب
عجِبتُ لإسراع المنيّة نحوه * وما كان لو مُلِّيتُه بعجيب

قيل لبشّار : إنك لتجىء بالشىء الهجين المتفاوت، قال : وما داك؟ قيل : بينا تقول شعرا يُثير النقع وتُحْلَم به القلوب مثل قولك .

إذا ما غَضِبْنا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً * هَتَكْنا حِجابَ الشمس أو تُمْطِرَ الدَّمَا
اذا ما أعَرْنا سيّدا من قبيلة * ذُرَى منبر صلّى علينا وسلّما

تقول :

ربَابَةُ ربّةُ البَيْت * تَصُبّ الخَلّ فى الزيْت
لها عَشْر دَجَاجاتٍ * وَدِيكٌ حَسَنُ الصّوت

فقال : لكلٍّ وجْهٌ، فالقول الأوّل جدّ، وهذا قلتُه فى ربابةَ جاريتى، وأنا لا آكل البيْض من السوق، وربابة لها عشر دجاجات وديك، فهى تجمع لى البيض، فهذا عندها أحسن من «قِفَانَبْكِ» عندك . وسألَتْه جاريةٌ مغنية لبعض ولَد سليمان بن على ، وكانت محسنة بارعة الظَّرْف، أن يذكرها فى قصيدة ولا يذكر فيها اسْمها ولا اسمَ سيدها ويكتب بها اليها، فانصرف وكتب اليها :

وداتِ دَلٍّ كأن البدر صورتُها * باتت تغنّى عَميدَ القلبِ سَكْرانا
« إن العيونَ التى فى طَرْفها حَوَرٌ * قَتَلْنَنا ثم لم يُحْيِينَ قَتْلانا »
فقلتُ أحسنتِ ياسُؤلى ويا أملى * فاسْمعِينى جَزاكِ الله إحسانا
« ياحَبّذا جَبَلُ الرَّيّان من جبل * وحبّذا ساكِنُ الزيان مَنْ كانا »
قالت مهلًا قَدَتْك النفس أحسَنُ من * هذا لمن كان صَبّ القلب حَيْرانا

(١) الحال . حافة القبر ونواحيه .

« يا قوم أُذْنِى لبعض الحىِّ عاشقةٌ * والأذنُ تعشَقُ قبل العين أحيانا »
فقلتُ أحسنتِ أنت الشمسُ طالعةً * أضْرَمْتِ فى القلب والأحشاء نيرانا
فأسمعيـــنِى صوْتًا مُطْرِبا هَزَجًا * يَزِيـد صَـبًّا محبًّا فيـك أشجانا
يا ليتنى كنتُ تُفّـاحًا مفلّحَةً أوكنتُ من قُصُبِ الريحان ريحانا
حتى إذا وحَـدَتْ رِيحى فأعجبها * وبحن فى حَلْوَةٍ مثلّثُ إسـاما
فـزكَتْ عُودَها ثم أنشتْ طَرَبًا * تَشْـدُو به ثم لا تُخفيـه كِتْمانا
« أصبحتُ أطوعَ خَلْقِ اللهِ كلِّهم * لأكثر الخَلْق فى الحبِّ عِصْيانا »
فقلتُ أطْرَبْتَنا يارَيْـ محلسا * فهاتِ إنّك بالإحسان أوْلانا
لو كنتُ أعلم أنّ الحب يقتُلُنى * أعددتُ لى قبل أن ألقاك أكفانا
فغنّت الشّرْبَ صوتًا موزنًا رَمَلا * يُذْكى السرور ويُبْكى العين ألوانا
« لا يقتـــل اللهُ من دامتْ مودتُه * واللهُ يقتـل أهـلَ الغـدر أحيانا »

كان الزُّوّارُ يُسَمَّوْن فى قديم الدهر الى أيام خالد بن بَرْمك السُّؤّالَ، فقال خالد : هذا والله اسم أستثقله لطلّاب الخير، وأرفعُ قَدْرَ الكرم عن أن يُسَمَّى به أمثالُ هؤلاء المؤمين، لأن فيهم الأشرافَ والأحرار وأبناء النعيم ، ومن لعلّه خيرٌ ممّن يقصِد وأفضل أداً، ولكنّا نسمّيهم الزوّار ، فقال بشّار يمدحه بذلك :

حَدَا خالد فى فعله حَدْوَ برمك * فَمَجْدٌ له مُسْـتَطْرَفٌ وأصِيلُ
وكان دَوُو الآمالِ يُدْعَوْن قبله * بلفظٍ على الإعدام فيه دليـل
يسمَّوْن بالسؤّال فى كل موطنٍ * وإن كان فيهـم بابِهٌ وجليـل
فسمّاهمُ الزوّارَ سَـنْرا عليهـمُ * فأستارُه فى المهتدين سُدُول

وقال بشّار هـذا الشعرَ فى مجلس خالد فى الساعه التى تكلّم خالد بهـذا فى أمر الزوّار ، فأعطاه لكل بيت ألف درهم .

دخل بشّار على عُقْبَة بن سَلْم فأنشده بعض مدائحه فيه، وعنده عُقْبَة بن رُؤْبَة يسشده رَجَزا يمدحُه به ، فسمعه بشار وجعل يستحسن ما قاله الى أن فرَغ ، ثم أقبل على بشّار فقال: هذا طِراز لا تُحْسِنه أنت يا أبا مُعاذ، فقال بشار : أَلِي يقال هذا! أما والله أرجَزُ منك ومن أبيك وجدّك، فقال له : عقبةُ أما وأبى فتحا للناس باب العربب و باب الزّجَر، وإنى لخليقٌ أن أسُدّه عليهم؛ فقال بشّار : أرحمهم رحِمَك الله، ولمّا كان من عَدِ عدا على عقبة أبى سلم وعنده عقبة بن رؤبة، فأنشده أُرْجُوزته التى مدحه فيها :

يا طَلَلَ الحىِّ بدات الصمْدِ * بالله حَبِّرْ كيف كنتَ بعدى
أَوحشْت من دَعْدٍ وتِرْب دعد * سَقْيًا لأسماء ابنة الأشَدّ
قامت تَرَاءَى إذ رأتنى وحدى * كالشمس تحت الرِّبْرِج(١) المقَدّ
صدَّتْ بخَدٍّ وحَلَتْ عن حَدّ * ثم انثنتْ كالنَّفس المُرْتَدّ
عَهْدِى بها سَقْيًا له من عَهْد * تُخْلِف وعدا وتَفى بوعد
فحن من جَهْد الهوى فى جهد * وزاهر من سَبِط وحَعْد
أهْدَى له الدهرُ ولم يَسْتَهِد * أفواقَ نَوْر الحِبَر المُجَدّ
يلقى الضحى ريحانه بسَحْد * بُذِّلتُ من ذاك بُكًى لا يُحدى
وافق حظًّا من سَعَى بجِدّ * ما ضرّ أهلَ الوُك ضَعْفُ الجَدّ
الخُرّ يُلْحَى والعصا للعبد * وليس للُلحف مثلُ الردّ
والنَّصْفُ يكفيك من التعدّى * وصاحبٍ كالدُّمَّلِ المُمِدّ
حملتُه فى رقعة من جِلْدى * أرقُّ مسه مثلَ يوم الوِرْد
حتى مصى عيرَ فقيد الفَقْد * وما دَرَى ما رعتى من زُهد
إسْلم وحيّيت أبا المُلَدّ * مفتاح باب الحدث المُنْسَدّ
مُشْترَك النَّيْل وَرِىّ الزَّنْد * أعرّ لبّاسَ ثياب الحمد

---

(١) الربرج : الربية من وشى أوجوهر .

ما كان منّى لك عـيرُ الـودّ * ثم شـاءٌ مثـلُ ريح الوَرْد
نَسـجْتُه فى مُحْكَمات الـلّـد * فالبَس طِرازى غير مُسْـتَرَدّ
لله أيامـك فى مَعَـدّ * وفى بَنِى قَحْطان عـير عَدّ
يومًا بدى طِحْفَة(١) عند الحـدّ * ومثله أودَعْتَ أرض الهـد
بالمُرهَفات والحـديد السَّرْد * والمُقْرَبات(٢) المعِدات الجُرْد
اذا الحيا أكْدى بها لا تُكدِى * تَلْحُم أمرًا وأمورا تُسْـدِى
وآس حكيم إن أتاك يَرْدِى * أصمّ لا يسـمع صوتَ الرّعد
حَيّتْـه تحفـه المُعِـدّ * فانْهَدّ مثـل الحـل المنهَدّ
كلّ امرئ رَهْنٌ بما يؤدّى * وربّ دى تاج كريم الجَـدّ
كآل كسرى وكآل بُرْد * أنكَب حافٍ عن سبيل القصد
* فَصَلْتَه عن ماله والوُلْد *

فطرِب عقبةُ بن سلم وأجزَل صِلَته، وقام عقبةُ بن رؤبة فخرج عن المجلس يجرِي وهرب من تحت ليلته فلم يُعُد اليه .

قال الحاحظ : فانظر الى سُوء أدب عقبة بن رؤبة وقد أجَل بشّارٌ مَحْضَره وعشرته، فقابَله بهذه المقابلة القبيحة، وكان أبوه أعلمَ خلق الله به، لأنه قال له وقد فاخره بشعره : أنت يا بنَ دهماء الشعر، اذا متَّ مات شعرُك معك، فلم يُوجد من يَرْويه بعدك ، فكان كما قال له، ما يُعرف له بيتٌ واحد ولا خبرٌ غير هذا الخبر القبيح الإخبار عنه، الدالّ على سُخْفه وسقوطه وسوء أدبه .

وقال بشّار فى هَوًى له كانت بالبصرة، ثم خرجتْ مع زوجها الى عُمَان :

هوى صاحِبى ريحَ الشَّمال اذا جَرَتْ * وأشْـفَى لقلبى أن تَهُبّ جَنُـوب
وما داك إلا أنها حين تنتهى * تَنَاهَى وفيها من عُبَيْـدة طِيب

(١) طحفة موضع بعد الساح و بعد إمرة فى طريق البصرة الى مكة ، ومنه يوم طحفة لبنى يربوع على قاموس ابن المدبر بن ماء السماء . (٢) المقربات الخيل التى يقرب مربطها ومعلفها لكرامتها .

عَذيرى من العُـذّال إذ يَعْـذُلُونى * سَـقَاهُا وما فى العاذلين لبيب
يقولون لو عَزّيت قلبَـك لأرعوى * فقلتُ وهـل للعاشقين قلوب
اذا نطَـق القـومُ الحلوسُ فإننى * مُكِبٌّ كأنى فى الجميـع عريب

جاء أبو الشَّمَقْمَق الى بشّار يشكو اليه الضيقَة ويحلف له أنه ما عنده شىء ، فقال له بشّار : والله ما عندى ما يضيك ، ولكن قُمْ معى الى عُقْبَة بن سَـلْم ، فقام معه ، فذكر له أنا الشمقمق وقال : هو شاعر وله شكرٌ وثناء ، فأمر له بخمسمائة درهم ، فقال له بشّار :

ياواحدَ العـربِ الذى * أمسى وليس له نَظِـير
لو كان مثلُك آخَرًا * ما كان فى الدنيا فقـير

فأمر لبشّـار بألفى درهم ، فقال أبو الشمقمق : نَفَعْتنا ونفعناك يا أبا معاذ ، فجعـل بشّار يضحك .

دخل يزيدُ بن منصور الحِمْيَرِىّ على المهدىّ وبشّار بين يديه يُنشِـده قصيدةً امتدحه بها ، فلما فرَغ منها أقبل عليه يزيدُ ، وكانت فيه عَجَلةٌ ، فقال : ياشيخ ، ماصِنَاعَتُك ؟ فقال . أثقُبُ اللؤلؤَ ، فضحك المهدىّ ، ثم قال لبشّار : أُعْرُبْ ويلك ! أتتَـادَر على خالى ؟ فقال له : وما أصنع به ؟ يرى شيخا أعمى يُنشِد الخليفةَ شعراً ويسأله عن صناعته .

وقف على بشّار بعض المُجّان ، وهو ينشد شعرا ، فقال له : أسْتُرُ شعرَك هـذا كما تستر عَوْرَتك ، فصفّق بشار بيديه وغضب ثم قال له : ومن أنت ؟ ويلك ! قال : أنا — أعزّك الله — رجل من بَاهِـلَة ، وأخوالى سَـلُول ، وأصْهارى عُكْل ، واسمى كَلْب ، ومولدى بأُصَاخ (١) ، ومنزلى بظفر بلال ، فضحك بشّار ، ثم قال : اذهب ويلك ! فأنت عتيقُ لؤمك ، قد علم الله أنك استترتَ منّى بحصون من حديد .

مرّ بشّار برجل قد رَمَحَته بغلةٌ وهو يقول : الحمد لله شكرا ، فقال له : بشّار استَزِدْه يَزِدْك . ومرّ به قومٌ يحملون جنازة وهم يُسرِعون المشى بها ، فقال : مالهم مسرعين ؟ أتراهم سرَقوه فهم يخافون أن يُلْحَقوا فيؤخذ منهم .

(١) من قرى اليمامة لبنى تميم .

رفع علامُ بشّار إليه فى حساب نَفَقته جِلاءَ مِرْآةٍ عشرةَ دراهم، فصاح به بشار وقال: والله ما فى الدنيا أعجب من جِلاء مرآة أعمى بعشرة دراهم، والله لو صَدِئَتْ عينُ الشمس حتى يبقى العالَمُ فى ظُلْمة ما بلغتْ أجرةُ من يجلوها عشره دراهم .

قال قُدَامةُ بن نُوح : كان بشّارٌ يحشو شعرَه إذا أعْوَزته القافيـةُ والمعنى بالأشـياء التى لا حقيقةَ لها، فمن ذلك أنه أنْشَد يوما شعرًا له فقال فيه : « عنّى للغريض يا بن قماں » فقيل له : من آبن قماں هذا ؟ لسنا نعرفه من مُغَنّى البصرة، قال : وما عليكم منه؟ ألَكُمْ قِبَلَه دَيْن فتطالبوه به، أو ثأرٌ تريدون أن تُدركوه، أو كَفَلْتُ لكم به، فاذا غاب طالبتمونى بإحضاره، قالوا : ليس بيدنا و بينه شىء من هذا، و إنما أردنا أن نعرفه، فقال : هو رجل يعنّى لى ولا يخرج من بيتى، فقالوا له : إلى متى؟ فقال : منذ يوم وُلِد و إلى أن يموت . وذكر أيضـا فى هذه القصيدة « البردان» فقيل له : يا أبا معاذ، أين البردان هـذا ؟ لسنا نعرفه بالبصرة، فقال : هو بيْت فى بيتى سمّيته بالبردان، أفعليكم من تَسْمِيتى دارى و بيوتَها شىء فتسألونى عنه ؟ .

قالت آمرأةٌ لبشّار : أىّ رجل أنت لو كنتَ أسود اللّحية والرأس، قال : أما علِمْتِ أن بياض الرُّمّاة أشهر من سوادِ الغِربان ؟ فقالت له : أما قولُك فحسن فى السمع، ومن لك بأن يَحسُن شَيْنك فى العين كما حسن قولُك فى السمع؟ فكان بشّار يقول : ما أفحَمَنى قطّ غير هذه المـــرأة .

دعاه رجل إلى منزله فأكل وشرب، ولما أراد الآنصرافَ قامت جاريةٌ للرجل وأخذت بيده، فلما صار بالصَّحْن أومأ اليها لِيُقبِّلَها، فأرسَلتْ يدَها من يده، فجعل يحول فى العَرْصة وحرج مَوْلى الجارية فقال : مالك يا أبا معاذ؟ فقال: أذنبتُ ذَنْبًا ولا أبرح أو أقول شعرا، فقـال :

أتُوبُ اليك من السَّيئات * وأستغفرُ الله من فَعْلَتى
تناولتُ ما لم أُرِدْ نَيْـلَه * على جهل أمرى وسَكْرتى

ووالله والله ما حنثـــه * لِعَـمْدٍ ولا كان من هِمّتى
وإلا فَمِتُّ إذًا ضائعـا * وعَـــذّبنى اللهُ فى مَيْتَتى
فمن نال خَـيْرًا على قُبْـلةٍ * فـــلا بارك اللهُ فى قُبلتى

لما كثُر استهتارُ نساء البصرة وشبَّانها بشعر بشار، وقال سَوّار بن عبد الله ومالكُ بن دينار: ما شىء أدعى لأهل هذه المدينه الى الفِسْق من أشعار هذا الأعمى، وما زالا يَعِظانه وكان واصِلُ بن عَطاء يقول: إن من أخْدَع حبائل الشيطان وأعواها لَكَلِمَاتِ هذا الأعمى المُلْحِد، فلما كثر ذلك وانتهى خبرُه إلى المهدىّ نَهاه عن ذِكْر النساء وقول التشبيب، وكان المهدىّ من أشد الناس عَيْبه، فقال فى ذلك:

يا مَنْظَـرًا حَسَـنا رأيتُـه * فى وجه جارية فَدَيْتُـــه
عَنَّـتْ إلىّ تَسُـــومُنِى * ثَوْبَ الشباب وقد طويتُه
والله رَبِّ محمـــــدٍ * ما إن غَدَرتُ ولا نَويْتُـه
أمْسَكتُ عنـــك ورب بما * عَرَض البَلاءُ وما ابتغيتُه
إن الخليفة قـــد أبَى * واذا أبى شيئًـا أبيْتُـــه
ومُخَصَّبٍ رَخْصِ البَنـا * ن بَكَى علىّ وما بكيْتُه
ويَشُـــوقنى بَيْتُ الحبيـ * ـبِ اذا ذَكَرتُ وأين بيْته
قام الخليفـــةُ دونَـــه * فصبَرتُ عنـــه وما قَلَيْته
ونَهانِىَ الملكُ الهُـــما * مُ عن النســاء وما عصيْتُه
لا بل وفيْتُ فـــلم أُضِع * عهـــدا ولا رأيا رأيتُـــه
وأنا المُطِـلّ على العِـدا * واذا غلا الحمـــدُ اشتريْتُه
أُصْغِى الخليـــلَ إذا دنا * واذا نأى عـنى نأيْتُـــه
وأميـــلُ فى أُنْسِ الندي * ـم من الحَياء وما اشتهيْتُه

وكان الخليل بن أحمد ينشد هذه الأبيات ويستحسنها ويعجب بها .

وكان لبشار خمسة نُدَماء، فمات منهم أربعة وبقى واحد يقال له : الفراء، فركب فى زورق يُريد عبور دِجْلة العَوْراء فغَرِق، فكان بشّار يقول : ماحيرنى الدنيا بعد الأصدقاء، ثم رثى أصدقاءه بقوله :

يا بن موسى مادا يقـول الإمامُ * فى فتـاة بالقلب منهـا أُوَامُ
ثُ من حبّها أُوَقَّـرُ بالكأ * س ويهمـو على فؤادى الهُيَـام
لم يكن بينهـا وبينى إلّا * كُتُبُ العاشقين والأحـلام
يابن موسى أسْقِنى ودَعْ عنك سَلْمى * إن سلمى حِمًى ووِدّ آحْتِشام
ربّ كأس كالسلسبيل تعلّلْـ * ـتُ بهـا والعيونُ عنّى نِيـام
حُبِست للشُّراه فى بَيْت رأس[1] * عَنَقَتْ عانِسًا عليهـا الخِتـام
نفَحَتْ نفحةً فَهَـزّت نديمى * بنسـيم وآنشقّ عنها الزُّكام
وكأن المَعْلول منهـا إذا را * ح شَـجٍ فى لسـانه بِرْسـام[2]
صَـدَمَتْه الشّمولُ حـتى بعينيـ * ـه آنكسارٌ وفى المفاصل خَام
وهو باق الأطراف حيّتْ[3] به الكأ * سُ وماتت أوصـالُه والكلام
وحتى يشـرَبُ المُدامـةَ مالمـا * ل ويمشى يروم ما لا يُرام
أبهَتْ كأسُه الدنانيرَ حـتى * ذهَب العَيْنُ وآستمرّ السّـوام
تركته الصهـباءُ يربو بعين * نام إنسانُهـا وليست تَـنام
جُنّ من شَرْبة تُعَـلّ بأخرى * وبكى حين سـار فيـه المُدام
كان لى صاحبًـا فأودى به الدهـ * ـرُ وفارقتُـه عليـه السـلام
بَقِىَ الـبَاسُ بعـد هُلْك نَدامَا * ىَ وُقُوعا لم يشـعروا ما الكلام
كَخُزُور الأيْسَار[4] لا كَيِدٌ فيهـ * ـا لِبَـاعٍ ولا عليهـا سَـآم

---

(١) بيت رأس : قرية بالشأم من قرى حلب ينسب اليها الخمر .
(٢) البرسام : علة يهذى فيها وهو ورم حار يعرض للحجاب الذى بين الكبد والأمعاء ثم يتصل الى الدماغ .
(٣) حيت بالإدغام لغة فى حى كرمى .
(٤) الأيسار : جمع يسر، وهو اللاعب بالقداح .

يابن موسى فَقْدُ الحبيب على العيـ * ـس قَذَاةٌ وفى الفؤاد سَقَام
كيف يصفو لىَ النعيمُ وحيدًا * والأَحِلَّاءُ فى المقابر هَام
نَفَسَتْهم(١) علىّ أمُّ المنايا * فأماتتهمُ بعُنْفٍ فماموا
لا يَغِيض انْسِجَامُ عينى عليهم * إنما غايةُ الحريص السَّحَامُ

وقال فى نَهْى الخليفة إياه عن ذِكْر النساء .

والله لولا رِضا الخليفة ما * أعطيْتُ صَيْمًا علىّ فى شَحَن
وربما جِيرَ لابن آدم فى الـ * ـكُرْه وشَقّ الهوى على البدن
فاشربْ على أُبْنَةِ الزمان فما * تلقى رماناً صَفا من الأُبَن
الله يُعطيك من مواصله * والمرء يُعْصِى عَيْنًا على الكُمَن(٢)
قد عِشْتُ بين الرَّيْحان والراح والزّ * ـهر فى ظِلّ مجلسٍ حَسَنِ
وقد ملأتُ البلاد ما بين يغـ * ـمور الى القَيْرَوان فالمسن
شِعْرًا تُصَلِّى له العواتقُ والشّـ * ـيبُ صلاةَ الغُواة للوَثَن
ثم نهانى المهدىُّ فانصرفتْ * نفسى صنيعَ الموفَّق اللَّقِن
فالحمدُ لله لا شريكَ له * ليس ساقٍ شيءٌ على الزمن

وأنشد المهدىّ قصيدته التى أولها :

تحالَلْتُ عن مِهْرٍ وعن حَارِثَىْ مهر * وودَّعْتُ نُعْمًا بالسلام وبالبشر
وقالت سُلَيْمى فيك عنّا حَلادة * محلّك دانٍ والزيارةُ عن عُمُرِ(٣)
أخى فى الهوى مالى أراك جَفَوْتنا * وقد كنتَ تَقْفُونا على العُسْر واليُسر
تثاقلتَ إلا عن يَدٍ أستفيدُها * وزَوْرة أملاكٍ أشُدُّ بها أَزْرى
وأخرجنى من وِزْر خمسين حجّة * فتًى هاشمىٌّ يَقْشَعِرّ من الوِزر

---

(١) نفستهم : حسدتهم . (٢) الكمن واحدها كمنة وهى حرب وحجرة تتق فى العين من رمد يسماء علاجه .
(٣) العمر : قلة الزيارة ، يقال : ما تأتينا الا عن عمر أى بعد قلة زيارة وطول عهد .

دَفَنْتُ الهوى حيّـا فلستُ بزائرٍ * سليمى ولا صفراء ما قَرقَر القُمْرِى
ومُصْـفَرَّة بالزعفران خلودُها * اذا أُجْتُليتْ مثل المفرطحة الصعر
فرتّ تَقَـال الرِّدْفِ هبّتْ تلومنى * ولو شَهِدت قبرى لَصَلّت على قبرى
تركتُ لهدىّ الأنام وِصَالها * وراعيتُ عهدا بينا ليس بالخَـمْر
ولولا أميرُ المؤمنين محمـدٌ * لقبّلتُ فاها أو لكان بهـا فِطْرى
لعمرى لقد أوْقرتُ نفسى خطيئةً * فـا أنا بالمُزداد وقْـرا على وقـر
تَسلّى عن الأحبـاب صَرّامُ حُلّة * وَوصّال أُخرى ما يُقـيم على أمْر
وركّاض أفراس الصّبابة والهوى * حرت جَحّا ثم أستقرّتْ فلا تَحرى
فأصبح ما يُرْكَبْ إلا الى الوغى * وأصبحتُ لا يُزْرَى علىّ ولا أُزْرِى
فهذا وإنى قـد شرَعْتُ مع التُّقى * وماتت همومى الطّارقات فماتَسْرى

ثم قال يصف السفينة :

وعدراء لا تجـرى بلحم ولا دَم * قليـلة شكوى الأَيْن مُلْجَمة الدُّبْر
اذا طَعَنَتْ فيهـا الفُلُول تَشَخّصَتْ * مُرسانهـا لا فى وُعُوثٍ ولا وَعْر
وإن قصـدَتْ رلّت على متصعب * ذليل القوى لا شىء يَقْرى كما تَقرى
تُلاعِبُ تيّـارَ[1] البحـور وربمـا * رأيتَ نفوسَ القوم من جَرْيها تجرى
الى مَلِك من هاشم فى نُبُـوّة * ومن جِمْيَر فى المُلْك والعـدد الدَّثْر[2]
من المُشتَرِين الحمدَ تَنْدى من النّدى * يداه و يَنْدَى عارِضَاه من العِطْر
فألزمتُ حَبْلى حـل من لا تُنِـلـه * عُفَاةُ النّدى من حيث يدرى ولا يدرى
بنى لك عبـدُ الله بيتَ حلافـة * نزلتَ بهـا بين الفَرَاقد والنَّسْر
وعندك عهـدٌ من وَصَاةِ محمـد * فَرَعْتَ به الأملاكَ من ولد النَّضْر

(١) كان قد قال : تيار البحور، فعابه بذلك سيبويه، فجعله تيار البحور .
(٢) الدثر . الكثير .

ولما أنشد الوليد بن يزيد قولَ بشار :

أيها السَّاقيان صُبّا شَرَابى * وأسْقِيانى من رِيقِ بيضاءَ رُودِ[1]
إن دائى الظَّمَا وإن دوائى * شَرْبَةٌ من رُضَاب ثَغْرٍ بَرُود
ولها مَضْحك كنُوّر الأقَاحى * وحديثٌ كالوَشْى وَشْيِ البُرود
نزلتْ فى السَّواد من حَبّة القلـ * ـبِ ونالتْ زيادةَ المُسْتزيد
ثم قالت نلقاك بعد لياٍ * والليالى يُبْلِين كلَّ جديد
عدها الصبرُ عن لقائى وعدى * زَفراتٌ يأكُلْنَ قلبَ الحديد

طَرِب الوليدُ وقال : من لى بمزج كأسى هذه من رِيق سَلْمَى، فيَرْوىَ طمئى، وتَطْفأُ عُلَّتى، ثم بكى حتى مزج كأسَه بدمعه، وقال : إن فاتنا ذاك فهذا .

مدَح بشار خالدَ بن بَرْمَك فقال فيه :

لعمرى لقد أجدى علىّ ابنُ برمك * وما كلُّ من كان العنى عنده يُجْدى
حلَبتُ شعرى راحتيْه فدَرَّتا * سَماحًا كما دَرّ السَّحابُ مع الرَّعْد
إذا جئتَه للحمد أشْرَقَ وجهُه * اليك وأعطاك الكرامةَ بالحمد
له نِعَمٌ فى القوم لا يَسْتثيبها * حَراءٌ وكُلّ التاجر المُدّ بالمُدّ
مُفيدٌ ومِتْلافٌ سبيلُ ثرائه * اذا ما غدا أو راح كالجَزْر والمَدّ
أخالدُ إن الحمدَ يبقى لأهله * خَمَالا ولا تبقى الكنوزُ على الكَدّ
فأطْعِمْ وكُلْ من عَارَةٍ مُسْتَرَدَّةٍ * ولا تُبْقِها إن العَوَارِىَ للردّ

فأعطاه خالد ثلاثين ألفَ درهم، وكان قبل ذلك يعطيه فى كل وِفادة خمسة آلاف درهم، وأمر خالد أن يكتب هذان البيتان فى صدر مجلسه الذى كان يجلس فيه، وقال أبوه يحيى ابن خالد : آخرُ ما أوصانى به أبى العملُ بهذين البيتين .

---

(١) الرود : الشابة الحسنة الناعمة .

وكان إسحاق الموصلىّ يطعن على شعر بشّار ويصّع مه، ويذكر أن كلامه مختلف لايشبه بعضُه بعضا، فقيل له : أتقول هذا لمن يقول :

إذا كنتَ فى كلّ الأمور مُعَاتِبًا * صديقَك لم تَلْقَ الذى لا تعاتبُهْ
فَعِشْ واحدًا أوصِلْ أخاك فإنه * مُقَارِفُ(١) ذنبٍ مرّه وتُجَانبُهْ
إذا أنتَ لم تشربْ مِرارًا على القَذَى(٢) * ظَمِئتَ وأىُّ الناس تصفو مَشَارِبه

وهى من غُرَر قصائده، مدح بها عمر بن هُبَيْرة، ومنها قوله :

يخاف المنايا إن تَرَحّلتُ صاحِبى * كأن المنايا فى المُقَام تُنَاسِبه
فقلت له إن العراقَ مُقَامُه * وخِيمٌ إذا هَمّتْ عليك جَنَائبه
لأنلق بَنِى عَيْلان إن فَعالهم * تزيد على كل الفَعال مراتبه
أولاك الأُلَى شَقّوا العَمى لسيوفهم * عن العين حتى أبصر الحقَّ طالبه
وحيش بكبح الليل يَزْحَف بالحصا * و بالشّوك والحَطّىِّ حُمْرًا تغالبه
عدَوْنا له والشمسُ فى حِدْر أمّها * بطالُعها والطَّلُّ لم يَحْمِ ذائبُه
بضَرب يذوق الموتَ من ذاق طعمَه * وتُدرك من نَجّى الفِرارُ مَثَالِبه
كأن مُثَارَ النقع فوق رءوسنا * وأسيافَنا ليلٌ تَهَاوَى كواكبه
بعثنا لهم موتَ الفُجَاءة إنّنا * بنو الموتِ حَقّاً فى عليا سَبائبُه(٣)
فراحوا فريقٌ فى الإسَارِ ومثلُه * قتيلٌ ومثلٌ لاذَ بالبحر هاربُه

ومنها :

إذا الملك الجبّارُ صَعّر خدَّه * مشَيْنا اليه بالسيوف نعاتبُه
رُوَيدًا تَصَاهل بالعراق جيادُنا * كأنك بالصَّحّاك قد قام ناديُه
وسام لَمَرْوانٍ ومن دونه الشَّحَا * وهولٌ كَلُجِّ البحر جَاشت غَوَاربه

---

(١) مقارف ذنب مخالطه ومرتكبه من قارف الخطيئة اذا خالطها . (٢) القذى . ما يسقط فى الشراب من دباب أو غيره . (٣) السبائب جمع سبيبة، وهى شقة من الكتان رقيقة يريد بها الألوية .

أحلّتْ به أمُّ المنايا بناتِها * بأسيافنا إنا رَدَى مَن نحاربه
وكّا إذا دَبّ العدوُّ لسخطنا * ورَاقبنا فى طاهرٍ لا نزاقُبه
ركبنا له جَهْرا بكل مُثَقَّف * وأبيَض تَستسق الدماءَ مضارِبُه

ومنها :

فلما تولّى الحيّ واعتصر الثرى * لَطَى الصّيف من نَجْمٍ توقّد لاهِبُه
وطارت عصافيرُ الشّقائق واكتسى * من الآل أمثالَ المجَرَّة ناصِبه
عدت عانةٌ(١) تشكو بأبصارها الصَّدى * الى الجَأْب إلا أنها لا تحاطِبه

ومن حسن شعره :

لو كنت تَلْقَيْنَ ما نَلْقى قَسَمْتِ لنا * يوما نعيش به منكم ونَبْتَهِجُ
لا حير فى العيش إن كنّا كذا أبدا * ما فى التّلاقى ولا فى قُبْلَةٍ حَرَج
مَنْ رَاقبَ الناسَ لم يظفَرْ بحاجته * وفاز بالطيّبَات الفاتكُ اللّهِج
أشكو إلى الله همًّا ما يفارقنى * وشُرَّعًا فى فؤادى الدهرَ تَعْتَلِج

وقال يهجو عبيد الله بن قرعة :

خَليلىَّ من كَعْبٍ أعِينا أخاكما * على دهره إن الكريمَ مُعِينُ
كأن عبيد الله لم يلْقَ ماحدا * مخافةَ أن يرجو نداه حَرِين
ولا تَبْخلا بُخْلَ ابن قرعة إنه * ولم يَدْرِ أن المكرمات تكون
فقل لأبى يحيى متى تُدْرِكِ العلا * وفى كل معروف عليك يمين
اذا جئتَه فى حاجةٍ سَدّ بابه * فلم تَلْقَه إلّا وأنت كمين

وقد على خالد بن برمك فأنشده :

أخالدُ لم أخْبِط(٢) اليك بدمّة * سوى أننى عَافٍ وأنت جَوَادُ
أخالدُ بين الأجْرِ والحمد حاجتى * فأيّهما تأتى فانت عِمادُ

(١) العانة : القطعة من الحمير . والجأب ذكرها ، ومعنى شكواها الصدى بأبصارها أن العطش قد تبين فى أحداقها فصارت ، وهذا من أحسن ما وصف به الحمار والأتن . (٢) أى لم أطلب معروفك متوسلا اليك بعهد أو قرابة .

فإن تُعطِنى أُفْرِع عليـك مدائحى * وإن تأب لم يُضْرب علىّ سِـدَادُ
وكانى على حَرْفٍ(١) وقلبى مشـيّع * ومالى بأرض الباخلين بـلاد
اذا أنكرتنى بـلدةٌ أو نَكِرْتُها * خَرَجت مع البَـازى علَّى سَـواد

فدعا خالد بأربعة آلاف دينار فى أربعة أكياس، فوضع واحدا عن يمينه، وواحدا عن شماله، وآخرين بين يديه، وآخر خلفه، وقال : ياأبا معاذ، هل آستقلّ العِماد؟ فلمّس الأكياسَ ثم قال: استقلّ والله أيها الأمير .

قال أبان بن عبد الحميد : نزل فى ظاهر البصرة قوم من أعراب قَيْس بن عَيْلان ، وكان فيهم بيان وفصاحة، فكان بشّار يأتيهم وينشدهم أشعارَه التى يمدح بها قيسا، فيحلّونه لذلك ويعظّمونه، وكان نساؤهم يجلس معه ويتحدثن اليـه وينشدهن أشعارَه فى الغزل، وكنت كثيرا ما آتى فى ذلك الموضع فأسمع منه ومنهم، فأتيتُهم يوما فاذا هم آرتحلوا، فجئتُ الى بشّار فقلت : ياأبا معاذ: أعلمتَ أن القوم قد آرتحلوا؟ قال: لا، ففلتُ: فاعلم، قال: قد علمت لا علمتَ، ومصيتُ، فلما كان بعد ذلك بأيام سمعتُ الناسَ ينشدون :

دعا بفـراق من تَهْوَى أنَاهُ * ففاض الدمعُ وآحترق الجَنَانُ
كأن شرارةً وقَعَت بقـلبى * لهـا فى مقلتى ودَمى آستِنَان
اذا أنْشَدْتُ أو نَسَمَتْ عليها * رِياحُ الصّيف هَاج لها دُخَان

فعلمت أنها لبشّار، فأتيتُه فقلت : يا أبا معاذ، ما دهى اليك ؟ قال: دنبُ عراب البيْن، فقلت : هل ذكرتى بعيرهذا ؟ قال : لا ، فقلتُ : أُنْشِدك اللهَ ألّا تزيد ، فقال : لمص لشأنك فقد تركْتُك .

مدح بشّار المهدىَّ فلم يُعْطه شيئا ، فقيل له : لم يَسْتَجِدْ شـعرَك ، فقال : والله لقد قلتُ فيه شـعراً لوقيل فى الدهر لم يُحْشَ صَرْفُه على أحدٍ، ولكنّا نكذب فى القول فيكذب فى الأمل .

---

(١) الحرف : الناقة المهزولة .

مَدح بشّار سليمانَ بن هِشَام بن عبد الملك ، وكان مقيما بحَرّان وخرج اليه ، فأنشده قوله فيـــه :

أأنْكَ على طول التّجَاوُرِ زينبُ * وماشعرتْ أن النّوى سوف تَشْعَبُ
يرى الناسُ ماتلقى بزينب إذ نأتْ * عجيبـا وما تُخْفِى بزينب أعْجَب
وقائلة لى حين حدّ رحيلُنا * وأجفانُ عينيها تجـــودُ وتسكُبُ
أغادٍ الى حَرّان فى عير شِـيعةٍ * ودلك شَأْوٌ عن هواهـا مُغَـرّب
فقلتُ لهـا كلّفتِنى طلبَ العـنى * وليس وراء ابن الخليفة مَذْهَـب
سيكْفِى فَتًى من سَعْيه حَدُّ سيفه * وكَوْرٌ(١) عِلاقٌ ووجنـاء(٢) دِعْلِب
اذا اسْتَوْعَرتْ دارٌ عليه رمَى بها * بياتَ الصُّوَى منها رَكُوبُ ومُصْعَب
فعُـدِّى الى يوم ارتحلت وسائلى * نَزُوركِ والرّحّالُ من جاء يَضْرِب
لعلّك أن تَسْتيقنى أنّ زَوْرتى * سليمانَ من سير الهواجر تُعْقِبُ
أغرّ هِشَامىّ القـاه اذا انتمى * تَمَتّـــه بُدُورٌ ليس فيهنّ كوكب
وما قَصَدتْ يومًا لخيلين حيلُه * فتُصْرَف إلا عن دماء تَصَبَّبُ

فوصـله سليمان بخمسة آلاف درهم ، وكان بخيلا ، فلم يرضها وانصرف عنـه مُغْضَبًا ، فقال :

إن أمس مقبض اليدين عن الندى * وعن العـدو محبس الشيطان
فلقـد أروح على اللئام مسلّطًا * تَلِج المقيـل مُنَعّم النّـدمان
فى ظل عيش عشـيرة محمـودة * تَنْـدَى يدى ويُخاف فَرْط لسانى
أزمان حيّى الشـبابُ مطاوع * وإذ الأمـيرُ علىّ من حَرّان
رِيم بأحْـوِيّة العـراق اذا بدا * برقت عليـه أكِلّةُ المَرْجان
فاكْحُـلْ بِعَبْده مقلتيك من القَذَى * وبوَشْـك رؤيتها من المَحْلان
فلقَـرْبُ من تَهْـوى وأنت متيمٌ * أشْـفَى لدائك من بعى مروان

(١) العلاق : الرحل العظيم . (٢) وجناء دعلب أى ناقة شديدة سريعة .

قدم بشّار على المهـدىّ بالرصافة فدخل عليـه فى البستان، فأنشده مديحا فيه تشبيب حسن، فنهاه عن التشبيب لغَيْرة شديدة كانت فيه، فأنشده مديحا يقول فيه :

كأنما حثُّـه أبشّـرُه * ولم أجِئْ راغـبا ومُحْتَلِبا
يزيّن المنبر الأشمّ بِطَلْعَتِه * به وأقـوالِه إذا خَطَـبا
تُشَمّ نَعْلاه فى النّـدِىّ كما * يُشَمّ ماءُ الريحان مُنْتَهَبا

قال : وقد طلب منه أن يُنشده شيئًا من غزَله :

وقائلٍ هَات شَـوِّقْنَا فقلتُ له * أنامُ أنتَ ياعمرو بن سَمْعـان
أما سمعتَ بما قد شاع فى مُضَرٍ * وفى الخليفَيْن من بَكْرٍ وقَحْطَان
قال الخليفةُ لا تَنْسِبْ بجارية * إيّاك إيّاك أن تَشْـوَى بعصيان

وقال له المهـدىّ : قل فى الحب شـعرا ولا تُطل، واجعل الحبّ قاصيا بين المحبّين لا تُسَمّ أحدا، فقال :

أجعل الحبَّ بين حِبّى وبينى * قاصِـيا إننى به اليوم راضِ
فاجتمعنا فقلت يا حِبَّ نفسى * إن عينى قليـلةُ الإغمـاض
أنتَ عذّبتنى وأنحلت جسمى * فارحم اليوم دائمَ الأمراض
قال لى لا يَحِلّ حكمى عليهـا * أنتَ أولى بالسّقم والإعراض
قلتُ لمـا أحابنى بهـواها * شَمِلَ الجَوْرُ فى الهوى كل قاض

فبعث اليه المهدىّ : حكمتَ علينا ووافقنا ذلك، فأمر له بألف دينار .

وقال بشّار فى عشق السَّمْع :

يا قومُ أُذنى لبعض الحى عاشقةٌ * والأذنُ تعشق قبـل العين أحيانا
قالوا بمَنْ لا ترَى تَهْذِى فقلتُ لهم * الأذنُ كالعين تُوفِى القلبَ ما كانا
هـل من دواء لمشغوف بجـارية * يَلْـقى بلُقْيانهـا رَوْحًا وريحـانا

وقال فى مثل ذلك :

قالت عُقَيْلُ بن كعب إذ تعلّقها * قلبى فأصحى به من حتها أثَرُ
أنّى ولم تَرَها تَهْـدى فقلتُ لهم * إن الفـؤادَ يَرى مالا يرى البصرُ
أصبحتُ كالحائم الحيران مجتنّا * لم يقض وِرْدا ولا يُرْجَى له صَدَر

وقال :

يزهـدُنى فى حبّ عَمْـدة مَعْـشَرٌ * قلوبُهـم فيها مخالِفـةٌ قلبى
فقلتُ دعوا قلبى وما آختار وآرتصى * فبالقلبِ لا بالعين يُبْصِرُ ذُو الحبّ
فما تبصر العينان فى موضع الهوى * ولا تسمع الأذُنان إلا من القلب
وما الحسنُ إلا كلّ حسن دعا الصبا * وألّفَ بين العشق والعاشق الصبّ

وقال :

يا قلب مالى أراك لا تَقِـرُ * إيّاك أعنى وعـدك الخَبَرُ
أدعت بعد الأنى مصوّا حُرَقًا * ما صاع ما آستَوْدَعُوك إذ نكروا

وقال :

إن سُلَيْمى والله يكلؤها * كالسُّكْر يزداد على السُّكْر
بلّغتُ عنها شـكلا فأحسنى * والسّمعُ يكمِيك عَيْبَةَ النَّظَر

وقال وقد مدح المهدىّ لخرمه :

حليلىّ إن العُسْرَ سوف يُفيق * وإن يَسَـارا فى عـد لَخَليق
وما كنتُ إلا كالزمان اذا صحا * صحوتُ وإن ماق(١) الزمان أمُوق
أأدْمَاء لا أسطيع فى قـلّة الثرا * خُرُوزًا ووَشْـيا والقليل محيق
خدى من يدى ما قل إن زمانا * شَمُوسٌ ومعروفُ الرجال رقيق
لقد كنتُ لا أرضى بأدنى معيشةٍ * ولا يَشْتكى بخـلًا علىّ رفيق

(١) ماق : حمق فى عبارة .

حليلىّ إن المـال ليس بـانع * اذا لم يَنَـلْ منه أخٌ وصديق
وكنتُ اذا صاقت علىّ مَحَلّة[1] * تيمّمتُ أخرى ما علىّ تضيق
وما حاب بين الله والناس عامل * له فى التّقى أو فى المحامد سُوق
ولا صاق فضلُ الله عن متعفّف * ولكنّ أخلاقَ الرجال تَضيق

هجا دِنّار يعقوب بن داود وزير المهدىّ فقال :

بنى أميّـــةَ هُبُّوا طال نومُكم * إن الخليفـــه يعقوب بن دَاوُد[2]
صاعَتْ خلافتُكم ياقوم فالتمسوا * خليفةَ الله بين السّاى والعُود

فاتهمه عند المهدىّ بالزندقة وقال : إنّه قد هجا المهدىّ، فأمر، فضُربَ بالسياط حتى مات .

---

(١) المحلة : منزل القوم .
(٢) أصله من الموالى ، وقد استوزره الخليفة المهدى وسلمه الأمور كلها وآشتمل هو بالهو .

٢ — حَمّادُ عَجْـــرَد (١)

(٢) «ولو أنّى أحببتُ أن أشخص حمّادا لوصفتُه قبل كل شيء بحدّة الطبع، وسُوء الخُلُق، وحب الانتقام، والإسراع إليه، ثم بالصراحة فى القول، والمُلاءمة بينه وبين العمل، وبُكْرِه النِّفاق والانصراف عنه، لا يعْبيه أرَضِى الناسُ عنه أم سَخِطوا عليه، ثم بحِدّةِ اللسان ومُضِيِّه وإقدَاعه وكَلَفِه بفاحش القول وبحثه عن أسوئه وأقبحه، ثم بالسُّخْرِيّة من الناس وآردرائهم، لا على أنه يتّخِذُ ذلك فلسفةً وأصْلًا من أصول الحياة كالوَلِيد ومُطيع وأبى نُوَاس، بل على أنّه يتّخِذُ ذلك وسيلةً من وسائل الشعراء يَخْلُص بها كلّما ضاقتْ عليه المذاهبُ وأُحِدَتْ عليه، أو دعَتْه إلى ذلك حاجةٌ. لم يكن حمّادٌ يحفِلُ بما يحفِلُ به الناسُ من الوفاء والانصراف عن التنقُّص، وإنما كان صديقًا مُخلِصا حتى تبدو له حاجة أو تَسنَحَ له فرصةٌ أو تصطرّه ضرورةٌ؛ فإذا صَداقتُه قد استحالتْ إلى عَداء، وإذا هو ليس أقلّ صِدْقًا وإخلاصًا فى العَداء منه فى المودة والحُبّ: فقد مدح يحيى بن زياد واتّحده صديقًا ونال جَوائزَه، ثم كان الخلافُ فهَجاه. وصادَقَ بَشّارا وصافاه، ثم اختصما فلم يَعْرِفا فى الخصومة رحمة ولا رِفْقًا. وصاقَ مُطيعًا وأحبّه ومَدحَه وأكثر فى الثناء عليه، ثم اختَصَما فى أمرأةٍ مَرّةً وفى غلامٍ مرّةً أخرى، فهَجاه وأقذع فى هجائه. وكان على هذا كلّه يؤثر شعره وصروراته على البرّ بالناس فى معاملتهم: هجا ذاتَ يومٍ رجلا يقال له حُشَيْشٌ وجعل اسمَه قافيةً لهذا الشعر وأراد أن يبالغ فى ذمّه فشبّهه بحُشَيْش، وكان بُحَيْشٌ هذا رجلًا من أهل البَصْرة

---

(١) هو حماد بن يحيى بن عمرو مولى عامر بن صعصعة. نشأ فى الكوفة ثم واسط. وعاصر الدولايى، لكنه مع فى الدولة العباسية بعد أن نادم الوليد بن يزيد الأموى. وجاء بغداد أيام المهدى ومعه مطيع بن إياس ويحيى بن زياد، وكلهم من المتهمين فى دينهم. وحماد من الشعراء المجيدين، وكان ماجنا طريفا حليما متهما فى دينه مرميا بالزندقة. وأدرك بشار بن برد وله معه أهاج فاحشة، ولم يكن يهاب كبيرا ولا صغيرا، عالما كان أو جليلة. توفى سنة ١٦١ هـ. وتجد ترجمته فى الأغانى (ج ١٣ ص ٧٣) وابن خلكان (ج ١ ص ١٦٥) والشعر والشعراء (ص ٤٩٠) والفهرست (ص ٩١).

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

وادعًا لا يعرف حمّادًا ولا يعرفه حمّادٌ، فلما قرأ الرجلُ هذا الشعرَ جَزِع له وسافرَ من البصرة حتى بلغ الكوفةَ فعاتَب حمّادًا، فقال له حماد صاحكًا معتذرًا: لا بأسَ عليك فإن هذا من آثام القافية ولن أعود إليه » .

وكان السبب فى مُهاجاةِ حمّاد وبشّار أن حمّادًا كان نديما لِرافِع بن عُقْبَة، فسألَه بشّار تجهيزَ جارية له من نافع فأبطأ عنها، فقال بشّارٌ فيه :

مَواعِيدُ حمّادٍ سَماءٌ مَخِيلَةٌ * تَكَشَّفُ عن رَعْدٍ ولكن سَتَبْرُقُ
اذا جئتَه يوما أحالَ على غَدٍ * كما وعَدَ الكوْنُ مالَيس يَصْدُق
وفى رافِع عنّى حَفَاءٌ وإنّنى * لأُطْرِقُ أحْيانًا وذو اللبِّ يُطْرِق
وللقِرى(١) قومٌ فلو كنتُ منهمُ * دُعِيتُ ولكن دُونِىَ البابُ مُغْلَق
ومازلت أستأنيك حتى حَسَرْتَنى * بوَعْدٍ كجَارى الآلِ يَخْفَى ويَحْمُق

فغَضِب حمّادٌ وأنشَد نافعًا الشعرَ فمع بشارا، فقال بشّار :

أنا عُمَيرٍ ماوى طِلابِيكَ حَاجَةٌ * ولا فى الذى مَنَّيْتَنَا ثم أصْحَرا
وعَدتَ فلم تَصْدُق وقلتَ غَدًا غدًا * كما وعَد الكَذُوب شربًا مؤخّرا

فكان ذلك سببَ التهاجى بين بشّار وحمّاد . وكان بشّارٌ يرمى حمّادًا بالزندقة ، وفى ذلك يقول :

ابنُ نهى رَأسٌ علىّ ثَقِيلُ * واحتمالُ الرءوس خَطْبٌ جَلِيلُ
أُدْعُ عيرى إلى عِبَادِهِ الأكْفَا * ءِ منّى فإنى بواحد مشغولُ
يابنَ نهى بَرِئْتُ منك إلى الله جِهَارًا وذاك منّى قليل

فأشاع حمّادٌ هذه الأبيات لبشّار، وجَعل فيها مكان : « فإنى بواحدٍ مشغول » « فإنى عن واحد مشغول » ليصحّ عليه الزندقة والكفر بالله تعالى . فما زالت الأبياتُ تدور فى الناس حتى انتهتْ الى بشّار، فاضطرب منها وجزِع وقال : أشاط ابنُ الفَاعِلة بدَمِى، والله ما قلتُ إلا « فإنى بواحد مشغول » فغيّرها حتى شُهِرتْ فى الناس .

(١) القرى . الدعوة الخاصة .

كان رجلٌ من أهل البصرة يدخل بين حمّاد وبشار على اتفاقٍ منهما وَرِعًا أن ينقُل إلى كل واحد منهما وعظه الشعرَ، فدخل يومًا الى بشّار فقال له : إيه يا فلانُ ، ما قال آس الفاعلة؟ فأنشَدَه :

إن تاه بَشّارٌ عليكم فقـــد ... أمكنتُ بَشّـارًا من التِّيه

فقال بشّار : بأىّ شىءٍ ويحك؟ فقال :

وذاك إذ سمّيتُه باسمـــه * ولم يكن حُرًّا تُسَمِّيه

قال : سَحِتَتْ عينُه، فبأىّ شىء كنتُ أُعَرِّف! إيه، فقال :

فصـار إسماً يذكرى له * ما ينتفى من بعد ذِكْرِيه!

فقال : ما صَنَع شيئا، إيه ويحك! فقال :

لم أهْجُ بَشّـارا ولكنّنى * هجوتُ نفسى بهجَائِيـــه

فقال : على هذا المعنى دار وحوله حام . وتمامُ الأبيات :

لم آتِ شيئًا قطّ فيما مضى ... ولستُ فيما عشتُ آتِيـــه
أسوأ لى فى الناس أُحْدُوثةً * من خَطَا أخطائه فيه
فأصبح اليـــومَ لِسَيِّى له * أعظمَ شأنًا من مَوَالِيه

وقال بشّارٌ لراوية حمّاد : ما هجانى به اليومَ حمّاد؟ فأنشده :

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عنّى الـ * ـذى والِدُه بُـــرْدُ

فقال : صَدق آنُ الفاعلة فما يكون ؟ فقال :

إذا ما نُسِبَ النـاسُ * فلا قَـلٌّ ولا نَعْـــدُ

فقال : كذَب، أين هذه العَرَصَاتُ من عُقَيْلٍ! فما يكون؟ فقال :

وأعمَى قَلْطَبَانٌ[1] ما * على قَاذِفِـــه حَـــدُّ

(١) القلطبان : الذى لا يعار.

فقال : كذب، بل عليه ثمانونَ حَلْدةً، هِيه، فقال :

وأعمى يُشْـبِهُ القِرْدَ * إذا ما عَمِيَ القِـرْدُ

فقال : والله ما أخطأ حين شـبّهنى بقِردٍ ، حَسْـبُكَ حَسْبُك ! ثم صفّق بيـديه وقال . ما حِيلتى ! يرانى فيُشَبّهنى ولا أراه فأُشبّهه . وتمامُ الأبيات :

دَنِىٌّ لم يَـرُحْ يومًا * الى مَجْـدٍ ولم يَغْـدُ
ولم يَحْضُر مع الحُصَّا * رِ فى خَيْرٍ ولم يَبْـدُ
ولم يُحْشَ لـه دَمٌّ * ولم يُـرْجَ له حَمْـدُ
جَرَى بالنَّحْسِ مُذْ كان * ولم يَجْـرِ له سَـعْد
هو الكلُّ اذا مات * فلم يُـوجَد له فَقْـد

وقال علىّ بن مَهْدىّ : أجمَع علماء البصرة أنه ليس فى هجاء حمّاد عَجْرد لبشّار إلا أربعون بيتًا معدودة، ولبشّار فيه من الهجاء أكثرُ من ألف بيتٍ حيّد . وكلُّ واحدٍ منهما هو الذى هتَك صاحبَه بالزّندقة وأظهَرها عليه، وكانا يحتمعان عليها، فسقَط حمّادٌ وهُتِك بفضل بلاغة بشّار وجَوْدة معانيه، وبَقِى بشّار على حاله لم يسقُط، حتى عُرِف مذهبُه فى الزندقة فقُتِل به .

ومن أعلَط ما هجا به حمّادٌ بشارًا :

نَهـارُه أحسُّ من ليـلـه * ويومُه أحبثُ من أمْسِه
وليس بالمُقْلِـعِ عن غَيِّه * حتى يُوارَى فى ثَرَى رَمْسِه

كان حمّادٌ صديقا ليحيى بن زياد ، فأظهر يحيى تَوَرُّعًا وقِراءةً وزُهُوعًا عمّا كان فيه وهجر حمادًا وأشباهَه، فكان اذا ذُكِر عنده ثَلَبَه وذكَر تهتُّكه وفُجُونه؛ فلمّا ذلك حمادًا فكتبَ اليه :

هَلْ تَذْكُرُنْ دَجَلِى اليـ * ـك على المُصَمَّرَةِ القِلَاصِ
أيامَ تُعْطِيـنى وتأ * خُذُ من أباريق الرَّصَاصِ
إن كان نُسْـكُك لا يتِمّ * مُ غير شَتْمِى وانتقاصى
أو كنتَ لستَ بغير دا * كَ تَنَـالَ منزلةَ الخَلاص

فعليـــك فاشـتُمْ آمِنًـا * كلّ الأمان من القِصَاص
وأقْعُـــد وقُمْ بى ما بدا * لك فى الأذَاى والأقَاصى
فلَطَـالَمَـا زَكَّيْتَنِى * وأنا المقـيمُ على المعاصى
أيامَ أنتَ اذا ذُكِـر * تُ مُناصلٌ عـنّى مُنَاصى (١)
وأنا وأنتَ عـــلى آرتكا * ب المُوبقات من الحِرَاص
وبِنَـا مَوَاطنُ ما سنا * فى البِرّ آهِـلَةُ العِـرَاص

فاتّصل هذا الشعرُ بيحيى بن زياد ، فنَسَب حمّادا الى الزندقة ورماه بالخروج عن الإسلام ، فقال حمّاد فيه :

لا مُؤمِنٌ يُعْـرَفُ إيمانُه * وليس يَحمِى بالتقى الكافرِ
مـافقٌ ظاهِرُه باسِـكٌ * مخالِفُ الباطنِ للظاهرِ

كان حمّادٌ صَديقا لحُرَيْث بن أبى الصَّلْت الثَّقَفىّ ، وكان يَعيبُه بالبخل ، وفيه يقول :

حُرَيْثٌ أبو الفَضْلِ ذو خِبْرةٍ * بما يُصْلِـحُ المَعِدَ الفاسده
تَحَوَّفَ تُخْمَـةَ أصـيافِه * فعوَّدهمْ أكْلَةً واحـده

ومن قوله :

ألا قُلْ لعبد الله إنّك واحِـدٌ * ومثلُك فى هذا الزمان كثيرُ
قطعتَ إخائى طالمًا وهجَرْتَنى * وليس أخى من فى الإخاء يَجور
أُديم لأهـل الوُدّ وُدّى وإنّى * لمن رام هَجْرى طالمًا لَهَجُـور
ولو أنّ عَصْى رَأبَى لقطعتُـه * وإنى بِقَطْع الرائبين جَـدير
فلا تَحْسَبَنْ مَنْحِى لك الودَّ خالصا * لعِـزٍّ ولا أنّى إليـك فقـير
ودونَك حَظّى منك لستُ أُريده * طَوَالَ الليـالى ما أقام ثَبِـير (٢)

(١) مناص : مدافع ، من قولهم ناصاه مناصاة : أحد كل منهما صاحبه . (٢) ثبير : اسم جبل .

كان حَمّادٌ صديقا لحَفص بن أبي بُرْدَة ، وكان حَفْصٌ أعْمَشَ أفطَسَ أعْصَبَ مُقَبَّح الوجه، فاجتمعوا يوماً على شَرَابٍ وجعلوا يَتَناشَدون ويتحدّثون ، فأخذ حفصٌ يَطْعَن على مُرَقِّش ويعيبُ شِعْرَه ويُلَحِّنه ، فقال له حمّاد :

لقد كان فى عَيْنَيْك يا حفصُ شاغِلٌ * وأنِفٍ كَثِيلِ(١) العَوْدِ عما تَتَتَبَّعُ
تَتَبَّعُ لَحْنًا فى كلام مُرَقِّشٍ * ووجهُك مَبْنِيٌّ على اللحن أجْمَع
فأُذْنَاكَ إقْوَاءٌ وأنْفُكَ مُكْعَمٌ * وعَيْناك إيطَاءٌ فأنتَ المُرَقِّعُ

ومن قوله :

إنّى أحبُّك فاعلمِى * إن لم تكونى تَعْلَمِيا
حبًّا أقَلَّ قليلِه * كجميع حبِّ العالَمِيا

وأنْشَدَ بشّارٌ قولَ حمّاد عجرد :

أخِى كُفَّ عن لَوْمى فإنّك لا تدرى * بما فعل الحبُّ المبرّح فى صدرى
أخى أنتَ تَلْحَانى وقلبُك فارِغٌ * وقلبِىَ مشغولُ الجوانِح بالفِكر
دَوائى ودَائى عند من لو رأيتَه * تقلَّبُ عَيْنَيْه لأقْصَرْتَ عن زَجْرى
فأُقسم لو أصبحتَ فى لوعة الهوى * لأقصرتَ عن لومى وأطْبَبتَ فى عُذرى
ولكن تَلافى منك أنّك ناصِحٌ * وأنّك لا تدرى بأنّك لا تدرى

فطَرِب بشّارٌ ثم قال : ويْلَكُم أحسَن والله ! مَنْ هذا ؟ قالوا : حمّاد عجرد ، قال . أوَّهْ وكَتَمْتُمونى والله بقيّةَ يومى لِهَمٍّ طويل ، والله لا أطْعَمُ بقيّةَ يومى طَعاما ، ولأصُومَنَّ عَمّا بما يقول السَّطِلّ مثل هذا .

قال محمّدُ بن الفَضْل السَّلُولىّ : لَقِيتُ حماد عجرد بواسط وهو يمشى وأنا راكبٌ ، فقلتُ له : انطلق بنا الى المنزل ، فإنى الساعةَ فارِغٌ لتتحدّث ، وحبَستُ عليه الدّابّةَ ، فقطَع شُغْلٌ عَرَضَ لى لم أقدِر على تركه ، فمضيتُ وأنْسيتُه ، فلما بلغتُ المنزل خِفْتُ شرّه فكتبتُ اليه :

(١) الثيل : وعاء قصيب البعير ، والعود : البعير .

أبا عُمَـــرَ آغفِرْها هُـديتَ فإنّنى * قَـدَ آذْنَبْتُ ذَنْبًا محبطًا غيرَ عامد
فلا تَجْدَنْ فيـــه علىّ فإنّنى * أُقِرُّ بإجْـــرامى ولستُ بعائد
وهَبْـــه لما تَفْـديك نفسى فإنّنى * أرى نِعْمَةً أن كنتَ لستَ بواحد
وعُدْ منك بالفضل الذى أنتَ أهلُه * فإنك دو فضـــلٍ طَريفٍ وتالد

فأجابنى عن الأبيات :

محمّدُ يابَا الفضـــلِ ياذا المَحامدِ * ويابهجةَ الدادى وزَيْنَ المَشاهد
وحقّك ما أذنبتَ مذ عرفتَنى * على خطأ يوما ولا عَمْدِ عامد
ولو كان ما ألفيتنى متسرّعا * اليك به يومًا تَسَرُّعَ واجِـــد (١)
ولو كان ذوفضلٍ يُسَمّى لفضله * بغير آسمـــه سُمِّيتَ أمَّ القلائد

فبينا رقعتُه فى يدى وأنا أقرؤها اذ جاءنى رسولُه برقعه فيها :

قد غَفَرْنا الذنبَ يابنَ الـ * ـفضـــلِ والذنبُ عظيمُ
وَمُسِيءٌ أنتَ يابن الـ * ـفضـــلِ فى داك مُلِيمُ
حين تحشانى على الذنـ * ـب كما يُحْشَى اللئيمُ
ليس لى إن كان ما حِفْـ * ـتَ من الأمر حريمُ
أنا والله ولا أُفـ * ـحَرُ للغيظ كَظُوم
وبأصحابى ولا ريـ * ـبَةَ بَرٌّ ورحـــيم
وبما يُرْضِـــيهمُ عنّـ * ـى ويُرضِينى علِـــيم

كان عثمان بن شَيْبَةَ مُبَجَّلا وكان حمّاد يهجوه ، فجاء رجل كان يقول الشعرَ الى حماد فقـال له :

أعِنّى من غِنَاك ببيْت شِـعْرٍ * على فقرى لعثمان بن شـيبه

فقـال :

فإنك إن رَضِيتَ به حليـلًا * ملأتَ يديْك من فقر وخَيْبه

(١) أى لو كان لك ذنب ما صادفنى مسرعا اليك بالمكافأة .

فقـال له الرحل : جَزاك اللهُ خيرا فقـد عرّفتنى من أخلاقه ما قطّعنى عن مدحه وصنت وجهى عنه .

لمـا مات محمدُ بن أبى العباس طلَب محمد بن سليمان حمادَ عجرد لمـا كان يقوله فى أخته زينب من الشـعر ، فعلم أنه لا مُقامَ له معـه بالبصره ، فاستجار بقبر أبيـه سليمان بن على وقال فيه :

مِنْ مُقِرٍّ بالذنب لم يُوْجِبِ اللـ * ـهُ عليـه بسَيِّئٍ إقْـرارا
ليس إلا تفضـل حلمك يَعْـ * ـتَدّ بـلاءً وما يعُـدّ اعترارا
يا ابنَ بنتِ النبىّ أحمدَ لا أحـ * ـعَلُ إلا اليـك مسـك الفِرارا
غيرَ أنّى حملتُ قـبرَ أبى أيّو * ـبَ لى من حوادث الدهر جارا
وحَرِيٌّ من استجار بذاك الـ * ـقـبر أن يأمَنَ الرّدى والعِثارا
لم أجد لى من العباد مُجيرا * فاستجرتُ الترابَ والأحجارا
لستُ أعتاضُ منك فى نُفْيَةِ العـزّة قَطّانَ كلّها أو بِـزَارا
فأنا اليومَ جارُ من ليس فى الأر * ـضِ مُجِـيرٌ أعزُّ منـه جِوارا
يا ابنَ بنتِ النبىّ يا خيرَ من حطّـ * ـتْ اليه الغَوارِبُ الأكْوارا
إن أكن مذنبًا فأنتَ ابنُ من كا * ـن لمن كان مذنبًا غفّارا
فاعْفُ عنّى فقد قَدَرْتَ وحيرُ الـ * ـعفو ما قلتَ : كُنْ ، فكانَ اقتدارا
لو يُطيـلُ الأعمـارَ جارٌ لعـزّ * ـ كان حارى يُطَوّل الأعمارا

فقـال : والله لأُلَثّنّ قبرَ أبى من دمه ، فهرب حمّاد إلى بغـداد ، فعاذ بجعفر بن المنصـور فأجاره ، وقال : لا أرضى أو تهجوَ محمد بن سليمان ، فقال يهجوه :

قل لوَجْه الخَصِىّ ذى العار إنى * سوف أُهدى لزينبَ الأشعارا
قد لعَمْرى فرَرْتُ من شدّة الحو * ـفِ وأنكرتُ صاحِبىَّ نَهارا
وظننتُ القبورَ تمنـع جارًا * فاستجرتُ الترابَ والأحجارا

كنتُ عبد آستجارتى بابى أيّ * ـوب أنمى صَلالةً وحَسارا
لم يُجِرْنى ولم أجِد فيه حظًّا * أصْرَم اللهُ ذلك القبر نارا

فبلغ هجاؤه محمدَ بن سليمان فقال : والله لا يُفْلِتُنى أبدا، وإنما يزداد حَتْفًا بلسانه! ولا واللهِ لا أعفو عنه ولا أتغافل أبدا .

ومن قوله :

إن الكريمَ ليخفِى عنك عُسْرَته * حتى تراه غَنِيًّا وهو مَجْهُود
وللبخيل على أمواله عِلَلٌ * زُرْقُ العيون عليها أوجُهٌ سُود
إذا تكرّمتَ أن تُعطى القليلَ ولم * تَقْدِر على سَعَةٍ لم يَظْهَرِ الجُود
أبْرِقْ بخير تُرَجَّى للموال فما * تُرْجَى الثمارُ إذا لم يُورِقِ العُود
بُثَّ النوالَ ولا تَمْنَعْك قِلَّته * فكُلُّ ما سَدّ فقرًا فهو محمود

وقال أيضا :

كَمْ من أخٍ لك لستَ تُنْكِرُه * ما دمتَ من دنياك فى يُسْر
مُتَصنِّعٌ لك فى مَوَدّته * يلقاك بالترحيب والبِشْر
يُطرى الوفاءَ وذا الوفاء ويَذْ * حَى الغَدْر مجتهدا وذا الغدر
فإذا عداك والدهرُ ذو عِيَرٍ * دهرٌ عليك عَدَا مع الدهر
فارفُضْ بإجمالٍ مودّةَ مَنْ * يَقْلِى المُقِلَّ ويعشَقُ المُثْرِى
وعليك مَنْ حَالاه واحدةٌ * فى العُسر إمّا كنت واليسر
لا تَخْلِطَنّهُمُ غيرهمُ * من يَخْلِطُ العِقيان بالصُّفْر!

وهو القائل فى محمد بن طلحة :

زرتُ آمرأً فى بيته مرةً * له حَياءٌ وله حِيرُ
يكره أن يُخْجِلَ إخوانَه * إنّ أذَى التُّحْمة محذور
ويَشْتَهِى أن يُؤْجَروا عنده * بالصَّوْم والصائمُ مأجورُ
يا ابنَ أبى شُهْدَةَ أنتَ آمرؤٌ * بصحّة الأبدان مسرور

وهو القائل فى محمد بن أبى العبّاس السَّفاح :

أرجوك بعد أبى العباس إذ نَابا * يا أكرمَ الناس أعْرَاقا وأعصابا
لو نحّ عُودٌ على قـــوم عُصَارتَه * لَمجّ عودُك فيا المِسْك والبَـانا

قيل : إن حمادا مضى الى الأهْوَاز ، فأقام هناك مُسْتَتِرا ، وبلَغ محمدا خبرُه فأرسل مولى له الى الأهواز ، فلم يزل يطلبُه حتى ظفِر به فقتلَه عِيلَةً . وقيل : إنه خرج من الأهواز يريد البصرة ، فمر بشِيرَاز فى طريقه ، فمرِض بها ، فاضْطُرّ الى المقام بسبب علّته ، فاشتدّ مرضُه فمات هناك ودُفِن على تَلْعَـةٍ . وكان بشّارٌ بلغه أن حمادًا عليـلٌ ، ثم نُعِىَ اليه قبل موته ، فقال بشّـار :

لو عاش حمّـاد لهَوْنا به * لكنّه صار الى النّـار

فبلغ هذا البيتُ حمادًا قبل أن يموت وهو فى السِّياقِ[1] ، فقال يردّ عليه :

نُبِّئتُ بشّارًا نَعَـانى ولا * ـموتِ برَأنى الخالقُ البارى
يا ليتَنى متُّ ولم أهْجُـــه * نَعَم ولو صِرتُ الى النّـار
وأىّ نَحْىٍ هو أنحى مَن أتى * يُقـال لى يَا سِبُّ بشّـار[2]

فلما قتل المهدىّ بشارًا بالطَيلَسان اتّفق أن حُمِل الى منزله مَيّتًا ، فدُفِن مع حمّاد على تلك التَّلْعَـةِ ، فمَرّ بها أبو هِشام البَاهِلىّ الشـاعر البصرى الذى كان يُهاجِى بشارًا ، فوقَف على قبريهما فقـال :

قد تَبِـع الأعمى فما بمجـردٍ * فأصبحا جارَيْـن فى دار
قالت بِقاعُ الأرض لا مَرْحبًا * بقُـــرْبِ حمّـادٍ وبشّار
تَحَـاوَرا بَعْـــد تَنَائيهما * ما أبغضَ الجارَ الى الجار
صـارا جميعا فى يَدَىْ مالِك * فى النارِ والكافرُ فى النار

(١) السياق : الاحتضار . (٢) السب : الكثير السباب .

٣ — مَرْوان بن أبي حَفْصة[1]

« لم يكن[2] مَرْوانُ متصرِّفا فى فنون الشعر، ولعله لم يَعْدُ منها فنًّا أو فنَّين، فلسنا نعرف له غَزَلا إلا هـذا الغزل الذى تعوّد الشعراءُ أن يبدءوا به مدائحَهم ، ولسنا نعرف له هجاءً إلا هذا النحوَ من الهجاء الذى يضطر اليه الشـعراء السياسيون حين يدافعون عن مذهبهم ويهاجمون خصومهم . على أنّ موقف مروان كان فى هذا دقيقا جدا، فهو لم يكن ينصُر بنى العباس على بنى أميّة فيبلغُ منهم ما يريد، ويهجوهم فى حُرّية، وإنما كان السيف هو الذى انتصر للعباسيين من بنى أمية، وكان العباسيون فى حاجة الى مَن ينصرهم على العَلَوِيِّين وأتباعهم من بنى هاشم، ولم يكن هجاء العلويين يسيرا ! كان الذين يأباه فى ذلك الوقت، وكانت كرامة الخلافة العباسية نفسها تأباه أيضا، فالعلويُّون من بنى هاشم وهجاؤهم هجاءٌ للعباسيين ، ومن هنا سلك مَرْوان وأمثالُه من الشعراء السياسيين الذين ناصلوا عن حقوق العباسيين مسلكَ الدفاع والمناطرة الشريفه البريئه من الشتم والقَذْف، فكان دفاعهم أنبل، وكانت مناظراتهـم أحسنَ وقعًا من هجـاء أولئك الشتّامين المسرفين فى الشتم، ثم لا نعرف

---

(١) هو من الشعراء الموالى أصل جده من سبى اصطخر، وكان علامًا اشتراه عثمان بن عفان ووهبه لمروان بن الحكم، وأقام بعدئذ باليمامة، وقد اختلفوا فى حقيقة نسبه . شب مروان على كره الشيعة لأنه من موالى بنى أمية وقد حارب معهم ، وكان شجاعا محنكا ، فلما نبغ فى الشعر قدم بغداد ومدح المهدى ثم الرشـيد ، وكان يتقرب اليه بهجاء العلويين، وهو من الفحول المقـدّمين، أوّل من شهره ونوّه به معن بن زائدة الجواد المشهور بقصـيدة نونية مدحه بها ، مطلعها .

معن بن زائدة الذى ريدت به ✻ شرفا على شرف بنو شيبان

ولكنه اشتهر على الخصوص بقصيدة لامية مدح بها معنا مطلعها

بنـو مطر يوم اللقاء كأنهم ✻ أسود لهم فى بطن حمقاء أشبل

فأجازه عليها بمـال كثير، فكان كلما زاده معن عطاء زاده مروان مدحا . توفى سنة ١٨١ هـ . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ٩ ص ٣٦) وابن خلكان (ج ٢ ص ١٣٠) والشعر والشعراء (ص ٤٨١) وجواهة الأدب (ج ١ ص ٤٤٧) والفهرست لابن النديم (ص ١٦٠) .

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

لمروان مُجُونا ولا عَبَثا، فلم يكن كما قلنا ماجنا ولا عابثا وإنما كان بخيلا، والبخل والعبث شيئان لا يتفقان، ومن ضنَّ على نفسه بالطعم وطَيِّبات الطعـام لم يستبح لنفسـه خمرا ولا ما تستتبعه الخمر . ثم لا نعرف لمروان خمـرا وما نَحْسَب أنه فاخر أو مال الى الفخر، فقـد كان رجلا عمليّا يَعْنيه أن يظفَر بالمكانة والثروة وكان يضَنّ بوقته وجُهْده على الفخر الذى لا يفيد . لم يَعْرِض إذنْ إلا لفنَّين اثنين : المديح والرِّثاء، وهو فى المدح أشعر منه فى الرثاء وهذا طَبَعىّ، فهو راغبٌ حين يَمدح، يطلب المـال ويحرِص على أن يظفَر به، فمعقولٌ أن يُجيد وأن يبلُغ من الإجادة حظّا عظيما، أما فى الرثاء فهو لا يرغَب ولا يطلب مالا وإنمـا يَفِى بعهـد ويشكر صنيعة . ومعقولٌ أن موقفه هـذا لا يدعوه الى الإجادة إلّا أن يكون حسّاسا دقيقَ الشعور راقِىَ النفس، ولم يكن مروان من هـذا كله فى شىء، وإنمـا كان كما قلتُ لك رجلا عمليّا يريد المـال . على أنّ رثاءه لمَعْنٍ ليس بالردىء وكذلك رثاؤه للهدىّ، وهل نستطيع أن نَعُدّ رثاءه للهدى رثاء! هو مدح لأنه عَزاء للخليفة الجديد، ففيه ذِكر للخليفة الراحل، والثناء على وارثه، وفيه المَثُوبة والعطاء . فهو الى المدح أقرب منه الى الرثاء .

أما مَدْح مروان فى آيات المدح العربىّ، ونحن لا نحفظ منـه إلا متفرقات قليـلة ولكنها تكفى لنحكم أنّ مروان كان قد أتقنَ المدح وبَرَع فيه ، بل نحسب أنه برَّز فى هـذا الفنّ على غيره من المعاصرين ، ولكنّ مَدْح مروان ينقسم الى قسمين متمايزين :

أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف، وهو موجّه لمعن بن زائدة، فهو يُفتَنّ فى وصف مَعْن بالجود والكرم والشجاعة والحـزم، ثم يفتنّ فى مدح بنى شَيْبان الذين ينتمى اليهم معن، وهو لا يحرج فى مدحه هذا عن سُنّة الشعراء من قبله، ولكنه جيّد المعانى مُنتقاها، حَسَن الألفاظ صافيها .

وأما القسم الثانى فهو هـذا المدح السياسىّ الذى كان يُنْشِده الخلفاءَ من بنى العباس، وهو مدح إن شئتَ ولكنه يمتـاز عن المدح المعروف بمـا فيه من هـذا الضال السياسىّ

الذى كان يحتاج الى مَهارة وفطنة ودقّة وخفّة ، والذى كان يضطر صاحبه الى أن يقهر العلويّين دون أن يؤذيهم ، والى أن يبصُر العباسيّين دون أن يزدرى خصومَهم ، وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد ، فقد أغضب العلويّين لا لأنه آذاهم أو هضمهم فيما نعتقد ، بل لأنه كان خصما قويّا عنيدا ماهرا فى الخصام .

ثم هناك شيئان لا بدّ من الإشاره اليهما ليكُمل رأيا فى مروان ، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكما معلّلا إن صحّ هذا التعبير .

الأول : أنّ مروان لم يكن عِراقيّا ولم يرض الإقامة فى العراق ولم يُطِل عِشْرة العراقيّين من أهل المجُون والعَبَث ، وإنما كان من أهل اليمامة أقامَ فيها لا يَبْرَحها إلا وافدا على أمير أو وزير أو خليفة ، فاذا أنشد قصيدته وظَفِر بجائزته عاد الى اليمامة وأقامَ فيها عَامَهُ ثم استأنف الرحلة . ولهذا أثَرُه فى شعر مروان ، فهو أقربُ الى شعر الجاهليّين والإسلاميّين منه الى شعر المُحْدَثين من شعراء الحضارة العباسيّة ، تقرؤه فتجد عليه هذه المَسْحة التى تحلو أو تكاد تحلو من الدُّعابة والخِفّة ، وتمتاز بشىء من الجلال والرصانة ، يُمثّل البادية تمثيلا صحيحا ، ولهذا أثَرُه من وجهة أخرى ، فقد رضِى علماء اللغة جميعا عن مروان وأحبّوه من هذه الناحيه ، وما أشكّ أنّا فى أنهم كانوا يودّون لو استطاعوا إيثاره على بَشّار وأبى نُوَاس ، لأنه كان أقرب منهما الى الأسلوب البدوىّ القديم ، ولكن أنّى لهم ذلك ! وقد سَلّط الله عليهم لسان بشار وأبى نواس فاضطروا الى أن يحابُوا هذين الشاعرين ويتملّقوهما ، وأجمعوا أو كادوا يُجمعون على تقديم بشار وإيثاره على مروان . ومع ذلك فليس الى المقارنة سبيل بين الشاعرين اذا اتخذنا وِجْهة البحث والنقد ، هذه الوجهة التى كان يُعْنَى بها علماءُ اللغة وهى وجهة المتانة والرصانة فى اللفظ والأسلوب ، لا يُقَاس الى مروان فى هذا أحدٌ من شعراء العراق ، أما اذا اتخذنا وِجْهةً أخرى للنقد ، اذا اتخذنا اختلافَ الفنون التى طَرَقها الشاعر ، وقُرْبَ المأخذ ، والدنوّ من أذهان الناس والقدرة على تمثيل حياتهم ، فليس مروان يقاس الى بَشّار ولا الى أبى نُوَاس نوع خاص ؛ على أنّ من علماء اللغة من استطاع أن يكون شجاعا شريها فى فنّه لا يحاف

ولا يهاب فصَدَقَ نفسَه وصَدَقَ الناسَ، وآثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين، وهذا العالمُ اللغوىّ هو ابن الأعرابىّ الذى حتم الشعر بمروان وأبى أن يدوّن لأحد من المحْدَثين بعده، والذى كان يُنشد مع الإعجاب الشديد هذه الأبيات الحيّده من شعر مروان، وهى:

بَنُـو مَطَرٍ يومَ اللقـاءِ كأنهـم ، أسودٌ لها فى لَطْى خَفَّانَ أشْـبُلُ
هُمُ يَمنعـون الجار حـتى كأنّمـا ، لِجارهمُ بين السِّماكَيْنِ مَـنْزِلُ
لَهَاميمُ(١) فى الإسلام سادُوا ولم يكن كأولهم فى الجاهليّـة أوّلُ
هُمُ القومُ إنْ قالوا أصابوا وإنْ دُعُوا احابُوا وإنْ أعْطَوْا أطابُوا وأجْزَلُوا
ولا يستطيع الفاعلون فَعَالَهم وإنْ أحسنوا فى النائبات وأجملوا

وكان ابن الأعرابىّ يقول: لو أنّ مَعْنًا أعطى مروان كلّ ما يملك بهذه الأبيات لَمَا بلغ حقّه.

الثانى: أنّ مروان لم يكن سريعا فى الشـعر ولا متعجّلا ولا مسترسلا مع الطبع وإنما كان بطيئا متمهّلا. كان يجيد الشعر لأنه كان يُجوّده. كان يسلك هذه الطريقه التى يزعُم الرُّواة أنّ زُهَيرا كان يسلكها فى هذه القصائد التى يُسَمُّونها الحَوْلِيّات، كان يُنْفق أشْهُرًا فى إنشاء القصيدة وأشهرا فى إصلاحها وأشهرا فى عَرْضها حتى اذا استقام له هـذا كلُّه أنشد قصيدته لممدوحه خليفـةً كان أو وزيرا أو أميرا، فليس عجيبا مع هذه الأناة أن يحلو شعره ممـا يُستَنكَر وأن يبرأ من الصعف والوحشيّة معا. ولقد يُحَدّثنا الرواة بطائفـة من أخبـار مروان مع اللغويين والشـعراء الذين كان يَعْرِض عليهم شعرَه قبل أن يُنْشـده الخلفاءَ. ولستُ أُشير إلّا إلى سيرته مع بَشّار فلها معناها. كان مروان يعرض القصيده على بشّار ويسأله رأيه فيهـا فلا يجيبه بشار بأنها جَيِّـدة أو بأنها رديئة، بل يُقَدِّر له قيمـة القصيدة ماليًّا، فيقول: سيعطونك عليها كذا وكذا .. وقد صـدق بشار مرّتين فأظهر له مروانُ العَجَبَ من ذلك، فقال بشار: ألم أقل لك إنى أعلم الغيب! ولم يكن يعلم الغيب،

(١) لهاميم واحدها لهموم، وهو العظيم الكثير الخير.

وإنما كان يفهم مروان ويفهم الخلفاء ويفهم الميول السياسية التى كان من شأنها أن تُحْزِل حظّ مروان من العطاء .

كان مروان متناقصا ولكنه تناقُصٌ مفهوم، كان شديدَ الحِرص على الإجادة، فكان يشكّ فى شعره، ويستشير فيه الشعراء والنُّحاة، ولكنّه كان مع ذلك مُعجَبا بنفسه لا يقدِّم عليها أحدا بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة : الأخطل والفرزدق وجرير . وآسمعْ رأيه فيهم وفى نفسه، فقد عَقَدَه شعرا لَيُثْبِتَ كما يقول :

ذَهَبَ الفَرَزْدَقُ بالفَخَار وإنّما * حُلْوُ القَريض ومُرُّهُ لِجَرِيرِ
ولقد هَمَمْتُ بأن أمصَّ أخطلَ تَغْلِبٍ * وحَوَى اللُّهَى ببيانه المشهور
كلُّ الثلاثة قد أجادَ مدحُه * وهجاؤه قد سارَ كلَّ مَسِير
ولقد جَرَيتُ ففُتُّ غير مهلَّل * بجِرَاءِ لا قَرِفٍ ولا مبهور
إنى لآنف أن أُحرّ مِدْحه * أبدًا لغير حليفة ووزير
ما صرّنى حَسَدُ اللئام ولم يَزَل * دو الفضل يَحْسُده ذوو التقصير

أما رأْىُ مروان فى النقد فبديع، كان يُنشِد الشعر لامرئ القيس ويقول : هو أشعرُ الناس، ثم ينشد شعر الأعشى ويقول : هو أشعر الناس، ثم ينشد شعر زهير ويقول : هو أشعر الناس، حتى اذا أنشد لطائفة كثيرة من الشعراء، فرآهم جميعا أشعرَ النـاس ، قال صاحكا : الناس أشعر الناس ! ولست أعرِف رأيا كهذا الرأى يمثّل الشك فى نقد الناقدين المعاصرين والسخرية بهذا النقد» .

وننتقل من ذاك الوصف الرائع الى ذكر نبذة صالحة من أخباره وأشعاره .

دخل مروان بن أبى حَفْصة على المهدىّ بعد وفاة مَعْن، فأنشده مديحا فيه، فقال له المهدى : ألستَ القائل :

أقَمْنا باليمامة بعْدَ مَعْنٍ * مُقاما لا نُريدُ به زَوالَا
وقلنا أين نَرْحلُ بعد مَعْنٍ * وقد ذهب النوالُ فلا نَوالا

قد ذهب النوال فيما زعمتَ، فَلِمَ جئتَ تطلب والنا؟ لا شيء لك عـندنا . فلما كان من العام المقبل تلطّف حتى دخل مع الشعراء، وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء كل عام مرة، فمثّل بين يديه، وأنشد — بعد رابع أو خامس من الشعراء — :

طَرقَتْكَ زائرةٌ حُيِّ خَيالَهـا * بيضاءُ تخلِـط بالجمـال دَلالها
قادتْ فؤادَكَ فاستقادَ ومثلُها * قادَ القلوب الى الصِّبا فأمالها
فكأنّما طَرَقتْ سعدة رَوْضةٍ * تَهتَّت بها دِيَمُ الربيـع طِلالهَا
باتتْ نسائل فى المنام مُعرِّسًا * بالبيد أشْعَثَ لا يَمَـلّ سؤالها
فى فِتيةٍ هجموا عِرارا بعـد ما * سمِعُوا مُراعَشة السُّرى ومِطالها
فكأنّ حَشْوَ ثيابهـم هِـدَيَّةٌ * نحَلتْ وأعملتِ القُيونُ صِقالهَا
وصعوا الخدودَلدى سواهم جُنّح * تشكو كُلوم صِفاحها وكَلالهَا
طَلَبتْ أميرَ المؤمنين فواصلتْ * بعـد السُّرى بِغُدُوها آصالهَـا
نَزعتْ اليكَ صواديًا فتقادفتْ * تطوِى الفـلاةَ حرُونَها ورمالهَا
يتمعن ماحيـةً يَهُـزّ مِراحُها * بعـد النحول تَلِيلَها(١) وقَذالهـا
هوجاءَ تَدّرِع الرُّبا وتَشُـقّها * شقّ الشَّموس إذا تُراع حلالهَا
تنجو إذا دَفَع القَطِيعُ كما نحَتْ(٢) * خَرجاءُ(٣) مادرت الظلامَ رِئالهـا(٤)
كالقوس ساهمة أنتك وقدتُرى * كالبُرْج تملأ رَحْلها وجبالهـا

ومنهـا .

أحيـا أميرُ المؤمنين محمدٌ * سُـنَنَ النبيّ حرامَها وحلالهـا
ملك تَفـرّع نبـعةً من هاشم * مدّ الإلهُ على الأنام ظِلالهَـا
جبَـلٌ لأمتـــه تلوذ بركنه * رَادَى جبالَ عدوّها فأزالهـا

---

(١) التليل : العنق . (٢) تنجو : تسرع . (٣) الخرجاء : النعامة . (٤) الرئال : مراح النعامة واحدها رأل .

لم يَنْشَها مما يَخاف عظيمةٌ * إلا أحال لها الأمورَ مُجالَها
حتّى يُفرّجها أعزُّ مهذّب * ألْقَى أباه مُفرِّجا أمثالَها
ثَنْتٌ على زَلَل الحوادث راكبٌ * من صَرْفهنّ لكل حالٍ حالَها
كِلتا يديْك جَعلتَ فصلَ نوالها * للسلمين وللعدوّ وبالَها
وقعَتْ مواقعها بعونك أنفسٌ * أذهبتَ بعد مخافة أوجالَها
ونصبت نفسك حيرَ نفس دونَها * وجعلت مالك واقيًا أموالَها
هل تعلمون خليفةً مِنْ قبله * أجرى لغايته التى أجرى لَها
طلَع الدروبَ مُشمِّرا عن ساقه * بالخيل مُنْصلِتا يُجدّ سالَها
قُودٌ تَريع إلى أعزّ لوجهه * ورٌ يُضيء أمامها وحلالَها
قصُرتْ حمائله عليه فقَلّصتْ * ولقد بحقّط قَيْنُها فأطالَها
حتى إذا وردتْ أوائلُ خيله * خَيْحَانَ ثَتّ على العدوّ رِعالَها (١)
أحمى بلادَ المسلمين عليهمُ * وأباح سهلَ بلادهم وجبالَها
أدمتْ دوابرَ خيله وشكيمَها * عاراتُهنّ وألحقتْ أطالَها
لم يُبْقِ بعد مُغارها وطِرادها * إلا نَحائزَها (٢) وإلا آلَها
رفع الخليفةُ باطِريّ ورَاشَى * بيد مباركة شكرتُ نَوالَها
وحُسِدتُ حتى قيل أصبح باغيا * فى المشى مُتْرَف شِيمِهِ مُحتالَها
ولقد حدوتَ لمن أطاع ومن عصى * نعلا ورِثتَ عن النبيّ مثالَها

فزحَف المهدىّ من صدر مُصلّاه حتى صار على البِساط إعجابا بما سمِع ، ثم قال : كم هى؟ قال: مائة بيت ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فكانتْ أوّل مائة ألف درهم أُعطِيَها شاعر فى أيام بنى العباس ، وهكذا فعل معه الرشيد لما أنشده قصيدته التى يقول فيها :

لَعمْرُكَ ما أنسى عَداة المُحَصَّب * إشارة سَلْمَى بالبنان المُخَضَّب
وقد صدَر المُحتاجُ إلّا أقلَّهمْ * مصادرَ شتى مَوْكِبا بعد مَوْكِب

(١) الرعال : القطع من الخيل واحدها رعلة . (٢) النحائز : الاسلاع .

قال مروان : دخلتُ على المهـدى فى قصر السلام، فلما سَلّمت عليه ودلك بِعَقِب مُخْطه على يعقوب بن داود، فقلت : يا أمـير المؤمنين، إن يعقوب رجل رَافِضىّ، وإنه سمعنى أقول فى الوِراثة :

أنّى يكونُ وليس ذاك بكائنٍ * لِبَنِى البناتِ وِراثةُ الأعمـامِ

فذلك الذى حمله على عداوتى، ثم أنشدته .

كانَ أمير المؤمنين محمدا * لَرَأفتـه بالنـاس للناس والدُ

فقال له المهدىّ : والله ما أُعطيك إلا من صُلْب مالى، فاعدِدنى، وأمر لى بثلاثين ألف درهم وكسانى جُبّة ومُطْرَفا، وفرض لى على أهل بيته ومواليه ثلاثين ألفا أخرى .

لمـا قدِم مَعْن من اليمن دخل عليه مروان والمجلس غاصّ بأهله، فأخذ بعضادتَى الباب وأنشأ يقول :

أرى القلبَ أمسى بالأواس مولّعَا * وإن كان من عهد الصِّبا قد تمتّعا

ويقول فيها :

ولمـا سَرَى الهم الغـريب فريتُـه * قِرَى من ازال الشكّ عنـه وأزمعا
عزمتُ فحلّتُ الرحيل ولم أكن * كذِى لُوثة لا يطلع الهـمّ مطلعا
فأمت ركابى أرضَ مَعْنٍ ولم تزل * الى أرض مَعْنٍ حيثما كان نُزّعا
نحائف لولا أنهـا سُخّرت لـنا * أتتْ عِزّةً من جهلهـا أن تورّعا
كسونا رِحال المَيْس[1] منهـا عواريًا * تَدَارَك فيهـا الثّىُّ[2] صَيْفا ومَرْبعا
فمـا بلغَتْ ضَعْفاءَ حتى تَواضَعتْ * دُراها وزال الجهـلُ عنها وأقلعا

الى أن قال :

وما العيشُ اذ عمّ البـلادَ نَصَوْبه * على الناس مِنْ معروف مَعْنٍ بأوسعا
تَدارك مَعْنٌ قبّـةَ الدّين بعـدَ ما * خَشِيا على أوتادها أن تُنَزّعا

(١) المَيس شجر عظيم تتخذ منه الرحال . (٢) الثىّ الشحم .

أقام على النَّهْر المَخوف وهاشمٌ * تُسَاقَى سِماما بالأسنّة مُقْعَا
مُقامَ آمرئٍ يأبى سوى الخُطّة التى * تكون لدى عِبّ الأحاديث أنفعا
وما أحجَم الأعداءُ عنكَ بقيّةً * عليكَ ولكنْ لم يَرَوْا فيكَ مَطْمعا
رَأَوْا مُخْدِرًا قد حرّبوه وعايسوا * لَدَى عِيله منهم جَرًّا ومَصْرَعا
وليس بثابيه ادا شدّ أن يَرَى * لدى نحره زُرْقَ الأسنّة شُرّعا
له راحَتاه العيْثُ والحَتْفُ فيهما * أبَى الله إلا أنْ تصُرّا وتنفعا
لقد دوّخ الأعداءَ مَعْنٌ فأصبحوا * وأمسَهُم لا يدفع الذلّ مَدْفَعا
نجيبُ مآجيبٍ وسيّدُ سادةٍ * دُرَى المجد من فَرْعَىْ نِزارٍ تفرّعا
لبانتْ خِصال الخير فيه وأكمَلتْ * وما كُمِلتْ خمسا سِوُه وأربعا
لقد أصبحتْ فى كلّ شرقٍ ومغربٍ * بسيفك أعناقُ المُرِيبين خُضَّعا
وطِئتَ حدود الحصرميّين وطأةً * لها هُدّ ركنٌ منهمُ فتَصَعْضَعا
فأقمعوْا على الأذناب إقماء مَعْشرٍ * يرون لروم السِّلْم أبقَى وأَوْدعا
ولو مُدّت الأيدى إلى الحرب كلها * لكفّوا وما مَدّوا الى الحرب أصبَعا

فقال له مَعْن . احتكم، قال عشره آلاف درهم، فقال مَعْن : رَبِحنا عليك تسعين ألفا، قال . أقلْنى، قال : لا أقال الله من يُقِيلُك .

لما مات المهدىّ وفدت العرب على موسى الهادى يُهنئونه بالخلافة ويُعزّونه عن المهدىّ، فدخل مروان فأحد بعضادتى الباب وقال :

لقد أصبحتْ نختال فى كل بلدةٍ * بقبر أمير المؤمنين المقابرُ
ولو لم تُسَكّن بابه فى مكانه * لما بَرِحتْ تبكى عليه المابرُ

مرض عمرو بن مَسْعده فدخل عليه مروان وقد أَلَمّ من مرضه، فأنشأ يقول :

صَحّ الجسم يا عمْرُو * لك التّمحيص والأجرُ
ولله علينا الحمـ * ـدُ والمِنّة والشكر
فقد كان شكا شوقًا إليك النّهى والأمر

قال موسى بن يحيى : أوصلنا الى مروان بن أبى حفصة فى وقت من الأوقات سبعين ألف درهم، وجمع اليها مالا حتى تمت مائة ألف وخمسين ألف درهم وأودعها يزيد بن مَزْيَد، فبينا نحن عند يحيى بن خالد إذ دخل يزيد بن مَزْيَد، وكانت فيه دُعابة، فقال: يا أبا علىّ، أودعنى مروان خمسين ومائة ألف درهم، وهو يشترى الخبر من البقّال، فغضب يحيى ثم قال: علىّ بمروان، فأُتى به، فقال له: قد أخبرنى أبو خالد بما أودعتَه من المال وما تتناعه من البقّال، والله لَمَا يُرَى من أثر البخل عليك أضرّ من الفقر لو كان بك. ويُروى أنه قال له: والله لَلْبخل أسوأ عليك أثرا من الفقر لو صِرْتَ اليه فلا بخل. وقال عمر بن شَبَّة قال مروان: ما فرِحتُ بشىء قطُّ فرحى بمائة ألف وهبها لى أمير المؤمنين المهدىّ، فوزنتها فزادت درهما، فاشتريت به لحما. وقال جَهْم بن حَلَف: أتينا اليمامة فنزلنا على مروان بن أبى حفصة فأطعمنا تمرا وأرسل غلامَه بفَلْس وسُكُرّجه ليشترىَ زيتا، فلما جاء بالزيت قال لغلامه: حُنَّنى؛ قال: من فَلْس! كيف أخونك؟ قال: أخذتَ الفَلْس لمسكك وآستوهبت الزيت. وقال التَّوَّزىّ: مرّ مروان بن أبى حفصة فى بعض سفراته وهو يريد مَغْنى آمرأة من العرب، فأضافتـه، فقال: لله علىّ إنْ وهب لى الأمير مائةَ ألف أنْ أهَب لك دِرْهما؛ فأعطاه ستين ألف درهم، فأعطاها أربعة دَوانق. وقال أبو دعامة: آشترى مروان لحما بنصف درهم فلما وضعه فى القدر وكاد ينضج دعاه صديق له، فردّه على القصّاب بنقصان دانق، فشكاه القصّاب وجعل ينادى هذا لحم مروان، وظنّ أنّه يأنف لذلك، فبلغ الرشيد ذلك فقال. ويلك! ما هذا؟ فقال أكره الإسراف.

دخل مروان على موسى الهادى فأنشده قوله فيه.

تَشَابه يومًا بأسُـه ونواله ... فما أحـدٌ يَدرى لأيّهما الفضلُ

فقال له الهادى: أيّما أحبّ اليك؟ أثلاثون ألفا معجّلة، أم مائةُ ألف تدوّن فى الدواوين؟ فقال له. يا أمير المؤمنين، أنت تُحسِن ما هو خير من هذا، ولكنّك أنْسيتَه، أفتأذن لى أن أذكّرك؟ قال: نعم، قال: تُعجّل لى الثلاثين ألفا وتُدوّن المائة ألف فى الدواوين، فضحك وقال: بل يُعجّلان جميعا، فحُمل اليه المال أجمع.

قال محمد الوَقْعى : آحتاز مروان برحل من بَاهلة من أهل اليمامه ، وهو يُنشِد قوما كان جالسا اليهم شعرا مدح به مروانَ بن محمد ، وأنه قُتِل قبل أن يلقاه و يُنشِده إياه ، أوله :

مروانُ يابن محمّـد أنتَ الذى * زِيدتْ به شرفا بـــو مروانِ

فأعجبته القصيدة ، فأمهل الباهلىّ حتى قام من مجلسه ، ثم أتاه فى منزله فقال له : إنى سمعت قصـيدتك وأعجبتنى ، ومروان قد مضى ومضى أهلُه ، وفاتك ما قدّرتَ عـنده . أفتبيعُنى القصـيدة حتى أنتحلها ، فإنه خير لك من أن تبقى عليك وأنت فقـير ؟ قال : نعم ؛ قال : بكم ؟ قال : بثلثمائة درهم ، قال : قد آبتعتُها ، فأعطاه الدراهم وحلّفه بالطلاق ثلاثا و بالأيمان المُحْرِجة ألّا ينتحلَها أبدا ، ولا يَنسُبَها الى نفسه ولا يُنشِدَها ، وآنصرف بهـا الى منزله فغيّر منها أبياتا وزاد فيها وجعلها فى مَعْن ، وقال فى ذلك البيت :

مَعْنُ بن زائدة الذى زِيدتْ به * شرفا على شرف بنو شَيْبانِ

ووفد بهـا الى معن حتى أثرى وآتسعتْ حاله ، فكان معن أول من رفع ذكره ونوّه به . وله فيه مدائحُ بعـد ذلك شريفة ومراثٍ حسنة . قال مروان : كان المنصور قد طلب معن بن زائدة طلبا شديدا وجعل فيه مالا ، فحدثنى معن باليمن أنه آضطرّ لشدة الطلب الى أن قام فى الشمس حتى لوّحَتْ وجهَـه ، وحفّف عارضيه ولحيته ، ولبس جُبّـة صوف عليظة ، وركب جملا من الجمال النّقالة يمضى الى البادية فيقيم بها ، وكان قد أبلى فى حرب يزيد آبن عمر بن هُبَيْرة بلاء حسنا عاظ المنصور وحَقد فى طلبه ، قال معن : فلمّا خرجتُ من باب حرب تبعنى أسودُ متقلّدا سيفا حتى اذا غبتُ عن الحرس قمص على حِطَام جمـلى فأناخه وقبض علىّ ، فقلت له : مالك ؟ قال : أنت طَلِبة أمير المؤمنين ، قلت : ومن أنا حتى يَطلُبنى أمير المؤمنين ؟ قال : معن آبن زائدة ، قلت : يا هذا ، آتّق الله ، وأين أنا من معن ؟ قال : دع هذا عنك ، فأنا والله أعرفُ بك منك ، فقلت له : إن كانت القصّـة كما تقول ، فهذا جوهر حملتُه معى يَفِى بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بى ، فخذه ولا تسفك دمى ، قال : هاته ، فأخرجته اليه ، فنظر اليه ساعةً وقال : صدقتَ فى قيمته ، ولستُ قابلَه حتى أسألك

عن شيء ، فإن صدَقْتنى أطلقتك، فقلت : قل، قال : إن الناس قد وصَفُوك بالجود فأحببنى، هل وهبتَ قَطُّ مالك كلّه؟ قلت : لا، قال : فنصْفَه؟ قلت : لا، قال : فثلثَه؟ قلت : لا، حتى بلغ العشر، فاستحييتُ، فقلت . أظن أنى قد فعلت هذا، فقال : ما أراك فعلتَه، أنا والله راحل وورق من أبى جعفر عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته آلاف الدنانير وقد وهبتُه لك ، ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور عنك بين الناس، ولتعلم أن فى الدنيا أجودَ منك فلا تعجبك نفسُك، ولتُحقِّر بعد هذا كلّ شيء تفعله ولا تتوقّف عن مكرمة، ثم رمى بالعِقْد فى مجرى وحلّ حِطام البعير وانصرف، فقلت : ياهذا، قد والله فضحتنى ولَسفكُ دمى أهون علىّ مما فعلت، لقد ما دفعتُه اليك فإنى عنى عنه، فضحك وقال : أردتَ أن تكذّبنى فى مقامى هذا، والله لا أحدث ولا أحد بمعروف ثما أبدا ومضى، فو الله لقد طلبته بعد أن أمِنت وبذلت لمن جاءنى به ما شاء، مما عرفت له خبرا وكأن الأرض ابتلعته . وكان سبب رضا المنصور عن معن أنه لم يزل مستترا حتى كان يوم الهاشمية(١)، فلمّا وثب القوم على المنصور وكادوا يقتلونه، وثب معن وهو متلثّم فانتضى سيفه وقاتل فأبلى بلاء حسنا ودنّ القوم عنه حتى نجا وهم يحاربونه بعد. ثم جاء والمنصور راكب على بغلة ولجامها بيد الربيع فقال له . تنحّ فإنى أحقّ باللجام منك فى هذا الوقت وأعظم فيه غَنَاء، فقال له المنصور : صدق فادفعه اليه، فأخذه ولم يزل يقاتل حتى انكشفت تلك الحال، فقال له المنصور : من أنت؟ لله أبوك! قال : أنا طَلِبتك يا أمير المؤمنين معْن بن زائدة ، قال : قد أمّنك الله على نفسك ومالك ومثلك يُصْطَنَع، ثم أخذه معه وجعل عليه وحبَاه وزيّنه ، ثم دعا به يوما فقال له : إنى قد أمّلتُك لأمر فكيف تكون فيه؟ قال : كما يُحبّ أميرُ المؤمنين، قال : قد وليتك اليمنَ فابسُط السيفَ فيهم حتى يُنْقَصَ حِلْف ربيعة واليمن، وأبلِغ من ذلك ما يحبّ أمير المؤمنين ، فولّاه اليمنَ وتوجّه اليها فبسَط السيف فيهم حتى

(١) مدينة بناها السفاح بالكوفة وذلك أنه لما ولى الخلافة نزل بقصر آل هبيرة واستتم بناءه وجعله مدينة وسماها الهاشمية ، فكان الناس ينسبونها إلى ابن هبيرة على العادة، فقال : ما أرى ذكر آل هبيرة يسقط عنها، فرصصها وسمى حيالها مدينة سماها الهاشمية ونزلها .

أسرف. قال مروان: وقدم معن بعقب ذلك فدخل على المنصور، فقال له بعد كلام طويل: قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء لولا مكانُك عنده ورأيه فيك لغَضِب عليك؛ قال: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: إعطاؤك مروان بن أبى حفصة ألف دينار لقوله فيك:

معنُ بنُ زائدة الذى زِيدتْ به ٠ شرفًا على شرف بنو شيبانِ
إن عُدّ أيام الفعال فإنما * يوماه يومُ نَدى ويومُ طِعانِ

فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أعطيتُه ما بَلَغك لهذا الشعر، وإنما أعطيته لقوله:

ما زِلتَ يومَ الهاشميّة مُعلِمًا * بالسيف دونَ حليفةِ الرحمن
فمنعتَ حَورَته وكنت وِقاءَه * مِنْ وقع كلّ مهنّدٍ وسِنان

فاستحيا المنصور وقال: إنما أعطيتَه ما أعطيتَه لهذا القول؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين؛ والله لولا مخافة الشُّنْعة لأمكنتُه من مفاتيح بيوت الأموال وأبحتُه إيّاها؛ فقال له المنصور: لله دَرّك من أعرابى! ما أهونَ عليك ما يعزّ على الرجال وأهل الحزم!

وأختم هذه الترجمة بموت مروان يَقُصّه قاتلُه. روى صاحب الأغانى عن رجل يقال له صالح بن عطيّة الأَصْخَم أنه قال:

لما قال مروان:

أنّى يكونُ وليس ذاكَ بكائنٍ ٠ لبنى الساتِ وِراثةُ الأعمامِ

لَزِمتُه وعاهدت الله أن أغتاله فأقتله أىّ وقتٍ أمكننى، وما زلت أُلاطِفه وأَرُوّه، وأكتب أشعاره حتى خُصِصْت به فأنِس بى جدا، وعرفتْ دلك بنو حفصة جميعا فأنِسوا بى، ولم أزل أطلب غِرّة حتى مرِض من حُمّى أصابته، فلم أزل أُظهر له الجزع عليه وأُلازمه وألاطفه حتى حلا لى البيت يوما، فوثبتُ عليه فأخذت بحَلْقه فما فارقته حتى مات، فخرجت وتركته فخرج اليه أهله بعد ساعة فوجدوه ميّتا وارتفعت الصَّيْحة، فصرتُ وتباكيتُ وأظهرت الجزع عليه حتى دُفن وما فَطِن لما فعلت أحد ولا اتّهمنى به.

٤ — أبو دُلَامَـــةَ (١)

كان أوّلُ ماحُفظ من شعره وأُسيئت الجوائزُ له به ، قصيدةً مَدح بها أبا جعفر المنصور وذكر قَتْلَه أبا مُسْلِم يقول فيها :

أنا مسلم حوّفتنى القتلَ فاتّحَى * عليك بما حوّفتنى الأسد الوَرْدُ (٢)

أنا مســـلم ما عرّ الله نعـــمةً * على عبـــده حتى يُغيّرها العبـــد

أنشـدها المنصورَ فى مَحْفِل من الناس فقال له : أحتكم ، فطلب عشرة آلاف درهم ، فأمر له بها ، فلما حلا قال له : إيه ، أمَا والله لو تعدّيتَها لقتلتك .

أمر أبو جعفر أصحابَه بلُبْس السواد وقلانِسَ طِوالٍ تُدعَم بعيدان من داخلها ، وأن يُعلّقوا السيوف فى المناطق ويكتنوا على طهورهم : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فقال أبو دلامه :

وكمْ رُحّى من إمامٍ رِيادةً * لحادٍ (٣) بطُوبٍ زادَه فى القلانس

تَراها على هامِ الرجال كأنهـا * دِبانُ يهـودٍ حُلّلت بالبَرانس

ودخل الى المنصور مرّة فأنشده .

إن الخَليط أجَدّ البَيْنَ فانتـجعوا * وزَوّدوك حَمالا ، بِئْسَما صَنَعوا

واللهُ يعـلم أنْ كادتْ لَيَنْبِهُم * يومَ الفِراق حَصَاةُ القلب تَصْدَع

عَجِبتُ من صِبْيَتِى يوما وأُمِّهِـم * أُمّ الدُّلامة لمّا هاجها الجَـزَع

---

(١) هو زياد بن الجون ، وسمى أبا دلامة نسبة إلى امه دلامة ، وهو كوفى المنشأ أسود اللون مولى لبنى أسد ، وكان أبوه عبدا لرجل منهم فاعتقه . أدرك أبو دلامة أواخر الدولة الأموية ، ولكنه مع فى الدولة العباسية ، وانقطع إلى أبى العباس السفاح والمنصور والمهدى ، وكانوا يقدّمونه ويصلونه ويستطيبون مجالسه ونوادره ، وفيه دعابة وطرف ، لا يخلو حديثه من نكتة أو ملحة ، وكان مع ذلك معدودا فى حملة المتهمين بالزندقة وفساد الدين ، وكان يشرب الخمر ولا يحصر صلاة ولا فروضا . توفى سنة ١٦١ هـ . وأخباره فى الأغانى (ح ٩ ص ١٢٠) وابن خلكان طبع بلاق (ح ١ ص ٢٦٧) والشعر والشعراء (ص ٤٨٧) والدميرى (ح ١ ص ١٣٢) والمستطرف (ح ٢ ص ٤٣) . (٢) فى الشعر والشعراء . "أما محرم" . (٣) فى الطبرى ج ٢ ص ٣٧١ طبع أوربا "فراد الامام المصطفى" .

لا بارك الله فيها من مُبَيِّهة * هبّت تلوم عيالى بعد ما هَجَعوا
ونحن مُشْتَهِو الألوانِ أوْحُهُا * سُودٌ قِباحٌ وفى أسمائنا شَنَع
إذا تَشَكَّت إلىّ الجُوعَ قلتُ لها * ما هاجَ حوعَك إلّا الرِّئُ والشَّبَع
لا والّذى يا أميرَ المؤمنين قَصَى * لك الخِلافةَ فى أسمائها الرَّفَع
ما زلتُ أُحْلِصها كَسْبى فتأكُلُه * دُونى ودونَ عِيالى ثم تَصطجِع
شَوْهاءُ مَشْأَةٌ(١) فى بطنها بَحَرٌ * وفى المفاصل من أوصالها قَدَع
ذكّرتُها بكتاب الله حُرْمَتَها * ولم تكن بكتاب الله تَنتفِع
فأخرَنْطَمَتْ(٢) ثم قالت وهى مُعْصَئِبَّةٌ * أأنت تتلو كتابَ الله يا لُكَع
أخْرُجْ لِتَسْعَ لنا مالًا ومَزْرَعَةً * كما لجيراننا مالٌ ومُزْدَرَعُ
واحدَعْ حليفتنا عنّا بمسألة * إن الحليفة للسُّؤّال يَخدِع

فضحك أبو حعفر وكتب له بصيعه .

كان واقفا بين يَدَى السَّفّاح فقال له : سلنى حاجتَك، قال : كلب أتصيّد به، قال : أعطوه إيّاه، قال . ودابّة أتصيّد عليها، قال : أعطوه دابّة، قال : وغلام يَصيد بالكلب ويقودُه ، قال : أعطوه غلاما، قال : وجارية تُصلِح لنا الصَّيْد وتُطعمنا منه، قال : أعطوه جارية، قال : هؤلاء يا أميرَ المؤمنين عبيدُك، فلا بدّ لهم من دارٍ يسكنونها، قال : أعطوهم دارًا تجمعهم، قال : فاين تكن لهم ضيعه فمن أين يعيشون؟ قال : قد أعطيتك مائة جَريب عامرة، ومائة جَريب عامره، قال . وما الغامره؟ قال ما لا نباتَ فيه، فقال : قد أقطعتُك يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جَريب عامره من فيافى بنى أسَد ، فضحِكَ وقال : اجعلوها عامرة ، قال : فأدْنِ لى أن أقبّل يدَك، قال: أما هذه فدَعْها، قال: والله ما منعتَ عيالى شيئا أقلّ ضررا عليهم منها، قال الجاحظ : فانظر الى حِذقه بالمسألة ولُطفه فيها، ابتدأ

(١) البحر خروج السرة ونتوءها وغلظ أصلها . والقدع . أعوجاج فى الرسغ من اليد أوالرجل حتى يقلب الكف والقدم الى إنسيها . (٢) أى غضبت .

بكلب فسَهَّل القصة به وجعل يأتى بما يليه على ترتيب وفكاهة حتى نال ما لو سأله بَديهة لما وصل اليه .

قال علىّ بن سَلَّام : كنت أسوق أما دلامة والسِّنْدِىّ إذ خرجت بِنْتٌ لأبى دلامةَ، فقال فيها أبو دلامة :

ما وَلَدَتْكِ مريمُ أمُّ عيسى * ولا رَبَّاكِ لقمانُ الحكيم

أخْزِ يا أبا عَطَاء، فقال :

ولكنْ قد تَصُمُّكِ أمُّ سوءٍ * الى لَبَّاتها وأبٌ لئيم

فضحك لذلك، ثم غدَا أبو دلامةَ الى المنصور فألفاه فى الرَّحَبَة يُصلِح فيها شيئا بريده، فأخبره بقصة ابنته وأنشده البيتين، ثم اندفع فأنشده بعدهما .

لو كان يَقْعُدفوقَ الشمس من كَرَمٍ قومٌ لَقِيل ٱقعدوا يا آل عبّاس

ثم ٱرتقُوا فى شُعاع الشمس كُلُّكمُ * الى السماء فأنتم أطهرُ الناس

وقدِّموا القائمَ المنصورَ رأسَكمُ فالعين والأنف والأُذْنان فى الراس

فاستحسنها وقال : ما علىّ شىء تحبُّ أن أُعينَك على قُبْح ٱبنتك هذه ؟ فأخرجَ خريطة كان قد حاطها من الليل، فقال : تملأ لى هذه دراهمَ، فملئتْ فوَسِعت أربعةَ آلاف درهم .

لما تُوفِّىَ أبو العباس السفّاح دخل أبو دُلامةَ على المنصور والناسُ عنده يعزّونه، فأنشأ أبو دلامة يقول :

أمسيتَ بالأنْبَار يا ابنَ محمدٍ * لم تستطِع عن عُقْرها تحويلا

ويْلى عليك وويلَ أهلى كلِّهم * وَيْلًا وَعَوْلًا فى الحياة طويلا

فلتبكيَنَّ لك النساءُ بعَبْرَةٍ * وليعْوِلَنَّ لك الرجال عَويلا

مات النَّدَى إذ مُتَّ يا ابنَ محمدٍ * وجعلته لك فى التراب عَديلا

إنى سألتُ الناسَ بعدك كلَّهمُ * فوجدتُ أسمحَ من سألتُ بخيلا

أَلِشِقْوَتِى أُخِّرتُ بعدك للتى * تَدَعُ العزيزَ من الرجال ذليلا

فلأحلفنّ بمينِ حقٍّ بَرَّةٍ * بالله ما أُعطيتُ بعدك سُولا

فأبكى الناسَ قولُه ، فغضب المنصور عصا شديدا وقال لئن سمعتك تُنشِد هذه القصيده لأقطعنّ لسانَك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أبا العباس أميرَ المؤمنين كان لى مُكرِما ، وهو الذى جاء بى من النَّدْو كما جاء الله بإخوة يوسفَ اليه فقل كما قال يوسف لإخوته : ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فسُرِّىَ عن المنصور وقال : قد أقلناك يا أبا دلامة ، فسل حاجتَك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كان أبو العباس أمرَ لى بعشره آلاف درهم وخمسين ثوبا وهو مريض ، ولم أقبضها . فقال المنصور . ومن يعرف هذا ؟ فقال : هؤلاء ، وأشار الى جماعة ممّن حَضَر ، فوثب سليمان بن حامد وأبو الجَهْم فقالا : صدق أبو دلامةَ نحن نعلم ذلك ، فقال المنصور لأبى أيّوبَ الخازن وهو مَعِيط : ياسليمان ، ادفعها اليه وسيِّره الى هذا الطاغية « يعنى عبد الله بن على » وقد كان خرج ناحيةَ الشام وأظهر الخلاف ، فوثَب أبو دلامة فقال . يا أمير المؤمنين إنّى أعيذك بالله أن أخرج معهم ، فوالله انى لمشئوم ، فقال المنصور : امْضِ ، فإن يُمْنِى يَغلِب شؤمَك فأخْرُج ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أُحبّ لك أن تجرّب ذلك منّى على مثل هذا العسكر ، فإنّى لا أدرى أيّهما يَغلِب ، أُمْنُك أم شؤمى ، إلا أنى بنفسى أوْثَق وأَعْرَف وأطْوَل تَجرِبةً ، قال . دعنى من هذا فمالَك من الخروج بُدٌّ ، فقال : إنى أصْدُقك الآن ، شهِدت والله تسعة عشر عسكرا كلُّها هُزِمت وكنتُ سببَها ، فإن شئتَ الآن على بصيره أن يكون عسكرُك العشرين فافعل ، فاسْتَغْرَبَ أبو جعفر ضحكًا وأمره أن يتخلّف مع عيسى بن موسى بالكوفة .

قال أبو دلامة : أُتِىَ بى المنصورُ أو المهدىّ وأنا سكرانُ ، فحلف ليُحرجنّى فى بَعْث حرب ، فأخرجنى مع رَوْح بن حاتم المُهَلّبى لقتال الشُّراة ، فلما التقى الجَمْعان قلت لِرَوْح . أمَا والله لو أنّ تحتى فرسَك ومعى سلاحَك لأثَّرْتُ فى عدوّك اليوم أثرًا تَرتضيه ، فضحك وقال . والله العظيم لأدفعنّ ذلك إليك ولآخذنّك بالوفاء بشَرْطك ، ونزل عن فرسه ودرع سلاحه ودفعهما إلىّ ودعا بغيرهما فاستَبدَل بهما ، فلما حصل ذلك فى يدى وزالت عنى حلاوة الطّمَع قلت له . أيها الأمير هذا مُقام العائذ بك ، وقد قلت أبياتا فاسمعْها ، قال : هات ، فأنشدتُه :

إنى استجرتُك أن أُقدَّمَ فى الوَغَى * لِتَطَاعُنٍ وتَنَازُلٍ وحِـــرَاب[1]
فهَبِ السُّيوفَ رأيتُها مشهورةً * متركتُها ومصيتُ فى الهُـرّاب
مادا تقول لِمـا يَجىء وما يُرَى * من واردات الموت فى النُّشّاب

فقال دَعْ عنك هذا وستَعْلَمْ، وبرز رجل من الخوارج يدعو للمبارزة : فقال : اخرج اليه يا أبا دلامة، فقلت : أَنشُدك اللهَ أيها الأمير فى دَمِى، قال : والله لتَخرُجنّ، فقلت : أيها الأمير فإنه أوّلُ يوم من أيّام الآخرة وآخرُ يوم من أيّام الدنيا وأنا والله جائع ما شَبِعَت منّى جارحةٌ من الجوع، فمُرْ لى بشىء آكلُه ثم أخرُج، فأمر لى برغيفين ودَجَاجة، فأخذتُ ذلك وبرزتُ عن الصفّ، فلما رآنى الشّارى أقبل نحوى وعليه فَرْو قد أصابه المطر فابتلّ وأصابته الشمس فانفعل وعياه تَقِدَان[2]، فأسرع إلىّ، فقلت له . على رِسْلِك ياهذا، كما أنت، موقف، فقلت : أتقتل من لا يقاتلك؟ قال : لا، قلت : أتقتل رجلا على دِينك؟ قال : لا، قلت : أفتستحلّ دلك قبل أن تدعو مَن تقاتله الى دينـك ؟ قال : لا، فاذهب عنى الى لعنة الله، قلت : لا أفعل أو تسمعَ منى، قال : قُلْ، قلت : هل كانت بينا قطُّ عداوةٌ أو تِرَةٌ أو تَعرِفنى بحال تُحفِظُك علىّ أو تعلم بينى و بين أهلك وِتْرا، قال : لا والله، قلت : ولا أنا والله أُصمِر لك إلا جميل الرأى، وإنّى لأهواك وأتحمل مدهك، وأديِن دينك، وأريد السوء لمن أرادَه لك، قال . ياهـذا حراك الله خيرا فانصرف، قلت : إن معى زادًا أحبّ أن آكُلَه معك وأحبّ مواكلتك لتتأكدَ المودّةُ بيننا ويرى أهلُ العسكر هَوَانَهم علينا، قال : افعل، فتقدّمت اليه حتى اختلفت أعناقُ دوابّنا، وجعلنا أرْكُبُنا على مَعَارفها والناس قد غُلِبوا ضَحِكا، فلما استوفينا ودّعنى، ثم قلت له : إن هذا الجاهل إن أقمتَ على طلب المبارزة ندبنى اليـك فتُتعِبنى وتتعب نفسك، فإن رأيتَ ألّا تبرُز اليوم فافعل، قال : قد فعلت، ثم انصرف وانصرفت فقلت لرَوْح : أما أنا فقد كَفيتُك قِرْنى، فقل لغيرى أن يكفيَك قرنَه كما كفيتك، فأمسك، وخرج آخر يدعو الى البِراز، فقال لى : اخرج اليه، فقلت :

(١) الحراب بمعنى المحاربة وفى الأغانى « صراب » .
(٢) هكذا بالأصل ولعلها : انفعل، من قولهم انفعلت يده : تقبضت .

إنّى أعـــود بروْح أن يقدّمنى ... الى البراز فتحزى بى بنو أسَـد
إنّ البراز الى الأقران أعلمُه * مما يفرّق بين الروح والجسـد
قد حالفتك المايا إن صَمَدْتَ لها * وأصحتْ لجميع الخلق بالرّصَد
إن المُهَلَّب حتّ الموت أورثكم ... وما ورثتُ احتيارَ الموت عن أحَد
لو أن لى مُهجةً أخرى لَحُدتُ بها * لكنّها خُلقتْ فردا فلم أُحِد

فصحك وأعمانى .

قال أبو أيّوب الموريانى لأبى جعفر وكان يشأ أبا دلامه : إن أبا دُلامه مُعتكِفٌ على الخمر، فما يَحْضُرُ صلاةً ولا مسجدا وقد أفسد فِتيانَ العسكر، فلو أمرتَه بالصلاة معك لأُجِرْتَ فيه وفى غيره من فتيان عسكرك بقطْعِه عنهم. فلما دخل عليه أبو دلامة قال له : ماهذا المجُون الذى يَبلُغُنى عنك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ما أنا والمُجُون وقد شارفتُ باتَ قبرى ! ، قال. دَعْنى من استكانتك وتَضَرُّعك، وإيّاك أن تفوتَك الظهر والعصر فى مسجدى، فلئن فاتتاك لأُحسنَنّ أدبَك ولأُطيلنّ حبسكَ، فوقع فى شرّ ولزم المسجد أياما ، ثم كتب قصـه ودفعها الى المهدىّ فأوصلها الى أبيه وكان فيها :

ألم تعلما أن الخليعة زُنّى[1] ... بمسجده والقصر، مالى وللقصر
أُصَلّى به الأولى جميعا وعصرَها * وويلى من الأولى وويلى من العصر
أصليهما بالكُره فى غير مسجدى * فمالىَ فى الأولى ولا العصرِ من أجْر
لقد كان فى قومى مساجدُ جمّةٌ * ولم يشرح يوما لغشيانها صدرى
يكلّفنى من بعد ما شِبتُ خُطّة * يُحَطّ بها عنّى الثقيلُ من الوِزْر
وما ضرّه والله يعفر ذنبَـــه * لو انّ ذنوب العالمين على ظهرى

فقال : صدق، ما نَصَرّنى دلك، والله لا يصلّى هذا أبدا، فدعوه يعمَل ما يشاء .

(١) لزه بالشئ ألزمه إياه .

وقال الهَيْثَمُ فى حَرّه : قد أعفيناك من هذا الحال، ولكن على ألّا تَدَعَ القيامَ معنا فى ليالى شهر رمضان فقد أَطَلّ، فقال . أفعل، قال : فإنك إن تأخرت لشرب الخمر علمتُ ذلك والله لئن فعلتَ لأَحُدَّنّك، فقال أبو دلامه : البَلِيّة فى شهر أخفّ منها فى طول الدهر، سمعًا وطاعةً، فلما حضَر شهرُ رمضانَ لزِم المسجدَ، وكان المهدىّ يبعث اليه فى كل ليلة حَرِيسًا يجىء به، فشَقّ ذلك عليه وفَزِع الى الخَيْزُران والى أبى عبيد الله وكلّ من يلوذ بالمهدىّ ليشفعوا له فى الإعفاء من القيام، فلم يجبهم، فقال له أبو عبيد الله : الدالّ على الخير كفاعله، فكيف شُكْرُك؟ قال : أتمّ شكر، قال . عليك رَيْطة فإنه لا يحالفها، قال : صدقت، ثم رفع اليها رُقْعة يقول فيها :

أبلِغا رَيْطـــةَ أنّى * كنت عبدا لأبيها
فمضى رحمـــه الله * ـه وأوصى بى اليها
وأراها تَسِـــيَتْنى * مثل نِسْيانِ أخيها
جاء شهر الصوم يمشى * مِشْيةً ما أَشْـــتهيها
قائدًا لى ليـــلةَ القد * ر كأنّى أَبتغيها
تَتطَحّ القِبْـــلةَ شهرا * جَبْهَـــتى لا تأتليها
ولقـد عشتُ زمانا * فى فَيافٍ وحيها
فى ليـالٍ من شـتاء * كنت شيخا أَصطليها
قاعدًا أُوقِـــد نارا * لِصباب أشْـــتَوِيها
وصَـبُوح وعَبُـــوف * فى عِلاب أَحتسـيها
ما أبالى ليـلةَ القـد * ر ولا تُسْـــمِعينيها
فاطلبى لى فَـرَجًا مـ * ـنها وأَجْرى لكِ فيها

فلما قرأ الرُّقعه ضحِكَ وأرسلتْ اليه : اصطبِر حتى نمضى ليلةُ القدر، فكتب اليها : إنى لم أسألكِ أن تكلّمه فى إعفائى عاما قابلا، وادا مضتْ ليلة القدر فقد فَنِيَ الشهر، وكتب تحتها أبياتا :

حافى إلهك فى نفس قد احتضرت قامت قيامتها بين المصليا
ما ليلة القدر من همّى فأطلبها * إنى أخاف المنايا قبل عشرينا
ياليلة القدر قد كسّرت أرجلنا . ياليلة القدر حقا ما تُمنّيا
لا بارك الله فى خير أؤمّله . فى ليلة بعد ما قد ثلاثينا

فلما قرأت الرُّقعه ضحكتْ ودخلتْ الى المهدىّ فشفعتْ له اليه وأنشدته الأبيات ، فضحك حتى استلقى ودعا به وربْطةٌ معه فى الحجلة ، فدخل ، فأخرج رأسه اليه وقال : قد شفّعنا ربْطةَ فيك وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم ، فقال : أما شفاعة سيدتى فى حتى أعفيتنى فأعفاها الله من النار ، وأما السبعة الآلاف فما أغنتنى ما فعلته إما أن تُتمّها ثلاثة آلاف فتصير عشره أو تُنقصنى منها ألفين فتصير خمسة آلاف ، فإنى لا أُحسن حساب السبعة ، فقال : قد جعلتُها خمسة ، فقال : أُعيذك بالله أن تختار أدنى الحالين وأنت أنت ، فعبث به المهدىّ ساعة ، ثم تكلمت فيه ربْطة ، فأتمّها له عشرة آلاف درهم .

شرب أبو دلامة فى بعض الحانات فسكر وانصرف وهو يميل ، فلقيه العَسَس ، فأخذوه وقالوا له : من أنت ، وما دينك ؟ فقال .

دينى على دين بنى العبّاس ما ختم الطينُ على القرطاس
انى اصطحبْتُ أربعًا بالكاس . فقد أدار شُربُها براسى
* فهل عما قُلْتُ لكم من باس *

فأخذوه ومصّوا وحرّقوا ثيابه وساحه[1] ، وأُتى به أبو جعفر ، وكان يُؤتى بكلّ من أخذه العَسَسُ ، فحبسه مع الدَّجّاج فى بيت ، فلما أفاق جعل ينادى علامه مرّة وجاريته مرّة ، فلم يُجبْه أحد ، وبينا هو فى ذلك إذ سمع صوت الدَّجّاج وزُقاء الدُّيوك ، فلما أكثر قال له السجّان . ما شأنك ؟ قال ويلك من أنت ؟ وأين أنا ؟ قال فى الحبس وأنا فلان

(١) الساح الطيلسان الأحمر ، وقيل الأسود

السحّان ، قال : من حبَسَنى ؟ قال : أميرُ المؤمنين ، قال : ومن خَرَقَ طَيْلسانى ؟ قال : الحَرَس ، فطلب منه أن يأتيَه بدواةٍ وقرطاس ، ففعل ، فكتب الى أبى جعفر :

أميرَ المؤمنين فدتك نفسى ... علامَ حَبَستنى وخَرَقتَ ساجى
أمن صهراءَ صافيـــةِ المِراج * كأن شُـــعاعها لَهَبُ السِّراج
وقد طُبِحت سار الله حـــتى * لقدصارت من اللُّطَف النِّصَاح
تَهَشّ لهـا القلوبُ وتشتهيهـا * اذا برزت تَرَقرقُ فى الزّجَاج
أُقاد الى السجون بغـير جُرم ... كأنّى بعضُ عُمّـال الخَـرَاج
ولو معهم حُبست لكان سهلًا * ولكنّى حُبست مع الدّجاج

فدعا به وقال : أين حُبست يا أبا دلامة ؟ قال : مع الدجّاج ، قال : فما كنت تصنع ؟ قال : أَقُوق معهن حتى أصبحتُ ، فصحك وحلّى سبيلَه وأمر له بجائزة ، فلما خرج قال له الربيـع : إنه شرب الخمر يا أميرَ المؤمنين ، أما سمعت قوله : وقد طُبِحت بسار الله ، يعنى الشمس ؟ فأمر بردّه ، ثم قال : ياخبيث ، شَربتَ الخمر ؟ قال : لا ، قال : أفلم تقل : طُبِحتْ سـار الله تعنى الشمس ؟ قال : لا والله ما عَنَيْتُ إلا نار الله المُوقَدة التى تطّلِـع على فؤاد الرّبيع ، فصحك وقال : خذها يا ربيع ولا تُعاوِد .

صام الناس فى سنة شديدة الحرّ على عهد المهدىّ ، وكان أبو دلامة يَتَحَرَّزُ حائزةً أمر له المهدىُّ بها ، فكتب اليه أبو دلامة رقعة يشكو فيها أذى الحَرّ والصّوْم ، وهى :

أَدْعوك بالرّحِم التى قد حَمَّتْ * فى القرب بين قَرِيبنا والأبْعَـد
إلاسمعتَ وأنتَ أكرم من مشَى * من مُنشِدٍ يرجو جَزاءَ المنشَد
حاء الصِّيامُ فصُمْتُه متعبِّدا ... أرجو رَجاءَ الصائم المتعبِّـد
ولَقِيتُ من أمر الصِّيام وحَرِّه * أمرين قِيسَا بالعذاب المُؤصَد
وسجدتُ حتى جَبْهتى مشجُوجةٌ * مما يُنَاطحنى الحصا فى المسجد
فامنُنْ بتسريحى بمَطْلك بالدى * أسْلَفْتَنِيه من البـلاء المُرصَد

فلما قرأ المهدىُّ رُقْعَتَه غضب وقال : أىُّ قرابة بينى و بينك؟ قال : رحمُ آدمَ وحوّاء، أنسيتَهما يا أمير المؤمنين! فضحك وقال : لا والله ما نَسِيتُهما ، وأمر بتعجيل ما أحاره به وزاد فيه، وأنشده أيضا فى ذم الصّوم :

هَلْ فى البلاد لرزق الله مُفتَرَش * أم لا فمى جِلْدِه من خُشْنِه بَرَشُ[1]
أصْحَى الصيَام مُبيحًا وسط عَرْصتنا * ليث الصيام بأرض دونها حُرَشُ
إن صمتُ أوحمى بطنى وأقلقنى * بين الجوانح مَسُّ الجوع والعطش
وإن حرجت بليل نحو مَسحدهم * أصرّنى نَصَر قد حانه العَمَش

دخل أبو دلامة على سعيد بن دَعْلَج مولى بنى تميم فقال :

إذا جئتَ الأميرَ فقل سلامٌ * عليك ورحمةُ الله الرحيم
وأما بعد ذاك فلى عريمٌ * من الأعراب قُبِّح من عريم
عريم لازمٌ بفناء بيتى * لزومَ الكلب أصحابَ الرَّقيم
له مائة علىّ ونِصفُ أُخرَى * ونِصف النِّصف فى صَكّ قديم
دراهمُ ما انتفعتُ بها ولكن * وصلتُ بها شيوخَ بنى تميم
أتَوْنى بالعشيرة يسألونى * ولم أكُ فى العشيرة باللئيم

فأمر له بمائتين وخمسة وسبعين درهما وقال : ما أساء مَن أنصفَ، وقد كافأتُك عن قومك وزدتُك مائة .

دخل أبو دلامة على المهدىّ فأنشده قصيدتَه فى غلته المشهورة :

أتانى، بعلةً يَسْتام منّى، * عَريقٌ فى الخَسَارة والضَّلال
فقال تَبيعها قلت ارْتبطْها * بحُكْمك إن بَيعى غيرُ عال
فأقبل صاحكا نحوى سرورا * وقال أراك سَمْحًا دا خَصال
هلمّ إلىّ يحلو بى حِداعا * وما يدرى الشقىّ لمن يُحالى

(١) البرش : نقط بيض فى الجلد .

فقلتُ ناربعين، فقال أحْسِنْ * إلىّ فإن مثلك ذو سجال
فاتْرُكْ حســـه منها لعلمى * بما فيه يصـــبرُ من الخَال

فقال المهدى : لقد أفلتَّ من بلاء عظيم، قال . والله ياأمير المؤمنين لقد مكثت شهرا أتوقع صاحبَها أن يردّها، ثم أنشدَه :

فأبدِلْنى بها يا ربِّ طِـــرْفًا * يكون حمالُ مَرْكَبِه جمالى

فقال لصاحب دوابّه : حَيِّره من الإصطبل بين مركبين ، قال : يا أمير المؤمنين إن كان الاختيارُ لى وقعتُ فى شرّ من الغلة، ولكن مُرْه أن يختار لى، فاختار له .

حاصم رجل أبا دلامة فى داره فارتفعا الى عافية القاضى، فأنشأ أبو دلامة يقول :

لقـــد خاصَمَتْنى دُهاةُ الرجال ، وخاصمـــتُها سَـــنَةً وافيـــه
فما أدحَضَ الله لى حجّـــةً * ولا خيّبَ الله لى قافيـــه
ومن حِفت من جَوْره فى القضاء * فلست أحافِكَ يا عافيـــه

فقال له عافيـــة : والله لأشكونّك الى أمير المؤمنـــين ، ولأعلمنّه أنّك هجوتنى ، قال : إذًا يَعزلك، قال : ولِمَـــه؟ قال : لأنك لا تعرف المديح من الهجاء، فبلغ ذلك المنصور فضحك وأمر لأبى دلامة بجائزة .

دخل أبو دلامة على المهدىّ وعنده إسماعيل بن محمد وعيسى بن موسى والعباس ابن محمد ومحمد بن محمد بن ابراهيم الإمام وجماعة من بنى هاشم فقال له : أما اعطى الله عهدا لئن لم تَهْجُ واحدا ممن فى البيت لأقطعنّ لسانك، فنظر اليه القوم، فكلما نظر الى واحد منهم غمزه بأن عليه رِصاء، قال أبو دلامة : فعلمت أنى قد وقعت وأنها عَزْمة من عزَمَاته لابد منها، فلم أر أحدا أحقّ بالهجاء منّى، ولا أدْعَى الى السلامة من هجاء نفسى، فقلت :

ألا أبْلِـغ لديك أبا دلامـــه * فليس من الكِرام ولا كرامه
إذا لبس العمامة كان قِـــردا * وخِنْزيرا إذا نزَع العمامه

جمعتَ دَمَامة وجمعتَ لؤما * كذاك اللؤم تتبعه الدَّمَامه
فإن تك قد أصبتَ نعيمَ دنيا * فلا تفرح فقد دنَت القيامه

فضحك القوم ولم يبق منهم أحد إلا أحاره .

خرج المهدىّ وعلىّ بن سليمان الى الصيد، فسَنَح لهما قَطِيع من الظِّباء، فأرسلت الكلاب وأُحرِيَت الخيل، فرمى المهدىّ طبيا بسهم فصرعه، ورمى علىّ بن سليمان، فأصاب بعض الكلاب فقتله، فقال أبو دلامة :

قد رَمَى المهدىّ طبيا * شَكَّ بالسّهم فؤادَه
وعلىّ بن سليما * ن رَمَى كلبا فصَادَه
فهنيئا لهما كُـ * ـلُّ امرئ يأكل زاده

فضحك المهدىّ حتى كاد يسقط عن سرحه وقال . صدق والله أبو دلامة، وأمر له بجائزه سَنِيّة، فلُقِّب علىّ بن سليمان صائدَ الكلب، وعَلِق به .

أنشد أبو دلامة المنصورَ يوما :

هاتيك والدتى تحوزُ هِمَّةً[1] * مثل البليّة درْعها فى المِشْجَب[2]
مهرولةُ الفَخِذَيْن من يرها يَقُل * أبصرتُ عُولا أوحيالَ القُطْرُب[3]
ما إن تركت لها ولا لأبٍ لها * مالًا يؤمِّل عير بَكْرٍ أجْرَب
ودَحائحًا نَحْسا يَرُحْن اليهمُ * لمّا بَيَضْنَ وعير عَنْز مُغْرَب[4]
كتبوا الىّ صحيفة مطبوعة * جعلوا عليها طِيبة كالعَقْرَب
فعلمت أن الشرّ عند فكاكها * فككتُها عن مثل ريح الحَوْرَب
وادا شبيه بالأفاعى رُقِّشت * يُوتِدْنَنى بتلمُّظ وتَثَوُّب
يشكون أدا الجوع أهلك بعضهم * لَرَبا فهل لك فى عيال لُرَّب

(١) همة : هرمة .
(٢) المشجب : خشبات موثقة منصوبة توضع عليها الثياب وتنشر .
(٣) القطرب : ذكر الفيلان .
(٤) المغرب : الأبيض من كل شىء .

لا يسألونك عيرَ طَـلّ سَحابةٍ * تَغْشاهمُ من سَـيلك المُتَحَلِّب
يا باذلَ الحيرات يابنَ بَذُولها * وآنَ الكِرام وكلِّ قَرْمٍ مُنْجِب
أنتم سو العباس يُعْلَمُ أنكم * قِدْمًا هوارسُ كل يوم أشْهَب
أحْلاس خيل الله وهى مُعيرة (١) * يَخْرُجْنَ من حَلَل الغُبار الأكْهَب

فأمر له بدار يسكنها وكسوة ودراهم، وكانت الدار قريبـة من قصره، فأمر أن تزاد فى قصره بعد ذلك لحاجة دعته اليها، فدخل عليه أبو دلامة فأنشده قولَه :

يابن عمّ النبىّ دعوةَ شـيخ * قـد دنا هَـدْمُ داره ودَمَارُهْ
فهو كالماحص التى اعتادها الطَّلْـ * ـقُ فقـرّتْ وما يَقِـرّ قراره
إن تُحَز عُسْرةٌ بكفّيـك يوما * فبكفّيـك عُسْره ويَسـاره
أو تَدَعْـه فللـوار وأنّى * ولـادا وأنتَ حىّ نَوَاره
هل يخاف الهلاكَ شاعرُ قومٍ * قُدِّمتْ فى مَديحهم أشعاره
لكمُ الأرض كلُّها فاعيروا * شيخَكم ما احتوى عليه جداره
فكأنْ قد مضى وخلّف فيكم * ما أعرتم وأقفرتْ منه داره

فاستعبر المنصورُ وأمر بتعويضه دارا خيرا منها ووصله .

دخل على المهـدىّ يوما وعنده مُحْرِز ومُقاتِل ابنا ذُؤال يعاتبانه على تقريبـه أبا دلامة ويَعيبانه عنده فقال .

ألا أيها المهدىّ هل أنت مُخبِرى * وإن انت لم تفعل فهل أنت سائلى
ألم ترحم الفِتْيَيْنِ من لِحيَتَيْهما * وكلتاهما فى طولها عير طائل
وإن أنت لم تفعل فهل أنت مُكرِمى * بحلقهما من مُحْرِزٍ ومُقـاتِل
فان يأذن المهدىّ لى فيهما أقُلْ * مقالا كوقع السيف بين المَفَاصِل
وإلّا تَدَعْنى والهمـومُ تنوبنى * وقلبى من العِلْجَيْنِ جمُّ البَـلابل

(١) يقال هلان من أحلاس الخيل، أى من راضتها وساستها والملازمين ظهورها .

فقال : أو آحد لك منهما عشرة آلاف درهم يَفْديان بهما أعراضهما منك ، قال : دلك الى أمير المؤمنين، فأحدها له منهما وأمسك عنهما .

دخل على أم عبيده جاصة موسى وهارون، فدفع اليها رُقْعة قد كتبها الى الخَيْزُرَان فيها

أبلغي سيّدتي بأنّ * ـه يا أمَّ عَبيـــده
أنهـا أرشدها اللـ * ـه وإن كانت رشيده
وعدتني قبل أن تخـ * ـرج للصبح وليـده
فتأنيت وارســـلـ * ـت بعشرين قصيده
كلّما أخلقَ أخلقـ * ـتُ لها أخرى جديده
ليس في بيتي لتمهيـ * ـد فراشي من قعيده
غيرُ عَجْفَاءَ عَجـوزٍ * ساقُها مثل القديده
وجهها أقبح من حُو * ت طرىّ في عصيده
ما حياةٌ مع أنثى * مثل عُرْسي بسعيده

فلما قُرئت عليها الأبيات ضحكت واستعادتها منه لقوله : «حُوت طَرِىّ فى عصيدة» وجعلت تضحك ووهبت له جارية .

دخل يوما على المهدىّ فحادثه ساعةً وهو يضحك وقال له : هل بَقِىَ أحد من أهلى لم يَصِلك؟ قال : إن أمتنني أحبرتك وإن أعفيتَنى فهو أحبُّ إلىّ، قال : بل تُخبرنى وأنت آمن، قال : كلهم قد وصلني إلا حاتم بن العبّاس، قال : ومن هو؟ قال : عمُّك العبّاس ابن محمد، فالتفت الى خادم على رأسه وقال : خُذْ عُنُقَه، فلما دنا منه صاح به أبو دلامة : تَنَحَّ يا عبدَ السُّـوء لا تُخْبِثْ مولاك وتُنْكِثْه عهـدَه وأمانَه، فضحك المهدىّ وأمر الخادم فتنحّى عنـه، ثم قال لأبى دلامة : ويلَك! والله عمّى أمحلُ الناس، فقال أبو دلامة : بل هو أسْخَى الناس ، فقال له المهـدىّ : والله لو مُتّ ما أعطاك شيئا، قال : فإن أنا أتيتـه

فأحارَني " قال لك بكل درهم تأخُذُه منه ثلاثة دراهم ، فانصرف أبو دلامة فخبّر للعباس قصيدةً ، ثم عدّا بها عليه وأنشده :

قِفْ بالديار وأنّى الدهر لم تَقِفِ * على المنازل بين الظَّهْرِ والجَحَف
وما وقوفك فى أطلال مَنْزِلة * لولا الذى اسْتَدْرَجَتْ من قلبك الكَلِفِ
ان كنت أصحت مشعوفا بساكنها * فلا وربِّك لا تَشْفيك من شَغَف
دَعْ دا وقُلْ فى الذى قد مار من مُضَر * بالمَكْرُمات وعِزٍّ غير مُقْتَرَف
هدى رسالة شيخ من بنى أسد * يُهدِى السلام الى العباس فى الصُّحُف
تَخُطّها من حَوارى المصر كاتبةٌ * قد طالما ضَرَبتْ فى اللام والألف
وطالما اختلفتْ صَيْفا وشاتيةً * الى مُعلِّمها باللَّوح والكَتِف (١)
حتى ادا نَهَدَ الثّدْيانِ وامتلا * منها وخِيفت على الإسراف والقَرَف
صِيتت ثلاثَ سنينٍ ما تَرَى أحدا * كما يصون تِجارٌ دُرّةَ الصَّدَف
فبينما الشيخ يَهوى نحوَ مجلسه * مُبادِرا لصلاة الصبح بالسَّدَف (٢)
حانت له لَحْظةٌ منها فأبصَرها * مُطِلّةً بين سَجْفَيها من العُرَف
خَفَرٌ والله ما يدرى عَذَاتِيذ * أَخَرٌ مُنكَشِفًا أم غير مكشف
وجاءَه الناس أفواجا بمائهمُ * لِيَغْسِلوا الرجل المَغْشِىّ بالنُّطف
ووسوَسُوا قُران فى مسامعه * فخافَه الحِنُّ والإنسانُ لم يَخف
شيئا ولكنه من حبّ جارية * أمسَى وأصبح موقوفا على التَّلَف
قالوا لك الويلُ ما أبصرتَ قلت لهم * تطلّعتْ من أعالى القصر ذى الشُّرَف
فقلت أيُّكمُ والله يأجُره * يُعين قوته فيها على ضَعَف
فقام شيخ بَهِىّ من رجالهمُ * قد طالما خدَع الأقوام بالخَلَف
فاستاعها لى بأنّى درهَمٍ فأتى * بها إلىّ فألقاها على كَتِفى

(١) الكتف : عظم عريض يكون فى أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس .
(٢) السدف : الضوء وأقبال الصبح .

فبيْن ذاك كذا إذ جاء صاحبُها ... يَنْفِى الدراهم بالميزان دى الكِفَف
وذِكْرَ حقّ على زَيْدٍ وصاحبه ... والحقُّ فى طَرَف والطّين فى طَرَف
وبين ذاك شهود لا يصرّهم ... أكنتُ معترفًا أم غيرَ معترف
فإن يكن منك شىء فهو حقُّهم * أوْ لَا فإنّ مدعوع الى التّلَف

فضحك العباس وقال : ويحك! أصادقٌ أنت ؟ قال : نعم والله، قال : ياغلام أدفع اليه ألفَىْ درهم ثمنها، فأحدها ثم دخل على المهدىّ فأخبره القصّة وما آحتال له ، فأمر له المهدىّ بستة آلاف درهم، وقال له المهدىّ : كيف لايصرّهم ذلك؟ قال : لأنى مُعْدِم لا شىءَ عندى .

دخل على إسحاق الأزرق يعودُه، وكان إسحاق قد مرِض مَرضا شديدا ثم تعافَ منه وأفاق، فكان من ذلك ضعيفا وعند إسحاق طبيب يصف له أدوية تُقَوّى بدنَه ، فقال أبودلامة للطبيب : أتَصِف هذه الأدوية لرجل أضعفه المرض؟ ما أردتَ والله إلا قتلَه ، ثم آلتفت الى إسحاق فقال : اسمع أيها الأمير منّى، قال : هاتِ ما عندك يا أبا دلامة، فأنشأ يقول :

نَحِّ عنك الطبيب وآسمع لِنَعْتى * إننى ناصح من النُّصّاح
ذوتجاريبَ قد تقلّبتُ فى الصحّـ * ـة دهرا وفى السّقام المُتَاح
عادِ هذا الكَجَّابَ كلَّ صباح * من مُتُون الفَتِيّةِ السَّحّاح
فاذا ما عَطِشتَ فاشرب ثلاثا * من عتيق فى الشّم كالتُّفاح
ثم عند المَساء فآعكُف على ذا * وعلى ذا بأعظم الأقداح
فتُقَوّى ذا الضّعف منك وتَأتى * عن ليال أصحّ هدى الصّحَاح

فضحك إسحق وعُوّاده وأمر لأبى دلامة بخمسمائة درهم ، وكان الطبيب نصرانيًّا فقال : أعوذ بالله من شرّك ياركل «يريد يارجل» وقال الطبيب : اقبل منّى أصاحك الله

ولا تسألنى عن شىء قُدَّامَه ، فقال أبو دلامة : أمّا وقد أخذتُ أجرة صَفْقَتى وقصيت الحقّ فى نُصْح صديق فاستْ له الآن أنت ما أحببت .

دخل على المهدىّ وبين يديه سَلَمَة الوَصيف واقفا ، فقال : إنى أهديت اليك يا أمير المؤمنين مُهْرًا ليس لأحد مثله ، فان رأيتَ أن تُشَرّفنى بقبوله ، فأمر بإدخاله اليــه ، فخرج وأدخل اليــه دابّته التى كانت تحته ، فاذا بِرِذَوْن محطَّم أعجَفُ هَرِم ، فقال له المهدىّ : أىّ شىء هذا ؟ ألم تزعُم أنه مُهْر ؟ قال له : أو ليس هذا سلمة الوصيف بين يديك قائمـا ، تسمّيه الوصيف وله ثمانون سنه ، وهو عندك وصيف ؟ فاذا كان سلمة وصيفا فهذا مُهْر ، فجعل سلمةُ يَشْتُمه والمهدىّ يضحك ، ثم قال المهدىّ لسلمة : ويلك ! إن لهـذه منه أخَوَات ، وإن أتى بها فى تَحْمِل فَضَحك ، فقال أبو دلامة : والله لأفضحنّه يا أمير المؤمنين ، فليس من مَواليك أحد إلا وقد وصلنى عيرُه ، فانى ما شربت له المـاء قطُّ ، قال : فقد حكمت عليه أن يشترىَ نفسَــه منك بألف درهم حتى يتخلّص من يدك ، قال : قد فعلت على ألّا يعاود ، فقال له : ما ترى ؟ قال : أفعــل ، فلولا أنّى ما أخذت منه شيئا قطُّ ما فعلت معه مثل هذه ، فمضى سلمة فحملها اليه .

٥ — أبان بن عبد الحميد اللاحقى[1]

ذكرنا فى المجلد الأول أن أبَانَ كان صديقًا للبرامكة متصلا بهم أشدّ اتصال، يستشيرونه ويعتمدون عليه فى تدبير أمورهم، جدّها وهزلها، صعبها وهيّنها. وكانوا قد اتخذوه أديبهم الرسمى، وبالغوا فى ذلك حتى جعلوا اليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصِّلات. فغضب الشعراء لذلك، وكان أشدّهم غضبا أبو نواس الذى كان يكره البرامكة كرها شديدا، وكانت بينه وبين أبان مهاجاةٌ ذكرها صاحب الأغانى.

وكان أبان صديقا للمعلّل بن عَيْلان، وكانا مع صداقتهما يتعابثان بالهجاء، فيهجوه المعلّل بالكمر ويسُبه الى الشؤم. ويهجوه أبان ويسُبه الى الفُسَاء الذى تُهْجَى به عبد القيس وبالقِصَر، وكان المعلل قصيرا. فسعى فى الإصلاح بينهما أبو عُيَينة المهلّبىّ، فقال له أخوه عبد الله وهو أسنّ منه: يا أخى إن فى هدين شرًّا كثيرا ولا بد من أن يُجرحاه، فدعهما ليكون شرّهما بينهما وإلّا فتزقاه على الناس.

ومن قوله يهجو أبا النصير:

اذا قامت بوا كيك * وقد هتّكن أستارك
أيُثْنِين على قبر * كَ أم يلعَنّ أحجارَكْ
وما تترك فى الدنيا * اذا زرتَ عدًّا مارَك
ترى فى سَقَرَ المَثْوَى * وإبليسَ عدًّا حارَك
بلى تترك باكيك * ودنياكَ وأوتارَك
ونمسًّامن بات اللّيـ * ـل قد أُلبِسنَ أطمارَك
تعالى الله ما أقبـ * ـح إذ وَلّيتَ أدبارَك

(١) تجد ترجمته فى الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٤٢٩ وقد ذكرناه هنا لمناسبة ذكرنا عثرنا عليه من معلوماته لكتاب كاملة ودسمة. وقد أضفنا هنا مالم نذكره فى ترجمته هناك.

خرج أبان من البصره طالبا للاتصال بالبرامكة ، وكان الفضل بن يحيى غائبا فقصده ، فأقام ببابه مدّة مديده لا يصل اليه ، فتوسّل الى من وصّل له شعرا اليه ، وقال له :

يا عزيزَ النَّدَى ويا جوهرَ الجو * هرِ من آل هاشمٍ بالبِطَاحِ
إنّ ظنّى ، وليس يُخلِف ظنّى * لك فى حاجتى سبيلَ النّجاحِ
إنّ من دونها لمُصمَتَ بابٍ * أنت من دون قُفْله مِفتاحى
تاقت النفسُ يا خليلَ السَّماحِ * نحو بحر النَّدَى مُجارِى الرياحِ
ثم فكّرتُ كيف لى وٱستحرتُ اللهَ * عند الإمساء والإصباحِ
وٱمتدحتُ الأميرَ أصلحه ا للهُ بشعرٍ مُشَهّر الأوضاحِ

فقال : هات مديحك ، فأعطاه شعرا فى هذا الوزن وقافيته ، ترى فيه أن الرحل مُعْجَب بنفسه ، مدلٌّ بعلمه وأدبه ، تيّاه لا حدّ لتيهه وعروره :

أنا من نفيسة الأمير وكنزٌ * من كنوز الأمير ذو أرباحِ
كاتبٌ حاسبٌ خطيبٌ أديبٌ * ناصحٌ زائدٌ على النُّصّاحِ
شاعرٌ مُفلِقٌ أخفّ من الري * شة مما يكون عند الجَمّاحِ

وهى طويلة ذكرناها فى المجلد الأوّل .

وكان أبانُ شديدَ الحرص على المال يُضحّى فى سبيله بأشياء كثيرة ، منها العَقيدةُ والرأى . وكانَ يحسُد مَرْوانَ بن أبى حَفْصة لمكانه من الرشيد ولطَفَره بالصِّلات الضخمة والجوائز السنية ، فقد انتهى الأمر بنى العبّاس مع مروان بن أبى حَفْصة الى أن كانوا يمنحونه بالبيت ألفَ درهم ، فعاط دلك أبانَ وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مَرْوان ، فعاتَبَ أبانُ البرامكةَ على تركهم إيصالَه للرشيد وإيصالَ مديحه اليه ؛ فقالوا له : ما تريد من دلك ؟ فقال : أريد أن أحظَى منه بمثل ما يحظى به مروان بن أبى حفصة ، فقالوا : إنّ لدلك مدهما فى هجاء آل أبى طالبٍ ودمّهم ، به يَحْظى وعليه يُعْطى ، فاسلكه حتى تفعل ، قال : لا أستحلّ دلك ، قالوا : فما تصنع ، لا تَجىء طلب الدنيا إلا بما لا يحلّ ! فقال أبان :

نَشَدتُ بحقِّ الله مَنْ كان مُسْلِمًا * أَعُمٌّ بما قد قُلْتُهُ العُجْمَ والعَرَبْ
أَعَمُّ رسولِ اللهِ أَقْرَبُ زُلْفَةً * لَدَيهِ أم ٱبْنُ العَمِّ فى رُتْبَةِ النَسَبْ
وأيُّهما أَوْلَى بِهِ وبعَهْدِهِ * ومَنْ ذَا لَهُ حَقّ التُّرَاثِ بما وَجَبْ
فإن كانَ عَبَّاسٌ أحقَّ بتلكُمُ * وكانَ علىٌّ بعدَ ذاك على سَبَبْ
فأبناءُ عبّاسٍ هُمُ يَرِثُونَهُ * كما العَمُّ لٱبن العَمِّ فى الإرْثِ قد حَجَبْ

وهى طويلة .

فقال الفضل : ما يَرِدُ على أمير المؤمنين اليومَ شىء أَعْجَبُ من أبياتك . فركِبَ فأنشدها الرشيدَ ، فأمَرَ لأبان بعشرين ألف درهم . ثم ٱتّصلَ مدحُه للرشيد بعد ذلك وخُصَّ به .

وكان أبَان فَهَّاءَ قبيح اللسان ، وكان مع هذا شِرِّيرًا قاسيًا يُؤْثِرُ الشرَّ ويحبُّ فيه لَذَّه . وقد رَوَى له أبو الفرج قصّه مُمَثِّل بصبيه من القسوه وحبّ الشرّ ، كما أنها تعطينا صوره من شعره ومن الحياة فى عصره . قالوا : كان يُقيم بالقُرب من أبان رَجُلٌ ثَقَفِيٌّ يقال له : محمد ابن حالد ، وكان عَدُوًا لأبَان ، فتزوج محمدٌ هذا ثَقَفِيَّةً معروفةً هى عَمّارة بنت عبد الوهاب ، وكانت عمارة عَيْنِيَّة موفورة الثروة ، فاغتاظ أبان لهذا الزواج ، وقال هذه القصيدة التى بلغت عمارة فأفسدت زواجها :

لما رأيتُ البِرَّ والشارَهْ * والفَرْشَ قد صافتْ به الحارَهْ
واللَّوْزَ والسُّكَّرَ يُرْمَى به * من فَوْق دى الدار ودى الدارَهْ
وأحضَرُوا المُلْهِينَ لم يتركوا * طَبْلًا ولا صاحبَ زَمَّارَهْ
قلتُ : لمادا قيل : أُعجوبةٌ * محمدٌ زُوِّجَ عَمَّارَهْ
ما دا رأتْ فيه وما دا رَحَتْ * وهى من السِّوَان مُختارَهْ
أَسْوَدُ كالسَّفُّود يُبْسَى لدى التَّنُّور بل مِحْرَاكُ قَيَّارَهْ (١)
يُجْرى على أولادِهِ حِسَّةً * أرعفَهُ كالربش طيّارَهْ

(١) القيارة . محل إسالة القار .

وأهـلُهُ فى الأرض من خوفه * إن أفرطوا فى الأكل سيّارهْ
ويحـكِ مِرّى واعصبى دا به * فهـده أختُـكِ فـرّارهْ
ادا عها بالليـل فاستيقظى * ثم أطفِـرى إنكِ طفّـارهْ
فصـعِدتْ نائـلةٌ سُلّمًا * تخاف أن تَصعَدَه الفارهْ
"سرورُ" عَرّتْها فلا أفلحتْ * فإنها الحمقاء غـرّارهْ
لو نلت ما أعدت من ريقها * إن لها نَفْثَـةَ سحّارهْ

فلما بلغت هده القصيدة عمّارة هَرَبت، فحُرِم من جهتها مالا عظيما. والثلاثة الأبيات الأخيره الى أولها " فصعدت نائلة سلما * رادها فى القصيدة بعد أن هربت .

حلس أبان ليلة فى قوم فتلَمّ أبا عُبَيْدة فقال : يقدح فى الأنساب ولا نسب له . فلما دلك أبا عبيـدة فقال فى مجلسـه . لقد أعفل السلطان كل شىء حين أغفل أخذ الجزية من أبان اللاحقى ، وهو وأهـله يهود، وهـده منازلهم فيها أسفار التوراة وليس فيهـا مصحف ، وأوضحُ الدّلالة على يهـوديتهم أن أكثرهم يدّعى حفـظَ التـوراة ولا يحفظ من القرآن ما يصلّى به . فلما دلك أبان فقال :

لا تُتَمِّمْ عن صديقٍ حديثـا * وآسـتعِدْ من تسرُّر النمّـامِ
وآحفِص الصوتَ إن نطقتَ بليلٍ * وآلتفِتْ بالنهـار قبـلَ الكلامِ

قال عيسى بن اسماعيل: كنا فى مجلس أبى زيد الأنصارى فدكروا أبان بن عبد الحميد، فقالوا: كان كافرا، فغضب أبو زيد وقال : كان جارى فما فقدت قراءته فى ليلة قط .

✦
✦ ✦

وكان أبان يهوى الشعراء فى شىء يحسب أنه هو الذى سَبَق اليه، فقد ابتكر فى الأدب العربىّ فنًّا لم يتعاطَه أحد من قبله، وهو فنّ الشعر التعليمىّ، طَرَق فيه فنونا مختلفة من العلم والحكمة والدين. وقد تحدّث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب «كليلة ودمنة» ليسهُل عليهم

(١) طفر : وثب فى ارتفاع .

حفظه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف واكتفى جعفر بأن يكون راويته . وروى أبو الفرج أبياتا أربعة من هذا النظم ، وقد عثرنا على قطعة من كتاب مخطوط يوجد فى دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٩٤) تاريخ ، وهو كتاب «الأوراق» للصُّولى . وفى هذا الكتاب قطعةٌ صالحة من نظم أبان لكليلة ودمنة ، فرأينا أن نثبتها هنا ، لأن المنظومة ضاعت ولم يبق منها إلا الأبيات الأربعة التى رواها أبو الفرج . وها هى ذى :

هـذا كتابُ كَليلة ودِمْنَـهْ * وَهُوَ الذى يُدْعَى كَلِيـلَه دِمْنَـهْ
فِيـه دَلَالاتٌ وفيـه رُشْـدُ * وهو كتابٌ وَضَعَتْهُ الهنْـدُ
فَوَصَـفُوا آداتَ كُـلِّ عَالِمِ * حِكَايةً عن أَلْسُنِ البهائِمِ
فالحكماءُ يَعْرِفون فَضْـلَهُ * والسخفاءُ يَشْتَهُونَ هَزْلَهُ
وهْـوَ على ذاكَ يَسِـيرُ الحِفْظِ * لَذٌّ على اللسانِ عِنْـدَ اللفظِ
يا نفس لا تشـارِكى الجُهّـالا * فى حبّ مذمومٍ كأنْ قد زالا
يا نفسُ لا تشـقَىْ ولا تَعَـنَّىْ * فى طلب الدنيا ولا تمـنَّىْ
ما لم يَـنَلْه أحـدٌ إلا نَدِمْ * اذا تولّى ذاك عنـه وسَـدِمْ (١)
دنيـاكِ بالأحبـاب والإخوانِ * كثـيرة الآلام والأحزانِ
وهى وإن نيل بهـا السـرورُ * آفاتُهـا وغمُّهـا كثيرُ
يا نفس لا يجـلْكِ حبُّ أهلِكِ * ولا أدانيـك على أن تَهلِكِى
فى جمـع ما يرضـيهمُ فإنه * يصرب من أمثال ذاك الدُّخْنَـهْ (٢)
ينـال قوم عَرْفَها وتحـترقْ * رأىٌ به يرضى أخو الرأى الحَمِقْ
وجدتُ ذا النُّسْكِ الذى قد فكّرا * فـزاده تفكيرُه توقُّـرا
وقـلَّ لمّـا رضِىَ اهتمامُـهُ * وتمّ من سـروره تمامُهُ

(١) ندم وحزن . (٢) الدخنة : نحو يدخن به الثياب أو الليت وفى الأصل «الدحنة» بالحيم وهو تحريف .

وترك الدنيا لمن يشقَى بها * ومن يُقاسى الكدَّ من أتعابها
فعنـــدها نحا من الشرور * ونال أقصى غايةِ الســـرور
ثم سحتْ عن كلّ فانٍ نفسُـهُ * فلَقِىَ الســـعدَ وعاب بحسُـــهُ
وأبصـــر الثـــوابَ فى القيـامهْ * فأمن الحسرةَ والنـــدامهْ
ومَثَلُ الدنيـا كبرقِ الخُلَّبِ * من يغـــترر مـــه بسَقْيٍ يُكذَبِ
وهو قياسا مثـــلُ يوم النـائم * تُفرِحهُ أضـــغاثُ حُلْمِ الحـالِمِ
حـــتى اذا آستيقظ صار همـا * ما كان فى الـــوم به ألمّا
فكيف بالصـــبر على أيّامِ * عمّا قليـــل هُنّ لآنصرامِ
وكيف والدنيـا ملاءٌ كلّها * لا يأمن الآفاتِ فيهـا أهلُها
أشهد أن الله فـــردٌ واحدُ * أقـــر أو أنكرَ داك جاحـــدُ
ليس له كفوا ولا نِدًّا أحـدْ * لم يَـــلِدِ اللهُ ولا له ولدْ
وإنى بما عملت مرتهَنْ * ما كان منه من قبيحٍ وحَسَنْ

من باب الأسد والثور

وإنّ من كان دنى النفسِ * يرضَى من الأرفع بالأخسِّ
كمَثَلِ الكلب الشـــقِّ البائسِ * يفـــرحُ بالعظم العتيق اليابسِ
وإن أهـــلَ الفضـــل لا يُرضيهُم * شيءٌ اذا ما كان لا يَعنيهـــمُ
كالأســـد الذى يصيد الأرنبـا * ثم الى العَـــيْرِ(١) المجـــدّ هـــربا
فيرسـل الأرنبَ من أظفارِه * ويتبـــع العـــيرَ على أدبارِه
والكلب من رِقّته تُرصـــيه * بلقمـــةٍ تَقْـــذفها فى فيـــهِ
فمَن يعشْ ما عاش عيرَ خامَلْ * له ســـرورٌ دائمٌ ونائلْ
فهو وإن كان قصـــيرَ العمرِ * أطولُ عمـــرا من حليفِ فقـــرِ
ومن يعشْ فى وحشـــةٍ وضِيقِ * وقـــلّة المعروف فى الصـــديقِ

(١) فى الأصل "ثم للعير" والعير : الحمار .

فهو وإن عُمِّرَ طولَ دهرِهِ * ليس بمغبوط بطولِ عمرِهِ
وقيل أيضا إنه قد يغنى * للرحل العاضل فيما يتغنى
ألّا يُرَى إلا مع الأملاكِ (١) * أو يعبُدَ اللهَ مع النُّسَّاكِ
كالفيل لا يصلحُ إلا مَرْكبا * لملك أو راعيًا مسيَّبا
قال له السبعُ لقد سمعتُ * وكلّ ما تقول قد فهمتُ
لكنى لستُ أظنّ ما تطنّ * بالثور من عشٍّ لى طنٍّ حسن (٢)
قال له دمهُ من ثمّ أُتِى * وهده مَنْ حالُهُ هى التى
رفعتَه حتى تعدّى طورَه * وكان هدا لك مه شكره
وتلك أخلاق اللئيم الفاجرِ * الكافرِ المغرورِ غيرِ الشاكر
ما إن يزال ناصبا نفّاعا * حتى يَرَى من حاله ارتفاعا
فعدها يسمو الى ما فوقَها * الى التى لا تستطيع أوقَها (٣)
وربما كان هلاكُ الشجرِ * فى حُسْنِ الغصْنِ وطيب الثمَرِ
وذنب الطاووس فهو زَيْنُهُ * كذاك أحيانا وفيه حَيْنُهُ
وبادل النصح لمن لم يشكرهْ * كطارح فى سَبَخ ما يبذُرُهْ
لا خير للعاقل فى دى المَنْظَرهْ * إن هو لم يجمَدْهُ عند المَخْبَرهْ
وليس فى الصديق ذى الصفاءِ * خيرٌ اذا لم يك ذا وفاءِ
الرحلُ العاقلُ من لا تُسْكِرُهْ * كأسُ سموٍّ وٱقتدار يُبطِرُهْ (٤)
فالجبلُ الثابتُ فى أصوله * لا تقدرُ الريحُ على تحويله
والناقصُ العقلِ الذى لا رأىَ لَهْ * يطغى إذا ما مال أدنى منزلَهْ
مثلُ الحشيش أيّما ريحٍ حرتْ * مالت به فأقبلتْ وأدبرتْ
الأهل والإخوان والأعوانُ * عند ذوى الأموال حيث كانوا

(١) الأملاك : الملوك .
(٢) كذا فى الأصل ولعله «بل الطن الحسن» .
(٣) أوقها . ثقلها .
(٤) فى الأصل هكذا "سطره" .

والمـال هادِى الرأى والمـروّه * وهـــو على كل الأمور قـــوّهْ
والمـالُ فيـــه العـــزُّ والجمالُ * والذلُّ حيث لا يكون المـالُ
وربّمـا دعا الفقـــيرَ فقـــرُه * الى التى يُحَـــطُّ فيها أجرُه
فيحسَر الدِّينَ كما كان خسِرْ * دنياه والخسران ما لا يجبـرْ
وليس من شىء يكون مَدْحا * لذى الغـــنَى إلا يكون قَرْحا
على الفقـــير ويكون دمًّا * كذاك يُدْعَى وبه يُسـمَّى
فإن يكن نَجْدًا يقولوا أهوجُ[1] * كذاك عند الحرب لا يبرّحُ
وهو إذا كان جوادًا سـيّدا * سُمِّىَ للفقـــرِ مُصيغًا مُسِـــدّا
أويك ذا حِلمٍ يُقَـــلْ صعيفُ * أويك بسّاما يُقَـــلْ سخيفُ
الرحلُ العـاقلُ فيما يُسـدِى * مغتـــطٌّ بكسـبه للحمـــدِ
لأنه باع قليـــلا فانيـا * وآعتاض من ذاك كثيرا باقيا
فأعبـــطُ النـاسِ الكثيرُ سائلُهْ * ومـــدركُ النجح لديه سائلُهْ
فـــلا تعُدَّنْ داعـى غنيّـا * حتى يكونَ ماحدا سريّا
وآعلم بأن الملكَ المشاورا * دا العقـــل فيما نابه المؤازرا
فإنه يُعضَـــدُ بالتأييـــد * يَغْنَى به عن كثرة الجـــودِ
والحـازمُ التـابع أمرَ الحَـــزَمَهْ * النصحاءِ غيرِ أهـــل التُّهَمَـــهْ
يزداد حزما بهـــمُ ورُشْـــدا * زيادةَ البحـــر إذا ما مُـــدّا
بما يُصَبّ فيـــه من أنهارِهِ * حتى يهيـــجَ المـوجُ من تيّارِهِ
والموتُ من مات كريما صابرا * خيرٌ من العيش ذليـــلا صاغرا

ولم يقل لنا الصّولىّ فى كتابه إلا هـــذه القطعة . ويعدّ أبان فى هذا ناظما لكتاب معروف، ولكنه قد تجاوز نظم الكتب المعروفة الى تأليف كتب منظومة ، فنظم قصيدة طويلة فى الصوم والزكاة، روى منها الصّولىّ طرفا .

(١) الهوج الحق . وفى الأصل : «لهوح» باللام وهو تحريف .

فقيل لأبان بعد أن نظم كليلة ودمنة : ألا تعمل شعرا فى الزهد ؟ فعمل قصيدة مزدوجة فى الصيام والزكاة . وترجمتها :

"قصيدة الصيام والزكاة * نقلُ أبان من فم الرواة"

وها هى ذى القصيدة :

هذا كتابُ الصوم وهو جامعُ * لكلّ ما قامت به الشرائعُ
من ذلك المُنْزَلُ فى القرآنِ * فصلا على من كان ذا بيانِ
ومنه ما جاء عن النبيّ * من عهده المتّبع المرضيّ
صلّى الإلهُ وعليه سلّما * كما هدَى اللهُ به وعلّما
وبعضُه على اختلاف الناسِ * من أثرٍ ماضٍ ومن قياسِ
والجامعُ الذى اليه صاروا * رأى أبى يوسف مما اختاروا
قال أبو يوسف أمّا المفترَضْ * فرمضانُ صومُه ادا عَرَضْ
والصوْم فى كفّاره الأيمانِ * من حيثُ ما يجرى على اللسانِ
ومَعَهُ الحجّ وفى الظِّهارِ (١) * الصوْم لا يُدفَع بالإنكارِ
وخطأ القتل وحَلْق المُحرِم * لرأسه فيه الصيامُ فاعلمِ
فرمضانُ شهره معروف * وصومُه مفترَضٌ موصوف (٢)
والصوم فى الظهار ان لم يقدِرِ * مطاهِرٌ يوما على محررِ
والقتلُ إن لم يكُ عَمْدا قتلُهُ * فإنّ ذاك فى الصيام مثلُهُ
شهران فى العِدّةِ كاملانِ * متّصلان لا مفرّقان
والحِنْثُ فى روايةٍ مقولهْ * ثلاثةٌ أيامُها موصوله
ومثلُها فى عدّة الأيامِ * للمُحرِم الحالِق فى الإحرامِ
ثلاثةٌ يصومها إن حلَقا * لا بأس إن تابعها أو فرّقا

(١) الظهار مصدر ظاهر الرجل من امرأته اذا قال لها : أنت علىّ كظهر أمى ، وكنى بالظهر عن البطن تأدبا .
(٢) فى الأصل : "موطوف" .

والصومُ فى المُتْعة ان لم يجـدِ * هَدْيًا وكان بالصيام يفتـدى
صـــيامُ أيامٍ مؤقَّـــاتِ * ثلاثةٍ فى الحج مفـــروضاتِ
وبعد ما يرجع صومُ سـبعه * عشـــرةٌ كاملة فى المتعـــه
أمّا الثـــلاثةُ التى فى الحجِّ * فكان مَنْ أدركتُ من محتـجِّ
أو غيرُه ممن يَرَى أن يرويَهْ * يقول يوما قبـل يوم التَّرويَهْ
ويومها وصـــوم يومِ عرفَهْ * مؤتلفاتِ الصـوم لا مختلفَـهْ
قالوا وإن أحبَّ أن يُفَـــرِّقا * فذاك ما ليس عليـه ضـيِّقا
إن كان ذاك الصوم منه بعدما * يكون فى عُمـــرَتِه قـد أحرما
ولو أراد الصـــومَ فى شوّالِ * من بعـد أن يوجب بالهلالِ
عمـرتَه لكان ذاك مُجزيا * وذاك يُفتَى من أتى مستفتيا

وهى طويلة جدّا

ونحسب أن مكانه من البرامكة هو الذى حمله على اختراع هذا الفن، فقد كان مكانه منهم مكان المؤدّب لصبيانهم وشبانهم، وكان من الحق عليه أن يسهل لهم العـلم تسهيلا . وليس من شك فى أن هذه الأموال التى أصابها من البرامكة حينما نظم كليلة ودمنة قد أطمعته، فنظم القصائد الأخرى ليصيب مثل ما أصاب .

أخبار حمدان بن أبان بن عبد الحميـد بن أبان ومختار من شعره

قال أبو بكر الصّولىّ: حدّثنى محمد بن زياد قال: كانت فى عند الصمد بن المعدّل عربدة اذا سكر، فعربد يوما فى مجلس فيه حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان. وكان أيّدًا[1]، فقال لهم: كِلُوه إلىّ وحدى، وأحده وكتفه وحعله فى بيت وأعلق بابه، وقال: اذا أصبحتم فأطلقوه، وانصرف، فبلغه أن عبد الصمد حلف ليمحونّه سنة، فقال حمدان يهجوه:

(١) أيدا قويا .

قل لعبد الصمد الأحـ * ـمق لا تغضبْ عليَّهْ
وعلى أمّك فاعضبْ * وآكِها فى الهَنِ كيَّهْ
أمك العـــلاء جاءتـ * ـنى بسلمى ورُقَيَّـهْ
وهى ساقت ليـلةً فا * طمةً أخرى اليَّـهْ
فقضـينا فيهـم الحـق * وقلّنـا الســويّهْ

وقد ذكر الصولى فى كتابه الأوراق ما اختاره من قصيده حمدان بن أبان بن عبدالحميد ابن أبان فى وصف الحب وأهله وهى طويلة، قال :

ما مالُ أهـلِ الأدبِ * مـا وأهـلِ الكتب
قـد وصـعوا الآدابا * وأتعبـوا الكتّابا
لكلّ فنٍّ دفـترُ * مقّـطٌ محـبّرُ
فُـرِّقتْ أجناسـا * وعلّمـوها الناسـا
بالحِبَـل الرقيقـه * والقِطَن الدقيقه
فأرشـدوا الضُّـلّالا * وعلّمـوا الجُهّـالا
سِوى المحبينَ فلَمْ[1] * يَرْعَوا لهم حقَّ الذِّمَمْ
فى عِلم ما قد جَهِـلوا * وما به قد ائتُـلُوا
قد غَلِقتْ رُهونُهـمْ * وآستعبرَتْ عيونُهمْ
وحالفـوا السُّهَـادا * وحالفـوا الرُّقَـادا
فليلُهـم طـويلُ * ونومُهـم قليـلُ
أبدانُهـم بحيـلَهْ * مُتعَبَـةٌ عليـلَهْ
نفوسُهـم حزينَـهْ * مشـغوفةٌ رزينَـهْ
ظاهرةٌ عمومُهـمْ * باطنـةٌ كلومُهـمْ

(١) فى الأصل : "فكم" .

باكيةٌ عيونُهم * قريحةٌ حفونُهمْ
إن ظُلموا لم يَظْلِموا . وإن شكَوْا لم يُرْحَموا
أحبابُهم في لَعِبٍ * وفي دوام الطَرَبِ
صافيةٌ ألوانُهمْ * صاحكةٌ أسنانُهمْ
قد سكَنُوا القُصورا * وقارَبوا السُّرورا
تفرَّغوا للهَجْرِ * وللسَّوى والغَدْرِ
عاشقٍ يهواهُمُ * بالله ما أقساهُمُ
وَعْدُهُمُ وَعِيدُ * إقرارهُمْ جُحودُ
تأسَى لأهلِ العشقِ * أهلِ الصَّبا والرِّقِّ
ليس لهم وسيلَهْ * ولا وحوهُ حيلَهْ
رأيتُ لمَّا خُدِلوا . وفي هواهمُ وَحِلُوا
أنْ أُرشِدَ المُغفَّلا * الجاهلَ المضلَّلا
الى الطريقِ الواضح * عبد السلامِ الفادح
وأبتدي كتابا * للوصفِ بابا بابا (١)
يا أيها الناسُ قِفوا . وصيَّتي وآ تمِعُوا
ففي صِفاتي عَجَبُ * وفي كتابي أدب
قصيدتي مقوَّمَهْ * ألفاظُها منظَّمَهْ
فيها هَوَى العُشَّاقِ * ومُنيَةُ المشتاق
وصَفْتُ أهلَ العشقِ * ولم أَمِلْ عن حقّ
فاسمعْ مقالا صادقا * يا من يبيتُ عاشقا
للحبِّ خلَّتانِ * هُما هُما اللتان
الصبرُ والرفقُ معًا * يومًا اذا ما اجتمعا

(١) في الأصل . * لوصف باب بابا *

فى عاشقٍ مهجورِ * ساعَدَ مغرُورِ
قَضَى قريبا وطَرَا * وبلّغاهُ الوطَرا
ما الحسنُ والإحسانُ والملكُ والسلطانُ
يعدِلُ وصلَ الإلفِ * وكَسرَهُ للطَّرْفِ
ما حَسَنٌ فى العينِ * أحسنُ منْ إلفينِ
يوما اذا ما ٱلتقيا * فى مجلسٍ فاشتفيا
مُداوِمَيْنِ للظَفَرْ * قد أمِنا كلَّ حَذَرْ
يبادران الحَلوَهْ * ويُطهران الصبوَهْ
مساعدَيْنِ ٱتفقا * باتا ولم يفترقا
هواهما مخزونُ * سرُّهما مدفونُ
مداريَيْنِ أصحا * للناس لم يفتضحا
مَنْ حرَّبَ الحبَّ عَرَفْ * ما بين ملكٍ وأسفْ
لن يبلغَ الصبُّ المُنَى * إلا بصبرٍ وعَنَا
إن الهوى ضُروبُ * وأمره عجيبُ
وأهلُه أطوارُ * فيه لهم أوطارُ
للعاقلِ الشريفِ * والأحمقِ السخيفِ
منهُمُ مرزوقُ * محبٌّ معشوقُ
على ٱصطرابِ الخَلْقِ * مع وسوءِ الخُلْقِ
تُقصَى له الأوطارُ * وتُعمَلُ الأشعارُ
مقرَّبٌ ما يُقصَى * مطاوَعٌ ما يُعصَى
ومنهُمُ محرومُ * مُحارَفٌ[1] مَشئُومُ

---

١) محارف : محروم محدود اذا طلب لا يرزق .

على جمالِ هيئتِـــهْ * وحســـبِه وبهجتِـهْ
ومنهُمُ من نُدَامَا * ينـالُ عيشًـا رَغَدَا
من غير سعى وطلَبْ * وعـــيرِ كَدٍّ ونَصَبْ
قَـدَّ ذاك الأسـعدُ * والبختُ منه أجْوَدُ
إذ فاز باللـــذَّاتِ * ودَرَكِ الحـــاجاتِ
ومنهُمُ من يتعَبُ * فى حبِّـــهِ ويدأَبُ
أسقمه طولُ الهوى * وشـقَّه وحدُ الحوى
فداك صبٌّ قد شَقِى * تؤسَى له ما دا لَـقِى
ومنهُـــمُ الصـــبرُ * العـــاقلُ النِّحـــريرُ
يحتمـــل الهجـــرانا * ويحمِـــلُ الأحـــرانا
فـلا يزال متَـــلَى * حتى يـــالَ أمـــلَا
ومنهـــم العميـــدُ * الجاهـــلُ البليـــدُ
يُحِبُّ بالتصـــبُّرِ * والجهـلِ والتكبُّرِ
يَلقَى الحبيبَ ناهتـا * فـلا يزالُ ساكتا
ومنهُمُ مَن يهوَى * بالغيب يأتى عفـوا
فـيزرَعُ الغُمـــوما * مستحلِبًا هُمـــوما
فـذاك حبُّ العيبِ * ليس به من عيبِ
من دونه حجـابُ * ودونـــه أبوابُ
فـا لـــذاك لَبْثُ * وليس مـــه مُكثُ
حتى يُرَى مقهـورا * فى حبِّـــه محسورا
ومنهُـــمُ جبَّـارُ * فى حبِّـــه أزورارُ
يُزهَى اذا ما عَشِـــقا * ورهنُـهُ قـد عَلِقا

يلـــتزم الجاجَـــهْ * فليس يُبدِى الحاجَهْ
فذاك حبُّ الفَوتِ * وفيـــه كَربُ الموت
ومنهُـمُ من للنظَرْ * يهوَى ولم يَعْدُ البصَرْ
اذا رأى حليـــلَه * داوَى به عليـــلَه
يكتمُ ما يقاسِى * من أعين الجُـلّاسِ
ومنهُمُ من اقتصرْ * على الحديث والنظـرْ
غايتُـــه السّـــلامُ * واللحـــظُ والكلامُ
مدافعٌ عن حبِّـــهِ * يكتُمُ وجدَ قلبِـــهِ
يَنفِى الهوى ويـــكرْهْ * والتَّبرِّى يســـتُرُهْ
فذاك حبُّ العاقـــلِ * حبُّ أديبٍ كامـــلِ
وبعضُهم لا يُقنِعُـــهْ * إلا عمودٌ يودِعُـــهْ
قـــد طلَّقَ الحراما * والتمـــسَ الأثاما
فذاك حبُّ النَّهِـــمِ * الماجنِ المغتـــلِمِ
حقَّ له الحرمانُ * والمنعُ والحذلانُ
وبعضُهـــم مَـــدَّاقُ * معـــانتٌ مَـــلّاقُ
مستعمِلٌ للكذبِ * مُحَـــرِّفٌ فى الكُتُبِ
فـــذاك حبُّ الزُّورِ * يلسَـــعُ كالأُســـورِ
وبعضُهـــمْ عميـــدُ * غايةُ ما يـــريد
خَلوةٌ من يهـــواهُ * فى مشهـــدٍ يلقـــاهُ
لحظتُـــهُ مُســـارَقه * مَبيتُـــهُ مُعانَقـــهْ
مكاتمٌ لحبِّـــهِ * فى بُعـــده وقُـــربِهِ
فـــذاك حبٌّ يُكِـــدُ * نـــيرانُهُ لا تَخمُـــدُ

ومنهُمُ مَنْ يَهْتِفُ * بالحقِّ حين يُشعَفُ
اذا الحبيبُ صـدَّا * ولم يُبِـلْه وُدَّا
تاهَ عليـه وحَزِقْ[1] * وصدَّ عنه وحَمِـقْ

وقال فى آخرها :

قـد تمَّ منى وَصْفُ * ولم يَحُـنِّى الرَّصْفُ
وانقضتِ القصيـدَهْ * محـوبةً حَميـدَهْ
والحمـدُ للرحمنِ * ذى العـزِّ والسُّلطانِ
والذمُّ للشيطانِ * ذى العَـرمِ[2] والطُّغيانِ

(١) حزق : ضن عليه وبخل .
(٢) العرم : الشدة والشراسة . وفى الأصل : « العرم » .

٦ — منصور النَّمَرى[1]

كان ذا حيلة سياسية ، فأدرك أن الرشيد يسرُّه أن يُمدح بنفى الإمامة عن علىّ والطعن عليه ، لما كان يراه من تقديم مروان بن أبى حفصة بسبب ذلك ، فسلك مذهبه ونحا نحوه — والشعراء يومئذ انما يطلبون الكسب — لكنه لم يصرّح بالهجاء والسبّ كما فعل مروان ، ومن قوله فيه قصيدة مطلعها :

أميرَ المؤمنين اليـك حُضْنا * غِمار الهَـوْل من بَلَد شطير
بخُوص كالأهِـلّة حافقاتٍ * تَلين على السُّرى وعلى الهَجير
حَمَلْن اليـك أحْمالا ثِقالا * ومثـلَ الصخرة الدُّرّ النثير
فقد وَقَفَ المَـديح بمُنْتَهاه * وغايَتِه وصار الى المصـير
الى من لا تُشير الى رسولٍ * اذا ذُكر النَّدَى كَفّ المُشير

وذكر فى القصيده يحيى بن عبد الله بن حسن فقال :

يدلّل من رقاب بنى علىّ * ومَنٌّ ليس بالمنّ الصـغير
مننتَ عَلَى ابن عبد الله يَحْيَى * وكان من الحُتوف على شَفِير

---

(١) هو منصور بن الرقاد بن سلمة النمرى الربعى ، من النمر بن قاسط ، ثم من ربيعة بن نزار . شاعر من شعراء الدولة العباسية . من أهـل الجزيرة ، وهو تلميذ كلثوم بن عمرو العتابى وراويته ، عنه أخذ ، ومن نحوه استق ، وبمذهبه تشبه . وصفه العتابى للفضل بن يحيى بن خالد وقرظه عنده حتى استقدمه من الجزيرة واستصحبه ، ثم وصله بالرشيد وحرت بعد ذلك بينه وبين العتابى وحشة حتى تهاجرا وتناقصا وسعى كل واحد منهما فى هلاك صاحبه ؛ وكان النمرى قد مدح الفضـل بقصيدة وهو مقيم بالجزيرة ، فأوصلها العتابى اليـه واستزاده له وسأله استصحابه ، فأبى له فى القدوم ، فحظى عنده ، وعرف مذهب الرشيد فى الشعر وإرادته أن يصل مدحه إياه بمعنى الإمامة عن ولد على بن أبى طالب عليهم السلام والطعن عليهم وعلم معناه فى ذلك مما كان يبلغه من تقديم مروان بن أبى حفصة وتفضيله إياه على الشعراء فى الجوائز ، فسلك مذهب مروان فى ذلك ونحا نحوه ، ولم يصرح بالهجاء والسبّ كما كان يفعل مروان ولكنه حام ولم يقع وأومأ ولم يحقق ، لأنه كان يتشيع ، وكان مروان شديد العداوة لآل أبى طالب وكان يعتقد من بنية قوية يقصد بها طلب الدنيا فلا يبق ولا يذر . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ١٢ ص ١٦ وج ١٧ ص ٣٢ و ١٤١) .

ولقد تخلص الى شيء ليس عليه فيه شيء وهو قوله :

فإن شكروا فقد أنعمتَ فيهم * وإلّا فالنّدامة للكفور
وإن قالوا بـو بنت لحقٌّ * وردّوا ما يناسب للدُّكور
وما لبنى بنـاتٍ من تُراثٍ * مع الأعمام فى وَرَق الزّبُور

ومنهـا :

بنى حَسَن ورَهْطَ بنى حُسَينٍ * عليكم بالسَّداد من الأمور
فقـد ذُقتم قِراع بنى أبيكم * عَداةَ الرّوع بالبِيض الذُّكور
أحيى شَـفَوْكُمُ من كل وِتْرٍ * وصَمُّـوكم الى كَـيف وَتير
وحادُوكم على طمأ شـديدٍ * سُـقيتم من نَوالهم العـرير
فـما كان العقوق لهم جَزاءً * بعلهـم وآدى للشُّشور
وإنك حين تُبْلِعهم أَذاةً * وإن طَلَموا لمحزونُ الضّمير

فقال له : صدقت وإلا فعلىّ وعلىّ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وأنشد الرشيدَ يوما قصيدتَه التى أوّلها :

ما تنقصى حَسْرَةٌ منّى ولا جَزَعُ * اذا ذكرتُ شَـبَابا ليس يُرْتَجَعُ
بان الشبابُ وفاتنى بِلَذّتِهِ * صُرُوفُ دَهْرٍ وأيامٌ لها جِدَعُ
ما كنت أوفى شبابى كُنْهَ عُرّتِهِ * حتى انقَضَى فاذا الدنيا له تَبَعُ

فقال الرشيد : أحسن ! والله لا يَتَهَنّى أحد عَيْش حتى يَخْطِرَ فى رِداء الشباب .

ومن قوله فيها يمدح الرشيد :

أىّ آمرئ ناتٍ من هارونَ فى سَخَطٍ * فليس بالصلوات الخمْس يَنْتَفِـعِ
إن المكارم والمعـروفَ أوْدِيَةٌ * أَحلّك اللهُ منها حيث تَجْتَمِـعِ (١)

(١) رواية الأغانى : "تتسع" .

ادا رَفعتَ آمرءًا فاللهُ يَرْفَعُــه * وَمَنْ وَضعتَ من الأقوام مُتَّضِعُ
نَفْسِي فِداؤك والأبطالُ مُعْلمة * يومَ الوَغَى والمــايا صابُها فزَع

ومن قوله يمدح الرشيد :

يامَنزِلَ الحى ذا المَغانى * إنعمْ صَبَاحًا على بِلاكَا
هارونُ ياحيرَ من يُرَجَّى * لم يُطِـعِ اللهَ مَنْ عَصَاكا
فى حيرِ دِينٍ وحيرِ دنيا * من آبق اللهَ وآتقــاكا

وناهيك بقصيدته التى رفعت السيف عن ربيعة بنصيبين بعد أن جرده فيها الرشيد وهى التى يقول فيها :

وقــد علم العُدْوانُ والجَوْرُ والخَنا * بأنك عَيّاف لهن مُرابِــلُ
ولو عملوا فيــا بأمرك لم يكن * يَنــال بَرِيّا بالأذى مُتَناوِلُ
لــا مك أرحامٌ ونعتــدّ طاعةً * و بأسا إذا آصطكّ القَنا والقنابل
وما يَحْفَظ الإحسانَ مثلك حافظٌ * ولا يَصِلُ الأرحامَ مثلك واصل
حملناك فاسعًا مَعــادًا ومَفزَعًا * لنا حين عضّتنا الخطوبُ الحلائلُ
لأنت إذا عادت بوجهك عُوَّدٌ * تَطامَنَ حوف وآستقرّت بلابل

اجتمع جماعة من الشعراء ببغداد وفيهم منصور النمرى، وكانوا على نَبيذ، فأبى منصور أن يشرب معهم، فقالوا له : إنمــا تعاف الشَّراب لأنك رافِضىّ، وتَسمع وتُصغى الى الغناء، وليس تَرْكُكَ النَّبيذ من ورع، فقال :

حلا بين نَدْمانَىَّ موضــعُ مَجْلسى * ولم يبق عندى للوصال نَصيب
ورُدّتْ على الساق تَفيض ورَبّما * رددتُ عليه الكأسَ وهو سَليب
وأىّ آمرئ لايَستهش اذا جرتْ * عليه سَــانٌ كَفُّهن حَصيب

(١) معرده قبل بفتح فسكون ثم فتح . الطائفة من الناس .

قال النمرى : كنت واقفا على جِسْر بَعداد أنا وعبيد الله بن هشام ، وقد وَخَطَنِي الشيبُ يومئذ ، وعبد الله شابُّ حديث السِّنّ ، فاذا أنا بقَصْريّة طريفه قد وقفتْ ، فجعلت أنظر اليها وهى تنظر الى عبيد الله ثم انصرفتْ ، وقلت فيها :

لما رأيتِ سَوَام الشَّيب منتشرًا * فى لِمَّتى وعبيدَ الله لم يَشِب
سَلَلْتِ سَهمين من عينيك فانتضلا * على سبيَّه ذى الأذيال والطرب
كذا الغوانى ترى منهنّ قاصدة * الى الفروع مُعَرَّاة عن الخشب
لا أنتِ أصبحت تعقدْ بيسا أربًا[1] * ولا وعيشك ما أصحت من أربى
إحدى وخمسين قد أصبت حِدّتَها * تحول بينى و بين اللَّهو واللَّعِب
لاتحسبينى و إن أعصَيْتِ عن نَصَرى * عَفَلتُ عنك ولا عن شأنك العَجَب

عصب الرشيد على منصور النمرى لما أُنشِد قصيدتَه فى مدح العلويين وأولها :

شاءٌ من الناس راتِعٌ هاملْ * يعللون النفوسَ بالباطلْ

وفيها يقول :

ألَّا مَسَاعيرُ[2] يغصبون لها * بسَلّة السيف والقَنَا الذابلْ

فغضب من ذلك عَصَبا شديدا وقال للفضل بن الربيع : أحضِرْه الساعةَ ، فبعث الفضل فى ذلك ، فوجده قد تُوُفِّىَ ، فأمر بنبشه ليُحرِقه ، فلم يزل الفضل يُلطِّف له حتى كَفَّ عنه .

واليك قصيدتَه فى مدح العلويين نقلا عن الشعر والشعراء لابن قتيبة ، لأن صاحب الأغانى أغفلها ولم يذكر منها إلا البيتين السابقين :

شاءٌ من الناس راتِعٌ هامِلْ * يُعلِّلون النفوسَ بالباطلْ
تُقتَل ذُرّية النبىّ وَيَرْ * جون جِنانَ الخُلود للقاتلْ
وَيْلَك يا قاتلَ الحسين لقد * بُؤتَ بحَمْل يَئُوءُ بالحامل

(١) كذا فى الأصل ولعله : * لا أنت أصحت بعقد بيسا أربت * بتسكين العين بعقد للضرورة وتسكين العين فى الضرورة وارد ومنه قول امرئ القيس . فاليوم أشرب غير مستحقب * اثما من الله ولا واغل

(٢) فى الشعر والشعراء "مصاليت" .

أىّ حِبَاءٍ حَبَوْتَ أحمـدَ فى * حُفْرَته من حَرَارة الثاكِلْ
بأىّ وجه تَلْقَى النبىَّ وقـد * دَخَلْتَ فى قتـله مع الداخل
هَلُمَّ فاطْلُبْ غـدًا شفاعتَـه * أولا فَرِدْ حَوْضَه مع النـاهل
ما الشَّكّ عندى فى حال قاتله * لكننى أشُـكّ فى الخاذل
عسى فداء الحسين حين عَدَا * إلى المنـايا غُـدُوَّ لا قافِل
دلك يـومٌ أنْحَى بشَـفْرَته * على سَنام الإسـلام والكاهِل
حتى مَـتَى أنتِ تَعْجَبِينَ ألَا * تَنْزِلُ بالقـوم نِقْمَـةُ العاجِل
لا يَعْجَـلُ الله إن عَجِلْتِ وما * ربُّك عمـا يريد بالغافـل
وعاذلى أمى أحبّ نَـىِ * أحمـدَ فالتُّرْب فى فَمِ العـاذِل
قد ذُقْتُ ما دِينُكم عليـه فمـا * وَصَلْت من دينـكم إلى طائل
دينكمُ جَفْوَة النبىّ وما الـ * ـجافى لآل النبىّ كالواصـل
مظلومـة والـدِىّ والدها * بَذِيرُ أرْجاءِ مُقْـلةٍ حافِـل
ألّا مَصاليتُ يَغْضَبُـون لهـا * سَـلّة البِيض وَالقَنَـا الذابِل

وقال أيضا .

آل النبىّ ومن يُحِبُّهـمُ * يتطامنـون مخافةَ القتـل
أمِنُوا النّصارَى واليهودَ وهم * من أمّة التوحيد فى أزْلِ(١)

وأُنشِدَ الرشيدُ هذا بعد موته فقال : لقد هَمَمْت أن أنْبُشَه ثم أحرقه .

ومن جيد شعره قوله فى الرشيد :

يا زائرِينَا من الخيَـامِ * حيّاكما الله بالسّـلامِ
يُحـزِنُنِى أن أطَعْتُمانِى * ولم تَنَالَا سِوَى الكلام

(١) الأزل : الضيق والشدة .

لم تَطْـرُقانى وبى حَرَاكٌ * إلى حَـلَال ولا حَرَام
هَيْهاتَ للَّهْـو والتّصابى * وللعـوانى وللمُـدَام
أقْصَرَ جَهْلِى وثَابَ حِلْمِى * ونَهْنَهَ الشَّيبُ من عُرَامِى (١)
عَمْـرُ أبيهـا لقد تَوَلَّت * سالمَةَ الحَدّ من عِذامِى (٢)
لله حِـىّ وتِرْبُ حِـىّ * ليـلةَ أعياهمـا مَرامِى
آذَنَتَانِى بِطُـولَ هَجْرٍ * وعَرَّتانى مع السَّـوَام
وأبطَـوَتا لى على مَـلامٍ * والشَّيْب شَرٌّ من المَـلَام
نُورِكَ هارونُ من إمَامٍ * بطاعة الله ذى اعتِصـام
له الى ذى الجَـلَال قُرْبَى * ليست لعَـدْل ولا إمام
يسْـعَى على أمة تَمَـنَّى * أن لو تَقِيه من الحِمَام
لو استطاعت لقاسَمَتْـه * أعمـارَها قِسْمة السِّهام
يا حيرَ ماضٍ وحـيرَ باقٍ * بعـدَ النبيين فى الأنام
ما استُودِعَ الدينُ من إمام * حامَى عليـه كما تُحامِى
يؤنس من رأيه رأى * أصـدقَ من سَلّة الحُسام

وقال :

أعُمَيْرُ كيف لحاجة * طُلِبَتْ الى صُمّ الصُخُورِ
لله دَرُّ عُداتِكُمْ * كيف انتَسَبْنَ الى الغُرُور
ان اللّيَـالى صِمْنَنِى * وسَمْنَنى سِمَـةَ الكَبير
أطْفَأنَ نُورَ شَبِيبَتِى * وفَرَشْنَنِى كَنَفَ الغَيُـور
ولقـد تَبِيتُ أنامِـلى * يَحْنِينَ رُقانَ النُحُور

(١) العرام : الحدة . (٢) العذم الشعة كالعص بالأسنان .

٧ — السيّد الحميرىّ[1]

« لم يكن[2] السيّد الحِمْيَرِىّ من أنصار الحَسَن والحُسَين، أو بعبارة أصحّ لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين؛ وإنما كان من الكَيْسَانيّة الذين كانوا ينصرون الابنَ الثالث من أبناء علىّ: محمدَ بن حَوْلة الحنفيّة؛ والذين كانوا يَدِينون بأنه لم يمت وإنما تغيّب عن الناس واحتجب عنهم حيناً وسيعود فيملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جَوْرا، فلم يكن على السيد الحميرىّ بأسٌ أن يمدح بنى العباس ويتقرّب منهم ما دام صاحبُه محمدُ بنُ الحنفيّة لم يَعُد من غيبته بعد. ثم نستطيع أن نُميِّز هذا الشاعر مُخْضْرَمة لم نرها فى شاعر من الذين تحدّثنا عنهم، وهى أنه كان سخيفًا ضعيفَ العقل شديدَ الإيمان بالخرافات والأوهام، ويظهر أن هذه الخصلةَ جاءته من مذهبه بعينه فى الرجعة، فقد أسرف فى هذا المذهب كما أسرف فى مدح العَلَوِيِّين والإيمان بهم حتى وصفهم من الخير والكرامة بما يُقبل وما لا يُقبل، فكان كلّ خير يمكن أن يُنسَب إلى العلويِّين، رصيه العقلُ أم لم يرصه، وكان كل شرٍّ يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين، رصيه العقل أم لم يرصه، وكان يكفى أن يسمع رجلا من أهل القَصَص ورُواةِ الأساطير يروى كرامة من الكرامات يُضيفها إلى أحد العلويين حتى يَنظِم فيها قصيده طويلة جيِّدة، ويتخذ هذه القصيدة وسيلةً إلى ذمّ السلَف والنعى عليه.

---

(١) هو اسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرّغ الحميرى والسيد لقبه ويكنى أبا هاشم، كان شاعرا متقدما مطبوعا، يقال إن أكثر الناس شعرا فى الجاهلية والاسلام ثلاثة: نشار وأبو العتاهية والسيد، فانه لا يعلم أن أحدا قدر على تحصيل شعر أحد منهم أجمع، وإنما مات ذكره وهجر الناس شعره لما كان يفرط فيه من سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه فى شعره ويستعمله فى قذفهم والطعن عليهم فتحوى شعره من هذا الجنس وغيره لذلك وهجره الناس تحرّجوا وترفعا، وله طرار من الشعر ومذهب قلما يلحق فيه أو يقارب، ولا يعرف له من الشعر كثير، وليس يجلو من مدح بنى هاشم أو ذم غيرهم ممن هو عنده ضدهم. توفى سنة ١٧٣ هـ. وتجد ترجمته وأخباره فى الأغانى (ج ٧ ص ٢) ووفيات الوفيات (ج ١ ص ١٩).

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

وخَصْلة أخرى تقرّبه من الزنادقة الذين عاصروه ولكنها تجعـل الصلة بينه وبينهم ضعيفةً واهيةً فى الوقت نفسه .

وهى أنه كان يستبيح صروبا من اللهو والمنكر، ويُسرف فى شرب الخمر وغير ذلك من ألوان العَبَث، لا لأنه كان يَجْحد الدين أو يَزْدريه بل لأنه كان يدلّ على صـاحب الدين؛ كان يحبّ النبىّ صلى الله عليه وسلم وآله ويَمْحضهم مَوَدّته ونَصْره، ويعتقد أنهم سيعرفون له ذلك وسيشفعون له فى ذنوبه وآثامه لِمَـا قدَّم بين يديه مـن مَدْح العلويين ونَصْرهم على خصومهم، وكان سهل هاشم وبنو علىّ حاضّة يُطْمِعُونه فى ذلك ويَغْترون له به، فإذا ذُكر لهم أنه يلهو ويشرب الخمر قالوا : وأىّ ذَنْب يعظُم على الله أن يغفره لرجل من أنصار أهل البيت ! بل قال أحدهم إنّ مَنْ أحبَّ آلَ علىٍّ لم تزلّ له قَدَمٌ إلا ثبتت له أخرى؛ وعلى هـذا كان السيّد الحميرىّ يلهو آمنا فى دينه ودُنياه، يعتمد فى دينه على العلويّين، ويعتمد فى دنياه على العباسيين، يقـدِّر أنّ العلويين سيشفعون له عند الله، ويعـلم أنّ العباسيين يَتّقُون شرّه ويُؤْثرون مدحه على هِجـائه ، وكان من مُعاصِريه مَنْ يكره ذلك ويَمْقُتُـه كلّ المقت، ويُضمر للسيّد عِداءً وحِقْدا لا يَعْدِلها عِدَاءُ ولا حِقْد؛ ومن هؤلاء سَوّار بن عبد الله العَنْبَرى قاضى البصرة للمنصور، فقد كان العداءُ بينه وبين السيد شـديدا ، وكان قد أجمع ألّا يَقْبل للسيّد شهادة، وكان قد سعى بالسيد عند المنصور غَيْرَ مرّة ؛ وكان السيّد قد هجاه فأسرف فى هجائه، فشكا ذلك إلى المنصور فنهاه المنصورُ عنه وأمره أن يذهب الى القاضى ليعتذرَ اليه، وأبى القاضى أن يقبل معـذرته، فاستأنف السيد الهجاء وألحّ فيه . ويقال إنّ سوّارا أعدّ شهودا يشهدون على السيد بالسرقة ليقطع يده، فعلم السيد ذلك فجَزِع وفزع إلى المنصور ، فعزل المنصور سوّارا من القضاء للسيد أو عليـه ، ولم يلبث سوّار أن مات فتبعه السيد بعدائه وبُغْضه وهِجائه » .

قال أبو جعفر الأَعْرَج : كان السيّد أسمر تامّ القامة، أشنبَ ذا وَفْرة، حسنَ الألفاظ جيلَ الخطاب، اذا تحدّث فى مجلس قوم أعطى كلّ رجل فى المجلس نصيبَه من حديثـه؛

وقال الفرزدق . إنّ ههنا لرجلين لو أخذا فى معنى الناس لما كنّا معهما فى شىء : السيد الحميرى وعِمران بن حِطّانِ السَّدُوسىّ ، ولكنّ الله عزّ وجلّ قد شَغَل كلّ واحد منهما بالقول فى مذهبه ؛ وقال الأصمعىّ لما أُنشِدَ شيئا من شعره : ما أسلكه لطريق الفُحول لولا مذهبُه ، ولولا ما فى شعره ما قدّمتُ عليه أحدا من طبقته ، وكان أبو عُبَيدة يقول : أشعرُ المُحْدَثين السيِّد الحِمْيَرىّ وبشّارٌ .

وكان السيِّد يذهبُ مذهب الكَيْسانيّة ويقول بإمامة محمد بن الحنفيّة ، وله فى ذلك شعر كثير .

وقف السيِّد على بشّار وهو يُنشد الشعر ، فأقبل عليه وقال :

أيها المادحُ العبادِ لِيُعْطَى * إنّ لله ما بأيدى العبادِ
فاسأل الله ما طلبت اليهم * وارجُ مع المُنَزِّلِ الجوّادِ
لاتقُلْ فى الجَواد ما ليس فيه * وتُسَمِّى البخيلَ باسم الجَوادِ

قال بشّار : مَنْ هذا ؟ فعرّفه ، فقال . لولا أنّ هذا الرجلَ قد شُغِل عنّا بمدح بنى هاشم لشَغَلَنا ، ولو شاركنا فى مدحنا لتَعِسْنا .

ومن قول السيِّد :

أتعرِفُ رَسْمًا بالثُّوَيّ قد دَثَرْ * عَفَتْه أهاصيبُ السحائب والمَطَرْ
وجَرَّتْ به الأذيالَ رِيحٌ حِلفةٌ * صَبًا ودَبُور بالعشيّات والبُكَرْ
مازلْ قد كانتْ تكونُ مجوّها * هَصِيمُ الحَشَى رَيّا الشَّوَى يَحْرُها النَّظَرْ
قَطُوفُ الخُطَا خُمْصَانَةٌ نَحْتَرِيَّةٌ * كأنّ مُحَيَّاهَا سَنَا دارةِ القَمَرْ
رَمَتْنى ببُعدٍ بعد قُرْبٍ بها النَّوى * فماتْ ولمّا أَقْضِ من عَنْدَةَ الوَطَرْ
ولمّا رأتنى خَشْيَةَ البَيْنِ مُوجَعًا * أُكفكِفُ منى أدمُعا بِيصها دُرَرْ
أشارتْ بأطرافٍ إلىّ ودَمْعُها * كنظم جُمَانٍ خانَهُ السِّلْكُ فانتثرْ
وقد كنتُ مما أحدثَ البَيْنُ حاذرا * فلم يُغْنِ عنّى مسه خَوْفِى والحَذَرْ

لما استقام الأمر لبني العباس قام السيِّد الى أبي العباس السفَّاح حين نزل عن المنبر فقال :

دونَكُوها يا بني هاشم * جدِّدوا من عهدها الدارسا
دونكوها لا علا كعْبُ مَن * كانَ عليكم مُلْكَها نافسا
دونكوها فالبسوا تاجَها * لا تعْدَموا منكم له لابسا
لو خُيِّر المـــبرُ فُرسانَهُ * ما آختارَ إلّا منكمُ فارسا
قد ساسها قبلكُم ساسةٌ * لم يتركوا رَطْباً ولا يابسا
ولستُ من أن تملكوها الى * مَهْبَط عيسى فيكم آيسا

وبعث بهذه الأبيات إلى المهدي يسأله ألّا يعطي آل بكر وعمر من مال الدولة :

قل لأبي عبّاسٍ تَيمِيِّ محمّـد * لا تُعْطِيَنَّ بني عديٍّ درهمـا
احرِمْ بني تَيْم بن مُرَّة إنهـم * شرّ الـبرية آخرا ومُقَـدَّما
إن تعطهم لن يشكروا لك نعمةً * ويكافئوك بأن تُذَمَّ وتُشْتَمَا
وإن آثمتهـمُ أو آستعماتهـم * حابوك وآتخذوا خَرَاجَك مَغْنَما
ولئن مَنَعتهمُ لقـد بدءوكُمُ * بالمنـع إذ مَلَكوا وكانوا أظلما
مَنَعُوا تُرَاثَ محمـد أعمامَـه * وبَنِيه وآبنتـه عَديلةَ مَرْيَمَـا
وتأمَّروا من غير أن يُستَخْلَفُوا * وكَفَى بمـا فَعَلُوا هنالك مأثمـا
لم يشكروا لمحمد إنعـامَهُ * أفيشكرون لغـيره إنْ أَنْعَمَا
واللهُ مَنَّ عليهـمُو بمحمّـد * وهداهم وكسا الجنوب وأطعما
ثم آنبروا لوصيِّه ووليِّـه * بالمنكرات فجرَّعوه العلقما

أنشد السيّد جعفر بن محمد هذه الأبيات يذكر فيها قبر الحسين :

أمُرُرْ على جَدَث الحُسَيـ * ـن فقُلْ لأعظُمِهِ الزكيَّهْ
أأعظُمًا لا زِلْتِ مِنْ * وَطْفَاءَ ساكبةٍ رَوِيَّهْ
واذا مَرَرْتَ بقبـره * فأَطِلْ به وَقْفَ المطيَّهْ

وأبـيك المُطَهَّـرَ للطَـ * ـهرِ والمُطَهَّـرَة التَّقِيَّـهْ
كبكاء مُعْـوِلَةٍ أتَتْ * يوماً لواحدها المنيَّـهْ

فانحـدرتْ دموعُ حمفر على خدّيه وارتفع الصراخُ والبكاء من داره حتى أمره بالإمساك فأمسك .

ومن قول السيد فى إمامة ابن الحنفيّة

أَلَا يا أيُّهـا الجَـدِلُ المعنّى * لَنَـا ما نحنُ وَيْحَكَ والعَنَاءُ
أتُبْصِرُ ما تقولُ وأنتَ كَهْلٌ * تراكَ عليـك من وَرَعٍ رِدَاءُ
أَلَا إنَّ الأئمـةَ من قُرَيْش * وُلَاةُ الحقِّ أربعـةٌ سـواءُ
علىٌّ والثـلاثةُ من بَنِيـه (١) * هُمُ أسـباطُهُ والأوصياءُ
فأنّى فى وصيّتـه اليهـم * يكونُ الشكُّ منّا والمِرَاءُ
بهـمْ أوصاهُمُ ودعا اليـه * جميعَ الخَلْقِ لَوْ سُمِعَ الدعاءُ
فسِبْطٌ سِبْطُ إيمَـانٍ وحِلْم * وسِبْطٌ غَيَّبَتْـهُ كَرْبَلَاءُ
سَـقَى حدَثًا تصمّمه مُلِثٌّ * هَتوفُ الرعد مُرْتجِزٌ رَوَاء
تَظَـلّ مُطِلّةً منهـا عَرَالٍ (٢) * عليـه وتَغْتدى أُخْرَى مِلَاء
وسِبْطٌ لا يذوق الموت حتى * يَقودَ الخيـل يَقْدُمُها اللواء
من البيت المحجَّب فى سُراةٍ * شُرَاةِ لَفّ بيهـم الإحاء
عَصائبُ ليس دون أعزّ أحلَى * بمكّةَ قائمٌ لهم انتهاء

وأنشد العتبىّ قصيدته اللاميه التى أوّلها .

هل عندَ مَنْ أحببتَ تَوْيلُ * أمْ لا فإنّ اللوم تَضْـليلُ
أم فى الحَشَى منك حَوًى باطلٌ * ليس تُداويهِ الأباطيـلُ

(١) هم الحسن والحسين ومحمد . (٢) العرلاء . مصب الماء من الراوية ونحوها ، ويقال . أزلت السماء عرالها إشارة الى شدة وقوع المطر على التشبيه برواله من أفواه المزادات .

عَلِقتَ يامعـرورُ حَدّاعةً * بالوعد منهـا لكَ تَخْيِيـل
رَيّا رَدَاح السَّوْم نُحْصـانةٌ * كأنّهـا أدْمَاء عُطْبُول
يَشْفِيكَ منهـا حين تَحْلوها * صَمٌّ الى النحر وتَقْبِيـل
وذَوْقُ رِيـقٍ طيّبٍ طعمُه * كأنّه بالمسـك مَعْلول
فى نسوةٍ مثـل المهَـا خُرّدٍ * تَضيق عنهُنّ الخلاخيـل

يقول فيها :

أُقْسِم بالله وآلائـه * والمَرْءُ عَمّا قال مسئول
إن علىّ بن أبى طالبٍ * على التُّقَى والبرّ مَحْمول

فقال : أحسنَ والله ما شاء، هذا والله الشعرُ الذى يَهْجُم على القلب بلا حجاب .

قيل للسّيد : مالكَ لا تستعملُ فى شِعْرك من العريب ما تُسأل عنه كما يفعل الشعراء؟ قال : لأنْ أقولَ شـعرا قريبا من القلوب يَلَذّه مَنْ سمعـه، خيرٌ من أن أقول شيئا مُعَقّدًا تَضِلّ فيه الأوهام .

تقدّم السـيّد الى سَوّار القاضى ليَشْهد عـنده، فلم يرضَ به، فقام مُغْضَبا من مجلسه، وكتب رُقعة يقول فيها :

يا أمينَ الله يا منـصورُ يا حيرَ الوُلاةِ
إنّ سَـوّارَ بنَ عبد ا للهِ من شرِّ القُضَاة
نَعْتَـلِىّ جَمَـلِىّ * لكمُ غيرُ مُواتِ
حـدُّه سـارقُ عَتْرٍ * جُرْزةٌ من جُرُزاتِ
لرسـول الله والقـا * ذِفُـهُ بالمُنْكَرَاتِ
وابْنُ مَنْ كان يُنَادِى * مِن وراء الحُجُرَاتِ
ياهَنـاةُ اخْرُجْ الينـا * إننا أهـلُ هَنَـاتِ
مَدْحُنا المدحُ ومَنْ نَرْ * مِ يُصَبْ بالزَّفَرَاتِ
ما كُفِيتِـه لا كفاهُ ا للهُ شـرَّ الطـارقات

قيل : فلمّا قرأها سوّارٌ وثب من مجلسه وقصد أبا جعفر المنصور، وهو يومئذ نازلٌ بالجسْر، فسبقه السّيد اليه فأنشده :

قـــل للإمام الذى يُنجَى بطاعته * يومَ القيامة من بُحْبُـوحة النـار
لا تَسْتَعِنْ وجراكَ اللهُ صالحـــةً * ياخيرَ مَن دبَّ فى حُكْمٍ بسَـــوّار
لاتستَعِنْ بخبيث الرأى ذى صَلَفٍ * جَمِّ العيـــوب عظيم الكِبْرِ جَبّارِ
يُضْحِى الخصومُ لديه مِنْ تَحَـبُّره * لا يرفعون اليـه لَحْظَ أبصار
تيهًا و كِبْرًا ولولا ما رَفَعْتَ له * من ضَعْفِه كان عينَ الجائع العارى

ودخل سوّار، فلمّا رآه المنصور تبسّم وقال : أَمَا بلغك خبرُ إياس بن معاوية حيث قبل شهادة الفرزدق واستزاد فى الشهود ؟ فما أَحْوَجَكَ للتعرّض للسيّد ولسانه ! ثم أمر السيد بمصالحته .

دخل السيد على المهدىّ لمّا بايع لابنيه موسى وهارونَ، فأنشأ يقول :

ما بالُ عَبْرَى دَمْعك الساجِم * أَمِنْ قَدًى باتَ بها لازِم
أَمْ مِنْ هَوًى أنتَ له ساهرٌ * صاحَـــةٌ مِن قلبكَ الهـائم
آليتُ لا أمـــدح ذا نائلٍ * مِن مَعْشرٍ غيرِ بنى هاشم
أَوْليتُهم عنـــدى يدَ المصطفى * ذى الفضل والمَنِّ أبى القاسِمِ
فإنّهـا بيضـاءُ محمـــودةٌ * جـزاؤُها الشكرُ على العـالم
جزاؤُهـا حِفْظُ أبى جعـــفرٍ * حليفـةِ الرحمن والقـائم
وطـاعةُ المهـــدىّ ثم ٱبنـــه * موسى على ذى الإرْبَةِ الحازم
وللرشـــيد الرامـــح المرتضى * مُفْتَرَضٌ من حقّه اللازم
مُلْكُهم خمسون معدودةً * رغم أنف الحاســـد الراغم
ليس عليا ما بَقُـــوا غـيرُهم * فى هـذه الأمّة من حاكم
حتى يردّوهـا الى هـابط * عليـــه عيسى منهم ناجِـــم

ومن شعر السيد :

ما جرت خَطْرةٌ على القلب منّى * فبك إلّا اســـتترتُ عن أصحابى
من دموع تجرى فإن كنتُ وحدى * حاليا أسـعدتْ دموعى انسحابى
إنّ حبّى إياك قد سـلّ حسمى * ورمانى بالشيب قبـلَ الشباب
لو مَنحتِ الّلقا شـفى بك صبًّا * هائمَ القلب قد ثَوَى فى التراب

ومما قاله فى الحبس :

قِفْ بالديار وحيّها يا مَرْبَعُ * وسَلِ وكيف يُجيب مَنْ لا يسمعُ
إنّ الديار خلَتْ وليس بجوّها * إلا الصـــوائحُ والحمامُ الوُقَّع
ولقد تكونُ بها أوانس كالدُّمَى * خُمُـــلٌ وعزّةُ والرّبابُ وبَرْوَع
حـــورٌ بواعمُ لا تُرَى فى مثلها * أمثالُهُن من الصّيانة أربع
فعَرِينَ بعـد تألّف وتجمّـع * والدهرُ صاحٍ مُشتّتٌ ما يَجْمَع
فاسـلَمْ فإنّكَ قـد زللتَ بمنزلٍ * عنـــد الأمير تَصُرّ فيـــه وتمنع
تُؤتَى هواكَ اذا نطقتَ بحاجةٍ * فيـه وتَشْـفَعَ عنـــده فتُشَفَّع
قـلْ للأمير اذا طمِرتَ بحَـلْوةٍ * منه ولم يكُ عنـــده مَنْ يَسْمَع
هَبْ لى الذى أحببتُه فى أحمـــدٍ * ونسبه إنك حاصـــد ما تزرَع
يَختـــصُّ آلُ محمّـــدٍ بمحبّـــة * فى الصدر قد طُوِيَتْ عليها الأضلع

وقال يهجو امرأة وارث موسر من حلّانه، وكانت تعذُل زوجَها على إسرافه

أقول ياليتَ لَيْلَى فى يَدَىْ حَبِقٍ * من العداوة من أَعْدَى أعاديها
يعلُو بها فوقَ رَعْنٍ (١) ثم يُحْدِرها * فى هُوَّةٍ فتَدَهْدَى يومَها فيها
أوْ لَيْتَها فى عِمارالبحرقدعصفَتْ * فيه الرياحُ فهاجَتْ مِنْ أواذيها (٢)

(١) الرعن أنف يتقدم الجبل جمعه رعون ورعان . والحبل الطويل ودهدى الحجر فتدهدى ، أى دحرجه فتدحرج . (٢) الأوادى : أمواج البحر مفردها آدىّ .

أَوْ لَيْتَها قددنَتْ يومًا الى فرسى * قد شُدَّ منه الى هاديه هاديها
حتى يُرَى لحمُها من حُضْره زِيَمًا[1] * وقد أتى القومَ بعدَ الموت ناعيها
فَمَنْ بكاها فلا جَفَّت مدامعُه * لا أسخَنَ اللهُ إلّا عينَ باكيها

وقيل : إنّ آخر قصيدة له هى قوله :

أشاقَتْكَ المنازلُ بعدَ هِنْدٍ * وتَرْنَيها وذاتِ الدَّلِّ دَعْدِ
منازلُ أقفرتْ منهنّ مُحَّتْ * معالِمُهنّ مِنْ سيلٍ ورعدِ
وريح حَرْجَفٍ تَسْتَنُّ فيها * بسافى التُّرْبِ تُلْحِم ما تُسَدِّى
ألَمْ يَبْلُغْكَ والأنباءُ تَنْمِى * مقالُ محمّدٍ فيما يُؤَدِّى
الى ذى عالمِه الهادى علىٍّ * وحَوْلَةَ حادمٍ فى البيت تَرْدِى
ألَمْ ترأنّ حَوْلةَ سوف تأتى * بوارى الزّند صافى الخِيم نَجْدِ
يهوز بكُنْيتى وأسمى لأنّى * نحلتُهما هو المهدىّ بعدى
يُغَيَّبُ عنهمُ حتّى يقولوا * تصمّنه بطَيْبة بطنُ لحد
سنينَ وأشهرًا ويُرَى برَضْوَى * بشِعب بين أنمار وأُسْدِ
مقيمٌ بين آرامٍ وعِينٍ * وحَفّانٍ[2] تَرُوح خِلال رُبْدِ
تُراعيها السباعُ وليس منها * مُلاقبهنّ مُفْتَرِسًا بجَدِّ
أَمِنَّ به الرَّدى فرتَعْن طورًا * بلا حوفٍ لدى مَرْعًى وَوِرْدِ
حَلَفتُ بربّ مكةَ والمُصلّى * وبيتٍ طاهرِ الأركان فَرْدِ
يطوف به الحَجيجُ وكلّ عامٍ * يَحِلّ لديه وَفْدٌ بعدَ وفدِ
لقد كان ابنُ خَوْلةَ غيرَ شكٍّ * صفاءَ ولَائِتى وخلوص ودّى
فما أحدٌ أحبّ إلىّ فيما * أُسِرُّ وما أبوح به وأُبْدِى
سوَى دى الوَحْى أحمدَ أو علىٍّ * ولا أركَى وأطيبَ منه عندى

(١) الزيم المتمزق من اللحم . (٢) الحفان . صغار العام .

ومَنْ ذا يأمَنُ حولةَ إذ رمتنى * بأسهمها المنيّةُ حينَ وَعْدى
يُذَبِّب عنكمُ ويَسُـدّ مما * تَسَلَّم من حصونكمُ كَسَدّى
ومالى أنْ أُمُرَّ به ولكنْ * أؤمِّل أنْ يُؤخِّر يومُ فَقْدِى
فأُدرك دولةً لك لستَ فيها * بحبّارٍ فتُوصَفَ بالتعدّى
على قومٍ بَغَوْا فيكمْ عليا * لتُعْدَى مسكمُ ياحيرَ مُعْد
لِتَعْلُ بها عليهمْ حيث كانوا * بعُورٍ من سهامَةَ أو نَجْد
إذا ما سِرْتَ من بَلَدٍ حرامٍ * الى مَنْ بالمدينة من مَعَدّ
ومادا عزُّهمْ والخير منهمْ * بأشْوَسَ أعْصَلِ الأنياب وَرْد
وأنتَ لمَنْ بغى وَعَدا وأذْكى * عليكَ الحربَ وآستدراكَ مُرْد

٨ — سلم بن عمرو الخاسر[1]

كان منقطعًا الى البرامكة والى الفَضْل بن يحيى خصوصًا من بينهم ، وفيه يقول أبو العتاهية :

إنما الفَضْل لسَلْمٍ وحدَه * ليس فيه لسِوَى سَلْمٍ دَرَكْ

وكان هذا أحدَ الأسباب الى فساد ما بينه وبين أبى العتاهية . ولسَلْم يقول أبو العتاهيه وقد حجّ مع عُتْبة :

واللهِ واللهِ ما أُبَالى مـــتى * ما متُّ يا سَلْمُ بعد ذا الســـفَرِ
أليس قد طُفْتُ حيث طافتْ وقد * لمتُ الذى قلتْ من الحجرِ

وله يقول أبو العتاهية وقد حُبِس ابراهيمُ الموصلىّ :

سَـــلْمُ يا سَـــلْمُ ليس دونَك سِرُّ * حُبِسَ الموصـــلىُّ فالعيشُ مُرُّ
ما استطاب اللذّاتِ ، مُذْ سكن المُطْـ * ـبَقَ رأسُ اللـــذاتِ واللهِ ، حُرُّ
تَرَك الموصـــلىُّ مَنْ حلَق اللـ * ـهُ جميعًا وعيشُهم مُقْشَـــعِرُّ

(١) هو سلم (ويقال سالم) بن عمرو أحد موالى أبى بكر الصديق ، نشأ فى البصرة ، وكان شاعرا مطبوعا متصرفا فى فنون الشعر ، وكان متظاهرا بالخلاعة والفسوق والمجون ، وزاد شاعرية وتمرسا بالشعر على يد بشار ، لأنه كان راويته وتلميذه ، أخذ عنه واغترف من بحره ونسج على منواله ، وكثيرا ما كان يأخذ أقواله فيسلخها ويمسخها كما مسخ هـــذا البيت

من راقب الناس لم يظفر بحاجته * وفاز بالطيبات الفاتك اللهِجُ

فعمـــله

من راقب الناس مات غما * وفاز بالـــدة الحســـور

فباع بيته بشارا بمصحف وأقسم ألا يدخل عليه ولا يعيده مادام حيا ، فاستشفع اليه بكل صديق حتى رضى ورد عليه وقفته مخصرة كانت بيـــده . وكان صديقا لابراهيم الموصلى المغنى المشهور ولأبى العتاهيـــة . وكان يمـــدح البرامكة وخصوصا الفضل بن يحيى . توفى ســـنة ١٨٦ هـ . وتجد ترجمته فى الأغانى ج ٢١ ص ١١٠ وابن خلكان ج ١ ص ١٩٨

لما قال بشارٌ قصيدتَه الميميةَ فى عمر بن العلاء وهى التى يقول فيها :

اذا نبّهتك صِعَابُ الأمور * فنبِّهْ لها عُمَـــرًا ثم ثَمْ
فتًى لا يبيتُ على دِمْنَـــةٍ[1] * ولا يشرب الماءَ إلا بدمْ

بَعث بها مع سلم الى عَمْر بن العَلاء، فوافاه، فأنشده إيّاها، فأمر لبشّار بمائة ألف درهم، فقال له سلم : ان حادمَك — يعنى نفسه — قد قال فى طريقه فيك قصيدةً، قال : فإنك لَهُنَاك! قال : تسمَع ثم تحكُم؛ قال : هات، فأنشده :

قد عزّنِى الداءُ فما لى دواءْ * مما أُلَاقى من حِسَان النساءْ
قلبٌ صَحِيحٌ كنتُ أَسْطُو به * أصح من سَلْمَى بداء عَيَاءْ
أنفاسُها مِسْكٌ وفى طَرْفِها * سِحْرٌ وما لى غيرُها من دواءْ
وعدتنى وعـــدًا فأَوْفِى به * هل تصلُح الخمرةُ إلا بماءْ

ويقول فيها :

كم كُرْبةٍ قد مسَّنِى صرُّها * ناديتُ فيها عُمَرَ بنَ العَلاءْ

فأمر له بعشرة آلاف درهم، فكانت أوّل عطية سَنِيَّةٍ وصلتْ اليه .

ومن قوله يَرْثِى بَاقُونَةَ بنتَ المهدى :

أَوْدَى بِاقونةَ ريبُ الزّمانْ * مؤنِسةِ المهدىِّ والخيزُرَانْ
لم تَنْـــطَوِ الأرضُ على مثلها * مولودةٍ حَنَّ لها الوالدانْ
بَاقُونُ يا بنتَ إمامِ الهـــدى * أصحتِ من زينه أهلِ الجِنَانْ
بكتْ لك الأرضُ وسـكّانُها * فى كل أُفْقٍ بين إنسٍ وجَانْ

دخل سَلْم على الفضل بن يحيى فى يوم نَيْروز والهدايا بين يديْه، فأنشد :

أمن ربع تسـائلُهُ * وقـــد أقْوتْ منـازلُهُ
بقلبِى مِنْ هَوَى الأَطْلا * ـِ حبٌّ ما يُزَايِـــلُهُ

(١) الدمنة : الحقد .

رُوَيْدَكُمُ عن المَشْعو * ف إن الحتَّ قاتلُهُ
تَلابِلُ صدرِه تَسْرِى * وقد نامتْ عَواذلُهُ
أحقُّ الناسِ بالتفضيـ * ـل من تُرْجَى فواصلُهُ
رأيتُ مكارم الأخلا * ق ما صَمَّتْ حمائلُهُ
فلستُ أرَى فتًى فى النا * س إلّا الفَضْلُ فاصلُهُ
يقولُ لسانُهُ حيرًا * فتفعلُهُ أنامِلُهُ
ومَهْما يُرْحَ من خيرٍ * فإن الفضلَ فاعِلُهُ

وكان ابراهيمُ المَوْصِلىّ وابنُه إسحاقُ حاضرَيْن، فقال لإبراهيم كيف ترى وتسمَع ؟ قال. احسنَ مرئىٍّ ومسموع، وفضلُ الأمير أكثرُ منه، فقال . حدوا جميعَ ما أُهْدِى الىّ اليومَ فاقتسِمُوه بينكم أثلاثًا إلّا ذلك التِّمْثَالَ، فإنى أريد أن أُهْدِيَه اليوم الى دَنَانِيرَ، ثم قال . لا والله ما هكذا تفعلُ الأحرار، يقوّم ويُدْفَع اليهم ثمنُه ثم يُهْدِيه، فقُوّم بالفى دينار، فحملها الى القوم من بيتِ ماله واقتسموا جميعَ الهدايا بينهم .

كان المهدىُّ يعطى مَرْوانَ وسَلْمًا الخاسرَ عطيَّه واحدةً، فكان سَلْمٌ يأتى باب المهدىّ على البِرْذَوْنِ القَارِه، قيمتُه عشرةُ آلاف درهم بسَرْج ولِجَام مفصَّصَيْن ، ولباسُه الخَزُّ والوَشْى وما أشبه ذلك من الثياب العالية الأثمان، ورائحةُ المسكِ والطيب والعالِيَة تفُوح منه، ويجىء مروانُ بن أبى حَفْصه عليه فَرْوٌ بَجَلٌ[1] وقميصٌ كَرَابِيسُ[2] وعمامةٌ كَرَابِيسُ وخُفًّا بَجِلٍ[3] وكِسَاءٌ غليظٌ، وهو مُنْتِنُ الرائحة، وكان لا يأكل اللحمَ حتى يَقْرَم اليه بُخْلًا، فاذا قَرِمَ أرسل غلامَه فاشترى له رأسًا فأكله، فقال له قائل: أَرَاك لا تأكلُ إلا الرأسَ، قال نعمْ أعرف سعره فآمَنُ خيانةَ الغلام ولا أشترى لحمًا فيطبخُه فيأكلُ منه، والرأس آكُل منه ألواما: آكل من عينيه لونًا ومن عَلْصَمَتِه[4] لونًا ومن دِمَاغِه لونًا .

---

(١) قصير . (٢) الكرابيس : جمع كرباس وهو القطن . (٣) أى حمار وحش كثير الصوف طيلسه . (٤) العلصمة . أصل اللسان .

كان سَلْم قد بُلِيَ بالكِيمياء، فكان يذهَب بكلّ شيء له باطلًا، فلما أراد الله عز وجل أن يصنَع له عرَف أن بباب الشام صاحبَ كيمياء عجيبًا، وأنه لا يصل اليه أحد إلا ليلا، فسأل عنه، فدلُّوه عليه . قال : فدخلت اليه الى موضع مُعوِر[1]، فدققتُ البابَ فخرج إليّ، فقال : من أنت عافاك الله؟ فقلت : رجل معجَبٌ بهذا العلم؛ قال : فلا تَشْهَرنى فإنى رجل مستورٌ إنما أعمل القوتَ، قلت : إنى لا أَشْهَرك إنما أقتبس منك، قال : فاكتُمْ ذلك، وبين يديه كوزُ شَبَهٍ[2] صغيرٌ، فقال لى : اقلَعْ عُرْوته، فقلعتُها، فقال : اسبُكها فى البَوْتَقة[3]، فسبكتُها، فأخرج شيئًا من تحت مصلّاه فقال: دُرَّه عليه، ففعلت، فقال: أفرِغْه، فأفرغتُه، فقال : دَعْه معك، فاذا أصبحتَ فاخرجْ فبِعْه وعُدْ الىّ . فأخرجتُه الى باب الشام فبعتُ المثقالَ بأحد وعشرين درهمًا ورجعتُ اليه فأخبرتُه، فقال : اطلب الآنَ ما شئتَ؛ قلت : تُفيدُنى؟ قال : بخمسمائة درهم على ألا تُعلِّمه أحدا، فأعطيتُه وكتب لى صفةً فامتحنتُها فاذا هى باطلة، فعدتُ اليه، فقيل لى . قد تحوّل وإذا عُروة الكوزِ الشَّبَه من ذهبٍ مركبةٌ عليه، والكوزشَبَهٌ، ولذلك كان يدخُل اليه من يطلبه ليلا ليحمى عليه، فانصرفت وعلمت أن الله عز وجل أراد بى خيرا وأن هذا كلَّه باطلٌ .

قال أبو المستهل : دخلت يوما على سلم واذا بين يديه قراطيسُ فيها أشعارٌ يرثى ببعضها أمَّ جعفر، وببعضها جاريةً غيرمسمّاة، وببعضها أقواماً لم يَمُوتُوا، وأمُّ جعفرٍ يومئـذ باقية؛ فقلت له : وَيْحَك ما هذا؟ فقال : تحدُث الحوادث فيطالبوننا بأن نقول فيها ويستعجلوننا ولا يَجْمُل بنا أن نقولَ غيرَ الجيد، فنُعِدّ لهم هدا قبلَ كَوْنه، فمتى حدث حادثَ أظهرْنا ما قلناه فيه قديمًا على أنه قيل فى الوقت .

دخل سلمٌ على الرشيد فأنشده : * حَيِّ الأحبَّةَ بالسلام * فقال الرشيد : حيّاهم الله بالسلام؛ فقال سلم : * أعَلَى وَدَاعٍ أم مُقَام * فقال الرشيد : حياهم الله على أىّ ذلك كان، فأنشده :

لم يَبْقَ منك ومنهمُ * غيرُ الجلودِ على العِظَام

(١) معور : مخوف . (٢) الشبه : النحاس الأصفر . (٣) البوتقة : الوعاء الذى يذيب فيه الصائغ .

فقال له الرشيد : بَلْ مسكَ، وأمر بإحراحه، وتطيّر منه ومن قوله، فلم يسمَع منه باقىَ الشعر ولا أثابه بشىء .

استوهب اسحاقُ المَوْصِلىّ من الرشيد تَرِكةَ سَلْم، وكان قد مات عن غير وارث، فوهبها له قبل أن يسلّمها صاحبُ المواريث ، فحصل منها على خمسين ألف دينار، ورُوى أنه رُفع الى الرشيد أن سلما قد توفّى وخلّف مما أحده منه خاصةً ومن زُبَيدة ألفَ ألفٍ وخمسمائة ألف درهم سوى ما خلّفه من عقارٍ وغيرِه مما اعتقَده[1] قديما، فقبَضه الرشيدُ وتظلّم اليه مَوَاليه من آل أبى بَكْرٍ الصِّدّيق رضوان الله عليه، فقال : هذا خادمى ونديمى، والذى خلّفه من مالى فأنا أحقُّ به، فلم يُعْطِهم إلا شيئا يسيرا من قديم أملاكه .

(١) امتلكه .

٩ — رَبِيعَةُ الرَّقِّيُّ (١)

كان مُنْقَطِعًا عن الحضارة ، بعيـدًا عن مُجَالَسة الخلفاء، فأُنْحِل ذِكْرُه بسبب ذلك ؛ لكنّهم كانوا يستقدِمونه اليهم . وأوّلُ من فعل ذلك المَهْدِيُّ، فمَدَحه ونال جَوائِزَه، وكان آبن المُعْتَزّ يرى ربيعـة أشعرَ عَرَبًا من أبى نُوَاس ، لأن فى عَزَل أبى نُوَاس بَرْدًا كثيرا ، وعَزَلُ هذا سليمٌ عذْب سهْل، ولذلك إذا شهرَتْه تلَقتْ إلى بَلاط الخليفـة . وكان يمدحُ غيرَ الخلفاء ويَنالُ جوائزَهم ويعُود الى بلده ، وإن قصّر أحدٌ فى إعطائه هجَاه، وله فى ذلك حديثٌ مع العباس بن محمد بن على من أمراء بنى العبّاس .

ومن قوله يمدح يزيد بن حاتم المُهَلَّبى ويهجو يَزيد بن أُسَيْد السُّلَمِىّ :

حَلَفتُ يَمِينًا غيرَ ذِى مَثْوِيَةٍ (٢) * يمِينَ آمرئٍ آلَى بهـا غيرَ آثِم
لَشَتَّانَ ما بَيْن اليَزِيدَيْن فى النَّدَى * يَزِيدِ سُـلَيْم والأغرِّ آبن حاتم
يزيدُ سُلَيْم (٣) سالِمُ المـالِ، والفتى * أحو الأَزْدِ للأموال غيرُ مُسَالِم
فَهَمُّ الفتى الأَزْدِىّ إتْلَافُ مالِه * وهَمُّ الفتى القَيْسِىّ جَمْعُ الدَّراهم
فلا يحسَب التَّمْتَامُ أنّى هَجَوْتُه * ولكنّنى فصّلْتُ أهلَ المكارم

قال رجلٌ لربيعة : يا أبا أُسَامَةَ، ما حَمَلَك على أن هَجَوْتَ رَجُلًا من قومك وفصّلْتَ عليه رجلا من الأزد؟ فقـال : أُخبِرُك، أملَقْتُ فلم يَبْق لى إلّا دَارى، فرهنتُها على خمسمائة درهم ، ورحَلْتُ اليه الى أَرْمِينِيَة، فأعلمتُه بمكانى ومدحتُه، وأقمتُ عنده حَوْلا، فوهَبَ لى

(١) هو أبو أسامة ربيعة بن ثابت من موالى سليم ، ويكنى أبا شبابة ، وكان ينزل الرقة ، ومنها مولده ومنشؤه ، فاتصله المهدى اليـه ، فمدحه عـدة قصائد وأثابه عليها ثوابا كبيرا ، وهو من المكثرين المجيـدين ، وكان صريرا وانما أهمل ذكره وأسقطه عن طبقته بعده عن العراق وتركه حدمة الخلفاء ومخالطة الشعراء ومع ذلك فما عدم مفضلا مقدما له . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ١٥ ص ٣٨) وخزانة الأدب للبغدادى (ج ٣ ص ٥٥) .

(٢) أى لا استثناء فيها .

(٣) هو يزيد بن أسيد (بضم الهمزة) من بهثة بن سليم ، وأخو الأزد هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب .

خمسمائة درهم، فتحمّلْتُ وصِرتُ بها الى منزلى، فلم يَبْق معى كبيرُ شىء، فنزلتُ فى دارِ بِكِراء، فقلتُ : لو أتيتُ يزيدَ بن حاتم، ثم قلتُ : هذا ابن عمّى فعل بى هذا الفعلَ فكيف بغيره! ثم حَمَلْتُ نفسى على أن آتيَـه ، فأُعلم بمكانى، فتركنى أشهرا حتى صَحِرتُ، فاكْرَيتُ نفسى من الحمّالين . وكتبتُ بَيْتاً فى رُقْعة فألقيتُه فى دِهْلِيزه، والبيتُ :

أرَانِى ولا كُفْرَانَ لله راجِعًـا ٭ بُحَفْنَ حُنَيْنٍ من يزيد بن حاتم

فوقعت الرقعـةُ فى يد حاجبـه ، فأوصلها اليـه من غير علمى ولا أمرى ، فبعث خَلْفى، فلما دخلتُ عليه قال : هِيه أنْشِدنى ما قلتَ، فتمنّعتُ، فقال : والله لَتُنْشِدَنِّى، فأنشدتُه، فقال : والله لا تَرْجِع كذلك، ثم قال : آنزِعُوا خُفَّيْه، فنَزِعا خَشَاهُمَا دنانيرَ وأمر لى بعِلْمَانٍ وجَوار وكُسًى، ألا ترى لى أن أمدَح هذا وأهْجُوَ ذاك ؟ قلتُ : بلى والله، وسار شِعْرى حتى بلغَ المهدىَّ، فكان سببَ دخولى اليه .

قيل لأبى زَيْد النَّحْوىّ : إن الأصمعى قال : لا يقـال شَتَّانَ ما بينهما، وإنما يقال : شتّانَ ما هما، وأنشد قول الأعشى : ٭ شَتّان ما يَوْمى على كُورِها ٭ فقال : كذَب الأصمعىُّ، يقال : شتَّان ما هما وشـتّان ما بينهما، وأنشد لربيعة الرّقى : « لشتَّان ما بين اليزيدَيْن » وفى استشهاد مثلِ أبى زيد على دَفْع قول مثل الأصمعىّ بشعرِ ربيعة كِفَايةٌ له فى تفصيله .

امتدح ربيعةُ العبّاسَ بن محمـد بن على بقصيدة لم يُسْبَق إليها حُسْنًا ، وهى طويلة ، يقول فيها :

لو قيـل للعبّـاس يا ابنَ محمدٍ ٭ قُلْ «لا» وأنتَ مُخَلَّدٌ ما قالَها
ما إن أعُدُّ من المكارم خَصْلةً ٭ إلا وجدتُك عمَّها أو خالَهـا
واذا الملوك تسايَرُوا فى بلدةٍ ٭ كانوا كواكبَها وكنتَ هلالَهَا
إن المكارمَ لم تَزَلْ معقـولةً ٭ حتى حلَلْتَ بِراحَتَيْك عِقالَهَا

فبعَثَ اليـه بدينارَيْن ، وكان يُقَدِّرُ فيه ألفَيْن، فلما نظر الى الدينارين كاد يُجَنّ غَيْظًا وقال للرسول : خُذْ هذين الدينارين فهُما لك على أن تَرُدّ الرّقعـة الىّ من حيث لا يدرى العبّاسُ، ففعل الرسولُ ذلك، فأخذها ربيعةُ وأمر من كتب فى ظهرها :

مدحتُك مِدْحةَ السَّيف المُحَلَّى ✻ لِتَجْرِىَ فى الكرام كما جَرَيْتُ
فهَبْها مِدْحَةً دهمت ضَياعًا ✻ كَدَبْتُ عليك فيها وٱفتريتُ
فأنتَ المـرءُ ليس له وَفاءٌ ✻ كأنى إن مدحتُك قد زَنَيْتُ

ثم دفعها الى الرسـول وقال : ضَعْها فى الموضع الذى أخذتَها منه ، فردّها الرسـولُ ، فلما كان من الغد أحدها العبّاسُ فنظَرَ فيها ، فلما قرأ الأبيات غَضِب وقام من وقته فركب إلى الرشيد ، وكان أثيرًا[1] عنده يُجِلُّه ويقدّمه ، وكان قد هَمّ أن يحُطّ اليه آبنته ، فرأى الكَرَاهَةَ فى وجهه ، فقال : ما شأنك ؟ فقال : هجانى ربيعه الرّقّى ، فأُحْصِر ، فقال له الرشيدُ : تهجو عمّى وآثَرَ الخَلْعِ عندى ؟ لقد هَمَمْتُ أن أضرب عُنُقَك ، فقال : والله يا أمير المؤمنين لقد مدحتُـه بقصيدةٍ ما قال مثلَها أحدٌ من الشعراء فى أحدٍ من الخلفاء ، ولقد مالغتُ فى الثناء وأكثرتُ فى الوصف ، فإن رَأى أميرُ المؤمنين أن يأمُرَه بإحضارها ! فلما سمع الرشيدُ ذلك منه سكن غَضَبُه وأحبَّ أن ينظر الى القصيدة ، فأمَر العباسَ بإحضار الرّقعةِ ، فتَلَكأ عليه العباسُ ، فقال له الرشيدُ : سألتُك بحقّ أمير المؤمنين إلّا أمَرتَ بإحضارها ، فعلم العباسُ أنه قد أخطأ وغَلِط ، فأمر بإحضارها ، فأُحْضِرت ، فأخذها الرشـيدُ واذا فيها القصيدةُ بعيْنها ، فٱستحسنها وٱستجادها وأُعْجِبَ بها وقال : والله ما قال أحدٌ من الشعراء فى أحدٍ من الخلفاء مثلَها ، لقد صـدَق ربيعةُ وبَرَّ ، ثم قال للعباس : بِمَ أثَنْتَه عليها ؟ فسكتَ العباسُ وتغيّر لَوْنُه وجَرِص[2] رِيقه ، فقال ربيعـةُ : أثانى عليها يا أميرَ المؤمنين بدينارين ، فتوهّم الرشـيدُ أنه قال ذلك من المَوْجِده على العبّاس ، فقال : بحياتى يا رَقَّ نكم ؟ أثانك ؟ قال : وحياتِك يا أميرَ المؤمنين ما أثانى عليها إلا بدينارين ، فغضب الرشيدُ غَضَبًا شـديدا ونظر فى وجه العباس وقال : سَوْءَةً لك ! أىّ حالٍ قعدتْ بك عن إثابته ؟ الأموالُ ؟ فوالله لقد مؤلتُك جُهْدى ، أم آنقطاعُ المـادّة عنك ؟ فوالله ما آنقطَعَتْ ، أم أصْـلُك ؟ فهو الأصلُ لا يُدانيـه شىءٌ ، أم نَفْسُـك فعلَتْ ذلك بك حتى فَضَحْتَ آباءَك وأجدادَك وفضحتنى

(١) أثيرا : مكرّما . (٢) جرص ريقه : ابتلعه بالجهد على هم وحزن .

ونفسك ؟ فكس العباس رأسه ولم ينطق، فقال الرشيدُ : يا علامُ، أعطِ ربيعةَ ثلاثين ألف درهم وحلّةً واحمله على بغلة، فلما حُمل المالُ بين يديه وألبس الحلةَ قال : بحياتى يارقيّ لا تذكُرْه فى شعرك لا تعريضًا ولا تصريحًا ، وفتر الرشيدُ عمّا كان هم به أن يتزوج اليه، وظهر له منه بعد ذلك جَفاءٌ كثير واطّراحٌ له .

قال أبو بِشْر : كنتُ حاضراً ربيعةَ الرقّيّ يوما وجاءته امرأة فقالت : تقول لك فلانة إن بِنْتَ مولاى محمومةٌ فإن كنتَ تعرفُ لها عوذةً[1] فافعلْ، فقال أكنتُ لها أنا بِشْر هذه العودة :

بِقُوا بِقُوا باسم إلهى الذى * لا يعرِض السُّقْمَ لمن قد شَفَى
أُعيذُ مَوْلاتى ومَوْلاتَها * وابنَها بعَوْذَة المُصْطَفَى
من شرِّ ما يَعْرِض من علّةٍ * فى الصبح والليل اذا أسْدَفا

فقلتُ له : يا أبا ثابت ، لستُ أُحسِنُ أن أكتُبَ بِقُوا بِقُوا ، فكيف أكتبها ؟ قال أنْصِحْ المِدَاد من رأس القلم فى موضعين حتى يكون كالنُّقْط[2]، وادفع العودة اليها فإنها نافعةٌ، ففعلتُ ودفعتُها إليها، فلم تَلْبَث أن جاءت الجاريةُ وهى لا تتمالك ضحكًا، فقالت له : يامجنون ما فعلتَ بنا! كدْنا نفتضح مما صنعتَ ! قال · ما أصنع ! أشاعرٌ أنا أم صاحب تعاويذ ! .

واتّفق للرقّى أيضا مثلُ ذلك مع مَعْن بن زائدَةَ، وقد لَقِيَه فى بعض قدماته إلى العراق، فمدحه، فلم يَهْشّ له، فهجاه بقصيدة مطلعُها :

مَعْنُ يا مَعْنُ يابنَ زائدة الكَلْـ * ـبِ الذى فى الدِّراع لا فى النِّصَالِ
لا تُفاخِرْ إذا فخرتَ بآبا * ئِك وافخرْ بعمِّك الحوفزان[3]

(١) العوذة · الرقية يرقى بها الانسان من وجع أو حمود أو مرض . (٢) النقط الصاق اليسير يمثه الراقى فى العقدة عند الرقية .

(٣) الحوفزان هو الحارث بن شريك الشيبانى، سمى بذلك لأن قيس بن عاصم التميمى حمره بالرمح حين حاف أن يفوته، وقد فخر بذلك سوّار بن حمان المنقرى فقال

ونحن حمرنا الحوفزان بطعنة * سقته نجيعا من دم الجوف أشكلا

ومن غَزَلِه أبياتٌ يُغَنَّى بها، وهى :

وتَزْعُمُ أنّى قـد تبدّلتُ خُـلَّةً[1] * سِوَاها وهـذا الباطلُ المُتَقَـوَّلُ

لَعَـا اللهُ من بَاعَ الصـديقَ بغيره * فقالتْ نعم حَاشَاكَ إن تَكُ تَفْعَلُ

سَتَصْرِمُ إنسـانا اذا ما صَرَمْتَـنِى * بحبّـك فانظر عـده من تَبَدّل

(١) الخلة الخليلة .

١٠ — الـــرقاشى[1]

كان سَهْـلَ الشعر مطبوعًا ، وكان مُنْقَطِعًا إلى آل بَرْمَك ، مُستَغْنِيًا بهم عن سواهم ، وكانوا يَصُولون به على الشعراء ، ويُرَوُّون أولادَهم أشعارَه ، ويُدَوِّنونها القليلَ والكثيرَ منها ، تَعَصُّبًا له ، وحِفْظًا لخدمته ، وتَنْوِيهًا باسمه ، وتحريكًا لنشاطه ، لحِفظ ذلك لهم . فلما نُكِبوا صار إليهم فى حَبْسهم ، فأقام معهم مـدّةَ أيامهم يُنْشِدُهم ونُسامِرهم حتى ماتوا ، ثم رَثاهم فأكثر من رثائهم ، فمن ذلك قولُه فى جعفر :

كم هَاتِفٍ بك من بَاكٍ وباكِيَـةٍ * يا طِيبَ للصَيْف إذ تُدْعى ولِلجَار
إن يُعْدَم القَطْرُ كستَ المُزْنَ نَارِقُه * لَمْعُ الدنانير لا ما خَيَّـل السّارى

وقـــوله :

لَعَمْرُك ما بالموت عَارٌ على الفـتى * اذا لم تُصِبْـــه فى الحياة المَعَـايِرُ[2]
وما أحَدٌ حَيٌّ وإن كان سالِمًـا * بأسْـلَمَ ممّـا غَيَّبَتْـــه المَقَـابر
ومَنْ كان ممّا يُحْدِثُ الدّهرُ حَازِعًا * فلا بُدّ يومًا أن يُرَى وهـــو صابر
وليس لذى عَيْشٍ عن الموت مُقْصَرٌ * وليس عـــلى الأيام والدّهرِ غَابِر
وكلُّ شبابٍ أو حديدٍ إلى الـــلى * وكلُّ امرئٍ يومًا الى الله صَـائر
فلا يُبْعِـدَنْك اللهُ عَـنّى جَعْفرا * بِرُوحِى ولو دَارتْ عَـلىّ الدَّوائر
فآلَيْتُ لا أنفَكُّ أبكيك ما دَعَتْ * عـلى فَنَنٍ وَرْقَاءُ أو طارَ طائر

ومن ذلك قولُه لما صُلِب الفَضْلُ بن يحيى وآجتاز به الرقاشىّ وهو مصلوبٌ على الجِذْع ، فوقف يبكى ثم قال :

---

(١) هو الفضل بن عبـد الصمد مولى رقاش ، وهو من أهل البصرة . توفى سنة ٢٠٠ هـ . وتجد ترجمته فى الأغانى (ج ١٥ ص ٣٥) ووفيات الوفيات (ج ٢ ص ١٢٥) والشعر والشعراء (ص ٥١٥) .

(٢) المعاير : المعايب .

أما والله لولا خوفُ واشٍ * وعَيْنٌ للخليفة لا تَنَامُ
لَطُفْنَا حول جِدْيك واسْتَلَمْنا * كما للناس بالحَجَر اسْتلامُ
لما أبصرتُ قَبْلَك يابنَ يَحْيَى * حُساماً حَتْفُه السيفُ الحُسَام
على اللَّذاتِ والدنيا جميعا * ودولةِ آل بَرْمَكَ السَّلام

فكتب أهلُ الأخبار بذلك الى الرشيد، فأحضره فقال : ماحملك على ما قلتَ؟ فقال: ياأميرَ المؤمنين كان إليَّ مُحْسِنًا ، فلما رأيتُه على الحال التى هو عليها حَرَّكنى إحسانُه لما ملكتُ نفسى حتى قلتُ الذى قلتُه، قال : وكم كان يُجْرى عليك؟ قال : ألف دينارٍ فى كلّ سنة، قال : إنا قد أضعفناها لك .

ومن قوله يَصِفُ جَارِيةً :

صِفَاتٌ وحُسْنٌ أَوْرَثَا القلبَ لَوْعَةً * تَصَرُّمُ فى أحْشَاء قَلْبٍ مُتَيَّمِ
تُمَثِّلُها نفسى لعينى فأنثنى * عليها بطَرْفٍ الناظر المتبسِّم
يُحَمِّلُنى حُبِّى لها فوقَ طاقتى * من الشوق دأْبَ الحائر المُتَقَسِّمِ

١١ - أبو العَتَاهِيَـــةُ (١)

قال أحمـد بن رُهَيْر : سمعت مُصْعَب بن عبد الله يقول : أبو العتاهية أشعر الناس، فقلت له : بأىّ شىء أستحقّ دلك عندك ؟ فقال بقوله :

تعلّقتُ بآمالٍ * طِـوالٍ أىّ آمال
وأقبلتُ على الدنيا * مُلِحًّا أىّ إقبـال
أيا هـــذا تَحَفَّزْ ! * بِعراق الأهلِ والمال
فلا بُدّ من الموت * على حالٍ من الحال

ثم قال مصعب : هـذا كلام سهل حقّ لا حَشْو فيـه ولا نقصان، يعرفه العاقل و يقزّ به الجاهل . وكان الأصمعى يستحسن قوله .

(١) هو أبو إسحاق اسماعيل بن القاسم بن سويد ، أطبع أهل زمانه شعرا وأكثرهم قولا وأسهلهم لفظا ، وأسرعهم بديهة وارتجالا ، وأوّل من فتح للشعراء باب الوعظ والتزهيد فى الدنيا والنهى عن الاغترار بها ، وأكثر من الحكمة .

ولد بعين التمر سنة ١٣٠ هـ ونشأ بالكوفة فى محل أهله . وكانوا باعة جرار، إلا أنه رغب بنفسه عن عمله وقال الشعر فى صباه وامتدح ملحمه ودمه حتى صار كما قال هو عن نفسه «لو شئت أن أحمل كلامى كله شعرا لفعلت» فداع صيته وسـلك طريق حلماء الكوفة . ثم قـدم بغـداد ومدح المهدى وتعرف بعض حدم قصر الخلافة وحواريه فتعشق منهن فتاة تدعى عتبة ، ولمـا يئس منها لهـا بعض الشىء ودرس كثيرا من مذاهب المتكلمين والشيعة والحرورية والزهاد فكان يسلك كل مذهب مبدأ مدة ثم ينتقل عنه إلى الآخر حتى اختار له من كل ذلك عقيدة مختلطة أفضت به إلى العبادة والزهـد فى الدنيـا قولا ومعيشة على إفراط منـه فى حب المـال والجمع له والبخل به على الأهل والولد والخدم .

ولم يأت عصر الرشيد حتى أصرف عن الغزل وقصر قوله على الزهد فى الدنيا والتذكير بالموت وأهواله ، وهو فى خلال ذلك يمدح الخليفة وملوك الدولة و يأخذ جوائزهم ، ثم عرضت له حال امتنع فيها من قول الشعر البتة حتى حسنه الرشيد لعدم تليينه ما اقترحه عليه من القول فيه ثم أطلقه بعد أن أحاب طلبه ، وعاد الى قول الشعر على عادته فيه وترك الغزل والهجاء ، وبقى على ذلك مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون . توفى سنة ٢١١ هـ

وله ديوان مطبوع فى بيروت سنة ١٨٨٧ وتجـد أخباره فى الأغانى ج ٣ ص ١٢٦ وج ٦ ص ١٨٦ وج ٨ ص ٢٤ وابن خلكان ج ١ ص ٧١ وطبقات الشعراء ص ٤٩٧ والفهرست ص ١٦٠ .

أنتَ ما آستغنيتَ عن صا * حِبِـــك الدهرَ أخُوه
فاذا آحتجتَ إليـــه * ساعةً عَجَّـك فُـــوه

وأنشد له سَلْمٌ الخاسر :

سَكَنٌ يَبْقى له سَكَنُ * ما بهـذا يُؤذِن الرمنُ
نحن فى دار يحـــرُّنا * بِبَلاها ناطِقٌ لَسِنُ
دَارُ سُـوءٍ لم يَدُم فَرَحٌ * لامرىء فيها ولا حَزَنُ
فى سـبيل الله أنفُسُنا * كلُّنا بالمـوت مُرْتَهَنُ
كلّ نفس عند مَيْتتها * حَظُّها من مالها الكفنُ
إن مالَ المـرء ليس له * منـه إلا ذكرُه الحسنُ

وقال عبد الله بن عبد العزيز العُمَرىّ : أشعرُ الناس أبو العتاهية حيث يقول :

ما ضَرّ من جَعَلَ التراب مِهادَه * ألّا ينامَ على الحرير اذا قَعَدْ

وقيل لأبى العتاهيـة : كيف تقول الشعر؟ قال : ما أردتُه قطّ إلا مَثَـل لى، فأقول ما أريد وأترك ما لا أريد . وكان يقول : لو شئتُ أن أجعل كلامى شعرا كلّه لفعلتُ .

حُمّ الرشيد فصار أبو العتاهية الى الفضل بن الربيع برقعة فيها :

لو علم الناسُ كيف أنتَ لهم * ماتوا اذا ما أتيتَ أجْمَعُهُمْ
حليفةَ الله أنتَ تَرْتَحُ بالنا * سِ اذا ما وُزِنتَ أنتَ وَهُمْ
قد علم الناس أن وحهك يُغْـ * ـنى ادا ما رآه مُعْـــدِمُهم

فأنشدها الفضلُ بن الربيع الرشيدَ، فأمر بإحضار أبى العتاهية، فما زال يُسامره ويحدّثه الى أن بَرِئَ، ووصل اليه بذلك السبب مالٌ جليـل . وقد حدّث ابن الأعرابى بهذا الحديث، فقال له رجل بالمجلس : ما هـذا الشعر بمستحقّ لما قلتَ؛ قال : ولم؟ قال : لأنه ضعيف ، فقال ابن الأعرابى، وكان أحَدّ النـاس ، الضعيفُ والله عقلُك لا شِـعر

أبى العتاهية، ألأبى العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر! فوالله ما رأيتُ شاعرا قطّ أطْبَعَ ولا أقْدَر على بيت مه، وما أحسَب مَذْهَبه إلا ضَرْبا من السِّحر؛ ثم أنشد له :

قطّعتُ مسك حبائل الآمال ... وحَطَطْتُ عن ظَهْر المَطىّ رِحالى
ويَئستُ أن أبْقى لشىء نِلْتُ مِمّ ... ا فيك يا دنيا وأن يَبْقَى لِى
فوجَدتُ بَرْد اليأس بين حوانحى * وأرَحْتُ من حِلّ ومن تَرْحال
يأيها البَطر الذى هو من عَدِ ... ى فى قبره متمزِّق الأوصال
حَذَفَ المُنَى عنه المُشَمِّرُ فى الهدى * وأرى مُساك طويلةَ الأذيال
حِيَلُ ابن آدم فى الأمور كثيرةٌ * والموتُ يقطع حِيلَةَ المحتال
مالى أراك لُجِزْ وجهك مُخْلِقًا * أخْلَقْتِ يا دنيا وجُوه رِجال
قِسْتُ السُّؤال فكان أعظمَ قيمةً * من كلّ عارِفِه جَرَتْ بسؤال
فإذا ابْتُلِيتَ بِبَذْل وجهك سائلا ... فابذُلْه للمُتَكرِّم المِفْضَال
واذا خَشِيتَ تَعَذُّرًا فى بلده * فاشدُدْ يديك بعاجل الترحال
واصبِرْ على غِيَر الزمان فإنما * فَرَجُ الشدائد مثلُ حَلّ عقال

ثم قال للرجل : هل تعرف أحدا يُحسن أن يقول مثل هذا الشعر؟ فقال له الرجل : يا أبا عبد الله، جعلنى الله فداءك، إنى لم أرْدُد عليك ما قلت، ولكن الزهد مَذْهَبُ أبى العتاهية، وشعره فى المديح ليس كشعره فى الزهد؛ فقال: أفايس الذى يقول فى المديح:

وهارونُ ماءُ المُزْن يَشْفِى من الصَّدَى * اذا ما الصَّدِى بالرِّيق عَصّتْ حَاجِرُهْ
وأوْسَطُ بيت فى قريش لَبَيْتُه * وأوّلُ عزّ فى قريش وآخرُه
وزَحْفٌ له تَحْكِى البروقَ سيوفُه * وتحكى الرعودَ القاصِفاتِ حوافِرُه
اذا حَمِيَتْ شمسُ النهار تَضاحَكَتْ * إلى الشمس فيه بَيْضُه ومَغافِره
اذا نُكِب الإسلامُ يوما بكبة * فهارونُ من بين البَرِيّة ثائره
ومَنْ ذا يفوت الموتَ والموتُ مُدْرِكٌ * كذا لم يَفُتْ هارونَ ضِدٌّ يُنافره

فتخلّص الرجل من شرّ أبى الأعرابى بأن قال له : القولُ كما قلتَ ، وما كتُّ سمعت له مثل هذين الشعرين ، وكتبهما عنه .

قال ثُمامة بن أشرَس أنشدنى أبو العتاهيه :

إذا المرء لم يُعْتِقْ من المـال نفسَه * تملّكه المـالُ الذى هو مالكه
ألا إنمـا مالى الذى أنا مُنْفِقٌ * وليس لِىَ المـالُ الذى أنا تاركه
اذا كنتَ ذا مال فبَادِرْ به الذى * يَحِقّ وإلا ٱستهلكته مَهالكه

فقلت له : من أين قصيت بهذا ؟ فقال : من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "انما لك من مالك ما أكلتَ فأفنيتَ أو لبستَ فأبليتَ أو تصـدّقتَ فأمضيتَ" . فقلت له : أتؤمن بأن هذا قول رسـول الله صلى الله عليه وسلم وأنّه الحقّ؟ قال : نعم ، قلت : فلِمَ تحبِس عندك سـبعا وعشرين بَدْرَة فى دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكّى ولا تقـدّمها ذُخْرا ليوم فَقْرك وفاقتـك ؟ فقال : يا أبا مَعْن ، والله إنّ ما قلتَ لهو الحقّ ، ولكنى أخاف الفقر والحاجةَ الى الناس ، فقلتُ : ومِمَ تزيد حالُ من ٱفتقر على حالك وأنتَ دائم الحرص ، دائمُ الجَمْع ، شحيحٌ على نفسـك ، لا تشترى اللحم إلا من عيد الى عيد؟ فتَرَك جواب كلامى كلّه ، ثم قال لى . والله لقد ٱشتريتُ فى يوم عَاشُوراء لحمـا وتوابِلَه وما يتبعه بخمسة دراهم ، فلما قال هـذا القول أضحكنى حتى أذهلنى عن جوابه ومُعَاتَبته ، فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شَرَح اللهُ صدرَه للإسلام .

زار مَرّة عمرو بن مَسْعَدة فحُجِب عنه ، فلَزِم منزله ، فاستبطأه عمرو ، فكتب اليه :

كسَّلنى اليأسُ عنك لمـا أرا * ـنى طَرْق اليك من كَسَل
إنى اذا لم يكن أخى ثِقَةً * قطَعتُ منه حَبائلَ الأمل

وكتب اليه مرة أخرى :

مالَك قد حُلْتَ عن إخائك وٱسـ * ـتَبْدَلْتَ يا عمرو شِيمةً كَدِره
إنى اذا البـاب تاه حاجِبُـه * لم يَكُ عنـدى فى حُجْره نَظره (١)

(١) النظرة : الأخير والإمهال .

لستم تُرَجَّون للحساب ولا * يوم تكون السماء مُنْفَطِره
لكن لدنيا كالظل بهجتُها * سريعةِ الإنقضاء مُنْشَمِره
قد كان وجهى لديك مَعْرِفَةً * فاليوم أضحى حَرْفا من النُّكِره

جلس المهدىّ للشعراء يوما فأذن لهم، وفيهم بشّار وأشجع، وكان أشجع يأخذ عن بشّار ويعظّمه، وكان فى القوم عيرَ هديں أبو العتاهية، قال أشجع: فلما سمع بشّار كلام أبى العتاهية قال: يا أحا سُلَيْم، أهذا ذلك الكُوفِىّ المُلَقَّب؟ قلت. نعم، قال: لا جَرَى الله حيرا من جمعا معه، ثم قال له المهدىّ: أنشِد، فقال: ويحك! أو يُستنشد أيضا قَبْلنا؟ فقلتُ: قد ترى، فأنشد.

ألَا ما سيّدتى ما لَهَا * أدَلًّا فأحْمِل إدْلالَهَا
وإلّا فَصِيمَ تَحَمَّتْ وما * حنِثْتُ سقى الله أطْلالَهَا
ألا إن جاريةً للإما * م قد أُسْكِنَ الحسنُ سِرْبالها
مَشَتْ بين حُورٍ قِصارِ الخُطا * تُجاذِب فى المشى أكفالَهَا
وقد أتعب اللهُ نفسى بها * وأتعَب باللّوْم عُذّالها

فقال بشّار لأشجع: ويحك يا أحا سليم! ما أدرى من أىّ أمْرَيْه أعجب، أمن صعف، شعره أم من تشبيه بجارية الخليفة وهو يسمع دلك بأُذُنه؟ حتى أتى على قوله:

أنتْه الخلافةُ مُقَادةً * إليه تُجَرِّر أذيالَهَا
فلم تَك تصلُح إلّا له * ولم يك يصلح إلّا لها
ولو رَامَها أحَدٌ غيرُه * لزُلْزِلت الأرضُ زِلْزالها
ولو لم تُطِعْهُ بنات القلوب * لَمَا قَبِل اللهُ أعمالها
وإن الخليفة من نُفِض "لَا" * إليه ليُبْعِصُ مَنْ قالها

فقال بشار لأشجع وقد اهتزّ طَرَبا: ويحك يا أحا سليم، أترى الخليفة لم يَطِر عن فراشه طربا لما يأتى به هذا الكوفىّ!

ولما اتّهمه منصورُ بن عَمّار بالزندقة، لأنه لا يذكر فى شعره الجنّة والنار وإنما يذكر الموت، قال فيه :

يا وَاعظَ الناس قد أصبحتَ متّهما * إذ عِبْتَ منهم أمورا أنتَ تأتيها
كالمُلبِس الثوبَ من عُرْى وعَوْرتُه * للناس باديةٌ ما إن يُوارِيها
فأعظمُ الإثم بعد الشِّرك علمُه * فى كلّ نفس عَمَاها عن مَساويها
عِرْفانها بعيوب الناس تُبْصرها * منهم ولا تبصر العيبَ الذى فيها

وقيل له : زعَم الناس أنك زِنْديق، فقال : والله مادِينى إلا التوحيد ، فقيل له قل شيئا يُتحدّث به عنك، فقال :

ألا إنّنا كلُّنا بائدُ * وأىّ بَنى آدمٍ خالدُ
وبَدْؤهم كان من رَبّهم * وكلٌّ الى ربّه عائد
فيا عَجَبًا كيف يَعْصِى الإلـــهَ أم كيف يَجْحَدُه الجاحد
وفى كلّ شىء له آيةٌ * تدُلُّ علـى أنّه واحـد

وسمِع الجاحظُ مرّة من ينشد أُرْجُوزة أبى العتاهية التى سمّاها "ذوات الأمثال" حتى أتى على قوله :

يالَلشباب المَرِح التّصابى . روائحُ الجنّـة فى الشباب

فقال للمنشد : قِفْ، ثم قال : انظروا الى قوله : «روائح الجنة فى الشباب» فإن له معنًى كمعنى الطرب لايقدِر على معرفته إلا القلوب، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير، وحيرُ المعانى ما كان القلب الى قَبُوله أسرع من اللسان الى وصفه . وهذه الأرجوزة من بدائع أبى العتاهية، ويقال : إن فيها أربعة آلاف مَثَل، منها قولُه :

حَسْبُك مما تبتغيه القُوتُ * ما أكثرَ القوتَ لمن يموت
الفقـرُ فيما جَاوَز الكَفَافا * مَنِ اتّقى الله رجَا وخَافا
هى المقـاديرُ فلُمْنِى أو قِـدَرْ * إن كنتُ أخطأتُ فما أخطا القَدَرْ

لكلّ ما يُؤدِى وإن قَلّ ألَمْ * ما أطولَ الليلَ على من لم يَنَمْ
ما انتفع المرءُ بمثل عَقْلِهِ * وخيرُ ذُخْرِ المرءِ حُسْنُ فِعْلِهِ
إن الفساد صِدّه الصّلاحُ * ورُبّ جِدّ حَرّه المُزاحُ
من جَعَل الغَمام عَيْنًا هَلَكا * مُلْعُك الشَّرّ كَاعِيه لَكَا
إن الشاتَ والفَراع والحِدَه * مَفْسَدَةٌ للمرء أىّ مَفْسَده
يُعْيِبك عن كلّ قبيح تَرْكُه * يَرْتِين الرأىَ الأصيلَ شَكُّه
ما عَيْشُ مَنْ آفَتُه بقاؤه * نَغَّص عيشا كلّه فَناؤه
يارُبّ من أسخطنا بِجَهْدِه * قد سرَّنا اللهُ بغير حَمْده
ما تطلُع الشمسُ ولا تَغيبُ * إلا لأمرٍ شأنُه عجيبُ
لكلّ شىء مَعْدِنٌ وجوهرُ * وأوسَط وأصغَر وأكبرُ
مَنْ لَك بالمَحْص وكُلُّ مُمْتَرِخ * وَساوِسٌ فى الصدر منه تَعْتَلِجْ
وكلُّ شىء لاحِقٌ بجوهره * أصغَرُه مُتّصِلٌ بأكْبَره
ما زالت الدنيا لنا دارَ أدًى * ممزوجةَ الصَّفْو بألوان القَذَى
الخيْرُ والشرّ بها أزواجُ * لِدا نِتاجٌ ولِدا نِتاجُ
مَنْ لك بالمَحْص وليس مَحْصُ * يَحْبُث بعضٌ ويَطيب بعضُ
لكلّ إنسان طَبِيعتانِ * خيرٌ وشرّ وهما ضِدّانِ
إنك لو تَسْتَنْشِق الشّحيحا * وجَدْتَه أنْتَنَ شىء رِيحا
والخيرُ والشرّ اذا ما عُدّا * بينهما بَوْنٌ بعيدٌ جِدّا
عجِبتُ حتى عَمّنى السُّكُوتُ * صِرْتُ كأنّى حائرٌ مبهوتُ
كذا قَضَى اللهُ فكيف أصْنَعُ * الصَّمْتُ إن ضاق الكلامُ أوسَعُ

ومن قول أبى العتاهية فى الوحدة والتبرُّم بالناس :

بَرِمتُ بالناس وأحلاقِهم * فَصِرتُ أستأنِسُ بالوَحْده
ما أكثَرَ الناسَ لعمرى وما * أقلَّهم فى حاصِـل العِـدّه

قال الأصمعىّ : شِعرُ أبى العتاهية كساحة الملوك، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والحَزَف والنّوى .

كان أبو العتاهيـة لا يفارق الرشيد فى سَفَر ولا حضر إلا فى طريق الحج ، وكان يُجرى عليه فى كلّ سـنة خمسين ألف درهم سوى الجَوائز والمَعاون، فلما قدِم الرشـيدُ الرَّقّة لَبِس أبو العتاهية الصُّوفَ وتزهّد، وتَرَك حضورَ المادمة والقولَ فى الغزل، وأمرَ الرشيدُ بحبسه فحُبِس، فكتب إليه من وقته :

أنا اليومَ لِى والحمـدُ لله أشْهُرُ * يَروح علىّ الهمُّ منكم ويَبْكُرُ
تذكّر أمينَ اللهِ حقّى وحُرْمتى * وما كنتَ تُولِيى كذلك يُذْكَرُ
ليالِىَ تُدنى منك بالقرب مجلسى * ووجهُك من ماء البشاشة يقطُر
فمَن لِىَ بالعيش التى كنتَ مرّة * إلىّ بها فى سالف الدهر تَنْظُر

فلما قرأ الرشيد الأبيات قال : قولوا له : لا بأس عليك؛ فكتب اليه :

أرِقْتُ وطار عن عينى النُّعَاسُ * ونام السامرون ولم يُواسُوا
أمينَ الله أمْنُك خيرُ أمنٍ * عليـك من التقى فيـه لِباس
تُنَاسُ من السماء بكلّ بَرّ * وأنتَ به تسـوس كما تُساس
كأنّ الخلقَ رَكْب فيـه رُوحٌ * له جسد وأنتَ عليـه راس
أمينَ الله إن الحبس باس * وقد أرسلتَ : ليس عليك باس

وكتب اليه أيضا فى الحبس .

وكلّفتنى ما حُلْت بينى وبينـه * وقلتُ سأبغى ما تُريد وما تَهْوَى
فلو كان لى قَلْبان كلّفتُ واحدا * هواك وكلّفت الخَلِىَّ لمـا يَهْوَى

فأمر باطلاقه .

كان الهادى واجدا على أبى العتاهية لملازمته أخاه هارون فى خلافة المهدىّ، فلما ولى موسى الخلافة قال أبو العتاهية يمدحه :

يَضْطَرِب الخوفُ والرجاءُ ادا * حَرَّك موسى القضيبَ أو فكَّرْ
ما أيس الفصلَ فى مَغيبٍ وما * أوْرَد من رأيه وما أصْدَرْ
فكم ترى عَزّ عنددلك من * مَعْشَرِ قومٍ وذَلّ من معشرْ
يُثْمِر من مَسّه القضيبُ ولو * يَمَسّه عيرُه لما أثْمَرْ
مَنْ مِثْل موسى ومثل والده ال * مهدىّ أو جَدّه أبى جَعْفَر

فرضى عنه . فلما دخل عليه أنشده .

لَهَفِى على الرمس القصيرِ * بين الحَوَرْنق والسَّدِيرِ
إذ نحن فى عُرَف الحيا * ة نعوم فى بحر السرور
فى فتيةٍ ملكواعنا * نَ الدهرِ أمثال الصُّقُور
ما منهمُ إلا الحَسُو * رُ على الهوى عير الحَصُور
يَتعاورون مُدَامةً * صَهْباء من حَلْب العصير
عذراءَ ربّاها شُعا * عُ الشمس فى حرّ الهجير
لم تَدْن من نار ولم * يَعْلَق بها وَصَرُ القدور
ومُقَرْطَقٍ يمشى أما * م القوم كالرَّشَأ الغرير
بزجاجةٍ تَسْتَحرِج ال * سِرَّ الدفين من الضمير
زهراء مثل الكوكب ال * دُرِّىّ فى كَفّ المُدِير
تَدَعُ الكريمَ وليس يد * رى ما قَبِيلٌ من دَبير
ومُخَصَّرات زُرْنَنا * بعد الهدوّ من الخدور
ريّا رَوادفهن يَلْـ * ـبَسْن الخواتم فى الخصور
غُرّ الوجوه مُحَجَّبا * تٍ قاصِرات الطَّرْف حُور

مُتَنَعِّـمات فى النعـ * ـيم مُضَمَّخَات بالعبـير
يَرْفُلْن فى حُلَل المحا * سن والمَجاسد والحرير
ما إن يَرَيْن الشـمس إلّا القُرْط من حَلَل الستور
والى أميـر الله مَهْـ * ـرَبُنا من الدهر العَثُور
واليـه أنْعَشَنا المـطا * يا بالرَّواح و بالبُكور
صُعْرَ الخدود كأنمـا * جُنَّحْن أجنحةَ النُّسور
مُتَسَرْبِلاتٍ بالطـلا * م على السُّهولة والوُعور
حـتى وصَلْنَ بنـا الى * رَبّ المدائن والقصور
ما زال قبـلَ مِطامه * فى سِنّ مُكْتَهِـلٍ كبير

استنشده المأمونُ أحسن ما قال فى الموت فأنشده .

أنْسَاك تَحْيَـاك المَـمَاتا * فطلبتَ فى الدنيا الثباتا
أَوَثِقْتَ بالدنيـا وأنـ * ـتَ ترى جماعتها شَتَاتا
وعزمتَ مِنك على الحيا * ة وطولِها عَزْما بَتَاتا
يا من رأى أبَوَيْه فيـ * ـمن قد رأى كانا هُماتا
هـل فيهما لك عِبرةٌ * أم حِلتَ أنّ لك انْفِلاتا
ومَن الذى طلب التَّفَلُّـ * ـتَ من منيّتـه فَفَاتا
كلُّ تُصَبِّحه المنـ * ـيّـةُ أو تبيّتـه بَيَـاتا

دخل أبو العتاهية على المأمون فأنشده :

ما أحسنَ الدنيـا وإقبالها * اذا أطاع اللهَ مَنْ نالَهَا
مَن لم يُواس الناسَ من فضلها * عَـرَّض للإدبار إقبالَهَا

فقال له المأمون : ما أجودَ البيتَ الأوّل، فأما الثانى فما صنعتَ فيه شيئا، الدنيا تُدْبِر عمّن واسَى منها أوصنّ بها، وإنما تُوجِب السماحةُ بها الأجرَ والصَّنُّ بها الوِزرَ ، فقال : صدقتَ

يا أميرالمؤمنين، أهلُ الفصل أولى بالفصل وأهل النقص أولى بالنقص، فلما كان بعد أيام عاد فأنشده :

كم عاقِلٍ أودى به الموتُ * لم يأحد الأُهْبَـةَ للفَوْتِ
من لم تَزُل نعمته قَبْلَه * زالَ عن النّعمة بالمـوت

فقال له : أحسنتَ، طيّبت المعنى، وأمر له بعشرين ألف درهم :

كان أبو العتاهية يُحَجّ كل سنه، فاذا قدم أهدى الى المأمون بُرْدًا ومُطْرَفًا ونَعْلا سوداء ومَسَاويك أَرَاكٍ، فبعث اليه بعشرين ألف درهم، فأهدى مرّه له كما كان يهدى كل سنة إذا قدِم، فلم يُثِبْه ولا بَعَث اليه بالوطيفة، فكتب اليه أبو العتاهية :

حبّروني أن من ضَرْب السَّنَهْ * حُدُدًا بيضا وصُـفرا حَسَنَهْ
أُحْدِثتْ لكنني لم أرَهَـا * مثـلَ ماكنتُ أرى كلّ سنه

فأمر المأمون بحمل العشرين الألف وقال أعطاه حتى ذكّرنا .

أنشد المأمونُ بيتَ أبي العتاهية يخاطب سلمًا الخاسر :

تعالى اللهُ يا سـلم بن عمرو * أذَلّ الحِرْصُ أعناق الرّجال

فقال المأمون : إن الحرص لمُفْسـد للدين والمروءة ، والله ما عرفت من رجلٍ قطّ حرصًا ولا شَرَها وجدتُ فيه مُصْطَنَعًا، فلم دلك سلما فقال : ويل على الجَزّار الزنديق جَمع الأموال وكنَزها وعاد الدور فى بيته ثم تزهّد مُرَاءاةً وبِعاقا، فأحد يَهتف بى اذا تصدّيتُ للطلب .

كان الرشيدُ مما يعجبه عِناءُ المُلّاحين فى الرلالات اذا ركِبها، وكان يَتأدّى بفساد كلامهم ولحنهم، فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء : يعملوا لهؤلاء شعرا يغنّون فيه، فقيل : ليس أحد أقدر على هدا من أبى العتاهية وهو فى الحبس، فوجّه اليه الرشيدُ : قل شعرا حتى أسمَعَه منهم ، ولم يأمر بإطلاقه، فغاظَه ذلك وقال : والله لأقولنّ شعرا يُحزنه ولا يُسَرّ به، فعمل شعرا ودفعه الى من حفِظه من المُلّاحين، فلما ركِب الحَرّاقة سمعه وهو :

حانَكَ الطَّـرفُ الطَّمُوحُ * أيها القلبُ الجَمُـوحُ
لدواعى الحـيرِ والشـ * ـرِّ دُبُـــوٌّ ونُـزُوح
هـل لمطلوبٍ بذنبٍ * توبةٌ منـه نَصُـوح
كيف إصـلاحُ قلوبٍ * إنما هُنّ قُـروح
أحسن الله بـا * إنّ الخطايا لا تَفوح
فإذا المستورُ مِنّـا * بين تَوْبَيْـه فُضوح
كم رأينا من عـزيزٍ * طُوِيَتْ عنه الكُشُوح
صاحَ منـه رحيـل * صائحُ الدهرِ الصَّدُوح
موتُ بعض الناس فى الأر * ض على قـوم فُتُـوح
سيصـير المـرء يوما * جسَـدا ما فيـه رُوح
بين عَيْـنَىْ كلّ حىّ * عَـلَمُ المـوت يَـلوح
كلُّنا فى غفـلة والـ * ـموتُ يغـدو ويَرُوح
لِمَـنِى الدنيـا من الدنـ * ـيا عَبُـوقٌ وصَـبُوح
رُحْن فى الوشى وأصبحـ * ـن عليهـنّ المُسُـوح
كلُّ نطّاحٍ من الدهـ * ـر له يـومًا نَطُـوح
نُحْ على نفسـك يا مسـ * ـكين إن كنتَ تـوح
تَمُـوننّ وإن عُمِّـ * ـرت ما عُمِّـر نُـوح

فلما سمع ذلك الرشيد جعل يبكى ويتنحب ، وكان الرشيد من أغزر الناس دموعا فى وقت المَوْعظة ، وأشدّهم عَسْفًا فى وقت الغضب والغِلْظة ، فلما رأى الفضلُ بن الربيع كثرة بكائه أومأ الى الملّاحين أن يسكتوا .

لما عقد الرشيد العهد لبنيه الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤتمن ، قال أبو العتاهية :

رَحَلتُ عن الرِّمْ المُحِيل قَعُودى * الى ذِى رُحُوفٍ جمّة وجُنُـودِ
ورَاعٍ يُراعى الليلَ فى حفظ أُمّة * يدافع عنها الشـرَّ غير رَقُود

بألويةٍ جبريلُ يقدُم أهلَها * ورايات نصرٍ حوله وبُنُود
تَحَامى عن الدنيا وأيقن أنها * مُفارِقةٌ ليست بدار خُلود
وشَدَّ عُرَى الإسلام منه بعتيةٍ ثلاثة أملاكٍ وُلَاة عُهُود
هُمُ خيرُ أولاد لهم خيرُ والد * له خيرُ آباء مَضَتْ وجُدود
بَنُو المصطفى هارون حول سريره * خفيرُ قيامٍ حولَه وقُعُود
تقلِّب ألحاظُ المهابة بينهم * عيونَ ظباء فى قلوب أُسُود
جُدُودهم شمسٌ أتت فى أهِلَّة * تَبَدَّت لِرَاء فى نحوم سُعُود

فوصله الرشيدُ بصلة ما وصل مثلها شاعرًا قطّ .

١٢ — مُسْـــلِمُ بن الوَلِيـــد (١)

أحد الشعراء المفلقين واللغاء المبدعين

قال الشِّعْرَ فى صِباه، ولم يتجاوز به الأمراء والرؤساء، مكتفيًا بما ناله من قليل العطاء، ويُنفقـه على ملاذّه مع إخوانه من خُلَعاء الشـعراء، ثم انقطع الى يزيد بن مَزيد الشَّيْبانى قائد الرشـيد، ثم اتّصل بالخليفة هارون الرشيد وعُدّ من شعرائه، ومدَحه ومدَح البرامكة وحَسُن رأيهم فيه . ولمـا أصبح الحلّ والعقد بيد ذى الرِيَاستين الفضـل بن سَهْل وزير المأمون فى أوّل خلافته قرّبه وأدناه . لأنه كان من خاصّته قبـل وزارته، وولّاه أعمالا بجُرْجَان اكتسب منها ألف ألف درهم ثم لزم منزلَه الى أن أنفقها فى اللّذات، وعاد إلى الفضل فقلّده الصياغ بأصْبَهان فاكتسب منها ألف ألف أيضا . ولمـا قُتِل الفضل لزم منزلَه ونَسَك ولم يمدح أحدا إلى أن مات بجرجان .

ومسلمٌ أوّل من تكلّف البديع فى شعره واستكثر منه فى قوله، وسَبَقه بشار الى ذلك إلا أنه لم يبلغ شَأْوَ مسـلم فيه . وقد عدّ العلماءُ هذا التصنّع والتكلّف إفسادًا للشعر، إذ قد تبعه فى ذلك الشعراءُ مثل البحترىّ وأبى تمام وابن المعتزّ وغيرهم .

---

(١) هو مسلم بن الوليد مولى الأنصار يلقب صريع الغوانى، شاعر متقدّم من شعراء الدولة العباسية، منشؤه ومولده الكوفة . وهو فيما زعموا أوّل من قال الشعر المعروف بالبديع، وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف، وتبعه فيه جماعة، وأشهرهم فيه أبو تمام الطائى، فانه جمع شعره كله مدحا واحدا فيه، ومسلم كان متصنعا فى شعره . قال محمد بن يزيد : كان مسلم شاعرا حسن الخط، جيـد القول فى الشراب، وكثير من الرواة يقربه فى بعض ما هذا المعنى، وهو أوّل من عقد هذه المعانى الطريفة واستحسنها . وقال القاسم بن مهرويه : أوّل من أفسـد الشعر مسلم بن الوليد، جاء بهذا الفن الذى سماه الناس البديع ثم جاء الطائى بعده فتمّمه . توفى بجرجان سنة ٢٠٨هـ وله ديوان مطبوع فى ليدن سنة ١٨٧٥م . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ١٣ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٢٨) والعقد الفريد (ج ١ ص ١٤٢) .

وقد مزج مسلم كلام البدويين بكلام الحضريين ، فضمنه المعانى اللطيفة ، وكساه الألفاظ الظريفة ، فله جزالة البدويين ، ورقة الحضريين .

لقى مسلم أبا نواس فقال له : ما أعرف لك بيتا إلا فيه سَقَط ، قال له : فما تحفظ من ذلك ؟ قال : قل أنت ماشئت حتى أُريَك سَقَطَك فيه ، فأنشد .

ذَكَرَ الصَّبُوحَ بسُحْرة فارتاحا * وأمَلَّه ديكُ الصَّباح صِياحا

فقال له مسلم : فَلِمَ أمَلّه وهو الذى أذكره وبه ٱرتاح ؟ فقال أبو نواس . فأنشدنى شيئا من شعرك ليس فيه حَلَل ، فأنشده مسلم .

عَاصَى الشباتَ فَرَاح غير مُفَنَّد * وأقام بين عزيمةٍ وتَجَلُّد

فقال له أبو نواس : قد جعلته رائحا مقيما فى حالة واحدة و بيت واحد ، فتَشَاغَبَا وتَسَابّا ساعةً . وكلا البيتين صحيح المعنى .

ٱجتمع أصحاب المأمون عنده يوما ، فأفاضوا فى ذكر الشعر والشعراء ، فقال له بعضهم : أيّ أنت يا أمير المؤمنين من مسلم بن الوليد ؟ قال : حيث يقول ماذا ؟ قال : حيث يقول وقد رثَى رجلا :

أرادوا ليُخْفُوا قبرَه عن عدوّه * فطِيبُ تراب القبر دلّ على القبر

وحيث مدَح رجلا بالشجاعة فقال :

يجود بالنفس إذ ضَنّ الجوادُ بها * والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود

وهجا رجلا بقبح الوجه والأخلاق فقال :

قَبُحَتْ مَنَاظرُه فحين حَبَرتَه * حَسُنَتْ مناظره لِقُبْح المَخْبَر

وتَغَازل فقال :

هَوًى يجدّ وحبيبٌ يلعبُ * أنت لَعَمْرِى بينهما معذَّب

فقال المأمون : هذا أشعر من خضتم اليوم فى ذكره .

قال يزيد بن مَزْيَد أرسل الىّ الرشيد يوما فى وقت لا يرسل فيه الى مثلى ، فأتيتُه لابسًا سلاحى مستعدًا لأمر إن أراده منّى ، فلما رآنى ضحك الىّ ثم قال : يا يزيد، خبّرنى عن الذى يقول فيك .

تراه فى الأمْن فى دِرْع مُضَاعَفَةٍ * لا يأمَنُ الدهرَ أن يُدْعى على عَجَل
صافِى العِيالِ طَمُوحَ العينِ همّتُـه * ذَكّ العُشَاة وأسْرُ الفاتك الخَطِلِ

فقال : لا أعرفه يا أمير المؤمنين ، فقال سَـوْءَةٌ لك من سـيّد قومٍ يُمْدَح بمثل هـذا الشعر ولا يعرف قائلَه ، وقد بلغ أميرَ المؤمنين فرواه ووَصل قائلَه ، وهو مسلم بن الوليد! فانصرفتُ فدعوتُ به ووصلتُه وولّيته .

وروى أنه دخل على الرشيد فقال له : يا يزيد، من الذى يقول فيك :

لا يَعْشَق الطِّيبُ حدّيْه ومَفْـرِقَه * ولا يُمَسِّـح عيبه من الكُحُل
اذا انتضى سـيفَه كانت مسالِكُه * مسالكَ الموتِ فى الأبدان والقُلَل
وإن خَلَتْ بحـديث النفس فِكْرَتُه . حَيَّ الرجاءُ ومات الخوف من وجَل
كالليث إن همّتـه فالموت راحتُه : لا يسـتريح الى الأيام والدُّوَل

فقال . لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين، فقال له هارون : أيقال فيك مثـل هذا الشـعر ولا تعرف قائلَه ! فخرج من عنده خجلا، فلمـا صار الى منزله دعا حاجبه فقـال له : من بالباب من الشعراء؟ قال : مسلم بن الوليد، قال : وكيف خَفْتَه عنى، فلم تُعْلِمنى بمكانه ! فقال : أخبرته أنك مُضَيِّق، وأنه ليس فى يديك شىء تعطيه إياه، وسألتُه الإمساك والمُقام أياما الى أن تَتّسع ، فأنكر ذلك وقال : أدْخِله، فأدخله اليه، فأنشده قوله فيه :

أَجْرَيْتُ[1] حبلَ خليع فى الصِّبا عَزِلِ * وشَمَّرَتْ هِمَمُ العُـذّال فى عَـذَلى
هاجَ البكاءَ على العينِ الطُّمُوحِ[2] هَوًى * مُفَـرِّقٌ بين تودِيـع ومُحْتَمَل
كيف السُّـلُوّ لقلبٍ راح مُحْتَبَلا * يَهْـذِى بصاحب قلبٍ غير محتَبِل

(١) أجريت فلانا رسنه تركته وشأنه ، والخليع : الذى خلع عذاره فى الصبا . (٢) الطموح : المرتفعة فى الطير الى الأحبة . ومفرق . مقسم .

عَاصَى العــراءَ عَداة البين مُنْهِلُّ * من الدمــوع جرى فى إثر منهمــل
لولا مُدَارَاةُ دمــع العين لانكشفتْ (١) مــنّى سرائرُ لم تظهــر ولم تُخَــل
أما كفى البينَ أن أُرْمَى بأسْهُمــه * حتى رمانى بلحظ الأعين النُّجُــل
مما حَنَى لى وإن كانت مُنًى صــدَقَت * صَــابَةٌ حُلَسُ التســليم بالمُقَــل
ماذا على الدهر لو لانت عريكتُه * ورَدّ فى الرأس مِــنّى سَكْرة الغَــزَل
حُرُمُ الحوادث عندى أنها احتلست * مــنّى بناتِ غِداء الكَرْم والكِلَل (٢)
ورُبّ يوم من اللــذّات مُخْتَصَر (٣) * قصّرتُــه بلقاء الراح والخُلَــل
وليــلة خُلِستُ للعين من سِــنَةٍ * هتكتُ فيها الضّبا عن بَيْضَة الخَجَل
قد كان دهرى وما فى اليوم من كِبَرٍ * شُرْبَ المدام وعزْفَ القَيْنَــةِ العُطُل
اذا شكوتُ اليها الحبَّ خَفّرها (٤) * شكواى فاحمَــرّ خَدّاها من الخجل
كم قد قطعتُ وعينُ الدهر راقِــدةٌ * أيامَــه بالصّبا واللهــو والجَــذَل
وطَيب الــعرف أصــفانى مــودّته * كافأتُه بمــديح فيــه مُتَحَــل (٥)
وبــلدةٍ لمطانا الرَّكب مُنْضِــيه (٦) * أنضيتُهــا بوَجيف الأَيْــق الذُّلُل
فيمَ المُقامُ وهــذا النجم مُعْــترِضًا (٧) * دَنا النَّحاء وحان السّــير فارْتَحِل
يا مائلَ الرأس إن الليث مُفْــترِسٌ * ميــلَ الحمائم والأعــناق فاعْتَــدِل
حَــذَارِ من أسَــدٍ صِرعامِه بَطَــلٍ * لا يُولِغُ الســيفَ إلا مهجةَ البَطَــل
لــولا يزيد لأمسى المُلك مُطَّــرِدًا (٨) * أو مَائلَ السَّمْك أو مُسْتَرْخِىَ الطَّــوَل
سَلّ الخليفــةُ سيفا من بَنى مَطَــر * أقام قائمُــه من كان دا مَيَــل
كم صَائل فى ذَرا تمهيــد مملكة * لــولا يزيدُ بَنى شَيْبان لم يَصُــل

---

(١) أى لم تطل بى . (٢) يريد الخمر والحوارى . (٣) مختصر، أى حصرته اللذات . والخلل : جمع حلة وهى الصديقة . (٤) حفرها، أى ولد عليها الحفر وهو شدّة الحياء . (٥) أى مختار . (٦) منضية : متعبة . والوجيف : ضرب من السير . والذلل الضامرات . (٧) يريد بالنجم الثريا . ومعترضا . منتصبا . (٨) مطردا، أى محدولا . وضرب السمك والطول مثلا .

ناب الإمامُ الذى يَفـترُّ عنـه اذا * ما افتَرّتِ الحربُ عن أنيابها العُصُـل
من كان يَخْتِـل قِرْنا عنـد موقفه * فإن قِرنى يزيـد غيرُ مُحْتَتَـل
سَـدّ الثغور يزيدُ بعـد ما انفرجت * بقائم السـيف لا بالخَتْل والحِيـل
كم قـد أذاق حِمامَ الموت من بَطَل * حامى الحقيقـةِ لا يُؤْتَى من الوَهَـل
أعرُّ أبيضُ يُعْشِى البِيضَ أبيضَ لا * يرضى لمـولاه يومَ الرَّوْع بالفَشَـل
يَغْشَى الوغى وشِهابُ المـوت فى يده * يرمى الفـوارسَ والأبطال بالشُّـعَل
يَفْتَرّ عنـد افتِرار الحـرب مبتسِمًا * اذا تعـيّر وجه الفـارس البطـل
مُوفٍ عـلى مُهَج واليـومُ دو رَهَج * كأنه أجَـلٌ يسـعى الى أمـل
ينـال بالرِّفـق ما يَعْيَـا الرجالُ بـه * كالموت مستعجلا يأتى على مَهَـل
لا يُلْقِـحُ الحـربَ إلا رَيْثَ يَنْتِجُها * من هالك وأسـيرٍ عـيرِ محتَفِـل
إن شِـيم بارقُـه حالت حلائقُـه * بين العطيّـة والإمساك والعِلَـل
يُغْشِى المنايا المنايا ثم يَفْـرِجُها * عن النفوس مُطِلّات على الهَمَـل (١)
لا يَرحـل النـاسُ إلا نحـوَ نَجْدته * كالبيت (٢) يُضحى اليـه مُلْتَقَى السُّبُل
يَقْـرِى المنيّةَ أرواحَ الكُمَاة كما * يَقْرِى الضيوفَ شُحُـومَ الكُوم والبُزُل (٣)
يكسو السـيوفَ دماء الماكثين به * ويجعـل الهامَ تيجان القَنَا الذُّبُـل
يغـدو فتغـدو المنايا فى أسنّته * شَوارعا تَتَحَـدّى الناسَ بالأجَـل
إذا طَغَت فئةٌ عن عِبّ طاعتها * عَبّى لها الموتَ بين البِيض والأسَل
قـد عَوّد الطـيرَ عاداتٍ وثِقْنَ بها * فهنّ يَتْبَعه فى كلّ مُرْتَحَـل
تراه فى الأمن فى دِرع مُضَـاعَفَة * لا يأمَنُ الدهرَ أن يُدْعَى على عَجَـل
ضافى العِنان طموحَ العين همّتُه * فَكّ العُنَاة (٤) وأسْرُ الفاتك الخَطِـل
لا يَعْتَق الطِّيبُ خـدّيه ومَعْرِقَـه * ولا يمسح عينيه من الكُحُـل

(١) الهبل : الفقدان . (٢) يعنى البيت الحرام . (٣) الكوم . العظام الأسمنة واحدها كوماء . والبزل : جمع بازل وهو ماله تسعة أعوام . (٤) جمع عان وهو الأسير والخطل : ذو الخطل وهو الخطأ .

اذا انتضى سيفه كانت مسالكه * مسالكَ الموت فى الأبدان والقُلَل
وإن خلت بحديث النفس بكرته * حَيَّ الرجاء ومات الخوف من وَجَل
كالليث إن هجته فالموت راحته * لا يستريح الى الأيام والدُّول
إن الحوادث لما رُمْن هضبته (١) * أزمعن عن حار شيبان بمُنتقل
فالدهر يَعْبِط أولاه أواخره * اذ لم يكن كان فى أعصاره الأُوَل
اذا الشريكيّ (٢) لم يفخر على أحد * تكلم الفخرُ عنه غير مُنتحل
لا تُكذبَنّ فإن الحلم مَعْدِنه * وراثةٌ فى بنى شيبان لم تزل
سَلّوا السيوف فأغشَوا من يحار بهم * خَبْطا بها عير ما نُكْلٍ ولا وُكُل
الزائدِيُّونَ قومٌ فى رماحهمُ * حوفُ المُخيف وأمْنُ الخائف الوَجِل
كبيرُهم لا تقوم الرّاسياتُ له * حِلْما وطفلهمُ فى هَدْى مُكْتَهِل
إسْلَمَ يزيدُ فما فى الدين من أَوَد * اذا سلمتَ وما فى الملك من خَلَل
أثْنَتْ سُوى بنى الإسلام فاطّادت (٣) * يومَ الخليج وقد قامت على زَلَل
لولا دفاعُك بأسَ الروم اذ بَكَرَتْ * عن عِتْرة الدين (٤) لم تأمن من الثّكَل
ويوسُفَ البَرْم (٥) قد صَبّحتَ عسكره * بعسكر يلفظ الأقدارَ دى زَجَل
عافصته (٦) يوم عَبْر النهر مُهْلته * وكان محتجرا فى الحرب بالمُهَل
والمارقَ ابن طَريف (٧) قد دَلَفتَ له * بعسكر للمنايا مُسْبِل هَطِل
لما رآك مُجِدّا فى مَنِيّته * وأن دَفْعك لا يُسْطاع بالحيل
شام النِّزال فأبرقت اللقاءَ له * مقدِّم الخَطْو فيها عيرَ مُتّكِل
ماتوا وأنت غليل فى صدورهمُ * وكان سيفُك يَسْتَشفى من الغُلَل

---

(١) هذا مثل ، يريد لما رامت الحوادث من استجاره . (٢) نسبة الى شريك ، وهو أحد أجداد يزيد .
(٣) هكذا فى الأصل . وعندنا أن الكلمة محرفة عن (اتطادت) أى ثنت . وهى وزاد افتعل من وطد .
وكانت اوتطد ثم قلبت فاء الافتعال تاء وأدغم المثل فى المثل . (٤) عترة الدين . جماعة الاسلام .
(٥) أحد الخوارج على الرشيد . (٦) عاصه : فاجأه على غرة . (٧) هو الوليد بن طريف الشارى .

لو أن غير شريكيّ أطاف به * فاز الوليدُ بقدح الناصل[1] الخَصِل
وقتَ بالدين يوم الرِّسّ[2] فاعتدلت * منه قوائمُ قد أوفَتْ على مَيَل
ما كان جمعُهم لما لقيتهمُ * إلا كمثل نَعَامٍ ربيع مُحْفِل
تابوا ولو لم يتوبوا من دنوبهمُ * لآب حيثُك بالأسرى وبالنَّفَل
كم آمنٍ لك بالدار مُمْتَنِع * أحرجته من حصون المُلك والحَوَل
يأبى لك الذمَّ فى يوميك إن ذُكِرا * عَضُّ حُسامٌ وعِرض غير مُنتَذَل
وما رِقين عُزَاه من بيوتهمُ * لا يَنْكُلون ولا يؤتَون من نَكَل
خَلَفتَ أجسادهم والطيرُ عاكفةٌ * فيها وأفْفَلتهم هاما مع القَفَل
فانظُرْ لها لك فى شيبان من مَثَل * كذاك ما لِبنى شيبان من مَثَل
كم مشهدٍ لك لا تُحصى مآثرُه * قَسَمتَ فيه كرزق الإنس والخَبَل
لله من هاشم فى أرضه حَبَل * وأنت وأسُك رُكْنا ذلك الجبل
قد أعظَموك فما تُدعى لِمَيْنة * إلا لمُعْضلة تَسْتَنّ[3] بالعَصَل
يا ربّ مكرمة أصبحت واحدها * أعْيَت صَناديدَ رَامُوها فلم تُنَل
تَشَاغَل الناسُ بالدنيا وزُخرفها * وأنت من بَذْلك المعروفَ فى شُغُل
أقسمتُ ما دُمتَ عن جَدْوَاك طالبُها * ولا دفعتَ اعتزام الحمد بالهَزَل
يأبى لسائلك مَنْعَ الجود سائلَه * فما يُعَلِّج بين الجود والبُخَل
صَدَقْتَ ظَنّى وصدّقت الظنونَ به * وحطّ حودُك عَقْدَ الرَّحْل عن جَمَلى

فقال له يزيد : قد أمرنا لك بخمسين ألف درهم فاقصصها وأعذر ، فخرج الحاجب فقال لمسلم : قد أمرنى أن أرهن ضيعة من ضياعه على مائة ألف درهم : خمسون ألفا منها لك وخمسون ألفا لنفقته ، فأعطاه إياها . وكتب صاحب الخبر بذلك الى الرشيد ، فأمر ليزيد بمائتى ألف درهم وقال : اِقْضِ الخمسين ألفا التى أخذها الشاعر وزِدْه مثلها ، وخُذْ

(١) الناصل : المصيب . والخصل مثله . (٢) الرس وادى أذربيجان . (٣) تستن بالعضل : تتابع بالعسر . والمعضلة : الداهية .

مائة ألف لعقتك، فأعْتَكَ صَيْعته وأعطى مسلما خمسين ألفا أخرى . ولما أنشده : «لا يعبق الطيب» البيت . قال لجاريته : حرّم طيبا مسلم الطّيب .

كان داود بن يزيد بن حاتم المُهَلّبي يجلس للشعراء فى السنه مجلسا واحدا، فيقصدونه لذلك اليوم ويُنشدونه، فوجّه اليه مسلم راويته بقصيدته التى أوّلها . «لا تَدْعُ بى الشوق» فقدم عليه يومَ جلوسه للشعراء ولحقه بعَقِب خروجهم عنه ، فتقدّم الى الحاجب وخَسَر لثامه عن وجهه، ثم قال له : أستأذن لى على الأمير، قال : ومن أنت ؟ قال : شاعر، قال : قد أنصرم وقتُك وأنصرف الشعراء وهو على القيام، فقال له . ويحك! إنى قد وعدتُ على الأمير بشعر ما قالت العرب مثلَه، وكان مع الحاجب أدَبٌ يفهم به ما يَسمع، فقال : هاتِ حتى أسمع، فإن كان الأمر كما ذكرت أوصلتك اليه؛ فأنشده بعض القصيدة، فسمع شيئا يقصر عنه الوصف، فدخل على داود فقال له : قدِم على الأمير شاعر بشعر ما قيل فيك مثله، فقال . أدْخِل قائله، فلما مَثَل بين يديه سَلّم وقال : قدمت على الأمير — أعزه الله — بمدح يسمعه فيعلم تقدّمى على غيرى ممّن امتدحه ، فقال . هات، فلما افتتح القصيدة وقال . « لا تدع بى الشوق » استوى جالسا وأطرق حتى أتى الرجلُ على آخر الشعر، ثم رفع رأسه اليه فقال : أهذا شعرك ؟ قال : نعم أيها الأمير؛ قال : فى كم قلته يا فتى؟ قال : فى أربعة أشهر أبقاك الله، قال : لو قلته فى ثمانية أشهر لكنت محسنا، وقد اهمتك، بجوده شعرك وحمول ذكرك، فان كنت قائل هذا الشعر فقد أنظَرتُك أربعة أشهر فى مثله، وأمرت بالإجراء عليك، فان جئتنا بمثل هذا الشعر وهبتُ لك مائة ألف درهم وإلا حرمتك، فقال : أو الإقالة أعزّ الله الأمير، قال : قد أقلتك . قال : الشعر لمسلم بن الوليد وأنا راويته والوافد عليك بشعره؛ فقال : أنا أبو حاتم، إنك لما افتتحت شعره فقلت : «لا تدع بى الشوق إنى غير معمود» سمعت كلام مسلم يناديني، فأجبت نداءه واستويت جالسا؛ ثم قال : ياغلام، أعطه عشرة آلاف درهم ، وأحمل الساعة الى مسلم مائة ألف درهم . وهذه هى القصيدة :

لا تَدْعُ بى الشّـوقَ إنى غير معمـــود ٠ نَهَى النُّهى عن هـوى الهيف الرَّعاديد (١)
لو شئتُ لاشئتُ راجعتُ الصِّبا ومَشَتْ * فى العيونُ وفاتنـى بجَلْـود (٢)
سَلْ ليلةَ الخَيْف هل أمصيتُ آخرَها * بالرّاح تحت نسـيم الخُـرَّد الغيـد
شَجَحْتُها بلُعاب المُزن فاعـتزلَت (٣) * نَسْـحَيْن من بين محـلول ومعقـود
كِلا الحَديدين قد أُطْعِمتُ حَرْتَه (٤) ٠ لَـوْآل حىٌّ الى عُمْـرٍ وتخليـد
أهـلا بوافـدة للشّيب واحـدهِ ٠ وإن تَرَاءتْ بشخص غير مودود
لا أجمع الحلمَ والصهباءَ قـد سكتْ * نفسى الى المـاء عن ماء العاقيـد
لم يَنْهَنِى صَدُّ (٥) عنها ولا كـبر * لكن صحوتُ وعُصنى غير مَخْضود
أوفى بى الحـلمُ وٱقتاد النُّهى طَلَقا * شَاوى وعِفتُ الصِّبا من غير تفنيـد
اذا تجـافَت بِىَ الهِمات عن بـلد ٠ مارعت أرضًـا ولم أحفِـل بتمهيـد
لا تَطْبِنِى المُـنَى (٦) عن جَهْـد مُقْتَلَ * ولا أحُـول لشىء غـير موجـود
وبَجْهَـلٍ كاطِّـراد السيف مُنْجَحِـزٍ ٠ عن الأدِلّاء مسـجُور الصَّياخيد
تمشى الرِّياحُ به حَسْـرى مُوَلَّهـةً * حَيْرَى تلوذ بأطـراف الجلاميـد
مُوَقَّف المَتْنِ لا تمصى السَّبيـلُ به ٠ إلا التحلُّـلَ ريثًـا بعـد تَجْهِيـد
قَرَيْتُـه الوَحْدَ من حَطَّـارةٍ (٧) سُرُج ٠ تَفْـرى الفـلاةَ بإرْقال وتَوْخيـد
اليـك مادرتُ إسفارَ الصباح بهـا * من جُنْح ليل رحيبِ الباع ممـدود
وبـلدةٍ ذات عَـوْلٍ لا سبيل بهـا * إلا الظّنونُ وإلّا مَسْرَح السِّيد
كأن أعلامهـا والآلَ يركبُهـا ٠ نُدْبٌ تَـوافى بهـا نَذْرٌ الى عيـد

(١) لا تدع بى الشوق ، أى لاتدعنى مشتاقا . وسأله دعل عن معنى ذلك فقال : لاتدعنى صريع العوانى فلست كذلك ، وكان لهذا اللقب كارها . ومعمود عاشق . والهيف . الصامرات الخصور . (٢) أى دهت بجلدى . (٣) اعتزلت . احتلطت ، ويريد بالسحين : ما ولى الماء من الحمر أسرع فيه الماء لحله ، وما ولى منها القاع بق على حاله لم يحله الماء بعد . (٤) الحرة . السم .
(٥) الصد . اللوم . والمخصود . الواهى . (٦) أى لا تدعونى الى نفسها . (٧) الخطارة : الناقة تحرك ذنبها . والسرح . الحميمة .

كلّفتُ أهوالها عَبّاً مؤرِّقَـة * اليـك لولاك لم تُكحَـل بتَسهيد
حتى أتتـك نى الآمالُ مُطّلِعا * للُيسر عـدك فى سربال محسـود
من عـد ما ألقتِ الأنامُ لى عَرَصا * مُلْقَ رَهين(١) لحَـدِّ السيف مَصْفُـود
وسَاوَرَتنى بـاتُ الدهر فامْتَحَت * رَنْعى بمُمْحـلة(٢) شهباء جارُود
الى بـنى حاتم أدّى ركائبَنا * حَوْضُ الدّحى وسُرَى المَهْرِيّة القُـود
تَطْـوِى النهارَ فإنْ ليلٌ يحُطّهـا(٣) * باتت تَحَمَّـط هَامَاتِ القَـرَادِد
مِثْـلَ السِّمام(٤) بَعيدات المَقيـل اذا * ألقى الهجـيرُ يَدًا فى كلّ صَيْحود
حَلّت بِـدَاوَدَ فامتاحتْ وأعْجَلَهـا * حَـدْوَ النّعال على أيْرٍ(٥) وتَحْـرِيد
أعطى فأفنى المُـنى أدنى عَطِيّتـه * وأرهَقَ الوعـد نُجْحًا عبر مكـود
واللهُ أطفأ نار الحـرب إذ سُـعِرتْ * شَرْقًا بمُوقِـدها فى العـرب دَاودِ
لم يَأْتِ أمرا ولم يَظْهَـر على حَدَث * إلا أُعِينَ بتوفيـق وتسـديد
مُوَحِّـدُ الرأى تَنْشَـقّ الظنونُ له * عن كل مُلْتَبِس منها ومعقـود
تُمْنَى الأمـورُ له من نحـو أوْجُهِهـا * وإن سلَكن سـبيلا غير مَـوْرود
اذا أناخت حِمَى قـوم عقوبتُـه * عادَى له العفـوُ قومًا بالمراصـيد
كالليث بل مثـله الليثُ الهَصُور اذا * عَنّى الحـديدُ غِـاءً غير تَعْـرِيد
يلقى المنيّـةَ فى أمثـال عُـدَّتها * كالسّيل يقـذف جُلمودا بجُلمـود
إن قصر الرمحُ لم يَمْشِ الخُطا عـددا * أو عَرّد السـيف لم يَهْمُم بتَعْـريد
اذا رَعَى نَـلدا دَانَى مَاهِـلَه * وإن بُيِنَ على تَخْـطٍ وتَبْعِيـد
جـرى فأدرك لم يُعْنَف بمُهْلَتـه * وآسْـتودَع البُهْرُ(٦) أنفاس المَجَاويد

---

(١) الرهين : الأسير . والمصفود الموثق بالحديد . (٢) المحلة : السنة الجدبة . والجارود . المجردة من النبات . (٣) يحطها . ينال بها . والقراديد . جمع قردد ، وهو المرتفع من الجبال
(٤) السمام . طائر يشبه القطا . والصيحود . شدة الحر . (٥) التحريد من الحرد ، وهو داء يصيب الإبل فى قوائمها . والأير . الذكر . (٦) البهر هو ما يعترى الانسان عند العدو من اللهث وتتابع النفس .

آلُ المُهَلَّبِ قومٌ لا يزال لهم * رِقّ الصَّريح[1] وأسلابُ المَداويد
مُظَفَّرون تُصيب الحربُ أنفُسَهم * اذا الفِرارُ تَمَطَّى بالمَحايِيد[2]
نَحْلٌ مَحايِبَ لم يَعْدَم تِلادُهُم * فَيٌ يُرَجَّى لِنَقْصٍ أو لتوكيد
قومٌ اذا هَدْأَة[3] شامَتْ سيوفَهُم * وإنها عُقُلُ الكُوم المَقاحيد
بمسى فِداؤك يا دَاود إذ عَلِقت * أيْدِى الرّدى بنواصِى الضُّمّر القُود
داويتَ من دائها كَرْمان وانتصمت * لك المنون لأقوامٍ مَحاهيد
مِلأتَها فَزَعًا أحلى معاقِلَها * من كل أبلَغَ[4] سامى الطّرف صِنْديد
لما نزلتَ على أدنى بلادهمُ * ألقى إليك الأقاصى بالمَقاليد
لَمستهم بيد للعفو مُتَّصِلٍ * بها الردى بين تَلْبِيبٍ وتشديد
أتيتَهم من وراء الأمن مُطَّلِعا * بالخيل تَرْدِى بأطلالٍ مَحايد
وطار فى إثر من طار الفِرارُ به * خوفٌ يعارضه فى كل أُخْدود
فاتوا الردى وظُباتُ الموت تَنْشُدُهم * وأنتَ نَصْب المنايا غيرُ مَنْشُود
ولو تلَبّث دَيّان[5] لها رَوِيَتْ * منه ولكن شَآها عَدْوَ مَزْءُود
أحْرَزَه أجَلٌ ما كاد يُحْرِزه * قَتْرٌ يَطُوى على أحشاء مَفْئُود[6]
ورأسُ مِهْران قد رُكِّبت قُلَّته * لَدْنًا كَفَاه مكان اللّيت والجِيد
قد كان فى مَعْزِل حتى بعثتَ له * أمَّ المنيّة فى أبنائها الصيد
أحُرّ أم أسْلَمَتْه الفاصِحات الى * حَدّ من السّيف من يَعْلَق به يُود
ألحقتَه صاحبيه فاستمرّ بهم * صرفٌ يفرّق صَبّاتِ[7] القَماحيد

---

(١) رق الصريح ، أى استعباد الحر . والمداويد : الاتحاد واحده مدود . (٢) المحايد الجماء جمع محياد . (٣) الهدأة . الفترة . (٤) الأبلخ : المتكبر .
(٥) شآها : سبقها . ومزءود : مرعوب . (٦) المفئود . الذى أصيب فؤاده . (٧) الصبات : أوصال الرأس . والقماحيد : جمع قمحودة وهى العظم الناتئ فى مؤخر الرأس بين القفا وأعلى الرأس .

أعْذَرُ(١) مَنْ فَرّ من حرب صبرت لها * يوم الحُصَيْن شِعارٌ غير مَحمود
يومَ اسْتَصَبَّتْ سِحِسْتانٌ(٢) طوائفها * عليك من طالبٍ وِتْرا ومَطْرود
ناهصتَهم دائدَ الإسلام تقرَعُهم * عنه ثُلاثَ ومَثْنَى بالمَواحيد
تحمود بالنفس إذ أسَّ الضِّرس بها * والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود
تلك الأرارِي إذ صَلّ الدليلُ بها * لم يُخْطِها القصدُ من أسياف داوُد
كان الحُصَيْن رُبَيّ أن يمور بها * حتى أحدتَ عليه بالأحاديد
ما زال يَعصُفُ بالنُّعمى ويَعْمِطها * حتى استقل به عودٌ على عود
وصعته حث تُرْتَاب(٣) الرياحُ به * وتحسُد الطيرَ منه أصْعُرُ اليد
يعدو الصَّوارى فَتَرْمِيه بأعْنُها * كما تشظى الحَوَّ أهاسًا بتصْعيد
يَتبع أفاءه(٤) طَورًا وموقعَه * يلْمَسُ فى عَلَقٍ منه وتَحْسيد
فكان فارطَ قومٍ حانَ مَكْرِعُهم * بأرض رَادَانَ شَتّى فى المَوارِيد
يومَ خُرَاشَةَ إذ شيْبان مُوحفَةٌ(٥) * يَحْفُون منك بسِلْمٍ منه مَقْدود
زَاحَفْته بنى سُفْيانٍ فكان له * ثناءُ يوم بطَهْر العيب مشهود
بما قَليلا وواقَ زَحْرُ عانفه * بيومه طيرَ محوسٍ ومسعود
ولَّى وقد حَرَعَتْ منه القنا حُرَعا * حَيَّ المخافة مَيْتًا غير مَودود
زالت حُنَاشَتُه عن صدر مُعْتَدِل * دانى الكعوب بعيد الصَّدر أمْلود(٦)
إذا السيوفُ أصابته تقطّع فى * سُرَادِقٍ بحَوَامى الخيل ممدود
نَفْدى بما تحته من جلافته * حُشَاشَةَ الزَّكَم من حَرداء قَيْدود(٧)
حَلّ اللِّواء وحَالَ الجدر عائدَه * فعاد بالجدر تربُ الكاعب الرُّود

---

(١) أعذر جاء بما يعذر عليه (٢) أى أعرت طوائفها (٣) ترتاب . أى تستنكر .
(٤) الأفاء جمع فىء وهو الظل آخر النهار . والحسد الدم (٥) موحفة سريعة
(٦) أملود أملس (٧) الحرداء قصيرة الشعر والقيدود الناقة الطويلة الظهر .

وإن يكن شَبّها حرباً وقـد حَمَدت * فانّيًا حيث لا هَيْدٍ ولا هِيـد (١)
كلٌّ مَثَلْت به فى مثـل خُطّتـه * قَتْـلا وأصحمتَـه فى عير مَلْحـود
عاقُوا رِضاك فعاقَتْهـم عَقُوبتهـم * عن الحياة مياهـم لِمَوعـود (٢)
وأنتَ بالسِّـد اد هاح الصَّريحُ بها * وٱستعدتْ حربُها كيـدَ المكايـد
وٱستعزر القوم كأسا من دمائهـمُ * وأحدقَ المـوت بالكُرّار والجيـد
رددتَ أهمالها القصـوى مجيّسـه * وشِمت بالبيض عَوْرات المراصـيد (٣)
كنت المهلّب حى شـكّ عالمهـم * ثم انفـردتَ ولم تُسـتَق بتسـويد
لم تقبـل السِّـلْم إلا بعدَ مقـدره * ولا تألفت إلا بعـد تبـديد
حـتى أجابوك من مستأمِنٍ حـذِر * راجٍ ومنتظـرٍ حتفا ومَثمـود
أهـدى اليك على الشحناء ألْفَهـم * مـوتٌ تفـرّق فى شـتى عَبَابد
وفى يديك بقـايا من سَراتهـمُ * هـمُ لديك على وعـد وتوعيـد
إن تعفُ عنهـم فأهلُ العفو أنت وإن * تُمص العِقـاب فأمْر عـير مردود
إسمـع فإنك قد هيّجت مَلْحَمـة * وفَـدتَ منها بأرواح الصـناديد
إقْـدِف أبا مالك فيها يَكُفّ بها * ويَسْـعَ فيها عَـدّ مك مجـدود
يعصى بعـزمك أو يجـرى بشأوك أو * يَقْرى بجدّك كلّ عير محـدود
لا يعـدَمَنْك حمى الإسلام من مَلِكٍ * أقمتَ قُلّتـه من بعـد تأويد
كفيتَ فى المُلك حـتى لم يقف أحد * على ضَيـاع ولم يحزن لمفقـود
أعطيتَهـم مسـك نُصْحا لا كِفاء له * وأيّدوك بركن عـير مهـدود
لم يبعث الدهر يوما بعـد ليلتـه * إلا أبعثت لـه بالبأس والجـود
أجرى لك اللهُ أيام الحيـاة عـلى * فعـلٍ حميـد وجَدّ غير مكـود

---

(١) كلمتان يزجر بهما الإبل . (٢) عقوبتهم ، أى هلاكهم . (٣) الأهمال . جمع همل ، وهو الشىء المسيب ، ويراد به الصعب . ومجيسة : مذللة .

لا يعقد الدين خيلا أنت قائدها * يُعْهِدَنَّ فى كل ثغر عير معهود
مُحَجَّلاتٍ اذا آثتْ عمائمَها * ومُقْدَمات على نصر وتأييد
هناك أنك مَعْدَى كلّ ملتمس * جُودا وأنك مأوى كل مطرود
تستأنف الحمد فى دهر أوائلُه * موسومه بفعال منك محمود
اذا عزمتَ على أمر نهضتَ به * وإن أبَيْتَ فَبَيْلا عيرَ تصريد
عوّدت نفسك عادات حُلقت لها * صِدْقَ الحديث وإنجازَ المواعيد

دخل الوليد على الفضل بن سهل لينشده شعرا، فقال له : أيها الكهل، إنى أجلّك عن الشعر فسل حاجتك، قال . بل تستتم اليد عندى بأن تسمع، فأنشده :

دُموعها من جِدار الدار تنسكب * وقلبُها معرم من حَرّها يجب
حَثّ الرحيلُ به عنها ففارقها * لبيه اللهو واللذات والطرب
يهوى المسيرَ الى مَرْو ويحربه * فراقُها فهو دو نفسين يرتقب

فقال له الفضل . إنى لأجلك عن الشعر، قال : فأعفى بما أحببت من عملك، فولّاه البريدَ بحُرْجان[1] .

هما مسلم قريشا وفخر بالأنصار بشعر يمثل لك ناحيه من نواحى العصبية بين القبائل وهو يعتبر، الى حدّ ما، من الشعر السياسى، فقال .

قل لمن تاه إذ بنا عزّ جهلا * ليس بالتّيه يفخر الأحرارُ
فتناهَوْا وأقصِرُوا فلقد حا * ربت عن القصد منكم الأنصار
أيُكم حاط داجوارٍ بعزٍّ * قبل أن تحتويه منّا الدار
أو رَحا أن يفوت قوما بوتر * لم تزل تمتطيهمُ الأوتار
لم يكن ذاك فيكمُ فدعُوا الفخ * ر بما لا يسوغ فيه افتخار
ونزَارا ففاخروا تفضُلُوهم * ودعوا من له عَبيدٌ نزار

(١) بلدة عظيمة كانت بالقرب من بحر قزوين الى الجنوب الشرقى منه

فما عزّ منكمُ الذلُّ والدهـ * ـرُ عليكم بريبه كزار
حاذروا دولة الزمان عليكم * إنه بين أهله أطوار
قد تُرُدوا وبحر للحالة الأو * لى وللأوحد الأذلّ الصّغار
فاخترتما لما سطا لها الفحـ * ـر قريش وفخرها مستعار
دكرتْ عزّها وما كان فيها * قبل أن تستجيرنا مُستجار
إنما كان عزّها فى حبال * ترتقيها كما ترقّى الوِبَار
أيها الفاخرون بالعز والعـ * ـزُّ لقوم سواهمُ والفخار
أحرموا من الأعزّ الأجلـ * ـصور حتى اعتلى أم الأبصار
فلما العز قبل عزّ قريش * وقريشٌ تلك الدهورَ تجار

فاسرى له ابن قبر يحييه فقال :

ألا امْثُل أميرَ المؤمنين مُسْلِم * وأفلق به الأحشاءَ من كل مُجْرِم
ولا ترجعَنْ عن قتله باستتابة * فما هو عن شتم النبيّ بمُحْرِم
ولا عن مُساواة له ولقومه * قريشًا بأصداءِ بَعادٍ وجُرْهُم
ويفخر بالأنصار جهلا على الدنى * بمصر به فاروا بحطّ ومغنَم
وسُمّوا به الأنصار لا عزّ قائل * أراد قريشا بالمقام المُقدّم
ومنهم رسول الله أزكى مَن انتمى * الى نسبٍ زاكٍ ومجد مقدّم
وما كانت الأنصار قبل اعتصامها * بمصر قريش فى المحلّ المعظّم
ولا بالأُلى يعلُون أقدار قومهم * صُداءٍ وخَوْلانٍ ولخْم وسلْهم
ولكنهم بالله عادوا وصيّرهم * قريشًا ومن يستعصم الله يَعصِم
فعزّوا وقد كانوا وطيّونُ فيهم * من الذل فى باب من العزّ مُبْهَم
يسومهم الفِطْون مالا يُسامه * كريم ومن لا ينكر الظلمَ يُظْلم
وإن قريشا بالمآثر فُضّلت * على الخلق طرّا من فصيح وأعجم

فما بال هذا العِلْج صلّ صلالُه * يُمدّ اليهم كفّ أجذم أعْسَم
نُسامى قريشا مسلمٌ وهُمُ هُمُ * مولى يَمانٍ وبيتٍ مُهدّم
اذا قام فيه عيرهم لم يكن لهم * مقام به من لؤم مَنْشَى ومَدْعَم
جَماسِيسُ[1] أشباه القرود لو أنهم * يباعون ما ابتيعوا جميعا بدرهم
وما مسلمٌ من هؤلاء ولا أُلَى * ولكنه من نَسْل علج مُلَكَّم
تولى زمانا عيرَهم ثمّت ادّعى * اليهم فلم يَكرُم ولما يُكَرَّم
فإن يك منهم فالنّصير ولِفُّهم * مواليه لا من يدّعى بالتّرعُّم
وإن تَدْعُه الأنصارُ مولى أُسِمْهُمُ * بقافية تَستكره الحلَد بالدّم
عِقابا لهم فى إفكهم وادّعائهم * لأفْلَف مقوش الذراع مُوَشّم
فلا تدّعوه وانتموا منه تسلَموا * بِغَيْكُوه من مَقال ومَأثم
وإلّا فعُضّوا الطرف وانتظروا الرّدى * اذا احتلفت فيكم صَوارِدُ أسهمى
ولم تَجدوا عنها مَحاصَ يَحُتّكم * اذا اطّلعتْ من كل فجّ ومَعْلم
وأنتم سوءُ أدبات من أتمّ له * ولسم بأسماء السّنام المُقدّم
ولا بنى الرأس الرفيع محلّه * فيسموكم مولى مُسَامٍ ويَنْتمى
فكيف رضيتم أن بُسامَى نبيّكم * سفكم الرّثّ القصير المهدّم
سأحطِم من سَامَى النبىّ تَطاوُلا * عليه وأكوى مُنْتَماه بميسَمى
أيُعْدَل بيتٌ يَثْرِبىّ بكعبة * قريشٌ خِيار الله والله خصّهم
بذلك فانْعَس أيها العِلج وارْعَم
ومن تدّعى منه الولاء مؤخّر * اذا قيل للحارى الى المجد أقْدِم

وكان مسلم قال قصيدته فى قريش وكتمها، فوقعت إلى ابن قَنْبَر وأحاله عنها، فاستعلى عليه وهتكه وأغرى به السلطان، فلم يكن عند مسلم فى هذا جواب أكثر من الاستفاء منها

(١) الجماسيس : اللئام فى الخلق والخلق .

ونسبتها الى ابن قبر والادّعاء عليه أنه ألصقها به ونسبها اليه ليعرضه للسلطان وخافه، فقال يتنفى من هذه القصيدة :

دعوتَ امـــير المؤمنين ولم تكن * هـــاك ولكن من يَخَفْ يتجشّم
وإنك اذ تدعـــو الخليفـــة ناصرا * لـــكالمُتَرَقّى فى السماء بسُـــلّم
كذاك الصّدى تدعوه من حيث لاترى * وإن تتوهّمـــه تَمُتْ فى التوهّم
هجـــوتَ قـــريشا عامدا ونَحلتَـــنى * رُوَيدك يظهـــر ما تقـــول فيُعْـــلم
اذا كان مثـــلى فى قَبيـــل فإنه * على ابن لُؤَىّ قَصْرَةً غير مُتْهَـــم
سيكشفك التعـــديل عما قذفتنى * بـــــه فتأخر عارفا أو تقـــدّم
فإن قـــريشا لا يُعَـــادر ودَّها * ولا يُســـتمال عهـــدُها بالترحّـــم
مضى سلفٌ منهـــم وصلّى بِعَقْبهـــم * لـــا سلف فى الأوّل المتقـــدّم
حروْا خـــرينْا سابقين بسبقهم * كما أتبعت كفٌّ نـــواشرَ معْصم
وإن الذى يســـعى ليقطع بيننا * كمُلتمس اليربـــوع فى حجـــر أرقم
أضـــلّك قـــرعُ الآبدات طريقَها * فأصبحت من عَمْيـــائها فى تَهَيُّم
وحانتـــك عند الجرى لما أتبعتها * تمـــيمٌ فحاولت العُـــلا بالتقحُّـــم
فأصحت ترمينى بسهمى ونتـــقى * بدى يـــدى أصْلَيْت نارَك فاضرم

ثم هجاه ابن قبر بقصيده أولها :

قُل لعبـــد النَّصير مُسْلِم الوعـ * ـد الذّبىّ اللئيم سِنْخ النِّصاب
اخْسَ يا كلب اذ نحتَ فإنى * لستُ ممن يجيب نبحَ الكلاب
أفأرْضَى ومَنصِبى منصب العـ * ـرّ وبيتى فى ذِروة الأحساب
أن أحُطّ الرفيع من سَمْك بيتى * بمُهاجاة أوْشَبِ الاوشاب
من اذا سيل من أبُوه بدا منـ * ـه حياءٌ يُهيه رَجْعَ الجواب

وادا قيـل حيى يُقبِل من أد * ـتَ ومن تَعْتريه فى الأنساب
قلتَ هَاجِى آبِ قبر فَسَر بَلْ * ـتَ ذكرِى نخراً لدى النَّسّاب

وهى قصيدة طويلة فلم يحبه عنها مسلم بشىء فقال فيه آن قبر أبيصا :

لستُ أنْفِيك إن سواى نَفَاكا * عن أبيـك الذى له مُنْتَمَاكا
ولمادا أنفيك يابن الوليد * من أبٍ إن ذكرتُه أخزاكا
ولـو آنى طلبتُ ألأم منـه * لم أجده إن لم تكن أنت ذاكا
لـو سِواه أبوك كان جَعَلنا * ه اذا الـاسُ طاوَعونا أباكا
حاك دهرا بعير حِذق لِـبُرْدٍ * وتَحُـوك الأشعارَ أنت كداكا

ثم هجاه بشعر أقذع فيه، فمشى اليه قوم من مشايخ الأنصار وآستعانوا بمَشْيَخَه من قُرّاء نميم ودوى الفضل والعلم، فمشوا معهم اليه، فقالوا: ألا تستحى من أن تهجوَ من لا يحيبك! أنت بدأت الرحلَ فأحانك، ثم عدت فكفّ، وتجاوزتَ ذلك الى ذكر أعراض الأنصار التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحميها ويدبّ عنها ويصونها لغير حال أحلّت دلك منهم، فما زالوا به يعطونه ويقولون له كلّ قول حتى أمسك عن المناقصه لمسلم فانقطعت .

ولمسلم بن الوليد :

وإنى وإسماعيـل يوم وَدَاعـه * لكالعمد يوم الرَّوع فارقه النَّصلُ
أما والحِالات المُـرّات بيننا * وسائل أذنتها المـودّة والوصـل
لما خستُ عهدا من إخاء ولا نأى * بدكرك نأىٌ عن ضميرى ولا شُغل
وإنّى فى مالى وأهـلى كأنى * لَنَأْيك لا مالٌ لدىّ ولا أهـل
يُذَكّرنيك الدينُ والفضل والحجا * وقِيل الحَـا والحلم والعلم والجهل
فألفاك عن مدمومها متـرِّها * وألفاك فى محمودها ولك الفضـل
وأحمَـد من أخلاقك البخلَ إنه * بعِرضك لا بالمـال حاشا لك البخل
أمتبجعا مَرْوا بأثقـال همّـة * دَعْ الثِّقل وآحمل حاجة ما لها ثِقل

شاءً كعرف الطيب يُهدى لأهله * وليس له إلا بَنى خالد أهـــل
فإن أغْشَ قوما بعدهم أو أزورهم * فكالوحش يَستدنيه للقص المَحل

وله يرثى يزيد بن مزيد :

أحَـــقٌّ إنه أودى يزيـــد * تأمّلْ أيها الساعى المُشِـيدُ
أتدرى من عَنَيْت فكيف فاهت * به شَفَتاك كان به الصَّـعيد
أحامِى المجدِ والإســلامِ أودى * فما للأرض ويحك لا تَميـد
تأمل هل ترى الاسـلامَ مالت * دعائمُـــه وهل شاب الوليـــد
وهل شِيمتْ سـيوفُ بنى نِزَار * وهل وُضِعت عن الحيل اللُّبود
وهل تَسـقى اللادَ عِشارُ مُزْن * بِدِرَّتها وهـــل يَحصرّ عُـــود
أما هُـــدّت لمصرعـــه نزار * بلَى وتقـــوّض المجـــد المَشيد
وحلّ صريحَـــه إذ حلّ فيـــه * طريفُ المجـد والحَسَب التليد
أما والله ما تنَعـــكَ عيـــنى * عليـــك بدمعها أبدا تجـــود
فإن تجُد دموع لئيم قـــوم * فليس لدمع ذى حسبٍ جمـود
أعَـد يزيد تحترِن البواكى * دمـــوعا أو تُصان لها حدود
لتَبكك ثُقـــةُ الإســـلام لما * وهَتْ أطنابُها ووهى العمـــود
ويبكك شاعر لم يُبْـــقِ دهرٌ * له نَشَبا وقد كَسَد القصـــيد
فمن يدعـــو الإمامُ لكل حَطْب * يـوب وكل مُعْضِـلة تَئود
ومن يَحمى الحميس اذا تَعاما * بحيـــلة نفسه الطلُ النّجيد
فإن تَهلك يزيدُ فكلّ حىّ * فريسٌ للمنيّـــة أو طـــريد
ألم تعجَبْ له أن المنـايا * فَتَكن بـــه وهنّ له حنـــود
لقـد عزّى ربيعـــةَ أن يوما * عليهـا مثـل يومِك لا يعـود

١٣ — العباس بن الأحنف[1]

قال إبراهيم بن العباس يصفه : كان والله ممن اذا تكلم لم يحبَّ سامعُه أن يسكت ، وكان فصيحا حميلا طريف اللسان ، لو شئتَ أن تقول كلامُه كلُّه شعرٌ لقلتَ .

وقال صالح بن عبد الوهاب : كان العباس من عرب خُراسان ومنشؤه ببغداد ، ولم تزل العلماء تقدّمه على كثير من المُحْدثين ، ولا تزال قد رَوَى له الشيءَ النادرَ حدّا حتى تُلْحقه بالمحسنين .

وقال الحاحظ : لولا أن العباس بن الأحنف أحدقُ الناس وأشعرُهم ، وأوسعُهم كلاما وخاطرا ، ما قدَر أن يُكْثِرَ شعرَه فى مدهبٍ واحد لا يجاوزُه ، لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسّب ولا يتصرّف ، وما نعلم شاعرا لزِم فنّا واحدا لزومه فأحسن فيه وأكثر .

أنشد الحرْمازىّ للعباس بن الأحنف

لا حَرَى اللهُ دمعَ عينىَ حيرًا * وحَرَى اللهُ كلَّ حبرٍ لسانى
ثم دمعى فليس يكتُم شيئا ورأيتُ اللسانَ داءَ كتمان
كنتُ مثلَ الكتابِ أخفاه طَىٌّ * فاستدلُّوا عليه بالعُنْوان

ثم قال : هذا والله طِرَازُ يطلبُ الشعراءُ مثلَه فلا يقدرون عليه .

---

(١) كان العباس شاعرا عزلا مطبوعا من شعراء الدولة العباسية ، وله مذهب حسن ، ولديباجة شعره رونق ، ولما يسبه عذوبة ولطف ، ولم يكن يجاوز الغزل الى مديح ولا هجاء ، ولا يتصرف فى شىء من هذه المعانى وقدّمه أبو العباس المبرد فى تحاب الروضة على طرائفه وأطرب فى وصفه ، وقال رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدّمونه ، قال وكان العباس من الظرفاء ولم يكن من الحلماء ، وكان عزلا ولم يكن فاسقا ، وكان ظاهر العفة ملوكىّ المذهب شديد التظرف ، وذلك بين فى شعره ، وكان قصده الغزل وشغله النسيب ، وكان سلوا مقبولا عزلا غزير الفكر واسع الكلام كثير التصرف فى الغزل وحده ، ولم يكن هجاء ولا مداحا . وله ديوان طبع مع ديوان ابن مفروح بالآستانة سنة ١٢٩٨ هـ ويجد أخباره وأشعاره فى الأغانى (ج ٨ ص ١٥) وابن خلكان (ج ١ ص ٣٤٦) والشعر والشعراء (ص ٥٢٥) .

وكان أبو الهُذَيل العَلَّاف يُبْغضه ويلعنه لقوله :

اذا أردتُ سُلُوًّا كان ناصرَكم * قلبي وما أنا من قلبي بمنتصِر
فأكثِرُوا أو أقِلُّوا من إساءتكم * فكلّ ذلك محمولٌ على القَـدَرِ

فكان أبو الهُذَيل يلعنه ويقول : يَعْقِد الكفرَ والفجورَ فى شعره، فقال العباس — وقال محمد بن يحيى · وأظن أنه يهجو به أبا الهُذَيل وما سمعتُ للعباس هجاءً غيره — :

يامَنْ يكذِّب أخبارَ الرسـول لقد * أخطأتَ فى كلّ ما تأتى وما تَذَرُ
كذَّبتَ بالقَدَر الجارى عليك فقد * أتاك منّى بمـا لا تَشْتهى القَـدَرُ

قيل للأصمعى : ما أحسنُ ما تحفَظ للمحدَثين؟ قال : قولُ العباس بن الأحنف :

لو كنتِ عاتبةً لسكّن روْعتى * أملى رِضَاكِ وزُرْتُ غيرَ مُرَاقِبِ
لكن مَلِلْتِ فلم تكنى لِىَ حِيـلَةٌ * صَدُّ المَلُولِ خلافُ صدِّ العاتبِ

ومما أنشده له ابراهيم بن العباس :

قالت طَلُومُ سَمِيَّةُ الطُّـلْمِ * مالى رأيتُـكَ ناحلَ الجسمِ
يامن رَمى قلبى فأقْصَـده * أنت العـليمُ بموضع السهمِ

ولشعره الغَزَلِىّ وقعٌ فى النفس، فانهم كانوا يغنُّون كثيرا منه كقوله :

لو كنت عاتبـة لسكّن روعتى * أملى رضاك وزرت غير مراقب
لكن ملكت فلم تكنى لى حيـلة * صـدّ الملولِ خلاف صدّ العاتب

وأنشد له الأصمعى :

أتأذنون لصبٍّ فى زيارتكم * فعندكم شهواتُ السـمعِ والبصر
لايُضْمِر السوءَ إن طال الجلوسُ به * عفّ الضميرِ ولكن فاسق النظر

فقال : ما زال هـذا الفتى يُدْخل يَده فى جِرَابه فلا يُخْرِج شيئا حتى أدخلها فأخرج هـذا، ومن أدمن طلبَ شيءٍ ظفر ببعضه .

وقال سَعيد بن جُبَير : ما أعرف أحسنَ من شعر العباس فى إحفاء أمره حيث يقول :

أُريدُكِ بالسلام فأتّقيهم * فأعمِدُ بالسلام الى سوَاكِ
وأكثرُ فيهمُ صحكى ليَخفَى * فسِرِّى صاحكٌ والقلبُ باك

ومما تمثّل به الواثقُ فى شركان بينه وبين بعض حواريه :

عدلٌ من الله أبكانى وأضحكها * فالحمد لله عَدْلٌ كلُّ ما صنَعا
اليومَ أبكى على قلبى وأندُبه * قلبٌ ألحَّ عليه الحبُّ فانصدَعا

ومما تمثّل به أيضا فى مثل ذلك :

أما تحسَبينى أرَى العاشقين * بَلَى ثُمَّ لستُ أرى لى نَظيرَا
لعلَّ الذى بيديْه الامور * سيجعل فى الكُرْه خيراً كَثيرَا

وقال الزُّبير : إن الأحمف أشعرُ الناس فى قوله :

تعتلُّ بالشعل عما ما تكلّمنا * الشغلُ للقلب ليس الشُغل للبدنِ

ويقول : لا أعلم شيئا من أمور الدنيا خيرِها وشرِّها إلا وهو يصلُح أن يتمثّل فيه بهذا النصف الأخير .

وقال إسحاق : لقد ظَرُف ابنُ الأحمف فى قوله — يصف طولَ عهده بالنوم —

قِفا خبرانى أيها الرحلان * عن النوم إن الهجرَ عنه نهانى
وكيف يكون النومُ أم كيف طعمُه * صِفَا النومَ لى إن كنتُمَا تصفانِ

على قلة إعجابه بمثل هذه الأشعار .

قال أحمد بن ابراهيم : رأيت سَلَمة بن عاصم ومعه شعر العباس بن الأحنف ، وقلت مثلك أعزّك الله يحمل هذا! فقال : ألا أحمِلُ شعرَ من يقول :

أسأتُ إذ أحسنتُ ظنّى بكم * والحزمُ سوءُ الظن بالناس
يُقلِقُنى الشوقُ فآتيكمُ * والقلبُ مملوءٌ من الياس

وقال أحمد بن ابراهيم : أتانى أعرابىٌّ فصيحٌ ظريف ، فجعلتُ أكتب عنه أشياءَ حِسانًا ، ثم قال : أنشدنى لأصحابكم الحَضَريّين ، فأنشدته للعباس بن الأحنف :

ذكرتُك بالتُّفّاح لما شَمِمْتُه * وبالراح لما قابلتْ أَوْجُهَ الشَّرْبِ
تذكرتُ بالتفاح منك سوالفًا * وبالراح طعمًا من مقبِّلِكِ العَذْبِ

فقال : هذا عندك وأنت تكتب عنّى ! لا أنشدك حرفا بعد هذا .

وقال عبد الله بن العباس بن الفضل : ما أعرف فى العراق أحسن من قول ابن الأحنف :

سبحانَ ربِّ العلا ما كان أغفلنى * عما رمتْنِى به الأيامُ والزمنُ
من لم يَذُقْ فرقةَ الأحباب ثم يرى * آثارَهم بعدهم لم يَدْرِ ما الحَزَنُ

قال حُسَين بن الضحّاك : لوجاء العباس بقولِ ماقاله فى بيتين فى أبياتٍ لعُذِر ، وهوقوله :

لعَمْرُك ما يستريح المحبُّ حتى يبوحَ بأسرارِهِ
فقد يكتُمُ المرءُ أسرارَه * فتظهرُ فى بعض أشعارِه

ثم قال : أما قوله فى هذا المعنى الذى لم يتقدّمه فيه أحد فهو :

الحبُّ أملكُ للفؤاد بقهرِه * من أن يُرَى للسرِ فيه نصيبُ
واذا بدا سرُّ اللبيب فإنه * لم يَبْدُ إلا والهوى مغلوبُ

وقال أبو العتاهيه : ما حسدتُ أحدا إلا العباسَ بن الأحنف فى قوله :

اذا امتنع القريبُ فلم تَنَلْه * على قربٍ فذاك هو البعيدُ

وقال الكِنْدِىّ : العباس بن الأحنف مَلِيحٌ ظريف حكيم جَزْلٌ فى شعره ، وكان قليلا ما يُرْضِينى الشعر ، فكان يُنْشِد له كثيرًا :

ألا تَعْجَبُون كما أعجبُ * حبيبٌ يُسِىء ولا يُعْتِبُ
وأبغى رضاه على سُخْطه * فيأبى علىّ ويستصعِبُ
فياليت حظى اذا ما أسأ * تُ أنك ترضَى ولا تغضَبُ

وكان ابراهيم الموصلىّ مشموفا بشعر العباس فيغنّى فى كثير من شعره، فما غنى فيه :

وقد مُلئتْ ماءَ الشباب كأنها * قصيبٌ من الرَّيْحان رَيَّان أخضرُ
هُمُ كتَمُونى سيرَهم حين أزْمَعُوا * وقالوا اتَّعِدْنا للرَّواح و بَكِّرُوا

ومنه :

تمنّى رجالٌ ما أحبُّوا وإنما * نميتُ أن أشكو اليك وتسمَعا
أرى كلَّ معشوقيْن غيرى وغيرَها * قد استعدا طولَ الهوى وتمتّعا

ومنه :

بكتْ عينى لأنواعٍ . من الحزن وأوجاعِ
وإنى كلَّ يومٍ عندكم يحظَى بىَ الساعِى
أعيشُ الدهرَ إن عشتُ . بقلب منكِ مُرْتاعِ
وإن حلَّ بىَ البعد * سيَنْعَانِى لكِ الناعِى

وقال الواثق لجلسائه . أريد أن أصنعَ لحنًا فى شعر معناه أن الإنسان كائنًا مَنْ كان لا يقدر على الاحتراس من عدوّه، فهل تعرفون فى هذا شيئًا؟ فأنشدوه صروفًا من الأشعار، فقال : ما جئتُم بشىء مثل قول العباس بن الأحنف :

قلبى الى ما صرَّ فى داعى . يكثرُ أشقانى وأوجاعى
كيف احترازى من عَدُوّى اذا * كان عدوى بين أضلاعى
أسلمنى للحبِّ أشياعى * لما سَعَى فى عندها الساعى
لقلّما أبقى على كلِّ ذا . يُوشِكُ أن يَنْعانىَ النّاعِى

ومما غنّى فيه من شعره :

أبْكِى الذين أذاقُونى مودّتَهم * حتى اذا أيْقظُونى للهوى رقَدُوا

وقال ابراهيم بن العباس : ما رأيت كلاما محدَثا أجزلَ فى رقه ، ولا أصعَّ فى سهولة، ولا أبلغ فى إيجاز، من قول العباس بن الأحنف :

تَعالَىْ نجدِّدْ دارسَ العهدِ بيننا * كَلاما على طول الجَفاءِ مَلُومُ

وأنشد ابراهيم بن العباس للأحنف

إن قال لم يفعلْ وإن سِيلَ لم * يَبْـذُلْ وإن عوتب لم يُعْتِبِ
صتٌ بعِصْـيانى ولو قال لى * لا تشربِ البـاردَ لم أَشْرِبِ
اليك أشـكو ربِّ ما حلّ بى * من صَدّ هذا المذنبِ المُغْضَبِ

ثم قال . هـذا واللهِ الكلامُ الحسـنُ المعنى ، السَّهْل المَوْرد ، القريب المتناوَل ، المليح اللفظ ، العَذْب المستمَع .

ومما غُنّى فيه من شعره .

يا مَنْ أهدَى لىَ الأَرَقَا * مستريحًا سَامِى قَلَقَا
لو يبيت الـناس كلُّهم * بسُهَادِى بَيَّضَ الحَـدَقَا
كان لى قلبٌ أعيشُ به * فاصطَلَى بالحبِّ فاحترقا
أنا لم أرْزَق مودّتَـكم . إنمـا للعبـد ما رُزِقَا

وقال ابن المعتزّ . لو قيل ما أحسن شيء تعرفه لقلت : شعرُ العباس بن الأحنف :

قد سحَب الناسُ أذيالَ الطُّرود سا * وفـرَّق الـناسُ فيا قولَهم وِرَقَا
وكادتْ قد رَمى بالحبّ عيرَكمُ * وصادقٌ ليس يَدْرِى أنه صَدَقا

ومما تمثّل به الفضلُ بن الرَّبيع فى أمرٍ كان بينه وبين إحدى جواريه :

تحمَّلْ عظيمَ الذنب ممن تحبُّـه * وإن كنتَ مظلومًا فقل أنا ظالمُ
فإنك إلّا تعفِ الذنبَ فى الهوى . يفارقْكَ من تهوى وأنفُك راغمُ

أنشد مَخْلَد المَوْصلىّ قصيدتَه التى يقول فيها :

كلُّ شيء أَقْوَى عليه ولكنْ * ليس لِى بالفراقِ منكِ يدانِ

فجعل يستحسنُه ويردِّدُه ، فقال له عبد الله بن رَبيعة الرَّقّى : أنت الفِدَاءُ لمن ابتدأ هـذا المعنى فأحسنَ فيه حيث يقول — وهو العباس بن الأحنف — :

سلبتنى من السرور ثيابا * وكستنى من الهموم ثياباً
كلما أغلقتْ من الوصلِ باباً * فتحتْ لى الى المنيّة باباً
عذّبنى بكل شىء سوى الصـ ـدّ فما دقتُ كالصُّدود عذاباً

قال الرِّياشى — وقد ذُكِر عنده العباسُ بن الأحنف — : والله لو لم يقل من الشعر إلا هذين البيتين لكفيا .

أُحَرِّم منكم بما أقولُ وقد * نال به العاشقون من عَشِقُوا
صرتُ كأنّى ذُبَالةٌ نُصِبتْ * تُضِىء للناس وهى تحترقُ

ألِف الرشيدُ العباسَ بن الأحنف، فلما خرج الى خُراسان طال مقامُه بها، ثم خرج الى أَرْمِينِيَةَ والعباسُ معه، فاشتاق الى بغداد، فعارضه فى طريقه، فأنشده .

قالوا خراسانُ أَقْصَى ما يُراد بنا * ثم القُفُولُ لقد جئنا خراساناَ
ما أَقْدر اللهَ أن يُدْنِى على شَحَطٍ * سكانَ دِجْلَةَ من سكانِ حَيْحَانَا
مصى الذى كنتُ أرجوه وآمُلُه * أما الذى كنتُ أَخْشاه فقد كانا
عينُ الزمان أصابتْنا فلا نظرتْ * وعُذِّبتْ بصُرُوفِ الهَجْرِ ألوانا

فقال له الرشيد : قد اشتقتَ يا عباس، وأذنتُ لك حاصة، وأمر له بثلاثين ألفَ درهم .

وقال مُصْعَب الزُّبيرى : العباسُ بن الأحنف وعمر بن أبى ربيعة ما ابتدلا شعرَهما فى رغبه ولا رهبة، ولكن فيما أَحَبَّاه، فلزِما هماً واحدا لو لزمه غيرُهما ممن يكثرُ إكثارَهما لضعُف فيه .

١٤ — ابن مُنَاذِر[1]

كان يَحْنُو نَحْوَ عَدِيّ بن زَيْد فى شِعْره، ويميلُ إليه ويقدّمه، وقد مدَح آل بَرْمَك وعبرَهم . ولما نكبتْ البَرامكةُ وآلتْ الوزارةُ إلى عَدُوّهم الفَضْل بن الرَّبيع أصبح شعراءُ البرامكة فى حَظْر، فأراد ابنُ مُنَاذِر أن يَتقرّب إلى الرشيد طَلَبًا للرزق، فأغتنم ذهابَه إلى الحَجّ وتقدّم إليه يومَ التَّرْوِيَة بقصيده، فَلاح البِشْرُ فى وجه الرشيد، فقال الفضلُ بن الربيع للرشيد هذا شاعرُ البرامكة ! فعَبَس الرشيدُ، فقال الفضلُ : مُرْه أن يُنشدَك قولَه فيهم . أتاما سو الأملاك من آل برمك، فأمره، فاعتذر، فألح عليه، فأنشده هذه القصيدَة التى يُطْرِى بها البرامكةَ :

أتاما بَنُو الأملاك من آل بَرْمك ٭ فَيَاطِيبَ أخبار ويا حُسْنَ مَنْظَرِ
إذا وردوا بَطْحَاءَ مَكَّةَ أشْرَقَتْ ٭ بَنَجْيَ وبالفَضْل بن يَحْيَى وجَعْفَر
فَمُطْعِمُ نَعْدادٌ ويَحْلُو لنا الدّمى ٭ عَكَّ ما حَجُّوا ثلاثةُ أقْمُر
فما صَلَحَت إلا لحُودٍ أكُفُّهُم ٭ وأرْحُلُهم إلا لأغْوادِ مِنْبَر
إذا راصَ يحيى الأمرَ دلَّت صِعَابُه ٭ وحَسْبُك مِن رَاعٍ له ومُدَبِّر
تَرَى النَّاسَ إحلالًا له وكأنّهم ٭ عَرابِيقُ[2] مَاء تحت نَازٍ مُصَرْصِرِ[3]

ولما قَرَع منها أُتْبَع ذلك قوله . «كانوا أولياءَك يا أمير المؤمنين لما مدحتُهم» فأمر الرشيدُ أن يُلْطَم، فلطَموه، وأمر أن يسحب، فسحَبوه وخرج لا يَلْوِى على شىء؛ فلقِيَه

---

(١) هو محمد بن مناذر، ويقال يزيد، ويكنى أبا جعفر، شاعر فصيح، مقدّم فى العلم باللغة وإمام فيها، حتى أحد عنه أكابر أهلها . وكان فى أول أمره يتعمد ثم عدل عن ذلك، فهجا الناس وتهتك وجلع وقذف أعراض أهل البصرة حتى هى عنها الى الحجاز، فمات هناك سنة ١٩٨ هـ وقد أحاره فى الأغانى (ج ١٧ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٥٣) .

(٢) العرانيق : جمع عربوق، وهو طائر مائى أسود وقيل أبيض يشبه الكركىّ .

(٣) مصرصر : صائح مشتة .

أبو نواس فدفع اليه صُرّةً فيها ثلثمائة دينار ، وقال له : استعنْ بهذه وآعدرنى . ولم يعُد آبنُ مناذر يرى خيراً بعد البرامكة .

قال الحسن بن على كنا عند باب سُفْيان بن عُيَيْنة وقد هَرَب منا وعنده الحسنُ بن على النَّحّاس ورحلٌ من أصحاب الرشيد ، فخلا بهم وليس يأذن لنا ، فجاء آبنُ مناذر فقرُب من الباب ثم رفع صوتَه فقال :

بعمرو والزُّهْرىّ والسَّلَف الأُلى . بهم شَتَتْ رِحْلاك عند المقادم
جعلتَ طَوَالَ الدهرِ يوماً لصالح * ويوما لصَبّاح ويوما لحاتم
وللحسن النَّحّاس يوما ودونهم * حَصَصْتَ حسياً دون أهل المَوَاسم
نطرتُ وطالَ الفكرُ فيك فلم أجِدْ * رَحَاك جَرَتْ إلا لأخذ الدراهم

فخرج سفيان وفى يده عصا وصاح : خذوا الفاسقَ ؛ فهرب آبن مناذر منه وأذن لنا فدخلنا .

كان الرشيدُ قد وصَلَ آبنَ مناذر مَرّاتٍ صِلاتٍ سنيّةً ، فلما مات الرشيدُ رثاه بقوله :

من كان يَبْكى للعُلا * مَلِكًا وللهِمَم الشَّريفه
فَلْيبكِ هارونَ الخليـ ـفةَ للخليفة للخليفه

قال على بن محمد النَّوْفَلىّ : رأيتُ آبنَ مناذر فى الخمسين ومائة وهو قد كُفَّ بصرُه تقوده جُوَيْرِيَةٌ حرة وهو واقف يشترى ماءَ قِرْبَة ، فرأيتُه وَسِخَ الثوبِ والبدن ، فلما صِرنا الى البصرة أنتنا وفاتُه فى تلك الأيام .

كان يحيى بن زياد يُرْمَى بالزندقة ، وكان من أطرف الناس وأنظفهم ، فكان يقال : أطرف من الزِّنديق ، وكان الحارثىّ ، واسمه محمد بن زياد ، يُظْهِر الزندقةَ تَظَارُفًا ، فقال فيه آبن مناذر :

يا آبن زِيادٍ يا أبا جعفـ * ـر أظهرتَ دِينا غير ما تُخْفى
مُزَنْدَقُ الظاهرِ باللفظ فى * باطنِ إسلامٍ فتًى عَفّ
لستَ بِزِنديقٍ ولكنّما * أردتَ أن تُوْسَمَ بالظَّرْف

ومن قوله يرثى سفيان بن عيينة :

يحْـنِي من الحكمة نُوَّارَهـا * ما تشتهى الأنفس ألوانا
يا واحدَ الأئمـةِ فى علْمـه * لقِيتَ من ذى العرش غُفرانا
راحوا بسفيان على نعشـه * والعِـلْمُ مَكْسُوٌّ أكفانا
إن الدى عُـودِر بالمُنْحَنَى * هَـدّ من الإسـلام أركانا
لا يُبْعِـدَنْك اللهُ من مَيِّتٍ * وَرَّثـا عِلْمًـا وأحـزانا

حطب أبو أُميَّةَ امرأةً من ثَقِيف فَرُدَّ عنها، وتصدّى للقاصى أن يُضَمِّنَه مالًا من أموال اليتامى فلم يُجِبْه الى ذلك ولم يَثِق به، فقال فيه آنُ مبادر :

أبَا أُمَيّـةَ لا تعصَبْ علىّ فمـا * جَزَاءُ ما كان فيما بيننا الغَضَبُ
إن كان رَدّك قـومٌ عن فَتَاتهمُ * فهى كثيرٍ من الخُطَّابِ قد رَغِبوا
قالوا عليك ديونٌ ما تقومُ بهـا * فى كل عامٍ بها تُسْتَحدَثُ الكُتُبُ
وقـد تَقَحَّم من خمسين عايتَها * مع أنه ذو عِيالٍ بعدُ ما أنْشَعبوا
وفى التى فعل القاضى فلا تَجِدَنْ * فليس فى تلك لى ذَنْبٌ ولا ذَنَبُ
أردتَ أمـوالَ أيْتـام تُصَمِّنُها * وما يُصَمَّنُ إلا من له نَشَبُ

قال له جعفر بن يحيى قُلْ فِىّ وفى الرشيد شعرا تَصِفُ فيه الألفة بيننا، فقال :

قـد تُقْطَعُ الرَّحِمُ القريبُ وتُكْفَرُ الـ * ـنِّعَمَى ولا كَتَقَارُبِ القَلْبَيْنِ
يُدْنى الهوى هـدا ويدنى دا الهوى * فاذا هُمَـا نَفْسٌ تُرَى نَفْسَيْنِ

١٥ — صالح بن عبد القدّوس (١)

كان متهما بالزندقة، فبلغ الى المهدىّ خبرُ زندقته، فبعث اليه يَستقدِمه من دِمَشْق، وكان قد رحل اليها وهو شيخ طاعن فى السّ، فلما جاء بغدادَ ومَثَلَ بين يدى المهدىّ قال له المهدىّ : ألستَ القائل :

والشيخ لا يَتْرُكُ أخلاقَــه * حتى يُوارَى فى ثَرَى رَمْسه

قال : بلى يا أمير المؤمنين ! قال : وأنت لا تترك أخلاقك حتى تموت ، فأَمَرَ به ، فقُتِلَ وصُلِب على جِسْر بغداد سنة ١٦٧ هـ . وأكثر شعره فى الحِكَم الفلسفية .

ومن أحاسن أقواله القصيدة التى منها ذلك البيت، وهو يقول فيها :

لا يَبْلُغُ الأعداءُ من جاهــلٍ * ما يَبْلُغُ الجاهلُ من نَفْســه
والشيخ لا يَــتْرُكُ أخلاقَه * حتى يُوارَى فى ثَرَى رَمْســه
اذا أرْعَــوَى عادَ الى جهــله * كذى الصِّــبَا عاد الى نَكْسه
وإنّ من أدْبَتّــه فى الصِّــبَا * كالعُود يُسْقَى المــاءَ فى غَرْسه
حــتى تراه مُورقا ناضِــرًا * بعد الذى أصبحتَ من يُبْسه

وقــوله :

لا يُعْجِبَنّك من يَصُون ثِيابَه * حَذَرَ الغُبار وعِرْضُه مَبْذُول
ولربمــا أفْتَقَرَ الفَتَى فرأيتَــه * دَنِسَ الثِّيابِ وعرضه مَغْسول

---

(١) هو صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس، من حكماء الشعراء، متهم بالزندقة، قوىّ الحجة، له منزلة سامية عــد أهل مذهبه . نشأ فى البصرة، وكان يقص على الناس و يعظهم . توفى سنة ١٦٧ هـ . وتجد أكثر أخباره فى وفيات الوفيات (ج ١ ص ١٩١) والدميرى (ج ١ ص ٢٦) .

وكان فيه ميل الى العُزْلة والانقطاع عن الناس شأن الفلاسفة، ومن ذلك قوله :

أنِسْتُ بوَحْدَتى ولَزِمتُ بيتى * فتَمَّ العزُّ لى وتَمَّا السرورُ
وأدَّبَنِى الزمانُ عليت أنّى * هُجِـرتُ فلا أُزارُ ولا أَزُور
ولســت بقائلٍ ما دمتُ حيًّا * أقَامَ الخُلْـدُ أم نَزَلَ الأمير

وهو القائل :

اذا لم تستطع شيئا فدعْهُ * وحاوِزْه الى ما تَسْتَطِيع

وله قصيدة حكميه أخلاقية بديعة، وهى التى يقول فيها :

المَـرْءُ يَجْمَـعُ والزمانُ يُفرّق * ويظـلّ يَرْقَعُ والخطوبُ تُمَـزِّقُ
ولأن يُعادِىَ عاقلا خـيرٌ له * من أن يكون له صـديقٌ أحْمَقُ
فارْأ نفسـك أن تصادق أحْمَقًا * إن الصديق على الصديق مُصَدَّقُ
وَزِنِ الكلامَ اذا نطقتَ فإنما * يُبْدِى عقولَ ذوى العقول المَنْطِق
ومن الرجال اذا استوت أحلامُهم * من يُستشار إذا اسْتُشِير فيُطْرِقُ
حتى يَحُـلّ بكل واد قلبُـه * فـيرى ويَعْرِفُ ما يقول فيَنْطق
لا أُلْفِيَـنّـك ثاويا فى عربة * إن الغريب بكل سَهْمٍ يُرْشَق

وله منها :

ما الناس إلا عاملان فعامِلٌ * قد مات من عطَشٍ وآخر يَعْرَق
والناسُ فى طلب المَعاش وإنما * بالجَدّ يُرزق منهمُ من يُرْزق
لو يُرْزقون الناسُ حَسْبَ عقولهم * ألفيتَ أكثرَ مَنْ تَرَى يتَصدق
لكنه فضْلُ المليك عليهـمُ * هـذا عليه مُوَسَّع ومُضَيَّق
وادا الجنازةُ والعَروسُ تلاقيا * ورأيتَ دمعَ نوائح يَترَقْـرَق
سَكَتَ الذى تَبِـع العروسَ مُبَهِّتًا * ورأيتَ من تَبِـعَ الجنازة يَنْطق
بَقِىَ الدين اذا يقولوا يَكذِبوا * ومَضَى الذين اذا يقولوا يَصْدُقُوا

وله من قصيدته المعروفة بالزينبية :

وٱبدأ عدوّك بالتحية ولتكن * مـــه زمانك خائفا تترقّب
وٱحذره إن لاقيته متبسّما * فالليث يبدو نابه إذ يعصب
إن العدوّ وإن تقادم عهده * فالحقد باقٍ فى الصدور مغيّب
وإذا الصديق لقيته متملّقا * فهو العدوّ وحقّه يتجنّب
لا خير فى ودّ ٱمرئ متملّقٍ * حلو اللسان وقلبه يتلهّب
يلقاك يحلف أنه بك واثقٌ * واذا تواريت عنك فهو العقرب
يعطيك من طرف اللسان حلاوة * ويروغ منك كما يروغ الثعلب
وصل الكرام وإن رموك بحقوه * فالصفح عنهم والتجاوز أصوب
وٱحتر قرينك واصطفيه تفاخرًا * إن القرين إلى المقارن ينسب
إن الغنىّ من الرجال مكرّم * وتراه يرجى ما لديه ويرهب
ويبشّ بالترحيب عند قدومه * ويقام عند سلامه ويقرّب
والفقر شين للرجال فإنه * حقا يهون به الشريف الأنسب
وٱخفض جناحك للأقارب كلّهم * بتذلّلٍ وٱسمح لهم إن أدسوا
ودع الكذوب فلا يكن لك صاحبا * إن الكذوب يشين حرًّا يصحب
وزن الكلام إذا نطقت ولا تكن * ثرثارةً فى كل نادٍ تخطب
وٱحفظ لسانك وٱحترز من لفظه * فالمرء يسلم باللسان ويعطب
والسرّ فاكتمه ولا تنطق به * إن الزجاجة كسرها لا يشعب
وكذاك سرّ المرء إن لم يطوه * نشرته ألسنة تزيد وتكذب
لا تحرصنّ. فالحرص ليس بزائدٍ * فى الرزق بل يشقى الحريص ويتعب

وٱرْعَ الأمانةَ والخيـانةَ فاجتنِبْ * وٱعْدِلْ ولا تَظْلِمْ يَطِبْ لكَ مَكْسَبُ
وإذا أصابك نَكْبة فاصـبِرْ لهـا * مَنْ ذا رأيت مُسَلَّما لا يُنْكب
وإذا رُميت من الزَّمان بِرِيبـهِ * أو مالك الأمْرُ الأشَقُّ الأصْعَب
فاضرَعْ لربك إنه أدنى لمن * يدعوه من حبـل الوريد وأقْرَب
وٱحذَرْ مصاحبـةَ اللئيم فإنه * يُعدِى كما يُعْدِى الصَحِيحَ الأجْرَب
وٱحذَرْ من المطلوم سَهْمًا صائبًا * وٱعْلَمْ بأن دُعاءَه لا يُحْجَب
ولقد نصحتك إن قَبِلْتَ نَصيحتى * وٱلنُّصح أعلى ما يُباع ويُوهب

١٦ — سَعِيدُ بن وَهْب[1]

كان شاعرًا مطبوعًا ومات فى أيام المأمون، وأكثرُ شعره فى الغَزَل والتشبيب بالمُذَكَّر، وكان مشغوفا بالغِلْمان والشراب، ثم تَنَسَّك وتابَ وحَجَّ راجِلًا على قَدَمَيْـه ومات على تَوْبةٍ وإقلاعٍ ومذهبٍ جميل، ومات وأبو العتاهية حَيٌّ وكان صديقه فرثاه .

أخبر علىّ بن سليمان الأخفش عن محمـد بن مَزْيد قال : حُدِّثْتُ عن بعض أصحـاب أبى العتاهية قال : جاء رجلٌ الى أبى العتاهية ونحنُ عنده، فسأله فى شىء، فكى أبو العتاهية، فقُلْنا له : ما قال لك هـذا الرجلُ يا أبا إسحاق فأبكاك ؟ فقال — وهو يحدّثنا لا يريد أن يقول شعرا — :

قال لى ماتَ سَعِيدُ بنُ وَهْبٍ ، رَحِمَ اللهُ سَعِيدَ بنَ وَهْبِ
يا أبا عثمانَ أبكيتَ عَيْنِـي * يا أبا عثمانَ أوجعتَ قلـبى

قال : فعجبنا من طبعه، وإنه يحدّث فكان حديثه شعرا موزونا .

وكان سـعيدُ بن وهب الشاعرُ البصرىّ مولَى بنى سامة قد تابَ وتزهّـد وترك قولَ الشعر، وكان له عَشَرة من البنين وعَشْر من البنـات، فكان إذا وَجَد شيئا من شعره خرّقه وأحرقه ، وكان امرأً صِدْق، كثيرَ الصَّلاة، يزكّى فى كل سنة عن جميع ما عنده، حتى إنه ليزكّى عن فضّة كانت على امرأته .

وكان سعيدُ بن وهب يتعشّق غلاما يتشّطر يقال له سعيد، فبلغه أنه تَوَعَّده أن يجرحه، فقال فيه :

---

(١) هو سعيد بن وهب أبو عثمان مولى بنى سامة من لؤى بن نصر، مولده ومنشؤه بالبصرة ثم صار الى بغـداد فأقام بها . وكانت الكتابة صناعته، وتصرف مع البرامكة فاصطنعوه وتقدّم عندهم . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ٢١ ص ١٠٤) .

مَنْ عَدِيرِى مِنْ سَمِىٍّ * مَنْ عَدِيرِى مِنْ سَعِيدِ
أنا بالظُّلْـــم أجاهُ * ويَحَـاكى بالحَـــدِيدِ (١)

ونظر سعيد بن وهب إلى قوم من كُتّاب السلطان فى أحوال جميلة، فأنشأ يقول :

مَنْ كان فى الدنيا له شارةٌ * فمحنُ من نَظّارة الدنيا
نَرْمُقُهـا من كَثَبٍ حَسْرَةً * كأننا لَفْـطٌ بلا مَعْـنَى
يعلو بها الـناسُ وأيامُـا * تدهسُ فى الأَرْذَل والأَدْنَى

وحدّث حماد بن إسحاق عن أبيه قال : كان سعيدُ بن وهب لى صديقا، وكان له ابن يكنى أبا الخطاب من أكيس الصبيان، وأحسنهم وجها وأدبا، فكان لا يكاد يفارقه فى كلّ حال، لشدّة شغفه به ورقّته عليه، فمات وله عَشْر سنين، فجزع عليه جزعا شـديدا وانقطع عن لذّاته، فدخلتُ إليه يوما لأعاتبه على ذلك وأستعطفه، فحين رأى ذلك فى وجهى فاضتْ دموعه، ثم انتحب حتى رحمتُه، وأنشدنى :

عَيْنِ جُودِى على أبى الخطّابِ * إذ تولّى عَصًّا بماءِ الشبابِ
لم يُقارب دنّـا ولم يَبْلُغ الحلْـ * ـمَ مُزَجًّى مُطَهَّـرَ الأثواب
فَقَدَتْه عَيْنِى إذا ما سَـعَى أَثْـ * ـرائُهُ من جماعة الأترابِ
إذ عَدَا مُوحِشًا لدارى فقد أصـ * ـبح أُنْسَ الثَّرَى ورَبَّ التراب
أحمَـــدُ اللهَ يا حبيـــى فإنّى * بكَ راجٍ مســـه عظيمَ الثواب

ثم ناشدنى ألّا أذاكره بشىء ممـا حدثتُ إليه، فقمتُ ولم أحاطبه بحرف .

دخل سعيدُ بن وهب على الفضل بن يحيى فى يوم قد جلس فيه للشعراء، فجعلوا ينشدونه ويأمر لهم بالجوائز حتى لم يبق منهم أحد، فالتفت الى سعيد بن وهب كالمستنطق؛ فقال له : أيها الوزير، إنى ما كنت أستعدد لهذه الحال، ولا تقدّمتُ لها عدى مُقدّمةٌ فأعرفها،

(١) وحاه يوحاه ويحاه : ضربه باليد أو بالسكين . وجمعت الحمرة ها هنا للشعر .

ولكن قد حصرنى بيتان أرجو أن يو با عن قصيدة، فقال : هاتِهما، وربّ قليل أبلغ من الكثير؛ فقال سعيد :

مَدَح الفَضْلُ نفسَه بالمَعَالِى * فعَــلَا عن مَديحنا بالمَقَـال
أَمَرُونى بمَـدْحه قلتُ كلّا * كَبُرَ الفضلُ عن مديح الرجال

قال : فطرب الفضـل وقال له : أحسنتَ والله وأحـدتَ، ولئن قلّ القول ونَزُر، لقـد اتسع المعنى وكثُرَ، ثم أمر له بمثـل ما أعطاه كلَّ مَنْ أنشده مديحا يومئذ، وقال : لا حير فيما يجئ بعد بيتيك، وقام من المجلس، وخرج الناس يومئذ بالبيتين لا يتناشدون سواهما .

وحدّث الحُرَيْمىّ قال . كان الفضـل بن يحيى يانس أخاه جعفرا ويانسه جعفر، وكان أَنَس بن ابى شيخ خاصًّا بجعفر، يادمه ويانس به فى خَلَوَاته، وكان سعيد بن وهب بهذه المنزلة للفضل، فدخلتُ يوما إلى جعفر ودخل إليه سعيد بن وهب فحدّثه وأنشده وتنادر له، وحكى عن المتنادرين وأتى بكلّ ما يسرّ ويُطْرِب ويُضحك، وجعفر ينظر إليه لا يزيد على ذلك، فلما خرج سعيد من عنـده تجاهلتُ عليه وقلت له : مَن هـذا الرجلُ الكثير الهَذَيان ؟ قال : أَوَ ما تعرفُه ؟ قلتُ : لا، قال : هـذا سعيد بن وهب صـديق أخى أبى العباس وخُلَصائه وعشيقه، قلت : وأىّ شىء رأى فيـه ؟ قال : لا شىء والله إلا القَذَر والبَرْد والعَشـاشة، ثم دخلتُ بعد ذلك إلى الفضـل، ودخل أنس بن أبى شيخ فحـدّث وتنادر وحكى عن المُضحكين وأتى بكل طريفه، فكانت قصةُ الفضـل معه قصةَ جعفر مع سعيد، فقلت له بعد أن خرج من حضرته : مَن هذا المُبْرِم ؟ قال : أَوَ لا تعرفُه ؟ قلت : لا، قال : هذا أَنس بن أبى شيخ صديق أخى الفضل وعشيقه وخاصّته، قلت : وأى شىء أعجبه فيه ؟ قال : لاأدرى والله إلا القَذَر والبَرْد وسوء الاختيار؛ قال : وأنا والله أَعْرَف بسعيد وأنس من الناس جميعا، ولكنى تجاهلتُ عليهما وساعدتُهما على هواهما .

وحدّث عمـرو بن بانة قال : كان فى جوارى رجلٌ من البرامكة، وكانت له جارية شاعرة ظريفة يقال لها حَسْناء، يدخل إليها الشـعراء ويسألونها عن المعـانى، فتأتى بكل

مُسْتَحسنٍ من الجواب ، فدخل اليها سـعيد بن وهب يوما وجلس اليهـا فحادثها طويلا ثم قال لها بعد ذلك :

حَاجَيْتُـكِ يا حَسْـنا * ءُ فى جِنْسٍ من الشِّـعْرِ
وفيما طُـولُه شِـبْرٌ * وقد يُوفى على الشِّـبْرِ
له فى رأسِـهِ شَـقٌّ * تَطُوفُ بالـّدَى يَجْرِى
اذا ما جَفَّ لم يَجْـرِ * لَدَى بَرٍّ ولا بَحْـرِ
وإنْ بُلَّ أتى بالْعَـ * ـجَبِ العاجِبِ والسِّحْرِ
أجِيـبِى لم أُرِدْ خُشْنًا * ورَبِّ الشَّـفْعِ والوِتْرِ
ولكنْ صُغْتُ أبيـاتًا * لها حَـظٌّ من الزَّجْرِ

قال : فعصب مولاها وتغيّر لونه وقال : أتُفحش على حاريتى تخاطبها بالخَنَى؟ فقالت له : حَقِّصْ عليك، فما ذَهَبَ الى ما طَنَنْتَ وإنمـا يَعْنِى القلم، فسُرِّىَ عنه، وضحك سعيد وقال : هى أعلمُ منك بمـا سمعتْ .

١٧ — الحسن بن وهب

حدّث ميمون بن هارون : قال : كنا عند الحسن بن وهب فقال لِبَنان : غَنِّنى :

أتأذنونَ لصَبٍّ فى زيارتكم * فعندكم شَهَواتُ السمعِ والبصرِ
لايُضْمِرُ السوءَ إن طال الجلوسُ به * غَضُّ الضّميرِ ولكن فاسقُ النظر

قال فضحكت، ثم قالت : فأىّ حيرفيه إن كان كذا أو أىّ معنى ؟ فخجل الحسن من بادرتها عليه، وتعجبا من حدّة جوابها وفطنتها .

وحدّث محمد بن عيسى قال : جاء عبدالله بن العباس بن الفضل بن الربيع إلى الحسن ابن وهب، وعنده بنان جارية محمد بن حمّاد، وهى نائمة سَكْرَى وهو يبكى عندها، فقال له : مالَك ؟ قال : قد كنتُ نائما فجاءتنى فأيقظتنى وقالت : اجلس حتى تشربَ فجلستُ ، فوالله ما عنّتْ عشرة أصوات حتى نامت ، وما شربت إلا قليلا ، فتذكرت قولَ أشجع الناس وأظرفهم العبّاس بن الأحنف :

أبكى الذين أذاقونى مودّتَهم * حتى اذا أيقظونى للهوى رَقَدُوا

فانا أبكى وأُنشد هذا البيت .

وحدّث محمد بن موسى بن حمّاد قال : دعا الحسن بن وهب إبراهيم بن العباس فقال له : اركب وأجيئك عشيّا فلا تنتظرنى بالغداة، فأبطأ عليه، وأسرع الحسن فى شربه فسَكِر ونام، وجاء إبراهيم فرآه على تلك الحال، فدعا بدَوَاة وكَتَبَ :

رُحْنا اليك وقد راحت بك الراحُ * وأسرعت فيك أوتارٌ وأقداح

وحدّث أيضا محمد بن موسى قال : نظر إبراهيم بن العباس الحسن بن وهب وهو مخمور فقال له :

عيناك قد حَكَّا مَيِّد * تَك كيف كنتَ وكيف كانا
ولربَّ عينٍ قد أردتـ * ـكَ مَبيتَ صاحبها عِيانا

فأجابه الحسن بن وهب بعشرين بيتا وطالبه بمثلها ، فكتب اليه أربعة أبيات وطالبه بأربعين بيتا . وأبيات إبراهيم :

أأبا علىٍّ حـــيرُ قولك ما * حصّلت أنحعه ومُحْتَصَره
ما عدنا فى البيع من عَتَبٍ * للمستقلّ بواحد عشـــرَه
أنا أهلُ دلك عيرُ محتشِم * أرْضَى القديمَ وأقتفى أثَرَه
ها نحن وقّياك أربعـــةً * والأربعون لديك منتظرَه

وقال عبيـد الله بن سليمان : لعمـرى ما فى الكُتّاب أشـعرُ من أبى إسحاق وأبى علىّ (يعنى عمّه الحسن بن وهب) .

حدّث علىّ بن يحيى قال : قلت لإسحاق بن إبراهيم الموصلىّ ، وقد جرى ذكرُ أحمد بن يحيى المكىّ ، : يا أبا محمد ، لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيى المكىّ مملوكا كم كان يساوى؟ فقال : أحبرك عن ذلك ، انصرفت ليـلةً من دار الواثق ، فاجتزتُ بدار الحسن بن وهب فدحلت إليه ، فإذا أحمد عنده ، فلما قام لصلاة العشاء الآخرة قال لى الحسن بن وهب : وكم يساوى أحمد لو كان مملوكا؟ قلت : يساوى عشرين ألف دينار . قال : ثم رجع فغنّى صوتا ، فقال لى الحسن بن وهب : يا أبا محمد ، أصعفها . قال : ثم تغنى صوتا أخر ، فقلت للحسن : يا أبا علىّ أضْعِفْها ، ثم أردتُ الانصراف فقلت لأحمد غنّنى :

لولا الحياءُ وأن السـير من حُلُقى * ادًا قعـدتُ اليـك الدهرَ لم أقُمِ
أليس عنـدك سُكرٌ للتى جعلت * ما أبيضّ من قادمات الرأس كالحُمَمِ

فغنّاه أحمد بن يحيى المكىّ فأحسن فيـه كلّ الإحسان ، فلمـا قمتُ للانصراف قلت للحسن : يا أبا علىّ ، أضْعِف الجميع ، فقال له أحمد : ما هذا الذى أسْمعُكما تقولانه ولستُ أدرى ما معناه؟ قال نحن نَبِيعُك ونَشتريك منذ الليلة وأنت لا تدرى .

وحدّث محمـد بن موسى قال : كان أبو تمـام يَعْشَق غلاما خَرَرِيّا للحسن بن وهب ، وكان الحسن يتعشق غلاما روميا لأبى تمام ، فرآه أبو تمام يوما يعبث بغلامه ، فقال له :

والله لئن أعنقتَ[1] الى الروم لنركُضَن الى الخزر، فقال له الحسن: لو شئتَ حكّمتنا واحتكمتَ، فقال له أبو تمام: أنا أشبّهك بداود عليه السلام وأشبّه نفسى بخَصْمه؛ فقال الحسن: لو كان هذا منظوما حفظناه، فأما وهو منثورٌ فلا، لأنه عارض لا حقيقةَ له؛ فقال أبو تمام:[2]

أنا علىٌّ نَصْرُف الدهر والعِبَر * والحوادث والأيام فاعتبِر
أدركتنى أمرَ داودٍ وكنتُ فتًى * مصرَّفَ القلبِ فى الأهواء والفِكَر
أعدك الشمسُ لم يحظَ المَعيبُ بها * وأنت مُضْطَربُ الأحشاءِ للقَمَر
إن أنت لم تترك السيرَ الحَثيثَ الى * جآدِر الروم أعنقَا الى الخَرَر
إن القَطُوبَ له منّى محلُّ هَوًى * نَحل منى محلَّ السمع والبصر
ورتّ أمنعَ مسه حانبًا وحِمًى * أمسى وتكّته منّى على خَطَرِ
جرّدتُ فيه حدودَ العزم فانكشفتْ * عنه عَيابتُه عن جَمْرةٍ هَدِرِ
سحان من سَحته كلُّ حارحةٍ * ما فيك من طمحان العَيْنِ بالنَّظَرِ
أنت المقيمُ هما تغدُو رواحلُهُ * وفعلُه أبدا منه على سَفَرِ

وحدّث وهب بن سعيد قال: جاء دِعْبِل الى الحسن بن وهب فى حاجة بعد موت أبى تمام، فقال له رجل فى المجلس: يا أبا علىّ، أنت الذى تطعَن على مَن يقول:

شهدتُ لقد أقوتْ مغانيكُمُ بعدى * وتحتْ كما تحتْ وشائعُ من بُرْدِ
وأنجدتُم من بعد إتهام داركم * فيادمعُ أنجِدْنى على ساكنى نَجْدِ

فصاح دِعْبِل: أحسن والله! وجعل يردّد:

* فيادمعُ أنجدْنى على ساكنى نَجْدِ *

ثم قال: رحمه الله، لو كان ترك لى شيئا من شِعْره لقلتُ: إنه أشعر الناس.

---

(١) أعنقت: أسرعت. (٢) وردت هذه الأبيات فى الأغانى وفيها بعض ألفاظ تحل بالآداب، فأثبتناها هنا كما وردت فى ديوان أبى تمام.

وحدّث أحمد بن عُبَيـد الله بن ناصح قال : قلت لدعْبِل وقد عَرَض عليّ قصيدة له يمدح بها الحسن بن وهب أوّلها :

أعادِلتي ليس الهَوَى من هوانيا * أفِيقا كفاني ما بقلبي كفانيا

فقلت له : ويحك أتقول فيه هذا بعد قولك :

أين محلُّ الحيّ يا حادى * عَبَّرْ سَقَاك الرائحُ العادى

وبعد قولك :

قالت سَـلَامةُ أين المـالُ قلتُ لها * المـال ويحك لاقَى الحمدَ فاصطحبا

وبعد قولك :

فعلى أيماننا يَجْرِى النَّدَى * وعلى أسيافنا تَجْرِى المُهَجْ

والله إنى أراكَ لو أنشـدتَه إيّاها لأمر لك بصَفْع، فقـال : صدقتَ والله، ولقـد بَهتَنى وحدّرتنى، ثُمّ مزّقها .

وحدّث محمد بن موسى قال : أنشـدنى الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك أبياتا يَرْثِى بها سَكْرَانة أمّ ابنه عمر، وجعل الحسن يتعجّب من جودتها ويقول :

يقولُ لى الخُلّانُ لو زُرْتَ قبرَها * فقلتُ وهل غيرُ الفـؤادِ لها قبرُ
على حين لم أَحْدُثْ فأجهَلَ قدرَها * ولم أبلُغِ السِنَّ التى معها الصبْرُ

وحدّث محمد بن يزيد قال : دامت الأمطار بـ«سُرَّمَن رَأى»، فتأخر الحسن بن وهب عن محمد بن عبـد الملك الزيات، وهو يومئـذ وزير والحسن يكتب له، فاستبطأه محمد، فكتب اليه الحسن يقول :

أوحب العـذرَ فى تراخى اللقاءِ * ما توالَى من هـذه الأنواءِ
لستُ أدرى ماذا أقول وأشكو * من سماء تَعُـوقُنى عن سماءِ
غيرَ أنى أدعو على تلك بالشُّـكْـ * ـلِ وأدعـو لهـذه بالبقـاءِ
فسـلامُ الإله أُهـديه غَضًّا * لك منى ياسـيّدَ الوزراءِ

وحدّث محمد بن موسى قال : اعتلّ الحسن بن وهب فتأخر عن محمد بن عبد الملك أياماً كثيرة، فلم يأته رسوله، ولا تعرّف خبره، فكتب إليه الحسن قوله :

أيُّهـــذا الوزيرُ أيّدكَ اللّـ * ـه وأبقـاكَ لِي بقـاءً طويلا
أجميـــلًا تَراه يا أكرم النـا * سِ لكيما أراهُ أيضًا جميـلا
إنّى قد أقمتُ عَشْرا عليـــلا * ما تُرَى مُرْسِلا إلىّ رسولا
إنْ يكن موحشُ التعمّدِ فى الصـ * ـحّة منّـا علىّ مسكَ طويلا
فهو أولى ياسيّدَ النـاسِ برًّا * وافتقادًا لمَنْ يكونُ عليلا
فلماذا تركتَنِي عرضـةَ الظّـ * ـنّ مِـن الحاسدين جيلا فجيلا
ألذنبٍ ؟ فما علمتُ سوى الشّكْـ * ـرِ قريبًـا لديّ ودحيـلا
أم مَلَالٍ ؟ فمـا علمتُك للصّا * حب مثـلى على الزمان مَلُولا
قـد أتى اللهُ بالشفاء فمـا أعـ * ـرِف ممّـا أنكرت إلا قليـلا
وأكلتُ الدَّرَاجَ وهو عِدَاءٌ * أفلت علّتى عليـــه أفُولا
بعد ما كنتُ قد حملتُ من العِلّـ * ـةِ عبْئًا على الطّباع ثقيـلا
ولعـــلى قدمتُ قبلك آتيـ * ـك عدا إن وجدتُ فيه سبيلا

فأجابه محمد بن عبد الملك :

دفع اللهُ عنـــك نائبـةَ الدهـ * ـر وحاشاكَ أن تكون عليـلَا
أشهـدُ اللهَ ما علمتُ وما ذا * كَ من العُـذر حائرا مقبـولا
ولعمـرى أن لو علمتُ فلازمْـ * ـتك حولا لكان عنـدى قليلا
إنّنى أرتجى وإن لم يكن ما * كان ممـا نَقَمتَ إلا جليـلا
أن أكونَ الذى إذا أصمر الإخـ * ـلاصَ لم يلتمِسْ عليـه كفيلا
ثم لا يبـــذُلُ المـودّة حـــتى * يجعـلَ الجَهْـدَ دونها مبذُولَا
فاذا قال كان ما قال إذ كا * ن بعيـدا من طبعه أن يقولا

فاجعلنْ لى إلى التعلُّق بالعُـذْ * ـرِ سبيلا إن لم أجدْ لى سبيلا
فقـديما ما حاد بالصفح والعف * ـوِ وما سَاءَ الخليـلُ الخليـلا

وكتب محمد بن عبد الملك إلى الحسن بن وهب وقد تأخر عنه :

قالوا جفاك فلا عهـدٌ ولا خَبَرٌ * ما دا تراه دهـاه قلتُ أيـلولُ
شهرٌ تَجُـدُّ حبالُ الوصل فيه فما * عَقْدٌ من الوصل إلا وهو محـلولُ

وكان محمد قد ندَبه لأن يخرُجَ فى أمرٍ مهمّ فأحابه الحسن فقال :

إلى بحولِ امرئٍ أعليتَ رتبَتَـهُ * لحطُّه مـــك تعظيمٌ وتبجيـلُ
وأنت عُـدَّتُه فى نَيْل همتـــه * وأنت فى كلّ ما يهـــواه مأمولُ
ما عالنى عـــك أيلولٌ سـلّدته * وطيبـــه ولنعم الشهر أيـــلولُ
الليـلُ لا قِصَرٌ فيـــه ولا طولُ * والخُوصافِ وطهرُ الكأسِ مَرْحولُ
والعُودُ مُستَنْطَقٌ عن كُلِّ مُعْجِبَـةٍ * يصحى بها كلُّ قلبٍ وهو متبولُ
لكى توقُّعُ وَشْـك البينِ عن بلدٍ * تحـلُّهُ فوكَاءُ العينِ محـلولُ
ما لى إذا شمّرتْ بى عـك مبتكرا * دُهْمُ البغالِ أو الهُـوْجُ المراسيلُ
إلّا رِعايَاتُك اللاتى يعـــود بهـا * حدُّ الحوادثِ عنّى وهو مَفْـلولُ

وكان الحَسَن بن وهب يُسايِر محمـدا على مُسَنَّاة[1]، فعدل عن المُسَنَّاة لئلا يَضيق لمحمد الطريقُ، فظنّ محمد أنه أشفق على نفسه من المساة، فعدل عنها ولم يساعده على طريقه، وظن بنفسه أن يُصيبَها ما يُصيبه، فقال له محمد :

فـــد رأياك إذ تركتَ المُسَنّا * ـةَ وحاديتَنى يسارَ الطـــريقِ
ولَعَمْرى ما ذاك منك وقد جَـــدّ * بك الجـدّ من فِعَال الشفيقِ

فقال له الحسن :

إنْ يكنْ خوفَ الحتوفَ أرانى * أن ترانى مشبّها بالعَقُـوقِ
فلقد جارت الظنونُ على المُشْـ * ـفق والظنُّ مُولَعٌ بالشَّـفيقِ

(١) المساة : ما يبنى فى وجه السيل .

عــدِّر السيّد الأجلّ وقد سا * ر على الخوف من يمين الطريق
فأحدت الشّمال بُقْيَا عـلى السـيّـد إذ هالنى سلوك المضـيق
إن عـدى مودّةً لك حازتْ * ما حَوَى عاشقٌ من المعشوق
طَودُ عِزٍّ خُصِصْتَ منـه ببِرٍّ * صار قدرى به مع العَيُّـوق
وبنفسى وإخـوتى وأبى الـبِرِّ وعمّى وأُسْرتى وصـديق
مَنْ إذا ما رُوِّعْتُ أَمَّنَ رَوْعِى * وإذا ما شَرِقْتُ سـوّغ ريق

وحدّث المبرّد قال : استسق الحسن بن وهب من محمد بن عبد الملك نبيذا ببلد الروم وهو مع المعتصم، فسقاه وكتب إليه :

لم تلْقَ مثـلى صاحباً * أندى يَدًا وأعمّ جُـودا
يَسقى الـديمَ بقَفْرِهِ * لم يَسقِ فيها المـاءُ عُودا
صـهراءَ صافيـةً كأنّ * بكأسِها دُرًّا نَضـيدا
وأَجودُ حيى أجود لا * حَصِرًا بذاك ولا بليـدا
وإذا ٱستقلّ بشـكرها * أوجبتُ بالشكر المَزِيدا
خُذها إليـك كأنّمـا * كُسِيتْ رُجاجتُها عُقودا
وٱجعل عليك بأن تقو * مَ بشكرها أبدا عُهـودا

ومن جيّد شعره قولُه :

بأبى كرهتُ النارَ لمّا أُوقدتْ * معرفتُ ما معـاكِ فى إسعادها
هى ضَرّة لكِ بالتمـاع ضـيائها * وبحبس صـورتها لدى إيقادها
وأَرَى صنيعَك بالقلوب صنيعَها * بسَـيَالها وأَراكِها وعَرَادها
شَرِكَتْكِ فى كل الأمور بحسنهـا * وصيائها وصـلاحها وفسادها

ومات الحسن بن وهب فرثاه أخوه سليمان بن وهب :

مضى مذ مضى عزُّ المعالى وأصبحتْ * لالِى الحِجـا والقـوبِ ليس لها نظمُ
وأمضى نجىُّ الفكر بعـدَ فِراقه * إذا همّ بالإفصـاح مَنْطِقـهُ كَظْم

وكتب الحسن بن وهب يشكر :

مَنْ شكرك على درجةٍ رفعتَه إليها ، أو ثروةٍ أقدرتَه عليها ، فإنّ شكرى لك على مُهْجةٍ أحييتَها ، وحُشاشة أبقيتَها ، ورَمَقٍ أمسكت به ، وقمتَ بين التلف و بينه ؛ فلكلِّ نعمة من نعم الدنيا حدٌّ تنتهى إليه ، ومدًى يُوقف عنده ، وغايةٌ من الشكر يسمو إليها الطَّرْف ، خلا هذه النعمة التى فاقت الوصف ، وأطالت الشكرَ وتجاوزتْ قَدْرَه ، وأتت من وراء كلّ غاية ؛ رددتَ عنّا كيدَ العدو ، وأرغمتَ أنفَ الحسود ، فنحن نلجأ منك إلى ظلٍّ ظليل ، وكَنَفٍ كريم ، فكيف يشكر الشاكر ، وأين يبلغ جُهْدَه المجتهدُ ؛ — .

١٨ — أشجع السلمى[1]

كان متصلا بالبرامكة وله فيهم أشعار كثيرة، منها قوله فى يحيى بن خالد وكان قد عاب :

قد غاب يحيَى فما أرَى أحدًا * يأنَس إلا بذكره الحسن
أوحشتِ الأرضُ حين فارقها * من الأيَادِى العظام والمِنَن
لولا رجاءُ الإيابِ لانصدعتْ * قلوبُنا بعده من الحَزَن

وقال أيضا :

رأيتُ بُغَاةَ الخيرِ فى كل وِجْهةٍ * لغَيْبةِ يحيى مُستَكِينين خُضَّعا
فإن يُمْسِ مَنْ فى الرقّتين مُؤمِّلا * لأوبةِ يحيى نحوَها مُتطلِّعا
فما وجهُ يحيى وحدَه عاب عنهمُ * ولكنَّ يحيى غاب بالخير أجمعا

وقال فيه أيضا :

اذا عاب يحيى عن بلادٍ تعيَّرتْ * وتُشرِقُ إن يحتلّها فتطيبُ
وإن فَعّال الخير فى كل بلدةٍ * إذا لم يكن يحيى بها لعريبُ

وقال فيه حين اعتل :

لقد قرّحتْ شَكَاةُ أبى علىّ * قلوبَ معاشرٍ كانت صِحَاحَا
فإن يدفعْ لنا الرحمنُ عنه * صروفَ الدهر والأجل المُتَاحَا

---

(١) هو أشجع بن عمرو بن ولد الشريد بن مطرود السلمى، وكان يكنى أبا الوليد، شاعر إسلامى عباسى، نشأ بالبصرة، وقال الشعر وأجاد فيه حتى عدّ من الفحول؛ وكان الشعر يومئذ فى ربيعة واليمن، ولم يكن لقيس شاعر، فلما نجم أشجع وقال الشعر افتخرت به قيس. وانقطع الى البرامكة ومدحهم وأخلص بجعفر فأصفاه مدحه، فأحب به حضر ووصله الى الرشيد ومدحه فأحب به أيضا وأمدّه بالمال فأثرى وحسنت حاله فى أيامه، وتقدم عنده، وله فيه المدائح المختارة، والقصائد السائرة. وتجد أشعاره وأخباره فى الأغانى (ج ١٧ ص ٣٠) والشعر والشعراء (ص ٥٦٢).

فقـد أمسى صـلاح أبي علىّ * لأهل الأرض كلّهم صـلاحَا
اذا ما الموت أخطأه فلَسْـنَا * نبالى الموتَ حيث عدا وراحَا

وهو القـائل ،

ليس للحـاجاتِ إلّا * من له وجهٌ وَقَاحُ
ولسـانٌ طِـرْمِدّارٌ(١) * وغـدوٌّ ورَوَاحُ
إن أكنْ أعطـاكِ الحا * جةُ عـنّى فالْمَحَـاحُ
فعلىّ الجهـدُ فيها * وعـلى اللهِ النجاحُ

ويستجاد له فى مدح الرشيد .

وصلتْ يداك السيفَ يوم تقطّعت * أيدى الرجالِ ورَلّتِ الأقـدامُ
وعلى عدوّك يا ابنَ عمّ محمـدٍ * رَصَدَانِ صـوءُ الصبح والإظلامُ
فإذا تنبّـه رُعْتَـه وإذا غَفَـا * سلّتْ عليـه سيوفَك الأحلامُ

ويُستجاد له أيضا قولُه :

غدًا يتفـرّق أهلُ الهـوى * ويكثر باكٍ ومسـترجعُ
وتحتلف الأرضُ بالظاعنين * وجوهًا تُشَـدّ(٢) ولا تُجْمَعُ
وتَفنى الطلولُ ويبقى الهوى * ويصنَع ذو الشوقِ ما يصنَعُ
وأنت تُبَكّى وهم جـيرةٌ * فكيف يكون اذا ودّعوا
أتطمَع فى العيش بعد الفراق * فبئسَ لَعَمْـرُك ما تطمـعُ

وفيها يقول فى جعفر بن يحيى :

بديهتُـه مثـلُ تدبيره * متى هجتَـه فهـو مستجمِعُ
إذا هـمّ بالأمر لم يَثْنِـه * هُجُوعٌ ولا شادنٌ أفْرَعُ
فى كفّه للغِنَى مطلَبٌ * وللسـر فى صدره موضعُ

(١) الطرمداو : المتكثر مما لا يعمل . (٢) تفرق .

وكم قائلٍ إذ رأى بهجتى ... وما فى فُضُوبِ الغنَى أصنعُ
غدا فى ظلالِ نَدَى جعفرٍ * يحُثُّ ثيابَ الغنى أشمعُ
وما حلقَه لامرئٍ مطمعٌ * ولا دونَه لامرئٍ مَقْنَعُ

وهو القائل فى محمد بن منصور بن زياد يرثيه :

أنعَى فتَى الجودِ الى الجودِ ... ما مثلُ من أنعَى بموجودِ
أنعَى فتًى أصبح معروفُه * منتشرا فى البيضِ والسودِ
أنعَى فتًى مصَّ الثَّرَى بعدَه * بقيةَ الماء من العودِ
قد ثلَم الدهرُ به ثُلْمةً * حانُبها ليس بمسدودِ
أنعَى فتًى كان ومعروفُه * يملأ ما بين دُرَى البِيدِ
فأصبحَا بعد تَسامِيهما * قد جُمعا فى بطن ملحودِ
الآنَ نخشَى عثراتِ الندى * وعَدْوةَ البحلِ على الجودِ

ويُستحاد له قولُه فى إبراهيم بن عثمان بن نَهيك وكان صاحبَ شُرَط الرشيد وكان جبارا عَبُوسا :

فى سيف إبراهيمَ خوفٌ واقعٌ * بدوى النِّفاق وفيه أمنُ المسلمِ
ويبيت يَكْلأُ والعيونُ هواجعٌ * مالَ المُضيع ومهجةَ المستسلمِ
جعل الخطامَ أنفَ كلّ مخالفٍ * حتى استقام له الذى لم يُخْطَمِ
لا يُصلِح السلطانَ إلا شدّةٌ * تغشَى البرىَّ بفضل ذنبِ المجرمِ
ومن الوُلاة مقحَّم لا يتقِى * والسيفُ تَقْطُرُ شَفْرتاه من الدمِ
منعتْ مهابتُك النفوسَ حديثَها * بالأمر تكرهُه وإن لم تعلَمِ

وقال لأخيه :

أبتْ غَفَلات قلبك أن تَرُوحا * وكأسٌ لا تزايلُها صَبُوحَا
كأنك لا تَرَى حسناً جميلاً * بعينِك يا أخى إلّا قبيحَا

ويُستجاد له قولُه فى الرشيد :

لا زلت تنشُر أعيادًا وتَطْويها * تَحْصى بهـا لك أيامٌ وتُثْنيها
مستقبلًا جِدَّة الدنيا وبهجتَها * أيامُهـا لكَ نظمٌ فى لياليها
العيدُ والعيـد والأيام بينهما * موصـولةٌ لك لا تَفْنَى وتُفْنِيها
ولْيَهْنِك النصرُ والأيامُ مقبـلةٌ * إليـك بالفتح معقودًا نواصيها

وبستحاد له قوله يمدح اسماعيل بن صبيح :

له نظرٌ لا يَغْمُص الأمرُ دونَه * تكاد سُتورُ الغيب عنـه تَمَزَّقُ

وهو القائل :

وما ترك المُـدَّاح فيك مقالةً * ولا قال إلّا دون ما فيك قائلُ

وقال أيضا :

مضى ٱبْنُ سعيدٍ حين لم يبق مشرق * ولا مغـــربٌ إلا له فيـه مادحُ
وما كنتُ أَدْرى ما فواضلُ كفه * على النـاسِ حتى غيَّبته الصفائحُ(١)
فأصبح فى لحدٍ من الأرض ميّتًـا * وكانت به حيًّـا تضيق الصَّحاصِحُ(٢)
سأبكيك ما فاضتْ دموعى وإن تَغِضْ * فحسْبُك منّى ما تُجِنّ الجوانحُ(٣)
فمـا أنا من رُزْءٍ وإن جل جازعٌ * ولا بسرورٍ بعـــد موتك فارحُ
كأن لم يَمُتْ حيٌّ سِـواكَ ولم يقُمْ * على أحدٍ إلا عليـكَ النـــوائحُ
لئن حسُنَتْ فيك المراثى وذكرُها * لقد حسنتْ من قبلُ فيك المدائحُ

(١) الصفائح : أحجار عراض تعلى بها القبور . (٢) الصحاصح : جمع صحصح : وهى الأرض الحمراء المستوية الواسعة ذات حصى صغار . (٣) الجوانح الضلوع .

١٩ — علىّ بن الجَهْم[1]

كان علىّ بن الجهم قد هجا بختيشوع، فسبّه عند المتوكل فحبسه المتوكل . فقال على بن الجهم فى حبسه عدّة قصائد كتب بها الى المتوكل، فأطلقه بعد سنة ثم نفاه بعد ذلك الى خُراسان . فقال أوّل ما حُبِس قصيدةً كتب بها الى أخيه، أوّلها قوله :

توكّلْنا على ربّ السماء * وسَلّمنا لأسباب القضاء
ووَطّنّا على عِيَرِ اللّيالى * نفوسًا سامحتْ بعد الإباء
وأفنيةُ الملوك محطّاتٌ * وبابُ الله مبذُول الفِناء
هى الأيامُ تَكْلُمُنا وتأسو * وتأتى بالسعادة والشقاء
وما يُجْدِى الثرَاءُ على غَنِىٍّ * إذا ما كان محظورَ العَطاء
حَلَبْنَا الدهرَ أشطُرَه ومَرّتْ * بنا عُقَبُ الشدائد والرخاء
وجَرّبْنا وجرّب أوّلُونا * فلا شىءٌ أعزّ من الوفاء
ولم نَدَعِ الحياءَ لمسّ ضرّ * وبعضُ الصرّ يَذهب بالحياء
ولم نحزنْ على دُنْيا تولّتْ * ولم نُسْبَق الى حسن العزاء
تَوَقَّ الناسَ يانَ أبى وأمّى * فهم تَبَعُ المخافة والرجاء

---

(١) هو عربى قرشىّ شاعر فصيح مطبوع، وقد حبس بالمتوكل حتى صار من جلسائه ثم أبعده لأنه كان كثير السعاية اليه بندمائه فكان اذا جلا به عرفه أنهم يعيبونه و يثلبونه، فيكشف الخليفة عن ذلك فلا يجد له حقيقة ، فنفاه الى خراسان بعد أن حبسه مدّة . وكان مذهبه فى الشعر مذهب مروان بن أبى حفصة فى هجاء آل أبى طالب ودمهم والإغراء بهم وهجاء الشيعة كقوله :

ورافضة تقول شعب رضوى * إمام، جاب ذلك من إمام
إمام من له عشرون ألفا * من الأتراك مشرعة السهام

وله أقوال فى الغزل والعتاب وفى الوصف، توفى سنة ٢٤٩ هـ . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ٩ ص ١٠٤) وابن خلكان (ج ١ ص ٤٩٧) .

ولا يَغُرُّك من وَعْدٍ إحاءٌ * لأمرٍ ما غَدَا حَسَنَ الإخاء
ألم تر مُظهِرين علىّ عتبًا * وهم بالأمس إخوانُ الصَّفاء
فلمّا أن بُليتُ عَدَوْا وراحُوا * علىّ أشدّ أسباب البلاء
أتتْ أحطارُهم أن يبصرونى * بماءٍ أو بجاه أو ثراء
وخافوا أن يقالَ لهم خَذَلتم * صديقًا فادّعَوْا قِدَمَ الجفاء
تَظَافرتِ الروافض والنصارى * وأهل الإعتزال على هِجَائى
وعابونى وما ذنبى إليهم * سوى علمى بأولاد الزناء
فحيتشوع يشهد لى عمرو * وعَزُّونٌ لهارون المُرائى
وما الجَذْماء بنت أبى سَمِيرٍ * بحذماء اللسان على الخَنَاء
إذا ما عُدَّ مثلكُمُ رجالًا * فما فضلُ الرجال على النساء
عليكم لعنةُ الله ابتداءً * وعَوْدًا فى الصباح وفى المساء
إذا سُمِّيتُمُ للناس قالوا * أولئك شرُّ مَن تحت السماء
أنا المتوكلىّ هَوًى ورأيًا * وما بالواثقيّة من خَفاء
وما حَبْسُ الخليفة لى بعارٍ * وليس بمؤيسى مسه التّنائى

كان سبب حبس المتوكل علىّ بن الجهم أن جماعة من الجلساء سَعَوْا به اليه وقالوا له : إنه يحبش الخدم ويغمزهم ، وإنه كثير الطعن عليك والعيب لك والإزراء على أخلاقك ، ولم يزالوا به يُوغِرون صدرَه عليه حتى حَبَسه ، ثم أبلغوه عنه أنه هجاه ، فنفاه الى خراسان وكتب بأن يُصْلَب اذا وردها يومًا الى الليل ، فلما وصل الى الشاذِيَاخ حبسه طاهر بن عبد الله بن طاهر بها ، ثم أُخرج فصُلِب يوما الى الليل مجرّدا ثم أنزل ، فقال فى ذلك :

لم يَنْصِبوا بالشاذِياخ عشيّةَ الإثنين * مسبوقًا ولا مجهولا
نَصَبُوا بحمد الله مِلْءَ قلوبهم * شَرَفا وملءَ صدورهم تبجيلا
ما ازداد إلا رفعةً نكوله * وازدادت الأعداء عنه نُكولا

هل كان إلا الليتَ فارق غِيلَه * فرأيتَــه فى محمل محمــولا
لا يأمَنُ الأعداءُ من شَــدّاته * شــدًّا يفصِّل هامَهم تفصيلا
ما عابه أنْ يُزْعنه لباسُــه * فالسيفُ أهولُ مايُرَى مسلولا
إن يُبْتَذَلْ فالبدرُ لا يُزْرِى به * ان كان ليــلة تَمِّــه مبــذولا
أو يَسْلُبوه المــالَ يُحْزِن فقدُه * ضــيفا ألمّ وطــارقًا ونزيلا
أو يحبِسوه فليس يُحْبَس سائرٌ * من شعره يَدَعُ العزيزَ ذليــلا
إن المصائب ما تعدّت دِينَــه * يَعِمُّ وإن صَعُبتْ عليــه قليلا
والله ليس عــاقِلٍ عن أمره * وكفى بربك ناصرًا ووكــيلا
ولتَعلمنّ إذا القلوب تكشّفت * عنها الأكِنَّةُ من أضلُّ سبيلا

وكتب المتوكل الى طاهر بن عبد الله بإطلاق علىّ بن الجهم، فلما أطلقه قال :

أطاهرُ إنى عن خُرَاسانَ راحلُ * ومُسْــتَخْبَرٌ عنها هنــا أنا قائل
أأصدُقُ أم أكنِي عن الصدق أيّما * تَحَــيَّرْتُ أدّته اليــك المحــافل
وسارت به الركبانُ واصطفقتْ به * أكُفُّ قِيــانٍ وأجتبته القبائل
وإنى بعــالى الحمــد والذمّ عالمٌ * بمــا فيهما ماحى الرميّة ناضــل
وحقًّا أقولُ الصدقَ إنى لمــائلٌ * اليــك وإن لم يَحْظَ بالودّ مائلُ
ألَا حرمةٌ تُرْعَى ألَا عقــدُ ذمّةٍ * لجارٍ ألَا فِعــلٌ لقــولٍ مُشَاكلُ
ألَا منصفٌ إن لم تَجِدْ متفضّلًا * علينا ألَا قاضٍ من الناس عادلُ
فلا تقطعَنْ غيظًا علىّ أنامــلًا * فقبلَكَ ما عُضّتْ علىّ الأناملُ
أطاهر إن تُحْسِنْ فإنّى محسنٌ * إليك وإن تبخَــلْ فإنّى باخلُ

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيرا، فإنى لا أفعــل بك إلا ما تحب، فوصــله وحمله وكساه .

وقال علىّ بن الجهم للمتوكل :

عفا الله عنك! ألا حرمةٌ * تجـود بعفوك أن أُهْدَا
لئن حَلّ ذنبٌ ولم أعتمد * لأنت أجـلُّ وأعلى يدا
ألم تر عـبدًا عدَا طَوْرَه * ومولًى عفا ورشيدًا هدى
ومُفسِـدَ أمرٍ تلافيتَـه * فعاد فأصلح ما أفسـدا
أقِلْـنى أقالك من لم يَزَلْ * يقيكَ ويَصْرِف عنك الرَّدَى

وأحسن شعر قاله فى الحبس قصيدته التى أوّلها :

قالوا حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائرى * حَبْسِى وأىّ مُهَنَّـدٍ لا يُغْمَـدُ
أوَ مَا رأيتَ الليثَ يألف غِيلَه * كِبْرًا وأوباشُ السِّـباع تَرَدَّدُ
والشمس لولا أنها محجـوبةٌ * عن ناظريْكَ لمَا أضاء الفَرْقَـدُ
والبـدرُ يُدْرِكه السِّرار فتجتلِى * أيّامُـه وكأنه متجـدّد
والغيثُ يحصُـره العامُ فما يُرَى * إلّا ورَيْقُـه يراع ويرعُـدُ
والزاعبيّـةُ لا يُقيم كعوبَهَا * إلا الثِّقاف وجَـذْوةٌ تتوقّـدُ
والنـارُ فى أحجارها محبـوءةٌ * لا تُصْـطَلَى إن لم تُثِرْها الأزْنُدُ
والحبس ما لم تَغْشَـه لدنيّـةٍ * شـعناء نعم المـنزلُ المتـودّد
بيت يحـدّد للكريم كرامةً * ويُزَارُ فيـه ولا يزور ويُحْمَـد
لو لم يكن فى الحبس إلا أنه * لا يستـدلّك بالحجاب الأعْبُـد
كم من عليلٍ قد تخطّاه الرَّدَى * فنجا ومات طبيبُـه والعُـوَّدُ
يا أحمـدُ بنَ أبى دُوَادٍ إنما * تُدْعَى لكل عظيمةٍ يا أحمـد
أبلغْ أميرَ المؤمنين ودونَه * خَوْضُ الرَّدَى ومخاوفٌ لا تُنْفَـدُ
أنتم بنـو عمّ النـبىّ محمـدٍ * أَوْلَى بما شَرَعَ النـبىّ محمـد
ما كان من كرمٍ فأنتم أهـلُه * كَرُمَتْ مغارسُكم وطاب المَحْتِـدُ

أمِنَ السّـوِيّةِ يابن عمّ محمـد * خَصْمٌ تُقَـرِّبُه وآخرُ تُبْعِـد
إن الذين سَعَوْا اليـك بباطل * حسـادُ نعمتِـك التى لا تُجْحَدُ
شَهِدُوا وعِبْنَـا عهـمُ فتحكّموا * فِيما، وليس كغائبٍ من يشـهد
لو يجمـع الخُصَماءَ عنـدك مجلسٌ * يوما لبَـانَ لك الطريقُ الأقصـد
فبأىّ جُرْمٍ أصـبحتْ أعراصُنا * نَهْبا تَقَسّمها اللئـيمُ الأوغـد

خرج علىّ بن الجهم إلى الشام فى قافلة فخرجت عليهم الأعراب فى خُساف[1]، فهرب مَنْ كان فى القافلة من المُقَاتِلة وثَبَتَ علىّ بن الجهم، فقاتلهم قتالا شديدا وثاب الناس اليه فدفعهم ولم يَحْظَوْا بشىء . فقال فى ذلك :

صَبَرتُ ومثلى صـبرُه ليس يُنْكَرُ * وليس عـلى ترك التّقحُّم يُعْـذَرُ
غريزةُ حرّ لا اختـلاقُ تكلُّف * إذا خام[2] فى يـوم الوغى المتصـبّرُ
ولما رأيت المـوتَ تهفو بنـودُه * وباتت علاماتٌ له ليس تنكر
وأقبلتِ الأعرابُ من كل حاسِبٍ * وثار عَجَاجٌ أسودُ اللون أكدر
بكل مُشِيح[3] مستميتٍ مشمّـر * يحـول به طِـرفٌ أقبُّ مشمّر
بأرض خُسافٍ حين لم يك دافعٌ * ولا مانـعٌ إلا الصفيحُ المذكّر
فقلّل فى عينى عظيمَ جموعهـم * عزيمـةُ قلبٍ فيـه ما جَل يصغُرُ
بمعـتَرَكٍ فيـه المنايا حـواسرٌ * وبارُ الـوَغَى المُشْرَفِيّـةُ تُسْـعَرُ
فما صُنتُ وجهى عن ظُبَاتِ سيوفهم * ولا انحـزتُ عنهـم والقَنَـا تتكسّر
ولم أكُ فى حَـرّ الكَرِيهـة مُحجما * إذا لم يكن فى الحرب للوِرْد مَصْـدَر
اذا سَاعَدَ الطّـرْفُ القنى وجَمَـانُه * وأسمـرُ خَطّىٌّ وأبيـضُ مِبْـتَر
فـذاك وإن كان الكريم بنفسه * إذا اصطلت الأبطالُ فى النقع عسكر

---

(١) بريّة بين بالس وحلب . (٢) خام : نكص وجبن .
(٣) المشيح : المانع لما وراء ظهره . والأقب من الخيل : الدقيق الحصر الصامر البطن .

معتُّهُـمُ من أن ينالوا قُلامـةً * وكنتُ شجاهم والأسِـنَّةُ تقطُـرُ
وتلك سجـايانا قـديمًا وحادثًا * بها عُرِف الماضى وعَزّ المـؤخَّر
أبتْ لى قـروءٌ أنجبتنىَ أن أُرَى * وإن حَلّ خَطْبٌ حاشعًـا أتضجّـر
أولئك آلُ الله فِهْـرُ بن مالكٍ * بهم يُجْبَرُ العظمُ الكسير ويُكْسَر
هم المَنكِبُ العـالى على كل منكبٍ * سـيوفُهمُ تُفنِي وتُغنِـي وتُفقِـر

كان علىّ بن الجهم يعاشر جماعةً من فتيان بغداد لمـا أُطلق من حبسه ورُدّ س النفى، وكانوا يتقاينون ببغداد ويلزمون منزل مغنّ بالكرخ يقال له المفضّل، فقال فيه على س الجهم:

نزلنـا بباب الكَرْخ أطيبَ منزلٍ * على مُحْسِناتٍ من قِيَـانِ المفضّل
فـلِابْن سُرَيْجٍ والغَرِيض ومَعْبَد * بدائـعُ فى أسماعنـا لم تبـدّل
أوانس ما للضيف منهنّ حشمـةٌ * ولا ربهنّ بالجليـل المبجّل
سرّ اذا ما الضيفُ قلّ حيـاؤه * ويَغْفُـل عنـه وهو غير مُغفّـل
ويُكثِر من ذمّ الوَقَار وأهـله * اذا الضيفُ لم يأنَسْ ولم يَتَبَـذّل
ولا يدفع الأيدى المريبـة عيرة * اذا نال حظًّا من لَـبُوسٍ وما كل
ويُطْرِق إطراقَ الشُّـجاع مهـابةً * ليُطْلِقَ طَرْفَ الـناظر المتأمّـل
أَشِرْ بيَدٍ واَعمِزْ بطَرْفٍ ولا تَخَف * رقيبًـا اذا ما كنتَ غير مُنَحَّل
وأعرِضْ عن المصباح واَلهَجْ بمثله * فإن نمّد المصباح فادنُ وقبِّـل
وسَلْ غيرَ ممنوع وقُلْ غيرَ مسكتٍ * وتَمْ غيرَ مدعـور وقم غير مُعْجَلِ
لك البيتُ ما دامتْ هداياك جَمّةً * وكنتَ مَلِيًـا بالبيـذ المعسّل
فبـادِرْ بأيام الشـباب فإنهـا * تَقَصّى وتَفْنَـى والغـوايةُ تجمـلى
ودع عنك قولَ الناس أتلفَ ماله * فلانٌ فاضحى مُدبِراً غير مُقْبِـلِ
هل الدهرُ إلا ليـلةٌ طَرَحتْ بنا * أواخرُها فى يوم لَهْـوٍ معجّـل
سقى الله بابَ الكرخ من مُتَنَزّهٍ * الى قصر وَضّـاح فبركة زَلزَلِ

مَسَاحب أذيال القِيان ومَسْرح الـ * ـحسانِ ومَثْوَى كل خِرْقٍ مُعَذَّل
لو أن امرأ القيسِ بن حُجْرٍ يحلها * لأقْصَرَ عن ذكر الدُّخُولِ وحَوْمَل
إذَا رَأَى أن يمنح الودَّ شادنا * مُقَصِّر أذيالِ القنا غيرَ مُسْبِيل
إذا الليلُ أدنى مَضْجَعِى منه لم أقُلْ * "عَقَرْتَ بعيرى يا امرأ القيْس فانزِلِ"

دخل علىّ بن الجهم يوما على عبد الله بن طاهر فى غداة من غَدَوات الربيع وفى السماء غيم رقيق، والمطر يجىء قليلا ويسكن قليلا، وقد كان عبد الله عزم على الصبوح فغاصبته حَطِيّة له، فتنغّص عليه عزمه وفَتَر، فحُمِّر علىّ بن الجهم بالخبر وقيل له : قل فى هذا المعنى لعله ينشط للصبوح، فدخل عليه فأنشده :

أمَا تَرَى اليومَ ما أحلى شمائلَه * صَحْوٌ وغيمٌ وإبراقٌ وإرعاد
كأنه أنت يامن لا شبيهَ له * وصلٌ وهجرٌ وتعريب وإبعادُ
فاكِرِ الراحَ وأشربها مُعَتَّقةً * لم يَدَّخِرْ مثلَها كِسْرى ولا عادُ
واشرَبْ على الروض إذ لاحتْ زَخَارِفُه * زهرٌ ونَوْرٌ وأوراقٌ وأورادُ
كأنما يومُنا فعلُ الحبيب بنا * بَذْلٌ وبُخْلٌ وإيعادٌ ومِيعادُ
وليس يذهَبُ عنى كلّ فعلِكُمُ * غَىٌّ ورُشْدٌ وإصلاحٌ وإفساد

فاستحسن الأبياتَ وأمر له بثلثمائة دينار وحَمَله وحلع عليه .

لما أطلق عبد الله بن طاهر علىّ بن الجهم من الحبس أقام معه بالشَّادِياخ مدّة، فخرجوا يوما الى الصيد . واتفق لهم مَرْج كثير الطير والوحش وكانت أيام الزعفران، فاصطادوا صيدا كثيرا حسنا، وأقاموا يشربون على الزعفران، فقال علىّ بن الجهم يصف ذلك :

وَطِئنا رياضَ الزعفران وأمسكتْ * علينا البُزاةُ البيضُ حمرَ الدَّرَارِج (١)
ولم تَمْنَعْنا الأدغالُ منا وإنما * أبَحْنا حِمَاها بالكلاب البَوَارِج
بمستَرْوِحاتٍ سابحاتٍ بطونُها * على الأرض أمثالَ السِّهام الزواليج (٢)

(١) واحده درّاج (بضم الدال وتشديد الراء) وهو طائر على خلقة القطا إلا أنه ألطف .
(٢) الزالج من السهام : الذى يمشى على وجه الأرض ثم يمضى .

ومستشرفات بالهـوادى كأنهـا * وما عُقِفتْ منها رؤوسُ الصَّوَالج
ومن دالعاتِ السُّنَّ فكأنهـا * لِحَى من رحال حاضـعين كَوَامِح
فَلَيْنا بهـا العِيطانَ فَلْيًـا كأنهـا * أناملُ إحدى الغانيـات الحَوَالج
فقل لِبُغاةِ الصَّـيْد هل من مُفاخِرٍ * بصيدٍ وهل من واصف أو مخارج
قَرَنّا بُزاةً بالصـــقور وحَوَّمتْ * شـواهينُنا من بعد صـيد الروامج (١)

لمـا فُلِج آبن أبى دواد شَمِت به علىّ بن الجهم وأظهر ذلك له وقال فيه :

لم يبقَ منك سـوى خَيالك لامعًا * فوق الفِراش ممهّـدًا بوِسَاد
فرِحَتْ بمَصْرَعك البريّةُ كلّهـا * مَنْ كان منهم مُوقِنًا بمَعَـاد
كم مجلس لله قـد عَطّلتَـه * كى لا يُحَـدِّث فيـه بالإسـناد
ولكم مصابيـح لـما أطفأتَهـا * حتى نزول عن الطريق الهـادى
ولَكم كريمةِ مَعْشرٍ أرملتهـا * ومحـدث أوثقتَ فى الأقيـاد
إن الأسارى فى السجون تفرّجوا * لمـا أتتـك مواكبُ العوّاد
وعَدَا لمصرعك الطبيبُ فلم يجـد * شيئا لدائك حيـلة المرتاد
فُدِقِ الهوانَ معجّلا ومؤجّلًا * والله ربّ العرش بالمرصـاد
لا زال فالجُك الذى بك دائبًـا * وجُعْتَ قبـل الموت بالأولاد

ومن جيد شعره قوله :

نطق الهوىّ بحوى هو الحقّ * وملكتنى فليَبْنِـكَ الرِّقُّ
رِفقًـا بقـلبى يا معـذِّبَه * رِفقًـا وليس لظالم رفـقُ
وإذا رأيتُـك لا تُكلِّمُنى * ضاقت علىّ الأرضُ والأُفُق

وله أيضا :

يا رحمـةً للغريب بالبلد النّـا * زِح مَا ذَا بنفســه صَنَعَـا
فَارَقَ أحبابَه فـا نتفعـوا * بالعيش من بعده وما انتفعا

(١) الرامح . الملواح الذى يصاد به الصقور ونحوها من جوارح الطير .

٢٠ — على بن جَبَلَة (١)

قال المأمونُ يوما لبعض جلسائه : أُقسِم على مَنْ حضر ممّن يحفظ قصيدة علىّ بن جَبَلَةَ الأعمى فى القاسم بن عيسى إلا أنشَدنيها ، فقال له بعض الجلساء : قد أقسم أميرُ المؤمنين ولا بدّ من إبرار قسمه ، وما أحفظها ولكنها مكتوبة عندى ، قال : قم فجئنى بها ، فمضى وأتاه بها وأنشده إياها ، وهى :

ذادَ رُدَ النَّىّ عن صَدَرِهْ ، وارعَوَى واللهُو من وَطَرِهْ
وأبَتْ إلا البكاءَ له * ضحكاتُ الشَّيْب فى شَعَرِهْ
ندمى أن الشبابَ مضَى * لم أُبلِّغْه مَدَى أشَرِهْ
وانقضتْ أيامُه سَلَمًا * لم أَجِدْ حَوْلًا على عِبَرِهْ
حسرتْ عنّى بشاشتُه * وذوَى المحمودُ من ثَمَرِهْ
ودمٍ أهدرتُ من رَشَإٍ * لم يُرِد عَقْلًا على هَدَرِهْ
فاتت دون الصِّبا هَنَةٌ * قلتُ فُوقى على وَتَرِهْ
حارتا ليس الشبابُ لمن * راح مُحنِيًا على كِبَرِهْ
ذهبتْ أشياءُ كنتُ لها * صَارها (٢) حلمى الى صُوَرِهْ

(١) هو على بن حبلة الأسارى والعكوك لقبه ، وهو من الموالى أسماء الشيعة الخراسانية من أهل بغداد ، ولد فى الحرية منها ونشأ فيها ، وكان ضريرا مد ولادته مثل بشار بن برد ، وهو شاعر مطبوع عذب اللفظ حلو ، لطيف المعانى ، مداح حسن التصرف ، وقد استنفد شعره فى مدح أبى دلف العجلى وأبى غانم حميد بن عبد الحميد الطوسى ، وراد فى تفصيلهما وتفضيل أبى دلف خاصة حتى فصل ربيعة على مضر ، فاستاء المأمون من ذلك وبلغه أبيات قالها العكوك فى أبى دلف منها :

كل من فى الأرض من عرب * بين باديه إلى حضره
مستعير سنك مكرمة * يكتسيها يوم مفتخره

توفى سنة ٢١٣ هـ . وتجد أكثر أخباره فى الأغانى (ج ١٨ ص ١٠٠) وابن خلكان طبع بولاق (ج ١ ص ٤٩٥) والشعر والشعراء (ص ٥٥٠) (٢) صارها : أمالها .

دَعْ جدًا قَطْطان أو مُصَر * فى يَمَانيه وفى مُضَرِهْ
وامتدِحْ من وائلٍ رجلًا * عُصُرُ الآفاق فى عُصُرِهْ
المايا فى مَآقيه * والعطايا فى ذَرَا حُجَرِهْ
ملكٌ تَنْدَى أمامُه * كانبلاج النَّوْءِ عن مَطَره
مُستهِلٌّ عن مَواهبه * كابتسام الروض عن زَهَره
جلَّ عزَّتْ مَآكِمه * أمِنتْ عَدْنان فى ثُغَرِه
إنما الدنيا أبو دُلَف * بين مَبْدَاه ومُحْتَضَرِهْ
فإذا ولَّى أبو دلف * ولّت الدنيا على أثَرِه
لستُ أدرى ما أقول له * غير أنّ الأرض فى خَفَره
يادواء الأرض إن فسدتْ * ومديلَ اليُسْر من عُسُره
كل من فى الأرض من عربٍ * بين ماديه الى حَضَره
مستعيرٌ منك مكرمة * يكتسيها يومَ مُفْتَخَرِه

وفيها يقول :

وزُحُوفٍ فى ضَواحيه * كصياح الحَشْر فى أثره
قُدْتَه والموت مكتمنٌ * فى مَدَاكيه ومُشْتَجَرِه
فرمتْ حَقْوَيه مسه يدٌ * طَوَتِ المنشورَ من بطره
زرته والخيل عابسةٌ * تحمل البُؤسَى على عُقُره
حارجاتٍ تحت رايتها * كخروج الطير من وُكُره
وعلى النعمان مُجْت به * عَوْجةً ذادتْه عن صَدَره
عَمَط النعمانُ صَفْوتَها * فرددتَ الصفو فى كَدَره
ولقرقور أدرتَ رحًا * لم تكن ترتدّ فى فِكَره

قـــد تأنّيتَ القـاءَ له . فأبى المحتومُ من قـدره
وطَـــوَى حـتى رفعتَ له خُطَّةً شـنعاءَ من ذِكره

فغضب المأمون وأغتاظ، وقال : لست لأبى إن لم أقطع لسانَه أو أسفكْ دمه .

وكان يمدح حُمَيد بن عبد الحميد، فلما سمع حميد هـذا فى أبى دلف قال أى شىء بَقِيَتْ لنا بعد هذا من مدحك؟ فقال :

إنمـا الدنيا حُمَيدٌ * وأيادِيه الجِسـامُ
فاذا ولّى حميـدٌ . فعلى الدنيا السلامْ

وهو القائل فى حميد :

دِحـلةُ تسـقى وأبو عامر * تُطعِم مَنْ تَسقِى من الناس
والناسُ خِسمٌ وإمامُ الهدى رأس وأنت العينُ فى الراس

وقال للحسن بن سهل :

أعطيتَنى يا ولىّ الحقّ منتـدئًا * عطيّةً كافأتْ مدحى ولم تَرِنى
ما شِمْتُ برقَك حتى بِلتُ رَيِّقه * كأنما كنتَ بالجَدْوَى تُبادرنى

وهو القائل فى حميد :

إلى أكرم لَخْطانِ وصَلْنا السَّهْبَ بالسَّهْبِ
الى مجتمَع النَّيـــل * ومُلتَقى أرحُـلِ الرَّكب
حُمَيْـــدٌ مَفْـزَع الأمـ * ـة فى الشرق وفى العرب
كأنّ الناسَ جسمٌ وَهْـ * ـو منه موضعَ القلب
اذا سَـالَمَ أرصـا * ـبَيْتْ آمـنةَ السِّرْب
وإن حارَبها حلّت * بها راعِيَـة السَّـقْب
اذا لاقَى رَعِيـلَ المو * ت بالشَّطبَة والشُّطب
وبالمـاذيّة الخُضْـرِ * وبالهنـديّة القُضُب

عـــدا مجتمعَ القلبِ * له جِدٌّ من الرُّعْبِ
يـاموزَ الذى وَالَى * ويا مُوسى أخى الدنب
أيا دا الجود فاسـلَمْ ما * جرتْ حُقُّ الى حُقْبِ
فأنت العيشُ فى السِّـلمِ * وأنت الموتُ فى الحرب
وأنت الجامعُ الفـار * قُ بين العـد والقرب
لـك الله تلافى الـا * س بعد العَثْرِ والنَّكْبِ
وردّ البيضَ والبيضَ * الى الأعمـاد والنُّخْب
بإقدامك فى الحـرب * وإطعـامك فى اللَّزْب
فكم أمنتَ من خوفٍ * وكم أشعتَ من شَعْب
وكم أصلحتَ من حَطْبٍ * وكم أيّمتَ من خِطْبِ
وما ثَمَّهَـــرها إلا * دِرَاكَ الطَّعْن والضرب
تناهتْ بك قحطانٌ * الى الغـاية والحَسْبِ
وفاتتْ شَرَفَ الأحيـا * ء فَوْتَ الرأس للعَجْبِ(١)

ومما أسرف فيه فكفر أو قاربَ الكفرَ قوله فى أبى دلف :

أنت الذى تُنْزِل الأيّامَ منزلَها * وتنقُلُ الدهرَ من حالٍ الى حال
وما مَدَدتَ مَدَى طَرْفٍ الى أحدٍ * إلا قصيتَ بأرزاق وآجال
تَزُورُ سحطَافَتُمْسِى البِيضُ راصيةً * وتستهِلُّ فتبكى أوجُـهُ المـال

وقال فيهـا :

كأنّ خيلَك فى أثنـاء غَمْرتها * أرسالُ قَطْرٍ تَهامى فوق أرسال
يخرجن من عمرات الموت ساميةً * نَشْرَ الأنامل من ذى القِرّة الصالى

(١) العجب : أصل الذنب .

وقال أيضا :

جلاء مشيب نَزَلْ * وأُنْس شباب رَحَلْ
طوى صاحبٌ صاحبًا * كذاك اختلافُ الدُّوَل
أعاذلتى أقصرى * كفاكِ المشيبُ العَذَلْ
بدا بدلًا بالشبا * ب ليت الشبابَ البدل
جلالٌ ولكنه * تَحَامَاه حُورُ المُقَلْ

وقد كان حميد ركب يوم عيد فى حيش عظيم لم يُرَ مثلُه ، فقال على بن جبلة يصف ذلك :

غدا بأمير المؤمنين ويُمْنه * أبو عانم غَدْوَ النَّدَى والسحائب
وصاقتْ فِجاجُ الأرض عن كل موكبٍ * أحاطَ به مستعلياً للواكب
كأنّ سموَّ النَّقْع والبيضَ فوقهم * سماوةُ ليل قُرِّتْ بالكواكب
فكان لأهل العيد عيدٌ بسكهم * وكان حُمَيدٌ عيدَهم بالمواهب
ولو لا حميد لم تبلِّجْ عن النَّدَى * يمينٌ ولم يُدرِكْ غِنًى كسبُ كاسب
ولو مَلَكَ الدنيا لما كان سائلٌ * ولا اعتامَ فيها صاحبٌ فضلَ صاحب
له محكمٌ تستغرق المالَ بالنَّدَى * على عَبْسةٍ تُشْجِى القَنَا بالترائب
دهبتَ بأيام العُلَا فارِدًا بها * وصَرَّمتَ عن مَسْعاك شأوَ المطالب
وعدّلت مَيْلَ الأرض حتى تعدّلت * فلم يأَ منها جانبٌ فوق جانب
بلغت بأدنى الحزم أبعدَ قُطْرِها * كأنك منها شاهدٌ كلَّ غائب

شخص على بن جبلة إلى عبد الله بن طاهر إلى خراسان ، وقد مدحه فأجزل صلته ، واستأذنه فى الرجوع فسأله أن يقيم ، وكان برّه يتصل عنده ، فلما طال مُقامه اشتاق إلى أهله فدخل إليه فأنشده :

راعه الشَّيبُ إذ نَزَلْ * وكَفَاه من العَذَلْ
وانقضتْ مدة الصِّبَا * وانقضى اللهوُ والغَزَلْ

قـد لعـمرى دَمَثْتُـه بحِصَابٍ فـا آندمـل
فابك للشَّـيْب إذ بَدَا لا على الرَّبْـع والطَّـلَلْ
وصـــل الله للأمـ ـرِ عُـرَى الملك فاتصل
مـلكُ عَزْمُـــه الرما ـنُ وأفعـالُه الدول
كِسْرَوِىٌّ، مجـده نصربُ الصاربُ المثل
وإلى طـــلّ عـــرّه يلجأ الخـائف الوَجِل
كلّ خَلقٍ سوى الإما مِ لإنعامـه حَـــوَل
ليتـه حين حَادَ لى بالعِـى حاد بالقَـفَل

فصحك وقال . أَبْتَ إلا أن تُوحشنا، وأحرل صِلَته وأدن له .

دخل على بن حمله العَكَوَّك على حُمَيد الطوسىّ فى أول يوم من شهر رمضان، فأنشده :

حمل الله مَدْخَلَ الصوم فوزًا لُحَمَيْـدٍ ومُتعـةً فى البقـاء
فهـو شهر الربيـع للفُقـراء وفِراقُ النُّدمان والصَّهباء
وأنا الصامُ المَـلِىُّ لمن عا قَرَهـا مُفطِـرًا بطـول الظَّماء
وكأنى أرى النَّدامَى على الخمـ ـف يرجُّون صحّهم بالمساء
قد طَوَى بعضُهم زيارةَ بعض واستعاضوا مَصَاحفًا بالعصـاء

وفيهـا يقول :

بُحَمَيد — وأين مثلُ حميد — فَـخَرَتْ طيِّءٌ على الأحيـاء
حودُه أظهر السماحةَ فى الأر ض وأعنى المُقْوى عن الإقواء
مـلكٌ يأمُـلُ العبـادُ نَدَاه مثـلَ ما يأملونَ قَطْـرَ السماء
صاغه الله مُطعِمَ الناس فى الأز ص وصاع السحابَ للإسقاء

فأمر له بخمسـة آلاف درهم، وقال : استعن بهذه على نفقة صومك؛ ثم دخل اليـه ثانى شوّال فأنشده :

علّلانى بصفو ما فى الدّنان ... وآتركا ما يقوله العادلان
وآسقيا فاجعَ المنيّة بالعيـ ... ـش فكلٌّ على الجديدين فانى
علّلانى بشَربة تُذهب الهمّ ... وتَنْسِى طوارقَ الأحزان
والقِيَا فى مَسَامعِ سدّها الصو ... مُ رُقَى المَوْصِلىّ أو دَحْمان
قد أتانا شوّالُ فاقتل العيـ ... ـشَ وأعدى قَسْرًا على رمضان
نِعْمَ عونُ الفتى على نُوَب الدهـ ... ـرِ سماعُ القِيانِ والعيدان
وكؤوسٌ تحرى بماء كروم ... ومطىُّ الكؤوس أيدى القِيان
من عُقارٍ تُميت كلَّ احتشامٍ ... وتُسَرّ النُّدْمانَ بالنُّدمان
وكأنّ المِزَاج يقدح منها * شررًا فى سبائك العِقْيان
فاشرب الراحَ وآعصِ مَنْ لامَ فيها ... إنها نِعْمَ عُدّة الفتيان
وآصحَبِ الدهرَ بارتحالٍ وحِلّ * لا تخَفْ ما يجرّه الحادثان
حَسْبُ مستطهرٍ على الدهر ركنًا * تُحمَد رِدْءًا من الحدثان
ملك يقتنى المكارمَ كرًا ... وتراه من أكرم الفتيان
خُلقتْ راحتاه للجُود والبأ ... سِ وأمواله لشكر اللّسان
مَلَكته على العباد مَعَدٌّ ... وأقرّت له سبو قَحْطان
أريحىُّ النّدَا جميلُ المُحيّا ... يَدُه والسماحُ معتقدان
وجهه مُشْرِقٌ الى مُعتفيه ... ويداه بالغيث سفحران
جعل الدهرَ بين يوميه قسمين ... بين عُرْفٍ حَرْبٍ وحرّ طعان
فاذا سار بالخميس لحربٍ * كَلّ عن نَصّ جَرْيه الخافقان
واذا ما هززتَه لنوالٍ * ضاق عن رحب صدره الأُفُقان
غيثُ جدبٍ إذا أقامَ ربيعٌ ... يتغشّى بالسَّيْبِ كلَّ مكان
يا أبا غانم بَقيتَ على الدهـ * ـرِ وخُلّدت ما جَرَى العصران

ما لُبَانِي إذا عَدَتْك المنايا * مَنْ أصابتْ بكَلْكَلٍ وجِرَانِ
قد جعلنا اليك بعثَ المطايا * هَرَمًا من زماننا الخوّانِ
وحملنا الحاجاتِ فوق عِتاقٍ * صامتاتٍ حوائحَ الركبانِ
ليس جودٌ وراء جودك يُبْنا * بُ ولا يَعْتَفِي لغيرك عانى

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وقال. تلك كأس للصوم فخففت وحففنا، وهذه للفطر فقد رددتنا وزدناك .

ولما مات حُمَيد الطوسيّ رثاه بقصيدته العينيه المشهوره التي تُعَدّ من نادر الشعر وبديعه، وهي :

أللدهرِ تبكي أم على الدهر تجزَعُ * وما صاحبُ الأيامِ إلا مُفَجَّعُ
ولو سَهُلت عنك الأسَى كان في الأسَى * عزاءُ معزٍّ للبيب ومَقْنَعُ
تَعَزَّ بما عَزَّيتَ عيرَك إنها * سِهامُ المنايا حائماتٌ ووُقَّعُ
أُمِنْنا بيومٍ في حُمَيْدٍ لَوَ انّه * أصاب عروشَ الدهرِ طلّتْ تَضَعضعُ
وأدْبَنا ما أدّب الناسَ قبلَنا * ولكنه لم يبق للصبر موضعُ
ألم تر للأيام كيف تصرّمت * به، وبه كانت تُذادُ وتُدْفَعُ
وكيف التقى مثوًى من الأرض ضيِّقٌ * على حِملٍ كانت به الأرضُ تُمْسِعُ
ولما انقصتْ أيامُه انقصت العُلاَ * وأضحى به أنفُ الندَى وهو أجدعُ
ورَاحَ عدوّ الدِّين حذلانَ يَنتحي * أمانيّ كانت في حَشاه تقطّعُ
وكان حُمَيدٌ مَعْقِلًا ركعتْ به * قواعدُ ما كانت على الصيم تركعُ
وكنت أراه كالرزايا رُزِئتُها * ولم أدر أن الخلقَ تبكيه أجمعُ
حِمَامٌ رَمَاه من مواضع أمْنِه * حِمَامٌ، كذاك الخطب بالخطب يُقْدَعُ
وليس بغَرْوٍ أن تُصيب منيّةٌ * حِمَى أحتها أو أن يَذِلّ المُمَنَّعُ
لقد أدركتْ فيما المنايا شارها * وحلّتْ بخطبٍ وهيُه ليس يُرْقَعُ

نَعَاءِ حُمَيْدًا للسرايا إذا غدتْ * تداد بأطراف الرماح وتُوزَعُ
وللرُّهَق المكروبِ ضاقتْ بأمره * فلم يدر فى حوماتها كيف يصنعُ
وللبيض حلّتها العقولُ ولم يدع * لها غيرَه داعى الصباح المفزّعُ
كأنّ حميدا لم يقُدْ جيشَ عسكرٍ * إلى عسكر أشياعُه لا ترَوّعُ
ولم يَبْعَثِ الخيلَ المغيرةَ بالضحى * مِراحًا ولم يرجِعْ بها وهى ظُلَّعُ
رواحَ يحملن النِّهابَ ولم تكن * كتائبُه إلا على النَّهْب ترجِعُ
هوى حبلُ الدنيا المبيعُ وعيثُها الـ * ـمَريعُ وحاميها الكمىُّ المشيّعُ
وسيفُ أمير المؤمنين ورحْمُه * ومفتاحُ باب الحطب والحطبُ أفظعُ
فأقمعه من مُلْكه ورِباعه * وبائله قَفْرٌ من الأرض بَلْقَعُ
على أى شجوٍ تشتكى النفسُ بعده * إلى شجوه أو يذخَرُ الدمعَ مَدْمَعُ
ألم تر أن الشمس حَالَ ضياؤها * عليه وأضحى لونُها وهو أسفَعُ
وأوحشتِ الدنيا وأودَى بهاؤها * وأحدثَ مَرْعاها الذى كان يَمْرُعُ
وقد كانت الدنيا به مطمئنّةً * فقد جعلت أوتادُها تتقلّعُ
بكى فقدَه روحُ الحياة كما بكى * نَدَاه الندَى وابنُ السبيل المُدَفَّعُ
وفارقتِ البيضُ الخدورَ وأُبْرِزتْ * عواطلَ حَسْرَى بعده لا تقنّعُ
وأيقظ أجفانًا وكان لها الكرى * ودامت عيونٌ لم تكن قبل تهجَعُ
ولكنه مقدارُ يومٍ ثَوَى به * لكل امرئ منه نهالٌ ومَشْرَعُ
وقد رأّبَ الله الملا بمحمد * وبالأصل يَمْى فرعُه المتفرّعُ
أغرّ، على أسيافه ورِماحه * تُقَسَّم أنهالُ الحميس وتُجمَعُ
حَوَى عن أبيه بَذْلَ راحتِه الندَى * وطعنَ الكُلَى والزاعبيّةُ شُرَّعُ

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٤٩/١٩٢٧/٣١٥٠)

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فريد رفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثالث

(حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ — ١٩٢٧ م

فهرس

المجلد الثالث من عصر المأمون

ملحق الكتاب الثالث — عصر الأمين والمأمون

باب المنشور : صفحة

نصوص كتب الأمين والمأمون — نص كتاب الأمين الى المأمون ١
نص كتاب الأمين الى أخيه صالح ٢
القول محاق القرآن (مما كتبه المأمون الى ولاته) ٥
عهد طاهر بن الحسين ١٧
رسالة ابن دريس (مما كتبه المأمون الى أهل خراسان) ٢٦
ما كتبت به السيدة زبيدة الى المأمون — ما كتبه المأمون اليها ٣٨
رسالة أحمد بن يوسف ٣٩

رسائل سهل بن هارون :

وصفه وتاريخ حياته — ما حكاه الحاحظ عنه ٤٨
ما حكاه دعبل الخزاعى الشاعر عنه ٤٩
كتبه وطريقته فى التأليف ٥٠
من كلام له فى كتابه ثملة وعمرة ٥٢
ما كتبه الى صديق له أبل من صعف — رسالته فى البخل ٥٣
شيء من شعره... ... ... ٥٧

رسائل عمرو بن مسعدة :

وصفه وتاريخ حياته ٥٩
من كلام له — ما كتبه الى الحسن بن سهل — ما كتبه الى المأمون ٦١
من حكمه ٦٢

صفحة

ما كتبه الى بعض الرؤساء ٦٤
شيء من شعره ٦٥
حكاية له ٦٦
ما قاله أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي فيه ٧٠

رسائل الجاحظ :

وصفه وتاريخ حياته — رسالته في بني أمية ٧٢
ما كتبه الى بعض إخوانه في ذم الزمان ٨٠
وصفه لقريش وبني هاشم ٨٢
ما كتبه في الاعتذار — ما كتبه في الاستعطاف ٨٣
ما كتبه في ذم الحسد — دفاعه عن مؤلفاته ٨٤
ما كتبه في أحد الرؤساء يذم المذمت ٩٢
ما كتبه في أقسام البيان ٩٨
ما كتبه في مدح الكتب ١٠١
ما كتبه في الترغيب في اصطناع الكتب ١١٥

باب الرسائل :

الفصول المنتخبة من الرسائل المختارة في كل فنّ — كتب رحل الى صديق له ١٢٨
فصل لسعيد بن حميد ١٣١
فصل في هدية — فصل في شفاعة — فصل لرجل تميميّ — فصل لأحمد بن يوسف
فصل في الصفح لأبي عليّ — فصل لأحمد بن يوسف ١٣٣
فصل لعقال بن شبة — فصل في الوديع — فصل في الصفح — جواب في فتح ١٣٤
فصل في الصفح عن الجفاء — فصل في الاعتذار ١٣٥
الى المأمون من عامل — فصل لابن الكلبي ١٣٦
فصل لابراهيم بن اسماعيل بن داود ١٣٧
فصل لعمرو بن مسعدة ١٣٨
فصل لعيسى بن واصح الى الفضل بن ربيع — فصل لجحل بن يزيد ... ١٣٨
وله في المطر — وله الى بعض اخوانه ١٣٩
فصل لابن أعين كاتب الخيزران — فصل لابن الكلبي — فصل لعليّ بن عبيدة الى ابن الكلبي ١٤٠
فصل لمعاوية — فصل لسعيد بن عبد الملك ١٤١

صفحة

فصل لحمل بن يزيد الى بعض اخوانه — وله الى بعض اخوانه أيضا ١٤٢

فصل فى شكر... .. .. ١٤٤

فصل فى صفة الحمد ١٤٥

ما كتبه حمدون بن محمد الأشعث الى رجل لم يكاتبه — ما كتبه الفضل بن يحيى الى رجل يشاوره فى أمر حدث — ما كتبه أحمد بن يوسف الى اسحاق بن ابراهيم الموصلى — توسل ١٤٦

ما كتبه طاهر بن الحسين الى الفضل بن سهل — ما كتبه محمد بن الجهم — ما كتبه محمد بن مسعر — ما كتبه ابن وهب فى الاعتذار ١٤٧

التحاميد :

التحميد الأول — التحميد الثانى ١٤٨

صدر تحميد مفرد — صدر تحميد آخر — تحميد مختار لكاتب حريمة بن حازم فى فتح الصارية — تحميد لأحمد بن يوسف الى الولاة عن الخليفة ١٤٩

تحميد لابراهيم بن العباس فى فتح اسماعيل بن اسحاق — التحميد الثانى — تحميد له مبتدأ مقام بين يدى الخليفة ١٥٠

تحميد ثان — تحميد ثالث ١٥١

تحميد فى فتح لابن العباس ١٥٣

وله فى فتح ابن الهيثم لما ظهر به ١٥٣

وله صدر كتاب الحميس فى تحميد الله وتمجيده ١٥٤

تحميد لأحمد بن يوسف فى صدر رسالة الحميس التى كانت تقرأ بحراسان ١٥٥

تحميد للعباس فى مقام له بين يدى المأمون — تحميد لعبد الحميد فى أبى العلاء الحرورى ١٥٦

تحميد فى فتح الى أمير لقمامة — صدر تحميد لعباس بن عبد الحميد فى خطبة موجزة — تحميد لعبد الحميد فى فتح ١٥٧

تحميد ثان ١٥٨

تحميد لأنس بن أبى شيخ — تحميد لعبد الحميد فى فتح يعظم فيه أمر الاسلام ١٥٩

تحميد لعبد الحميد أيضا ١٦٠

تحميد لقمامة — تحميد لزيد بن على — تحميد فى الاسلام ١٦١

تحميد لأبى عبيد الله ١٦٢

صدر رسالة فى الحميس لابراهيم بن المهدى ١٦٣

تحميد فى الاسلام وما امتن به على أهله ١٦٤

تحميد فى الجهاد وما بعث به النبى صلى الله عليه وسلم... .. .. ١٦٥

صفحة

تحميد فى فتح لسعيد بن حميد ١٦٨
تحميد لابن المقفع ١٦٩
تحميد لعساس بن عبد الحميد — تحميد لأحمد بن يوسف فى فتح السند ١٧١
تحميد لأبى عبيد الله — تحميد لسعيد بن حميد. ١٧٢
فيما يقترط به الخليفة ١٧٣
تحميد لأبى عبيد الله ١٧٧
ما يكتب به فى المخالفين وقت الهزيمة ١٨٠
ما يكتب به فى صفة الخالين ١٨١
ما يكتب به فى العصاة — ما يكتب به فى مدح قواد الجيوش وصفة الأولياء فى أحوالهم ... ١٨٤
وصف الأولياء فى الكتب ١٨٧
ما يقترط به أمير المؤمنين فى أواخر الكتب — سعيد بن حميد ١٨٨

التحاميد فى أواخر الكتب :

تحميد لسعيد بن نصر — تحميد لابراهيم بن العباس — تحميد لأبى عبيد الله ١٨٨
الدعاء لأمير المؤمنين فى أواخر الكتب ١٩٢

مختار ما كتب من باب التهانى فى كل فن :

تهنئة خليفة بظفر — ما كتبه ابراهيم بن المهدىّ الى المعتصم يهنئه بخروجه عن أرض الروم
بعد فتح عمورية ١٩٣
ما كتبه أحمد بن يوسف الى عبد الله بن طاهر يهنئه بظفر — تهنئة خليفة بمحج ... ١٩٤
تهنئة بولاية — تهنئة لسعيد بن حميد الى بعض اخوانه... ... ... ١٩٥
ما كتبه محمد بن مكرم الى أحمد بن دينار ١٩٧
تهنئة بعزل عامل عن عمله ١٩٨
ما كتبه محمد بن مكرم الى ابراهيم بن المدبر ١٩٩
تهنئة بتزويج وبناء أهل ٢٠٠
تهنئة بمولود كتبها العباس بن الحسن الطالى الى المأمون... ... ... ٢٠١
ما كتبه ابن المقفع الى صديق له ولدت له جارية ٢٠٤
تهنئة لمحمد بن مكرم الى نصراى أسلم ٢٠٥

باب المنظوم :

أبو نواس ٢٠٦
القنان ٢٤٩

صفحة

دعبل ... ٢٥٥
حسين بن الضحاك ٢٦٥
محمد بن عبد الملك الزيات ٢٧٨
ابن التوأم ٢٨٣
الحريمي ٢٨٦
عبد الله بن طاهر ٢٩٥
ما قيل في هجاء الأمين ورثائه ٢٩٨
هجاء يحيى بن أكثم ٣٠٣
وصف ثورة بغداد وحريقها ٣٠٥

مُلحَق

الكتاب الثالث

باب المنثور

(أ) نصوص كتب الأمين والمأمون

١ — نص كتاب الأمين الى المأمون؛ وهو الكتاب الذى أشرنا اليه فى الجزء الأول.

إذا ورد عليك كتابُ أخيك — أعاده الله من فقدك — عند حلول ما لا مردّ له ولا مَدْفع، مما قد أحلف وتاسخ الأمم الخالية، والقرون الماضيه، بما عزّاك اللهُ به. وأعلم أن الله جلّ ثناؤه، قد آختار لأمير المؤمنين أفضلَ الدارين، وأجزلَ الحظين، فقبَضه الله طاهرا زاكيا، قد شكر سعيَه، وغفر ذنبه، إن شاء الله. فقُمْ فى أمرك قيامَ ذى الحزم والعزم، والناظرِ لأخيه ونفسه، وسلطانه وعامة المسلمين. وإيّاك أن يَغلِب عليك الجزعُ، فإنه يُحبِط الأجر، ويُعقِب الوزر، وصلوات الله على أمير المؤمنين حيًّا ومَيِّتًا، وَإنّا لله وإنّا إليه راجعون. وخُذِ البيعة على مَنْ قِبلَك، من قُوّادك وجُنْدك، وخاصّتك وعامّتك، لأخيك ثم لنفسك، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشَّريطة التى جعلها لك أميرُ المؤمنين: من نسخها له وإثباتها، فإنك مُقلَّد من ذاك، ما قلّدك اللهُ وحليفتُه.

وأعْلِمْ مَنْ قِبَلك رأيى فى صلاحهم، وسدّ خَلّتهم، والتوسعة عليهم؛ فمن أنكرتَه عند بيعته، أو آتّهمتَه على طاعته، فابعثْ الىّ برأسه مع خبره. وإياك وإقالتَه، فإنّ النارَ أولى

به . وآكتُبْ الى عُمّال ثُغورك، وأُمَراءِ أجنادك، بما طَرَقك من المصيبة بأمير المؤمنين ؛ وأعْلِمْهم أنّ الله لم يرضَ الدنيـا له ثوابا ، حتى قبضه الى رُوحه وراحته وجنّته ، مَغْبوطا محمودا، قائدا لجميع حلفائه إلى الجنه إن شاء الله . ومُرْهم أنْ يأخذوا البيعةَ على أجنادهم، وخواصّهم وعوامّهم، على مثـل ما أمرتك به، مِنْ أخذها على مَنْ قِبَلك ؛ وأوعز إليهم فى ضبط ثُغُورهم، والقوّة على عدوّهم، إنّى متفقّدٌ حالاتهم، ولامٌّ شَعَثَهم، ومُوَسِّع عليهم، ولا آلٍ فى تقوية أجنادى وأنصارى . ولتكنْ كُتبُك اليهم كُتبًا عامةً لتُقْرأ عليهم، فإنّ ذلك ما يسكّنهم، ويبسُط أملَهم . وآعمل بما تَأمُر به لمَنْ حضرك، أو نأى عنك من أجنادك على حسب ما ترَى وتُشاهد . فإن أحاك بعـرف حسْن آختيارك، وصحّة رأيك، وبُعـد نظرك، وهو يستحفظ الله لك، ويسأله أن يَشُدّ بك عضده، ويجمعَ بك أمرَه، إنّه لطيف لمـا يشاء . وكتب بكر بن المُعْتَمِر بين يدىّ وإملائى فى شوّال سنه ١٩٢ هـ

٢ — وهذا كتاب محمد الأمين الى أخيه صالح .

بسم الله الرحمن الرحيم

اذا ورد عليك كتابى هـذا، عند وقوع ما قد سبَق فى علم الله، وبقَد من قضائه، فى حُلفائه وأوليائه، وجرَت به سنته فى الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. فاحمدوا الله على ماصار اليه أمير المؤمنين، من عظيم ثوابه ومُرافقة أنبيائه، صلوات الله عليهم، إنّا إليه راجعون، وإيّاه نسأل أنْ يُحسِن الخلافه على أمّته نبيـه محمد صلّى الله عليـه وسلّم . وقد كان لهم عِصْمَةً وكهفا، ونعم رءوفا رحـيما .

فشمّر فى أمرك ، وإيّاك أنْ تُلْقِ بيدك ، فإن أحاك قد آختارك لمـا آستنهضك له ، وهو مُتفقّد مواقع فقدانك ، فحقق طنـه ، ونسأل الله التوفيق . وحذ البيعة على مَنْ قِبَلك ، من ولد أمير المؤمنين ، وأهْل بيته ومواليه وخاصـته وعامته لمحمد أمير المؤمنين ، ثم لعبـد الله ابن أمير المؤمنين ، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين ، على الشّريطة التى جعلها

أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — من فسحها على القاسم أو إشاتها . فإنّ السعادة واليُمْن فى الأخذ سهده والمُصِيِّ على مناهجه .

وأعلم مَنْ قِبَلَك من الخاصة والعامّة رأيى فى آستصلاحهم، وردّ مَظالِمهم ، وتَفقُّد حالاتهم ، وأداء أرزاقهم، وأعْطياتهم عليهم . فإن شَعَب شاعب، أو نَعَر ناعر، فاسْطُ به سَطْوةً تجعله نَكالا لما بين يدَيْها وما خَلْفَها ومَوْعظةً للتميى . وآضْمُم إلى الميمون ابن الميمون الفَضْلِ بن الربيع ولدَ أمير المؤمنين وحدَمه وأهله ، ومُرْه بالمسير معهم فيمن معه ، وجنده ورابطته ، وصَيِّر الى عبد الله بن مالك أمرَ العسكر وأحداثه ، فإنّه ثِقةٌ على ما يلى ، مقبولٌ عند العامّة، وآضُمم إليه جميع جند الشَّرَط ، من الروابط وغيرهم، الى مَنْ معه من جنده، ومُرْه بالجدّ والتيقّظ، وتقديم الحزْم فى أمره كلّه، ليلَه ونهارَه . فإنّ أهل العداوة والنفاق لهذا السلطان يَغْتنِمون مثلَ حلول هذه المصيبه، وأقِرّ حاتم بن هرثمةَ على ما هو عليه ، ومره بحراسة ما يحفظ به قصور امير المؤمنين ، فإنّه ممن لا يُعْرَف إلّا بالطاعة ، ولا يَدِين إلا بها ، بمعاقدَ من الله ، مما قدّم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء، ومُر الخدم بإحضار روابطهم، مَنْ بُسِطَ بهم و بأجنادهم مواضعُ الخلل من عسكرك ، فإنهم حدٌّ من حدودك، وصبّر مُقدّمَتك الى أسَد بن يزيد بن مَزْيد، وساقَتك الى يحيى بن مُعاذ، فيمن معه من الجنود ، ومرهما بمناوبتك فى كل ليلة .

وآلزم الطريقَ الأعظم، ولا تَعْدُوَنّ المراحل، فإنّ ذلك أرفق بك، ومر أسد بن يزيد، أن يَتخيّر رجلا من أهل بيته أو قوّاده، فيَصيرَ الى مقدّمته، ثم يصيرَ أمامَه، لتهيئه المنازل، أو بعض الطريق؛ فإن لم يَحْضُرْك فى عسكرك بعضُ مَنْ سميتُ، فاحترْ لمواضعهم مَنْ تثِق بطاعته، ونصيحته وهيبته، عند العوامّ؛ فإنّ ذلك لى يُعْوِزَك، من قوادك وأنصارك، إن شاء الله .

وإيّاك أن تُنْفِذَ رأيا، أو تُبْرِم أمرا ، إلّا برأى شيخك ، و بقية آمائك ، الفضل بن الربيع، وأقِرِر جميع الخدم على ما فى ايديهم من الأموال والسلاح والخزائن وغير ذلك؛

ولا تُحْرِجَنّ أحدا منهم، مِن صمن ما يلي، الى أن تقدم عليّ. وقد أوصيت بكر بن المُعْتَمِر بما سَيُبلّغكه، وٱعْمَلْ فى ذلك بقـدر ما تشاهد وترى. وإن أمرت لأهل العسكر بعطاء أو رزق فليكن الفضـل بن الربيع المتولى لإعطائهم، على دواوينَ يتخذها لنفسه، بمحْضَرٍ مِن أصحاب الدواوين، فإن الفضل بن الربيع لم نزَل مثلَ ذلك لمهمات الأمور. وأنفِذْ إليّ عند وصول كتابى هـذا إليك إسماعيـلَ بن صَبِيح، وبكرَ بن المُعْتَمِر، على مَرْكَبَيْهما من البريد، ولا يكون لك عُرْجَة ولا مُهْلة، بموضـعك الذى أنت فيـه، حتى تُوَجّه الىّ بعسكرك بما فيه من الأموال والخزائن إن شاء الله. أخوك يَسْتودِع الله عنك، ويسألُه لك حسن التأييد برحمته. وكتب بكر بن المُعْتَمِر بين يدىّ وإملائى فى شوّال سنة ١٩٢ هـ.

(ب) القول بخلق القرآن

وهاك مثلًا مما كتبه المأمون إلى وُلاته فى الأخذ بمذهبه فى القول بخلق القرآن، وهو ما أرسله إلى عامله إسحاق بن إبراهيم وما يَرويه لنا الطبرى مما حصل .

أما الكتاب فهو :

أما بعد، فإن حقّ الله على أئمّة المسلمين وخُلفائهم الاجتهادُ فى إقامة دين الله الذى استحفظهم، ومواريث النبوّة التى أورثهم، وأثَر العلم الذى استودَعهم، والعمل بالحق فى رعيتهم، والتشمير لطاعة الله فيهم. والله يسأل أميرَ المؤمنين، أنْ يوفّقه لعزيمة الرُّشد وصريمته، والإقساط فيما ولّاه الله من رعيّته، برحمته ومنّته، وقد عَرف أمير المؤمنين أنّ الجُمْهور الأعظم، والسوادَ الأكبر، من حشو الرعيّة، وسِفْلَة العامّة، ممن لا نظر له ولا رويّة، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته، ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه، فى جميع الأقطار والآفاق، أهلُ جهالة بالله وعَمًى عنه، وصلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به، ونُكوبٍ عن واضحات أعلامه وواجب سبيله، وقصورٍ أن يقدُروا اللهَ حقّ قَدْره، ويعرفوه كُنْهَ معرفته، ويفرّقوا بينه وبين خلقه، لضعف آرائهم، ونقص عقولهم، وحمقائهم عن التفكر والتدبّر، وذلك أنّهم ساوَوْا بين الله تبارك وتعالى، وبين ما أنزل من القرآن، فأطلقوا مجتمعين، واتّفقوا غير مفترقين، على أنّه قديمٌ أوّل، لم يخلقه الله، ويُحدثه ويَخترعه، وقد قال الله عز وجل فى مُحْكم كتابه، الذى جعله لما فى الصدور شفاءً، وللمؤمنين رحمةً وهدى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ . فكلّ ما جعله الله فقد خلقه، وقال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ . وقال عز وجل : ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ . فأخبر أنه قَصَصٌ لأمور أحدثه بعدها، وتلا به مُتقدِّمها، وقال : ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ . وكلّ مُحْكَم مُفصَّل، فله مُحْكِمٌ مُفصِّل، والله مُحْكِم كتابه ومفصِّله، فهو خالقُه ومُبْتدِعه،

ثم هم الذين حادلوا بالباطل، فدعوْا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنّة، وفى كلّ فصل من كتاب الله قَصَصٌ من تلاوته، مُبطل قولَهم، ومكذِّب دعواهم، يردّ عليهم قولهم ونِحلتهم، ثم أطهروا مع ذلك أنّهم أهل الحق والدين والجماعة، وأنّ مَنْ سواهم أهلُ الباطل والكفر والفُرقة، فاستطالوا بذلك على الناس، وغرُّوا به الجُهّال، حتى مال قومٌ من أهل السِّمْت الكاذب، والتحشُّع لغير الله، والتقشُّف لغير الدين الى مُوافقتهم عليه، ومواطأتهم على سَيِّئ آرائهم، تزيُّنًا بذلك عندهم، وتصنُّعًا للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحقّ إلى باطلهم، واتخذوا دون الله وليجةً إلى صلالتهم، فَقُبِلَتْ بتركيتهم لهم شهادتُهم، ونفدت أحكام الكتاب بهم، على دَغَل دينهم، وغَلَل أديمهم، وفساد نيّاتهم ويقينهم؛ وكان ذلك عايتهم التى اليها حَرَوْا، وإيّاها طلبوا فى متابعتهم، والكذب على مولاهم، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب، ألّا يقولوا على الله إلّا الحقّ، ودرسوا ما فيه، أولئك الذين أصمَّهم الله، وأعمَى أبصارَهم، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شرار الأمة، ورءوس الضّلالة، المَنْقوصون من التوحيد حظا، والمَخْسوسون من الإيمان نصيبًا، وأوعية الجَهالة وأعلام الكذب، ولسان إبليسَ الناطق فى أوليائه، والهائل على أعدائه، من أهل دين الله، وأحقّ مَن يُتَّهَمُ فى صدقه، وتُطرح شهادتُه، ولا يوثَقُ بقوله ولا عمله، فإنّه لا عمَل إلّا بعد يقينٍ، ولا يقينَ إلّا بعد استكمال حقيقة الإسلام، وإخلاص التوحيد، ومَنْ عمِى عن رشده وحظّه، من أهل الإيمان بالله وبتوحيده، كان عمّا سوى ذلك من عمله، والقَصْد فى شهادته، أعمَى وأضلّ سبيلا؛ ولعَمْر أمير المؤمنين أنّ أحجَى الناس بالكذب فى قوله، وتحرُّص الباطل فى شهادته مَنْ كذَب على الله ووحيه، ولم يَعرِف الله حقيقةَ معرفته، وأنّ أولاهم بردّ شهادته، فى حكم الله ودينه مَن ردّ شهادة الله على كتابه، وبهتَ حق الله بباطله، فاجمَعْ مَن بحضرتك من القصاة، واقرأ عليهم كتابَ أمير المؤمنين هذا إليك، فابْدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون، فى خلق الله القرآن وإحداثه؛ وأعْلِمْهم أنّ أمير المؤمنين غيرُ مستعين فى عمله، ولا واثقٍ

فا قلّده الله، واستحفظه من أمور رَعيّته بمَن لا يوثق بدينه، وحُلوص نوحيده ويقينه، فإذا أقرّوا بذلك، ووافقوا أميرَ المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فرُدّهم بنصّ مَن يَحصُرهم من الشهود على الناس، ومَسْألَتهم عن عِلْمهم فى القرآن، وبرك إثبات شهادة من لم يُقِرّانّه مخلوق مُحْدَث ولم يره، والامتناع من توقيعها عنده، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك، عن قُضاه أهل عَملك فى مسألتهم، والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أشرِف عليهم، وتفقّدْ آثارهم، حتّى لا تُفقَدَ أحكامُ الله، إلّا بشهاده أهل البصائر فى الدين، والإخلاص للتوحيد، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك إن شاء الله . وكتب فى شهر ربيع الأوّل سنه ٢١٨ هـ .

وكتب المأمون، الى إسحاق بن ابراهيم، فى إشخاص سبعه نفر، منهم : محمد بن سعد كاتب الواقدى، وأبو مسلم مستملى يزيد بن هارون، ويحيى بن مُعين، وزُهير بن حَرْب أبو خَيْثَمَة، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبى مسعود، وأحمد بن الدَّوْرَقِىّ، فأشخصوا اليه، فامتحنهم، وسألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعا أنّ القرآن مخلوق، فأشخصهم إلى مدينة السلام، وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم دارَه، فشهّر أمرهم وقولَهم بحضره الفقهاء، والمشايخ من أهل الحديث، فأقرّوا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلّى سبيلهم، وكان ما فعَلَ إسحاق بن إبراهيم من ذلك بأمر المأمون .

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن ابراهيم :

أما بعد، فإن من حق الله على خُلفائه فى أرضه، وأُمنائه على عباده، الذين ارتضاهم لإقامة دينه، وحمّلهم رِعاية خلقه، وإمضاءَ حُكْمه وسُنَنه، والائتمامَ بعدله فى بريّته، أن يَجْهَدوا لله أنفسَهم، ويَنْصَحوا له فيما استحفظَهم وقلدهم، ونَدْبوا عليه — تبارك اسمُه وتعالى — بفضل العلم الذى أودعهم، والمعرفةِ التى جعلها فيهم، ويَهْدوا إليه مَن زاغ عنه، ويردوا مَن أدبَر عن أمره، وينْهجوا لرعاياهم سَمْت نجاتهم، ويقيموهم على حدود إيمانهم، وسبيل فوزهم وعصمتهم، ويَكْشفوا لهم عن مُغطّيات أمورهم، ومشتبهاتها

عليهم، بما يدفعون الريب عنهم، ويعودُ بالصياء والبدء على كافتهم، وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم، إذ كان جامعا لصون مصالحهم، ومنطبا لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم، ويتذكروا أن الله مُرْصِدٌ من مساءلتهم عمّا حُمّلوه، ومحاراتهم بما أسلفوه، وقدّموه، وما توفيقُ أمير المؤمنين، إلا بالله وحده، وحسبه الله وكفى به. ومما بنّيه أمير المؤمنين بَرَوِيّته، وطالعه بفكره، فتبيّن عظيمَ خطره، وجليلَ مايرجع فى الدين من وَكْفِه وصرره ما ينال المسلمون بيمنه من القول فى القرآن الذى جعله الله إماما لهم، وأثرًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم باقيا لهم، وآشتباهه على كثير منهم، حتّى حسُن عندهم، ورسّ فى عقولهم، ألّا يكون مخلوقا، فتعرّضوا بذلك لدفع خالق الله، الذى بان به عن خلقه، وتفرد بجلالته من آبتداع الأشياء كلّها بحكمته، وإنشائها بقدرته، والتقدّم عليها بأوّليته، التى لا تُلْفَى أوّلاها، ولا تدرك مداها، وكان كلّ شىء دونَه، خلقا من خلقه، وحدَثا هو المُحْدِث له، وإن كان القرآن ناطقا به، ودالا عليه، وقاطعا للآختلاف فيه، وصاهَوْا به قول النصارى، فى آدّعائهم فى عيسى بن مريم أنّه ليس بمخلوق، إذ كان كلمةَ الله، والله عزّ وجل يقول ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾. وتأويل ذلك: إنا خلقناه، كما قال جل جلاله ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾. فسوى عز وجل، بين القرآن، وبين هذه الخلائق، التى ذكرها فى شيئه الصنعه، وأخبر أنّه جاعلُه وحدَه، فقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾. فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن، ولا يُحاط إلّا بمخلوق، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾. وقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾. وقال. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ آفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾. وأخبر عن قوم ذمّهم بكذبهم، أنهم قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾. ثم أكذبهم على لسان رسوله، فقال لرسوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾. فسمى الله تعالى القرآن قرآنا وذِكرًا، وإيمانًا ونورا وهدًى ومباركا وعربيّا

وقصصا، فقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ . وقال : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ . وقال : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ . وقال : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ . فجعل له أوّلا وآخرا، ودلّ عليه، أنّه محدودٌ مخلوق، وقد عظّم هؤلاء الجهلةُ بقولهم فى القرآن، الثّلْم فى دينهم، والحَرَج فى أمانيهم، وسهّلوا السبيل لعدوّ الإسلام، وآعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرّفوا، ووصفوا حاكى الله وفعله بالصفة التى هى لله وحدَه وشبّهوه به، والإشباه أولى بخلقه، وليس يرى أميرُ المؤمنين، لمن قال بهذه المقالة حظًّا فى الدين، ولا نصيبًا من الإيمان واليقين، ولا يرى أنْ يُخِلّ أحدا منهم محلّ الثقة فى أمانة ولا عدالة ولا شهادة، ولا صِدْقٍ فى قول ولا حكاية، ولا توليه لشىء من أمر الرعية، وإن طهرَ قصد بعضهم، وعُرِف بالسداد مُسَدَّدٌ فيهم، فإنّ الفروع مردودة الى أصولها، ومحمولةٌ فى الحمد والذم عليها، ومَن كان جاهلا بأمر دينه، الذى أمره الله به، من وحدانيته، فهو بما سواه أعظم جَهلا، وعن الرشد فى غيره أعمى وأضل سبيلا .

فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق القاضى كتابَ أمير المؤمنين، بما كتب به إليك، وانصصهما عن علْمهما فى القرآن، وأعلمْهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شىءٍ من أمور المسلمين، إلّا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده، وأنّه لا توحيد لمن لم يُقِرّ بأن القرآن مخلوق، فإنْ قالا بقول أمير المؤمنين فى ذلك فتقدّم اليهما فى آمتحان مَن يحضُر مجالسهما، بالشهادات على الحقوق، ونصّهم عن قولهم فى القرآن، فمَن لم يقل منهم إنّه مخلوق، أبطَلا شهادته، ولم يقطعا حكما بقوله، وان ثبت عفافُه بالقصد والسداد فى أمره، وآفعل ذلك بمن فى سائر عملك من القضاة، وأشرف عليهم إشرافا يزيد الله به دا البصيره فى بصيرته، ويمع المرتاب من إعمال ديبه، وآكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك فى ذلك إن شاء الله .

ثم لسطر ما حصل بعد ذلك مما يَروبه لنا الطبرى قال :

فأحضر إسحاق بن إبراهيم لذلك جماعةً من الفقهاء والحُكّام والمحدِّثين، وأحضر أبا حسّان الزّيادىّ، و بشر بن الوليد الكِندىّ، وعلى بن أبى مُقاتل، والفضل بن عامر، والدّيّال بن الهَيْثَم، وسَجّاده، والقَوارِيرىّ، وأحمد بن حنبل، وقُتَيْبه، وسَعْدويه الواسطىّ، وعلىّ بن الجَعْد، و إسحاق بن أبى إسرائيل، وابن الهَرْش، وابن عُلَيّة الأكبر، ويحيى ابن عبد الرحمن العُمَرىّ، وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطّاب، كان قاضى الرقّه وأبا نصر التمّار وأبا مَعْمَر القَطيعىّ، ومحمّد بن حاتم بن ميمون، ومحمد بن نوح المَصْروب، وابن الفَرْخان، و جماعه منهم النَّضر بن شُمَيْل، وابن علىّ بن عاصم، وأبو العَوّام البَزّاز، وابن شُجاع، وعبدالرحمن بن إسحاق، فأُدخلوا جميعا على إسحاق، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرّتين، حتّى فهموه، ثم قال لبشر بن الوليد . ما تقول فى القرآن؟ فقال . قد عرّفت مقالتى لأمير المؤمنين غيرَ مرّه، قال . فقد تحدّث من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى، فقال: أقول القرآن كلام الله، قال : لم أسألكَ عن هذا، أمخلوقٌ هو؟ قال . الله خالق كلّ شىء، قال : ما القرآن شىء؟ قال . هو شىء، قال . مخلوق؟ قال ليس بخالق، قال : ليس أسألكَ عن هذا ، أمخلوق هو؟ قال . ما أحسن غيرَ ما قلتُ لك ، وقد استعهدت أميرَ المؤمنين ألّا أتكلّم فيه، وليس عندى غير ما قلتُ لك ، فأخذ إسحاق بن ابراهيم رُقْعَةً كانت بين يديه ، فقرأها عليه، ووَقَفه عليها ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله أحدا فردا لم يكن قبله شىءٌ، ولا بعده شىء ، ولا يشبهه شىء من خلقه، فى معنًى من المعانى، ولا وجهٍ من الوجوه، قال : نعم، وقد كنتُ أضرِب الناس على دون هذا ؛ فقال للكاتب : اكتب ما قال .

ثم قال لعلىّ بن أبى مُقاتل : ما تقول يا علىّ ؟ قال : قد سمعتُ كلامى لأمير المؤمنين فى هذا غيرَ مرّة ، وما عندى غيرُ ما سمع، فامتحنه بالرقعة، فأقرّ بما فيها، ثم قال : القرآن مخلوق؟ قال : القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا، قال : هو كلام الله و إن أمرنا أمير المؤمنين بشىء سمعنا وأطعنا، فقال للكاتب : اكتب مقالته .

ثم قال للذيّال نحوا من مقالته لعليّ بن أبى مُقاتل ، فقال له مثل ذلك . ثم قال لأبى حسّان الزّيادىّ : ما عندك ؟ قال : سَلْ عمّا شئت ، فقرأ عليه الرّقعة، ووقّفه عليها فأقرّ بما فيها. ثم قال : من لم يقل هذا القولَ فهو كافر، فقال : القرآن مخلوق هو ؟ قال : القرآن كلام الله والله خالقُ كلّ شىء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامُنا وبسببه سمعنا عامة العلم، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلِم ما لم نعلم ،وقد قلّده الله أمرنا ،فصار يُقيم حَجّنا وصلاتنا، ويؤدّى اليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه، ونرى إمامته إمامة ، وإن أمرنا ائتمرنا ، وإن نهانا انتهينا، وإن دعانا أجبنا، قال . القرآن مخلوق هو ؟ فأعاد عليه أبو حسّان مقالَته، قال : إن هذه مقالةُ أمير المؤمنين، قال : قد تكون مقالةَ أمير المؤمنين ولا يأمرُ بها الناس ، ولا يدعوهم اليها ، وإن أحببتنى أنّ أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلتُ ما أمرتنى به، فإنك الثقة، المأمون عليه، فيما أبلغتنى عنه من شىء ، فإن أبلغتى عنه بشىء صِرتُ اليه، قال : ما أمرنى أن أبلّغك شيئا، قال على بن أبى مقاتل : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الفرائض والمواريث، ولم يحملوا الناس عليها، قال له أبو حسّان : ماعدى إلا السمعُ والطاعة، فمرنى آتمِرْ، قال ما أمرنى أن آمرك، وانما أمرنى أن أمتحنك .

ثم عاد الى أحمد بن حنبل، فقال له : ما تقول فى القرآن؟ قال : هو كلام الله، قال: أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله لا أزيد عليها ، فامتحنه بما فى الرقعة، فلما أتى الى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وأمسك عن لا يُشْبِهه شىءٌ من حلقه، فى معنى من المعانى ، ولا وجه من الوجوه ، فاعترض عليه ابن البَكّاء الأصغر، فقال — أصلحك الله — : إنه يقول: سميع من أذن، بصير من عَيْن، فقال إسحاق لأحمد بن حنبل : ما معنى قوله سميع بصير؟ قال: هو كما وصف نفسه، قال : فما معناه؟ قال: لا أدرى هو كما وصف نفسه ؛ ثم دعا بهم رجلًا رجلًا كلّهم يقول : القرآن كلام الله، إلّا هؤلاء النفر : قتيبةَ، وعبيدَ الله بن محمد بن الحسن ، وابن عُلَيّة الأكبر، وابن البَكّاء ، وعبد المُنعم بن إدريس

اس بنت وَهْب بن مُنَبِّه، والمُظَفَّر ابن مُرَجًّا ، ورحلا صريرا ليس من أهل الفقه ، ولا يُعرَف بشيء منه إلّا أنّه دُسّ فى ذلك الموضع ، ورحلا من ولد عمرَ بن الخطاب قاصى الرقه ، وانَ الأحمر ، فأما ابن الكَلبى الأكبر فإنه قال : القرآن مجعول لقول الله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ ، والقرآن مُحْدَثٌ لقوله . ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ قال له إسحاق فالمجعول مخلوق» قال : نعم ، قال فالقرآن مخلوق» قال : لا أقول مخلوق ولكنّه مجعول ، فكتب مقالـه ، فلما فرغ من امتحان القوم وكتب مقالاتهـم اعترض ابن الكَلبى الأصـغر فقال — أصلحك الله — : إن هـذين القاصيين أنمه ، فلو أمرتَهما فأعادا الكلام ! قال له إسحاق : همـا مَن يقوم بحجّه أمر المؤمنين ، قال : فلو أمرهما أن نُسمعانا مقالتهما لنَحْكِى ذلك عنهما ! قال له إسحاق : إن شهدت عندهما بشهاده فستعلم مقالتهما إن شاء الله ، فكتب مقالة القوم رحلا رحلا ووُجّهت الى المأمون ، فمكث القوم تسعة أيّام ثم دعا بهـم . وقد ورد كتاب المأمون ، جوابُ كتاب إسحاق بن إبراهيم فى أمرهم . وهاك هو ماجعله ختاما لكلمتنا .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد بلغ أميرَ المؤمنين كتابُك جوابُ كتابه ، كان اليك فيما ذهب إليـه مُتَصَنِّعه أهل القبلة ، ومُلتمِسو الرئاسه فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة ، من القول فى القرآن ، وأمرك به أمر المؤمنين ، من امتحانهم ، وتَكْشيف أحوالهم ، وإحلالهم محالّهم ، بذكر إحضـارَك جعفرَ بن عيسى ، وعبدَ الرحمن بن إسحاق ، عند ورود كتاب أمير المؤمنين ، مـع من أَحْضَرْت ممن كان ينسب الى الفقه ، ويُعرَف بالحلوس للحديث ، ونَصْب نفسه للفُتْيا بمدينه السلام ، وقراءتك عليهم جميعا كتابَ أمير المؤمنين ، ومسألتَك إياهم عن اعتقادهم فى القرآن ، والدلاله لهم على حظهـم ، وإطلاقهـم على نفى التشبيه ، واختلافهم فى القرآن ، وأمرَك مَن لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفتوى ، فى السرّ والعلانيـه ، وتقدُّمَك الى السِّنْدِىّ ، وعباس مولى أمير المؤمنين بمـا

تقـدمتَ به فيهم الى القاصيَيْن بمثل ما مثَّل لك أميرُ المؤمنين، من امتحان مَنْ يَحْضُرُ مجالسَهما من الشهود ، وبثّ الكتب الى القضاة فى النواحى من عملك بالقدوم عليـك، لِتَحْمِلَهـم وتَمْتَحِنَهم على ما حده أميرُ المؤمنين، وتثنيتَك فى آخر الكتاب أسماءَ مَنْ حضر ومقالاتهم ، وفهم أمير المؤمنين ما اقتصصت، وأميرُ المؤمنين يحمد الله كثيرا كما هو أهلُه ، ويسأله أن يصلّى على عبـده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويرغَب الى الله فى التوفيق لطاعته، وحسن المَعُونة، على صالح نيّته برحمته .

وقد تدبّر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألتَ عن القـرآن ، وما رجَع اليك فيه كلّ امرئ منهـم ، وما شرحتَ من مقالاتهم، فأما ما قال المعروز بشر بن الوليد فى نفى التشبيه، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق ، وادّعى من تركه الكلامَ فى ذلك واستعفاءه أميرَ المؤمنين ، فقد كذَب بشرٌ فى ذلك وكفر ، وقال الزور والمكر ، ولم يكن جَرَى بين أمير المؤمنين وبينه فى ذلك ، ولا فى غيره، عَهْدٌ ولا نظر أكثرَ من إخباره أميرَ المؤمنين من اعتقاده كَلِمَة الإخلاص والقولَ بأنّ القرآن مخلوق ، فادعُ به إليك ، وأعلمـه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك، وانصصه عن قوله فى القرآن، واستَتِبْه منه، فإن أمير المؤمنين يرى أن تَسْتَتيب مَن قال بمقالته إذ كانت تلك المقالة الكفرَ الصُّراح والشرك المحض عند أمير المؤمنين، فإن تاب منها فأشهر أمره، وأمسك عنه، وإن أصرّ على شركه، ودفع أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده ، فاضرب عنقَه ، وابعث الى أمير المؤمنين برأسه، إن شاء الله، وكذلك إبراهيم بن المهدىّ فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشرا، فإنّه كان يقول بقوله، وقد بَلَغَتْ أميرَ المؤمنين عنـه بوالغُ، فإن قال إن القرآن مخلوق، فأشهر أمره واكشفه، وإلّا فاضرب عنقه، وابعث الى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله .

وأما علىّ بن أبى مُقاتل فقـل له : ألستَ القائلَ لأمير المؤمنين إنك تحلّل وتحرّم والمكلّم له بمثـل ما كلّمته به، ممـا لم يدهب عنه ذكرُه؛ وأما الدَّيّال بن الهيثم، فأعلمه أنّه كان فى الطعام الذى كان يَسْرِقه فى الأبّار ، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين

أبى العباس ما يشغله ، وأنه لو كان معتفيا آثارَ سَلَفه ، وسالكا مناهجهم ، ومُحْتذيا سبيلَهم ، لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه ؛ وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبى العَوَّام ، وقوله إنه لا يُحْسِن الجواب فى القرآن ، فأعلمه أنه صبىٌّ فى عقله ، لا فى سنه ، جاهل ، وأنه إن كان لا يُحْسِن الجواب فى القرآن فسَيُحْسِنه ، اذا أخذه التأديبُ ، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء اللهُ .

وأما أحمد بن حنبل ، وما تكتب عنه ، فأعلمْه أنّ أمير المؤمنين قد عرَف فحْوى تلك المقالة ، وسبيلَه فيها ، واستدلَّ على جهله ، وآفته بها ، وأما الفضل بن غانم ، فأعلمْه أنه لم يَخْفَ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما اكتسب من الأموال فى أقلّ من سنة ، وما شَجَر بينه وبين المُطَّلب بن عبد الله فى ذلك ، فإنه مَن كان شأنُه شأنَه ، وكانت رغبتُه فى الدينار والدرهم رغبتَه ، فليس يُستنكر أنْ يبيع إيمانَه طمعا فيهما ، وإيثارا لعاجل نفعهما ، وإنه مع ذلك القائلُ لعلىّ بن هشام ما قال ، والمخالِفُ له فيما حالفه فيه ، فما الذى حال به عن ذلك ، ونقله الى غيره ؛ وأمّا الزِّيادىّ ، فأعلمْه أنه كان مُنْتَحِلا لأوّلِ دعىٍّ كان فى الإسلام حُوِلف فيه حكمُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وكان حديرا أن يسلُك مسلكه فأنكر أبو حسّان أن يكون مولًى لزياد ، أو يكونَ مولًى لأحد من الناس ، — وذُكر انه إنّما نُسِب الى زياد لأمر من الأمور — وأمّا المعروف بأبى نصر التمّار ، فإن أمير المؤمنينُ شبّه خساسةَ عقله بخساسةَ مَتْجَره ؛ وأمّا الفضل بن الفَرُّخان ، فأعلمْه أنّه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أحدَ الودائع التى أودعها إيّاه عبد الرحمن بن إسحاق وعيره ، تَرَصا بمن استودعه ، وطمعا فى الاستكثار لما صار فى يده ، ولا سبيل عليه عن تقادُم عهده ، وتطاول الأيام به ، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لا جزاك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا ، وائتمانك إيّاه ، وهو معتقدٌ للشرك ، منسلخ من التوحيد .

وأمّا محمد بن حاتم ، وابن نوح ، والمعروف بأبى مَعْمَر ، فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا ، عن الوقوف على التوحيد ، وأنّ أمير المؤمنين لو لم يستحلَّ محاربتَهم فى الله ومجاهدتَهم ،

إلا لإربائهم، وما نزل به كتاب الله فى أمثالهم، لاستحل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا، وصاروا للنصارى مثلا، وأما أحمد بن شجاع، فاعلمْه أنّك صاحبُه بالأمس، والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذى كان استحلّه من مال علىّ بن هشام، وأنّه ممن الدينارُ والدرهم دينُه، وأما سَعْدَوَيْه الواسطىّ فقل له : قبّح الله رحلا نلع به التصنُّع للحديث، والتزين به، والحرصُ على طلب الرياسه فيه، أنْ يتمنّى وقت المحنه فيقولَ بالتمرّب بها : متى يُمتحَنُ فيجلسُ للحديث؛ وأما المعروف بسَجّاده، وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث، وأهل الفقه، القولَ بأنّ القرآن مخلوق، فاعلمْه أنّه فى شعله بإعداد السوى، وحَكّه لإصلاح سَجّاديه، والوداتع التى دفعها إليه على بن يحيى وغيرُه ما أدهله عن التوحيد وألهاه، ثم سلْه عما كان يوسف بن أبى يوسف، ومحمد بن الحسن، يقولانه إن كان شاهدهما وجالسهما، وأما الفوارىّ فعما تكشَّف من أحواله، وقبوله الرُّشا والمصانعات ما أبان عن مذهبه، وسوء طريقته، وسَخافة عقله ودينه، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنّه يتولّى لجعفر بن عيسى الحَسنىّ مسائله، فتقدّم إلى جعفر بن عيسى فى رفضه، وترك الثقة به، والاستنامه إليه .

وأما يحيى بن عبد الرحمن العُمَرىّ ، فإن كان من ولد عمرَ بن الخطاب فجوابه معروف، وأما محمد بن الحسن بن على بن عاصم فإنه لو كان مقتديا بمن مضى من سلَفه لم ينتحل النِّحلة التى حَكَيْتَ عنه ، وإنه بعدُ صبىّ يحتاج الى تَعَلّم، وقد كان أمير المؤمنين وجه إليك المعروف بأبى مُسْهِرٍ، بعد أن نصّه أمرُ المؤمنين عن محْنته فى القرآن، فحَمْحَم عنها ، وجَلْجَج فيها، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف ، فأقر ذميما، فانصصه عن إقراره، فإن كان مقيما عليه فأشهر ذلك وأظهره إن شاء الله ، ومَن لم يرجع عن شركه ممن سمّيتَ لأمير المؤمنين فى كتابك، وذكرَه أميرُ المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره فى كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بشر بن الوليد، وإبراهيم بن المهدى، فاحملهم أجمعين ، مُوثَقين

الى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهـم فى طريقهم ، حتّى يؤدّيهم الى عسكر أمير المؤمنين ، ويُسلّمهم الى من يُؤمَر بتسليمهم اليه ، ليُصَّهم أميرُ المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حمّلهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قوّة إلّا بالله ؛ وقد أنفـذ أمير المؤمنين كتابَه هـذا فى خريطة بُنْدارِيّة ، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية مُعجّلا به ، تقرّبا الى الله عزّ وجلّ بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما اعتمد ، وإدراك ما أمل ، من جزيل ثواب الله عليه ، فأنفِذْ لمـا أتاك من أمر أمير المؤمنين ، وعجّل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك فى خريطة بُنْدارِيّة مفردةٍ عن سائر الخرائط ، لتعرّف أميرَ المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله . وكتب سنة ٢١٨ هـ .

(ج) عَهْد طاهر بن الحسين

قال ابن طيفور : ولما عَهِد طاهرُ بن الحسين الى عبدالله ابنه هذا العهدَ، تنازعه الناسُ وكتبوه وتدارسوه، وشاع أمره حتى بلغ المأمونَ، فدعا به وقرئ عليه، وقال: ما أبقى أبو الطيب شيئا من الدين والدنيا، والتدبير والرأى، و إصلاح المُلك والرعية، وحفظ البَيْعة، وطاعة الخلفاء، وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه، وأوصى به، وتقدم فيه . وأمر أن يُكتبَ بذلك الى جميع العمال فى نواحى الأعمال . ولما كان هذا العهدُ من الوَثائق التاريخية التى لها قيمتُها العلميةُ والأدبيه والاجتماعية والسياسية آثرنا ذكره على ما فيه من طول رغبة منّا فى ألا يخلو كتابُنا من هذا الأثر العظيم القيمةِ والخطرِ، وهاكه :

« عليك بتقوى الله وحده لا شريك له، وخَشيته ومراقبته ومزايلة سَخَطه، وحفظ رعيّتك، وألزَم ما ألبسك الله فى العاجله بالذكر لمَعادك، وما أنت صائر اليه، وموقوف عليه، ومسئول عنه، والعمل فى ذلك كله بما يَعصمك الله و يُحبيك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه، فإن الله قد أحسن اليك، وأوجب عليك الرأفةَ بمن استرعاك أمرَهم من عباده، وألزمك العدلَ عليهم، والقيامَ بحقه وحدوده فيهم، والذبّ عنهم، والدفعَ عن حريمهم و بَيْضتهم، والحقنَ لدمائهم، والأمنَ لسبيلهم، و إدخالَ الراحة عليهم فى معايشهم، ومُؤاخِذُك بما فرض عليك من ذلك، ومُوقِفُكَ عليه، ومُسَائلكَ عنه، ومُثيبك عليه بما قدّمت وأخّرت، فمرِّع لذلك فكرك وعقلك و بصرك ورويّتك، ولا يُذهلكَ عنه دهلٌ، ولا يَشْغَلُكَ عنه شغل، فإنه رأس أمرك وملاكُ شأنك، وأوّل ما يوفقك الله به لرشدك، وليكن أوّلَ ما تُلزم به نفسَك وتُنسبَ اليه مِعالُكَ، المواظبةُ على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس، والجماعة عليها بالناس قِبَلك فى مواقيتها على سننها فى إسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله فيها، وترتل فى قراءتك، وتمكّن فى ركوعك وسجودك وتشهدك، وَلْتَصْدُق فيها لربك نيّتك، وأحضص عليها جماعةَ مَنْ معك وتحت يدك، وأدأب عليها فإنها كما

قال الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المكر ، ثم أتبع ذلك الأحدَ بسنن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ، والمثابرة على حلائقه ، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، واذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستحارة الله وتقواه ، ولزوم ما أنزل الله فى كتابه ، من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، وائتمام ماجاءت به الآثار عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم قُمْ فيه بما يَحِقّ لله عليك ، ولا تَمِلْ عنّ العدل فيما أحببت أو كرِهت ، لقريبٍ من الناس أو بعيد ، وآثِرِ الفقهَ وأهله ، والدين وحَمَلَتَـه وكتاب الله والعاملين به ، فان أفضلَ ما تزيّنَ به المرء الفقـهُ فى دين الله ، والطلب له والحثّ عليـه ، والمعرفة بمـا يتقرّب به إلى الله ، فإنه الدليـلُ على الخير كله ، والقائد له ، والآمر به ، والنـاهى عن المعاصى والموبقات كلها ، وبها مع توفيق الله تزداد العبادُ معرفةً بالله ، عز وجل ، وإجلالا له ودَرْكا للدرجات العلى فى المعاد ، مع ما فى ظهوره للناس من التوقير لأمرك والهيبه لسلطانك ، والأنَسَه بك والثقة بعدلك . وعليك بالاقتصاد فى الأمور كلّهـا فليس شىء أبينَ نفعا ولا أحضرَ أمسـا ولا أجمعَ فصلا من القصد ، والقصـد داعيةٌ الى الرشـد ، والرشدُ دليـلٌ على التوفيق ، والتوفيق مقـادٌ الى السعادة ، وقِوامُ الدين والسنن الهـادية بالاقتصاد ، فآثره فى دنياك كلها ، ولا تُقصّر فى طلب الآخره والأجر والأعمـال الصالحه ، والسنن المعروفه ومَعَالم الرشد ، فلا عاقبة للاسـتكثار من البر والسعى له ، اذا كان يُطلَبُ به وجهُ الله ومرضاته ، ومرافقة أوليائه ، فى دار كرامته .

واعلم أن القصـد فى شأن الدنيا يورث العز ، ويحصّن من الدنوب وأنك لن تحوط نفسك ومن يليك ، ولا تستصلِحُ أمورك ، بأفضلَ منه ، فاتقه ، واهتدِ به تتم أمورك ، وتَزِد مقدرتك ، وتصلح حاضّتك وعامّتك ، وأحسِن الظنّ بالله عز وجل ، تستقم لك رعيّتُك ، والتمس الوسيلةَ اليه فى الأمور كلها ، تَستدم به النعمةَ عليك ، ولا تُبِضْ أحدا من الناس ، فيما تولّيـه من عملك ، قبل تَكَشُّف أمره بالتهمة ، فإن إيقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم مأثَمٌ ، واجعل من شأنك ، حسنَ الظن بأصحابك ، واطرد عنك سوءَ الظن بهم ، وارفُضه عنهم ، يُعنْكَ ذلك على اصطناعهم ورياضتهم ، ولا يحْدثنّ عدوُّ الله الشيطانُ فى أمرك مغمزًا ،

فإنه انما يكتفى بالقليل من وَهْبِكَ فيدخلُ عليك من الغمّ، فى سوء الظن، ما يُنغّص عليك لذاذةَ عيشك، واعلم أنك تحد بحس الظن، قوّةً وراحةً، وتَكْتَفى به ما أحببتَ كفايته من أمورك، وتدعو به الناسَ الى محبّتك، والاستقامة فى الأمور كلها لك. ولا يمنعك حسنُ الظن بأصحابك، والرأفة برعيّتك، أن تستعملَ المسئلة والبحثَ عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء، والحياطة للرعية، والنظر فيما يُقيمها ويُصلحها، بل لتكُنِ المباشرةُ لأمور الأولياء، والحياطةُ للرعيه، والنظرُ فى حوائجهم، وحمل مؤونانهم، آثرَ عندك مما سوى ذلك، فإنه أقومُ للدين، وأحيا للسنه، وأخلص نيّتكَ فى جميع هذا، وتمرّد بنفويم نفسك، تفرّدَ من يعلم أنه مسئولٌ عما صنع، ومجزىّ بما أحسن، فإن الله جعل الدينَ حِرزًا وعزًا، ورفع من أتبعه وعزّزه، فاسلُك بمن تسوسه وترعاه، نهج الدين، وطريقةَ الهدى، وأقِمْ حدودَ الله فى أصحاب الجرائم على قدر مَنازلهم، وما استحقوه، ولا تُعطّل ذلك ولا تَهاون به، ولا تؤخّر عقوبةَ أهل العقوبة، فإن فى تفريطك فى ذلك، لما يُفسدُ عليك حسنَ ظنك، واعزم على أمرك فى ذلك بالبس المعروفه، وجانب الشَّنَه والبدعات، يسلَمْ لك دينُك، وتقُمْ لك مروءتك، وإذا عاهدت عهدا فَفِ به، واذا وعدتَ الخيرَ فأبحره، وأقبل الحسنةَ، وادفعها، وأغمِضْ عن عيب كل ذى عيب من رعيتك، وأشدُدْ لسانكَ عن قول الكذب والزور، وأبعِض أهله، وأقِصِ أهلَ النميمة، فإن أوّل فساد أمرك فى عاجل الأمور وآجلها، تقريبُ الكذوب، والحرأةُ على الكذب، لأن الكذبَ رأسُ المآثم، والزور والنميمةَ خاتمتُها، لأن النميمةَ لا يسلمُ صاحبُها، وقائلُها لا يسلم له صاحبٌ ولا يستقيم لمطيعها أمرٌ، وأحبَّ أهلَ الصدق والصلاح، وأعن الأشرافَ بالحق، وواصل الضعفاءَ، وصِلِ الرَّحِمَ، واتبع بذلك وجهَ الله، وعزه أمره، والتمس فيه ثوابه والدارَ الاخرة، واجتنب سوءَ الأهواء والجورَ، واصرِفْ عنهما رأيكَ، وأطهِر من ذلك لرعيتك، وأبغِ بالعدل سياستَهم، وقم بالحق فيهم، وبالمعروفه التى تنتهى بك الى سبيل الهدى، وأملِكْ نفسَك عند الغضب، واثرِ الوقارَ والحلمَ، وإياك والخِفّةَ والطيش والغرور فيما أنت بسبيله، وإياك أن

تقول . إنى مُسَلِّطٌ أعمل ما أشاء فان دلك سريعٌ فيك إلى نقص الرأى، وقلّة اليقين بالله وحده لاشريك له ، وأخلِصْ لله وحده اليه فيه ، واليقين به ،وآعلم أن الملكَ لله، يعطيه من يشاء، ويمنعه ممن يشاء ولن تجدَ تغيرَ النعمه ، وحلولَ النقمه، الى أحدٍ أسرعَ منه ،الى حَمَلة النعمة، من أصحاب السلطان ،والمبسوطِ لهم فى الدولة ، اذا كفروا نعم الله وإحسانه وآستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شرهَ نفسك ، ولتكن دخائرك وكنوزك التى تدَّخر وتكثرُ، البرَّ والتقوَى ، والمعدلةَ ، وآستصلاحَ الرعيه وعمارةَ بلادهم ؛ والتفقّدَ لأمورهم . والحفـظَ لدمائهم ، والإغاثة للملهوفهم ، وآعلم أن الأموال اذا كثُرت ودُخرت فى الخزائن ، لا تُثمر ، وإذا كانت فى إصلاح الرعية ، وإعطاء حقوقهم ، وكفّ المؤونة عنهم ، نمت وزَبَت ، وصلَحت به العامّه ، وتزيّنت به الولاة ، وطاب به الزمان ،وآعتُقد فيه العزّ والمنفعه ، فليكن كنزُ خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الإسلام وأهله ، ووفّر منه على أولياء أمير المؤمنين قِبَلك حقوقهم ، وأوفِ رعيّتك من دلك حِصَصهم ، وتعهّد بما يصلح أمورَهم ومعايشهم ، فإنك اذا فعلتَ ذلك قرّت النعمة عليك ، وآستوجبتَ المزيد من الله ، وكنت بذلك على جباية خَراجك ، وجَمْعِ أموال رعيّتك وعملك أقـدر ، وكان الجميع لمـا شملهم من عدلك وإحسانك أسلَس لطاعتك ، وأطيب نفسا بكل ما أردتَ ، فاجهَد نفسَك ، فيما جددتُ لك فى هـذا الباب ، وَلْتَعظُمْ حِسْبَتُك فيه ، فإنما يبقى من المـال ، ما أُنفِق فى سبيل حقّه ، وآعرِف للشاكرين شكرَهم ، وأثنِهم عليه ، وإياك أن تُسيك الدنيا وغرورُها هَوْلَ الآخرة ، فتتهاوَن بمـا يحقّ عليك ، فان التهاون يوجب التفريط والتفريطَ يورث البَوارَ ، وليكن عملُك لله ، وفيه تبارك وتعالى ، وآرْجُ الثواب ، فإن الله قد أسبغ عليك نعمته فى الدنيا ، وأظهر لديك فضلَه ، فاعتصِم بالشكر ، وعليه فاعتمد ، يَزِدْك الله خيرا وإحسانا . فان الله يثيب بقَدْر شكر الشاكرين وسيرة المحسنين ، وقضاء الحقّ فيما جعل من النّعم ، وآلبَس من العافية والكرامة ، ولا تحتقرن ذنبًا ، ولا تمـالئنّ حاسدا ، ولا ترحمنّ فاجرا ، ولا تصانّنّ كفورا ، ولا تداهنّنّ عدوا ، ولا تصدقنّ نمّـاما ، ولا تأمَنّنّ غدّارا ، ولا توالِيَنّ فاسقا ، ولا تتبعنّ غاويًا ، ولا تحمدنّ

مُرائيا ، ولا تحقرن إنسانا ، ولا تردّن سائلا فقيرا ، ولا تحبن باطلا ، ولا تلاحظن مصحكا ، ولا تُحلفن وعدا ، ولا تذهن فخرا ، ولا تظهرن غَضَبا ، ولا تأتين بدَحًا ، ولا تمشين مَرَحا ، ولا تركن سفهًا ، ولا تُفرطن فى طلب الآخرة ، ولا تدفع الأيام عِيانا ، ولا تُغمِضن عن الظالم رهبه منه ، أو مخافةً ، ولا تطلبن ثواب الآخره فى الدنيا ، وأكثِر مشاورة الفقهاء ، وآستعمِل نفسك بالحلم ، وحد عن أهل التجارب ودوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تُدْخلنّ فى مشورتك أهل الدّقة والبخل ، ولا تسمعن لهم قولا ، فإن صررهم أكثر من منفعتهم ، وليس شىء أسرع فسادا لما استقبلتَ فى أمر رعيّتك من الشُّحّ ، وآعلم أنك اذا كنت حريصا ، كنت كثير الأحْد ، قليلَ العطيّة ، واذا كنت كذلك لم يَستقم لك أمرك إلا قليلا ، فان رعيّتك انما تعتقد على محبّتك بالكَفّ عن أموالهم ، وترك الجور عليهم ، و بذوم صفاءُ أوليائك لك ، بالإفضال عليهم ، وحسن العطيّة لهم ، فآحتنف الشحّ ، وآعلم أنه أوّل ما عَصَى به الانسانُ ربّه ، واذ العاصى بمنزلة جزْى ، وهو قول الله عز وجل ، ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فسهّل طريق الجود بالحق ، وآجعل للمسلمين كلهم من بيْتك حظا ونصيبا ، وأَيْقِنْ أن الجود من أفضل أعمال العباد ، فأعِدده لنفسك خُلقا ، وآرْضَ به عملا ومذهبا ، وتفقّد أمور الجند فى دواوينهم ، ومكاتبهم ، وأدِرر عليهم أرزاقهم ، ووسّع عليهم فى معايشهم ، ليُذهِب بذلك اللهُ فاقتهم ، ويقوّم لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم فى طاعتك وأمرك ، حُلُوصا واشراحا ، وحَسْبُ ذى سلطان من السعادة ، أن يكون على حنده ورعيّته ، رحمة فى عدله وحيطته وإنصافه وعمانته ، وشفقته وبرّه وتَوْسِعَته ، فزايل مكروه إحدى البَلِيّتين ، باستشعار تكملة الباب الآخر ولزوم العمل به تأْق ان شاء الله نجاحا وصلاحا وفلاحا .

وآعلم ان القضاء من الله ، بالمكان الذى ليس مثله شىء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذى تعتدل عليه الأحوال فى الأرض ، و بإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلُح الرعيّة ، وتُؤمّن السبُل ، و ينتصف المظلوم ، و يأخذ الناس حقوقَهم ، وتحسُن المعيشة ، و يُؤدّى حقّ

الطاعة، ويَرزق اللهُ العافية والسلامة، ويقوم الدين، وتحرى السنن والشرائع، وعلى مَجاريها يُنتَحز الحقّ والعـدل فى القضاء. وآشـتدّ فى أمر الله وتورّع عن التَّطَف وآمض لإقامة الحـدود، واقْلِل العجلة، وآبعـد من الضجر والملق، وآقَع بالقِسم، ولْتَسكُن رِيحُك، ويَقرّ حَدّك، واستمع بحرمتك، وانتبه فى صمتك، واسْدد فى منطقك، وأنصف الخصم، وقِف عنـد الشبهه، وأبلغ فى المحّه، ولا يأحدك فى أحد من رعيّتـك مُحاباه ولا مُحاملة، ولا لوم لائم، وتثبّت وتأنّ، وراقب وآنظر، وتدبّر وتفكّر، وآعتبر وتواضَع لربك، وارْأف بجميع الرعيّه، وسلّط الحقّ على نفسك، ولا تسرعنّ الى سفك دم، فإن الدماء من الله بمكان عظيم انتهاكًا لها بغير حقها، وآنظر هـذا الجَراح الذى آستقامت عليه الرعيّه، وجعله الله للإسلام عزًا ورِفعة، ولأهله سَـعَه ومَنَعة، ولعدوّه وعدوّهم كَبْتا وعيطا، ولأهل الكفر من معاهدتهم ذلًا وصَـغارا، فورِّعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية، والعُموم فيـه، ولا تَدعن مسـه شيئا عن شريف لشرفه، وعن عىّ لعاره، ولا عن كاتب لك، ولا أحد من خاصّتك، فلا تأحدن مسـه، فوق الاحتمال له، ولا تكلّفن أمرا فيه شَطَط، وآحمل الناس كلهم على مُرِّ الحق، فإن ذلك أجمع لأُلْفتهم، وأَلْزَم لِرضى العامة، واعلم أنك جُعلت بولايتك حازنا وحافظا، وراعيا، وإنما سمّى أهل عملك رعيّتك، لأنك راعيهم، وقَيِّمهم، تأحذ منهم ما أعطوْك، من عفوهم ومقدرتهم، وتُنفقـه فى قوام أمرهم وصلاحهم، وتقويم أوَدهم، فاستعمل عليهـم فى كُوَر عملك، ذوى الرأى والتدبر والتجربة والخـبره بالعمل، والعـلم بالسياسة والعَفاف، ووسِّع عليهم فى الرزق، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلّدت، وأُسيد اليك، ولا يشغلنك عنه شاغل، ولا يصرفنّك عنه صارف، فإنك متى آثرته، وقمت فيه بالواجب، آستدْعَيتَ به زياده النّعمة من ربك، وحسن الأُحدوثة فى عملك، وآستحررتَ به المحبة من رعيّتك، وأعنت على الصـلاح، فدرّت الخـيرات ببلدك، ونَشَت العمارة بناحيتـك، وطهر الخصب فى كورك، وكثُر خراجك، وتوفّرت أموالك، وقويتَ بذلك على آرتباط حسـدك، وإرصاء العامة، بإفاضـه العطاء فيهم من

نفسك، وكنتَ محمودَ السياسة، مَرضيّ العدل فى ذلك عند عدوّك، وكنت فى أمورك كلها، دا عدل وقوّة، وآلة وعُدّة، فنافس فى هذا، ولا تقدِّم عليه شيئا، تُحمَد مَغبّة أمرك، ان شاء الله، وآجعل فى كل كوره من عملك أمينا، يجبرك أحمار عُمّالك، ويكتب اليك بسيرتهم وأعمالهم، حتى كأنك مع كل عامل فى عمله، مُعَايِنٌ لأمره كله، وإن أردت أن تأمره بأمر، فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك، فإن رأيت السلامة فيه والعافية، ورجوت فيه حسن الدفاع، والنُّصح والصُّنع فأمْضِه، وإلافتوقّف عنه، وراجِع أهل البصر والعلم، ثم حُذ فيه عُدّته، فإنه ربما نظر الرجل فى أمر من أمره، قد واتاه على ما يهوى، فقوّاه على ذلك وأعجبه، وان لم ينظر فى عواقبه أهلكه، ونُقِص عليه أمره، فاستعمِل الحزم فى كل ما أردت وباشره بعد عَوْن الله بالقوّه، وأكثِر آستخاره ربك، فى جميع أمورك، وأفْرَغ من عمل يومك، ولا تؤخّره لغدك، وأكثر مباشرته بنفسك، فإن لغدٍ أمورا وحوادث تُلهيك عن عمل يومك الذى أنْخرت، وأعلم أن اليوم اذا مضى ذهب بما فيه، واذا أخّرت عملَه آجتمع عليك أمر يومين، فشغَلَك ذلك حتى تُعرِض عنه، فاذا أمضيتَ لكل يوم عمله، أرَحْتَ نفسك وبدنك، وأحكمت أمور سلطانك، وانظُر أحرَار الناس وذوى الشرف منهم، ثم آستيقن صَفاء طويّتهم، وتهذيب مودّتهم لك، ومُظاهرتهم بالنّصح والمحافظة على أمرك، فاستحلِصهم، وأحسن اليهم، وتعاهد أهلَ البيوتات ممّن قد دحلتْ عليهم الحاجة، فاحتمل مؤونتهم وأصلح حالهم، حتى لا يحدوا لخلّتهم مَسًّا، وأفرد نفسك للنظر فى أمور الفقراء والمساكين، ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك، والمحتَقَر الذى لا علم له بطلب حقه، فاسأل عنه أحمى مسألة، ووكّل بأمثاله أهلَ الصلاح من رعيّتك، ومُرْهم برفع حوائجهم وحالاتهم اليك، لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم، وتعاهد ذوى البأساء ويَتَاماهم وأراملهم، وآجعل لهم أرزاقا من بيت المال آقتداءً بأمير المؤمنين أعزه الله فى العطف عليهم والصِّلة لهم، ليُصلِح الله بذلك عيشهم، وبرزقك به بركة وزيادة، وأجْرِ للأمراء من بيت المال، وقدّم حَمَلة

القرآن منهم، والحافظين لأكثره، فى الحراية على عيرهم، وانصب لمرضى المسلمين دُورا تؤويهم، وقُوّاما يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسعفهم بشهواتهم، ما لم يُؤدّ ذلك إلى سَرَف فى بيت المـال؛ واعلم أن الناس اذا أُعْطُوا حقوقهم، وأفضلَ أمانيهم لم يُرضهم ذلك، ولم تطب أنفسهم، دون رَفْع حوائجهم إلى وُلاتهم، طمعا فى نيل الزيادة، وفضل الرفق منهم، وربما رَام المتصفّح لأمور الناس لكثرة ما يَرد عليه، ويشغل فكره ودهنه، ومنها ما يناله به مؤونة ومشـقة، وليس من يرغب فى العدل ويعرف محاسن أموره فى العاجل وفضل ثواب الآجل، كالذى يستقبل ما يقرّبه الى الله، ويلتمس رحمته به، وأكثر الإذن للناس عليك، وأبرز لهم وجهك، وسكّن لهم أحراسك، واخفض لهم جناحك، وأظهر لهم بشرك، ولِنْ لهم فى المسألة والمنطق، واعطف عليهم بجودك وفضلك، وإذا أعطيتَ فأعطِ بسماحة وطيب نفس، والتمس الصنيعة والأجر، غير مكدّر ولا منّان، فإن العطيّة على ذلك تجارة مُرْبحة ان شاء الله، واعتبر بما ترى من أمور الدنيا، ومن مضى من قبلك، من أهل السلطان والرياسة، فى القرون الخالية والأمم البائدة، ثم اعتصم فى أحوالك كلها بأمر الله، والوقوف عند محبّته، والعمل بشريعته وسنّته وإقامة دينـه وكتابه، واجتنب مافارق ذلك وخالفه، ودعا الى سَخَط الله، واعرف ما تجمع عُمّالُك من الأموال، وتُنفقون منهـا، ولا تجمع حَراما، ولا تُنفق إسرافا، وأكثِر مُجالسـة العلماء، ومشاورتهم ومخالطتهم، وليكن هواك اتّباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها، وليكن أكرمُ دُخَلائك وخاصّتك عليك من اذا رأى عيبا فيك لم تمنعـه هَيبتُك من إنهاء ذلك اليك، فى سرّ، وإعلامك ما فيه من النقص، فإن أولئك أنصح أوليائك ومُظاهريك، وانظر عمّالك الذين بحضرتك، وكتّابك فوقّت لكل رجل منهـم فى كل يوم وقتـا يدخل عليك فيـه بكُتبه ومؤامرته وما عنـده من حوائج عمّالك وأمرِ كورك ورعيّتك، ثم فرّغ لمـا يُورده عليـك من ذلك سمعَك وبصَرك، وفهمك وعقلك، وكرِّر النظر اليـه والتدبر له، فـما كان موافقا للحزم والحقّ فامضه واستخر الله فيـه، وما كان مخالفا لذلك فاصرفه الى التثبّت فيـه والمسألة عنه،

ولا تمنُن على رعيّتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه اليهم، ولا تقل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعَوْد فى أمور أمير المؤمنين، ولا تَصَعّر المعروف إلا على ذلك، وتفهّم كتابى اليك، وأكثر النظر فيه، والعمل به، واستعن بالله على جميع أمورك واستحره، فإن الله مع الصّلاح وأهله، وليكن أعظم سِيرتك، وأفضل رغبتك، ما كان لله رِضًا، ولدينه نظاما، ولأهله عزّا وتمكينا، وللذمة والمِلّة عدلا وصلاحا، وأنا أسأل الله أن يحسن عونك وتوفيقك، ورشدك وكلاءك، وأن ينزل عليك فضلَه ورحمته، تمام فضله عليك، وكرامته لك، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيبا، وأوفرهم حظا، وأسناهم ذكرا وأمرا، وأن يُهلك عدوّك ومن نَاوأك ونَغى عليك، ويرزقك من رعيتك العافيةَ، ويحجُز الشيطان عنك ووساوسه، حتى يستعلى أمرك بالعزّ والقوة والتوفيق، إنه قريب مجيب.

(د) رسالةُ الخميس

من عبد الله الإمامِ المأمونِ أميرِ المؤمنين، الى المُبايعين على الحقّ، والناصرين للدّين، من أهل خُراسانَ وعيرِهم من أهــل الإسلام . سلام عليكم ، فإن أمير المؤمنين يَحْمَد اليكم اللهَ الذى لا إلٰه إلا هو، و نسأله أن يُصلّى على محمد عبده ورسوله .

أما بعــد، فالحمد لله القادر القاهر، الباعث الوارث، ذى العِــزّ والسلطان، والنور والبرهان، فاطر السموات والأرض وما بينهما، والمُتَقدّم بالمنّ والطَّوْل على أهلهما ، قبل استحقاقهم لمَثُوبَته، بالمحافظة على شرائع طاعته، الذى جعل ما أوْدَع عبادَه من نعمته، دليلا هاديا لهم الى معرفته، بما أفادهم من الألباب، التى يَفْهَمون بها فصلَ الخطاب، حتى اقتَوَوْا علمَ موارد الاختيار، وتقفوا مصادر الاعتبار، وحكموا على ما نَطَق بما ظهَر، وعلى ما غاب بما حضَر، واستدلّوا بما أراهم من بالغ حكمته، ومُتقنِ صَنْعته، وحاجة متزايل خَلْقه ومُتواصله، إلى القوم بمــا يَلُمّه ويُصْلِحُه، على أن له بارئاً أنشاه وابتدأه، ويَسّر بعضه لبعض . فكان من أقــرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم فى تَصَرُّف أحوالهم ، وفُنون انتقالهم، وما يَظْهرون عليــه من الحجر عن التأتى لمــا تكاملتْ به قُواهم، وتمّت به أدواتُهم، مع أثر تدبير الله عز وجل وتقــديره فيهــم، حتى صاروا إلى الخلقــة المُحْكمة، والصورة المُعْجبة، ليس لهم فى شيءٍ منها تَلَطّف يتّهمونه، ولا مقصــدٌ يعتمدونه من أنفسهم ، فإنه قال تعالى ذكره: ﴿يَأَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ . ثم ما يتفكّرون فيه من خلق السموات، وما يجرى فيها من الشمس والقمر والنُّجوم مسخّرات، على مسيرٍ لا يَثْبت العالَمُ إلّا به من تصاريف الأزمــنة التى بها صلاح الحَرث والنسل، وإحياء الأرض، ولِقاح النبات والأشجار، وتعاوُر الليل والنهار، ومرِ الأيام والشهور والسنين التى تُحْصى بها الأوقات ، ثم ما يوجد من دلائل التركيب فى طَبَقات السقف المرفوع، والمِهاد الموضوع، باختــلاف أجزائه وألتئامها، وخلق الأنهار، وإرساء

(١) القوم كالقيام مصدر قام .

الجبال . ومن البيان الشاهد ما أخبرَ الله عز وجل به من إنشائه الخلقَ ، وحدوثه بعد أنْ لم يكن مترقيًا فى النماء، وثناته إلى أجله فى البقاء، ثمّ مَحاره مُنْقصيا الى غاية الفناء. ولو لم يكن له مُفتتَحُ عدد ولا مُنْقطَع أمد ، ما ارداد بشوء ، ولا تحيفه نقصان ، ولا تفاوت على الأزمان، لأنّ ما لا حدّ له ولا نهاية ، غيرُ ممكن الاحتمال للنقص والزيادة . ثمّ ما يوجد عليه مفعتُه من ثبات بعضه لبعض، وقوام كلّ شيء منه بما يَسّر له ، وبدء استمداده إلى منتهى نَفاده، كما احتج الله عز وجل على خلقه ، فقال : ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ . وقال عز وجل . ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ . وكلّ ما تقدّم من الأخبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته فى سمواته التى بَنَى، وأطباق الأرض التى دَحا، وآثارِ صُنعه فيما برَأَ وذرأ، ثابتٌ فى فِطَر العقول، حتى يُسَخّر أولى الريع ما يُدْخِلون على أنفسهم من الشبهة فيما يجعلون له من الأضداد والأنداد . حلّ عما يُشركون . ولولا توحّدُه بالتدبير، عن كلّ مُعين وظهير، لكان الشركاءُ حُدراءَ أنْ تختلف بهم إرادتُهم فيما يخلُقون، ولم يكن التحلف فى إنشائه وإزالته ليخلو من أحد وَجهَيْه، وأيّهما كان فيه فالعجز والنقص مما أتاه ورَأَه . جل البديع خالق الخلق ومالك الأمر عن ذلك وتعالى علوًا كبيرا، كما قال سبحانه : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ . ثمّ من عظيم نعمة الله عز وحل على خلقه انفرادُه إياهم، وأنه يُسددهم ويَدُلّهم على منافعهم، ويُجنّبهم مضارّهم، ويَهديهم لما فيه صلاحُهم، ويُرغّبهم فى المحافظة على التمسك بدين الله عز وحل، الذى حعله عِصْمةً لهم وحاجزًا بينهم .

ولولا ما تقدّم به من تلافيهم وآستدراكهم بفضل رحمته ، لاجتاحهم التلفُ، لقصور معرفتهم عن التأتّى لأقواتهم ومعايشهم، ولم يكونوا ليقتصروا على حظوظهم وأقسامهم عما بسُوا عليه من الجمع والرغبة، ولتهالكوا ببغى بعضهم على بعض، وعدوان قويّهم على ضعيفهم، ولكنه بعد تعريفه إياهم مُلْك قدرته وحلالةَ عزّته، بعث إليهم أنبياءه ورسله مُبشّرين ومُنذرين،

بالآيات التى لا تنالها أيدى المخلوقين، فرَصُوا بما قُسِطَ بينهم، وارتدعوا عن التباغى والتظالُم، لما وُعدوا من الثواب الجسيم وخُوِّفوا من العقاب الأليم؛ ولم يكونوا ليُطيعوا أمرا لآمر ولا نهيا لناهٍ، إلّا بحجّةٍ يتبيّن بها الحقُّ على مَن خالفه من المُبطلين، وتحوّف يتّقون به مُفارقةَ ما حُرِّم عليهم، ورجاءِ تجشّمون له مَؤونة ما تُعُبِّدوا به. فافتتح الله عز وجل بأبيهم آدمَ عليه السلام، فعلّمه الأسماء كلّها، وأمر الملائكة بالسجود له — كما اقتص فى وحيه المنزل — وكرّم ولده وفضّلهم، فقال جل وعز: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾. وجعل ما فَطَرهم عليه من العطف على ذراريهم وأسافلهم سبباً لما أراد من بقائهم وتناسلهم، وما اختصّهم به من العلم والفهم حجّةً عليهم، ليمتحن طاعتهم، ويبلُوَهُمْ أيُّهم أحسنُ عملا. ولم تزل رسل الله عز وجل الى خلقه تترى بالنور الساطع، والبرهان القاطع، لا يجدون لما يُوردون عليهم من الحق القاهر مَرَدّا ولا مَدْفعًا، لقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. فلم يجد المكذّبون مَساغا الى دفع ما أُقيم عليهم من لازم الحجة، إلّا المعاندةَ والمجاحدةَ. وكان أنبياء الله صلوات الله عليهم، يُبعَثون فى أعصار الحقب، نُذُرا للامم، حتى ختمهم الله عز وجل بالنبيّ الأمىّ محمد صلى الله عليه وسلم، فبعثه فردا وحيدا لا عاضدَ له ولا رافدَ، إلى قوم يعبدون أصناما نُحِتَتْ، وحجارة صمّاء، فكذّب به القومُ الذين بُعِث فيهم أوّل ما دعاهم، ورامه ملوكُ أقطار البلاد بتوحيه الأحاد، ومُرافدة القوّة والعتاد وبغى العوائل، ونصب الحبائل، وهو يدعو إلى سبيل ربه بما أمره به، إذ يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. ثم جاهد بمن أطاعه مَن عصاه، وبمن اتبعه مَن خالفه، حتّى أعزّ الله كلمته، وأظهر دعوته، وأكمل لعباده دينهم الذى ارتضى لهم. فلمّا اختار الله له ما لديه، واختصّه بما عنده: من النعيم المُقيم، والجزاء الكريم، بعد استقامه الدين

ودخول الناس فيه أفواجا، حلقه، إذ ختم به الأنبياء، بالبررة النجباء من أدانيه وأُمّته، لإقامه الشرائع المُفْترَضة، وإمهادِ حكم الله المنزّل، وٱقتفاء السنّة المأثورة وحفظا له فى قرابته ومجيبى دعوته، وإتماما لما أوجب له من الفضيلة، وقريب الوسيلة، وانجازا لما وعده من إظهار ما بعثه به، من دينه الذى ٱصطفاه وٱرتضاه. وكان ٱختيار أُولى الفضل من أُمّته وعصبته لإرث خِلافته، ومن عظيم الزُّلَف التى رغب الى الله فيها أنبياؤه، وبما ٱقتضّ فى مُنزل وحيه، وٱختصّ تبارك وتعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بما أمره به من مسألة أمته تصييرَ مودّته فى القربى جزاءه ممن تبعه على الرسالة، وهداه من الضلالة، فكانت فضيلتهم عزيمةً من الله عز وجل، دون طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألزمه تأديته الى خلقه وألزمهم أداءه، فقال عز وجل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾. ودل مما أخبر به وأظهره من تطهيره إياهم وإذهابه الرجس عنهم، على ٱصطفائه لهم، فقال تعالى. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. وكان مما أوجب لهم به حقّ الوراثة فى محكم تنزيله قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾. ثم قرن طاعتهم بطاعته، فقال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾. وأحلّهم من الناهة والصيت بالمحلّ الذى أعلى به أمرَهم ورفع به ذكرهم، لما أحب من البيين فى الدلالة عليهم، والهداية إليهم، فإنه يقول عز وجل. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. ولو كان الائمّة المُقلَّدون أمرَ عباده حاملةً أنسابُهم، متقطّعةً أسبابُهم، غيرَ محصوصين بفضيلة يَرَوْنهم بها دون غيرهم، لم تعد طَلِبَتُهم عقدَ الخلافة لهم، وأنْ تكون من المُفترضات على كافّة الأمة، أو على بعض دون بعض، فإن كان لأهل الشرق والغرب من دوى النقص والكمال أن يختاروا لأنفسهم، فليس فى ٱختماع آرائهم مع تمزّقهم وٱختلافهم طمعٌ آنزعَ أيامِ الدّهر. وإن كان الى خاصةٍ دون عامةٍ، فستحتاج العامة من طلب معرفة تلك الحال إلى مثل ما ٱحتاجوا اليه فى أئمتهم، إذ لم يكن أهل الٱرتياب والطلب من أعلام الآفاق ليتواطئوا على اتفاق،

لمعاد آحالهم قـلَ بلوعهم غايةَ الآجتهاد فى الفحص والتكشيف ، وحاجتهم الى آختبـار البُلدان ، وتمحيص أُولى الفضائل بالآمتحان ، وما هو حاق عليهم من الشبَه فى آختيارهم ، والآحتلاف فيمن عَسَوْا أن يحتوه ويُقدّموه ، حتى تتهالك الرَّعيّة بتطالمها بينها ، ويَطْرُق مَن يليهـا من الأمم إياها ، إذ لا دائد عنهـا ولا مُحامِىَ . فإذا ألرمت الأمّـةَ الحاجةُ إلى نَصْب الحكّام لإقامـه الدين ، وتقسيط الحقوق من المسلمين ، ومُجاهـدةِ عدوّهم من المشركين ، لم يكن لهم فى الإمام عليهـم مَحارٌ إلى التحاص من حقّـه إليهم ، ولا ريبَ عند المعرفه برأفه الله ورحمته ، ولطفه وحكمه ، فى دفعه عن عباده ما لم يجعل فى حيلتهم له وُسْعا ، ولا فى حيلتهم له دَرْكا ، وكفايتـه إيّاهم ما يُعْجزهم من البحث والتنقيب عن ولاة أمرهم ، بنَصْبه إيّاهم ، وما رفعهم إليه من الدرجه الى أعلاها وأسناها ، إذ وصَل نسبَهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآفترَض مودّتهم على حلقه ، ولم يَشِنهم جهلهُم للعرض الذى لزمهم له ، ولم يَجِب عليهم فرضٌ فى معرفة مَن سواهم . ولم يزل سيافُ أئمة الهـدى مُطّردا ، وبطامُهم مُتّصـلا ، يتلقاه كابرٌ عن كابر ، ويؤدّيه أوّل الى آخِر ، حتى تـاهى الى أمير المؤمنين ، وهو حالٌّ دار دعوته ، وبين أنصاره من أهل خُراسان ، فنظر به حيرَهم ، وعرَفوا ما تصرّفت به أحوالهُم ، وظهر لهم من بيان حُجّته على مَن نازعه فى الأمر ، وشاهـدوا من إبلاعه فى العذر ، وآستظهاره بالتأنى والصبر ، ما أراح عنهم الشبهَة وكَشَط الحيره ، حتى استرالوا[1] نهوضَه بحقّـه ، وحافوا الريع على أديانهم فيما أعطَوْه من صَفقة أيمانهـم ؛ وهو ماضٍ على عادته ، مستديمٌ للوادعه ، مُتَلَوِّمٌ على المراجعة ، بالغ غايةَ ما فى وُسْعه من الرخصة فى دفع الولاية التى نَهْنَهَ بهـا الرَّعيّة ، حتى صاف عليه فى دينه تركُ القيام بمـا أنهضه الله به من ثِقلهـا وقلّده من حَملها ، وخاف المخلوعُ فآسعث بالشَّرّة والغِرّة ، فتناول أولياءَ الحق باغيا طاعيا ، لمـا أراد الله من تأبيدهم عليـه باليان والحُجّة التى يَجِبُ لها قلبُـه ، ويُفَتُّ بهـا فى عضـده ، ويقبل الله ما شرّفكم به من النصر والعَلَبة فيه التى جعلها الله للتقيين . فاجتمع

(١) كذا فى الأصل .

لكم معشرَ أهل خُراسان فى دولة أمير المؤمنين ثلاث خِلال آختصّكم الله بفضيلتها، وسنىّ مراتبها، دون ثلاث شَمِلَتْكم وغيرَكم .

أما الأولى من اللواتى خصّكم الله بهنّ، فما تقدّم لأسلافكم من نُصْرة أهل بيت النبىّ، والقائمين بميراثه من آباء أمير المؤمنين .

وأما الثانية، فما آثركم الله به من نُصْرته فى دعوته الثانية .

وأما الثالثة، فما تقدّمتم به من صحة ضمائركم، ومحض مُناصحتكم .

وأمّا الثلاث اللواتى هنّ لكم ولغيركم :

فمنهنّ ما أكّد الله لأمير المؤمنين فى أعناق المسلمين : من العهد الذى أحد إصْرَه، وألهمهمُ الوفاء به والتمسّكَ بوثائق عصمته، عند محاولة المخلوع ماحاول من الإعلان بالردّة، والتمس من تبديل معالم الدين وتَعْفيه آثاره، فلم يُلْفِ الرعيّة سُدًى مهمَلين، لا جامع لأمرهم، ولا صامّ لشعثهم .

ومنهنّ ما أفادكم الله وإيّاهم من العِبر، عند حلول العِبَر بمَنْ غَدَر وحَتَر، تذكرةً لأولى النُّهى، وحجةً بالغةً على من أدبر وتولّى، ليهتدى متحيِّرٌ ويتّعظ مُزْدَجِر، ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ . ومنهنّ آجتماع أهل الفضل من المسلمين · ممن لم يكن له نَصْر ولا أَزْر فى الدعوة الأولى على المشايعة فى الدعوة الثانية، فأصبح دُعاة أمير المؤمنين من أهل الحرمين والمِصْرَين ومدينة السلام والمشرق والمغرب ممن عَارَ أو أنجد من المتمسّكين بذمهم المُوفين بعهودهم، من إخوانكم، وإن كان الله قد قدّمكم فى الأمرين جميعا تفوّق حالكم على غيركم، يَعْتَدّون من معاضدتكم ومكانفتكم بما جعله الله عز وجل أُلفةً لكم ومَوَدّه بينكم، يبيد بها ما كان الشيطان يَرِع به بين أهل التناعد فى الأنساب، والتنائى فى الأوطان من إيقاع العداوة والبَغْضاء، والأنطواء على الأحقاد والدِّمن، وطلب تقديم الإحن، وصار أهل السموّ الى الدرجة العليا والأعتصام بالعُرْوَة الوُثْقى من أولياء أمير المؤمنين وشيعته، مبشرحةً صدورُهم بمكانفته، مُنْبسطةً أيديهم بمعاونته على حقه،

منفسحةً آمالهم فى إذكاء ناره على عدوّه والإثخان فى بلاده وٱفتتاح ممتنع حُصونه، بما جمعهم الله عليه من الأُلفة، ورفع عنهم من الحميّة والعصبية، راجين عودتَهم الى أحسن مامضى عليه سلفُهم، فى عهد نبيّه صلى الله عليه وسلم، من سلامة الصدور، وصلاح ذات البين، وٱجتماع القُوَى على مجاهدة مَن شاقّهم، قد أفرد الله عنهم نُفْرة التحارب والتجادب، وجعل ما كان يسعى به بعضُهم من الإعداد لبعض، زياده فى ريحهم، وحدّا فى شوكتهم، لائتلافهم فى دولة أمير المؤمنين المجدودة المؤيدة بصدق الضمائر، ونفاذ البصائر. والى الله يرعَ أميرُ المؤمنين فى إعانته على صالح نيته، وتبليغه منتهى سُؤْله وغاية هِمّته، فى اعزاز دينه وإدلالِ مَن صدّ عن سبيله، إنه سميع قريب.

ومن أقوى الأسباب إلى استدعاء الشكر على النعمه تَذَكّر ما كانتْ عليه الحال قبلها، فاستَديموا الإغاصة فيما رفع الله من حَساستكم وأعلَى من أقداركم، سُكْرة أهل بيت نبيّكم صلى الله عليه وسلم، وما أملاكم الله فى الدعوه الأولى ممّا لايؤدّى حقُّه إلا بعون الله وتوفيقه، فإنه ارتاح لهم بلطفه وتوفيقه، فأنالهم رغائب الأقسام وسَنِيَّ الحُظُوات، ورفع درجهم ودرح خلوفهم وأعقابهم من بعدهم، بعدَ إد هم مُسْتَضْعفون يخافون أن يَتخطّفهم الناس، مُدْعِنون بقهر عدوّهم واستئثاره عليهم، ثم لم يَلبَثوا أن صاروا الى الحال التى يَرَوْنهم بها من العِبْطه والبَهْجة، إلّا أنّهم أحدوها بحقّها؛ وكانت فى أيدى الطلمة من أهل بيت اللعْنَة وأتباعهم بحُدْثه(١) الباطل ومِحْنة الابتلاء، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. وليس أحد منكم بخارج من المحبه بما أُلبِس من النعمة، وإن كنتم أهلَها الآحذين لها بحقّها، بل الذى يلزمكم آستدامتُها والقيامُ بحفظها، على حَسَب ما أولاكم الله منها، فربّما كان الذى يُعْقِب أهلَها من الغفلة والاغترار ويُلْهيهم بها من حبورها وسرورها، أعظمَ إثما وحُوباً مما يخاف على أهل البَطالة والصبر من ضعف العزم وقلّة الصبر، لما يَستولى عليهم من آستكانة الذّلة، والاغترار بالتقصير، والفزع الى ربهم فى تنفيس كُرَبهم، فإنه

(١) كذا فى الأصل ولعله

تبارك وتعالى قد وصف أهل الطبقتين فقال : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾. فحاجتُكم اذا أنجح الله سعيكم وأظفركم بطِلبتكم، الى حِياطة ما أودعكم الله من مسه ومِراسة ما آتاكم من فضله، بالشكر الممترى للزيد. فتعهّدوا معشَر شيعةِ أمير المؤمنين أنفسَكم بتذكّر ما سهّل الله لكم من الحُزونة، ودلّل لكم من الصعوبة، وحكم لكم به من النصر، على مُرّاق الملة ومُخالفى أهلِ القِبلة، وأباحكم من ديارهم وأموالهم؛ فأصبحتم بمَنّ الله عليكم حُماةَ الدين، وأنصارَ الأئمة الراشدين، وحصونَ كافّة المسلمين، بعد ما آجتثّ الله بكم قُرونَ النِّفاق، وأباد بكم صنادبَ الضلالة، وشَرّد من لم تستحمله سيوفُكم، وأصرع اليكم مَن أدْعى وآستسلم، وقد آستشرفكم معشَر شيعة أمير المؤمنين أهلُ الشنآن، ولاحظوكم بأعين الحسد والمداسة، فبين ذلك مُجْهِرٌ مُعالِنٌ، ومُسْتَسِرّ مداهن، وداحلٌ فى عدادكم، ووالجٌ فى سوادكم، يرى أمْنَه بين ظهوركم، فطعنُه عليكم فى دولتكم برِيبة التمويه وخُدَع التشبيه، أيسرُ عليه كُلفةً وأعظمُ فيكم جرحا ونِكاية، فتوقّوْا هذه الطبقةَ أشدّ التوقى، فإنّ أكثرَ مَن يلحأ الى استباحه الحيلة، مَن عجز عن المباداة والإصحار، وعند ظهور الحازم وعلبته يَحترِز من لطيف الخُدع وحتى الآستدراج.

وآحذروا معْشَر شيعه أمير المؤمنين من آستمراء الطراءه، والركون الى راحة الدَّعة ما قد رأيتم وناله عاد على أهله، وأورثتهم عواقبُه طول الندم والحَسْرة، فإنكم قد كنتم فى حال المراقبة لعدوّكم، والخوف لبائقته مُتيقّظين مُتحفّظين لما كان يرومُكم به من حَتْله وحيله، ثمّ أصبحتم الى الحِ وقد جهدكم السعى ومسّكم النَصَب، وسُلِق الشيطان فى أمانيكم أن قد اكتفيتم بسالف ما قاسيتم، ويحد من ضَعْف العزائم مُعينا داعيا الى اعتام الحفص، والإخلاد الى الأرض، ما لم تعتصموا بما عايتم من الاعتبار، وتَمتَثِلوا مواصىَ الآثار فيمَنْ سلف من القرون الخالية، وما أفضتْ به اليه العزّةُ من زوال النعم ووقوع الغِيَر، فإنّ جميع ما خوّلكم الله وأفادكم مُرتَهَنٌ بما ألزمكم من حِياطته واستنمائه؛ فقد وجبتْ عليكم الحُجة بما حضّكم الله

عليه ، وعظمت عليكم المنّة بما هداكم اليه ، وأراكم من آياته ومُثُلاته فيمن خلا قبلكم مافيه أبلغُ الإعْذار والإنذار لكم . ومن اجتمع له اقتباسُ صواب من تقدّمه الى ما يَنبعث من نفسه ، فكأنّه قد اختبر بالتجربة ، مع استمداده مما يَستفيد ، و تسزيد ما يفتح لُبّه ورأْيه ، وأَيْقُنوا أنّكم لن تصلوا الى مَن سواكم ، ممن هو أعسرُ طاعةً عليكم وأعذرُ بمعصيتكم ، حتّى تبدءوا باستصلاح أنفسكم ، وأنّه لن يرجى لكم القوّه على مُجاهده عدوّكم حتّى تقوّوا على مجاهدة أهوائكم ، فإن على كل امرئ ريبةً من أمره ، وعِطاء من غيبة ، لايكشفه إلّا صحّة المعرفه ، والإذعان بالنّصفه ، فهناك يُؤمَنُ عليه الجهل والمعانده ، واذا أُمِنت هاتان الخلّتان انسدت بإذن الله ثُلَم الآفات ، وفُتوقُ المكاره . وإنّه لا يُخاف الضلالُ على من اهتدى ، ولا اعتماد الجَوْر على مَن انتصف من هوى .

وليكن أوّلُ ما تتعهّدون به أنفسكم ، وتُثابرون عليه من صالح أدبكم تناصُفَ الحقّ بينكم ، بتقديم أهل الفضائل والآثار المحموده منكم وتفخيم أمرهم ، فقد علمتم أنّ منكم المعزّز الفائز الذى لايُدرك شأوُه ولا يُوارَى بلاؤُه ، حين كشف الإبلاء ضمائرَ القلوب وحلا مُشْتَبَهات الظنون ، فصرّح بالمحاربة بعد التقدّم فى الخُفّة ، وفاءً بمؤكّد العهد وركوبا منه لهائل الخطر ، غيرَ هائب مع صحّته الحقّ ما يَرى لديه الناكسُ المخلوع ورَعد ، ولا مُستوحشٍ فيما تعوّد به الى من تولى وأدبَر ، حتّى أتى الغاية التى أحرى اليها فى الله عز وجل وفى خليفته ، ثم لرؤسائكم من أهل المُشايَعة والمُكانَفة والنُّصرة والحظ الجزيل والأثر المُبين ، ثوابُهم واجب وحقّهم لازمٌ ؛ ثم منكم من يُحفَظُ لسلفه وأوّله من الآباء الذين محفوظون ولايتهم ، فإن الله عز وجل يقول فى ذكر اليتيمَين : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ الآية . وقال على لسان يعقوبَ لابنه يوسف : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ الآية . وأمير المؤمنين يَرى توريثَ الحكمة والذمامَ سنّةً عليه فى أخلاقه التى يرعاها ويحافظ عليها ؛ كما أنّه يرى وِراثة التركة فريضةً واجبة ، فيخلف السلَف الصالحَ عنده من المزيّة والفضل ما يتلون به أهل الفناء بأنفسهم ، ثم

يتلوهم من اقتدى [بهم] واهدى بهديهم . والسابق المتقدم من اعتد بلاء نفسه الى بلاء سلفه ، ثم يتبعه نفسُ المرء بنفسه ، ثم تتلوهما المُتَوَسِّل بآبائه ، ثم الصاعد به هواه ورأيه ، طبقةً فطبقة ، فليقصر كلُّ امرئ منكم على المرتبة التى أحلّه بها سَعيُه ، وليَسلك الى الازدياد فيها بالرياده من نفسه ، فإن من الفُتُوق العظيمه على أهل الدوَل ما ينزع به الشيطان بينهم ، ويكثر عددهم ما يكون منه ، فيوافق من الحَيْف للأنفس ما يجد به مساعا الى ما يروم من إيقاع الشحناء بينهم ، وتثبيت الإحَن فى صدورهم ، بعد التآزر والتناصر . ومتى يجمع المرءُ لمزيةِ مَن فوقه ، واعتباط مَن دونه كُنهَ ماتركه . ولن تخلُص نيّاتكم . ونسلم صمائركم ، حتى تمحّصوا شكر ما أُولِيه إخوانُكم ، وتعتدّوا ما بالهم شاملا لكم ، وتُجانبوا طريقه من اقتصر بأُمنيّته على حاصّته ، وتعتّب فيما أُوثر به أهلُ الفضل دونه . وكَفَى عِظةً فيما نهاكم الله عنه من ذلك ، يقول الله عز وجل : ﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ الآية . ولا يَلتمسنّ أحد مودّته عن سوء بيه بحسن مداراة فى ظاهر ، فإن الله مقلّد كلّ امرئ رِبقةَ عمله ومُطوِّقَه طوقَ سريرته . ولا يعدرنّ فيما يلزمه لإمامه ، فإنه إنما يغدر فى حظّه ويبخَس قِسْمه ، ويَبخس نفسه . ثم لا يقتصرنّ على استصلاحها حتى يتناولَ مَنْ كانتْ مِنّته عليه من أقربيه وحسويه (١) ، فإن يسير ما هو مُعانٍ من تأديتهم لا ينشَب أن يتجاوز أدنى المراتب الى أقاصيها ، وقريبها الى مُتناهيها ، حتى يستفيض شاملا عاما ، بعد أن بدا محلّلا خاصا .

واعلموا أنّ أمير المؤمنين متفقد من تثقيفكم وتقويمكم على صالح الأدب ومحمود السيرة ، ما لا يَتفقّد به مَن سِوَاكم ، فإنّه إن كان يُوجب على نفسه استصلاحَ الرعيّة وحملَهم على ما فيه رُشدُهم وقوامهم ، لما يلزمه من فصل العناية بالأخصّ والأولى فالأولى ، فإنّ فى أخلائكم من التقديم فى التأديب والتعهد ، وحوها من الصرر : منها : أنكم أَولى بحسن الطاعة وسرعةِ الإجابة ، للطف محلّكم وقرب مكانكم عند أمير المؤمنين .

---

(١) كذا فى الأصل .

ومنهـا : أنكم يأنس بكم المؤتمُّون ويَقتـدى بكم التامـون ، فمتى قصّرتم وأخللتم ، أقتفى أثركم مَن نُصبتم له أعلاما ، ثمّ لم يكن لكم أن تَزروا عليه ، ولا أنْ تأخذوا فوق يده ، بل كان قَمِينا أن يكون يَسومكم الرضا بمثل ما سمعتموه ، ثمّ تَجرى هذه العادةُ فى الطبقات ، حتّى يطّرد السياق ، الى أن يستفيض الفساد فى حَشو النـاس وعامتهم ، فلا تُعـنِي قوة ولا حزمٌ ولا شدّة ، إلّا العجزَ والاضاعة ، ثم يجد الأعداء مَساغا الى الطمع والعيب ، فلا يَملكون أن يُرهقوكم ويَستَولِى عليكم الفشلُ ، فإن الأيدى إنّمـا تُنْسَط بنفاذ العزائم ، والعزائم إنّما تَنْفُذ بثبات المحنّة ، والمحنّة إنمـا تثبت إذا كانت عن الحـق . وإذا أصبح أوّل هذه الرسوم ، التى رسم لكم أميرُ المؤمنين ، تَبعته توليه وشَفَعته لواحقُه ، ووجد العدوّ الملاحظُ مَكان العَوْرة ، مَطْمَعا فى إهمال ما كان يُعِدّ له من الغِرّة ، ويَتوفّق به من مناهزة الفُرصة ، وليكن ماتُفيضون فيه وتعـدّونه طهيرا على طاعيٍ إن طمَع فى دولتكم ، ما ألهم الله أميرَ المؤمنين : من شُمول رَعيّته بالعدل ، وفرش الأمن فى مصمراتها ومنقلَبها ، ورفع به عنهم من سير الجود ، وبسَط به يده من إثابة أهل البلاء ، وتغمُّد الحرائم لأولى الزَّلَل ، والإبلاغ فى دعاء من عَانَدَ وشاقَّ الى التوبة والإنابة ، وإقالة العَثْرة بعدَ القدرة ، والحَقْن لمُباح الدماء ، فلم تعلموه صَبَر محملا ، ولا هَتَـك لأحد ممّن أظفره الله به سِترا ، ولا وَقَفَه على عورة . ثم تولّى الله أميرَ المؤمنين ، فى حروبه شرقا وغربا ، التى أغناه الله عن الإطناب فى وصف صـنع الله لكم فيهـا ، لاستفاضة أخبارها فى دَهْمائكم ، مع ما أحبّ من مطالعتـه إيّاكم ببالغ أدبه وشافى عَطفه ، أن يتنكّب من الإسهاب ، فى غير ما صمَد له ورأى من تقريع أسماعكم وأذهانكم ، لوعى ما التمس أن تَعُوه من تبصيركم حظّكم ، وتنبيهِكم على رشدكم . وحَسْبُ أمير المؤمنين فى نفسه وفيكم الله ، وكفى به مبينا .

وإنّ أمير المؤمنين مع ما تقـدّم به اليكم لعَلَى ثقة من حِياطة الله حلافتـه التى جعلها عزًّا لِدينـه وقِواما لخلقه ، وأنّه ليس بهـا ممن أدبَر عن حقها أو فتـلالٌ بل من خلع ربقتها وأضاع حظّه منها ، جلب الخَلّة والحاجة وخَسرانَ الدنيـا والآخرة . وإنمـا أُتِىَ

المُقَصِّرون فى إعظام حقّها من صعف الروية عن بلوغ ما تُفْضى بهم إليه مصادرُ العواقب ، وتُؤديهم إليه رواجعُ ما قدّموا، فلا يكونون بعملهم غيرَ متحاوزين بهممهم ، وفيهم الذى هم فيه الى ما يمنعه (١) .

وٱستديموا معشرَ المسلمين سابغ النعمة بحسد مُوليها والمُتطوّل بها . وقد تَرَوْن ما كنتم فيه قبلها وما آلت اليه حالُ مَن سُلبها، ثم يُعقب الندامةَ حين لا مُستعتَبٌ ولا نَظِرةٌ يمكن فيها استقالةُ الفارط بتقصيرٍ ولا هَفْوةٍ زَلل . وثقوا من رِعاية أمير المؤمنين محمود آثاركم ، وما مضى من بلاء كلّ ٱمرئ منكم، بما تطمئنون اليه وتتوقّعون عادته، ٱسنَى ما ترتفع اليه آمالُكم وتسمو اليه همَمُكم، الى ما يَدّخر الله لمن تمسّك بهداه، واعتصم بتقواه، وجاهد عن حقه، وافيا بأمر عهده من جزيل ثوابه وكريم مآبه، الى الدار التى هى أكبر درجاتٍ : وأكبر تفصيلا .

أحبّ أمير المؤمنين أن يتعهّدكم بعطفٍ تثنّيهكم على حظّكم ، وتُثبت من بصائركم ، وتقطع من طمع الشيطان وحربه فيكم ، لما يجب عليه من إرشادكم، ويرجو من تأدية حقّ الله عز وجل فيكم، ولما يرى من ٱتصالكم بحبله ، وما يشملُه من الصنيع فيما ولّاكم الله به، وتولّاه لكم .

وأمير المؤمنين يسأل الله الذى دلّ على الدعاء تطوّلا ، وتكفّل بالإجابة حتما ، فقال عز وجل : ﴿ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، أن يجمع على رضاه أُلفَتَكم ، وأن يصل على الطاعة حبلَكم ، وأن يُتمّكم بأحسن ما أودعكم من منه ، ويوزِعَكم عليها من شكره ، ما يواصل لكم مزيدَه، وأن يكفيَكم كيد الكافرين، وحسد الباغين، ويَحفظ أميرَ المؤمنين فيكم بأفضل ما حُفِظ به أمام هدى فى أوليائه وشيعته، ويَجعل عنه ثقَل ما حمّله منكم . وبالله يستعين أميرُ المؤمنين، على ما يسوى من جرائكم بالحسنى، وحملِكم على الطريقة المُثلَى، وبه يرضى ناصرا ووليّا، وكفى بالله وليّا وكفى بالله نصيرا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

---

(١) كذا فى الأصل .

وللمأمون — لمّا كتبتْ اليه السيّدة زُبَيدة بعد مَقْتل ولدها الأمين خطابَها الآتى تستعطفه :

كُلّ ذنب يا أميرَ المؤمنين وإن عَظُم صغير فى حَنْب عَفْوك . وكُلّ زَلَل وإن جلّ حَقير عند صَفْحك . وذلك الذى عوّدك الله ؛ فأطال مدّتَك ، وتمّم نعمتَك ، وأدام لك الخيرَ ، ورَفع لك الشرّ .

هذه رُقْعة الوَالِهِ التى رجوك فى الحياة لنوائب الدهر ، وفى الممات لجميل الذكر . فإنْ رأيتَ أن ترحم صَنْعى ، وآستكانتى ، وقلّة حيلتى ، وأنْ تَصِلَ رَحِمِى ، وتحتسب فيما جعلك الله له طالبا وفيه راغبا فافعل ، وبدكّر مَنْ لو كان حيًّا لكان شَفِيعى اليك .

فكتب اليها المأمون .

وَصَلَتْ رُقْعتُك يا أمَاه ، أحاطكِ اللهُ وتَوَلّاكِ بالرِّعاية ، وَقَفْتُ علمها وساءنى — شهد الله — جميعُ ما أوصحتِ فيها ، لكنّ الأقدارَ نافذةٌ ، والأحكامَ جاريةٌ ، والأمورَ متصرّفةٌ ، والمخلوقون فى قَبْضتها ، لايَقْدِرُون على دفاعها ، والدنيا كلّها الى شَتَات ، وكلّ حىّ الى ممات ، والعُمْر والنَّعى حَتْفُ الإنسان ، والمَكْرُ راجعٌ الى صاحبه . وقد أمرتُ بردّ جميع ما أُخِذَ لك ، ولم تفقدى ممّن مضى إلى رحمه الله إلّا وجهه . وأنا بعد ذلك لك على أكثر مما تختارين ، والسلام .

(هـ) أحمد بن يوسف[1]

رسالة ممتعة لأحمد بن يوسف ذكرها ابن طيفور فى آختيار المنظوم والمنثور وهى :

أما بعد فالحمد لله القاهر القادر، الخالق الرازق، فاطر السموات والأرض، الذى أحاط بكل شىء علما، ونطق به خُبرا، وأتقنه حكمه وعلما، وألّف بين مُختلفه ومُتّفقه، ليدل نقوام بعضه على بعض، على آتصال تدبير مشيئته ومُبتدعه، وانه أحد صَمَد، لا ضِدّ له ولا ندّ، إذ قدّر له حاجته ثم شدّها ببلاغها الى الغاية التى حملها، فقال حل وعز ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ وحكى عن نَجيّه موسى عليه السلام، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ . وقال الله تعالى ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ ثم لم يكلّف العباد من شكره كِفاء نعمته، بل رضى منهم باليسير، وقبل منهم العفو، وجعل طاعتهم إياه عائدةً عليهم بحريل الحظّ فى دينهم ودنياهم، لِعباه عن عادتهم، وآتّساع قُدرته بالتطوّل عليهم، مُمْتَنّا بها، وبادئا وعائدا .

والحمد لله الذى آصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم، نبيّا لرسالته، وأتمّنه على وَحْيه، وأنزل عليه كتابه العزيز، الذى لا يأسه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فأدّى الى خلقه الرساله، وآستنقذهم من الضّلاله، وصَدَع بأمر ربه وجاهد فى سبيله، ونصح لأمته حتى أتاه اليقين من ربّه، بعد آستباره الحقّ، وظهور المحجّة، فصلّى الله عليه بشيرا ونذيرا، وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا قد تلافى من الهَلَكه، وجمع الألفة بعد الفُرقة، وأوضح الهدى بعد الدُّروس، ومعالمَ الرشد بعد الطُّموس، وكان بالمؤمنين رحيما .

والحمد لله الذى قفّى على آثار المرسلين، والأئمة الراشدين، الهادىَ التّقى، الطاهر الزكىّ، الإمام المأمون أمير المؤمنين، أعزّ الله نصره، فسدّ ثُلْمتهم، ورأبَ صَدْعهم وقلّده خلافتهم، وجعله لكافّة المسلمين غِياثا ورحمةً، وجعل ما ألهمه من العدل والإحسان

(١) راجع ما كتبناه عنه فى الفصل العاشر من الكتاب الثالث فى المجلد الأول

اليهم، مِنّة عليه و رحمةً دَخَرها له، دون الخلفاء قَبلَه، فيما أظهر من فضل زمانه على الأزمنة، وسياسة مَنْ تقدَّمه، ومنح الرعيّة من عطفه ونَظَره، ما لا يجمل عنهم أو به ولا يؤدّى عنهم شكره، الا هو لا شريك له، وأحسن الله جَزاء أمير المؤمنين ومَثُوبتـه، على صِلَة رَحِم رسول الله صلى الله عليه وسلم، التى هى رَحِمه وقرابته، وآختياره لولاية عهده الأمير الرّضى علىّ بن موسى، حفظه الله، حين أحمد سِيرته، و رضى محنته، وعرف آستقلاله، بما قلّده فى هَدْيه، ودينه و وفائه، بما أكّد الله به عليه، من عهد أمير المؤمنين أيّده الله، فى آغتنامه من ازره وأسَاه بما شَفَع رأيَه، وأنفذ تدبيره، حين هَمّ لآستصلاح ما آسترعاه الله، من أمور عباده، لما آنتقى القائم بدعوته، ورئيس شريعتـه، الأمير ذا الرِّياستين رحمه الله، فاتّخذه مُكَانِفا ظهيرا ووزيرا دون من سواه، فاتّبع منهاج أمير المؤمنين أيّده الله، وسار بسيرته، شرقا وعربا، وغَوْرا ونجدا، مُوفيا بعهده، قائما بدعوته، مقتفيا لأثره وسُنّته، فحسَمَ الله به الأدواءَ، وقمَعَ به الأعداء، من عُتاة الأمم، وطَواعيت الشِّرك، وآناد على يده، أهلَ الشِّقاق والنِّفاق، فى كل أفُق وطَرَف، بحدّ أمير المؤمنين أعزّه الله، و بركة ساسته ودولته، ومُنح سَعْى من قام بنُصرة من قام بحقّه، وأثار برهانه، حتى توفّاه الله عز وجل، حين بلغَ همّته وغايته، وحُمّ أجلُه، وآنقطعت مدّته، سعيدا حميدا، شهيدا فقيدا، عند إمامه أكرمه الله، وعند الخاصّة والعامّة، وكان من إجلال أمير المؤمنين، الحادثُ الذى نزل به، فأحيا آثاره، بوصف محاسنه، فى مَشاهده ومَجامعه، ورحّمه عليـه عند ذكره، وحِفْظه فى حُرْمته، وأهل حُرمته، وفيمن كان بجند الله على طاعته ونصيحته، ما أتمّ به نعمته، عندنا وعندكم معشر الشِّيعة، فقد أصبح أمره بكم متّصلا، وموقعـه من جماعتكم متمكّنا، بقبضكم ماقبَضه، وبسطكم ما بَسَطه من لومة المصيبة، وحسن العُقبى، وقد علِمتم معشر أهل الحجا والنُّهى، والطاعة لله عز وجل وحليفتـه، ودوى الغَاء والبَلاء فى دعوته من أهل خراسان وغيرهم ممن حصر ممّن آمتحن اللهُ قلبـه بوفاء العهد والاستبصار فى حقّ أمير المؤمنين أبقاه الله، والمجاهدة دونه، والصـبر على مواطن الصِّدق واللأواء، والذبّ عن البَيْضة والحريم،

والمتحمّلين للنَّصَب، والمصائب التي انحَلَت، حتى كأن لم تكن، وبقي أجرها على الله عزّ وجل، ومحمودُ ذكرها شائعا في الناس، إن نِعَم الله، قد جَلّت ولَطُفت، وخَصّت وعَمّت، وعلَت وسمَقَت، وتمّت ودامت، حتى قصّرنا عن موارينها، والإحاطة بأدائها، فإذا لم يكن لنا معشر إخواننا سببٌ الى مكافأة نَلائه بالعمل، فحس حُذّاء أن نجهد في القول، ونُطنب في الوصف إن شاء الله جَلّ وعزّ، فقد جعل ذكرَ النِّعم من أسباب الشكر، وقد حدّد لنا أميرُ المؤمنين أيّده الله من الحياء والكرامه، وجزيل الحِباطه، وسَنِيّ الرتبة التي قُرِئ بها عليكم كتابُه ما يَستغرق جَهْدنا، ويستفرغ وُسْعنا، فنرغب إلى الله عز وجل، وَلِيّ الرغبة، ومُؤْتي السُّؤْل والطِّلبة، في إعانتنا على تأدية ما وجَب له، فيما منحنا من فوائده ونَحَله، ثم نستزيدكم ونستعينكم على شكره، وإمدادنا بما بلَغته طاقتكم في السّعي له فقد آدَنَا ثِقْلُ ما حمّلنا، وثِقْل ما طوّقنا، وعظُمت فاقتنا الى استعمال القَوِيّ من الأنفُس والحامّه، والخاصّة والعامّة، في جَراء ما حَلّل أمير المؤمنين فينا من سُنَنه، وشملنا من تالد أياديه وطارفها، وقديمها وحديثها، وكيف يُوجد الى موازاه أمير المؤمنين سبيل سدل جَهْد، أو بلوغ حَشْد، فإنما نَقتدي هُداه، ونَعْشُو بنوره في ديجا، وليس نَحْزُنا عن أن نحزي حقّه، بواصِع عنّا مؤونةَ الدُّؤوب في التّحزي لتأديته، فإن الله عز وجل، قد أحبر بفضائل الشكر ومناقبه، وجعله من أسمائه، ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، وقد قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾. وقال تعالى ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾. ولولا أن الله عزّ وجل رَصيه لنفسه، لأحلاها عن التسمية إذ كان أكثر ما نستعمله، ونعرفه في مكافأة من منّ وتَطَوّل، ثم ثنّى بذكر فضله في العباد، فإن الله تبارك وتعالى افتتح أوّل ما علّم خلقه بالحمد، وجعله بَدْء كلامه، وخاتمة دعوة أهل جنّته، فقال عزّ وجل، ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وخلق الله السموات والأرض، ومن بَرَأ وذرأ في الحياه ليَبْلُوَ عبادَه بشكره، وأعدّ الحمد في الآخره لمن شكره، والنار لمن كفره، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ

كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾، وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، بجمل التقوى واقعةً، والشكر مرجُوًا ليَدل على ارتفاع رتبته، وعلو درجته عنده، وقال لنَجيّه موسى عليه السلام: ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾. فلم يكلّفه الا أحد ما أعطاه، والشكر على ما أتاه، وأخبر بعزّته فى العباد، فقال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾، فأيّة نعمه أجلّ قدرا، وأسنى أمرا، معشرَ الشّيعه من نعمه أمير المؤمنين، أيّده الله، عند الأمير دى الرّياستين، ومراسه الى رتّبه بها، فإنه أعطاه رياسه الحرب، و رياسه التدبير، وعقد له على رأسهما علَما فى رواية دعوته، وقلّده سيفهما وختّمه بخاتم الخلافه، وخاتم الدولة، وجعل صلاته بين صاحب حَرسه، وصاحب شُرْطته، ومسيره بين أمير المؤمنين و بينهما، أمَامه وخلفه، وصيّر له الجلوس على الكرسى بحضرته، فى صدر كل مجلس جلس، الا أن يُؤثِر به من أحبّ من أبناء الخلفا، وقدّمه فى دخول دارالأمير راكبا الى أقصى مكان ينتهى إليه أحد من بنى هاشم، لأنه منهم، وأعطاهم عَفْو عنهم، فسمّاه صاحب دعوته وسيفه على عدوّه و بابه الذى يدخل اليه منه، وولّاه حوله فى أقطار الأرض، ومُقدّمته بحضرته، وقلّده من الثغور ما قد علمت، مما أفرده فى عهده، الى ما أنفذه من أمره، فى جميع سلطانه ومُلْكه، من مشارق الأرض ومغاربها، وأين يأتى الوصفُ على ما فضّله به، وقدّمه وشرّفه على الناس كافّة، ولكنا نُخطر بذكره، ثم نَكِل السامعين الى ما يرجعون إليه من المعرفه التى لا تبلغها الصّفه، ثم لم يكن ما أكرمه به فى حياته بأعلى مما أكرمه به فى وفاته، تولّى غسله وتكفينه، ومباشرته بجهازه، إلى حفرته بيده، وقاسى من الغُصَص، و برحاء الحزن، و إدْراء العَبْرة، و إراقة الدموعه ماحال بينه و بين الكلام، وكاد يمنعه من القول والدعاء فى صلاته عليه، من الحكم، وحفظ أهل الحُرْمه، به رعايةً له فيهم، ووفاءً بعهده من بعده، وأقرّ خاصّته، وقوّاده وعُمّاله. وكتّابه على مَراتبهم، وحمد بحمده، ودَمّ بذمّه، وحَذّر بجنده، وتل كريته[1]، نَظَرا وعطفا، فلم يَبْق عليه فى إحياء ذكره، وبلوغ كل ما يحبه فى حياته غايةٌ الا أتى من ورائها،

(١) كذا فى الأصل

وأمر بقراءة فُتُوحه، كما كانت تُقرأ على عهده، وأضاف كل ما حَدَث من بعده الى ما تقدم من سَعْيه، وأخبر أنه كان سَبَبَه، والمفتتحَ به، وولّى محمد بن الحسن خِلافته، ونَصّبه مَنْصِبه، وأقامه مُقامه الى أن جَدّد العهد لى، فاستحلفتُه على ما وَلِى بحضرته، ثم تَتَابعت كتبُ أمير المؤمنين، أكرمه الله بعد مصاب الأمير دى الرياستين، بما لا يقارب التفضيل، والإطلاق والتفويض الذى كنتم سمعتم به وبلغكم، فلم يكن يرى وراءه مجاراة، ولا فوقه مَصْعَدا، حتى جدّد لنا من كرامته، ما قد قُرئ عليكم فى كتابه، فبلّغ بنا ما لم تكن الهمم تبلُغه، والأمانى لِتُحِيط به، لولا ما منحنا الله عز وجل من الترقّى فى الفضل، الى ماتَتَحَسّر من دونه الأبصار، وتتقطع دونه الآمال، وإنما اقتصصناه وذكرنا ما أبلانا وأصطنع عندنا من بلائه بدعائنا الى الله عز وجل، والى طاعته بالعدل والإحسان الى رعيّته والطرز بالصفح، والأخْذ بالفضل، والأمرِ بالمعروف، وصِلَة المروءة بالوفاء بالعهد، والشكرِ للمَنّ، ورِعاية الأخلاق المحمودة، وإحْفَاء أهلها، وإقامة سوقها، حتى تنافسوها وتَشَاحُّوا فيها، وصارت هى الذّرائع اليه، والوسائل عنده، فلو تأمل متأملُ أهلِ الزُّلَفَة، والأثَرة لديه، لوجَد الأخَصّ فالأخصّ، والأعلى قدْرا عنده هو الأفضل دِينا ومروءة، فلو لم يكن فى الحُظْوه عنده إلا إيحاشها لصاحبها صحّة المحبه، والنزاهة عن كل ظِنّة، لكان فيها أعظمُ العِطه، وأعدل الشهادة والدّلاله، وسنُصّ عليكم بما أحرزنا كم عنه مالا سبيل الى تحْدّه وإنكاره، بوصوح مَعَالمه ومَآثره، أو ليس المجاهِد عن دين الله، والمحامى عن نَصْبة المسلمين، والمُواتى لأغلظ عدوهم شوكة، وأخوَفهم عداوة، والمُنْجِح فى بلادهم، ممن كان لا يرام، ولا يُحاول لأستصعابه وشِدّة مُقَاساته، حتى أدعى حيعويه بالعُبودِيّة له، ثم أباح حريمَه حين تمرّد عليه، حتى بلغ السّبى الى ولَده، وحاربوا به، وبلغَت حيولُه، حتى توصّلت الى قُمّته، ومنتهى عِزّه، أو ليس مُسَكّن التهيج بالمشرق، حى حَبَت البران فيه، وأدعى رؤساؤها وقادتها، أوَ ليس غازى بلادِ بابل حين طَمى أمرها، وبدّل، ونكَث ونقص، حتى اجْتُثّت أرومته، وأباح حَريمه، وأراح المسلمين من مَعَرّته، أو ليس ساذ الثغور، ومُحَصّن

عَوْراتها ، والمبايِر لتدبيرها ، والمُسْعَدا لمُكابده المُنْحَح فيمن أرادها ، وفَاكّ العُناه ، من رِقّ الإسار ، وباشِر الرحمة على فقراء المسلمين وضُعَفائهم وأهل المَسْكَنه ، والخَلّة منهم ، وقاسِم الصّدقات فى أهلها ، وعامِر الموسم ومحصّنه من الآفات حِياطَةً للمسلمين فى حَجّهم ، وما يتقرّبون به الى ربهم ، وهل أفتقرن لأحد من الائمة ما أفتقرن له فى الملك والدّين والعزّ ، والتواضع والسَّعَة ، والبَذْل والقدره ، والعفو والعطله ، واللّيان فى مواضعها ، والشُّسك مع الهمّة ، والسطوه مع الاقالة ، وهل ترك معشرَ الأولياء والاخوان فى الدين عايةً لم نَسْمُ بنا الى شرفها ، وعلى مراتبها ، ومسزاد الحظّ فى عاجل وآجل ، لم يبلغاه ويختار لنا خاصّ مكرمته ، ومُدّخَر عاقبته . أرشدنا إلى الدين ، وسَلك بنا سُبُل الجنة ، جار لنا الملك . فلم يبق وراء ما ملكنا عاية ، وَوَرَد بنا الحروبَ وساسَها لنا ، فلم يَدَع عايةً للتعليم والدراية ، سُلّط علينا بسلطان الله الذى أتاه فلم يدع عاية فى التفلد والفقه ، فكم علّمنا الفضائل ، ثم فَصَّلَنا بها ، علّب لنا الأمّم ، ثم حوّلناها . علّمنا طَرائق الشَّرف ، ثم شرّفنا بها . أخّرنا عن الأسماء فكفانا مؤونة التماسها ، وأعاننا بما عنده فيها ، أحد على أيدينا الخير للرعيّه ، فوهّبلنا شكرَها ، وصدّق مقالتنا عند الشُّبهه ، وأنفذ أمرنا فى التدبير .

فيا أيّها الامام المنصور المهدىّ الرشيد حُزْتَ فضائل الآباء ، واهْتَدَيْتَ بهَدى الأنبياء ، أشكرك عن الاسلام ، فأنت القائم به الداعى له ، والناصر لحقّه ، أم نشكرك عن الأمصار ، فأنت المُفتتِح لمنعها عَفْوه ، والمتطوّل على أهلها بالرحمة ، والمعطِف عليهم بحبس الفائده بعد ما هيجت منك سَوْرة الغضب ، فاطفأتَ نارها ، وأحمدتَ لَهَبها ، وعُدت على من سَفِه ، وأضاع حظّه ، أم نشكرك على المساعد ، فأنت الذى أسّستَها على التّقوى ، وعَمّرتها بتلاوه القرآن ، وطهّرت المنابر وزكيتها ، تعلّوها صائما ، وتنطق عليها صادقا ، وتدعو الى الرشد عليها ناصحا ، وتختم القرآن قبل أن تَنْدَأها محسنا ، وتتلو من قوارعه ، ما تصيح له الأسماعُ وتلين له القلوب ؛ أم نشكرك على البيت العتيق ، والركن والمقام ، والحَجَر وزمزم ، ومَشاعر الحج ، وأنت ذببتَ عنها ، وأعَدْت البها عهدها ، فى مبعث نبيها ،

صلى الله عليه وسلم ، فأقمتَ النازع اليها ، من كلّ فجّ عميق ، والحالّين بها من الركوع والسجود ، أم نشكرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما حفظت فيه من عِترته ، بعفوك عن مُجْرمهم ، ومصاعفتك ثوابَ محسنهم ، وإحيائك من أمرهم ، ما كان قد اندرس وانطمس ، بعد اللقاء بنبى الله صلى الله عليه وسلم ، وقد راعيت منه فى قرابته وقرابتك ، ودوى رحمه و رحمك ، ماضيّع الناس . ووَصَلْتَ منهم ما كان وصلَه ، إذ كان الله عز وجل ، قد فَرض صِلةَ الأرحام ، وكان أطوع خَلْق الله عز وجل فيما فَرَض عليه . أم نشكرك عن العوام ، فقد ألبست المسلمين ثوبَ الأمن ، وأذقتهم طعم السَّعَة والرَّفاهة ، وعدَلت بينهم بالإنصاف ، وتوليّت دونهم النَّصَب ، وآثرتَهم الراحةَ . أم نشكرك عن الملوك والقوّاد والأجناد ، فأنت الذى رفعتَ منارهم ، ووفّرت عددهم ، فلم يكن فى دهر أحدٍ من الخلفاء أسعدَ ولا أحظى منهم فى سلطانك ، بما بذلتَ لهم من المَعاون ، وولّيتهم من الثغور والأمصار ، وأدررتَ عليهم من الأرزاق والخَواصّ ، أم نشكرك عن الأحكام والسُّنَن ، فأنت الذى أنهجتَ سبيلَها ، فأوحتَ فَرْضها ، وناضلتَ فى أهلها ، أم نشكرك عن الأعداء فأنت الذى بدأتَهم بالمُحَجّة ، ودعوتَهم الى الفَيْئة والإنابة ، ثم ثنّيتَ معقّبا بالعفو ، وبَعْثتَهم بعد البؤس ، وآنَسْتهم من الوَحْشة ، أم نشكرك على مكارم الأخلاق ، وأنتَ الذى ثنّتَ وطّأتها ، ونفيْتَ عنها أصدادها ، ولو نطَقتْ بالفصل ، لنطقت نشكرك ، فى إزالتك إياها عن اللئام ، و إخطائك من اعترى اليها . أم نشكرك عن الثغور ، فأنتَ الذى تمّمتها ، وحصّنت عوراتها ، أم نشكرك عن السلَف ، فأنتَ الذى أشدْتَ بفعالهم ، وحَفَظْتَهم فى أبنائهم ، أم نشكرك عن بُرْد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن القصيب الذى شخّص به ، حتى جعلتهما رِيبتك ، وسموتَ بهما فى أعيادك ، عند حَشْدك ، على الطُّهر والزكاة ، والنّسك والتّقوى ، أم نشكرك عن المسلمين فى رِعايتك إياهم ، وما تُرْعِيهم من جَنابك ، وتنفى عنهم من الآفات ، وتمل عنهم من جبابرة الكفر ، وتفُضّ من جيوش الشّرك والنّكث ، وتفتح من الحصون المُسْتَصْعَبة ، وتسهّل من الطُّرق الوعرة ، أم نشكرك عن تواضعك لله عزّ وجَلّ ولِصَالح

المسلمين طلبا للرفعه عند الله . أم تشكك عن الدين وقد جعلت السلطان عبدا وقائدا ومنفّذا . وكان مأمورا فجعلته آمرا . وآلة للقوه فجعلت القوه له آلة . فيامَن آتصل شكره بشكر الله عز وجل . ونعمه بنعمه الله تعالى وطاعته . بطاعه الله فوهب الله لك شرَف المنازل . ورقّاك دَرَج الفضائل . وحراك الله عما وعن عمرنا . مما شكر من ناطق أو صامت . جزيلَ الثواب ورفيعَ الدرجات . وأسعك ما أتاك وأمتع الأمّه ما آتاهم منك . والحمد لله ذى الرّغبات . ومتمّم الصالحات . شكرا لرب العالمين . فإنه مَنّ طاقتنا . ومُنْتَهى جَهدنا . وبه نستعين على تأدية فرائضه . أنه لا يعين على ذلك الا هو . أحببتُ أن تسكر اليكم أمير المؤمنين أيّده الله . اد ورد علىّ من أنعامه وافضاله . مالا أبلغه بالفعل . وأن تكون ما آقتصصنا عليكم . داعيا لكم . الى أن تشكروه عنّا . وعن أنفسكم . وعن الإسلام والمسلمين . ورجوت بما وفّقنا الله له . فيما شرحنا وأوضحنا . من الدّلالة والبيان أن يكون مجتمعا يَنتفع به من حضرنا . ومن عسى أن يُؤدّى اليه الخبرُ عنا . أو حدث بعدنا . وصدت بهذه المكرمة الرائعه . والمأثره النارعة . التى آدّخرها الله لأمير المؤمنين . أعزّ الله نصره . وأورده بها . دون الأئمه والخلفاء . أن تمر بالأسماع صفحا . وتحتار على القلوب سهوا . حتى تؤكّد بالشواهد والبرهان . ليبقى ذكرها ونفعها فى الخُلوف والأعقاب . ونحن نسأل الله عزّ وجل الذى جمع بأمير المؤمنين — مدّ الله فى عمره — ألفتنا . وعلى طاعته أهواءنا وضمائرنا . وأمالنا من الغبطة فى دولته وسلطانه . مالم تَحْوِه شيعه إمام . ولا أنصار خليفة . أن يُتمّ نورَ أمير المؤمنين . ويُعلى كعبَه . ويمتّعنا ببقائه . حتى يبلّغه سؤله وهمّته فى الاستكثار من البرّ وآدّخار الأجر . وآستيجاب الحمد والشكر . وأن يلمّ به الشّعث . ويَرأب به الصّدْع . ويُصلح على يديه الفساد ويَرتُق به فُتوقَ هذه الأمه . ويُنْجِح لسياسته ونكايته فى عدوها . ويتابع الفتوحَ فى بُلدانهم حتى تؤديه من نُجح السعى . ورغائب الحظّ فى الدنيا . ما يُجزل عليه ثوابه فى الآخرة . وأرشد عباده واصفياءه . الذين يقول لهم . ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

ومن توقيعاته نقلا عن كتاب الصُّولى .

وقّع الى عامل طالم « الحقُّ طريق واضح لمن طلبه تَهْدِيه مَحَجّته ولا تُخَاف جَوْرته وتُؤْمن فى السرّ مَغَبّته فلا تَستقلّن منه ولا تعدلنّ عنه فقد بالغتُ فى مُناصحتك فلا تُحوجنى الى مُعَاودتك فلست بعد التقدمة اليك إلا سطوةُ الإنكار عليك » .

ووقّع فى عناية بإنسان الى بعض العمّال « أنا بفلان تامّ العناية وله شديدُ الرِّعاية وكنتُ أُحِبّ أن يكون ما أرعيته طرَفك من أمره فى كتابى مستودعًا سَمْعك من حظاى فلا تعدلنّ بعنايتك الى غيره ولا تَمْحنّ بعقدك سواه حتى يبلغ إرادته وتتجاوز به أُمنيّته إن شاء الله » .

وفى كتاب آئين طيفور من توقيعات أحمد بن يوسف الشيءُ الكثير فارجع اليه إن شئتَ .

(و) رسـائل سهل بن هارون[1]

من كلامه :

حكى الجاحظ قال : — لقي رجل سهل بن هارون فقال : هب لي ما لا ضَرَرَ به عليك ؛ فقال : وما هو يا أخي ، قال . درهم ، قال : لقـد هوَّنتَ الدرهم وهو طائع الله فى أرضه

(١) هو من أسماء الفرس وكان من رجالات اللاغة والعلم والحكمة فى دولتى الرشيد والمأمون ، وقد وضع كتابا حاكى به كتاب كليلة ودمنة وسماه « ثعلة وعفرة » . وكان قيم بيت الحكمة (مدير دار الكتب) فى عهد المأمون . ولد سهـل بن هارون فى مدينـة ميسان بين واسط والبصرة ، وفى رواية فى دستميسان كورة بين الأهواز وواسط والبصرة ، فى أواخر النصف الأول من القرن الثانى تقديرا ، ولا يعرف من نسبه إلا أنه سهل بن هرون بن راهبون (راهون) وكنيته أبو عمرو ، فارسى الحسب ، أهوازى أو حورى المولد ، عراقىّ المنشأ ، تحوّل الى البصرة فى سنّ لم تعرف ، وكانت البصرة إذ ذاك مدينة العلم فى الدولة الاسلامية ، بل مدينة العلم فى العالم كله ، أو كما قيل فيها « قبة الإسـلام ، وحرانة العرب » حوت من العلم الانسانى أصوله وفروعه ، ومن القاعين على تميته مصاقعه وفحوله ، فعدى روحه طبان مجالسها ومحافلها ، واستنار عقله بما اقتبسه من نور معارفها فتخرج بعلمائها ، ولا شك أنهم كانوا طبقة عالية جدا ، فى كل مطلب من مطالب الآداب . وقيل أن سهل بن هارون كان شيعيا ، وشيعة العراق فى زمنه كانوا على الاطلاق معتزلة ، ولم يؤثر عنه أنه تنقص أحدا من الصحابة الكرام ، بل عرف بالاعتدال مع الأموات ، إعتداله مع الأحياء ، وما أثر عنه أنه خاض غمار مباحث الكلام التى كانت على أشد حرارتهـا إذ ذاك ولا سيما فى البصرة ودار السلام بغداد ، وأتهموه بأنه كان مع الشعوبيين الذين يصغرون شأن العرب ، ولا يرون لهم على العجم فضلا ، وإذا صحت هذه التهمة فمن الصعب التوفيق بين مذهب من يقول بالشعوبية ومن يقول بالتشيع ، على المعنى الذى فسر به بعد قرون .

وصفه الجاحظ فقال : « كان سهل سهلا فى نفسه ، عشيق الوجه ، حسن الشارة ، بعيدا من الغدامة (العىّ) معتدل القامة ، مقبول الصورة ، يقضى له بالحكمة ، قبل الخبرة ، ورقة الدهن ، قبل المخاطة ، وبدقة المذهب ، قبل الامتحان ، وبالسل ، قبل التكشف (الظهور) » . وكان الجاحظ مازحه وثاقبه . وقيل للحرانى ولعله ابراهيم بن دكوان كاتب الهادى وورزيه . بيلك وبين سهل بن هارون صداقة فأنعته لنا كى نعرف ، فقال « هو كالخير ، وارن العلم ، واسع الحلم ، إن حوذث لم يكدب ، وإن مودح لم يعصب ، كالغيث أين وقع ، نفع ، وكالشمس حيث أولت ، أحيت ، وكالأرض ماحلتها حملت ، وكالماء طهور للنفسه ، وواقع لعلله من أحرّ إليه ، وكالهواء الذى تقطف منه الحياة بالنسم ، وكالنار التى يعيش بها المقرور ، وكالسماء التى قد حسنت بأصناف النور» ا.هـ. صورتان جميلتان فى وصف سهل صوّرهما مصوّران مبدعان عاشا قبله ، وفنهما بخلقه وخلقه .

وأتهموا سهل بن هارون بالحمل وأوردوا له قصصا ونوادر ، وربما كان أتهامه بالحمل مماثلا فيـه تراد به النكتة والنادرة ا.هـ. من محاضرة للاسـتاذ الباحث السيد محمد كرد على ألقاها بالمجمع العلمى العربى بدمشق ونشرها بمجلتى المجمع والمقتطف .

لا يعصى ، وهو عُشْر العشرة، والعشرةُ عشر المائة، والمائةُ عشر الألف ، والألف دِية المسلم ، ألا ترى الى أين آنتهى الدرهم الدى هوّنتـه ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم! فانصرف الرجل، ولولا آنصرافه لم يسكت .

وحكى دِعْبِل الخزاعىّ الشاعر قال : أقمنا يوما عند سهل بن هارون، وأطلْنا الحديث حتى أصرّ به الجوع ، فدعا بمـدائه فأُتِىَ بصَحْفه فيها مَرَقٌ تحته ديك هَرِم، فأحد كسرةً وتفقّد ما فى الصحفة فلم يجـد رأس الديك فسـقى مطرقا ، ثم قال للغـلام : أين الرأس" قال : رميتُ به ؛ قال : ولِمَ " قال : لم أطعـك تأكله، قال : ولِمَ طعنت ذلك ! فوالله إنى لأمقُتُ من يرمى برِجله فكيف برأسـه ! ولو لم أكره ما صـنعتَ الا للطّـيرَه والفأل لكَرِهتُه ، أما علمتَ أن الرأس رئيس يُتَفاءل به ، وفيه الحواسّ الخمس، ومنه يَصيح الديك، ولولا صوتُه ما أُريد، وفيه فرقه الذى يُتَبَرّك به، وعينُه التى يضرب بصفائها المثل فيقال : شرابٌ كعين الديك، ودماغه يحب لوجع الكُلْيـة، ولم أرَ عَظْمًا قطُّ أهشّ تحت الأسنان مـنه ، وإن كان بلع من نُبْلك أنك لا تأكله، فعـدنا من يأكله، أو ماعلمتَ أنه خيرٌ من طرف الجَناح ومن رأس العُنُق! أبطر أبى رميتَه، فقال : والله ما أدرى، قال : أنا والله أدرى ! إنك رميتَ به، والله فى بطنك، فالله حسيبك .

ومن مؤلّفاته كتابُ البخلاء .

ولما صنّف سهلٌ كتابه فى البخل أهداه الى الحسن بن سهل وآستماحه ، فكتب إليه الحسن : قد مدحتَ ما ذمّه الله، وحسّنت ما قبّحه الله، وما يقوم بفساد معاك صلاحُ لفظك، قد جعلنا ثوابَ مدحك فيه قبولَ قولك، فما نُعطيك شيئا .

وآتّهـم سهلُ بن هارون بالبخل واورد له فى ذلك قِصَصٌ ونوادرُ وعدّه الجاحظ من "مُتعاقلى البخلاء وأشحّـاء العلماء" قال : ما علمتُ أن أحدا جرّد فى البخل كتابا إلا سهل بن هارون ، وأبا عبد الرحمن الثورى ، والبخل فى الفرس غالب فى الجملة ، غلبة الكرم على

طبائع العرب ، فاقتضى ذلك التفريط الذى رآه سهل فى تـدبير العرب ، أن يُدلى لقومه بآرائه المفرطة فى الاقتصاد والإمساك . وما شُوهد قطّ تفريطٌ ألا وإلى جانبه إفراط .

كتبه وطريقته فى التأليف :

كان سهلُ بن هارون مُقطع الفرس فى صوف العلم والآداب، وناهيك عَـالِم كبير كالجاحظ كان يؤلّف الكتابَ الكثيرَ المعانى، الحسن النَّظْم، فيسُنُّه الى نفسـه فلا يرى الأسماع تُصْغِى اليه، ولا القلوب تَتَفَهَّمُ نحوَه ثم يؤلّف كما قال عن نفسه، ما هو أنقصُ منه مرتبةً وأقلّ منه فائدةً، فيحمِلُه عبد الله بن المقفع، أو سهل بن هارون، فيُقبِل الناس عليها، ويسارعون الى نسْخها .

ويقال إن طريقه سهل فى كتابه طريقةُ أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب لا يتكلّف لكلامه، فلا يُشاهد فيـه الناقدُ أثَرَ التعمُّل، بل لا يتكلّف بعد إرسال النفس على سجيَّتها، فهو وابنُ المقفّع والجاحظ على عِرارٍ واحدٍ .

وقيل إن سهلا كاتبُ سلاطين، والجاحظَ مؤلّفُ دواوين. وكأنّ كلامَه نغمةٌ موسيقيّةٌ تعرف انتهاءَ جُمْلته من رَنَّتها بعـد أن ملكتْ عليك مشاعرَك ، لا يَحْفِلُ بالإسجاع إلّا إذا جاءت عَفْوَ الخاطرِ، شأنَ بُلَغاء الصدرِ الأوّل . وكان نقول الشعر وأكثرُ شعره ممّـا أملاه قلبُه، فى عرض من أعراض المجتمَع . وعدّه الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطِّوالَ والقِصَار، والكتب الكِبَار المجلّدة، والسِّيَر الحِسَان المولّدة، والأخبار المدوّنة . ولقّبـه مرةً بالكاتب ، ولعلّ لقب الكاتب فى شرفه أكبرُ من عالم . وذكره أبو الفرج فى البلغاء وقال إنّه شاعرٌ مُقِلٌّ، وعدّه فى الشعراء الخُطَّاب . وقال. إنه كان ممن يعمل الأشعار والخُرافات على ألسِنة الناس والطَّيْر والبهائم هو وعبدُ الله بن المقفع وعلىّ بن داود كاتب ربيْدة . وشعره خمسون ورقةً . أما الدهشة فهى تآليفه ، فله ديوان رسائله ، وكتاب النمر والثعلب، وكتاب اسباسيوس (أساوس) فى اتحاد الإخوان ، كتاب أسد بن أسد ، كتاب سَحَرَة العقل، كتاب تدبير الملك والسياسة ، كتاب الى عيسى بن أبان

فى القضاء، كتاب الفرس ، كتاب الغـزالين، كتاب ندود و ودود ولَدُود، كتاب الرِّياض، كتاب ثعلة وعفراء، (وفى رواية ثعلة وعفره) على مثال كتاب كَليلة ودِمْنة، قلّده فى أبوابه وأمثاله .

وقال المسعودىّ : يَزيد عليه أى على كَليلة ودِمْنة فى حسن نَظْمه وقد صنّفه للمأمون . ومن تآليفه : كتاب الهزليّة والمحرومىّ، كتاب الوَامق والعـذراء الى غير ذلك من المصنّفات التى لم تُبْقِ الأيامُ و يالأسف على واحد منها فيما علمنا .

دخل سهلٌ على الرشيد وهو يُصاحك المأمون، فقال : اللهم زِدْه من الخيرات، وآبْسُط له من البركات، حـتى يكون فى كلّ يوم من أيّامه مُرْبِياً على أمسـه ، مُقصرا عن غَدِه، فقال الرشيد . يا سهلُ، مَن رَوَى من الشـعر أحسنَه وأرصَه ، ومن الحـديث أفصحه وأوضحَه، إذا رام أن يقول لا يُعجزه القولُ؟ فقال سهل : يا أمير المؤمنين، ما طمعت أن أحدا تقدمنى الى هذا المعنى، قال بل أعشى هَمْدان حيث يقول :

رأيتُـك أمسِ خيرَ بنى لُؤَىٍّ * وأنتَ اليوم خيرٌ منك أمسِ

وأنت غَدًا تَزيد الخيرَ صعفًا * كذاك تزيد سادة عبد شمس

وقد شَهد مقتلَ البرامكة فى سنة ١٨٧هـ وحدّث فيما كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال : إنّ سَجّاعى الحطب، ومُحرى القَريض عِيالٌ على يحيى بن خالد بن بَرْمك وجعفر بن يحيى، ولو كان كلامٌ بتَصوّر دُرًّا ، و يُحيله المَنْطِق السِّرىّ جوهرًا ، لكان كلامَهما، والمُنْتَقَى من لفظهما، ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد فى بديهته وتوقيعاته فى كُتُبه، فَدْمين عَيين، وجاهلين امّيين، ولقد عُمّرت معهـم، وأدركت طبقـة المتكلمين فى أيامهم، وهم يرَوْن أن البلاغة لم تُستكمل الا فيهم، ولم تكن مقصورةً إلا عليهـم، ولا انقادت الا لهم، وأنهم مَحْض الأنام، ولُبّاب الكِرام، وملْح الأيام، عِشْقُ مطرٍ، وجودة مَحْبر، و جَرالةُ مَنْطِق، وسهولةُ لفظ، ونزاهةُ نفس، واكتمالُ خِصال، حتى لو فاخرتَ الدنيا بقليل أيامهم، والمأثورِ

من حِصَالهم، كثير أيام مِن سواهم من لَدُن آدَم أبيهم الى النفخ فى الصور، وآنتعاث أهـل القبور، حاشا أنبياء الله المكرّمين، وأهل وَحْيه المرسَلين، لمـا ماهتْ إلّا بهم، ولا عوّلتْ فى الفحر إلا عليهم، ولقـد كانوا مع بهدس أحلافهم، وكربم أعراقهم، وسعيه آفاقهـم، ورِفْق ميثاقهم، ومعسولِ مداقهم، و بهاءِ إشراقهم، وبقاوه أعرَاصهم، وبَهدب أعراصهم، وآكتمالِ حِلَالِ الخير فيهم، الى ملء الأرض مثلهم فى حس محاسن المأمون كالنُّقْطَه (التملة) فى البحر، والخَرْدَلة فى المَهْمَه القَفْر.

قيل: وهذا الكلام على ما فيـه من حقيقة فى سان سجايا البرامكة والرشيد والمأمون لم يحتنم بالصَّفَة الحقّه، ومال به سهل الى المصـانعه، وحرّحه على نحو مبالغه الفُرس، فى الإطراء والمَلَق لولىّ الأمر.

ورَوى بعضُ الرُّواه أن المأمون كان آستقل سهل بن هارون، وقد دحل عليه يوما والناسُ على مراتبهم، فتكلّم للمأمونُ بكلام دهب فيه كلَّ مَذْهب، فلما فَرَغ من كلامه أقبـل سهل بن هارون على الجمْع فقال مالكم تسمعون ولا تعُون، وتُشاهدون ولا تَفقهون، وتفهمون ولا تتعجبون، وتعجبون ولا تُبْصِرون! والله إنه ليقول و يفعل فى اليوم القصير ما فَعَلَ سو مَرْوان فى الدهر الطو يل، عَرَبُكم كعَجَمكم، وعجمُكم كعبيدكم، ولكن كيف يُعَرَّف بالدواء مَن لا يشـعر بالداء. فرجع المأمونُ فيـه الى الرأى الأوّل، وعرف أنه الرجل كلّ الرجل، فقرّبه وأدناه على النحو الذى كان عليه فى عهد والده.

ومن كلام له فى كتابه ثعلة وعمره:

"اجعلوا أداءَ ما يجبُ عليكم من الحقوق مُقَـدَّما قبل الذى تجودون به من تفضلكم، فإنّ تقديم النافلة مع الإبطاء فى الفريضة شاهدٌ على وَهْن العقيده، وتقصير الرَّوِيّة، ومُصِرٌّ بالتدبير، ومحلٌّ بالاختيار، وليس فى نفع تحمـد به عوض من فساد المروءة، ولزوم القبيحة".

وهذا مأخوذ من قوله فى يحيى بن جعفر :

عَدُوُّ تِلَادِ المالِ فيما يَنُوبُهُ * مَنُوعٌ اذا ما مَنْعُهُ كان أَحْرَمَا
مُذَلِّلُ نفسٍ قد أبتَ عيرَ أن تَرَى * مكارِهَ ما تَأْبى من العيش مَعْنَمَا

وكتب الى صديق له أَنَلَّ من صعف :

" للعنى حبر الفَتْره فى إلمامها وآنحسارها ، والشكاة فى حلولها وآرتحالها ، فكاد يشغل القَلَى بأوله عن السكون لآخره ، ويَدْهَل الحَيْرَةَ فى آبتدائه ، عن المَسَرَّة فى آنتهائه ، وكان تَغَيُّرى فى الحالين بقدرهما آرتياعًا للأولى ، وآرتياحا للأُخرى " .

✦

وكتب فى الحث :

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلح اللهُ أمْرَكم و جمع شَمْلَكم وعَلَّمكم الحير وحملكم من أهله . قال الأحنفُ بن قيس : يا معشرَ بنى تميم ، لا تُسْرِعوا الى الفتنة فإن أسرع الناس الى القتال أقلُّهم حَياء من الفرار . وقد كانوا يقولون : اذا أردتَ أن ترَى العيوب جَمَّةً فتأمل عَيَّانًا فإنه إنما يَعيب الناس بفضل ما فيه من العَيْب . ومن أعيب العيب أن يَعيب ماليس بعيب . وقبيحٌ أن تَنْهى مُرْشِدًا وأن تُغْرَى بمُشْفِقٍ . وما أردنا بما قلنا إلا هدايتَكم وتقويمَكم ، وإصلاحَ فاسدكم ، وإبقاءَ النعمة عليكم . وما أخْطَأنا سبيل حُسْن النية فيما بيننا وبينكم . وقد تَعْلَمُون أنا ما أوصيناكم إلا بما آخترناه لكم ، ولأنفسنا قَبْلَكم ، وشُهِرنا به فى الآفاق دونكم ، ثم نقول فى ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : ﴿وَمَا أُرِيد أن أُخَالِفَكم الى ما أَنْهَاكم عنه إن أريد إلا الإصلاحَ ما آستطعتُ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أُنيب﴾ فما كان أحَقَّنا منكم فى حُرْمَتِنا بكم أن تَرْعَوْا حَقَّ قَصْدِنا بذلك اليكم على ما رَعَيْناه من واجب حقّكم ، فلا العُذْرَ المبسوط بَلَفْتم ولا بواجب الحرمة قُمْتم . ولو كان ذكرُ العيوب يُرادُ به فخرٌ لرأينا فى أنفسنا من ذلك شغلا .

عِبْتُموني بقولي لخادمي : أجيدي العَجينَ فهو أطْيَب لطَعْمه وأزْيَدُ فى رَيْعه[1] . وقد قال عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه : أَمْلِكوا العجينَ[2] فإنه أحَدُ الرِّيْعَين .

وعِبْتُموني حين خَتَمْتُ على ما فيه شيء تَمين من فاكهةٍ رَطْبَةٍ بَقِيـة ومن رَطْبَة غريبة على عَبْد سَهِم وصَيّ حَسِع وأمَةٍ لَكْعاء[3] وزوجة مُصيعةٍ .

وعبتموني بالخَتْم وقد خَتَم بعضُ الأئمّة على مِزْود سَـويق[4] وعلى كيس فارع . وقال : طِيبَةٌ خير من طَيّبة ، فأمسكتم عمّن ختَم على لا شيء وعِبْتم من خَتَم على شيء .

وعبتموني أن قلتُ للغـلام : اذا زدتَ فى المَرَقِ فَرِد فى الإنصاح ليجتمع مع التأدُّم باللحم طِيبُ المرق .

وعبتموني بخَصْف[5] النَّعـل وبتَصْدير[6] القميص وحين زَعَمْتُ أن المخْصُوفة من النّعل أبقى وأقوى وأشَدّ وأن الرّقيع من الخَرْم والتفريط من التصييع . وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَخْصِف نعله ويُرَقِّع ثوبَه ويقول . لو أُهدى الىّ ذِرَاعٌ لقَبِلتُ ، ولو دُعِيتُ الى كُرَاعٍ لأجَبْتُ . وقالت الحكماءُ : لا حديدَ لمن لم يَلْبَس الخَلَق . وعَبَثَ زيادٌ رجلا يَرتاد له مُحَدِّثا وأشترط عليه أن يكون عاقلا فأتاه به موافقا فقال له : أكنتَ به دا معرفة ؟ قال : لا ، ولكنى رأيته فى يوم قائظ يَلْبَس خَلَقا ويلبس النـاس جديدا ، فتفرَّستُ فيه العقلَ والأدبَ . وقد علمت أنّ الخَلَق فى موضعه مثل الجديد فى موضعه . وقد جعل اللهُ لكل شيء قَدْرا وسَمَا به مَوْضِعا كما جعل لكل زمانٍ رجالا ولكل مقام مَقَالا . وقد أحْيَا اللهُ بالسّم وأمات بالدواء وأغَصّ بالمـاء . وقد زَعَموا أن الإصلاح أحَدُ الكاسبين كما زعموا أن قِلّة العيال أحد اليَسَارين . وقـد حَبَر الأحنفُ بن قيس يد عَنْز وأمر مالكُ بن أنس

---

(١) الريع : النماء والزيادة . (٢) إملاك العجين إتمام عجنه . (٣) اللكعاء : الحمقاء .
(٤) المزود : وعاء الزاد . والسويق : طعام يتخذ من الحنطة أو الشعير . (٥) خصف النعل : خرزها .
(٦) تصدير القميص : أن يجعل لصدره بطانة .

بِقَرْك النَّعل . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من أكل بَيْضَةً فقد أكل دَجَاجةً . ولَبس سالم بن عبد الله حِلْد أُضْحِية . وقال رجل لبعض الحكماء : أريد أن أُهدى اليك دجاجةً . فقال : إن كان لابد فاجعلها بَيُوضًا .

وعبتمونى حين قلتُ : من لم يعرف مواضعَ السَّرَف فى الموجود الرخيص لم يعرف مواضع الاقتصاد فى المُمْتَنع الغالى . ولقد أُنيتُ بماء للوضوء على ملح الكِفَاية وأشَدّ من الكفاية ، فلما صرت الى تفريق أجزائه على الأعضاء والى التّوفير عليها من وَضِيعة[1] الماء وجدتُ فى الأعضاء فَضْلا عن الماء ، فعلمتُ أن لو كنتُ سلَكتُ الاقتصادَ فى أوائله لخرج آخِرُه على كِفاية أوّله ولكان نصيبُ الأوّل كنصيب الآخر ، فعبتمونى بذاك وشنّعتم علىّ ؛ وقد قال الحسن وذَكَر السّرف : أما إنه ليَكونُ فى الماء والكَلا فلم يَرْض بذكر الماء حتى أردفه الكَلاَ .

وعتمونى أن قلت : لايَغْترّنّ أحدُكم بطول عمره وتَقْويس ظهره ورِقّة عَظْمه ووهْن قوّته وأن يرى نحوه أكثر دُرِّيّته ، فيدعوه ذلك الى إخراج ما له من يده وتحويله الى مِلْك غيره والى تحكيم السّرف فيه وتسليط الشهوات عليه ، فلعله يكون مُعَمرا وهو لا يدرى ، وممدودًا له فى السنّ وهو لايَشْعر ، ولعله أن يُرْزَق الولدَ على اليأس ويَحْدُث عليه من آفات الدهر ما لا يَخْطُر على بال ولا يُدْركه عمل ، فيسترذه ممن لا يرذه ويُظْهِر الشكوى الى من لا يرحمه أضْعَفَ ما كان عليه الطّلب وأقبح ما كان به أن يَطْلُب ، فعتمونى بذلك ، وقد قال عمرو بن العاص : " اِعْمَل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لاخرتك كأنك تموت غدا " .

وعبتمونى أن قلت . بأنّ السّرف والتدبير الى مال المواريث وأموال الملوك وأنّ الحفظَ للمال المكتسب والغنى المجتلب والى من لا يُعَرِّضُ فيه بذهاب الدِّين واهتصام العرض وتَصَبِ البدن واهتمام القلبِ أسرعُ ومن لم يحسُ نفقته لم يحسب دَخْلَه

(١) الوضيعة هنا : النقص .

ومن لم يحسب الدخل فقـد أضاع الأصل . ومن لم يعرف للغنى قَدْرَه فقد أُوذِن بالفقر وطاب نفسًا بالذل .

وعتمونى بأن قلت : إن كَسْب الحلال يصمم الإملاق فى الحلال . وإنّ الخَبِيث يَنْزِع الى الخبث ، وإنّ الطّيّب يدعو الى الطيّب ، وإنّ الإملاق فى الهوى يحجاب دون الهُدى ، فعتبتم علىّ هـذا القول ، وقد قال معاويةُ : لم أر تبـديرا قط إلا والى جنبه حقّ مُضَيَّع . وقد قال الحسن : إن أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجلُ مالَه فانظروا فيماذا يُنفِقُه فإن الخبيث إنما يُنْفَق فى السّرف . وقلت لكم بالشّفقة عليكم وحسن النظر منى لكم وأنتم فى دار الآفات ، والجوائحُ غير مأمونات : فإن أحاطَتْ بمال أحدكم آفةٌ لم يرجع إلا الى نفسه . فاحذروا النَّقَم باختلاف الأمكنة فإن البَلِيّة لا تجرى فى الجميع إلا بموت الجميع .

وقد قال عمر بن الخطـاب رضى الله عنه فى العَبْـد والأَمة والشاة والبعير : فَرّقوا بين المـايا . وقال آس سيرين لبعض البَحْريّين كيف تَصْـنَعون بأموالكم ؟ قالوا : نُفَرّقها فى السُّفُن فإن عَطِب بعضٌ سَلِم بعض . ولولا أن السلامة أكثر ما حَمَلنا أموالَنا فى البحر . قال آس سيرين : " نحْسَنها خَرْقاء وهى صَنَاع[1] " .

وعـتمونى بأن قلت لكم عند إشْفاق عليكم : إن للغنى لَسُكْرًا وللـمال لَبَرْوة[2] فمن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاعه ، ومن لم يربط المـال لحوف الفقر فقد أهمَله .

فعتمونى بذلك وقد قال زيد بن حَبَلَه ليس أحد أقصرَ عقلا من غنىّ أمِن الفقرَ ، وسُكْرُ الغنى أكثر من سكر الخمر . وقد قال الشاعرُ فى يحيى بن خالد بن بَرْمك :

وَهُوتُ تِلاد المـال فيما يَنُوبه ٭ مُسُـوغٌ ادا ما مَنْعُه كان أحرما

وعتمونى حين زعمتم أنى أُقدِّم المـال على العلم ، لأن المـال به يُقاد العـلمُ وبه تقوم النفسُ قبل أن تَعْرِف فضلَ العلم ، فهو أصل والأصل أحقّ بالتفصيل من الفرع ، فقلتم .

---

(١) هذا مثل يضرب لمن تطن به الغفلة وهو على يقظ . (٢) البرة : الثورة أو الوثبة .

كيف هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء : الأغنياء أفضل أم العلماء ؟ قال : العلماء . قيل له : فما بال العلماء يأتون أبوابَ الأغنياء أكثرَ ما يأتى الأغنياءُ أبوابَ العلماء ؟ قال . دلك لمعرفة العلماء بفضل المال وجَهْل الأغنياء بحقّ العلم. فقلت : حالُها هى القاصية بينهما . وكيف يستوى شىءٌ حاجهُ العامّة اليه وشىءٌ يُغْنَى فيه بعضُهم عن بعض .

وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياءَ باتّحاد الغَنَم والفقراء باتّحاد الدّجاج . وقال أبو بكر رضى الله عنه : إنى لأُبغِضُ أهلَ بيْتٍ يُنفقون نفقَة الأيام فى اليوم الواحد. وكان أبو الأسْود الدُّؤلىّ يقول لولَده : اذا بَسَط الله لك الرزقَ فابْسُط وادا قَبَض فاقبِض .

وعبتمونى حين قلت : فَضْلُ الغنى على القُوت إنما هو كفضل الالة تكون فى البيت اذا احْتيج اليها اسْتُعْمِلت و إن استُغْنِىَ عنها كانت عُدَّةً . وقد قال الحُصَيْن بن المنذر : وَدِدْتُ أن لى مثل أُحُدٍ دَهَبًا لا أستمع منه شىء . قيل له : فما كنتَ تَصنع به ؟ قال . لكثره من كان يَحْدُمُنى عليه لأن المال محدوم . وقد قال بعضُ الحكماء : عليك بطلب الغِنَى فلو لم يكن فيه إلا أنه عِزٌّ فى قلبك وذُلّ فى قلب عدوّك لكان الحظ فيه حسيما والنفع فيه عظيما .

ولسنا نَدَعُ سِيرةَ الأسماء وتعلمَ الحلفاء وتأدبَ الحكماء لأصحاب اللّهو ؛ ولستم على تردّون ولا رأيى تُفَنِّدون ، فَقَدِّموا البطرَ قبل العرم وأدْركوا مالكم قبل أن تُدْرِكوا مَآلكم . والسلام عليكم .

وسَهْلٌ هو القائل :

تَقَسَّمنى هَمَّانِ قد كَسَفَا بالى * وقد تَرَكَا قَلْبِى محَلّةَ بلْبَالِ
هما أَدْرَيَا دَمْعى ولم تُدْرِ عَبْرَتى * رهينةُ حَدَّ داتُ سِمْطٍ وَحَلْحَالِ
ولا قَهْوة لم يَبْقَ منها سوى الذى * على أن تُحاكى النورَ فى رأس ذَيّال

تحلل منهـا حُرْمُها وتماسكتْ * لها نفسُ معـدومٍ على الزَّمنِ الخالِي
ولكنما أَبْكِي بعيـنٍ سَخِيَّـةٍ * على حَـدَثٍ تَبْكِي له عينُ أمثالى
وِرَاقُ حليـلٍ لا يقـومُ به الأَسَى * وخَـلَّةُ حُرٍّ لا يقـومُ بهـا مالى
فَوَاحسرتى حتّى مَتَى القلبُ مُوجَعٌ * لِفَقْدِ حليـلٍ أو تعـدُّدِ إفضال
وما الفصـلُ إلّا أن تَجُودَ بنائلٍ * وإلا لِقاء الخِـلِّ ذى الخُلُقِ العَالِى

وهو القائل :

اذا آمرؤٌ صاقَ عنّى لم يَضِقْ خُلُقِى * من أن يَرانى عَيِيًّا عنـه بالْيَأسِ
لا أطلبُ المـالَ كى أُغْنَى بفَضْلَتِهِ * ما كان مَطْلَبُهُ فَقْـرًا من الناسِ

(ز) عمرو بن مَسْعَدة[1]

كان كاتبا بليغا، جَزْلَ العبارة وحيزَها، سديدَ المقاصد، فصلُه شائع، ونُبلُه ذائع، أشهرُ من أن يُنبِّه عليه، أو يُدَلَّ بالوصف اليه، قد وَلِيَ للمأمون الأعمالَ الجليلةَ، وأُلحِقَ بذوِي المراتبِ النبيلةِ، وسمّاه بعضُ الشعراء وزيراً لِعظَم منزلته لا لأنه كان وزيرا، وهو قوله:

لقد أسعدَ اللهُ الوزيرَ بن مَسْعَدَهْ * وبُثَّ له فى الناس شُكْرٌ ومَحْمَدَهْ

(١) هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول بن صول . وصول (بضم الصاد) كان رجلا تركيا وكان ملك وأخوه فيروز على جرجان وقتلا بعد التركية وتنشبا بالفرس .

بدأ عمرو بن مسعدة فى خدمة الدولة عاملا من العمال فظهرت كفايته و بلاغته ، و باللاغة توصل الى الخليفة عدّة أحد أمراء قلائل فى رجاله ، قال أحمد بن يوسف الكاتب : دخلت يوما على المأمون و بيده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى ، ويصعد فيه و يصوّب ، فلما مرت على ذلك مدّة من زمانه التفت الىّ وقال : ياأحمد أراك مفكرا فيما تراه منى ، قلت نعم ، فقال ان فى هذا الكتاب كلاما بليغا ما سمعت الرشيد يقول فى اللاغة ، زعم أن اللاغة إنما هى التاعد عن الاطالة ، والتقرّب من معنى العبة ، والدلالة بالقليل من اللفظ ، على الكثير من المعنى ، وما كنت أتوهم أن أحدا يقدر على ذلك . وقال . هذا كتاب عمرو بن مسعدة الينا ، فحكيته فاذا فيه . « كتابى الى أمير المؤمنين ، ومن قبلى من قواده ، ورؤساء أجناده ، فى الانقياد والطاعة ، بما أحسن ماتكون طاعة حدث تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ، فاختلت لذلك أحوالهم ، والثالث معه أمورهم » . فلما قرأته قال . ان استحسانى اياك بعثنى أن أمرت لجند قبله بأعطياتهم لستة أشهر ، وأنا على محاراة الكاتب بما يستحقه من حل محله فى صناعته . وفى رواية أن المأمون أمر لعمرو بن مسعدة برزق ثمانية أشهر وأنه قال لأحمد بن يوسف . لله در عمرو ما أبلغه ! ألا ترى الى إدماجه المسألة فى الأخبار ، وإعفائه سلطانه من الاكثار .

وكان عمرو بن مسعدة وكيعته أبو الفصل أبيض أحمر الوجه ، وكان المأمون يسميه الروى لبياض وجهه وكان يحصب وتوفى بأذنة سنة سبع عشرة ومائتين . ولم يعرف منشأه ومولده وأساتيذه وغاية ما عرفناه أنه كان أحد إخوة أربعة أحسن أنوهم — وكان كاتبا أيضا — تربيتهم كل الإحسان حتى حاذت من أحدهم هذه اللاغة النادرة التى كان من أثرها أن أصبح عشير المأمون ، وكان هو وأبو عباد ثابت بن يحيى يكتبان بين يديه ويجلسان معه و يمازحانه . ولكى يصل الرجل الى هذا المقام مع مثل هذا الخليفة العظيم فى كل شؤونه يجب أن ينطوى على صفات عالية يعز مثلها فى الأقران والأتراب .

قال عمرو بن مسعدة : كنت أوقع بين يدى جعفر بن يحيى البرمكى فرفع اليه علمانه ورقة يسترذونه فى رواتبهم فرمى بها الى وقال : أجب عنها فكتبت : « قليل دائم خير من كثير مقطع » فضرب بيده على ظهرى وقال : =

فهو كما كتبَ الحسنُ بنُ سهل الى محمد بن سَمَاعه القاضى وقد احتاجَ الى رجلٍ يُوَلِّيه بعضَ الأعمال فقال. إنه يريد رجلا جامعا لخصال الخير، ذا عِفّة ونزاهة طِعمة(١)، قد هذَّبته الآداب، وأحكمته التجارب، ليس بظَنِينٍ فى رأيه، ولا بمطعونٍ فى حَسَبه إن أُؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قُلِّد مُهمًّا من الأمور أجرأ(٢) فيه، له سنٌّ مع أدب ولسان، تُعقده الرزانة، ويَسكته الحلم، قد فُرِّع(٣) ذكاء وفِطنة، وعُضّ(٤) على قارحه من الكمال، تَكفيه اللمحةُ، وتُرشده السكتة، قد أنصر حدمةَ الملوك وأحكمها، وقام فى أمور خُمِد فيها، له أناةُ الوزراء، وصَوْلةُ الأمراء، وتواضُع العلماء، وفهمُ الفقهاء، وحوابُ الحكماء، لا يَبيع نصيبَ يومه بحرمان غده، يكاد يَسترِقّ قلوبَ الرجال بحَلاوَة لسانه، وحُسْنِ بيانه، دلائلُ الفضل عليه لائحةٌ، وأماراتُ العلم له شاهدةٌ، مُصطلِعًا بما استنهض، مستقِلًّا بما حمل.

= أى وزير فى حلدك. وقد شيد لعمرو بن مسعدة باللاغة أعيان البيان فى عصره ومنهم الفضل بن سهل فقال فيه: إنه أعلم الناس، ومن بلاغته أن كل أحد اذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثله فاذا رامه بعد عليه. وهذا كما قيل لأحد البلغاء: ما حد البلاغة؟ فقال: التى اذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها، فاذا رامها استصعبت عليه.

ولم يؤثر عن عمرو أنه ألف فى موضوع خاص وأفرد مسألة فى التأليف، وعده ابن النديم فى الشعراء الكتاب ولم يذكر إلا أن له ولأخيه محاشع حمسين ورقة من الشعر وهى من الضائع أيضا. والغالب أن مهام الدوله لم تترك له وقتا يصرفه فى درس خاص، أو وضع كتاب أو رسالة. وما تلفظه العلماء والأدباء من كلامه، فهو مما صدر عنه بالمناسبات، ورواه له المعجبون به، وما أعظم المفقود منه. والمظنون أن لو كانت جمعت له رسائله على إيجازها لكان منها ديوان كبير، لأن من صرف أعواما طويلة وهو قابض على يراعته يعالج بها الموضوعات السياسية والادارية فى ذاك المجتمع العظيم لا شك أنه يجتمع له صفحات كثيرة مهما كان مقلا معروفا بالاختصار اهـ من محاضرة للاستاذ الباحث محمد كرد على نشرها مجلة المجمع العلمى العربى. وفى عمرو بن مسعدة قال محمد البيدق وقد اعتل:

قالوا أبو الفضل معتل فقلت لهم * هنى الفداء له من كل محـذور
يا ليت علتـه فى غير أنـ له * أحر العليـل وإنى غير مأجـور

وتجد ترجمتـه فى معجم الأدباء لياقوت (ج ٦ ص ٨٨) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٥٥) والوافى بالوفيات للصفدى (ج ٥ ص ٥٠٢ قسم ثالث من الأصل الفتوغرافى المحفوظ بدار الكتب المصرية).

(١) فى الأساس: ومن المجاز فلان طيب الطعمة وحبيث الطعمة (بالكسر) وهى الحمة التى منها يرتزق (يوزن الحرفة). (٢) أجرأ كذا: كعانى. (٣) فرع ذكاء، وفطنة، أى جرب واختبر فيهما. (٤) وعض على قارحه، كناية عن بلوغه درجة الكمال.

ومن كلام عَمْرو بن مسعدة :

أعظمُ الناس أجرًا، وأنبَهُهم ذِكْرا ، مَنْ لم يَرْضَ بموت العدل فى دولته ، وظهورِ الحجة فى سلطانه ، وإيصال المنافع الى رعيّته فى حياته ، وأسعدُ الرعاة مَن دامتْ سعادةُ الحقّ فى أيامه ، وبعد وفاته وانقراضه .

وقال . الخطّ صُوَرُ الكُتُبِ تُرَدّ اليها أرواحُها .

وقال . الخطّ صورةٌ ضئيلةٌ لها مَعَانٍ جليلة ، ورُبّما ضاق عن العيون ، وقد ملأ احطار الصدور .

وقال لا تستصحبْ مَن يكون استمتاعُه بمالك وجاهِك ، أكثرَ من إمتاعه لك بشكر لسانه وفوائد علمه ، ومَن كانت عايتُه الاحتيالَ على مالك وإطراءَك فى وجهك ، فإن هذا لا يكون إلا ردىء العيب ، سريعًا الى الدم .

وكتب الى الحسن بن سهل :

أما بعد ، فإنّك ممّن اذا عَرَسَ سَقَى ، واذا أسّس بَنَى ، ليستتمَّ تشييدَ أُسُسِه ، ويَجْنِيَ ثِمَارَ غَرْسه ، وذاؤُك عدى قد شارفَ الدروسَ ، وعرسُك مُشْفٍ على اليبوس ، فتداركْ بناء ما أسّستَ ، وسقْيَ ما غَرَستَ إن شاء الله .

وكتب الى بعض أصحابه فى شخص يعزُّ عليه :

أما بعد ، فموصِّل كتابى اليك سالم والسلام . أراد قول الشاعر :

يُدبرونَنِي عن سالِمٍ وأُديرُهم * وجِلدُهُ بين العِ والأنفِ سالمُ

أى يَحُلّ منى هذا المحل .

وكتب الى المأمون فى رجل من بنى ضبّة يستشفع له بالزيادة فى معرلتـه وجعل كتابه تعـزيتا :

أما بعـد ، فقد استشفع بى فلانٌ يا أمير المؤمنين لتطوّلك علىّ ، وإلحاقه سُظَرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمتُه أن أمير المؤمنين لم يحملنى فى مراتب المُستشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تعدّى طاعته والسلام .

فكتب اليه المأمون : "قد عرفنا توطئتَكَ له ، وتعريضَك لنفسك ، وأجبناك اليهما ، ووافقناك عليهما" . وقوله : "إن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعتـه" : من الكلام السرّي الذي يدلّ على مَبْلغ أدبِ عمرو وبُعْـدِ غَوْره في السياسة ووقوفه على رُوح عصره ونفسيّة الخلفاء .

قَدِمَ رجل من أبناءِ دَهَاقِين[1] قريش ، على المأمون لِعِدَّة سلفتْ مـنه ، فطال على الرجل انتظارُ خروج أمر المأمون ، فقال لعمرو بن مسعدة : تُوَصِّلُ مني رُقْعـةً الى أمير المؤمنين تكون أنت الذي تكتُبها تكي لك عليّ نعمتان . فكتب : "إن رأى أميرُ المؤمنين أن يَفُكَّ أَسْرَ عبـده من رِقّة المَطْل بقضاء حاجته ، أو يَأْذَنَ له بالانصراف الى بلده فعل إن شاء الله" .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عَمْرا بجعل يَعْجَب من حسن لفظها ، وإيجازِ المراد . فقال عمرو : فما نتيجتُها يا أمير المؤمنين؟ قال : الكتاب له في هذا الوقت بما وعدناه ، لئلّا يتأخّرَ فصـلُ استحسانا كلامَه ، وبجائزة مائة ألف درهم ، صِـلَةً عن دناءة المَطْل . وسَمَاجة الإعفـال .

وهـذا ممـا يدلّ على سـعة عقل المأمون وولُوعه باللباعة وقدره أهلَها حقّ قَدْرهم ، دع ما هنالك من نفس ما أحبتْ إلا الجُودَ والعطاءَ .

ومن حِكَم عمرو بن مسعدة :

العبوديّة عبوديةُ الإحاء . لا عُبُودية الرِّق . الودّ أعطف من الرَّحِم . إن الكريم لَيَرْعَى من المعرفة ما رعى الوَصْلُ من القرابة . عليكم بالإخوان فإنهم زينةٌ في الرخاء ، وعُدَّةٌ للبلاء . مَثَلُ الإخوان مَثَلُ النار ، قليلُها مَتاعٌ ، وكثيرُها نَوَار . النفس بالصديق ، آنَسُ منها بالعشيق ، وعَزَلُ المودةِ ، أرقُّ من عَزَل الصبابة . من حقوق المودة ، عفوُ الإخوان ، والإغضاءُ عن تقصيرٍ إن كان . ذكر رجلٌ رجلا فقال : حسبُك أنه خُلِقَ كما تشتهي إخوانُه . المودّةُ قرابةٌ

(١) الدهاقين : الزعماء أرباب الأملاك بالسواد ، وأحدهم دهقان (بكسر الدال معرّب) .

مستفادةٌ . ما تواصل اثنان فدام تواصلُهما ، الا لفضلهما أو فضل أحدهما . أسرعُ الأشياء انقطاعا موده الأشرار . المحروم من حُرِم صالحى الإخوان . لقاءُ الخليل شِفاءُ الغليل . قلّةُ الزيارة ، أمانٌ من المَلَالة . إخوانُ السوءِ كشَجَر النار يُحرق بعضُه بعضا . علامةُ الصّديق اذا أراد القطيعةَ أن يُؤخّر الجوابَ ، ولا يبتدئَ بالكتاب . لا يُفسدَنّك الظنُّ على صديق قد أصلحك اليقينُ له . من لم يُقدِّم الامتحانَ قبل الثّقة ، والثقةَ قبل الأُنْس ، أثمرتْ مودتُه ندَمًا . اذا قدمتَ الحُرمة ، تشبّهتَ بالقرابة . العِتابُ حياةُ المودة . ظاهرُ العتاب خيرٌ من باطن الحقد . ما أكثرَ من يُعاتب لطلب علّة ، ويَبْقَى الوُدُّ ما بَقِى العتابُ . كُمُون الحقد فى الفُؤاد ككُمون النار فى الزِّناد . القريب بعيدٌ بعداوته ، والبعيد قريبٌ بمودّته . لا تأمَنَنَّ عدوَّك وإن كان مقهورا ، واحذرْه وإن كان مفقودا ، فإن حدَّ السيف فيه وإن كان معمودا لا تُعرّضْ لعدوّك فى دولته ، فإنها اذا زالت كمُنْتك مؤونتُه . نُصح الصديق تأديبٌ ، ونصحُ العدو تأديب .

روَى البَيْهَقِىّ قال : أخبرَنا بعضُ أصحابنا قال : شهدتُ المأمون يوما وقد خرج من باب البُستان بمعداد فصاح به رجل نَصْرِىّ يا أمير المؤمنين إنى تزوجتُ بامرأة من آل زياد وإن أبا الرازىّ فزف بيدا وقال : هى امرأة من قريش ؟ قال : فأمر عمرو بن مسعدة فكتب الى أبى الرازى .

إنه قد بلغ أميرَ المؤمنين ما كان من الزيادية وخَلْعك إيّاها إذ كانت من قريش . فمتى تحاكمت اليك العرب ؟ لا أمّ لك فى أنسابها ، ومتى وكّلتك قريش يابن اللخناء بأن تُلْصِق بها من ليس منها ؟ فخلّ بين الرجل وامرأته ، فإن كان زياد من قريش ، إنه لأبى سُمَيّةَ بَغِىّ عاهره ، لا يُفتخر بقرابتها ولا يُتطاول بولادتها . ولئن كان أبى عُبَيد ، لقد باء بأمر عظيم ، اذ ادّعى الى غير أبيه ، لحط تَعَجّلَه ، ومُلكِ قهره .

وأمر المأمونُ عمرَو بن مسعدة أن يكتب لرجل به عِناية الى بعض العُمّال فى قضاء حقّه ، وأن يَختصر كتابَه ما أمكنه ، حتى يكونَ ما يكتبُ به فى سطر واحد ، لا زيادةً عليه . فكتب عمرو :

كتابى اليك كتابُ واثقٍ بمَن كتبتُ اليــه ، مَعْنىٌّ بمن كُتِب له ، ولن يَضيع بين الثِّقة والعناية حاملُه .

وكتب الى بعض الزوساء، وقد تزوَّجتْ أُمه فساءَه ذلك ، فلمـا قرأها ذلك الرئيس تَسلَّى بها، وذهب عنه ما كان يَجده . وقيل: إن هذه الرسالةَ من إنشاء ابن العَميد وهى :

الحمد لله الذى كشَفَ عنا سِتْرَ الحَيْرة ، وهدانا لسَنَنِ العَوْره . وجَدَعَ بمـا شَرَعَ من الحلَال أُنفَ العَيْره، ومَنع مَن عَصَل الأمهاتِ، كما مَنع من وَأْدِ البناتِ، استنزالا للنفوس الأبيّه، عن الحَمِيّة حَمِيّـه الجاهليّة ، ثم عَرَض لجزيل الأجر، مَن استسلم لواقع قضائه ، وعوّض جليلَ الدحر مَن صَبَر على نازل بلائه، وهَدَاكَ الذى شرح للتّقوى صـدرك، ووسّع فى الـلوى صَبْرَكَ ، وألهمك من التسليم لمشيئته ، والرِّضا بقضيته ، ما وفّقك له من قضاء الواجب فى أحد أَبَوَيْك ، ومَن عَظُم حقّه عليـك، وجعل الله تعـالى جَدُّه ما تجرّعْتَه من أَسَف ، وكظمتَه من أَسَف ، معدودا فيما يُعظّم به أجرك ، ويجزل عليه دُخْرك ، وقَرَن بالحاصر من امتعاضك بفعلها، المُنتظر من ارتماضك بدفنها، فتستوفى بها المصيبة، وتَستكمل عنها المَثُوبة، فوصل الله لسيدى ما استشعره من الصّبر على عُرْسها، بما يَكتسبهُ من الصبر على نفسها، وعوّضه من أَسِرّه فرشها، أعواد نعشها، وجعل تعالى حدُّه ما ينُعم به عليه بعدها من نعمة، معرّى من نقمة، وما يولّيه بعد قبضها من مِنْحه ، مُبرّأً من مِحْنَه، فأحكام الله تعالى حَدُّه، وتقدّستْ أسماؤه، جاريةٌ على غير مُراد المخلوقين، لكنه تعالى يختار لعباده المؤمنين ما هو خيرٌ لهم فى العاجلة، وأبقى لهم فى الآجلة ، اختار الله لك فى قبضها اليـه، وفُدومها عليه، ما هو أنفعُ لها، وأولى بها، وجعل القبر، كُفُوءًا لها والسلام .

وقال عبد العزيز بن يحيى المكىّ الذى ناظر بِشْر بن غِيَاث المِرِّيسىّ بحضرة أمير المؤمنين فى مسألة خَلْق القرآن :

جاءنى خليفةُ عمرو بن مسعدة ومعه جَمْعٌ من الفرسان والرَّجّالة فحملنى مُكْرَماً على دابّته حتى صار الى باب أمير المؤمنين فأوقفنى حتى جاء عمرُو بن مَسْعدة فدخل فجلس فى حُجرته

التى كان يجلس فيها ثم أذن لى بالدخول عليه فدخلتُ فلما صرتُ بين يديه أجلسنى ثم قال لى : أنت مقيمٌ على ما كنتَ عليه أو قد رجعت عنه؟ فقلتُ : بل مقيمٌ على ما كنتُ وقد ازددتُ بتوفيق الله تعالى إياى بصيرةً فى أمرى؛ فقال لى عمرو بن مسعده : أيها الرجل، قد حملتَ نفسكَ على أمرٍ عظيم، و بلغتَ الغايةَ فى مكروهها، وتعرّضتَ لما لا قِوَامَ لك به فى مخالفة أمير المؤمنين، وادّعيتَ بما لا يثبتُ لك به حجةٌ على محالفتك، ولا لأحدٍ غيرك، وليس وراءك بعد الحُجّة عليك الا السيفُ ، فانظرْ لنفسك و بادر أمرَكَ ، قبل أن تقعَ المناظرةُ وتَظْهَرَ عليك المحجةُ ، فلا تنفعك النّدامةُ ولا يُقْبلُ منك معذرةٌ ولا تُقال لك عَثْرةٌ، فقد رحمتُك وأشفقتُ عليك مما هو نازلٌ بك، وأنا أستقيلُ لك أميرَ المؤمنين وأسألُه الصفحَ عن جُرْمك ، وعظيم ما كان منك اذا أظهرتَ الرجوعَ عنه والندمَ على ما كان ، وآحدُ لك الأمانَ منه والجائزةَ ، فان كانت لك طُلَامةٌ أرلتَها عنك وان كانت لك حاجةٌ قضيتُها لك ، فانما حلستُ رحمةً لك مما هو نازلٌ بك بعد ساعة إن أقمتَ على ما أنت عليه ورجوتَ أن يخلصك الله تعالى على يدىّ من عظيم ما أوقعتَ نفسَك فيه .

شعره :

نقلنا أمثلةً قليلةً من نثر عمرو بن مسعدة، أما شعرُه فقليلٌ جدا. ذَكَرَ المترجمون له أنه كان له فَرَسٌ أدهمُ أغرُّ، لم يكن لأحد مثله فَرَاهَةً وحُسنا . فبلغ المأمونَ خبرُه، و بلغ عمرو ابنَ مسعدةَ ذلك . فخاف أن يأمر بقَوْده اليه فلا يكون له فيه تحْمَده، فوجّه به اليه هدية وكتب معه :

يا إمامًا لا يُـــدا ... نيـــه ادا عُدّ إمامُ
فَصلَ الناسَ كما يَفْـ ... ـصِلُ نقصانا تمـامُ
قـد بَعثنا بجَـــوادٍ ... مثـــلُه ليس يُرامُ
فـــرَسٌ يُزْهى به للـ ... ـحُسن سَرْجٌ و لجَامُ
دُونه الخيـــلُ كما مثـ ... ـلك فى الفصلِ الأمامُ

وجهُهُ صُبحٌ ولكن سائرُ الجسم ظـلامُ
والدى يَصْلُح للـو * لَى على العبـد حَرَامُ

وعمرو هو القائل :

ومستعذب للهَجْرِ والوصل أعذَبُ * أكاتِمُه حُـبِّى فَيَنْأَى وأَقْـرُبُ
اذا جدتُ منى بالرضا حاد بالجَفَا ويَزْعُمُ أَنِّى مُذْنِبٌ وهـو أذنبُ
تعلّمتُ ألوانَ الرضا خوفَ هَجْـرِه وعلّمه حُـبِّى له كيف يَغْضَبُ
ولى غيرُ وجه قد عرفتُ طريقَهُ * ولكن بلا قلبٍ الى أين أذهبُ

ووقع مرّة فى طهر رُقْعة لرجل :

أَعْزِزْ عَلَىَّ بأمرٍ أنت طَالِبُـهُ لم يُمكِن النُّجْحُ فيه وٱنقضى أَمَدُهْ

ولعمرو بن مسعده حكاياتٌ منها ما حكاه القاضى التنوخىّ فى كتاب الفرج بعد الشدّة[1]: قال عمرو بن مسـعده : كنتُ مع المأمون عـند قدومه من بلاد الروم حتى اذا نزلتُ الرَّقّة قال : يا عمرو، ما ترى الرَّحَبِىّ قد احتوَى على الأَهْوَار، وهى سلّة الخير وجميعُ المـال قِبَلَه وطمع فيها، وكُتُبُه متّصـلة بحلها، وهو يتعلّل و يتربّص بى الدوائر؟ فقلتُ : أنا أكفى أمير المؤمنين هذا، وأنفذ مَن يصطره الى حَمْل ما عليه، فقال : ما يقنعنى هذا، فقلت : فيأمر أمير المؤمنين بأمره، فقال : فاخرُج اليه بنفسك حتى تُصَفِّده بالحديد، فتحمله الى بغداد وتقبض على جميع ما فى يده من أمواله، وتنظر فى أعمالها وترتّب لها عُمّالا، فقلتُ : السمع والطاعة، فلما كان فى غدٍ دخلتُ عليـه فقال : ما فعلتَ فيما أمرتك به ؟ قلتُ : أنا على ذلك، قال : أتريد أن تجىء فى غدٍ مُوَدّعا؟ قلت : السمع والطاعة، فلمـا كان فى غدٍ جئتـه مودّعا، فقال : أريد أن تحلف لى أنك لا تقيم ببغداد إلا يوما واحدا، فاضطربتُ من ذلك الى أن حصّنى وٱستحلفنى ألا أقيمَ فيها أكثر من ثلاثة أيام، فخرجتُ

---

(١) راجع (ج ٢ ص ٣٥ طبعة الهلال) . والعقد الفريد لابن عبد ربه (ج ٢ ص ٢١١ طبعة بولاق) .

حتى قدمتُ بغداد ، فلم أُقِم بها إلا ثلاثة أيام وٱنحدرتُ فى زَلالىّ أريد البصرة وحُمل لى فى الزلالى خَيش واستكثرتُ من الثلج لشدّة الحرّ .

فلما صرتُ بين جُرْجان[1] وحَتُّل سمعتُ صوتا من الشاطئ يصيح : يا ملّاح، فوقعتُ سَجِف الزَّلالىّ وادا بشيخ كبير السنّ جالس حاسر الرأس حافى القدمين حَلَق القميص، فقلت للغلام : أجبْه، فأجابه، فقال : ياغلام، أما شيخ كبير السنّ على هـذه الصورة التى ترى، وقد أحرقتْنى الشمسُ وكادتْ تتلفنى ، وأريد حمل، فاحملونى معكم فانّ الله يحسن أجر صاحبكم، قال : فشتمه الملّاح وٱنتهره، فأدركتْنى رقّةٌ عليه وقلتُ : حذوه معنا، فتقدّما الشطّ وصِحْنا به وحَمَلناه ، فلما صار معنا فى الزلالىّ وٱنحدَرْنا نتقدّم فدفعتُ اليه قميصا ومِنْديلا وعَسَلَ وجهه واستراحَ وكأنّه كان مَيْتا وعاد الى الدنيا فحصرَ وقتُ الغذاء وتقدّمت وقلتُ للغلام . هاتِه يأكلْ معنا، فجاء وقَعَد على الطعام ، فأكل أكلَ أديبٍ نظيفٍ غير أنّ الجوع أثّر فيه، فلما رُفِعتْ المائدةُ أردت أن يقوم ويَغْسل يده ناحية كما تفعل العامة فى مجالس الخاصّـه فلم يفعل، فغسلتُ يدى وتدمّمتُ أن آمر بقيامه ، فقلتُ : قدِّموا له الطشت فغسل يده، وأردتُ بعدها أن يقوم لأنام فلم يفعل، فقلتُ : يا شيخ ، أىّ شىء صناعتك؟ قال : حائك أصلحك الله، فقلتُ فى نفسى : هذه الحياكة علّمته سوءَ الأدب، فتناومتُ عليه ومددتُ رجلى فقال : قد سألتنى عن صناعتى وأنت أعزّك الله ما صناعتك؟ فأكبرتُ ذلك وقلت : أنا حَيَتُ على نفسى هذه الجناية ولا بدَّ من احتمالها، أتراه الأحمق لا يرى زَلالىّ وغلمانى ونعمتى وأنّ مثلى لا يقال له هذا! فقلتُ : كاتب، فقال : كاتب كامل أم كاتب ناقص فإنّ الكتّاب خمسة، فأيّهم أنت ؟ فورد علىّ قول ا لقائل موردا عظيما وسمعتُ كلاما أكبرته وكبت متكئا فجلست، ثم قلت : فَصِّل الخمسه قال :

نعم، كاتبُ خَراج يحتاج أن يكون عالما بالشروط والطسوت والحساب والمساحة والبنوق والفتوق والرتوق . وكاتبُ أحكام يحتاج أن يكون عالما بالحلال والحرام

(١) فى العقد الفريد : «بين دير هرقل ودير العاقول» .

والاحتجاج والإجماع والأصول والفروع . وكاتبٌ مَعُونة يحتاج أن يكون عالما بالقصاص والحدود والجراحات والمواشات والسياسات . وكاتبُ جَيْش يحتاج أن يكون عالما بحُلَى الرجال وشِيَات الدوابّ ومُدَاراة الأولياء وشيئا من العلم بالنسب والحساب . وكاتب رسائل يحتاج أن يكون عالما بالصدور والفصول والإطالة والايجاز وحُسْن اللاعة والخط ، قال . فقلت : إنى كاتب رسائل ، قال : فأسألك عن بعضها ، قلت : قل ، فقال لى :

أصلحك الله ، لو أنّ رجلا من إخوانك تزوج أمّك فأردت أن تكاتبه مهنئا فكيف كنتَ تكاتبه ؟ ففكرتُ فى الحال فلم يخطر ببالى شىء ، فقلتُ : ما أرى للتهنئة وجها ، قال : فكيف تكتب اليه تعزّيه ففكرت فلم يخطر ببالى شىء ، فقلت : اعفنى ، قال : قد فعلت ، ولكنك لست بكاتب رسائل ، قلت : أنا كاتب خَرَاج ، قال : لا بأس ، لو أنّ أمير المؤمنين ولّاك ناحية وأمرك فيها بالعدل والإنصاف وتقصى حاجه السلطان فيتظلم اليك بعضهم من مسّاحيك وأحصرتهم للنظر بينهم وبين رعيتك ، فحلف المسّاح بالله العظيم لقد أنصفوا وما ظلموا ، وحلفتْ الرعيّة بالله إنهم لقد جاروا وظلموا ، وقالت الرعيّة : قف معنا على ما مَسَحوه وانظر مَن الصادق مِنَ الكاذب ، فخرجتَ لتقف عليه ، فوقفوا على براح شَكْلُه قاتل قفنا ، كيف كنتَ تمسحه ؟ قلت : كنت آحد طوله على أنعراحه وعرضه ثم أضربه فى مثله ، قال : إنّ شكل قاتل قفنا أن يكون زاويتاه محدودتين وفى تحديده تقويس ، قلت : فآخذ الوَسَط فأضربه فى العَرْض ، قال : إذًا يثنى عليك العمود ، فأسكتنى ، فقلت . ولستُ كاتبَ خراج ، قال : فإذًا ما أنت ؟ قلت : أنا كاتبُ قاضٍ ، قال : أرأيتَ لو أنّ رجلا توفى وخلّف امرأتين حاملتين إحداهما حُرّة والأخرى سَرِيّة ، فولدتْ السريّة علاما والحرّة جارية ، فعَدَتْ الحرّة الى ولد السريّة فأحدثتْه ، وتركتْ بدله الجارية فاختصما فى ذلك ، فكيف الحُكْم بينهما ؟ قلتُ : لا أدرى ، قال : فلستَ بكاتب قاض ، قلتُ . فأنا كاتبُ جيش ، فقال : لا بأس ، أرأيتَ لو أنّ رجلين جاءا اليك لتُحَلِّفهما وكلّ واحد منهما اسمه واسم أبيه كاسم الآخر إلا أنّ أحدهما مشقوقُ الشفة العليا ، والآخر مشقوقُ

الشفة السفلى ؟ كيف كستَ تحليهما، قال : قلتُ : فلانٌ الأفلح وفلان الأعلم، قال : إنّ رزقهما مختلفان وكلّ واحد منهما يجيء فى دعوة الآخر، قلتُ : لا أدرى، قال : فلستَ بكاتب حَبْش، قلتُ : أنا كاتب مَعُونة، قال : لا تعالى، لو أنّ رحلين رُفِعا اليك قد شَجّ أحدُهما الآخَر شجّةً مُوضِحةً[1]، وشج الآخرُ شجّةً مأمونة، كيف كستَ تفصل بينهما؟ قلت: لا أدرى، قال : لستَ إذًا كاتب مَعُونة، اطلب لنفسك أيها الرجل شغلا غير هذا، قال : فصَعُرَتْ الىّ نفسى وعاظنى، فقلت : قد سألتُ عن هذه الأمور ويجوز ألا يكون عندك حوابها كما لم يكن عندى، فإن كنت عالما بالجواب فقل، فقال .

نعم، أما الذى تزوّج أمك فتكتب اليه : أما بعد، فإنّ الأمور تجرى من عند الله بغير محبّة عباده ولا اختيارهم، بل هو تعالى يختار لهم ما أحبّ، وقد بلغنى تزويج الوالدة حار الله لك فى قصها ، وإنّ القصور أكرم الأرواح وأستر العيوب والسلام .

وأما براحُ قاتل قثا فتمسح العمود حتى اذا صار عددا فى يدك ضربته فى مثله ومثل ثلثه فما خرج فهو المساحة .

وأما الجاريةُ والعلامُ فيُوزَن لَبَنُ الاثنين، فأيّهما كان أخفّ فالجارية له .

وأما الجديان المتفقا الاسمين، فإن كان الشقّ فى الشفة العليا قيل فلان الأعلم، واذا كان فى الشفة السفلى قلتَ فلان الأفلح .

وأما صاحبُ الشجّتين فلصاحب الموضحة ثُلثُ الدِّيَة ، ولصاحب المأمونة نصف الدية ، فلما أجاب بهذه المسائل تعجّبتُ منه وامتحنتُه بأشياء كثيرة غيرها فوجدته ماهرا فى جميعها حاذقا بليغا ، فقلتُ : ألستَ زعمتَ أنك حائك، فقال : أنا أصلحك الله حائك كلام ولستُ بحائك نَسّاجه، وأنشأ يقول :

ما مَرَّ بؤسٌ ولا نعيمٌ * إلا ولى فيهما نصيبُ
فذقتُ حُلْوًا ودقتُ مُرًّا * كذاك عَيْشُ الفتى صُروبُ
نوائبُ الدهر أدّبتنى * وإنّما يُوعَظُ الأديبُ

(١) الموضحة : الشجة التى تبدى وضح العظام .

قلتُ : فما الذى بك من سوء الحال؟ قال : أنا رجلٌ كاتبٌ دامتْ عُطْلتى، وكَثُرَتْ عَيْلتى، وتواصلتْ مِحْنتى، وقَلَّت حِيلتى، فَخَرَجتُ أطلبُ قَصَّرا فقُطِع علىَّ الطريق فصرتُ كما ترى، فمشيت على وجهى، فلمّا لاحَ لى الزَّلَالى استغثتُ بك، قلتُ : فإنى قد خرجتُ الى مُتَصَّرف جليل أحتاجُ فيه الى جماعةٍ مثلك، وقد أمرتُ لك بجُلْعة حَسَنَة تصلح لمثلك وخمسةِ آلاف درهم تُصلِح بها أمرَك، وتُعِدُّ منها الى عيالك، وتُقَوِّى نفسَك بباقيها، وتصيرَ معى الى عَمَلى فأولِّيك أجلَّه، فقال . أحسنَ الله جزاءك إذًا تحدُنى بحيث أسرّك، ولا أقومُ مقامَ معدر اليك إن شاء الله، وأمرت بتقميصه ما رَسَمتُ له قَبْصه، وانحدر الى الأهواز معى، فجعلته الماطرَ للرحمى والمحاسبَ له بحصرى، والمستجرحَ لمَا عليه، فقام بذلك أحسن قيام وعَظُمت حاله معى، وعادتْ نعمته الى أحسن ما كانت عليه .

وفى عمرو بن مسعده يقول أبو محمد عبد الله بن أيُّوب التَّيْمى :

أَعِنِّى على بارقٍ ناصبٍ * حَيِيٍّ كوَحْيِك بالحاجبِ
كأنّ بأُفُقِه فى السماء * يدا كاتبٍ أو يدا حاسبِ
فروّى مازلَ تَذْكارُها * يُهَيِّج من شوقك الغالب
عربيٌّ يحنّ لأوطانه * ويَبْكى على عصره الداهب
كفاك أبو الفضل عمرُو النَّدَى * مطالعةَ الأملِ الكاذب
وصدقُ الرجاء وحُسْنُ الوفاء * لعمرو بن مَسْعَدَة الكاتبِ
عريضُ الفِناء طويلُ البِنَا * ء فى العزِّ والشَّرَف الثاقب
بنى الملك طودٌ له يتُّه * وأهلُ الخلافه من عالب
هو المرتجَى لصُروف الزمان * ومُعْتَصَمُ الراغبِ الراهب
جوادٌ بما ملكتْ كفُّه * على الضيف والجار والصاحب
بأُدْمِ الرِّكاب ووَشْىِ الثيا * بِ والطِّرْفِ والطَّفْلةِ الكاعب
تؤمِّلُه لِحسامِ الأمور * ونرجوه للخَطْبِ الكارب

حَصِيبُ الجناب مَطِيرُ السحاب * نشيمته لَيِّنُ الجانب
يُرَوِّى القَنَا من نحور العِدَا * ويُعْرِقُ فى الجُود كاللّاعب
اليك تَدَّت بأكوارها * حراجيجُ فى مَهْمَهٍ لاحب
كأنّ نعامًا تَبَارَى بها * سوابِلِ من بَرَدٍ عاصب
يَرِدْنَ نَدَى كفِّك المُرْتَجَى * ويَقْصِينَ من حقّك الواجب
ولله ما أنتَ من حابرٍ * بسَجْلٍ لقومٍ ومن حارب
فتَسْقِى العِدا بكؤوس الرَّدَى * وتَسْقِى مسئلةَ الطالب
وكم راعبٍ نلتَه بالعَطَا * وكم بِلتَ بالعَطْف من هارب
وتلك الحلائقُ أعْطِيتَها * وفَضْلٌ من المانع الواجب
كَسَبتَ الثناءَ وكسبُ الثنا * ء أفضلُ مَكْسبِ الكاسب
يقيمُك بحلو سَتورَ الدُّجَى * وطُلْك يُخْبِر بالعائب

رسائل الجاحظ

رسالتــه فى بنى أميـــة

قال أبو عثمان عمرو بن بَحْر الجاحظ[1] : أطال الله بقاءك ، وأتمّ نعمته عليك ، وكرامته لك . اعلم أرشد الله أمرَك ، أنّ هذه الأمةَ قد صارت بعد إسلامها ، والخروج من جاهليتها ، الى طبقاتٍ مُتفاوتة ، ومنازلَ مختلفةٍ : فالطبقة الأولى عصر النبى صلّى الله عليه وسلم ، وأبى بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، وستّ سنين من خلافة عثمان رضى الله عنه ، كانوا على التوحيد الصحيح ، والإخلاص المحض[2] ، مع الأُلْفة واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة ، وليس هناك عمل قبيح ، ولابِدْعة فاحشة ، ولا نزعُ يد من طاعة ، ولاحسدٌ ولا عِلٌّ ولا تَأوُّل ، حتى كان الذى كان : من قتل عثمانَ ، رضى الله عنه ، وما انْتُهِك منه ، ومن خَبْطهم إيّاه بالسلاح ، وتَعْجيج بطنه بالجراب ، وفَرْى أوداجه بالمَشاقِص ، وشَدْخ

(١) هو إمام الأدب أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكنانى البصرى صاحب التصانيف الممتعة والرسائل المبدعة . وقد تقدّم الكلام عليه فى المجلد الأوّل من هذا الكتاب (ص ٤٢١) .

ولد حوالى سنة ١٦٠ هـ بمدينة البصرة ونشأ بها فتناول كل فن ومارس كل علم عرف فى زمانه مما وضع فى الاسلام أو نقل عن الأمم الأوائل فأصبح له مشاركة فى كل ما يقع عليه الحس أو يخطر بالبال فهو راوية . متكلم . فيلسوف . كاتب . مصنف . مترسل . شاعر . مؤرخ . عالم بالحيوان والنبات والموات . وصاف لأحوال الناس ووجوه معايشهم واصطراعهم وأخلاقهم وحيلهم إلا أنه علت عليه أمراض الكلام على طريقة المعتزلة فهو بذلك إمام الطائفة الجاحظية من المعتزلة والأدب الممزوج بالفلسفة والفكاهة فهو أوّل من ألف الكتب الجامعة لفنون ككتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وغيرهما .

وكان غاية فى الذكاء ودقة الحسّ وحسن الفراسة إلى دعابة فاشية ، وقلة اعتداد بما يأخذ به الناس انفسهم ويتحلونه من الرسوم والعادات وأنواع العصبية المذهبية وعدم مبالاة بوقوع المتورّطين فيه . وكان سمحا جوادا كثير المواساة لإخوانه وكان على دمامة خلقه وتناقص جسمه خفيف الروح ، فكه المجالس ، غاية فى الظرف وطيب الفكاهة وحلاوة الكلام وهو على الجملة أحد أفراد العالم وأحد مجمع اللسان العربى . توفى سنة ٢٥٥ هـ بمدينة بغداد بمقبرة الحيران . وتجد ترجمته فى معجم الأدباء لياقوت (ج ٦ ص ٥٦ — ٨٠) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٥٣) .

(٢) فى الأصل : « المخلص » .

هامته بالعُمُد، مع كفّه عن البسط، ونهيه عن الامتناع، مع تعريفه لهم قبل ذلك : من كم وجه يجوز قتلُ من شهد الشهاده، وصلّى القبلة، وأكل الذبيحه، ومع صرب نسائه بحصرته، وإلحامه الرحال على حرمته، مع اتقاء نائلة بنت الفَرافِصَة[1] عنه بيدها، حتى أُطِّوا[2] إصبعَيْن من أصابعها، وقد كشفتْ عن قِناعها، ورفعتْ عن ذَيلها ليكون ذلك رادعا لهم، وكاسرا من عَرْمهم، مع وطئهم فى أصلاعه بعد موته، وإلقائهم على المَزْبلة جسدَه مُجرّدا بعد سحبه، وهى الحزرةُ التى جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم كُفْتا لسابه وأيّاماه وعَقائله، بعدَ الستّ والتعطيش والحصرِ الشديد، والمنع من القوت، مع احتحاجه عليهم وإلحامه لهم، ومع احتماعهم على أنّ دمَ الفاسق حرام، كدم المؤمن، إلّا مَن ارتد بعد إسلام، أو زنى بعد إحصان، أو قتل مؤمنا على عمْد، أو رحلٌ عدا على الناس بسيفه فكان فى امتناعهم منه عطبه، ومع احتماعهم على ألّا يُقتل من هذه الأمّة، ولا يُجْهَر منها على جَريح، ثم مع دلك كلّه دَمَرُوا[3] عليه وعلى أرواحه وحُرَمه وهو حالس فى محرابه ومُصْحفُه يلوح فى حِجْره، لن يُرَى أنّ مُوَحِّدا يقْدِم على قتل مَن كان فى مثل صفته وحاله .

لأجرَم لقد احْتَلَوا به دمًا لاتطير رغوتُه، ولا تَسْكُنُ فَوْرتُه، ولا يموت ثائرُه، ولا يَكِلّ طالبُه، وكيف يُضيِّع اللهُ دم وَلِيّه، والمنتقم له، وما سمعنا بدم بعد دم يحيى بن زكريا عليهما السلام، علا غليانُه، وقُتِل سافكُه، وأُدْرِكَ بطائلته، وبلغ كلُّ محبته، كدمه رحمة الله عليه .

ولقد كان لهم فى أحده، وفى إمامته للناس، والاقتصاص منه، وفى بيع ما طهَر من رِباعه، وحدائقه، وسائرِ أمواله، وفى حَبْسه بما بَقِى عليه، وفى طَمْره حتى لا يُحَسّ، بذكره، ما يُعْميهم عن قتله إنْ كان قد رَكِب كلّ ماقدفوه به، وادَّعَوْه عليه، وهذا كلُّه بحصرة حِلّة المهاجرين والسلَف المقدَّمين، والأنصار والتابعين .

---

(١) قال فى شرح القاموس . كل ماقى العرب من هذا الاسم «فراقصة» فهو بضم الفاء الا فراقصة أما نائلة فهو بالفتح لاغير . (٢) أطنوا : قطعوا . (٣) حص بعضهم بعضا عليه متقدمين .

ولكنّ الناس كانوا على طبقاتٍ مختلفـة، ومراتبَ متبايـنه : من قاتلٍ ومن شاكّ على عضده، ومن حاذل عن نصرته، والعاجز ناصر بإرادته، ومطيع بحسن نيته، وإنّمـا الشك منّا فيـه ، وفى حاذله ، ومن أراد عزله والاسـتبدالَ به ؛ فأمّا قاتله ، والمعينُ على دمه، والمُريدُ لذلك منـه ، فضُلّالٌ لاشـكّ فيهم ، ومُرّاقٌ لا امتراء فى حكمهم، على أنّ هـذا لم يَعْـدُ منهم الفجورَ . إمّا على سـوء تأويلٍ ، وإمّا على تعمّد للشّفاء ، ثم ما زالت الفتن مُتّصله ، والحروبُ مترادفةً، كحرب الجمل، وكوقائع صِفّين ، وكيوم النَّهْروان، وقتل ذلك يوم الرَّابوقة[1]، وفيه أُسر ابن حُنَيف، وقُتل حَكيم بن حَنَلة، الى أن قَتَلَ أشقاها علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليه، فأسعده الله بالشهادة، وأوجب لقاتله النار واللعنه، الى أن كان من اعتزال الحسن عليه السلام الحروبَ وتَخْليته الأمورَ، عند انتشار أصحابه، وما رأى من الخلل فى عسكره، وما عرَف من اختلافهم على أبيه، وكثره تلونهم عليه، فعندها استوى معاويةُ على الملك ، واسـتند على بقيه الشُّورَى، وعلى جماعه المسلمين، من الأنصار والمهاجرين، فى العام الذى سَمّوْه عامَ الجماعه، وما كان عامَ جماعه، بل كان عام فُرقـةٍ وقَهْرٍ وحَبْريّةٍ وعَلَنَةٍ، والعامَ الذى تحوّلت فيـه الإمامه مُلْكاً كِسْرويّاً، والخلافةُ عصبا قَيْصَرياً، ولم يَعْـدُ ذلك أجمعُ الضلالَ والفسقَ. ثم مارالت معاصيه من حسن ماحكيْنا، وعلى مارِ مارتّنا، حتى رَدّ قضـيةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ردا مكشوفا ، وجحَد حكمَه تحْدا ظاهرا، فى ولد الفِـرَاش وما يَجب للعَاهِر، مع اجتماع الأمة انّ سُمَيّـة لم تكن لأبى سـفيان فِراشا، وأنّه إنمـا كان بها عاهرا . فخرج بذلك من حُكم الفجّار الى حكم الكفار، وليس قتل حُجْر بن عَدِىّ، وإطعامُ عمرو بن العاص خراجَ مِصر، وبيعهُ يزيد الخَليع، والاستئثارُ بالفىْء، واختيارُ الوُلاة على الهوى ، وتعطيلُ الحدود بالشفاعة والقرابة، من حسن جحد الأحكام المنصوصة ، والشرائع المشهورة، والسُّنَنِ المَنْصوبة، وسواءٌ فى باب مايستحقّ من الكفار جحَد الكتاب ، وردَّ السـنة اذا كانت السـنة فى شُهْره الكتاب وظهوره، إلا أنّ أحدَهما

(١) الرابوقة : موضع قريب من البصرة كانت فيه وقعة الجمل أوّل النهار .

أعظم ، وعقابَ الاخرة عليه أشدّ، فهذه أوّل كَفْرَة، كانت من الأئمة، ثم لم تكن إلّا فيمن يَدّعى إمامتها، والخلافة عليها؛ على أنّ كثيرا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره، وقد أرْبَتْ عليهم بابتةُ عصرنا، ومُبْتَدِعةُ دهرنا، فقالت : لا نُسمّيه، فإن له صحبه، وسنّ معاوية بدعه، ومَن يُبْغِضه فقد حالف السنة ، فزعمتْ أنّ من السنة ترك البَرَاءِ ، ممن جحدَ السنة، ثم الذى كان مِن يزيدَ أبيه، ومن عمّاله، وأهل نُصْرته، ثم غزو مكةَ، ورمى الكعبة ، واستباحة المدينة ، وقتل الحسين عليه السلام، فى أكثر أهل بيته ، مصابيح الظلام، وأوتاد الإسلام ، بعد الذى أعطى من نفسه ، من تفريق أتباعه ، والرجوع الى داره وحَرَمه، أو الذّهاب فى الأرض، حتّى لا يُحَسّ به أو المُقام حيث أُمِرَ به ، فأبوْا إلّا قتله ، والدولَ على حكمهم، وسواءٌ قتل نفسَه بيده، أو أسْلَمها الى عدوّه ، وحُيِّر فيها مَن لا يرُد عليه إلّا بشُرْب دمه، فاحسُوا قتلَه ليس بكفر، وإباحةَ المدينة، وهتْكَ الحُرمة، ليس بحجة؛ كيف تقولون فى رمْى الكعبة، وهدمِ البيت الحرام، وقِبلة المسلمين؟ فإن قُلتم ليس ذلك أرادوا بل إنّما أرادوا المتحرّز به، والمتحصّن بحيطانه، أفما كان فى حق البيت وحريمه أن يَحصُروه فيه، الى أنْ يُعْطَى بيده! وأىّ شىءٍ بَقِى من رجُل، قد أُخِذَتْ عليه الأرض إلا موضعَ قدمه! واحسُوا ماروَوا عليه من الأشعار ، التى قَوْلها شِرْك، والتمثّل بها كفرٌ، شيئا مصنوعا؛ كيف تصنع بنَقْر القضيب بين ثَنِيَّتَيِ الحسين عليه السلام، وحمل بنات رسول الله صلّى الله عليه وسلم حواسرَ على الأقتاب العارية، والإبِل الصِّعاب ، والكشف عن عورة على بن الحسين عند الشك فى بلوغه! على أنّهم إنْ وجدوه ، وقد أنبت قتلوه وانْ لم يكن أنبت حملوه ، كما يصنع أميرُ جيش المسلمين ، بدراري المشركين ، وكيف تقول فى قول عُبَيْد الله بن زياد لإخوته وحاضّته، دعونى أقتلْه ، فإنّه بقيّةُ هذا النسل ، فأحسِم به هذا القرنَ، وأميت به هذا الداءَ، وأقطع به هذه المادة !

خبّرونا علام تُدل هذه القسوةُ ، وهذه العلظة! بعد أنْ شفوْا أنفسهم بقتلهم، ومالوا ما أحبّوا فيهم، أتدلّ على نَصْب، وسوء رأىٍ وحِقْدٍ، وبغضاءَ ونفاق، وعلى يقينٍ مدخوٍ

وإيمانٍ مخروج ! أم تدلّ على الإخلاص، وعلى حبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، والحِفظ له، وعلى براءة الساحة وصحّة السريرة ! فإنْ كان على ما وصفنا لا يَعْدو الفسقَ والضلال، وذلك أدنى مازله، فالفاسق ملعون، ومَن نَهى عن نهى الملعون فملعون .

وزعمتْ بانتة عصرنا، ومتدعةُ دهرها، أنّ سبّ وُلاةِ السوء فتنةٌ، ولعنَ الحَوَرَةِ بِدْعَة، وإنْ كانوا يأخذون السّمِيّ بالسّمِيّ، والولىّ بالولىّ، والقريبَ بالقريب، وأحاطوا الأولياءَ، وأمّنوا الأعداء، وحكموا بالشفاعة والهوَى، وإطهارِ الغدرةِ والتهاون بالأمّة، والقَمْع للرعيّة، وأنّهم فى غير مُداراة ولاتقيّة، وإنْ عدا ذلك الى الكفر، وحاوز الضلال الى الحَدّ، فذاك أصلّ ممّن كفّ عن شَتْمهم، والبراءِ منهم، على أنّه ليس مَن استحقّ اسمَ الكفر بالقتل كمَن استحقّه بردّ السنة وهدم الكعبه، وليس مَن استحقّ اسم الكفر بذلك كمن شبّه الله بخلقه، وليس مَن استحقّ الكفر بالتشبيه كمن استحقّه بالتحوير[1]، والبانته فى هذا الوجه أكفرُ من يزيدَ وأبيه، وابن زياد وأبيه، ولو ثبت أيضا على يزيدَ أنّه تمثل بقول ابن الزِّبَعْرَى :

ليتَ اشْياخى ببدرٍ شهِدوا * جرعَ الخزرَج من وَقْع الأَسَلْ
لاستطاروا واستهلّوا فَرَحًا * ثم قالوا يا يزيدُ لا تَسَل
قد قتلنا الغُرّ من ساداتهم * وعَدَلْناهُ ببدرٍ فاعتَدَل

كان تحويرُ البانى لربّه، وتشبيهه بخلقه، أعظمَ من ذلك وأقطع، على أنهم مُجمعون على أنّه ملعون من قتل مؤمنا، متعمدا أو متأولا، فاذا كان القاتل سلطانا جائرا، أو أميرا عاصيا، لم يستحلوا سبّه، ولا حلعه، ولا نفيه، ولا عيبه، وإنْ أحاف الصلحاء، وقتل الفقهاء، وأجاع الفقير، وظلم الضعيف، وعطّل الحدود والثغور، وشرب الخمور، وأظهر الفجور؛ ثم ما زال الناس يتسكعون مرّة، ويداهنونهم مرّة، ويقاربونهم مرّة، ويشاركونهم مرّة إلّا بقيّةً ممن عصمَه الله تعالى ذكرُه، حتى قام عبد الملك بن مروان، وابنه الوليد،

(١) سبه الله الى الحور .

وعاملهما الحجاج بن يوسف ، ومولاه يزيد بن أبى مُسْلِم ، فأعادوا على البيت بالهدم ، وعلى حَرَم المدينة بالغَزْو ، فهدموا الكعبة ، واستباحوا الحُرْمة ، وحوّلوا قبلة واسطَ ، وأخّروا صلاة الجمعة ، الى مُعَيْرِبَانِ الشمس ، فإن قال رجل لأحدهم : اتق الله فقد أخرت الصلاة عن وقتها ، قتله على هذا القول جِهارا غيرَ حَتْلٍ ، وعَلانيةً غير سرّ ، ولا يُعْلَمَ القتل على ذلك إلّا أقبحَ من إنكاره ، فكيف يكفّر العبد بشيء ولا يكفّر بأعظم منه !

وقد كان بعض الصالحين ربّما وعظ الجبابرة ، وخوّفهم العواقبَ ، وأراهم أنّ فى الناس بَقيّةً يَنْهَوْن عن الفساد فى الأرض ، حتى قام عبد الملك بن مَرْوان ، والحجاجُ بن يوسف ، فزجر عن ذلك ، وعاقبا عليه ، وقتلا فيه ، فصاروا لا يَتَنَاهَوْن عن منكر فعلوه ، فاحسِبْ تحويل القبلة كان غلطا ، وهدم البيت كان تأويلا ، واحسِبْ ما رووْا من كلّ وجه ، أنّهم كانوا يزعمون أن حليفة المرء فى أهله[1] أرفعُ عنده من رسوله اليهم ، باطلا ومسموعا مولّدا ، واحسب وَسْمَ أيدى المسلمين ونقشَ أيدى المسلمات ، وردّهم بعد الهجرة الى قُراهم ، وقتلَ الفقهاء ، وسبَّ أئمة الهُدَى ، والنّصْب لغيره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يكون كفرا ، كيف تقول فى جمع ثلاث صلوات فيهنّ الجمعة ، ولا يُصَلّون أُولاهنّ ، حتى تصير الشمسُ على أعالى الجُدران ، كالمُلَاءِ المُعَصْفَر ، فإن نطقَ مسلمٌ ، خُبِطَ بالسيف ، وأحدثه العُمُد ، وشُكّ بالرّماح ، وإذا قال قائل : اتّق الله أحدثه العِزّة بالإثم ، ثم لم يَرْضَ إلا بشرْ دِمَاعِه على صدره ، وبصلْبِه حيث تراه عِيالُه ، ومما يَدُلّ على أنّ القومَ لم يكونوا إلا فى طريق التمرُّد على الله عزّ وجلّ والاستحقاف بالدين ، والهاون بالمسلمين ، والابتذال لأهل الحق ، أكلُ أُمرائهم الطعامَ وشرْبهم الشرابَ على مابرهم أيّام جُمَعِهم وجُموعهم ، فعَلَ ذلك حُبَيْش[2] بن دُلَجَة ، وطارق مولى عثمان ، والحجّاج بن يوسف ، وغيرهم ، وذلك إنْ كان كفرا كلّه فلم يبلع كفرَ بابة

(١) يشير بذلك الى ماورد عن الحجاج انه قال فى كلام له : ويحكم أحليفة أحدكم فى أهله أكرم عليه أم رسوله اليهم ، يريد بذلك تفضيل مقام الخلافة على مقام الرسالة ، ومثل هذا رمى الحجاج بالكفر وقد عقد ابن عبد ربه فى العقد الفريد فصلا فيمن رمى ابن الحجاج كان كافرا راجع العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣

(٢) فى الأصل «حبس» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه كما فى شرح القاموس والطبرى .

عصرنا، وروافض دهرنا، لأنّ حدس كفر هؤلاء عين كفر أولئك. كان اختلاف الناس في القَدَر على أنّ طائفة تقول كلّ شيء بقضاء وقدر، وتقول طائفة أخرى كل شيء بقضاء وقَدَر إلا المعاصيَ، ولم يكن أحد يقول إنّ الله يعذّب الأبناء ليَغيظَ الآباء، وإنّ الكفر والإيمان مخلوقان في الإنسان، مثلَ العمى والبصر، وكانت طائفة منهم تقول إنّ الله يرى، لا تزيد على ذلك، فإن حاولتْ أن يُطَس بها التشبيهُ قالت يُرَى بلا كيف تَقَزّزًا من التجسيم والتصوير، حتى نبتت هذه النابتة، وتكلّمت هذه الرافضة، فقالت حسيا، وجعلتْ له صورة وحدًا، وأكفرت من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير، ثم زعم أكثرهم أنّ كلام الله حَسّ وعين وحمةٌ وبرهان، وأنّ التوراة غير الزبور، والزبورَ غيرُ الانجيل، والانجيلَ غيرُ القرآن، والبقرةَ غيرُ آل عمران، وأن الله تولّى تأليفه، وجعلَه برهانَه على صدق رسوله، وأنّه لو شاء أن يَزيد فيه زاد، ولو شاء أن يَنقُص منه نَقَص، ولو شاء أن يبدّله بدّله، ولو شاء أنْ يَنْسَخَه كلّه لفعله نسخه، وأنه أنزله تنزيلا، وأنّه فصله تفصيلا، وأنّه بالله كان دون غيره، ولا يقدر عليه إلّا هو، غيرَ أن الله مع ذلك كله لم يخلقه، فأعطَوْا جميع صفات الخالق، ومنعوا اسم الخالق.

والعجبُ أنّ الخلقَ عند العرب إنّما هو التقدير نفسُه، فلذا قالوا: خَلَقَ كذا وكذا، ولذلك قال: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. وقال: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ وقال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ فقالوا: صنعه وجعلَه وقدّره، وأنزلَه وفصّله وأحدثه، ومنعوا خلقَه، وليس تأويلُ خلقه أكثرَ من قدره، ولو قالوا بدلَ قولهم: قدّرَه ولم يخلُقْه خلقه ولم يقدِّره ما كانت المسألة عليهم إلّا من وجهٍ واحد، والعجب أن الذي منعه بزعمه أن يَزْعُم أنّه مخلوق، أنه لم يسمع ذلك من سَلَفه، وهو يعلم أنه لم يسمع أيضا من سلفه أنه ليس بمخلوق، وليس ذلك يَهُمُّ، ولكنْ لمّا كان الكلام من الله تعالى عندهم على مثل خروج الصوت من الجوف، وعلى جهةِ تقطيع الحروف، وإعمال اللّسان والشفتين، وما كان على غير هذه الصورة والصفة فليس بكلام، ولمّا كانا عندهم على غيرهذه الصفة،

وكلا لكلامنا غيرَ حالقين ، وجب أنّ الله عز وجل لكلامه غيرُ حالق ، اذ كلا غيرَ حالقين لكلامنا ، فإنّما قالوا ذلك ، لأنّهم لم يجدوا بين كلامنا وكلامه فَرْقا ، وإنْ لم يُقِرُّوا بذلك بألسنتهم فذلك معناهم وقصدُهم .

وقد كانتْ هذه الأمّةُ لاتجاوز معاصيها الإثمَ والضلالَ ، إلّا ماحكيتُ لك عن بني أمية ، وبني مروان ، وعمّالهم ، ومن لم يَدن بإكفارهم حتّى نجمَت النوابت ، وتابعتْها هذه العوام ، فصار العالمُ على هذا القول الكفرَ ، وهو التشبيهُ والجبْر ، فصار كفرهُم أعظمَ من كفر من مضى في الأعمال التي هي الفسوقُ ، وشركاءُ من كفر منهم تولّيهم ، وتركِ إكفارهم ، قال الله عز وجل من قائل : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

وأرجو أن يكونَ اللهُ قد أغاث المُحقّين ، ورحمهم وقوّى ضعفهم ، وكثّر قِلّتهم ، حتّى صار وُلاه أمرنا في هذا الدهرِ الصعبِ والزمن الفاسد أشدَّ استبصارا في التشبيه من عِلْيَتِنا ، وأعلم بما يلزم فيه منّا ، وأكشفَ للقناع من رؤسائنا ، وصارفوا الناس وقد انتظموا معانَ(٢) الفساد أجمع ، وبلعوا عاياب البدع ، ثم قربوا بذلك العصبيّةَ الى هلاك بها عالَمٌ بعد عالم ، والحميّةَ الى لا تُبْقِي دينا إلّا أفسدته ، ولا دنيا إلّا أهلكتها ، وهو ماصارت اليه العجم من مذهب الشُّعوبيه ، وما قد صار اليه الموالى من الفَخْر على العجم والعرب ، وقد نجَت من الموالى باجمعِها ، وستّ منهم باستةٌ ، تزعم أن المولى بولائه قد صار عربيا ، لقول النبيّ صلّى الله عليه وسلم : «مَوْلَى القومِ منهم » ولقوله : « الولاء لُحْمَةٌ كلُحْمَة النسبِ لا يُباع ولا يُوهب » .

قال : فقد علمنا أنّ العجم حين كان فيهم المُلْك والنبوّه كانوا أشرفَ من العرب ، ولمّا حُوِّل ذلك الى العرب صارتِ العربُ أشرفَ منهم ، قالوا : فنحن معاشرَ الموالى بقديمنا في العجم أشرفُ من العرب ، وبالحديث الذى صار لنا في العرب أشرفُ من العجم ، وللعرب القديمُ دون الحديث ؛ ولمّا خَصْلتان جميعا وافرتان فينا ، وصاحب الخَصْلتَين

(١) كذا في الأصل ، ولعله : وصاروا شركاء الخ . (٢) معان بفتح الميم والعين : المادة والمدد .

أفضلُ مِن صاحب الخصْلة ، وقد جعل الله المولى سعـد أن كان محميا عربيا بولائه ، كما جعل حليفَ قُريش من العرب قرشيا بحَلِفه ، وجعل اسماعيل بعد أن كان أعجميا عربيا ولولا قول النبيّ صلّى الله عليه وسلم « إنّ اسماعيل كان عربيّا » ما كان عدنا الّا أعجميا لأنّ الأعجميّ لا يَصير عربيّا ، كما أنّ العربيّ لا يصير أعجميّا ، فإنما علِمنا أنّ اسماعيل صيّره الله عربيا بعد أن كان أعجميا ، بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فكذلك حكم قُوله «مولى القوم منهم» وقوله : « والوَلاء لُحْمة » . قالوا : وقد جعل الله إبراهيمَ عليه السـلام أبًا لمَن لم يلِد ، كما جعله أبا لمن وَلَد ، وجعل أزواجَ النبيّ أُمّهات المؤمنين ، ولم يَلِدْن منهم أحدا ، وجعل الجار والد مَن لم يلِد في قولٍ عبر هذا كثير قد أتينا عليه في موضعه ، وليس أدعى الى الفساد ، ولا أحلَبَ للشرّ من المفاخره ، وليس على طهرها إلّا فخور (الّا قليل) وأيّ شيءٍ أعيطُ من أنْ يكونَ عبدُك يزعم أنّه أشرفُ منك ، وهو مُقِرّ أنّه صار شريفا بعِتْقك إيّاه .

وقد كتبتُ — مدّ الله في عمرك — كُتبا في مُفاخرة قَحطان ، وفي تفصـيل عَدْنان ، وفي ردّ الموالي الى مكانهم من الفضل والنقص ، والى قدر ما جعـل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف ، وأرجو أنْ يكون عدلًا بينهم ، وداعيـةً الى صلاحهم ، ومَنْهَجَةً عليهم ولهم ؛ وقد أردتُ أن أُرسل بالجزء الأوّل اليك ثم رأيتُ ألّا يكونَ إلّا بعد استئذانك ، واستمارك ، والانتهاء في ذلك الى رَغبتك ، فرأيُك فيه موفّق إن شاء الله عز وجل وبه الثقة .

وكتب الى بعض إخوانه في ذم الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

حفِظك الله حفظ من وفّقه للقناعة ، وآستعمله بالطّاعة ، كتبتُ اليك وحالي حالُ من كثُفت عمومه ، وأشكلت عليه أموره ، وآشـتبه عليه حالُ دهره ، وتحرّج أمره ، وقلّ عنده من يثق بوفائه ، أو يجدّ معبّة إخائه ، لآستحالة زماننا ، وفساد أيامنا ، ودولة أنذالنا ؛ وقِدْما كان مَنْ قدّم الحيـاءَ على نفسه ، وحكّم الصدق في قوله ، وآثر الحق في أموره ، ونبذ المُشتبهات عليه من شؤونه ، تمّتْ له السلامة ، وفاز بوُفور حظّ العافية ، وحمد مغبّة مكروه

العاقبة ؛ فنَظَرْنا إذ حال عندنا حكمُه ، وتحوّلت دولتُـه ؛ فوجدنا الحيـاء متّصلا بالحِرمان والصدق آفة على المـال ، والقَصْد فى الطلب بترك آسـتعمال القِحَة ، وإخلاق العِرض من طريق التوكّل دليلا على سخافة الرأى ، إذ صارت الحُظوه البالغة ، والنعمة السابغة ، فى لؤم المشيئة ، وسَناء الرزق من جهة محاشاة الرخاء ، ومُلَابَسة مَعَرّة العار ، ثم نظرنا فى تعقّب المتعقّب لقولنا ، والكاشر لمُحتّنا ؛ فألفيا له علَمًا واضحا ، وشاهدا قائما ، ومَارا بيّنا ؛ إذ وجدنا مَنْ فيه السُّفولية الواضحة ، والمَثالب الفاضحة ، والكدب المُبَرّح ، والخُلف المصَرّح ، والجَهالة المُفرطة ، والركاكة المُستحَفّة ، وضعف اليقين والآستثبات ، وسرعة الغضب والجراءة ، قد آستكمل سرورُه ، وآعتـدلت أموره ، وفاز بالسهم الأعلب ، والحظ الأوفر ، والقِدْر الرفيع ، والجوَاز الطائع ، والأمر النافذ ؛ إن زَلّ قيل حكُم ، وإن أخطأ قيل أصاب ، وإن هَذَى فى كلامه وهو يقطان قيل رؤيا صادقة من نَسَمه مباركة ؛ فهـذه حُجّتنا والله على من زَعم أنّ الجهل يحفِص ، وأنّ النُّوك يُرْدى ، وأنّ الكدب يضُرّ ، وأنّ الخُلف يُزرى ، ثم نظرنا فى الوفاء والأمانة والنُّبل والبـلاعة وحسن المذهب وكمال المروءة وسَـعَة الصدر وقلّة الغضب وكرم الطبيعه ، والفائق فى سعه علمه ، والحاكم على نفسه ، والغالب لهواه ، فوجدنا فلان بن فلان ؛ ثم وجدنا الزمان لم يُنْصِفه من حقه ، ولا قامَ له بوظائف فَرْضه ، ووجدنا فضائلَه القائمة له قاعدةً به ، فهـذا دليل أنّ الطّلاح أجدى من الصلاح ، وأن الفضـل قد مضى زمانُه ، وعفَت آثارُه ، وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على صـدّه ، ووجدنا العقل يَشقى به قرينُه ، كما أنّ الجهل والحمق يَحْظى به حَدينُه ؛ ووجدنا الشعر ناطقا على الزمان ، ومُعْربا عن الأيام حيث يقول :

تحامَقْ مع الحمقى اذا ما لقيتَهم ... ولاقِهم بالجهل فِعْلَ أخى الجهل

وحلِّط اذا لاقيتَ يوما محلِّطا * يُحَلّط فى قول صحيح وفى هَزْل

فإنى رأيت المرء يشـقى بعقله * كما كان قبل اليوم يسعَد بالعقل

فبقيتُ — أبقاك الله — مثلَ من اصبح على أوفاز،[1] ومن الثُّقلة على جِهاز، لا يسوغ نعمة، ولا تَطْعَم عيشةُ غَمْضة، فى أهاويلَ يباكره مكروهُها، ويُراوحه عَقابُها؛ فلو أنّ عاء أُجيب، والتصرّع نُمِع، لكانت العِدّة العظمى، والرَّجْفة الكبرى؛ فليتَ أىْ أخى أستبطئه من النَّفحة، ومن جَأْة الصَّيْحة، قُضِى فكان، وأُذِن به فكان، ووالله ما عُذِّبتْ ة بَرْجفه، ولا ريح ولا سَخْطة، عداتَ عيى برؤية المُغَايَظة المُذمة، والأحبار المهلكة، أنّ الزمان يُوكِّل بعدابى، أو يُنْصَب بأيامى، فما عيشُ من لا يُسَرّ بأخ شفيق، ولا يَصْطبح أوّل نهاره، إلا برؤية من يكرهه، ويَغُمّه بطلعته؛ فقد طالت الغُمّة، وواظبت الكُربة، دلهمّت الظُّلمة؛ ونمَد السراج، وتَبَاطأ الأفراح.

وصف الجاحظ لقريش وبنى هاشم

قد علِم الناسُ كيف كرمُ قريش وسَخاؤها، وكيف عقولها ودَهاؤها، وكيف رأيُها كاؤها، وكيف سياستُها وتدبيرها؛ وكيف إيجازها وتحسيرها، وكيف رجاحة أحلامها ا حَفّ الحليم، وحِدّة أذهانها اذا كلّ الحديد. وكيف صَبْرها عند اللقاء، وثباتها فى اللأواء؛ يف وفاؤها اذا استُحْسن الغدر؛ وكيف جودها اذا حُثّ المال، وكيف ذكرها حاديث غَدٍ، وقلّة صدودها عن جهة القصد، وكيف إقرارها بالحقّ وصبرها عليه؛ يف وصفها له ودُعاؤها اليه؛ وكيف سماحة أخلاقها، وصونُها لأعْراقها، وكيف وصلوا يمَهم بحديثهم، وطريقَهم بتليدهم، وكيف أشبه عَلانِيَتهم سرَّهم، وقولَهم فعلَهم، وهل لامة صدر أحدهم إلا على قدر بُعدِ عديره، وهل عفلته إلا فى وزن صِدق ظنّه، وهل ه إلا كيقين غيره.

---

(١) أى على سفر.

وكتب فى الاعتذار :

أما بعد فمع الدليلُ مِنَ الزَّلَّة الاعتذار، و نفس العِوَضُ من التوبة الإصرار، وإن أحقَّ من عطَفتَ عليه بحلمك من لم يَسْتَشفع إليك بغيرك، وإنى بمعرفى بمَبْلغ حِلْمك وغاية عفوك، سمت لنفسى العفو من زَلّتها عندك، وقد مسّنى من الألم ما لم يَشْفِه غير مُواصلتك .

وله فى الاستعطاف

ليس عندى أعزّك اللهُ سببٌ ولا أقدُر على شفيع إلا ما طَبَعَك الله عليه من الكرم والرحمة والتأميل الذى لا يكون إلا من نِتاج حسن الظن وإثبات الفضل بحال المأمول أرجو أن تكون من الشاكرين فتكون خير مُعْتِب، وأكون أفضل شاكر، ولعل الله يجعل هذا الأمر سببا لهذا الإنعام، وهذا الإنعام سببا للإنقطاع إليكم والكون تحت أحضتكم، فيكون لا أعظم بركة، ولا أنمَى بقيّة من ذنب أصبحت فيه، و بمثلك — جعلتُ فداك — يُكاد الدبُ وسيلةً، والسيئة حسنة، ومثلك من انقلب به الشرّ خيرا والغُرْم غُنْما .

من عاقَب فقد أحد حظّه، وإنما الأجر فى الاخرة، وطِيب الذكر فى الدنيا، على قَدْر احتمال وتجَرُّع المرائر وأرجو، ألا أُصِيع وأَهْلَك فيما بين كرمك وعقلك، وما أكثر من يعفو ممن صَغُر ذنبُه وعظُم حقّه، وإنما الفضل والثناء العفو عن عظيم الجرم صعيف الحُرْمة، إن كان العفو عظيما مُسْتَطْرَفا من غيرك فهو تِلادٌ فيك، حتى ربما دعا ذلك كثيرا من الناس إلى مخالفة أمرك، فلا أنتم عن ذلك تَنْكُلون، ولا على سالف إحسانكم تندمون، وما مثلكم إلا كمثل عيسى بن مريم عليه السلام حين كان لا يمرّ بملإ من بنى اسرائيل إلا أسمعوه شرًّا أسمعهم خيرا، فقال له شَمْعُون الصفا : ما رأيتُ كاليوم كلّما أسمعوك شرّا أسمعتهم خيرا قال : كلّ امرئ يُنفِق ممّا عنده وليس عندكم إلا الخير ولا فى أوعيتكم إلّا الرحمة وكلُّ إناءٍ بالذى فيه يرشح " .

وله فى ذَمّ الحسد :

الحسد — أبقاك الله — داءٌ يَهْلِك الجسد، علاجُه عسير وصاحبه ضَجِر وهو باب عامض، وما ظَهَر منه فلا يُداوَى وما بَطَن منه فمُداوِيه فى عَناء، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « دَبّ اليكم داءُ الأمم من قبلكم : الحسـدُ والبغضاء » . الحسد عَقِيـد الكفر، وحليف الباطل ، وصِدّ الحقّ منه تتولّد العداوةُ وهو سبب كلّ قطيعة ومفرق كل جماعة، وقاطع كل رَحِم من الأقرباء ومُحْدِث التفرق بين القرناء، وملقِّح الشرّ بين الحلفاء .

دفاع الجاحظ عن مؤلفـاته :

وقد ذكر الجاحظ حلّ مؤلّفاته فى كتاب "الحيوان" ودافع عنها بعد أن وصفها فقال:(١)
جنّبك الله الشبهة، وعصَمك من الحَيْرة وجعل بينك وبين المعرفة نَسَبا، وبين الصدق سَبَبا، وحَبّب اليك التثبّت، وزيّن فى عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبَك عِزّ الحقّ، وأودع صدرَكَ بَرْدَ اليقين، وطرد عنك ذُلّ الطمع، وعرّفك ما فى الباطل من الذِّلّة، وما فى الجهل من القِلّة، ولَعَمْرِى لقد كان عيرُ هذا الدعاء أصوبَ فى أمرك، وأدلّ على مِقدار وَزْنك، وعلى الحال التى وَضعْت نفسك فيها ، ووسمْت عِرْضك بها، ورَضِيتها لدينك حظّا، ولمُروءتك شكْلا، فقد انتهى الىّ ميلُك على أبى إسحاق، وحَمْلُك علىّ، وطعنُك على مَعْبَـد، وتنقّصُك له فى الذى كان جرى بينهما فى مَساوى الديك ومحاسنه، وفى ذكر مساوئ الكلب ومَصارّه؛ والذى خرجا اليه من استقصاء ذلك وجمعه، ومِنْ تَتبّعه ونظمه، ومِن الموازنة بينهما، والحكم فيهما .

ثم عِبْتنى بكتاب حِيَـل اللصوص ، وكتاب عِشْ الصـناعات؛ وعِبْتنى بكتاب المُلَح والطُّـرَف، وما حَرّ من النوادر وبَرُد، وعاد باردُها حارّا بفرط بَرْدِه، حتّى أمتّع باكثَر من امتاع الحارّ؛ وعِبْتنى بكتاب احتجاجات البُخَلاء، ومناقضتهم للسُّمحاء، والقوِ فى الفَرْق بين

(١) اعتمدنا فى تصحيح هذه الفصول على الأصل المنوعراق المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٨٥ آداب، لأن النسخة المطبوعة من كتاب الحيوان بمطبعة السعادة بمصر فى غاية التحريف وملأى بالأخطاء .

الصدق اذا كان صارا فى العاجل، والكذب اذا كان نافعا فى الآجل ، ولم جعلنا الصدق أبدا محمودا ، والكذب أبدا مذموما ، والفرق بين الغَيْرة وإضاعة الحُرْمة ، وبين الإفراط فى الحَمِيّة والأَنَفَة، وبين التقصير فى حِفْظ حقّ الحُرْمة، وقِلّة الاكتراث بسوء القالة؛ وهل الغَيْرة اكتساب وعادة، وبعضُ ما يَعْرِض من جهة الديانة ولبعض التزيّد فيه والتحسن به، أو يكون ذلك شيئا فى طبع الحرية وحقيقة الجوهريّة، ما كانت العقول سليمةً، والآفات مَنْفِيّة، والأحلاطُ مُعْتدِلة، وعبتنى بكتاب الصُّرحاء والهُجَناء، ومُفاخرة السودان والحُمْران، والموازنة بين حقّ الخُؤُولة والعُمُومة؛ وعبتنى بكتاب الزرع والنحل، والزيتون والأعناب، وأقسامِ فضولِ الصناعات، ومراتبِ التجارات، وبكتاب فصل ما بين الرجال والنساء، وفَرْقِ ما بين الذكور والإناث، وفى أىّ موضع يَغْلِبَن ويَفْصُلْنَ، وفى أىّ موضع يكنّ المغلوبات والمَفْصولات، ونصيبُ أيّهما فى الولد أوفرَ، وفى أىّ موضع يكون حقّهنّ أوجبَ، وأىّ عمل هو بهنّ أليقُ، وأىّ صناعة هنّ فيها أبلغُ؛ وعبتنى بكتاب القَحْطانيّة وكتاب العَدْنانيّة فى الرد على القحْطانيّة ، وزعمت أنّى تجاوزتُ فيه حدّ الحَمِيّة، الى حدّ العصبيه، وأنّى لم أصلِ الى تفضيل العَدْنانيّة إلا بتنقّص القَحْطانيّة؛ وعبتنى بكتاب العرب والمَوَالى، وزعمتَ أنّى بَخَسْتُ الموالىَ حقوقهم، كما أنّى أَعْطيت العرب ماليس لهم، وعبتنى بكتاب العرب والعجم، وزعمت أن القول فى فَرْق ما بين العرب والعجم هو القولُ فى فرق ما بين الموالى والعرب، ونسبتنى الى التِّكرار والتَّرْداد، والى التكثير والجهل بما فى المعَاد من الخَطَل، وحمْل الناس المُؤْنَ؛ وعبتنى بكتاب الأصنام، وبذكر اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إيّاها، وكيف اختلفا فى جهة العِلّة مع اتفاقهما على جملة الديانة، وكيف صار عُبّاد البَدَدَة[1] والمتمسِّكون بعبادة الأوثان المحوتة ، والأصنام المجوفة ، أشدَّ الناس إلفا لما داوموا به ، وشغفا بما تعوّدوا له ، وأطهرَهم حِدّا، وأشدّهم على مَن خالفهم ضِغْنا، وبما دانوا صبابة وكُخْنا، وما الفرق بين النِّدّ والوَثَن، وما الفرق بين الوثن والصنم، وما الفرق

(١) البددة جمع بدّ، وهو بيت فيه الصنم أو الصنم نفسه كما قال ابن دريد .

بين الدُّمْية والجُثّـة ، ولم صوّروا فى محاريبهم و بيوت عبـاداتهم صُوَر عظمائهم و رجالِ دعوتهم، ولم تأنّقوا فى التصو ير، وتجرّدوا فى إقامة التركيب، و بالغوا فى التحسين والتفخيم، وكيف كانت أوّلية تلك العبادات، وكيف افترقت تلك النِّحَل، ومن أىّ شىء كانت حُدَعُ تلك السَّدَنة، وكيف لم يزالوا أكثر الأصناف عددا، وكيف شمِل ذلك المذهبُ الأجناس المختلفـــة !

وعبتنى بكتّاب المعـادن، والقول فى جواهر الأرض، وفى اختلاف أجناس الفِلزّ، والإخبار عن ذائبها وجامدها ، ومخلوقها ومصوعها ، وكيف يُسْرع الانقلابُ الى بعضها ويُبْطئ عن بعضها ، وكيف صار بعض الألوان يَصْبغ ولا يصبغ، و بعضها ينصبغ ولا يصبغ ، و بعضها يصبغ و ينصبغ، وما القول فى الإكسـير والتلطيف ؛ وعبتنى بكتّاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس، و بكتّاب فرق ما بين الجنّ والإنس، وفرق ما بين الملائكة والجنّ، وكيف القول فى معرفة الهُدْهُد واستطاعة العفريت، وفى الذى كان عنده علم من الكتّاب، وما ذلك العـلم، وما تأويل قولهم : كان عنده اسم الله الأعظم، وعبتنى بكتّاب الأوفاق والرياضات، وما القول فى الأرزاق والإنفاقات، وكيف أسباب التشمير[1] والترقيح وكيف تجتلب التجّارُ الحُرَفاء، وكيف الاحتيالُ للودائع، وكيف التَّسَبُّبُ إلى الوصايا، وما الذى يوجب لهم التعـديل، ويَصْرِف اليهم بابَ حُسـن الظنّ، وكيف ذكرنا غشّ الصناعات والتجارات، وكيف التَّسَبُّب الى تَعَـرّف ما قد سَتَرُوا، وكشف ما موّهُوا ، وكيف باب الاحتراس منه والسلامة من أهله ! . وعبتنى برسائلى، و بكلّ ما كتبتُ به الى إخوانى وخُلَطائى من مَزْح وجِدّ، ومن إفصاح وتعريض ، ومن تَغَافُلٍ وتوقيف، ومن هِجَاء لا يزال وسْمُهُ باقيـا، ومديح لا يزال أثرُه ناميا، ومن مُلَح، تُضْحِك ، ومواعظَ تبكى، وعبتنى برسائلى الهاشميّات ، واحتجاجى فيهـا، واستقصائى معانيهَا، وتصويرى لهـا فى أحسن صورة ، و إظهارى لها فى أتمّ حِلْيَة، وزعمتَ أنّى قد خرجتُ بذلك من حد المُعْتَزِلة الى حدّ الزَّيْدِيّة،

(١) التشمير والترقيح : نمو المال واصلاحه .

ومن حدّ الاعتدال فى التشيّع والاقتصاد فيه الى حدّ السَّرَف والإفراط فيـه، وزعمت أن مقالة الزيْديّة خطبه مقالة الرافضة ، ومقـالة الرافضة خطبة مقالة العالية ، وزعمت أن فى أصل القصيّة ، والذى جرت عليه العادة أنّ كلّ كبير فأوّله صغير ، وأن كلّ كثير فإنمـا هو قليل جُمِـع الى قليل، وأنشدتَ قول الراجز :

قد يَلْحَق الصغيرُ بالجليـل * وإنّمـا القَرْمُ من الأَفِيـلِ[1]

* وسُحُقُ النَّخْلِ من الفَسِيل *

وأنشدتَ قول الشاعر :

رُب كبيرٍ هاحَه صغيرُ * وفى البحور تَغْرق البُحورُ

وقلتَ وقال يزيد بن الحكم :

وآعـلم بُنَىّ فإنّه * بالعـلم يَنْتَفِع العليم

إنّ الامور دَقيقُها * ممـا يَهِيج له العظيم

وقلت وقال الاخر :

صار جِدّا مامَزَحتُ به * رُبَّ جِدٍّ ساقه اللَّعِبُ

وأنشدت قول الاخر وهو عنترة[2] :

ما تَنْظرون بحقّ وِرْدةَ فيـكُمُ * تُقْصى الأمور وَرَهْط وردة غُيَّبُ

قـد يَبْعَثُ الأمرَ الـكبيرَ صغيرُه * حتّى تَطَـلَّ له الدِّماء تَصَبَّبُ

وقالت كَبْشَةُ بنت مَعْديكرب :

حَدَعْتُمْ بِعَبْـد الله آنُفَ قَوْمِه * بَنِى مازِنٍ أَنْ سُتّ راعِى المُخَـزِّم

وقال الآخر :

أَيَّةُ نارٍ قدَح القـادح * وأىّ جِدٍّ بلع المـازِحُ

---

(١) الأفيل : صغر الإبل .

(٢) والصواب أن البيتين لطرفه وهما من جملة أبيات فى ديوانه .

وتقول العرب : « العَصَى من العُصَيَّة ولا تلِد الحيّة إلا حُيَيّة » ؛ وعبت كتابى فى خَلْق القـرآن ، كما عبت كتابى فى الرّد على المُشَـبِّهة ؛ وعبت كتابى فى أصول الفُتْيا والأحكام ، كما عِبت كتابى فى الاحتجاج لنظْم القرآن ، وغَرِيب تأليفه ، وبديع تركيبه ؛ وعبت مُعارَضَتى الزَّيْدِيّة ، وتفصيل الاعتزالَ على كلّ نِحْلة ، كما عبت كتابى فى الوعد والوعيد ، وكتابى على النصارى واليهود ، ثم عبت جُمْلة كتبى فى المعرفة ، وألتمست تهجينها بكلّ حِيلة ، وصغّرت من شأنها ، وحطَطْت من قدرها ، واعترضت على ناسخيها والمنتفعين بها .

وعبت كتاب الجوابات وكتاب الرسائل ، وكتاب الرّد على أصحاب الإلهام ، وكتاب الحُجّة فى تثبيت نُبُوّة النبىّ صـلى الله عليه وسـلم ، وكتاب الأخبـار ، ثم عبت كتابى إنكارى بَصيرةَ غَمّام المُرتدّ ، و بصيرة كلّ حاحد ومُلْحِد ، وتفريق بين اعتزام الغُمْر[1] و بين استبصار المُحِقّ ؛ وعبت كتاب الرد على الجَهْمِيّة فى الإدراك ، وفى قولهم فى الجهالات ، وكتاب الفرق ما بين النبىّ والمُتَنَبّى ، والفرق بين الحيل والمخاريق ، و بين الحقائق الظاهرة والأعلام القاهرة ؛ ثم قصدت الى كتابى هـذا بالتصغير لقدره ، والهجين لعَظْمـه ، والاعتراض على لفظه ، والتحقير لمعانيه فزَرَيْت على نحتـه وسبكه ، كما زَرَيْت على معناه ولفظه ، ثم طعنت فى الغرض الذى اليه نَزَعا ، والغاية التى اليها أجريا[2] ، وهما كتاب معناه أنبه من اسمه ، وحقيقته آنَقُ من لفظه ، هو كتاب يحتاج اليه المتوَسِّط العامّى ، كما يحتاج اليه العالم الخاصىّ ، ويحتاج اليـه الريِّض ، كما يحتاج اليه الحاذق .

أما الريِّض فللتعلُّم والدُّرْبة ، وللترتيب والرياضـة ، وللتمرين وتمكين العادة ، اذ كان جليله يتقدّم دقيقه ، واذ كانت مُقَدّماته مُرَتّبة ، وطبقات معانيه مُتَرِّلةً ؛ وأما الحاذق فلكفاية المَؤُونة ، ولأنّ كلّ مَن التقط كتابا جامعا ، و بابا من أمهات العلم مجموعا كان له غُنْمه ، وعلى مُؤلِّفه غُرْمُه ، وكان له نفعه ، وعلى صاحبه كَدّه ، مع تَعَرُّضـه لمطاعن البُغاه ، ولاعتراض

(١) الغمر مثلثة الغين : من لم يجرب الأمور ، والجاهل الأبله .

(٢) أجريا : قصدا .

المماسين، ومع عَرْضه عقلَه المَكْدودَ على العقول العارعة، ومَعانيَه على الجَهابذة، وتحكيمه فيه المتأوّلين والحَسَدة، ومتى طفر بمثله صاحب علم، أو هجَم عليه طالب فِقْه، وهو وادع رَاعِه، ونشيط حام، ومُؤلّفه مُتْعب مكدود، فقد كُفِيَ مَؤونة جمعه، وخبره وتتبعه، وطلبه، وأغناه ذلك عن طُول التفكير، واستفاد العمر، وقلّ الجَدّ، وأدرك أقصَى حاجته، وهو مُجْتَمع القوّة، وعلى أنّ له عند ذلك أن يجعل هُجومَه عليه صربا من التوفيق، وظفَره به بابا من التسديد.

(وهذا كتاب) تستوى فيه رَعْنة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيا أعرابيا، وإسلاميا جماعيًا، فقد أحد من طُرَف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنّة، وبين وِحدان الحاسة وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفِتيان كما يشتهيه الشيوخ، ويشتهيه العاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه الجِدّيّ ذو الحزم، ويشتهيه العُقْل كما يشتهيه الاديب، ويشتهيه العيّ كما يشتهيه الفَطِن، وعنى بحكاية قول العثمانيه والصِّراريّة وأنت تسمعنى أقول فى أوّل كتابى: وقالت العثمانية والصِّراريّة، وكما سمعتنى أقول: وقالت الرافضة والزَّيْديّة، فحكمت على النّصْب لحكايتى قول العثمانية، فهلّا حكمت على التشيّع لحكايى قول الرافضة، وهلّا كنتُ عندك من الغالية لحكايتى حُجَج الغالية، كما كنتُ عندك من الناصبة لحكايتى قول الناصبة، وقد حكينا فى كتابنا قول الإباضيّة والصُّفْريّة، كما حكينا أقاويل الأزارقة والنجديّة، وعلى هذه الأركان الأربعة بُنيت الخارجيّة، وكل اسم سواها إنما هو فرع ونتيجة واشتقاق منها، ومحمول عليها، فهلّا كنّا عندك من المحكّمة الخارجة، كما صرنا عندك من الصراريّة، والناصبة! وكيف رضيت بأن تكون الشيعه الى أعراض الناس أسرع من المارقة! أللهم إلّا أن تكون وجدت حكايتى عن العثمانية والصِّراريّة أشنع وأجمع، وأتمّ وأحكم وأحود صَنْعةً، وأبعد غايةً، ورأيتنى قد وَهَنتُ حقّ أوليائك بقدر ما قويتُ باطل أعدائك، ولو كان ذلك كذلك لكان شاهدُك من الكتاب حاضرا، وبرهانُك على ما ادّعيتَ واضحا.

وعنى بكتاب العباسيّة فهلّا عبتنى بحكاية مقالة من ادّعى وجوب الإمامة ، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمـه الذين زعموا أن ترك الناس سُدًى ملا قيّم أردّ عليهم ، وهَمَلا بلا راعٍ أريح لهم ، وأحذر أن يجمع لهم ذلك بين سلامه العاجل ، وعنيمة الآجل ، وأنّ تَرْكهم نَشَرا لا نظام لهم أبعد لهم من المفاسد ، وأجمع لهم على المراشد! بل ليس ذلك بك ، ولكنّه لما بهرك ما سمعت ، وملأ صـدرك الذى قرأت ، وأعلَك وأبطرك فلم تتجه للحُجّة وهى لك مُعترضـه ، ولم تعرف المَقاتل وهى لك بادية ، ولم تعرف باب المَخْرج إذ جهلتَ باب المَدْخل ، ولم تعرف المصادر اذ جهلت الموارد ، ورأيت أن سَبّ الأوليـاء أشفى لدائك ، وأبلغ فى شفاء سُقْمك ، ورأت أنّ إرسال اللسان أحصرُ لدّة ، وأبعـدُ من النَّصَب ، ومن إطالة الفكْرة ، ومن الاحتلاف الى أرباب هـذه الصناعة ، ولو كنتَ حيى فطنت لعجزك وصَلْت بقصك تمـام عيرك ، واستكميت من هو موقوف على كفاية مثلك ، وحبيسٌ على تقويم أشباهك ، كان ذلك أزينَ فى العـاجل ، وأحقّ بالمَثُـوبة فى الآجل ، وكنتَ إن أخطأتك العيمة لم تُخْطئك السـلامة ، ولقد سلم عليك المخالف ، بقـدر ما ابْتُلى به منك الموافق ، وعلى أنه لم يُبْتل منك إلّا بقدر ما ألزمته من مَؤونة تَثْقيفك ، والتشاغل بتقويمك ، وهل كنت فى ذلك إلّا كما قال العربى : * وهل يصرّ السحابَ نحيح الكلاب * ° و إلّا كما قال الشاعر :

هل يصرّ البحـرَ أمسَى راجرا * أَنْ رَمَى فيـه غلامٌ بحجر

وهل حالنا فى ذلك إلّا كما قال الأوّل

ما ضر تَغْلِبَ وائلٍ أَهْجَـوْتَها * أمْ بُلْتَ حيث تَناطَحَ البَحْرانِ

وقال حسان :

ما أُبالى أَنَبّ بالحـزن تَيْسٌ * أم لحَانى بظهـر غَيْبٍ لئـيمُ

وما أشك أنّك قد جعلت طول إعراضا عنك مطيّة لك ، ووجّهتَ حِلْمنا عنك الى الخوف منـك ، وقد قال زُفَر بن الحارث لبعض مَن لم ير حقّ الصفح بفعـل العفو سببا الى سوء القول :

فإنْ عُدْت والله الذى فوقَ عرشه * مَنَحْتُك مَسْنُونَ العرَارَين أزرقا
فإن دواء الجهل أن تُضرَبَ الطُّلَى[1] * وأن يُعْمَسَ العِرِّيص[2] حتى يُفَرّقا

وقال الأوّل :

وما نفى عنك قوما أنت خائفُهُمْ * كمِثل وقْفِكَ جُهّالا بجهّالِ
فاقعس إذا حدِبوا واحْدَبْ إذا قَعِسوا * ووازِنِ الشرّ مِثقالًا بمثقال

وقال الآخر :

وصغائرٍ دوايتها بضغائنٍ * حتّى يَمُتْنَ و بالحُقُود حُقُودا

وإنى وإن لم يكن عندى سباء رُفَر بن الحارث، ولا مُعارضةُ هؤلاء : الشرّ بالشرّ، والجهلَ بالجهل، والحِقْدَ بالحقد، فإن عندى ما قال المسعودىُّ :

فَسَلْ تراتَ الأرض منها خُلِقْتُما * وفيها المَعادُ والمَصير الى الحشْر
ولا تَعْجَبَا أنْ تَرْجِعا فتُسَلَّما * فما حُشِى الأقوامُ شرّا من الكِبر
فلو شِئْتُ أدْلى فيكما عيرُ واحدٍ * علانيه أو قال عِنْدِىَ فى سِتْرِ
فإنْ أنَا لمْ آمر ولم أنْهَ عنكما * صحِكْتُ[3] له حتّى يَلِجّ ويَسْتَشْرِى

وقال التِّمِرُ بن تَوْلَبْ :

جزَى الله عنّى حَمْرَةَ سُنَّةَ نَوْفَلٍ * جزاءَ مُعِلّ بالأمانة كاذبِ
بما حرّمت عنّى الوُشاةَ لِيكذبوا * علىّ وقد أوليتُها فى الذوائبِ

يقول : أحرجت حرى الى من يشتهى أن أُعاب عندها .

ولو شئنا لعارضناك من القول بما هو أقبح أثرا، وأبقَى وسْما، وأصدى قيلا، وأعدل شاهدا؛ وليس كل من ترك المعارضة فقد صفح، كما أنّه ليس كل مَن عارض فقد انتصر،

(١) الطلى : الأعناق .
(٢) العريص : الذى يتعرّض للناس بالشر .
(٣) كذا فى الأصل، وفى اللسان فى مادة لجح : تصاحكت حتى يلج ويستشرى .

وقد قال الشاعر قولا إنْ فهمتَه كَفَيْتنا مَؤُونة المعارضـة ، وكفيت نفسـك لُزوم العار ، وهو قوله :

إنْ كُنتَ لا تَرْهَبُ ذمِّى لِمـا * تَعْرِف من صفْحِى عن الجاهِلِ
فاحْشَ سكوتى آذنًا مُنْصِـتًا * فيـك لمَسْمُوع خَنا القائِلِ
فالسامـعُ الذمَّ مُقِـرٌ به * كالمُطعِم المأكولَ للآكِلِ
مَقـالةُ السوء الى أهلهـا * أسرعُ من مُنْحدِرٍ سائِلِ
وَمَن دعَى الـناس الى ذَمّه * ذمّـوه بالحـقّ وبالباطـلِ
فـلا تهِجْ إنْ كنتَ ذا إرْبةٍ * حَرْبَ أخِى التَّجْـرِبة العاقِلِ
وإنّ ذا العقـل إذا هِجْتَـه * هِجْتَ به ذا خَبَـلٍ خاـلِ
يُبْصِـر فى عاجِلِ شَـدّاتِه * عليـك عِبَّ الصرِرِ الآجِلِ

وقد يقال : إنّ العفوَ يُفسدُ من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم ؛ وقد قال الشاعر :

والعفوُ عند لَبيب القـومِ مَوْعِظةٌ * وعفْـوه لسَفيه القومِ تَدْرِيبُ

فإن كنّا قد أسأنا فى هذا التقريع والتوقيف ، فالذى لم يأْخذ فينا بُحكْم القرآن ، ولا بأدب الرسول عليـه الصلاة والسلام ، ولم يفزع الى ما فى الفِطَن الصحيحة ، أو الى ما توجِبُـه المقاييسُ المُطّردة ، والأمثال المضروبةُ ، والأشعارُ السائرة ، أَوْلَى بالإساءة ، وأحقّ باللائمة ، قال الله جَلّ ثناؤه : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وقد قال النبيّ عليه الصلاة والسلام : "لا تَحْنِ يَمينُك على شِمالك" وهذا حُكْم الله جَلّ وعزّ ، وآدابُ رسوله ، والذى أُنْزِل به الكتاب ، ودُلّ عليه فى حُجَج العقول .

أَخْذ البرىء بذنب المذنب

ثم قال فى أخذ البَرِىء بذَنْب المذنب . فأمّا ما قالوا فى المثل المضروب ، "رَمَتْنِى بدائها وانْسَلّت" . وأمّا قولُ الشعراء وذمُّ الخطباء لمن أخذ إنسانا بذَنْب غيره ، وما ضربوا فى ذلك من الأمثال ، كقول النابغة حيث يقول فى شعره :

وكَلّفتنِى ذنبَ امرئٍ وتركتَه * كذِى العُرِّ يُكْوَى غيرُه وهو راتع

وكانوا إذا أصاب إبلَهم العُرُّ كَوَوْا السليم ليذهب العُرُّ عن السقيم فأسقموا الصحيحَ من غير أن يُبْرِئوا السقيم، وكانوا إذا كثُرَتْ إبلُ أحدهم فلغت الألفَ فقئوا عينَ الفحل، فإن زادت الإبلُ على الألف فقئوا عيه الأخرى ، فذلك المُفقَّأُ والمُعمَّى اللـذان سمعتَ بهما قال العرزدق :

علبتُـــك بالمفقَّأ والمعمَّى (١) * وبيتِ المجتبَى (٢) والحافقاتِ

وكانوا يزعمون أن المفقَّأ يَطْرُد عنها العينَ والسُّواف (٣) والغاره فقال الأقول :

فَقَأْتُ لها عَيْنَ الفَحِيل تَعَيُّفًا * وفيهنّ رَعْلاءُ المسامِع والخَامِ

الرَّعْلاءُ : التى تُشَقّ أُذنها وتترك مُدَلّاةً لكَرَمها .

وكانوا يقولون فى موضع الكفّارة والأُمنيّة، كقول الرجل إذا بلغتْ إبلى كذا وكذا، وكذلك عَمى ذبحتُ عد الأوثان كذا وكذا عَتيرةً، والعَتيرةُ: من نُسك الرَّجَبيَّة، والجمع عتائر، والعتائر من الشاء، فإذا بلغت إبلُ أحدهم أو عمُه ذلك العدد آستعمل التأويلَ وقال : إنما قلتُ : إنّى أذبح كذا وكذا شاةً، والطباء: شاء، كما أن النعمَ شاءٌ، فجعل ذلك القُربان كلَّه ممـا يَصيد من الظباء، فلذلك يقول الحارث بن حِلِّزةَ اليَشكُرىّ :

عَنَتًا باطلا شَدُوحًا (٤) كما تُعْـ * ـتَرُ عن حُجرةِ الرَّبيصِ الظباءُ

بعد أن قال :

أم علينا حُناحُ كِندةَ أن يَغْـ * ـنم عازيهِـم ومنّا الجـراءُ

وكانوا إذا أوردوا البقرَ فلم تشرب، إمّا لكدَرِ المـاء و إما لقلّة العطش، صربوا الثَّوْرَ ليقتحم المـاءَ لأن البقَر تتبعه كما تتبع الشَّوْلُ الفحلَ، وكما تتبع أُتُنُ الوحش الحِمـارَ ، فقال فى ذلك عوف بن الخرِع :

تمَّتْ طيِّءٌ جهـلا وجُبنا * وقـد حاليتُهم فأتوْا حلائى

هَجَوْنى أن هجوتُ جبالَ سَلْمَى * كصربِ الثـوْرِ للبقـرِ الظِّماءِ

(١) فى اللسان مادة « مقأ » « المعنى » . (٢) كذا فى الأصـل وفى اللسان « المحنى » بالحاء المهملة . (٣) السواف . مرض الابل . (٤) كذا فى الأصل وفى اللسان مادة عتر «وطلبا» .

وقال فى ذلك أنس بن مُدْرِكة فى قتله سُليكَ بن السُّلَكة :

إنّى وقتـلى سُـليكا ثمّ أعقلهُ * كالثور يُضرَبُ لمـا عافتِ البقرُ
أنفت(١) للـرءِ إذ تُغشَى حليلَتُهُ * وإذ يُسُـدُّ(٢) على وجْعائها الثُّفُرُ(٣)

وقال الهيّبان الفهمىّ :

كما صُرِبَ اليعسوبُ أنْ عاف باقرٌ * وما ذنبـه أن عافت المـاءَ باقرُ

ولمـا كانَ الثـوْر أمير البقر، وهى تطيعه كطاعة إناث النحل لليعسوب سماه بأسم أمير النحـــل .

وكانوا يزعمون أن الجنّ هى التى تصدّ الثيرانَ عن المـاء حتى تُمْسك البقرُ عن الشرب حتّى تَهْلك، وقال فى ذلك الأعشى :

وإنّى وإن كلفتمونى وربّكم * لأعلمُ مَن أمسَى أحقَّ وأحوَبا
لكالثّور والجنّىُّ يصرِبُ طهرَه * وما ذنبه أنْ عافت المـاء مَشْربا
وما ذنبُه أن عافت المـاءَ باقرٌ * وما إن تعافُ المـاء إلّا لِيُصرَبا

كأنه قال : إذ كان يُصرَبُ أبدا لأنها عافت المـاء، فكأنها إنّما عافت المـاءَ ليضربَ؛ وقال يحيى بن منصور الذّهْلىّ فى ذلك :

لكالثور والجنّىُّ يصرب وحهَهُ * وما ذنبُه إن كانت الجنُّ طالمهْ

وقال نهشل بن حَرِّىّ :

أتُتْرَكُ عارضٌ وبـو عدىٍّ * وتَعْـرَمُ دارمٌ وهُمُ بُراءُ
كدأب الثور يُصربُ بالهَرَاوى * اذا ما عافت البقـرُ الظّماءُ
وكيف تكلّفُ الشّعرَى سُهَيْلا * وبينهما الكواكبُ والسماءُ

---

(١) فى اللسان : « عصت » .
(٢) فى الأصـل "وإن" والتصويب عن اللسان .
(٣) الثفر : السير الذى فى مؤخر السرج .

وقال أبو نُوَيْرة بن حُصَيْن حين أخذه الحَكَمُ بنُ أيّوبَ بذنب العَطَرَق :

أبا يوسفٍ لو كنتَ تعلم طاعتي * ونُصحي إذا ما عنّني بالمُلَقّ
ولا ساق سرّاق العُراقة صالحٌ * نَبِيٌّ ولا كُلّفتُ دستَ العَطَرَقِ

وقال حدّاش بن زُهَير حين أُحد بدماء بني محارب :

أُكَلَّفُ قَتْلَى معشرٍ لستُ منهمُ * ولا دارهم داري ولا نصرهم نَصْري
أكلّفُ قَتْلَى العِيصِ عِيصِ شُواحطٍ . ودلك أمرٌ لم تُشَفَّ له قِدْري

وقال الآخر :

اذا عَرَكَتْ عجلٌ بنا دستَ طيّئٍ * عرَكْنا بَنِيْ اللّاتِ دستَ بني عِجْلِ

ولما وجد اليهوديُّ أخا حِنْبص الصّابيّ في منزله فحصاه فمات، وأخذ حِنْبص بني عبس بجناية اليهوديّ قال قيس بن زهير أتأخذُنا بذنب غيرنا، وتسألنا العَقْل، والقاتلُ يهوديّ من أهل تَيْماء؟ قال . والله لو قَتَلَهُ هَيْفُ الريح لوَدَيْتُموه، فقال قيس لبني عبس : الموتُ في بني ذُبيان خيرٌ لكم من الحياة في بني عامر، ثم أنشأ يقول :

أكلّف دا الحُصَيْن إنْ كان ظالمًا * وإن كنتُ مظلوما وإن كنتُ شاطِطَا
حَصَاه أمْرؤ من أهل تَيْماء طابِرٍ * ولا يَعْدَم الإنسيُّ والحنُّ طاسا
فهلّا بني ذُبيان أمُّك هابلٌ * رَهَنْتَ هَيْفَ الريح إنْ كنتَ راهنا
اذا قلتُ قد أفلتُّ من شرّ حِنْبص * أتاني بأخرى شرُّه مُتَناطا
فقد جَعَلَتْ أكبادُنا تَجْتَويكم * كما تَجْتَوي سُوقُ العصاه الكَرارِيا

ولمّا قَتَل لقمان بن عاد ابنته وهي مُحْرِزٌ بنت لقمان قال حين قتلها : ألستِ امرأه؟ وذلك أنّه تزوج عِدّه نساء وكلُّهنّ حُبْلَى في أنفسهنّ، فلمّا قَتَل أُخراهنّ ونزل من الحبل كان أوّلَ من تلقّاه مُحْرِز ابنتُه، فوثب عليها فقتلها، وقال وأنتِ أيضا امرأه، وكان قد ابتُلي أيضا بأنّ أختَه كانت مُحَقّقة، وكذلك كان زوجها، فقالت لإحدى نساء لقمان . هذه ليلة طُهْرِي

وهى ليلتك، فدعينى أتمّ فى مضجعك، فإن لقمانَ رجلٌ مُنْجِبٌ، فعسى أن يقع علىّ فأُنْجِبَ، فوقع على أخته فحملت بلُقَيم وفى ذلك قول النمّر بن تَوْلَب :

لقيمُ بنُ لقمانَ من أختـه * فكان ابنَ أختٍ له وابنَما
ليالىَ حُمِّقَ فاستحصَنتْ * عليـه فغُـرِّبها مُظْلِما
فأحبلها رجلٌ محكَمٌ(١) * فجاءت به رجلا مُحْكَما

ضربت العربُ فى ذلك المثلَ بقتل لقمانَ بنتَه صُحْرا فقال خُفاف بن نَدْبة فى ذلك :

وعبّاسٌ يُدِبّ لى المنـايا * وما أذنبتُ إلا ذنبَ صُحْرِ

وقال فى ذلك ابن أُدَيْنَةَ :

أتجمَعُ تَيْـيـاما ليلـىَ اذا نأتْ * وهجرانها ظُلْمًا كما ظُلِمَتْ صُحْرُ

وقال الحارث بن عُبَاد :

قـرِّبا مربَط النعـامةِ منِّى * لقِحتْ حَرْبُ وائلٍ عن حِيالِ
لم أكن من جُناتِها علم الله * ـه وإنى بحرِّها اليـومَ صالى

وقال الشاعر وأظنّه ابن المقفّع :

فلا تلمِ المـرءَ فى شأنهِ * فربّ ملومٍ ولم يُذْنِبِ

وقال آخر :

لعلّ له عذرا وأنتَ تلومُ * وكم لائمٍ قد لام وهو مُلِيمُ

وقال بعض العرب فى قتل بعض الملوك سِنِمّار الرومىّ : فإنّه لما علا الخورنَق، ورأى بُنْيانا لم ير مثلَه، ورأى ذلك المستشرَف، وخاف إنْ هو استبقاه أن يموت فيبنىَ مثل ذلك البُنْيانِ لمَلِك آخر، فأمر به فرُمِىَ من فوق القصر، فقال فى ذلك الكلبى فى شئ كان بينه وبين بعض الملوك :

(١) وروى : تائه .

جزانى جزاه اللهُ شـرَّ جَزائِه * جزاءَ سِمِّـار وما كان ذا دين
سِـوَى رَصِّـه البُنْيانَ سبعَ تَحَمَّةً * يُعَـلِّى عليـه بالقراميـد والسَّكْبِ
فلمـا رأى البُنْيَان تمَّ سحُـوقُه * وآض كَمِثْل الطود ذى النادح الصعْبِ
فَظَنَّ سِمِّـارٌ به كُلَّ حَـوْبِهِ * ووار لديه بالمَـوَدَّه والقُـربِ
فقال اقذفوا بالعِلْج من رأس شاهقٍ * فداك لَعَمْرُ الله من أعظم الخَطْبِ

وجاء المسلمون يَرْوِى خلَفُ عن سلَف، وتابعٌ عن سابق، وآخِرُ عن أوّل، أنهم لم يختلفوا فى عيب قول المحاجّ: لآحُدنّ، السِمىَّ بالسمىّ والولىّ بالولى، والجارَ بالجار، ولم يختلفوا عن لعن شاعرهم حيث يقول:

اذا أُخذَ البرىء بعير جُرْم * تحتَّ ما يُحاذره السقيمُ

قال: وقيـل لعمرو بن عُبَيد إنّ فلانا لمـا قدّم رجُلا ليضرب عُنُقَه فقيل له: إنّه مجنون، قال: لولا أنّ المجنون يلِد عاقلا لخلّيتُ سبيله، قال فقال عمرو: وما حاق الله النار إلّا بالحقّ.

ولمـا قالت التَّغْلَبيّة للحجّاف بن حكيم فى وقعه البِشر: وَصَلَ الله عِمادكَ، وأطال سُهادك، وأقلّ رمادَك، فوالله إن قتلت إلّا نساء أسافلهن دُمًّى، وأعاليهن ثدًى، فقال لمن حوله: لولا أن تلِد هذه مثلَها لخلّيت سبيلَها، فبلَغ ذلك الحسنَ فقال: إنّ الحجّاف جُدْوة من نارجَهنم. قال ودَم رجلٌ عنـد الأحنَفْ بن قيس الكَمْأةَ بالسَّمَن، فقال عند ذلك الأحنف: رُبَّ مَلومٍ لا ذنب له؛ فبهـذه السيره سرتَ فينا؛ وما أحسن ما قال سـعيد بن عبد الرحمن ابن حسّان:

وإنّ امرأً يمسى ويصبح سالما * من الناس إلّا ما جَنَى لَسَعيدُ

وقلتَ: وما مالُ أهل العلم والنظر، وأصحاب الفكر والعِبَر، وأرباب النِّحَل، والعلماء بمخارج المَلَل، وورثة الأنبياء، وأعوان الخُلفاء، يكتبون كتب الطُّرفاء والمُلَحاء، وكُتُبَ الفُرّاغ والخُلعاء، وكُتُبَ الملاهى والمُضاحكات، وكتُبَ أصحاب الخصومات والمِراء، وكُتُبَ

أصحاب العصبيّة، وحَمِيّة الجاهليّة، حتّى كأنهم لا يحاسبون أنفسهم، ولا يُوازنون بين ما عليهم ولهم، ولا يحاولون تصفُّحَ العلماء، ولا لائمه الأدباء وشَـنَف الأكفاء، ومَسَاءَة الحُسَّاء؛ فهـلّا أمسكتَ رحمك الله عن عيبا، والطعن عليها، وعن المَشُورة والموْعظة، وعن تحويف ما فيه سوء العاقبة الى أن تبلغ حال العلماء، ومراتب الأكفاء.

أقسـام البيان

وبعد أن تكلم فى تقسيم العالَم الى ثلاثه أقسام، وذكر أقسام الحيوان، قال فى أقسام البَيان:

ووجَدْنا الحكمة على صربين. شيءٌ جُعِـلَ حِكمةً وهو لا يعقِـل الحِكْمةَ ولا عاقـةَ الحِكمه، وشيءٌ جُعلَ حِكمةً وهو يعقِل الحكمةَ وعاقةَ الحكمه، فاستوَى نَدَب الشيء العاقل وغير العاقل فى جهة الدَّلالة على أنّه حِكمه، واختلفا من جهه أنّ أحدَهما دليلٌ لا يَسْتدِلُّ، والآخَرَ دليلٌ يَسْتدِلّ، فكلُّ مُسْتدِلٍّ دليلٌ، وليس كلُّ دليل مستدِلّا، فشارك كلّ الحيوان سوَى الإنسان جميعَ الجماد فى الدَّلالة وفى عدم الاستدلال، واجتمع للانسان بأن كان دليلا مُستدِلًّا، ثم جُعلَ للمستدِلّ سببٌ يَدُلُّ به على وجوه استدلاله، ووجوهِ ما نتج له الاستدلالُ، وسَمّوْا ذلك بيـانا؛ وجعل دلك البيان على أربعه أقسام. لفظٍ وخطّ وعقْد وإشاره، وجُعل بيان الدليل الذى لايَستدِلّ تمكينَه المُستدِلّ من نفسه واقتياده كلّ مَن فكّر فيـه الى معرفة ما استُحْزِن من البرهان، وخُشِى من الدلالة، وأودع من عجيب الحكمـة، فالأجسامُ الخُرْسُ الصامتهُ ناطقة من جهة الدلالة، ومُعْرِبةٌ من جهه صحة الشهاده، على أنّ الذى فيها من التدبير والحكمه تلوحان لمن استبرهما، وينطقان لمن استطقهما كما يجيء الهُزال وكمود اللون عن سـوء الحال، وكما ينطق السَّمَنُ والنَّضْرةَ عن حسنِ الحال، وقـد قال الشاعر:

فعاجوا فأثنوْا بالذى أنت أهلُه * ولوسكتوا أثنت عليك الحقائبُ

وقال آخر:

متَى تكُ فى عدوٍّ أو صديقٍ * تخبِّرك العيونُ عن القلوبِ

وقد قال العُكْلىّ فى صدق شمه الذئب ، وفى شده حسه وآستر واحه :

يستحبر الريحَ اذا لَمْ يَسْمع * بمثل مِقراع الصفا الموَقّع

وقال عنتره وهو يصف بعيبَ عرات :

حَرِف الجَناح كأن لَحْيَىْ رأسِه * حَلَمَاد بالأحسار هَشٌّ مُولَعُ

وقال الفصل بن عيسى بن أبان فى قَصِيده : سل الأرض فقلْ : مَن شقَّ أنهارَك ، وعرّس أشجارَك ، وحَتَى ثِمارك ، فإن لم تحْك حِوارا ، أحاسْك اعتبارا ، فموضوع الحسم ونِصْبته دليلٌ على ما فيه ، وداعيةٌ اليه ومَنْبَهه عليه ، فالحماد الأبكم الأحرس من هذا الوجه قد شارك فى البيان الإنسانَ الحىَّ الناطقَ ، فمن جعل أقسامَ البيان خمسةً فقد ذهب أيضا مذهبا له جوازٌ فى اللغة ، وشاهدُ فى العقل ، فهذا أحدُ قِسمَى الحكمة ، وأحدُ معنيَىْ ما آستخزنها الله تعالى من الوديعه .

القسمة الأخرى ما أُودع صدورَ صُوف سائر الحيوان من ضروب المعارف ، وفطَرها على غريب الهدايات ، وبحّر حناجرَها له بضرب النغم الموزونة ، والأصوات الملحّنة ، والمخارج الشجيّه ، والأغانى المُطْربة ، فقد يقال . إن جميعَ أصواتها معدّلة ، وموزونة موقّعة ، ثم الذى سهّل لها من الرفق العجيب فى الصنعة مما دلله الله تعالى لمناقيرها وأكُفّها ، وكيف فتح لها من باب المعرفه على قدر ماهيّأ لها من الآله ، وكيف أعطى كثيرا منها من الحِسّ اللطيف ، والصنعه البديعه عن غير تأديب وتثقيف ، وعن غير تقويم وتلقين ، وعن غير تدريج وتمرين ، فلمعت بعضوها ومقدارِ قُوَى فِطْرتها من البديه والآرتجال ، ومن الآبتداء والآقتضاب ، ما لا يقدر عليه حُذّاقُ رجال الرأى ، وفلاسفةُ علماء البشر بيد ولا آلة ، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملُهم حِصالا ، وأتمّهم خِلالا ، من جهه الارتجال والاقتضاب ولا من جهه التعسف والآقتدار ، ولا من جهة التقديم فيه ، والتأتى له ، والترتيب لمُقَدّماته ، وتمكين الأسباب المُعينة عليه فصار جهد الإنسان الثاقب الحِسّ ، الجامع القُوَى ، المُتصرّف فى الوجوه المتقدم فى الأمور يعجِز عن عفو كثير منها ، وينظر اد نظر

الى صروب ما يجيء منهـا كما أعطِيَت العنكوت ، وكما أعطِيَت السُّرفَةُ ، وكما عُلِّمَ النحلُ ، بل عرّف التّنوّطُ من بديع المعرفه ، ومن عريب الصنعة فى غير ذلك من أصناف الخَلْق ثم لم يوجدهم العذرَ فى أنفسهم فى أكثر ذلك إلا عما قوّى عليـه الهَمَجَ والخَشَاش وصِغارَ الحشرات ، ثُمَّ جعل الإنسانَ ذا العقل والتمكين ، والاستطاعة والتصريف ، وذا التكلف والتجربة ، وذا التأنى والمُناصة ، وصاحبَ الادخار والمتفقد لشأن العاقبة متى أحس شيئا كان كلُّ شيء دونه فى العموص عليه أسهلَ ، وجَعَل سائرَ الحيوان وإن كان يُحِس أحدُها ما لا يُحس أحدقُ الناس متى أحس شيئا محيبا لم يمكنه أن يُحسن ماهو أقربُ منـه فى الطبّ ، وأسهلُ منه فى الرأى ، بل لايحسن ما هو أقرب منه فى الحقيقة ، فلا الإنسان جَعَل نفسَه كذلك ، ولا شيءٌ من الحيوان اختار ذلك ، فاحْتَبَت هذه الأحناس بلا تعلُّم ما يمتنع على الإنسان ، وإن تعلم فصار لا يحاوله اذ كان لا يطمَع فيه ، ولا يجِدُها اذ كان لا يَأملُ التّلقاق بها ، ثم جعل تعالى وعزّ هاتين الحِكْمتين إزاءَ عيون الناظرين ، وتُحاه أسماع المعتبرين ، ثم حثّ على التفكير والاعتبار ، وعلى الاتعاظ والازدجار ، وعلى التعرّف والتبيّن ، وعلى التوقف والتذكر ، فجعلها مُذكّرةً منبّهةً ، وجعلَ الفطر تنشىء الخواطر ، وتجول بأهلها فى المذاهب ، ذلك ربّ العالمين ، سبحان الله ربّ العالمين .

وهـذا كتاب موعظة وتعريف ، وتفقُّه ونبيه ، وأراك قد عِنْتَـه قبل أن تقف على حدوده ، وتتفكّرَ فى فصوله ، وتتدبّر آخرَه بأوّله ، ومصادرَه بموارده ، وقـد علّطك فيـه بعضُ ما رأيتَ فى أثنائه من مزيج لم تعرف معانيـه ، ومن بَطالةٍ لم تدرك غَوْرها ، ولم تدرِ لمَ اجتُلِبتْ ولأىّ علة تُكلِّفتْ ، وأىّ معنًى أريع بهـا ، ولأى جِدٍّ احتُمِلَ ذلك الهَزْلُ ، ولأيّة رياضة نُجشِّمتْ تلك البَطَالةُ ، ولم تدر أن المُراح جِد اذا اجتُلِبَ لأن يكون علّةً للجِدّ ، وأن البَطالةَ وقارٌ وزمانةٌ اذا تُكلِّفتْ لتلك العاقبة ، ولمـا قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحدٌ من علم النحو الى ما يحتاج اليه حتى يتعلّم ما لا يحتاج اليـه ، قال أبو ثُمْر : اذا كان لايصل الى ما يحتاج اليه إلا بما لا يحتاج اليه فقد صار ما لا يحتاج اليه يحتاج اليه ، وذلك

مثل كتابا هذا، لأنا إن حملنا جميع مَن يتكلف قراءه هذا الكتاب على مُرِّ الحق، وصُعوبةِ الجد، وثِقل المؤونة وحقيقه الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلا من قد تجرَّد للعلم وفهمَ معناه، وذاق من ثَمَرته، واستشعر من عزِّه، ونال من سروره على حسَب مايورث الطول من الكدّ، والكثرةُ من السآمة، وما أكثر مَن يُقاد الى حظّه بالسواحير، وبالسَّوْق العنيف، وبالإخافة الشديده.

مدح الكتب

ثم ذكر فقرات حساناً فى مدح الكتب فقال.

ثم لم أرك رصيتَ بالطعن على كلّ كتاب لى عيبه، حتى تجاورت ذلك، الى أن عِبْت وصع الكتب كيفما دارت بها الحال، وكيف تصرّفت بها الوحوه. وقد كنت أعجب من عيبك البعضَ بلا عِلم، حتّى عِبت الكلّ بلا علم، ثم جاوزتَ ذلك الى التشنيع، ثم تجاوزت التشنيع الى نُصْب الحرب، فعبت الكتاب ونعم الذخرُ والعُدة، ونعم الجليس والعُمدة، ونعم النَّشْوه والنزهه، ونعم المشتعَل والحِرْفه، ونعم الأنيسُ ساعة الوَحْدة، ونعم المعرفةُ ببلاد الغُرْبة، ونعم القرين والدخيلُ، ونعم الوزير والرسولُ، والكتاب وِعاءٌ ملئَ علما، وظَرْفٌ حُشِيَ ظَرْفا، وإناءٌ شُحِنَ مُراحا وحِدّا، إن شئتَ كان أبينَ من سَحابٍ وائلٍ، وإن شئت كان أغنى من ناقل، وإن شئت ضَحِكتَ من بوادره، وإن شئت عجِبتَ من غرائب فوائده، وإن شئت ألهتك بوادره، وإن شئت شحنك مواعظه، ومَن لك بواعظ مُلْهٍ، وبزاجرٍ مُعْرٍ، وبناسكٍ فاتكٍ، وبناطقٍ أخرسَ، وبباردٍ حارٍّ؛ وفى البارد الحارّ يقول الحسن بن هانئٍ:

قُلْ لزهيرٍ اذا ٱنْتحى وشَـدا * أقلل أو أكثِرْ فأنتَ مِهْـدارُ
سُحْتَ من شدّه البرُودةِ حتّى صرتَ عِدى كأنّك البارُ
لا يعجبِ السامعونَ من صمتى * كذلك الثلجُ باردٌ حارُّ

ومَن لك بطبيب[1] أعرابيّ ، و روميّ هنديّ ، و فارسيّ يونانيّ ، و بقديم مولَّد ، و بميّت يُتبع ، ومن لك بشيء يجمع لك الأوّلَ والآخر ، والناقصَ والوافر ، والخفيَّ والظاهر ، والشاهدَ والغائب ، والرفيعَ والوضيعَ ، والعتَّ والسمينَ ، والشكلَ وخلافه ، والجنسُ وضدُّه .

و بعد ، فمتى رأيت بستانا يُحمَل فى رُدْن ، أو روضةً تُنقَلُ فى حِجْر ، وناطقا ينطق عن الموتى ، و يُترجم كلام الأحياء . ومَن لك بمؤنس لايام إلّا نَوْمك ، ولا يبطق إلا بما تهوى ، آمن من الأرض ، وأكتم للسرّ من صاحب السرّ ، وأضبط للوديعة من أرباب الوَديعة ، وأحفظ لما آستُحْفظ من الأُمَنيّ ، ومن الأعراب المعرَّس ، بل من الصِّبيان قبل آعتراض الأشغال ، ومن العُميان قبل التمتُّع بمير الأشخاص ، حين العايةُ تامّة لم تنقُص ، والادهانُ فارغة لم تُقتَسم ، والإرادةُ وافره لم تستعب ، والطينة ليّنه فهى أقبل ماتكون للطابع ، والقصيب رطبٌ فهو أقرب ما يكون من العُلوق ، حين هذه الخصال لم يَسْلَ حديدُها ، ولم يُفَلّ عَرْبُها ، ولم تتفرّق قُواها ، وكما قال الشاعر

أتانى هواها قبلَ أنْ أعرِفَ الهوَى ✻ فصادف قلبا فارغا فتمكّنا

وقال عَبْدَةُ[2] بن الطبيب :

لا تأمَنُوا قوما يَبِيتُ صميمُهم ✻ بين القوابل بالعَدَاوة يَنْشَعُ

هذا مع قولهم : التعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر ، وقال حِران العَوْد :

تُرِكن بِرِحْلَةِ الزوْحاء حتّى ✻ سَكَرْنَ الدبارُ على البصير

كوحيِ فى المحارة أو وُشُومٍ ✻ بأيدى الروم باقيةِ النؤورِ

النُّؤُور شيء كان يُعمل فى الجاهلية مثل الحمرة اليوم .

وقال آخر وهو صالح بن عبد القدوس :

وإنّ مَن أدّبته فى الصبا ✻ كالعُود يُسقَى الماءَ فى غَرسِه

حتى تراه مُورِقا أخضرا ✻ بعد الذى أنصرتَ من يُبسِه

---

(١) كذا فى الاصل ، ولعلها . « مبطئ » .

(٢) فى الأصل . « تميرة » وهو خطأ صوابه ما أثبتناه عن الشعر والشعراء لابن قتيبة .

وقال آخر :

يقوِّم من مَيل العلام المؤدبُ * ولا ينفع التأديبُ والرأس أشيبُ

وقال آخر :

أدبتُ عِرسى بعد ما هِرمتْ * ومن العناء رِياضةُ الهرِمِ

وقد قال دو الرمة لعيسى بن عمر : اكْتُبْ شِعرى فالكتابُ أعجب الىّ من الحفظ ، إن الأعرابىَّ ينسى الكلمةَ قد سهرت فى طلبها ليلة ، فيضع فى موضعها كلمةً فى وزنها ثم يُنشدها الناسَ، والكتابُ لا نَسَى ، ولا يُبْدِل كلاما بكلام ،

وعت الكتابَ ولا أعلم حارا أبرّ، ولا حليطا أنصف ، ولا رفيقا أطوع، ولا معلّما أحصع ، ولا صاحبا أطهر كفايةً ، ولا أقلَّ جِناية ، ولا أقل إملالا وإبراما ، ولا أقلَّ حلافا وإجراما ، ولا أقلّ عِيّةً ، ولا أبعدَ من عَصبيّةٍ ، ولا أكثرَ أمحوبةً وتصرّفا ، ولا أقلَّ صلّفا وتكلُّفا ، ولا أبعدَ من مِراء ، ولا أتركَ شَغَبٍ ، ولا أزهدَ فى جدالٍ ، ولا أكفَّ عن قتالٍ ، من كتاب ، ولا أعلم قريبا أحسنَ مواتاة ، ولا أعجلَ مكافاة ، ولا أحصرَ مَعُونة ، ولا أخفَّ مَؤونة ، ولا شجره أطولَ عُمْرا ، ولا أجمعَ أمرا ، ولا أطيبَ ثمرة ، ولا أقربَ مُجتَنى ، ولا أسرعَ إدراكا ، ولا أوحدَ فى كلِّ إبّانٍ من كتاب ؛ ولا أعلم نِتاجا فى حَداثةِ سنّه ، وقُرب ميلاده ، ورحيص ثمنه ، وإمكانِ مَوْجودِه ، يجمع من التدابر العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفه ، ومن الحِكَم الرفيعة ، والمذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الأخبار عن القرون الماضية ، والبلاد المتراخيه ، والأمثال السائره ، والأمم البائدة ما يجمع لك الكتاب .

وقد قال الله عز وجل لنبيّه عليه الصلاة والسلام : ﴿ اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ وصف نفسه تبارك وتعالى حده بأن علّم بالقلم ، كما وصف نفسه بالكَرَم ، واعتدّ ذلك فى نِعَمِه العِظَام ، وفى أياديه الجسام ، وقد قالت : القلم أحدُّ اللسانين ، وقالوا : كل مَنْ عرَف فَضْل النعمه فى بيان اللسان كان بفضل النعمة فى بيان القلم

أعرف ، ثم جَعَـل هذا الأمر قرآنا ، ثمّ جعـله فى أوّل التنزيل ، ومُستفتِح الكتاب ، ثم أعلم — يرحمك الله تعالى — انّ حاجه بعض الناس الى بعض صـفةٌ لازمة لطَبائعهم ، وحلقةٌ قائمة فى جواهرهم ، وثابتـة لا تزايلُهم ، ومحيطه بجماعتهـم ، مشتملة على أدانيهم وأقاصيهم ، وحاجتهم الى ما عاب عنهم ، ممّا يُعيشهم ويُحْيِيهم ، و بأحد بأزمافهم ، ويُصْلح بالهم ، ويجمع شملهـم ، والى التعاون على دَرَك ذلك ، والتوازر عليـه لحاجتهم الى التعاون على معـرفه ما بحضرتهم ، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق فى أمورهم التى لم تعب عنهم ، لحاجة العائب موصولة بحاجه الشاهد ، لاحتياج الأدنى الى معرفة الأقصى ، وآختلال الأدنى الى معونة الأقصى ، معانٍ متصمّمه ، وأسبابٌ متّصلة ، وحبالٌ مُتقِيدة ، وجعـل حاجتنا الى معرفة أخبار من كان قبلنا لحاجه من كان قبلنا الى أخبار مَن كان قبلهم ، وحاجة من يكون بعـدنا الى أخبارنا ، ولذلك تقـدّمت فى الكتب البشارات بالرسل ، ولم يُسحّر لهم بجميع حلقـه إلّا وهم يحتاجون الى الآرتفاق بجميع حلقـه ، وجعل الحاجة حاجتَـيْن : إحداهمـا قوَام وقوت ، والأخرى لذّة و إمتاع ، وآزدياد فى الآلة ، وفى كل ما أحدَلَ الهوسَ ، و جمع لهم العتَاد ، وذلك المقدار من جميع الصنْفَيْن وَفق لكثرة حاجاتهم وشهواتهم ، وعلى قدر آتساع مَعْرفتهـم ، و بعدِ غَوْرِهم ، وعلى قدر آحتمال طبع البشريّة ، وفِطْـره الإنسانية ، ثم لم يَقْطع الزيادةَ عنهم الّا لعجز خَلْقهم عن احتمالهـا ، ولم يَجُز أن يفترق بينهم و بين العجز إلّا بعـدم الأعيان ، اذا كان العجز صفةً من صفات الخلق ، ونَعْتا من نُعوت العبيد ، ولم يَخلق الله تعـالى أحدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض مَن سُخّر له ، وأدامهم مُسخّر لأقصاهم ، وأحلّهـم مُيسّر لأدقّهم ، وعلى ذلك أحوَجَ الملوك الى السوقة فى باب ، وأحوج السوقه الى الملوك فى باب ، وكذلك الغنىّ والفقيرُ ، والعبد وسيّده .

ثمّ جعل الله تعالى كلّ شىء للانسان حَوَلا وفى يده مُدالًا مُيسّرا ، إما بالآحتيال له ، والتلطف فى إراعته وآستمالته ، إمّا بالصوله عليه والفَتْك به ، واما أن يأتيه سَهْوا ورهْوَا ، وعلى أن الإنسان لولا حاجته اليها لمـا احتال لها ، ولمّـا صال عليها ، إلّا أنّ الحاجة تَفْترق

فى الجنس والجهة، وفى الحظّ والتقدير، ثم تعدّد الإنسانَ بالعكر فيها، والنظر فى أمورها، وبالاعتبار بما يَرَى، ووصل بين عقولهم، وبين معرفة تلك الحِكَم الشريفة، وتلك الحاجات اللازمة بالنظر والتفكير، والتنقب والتنقير، والتثبت، والتوقف، ووصل معارفهم بمواقع حاجاتهم اليها، وتشاعرهم بمواضع الحِكَم فيها بالبيان عنها، وهو البيان الذى جعله الله تعالى سببا فيما بينهم، ومُعبّرا عن حقائق حاجاتهم، ومُعرّفا لمواضع سدّ الخلّة، ودفع الشبهة، ومُداواة الحَيْرة؛ ولأنّ أكثر الناس عن الناس أفهمُ منهم عن الأشباح الماثلة، والأجسام الجامدة، والأجرام الساكنة التى لا يُتعرّف ما فيها من دفائن الحكم وكنوز الأدب، وينابيع العلم، الا بالعقل اللطيف الثاقب، وبالنظر التام النافذ، وبالأداة الكاملة، وبالأسباب الوافره، والصبر على مكروه الفِكَر، والاحتراس من وحوه الخُدَع، والتحفظ من دواعى الهوينى، ولأنّ الشكل أفهم عن شكله وأسكن اليه وأصب به، وذلك موجود فى أجناس البهائم وصروب السِّباع، والصبىّ عن الصبىّ أفهم وله آلف، وإليه أنزع، وكذلك العالِم والعالِم، والجاهل والجاهل، وقال الله عزّ وجلّ لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأنّ الإنسان عن الإنسان أفهمُ، وطاعَه بطاعه آنسُ، وعلى قدر ذلك يكون مَوْقع ما تسمع منه، ثم لم يرض من البيان لهم بنصف واحد، بل جمع ذلك ولم يفرّق، وكثّر ولم يُقلّل، وأظهر ولم يُخْفِ، فجعل أصناف البيان التى بها يتعارفون معانيَهم، والتَّرْجُمانَ الذى اليه يرجعون عند آختلافهم فى أربعة أشياء وفى خَصْلة خامسة، وإن نقصت عن نوع هذه الأربعه فى جهاتها، فقد تكمل بخمسه الذى وصع له، وصرف اليه.

وهذه الخصال الأربع: هى اللفظ والخط والإشاره والعَقْد، والخَصْلة الخامسة: ما أوجد من صِحّة الدّلالة، وصدق الشّهاده، ووضوح البرهان فى الأحرام الجامدة الصامتة، والساكنة الثّابتة، التى لا تنبس ولا تفهم، ولا تحس ولا تحرك الّا بداخل دخل عليها، أو عند ممسك خلّى عنها بعد تقييده كان لها، ثم قسم الأقسام، ورتّب المحسوسات، وحصّل

الموجودات ، لجعل اللفظ للسامع ، وجعل الإشاره للناظر ، وأشرك بين الناظر واللامس ، فى معرفة العَقْد إلّا بمـا فضّل الله به نصيب الناظر فى ذلك على نصيب اللامس ، وجعـل الخط دليلاعلى ما غاب من حوائجه عنه ، وسببا مَوْصولا بينه و بين أعوانه ، وجعله خازنا لمـا لا يأمن نسيانه ممّـا قد أحصاه وحفِظه ، وأتقنه وجمعـه ، وتكلف الإحاطة به ، ولم يجعل للشام والذائق فى ذلك نصيبا .

ولولا خطوط الهند لصاع من الحساب الكثيرُ البسيط ، ولَعَطّلت معرفة التصاعيف ، ولَعدِموا الإحاطه بالناورات ، وباورات الناورات ، ولو أدركوا ذلك لمـا أدركوه الّا بعـد أن تعلُط المَؤونة ، وتنتقص المُنّة ، ولصاروا الى حال مَعْجَـزه وحُسور ، والى حال مضيعة وكلال حدّ ، مع التشاغل بأمور لولا فَقْد هـذه الآلة لكان أرفَقَ لهم ، وأردّ عليهم أن يصرفوا ذلك الشغل فى أنواب منافع الدّين والدنيا ، وبفع الحساب معلوم ، والحاجّة فى موضع فَقْده معروفه ، قال الله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ ثم قال : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ و بالبيان عرّف النـاس القرآن ، قال الله تبارك وتعـالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ فأجرَى الحساب مَجْرى البيان وألحق البيان بالقرآن ، وبُحْسان منازل القمر عرّفنا حالات المَدّ والجَزْر ، وكيف تكون الزياده فى الأهلّة وأنصاف الشهور ، وكيف يكون النُّقصان فى خلال ذلك ، وكيف تلك المراتب وتلك الأقدار .

ولولا الكُتُب المدوّنة ، والاخبار المُخلّده ، والحِكَم المخطوطة التى تَحْصُر الحسابَ وغير الحساب ، لَبَطَل أكثر العِـلْم ، ولغلب سلطانُ النِّسيان سلطانُ الذكر ، ولمـا كان للناس مَفْزَع الى موضع اسـتذكار ، ولو تم ذلك لحُرِمْنا أكثر النفع ، اذ كنا قد علمنا ان مقدار حِفْظ الناس لعواحل حاجاتهم وأواجلها لا يبلغ من ذلك مبلغا مذكورا ، ولا يغنى فيه عَناء محمودا ، ولو كُلّف عامّة مَن يطلب العِـلْم ، وَيَصْطَنِـع الكتب ، ألّا يزالَ حافظا لفِهْرِس كُتُبه لأعجزه ذلك ، ولَكُلّف شَـطَطا ، ولَشَغَله ذلك عن كثير ممـا هو أوْلَى به ، ففهمك

لمعانى كلام الناس ينقطع قبل انقطاع فَهْم عَيْن الصوْت مُجرّدا ، وأبعدُ فهمك لصوت صاحبك ومُعاملك ، والمُعاون لك ما كان صياحا صِرفا ، وصوْتا مُصْمَتاً ، ونداء حالصا ، ولا يكون مع ذلك آلا وهو بعيد من المُفاهمة ، وعُطْل من الدلالة ، بجعل الله حل وعزّ اللفظ لأقرب الحاجات ، والصوْت لأنفسَ من ذلك قليلا ، والكتاب للنازح من الحاجات .

فأما الإشاره فأقرب المفهوم منها رفعُ الحواجب ، وكسرُ الأجفان ، ولَيُّ الشفاه ، وتحريك الأعناق ، وقبض جلْده الوجه ، وأبعدها أن تُلْوِى بثوب على مَقْطع جبل تُخاءَ عين الناظر ، ثم يقطع عملُها ، وتَدْرُس أثرُها ، ويموت ذِكرُها ، وتصير بعد كلّ شيء فَصْلَ عن انتهاء مَدة الصوت ، ومُنتهَى الطرْف فى الحاجة ، الى التفاهمُ بالخطوط والكُتُب . فأىّ نفْع أعظمُ ، وأىّ مَرْفِق أعوَنُ من الخط ، والحالُ فيه كما ذكرنا !

وليس للعَقْد حظّ الإشاره فى بعد الغايه ، ولا للاشاره حظّ الخط فى بعد الغاية ، فلذلك وضع الله عزّ وجلّ القلمَ فى المكان الرفيع ، ونوّه بذكره فى المَنْصِب الشريف حين قال : ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فأقسم بالقلم كما أقسم مما يُخَطّ بالقلم إذ كان اللسان لا يتعاطَى شأوَه ، ولا يَشُقّ غُبارَه ، ولا يَجرِى فى حَلْبَته ، ولا يَتكلّف بعد غايته ، ولكن لمّا كانت حاجات الناس بالحَضْرة أكثرَ من حاجاتهم فى سائر الأماكن ، وكانت الحاجة الى بيان اللسان حاجةً دائمةً راكدةً ، وراهنة ثابتةً ، وكانت الحاجه الى بيان القلم أمرًا يكون فى الغَيْبه وعند النائبه ، الّا ما خُصّت به الدواوين ، فإن لسان القلم هناك أبسطُ ، وأثرَه أعمّ ، فلذلك قدّموا اللسان على القلم ، فاللسان الآن انّما هو فى منافع اليد والمرافق التى فيها ، والحاجاتِ التى تبلغُها ، فمن ذلك حظُّها وقسْطها من منافع الإشاره ، ثم تصيبها فى تقويم القلم ، ثم حظّها فى التصوير ، ثم حظّها فى الصناعات ، ثمّ حظها فى العَقْد ، ثم حظّها فى الدفع عن النفس ، ثم حظّها فى إيصال الطّعام والشراب الى الفَم ، ثم التوضّؤ والامتساح ، ثم ٱنتقاد الدنانير والدراهم ، ثمّ لُبْس الثياب ؛ وفى الدفع عن النفس أصنافَ الرمْى ، وأصنافَ الضرب ، وأصنافَ الطعن ، ثم الصرتَ التّقْفُ بالعود وتحريكَ الوتر ، ولولا ذلك لبطَل الطرب كلّه أو عامته ؛ وكيف

لا تكون كذلك ولها ضرب الطـبل والدُّفّ وتحريك الصفاقين، وتحريكُ مخارق خروق المزامير، وما فى ذلك من الإطلاق والحبس؛ ولو لم يكن فى اليد الّا إمساك العيان والزمام والحطام، لكان ذلك من أعظم الخطوط .

وقد آصطربوا فى الحكم بين العَقْـد والإشاره، ولولا انّ مَغزانا فى هذا الكتاب سوى هذا الباب لقد كان هذا مما أُحبّ أن يَعرفه إخواننا وحلفاؤنا، ولا ينبغى لنا أيضا أن نأخذ فى هـذا الباب من الكلام الّا بعـد الفراغ ممـا هو أولَى بنا منـه، إذ كنتَ لم تنازعنى، ولم تعب كُتُبى من طريق فصل ما بين العَقْد والإشاره، ولا فى تمييز مابين اللفظ و بينهما؛ وانّمـا قصَدْنا بكلامنا الى الإخبار عن فصل الكتب .

والكتاب هو الذى قيّد على الناس كُتُبَ علْم الدين، وحسابَ الدواوين، مع حِفْـظه ثقله، وصِغر حجْمه، صامت ما أسْكَتّه، و بليغٌ إذا آستنطقته، ومَن لك بمُسامر لا يتقيّدك فى حال شُغْلك، ويدعوك فى أوقات نشاطك . ولا يجوحُك الى التحمل له، والتدمم منه، ومَن لك برائر انْ شئتَ حملَ زارته عِمًّا، ووُرودَه نعْسا، وانْ شِئت لزمك لزوم طِلّك، فكان منك مكان بعضك .

والقلم مُكْتَفٍ بنفسه ولا يحتاج الى ماعند غيره، ولا بد لبيان اللسان من أمور، منها: إشاره اليد، ولولا الاشارة لما فهموا عنك خاصّ الخاصّ . اذا كان أخصّ الخاصّ قـد يدخل فى باب العامّ، إلّا أنه أدنَى طبقاته، وليس يَكتفى خاصّ الخاصّ باللفظ عمّا أدّاه، كما كتفاء عامّ العامّ، والطبَقاتِ التى بينه و بين أخصّ الخاصّ .

والكتاب هو الجليس الذى لا يُطْريك، والصـديقُ الذى لا يُغْريك، والرفيقُ الذى لا يُملّك، والمُستميح الذى لا يَسْـتَزيدك، والجار الذى لا يَستبطئك، والصاحب الذى لا يريد آستحراج ما عندك بالمَلَق، ولا يعاملك بالمَكْر، ولا يخدعُك بالنِّفاق، ولا يحتال لك بالكذب .

والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، و بسط لسانك، وحوّد بيانك، ونظم ألفاظك، و بجّح نفسك، وعمّر صدرك، ومنحك تعظيم العوام، وصداقة الملوك، وعرّفتَ به فى شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال فى دهْر، مع السلامة من الغُرْم، ومن كدّ الطلب، ومن الوقوف بباب المُتكسّب بالتعليم، و بالجلوس بين يدى مَن أنت أفضلُ منه خُلقا، وأكرمُ عِرْقا، ومع السلامة من محالسه الغُضاء، ومُقارنة الأعياء.

والكتاب هو الذى يُطيعك بالليل كطاعته بالنهار، و يُطيعك فى السفر كطاعته فى الحضَر، ولا يعتلّ بصوم، ولا تعْتريه كلال السهر، وهو المُعلّم الذى إن افتقرت لم يَخْفرك، وإن قطعت عنه المادّة لم يقطع عنك الفائدة، وإن عُزلت لم يدَع طاعتك، وإن هبّت ريح أعاديك لم يسلب عليك، ومتى كنت منه مُتعلّقا بسبب، أو مُعْتصما بأدنى حبْل، لم تصطرك معه وَحْشته الوَحْدة الى جليس السُّوء؛ ولو لم يكن من فضله عليك، و إحسانه اليك، إلّا مَنْعُه لك من الجلوس على بابك، والطرق الى بوّابه لك، مع ما فى ذلك من التعرّض للحقوق الى تَلْزم، ومن فُضول النظر، ومن عاده الخوض فيما لا يَعْنيك، ومن مُلابسة صِغار الناس، ومن حضور ألفاظهم الساقطه، ومعايبهم الفاسده، وأحلافهم الرديّة، وجَهالاتهم المدمومه. لكان فى ذلك السلامة ثم النعيمه، و إحرازُ الأصل مع استفاده الفرْع، ولو لم يكن فى ذلك إلّا أن نَشْعلك عن سُخْف المُنى، وعن اعتياد الراحه، وعن اللّعب، وكلّ ما أشبه اللعب، لقد كان فى ذلك على صاحبه أسبغُ النعمة، وأعظمُ المِنّة، وقد علمنا أنّ أمْثل ما يَقْطَع به الفُرّاغ نهارَهم، وأصحابُ الفُكاهات ساعاتِ ليلهم، هو الشىء الذى لا تَرى له فيهم مع النَّيْل أثراً فى ازدياد فى تجربة ولا فى عقْل، ولا فى مروءه ولا فى صَوْن عِرْض، ولا فى إصلاح دِين، ولا فى تثْمير مال، ولا فى تربيهْ صنيعه، ولا فى استداء بإنعام.

قال أبو عُبَيْده قال المُهلّب لبنيه فى وَصيّته: يا بَنِىّ لا تَقفوا فى الأسواق إلّا على زوّادٍ أو ورّاق.

وحدّثنى صديق لى قال : رأيت على شيخ شامىّ كتابا فيه مآثرُ عطفان، فقال لى : ذهبت المكارم إلا من الكتب ، وسمعت الحسن اللؤلؤى يقول : عبرت أربعين عاما ما قلّت ولا بت التكأت إلّا والكتاب موضوع على صدرى، وقال ابن الجَهْم : اذا غشيني النعاس فى غير وقت نوم و بئس الشيء النوم الفاصل عن الحاجة ، تناولت كتابا من كتب الحكم فأجد اهتزازى للفوائد ، والأريحيّة التى تعتريني عند الطفر ببعض الحاجة ، والذى يغشّى قلبى من سرور الاستتمام ، وعزّ التمّ، أشدّ إيقاظا من نهيق الحمير، وهدّة الهدم .

وقال ابن الجَهْم : اذا استحسنتُ الكتاب واستحدثته ، ورجوت منه الفائدة، ورأيت ذلك فيه، فلو تركونى وأنا ساعةً بعد ساعةٍ أنظرُ كم بقى من ورقه لحافظتُ على استفاده ، وانقطاع المادّه من قبله، وإن كان المُصْحف فى عظم الحجم، وكان الورق كثير العدد، لرأيتم كيف تمّ عيشى، وتمّ سُرورى .

وذكر القَيْنيّ كتابا لبعض القدماء فقال . لولا طوله ، وكثره ورقه ، لاستحته ، قال ابن الجَهْم : لكنّي ما رعّنى فيه إلّا الشيء الذى رهّدك فيه ، وما قرأت كتابا قطّ كبرا فأحلانى من فائدة، وما أُحْصِى كم قرأتُ من صِغار الكُتُب فخرجت منها كلما دخلت .

وقال القَيْنيّ : ذاتَ يوم لابن الجَهْم . ألا تتعجّب من فُلانٍ! نظر فى كتاب الإقْليدس مع جارية سَلْمُويَهْ فى يوم واحدٍ وساعةٍ واحده ، فقد فرغت الجارية من الكتاب وهو بعدُ لم يُحْكِم مَقالةً واحدة، على أنه حرّ مُحبّر وتلك أمَة مَقْصورة، وهو أحرص على قراءة الكتُب من سَلْمُويَهْ على تعليم جاريته، قال ابن الجَهْم : قد كنتُ أظنّ أنه لا يفهم منه شكلًا واحدا، وأراك تزعُم أنه قد فرغ من مَقالةٍ، قال القَيْنيّ : وكيف ظننت به هذا الظن كُلّه وهو رجل ذو لسان وأدب؟ قال لأنّى سمعتُه يقول لابنه : كم أنفقت على كتاب كذا وكذا؟ قال : أنفقت كذا وكذا ، قال : انّما رعّنى فى العلم أنّى ظننت أنّى أُنْفِق قليلا وأكتسب كثيرا، فأما اذ صِرتُ أُنْفِق الكثير وليس فى يدى منه إلّا المواعيدُ فانّى لا أريد

العلم بشيء . والإنسان لا يعلم حتى تَكْثُرَ سماعُه، ولا بُدّ من أن يصير كتبُه أكثرَ من سماعه، ولا يعلم ولا يجمع ولا يختلف حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذَّ عنده من الإنفاق من مال عدوّه، ومَن لم تكن نفقته التي تخرج في الكُتُب ألذّ عنده من عشاق القِيان، والمستهترين بالدُّنيان، لم يبلغ في العلم مَبلغا رَضيّا . وليس ينتفع بإنفاقه حتّى يؤثرَ لذّة اتخاذ الكتب إيثار الأعرابيّ فرَسه باللّبن على عياله، وحتّى تُؤمِّل في العلم مالا يُؤمّل الأعرابيّ في فرسه .

وقال إبراهيم بن السِّنْديّ مرّة . وددْت أنّ الزنادقة لم يكونوا حُرَصاء على المعالاة بالورق البيّض الأبيض، ولا على تحبّر الحبر الأسود البرّاق، ولا على استجادة الخطّ والإرعاب لمن يخطّ، فإني لم أرَ كورق كتبهم ورَقا، ولا كالخطوط التي فيها خطّا . وإنّي عرِمت مالا عظيما مع حبّي للمال وحِرصي للعرم، لأنّ سخاء النفس بالإنفاق على الكتب دليل على تعظيم العلم، وتعظيم العلم دليلٌ على شرَف النفس وعلى السلامة من سُكْر الآفات . وقلت لإبراهيم . إنّ إنفاق الزنادقة على الكتب كانفاق النصارَى على البِيَع ، ولو كانت كتب الزنادقة كُتُبَ حِكَمٍ ، وكتبَ فلسفة ، وكانت مقاييسَ تبينَ ، أو لو كانت كتبهم كتبا تعرّف الناس أبواب الصناعات ، أو سُبُلَ التكسُّب والتجارات ، أو كتب إرفاق ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفِطَن والأدب ، أو كان ذلك لا يُقرّب من عمًى ، ولا يباعد من مأثم، لكانوا ممّن قد يجوز أن يُظَنّ بهم تعظيم البيان والرغبةُ في التبيين، ولكنّهم ذهبوا فيها مذهبَ الديانة على طريق تعظيم المِلّة، فإنّما إنفاقهم في ذلك كانفاق المجوس على بيت النار ، وكانفاق النصارَى على صُلْبان الذهب ، أو كإنفاق الهند على سَدَنة البُدّ، ولو كانوا العلمَ أرادوا لكان العلمُ لهم معرضا ؛ وكتبُ الحكمة لهم مَبْذولة، والطُرُقُ اليها سهلة معروفة؛ فما بالُهم لا يصنعون ذلك إلّا بكتب دياناتهم كما يُزخرِف النصارَى بيوت عبادتهم؛ ولو كان هذا المعنى مُستحسنا عند المسلمين ، وكانوا يرَوْن أنّ ذلك داعيةٌ الى العبادة وباعثةٌ على الخشوع، لَبَلَغوا في ذلك بتَفْوِهم ما لا يبلغه النصارى بغاية الجُهْد.

وقد رأيتم مَسْجد دِمشق حين استحاز هذه السبيلَ ملكٌ من ملوكنا ، ومن رآه فقد علم أنّ أحدا لا يرومه ، وأن الروم لا تسحو أنفسُهم به ؛ فلما قام عمر بنُ عبـد العزيز جلّله بالحِـلال ، وعطّاه بالكَرابيس[1] ، وطبّح سلاسـل القناديل حتّى ذهَب عنها ذلك التلألؤ والبَريق ، وذهب الى أنّ ذلك الصنيعَ محاسب لسُنّة الاسـلام ، وأنّ ذلك الحُسْن الرائع والمحاسن الدِّقاقَ مَدْهَلة للقلوب ، مشغلة دون الخشوع ، وأنّ البال لا يكون مُجْتمعا وهناك شيء يُفرّقه ويَعترض عليه .

والدى يدلّنا على ما قلنا أنّه ليس فى كتبهم مثلٌ سائر ، ولا حبر طريف ، ولا صـنعةُ أدب ، ولا حِكْمه عربية ولا فلسـفية ، ولا مسئلة كلاميـة ، ولا تَعْريفُ صِـناعة ، ولا استحراجُ آلة ، ولا تعليم فِلاحه ، ولا تدبير حَرْب ، ولا مُقارَعة عن دِين ، ولا مُناصلة عن نِحْلَة ، وحُلُّه ذكر البور والطُّلْمَة ، وساخُ الشياطين ، وتسافُدالعفاريت . وذكرُ الصِّنديد والتهويلُ بعمود السنخ ، والاحجار عن شقلون وعن الهـامَة والهامة ، وهَدَرٌ وعِىٌّ ودعوَى وخُرافة وسخف وتَكَذُّبٌ ، لا ترى فيه موعظة حَسَنة ، ولا حديثا مُونِقا ، ولا تدبيرَ معاشٍ ولا سياسـةَ عامّة ، ولاترتيب خاصّة ، فأىّ كتابٍ أجهَـلُ ، وأى تدبير أفسد من كتابٍ يُوجب على النـاس الطاعه والخُضوع بالديانة على جهـه الاستصار والمحبّـة ، وليس فيـه صلاح معاشٍ ، ولا تصحيح دِين ، والناس لا يجيبون إلّا دينا أو دُنيا .

فأمّا الدنيـا فاقامة سُـوقها وإحصارُ نفعها . وأما الدِّين فأقلّ ما يُطمع فى استجابة العامة واستمالة الخاصّـة ، أن يصوّر فى صورة مُغلّطة ، ويُمَوّه تمويه الدينار البهرج والدرهم الزائف الذى يَغلَط فيـه الكثير ويعرف حقيقته القليـل . فليس اسماقُهم عليها من حيث ظننت . وكل دِين يكون أظهر اختـلا ا وأكثر فسادا يحتاج من الرقيع والتمويه ومن الاحتشاد له والتغليظ فيه الى أكثر من غيره .

---

(١) الكرابيس جمع كرباس . ثوب من القطن الأبيض وقيل : الثوب الخشن ، فارسى معرّب .

وقد علمت أن النصرانية أشدُّ انتشارا من اليهودية تعدُّدا ، فعلَى حسب ذلك يكون تزيُّدهم فى توكيده، واحتفالهم فى إظهار تعظيمه .

وقال بعضهم : كنتُ عند بعض العلماء فكنتُ أكتبُ عنه بعضًا وأدع بعضًا، فقال لى : اكتبْ كلّ ما تسمع ، فان أحس ما تسمع حبر من مكانه أبيض . وقال الخليل بنُ أحمد : تكثّر من العلم لِعرِف، وتقلّل منه لِتحفَظ . وقال أبو إسحاق : القليلُ والكثير للكُتُب، والقليلُ وحْدَه للصدر، وأنشد قول ابن يَسير .

أَمَا لو أعِى كلّ ما أَسمَعُ * وأَحْفَظ من ذاكَ ما أَجْمَعُ
ولم أَستَفِد عَيْر ما قَدْ جمعْـــتُ لقيلَ هو العالِمُ المُفْمِعُ
ولكنّ نَفْسِى الى كُلِّ نو * ع من العِـلْم تَسْمَعُهُ تَنزِع
أَشَاهَدُ بالعينّ فى مَجْلِسى * وعِلْمَى فى البيت مُسْتَوْدَع
فلا أنَا أَحْفَـظُ ما قد جمعْـــت ولا أنا مِنْ جَمْعِه أشبَع
ومَنْ يَكُ فى عِلْمِه هكذَا * يَكُنْ دهرَه القَهْقَرَى يَرْجِعُ
اذا لَمْ تَكُنْ حافظا واعِيًا * فجَمْعُك لِلعِـلْمِ لا يَنْفَـع

قال أبو اسحاق : كلف ابن يَسير الكتبَ ما ليس عليها، إنّ الكتب لا تُحْيى الموتى، ولا تُحَوّل الأحمق عاقلا ،ولا البليدَ ذكيا ،وذلك أنّ الطبيعة اذا كان فيها أدنى قبول فالكتبُ تَشْحَذ وتَفتُق وتُرْهِف وتَشْفِى، ومن أراد أن يعـلم كلّ شىء فيَنْبَغِى لأهله أن يداووه، فان ذلك انّما يصـوّر له لشىء اعتراه . فمَن كان عاقلا ذكيًّا حافظًا فليَقْصِـد الى شيئين أو ثلاثة أشياء : فلا يَنْزِع عن الدرس والمطارحه، ولا يَدَع أن يثرَ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من سائر الأصـناف فيكون عالمـا بخواصّ ويكون غيرَ غُفْل من سائر ما يجرى فيـه الناس ويَخوضون فيه ؛ ومَن كان مع الدرس لا يحفَظ شيئا إلّا نسِى أكثر مـه فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعدُ .

وحدثنى موسى بنُ يحيى قال : ما كان فى خزانة كتب يحيى وفى بيت مدرسـه كتاب إلّا وله فيه ثلاثُ نُسَخ .

وقال أبو عمرو بنُ العـلاء : ما دخلت على رجل قطُّ ولا مررت ببابه فرأيتـه يبطر فى دفتر وجليسُه فارغ اليد إلّا اعتقدت أنه أعقل منه وأفضل .

قال أبوعمرو وقيل لنا يومًا : إنّ فى دار فلانٍ ناسا قد اشْتَمَلوا على سوءة، وهم جلوسٌ على نُمَيْرَة لهم وعندهم طُسُور، قال: فَدَمَرْنا عليهم فى جماعة من رجال الحىّ، فاذا فتًى حالسٌ فى وَسط الدار وإذا أصحابه حوْلَه ، واذا هم ببيضُ الفَحَى، واذا هو يقرأ عليهم كتاب شـعر، فقال الذى كان معى بهم : السَّوْءة فى ذلك البيت ، وإن دخلتموه عَثَرْتم بها ، قال قلتُ : والله لا أكشف فتًى أصحابُه شيوخ وفى يده دفتر علْم ولو كان فى ثوبه دَمُ يحيَى بنِ زكرياء . قال وأنشد رجل يونُس النَّحوىّ قوله :

أُسْتودِعَ العِـلْمُ قِرْطاسا فَضَيّعه * فبِئْس مُسْتَوْدَعُ العِلْمِ القراطيسُ

قال فقـال يونس : قاتله الله، ما أشـدّ صيانته بالعلم وأحسنَ صِيانَته له ! إنّ علْمك من رُوحك، ومالك مِن بدنك، فصعْه منك بمكانِ الرُّوح، وضَعْ مالك بمكان البدن .

وقيـل لابن دَاحَه وأخرج كتاب أبى الشَّـمَقْمَق واذا هو فى جُلود كوفيّة ودفتّين طائفيتين وبخطّ عجيب، فقيل له : لقد ضيّع دِرهمه مَن تحوّد لشعر أبى الشمقمق؛ قال : لا جَرَمَ والله إنّ العـلم ليُعْطِيكم على حساب ما تُعْطونَه، ولو استطعتُ أنْ أودِعَه سُـوَيداء قلبى وأجعله مخطوطا على ناظرىّ لفعلت .

ولقد دخلت على إسحاق بنِ سليمان فى إمْرته، فرأيت السماطين بين يديه والرجال مُثُولًا كأنّ على رءوسهم الطير، ورأيت فِرْشَته(٢) وزِيّته ، ثم دخلت عليـه وهو معزول، واذا هو فى بيت كتبه وحوالَيْه الأسْـفاط والرفوف والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر، فما رأيتـه قطُّ أفخمَ ولا أنْبَـل ولا أهْيَب ولا أجزل منـه فى ذلك اليوم ، إلا أنّه جمـع مع المَهابة المَحبة، ومع الفَخامة الحلاوَة، ومع السُّودَد الحِكْمة .

(١) كذا فى الأصل، ولعلها زائدة . (٢) الفرشة : الهيئة .

وقال ابن داحه : كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يُجالس الناس ، ونزل مَقْبره من المقابر ، وكان لايكاد يُرَى إلّا وفى يده كتاب يَقْرؤه ، فسُئل عن ذلك وعن نزوله المَقْبُرة ، فقال : لم أرَ أوْعظ من قَبْر ، ولا أمتع من كتاب ، ولا أسْلَم من الوَحْده ، فقيل له : فقد جاء فى الوَحْدة ما قد جاء ، قال . ما أفسدها للجاهل وأصلحها للعاقل !

وصروب من الخُطوط بعد ذلك تَدُلّ على قدر مَنْفعه الخطّ ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وقال الله عز وجل . ﴿فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ وقال . ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وقال . ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ وقال : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ .

الترغيب فى اصطناع الكتب

(وبعد أنْ تكلّم عن الخطّ فى الأرض عند التفكّر وما قيل فى ذلك من الأشعار ، وذكر الخطّ ومِقْدار الحاجة اليه ، وتاريخ الشعر قبل الإسلام ، وبيان أنّ فضيلته مقصورة على العرب ، استطرد القول بالترغيب فى اصطناع الكُتُب) فقال .

« إنّ على مَن شكر المعرفة تعاوِى الناس ومَراشِدهم ومَصالِحهم ومَنافعهم ، أنْ يجعل ثِقَل مَؤونتهم فى معرفتهم ، وأنْ يَسوّى إرشادهم وانْ جهلوا فصل ما يُسْدَى اليهم . ولى يُصان العِلْم بمثل بذله ، ولى تُسْتَبْقَى النعمة فيه بمثل نشره . على أنّ قراءة الكتب أبلغُ فى إرشادهم من تلاقيهم ، إذ كان مع التلاقى يشتدّ التصنع ، ويكْثر انتظالُم ، وتُفرط العَصَبيّة ، وتقْوى الحميّة ، وعند المُواجهة والمُقابلة يشتدّ حُبّ الغَلَبة ، وشهوة المباهاة والرياسة مع الاستحياء من الرجوع ، والأنفة من الخُضوع ، وعن جميع ذلك تحدُث الضغائن ويظهر التباين ، فاذا كانت القلوب على هذه الصفه وعلى هذه الهيئة ، امتنعت من التعرف ، وعميت عن موضع الدّلالة ، وليست للكتب علّة تمنع من دَرْك البُغْيَة ، واصابة الحُجّة ، لأن المتوحّد بدرسها والمنفرد

بهَمْهم معايبها ، لا يُباهِى نفســه ، ولا يُعالبُ عقــلهَ ، وقد عدم من له يباهى ، ومن أحله يعالب ، والكتاب قد يفصــل صاحبَه و يتقدّم مؤلّفه ، و يرجح قلمُه على لسانه بأمور :

منها ، أنّ الكتاب يُقْرأ بكلّ مكان ، و يَظْهر ما فيه على كلّ لسانٍ ، و يوحد مع كلّ زمان على تعاوت ما بين الأعصار ، وتَباعُد ما بين الأمصار ، وذلك أمر يستحيل فى واصع الكتاب ، والمازع بالمسألة والجواب ؛ ومُساقلة اللسان وهدايتُــه لا تحوزان مَجْلِسَ صاحبــه ، ومَلَعَ صــوته ، وقد يدهب الحكيم وتبقَى كُتبُه ، و يبقَى العقلُ و يبقَى أثرُه . ولولا ما تَسَمّت لــا الأوائلُ فى كتبها ، وحلّدت من عجيب حِكْمتها ، ودوّنت من أنواع سِــيَرها ، حتّى شاهَدْنا بها ما عاب عنّا ، وفتحنا بها كلّ مُسْتغلَقٍ كان علينا ، لجمعنا الى قليلنا كثيرَهم ، وأدركنا مالم تكن نُدْرِكُه إلّا بهــم ، لقد حسّ حطّنا من الحكمة ، وصعف سببُنا الى المعرفة ، ولو أُلْجِئنا الى قــدر قوّتنا ، ومبلغ خواطرنا ، ومبهى تَجْرِبتنا لِمــا تُدْرِكه حواسُّــنا وتشاهده نفوسُنا ، لقد قَلّت المعرفة ، وقَصُرت الهِمّة ، واستَقَصَت المُنّه ، وعاد الرأى عقيما ، والخاطر فاسدا ، ولَكَلّ الحدُّ ، وتلّد العقلُ . وأكثرُ مِن كتبهم نفعًا ، وأشرفُ منها خَطَرا ، وأحسنُ مَوْقعا ، كُتُب الله تعالى التى فيها الهُدَى والرحمة ، والإخبار عن كل عِبرة ، وتعريفُ كلّ سيّئة وحَسنة . وما زالت كتب الله تعــالى فى الألواح والصحف والمَهارِق[1] والمصاحف ، فقــد قال الله عزّ وجلّ : ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وقال : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ و يقال لأهل التوراة والإنجيل : أهل الكتاب . و يسمّى أن يكون سبيلُنا لمن بعدَنا كسبيل مَن كان قبلَنا فيما . على أنّا قد وجدْنا من العِبْرة أكثرَ مما وجدنا ، فيما يتطر العالم بإظهار ما عِنْده ، وما يمنع الناصرَ للحق من القيام بمــا يَلزمُه ، وقد أمكن القولُ ، وصلُح الدهر ، وهَوَى نجمُ التقيّــة ، وهبت ريحُ العلماء ، وكَسَد العِيّ والجهــل ، وقامت سوق البيان والعِلْم . والإنسان ليس يجد فى كلّ حالٍ إنسانا

(١) المهارق جمع مهراق ، وهو ثوب حرير أبيض يسقى بالصمغ و يصقل ثم يكتب فيه ، فارسىّ معرّب .

يُدَرِّسُه ومُقوِّما يُثَقِّفه، والصبر على إبهام الرِّيِّض شديدٌ، وصرف النفس عن مُغالبة العالِم أشدُّ منه هما .

والمتعلم يجد في كلّ مكان الكتاب عتيدًا، وبما يحتاج اليه قائما . وما أكثر من فرط في التعلّم أيّامَ حُمول ذكره وأيّام حداثة سِنِّه . ولولا جياد الكتب وحَسَنُها، ومُبَيِّنُها ومُخْصِرُها، ثم تحرّكت هِمَم هؤلاء لطلب العلم، وبارعت الى حب الأدب، وأنفت من حال الجهل وأنْ تكون في عِمار الحَشْو لَدَخل على هؤلاء من الضرر والمَضَرّة والجهل وسوء الحال ما عسى ألّا يمكن الإخبار عن مِقداره إلّا بالكلام الكثير .

ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : تَفقّهوا قَبل أنْ تُسَوَّدوا . وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين سَنَة، ولا يعدّ فقيها ولا يجعل قاضيا، وما هو إلّا أن يَنْظر في كتب أبي حنيفه وأشباه أبي حنيفة، ويحفَظ كتب الشروط في مقدار سنه أو سنتين حتّى تمرّ ببابه فَتُظنّ أنّه باب بعض العمال، وبالحَرِيّ ألّا يمرّ عليه من الأيّام إلّا اليسيرُ حتّى يصيرَ حاكما على مصرٍ من الأمصار، أو بَلَدٍ من البُلْدان .

وينبغي لمن كتب كتابا ألّا يكتبه إلّا على أنّ الناس كلَّهم له أعداء، وكلَّهم عالِم بالأمور . وكلَّهم مُتفرِّغ له، ثمّ لا يرضى بذلك حتّى يدَعَ كتابه يعِبّ ويختمر، ولا يثِقُ بالرأي الفطير، فإن لاستداء الكتاب فِتْنةً وعُجْما، فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة، وتراجعت الأخلاط، وعادت النفس وافرةً، أعاد النظر فيه وتوقّف عند فُصوله توقُّف مَن يكون وَزْنُ طمعه في السلامة أنقصَ من وزن حَوْفه من العيب، ويتفهّم معنى قول الشاعر :

إنّ الحديثَ تَغُرُّ القومَ حَلْوتُه ٭ حتّى يكونَ لهم غِثٌّ وإثْمارُ

ويقف عند قولهم في المثل : "كلُّ مُحْرٍ في الحَلاء يُسَرّ"، فيخاف أن يعتريَه ما يعترى من أجرَى فرسَه وحْدَه، أو حلا نقلمه عند فقد خصومه وأهل المزية من أهل صناعته . وليَعلم أنّ صاحبَ القلم يعْتريه ما يعترى المُؤدِّب عند ضربه وعِقابه؛ فما أكثرَ من يعزم على

عشرة أسواط فيَضْرِبُ مائة، لأنه ابتـدأ الضرب وهو ساكن الطباع فأراه السـكونُ أنّ الصواب فى الإقلال ، فلمّا ضرب تحرّك دمُه فأشاع فيـه الحرارةَ و زاد فى غضبه ، فأراه الغضب أنّ الرأى فى الإكثار، وكذلك صاحب القلم، فمـا أكثرَ مَن يبتدئ الكتاب وهو يُريد مِقْـدار سَطرين فيكتب عشره . والحفظ مع الإقلال أمكنُ ، وهو مع الإكثار أبعـــد .

وٱعلم أنّ العاقل إنْ لم يكن بالمشبع فكثيرًا ما يُعَرّ من ولده ويَحْسُن فى عينه مـــه القبيح فى عين غيره ، فليعلم أنّ لفظه أقرب اليه نسبا من ابنه ، وحَرَكَته أمسُّ به رَحِما من ولده، لأنّ حركته شيءٌ أحدثه من نفسه وبداته، ومن عين جوهره فصلت، ومن نفسه كانت، وانّمـا الولد كالحَطَبة يَنْتَحطها، وكالنُّخامة يقذفها ، ولا سواءٌ إخراجك من نفسك شيئا لم يكن مـــك ، واظهارُك حركةً لم تكن حتى كانت منك ، ولذلك نجـد فِتْنَة الرجل بشِعره وفِتْنَته بكلامه وكتبه، فوق فِتْنته بجميع نِعْمَتِه .

وليس الكتاب الى شىء أحْوَجَ مـــه الى إفهام معانيه حتّى لا يحتاجَ السامع بمـا فيه الى الروية فيه . ويحتاجُ من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السَّفِلة والحَشْو، ويَحُطّه عن غريب الأعراب ، وَوَحْشِىّ الكلام . وليس له أن يُهـذِّبه جدّا ويُقّحه ويصفّيه ويُرَوّقه حتّى لا يطقَ إلّا باللبّ و بالسِّرّ، و باللفظ الذى قد حذف فُضُوله وتعرّفَ زوائده، حتّى عاد خالصا لا شَوْب فيه، فإنه إن فعل ذلك لم يُفْهِم عنه إلّا بأن يَجْتَذب لهم إفهاما وتكْرارا، لأنّ الناس كلّهم قد تعودوا المبسوط من الكلام ، وصارتْ أفهامُهم لا تزيد على عاداتهم إلّا بأنْ تُعْطَس عليها وتُوْجَدَ بهـا ، ألَا تَرَى أن كتاب المَنْطق الذى قد وُسِم بهذا الاسم لو قرأتَه على جميع حطباء الأمصار و بلغاء الأعْراب لمـا فهموا أكثره ، وفى كتاب إقليدس، كلام يدور وهو عربى وقد صُفّىَ، ولو سمعه بعض الخطباء لمَـا فهمه، إلا بأن يُفَهِّمَه مَن يريد تعليمه ، لأنه يحتاج الى أن يكون قد عَرَف جِهَة الأمر، وتعوّد اللفـظ المَنْطِق الذى استُخْرج من جميع الكلام .

وقد قال معاوية بن أبى سُفيان رضى الله تعالى عنهما لصُحَارٍ العَبْدى : ما الإيجاز ؟ قال أنْ تجيب فلا تُبْطِئ ، وتقولَ فلا تُخْطِئ ، قال معاوية : أوكذاك تقول . قال صُحَارٌ أقلنى يا أمير المؤمنين ، لا تُخْطِئ ولا تُبْطِئ . فلو أنّ سائلا سألك عن الإيجاز فقلتَ : لا تُخْطِئ ولا تُبْطِئ وبحضرتك خالد ابنُ صفوان لمَا عَرَف بالبديهة وعد أوّل وَهْلة أنّ قولك لا تُخْطِئ مُضمّن بالقول ، وقولَك لا تُبْطِئُ مضمّن بالجواب . وهذا حديث — كما ترى — قد ارتصوْه ورووْه ، ولو أنّ قائلا قال لبعضا : ما الإيجاز ؟ لظننتُ أنه كان سيقول الاحتصار والإيجاز ، ليس يعنى به قِلّة عدد الحروف واللفظ . وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يَسَعُ بطن طُومار[1] فقد أوجز ، وكذلك الإطالة . وإنما ينبغى أن يحذف بقدر مالا يكون سببا لإغلاقه ولا يُرَدّد وهو يُكْتَفَى فى الإفهام بشطره ، فما فَضَل عن المِقدار فهو الحَطَل .

وقلت لأبى الحسن الأَخْفَش : أنت أعلم الناس بالنحو ، فلِمَ لا تحمل كتبَك مَفْهومةً كلّها ؟ وما بالنا نفهم بعضَها ولا نفهم أكثرَها ، وما بالك تُقَدّم بعض العويص وتُؤخّر بعض المفهوم ؟ قال : أنا رجل لم أصع كتبى هذه لله ، وليست هى من كتب الدِّين ، ولو وضعتُها هذا الوضع الذى تدعونى اليه قَلّت حاجاتُهم إلىّ فيه ، وانّما عايتى المَنالة ، فإذاً أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعُوهُم حلاوةُ ما فهموا الى التماس فهم ما لم يَفْهموا ، وأنا قد كَسَبتُ فى هذا التدبير ادكستُ الى التكسُّب ذَهبتُ ، ولكن ما بالُ ابراهيم النظّام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم ، ثمّ يأحذُها مثلى فى موافقته وحسن نظره وشِدّة عِنايته ، فلا يفهم أكثرَها ؟

وأقول لو أنّ يوسف السَّمْتِىّ كتب هذه الشروطَ أيّام حَلَس سَلْمان بن ربيعةَ شهرَيْن للقضاء فلم يتقدّم اليه رجُلان والقلوبُ سليمةٌ والحقوق على أهلها مُوَفّره ، لكان ذلك خَطَلا ولَغْوا ، ولو كتب فى دهرنا شروطُ دهر سَلْمان لكان ذلك عَرارَة ونَقْصا ،

(١) الطومار : الصحيفة .

وجَهْلا بالسياسة وما يَصْلُح لكلّ دهر، ووجدنا الناس اذا خَطَبُوا فى صُلْح بين العشائر أطالوا ، واذا أَنْشَدوا الشعر بين السِّماطَيْن فى مدح الملوك أطالوا، فللإطالة مَوْضِعٌ وليس ذلك بمَحَلّ، وللإقلال موضعٌ وليس ذلك مِن عجز .

ولو لا أنى أتّكل على أنّك لا تَمَلّ باب الفول فى البعير حتّى نخرُج الى الفيل، وفى الذرّه حتّى تخرُج الى البَعُوضة ، وفى العقرب حتّى تخرُج الى الحيّة ، وفى الرجُل حتّى تخرُج الى المرأة، وفى الدِّئْب والنَّحْل حتّى تخرُج الى العِرْبان والعِقْبان ، وفى الكَلْب حتى تخرُج الى الديك، وفى الذئب حتّى تخرُج الى الضَّبُع ، وفى الظِّلْف حتّى تخرُج الى الحافر، وفى الحافر حتّى تخرُج الى الخُفّ ، وفى الخُفّ حتّى تخرُج الى البُرْثُن ، وفى البُرْثُن حتّى تخرُج الى المِخْلب، وكذلك القول فى الطير وعامّة الأصناف ، لرأيتَ أنّ ذلك يُوجب المَلال، ويُعْقِب الفَتْرة المانعة من اللوع فى الفهم، وتَعَرُّف ما يُحْتاج منه الى التعَرُّف، فرأيت أن جُملة الكتاب وإنْ كثُر عدد ورقه، أنّ ذلك ليس ممّا تَمَلّ من كثره قراءته أبدا وتَعتدّ علىّ فيه بالإطالة ، لأنّه وإنْ كان كتابا واحدا فانّه كُتُب كثيره، وكلّ مصحف منها أمّ على حِدَة . فانْ أراد قراءة الجميع لم يطُل عليه الباب الأوّلُ حتّى يهجُم على الثانى ، ولا الثانى حتّى يهجُم على الثالث ، فهو أبدا مُستفيد ومُسْتَطْرِف ، وبعضه يكونُ حَماما لبعض ، ولا يزال نشاطُه رائدا ، ومتى خرَج من آى القرآن صار الى أثَر، ومتى خرَج من أثَر صار الى خبر، ثم يخرُج من الخبر الى شعر، ومِن الشعر الى نوادِر، ومن النوادِر الى حِكَم عقليّة ومقاييس سِداد ، ثمّ لا يترك هذا الباب فلعله أن يكون أثقل، والملالُ اليه أسرعَ، حتّى يُفْضِى به الى مَزْح وفُكاهة والى سُخْف وخُرافه . ولست أراه سخفًا إذ كنت إنّما استعملت سِيرَة الحكماء ومأدُبَة العلماء ، ورأينا الله تبارك وتعالى اذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مُخرج الإشاره والوَحْى والحَذْف ، واذا خاطب بنى إسرائيل أو حَكَى عنهم جعله مبسوطا وزاد فى الكلم . فاصوب العمل اتّباع آثار العلماء والاحتذاءُ

على مثال القدماء ، والأحدُ بما عليه الجماعة . وقال ابن يَسير فى صفة الكُتُب فى كلمة له :

أَقلْتُ أهرُب لا آلُو مُساعَدَةً ٭ فى الأرض منهم فلم يُحْصِنِّى الهَرَبُ
بِقَصْر أُوس فما والَتْ حَوادِثُهُ ٭ الى النّواوِيس فالماحُورُ فالحَرِبُ
فأيُّما مَوْئِلٍ منها اعتصمتُ به ٭ مِنْ ورائى حَثِيثًا منهُمُ الطَّلَبُ
لمّا رأيتُ بأنّى غيرُ مُعْجِزِهِمْ ٭ فَوْتًا ولا هَرَبًا قَرّبت أحْتَجِبُ
وصِرْتُ فى البيت مَسْرورًا به جَذِلًا ٭ حارًا لِبَوْءه لا شَكْوَى ولا شَغَبُ
فَرْدًا تُحَدِّثنى المَوْتَى وتَنْطِق لى ٭ عن علم ما غاب عنّى منهُمُ الكُتُبُ
هم مُؤْنِسُونَ وأُلّافٌ عَبِثْتُ بِهِمْ ٭ فليس لى فى أبيس غيرهم أَرَبُ
لله من خُلَساءٍ لا خَلِيسُهُمُو ٭ ولا عَسِيرُهُمُو للسُّوءِ مُرْتَقِبُ
لا بادِراتِ الأَذَى يَخْشَى رفيقُهُمُ ٭ ولا يُلاقِيهِ منهُمْ مَنْطِقٌ دَرِبُ
أبْقَوْا لنا حِكَمًا تَبْقَى مَنافِعُها ٭ أَحْرَى اللّيالِى على الأيّام وانْشَعَبوا
فأيُّما أدَبٍ منهُمْ مَدَدْتُ يَدى ٭ يَوْمًا إليه وَدانٍ مِنْ يدى كثُبُ
إنْ شِئْتُ من مُحْكَمِ الآثارِ يَرْقُمُها ٭ الى السَّبِىّ بِقاتٍ مَرّةً تُحُبُ
أو شِئْتُ من عَرَبٍ عِلْمًا ناوَلها ٭ فى الجاهليّة أنْتَمِى به العَرَبُ
أو شِئْتُ من سِيَرِ الأَمْلاكِ مِنْ عَجَمٍ ٭ تُنْبِى وتُخْبِرُ كَيْفَ الرَّأْىُ والأَدَبُ
حتّى كأنّىَ قد شاهَدْتُ عَصْرَهُمُو ٭ وقد مَضَتْ دونَهُ من دَهْرِهم حِقَبُ
يا قائلًا قَصُرَتْ فى العِلْمِ هِمّتُهُ ٭ أَمْسَى الى الجَهْلِ فيما قال يَنْتَسِبُ
إنّ الأوائِلَ قد ماتوا بعِلْمِهِمُ ٭ خَلافَ قَوْلِكَ قد ماتوا وقد ذهبوا
ما مات مِمّا امْرُؤٌ أبقَى لنا أدَبًا ٭ يكونُ منه اذا ما ماتَ يُكْتَسَبُ

وقال أبو وجْزَة وهو يَصف صحيفة كُتِبَ له فيها بستِّين وَسْقا :

راحتْ بستِّينَ وَسْـقا فى حَقيبَتِها * ماحُمِّلتْ حِمْلَها الأدنى ولا السَّدَدَا

ولا رأيتُ قَلوصًـا قَبْلَها حَمَلَتْ * سِـتين وَسْـقًا ولا جابَتْ بها بَلَدَا

وقال الراجز :

تَعَلَّمَنْ أنّ الدواةَ والقَلَمْ * تَبْقَى ويُفْنِى حادِثُ الدَّهْرِ العَنَمْ

يقول كتابُك الذى تَكْتُبُه على يبقَى فتأخُذُنى به وتذهب عَنِّى فيما يذْهَب . ومما يَدُلّ على نفع الكتاب أنّه لولا الكتاب لم يَجُزْ أنْ يعلَم أهل الرَّقّة والمَوْصِل وبَغْدَادَ وواسطَ ما كان بالبصرة وحدث بالكوفة فى بياض يوم، فتكون الحادثة بالكوفه عُدْوَةً فيعلمُها أهل البصرة قبل المَساء .

وذلك مشهور فى الحَمَـام الهُدِّى : اذا حُمِلت رُدُا قال الله جلّ وعزّ ، وذكر سُلَيمانَ ومُلْكَه الذى لم يُؤْتِ أحدًا مثلَه ، فقال : ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَا أَرَى الْهُـدْهُدَ﴾ إلى قوله : ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ . فلم يلبَث أن قال الهُدْهد : ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ . قال سليمان : ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِى هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ وقد كان عنده من يُبَلِّغ الرسالة على تمامها من عِفْرِت ومن بعض مَن عنـده عِلْم من الكتاب فرأى أنّ الكتاب أسْهَى وأنبَلُ وأكرم وأنعم من الرسالة عن ظهر لسان وإنْ أحاط بجميع ما فى الكتاب . وقالت ملِكة سبأ : ﴿يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ فهذا ممّا يدُل على قدر اختيار الكُتُب وقد يريد بعض الجِلّة الكبار و بعضُ الأدباء والحكماء أن يدعو بعضَ مَن يجرى مجراه فى سلطان أو أدب الى مأْدُبة أو نِدام أو خروج الى مُتَنَزَّه أو نحو ما يُشبه ذلك، فلو شاء أن يُبَلِّغه الرسول إرادته ومعناه لأصاب مَن يحسن الأداء ويَصْدُق فى الإبلاغ فيرَى أنّ الكتاب فى ذلك أسرَى وأنبه وأبلغ ولو شاء النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ألّا يكتب الكُتُب الى كِسرَى وقَيْصر والنجاشىّ

والمُقَوْقس و إلى سى الجَلَنْدىَ و إلى العَاهِلَة من حِمْيَر و إلى هَوْذَه بن على و إلى الملوك العظماء والساده النُّحباء لعمل ولوحَد المُبَلِّغ المعصومَ من الخطإ والتبديل، ولكنّه عليه السلام علم أنّ الكتاب أشبه بتلك الحال، وأليق بتلك المراتب، وأنْلَع فى تعظيم ما حواه الكتاب، ولو شاء الله أن يجعل البشارات على الالسنة بالمرسلين ولم يودعْها الكتب لعمل ولكنّه تعالى وعزّ علم أنّ ذلك أتمّ وأكمل، وأجمع وأنبل، وقد يكتُب بعض من له مرتبة فى سلطان أو دِيانة الى بعض مَن يشاكله أو يَجْرى مجراه فلا يرضَى بالكتاب حتّى يَحْزمه ويَختمه، وربّما لم يرضَ بذلك حتّى يُعَونه ويُعظّمه .

قال الله جل وعز : ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ فذكر صُحُف موسى الموجوده وصُحُف إبراهيم النافذة المعدومة ليُعرِّف الناس مِقدار النفع والمصلحة فى الكتب . قالوا وكانت فلاسفة اليونانيّة تُوَرِّث البناتِ العينَ وتورّث البنين الدَّيْن ، وكانت تصل العجز بالكفاية والمَؤُونة بالكُلفه وكانت تقول : لا تورّثوا الأبن من المال إلّا مايكون عَوْنا له على طلب المال، وأعدوه بحلاوه العِلْم وأطبعوه على تعظيم الحِكْمة ليصير جمعُ العِلْم أغلبَ عليه من جمع المال، وليَرَى أنّه العُدّه والعَتادُ، وأنّه أكرم مُسْتفاد، وكانوا يقولون : لا تُوَرِّثوا الأب من المال إلّا ما يَسُد الخَلّة، ويكون له عونا على دَرَك الفضول إنْ كان لا بدّ من الفضول، فإنّه إنْ كان فاسدا زادت تلك الفضولُ فى فساده، وإنْ كان صالحا كان فيما أورثتموه من العِلْم، وقيّضتم له من الكفاية ما يَكْسِبه الحال، فإنّ الحال أفضل من المال، ولأنّ المال لم يزل تابعا للحال، وقد لا يَتْبَع الحالُ المال ، وصاحب الفضول مُعَرّض فسادٍ وعلى شَفا إضاعة مع تمام الحُنْكة واجتماع القوّة ، فما ظنُّكم بها مع عَرارَة الحداثة وسوء الاعتبار وقلّة التجربة ! وكانوا يقولون : خير ميراث ما كسبك الأركان الأربعة، وأحاط بأصول المَنْفعة وعجّل لك حلاوة المحنّة، وبقّى لك الأُحدوثة الحسَنة ، وأعطاك عاجل الخير وآجله، وظاهرَه وباطنه؛ وليس يجمع ذلك إلّا كرام الكتب النفيسة المُشْتملة على ينابيع العِلْم ، والجامعة لكنوز الأدب ومعرفة الصناعات وفوائد الإرْفاق ؛

وحجج الدِّين الدى بصحّته وعمـد وصوح برهانه تسكن النفوس وتثلج الصـدور ، ويعود القلب معمـورا ، والعزّ راسخا ، والأصـل فسيحا ، وهذه الكتب هى التى تَزيد فى العقل وتشحَذه ، وتُداويه وتُصلحه ، وتهذّبه وتنفى الحَنَث عنـه ، وتُميدك العلم وتُصادق بينـك وبين المحَجّة ، وتُعوّدك الأخذ بالثقة وتَحلُب الحال وتكسب المـال . وورائة الكتب الشريفه والأبواب الرفيعة مَنْبَهَة للوَرَث وكَبْر عند الوارث ، إلّا أنّه كبر لا يَعب فيه الزكاه ولا حقّ السلطان ، وإذا كانت الكبور حامدة نَقْصها ما أُحد منهـا كان ذلك الكبر مائعا يزيده ما أحد منـه ، ولا يزال بها المُوَرِّث مذكورا فى الحكماء ومُسَوّها باسمه فى الأشمـاء ، وإماما مَتْبوعا ، وعَلَما مَنْصوبا ، ولا يزال الوارث محفوظا ، ومن أحله محبوبا مسموعا ، ولا تزال تلك المَحَمّة نامية ما كانت تلك الفوائد قائمه ولن تزال فوائدها موجوده ما كانت الدار دار حاجه ، ولن يزال من يعظيمها فى القلوب أثرٌ ما كان من فوائدها على الناس أثر .

وقالوا . متى وَرِثتَه كتابا وأودعتَه علْما فقد ورِثتَه ما يُغِلّ ولا يَستَعِل ، وقد ورِثتَه الضيْعه التى لاتحتاج الى إثاره ، ولا الى سقى ، ولا الى إسحال بايعار ، ولا الى شرط ولا تحتاج الى أكار ولا الى أن يثار ، وليس عليهـا عُشْر ولا للسلطان عليها خَرْج ، وسواء أفدته علْمـا أو ورِثتَه آلة علم ، وسواء دَفَعْتَ اليه الكفاية أو ما يَجلب الكفاية ، وانّمـا تحرى الأمور وتتصرّف الأفعال على قدر الإمكان ، فمن لم يقدِر إلا على دفع السدّ لم يَجب عليه إحصار المُسبّب ، فكتب الآباء تحيب للأحياء ، وتحْيا لذكر المَوْتى .

وقالوا ومتى كان الأب حامعا بارعا وكانت مواريثه كتبا بارعة ، وآدابا جامعه ، كان الولد أحدر أن يَرَى التعلُّم حظّا وأحدَرَ أن يُسرع التعلم إليه ويرى تركه حطّا ، وأحدَرَ أن يجرى من الأدب على طريق قد أُنْهج له ، ومِنْهاج قد وُطِئ له ، وأجدَرَ أن يَسْرى اليه عِرْق مَن تحَله وسَقْ من عرسه ، وأحدَرَ أن يحمل بدل الطلب للكتب النظرَ فى الكتب ، فلا يأتى عليـه من الأيام مِقْدار الشغل بجمع الكتب ، والاختلاف فى سماع العـلم ، إلا وقد بلغ بالكفاية غايةَ الحاجة وإنّمـا تُفيد الكفايه مَن تمت آدابه ، وتوافت اليه أسـبابه ، فأمّا

الحَدَث الغرير، والمَنْقوص الفقير. خير موارثه الكِفاية الى أنْ يبلَغ التمام، ويكمل للطّلب. خير ميراث وُرِّث كتبٌ وعلم، وخير المُوَرِّثين من أَوْرث ما يجمع ولا يُفَرِّق، ويُبَصِّر ولا يُعْمِي، ويُعْطِي ولا يأخذ، ويجود بالكلّ دون البعض، ويدَع لك الكنز الذى ليس للسلطان فيه حقّ، والرِّكازَ الذى ليس للفقراء فيه نصيب، والنِّعْمة التى ليس للحاسد فيها حيلة، ولا للصوص فيها رعبة، وليس لخَصْم عليك فيه حجّة، ولا على الجار فيه مَؤُونه.

وأمّا ديقراط فإنّه قال: ينبغى أن يَعرِف أنّه لا بدّ من أنْ يكون لكلّ كتاب علم وصنعه أحدٌ من الحكماء ثمانيةُ أوجه، منها الهِمّة والمَنْفعة، والنِّسبة والصحّة، والصَّنْف والتأليف، والإسناد والتدبير، فأوّلها أن تكون لصاحبه هِمّة، وأن يكون فيما وضع مَنفعةٌ، وأن يكون له نِسبة يُنسب اليها، وأن يكون صحيحا، وأن يكون على صِنْف من أصناف الكتب معروفا به، وأن يكون مُؤتلفا من أجزاء خَمْسة، وأن تكون مُسندا الى وجه من وجوه الحِكْمة، وأن يكون له تدبير موصوف. قد ذكر أن أَبْقراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه فى هذا الكتاب وهو كتابه الذى يُسمّى «أُفور يسْموا» تفسيره. كتاب الفصول. وقولك وما بلغ من قدر الكلب مع لؤم أصله، وخُبْث طبعه، وسُقوط قدره، ومَهانة نفسه، ومع قِلّة حيره وكثرة شرّه، واحتياج الأمم كلّها على استسقاطه واستسفاله، ومع صرهم المَثَل فى ذلك كلّه به، ومع حاله التى يُعْرَف بها من العَجْز عن صَوْلة السباع، وافتقدارها، ومن تمنُّعها وتشرُّفها وتوحُّشها، وقِلّة إسماحها، وعن مسالمة البهائم ومُوادعتها، والتمكن من إقامة مصلحتها، والانتفاع بها، إذ لم يكن فى طبعها دفع السباع عن أنفسها، ولا الاحتيال لمعاشها، ولا المعرفة بالمواضع الحريزة من المواضع المَخُوفة. ولأنّ الكلب ليس بسَبُعٍ تامّ ولا بهيمة تامّة حتى كأنه من الخَلْق المُرَكّب، والطبائع المُلَفّقة، والأخلاط المُختلفة، كالعمل المتلوّن فى أخلاقه الكثير العيوب المتولدة عن مِزاجه، وشرّ الطبائع ما تحاذته الأعراق المتصادّة والأخلاق المتفاوتة؛ والعناصر المتباعدة، كالراعىّ من الحمَام الذى دهست عنه هداية الحمَام، وشكل هديره وسرعة طيرانه، وبطّل عنه عُمْر الوَرَشان، وقوّة جُناحه، وشِدّه عصبه، وحسن

صوته، ونحجا حلقه، وشكل لحونه وشدة إطرابه، واحتمالُه لوقع البادى، وحرج المحالب. وفى الراعى أنه مُسَرْول مُثقل، وحدث له عِظَم بدن وثِقَل وزن لم يكن لأبيـه ولا لأمه.

وكذلك البغل خرج من بين حيوانَيْن يَلِدان حيوانا مثلهما ويعيش نتاجُهما ويبقَى بقاءَهما، وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم، ولا يبقَى للعلة ولد وليست بعاقر، فلو كان البغل عقيما والعلة عاقرا لكان ذلك أزيدَ فى قوتهما وأتمّ لشدّتهما، فمع البغل من الشَّق والعُطْ ما ليس مع أبيه، ومع العلة من الشوَس وطلب السِّفاد ما ليس مع أمها، وذلك كله قدح فى القوة ونقص فى البِنْية، وخرج عُمَرُ وله أعظمَ من عراميل أعمامه وأحواله، فترك شبههما ونزع الى شىء ليس له فى الأرض أصـل، وخرج أطولَ عُمَرا من أبويه وأصبرَ على الأثقال من أبويه، أو كابن المذكّرة من النساء، والمؤنّث من الرجال، فإنه يكون أحث نتاجا من البغل وأسدَّ أعراقا من السِّمْع[1]، وأكثر عيونا من العِسْار[2]، ومن كلّ خَلْق خُلِق اذا تركب من ضد، ومن كلّ شجرة مُطْعمة بحلاف، وليس يَعترى مثل ذلك الخِلاسِىّ[3] من الدَّجاج، ولا الوَرْدانىّ[4] من الحَمام، وكلّ ضَعْف دخل على الخِلْقه، وكلّ رِقة عرَضت للحيوان، فعلى قدر جسمه وعلى وزن مِقداره وتمكّنه يظهر العَجْز والعيب. وزعم الأصمعىّ أنه لم يسبِق الحَلْبة فرس أهصَم قطّ. وقال محمد بن سلّام لم يسبق الحَلْبة أبلقُ قطّ ولا لَقاء.

والهداية فى الحَمَـام والقوة على بعد الغاية إنّمـا هى للضَّمَّة من الحُضْر. وزعمـوا أنّ الشّيات كلّها ضعف ونقص، والشِّيَة كلّ لون دخل على لون. وقال الله جلّ وعزّ: ﴿قَالَ إِنَّه يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾. وزعم عثمان ابن الحكم أنّ أبى المذكّره من المؤنّث يأخذ أسوأ خِصال أبيـه وأردأ خِصال أمّه فتجتمع

(١) السمع بكسر السين وإسكان الميم وبالعين المهملة. ولد الذئب من الضبع وهو سبع مركب فيه شدة الضبع وقوتها وحرامة الذئب وخبثه (راجع حياة الحيوان للدميرى ج ٢ ص ٣٢). (٢) العسار بكسر العين وبالسين الساكنة والألف عسارة. ولد الضبع من الذئب وجمعه عسار (راجع حياة الحيوان للدميرى ج ٢ ص ١٣٩).
(٣) الخلاسى: الولد بين أبيض وأسود، والديك بين دجاجتين هندية وفارسية. (٤) الوردانى بالراء المهملة طائر متولد بين الورشان والحمام وله عرافة لون وطراقة قد.

فيه عِطام الدواهى وأعيان المساوى، وأنّه اذا خرج كذلك لم يُنجِع فيه أدب ولا يَطمَع فى علاجه طبيب، وأنّه رأى فى دور ثقيف فتًى اجتمعت فيه هذه الخصال، فما كان فى الأرض يوم إلّا وهم يحدّثون عنه شىء يَصغُر فى جنْبه أكبرُ ذنب كان يسب اليه .

وزعمت أنّ الكلب فى ذلك كالخُنثَى الذى هو لا ذكر ولا أنثى، أو كالخَصِىّ الذى لمّا قُطِع منه ما صار به الذكر خلْقا خرج من حدّ كمال الذكر بفقْدان الذكر، ولم يكمُل لأن يصير أنثى للغَريزة الأصليّة و بقيّة الجَوْهريّة، وزعمتَ أنّه يصير كالبيد الذى يُفْسده إفراط الحرّ، فيُحرِجه من حدّ الخيل، ولا يُدخِله فى حدّ البيد . وقال مِرْداس بن حِدام :

سَقَيْنا عقالًا بالثَّوِيّة شِرْبةً * فمالتْ بُلَّ الكاهِلِىّ عِقالِ
فقلتُ اصْطَبِحْها يا عِقالُ فإنّما * هى الخمرُ حَيْثُما لها بحَيالِ
رَمَيْتُ بأمّ الخَلّ حبّةَ قلبِه * فلم يَنتعِش منها ثلاثَ ليالِ

فجعل الخمر أمّ الخلّ قد يتولّد عنها، وقد يتولّد عن الخلّ اذا كان حمرًا مرّةً الخمرُ .

وقال سَعيد بن وَهْب

هلّا وأتَ بماء وجهك تُشتَهَى * رُودُ الشباب قليلُ شَعْر العارِض
فالآن حين بدَتْ بجدّك لِحيةٌ * دهَسَت بمِلْحك ملءَ كفّ القابِض
مثلَ السُّلافة عاد خمْر عصيرها * بعدَ اللّذاذة حَلّ حمْر حامِض

ويصير أيضا كالشَّعر الوسَط والعباء الوسط، والبادره العائرة التى لم تخرج من الحرّ الى البَرْد فتُصحكَ السنّ ولم تخرج من البَرْد الى الحرّ فتُضحِك السنّ .

باب الرسائل

١ — الفصول المنتخبة من الرسائل المختارة فى كل فن[١]

كتب رجل الى صديق له .

إن آباءك شادوا أكارمَهم بالفضائل التى كانت فيهم ، وإنك قد كنت أحدث فى مَدْرَحَهم فأوميتَ على عاياتهم ، ثم آختلحك الهوى ببعض حَدِيلتك[٢] وحودك ، من لباس فضلك الذى كنتَ تطُول به على أكفائك ، وتملك به أعنّة كافّة حسدك ، وألقيت مالك بلى شرّ عواقبه عليك لا لك إن رات مكاره بوادره عنك .

فصـــل — قيل . إن مروءة الرجل فى نفسه نَسَبٌ لقوم آخرين ، فإنه اذا فعل الخير عُرِف له ، وبَقِى فى الأعقاب والأصحاب ، ولَقِيَه يوم الحساب .

فصـــل — إن حقّ الله على المسلمين أن يبطروا فى دينهم بالصيحة لأئمتهم ، فإن الأئمة اذا صلَحوا ذُلّل الهوى بالتقوى فى قلوبهم ، وماتت سَوْرة الغضب فيهم لأحلامهم ، وسكنت العامّة الى عدلهم ودنّت لإنصافهم . واذا كان للمحسن من الحق ما يُقنعه ، وللظالم من النكير ما يَقْمَعه ، بذَل المحسنُ الحقّ عليه رغبةً ، وذَلّ المسيء بالحق عليه رهبةً . فأوّل ما آمرك به رَجاء الله وتقـواه . فأما رجاؤه فأن تُحْسِن به فى الطّمع اذا آطلعتَـه ، ويكون لك وِقاية اذا آثرته مطمئنا . وأما تقـواه فأن تكون له فيما أَمَرك به ونَهاك عنـه مُراقبا ، فإن تَقيّة المؤمن تزيد فى آنشراح صدره ، وإن شـدّة خوفه تَرُدّ هواه على عقـــله .

---

(١) نقلا عن اختيار المطوم والمنثور لابن طيفور .

(٢) الحديلة : الناصية والحالة والطريقة .

فصـــل — تنبّه اذا نُبّهت، وآذكر اذا ذُكّرت، وآنتفع فقد وُعظْت، وآسمع فقد نُودِيت، نبّهك الوعيـدُ، وحذّرك الزاجر، وأمّرك ونهـاك الكتّاب، ونَعَتْك آثارُ الموت، ودعاك الى الجنة مَلِيء جواد، فالجِدّ الجِدّ، فقبل المهجره يُريح المُدْلِج .

فصـــل — ما نظرتُ فى معروق عـد أحَدٍ، فوجدتُه قصُر عن أمله وكان يمكننى أن يكون أكثر منه، إلا عددتُه سيئةً لى عنده، لأنى دوّقتُه ما أحَبّ، ثم معنتُـه إياه، وكأنى قصدتُ لإشخاص قلبه . ولا نظرت فى معروق عد أحد فوجدته قد تناهى عد تناهى أمله وكان يمكنى أن يكون أكثر منه، إلا رأيتُنى فى ذلك واترًا لنفسى، لأنه كفى عَيبا لهـا وإزراء بها، أن أقنع[1] . فصل نخذه بمثل ما أقنع رجلا من فصل يخذه عليـــه .

فصـــل — ما أتَتْ مَن يعلَم مِنْ جَهْل به، ولا تُحَسّ منه نادره زَلّة، ولا يقابل بين أمرين إلا عَرَف خيرَهما فآثره، وشرَّهما فاجتنبه . وقد رأيتَ ما ساقت اليـك الطاعةُ من حظّ العاجلة، فلا تتعرّض لزوال ما أنت فيه، فتحسر الحظّين، وتندم فى الدّارين، فقـد رأيت من عانَد الحقّ كيف صَرعه الله وبسـط يدَ وَلِيّـه على سـفك دمه، وإحلال النّقمة به، فصار بعد أن كان فى الأُمنيّة مثلا، ولجميع الخلق عاية وأملا، فكرّة فى الاعتبار، وعِطـةً للأبصار . فلا يُعـد الله إلا من ظَلَمَ وحَتَرَ، وذهب عن الحقّ وأدبَرَ . وأنت اليوم مُحَكّم فى أمرك، محـيّر فى رأيك، تُدْعى الى حظّك بالحظ الجزيل بتدلّل . فاهْتبِل ما قـد هَدَف لك وهو مُمْكن ليـدك، فإنك إن أهملت وتراخيت، لم يكن بالحقّ ووليّـه وحشة اليك، ومصتْ أحكام الله فى نصرها وتأبيدها على أذْلالها[2]، وصَفرت يدُك بمـا لا يُشرف لك بمثله، وأخطرتَ بدمك وأسـلْتَه أخبث مَسـيل وأصَلّ سبيل، حيث لا تنكى عليك السماءُ والأرض .

---

(١) بياض فى الأصل . ولعله . أن أقنع نفسى بفصل أنخذه بمثل ما أقنع رجلا الخ .

(٢) على أذلالها : على وجوهها وطرقها .

فصـــل — الناس رجلان : عالمٌ لا غِنَى به عن الازدياد، وجاهلٌ به أعظم الحاجة الى التعلم ، وليس فى كل حال يكون العالم لما يَنْدَهُه من الأمور مُعِدّا ، ولا المتعلِّم على ما يستفيد مه قادِرا وفِيّا .

فصـــل — إن أنت عَطَّلتنا من أمورك ، وأعفَيْت طهورنا من أثقالك ومؤونتك ، وتركتنا أَعْفَالا فى وِلايتك من تنبهك وتحريكك ، فقد أنزلتنا منزلةَ من لا خير عنده، وجعلت نفسك أُسْوةَ من لا مُعين له ، وكفى بذلك طالما .

فصـــل — إن إعلامى إياك . (١) غير محدِّد شيئا ، ولكنه أقرب من الجميل فى معرفة عذر المعتذر، وأحمل للّائمة على المسيء المقصّر .

فصـــل — الذى أعتمدنا عليه من رأيك، وثِق به من جميل نظرك، قد حلَظَنى بأهل صنائعك، والخاصّة من ثِقاتك، وبَسَط أملى فيك الى غاية خير يُرتجى، أو جريل حظّ يُؤمَّـــل .

فصـــل — ليس يَسُوغ لأحد فى الأمير أمَل، ولا يتوجّه اليه منه رغبة، ولا يلزمه فى قضاء حقه، ودِيانةَ (٢) مؤونته إلّا وفصلُه مستغرِق لها .

فصـــل — من أحمَد الأمور وأجمل المذاهب، ما كان آخرُه موصولا بأوله ، ومؤدِّيًا بَدْؤه الى حَمْد عاقبته ، فحافِظ على الأمور التى حَسُن فيها عـــد أمير المؤمنين أثَرُك ، مستقِلًّا فيها لكثير ما يكون منك ، مُعْتَدّا بها فى النعم عندك، والإحسان الواصل اليـــك ، فيما يوفقك الله له منها ويخصّك به من الفصل فى آختيارها ، وأمير المؤمنين يستحفظه الله لك، ويستمتعه فى النعمة فيك .

فصـــل — قد كان يجب أنْ تجعلنا بمتابَعة النّعم علينا فى خاصّـــة الشاكرين لفضلك، ولا تجعلنا بتواتر الإساءات الينا فى عامّة الشاكين لك .

---

(١) بياض فى الأصل . ولعل الكلمة المتروكة «بحاجتى» . والظاهر أن كلمة «محدِّد» محرّفة عن كلمة «مجد» .

(٢) كذا بالأصل .

فصـــل — علمي بما بى الله عليه أحلافَ الأمير أكرمه الله، وجعل عليه رأيه فى بسط العدل على رَعيّته، وسَنّ الفصل على مُلتَمِسى فصلِه، يبعثنى على الكتاب فى مثل ما كتبتُ اليه فيه، من طُلامه مطلوم يستعيذ فيها بعدله، وحاجةِ ملهوف يرجع فيها الى فصله؛ فأجمعُ الى ما ألتمس من الثواب فى ذلك مُوافقةَ رأى الأمير، وإذكارَه ما يحب أن يذكّر به، فزاد الله الأمير من نِعمه، وأوزعه من الشكر عليها ما يُوجب له تتابُعَها عنده، وترادفَها له.

فصـــل — أنت والحمد لله ممن احتمل الصنيعه، وقبل الأدب، وصدَق المَخيلَة وَحلَص على المِحنة وحسّن الظن، فاستقامت طريقتُه وقدّمه جميلُ مذهبه وآثارِه، وجَرَتْ على قصد السبيل طاعتُه، وآشتدّت على السريرة والعلانية مُناصحتُه، فأصبح أمير المؤمنين لا يتناهَى فى برّك وتكرِمتك، إلّا رآك مُستحقّا لها ولِما فوقها، ولا يرفعك الى درجه إلّا رآك أهلا لأشرفَ منها، صُنعا من الله لكَ بما وفّقك له من طاعته، ووهب لك من جميل مَراتبه، والمكانِ منه والأثَرِه عنده.

فصـــل — فصلُ مشاركتنا إيّاك فى محبوب الأمور ومكروهها يجعلنا فى السرور بالنّعمه عندك — مجددها الله لك — وبوجب الشكر بما تكون لحقّها قاضيا، وللمَزيد فيها موجبا.

سَعيد بن حُمَيد — شُغْلك يقطعنا عن مطالبتك بالحقّ فى جوابات كُتُبنا اليك، وصدقُ مودّتنا لك يمنعنا من التقصّى فى الحُجّة عليك، ومن يَكلُك الى رأيك فإنّه لا يبغى بك إلّا لك، صلةَ إخوانك والتعاهد لهم من برّك، بما يُشبه فضلك والنعمةَ عليهم فيك.

وفلان بينى وبينه مَودّة أقدّمه بها على الأُخوّة؛ لأنّك تعلَم قربَ ما بين المودّة والقرابة، وقد نَلْوته على الحالات كلّها، فلم يزدنى آختبارُه إلّا آختيارا له، ولا أعلم بالعسكر جليلا إلا وهو لى صديق، يَشْكُر بشكره ويُوجب على نفسه المِنّة فيما آتى اليه. فأمّا من بين إخوانه فلست أعدِل عن قضاء حقّه، ولا أتأخّر عن معروف أُسْدى اليه، فإن رأيتَ أن

تُحِلّه المحل الذى يستحقه سعسه وسَلَفه، فوالله ما رأتُ سُوق الاحرار أنْفَق منها عندكم أهلَ البيت، أبقى الله تبارك وتعالى باقيكم ورحِم ماضيكم .

فصـــل — إنّ أحدا ليس بمستحلِص شيئا من عَضَاره عيش إلّا من بين حِلال مَكاره، فمن آنتظر معاجل الدَّرك آجِلَ الآستقصاء سَلَبته الأيام فُرْصته، لأن من صِناعتها السَّلْبَ، ومن شَرْط الزمان الإفاتة .

فصـــل — إنّ الأمير قد جَلّ فضلُه عن أن يُحيط به وصف، أو يأتَى على تَعْداده احتهاد، فلو كان شيء أكثر من الشكر لكان الأميرُ يستحقّه عليها، ويَستوجبه منّا .

فصـــل — قد أصبح المختلفون مجتمعين على تقريظه ومدْحه، حتى إنّ العـدوّ يقول آضطرارا ما يقوله الوَلِيّ آختيارا، والعبـد يثق من إنعامه عليها بمـا يثق به القريبُ خاصّـا .

فصـــل — المـائلون اليه من بَعْم مُكْتنِفة من تَالِد به يَستديمونه، وطارف مـنه يَستعيدونه، ومواهبَ متجدِّدة، وفوائد مُتُرادفه، هى مبسوطة به الى بركة أيّامه، وعُلوّ حظّ(١) مَن آتصل به، فزاده اللهُ من فضله، وزاد أولياءَه به وببركة دولتَه .

فصـــل — آعتمدتُ أحًا لايُدَمّ إخاؤه، ولاتُنكر أحواله، على بعد الدار وقُربها، وآتصال المكاتبة وآنقطاعها؛ بحده مُتَصرّفا معك فى الخطوب التى يَطْرُق بها الزمانُ، ويَدًا لك فى الأمور التى يُمْتَحَص فيها الإخوان .

فصـــل — أسأل الله أن يجعـل ما تَطَول به فيه من الحلاله فى القلوب والعيون عند الوَلِيّ والعدو موصولا بالإنساء فى مُدّته، والإدامةِ لعزّه وسلامته، والأعلاء ليده وكلمته .

أحمد بن يوسف — عدى فلان وفلان، فإن كلًّا من شأنك فقد آذْنَاك .

فى صفة حَرْب — كانت لكم الكَرّة، وعليهم الدَّرّة؛ فحملوا حملةً كاذبة، أتبعناها بأخرى صادقةً .

(١) فى الأصل : «حلة» والسياق يقتضى ما أثبتناه .

فصل فى هَدِيّة — قد أهديتُ اليك من فنون كلامى وعيونِ مَقالى، دفترا ظريف المعانى، شريفَ المبانى، صحيحَ الألفاظ، يَلَذُّ أهواه الناطقين، ويَلِيق على أسماع الصّامتين.

فصل فى شَفَاعة — لفلان قِبَلك حاجه، ليس يحتاج فيها الى مَعْدِلَتك وتَصَفّنِك المبسوطتين لمن لا يتوسّل بحُلْطتِك ومعرفتك، ولكنّه يريد ما فى ذلك العدل والإنصاف من الرفق والإحسان المَذْخورين للخاصّة والإخوان.

فصل لرجل تميمىّ — ضَعْفُ حالى يدعونى الى كثرة الطلب، ومَعْرفتى بجميل رأيك تحجُزُنى عن الإلحاح عليك، خوفًا أن أكون جاهلا بعنايتك، وحسن نظرك، والكرم يستحيى بعضُه لبعض، ويبعَثُ بعضُه بعضًا، ودين جملته الغير على العقود، فبعثه كرمه للنهوض، أو دعاه هواه الى المنع، فجاءه عقله على البدل، وحالى جانحة لدَى فضلك وسعة الله عليك من سدّ خَلّتها، ومداواة عِلّتها بجاهك الواسع، ورِفْدك النافع.

أحمد بن يوسف — قد بَذَلتَ لى من نفسك أعزَّ مَبْذول وأنفسَه، والمودّة التى كلما يُجْهد من صاحبها، فهو لها نافع. وثقتُنا بك واستنامتُنا الى ناحيتك، على أحسن ما أكّد الله بيننا وبينك. وإن كان مدى اللقاء نيدا لم يَطُلْ فأثَلْ منه ما ترعاه أهلُ الوفاء والمُخالصة، ويقصِّر فى المحافظه عليه وعلى أكثرَ منه، من دُخِلَتْ نيّته، وصَعُفت خُلّتُه.

فصل — قد أصبحتَ لخاصّه عُدّه، وللعامّة عِصْمة، وللأنام ثقة فى مناصحتك.

فصل فى الصفح لأبى على — إنّ الذى فَرَط منك، وإن تجاوَزَ فى ما أرصاه لك، لم يبلُغْ ما يُغضبنى عليك، وحيث انتهى ما يحالفنى من قولك وفعلك، فإنّ وراءه تغمُّدًا منّى لإساءتك وصَفْحًا عن زَلّتك، فإن تأمَنّا لا تَخُنْك، وإن يسؤْ ظنُّك فإنما نحتاج الى إصلاحه منك.

أحمد بن يوسف — الى ابراهيم بن المهدىّ فى هَدِيّة استقلّها:

بلغنى استقلالُك لما ألطفتُك، والذى نحن عليه من الأنس سهّل علينا قلّةَ الحشد لك فى البر، فأهدينا هَدِيّةَ مَنْ لا يَحْتشم الى مَنْ لا يَغْتنم.

كتب عَقَّال بن شَبَّة — الى خالد بن عبد الله فى شفاعة :

إنّ الله انجبك من جوهره كرم ومَنْبِت شرف، وقَسَم لك خَطَرًا شَهَرتْه العرب وتحدّثت به الحاضرةُ والبادية، وأعاد خَطَرك قُـدرة مبسوطة، ومَنْزلة ملحوظة، بجميع أكفائك من جماهير العرب، يعرف فضلك، و يسرّه ما حازَ الله لك، وليس كلّهم أدالَه الزمان ولا ساعده الحظّ، وأنت أحقّ من عَطَف على أهل البيوتات، وعادَ لهم بما يُبقى له ذِكرَه ويُحسن به نشرَه، مثلُك . وقد وَجَّهتُ اليك فلانا، وهو من دِنيه قراباى، وذوى الهيئة من أسرتى، وعرف معروفك، وأحببتُ أن تُلبسه بعملك وتصرِفَه الىّ وقد أودعتنى وإيّاه ما تحمده باقيًا على النَّشْر، جميلا فى العِتْ .

فصـــل فى التـــوديع

أستودعُ اللهَ الأميرَ بأحسنِ وَدَاعه، وأسأله أن يجعـلَه فى كَنَفه وحِرْزه، فقد أكرم المثوَى، وأحسن الابتعاء، فأطال الله له البقاء، وأدام عليه النَّعماء .

فى الصـــفح

بلغنى كتابك، تذكر كتابى اليـك بوصفى عبك مَوْجدتى، وردّى لك الى أحسن ما عَهِدتَ من معرفتك عِندى، وقد حَلَلتَ منّا المَحَلّ الذى حلطناك فيه بأنفسنا، وأدخلناك مـــه مداخلَ أهل ثِقَتنا، ولستَ تُوتى من جهالة بما أنت فيه، ولبعض ما أنت عليه من التحارب تُستفاد بمثلها العِبَر، ويُنتفع بها فى عطف الأمور .

جواب فى فتح

كتب سالم بن هشام الى يوسف بن عمر حين قَتَل زيد بن علىّ رحمة الله عليه :

قد بلغ أميرَ المؤمنين كتابُك بما أبلَى الله فى مِدْره الســوء، وأنّه لمـا عضّهم الحـرب، وآلمهم الحديد، عادوا بالمسجد الجامع، قد أكذَب الله طعونهم، وخَذَل مَخْرجهم، وقتل إمام ضلالهم، وحفِظ لأمير المؤمنين ما ضيّعوا من حقّه، وحاط له ما أباحوا من الغـدر فيه، وقد رأى أمير المؤمنين أن يجعل من شكر الله على نِعَمه، الصفح عنهم، وتغمّد حَرَمهم

وأن يعمّهم من عدله، بما يردّ به الجاهلَ عن جهله، والغويّ عن غوايته، ويعلمون مكانه من الله، واستجابتَه لعزّه ونَصْره؛ وأنه الخليفة المُتّقى، والإمامُ المُتألف؛ وأنه يُقدّم العفو في الطاعة، على المُحّة في العُقوبة، والحِسْنَة في الاستصلاح، على القوة في التأبيد، فامسك عنهم بيدك، فإنّ أمير المؤمنين قد وهب ذلك كلّه لله، ورجا به ما ليس ضائعا عنده من ثوابه.

في الصفح عن الجفاء

لو كان من نازع الى الغدر، قلّدناه عِنان المحرم، لم يكن أقرب منا الى الدنّ، ونحن نردّ عليك من نفسك، ونأخذ لنفسك منك، حتى يكون تركنا إياك، وغدرُنا فيه وافرا.

فصل — الحمد لله على الليّة التي طال أمدها، وبُعد ما بين طَرَفيها.

آخر — اقتصرتَ في التثبّت أناه ذوي الحِجَى، وقدّمتَ المقدّم من الأناة على العجلة، وأطعتَ في أمرك النظرةَ، وانتهيتَ الى العُذْرة والمعرفة، فملكتَ ما مَلَكك، وحكمت على الذي حكم عليك، فأخذتَ مثل الذي أعطيت.

فصل — بدءُ أسباب الأمور دليل على عواقب الأمل فيها، والخيرة بعد الله عزّ وجلّ.

فصل اعتذار

لو كان الناس يَقصون الحقوق التي تجب عليهم، ويحافظون على الأمور التي تَلزمهم، لقلّت اللائمة، وحلصت المودّة، وارتفعت أسباب العتاب، ولكنّهم محزة مَنْقوصون، يصعُفون عن العلم، أكثرَ ما تدركه عقولهم، وبعوقهم عن ذلك أشغال لا يجب بها العذر، ولا تستحقّ الإيثار، ولم أرل عابا على نفسي فيما ضيّعت من مكاتبتك، مع معرفتي بفضلك، وموقع ذلك عندك، وما اعتداري اليك، سوءُ ظنّ بك، ولا محاماةً للائمتك، ولئن فعلتُ ما ظَلمتُ، غير أني أحببتُ أن أكفيَك المؤونة، فيما عسيْتَ أن تنقص عنه من مقاييسي ومعاتبتي، وأنا أحب أن تقبل العذر، وتعينَ على مستقبل البرّ.

فصـــل — أنت فى زمان إن لم تعالط أهله ، وتحتلهم على ما فى أيديهم ، وتصبرْ على مكاره الأمور بعد المطالبه ، لم تصل الى شىء ، ولم تحد أحدا ما على فضل منك و إن عرّفه فيك ، ولم يفتـه من محاسنك شىء ، إلّا رأى فى مساوئ غيرك عِوَضا منـه ؛ فكان بذلك أثلج ، واليه أسكن ، فعليك بالصبر ، فإن عايتـه الى خير ، وأقل ما فيه أن صاحبه لا يلوم نفسه ، ولا يلومه أحد ، وإمّا يظفر أو يدلّل .

الى المأمون من عامل

قلّ مَن يسارع إلى بذل الحق من نفسه ، إذا كان الحق مُضِرًا به ، وقلّ من يدع الاستعانة بالباطل ، إذا كان فيه صلاح معاشه ، وسببُ مكتسبه ، واذا تعرّق الحقُّ فى أيدى جماعة فطولبتْ به ، تشاهت فى الكُرْه لبذله ، وتعاونتْ على دفعه ومنعه ، بالحيـل و بالشُّنَع قولا وفعـلا ، واحتاج المُبْتلَى باستحراج ذلك الحق من أيديها ، الى استعمال مجاهدتها ومصابرتها على الحيلة فى مدافعتها .

ابن الكلبىّ

كان خبر ما أبلاك الله فى فلان بعـد أمانه ما عزمتَ عليـه من الأمان ، خَبَرًا عظم مكانُه من أمير المؤمنين ، وحسُن موقعُه من الدِّين ، ثم ردّد خبرَك بإدعانه عنـد ما عضّه من بأسك ، ومسّه من مُؤْلم إيقاعك للاستسلام ، وطلب عقـد الأمان ، و إنّك بذلتَ له ما طلب لا لِرهبـة بقيت فى ناحيتك ، إلّا الاحتذاء على مثال أمير المؤمنين وأدبه ؛ فكان إباؤه ما عرضتَ عليـه فى أوّل أمره دحيره حظّ فيما كشفتَ عنه اللوى من محمود أثرك ، واجتمع لك فى ذلك حظان : الظفر آخرا ، والدرْك لمـا حاولتَه أوّلا ، فلا زلت على نصيبك من الحظ ، مؤيّدا بالنصر والمَعُونة ، والحمد لله على ما حقّق من الظن (١) من هذه النعمة على يديك و تسعيك .

(١) بياض فى الأصل . ولعل الكلمة المتروكة «وآتى» .

ابراهيم بن اسماعيل بن داود الى ذى الرياستين

وصل الىّ كتابك بخطّ يدك المباركة، فلم أر قليلا أجمع، ولا إيجازا أكفأ من إطناب، ولا احتصارا أبلَغ فى معرفة وفهم مسه ؛ وما رأيت كتابا على وَجازته، أحاط بما أحاط، وصربتُ طنّى فى فلان فعظّم ذلك سرورى ، وقد يُستعطَف الظالم ، ويُستعتب المُتَجَنِّى ؛ وفى رفقك وعلْمك بالأمور ما يُصْلح الفاسد، ويُذلّل الصعب، ويُقيل المدبرَ، ولا يمعنّك حور من حار عليك، من الاعتقاد فى المحجّة عليه، والأحد بالثقه فى أمره، فإنّ الله عزّ وجلّ لم يجعل عليك فى ذلك مَقْصة ولا عَصاصة، بل فيه الإعذار والإنذارُ والاستبصار، وقضاءُ حاجة النفس، مع التأدية الى السلامة، والأمنِ من الندامة .

فصـــل — أنا فى حال عافية، تتجاوز الى حال بِعْمه، والحمدلله حتّى يرضى، فقد أرضى، فاقا ما أشرتَ به، وحَرّتَ من إمضاء رأيكَ فيه، والإمساك عنه، فمثلك جعل لمن نصحه شَركاء فى كلّ أمره، ولم يجعل رأيَه فَرْصا لمعصه أن يتعدى[1]، وذكرت أدب فلانَة، وعـدنا لفلانة الطمع المستقبَل معَ الإبعام المتقـدّم ، مع أنّه لا شىء لها عندنا قلّ ولا جلّ، ولو كان ما استحلاها حبسه صَفْقةَ كفّ، ولا تغميصَ طرْف؛ وذكرتَ أنّه لا يستغنى بمثلها عن مثلها ، وأبدال الله كثيره عتيدة، وما ناں عليا فقْد أحد ممّن كان قبلها فى دارنا، فحال بيننا وبينه حائل، ولا احتللنا له مع بطر الله تبارك وتعالى وأخلافه؛ وبعد هذا فأحسن الله حراسك ، وحاط لى فيك ما أحبّ منك، وكفاك المُهِمّ وكفانيه منك، فما تقوم نفس لو كانتْ لى أخرى مقامَك فى نصيحتى وبرّى، والاهتمام لى، مما أنا عنه ساهية لاهية من أمرى، لا أعْدميك الله ولا النصيحةَ منك .

فصـــل — قال أبو جعفر الكِرْمانى للحسن بن سَهْل ووعَده شيئا فأبطأ عليه .

أنا أعرف تكامل الثقة فيك، وراحة الفصل منك، وأعلم أنّ فعلك يُرْبِى على قولك، وأنّ إنجازك أكثر من وعدك ؛ فقدّم لى من كرمك ، ما أُتمّره إلى أن[1] يلحقه المتأخّر

(١) بياض فى الأصل . وما وضعناه يناسب المقام .

عنه، وإلّا فَدُلّنى على ما أقول اذا سألنى مَن سعتَه على شكرك، عما بلغه من الحظ على نيتك. فقال الحسن : تقول ما يَنْبغى، فقال : فافعل ما يَنْبغى أقلّه .

عمـــرو بن مَسْعَدة

وصل الى كتابك، على طول منّى اليه، وبُطْء شديد، وبُعْدَ عهد بعيد، ولوم منّى على ما مسستنى به، من حفائك، على كثرة ما ناعتُ من الكتب، وعدمتُ من الجواب، فكان أوّل ما سبق الىّ من كتابك السرور بالنظر اليه أُنْسا بما تحدّد لى من رأيك، فى المُواصلة بالمكاتبة، ثمّ تصاعُف المَسرّه، بجبر السلامة، وعلم الحال فى الهيئه، ورأيك بما تطاهرتَ من الاحتجاج، فى ترك الكتاب، سالكا سبيل التخلّص مما أنا مُخلّصُك منه، بالإعصاء عن إلزامك المحمه، فى ترك الابتداء والإجابة. وقد كرتَ شغلك بوجوه من الأشغال كثيره متظاهره ممكنة، لا أُحسّنك متابعه الكتب، ولا أحمل عليك المشاكلة بالجواب، ويُقْنعنى منك فى كل شهر كتاب، ولن [تُلْزم][1] من نفسك فى البرّ قليلا، إلّا ألزمتُ نفسى عنه كثيرا، وإن كنتُ لا أستكثر شيئا منك، أدام الله مَوَدّتك وثبّت إخاءك، وآستماح لى منك، فرأيك فى مُتابعه الكتب ومحادثتى فيها بحبرك مُوَفّقا إن شاء الله .

عيسى بن واضح الى الفضل بن الربيع

قد أكّد الله من حُرْمتى لك، ووصل من الشَّعَب بينى و بينك ما جعله ذخيره ليوم الحاجه، وعُدّةً عند مُلِمّ النازلة .

جبل بن يزيد

أما بعد فإن مَن صحب الدنيا لم يخلُ من تصرّف أحوالها، وكثره مَعاريض بغَائمها، فى احترام الأنفس فى خواصّها، ومواقع البلايا بين ذلك فيما يَهُدّها، ويمر من الأشياء عليها، وكان ذلك لا سبيل الى دفعه، ولا حيلَه يُستعان بها عند نزوله، إلّا الرضا عن الله عزّ وجلّ فيما قضى، والتسليم لأمره فى كلّ ما أتى، والسكون الى الأُسْوه الى نَهج الله سبُلها، وخفّف

(١) السياق يقتضى وضع هذه الكلمة، وهى متروكة فى الأصل .

بها مواقعَ المصيبات على أهلها؛ ثم الرجاء بعد ذلك لحُسْن ثواب الله، [وقد] جعله الله لمن لزم أمره وأجشمَ نفسَه مكروهها فى مواطن الصبر على المصيبة، والشكر فى حال العافية .

وله فى المطـــر

قد كنتُ كتبتُ الى أمير المؤمنين أُعلمُه المَطْرَةَ التى أصابتنا، وما أنزل الله بها من رحمته ثم عادتْ لما بعدها من الله عائدةُ رحمةٍ، بَوَلِيّ مَطَرٍ أنزله الله بأحسن ما رأينا من المطر وابلا جَوْدا، لا يعتر عزيزه ولا يَرْعوِى حَوْذُه ، إلّا الى دِيمة عن دِيمه، يتراخى اليها يسيرا ريثما تعود، فأقامت عليها سماؤه مُستهلة بذلك وكذلك الى عروب الشمس؛ ثم انقطع مطرها بسكون من الريح، وفُتور من القُتر، وفصل من الله عظيم، يَنشُر به رحمته، ويَبسُط به رزقه، فأسبغ النعمه، وأوسع البركة، وأونق بحمد الله معارف الخِصْب والحمى. والله محمود على آلائه ومشكورٌ على نَعمائه، وما أنزل الله من سُقياه ورحمته، بعد الذى أقلتْ به السنة البرية والقحطِ وعدم الإمطار، وشدّة ما نلع الناس من السوط وسوء الظنون .

وله الى بعض إخوانه

أما بعد، فإنّ أعظم الأمور فيما بين الناس حقا أمران. منهما الإحاء فى الدين، فهو سبب وصّية الله بين عباده بالأُلفة والمحنّة التى انقطعت بها قرائنُ القلوب من بعضهم الى بعض، فاتّصلت بحائلهم مَرائرُ حبلها، وتقطّعت فيما بينهم عاطفاتُ وصلها، ومنهما مجاملة جميل الأعداء، وحفظُ ما يحقّ لأهل حسن البلاء؛ ثم الصَّنائع بعد ذلك فى مواقعها فضائل بقدر ما جرتْ به أسبابُها ولُطفت مداخلها .

فصـــل — الصناعة ليست يزيدها الأخلاقُ الجميلة ، ويريد فى أسبابها أواصر المودّة، وقد جعلك الله فى صناعتك مُقدّما، وفى مودّتك مُتفضّلا، فلا زالت عنك نعم الله، ولا برحتَ سكنا لإخوانك، وأُنسا وموضعا لما تَستميحون من معروفك، ويَستَمبرون من يدبّـــرك .

فصـــل — إنّ لك من قلبي لموضعا معمورا بالمودّة والثّقـة ، والاسترسال والأُنسة ، فلا تُحرج فلانا من سعة جميل رأيك ، الى عُقْبى استحقاقه .

آخـــر

قد طالتِ الصابة اليك ، وللدهر عُقَبٌ عائدة بالمنع والصنع ، ولا سيّما لمن كان على مثـل شاكلتك في أدبك وفضـلك وإيصافك إحوانَك وبِرِّك بهم ، وما توجبه على نفسك لهم ممـا يُقصّرون عن شأْوك فيه .

الكَلبيّ

كان أسلافنا تعارضوا دُيونا من الصفاء يَستأْدِيها كلّ عَقِب من صاحبه ، وقد أورثونا مودّة لا نَعجزُ عن اكتساب مثلها .

ابن أَعْيَن كاتب الخَيْزُران

ليس يكون منك شيء وإن حسُن ، إلا وحُسْن ظني بك يَبلغُه ، فاستتمّ أحسنَ ما كان منكَ ، تتمّ لك أحسَنُ ما تُحِبّ منّي . ولا تَمنعك الاكتفاءُ بحالك اليومَ من طلب الزيادة في غد ، فإنّه لقَلّ شيءٌ لا يريد إلّا نقصَ ، والزمان يمحَق الكثير ، كما يربو على الزيادة القليل .

ابن الكَلبيّ

أنت مَن أُطول بمكانه وأثق بجميل رأيه ، وأعتمد على رِفده ، وأرجو دَرْك كلّ فضيله به ، وممـا أُحب علمَه مَقرّ نعم الله عز وجل لديك .

عليّ بن عبيدة الى ابن الكَلبيّ

وصل الله أيّام عُمْرى باتباع موافقتك ، ولولا موعد أحد عليّ ، لأطعتُك فيما أمرتَ به ، مُتّبعا مع إجابتك سرورَ نفسي برؤيتك في السلامه .

أما بعـد ، فإني أصبحتُ وقد استقرع الأميرُ منّي كلّ مودّته ونصيحه ، ومبلغ جهـد وطاقه فيما عرفتُ له فيه موافقةً .

فصـــل — فإن الذى شعّب الله بنا من التواصل والتكاتب، يدعونى الى متابعه الكتب اليـك فى تعهّد حقك ، وإن كان الخبر عن ظاهر الحال قلّمـا يُغْنى، فإن له من الأُنس والموقع فى الكتب ما ليس لمُسْتَعرضات الأخبار .

فصـــل — قد كنتُ أعلمت الأمير انقطاع بنى فلان الى فلان ، بأهوائهم وبصائرهم وشراء ما قِبَـله بعره، وما كان وصل الينا فى ذلك من الأمور التى حملوا إصْرها، وبَقِى لنـا أجرُها ودكرها وناقلتها وسائقتُها، ممحن عدد الأمير وحَاياه وذخائرُه، ومَن يأمل يومَه وعده، ولا مُتَحطَّى له عنه ولا مقتصر دونه .

عُمـارة

بلغنى كتابُك يصف كدا . فإن رأيتَ ألّا تعتمـد على ما اصفت [به] من عدرك، وأطعتَ فيه الهوى من قبول عمولك، وتجعلنى أحدَ مَن بُسرّ بسروره، وتُشركه فى مُهمّات أمورك، فإنى أحدُهم وأوسطهم عِناية بمـا عَناك وتوسّطا لمـا عراك، فعلتَ .

فصـــل — والدنو من دارك إذ الدار جامعةٌ والحبل مُتّصلٌ، إذ نحن فى الاستمناء بالخبر والعـلم بِدخْلَة الحال، بمنزلة من كأنّه يُعانى مَن يشتاق اليـه ويصْبو به فى كل يوم، حتى نأتْ النوى، وأتَ فى اللقاء والإنظار فى كلّ أمر وعلى كلّ حال مَن لا يُشَكّ فى صفاء عيبه، وصدق إخائه .

فصـــل — مُشاركتنا إيّاك فى محبوب الأمور ومكروهها يحلّـا محلّكَ فى السرور بالنعمة يجـدِّدها الله لك ، ويُوجب من الشكر علينا[٢] مثل الذى يوجب عليك . فوَصَلَ اللهُ كل نعمة بَهَبُها لك من الشكر بما يكون لحقّها قاضيا، وللزيد فيها موجباً .

سعيد بن عبد الملك

كتبت على شُغْل فى قِطْع من القِرطاس، ولم يقطع بى حسنُ الظنّ بك فى قبولك العذر، وتحسينك ما أنت أهلٌ لتحسينه؛ فإنك تقبل دون حقك، وتَهَب الذنب فيه، فيكون شكرُك

(١) فى الأصل : « ... وسراه ماقبله ... » . (٢) فى الأصل «علينا . . » وهو لا يؤدى الغرض المراد .

حاريا على سبيلين، كلاهما تُبين لكَ عن فضلك، ويوحب لك مالا يَقْصُر معه إلّا مغبونُ الحظ خسيسُ المصيب .

فصـــل — وقد طهر من أمير المؤمنين فى فلان بعد وَفاته، ماهو أعدلُ شاهدٍ على حسن مُعْقَبِه ، ورَدّ اليك من رأيه وتعقّده ما أرحو أن يكون فيـه أعظمُ العِوَض . واللهَ أسأل أن يتولّى لك أمورك فى السرّاء والصرّاء، والشدّه والرحاء، والشكر وحسن العراء .

جبل بن يزيد الى بعض إخوانه

تمّم الله عليا وعليك النعم ، وأَجرَل (١) لنا ولك محاسن صالح القِسَم . إن الله تبارك وتعالى أحرى بيبدا و بيـك لطيف مَوَدّه، وحاصّ أُحوّة ، عيرَ أنّ المعرفه قد تُحمد بعـد الخبره ، والثقةَ إنمـا تعرف بعد التحربة ، وقد أحببتُ أن يعلم مَن قِبَلك (٢) الدى أحدث الله لك من حال دولتك ، وأنْ يُعلَم هل أبقتْ لنا منك العمهُ سَعةً، أم تركتْ لنا منك صَفْحةً نعرف بها عهـدك ونأمُل بها وصلك؛ فإنّ أصحاب السلطان ، بحال نَلوَى فى التغيُّر والانتقـال ، إلا من مانّه من الله تبـارك وتعالى عصمه . فإنْ كنتَ على ما رجَوْنا من الوفاء، وحسنِ الحفظ للودّة والإحاء ، فمثلُك لم يرض لنفسه إلّا بأجمل الأخلاق وأوفقها للسـداد . وإن حجزك عن دلك ما تأبى به الأقدارُ فى مُتَصرَّف اللیـل والنهار ، نَعذرُك بمـا نَعدر به أهلَ السلطان، ادا غيّرتهم الحالُ، وتنكرت شمائلُهم بين الإحوان .

وله الى بعض إخوانه أيضا :

اِعلم أنى اليك مشوق، وأن صِـلةَ الإحوان كرمٌ ، وحيرَ الصِّلات ما لم يكن لها وجه إلّا الرحاءُ والحفظُ وتجـديدُ الموده وتصحيحُ الإحاء ، فإنّ الذى يكاتب إخوانه على حال الرغبـة يكفى القائلَ كتابه حيث شاء ، إن أحب مال به الى الصحة ، وإن شاء وصعه للرغبة، والرعبة أملكهما (٣) به . والدى يكاتب إحوانه على حال الصرورة، فقد يستقطع الصِّلَة

(١) فى الأصل : وأحرلنا ... » .
(٢) فى الأصل : «ما قبلك» .
(٣) فى الاصل : « وأملكها ... » .

عنـد الحَدَث محافةَ الملامة[1] من الناس على القطيعة الشّعاء المشهورة لإخوانه ، فإن الذى لا مَوَدّة له قد يصل ذلك فى تلك القطيعة بأهل البلاء .

والكتاب على مثل حالنا وحالك اليوم شاهدٌ على أن ذلك ليس إلّا صِحّةَ الإخاء والشوْقَ الى المحادثة بالكتاب ، حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البلاء تلك اللائمةَ على التقصير ، ولا يُوضع منك الرعـة فى الإطماع . إيّاك أن تعلّل بالأشغال أن كنت فى خاصة نفسك ، فإن أداء الحق وصِلةَ الإخوان أعظم الخاصّه بك خاصه . وانما أمرنا فى كل هذا كأمرك فى الذى تَستعين بى خاصّتك تلك التى لنا ، فإن لنا ما لك ، وهذه التى لنا لك ، أليس ماسرّنا سَرَّك وما ساءك ساءنا حظا لك ، فهذه كذلك وذلك كهذى . والله يوفّقنا وإيّاك . وأنت أبا يوسف . هكذا حال ما بيننا وبينك ما وصفتُ لأبى سعيد ، غير أنّه سألنا أمرا لم يسألناه قطُّ ، فله فضل السبق علينا فى المسألة ، ولنا فضلُ المعرفة عليك فى اللائمة . ولى أَدَعَك والفعلَ ، دون أن تَشْفَعه بالعمل الذى هو صلة القول . وسلام عليك ورحمة الله ، وقضى الله عز وجل بالحُسنَى لنا ولك .

فصل — أتانى كتابُك ، وأنعمتُ أن يَسرّنى بسلامتك ، وما حاق فيه كرُمُ برّك ، ولطيفُ عِنايتك ، مالم أفقد فى حالة من حالاتك ، فكان الكتاب مُصدّقا لما سلف ، مُبشّرا بما يستأنف ، مُذكّرا منك عهدا موصو[2] مثاله طرق وقلى ، مُلْصَقا ذكرُه بلسانى وقلبى . فلا عدِمتُك ، بل أمتعنى الله بك فأطال ، وكثّرنى ببقائك .

فصل — أتانى كتابك فطامن قلبى وطرق ، بعد ما كان شاخصا اليه ، مُنتشوّقا الى رؤيته ، ثم ملأنى سرورا ما رأيتُ فيه من آثار برّك وكريم تفقّدك . وأفضل ما عندى منك قِلّه ، مما إنْ ذكرتُه ، فللاستراحة[3] الى الذكر ، وإن أمسكتُ ، فللعجز عن الشكر . فأمّا الضمير فمنىّ على الإقرار بفضلك ، والنيّةُ خالصة بشكرك . وقليل ذلك لك ، فأعطاك الله فأطاب ، ووهب فأجزل .

---

(١) فى الاصل : « محافة السلامة من الناس... » . (٢) فى الاصل بياض . (٣) فى الأصل . "فالاستراحة..." .

فصـــل — وصل الىّ كتابُك فخُيّل لى حين نظرت الى أثريدك تجْرى قلمك فى بطن صحيفتك، أنّك ماثل بين عينىّ: أنظُر الى شخصك وأسمَع من لفظك، فابتعث ذلك منى طربا شائقا، وصبابةً هيّجت الأحزان وذكّرت الإحوان. وكنتَ من إحوانى الذين أحرَ بسلامتهم للوُدّ الذى أحرَى الله بينا و بينك، فواصلنا بحرمته، وتعاطفنا بوصله.

فصـــل — إنّ الله جعل عاقبة كلّ نعمة و إن عظُمت، تبعا لأوّلها، وجعل الشكر عليها سببا لتمـامها ومُوجبا لأحسن الزيادة منها.

فصل فى شكر — وإنّ الله جعلك للخير مَعْدِنا، وللفضل موضعا، فيا حمّلته نفسك من ثقل أعباء المُروءة، وحَملتها عليه من عِظام المكارم، حتى ضرّت بما أنعم الله به عليك، مُنتهَى كلّ أمل وغايةَ كلّ رغبـة. ثم ألْبَسَتْ النعمةَ لباسَ التواضع، وناسبت فى الأخلاق مَنْ سبقت به عليك الأمور، حتى كأنّهم فى النعمة لك شركاءُ. وتحنّنت على الأقربين والمُتقرّبين من الاخوان والأكفاء، حتى كأنهم لك ولدٌ، وأحبرت نفسـك حين ساعدك الدهر، على طبيعة التقرّب الى العامة، فكلّهم يُدلِى اليك بدَلْو رغبته، ويَمتاح منك مَتّاحة فضـل؛ فلا عَدِمتُ ألّا تزالَ تُنْعِش سَقْطه، وتُقيل عَثْرة، وتَسُدّ حللا، وتُنيل أملا، ولا عدِم مَن شهِد ذلك منك، أن يَسْتَتِمّ هذه النعمةَ عليك وعلى نفسه؛ وإنّ من سعادة العامة أن يجعَل سادتها عنـد خِيارها. ومن الملاء العظيم عليها المُوجِـب لهـا، أنْ يُخصّ شرارُها بموضع رغباتها.

فاسـلَم كلأك اللهُ بهذه النعمة، غيرَ مُنغّص بهـا، ولا مُكدّر عليـك[1] صفوُها، حتّى تُسلّمك النعمةُ العاجلةُ الى النعمة الباقية، فإنّا و إن علِمنا أنّ من شأن الدهر الغَدْران فى العواقب فقد علِمنا أنّك فيما أهدى الله اليـك من النعمة، قد أدّيتَ حق الله عز وجل ثمّ حقّ إخوانك فيهـا، فكنتُ أخرَمَن نال فضلك، كرما فى السماء، ورضا فى الأثرة، غيرَ مُتطاوِل لمـا نأمل، ولا مُتصعصِع لمـا تحْذر، فإنّا نجْرى شكر المـاضى منك، ورجاءَ الباقى،

(١) فى الأصل: "ولا مكدر عليها صفوها ...".

فنرى تضييعا منا فى عَقْد الرأى، وإزراء بنا فى وثائق الأمور، ألّا نَمحك من أنفسنا مَودّة الولد ورقّة الوالد . وإذا أعطاك امرؤ ثمرة فؤاده، فقد فرّع اليك من جميع حقّك، لأن ذات يد امرئ فى البذل أهون عليه من ذات نفسه فى الشكر . وكفى لامرئ من امرئ أن يستولىَ عليه حتى لا يدَعَ لغيره فيه فضلا . وكفى بك لنا من غيرك . وكثير منّا أن نقوى على أداء أدنى صوف حقّك، غير أن أوثق أمورنا فيك عند أنفسنا ألّا نسأمَ النظر الى مِائك بهَجِيين بك إن سَررتَ، وعادرين لك إن شُعِلت .

فصل — إنّ الهدى والضلالة يقتسمان دُوَل الأزمنه، لغير كرامة للباطل، ولا هوان للحق . وأهل الحقّ كيف تصرّفت أحوالهم فى كرامة من الله عز وجل، ونعمة بين دولة تكون لهم، يَقومون لله فيها بحقّه ويُظْهِرون هداه ودينه، ودولة تكون للباطل، يكونون فيها كُهوفا للخيرات، ومَعْدِنا للحسنات، يستكنّ الحق فى صدورهم، ويأوى البرّ والصدق اليهم؛ فهم بين يومَىْ صبر وشكر، ليس أحدهما دون صاحبه فى الفضل .

وأهل الباطل كيف تصرّفت أمورهم بين سُخْط الله وعقوبته، لأنّ الله تعالى لم يجعل فى الباطل فَرجا لأهله، وإن كانت لهم دولة كانتْ إملاءً واستدراجا، وكانوا فيها على مَدْرَجَة هَلَكة وسبيل نِقمة؛ وإن كانت الدولة لأهل الحق، كانوا فيها بين ذل وصيم، وحوف وجرع، وقد سدّت عليهم المطالع، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَت . فهى أىّ يومَيْهم مستراحهم : أيوم دولتهم، وهم لايشكرون النعمة ولا يقطعون أسباب النقمة؟ أم يوم علو الحق عليهم، وهم لا يَصبِرون على المِحنة ولا يُبْصرون من العمى؟ وأهل الحق بين حالَىْ عِبْطة وحسبة، وأهل الباطل بين حالَى إملاء ونِقمه .

فصل فى صفة الجند — إنّ الغالب على أهواء جماعة من قِئام أوليـاء الأمير وجنده إعظام الأمير ومعرفة فضله، والتقرّب الى الله بمَحَبّته ومُناصحته وطاعته، ومُعاداة عدوّه؛ وتلك نعمة يَعْتَدّونها ويتقرّبون الى الله بها، ويتوسّلون الى الأمير بجزْى قوم خالفوا .

فصـــل — حل بين فلان وبين التشريد بهـم والاجتياح لهم ، فإنّ ذلك أرضى لربك، وأجمع للأُلفة، وأقومُ لعمود الخلافة الذى سدّد الله دعائم الإسلام وأسّ الدين به. وٱعلم أنّ مَن حاط الله دينَه، ورمتْ عن فُوقه الجماعة، وعادى أهلَ النقض لها، ابتعثه الله آمنـا من هول الحساب وضيق المَحْشر، والله بنصره أحقُّ وأولى . وكن لله بحيث افترض عليك، فإنّه قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ ﴾ .

كتب جعفر بن محمد بن الأشْعَث الى رجل لم يكاتبه

لست بما صَرَفتَ الىّ من معروفك بأسرّ منى، بما أهديتَ الىّ من قضاء الحق عنك، وقلّة ذوى الحُرْمة بك، لأنكَ قد تصِل مَنْ لا يثِق ولا يأنس الّا بمن يَعْتمِد عليه .

كتب الفضل بن يحيى الى رجل يُشاوره فى أمر حَدَث

ليس كلّ امرئ وإن كان ذا عَزِيمة فى رأيه، وأَصالة فى عقله، بمستغنٍ عن مُكاشَفة أهل الرأى، لتوزيع الله عزّ وجلّ، أقسامَ الفضل فى خلقه، وإشراكه إياهم، فى عطاياه؛ فرأيَك فى كذا .

ركِب ابراهيم بن المهدىّ الى أحمد بن يوسف، فكتب أحمد الى إسحاق بن ابراهيم الموصلىّ

عدى مَن أنا عبدُه، وحُجّتنا عليك، إعلامُنا إيّاك .

توسّـــل

توسّل رجل الى رجل بمحمّد بن عبد الملك وادّعى قرابتَه منه، وبلغ ذلك محمّدا فكتب الى المُتوسّل اليه :

بلغنى أنّ رجلا ادّعى قرابتى، وأورد عليك كتابا ذكر أنّه منّى؛ وما أُنكر أن ينتفـع بى مَن تَوسّل بنسى، إلّا أنّه مَن ادّعى قرابةً، ولا قرابةَ له، كان استعمال الشفاعة فى أمره أَوْلَى .

كتب طاهر بن الحسين الى الفضل بن سَهل

أسعدك الله بمحاربتك، التى بدَلتَ فيها مُهجتَك، ومُهجَ مَن هو موصولٌ بك منّا .

محمد بن الجَهْم

وليس فى جميع الناس أعدى لك : مِن صديق مؤمِّل، أو حميم راجٍ، إن منعتَهما شمَاتك وبَهتاك، وإنْ أعنتَهما الله اغتالاك (١) .

محمد بن مُسْعَر

قال : كنتُ أنا ويحيى بنُ أكثم عند سُفْيان، فكى سُفيان، فقال له يحيى : ما يُبكيك يا أبا محمّد؟ قال :

بعد مُجالستى مَن جالس أصحابَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أبتُليتُ بمجالستكم ؛ فقال له يحيى : فمُصيبةُ مَن جالستَ منهم بمجالستهم إيّاك بعدَ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظمُ من مُصيبتك بها ؛ فقال : ياعلامُ، أطنّ السلطانَ سيحتاج اليك .

دخل ميمون بن مِهْران على بعض حلفاء بنى أُميّه — وأحسَبه عمرَ بنَ عبد العزيز — فقال له وقد قعد فى أُخريات مجلسه : عِظنى، فقال له : إنّك لمن خير أهلك إنْ وقيْتَ ثلاثا، قال : ماهنّ؟ قال : السلطانُ وقدرته، والشباب وعِزّته، والمـال وفِتنته، فقال : أنت أولى بمكانى منّى فارتفع الىّ، فأجلسه معه على سريره .

ابن وَهْب فى الاعتذار

لو لم تَعذركَ لم نعذر أنفسنا بقطيعتك، فكن لنا فى لائمة نفسك، كما كنّا لك فى عذرك .

وفى مثله

ليس فى الإساءة فضلٌ عن الاعتذار، وفى عائدتك فضل عن إساءتنا، فمن أين يسقط بين فضلك والاعتذار !

(١) هكذا وردت فى الأصل .

آخـــر

فلان من حملة المعروف، يكثر عنـ:هم قليله فى شكرهم، ويقـلّ لهم كثيره فى عظيم حقوقهم .

فصـــل ــ لئن عميتُ عن الرأى فيك، لقد أبصرتُه بك .

فصـــل ــ تغيب فأشتاق، ونلتقى فلا أَشتفى .

٢ ــ فصول من رَسائل مختارةٍ فى كل فنّ

وهى مُثُل ممـا كتب به الكتّاب فى أبواب لا نظير لها

فمن ذلك ما كُتِب به فى التحميـد لله عزّ وجلّ فى أوائل الفتـوح وأواخرها وأوائل الكُتُب التى فيها تحميد الله عزّ وجلّ .

التحميد الأول

الحمد لله القادر القاهر، المتوحّد بالسلطان والربوبيّة، والمتفرّد بالبقاء والقدره، والمتجبّر بالكبرياء والعظمة، ذى الجلال والإكرام، والإفضال والإنعام، والعز والبرهان، والأسماء الحسنى، والمَثَـل الأعلى، الأوّل بلا غاية، والآخر بلا نهـاية، الذى لا يحيـط به وصف الواصفين، ولا تبلغ مَدَى عظمته أوهامُ المتوهّمين، ولا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، لا يؤودُه حفظ كبير، ولا يَعزُب عنه علم صغير، يعلم خائنة الأعين وما تُخفِى الصدور، وما تَسْقُط من ورقة إلّا يَعلمها، ولا حبّة فى ظُلمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابس إلّا فى كتاب مُبين .

التحميد الثانى

الحمد لله الذى خلَق الأشياء على غير مِثال ولا رُسوم، وأنشأها على غير حُدود، ودبّر الأمور بلامُشير، وقضى فى الدهور بلا ظَهير، وسمك السماء بقدرته، وبناها على إرادته، وأسكنها ملائكتَه الذين اصطفاهم لمُجاورته، وجبلَهم على طاعته، ونزّههم عن مَعْصيته،

وحملهم حملة عرشه، وسُكّان سماواته، ورسلَه الى أنبيائه، يُسَبِّحون الليل والنهارَ لا يَفْتُرون، ودحا الأرض وبسطها لكافّة خلقه، وقسّم بينهم الأرزاق، وقدر لهم الأقوات، فهم فى قبضته يَتقلّبون وعلى أقضيته يَجْرون، حتّى يرثَ اللهُ الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وصدر تحميد مفرد

الحمد لله العلىّ مكانُه، المنير برهانُه، التامّة كلماتُه، الشافية آياتُه، والحمد لله ولىّ أوليائه وعدوّ أعدائه.

وصـــدر تحميـــد

الحمـد لله العالم الذى لا يُغْلَب، والمُقْتدِر الذى لا يُعان، والمُنْجز وعدَه، والمؤيِّد أولياءَه، والخاتم بالفَلَج[1] والظهور لهم، والمدِيل من أعدائه، ومُحيط دائرة السَّوْء بهم.

ولكاتب خُزَيْمة بن خازم فى فتح الصَّنّارِيَّة تحميد مختار

أما بعد، فالحمد لله ذى المَلَكُوت والقُدْره، والجَبَرُوت والعِزَّة، والسلطان والقوة، أهلِ المحامد كلِّها، ومدبِّر الأمور ووَلِيِّها، وخالق الخلائق وبارئها، ومميتها ومحييها، وباعثها ووارثها؛ الذى أوْجَب على نفسه بما نَفَذ من مشيئته، وسبق من علمه، وثبت فى اللَّوح المحفوظ عنده إعزاز دينه، وإظهار حقه، وإعلاء كلمته، وإبلاج حجّته، وإرهاقَ باطل أعدائه؛ الصارفين عن طاعته، والجاحدين لربوبيّته، المكذِّبين بكتبه ورُسُله، بلَغ بذلك أمرُه، ونطق به كتابُه؛ فإنّه يقول تبارك اسمه فى المُنْزَل من فرقانه. ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

وتحميد لأحمد بن يوسف الى الوُلاة عن الخليفة

أما بعد، فالحمد لله ذى المَنّ الظاهرة، والحُجج القاهرة؛ الذى قطَع بينه وبين عباده المَعْذِرة، ورادف عليهم البيّنة، ومُهْلةَ التَّطِرَة؛ وجعل ما أتاهم من حطوظ الدنيا بالقَسْم

(١) الفلج: الظفر والظهور، يقال فلج فلان على خصمه، أى غلب وظفر.

المكتوب، وما ذَخَر لهم من ثواب الآخرة بالنُّجْح المطلوب، فهم فى العاجلة شركاءُ فى النعمة، وفى الآجلة شتَّى فى الرحمة، يختص بها أهلها المنتفعين بما ضرب لهم من الأمثال، وتصريف الحال بعد الحال، المادِرين بأعمالهم الى انقضاء مَدَدِ آجالهم، قبل حلول مايُتَوقّع، وفوت ما لا يُرْتجع .

وتحميد لابراهيم بن العباس فى فتح اسحاق بن اسماعيل

الحمد لله مُعزّ الحقّ ومُديله، وقامِع الباطل ومُزيله، الطالبِ فلا يفوته مَن طلب، والعالب فلا يُعْجِزه مَن علب، مُؤيّد حليفته وعبده، وناصِر أوليائه وحزبه، الذين أقام بهم دعوتَه، وأعلى بهم كلمتَه، وأظهر بهم دِينه، وأدال بهم حقَّه، وجاهد بهم أعداءَه، وأثار بهم سبيلَه؛ حمدًا يَتقبّله ويرضاه، ويُوجِب أفضلَ عواقب نصره، وسوابغَ نَعْمائه .

التحميد الثانى

الحمد لله العالبِ دى القُدْرة، والقاهرِ ذى العِزّة، الذى لم يقابل بالحقّ باطلا فى مَوْطِنٍ من مَواطن التحاكم بين عباده، إلّا جعل أولياءَ الحق منهم حِزْبه وجُندَه، وجعل الباطل بهم فلًّا مكوبا، ودَحيصا زَهُوقا، إن نهَض به أولياؤُه كانتْ مراصدُ عواقبه مُفرِّقةً ما جُمِع، ومُبْترةً ما أُعِدّ، وقائده باشياعه الى مَصْرع الظالمين، حتّى يكون الحقُّ الطالبَ الأعزّ، والباطلُ المطلوبَ الأذلّ، وأولياءُ الحقّ الأعْلَيْن يدا وأيدا، وأشياعُ الضلال الأَخْسرين أعمالا وكيدا، قضاءُ الله وسُنّته، وعادة الله وإرادتُه، فى الفِئَة المنصورة أن تعزّ فلا تُرام، وأن يُمَكِّن لها فى الأرض كما مكّن للذين من قبلها، وفى الفِئَة الباكِين عنه، أن تَزِلّ فتكونَ كَلِمتُها السُّفلى، وكلمة الله هى العليا، والله عزيز حكيمٌ .

وتحميد له مبتدأ مقام بين يَدَى خليفة

أما بعد، فالحمد لله الأول بلا أَمَدٍ يُحْصَى، والآخر بلا أَمَدٍ يَفْنَى؛ الظاهرِ لخلقة بعِزّته، العزيزِ فى سلطانه بعظمته، الفَرْد فى وَحدانيّته بقدرته، المدبّرِ فى ملكه بجَبَروته؛ الذى نأى عن الأشياء أن يكون فيها تَحْوِيًا، واتصل بها فلم يكُ من علْمها خَلِيًا، وهو فيها غيرُ مُسْتَكِنّ،

ومعها غيرُ مُماسّ فى لجج البحار، ومفاوز القفار، وشَواهق الجبال، وكُثْبان الرمال، مع كلّ حَلْق، وفى كلّ أُفُق، وعلى كلّ شَرَف ومكان، وفى كلّ وقت وأوان، موجود إذا طُلِب، وقريبٌ حيث نُدِب، عالمُ خَفِيّات الغيوب، وخَطَرات القلوب، وما فى السموات وما فى الأرض، ما يكون من نجْوى ثلاثةٍ الاهو رابعُهم، ولا خمسةٍ الاهو سادسُهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثرَ الّا هو معهم؛ وما تسقط من ورقة الّا يعلمها ولا حبّة فى ظُلُمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابس الّا فى كتاب مبين .

وتحميد ثان يتلو الأوّل

الحمد لله المُتعالى عن تشبيه الجاهلين، وتحديد الواصفين، وتكييف الناعتين، يُوصفُ لا بالعَرَض والطول، ويُنْعَت بغير الشبح المَمْثُول، ويُحَدّ لا بالخَلْق المعدود، والجسم الموجود، بل يُتناهَى من وصفه، الى ما دلّ عليه من صُنعه، ويُوقَفُ عليه من نعته، على ما أَخْبَر به عن نفسه؛ وكيف يُوصف مَن لم يَرَه أحد، ويُحدّ من لم يحُدّه بلد، أو يُشْبه عيرَذى أعضاء، أو يُكيّف عيرُدى أجزاء، لَوْرُئِيَ لَوُصِف، ولو وُصِف لَمُثِّل، ولو مُثِّل لكان له نظيرٌ، سبحانه وتعالى عن ذلك عُلوّا كبيرا، لا تُحِيّه الأقطار، ولا يحويه قَرار، ولا تُدرِكُه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، لا يوصف أُولاه، ولا يُدْرك أُخْراه، ولا يُعرَف مُنتهاه، عَظُم أن يَحْصِره وَهْم، وجلّ أن يُدرَكه فَهْم، وامتنع من أن يخاله عِلم، ولا يُغيّره ليل ولا يومٌ، ولا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلّا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفَهم ولا يُحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء، وسِع كرسيّه السمواتِ والأرضَ ولا يؤوده حفظُهما، وهُوَ العلىّ العظيم .

وتحميـــد ثالث

الحمد لله الذى ألهمَنا من الإقرار بُربوبيّته، والإيمان بوَحْدانيّته، وأنّه عيرُ ذى صاحبة يسكُنُ اليها من وَحْشَـة، ولا ولدٍ يتكثّر به من ضعف قِلّة، ولا شريك يعـاونه من عجز قُدْرة، ولا ظهير يكانفه لملال فَتْرة؛ ما جعل لنا به أوثقَ الأسباب لَدَيْه، وأرجى الوسائل

اليــه ، إذ كان من أنكر ما دللنا الإقرار به يصـير بجَحْد ما أخذنا الاعترافُ فيه ، الى أليم عقوبته بالمعصية التى استحكمت السُّخطة على أهلها ، وحَلّت النِّقْمة بمن فارقها ؛ ثمّ جعلنا تبَعَ إشراف كثير على أنفسنا فى مشيئة منه ، بَسَطَ اليها آمالنا وأحسَن عليها أطْماعنا بكرم عفوه ، وعظيم حِلْمه ، وسِعة رحمته ، التى وعد أهل الإيمـان بها ، إذ صار مَن فارقهم فى ذلك بمـا استهوت عليهم ، نترِبيــه لهم شياطينُهم ، وراءت على أفئدتهم ... (١) وما ظَلَمْتُــه قُرناؤهم الى النـاس من كل طمع يُخْدى وحبر يُخْجى ، جَرأً بمـا أشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانا ، إنّ الله لا يَغفِر أن يشرك به ، ويَغفِر ما دونَ ذلك لمن يشاء ، ومَنْ يُشرِك بالله فقد حبِط عملُه ، وهُوَ فى الآخرة من الخاسرين .

وتحميــد يتلو الثالث فى هــذا المقام

الحمد لله الذى ابتدع لا مِن شىءٍ ما أنشأ ، وابتدأ على غير مِثال ما ابتدأ ، فجعل كثيرا من لطائف تقـديره ، وصُنوف تدبيره ، وتصاريف أُمُوره ، حُججا واضحة ، وآياتٍ بيّنـة ، وعِبرًا شافيــة ، تَشْهَد له بعزّة القــدرة ، ونفاذ الحول والقُوّة ، خلق مدبّرا بلا مَشُورَة أحد ، ســعًا دحَاهنّ على المـاء على غير سَـنَد ، مبسوطات فى تكاثف أجزائهنّ ، على مَعِـين ماء مَسخر من تحتهن ، فَرّ حلاهنّ أنهـارا ، وقدّر فيهنّ من المعاش أقواتا ، وحمــل لهنّ من الجبـال أوتادا ، ثم آستوَى الى السماء وهى دُخَانٌ ، فقال لها وللأرض آئتيا طوعا أو كَرْها قالتا آتينا طائعين . ففَطَر من الدُّخان فى خِضته على الهواء سَبعا ، جعل بينهنّ من الجوّ مُتّسعا ، ســعَ سمواتٍ طِباقا مُرتَفِعات ، بلا دعائمَ قِبَلها ولا عِلاقات ، يُمْسِكهنّ بقدرة أن يَرْتفعنَ فوق ما حبسهنّ عليــه ، وأن يَهْوِين الى قرار دون ما رفعهنّ اليــه ؛ فأتقن صنعَهنّ ، وأوحى فى كلّ سماء أمرَها ، وزيّن السماء الدنيا بالمصابيح النيّرة ، والشُّهُب الثاقبة ، والنجوم الواضحة ، وسخّر الشمس والقمر عَلَمـا للمهتدين ، وسِراجا للبصِرين ، ورُجوما للشياطين ، وأوقاتا لاختلاف السنين ، ومعـرفة لكل حين ؛ لا الشمسُ يَنبغى لهـا أن تدرك القمر ولا الليل

(١) فى الاصل بياض . وفى العبارة اضطراب ظاهر .

سابق النهار وكلٌّ فى فَلك يَسبحون ، فقضاهنّ سبع سموات فى يومَيْن ، ولو شاء خلقها فى أسرعَ من طَرْف العين ؛ إنّما أمرُه إذا أراد شيئا أن يقولَ له كُنْ فيكون ؛ بلا مُعاناة لقول ، ولا صَعْف من حَوْل ؛ ثم أسكنهنّ من خلقه ملائكةً اصطفاهم لعبادته ، واجتباهم لتبليغ رسالتـه ، معصومين من أن يُشْرِكوا بالله ، ما لم يُنزّل به سلطانا ، وأن يقولوا على الله إفكا وبُهْتانا ، يُسَبّحونه بالليل والنهار لا يفتُرون ولا يَسأمون من عبادته ، ولا يَستحسرون عن طاعته ؛ يَخافون رَبّهم من فوقهم ويَفعلون ما يُؤْمرون .

وتحميـــد فى فتح لابن العباس

أما بعد ، فالحمد لله الذى حمد نفسَه ، وفرَض حمدَه على خلقه ، وأعزّ دينَـه وأكرم بطاعته أولياءه ، وأكرم طاعته بأوليائه ، بجعل جندَه منهم المنصورين ، وحزبه منهم العالبين ، نهجَ بهم سبيله ، واقام بهم حُجّته ، وجاهد بهم أعداءه ، وأظهَر بهم حقّه ، وقمَع بهمُ الباطل وأهلَه ؛ وأعلَى كلمتهم ، وأيّد نصرَهم ، وألّف لهم وبهم ، ومكّن لهم فى الأرض ، بجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين .

والحمـد لله المُعزّ لدينه ، المُظهِر لحقه ، الناصر لخلفائه ، المُمكّن لحزبه ، المُنتقم بهم ممّن صدف عنه ، مؤيّدا دينَه بالنصر ، ليُظهرَه على الأديان ، وحَقّه بالعزّ ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه ؛ وجنودَه بالفَلَجَ فهم الأعلون إن استُنصر بهـم ، والأعزّون إن كادبهـم ، والأقربون منه إخلاصا وعملا ؛ حمـدا يُوازى نعمه ، ويَمْترى بمثله فواضـله ومزيده .

وله فى فتح ابن البَعيث لمّا ظفِر به

أما بعد ، فالحمدُ لله ناصرِ أبيائه وحلفائه ، وهادى أوليائه ، أولياءِ الحق وحزب الهُدى ، الذين أقام بهم سُبلَ الرشاد ، ونصَب بهـم مناهجَ الدين ، فأظهره على الدين كُلّه ولو كره المُشركون .

وله صدر كتاب الخميس فى تحميد الله وتمجيده

أما بعـد ، فالحمـدُ لله الذى حلّت بعمه ، وتظاهرتْ منّه ، وتتابعتْ أياديه ، وعمّ إحسانُه ، إلهِ كلّ شىء وخالقه ، وبارئه ومصوّره ، والكائنِ قَبْـلَه ، والباقى بعدَه ، كما قال فى كتابه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . العالى فى مشيئته والقاهر فَوْق عباده ، المُتعالى عن شَـبَه خلقه ، ليس كمثله شىءٌ وهو السميع البصيرُ ، خالق العباد بقُدرته ، وهداهم برحمته ، وأوْضحَ لهم السبيلَ الى معرفته بمـا نصَب لهم من دلائله ، وأراهم من عِبره ، وصرّفهم فيه من صُنعه ، كما قال جلّ جلاله : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ .

وذلك كلّه من خَلْقـه إيّاهم بتمثيله ما مَثّـل لهم من الدلائل التى نصبها لهم ، والأعلام التى جعلها إزاء قلوبهـم ، وأسماعهـم وأبصارهم ، ويَسّر لهم خواطرهم وفِكَرَهم ، والهيئة التى هيأهم لها ليقع الأمرُ والنهى عليهم ، فلا يُكلّفهم فوق طاقتهم ، ولا يُحشّمهم ما يَقْصُر عنه وسُعهم ، نظرا منه تبارك وتعالى إليهم ورحمةً بهم ، ليؤمنوا به ويعبـدوه ، فيَستحقُّوا به رحمتـه ورِضوانه ، والخلودَ فى النعيم المُقيم ، والظلّ المَديد ، والعيش الدائم ، كما قال تعـالى ذكره : ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ . وكان من نظره ورأفتـه بهم أن بَعَث فيهم أنبياءه ورُسُلَه ، يدعُونهم الى طاعته ، ويبيّنون لهم هُداه ، ويُوَضّحون لهم سَبيله ، ويَهْدُونهـم الى رحمتـه ، ويَعِدُونهم ثوابَه ، ويُنذرونهم عِقابه ، ويَسْطُرون لهم توبته ، ويُحذّرونهـم سُخطه ، ويبيّنون لهم سنّته وشرائعَـه ، ويَكشفون لهم مَواعظه ، ويعلّمونهم كتابَه وحِكمتَه ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . وكان من رأفته بهم ، ونظره لهم ، أن بَعَثهم اليهم بالحُجَج الظاهرة ، والأعلام البيّنة ، والشواهد الناطقـة ، التى أظهَر بهـا صدْقَهم ، وأقام بها برهانَهم ، وأوضح

بها دليلَهم ، وأنامهم عَمَل سواهم ، ليكون أدعَى لهم الى تصديقهم ، والقبول عنهم ، وأوكدَ للحجّة على مَن أبَى ذلك منهم .

وتحميد أحمد بن يوسف فى صدر رسالة الخميس التى كانت تقرأ بخُراسان

أما بعـد ، فالحمد لله القادرِ القاهرِ ، الباعث الوارث ، ذى العـز والسلطان ، والنورِ والبُرهان ، فاطر السماءِ والأرض وما بينهما ، والمتقدّم بالمَنّ والطَّوْل على أهلهما ، قبل استحقاقهم لمَنُوته ، بالمحافظه على شرائع طاعته ، الذى جعـل ما أوْدَع عباده من نِعمته ، دليلا هاديا لهم إلى معرفته ، بما أفادهم من الألباب ، التى يَفْهمون بها فصل الخطاب ؛ حتّى أقتنوا علم موارد الاختبار ، وثقفوا مصادر الاعتبار ، وحكموا على ما بطَن بمـا ظهرَ ، وعلى ما غاب بمـا حضر ، واستدلوا بمـا أراهم من بالغ حكمته ، ومُتْقَن صنعته ، وحاطة مُتَزايل خلقه ومُتَواصله ، الى القِوام بمـا يَلُمُّه ويُصْلحه ، على أنّ له بارئا هو أنشأه وابتدأه ، ويَسّر بعضه لبعض ، فكان من أقرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم ؛ فى تَصرّف أحوالهم ، وفنون انتقالها ، وما يُظْهَرون عليـه من العجز عن التأنّى لِمـا تكاملت به قُواهم ، وتمّت به أدواتُهم ، مع أثَر التدبير والتقدير فيهم ، حتى صاروا الى الخلْقـة المُحْكَمة ، والصورة المُعْجبة ، ليس لهم فى شىء منها تلطُّفٌ يَتمّمونه ، ولا مَقْصِدٌ يَعْتمدونه من أنفسهم ، فإنّه قال تعالى ذكرُهُ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ . وما يتفكّرون فيه من خَلْق السماء ، ومايجرى فيها من الشمس والقمر ، والنجوم مُسَـخّراتٍ على مَسيرٍ لا يثبت العالَم إلّا به ، من تصاريف الأزمنة ، التى بها صلاحُ الحَرْث والنَّسْل ، وإحياءِ الأرض ، ولِقاح النبات والأشجار ، وتعاوُرِ الليل والنهار ، ومَرّ الشهور والأيام ، والسنين التى تُحصى بهـا الأوقات ؛ ثم ما يوجد من دليـل التركيب ، فى طبقات السقْف المرفوع ، والمِهاد الموضوع ، باختلاف أجزائه والتئامها ، وخَرْق الانهار ، وإرساء الجبال ، ومن التئام الشاهـد على ما أخبر الله به من إنشائه الخلْق وحدوثِه بعد أن لم يكن ، مُترقيًا فى النمـاء ، وثباته الى أجله فى البقاء ، ثم مَحاره مُقْصيا الى آخر الفناء ؛ ولم يكن له

مُفتتحُ عدد ، ولا مُنقطعُ أمد، وما ازداد بنشوء، ولا تَحَيّفه نُقصان ، ولا تعاوت على الأزمان، لأن مالا حد له ولا نهاية، غير ممكن الاحتمال للنقص والزيادة، ثم أجرى فيما ذكر من خلق الله وخلق الإنسان الى ذكر ماتفضّل الله به على عباده الأنبياء ، وما اختصهم به من مَبْعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، الى ذكر الخُلَفاء أولا، ثم الى ذكر المأمون ودولته .

وتحميد للعبّاس فى مقام له بين يَدَىْ المأمون

الحمد لله على نعمه علينا ، وإحسانه إلينا، بالأرض المبْسوطة، والسماء المَرْفوعة، والرِّياح المُسخّرة ، والأمطار السارلة ، والأوقات القائمة ، والمَنافع الدائمة، والدين المبين، والأدب القويم ، حمدًا يكون اليه صاعدا ، ولَدَيه نامِيا، ولمَلَكوته مالئا ؛ والحمد لله حمدا يُثْبِت رضوانَه ، ويورث إحسانَه، ويُوجِب مزيدَه؛ فهو المنعم المحمود، والمُتَطوِّل المشكور ؛ لاإله إلّا هو لا شريك له ، كما شهِد الله وملائكتُه قائما بالقِسْط لاإله إلّا هو العزيزُ الحكيمُ .

وتحميد لعبد الحميد فى أبى العلاء الحَرُورىّ

الحمد لله الناصر لدينه، وأوليائه وحُلفائه، المُظْهِر للحق وأهله ، والمُدِلّ لأعدائه وأهل البِدْعة والضلالة، الذى لم يجمع بين حقّ و باطل، وأهلِ طاعةٍ ومَعْصيةٍ، إلّا حعل النُّصْرة والفَلَح والعاقبةَ لأهل حقّه وطاعته ، وحعل الخِزْيَ والذِّلّةَ والصَّغار، على أهل الباطل والخلاف والمَعْصية ، حمدا يتقبّله ويرضاه ، ويوجب به لأمير المؤمنين وأهلِ طاعته الزيادةَ التى وعد مَن شكَره ، والحمد لله على ما يَتَولّى من إعزاز أمر المؤمنين ونَصْره وإفلاحه وإظهارِ حقّه، على ما وقع بأعدائه وأهلِ مَعْصيتَه والخلاف عليه من سَطَواته ونَقماته وبأسه، فيما وَلِىَ أميرُ المؤمنين مِن مُوالاة مَن والاه، وعداوة مَن نَحَى عليه وعاداه ، لا يَكِلُه فى شىء من الأمور الى نفسه، ولا الى حوْله وقوّته ومكيدته، فإنّه لا حولَ ولا قوّةَ لأمير المؤمنين إلا به .

وتحميد فى آخر فتح

الحمد لله المُعزّ لديه ، المُظْهر لحقّه ، الناصر لأوليائه ، المنتقم من أعدائه أهلِ الكفر ، المُنْزل بهم من بأسه ، ونِقْمته وجَوائحه ؛ الذى لم يجمع بين أهل حقه ، وباطل عدوّه ، فى مَوْطنٍ من مواطنِ التحاكم ، إلّا جعل فيه لأوليائه الظفَر ، وأفرَغ عليهم الصبر ، ومحهم النصر ؛ وجعل الدائرة وسوء العاقبةَ على عدوه ، وأهل الكفر ، حمدا كثيرا يرضاه من الشكر ، ويَحْسُن به المزيدُ .

وتحميد فى فتح الى أمير لقمامة

الحمد لله الفتّاح العليم ، الذى خَصّ الأمير بأفضل الكرامة وأتمّ النعمة ؛ وأَحْسَنِ الولاية ، وأعظم الكفاية ، وحِفظ ما استرعاه ، وأعزّ أولياءَه ، وقمَع بالمَذَلّة أعداءه ، وجعل حسن العاقبة له ولأهل طاعته ، ودائرة السوء على أهل معاندته ، حمدا يحسُن به القضاءُ ، وتزيد به النّماءُ .

وصدر تحميد لغسان بن عبد الحميد فى خطبة موجزة

الحمد لله الذى لا يُدْرَك خيرٌ إلّا برحمته ، ولا يُنال الفضلُ إلّا بنعمته ؛ ولِيِّ التسديد للحسنات ، والعصمة من السيئات .

تحميد لعبد الحميد فى فتح

الحمد لله العلىّ مكانُه ، المنيرِ برهانُه ، العزيزِ سلطانُه ، الثابتةِ كلماتُه ، الشافيه آياتُه ، النافذ قضاؤُه ، الصادقِ وعدُه ، الذى قدر على خلقه نُمْكه ، وعزّ فى سماواته بعظمته ، ودبّر الأمور بعلمه ، وقدّرها بحلمه ، على ما يشاء من عَزْمه ، مُبتدِعا لها بإنشائه إيّاها ، وقدرته عليها ، واستصغاره عظيمَها ، نافذة إرادتُه فيها ، لا تَجْرِى إلّا على تقديره ، ولا تنتهى إلّا الى تأجيله ، ولا تقَع إلّا على سبق من حَتْمه ، على كلّ ذلك بلطفه وقُدْرته ، وتصريف وَحْيه ؛ لا مَعْدل لها عنه ، ولا سبيل لها عيرُه ، ولا علِم أحدٌ بخفاياها ومعادِها إلّا هو ، فإنّه يقول فى كتابه الصادق : ﴿وعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ... ... ﴾ الى آخر الآية .

وتحميـــد ثان

الحمد لله الذى علا بالمُحُب التى آستتر بها عن جميع خَلْقه ، وآستغنى بها عنهم لمـا تَوحّد به دونهم من عبادة الذين فطرهم على المعرفة ، رءوفا عليهم بمَنّه ومُتطَوّلا وهو فيما يُحْصى من أقداره ، مفضلا لهم بابتدائه خَلْقهم فى أحسن تقويم ، وإعطائه إيّاهم عاجل كل حير مقسوم ، وتسخيره لهم جميـع ما فى السموات والأرض ، وبَسْـطه لهم فى معايشهم أوسعَ الرزق ، وإسباغه عليهم فيها أفضلَ النعم التى لطُفت فطفت ، وعظُمت فطهرت ، ولبستَ فعمّت ، وانتشرت فجلّت ، وكثُرت فلا يحصيها عاد ، وجُلّت فلا يؤدّى حق ما آفترض منها شاكر ، فإنّه يقول : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والحمد لله الذى لم يَقْتَصر بهم فى إكرامه وتفضيله إيّاهم على عاجل ، فإنّه مُصْمَحِلّ زائل مما أعطاهم إيّاه ولم يَكلْهم فى معرفة حالقهم تبارك وتعالى ، ومُتَوَلّى النعم عليهم ، والاحسان اليهم ، والارتياش لهم ، ولا فى مُبْتَغَى سبيلِ طاعته ، وأداءِ حقه ، وشكرِ نِعمته ، واستيجاب عِبْطه المعاد اليه الى أن يَعُوا دلك بعقولهم ، والنظر فيه بألبابهم ، والتصريف له على أهوائهم ، فإنّه لو ألجأ دلك اليهم ، وأفردهم فيه الى أنفسهم ، ووكلهم فيما أمرهم به الى مقدرتهم ، لحارت عنه منهم الأبصار ، ولتاهت فيه منهم العقول ، ولأضلّهم عن قصده العمَى ، ولمـال بهم الى غيره الهوى ، ولاستحكم عليهم شرك الردى ، ولكنّه بعث فيها أنبياءه الهـادين ، يدعونهـم الى الصراط المستقيم ، بسوره المُضىء ، ودينه القويم ، وآياته البيّنة ، وكُتُبه الفارقة التى بيّن فيها مَحابّه ومَكْروهه ، وطاعته ومعصيته ، وثوابَ الفريقيْن فى دلك من عاده ليحدروا ما حذّرهم فيه من سُخْطه ، ونزل بهم فيه من نِقمته ، وليسارعوا فيما جعل لأهله به الى أفضل المثوبة ، وأحسنِ العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وكَشَف لهم الجَهَالةَ ، وهدَى من الضـلالة ، ونصّرهم سبيلَ الحق ، وبيّن لهم معالمَ الإسـلام ، ليرجعَ جائرٌ ، ويَقْصِـدَ زائغٌ ، ويعرِفَ جاهل ، وليعبدَ الربَّ بما وحّد به نفسَه ، وليستبين العلمَ ، ويستصيءَ الحق ، وليبتغىَ من الله الثواب بلزوم دينه الذى شرع ، وأداءِ فرائضه التى فَرَض ، وإيثار طاعته التى أوجب ، وليكون لله

المحـةَ البالغة على عباده فيما تَرَكوا من ذلك وسفّهوا بعـد استبانته لهم ، واستفاضته فيهـم وإعذاره اليهم، فانه يقول : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ويقول ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ .

لأَنَس بن أَبي شَـــيخ

الحمد لله الذى بالقلوب معرفتُه ، وبالعقول حُجّتُه ، الذى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم أميا فوق له ، ومُلَقّنا فأدّى عنه فحجّ به المُنكَر ، وتألّف به المُدبِر ، وثنّت به المستنصَر ، الى أن توفّاه على منهاج طاعته ، وشريعةِ دينه ، ثم أورثكم عهدَه وخصّكم بكلمة التقوى ، وجعلكم الأمةَ الوُسطى .

ولعبـــد الحميـــد فى فتـــح

يُعَظِّم فيه أمرَ الإسلام بمحمد صلى الله عليه وسلم

أما بعد ، فالحمد لله الذى آصطفى الإسلام دِينًا رَضِى شرائعَه ، وبيّن أحكامه ونوّر هُداه ، ثم كَنفَه بالعزّ المؤيّد ، وأيّده بالظفر القاهر ، وآزره بالسعادة المُتتجبَة ، وجعـل مَن قام به داعيا اليه من جُنْده الغالبين ، وأنصـاره المسلّطين ، كلّما قَهرَ بهم ماوئا أورثهم رِباعَهم المأمولة ، وأموالهم المُثْرية ، ودارَهم الفسيحة ، ودولَهم المطولة ، أمرا حتمه على نفسه ، ثم جعل مَن عاندهم وآبتغى غيرَ سبيلهم مُسلمًا قد آستهوته ذِلّةُ الكُفر بطُلْمِها ، وحَيْرَةُ الجَهالة بحِوَارها ، ونيه الشقاء بمغاويه ، وكُلّما ازدادُوا لدعوة الحق إباءً ، ازداد الحقُّ اليهم آزدلافا ، وعليهم عُكُوفًا ، وبهم إقامه ، الى أن يَحلّ بهم عِزُّ الغلبة ، ونَحاةُ المتحاوز ، راعيين فيما شوّقهم اليه ، مُحافظين على مَاندبهم له ، قد بذَلُوا فى طاعة الله دماءَهم ، وقلوا المَعرضَ عليهم فى مبايعة ربهم لهم بأنفسهم الجَنّة . محمودٌ صبرُهم ، مسهّل بهم عزمُهم ، الى خير الدنيـا والآخرة .

والحمـد لله الذى أكرم محمدا صلى الله عليه وسلم بمـا حَفِظ له من أمور أُمّته ، أن اختار لمواريث نبوّته ما أصار الى أمير المؤمنين من تطويقه ما حَمل بحسن نُهوض به وشُحّ عليه ، ومُنافسةٍ فيه ، أن فعل وفعل . والحمد لله الذى تمّم وعده لرسوله وخليفته فى أمة نبيّه مسدّدا

له فيما آعتزم عليه . والحمد لله المعزِّ لدينه، المتولِّى نصرَ أمته بنبيِّه المتخلِّى ممن عاداهم وناوأهم، حمدا يَزيد به من رضى شُكْرَه ، وحمدا يعلُو حمدَ الحامدين من أوليائه الذين تكاملت عليهم نِعَمُه فلا توصف، وحلّت أياديه فلا تُحصَى، الذى حَمَّلَنا ما لا قوة بنا على شكره إلا بعونه، وبالله يستعينُ أمير المؤمنين على ذلك، واليه يرغب، إنه على كل شيء قدير .

ولعبـــد الحميـــد أيضـــا

أما بعد، فالحمد لله الذى آصطفى الإسلام لنفسه، وآرتضاه دِينًا للملائكته، وأهلِ طاعته من عباده، وجعله رحمةً وكرامةً ونجاةً وسعادةً لمن هدَى به مِن خلقه ، وأكرمهم وفضّلهم وجعلهم بما أنعم عليهم منه أولياءَه المقرَّبين، وحزبَه العالبين، وحندَه المنصورين، وتوكّل لهم بالظهور والفَلَج، وقضى لهم بالعلوّ والتمكين، وجعـل مَن حالفه وعزَبَ عنـه وابتغى سبيلَ غيره أعداءَه الأَقلين، وأولياءَ الشـيطان الأخسرين، وأهل الضَّلالة الأسفلين ، مع ما عليهم فى دنياهم من الذُّل والصَّغار، وما عجّل لهم فيها من الخِذلان والانتقام، إلى ما أعَدّ لهم فى آخرتهم من الخزْى والهوانِ المُقيم، والعذابِ الأليم، إنه عزيزٌ ذُو انتقام .

وفى ذكر الإسلام وأهله وما فضّلهم الله تعـالى به

أما بعد، فالحمد لله الذى عظّم الإسلام تعظيما، وفضّله تفضيلا، فلم يَبقَ مَلِك مقرَّب، ولا نبىٌّ مُرسل ، ولا إمامٌ لأهل حقّ مهتدٍ إلا دَانَ به، واتّصل الى ولاية الله بما هداه له منـه ، وليس فى دين الله الذى ارتضى ، وخيرته من أهلِ الإسلام الذين اصطفى، تغاشُمٌ ولا تَظالُمٌ، ولا تحاسـدٌ، ولا تقاطعٌ ولا تدابُرٌ، ولكنهم كما وصفهـم اللهُ عزّ وجلّ بالتباذ والتراحم، والتوادِّ والتناصُف ، قلوبهم متفقةٌ، وأهواؤُهم مؤتلفة، وأيديهم على أهل معصيته مبسوطةٌ، أعوانا على الحق، وإخوانا فى الدِّين، ألّف الله بينهم، وجعل الإسلام نسَبَهم، فقال فى كتابه : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ...﴾ الى آخر الآية . فهذه صفة الله أهلَ دينه فيما بينهم ، وكذلك كان أسـلافُ الحقّ قبلَهم، فى توادّ وتبـازُهم، وتواصُلهم وتعاوُنهم ، وبذلك دَانَ أهلُ السماء، فلم يختلفوا فيه، ولم يرغَبُوا عنه، ولم يَحتذوا مثالا غيرَه، وبه يَدِينُ

لله الباقون من خَلْقه، المتمسّكون بحقّه الى يوم القيامة ، سنّةٌ مسنونةٌ، وشريعةٌ متبوعةٌ ، لا يَبتغون بها بَدَلا ، ولا يُريدون عنها حِوَلا ، فأهلُ طاعة الله أهلُ سلامةٍ فى دنياهم ، وإخوان كما قال الله عزّ وجلّ فى آخرتهم ، لم تقطع الولايةُ فيما بينهم ، لانقطاع الدنيا عنهم ، ولكن الله وصلها بالآخرة لهم ، لجمعهم فى داره وجِواره ، كما ألّف فى الدنيا بين قلوبهم ، وعَصَم بالإسلام أُلفَتَهم .

تحميـــد

الحمد لله المُثيبِ على حمده وهو ابتداؤه ، والمنعِم بشكره وعليه جزاؤه ، والمثنى بالإيمان وهو عطاؤه .

ولُقمانَ مـــه

الحمد لله الذى أكرم الإسلام وفضّله ، وشرّفه وعظّمه ، وأعلى منزلتَه ، وجعل أهلَه القائمين به ، والحامدين عليه ، أولياءَه وحزبَه الذين قضى لهم بالتمكين ، والظهور على الدِّين كله ولو كَرِهَ المشركون .

ولزيد بن على رحمةُ الله عليه خطبة

الحمد لله الواصل النِّعَم بالشكر ، والشكر بالمَزيد ، حمدَ مَنْ يعلم أن الحمد فريضةٌ واجبةٌ ، وأنّ تَرْكَه خطيئةٌ مُهْلِكةٌ ، وأومن بالله إيماناً نفَى إخلاصُه الشِّركَ ، ويقينُه الشَّكَّ ، وأتوكّل عليه توكُّلَ الواثقِ به ثقةَ أهلِ الرجاءِ ، ومَفْزَع أهل التوكّل .

تحميـــد فى الإسلام

الحمد لله الذى اختار الاسلامَ ديناً لنفسه ، وأنبيائه ورُسُله ، وشرّفه وعظّمه ، وأناره ، وأظهره ، ونزّهه وأعزّه ومنَعَهُ ، ولم يَقْبَل غيرَه ، ولم يَجعل حُسْنَ الجزاء إلا لأهـله ، الذين كتبَ لمن أسعده بالوَلِيجةِ فيه منهم الرِّضْوان والمَغفره والرأفةِ ، وعلى مَن خالفه وابتغى غيرَ سبيله الحَسْرَةَ والندامةَ ، والذِّلة والصَّغار فى الآخرة والأولى ، والمهانة والمَحْيَا ، إذ يقول الله عز وجل ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

والحمد لله الذى اجتبى محمدا صلى الله عليه وسلم بما اصطفاه من نبوّته، واختاره له من رسالته، وحَباه بفضيلته، واجتباه من أفضـل عمائر العرب، وأشرفها مَنْصبًا، وأعرقها حَسَـبًا، وأكرمها نَسَبًا، وأوراها زِنادًا، وأرفعها عِمَادًا، فنعته بالنور ساطعا، وبالحق صادعا، وبالهدى آمرا، وعن الكفر زاجرا، وعلى البيين مُهَيْمنا، وإلى سبيل ربّه داعيا، وبالكتاب عاملا، فبلّغ عن الله الرسالة، وهَدى من الضَّـلالة، وانتاش من الهَلَكة، وأنهج معالمَ الدِّين وأدّى فرائضه، وبيّن شرائعه، وأوضح سُنَنَهُ، ونَصح لأمته، وجاهد فى سبيل الله حقّ جِهَاده حتى أتاه اليقين، صلى الله عليه وسلم.

تحميد لأبى عُبَيْد الله

الحمد لله الذى شرع لاطهار حقّه وإبعادِ سابق قضائه فيمن ذَرَأ وبَرَأ من عباده، بإدحال من أراد أن يُدخلَ فى رحمته، وانجارِ ما حقّ له من العبـادة على حَلْقه، بابتـدائه حلقهم، ومظاهرته الآلاءَ عليهم، وإحسانه اللاءَ عندهم، وإبلاغه فى الحجج إلى عامتهم، ديـنا رَضِيه لنفســه وملائكته الذين أسكنَ سماواتِه ورُسُلِه، فأتمّ على وحه من لم يَرْضَ إلا به، ولم يقبل إلّا إياه، ثم كان ما أعزّ به نفسَه، وأظهر به نوره، وأراد أن يبـلو به عباده، تحقيقا لمـا سَبق به علمُه، وإبعادًا لمـا جَرت به مقاديرُه، أن بعثَ لِمَـا شرَعَ من ديـنه، وآصطفى لتسبيحه وتقديســه من ملائكته المقرّبين، مَنْ ارتضَى واختار من أنبيائه ورُسله المُجتَبين، لتبليغ رسالته وإظهارِ حقّه، وآستِثلاءِ[1] من أراد سعادته من حلقه بالرحمة التى آطلعتْ عليهم وعمّتهم، ليعبَدَ مُخلصا له، محمودا بما استحمد به إلى خَلْقه، مشهودا له بما أشهد به من كلمة الحق، فكان منهم التبليغُ لِمـا أُرسِلوا به، والنصيحة لمن أُرسِلوا إليه، غيرَ مختلفين فيما بُعثوا له، ولا متفرّقين فيما استعملوا فيـه، يدعوهم آخر إلى ما دعاهم إليه أوّل، فيصدّق بَذلك بعضهـم بعضا، ويَهدُون إلى الحق وإلى طريق مسـتقيم، فمضت رسل الله وأنبياؤه على ذلك سالكين منهاجَ الحق وسبيله، والدُّعاءَ إلى الله عز وجل وإلى

(١) الاستثلاء: الانقاد.

طاعته، هادين مَهْدِيين غيرَ محسوسين شيئا مما كانوا أهلّه فى المنزلة عند الله، والقُرْبة منه، والوسيلة إليه، هم وَمن آمن بهم وعزّرهم، واتبع النورَ الذى أُنزل معهم، حتى تقصت بهم الأعمارُ، وتقطعتْ بهم الآثارُ، وتحرمتهم الاحال .

وكذا لأبى عُبَيد الله

الحمد لله الذى جعل الإسلام رحمةً قدّمها لعباده قبل خلقه إياهم، واستيجابهم إياها منه، فاصطفاه لنفسه وشرَعه لهم دينا يَدِينون به، ثم جعل بحبْبَد وحيه ومتابعةَ رُسله رحمةً تلافاهم بها بعدَ تقديمها، ومِنّةً طاهرها عليهم قبل استيجابهم لها، تطوُّلًا على العباد بالنّعماء، وإعذارا اليهم بالحجج، وتقْدِمَةً بالوعد، وإبدارًا إليهم عواقبَ سخطه فى المَعَاد .

والحمد لله الذى ابتعث محمدا صلى الله عليه وسلم بهداه وشرائع حقّه على فَتْرةٍ من الرسل، وطُموس من معالم الحق، ودروس من سُبُل الهُدَى، عند الوقت الذى علم فى سابق علمه ومقاديره، أن يجتبَى لدينه الأصفياءَ، ويختارَ له الأولياءَ، الطاهرين بحقه، القاهرين لمن ابتغى سبيلا غير سبيله، فعظّم حرمته، ووسّع حَوْرتَه، وصدَع بأمره، وجاهدَ عن حقه فى حَوْمات الضّلالة وظُلُمات الكفر، بالحق المبين، والسراج المُنير، ثم جعلَه مصدِّقا لمن سبَقه من الرُّسل ومُجدِّدا لِمَا بُعثوا له وهدًى ورحمةً، ثم جعل لديه وظائف وظفها على أهله، وشرائعَ شَرَعها لهم لا يَكْمُلُ دينُهم إلا بها، وجعل أداءها إليه، واعتصامهم بها إماما لدينه، ونظاما لنوره، وقِوَاما لحقه، واستيجابا لما وَعَد عليه من ثوابه، وأَمْنا لما أوعدَ مَن خالفه من عقابه، فليس يسع أهلَ الإيمان بالله الذين أكرمهم به وأحل لهم فضلَه وأجرَه، وجعل لهم عِزّه وعُلُوّه، واختار لهم العلة والعاقبة على من فارقهم فيه إلا معرفتُها، وأداؤها بما يُستكمل به حدودُها، ومما لها من كذا وكذا .

إبراهيم بن المهدى — صدر رسالة له فى الخميس

الحمد لله الذى اختار الإسلام دينا لنفسه، ورَضِى أن يَعبُدَه مَن فى سمواته من الملائكة المقرَّبين، ومَنْ فى أرضه من النبيِّين والمُرْسَلين، ومَن آمن بالنور الذى هداهم له من الثَّقَلَيْن،

واختار لرسالته فى سابق علمـه ، والد كر الحكيم عبده ، محمـدًا صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه كتابَه وجعل طاعتَه وطاعه نبيِّه صلى الله عليه وسـلم موصولةً بكذا فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

تحميـــد

الحمد لله المتكبر فى جبروته المتعزِّز بسلطانه ، المتعالى فى سمواته ، المحتجب عَن خَلْقه ، فلا تُدْرِكه فى الدنيا أبصارُ الناظرين ، ولا تُحيط به أوهامُ المتوهِّمين ، ولا تبلُغه صفاتُ الواصفين ، الذى لا يؤوده عظيم ، ولا يفوته مطلوب ، ولا يعجزه شىءٌ فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم .

تحميـــد آخر

الحمد لله الحكيم العدلِ ، الذى فَصَلَ بين الحقِّ والباطل ، فبفد قضاؤُه فى خَلْقه ، وحكم فيهم بجرى حكمُه على إرادته ، يَقْضى بالنصر والتأييـد ، والعزِّ والفَلَج ، والتمكين للحق وأهله ، وبالدل والوَقْمِ والخِزْى والصَّغَارِ للباطل وأهله ، وجعل دلك من فضله وحُكْمه عادَةً جاريةً باقيةً ، وسُنَّةً ماضيةً ، لا رادَّ فيما قضى مه لقضائه .

والحمد لله الذى احتص محمدا صلى الله عليه بكراماته ، واصطفمه لرسالاته ، وأنزَل عليه كتابه العـزيز الَّذِى لا يَأْتيـه الباطلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْه وَلَا مِنْ خَلْفه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيم حَمِيـد ، بما أحلّ وحرّم ، ورَضِى وسخط ، وأَمَرَ به ونَهَى عنه ، وجعله خَاتَمَ النبيين والمُهَيْمِنَ عليهم ، وكتابه الذى أنزل ، آخرَ الكُتب المصدّق بها النبى صلى الله عليه وسلم .

تحميد فى الإسلام وما أمتن به على أهله من مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو فى صدر الجهاد

أما بعد ، فإنّ لِدين الله الذى ارتضاه لنفسه ، ولِمَن اصطفاه من خَلْقه ، واجتباه مِن عباده وجعلَه مَعْلَمًا بين الهُدَى والضلالة ، وفُرْقانا بين الحقّ والباطل ، وحاجزا بين الكُفْر والإيمان ، وظائفَ وَظَفَها على أهلها ، وشرائع شَرَعها لهم ، لجعل أداءها إليه ومَعْرفتَها له ، ومحافظتَهم عليها ،

واعتصامَهم بها قِواما لِدينه، ونظاما لنوره وثَباتا لِحقّه، واستيحابا لِما وعَد من ثوابه، وأَمْنا لِما أَوْعَد من عقابه . فليس يَسَعُ أهل الإيمانِ بالله والإقامةِ على حقّه من المسلمين الدين سمّاهم المسلمين بالإسلام، وأحرَز لهم فضلَه وعزّه، وأصار لهم الغَلَبة على مَن حالفهم وفارقهم بما رَكَنوا إليه من الصدود عن سبيله، والتكذيب بكتبه ورسلِه، ودلّتهم فيه قُرَناؤهم، وقادتْهم إليه أهواؤهم، مِنَ المِلَل الضاله، والأديان المجموعه، التى لم يَنْزِل بها مِن الله سُلطانٌ، ولا كتابٌ ولا برهان، إلّا معرفتُها وأداؤها بما يُستكمَل مِن حُدودها ومَعالمها .

تحميد فى الجهاد وما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم

أما بعد، فإنّ الله حلق الخلائقَ بقدرته، وقدّر الأمورَ علمه، وأنفذ على ما مضَى من مشيئته، من غير أنْ يكون له ظهيرٌ فى ملكه، أو مُعِبٌّ على ما يُرَى من عجائب حلقه، واحتذاء مثله على سابقٍ مِن صنعة غيرِه، فوحّد نفسَه بما تفرّد به دون غيره من حَلْقه، ليُعْبَد مُخْلصا مُبرّأ من الأنداد، إتماما لنوره، وتعزيزا لتوحيده، وتأييدا لِدينه، وإعلاءً لمن اعتصم به، وإقلالا لمن حالفه وعَبَد معه وعبَد غيرَه، وإحقاقا لكلمته، فإنه يقول : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ الآية، بذلك أنزَل كُتُبه، وأرسل رُسُلَه . واحتجّ بهم وبما أنزَل إليهم على مَن مضى من القرون السالفه، والأُمم الخاليه، يدعو آخرهم إلى ما سبق إليه أوّلُهم، من عِبادته وتوحيده، لا يستوحشون مِن قِلّه، ولا يؤتون من كثرة، يُعزّهم الله بقوته، ويُؤيّدهم بجنده، ويَنصُرهم وينصُر بهم إلى أن بَعث الله محمّدا صلّى الله عليه وسلّم بما خصّهم به، وجعله مُصَدِّقا لهم، ومُهَيمنا عليهم، وخاتمَ النبيين بعدهم، يمضى لأمر الله، ويجاهد مَن لم يُجبه إلى الدخول فى دين الله، فأظهَره الله وأنار حقّه، وأرهَق عدوّه، وأبجز له ما وعَده وأتمّ بذلك النّعمة عليه وعلى من اتّبعه، فإنّه يقول : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ﴾ .

تحميـــد فى فتح

الحمد لله الفتّاح العليم، الرحمن الرحيم، العزيز الحكيم، الذى أعزّ الإسلام بقُدْرته، وأيّده بنصره، فلم يُلْحِد فيه مُلْحِدٌ، ويَسْعَ فى تشتيت الكلمة وشَقّ العصا ساع، ويُوضِعْ

فى الكفر والمعصية مُوصِعٌ ، و يمتنع من قصائه وإرادته مُمْتنعٌ إلّا أذلّه الله وقصَمه ، وأضرَع خَدّه ، وأتعس حَدّه ، وضلّل سعيَه ، وعَجّل بَوارَه واستئصالَه ؛ حمدا دائما لا انقطاع له ، ولا نفاد لمدّته .

تحميـــد ثان

والحمد لله الذى اختار الإسلام وشرّفه ، وكرّمه وطهّره ، وأظهَره وأعزّه ، وفطَر عليه ملائكتَه ، وبَعث به أنبياءه ورُسُلَه ، واختاره لجيرتَه من خلقه محمّدا صلّى الله عليه ، فبَعثه برسالته ، وأكرَمه بوَحْيه ، واصطفاه على خَلْقه ، بَشّر بالجنّة مَن أطاعه ، ويُنْذِر بالنار مَن عصاه ، وجعله دِينه القَيّم الذى لا يَقْبل دينا غيرَه ولا يُثيب أحدا إلّا عليه .

تحميـــد فى فتح

الحمد لله العزيز فى مَلَكوته القاهرِ فوق بَرِيّته ، الذى خلَق الخَلق بقُدْرته ، وأنفَذ فيهم إرادته ومَشيئته ، وقدّر كلّ شىء وأتقنه وأحكمه ، وأحاط عِلْما به ، فلا يعزب عنه مثقال ذَرّة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين .

صـــدر تحميـــد فى فتح

الحمد لله الذى ابتدع الخلْق لا من شىء ، وجعل الليل والنهار كِفْفا ومُسْتَجَنّا لكل حىّ ، بقُدْرته تَحْرت البِحار ، وجرتْ لمواقيتها الأنهار ، فدار وبطارد الليلُ والنهار ، لا إله إلّا هو ربُّ العرش العظيم .

والحمد لله الذى فات بعظمته أبصارَ المرتئين ، وعلا بمجده عن خَطَرات الحاسبين ، واحتجب بأستار جَبَروته عن مواقع فكر المحصلين المتعمّقين ، فلم تحُوه الكَيْفيّة ، ولم يقع عليه أدوات التحصيل والكَيْفيّة ، ولا أدركه هاجس تبعيض ولا كُلّية ، ولم يُنْسَب إلى زيادة فى حين ، ولا إلى تقصير فى شهور ولا سنين ، فكلّ أمره — عزّ جلاله — تمامٌ ودوام ، وكلّ صفات صنعه اعتدال وكمالٌ ، وكلّ ما دونه يحتكم فيه الفناء والزوالُ ، ليس كمثله شىءٌ وهو السميعُ البصير .

والحمد لله الذى عرّفنا ربوبيّته إلهاما ، ونهج لنا سُبُلَ طاعته مَنًّا وإكراما، وتعبّدنا بفرضه تقويما وتعليما وآمتنانا؛ فقامت عليا وعلَى الخَلْق حُجّتُه ، بالصادع بأمره ، والمُبَلِّغ لرسالته ، والمُجاهد فيه حقّ جهاده ، محمد صلى الله عليه وسلم . والحمد لله الذى أعزّ دينه ، وأظهر تَمْكينه ، ونصر وليّه ، وحذّل عدوّه ، وأوقع بأسه ونَقمته بمحلّ المرية ، وجُرْثومة الضلالة ، ومَناح الشرك ، ومَرْكز الكفر؛ بعد طول الإملاء ، والآعتداء فى سَفْك الدماء ، والمُثْلة بالأُسَرى ، وقِلّة المُراقبة والآرعواء .

تحميد

الحمد لله حمدا يكون رضاه منتهاه ، والمَزيدُ من فضله جزاءه . والحمد لله حمدا اليه يتناهى حمد الحامدين ، وشكرُ الشاكرين . والحمد لله الذى لا تُحْصَى نَعماؤه ، ولا تُجْزَى آلاؤه ، ولا يُكافأ بلاؤه ، ولا يُبْلَغ شكرُه إلّا بمَنّه وتوفيقه ، حمدا يرضاه ويَتقبّله ، ويزكو لَدَيْه ، ويوجب ما تأذّن للشاكرين مِن يَده .

تحميد على فتح

أمّا بعد ، فالحمد لله الواحد القهّار ، العزيز الجبّار ، ذى المَنّ والإنعام ، والجلال والاكرام ، الذى آصطفَى الإسلام دِينا ، وآصطفَى له مِن عباده أهْلا هداهم له ، وأكرمهم به ، وبيّن لهم ما يأتون ، ولم يتركهم فى رَيْب من أمرهم ، ولا شُبْهة من دينهم ، فله الحُجّة البالغة لِيَهْلك مَن هلَك عن بينة ، ويحيَا مَن حيّ عن بينة ، وإنّ الله لَسميع عليمٌ .

والحمد لله الذى ختم بمحمّد صلى الله عليه وسلم النبوّة ، وآنتجبه لتبليغ الرسالة ، وبعثه إلى خَلْقه كافة ، فَبلّغ رسالته ، وصدع بأمره ، وقام فيما بعثه له بحقّه ، ثم أنجز له وعده ، وأتمّ له كَلمته ، وأظهر دين الإسلام به على الدِّين كُلّه ولو كَرِه المُشْركون .

تحميد فى فتح

أمّا بعد ، فالحمد لله الأوّل الآخر ، الظاهر الباطن ، الولِى الحميد ، القوىّ العزيز ، الذى لا يقدُر العبادُ قدرَه ، ولا يُحْصون نِعمه ، ولا يبلغون شكرَه ، المحيط بكلّ شىء علما ،

والمُحْصى كلّ شيء عـددا. فلا يُعْجزه كبير، ولا يعرب عنه صغير، والأرضُ جميعا قَبْضَتُه يوم القيامة، والسموات مطويّات بيمينه، سبحانه وتعالى عمّا يشركون .

تحميـــد

الحمد لله المتوحّد بالخلق والأمر، قادرا قاهرا أحاط بكلّ شيء علما، وأحصَى كلّ شيء عددا، ومَلَأَه عَظمةً، ووَسِعه عَدْلا، وأتقنه صُنْعا. والحمد لله الذى أَعزّ بالحقّ مَن أطاعه، وأذلّ بالباطل مَن عصاه، وجعل الطاعه والجماعة حِرْزا حَرِيزا، وموئلا مُنِيفا؛ فلم يجمع بين أهل كفرٍ وإيمان، وطاعةٍ وعِصْيان، إلّا توحّد بالصنع لأهل طاعته، وأنجح سَعْيهم، وأعلَى كَلمتهم، وأفلَج حُجّتهم، وأنزل بأهل الكفر المُعاندين عنه، الرادّين لأمره الذِّلّة والصَّغار فى عاجلهم وآجلهم، حمدا يكون لمَزيده موجِبا، ولحقّه مؤدّيا .

تحميد فى فتح لسعيد بن حُمَيْد عن وصيف

أمّا بعد، فالحمد لله الحميد المَجيد، الفعّال لما يريد، الذى خلق الخلق بقدرته، وأمضاه على مشيئته، ودبّره بعلْمه، وأظهر فيه آثار حكمته التى تدعو العقولَ إلى معرفته، وتشهَد لدوى الألباب بربوبيّته، وتَدُلّ على وحدانيته؛ لم يكن له شريكٌ فى ملكه فيبازعَه، ولا معينٌ على ماخلق فتلزمَه الحاجة إليه، فليس بتَصرّف عباده فى حال إلّا كانت دليلا عليه، ولا تقَع الأبصار على شيء إلّا كان شاهدا له، بما رسم فيه مِن آثار صُنْعه، وأبان فيه من دلائل تدبيره، إعدارا بحجته، وتطوّلا بنعمته، وهداية إلى حقّه، وإرشادا إلى سبيل طاعته، وهو الذى يَبْدأ الخلق ثم يُعيده، وهو أهون عليه، وله المَثَلُ الأعلى فى السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم .

والحمد لله العزيز القهّار، الملك الجبّار، الذى اصطفى الإسلام واختاره، وارتضاه وطهّره، وأعلاه وأطهره، بجعله حُجّة أهله على مَن شاقّهم، ووسيلتهم إلى النصر على [مَن] عَند فى حقهم، واستغنى عن سبيلهم. وبعث به رُسُلَه يدعون إلى حقّه، ويهدون إلى سبيله،

بالآيات التى يميّزون بها عن المخلوقين، ويوجبون بها المحجّة على المحالفين، حتى آنتهتْ كرامة الله إلى خاتم أنبيائه، وحامل كتابه، ومفتاح رحمته صلى الله عليه وسلم؛ على حين فترة من الرسل، وآختلاف من المِلَل، ودثُور من اعلام الحقّ، وآستعلاء من الباطل، والناس عاندون عن سبيل ربّهم، يَتسافكون دماءَهم، ويُحلّون ماحرّم الله عليهم، ويعبدون من دون الله مالا يَضرّهم ولا ينفعهم، وأيّده بالبرهان الواضح، والحُجَج القواطع، والآيات الشواهد؛ وأنزل عليه كتابَه العزيزَ الذى لا يأتيه الباطل من بين يَدَيْه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد، وجعل فيه أوضح الدليل على رِسالته، وأعدلَ الشواهد على نُبوّته، إذ عجز المخلوقون عن أن يأتوا بمثله على مَرّ الأيام، وكثره الأعداء والمنازعين، تحدّاهم به فى المواسم، ويقصِدُهم بحُجّته فى المحافل، ولا يزدادون عنه إلّا حُسورا وعجزا، ولا ترداد حُجّة الله عليهم إلّا تظاهرا وعلوا؛ ثمّ أيّده بالنصر بأنصارٍ ألّف بينهم بطاعته، وجمعهم على حَقّه، ولَمّ شَعَثَهم بنُصْرة دِينه، بعد الشِّقاق المُتَّصل بينهم، والحربِ المُفرِّقة لجماعتهم؛ كما قال عزّ وجلّ: ﴿هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾. وقدّم اليه وعْدَه بالنُّصرة والتمكين، بجعله بُشْرى للؤمنين، وحُجّة على الكافرين، ودليلا على ما بعثه به من الدِّين، فهزم بالقليل من عددهم الكثير من عدد أعدائهم، وغلب بضُعَفائهم أهلَ القوّة ممّن ناوأهم، فذلّ به حدّهم، وفضّ جموعهم، وآفتتح حصونَهم، وحَرِزَ معاقلهم، وأظهر بحجّته ونَصْره عليهم. وأنجز سابق وعده لهم وفيهم، والله لا يُخْلِف الميعاد.

تحميـــد لابن المقفع

الحمد لله ذى العَظَمة القاهرة، والآلاءِ الطاهره، الذى لا يُعْجِزُه شىء ولا يَمْتنع منه، ولا يُدْفع قضاؤه ولا أمرُه، ﴿وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. والحمد لله الذى خلق الخلق بعِلْمه، ودبّر الأمور بحُكْمه، وأنفذ فيما آختار وآصطفى منها عزمَه، بقدرة منه عليها، ومَلَكَة منه لها، لا مُعقِّب لحُكْمه، ولا شريك له فى شىء من الأمور، يخلق ما يشاء ويختار. ماكان للناس الخِيَرة فى شىء من أمورهم، سبحان الله وتعالى عمّا يشركون.

والحمد لله الذى جعل صَفْوَة ما آختار من الأمور دينَه الذى آرتضىَ لنفسه ولمن أراد كرامتـه مِن عباده، فقام به ملائكتُه المقربون، يُعظّمون جلاله، ويُقدّسون أسماءه، ويذكرون آلاءَه، لا يَستحسرون عن عبادته ولا يستكبرون، يُسبّحون الليـلَ والنهارَ لا يَفترون؛ وقام به مَن آختار من أنبيائه وخُلَفائه وأوليائه فى أرضه، يُطيعون أمرَه، ويَذُبّون عن مَحارمه، ويُصدِّقون وَعْده، ويُوفون عهده، ويأخذون بحقّه، ويُجاهدون عدوَّه؛ وكان لهم عند ما وعَدهم مِن تصديقه قولَهم وإفلاحه حجّتهم، وإعزازه دينَهم، وإظهاره حقّهم، وتَمكينه لهم؛ وكان لعدوّه وعدوّهم عنـد ما أوْعدهم من خِزْيه. وإحلالِه بأسَهم، وآنتقامه منهـم، وعصبه عليهم، مضَى على ذلك أمرُه، وبعد فيـه قضاؤه فيما مضَى، وهو ممضيه ومنفذُه على ذلك فيما بَقِى. ليتم نورَه ولو كَرِه الكافرون، وليُحِقّ الحقّ ويُبْطِلَ الباطل ولو كَرِه المجرمون.

والحمد لله الذى لايَقْصِى فى الأمور ولايُقَدِّرها عبثُه، ابتدأها بعلْمه، وأمضاها بقُدْرته، وهو وليّها ومنتهاها، وولىّ الخيرَة فيها، والإمضاء لمـا أحبّ أن يُمْضِىَ منها، يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرَة سبحان الله وتعالى عمّا يُشْركون.

والحمد لله الفتاح العليم، العزيز الحكيم، ذى المَنّ والطوْل، والقدره والحَوْل، الذى لا يُمْسك لمـا فتح لأوليائه من رحمته، ولادافع لمـا أنزل بأعدائه من نَقْمته، ولاراد لأمره فى ذلك وقضائه يفعلُ ما يشاء، ويَحْكم ما يُرِيد.

والحمـد لله المُثيبِ بحمده ومنه ابتـداؤه، والمُنْعِم بشكره وعليه جزاؤه، والمُثْنى بالإيمـان وهو عطاؤه.

لآخـــر

الحمد لله الذى يَتطوّل بالنعم مُبْتدئا، ويُعْطى الخيرَ مَنْ يشاء ويُثيبُ عليه.

تحميد لغسّان بن عبد الحميد

كاتب جعفر بن سليمان فى المطر .

الحمد لله الذى نشر رحمته فى بلاده، وبسط سعته على عباده، الذى لا يزال العبادُ منه فى رزق يَقْتسمونه، وفضلٍ يَنْتظرونه، لا يَقُصُه ما قبله، ولا يَنْقضى ما بعده .

لأحمد بن يوسف فى فتح السِّند

الحمدلله وَلِىّ الحمد، وأهلِ الثناء والمجد، خالقِ الخَلْق، ومُدَبِّرِ الأمر، المسبغ على عباده والمُوجِبِ عليهم مُحَتّه، فليسوا يرجون إلّا سعةَ فضله ، ولا يَحْذرون إلّا ما احترحوا من مَعْصيته ، لما سبق من جَزيل إحسانه، وتظاهر من امتنانه، وتقدّم به الإعذارُ والإنذارُ اللذان لا يَستحِقّ بما عطُم منهما إلّا مَن استحوذ عليه الشيطان، واستولَى عليه الخذْلان، وقاده الجَيْن الى موارد الهَلَكة .

التحميد الثانى

الحمد لله الذى اصطفَى الإسلام دينا فطَهّره وأسّاه ، وأطهره وأعلاه، وزيّنه بكلّ حَسَنة، ونَفَى عنه كلّ سيئة، وجعله الى مَذْخور كرامته سببا واصلا، وسبيلا نَهْجًا، وبعث به محمدا صلى الله عليه وسلم لِيَهدىَ مَن كان حيّا، ويَحِقّ القولُ على الكافرين .

تقريظه فى الخليفة

الحمد لله الذى اصطفَى أمير المؤمنين لخلافته، وتَلافَى الأمه بسُلطانه، بجعله القائم فيهم بقسطه، والمُستفرِغَ فى التماس مصلحتهم هِمَّه .

لأحمد بن يوسف

عن دى الرياستين الى ابراهيم بن إسماعيل بن داود صدر فتح :

أما بعد ، فالحمد لله الذى حفظ من دينه ما ضَيّع الملحدون، ورَأَب منه ما [فرقته][1] الصدْعة، وأعاد من حبله ماحاولوا نقصَه، حتّى أعاد لعباده أحسن أُلْفتهم، وردّ اليهم أجمل

(١) بياض فى الأصل . وما أثبتناه يناسب المقام .

عَوْدهم، من الاستشلاء بعد التردّى فى لُجَم المعاطب، والاستقادِ بعد التوريط فى المهالك؛ و بلّغ حليفته القائم بحقّـه، المُؤْتمّ بكتابه، الذائد عن حَريم الدِّين، وميراث النبيين، أجزلَ ما بلّغ لخلفاء الراشدين المهديّين، مِن إعلاء الكَلِمة، وغَلَبة الأعداء، والفوز بالعاقبـة التى وعَدها المتقين؛ وفرغه لمـا أشعَر قلبه، وشرَح له صدرَه، من إمضاء حُكْم الفرائض المُوجَبَة، واقتفاءِ السبل الهادية، حيث سلك به مِن المناهج، حمداً توازى نِعمه، و يبلغ أداء شكره، و يوجب مزيده.

والحمد لله على ما خصّصا به من إعلاء الدرجة، و إسناء الرتبه، فى مشايعة أمير المؤمنين — أيّده الله — والمُجاهدةِ عن حقّه، والوفاءِ لله بما عقَده له، لا يريد بما كان منّا إلّا وجهَه، ولا نسعَى فيه إلّا لرضاه، حمدا لايُحصَى عدده، ولا يَنْقطع أمدُه.

تحميد لأبى عبيد الله

أمّا بعد، فالحمد لله ذى الآلاء والقُدْرة، والطوْل والعزّه، الذى اصطفَى الإسْلام دِينا لنفسه، وملائكته وأنبيائه ومن كَرُم عليه مِن خلقه؛ وبعَث به محمّدا صلّى الله عليه وسلم اختصاصا له فى ذلك بكَراماته، واصطفاءً له به على عباده، فأعزّه ومنعه، وكفاه وحاطه، وتَوكّل لأهله بالعلم والتمكين، والظهور والتأييد، فلم يُلْحد فيه ملحد، ولم يَزِغ عن قبول حقّه زائغ، بعد إصدار الله إليه، و إعادةِ الحُجّه لله عليه، إلّا أنْزل به من الذلّ والصَّغار والاجتياح والاستئصال ما يجعل له فيه قمعا، حمدا كثيرا دائما مُرْضيا له، مُؤمّا من غيره، وحيا لأفضل مزيد ثوابه.

تحميد لسعيد بن حُمَيد فى فتح

أما بعـد، فالحمد لله المُنْعم فلا يبلغ أحد شُكرَ نعمته، والقادرِ فلا يُعارَض فى قدرته، والعزيزِ فلا يُغالب فى أمره، والحكمِ العدْل فلا يُرَدّ حكمُه، والناصرِ فلا يكون نصره إلاالحقّ وأهله، والمـالكِ لكل شىء فلا يَخرج أحد عن سلطانه، والهادِى إلى سـبيل رحمته فلا يَصِلّ من انقاد لطاعته، والمُقدِّمِ إعدادَه لِيُظاهِر به حُجّته، الذى جعل دِينه لعباده رحمة، وحلافته عصمة، وطاعةَ خُلفائه فرضا واجبا على كافّة الأمم، فهم المُستحفَظون فى أرضه

على ماعث به رُسله ، وأُمناؤه على حلقه فيما دعاهم إليه من دينه ، والحاملون لهم على مناهج حقّه ، لئلا تُشْعَب بهم الطرق المخالفةُ لسبيله ، والهادون لهم إلى صِراطه ليجمعهم على الحادّة التى نَدب إليها عباده ، بهم حُمِى الدين من البُغاة الطاعين ، وحُفِظت معالم الحق من الغواة المخالفين ، مُحتجّين على الأمم بكتاب الله عزّ وجل الذى آستعملهم به ، ورُعاةً للأمر بحق الله الذى آختارهم له . إنْ جادلوا كانت حُجّة الله معهم ، وإنْ حاربوا فالنصر لهم ، وإنْ جاهدوا كان فى طاعته الله نصرُهم ، وإنْ ضاهم عدُوّ كانت بكاية الله حائلةً دونهم ، ومُعقِلا لهم ، وإنْ كادهم كائد فالله فى عونهم ، نصبهم الله لإعزاز دينه ، فمن عاداهم فإنما عادَى الذين عزّهم وحُرس بهم حقّه ، ومَن ناوأهم فإنما طعن على الحقّ الذى تكلؤه حراستُهم ، جيوشُهم بالرُّعب منصوره ، وكفائبُهم بسلطان الله من عدوّهم مَحوطه ، وأيديهم بذبّها عن دين الله عالية ، وأشياعُهم بتناصرهم غالبةٌ ، وأحراسُ أعدائهم ببغيهم مَقْموعةٌ ، وحُجّتهم عند الله وحُلقه داحضةٌ ، ووسائلهم إلى النصر مردودةٌ ، وأحكامُ الله بخذلانهم واقعةٌ ، وأقدارُه بإسلامهم إلى أوليائه جارية ، وعادتُه فيهم وفى الأمم السالفه والقُرون الخالية ماضيةٌ ، ليكون أهل الحق على ثِقَه من إنجاز سابق الوعد ، وأعداؤه محجوجين بما قَدّم إليهم من الإنذار ، مُعَجّلة لهم نِقْمة الله بأيدى أوليائه ، مُعدّا لهم العذاب عند ردّهم إليه خِزْيا موصولا بمواسيهم فى دُنْياهم ، وعذابُ الآخره من ورائهم وما الله بظلام للعبيد . وصلّى الله على محمّد أمينه المصطفَى ، ورسوله المرتضَى ، والمنقذ من الضلالة والعمى ، صلاةً نامية بركاتُها ، دائما آتصالُها ، وسلّم تسليما .

والحمد لله تواضعًا لعظمته ، والحمد لله إقرارًا بربوبيته ، والحمد لله اعترافًا بقصور أقصى منازل الشكر عن أدنى منزلة من منازل كرامته .

فيما يُقَرِّظ به الخليفة

والحمد لله الذى حاز لأمير المؤمنين وِرَاثته ، وساق اليه خِلافتَه ، بالحاجة منها إليه ، والرغبةِ منه عنها ، وآستخلص من خَلْقه مَن حمله ظَهِيرا للحوادث ، وعُدّة للنوازل ؛ فلما

أفضتْ الخلافة إليه حسر أمامه أحاجلته[1]، وكشف قِناعه لمُحاربته؛ فالحمد لله الذى اختص أمير المؤمنين بخلافته، وآرتضاه لولاية أمرِ أمّة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، والقيام بحقّه، والدبّ عن حُرُماته، وحاط له ما آسترعاه من ذلك، وقلّده بحسن الولاية والكفاية، وتوكّل له بالحفظ والتأييد، والنصر والغلبة والظهور على مَن عَنَد عن طاعته، وصدَف عن حقّه، وآبتغى غيرَ سبيله، كرامة من الله تطوّل بها عليه، ومِنّة منه توحّد بها له.

والحمد لله الذى جعل بيّة أمير المؤمنين عَزيمته، وفِكْره ورَويّته، مد أفصى الله بالخلافة إليه، وحمله القائم بإرث نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم وآستحفظه من عباده وبلاده فيما فيه عِز الدين، وبِطام أمر المسلمين وترهيبُ الشكر، وإذلالُ الأعداء، وإشحاؤهم ووقمُهم، وتحصين البَيْضة، وإشحانُ الثغور، ولمُّ المُنْتشر، وصمّ الأطراف؛ لا يَفْتَاه عن ذلك فائ، ولا يَذْهَله عن تفقّد كبير أمره وصغيره ومقاتلته ذاهلٌ، يستقل كثيرَ ما يُنْفق من الأموال فى سَدّ الثغور، وتحصينها وحراستها، لما يرجو فيه من جسيم الحظّ، وجَزيل الذُّخر، وكثير الأجر؛ تقرّبا الى الله وآحتسابا له فى جنْب ثوابه، وكريم مآبه، حتى رأب به الصدْع، ورتق به الفتْق، وأمن به السُبل، وأقام به العِوَج، وأفلج به الحُجج، وأعلى به الدرَج، وأرهق به الباطل، وأحيا به الحق، وأشام به سيوف أهل الضلالة والفِتْنة، لا تأخذه فى القيام بحقّ الله والانتصار لدينه، والانتصاح لأمة نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم، والذبّ عن حوزتهم، والرمى من ورائهم، ودفع نائقة أهل الشّقاق والنفاق والخلاف والمَعْصيه عنهم فَترةٌ ولا سآمةٌ، توفيقا من الله، وتسديدا لحُرْمته، وتأييدا لعزْمه، إذ كان لله شاكرا، ولدينه ناصرا، وبحقّه قائما؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلّا بالله وحدَه، عليه يتوكل وعليه يتوكل المتوكلون.

والحمد لله الذى لم يزل منذ أفضى الى أمير المؤمنين بخلافته، وحيّاه بكرامته، يَختصّه بالخيرَة فى كل ما أمضَى من أمره، ويتولّاه بالتوفيق فى كلّ ما أبرَم من تدبيره، ويَجمل عنه

(١) هكذا وردت فى الأصل. ولم نوفق الى تحقيقها.

أعباء ما حمّله ، ويُعينه بتأييده على ما قلّده ، ويحوطه بحميل الصنع فيما ولاه واستحفظه ، ويُلهمه جهاد عدوه ، ويحوه بنصره ، حمدا قاصيا لحق نعمته ، مُوجبا أفضل مزيده .

والحمد لله الذى أورث أمير المؤمنين مواريثَ نُبوّته ، وصيّر اليه مقاليد خلافته ، وأوجب ذلك له بالقرابه برسوله صلى الله عليه وسلم ، والوراثة لوراثته من عُصْبته وأَوْلَى الناس به ؛ ثم أعزّ نصره ، وأعلى كلمته ، وأفلج حُجّته ، وأظهر على المشركين والمنافقين ، ومن حادّه وعانده من الناكثين والمارقين ، والباغين والملحدين ، فاتعس حدودهم وفعل وفعل .

والحمد لله الذى عَرّف أميرَ المؤمنين مدد استخلفه فى أرضه ، وآثمه على خَلْقه ، من عظيم نِعمه ، ولطيف صُنْعه ، وجميل بلائه ، واعزاز نصره ، واعلاء بنده وكلمته ، وإفلاج حُجّته على مَن صاده وحادّه ، إنّ الله بعظيم طَوْله ومَنّه ارتضى أميرَ المؤمنين لدينه ، واصطنعه لخلافته ، فملأه سِرْبالها ، وردّاه بهاءها وجمالها ، فاستعمله بالكتاب والسنة والحقّ والعدل فيها ، فأيّده بقوّته ، وأعزّه بنَصْره ، وحاطه بكفايته ، وتولّى الصُّنع له فى جميع أموره ، فلم يَكِده كائد ، ويُعانده مُعاند ، ويَعْرُفْ عن طاعته الواجبة مارق ، ويُلْحِد فى إمامَته مُلحد ، ممّن يُعالِن بمعصيه وشِقاق ، أو يَنْطوِى على عِلّ ونِفاق ، إلّا أوهَن الله كيده ، وأتعس جَدّه ، وعاجل المُبادئَ بعداوته ، الشاهرَ على الدِّين والمسلمين سيفه ، باصطلام وبَوار ، وأمكن منه بذلّة وصَغار ، وقتل المسرّ عيره ، المُنْطَوِى على علّه بَغْيظه وغَمّه ، وأماته بدائه وحَسْرته ، إنجازا منه حلّ شاؤه لوعده ، وإتماما لكَلِمته فيما وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من استخلافهم فى أرضه ، والتّمكين فى دِينه ؛ وله الحمد دائما ، والشكرُ خالصا ، كما هو أهلُه وكما يَنبغى أن يُحمد ويُشكر ، لا إله إلّا هو الواحد القهار .

والحمد لله الذى لم يُبْقِ لأمير المؤمنين عدوّا من الناكثين والحادين ، والمشركين والمنافقين ، حاولَ نقضا لإمامَته التى صيّرها الله اليه ، وقلّده إيّاها ، أو صاول جيشا من جيوشه التى أعدّها للُحاماة عن دِين الله ومَحارمه ، وإقامة سننه ومَعالمه ، إلّا أحلّ به النّقمة ، وأصاره الى الصَّغار والذِّلة ، والبوار والهَلَكة ، وعجّله الى ناره وعذابه .

والحمـد لله الذى لم يزل يتولّى أمير المؤمنين بحياطتـه ، ويتوحّد له من إعزاز نصره وإعلاءِ كَلِمته ، وإفلاج حُجّته ، وتأييد أوليائه وأنصار حقّه ، وأنزل الباس والنِّقمة والمُثُلات والسطوة بمن عانده ، والذَّبّ عن حريم المسلمين وأهلِه ؛ بما يُبَيّن به عن مكانه منه ، ومنزلته عنـده ؛ حميدا ربّنا بذلك كما هو أهلُه ومستحقُّه ، مشكورا بعظيم منّه فيه وطَوْله ، مسؤلا لتمـام أحسن عائدته وماصِى سـنّته ، فإنّ الله المحمودَ على نعمه ، المشكورَ بآلائه ، لم يزل مايتوحّد به لأمير المؤمنين سلطانه من التعزيز ، وفى أوليائه من التأييد بنصره ، عادة يَتَبيّن بها برهانه ، ويُفْلِج بها حُجّته ، ويَدُلّ بها على كرامته عليه ، ويُخبر بها عن منزلته عنده ؛ ويجعل ما نزل بأعدائه المتولّين عنـه ، الزاغين إلى غيره ، المُلْحدين فى حقّه ، عِظَة لمن قسا قلبُـه ، وران عليه سوءُ عمله ، ليكون مايُعطيه من البسط فى مُلْكه ، والتمهيد فيما خوّلَه له ، ويُوفّقه من السطوة بعدوّه ، والتنكيل بمن حالفه ، حُجّتين متظاهرتَين ، وعبرتين (١) عبن ؛ فيعتصِم مُعْتصم ، ويهجو ناجٍ ، وليشْجُبَ (٢) [شاجب] ويَهْلك هالك ، وقد مضتْ من الله المشيئة ، ووضح منه الإعذارُ ، وكان الله بعباده عليما ، وبأعمالهم خبيرا .

والحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بخِلَافته : وحمله وارث وَحْيه ، وقيِّمَه بكتابه فى عباده ، وأكرم هذه الأمة التى جعلها خير أمة أُخْرِجت للنـاس به ؛ فهو الميمون فى تدبيره المنجح حَوِيلُه ، الميمونُ النقيبة ، المُوَفّق الرأى والسياسة ؛ فإن الله عز وجل خلق الخـلائق بقدرته ، وآختارهم بعلْمه ، فاختار أمير المؤمنين لخلافته ، وآصطفاه للقيام فى العباد والبلاد بأمره وقِسْطه ، وألهمه إقامة أحكامه وفرائضه ، والعملَ بحقّه وعدله ، وألْبَى أهل الشرك به ، وأخّرها الى أيام دولته ، وحظّرها عمّن كان قَبْله ؛ حتّى حاز له أجرها ، وأبقَى له سَناءها وذِكرها ، ونشر عنه أُحْدوثتَها وسماعها ؛ وفتح عليه البُلدان القاصية ، والمدائن المُتنائية ، التى لم تكن تُرام من أهلها ، ولا يُطمَع فى زوالها ؛ وذلّت له الملوك القديم عُتُوُّها وعنادُها ، والأمُم المُسْتصعبُ مراسها وجهادها ، الحاميةُ فى آباد الدهور رِماحها ؛ فأنفذ فيهم مَكيدتَه ، وأنجح

(١) كذا فى الأصل ، ولعلها بالعتبى . (٢) كذا فى الأصل ، ولعلها وليشحب .

سَعيَه، ورماهم بالتحويف، وملأ قلوبهم رُعْبا مه ؛ فأذعن مُدْعِوهم بطاعته ، وانقادوا لأمره، وصاروا يدا وأعوانا لأوليائه على أعدائه .

أما بعـد، فإنّ أعظم النعم قَدْرا، وأحلّها أمرا، وأسرّها مَوْقِعا، وأوجبها شُكْرا، ما عمّ الإسلامَ والمسلمين نَفْعُها ، وعادتْ عليهم عائدتُها ، وحعل الله فيـه عزّ الدين ، وذُلّ المشركين ؛ وقد جعـل الله ذلك فى حِلافة أمير المؤمنين أطال الله بقاءه بيمـه وبركاته ، وما أحلص الله من نيّته وطاعته ، وتأدية حقّه فيما استحفظه من أمر دينه وعباده ، وفرع له نفسَه ، وأنصب فيه بدنَه ، وأسهر فيه ليلَه ، من حِياطة حريم الإسلام ، والزياده فى حدودها مُتّصلا مُتتابعا ، والنعم متظاهره ومُتوافرة ، فسهّل الصعب ، ودلّل له العـزيز ، وقصَم عُتاة الأعداء ومتكبريهم ، والمستعصين والمستصعِبين منهـم ، فى آباد الدهور على من رامهم ، وفتح عليهم حصون مدائنهم ؛ وممتنع قلاعهم ، وأنفذ مكيدته فيهم ، فبَيْن مقتول ومأسور ، وشريد طريد عن مَحلّته ، وموضع عزّه ومَنَعته ، مُستسلِم مُعْطٍ قِيادَه باحع بطاعته ، وكذا فإنّ الله بمنّه وطَوْله قد أوصل لأمير المؤمنين من صُنْعه له فيما قلّده من حلافته ، وحِياطته إياها فيما يَحوطه من دِينه ، وعرّفه من كِفايتـه فيما قام به من حقّه ، وأيّده من نَصْره فيما جاهد عنه فى سبيله ، ما قد جعـل النِّعمة به عامة ، والشكرَ به لازما ، وامّة به واجبة ، والصُّنعَ عظيما ، فالحمد لله على بِعمه فى ذلك كثيرا .

والحمد لله الذى جعل اجتهاد أمير المؤمنين ومُقامَ أمره وتدبيره ، فى آناء الليل ونهاره ، فيما فيه صلاحُ عباده ، وإعزازُ دينه وإقامةُ حقّه .

تحميـــد

الحمد لله الذى لمّا افترض من الطاعة لوُلاة الأمر من خُلفائه جعل أوائلها ناطقةً عن فضل أواخرها ، وبوادئها مُخْبِرةً عن حِيد عواقبها ، وموارِدَها مُبَشِّرةً بالعلوّ فى مصادرها ، بما يَعْقُبه أهلُها من السعادة فى الماضين من أوليائها القائمين بحقّها ؛ وعاد من الشِّقوة على مُقارِفى المَعْصية المُلْحدين اليها ؛ حين أقبلت بهـم هوادِى الفِتن ، وكشفت لهم تَوالِيها عن البَوار

والهَلَكة ، مُعْتدرين حين لا عذر ولا حُجّة، طالبين للهارب بعد أن كانت مازلُ السلامة بهم مُطمَئِنّة، وحائفين وقد كانت سُبُل الأمن لهم واضحةً ؛ قد جعلتهم النِّقمة الواقعةُ بهم أمثالا سائرةً، وفرقت بينهم و بين النِّعم الشاملة، وحصَلت السعاده لمن آتعظ بهم باقيةً، سنّة من الله فيهم ماضيةً، وعادة جاريةً، ولن تجد لِسنّة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا.

والحمد لله الذى آختار أمير المؤمنين لخلافته فحرس به دِينه من البُغاه الناكلين عنه ، وآختصّه بأعلاء رُتب كرامتــه ، وآفترض طاعتَه على عباده، وجعلها بمواقعها فى دِينه نظاما لسائر فرائضه، فتاركها مُفارق لِبعضمه حقّه، جارحٌ من جملة الأمّة التى سبقت لها رحمتُه، يستنصر أشياعَ الباطل والله حاذلُه، ويُغالب الحقّ والله غالبُه، ويَطلب مالا سبيل له اليه والله طالبُه، حتّى بَجليجه أجلُه عن أمله ، وأقدارُ الله فيه عن تقديره، وبعودُ قضاء الله فيه عن نفوذ حِيَله، فصلّا من الله على أوليائه وقصاصاً منه عدْلا فى أعدائه، والله ذو الفضل العظيم.

والحمد لله الذى آختار أمير المؤمنين لرِعاية عباده، وحِفظ بلاده، وتنفيذ أحكامه، وإقامةِ حدوده، لجمع به الأُلفة، وكفّ به بَوائق الفِتْنة، وأصلح به أمور الأمّة، وسكّن به الدهماء، ودفع به عظيم البلاء ، وأنقذ به من الجُهْد واللأْواء ، وجدّد لرَعيّتــه العبَر الشافية، والعِظَه الباهية، وجعل همّه السعىَ لربّه، وطلبَ الحق الذى أوجبه له من خِلافته، ليؤدّىَ فرضه فى الأمانة التى حمّلَها، فيُوجب له بذلك مالا يَزول ولا يَنْقطع من ثوابه، فأَحمَل رأيه فى الرأفة بمن ولّاه أمره، والحِياطة له، والعِناية بصلاحهم ، فأعطاه لِين الموعظه فى وقت التانى ، والنفوذَ لإقامة الحُجّه والبيّنة، وشِدّةَ السطْوةَ على مَن عمَط النعمة وعَنَد به الإصرار عن الرُّوع والفَيْئَة ؛ مَنّا من الله وتفضلا، و إحساناً وتَطَوُّلا، والله ذو فضل عظيم .

و يسأل اللهَ أميرُ المؤمنين مُبتدئا ومُعَقِّبا، وأوّلا وآخرا، وقــل كلّ مسئلة، وأمام كلّ رغبة، ومُقدّمةَ كلّ طَلِبة، أن يُصلّىَ على صفوته من عباده، وخيرته وخاتَم أنبيائه ورُسله، محمدٍ عبــده ورسوله، أفضلَ صلواته، و يُبارِكَ أكثرَ بركاته، وأن يُديم له كرامته، ويُجرىَ عنده أجمل عاداته، و يُتمّم له ما آختص به من إحسانه ؛ حتّى يملأ الأرض عَدْلا وقِسطًا،

والإسلامَ تأبيدا وعِزّا، والشّرك ذُلّا وقَمْعا، إنه ولىّ كلّ نِعمة، ومنتهَى كلّ رَغبة، وغايةُ كلّ حاجة .

ولم يزل أمير المؤمنين منذ الوقت الذى أفضَى الله اليه بخلافته ، وأكرمَه بردّ حقّه من إرث نُبُوّته، يتلقّى عظيمَ النعمة فى ذلك بالإخلاص للبيّنه والطّوِيّة فى الصفح عن كلّ زَلّة ، والإقالة لكلّ عَثْره، والتعمد للهَفْوه وقبول الفَيْئة ، والإنابه ممن عظُم جرمُه، وجلّ ذنبُه ، وطنّ أن لا توبةَ له ، وكلما حدّد الله له نعمه ، حدّد له فى ذلك نيّة حَسَنه ، شكرا لله عزّ وجلّ على ما ابتدأه به، وارتهانا لِنعَمه عنده، واسترادةً من جميل مَواهبه، وتقديم الاهتمام بما فيه صلاح رَعيّته، واستقامةُ أمورها ، وحِياطتُها والذّبُّ عنها، وكَفُّ الأذى والمكروه عن الدانى والقاصِى منهما ، ويتحلّص إلى ذلك بكل ما يَجِد اليه السبيلَ ويجتهدُ فيه، ويعمَلُ لكثرة أوقات دهره فى كلّ ما لمّعه نَحَّته نظرا لها، وحَدَبا على كافّتها، وإشفاقا من سوء حالها ، إذ كان لها والدا بَرّا، وراعيا كالئا، وناظرا لطيفا، ويستعمل كلّ ما يرجو ائتلافَها ، والإبقاءَ على أحوالها ، والسلامةَ لها فى دِينها ودُنياها، ويصَب لذلك ليله ونهارَه، ويُديبُ فيه نفسه، ويجعله شُغلَه دون غيره .

والحمد لله الذى اصطفَى أمير المؤمنين بخلافته ، وأكرمه بإرث نُبُوّته ، وجعل خلافتَه خلافةَ يُمْن وبركة ، ولطفٍ وسعادة ، انتاش بها أولياءه من موارد الهَلَكة فرفع منزلتهم ، وشرّف درجتهم ، وأعلى كَلِمتهم، وأدلّ بها أعداءَهم، وحدّ دوارهم، وردّ دائره السوء عليهم، وحباه مَزيّة نَصْره وتمكينه، وإعزازه وتأييده، وإظهاره على من ناوأه وعَنَد عن حقّه ، وصدَف عن طاعته ، فإن الله لمّا اختار أمير المؤمنين لخلافته فأيّده بها ، جعل الحقّ نِيّته ، وإعزازَ الدِّين غُيْته ، ومجاهدةَ أعداء الله شرقا وغربا وبرا وبحرا نَهْمَته وإرادته ، ثم يسره فى ذلك لما أحسن به عونه ، على من استحفظه وقلده ، فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم .

والحمد لله الذى كان لسابق علمه وسالف قضائه، الذى لا يستطيع الناسُ ردّه، ولا مَنْعه ولا صَرْفه، مَا وَلّى أميرَ المؤمنين من خلافته، وما ابتعثه له من الصبر لِدِينه، والطلب لحقّه، والجهادِ لأعدائه، وأحس فى ذلك عَوْنَه فيه وبلاءَه، وأيّده فى نفسه، لم يَنْقُصه خِذْلان خاذل، ولا مخالفه مَن خالفه، ولم يزد أمرُه فى شىء من ذلك إلّا تماما وإحكاما؛ حتّى أظهر حقّه، وأفلج حُجّتَه، ومحَق باطل أعدائه، وأدحض حججهم؛ وجعل أهل طاعته حزبه العالين، وجُنْده المنصورين، وجعل عدوّه وعدوّكم حزب الشيطان الخاسرين، وأولياءَه الأذلّين، بغير حول من أمير المؤمنين فى شىء مما ولّاه وأبلاه، ولا قوّة إلّا بالله العلىّ العظيم.

لأبى عبيد الله

والحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بما أصار اليه من الخلافة وإرثِ النُّبُوّة، وجعله القائم بأمر عباده وبلاده، والمُحْيِىَ لسنته، والذابَّ عن دِينه وحقّه، والمُناصِبَ لأهل الشرك والجُحود به؛ ثم نصره وأظهر فضل أيامه ودَوْلَته، ومكّن له فى بلاد عدوّه، وجعل كَلِمته العُليا وأنصارَه الغالبين، ومَن ناوأه من أهل الخلاف الأذلّين المقهورين؛ وعرّفه من نعمته فى ذلك وِمنّته وحميل صُنْعه وعاداته، أحسنَ ما عوّد أحدا من أوليائه الذابّين عن الإسلام وأهلِه؛ حمدا مُتتابعا لا انقطاع له ولا انصرام، دون بلوغ حقّه، وقد كان كذا وكذا.

ما يكتب به فى المخالفين فى وقت الهزيمة

نكصوا على أدبارهم منكوبين مهزومين، قد ضرب الله وجوهَهم، وفتّ فى أعضادهم، ومنح الأولياء أكتافَهم؛ فقتلوهم فى كلّ فجّ، وعلى رأس كلّ تَلْعة ومَهْرب ومَسْلك؛ أباد الله خَضْراءَهم وغَضْراءَهم، وحصَد شوكتهم، وفلّ حدّهم، وأباح[1] نِيران صلالتهم وكفرهم، وشفَى منهم الصدور، وأدرك منهم الإحَن؛ ونَفّل المسلمين أموالَهم وذراريهم، وجعلهم لهم خَوَلا وعبيدا، وأورثهم أرضهم وديارهم، وأحلّ الله بهم من البأس والنقمة والجائحة

(١) أباح النار. أطفأها.

والظهور والغلبة جزاءً من الله لمن أخلد إلى المعصية وابتغى غير سبيله المسلوكة . وكذلك يفعل الله بالقوم الظالمين، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، إن الله لا يخلف الميعاد . ثم أنزل الله عزّ وجلّ من صار إلى الأمصار منهم هَرَبا، واعتصم بالحصون، وتعوذ بالجبال، ولاذ بالقِلاع، ولجأ إلى الأودية، من صَياصيهم، وأمكن من نواصيهم، واستحرحهم من أوزارهم ومعاقلهم ومتعوّذهم، وأُخذ أسيرا ذليلا مسكونا حائفا قد نحت الوجلُ قلبه وملأ الرُعب صدره، متوقعا أن يُنزل الله به من النّقمات والمُثُلات مالا مردّ له عن مثله من القوم الظالمين، وفشّتْ فى الكَفَرة الجراحات، وعضّتهم السيوف، وشُرعت فيهم القَنا، وهمّتهم نار الحرب، وعالجهم النِّزال، ومارسهم الأبطال، واستحرّ فيهم القتل، فصبر لهم الأولياء أحسن صبر، فلم يُطيقوا بالموت مَرَاما ولا على الحرب مُقاما .

فى صفة الخالعين

الناصبين لدين الله، المكذبين بآياته، الجاحدين رسله، الجاعلين معه إلها، لا إله إلا هو، لطول مدّتهم، وشدة شوكتهم، وصعوبة مرامهم، وقطعهم السُّبُل وآتتهم المحارم وسفكهم الدماء التى أوجب الله على مَنْ سفكها بغير حِلّها واقترف واحتمل وِزْرها، أليمَ العذاب وشديد العقاب، فأمنوا إلا نماديًا فى ضَلالتهم، وعُتُوّا فى طُغيانهم، وثبوتًا على عصيانهم، ومُقاما على كفرهم، لأحداثه السالفة، وعوائله المتقدمة، وبوائقه المُشجية، فوقف مميلا بين ثكل التقدّم وحقيقة الاصطلام فى التأخر، دعاهم إلى الفَيْئة والمراجعة والإنابة وقبول الأمان والدخول فى الطاعة، استظهارا بالحجة عليهم، ورجاءً لصنع الله فيهم . فلما بلغهم نزولى فيمن معى، جمع أصحابه، وصمّ جنده، وتحرز فى معسكره، وخندق على منزله، واحترس بجُهده، فأقمت مُعَسْكَرى، وأنا مع ذلك فى كل يوم أوجّه رُسُلى وأدعوه إلى حظّه، من طاعة أمير المؤمنين والدخول فى أمانه، وأُعلمه أنى له نظراءَ ممن عَمَط الطاعة، وسفه الجماعة، وقد ركبوا فى الفتنة عمرَهم وسَعَوْا فيه دهرَهم، فانتشر حبرهم، وكثر تبعهم، وكَبُرَ وِزْرهم، وثقل وَقْرهم، ثم أدعنوا لطاعتهم، واستقلوا

ناهضين من عَثْرتهم، ومتعشبين من زَلّتهم، فعُفِرتْ ذنوبهم، وقُبلت توبتهـم، وفُسح لهم فى أمانهم، وشُرفت منزلتهـم، وآستبدلوا بالخوف أمنا وبالذل عزّا، فأبى به ميل الهوى، وعَلَـه الشِّقْوة، ومستعلى الغواية، والقدر المحارب، والقضاء المحتوم. وتقدّمتُ فى موافقتهم وترغيبهم، والأخذ بالحزم منهم، من غير قتال، ولا تناول سلاح، ولا تناوش صِيال(١)، وعرضتُ عليهم التوبة، ودعوتهم إلى الإنابة، وأعطيتهم الأمان، وأعلمتهم أنهم إن قبلوا حميتهـم وأخمدتُ نار الحـرب بينى وبينهم، وإن أبَوْا إلا تماديا فى غيّهـم ونكوصا على شقائهم، وَلِيتُ مهاجرَهم وعرفتُ من الله الخيرة فى محاربتهم، وآستعنتُه عليهم وآستكفيتُه أمرهم، ورجوت حسن عادته عند أمير المؤمنين فى أمثالهم. ثم وجّهت الأولياء فعقدوا نحو عسكرهم ليلا وهم متفرّقون فى رحالهم، مغترّون فى أوطانهم، قد أمِنوا حدَثَ الحـروب ومكرَها ومكيدتها، ووقعـةَ البَيات وهَوْلهـا، إلا طائفة منهـم أهل عدد وعُدّة، وبأس فى أنفسهم وقوة، انحذوا الليـل حملا، وسَرَوْا نحوَنا يرجون غِرّتنا ويأمُلون غفلتنا، فوقف حدسنا بمكانهم أحدين أُهبتهم، متمسكين بالطاعة فيما به إمْرهم، فأسرعتْ إليهم من أعدائهم طائفةٌ فدفعوهم عن أنفسهم، وبالوهم بجِراحات مع قتلى منهم عند تناوشهم، ثم نكصوا على أدبارهم، ورجعوا القهقرَى على أعقابهـم إلى الباقين من سريّتهم، فاستحاشوهم فاجاهم بالمكانفة والمؤازرة، وأقبلوا بحَمِيّتهم وحَنَقهم حتى حملوا حملةَ رجلٍ واحد، وضاق الفضاء وطارت أفئدة حدسنا رُعبا من حَمْلتهم، وبلغت القلوبُ الحناجرَ منهم، إلا طائفة قليله من لوامع الحـرب ومواصى رواسحها وأشال لِبْدتهـا، تزّسوا بالطاعة فأمّوا حسن العاقبـة، وبصروا الدين، فوثقوا بالتمكن، آستندوا إليهم، ووقفوا لهم، وآزدادوا بصيرة فى أمرهم، وبغاذا وجِدّا فى آجتهادهم ومجاهدتهم، فثبتوا قائمين بالقسط فى أحوالهم، قائلين بالعدل فى أملائهم، يسألونهم الكرّة بعد الكرّة، ويَعِدونهم العَلَبة، ويُمنّونهم السلامةَ، ويضمنون لهم العصمة؛ فاءوا إليهـم، ورجعوا إلى الحق لله عز وجل عليهم، فشافعوا ساعة بالقنى

(١) الصيال مصدر صال على قرنه: سطا عليه.

بعد تراميهم إرشاقا . بالسهام فلما رأى أعداء الله حدّهم، وعرفوا صدقهم، وحاموا حدّهم، نكصوا على أعقابهم، يريدون الْمَحَاق بمعسكرهم، وتحرّك أصحابنا فى طلبهم ، ورَحَوْا سوء الصباح لهم، فأمعنوا فى أثرهم ؛ فلما أحسوا الفساق أعطوهم الصمة وولّوا إلى ديارهم لا يلوى قريب على قريب ، ولا ذو رحم على حبيب ؛ ونالتهم القُنِىّ فدمرتهم، وعضّت هامَهم السيوف فكَلَمتْهم، وحِيلَ بينهم و بين الدحول من باب عسكرهم، فأخذوا فى غير طريقه منهزمين، قد فل الله حَدّهم، وقلّل كثرتهم، وقتل عاتتهم، ورجع أصحابنا إلى معسكر أعدائهم بعد التشريد والتفريق بجماعتهم ، فأحاطوا بهم فى آخر ليلتهم ، فلما رَأَوْا غفلتهم، وأمِنوا عِرّتَهم، وانتهزوا مكان الفرصة منهم أحاطوا بهم وهم نائمون ، قازون غافلون متفرقون ، فوضعوا السلاح فيهم، ضرباً بالسيوف، وطعنا بالرماح، وصربا بالأعمدة، وذبحا بالشِّفار، لا يشوون من جرحوا، ولا سُقون من كلموا ، غير مدفوعين ولا ممنوعين، حتى انثنت السيوف ، وتحطمت القُنِىّ وانْدقّت الأعمدة ، وكَلّت الشِّفار ، و بقيت منهم عدّة يسيرة وشِرذمة قليلة ممن لم يعطه القتل ، فأحدوا أسرى، وأُوثقوا حديدا ، وكُبِّلوا قيودا ، وكان أوّل رأس أتانى بخبره[1] بشيرهم وأسرع به إلىّ ذو المعرفة منهم رأس[2] عدوّ الله المارق الباغى، الشاقّ لعصا المسلمين ، الملأنى رئيس ضلالتهم ، وقائد جهالتهم، ومستغوى جماعتهم ، فعرفته بحليته ونعته وصفته فى عدد كثير من رءوس قوّاده وأهل الفتنة وأئمة البِدْعة، فلم يلبثوا إلا ريثما تصدّعوا فى كل جبل وحَمَر، منهزمين هاربين، لا يستطيعون لما أتاهم من عذاب الله دفعا ولا معا بأيد ولا قوّة؛ ولا يلحُون إلى ركن وعصمة، قد تشتت بهم نظامهم، وفارقهم وجوهُهم وأعلامُهم، فأحدهم أسرا قَسْرا قد منهم الصبر، وملأ قلوبَهم الرعب وتحزمتهم الوقائع، ونخبتهم الهزائم، وتحيفهم القتل، وغلب الله عزّ وجلّ لأمير المؤمنين على حصبه الذى كان مُماف عزّه، وموضع مَنَعته فى نفسه، ومجتمع عدّته، ومادّة قوّته، فقوّضوا عساكرهم، وأُقشِعُوا عن حصنهم يَتْبَع آخرهم أوّلهم، متحيرين متلدّدين،

(١) فى الأصل : «يخبرهم» . (٢) فى الأصل «برأس عدو الله» .

أذلة حاسرين، فتفرّقوا لا نظام لهم ولا جامع لشتاتهم . فلما استحرّ القتل فيهم، وفَشَت الجراحات فى عامتهم، وطحنتهم الحرب بكَلكلها، وألموا وقع حديد أنيابها ومساعرها، قذف الله الرّعب فى قلوبهم وزلزل بهم أقدامهم، فولّوا منهزمين معلولين، وركب المسلمون أكتافهم، يقتلونهم فى رءوس جبالهم، وحلال عِياصهم، وبطون أوديتهم، ومقاصى تِلاعهم، وفى كل ناحيه من نواحيهم، حتى عجز الليل دونهم، وأعجزوهم هربا فى معاقلهم.

وفى العصـاة

حتى إذا ظن أن قد عزّ نصلاله، وتحصن بمعاقله، واستكمل قُواه، وكَثُفَ تدبيره، ولجأ إلى مانع مسه ودافع عنه، عطفت عليه عواطفُ الحق بأولياء الحق وأنصاره، ناقضين ما أبرم، ومتداولين ما سدّ، ومتوعّلين إلى غيّه ببصائرهم، وإلى باطله بحقهم، فاستُنزِلَ عن موضع عزّه قسرا، وأمكن الله أولياءه أسرا؛ سنة الله فيمن عَـدَ عن سبيله، وألحد فى دينه، ومَرَق عن الطاعة وثائقها، واستبدل بالحق ومنهاجه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا، ولن تجد من دونه مُلْتَحَدا ولا نصيرا؛ حتى إذا تراءى الجمعان تبرأ الشيطان من حزبه، وأرهق الله باطلهم بحقه، وجعل الفلَج والظفرَ لأولى الحزبين به، بذلك جرت سنة الله فى الماضين من خلقه، وذلك ما وَعَد من تمسّك بأمره وطاعته .

وفى مدح قواد الجيوش وصفة الأولياء فى أحوالهم

لما بَلا من طاعتـه، واختبر من نصيحته، ويُمْن نقيبته، وشـدّة شكيمته، وصحـة عزيمته، وصدق نيته، وثِقْل وطأته على أعداء الله وأعداء الدين والمسلمين، وعلمه بمراوضة الحرب وممارستها، ومكايدة الأعداء ومواقفتهم فيها، فشمّر تشمير أهل الحِسْبة وحسن الظن بالله من غير ونْيَـة ولا فترة ولا بقاء حدّ ولا اجتهاد، راجيا أن يُنجح الله سـعيه، ويفلج حجته، ويظهره على عدوه من الاستقلال الذى حمله، والاضطلاع بما أسند إليه، والامتثال لسيرته، والانتهاء إلى أمره، والقبول لأدبه، والخضوع مما يستنهضه له من حروبه وأموره مثل الذى جعل عند فلان : يفضُلهم بطوله، ويطولُهم بحاسه، ويتقدّمهم بحسن بلائه وغَنائه،

ومواقفه ومساعيه، لم يختبره أمير المؤمنين فى جميع حصاله إلا وحده عند الاختبار والتحصيل سالكا لمناهجه، قابلا لأمره، متبعا لأثره، ساميا بهمته إلى أقصى الغايات وأعلى الدرجات، حتى صار عند أمير المؤمنين مقدَّما فى القَدْر والرتبة، مخصوصا بالمنزلة والرفعة، يرى ذلك قليلا فى كثير ما وجب لطاعته ونصيحته، فبارك الله عليه وليا طهيرا. فأقدَموا متوكّلين على الله مسلِّمين لأمره صابرين على ما نالهم من اللأواء والجَهْد والتعب وكَلَب الشتاء وحمَارّة القيظ، وصعوبة المَرام من أعداء الله الكَفَرة، يرجون نصر الله وتَنجُّز ماوعد الصابرين والمجاهدين فى سبيله من الظَّفَر والنصر والعلة على عدوّهم، توحّد به من نصرهم وإعزازهم أن كان الله عز وجل تكفّل لأوليائه بالنصر والعزّ والحَيطة، وجعل حسن العاقبة لهم، وكَبَت من حادّهم وأحلد الى المعصية والكفر والأسر، ليكونوا بذلك عظَة ونَكالا لمن أمهله الله منهم، ولتكون كلمة الله هى العليا وكلمةُ الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم، أعظمهم عَنَاء، وأحسنهم بلاء، وأشدّهم صولة، وأقساهم بِكاية، وآمنهم سريرة، وأمضاهم عزيمة، وأربطهم جأشا، وأصدقهم بأسا، وأملأهم للأقران، وأرعاهم لوثائق الإيمان، وأشدّهم تحدّبا على السلطان، فآزره بهم، وحصّن أطراف خلافته بأيديهم، فكَفَوْه المهم وقاموا دونه بالمُلِمّ، غير مستطيلين عَناء، ولا متعرّضين لطلب جزاء، قد تعبّدهم الوفاء، وعَوّدوا نقربة الولاء، فإن الله جعل آباءه أعلاما فى الطاعة يَهدون اليها وأوّليّته قادة الى سبيل النصيحة يتمسك المناصحون بآثارهم فيها، باقيا على كرّ الأيام ذكر مساعيهم، وزائده على تصرّف الأيام حقوقهم، وباديا للعيون حميد أفعالهم، لا تنصرم الأعمار عن سالف لهم إلا وصَلوه بحادث، ولا يتقادم لهم من بلائهم أوّل إلا أتبعه آخر. ففلان يجرى فى أمره على منهاج قد أوضحوه له، ويسلك فى الطاعة طريقا قد سهّلوا له مذاهبه، ويتمسك بعُرًا وثيقة قد رأى آثارها على من تقدّمه، والله محمود. ولم يزل الله يعرّف أمير المؤمنين فى كل ما أسنده الى فلان من أعماله وقلّده من أموره، المبالغة فى قضاء الحق عليه ويُمْن النقيبة فيما يتولّاه، والاجتهاد فى كل ما قرّبه من الله وخليفته. وأمير المؤمنين يَحمَد الله على ما يخصّه

به من نعمتـه، وإياه يستعين على قضاء حقّه، إنه سميع قريب . فإن كتابك ورد على أمير المؤمنين بما لم يزل يتطلّع اليه منك ويؤمّله عندك، ويرجو أن يوفّقك الله فيه لرشدك، ويُؤثرك مسه بحظّك، للدى كان يبلغـه وينتهى اليـه من حزمك، فى أحوالك وتصرّفك فى خصال الخير، وتنقُّلك فى درجتها، مساميا لاهـل الفضل فى مراتبهم، متريّا بصالح أفعال الملوك فى قصد سيرتهم، وحسـن طريقتهم، وليس أكفاءهم . فحقّق الله طنه بك، وأحاب دعاءه لك، وبلّغ بك أمنيته، وأعطاه فيك رغبته . وكنت فيما هُديتَ له بانقيادك إليه راعيا، ودحولك فيه محتسبا، مستوليا على أسنى الأمور مؤونة، وأفضلها دحيره، وأعلاها درجه، وخيرها عاقبـة، وأعمّها سلامة، وأمسعها كهفا، وأنقاها شرفا، وأعدلها حكما، وأطولها سلما، مستحقا بذلك على الله عز وجل زيادة المُلك فيها، وبهاء الثروة، وانبساط القدرة، واتساع المملكة، وظهور العَلَـه وعزّ التمكين، والنُصْره فى الدار التى حُبيت فيها بقليل ما ترجو أن تصير اليـه من ثواب الله عز وجل وحسن محارانه بالنعيم المقيم فى دار الأَمَد، ومحلّ الأبد، بمـا لا يَدعه إحصاء، ولا يكون له انتهـاء، وملأه فرحا وابتهاجا، وسرورا وحذلا، ورجاء لك من الله عز وجل حسن عونه وتوفيقـه أن يغلب لك على حظّك، وأن يأحد إلى تقواه بقلبك ويحعل فيما عنده رغبتك، والى ذلك سموك وهمّتك . وليس يبلغ أمير المومنين مقتدرا فيك أثرا يَحمَده، ومتصفّحا بحبر يَبْهجه، ومستحدثا نعمةً من الله عز وجل يرجو اتصالها واتساقها لديه بك، حتى يتناهى الى الدرجة العليا، والغاية القصوى، فيما [يتغيه] من اجتثاث أُرومه الفَسَقة وقطع دابرهم . و بالله الثقه والحول والقوّة، متعزّفا من الله فيما فارقه من جهاد عدوّه أتمّ مصادق وعد القائمين بحقه، الصابرين فى جنبه، وأحسن ما أبلى، دائدا عن حريم، ومحصّنا لبيضـه، ومدافعا عن ملة، فشـمر شاريا لله نفسه، طارحا عنه لباس الغفلة، متحافيا عن مِهاد الوطّاة، وليس تدخله الخلّة والوحشة على من كنت قريبا منه، ولا يمتنع لأمير المؤمنين طَرَف أنت فيـه، ولا أمر يُعين عليـه ويتمسك بسبب من اسبابه .

(١) بياض فى الأصل والسياق يقتضى ما أثبناه .

وصف الأولياء فى الكتب

وصار أهل السُّمُوّ الى الدرجه العليا، والاعتصام بالعروه الوُثْقى، من أولياء أمير المؤمنين وشيعته، مُنْشرحةً صدورُهم بمكانته، مُنْبسطةً أيديهم بمعاونته، وقسم لأمير المؤمنين من أولياء دعه وأنصاره، قومٌ آزوهم بالنصر، وكَنَفَهم باليقين، وألّف بصائرهم على الحق، وأيّدهم بمُؤَيّدات التقوى، فلمّا أمرَهم أطاعوا أمرَه، ولمّا فرَضوا فى ذات الله طاعتَه، فرض الله بصرهم وتمكينَهم، فجاهد مُجاهدُهم مُسْتَبْصِرًا مُحْتَسِبا، وقام قائمُهم بالحق عليه مُخْلِصا مُجْتَهِدا، وقادتُهم طلائعُ الدين ودواعيه أرسالا قُدُما، فاتّبعوا سبيله لا ناكلين عن إقدام، ولا مُتَوَقّفين عن ارتياب، ولا مُتَهَيّبين، مع دخائلهم و بصائرهم، عدوا ولا عادا، طالبين بثأر الدين نُعاتَه، و بطوائل الإسلام عداتَه · من سوف أمم الكفر ومَرَدة النفاق وأئمّة المُلْحدين، متقلّدين للحق ونُصرته، ولئن تُمّ الحقّ بهم ومضى، وبيّن مع الحق مَن نَكَث عنه بألسنتهم وأيديهم، حتّى فتح الله عزّ وجلّ لأمير المؤمنين معاقلَ الشِّرْك وأُمّه، وأناخ الباطل وأركانَه، وأعلامَ البِدَعِ وأتباعها، فَضْلًا من الله ونِعمةً، والله عليمٌ حكيم، إن هزمتهم قطعوا قَطع الحُسام، و إن أحريتهم فى عظيمةٍ وقعوا وقعَ الجياد، و إن استغيث ودام الغناء لك عن جميع العاملين، كانوا رصدًا لك فوق أعناق الحاسدين.

ما يُقرّظ به أميرُ المؤمنين فى أواخر الكتب

لِيعرِفوا موقعَ نعم الله عند أمير المؤمنين، يَحوطه به فى أوليائه، من النصر والتمكين، وعلى أعدائه من الوَقْم(١) والتوهين، و يشكر الله على النعمة فى ذلك، إن الشكر مُخَصِّص للنعم، وأمان من الغِيَر، ابتَحْلُوَ مواقعُ النعمه عليهم، فيما يجمع الله لأمير المؤمنين من كلمتهم، ويَحُوط من حَرِيمهم، و يُحِلّ من يأسه ونقمته بمن صدف عن سبيله وحاول تشتيت جماعتهم وتوهين حقّهم، و يقابلون ذلك بما تُرْتبط به نعمُه، و يُستدرّ مَزيدُه.

---

(١) الوقم : القهر والذلة.

سعيد بن حُمَيْد

ليشكروا الله على ما منح خليفته من هؤلاء المُرَاق الخارجين من جماعة المسلمين، فإن الشكر أمان من الغير ومادة للمَزيد .

٣ ـ التحاميد فى أواخر الكتب

تحميد لسعيد بن نصر فى آخر كتاب فتح له

الحمد لله المعز لدينه، المُظهر لحقه، المؤيد لأوليائه، الصانع للإسلام وأهله، الناصر لخليفته، الحافظ لما آستحفظه، المتوحد بالنعمه عليه فيما حمله .

تحميد لإبراهيم بن العباس فى آخر كتاب فتح

فالحمد لله المُزيل لما يمهّد المبطلون، ويمكر به الماكرون، ويكيد به الملحدون، تمكينا لعبده وخليفته، ودَأْياً عن دينه وحقه، وإظهارا لأوليائه وحربه، وإمضاءً لعزائمه وقدرته، منعما قادرا، ومُمْليا مُمهلا، عدلا اذا آستدرج، متفضّلا اذا أنعم، حمدا يُستنزَلُ به نصرُه، ويُبْلَغ به رضوانه، ويُمْتَرَى بمثله فواصل مَزيده .

تحميد فى فتح لإبراهيم بن العباس

والحمد لله بجميع محامده التى حُمد بها، على جميع آلائه وجميل بلائه، فيما ولى به خليفته، ونصر به دينه، وأقام به حقه، وأعزّ به وليّه، ووقع به من ألحدَ عن سبيله، حمدا يؤدّى حق نعته، ويوجب به أفضل مزيده بمنه وطَوْله .

تحميد لأبى عبيد الله فى آخر كتاب

فالحمد لله على ما يحدث لأمير المؤمنين فى دولته وسلطانه، ولعامه المسلمين من صنعه وكراماته، فى جسيم الأمور ولطيفها، وخاصها وعامها، بما يجعله للنعمة تماما، وعلى ما يحل بعدوه من يأسه وقوارعه، ويوقع بهم من جوائحه وآستئصاله، ما يكون لموعوده إنجازا، حمدا يبلغ رضاه ويستوجب مزيده .

تحميد آخر

الحمد لله الذى تمّ لأمير المؤمنين نعمته، وأكمل دعوته، وجعل العاقبة فيه لمن اختاره لخلافته، وردّ اليه من شدّ عنه من رعيته، وأتى أمير المؤمنين بصنعه على حدّ نيته وقدر أمنيته، ولم يُفلّ رأيه ولم يُخلف ظنه، حمدا كثيرا دائما بما يزكو عنده فيتقبله، ويرفع اليه فيبلغ رضاه؛ حمدا يكون لأسبغ نعمه جزاء، ولأفضل إحسانه كفاء، وللمزيد من فضله وإحسانه موجبا، والى أعلى الدرجات عنده مؤدّيا، وللخلود فى جنته وسيلةو سببا.

آخر:

الحمد لله الذى جمع لأمير المؤمنين ما حَبَاه بمرية نصره وتمكينه وإعزازه وتأييده، وإظهاره على من ناوأه وصدّ عن حقه، وصدف عن طاعته، ووفّقه لاختصاص فلان بما وكّله اليه وعصبه به من أعباء أموره وجلائل أعماله، وأجرى بفلان وعلى يديه وبركته وسعادة جَدّه ويُمن طائره، من نتائج الفتوح، وتواتر النصر، وإقبال الصنع، وإعلاء الحق وإمارته، وإزالة الباطل(١) وإبادته، حمدا يؤدّى حقه، ويرى عزه، ويمير من أحسن مزيده، بكرمه وجوده.

آخر:

الحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بالخلافة، وخصّه بالإمامة، وقلّده من أمور عباده وبلاده ما تولاه بكفايته وكلاءته وتأييده وحِياطته، حمدا يوجب المزيد من فضله.

ولإبراهيم بن العباس

الحمد لله الذى أنجز وعده، ونصر عبده، وأيّد جنده، وجعل فتوح أمير المؤمنين شرقا وغربا مشفوعة بين اقامة حق وإذالة باطل وإزالة عاند وإبادة عائد وإقالة مستقيل. ويسأل الله أمير المؤمنين، مسألة العبد سيده ومولاه رغبة اليه متذللا له أن يصلّى أفضل صلواته عنده على أكرم أنبيائه.

(١) سقطت فى الأصل كلمات ماثلنا ما يقوم مقامها.

دعاء أمير المؤمنين فى الكتب والدعاء له

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه وليه ، أن يكمله فيما حباه واستحفظه عليه بأفضل تأييده وأعزّ نصره، وأن يهب له مع كل نعمة يجددها له حارسا من شكرها، يتابع به أفضل مزيده، فإن النعمة منه، والشكر توفيقه، والمزيد لمن شكره .

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه وربكم وولىّ النعم عليه وعليكم، أن يُلهمه وإياكم أداء حقّه وشكر نعمته وحمده عليها، ويطوّقه وإياكم أفضل الأعمال وأرضاها عنده وأشدّها استيجابا لما وعد الشاكرين من مزيده، إنه سميع قريب .

وأمير المؤمنين يسأل الله الذى ولاه خلافته وأعلاه بها، أن يطوّقه ما حمله، ويلهمه العدل بين رعيته ، ويلهمهم نصيحته وطاعته ، ويُصلح أمرهم به فى ولايته وخلافته . ويرغب الى الله الذى أيّده ببصره ومكن له بعبر حول منه ولا قوة ، أن يلهمه وإياكم شكره ودكره وحشيته، ويشمله وإياكم بطاعته ومَرْضاته ومحبته، وأن يعرّفه وإياكم الزياده فى نعمه والنصر على عدوّه والتمكين فى بلاده، إنه ذو فضل عظيم .

والى الله يرغب أمير المؤمنين فى إعانته على بيته وتبليغه منتهى سؤله وغاية همته وإعزاز دينه وإذلال من صدّ عن سبيله، إنه سميع قريب . وأمير المؤمنين يسأل الله الذى دلّ على الدعاء تطوّلا وتكفّل بالإجابة حتما، فقال ﴿أُدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أن يجمع على رضاه ألفتكم وأن يصل على الطاعة حبلكم، وأن يمتعكم بأحسن ما عوّدكم من منّه . ويُوزعكم عليما من شكره ما يواصل لكم به مزيده ، وأن يكفيكم كيد الكائدين، وحسد الباغين، ويحفظ أمير المؤمنين فيكم، أفضلَ ما حفظ به إمام هدًى فى أوليائه وشيعته. ويجعل عنه ثِقَلَ ما حمّله من أمركم، وبالله يستعين أمير المؤمنين على ما ينوى من جرائكم بالحسنى، وحَمْلِكم على الطريقة المُثْلَى، وبه يرضى لكم ناصرا ووليّا، وكفى بالله وليّا وكفى بالله نصيرا .

ويسأل اللهَ أمرُ المؤمنين، أن يُحْسِن على صلاح نيته عَوْنه، وأن يتولّاه فيما استرعاه، ولايةً جامعة، لصلاح ما قلّده، إنّه سميع قريب .

ويسأل اللهَ أميرُ المؤمنين الذى بيـده مفاتيح مقاديره وفواصـله ، أن يُصلّى أفضل صلواته على أفضل أنبيائه ، وأنْ يجعل ما ادّخر لأمير المؤمنين الى دولته وخلافته ، وحباه به من وسائل الخير عنده ، أن يجمع الى أحسن توفيقه لِما يرضَى من شكره وحسن معونته على ما أصلح له ربه ، فإنّه شاكر بحتّ من شكره ويوجب لمن وُفّق لشكره مزيدا منه وطَوْله وفضله وإنعامه ، إنّه جواد كريم .

ويسأل اللهَ أميرُ المؤمنين مُبْدئا ومُعَقّبا وأوّلا وآخرا ، وقبل كلّ مسألة ، وأمام كلّ رغبه ومُقدّمَةَ كلّ طِلْبة ، أن يصلّى على صفوته من عباده وخير خلقه وخاتم أنبيائه ورسله ، محمد عبده ورسوله ، أفضلَ صلواته ، ويباركَ عليه أكثرَ بركاته ، وأن يديم له كرامته ، ويَحْرِيَ عنده على أجمل عاداته ، وأن يتمّ له ما احتصّه به من إحسانه ، حتّى يملأ الأرض عَدْلا وقِسْطا ، والإسـلام تأبيدا وعزّا ، والشرك ذُلّا وقَمْعا ، إنّه ولىّ نِعْمته ومُنْتهى كلّ رغبه ، وغايةُ كلّ حاجه ، وهو على كلّ شىء قدير .

وأمير المؤمنين يقول : الحمد لله طاعةً لأمره ، واعتصاما من الفتنة بشكره ، واستدامةً لنِعَمه المتزايدة عنده ، إنّه سميع قريب .[1]

وأمير المؤمنين ، يسأل الله السامعَ كلام مَن جهرَ ، والعالم بعيب من أسرّ ، المطّلِع على ضمائر العباد ووسوستهم ، والمُسْتَنْقِذَ مَن يشاء برحمته ، والمُمْتَنّ على من يشاء بقدرته ، أن يجمع على الحقّ أهواءكم وينصركم على أعدائكم ويُصْلِحَ ذاتَ بينكم ولا يَكِلَكم فى مَوْطن من مواطن اللقاء ، والتحاكم والتناجز ، إلى أنفسكم ، ويكفيَكم ويكفِىَ بكم إنّه سميع قريب .

الدعاء لأمير المؤمنين فى أواخر الكتب

ونسأل الله أن يَهْنأ أميرَ المؤمنين ما صنع له ، ويُعينَه على شكر ما أولاه ، إنّه ولىّ ذلك وإنّا اليه فيه راغبون والسلام .

---

(١) فى الأصل المارل ، وما أثبتناه صحيح .

ولـــه :

ونسأل الله أن يَهْنأ أمير المؤمنين الكراماتُ التى يُتابعها ، والنعمُ التى يظاهرها عليـه ، والفتوحَ الى جعلها فى حِلافته ، وولايته ودولته ، ويهَب له من المعرفة بحقّه فى ذلك والشكر له بحسن بلائه فيـه ، ما يبلغ أعظم رغبة وأقصَى أمنية ، من ذخائر الخير وفضيلة الأجر وحسن الثواب فى الدنيا والآخرة .

أسأل الله لأمير المؤمنين فى عابر أموره ، أحسنَ ما عوّده فى سالفها ، من السلامة التى حرسه بهـا من المكاره ، والعزّ الذى قهر له به الأعداء ، والنصر الذى مكّن له فى الـبلاد ، والهـدى الذى وهب له به المحبّـة ، والرفقِ الذى أدرّ له به الحَلَب ، والاستصلاح الذى اتسقت له به الرعية ، حتّى يكونَ بمـا أعطاه من ذلك ، وما هو مُستقبَل به ، أسعدَ حلفائه ذِكرا ، وأنقاهم فى العدل أثرا ، وأطولهم فى العمر مُدّة ، وأحسنَهم فى المَعاد مُنْقلَبا .

أسأل الله لأمير المؤمنين نِعْمة لا تزول ، وكرامةً لا تنفَد ، وعزّا لا يضام ، ونصرا لا يعلب ، وكفايةً ينتظم بها جميع الصلاح ، حتّى لا يكون نأوَل من ذلك أسعدَ منه بآخَر ، ولا بماض أسرَّ منه بمستقبَل .

أسأل الله لأمير المؤمنين فى عاقبة كلّ نِعمه أفضلَ ما وهب له فى عاجلها ، حتّى يجعل كلّ نعمة أنعم بها عليه ، وكرامة حارها له ، موصولةً بالتمام ، محوطةً بالحفظ ، مكلوءةً من العِيَر ، ممـدودةً الى طول غايات البقاء ، لا يشوب صفوَها كدر ، ولا سلامتَها عيرَ ، ولا سرورها تنغيص ، وهَنّأ الله أميرَ المؤمنين الظفَر ، وأدام له عادةَ النصر والتمكين الموضحَ ، وحُجّتـه المُدْحِضَة لحجـة أعدائه ، والغَلَبة المُظْهِره لحقّه ، المُحتاحةَ لمن حالفه ، ثم لا برِحت نعمة الله راهنة بمثله فى الأولياء نَصْرا ، وفى الأعداء إماحة ، وفى الماكثين تنكيلا .

سر الله أميرَ المؤمنين بمـا أهدَى له من كِفايته ، وحاطه به من مَنَعته ، وأيده به من نصره ، وجعله وما استرعاه من دِينه وسُلطانه ، فى كَنَفه الذى لا يُستباح وتحت يده المـانعة وجَناحه المحفوظ .

أدام الله لأمير المؤمنين السرور بما يُقْذِى به عيون أعدائه فى تمكينه وتوهينهم، ونَصْره وخِذلانهم، وإعزازه والمجاهدة لهم، ولا زالت نِعمَة الله تَزيده فى قوة الظفَر، وعزّة النصر، وتَمدِ من آفاق الأرض بالبشارات والفتوح، حتّى تملأ له ما بين طرفَىْ مُلكه أُنسا وعزا، ويملأ به قلوب أعدائه حوْفا ورعبا، ويَعِدَهم على خلافه سطوة وتنكيلا.

أحمـــد بن يوسف

وهَنَأ الله أمير المؤمنين بِعَمه، ومَلأَه كرامته، وأوْلى له فُتوحه، وأدام إعزازه، وتولّى حِياطته وكِفايته، فيما دَنا منه وما عاب عنه، وأطال بقاءه والامتاع به.

مختار ما كتب من باب التهانى فى كلّ فنّ

تهنئة حليفة بظفَر

الحمد لله الذى جمع لأمير المؤمنين مع العَلَبة الحُجّة، ومع الظفَر المعذرَة، وجمع لعدوّه مع الذل السطْوَة، ومع دُحوض الحُجّة النِّكال، فلم يجمعه والناكثين مَوْطِنٌ من مواطن الصبر، إلّا جعل الحُجّة عليهم فيه، ولسانَ العذر فيه معه، ويَدَ الظهور فيه له، ثم وهب له عند الظفَر من الشكر، وعند الفلَج من التواضع، وعند القدرة من العفو، ما جعله مُسْتَوْجِبا لما أَصْفاه به، مُعترفا بأنّ العذر مُنْقطع ممن نكبه، وأنّ مُسْترَاد الحُجّة ومَطْلب السلامة، فى التمسك بطاعته وسامحته، والمُجاهدة دُونه.

وفى مثـــله:

أدام الله لأمير المؤمنين السرور بما يُقْذِى به عيون أعدائه.

وكتب ابراهيم بن المهدىّ الى المعتصم يهنّئه بخروجه عن أرض الروم بعـــد فتح عَمُّـــوريّه

الحمد لله الذى تمّم لأمير المؤمنين غَزْوته، وأدلّ بها رقاب المشركين وشفَى بها صدور قوم مؤمنين، ثمّ سهّل الله له الأَوْبة سالما غانما، وكذا وكذا، وليَهْنِئه ما كتب الله له، مما

أحصاه فلا ينساه، ليَقِفه به موقفا يرضاه، فإنّه عز وجل يقول: ﴿إنّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآية، فطَوَى الله لأمير المؤمنين نازح البُعْـد برّا وبحرا، ووقاه وَصَب السفر سهلا ووَعْرا، وحاطه بحراسته كالئا، ودافع عنه بحفْظه راعيا، حتّى يُؤَدّيه الى المحلّ من داره، والوطَن من قَراره، وحراه عن الإسلام حاصّة، وعن رَعِيّته كافّة، بتخيّره مُسْتَحْلفا عليهم، وقائما مُقامه فيهم هرونُ ابنُ أمير المؤمنين، فقد استحلفه رَفيقا شَفيقا، حليما وَقُورا، يقطانَ ساكنا، لم يُشَدِّد عليه أمر، ولم يَنْتشر عليه طرْف، ولم يَضِع معه سبيل، ولم يُسْخِط وليّا مُكانها، ولاعدوّا مخالفا، بلا سيف أشرعه، ولاسور أقرع به؛ فمثْل جراء أمير المؤمنين فى تخيُّره إيّاه، بجزاه الله على ما حفِظ من وَصاته، على محمود مُقامه، إنّه مجيب الداعى.

وكتب أحمـــد بن يوسف الى عبد الله بن طـاهر يهنّئـــه بظفَر

بلغنى — فتح الله عليك — خروجُ آن السرىّ اليك، فالحمد لله الناصر لدِينه المُعِزّ لوَلِيّه وحليفته على عباده، المُذِلّ لمن صد عن حقّه ورَغِبَ عن طاعته؛ ونسأل اللهَ أن يُطاهر النِّعَم ويفتحَ لُدان الشِّرْك به، والحمـد لله على ما وَالاك منـذ طعنتَ لوجهك، فإنّا نتذاكر سِيَرتك فى حَرْبك وسِلْمك، ونُكثِرُ التعجُّبَ لمـا وُفِّقتَ له، من وَضْع الشـده واللّيان بموضعهما، ولا نعلم سائر جُنْد ولا رَعيّه عُدل بينهم عدلك، ولا عفا بعد القدره عمّن آسفه وأصغنه عفوك.

تهنئة خليفة بحَجّ

أصـلح الله أميرَ المؤمنين وأراه من الزِّيادة فى بَعِيمه، ما يكون تماما لمـا ابتدأه به من فضله؛ والحمـد لله على ما خَصّ به أميرَ المؤمنين من كرامته، وأعطاه من الفضل فى نيّته، وحعله يستعين على دِينه، بما بَسَط له فى دنيـاه، ويَحْمل على بدنه النَّصَبَ فيما يتقرّب به اليه؛ فيجْفُو عن دَعَتِه علَى لِينها، ويشحَصُ عن طُمأنينته على فضلها، إيثارا لآخرته، وأداء لحقّ ربّه؛ بادر له بذلك ليُكْرمه به، ثم يستعمِل فيه نفسـه، تقربا اليه، فيسعْده بالإذن

فى ذلك حين كان منّ الله له ، و بالعمل فيـه حين كان لله مـه ؛ فيكون قبوله الخير حين يعرضه له ، دليـلا على قبوله الخير عنه حين يعمـل لربّه ، وكان من ذلك ما أدى الله لأمير المؤمنين فى زيارة نبيّه صـلى الله عليه وسلم العامَ ، وموافاةِ مَشاعره العظام ، فى وقتها من الأيام ، التى لا تواتى إلّا معها . ولا تكون مناسكة إلّا فيها ، فكتب الله له فى ذلك الآثار الصالحه والأعمال المبرورة ، فدخل فى الإحرام له بتعظيم حقّه ، وخرج منه بقضاء نُسُكه ، أجرا عَقَدَه الله عليه فى ابتدائه ، ثم أتمّه له باستيفائه .

ولمحمد بن مكرم تهنئةٌ لحاجّ

بَلَّغَكَ الله الرِّضا فى أَمَلك من نُجْح كلّ حاجـة وإبلاغ كلّ أُمْنِيَة ، وتَقَبَّـل كلّ دعوه خَصَصْتَ بها نفسـك أو عَمَمت بها أحدا من أهلك ، فى مجامع وفوده ، ومُعْتَرِك قراره ، فكنت شافعَ مَنْ شاهدك ، ووافدَ مَنْ عاب عنك ، يَسْتفتح بدعائك ، ويُرَجِّى بركةَ مَحْضَرك ، والقُرْبة الى الله عزّ وجلّ بفصل حاهك .

تهنئـــة بولاية

نرى ما أحدث الله لك من الولاية ، لنا خاصّا وإليا واصلا .

آخـــر :

ولم تَخْطُنى النعمةُ إذ أصابتك ، ولم تَتَعدّنى إذ دَخَلَتْ بك ، ولم أحلُ من لازم شُكْرها ، وما يُسَهِّلُك الله منها ، إذ قُلّدتها ، اعتـدادا بكل ما طُوِّقتُ من المِنَن ، وإيجـابا على نفسى ما حملت من الشكر .

ولسعيد بن حُمَيد الى بعض إخوانه

سَرَّك الله بتتابُع نِعَمه ، وترادُف إحسانه ، وزادَكَ من فواضل أقسامه . بلغنى — أكرمك الله — ما وهب الله لك من سُلطانك ، فقوّاك الله على ما استرعاك . ورزقك الشكر على ما أولاك .

وفى مثل ذلك :

أكل الله لك السعادة ، وزادك فى الكرامة ، وخصَّـك بدوام النعمة . بلغنى ما وهب الله لك من سلطانك ، فسُررت به ، وسألتُ الله إتمام نِعَمه عليك فيه بتأييدك ، وتوفيقك للعدل فى سيرتك ، وغَرْس المحبّة لك فى قلوب رعيّتك ، وأن يُعينك عليه ، ويرزقك السلامة فى الدين والدنيا .

وله فى مثله :

أنَا أُهَنِّئُ بك العمل الذى وُلِّيته ، ولا أهنِّئك به ، لأنّ الله أصاره الى مَن يُورده موارد الصواب ، ويصـدره مصادر الحجة ، ويَصُونه من كل خَلَل وتقصير ، ويُمضيه بالرأى الأَصِـيل ، والمعرفة الكاملة ، قرن الله لك كل نعمة بشكرها ، وأَوْجب لك بَطْوله المَزِيدَ منها ، وأوزعك من المعرفة بها ما يَصُونها من الفِقَ ، ويَحُوطها من النقص .

آخـــر :

قد وُلِّيتَ من العمل ما أسأل اللهَ عزّ وجل أن يرزقك بركةَ بدئه وعاقبتـه ، ويُعطيك الرضا ممن وَلِيت له وعليه .

آخـــر :

هَنَّأَكَ اللهُ هذه النعمةَ المقبلة ، الدالّ أوّلها على تمامها ، واو زعك شكرها .

آخـــر :

أسـعدكَ اللهُ بهذه الولاية وجعلها مباركة ، تنتقل بظلّ السلامه منها ، وتَنِيل الكفاية فيها الى أَمَلك بنهايته ورجائك بعايته ، ورزقك السلامة ممن وَلِيتَ له وعليه .

آخـــر :

سرَّك الله بما جدَّد لك من هذه المنزلة ، ونَفَعك بهذه الولاية ، وأرضى عنك من وَلِيتَ له ومن وَلِيتَ عليه .

وكتب محمد بن مكرم الى أحمد بن دِينَار :

نحن من السرور أيها الأمير بما قد استفاضَ من جميل أثَرك فيما تَلِي من أعمالك ، ورَمِّك إياها بحَزْمك وعَزْمك ، وانتياشك[1] أهلَها من جَوْر مَنْ ولِيهم قَبْلك ، وسرورهم بتطاوُل أيّامك والكَوْن فى طـلّ يدك وحَنَاحك ، فى إعانة مَنْ تَخُصّـه وتعمّه بعمتك ، وتحـول به الحِوَلُ حيث حالت بك ، فالحمـد لله الذى جعـل العاقبة لك ، ولم يردُد عليا آمالنا فيـك مكوسة ، كما ردّها على غيرنا فى غيرك . ولَوَدِدْتُ أنّ أباك كان عايَن آثارك هذه ومناقبك ، وإن كان الافتراق لم يقع بينكما حتى علم أنك خَلَفُـه ، وألقى اليـك بأمره ومعاقد ثقتـه ، وحملك مَوْضع اختصاصـه وأثَرَته ، وصَرف دلك عمّن كان لا يستحقّه ، ودتم سالف رأيه فيك وفيه وحَمِـدَ آخره ، ثم نعمة اتصلت لك بمـا قَبْلها ، انتظمت بها أمورُك فاعتدلت ، وتلاحمتْ عليها واتّسقت ، ما سحت فى كاتبـك ، ومُستقر ثقتـك ، وحامل أعبائك ، من الكفاية والنصيحة ، ووضعه عن قلبك مؤونة التهمة والقصّ لأثَره ، وإدحاله راحةَ الطُّأْنينة اليـه وروح الثقة به ، لأنّه كما ابتُلِيَ أخوك ، فإنّه صحه خلط عليه أمرَه ، وأفشَى أسراره الى صاحب بَريده ، فأنهل ذلك بينهم ، وقَطّع حِبالهم ، حتى هَجَمت آثاره مع حُسْنها ووضوحها ، وصَعِرتْ يده من حظّ عمـله ، ولَزِمه الدمّ من أهله ، فهذه كُتُبه إلىّ ، فى اطّراح نصيحة له كانت فيه ، ويسألنى أن أُشْخِص اليه كاتبا يَحْمل ثِقَله ، ويفتح له ما أرتجه من أمره . وهذا من سعادة جَدِّك ، ويُمْن طائرك ، وإقبال الأمور اليك ، وسَعْيها على طريق مُوَافقتـك ، وهنيئا هَنَاكَ الله نِعَمَه حاصّها وعامّها ، وأوْزَعَك شكرها ، وأوجب لك بالشكر أحسنَ المَزِيد فيها .

تهنئة بعزل

كَتَب رجلٌ الى مالك بن طوق لمّـا عُزل عن عمله :

أصبحتَ والله فاصحا مُتْعِبا : أما فاصحا فلكلّ والٍ قَبْـلَك بحسن سِـيرتك ، وأما مُتعِبا فلكلّ والٍ بعدَك أن يلحقك .

(١) انتياشك أهلها : استنقاذهم .

فصـــل

سواء علينا أُوليت أم صُرفت، إنّا لنشهد لك الولاية، بما بَسَط الله من يدك ببذْل العُرْف، ونهنّئك بالعَرْف بما لحقك من ثناء ما أسلفت من الجميـل؛ ولا نخاف عليك أن تفارق عمـلا وأنت محلٌّ له، ولا أن تَصْحبه وليس به فاقةٌ اليـك. فهَنّاك الله النعمة، وأعانك على الشكر، وأيّدك بالمزيد.

تهنئة بعـــزل عامل عن عمـله

بالذي صَرْفُك، فخارَ الله لك، وهَنّاك لطيفَ نظره وجليـلَ إحسانه، فإني أرى الرحلَ عند خروجه من العمل سالمـا بقيّا من مأثمه ودَنَسـه، أَوْلَى بالتهنئة منه عند دخوله فيه، وأرى الدعاء له عند بدء تَلَبُّسـه به بالخلاص منه مَعْصوما رَيثا من تَبِعَاته ورواجع آثامه، أولى بمن عُنِيَ به وأحقّ صلاحه، ولذلك قدّمتُ تهنئتك.

ولسَعيد بن حُمَيد في مثله الى بعض إخوانه:

حَفِظك الله بحفظه، وأسبغَ عليك كرامته، وأدامَ اليك إحسانه. إنّ سروري بصرفك، أكثرُ من سرور أهلِ عَمَلك بما خُصّوا به من ولايتـك. وقد كنتَ — أعزّك الله — فيما يُرْتأى لك عنه، بما أنت عليه في قَدْرك وآستهلك، ولكنّا رَجَوْنا أن يكون سببا لك الى ما تستحق، فطِبْنا نفسا بالذي رجونا. فالحمد لله الذي سلّمك منه، ونسأله تمامَ نِعَمه عليك وعلينا فيـك، بسليغك أَمَلَك وآمالَنا فيـك، وشـفاع ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات وأشرف المراتب، ثم حصّك الله بجميل الصُّنع، وبلّغك غاية المؤمّلين. إنّ من سعادة الوالي — حفظك الله — وأعظم ما يُخَصّ به في عمله وولايته السلامة من بوائق الإثم، ونوائب الدنيا وشرّها، والعاقبة ممـا يُخاف منهـا، وقد خصّـك الله منهـا بمنّه وطَوْله ما نرجو أن يكون سـببا لك الى نَيْل ما تستحقّ من المراتب. والله نسأل إيزاعك شُكر ما منّ به عليك، وتبليغَك غايةَ أملك في جميع أمورك، برحمته وفضله.

آخـــر :

ما أحسنَ ما كَشَفَتْ عنك الولاية، وأجملَ ما أبرز منك العمل ، قد كسك الله حَمْد ولايتك وعَزَل عنك لأمتها، بما أنتشر عنك من عَدْلك، وظَهَر من معروفك ، فادا ساءك هذا فَلْيَسُرُّك .

وكتب محمد بن مكرم الى ابراهيم بن المدبر :

الحمد لله رب العالمين حَمْدا يَجُوز حمدَ الحامدين ، الذى جعل قضاءه خِيَرة لك ، فإن زادك نعمة وفَّقك لشكرها ، وإن أمتحنك بلْوَى من نَفْث حاسد أو كَيْد كائد ، أنار برهانك وأفلح حُجَّتك وجمع بين وليِّك وعدوك فى الشهادة لك؛ وإن نَقَل أمرا عن يدك ، فربّما يَرْجعه اليك مختلّا لفقدك . هذا الى ما جعل عندك من خواصّ النعم التى إن ذكرتها فأطنبا أو تَحَوَّزا فقصرا، كان عاينا الى الحُسُور دون مَدَى غايتك . وقد زادك الله بهذا الحادث فصلا عظيما: لما ظهر من وَلَهِ العامة اليك وتطلُّعها الى ما كانت فيه: من لِين إنصافك وكريم أخلاقك ، ووُحْشة الخاصّة لما فَقَدَتْ من حُسن مُعاملتك وكثير تفضّلك . وأيقنَ أهلُ الرأى والتأمّل لصفحات الأمور ، أنّ كلّ ما خَرج عنك فعائد اليك ومتصل به عيرُه، حتى تستقرّ فى يدك عُرَا الأمور ومعاقدها ، وتُفتح برأيك وتدبيرك أبوابُها ومغالقُها، فَلْيَهْنِكَ أنّ كلّ ما زاد عيرك نقصا زادك فضلا، وكلّ ما نقص من الرجال وحطّها ألحقَ بك شرفا . فزادك الله ورادنا منك، وجعلنا ممن يَقْبَلُه رأيك، ويقدّمه آختيارُك، ويَقَعُ من الأمور بموافقتك، ويجرى منها على سبيل طاعتك .

وكتب سعيد بن حميد الى بعض إخوانه :

جعلنى الله من السوء والمكروه فِداءك ، وأطال فى أنجير والسرور بقاءك ، وأتم نِعَمه عليك، وأحسنَ منها مَزِيدَك، وبلّغك أقصى أُمنِيّتك، وقدّمنى أمامك، وقد بلغنى ما آختارالله لك، فسُررتُ من حيث يغتمّ لك مَنْ لا يعرف قدرَ النعمة عليك ، ولا يراك بعين آستحقاقك .

ولئن ساءنى ما ساء إخوانَكَ من عَزْلك، لقد سرّنى ما يَسَّر الله لك . والحمد لله الذى جعل انصرافك محمودا، وقضى لك فى عاقبتك الحُسْنى، وأقول :

لِيَهْنِك أنْ أَصْبحتَ مُجْتَمَعَ الحمد ... ورَاعِى المعالى والمُحَامى عن المجد
وأنّك صُنتَ الأمرَ فيما وَلِيتَـه ... ففزتَ ما بين الغَوَاية والرُّشْـد
فلا يَحْسَبِ الباغونَ عَزْلك مَغْنما ... فإنّ الى الإصـــدار عاقبةَ الوِرْد
وما كنتَ إلّا السيفَ جُرِّدَ للوَغَى ... فأَحْمَدَ فيهـا ثم رُدّ الى العِمْـد

وقد قال الأوّل :

فمن يكنْ بورود العَزْل مُكتئبا ... فإننى بورود العَـــزْل مسرورُ
بعدَ الولاية عَزْلٌ يستبين به ... طَوْلُ الوُلاة وبعدَ العَزْل تأمير

أما ما عنـدى مع تصوّر العاقبـة لك فى نفسى، فيَمَسّنى فى أمرك فى حال المحنـة ما يخصُّنى منه فى وقت تجدّد النعمة . وبحسب ضميرك الشاهد على ما عدى ما أحدّه لك فى نفسى . فلا زلتَ فى نِعَمٍ متتابعه متجدّدة، ولا عَدِمتَ الثروة والزيادة، ولقّاك الله أقصى أملك، وأمل أخيـك لك، وكَبَتَ أعداءك، وجعلنى وقاءك المقدّم عنـك . أحبّ أن تشرح لى صـورة الأمر إلامَ تآدتْ، وكيف كان الابتـداء، فإنى لا أشـكّ أنها حيلة ونيّة من عزّ الصاحب الجليل القدر، ولها عاقبةٌ منه إن شاء الله محمودة، وتُفضى من ذلك الى ما تسكن اليه نفسى، إن شاء الله .

تهنئة بتزويج وبناء بأهل

بطائر اليُمْن فليكُنْ هذا البناء، وبأسباب السعادة فليتصّل عقدُ هذا الاجتماع، وبكلّ ذكاء الولد، وثَرْوة العدد، فلْتَجْر لك الأقدار، وفى أطول غايات البقاء فلتدُمْ هذه الغِبْطة والسرور .

تهنئـــة بتزويج

بلغنى تزوُّجُك من فلانة، فبالرفاء والبنين، تهنئةَ السَّلَف الصالحين، ومبلغ سُنّة المجتهدين المتبحرين، ونَقُولُ على يُمْن الطائر، وسعادة الجَدّ، ونَمَـاء العَدَد، وآتفاق الهوى، وطِيب

المساءمة، وٱجتماع الشَّمْل، وثبات الرِّيع، وتَمَلِّ النِّعَم . أسأل الله الذى قصاها أن يجعلها لك سَكَنًا ويجعلك لها شَجَنًا ، وأن يُؤَخِّر حِمَامها الى ٱنتهاء نَفَسك عنها ، وجعلك حائزًا تُرْبها ، وَوَلِيتَ المـال وهناءة العيش وملاهاة الغوانى بعدها .

تهنئة لغسّان بن عبد الحميد بتزويج

قد بلغنى جَمْعُ الأمير أهـلَه على الحال التى جمعهم عليها من نعمة الله عليـه . فالحمدُ لله على كل ما يرى الأمير فيما له فيه نِعمة . فأسأل الله أن يجعل الطائر فى ذلك مَيْمونا ، والشَّمْلَ مجتمعا ، والبركةَ عظيمة ، والأمورَ سليمة ، وكذلك فقـد عَظَّم الله القَسْم مـه لزَوْجه ، جَعَلَ الأمير سَكَنًا لها ، وأجرى المودّه والرحمه بينهما ، فإنه يقول عزّ وجلّ : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ . فلما كان الأميرُ هو المطور اليـه ، وهى المطور اليها ، ٱختارها الأمير لنفسـه وٱختار نفسه لها ، وأراد الله عز وجل أن يزيدها مع فَضْلها فى نفسها فَضْـلا باختيار الأمير إيّاها ، و باختصاص الله لهـا بالأمير دون غيرها ، فكان ذلك فضلا من الله زَيَّنه بفضل ، وكرامةً من الله وَصَلَ بَعْضَها بعض . فرغب الى الله عزّ وجل فى أن يزيد الأمير فى كلّ سَعَة مبسوطة ، ونعمه مقسومة ، و يعطيه فى ذلك شكرا يكون لرضاه مُوجِبا ، كما أعطاه فضلا كان الشكر له به واجبـا ؛ ثم يُمَلِّى الأميرَ ذلك بأحسن ما مَلَّى أحدًا من خَلْقه كرامةً اصطنعها عنده .

تهنئـــة بمولود

كتب العباس بن الحسن الطالبى الى المأمون يهنئه بمولود له :

قد كان أحذلنى ما أحدث الله لأمير المؤمنين من المَوْهَبَة التى ليس ، وإن كان أولى بها من غيره ، بأعظم فيها حظًا من رَعِيّتـه . فعمّر الله لك ياأمير المؤمنين قلوبهـم بسرور الحكمة وأبصارهم حتى يَشُدّ بهم عَضُدك ، ويَسُـدّ بهم ثُلْمَتَك ، ويُبلِّغهم الغاية المأمول لهم بلوغُها بعدك ، غير مُقْعَد بك مَهَل ، ولا مُحَل بك أَجَل ، ولا مُكَذِّبك أَمَل ، ولا مُنْقطعة أيامك ، حتى تُحْتَرَم أنفسُـا قبلك .

وكتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود له :

بارك الله فى مولودك الذى أتاك، وهَنَاك نعمته بعطيتـه ، وملَّاك كرامتـه بفائدته ، وأدام سرورك بزيادته، وجعله بارًّا تقيًّا، ميمونا مباركا زكيًا، ممدودا له فى البقاء، مُبلِّغا غاية الأمل، مشدودا به عَضُدُك، مُكَثِّرًا به ولدُك، مُداما به سرورك، مدفوعا به الآفات عنك، مشموعا بأكثر العدد، من طَيِّب الولد .

وله فى مثل ذلك :

هَنَاك الله هذه الفائدة التى أفادكها، وبارك الله فى الهبه التى ررقكها، وشفعها بإخوة متواترين ، يَسُرّونك فى حياتك ويَحْمُونك فى عَقِبك .

تهنئـــة بمولود

كتب رجل الى رجل يهنئه بمولود :

حُعِلْتُ فداءك . للبقاء مولودك، فى السناء سباته، وفى اليُمْن شبابه، وعلى البركة ميلاده .

تهنئـــة بمولود

كتب الحسن بن سهل الى ذى الرياستين :

إنه ليس من نعم الله، وفوائد قِسَمه — وإن خُصّ موقعها ووجب شكرها — نعمةٌ تعدِل النعمة فى الولد، لنمائها فى العدد، وزيادتها فى قوة العضد، وما يُتَعجّل به من عظيم بهجتها، ويُرجى من باقى ذكرها فى الخُلُوف والأعقاب، ولاحق بركتها فى الدعاء والاستغفار. وإن الله قد أفادك وأنالك علاما سَرِيًا، سَمَّيته فلانا، فكان ميلاده عند فتح الله على أمير المؤمنين. فرجوتَ أن تكون موافاته بالنصر الذى أظهرَنا الله به على عدوّ الدين والمسلمين من دلائل بركته ويُمْنه ، وشواهد سعادته والسعادة به . فبارك الله لأمير المؤمنين فى طارف نعمه وتالدها ، وشَفَع له قديم مسه بحادثها، ورزقه ذكورا طيِّبين مهذّبين ، يأنس بهم ربعُه، ويتصل بهم نجاحه، ويجعلهم ذرّية زاكية، وبقية صالحة .

آخـــر :

بلغنى الدى وهب الله لك، فجعله الله دُحرا سنيّا، وعَقبا كريما .

عَمْرو بن مَسْعَدَة الى الحسن بن سهل

أما بعد، فان همةَ الله لك همةٌ لأمير المؤمنين ، وزيادته إياك فى عدده لمحلّك عنـده ومكانك فى دولتك من دولته . وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاما سَرِيّا، فبارك الله لك فيه، وجعله بازا تقيّا، ماركا سعيدا زكيّا .

تهنئـــة بمولود

الحمدُ لله الدى رضى منّا يسير القول عـد عظيم النعمة، حمدًا نستوجب به بقاء هذه المَوْهَبَـه للنَّماء والفائدة، فإن نعمه الله و إن كانت لم تزل متتابعة، فقد كان ما يَقْبض الأمل مما ذكر انفراد الأمير بنفسـه وقلّة نَسْله، وما لا يؤمن من انقطاع الذكر بموات الأحل، ومن دُثُور الأنام، بواقعُ الحِمَام، وقد أصبحنا من الله من يدين فى مُسْحَة المهـل، ومدّه مواقع الأحل، لمن أراد فيه مَوْضع أملنا فى حسن الخلافة من الأمير و إحياء ذكره .

تهنئـــة بمولود

سرورُك سرورٌ يَخُصُّنى منه ما يَخُصُّك، وتَلْبَسنى فيه النعمة ما تَلْبَسك، والحمدُ لله على النعمه فيك وعندك .

كتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

أما بعـد، فقد بلغنى من متجدّد نعم الله عزّ وجلّ عليك، وإحسانه اليك فيما رَزَقك من الهِبة ما اشتدّ حدلى به، وسألت الله أن يشفعه بأمثاله ؛ ولذلك أقول :

قد شُفِـع الواحد بالوافد * وأُرْغِمَ الأنفُ من الحاسدِ
أبا حُسَـين قَرَّ عينًا بمـا * أُعْطِيته من هِبَةِ المـاجدِ

قد قلتُ لمّا بشّرونى به ، بُورك فى المـولود للوالدِ
إنّا لنرجـو واعدا مثـلَه * والطائرُ الميـمون للواعدِ

وله الى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

أما بعد، فإنه ليس من أمر يحمل الله لك فيه سرورا وفرحا، إلّا كنتُ به بَهِجًا، أعتدّ فيه بالنعمة من الله الذى أوجب علىّ من حقّـك وعرّفنى من جميـل رأيك . فزادك الله خيرا، وأدام إحسانه اليك . وقد بلغنى أنّ الله وَهَبَ لك علاما سَرِيّا، أكمل لك صُورته، وأتمّ خلقه، وأحسن البلاء فيه عندك، فاشتدّ سرورى بذلك، وأكثرت حمد الله عليـه . فبارك الله فيه، وجعله بارًّا تقيًّا، يَشُدّ عَضُدَك، ويُكثر عَدَدَك، ويُقرّ عينك .

وكتب إسحاق بن يحيى الى بعض إخوانه يهنئه بابنة له :

رُبَّ مكروهٍ أعقب مَسَرَّه، ومحبوب أعقب مَعَرّة . وحالقُ المنعة والمصرَّة، أعلمُ بمواضع الخِيَرة .

كتب ابن المقفع الى صديق له ولدت له جارية :

بارك الله لك فى الأَبِـنة المستفادة ، وجعلها لكم زينـا ، وأجرى لكم بها خيرا ، فلا تكرهها، فإنهنّ الأمّهات والأخوات، والعمّات والخالات، ومنهنّ الباقيـات الصالحات، ورُبّ غلام ساء أهلَه بعد مَسَرّتهم، ورُبّ جارية فَرّحت أهلها بعد مساءتهم .

وكتب عبد الحميد بن يحيى الى أخ له فى مولود ولد له وهو أول مولود كان :

أمّا بعـد، فإن ممـا أتعرّف من مواهب الله، نعمةً خُصِصتُ بمزيّتهـا، واصطفيتُ بخصّيصتها، كانت أسرّ لى من هبة الله ولدا سميتُه فلانا، وأملتُ ببقائه بعدى حياةً وذكرى، وحُسن خلافتى فى حُرْمتى، وإشراكه إيّاى فى دعائه، شافعا الى ربه عند حلواته فى صلاته وحَجّه ، وكلّ مَوْطن من مواطن طاعته، فاذا نظرتُ الى شخصه تحرّك به وجدى وظهر به

سروري، وتعطّفت عليه منه أنه الولد، وتولّت عنّي به وَحْشة الوَحده، فأنا به جَدِل في مَعِيي ومشهدي، أُحاول مسّ جسده بيدي في الظُّلَم، وتارة أُعانِقه وأَرشُفه، ليس يَعدِله عندي عظيمات الفوائد، ولا منفسات الرغائب. سرّني به واهبه لي على حين حاجتي، فشدّ به أَزْري، وحمّلني من شكره فيه ما قد آذَني بثقل حمل النعم السالفه الىّ به، المقرونة سَرّاؤها في العجب بقدر ما يدركني به من رقّة الشفقة عليه، محافة محاذبة المايا إياه، ووَجَلا من عواطف الأيام عليه. فأسأل الله الذي آمنّ عليا بحسن صُنْعه في الأرحام، وتأديته بالزكاء، وحَرْسه بالعافية، أن يرزقنا شكر ما حمّلنا فيه وفي غيره، وأن يجعل ما يَهَب لنا من سلامته والمُدّه في عمره موصولا بالزياده، معروفا بالعافية، محوطا من المكروه، فإنّه المنّان بالمواهب والواهب بالمنى، لا شريك له. حَمَلني على الكتاب اليك لعلم ما سُررتُ به علمي بحالك فيه وشرَكتك إياي في كل نعمه أسداها الىّ ولىّ النعم. وأهل الشكر أولى بالمزيد من الله جلّ ذكره. والسلام عليك.

تهنئة بنقلة الى دار جديدة

تناهى الىّ نُقْلتك الى الدار التي أرجو أن يجعلها الله نُقْلة المكروه عنك، ونُقْلة السرور اليك، ودوامَ نعمة الله عليك. جعلها الله لك أيمن دار وأعظمها بركة، ووصَل نعمه فينا عندك ونعمه عندنا فيك.

تهنئة لمحمد بن مكرم الى نصراني أسلم

أنا أقول الحمد لله الذي وفّقك لشكره، وعرّفك هدايته، فطهّر من الأرتياب قلبك، ومن الافتراء عليه لسانَك. وما زالت محايلك مُمَثّلة لنا جميل ما وَهَب الله لك، حتى كأنك لم تزل بالإسلام مَوْسوما، وإن كنت على غيره مقيما، وكنّا مؤمّلين لِمَا صِرتَ اليه، مشفقين لك مما كنتَ عليه، وادكاد إشفاقا يستعلي رجاءنا، أتت السعادة بما لم تزل الأنفس تعد منك. فأسأل الله الذي نوّر لك في رأيك وأضاء لك سبيل رُشْدك، أن يوفّقك لصالح العمل، وأن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويَقيكَ عذاب النار.

باب المنظـــــوم

١ — أبو نواس[1]

كان أبو نُوَاس يبادم ولدَ المهدىّ ويلازمهم فلم يُلْفَ مع أحدٍ من النـاس غيرهم ، ثم نادم القاسمَ بن الرشيد ولقى منه أشياءَ كرهها وكُرِهتْ له ، ففارقه .

(١) هو أبو على الحسن بن هانئ ، الشاعر المفلق ، الحاذق الماجن ، صاحب الصيت الطائر ، والشعر السائر ، ورأس المحدثين بعد بشار . وهو فارسى الأصـل . ولد بقرية من كورة حوزستان سنة ١٤٥ هـ ونشأ بنيا فقدمت به أمه البصرة بعد سنتين من مولده ، فتعلم العربية ورغب فى الأدب ، فلم تعلُ أمه بحاله وأسلمته الى عطار بالبصرة ، فكث عنده لا يعترى معاناة الشعر والاختـلاف الى الأدباء والمجان ، الى أن صادفه عند العطار والة بن الحباب الشاعر الماجن الكوفى فى إحدى قدماته الى البصرة ، فأعجب كل منهما بالآخر ، فأحوجه والـة معه الى الكوفة ، فمق معه ومع ندمائه من حلماء الكوفة وتخرج عليهم فى الشعر وفاقهم حينا . وقدم بغداد وقد أربت سنه على الثلاثين ، فاتصل ببعض الأمراء ومدحهم ، ولم يحرمه الرشيد فأدن له فى مدحه ، فمدحه بقصائد طنانة وحدث مرة على محوه مصر .

وكان يقصد بعض عمال الولايات ويمدحهم ومنهم الخصيب عامل مصر ، ثم انقطع الى مدح محمد الامين ، وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيره فسجنه ، ولم يلبث بعد خروجه من السجن أن مات ببغداد .

وكان أبو نواس جميل الصورة ، فكه المحضر ، كثير الدعابة ، حاضر البديهة ، متينا فى اللغة والشعر والأدب ، متعصبا للبادية على المصرية . وأجمع أكثر علماء الشعر وفقدته وقبول الشعراء على أن أبا نواس أشعر المحدثين بعد بشار وأكثرهم تفننا وأرصنهم قولا وأبدعهم خيالا مع دقة لفظ وبديع معنى ، وأنه شاعر مطبوع مقرّ فى كل فن من فنون الشعر .

وامتاز فى كل الشعراء بقصائده الخمريات ومقطعاته المجونيات ، وكان شعره لقاح الفساد والقدوة السيئة ، لقلقه العرل من أوصاف المؤنث الى المذكر والخروج بذلك عن مألوف العرب وآدابهم إذ لم يكن ذلك معروفا قبله وقبل شيطانه وآله . وزاد على ذلك انفراده بالإبداع فى وصف الخمر ، فكان ممدوح سوء لمن تأخر ، فاقتفى أشعاره الشبان فى زمانه وبعده وحاكوه وطلب سلمهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يعـد طريفا إلا اذا مزج شعره بشىء من ذلك وإن لم يقع فى مجلوباته .

ووصفه عبـد الله الخازن قال : كان أعرف الناس منطقا ، وأعزهم أدبا ، وأقدرهم على الكلام ، وأسرعهم جوابا ، وأكثرهم حياء ، وكان أبيض اللون ، جميـل الوجه ، مليح النعمة والاشارة ، مائل الأعضاء بين الطويل والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، حلو الصورة ، لطيف الكف والأطراف ، وكان فصيح اللسان ، جيد البيان ، عذب الألفاظ ، حلو الشمائل ، كثير النوادر ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، =

ثم جلس أبو نواس الى الناشئ الراوية فقرأ عليه شعرَ ذى الرُّمة، فأقبل الناشئ على أبيه هانئ وقال له : إن عاش اسُك هذا وقال الشعرَ ليُقوِّلنَّه بلسانٍ شَتُوم .

ثم اتصل بوَالِبَةَ بن الحُبَاب الأسدىّ ، لقيه بدار البَحَاثِيّ الأسدىّ والى الأهواز للمصور، فقال له والبة : إنى أرى فيك محايلَ فلاح، وأرى أنك لا تصيعها، وستقول الشعر وتعلوفيه، فاصحَبْنى حتى أُخَرِّجك، فقال : ومن أنت؟ قال : أبو أُسَامَةَ، قال: والبة؟ قال: نعم، قال : أنا والله حُعِلتُ فِدَاكَ فى طلبك، وقد أردتُ الخروجَ الى الكوفة والى بغدادَ من أجلك، قال: ولماذا ؟ قال، شهوةً للقائك ولأبياتٍ سمعتُها لك، قال : وما هى؟ فأنشده :

ولها ولا دنبٌ لها * حبٌّ كأطرافِ الزماجِ
جرحتْ فؤادى بالهوى فالقلبُ مجروح الواحى
سلَّ الخليفةُ صارمًا * هو للفساد وللصلاحِ
أحداه كفُّ أبى الوليـ ـد يدًا مُشَارِيةَ الرياحِ
ألقى بحاسب خَيْصره * أمضَى من الأجل المُتَاحِ
وكأنما ذَرّ الحبا * ءَ عليه أنفاسُ الرياحِ

فحصى معه، ثم سأله أن يحرج الى البادية مع وفد بنى أسد ليتعلم العربيه والعربيب، فأخرجه مع قوم منهم، فأقام بالبادية سنةً؛ ثم قدم ففارق والبةَ ورجع الى بغداد .

وكان أبو نواس متكلما حَدِلًا راوية حفلا، رقيقَ الطبع ثابت الفهم فى الكلام اللطيف. ويدل على معرفته بالكلام أشياءُ من شعره، منها قوله :

وذاتِ خـد مـوردٍ * فضيّـة المتجـرّدْ
تأمل العينُ منها * محاسنًا ليس تنفـدْ

= راوية للأشعار ، علامة بالأخبار ، كان كلامه شعر موروث . توفى سنه ١٩٩ هـ . وتجد ترجمته وأخباره وأشعاره فى كتاب خاص باسم « أخبار أبى نواس » لأبن منظور طبع مصر سنة ١٩٢٤ والأغانى (ح ١٨ ص ٢) و(ح ٦ ص ١١٠ ، ١٧٠ ، ١٨٦) و(ح ١٦ ص ١٤٨) وابن خلكان (ح ١ ص ١٣٥) وطبقات الادباء (ص ٩٦) والشعر والشعراء (ص ٥٠١) والفهرست (ص ١٦٠) والعقد الفريد (ح ٣ ص ٣٣٧) .

فبعضـــه قد تناهى * وبعضـــه يتـــولّد
والحس فى كل شىء . منها مُعاد مردّد

ومنها قـــوله :

يا عاقدَ القلب عـــنّى * هـــلا تذكرتَ حلًّا
تركتَ عيّى قليـــلًا * من القليـــل أقلّا
يكاد لا يتجـــزّى * أقـــلّ فى اللفظ مِنْ لا

ومنها قوله فى امرأة اسمها حُسْن :

ان اسم حُسْن لوجهها صفـــةٌ * ولا أرَى دا فى غيرها جُمِعَا
فهى اذا سُمّيت فقد وُصِفتْ * فيجمعُ الإسم معنيين معًا

ومن قوله فيما يتعلق بالحكمة :

قـــل لِمُغير ادا حدّا رشـــدًا * أقلِلْ أوَ اكثِرْ فانت مِهْـــدارُ
سُخْتَ من شـــدّة البرودة حـــتّى صرتَ عنـــدى كأنك النارُ
لا يعجَبِ السامعون من صفتى * كذلك الثلجُ باردٌ حارُ

هذا شىء أحدثه أبو نواس من مذهب حكماء الهند، فانهم يقولون: إن الشىء اذا أفرط فى البرودة انقلب حارًّا، وقالوا: إن الصَّنْدل يحكّ منه اليسير فيبرد، فاذا أكثر منه سخن .

قالوا . كان أبو نواس دعيًّا يخلط فى دعوته . فمن ذلك قوله يهجو عربَ البَصْرة :

ألا كل بصرىّ يرى أنمـــا العُلا * مُكَمَّمَةٌ سُحْـــقٌ لهنّ جَرِيرُ[1]
فان تغرِسُـــوا نخلًا فان عِرَاسَا * صِراتٌ وطعمٌ فى البحور سَحِينُ
فان أك بصريًّا فإن مُهـــاجَرى * دِمَشْقُ ولكنّ الحـــديثَ فنونُ
محاورَ قوم ليس بينـــى وبينهم * أواصرُ إلا دعـــوةٌ وطنـــونُ
اذا مادعا باسمى العريف أجبتُه * الى دعـــوة مما علىّ تَهُونُ

(١) المكمة : العراس الكثيرة . والسحق . الطويلة، يريد النخل . والجرير هنا : موضع تحصيف التمر .

ثم هجا اليمن فى هذه القصيدة بقوله :

لأزْد عُمَانٍ ما لمهلّ نَزوةٌ * اذا آفتخر الأقــوام ثمّ تلينُ
وبكر ترى أن الســوءَ أُنزلَت * على مِسْمَعٍ فى الرَّحْم وهو حصينُ
وقالت تميمٌ لا نرى أن واحدا * كأحمعا حتّى المماتِ يكونُ
فما لُمتُ قيسًا سعدُها فى قُتيبة * وخيرٍ به إن الفخار فنونُ

وإنما نشأ أبو نواس بالبصرة وليس له بدمشق قليلٌ ولا سعدٌ .

ومما هجا به اليمنَ أيضا قوله لهاشم بن حُديج :

وردنا على هاشم مصرَهُ * فصارت تجارتنا عِبَدَهْ

يقول فيها :

رأيتك عبد حصور الخوا * ن شديدا على العبد والعبده
وتحتدُّ حتى يخافَ الجليدُ * بس شَداك عليه من الحدّه
وتحتم ذاك بفجرٍ عليه * بكِنْدةَ فاسلَخْ على كنده
فإن حُديجا له هجرةٌ * ولكنّها زمنَ الردّه
وما كان إيمانكم بالرسول * سوى قتلكم صهرَه بعده
تعُدّونها فى مساعيكمُ * كعدّ الأهلّة معتدّه
وما كان قاتلُه فى الرجال * بجعل لطهر ولا رِشده
فلو شهدته قريشُ البِطا * ح لما حَمشت مأركم جلده (١)

وقوله أيضا :

ما مسك سلمى ولا أطلالها الدّرُسُ * ولا بواطقُ من طير ولا خُرُس
يا هاشمُ بنَ حديج لو عددتَ أبا * مثلَ القَلَمّس لم يعلَق بك الدَّنَس
إذ أصبح الملكُ النعمانُ وافدَه * ومن قُضاعَة أسرى عنده حُبُس

(١) الحمش : قشر الجلد عن اللحم .

فابتاعهم بإخاءِ الدهـــر ما عَمِـــروا * فلم ينل مثلَها من مثلهـــم أَنَسُ
أو رحت مثـــلَ حُوَىٍّ فى مكارمه * هيهات منـــك حُوَىّ حينَ يُلْتَمَس
أو كالسَّـــمَوءل اذ طاف الهمامُ به * فى جَحْفل لِجَبِ الأصـواتِ يَرْتَجِس
فاختار نُكْلًا ولم يَغْـــدِرْ بذمتـــه * إذ قيل أَشْرِفْ تَرَ الأوداجَ تنبجسُ
ما زاد ذاك على تيـــهٍ خُصِصتَ به * وكيف يَعـــدِل غيرَ السوءة الفَرَسُ

وقـــوله :

يا هاشمُ بنَ حُدَيج ليس نخـــركُمُ * بقتل صهرِ رسول الله بالسَّـــدَدِ
أدرجتمُ فى إهاب العَـــيْرِ جثتَـــه * فبئسَ ما قدَّمتْ أيديكمُ لغـــدِ
إن تقتلوا ابنَ أبى بكر فقـــد قَتَلَتْ * حُجْرًا بدارةِ مَلْحوبٍ بنو أســـدِ
وطـــرَّدُوكم الى الأجبال من أَجَإٍ * طردَ النِّعام اذا ما تاه فى البـــلدِ
وقد أصـاب شَرَاحيلا أبو حَنَش * يومَ الكُلَاب فـا دافعـــتُ بيدِ
ويوم قلـتم لزيدٍ وهو يقتلكم * قتل الكلاب لقد أَبْرحتَ من ولدِ
وكلّ كِنْديّةٍ قالت لجـارتهـا * والدمعُ ينهلّ من مَتْنى ومنفـــرِدِ
أَلْهَى امرأَ القيس تشبيبٌ بغانية * عن ثاره وصـفاتُ النَّوْءِ والوتدِ

وقد رثى أبو نواس خَلَفًا الأحمرَ بعد موته بقصائدَ من شعره، منها قصيدتُه التى أولها

قـــوله :

لو كان حىٌّ واثـــلًا[1] من التَّلَفْ * لو ألْتْ شَـــغْواءُ فى أعلى شَعَفْ
أم فُـــرَيخ أحرزتْه فى جَلَفْ[2] * مُزَغَّبَ الأَلْفادِ لم يأ كلْ بكفّ
كأنه مستقعِدٌ من الخَـــرَفْ * هاتيـك أو عَصْماء فى أعلى شرفْ
تَرُوغ فى الطَّبَّاقِ[3] والتَّرْعِ الألفْ * أَوْدَى بِمَاعُ العلم مُذْ أودَى خَلَفْ

(١) واثلا : ماحيا . ووألت : لجأت . والشغواء : العقاب . والشعف : رءوس الجبال .
(٢) الجلف : العار فى الجبل . ومزغب : صار ذا زغب ، والزغب صغار الريش . والألفاد جمع لفد بالضم وهو لحمة فى الحلق . (٣) الطباق والترع : نوعان من الشجر .

من لا يَعُدّ العِلمَ إلا ما عَرَفْ * قَلِيذَمٌ(١) من العَيَالِيم الخُسُفْ
كلَّما متى تشاءُ سَه نفترِفْ * روايةً لا تُحتَنَى من الصحفْ

ومنها قوله يرثيه :

لا تَبْلُ العُصْمُ فى الهضاب ولا * شَغْواء تَغْدُو فرخَيْن فى جَلَفْ
يُكِنُّها الجوُّ فى النهار ويُؤ * ويها سَوادُ الدُّجَى الى شَرَفْ
تحنو بُجؤْشُوشِها(٢) على صَرِم * كقِعْدة المحنِي من الخَرَفْ
ولا شَبُوب(٣) باتتْ تؤرِّقه النَّـ * ـثْرةُ منها بوابِلٍ قَصِفْ
دانٍ على الأرض والوَصِيد وفى * بَهْوِ أمينِ الإيادِ ذى هَدَفِ(٤)
ديدنُه ذاك طولَ ليلتِه * حتى اذا أنجاب حاجبُ السَّدَفْ
غدا كوَقْف الهَلُوك ينهفتُ الـ * ـقِطْقِط(٥) من مَتْنِيه والكَتِفْ
كأن شَذْرًا وهتْ معاقدُه * بين صَلاه فلعَب الشَّنَفْ
وأخدرىٌّ صُلْبه النَّواهق صَلْـ * ـصالِ أمينِ الفُصُوص والوُظُفْ
منفرد فى الفَلاة تُوسعه * رياً وما يَختليه من عَلَفْ
ما ترك الموت من أولى شَبَحًا * بادتْ بتلك القِلال والشَّعَفْ
لما رأيتُ المنونَ آخذةً * كلَّ شديدٍ وكلَّ ذى ضَعَفْ
بتُّ أُعَزِّى الفؤادَ عن خَلَفٍ * وبات دمعى إلا يَفِضْ يَكِفْ
أنسى الرزايا مَيِّتٌ لُحِتُّ به * أمسى رهينَ التُّراب فى جَدَفْ

(١) القليذم : البئر الغزيرة . والعياليم : جمع عيلم وهو البئر الكثيرة الماء . والخسف جمع خسيفة وهى البئر التى حفرت فى حجارة فسع منها ماء عزيز لا ينقطع .
(٢) الجؤشوش : الصدر . والصرم : فرخ العقاب .
(٣) الشبوب : الشاب من الثيران والغنم . والثرة : منزلة من منازل القمر .
(٤) الوصيد : بيت كالحظيرة يتخذ من الحجارة للمال أى الغنم وغيرها فى الجبال . والإياد : التراب يجعل حول الحوض أو الحباء يقوى به أو يمنع ماء المطر . والهدف : كل مرتفع من ماء أو كثيب رمل أو جبل .
(٥) ينهفت : يتساقط ويتخفض . والقطقط : المطر الصغير أو المتتابع العظيم القطر وقيل هو دون الرداد وقيل البرد أو صغاره .

كان يُسَنِّى[1] برفقه عُلقًا * فى غير عِىٍّ مـه ولا عُنُف
يحوبُ عـك التى غُشيتَ بها * من قبلُ حتى يَشفيك فى لَطَف
لايبهـم الحاءَ فى القراءة مالحا * ء ولا لامَها مع الألف
ولا يُعَمِّى معنى الكلام ولا * يكون إنشادُه عن الصُّحُف
وكان ممن مضى لنا خَلَفًا * فليس منه إذ بان من خَلَف

واختلف أبو نواس الى أبى زيد فكتب العريب من الألفاظ، ثم نَظَر فى نحو سيبويه، ثم طلب الحديث فكتب عن عبد الواحد بن زياد ويحيى القطان وأزهر السَّمّان وغيرهم، فلم يتخلّف عن أحد منهم، وأدرك الناس فعلم، ثم قدم بغداد بعد ذلك .

وكان أيضا يَتَبَرَّز ويُدعى للفرردق . ثم وقع بينه وبين الحكم بن قَنْبَر المازنىّ، فهجاه الحكم وذكر رَيّه العودَ ونَفَى عليه ونكّه . ولما قال أبو نواس قصيدته التى يهجو بها خِنْدِف، وهى :

ألم تَرْمَعْ على الطَّلَل الطَّماس * عَفَاه كل أسحم ذى ارتجاس[2]
وذارِى التُّرَب مُرْتكِمٌ حَصَاه * نسيج المِبْثِ مِعْنَقَة الدَّهَاس[3]
سوى سُفْع أعارتها الليالى * سوادَ الليل من بعد أغبساس[4]
وأورقَ حالف المَثْواةَ هابٍ * كصاوىّ الفِراح من الهُلَاس[5]
منازلُ من عُفَيْرَةَ أو سُلَيْمى * أو الدهماء أخت بنى الخَماس
كأنّ معاقدَ الأوصاح منها * بجيد أغنَّ نُوّم فى الكِنَاس
وتَبْسِمُ عن أغرّ كأنّ فيه * مُجَاجَ سُلافة من بيت راس[6]
فمَنْ ذا مبلغٌ عمرًا رسولًا * فقد ذَكَّرْتَ وُدَّكَ غيرَ ناس

(١) سناه تسنية : سهله وفتحه . (٢) طماس بالكسر : دارس . والأسحم : السحاب . والارتجاس . الرعد . (٣) المعنقة حمل فى الرمل .
(٤) الاغبساس : بياض فيه كدرة . والسمع : يريد بها الأثافى . (٥) الهلاس : الصمورو وهات : لونه لون الحباء . (٦) بلدة بالشأم تنسب اليها الخمر .

فلم أهجرك هجر قلى ولكن * نوائبُ لا تزالُ لها نُقاسى
نوائبُ تعجزُ الأدماءُ عنها * ويَعْيَا دونَها اللقنِ النِّطاسى
وقد نالفتُ عن أحسابِ قومٍ * هُمُ وَرّثوا مكارمَ ذى نُوَاس
فإن تَكُ أوقدتْ للحرب نارٌ * فما غَطّيتُ خوفَ الحرب راسى
سأُبْلِى حيرَ ما أُبلَى مُحَامٍ * اذا ما النَّبْلُ أُلْجِمَ بالقياس (١)
وسَمتُ الوائلينَ بفاقراتٍ * بهنّ وسَمْتُ رهطَ أبى وِرَاس
وقالت كاهلٌ وبنو قُعَيْنٍ * حَنَانَكَ إننا لسنا بباس
فما بالُ النِّعاح ثَغَتْ بشَتْمِى * وفى زَمَعَاتهن دمُ الفراس
وما حامتْ عن الأحساب إلا * لترفع ذكرَها بأبى نواس

عارضه الحكم وهجاه ، فانقلب على النّزارية وادّعى أنه من حاء وحكم ، فزجره يزيد بن منصور الحميرىّ حال المهدى وقال له : أنت حوزى ، فمالك ولحاء وحكم ! فقال له : أنا مولًى لهم ، فتركوه ، وقال بعضهم لبعض : إنه لظريف اللسان عزيز العلوم فدعوه ، وهذا الولاء يتعصّب لنا ويكايد عنا ويهجو النزاريّة ، فكان كما قالوا وكما ظنوا ، فانقلب الى اليمن وعَدَل عن كنيته بأبى فراس واكتنى بأبى نواس ، تشبُّها بكنية ذى نُوَاس كما كانت اليمن تكتنى ، وندم على هجاء اليمن ، ووحدَهم له أنصرَ ولدعوته أقبلَ ، فاعتذر الى هاشم بن حُديج الكندى من هجائه ، ومَدَح اليمن فقال :

أهاشمُ خذْ منّى رضاك وإن أبَى * رضاك على نفسى فعيرُ ملُوم
فأُقسمُ ما جاوزتُ بالشتم والدِى * وعِرضى وما مزّقتُ غيرَ أديمى
فعُذتُ بحَقْوَىْ هاشمٍ فأعاذنى * كريمٌ أراه فوقَ كلّ كريم
وإنّ امرأً أغْضَى على مثلِ زَلّتِى * وإن جَرّحتْ فيه لَحُرٌّ حليم
تطاولَ فوقَ الناس حتّى كأنّما * يَرون به نجما أمام نجوم

(١) جمع قوس .

اذا امتازتِ الأحسابُ يوما بأهلها ، أناخَ الى عاديّـةٍ وصَمـيم
الى كلّ مَعصُوبٍ به التّاجُ مِقوَلٍ * اليــه أيادى عامرٍ وتَمـيم

وكان قبل أن ينتمى لليمن ويدعَى لنزار يتعاجم فى شعره، فمن ذلك قوله :

فاسقنيها وغنِّ صَو * تًا، لك الخـيرُ، أعجما
ليس فى سعتِ دِمْـنـةٍ * لا ولا زَجْـر أشأما

وكان الجاحظ يقول : ما أعرف لأبى نواس شعرا يفضُل هذه القصيدة وهى :

ودارِ ندامَى عطّلوها وأدلجـوا * بهـا أثرٌ منهـم جديدٌ ودارسُ
مَساحِبُ من جرّ الزّقاق على الثّرى * وأصفاثُ ريحانٍ جنىٌّ ويابسُ
حبستُ بها صحبى لجدّدتُ عهدَهم * وإنّى عـلَى أمثال تلك لحابسُ
ولم أدر منهم غيرَ ما شهـدتْ به * بشَرقىّ ساباطَ الديارُ البسابسُ
أقمنا بهـا يومًا ويوما وثالثـا * ويوما له يومُ الـترحُّل خامسُ
تُـدار علينـا الراحُ فى عَسجديّة * حَبَتْهـا بأنواع التّصـاوير فارس
قَوارتُهـا كسرَى وفى جَنباتها * مَهًا تَدريها بالقِسىّ الفـوارسُ
فللحمر ما زُرّت عليـه جُيوبُها (١) * وللماء ما دارتْ عليـه القَلانسُ

وقوله يصف كَرمة وعرّعها بالهَجْمة وهو يريد الدّنان :

لنـا هَجمةٌ لا يُدرك الذئبُ سَخلَها * ولا راعَها زَوُ الفحالة والخطـر
اذا امتُحنت ألوانُها مالَ صفوُها * الى الكَمْت إلا أن أوبارَها خُضرُ
وإن قام فيها الحالبون أتقتُهُمُ * بعجـلاء تقب الجوف دِرّتُها الخمرُ
مَسارحها الغربىُّ من نهرِ صَرصَر * فقُطـرَ بُلٌّ فالصّالحيّـةُ فالعَقـرُ

(١) يعنى أن الخمر مصبوب فيها الى حلوق الصور صرفا . وقوله : وللماء، يعنى انهم صوا الماء فى مزجها حتى علا رءوسها .

تُراثُ أبى ساسانَ كسرَى ولم تكن * مواريثَ ما أبقت تميمٌ ولا بكر
قَصَرتُ بها ليلِي وليلَ ابنِ حُرّة * له حسبٌ زاكٍ وليس له وَفرُ

وفى تَعاجُم أبى نواس فى شعره يقول الرقاشىّ يهجوه :

نَبَطىّ فاذا قيل له * أنت مولَى حَكَم قال أجَل
هو مولَى الله اذ كان به * لاحقًا فاللهُ أعلَى وأجلّ
واضعا نسبتَه حيثُ اشتهىَ * فاذا ما رابَه ريبٌ رَحَل

فقال أبو نواس يهجوه :

هجوتُ الفضلَ دهرى وهو عندى * رَقَاشىٌّ كما زعم المسولُ
فلما سُوئلتْ عنه رقَاشٌ * لنعلم ما تقول وما يقول
ولمّا أن نَصَصناه اليها * لتعلم ما يُقال وما نقولُ
وجدنا الفضلَ أبعدَ من رقاش * من الأُتُن آذعت فيها الفُيول
وحدنا الفضلَ أكرمَ من رقاش * لأنّ الفضلَ مولاه الرسولُ

يريد بذلك قولَه صلّى الله عليه وسلّم : «أنا مولَى من لا مولَى له» .

وقال أيضا يهجوه :

قل للرقاشىّ اذا جئتَه * لو متَّ يا أحمقُ لم اهجُكا
لأننى أكرِم عرضى ولا * أقرنُه يومًا الى عِرْضكا
إن تهجُنى تَهْجُ فتى ماجدا * لا يرفع الطَّرْفَ الى مثلكا
دونَك عِرضى فاهجُه راشدًا * لا تَدْنَس الأعراضُ من هجوكا
والله لو كنتُ جريراً لما * كنتُ بأهجى لك من أصلكا

وقال أيضا يهجوه :

يا عربيًّا من صَنْعة السُّوق * وصنعةُ السُّوق ذاتُ تَشْقيق
ما رأيكم يانزَّارُ فى رجل * يدخُل فيكم من خَلْق مخلوق

ويحمل الوَطْبَ والعِلَاتَ ولا . يصلُح إلّا لحمل إبريق
لقد صربا بالطل أنك فى الـ ـقوم صحيحٌ وصِيَح فى البُوق
قد أحد اللهُ من رَقَاشَ على . ركهمُ المجدَ بالمواثيق
فالناس يسعَوْن للعلا قُدُمًا * وهم وراءٌ مكسَّرو السُّوق
هذا كذا كم وفى الهَيَاج ادا هِيجَ ما شئتَ من عَوَاشِيق (١)

وقال أيضا يهجوه

أصبح الفصلُ طاهرَ التِّيهِ * وداك مد صِرتُ أُهاجيهِ
لله شعرى، أىّ مِفْوَاهِهِ * لكلّ من دونى قوافيهِ
كم بين فصلٍ مد هاجيتُه * وبينَه قبلَ أُهاجيهِ
فالحمد لله وإن كنتُ لم * أحفِلْ بقومٍ نَصَحوا فيه
رَضِيتُ أن يشتمنى ساقطٌ * شِسْعِىَ حيرٌ من مَوَاليه

وكان أبو نواس فى دعاويه يتماحَلُ ويعتَث ويُخفى نسبه واسْمَ أمّه لئلا يُهْجَى ، وذلك مشهور عنه . ولو عصب هو نفسه على أبيه لهجاه ولم يُحتشِم. والمذكور من أمره أنه كان مولى الحَكَمِيّين، يفتخر بهم ويمدحهم لذلك، ويمدح العجم ويذكرهم لأنه منهم، فلذلك قال فى العجم ما قال.

قال ابو الفرج الأصفهانى : كان أبو عُبَيده يقول : ذهبتِ اليمنُ بجِدِّ الشعر وهزله : امرؤ القيس بجدّه ، وأبو نواس بهَزْله . وكان يقول : ذهبت اليمنُ بجيد الشعر فى قديمه وحديثه : امرؤ القيس فى الأوائل، وأبو نواس فى المحدثين. وكان يقول . شعراء اليمن ثلاثة : امرؤ القيس وحَسّان بن ثابت وأبو نُوَاس . وقال أيضا : أبو نواس فى المحدثين مثل امرئ القيس فى المتقدمين ، فُتِحَ لهم هذه الفِطَنَ ودلّهم على المعانى وأرشدهم الى طريق الأدب والتصرف فى فنونه . وكان يقول : يعجبنى من شعر أبى نواس قوله :

(١) جمع ماشق وهو اسم طائر، أعجمى معرّب .

بَنَيا على كسرى سماءَ مُدامةٍ * مكلَّلة حافاتُها بنجوم
فلو رُدّ في كسرى بن ساسان روحُه * إذًا لاصطفاني دونَ كل نديم

وسئل يعقوب بن السِّكّيت عما يختار روايتَه من أشعار الشعراء، فقال: اذا أردت من الجاهليين فالامرئ القيس والأعشى، ومن الإسلاميين فجَرير والفرزدق، ومن المحدَثين فلأبي نواس حَسْبُ. وقيل: للعُتْبي من أَشْعرُ الناس؟ قال: عند الناسِ أم عندي؟ قيل عند الناس؟ قال: امرؤ القيس؛ قيل: فعندك؟ قال: أبو نواس.

وقال عبد الله بن محمد بن عائشة: من طلب الأدب فلم يَرْوِ شعرَ أبي نواس فليس بتامّ الأدب. وسئل: من أشعرُ المحدَثين؟ فقال. الذي يقول.

كأنّ ثيابَه أطلعـ * ـن من أزراره قمرا
يزيدك وجهُه حسنًا * اذا ما زدتَه نظرا
بعين حالط التفتيـ * ـرُ من أجفانها الحَوَرا
ووجهٍ سارِيٍّ لو * تصوَّب ماؤه قطرا
وقد خطَّت حواضنُه * له من عبرِ طُرَرَا

وقال ابراهيم بن العباس الطويل. اذا رأيت الرجلَ يحفظ شعر أبي نواس علمت أن ذلك عنوانُ أدبه ورائدُ ظَرْفه.

وكان أبو نواس يقول عن نفسه سفُلْتُ عن طبقة من تقدّمني من الشعراء وعلوت عن طبقة مَنْ معي ومن يجيء بعدي، فأنا سبيحُ وَحْدي.

وحدّث جماعة من الرواة ممن شاهد أبا نواس قالوا: كان أقلُّ ما في أبي نواس قولَ الشعر، وكان خلا راويةً عالما.

وقال أبو عبيده: بلغني أن أبا نواس يتعاطى قَرْضَ الشعر فتلقّاني وهو سكرانُ ماطرٌ شاربُه بعدُ، فقلت له: كيف فلان عبدك؟ فقال. ثقيلُ الظل، جامد النسيم؛ فقلت: زِدْ؛ فقال: مظلم الهواء، مسنُّ الفناء، فقلت. زد، فقال: غليظ الطبع، بارد الشكل؛

قلت : زد ، فقال : وَخْم الطَّلْعة ، عَسِر القَلْعة ، قلت : زد ، قال : ناتئ الجَنَبات ، بارد الحركات ، قال : فخفَفْتُ عنه ، فقال : زدنى سؤالا ، أزدْك جوابا ، فقلت : «كفى من القلادةِ ما أحاط بالعنق» .

وقال سليمان بن أبى سَهْل لأبى نواس : ما الذى استُجِيد من أجناس شعرك ؟ فقال : أشعارى فى الخمر لم يُقَل مثلُها ، وأشعارى فى الغزل فوق أشعار الناس ، وهما أجود شعرى إن لم يزاحم عزلى ما قلته فى الطَّرْد .

وكان يقول : ما قلت الشعر حتى رَوَيتُ لستين امرأة من العرب منهن الخَنْساء وليلى ، فما طمك بالرجال ؟ وانى لأروى سبعائة أُرجوزة ما تُعرف .

وكان قد استأذن خَلَفًا فى نظم الشعر ، فقال : لا آذَنُ لك فى عمل الشعر إلا أن تحفظَ ألفَ مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومَقْطوعة ، فغاب عنه مدةً وحصر اليه فقال له : قد حفظتُها ، فقال : أنشِدْها ، فأنشده أكثرها فى عدة أيام ، ثم سأله أن يأذن له فى نَظْم الشعر ، فقال له : لا آذنُ لك إلا أن تنسى هذه الألفَ أرجوزة كأنك لم تحفظْها ، فقال له : هذا أمر يصعُب علىّ ، إنى قد أتقنت حفظَها ، فقال له : لا آذن لكَ إلا أن تنساها ، فذهب الى بعض الدِّيَرة وحلا بنفسه وأقام مدة حتى نسيها ، ثم حضر فقال : قد نسيتُها حتى كأنْ لم أكن قد حفظتُها قَطّ ، فقال له : الان فانظم الشعر .

وكان أبو نواس يقول : لا أكاد أقول شعرًا جيِّدا حتى تكون نفسى طيبة ، وأكونَ فى بستان مونِق ، وعلى حال أرتضيها من صلةٍ أُوصَل بها أو وعدٍ بصلة ، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعارًا لا أرضاها . وكان يعمل القصيدة ثم يتركها أياما ، ثم يَعرِضها على نفسه فيُسْقِط كثيرًا منها ويترك صافيَها ، ولا يسُرّه كلُّ ما يَقْذِف به خاطرُه . وكان يهمُّه الشعرُ فى الخمر فلا يعمله إلا فى وقت نشاطه . ولم يكن فى الشعر بالبطىء ولا بالسريع بل كان فى منزلة وُسْطَى .

وكان الأصمعى يقول : يعجبنى من شعر الشاعر بيتٌ واحد قد أجاد قائلُه وهو :

ضعيفةُ كَرِّ الطَّرْف تحسَب أنها * قريبـــةُ عهدٍ بالإفاقة من سُـقْمِ

وإنّى لآتِى الأمرَ من حيث يُتَّقَى * ويعلَم سَهْمِى حينَ أَنْزِع مَنْ أَرْمِى

قال العَتّابِىّ لرجلين تناظرا فى شعر أبى نواس : والله لو أدرك الخبيثُ الجاهليةَ ما فُضِّل عليـــه أحد .

وقال أبو عمرو الشَّيْبانى : أشعرُ النـاس فى وصف الخمر ثلاثة : الأَعْشى والأَخْطل وأبو نُوَاس .

قال محمد بن عمر : لم يكن شاعرٌ فى عصر أبى نواس إلا وهو يحسُده لميل الناس اليـه وشهوتهم لمعاشرته ، وبُعْدِ صِيتِه وظَرْف لسانه .

وقال أبو حاتم : سئل أبو نواس عن شعره فقال : اذا أردتُ أن أَجِدَّ ، قلتُ مثـل قصيدى « أيُّهـا المتابُ عن عُمُرِهْ » ، واذا أردت العبثَ قلت مثل قصيدى : « طاب الهوى لعميده » ، فأما الذى أنا فيه وحدى وكلُّه جيدٌ فاذا وصفت الخمر .

وقال أبو ذَكْوانَ : كنا عنـد التَّوَّزِىّ فذكرتُ عنده أبا نواس ، فوضع مـه بعضُ الحاضرين ؛ فقال له التوزى : أتقول هذا لرجل يقول :

يخـافُه النـاسُ ويَرْجُونه * كأنه الجنـــةُ والنـارُ

ويقـــول :

فـا جازه جودٌ ولا حـلّ دونَه * ولكن يصير الجـودُ حيث يصيرُ

ويقـــول :

فتَمَشَّتْ فى مَفَاصلهـــمْ * كتَمَشِّى البُرْءِ فى السَّقِيمِ

قال ابن الأعرابى يوما لجلسائه : ما أشعرُ ما قال أبو نواس فى الخمر؟ فقال بعضهم :

اذا عَبَّ فيهـا شاربُ القومِ خلتَه * يُقَبِّل فى داجٍ من اللّيـــل كوكبا

وقال آخر :

كأن كُبْرَى وصُغْرَى من فَقَاقعها * حصباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذَّهَبِ

وقال آخر :

تَرَى حيث ما كانتْ من البيت مَشْرِقًا * وما لم تكن فيـــه من البيت مَعْرِبا

وقال آخر :

كأنّ الكؤوسَ فيها نجومٌ * دائراتٌ بروجُها أيديـا

وقال آخر :

صفراءُ لا تنزلُ الاحزانُ ساحتَهـا * لـــو مَسّها حَجَـــرٌ مسته سَرّاءُ

فقال ابن الأعرابى إن هـذا كله لشاعر انفرد بالإحسان فيه ، وتقدّم من سـبقه ومن تأخر عنه، ولكنه أشعر من هذا كله فى قوله :

لا يزالُ الليـلُ حيث حَلَلْتْ * فـــدهرُ شُـــرَّاهـا نهـارُ

قال مسلم بن بهرام لَقِيتُ أبا العَتَاهِيَة فقلت له من أشعرُ النـاس ؟ قال : تريد جاهليًا أو إسلاميًا أو مولّدها ؟ قال : كُلًّا أُريد، قال : الذى يقول فى المديح .

اذا نحن أثنينـا عليـك بصـالح * فأنت كما نُثنى وفـوق الذى نُثنى

وإن جَرَت الألفاظُ يومًا بمدحةٍ * لغـــيرك إنساناً فأنت الذى نَعنى

والذى يقول فى الزهد

ألا ربّ وجهٍ فى التُّراب عَتِيـقِ * ويا ربّ حُسْنٍ فى التراب رقيـقِ

ويا ربّ جِرمٍ فى التراب وتجْـــدهِ * ويا ربّ رأيٍ فى التراب وَثِيـــقِ

فقـــل لغريب الدار إنك راحلٌ * الى منزلٍ ما فى المحَـــلّ صَحِيـــقِ

وما النـاسُ إلا هالكٌ وابنُ هالكٍ * وذُو نَسَبٍ فى الهـالكين عريقِ

اذا امتحن الدنيا لَبيبٌ تَكَشَّفتْ * له عن عدوٍّ فى ثيـاب صـديقِ

وكان يقول : سبقنى أبو نواس الى ثلاثة أبيات وَددتُ أنى سبقته اليها بكل ما قلته فإنه أشعر الناس فيها، منها قوله :

يا كبيرَ الذَّنب عفوُ اللّ * ـه من ذنبك أكبرْ

وقوله :

مَنْ لم يكن لله متَّهما * لم يُمْسِ محتاجًا الى أحَدِ

وقوله :

اذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفتْ * له عن عدوٍّ فى ثياب صديقِ

ثم قال . قلت فى الزهد ستة عشر ألف بيت وَددتُ أن أبا نواس له ثلثها بهذه الأبيات .

وقال الجاحظ : سمعت النَّظّام يقول ، وقد أنشد شعرًا لأبى نواس . كأن هذا الفتى جُمِع له الكلامُ فاختار أحسنَه . وقال بعضهم : كأن المعانى حُبِستْ عليه، فأحد حاجتَه وفرّق الباقى على الناس . وقال أبو حاتم : كانت المعانى مدفونة حتى أثارها أبو نواس .

حدّث الحسين بن الحصيب الكاتب، قال : قال أحمد بن يوسف الكاتب : كنتُ أنا وعبدُ الله بن طاهر عند المأمون، وهو مستلقٍ على قفاه، فقال لعبد الله بن طاهر . يا أبا العباس، مَنْ أشعرُ مَنْ قال الشعر فى خلافة بنى هاشم ؟ فقال . أميرُ المؤمنين أعرفُ بهذا وأعلى عينا، فقال له المأمون : على ذلك فَقِّلْ، تكلم أنت يا أحمد بن يوسف، فقال عبد الله بن طاهر . أشعرُهم الذى يقول :

ويا قبرَ معنٍ كنت أوّلَ حُفْرة * من الأرض خُطَّت للسَّماحة منزلا

قال أحمد بن يوسف الكاتب : فقلت : بل أشعرُهم الذى يقول :

أشْبهتِ أعدائى فصرتُ أُحِبُّهمْ * إذ كان حَظِّى منك حَظِّى منهمُ

فقال المأمون : يا أحمد أبيتَ إلا غَزَلا ! أين أنتم عن الذى يقول :

يا شقيقَ النَّفْس من حَكَمِ * نِمْتَ عن لَيْلِى ولم أنَمِ

فقلنا : صدقتَ يا أمير المؤمنين .

وكان المأمون يقول : لو سُئلت الدنيا عن نفسها فنطقت ، لما وصفتْ نفسَها كما وصفها أبو نواس فى قوله :

اذا امتحن الدنيا لبيبٌ تَكَشّفتْ * له عن عدوٍّ فى ثياب صـــديقِ

وَرَد على العتابى بحَلَب عِدّةٌ من اليكبار من أهل قِنّسْرين، فدخلوا وسَلّموا ؛ وكان فى يده رُقْعـة ينظر اليها ، فقال لهم : لقد سَلَك صاحبُ هـذه الرُّقعة وادياً ما سلكه أحدٌ قبله ؛ فنظروا فاذا هو شعر أبى نواس فى جِنان جارية آل عبد الوهّاب الثقفىّ ، وهو قوله :

رَبْعُ الكَرَى بين الجفـون مُحِيـلُ * عَفّى عليـه بُكًى عليـك طويلُ

يا ناطـرًا ما أقلعتْ لحظـاتُه * حـتى تشحّط بينهن قتيـلُ

أحلتُ قلبى من هـواكَ مَحِلّةً * ما حلّها المشروبُ والمأكولُ

بكمال صـورتك التى من دونها * يتحـيّر التشبيـهُ والتمثيـلُ

فـوقَ القصيرةِ والقصيرةُ فوقَها * دون السّمين ودونَها المهـزولُ

ومما أنشده العتابى لأبى نواس فقال أحسن وأجاد :

متـأيّهٌ بجمـاله صَـلِفٌ * لا يسـتطاع كلامُـه تيهًا

للحسن فى وَجَـناته بَدَعٌ * ما إن يَمَـلُّ الدرسَ قاريها

لو كانت الأشـياءُ تعقـله * أجْلَلنَـه إجـلالَ باريها

لو تستطيع الأرض لانقبضت * حـتى يصـير جميعه فيها

وقـــوله :

إن السحابَ لتستحيى اذا نظـرتْ * الى نـداك فقاسـتْه بما فيها

حـتى تَهُـمّ بإقـلاعٍ فيمنعُها * خوفٌ من السُّخْط من إجلال منشيها

قال محمد بن صالح بن بَيْبَس الكُلَابى : لما دخلتُ العراقَ صرتُ الى مدينة السلام فسألت عمّن بها من الشـعراء المحسِنين ، وذلك فى أيام خلافة الأمين أو عنـد موته قبل دخول المأمون بيسير، فقيل لى : قد غلب عليهم فتًى من أهل البصرة يقال له الحسن

ابن هانئ ويعرف بأبى نواس ، وقد كنت سمعتُ شيئا من شعره، فأتانى فتى كان من أهل الأدب، فقلت له : هل تروى لأبى نواسكم هذا شيئا؟ قال : أروى له أبياتا فى الزهد وليس هو من طريقته، فقلت أنشدنيها، فأنشدنى :

أنى ما بالُ قلبك ليس يَبْقَى * كأنك لا تظُنّ الموتَ حَقّا
ألا يا بنَ الذين مَضَوا ومادوا * أما والله ما ذهبُوا لتَبْقَى
وما للنفس عندكَ من مُقَام * اذا ما استكملتْ أَجَلًا ورِزْقا
وما أحدٌ بزادك منك أَحْظَى * ولا أحدٌ بذنبك منك أَشْقَى
ولا لكَ غيرَ تقوى الله زادٌ * اذا جعلتْ الى اللّهَوات تَرْقَى

فقلت له : أحسن والله ! قال : أفلا أنشدك أحسنَ من هذا؟ قلت بلى، فأنشدنى فى رثاء محمد الأمين :

طوى الموتُ ما بينى وبين محمد * وليس لما تَطْوِى المنيةُ ناشرُ
فلا وصلَ إلاّ عَبْرةٌ تستديمُها * أحاديثُ نفسٍ مالها الدهرَ ذاكرُ
لئن عَمَرتْ دور بمن لا أودّه * لقد عَمَرتْ ممن أحبُّ المقابرُ
وكنتُ عليه أحذرُ الموتَ وحدَه * فلم يَبْقَ لى شىءٌ عليه أُحاذِرُ

فقال : بحقّ ما غلب هذا على أهل الأدب وقدّموه على غيره .

قال محمد بن جعفر الأَصَمّ : كنا عند أبى نُعَيم ، فتذاكرنا قول عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها حين ذكرتْ شعرَ لَبيد يَرثِى أخاه أربد :

ذَهَبَ الذين يُعاشُ فى أكنافهم * وبَقِيتُ فى حَلَف بجلد الأجرب

ولقد أنشدنى أبو نعيم أبياتا، قلنا : أنشِدْناها، فقال :

ذهبَ الناسُ فاستقَلّوا وصِرْنَا * خَلْفَا فى أراذل النّساس
فى أُناسٍ تَعُدُّهم من عديدٍ * فاذا فُتِّشُوا فليسوا بناس

كلما جئتُ أستقى الفضلَ منهم * بَدَرُونى قبـــل السؤالِ بيـاس
وبَكَوْا لى حتى تمنّيتُ أنّى * مُقْلتٌ عـــد ذاك رأسًا براس

ثم قال : أتدرون لمن الشعر ؟ قلنا : لا ، قال : للحسن بن هانىء .

قال أبو عبد الرحمن الضرير . رأيتُ مسلم بن الوليد بُحْرحان وهو يتولّاها ، فسألنى عمن خلّفتُ من الشعراء . فقلت له أما من الكوفيّين فأبو نواس ، وهو مقدّم عندهم ، فقال : ويحك ! كيف يتقدّم وهو يقول : رُوَيْدَكَ يا إنسانُ لا أنت تَقْفِرُ أرأيتَ قوله : « تقفز » خرجتْ من بين فَكَّىْ شاعرٍ قط ! ثم قال ويلك ! وكيف يكون كذلك وهو يُحيل ويتخطّى من صفة المخلوق الى صفة الخالق ؟ فقلت : مثل مادا من قوله ؟ قال : أما فيما أحال فكقوله :

وأخفتَ أهـــلَ الشِّرْكِ حتى إنه * لَتَخافُكَ النُّطَفُ التى لم تُخْـــلَقِ

وهـــذا من الإغراق المستحيل فى العقول ومما ليس على مذهب القوم ، وأما فى تخطّيه بصفة المخلوق الى صفة الخالق فكقوله .

يَحِـــلّ أن تلحَقَ الصفاتُ به * فكلّ خُلْقٍ لخُلْقـــه مثـــلُ

وكقـــوله :

* بريءٌ من الأشباه ليس له مثل *

ومما قيل عن أبى نواس إن الشعر إنما هو بين المدح والهجاء وأبو نواس لا يُحسنهما ، وأجودُ شعره فى الخمر والطَّرْد ، وأحسنُ ما فيهما مأخوذ ليس له وإنما سَرَقه ، وحُسْنُك من رحل يريد المعنى ليأخذه فلا يُحسن أن يَبْنى عليه حتى يجىءَ به قبيحا ، مثل قوله : « وداوِنى بالتى كانت هى الداءُ » أخذه من قول الأعشى : « وأحرى تداويتُ منها بها » والذى أخذه منه أحسن . ومنها أيضا قولُه : « إن الشَّبابَ مطيّةُ الجهلِ » أخذه من قول النابغة الجَعْدى : « فإنّ مطيّةَ الجهلِ الشّبابُ » . وقوله : « كطلعة الأشمط من إهَابه » أخذه من قول أبى النجم : « كطلعة الأشمط من كِسائه » . ولكن رُزِق أبو نواس فى شعره أن سار وحَمَله الناسُ وقدّمه أهلُ عصره ، وإن له على ذلك لأشياءَ حِساناً لا يدفعها ولا يطرَحها إلا جاهلٌ بالكلام أو حاســـد .

ومن أحسن مدائح أبي نواس قوله من أرجوزته التي يمدح بها الفضل بن الربيع وهي :

وبلدة فيها زَوَرْ * صَحْراءَ تحفَى في صَعَرْ
مَرْتٍ(١) اذا الذئبُ افتقرْ * بها من القومِ الأثرْ
كان له من الجَزَرْ * كلُّ جَبِيٍ ما اشْتَكَرْ(٢)
ولا تَعَلَّاه شَعَرْ * مَيْتُ النِّساحيُّ النَّعَرْ
عَسَفْتُها(٣) على خَطَرْ * وغَرَرٍ من الغَرَرْ
بيازٍ حين قَطَرْ * يَهُزُّه حِنٌّ الأَشَرْ
لا مُتَشَكٍّ من سَدَرْ(٤) * ولا قريبٍ من خَوَرْ
كأنّه بعدَ الصُّمُرْ * وبعدَ ما جال الصُّفُرْ(٥)
وأنمحَّ في حَسَرْ * جَأْبٌ(٦) رَتاعُ المُتْعَبَرْ
يَحْدُو بُحقْف كالأَكَرْ * ترى بأثباج القَصَرْ(٧)
منهنّ هَوْشيمُ الجَلَدْ * رَعَيْنَ أبكارَ الخُضَرْ
شَهْرَيْ رَبيعٍ وصَفَرْ * حتى اذا الفحلُ جَفَرْ(٨)
وأشمسه السَّفَى الإِرَرْ * وشَثٌّ أَذْخارُ القُفَرْ(٩)
قُلْنَ له : ما تأتمرْ؟ * وهنَّ إذ قُلْنَ : أَشِرْ
غيرُ عَواصٍ ما أَمَرْ * كأنّها لمن نَظَرْ
رَكْبٌ يَشِيمُونَ مَطَرْ * حتى اذا الظلُّ قَصُرْ

(١) المرت : الأرض لا نبات فيها ، واقتفر الأثر : اقتفاه وتتبعه . (٢) الجزر (بفتحتين) : ما يذبح من الشاء ذكرا كان أو أنثى . واحدته : جزرة . وما اشتكر : لم ينبت له الشكر وهو الصعيف من الشعر الذي لا يكاد يظهر . (٣) عسفتها : سلكتها متعبطا ، والعرر . الخطر . (٤) السدر : التحير . (٥) الصمر (بالضم وبضمتين) : الهزال . والصفر : جمع صفار (بالفتح) وهو ما يشدّ به البعير من شعر مصفور . (٦) الجأب : الحمار الغليظ من حمر الوحش . (٧) الأشاح جمع شح وهو وسط الشيء ، والقصر جمع قصرة وهي أصل العنق . (٨) جفر : امتنع عن الصراب . (٩) السفى : كل شجر له شوك ، وشث : نصب ، والقر . جمع قرة وهي الوهدة المستديرة من الأرض .

يَمَّنَ من حَبْيِ هَجَرْ * أخضرَ طَلَّامَ العَكَرْ
وبينِ أحقافِ القَتَرْ * سَارٍ وليس للسَّمَرْ
ولا تِلاواتِ السُّوَرْ * يمسَحُ مِرْنَانًا يَسِرْ (١)
رُمَّتْ بمَشْزُورِ المِرَرْ * لأُمِّ كُلْقُومِ الشَّغَرْ (٢)
حتى إذا اصْطَفَّ السَّطَرْ * أهدَى لها لو لم تُحَرْ
دَهْيَاءَ يَحْدُوها القَدَرْ * فتِلْكَ عَنْسٌ لم تُدَرْ
شَهْبَا إدا الآلُ طَهَرْ * إليكَ كلَّفا السَّفَرْ
خُوصًا يُحَادِينَ السَّظَرْ * قد انطوتْ منها السَّرَرْ
طَيَّ القَرَارِيِّ (٣) الحِبَرْ * لم تتقعَّدْها الطِّيَرْ
ولا السَّبِيحُ المردَجَرْ * يافَضْلُ للقوم البَطَرْ
إد ليس فى الناس عَصَرْ * ولا من الخوف وَرَرْ
ونزلتْ إحدى الكُبَرْ * وقِيلَ صَمَّاءُ العِيَرْ
فالناسُ أبناءُ الحَدَرْ : * فرَّجْتَ هاتيكَ الغُمَرْ
عَنَّا « وقد صَابَتْ بُقُرّ (٤) » * كالشمس فى تَخْصِ بِشَرْ
أعيا مُجاريكَ الخَطَرْ * أبوك حَلَّ عن مُضَرْ
يومَ الرِّواقِ المحتَضَرْ * والحوفُ يَفْرِى ويَدَرْ
لما رأى الأمرَ اقْطَرُّ (٥) * قام كريمًا فانتصَرْ
كهَرَّةِ العَصْبِ الذَّكَرْ * ما مسَّ من شىء هَبَرْ (٦)

(١) المرمان القوس . (٢) رمت شدّت ، ومشزور ر معتول ، والمرر . جمع مرة وهى قوّة الفتل ، واللأم : الشديد ، والعر . كصرد الدلل . والعرب تشه الدقيق بالأوتار وحلاقيم العراق . (٣) القرارى . الحياط
(٤) القر : القرار ، يقال اذا وقع الأمر موقعه صاب قر ووقعت قر . قال طرفة بن العبد البكرى .

كنت منهم كالمعطى رأسه * فاحتلى اليوم عطائى وحمر
سادرا أحسب عيى رشدا * فتناهيت وقد صاب قر

(٥) اشتد . (٦) هبر . قطع .

وأنت تَقْتافُ الأثَـرْ * من ذى نُجُول وعُرَرْ
معيـد وِرْدٍ وصَـدَرْ * وإن علا الأمرَ اقتـدر
فأين أصحابُ الغَمَـرْ * اذ شَربوا كأس المَقِـر(١)
وقُصِروا فيمن قُصِر * هيهات لا يحمى القمر
أصحرتَ اذ دَنّوا الخَمَـر * شكرا ، وحرٌّ مَنْ شَكَرْ(٢)
فالله يُعطيـك الشَّـبَر(٣) * وفى أعاديك الظَّفَـرْ
والله مَنْ شاء نَصَر * وأنت إن حِفْتَ الحَصَر(٤)
وهَرّ دهرٌ وكَشَرْ * عن ناجِذَيْه ونَسَر(٥)
أعيتَ ما أعنَى المَطَرْ * وفيـك أحلاقُ اليَسَر
فانْ أبَوْا إلا العَسَرْ * أمررتَ(٦) حبلًا فاستمرْ
حتى ترى تلك الزُّمَر * تَهْوِى لأذقان الثَّغَـر(٧)
من جذْبِ أَلْوَى(٨) لو بتر * اليـه طَوْدًا لأناطَـر(٩)
صعبٍ اذا لاق أبَـرْ * وإن هَفَا القومُ وَقَرْ
أو رَهِبُوا الأمرَ جَسَرْ * ثم تَسَامَى فَفَغَـرْ
عن شِقْشِق ثم هَـدَرْ * ثم تَنَاجَى فخَطَـرْ
بدى سِبِيبٍ(١٠) وعُـدُرْ * يمضع أطـرافَ الوَبَرْ
هـل لك والهَـلّ خِيَرْ(١١) * فيمن ادا غثَّ حَصَرْ
أو نالكَ القـومُ ثَأَرْ * وإن رأى حيراً شَـكَرْ
* أو كان تقصيرٌ عَدَرْ *

(١) المقر : المر . (٢) أصحرت : برزت الى الصحراء . ودنوا الخمر : مشوا بمحمين . والخمر : ما سترك من شجر أو ساه أو نحوه . (٣) الخير والقوة . (٤) الضيق . (٥) كشر أبدى عن ناجذيه ، ونسر : عبس . (٦) أى أحكمت فتله (٧) جمع ثغرة وهى نقرة النحر . (٨) الألوى : الشديد الخصومة . (٩) أعوج وانثى . (١٠) السبيب : شعر الذنب والعرف والناصية ، والعدر جمع عذار . (١١) قصد لفظ هل الاستفهامية فأدخل عليها الألف واللام .

ولما عمل أبو نواس القصيدة التى أولها : « ومستعبدٍ إخوانَه بثرائه » بلغت الأمينَ، فبعث اليه، وعنده سليمان بن جعفر . فلما دخل عليه قال له : يا عاضَّ نَظْرِ أمّه العاهرة ، و يامدّعىَ ولاءِ حاءَ وحَكَم ! أتدرى يابنَ اللّخناء من توليت والى من ادّعيت ؟ الى ألأمِ قبيلتين فى اليمن ، عُلُوج ماغين . أنت تكتسب بشعرك أوساخَ أيدى الناس اللئام ، وتقول : « ولا صاحب التاج المحجَّب فى القَصْر » أما والله ما نلتَ منّى شيئًا بعد ذلك أبدا ! فقال له سليمان بن أبى جعفر : إى والله ! نعم هو مع هذا من كبار الثَّوِيّة[1] (وكان يُرمى بذلك) ؛ فقال له محمد الأمين : وهل يشهد عليه شاهد بشىء من ذلك؟ فأتاه سليمان بعدّة نَفَر ، فشهدوا عليه أنه شرب فى يوم مَطِير فوصع قدحَه تحت السماء فى المطر فوقع فيه المطر ، فقالوا له : ما تصنع بذلك وَيْحَك ؟ قال : أنتم تزعُمون أنه ينزل مع كل قطرة ملكٌ، فكم ترانى أشرب من الملائكة ! ثم شرب ما فى القدح ؛ فغضب محمد ، وأمر به الى السجن . فذلك قول أبى نوّاس :

يارتِّ إن القومَ قد ظلَمُونى * وبلا اقترافٍ معطِّلٍ حبَسُونى
وإلى المحمود بما عرفت خلائقه * ربِّى إليك بكَنْهِهم نَسَبُونى
ما كان إلّا الحَرْىُ فى مَيْدانهم * فى كلّ خِرْى والمجَانَةُ دِينِى
لا العدلُ يُقبَل لى ويَفْرَق شاهدى * منهم ، ولا يرضَوْن حَلْفَ يمينى
ما كان — لو يدرون — أولَ مَحْبَأ * فى دار مَنْقَصه ومنزل هُونِ
أما الأمينُ فلستُ أرجو دفعَه * عنّى ، فمن لى اليوم بالمأمون

فبلغت أبياتُه المأمونَ ، فقال : والله لئن لحقتُه لأُغْنينّه غِنًى لا يؤمّله . فمات قبل دخول المأمون بغداد .

لما وصلت الخلافةُ الى محمدٍ الأمين وولّى الفضلَ بن الربيع الوزارة ، تفرّغ محمدٌ للّهو والصيد والنزهة، وكان لا يخرج إلا لصيد أو لنزهة . فخرج ذات يوم وقد أمر الجندَ

(١) الثوية أصحاب الاثنين الأزليين وهم الذين يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس فانهم قالوا بحدوث الظلام .

والقوادَ فركبوا، ولبس ثيابَه وتقلد سيفه ، وأُعِدّت الحَرّاقات[1] والزَّلّاحاتُ فى دِجْلة ، فقال له اسماعيلُ بنُ صُبَيْح — وكان كاتبَ سِرّه — : يا أمير المؤمنين ان قوادَك وحَشَمَك وعامةَ رعيتك قد حُبِّبَتْ نفوسُهم ، وساءت ظنونُهم ، وكَبُر عندهم ما يرَوْن من احتجابك عنهم ، فلو جلستَ لهم ساعة من نهار فدخلوا عليك ! فإن فى ذلك تسكينا لهم ومراحمة لآمالهم ! فجلس فى مجلسه وأذن للناس عامّةً فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم ، وقام الخطباء فخطبوا ، والشعراء فأنشدوا، فلم يكن أحد منهم يتعدّى الى الاطناب والتطويل، الا أُمِر بالسكوت وأُسِيء من القول .

وقام فيمن قام أبو نواس، فقال : يا أمير المؤمنين! هؤلاء الشعراء أهل حَجَر ومَدَر ، وإبل ووصيف للبقر وبيوت الشَّعَر، قد جَفَتْ ألفاظُهم ، وغلُظتْ معايبهم، ليس لهم نَصَر بمدح الخلفاء ونَشْر مكارمهم ، فان رأى أميرُ المؤمنين أن يأذن لى فى إنشاده فليفعل، فأذن له فأنشده :

أيا دارِها بالمِلْياء حتى تُلِينَها * هل تُكرم الصَّهْباءَ حتى تُهِينَها
أُعالِى بها حتى اذا ما ملكتُها * أهنتُ لإكرام الخليل مَصُونَها
وصفراءَ قبل المَزْج بيضاءَ بعده * كأنّ شعاع الشمس يلقاك دونَها
ترى العينَ تستعفيك من لَمَعانها * وتحسُرُ حتى ما تُقِلّ جفونَها
نَزُوعٌ بنفس المرء عما يَسُوءه * ويُجْدِلُه ألّا يزالَ قرينَها
كأنّ بواقيتا رواكدُ حولَها * ورَرْقَ سَفَائِنٍ تدير عُيونَها
وشَمْطاءَ حلّ الدهرُ منها بنَحْوِه * دلفتُ اليها فاستلذتُ جَنينَها
كأنا حُلُولٌ بين أكناف روضةٍ * إذا ما سَلَبْناها مع الليل طِينَها

الى أن أكمل القصيدةَ . فقال له محمد : ألم أَنْهَكَ عن شرب الخمر! قال : بلى يا أمير المؤمنين ، والله ما شربتُها منذ نهيتَنى عنها ومعتى من شُرْبِها، وأنا الذى أقول :

(١) الحراقات : ضرب من السفن فيها مرامى نيران يرمى بها العدو فى البحر .

أيُّها الرائحانِ باللوم لُوما * لا أذوق المدامَ الا شَميمَا
مالنى بالمَـلامِ فيهـا إمامٌ * لا أرَى لى حِلافَه مستقيمَا
فاصرِفاها الى سِـواىَ فإنّى * لستُ الا على الحديثِ نديمَا
كرُحظّى منها إذَا هى دارتْ * أن أرَاها وأن أشمَّ النسيمَا
فكأنّى وما ازيّن منهـا * قَعَـدِىٌّ يُحَسِّس التحكيمَا (١)
كلّ عن حملِه السلاحَ الى الحر * ب فأوصَى المُطِيقَ ألّا يقِيمَا

فتبسّم محمد، وقال له : أحسنتَ ! وقام بعضُ الشعراء فأنشد :

ترقّ فى فضـائله الامينُ * وزايلَه المُشَاكِلُ والقَـرينُ
وأورق زَهْرةُ التقوى وعَزّتْ * حلافتُـه وصُـدِّقتِ الظُّنُونُ
تَمَسُّ مسـارَ الخلفاء منـه * يَدٌ بخلاف طاعتِها المَنُونُ
يخاف الحوفُ صولتَه ويرجو * نداه الجـودُ فهو له حَدِين

فقال عِدّة ممّن حضر : قد أوجز وأحاد، أكرم الله أميرَ المؤمنين! فقال أبو نواس : أشعر منه يا أمير المؤمنين الذى يقول :

ألا يا حيرَ من رأتِ العيـونُ * نَظِـيرُك لا يُحَسُّ ولا يَكُونُ
وفصلُك لا يُحَـدّ ولا يُحَارَى * ولا تَحْوِى حيازتَه الظنونُ
فأنت نَسِيجُ وحْدِك لا شـبيهٌ * يُحَاشِيه عليـك ولا حَدِينُ
خُلِقتَ بـلا مشاكلة لشىء * فأنت الفـوقُ والثمـلان دُونُ
كأن الملكَ لم يَكُ قبـلُ شيئًا * الى أن قام بالملكِ الامينُ

قال : ففضّله محمد وأحسن جائزتَه . ويقال : إنه قالها بديهًا .

---

(١) القعدى من الخوارج : الذى يرى رأى القعدة الذين يرون التحكيم حقا، غير أنهم قعدوا عن الخروج على الناس .

ثم نهض محمد من مجلسه ذلك، فركب الحَرّاقة الى الشّمّاسيّة، واصطفّتْ له الخيل وعليها الرجال على شاطئ دجلة، وحُمِلتْ معه المطابخُ والخزائن . وكان ركوبه حرّاقةً(١) على مثال الأسد . فما رأى الناس منظرًا كان أبهى ولا مسيرًا كان أحسن من ذلك المنظر والمسير . وركب أبو نواس معه يومئذ وهو يبادمه، فقال :

سخّــر اللهُ للأمينْ مطايا * لم تسخّر لصاحب المحـراب(٢)
فاذا ما ركابُه سِرْنَ بحرًا * سار فى المـاء راكبًا ليثَ غاب
أسـدًا باسطا ذراعيه يعدو * أَهْرَتَ الشِّدْقِ(٣) كالحَ الأنياب
لا يعانيه باللّجام ولا السَّو * ط ولا غَمْز رجلِه فى الرِّكاب
عَجَب الناسُ إذ رأوْك على صو * رة ليتٍ تمرُّ مَرَّ السحاب
سبّحوا اذ رأوك سرتَ عليه * كيف لو أبصروك فوقَ العُقاب
ذات زَوْر ومِنْسَر وجناحـ * ـين تشُقُّ العُبابَ بعـد العُباب
تسبق الطيرَ فى السماء اذا ما * تحملوها بجَيْئـةٍ وذهـاب
بارَك الله للأمين وأبقا * ه وأبقى له رداءَ الشـباب
ملك تَقْصُر المدائحُ عنـه * هامِيٌّ موفّق للصـواب

ويقال : ان هـذا الشعر قاله أبو نواس فى محمد ، وقد ركب حراقتَـه الدُّلْفينَ ؛ فقـال له شيخٌ الى جانبه : اِتّق الله يا هذا ! فقال له أبو نواس : يا شيخ ، إن الله لم يسحّر لصاحب المحراب الدُّلْفين، وقد سحر له ما هو خير من الدلفين، فأى شئ تنكر من هذا ؟

قال ابن حبيبَ : كنت مع مؤنس بن عِمْران، ونحن نريد الفضلَ بن الربيع ببغداد ، فقال مؤنس : لو دخلنا على أبى نواس فى السجن فسلّمنا عليـه! ففعلنا ؛ فقال أبو نواس

---

(١) وذلك أنه كان للامين ثلاث من السفن المصـروفة بالحراقات لركوبه خاصـة ، وهى الليث والعقاب والدلفين . (٢) صاحب المحراب هو سليمان بن داود عليه السلام لأنه بنى بيت المقدس .
(٣) أهرت الشدق : واسعه . وكالح الأنياب : كاشرها .

لمؤنس: أيّ تريد ؟ فقال : أريد أما العباس الفضلَ بن الربيع ؛ قال فبلّغه رقعةً أعطيكها ؛ قال : نعم ، فأعطاه رقعة فيها :

ما من يدٍ فى الناس واحدةٍ * كيدِ أبو العباس مَوْلاها
بام البُعَـاةُ على مضاجعهم * وسَرَى الى نفسى فأحياها
قد كنتُ حِفْتُكَ ثم أمّنى * من أن أخافك خوفُك الله
فعفوتَ عنّى عفوَ مقتدرٍ * وَجَبَتْ له نِقَـمٌ فألغاها

فكانت هذه الأبيات سبب خروجه من السجن .

انصرف أبو نواس من بعض المواخير سكرانَ ، فمر بمسجد قد حضرت فيه الصلاة ، فدخل فقام فى الصف الأوّل ، فقرأ الإمام : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾ فقال أبو نواس من خلفه . لبَّيكَ ، فلما قضيت الصلاة لَبَّوه(١) وقالوا له : يا كافر نشهد عليك بالكفر ودعوه . فبلغ خبره الرشيد ، فدعا لَه حَمْدُويه صاحب الزندقة ، وأحضر أبا نواس فقال له حمدويه : يا أمير المؤمنين ، إن هـذا ماجن ، وليس هو بحيث يُظَنّ ، فقال له الرشيد : وَيْحَك ! إنه وقع فى نفسى منه شىء ، فامتحنْه . قال : فخُطَّ له صورة مانى(٢) ، وقال له : انصُق عليها ، فأهوى أبو نواس بفيه ليبُقّ عليها ، فقال له حمدويه : قد قلت لك يا أمير المؤمنين إنه ما جن . قال : ودعا برجل من الزنادقة مشهور ، وقال له : انصق عليها ؛ فقال : وما معنى النُصَاق ! إنه من أخلاق الشِّرْك ولا أفعله ، وأبى أن يفعل . فقال الرشيد لبعض خدم القصر : امض بهذا (يعنى أبا نواس) الى السِّنْدى ، فقل له : أدّبْه وأطلقْه ،

(١) لبوه أحدوا لبده ، وهو موضع القلادة فى الصدر . (٢) هو مانى بن فاتك الحكيم ، الذى ظهر فى زمن سابور ذى الاكتاف بن أردشير ، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور ، وذلك بعد عيسى عليه السلام . اتخذ له دينا بين المحوسية والنصرانية . وكان يقول نبوة المسيح عليه السلام ، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام . حكى محمد بن هارون المعروف بأبى عيسى الوراق ، وكان فى الأصل مجوسيا علوها بمذاهب القوم ، أن الحكيم مانى زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين : أحدهما نور والآخر ظلمة ، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا ، وأنكر وجود شىء الا من أصل قديم ، وأنهما لا يزالان قوتين حساستين سميعتين بصيرتين ، وهما مع ذلك فى النفس والصورة والفعل والتدبير متضادتان ، وفى الخير متحاذيتان تحاذى الشخص والظل .
(انظر الملل والنحل للشهرستانى)

وبهذا (يعنى الزنديق) فقل له : احبسه قِبَلك الى أن تستتيبَه، فان تاب وإلا قتلناه . قال : فمضى بهما الخادم ، فلما صار فى آخر الصحن ، قال أبو نواس للخادم : الى أين تذهب بنا ؟ قال : الى السندى، قال : فما تقول له ؟ قال : أقول له : يحبسك قِبَلَه حتى تُستتاب أو تُقتل، ويؤدّب هذا ويطلقه . قال : فرفع أبو نواس يدَه ولطَمه، وقال له : يابن الزانية، من الساعة نسيتَ ! . ونَصُر بهم الرشيدُ، فقال : رُدّوهم ، فقال لأبى نواس : ما هذا الذى رأيتُ منك ؟ قال : أراد والله أن يُهْلِكَنى ويطرحنى بحيثُ أُنْسَى أبدا أو أبقى مخلّدا ، سَلْه يا أمير المؤمنين عن الرسالة، فاذا هو قد غيّرها ، فضحك من أبى نواس وأطلقه .

قال رُزَيق الكاتب : اجتمعنا يوما أنا وأبو نواس وعلىّ بن الخليل فى سوق الكَرْخ، وكنا نجتمع ونتناشد الأشعار ونتذاكر الأخبار ونتحدّث بها . فقال أبو نواس : أَدْبَرَ مَنْ كانَ فى نفسى وكان أسرعَ الخلق فى طاعتى، فما أدرى ما أحتال له ؟ فقال على بن الخليل يمازحه : يا أبا على، سَلْ شيخَك وأستاذَك يُعَطِّفْهُ عليك، فقال له أبو نواس : من تَعْنى ؟ قال : من أنت فى طاعته ليلَك ونهارَك (يعنى ابليس) فان لم يقضِ لك هذه الحاجة ، فما ينبغى لك أن تسأله مسألة ولا أن تُقترعيه بمعصية، فقال : هو أسَدُّ لرأيه من أن يُخِلّ بى أو يَخْذُلنى، وانقضى مجلسنا ذلك . فلما كان بعدَ أيام اجتمعْنا فى ذلك الموضع، وأحذنا فى أحاديثنا، فضحك أبو نواس، فقلنا له : ما أضحكك ؟ فقال . ذكرتُ قول على بن الخليل يومئذ : سَلْ شيخَك يعطه عليك . حينئذ قد سألتُه يا أبا الحسن فقضى الحاجة، وما مضت والله ثالثةٌ حتى أتانى من غير أن أبعث اليه ومن غير أن أستزيره ، فعاتبنى واسترضانى، وكان الغضب منه والتجنّى، وأحسب الشيخَ (يعنى ابليس) كان يتسمّع علينا فى وقت كلامنا، وقد قلت أبياتا فى ذلك، فقلنا : هاتها، فأنشد :

لما جفانى الحبيبُ وامتنعتْ * عنّى الرسالاتُ منه والخبرُ
واشتدّ شوق فكاد يقتلنى * ذكرُ حبيبى والهمُّ والفِكَرُ

دعوتُ إبليسَ ثم قلتُ له ... فى خَلْوة والدموع تحـــدر :
أما ترى كيف قد بُليتُ وقد * أقرح جَفْنى البكاءُ والســـهرُ ؟
إن أنت لم تُلْقِ لى المودةَ فى ... صـــدر حبيبى وأنت مقتدر
لا قلتُ شـعرا ولا سمعتُ غِنًا * ولا جرى فى مفاصِـلى السَّكَرُ
ولا آرالُ القرآنَ أدرُسُه ... أروح فى درْسِـه وأبتكرُ
وألزم الصـومَ والصـلاةَ ولا ... أزال دهرى بالخـير آتمرُ
فـا مصتْ بعـد داك ثالثةٌ حتى أتانى الحبيبُ يعتـذرُ
ويطلب الودَّ والوِصَالَ على ... أفصلِ ما كان قبلَ يهتجرُ
فيالها مِنَّةً لقـد عظُمتْ ... عـدى لإبليس ما لها خَطَرُ

(١)

لما قَدِم أبو نواس على الخَصِيب بمصر أذن له وعده جماعة من الشعراء فاستنشده ، فقال له : هما جماعة من الشعراء هم أقدم منّى وأسنّ ، فأذَنْ لهم فى الإنشاد ، فان كان شعرى نظيرَ أشعارهم أنشدتُ وإلا أمسكتُ ، فاستنشدهم الخصيبُ ، فأنشدوا مديحا فى الخصيب ، فلم تكن أشعارهم مقاربةً لشعر أبى نواس ، فتبسّم أبو نواس ثم قال : أُنْشِدُك أيها الأمير قصيدةً هى بمنزلة عصا موسى تُتلقَّفُ ما يأفكُون ؟ قال هات ، فأنشده قصيدته التى أوّلها :

أجارةَ بيتَيْنا أبوكِ غَيُـورُ * ومَيسورُ ما يُرْجَى لديكِ عَسِيرُ

حتى أتى على آخرها ، فانفضّ الشعراءُ من حوله .

ويقال : إن أبا نواس كان خرج الى مصر فى زِىّ الشُّطَّار (٢) وتقطيعهم بطُرّة قد صَفَّفها وكُمّين واسعين وديل محرور ونعـل مطبق ، وكان خروجه مع سلمان بن أبى سهل ؛ فلما دخل على الخَصيب بهذه الصورة ازدراه واستخفّ به ، وكان تُورد عليه كتبُ الحِلّة ممن

(١) هو الخصيب بن عبد الحميد العجلى أمير مصر على الخراج . واليه تنسب منية الخصيب بالوجه القبلى وليس بابن صاحب نهر أبى الخصيب ، ذاك عبد الصمد يقال له مرزوق . وكان هـذا رئيسا فى أراضيه . فانتقل الى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازى ، ثم استقل بالامارة .

(٢) الشطار : جمع شاطر وهو من أعيا أهله خبثا .

بباب السلطان، ووردت كتب أبي نواس فيها فقرأها ولم يستدشده، فانصرف مهموما .

وحاده أهل الأدب فاستمعوا شعره وكتبوه وأنشدوه للخصيب، فاستحضره فأنشده :

أحارةَ يَثْنِيكِ أبوكِ عيــورُ * وميسورُ ما يُرْجَى لديك عَسِيرُ
فان كنتِ لا حِلْماً (١) ولا أنت زوجةٌ * فــلا بَرِحَتْ دونى عليكِ سُتُورُ
وجاورتُ قوما لا تزاوُرَ بينهــم * ولا وصــلَ الّا أن يكون تُشُورُ
فما أنا بالمشعوف صربةَ لازِبٍ * ولا كلُّ سلطان علىّ قَــدِير
وانّى لطَرْفِ العين بالعين زاجرٌ * فقــد كدتُ لا يَخْفَى علىّ صميرُ
كما نَظَرتْ والرمحُ ساكنةٌ لها * عُقَابٌ بأرساع اليــدين نُــدُورُ (٢)
طوتْ ليلتين القوتَ عن دى صرورِه * أزَبَّ لم ينبُتْ عليــه شَكِيرُ (٣)
فأوفتْ على علياءَ حين بدا لها * من الشمس قَرْنٌ والضَّرِيبُ يمورُ (٤)
تقلِّبُ طرفًا فى حِجَاجَىْ مغــارِه * من الرأس لم يدحُل عليه ذَرُورُ (٥)

ولما قال أبو نواس .

تقول التى من بيتها خَفَّ مركبى . * عزيزٌ علينا أن نراك تَسِيرُ
أما دون مصرٍ للغنى متطلَّبٌ ؟ * بَلَى إن أسباب الغنى لكثير
فقلتُ لها واستعجلتها بوادرٌ * جرتْ بجَرى فى جَرْيهن عَبِيرُ
دَرِينى أكثِّر حاسديك برِحْلة * الى بلدٍ فيــه الخَصِيبُ أميرُ

قال له الخصيب : ادًا نكثُر حسادها وتبلغ أملها، وأمر له بألف دينار .

---

(١) الحلم الصديق . (٢) الدور : خروج العظم من موضعه أو زواله وفى البيت من سوء التركيب ما فيه ، والتقدير فيه كما نظرت عقاب لها بأرساع اليدين ندور والريح ساكنة . (٣) أزبّ تصغير أزعر وهو الفرح ذو الزعر أى الريش الدقيق اللين . والشكير : الريش أول ما ينبت . (٤) الضريب : الطلع أو الحليد . ويمور : يمحوك أو يمحى، ويذهب أو يسيل على وجه الأرض . (٥) الحجاجان مثنى حجاج وهو العظم الذى ينبت عليه شعر الحاجب . والذرور : ما يذر فى العين من الدواء .

وتمامها :

اذا لم تَزُرْ أرضَ الخصيب ركابُنا * فأيّ فتًى بعـــدَ الخصيب تزور !

فـا جازه جـودٌ ولا حَلَّ دونَه * ولكن يصير الجودُ حيث يصير

فتًى يشترى حسنَ الثناء بمـاله * ويعـــلم أن الدائراتِ تَدُورُ

ولم تَرَعيني سُودَدًا مثـــلَ سُودَدٍ * يحِـــلُّ أبو نصـــرٍ به ويسير

وأطـرق حَيَّات البلاد لحَيَّـــةٍ * حَصِيبيّةِ التصميم حين تَسُورُ (١)

سموْت لأهل الجور فى حال أمنهم * فأصحَوْا وكلٌّ فى الوَثَاقِ أسيرُ

اذا قام عنّته على الساق حِلْيـــةٌ * لها خَطْوُه عنـــد القيامِ قصيرُ

فمن يَكُ أمسى حاهلًا بمقـالتى * فانّ أميرَ المؤمنين خَبِـــيرُ

فـا زلتَ تُولِيه الصنيعةَ يافعًا * الى أن بدا فى العارضَيْن قَتِـــيرُ (٢)

إذا عاله أمرٌ فإنما كفَيْتَه * وإما عليـــه بالكفاءِ تُشِيرُ

إليك رمت بالقوم هُوجٌ كأنمـا * جماجمها تحت الرِّحال قِـــدور

رحلْنَ سا من عَقْرَقُوفٍ (٣) وقد بدا * لنا الصبح مفتوقُ الأديم شَهِيرُ

فـا نَجِدتْ (٤) بالمـاء حتى رأيتُها * مع الشمس فى عينْ أَنَاعَ تَغُورُ

وعُمِّـرْن من ماء القليب بشَرْبةٍ * وقد حان من ديك الصباح زَمِيرُ

وواقَيْنَ إشراقا كأنّ تَدَمُّرٍ * وهنّ الى رُكْنِ المدخّر صُورُ (٥)

يؤُمْنَ أهلَ الفُوطتين كأنمـا * لهـا عنـد أهل الفُوطتين ثُؤُورُ

وأصبحْنَ بالجولان يَرْمِضْن (٦) مِحفرَها * ولم يبق من أحراحهن شُـــطُورُ

وقاسيْنَ ليلا دون بَيْسانَ لم يكد * سَنَا صبحه للناظرين يُبِيرُ

وأصبحن قد فوّزْنَ من نهر قطرس * وهنّ عن البيت المقـــدّس زور (٧)

---

(١) تسور . تثب . (٢) القتير : الشيب . (٣) عقرقوف : اسم موضع .

(٤) نجدت : عرقت .

(٥) صور . مائلات . (٦) يرمضن : يكسرن . (٧) زور : جمع زوراء بمعنى مائلة .

طوالب بالأركان غرة هاشم * وفى القرما من حاجهن شُقُور[1]
ولما أتت فسطاطَ مصر أحارها * على ركبها أن لا تزال بحيرُ
من القوم تَسَّامٌ كأن جبينَه * سَنَا الفجرِ يَسْرِى صوءُه ويبيرُ
زها ماخصيب السيفُ والرمح فى الوَغَى * وفى السلم يزهو مِبرٌ وسريرُ
جوادٌ اذا الأيدى كهفْنَ عن الندى * ومن دون عورات النساء عُيُورُ
له سَلَفٌ فى الأعجمين كأنهم * إدا استُؤذنُوا يومَ السلام بدورُ
وإنى حدير اد بلغتُك بالمنى * وأنت بما أمّلتُ منك جديرُ
فان تُولِنى منك الجميلَ فأهلُه * وإلا فإنى عاذرٌ وشَكُورُ

وقال يمدح العباس بن الفضل بن الربيع وأجاد :

ساد الملوكَ ثلاثةٌ ما منهمُ * إن خُصِّلُوا إلا أغرُّ قَرِيعُ
ساد الربيعُ وساد فضلٌ بعدَه * وعَلَتْ بعبّاسٍ الكريم فُرُوعُ
عباسُ عباسٌ اذا احتدمَ الوَغَى * والفضلُ فضلٌ والربيعُ ربيعُ

وقال يعاتب عُمَر الورّاق :

يا من جَفَانِى وَمَلَّا * نسيتَ أهلًا وسَهْلَا
ومات مرحبُ لما * رأيتَ مالى قَلَّا
انى أطلّك تَحْكِى * فيما فعلتَ القِرِلَّى[2]
تلقاه فى الشرِّ يَنْأَى * وفى الرخا يتدلَّى

وله فى عزة النفس :

ومستعبدٍ إخوانَه بِتَرَائه * لبستُ له كِبْرًا أمرّ على الكِبْرِ
اذا ضَمَّنى يومًا وإياه مَحْفِلٌ * يرى جانبى وَعْرًا يزيد على الوَعْرِ

(١) جمع شقر وهو الأمر الملتصق بالقلب المهم له .
(٢) القرلى : كان لحير وكان لا يسمع لأحد شيئا إلا حاه اليه وداحله ولا يخلف عن طعام لأحد ، واذا سمع محصومة لم يقرب دلك ، فصرب به المثل حتى قيل لطير من طيور الماء يوقى عليه . القرلى .

أُحالفـــه فى شكله وأجرّه * على لمسطق المدرور والسظر الشزر
وقـــد زادنى تيهًا على النـاس أننى * أرانِىَ أعْلاهم وإن كنتُ دا فقْرِ
فوالله لا يُبْـدِى لسـانى لِحَاحَةً * الى أحد حتى أُغيَّب فى قـبرى
فلا يطمعَنْ فى ذاك منّى طامعٌ * ولا صاحبُ التاج المحجَّبُ فى القصر
فلو لم أَرِثْ فخـرًا لكانت صيانى * عن الناس حَسْبِى من سؤالى من الفَخْر

دخل أبو نواس بعد ما نسك على قوم من إخوانه عندهم شرابٌ ومُغَنٍّ، فعرضوا عليه الجلوسَ فأبى، وأخذ الدواةَ والقرطاس وكتب :

اذا لم تَنْـهَ نفسَك عن هواها * وتُحْبِس صونَهـا فاليـكَ عنّى
فانى قـد شبِعْتُ من المعاصى * ومن إدمانِهـا وشبِعْنَ مـنّى
ومن أسـوا وأقبح من لبيب * يرى متطهرا فى مثـلِ سـنّى

ومن شعر أبى نواس :

عنّى المصلّى وأقوتِ الكُتُبُ * مِـنّى فالمِرْبدان فاللَّهَبُ
منـازلٌ قـد عَمَـرْتُهـا يَفَعًـا * حـتى بدا فى عُدارىَ الشُّهُبُ
فى فتيـةٍ كالسيوف هَزْهُمُ * شَرْحُ شـبابٍ وزانَهـم أدب
ثم أرابَ الزمانُ فانقسموا * أيدى سَبًا فى البـلاد فاشعبُوا
لن يُخْلِفَ الدهْرُ مثلَهـم أبدا * علىّ هيهـاتَ شأنُهـم عجبُ
لما تيقَّنْتُ أن رَوْحتَهـم * ليس لهـا ما حييتُ منقـلَبُ
أبْليتُ صـبرا لم يُبْـلِه أحد * واقتسـمتْنِى مآربٌ شُـعَبُ
لذاك أنّى اذا رُزِئْتُ أخًا * فليس بيـنى وبيـنَه نَسَبُ
قُطْرُبُّل مَرْبَعِى ولى بقُـرَى الـ * ـكرخ مَصيفٌ وأُمّىَ العِنَبُ
تُرْضِـعُنى دَرَّها وتُلْحِفُـنى * بطَلِّهـا والهَجِـيرُ يلتهبُ
اذا تَنَتْـه الغُصُونُ حلَّتِى * فَيْـنانُ(١) ما فى أديمِـه جَرَبُ

(١) الفينان الطل الكثيف، والجرب، أى لا حال فيه .

تَبِيت فى مُأْتَم حَمَائمُه * كما تَرَاءَى الفَوَاقِدُ السُّلُبُ
يُهِبُّ شَوْقِى وشوقُهن معًا * كأنما يَسْتَحِثُّها الطَّرَبُ
فقمتُ أحْثُو الى الرِّصَاع كما * تَحامَل الطفلُ مَسَّه السَّغَبُ
حتى تحيرتُ بتَ دَسْكَرَةٍ * قد عممتْها السُّنُون والحِقَبُ
هتكتُ عنها والليلُ معتكِرٌ * مهلهلُ النَّسْج مالَه هُدُبُ
من نَسْج خَرْقاء لا تُشَدّ لها * أَجِيَّة فى الثَّرَى ولا طُنُبُ
ثم توخَّأْتُ حَضْرَها بشَنَا الـ * ـإشفى بماءتْ كأنّها لَهَبُ
فاستوْسَقَ الشَّربُ للنَّدَام وأجـ * ـراها عليها الغُبَيْرُ والغَرَبُ(١)
أقول لما تحاكَّا شهًّا * أيُّهما للتشابُهِ الدهَبُ
هما سواءٌ وفَرْقُ بينهما * أنهما حامدٌ ومسكُ
مُلْسٌ وأمْثالُها محفَّرةٌ * صُوِّر فيها القُسُوس والصُّلُبُ
يَتْلُون إبجيلَهم وفَوْقَهُمُ * سماءُ حمرٍ نحومُها حَسَبُ
كأنها لؤلؤٌ تبدِّدُه * أيْدِى عَدَارَى أفْضى بها اللَّعِبُ

ومن جيّد شعره قولُه لما سمعه الأمين من شرب الخمر، وذلك أن المأمون أمر الخطباءَ بخراسان أن يَعيبُوا الأمينَ لشعر أبى نواس و يقولوا هو حليسُه ونَدِيمُه ويشدوا على المنابر شعرَه، فسمعه الأمينُ فقال .

غنِّ بالطلول كيف بَلِيَا * واسْقِنا نُعْطِك الثناءَ الثمينَا
من سُلافٍ كأنه كلُّ طِيبٍ * يتمنَّى مخبَّرٌ أن يكونا
أكل الدهرُ ما تجسَّم منها * وتَقِىَّ لُبَابَها المَكْنُونَا
ثم شُجَّت فاستصحَكتْ عن لآلٍ * لو تجمَّعْنَ فى يدٍ لاقْتُنِينَا
وادا ما لَمَسْتَها فَهَماءٌ * تمنع الكفَّ ما تُبِيح العُيُونَا

(١) الغرب : الذهب .

في كؤوسٍ كأنهنّ نُجُـومٌ * جاريـاتٌ بُرُوجُها أيدينـا
طالعـاتٌ من السُّقَاةِ علينـا * فادا ما عَرَبْنَ يَغْـرُبْنَ فينا
لو نَرَى الشَّرْبَ حولَهَا من بعيدٍ * قلتَ قَـوْمٌ من قِرَّةٍ يَصْطَلُونا
وعزاٍ يُديرُها بنَـانٌ * باعمَـاتٍ يزيدُها العُسْرُ لِينَـا
ذاكَ عيشٌ لو دام لي عيرَ أنّي * عِفْتُه مكرهًا وخِفْتُ الأمينـا
أدِرِ الكأسَ حان أن تَسْـقِينا * وآنقُـرِ العُـودَ إنه يُلهِينَا
ودَعِ الدكرَ للطُّـلولِ اذا ما * دارتِ الكأسُ يَسْرةً ويَمِينَـا

ومن قول أبي نواس يمدح العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر :

عرِّد الديكُ الصَّـدُوح * فاسـقِني طاب الصَّبُوحُ
اسـقِني حـتى تَرَاني * حَسَنًا عنـدي القبيحُ
قهـوةٌ تذكر نـوحًا * حين شاد الفلكَ نوحُ
نحن نُحْييهـا ويأبَى * طيبُ عَرْفٍ فيَفُـوح
فكأن القـومَ نُهْـبَى * بينهـم مسكٌ ذَبِيـحُ
أنا في دنيا من العـ * ـاس أَغْـدو وأروحُ
هاشميٌّ عَبْـدُ لي * عـده يَغْـلو المديحُ
علَم الجـودِ كتابٌ * بين عينيـه يَلوحُ
كلّ جـودٍ يا أميري * ما حلا جـودَك رِيحُ
إنما أنتَ عطـايَا * أبدا ما تسـتريحُ
يَجُّ صـوتُ المـالِ ممّا * مسـك يَشْكُو ويَصيحُ
ما لهـذا أحدٌ فـو * قَ يـديه أو يَصـيحُ
جُدْتَ بالأموالِ حـتّى * قيـل ما هـذا صحيحُ
فهْـو بالمـال جـوادٌ * وهـو بالعِرْضِ شحيـحُ
صُـوِّرَ الجـودُ مثالًا * وله العبـاسُ رُوحُ

قال محمد بن عُيَينة : لقيت أبا نُوَاس بعسكرِ مُكْرَم فقلت له : أحبّ أن تنشدنى من شعرك شيئاً تَضَنّ به على غيرى، فأنشدنى :

يَكْفِى الكريمَ من الكلا * م لمن يحادثه أقَلُّه
والشىءُ شىءٌ لم يَزَلْ * بادقِّه يأتى أجَلُّه
إن لم يُصِبْكَ من الكري * م الحُرِّ وابلُه فطَلُّه
يُبْدِى مكارمَه كما * يُبْدِى مِرِيدُ السيف سَلَّه
والبذلُ يُوقِع نفسَه * متعمِّدًا فيما يُذِلُّه
والحرُّ يكرِم نفسَه * بالصفح عمّن لا يُجِلُّه

وقال أبو نواس يمدح الأمين :

صبتُ على الأمين ثيابَ مدحى * فكلُّ الناسِ حسَّن واستجادَا
ولولا فضلُه ما جاد شعرِى * ولا أعطتْنِىَ المِطَرُ القِيَادَا
وقالوا قد أحدتَ فقلتُ إنّى * وجدتُ القولَ يمكُنِى بجادا

ومن خمرياته :

ذكر الصَّبُوحَ بسُحْرةٍ فأرتاحا * وأمِلَّه ديكُ الصباح صِيَاحَا
أوْفَى على شَرَفِ الجدار بسُدْفَةٍ * عَرِدًا يصفِّق بالجناح جَنَاحَا
فادِرْ صاحَك بالصَّبُوح ولا تكن * كَسُوَقِيٍ غَدَوْا عليك شِحَاحَا
إن الصَّبُوحَ جِلَاء كل مخمّر * بدرتْ يَدَاه بكأسه الإصْبَاحَا
وحَدِينِ لَذَّاتٍ معلّل صاحبٍ * نقتاتُ منه فكاهةً ومزاحَا
بهّتُه والليلُ ملتبسٌ به * وأزحتُ عنه نُعَاسَه فأنزاحَا
قال انْغِنِى المصباحَ، قلت له ائتِدْ * حَسْبِى وحَسْبُك ضوؤها مصباحَا
فسكبتُ منها فى الزجاجة شَرْبةً * كانت له حتى الصباح صَبَاحَا

من قهوةٍ حاءتْك قبـــل مِزَاجِها * عُطُـــلًا فألبسها المـــزاجُ وِشَاحَا
شَـــكَّ البِرَالُ فـؤادَها فكأنهـا * أهـــدتْ اليك بريحهـا تُفَّاحَا
صفراء تفترسُ النفوسَ فلا ترى * منها بهنّ سِـــوى السُّلَاتِ جِرَاحَا

ومنهـا :

لا تَبْـكِ لَيْـلَى ولا تطربْ الى هـــد * وأشربْ على الورد من حمراءَ كالوردِ
كأسًا اذا انحدرتْ فى حلقِ شاربهـا * أحدَثْه حمرتَهـا فى العين والخـدِّ
فالخمـــر ياقـــوتةٌ والكأس لؤلؤةٌ * من كف لؤلؤة ممشوقة القـــدِّ
تسقيك من طَرْفها خمـــرا ومن يدها * خمرا فـــا لك من سكريْنِ من بُدِّ
لى نشـــوتانِ وللنَّـــدْمان واحدةٌ * شيءٌ خُصِصْتُ به من دونهم وَحْدِى

كان الأصمعى يفضل أبا نواس على شعراء زمانه بهذه القصيده :

أما ترى الشمسَ حَلَّتِ الحَمَلَا * وطاب وقتُ الزمان واعتدلَا
وعَنَّتِ الطـــيرُ بعد عُجْمَتِهـا * واستوفتِ الخمرُ حَوْلَهـا كَمَلَا
واكتستِ الأرضُ من رحارِفها * وَشْيَ ثيـابٍ تحـالُه حُلَلَا
فاشربْ على جِدّة الزمان فقد * أصبح وجهُ الزمان مقتبلا
من قهـــوةٍ تُذْهِب الهمومَ فلا * أَرْهَبُ فيهـا المـــلامَ والعَذَلَا
كَرْخِيّةٍ تترك الطويلَ من العيـ * ـش قصـــيرًا وتبسُط الأملا
تَلْمَعُ لمعَ السرابِ فى قَدَحِ الـ * ـقوم اذا ما حَبَابُهـا اتصـــلا
يقول صرِّف اذا مزجتُ له * من لم يكن للكثير محتملا
فسَـــقِّ هـــذا بقدر طاقته * واحملْ على ذا بقدر ما احتملا
غُجْنَا بشيئين من طبائعها * حسنٍ وطيبٍ ترى به المَثَلَا

كان أبو نواس لا يُستنشَد شيئا من شعره إلا أنشد هذه القصيدة :

وخَيْمةٍ ناطُورٍ[1] برأس مُيفعةٍ * تَهُمُّ يدًا مَنْ رامها بزَلِيلِ[2]
اذا عارضتْها الشمسُ فاءَ ظلالُها * وإن واجهتْها آذنتْ بدُحُولِ
حَطَطْنا بها الأثقالَ قُلَّ[3] هَجِيرةٍ * عَشِيرةِ تُذْكَى بسيرِ قَتِيلِ
تأنَّتْ[4] قليلًا ثم فاءتْ بمَدْقَةٍ * من الظلِّ في رَثِّ الأَثاثِ ضَئِيلِ
كأنّا لديها من عِطْفَيْ سامةٍ * حَفَا زورُها عن مَرْكَبٍ ومَقِيلِ
حلستُ لأصحابي بها دِرَّةَ الضَّحَا * بصَهْباءَ من ماء الكروم شَمُولِ
اذا ما أنتْ دون اللَّهاةِ من الفتى * دعا همُّه من صدره برَحِيلِ
فلما توفَّى الشمسَ جِنْحٌ من الدُّجَى * تصابيتُ واستحملتُ عيرَ حميلِ
وعاطيتُ من أَهْوَى الحديثَ كما بدا * ودلَلْتُ صعبًا كان غيرَ ذَلِيلِ
فغنَّى وقد وسَّدْتُ يُسْرَاىَ خدَّه * ألا رُبَّما طالتْ عبرَ مُيِيلِ
وأنزلتُ حاجاتي بجَعْوَىْ مساعدٍ * وإن كان أدنى صاحبٍ وخليلِ
وأصبحتُ أَلْحَى السكرَ والسكرُ محبِسٌ * ألا رُبَّ إحسانٍ عليكَ ثقيلِ
كفى حَرَجًا أن الجوادَ مقتِّرٌ * عليه ولا معروفَ عندَ بَخِيلِ
سأُغْنِي الغنى إما حليسَ حليفِهِ * يقومُ سواءً أو يحيفَ سبيلِ
بكلِّ فتًى لا يُستطارُ جَنَانُه * اذا نوَّه الزَّحْفانِ باسمِ قَتِيلِ
لَخَمْسَ مالَ اللهِ من كلِّ فاجرٍ * أنى بِضْعةٍ للطيِّبات أَكُولِ
ألم تر أن المالَ عَوْنٌ على الندَى * وليس جوادٌ مقترٌ كبخيلِ

---

(١) الناطور : حافظ النحل والكرم والزرع وفي الدارع : الناطر والناطور بالطاء المهملة حافظ الزرع ، من كلام أهل السواد وليس عربي محض . (٢) الزليل مصدر كالزلل . (٣) أي مهرية هاجرة ، وعبورية منسوبة الى الشعرى العبور وأيام طلوعها أيام الحر الشديد . (٤) يعني الشمس ، أي توقفت فيما لو عند رواحلها . وفاءت ممدقة ، أي دخلت عليهم من تلك الخيمة المخلقة التي ثقب على الأناء الضعيف من القصب الرث فلم تفز الشمس وعليهم لم تمسهم الخيمة ستر قوي فيصير ظلا ولكنه شمس وظل ، وشبهت بالمدوق من اللبن ، أي الممزوج .

فإن استُزيد أنشدَ هذه القصيدةَ الأخرى :

كان الشبابُ مطيـةَ الجهـل ... ومحسِّس الضحكاتِ والهَزْلِ
كان الجمـالَ اذا ٱرتديتُ به ... ومشيتُ أخطر صَيَّتَ العـلِ
كان البليـغَ اذا نطقتُ به ... وأصاختِ الآذانُ لِلْمُـلِي
كان المشـفَّع فى مآربه ... عنـد الفتـاةِ ومدرِك التَّبْـلِ
والآمرِى حـتى اذا عزمتْ ... نَفْسِى أعان يدىّ بالفِعْـلِ
فالآنَ صرتُ الى مقـاربة ... وحططتُ عن طهرالصَّا رَحْلِي
والراح أهْـواها وإن رَزَأتْ ... بُلَغَ المعـاشِ وقلَّتْ فَضْـلِي
صـفراء مجَّـدها مَرَارِبُهـا ... جَلَّتْ عن الْنُّظَـراءِ والمِثْـلِ
دُخرتْ لآدمَ قـبل خِلْقتِـه ... فتقـدّمته بخُطْـوة القَبْـلِ
فما تاك شيءٌ لا تلامِسُـه ... إلا بحسٍ عَرِيزة العقـل
وتَرُود منها العينُ فى بَشَرٍ ... حُرِّ الصَفيحة نامِعِ سَهْـلِ
فاذا عـلاها المـاءُ ألبَسَهـا ... حَبَبًا شبيـهَ حَلا حل الخِجِلِ
حـتى اذا سكنتْ جَوَانِحها ... خطَّت بمثـل أكارع النَّمْـلِ
حطَّيْـن من شـتّى ومجتمع ... عُفْـلٍ من الإبحـام والشَّكْلِ
فاعـذِر أخاك فإنه رجـلٌ ... مَرَنتْ مسامعُـه على العَذْلِ

ومن طيب شعره، والشطر الأول من القصيدة لفظ ابن الدُّمَينة .

أعاذلَ ما على وجهى قُتُـومُ ... ولا عِرْضِى لأولِ مَنْ يَسُـومُ
يفضِّفنى على الفتيان أنّى ... أَبِيتُ فـلا أُلام ولا أُلُوم
أعاذل إن يكن بُرْدَاىَ رَثًّا ... فـلا يَعْـدَمْك بينهما كريمُ
شُقِقْتُ من الصبا واشْتُقّ منّى ... كما اشْتُقَّتْ من الكَرَم الكُرُومُ
فلست أَسُـومُ للذات نفسِى ... مياومـةً كما دفع الغـريمُ

ومتصلٍ بأسباب المعالى * له فى كل مكرمةٍ قديمُ
رعتُ له النداءَ بقُمْ لخُدْها * وقد أخذتْ مطالعها النجومُ
بتَفْديةٍ نزال الهمُّ فيها * وتُمْتهن الحؤولةُ والعمومُ
فقام وقمتُ من أخوبْن هاحا * على طربٍ وليلُهما بَهيمُ
أحرّ الزّقّ وهو يحرّ رحلا * يجور به النعاسُ ويستقيمُ
سَلِ النُّدماء ما أولته منها * وسَلْها ما احتوى منها الكريمُ
كلا الشخصيْن متصفٌ ولكن * قصتْ وَطَرًا وذا منها سَقيمُ

وقال :

إنّى صرفتُ الهوى الى قَمَرٍ * لم تتدله العيونُ بالنظرِ
اذا تأملتَه تعاطمك الـ * ـإقرارُ أنه من البَشَرِ

ومن قوله :

يا شقيقَ النفسِ من حَكَمٍ * نمتَ عن ليلى ولم أَنَمِ
فاسقنى الكرَ التى اختمرتْ * بخمار الشيبِ فى الرَّحِم
ثُمّتَ انصاتَ الشبابُ لها * بعد ما جارتْ مَدَى الهَرَمِ
فهى لليومِ التى بُزِلتْ * وهى تِرْبُ الدهرِ فى القِدَمِ
عتقتْ حتّى لو اتصلتْ * بلسانٍ ناطقٍ وفَمِ
لاكتبتْ فى القومِ مائلةً * ثم قصّتْ قصّةَ الأثمِ
فرعتْها بالمزاحِ يَدُ * خُلِقَتْ للسيفِ والقلمِ
فى نَدَامَى سادةٍ زُهُرٍ * أخذوا اللذاتِ من أَمَمِ
فتمشّتْ فى مفاصلهم * كتمشّى البُرْءِ فى السّقَمِ
فعلتْ فى البيتِ اذ مُزِجَتْ * مثلَ فعلِ الصبحِ فى الظُّلَمِ
فاهتدى سارى الظلام بها * كاهتداء السّفْرِ بالعَلَمِ

ومن طَرْديّات أبي نواس في صفة الكلب :

أبعتُ كلاًّ أهـلُه من كَدَّهْ ... قد سعدتْ حُدودُهم بجَدَّهْ
فكلّ حيٍّ عندَهم من عِنْدِه ... وكل رِفْدٍ نالهم من رِفْدِهْ
يطَلّ مـولاه له كعبـدِهْ ... بيتُ أدنى صاحبٍ من مَهْدِهْ
وإن عرى حلّله بُرْدِهْ ... ذا عُـرَّةٌ مُحجَّـلا بزَبْدِهْ
تلَذُّ منه العينُ حسنَ قدِّه ... يا حُسْنَ شِدْقِيْه وطولَ قدِّه
تَلْقَ الطباءُ عنّا من طَرْدِهْ ... بسَرَبٍ كأسًا شُدُّها من شَدِّهْ

* يا لك من كلبٍ نسيجِ وَحْدِهْ *

أبو نواس وجَنَان

قال أبو الفرج كانت جَنَانُ هذه جارية آلِ عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي، وكانت حلوةً حميلةَ المنطر أديبةً، ويقال : إن أبا نواس لم يَصْدُق في حبِّ امرأةٍ غيرِها، وقيل له يوما إن جنانَ قد عزمتْ على الحج، فكان هذا سببَ حجه وقال : أما والله لا يفوتني المسيرُ معها والحجُّ عامي هذا إن أقامت على عزيمتها، وقال وقد حج وعاد :

ألم تر أني أفنيتُ عمري ... بمطلبها ومطلبُها عسيرُ
فلما لم أجِدْ سلّما اليها ... يقرِّبني وأعيَتْني الأمورُ
حَجَجْتُ وقلتُ قد حجّتْ جنانٌ ... فيجمَعُني وإياها المَسيرُ

قال مَنْ شهده حين حجّ مع جنان وقد أحرم : لما حَمَّ الليلُ حمل يلبّي بشعر ويحدُو به ويطرب، فغنّى به كلُّ من سمعه وهو قوله :

اللهما ما أعـدَلَكْ ... مَليـكَ كلِّ من مَلَكْ
لبّيكَ قد لبّيتُ لكْ * لبيكَ إن الحمدَ لكْ
والملكَ لا شريكَ لكْ * والليلَ لما أن حَلَكْ

والسابحات فى الفَلَكْ * على مَجَارِى المُنْسَلَكْ
ما خاب عبدٌ أمَّلَكْ * انت له حيثُ سَلَكْ
لولاك يا ربِّ هلَكْ * كلُّ نبىٍّ ومَلَكْ
وكل مَنْ أهلَّ لكْ * سبَّح أو لبَّى فلَكْ
يا مخطئا ما أعفلك * عجِّل وبادرْ أجَلكْ
واختمْ بخيرٍ عملَكْ * لبَّيك ان الملكَ لَكْ
والحمدُ والنعمةُ لكْ * والعزُّ لا شريكَ لكْ

وفيها يقول :

حَفْرُ عيني قد كاد يسـ ـقطُ من طولِ ما اختلجْ
وفؤادى من حرّ جـ ـك والهجرِ قد نَضَجْ
خبِّرينى قد تلـ ـقى وأهلى متى الفرجْ
كان ميعادُنا خرو ـجَ زيادٍ فقد خرجْ
أنت من قتلِ عائدٍ ـبكِ فى أصيقِ الحَرَجْ

قال الأصفهانى : قال محمد بن ابراهيم بن كثير الصُّوفى : دخلنا على أبى بواس نَعُوده فى علته التى مات فيها ، فقال له على بن صالح الهاشمى : يا أبا على ، أنت فى أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا ، وبينك وبين الله عز وجل هَنَاتٌ ، فَتُبْ الى الله عز وجل ، فمكى ساعةً ثم قال : سانِدُونى سانِدُونى ، ثم قال : أُأَخَوِّفُ بالله عز وجل وقد حدثنى حماد ابن مسلم عن رجل الزَّقَاشى عن أَنَس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل نبىٍّ شفاعةٌ وانى اختبأتُ شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى يومَ القيامة » أفترانى لا أكونُ منهم ؟

ومن قوله فى مرض موته :

دنّ فى السقامُ عُلوًا وسُفلًا ... وأرانى أموتُ عُضْوا فعُضْوًا
ليس تمضى من لحظةٍ بى إلّا ... نقصـــتنى بمَـــرِّها فى جُزْوًا
دهمتْ حِدّتى بحـاجة نفسى ... وتطلبتُ طاعةَ الله بضْـــوا
لهَف نفسى على ليـالٍ وأيا ... م تجاوزتُهنّ لعْبًا ولهْـــوًا
قـــد أساءا كلَّ الإساءة فالله ... يهمّ صفحًا عنـا وغفْرا وعفْوًا

ثم قال :

شِعْر حىٍّ أتاكَ من لفظ مَيْتٍ ... صار بين الحياة والموت وَقْفـا
قد برتْ حسمَه الحوادثُ حتى ... كاد عن عين الخـلائق يَخْفَى
لـــو تأملتنى لتُبْصِرَ وجهى ... لم تبنْ من كتاب وجهىَ حَرْفَا
ولكرَّرْتَ طَرْفَ عينيكَ فيمن ... قـد براه السقام حتى تعَـفَّى

وكان عمر أبى نواس تسعا وخمسين ســنة ، وكانت وفاتُه قبل دخول المأمون مدينـةَ السلام بست سنين (سنة ١٩٨) .

٢ — العَتَّابِي[1]

قال أحمد بن سَهْل: تذاكرنا شعرَ العَتّابى فقال بعضُنا: فيه تكلّف، وقصّره بعضُنا، فقال: شيخ حاضر، ويحكم! أيقال إن فى شعره تكلّفا وهو القائل:

رُسُلُ الضّمير اليك تَتْرَى * بالشوق ظالِعةً وحَسْرَى
مرجّيات[2] ما يَئِبْ * نَ على الوَحامن بعد مَسْرَى
ما جَفَّ للعبين بعـ * ـدك ياقَرِيرَ العينِ مَجْرَى
فاسْلَمْ سليمتَ مُبرّأً * من صَبْوتى أبدا مُعرّى

---

(١) هو كلثوم بن عمرو بن أيوب العتابى التغلبى من ولد عتاب بن أسيد ثم من بنى تغلب بن وائل، شاعر مترسل بليغ مطبوع متصرف فى فنون الشعر مقدّم، من شعراء الدولة العباسية، وكان منقطعا الى البرامكة فوصفوه للرشيد ووصلوه به، فلم يزل عنده كل ملم بهم عظمت فوائده منه.

وكان حسن الاعتذار فى شعره ورسائله وله مصنفات فى المنطق والأدب واللغة وكان يقيم فى رأس عين بعيدا عن دور الخلفاء والأمراء. ولما ولى الرشيد قصيدة قالها فأعجب بها فطلب إستحضاره اليه فجاء وسايه قيص غليظ وفروة وخف، وعلى كتفه ملحفة حائلة بعير سراويل، فلما رفع الحر بقدومه إلى الرشيد أمر بأن تفرش له حجرة وتقام له وليمة ففعلوا، فكانت المائدة إذا قدّمت اليه أخذها رقاقة وملحا وخلط الملح بالتراب فأكلها، فاذا كان وقت النوم نام على الأرض، والخدم يتقدمونه ويتعجبون من فعله. وسأل الرشيد عنه فأخبروه فأمر بطرده فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد العقيلى وهو فى مرتبه فسلم عليه ولم ينسب له فرحب به وقال له «ارتفع» فقال «لم آتك لتجلسنى» قال «فما حاجتك» قال «دابة أطلع عليها إلى رأس عين» فقال: يا علام، أعطه الفرس العلانى: فقال: لا حاجة لى فى ذلك ولكن تأمر أن تشترى لى دابة أتبلغ عليها: فقال لغلامه «امض معه فابتع له ما يريد» فمضى معه فعدل به العتابى إلى سوق الحمير فقال الغلام. إنما أمرنى أن اتباع لك دابة فقال له انه أرسلك معى ولم يرسلنى معك فان عملت ما أريد والا انصرف: فمضى معه فاشترى حمارا بمائة وخمسين درهما وقال. ادفع اليه ثمنه. فدفعه اليه فركب الحمار عريا بمرشحة عليه وبردعة وسقاه مكشوفتان، فقال له يحيى بن سعيد «فضحتنى! أمثلى يحمل مثلك على هذا!» فضحك وقال «ما رأيت قدرك يستوجب أكثر من ذلك» ومضى إلى رأس عين.

توفى سنة ٢٢٠ هـ وتجد أخباره فى الأغانى (ج ١٢ ص ٢) وفوات الوفيات (ج ٢ ص ١٣٧).

(٢) أى متبلغات بالقليل حتى يصلن اليك.

إن الصبابةَ لم تَدَعْ * منّى سوى عَظْمٍ مُبَرَّى
ومدامعٍ عَـبْرَى على * كبدٍ عليك الدهرَ حَرَّى

أو يقال إنه متكلّف وهو الذى يقول :

فلو كان للسُّكر شخصٌ يَبين * اذا ما تأمّـــله الناظرُ
لمثّلتُـــه لك حتى تراه * لتعلم أنّى امرؤ شاكر

وَحِدَ الرشيدُ على العتّابى فدخل سِرًّا مع المتطلّمين بغير إذن، فمَثَل بين يدى الرشيد وقال له : ياأمير المؤمنين، قد آدتْنى الناس لك ولنفسى فيك، وردّنى آتتلاؤهم الى شكرك، وما مع تدكّرك قناعة بغيرك، ولِعِمَّ الصائنُ لنفسى كنت لو أعانى عليك الصبر، وفى ذلك أقول :

أَحِضْنِى المقامَ العَمْرَ إن كان عَرّنى * سَـنًا حُلَبٍ أو رَلّت القَدَمانِ
أتتركنى حَـدْثَ المعيشـة مُقْتِرًا * وكفّاك من ماء الـــندى تَكِفَانِ
وتجعلنى سهمَ المطامع بعـــد ما * تَلَمْتَ يمينى بالـــندى ولسـانى

فأعجب الرشيدَ قولُه، وخرج وعليه الحِلَع، وقد أمر له بجائزه .

كلّم العتّابى يحيى بن خالد فى حاجه بكلمات قليلة، فقال له يحيى : لقد نَزُر كلامُك اليوم وقَلّ، فقال له وكيف لا يقلّ وقد تكفينى دلّ المسألة وحَيْرة الطلب وخوف الردّ؟ فقال : والله لئن قلّ كلامك لقد كثرت فوائدُه، وقضى حاجته .

قال يحيى بن خالد البرمكى لولده إن قدرتم أن تكتسوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتّابى فصلا عن رسائله وشعره، فلن تَرَوْا أبدا مثلَه .

وقف العتّابى باب المأمون يلتمس الوصولَ اليه، فصادف يحيى بن أكثم جالسا ينتظر الإذن، فقال له : إن رأيتَ أعزّك الله أن تذكر أمرى لأمير المؤمنين اذا دخلتَ فافعل، قال له : لستُ أعزّك الله بحاجته، قال : فإن لم تكن حاجتا فقد يفعل مثلُك ماسألتُ، واعلم أن الله عز وجل جعل فى كل شى زكاة، وجعل زكاة المال رِفْدَ المستعين، وزكاةَ الجاه إغاثة الملهوف ؛ واعلم أن الله عز وجل مقيلٌ عليك بالزيادة إن شكرتَ ، أو التغيير إن كفرتَ .

وإنى لك اليومَ أصلحُ منك لنفسك، لأنى أدعوك الى ازدياد نعمتك وأنت تأبَى، فقال له يحيى: أفعَلُ وكرامه، وخرج الإذن ليحيى، فلما دخل لم يبدأ بشىء بعد السلام إلا أن استأذن المأمونَ للعتّابى، فأذن له .

وقيل له . لو تزوجتَ، فقال: إنى وجدت مكابده العفّة أيسرَ علىّ من الاحتيال لمصلحة العيال .

قال دِعْبِل : ما حسدتُ أحدا قطّ على شعر كما حسدتُ العتّابىّ على قوله :

هَيْبَةُ الإجلالِ قاطعةٌ * لأخى الحاجات عن طَلَبهْ
فإذا ما هِبتَ ذا أمل * مات ما أمّلتَ من سببهْ

كان العتّابى جالسا ذات يوم ينظر فى كتاب، فمرّ به بعضُ جيرانه، فقال : أيش ينفع العلمُ والأدبُ من لا مالَ له؟ فأنشد العتّابى قوله .

يا قاتَلَ اللهُ أقواماً اذا ثَقفُوا * ذا اللّب ينظر فى الآداب والحِكَم
قالوا وليس بهم إلا نَقَاسَتُه[1] * أنافعٌ ذا من الإقتار والعُدُم
وليس يدرون ما الحظّ الذى حُرِموا — لاهم الله — من عِلْم ومن فَهَم

ومن قوله أيضا .

لئن كانت الدنيا أنالتْك ثروةً . فأصبحتَ ذا يُسر وقد كنت ذا عُسْرِ
لقد كشّف الإثراءُ منك مَخازِيًا من اللؤم كانت تحت سِتْر من الفقر

وقال أيضا :

رحَل الرجاءُ اليك معتزما . حُشِدَتْ عليه نوائبُ الدهر
ردّتْ اليك بَدامتى أملى . وثنا اليك عِنانه شكرى
وحملتُ عَتْبَك عَتْبَ موعظة . ورجاءَ عفوك منتهى أملى

لما سعَى منصورٌ النّمَرى بالعتّابى الى الرشيد آغتاظ عليه فطلبه، فستَره جعفر بن يحيى عنه مدّة وجعل يستعطفه عليه حتى آستلّ ما فى نفسه وأمّنه، فقال يمدح جعفر بن يحيى :

(١) حسده .

ما زلتُ فى عَمَرات المــوت مُطَّرَحًا * قد صاق عنى فسيحُ الأرض من حيلى
ولم تَزَل دائـا تسعى بلطفـــك لى * حتى آختلستَ حياتى من يَدَىْ أَجَلى

عاد عبد الله بن طاهر و إسحاق بن إبراهيم بن مُصْعَب كلثوم بن عمرو العتّابى فى علّة آعتلّها، فقال الناس : هذه خَطْرة خطرَتْ ، فبلغ ذلك العتّابى ، فكتب الى عبـد الله بن طاهر :

قالوا الزيارةُ خَطْرَةٌ خَطَرتْ * وبحارُ بِرّك ليس بالخَطَر
أَبْطِلْ مقالتهـم بثانيـــة * تستعبد المعروفَ مِنْ شكرى

فلما بلغت أبياتُه عبـدَ الله بن طاهر ضحك من قوله وركب هو و إسحاق فعاداه مرة ثانيـــة .

كانت له آمرأة من باهلة، فلما مضى الى رأس عَيْن قالت له : هذا منصور النمرى : قد أخذ الأموال فمَنْ نساءه و بنى داره وآشترى ضِيَاعا وأنت ههنا كما ترى، فانشأ يقول :

تلوم عـلى تَرْك العِنى باهليّـــةٌ * دوى الفقر عنها كلَّ طِرْف وتالد
رأت حولها السّوداء رُفْلًا فى الثرى * مقـلَّدة أعناقُهـا بالقـلائد
أسرّك أنى نلتُ ما نال جعفـر * من العيش أو ما نال يحيى بن خالد
وأنـ أميرَ المؤمنين أعضّنى * مغصهما بالمُرْهَفات البـوارد
رأيتُ رفيعاتِ الامور مَشُـوبةً * بمستودَعات فى بطون الأسـاود
دعينى تَحِنّى مينتى مطمئنـةً * ولم اتحشّم هولَ تلك الموارد

لمـا قدم العتّابى مدينة السلام على المأمون أذن له، فدخل عليه وعنده إسحاق بن إبراهيم الموصلى، وكان العتابى شيخا جليلا نبيلا، فسلم فردّ عليه وأدناه وقرّبه حتى قرُب منه، فقبّل يدَه، ثم أمره بالجلوس فجلس، وأقبل عليه يسائله عن حاله وهو يجيبه بلسان ذُلق طَلق، فاستطرف المأمون ذلك وأقبل عليه بالمداعبة والمزاح، فظن الشيخ أنه آستخفّ به، فقال: يا أميرالمؤمنين، الإيناس قبل الإنْسَاس[1]، فاشتبه على المأمون قولُه، فنظر الى إسحاق مستفهما،

(١) الانساس : دعوة الدابة الى الحلب .

فأومأ اليه وعمّزه على معناه حتى فهم، فقال: ياعلام، ألفَ دينار، فأبى بذلك، فوضع بين يدى العتابى وأحدوا فى الحديث، وعمر المأمونُ إسحاقَ بن إبراهيم عليه، بجعل العتّابى لا يأحد فى شىء إلا عارَضه إسحاق، فبقى العتابى متعجبا، ثمّ قال: يا أمير المؤمنين، أتأذن لى فى سؤال هذا الشيخ عن اسمه؟ قال: نعم سَلْ، فقال لإسحاق ياشيخ، من أنت وما اسمك؟ قال: أنا من الناس واسمى كُلُّ نَصَل، فتبسّم العتّابى وقال: أما أنتَ فمعروف وأما الاسم فمُنكَر، فقال إسحاق. ما أقلّ إنصافك! أتنكر أن يكون اسمى كل نصل، واسمك كلثوم، وكلثوم من الأسماء، أو ليس النصل أطيب من الثوم؟ فقال له العتّابى: لله درّك! فما أحجّك، أتأذن لى يا أمير المؤمنين فى أن أصله بما وصلتنى به؟ فقال المأمون: بل ذلك موفّر عليك وأمر له بمثله. فقال له إسحاق: أما إذ أقررتَ بهذه فتوهّمنى تجدنى، فقال: ما أظنك إلا إسحاق الموصلىّ الذى يُناهى اليا حبرُه، قال. أنا حيثُ ظننتَ، وأقبل عليه بالتحيّة والسلام، فقال المأمون — وقد طال الحديث بينهما —: أما إذ قد اتفقتما على المودّة فاصطرفا متنادمين، فانصرف العتّابى الى منزل إسحاق فأقام عنده.

قال عثمان الوَرّاق: رأيت العتّابى يأكل حبرا على الطريق بباب الشام، فقلت له: وَيْحَك! اما تستحيي؟ فقال لى: أرأيتَ لو كنا فى دار بها بَقَر كنت تستحيي وتحتشم أن تأكل وهى تراك؟ فقال: لا، قال. فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر، فقام فوَعَظ وقصّ ودعا حتى كثر الزّحام عليه ثم قال لهم: روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسانُه أرْنبةَ أنفه لم يدخل النار، فما بقى أحد إلا أخرج لسانه يومىء به نحو أرنبة أنفه ويقدّره حتى يبلغها أم لا، فلما تفرّقوا قال لى العتّابى: ألم أخبرك أنهم بقر؟.

قال الفصل: رأيت العتّابى بين يدى المأمون وقد أسنّ، فلما أراد القيام قام المأمون فأخذ بيده واعتمد الشيخ على المأمون، فمازال المأمون يُنهِضه رويدا رويدا حتى أقلّه فنهض.

وكتب كلثوم بن عمرو العتّابى الى صديق له يستحديه :

أما بعد — أطال الله بقاءك وجعله يمتـد بك الى رِضْوانه والجنّـه — فإنك كنتَ عدنا روضـة من رياض الكَرَم، تنتهج النفوسُ بها، وتستـريحُ القلوب اليها؛ وكنا نعفيها من النُّجْعة[1] آستتماما لزهرتها، وشـفقةً على خصرتها، وآدخارا لثمرتها، حتى أصابتنا سَـنَةٌ كانت عـدى قطعة من سِنِي يوسف آشتدّ عليها كَلَبُها[2]، وعاب قِطّها، وكدّبنا عيومُها، وأخلفتنا بروقُها، وفقدنا صالحَ الإحوان فيها، فانحعتُك . وأنا ناجماعى إياك شديدُ الشفقه عليك، مع علمى بأنك موضع الرائد[3]، وأنك تغطّى عنَ الحاسـد . والله يعلم أنى ما أعدك إلا فى حَوْمَة[4] الأهل . وآعلم أن الكريم اذا آستحيا من إعطاء القليـل ولم يمكنه الكثير، لم يُعرف جوده ولم تَظْهر همّته . وأنا أقول فى ذلك :

اذا تكرمت عن بذل القليل ولم ، تقدر على سَعَه لم يظهر الجُود
بث النـــوالَ ولا تمنعك قِلّته ، فكل ما سَدّ فقرا فهو محمـــود
قيل فَشَاطَره جميعَ ماله .

(١) النجعة . طلب الكلأ فى موضـعه . (٢) الكلب القحط وبلاء الشاء وهو ص يصيب الكلاب . (٣) الرائد : الطالب . (٤) الحومة هنا الجماعة والطائفه .

٣ — دِعبِـــل[1]

شاعر متقدّم مطبوع مَحّاء حيث اللسان، لم يسلَم منه أحدٌ من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا دوَنباهة أحس اليه أم لم يُحس، ولا أفلت منه كبيرٌ أو صغير.

وكان دعبل من الشّيعة المشهورين بالميل الى علي صلوات الله عليه. وقصيدته: «مدارس آيات خَلَت من تِلاوه» من أحسن الشعر وفاخر المدائح المَقولَه فى أهل البيت عليهم السلام، وقصد بها أبا على بن موسى الرِّضا بخراسان، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة باسمه وخلع عليه خلْعه من ثيابه، فأعطاه بها أهل قُم ثلاثين الف درهم. فلم يَبِعها فقطعوا عليه الطريق فأخذوها، فقال لهم. إنها إنما تُراد لله عز وجل وهى محرّمه عليكم، فدفعوا اليه ثلاثين الف درهم، فحلَف ألاّ يبيعها أو يعطوه بعضَها ليكون فى كفنه، فأعطوْه فردَكُمٌّ، فكان من أكفانه.

قال ابراهيم بن المهدّى للمأمون قولا فى دعبل يخصّه عليه، فضحك المأمون وقال: إنما تحرّضنى عليه لقوله فيك:

يا معشرَ الأجناد لا تَقْنَطوا * وارضَوْا بما كان ولا تَسخَطوا
فسوف تُعْطَوْن حُبَيْبِيَّةً[2] * تَلْتَذها الأمْرُدُ والأشْمَط
والمَعْدِيّات[3] لُفّوادكم * لا تدخل الكيسَ ولا تُرْبَط
وهكذا يَرزق قوّادَه * خليفةٌ مُصْحَبه البَرْبَط

(١) هو دعبل بن على بن رزين من خزاعة، أصله من الكوفة وجاء بغداد بطلب من الرشيد. وهو شاعر مطبوع مجاه حيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا أولادهم ولا دو ناهة أحس إليه أولم يحس، ولا أفلت منه كبير أو صغير، فكان الناس يحاذرونه ويتقونه حتى المأمون فإنه هجاه هجاء شديدا واحتمل ذلك منه. توفى سنة ٢٤٦ هـ. وتجد أخباره فى الأغانى ج ١٨ ص ٢٩ وابن خلكان ج ١ ص ١٧٨ والشعر والشعراء ص ٥٣٩ والفهرست (ص ١٦١). (٢) يريد أصواتا منسوبة الى حبيب الحيرى المغنى.
(٣) يريد أصواتا منسوبة الى معبد المغنى.

قـد حتَّم الصَّـكُّ بأرزاقكم * وصحّح العزمَ فـلا تسخَطوا
بَيْعَـةُ ابراهـيم مشـئومةٌ * يُقتَل فيها الخَلق أو يَقْحَطوا

فقال له ابراهيم : فقد والله هجاك أنت يا أمير المؤمنين، فقال : دع هذا عنك فقد عفوت عنه فى هجائه إيّاى لقوله هذا، وصحك . ثم دخل أبو عبّاد، فلما رآه المأمون من بُعْـد قال لإبراهيم : دعبل يجسر على أبى عبّاد فى الهجاء ويُحجم عن أحد! فقال له : وكأن أبا عبّاد أبسط يدا منك يا أمير المؤمنين ، قال : لا ! ولكنّه حديد جاهل لا يؤمَن، وأنا أحْلُم وأصفح، والله ما رأيتُ أنا عباد مقبلا إلا أضحكنى قولُ دعبل فيه :

أولى الأمورِ بضَيْعِهِ وفساد * أمرٌ يدبِّره أبـو عَبّـاد
حَرِقٌ على جلسائه فكأنهم * حضَروا لِمَلْحَمة ويومِ جِلاد
يَبسـطو على كتّابه بِدَواته * فَمُصَمّح بدم ونَضح مِداد
وكأنه من دَيْرِ هِرْقِل مُفلتٌ * حَرِد يجرّ سلاسـل الأقياد
فاشدُدْ أميرَ المؤمنين وَثاقه * فأصَحُّ مسه بقيّـة الحَـدّاد

وكان «بقيّة» هذا محبوسا فى البيمارستان .

قال أبو خالد الخُزَاعى لدعبل : ويحك ! قد هجوتَ الخلفاء والوزراء والقوّاد ووَتَرْتَ الناس جميعا، فأنت دهرَك كلَّه شريدٌ طريد هارب خائف، فلو كففتَ عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك! فقال : ويحك ! انى تأملتُ ما تقول فوجدت أكثر الناس لا يُنتفع بهم إلا على الرهبة، ولا يبالَى الشاعر وإن كان مُجيدا اذا لم يُخف شرّه، ولَمْ يتّقيك على عرضه أكثر ممن يرغب اليك فى تشريفه، وعيوبُ الناس أكثر من محاسنهم، وليس كل من شرّفتَه شُرف، ولا كل من وصفته بالجود والمجـد والشجاعة ولم يكن ذلك فيـه انتفع بقولك، فاذا رأيتَ أوجعتَ عِرْضَ غيره وفصحتَه اتّقاك وخاف من مثل ما جرى على الآخر، ويحك يا أباخالد! إن الهجاء المقذع أحَدُّ نصْل الشاعر من المديح المصرع؛ فضحك أبو خالد وقال : هذا والله مقال من لا يموت حَتْفَ أنفه .

كان سببُ خروج دعبل من الكوفة أنه كان يتشطّر و يصحب الشُّطار، فخرج هو ورجل من أخلّجم فيما بين العشاء والعَتَمة، بخلسا على طريق رجل من الصّيارفة، وكان يروح كل ليلة بكيسه الى منزله ، فلما طلع مقبلا اليهما وثبا اليه فجرحاه وأخذا ما فى كُمّه ،فاذا هى ثلاث رُمّانات فى خِرْقة، ولم يكن كيسه ليلتئذ معه ، ومات الرجل مكانه ، وآستتر دعبل وصاحبه وجَدّ أولياء الرجل فى طلبهما وجدّ السلطانُ فى ذلك ، فطال على دعبل الآستتار فاضطر الى أن هرب من الكوفة، فما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد .

قال أحمد بن حالد : كنا يوما بدار صالح بن على من عبد القَيْس ببغداد ومعنا جماعة من أصحابنا، فسقط على سطح البيت ديك طار من دار دعبل ، فلما رأيناه قلنا : هذا صَيْدنا، فأخذناه، فقال صالح : ما نصنع به ؟ قلنا : نذبحه، فذبحناه وشويناه. وخرج دعبل فسأل عن الديك فعرّف أنه سقط فى دار صالح، فطلبه منّا فجحدناه وشربنا يوما، فلمّا كان من الغد خرج دعبل فصلّى الغداة ثم جلس على باب المسجد — وكان ذلك المسجد تجتمع الناس يجتمع فيه جماعة من العلماء ويَنتابهم الناس — فجلس دعبل على باب المسجد وقال :

أَسَرَ المؤذِّنَ صالحٌ وضيوفُه * أسْرَ الكَمِيّ هَفَا حِلال المأقِط
عَشوا عليه بَنِيهمُ وبَناتهم * من بين ناتفةٍ وآخَرَ سامِط
يتنازعون كأنهم قد أوثقوا * حَاقان أو هَزموا قبائلَ ناعط (١)
نَهَشوه فانتُزعت له أسنانُهم * وتهشّمت أقفاؤُهم بالحائط

فكتبها الناس عنه ومَضَوا ، فقال لى أبى، وقد رجع الى البيت : ويحكم ! صاقت عليكم المآكل فلم تجدوا شيئا تأكلونه سوى ديك دعبل! ثم أنشدنا الشعر، وقال : لا تدع ديكا ولا دَجاجة تقدر عليه إلا آشتريته و بعثتَ به الى دعبل و إلا وقَعْنا فى لسانه ؛ ففعلتُ ذلك.

قال أحمد بن أبى كامل : كان دعبل ينشدنى كثيرا هجاءً له ، فأقول له فيمن هذا ؟ فيقول ما آستحقّه أحدٌ بعينه بعد، وليس له صاحب، فادا وجَد على رجل جعل ذلك الشعر فيه وذكر آسمه فى الشعر .

(١) قبيلة من همدان، وأصله حمل نزلوا به فنسوا اليه .

كان دعبل يختلف الى الفضل بن العباس بن حعفر بن محمد بن الأشعث، وهو خرّجه وفهّمه وأدّبه، فظهر له منه جَفاء و بلغه أنه يَعيبه و يذكره وينال منه، فقال يهجوه :

يا نُؤْس للفصل لو لم يأت ما عَابَهْ * يستفرغ السّمّ من صَمّاء قِرضَابَهْ
ما إن يزال وفيـــه العيبُ يجمعه * جهلا لأعراض أهلِ المجد عيّابَهْ
إن عابنى لم يَعِبْ إلا مؤدِّبه * وهَسَـــه عابُ لما عاب أدّابَهْ
فكان كالكلب صَرّاه مكلِّبه * لعـــيره فعـــدا فاصطاد كلّابَهْ

كان دعبل يقول : ما كانت لأحد قط عندى مِنّة إلا تمنّيتُ موته .

كتب دعبل الى أبى نَهْشَل بن حُمَيد الطُّوسى قوله :

إنما العيشُ فى مُنادمه الإخوا * ن لا فى الجلوس عند الكَعاب
و بصرفٍ كأنها ألْسُن البر * قِ اذا استعرضَتْ رقيقَ السّحاب
إن تكونوا تركتُمُ لذّةَ العيـ * ـش حِذارَ العِقاب يومَ العقاب
فدعونى وما ألذّ وأهـــوى * وادفعوا بى فى صدر يوم الحساب

قال محمد بن زكريا الفرغانى : سمعت دعبلا يقول فى كلام جرى «لَيْسَك» فأنكرته عليه ؛ فقال : دخل زيد الخَيْـل على النبى صلى الله عليه وسـلم فقال له : «يا زيد ما وُصِف لى رجل إلا رأيتُه دون وصفه لَيْسَك» يريد غيرك .

قال عمرو بن مَسْعَدة : حضرتُ أبا دُلَف عند المأمون وقد قال له المأمون : أى شىء تروى لأخى خُزَاعة يا قاسم؟ فقال : وأىّ أخى خزاعة يا أمير المؤمنين؟ قال : ومَنْ تعرف فيهم شاعرا؟ فقال : أمّا من أنفُسِهم فأبو الشِّيص ودعبل وابن أبى الشّيص وداود بن أبى رزين، وأما من مواليهم فطاهر وابنه عبد الله ، فقال : ومن عسى من هؤلاء أن يُسأل عن شعره سوى دعبل ! هات أىّ شىء عندك فيه ؛ فقال : وأى شىء أقول فى رجل لم يسلَمْ عليه أهلُ بيتـه حتى هجاهم، فقرَن إحسانَهم بالإساءة وبذلهم بالمنع وجودهم بالبخل، حتى جعل كل حسنة منهم بإزاء سيئة منه ؛ قال : حين يقول ماذا؟ قال : حين يقول فى المطّلب بن عبد الله

ابن مالك، وهو أصدق الناس له وأقربهم منه، وقد وفد اليه الى مصر فأعطاه الجزيل وولّاه، ولم يمنعه ذلك أن قال فيه :

اضرِبْ نَدَى طَلْحَةَ الطَّلْحات متئِدا * لؤم مطِلٍّ فيا وكن حَكَما
تُخرِج خُزاعةَ من لؤم ومن كَرَم * فلا تمسّ لها لؤما ولا كرما

فقال المأمون : قاتله الله ! ما أغوَصَه وألطفه وأدهاه، وجعل يضحك. ثم دخل عبد الله ابن طاهر فقال : أى شيء تحفظ يا عبد الله لدعبل؟ فقال : أحفظ أبياتا له فى أهل بيت أمير المؤمنين؛ قال : هاتها ويحك ! فأنشده :

سَقْيًا ورَعيًا لأيام الصَّفاة * أيام أرفُل فى أثواب لذّاتى
أيام غصنى رطيبٌ من ليّانته * أصو الى عير جاراتٍ وكُنّات
دع عنك ذكر زمان فات مَطلُه * وٱقدِف برحلك عن مَتْن الحَهَالات
وٱقصِد بكل مديح أنت قائلُه * نحو الهُداة بَنى بيت الكَرَامات

فقال المأمون : إنه قد وجد والله مقالاً فقال، ونال بعيدٌ ذكرهم ما لا يناله فى وصف غيرهم.

ومن قول دعبل وفيه غناء :

أيْنَ الشباب وأيّةً سلَكا * لا أين يُطلب صَلّ من هَلَكا
لا تعجبي يا سَلْمَ من رجل * ضحِك المشيبُ برأسه فبَكى
يا ليت شعرى كيف يومُكما * يا صاحيّ اذا دَمِى سُفِكا
لا تأخذوا بظُلامتى أحدًا * قلبى وطَرْفى فى دمى ٱشتركا

قال إبراهيم بن المدبّر : لقيت دعبل بن على فقلت له : أنت أجسَرُ الناس عندى وأقدمهم حيث تقول :

إنى من القوم الذين سيوفُهم * قتلَتْ أخاك وشرّقتك بمَقْعَد
رفعوا محلّك بعد طول خموله * وٱستنقذوك من الحضيض الأوْهَد

وأولها :

أحذ المشيبُ من الشباب الأغيدِ * والنائباتُ من الأنام بمَرْصد

فقال : يا أبا اسحاق، أنا أحمل خَشَبتى منذ أربعين سنة، فلا أجد من يصلبنى عليها .

كان دعبل يخرج فيعيب سيرَ يدُور الدنيا كلها ويرجع وقد أفاد وأثرى، وكانت الشُّراة والصّعاليك يلقَوْنه فلا يؤذونه ويؤاكلونه ويشاربونه ويبرّونه، وكان اذا لقيهم وضع طعامه وشرابه ودعاهم اليه ودعا بغلاميه : نصف وشعف ، وكانا مغنيين ، فأقعدهما يغنّيان وسقاهم وشرب معهم وأنشدهم، فكانوا قد عرفوه وألِفوه لكثره أسفاره، وكانوا يواصلونه ويصلونه . وأنشد دعبل لنفسه فى بعد أسفاره :

حلّتُ محَلّا يقصُر البرقُ دونه ويعجز عنه الطيفُ أن يتجشّما

قال البحترى : دعبل بن على أشعر عندى من مسلم بن الوليد، لأن كلام دعبل أدخل فى كلام العرب من كلام مسلم، ومذهبه أشبه بمذاهبهم؛ وكان يتعصّب له .

كان المعتصم يُبْغض دعبلا لطول لسانه. وبلغ دعبلا أنه يريدُ اغتياله وقتله ، فهرب الى الجبل؛ وقال يهجوه :

بَكى لِشَتات الدين مكتئِبٌ صبُّ * وفاض بفَرْط الدمع من عينه غَرْبُ
وقام إمام لم يكن ذا هِدَاية * فليس له دِين وليس له لُب
وما كانت الأنباءُ تأتى بمثله * يُمَلِّك يوما أو تدين له العُرْب
ولكن كما قال الذين تتابعوا * من السّلَف الماضين اذ عَظم الخطب
ملوك بنى العباس فى الكُتْبِ سبعةٌ * ولم تأتنا عن ثامن لهم كُتْب
كذلك أهلُ الكهف فى الكهف سبعةٌ * حِيارٌ اذا عُدّوا وثامنهم كَلْب
وإنى لأُعلِى كلبَهم عنك رفعةً * لأنك ذو ذَنْب وليس له ذنب
لقد ضاع مُلك الناس اذ ساس مُلكَهم * وصِيفٌ وأشناس وقد عَظُم الكرب
وقَضْل بن مروان يُتَلّم ثُلمةً * يظل لها الإسلام ليس له شَعْب

لما مات المعتصم قال محمد بن عبد الملك الزيّات يرثيه :

قد قلتُ إذ غيّبوه وانصرفوا * في خير قبر لخير مدفون
لن يجبر اللهُ أمّةً فقدتْ * مثلك إلا بمثل هارون

فقال دعبل يعارضه :

قد قلتُ إذ غيّبوه وانصرفوا * في شرّ قبر لشر مدفون
إذهب الى النار والعذاب فما * حَلْقُك إلا من الشياطين
ما زلت حتى عقدتَ بَيْعةَ مَنْ * أضرّ بالمسلمين والدين

وقال في ذلك وفي قيام الواثق :

الحمدُ لله لا صَبْرٌ ولا جَلَدُ * ولا عزاءٌ اذا أهلُ البَلا رقدوا
حليفةٌ مات لم يحزَن له أحد * وآخرٌ قام لم يفرح به أحد

ولقد أحسن في وصف سفر سافره، فطال ذلك السفر عليه، فقال فيه :

ألم يَأنِ للسَّفْر الذين تحمّلوا * الى وطنٍ قبل الممات رجوع
فقلت ولم أملك سوابقَ عَبْرة * نَطَقْن بما ضُمّت عليه ضلوع
تبيّنْ فكم دارٍ تفرّق شملُها * وشَمْلٍ شتيتٍ عاد وهو جَميع
كذاك الليالي صَرْفُهنّ كما ترى * لكل أناس جَدْبةٌ ورَبيع

ثم قال : ما سافرتُ قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني في سفري وهِجّيرَاي ومسليتي حتى أعود .

ومن قول دعبل وفيه غناء :

سَرَى طيفُ ليلى حين آن هُبُوبُ * وقضّيت شوقا حين كاد يدوب
فلم أرَ مطروقًا يحلّ برحلة * ولا طارقا يَقرِي المُنى ويُثيب

ومن قوله :

لقد عجبتْ سَلْمى وذاك عجيبُ * رأت بي شيبا عجّلته خُطوبُ
وما شيّبتني كِبْرةٌ غير أنني * بدهرٍ به رأسُ المطيم يَشيب

وقال فى صالح بن عطيّة الأَعْجَم وكان من أقبح الناس وجها، وحاطب فيها المعتصم :

قل للإمام إمامِ آل محمـــد * قول آمرئ حدِبٍ عليك مُحَام
أنكرت أن تفترَّ عـــك صبيعةٌ * فى صالح بن عَطيّة الحجّام
ليس الصنائع عنده بصنائع * لكنهن طَوائلُ الإســـلام
اِصربْ به حيشَ العـــدوّ فإنه * حيشٌ من الطاعـــون والرِّسام

قال أبو تمّام : ما زال دعبل مائلا إلى مسلم بن الوليد مقرّا بأُسْتَاذِيّته، حتى ورد عليه بُحُرجان لجفاء مسلم، وكان فيه بخل، فهجره دعبل وكتب اليه :

أبا تَخْـــلَدٍ كنا عَقِيـــدَى مودّة * هـــوَانا وقَلْبانا جميعـا مَعًا معا
أحوطك بالغيب الدى أنتَ حائطى * وأجرع إشـــفاقا مِنَ آنْ تتوجّعـا
فصيّرتنى بعـــد انتكاثك مُبْهِما * لعمرى عليها أرْهَبُ الخلق أجمعـا
عششتَ الهوى حتى تداعت أصولُه * بنا وآبتذلتَ الوصـــلَ حتى تقطّعا
وأنزلتَ من بين الجوانح والحَشَى * ذخـــيرةَ وُدٍّ طالما قـــد تمنّعـا
فلا تَلْحَيَنِّى ليس لى فيـــك مطمَعٌ * تحرّقتَ حـــتى لم أجـــد لك مرقعا
فَهَبْك يمينى استأكلتْ فقطعتُهـا * وجشّمتُ قلبى صـــبرَه فتشجّعـا

ثم تهاجرا فما آلتقيا بعد ذلك .

اجرى الرشيد على دعبل رزقا سنّيا ، فكان أوّل من حرّضه على قول الشعر . فوالله مابلغه أن الرشيد مات حتى كافأه على فعله من العطاء السنىّ والغنى بعد الفقر والرفعة بعد الخمـــول بأقبح مكافأة ، وقال فيه يهجوه من قصيدة مدح بها أهلَ البيت عليهم السلام :

وليس حَىٌّ من الأحياء نعلمه * من ذى يَمَانٍ ومن بَكْرٍ ومن مُضَرِ
إلا وهم شركاءٌ فى دمائهـــم * كما تَشَارك أيْسَارٌ عـــلى جُزُر
قتـــلٌ وأسْرٌ وتحـــريقٌ ومَنْهَبةٌ * فِعلَ الغُـــزاةِ بأرض الروم والخزَر
أرى أميّةَ معذورين إن قتلوا * ولا أرى لبـــنى العباس من عُذُر

أرْعَ بِطُوس على القبر الزكيّ اذا * ما كنت تَرْعَى من دِين على وطر
قَبْران فى طوسَ خيرُ الناس كلهم * وقبرُ شرّهمُ هـذا من العِبَر
ماينفع الرجسَ من قرب الزكيّ ولا * على الزكيّ بقرب الرجس من ضرر
هيهات، كلّ امرئ رَهْنٌ بما كسبتْ * له يداه فخُذْ ماشئتَ أو فذَر

• استدعى بعض بنى هاشم دعبلا وهو يتولى للمعتصم ناحية من نواحى الشام، فقصده اليها فلم يقع منه بحسن ظن وحفاه، فكتب اليه دعبل :

دلّيتنى بغرورٍ وعدك فى * مُتَلاطم من حَوْمة الغَرَق
حتى إذا شمت العدوّ وقد * شُهِرَ انتقاصك شُهْرة البَلَق
أنشأت تحلف أن ودّك لى * صافٍ وحبلك غير منحذِق
وحسبتنى فَقْعًا بقَرْقَرة * فوطِئتنى وَطْئًا على حَنَق
ونصبتنى علَمًا على عَرَض * ترمينى الأعداءُ بالحَدَق
وطننتَ أرضَ الله ضَيّقةً * عنّى وأرضُ الله لم تَضِق
من غير ما جُرمٍ سوى ثِقةٍ * منّى بوعدك حين قلتَ ثِقِ
ومودّةٍ تحنو عليك بها * نفسى بلا مَنٍّ ولا مَلَق
فمتى سألتُك حاجةً أبدا * فاشدُدْ بها قُفْلا على عَلَق
وقَفَ الإحاءُ على شَفَا جُرُف * هارٍ فبِعْه بَنْعة الخَلَق
وأعِدّ لى قُفْلا وجامعةً * فاشدد يدىّ بها إلى عنق
أعفيك مما لا تحبّ بها * وآسدُدْ على مداهب الأُفُق
ما أطولَ الدنيا وأعرضَها * وأدَلّنى بمسالك الطُرُق

دخل دعبل على عبد الله بن طاهر فأنشده وهو ببغداد :

جئتُ بلا حُرْمة ولا سببٍ * إليك إلّا بحرمة الأدَبِ
فاقبض ذِمامى فإننى رجلٌ * غير مُلِحٍّ عليك فى الطّلب

فانتقل عبد الله ودخل الحَرَم ووجّه اليه بصُرّة فيها ألف درهم ، وكتب اليه :

أعجلتنا فأتاك عاجـــلُ بِرِّنا * ولو انتظرت كثيرَه لم يقلل

فخذ القليلَ وكن كأنك لم تَقُل * ونكون نحن كانتا لم نفعل

مات دعبل بقرية من قُرَى السُّوس ، بعث اليه مالك بن طَوْق من ضرب ظهره بعكّاز لها زُجٌّ مسموم فمات من غد .

٤ — حسين بن الضحّاك (١)

« شاعر (٢) ظريف شديد الظّرف، ربما انقطع نظيرهُ فى شعراء العصر العبّاسى كلّه ، وهو مع ظرفه وإسرافه فى المجون ، قليلُ الفحش فى اللفظ . غير مُهَالِك على القول الآثم والألفاظ المنكَرة، لا يتخيّرها ولا يقصد اليها، وإنما يَعْرِض لها اذا اضطُر اليها اضطرارا وهو على ظرفه ورقّة حاشيته وحِرْصه على نَقَاء اللفظ وطُهره شاعر بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، مجوِّد اذا فكّر، مظفّر اذا بحث، موفّق الى اللفظ المتين، والأسلوب الرّصين فى غير جفوة ولا غِلظة ، لا يعرف التكلّف فى لفظ ولا معنى، وإنما ينطلق لسانه مع سجيته ، وسجيّته سهلة مرسَلة غيـّة غزيرة المادة، لا تكاد تنضُب، ولا يبالها إعياء أو كَلال، وحيلته كلها عِبَر وعظات ولكنها عبر وعظات مبتسمة ليست بالمظلمة ولا العابسة ولا بالتى تردّك وتنفّرك، وتجعل للحزن والأسى الى قلبك سبيلا، ولعلك لا تجد من شعراء هذا العصر رجلا مثله، تقرأ أخباره فتظلّ مبتسما منذ تبتدئ الى أن تنتهى دون أن تَعْبِس أو تنقطب . وربما تجاوزتَ الابتسام الى الإغراق فى الضحك من حين الى حين، ولكنك لن تترك الابتسام الى الحزن الشديد. وربما اعترضتك فى طريقك سحابة محزنة ولكن هذه السحابة رقيقة هادئة هيّنة، فهى أضعف من أن تزيل ابتسامتَك. وكان هذا الشاعر من المعمَّرين، بلغ المائة أو كاد ، وعاصر طبقاتٍ من الشعراء، وألوانا من حاشية الخلفاء ، ولكنه ظلّ محتفظا بشخصيّته الوادعة المبتسمة ، تغيّر النـاسُ واختلفت الظروف ، وظلّ هو واحدا

(١) هو مولى باهلة ، ولد فى البصرة ونشأ فيها ونادم الخلفاء من بنى العباس ، وكان حليما فاسدا وكان مع ذلك حسن التصرف فى النظم ولشعره قبول ورونق ، فهو من المتصدين وله معان جديدة فى الحركات أبو نواس يأخذها عنه ، ومع أن أبا نواس مات سنة ١٦٨ هـ ، والضحاك مات سنة ٢٥٠ هـ فقد تعاصرا لأن مولدهما متقارب لأن ابن الضحاك عمر كثيرا . وهو أوّل من نادم الأمين وله فيه مدائح كثيرة ، وعمر عمرا طويلا حتى قارب مائة السنة ومات فى خلافة المستعين أو المنتصر . وتجد أخباره فى الأغانى (ج ٦ ص ١٧٠) وابن خلكان (ج ١ ص ١٥٤ .

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية .

لم يتغيّر. كان حليما، بل كان يُعرف بالحليع، وكان كثيرَ المجون مُسْرِفا فيه، وما أحسب أن أبا نواس سقه الى لذّة أو برز عليـه فى مأثم، ولكنه على حلاعتـه وإسرافه فى المجون وتهالُكه على اللذات، احتفظ طول حيـاته بشىء من كرم الخلق وطهارة العنصر وجَوْدة الأصل، كأنما كانت هذه اللّدات والآثام تنزلق على نفسه وأحلاقه انزلاقا دون أن تترك فيها أثرا باقيا، وإنمـا كانت الآثار التى تتركها لياليه الساهرة، وأيامه المملوءة بالعَبَث، هذه الأشعار الجميلة الحلوة التى سأطهرك على طرف منها .

فلم يكن هذا الرجل كغيره من الشعراء الذين إنمـا كانوا يَصِلون الى الخلفاء بعد الجهد والكَدّ، وبعد التلطّف وحسن الحيلة، وإنما كان متصلا بالخلفاء اتّصالا شديدا، يعاشرهم ويرافقهم ويتدخّل فى حياتهم الخاصة، وربمـا تدخّل الى أكثر ممـا ينبغى . وكان الخلفاء يحبّون عبه، ويَحْرِصون على عشرته ويبذلون فى ذلك غير قليل من الإلحاح والعطاء، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر فى أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء » .

وترى من هذا الوصف أنه شاعر أديب ظريف مطبوع، حسن التصرّف فى الشعر حلو المذهب، لشعره قَبُول ورونق صاف، وكان أبو نواس يأخذ معانيـه فى الخمر فيُغيـر عليها، واذا شاع له شعر نادر فى هذا المعنى نسبه الناس الى أبى نواس، وله معان فى صفتها أبدع فيها، وهاجَى مسلمَ بن الوليد فانتصف منه، وله غزل كثير جيّد، وهو من المطبوعين الذين تخلو أشعارهم ومذاهبهم جملة من التكلّف .

قال : أنشدت أبا نواس قصيدتى التى قلتها فى الخمر وهى :

بُدِّلتَ من نَفَحات الورد بالآء[1] * ومن صَبُوحك درَّ الإبْل والشّاء

فلما انتهيتُ منها الى قولى

حتى اذا أُسْدِلت فى البيت وٱحْتُضِرت . عنـد الصّبوح بَسَّامين أكفاء
فُضّت خواتمهـا فى نَعْت واصـفها * عن مثـل رَقراقـة فى جفن مَرْهاء[2]

(١) الآء : ثمر شجر واحدته آءة . (٢) المرهاء : التى لا تكتحل .

فصُعق صعقة أفزعتْنى وقال : أحسنتَ والله يا أشقر، فقلت : ويلك يا حسن، إنك أفزعتَنى والله، فقال : بلى والله أنت أفزعتَنى ورُعتنى، هذا معنى من المعانى التى كان فكرى لابد أن ينتهى اليها أو أغوص عليها وأقولها، فسبقتَنى اليه واختلستَه منّى، وستعلم لمن يُروى إلى أم لك؟ فكان والله كما قال، سمعت من لا يَعْلَم يَرويها له :

لما قدم المأمون من خراسان أمر بأن يُسَمّى له قوم من أهل الأدب ليجالسوه ويسامروه، فذُكِر له جماعة فيهم الحسين بن الضّحّاك، وكان من جلساء محمد المخلوع، فلما رأى اسمَه قال : أليس هو الذى يقول فى محمد :

هلا بقيتَ لسَدّ فاقتنا * أبدا وكان لغيرك التّلَفُ

فلقد خَلَفْتَ خلائفا سَلَفوا * ولسوف يُعْوِز بعدك الخَلَف

لا حاجة لى فيه، والله ولا يرانى أبدا إلا فى الطريق، ولم يعاقب الحسين على ما كان من هجائه له وتعريضه به، وانحدر حسين الى البصرة فأقام بها طول أيام المأمون .

قال أبو صالح بن الرشيد : دخلت يوما على المأمون ومعى بيتان للحسين بن الضحاك، فقلت : يا أمير المؤمنين، أُحِب أن تسمع منى بيتين، فقال : أنشِدْهما، فأنشدتهما :

حمدنا الله شكرًا إذ حَبانا * بنصرك يا أمير المؤمنينا

فأنت خليفة الرحمن حقّا * جمعت سماحة وجمَعتَ دِينا

فقال : لمن هذان البيتان ؟ فقلت : لعبدك يا أمير المؤمنين حسين بن الضحاك، قال : قد أحسن، فقلت : وله يا أمير المؤمنين أجود من هذا، فقال : وما هو؟ فأنشدته قولَه :

أَجِزْنى فإنى قد ظَمِئتُ الى الوعد * متى تُنجِز الوعدَ المؤكد بالعَهْد

أعِيذُك من خُلف الملوك وقد بدا * تَقطّع أنفاسٌ عليك من الوَجْد

أيخل فَرْدُ الحسن عنى بنائل * قليلٍ وقد أفردتُه بهوًى فَرْد

رأى اللهُ عبدَ الله خيرَ عباده * فملّكه والله أعلم بالعبد

ألا إنما المأمون للناس عصمة * مميِّزة بين الضّلالة والرشد

فأطرق ساعة ثم قال : ما تَطيب نفسى له بخير بعد ما قال فى أخى محمد ما قال .

ومن قوله يرثى محمدا الأمين :

أطِلْ حَزَنا وآبِك الإمام محمـدا * بحزن وإن خِفتَ الحسام المهندا
فـلا تَمّتِ الأشياءُ بعد محمـــد * ولا زال شَمْل الملك منها مُبَـدّدا
ولا فرِح المأمونُ بالملك بعـــده * ولا زال فى الدنيا طريدا مشرّدا

ولحسين فى محمد الأمين مَرَاثٍ كثيره جيادٌ، وكان كثير التحقق به والموالاة له لكثرة إفضاله عليه، وميله اليـه، وتقديمه إياه، وطلع من جرعه عليه أنه خُولِط فكان يُنكر قتـله لمـا بلغه ويدفعه ويقول: إنه مستتر وأنه قد وقف على دُعاته فى الأمصار يدعون الى مراجعة أمره والوفاء ببيعته صَبّا به وشغفه عليه .

ومن جيّد مراثيه إياه قوله :

سألونا أنْ كيف نحن ؟ فقلنا * من هَوَى بعـــده فكيف يكون؟
نحن قوم أصابنا حَدَثُ الدهـ * ـر فظَلْنا لريْبـــه نستكين
نتمـــنى من الأمين إيابا * لهَفَ نفسى وأين منّى الأمين

ومن جيّد قوله فى مراثيه إياه .

أعَزّى يا محمـــدُ عنك نفسى * معاذ الله والأيدى الجسـام
فهـــلّا مات قومٌ لم يمـــوتوا * ودُوفع عـــنك لى يومَ الحِمام
كأن الموت صادَف منك غُنْما * أو آستشفى بقربك من سَقَام

وقال أيضا يرثيه :

يا حير اسْرته وإن زَعمـوا * إنّى عليـك لمُثْبَتٌ أَسِفُ
الله يعـلم أن لى كـبدا * حَرّى عليك ومقلةٌ تكف
ولئن شَجِيتُ بما رُزِئْتُ به * إنى لأُضْمر فوق ما أُصِف
هلّا بَقِيتَ لسَـــدّ فاقتنـا * أبدا وكان لغـيرك التّلَف
فلقد خَلَفتَ خلائفا سَلفوا * ولسوف يُعْوِز بعدك الخلف

لا بات رَهْطُك بعد هفوتهم * إنى لرهطك بعدها شَنِف[1]
هَتكوا بحرمتك التى هُتِكت * حُرَم الرسول ودونها السُّجُف
وثَنَتْ أقاربُك التى حَذَلَتْ * وجميعُها بالذّل معترف
لم يفعلوا بالشَّطّ إذ حصروا * ما تفعل الغَيْرانةُ الأنُف
تركوا حريمَ أبيهم نُفَلا * والمُحْصَناتُ صوارِخٌ هُتُف
أبدت مُخَلْخَلَها على دَهَش * أبكارُهنّ ورَنّت النَّصَف
سُلِبَت مَعاجِرُهنّ[2] وٱجْتُلِيت * ذاتُ النِّقاب وبُوزِع الشَّنَف
فكأنهنّ جِلالَ مُنْتَهِب * دُرٌّ تكشَّف دونَه الصَّدَف
مَلِكٌ تحوّن مُلْكَه قَدَرٌ * فَوَهَى وصرفُ الدهر مختلف
هيهاتَ بعدك أن يدوم لنا * عِزٌّ وأن يبقى لنا شَرَف
لا هَيَّبُوا صُحُفًا مشرَّفة * للعادرين تحتها الجَدَف
أفبَعْد عهدِ الله تقتُلُه * والقتل بعد أمانةٍ سَرَف
فستعرفون عدا بعاقبةٍ * عزَّ الإله فأوْرِدُوا وقِفُوا
يامن يُحَوِّن يومَه أرَقٌ * هَدَتِ الشجونُ وقلبُه لَهَف
قد كنتَ لى أملا عَيِيتُ به * فعصى وحلّ محلَّه الأَسَف
مَرِحَ النِّظام وعاد مُنْكُرنا * عُرْفا وأنكِر بعدك العُرُف
فالشملُ منتشر لفقدك والـ * ـدُّنيا سُدًى والبال مكسف

وقال أيضا يرثيه :

اذا ذُكِر الأمينُ سَعَى الأمينا * وإن رقَد الخَلِىّ حَمَى الجُفُونا
وما بَرِحتْ منازلُ بين بُصرى * وكَلْوَادَى تُهَيِّج لى شجونا
عِراصُ الملك خاويةٌ تَهادى * بها الأرواح تَنْسجها فنونا

(١) معض منكر . (٢) جمع معجر بالكسر وهو ثوب تعتجر به المرأة أى تشده على رأسها .

تخـــوّن عزٌّ ساكنهـا زمانٌ * تلعّب بالقرون الأوّلينا
مَشَتْتَ شملَهـــم بعد اجتماع * وكنتُ بحسن ألفتهم ضنينا
فلم أر بعـدهم حُسْنا سـواهم * ولم تَرَهُـــم عيونُ الناظرينا
هوا أسَفًا وإن شمَت الأعادى * وآهٍ على أمـــير المؤمنينا
أصَلّ العُرفَ بعـدك مُتْبِعوه * ورُقّـه عن مطايا الراغبينا
وكنّ الى جمالك كلّ يـــوم * يَرُحْنَ على السّـــعود ويَعتدينا
هو الجبلُ الذى هوت المعالى * لِهَـــدّته وربع الصّـالحونا
سَتندُب بعدك الدنيـا جِوارا * وتنـدب بعدك الدينَ المصونا
فقد ذهبت بشاشةُ كلّ شىء * وعاد الدين مطروحا مَهينا
تعقّـد عزٌّ مُتّصـلٍ بكسرى * ومِلّتـــه وذلّ المســـلمونا[1]

وقال أيضا يرثيه :

أسَفًا عليك سَلاك أقربُ قُرْبَةً * منّى وأحرانى عليـــك تزيد

قال أبو العباس محمد بن يزيد الأزدى : حسين بن الضحاك أشعر المحدَثين حيث يقول :

أىُّ ديباجـةِ حُسْنٍ * هيّجتْ لوعةَ حزنى
إذ رمانى القمـرُ الزا * هر عن فَـتْرة جفن
بأبى شمسُ نهـار * برزتْ فى يوم دَجْن
قربتنى بالمـــنى حتـ * ـى اذا ما أحلفتـــنى
تركتنى بين مبعـا * د وحُلْف وتَجَنّ
ما أرى فىّ من الصّبْـ * ـوة إلّا حسنَ ظنى
إنما دامت على الغد * ر لما تعرف مِـــنّى
أستعيذ الله من إعرا * ض من أعرضَ عنّى

(١) استحكم .

لما وَلِى المعتصم أمر بمكاتبته بالقدوم عليه ، فلما دخل وسلّم آستأذنه فى الإنشاد ، فأذن له ، فأنشده قولَه :

هلّا سألتَ تلذّذ المشتاق * ومَنَحْتَ قبلَ فراقه بتَلَاقى
إن الرقيب ليَستريب سُفُّنا * صُعُدا إليك وظاهر الإقلاق
ولئن أَرِبْتُ لقد نظرتُ بمقلَة * عَبْرى عليك سَخينة الآماق
نفسى الفداءُ لخائف مترقّب * حَمَل الوداع إشارةً بعناق
إذ لا حواتَ لمُفْحَم متحيّر * إلا الدموع تُصان بالإطراق

حتى آنتهى الى قوله :

خيرُ الوفود مبشّر بخلافة * خَصّتْ بهجتها أنا إسحاق
وافته فى الشهر الحرام سليمةً * من كل مشكلة وكل شِقاق
أعطته صفقتَها الصبائرُ طاعةً * قبل الأَكُفّ بأوكد الميثاق
سكنَ الأنامُ إلى إمام سَلامةٍ * عَفّ الضمير مهذّب الأخلاق
فحمى رعيّتَه ودافع دونَها * وأحار مُمْلِقَها من الإملاق

حتى أتمّها ، فقال له المعتصم : آدْنُ منى ، فدنا منه ، فملأ فمه جوهرا من جوهر كان بين يديه ، ثم أمره بأن يحرجه من فمه ، فأخرجه وأمر بأن يُنْظَم ويدفع اليه ويخرج الى الناس وهو فى يده ، ليعلموا موقعه من رأيه ، ويعرفوا فضله ، فكان أحسن ما مُدِح به يومئذ .

ومن شعره قوله :

أمينَ الله ثِقْ بالله * به تُعْطَ الصبر والنُّصْرَهْ
كِلِ الأمرَ الى الله * كَلاك الله ذو القُدره
لنا النصر بعون الله * والكَرّة لا الفَرّه
وللُزّاق أعدا * ئك يومُ السوء والدَّبْره
وكأس تلفظ الموت * كريه طعمُها مُرّه

سَقَوْنا وسقيناهم * ولكن بهم الحرّه
كذاك الحرب أحيانا * علينا ولنا مَرّه

ومن قوله فى غضب حظيّة للواثق من زيارته أخرى فى نوبتها :

غَضِبتْ أَنْ زرتُ أخرى جلسةً * فلها العُتبى لَدَيْنا والرِّضا
يا قَدَتْكِ النفس كانت هَفْوةً * فاغفريها وٱصفحى عما مضى
وٱتركى العَدْل على من قاله * وٱنسُبى جَوْرى الى حكم القضا
فلقد بهتنى من رَقْدتى * وعلى قلبى كبيران الغَضا

كان الواثق يتحظّى جارية له مماتت، فجزع عليها وترك الشراب أياما، ثم سلاها وعاد الى حاله، فدعا الحسين ليلة وقال له : رأيت فلانة فى النوم فليت نومى كان طال قليلا لأتمتع بلقائها، فقل فى هذا شيئا، فقال :

ليت عينَ الدهر عنا غفلت * ورقيبَ الليل عنا رَقَدا
وأقام اليوم فى مدّته * كالذى كان وكانّا أبدا
بأبى زَوْرٌ تلقّتُّ له * فتنفّستُ اليه الصُّعَدا
بينما أضحك مسرورا به * إذ تقطّعتُ عليه كَبِدا

لما أعيته الحيلةُ فى رضا المأمون عنه رمى بأمره الى عمرو بن مَسْعَدَة وكتب اليه :

أنت طَوْدى من بين هدى الهضاب * وشهابى من دون كل شهاب
أنت يا عمرو قُوّتى وحياتى * ولسانى وأنت ظُفْرى ونابى
أتُرانى أنسى أياديَك البيـ * ـض اذا ٱسودّ نائل الأسحاب
أين أخلاقك الرضيّة حالت * فىّ أم أين رِقّة الكتّاب؟
أنا فى ذِمّة السحاب وأطْمَ؟ * إن هذا لوَصمةٌ فى السحاب
قم الى سيّد البريّة عنى * قومةً تَسْتَجِرّ حُسْنَ الخطاب
فلعل الاله يُطفئ عنّى * بك نارا على ذات ٱلتهاب

فلم يزل عمرو يُلطف للمأمون حتى أوصله اليه وأدرّ أرزاقه .

ولما عفا المأمون عنه أمر بإحضاره، فلما حضر سلّم، فرد عليه السلام ردّا جافيا، ثم أقبل عليه فقال : أخبرنى عنك، هل عرفتَ يوم قُتِل أخى محمد هاشميّة قُتلت أو هُتكت ؟ قال : لا، قال : فما معنى قولك :

وسِرْب ظِباء من ذؤابة هاشم ... هَتَفْن بدعوى حبر حى ومَيِّت
أَرُدّ يدًا مني اذا ما ذكرتُه * على كبد حَرّى وقلبٍ مُفَتّت
فلا بات ليلُ السامتين بِعِطفةٍ * ولا بَلَغت آمالُهم ما تمنّت

فقال : يا أمير المؤمنين، لوعة علتنى، وروعه فاجأتنى، وسمه فقدتُها بعد أن عمرتنى، وإحسان شكرته فأطقنى، وسيّد فقدته فأقلقنى، فإن عاقبتَ فحقّك، وإن عطفت فبفضلك ؛ فدمعت عينا المأمون وقال : قد عفوتُ عنك، وأمرتُ بإدرار رِزْقك، وإعطائك ما فات منه، وجعلت عقوبتك امتناعى من استحدامك .

ومن قوله :

وكالوردة الحمراء حَيا بأحمَر * من الورد يمشى فى قراطق كالورد
له عَنَاتٌ عند كل تحيّة * يعيبه فيستدعى الحليمَ الى الوجد
تمنّيت أن أُسقَى بكفّيه شَرْبة * تذكّرنى ما قد نَسيتُ من العهد
سقى الله دهرا لم أَبِتْ فيه ليلةً * خَلِيًّا ولكن من حبيبٍ على وعد

ومن قوله :

وا إبى مُفحَم لعزّته * قلتُ له اذ خلوتُ مكتَتِما
تُحِبّ بالله من يحصّك بال * ـود فما قال لا ولا نَعَما
ثم تولّى بمُقلَتَىْ خَجِل * أراد رَجْع الجواب فاحتشما
فكنت كالمُبتغى بحيلته * بُرءًا من السُّقم فابتدا سَقَما

وقال فى هوًى له :

عالِمٌ بحبّه * مطرِق من التِّيه
يوسفُ الجمالِ وفر * عون فى تعذّبه

لا وحقِّ ما انا فيـ * ـه من عطفِ أرْجيه
ما الحياةُ نافعـة * لى عـلى تأبّيـه
النعيم يَشغَلُه * والجمال يُطغيـه
فهـو غيرُ مكترث * للدى ألاقيـه
تائهٌ تُزَهِّـده * فى رعبتى فيـه

ومن قوله فى هوى له :

إن من لا أرى وليس يَرانى * نُصْب عينى مُمَثَّل بالأمانى
بأبى مَنْ صميره وصميرى * أبدا بالمَغيب يتحيـان
نحن شخصان إن نظرت ورو * حان اذا ما آحتبرت يمـترحان
فاذا ما هممتُ بالأمر أو هَمَّ * بشىء بدأتُه وبدانى
كان وَفْقا ما كان مـه ومنّى * فكأنى حَكَيتُه وحَكانى
خَطَرات الحمون منّا سـواءٌ * وسـواء تحـرلُه الأبدان

ومن قوله :

فَدَيتُ من قال لى على خَفَـره * وعَضّ من جسمه على حَوَره
سمّع بأشعارك المليحَ فمـا * يَفُـكُّ شَـاد بها على وَتَره
حسبك بعضُ الدى أذعتَ ولا * حَسْبُ لِصَصٍّ لم يَقْصِ من وَطَره
وقلتُ يا مستعيرَ سالفـة الـ * ـحِشْفِ وحُسْنِ الفُتور من نَظَره
لا تنكِرَنّ الحبيبَ من طَرَب * عَاوَد فيـك الصِّبا على كِبره

ومن قوله :

سائل بطيفك عن لَيْلِى وعن سهرى * وعن تتـابع أنفاسى وعن فِكَرى
لم يَخْـلُ قلبَى من ذكراك إذ نطرت * عينى اليـك على صَحْوى ولا سكرى
سَقْيًا ليـوم سرورى إذ تُنَـازعنى * صفوَ المُدامة بين الأنس والخَفَر

وفضلُ كأسك يأتيني فأشربه * جَهْرا وتشرب كأسي غير مُستتر
وكيف أشمله لمّا وألزمه * نحرى وترفعه كفّى الى بصرى
فليت مُدّة يومى إذ مضى سلفا * كانت ومدّة أيامى على قَدَر
حتى اذا ما أنطوت عنّا بشاشته * صِرنا جميعا كذا حارَيْن فى الحُفَر

ومن قوله لهوًى كان له :

تَعَزَّ بيأس عن هواىَ فإننى * اذا انصرفت نفسى مهيهات عن رَدّى
إذا خُنتُمُ بالغيب ودّى فمالكم * تُدلّون إدلال المقيم على العهد
ولى منك يد فاجتنى مَدَمًّا * وان حِلتَ أنى ليس لى منك مِنْ بدّ

لما ولى الواثق الخلافه أنشده حبش :

أكاتم وجدى فما يَكتمْ * بمن لو شكوتُ اليه رَحِمْ
وإنى على حسن ظنّى به * لأَحْذَر إن بُحتُ أن يحتشم
ولى عهد لحظته رَوْعه * تحقق ما ظنّه المتّهم
وقد علم الناس أنّى له * محبّ وأحسبه قد علم
وإنى لمُغْصٍ على لوعة * من الشوق فى كدى تَضْطَرم
عَشيّة ودّعت عن مقلة * سَفُوح وزفرة قلبٍ سَدِم
فما كان عند الهوى مُسْعِد * سوى العين تمزج دمعًا بِدَم
سيذكر من بان أوطانَه * ويبكى المقيمين من لم يُقِم

كتب إلى الحسن بن رجاء فى يوم شَك، وقد أمر الواثق بالإفطار، فقال

هَنّزْتُك للصّبوح وقد نهانى * أميرُ المؤمنين عن الصّيام
وعدى من قِيان المصر عَشْرٌ * تَطيب بهنّ عاتقة المدام
ومن أمثالهن اذا أنتشينا * تراءا بجتنى ثَمَر العرام
فكن أنتَ الجواب فليس شىء * أحبّ إلىّ من حَذْف الكلام

فوردت رقعته، وقد سبقه إليه محمد بن الحارث بن بُسْخُتَر ووجّه اليه بغلامٍ نظيف الوجه ومعـه ثلاثة غِلمة أقران حِسان الوجه. ومعهم رُقعة كتبها كما تكتب المناشير، وختمها فى أسفلها وكتب فيها يقول :

سِرْ على آسم الله يا أشـ * ـكل من عصِ بِلَحَيْنِ
فى ثلاثٍ من بَنى الرو * م إلى دار حسينِ
أَشْخِص الكهل الى مو * لاك يا قُـرّه عينى
أَرِه العُنْف اذا آستعـ * ـصى وطالِبـه بدَيْنِ
ودَع اللفـظ وخاطبـ * ـه بغمز الحاجبَيْنِ
واحذر الرَّجعة من وجـ * ـهك فى خُفَّىْ حُنَيْنِ

فمضى معهم .

ومن قوله لمن اعرض عنه :

تَنبّـه عليا أَنْ رُزِقْتَ ملاحةً * فمهلًا عليا بعضَ تيهك يا بَدرُ
لقد طال ما كنّا مِلاحا ورُبّمـا * صـدَدنا وتهنا ثم غيّرنا الدهرُ

وله فى هوى حُجِب عنه :

ظَنّ من لا كان ظنّ * ـا بحـبيبى فحَمَاه
أَرْصَـد البابَ رقيبـ * ـن له فاكْتَنَفاه
فإذا ما آشـتاق قربى * ولقـائى منَـعَـاه
جعـل اللهُ رقيبيـ * ـه من السُّوء فـداه
والذى أفرح فى الشـا * دن قلبى ولَواه
كلُّ مشتاق اليـه * فمن السُّـوء فِـداه
سيّما من حالت الأحـ * ـراس من دون مُنـاه

أمره المتوكل بأن ينادمه ويلازمه، فلم يطق ذلك لكبر سنه، فقال للمتوكّل بعض من حضر عنده: هو يُطيق الذهاب الى القُرى والمواحير والسكر فيها ويعجز عن خدمتك؛ فبلّغه ذلك، فدفع الى أحمد بن حَمْدون أبياتا قالها وسأله إيصالها، فأوصلها الى المتوكّل، وهي:

أما فى ثمانين وُفِّيتُهَا * عديرٌ وإن أنا لم اعْتَذِرْ
فكيف وقد جزتُهَا صاعدا * مع الصاعدين بتِسْعٍ أُخَرْ
وقد رفع الله أقلامه * عن ابن ثمانين دون البشر
سوى من أصَرّ على فتنة * وألْحَد فى دينه أو كفر
وإنى لمن أُسَراء الإلـ * ـه فى الأرض نصْبَ صُروف القَدَر
فإن يَقْضِ لى عملا صالحا * أثاب وإن يقضِ شرًّا غفر
فلا تَلْحَ فى كبرٍ هَدّنى * فلا ذنب لى أن بلغت الكبر
هو الشيب حَلّ بعَقْب الشباب * فمن ذا يلوم اذا ما عذر
وإنى لَقِى كَنَفٍ مُغْدِقٍ * وعِزٍّ بنصرِ أبى المُنْتَصِر
يُبارى الرياح بفضل السما * ح حتى تَبَلّد أو تَحْسِر
له أكّد الوحىُ ميراثَه * ومن ذا يخالف وحى السُّوَر
وما للحسود وأشباهه * ومن كذّب الحقّ إلا الحجر

فلما أوصلها شيّعها بكلام يعذره وقال: لو أطاق خدمة أمير المؤمنين لكان أسعد بها، فقال المتوكل: صدقت، وأمر له بعشرين ألف درهم.

٥ — محمد بن عبد الملك الزَّيَّات (١)

كان محمد شاعرا مُجيدا لا يُقاس به أحد من الكتّاب ، وإن كان إبراهيم بن العباس مثله فى ذلك ، فإن إبراهيم مُقِلّ وصاحب قِصار ومقطّعات . وكان محمد شاعرا يُطيل فيُجيد ، ويأتى بالقِصار فيجيد ، وكان بليغا حسن اللفظ اذا تكلّم واذا كتب .

ولما تولى محمد الوزارة اشترط ألا يلبس القَبَاء ، وأن يلبس الدُّرّاعة ويتقلّد عليها سيفا بحمائل ، فأُجيب الى ذلك .

وكان يقول : الرحمةُ خَوَرٌ فى الطبيعة ، وضَعْف فى المُنّة ، ما رحِمتُ شيئا قط ؛ فكانوا يطعنون عليه فى دينه بهذا القول ، فلما وُصِم فى الثّقل والحديد قال : ارحمونى ، فقالوا له : وهل رحمت شيئا قط فنَرحم ؟ هذه شهادتك على نفسك وحُكمك عليها .

لما ماتت أمّ ابنه عمرو رثاها بقصيدة منها :

يقول لى الخِلّان لو زُرْتَ قبرَها * فقلتُ وهل عبر الفؤاد لها قبرُ
على حين لم أحدُث فأحمل قبرها * ولم أُلْمِ السِّنّ التى معها الصبر

ومن شعره قوله :

ما أعجب الشيءَ ترجوه فتُحرَمه * قد كنتُ أحسب أنى قد ملأت يدى
مالى اذا عِبتُ لم أُذكَر بصالحه * وإن مَرِضتُ فطال السُّقمُ لم أُعَد

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة واشتهر بابن الزيات لأن جده (أبان) كان يجلب الزيت من مواضعه الى بغداد ، وكان أديبا شاعرا عالما بالنحو واللغة ، وله ديوان شعر ومجموعة رسائل جيدة ، وكان فى أول أمره من جملة الكتّاب ثم صار وزيرا للمعتصم ولابنه الواثق . ولما تولى المتوكل قبض عليه وأمر بادخاله فى تنور من حديد كان ابن الزيات أعدّه لتعذيب المصادرين وأرباب الدواوين المطالبين بالاموال وقيده بخمسة عشر رطلا من حديد ، ثم أمر باخراجه بعد أن مكث فيه أربعين يوما ، فوجدوه ميتا وذلك سنة ٢٣٣ هـ . وبمجد ترجمته فى الأغانى (ح ٢٠ ص ٤٦) وابن خلكان (ح ٢ ص ٧٨) .

ومن شعره قوله :

ألم تعجب لمكتئبٍ حزينٍ * خدين صبابةٍ وحليف صبرِ
يقول اذا سألت به بخبير * وكيف يكون مهجورٌ بخيرِ

وكان لمحمد بن زبيدة أشهب لم ير مثله فراهة وحسنا، فسعى به محمد بن خالد الى المعتصم ووصف له فراهته، فبعث اليه المعتصم فأخذه منه، فقال محمد بن عبد الملك يرثيه :

كيف العزاءُ وقد مضى اسبيله * عنا فودّعنا الأغرّ الأشهبُ
دبّ الوُشاةُ فأبعدوك وربما * بَعُد الفتى وهو الأحبّ الأقرب
لله يومَ بأت عنّي طاعنا * وسُلبتُ قربك أيّ عِلْق أسْلَب
نفسٌ مفرّقةٌ أقام فريقُها * ومضى لطيّته فريقٌ يُجْنَب
فالآن اذ كملت أداتك كلّها * ودعا العيونَ اليك لونٌ مُعْجب
وآختير من سرّ الحدائد خيرُها * لك خالصا ومن الحليّ الأعرب
وعدوتَ طمّاح اللجام كأنما * في كلّ عُضو منك ضَبْح يضرب
وكأن سَرْجك إذ علاك عمامةٌ * وكأنما تحت العمامة كوكب
ورأى عليّ بك الصديقُ حلالةً * وعدا العدوّ وصدرُه يتلهّب
أنساك لا زالت اذا ميتته * نفسي ولا زالت يميني تنكب
أصمرتُ منك اليأس حين رأيتني * وقوى حبالي من قُواك تقضّب
ورجعتُ حين رجعت منك بحسرة * لله ما فعل الأغرّ الأشهب

ولما وثب إبراهيم بن المهديّ على الخلافة أقرض من مياسير التجّار مالا، فأخذ من عبد الملك أبي محمد عشرة آلاف درهم وقال له : أنا أردّها اذا جاءني مال، ولم يتمّ أمره فاستخفى ثم ظهر ورضي عنه المأمون، فطالبه الناس بأموالهم، فقال : إنما أخذتها للمسلمين وأردت قضاءها من فَيْئهم، والأمرُ الآن الى غيري، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة خاطب فيها المأمون ومضى الى إبراهيم بن المهدي فأقرأه إياها وقال : والله لئن لم تعطني

المال الذى اقترضته من أبى لأوصلنّ هذه القصيدة الى المأمون، فخاف أن يقرأها المأمون فيتدبّر ما قاله، فيُوقع به، فقال له حد من بعض المال ونحّم علىّ بعصه، ففعل؛ والقصيدة قوله :

ألم تَرَ أنّ الشيءَ للشيءِ عِلّةٌ * تكون له كالنار تُقدَح بالزَّنْدِ
كذلك جَرَّبت الأمور وإنما * يدُلُّك ما قد كان قَبْلُ على البَعْدِ
وطَنّى ما راهيم أنّ مكانه * سَيَبْعَث يوما مِثْلَ أيامه النُّكْدِ
رأت حُسَيبا حين صارَ محمدٌ * بغير أمانٍ فى يَدَيْه ولا عَقْدِ
فلو كان أمضى السيفَ فيه بصربة * فصيّره بالقاع مُنْعفِرَ الخَدِّ
اذا لم تكن للمُنْدِ فيه بقيّةٌ * فقد كان ما بُلِّغْتُ من خبر الجدِ
هُمُ قتلوه بعد أن قتلوا له * ثلاثين ألفا من كُهُول ومن مُرْدِ
وما نصروه عن يدٍ سَلفت له * ولا قتلوه يوم ذلك عن حِقدِ
ولكنّه الغَدْر الصُّراحُ وهِفْقة الـ * ـحلوم وبُعد الرأى عن سُنَن القَصْدِ
فذلك يومٌ كان للناس عِبرةٌ * سيبقى بقاءَ الوَحْى فى المحر الصَّلدِ
وما يوم إبراهيم إن طال عمرُه * بأبعَد فى المكروه من يومه عندى
بذكر أميرَ المؤمنين مَقامَه * وأيْمانه فى الهزل منه وفى الجِدِّ
أما والذى أمسيتَ عبدًا حليفةً * له شرّ إيمان الخليفة والعبدِ
اذا هزّ أعوادَ المنابر ناسْتِه * تَغَنَّى بليلَى أو بِمَيّةَ أو هِندِ
فوالله ما من تَوْبةٍ نزَعتْ به * اليك ولا مَيْلٍ اليك ولا وُدِّ
ولكنّ إخلاصَ الضمير مقرِّبٌ * إلى الله زُلْفى لا تَبِيدُ ولا تُكْدِى
أتاك بها كَرْها اليك بأنفِه * على رَغْمه واستأثر الله بالحمدِ
فلا تتركَنْ للناس موضعَ شُبْهة * فإنك مجزِىّ بحَسْب الذى تُسْدِى
فقد غلطوا للناس فى نَصْب مِثْله * ومن ليس للمنصور بابن ولا المهدى

فكيف بمن قد بايع الناسُ وٱلتقت ... بيعته الرُّكبان عَوْرا الى نَجدِ
ومن سَكَّ تسليمُ الخلافه سمعَه ... يُبادَى به بين السِّماطين من بُعدِ
واىّ امرئ سَمَّى بها قط نفسَه * فعارقها حتى يُغيَّب فى اللَّحدِ
وتزعُم هَدِى اللَّهِيتَة أنه * إمام لها فيما تُسِرّ وما تُبدى
يقولون سُنّى وأبَّهُ سُنّه ... تَنِمُّ بصَعْل الرأس حَوْلِ القَفا جَعْدِ
وقد حملوا رُحْص الطعام بعهده ... رعيما له بالبُس والكوكب السَّعدِ
اذا ما رأوْا يوما عَلاءً رأيتَهم * يَحُون تَحْانا الى دلك العهدِ
وإقبالُه فى العيد يُوحِفُ حَوْله * وَحِيفَ الحيادواصطكاك القَنا الجُرْدِ
ورَحّالهُ يمشون بالبيض قَمْلَه ... وقد تبعوه بالقصيب وبالبُرْدِ
فإن قلتَ قد رام الخلافة قَبْلَه * فلم يُؤْتَ فيما كان حاول من جِدِّ
فلم أجْرِه إذ خيَّبَ الله سَعْيه * على خطأ إذ كان منه على عَمْدِ
ولم أرْصَ بعدُ العفو حتىّ رعتُه ... وللحِلْم أولى بالتغَمُّد والرِّفدِ
فليس سَواءً حارحِىٌّ رَمَى به * اليك سَفاه الراى والرأى قد يُرْدى
تَعادَتْ له من كل أوْب عصابة ... متى يُوردوا لا يُصدروه عن الوِرْدِ
ومن هو فى بيت الخلافة تَلْتَقى ... به وبك الآباء فى ذِرْوة المجدِ
فمولاك مولاهُ وجَدُّكَ جَدُّه * وهل يَجمع القَيْنُ الحُساسَ فى عِمْدِ
وقد رابنى من أهل بيتك أنى * رأيتُ لهم وَحْدا به أيَّما وَجْدِ
يقولون لا تَبْعَد من آبِ مُلمّةٍ * صبورٍ على اللأواء دى مرّة جَلْدِ
فَدانا وهانت نفسُه دون مُلْكنا * عليه لدى الحال التى قلّ مَنْ يَفدى
على حينِ أعطَى الناسُ صَفْقَ أكفهم * علىّ بن موسى بالولاية والعَهْدِ
فما كان فيما بين أنى الصميمَ عيرُه * كريمٌ كَفَى ما فى القَسول وفى الرَّدِّ
وجرّد إبراهيم للموت نفسَه * وأبدى سلاحا فوق ذى مَيْعة نَهْدِ

وأبى ومن يبلُغ من الأمر جَهْدَه فليس بمدموم وإن كان لم يُحْـمِدِ
فهذى أمور قد يَخاف ذوو النُّهى * مَغَبّتها والله يَهـديك للرشـدِ

وكانت الخلافة فى أيام الواثق تدور على إيتاخ وكاتبه سليمان بن وهب، وعلى أَشناس وكاتبه أحمد بن الخَصيب، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة وأوصلها الى الواثق على أنها لبعض أهل العسكر، وهى :

يابن الخلائف والأملاك إن نُسِبوا * حُرْت الخـلافةَ عن آبائك الأُوَل
أَجُرْت أم رقدت عيناك عن عَجَب * فيـه البريّة من خوف ومن وَهَل
ولّيتَ أربعـةً أمرَ العباد معـا * وكلُّهم حاطِبٌ فى حبل مُحْتبِـل
هـــذا سليمانُ قد ملّكت راحتَه * مشارقَ الأرض من سَهْل ومن جبل
ملّكته السِّد فالشِّحْرين من عَدَن * الى الجزيرة فالأطراف من مَلَل
خلافةٌ قد حواها وحده قَصَتْ * أحكامُه فى دماء القوم والنُّفَـل
وابن الخصيب الذى ملّكت راحته * خلافةَ الشأم والعازين والقفـل
فيلُ مِصرَ فبحرُ الشأم قـد جَرَيَا * بما أرادُ من الاموال والحُلَل
كأنهـم فى الدى قَسَّمتَ بينهـم * بَنُو الرشـــيد زمانَ القَسْم للدُّوَل
حَوَى سليمانُ ما كان الأمينُ حوى * من الخلافة والتبليغ للأمـل
وأحمـــدُ بن خصيب فى إمارته * كالقاسم بن الرشيد الجَامع السُّبل
أصبحتَ لا ناصحٌ يأتيك مستَتِرا * ولا علانيـــةً حوفا من الحِيَـل
سل بيتَ مالك أين المـال تعرفه * وسل خَراحك عن أموالك الجُمَل
كم فى حُبُوسك ممن لا ذنوب لهم * أسْرَى التَّكذّب فى الأقياد والكُبَل
سُمِّيت باسم الرشيد المُرتضى فيـه * تُسْمى الأمور التى تُحْمى من الزَّلَل
عِشْ فيهم مثل ما عاشت يداه معا * على البرامك بالتهـديم للقُـلَل

فلما قرأ الواثق هـذا الشعر غاظَه، ونكب سليمانَ بن وهب وأحمـد بن الخصيب، وأخذ منهما ومن أسبابهما ألفى ألف دينار فجعلها فى بيت المـال .

٦ — ابنُ البَـوَّاب[1]

لما أُتِي المأمونُ بشعر ابن البوّاب الذى يقول فيه :

أيبخَل فَرْدُ الحسنِ فَرْدُ صِفَاته * علىّ وقـد أفردتُه بهوًى فَرْدِ
رأى اللهُ عبدَ الله خيرَ عبـاده * فملّكه واللهُ أعلم بالعبـد
ألا إنما المأمون للناس عِصمة * مميِّزة بين الضّلالة والرّشد

فقال المأمون : أليس هو القائل :

أعَيْنىّ جُودَا وابْكِيا لِى محمـدا * ولا تَدْخَرا دمعا عليه وأَسْعِدا
فلا فرِح المأمون بالمُلك بعـده * ولا زال فى الدنيا شريدا مُطَرَّدا

واجدة بواحدة، ولم يَصِلْه بشىء . ولما سخط عليه قال قصيدة يمدحه بها، ودسّ مَنْ عَنّاه فى بعضها لما وجد منه نشاطا، فسأل: مَنْ قائلُها، فأُخبر به، فرضى عنه وردّه إلى رسمه من الخدمة، وهى :

هـل للحبِّ مُعِينُ * إذ شَطّ عنـه القرينُ
فليس يبكى لشجو الـ * ـحزينِ إلّا الحزينُ
يا طاعِما عاب عنا * عداهُ بانَ القَطِينُ
أبْكَى العيونَ وكانت * به تَقَـرّ العيون
يا أيها المأمون الـ * ـمباركُ الميمونُ
لقد صَفَتْ بك دنيا * للمسلمين ودين
عليك نورُ جلال * ونور مُلْك مُبين

(١) هو عبد الله بن عتاب من أهل بخارى، وحى بجلده وجماعة معه رهينة الى الحجاج بن يوسف، فمرلوا عنده بواسط، فأقطعهم سكة بها، فاحتفروها ونزلوها طول أيام بنى أمية، ثم انقطعوا من الدولة العباسية الى الربيع لخدموه، وكان عبدالله بن محمد هذا يخلف الفضلَ بن الربيع على حجبة الخلفاء، وكان صالح الشعر قليله ورواية لاخبار الخلفاء عالما بأمورهم .

القولُ منك فَعَال * والظن منك يقين
ما من يديكَ شِمال * كلتا يديك يمين
كأنما أنت فى الجو * د والتقى هارون
مَنْ نال من كل فضل * ما نالَه المأمون
تألّف الناسَ منه * فضلٌ وجود ولين
كالبدر يبدو عليه * سكينةٌ وسكون
فالرزق من راحتيه * مقسّم مضمون
وكل خَصْلة فضل * كانت فمنه تكون

ومما يغنّى فيه قوله :

أَفِقْ أيها القلب المعذّب كم تَصْبو؟ * فلا النأى عن سَلْماك يُسلى ولا القربُ
أقول عَذَاةَ استخبرتْ مِمَّ علّتى ؟ * من الحب كربٌ ليس يُشبهه كرب
اذا أبصرتْك العينُ من بُعْد غاية * فأدخلت شكا فيك أثقبَ القلب
ولو أن رَكْبا يَمّمُوك لَقادهم * نسيمُك حتى يَستدلّ بك الركب

أملق ابن الوداع حين حَفَاه الخليفة وعلّت سِنّه عن الخدمة، فرحَل الى أبى دُلَف القاسم بن عيسى ومدحه بقصيدة، فوهب له ثلاثين ألف درهم وعاد بها الى بغداد، فما نعمت حتى مات؛ وهى قوله :

طرَقَتْك صائدةُ القلوب رَبابُ * ونأَتْ فليس لها اليك مآب
وتصرّمتْ منها العهود وغُلّقتْ * من دون نَيل طِلابها الأبواب
فلأصْدِقنّ عن الهوى وطِلابه * فالحبّ فيه بَلِيّة وعذاب
وأخصُّ بالمدح المهذّب سَيّدا * نَفَحاتُه للمُجْتدين رِغاب
والى أبى دُلَف رحلتُ مطيّتى * قد شَفّها الإرقال(١) والإتعاب

(١) الارقال : ضرب من الخبب .

تعـــلو بنا قُلَلَ الجبال ودونهـا * مما هَـوَتْ أهْـويّة وشِعَاب
فاذا حللتُ لدى الأمير بأرضـــه * نلتُ المـنى وتقضّتِ الآراتُ
مَلِكٌ تأثّل عن أبيه وجـده * مَجْـدًا يقصّر دونه الطُّـلّاب
وإذا وزَنْت قديمَ ذى حَسَبٍ به * خَضَعتْ لفضل قديمه الأحساب
قـوم عَلَوْا أملاكَ كلّ قبيلة * فالنـاسُ كلّهـم له أذناب
صَربتْ عليـه المكرماتُ قِبابها * فعـلا العمودُ وطالت الأطناب
عَقِم النسـاءُ بمثـله وتعطّلت * من أن تُضَمّن مثلَه الأصـلابُ

٧ – الخُـرَيْمِيّ[1]

كان متّصلا بمحمد بن منصور بن زِيَاد كاتب البرامكة، وله فيه مدائحُ جِيَاد، ثم رثاه بعد موته، فقيل له : يا أبا يعقوب، مدائحك لآل منصور بن زياد أحسن من مراثيك وأجود؛ فقال : كنّا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد .

وهو القائل فى عينيه :

أُصْغِي الى قائدى ليُخبرنى * إذا ٱلتقيا عمّن يُحيّينى
أريد أن أعْدِل السلام وأن * أَفْصِل بين الشريف والدُّون
أسمع ما لا أرى فأَكْرَهُ أن * أخطئ والسمعُ غير مأمون
لله عينى التى خُدِعتُ بها * لو أن دهرا بها يُوانينى
لو كنتُ حُيّرت ما أحدثتُ بها * تَعْمِيرَ نوح فى مُلك قارون
حقّ أخِلّائى أن يَعُودُونى * وأن يُعزّوا عنّى ويكونى

وهو القائل :

اذا ما مات بعضُك فابكِ بعضًا * فإن البعض عن بعض قريبُ
يُمنّيني الطبيبُ شفاء عينى * وهل غير الإله لها طبيب

---

(١) هو إسحاق بن حسان ويكنى أبا يعقوب، من النحم، وهو القائل :

يا من أمرّ من سراة الصعد أنسى * عرق الأعاجم حلدا طيب الحمر

وكان مولى أبى حريم الذى يقال لأبيه : حريم الناعم . وهو حريم بن عمرو من بنى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان . وعنى أبو يعقوب الخريمى بعد ما أسنّ، وكان يقول فى ذلك شعرا، منه قوله :

إن تك عينى حبا نورها * فكم قتلها نور عينى حما
لم يعم قلبى ولكنما * أرى بنور عينى إليه سرى
فأسرج فيه إلى نوره * سراجا من العلم يشفى العمى

وقال يذكر بغداد والفتنة التى كانت بها :

قالوا ولم يَلْعبِ الزمانُ ببغ * ـداد وتَعْثُرْ بها عـواثِرُها
إذ هى مثلُ العروس بادِيُها * مُهَوَّل للفتى وحاضِرها
جَنَّةُ دنيا ودارُ مَغْبَطَة * قَلّ من النائبات واثِرُها(١)
دَرَت حُلوفُ الدنيٰا لساكنها * وقَلّ معسورُها وعاسِرُها
وٱبهرجَتْ بالنعيم وٱنْتَجعت * فيها بلذّاتها حواضِرها
فالقومُ منها فى روضة أُنُف * أشرق عِبّ القِطار زاهِرها
من عَرّه العيش فى مُلَهْنِية * لو أن دنيا يدوم عامِرها
دارُ ملوك رَسَت قواعدها * فيها وقرّت بها مبارِرها
أهلُ العلا والثّرى وأندية الـ * ـفخر إذا عُدّدَتْ مفاخرها
أفراحُ نُعْمَى فى إرث مملكة * شَدّ عُراها لها أكابرها
فلم يزل والزمانُ دو غِيَر * يَقدَح فى مُلكها أصاغرها
حتى نَساقَتْ كأسا مُمَلّله * من فتنة لا يُقال عاثِرها
وٱفترقَتْ بعد أُلفة شِيَعًا * مقطوعةً بينَها أواصِرها
ياهَلْ رأيتَ الأملاكَ ما صَنَعَت * إذ لم يَزَعها بالنصح زاجِرها
أورد أملاكُها سوسَهمُ * هُوَةَ عَىّ أعْيَت مصادِرها
ما صَبّرها لو وَفَتْ بمَوْثِقها * وٱستحكمتْ فى التُّقى بصائرها
ولَمْ تُسافِك دماءَ شِيعتها * وتَتبِعل فتيةً تُكارِرها
وأقعَدَتْها الدنيا التى جُمِعت * لها ورَعْبُ النفوس صائِرها
مازال حَوْضُ الأملاك [... ...] * مسجورها بالهوى وساجِرُها
تُبْقى فُصولَ الدنيا مُكاثِرَةً * حتى أُبيحت كَرْها دحائرها

(١) مرعها وداعرها .

تبيـــع ما جَمَّـــع الأثَرَة لله * أبنـاء لا أربَحت مَتـاجرهـا
يا هل رأيتَ الحِمـار راهرةً * يروق عينَ البصير زاهرها
وهـل رأيت القصـــورَ شارعه * تُكِنّ مثل الدُّمَى مَقـاصرها
وهل رأيتَ القُرى التى عَرَس الـ * ـأملاكُ مُحْضَـــرَةً دَسَاكِرُها
محفـوفةً بالكروم والنّـخلِ والـ * ـتَرْيحان قد دَمِيت محاجرها (١)
فإنهـا أصبَحت حلايا من الـ * ـإدسان قد دَمِيت مَحاجرها (١)
قَفْرًا خلاء تَعْوِى الكلابُ بهـا * يُبكر منهـا الرســومَ دائِرها
وأصبـح الـؤسُ ما يفارقهـا * إلْفًا لهـا والســرورُ هاجرها
بَزَنْدَوَرْد والياسِريّة والـ * ـشَّـطّيْن حيث انتهت معـابرها
وبالرحى والخَـيْرُرانية الـ * ـعُليا التى أشـــرفت قناطرها
وقَصْر عَبْـــدويه عِبرةٌ وهُدًى * لكل نفس زكَت سرائرها
فأين حرّاســها وحارسُهـا * وأين جَبـــورها وحابرها
وأين خِصيانُها وحشـوتها * وأين ســكّانها وعامرها
أين الحَـــراديّة الصّقالبُ والـ * ـأحْبُش تعـدو هُـدْلا مَشافرها
يَنصـدِع الجمـدُ عن مواكبها * تعـدو بهـا سُرّبًا ضـوامرها
بالسّد والهـد والصّقالب والـ * ـسوبةِ شِيبت بهـا بَرابرهـا
طيرًا أبابيـــل أرسلَت عبثـا * يقـــدُم سُـــودانَها أحامرها
أين الظباء الأنكار فى روضة الـ * ـمُلك تَهـادى بهـا عَرائرها
أين عَصارانها ولذّتهـا * وأين مَجبـــورُها وحابرها
بالمسـك والعنبر اليمانىّ والـ * ـيلنجوج مشـــبوبَةً مجامرها
يرفُلن فى الخَـزّ والمجاسـد والـ * ـمَوْشِىّ مخطـــومةً مَزامرها

(١) كذا فى الطبرى فى حوادث سنة ١٩٧ هـ ، طبع بلاق وطبع أوربا .

فاين رقاصها وزامرها * يُجبن حيث أنتهت حاجرها
تكاد أسماعُهم تُسَلّ اذا * عارض عيدانَها مَزاهرها
أمست بكوف الحمار حاليةً * يسعَرها بالجحيم ساعرها
كأنما أصبحتْ بساحتهم * عادٌ ومسّتهم صَراصرها
لا تعلم النفسُ ما يُباتِها * من حادث الدهر أو يُباكرها
تُضحى وتمسى دَرِيّةً غرَصا * حيث آستقرّت بها شَراشرها
لأسهم الدهر وهو يرشُقها * مُخْبِطُها مرة وباقِرها
يابؤسَ بغداد دارِ مملكةٍ * دارت على أهلها دوائرها
أمهلها اللهُ ثم عاقبَها * لما أحاطتْ بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق و بال * حرب التى أصبحت تُسَاورها
كم قد رأينا من المعاصى بها * كالعاهر السوء ... ...
حلّت ببغداد وهى آمنة * داهيةٌ لم تكن تُحاذِرها
طالَعها السوءُ من مطالعه * وأدركت أهلَها جرائرها
رقّ بها الدين وآستُخِفّ بذى الـ * ـفصل وعزّ النُّسّاك فاجِرها
وخَطّم العبدُ أنفَ سيّده * بالزغم وآستعبدتْ مخادرها
وصار ربّ الجيران فاسقُهم * وآبترّ أمر الدروب داعِرها
من ير بغدادَ والجنودُ بها * قد رَبّقتْ حولها عساكرها
كلّ طَحُونٍ شهباء باسلةٍ * تُسقِط أحبالها زَماجِرها
تُلقى بَنِيّ الردى أوانِسَها * يُرهقها للقاء طاهرها
والشيخُ يعدو حَزْما كتائبُه * يُقدِم أعجازَها يعاورها
ولزُهَيْر بالقول مأسَدة * مرقومة صُلبةٌ مكاسرها
كتائبُ الموت تحت ألويَةٍ * أبرَح منصورُها وناصرها

يعلم أن الأقدارَ واقعةٌ * وقعا على ما أحَبّ قادرها
فتلك بغدادُ ما بَيِنَّ من الـ * ـذّلّة فى دُورها عصافرها
محمومةً بالردى مطَّقةً بالصقر محصورةً جبابرها
وبين شَطّ الفُرات منه الى * دِجلة حيث انتهت مَعابرها
كهادِى السُّمراء نافِرُه * تركُضُ من حولها أشاقِرها
يُحرقها دا وذاك يَهدمها * ويَشتهى بالنِّهاب شاطرها
والكَرْخُ أسواقُها معطّلة * يَستَنّ عَيّارها وعائرها
أحرجتِ الحربُ من سواقِطها * آسادَ غِيلٍ عُلْبا تُساورها
من البَوارى تَرَاسُها ومن الـ * ـحُوص اذا استلأمتْ مَغافرها
تغدو الى الحربِ فى جواشِنها الـ * ـصّوف اذا ما عَدَت أساورها
كتائبُ الهِرْش تحت رايته * سَاعَد طَرّارَها مُقامرها
لا الرّزق تسنى ولا العطاءُ ولا * يحشُرها للقاء حاشرها
فى كل دَرْب وكل ناحيةٍ * خَطّارة يَستهِلّ خاطرها
بمثل هام الرجال من فَلَق الـ * ـصخر يَزود المقلاعَ بائرها
كأنما فوق هامها عِدَف * من القطا الكُدْر هاج نافِرها
والقومُ من تحتها لهم زَحَل * وهى تَرامَى بها خواطرها
بل هل رأيتَ السيوفَ مُصْلتة * أشهَرَها فى الأسواق شاهرها
والحيلَ تستَنّ فى أزِقّتها * بالتُّرك مسنونة خناجرها
والنّفط والنار فى طرائقها * وهابِيًا للدخان عامرها
والنّهب تعدو به الرجالُ وقد * أبدت خلاخيلَها حَرائرها
مُعْصَوْصِبات وسط الأزِقّة قد * أبرزها للعيون ساترها
كلُّ رَقُود الضّحى نَخِبَأةٌ * لم تَبْدُ فى أهلها محاجرها

بَيْضَةِ حِدْر مكونة برزَتْ * للناس منشورةً غدائرها
تعثُر فى ثوبها وتُعجلها * كَعْبَةُ خيل زِيَعت حوافرها
تسأل أين الطّريق والهةً * والبار من حلفها تبادرها
لم تجتل الشمسُ حسنَ بهجتها * حتى أجتلها حَرْب تُباشرها
ياهْل رأيت الثّكلى مُوَلوِلَةً * فى الطُّرق تسعى والجَهْد باهرها
فى إثْر نعش عليه واحدها * فى صدره طعنة يُساورها
فرعاء تُلْقِى النّثار من يدها (١) * يَهرّها بالسّان شاجرها
تنظُر فى وجهه وتهتِف بال * ثّكل وعِزّ الدموع حامرها
عَرْعر بالنّفس ثم أسلَمَها * مَطلولةً لا يُجاف ثائرها
وقد رأيتُ الفِتيان فى عَرْصَة ال * مَعْرك معفورةً مَناخِرها
كلّ فتى مّاعٌ حقيقتَه * تَشقَى به فى الوغى مساعرها
بانت عليه الكلاب تنهشُه * مخضوبةً من دمٍ أطافرها
أما رأيتَ الخيولَ جائلةً * بالقُوم منكوبةً دوائرها
تعثُر بالأوجه الحسان من ال * قَتْلَى وعُلّتْ دمًا أشاعرها
يَطأْنَ أكبادَ فتيةٍ نُجُدٍ * يَفلِق هَاماتهم حوافرها
أما رأيتَ النّساء تحت المجا * نيق تَعادَى شُعثًا ضفائرها
عقائلَ القوم والعجائزَ وال * عُنّس لم تُختبر مَعاصرها
يحملن قوتا من الطّحين على ال * أكتاف معصوبةً مَعاجرها
وذات عيشٍ صَنْك ومُقْعِسة * تَشدَخُها صَخْرةٌ تُعاورها
تسأل عن أهلها وقد سُلِبت * وأبْتُرّ عن رأسها غَفَائرها
يا ليت ما والدهر ذو دُوَلٍ * تُرجَى وأخرى تُخشى بوادرها

(١) كذا فى هامش النسخة الأوربية من الطبرى . وفى نسخة بولاق وأوربا (فى صلبها) :
* فرعاء يبقى الشبار مريدها * وهى رواية ظاهر عليها التحريف وفساد المعنى .

هل ترجعن أرضُـا كما غَنِيَت * وقد تناهَتْ بنا مَصايرها
مَنْ مُبلغٌ ذا الرياستين رسا * لاتٍ تأنّى للنّصح شاعِرها
بأبـ خير الوُلاة قد علم الـ * ـناسُ اذا عُدّدتْ مآثرها
خليفـةُ الله من بريّتـه الـ * ـمأمون سائسُها وجابرها
سَمَتْ اليـه آمال أمتـه * مـقادةً بَرّها وفاجـرها
شَامُوا حيا العـدل من مَخايله * وأمْحَـرت بالتّـقى بصائِرها
وأحْمَـدوا منك سِيرةً جَلَتِ الـ * ـشّك وأخرى صَحّت معاذرها
وآستحمعتْ طاعه برفقـك للـ * ـمأمون تحْـديها وعائرها
وأنت سَمْـع فى العالمين له * ومقـلَةٌ ما يَكِلّ ناظـرها
فاشكر لذى العرش فضلَ نعمته * أوجَبَ فصـلَ المزيد شاكِرها
وآحـذر فِداء لك الرعيّـةُ والـ * ـأجـادُ مأمـورُها وآمرها
لا تَرِدَنْ عَمـرةً بنفسك لا * يصـدرَ عنها بالرأى صـادِرَها
عليـك مَحْضاحَها فلا تَلِج الـ * ـغَمْرَ مُلْتَحّـةً زواخرها
والقصدَ إن الطريق دو شُعَبٍ * أشأمُها وَعْثُها وجَائرها
أصبحتَ فى أمّـة أوائلُها * قـد فارقت هَدْيَها أواخرها
وأنت سُرْسُـورُها وسائسها * فهـل على الحـقّ أنت قاسرها
أدِّبْ رجالا رأيتَ سِـيرتهم * حالف حكمَ الكتاب سائرها
وآمدُد الى الناس كف مرحمة * تَسَـعُ منهم بها مَفاقرها
أمكنك العـدلُ إذ هممتَ به * ووافقت مـدّه مقـادرها
وأبصر النـاسُ قصدَ وَجْهِهـمُ * ومَلَكت أمـةً أخايرها
تُشْرَع أعناقها اليـك اذا الـ * ـسّادات يـوما جَمّت عشائرها
كم عدنا من نصيحةٍ لك فى اللـ * ـه وقُـربى عزّت زوافرها

وحرمـــه قربت أواصـــرها * مك وأخرى هل أنتَ ذاكرها
سَعْىُ رجالٍ فى العـلم مطلبُهم * رائحُـــها باكر وباكرها
دونك غـــراءَ كالوَذيلة لا * تفقـــد فى بلدة ســـوائرها
لا طَمَعًا قلتُها ولا نَطَـرا * لكل نفس نفسٌ تُؤامرها
ســـيّرها الله بالصَّـــيحة والـ * حَشـــية فاستدمجتْ مرائرها
حاءتك تحكى لك الأمـور كما * يبشُر نَزّ التِّـــحار ماشـــرها
حملتُها صاحبا أحا ثِقَـــةٍ * يطـــلّ عُجْبًا بها يُحاصرها

ومن جيّد شعره قوله :

النـاسُ أخلاقُهم شـتّى وإن جُبِلوا * على تَشَـابُه أرواحٍ وأجســاد
للخير والشرّ أهلٌ وُكّلوا بهمـا * كلٌّ له من دواعى نفســـه هاد
منهـــم خليلُ صَـفاء ذو محافظـــةٍ * أرسى الوفاءُ أواخيـــه بأوتاد
ومُشْـــعَر الغـــدر مَخنىٌّ أضـالُعه * على سريره غَمْـــر غِلّها باد
مُشَاكِسٌ حَدِع جَـــمّ غوائلُه * يُدْنى الصفاءَ ويحمى صَربةَ الهادى
يأتيـك بالنغى فى أهل الصـفاء ولا * ينـفَكّ يســـعى بإصـلاح لإفساد

ومن جيّد شعر الخريمى قوله :

أُضاحِك صـيفى قـبل إنزال رَحْله * ويُحصب عـــدى والمحـل جَديب
وما الخصب للأضياف أن يكثُرالقرى * ولكنما وجه الكريم خَصيب

ومن جيّد شعره قوله :

زاد معـروفَك عنـدى عِظَمًا * أنّه عـــدك مَحقـــورٌ صـغير
وتناســـيه كأن لم تأته * وهو عـــد الناس مشهور كبير

وهو القائل :

وإن أشَدّ الناس فى الحَشْر حَسْرَةً * لَمُورِثُ مالٍ غيرَه وهو كاسِبه
كفى سَفَهًا بالكهل أن يتبَع الصِّبا * وأن يأتِىَ الأمرَ الذى هو عائبه

ويُستجاد له قوله :

ودون النّـدى فى كل قلب ثَنِيّـة * لهـا مَصْعَدٌ وعر ومُنْحَدر سَهْل
وَوَدّ الفتى فى كل نيـل يُنيله * اذا ما انتقصى لو أن نائله جَزْل
وأعلم علمـا ليس بالظنّ أنه * لكل أناس من ضَرائبهم شَـكْل
وأنّ أَخِلاءَ الزمان غَـاؤهـم * قليل اذا الإنسانُ زَلّت به النّعل
تزوّدْ من الدنيـا متاعًا لغيرها * فقـد شمّرتْ حَدّاء وانصرم الحبل
وهل أنتَ إلا هامَةُ اليوم أو غَدِ * لكل أناس من طوارقها النّكل

وفى هذا الشعر يقول :

أنا لصُّعْد بأسٌ إذ تعيّرنى جُمْـلُ * سَفاهًا ومن أحلاق حَارَتِى الجهل
فإن تمحرى يا جمـل أو تجمّلى * فلا فخرَ إلا فوقه الدّين والعقـل
أرى الناس شَرْعا فى الحياة ولا يُرى * لقـبر على قـبر عَلاء ولا فَضْـل
وما صَرّنى أنـ لم تلِدْنى يُحابِر * ولم تَشْتمل حَرْمٌ على ولا عُكْل

وهو القائل :

ما أحسنَ الغَـيْرةَ فى حينهـا * وأقـبحَ الغيرة فى كل حِين
من لم يزل متّهما عِرْسَـه * مُناصِبا فيهـا ريْب الظنون
أوشـك أن يُعْرِيَهـا الذى * يَخاف أن يُبرزها للعيون
حسـبك من تحصينها وَضْعُها * منك إلى عِرْص صحيح ودين
لا تطّلع مسـك على رِيبـةٍ * فيتبع المقرونُ حبـل القرين

٨ – عبد الله بن طاهر[1]

كان بمحلّ من علوّ المنزلة وعِظَم القَدْر ولُطْف مكان من الخلفاء، يُستغنَى به عن التقريظ له والدّلالة عليه، وأمرُه فى ذلك مشهورٌ عند الخاصّة والعامّة، وله فى الأدب مع ذلك المحلّ الذى لا يُدْفع، وفى السماحة والشجاعة ما لا يقاربُهُ فيه أحدٌ.

وكان أديبا طريفا جيّد العناء، نسب اليه صاحب الأغانى أصواتا كثيره أحسن فيها ونَقَلها أهلُ الصنعة عنه، وله شعر رائق ورسائل ظريفة، فمن شعره قوله :

نحن قومٌ تُلِيفُنا الحَدَقُ النُّجْـ * ـلُ على أنّنا نُلين الحديدا
طَوْعُ أيدى الظِّباء تقتادنا العِيـ * ـن ونقتاد بالطِّعان الأُسودا
نَمْلِك الصَّيد ثم نملكها البِيـ * ـضُ المصوناتُ أعْيُنًا وخدودا
نَتّقى سخطَ الأسود ونخشى * سَخَط الخِشْف حين يُبدى الصدودا
فترانا يوم الكريهة أحرا * را وفى السِّلْم للغوانى عبيدا

أعطاه المأمونُ مالَ مصر لسَنَة، خَراجَها وصِياعَها، فوهبه كلّه وفرّقه فى الناس ورجع صِفْرا من ذلك، فغاظَ المأمونَ فعلُه، فدخل اليه يوم مَقْدَمه، فأنشده أبياتا قالها فى هذا المعنى، وهى :

(١) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق كان سيدا نبيلا عالى الهمة شهما، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه، حسن الالتفات اليه لدالته ورعاية لحق والده وما أسلفه من الطاعة فى خدمته، وكان واليا على الديور فلما خرج مالك الخزرى على خراسان وأوقع الخوارج بأهل قرية الخراء من أعمال نيسابور وأكثروا فيها الفساد واتصل الخبر بالمأمون بعث الى عبد الله وهو بالديور يأمره بالخروج الى خراسان، فخرج اليها وحارب الخوارج وقدم بيسابور فى رجب سنة ٢١٥ هـ. وكان المطر قد انقطع عنها تلك السنة، فلما دخلها مطرت مطرا كثيرا، فقام اليه رجل برازٍ من حانوته وأنشده :

قد قحط الناس فى زمانهم * حتى لقد حثت حثت بالدرر
عيثان فى ساعة لنا قدما * فسرحا بالأمير والمطـــر

تولى الشام والعراق ومصر. وتوفى سنة ٢٣٠ هـ. وتجد ترجمته فى ابن خلكان (ح ١ ص ٣٦٩) والأغانى (ج ١١ ص ١١).

نَفْسِى فِداؤُكَ والأعناقُ حاضعةٌ * للنائبات أبيًّا غيرَ مُهْتَضَم
اليك أقلتُ من أرضٍ أقمتُ بها * حَوْلَين بعدَك فى شَوْقٍ وفى أَلَم
أَقْفُو مساعيَك اللائى خُصِصتَ بها * حَذْوَ الشِّراك على مِثْل من الأَدَم
فكان فَضْلِى فيها أنّى تَبَعٌ * لِمَا سَنَنْتَ من الإنعام والنِّعَم
ولو وُكِلْتُ الى نفسى عَنِيتُ بها * لكن بدأتَ فسلم أعجزْ ولم أُلَم

فضحك المأمون وقال : والله ما نَفِسْتُ عليك مَكْرُمة نلتَها ، ولا أُحْدُوثةً حَسُنَ عندك ذكرها ، ولكن هذا شيء اذا عَوَّدته نفسَك افتقرت ، ولم تقدر على لَمِّ شَعَثك وإصلاح حالك . وزال ما كان فى نفسه .

لمّا فتح عبدُ الله مصرَ سَوَّغه المأمونُ خَراجها ، فصَعِدَ المِنْبَرَ فلم يزل حتى أجازَ بها كلّها ثلاثة آلافِ ألفِ دينار أو نحوها ، فأتاه مُعَلًّى الطائى وقد أعلموه ما صنع بالنّاس فى الجوائز وكان عليه واحدا ، فوقف بين يديه تحت المنبر فقال : أصلح الله الأمير ، أنا معلًّى الطائى وقد بلغ منّى ما كان منك مرو جفاء وعِلَط ، فلا يَغْلُظَنَّ علىّ قلبُك ، ولا يستخفنّك الذى بلغك ، أنا الذى أقول :

يا أعظمَ الناسِ عفوًا عند مَقْدِرَةٍ * وأظلمَ الناسِ عندَ الجود للمال
لو أصبحَ السيلُ يَجْرِى ماؤه ذهبًا * لَمَا أشرتَ الى خَزْنٍ بمثقال
تُغْلِى بما فيه رِقّ الحمد تملكه * وليس شيءٌ أعاضَ الحمدَ بالغالى
تَفُكّ باليُسْرِ كَفَّ العُسْرِ من زَمَنٍ * اذا استطالَ على قومٍ بإقلال
لم تخلُ كفُّك من جُودٍ لمُخْتَبِطٍ * ومُرْهَفٍ قاتلٍ فى رأسِ قتّال
وما بَثَثْتَ رَعِيلَ الخيل فى بَلَدٍ * إلا عَصَفْنَ بأرزاقٍ وآجال
إن كنتُ منْك على ما مَنَنْتَ به * فإنّ شكرَك من قلبى على بال
ما زلتُ مُقْتَصَبًا لولا مجاهرةٌ * من ألسُنٍ خُضْنَ فى صَدْرى بأقوال

فضحك عبد الله وسُرَّ بما كان منه وقال : يا أبا السَّمْراء، أقْرِضْنِي عشرةَ آلافِ دينار مما أمسيتُ أملكها، فأقرضَه فدفعها اليه .

كان موسى بن حاقان مع عبد الله بن طاهر بمصر، وكان نديمَه وجليسَه، وكان له مُؤْثِرا مقدِّما، فأصاب منه معروفا كثيرا وأحازه بجوائز سنيّة هناك وقبل ذلك، ثم إنه وَجَد عليه فى بعض الأمر فحماه وظهر له منه بعض ما لم يحبّه، فرجع حينئذ الى بغداد وقال :

إنْ كان عبدُ الله خلّانا * لا مُبْدئا عُرْفا وإحسانا
فحَسْبُنا اللهُ رَضِينا به * ثم بعبد الله مَولانا

يعنى به المأمونَ، وغنّت فيه جاريته وسمعه المأمون، فاستحسنه ووصله وإياها، فبلغ ذلك عبدَ الله بن طاهر، فعاظه ذلك وقال : أَحَلْ! صنعنا المعروفَ الى غير أهله فضاع .

ولعبد الله ألحانٌ صاعها، فمنها ومن مختارها وصدورها ومقدّمها لحنه فى شعر أخت عاصية فإنه صوتٌ نادرٌ جيِّد صحيحُ العمل مُزْدَوج النغم ، بينَ لِينٍ وشِدَّةٍ على رسم الحُذّاق من القُدَماء، وهو :

هلّا سَقَيْتُمْ بنى سَهْم أَسِيرَكُمُ * نَفْسى فداؤك من ذى غُلَّة صادى
الطاعنُ الطعنةَ النجلاءَ يتبعها * مُصَرَّجٌ بعد ما جادتْ بإزْبَاد

ومن غنائه أيضا :

راحَ صَحْبِي وعاودَ القلبَ داءُ * من حبيب طِلَابُه لى عَنَاءُ
حَسَنُ الرأى والمواعيد لا يُلْـ * ـفى لشىء مما يقول وفاءُ
مَنْ تَعَزَّى عمن يحب فإنى * ليس لى ما حييتُ عنه عَزَاءُ

ما قيل فى هجاء الأمين ورثائه

قيل فى هجائه :

لم نُبَكِّك لماذا للطَّـرَبْ * يا أبا موسى وتَرْوِيح اللَّعِبْ
ولِـتَرْك الخَمْس فى أوقاتها * حَرَصًا منها على ماء العنب
وَشَيِيف أنا لا أبكى له * وعلى كَوْثَر لا أخشى العَطَب
لم تكن تعـرف ما حدّ الرصا * لا ولا تعرف ما حَدّ الغضب
لم تكن تَصـلُح للملك ولم * تُعطِك الطاعةَ بالملك العـرب
أيها الباكى عليه لا بَكَتْ * عين من أبكاك إلّا للعَجَب
لم نبكِّك لِما عَرّضتنا * للحَانيق وطَـوْرا للسَّـلَب
ولقـوم صـيّروا أعُـدًا * لهم يبـدو على الرأس الذّنَب
فى عداب وحِصارٍ مُجْهِـدٍ * سَـدِدٍ الطُّرقَ فلا وَجْهَ طلب
زعمـوا أنك حىٌّ حاشـر * كلّ من قَدْ قال هذا قد كَذَب
ليت من قـد قاله فى وَحْدَة * من جميع داهبٍ حيث ذهب
أوجب اللهُ علينا قتـلَه * فادا ما أوجب الأمرَ وجَب
كان والله علينا فِتنـةً * غَضِبَ الله عليـه وكَتَب

وقال عبد الرحمن بن أبى الهُداهِد يرثيه :

ياغَرْبُ جُودى قد بُتّ من ودَمِه * فقـد فقدنا الغَـزير من دِيَمِه
ألوت بدنيـاك كفٌّ نائبـة * وصِرتَ مُغْصًى لنـا على بِقَمه
أصـبح للـموت عنـدنا عَـلَم * يصحك سِنّ المنون من عَلَمه
ما آستزلّتْ دَرّةُ المنون على * أكرم من حَلّ فى ثرى رَحِمـه
خليفـةُ الله فى بريّتـه * تقصُر أيدى الملوك عن شِيَمِه

يفتّر عن وجهه سنا قمر * ينشقّ عن نوره دجى ظلمه
زُلزلت الأرضُ من جوانبها * اذ أُولعَ السيفُ من نجيع دمه
مَنْ سكتت نفسُه لِمَصْرعِهِ * من عُمُمِ الناس أو ذوى رَحِمه
رأيتُه مثلَ ما رآه به * حتى تذوق الأمرَّ من سَقَمه
كم قد رأينا عزيزَ مملكةٍ * يُقَل عن أهله وعن خَدَمه
يا مَلِكا ليس بعده مَلِك * لخاتم الأنبياء فى أُمَمه
حادَ وحَيّ الذى أقمتَ به * سَحّ غزير الوكيف من دِيَمه
لو أحجم الموتُ عن أخى ثِقَةٍ * أُسْوِىَ فى العزّ مُسْتَوى قَدَمه
أو ملكٍ لا ترام سطوتُه * إلا مَرامَ الشَّتيم فى أجَمه
حَلّدك العزّ ما سَرَى سَدَف * أو قام طِفل العشىّ فى قَدَمه
أصبح مُلكُ اذا ٱتّزرتَ به * يَقْرع سنَّ الشَّقَاةِ من نَدَمه
أَتْرِدُو العرشِ فى عِداك كما * أثر فى عاده وفى إرَمه
لا يُبعد الله صَيْورةً تَليت * لخيرِ داعٍ دعاه فى حَرَمه
ما كنتُ إلا كحُلم ذى حُلُم * أُولِجَ بابَ السرور فى حُلُمه
حتى اذا أطلقتْه رَقْدتُه * عاد الى ما ٱعتراه من عَدَمه

وقال أيضا يرثيه :

أقول وقد دنوت من الفِرار * سُقِيت الغيثَ ياقصر القَرار
رمتك يدُ الزمان بسهم عَيْن * فصرتَ مُلَوَّحا بدُخان نار
أين لى عن جميعك أين حلّوا * وأين مزارهم بعد المَزار
وأين محمدٌ وٱبناه مالى * أرى أطلالهم سُود الدِّيار
كأن لم يُؤْنسوا بأنيس مُلْك * يطول على الملوك بخير جار
إمامٌ كان فى الحَدَثان عونا * لنا والغيثُ يمنحُ بالقِطار

لقـد ترك الزمانُ بَنى أبيه * وقـد عمرتهـم سُـود البحار
أضاعوا شمسَهم فقرَتْ بحيس * فصاروا فى الظّلام بلا نَهـار
وأحلّوْا عنهـــم قـرا مسـيرا * وداسَـتْهُمْ خيولُ بنى الشّرار
ولو كانوا لهـم كفؤًا ومثـلا * اذا ما تُوِّجوا تيجانَ عَار
ألا بَانَ الأمامُ وَوَارثاه * لقد صَرِم الحشى منّا بنـار
وقالوا الخُـلْد بيـع فقلتُ دُلًّا * يصـــر ببائعيـه الى صَـغَار
كذاك الملك يُتبِـع أوّليـــه * إذا قُطِع القَرار من القَرار

وقال مُقَدِّس بن صَبْفيّ يرثيه :

خليلى ما أنتْـك به الخطوبُ * فقد أعطاك طاعتَـه النّحيب
تدلّت من ثمار يخ المـايا * مَنَايا ما تقوم لهـا القـلوبُ
خِلالَ مقـابِر البستان قـبر * يُحَاو ِ قـبرَه أسَـدٌ غريب
لقد عظُمت مُصيبته على من * له فى كل مَكرُمة نصيب
على أمثـاله العَـبَراتُ تُذرى * وتُهتَـك فى مآتمـه الجُيوب
وما آذخرتْ زُبيدة عنه دمعا * تُحَصّ به النسـيبةُ والنّسيب
دعُوا موسى آبنـه لبُكاء دَهرٍ * على موسى آبنه دخَل الخَزِيب
رأيتُ مَشَاهدَ الخلفـاء مسـه * خَـلاءً ما بساحتهـا يُجيب
ليَهْنِـك أنى كهلٌ عليـه * أذوبُ وفى الحشى كَبِد تَذوب
أُصِيبَ به البعيـد فخَـرّ حزنا * وعاين يومَه فيـه المَرِيب
أُنادى من بطون الأرض شخصًا * يحـرّكه النّـداء فما يُجيب
لئن نَعَتِ الحروبُ اليـه نفسًا * لقـد بِقُعَت بمصرعه الحروب

وقال خريمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر :

لخيرِ أمامٍ قام من خيرِ عُنْصُر * وأفضلِ سامٍ فوق أعواد منبر
لوارثِ علم الأولين وفهمهم * وللملك المأمونِ من أم جَعْفر
كتبتُ وعيني مُسْنهِلٌ دموعُها * اليك ابن عمي من جفوني ومَحْجري
وقد مَسّني ضُرٌّ وذلٌّ كآبةٌ * وأرّقَ عيني يا ابن عمي تفكّري
وهِمتُ لما لاقيتُ بعد مصابه * فامري عظيم مُنْكَرٌ جدّ مُنْكَر
سأشكو الذي لاقيتُه بعد فقده * اليك شَكَاة المستهامِ المُقَهّر
وأرجو لما قد مَرّ بي مذ فقدتُه * فانت لبَثّي خير رَبّ مُغَيّر
أتى طاهرٌ لاطهّر اللهُ طاهرا * فما طاهرٌ فيما أتَى بمُطَهّر
فأخرجني مكشوفةَ الوجه حاسرا * وأنْهَبَ أموالي وأحْرَق آدُري
يَعِزّ على هارون ما قد لقيتُه * وما مَرّ بي من ناقص الخَلْق أعور
فان كان ما أسدى بأمر أمرتَه * صَبَرتُ لأمرٍ من قدير مُقَدّر
تذكّر أميرَ المؤمنين قرابتي * فديتُك من ذي حرمة مُتَذَكّر

وقال أيضا يرثيه :

سبحان ربّك ربّ العِزّة الصّمَد * ماذا أُصِبْنا به في صُبْحة الأَحَد
وما أُصيب به الإسلامُ قاطبةً * من التّصعصُع في رُكْنَيه والأَوَد
مَنْ لم يُصَب بأمير المؤمنين ولم * يُصبح بمَهْلَكة والهمُّ في صُعُد
فقد أصِبتُ به حتى تبيّن في * عقلي وديني ودنياي وفي جسدي
يا ليلةً يَشتكي الإسلامُ مُدّتَها * والعالَمون جميعا آخرَ الأَبَد
غَدرتِ بالملك الميمونِ طائرُه * وبالإمام وبالضّرغامة الأسَد
سارتْ اليه المنايا وهي تُرهِبُه * فواحَهَتْه بأوغادٍ ذوي عَدَد
بشُورَحينَ وأغْتَام يقودهم * قُرَيشُ بالبيض في قُمْص من الزّرَد

فصادفوه وحيـدًا لا مُعين له * عليهُم غائبَ الأنصـار بالمَـدَد
فجزعوه المنـايا غـيرَ مُمْتَنِـع * فَرْدا فيالك من مُسْتَسلِم فَـرد
يَلقى الوجوهَ بوجه غير مُبْتَـدَل * أبْهى وأنْقى من القُوهِيّة الجُـدُد
واحَسْرَتا وقريشٌ قـد أحاط به * والسيفُ مُرْتَعِد فى كَفّ مُرْتَعِد
فـا تحرّك بل ما زال منتصِـبا * منكّسَ الرأس لم يُبدئْ ولم يُعِـد
حتى اذا السيفُ وافى وسْطَ مَفْرِقه * أذْرَتْه عنـه يداه فعـلَ مُتَّئِد
وقام فاعتلقتْ كفّاه لَبّتـه * كصيغَمٍ شَـرس مستَيسِلٍ لَبِد
فاجترّه ثم أهـوى فاستقلّ به * للأرض من كَفّ ليث مُحْرَج حَرِد
فكاد يقتـله لو لم يُكاثِره * وقام مفلِتـا مـه ولم يَكِد
هذا حديثُ أمير المؤمنين وما * نَقَصتُ من أمره حرفا ولم أَزِد
لا زلت أنْدُبه حتى الممات وإنْ * أخفى عليه الذى أخْفَى على لُبَـد

وذكر عمر بن شَبّة أن محمد بن أحمد الهاشمى حدّثه أن لُبَابة بنت علىّ بن المهدى قالت البيتين الآتيين وقيل أنهما لابنة عيسى بن جعفر وكانت مُمْلَكة بمحمد :

أبكيك لا للنّعـيم والأُنس * بل للمعـالى والرّمح والتُّرس
أبكى على هالكٍ جُمِعتُ به * أرْمَلَنى قبل ليـلة العُرس

هجاء يحيى[1] بن أكثم

وعدناك فى المجلد الأول أن ندكر مثلا من الهجاء قاله بعض الشعراء فى يحيى أكثم، وها هو ذا :

أرّقه نَزْحُ الهوى وسَدِمُهْ * ومَلّه الحثُّ فبات يألَمُهْ
طورا يُعَانيه وطورا يَشْتُمُه * مثل الحريقِ فى الحشا يُصَرِّمُهْ
ففاضتِ العينُ بدمع تَسجُمُه * تمت عليه كلّ شوقٍ يكتُمُهْ
وباح بالحب الذى يُحَجِّمُه * وبات والقلبُ يُسامِى هِمَمُه
من لحبٍ قد تراه يرحمُه * أصبح بالأساء عارٍ أعْظُمُهْ
طال تَصابيه وطال سَقَمه * وبَلِى الجسم ورَقّت أعظُمُه
يَشهدنى الله على من يَظلِمُه * يمنعه طعم الكرى ويحرِمُه
واهًا له يصرِم من لا يصرِمُه * أصبح هذا الدين رَثًّا رِمَمُه
عطّله الجَور وطال قِدَمُه * سَحَتْ من الجَوْر عليه دِيَمه
فَسَادَ معنى رَعْيه وأرسُمُه * إلا بقايا قومِه وجُمَمُه
أوطَنَه الجور فأضحى مَعْلَمُه * يَرود فيه شاؤه ونَعَمُه
من يَشْهَد الجور فنحن نَعْلَمُه * أنّوك قاصٍ فى البلاد نعلمُه
يقول حقا لا تُعَيّث ترحمُه * مد وَلِىَ الحكمَ أُبيح حَرَمُه
وانتُهِكتْ من القضاء حُرُمُه * واضطربت أركانُه ودِعَمُه
والله يَبْنِيه ونحن نهدِمُه * يا ليت يحيى لم يَلِده أكثَمُه
ولم تَطأ أرضَ العراق قَدَمُه * ملعونةٌ أخلاقه وشِيَمُه[2]

---

(١) أطرنا كتناه عن يحيى بن أكثم فى المجلد الأول (ص ٤٤٠) .

(٢) حذفنا بعد هذا البيت أربعة أبيات رأينا أنها تنافى الآداب العامة .

واللهِ واللهِ لقـــد حَلّ دَمُـــه * لو أن للدِّين عِمادا يدعَمُـــه
يعـــدِل عنـــه الميلَ أو يقوِّمُه * لكان قد رنّ عليـه مأتمُـــه
أرجو ويقضى اللهُ لا يُسَـــلِّمه * من وجهـه هـذا ولكن يَقصِمُه

* بالسيف اذ حلت عليه نقمه *

وصف ثورة بغـــداد وحريقها

أما ما أصاب بغـداد من سَلْبٍ ونهب وتحريق وتخريب وفتنـة شعواء وقتل ودماء، فانا نترك الكلمة فى ذلك لشعراء ذلك العصر .

قال الأعمى يصف دمار الحرب :

تقطّعتِ الأرحامُ بين العشائر * وأسْلَمهم أهـــلُ التّقى والبصائر
فداك آنتقامُ الله من حَلْقه بهم * لما آجترَموه من ركوبِ الكبائر
فلا نحن أظهرنا من الذنب توبةً * ولا نحن أصلحنا فسادَ السرائر
ولم نستمع من واعظٍ ومذكّرٍ * فينجَـعَ فيـا وعْظُ باهٍ وآمرِ
فابكِ على الإسلام لما تقطّعت * عراه ورجّى ضـرّه كلّ كافـر
فأصبح بعض الناس يقتل بعضَهم * فمن بيرٍ مقهورٍ عزيزٍ وقاهرِ
وصـار رئيسُ القوم يحمل نفسه * وصار رئيسا فيهم كلُّ شاطـر
فلا فاجر للبَرّ يحفـظ حرمـة * ولا يستطيع البَرّ دَفْعًا لفـاجر
تراهم كأمثـال الذئابِ رأتْ دمًا * فأمّتْه لا تَلْوى على زَجْرِ زاجـر
وأصبح فُسّاقُ القبائل بينهـم * تسـلّ على أقرانها بالخناجر
فابك لِقتـلَى من صديقٍ ومن أخ * كريمٍ ومن جار شفيقٍ مُجَاور
ووالدةٍ تبـكى بحزنٍ على آبنها * فيبكى لهـا من رحمـةٍ كلُّ ظائر
وذاتِ حليلٍ أصبحت وهى أيِّمٌ * وتبكى عليـه بالدموع البـوادر
تقول له قـد كنتَ عِزّا وناصرا * فَغُيِّب عنى اليوم عزّى وناصرى
وآبك لإحراقٍ وهـدمِ منـازل * وقتـلٍ وإنهـاب اللهى والذخائر

وإبراز ربّات الخـدور حواسرا * خرجن بلا خُمْـرٍ ولا بمآزر
تَراها حَيارى ليس تعرف مَذْهَبًا * نوافرَ أمثالَ الظباء النوافـر
كأن لم تكن بعدادُ أحسنَ مَنْظَرا * ومَلْهًى رأته عينُ لَاهٍ وناظـر
بلى هكذا كانت فأذهَب حسنَها * وبدّد منها الشّمْلَ حكمُ المَقـادر
وحلّ بهم ماحلّ بالناس قبلهـم * فأضحَوْا أحاديثا لبَـادٍ وحاضِـر
أبعـدادُ يا دارَ الملوك ومُحْتَمَى * صروف المنايا مستقرّ المنـابر
ويا جَنّـةَ الدنيا ومطّلَعَ الغنى * ومستنبطَ الأموال عنـد الصرائر
أبينى لنا اين الذين عَهِدتُهم * يحلّون فى روضٍ من العيش زاهر
وأين ملوك فى المواكب تَغْتَـدى * تُشَبِّه حسـنا بالنجوم الزواهر
وأين القصاة الحاكمون برأيهـم * لِوِرْد أمور مشـكلاتِ الأوامر
أو القـائلون السـاطقون بحكمـة * وتَرْصِيفِ كلامٍ من خطيبٍ وشاعر
وأين مراح(١) للملوك عهِدتُهـا * من خرفةً فيهـا صوفُ الجواهر
تُرَشّ بمـاء المسك والورد أرضُها * يَفُوحُ بهـا من بعد ريح المجامر
ورَوْح النّدامى فيـه كلّ عَشِيّة * الى كل فيّـاض كريم العنـاصر
وأين قِيان تستجيب لنغمـها * اذا هـو لبّـاها حَنينُ المزامر
وأين الملوك الغُـرُّ من آل هاشم * وأشياعهم فيها اكتفوا بالمعـاذر
يروحون فى سلطانهم وكأنهم * يروحون فى سلطان بعض العشائر
يجـادل بعـا نالهم كبراؤهم * فَنـالتهمو بالكُرْه أيدى الأصاغر
فأقسم لو أن الملوك تناصروا * لَزَلّتْ لهـا خوفًا رِقابُ الجبـابر

(١) كذا فى الأصل ولعلها صروح .

وقال عمرو بن عبد الملك الوَرّاق يبكي بغداد ويهجو طاهرا ويعرّض به :

من دا أصابكِ يا بغـدادُ بالعيْنِ * ألم تكوني زمانا قُـرّة العيْنِ
ألم يكن فيـكِ أقوامٌ لهم شرف * بالصّالحـات وبالمعروف يَقْوُنى
ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنُهم * وكان قربُهمُ زينا من الزّيْنِ
صاح الزمانُ بهم بالبيْن فانقرصوا * ما ذا الدى بجمَعتْنِي لوعـة البيْنِ
أستـودِعُ اللهَ قومًا ما ذكرتُهمو * ألّا تحـدّر ماءُ العـين من عيني
كانوا ففرّقهم دَهرٌ وصدّعهم * والدّهر يَصْدَع مابين الفريقيْنِ
كم كان لى مُسْعِد منهم على زَمَنى * كم كان منهم على المعروف من عَوْنِ
لله دَرُّ زمان كان يجمعنـا * أيْن الزمانُ الذى ولّى ومن أيْنِ
يا من يُخَـرّب بغـدادًا ليعمُرها * أهلكتَ نفسك ما بين الطريقيْنِ
كانت قلوبُ جميع الناس واحدةً * عيبا وليس يكون العيْنُ كالدّيْنِ
لما استبيتهـمُ فَرّقْتهـم فـرقًا * والنـاس طُرًّا جميعـا بين قلبيْنِ

ولبعض فتيان بغداد :

بكيتُ دَمًا على بغـداد لمـا * فقدتُ عَضارةَ العيش الأنيقِ
تَبَـدّلْنا همـومًا من سرور * ومن سَعَةٍ تـبدّلْنا بضيق
أصابتها من الحُسّاد عينٌ * فأفنت أهلَهـا بالمَنْجَنِيـق
فقـومٌ أُحْرِقوا بالنـار قَسْرًا * ونائحـةٌ تنـوح عـلى عَرِيق
وصـائحةٌ تُنَـادى وَاصَـباحا * وباكِيةٌ لِفقْدان الشّـفيق
وحـوراءُ المـدامع ذاتُ دَلّ * مضمّخَة المَجاسـد بالخَـلُوق
تَفِرّ من الحريق الى انتهابٍ * ووالدُها يفـرّ الى الحـريق

وسَالِبـــةُ الغـــرالةِ مُقْلَتيْها * مَصـاحِكها كَلَا لأة البُروق
حَيَارَى كالهَدايا مُبْكِرات * عليهن القـلائدُ فى الحُلوق
يُنـادِين الشفيقَ ولا شـفيقٌ * وقد فُقِد الشفيقُ من الشفيق
وقومٌ أُخرِجوا من طِلّ دُنيَـا * متاعُهـمُ يُبـاع بكل سُـوق
ومُغْـتَرِبٌ قـريبُ الدار مُلْقًى * بلا رأسٍ بقـارعةِ الطـريق
توسّط من قِتالهمُ جميعـا * فـا يدرون من أى الفَريق
فـلا ولدٌ يُقِـيم على أبيـه * وقد هَرَب الصّديق من صديق
ومهما أَنْسَ من شىء تولّى * فإنى ذاكر دار الرّقيـق

بيان المصادر العربية والافرنجية الهامة
التى عوّلنا عليها فى المراجعة لكتاب عصر المأمون

ثبت لك هنا الهامّ من مراجع الكتاب عدا دواوين الشعراء ومعجمات اللغة التى أشرنا اليها فى مواضعها من الكتاب وهوامشه . وهى :

المصادر باللغة العربية .

تاريخ الطبرى ، طبعة مصر وليدن .
تاريخ الكامل لابن الأثير، طبعة مصر.
تاريخ مروج الذهب للسعودى ، طبعة مصر وباريس .
تاريخ اليعقوبى ، طبعة ليدن باشراف «المسيو هتسما» .
تاريخ أبى الفدا للملك المؤيد ، طبعة الأستانة .
تاريخ علماء الأندلس لأبى الوليد عبدالله محمد بن يوسف ، طبعة أوربا .
تجارب الأمم لابن مسكويه ، طبعة مصر.
تاريخ العبر والمبتدا والخبر لابن خلدون ، طبعة مصر .
الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ، طبعة ليدن .
نظم الجوهر لابن البطريق ، طبعة أكسفورد سنة ١٦٥٩ للمستشرق ادوارد بوكوك .
تاريخ دمشق لابن عساكر ، مخطوط .
تاريخ المشارقة لصليبا بن يوحنا ، مخطوط .
تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، مخطوط .
تاريخ بغداد لابن طيفور (الجزء السادس طبعة أوربا) .
تاريخ التشريع الاسلامى للمرحوم الخضرى بك ، طبعة مصر .
تاريخ الآداب السلطانية والدول الاسلامية لابن طباطبا ، طبعة أوربا .
تاريخ النجوم الزاهرة لابن تغربردى ، طبعة أوربا .
البدء والتاريخ لأبى زيد البلخى ، طبعة باريس سنة ١٨٩٩ «أرنست لرو» .
الآثار الباقية للبيرونى ، طبعة ليبسك .

مختصر تاريخ الدول لأبي الفرج الملطي، طبعة بيروت .
تاريخ الاسحاق، طبعة أوربا .
فتوح الشام للواقدى، طبعة مصر .
نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، طبعة مصر .
ولاه مصر وقضاتها للكندى، طبعة بيروت .
مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعى، طبعه مصر .
كشف الطون لحاجى خليفة، طبعة الأستانة وليبسك ومصر .
المستطرف للابشيهى، طبعة بولاق .
معجم البلدان لياقوت الحموى، طبعة ليبسك ومصر .
المزهر للسيوطى، طبعة بولاق .
الأحكام السلطانية للماوردى، طبعة أوربا .
أعلام الناس للاتليدى، طبعه مصر .
كتاب المعارف لابن قتيبه، طبعه أوربا .
معجم الأدباء لياقوت الرومى، طبعة مصر واشراف مرجليوث .
الفهرست لابن النديم، طبعة ليبسك .
طبقات الأمم لابن صاعد، طبعة بيروت .
طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة، طبعة مصر .
تراجم الحكماء للقفطى، طبعة مصر .
طبقات الأدباء لعبد الرحمن الأنبارى، طبعة مصر .
وفيات الأعيان لابن خلكان، طبعة مصر .
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، طبعة مصر .
الملل والنحل للشهرستانى، طبعة مصر .
ألف باء ليوسف البلوى، طبعة مصر .
مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى، طبعة دار الكتب .
فتوح البلدان للبلادرى، طبعة ليدن .
كتاب البلدان لابن الفقيه الهمدانى، طبعة ليدن .
كتاب البلدان لليعقوبى، طبعة ليدن .
مسالك الممالك للاصطخرى، طبعة ليدن .
المسالك والممالك لابن حوقل، طبعة ليدن .
أحسن التقاسيم للمقدسى، طبعه ليدن .
المسالك والممالك لابن خرداذبه، طبعه ليدن .
الأعلاق النفيسه لابن رستة، طبعة ليدن .
حسن المحاضرة للسيوطى، طبعة مصر .
بلوغ الأرب فى أحوال العرب للآلوسى طبعة بغداد .
مقدمة الياذة هوميروس تعريب البستانى طبعة مصر .

حضارة الاسلام فى دار السلام لجميل مدوّر، طبعة مصر .
كتاب الأغانى للاصبهانى، طبعة بولاق والساسى .
الجزء الأول من كتاب الأغانى، طبع مطبعه دار الكتبُ المصريه .
نهاية الأرب، طبع مطبعه دار الكتب المصرية والنسخة الفتوغرافيه بالدار .
صبح الأعشى، طبع مطبعه دار الكتب المصرية .
كتاب التاج المنسوب للجاحظ، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
كتاب الأمالى لأبى على القالى، طبع مطبعة دار الكتب المصرية .
كتاب الكامل للمبرد، طبعه مصر .
كتاب البيان والتبيين للجاحظ، طبعه مصر .
العمدة لابن رشيق، طبعة مصر .
كتاب المحاسن والمساوى للبيهقى، طبعه وردرك شوالى .
كتاب المحاسن والاضداد للجاحظ، طبعه ليدن .
كتاب البخلاء للجاحظ، طبعة مصر .
كتاب الحيوان للجاحظ، (نسخة فتوغرافية محفوظة بدار الكتب المصرية) .
كتاب الكشكول للعاملى، طبعة مصر.
سراج الملوك للطرطوشى، طبعة مصر.
كتاب الخراج لقدامه بن جعفر، طبعة ليدن .
كتاب الخراج لأبى يوسف، طبعة بولاق .
تاريخ الوزراء المنسوب للصولى، طبعة بيروت .
أشهر مشاهير الاسلام، للمرحوم رفيق العظم بك، طبعه مصر .
كتاب نفح الطيب، طبعة مصر وأوربا.
مفاتيح العلوم للخوارزمى، طبعة مصر.
مفيد العلوم للخوارزمى، طبعة مصر .
كتاب المواهب الفتحية للمرحوم الشيخ حمزة فتح الله، طبعة مصر.
كتاب السيرة لابن هشام، طبعة مصر.
مقدمة ابن خلدون، طبعة مصر .
خطط الشام للاستاذ محمد كرد على، طبعة دمشق .
مجموعة مجلة المشرق، طبعة بيروت .
مجموعة مجلة المجمع العلمى، طبعة دمشق.
مجموعة مجلة الهلال، طبعة مصر .
مجموعة مجلة المقتطف، طبعة مصر .
بعض فصول ومباحث من المجلة الأسيوية .
حديث الأربعاء للدكتور طه حسين، طبعة مصر .

منهل الرواد فى علم الانتقاد لقسطاكى الحمصى بك، طبعة مصر.
محاضرات الأستاذ الاسكندرى المدرس بدار العلوم، طبعه مصر.
الوسيط للاستاذ الاسكندرى المدرس بدار العلوم، طبعة مصر.
أدبيات اللغة العربية للاستاذ مصطفى صادق الرافعى، طبعة مصر.
أدبيات اللغه العربيه للمرحوم عاطف بركات بك ورفاقه، طبعة مصر.
مهذب الأغانى للمرحوم الحضرى بك، طبعه مصر.
بلاغة العرب للدكتور أحمد ضيف، طبعة مصر.
الشعر والشعراء لابن قتيبه، طبعة ليدن.
طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى، طبعه ليدن ومصر.
كتاب الأدب كياء لابن الجوزى، طبعة مصر.
العقد الفريد للملك السعيد، طبعة مصر.
العقد الفريد لابن عبد ربه، طبعة مصر.
لطائف المعارف للثعالبى، طبعة ليدن.
عيون الأخبار لابن قتيبة، طبعة دار الكتب وأوربا.
حلبة الكميت، طبعة بولاق.
خزانة الأدب لابن حجة الحموى، طبعة بولاق.
خزانة الأدب للبغدادى، طبعة بولاق.
محاضرات الفلسفة لستللانه بالجامعة المصرية.
محاضرات علم الفلك بالجامعة المصرية للسنيور كرلونلو، طبعة روما.
مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاشكبرى زاده، طبعة حيدر آباد.
محاضرات الشيخ عبد الوهاب النجار بالجامعة المصرية.
محاضرات المرحوم الشيخ محمد المهدى بالجامعة المصرية.
محاضرات الأستاذ الخضرى بك فى تاريخ الأمم الاسلامية، طبعه مصر.
محاضرات الأستاذ الخضرى بك فى تاريخ الدولة الأموية، طبعه مصر.
التمدن الاسلامى للمرحوم جورجى بك زيدان، طبعة مصر.
تاريخ آداب اللغة العربية للمرحوم جورجى بك زيدان، طبعة مصر.
طبقات ابن سعد، طبعة أوربا.
طبقات الشافعية للسبكى، طبعة مصر.
المنثور والمنظوم لابن طيفور.
رسالة بنى أمية للجاحظ، خطية.

كتاب الوزراء والكتاب لأبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري طبعة فينا سنة ١٩٢٦
كتاب الاشتفاق لابن دريد الازدي طبعه جوتنجن سنة ١٨٥٤
الأوراق للصولي، خطية .
مطبوعات تذكار جيب الانجليزية وخاصة مؤلفات الأستاذين مرجليوث وبرون .
زهر الآداب للحصري، طبعة مصر .
المشتبه في أسماء الرجال للذهبي، طبعة أوربا .
الوافي بالوفيات للصفدي (المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢١٩) .
أخبار أبي نواس لابن منظور، طبعة مصر .
رسائل البلغاء للأستاذ محمد كرد علي، طبع مصر .
جمهرة أشعار العرب لأبي زيد، طبعة مصر .
المفضليات للضبي، طبعة مصر .
حماسة البحتري، طبعة بيروت .
الصناعتين لأبي هلال العسكري، طبعة مصر .
الموشى لابن الطيب، طبعة أوربا .
ديوان الحماسة لأبي تمام، طبعة مصر .
معاني الأدب وشرحه، طبعة بيروت .
مختارات البارودي، طبعة مصر .
حياة الحيوان للدميري، طبعة مصر .
عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي (أجزاء منه محفوظة بدار الكتب المصرية) .
الفرج بعد الشدة للتنوخي، طبعة مصر .

المصادر الافرنجيـــة :

Histoire des Arabes par Cl. Huart: Paris
Life of Mohamet by Sir W Muir (London)
The Life and Teachings of Mohammed and the Spirit of Islam by Ameer Ali. (London).
D. S. Margoliouth: Mohammed and the Rise of Islam. (London) in "Heroes of the Nations' Series"
H. Lammens "Etudes sur les régnes des Califs Omaiyades Moawia 1er et Yasid 1er". (Beyrouth)
Library of Universal History (N. Y)
History of Arabic Literature· Cl Huart (London)
A Literary History of Persia· Ed G Browne. (London)
A Literary History of the Arabs by R. A Nicholson. (London).
Short History of the Saracens by Ameer Ali, (London)
The Caliphate· its rise decline and fall by Sir W. Muir (London).
Annals of the Early Caliphate by Sir W Muir (London).
Baghdad during the Abbasid Caliphate by G. le Strange. (Oxford).
Encyclopaedia of Islam (Luzac)
Encyclopaedia Britannica. (London)
La Grande Encyclopédie. Paris.
The Historians' History of the World by H. S Williams. (New York).
Ency. of Religion & Ethics by I. Hastings (London)
The History of the Decline and Fall of the Roman Empire by Gibbon. (London)
The History of Philosoply in Islam by J de Bœr translated by Jones. (London).
Muhammedanische Studien by Ignaz Goldziher, (Halle)
Histoire des Musulmans d'Espagne Jusqu' à la Conquête de l'Andalusie par les Almoravides by R Dozy. (London).
Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitutional Theory by D. B. Macdonald. (London).
Margoliouth's Works Etc.
R. Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes 1927.
Bibliothek Arabischer Historiker und Geographen: Hans V. Mzik. (Leipzig).

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٤٩/١٩٢٧/٣١٥٠)